2 me Année, No. 51. Lundi-25-6-1934

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ — ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

ذكرى المـــولد ...

كان الناس فى ابريل من عام ٥٧١ ، والطبيعة المشفوفة تنتظر انبثاق الروح المبدع ، وانبعاث الربيع الممرع ، وانتعاش الحياة الجديدة فى الأرض الهامدة ؛ والخليقة المئوفة ترسل النظر الحائر فى الآفاق الغائمة ، ترتقب لمعة النور من الشرق ، ونفحة القوة من الحق ، وكلمة الهدى من الله ؛ والجزيرة المجهودة تصهرها الشدائد ، وتطهرها الدماء ، وتهيئها الأقدار ليهبط فوقها الوحى ، ويتجلى لها الخالق ، وتتصل عندها السموات بالأرض ؛ والهواتف الطائفة تعلن فى رءوس الجبال ، وسفوح الأودية ، ومدارج السبُل ، وسوابيط المعابد ، وأواوين القصور ، بشرى الرسالة الأخيرة ، وظهور الرسول المنتظر ؛ والشياطين الآلهة تئن فى أجواف الأصنام المنكسة أنين الخيبة والهيبة واليأس ؛ وأجنحة الأملاك تخفق من وراء البصر فى جو مكة القائظ المغبر ، فتنفض عليه النور والسرور والصفاء والدعة ؛ وأرواح الأنبياء من حول الكعبة تضوع بالحمد والدعاء احتفالاً بختام النبوة ، وقيام الدعوة مرة أخرى فى بيت ابراهيم ؛ وومضات من روح القدس وأشعة الخلد تنعقد هالات

مشرقات على « شعب بنى هاشم » وفوق دار آمنة : والنبى الوليد الذى خنس لمولده الشيطان ، واعتدل بمقدمه الزمان ، وخشع لذكره الكاهن والموبذان ، وتصدّع من خشيته الدست والإيوان ، يفتح عينيه للوجود فى بيت العُدم ، ويلقى أرواقه الكريمة على مهاد اليتم ، ولا يظفر بمرضع إلا لأنها لم تظفر آخر الأمر بغيره ! !

***

تبارك الله ما أبلغ حكمه وأجل شأنه ! شاء لنوره و برهانه أن يشرقا فى هذا المنزل المتواضع ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذا اليتيم الوادع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمى الحيى ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع فى العقول ، وكلمته أنْوط بالأفئـدة ؛ ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتُّهمت المعجزة ، والتبس على الناس فعل القدرة .

كان محمد بن عبد الله مثَل الله الأعلى للانسان الكامل . صوره خلقًا سويًّا ليرسم الأخلاق بالمثل ، ويعلم الدين بالعمل ، وينظم الحياة بالقدوة . والا فكيف اجتمع فيه ما تفرق فى جميع الناس من خصال الرجولة ، وخلال البطولة ، وخلائق النبل ، وبيئته لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه ؟

رعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه ، واتجر بمال زوجه ، فكان فى جليل الأمر كما كان فى ضئيله صادق العزم ، كريم العهد ، وثيق الذمة ، راجح الحلم ، شاهد اللب ، لين العِطف ، حلو المعاشرة « يحمل الكَلّ ، ويكسب المعـدوم ، ويعين على نوائب الحق »

ثم اصطنعه الله لحقّه ، وحمّله الرسالة الى خلقه ، فكان فى غار حراء ، وفى دار الأرقم ، وفى جبل ثور ، وفى دار أبى أيوب ، وفى المسجد الجامع ، ثم فى الرفيق الأعلى ، مظهرا صحيحا لروح الله ، واعلانا صريحا لسر الدين ، ومثالا عاليا لصدق الجهاد ، واحتمالا ساميا لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس !

جهر الرسول بالدعوة بعد أن خفت بها فى قريش ثلاث سنين ، فضلل الأقوام وسفه الأحلام وهاجم الشرك فى معقله ، وليس وراء ظهره الا عمه ! فتألبت عليه عناصر الشر جمعاء فما أفكتْه عن عزمه ، ولا خلجته عن همه . ثم تجلت فيه مواهب الكمال الانسانى فحشـد للخصومة قوى النفس وقوى الحس ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثّر باللسان ، وقهر باليد ، وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل ، فكل نبى وكل رسول انما بان شأوه على قومه فى بعض المزايا ، الا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من معجزات الرجولة ، فكان رسولا فى الدين ، وعلَمًا فى البلاغة ، ودستوراً فى السياسة ، واماما فى التشريع ، وقائداً فى الحرب .

***

إن حياة الرسول قانون إلهى خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا ، وان وسائل الجهاد التى جدد بها أسلوب العيش وأقام بها ميزان المجتمع لا تزال عناوين ضخمة فى صفحات العلم والسياسة والخلق ، وان من أساس الاسلام أن نطيع الله فى كتابه ، ونطيع الرسول فى سننه وآدابه ، فليت شعرى أكان فى حدود الامكان أن يرتطم العرب والمسلمون فى مراغة الخمول ، فيرضون بالهُون ، ويقنعون بالدون ، و يتخلون عن مكانهم من صدر الوجود ، لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجا ، ومن كلام رسولهم علاجا ، ومن حياة السابقين الأولين من رجالهم قوة وقدوة ؟ ؟

أليس من خذلان الله لنشئنا الجُدُد أن يلوكوا جاهـدين أسماء فلان وفلان ممن رأى رأيا أو أنشأ قصيدة أو ألف كتابا ، ثم يتركوا عامدين اسم محمد الذى جمع العرب من شتات ، وأيقظ العالم من سبات ، وأقام للسماء دينا فى الأرض ، وأسس للأرض دنيا فى السماء ؟

احمد حسن الزيات

الاشـــــراق الالهى
وفلسفة الاســـلام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى فى عملها للمادة تُحوَّل به وتُغيَّر، والنبى يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع فى عمله للروح ترتقى فيه وتسمو.

ورعشات الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور، وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام.

والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبى انساناً من العظماء يُقرأ تاريخُه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة؛ ولكنه انسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثل «التلسكوب» فى الدقة، معه العلم، ومع العلم الايمان، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة فى درس الأنبياء صلوات الله عليهم — تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة؛ فانما النبى إشراق إلهى على الانسانية يقومها فى فلكها الأخلاقى، ويجذبها الى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب.

ويجئ النبى فتجئ الحقيقة الالهية معه فى مثل بلاغة الفن البيانى، لتكون أقوى أثراً، وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً؛ وليس عليها خلاف من الحس. وهذا هو الأسلوب الذى يجعل انساناً واحداً فنَّ الناسِ جميعاً، كما تكون البلاغة فن لغةٍ بأكملها؛ هو الشخص المفسِّر اذا تعسَّف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمون منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتى، فتظهر به حقائق الآداب العالية فى قلب من الانسان العامل المرئى، وأبلغ مما تظهر فى قصة متكلمة مروية.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبى أبلغَ نفوس قومه حتى لَهو فى طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها كأنها الوضع النفسانى الدقيق الذى يُنصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية فى هذا النبى تنادى الناس: أنْ قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الانسانية.

***

ومن ثَمّ فنبى البشرية كلها من بُعث بالدين أعمالاً مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطى الحياة فى كل عصر عقلها العملى الثابت المستقر تنظِّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة، ويدع للحياة عقلها العلمىّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هى حقيقة الاسلام فى أخص معانيه، لا يغنى عنه فى ذلك دين آخر، ولا يؤدى تأديته فى هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبعٌ فى الأرض لمعانى النور بازاء الشمس نبعِ النور فى السماء.

وكل ذلك تراه فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهى فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة؛ لايمكن أن تعرف الأرض أكمل منها؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت فى نصاب واحد — ما بلغت أن يجئ منها مثل نفسه صلى الله عليه وسلم. ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة فى محارتها، أو تركيب كتركيب الماس فى منجمه، أو صفة كصفة الذهب فى عرقه. وهى النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تدبّرتها رأيتها على الانسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسط وتَضحى. وتلك هى الشهادة له صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الانبياء، وأن دينه هو دين الانسانية الأخير. فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها، صلابته بمقدار الحق الانسانى الثابت، لا بمقدار الانسان المتغير الذى يكون عند سبب جبلاً صلداً يشمخ، وعند سبب آخر ماءً عذباً يجرى.

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو اليها. ويريد اخضاع الدنيا وحكم

العالم ، ويستفرغ همـه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتقاع بالأضعف الى الأقوى . وفرقٌ ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه انما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ؛ وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعياً فى الاسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد ، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المسلمة الى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع يحرص على ما يكون له ، ويَشرَه الى ما ليس له ، ويمكر الحيلة ، ويبدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك فى تعقيد الدنيا — بل نظرةَ القلب المسالم بخلع الدنيا ، ويسخو بكل مضنون فيها فيعف عن كثير ؛ ويعرف الانسانية ، ويطمع فى غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه ، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الاسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الانسان على الأرض ، فمن أى عِطفيه التفت هذا الانسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، فهو كالمتهم المستراب به فى سياسة النفس لا يمشى خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ، ويترجمان عنه حتى معانى النظر . واذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت فى اعتبار النفس — قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الارادة المميزة ، تزيد الحسنات وتعمل لها ، وتخشى السيئات وتنفر منها ، فاذا معانى اجتماعية [illegible] بعضها بعضاً ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لتحقيق الخير والصالحة ؛ واذا نواميس الطبيعة المجنونة فى هذا الحيوان قد نهض الى جانبها نواميس الارادة الحكيمة فى الانسان ، واذا كل صغيرة وكبيرة فى النفس هى من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها فى محكمتها ، واذا كل ما فى الانسان ، وما حول الانسان — لا يراد منه إلا سلام النفس فى عاقبتها ؛ واذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالانسانية فى دنياها .

وكل أعمال الاسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هى غايتها ، وهذه هى فلسفتها ؛ لا يقررها للانسانية حسب ، بل يغرسها فى الوراثة غرساً بالاعتياد والمران الدائم ، لتكون علماً وعملاً ، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة اليها من ضرورات الحياة فى أيدى الأعداء المتألبة عليها من شهوات الغريزة .

فليس يعم السلام إلا اذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها ، فان قانون العالم حينئذ يصبح منتزعاً من طبيعة التراحم ، فاما انتسخ به قانون التنازع الطبيعى ، وإما كسر من شِرَّته ، ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الانسانية .

***

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً — هذا هو أساس العقيدة الاسلامية . ولا صلاح للانسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها ، فان من ذلك تكون الصفة العقلية التى تغلب على المجتمع وتجانس بين أفراده ، فتوجه الانسانيةَ كلها نحو الممكن من كمالها ، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى ، وتحكم فاسدها بصالحها ، وتأخذ عاصيها بمطيعها ، وتجعل الشرف الانسانى غرضها الأول ، لأن الله الحقّ غرضُها الأخير ؛ فيصبح المرء — وهذا دينه — كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان : الانسان ، والشريعة . ولا يعود طالب السعادة النفسية فى الدنيا كالمجنون يجرى وراء ظله ليمسكه ؛ فلا يدرك فى الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان فى عمل باطل وسعى ضائع .

والاسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الالهىّ العظيم ، لا بالمنطق ولكن بالعمل ؛ ثم فى النفس وعواطفها لا فى العقل وآرائه ؛ ثم على وجه التعميم دون الاستثناء والخصوص ، وذلك هو سرّ مشقته على النفس بما يفرضه عليها ؛ فان فلسفته أن هذه النفس هى أساس العالم ، وأن النظام الخلقى هو أساس النفس ، وأن العمل الدائم هو أساس النظام ، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج ، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والاهمال . وللنفس وجهان : ما تعلن ، وما تُسرّ . ولا صدق لاعلانها حتى يصدق ضميرها ، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السرّ فيها ، ولا يكون الانسان الاجتماعى فاضلاً بِمَشهَدِه حتى يكون كذلك بغيبه . وللعالم كذلك وجهان : حاضره الذى يمر فيه ، وآتيه الذى يمتد له . ولا يفلح

حاضر منقطع لا يُوَرِّث مابعده كما وَرِث ماقبـــله ، وما حاضر الانسانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقية نامية . وللنظام أيضا وجهان : نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنَّفْرة منها . ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة فى النفس ، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به . وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستيقنها ، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر ، كل مرارة من قبله هى حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيق وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن يحبه ؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الحرمان فى بعض الأحيان خيـال الأستمتاع ، ويذيق النفس فى العجز عن بعض أغراضها — لذةً كلذة إدراكه .

تلك هى فلسفة الاسلام ؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لـكل أعمال النفس ، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة ، وطابع النار على أعمـال النار — وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه ، ثم أعمال قلبه ونيته — وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كل انسان ان يجعل بطنه فى حجم مملكة أو مدينة أو قرية بما ينتقص من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الانسانية . وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق فى الأرض — بالمصلحة لا باللذة — فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحل المشكلة الاجتماعية مادامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقدا فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لانشاء طبيعة الخير فى الناس على نسقها الطبيعى ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الانسانى من أوبائه الاقتصادية التى جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس .. وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته !

وأساس العمل فى الاسلام إخضاع الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير معدماً ويتعفف ، ويكون الغنى موسراً ويتصدق ، ويكون الشرهُ طامعاً ويمسك ، ويكون القوى قادراً ويحجم ؛ وكما قال العرب فى تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الأقتصادى : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

***

تريد الانسانية امتداداً غير امتدادها التجارى فى الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذى فيه ، وإذا قاد الغراب قوماً — كما قال شـــاعرنا — يمر بهم على جيف الكلاب . . والانسانية اليوم فى مثل ليل حَوْشىٍّ مظلم اختلط بعضه فى بعض . وليست معانى الاســلام إلا الاشراق الالهى على هذه الـكثافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامى الا أن تعيش فى محبوب ؛ فانسانية العالم لا تـكون مثل ذلك إلا إذا عاشت فى نبيها الطبيعى ، نبى أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا فى محمد ودين محمد ؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبى العظيم خمس مرات فى الأذان كل يوم ينادى باسمه الشريف ملء الجو ، ثم حكمة ذكره فى كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة يهمس باسمه الـكريم ملء النفس ! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوما واحـداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ، فيمتد الزمن مهما امتد والاسلام كأنه على أوله ، وكأنه فى يوم لا فى دهر بعيد . والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة ، ويسطع فى نفسه إشراق النبوة ، فيكون دائماً فى أمره كالمسلم الأول الذى غير وجـه الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميَّته فى كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة لا كما نرى اليوم ؛ فان كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخى بجهله وخرافاته وماورث من القدم ؛ فهنا المسلم الفرعونى ، وفى ناحية المسلم الوثنى ، وفى بلد المسلم المجوسى ، وفى جهة المسلم المعطل ... وما يريد الاسلام إلا نفس المسلم الأنسانى .

أيها المسلم !

لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبدا ، واجعله مثلك الاعلى ، وحين تذكره فى كل وقت فـكن كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابن المعجزة .

مصطفى صادق الرافعى

« محمـــــد »

للأستاذ علي الطنطاوي

منذ أربعة عشر قرناً ونيف ولد محمد ، فلم يكد يفطن الى ولادته إلا قليل ، وبعد أربعة عشر قرناً ونيف — استضاءت فيها الدنيا بنور محمد ، واهتدت الانسانية بهدْى محمد — مرت بالدنيا ذكرى مولد محمد ، فلم يكد يفطن اليها إلا قليل !

بل لم يعرف بعدُ انسان من هو محمد !.

* * *

على ان العظماء في التاريخ كثيرون ، وقد عرفهم التاريخ ، ولكنه لم يعرف محمداً ، لأنه ليس فيهم مثل محمد !

عظمة أولئك انهم سبقوا أوانهم ، فعظموا لسبقهم ، ثم جاء أوانهم فساواهم أبناؤه جميعاً ، ثم جاء أوان بعده ففاقهم أهله جميعاً ، ولم يبق لهم إلا عظمة الذكرى

وان التلميذ اليوم يعرف من الطبيعة أكثر مما كان يعرف جاليليو ، والضابط يعلم من فنون الحرب أكثر مما كان يعلم اينبال

وطالب الفلسفة يدرك من حقائقها أكثر مما كان يدرك أفلاطون وكذلك سائر العظماء

أما محمد فطراز من البشر لا تحتمل الدنيا منه أكثر من واحد ، ولا يمتد عمرها حتى ترى مثل محمد ، فمحمد عظيم كل عصر ، وعظمته لا تبلى جدتها على الدهر .

* * *

وإن كثيراً من العظماء قد سنوا سنناً ، وشرعوا شرائع ، ولكنهم سنوها ناقصة فكملت ، وقاصرة على زمان واحد فعدلت ، ومحدودة ضيقة فوسعت ، وما زالت أبداً في حاجة الى التكميل والتوسيع والتعديل . أما شريعة محمد فجاءت كاملة ، وعاشت كاملة ، وستخلد كاملة ، لأنها من عنـد الله الـكامل ، لا من عند العقل الناقص .

وستموت الشرائع كلها ، والعاقبة لشريعة الله

إن روحية الشرق ستطحن مادية الغرب ، ومادية الغرب ستقتل روحية الشرق ، ولا يبقى إلا الأصلح ، والأصلح هو الاسلام

أي دين غير الاسلام يستطيع المرء أن يتمسك بأحكامه كلها ، ثم يكون امرأً صوفياً قوياً غنياً ؟

أي دين غير الاسلام يعرف للبدن حق البدن ، وللروح حق الروح ، ويعرف للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ؟

أي دين غير الاسلام فيه الوحدانية في الايمان ، والشورى في الحكم ، والاخوة في الحياة ، والجهاد في المبدأ ، والقوة والاعتدال في كل شيء ؟

أي دين غير الاسلام يحل المشكلة الاجتماعية الكبرى ، التي ولدت الشيوعية والفاشية والنازية ، وستلد الموت الأحمر ، والخراب الأكبر ؟

* * *

إن العظماء كثيرون ، ولكن العظيم عظيم في ناحية ، صغير في سائر النواحي ، فهو عظيم في العلم ، أو في الحرب ، أو في الأدب ، أو في السياسة . أما محمد فعظيم في كل شيء .

وآثار العظماء في البشر واضحة جلية ، ولكن لم يعمل أحد أجل ولا أجل مما عمل محمد .

نفخ في هذه البادية القاحلة ، وهذه الأمة المتفرقة الجاهلة ، فأخرج منها أمة قوية عالة عاملة .. حملت مشكاة النور ، في وقت عم فيه الظلام ، وبنورها اهتدى ويهتدي كل انسان ، في كل مكان الى آخر الزمان ، ولولا محمد ما كانت أوربة ولا الأميركتان !

* * *

كانت الدنيا في نظر قريش مكة ، كما أن الدنيا في نظر الفرنسيس باريس ، ولكن دنيا محمد أوسع ، ومحمد لا تسعه مكة ، فأم غار حراء ليشرف على الأفق الواسع ، ثم سما على معراج الى السماء ، فرأى الأرض كبراعة مضيئة ، فاستصغرها ، ولم يحفل بما عليها من ذرات هينة ..

هكذا عاش محمد ، وهكذا انتقل

عاش محمد في الأرض وهو أكبر من الأرض ، وترك في الأرض أثراً أكبر من الأرض ، ولم يعرفه في الأرض أحد من أبناء الأرض — ذلك لأنه كان كما قال لامارتين :

« فوق البشر ، ودون الاله ، فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم »

علي الطنطاوي

احياء المولد النبوى الكريم

بعض رسوم ومناظره فى مصر الاسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت ليلة الثانى عشر من ربيع الأول — ليلة المولد النبوى الكريم — دائماً من المواسم والأعياد المشهودة فى جميع الأمم الاسلاميـة ؛ وما زال مولد النبى العربى من الذكريات الخالدة فى المجتمع الاسلامى ؛ ولكن الاحتفال بذلك الحادث العظيم فى تاريخ الانسانية كان يقترن فى العصور الخالية، أيام عز الاسلام ومجده، بضروب من الجلال والبهاء والبذخ، ذهبت بها حوادث الزمن وتقلباته، وما انتهت اليه الأمم الاسلامية من الاضمحلال والتأخر. وقد بدأ هذا الاحتفال المقدس فى عصر الاسلام الأول بسيطاً متواضعاً، كباقى المواسم والاحتفالات الدينية، فلما بلغت الخلافة ما بلغت من العظمة والبهاء، ظهرت فخامة الملك وروعته فى الأعياد والحفلات الرسمية، وجرت الشعوب على سنة ملوكها وأمرائها فى هذه المواسم من الظهور والبذخ. وكان شأن مصر الاسلامية فى ذلك شأن باقى الولايات الاسلامية فى عصر الخلافة الأول من بساطة فى الرسوم والمظاهر؛ فلما استحالت مصر من ولاية خلافية الى دولة مستقلة فى عهد بنى طولون وبنى الأخشيد وقامت فيها قصور ملوكية باذخة، ظهر أثر هذا الانقلاب فى رسوم الدولة ومظاهرها العامة، وغدت المواسم والاحتفالات الدينية حوادث عامة يحييها الشعب، كما تحييها الحكومة فى كثير من الرونق والبهجة والحبور.

وقد بلغت هذه المظاهر والرسوم الفخمة ذروة البهاء والروعة فى عهد الدولة الفاطمية، وكانت هذه الدولة القوية الشامخة تتخذ من المواسم والأعياد الدينية والقومية فرصاً للظهور فى أبدع مظاهر القوة والغنى والترف، وتغمر الشعب فى هذه الأيام المشهودة بوافر بذلها وعطائها؛ فكان الشعب يستقبل هذه المواسم باهتمام وحماسة ويكثر فيها من الاحتشاد والانفاق والمرح، تشجعه الدولة على ذلك وتحثه بقدوتها ومثلها. وكان للاحتفال بهذه المواسم رسوم وتقاليد معينة تختلف باختلاف أهميتها الدينية أو القومية. وقد بلغت فى ظل الدولة الفاطمية من الكثرة والانتظام مالم تبلغه فى أية دولة اسلامية أخرى. ذلك أن الخلافة الفاطمية شرعت لنفسها، الى جانب الأعياد الدينية المأثورة، أعياداً خاصة بها وبدعوتها ومذهبها الدينى، فقررت أن تحتفل الى جانب المولد النبوى، بموالد خمسة أخرى هى مولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء التى ينتسب الفاطميون اليها، ومولد الحسن، ومولد الحسين ابنى على، ومولد الخليفة الفاطمى القائم فى الملك؛ هذا الى مواسم وأعياد أخرى كيوم عاشوراء (عاشر المحرم) الذى قتل فيه الحسين، وليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه وهى ليالى الوقود الشهيرة؛ ثم كانت هنالك أعياد قومية أخرى كيوم فتح الخليج، ويوم الميلاد النصرانى ويوم النوروز، ويوم الغطاس؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية لم تنس أن تشمل رعاياها النصارى برعايتها وتسامحها فى إحياء هذه الأعياد القومية القديمة بصفة رسمية، وفى أن تسبغ عليها من البهجة والبهاء ما يسبغ على الأعياد الأخرى.

وكان المولد النبوى الكريم فى مقدمة الأعياد الاسلامية المقدسة، تحتفل به الدولة طبق رسوم معينة، ويحتفل به الشعب فى فيض من الضجيج والمرح. وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية المعاصرين. كابن زولاق، والمسبحى، وابن الطوير، وابن المأمون، طرفاً من هذه المناظر والرسوم الشائقة؛ وخلاصة هذه الرسوم، هو أنه اذا حل المولد النبوى، يطلق من الخزينة مبلغ كبير برسم الصدقات، ويطلق من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ومن الخزائن سكر ولوز وعسل وزيت برسم خدمة المزارات التى بها — حسب قولهم — بعض أعضاء آل البيت. ويوزع من الحلوى بضع مائة ألف رطل، وكذا من الخبز كمية كبيرة. وفى يوم المولد النبوى — الثانى عشر من ربيع الأول — يخرج الخليفة فى موكبه ليجلس فى المنظرة الخلافيـة المجاورة للمشهد الحسينى؛ وهى أقرب المناظر الى القصر؛ وتكون دار الفطرة قد أعدت ثلاثمائة صينية مجهزة بالحلوى اليابسة لتفرق فى كبار الموظفين والقضاة، وفى مقدمتهم قاضى القضاة وداعى الدعاة، وقراء الحضرة وخطباء المساجد الجامعة. وعند الظهر يركب قاضى

القضاة فى موكبه من عند القصر ، ويخلى ميدان القصر من الجماهير ، ويترك للجمهور السلوك من ناحية أو اثنين ، ويقوم والى القاهرة بالمحافظة على النظام مع رجاله ؛ ويصل موكب قاضى القضاة من ناحية ، ويصل موكب الحاجب الكبير من ناحية أخرى الى ساحة المنظرة الخلافية وقد فرشت بالرمل ؛ ويقف الجميع فى الساحة متشوفين لرؤية الخليفة . وبعد نحو ساعة يطل الخليفة من احدى الطاقات وعلى رأسه المنديل الخلافى ، ومن ورائه بعض الأستاذين المحنكين[1] ويطل أحد الأساتذة من طاقة أخرى ويقول : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » ويسلم على الحضور ؛ ثم يبدأ قراء الحضرة[2] بالقراءة وقوفاً . ووجوههم الى الجمهور ، وظهرهم الى المنظرة ؛ ثم يلقى خطباء المساجد الجامعة خطبهم ، فيبدأ خطيب الجامع الحاكمى ، ثم خطيب الجامع الأزهر ، ثم خطيب الجامع الاقمر ؛ وتدور الخطبة حول المولد النبوى وقدسيته وفضله ؛ فاذا انتهت الخطابة ، أخرج الأستاذ رأسه من الطاقة ويده فى كمه ورد على الجماعة السلام ، ثم تغلق الطاقتان . ويحتجب الخليفة والأستاذ ، وينتهى الاحتفال ، وينفض الناس[3]

هذا ، وإلى جانب الاحتفال الرسمى ، يحتفل الشعب فى كل مكان باقامة المآدب الخاصة ليلة المولد النبوى ، وفى مساء يوم المولد ، وتسطع القاهرة فى الليـــل بالأنوار الباهرة ، وتغص الساحات والدروب بالجماهير المحتشدة ، وتـكثر النفقة والنزهة ، وتقام أنواع الملاهى والمطاعم العامة ، وتسـير السفن فى النيل والخليج محملة بالمتنزهين ، ويكثر البر بالفقراء والمساكين .

وكان الاحتفال بالمولد النبوى فى دول السلاطين المختلفة دائماً من الأعياد الرسمية ، تحييه الحكومة والشعب ، ويشهده السلاطين أحيانا ؛ ولـكنه لم يبلغ فى ظل هذه الدول ما كان يبلغه من الفخامة والبهاء فى ظل الدولة الفاطمية .

وفى عصر الحكم التركى ، ذوى بهاء المواسم والأعياد الدينية كما ذوى كل شىء فى الحياة العامة المصرية ، وغلبت عليها التقاليد السخيفة ، ولم يبق لها شىء من تلك الروعة التى كانت تهز قلوب المسلمين ، وتبعث اليها الجلال والخشوع .

***

ويصف لنا الجبرتى طرفاً مما كانت عليـه رسوم الاحتفال بالمولد النبوى فى أواخر الحكم التركى وأيام الحملة الفرنسية ، فيقول مثلاً فى وصف احتفال سنة ١٢١٤ هـ ما يأتى :

« وفى يوم الثلاثاء حادى عشره (أى حادى عشر ربيع الأول) عمل المولد النبوى بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البـكرى سارى عسكر الـكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » .

ويقول فى وصف احتفال سنة ١٢١٦ هـ ما يأتى :

« وفيه (أى ربيع الأول) نودى بتزيين الأسواق من الغـد تعظيما ليوم المولد النبوى الشريف فلما أصبح الأربعاء كررت المناداة والأمر بالـكنس والرش فحصل الاعتناء وبذل الناس جهودهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر . وركب المشار اليه عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع . وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجميع بتـكية الـكلشنى على العادة ، وتردد الناس ليلاً للفرجة وعملوا مغانى ومزامير فى عدة جهات ، وقراءة القرآن ، وضجت الصغار فى الأسواق وعم ذلك سائر أخطاط المدينة القاهرة ، ومصر وبولاق . وكان من المعتاد القديم ألا يعتنى بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البـكرى لأن عمل المولد من وظائفه وبولاق فقط »

وفى وصف احتفال سنة ١٢١٧ هـ ما يأتى :

« فيه (ربيع الأول) شرعوا فى عمل المولد النبوى وعملوا صوارى ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدفتردار والشيخ البكرى ونصبوا خياماً فى وسط البركة ونودى فى يوم الخميس بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل ثلاث ليال ، أولها صبح يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولد الشريف فـكان ذلك »[1]

(١) الأستاذون المحنكون جماعة من كبار موظفى القصر اختصوا بالدولة الفاطمية ، وعددهم تسعة ، ومنهم متولى التاج الذى يقوم بوضعه على رأس الخليفة ، وصاحب المجلس الذى يتولى تنظيم المجالس الخلافية الرسمية ، وصاحب الرسالة ، وهو الوسيط بين الخليفة والوزراء والحجاب ، ومدير القصور ، وحامل الدواة ، الخ . . . (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥)

(٢) قراء الحضرة هم قراء القصر الخصوصيين ، وعددهم عشرة قراء

(٣) راجع فى تفاصيل هذه الرسوم — خطط المقريزى (مصر) ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢

(١) الجبرتى : (طبع مصر) ج ٣ ص ٨١ و ٢٠١ و ٢٣٥

من وراء البـــحر

للدكتور محمد عوض محمد

عزيزى الزيات

لقد غادرت القاهرة وأنا حانق عليك ، غاضب ثائر . وكان مثلى كمثل هذا البحر — بحر الريفييرا — الذى مابرح هائجاً صاخباً . فاستحال علىّ أن أقضى الوقت فى السباحة والاستجمام ، واضطررت أن أقطع الوقت فى الكتابة اليك كما ترى .

أجل ! لقد تركت السواحل المصرية وأنا غاضب منك ، ولحسن حظك أن بينى وبينك هذا البحر الطويل المديد العريض ، وإلا نالك منى بعض الأذى . فانك حاولت فى العدد السابع والأربعين من « الرسالة » أن تفسد على عيشى ، وتقطع عنى الخبز الذى أتبلغ به فى هذه الحياة الدنيا ،

وتفصيل الحديث — إن كنت لم تدرك بعد ماجريرتك — أنك فى العدد الأخير — الأخير بالنسبة الى — حاولت أن تقطع عنى وسائل عيشى ؛ بأن تناولت أفاضل الشعراء بالنقد الشديد . لا لسبب سوى أنهم اتخذوا لأشعارهم عنوانات اقتبسوها من بيئة غير بيئتهم وأرض غير أرضهم ؛ وقد تناولتهم من أجل ذلك باللوم ما شاء لك ذلك القلب القاسى الذى اتخــذ جوانحك مستقراً ومقاماً .

وكأنما جهلت — يا أبا رجاء — أو تجاهلت أننى بحمد الله — الذى يحمد على الخير وعلى الشر — ما أكلت الخبز والملح (ومعهما — أحياناً — قليل من الجبن الدمياطى والخيار المصرى) إلا بأمر واحد أؤديه فى هذه الحياة ، وهو تعليم الناس تقويم البلدان . ولست أدرى أدفعتنى فى هذا الطريق ملائكة الرحمة أم شياطين العذاب . لكنه على كل حال هو الطريق الذى سلكت . والذى آكل منه الخبز والملح فكان الأجدر بمثلك لو أنك ترعى للمودة عهداً أن تشجع الشعراء على أن يقبلوا ما استطاعوا على تلك البيئات البعيدة ، والأقطار النائية ، يلتمسون فيها عنواناتهم وموضوعاتهم ، فيضطرون الى دراسة البلدان والأقاليم ، ويبحثون فى أسفار الجغرافيا عن صفة كل قطر وكل ظاهرة طبيعية ، حتى اذا استوعبوا فهمها واستطاعوا الاحاطة بأسرارها سالت خواطرهم فى وصفها قريضاً بديعاً . . . وهكذا يصبح الشعراء والكتاب طلبة يدرسون علم تقويم البلدان ، ورسلاً لنشر الدعوة الجغرافية وبثها بين طبقات الأمة . وهكذا تروج بضاعتنا التى نأكل منها الخبز والملح ، ومن يدرى ، فقد ينتهى بنا هذا لأن نصبح قادرين على التنعم بأشياء غير الخبز والملح — مما نجهله الآن كل الجهل .

ان واجب الجغرافيا — يا أبا رجاء — هو أن تدنى البعيد وأن تقرب أطراف العالم بعضها من بعض . وأن تعلمك وأمثالك كيف تتخذون الناس كلهم سكناً ، وكيف تجعلون الأرض كلها داراً .

نريد لكم اليسر والسعة ، ولا نريد لكم العسر والضيق ، نريد أن يطلق سراح الكتاب ، وألا يتقيدوا بسلاسل المكان وأغلال الزمان ، فتنطلق أرواحهم فى العالم الفسيح ، وتشرب من كأس الحرية حتى تروى وتشفى .

ان الجغرافيا هى علم الكون ، علم الوجود ، ولهذا كانت أهم ما فى الوجود من علم . ولهذا وجب على من كان مثلك — مهنته نشر الثقافة — ألا يقول كلمة واحدة تثبط همة المشتغلين بهذا العلم العظيم . .

لهذا أريد منك أن ترجع الى الحق ، وان تعترف معى بأن « وراء الغمام » و « الملاح التائه » وما شابه ذلك عنوانات بديعة ، وأنه لا يضير الكاتب الذى يستخدم مثل هذه العنوانات أن ليس فى سماء القاهرة غمام كثير — مع أن فى سماء الأسكندرية من الغمام ما يكفى لألف عنوان ! — كذلك لا ضير على الكاتب أن

ونستطيع أن نلمح فى الاحتفال الرسمى الذى يقام فى أيامنا احتفاء بالمولد النبوى الكريم بعض رسوم العصور الخالية ، وبالأخص بعض المناظر التى ينقلها الينا الجبرتى عن هيئة الاحتفال فى أواخر العصر التركى ، ولكنا لا نستطيع أن نلمح فيه كثيراً من تلك الروعة التى كانت تطبعه فى عصور المجد والاستقلال ، ولا نستطيع بالأخص أن نلمس آثار ذلك الصدى العميق الذى كان يتردد بين طوائف الشعب ويجعل من المولد النبوى الكريم عيداً دينيا وقوميا عاما يحتفى به الشعب بأسره .

محمد عبد الله عنان
المحامى

يتحدث عن البراكين وجبال النار، والزلازل، وأمثال تلك الظاهرات التي لا نحسها في مصر الا نادراً . ذلك لأننا معشر الجغرافيين نريد أن نبصر ثمار ما بذرناه من علم ونراها تؤتى أكلها في كل مكان .

هذا ما عنّ لى أن أقوله تأنيباً لك على أن حاولت أن تقطع عيشنا في هذا البلد الأمين . وأريد أن أزيد في التنكيل بك بأن أرسل إليك قصيدة كنت نظمتها في وصف « نهر في جبال الألب » فهى كما ترى لم تكتب عن نهر النيل . فاذا أردت أن تلومنى في هذا ، وليس هذا على جرأتك بعزيز — فاذكر أننى كتبت عن نهر النيل كتاباً كاملاً ؛ قد أتعبنى في النهار وأسهرنى الليل أعواماً طوالاً . أما النهر في جبال الألب فما كان له منى سوى جلسة قصيرة جلستها بجانبه أراقب مجراه ، وأصغى الى خريره وزئيره . لم يسهد له طرف ، ولم يدمع له جفن .

وعندى أن الذين يبحثون عن موضوعاتهم في غير بيئتهم لا يضربون لنا مثلاً لما نسميه (الامتيازات) في الأدب ؛ بل للاستعمار في الأدب . فما دام الأسلوب عربياً ، والصبغة والنزعة عربيتين ؛ فلن يضير الشاعر أن يفتش أرجاء العالم في سبيل البحث عن موضوعه ، أو عن استعاراته أو معانيه . والذى قد يعاب على الكاتب العربى هو هذا الولع باصطلاحات غربيــة تبدو للعربى بادية السخف ، مثل قولهم « كوبيد رمانى بسهم » أو ما شاكل ذلك من الاصطلاحات التي لا طلعت ولا نزلت . وليست عبادة الغربيين مقصورة على شعرائنا بل هى كذلك شائعــة في سائر الكتاب ورجال السياسة . فكل نغمة — مهما كانت سخيفة — مطربة لهم ما دامت خارجة من قيثارة غربية . وكل حكم نافذ ما دام صادراً من محكمة غربية . وأكبر عار على الأديب المصرى أن يكون إلمامه بأدب الغرب أكبر من إلمامه بأدب الشرق .

***

والآن ما خطب تلك القصيدة التي أريد أن أثأر بها منك : والتي موضوعها « نهر في جبال الألب » ؟ انها ليست من جليل الشعر ولا خطيره ، ولكنى ما دمت أرسلها اليك للتنكيل بك فلن أهتم بتنقيحها وتهذيبها . فها كها :

يحار لبى إذ أرى   مَسيلَ هذا الجدول
وإذ أرى انحداره   يسبق لمح المُقل
لا يستقر في المسـير لحظــةً بمنزل
كأنه مُنــدفعٌ   بالخوف أو بالأمل
أو ســائر لغاية   بعزمة لم تُفلل
ينقض في انسيابه   مثل هوِىّ الأجدل
مِن مَدْفَع لمدفع[1]   وجنــدل لجندل
فاعجب لماء شبمٍ   يجيش مثل المرْجل !
مصطخب مضطرب   محتــدم منفعل
وهائج في مائج   ومدبر في مقبل
وعابس في ضاحك   ومنجد في مسهل
وأول في آخــر   وآخــر في أول
مستعجلاً وليس يخــشى زلة المستعجل
وليس يُعييه المسيرُ   في الضحى والأصُل
عليه من حبابه   ثوب كأبهى الحلل
رذاذه مثل شرار   ناره لم تشـعل
منتثرٍ منتشرٍ   في السهل أو في الجبل

***

شلّالُه يهوى هُــوِى شُهب ليل أليل
كعمد من فضــة   أو كُلاء مُسدل
أو حائط من مرمر   يلمع كالسجنجل
أو ذوب بلور هوى   من حالق لأسفل
في صخب ولجب   متصــل منفصل
يكاد أن يسمع من   بالمشترى أو زحـل !
زئيره يطغى على   خريره المتصـل
مثل زئير الأسد يخــفى شدو كل بلبل

***

أصغى اليــه صامتاً   في هيبة ووجــل
أسمع في خريره   ذكرى العصور الأول
كأنه صوت الزمان   من قديم الأزل
ينبئ بالماضى وقد   يهمس بالمســتقبل
سفر يخط الدهر فيــه كل سطر منزل
من كل معنى مُذهل   وكل سر مُعضل

***

ياليت شعرى إذ أرا . ه في مسراه المُعجل

(١) المدفع عند العرب هو حيث يندفع الماء بشدة ومن هذا (مدافع الريان) التي جاءت في معلقة لبيد

بين العلم والأدب

هل يميت العلم الشعور ؟

بقلم محمد روحى فيصل

« العلم يجفف القلب ويميت الشعور »

رأى أملاه على مذ سنوات احد اساتذتى الأدباء ممن لا بأس بلبه وعقله ، ولا يتهم فى فطنته وبصيرته ، ثم سمعته من بعض الشباب الناهض المتأدب ، وقرأته لغير واحد من كبار الكتاب فى مصر والشام والعراق . فاذا الرأى شائع معروف ، ثابت الأصول منبسط الفروع ، يرد ابداً على طرف اللسان وشق القلم ، واذا الناس يخشون العلم ويخافون على قلوبهم ونفوسهم من بأسه وضرره ، واذا هوة سحيقة النأى بعيدة المستقر تفصل العلم عن الأدب وتباعد بين اسبابهما وادواتهما ، اما ان بعض مصطلحات العلم جاف شديد الجفاف فهذا مالا يختلف فيه اثنان ، واما ان قوام العلم المنطق والعقل فهذا حق الى حد ما ، واما ان العلم ذاته يميت الشعور فهذا ما نحب أن نعالجه الآن فى جرأة واخلاص ، ونناقشه فى روية وهدوء . ونحن نغتبط كل الغبطة حين تعني الصحف والمجلات بالأدب ، تعقد له الفصول الطوال، وتدعو الى تفهمه ودراسته، وتبذل لهذا كله قوتها وجهودها ونرجو ان تكون النهضة الأدبية مقدسة مباركة تحفها أشعة من نور وهالة من بهاء ، فليس أدل على حياة الأمة من الفن والأدب يعرض عليك ، فى وضوح ودقة ، ميولها واهواءها وافكارها وسائر مايتردد بين قلبها وعقلها من الخواطر والأنفعالات . ولكن مفهومه على النحو الصحيح ما يزال مبلبلاً مهلهلاً . ما هو أفقه وغايته ؟ ماهو مقياسه وحدوده ؟ ماصلته بالعلم ؟ ماقيمته فى عالم المعرفة؟ هذه اسئلة يختلف كتابنا فى الأجابة عليها تمام الأختلاف ، ويذهبون فيها شتى المذاهب

أما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الكاذبة ، والطلاوة العابثة ، وتفتننا الألاعيب اللفظية والأناقة الكلامية ؟ ألسنا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل مقاييس الأدب الصحيحة ، وحدود الجودة والرداءة ، ومواطن الجمال والدمامة ؟ ألسنا نستحسن ماتغثى منه النفس ؛ وماهو حقيق بالنبذ والأهمال ، ثم نستقبح ماقد يكون فى الذروة من البلاغة الجميلة الرائعة ؟

ذلك ناشىء عن فساد فى الذوق ، وجدب فى التربة ، وكره للعلم وابتعاد عن دراسته وتحصيله ، وعندى ان كل انتاج فى الأدب لم يبدأ بأصلاح هذا الرأى فانما هو محاولة فاشلة فائلة ، ومضيعة للجهود المبذولة فى غير طائل ولا نفع

فى الدنيا جمال ، وفى الدنيا حقيقة ، وفى الدنيا خير . أقانيم ثلاثة تتحد فى السبب ، وتتصل فى الجوهر والعرض ، او هى مثل عليا متداخـــلة متشابكة ، ففى الجمال حقيقة ، وفى الحقيقة جمال وهكذا . . . فالأدب انما ينبغى أن يستند الى شىء من العلوم التجريبية والنفسية والأجتماعية ، ويعتمد على ما أثبته العلم فى مختلف الميادين والموضوعات ، والأديب والعالم انما يجب ان يتصالحا ويتصاحبا فكلاهما ينظر الى الطبيعة والحياة من ناحية ، هذا يكشف عن حقيقتها وذاك عن جمالها ، وهما بعد يتعاونان على بحثها واجتلائها

فالعلماء مجمعون فيما بينهم على ان غاية العلم انما ينبغى أن تكون البحث عن الحقيقة الخالدة يتحرونها فى كل مظهر من مظاهر الوجود ، لا لنتائجها العملية يستخدمونها فى حياتهم ومعاشهم ، بل حباً فى الأطلاع واشباعاً للنفس . هم يطلبون العلم لذات العلم لا لآراب أخر ، ويلحون فى أن يكون خلواً من الأغراض والمنافع ، بريئاً من كل نزعة تطبيقية . يريدون ان يكون العلم نظرياً محضاً يستهدف الحقيقة فى كنهها وصفاتها ودلائلها ونسبها . يقول هنرى بوانكاريه

هل هو رمز للخلو د والوجود الأزلى
أم هو رمز للفنا يبـــدو وللتحول ؟
وقد أراه قدوة لنا وخير مثل
لو ان فينا بعض ما فيه من الخُلُقِ العلِى
من شدة وعزمة وقوة وعمـل
إذن لكنا دولة بين كرام الدول

والآن أيها الصديق تحية وسلاماً . . . أرجو أن أكون قد نكلت بك كما أردت واشتهيت ؛ وان عدتم عدنا . والى اللقاء ؟

أخوك المخلص

محمد عوض

جوان لى پان فى ٦ حزيران

«ان معرفة الحقيقة يجب أن تكون غاية نهضتنا»[1] ويقول شالى « كلما سما العلم وتجرد عن المقاصد والأغراض فى العصر الحاضر كان للأجيال الآتية اكثر خيراً واعظم نفعاً » [2]

وليست المادة وحدها بالتى يتناولها العلم فيدرسها وانما هو يبحث ايضاً فى حياة النفس واحداثها ، فهى فى نظره موضوع للتفكير كالمادة سواء بسواء .. فالعلوم على اختلافها انما هى دروب ما تتشعب وتنحرف الا لتلتقى فى نقطة واحدة هى « الحقيقة » . أفتظن ان معرفة هذه الحقيقة التى يبذل العالم لها جهوداً جبارة هى سبيل لتجفيف قلبه ، واطفاء معنى الشعر فيه !! لا ! لعمرى ان العالم الذى يصل الى حقيقة من الحقائق انما تمتلىء نفسه فى الحال بهـــذا السرور وهذه النشوة العلوية ، فليس أدعى للذة ولا اكثر مجلبة للسعادة من عرفان الحقيقة ! ! أذكر عالماً من العلماء — وأظنه الكيميائى داوى Davy قد أخذ نفسه بدراسة « البوتاسيوم » فى مخبره ، فلما عرف حقيقة الجسم قام حول الطاولة يرقص بهجاً طروباً !! وكان ارخميدس يوماً فى الحمام يجرى عمليته فى سبيكة المعدن ليعرف مقدار الذهب فيها والفضة ، حتى اذا لاحت له الحقيقة خرج فى شوارع المدينة عارياً حافياً يصيح : وجدتها ، وجدتها eureka .. ففى خروجه على هذه الحال من العرى والحفاء ، وفى صراخه القوى البهيج ، صورة جامعة تامة الخطوط والألوان للذهول الشديد الناشىء عن اللذة الفجائية الطافرة التى بعثت فى قلبه الشاعر والعواطف ، وأسالت منه أقصى حدود الفرح والبشر ، وطبعت على شفتيه المنفرجتين بسمة حلوة مشرقة ! !

ولعل الحقيقة النفسية اكثر الحقائق مدعاة للسرور ، فهى التى تهمنا قبل كل شىء لأنها تتصل بنا وتؤلف الجانب الأكبر من حياتنا ، فالكشف عنها انما هو اجتلاء افق فسيح عجيب ، ملؤه الجمال والجلال

إن العلوم التجريبية تسمو دوماً من الحوادث والواقع الى القانون . هى تعلو وتعلو فى جو التجريد حتى تحصر مظاهر الكون فى هذا الرمز الصغير المدعو « قانون » . فالقانون علاقة بسيطة تريك هذا النظام الدقيق الذى تتقيد به الطبيعة ، وتخضع له من غير شذوذ ولا مصادفة . فنحن حين نقرر سقوط الأجسام كلها نحو مركز الأرض نوضح هذا التجاذب القوى العام الذى يحصل بين الكتلات ، نوضح ناحية من نواحى الوجود لها قيمتها ولها أثرها . وهذا التجاذب هو فى الحق حلقة من سلسلة النظام الطبيعى . فالقانون هو ، على حد تعبير هنرى بوانكاريه ، أحدث وسيلة لجأ اليها العقل البشرى للتعبير عن هذا النظام الطبيعى . أفلا يروقك أن تلحظ أن فى هذا العالم الذى تعيش بين جوانبه ، والذى أنت عنصر كريم من عناصره العديدة — اتساقاً وانسجاماً بديعين ؟ !

لقـــد كان الناس فى العصور الخوالى يتطلبون من آلهتهم معجزات خوارق يثبتون بها وجودهم وقدرتهم ، وانما الأعجوبة الرائعة حقاً ألا يكون هناك أية معجزة خارقة ، وأن يكون كل شىء فى الطبيعة يسير على خط منتظم فى حركة منتظمة ، لااعوجاج فى الخط ولا تزايد فى الحركة ! ! فنظام الطبيعة الذى يكشف عن العلم شيئاً فشيئاً هو مصدر كل جمال وكل شعر ، يبعث فى القلب أسمى الشعور وأدق النزوات . . .

لعل الذى يقول بتجفيف العلم للقلب انما ينظر الى هذه المجازر البشرية ، والى تلك الشرور والآثام التى كان العلم فيها عاملاً قوياً لهتك الفضيلة وسفك الدماء . . هذا صحيح ، ولكن العلم فى ذاته لا يبغى الا هدفاً شريفاً منزهاً عن كل النزعات البشعة ، فهو يصلح للخير ويصلح للشر ، ويستخدم لرفع مستوى الانسانية ويستخدم لتدنيسها ، فليس الذنب ذنبه وانما هو ذنب من حمله ! فأنت تستطيع أن تنقم عليهم ، وتستطيع أن تكيل لهم أشنع النعوت والصفات ، ولكنك مضطر الى أن تقف فى محراب العلم خاشعاً متصدعاً ، تتلو آى الحمد والاجلال ، وترتل أناشيد الحب والاعجاب ! !

أو لعل الذى يقول بتجفيف العلم للقلب انما يزن الحقائق التى اجتلاها الانسان خلال هذه العصور الطويلة ، فوجدها ضئيلة هزيلة لا تعدل ما بذل فى سبيلها من جهود . . وهذا صحيح أيضاً ، فالحقيقة لا تطفو على ظاهر الأشياء ولا تستبين بارزة عارية وانما هى خيال ما يكاد يتراءى للعين والبصيرة حتى يختفى ، ولقد يضطر العالم الى اللحاق به فيعدو ويعدو ، ثم يعود فى الأعم من الأحوال خاسراً خائباً . فتحرى الحقيقة عمل شاق مضن ، ولذا اشترط على العالم الصبر والأناة والجلد . على أن ما علمناه يزيد فى ثراء خزانة

---

(١) راجع المقدمة من كتاب بوانكاره «قيمة العلم»

(٢) راجع صفحة ٣٢ من كتاب شالى «فلسفة العلم والأخلاق»

المعارف . ويهيب بنا الى القول أن الانسان الحاضر أرقى من الانسان الأول ، وأكثر منه كمالاً . أقول كمالاً ولا أقول سعادة ، لأن السعادة غير منوطة بالعلم أو ناتجة عنه . ولعلها بالجهل أجدر وأليق ، ولعل العلم يبعث القلق والاضطراب ، ويثير أحلام النفس الخافية ووساوسها الكامنة

***

اكتشاف الحقيقة لا يتم الا بالخيال والعاطفة . وهما أهم مقومات الشعر والأدب ، يتخذهما العلم فى البداءة جناحاً يطير به ، ووسيلة يلجأ اليها ، فهما أداتان لا غنى له عنهما . أفيستطيع العالم تبيان مجاهل الكون الا بالتخيل والتصور ، يرسم حدودها وأشكالها على صحيفة مخيلته قبل أن يعرفها بالواقع والمحسوس ؟ أفلم تكن العاطفة والرغبة حافزاً للمعرفة وداعياً الى الاحاطة بها ؟ . . ومع أن العلماء حددوا مدى الخيال ، وألزموا الحس بالبرهان فلقد راضوهما كثيراً واستنهضوهما كثيراً .

فالمعهود أن ملكة التخيل والفرض قوية نامية عند العلماء والمفكرين ، والمعهود أن كبار الأدباء كانوا علماء أو مثقفين ثقافة علمية متينة واسعة . فهذا جيتى الأديب العبقرى كان عالماً من علماء القرن الثامن عشر ، له فى النبات نظرية « التحور » وله فى طبقات الأرض والأحجار الكريمة آراء محترمة ، يعتقد ببساطة النور ويقول ان جمجمة الرأس انما هى حلقة من حلقات العمود الفقرى تطورت ونمت فصارت الى ماهى عليه الآن من التجسم والضخامة . أما بساطة النور فلا يؤمن بها أحد من العلماء اليوم ، وأما نظرية الجمجمة فلا تتلاءم مع علم الرشيم الحديث فعدل عنها ، وان شئت فقل انها تحورت الى نظرية أخرى . كان جيتى أديباً كبيراً وكان عالماً حقاً ، لم يمنعه علمه من الانتاج فى الفن والأدب ، ولم يمنعه علمه من الاسترسال وراء الخيال الصادق الصحيح ، وهل الخيال الصادق الصحيح الا ظل الحقيقة وصورة الواقع ؟ ؟

انما يكشف العلم عن مصادر خصبة للجمال يجدر بالأديب أن يتأملها ويستوحيها ، يهيج الخيال وينشط العاطفة ثم يسبغ عليهما من روعة الحقيقة ما يلهمهما ويؤججهما ؟

حمص — محمد رومي فيصل

فى الأفق الدولى

جبهة أوربية جديدة

كان اعتراف دول الاتفاق الصغير بروسيا السوفيتية واجتماع السينور موسوليني والهر هتلر أهم الأحداث الدولية التى وقعت فى الأسبوعين الأخيرين . وتوجد بين الحادثين صلة وثيقة . وكلاهما يرجع الى نفس البواعث والظروف التى تدفع أوربا اليوم الى منحدر شديد الحلك . وقد بينا فى مقال سابق فى الرسالة أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن أوربا القديمة تعود فتبدو للعالم كما كانت قبل الحرب مسرحاً للتنافس الحربى وعقد المحالفات السرية ، وتنظيم الجباه الخصيمة . وقد بدأت فرنسا مذ رأت تصميم ألمانيا على تسليح نفسها بتنظيم جبهة سياسية عسكرية تستطيع أن تعتمد عليها فى مقاومة ألمانيا اذا ما نشبت بينهما الحرب ؛ ولما كانت العلائق قد فترت بين ألمانيا وروسيا على أثر قيام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا وسحقه للحركة الديمقراطية ومجاهرته بخصومة روسيا السوفيتية ، فقد رأت فرنسا أن تعود فتتقرب من روسيا وأن تحاول إحياء التحالف الذى كان معقوداً بينهما قبل الحرب ضد ألمانيا . فبعثت مسيو هريو رئيس الوزارة الأسبق الى روسيا ليمهد السبيل لهذا التحالف ، ورأت روسيا من جانبها أنها فى حاجة لتوطيد مركزها بين الدول الغربية ، وتأمين سلامة حدودها الأوربية لكى تستطيع التفرغ نوعاً لمقاومة الخطر اليابانى فى الشرق الأقصى ، فرحبت بهذه الخطوة ؛ واستمرت فرنسا فى سعيها لتنظيم هذه الجبهة الشرقية ضد ألمانيا ، حتى استطاعت أن تحمل دولتين من دول الاتفاق الصغير هما رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على الاعتراف بروسيا السوفيتية تمهيداً لعقد التحالف بينهما وبين روسيا . وقد جاء اعتراف الدولتين بروسيا على أثر الزيارة التى قام بها مسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية لكل منهما . ونفوذ فرنسا فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا كما معروف ، وهو الذى يوجه سياستهما الخارجية منذ نهاية الحرب الكبرى . ونستطيع أن نقارن بين رحلة مسيو بارتو التى أسفرت عن التمهيد لهذا التحالف برحلة مسيو بوانكاريه

التي قام بها قبيل الحرب الكبرى في روسيا وما انتهت اليه من توثيق التحالف بين روسيا وفرنسا .

اجتماع هتلر وموسولينى

وقد كان لهذه الحركة التي قامت بها فرنسا في تنظيم الجبهة الجديدة وقع عظيم في ألمانيا لأنها هي المقصودة بها قبل كل شيء . وقد شعرت ألمانيا الآن بخطر العزلة السياسية والاقتصادية التي انتهت اليها ، وكان للسياسة الهتلرية وما أبدته من العنف وقصر النظر أكبر أثر فيها . ففي عام ونصف عام فقط ، منذ قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا ، فقدت ألمانيا كثيراً من عطف الرأى العالمي . وفقدت صداقة روسيا السوفيتية وما كانت تتمتع به فيها من مركز اقتصادي ممتاز ، وأثار عنف السياسة الهتلرية عليها كثيراً من الأحقاد في النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، ودفعها بسرعة الى طريق الخراب الاقتصادي . وقد شعر الهتلريون بخطورة المأزق الذى دفعوا اليه ألمانيا ، ولم يجدوا قبلة يتجهون اليها اليوم في أوربا غير إيطاليا . والسياسة الايطالية تشعر بعطف خاص نحو ألمانيا الهتلرية أولا لما بين الطغيان الفاشستي والطغيان الايطالي من وجوه الشبه في الوسائل والغايات ، وثانياً لاتفاق الرأى بينهما في بعض المسائل الخارجية مثل وجوب تنقيح معاهدة الصلح ، وميثاق عصبة الأمم ، وتسوية مسألة نزع السلاح على قاعدة المساواة بين الدول العظمى . هذا وإيطاليا تشعر نحو السياسة الفرنسية في القارة بغيرة شديدة وتتوجس من عواقبها ولا سيما في أوربا الوسطى ، وتحقد على فرنسا لأنها تحول دون توسعها الاستعماري في أفريقيــة ؛ والخلاصة أن هنالك أسباباً وبواعث كثيرة تجمع بين ألمانيا وإيطاليا في الظروف الحالية ، وتقرب بينهما في الرأى والغايات .

تلك هي العوامل التي حملت هتلر زعيم الوطنية الاشتراكية الألمانية ، وموسوليني زعيم الفاشستية على اللقاء بسرعة للبحث والتفاهم . وقد تم اللقاء بين الزعيمين في مدينة البندقية (فنيزيا) واستمر يومى ١٤ و ١٥ يونيــه . ولم تذع تفاصيل شافية عما دار عليه البحث أو تقرر ؛ ولكن المفهوم أنه تناول كل المسائل الخطيرة التي تهم البلدين ، وفي مقدمتها مسألة التوازن الأوربي ، ومقاومة السياسة الفرنسية في تنظيم الجبهة الخصيمة ، ومسألة نزع السلاح وعصبة الأمم ، ومسألة استقلال النمسا وضمان السلم في أوربا الوسطى . وقد أفاضت الصحف الألمانية في أهمية هذا الاجتماع وخطورة أثره في مستقبل السياسة الأوربية ؛ وكانت الصحف الايطالية أكثر تحفظا . ولا ريب في أهمية الاجتماع وخطورته ؛ ولكنه من جهة أخرى دليل على خطورة المأزق الذى صارت اليه ألمانيا في ظل الوطنية الاشتراكيــة ، وعلى جزعها من عواقب العزلة السياسية التي انتهت اليها ، وشعورها بالحاجة الى التعاون الخارجي .

« ع »

صور من الحياة البائدة

للآنسة اسماء فهمي

درجة شرف في الآداب

على ضفاف « بحر يوسف » حيث قام في العصور السحيقة قصر « التيه » أو « اللابرنته » وفي وسط الحقول النضرة ظهر في جلال على ربوة تناثرت فوقها نباتات برية مزدهرة يقوم قصر آل عباد الفخيم . ولم يشأ القصر أن ينسجم مع ما يحيط به من بساطة فأغرق في الزخرف والزينة وأبى الا أن يجمع بين إسراف الفن القوطي من تماثيل رمزية وأبراج ، وروعة الفن العربي من نقوش وعمد ، فبدا وكأنه الحسناء التي طمعت أن تزداد حسنا فأسرفت في الزينة والتبرج ، فهوى جمالهــا النضر في خضم من الأصباغ والمساحيق الجامدة . . . ولكن سكان القصر وأغلب زائريه كانوا يقفون مبهوتين امام فخامته ، لأن البذخ والأسراف كانا لديهم مقياس الفن والجمال .

ولم يكن داخل القصر بطبيعة الحال اقل زخرفا أو إغراقا في التجمل من خارجه . وكان المبدأ الذى اتبع في تأثيث القصر المنيف هو اقتناء أثمن الأشياء من بلاد الشرق وممالك الغرب وتكديسها في الغرف دون مراعاة لما بين أنواعها من تفاهم أو تنافر ، والواقع أن أثاث المنزل كان دوليا بكل ما في الكلمة من معني التباين والتنافر ! وسكان الدار ؟ كانت أيضاً خصالهم وعاداتهم خليطاً من صفات الشعوب في عصور التاريخ المختلفة ، فلقد جمعوا بين ديمقراطية العرب وسخائهم وتعصب أهل القرون الوسطى في الدين واحتقارهم للمرأة ، وبين زخرف القرن الثامن عشر وانغماسه في

التزين، وأضافوا إلى كل ذلك تفانى أهل القرن العشرين فى عبادة المادة . .

وكان رب هذه الدار عميد آل عباد الشهيرة فى الفيوم شيخا مسنا معروفا بالتقى والكرم فى عناد وصلابة . ولكن على الرغم من تقواه كان لا يتورع من أن يزيد فى ثروته الطائلة بأى وسيلة تصادفه، وكان إذا أصبح الصباح بادر بالجلوس على حصير متواضع فى أحد أجرانه الفسيحة. وسرعان ما يجتمع حوله فلاحوه واتباعه يبسطون أمامه خصوماتهم ومشاكلهم فيقضى بينهم فى وقار وحزم كما كان يفعل النبيل فى عهد الأقطاع . . حتى اذا ما حان وقت الغداء، أمر باعداد الموائد للاتباع والفقراء ، ويأبى السيد الا أن يأكل معهم برغم احتجاج ابنائه الذين أخذوا بقسط من مظاهر المدنية الحديثة، ودرسوا علم الجرائيم الاجتماعية ووقفوا على أن الفقراء والمعوزين من أفتك أنواعها ! ولكن الشيخ كان يرد على مثل هذا الاحتجاج باسما قائلا : إن الفقراء أحباب الله . . واذا ما نادى مناد للصلاة هرول الشيخ الى مسجد القرية تتبعه جموع الرجال. وقد أدى ورع السيد الى تورع الأتباع حتى أكثر الأشقياء جبروتا وعتواً . .

أما زوجة السيد فلم تكن على شىء من نشاطه وبساطته ؛ قضت حياتها كلها قعيدة دارها لم تخرج منها الا يوم وفاة امها منذ اكثر من عشرين عاما . وكانت على جانب عظيم من البدانة لاترتدى من الأثواب غير الحرائر النادرة التى يطول ذيلها امتارا وراءها . . وتحمل حول عنقها واناملها ومعصميها وفى أذنيها أرطالا من اللؤلؤ والماس والذهب، فضلا عما أكثرت من الأصباغ المختلفة الألوان فى الرأس والوجه واليدين والقدمين فغاصت شخصيتها فى خضم من المساحيق والحرائر والجواهر . . وبدت فى مجلسها كصنم هائل تكدست فوقه قرابين الحلى والجواهر وضعت حيثما اتفق لأرضاء عاطفة الورع . !

وقد كانت بطبيعة الحال لفرط بدانتها وثقل احجارها الكريمة بطيئة الحركة تشتد ضربات قلبها لأقل مجهود ، وقد ترتمى على مقعدها اعياء لمجرد محاولتها النهوض ، فيأتى رهط من الخدم للأخذ بيدها وانهاضها كما لو كانت عجوزاً شمطاء قد قطعت شوطا بعيدا فى طريق العـــدم .

وعلى مقربة من الأم كانت تجلس ابنتها « سمر » وهى غادة هيفاء لولا ضعفها البادى وشحوبها لما نخل عليها حتى أقسى حسادها بوصف الحسن الرائع . ولكنها كانت كالزهرة التى اقصيت عن الضوء والهواء فذبلت وتهدلت أوراقها . ولم تحاول الفتاة أن تخفى الشحوب بالأصباغ (وإن كانت قد اجتهدت فى اخفاء النحول بكثرة الكرانيش والذيول) لأن ذلك العهد لم يبح للمرأة أن تتجمل الا اذا كانت ذات بعل . . أما المذهب الذى يدعو إلى الاهتمام بالفن للفن ، فلم يكن مألوفا عند بنات ذلك العصر، وانما هو من مستحدثات هذا القرن !

***

كرت الأعوام على هذه الأسرة والحياة تسير على وتيرة واحدة لا تنوع فيها الا تغيير انواع الطعام الكثيرة ، وتبديل الملابس والجواهر التى اكتظت بها الصناديق والخزائن — ولكن لم تلبث الأيام التى تلد العجائب أن تمخضت عن حادث هام أدخل فى حياة الأسرة الراكدة انتعاشا وجدة . . وحول تفكيرها الى مجرى غير مجرى الطعام والشراب والملبس.. فلقد خطب الشاب مراد ابنة عمه «سمر» إلى أبيها، وقبل الشيخ عباد راضياً مسروراً، لأن مرادا كان يمتاز بأسمى صفات الرجولة من نبل وشجاعة وقوة فوق جاهه العريض وجمـــاله . وقد فرحت الفتاة سمر عند وقوفها على هذا النبأ ، لأن مراداً كان رفيقها فى عهد الطفولة، وهى وان كانت لم تره منذ زمن بعيد كانت تسمع الكثير عن خصاله وجماله

وكانت الأم منذ اعلان الخطبة لاتطيق ابتعاد ابنتها عن مجلسها ، وفى ذات يوم فاضت عاطفة الأم عند ماتذكرت انه لم يبق على زفاف ابنتها سوى ايام قلائل ، فجرّت نفسها نحوها بمجهود غير يسير ، ووضعت ذراعها الغليظة حول جسم الفتاة النحيل، وقالت وهى تلهث من التعب : — أواه يا ابنتى ! عما قليل ستزفين الى ابن عمك مراد ، لا يحزننى أمر فوق ما يحزننى منك هذا النحول . . اتوسل اليك ياسمر أن تأكلى وتشربى كل ما آتيك به . . وليس هناك من داوء للنحول كشرب كوبة من السمن الخالص أو المحلى بالعسل كل صباح وكل مساء . . انظرى إلى أمك! انها لم تستمتع بهذا الهيكل العظيم من اللحم الذى يحسدها عليه جميع نساء آل عباد الا بفضل هذا الدواء الناجع الذى أشير به عليك الآن . .

فقالت الفتاة وقد توردت وجنتاها حياء لذكر موضوع الزفاف،

آسف لايلامك يا أماه . . سأحاول مرة أخرى تعاطى هذا الدواء ، ولكنى أوثر البقاء بجانبك طول الحياة ... انى لأرتعد فرقا عند ما أفكر أنى سأغادر هذه الدار المحبوبة قريباً لأذهب إلى دار غريبة لا أعلم من أمرها أو من أمر ساكنيها الا ما أسمعه من أفواه الرواة .. انى لم أر عمى « قاسما » الا مرات معدودة ، كنت فيها لا أجسر على مخاطبته أو النظر فى وجهه استحياء . . أهوَ طيب القلب يا أماه ؟ وزوجه ؟ أحقاً ما نسمعه من أنها شديدة الورع ؟ . .

أجابت الأم وهى تحاول إخفاء تأثرها : عمك يا ابنتى كأبيك نبيل كريم. أما زوج عمك فهى شديدة التقى كثيرة التعبد، ولكن ذلك قد لا يمنعها من ان تتصف برذائل الحماة . . وما ادراك ياسمر ما الحماة . . انها نار الله الموقدة ، أو احد شياطين الجحيم المردة .. انى يا ابنتى لم اتذوق طعم الحياة الرغيدة الا بعد أن ماتت حماتى !.

ارتعدت فرائص الفتاة عند سماع هذا القول وأبرقت عيناها ببريق الكره والخوف معاً ، وقلت والعـــبرات تكاد تحبس صوتها : — وماذا أنا فاعلة يا أماه ؟ . .

— إخضعى لحكم القـدر ، واستعينى برب الفلق على شر ما خلق ! . .

انهمرت عبرات الفتاة على الرغم من ايمانها الشديد . ودخل أبوها مهرولاً فى تلك اللحظة فانقطع مجرى الحديث ، لأن الفتاة أسرعت بالاختفاء إذ أصبحت لا تجرؤ على مواجهة أبيها منـذ خطبتها مدفوعة بعامل الحياء الشـديد . . . ولم يحاول الأب استبقاء فتاته وان كان الموضوع الذى أتى ليعالجه مع امرأته يعنى الفتاة دون سواها ، لأنه أتى طبعاً ليتكلم فى موضوع العرس ، هذا الأمر الذى كان محور حديث الأسر ، ماعدا الفتاة التى قضت عليها التقاليد بكتمان آرائها ورغائبها وعدم الخوض فى موضوع الزواج . .

قال الأب بعد فترة سكون لم تحاول الأم بدء الحديث فى أثنائها برغم تشوقها للوقوف على أحدث تفاصيل موضوع العرس ، لأنها كانت تهاب الزوج وتخشاه .

سيتم كل شئ بعد أيام باذن الله على رغم تجدد الخلاف بينى وبين أخى قاسم من جرّاء اقتسام تركة أمنا المتوفاة . إنه يصر على أن يأخذ منها ما وقع عليه اختياره ، وينتهز فرصة العرس ليحملنى على التساهل .. كلا .. ومن بيده الملك ، ولو آل الأمر الى دك أعلام الزينة واطفاء أنوار الأفراح . .

قلت الأم بصوت خافت لا يخلو من رعشة الوجل : — ولكننا لا نجـــد عريساً لابنتنا خيرا من مراد. فلا تحجم عن التضحية من أجله .

فأجاب الأب وهو يرتجف من شدة الغضب : انك شديدة الغباوة يا « مُنى » . . انى قادر على مصاهرة من يدفع لى من المهر أضعاف أضعاف مادفع أخى لابنتى — لقد كانت على عينى غشاوة عندما قبلت هذا المهر من اللئيم أخى . .

أخذت الأم تحس بالجبن والخوف أمام غضبه ، فقالت باستسلام انك على حق دائماً يا سيدى . .

نهض الشيخ بخفة الشباب وأسرع للاشراف على معدات العرس ، اذ كان قد وطد العزم على اتمامه فى اليوم التالى منتظراً من ورائه اتمام صفقة رابحة ، وهذا نفس ما كان يرجو أخوه . .

***

نصب السرادق وسطعت الأنوار ، وصدحت الموسيقى ، وأطلقت البنادق وزغردت النساء ، وظهر قصر آل عباد فى حلة قشيبة من الزينة والبهاء فى ليلة الزفاف . وأسرع وجهاء القوم بالحضور الى الفيوم من الدلتا والصعيد ، ليروا أبرع نموذج فى البذخ والاسراف ، اذ كان لآل عباد من الشهرة ومن الثروة ما كان لخمارويه وكافور الأخشيد . . واكتظت حجرة العروس بكرائم العقائل وكرائم الجواهر، وتعالت أصوات المغنيات البدينات بالغناء ، وأخذن فى الرقص والانثناء أمام العروس كالحيات . .

ولكن العروس كانت عن كل ذلك فى شغل، فقد غلب عليها الخوف فتركت العنان لعبراتها ، ولم يستغرب منها أحد هذا الأمر، لأن بكاء العروس ليلة الزفاف كان من الأشياء المألوفة المرغوبة ، اذ كان يعد رمز الحياء ودليل الوفاء والطهر . . . ومن جفت دموعها فى تلك الليلة فقد حكم عليها بالجرأة وغلظة القلب . .

ولم تلبث الحياة أن استعادت مجراها الطبيعى الهادئ وانقشعت سحب الرهبة والخوف التى طالما تجمعت فى سماء حياة الفتاة قبل الزواج ، اذ وجدت فى قربها من العطف والود ما أنساها شكوكها وملأها سعادة وحباً واخلاصاً له . وفى ظل زوجها ورعايته نسيت أقوال أمها عن الحماة الشريرة ، بل إنها وجدت فى حماتها قديسة طاهرة لا تحمل فى نفسها إلا التسامح والعطف . .

وهكذا نعمت الفتاة بعيشها ، وساعدتها وداعتها ورقتها وطيب عنصرها على ادخال السرور على من حولها . .

***

ومضت أشهر قلائل والفتاة لا تفكر فى مرور الوقت ولا تكترث لمعرفة الأيام ، اذ لم تكن ترقب حدوث تغيير أو وقوع جديد ، لأنها كانت راضية عن حياتها كل الرضا ، لا تعرف ولا تطمع فى خير منها . . ولكن هل يغر بطيب العيش انسان ؟

خرج مراد كعادته مبكرا مشرق الجبين للاشراف على شئون مزارعه ، وجلست الفتاة فى ردهة فسيحة أنيقة تخيط بعض الثياب لأطفال الفقراء . اذ كان لا يسعدها أكثر من رؤية ابتهاج الأطفال عند ارتدائهم الثوب الجديد ، واذا بها تسمع جلبة أصوات فى فناء الدار ، فأرهفت السمع ، وسرعان ما تبينت صوت أبيها يتهدج بالغضب وعمها يجيبه بحدة ، ثم انقلبت المحاورة الى شجار عنيف وتقاذف بالتهم والعبارات الجارحة ، فاضطرب فؤادها ونزلت مسرعة تبحث عن من يأتى بزوجها ، اذ توقعت حدوث أمر رهيب ، وشعرت بحاجتها لحمايته . ولكنها لم تكد تخطو خطوات حتى سمعت أباها يناديها بصوته الهائل الأجش فوقفت مذعورة لا تبدى حراكا . .

وسرعان ما وقعت على مسامعها كلمات كانت كالحكم عليها بالموت «هيا معى يا سمر . . ليس لك بقاء بعد اليوم فى هذا البيت . . الترمل خير لك من العيش فى هذا الجو الموبوء بالخداع واللؤم . . عمك يأبى الا الاستيلاء على أطيب جزء من ميراث جدتك . . لقد أنذرته بفسخ زواجك من قبل إن هو أصر . . »

— ولكن يا أبت . . ألا ننتظر عودة مراد ؟ . أليس له فى الأمر شئ . . ؟

— له فى الأمر شئ ؟ ! ما هذه الجرأة يا بنية ؟ أتجرئين على مجادلة أبيك ابتغاء مرضاة زوجك ؟ — لا تزيدى حرفا . انطلقى أمامى الى دار أبيك .

أصابت الفتاة رعشة واعتراها دوار ، فسارت أمامه متثاقلة وضاق أبوها ذرعاً بهذا البطء ، فجذبها مسرعاً الى حيث كانت بانتظاره المركبة . .

انطلقت الخيل تنهب الأرض نهباً ، ولزمت الفتاة الصمت ، بينما كان أبوها يصب جام غضبه على الحوذى ويتهمه بالبلادة والبطء ، ويتوعده باستعمال السوط !

تزاحمت الأفكار السوداء فى رأس الفتاة الصامتة فداخلها الندم ، لأنها تذوقت طعم السعادة ، وودت لو أنها كانت تعسة فى حياتها الزوجية ، حتى كانت تفرح بالفرار منها والعودة الى دار أبيها . . وأحزنها أنها لم تجد فى حماتها شيطاناً مريدا ، وأن زوجها لم يكن جباراً عتياً . .

وأخيراً عند ما لاحت أبراج القصر خاطب الوالد فتاته بعطف اذ كانت قد بردت ثورة الغضب :

ألا تبتهجين برأى أمك يا سمر ؟

ولما لم تنجح الفتاة فى تكلف الانشراح خاطبها قائلا :

لا أشك فى أن عمك قاسما وزوجك مراداً سيحضران الينا خاضعين ذليلين عند ما يشعران بفقدك ، ولا إخالهما الا قادمين قبل انطواء أسبوع واحد . .

ولكن مرت أسابيع وأشهر ، واكتملت دورة الأرض حول الشمس ومراد وأبوه لم يقدما ، على أن الفتى كان يرغم ارغاماً على الخضوع لأبيه ، اذ كان كالفتاة عبداً للتقاليد الجائرة .

وكانت الفتاة تتظاهر بالشجاعة والابتهاج عندما شعرت بحزن أمها من أجلها . ولكن مجهود التكلف المضنى والآلام المبرحة التى كانت تأكل قلبها سرعان ما أنهكت قواها وأفسحت الطريق للمرض العضال الذى لا يعرف الرفق بالشباب ولا الجمال ، ولما اشتد بها الألم أشفق عليها ملاك الموت فأسرع لنجدتها وبسط على تلك النفس الطيعة الوفية جناح الرحمة الأبدية . .

أسماء فهمى

العلم يبحث عن الله

ترجمنا هذا المقال لكاتب انجليزي بالعنوان المتقدم، وعنينا كل عناية بالمحافظة على معانيه وبافراغها فى قالب عربى أقرب ما يستطاع من القوالب الأصلية، ولزمنا هذه القوالب أحياناً اذ لم نجدها مختلفة عن العربية، لأننا كثيراً ما نرى الترجمة تخالف الأصل فى المعانى وفى الألفاظ. وليس لذلك من سبب سوى مبالغة المترجم فى تقريبها من العربية فتكون النتيجة شرودها عنها جميعاً

***

جلست ذات ليلة شديدة البرد بجانب الأب رولند العالم اليسوعى عند قاعدة التلسكوب الكبير فى مرصد ستونيهرست فى آ كام لنكشير

ولم يكن هناك نور سوى وهج سيجارتينا وبعض النجوم المتلألئة التى كنا نرعاها من الشق المعقوف فى قبة المرصد

ولم يسمع حسّ سوى دوىّ الجهاز المعدّ لادارة التلسكوب وجعل حركته مطابقة لدوران الأرض.

وكنت قد رأيت جبال القمر ومجموعة الكواكب الذرية المعروفة باسم الثريا. فجعلت الآن أمتع بصرى بذلك السدام الغريب فى برج الجوزاء، وأنا بين عاملين من الخوف والدهش مما لا تجلبه المناظر الأرضية

فالتفت الى صاحبى وقلت: «تعلم عن هذا الفلك المدار ما لا يعلم معظم الناس، لأنك قضيت ردحاً من عمرك فى رصد النجوم فاصبحت لذلك أكثر ادراكاً منهم لصغر شأن الانسان بالنسبة الى سائر الكون. فان الارض ليست سوى ذرة من الغبار وهى عائمة فى الفضاء الخضم غير المحدود، والنوع الانسانى كله صغير القدر بالنسبة الى قدر الأرض. فلست أفهم كيف تؤمن أنت من بين سائر الناس بالله واهتمامه بأناس مثلنا».

ولما فرغت من سؤالى هذا بقى القسيس العالم صامتاً هنيهة ثم قال:

« أفهم حقارة شـأن الارض لا حقارة النوع الانسانى ولا حقارة أرواح الناس »

فلم أحرْ جواباً حينئذ، ولا جواب عندى الآن. لأنى أدرك أكثر مما أدركت قبلاً أنه اذا كان العالم متديناً كان أحسن ديناً لأنه عالم. وهو يرى حيثما كان أن البرهان يدعم ايمانه لا لأنه يحتاج الى البرهان، ولكنه يسرّ اذ يجده هناك

طالعت منذ عهد قريب كتاباً اسمه «القصد الأعظم» وفيه فصول كتب كلا منها عالم معروف، أبان فى الفصل الذى كتبه أن يد الله وعقل الله وراء كل نظام ورقى فى الطبيعة. وقد جاء فى مقدمته «ان غرض الكتاب أن يبين أن العلم ليس بهادم للدين ولا بحال محله، بل إنه يكشف له الحجاب عن عالم للغيب أوسع من عالم الشهادة هذا وأجل شأناً فيضع بذلك أساساً أثبت للايمان»

ان الكون بالرغم من عظم اتساعه وتعقد تركيبه وتعدد محتوياته الى ما لا حد له هو جسم كلى عضوى متسق التركيب، ومصنوع من عناصر واحدة جوهرية، وخاضع لنواميس واحدة

ومن أدلة النظام والعقل فى الكون أن عقل الانسان استطاع أن يستخرج هذه القواعد العظيمة العامة ويتوسل بها الى بلوغ قوة الأنباء بالمستقبل. فهذا الكون كون مصحوب بالفكر وأكثر من الفكر — كون يمثل فكر روح واجب الوجود وغير محدود

كتب البروفسور كروذر من جامعة ردنج فصلاً عن الاشعاع فعرفه بأنه «المادة الأساسية التى صنع الكون منها» فالنور والحرارة وأمواج اللاسلكية وأشعة اكس — هذه كلها صور للاشعاع واقعة تحت حسنا. والمادة نفسها مصنوعة من اشعاع مقيد بقيود كهربائية. قال:

«فى زمان بعيد جدا اهتز ذلك الخلاء الفارغ فظهر فيه البروتون والالكترون فتكون من بعضها تلك النظم الثابتة المعروفة باسم الجواهر الفردة التى صنعت المادة منها. وانحل البعض الآخر على مر الزمان الى اشعاع صرف. وقد قطع العلم منـذ ابتدائه أجوازاً كثيرة وكشف بقاعاً كثيرة كانت مجهولة، ودار دورته حتى جابه العلم الحديث سر عمل الخلق فلا يجد لوصفه كلاماً أكثر مطابقة له من قول الشاعر العبرى «وقال الله ليكن نور فكان نور» (يريد بالشاعر العبرى موسى الكليم)

وخذ البروتوبلازم — أى المادة التى تكونت الحياة منها. فقد عرف تركيبها الكيميائى، ولكننا لم نستطع تركيب الحياة: فالاميبا أدنى أنواع الحيوان وأبسطها تركيباً مؤلفة من

٥ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ محمد العباسى المهدى

الحنفــى

هو ابن الشيخ محمد امين ، ابن الشيخ محمد المهدى الكبير الشافعى ، كان جده المذكور من الأقباط ، فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفنى ، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفنى وغيرهما حتى صار من كبار العلماء ، وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى ولكنها لم تتم له ، وتولاها الشنوانى ، وقد أطال الجبرتى فى ترجمته . ثم نشأ ولده الشيخ محمد امين عالماً حنفياً وتولى الفتوى بمصر زمناً ، وتوفى سنة ١٢٤٧ .

وولد المترجم باسكندرية سنة ١٢٤٣ فقرأ بها بعض القرآن ، ثم حضر الى القاهرة سنة ١٢٥٥ فأتم حفظه ، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ فقرأ على الشيخ ابراهيم السقاء الشافعى ، والشيخ خليل الرشيدى الحنفى ، والشيخ البلتانى وغيرهم ، ثم صدر أمر ابراهيم باشا بن محمد على بتوليته افتاء الديار المصرية فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وهو فى نحو الحادية والعشرين من سنيه ، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير ، ويقال إن السبب فى ذلك عارف بك الذى تولى القضاء بمصر ، وكانت له صلة بأبى المترجم . فلما ذهب ابراهيم باشا الى القسطنطينية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك ، وكان إذ ذاك شيخاً للاسلام وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدى ، وأن يولى منهم من يصلح لمنصب أبيه ، فكان همه السؤال عنهم بعد عودته لمصر . وطلب المترجم لحضرته فصادفوه فى درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد ، فركب اليه وهو بين الخوف والرجاء ، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم ، ثم أنبأه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر ، وعزل عنه الشيخ احمد التميمى الخليلى وخلع عليه خلعة هذا المنصب ، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلى والشيخ مصطفى العروسى وغيرها ، فأقروا على اقامة أمين للفتوى يقوم بشؤونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه ، واختاروا له الشيخ خليلاً الرشيدى الحنفى بدل الشيخ على البقلى أمين فتوى التميمى ، ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ووفد الناس على داره للتهنئة ، ومدحه الشعراء ، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز ياعزة الحمى أن تقاسى … بمهاة الصريم فيما تقاسى

ومنها قوله :

تب مفتى الهوى وتبت يداه … ضل شرعىّ نهجه والسياسى
فدعيه ياعز عز اصطبارى … ان فتواه فتنة للناس
ولئن قلت أى فتوى البرايا … حكمت بالنصوص دون التباس
وارتضاها الزمان قل لى وأرخ … قلت فتوى مهديه العباسى
١٢٦٤

وهى قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيراً فيها الى التميمى والى الرشيدى أمين الفتوى الجديد

قلت لما أن تم بدر التميمى … واعتراه نقص الخسوف الشديد
رجع الدر بالفتاوى الى ما … كان فيه من المكان المشيد
فلنعم الرشيد يا ابن أمين … ولنعم الأمين يا ابن الرشيدى

وروى الفاضل محمد افندى التميمى فى الترجمة التى جمعها لأبيه الشيخ احمد التميمى ان سبب عزله عن الافتاء أحقاد قديمة كانت

بروتوبلازم صرف ، وهى قطرة صغيرة من المادة الجلاتينية تعيش فى الماء . وقد حاول كثيرون أن يصنعوا الاميبا من المواد الكيمائية التى يتألف البروتوبلازم منها فعجزوا عن ذلك . فالمواد مضبوطة والنسبة بينها صحيحة والأحوال المحيطة بها ملائمة تمام الملاءمة ، ولكن الشرارة الحيوية لا وجود لها ، اذ الله وحده هو الذى يصنع الحياة

قال البروفسور آرثر طمسن : « لا مناص لنا من التسليم بالأولية التى وضعها ارسطو طاليس وهى أنه فى كل سلسلة من الأعمال المتصلة لايمكن أن يظهر فى آخرها شىء لم يكن نوعه موجوداً فى أولها . ولذلك فان عقلنا وقصة تحرره يقود اننا راجعين بنا شيئاً فشيئاً الى العقل الأعظم الذى بغيره لم يكن شىء مما كان »

وبعبارة أخرى أنه كيفما فحص العالم تركيب الكون ونواميس الطبيعة ونشوء الحياة حتى عقل الانسان لم ير مفرا من التسليم بأن وراء القصد الأعظم يد الله .

ي . ر . س

فى صدر ابراهيم باشا منه بسبب معارضته له فى أمور تخالف الشرع كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها ، فلا يجد بداً من الاذعان بسبب اقبال أبيه محمد على على الشيخ . فلما تخلى عن ولاية مصر وتولاها ابراهيم كان أكبر همه عزله عن الافتاء . انتهى .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم خصوصاً الفقه حتى نال منه حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لاقراء الدر المختار فقرأ منــه الى كتاب الطلاق وأكمل قراءته فى داره ، وقرأ الأشباه والنظائر فى داره أيضاً ، وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق ، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم ممالأة الحكام ، وحسبك وقوفه فى وجه عباس باشا الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم ، وسبب ذلك ان هذا الوالى أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على مدعياً انه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده اليها ، ووضعه بيد أمينها المتولى شؤونها ، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده حتى طلبه فجأة الى بنها فسافر اليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العــــلاء الخلفاوى ، فسافر معه لمؤانسته ومواساته ، فلما وصلا قصر بنها روجع المترجم فى الفتوى فأصر على قوله الأول ، فأمر بهما فأنزلا الى سفينة بخارية سافرت بهما ليلاً فى النيل لنفى المترجم الى أبى قير ؛ واعتراه لشدة وجله زحير كاد يودى به وهو مع ذلك مصر على قوله ، والشيخ أبو العلاء يهوّن عليه الأمر ويؤانسه بالكلام الى أن صــدر الأمر بارجاع السفينة ، وأنزلا منها وأمرا بالسفر الى القاهرة وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو قدر المترجم فى النفوس واعظام الولاة فمن دونهم لشأنه ؛ وتسبب منها أيضاً إقباله على الشيخ أبى العــلاء المذكور وسعيه له فى المناصب التى تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك .

ثم لما كانت سنة ١٢٨٧ والمتولى على القطر الخديو اسماعيل باشا ، وكان انحرف عن الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، فأراد عزله ولــكنه خشى الفتنة ، لأنه شىء لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ، فأخذ فى جس نبض العلماء وسبر غورهم فى ذلك ، فهوّن عليه الشيخ حسن العــدوى الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ، وللخليفة أن يعزل من يشاء ، والوكيل له ما للأصيل ، فسرّ الخديو وبادر الى عزل الشيخ العروسى فى أواخر الســـنة المذكورة ، وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو فى منتصف شوال بتوليــة المترجم والجمع له بين منصب الافتاء ومنصب الأزهر ، فاستدعاه وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد . فباشر شؤون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل ، وكان أول ما صدر منه سعيه لدى الخديو باعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات التى أبطلت زمن عباس باشا ، فوافقه على ذلك وأعيــدت المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس ، فأجابه الى ذلك ووضع قانون الامتحان . وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون بل كان من تأهل للتدريس تصدّر له ، فيحضر أول درس له شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه فان وجدوه أهلاً أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً فى طريقه المحمود ، ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة ، ورأى فيــه العرابيون أنه ليس بالرجل الذى يوافقهم ويساعدهم فى مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عرابى باشا من الخديو لما زحف بالجيش على قصر عابدين عزل المترجم من الأزهر ، فعزل عنه فى المحرم سنة ١٢٩٩ ، وتولى عليه بدله الشــيخ محمد الانبابى ، وانفرد هو بالافتاء ، ثم تجسمت الفتنة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك أجبروا العلماء والوجهاء على التوقيع عليه ، فامتنع المترجم من موافقتهم على ذلك ، وقال لحامل القرار : أنا لا أوقع بيدى ، فاذا كان فى الأمر غصب فان خاتمى معى خذوه ووقعوا أنتم بأيديكم كما تشاءون . فانحرف عنه العرابيون وضايقوه وبثوا عليه العيون حتى احتجب فى داره التى على الخليج بالقرب من مدرسة الفخرى المشهورة بجامع البنات ، وتحامى الناس زيارته ، وصار لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد اليه ؛ ومرت عليه أيام وليال قضاها فى انتظار حتفه فى كل ساعة تمر به ، حتى كانت الهزيمة الــكبرى على العرابيين ، وتشتت شملهم ، وعود الخديو الى مقر ملــكه فى ١٢ ذى القعدة من تلك السنة ، فذهب المترجم فيمن ذهب للسلام عليه وتهنئته بالظفر ، ودخل مع العلماء فخصــه الخديو بترحيب

ورعاية زيادة عمن معه من العلماء تقديراً لحسن بلائه فى الاخلاص له مدة الفتنة ؛ ولحظ الشيخ الانبابى شيخ الأزهر إغماضاً عنه من الخديو ، وخشى أن يعزله ليعيد العباسى ، فقال بيدى لا بيد عمرو ، واستقال بعد أيام ؛ فأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ منه باعادة المترجم الى الأزهر ، علاوة على منصب الافتاء الذى بيده ، ونصه موجهاً لرئيس النظار :

(إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الانبابى من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسى المهدى ، قد اقتضت ارادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبـلاً ، علاوة على وظيفة افتاء السادة الحنفية المتحلى بها من السابق ، وصدر أمرنا للمومى اليه بذلك فى تاريخه ، ولزم اصدار هذا لدولتكم إشعاراً بما ذكر فى ١٢ اكتوبر سنة ٨٢ الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ٩٩) .

فتمت للمترجم رياسة الأزهر على رغم أنف كثيرين ، فان بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهـادى نجا الابيارى ، وكتبوا كتابة بذلك وأخذوا يوقعون عليها ، ويطوفون بها على العلماء ، فلم يشعروا إلا وقد فاجأهم الأمر باعادة المترجم ، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح .

ثم استمر المترجم جامعاً للمنصبين قائماً بشؤونهما أتم قيام ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى ، وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم فى أغلب الليالى ، فيتكلمون فى الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الانجليز بمصر ، وموافقة الحـكومة لهم فيما يحاولون ، وغير ذلك من هذه الشـؤون ، فحنق الخديو وأرسل لمحمد باشا السيوفى بالحضور فلم يجدوه ، بل وجدوا أخاه احمد باشا ، فحضر الى القصر وقابل الخديو ، فوبخه توبيخاً شديدا وقال له : يخيل إلىّ أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية ، فتبرأ من ذلك وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والائتناس ، ثم قابل الخديو المترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كعادته ، بل قال له وقت الانصراف : ياحضرة الأستاذ ، الأجدر بالانسان أن يشتغل بأمور نفسه ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجمعيات بداره . فلم يجبه المترجم إلا بقوله : أطال الله عمر أفندينا وأدام عليه العافية . إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر ، فأسأله أن يعفيني منه . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الـكلام ، بل كان يظنه يجيب بجواب يصرف المسألة بسلام ، فغضب وقال مستفهماً : ومن الافتاء أيضاً ؟ فقال له نعم يا أفنـدينا ومن الافتاء أيضاً ، ثم انصرف .

ولم يكن المترجم ممن يعزب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو الى الاستقالة ، وخصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه ، ولـكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهليـة ، واستدعى الأمر طلب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها فامتنعت عن الاسفار محتجة بعدم جوازه فى الشريعة ، واستفتى المترجم فى النازلة ، فأفتى بعدم الجواز وشـدد فى المسألة ؛ فشكا رئيس النظار للخديو وأوضح له أن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ؛ ويقال إنه طلب منه إما أن يقيـله من الوزارة ، أو يعزل المترجم . فلما قال الخديو للمترجم ما قال تيقن أن المراد عزله فاستقال . فأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السـنة المذكورة باعادة الشيخ محمد الانبابى للأزهر ، وإقامة الشيخ محمد البناء للافتاء .

وبقى المترجم بداره التى على الخليج واشتغل باصلاح قسم منها تشعث فأعاده الى رونقه الأول ، وصبغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطل على الخليج ، وصار يمضى وقته بالنظر فى شؤونه الخاصة والاشتغال بالعلم ، الى أن أعيد الى الافتاء فقط فى (١) فبقى به الى وفاته ، وأصيب فى آخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليـلاً وصار يخرج فى عجلته للتنزه بدون فرجية بل بعباءة بيضاء من الصوف ، وأشير عليه بالاقامة بحلوان لجفافها ، فانتقل اليها وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئاً ، فعاد لداره بالقاهرة ، ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليـلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو أربع سنوات ، فأذن له على المآذن ، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ، وتـكاثرت الجموع على داره لتشييع جنازته ، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفا ، والمصلين

---

(١) فات المرحوم أن يثبت التاريخ

عليه نحو خمسة آلاف ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى زاوية الأستاذ الحفنى جنب أبيه وجده ، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم فى رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلى نزيل القاهرة ، وسماها « المراثى الموصلية فى العلماء المصرية » ، لأنه أضاف اليها ما رُثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعى مفتى الاسكندرية ، والشيخ سليم القلعاوى شيخ مسجد القلعة ، والشيخ محمد المغربى المتوفون هذه السنة أيضا .

وكان المترجم رحمه الله ربعة الى الطول ، مليح الوجه ، منور الشيبة ، معتـدل القامة ، ذا هيبة ووقار ، مات عن ثروة طائلة وولدين هما الشيخ عبد الخالق المهدى والشيخ أمين ، ماتا بعـده الواحد تلو الآخر . ولم يؤلف من التآليف سوى مجموع فتاواه الذى سماه (الفتاوى المهدية فى الوقائع المصرية) ، طبع بمصر سنة ١٣٠١ فى ثمانية أجزاء كبار . وعاش فى عز وتبجيل مدة حياته ، وتولى الافتاء مدة ابراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا واسماعيل باشا وتوفيق باشا ، أى أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ الى سنة ١٣٠٤ لم يعزل فيها ، فلم تحفظ عليـه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب ذلك أنه تولاه وهو صغير والعيون شاخصـة اليه ، فكان لا يفتى فتوى إلا بعـد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير ، فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظير ، لا يجاريه مجار فى هذا المضمار ، وأضيف الى ذلك ما كان عليه من التقوى والتشـدد فى أمر الدين ، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لا تزيده إلا رفعة فى عيونهم لعلمهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق ، فأحبوه وأغدقوا عليه بالانعام . ومن مواقفه غير ما ذكرناه أن الخديو اسماعيل باشا أراد مرة أن يسـتولى على الأوقاف الأهلية ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم ، فاستفتاه فى ذلك فتوقف ، وأفتاه بعضهم بالجواز ، فتـكدر منه وجمع بينه وبين مخالفيه ، فناظرهم وفاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل فى الحادثة وأكثروا من الجلبة . ولم يقتصر الولاة على مشاورته فى الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشيرونه فى غيرها من معضلات الأمور لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأى ، حتى أن اسماعيل باشا لما عزل عن مصر قال لولده توفيق باشا فيما أوصاه به : احتفظ يابنى بالشيخ المهدى فانه رجل لا نظير له . وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه مايشينه سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الامساك والتقتير ، ويضعون عليه النوادر الخارجة عن حد المعقول ، والمعروف عنه المشاهد للقاصى والدانى أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لا تخلو مائدته يوماً عنهم . وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين رحمه الله رحمة واسعة وأكثر فى الأمة من أمثاله .

وكان حائزاً لـكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنحه الخـديو عباس باشا الثانى الوسام العثمانى الأول فى ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابى ، وقاضى القضاة جمال الدين افندى ، وسبب ذلك أن السيد توفيقاً البـكرى نقيب الأشراف سافر فى هذه السنة الى دار السلطنة ، وتوصل بمساعدة الشيخ أبى الهدى الصيادى الى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليه بهذا الوسام ورتبة قضاء عسكر الأناضول ، فلما بلغ مسامع الخديو أحب أن لا يكون ممتازاً عن كبار الشيوخ وهم القاضى والمفتى وشيخ الأزهر ، فأنعم عليهم بهـذا الوسام ، وأرسل الى السلطان ملتمساً الانعام على المفتى وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضى برتبة قضاء عسكر الروملى ، لأنه كان حائزاً لرتبة الأناضول ، لـكن طلبه لم يصادف قبولاً .

وأحيل على المترجم قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون فى ولايات القطر ومراكزه ، فـكان يختار ذوى الـكفايات ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة ، ويحامى عنهم لدى الحـكام ، ويشد أزرهم ، فحصل له بذلك مقام لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، وقصدوه ووجهوا وجوههم شطر داره ، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى فى تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيرا ، ثم رأت الحـكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً بلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالى باشا ، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له فى المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى ، ونروى عنه مواقف فى ذلك : منها أن الشيخ مصطفى العروسى مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو اسماعيل باشا أمراً بنفى الشيخ حسن العدوى الى إسنا وكاد ينفذ فيه لولا أنه استغاث بالمترجم فقام بناصره وذهب للخديو مستشفعاً . ولج وألح حتى عفى عن الشيخ .

الأديب الحـــائر

قصة تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم

للدكتور طه حسين

لم يكتبها بعد، ولست أدرى أيريد أن يكتبها أم لا؟ ولكن الشىء الذى لاشك فيه هو أنه قدمثلها ومثلها تمثيلاً رائعا، أحب أن تشعر بروعته فى هذا الحديث الذى أسوقه اليك، ولست آسف الا لشىء واحد، وهو انك ستشعر بهذه الروعة جملة وفى وقت قصير هو وقت نظرك فى هذا الحديث، على حين شعرت انا بهذه الروعة واستمتعت بلذتها الفنية تفصيلا وفى وقت طويل، يبلغ العام أو يكاد يبلغه.

ولم يمثل الاستاذ توفيق الحكيم قصته هذه التى لم تكتب بعد، فى ملعب من ملاعب القاهرة المعروفة، ولو قدفعل لشهدتها أنت وغيرك من الناس من النظارة. فأى الناس يستطيع أن يتخلف عن شهود قصة للأستاذ توفيق الحكيم يمثلها بنفسه، ويشترك معه فى هذا التمثيل جماعة من المصريين المعروفين، أنا أحدهم. لم يمثلها اذن فى ملعب ضيق محدود، وانما مثلها فى ملعب واسع جداً بعيد الاقطار والآماد هو ملعب الحياة. وما دام لم يمثلها فى ملعب معروف، وما دام لم يخرجها للناس فى كتاب، فانا بالطبع عاجز عن أن أحدثك برأى النقاد فيها. لأن النقاد أو لأن كثرة النقاد لم يشهدوها

وأنا أريد أن أحتاط فلا أحدثك برأى فى هذه القصة، من جميع وجوهها وأنحائها لأن الحر شديد، ولأن للحر الشديد تأثيراً فى نفس الأستاذ توفيق الحكيم وقلمه. والناس جميعا يعلمون انى محب للأستاذ معجب بقلمه، وأقل مايوجبه على الحب والاعجاب أن أكون رفيقا شفيقا، حين يشتد القيظ ويخشى من شره على الرؤوس والنفوس والأقلام. وهذا العنوان الذى وسمت به هذه القصة لا يعدو أن يكون اقتراحا قد يعدل عنه الأستاذ توفيق الحكيم ان خطر له أن يكتب قصته فما ينبغى لمثلك ولا لمثلى، بل ماينبغى لخير منك ولا خير منى، أن يقترح على الأستاذ أو ينصح له. فالأستاذ أكبر من أن يقترح عليه مقترح، وأن ينصح له ناصح، مهما يكن مخلصا امينا.

وما دامت هذه القصة لم تمثل فى ملعب محدود، ولم تخرج للناس فى كتاب، فان نظامها وترتيب فصولها وتنسيق مناظرها وما يكون بين أشخاصها من حركات متكلفة، وحوار مصطنع، كل ذلك مشكوك فيه، قابل للتغيير والتبديل، ان أراد الأستاذ توفيق الحكيم. وانما الشىء الوحيد الذى لاشك فيه هو هذا الهيكل الذى تقوم عليه القصة ان صح هذا التعبير، فهذا الهيكل يفرض نفسه على الأستاذ الأديب وعلى أنا الناقد المسكين فرضا، لأنه شىء لا تملك له تغييراً ولا تبديلاً، شىء قد كان وليس لانسان حيلة فى تغيير ما كان، حتى ولو كان هذا الانسان استاذنا وكاتبنا الأديب توفيق الحكيم.

أما الفصل الأول من هذه القصة كما كانت لا كما ستكون يوم يكتبها الأستاذ توفيق ان اراد، فيقع فى العام الماضى فى أوائل الربيع فى حجرة من حجرات البيت الذى كنت اسكنه فى هليو بوليس. اذ يقبل على صديقان يحبان الأدب لانهما أديبان، ويعجبان بالأستاذ توفيق الحكيم لانه اديب. وهما يتحدثان الى عن هذا الأستاذ الذى لم أكن أعرفه ولا سمعت من حديثه شيئاً. فيثنيان عليه بما هو أهله، أو بما هو أهل لا كثر منه، ثم يدفعان الى كتابا وضعه الأستاذ توفيق الحكيم، وكان يود أن يهديه الى بنفسه لولا أنه لا يعرفنى، ولا يريد أن يلقانى حتى أقرأ كتابه وأكون لنفسى رأياً فيه، ثم يقصان على الكثير من أطواره الغريبة حتى يثيرا فى نفسى الشوق الى لقائه، والى النظر فى كتابه، فاذا انصرفا أقبل صديق ثالث فلا أكاد أحدثه بما كان من أمر الصديقين حتى يثنى على الكاتب ويثنى على الكتاب، ويزعم لى أنه قرأ الكتاب مخطوطا قبل أن ينشر، لأن صاحبه لا ينشر شيئاً حتى يستشير فيه اصدقاءه، وينبئنى كذلك بأن هذا الكتاب لم ينشر الانشراً ضيقاً، لأن صاحبه يريد أن يعرف رأى المثقفين قبل أن يعرض نفسه على كثرة القراء.

فاذا كان الفصل الثانى فقد أخذت أقرأ فى الكتاب فأرضى عنه، ثم أعجب به، ثم أكتب عنه فصلا فى (الرسالة) أسجل فيه هذا الاعجاب، وذلك الرضى، وملاحظات يسيرة لا بأس منها على الكاتب ولا على الكتاب. وما يكاد يلقى الستار على هذا الفصل، ويستريح النظارة فى وقت الراحة بين الفصول، حتى أتلقى رسالة برقية ملؤها الشكر وعرفان الجميل ومصدرها الأستاذ توفيق الحكيم.

ثم يكون فصل ثالث والخير فى ألا نقسم القصة الى فصول ، بل الى مناظر يتبع بعضها بعضاً ، وليعذرنا الأستاذ توفيق الحكيم فنحن لا نحسن الكتابة فى التمثيل . يكون منظر ثالث أو رابع لا أدرى ، واذا الاستاذ توفيق الحكيم قد سعى الى من اقليمه الذى كان يعمل فيه ، وهو يشكر لى تشجيعى له ، ويغلو فى هذا الشكر ثم يلقى أموره الأدبيــة كلها الى ، ويطلب منى أن أكون له مرشداً وحامياً ، فأقبل منه هذا كله سعيداً به ، مبتهجاً له ، وأتحدث الى الأســتاذ حديث الصديق المحب المعجب ، ويتكرر هذا المنظر مرات كلما أقبل الأستاذ من اقليمه الذى كان يعمل فيه الى القاهرة ليقضى فيها بين أصدقائه يوماً أو يومين . والحديث والود يتصلان ويشــتد اتصالهما بيننا ، وتظهر آثار هذا الانصال فيما يكون من كتب تنشرها لنا(الرسالة)، ومن لقاءيشهدهالأصدقاء . ثم يكون منظر آخر من هذه المناظر الكثيرة التى سيؤلف الأســتاذ منها قصته إن أراد . نجتمع فيه مع أصدقاء لنا يعرفهم الأستاذ ، ونتشاور فى أمره هو لا فى أمرنا نحن ، فهو يريد أن ينتقل من الأقاليم الى القاهرة ، لأنهضيق بحياة الريف التى لا يجد فيها مايلائمهمن البيئة المثقفــة المتحضرة وما يحتاج اليه من الكتب . ولأنه يلقى فيها بعض العناء ، فحياة وكلاء النيابة فى الاقليم مضنية شاقة ، وفى وزارة المعارف عمل قد يلائمه وهو يميل الى هذا العمل ، ولكنى أنا لا أميل اليه ، وأنا أوافق على أن بيئة القاهرة وحياتها خير للأستاذ من بيئة الأقاليم وحياتها ، ولكنى أشفق عليه من وزارة المعارف لأنى أعلم الناس بوزارة المعارف ، ولانى واثق بأن الهواء الذى يملأ غرفاتها وحجراتها لا يلائم حياة الأديب المنتج ، وانما هو هواء خانق لكل أدب ولكل انتاج . والأستاذ وأصدقاؤه يلحون فى العرض وأنا ألح فى الرفض ، ثم اقترح مكاناً آخر يستطيع الأســتاذ أن يعيش فيه عيشــة تلائم الانتاج الأدبى ، فيظهر أن تحقيق هذا الاقتراح غير ميسور ، ثم يلقى الستار ويتم انتقال الأستاذ من الريف الى القاهرة فى هذه الراحة التى تكون بين الفصول، ثم يكون منظر آخر أو مناظر أخرى نجتمع فيها لنقرأ بعض الكتب التى يريد الأستاذ اخراجها للناس ، ومنها شهرزاد .

فالأستاذ شديد الشك فى نفسه ، ضئيل الثقة بفنه ، لا يظهر آثاره الا اذا أقرها أصــدقاؤه الأقربون . وهو لا ينشر فصلاً فى (الرسالة) الا اذا قرأته وأذنت بنشره . وهو لا يرى أنه قادر على أن يحتمل وحده تبعة الاذاعة والنشر . ثم نقر من هذه الكتب ما نقر ، ونرجى منها ما نرجى . ونتحدث عن أهل الكهف وعن طبعة ثانية تذاع بين الناس . فأقترح أنا أن أقدمها الى الجمهور، ويظهر الأستاذ وأصــدقاؤنا الرضى بذلك والابتهاج له . ثم يلقى الستار ويرفع وقد تمت الطبعة الثانية من أهل الكهف ، وأبطأت أنا بالمقدمة أسبوعين أو نحو أسبوعين . فينشر الكتاب بغير مقدمة ، وبغير أن يتحدث الى أحد فى ذلك، فيسوءنى ذلك بعض الشئ ، فيسعى الى الأستاذ فى منظر جديد ، ويعتذر الى بمحضر من بعض الأصدقاء ، فأسمع منه وأبسم له وأتجاوز عن استعجاله ، وينصرف راضياً . فاذا أصبحت تلقيت منــه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وأنا أترجمه فيما يأتى :

أنا محزون حقاً . نقد فكرت ، فاذا خطيئتى بديهية : فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أخرج كتبى .

فماذا ترى فى موقفى منك ؟ ويزيدنى حزنا لطفك حين تجاوزت فى سهولة وكرم عن كل هذا .

انما أنت فى حقيقــة الأمر فنان كبير ، فنان حقا . وانى لأعترف بأنى لم أمنح هذه النفس ، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك .

واليك الآن ماتمت عزيمتى عليه اذا احتفظت بغضبك على فسأعرض عن كل حياة أدبية .

وتقبل ت . الحكيم

وأخشى أن أكون قد أسأت الترجمــة فأنشر معها النص الفرنسى لهذا الكتاب الكريم :

Je suis vraiment peiné. Réflexion faite, ma faute est évidente. Je devais au moins vous consulter avant de faire-paraître mes livres.

Que pensez-vous de mon attitude? Ce qui m'accable encore, c'est votre gentillesse d'avoir si vite passé l'èponge sur tout cela avec tant de générosité.

Vous étes au fond un grand artiste, un vrai. J'avoue que je n'ai pas cet âme là. Je ne suis pas digne de l'art. ni de vous. Voici maintenant ma décision: si vous restiez fâché de moi, je renoncerais à toute carriére littéraire.

Avous
T. El Hakim

ثم يكون منظر آخر يرانى الله فيه حزيناً أسفا ومشفقاً جزعا لأنى صدقت هذا الكلام ، وخفت أن يكون صاحبه جاداً فيه ، فأنكرت من نفسى ما أظهرت من غضب ، وهأنذا أسرع الى التليفون فألتمس صاحبى فى مظانه كلها ، حتى يصلنى به التليفون . فأداعبه وألاعبه ، وأترضاه ، وأتلطف له ، وأقبل منه ، وأهدى اليه حتى يرضى . وتطمئن نفسه الثائرة أو التى كنت أحسبها

ثائرة . ويهدأ قلبــــه المضطرب أو الذى كنت أظنه مضطربا ، ويستريح ضميره المتعب أو الذى كنت أراه متعبا .

ثم تـكون مناظر أخرى تجرى الحياة فيها بيننا كما تجرى بين الأصـــدقاء الذين تؤلف بين قلوبهم المودة والحب والاعجاب ، الا منظراً واحداً أنـكرته . ولـكنى لم أظهر انكارى له ، كان فى مجلس لنا بغرفة من غرفات لجنة التأليف وكنا كثيرين ، وكنا نتحدث عن الـكتاب والشعراء المحدثين ، وعن أصحاب القصص خاصة ، وكنت أريد أن أعنى بآثار هؤلاء الـكتاب والشعراء وأن أتبين وأبين للناس ما لهم من المحاسن والعيوب ، أو ما أرى لهم من المحاسن والعيوب . وهنا يثور ثائر الصديق الأديب ويأبى لى العناية بهـذا الأدب الحديث لأنه لا يصلح أن يكون أدباً حديثاً أو قديماً ، ولأن الطابع الفنى الصحيح ينقصه ، فنختلف فى ذلك ونفترق على غير اتفاق ؟

ثم يكون منظر آخر وما أكثر هذه المناظر التى ستتألف منها هذه القصة ، والتى ستقيم لأصدقائى ولخصومى أدلة قاطعة على أنى من المكر والدهاء والحذر بحيث يظنون . أرانى فى حجرة من حجرات البيت الذى أسكنه الآن فى الزمالك ، وقد أقبل الصديق الأديب ومعه اثنان من أصدقائنا ، وكنا على موعد لنقرأ فصلا كان الصديق الأديب يريد أن ينشره فى الرسالة . ولـكن أصدقاء آخرين قد أقبلوا ، وليس يعنيهم أن يقرأوا آثارنا الأدبية أو يسمعوها قبل أن تذاع . فنتحـدث اليهم ، ونسمع منهم ، ويطول الحديث حتى اذا تمت الساعة التاسعة انصرف الأصدقاء ، وبقينا نحن فنقرأ الفصل على طوله ، ونحاور فيـه ، ثم لا نفترق حتى تنتصف الساعة الحادية عشرة ، وشهد الله لقد كان فى بيتى تلك الليلة مريض هو آثر عندى من ألف أدب وأدب ومن ألف أديب وأديب ، ومن الحياة والاحياء جميعا ، فما ترددت مع ذلك فى أن أسمع ، وأحاور ، وأقترح التغيير والتبديل ، كما لو كنت مستريحاً فارغ البال :

ثم تـكون مناظر أخرى أسمع فى بعضها اللوم لأنى أحب توفيق الحكيم ، وأقرأ فى بعضها الشتم لأنى أكبر توفيق الحـكيم ، وأنا أبسم للوم اللائمين ، وأضحك لشتم الشاتمين ، لأنى لم أحب هذا الـكاتب الا لأنه ألهمنى الحب . ولم اعجب بهذا الـكاتب الا لأنه ألهمنى الأعجاب :

ثم أكتب الى المنصور فصلا عن الأدب التمثيلى فى مصر فلا يكاد ينشر حتى يتحدث الى من يتحدث بأن الـكاتب الأديب مغضب من هذا الفصل لأنى لم أنصفه فيه ، ولأنى زعمت أن قصصه التمثيلية على جمالها وروعتها قد لا تلائم الملعب المصرى . فلا احفل بحديث المتحدثين ، ولا بقال الناقلين . وأقرأ فى المصور بعد ذلك ردا من توفيق فيه عوج كثير فأقوم هذا العوج مداعبا لصاحبه . ملاطفا له . ثم يبلغنى أنه قد سعى الى فى بيتى مساء الأثنين الماضى فلما لم يجدنى فيه ترك لى تحيته ومودته وانصرف . ثم اكتب عن شهر زاد . فلا يكاد يظهر حديثى عن شهر زاد حتى أتاتى من صديق توفيق هذا الـكتاب صباح الخميس . لايحمله الى البريد ، وانما يحمله ساع خاص ، ولا يكتبه توفيق بخطه وانما يضربه على الآلة الكاتبة ضرباً ، ويتفضل الصديق فيمضيه بخطه . ولست أعرف آية فى الأدب والمودة و الوفاء وصدق الرأى فى الأدب والنقد ، والصلة بين الـكتاب والناقدين تشبه هذا الـكتاب . ولا غرابة فى هذا ، فتوفيق قد عاهدنا على الا يكتب الا كان مبدعاً مبتكراً . وأنا أنشر نص هذا الـكتاب لأنه سيكون باقياً على الدهر ، ولأنه سيقع من الـكتاب والناقدين فى هذا العصر موقع تلك الوصية التى زعموا ان عبد الحميد قد اذاعها فى الـكتاب القدماء آخر أيام بنى أمية .

قال الصديق توفيق الحـكيم :

عزيزى الدكتور طه حسين

يظهر انى سىء الحظ معـك أو انك سىء الحظ معى هذا الأسبوع ، فلقد قرأت مقالك عن شهر زاد وما أحسبنا تلاقينا فيه عند رأى ، فأما قولك انى ادخلت فى الأدب العربى فنا جديداً وانيت بحدث لم يسبقنى اليه احد . فهذا إسراف سبق لى أن اشرت اليه فى خطاب منى اليك عن أدب الجـاحظ ذكرت فيه يومئذ أن للجاحظ ملكة فى إنشاء الحوار تذكرنا ببعض كتاب المسرح من الغربيين . فما انا إذن بمبتدع وانما أنا أحد السائرين فى طريق شقه الشرق من قبل . واما نصيب قصصى من البقاء فلست اعتقد أن لنا قد معاصر حق الجزم به ، وما بلغت من البساطة حد تصديق ناقد يتكلم فى هذا . فان الزمن وحده هو الـكفيل بالحـكم للأعمال بالبقاء . فانا كما ترى لا أسمح لنفسى بقبول مثل هذا الثناء . كذلك لست اسمح لأحد أن يخاطبنى بلسان التشجيع ، فما انا فى حاجة الى ذلك ، فانى منذ أمد بعيد أعرف ما أصنع . ولقد أنفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن أنشر واذيع . كما انى لست فى حاجة الى أن يملى على ناقد قراءة بعينها ، فانى منذ زمن طويل اعرف ما اقرأ . وما إخالك تجهل انى قرأت فى الفلسفة القديمة والحديثة وحدها ما لا يقل عما قرأت أنت : وما احسبك كذلك تجهل انى اعرف الناس بما عندى من نقص ، واعلم الناس بما احتاج اليه من

أدوات ، فأرجو منك أن تصحح موقفي أمام الناس وألا تضطرني إلى أن أتولى ذلك بنفسي . توفيق الحكيم

***

وانا أسرع قبل كل شيء الى تصحيح موقف توفيق لا أمام الناس ، بل امام نفسه وأمام رؤسائه في وزارة المعارف . فقد كنت أشفق عليه من هؤلاء الرؤساء كما كنت اشفق عليه من نفسه إذا اتصل بهؤلاء الرؤساء . فالذين يعملون في وزارة المعارف لا ينبغي ان تظهر الصلة بينهم وبيني ، لأن هذه الصلة خطرة حقاً . وما رأيك في قوم يعملون في هذه الوزارة ثم يتصلون برجل لا يزال من يوم الى يوم ينال هذه الوزارة ورؤساءها بالنقد الشديد . وأؤكد لصديق توفيق اني لم انشر كتابه هذا الا تصحيحاً لموقفه أمام رؤسائه وامام نفسه ، فسيعلم رؤساؤه منذ اليوم انه قد اساء الى عمداً وفي غير ما يبيح الاساءة ، وانه قد قطع ما بينه وبيني من صلة ، وانه قد سجل هذه القطيعة في كتاب ، وأني قد سجلت هذه القطيعة في صحيفة سيارة . ليشيع امرها بين الناس . وأظن ان رؤساءه منذ اليوم سيرفقون به ، ويعطفون عليه ، ويحسنون الرأي فيه . واظن انه سيحس منهم ذلك فيطمئن على منصبه ويستريح الى رضي رؤسائه عنه . ويبتسم له الأمل في المستقبل القريب والبعيد .

والآن وقد صححت موقف توفيق امام نفسه وامام رؤسائه اريد ان اصحح موقفه أمام الناس وأمام الأخلاق وامام الادب ايضا . فموقفه امام هؤلاء جميعا في حاجة الى تصحيح لم يخطر لصديقنا ببال فيما يظهر لأنه كان مشغولاً بنفسه ورؤسائه ، ولعله كان مشغولاً بذلك القيظ الشديد ، الذي أخرج كثيرا من الناس عن أطوارهم منذ أيام

فأما قول توفيق انى قد أسرفت حين زعمت أنه أحدث في الأدب العربي حدثاً لم يسبقه اليه احد . فانى أحمده له وان كنت أعرف أن هذا الكلام كان يرضيه ، وأنه كان يحب أن يسمعه وأن يقرأه قبل هذا الأسبوع الذي هاجمت فيه وزارة المعارف مهاجمة عنيفة ، ومن الحق أنه تحدث إلى بأن للجاحظ ملكة حوار ولكن من الحق أيضاً أنى نبهته إلى أن الحوار شيء والتمثيل شيء آخر ، وإلى أن الكاتب يستطيع أن يكون محاوراً مجيداً دون أن يبلغ من التمثيل شيئاً . فاذا كان الجاحظ قد أتقن الحوار وبرع فيه فلا ينبغي أن يفهم من هذا بحال ان الجاحظ قد عرف التمثيل أو ألم به أو كان يمكن أن يخطر له التمثيل على بال . وانه لمن المؤلم حقاً أن أحتاج الى أن أسوق مثل هذا الكلام الى كاتب أديب كتوفيق قرأ من آثار القدماء والمحدثين مثل ما قرأت على الأقل

وأما أن توفيقا ينكر على أن أحكم لقصته ببقاء ، فهذا إسراف منه كثير ، فنحن الناقدين أحرار في نعرف من ذلك وما ننكر . وفيما نثبت من ذلك وما نمحو ، وما دام الزمن هو الحكم الأخير في هذا كله فما يضير صاحبنا ان نحكم له أو أن نحكم عليه . وأغرب من هذا كله أن يرفض توفيق ما أهديت اليه من ثناء ، فليعلم انى لم أهد الثناء إلى شخصه ليرفضه أو يقبله . وأن شخصه لايعنيني إلا قليلاً منذ الآن ، وانما أهديت الثناء إلى فنه ومازلت أهديه اليه ، ولن يستطيع هو أن يرده . وكنت أحب له أن يفرق بين شخصه الفاني وفنه الباقي .

وأما أنه لا يسمح لأحد أن يحدثه بلغة التشجيع فقد كنت أحب أن يكون أذكى في حياته العملية من أن يشارك رئيس الوزارة في لغته . «فلا أسمح» هذه كلمة يملكها رئيس الوزراء القائم وحده . ولكن الذي يجعل نفسه دولة لا يتردد في أن يستعير لغة الوزراء . وهو بعد حر في أن يسمح أو لا يسمح فسنشجعه على رغم منه ، لأن فنه يستحق التشجيع ، ولأن واجبنا الأدبي يفرض علينا تشجيع المجيدين فرضا . وأما أنه لا يسمح لأحد بأن يدله على ما يقرأ ، وأنه قرأ في الفلسفة القديمة والحديثة مثل ماقرأت على الأقل ، فانني أحب أن يعلم أن ما قرأته لا يرضيني لنفسي ولا لغيرى ، واني أبذل ما أملك من الجهد لأقرأ أكثر مما قرأت ومما قرأ غيرى . وأسأل الله أن يقيني وأن يقيه شر الغرور ، فهو مهلك للنفوس حقا . وأما أنه أعرف الناس بما ينقصه ، وأعلم الناس بما يحتاج اليه من الأدوات وأنه لا يحتاج مع ذلك الى نقد ناقد ، فهذا رأيه في نفسه منذ الآن وهو لا يشرفه ولا يرفع منزلته عند أحد . أما أنا فأرى لنفسي الحق في أن أدل كل كاتب يخرج للناس كتاباً على رأى فيما ينقصه وفيما يحتاج اليه . وهو حر في أن يقبل أو يرفض ، ولكني حر كذلك في أن أقول له ما أريد .

أما بعد ، فهل صححت موقف توفيق أمام الناس ، أم هل لا يزال مضطراً الى أن يصححه بنفسه ؟ أحب أن يعلم توفيق أني لن أرد عليه بعد الآن ، ولن أحفل به الا يوم يخرج لنا كتاباً نقرؤه ، ويومئذ سأعلن رأيي في هذا الكتاب سواء رضي توفيق أم سخط . وأنا أرجو أن يكون رأيي في كتبه المقبلة حسناً كرأيي في أهل الكهف وشهر زاد . وأرجو بعد هذا كله أن يتدبر الكتاب والشعراء هذه القصة التمثيلية فان فيها عبرا وعظات . وإن أمثالها مع الأسف في مصر ليس بالقليل .

طه حسين

من طرائف الشعر

عطيـــل

للأستاذ فخرى أبو السعود

قليل رقاد الليل نابى المضاجعِ   يبيت على مضٍّ من الشك لاذعِ
على حُرَقٍ : لاالظن قاتلُ حبّه   ولا حُبُّه للظن عنهُ بدافعِ
دَجَا عَيْشُهُ جرّاء مَنْ كان ذكرُها
ضـــياءٌ له فى داجيات المعامعِ
أطاع مقالاً لحسود أهاجه   ولم يك لو قال النصيحُ بطائعِ
يقول : إذَنْ قد نازعتْها صبابةٌ   وغَىٌّ فألقتْ قيدَها للنوازعِ
وأصبحَ عِرضى فى بنى الرُّوم مُثْلَةً
وهُزْأَةَ مِهْـذَارٍ وَمَلْهَاةَ صافِعِ
جَزَائِىَ هذا : إننى كنت غافلا   فأقحمتُ نفسى فى وخيم المراتع
حسبتُ قلوبَ الغِيد بالبأس تُستَبَى
وتُملك بالبيض الخفـــاف القواطع
جَزَائِىَ عَدْلاً : مالِمِثْلِى وللهوى؟   لقد قذفتْ بى فى المرامى مطامعى
ولم يك وجهى للحسان بفاتن   ولا لونُ جلدى فى الغرام بشافعى
ألا ليتنى لم ألقَ أشراكَ حُسْنِها   فقد كنتُ فى أشراكها شرَّ واقع
ألا ليتنى لم أدرِ أنباء بغيها   وكفّتْ جفونى دونه ومسامعى
لقد أنكرتْ خَلْقِى وضاقت بِكَبْرَتى
ومنـــظر شَيْبَاتٍ برأسى طَوَالع
وما سَرَّها أنى بلوْنِىَ مُعْلَمٌ   لَدَى الحرب بطّاشٌ بكل مُقارع
ولا غُدُوَاتى فى البحار زواخراً   ولا دَلَجَاتى فى الفَلا والبلاقع
ولا أوبتى بالغار فى كل موكب   ولا خطرتى بين السيوف السَّوَاطع
فلم يَثْنِها عهدٌ وجُنَّ جنونُها   بغَضِّ الصِّبا من قومها الصُّغْرِ يافع
سباها بطبع منه هَيِّنٍ ومنظرٍ   طَرِيرٍ وخلاَّبٍ من القول رائع
تهيم به دونى وإن يكُ خادمى   وتمنحه حقى وإن يك تابعى
ولم يَبْقَ لى فى قلبها اليومَ موضعٌ   وما كان فيه أمس إلا مَوَاضعى
نعم هى تلقانى بنظرة مُغْرَمٍ   وبسمةِ مفتونٍ وعَطْفَةِ خاشعِ
نعم وَهْىَ تسقينى خَدُوعَ رُضابِها   كما مجّت الأفعى الخؤونُ بلاقع
وتوهمنى الطُّهْرَ الذى يدَّعِينه   وليس سوى آلِ بصحراء لامع
وتوشك ـ لولا الرُّشْدُ ـ أن تستخفّنى
ويستلّ حقدى سحرُها من أضالعى
ويوشك ذاك الحُسْنُ أن يستهزنى   فأنسى لديها كيدَها وهو فاجعى
أتبسِمُ لى غِشًّا ومحضُ ودادها   لدى قاهرى فى حُبِّها ومنازعى ؟
لَعَمْرِىَ ماذا يدعُوَانى إذا خلت   اليه بمنأى عن رقيب وسامع ؟
أتدعيننى قِدْماً ؟ أتقضين الفتى   بشجوى ولأوائى وجمِّ مواجعى ؟
أيضحك من جهلى ؟ أيزعم أننى   بليدٌ غليظ الحسِّ غيرُ مُدافع ؟
حنانيكما ـ قد جُرْتُما وغلوتما ـ   ورفقاً بهذا المُسْتَغَرِّ المخادَع
سيأتيكما أمرى فيَدْرِى كلاكما   بأنَّ حمى الوحشىِّ ليس بضائع
سأنقع ممن خانت العهد غُلَّتى   وهيهات ما غيرُ الحِمام بناقع
سأمنحها كأس المنية مُوقناً   بأنى لتلك الكأس أوّلُ جارع
سأُسلمُها للموت أوّلَ نادم   لتلك الحُلَى تُقْضَى وتلك البدائع
سأقتل مَن لو أستطيع فديتُها   بِبَتِّ نِياطى أو بقطع الأخادع

فخرى أبو السعود

الأنسان الآلى

للأستاذ محمود غنيم

ماذا أشاهد ؟ لا طيناً ولا ماء   وليس هذا الفتى من نسل حواء
لايشبه الناس إحساساً وعاطفة   ويشبه الناس تركيباً وأعضاء
فتى عريق بحبل العلم متصل   إن عدد الصيد أجداداً وآباء
هى الحضارة أمٌّ أنجبته وما   زالت كمريم ذات الطهر عذراء
خلق جديد إذا شاهدت طلعته   تكاد تومئ بالتسليم إيماء
لايشتكى مثلما يشكو الورى سقما   ولا يهاب رسول الموت إن جاء
يرى ويسمع لكن لايحس وإن   هم قطعوه بحد السيف أجزاء
فياله ساعياً يمشى على قدم   لاتشتكى إن شكت أقدام وجناء
وياله خازناً لا تستبيه ولا   تغريه بالمال إن حاولت إغراء
وياله حارساً لم يشك من أرق   ليلا ولا حاولت عيناه إغفاء

فولتير العظيم حتى بموته

١٦٩٤ — ١٧٧٨ م

بقلم مهدى النجم الطرابلسى

ما أنا أول الذين يتحدثون اليك عن فولتير ولا آخرهم . بل أنا من هؤلاء الذين تلح على عواطفهم اشعاعات من ارواح العظماء فتبعثهم حينا راضين وآخر كارهين لينشروا ماضى هؤلاء العظماء ويتغنون بعبقريتهم ويسجلونهم فى سجل الأفذاذ الخالدين .

أطل فولتير على الحياة سنة اربع وتسعين وستمائة وألف فشب ورأى من حوله فساد الحكومة والبيئة فعظم عند نفسه ان يرى أفراد الشعب يتضورون جوعاً والملك والحكام يتزلون بهم أنواع العذاب عاتين جائرين . وكان كاتباً رائع الكتابة رائق الاسلوب قوى العارضة سيال القريحة سياسى المبدأ لاذع النقد . وكانت الصحف التى تنشر رسائله رائجة نافقة أكثر من غيرها . لأن الشعب كان يقبل على كل رسالة له او كتاب فيطالعه ، فتنشيه نغمة العبارات ولحن الاسلوب فيعيد مطالعته . فيؤثر فى نفسه . فيهيج هياجاً شديداً . لأنه ضد الحكومة . وقد كان الشعب الباريسى يضمر لفولتير حباً شديداً حتى أضحت كلمته فوق كل كلمة . واسمه فوق كل اسم . وحتى أضحى رسمه زينة تتحلى بها الأكاليل والمتاحف ، وحتى اضحى الشعب يمحص كل كلمة من كلماته تمحيصاً ويعربها ويردها الى أصلها مستمتعاً مغتبطاً بذلك .

وهكذا استأثر فولتير بقلوب ابناء وطنه وجعل من نفسه قائداً محبوباً يشير فيطاع . والشعب لم يقبل على فولتير ومؤلفات فولتير ولم يهتف له الا لنقده الملك والملكة والبلاط وما فيه ، النقد اللاذع الذى دعا الملك ان ينفيه من اجله .

كان الكونت لدلنفيليه قد تكهن ان فولتير صديقه سيموت فى الثلاثين من عمره ، لكن فولتير الجبار لم يكن ممن يتأثرون بتنبؤات الكهنة والمنجمين ، فاستمر لا يحيد عن سمته فى النقد والفلسفة ، ولما جاوز الثلاثين كان يداعب صديقه الكونت قائلاً : «لقد خدعتك ايها الصديق بثلاثين عاماً وخدعت نفسى بالباقى»

وأخيراً لم ير الملك بداً من إخراجه عن فرنسا . وهكذا قضى فولتير حياته شريداً طريداً يتنقل من بروسيا الى انكلترا الى غيرهما وقد قضى أكثر أيامه على ضفاف بحيرة جنيف فى (فرنى) وغيرها حيث سالت نفسه حنيناً إلى وطنه . فرق اسلوبه كثيـــراً وبرعت ديباجته .

ألف فولتير من الكتب والقصص (محمداً ، زاير ، ميروب ، عصر لويس الرابع عشر ، تاريخ شارلى الثانى عشر ، كانديد ، ميكروموكاس ، زاديك ، القاموس الفلسفى ، ملاحظات على نظريات پاسكال) وغير ذلك من المؤلفات التى جعل بعضها قصصاً تخيل وقائعها فى بلدان شرقية وعصور خالية ، فقصته (زاديك) جعل وقائعها فى بلاد فارس فى عصور ماقبل الميلاد ، فقارئها يرى من طرف خفى وظاهر ان فولتير ينتقد الملك والبلاط النقد الجارح الأليم .

لأضرب لك مثلاً فى كتابه زاديك : « زاديك شاب غنى فيلسوف هجر المجتمع الخاطىء واعتزل فى قصر له فى البرية ، فانه ليتجول يوماً فى الغابة اذ مر به خصيان البلاط والحرس الملكى يسألونه متلهفين أرأيت كلب الملكة وحصان الملك ؟ فيقول هى كلبة لا كلب ، ولكن لم أرها . فيكبلونه الى الحاكم فيحكم عليه

لن ترهب العقم بعد اليوم والدة أو يعدم الشيخ بعد الشيب أبناء

للشيخ ما يشتهيه الشيخ من عقب ولليتيم من الآباء ما شاء

لينفخوا الروح فيه مثلما خلقوا له يدين وشقوا العين حوراء

***

قم سائل العلم إذ سوى جوارحه هل رام هدماً به أم رام إنشاء ؟

يشكو البطالة غادينا ورائحنا فهل نضيف الى أدوائنا داء ؟

أما ترى الأرض قد ضاقت بمن حملت

فثارت الحرب حول القوت شعواء ؟

حسب البرية أن الطب يكلؤها وأن سهم الردى يخشى الأطباء

***

يا أيها الرجل الآلى هل لك فى ود أساقيكه ماء وصهباء

تشابه الناس عندى فى المذاق و إن تعـــدد الناس ألواناً وأسماء

لأنت أسلم يا ابن الصلب عاقبة من أنفس ملئت حقداً و بغضاء

أقسمت أنك بين الناس أنزههم يداً وأطهرهم قلباً وأحشاء

حييت فيك فتى ما قال فاحشة يوماً ولا عاب إنساناً ولا ساء

محمود غنيم

بالجلد والنفى الى سيبيريا فما يكاد يفعل حتى توجد السكينة والحصان فيعفو عنه . ولكنه يحكم عليه بغرامة قدرها اربعمائة أوقية من الذهب » وهكذا يريد فولتير أن ينقد البلاط وأن يقول إن الداخل فيه خاسر مافى ذلك شك ، مدعياً كان او مدعى عليه .

لقد كان منظر فولتير يدل على غير ما يختلج فى نفسه ، فقد كان الناظر اليه يحسبه سعيداً مغتبطاً ، على حين أن فولتير قضى حياته بين عبرة مهراقة ، وزفرة مصعّدة ، بدليل عبارات تقرأ فى رسائله . وكان فولتير هزيلاً ناحلاً ، وكثيراً ما كان يشكو الماً فى جسمه يقول إن الأطباء لم يهتدوا اليه بعد . فكان يئن فى نفسه ، فتبدو أ ثغره ابتسامة عذبة هادئة تجتذب اليه النفوس ، وقد نعته فيكتور هوجو بالرجل الكئيب الباكى . وفولتير وإن كان اكثر الشعب مناصراً له فقد كان له أعداء كثيرون يتسخطون عليه ويتبرمون بكتاباته النارية الحماسية التى كانت إحدى الشرارات الرئيسية التى أضرمت نار الثورة الكبرى من بعد . فكان هؤلاء السادة يجادلونه فلا يقف عن مجادلاتهم ، ويغالبونه فلا يفتر عن مغالبتهم ، وهو مع كل ذلك لم يهن . فهم ما كانوا ليزدادوا الا موجدة عليه ، وهو ما كان ليزداد الا استهزاء واستخفافاً بهم .

ولما مات لويس الخامس عشر وتربع على العرش لويس السادس عشر كان فولتير فى منفاه ، فاستأذن الملك الجديد العودة الى وطنه فاذن له ، ولكن بعد ان تهدده الملك وتوعده بالنفى والتشريد إن هو عاد سيرته الأولى . فعاد الى باريس برفقته كاتبه الخاص . وكانت قد سبقته اليها زوجه والمدام دنيس حفيدته التى كان يحبها كثيراً وصديقه المركيز دى فيلت ليعدوا المنزل ويهيئوا المستقر .

وفولتير اذا أتى باريس فقد أشرقت باريس وهب الناس كلهم هبة واحدة مهللين فرحين . فلما أن أقبل كانت المحطة مزدحمة بالناس حتى لامسير . وقد أخذ مخبرو الصحف يكتبون عنه الرسائل المسهبة الطويلة ويصفونه جزءاً جزءاً فقالوا إنه أقبل وكان على رأسه قلنسوة أرجوانية صوفية . وانه كان مرتدياً برداء من الفرو المخطط ، وأنه زار صديقه الحميم القديم (دار جنتال) فى شارع (اورسه) ، وأنه خرج بعد ذلك يقصد منزله . وأن الاولاد الصغار اذ رأوا منظره الغريب أخذوا يهتفون بحياته ويصفقون ، وأنه لما انتهى الى منزله اخذ الناس يفدون عليه أفواجاً فيستقبلهم بثياب المنزل معتذراً بمرضه .

وحقاً لقد امتلأ المنزل افناؤه وحجراته وأروقته بالناس من جميع الطبقات . فكان فولتير يبسم لهم ويستقبلهم بأحسن ما يستقبل مزور زائراً . وقد قيل إنه لم يبق احد فى باريس الا واقبل يهنئه بالعودة السالمة ويدعو له بطول العمر . وذلك مما دعا ان يسن دستوراً للزيارة . فأمر حفيدته ان تقيم فى القاعة الكبرى ففعلت تستقبل الزائرين عوضاً عنه وتعتذر لهم بمرضه الا العظماء منهم فقد كانت تقدمهم اليه فيجالسهم ساعة ثم يعود الى غرفته يتسلى بالقراءة والكتابة . وممن زاره منهم سفير انكلترا وفرانكلين الشهير وغيرهما ، لكن كان يستقبل الكل بثوب المنزل لا يخلعه الا للنساء فقد كان يجلهن . فلما زارته الكونتيس دى بارى لم يشأ ان يبدو اليها بهذا الثوب ، فلم يقابلها اولاً ، فرجت وألحت فى الرجاء ، ورجاه اصدقؤه والحوا فى ذلك أيضاً ان يفعل ، فقبل كارهاً متعثراً . فقال له من حوله انك تقول إن ثوب العقل خير من ثوب الجسد فماذا دهاك اليوم ؟

ولقد كان الناس يجتمعون حول منزله كل يوم فلا يزالون يهتفون به حتى يخرج الى النزهة فيركب عجلته فيزدحم الناس من حولها ويقبل بعض المتحمسين يدفعون الناس بمنا كبهم يريدون ان يحملوا العجلة فلا يمتنعون حتى يرجوهم فولتير الأمتناع شاكراً . لكن واأسفاه ! ان هذه الأستقبالات والمهرجانات أمرضته ، ولا سيما حين سمع ان صديقه (لكين) قد قضى . ولقد كان مرضه انحباس البول ، وتورم الرجلين ، وقد منع طبيبه عنه كل انسان . وحال بينه وبين اصدقائه ، فعكف فولتير فى سريره يؤلف القصص ويكتب الرسائل ، ويئن بين الحين والحين أنة لا يشك سامعها فى أنها أنة عظيم .

عناية طبيب فولتير بفولتير وعنايته بنفسه بدت نتيجتها ، فأبل ونقه ، وشرع يطبع روايته التى وضعها اثناء المرض ، وسماها – أرين – وقبل أن تعرض للتمثيل جهد فولتير جهداً عظيماً فى تدريب الممثلين وتعليمهم اتقان ادوارهم ، ولم تكن صحته قد عادت اليه كاملة فرماه الكد والتبذل فى سريره ، فاذا الحمى تدور فى جسمه ، وهذا صداع شديد يهز جمجمته . وهذا ورم شديد فى قدميه ، وانحباس موجع فى كليتيه . ثم هذا دم يخرج من رئتيه . ثم هاهو ذا يهذى ويصرخ الصرخات الداوية : وطبيبه لم يدر أصل الداء ومنبت العلة ، فلجأ

الى الحكمة والدراية . فاستأجر ممرضة صبية جميلة اعجبت فولتير وسر بها كثيراً . أما الصحف فكانت تملأ أعمدتها فى التحدث عنه . فاذا أكل فولتير دوى فى أفق باريس ان فولتير قد أكل ، واذا شرب فولتير دوى فى أفق باريس أن فولتير قد شرب . ولم يزل الداء يلح به ويضعف من جسمه ومن حواسه حتى كاد لا يقدر ان يقرأ كتاباً أو صحيفة ولا أن يستوى جالساً فى سريره . لكن ماذا ؟ ها هو ذا فولتير يصح وينشط فلا دم يبصق ولا قدم تتورم ، وها هو ذا الطبيب قد أذن له بأكل بيضة وقطعة من الخبز ، وحسو كأس من الماء ومثلها من الخمر كل يوم . وإذا عادت الى فولتير صحته فقد عادت الى الناس المسرات والأفراح . وأما الأطباء فوقفوا وقفة الحائر أمام هذا المرض العجيب وسرعة شفائه . وكان تمثيل الرواية قد تأجل ليشهده فولتير بنفسه ، فلما أن شفى حكم الأدباء والفلاسفة فيها فاعجبوا بها اعجاباً شديداً فمثلت ، ولكن فولتير لم يشهد التمثيل فقد سقط مرة أخرى وخيف أن تكون السقطة الأخيرة الهائلة . فعاده الأطباء ووصفوا له لبن أتان يتناوله فشفى بعض الشيء ، وخرج الى متنزه الشانزليزيه بعربته ، فالتف الناس من حوله هاتفين : ليعش فولتير : ليعش فولتير : وقد كان السعيد منهم من يحظى بشعرة من ردائه .

لكن مما يؤلم أن فولتير امسى بعد ذلك هائج البال فاسد الرأى فقد سأل أن يبدلوا الممرضة بأخرى غيرها قائلاً : انى استحيى أن اخلع ثيابى أمام تلك الفتاة ، فبدلت بأخرى . ولكن ها هو ذا المرض يطل عليه زائراً مرة أخرى ، ولكن ها هو ذا الشفاء يأتيه عائداً ثانية .

اما الرواية (ارين) فقد مثلت ست مرات ، وفى الأخيرة تجلت عظمة فولتير وكبر نفسه وانحين . وقد شهدها فولتير ، فلما انتهى التمثيل قام الشباب وجعلوا يتمسحون به ويلثمون يديه ويهتفون باسمه ، ووصل الى منزله تلك الليلة وما أحسب أن أحداً وصل فى الدنيا ليلاً الى منزله وصوله .

***

أفاق الناس صباح ٢٣ أيار من سنة ثمانى وسبعين وسبعمائة وألف ، فاذا هم يتحدثون ان فولتير قد تورمت قدماه وانحبس بوله واصبح يمنى أفلاذ كبده وانه لا يرجى له شفاء .

وحقا لقد وقع فولتير هذه المرة ويئس طبيبه من نجاته ، وعاده الماريشال ريشيليو ، ووصف له دواء يدفع عنه الأرق فتناوله فولتير دفعة واحدة فتعقد داؤه وعز دواؤه .

أضحى فولتير بعد هذه السقطة فارغ الصبر ضيق الصدر ، هلوع النفس متلكئ الجسم ، يسب من حوله ، ويضرب ممرضته ، ويجافى حفيدته ، وينظر إلى الناس بغير العين التى كان ينظر بها اليهم . وكان يصرخ بين الحين والحين صراخاً عظيماً احتار فى تعليله الأطباء ، ولم يعرفوا الى شفائه من سبيل . وممرضته كلت وملت وأسلمته الى يد القدر إلا قليلاً . واشار عليه صيدلى ان ينشق الأفيون ، ففعل دون أن يدرى طبيبه . والافيون أنامه إنامة طويلة استفاق بعدها فاذا معدته لا تهضم اللبن الرائب . ومر به جراح شهير يدعى (ترى) وفحص مثانته وكليتيه وتوصل بحيلته وحدة ذكائه ان يفتح للبول طريقاً بواسطة أنبوب طبى . وارتفعت درجة حرارته بعد ذلك كثيراً فرقدوه فى الجليد فما افادوا شيئاً !!

واحسرتاه ! لقد فقد فولتير عقله اوكاد : لقد اضحى يرجع الى احشائه من فيه ما يخرُج من أحشائه ، فكانت حفيدته تبكى كثيراً وتقبل عليه تقول : مسيو فولتير ! مسيو فولتير ! لقد كنت مثال النظافة فانظر الى اية حال مؤلمة قد صرت .

ومن الأطباء الذين اعتنوا بفولتير كثيراً ترونشين طبيبه الخاص وبلورى وتيارى . وقد بذل هؤلاء الأطباء الحكماء اقصى ما وهبوا من حيلة وذكاء لشفائه ، فخاب سعيهم وما ازدادوا الا جهلاً بالداء . ودخلوا عليه ذات ليلة فاذا هو حائل اللون ، أزرق الشفتين متصلب اليدين والقدمين ، فأخذوا يعالجونه ساعة حتى أفاق وقال : آه ! دعونى أسير الى ربى . ثم أخذ يصيح صياحاً شديداً تهتز له النفس ، وتسيل له الافئدة هولاً وجزعاً . فعلل أطباؤه صراخه بوجع شديد لا يعرفون مصدره ، وخافت الممرضة إذ رأته على هذه الحال ، وخاف الأطباء ايضاً ، ولبثوا حتى منتصف الليل يعالجونه وينضحون جسمه بالماء فما افادوه . وفى تلك الساعة المظلمة فاضت نفس عظيمة بعد أن سجلت آثارها فى سجل الخلود

قيل إن فولتير مات مسموماً وأن يداً لم تعرف بعد قد دست له السم ، وقال الاطباء نعم لقد مات مسموماً ، ولكن اليد التى دست له السم هى يد دائه .

حماه — مهدى النجم الطرابلسى

في الأدب الفرنسي

٨ ـ الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ولكى يخفف من حدة الانكار قال فى مكان آخر من كتابه « الحسد تقضى عليه الصداقة الحقة » (موعظة رقم ٣٧٦) . « مهما يكن الحب الصحيح نادراً ، فانه أقل ندرة من الصداقة الخالصة » (موعظة رقم ٤٧٣) . أى أنه يؤمن بندرة الصداقة النقية ولا ينكرها إنكاراً تاماً

وحكمه على الصدق والوفاء ليس بأقل غرابة من حكمه على الفضائل السابقة : « الصدق هو إخلاص القلب ولا يتصف به إلا عدد قليل من الناس . أما الصدق الذى برى عادة فهو مداهنة بارعة ترمى الى اكتساب ثقة الغير » (موعظة رقم ٦٢) « بغض الكذب هو فى الأغلب طموح دقيق غير محسوس الى جعل أقوالنا تكتسب منزلة رفيعة واحتراماً كالذى يلهمه الدين » (موعظة رقم ٦٣) « الوفاء الذى يبدو من كثرة الناس هو حيلة ابتكرها حب الذات لاجتذاب الثقة » (موعظة رقم ٢٤٧)

ولنذكر الآن ما قاله عن الحب : « لا يوجد إلا نوع واحد من الحب ، ولكن يوجد منه صور زائفة لا حصر لها » (موعظة رقم ٧٤) « الحب كالنار لا يستطيع أن يحتفظ بوجوده إلا بالحركة المستمرة . ويصيبه العفاء فى اللحظة التى يكف فيها عن أن يأمل أو يخشى » (موعظة رقم ٧٥) « مثل الحب الصحيح كمثل ظهور الأشباح ، جميع الناس يتكلمون عنها ، ولكن قليلاً منهم من رآها » (موعظة رقم ٧٦) « كثير من الناس لو لم يسمعوا أحاديث الحب ، لما أحبوا » (موعظة رقم ١٣٦) « الغياب يخفف من وطأة الأهواء الضعيفة ويورث نار الأهواء القوية ، كالريح تطفئ الشمعة وتوقد النار » (موعظة رقم ٢٧٦) « إذا اعتقد الانسان أنه يحب صاحبته فهو مخطئ » (موعظة رقم ٣٧٤)

ثم قال عن الغيرة : « الغيرة تستمد غذاءها من الشك . ويمحوها اليقين » (موعظة رقم ٣٢) « مبلغ ما فى الغيرة من حب الذات ، أكثر مما فيها من الحب » (موعظة رقم ٣٢٤) « الغيرة أكبر الشرور ، وأقلها استدراراً لشفقة الذين ينسجون أسبابها » (موعظة رقم ٥٠٣)

وهذا الرجل الذى كان يبجل النساء فى حضرتهن . ولا يقول كلمة تؤذى شعورهن . قسا عليهن فى مواعظه : « تمنع النساء نوع من الزينة يضفنه الى جمالهن » (موعظة رقم ٢٠٤) « عفة النساء هى فى الأغلب الحرص على سيرتهن وراحتهن » (موعظة رقم ٢٠٥) « الغرور وخشية العار وعلى الأخص المزاج ، تعمل فى الأغلب قيمة الرجال وعفة النساء » (موعظة رقم ٢٢٠) « الكثرة من النساء يبكين عشاقهن الذين يقضون نحبهم ، لا لأنهن أحببن هؤلاء العشاق ، ولكن ليظهرن أنهن جديرات بالحب » (موعظة رقم ٣٦٢) « قليل من النساء الشريفات من لم يسأمن عفتهن » (موعظة رقم ٣٦٧) « كثرة النساء الشريفات كنوز مخبأة ، ليست فى مأمن من العبث إلا لأن الرجال لا تبحث عنها » (موعظة رقم ٣٦٨) « الخليعات يفخرن بغيرة عشاقهن ليخفين الحسد الذى يضمرنه لغيرهن من النساء » (موعظة رقم ٤٠٦)

وحكمه على التواضع ليس بأقل قسوة من حكمه على العواطف والفضائل السابقة « لا يمدح الانسان غيره عادة إلا ليمدح » (موعظة رقم ١٩٦) « قليل من الناس من تبلغ الحكمة التى تجعلهم يفضلون النقد الذى ينفعهم على الثناء الذى يخدعهم » (موعظة رقم ١٩٧) « رفض الانسان المديح معناه الرغبة فى أن يمدح مرتين » (موعظة رقم ١٩٩)

ويستمر لاروشفوكو فى أحكامه على الأعمال والفضائل الانسانية حتى يصل الى هذا الحكم العام « تدخل الرذائل فى تركيب الفضائل ، كما تدخل السموم فى تركيب الدواء . التبصر يجمعها ويخفف من وطأتها ويستخدمها بنفع فى مغالبة شرور الحياة وآلامها » (موعظة رقم ١٨٢)

وهو يعتقد أن الانسان فى حياته عبد لأهوائه وليست الارادة

شيئاً مذكوراً « فى القلب جيل من الأهواء لا يفنى ، حتى أن زوال أحدها هو فى الواقع طغيان هوى آخر عليه » (موعظة رقم ١٠) . فالنضال الذى نعتقد أنه قائم فى دخيلتنا بين الهوى والعقل ، بين الرغبة والواجب ، هو سراب محض . « الحظ والشرف يحكمان العالم » (موعظة رقم ٤٣٥) « مهما يفخر الناس بأعمالهم العظيمة ، فانها فى كثير من الأحيان ليست نتيجة تدبير عظيم ، ولكنها نتيجة المصادفة » (موعظة رقم ٥٧) « جميع صفاتنا تقريباً تحت رحمة الظروف » (موعظة رقم ١٧٠) « يخيل إلىّ أن لأعمالنا نجوما سعيدة وأخرى شقية ندين اليها بكثير من الثناء أو اللوم الذى يوجه الينا » (موعظة رقم ٥٨)

واذا كانت المصلحة الذاتية تقود الفرد والجماعة ، فكيف نفسر هذا الشعور المعقد الذى يتبع ارتكاب أعمال مضادة للفضيلة ، وهو الندم؟ يفسر لاروشفوكو الندم الخارجى ، أى الاعتراف بالزلل بقوله : « إننا نعترف بخطايانا لنصلح الفكرة السيئة التى علقت بأذهان الغير عنا » (موعظة رقم ١٨٤) . ويفسر الندم الباطنى بقوله : « ندمنا ليس أسفاً للشر الذى فعلنا بقدر ما هو خوف شر يصيبنا من جراء ما فعلنا » (موعظة رقم ١٨٠)

وبما أن المنفعة هى غرض الانسان الوحيد ، إذن يكون الخير الوحيد هو الخير المحسوس فى اغفاله . وبما أن الموت هو نهاية كل شر ، إذن الموت أكبر شر : « الشمس والموت لا يستطيع الانسان أن يحدق فيهما » (موعظة رقم ٢٦)

وقد ظن بعض الناس أن لاروشفوكو يستعمل هذه الكلمات : فى الأغلب ، عادة ، تقريباً ، كثرة الناس ، لباقة ومجاملة حتى يعتقد كل قارئ أنه من المستثنين ، ولكنه يستعملها على الأرجح لأنه يؤمن بوجود الفضيلة الخالصة ، ولكنها نادرة . والدليل على ذلك أنه لا يذكرها فى بعض مواعظه . ولنضرب مثلاً : « الصدق إخلاص القلب . . . موعظة رقم ٦٢ » فهو لا ينكر وجود الصدق ، ولكنه يؤمن بندرته . وهو يتعدى بطريقته الى كشف اللثام عن الفضائل الكاذبة التى يدعيها أكثر الناس

ومواعظ لاروشفوكو على قسوتها تنفع الانسان لأنها تجعله يتأمل نفسه ويراقب فضائله ويطهرها من الرذائل التى تختلط بها . ولهذه المواعظ أثر كبير فى تفكير فلاسفة أوربا النابهين أمثال كانت ، وشوبنهور ، ونيتشه ، وبنتام ، وستيوارت مل ، وبيير بايل وهلفسيوس وغيرهم . وستتحدث عن هذا الأثر فى فرصة أخرى ان شاء الله

تم البحث

حسن صادق

العلوم

استحالة الأجسام

بقلم منير غندور
ليسانسيه في العلوم

لو سألت أحداً ممن لم ينالوا من العلم شيئاً من هو الكيميائي ؟ لأجابك إن الكيميائي رجل يستطيع أن يحول الرصاص ذهباً ، وهذا لا وجود له .

وهكذا علق في ذهن كل منا عندما قرأ القصص القديمة أن الكيميائي هو الذي يستطيع أن يحول معدناً خسيساً الى معدن ثان نفيس تحت تأثير قوة روحية سحرية .

الانتقال من عنصر الى عنصر كان حلم الكيميائيين القدماء . غلت المراجل أياما وليالي ، واستحضر الكيميائيون الأرواح واستنجدوا بالأسرار ، وأوهم أناس أناساً بأنهم توصلوا الى سر هذه المهنة ، وأتت القصص تستعمل هذه المواضيع ، وقضى بعضهم حياته ساعياً وراء هذا السراب الخلاب لينتظر قوة يجهلها تحول رصاصه ذهباً ، ومضى عصر ثم عصر وعصور ، دون أن يستحيل درهم من رصاص الى عشر درهم من فضة أو ذهب !

واليوم أين نحن من تحقيق هذه الفكرة ؟ أين نحن من تحقيق خيال كيميائيينا القدماء ؟

لسنا بعيدين قط عن تحقيقها ، وان كنا لا نزال نقف أمام رصاصنا وقفة ذلك الكيميائي القديم يستنزل القوة . نعم لقد أصبحت استحالة الأجسام شيأ خاضعاً للقوانين العلمية الثابتة . ولكن القوة التي كانت تنقص الكيميائي القديم ليحقق خياله لا تزال تنقصنا لنحقق يقيننا العلمي . ومن يدري ؟ فلعل ذلك الخيال كان في الحقيقة إلهاماً علمياً !

أثبت « ايفيزيك » أن المادة مركبة من وحدات متناهية الصغر تدعى كهارب ، تدور بسرعة هائلة حول نواة وسطية كما تدور السيارات حول الشمس ، وكل نظام من هذه النظم الصغيرة يشبه ما نسميه ذرة . هذه الكهارب هي نفسها في كل ذرة وفي ذرة أي عنصر . وانما الذي يختلف اذا انتقلنا من عنصر الى آخر ، من النحاس مثلاً الى الذهب ، أو من الأزوت الى «الهيدروجين» هو عددها والترتيب في مركبات النواة . (النواة بدورها مركبة من أجزاء صغيرة جداً تقسم الى كهارب والى بروتون . وهي تحمل ، أي النواة ، كهربائية ايجابية .) فالانتقال اذاً من عنصر الى عنصر شيء ممكن اذا استطعنا تبديل عدد هذه الكهارب أو تبديل الترتيب داخل النواة .

إن تركيب الذرة ودرس خصائصها هو في الحقيقة معقد أكثر من هذا بكثير على الأخص مع ما يكتشف في كل يوم في هذا الميدان . ودرس الذرات أصبح اليوم علماً مستقلا بنفسه يقوم بالتنقيب فيه رجال كثيرون . ولكني أقتصر على هذا الشرح البسيط حرصاً على اظهار الغرض الرئيسي من هذه الكلمة وهو امكان استحالة الأجسام .

هذه النظريات التي تقدم لنا الذرة على الوجه الذي شرحت لم تكن معروفة الى عهد قريب . اذ كان من الثابت أن الذرة هي أصغر شيء يمكن الحصول عليه من عنصر ما فهي وحدة لا تتجزأ . والذي سمح للعلم أن يأخذ طريقه الجديد في شرح الذرات هي النتائج العظيمة التي قدمها درس الأجسام « ذات الاشعاع الفعال » « corps radio-actifs » واكتشاف هذه الخاصة في هذه الأجسام يدين به العلم الى « Becquerel » فهو قد لاحظ قبل أن يكتشف مسيو كوري وامرأته « Mr et Mme Curie » الراديوم أن ملحاً من أملاح الايرانيوم « Uranium » يستطيع أن يعطي دون أي تأثير خارجي معروف أشعة مؤلفة من ثلاثة أقسام : أشعة ألفا « α » وهي مركبة من أجزاء مكهربة ايجابيا ، من

أشعة بانا « B » مركبة من كهارب ومن أشعة جم « g » وهي كأشعة X

هذه الأجسام ذات الأشعة الفعالة تتفكك عندما تذيع ألفا « α » (وهذه مؤلفة من أجزاء مكهربة ايجابيا والآن أزيد على أنها من الهاليوم) وأشعة بانا B (مؤلفة من كهارب سلبية كما رأينا) وتعطى ذرات جديدة مختلفة . وهكذا فالراديوم يتفكك عندما يذيع أشـعة ألفا وينتج ذرة جسم جديد كانوا يسمونه ذرور الراديوم « émanation du radium » ويدعى اليوم رادون « Radon » .

ولـكن هذا يتفكك بدوره فيصبح راديوم A ثم راديوم B ثم راديوم C . . . وهكذا الى أن يصبح رصاصا . وهنالك أجسام أخرى من ذوات الاشعاع الفعال كالايرانيوم والطوريوم (وقد عرف من هذه الأجسام أربعون تقريباً) تتحول الى أن تصير رصاصا .

ولـكن كيميائيّ هذه الاستحالة هو الطبيعة ، ولا يمكننا أن نؤثر على هذا الـكيميائى فى شئ . فنحن لا نستطيع أن نجعل سير هذه الاستحالة أكثر أو أقل سرعة ، ولا نستطيع تسببيه ولا ايقافه .

يظهر لنا من هذا المثل أن الأجسام ذوات الاشعاع الفعال ، وهى كلها ذوات وزن ذرى مرتفع ، هى فى حالة توازن وقتى فتنفجر ذراتها تحت تأثير مجهول وتتحول الى أجسام أضعف وزناً ذريا وتحصل عندها على توازن مطلق .

غير أن الطبيعة تقدم لنا أمثلة فى الاستحالة غير هذه تدلنا على أن تحول الأجسام يمكن أن يحصـل دون انهيار أو تدن فى الثقل الذرى . ولنا فى الاجرام السماوية آية عن هذه الاستحاله : فالسدم يتركب كما يظهر من فحص طيفها « speetre » على الأخص من هيدروجين ومن هاليوم . واذا تتبعنا تطورها نرى أنها تتحول تدريجيا لتؤلف كواكب فيها أكثر العناصر التى نعرفها فى الـكيمياء . فبالهيوم السدم وهيدروجانها قد تحولا الى عناصر جديدة أقل بساطة وأرفع ثقلاً ذريا . ودرس الـكواكب ونشوئها ومعرفة ما تتركب منه فى مختلف حالات تطورها هو الذى جعل لوكيار « Lockyer » يقول بتحول المادة قبل أن تـكتشف خصائص الأجسام ذوات الأشعة الفعالة .

ولـكن هذه الاستحالة كتلك كيميائيها هو الطبيعة ، والقوى التى يستخدمها لا قدرة لنا على ايجاد مثلها . فالحرارة التى تسود فى تلك الطبقات والضغط الهائل هى قوة مستعملة ليتألف من تلك العناصر البسيطة كل باقى العناصر .

الآن وقد ظهر لنا كيف كان من الممكن استحالة ذرة الى ذرة وكيف أن الطبيعة تعطينا أمثلة من هذه الاستحالة أريد أن أقول كلمة فى المحاولات التى أجريت لتحقيق فكرة استحالة العناصر عمليا .

ان مايصح أن نعتقد به الآن كتجربة عمية لا شك فيها هو ماقام به العالم الانكليزى ريتفورد « Ruthford » . لقـد سلط ريتفورد مقـذوفات جسم ذى اشعاع فعال ، أجزاء ألفا ، على بضعة عناصر : الأزوت ، البور ، الفوسفور ، الصوديوم ، الألمنيوم والفليور . فتفكـكت هذه العناصر تحت تأثير هذه القذائف التى تسير بسرعة ٢٠ ألف كيلو متر فى الثانية وأعطت هيدروجين . غير أن كمية الهيدروجين كانت متناهية القلة .

وما عدا هذه النتيجة فـكل ما قام به المجربون . وهم كثيرون ، لا نزال يشك فى صحته ، ولذا لا أرى لذكره فائدة

نشط العلماء فى جميع أنحاء العالم يواصلون جهودهم للتوصل الى نتيجة نهائية . وليس من العسير علينا أن نفهم اندفاع هؤلاء العلماء فى هذا المضمار ، فالوصول الى استحالة الأجسام بطريقة ما يغير فـكرتنا عن المادة وعن الحياة ، نستطيع أن ننتقل من عنصر الى عنصر . لقد ألغيت الحاجة ! الحاجة كما يصورها مجتمعنا الحالى لأنه سوف تخلق حاجات لا وجود لها الآن .

لا نحتاج لنحمل الى البشرية اختراعاً « لا يقل أهمية عن اكتشاف الرجل القديم للنار » الا قوة أشد مما عرفنا الى الآن ، قوة من أى نوع كانت . ولنا الحق فى الأمل بأننا سوف نصـل قريبا ، فالـكهرباء تعطينا فى كل يوم قوة لم نـكن نتخيل الوصول اليها . وقد توصل الدكتور « فان دى جراف » الى توليد مجرى كهربائى تحت ضغط عشرة ملايين « ڤولت » وسيزيد عدد « الڤولتات » ويزيد . . أو سنكتشف قوة جديدة لا نشك بوجودها فنمزق الذرة كيفما شـئنا ونتصرف فيهـا كيفما أردنا ونحقق حلم كيميائيينا القدماء .

منير عندور

٢ ـ اســــــحاق نيوتن

١٦٤٢ — ١٧٢٧

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

رجوعه الى كامبردج :

تركنا نيوتن فى مقالنا السابق يغادر مزرعته ذاهبا الى كامبردج للمرة الثانية ، بعد ان احتجزه الطاعون مدة سنتين بعيداً عن مكتبة الجامعة ومعاملها ، مما كان سبباً مباشراً فى عدم ظهور قانون الجذب العام فى هذه الفترة ، وظهوره متأخراً بين عاصفة من المناقشات والأحقاد

نال الأستاذية بعد سنة من رجوعه ، ثم اختارته الكلية زميلاً وقد كان لهذه الزمالة فوق ميزة الشرف ميزة أخرى مادية كان نيوتن فى أشد الحاجة اليها فى ذلك الوقت الذى لم يكن له فيه من مورد سوى ما كانت توفره له أمه من دخلها الصغير

اشتغل نيوتن باتمام صنع تلسكوبه العاكس الصغير وكان طوله ست بوصات ، وتمكن بواسطته من رؤية المشترى واربعة من اقماره (المشترى له تسعة اقمار) . ولكنه كان يعمل دائماً على تحسين هذا التلسكوب العاكس . وكان عدا اشتغاله باجراء التجارب الكيميائية يقوم بمساعدة استاذه «اسحاق بارو» فى اعداد محاضراته فى الرياضة ، وقد ساعده ايضاً فى تصحيح محاضراته الضوئية ، ولكنه لم يجرؤ على أن يخطىء أستاذه فيما كان يعتقد فى طبيعة الضوء الأبيض على أساس ما وصل اليه هو من تجربة المنشور الثلاثى

وفى سنة ١٦٦٩ غادر الأستاذ «بارو» كامبردج تاركا كرسيه فى الجامعة ومرشحاً خلفاً له فيه اسحاق نيوتن الشاب ، وقد عين فيه ، فكان يحاضر فى البصريات والجاذبية وعلم الجبر ، ولكنه ظل يعنى بأبحاثه العملية وإصلاح تلسكوبه الأول

الجمعية الملكية بلندن وعضويته فيها :

نشأت هذه الجمعية فى سنة ١٦٤٥ من نفر من ذوى الميول الفلسفية ، كانوا يجتمعون فى مواعيد معينة فى لندن فى كلية « جراشام » . وفى سنة ١٦٦٠ بلغ عدد اعضائها ٤١ عضواً واتفقوا على أن يدفع العضو عشرة شلنات رسما للدخول فى الجمعية وشلناً أسبوعياً قيمة الأشتراك فيها .

وقد ساعد الملك « تشارل الثانى » هذه الجماعة لميله الى العلوم وفى سنة ١٦٦١ اصبح عضواً فى هذه الجمعية الناشئة التى سميت الجمعية الملكية .

ولما اتم نيوتن صنع تلسكوبه الثانى فى سنة ١٦٧١ أثار به اهتماماً كبيراً ، ونصح له أن يقدمه الى الجمعية الملكية ، ففعل ، ولا تزال تحتفظ به الجمعية الى الآن . وقد انتخب عضواً فيها فى يناير سنة ١٦٧٢ فكان أول ما قدمه اليها رسالة عن طبيعة الضوء الأبيض ، فكانت اول حلقة فى سلسلة المتاعب التى لازمته طول حياته

لقد كانت نظرية نيوتن تقول بأن الضوء الأبيض ليس فى الواقع إلا عدة ألوان تؤثر كلها فى شبكية العين فتعطى تأثير اللون الأبيض ، ويمكن تفريق اللون الأبيض إلى هذه الألوان المتعددة بامراره فى منشور ثلاثى من الزجاج مثلاً . ولكنه أخطأ واعتبر ان مقدار الأنكسار لا يتغير لكل من مكونات الضوء الأبيض غير ملاحظ ما يسببه اختلاف نوع الزجاج المستعمل فى تغيير هذا المقدار

عارضه فى ذلك من معاصريه العالم « روبرت هوك » الذى ظل منافساً قوياً له فيما بعد ، والفيلسوف الهولندى « كرستيان هيجنز » صاحب النظرية الموجية فى الضوء ، والفلكى المشهور « فلامستيد » . كما عارض فكرته من غير معاصريه الشاعر الألمانى العظيم « جوت » رغم قصر باعه فى العلوم الطبيعية .

نظرية نيوتن فى ماهية الضوء :

وقد جر الجدال حول هذه النقطة نيوتن إلى أن يضع نظريته فى طبيعة الضوء ، وهى نظرية « الدقائق » التى قضت على النظرية الموجية بالأختفاء قرناً كاملاً .

قال نيوتن فى تفسير الضوء ، انه عبارة عن « دقائق » صغيرة تنطلق من الجسم المضىء وتسير بسرعة كبيرة فى خطوط مستقيمة ، وقد فسر على هذا الأساس ظاهرتى «الانعكاس» و «الانكسار» وذلك بأن رأى لدقائقه اطواراً تجعلها تنعكس مرة وتنكسر أخرى . وقد شرح على أساس هذه النظرية كل الظواهر الضوئية التى كانت معروفة فى عصره كالحيود والتداخل بشروح تتراوح بين البساطة والتعقيد . وقد دافع نيوتن عن نظريته هذه بكل ما أوتى من ذكاء ، فظلت مأخوذاً بها عند أغلب علماء الطبيعة

حتى أوائل القرن التاسع عشر ، حينما بدأت النتائج العملية تؤيد النظرية الموجية ، فاختفت نظرية نيوتن ولم يعد يؤبه لها مما جعل البعض من المتحيزين الى نيوتن يقولون إنه لم يكن يقصد إلى وضع نظرية كاملة لطبيعة الضوء ، إنما كان يقصد الرد على معترضى فكرته فى طبيعة اللون الأبيض فوضع ما يقرب من أن يكون نظرية . ولكن الابحاث الأخيرة فى « نظرية الكم » التى وضعها « بلانك » تكاد تؤيد « دقائق » نيوتن ، وهى إن فعلت فن نيوتن يكون قد سبق معاصريه بما يقرب من ثلاثمائة عام

وقد أراد نيوتن ان يثبت عملياً دوران الأرض حول نفسها فارسل الى الدكتور هوك ، وهو سكرتير الجمعية الملكية فى ذلك الوقت ، يقترح تجربة لاثبات ذلك ، بالقاء جسم من مكان عال . فاذا كانت الأرض ساكنة فان الجسم يسقط فى خط رأسى ، والا فانه يحيد عن ذلك الخط بقليل . وقد وافقه هوك ملاحظاً أن ذلك يتوقف على موضع اجراء التجربة على سطح الأرض

ظهور قانون الجذب العام :

ذكرنا فى المقال السابق ان نيوتن أعرض عن قنون الجذب العام حينما وجد أن العمليات الحسابية الخاصة بحركة القمر لاتتفق مع ما ذهب اليه من أن القمر يتحرك حول الأرض بقوة جاذبيتها له ، وكان ذلك الاختلاف راجعا كما قلنا إلى الخطأ فى تقدير نصف الكرة الأرضية ، وانه اشتغل بتجاربه فى الكيمياء والبصريات وبالقاء المحاضرات . ولكن لما وصل إلى الجمعية الملكية نبأ قيام العالم الفرنسى « بيكار » بقياس طول محيط الكرة الأرضية وذلك بقياس المسافة بين كل درجتى طول متتاليتين (٦٩ ميلاً) وضرب ذلك فى ٣٦٠ (عدد درجات الطول) أدرك نيوتن خطأه فى تقدير نصف قطر الكرة الأرضية ، فرجع إلى كامبردج وأكب على دراسة المسألة مرة أخرى ، وفى هذه المرة حققت الرياضة صحة ماذهب اليه فى «وولثورب» ، وهو أن قنون الجاذبية هو قانون كونى عام . فالأرض تجذب كل جسم على سطحها بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين ، وتتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينهما . وكذلك الأرض تجذب القمر بنفس هذه القوة . والشمس بدورها تجذب الأرض وبقية الكواكب السيارة ، فيتسبب عن ذلك دوران هذه الكواكب حول الشمس بدلاً من انطلاقها فى خطوط مستقيمة كما ينص على ذلك قانون القصور الذاتى

ولن ينقص من قيمة هذا القانون ما يقول به « اينشتين » من أن الجاذبية شىء نسبى ، وأن التفاحة التى لاحظ نيوتن أنها تنجذب إلى الأرض يمكن اعتبارها جذبت الأرض إليها ، وأن الشخص الجالس فى مصعد يهوى بتأثير ثقله لايشاهد سقوط التفاحة إلى أرض المصعد إن هو تركها من يده ، بل يلاحظ بقاءها معلقة فى مكانها . وأن ظواهر الجاذبية يمكن تعليلها كلها بفرض تكور الكون ؛ لا يمكن أن ينقص كل ذلك من قيمة قنون الجذب العام ما دام هذا القانون يفسر لنا جل الظواهر الكونية . ولا صحة مطلقاً للقول الشائع بأن « اينشتين » قد هدم نيوتن ، فكل ما فعله هو أنه نظر إلى قوانين نيوتن من ناحية غير الناحية القديمة

أثبت نيوتن هذا القانون فى سنة ١٦٨٢ ، ولكنه لم ينشر آراءه خوفاً من حملات النقد التى كان يتحاشاها قدر جهده ، وفضل أن تنشر بعد موته : وفى سنة ١٦٨٣ وصل دكتور «هوك» ودكتور « هالى » وسير « كرستوفورين » إلى جزء من قنون نيوتن ، وهو أن قوة جذب الأرض تتبع قنون التربيع العكسى وأخذوا يبحثون لايجاد مسير كوكب متحرك إذا كان منجذباً إلى نقطة معينة بقوة تتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينهما ، وكان الأمل الذى يجول فى قرارة أنفسهم هو اثبات ان حركات الكواكب حول الشمس ترجع إلى ما يشبه قانون الجاذبية على سطح الأرض ، ولكنهم لم يفلحوا . فوعد سير « كرستوفورين » باهداء كتاب قيمته جنيهان لمن يعين هذا المسير ، فقال دكتور « هوك » بان هذا المسير سيكون قطعاً ناقصا ، ولكنه لم يقدم البرهان على ذلك . فقصد « هالى » الى كامبردج وعرض الأمر على نيوتن فوجده قد اشتغل بهذه المشكلة وحلها ، وأخبره أن هذا المسير يكون قطعاً ناقصاً ووعده بالبرهان بعد قليل . وقد بر نيوتن بوعده فارسل بالبرهان الى «هالى» بعد ثلاثة أشهر . ولكن « هالى » اراد التأكد من بعض نقط فرحل مرة أخرى إلى كامبردج ، ثم طلب من نيوتن أن يقدم بحثه إلى الجمعية الملكية فوافق بعد إلحاح .

« التتمة فى العدد القادم »

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه

من القصص الشعرى

اسلام حمزة

بقلم فريد عين شوكه

مر أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ، فلم يرد عليه . ثم انصرف أبو جهل وعاد الرسول الى بيته وعاد حمزة بن عبد المطلب من صيده فمر بالصفا فحدثته مولاة لعبد الله ابن جدعان بما كان من أمر أبى جهل مع الرسول ؛ فغضب حمزة وراح يبحث عن أبى جهل حتى إذا بصر به فى ناد من قريش ضربه بقوسه فشج رأسه شجة منكرة ، ثم أعلن إسلامه فى هذا الجمع ، وعلمت قريش أن الرسول قد عز وامتنع باسلام عمه حمزة .

الرسول يجلس على الصفا مطرقاً الى الأرض ، تراه المولاة فتقول :

لك الله من ناصب مُتعَب   يجاهد فى بلد مشغَب
تحمل فيه صنوف العذا   ب فلم يستبد ولم يغضب
وأوذى من أهله الظالمين   وشرّد فى حيّه الأقرب
وقاسى بمكة ذل الغريب   وذاق من المهد يُتمَ الأب

(تسعى اليه تستضيفه عندها)

محمد : (ينظر اليها)

لا تسترح بيننا   على ذلك الحجر المجدب
ونحن جوارك تحت الظلا   ل بوادٍ وفير الجنى مخصب
يطالعنا بشهى الثما   ر ويجرى بموردهِ الأعذب

الرسول (اليها) :

دعينى هنا أسترح ساعة

هى (مستنكرة) :   على ذلك الجلمد الملهِب ؟

وكيف تطيق لهيب الرما   ل وترتاح فى وهج السبسب ؟
هلُمَّ الى حيّنا فاسترح   قليلاً بمربعنا الأرحب
يظلك فيه وريف الغِرا   س فتغفو على ظله الطيّب

الرسول (شاكراً) :

رعتكِ العناية ، لن أستطيع   ثواءً بواديكمُ المُعشبِ

هى (متضرعة) :   أطعنى

الرسول (زاهداً) :   دعينى

ترثى له الفتاة ثم تمضى عنه فى صمت ، ويطرق ثانية الى الأرض ؛ ثم يمر به أبو جهل فيرفع رأسه بشدة :

أنت هنا   فريداً عن الصحبة الهُرَّب

تجالد وحدك ذل الخرو   ج عن دين آبائك الأشهب

الرسول (فى هدوء) : معى الله

أبو جهل (ساخراً) :

خلاك من فرية   يضيق بها صبية الملعب
وأسطورة جئت تسعى بها   وتزعم أنك فينا نبى
وأنك قائدنا فى الحيا   ة وهاد لمن ضل فى الغيهب
ألا ما أضلك من قائد   وأخسفك اليوم من كوكب
فمن أنت حتى تقود الأنام   وتهدى بهمو وضح المذهب
ومن أنت حتى نصيخ اليك   ونمشى على نهجك الأنكب
وكيف وأنت مهيض الجنا   ح ومن ذلك النفر المترب
أليس لدى الله من يصطفيه   سواك من المرد والشيب
محمد أسرفت فيما دعوت   ولكن غرسك لم يعقب
وأشفق منا عليك الرجال   فجاءوك بالمال والمنصب
وأقبلتَ تسخر من عطفهم   وتزرى برأيهم الأصوب
فلم نسعَ بعدُ بعُتب إليك   فما أنت والله بالمعتب
ولكن سنصليك سوط العذا   ب ونفريك بالناب والمخلب

ينصرف عنه الرسول غير مجيب فيهدده أبو جهل صارخاً :

فإما نكصت وإما هلكتَ   وموتك ليس بمستصعَب

ثم ينصرف أبوجهل ويمر حمزة عائداً من الصيد يقول :

يوم أغرُّ على الجزيرة مشرقٌ   كالبدر فى جنح الدجى يتألق
عالجت فيه الصيد جد مظفر   ورجعت منه مجلياً لا يُلحق
كم صدت من ظبى بهِ وكواسر   عصماءَ كانت فى السماء تحلّق

تسمع صوته المولاة فتخرج إليه فتستوقفه لترى ظبيه :

أرنيهِ حمزةُ   فينعطف عليها فتراه وتقول :

ياله من شادن   تهوى رشاقته النفوس وتعشق

دعه لدىَّ أبا عمارة منحةً

حمزة (فى تيه) :   أمل لعمرك سوف لا يتحقق

إن كنت تائقة إليهِ مشوقة   بجمال رِزّته فانى أشوق

هى :   بل خلّه

حمزة (وهو يأخذه منها) :

لن تستطيع فانما   هو كل ما أبغى وما أتعشق

هى (وقد جدت بعد هزل) :

تا لله مايغنيك ظبى صدته ... وحماك صيد مستباح مُطلق

حمزة (غاضباً) :

كذبا زعمت فانما أنا قسور ... تعنو لطلعته القلوب وتفرق

وأنا أعز شباب مكة كلها ... وحماى أرفع أن ينال وأشهق

هى (ساخرة) :

خفف عليك فقد تصدع شمله ... وغدا على عبث الحوادث يشتق

حمزة (هائجا) :

كيف استبيح ؟

هى : أما رأيت محمدا ... يرمى بما يوهى الجبال ويمحق

ومحمد ابن أخيك كيف يصيبه ... هذا العذاب وفيك قلب يخفق

حمزة (غاضباً) :

من ذا استطال عليه أم من ناله ... بأذًى ؟

هى (متحسرة) : ... أبوالحكم الجهول الأحمق

لاقاه قبلك بالسفاهة والأذى ... وقسا عليه وهو مغض مطرق

يرنو اليه بمقلتى متضرع ... فيفيض فى سفه الحديث ويُغرق

سفه تضج له السموات العلى ... والأرض من غلوائه تتشقق

وأذى تخر له الجبال صريعة ... وتهى لمسمعه النفوس وتصعق

حتى إذا ضاق النبى بكل ما ... لاقاه من عنت يؤود ويرهق

ترك الصفا ثبت الجنان وكله ... شكوى تفيض وأدمع تترقرق

حمزة (وقد بلغ به الغضب) :

ويل لعمرٍو من حسام فى يدى ... قاسى الطعان يشيب منه المفرق

ويل له حتى يصير فريسة ... تفرى حشاها الضاريات وتعرق

لو كنت حاضره على هذا الصفا ... لأصاب منى مارداً لا يرفق

صبراً نبىَّ الله سوف يصيبهم ... مما رموك به شواظ محرق

ثم يذهل عما كان معه من ظبى وطيور ويهم بافتقاد أبى جهل ، ويشرف على نادٍ بقريش فيراه أحدهم من بعد فيحادث جلساءه وهو مرتاع :

انظروا حمزة

فينظرون ثم يقول أكثرهم :

شر مدلهمٌ ... بين عينيه ونار تضطرمْ

بعضهم :

ويحه أى مصاب هاجه ... فأتى يعبس كالخطب الملمْ

يأتى حمزة فيقومون إليه :

إيه يا حمزة

حمزة (ثائراً) : الهوب لظى ... بين أحشائى قاس يحتدم

ثم ينظر فيهم :

أين هذا الوغد

هم (اليه) : ... من ذا تبتغى

هو (فى اضطراب) : ... أخبرونى أين يا قوم جثم

يقبل أبو جهل من جهة أخرى فيراه حمزة فيضربه بقوسه قائلاً :

أنت أقبلتَ ؟ فخذها ضربة ... يرتوى منك بها قوسٌ نَهِم

أبو جهل (وقد وقع على الأرض) :

أدركونى ... (فيقبل البعض عليه)

حمزة (وقد أحاط به بعض الشجعان يمنعونه) :

بل دعونى أسقه ... أكؤس الموت وأكواب العدم

واحد منهم :

اصطبر حمزة لا تهتج فما ... سكن الهتاج إلا وندم

ثم يتحايلون عليه حتى يجلس فيتحادثون :

ما الذى نالك من عمرو

حمـزة : لقد ... نال من قومى كثيراً وظلم

كل يوم يشتفى فى ابن أخى ... بسباب دونه أقسى الحمم

وإذا ماشامه أغرى به ... صبية الحىِّ وأوشاب الخدم

هم (فى ترفق) :

سوف نرجوه فلا يقربه ... بأذى

حمزة (مستنكرا) : ... ترجونه فيما اجترم ؟

هانت الدنيا اذا لم أحمه ... أينما حل وأيانَ قدِم

من أناسىَّ كربع دارس ... كاد من فرط البلى أن ينهدم

أسد فى غير ساحات الوغى ... وهُم ان جدت الحرب نَعَم

ثم يسكت قليلا ويهم واقفاً :

بلغى ياربع عنى واحفظى ... أيها الصحراء واشهد ياحرم

أننى أسلمت لله فلن ... أخفض الهامة منى لصنم

وسأعلى دينه الحق على ... مفرق العُرْب وهامات العجم

(ثم يمضى والقوم فى لغط واضطراب)

فريد عين شوكة

الكتب

تحضير الميزانية المصرية

للدكتور محمد توفيق يونس

نشر الدكتور محمد توفيق يونس رسالته التي نال بها أخيراً إجازة الدكتوراه في الحقوق من الجامعة المصرية بدرجة «جيد جداً» مع شرف الامتياز بتبادلها مع الجامعات الأجنبية .

وموضوع الرسالة «تحضير الميزانية المصرية» وهو موضوع من أقوى الموضوعات المالية نفعاً ، وأعظمها خطراً ، وأشدها اتصالاً بعمل الحكومة والبرلمان ، وأعمقها أثراً في حياة البلاد وتقدمها .

وعلى الرغم من ذلك كله ظل هذا الموضوع مجهولا حتى جاءت هذه الرسالة القيمة فزاحت الستار عنه والقت عليه ضوءاً ساطعاً أنار جوانبه جميعا .

ويزيد هذا البحث جلالاً وخطراً أنه بني على أبحاث قيمة عميقة ، ومشاهدات واقعية دقيقة ، ووثائق أصلية ثمينة ، تستفرغ الجهد المضني وتستنفد الوقت الطويل .

وقد رتب المؤلف ابحاثه ترتيباً منطقياً سليماً ، وصور للقارئ الميزانية المصرية تصويراً علمياً سديداً ، فأرجع موضوعاتها الى اصولها العلمية وسماها بتسمياتها الصحيحة ، وطبق عليها مبادىء علم المالية العامة ، وأخضعها للبحث العلمي الدقيق ، وجعل منها مجموعة متماسكة الأجزاء ، محكمة الارتباط ، واضحة المعنى .

بيّن للجمهور الحالة الحاضرة للميزانية المصرية من الوجهتين العلمية والعملية بعد أن تكلم عن حالتها في الماضي ومختلف تطوراتها . وقد درسها فوق ذلك دراسة نقدية ، ووقف ازاء ما يعرضه من مسائل موقفا ايجابيا ، وبين مايراه من الوسائل المؤدية لحلها ، فمهد بذلك الطريق لمن يتبعه من الباحثين . وأعطى كل من يهمه أمر الميزانية المصرية من الشيوخ والنواب والموظفين والطلبة مرجعا قيما ثميناً ، شديد الأهمية جزيل الفائدة ، خصوصا ولم يكن أمامهم قبل ذلك اى بحث آخر يعبد السبيل وينير الموضوع

وليس أدل على موضوع هذا البحث مما يقوله المؤلف في ختام مقدمته : « على هذا الأساس الواقعي بنيت رسالتي جاعلا نصب عيني أن أرى القارئ ، في تحضير الميزانية ، كيف تصبح مجموعة من التقديرات الأولية المبعثرة مجلداً ضخما منسقاً ؛ وأن أصور له الميزانية المصرية تصوير الكائن المستقل له أجزاؤه ومميزاته مقدماً اليه بياناً عن جميع الأدوار التي تمر بها في مرحلة التحضير محدداً ومحللاً المبادئ والقواعد التي تتصل بها وتقوم عليها »

و لقد حقق المؤلف غرضه أتم تحقيق ، وبلغ ولا شك غايته على خيرما يكون ، فقدرت الجامعة المصرية رسالته أعظم تقدير ومنحته اسمى درجاتها ، وصادف عمله نجاحاً عظيماً واهتماماً شديداً في الأوساط العلمية والدوائر الحكومية . والكتاب أنيق الطبع جيد الورق يباع في جميع المكاتب الشهيرة وثمنه عشرون قرشاً

زعامة الشعر الجاهلي

بين امرئ القيس وعديّ بن زيد

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أديب مجتهد واسع الاطلاع . يعجبك منه اذا حادثته دماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسرعة بديهته ، ومن آثاره الأدبية هذا الكتاب الذي أحدثك عنه ، وهو يقع في نحو مائة وثلاثين صفحة من القطع الكبير .

ابتدأ الأستاذ كتابه بفصل في ميزان الشعر ، وقد تساءل في هذا الفصل « هل يوزن الشعر بموضوعه أو يوزن بألفاظه ومعانيه أو يوزن بهما معاً ؟ واذا كان يوزن بهما معاً فما الذي ينظر اليه

قبل غيره منهما ؟» ثم تكلم فى هذا الفصل عن الشعر وأغراضه ، وعقد فصلاً آخر عن الشعر الحضرى والشعر البدوى ثم وصف نجداً وتكلم عن كندة وتغلب ، ثم ترجم لامرئ القيس وشرح عقيدته وتعرض للغته وشعره ، وأورد طرفاً من شعره فى لهوه وجده ، وبعد ذلك انتقل الى عدى بن زيد فتكلم عن الحيرة وعن حياة عدى ولغته وشعره ، وأورد أيضاً شيئاً منه ، ثم تكلم عن منزلة الشاعرين اجمالا ووازن بينهما فى النهاية فجعل الزعامة لعدى بن زيد .

فالكتاب كما ترى جدير بأن يقرأه الأدباء ، فسيجدون فى قراءته متعة ، وسيظفرون منه بكثير من المعلومات الشيقة المفيدة ولهم بعد ذلك أن يوافقوا الأستاذ فيما ذهب اليه أو يخالفوه .

أما أنا فأخالفه وأراه متحيزاً فى حكمه ، وأرى هذا التحيز نتيجة لازمة لمقدمته عن ميزان الشعر ، فقد جعل الأساس فى وزن الشعر أغراضه ، وقسم هذه الأغراض الى شريفة وغير شريفة ، دون أن يحدد هذا التقسيم ، ثم أظهر ميله الى شعر الحضر ونفوره من شعر البادية فجعله غليظاً خشناً ليس فيه من المحاسن الا وصف جمال الطبيعة ان كان ثمة من جمال فى البادية ! وعلى هذا الأساس قدم عديا لشرف أغراضه ورقته التى اكتسبها من الحضر مع أنه يقول فى صفحة ١٤ « ولا نريد من هذا أن الأدب الحضرى فى جملته كان خيراً من الأدب البدوى فى جملته ، وقد يوجد من أدباء البدو من كان خيراً من بعض أدباء الحضر ومن أدباء الحضر من كان فى أدبه أقل من بعض أدباء البدو » ولكنه أراد أن يقدم عديا فتكلف ، واضطر الى أن يغمط امرأ القيس كثيراً من محاسنه .

هذا الى أنى أخالف الأستاذ الفاضل فى قوله عن الشعر « إن موضوعاته هى أغراضه وألفاظه هى معانيه . ومعانيه هى ألفاظه ، ولايمتاز اللفظ عن المعني الا فى مظهر وجوده فى اللسان ووجود المعنى فى الذهن » .

لاأستطيع أن أقره على هذا الرأى ؛ ولا أجده يحتمل المناقشة أو بعبارة أخرى أجد المناقشة فيه لا تنتهى ، فإن المناقشة فى البديهيات تخرج عن الموضوع اذ أنها تبدأ من قضية مسلمة ومن نقطة نهائية .

أما عن قياس الشعر بأغراضه فانى أرى الأمر على عكس ما يراه الأستاذ ، فلن تتسنى الموازنة بين شاعرين . اذا أردنا تفضيل أحدهما على الآخر الا اذا اتفقا فى الغرض ، أو على حد تعبير أدبائنا الا اذا اتحدا فى المدرسة ، أما أن يختلفا فى البيئة والغرض فنجعل من ذلك مقياساً للموازنة بينهما فمالا أسلم به الا اذا استطعنا أن نوازن موازنة تنتهى بحكم تفضيلى بين أبى نواس وعمر بن أبى ربيعة مثلا أو بين البحترى والمعرى أو بين شوقى والبارودى . . . الخ

ولكنى اذا خالفت الأستاذ فى بعض آرائه فلا يسعنى الا أن أعلن اعجابى بدقته فى البحث واستقصائه لتفاصيل الموضوع وإلمامه به ، هذا الى جمال عبارته ودقة أدائه ، مما يجعل كتابه جديراً بالاقتناء ، خليقاً بالدرس فى روية وامعان ؟

محمود الخفيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهرس أبجدى عام

لموضوعات المجلد الاول من السنة الثانية

فهرس ابجدى عام

لموضوعات المجلد الاول من السنة الثانية

(ب)

فهرس ابجدى عام

لموضوعات المجلد الاول من السنة الثانية

فهرس ابجدى عام

لموضوعات المجلد الاول من السنة الثانية

فهرس ابجدى عام

لموضوعات المجلد الاول من السنة الثانية

فهرس ابجـــدى عام

للكتاب الذين كتبوا فى المجلد الاول من السنة الثانية

(مطبعة سكر

2 me Année, No. 52.

Lundi-2-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

السنة الثانية — « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ — ٢ يوليو سنة ١٩٣٤ » — العـــدد ٥٢

فهرس العـــدد

فى الموقف الأدبى الحاضر

كان ظهور (الملاّح التائه) و (وراء الغمام)، وصدور (الوادى) فى لونها الجديد سببا قريبا فى حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة. لأن الديوانين على رغم ماقيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعى الخلاف؛ ولأن الشاعرين - وإن كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبى - قدجذبا اليهما الأنظار، وعطفا عليهما الأنصار، بالطبع الموهوب والذوق الناقد. فلكل منهما فى كل قهوة رقيب ورفيق، وفى كل صحيفة عدو وصديق، وفى كل ناد مكبر ومنافس؛ ولأن الوادى قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) فى كل أسبوع، وقد تطوع للشهادة له وعليه أساتذة النقد فى الجهاد والبلاغ. وكانت الحملة عنيفة على صاحبى الديوانين لحظهما الوافر من الاجادة ومحلهما الرفيع من الفن، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد، وقاسى الشاعر المهندس معول المازنى. وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أرعن الدليل، لصرفه الجهد فى رد المآخذ، ولو عنى بتبيين المحاسن كما عنى بتحسين المساوى لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب فى بهر الجمال وروعة الصنعة. ولكل عمل من أعمال الناس جهة

للمدح وجهة للذم لا تتشابهان على ناظر . والنقد صناعة دقيقة لا يحسنها فى الغالب إلا شيوخ الأدب ، لأنهم استكملوا عدتها ، واكتسبوا ملكتها بادمان الدرس وطول المران وكثرة التجربة ، فرد مآخذهم اذا برئت من الشطط والاعتساف يكون فى الكثير الغالب من وراء القدرة الشابة .

***

كان أسلوب النقد ولاشك مشوباً بصلف الأستاذية ، وعنت الحزازة ، وعبث التهكم . وحجة النقاد أنهم بالطبيعة أولياء الفن ، وأمناء هيكله ، وأصحاب اذنه ، فلا يجمل بهم أن يدخلوا فيه من لا يثبت معدنه على شدة السبك ، ويخلص جوهره على تقصّى النظر ؛ وأن الأدب أعسر من أن يُنال بالدعوى العريضة ، والدعاية المريضة ، والأساليب الملفقة .

وكان طبيعيا أن يأنف الشباب من هذه اللهجة ، ويألموا من هذه الشدة ، ويزعموا أن هناك ائتماراً بهم وإنكاراً لأدبهم ، فيسوء ظنهم بالنقد ، وتفيض مجالسهم بالشكوى ، ويقابلوا الأستاذية بالتمرد ، والحزازة بالعناد ، والتهكم بالحنق ، ويبسطوا الأمر على أنه نزاع بين أدبين : قديم يشتهيه الموت ، وجديد تبتغيه الحياة ، وتنفرج الحال أخيراً بين جيلين مقامُ الأول من الثانى مقام المدرب المشفق ، والمرشد الناصح ، والدليل المجرب .

***

إن شيوخ الأدب وشبابه انما يصطنعون أدوات واحدة ، ويعالجون موضوعات متقاربة ، وينتجون نتائج متشابهة . فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة لا يجد للشباب أسلوباً خاصا يسجله ، ولا مذهباً جديداً يحلله ، ولا أثراً مستقلاً يشرحه ويعلله . انما هى مطامح الفتوة الى المثل الذى توحيه الطبيعة ، وتقتضيه الفطرة ، ويلهمه الاطلاع ، تحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه فيقعد بهم عجز الوسيلة ونقص العدة

وليس يسوغ فى العقل أن يُعد التسامح فى اللغة والتساهل فى الأسلوب والتجاوز عن القواعد ميزة ، فان بأس الشباب لم ينكسر أمام الشيوخ إلا فى هذه الناحية .

والحق ان المسارعة الى الانتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غميزة بينة فى أدب الجيل الحديث . فان الالمام باللغات الأجنبية ، والوقوف على قواعد الفن الأوربية ، لا يجعلان المرء كاتباً فى العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية نزدها طيعة لقلمه ، لينة على لسانه ، والاعتماد فى اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المثُل لا يقوم عليه فن ثابت ، ولا ينهض به فنان معدود . وما كان المثل ليغنى عن القاعدة وهو لا يضىء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها ، وهى غريزة الأدب والفن فى الانسان ، ليست من الكمال اليوم بحيث تَجْزى عن القواعد ؛ كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة الى عمل أدبى صحيح . فانه موهبة طبيعية تختلف فى الناس وفى الأجناس ، وتحتاج الى المران بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ؛ وانك لتجد عقلاً مطلقاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ، ولكنك لا تجد مهما استقريت واستقصيت ذلك الذوق المطلق المستقل الذى لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة . أما القواعد فهى نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون . وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها أمثل الطرق لاحسان العمل دون أن تُخضع عبقريتك اليها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فان بين الاستبداد والفوضى نظامًا أحق أن يؤثر ويتبع .

***

وبعد ، فان الفنان والناقد انما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضى والمحامى على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على حد مَنْكِب ؛ وان الأدب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر . فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفى الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه

احمد حسن الزيات

ديمقراطيـــــة الطبيعة

للأستاذ احمد أمين

يعجبني البحر فى جماله وبهائه ، وجلاله ولانهايته ، ويعجبني كذلك فى ديمقراطيته ، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس فى مائه إلا اذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التى خلقتها المدنية ، يجب أن يتجرد أولاً من ملابسه التى تميز بين الغنى والفقير ، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التى اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها فى بعض . ففى البحر تتساوى الرءوس ، لا غنىّ ولا فقير ، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا حاكم ولا محكوم ، لايتميزون بشىء إلا بلباس البحر ، وفى الحقيقة ليس هو لباس البحر ، وإنما هو لباس البر ، فليس للبحر لباس إلا ماؤه . ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض ، واتخذوا منه شعاراً للغنى والأناقة واللباقة والوجاهة ، والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك ، إنما يعرف ذلك البر ، ومن أجل هذا سرعان ما ينغمس الناس فى البحر ، فيسدل بمائه الأزرق الجميل ستاراً على كل أثواب الرياء حتى لا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شىء من الصنعة ، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء ، فتغازل الأسود كما تغازل الأبيض ، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح ، وتعبث بلحية العالم ، كما تلعب برأس الجاهل ، وأحياناً يهيج هائجه ، وتثور حفيظته ، فيزفر من الغضب ، حتى ليكاد يخرج من إهابه ، ويطفر من ثيابه ، ويربدّ وجهه فيلفظ بالزبد ، وينتفخ ويرتعد ، ويرقص من غير طرب ؛ وهو فى هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته ، يأتى للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه فيبتلعها فى لحظة ، لا تغنى عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث ، كما يبتلع أحياناً صبياً وديعاً وشيخاً ضعيفا ، ليبرهن أنه لا يعبأ بقوة ولا ضعف ، ولا يخشى بأس كمىّ ، ولا يرحم ضعف أعزل ، سواء هو فى هزله وجده ، وسواء هو فى حلمه وغضبه — ما أجمل البحر ، وما أجله ، وما ألطفه ، وما أقساه !

على أنه يظهر لى أن الطبيعة فى جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية ، ولا أرستقراطية إلا فى الانسان الكاذب ، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية ، والقمر أشعته الفضية ، على الناس سواء : على المؤمن والكافر ، والأسود والأبيض ، والغنىّ والفقير ، والكوخ الحقير ، والقصر الكبير .

ويأتى الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء ، لا تميز عظيماً ولا حقيرا ، ولا شريفاً ولا وضيعا ؛ ثم يأتى بريح طيبة تنعش الناس كذلك ، لا يعرف فى شىء من ذلك محاباة ، ولا يعرف طبقات ، ولا يعرف أى نوع من أنواع التفاوت التى تواضع عليها الناس ، يرسل فى الصيف شواظاً من نار فيدخل على الأمير فى قصره ، وعلى الفقير فى كوخه ، فلا يهاب عظيما ، ولا يحتقر وضيعا ، ويرسل فى الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغنى بصوفه وملابسه ، ولا بمدفأته وناره ؛ كما لا يتقيه الفقير فى عدمه وبؤسه ؛ ثم تطلع شمس جميلة ، ويعتدل الجو ، فتحتضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعا أمّاً حنونا ، مشفقة بارة — إن تحدث الباشا أو البيك فى نفسه بأنه فوق طبقات العامة ، وأنه يستطيع فى شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا ، فتُفسح له الطريق ، ويخلى له السبيل ، وتفتح له أبواب المجتمعات ، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء ، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير فى حر ولا برد ، ولا نور ولا ظلام ، فان أخطأ فى ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة فى شىء من قوانينها صفعته صفعة آمن بعدها بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وأدرك أنه إن علا الناس بماله أو جاهه ، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس ، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل .

***

ثم يأتى القدر فينثر نعمه ونقمه ، وشره وخيره على الناس جميعا ، فصحة فى الأغنياء والفقراء ، ومرض فى الأغنياء والفقراء . وتجد غنياً فاتر القوى منقوف الوجه ، يبيت يتضور من الألم ، يود لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود اليه صحته ، وبجانبه فقير مستحكم الخلقة ، متين البنية ، ممتلئ قوة وشدة وصلابة — وتجد جمالاً فى الأغنياء والفقراء ، وقبحاً فى الأغنياء والفقراء ، فهذه

فقيرة مشرقة الجبين ، صافية الأديم ، مفرطة الجمال ، معتدلة القوام ، لا تفتح العين على أجمل منها صورة ، ولا أتم منها حسنا ؛ وهذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة ، منكرة الطلعة ، تنبو عن منظرها الأحداق ، وتتفادى من مرآها الأبصار ، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلى والملابس ، فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحا ، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى بساطتها ، جميلة حتى فى ثيابها المهلهلة !

وللقدر فى ذلك بِدَع ، فأشهر طبيب فى القلب يموت بالقلب ، وأعظم جراح يموت بالتسمم . وتلد الفلاّحة الفقيرة فى الطريق وهى حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها ، ثم يقطع « الخلاص » وتحمل طفلها وتذهب الى بيتها سالمة غانمة ؛ وسيدتها الغنية يحلل دمها وغير دمها قبل الوضع ، ويعقم كل شيء فى حجرة ولادتها ، ويقف مشاهير الطبيبات والأطباء على بابها ، حتى اذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل اليه الطب الحديث ، والكيمياء الحديثة ، والعلم الحديث ، وأمعنت جمهرة الأطباء فى التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة ، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا ؛ ثم هى بعدُ تصيبها حمى النفاس ، ويقف الطب والعلم دهشاً حائرا ، ثم تسلم الروح الى ربها ، هازئاً بكل ذلك القدر .

***

وهناك نوع من الارستقراطية غريب ، هو الارستقراطية العلمية ، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم — وربما عدهم الناس أيضاً — نوعا ممتازاً من الناس ، يختلفون عنهم نوعا من الاختلاف ، ويرتفعون عليهم نوعا من الرفعة ، كما ترتفع طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الأمراء ، فالمتعلم ينظر الى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شىء من التعاظم ، وشىء من الازدراء ، وشىء من الغرور ، وان ساواه فى الدم ، وان ساواه فى الغنى أو الفقر ، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه فى كل شىء خير الآراء ، وأن غير الجامعى لا يحق له أن يبدى رأياً بجانب رأيه ، حتى فيما ليس له اختصاص فيه

وهو كذلك نوع من الارستقراطية الكاذبة لا تعبأ بها الطبيعة ولا تعيرها أى التفات ، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء ، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء ، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلاً وأمياً ونحو ذلك من الأسماء ، ويسموا من يقرأ ويكتب متعلماً ، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدهما ، ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانباً لهزئنا بالقراءة والكتابة فى كثير من الأحيان ، ولوجدناهما وسيلة من وسائل الرقى ، ولكن بجانبهما وسائل أخرى ، ولوجدنا أنهما لا تستحقان هذا الغرور الذى ينشئ نوعا من الارستقراطية ، فالحكمة فى تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعى ، وسعةِ العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية ، والغريزة الانسانية . ومن ثم قد ترى الجامعى الحائز لأرقى الشهادات العلمية وهو أخرق فى الحياة ، سفيه فى التصرف ، وأخاه الذى يسمونه جاهلاً أمياً حكيماً فى تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون اخوته الجامعيين ، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها فى أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على يد جاهليها ، والفلاح القروى الأمى قد يرزق من الحزم فى تصريفه ، وبعد النظر فى آرائه ، وصدق الشعور فى وطنيته ، مالا يرزقه أخوه الأستاذ فى الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية ، بل قد يصدر من الرأى العام الجاهل فى شؤون وطنه ، وفى المسائل الهامة التى تعرض عليه ما يفوق رأى متفلسفة المشرعين ، وحيل القانونيين

ان نظرنا الى الذكاء ، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل ، وان نظرنا الى حكمة التصرف ، والحزم فى ادارة الأمور ، وتدبير شؤون الحياة ، فذلك أيضاً أمر مشاع بين الناس ، ففيم غرور المتعلمين وانشاؤهم أرستقراطية بجانب ارستقراطية الأموال والأعمال والطبقات . يطالبون أن يكال لهم المال جزافا ، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم فى عمل ، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم أكبر نصيب ، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم وحثالته لما يسمونه الجاهلين

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها فى ارستقراطيتها ، بجميع أنواعها ، وتقلد الطبيعة فى ديمقراطيتها واعتدالها ؟

احمد امين

موت أم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رجعت من الجنازة بعد أن غبّرت قدميّ ساعة فى الطريق التى ترابها ترابٌ وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤة آدمية محطّمة هى زوجة صديق طحْطَحتها الأمراض ففرّقتها بين علل الموت ، وكان قلبها يحييها فأخذ يهلكها ، حتى إذا دنا أن يقضيَ عليها رحمها الله فقضى فيها قضاءه . ومن ذا الذى مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه فى علته كالعصفورة التى تهتَـلك تحت عينى ثعبان سلط عليها سموم عينيه !

كانت المسكينة فى الخامسة والعشرين من سنها ، أما قلبها ففى الثمانين أو فوق ذلك ؛ هى فى سن الشباب وهو متهدّم فى سن الموت .

وكانت فاضلة تقية صالحة ، لم تتعلم ولـكن علمها التقوى والفضيلة . وأكمل النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الـكتب فهى تنظر الى الحياة نظرات تَـحِلُّ مشاكل وتخلق مشاكل ؛ ولـكنها تلك التى تنظر الى الدنيا بعين متلألئة بنور الايمان تُقرّ فى كل شيء معناه السماوى فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها ، رحمة معروفة أو رحمة مجهولة . هذه عندى تسمى امرأة ، ومعناها المعبد القدسى ؛ وتـكون الزوجة ، ومعناها القوة السعيـدة ؛ وتصير الأمّ ، ومعناها التـكملة الالهية لصغارها وزوجها ونفسها .

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأنه رجل ، ولـكن المرأة حقّ المرأة هى تلك التى خُلقت لتكون للرجل مادةَ الفضيلة والصبر والايمان ، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاء وقوة ، أى زيادة فى سروره ونقصاً من آلامه .

ولن تـكون المرأة فى الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد هو صفاتها التى تجعل رجلها أعظم منها .

***

ومشيتُ من البيت الذى ألبسته الميتةُ معنى القبر — إلى القبر الذى ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنا منذ مشيت فى جنازة أمى — رحمها الله — لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء ، ولـكن مع الموتى ، فأتبع صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة لأنه من غير هذه الدنيا ، وأمشى فى ساعة ليست ستين دقيقة لأنها خرجت من الزمن ، ولا أرى الطريق من طرق الحياة لأننى فى صحبة ميت ؛ وتصبح للأرض فى رأيى جغرافية أخرى عَمِى الناس عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر . أما أنا فأرى فى تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذى وصفوا ، ولـكن خِضمٌّ آخر زخّـار متضرب ، هو ذلك البحر الترابى العظيم المسمى « المقبرة » .

يقولون : ان الحياة هى ... هى ماذا ، ويحكم أيها المغرورون؛ أفلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض ؟

***

لعمرى كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحس المرء بقلب ، ويعمل بقلب آخر ؛ يعتقد ضرر الـكذب ويكذب ، ويعرف مَعرَّة الاثم ويأثم ، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضى فى العمر منتهياً الى ربه — ما فى ذلك شك — ولـكنه فى الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فرّ من ربه ...

هبت الريح فى السحر على روضة غناء فطابت لها ، فعقدت عُقدتها أن تتخذ لها بيتاً فى ذلك المـكان الطيب لتقيم فيه . . . يالها حكمة من التدبير ! تزعم الريح الاقامة على حين كلُّ وجودها هو لحظة مرورها ، وتحلم بالقرار فى البيت وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يالها حكمة سامية ! لا يسكنها من المعنى إلا أسخفُ ما فى الحُمق !

***

همد الحى وانطفأت عيناه ، ولـكنه تحرك فى تاريخه مما ضيق على نفسه أو وَسَّع ، وأصبح ينظر بعين من عمله إما مبصرة أو كالعمياء ؛ فلو تـكلم يصف الحياة الدنيا لقال : ان هذه النجوم على الأرض مصابيح مأتم أقيم بليل . وما أعجب أن يجلس أهل المأتم فى المأتم ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، ان هذا الحاضر الذى

يمر فيكون ماضيكم فى الدنيا هو بعينه الذى يكون مستقبلكم فى الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى الى الأدنى ، من العظماء الى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب فى الآخرة فتبدأ من الفقراء الى العظماء ؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة . ان التام على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها ، ولكن التام فى السماء من تم بنفسه وحدها .

***

يا أسفا ! لن يقول الميت للحى شيئا ، ومن يدرى ؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى ونترلهم فى قبورهم يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ، وأننا مدفونون فى القبر الذى يسمونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرةٌ برجل نملة لتُدْفَن فيها نملة . . .

الحياة . أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هى المبهمات الكثيرة التى ليس لها فى الآخر إلا تفسير واحد : حلال أو حرام .

***

ورجعنا مع الصديق الى بيته ، وله خمسة أطفال صغار لو أنهم هم الذين انتُزعوا من أمهم لترك كل واحد على قلبها مثل المِكْواة المحمى عليها فى النار الى أن تحمَرّ . ولكن أمهم هى التى نزعت منهم ، فكان بقاؤهم فى الحياة تخفيفاً لسَكْرةِ الموت عليها . وغشيتها الغشية فماتت وهى تضحك ، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الالهية المدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم ، وكانوا همْ عقلَها فى ساعة الموت !

تبارك الذى جعل فى قلب الأم دنيا من خَلْقه هو ، ودنيا من خَلْق أولادها !

تبارك الذى أثاب الأم ثواب ما تعانى ، فجعل فرحَها صورة كبيرة من فرح صغارها !

***

وجاء أكبر الأطفال الخمسة وكأنه ثمانية أرطال من الحياة ، لا ثمانية أعوام من العمر ؛ جاء الينا كما يجئ الفزع لقلوب مطمئنة ، إذ كان فى عينيه الباكيتين معنى فقدم الأم !

وطفت عليه الدموع فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة ،

ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانىَ يُتْمِها !

وظهر الانكسار فى وجهه يعبّر ببلاغة أنه قد أحس حقيقة ضعفه وطفولته بازاء المصيبة التى نزلت به ؛ وجلس مستسلماً تترجم هيئته معانىَ هذه الكلمة : « رفقاً بى ! »

ثم تطير من عينه نظرات فى الهواء كأنما يحس أن أمه حوله فى الجو ولكنه لا يراها .

ثم يرخى عينيه فى إغماضة خفيفة كأنما يرجو أن يرى أمه فى طَوِيّتِه .

ولا يصدق أنها ماتت ؛ فان صوتها حى فى أذنيه لا يزال يسمعه من أمس .

ثم يعود الى وجهه الانكسار والاستسلام ، ويتململ فى مجلسه فينطق جسمه كله بهذه الكلمة : « يا أمى ! »

***

أحس — ولا ريب — أنه بِمَضْيعةٍ حدودها الحياة ، لأن الوجود كان أمّه .

ولمس خشونة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقد الصدر الذى فيه وحده لين الحياة ، لأن فيه قلب أمه وروحها .

وشعر بالذل ينساب الى قلبه الصغير لأن تلك التى كان يملك فيها حق الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حقٍّ فى أحد ، وليس لأحدٍ أمان .

ولبسته السكنة لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصل اليه .

ولبسته السكنة لأنه صار وحده فى المكان ، كما هو وحده فى الزمان .

وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسأل نفسه : « اذا لم تكن أمى هنا ، فلماذا أنا هنا ؟ ! »

ثم تغرغرت عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة ، ولكن روحه اليتيمة تأبى الا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانىَ يُتْمِها !

***

ونهض الصغير ولم ينطق بذات شَفَة . نهض يحمل رجولته التى بدأت منذ الساعة .

انتهت — أيها الطفل المسكين — أيامك من الأم ؛ هذه الأيام السعيدة التى كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتى معرفتَك أمسِ الذى مضى ، اذ يأتى الغد ومعك أمك .

وبدأتْ — أيها الطفل المسكين — أيامك من الزمن ، وسيأتى كل غد محجَّباً مرهوبا ؛ إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !

الأم ؟ يا إلهى ، أىّ صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا فى الأم ؟ !

مصطفى صادق الرافعى

فى تاريخ القضاء فى مصر الاسلامية

صور من استقلال القضاء
وصور من خضوعه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم تعرف نظرية فصل السلطات الحديثة كثيراً فى العصور الوسطى ، ولم تطبق بالأخص فى ظل الأنظمة المطلقة التى سادت فى تلك العصور ، فالسلطات الثلاث ، التشريعية والقضائية والتنفيذية التى تقوم الدولة الحديثة على مبدإ الفصل بينها ، كانت تجتمع فى ظل الأنظمة المطلقة فى نفس اليد العليا التى تتصرف فى سائر الشئون العامة . ولم تشذ الدول الاسلامية عن هذه القاعدة ، فقد كان الخليفة أو السلطان أو الأمير يجمع فى شخصه كل السلطات ويزاولها مجتمعة أو منفردة على يد عماله . نعم كان هنالك توزيع للسلطات ، ولكن نظرى محض ، فقد كانت اصول التشريع قائمة تعدل وتفسر فى ظل الدول المختلفة طبقاً لمختلف النزعات المذهبية والسياسية ، وكان للقضاء جهة خاصة يعمل فى دائرتها ، وكان الوزراء ومن اليهم من الكتاب والعمال يمثلون الناحية التنفيذية : ولكن هذه الجهات الثلاث التى تقابل السلطات الثلاث فى الدولة الحديثة كانت تمتزج دائماً من الوجهة العملية ، وتخضع دائماً سواء منفردة أو مجتمعة لرأى الخليفة أو السلطان أو الأمير ؛ وكان هذا الرأى دائماً فوق كل قانون وقضاء ونظام ، وان كان فى معظم الأحيان يلتمس له ظاهر من القانون أو النظام

وكان القضاء كالسلطة التنفيذية دائماً عرضة للتأثير والتدخل ولكن السلطة العليا كانت تؤثر ، فى معظم الأحيان ، أن تبدو فى الظاهر محترمة لرأى القضاء بعيدة عن التأثير فى سير العدالة . ذلك أن القضاء كان يتشح دائماً بثوب الدين ، ويستمد سلطانه من كتاب الله وسنة رسوله ، فكان التدخل المرغوب كثيراً ما يحمل طابع التفسير لنص من النصوص . وكان القضاة اعوان السلطان قبل أن يكونوا أعوانا للعدالة ، وتقدير استقلال القضاء وحريته يرجع قبل كل شىء إلى السلطان : وقد كان ثمة خلفاء وسلاطين يقدرون استقلال القضاء ، وينحنون أمام كلمته ؛ وكان ثمة قضاة أقوياء النفس والجنان يتمسكون برأيهم وسلطتهم فى الحكم ، ويأنفون من التدخل والتأثير . وهناك أمثلة كثيرة فى التاريخ الاسلامى تؤيد هذه الحقيقة نورد بعضها فى هذا الفصل ، وهى مما يتعلق بتاريخ القضاء فى مصر الاسلامية .

كان من قضاة مصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، الحارث ابن مسكين ، ولى قضاء مصر الأعلى من قبل الخليفة المتوكل سنة ٢٣٧ هـ . ويصف لنا الكندى مؤرخ قضاة مصر حتى منتصف القرن الرابع ، شخصية الحارث بن مسكين وطريقته فى الحكم ، نقلاً عن ابن قديد ، وهو فقيه ومحدث مصرى عاصر الحارث وعرفه . كان الحارث شخصية غريبة قوية ، وكان شديد الحرص على حريته واستقلاله ، وكان مقعداً ، يركب حماراً مبرقعاً ، ويحمل فى محفة الى مجلس الحكم بالمسجد الجامع (جامع عمرو) ، وكان صارماً شديد الوطأة جريئاً فى أحكامه يأبى تلقى الولاة والسلام عليهم . وطلب إليه أن يلبس السواد ، وهو شعار بنى العباس فأبى حتى انتهى بعض أصحابه باقناعه بأنه اذا لم يرتد السواد اتهم بالانحراف عن بنى العباس والميل الى بنى أمية ، فارتدى عندئذ كساء أسود من الصوف . وكان كثير الاجتهاد والابتكار فى اجراءاته وأحكامه . ويورد لنا الكندى طرفا من هذه الأجراءات والأحكام ، ويذكر لنا كيف أن الحارث بن مسكين آثر الاستقالة على قبول التدخل فى أحكامه . وذلك أنه رفع اليه نزاع على ملكية دار الفيل ، وهى

إحدى دور الفسطاط الشهيرة ، وكانت لأبي عثمان مولى الصحابي مسلمة بني مخلد الأنصارى ؛ وكان قد قضى فى شأنها قبل الحارث عدة من قضاة مصر ، فقضى فيها أولاً هرون بن عبد الله بأخراج بنى البنات من العقب باعتبار أن لاحق لهم فى الميراث ؛ ولكن خلفه محمد بن أبي الليث قضى بالغاء هذا الحكم ، وحكم لبني السائح المدعين بنصيبهم فى الدار ؛ فلما رفع النزاع مرة أخرى إلى الحارث ابن مسكين ، فسخ حكم ابن أبي الليث ، وقضى بأخراج بنى السائح من الميراث ، فسافر ابن السائح إلى بغداد ، ورفع إلى الخليفة المتوكل تظلما من حكم الحارث والتماساً بأعادة النظر فى قضيته ، فأحال المتوكل القضية إلى الفقهاء ، فحكموا فيها على مذهب الكوفيين ، وقضوا بالغاء الحكم ، وكان حكم الحارث على مذهب المدنيين . فلما بلغ الحارث ما وقع ، كتب فى الحال إلى المتوكل يرفع إليه إستقالته من منصبه ؛ وقدر المتوكل دقة الموقف فقبل الاستقالة ، وكتب وزيره إلى الحارث بقبولها فيما يأتى : «ان كتابك وصل باستعفائك فيما تقلدت بأمر القضاء بمصر ، وأمر (أمير المؤمنين) ايده الله باجابتك إلى ذلك . . استعافا لك مما سألت ، وتفضلاً لما أدى إلى موافقتك فيه ، فرأيك أبقاك الله فى معرفة ذلك والعمل بحسبه » وغادر الحارث بن مسكين منصبه سنة ٢٤٥ هـ ، وضرب باستقالته مثلاً قوياً فى الكرامة والاستقلال بالرأى والحرص على حرمة القضاء وقدسه (١)

* * *

ولما تولى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦ هـ فى عهد الظاهر برقوق ، أبدى فى تصرفاته وأحكامه تمسكا شديداً بالرأى ، وإعراضاً قوياً عن كل مؤثر وشفاعة ، خلافاً لما كانت عليه أحوال القضاء يومئذ ، وكان المؤرخ الفيلسوف يسبق عصره بمراحل فى فهم استقلال القضاء ووجوب صونه عن كل مؤثر ؛ ولكن صرامته فى تطبيق هذا المبدإ أثارت عليه عاصفة من الحقد والسعاية ؛ ويقول لنا ابن خلدون فى هذا الموطن فى « تعريفه » كلاماً طويلاً عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة ، وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض يقول : « فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمنني عليه من أحكام الله ، لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً بين الخصمين آخذ الحق الضعيف من الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين (١) »

وهذا تصوير قوى لاستقلال القضاء لا يتفق كثيراً مع روح العصر ، ولكن يتفق مع شخصية الفيلسوف القوية ، ومع ثقته بنفسه ، وسموه برأيه . وقد انتهت العاصفة التى أثارها عليه خصومه باستقالته أو اقالته من منصب القضاء لعام فقط من توليته ، وينسب خصوم الفيلسوف تخليه عن منصب القضاء ، لأسباب غير استقلاله برأيه ونزاهته فى أحكامه ، ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً قريباً من عصره هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يقر الفيلسوف على تعليله ، ويقول لنا مشيراً الى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافية وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان . . . » (٢)

* * *

على أن فهم استقلال القضاء على هذا النحو كان من الأمور النادرة فى تلك العصور . وكان مرجعه شخصية القضاة أنفسهم ، وليس روح العصر أو نظمه . وقد كانت القاعدة العامة كما قدمنا أنه لا استقلال للقضاء إلا فى حدود رأى السلطة العليا وهواها ؛ وكان خضوع القضاء لرأى هذه السلطة ووحيها يبدو بنوع خاص فى بعض القضايا الجنائية الهامة التى تريد السلطة العليا أن تسبغ فيها لون القانون والعدالة على قصاص أو انتقام ترى اجراءه ، أو القضايا المدنية الهامة التى يراد فيها اغتيال مال وثروات يطمع فيها باسم الشريعة وقضائها . وكثيراً ما كانت السلطة العليا تتفل فى اجراءاتها وأعمالها هذه الصبغة الشرعية ، ولكنها كانت فى أحيان كثيرة ترى من حسن السياسة ألا تحمل

(١) راجع كتاب القضاة الذين ولوا مصر (أو تسمية قضاة مصر) لأبي عمر الكندى (طبعة المستشرق جوتهيل) ص ١٤٢ — ١٤٨ .

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و٤٥٤ — وراجع كتابى « ابن خلدون » ص ٧١ و٧٢

(٢) المنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ ص ٣٠١

مسئولية القصاص أو الانتقام أو مصادرة الأموال ، وأن ترد هذه المسئولية إلى القضاء ، وهو فى نظرها ورأيها أداة من أدوات التنفيذ التى تسيطر عليها وتسيرها طبقاً لمصالحها وأهوائها

وإذا كنا لانستطيع أن نظفر فى تاريخ القضاء فى تلك العصور بأمثلة كثيرة لتطبيق مبدأ استقلال القضاء ، فانا نستطيع أن نظفر بالعكس بكثير من الأدلة والوقائع على خضـوع القضاء للسلطة العليا أياكانت وتبعيته لها وتوقفه على ارادتها وهواها . ونكتفى بأن نورد لتأييد هذه الحقيقة مثلاً واحداً من تاريخ القضاء فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، نقله إلينا المقريزى وهو من معاصريه وشهوده . وخلاصته أنه فى عهد الناصر فرج سلطان مصر ، أنشأ الأمير جمال الدين الاستادار مدرسة عظيمة بالقاهرة ، وأوقف عليها أوقافاً جليلة ، وكان انشاؤها على أرض عليها أبنية موقوفة على بعض الترب ، فاستبدل بها الأمير أرضاً من جملة الأراضى الخراجية بالجيزة ، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال ، وهدم البناء وأقام مكانه المدرسة . ثم نكب الأمير جمال الدين وقتله السلطان ، وحسن له بعض وزرائه أن يستولى على المدرسة وأن يضع اسمه عليها ، فادعى السلطان عندئذ أن الأرض الخراجية المستبدل بها كانت ملكه واغتصبها الأمير جمال الدين دون اذنه ، وحكم له قاضى قضاة المالكية ، بأن بناء المدرسة الذى أقيم على أرض لم يملكها الواقف ، لايصح وقفه ، وأنه باق على ملكية بانيه إلى حين موته ، وعندئذ انتدب الشهود لتقدير قيمة البناء ، فقدر بائنى عشر ألف دينار ، ودفع المبلغ الى أولاد جمال الدين ، وباعوا المدرسة للسلطان ، فصارت ملكه ، ثم أوقف السلطان أرض المدرسة وبناءها بعد أن قضى له قاضى الحنفية بصحة الاستبدال ، وحكم له القضاة الأربعة بصحة هذا الوقف ؛ بعـد أن قضوا من قبل بصحة وقف الأمير جمال الدين . فلما قتـل الملك الناصر ، وتولى مكانه الملك المؤيد ، تولى الوزارة بعض أصدقاء جمال الدين ، وسعوا لدى السلطان ليرد أملاك جمال الدين المغتصبة الى أخيه وأولاده ، فأجاب السلطان ملتمسهم ، وأحيلت القضية مرة أخرى على القضاة الأربعـة ، وعقـــدت لذلك جلسة مشهودة (سنة ٨١٥ هـ) ، وقضى برد المدرسة واوقافها الى اسم جمال الدين وما نص عليه فى وقفيته ؛ ورد النظر فيها لأخيه ؛ ثم نزع منـه النظر بحكم جديد وأعطى لـكاتب السر ، وهكذا يقول المقريزى « فـكانت قصة هذه المدرســة من أعجب ماسمع به فى تناقض القضاة وحكمهم بأبطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلاً مع الجاه ، وحرصاً على بقاء رياستهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون »[1]

* * *

وهذا مثل بارز يصور لنا مبلغ خضوع القضاء للسلطة التنفيذية وتأثره بأهوائها فى تلك العصور ، فلم يكن القضاء يومئذ هو ذلك الملاذ النهائى للحق والحرية ، ولم يك ثمة احترام لما نسميه اليوم بقوة الأحكام النهائية ؛ فما يفتى به اليوم تحقيقاً لرغبة سلطان أو أمير أو وزير ، يفتى غداً بعكسه تحقيقاً لرغبة السلطان الجديد أو وزيره ، ويقضى بهذه الأحكام المتناقضة نفس القضاة فى كل مرة . وما يقوله لنا المقريزى من ان بواعث هذه الحالة كلها ترجع الى ميل القضاة مع الجاه وحرصهم على بقاء رياستهم ، هو أصدق تعليل لهذا الصدع الخطير فى بناء الدولة ونظمها . ونستطيع أن نضيف الى قول المقريزى ، أن هنالك عاملا آخر له قيمته فى خضوع القضاء للسلطة التنفيذية على هذا النحو ، هو أن القضاء الأعلى لم يكن يتمتع فى تلك العصور بما أسبغ عليه فى العصر الحديث من الضمانات الـكفيلة باستقلاله وحمايته من تدخل السلطة التنفيذية وانتقامها ، وأهم هذه الضمانات كما هو معروف هو عدم قابليـة القضاة الأكابر للعزل أو النقل ، وعدم مسئوليتهم أمام أية سلطة أخرى ؛ ولـكن القضاء فى العصور الوسطى لم يكن يعرف مثـل هذه الطمأنينـة سواء فى الشرق أوفى الغرب ، وكان القاضى يخاطر دائماً بمركزه وجاهه ورزقه وأحياناً بحياته اذا لم يذعن لرأى السلطة التنفيذية وهواها ؛ ولم يكن يستطيع مغالبة هذا التيار الخطر أو تحديه سوى شخصيات قوية جريئة تستهين فى سبيل كرامتها واستقلالها بالخطر ، وهى شخصيات لا يقدم الينا تاريخ القضاء فى تلك العصور منها سوى القليل ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) راجع خطط المقريزى (مصر) ج ٤ ص ٢٥٣ — ٢٥٦

بردى . . .
والتـــاريخ العربى

للأستاذ على الطنطاوى

(بردى) سطر من الحكمة الالهية ، خطته يد الله على صفحة هذا الكون ، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت ، وروعة الماضى والمستقبل — وخصَّته للأمة العربية ، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية معجزة .

والله الذى جعل الآية المعجزة فى القرآن — هو الله الذى جعلها فى الأكوان

والله الذى أعجز ملوك القول ، وأمراء البلاغة ، بسُوَر من آيات وكلمات وحروف ، هو الله الذى أعجز قادة العقل ، وأئمة الفلسفة ، بسور من بحار وأنهار وكهوف .

وما (بردى) إلا سورة من قرآن الكون المعجز البليغ — وليس إعجازه فى أنه يجرى ؛ ولكن إعجازه فى أنه ينطق . وبان فى كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور ، وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمم : أمة ولدت فى حجره ، ورضعت من لبانه ، وحبت بين يديه ، ثم قويت واشتدت ، وبنت فأعلت ، وفتحت فأوغلت . ثم داخلها الغرور ، وحسبت أنها شاركت الله فى ملكه . فظلمت وعتت واستكبرت ؛ فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادى العدم ، فاذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة فى نفس بردى ، وأنقاض هينة فى أعماقه ، وصفحة أو صفحتان فى كتاب التاريخ . وإذا بأمة أخرى تخلفها فى أرضها ، وترثها مالها ، ثم يكون سبيلها سبيلها : فقام الفنيقيون على أنقاض الحثيين ، والكنعانيون بعد الفنيقيين ، والفرس بعد الكنعانيين ، واليونان بعد الفارسيين ، والروم بعد اليونانيين ، والغساسنة بعد الرومانيين ، والمسلمون بعد الغسانيين — ثم قام العباسيون على أثر الأمويين ، ثم قام صلاح الدين ، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين — ثم جاء فيصل بن الحسين ، ثم جاءت جيوش الفرنسيين .

هكذا يدور الفلك فى السماء ، ويدور السلطان فى الأرض ، فتنشأ من القبر الحياة ، وينطوى على الحياة قبر ، والسلسلة لا تنتهى ، والناس لا يعتبرون . . . و (بردى) يبتسم ساخراً من غرور الانسان ، ضاحكاً من جهالته . يحسب نفسه شيئاً ، فيضارع الكون ، ويتطاول بعقله الى الله ؛ وما هو من الكون إلا ذرّة من الرمل ضائعة فى الصحراء ، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر (بردى) .

***

(بردى) وهو يجرى على الأرض ، رمز لتاريخ الأمة العربية وهو يجرى فى الزمان . ففى كل قسم من بردى ، فصل من التاريخ :

يخرج (بردى) من بقعة فى (الزبدانى) منعزلة صعبة ، لا يبلغها إلا من كان من أبنائها عارفاً بمداخلها ومخارجها — كما خرج العرب من هذه (الجزيرة) الصعبة المنعزلة ، التى لم تلن إلا لأبنائها ، والتى ردت عنها الفاتحين كافة ، وجعلت رمالها قبراً لكل من يجرؤ منهم على وطئها ، على أنه لم يتجرأ عليها إلا كسرى ، فبلغ جيشه (ذى قار) ، ولكن الجزيرة قد ابتلعت هذا الجيش وهى تهتف لمحمد ، ثم لم يقنعها هذا الثأر ، فابتلعت دولته كلها فى (القادسية) تحت راية محمد ، . . وقالت للعالم : هذا جزاء من يطأ الجزيرة !

ويسير (بردى) فى غور عميق لا يخرج الى هذه الجنان الجميلة الفتانة التى قامت على مقربة منه ، يسلك قرارة الوادى ، تلتطم أمواهه وتصطدم : كما كان العرب فى جاهليتهم يصطدمون ويقتتلون ويشتغلون بأنفسهم عن العالم ، فلم يخرجوا الى الدنيا ، ولم تخضع لجزيرتهم جنات الشام ، ولا سهول مصر ، ولا سواد العراق .

ثم يبلغ (بردى) (الفيجة) وهناك تصب فيه أمواهها العذبة الصافية الزاخرة ، فلا تخالطه ولا يخالطها ، ويسير النهر خمسين متراً ، ومن إحدى جهتيه (بردى) القليل العكر ، ومن الأخرى (الفيجة) الكثيرة العذبة ، ثم يختلطان . فتضيع قلته وكدورته ، فى كثرتها وصفائها ؛ ويعـدو (بردى) قوياً عذباً زاخرا ، نحو أرض الورود والثمار .

كما صبت على الديانة الجاهليـة ، مبادئ الاسلام السامية ، فتجافى العرب عنها ، وأبوا أن يتبعوها ، وكادوا لأصحابها ، حتى غدت الجزيرة كبردى ، فيها المسلمون الموحدون المتحدون ،

والجاهليون المشركون المختلفون ، ثم مكّن الله لمحمد ، فخضعت له الجزيرة لم تخضع قبل لمخلوق ، واجتمعت كلها تحت رايته ، ولم تجتمع قبل تحت راية واحدة ، فقادها الى الشام والعراق ، الى أرض النخيل والأعناب .

ويبلغ (بردى) (بسّيمة) ويبلغ (الجديدة) فيسير بين بسيمة والجديدة ، فى أجمل البقاع على وجه الأرض ، ويسق هذه الخمائل فيكون شكرها إياه ، أفنان الورود ، وأغصان الأشجار التى تتدلى فوقه ، وتلمس خده لمساً رفيقا ، وتقبل جبينه قبلة طاهرة ، وهو يلين تارة فترى حصباءه من صفائه ، ويشتد أخرى فيرغى ويزبد ، ويكون له منظر مرعب ولكنه جميل ! مرهوب ولكنه محبوب !

كما كانت الأمة العربية بعـــد أن بسطت سلطانها على العالم القديم كله محبوبة مرهوبة فى آن ، يفزع أعداؤها من هيبتها ، ولكنهم يحبون عدلها ، وينتفعون بحضارتها . أغاثت بالعدل بقاع الأرض فكان شكرانها إياها ، هذه الأموال التى فاضت بها خزائنها ، وهذا النعيم الذى تفيّأ ظلاله أبناؤها ، وكانت تستقيم لها الأمور فتلين وتدع هذه الرقعة البسيطة من الأرض جنة يسعد بها أهلها ، ويسعد بأهلها أهل الأرض جميعا ، وكانت تستغضب ، فاذا غضبت غضب لها الدهر ، واذا سارت الى عدوها سار فى ركابها الموت والدمار أنى سارت : كانت تحمل فى يمينها السلام والسعادة ، وفى يسراها الموت والشقاء ، كما يحمل بردى بين (بسيمة والجديدة) الغيث والثمرات ، والطوفان والغرق .

ويبلغ بردى (الربوة) ويمشى حيال اليزبين ، ذلك المغنى الذى بنى من الشعر ، وولد فيه الشعر ، ثم استحال الى مقاه من عيدان تقوم على الخمر والقمر والعهر . . . وينقسم بردى الى أقسام سبعة قد انتـثرت نثراً بين عدوتى الوادى : يزيد ، وتورا ، وبردى ، وباناس ، وقنوات ، والديرانى ، وعقربا — منها القوى الممتلئ ، ومنها الضعيف القليل — كما انقسمت الأمة العربيـة الى طوائف وحكومات ، منها القوى المتين ، كحكومة صلاح الدين التى ردت — على صغرها — أوربة كلها يسوقها الجهل والتعصب ، وانتزعت فى (حطين) الفريسة من (قلب الأسد) ، وحكومة سيف الله التى هدّت فى (الحدث) حكومة الرومان هداً ، ومنها الضعيف المستكين وقد أزهرت الحضارة فى هذا العهـــد وأثمرت ، كما أزهرت الأشجار فى (الربوة) وأثمرت .

ثم يدخل بردى (دمشق) ، فلا يصفق بالرحيق السلسل ، ولا يتمايل على الورود والرياحين ، بل يصفق بالأوحال والحشائش ، ويميل على الأقذار والأوساخ ، ويشح ماؤه ويضعف ثم يضيع ويضمحل ، كما ضاعت عزة العرب ، واضمحلت . . .

ثم يخرج الى (الغوطة) فاذا نشق نسيمها عاودته الحياة ، ونشأت فى مجراه الجاف الصلب ، عيون وينابيع ، فاذا بلغ (جسر الغيضة) عاد قوياً زاخراً عذباً — كما عادت الأمة العربية اليوم الى الحياة ، ورفعت فى الشام ومصر والعراق صروحاً جديدة . لن تلبث الا قليلاً حتى تكون خالصة لأصحابها . من دون الناس أجمعين !

* * *

وبعد ، فهل أحزنك يابردى انك اليوم ضائع فى أهلك ، لا ترى حولك عزة العروبة ولا جلال الاسلام ؟ كلا ، لا تحزن يابردى فما أنت وحدك المضاع ، ان هنا أمة بقضّها وقضيضها ، هى مثلك مضاعة ، وهى مثلك بنت المجد والسؤدد .

لا تحزن يابردى ! فلقد عشت حيناً من الدهر ، وأنت تسق النيل والفرات وسيحون والوادى الكبير . . . أفيضرك وأنت من لدات الدهر ، أن تذل ويذل أهلك أياماً .

لا تحزن يا بردى ، بل اصـبر حتى اذا أعجزك الصبر ، فثر بأمواهك ، وليضطرم موجك حتى تغسل عن قومك عار الذلة والخنوع ، انه لا يغسله الا ثورتك . هذه سنة الحياة يا بردى : لا بالحق ولكن بالقوّة .

واذا غرّهم منك لينك ، فأرهم شدتك ، إن الماء على لينه يجرف جبلاً على جبروته وكبريائه ، ولقد ثرت مرّة . فبلغ رشاشك بواتيه من هنا ، وحيدر آباد من هناك : فهل استنفدت تلك المرة قوتك كلها ؟ أما فيك بقية من الشباب ؟ أتعبت اذ تجرى هذه الملايين من السنين ؟ إنها فترة صغيرة من عمرك ، فعلام الونى ؟ انك لا تزال شاباً . ولم تنس بعد جيش خالد ولا موكب الوليد ، لقد كان ذلك أمس . وسيكون مثله فى غد .

فاصبر ولنصبر يا بردى ! إن الصبر مفتاح الفرج يا بردى . . .

دمشق — على الطنطاوى

آراء حرة

القصة فى الأدب العربى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب فى الطبع الانسانى . ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهوراً ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر فى الآداب الأوربية الحديثة إلا أخيراً . ولذلك أسباب منها الوهم الذى وَقَرَ فى نفوس الأدباء المتقدمين وان يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحا : أعني توهم أن القصة إن هى إلا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقى أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب القدير أن يتدلى اليها

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخيـــة والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسِّيَر دون كتب القصص ، ومن ثم أيضاً لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيـــدين إلا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التى اليها يقصد : إما باعطاء القصص مغزى وعظياً كما فى كتاب كليلة ودمنة ، أو بالباسه ثوباً قشيباً من الصناعة البلاغية كما فى مقامات الهمذانى والحريرى ، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص فى كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعى فى الانسان ، وتُتداول بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمتوهين

بيد أن القصة إن انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوربية الحديثة الى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التى تؤثر فى النفوس لا من طريق الميل الطبعى الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هى الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هى الثوب الخيالى الشعرى الذى أسبغ على تلك الروايات التمثيلية . ثم التفتت رويداً رويدا الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شؤونه وتصوير أخلاق أفراده ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فإلام يعزى ذلك ؟ يعزى الى أمرين : أولهما ايجابى هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ، وثانيهما سلبى هو مكانة الشعر لدى العرب

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائماً بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون فى تقلباته السياسيـــة والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطني فى العربية وإن كثر الأدب العصبى ، وندر الشعر الاجتماعى ، وكان جل شعر الشعراء فردياً يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بذم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أولياء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمـدون عليهم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضا الشعب ، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء فى معالجة شؤون المجتمع وتحليلها ومحاولة إصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقم فى العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذى من الأدباء الانجليز الذين جعلوا اصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولاريب أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصـة التى تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصة الحديثة فى أوربا فى القرن الثامن عشر إلا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التى سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب — والتى لعله لم ينلها لدى أمة أخرى — فانها ثبطت ماعدا الشعر من صور الأدب ، فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كأبى نواس إلى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلاً على شخصيته ستاراً رقّ أو كثف ، ولربما كان منه فى العربية نظير لموباسان فى الفرنسية ، ولكن الشعر

كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس فى سلوك السبيل التى سلكها ابن أبى ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصى أو القصص المنظوم شعراً

إن الناظر فى أدب العرب وتاريخهم لايسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أنّ الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم حتى طغى على مادونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته — برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع إلى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لا نصرفوا إليهما دونه أو لمارسوهما معه

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى الرسالة أخيراً يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يَعْدُ أنْ أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يُفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لانرى له باقية ولا يمكث له أثر فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل إلى إثبات وجوده إلا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقريزى تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين إحداهما كأنها داخلة فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فانّ تفاخُر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له وإسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها فى كتابه ، كل ذلك لايدل على إرتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصُّناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق إلى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية

إن صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى أُلفت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحياً لوردزورث وتنيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحياً لسينية البحترى ؟

لن نظفر بشىء من ذلك إذا طلبناه ، ولن يسعنا إلا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارىء تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان .

فخرى أبو السعود

خصـــومة

للأستاذ توفيق الحكيم

بعثت اليه أول النهار بالرسالة التى سماها « باقية على الدهر » ثم أويت آخر النهار الى بيتى فوجدت اسطوانات « بيتهوفن » التى استعارها منى قد ردها الى ، فعلمت أنها القطيعة . فوقفت واجماً فى مكانى وزالت آثار الغضب ولم يبق فى نفسى الا ألم عميق : لقد انتهى كل شىء بينى وبين الدكتور طه حسين . . ولم أستطع أن أقرأ شيئاً فى ليلتى ، وما أن أقبل الصباح حتى أوفدت الى الدكتور طه حسين صديقين كريمين يحادثانه فى أمر الرسالة ، فاذا به قد دفعها الى المطبعــة ، واذا به يأبى الا أن يعلن الخصومة الى الناس . وحاول الصديقان عبثاً أن يحولا بينه وبين هذا الاعلان . وحاولا عبثاً أن يقنعاه بابقاء الخصومة سراً بيننا حتى يعرض أمرها على الأستاذ الجليل لطفى السيد بك وكلانا ولده وهو أولى من جمع بين القلوب النافرة لو كان الى ذلك سبيل . لكن الدكتور طه أراد أن ينتقم فتناول القلم ووضع قصـــة روى فيها ما كان من أمرى وأمره

قرأت القصة فدهشت . أى روعة وأى ابداع ! إنها فى ذاتها أثر من آثار الفن الخالد ، إنى أشهد أنها عمل فنى عظيم . فيها من سعة الخيال وروعة الأسلوب ما يضمن لها البقاء . إنها هى التى ستبقى على الدهر

لقد أعجبت حقيقة بهذه القصة اعجاباً شديداً . وهى عندى من أقوى ما كتب الدكتور . ولقد أنسانى إطارها الأدبى ما احتوته

من اتهامات قاسية . وماذا يهم ؟ إن شخصى ليس يعنيني كثيراً ، كما أنه ليس يعنى صديق الدكتور منذ اليوم . انما الذى حفلت به حقيقة وأحفل به الآن . هو تلك القطعة التى تشيع الحرارة فى جوانبها ، ويمتلئ أسلوبها بحرارة مؤلمة . قطعة لا ينساها من يقرؤها . وأغلب ظنى أن الدكتور قد أصر على نشرها لأنه يعلم انه قد كتب شيئاً جميلاً : وانى الآن لأرضى أن يضحى شخصى الزائل فى سبيل ظهور هذه القطعة الباقية . على أن القارئ وقد فرغ من القصة لابد يسأل نفسه : ما كل هذا الذى بين توفيق وبين الدكتور ؟ وانى أمد القارىء بالجواب فأقول : لا شئ فى رأيى غير صداقة لايمكن أن تزول لأنها صلة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الاعلى : جمال الفن والحقيقة ، ولئن قامت خصومة بيننا اليوم أو فى الغد ، فهى خصومة من أجل الرأى والتفكير ، إن الشخصية الحرة هى كل مايحتاج اليه الأديب الحقيق . ومهما يكن من قيمة الصداقة الأدبية العظيمة لاينبغى أن تفتات على هذه الحرية . إن الدكتور طه حسين العميد الرفيع المقام ، والزعيم الجليل الشأن فى أدبنا العربى الحديث يفهم هذا حق الفهم . وإنه ليعلم أنى أقدره أحسن تقدير وأضعه من نفسى فى أسمى مكان وأحفظ له على الزمن ما أسدى إلى من جميل ، ولا أنسى أنه هو الذى ألقى الضوء على وجودى . غير أنه يخطىء إذا فهم أن صداقتى له معناها التزام موافقته على كل رأى أدبى يبديه ، والتسليم والتأمين على كل ما يخرج من قلمه أو من فيه . ان الحكم المطلق إذا صلح فى دولة السياسة فهو لا يصلح فى دولة الأدب . وانى لا إخال صديق الدكتور طه نفسه يرضى لى أو يرضى لفنى وتفكيرى هذه الحرية المقيدة . هذه هى كل الخصومة التى بينه وبينى . فهو قد استاء منى إذ عارضته فى بعض آرائه فى مقالات نشرت فى «الرسالة» أو فى « المصور » وفاته أنى أجد لذة عقلية فى معارضة منطقه السليم وآرائه المستقيمة دون أن أحفل بالنتائج . ولقد استاء كذلك منى يوم أخرجت الطبعة الثانية من « أهل الكهف» بغير مقدمته ، وعقيدتى أنه على حق فى هذا الاستياء لو أنه فهم من تصرفى أنى قصدت خدش كبريائه ، أو أنى رأيت أحداً غيره أولى منه بهذا التقديم

أما وقد فهم أنى لم أقصد هذا ولا ذاك ، وأن الحقيقة لاتعدو أنى شخص بسيط لاأمقت شيئاً فى الأدب مثل المقدمات ، وأنى روح حر يأبى أن يقيد نصوصه بتفسيرات ، فضلا عما قام فى ذهنى يومئذ من ابطائه أنه غير جاد فى وعده بالمقدمة . فهل تراه يصر بعد ذلك على اتهامى بسوء القصد ؟ . انى أحب الحرية ، حرية التصرف ، وحرية الكلام ، وحرية ابداء الرأى . وأعتقد أن أثمن كنز يغدقه المجتمع على رجال الفن هو « الحرية » ، وأعتقد أن خير هدية أهديها صديقى العزيز على ، هى « الحرية » ولقد بلغ من اخلاصى فى صداقتى لطه حسين أن أعطيته «حريتى» . فهو لن ينسى أنى ما أتصرف فى عمل أدبى بغير رأيه ، وما استشارنى أحد فى أمر يتصل بكتبى إلا أحلت الأمر عليه ، وانتظرت كلمته فيه . على أنى أحب من جهة أخرى أن أستعير بعض هذه الحرية أحياناً لأناقشه فى فكرة من الفكر ، أو أحاوره فى مسألة ، أو أرد عليه فى مقال . فأنا كما يعلم الدكتور طه ذو طبيعة لا تسير على نظام .

إنى أعطى كثيراً ثم آخذ فجأة ، ثم أعود فأرد ما أخذت . وعلى صديق أن يكون رحب الصدر ، سخى النفس كمصرف فتح لى فيه حساب جار . وإنى أشهد أن الدكتور طه يحمل نفساً من أنبل النفوس وأندرها ؛ ولقد سجلت هذه الشهادة فى قلبى قبل أن أسجلها فى كتابى الفرنسى الذى بعثت به اليه منذ شهرين . غير أن الدكتور لم يعرفنى حق المعرفة ، وأراه يأخذ بعض تصرفاتى على سبيل الجد ، حيث لا ينبغى أن تؤخذ على سبيل الجد . ولست أدرى ماذا كان يضيره لو أنه غضب ما شاء من رسالتى العنيفة ثم مزقها دون أن يحفل بها ، ودون أن يعلن أمرها للناس ، ودون أن يدخل الناس بيننا ؛ وهو يعلم لو رجع الى قلبه أن لا شىء فى هذا الوجود يستطيع أن يحول بينى وبينه ، ومع ذلك فان هذه الرسالة الغريبة قد أدت الى الأدب العربى أجل خدمة ، فهى التى ألهمت الدكتور كتابة قصة من أروع القصص ، وإنى أؤكد للدكتور أنها خير نموذج للون جديد فى الأدب كان ينبغى أن يوجد . وأخشى أن تحدثنى نفسى بتكرير فعلتى كلما تاقت نفسى الى متعة فنية ، وكلما آنست فى انتاجنا الحديث فراغا .

وبعد ، فيا صديق الدكتور أنا محزون حقا . فقد فكرت ، فاذا خطيئتى بديهية ، فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أبعث بتلك الرسالة . فماذا ترى فى موقفى منك ؟ ويزيدنى حزناً لطفك حين تتجاوز فى سهولة وكرم عن كل هذا .

إنما أنت فى حقيقة الأمر فنان كبير ، فنان حقا . وإنى لأعترف بأنى لم أمنح هذه النفس ، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك .

الرسول صلى الله عليه وسلم

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت في عدد الرسالة الذي صدر بتاريخ الأثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ باباً من القصص الشعري عن (اسلام حمزة) رضي الله عنه وقد وضع هذه القصة واضعها وهو يقصد بها — إن شاء الله — خيراً . إلا أن طريق الخير إلى ما قصد إليه قد التوى به التواء يذهب بكل ما عمد إليه ، فانه وضع على لسان الرسول شعراً نزهه الله عنه بقوله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . ثم يلي ذلك أنه قد وضع على لسانه ما لم يقله صلى الله عليه وسلم

وليعلم صاحب هذه القصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ويقول « من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . فكيف بصاحبنا وهو ينطقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يقله . ثم يكون ما أنطقه به من الكلام مصوغاً في القالب الذي نزّه الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

وهذه المسألة مما يريد بعض الناس أن يختلوا بها عن حقائق الكلام ليستحل ما لا يحل أبداً . وهم يراودون الناس فيها عن عقولهم أولاً ثم عن إيمانهم ثانياً . لينقادوا لهم في الرضا بها والمتابعة عليها . . . والمسألة لو تناولت أحداً غير صاحب الرسالة لقلنا عسى ولعل . . . ولنظرنا في المخرج الذي يتأولونه نظر المنطق ، ولكنها تتناول إنسانية وحدها قد جعلها الله بمنزلة فوق منازل سائر البشر ، وإن لم تخرج عن منزلة البشر في أعراض الحياة وما يكون فيها وما يأتي منها .

إن إنسانية الأنبياء وحدها هي الانسانية التي أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولاً . ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانياً . ثم يحترس ويتدبر فيما ينقل عنها أو يصفُ منها ، لأن نسبة شيء من الأشياء إليها قد يكون مما يتوهم أحد منه وهماً يخرج — فيما يُقبل من أمر الدنيا — بحقيقة الرسالة التي أرسلوا بها عن القانون الالهي الذي عملوا به ليحققوا كلمة الله التي تعلو أبداً ، وتزهر دائماً ، وتبقى على امتداد الزمن روح الحياة البشرية وميزان أمر الناس في هذه الدنيا

وليس يقال في قصة صاحبنا أو غيرها أن ما أنطق به الرسول لا يتناول تشريعاً أو أدباً أو حكمة ، وإنما يتناول الكلام المتعاطى بين الناس فليس به من ثم بأس . . . ليس يقال مثل هذا لأن التشريع حين يوضع ويراد به سد أبواب من الشر والفتنة يأتي منعاً مصمتاً لا مدخل فيه ولا ثغر حتى يدفع المحزبين والمفسدين والعابثين ويضرب على أيديهم من كل ناحية . ولو كان الأمر على غير ذلك لتناول كل لص مفتاح الباب الذي يريد أن يدخل منه إلى عقول الناس ليستغرهم ويزلزلهم من جنة الايمان الى جحيم الالحاد في الدين من الطريق الخفي الذي لا تبصر فيه العامة ولا تهتدي به إلى أرشد أمرها في الحياة

فنحن هنا نتقدم الى الأستاذ صاحب القصة بأن يتدبر ما شاء . فهو سيدع ما سلك الى سبيل أهدى . فإن الأدب الذي له نعمل لم يقتصر ولم يضق حتى ندع ما أحل الله الى ما نهى عنه . ونترك سبيل الرشاد الى سبيل تنحدر بنا الى هاوية لا قرار لها . ولا عاصم منها .

محمود محمد شاكر

والیك الآن ما تمت عزيمتي عليه اذا احتفظت بغضبك عليَّ فسأعرض عن كل حياة أدبية » . **توفيق الحكيم**

تعليق

نقلنا في العدد الماضي عن الوادي ما سماه صديقنا الدكتور طه « قصة تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم » ، لأن (الرسالة) كانت مسرحاً لهذه الرواية ، فمن حق قرائها الذين لا يصل اليهم الوادي أن يشهدوا فصلها الأخير ، ولأن (الرسالة) سجل لألوان الأدب الحديث ، فمن حق الأدب أن نسجل في تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدّي فيه كاملاً غير منقوص . ولهذين السببين نقلنا أيضاً عن الوادي ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم تعليقاً على تلك (الرواية) ، وانه ليسرنا أن نسجل كذلك أن الود قد اتصل بين الصديقين الكريمين ، وأن الدكتور طه قد أعلن في الوادي (أن ما كان بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينه من خلاف قد انتهى أمره ومحي محواً بعد ذلك الكتاب الرقيق)

أما هذا الذي نشره في الوادي صديق طه وسماه عتاباً فهو من الأمور التي تسمى بغير أسمائها وتجري على غير أوضاعها في هذا العهد العجيب الذي استغل الناس فيه كل شيء حتى حياء الحيي ووفاء الوفي وتسامح الصديق . **الزيات**

فى الريف

بقـــلم عبد الرحمن فهمى

ليسانسيه فى الآداب

اذا أردت أن تمتع النفس بجمال الطبيعة فانك لست واجداً هذا الجمال فى المدينة لأنها دائمة الصخب والضجيج ، مشتبكة المصالح العامة والخاصة بشباك يتعذر على المرء الولوج منها الى حيث الحرية الطبيعية التى وهبها الله عباده . ولا شك أن المدنية أحد العوامل التى أرخت ظلها الثقيل على جمال الطبيعة فى المدن . بل إن هذه المدنية نفسها هى التى اضطرت ابن الطبيعة إلى أن يعقها إرضاء لشهوة المادة ، حتى إذا سئم حياة المدينة — وسرعان ما يملها لأنها حياة مضنية للعقل والجسد — تطلع إلى الطبيعة وارتمى فى أحضانها إلى أن يرتوى ببهائها .

وجمال الطبيعة فى مصر يتجلى فى الريف والصحراء والبحر بصورة جلية واضحة ، وقد ذقت لذة الجمال فى كل فطبت نفساً بهدوء الريف وسذاجته ، وأخذتنى روعة الصحراء ورهبتها ، ورقصت مع أمواج البحر وأعجبت بعظمته ، ولكنى لم ألق جمالاً أكثر تأثيراً فى النفس مثل جمال الريف الطبيعى .

ولا عجب إذ ترانى أقضى بعض أوقات فراغى فى قريتى بالمنوفية وهى قرية صغيرة بحجمها كبيرة بتاريخها ، ومن أبنائها العالم الكبير ، والوزير الخطير ، والمدير القدير ، ونسبة المتعلمين فيها طيبة . فاذا حللت بها نسيت كل شىء إلا الجمال : فهذه حقول واسعة تتزيا فى كل موسم بلباس خاص قد يكون أخضر سندسياً مسترسلاً موشى بالأبيض اللامع والأصفر الفاقع فى موسم البرسيم الجميل ، وقد يكون ذهبياً براقا عند ما تنضج سنابل القمح والشعير إيذاناً بالبركة والخير الجزيل ، وقد يكون أبيض صافياً عند ظهور وبر القطن ثروة القطر وأمل الجميع ، وقد يأبى هذا اللباس إلا أن يكون ذا خطوط متقاطعة أو متوازية عند إطلاق الماء فى المصارف قبل أن ينبت الزرع . وهذه دور ساذجة تقرأ فيها كل أخلاق القروى من بساطة العيش ووداعة النفس وشىء من الدهاء مقرون بالسذاجة ، ونوع من الاهمال ممزوج بالجهل ، يشرف على هذه الدور جميعاً مئذنة مسجد صغير ينبعث منها كل وقت صلاة صوت مسترسل عذب يدعو المؤمنين إلى ربهم .

ويعجبنى جمال الخلق الذى عفا معظمه فى المدن ، فالفضيلة لا تزال حافظة لكيانها فى القرية ، فلا بغاء ولا فحش ، ولا يمكنك أن ترى قروياً ثملا فى أحد طرق البلدة ، بل إن أغلب القوم متمسكون بالعروة الوثقى . والشرف ظاهر فى جوانب الحياة ، والكرم والسخاء صفتان ملازمتان للقروى والقروية .

توقظك فى الصباح الباكر صيحات الديكة المتناوبة ، وزقزقة العصافير المرحة ، فاذا أطلّت الشمس من خدرها مؤذنة بالحياة والكد والعمل ، خرج الفلاحون من دورهم إلى حيث انعامهم فجهزوها ورووها بالماء وقادوها إلى العمل طوال النهار ، ويعطف القروى عليها ويحنو ، عطفاً كبيراً وحنواً زائداً ، ولا عجب فهى ذراعه اليمنى التى يعتمد عليها فى حياته ، تطعمه وتهيىء أرضه للزرع .

ينعم الفلاحون فى الحقل بكثرة العمل ونقاء الهواء وضوء الشمس إلى أن يؤذنهم غروبها بوجوب العودة إلى دورهم وهم فى ذلك أيضاً أول ما يعنون به بهائمهم يقودونها إلى حظائرها وينثرون أمامها التبن والفول أو البرسيم والعشب ، أما هم فتمد لهم ألوان الطعام على الأرض وهو طعام دسم كثير وهو الوجبة الوحيدة التى يعتمدون عليها فى غذائهم فضلاً عن وجبة أخرى أو وجبتين من الخبز والجبن المخزون .

وفى العشية والمساء يجتمع أهل القرية جماعات فى البيوت أو خارجها على المصاطب يتسامرون ، أو يهيئون صفقة بيع أو يتفقون على رى قطعة من الأرض بعد قطعة ، أو يصلحون بين متخاصمين وتلحظ عليهم جميعا روح المعاونة والحب .

وعلى ضفة النهير الذهبية برملها المبلور اللامع ترى الفتيات النواهد الحسان كلهن فى جلابيبهن السوداء قد بدون سافرات الوجه فى زينة طبيعية جميلة ، وما أجمل الوجه القروى الناعم الذى لم تعمل فيه يد صناع ! وقد حملن فوق رؤوسهن الجرار ، هذه تغسل جرتها وقد ارتسم جسمها الجميل على صفحة الماء الصافى ، وتلك تغترف من الماء ما هى فى حاجة اليه ، وضفة النهر فى هذه الفترة من كل يوم فى نظرى ناد لأولئك الفتيات يتقابلن فيه ويتحدثن

عنده ويستعرضن يومهن الذى خلا ، وقد يغنين بصوت متناسق جميل أناشيد قروية طريفة :

وأظهر ما تلحظه فى القرية اليوم نوع من الركود المالى ، فبعد أن كانت عقب مواسم الحصد نشطة بحركة بيع المحصول بالأثمان العالية أصبحت متأثرة بالأزمة ، فأسعار رزق الفلاح رخيصة ، وديونه كثيرة ، وموارده قليلة ، وقد نتج عن هذا هجرته الى المدينة باحثاً عن عمل يلقى منه أجراً يومياً أو راتباً شهرياً .

وتقام فى القرية رغم هذا سوق أسبوعية تعرض فيها أنواع التجارة فيبتاع القرويون ماهم فى حاجة اليه من أقمشة أوبضاعة . ويبيعون ماهم فى غنى عنه من الغلال أو الطيور أو الزبد . ويفد اليها كثير من أبناء القرى المجاورة يبتاعون ويبيعون .

ومنذ بضع سنوات لم يكن بالقرية محطة للسكة الحديدية ، أو دار للشرطة ، أو مكتب للبريد والبرق، وإنما كان المسافرون يحتملون عناء السفر بركوب ظهور الدواب ومتن النهر الى أن يصلوا الى محطة بعيدة يستقلون منها القطار ، وكان ساعى البريد الجوال يصل الى القرية كل يوم على حماره فينفخ فى بوقه فيهرع القوم اليه ويقرأ عليهم الأسماء فيتناول منه كل صاحب رسالة رسالته ، أما اليوم فأسباب المواصلات موفورة .

ويثلج صدرك بعض الشىء أن ترى بالقرية اليوم مكتباً للتعليم الالزامى ، وفكرة ناجحة فى النفوس عن خطر الأمراض لا سيما (الرمد ، والبلهارسيا ، والانكلستوما) وغيرها ، ورأيى أن أفضل ما تقوم به حكومة مصرية هو ترقية شئون الفلاح وأحوال القرية ، لأن الفلاحين هم كثرة سكان مصر ، ولأن القرية هى مورد ثروة البلاد الأساسى .

عبد الرحمن فهمى

---

٦ – أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

السيد على الببلاوى

المالكى

هو على بن محمد بن احمد المالكى الحسنى الادريسى من ببلاو ، قرية تابعة لعمل ديروط الشريف التابعة لمديرية أسيوط ، ولد بها فى شهر رجب سنة ١٢٥١ ونشأ بها فحفظ القرآن ومبادئ العلوم وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عليش ، والشيخ منصور كساب ، والسيد محمد الصاوى ، والشيخ على مرزوق ، والشيخ ابراهيم السنجلفى ، والشيخ احمد الاسماعيلى ، والشيخ محمد الانبابى ، والشيخ على بن خليل الأسيوطى ، وكان له به نوع اختصاص فى الحضور ، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونه النواوى ، فكانا يسكنان معاً ، ويحضران معاً الدروس إلا فى درس الفقه فان المترجم كان مالكياً والشيخ حسونه حنفياً . ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس فدرس بالأزهر والمسجد الحسينى الكتب المتداولة ، وفى سنة ١٢٨٠ سافر للحجاز فحج ، ثم استخدم بدار الكتب الخديوية بالقاهرة مغيراً ، حتى كانت الثورة العرابية ، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين فى المناصب الكبيرة فساعده صديقه ومريده محمود سامى باشا البارودى على اقامته ناظراً على هذه الدار سنة ١٢٩٩ فتمت له نظارتها بعد ما سعى كثيرون لها فلم يوفقوا .

ثم لما هدأت الأمور وأطفئت الفتنة كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين للعلم بأنه من صنائع البارودى ، ولكن الله سلمه ، ولم يشأ الخديو أذاه لاشتهاره عنده بالصلاح والتقوى والبعد عن الفتن فاكتفوا بفصله من دار الكتب وجبروا خاطره بالخطابة فى المسجد الحسينى ، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد فى ثانى صفر سنة ١٣١١ . ولما غضب الخديو على السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره

بالاستقالة من النقابة فاستقال ، سعى للمترجم صديقه ورفيقه فى الحضور الشيخ حسونه النواوى ، وكان اذ ذاك رئيساً لمجلس ادارة الأزهر قبيل اقامته شيخاً عليه ، فقبل الخديو منه وأقام المترجم نقيباً للأشراف فى ٦ شوال سنة ١٣١٢ فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية ، وصار يصرف الاستحقاقات فى أوقاتها ، وسئل فى رياسة الخدمة بالمسجد الحسينى فقال ان كانت النقابة تمنعنى من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها فأبقى كما كان

وأقام المترجم فى النقابة نحو ثمانى سنوات يجدد من معالمها ، ويحيى ما درس منها ، حتى نقل منها شيخاً الى الأزهر ، وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ ، وأراد الخديو اعادة الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعى فلم يوافق النظار على ذلك ، فرشح الشيخ احمد الرفاعى المالكى وأعلمه بذلك ، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت ، ثم سعى الشيخ على يوسف صاحب صحيفة المؤيد ومن أكبر المقربين من الخديو للشيخ امين المهدى بن العلامة محمد المهدى العباسى فرد عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم توليته أموراً قبل الآن ، فأجاب بأنه وان كان كذلك فهو من بيت علم وغنى ، تربى فى نعمة فلا تطمح نفسه لشىء مما فى الأيدى ، وتدربه على الأمور قريب مدرك فرضى الخديو به ، ولكن النظار لم يوافقوه عليه لأمور نقمها عليه ناظر الحقانيــة مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسبى فحار الخديو وحنق ، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه وجنح الى توليته ، ولم يكن قد خطر على بال أحد ، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك ليتمكن من رد السيد محمد توفيق البكرى الى النقابة فتم له الأمر ورضى به النظار وأعيد البكرى الى النقابة مضافة الى ما بيده من رياسة الطرق الصوفية وصدر الأمر فى ٢ ذى الحجة باقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم ، فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محموداً والتمس اقامته شيخاً على المسجد الحسينى بدله ، كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيباً له فقبل ملتمسه وأجيبت رغبته .

وكان الخديو فى ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس ادارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه ، فكان يظن ان المترجم يوافقه فى معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه ، فأخطأ ظنه ، لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ووافقه فى كل مشروع ، واتحد به واندرج فيه حتى لم يكن له من الرياسة غير رسومها ، والكلمة كلمة المفتى ، وعوتب فى ذلك من أحد المقربين فاعتذر بأن الرجل لا يريد غير الاصلاح فلا يرى وجهاً لمعارضته ، فكان ذلك سبباً لميل الخديو عنه بعد اقباله عليه ، وضعف المفتى عن معاندة الخديو ولم يجد من الانكليز المساعدة التى كان يرتكن عليها فعزم على نفض يده من الأزهر ، ورأى المترجم أن الأمور لا تجرى على مرغوبه فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ فأقيل يوم السبت ١٢ منه وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى واستقال أيضاً المفتى من مجلس الادارة مرغماً .

وأقام بعد ذلك المترجم بداره التى بجهة المناصرة بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراً مصرياً من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر ، مواظباً على كثرة تلاوة القرآن كعادته ، مقبلاً على العبادة حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣ ، وتوفاه الله فى غروب يوم الجمعة الثالث من ذى القعدة من تلك السنة فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت وصلى عليه بالمسجد الحسينى وطيف به حول المقام كوصيته ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى بستان العلماء رحمه الله رحمة واسعة . وله من المؤلفات رسالة اسمها الأنوار الحسينية على رسالة المسلسل الأميرية ، ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان ، لولده السيد محمود تعليق عليها سماه عروس العرفان فى الحث على ترك البدع وشوائب النقصان على الرسالة الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان .

وأعقب المترجم من الذكور ولدين كبيرهما السيد محمد الببلاوى سعى له والده حين انفصاله من نظارة دار الكتب فجعل مغيراً بها ثم جعل وكيلاً لها وخطيباً للمسجد الحسينى ونال درجة العالمية الثانية بالأزهر ، ثم جعل بعد ذلك نقيباً للأشراف . والآخر السيد محمود جعل شيخاً للمسجد الحسينى لما أقيم والده شيخاً للأزهر ثم جعل بعد ذلك شيخاً للمسجد الزينبى .

الشيخ أحمد الرفاعى

المالكى

اشتغل بالحضـــور فى الأزهر على مشايخ وقته حتى تأهل للتدريس فدرّس الكتب المتداولة ، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه الآن كالشيخ محمد عبده والشيخ محمـد بخيت والشيخ أبى الفضـل الجيزاوىّ والشيخ محمد حسنين العـدوىّ والشيخ محمد النجدىّ الشرقاوىّ وغيرهم ، وقد أصبح فى أواخر أيامه وليس فى الأزهر إلاّ من هم تلاميذه أو فى طبقتهم إلاّ الشيخ الشربينىّ والشيخ البشرىّ

وكان من عادته ألا يقطع الأقراء طول السنة ولا يسامح فى أوقات المسامحات ولا يقعده عن الاشتغال إلاّ المرض ، فقرأ الكتب المتداولة مراراً ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله حتى صار المستعصى منها عنده بمنزلة السهل عند غيره . وأتقن فنّ التجويد فجعل شيخاً على القارئ مدّة طويلة . ولمّا أقيم الشيخ حسونه النواوى شيخاً على الأزهر فى المرة الأولى ولم يجد إقبالاً من علمائه صاحبه المترجم وتحبب اليه ولازمه فى غدواته وروحاته . ثم لما انحرف الخديو عباس باشا الثانى عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس ادارة الأزهر وأراد كف يده عنه ساعده المترجم على ذلك وأخذ فى معاكسة الشيخ وتدبير المكايد له ، وتنفير الأزهريين منه ، وتقرب من الخديو وأكثر من التردد على قصر القبة ومداخلة الحاشية حتى حظى عنده وأقبل عليه إقبالاً عظيماً ، فلما عزل الشيخ سليماً البشرى عن الأزهر فى ٢ ذى الحجـة سـنة ١٣٢٠ وأراد إرجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار ، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له فعاد الى داره جذلاً وأشاع الأمر وهيأ السكر لشرب المهنئين والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار ، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخـديو صرفه عن توليته وذكر عنـه هنات الله أعلم بها ، فعدل الخديو عن تنصيبه الا أنه التمس لنفسه مخرجاً من وعده الذى وعده به فأعمل بعض المقربين الحيلة واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله للتولية فقال لهم نعم ولأنى مولاى وقبلت ، فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر والمشاق التى يعانيها شيخهم لاخضاعهم ولحوا له بأنهم لا يظنونه يقوى عليهم فقال ومن أهل الأزهر ، أنا أدوسهم بقدمىّ فقالوا إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الـكريم سلمان العضوين بمجلس الادارة فهل ترضى بأن يشاركاك فى الادارة ؟ وكيف يكون شأنك معهما ؟ فقال كلا لا أرضى بأن يشاركانى بل أشترط لقبول التولية عزلهما وهما عندى كافران لا يوثق بهما ، فاستغرب الخديو فى الضحك وقال شرطك لا يمكن تنفيذه ، ونحن نريحك من رياسة الأزهر ونعوضك عنها بشئ نجريه عليك من الأوقاف فأسقط فى يده ورضى مرغماً ثم صرفوه .

ثم وقعت منه فى أواخر أيامه زلّة ، قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرعى ولـكن الله لطف به فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من القارئ ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة فى هذه المسئلة ، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه الى أن توفى بعد ظهر يوم الاثنين ١٨ صفر سـنة ١٣٢٥ ودفن يوم الثلاثاء وأذنوا له على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة ، وكان قصيراً دحداحاً خفيف الحركة رحمه الله تعالى وتجاوز عنه .

وله من المؤلفات حاشيته على شرح بحرق على لامية الافعال لابن مالك طبعت بمصر .

قس بن ساعدة الأيادى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى
مدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر

نسبه : قال أبو حاتم السجستانى هو قُسُّ بن ساعدة ابن حذافة بن زفر أو زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد نقل ابن حجر العسقلانى فى كتاب الاصابة هذا النسب عن أبى حاتم ولكنه ذكر جُذَامة بدل حذافة ، وقال صاحب الأغانى هو قس بن ساعدة بن عمرو أو شمر أو عمرو بن شمر بن عدى بن مالك ابن ايدعان بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن زيد مناة بن مهدم أو يقدم ابن أفصى بن دعمى بن إياد ، فبينه وبين إياد على القول الأول ثلاثة آباء ، وبينهما على القول الثانى اثنا عشر أبا أو ثلاثة عشر أبا ، وقد يكون النسب الأول هو الثانى مع اختصار فيه ، ولكن يبعد هذا وجود أسماء فيه لا توجد فى النسب الثانى ، فلا يكون مع هذا مختصراً منه ، ولعل كلا من هذين النسبين يمثل رأياً من رأيين فى قدم قس أو قربه من زمن ظهور الاسلام ، فقد ذكره أبو حاتم فى المعمرين ، وحكى أنهم قالوا إنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، ونقل المرزبانى عن كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة ، ونقل الابشيهى فى كتاب المستطرف أنه عاش سبعمائة سنة ، فهو إذا كان قد عاش قبل الاسلام هذه القرون الطويلة (٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة) فلابد أنه لم يكن بينه وبين إياد الا نحو هذه الثلاثة الآباء ، وإذا كان لم يعمر قبل الاسلام إلا الحد المعقول فى معمرى عصره فيكون بينه وبين إياد ما ذكره صاحب الأغانى من تلك الأصول ، وقد يكون قس على القول بقدمه إلى ذلك الحد لم يعمر أيضاً إلا التعمير المعقول ، فلا يكون بينه وبين إياد إلا تلك الثلاثة الأصول ولا يكون من رجال ذلك العصر الجاهلى الذى كان قبيل الاسلام ، بل يكون عصره أبعد فى القدم منه ، ويكون ابتداء ظهوره فى نحو عصر كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب من زمن حواريى المسيح الذين قيل إنه أدركهم ، فاذا عاش إلى أن أدرك جداً أو جدين أو ثلاثة بعد كنانة يبقى بعد هذا بينه وبين عصر الجاهلية الذى كان قبيل الاسلام أزمان طويلة

وليس هذا كل ما يحيط بنسب قس إلى الأصل الأول لقبيلته وهو إياد من الغموض ، فهناك غموض أشد منه فى صحة نسبته إلى إياد نفسه ، ويكاد يقتلعه من هذا الأصل وتلك القبيلة التى أجمع النسابون على أنه منها إلى قبيلة أخرى غيرها ، فقد ذكر صاحب الأغانى فى سلسلة نسب قس أفصى بن دعمى بن إياد ، وذكر أيضاً فى نسب النابغة الشيبانى أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فيكون أفصى بن دعمى على هذا من ربيعة بن نزار لا من إياد بن نزار ، ويكون قس من ربيعة لا من إياد ، ومن البعيد أن يكون أفصى بن دعمى المذكور فى نسب قس غير المذكور فى نسب النابغة ، وأن يكون الاتفاق فى اسميهما واسمى أبيهما من باب المصادفة ، على أنه روى مع هذا أن الجارود ابن عبد الله لما وفد فى وفد عبد القيس على رسول الله سأله يا جارود هل فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قالوا كلنا نعرفه ، وفى رواية أخرى أنه لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الايادى ؟ قالوا مات يا رسول الله ، وفى رواية ثالثة أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم أحد من إياد ؟ قالوا نعم ، قال ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله ، فكل هذه الروايات تفيد اتصال نسب قس بعبد القيس وبكر وهما من قبائل ربيعة ، نعم قد يمكن أن تكون إياد مجاورة فى السكن لهاتين القبيلتين فسأل رسول الله وفدها عن قس لمجاورتهما لقبيلته ، ولكن هذا لا يكفى فى دفع ما يفيده ظاهر هذه الروايات مع ما يفيده ذكر أفصى بن دعمى فى نسب قس ونسب شيبان وبكر وعبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة ، بل إن سؤال رسول الله بكراً وعبد القيس عن إياد ظاهر فى أن إياد كلها من ربيعة لا قسا وحده ، وربما يؤيد هذا أن إياد لو كانت فرعا مستقلا من نزار لما أمكنه أن يحافظ على وحدته ذلك العهد الطويل ، لما تأباه طبيعة بلاد العرب ، إذ يعيش فيها أهلها عيشة ارتحال وتنقل ، وقد قضت تلك الطبيعة على فرعى مضر وربيعة أن ينقسما إلى مالا يحصى من القبائل ، فلا يمكن أن ينجو من تأثيرها فرع إياد على ما يراه النسابون من تفرعه من نزار مع ذينك الفرعين فى ذلك الأمد البعيد ، وإذا كانت إياد من

ربيعة فيكون التقاؤها مع قبائلها فى أفصى بن دعمى ، ويكون إياد بعد أفصى لا قبله ، وقد دخل أنساب القبائل تخليط كثير مثل هذا وغيره ، وربما كانت إياد فعلت ذلك عن عمد بعد حروبها مع عبد القيس وغيرها من قبائل ربيعة

قبيلة إياد : كانت قبيلة إياد نازلة فى قديم أمرها بين إخوتها من قبائل معد ، فى تهامة والحجاز ونجد ، وكانت تقيم هى وأنمار معاً فى أرض تهامة ، بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها ، ثم نزحت من تهامة فى حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر فى خانق ، فغلبت فيها وخرجت إلى العراق فنزلت فى سواده قرب مكان الكوفة ، فأقامت هناك دهراً ، وانتشرت فى تلك الأنحاء ، وكانت تغزو أهل العراق من العجم وغيرهم ، فلما كان عهد كسرى أنو شروان أغارت على نساء من الفرس فأخذتهن ، فأرسل إليها أنو شروان جيشاً أجلاها عن أرض العراق ، وشتتها فى البلاد ، فنزل بعضها تكريت ، ونزل بعضها الجزيرة ،ونزل بعضها أرض الموصل ، ثم سلط عليها أنوشروان قوماً من بكر ففتكوا بها ، وفرقوها فى أرض الروم ، وبلاد الشام

وقد اشتهرت قبيلة إياد بخطبائها ، وظهور قوة الخطابة فيها ، وكان خطباؤها مضرب المثل فى الفصاحة وقوة البيان ، وفى وصفهم يقول بعض الشعراء :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحىَ الملاحظ خيفةَ الرقباء

فذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه ، والموجز والكناية ، والوحى باللحظ ودلالة الاشارة . وكانت قبيلة عبد القيس من ربيعة تسامى إياد فى خطبائها ، وشيوع الخطابة بين أفرادها ، ولعل هذا مما يقوى ما رجحناه من اتصال نسب إياد بنسب عبد القيس وربيعة ، ولكن عبد القيس لم تظهر فيها الخطابة إلا بعد أن انتقلت من البادية إلى عمانَ والبحرين ، حتى قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : وشأن عبدالقيس عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة فى العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سُرة البادية ، وفى معدن الفصاحة ، وهذا عجب

ولاشك أن إياد كانت فى سرة البادية مثل عبد القيس ، ثم انتقلت منها إلى العراق ، فالظاهر أن الخطابة لم تظهر فيها إلا بعد أن انتقلت من البادية مثل عبدالقيس ، وقد علل ذلك بأنهم حينما تركوا سرة البادية جاوروا الأعاجم فى تلك الأماكن ،وكان الأعاجم أهل خطابة وكتابة ، ولهذا كثر الخطباء أيضاً فى اليمن عند اختلاط أهله بالفرس الذين أتى بهم سيف بن ذى يَزَن لاخراج الحبشة منه ، وهذا يفيد أن الخطابة العربية مأخوذة من الخطابة الفارسية مع أن الجاحظ قال فى موضع آخر فى الموازنة بين خطابة العرب وخطابة الفرس ، وبيان الأمم التى انفردت بالخطابة : « وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ؛ ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بَكِىءَ اللسان ، غير موصوف بالبيان ، وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام لهم فانما هو عن دراسة وطول فكرة ، ومشاورة ومعاونة ، وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شئ للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ومكابدة ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هو كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله »

وإذا كان هذا شأن خطابة الفرس وخطابة العرب ، فأين إحداها من الأخرى ؟ وكيف أخذت الثانية من الأولى ، وهما يختلفان هذا الخلاف ، ولا يوجد بينهما أدنى شبه يدل على تأثر إحداها بالأخرى ، واحتذاء خطباء العرب بخطباء الفرس فى الخطابة ؟ ولا يؤثر فى هذا أنا لا نسلم للجاحظ مازعمه من انفراد الفرس والعرب بالخطابة ، وانفراد العرب بالقدرة على ارتجالها ، فقد يوجد فى غير العرب من يقدر على ارتجال الخطابة فى لغته ، وقد يكون فى العرب من لا يخطب إلا بعد ترو وتدبر ، ولكن العرب لشيوع الأمية فيهم ، كان يقل من يذهب هذا المذهب فى خطبائهم

فلم يبق إلا أن نعلل ذلك بأن أخبار هذه القبائل قبل انتقالها

من البادية بعيدة عنا ، ولم يصل الينا إلا قليل منها ، فما يدرينا أنها لم يكن فيها خطباء حين كانت بسرة البادية ؟ ولعله كان لها من الخطباء فيها ما لا يكون هناك محل لتعجب الجاحظ أو غيره منه

دراسة حياته : إذا رجع الباحث الى ما كتب عن قس في كتب الأقدمين المختلفة لا يمكنه أن يؤلف من الأخبار التي وردت فيها عنه سيرة صحيحة ، متلائمة غير متدافعة ، متصلة غير منقطعة ، لها بداية معروفة ، ووسط غير مجهول ، ونهاية ليست غامضة ، وانما هي أساطير لا يمكن أن يعرف منها يقيناً زمنه متى بدأ ؟ ومتى انتهى ؟ ولا مكانه في تلك الأمكنة التي تنقلت فيها قبيلته ؟ وهل كان يعيش بينها ؟ أو كان يعيش بين قبيلة أخرى غيرها ؟ أو كان يعيش هائماً متنقلاً لا يقر في مكان ؟ فقد ورد أنه أدرك حواري عيسى عليه السلام ، ولكن ورد مع هذا أنه أدرك محمداً صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، بل ورد أنه أدركه بعدها وآمن به وعد من أصحابه ، ولا يمكن أن يكون قد أدرك هذين العهدين المتباعدين إلا اذا صدقنا أنه عُمّر حوالى ستمائة سنة ، كما ذكر هذا من يعده في مُعَمَّري العرب ، وهذا أمر لا يمكن تصديقه ، ولم يحدث مثله من عصر الحواريين الى العصر الذي نعيش فيه الآن

وورد أيضاً أنه كان أسقف نجران ، فلا بد أنه كان يعيش عيشة مألوفة بين أهلها من النصارى ، ولكن أين اياد من نجران وقد كانت إياد مستقرة بالعراق في الزمن الذي ظهرت فيه النصرانية بنجران ؟ بل أين هذا مما روى من أنه لم يكن تكنه دار ، ولا يقره قرار ، ويتحسى في تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، وأخبر بعضهم أنه رآه على جبل بالشام يقال له سمعان ، في ظل شجرة الى جنبها عين ماء ، فاذا سباع كثيرة وردت الماء لتشرب ، فكلما زأر منها سبع على صاحبه ضربه بعصا ، وقال كف حتى يشرب الذي سبق ، قال فتداخلني لذلك رعب ، فقال لي لا تخف ليس عليك بأس ، ورووا أنه كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه ، وقد سأله مرة ما أفضل العلم ؟ قال معرفة الرجل بنفسه ، فقال له فما أفضل العقل ؟ قال وقوف المرء عند علمه ، فقال له فما أفضل الأدب ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه ، فقال له فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء في اخلاف وعده ، فقال له فما أفضل المال ؟ قال ما قضى به الحق

وهذا كل ما يروونه عن قس في حياته ، يحيط به الغموض في بدئه ، ويستمر متمشياً معه ، ثم يلازمه الى نهايته ، فلا تنتهي حياته بين قبيلته إياد ، ولا بين أتباعه الذين كان فيما يقال أسقفا عليهم في نجران ، بل يقال إنه توفي بروحين في لِحْف جبل بها ، وهي قرية قريبة من حلب ، وله بها مشهد يزوره الناس ، ويقصدونه بالنذور ، وله أوقاف محبوسة عليه ، وقد زاره أبو جعبل الألبيري فقال فيه :

هذى منازل ذى العلا   قس بن ساعدة الايادى
كم عاش فى الدنيا وكم   أسدى إلينا من أياد
قد نالها بحلى البلا   غة مفصحاً فى كل ناد
قد قَر فى بطن الثرى   متفرداً بين العباد

وقد قدروا له السنة التي توفي فيها سنة ٦٠٠ م وذلك قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ولكن هذا الغموض الذي يحيط بحياة قس من بدئها الى نهايتها ، وهذه الأخبار القليلة التي لا يمكن أن يؤلف منها لقس سيرة متصلة تعرف منها أطوار حياته طوراً فطورا ، كل هذا لا يمكن أن يتفق مع عيش قس في هذا الزمن القريب من ظهور الاسلام ، فكل رجال هذا العصر من شعراء وغيرهم معروفون لنا ، وقد وردت إلينا أخبارهم معلومة مفصلة . ولا تحيط بها هذه الأساطير من كل ناحية ، ولا يتفق مع هذا إلا ما رجحناه في نسب قس من إدراكه عصر الحواريين ، وتعميره فيه التعمير المعقول في مثل هذا العصر ، فتكون وفاته قبل الاسلام بتلك الأزمنة المتطاولة ، التي تسمح بهذا الغموض الذي يحيط بحياة قس على شهرته وظهور أمره ، نعم قد روى حديث قس وسماع النبي له في سوق عكاظ من طرق متعددة ، وقد أفرد بعض الرواة طريقه وفيه خطبة قس وشعره ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها ، ولكن ابن حجر العسقلاني ذكر في كتاب الاصابة ، أن طرقه كلها ضعيفة ، فلا يحتج بها في مثل ذلك

عقيدته : قد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي قساً في كتابه (شعراء النصرانية) وقد ورد فيما روى من أخبار قس أنه كان أسقف نجران ، وقد ذكر الجارود بن عبد الله فيما وصفه

به للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يلبس المسوح ، ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقراً بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتنكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان

ولا شك أن الأب لويس لا يعني بالنصرانية التي يثبتها لقس إلا هذه النصرانية التي تكاد تتصل بموت المسيح عليه السلام ، ومن أهم أصولها عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء ، وما الى هذا من أصول هذه النصرانية ، ولا شك أن الأخبار التي وصلت إلينا عن قس ، والآثار التي وردت إلينا عنه فيما كان يدعو العرب اليه ، لا تفيد أكثر من أنه كان يدعوهم الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، ولم يرد فيها أنه كان يدعو الى عقيدة التثليث والصلب والفداء ونحوها ، وهي العقائد التي لا تثبت النصرانية التي يريدها القس لويس إلا بها ، بل لم يرد فيها أنه كان يدعو الى الايمان بعيسى عليه السلام ، وإنما ورد أنه كان يبشر العرب بدين جديد قرب ظهوره بينهم ، فلا يمكن أن تكون عقيدته هذه النصرانية التي يدعو الى دين بعدها ، وهي ترى أنها خاتمة الأديان ، وأن عيسى هو آخر الأنبياء الذي بشر به موسى عليه السلام ، فلا يمكن بعد هذا أن يكون قس أسقفا على نصارى نجران ، إلا أن تكون نصرانيتهم نصرانية أخرى غير هذه النصرانية ، ولكن الذي يفيده التاريخ أنها كانت من نصرانية الروم والحبشة ، ولهذا حاربوا أهل اليمن من أجلها ، ومع هذا فقد أثبتنا أن قساً كان أقدم من ظهور النصرانية بنجران ، ثم انه كان من إياد وكان أهل نجران من اليمن ، فلا يقبلون رآسة مثله عليهم ، لما كان من العصبية بين العدنانيين والقحطانيين ، وأما خبر الجارود إن صح فلا يفيد إلا أنه كان مثل عيسى في ذلك ، وقد ورد في بعض الأحاديث تشبيه أبي ذر الغفاري بعيسى في زهده وترهبه

فلا يعدو أمر قس إلا أن يكون من قدماء الحنفاء الذين ظهروا في بدء انحراف العرب عن ملة ابراهيم الى الوثنية ، فكان يدعوهم الى ملة أبيهم ابراهيم ، ويحارب فيهم هذه البدعة ، وهكذا كان شأن كل أولئك الحنفاء في العرب ، وهذه كانت وظيفتهم فيهم ، وقد حاول الأب لويس في كتابه (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) أن يلحق كل أولئك الحنفاء بالنصرانية ولا يخفى أن شأنهم في ذلك مثل شأن قس بن ساعدة

خطابته : كان قس خطيب العرب وحكيمها وحَكَمَها في عصره ، وكان على شهرته بالخطابة يقول الشعر ، فاذا خطب أتى في خطابته بشيء من شعره ، يناسب موضوع خطابته ، وقد جدد في الخطابة العربية بعض أمور تنسب إليه ، منها أنه أول من قال فيها (أما بعد) وبعضهم ينسبها لغيره ، وقد نسبت لداود عليه السلام ، وفسر بها قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ولكن أسلوب الكلمة عربي خالص ، ولغة داود كانت عبرية ، وانما عظم شأن هذه الكلمة في الخطابة وغيرها ، لأنها تساعد على الانتقال من غرض الى غرض فيها ولا تحوج الخطباء في ذلك الى تكلف مناسبات طامية لا تقف فيه عند حد ، ويصعب على كل واحد فيه أن يأتي بما لم يأت به غيره ، وانما تحسن (أما بعد) في الخطابة والكتابة دون الشعر ، لأنها أسلوب نثرى ، ولأن الشعر فيه من آثار الفنون ماليس في الخطابة والكتابة ، فيحسن التفنن فيه ، ويقبح التزام أسلوب واحد في التنقل بين أغراضه . ومما ينسب الى قس أيضاً أنه أول من خطب على شَرَف ، وأول من اتكأ في خطابته على سيف أو عصا ، وأول من كتب من فلان الى فلان

ولم يبلغنا من خطابة قس إلا قدر قليل لايمكننا أن نعرف منه تماما كنه خطابته ، ولا المميزات التي تمتاز بها من غيرها ، ولا الدرجة التي يستحق أن يوضع فيها قس بين خطباء العرب ، وإن كان قس في الخطابة مضرب المثل ، وان كان الناس قد أجمعوا قديماً وحديثاً على تقديمه فيها ، وقد قال فيه أعشى قيس :

وأحكم من قس وأجرأ مِـلْدى
بذى الغيل من خفان أصبح خادرا

وقال الحطيئة :

وأقْوَل من قس وأمضى اذا مضى
من الرمح اذ مَسّ النفوسَ نكالُها

وقد يمكننا أن نحكم من القدر الذي وصل الينا من خطابة قس حكماً تقريبياً بأنه كان يعنى بالخطابة الدينية أكثر من غيرها ، فكانت أكثر خطابته في الدعوة الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، وما الى ذلك مما كان يدعو العرب اليه ، كما يمكننا أن

نحكم أيضاً بأنه كان يؤثر فيها الألفاظ السهلة على غيرها ، وكذا السجع القصير الفواصل لما له من التأثير فى النفوس ، وما كان له فى ثقافته وعلمه وحكمته واشتغاله بهذه الدعوة العامة ، إلا أن يدع التكلف فى خطابته ، ويخاطب الناس بهذه السهولة التى يفهمونها ، وقد أنكر عليها بعض أدباء عصرنا هذه السهولة ، فحكم بأنها خطابة إسلامية مختلقة على قس ، وليست خطابة جاهلية ملائمة لما كان فى هذا العصر من بداوة وخشونة ، ولا يخفى أنه لا يمكن أن يستقل عصر من العصور بالتأثير فى خطبائه أو شعرائه ، وإلا وجب أن تتحد مسالكهم فيه ، وألا يختلفوا فى أساليبهم من حيث السهولة والشدة وغيرها ، وكم كان فى الاسلام من خطباء يؤثرون الشدة فى خطابتهم ، وخطباء يؤثرون فيها السهولة على الشدة ، فلا بدع فى أن يكون بجانب الشدة فى عصر الجاهلية تلك السهولة ، وأن تجتمع فيه كما اجتمعت فى غيره الرقة والخشونة .

عبد المتعال الصعيدى

عرس الورد

شذى الخزامى وريا النرجس العطر   سرت بها نسمات الروض فى السحر
والفجر قاد جيوش النور منتصراً   والليل أدبر لا يلوى على أثر
إلا بقايا نجـــوم وهى حائرة   فى أفقها ورشاش من سنا القمر
سرى فأنعشني ريح الصـــبا سحراً
فرحت أستعرض الماضى من الذكَر
والذكريات كأسراب القطا كُثُرٌ   لما تحوم على الغدران والنهَر
والقلب كالطير قد أرداه صائده   بين الضلوع خفوقاً خفق محتضر
أهيم والشوق يطويني وينشرنى   والدمع طافٍ بجفني غير منهمر
حتى مررت بروض شاق منظره   قد أتقن الصنع فيه حذق مقتدر
لا الشعر وافٍ ولا التصوير يدركه   وإن سمت ريشة الفنان فى الصور
هنا الغصون بأعطاف لها رقصت   مثل الكواعب ذات الدلّ والحور
والعنـدليب يغنيها فيُسمعها   أشجى النشيد بلا عود ولا وتر
والزهر فى مهرجان ريحه عبق   ما بين منتظم زاهٍ ومنتثر
والحوض يبدو كمرآة قد انعكست   فى وجهها صور الأفنان والثمر
أو خد عذراء لم يجذب بتطرية   اذا تدلت عليه خصلة الشعر
وقفت بالباب والأشواك تحرسه   أسائل الطائر الشادى عن الخبر
فأومأت مورقات الدوح مخبرة   تزوج الورد بنت السوسن النضر
فالورد فى حمرة الجلبـاب متشح   أما العروس فنى بيض من الأزر
يحنو عليهـا وأحياناً يقبلهـــا   كمدنف آب للأحباب من سفر
كلاهما ليس يخشى عين مرتقب   فى الحب او قول واشٍ فى الهوى أشر
يداعبان ضياء الشمس فى شغف   وظلمة الليل فى أنس وفى سمر
روحان قربت الأشـواق بينهما   على اقتراب من الريحان والزهر
والكل جذلان لا الأيام توحشه   ولا تبدل صفو العيش بالكدر
ثم التفت الى نفسى وقد عصفت   فيها الهموم وأذوت زهرة العمر
بيني وبين الليالى ما يكدرنى   كأنني جئت ذنباً غير مغتفر
فقلت ياليتني فى الروض زنبقة   أو بعض ورد ولم أخلق من البشر

دمشق   عبد الجبار جومرد

لوعة الربيع

وقفتُ ـ ولم أقصد ـ على ضفة النهر   وطرفى ممتدّ إلى حيث لا أدرى !
وفى النفس مافيها ! عواطف جمّة   يضيق بها صدرى ، ويعيا بها فكرى
عواطف ، لا أدرى حقيقة أمرها   ولكنها بين الكآبة والشعر !
أراقب سير الموج ، والريح سجسجٌ   تعابث وجه الماء ، وهو بها يزرى
ودجلة يجرى فى جلالٍ وروعةٍ   وعزم كعزم الدهر ، كراً بلا فرّ
تطلّ عليه الشمس من خلف رفرفٍ
ـ على الضفة الأخرى ـ من النخل والسدّر
فينساب ، لا يلوى على ما وراءه   كأن به شيئاً من التيه والكبر
يجرُّ على الشطّين فضل غلالةٍ   من الموج ، كالأملاك فى غابر الدهر
رزين ، قوىّ ، يملأ النفس هيبة   وقور ، فسيح الصدر ، متزن السير
تخيّل لى ـ والماء ينساب جارياً   كأن حياة بين أثنائه تجرى
ولو كان ذا روح ، لعمرك ـ لم يكن   بأهيب منه وهو يجرى ، ولا يدرى !
فخزّلت وجهى ، ساكنَ النفس صامتاً
سوى خفقان خافت الجرس فى صدرى
فما هاجنى إلا جلالة موكبٍ   تسير به شمس الأصيل الى الخدْر
وقد برزت فى حلة من شعاعها   مذهبةٍ ، فى منظر فاتن مغرٍ
ومن خلفها ، يحملن فضل ازارها   جوار من السحب المنوّرة الأز

ودرتُ بعيني حول نفسي فلم أجد سوى كلّ ماعند الطبيعة من سحر
فذي الأرض كيف ازّينت وتجملت بثوب من الأعشاب رصّع بالزهر
وهذا النسيم الرطب، نشوان فارح بما نال عند الزهر من عاطر الذكر
وهاتيك أرواح تجوَّلُ في الفضا ء محسوسة التأثير، مجهولة الأمر
لعمرك ما أدرى ! أأرواح جِنّة
ترفرف، أم روح الربيع انبرت تسرى
أم السحر هذا، أم خيالات شاعر سبت لبّه أشباح آلهة الشعر
وذانك عصفوران من خلف دجلة يطيران في جوٍّ من الحب والطهر
وتلك حمامات ينحن نوادباً يساجلن فوق الدوح صادحة القمر
وكلٌّ بتمجيد الطبيعة هاتفٌ . مُهنٍّ بميلاد الربيع ابنها البكر
بدت تعلن البشرى بشتى لغاتها
فذا الطير بالنجوى، وذا الزهر بالنشر
وتلمح حتى الجماد بشاشـــة ووجهاً ودوداً يستميلك كالسحر !
حياة لعمرى لامست كل ميت تحسّ بها نفسي، وينكرها فكرى!
فمـــا لك ياقلبي كأنك نائم تساورك الأحلام غامضة السر ؟
لئن كنت في ليل الطبيعة راقداً شتاءً، فأنت اليوم في غرة الفجر

* * *

حنانيك هذا يومك المرتجى فقم وباكر لذاذات الهوى الطامح العذرى
حرام علينا أن يمرّ بنا سـدى ولم نقض منه مأرب الشاعر الحر
فجارِ الملا إن كنت منهم ومثلهم
وطرْ في الفضا ان كنت من زمرة الطير
ونُح بالأسى إن كنت أسوان يائساً وبح بالهوى إن كنت صبا أخاضرّ
وفيم الأسى واليأس — والكل منقض ؟
وأنت لدى عيـدين جاءا على الأثر
فهـــذا ربيع للطبيعة ناضرٌ جميل المحيا، زاهر، باسم الثغر
وهذا ربيع للشباب محببٌ بأحلامه، حلو المنى، ناعم البشر
وما العمر الا مـدة ثم تنقضى كحلم، بما فيها من الخير والشر
لقد فاتنى ما قد خلقت لأجله وأدركنى ما يرتجى نيله غيرى
فما طعم عيشى ؟ لاشقاء ولاهنا ولا يأسة تقضى ولا أمل يغرى !
حنانيك فامرح في الضلال أو الهدى
وهبتك ما تهوى فما لك من عـذر
وخذ قسطك الأوفى من الأرض والسما
من الرَّوْح والريحان والنور والنَّور

العراق — العمارة **عبد الحق فاضل الصيدلي**

من الأدب الهندي

الببغـــاء

لشاعر الهند الأكبر طاغور

ترجمة الأستاذ مصطفى كامل المحامي

كتب طاغور هذه القصيدة التي نترجمها اليوم منذ بضع سنين في بنغالى تحت عنوان «البغاء» وقد فهم بعض الناس في الهند عند قراءتها أنها رمز لاذع عن النظام المدرسي المدخل بالهند، ثم انتشرت هذه القصيدة في بلاد أخرى من آسيا فقال الناس «من الممكن أن الشاعر قد أراد بشعره أن يشير الى النظام الذى أدخل في بلادنا» ورأى آخرون أن غرض النظام الذى أدخله الأوربيون في آسيا هو الحصول على النتائج التي نجحت مع البغاء ؛ وتصايح بعض الأوربيين «أرأيتم الام يؤدى الأمر اذا أردنا أن ندخل التعليم العالى في شعب لايفهم شيئاً من مبادئنا التعليمية العالية» ثم يديرون رؤوسهم والرضى ملء نفوسهم، وقليل ماهم الذين أدركوا أن ببغاءهم أيضا ينحدر إلى الموت في نفس الوقت.

— ١ —

كان عصفوراً شديد الجهالة يهزج كل يوم، يقفز ويطير من هنا وهناك، دون أن يعنى بالعلم أو حسن السلوك.

فقال الملك يوماً لا يصلح هذا العصفور لشئ، وهو يحدث مع ذلك اضرار جمة، فيتلف ثمار الحديقة الملكية ؛ واستدعى في الحال وزيراً وأمر أن يُعلم العصفور أحسن التعليم.

— ٢ —

كلف ابن أخي الوزير بتعليم العصفور، فعقد المعلمون أولاً مجلسهم، ثم تباحثوا وتجادلوا دون انقطاع، في الأسباب الحقيقية لجهل العصفور ؛ وقرروا أخيراً أن عش الطائر المصنوع من الخشب، شديد الضيق فلن يسع العلم العريض، ورأوا قبل كل شيء أن يصنع له قفص جميل.

— ٣ —

استدعوا صائغاً ليصنع قفصاً من ذهب، فجاء آية فنية مثيراً للاعجاب، حتى بادر الناس من كل فج لرؤيته وقالوا: «سيتلقى العصفور أخيراً تعليماً حسناً» ؛ وصرح آخرون: «حتى ولو لم ينل أحسن التعليم، فان له الحظ أن يكون له قفص جميل ! ماأسعد جد هذا العصفور ! ورجع الصائغ سعيداً ملء اليدين من حسن

الجزاء ، وابتدأ الأستاذ درسه بعد أن جذب نفساً من غليونه ، وقال لابدلى من مكتبة . فدعا ابن أخى الملك نساخى البلاد ، فنسخوا ونقلوا الكتب حتى تجمع منها الكثير ، فقال كل من رأى هذه الأسفار: « مرحى سيكون له الآن من المعرفة قدر وفير » ، ورجع النساخون بجوائز طردت عنهم إلى الأبد شر الفاقة .

وبذل الوزير لهذا القفص الثمين من ضروب العناية ماليس له حدود ، حتى جهر الناس جميعاً وقالوا : سيتقدم التعليم بكل هذى الجهود ، وتوفر على العناية بهذا القفص كثيرون ، ولرقابة هؤلاء توفر نفر أكثر ، وفازوا جميعاً بأسنى الهبات والعطايا .

— ٤ —

تنقص الدنيا أشياء كثيرة ، إلا أن الساخطين لا ينقصهم أن يهمسوا ، « إن القفص معنى به كل العناية ، لكن العصفور على مايظهر مهمل » ؟ وبلغ الهمس آذان المليك .

فاستدعى الوزير واستخبره معنى هذا الهمس ، فقال الوزير : « يامولاى ، إذا أردتم معرفة كل الحقيقة ، فاستدعوا المعلمين والنساخين والصائغ والرقباء على القفص ومراقبى الرقباء وقد قال الساخطون ماقالوا ، لأنهم يتضورون من الجوع » ، فاقتنع الملك وجزى الوزير ، فاهدى سلسلة من الذهب اليه .

— ٥ —

وتاق الملك يوماً الى معرفة نجاح العصفور ، فتوجه الى المدرسة فى حفل من الوزراء والأصدقاء والندامى ، وأذاعوا زيارة الملك فى الأبواق ، ودقت النواقيس المعلقة فوق المدرسة ، وأخذ العلماء يرتلون الأجزاء المقدسة ، وهتف البناؤون والعمال والنساخ والصائغ فى صوت واحد « ليحيى الملك » .

وقال الوزير « مولاى ! انظر ! »

فأجاب الملك « مدهش ! ولكن ما هذه الضوضاء ؟ »

فقال الوزير : ليست هذه ضوضاء فحسب ، فان وراءها معنى خبيئاً ؛ وطرب الملك كثيراً وجاز الدهليز ، وحين أراد امتطاء الفيل خرج الناقد من مخبئه خلف شجيرة وقال بخبث : « هل رأيت العصفور يامولاى ؟ »

فأجفل الملك وقال : « لم أر العصفور حقاً » وكر راجعا مع الأساتذة وهو يقول : « أريد أن أعرف الطريقة التى اتبعتموها فى تعليم العصفور ، فلما رآها الملك وجدها بديعة ، ولم يلاحظ نقصاً فى شىء ، كما أن الأوامر كلها مرعية ، ما كان فى القفص ماء ولا حب ، وإنما كان يحشى فم العصفور بأوراق الكتب ، فلم يعد قادراً على التغريد ، إذ لم تبق أدنى فرجة يخرج الصوت منها ؛ وما كان أبشع المنظر ! وقبل أن يمتطى الملك الفيل أمر بالناقد فلكمه جنده .

— ٦ —

وغدا العصفور دقيقاً رقيقاً على مر الزمن حتى بدا كالميت ، لكن الحراس ظنوا أنه مازال هناك أمل ، والتفت العصفور نحو الضوء فى الصباح ، ورفرف بالغريزة على حائط القفص بجناحيه ، وحاول أن يقطع أسلاك القفص الذهبية بمنقاره الواهن ، فصاح الحارس : « أى حمق ! » وأسرع فأحضر الحداد فصنع أسلاكا من الحديد ، ثم قصوا جناحى الطائر .

وقال أصدقاء الملك وهم يهزون الرءوس : « ليست طيور هذه المملكة جاهلة فحسب ، وإنما تجمع إلى الجهل نكران الجميل » ، وعاود المعلمون واجبهم باليقين الراسخ ، ورجع الحداد قريراً بالعطاء الجزيل ، والحارس القانع بالراتب المبذول جزاء انتباهه

— ٧ —

وقضى العصفور ، ولم يعرف أحد متى مات ، واذاع الناس قالة السوء ، واستدعى الملك ابن أخيه يسأله عما حل بالعصفور :

— إن تعليمه قد تم يامولاى

— الا يقفز الآن ؟

— كلا !

— أما يزال يطير ؟

— كلا !

— أيغني ؟

— كلا !

— فماذا يفعل إذا جاع ؟

— لا شئ

— أحضره إلى فانى أريد أن أراه

وأحضروه إلى الملك فلمسه وضغطه دون أن يُظهر الطائر علامة على الحياة الا حفيف الورق الذى حشوا به معدته ، على حين اهتزت أوراق الشجر وقد مرت بها نسمة من نسمات الربيع !

« طاغور »

العلوم

خلق المادة فى الكون

بقـلم فرح رفيــدى

أين يخلق الكون؟ — كيف توصل ملكان (Millican) الى اكتشاف مصدر الأشعة الكونية وبناء نظريته فى خلق المادة فى الكون ؟

فى الفضاء خليط من المؤثرات التى تفعل فعلها فى الأجسام والأشياء وهى مستترة فى الأثير ، لا ترى وكأنها ترى ، كائنة وكأنها غير كائنة . وهى مزيج من الاشعاع المنبعث من جميع الجهات . فاشعاع من الشمس تراه العين وتحس به ، واشعاع آخر من الشمس لا تراه العين ولا تحس به ، وأشعة مصدرها الأرض وأخرى مصدرها النجوم والشمس ، أشعة إكس وأشعة الراديوم ، والأشعة الكهربائية واللاسلكية وأشعة الحرارة . وكل هذه تنطلق بسرعة متناهية فى الفضاء ونحن لا نشعر بها ولا ندرى حركتها . ولهذه الأشعة تأثير خاص فى الهواء المحيط بنا وبها وخصوصاً الأشعة ذات الموجة القصيرة كأشعة أكس أو الراديوم ، فانها تحلل الهواء الى ذرات مكهربة تكهرباً سلبياً أو ايجابيا (positive and negative charge) . والذرات المتشابهة بالكهربائية تتنافر من بعضها كلما تقاربت ، والذرات المختلفة الكهربائية تلتصق وتتحد فى تلاقيها وبذلك تفقد صفة التكهرب وتصبح مادة فى حالتها الطبيعية .

***

لقياس مقدار تكهرب الهواء أو تحلله الى ذرات من تأثير هذه الأشعة توجد آلة خصوصية تقيس الكهربائية الى درجة دقيقة جداً . وهذه الآلة هى (الالكتروسكوب) . جرب أحد العلماء أن يمنع الأشعة المعروفة من دخول هذه الآلة ليرى هل يبق تأثيرها فى الهواء أم يتلاشى باختفائها ومنعها ، فوضع الآلة فى داخل صندوق من الرصاص الغليظ لمنع دخول أقوى أشعة معروفة ، فوجد بعكس ما توقع من أن الآلة ظلت متأثرة بالرغم من احاطتها بالرصاص فاستنتج من ذلك وجود أشعة أقوى من الأشعة المعروفة قدرت أن تخترق سماكة الحائط الذى بناه وتتصل بالآلة التى وراءه .

ظل هذا الاكتشاف سبع سنوات غامضاً ، الى أن قام رجل سويسرى سـنة ١٩١٠ وصعد الى علو ٤٥٠٠ متر ومعه الالـكتروسكوب ، فوجد خلاف المنتظر ، بأن تكهرب الهواء . أو تأينه (تحليله الى ذرات مكهربة تسمى الوحدة منها أيون " ion ") ازداد مع ارتفاعه . فقد ظن أن مصدر هذا التأثير أشعة منبعثة من الأرض وليست من السماء ، فعلى ذلك مقدار التأين يجب أن يقل بدلاً من أن يزداد مع الارتفاع . بعد ذلك بقليل قام المانيان (Hess and Kolhorster) وطارا الى علو ٩ كيلو مترات فوجدا أيضاً ذات النتيجة .

لم يكن (ملكان Millican) العالم الأميركى أثناء ذلك ساكتاً عن هذه التجارب ونتيجتها الواحدة ، بل أثرت عليه كل التأثير ، وحفزته للعمل بأن يقوم بهذه المهمة فى اكتشاف أصل هذا التأثير ومصدر تلك الأشعة التى لم تكن فى الحسبان ولم تخطر على بال . فقام فى سنة ١٩٢٦ مع مساعدة (Bowen) وصعد منطادين صغيرين فى الفضاء الى علو ١٥ كيلو متراً . وكان المنطادان مرتبطين الواحد بالآخر ، وحجم أحدهما مصنوعاً بالقدر الذى ينفجر فيه عند العلو المطلوب ، والآخر كان ليقل الأدوات الأتوماتيكية لقياس وتقييد التأثيرات الجوية ولارجاعها بعد بلوغ علوها الى الأرض سالمة . فكان من هذه الآلات الالكتروسكوب لقياس الكهربائية والترمومتر للحرارة والبارومتر لمقدار ضغط الهواء ، والالواح الفتوغرافية المختلفة لتنطبع عليها صور التأثيرات المختلفة ، ثم الآلة التى تسير كل هذه الأجهزة حركة أوتوماتيكية مطردة . ومع كل ذلك فان وزن المنطادين مع مافيهما من غاز وآلات متعددة

لم يزد على ١٩٠ جراماً أو ما يعادل ٥٠ درهماً تقريباً . وذلك مما يدل على دقة الصنع والتركيب ويبين مقدار اهتمام ملكان بالتجربة وتفرُّغه لها . والنتائج التي ظهرت من هذه التجربة أتت مطابقة للتجارب الأولى . فلم يَعُد بعدُ شكٌّ في وجود أشعة خفية دقيقة ذات تأثير عظيم .

على أن ذلك لم يقنع ملكان قط ، ولم يقلل من شوقه لمعرفة تلك الأشعة وما اليها . ففي ذات السنة التي أجرى فيها تجربة المنطادين ، صعد بالألكتروسكوب الى قمم جبال مختلفة العلو في أميركا ، ليرى تماماً مقدار اختلاف التأين باختلاف معين في الارتفاع . وقد تحقق من ذلك شيئان : الأول أن قوة الأشعة تزداد مع الارتفاع ، وذلك يؤكد بأن مصدرها ليس هو الأرض بل السماء . والثاني أن هذه الأشعة ليست متجانسة ، بل من ثلاثة أنواع ، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها في الهواء ، فمنها لقوتها من قدرت أن تخترق الهواء كله وتصل سطح الأرض ، ومنها من استطاعت فقط أن تنفذ في بعض الطبقات العليا غير المتكاثفة ، والأخيرة لضعفها لم تقدر على التعمق كالأولين فظل تأثيرها محصوراً في الطبقات الرقيقة من الهواء .

تجارب في الفضاء وفوق سطح الأرض أكدت أن الأشعة آتية من فوق ، ولكي يتحقق من ذلك أكثر، خطر لملكان أن يجريَ تجاربه في داخل الأرض تحت الماء . فوضع الكتروسكوباً أدق من الأول في صندوق من الرصاص يحتمل الضغط على عمق ٦٧ قدماً في الماء ، أي يحتمل ضغط كيلوجرامين لكل سنتيمتر مربع . فاذا كان مصدر هذه الأشعة حقيقة من الفضاء فالتأثيرات تحت الماء يجب أن تقل كلما ازداد الاناء عمقاً ، لأنه كلما نزل الاناء في جوف الأرض بعد عن مصدر الأشعة ، وبذلك ضعف تأثيرها على الهواء بحكم المسافة البعيدة التي تقطعها . والنتيجة أتت — كما توقع — أي أنها كانت تضعف تدريجيا في نزولها تحت الماء . وقد وجد من اختراق هذه الأشعة جميع طبقات الهواء ، ومن نفوذها ٥٠ قدماً في الماء . أن لها من القوة ما يعادل ١٠٠ ضعف قوة أشعة إكس ، وأن طول موجتها أصغر من طول موجة الثانية ب ٥٠٠٠ مرة تقريباً . وهي لذلك قادرة على اختراق حائط من الرصاص عرضه متران .

أجرى بعد ذلك ملكان تجارب متعددة في الليل والنهار ، وفي أوقات مختلفة من الليل وأوقات مختلفة من النهار ، وفي ضوء القمر وتحت ستر الظلام والنجوم بكثرتها لامعة مشعة ، وفي أمكنة بعيدة عن الجبال وعن المدن ، وفي المغاور حيث لا تدخلها الشمس ، ولا ينفذ اليها شعاع النجوم ، وفي الصيف تحت تأثير حرارة الشمس المحرقة ، وفي الشتاء تحت تأثير البرق والرعد ، ليرى هل لكل هذه الأشياء والظواهر الطبيعية تأثير خاص على الأشعة وقوة انفعالها في الهواء . فوجدها غير متأثرة بها جميعاً . فكان تأثيرها واحداً صيفاً وشتاءً ليلاً ونهاراً ، وما كان ليفرّق بين تأثير وتأثير الا الارتفاع والهبوط . فاستنتج من ذلك أن الشمس والنجوم ليست مصادر هذه الأشعة .

ذكرنا أن التجارب دلت على وجود ثلاثة أنواع من هذه الأشعة ، تختلف عن بعضها بقوة نفوذها . وقد وجد ملكان من الحقائق التي توصل اليها أن نسبة هذه القوى الى بعضها كنسبة الأرقام الثلاثة هذه : ٦٣٥ . ٨ : ٦ . ٤ : ٦ . الى بعضها . وكل رقم منها يُشير الى نوع من هذه الأشعة . وقال ملكان من حيث أن الأشعة لا تأتينا من الأرض أو من النجوم والشمس فلابد من أن تكون صادرة عن أحوال ومقتضيات مضادة للأحوال والمقتضيات التي في جوف الشمس أو في داخل النجوم . وبما أن الأحوال في الشمس تدعو الى انصهار وهدم المادة من شدة الحرّ والضغط فالأشعة هذه يجب أن تكون ناتجة عن بناء المادة وتركيبها من ذرات (الكترونات وبروتونات) في أماكن بعيدة عنا في الفضاء ، حيث تقرب درجة الحرارة من الصفر المطلق Absolute Zero—273° C.

قسّم آستون العالم السويدي جميع العناصر المتركب منها الكون الى قسمين: مشعة كالراديوم وغير مشعة كالحديد والرصاص . وقد لاحظ أنه لما كان عنصر الهيدروجين أبسط العناصر تركيباً ، إذ هو مركب من بروتون واحد والكترون واحد ، وأخفها وزناً ، فانه يمكن افتراض أن جميع العناصر الأخرى متركبة منه كتركيب جميع الأعداد الصحيحة من الواحد الصحيح ، فذرّة الهيليوم تساوي في وزنها أربع ذرات من الهيدروجين ، وذرة

الصوديوم تساوى ٢٣ ذرة من الهيدروجين أيضا . وكذلك افترض ملكان أن الهيدروجين يدخل فى تركيب جميع العناصر ، وأنه الحجر الأساسى فى بناء الكون . وقد افترض ملّكان أيضاً طبقاً لمعادلة اينشتاين (القائلة بأن انصهار جزء من المادة فى داخل النجوم يولّد جزءاً مقابلاً من الحرارة والقوة تشع فى كل أنحاء الفضاء) . إن هذه الحرارة والقوة المنبعثة باستمرار من النجوم ، ستصير يوماً ما وفى مكان ما مادة تحت الظروف الملائمة لبنائها ، وأنه ما من مادة تنعدم فى النجوم إلا ويقابلها بناء ثان فى غير النجوم .

بقسمة العناصر الى مُشعة وغير مشعة نرى أن المواد المشعة أقل من المواد غير المشعة ، وهذا شىء طبيعى ، لأن هذه المواد باشعاعها الدائم تتحول الى مواد أخرى ، وبذلك تقل نسبة وجودها فى الكون تدريجياً . فأخذ ملكان بعد ذلك ثلاثة عناصر تؤلف الجزء الأكبر فى تركيب الكرة الأرضية والشهب والنجوم . ووجد أن هذه العناصر الثلاثة فى الهيليوم والأكسجين والسليكون . وقال اذا كانت هذه الأشعة التى لاحظناها ناتجة عن بناء العناصر فان الهيدروجين وهو أبسطها تركيباً الحجر الأساسى فى هذا البناء . وبواسطة معادلة اينشتاين استخرج مقدار القوة الضائعة فى بناء كل ذرة لكل من العناصر الثلاثة وبواسطة معادلة أخرى اشترك فى إيجادها ثلاثة شباب : (ديراك Dirac) شاب انجليزى ، و(كلاين Klein) شاب ألمانى ، و(نشينا Nishina) شاب يابانى ، استخرج نسبة قوى هذه العناصر الضائعة الى بعضها ، فوجدها كما يأتى : ٠٦٣ : ٠٦٠٨ : ٠٦٠٤ وهـذه كما نرى ذات الأرقام التى استنتجها من تجاربه ، إلا فى الرقم الأول فلاختلاف فيه تعلله قلة الضبط فى التجارب فقط .

وهكذا كان نجاح ملكان فى تعليل نظريته فى بناء الكون من طريقين : طريق التجربة التى أدت الى اكتشاف تلك الأشعة الصادرة عن بناء الكون ، ولذلك سميت بالأشعة الكونية ؛ وطريق الرياضيات التى طابقت نتائج تجاربه كل المطابقة ، فدلت لا على اكتشاف أشعة جديدة من مصدر جديد فحسب بل أيضاً على توحيد النظريات والمعادلات الرياضية مع الظواهر الطبيعية ، وعلى دقتها وتلاؤمها بعضها مع بعض .

جامعة بيروت فرج رفيدى

٣ - اسحاق نيوتن

١٦٤٢ — ١٧٢٧

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

كتاب « البرنسيبا » : (١)

وفى ابريل سنة ١٦٧٦ تقدم نيوتن إلى الجمعية الملكية بكتابه الشهور « البرنسيبا » وهو فى ثلاثة أجزاء . وقد شرح فى الجزء الأول منه نظريته الخاصة بتحرك الأجسام مع البرهان الكامل لقانون الجذب العام . وقد أمرت الجمعية الملكية ان يطبع هذا الكتاب على نفقتها الخاصة ، ولكن ذلك لم يتم لأنها لم تشأ أو لم تقدر على جميع النفقات اللازمة لذلك . ولكن « هالى » صديق نيوتن قام بذلك على نفقته الخاصة . فخرج الكتاب باللاتينية فى مايو سنة ١٦٨٧

ولم تكد تظهر أصول الجزء الأول من « البرنسيبا » حتى قام دكتور « هوك » ينسب إلى نفسه الأسبقية فى الكشف عن قانون التربيع العكسى متهماً نيوتن بأخذ هذا الاكتشاف عنه . وبذلك اتسعت شقة الخلاف بين العالمين ، ولكن دكتور « هالى » تمكن بتأثيره على نيوتن من أن يجعله يشير فى كتابه إلى أنه مع « رن » و « هوك » و « هالى » توصلوا فى نفس الوقت إلى قانون الجاذبية من قوانين « كبلر » فى حركة الكواكب

وقد اشتمل الجزء الثانى من البرنسيبا على مبادىء علم الأيدروستاتيكا ، والأيدروديناميكا ، كما اشتمل على تطبيق قانون الجذب العام فى شرح ظواهر المد ونسبتها إلى مكان القمر من البحار ، وقد أضاف اليها هو مواضع الشمس أيضاً . وقد احتوى البرنسيبا أيضاً على موضوع المذنبات ، فاعتبرها أجساماً سماوية تسير فى قطع ناقص هائل ، ولا تظهر لنا إلا وهى تقطع جزءاً صغيراً من هذا القطع الناقص بالقرب من الشمس ، وعلل بذلك ظهورها بعد أزمنة معينة : وبذا يكون قانون الجاذبية قد امتد خارج المجموعة الشمسية فشمل هذه المذنبات أيضاً

---

(١) Philosophioe Naturalis Paincipia Mathematica
الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية

لقد احتوى هذا الكتاب نواة الفلسفة الطبيعية ، ولكنه لم يؤخذ به كأساس لذلك إلا بعد سنوات ، وذلك لحملات النقد الكثيرة التى كانت توجه إليه من أمثال « هوك » و « هيجنز » و « ديكارت » وان كان البعض قد آمن به بعد حين . وبرغم اتصال نيوتن بجامعة كامبردج طول حياته فانها لم تكن الجامعة الأولى التى أخذت بما فى كتابه من فلسفة ، وسبقتها فى ذلك جامعات اسكتلندا

حياته العامة :

أخذ نيوتن راحة طويلة بعد ذلك المجهود الذى مكنه من اتمام البرنسيبا فى سنتين فقط . وفى سنة ١٦٨٨ اختير عضواً برلمانياً بعد دفاع مجيد قام به مع غيره لصيانة حرمة جامعته عند ما أمر الملك « جيمس الثانى » جامعة كامبردج أن تمنح قساً جاهلاً درجة « الأستاذية » ، مما كان له أثر فى رجوع الملك عن أمره . وقد انصرف إلى أعماله البرلمانية سنتين ، ولو أنه لم يسجل له اى مساهمة فى مناقشة سياسية . وفى ذلك الوقت اصابته أكبر محنة لاقته فى حياته ، تلك هى وفاة أمه التى ضحت من أجله بالكثير من القليل وساعدته للوصول إلى ماوصل اليه . فبرغم قلة دخلها السنوى الذى لم يتجاوز الثمانين من الجنيهات ، كانت تقتر على نفسها لتنفق عليه فى « جرانتام » وفى سنواته الأولى فى كامبردج

وفى سنة ١٦٩٠ عاد الى كامبردج ليزاول التدريس مرة أخرى ، كما اشتغل بدراسة تأثير الضوء على شبكية العين بتجارب أجراها فى نفسه . وقد أجرى تجارب لتقدير درجات انصهار بعض المعادن وملاحظة معدل برودتها ، وقال إن هذا المعدل يتناسب وزيادة درجة حرارة الجسم على درجة حرارة الوسط الذى يحيط به . ولكن بحوث « دولنج دبتى » أثبتت بعد ذلك أن هذا ليس بصحيح إلا اذا كان الفرق بين درجتى الحرارة صغيرا .

وقد شاء نيوتن أن يُخرج للعالم كل ما وصل اليه فى علم البصريات ، وهو العلم الذى كان يشغل دائماً جزءاً من وقته ، ولكن كارثة لا يُعلم الى الآن سببها الحقيقى سببت حرق أغلب مذكراته . فقد ترك غرفته ليلاً وبها شمعة موقدة وأُخر الى أجل قليل ، فعاد ليجد الشمعة قد انكفأت فأحرقت جل مذكراته . ويقال إن كلباً صغيراً يدعى « دياموند » كان السبب فى ذلك ، ولكن لسوء الحظ لم يعرف عن نيوتن الميل الى إبقاء مثل هذه الحيوانات برغم حبه العظيم لها . وبذا لم يتمكن نيوتن من إعادة مذكراته وإتمامها إلا بعد اثنى عشر عاما .

فى دار سك النقود

لم تكن المائتى جنيه التى كان يتقاضاها نيوتن سنويا عن وظيفة الأستاذية فى الجامعة لتكفى للقيام بحاجاته ؛ فسعى صديق له يدعى « شارل مونتاج » حتى عين فى سنة ١٦٩٥ وكيلاً لدار سك النقود بمرتب سنوى يتراوح بين ٥٠٠و٦٠٠ جنيه . فوجه كل عنايته الى عمله بعيداً عن المناقشات العلمية ، ولكنه مع ذلك كان يشتغل بحل المشكلات التى تقابل غيره . ففى سنة ١٧٩٧ أعلن الرياضى الكبير « جون برتولى » عن معضلات رياضية يطلب الى العلماء حلها ، ففعل ذلك نيوتن فى يوم واحد . وفى سنة ١٦٩٩ أصبح رئيساً لدار السك بمرتب سنوى قدره ١٢٠٠ من الجنيهات ، فترك مهنة التدريس التى كان يزاولها مع وكالته للدار .

وقد وجه نيوتن عنايته الى إصلاح العملة الانجليزية مما دخلها من الغش ، فوفق الى ذلك بعد صعوبات لاقاها هو وصديقه «هالى» الذى عينه مديراً لأحد الفروع ، ممن كانوا يستفيدون من ذلك الغش . فاتهموه بالرشوة عند ما وجدوه يرفضها .

وفى سنة ١٧٠٠ اكتشف نيوتن آلة السدس (السكستانت) وهى الآلة التى يتمكن بها الملاحون من معرفة أماكنهم فى عرض البحار ، ولكن هذا الاكتشاف ينسب عادة الى «هادلى» .

وفى سنة ١٧٠٣ نال نيوتن أعظم شرف مُنحه فى حياته ، وهو رياسة الجمعية الملكية ؛ وقد لبث فى هذه الرياسة حتى موته ، ولا تزال صورته معلقة فوق كرسى الرياسة . وبعد سنة من ذلك التعيين توفى منافسه الدكتور «هوك» وأتم كتابه «البصريات» . وقد احتوى هذا الكتاب كل ماوصل اليه فى علم الضوء ، كما احتوى أيضاً على رسالة فى حساب التكامل ، قال إن أساسها هو ما وصل اليه فى سنة ١٦٦٥ عند ما كان فى « وولثورب » ، فقام يعارضه فى ذلك العالم الرياضى « ليبنتز » ، الذى أصبح بعد وفاة « هوك » شر خلف لأعند سلف . هاجم نيوتن مهاجمة عنيفة ، فاتهمه بسرقة أساس علم التكامل منه ، فقام دكتور « كيل » من اكسفورد وأعلن أن « ليبنتز » هو سارق حساب التكامل

من نيوتن . والواقع أن كليهما وصل مستقلاً الى علم حساب التكامل ، إلا أن نيوتن له الأسبقية فى ذلك وإن لم ينشرما وصل اليه فى حينه ، كما أقرت بذلك اللجنة التى عينتها الجمعية الملكية للتحقق من مبلغ صحة أقوال المتنافسين . عند ذلك اختار « ليبنتز » ناحية أخرى يهاجم منها نيوتن ، فادعى أن فلسفته إلحادية ، واستمر زمناً طويلاً كان هو البادئ بالعدوان دائما . وقد تحدى نيوتن مرة أن يحل مسألة رياضية فحلها نيوتن فى ليلة واحدة بعد عمله اليومى فى دار السك .

نيوتن الرجل

كان طويل القامة ، كث الشعر أبيضه ، وقد لحقه الشيب ولما يزل فى سن الشباب ؛ كان كثير التفكير ، يندر أن يشترك فى مناقشة كلامية .

ذاق نيوتن طعم الفقر والحرمان فى أيامه الأولى ، وحتى بعد انتخابه عضواً فى الجمعية الملكية قصرت موارده عن أن يدفع رسم دخول واشتراك الجمعية ، فأعفى منهما مع ضآلتهما . ومع ذلك كان كريماً يساعد أقاربه وأصدقاءه .

كان وديعاً خجولاً متواضعا ، وكان دائماً يردد قوله : « لا أعلم ماذا يعتقده الناس فى ، ولكنى أعلم أننى كطفل صغير ألعب على الشاطئ فأجد من حين لآخر حصاة قد صقلتها الأمواج ، أو صدفة تدعونى اليها بحسنها ، بينما محيط الحق أمامى لم أكشف منه شيئا » .

لم يكن يميل الى الظهور واسترعاء الأنظار اليه ، كما كان لايميل الى المناقشات والمشاجرات، ومع ذلك لازمته ولاحقته بعد كل جديد كان يصل اليه . كان ضعيف الذاكرة ، لايعتنى كثيراً بملابسه ، غريباً فى أذواقه . ولكنه كان يُفنى نفسه فى عمله ، وكثيراً ما أثر ذلك فى صحته

كان نيوتن يعتقد بوجود الله ، رغم ما اتهمه به « ليبنتز » من الكفر والالحاد . كان يعتقد بوجود قانون كونى عام يحكم كل أجزاء الكون ، وهذا القانون هو إرادة الله . وقد رأى فى ثبوت قانون الجذب العام سيطرة الخالق على الكون بأجمعه

وقد أنعمت عليه الملكة « آن » بلقب الفروسية (سير) فى زيارتها لجامعة كامبردج فى سنة ١٧٠٥ . وكان يعيش فى أواخر أيامه فى لندن وقد أصبحت له مركبة خاصة

لم يتزوج نيوتن برغم انه كان يحب « مس ستورى » التى تزوجت مرتين ، وكانت تعتنى به « حنا » أخته من أمه . وقد أخذت صحته فى الاضمحلال فى سنة ١٧٢٤ ، وأخذ يشكو مرض الشيخوخة ، ولكنه ظل يرأس الجمعية الملكية حتى مات فى سن الخامسة والثمانين فى مارس سنة ١٧٢٧ . ودفن فى وستمنستر ، وقدرت ثروته بمبلغ ٣٢ ألفاً من الجنيهات ، أوصى بها إلى أولاد إخوته .

« تم البحث »

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابة

النقد

الملاح التائه

للشاعر المهندس على محمود طه

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

بعد كتابى الذى أرسلته إلى صديق الزيات منذ أيام ، قد أدرك القارىء أننى راض كل الرضى عن هذا العنوان الذى اتخذه الشاعر المهندس سمة لكتابه الجديد . وكيف لا نرضى عن هذا العنوان ، وكثير منا من استقل زورق العمر ، يطفو به فوق بحر الحياة ، تتدافعنا رياح الحوادث ، وتتجاذبنا أعاصير القضاء ، وتحدق بنا الصخور والأمواج من كل جانب . فاذا أبصرنا على بعد جزيرة أمل ماثلة لأعيننا ، لم نلبث أن نضل السبيل فى البحث عنها ، فلا نزال حائرين ، ولا ننفك تائهين ! .

كان ظهور (الملاح التائه) لعلى محمود طه و (وراء الغمام) لابراهيم ناجى فى شهر واحد وفى سنة واحدة من أحسن النعم الأدبية على قراء العربية . وقد ظهر كلاهما فى شهر أيار ، حين تخرج الورود والرياحين ، فتملأ الأرجاء عبيراً وبهجة وجمالاً . ولست أشك فى أن هواء الأدب قد امتلأ أيضاً بأريج هذه الزهرات الأدبية اليانعة .

إن شعر على محمود طه ليس مجهولاً للقراء ؟ فقد ظهر منه فى (الرسالة) وفى (المقتطف) وفى (أبولو) شىء كثير . ولكن هنالك فرق بين أن نطالع شعر الشاعر موزعا متفرقا ، وبين أن نتناوله مجموعاً فى سفر واحد . فانا نجده فى الصحف ملقى بين مختلف المواضيع والمنشآت التى تشبه فى تنوعها وكثرتها « سلطة » الفواكه ، قد اختلط منها التفاح بالموز ، والعنب بالبرتقال ، والشليك بالكمثرى ، بل لقد تجد أيضاً قطعا كبيرة من اللفت أو الفجل ، لاندرى كيف اتخذت سبيلها الى تلك البيئة الغريبة عنها .

لهذا كان ظهور تلك الأشعار مجموعة فى كتاب مستقل حادثاً يسترعى الأنتباه ، ويستوقف النظر الذى كان عمر بتلك القصائد من قبل مراً سريعاً . ولدينا وياللأسف شعراء كبار مثل حفنى ناصف واسماعيل صبرى لم يعنوا — ولم يعن أحد بعدهم — بجمع أشعارهم فى كتاب . فليس فى قلبنا منهم سوى صورة مبهمة ناقصة

فاخراج أشعار على محمود طه فى كتاب هو الحادث الذى يتيح للمرء أن يجلس لكى يتذوقها ، ويتناولها بالنقد وبالدراسة .

***

تمجيد الشاعر

أول ما يلفت النظر فى على محمود طه أنه شاعر يعرف للشاعر منزلته العالية ، ومكانه السماوى الهائل وسط هذه المخلوقات الأرضية البائدة ، ولهذا نراه يخص الشاعر بقسم كبير جداً من قصائده الممتازة ؛ فنراه يخبرنا فى أولى قصائده أن (ميلاد الشاعر) حادث جليل ترقص له الأرض ، وتبتهج السماء ، وتبرق أسارير الدهر ، ويزداد له البدر إشراقاً ونوراً . فتتنادى الملائكة ، وتتجاوب الأصداء : ليستبشر العالم فقد ولد فوق الأرض شاعر !

وفى قصيدة أخرى يرينا الشاعر وهو يناجى ربه ، فى شىء من غرور الشعراء . وإذا كنا نرى فى هذه القصيدة ما يجعلنا أحياناً نصيح : « تأدب ياموسى ؟ » فيجب على الأقل أن نذكر أن الشاعر أقرب الكائنات إلى الله ، فيجوز له مالا يجوز لسواه .

وفى قصيدة ثالثة : تعد آية فى الشعر العربى يصف لنا الشاعر فى غرفته ، وصفاً بديعاً لا عهد لنا بمثله ، ولئن كان فى هذه القصيدة ينحو نحو الفرد دى موسه أو غيره كما يقول الأستاذ طه حسين ، فان هذا لاينقص من جمال القصيدة ذرة واحدة ، بل انه ليدهشنا أن تكون المعانى الغربية قد انسجمت هذا الانسجام الجميل فى ثوبها العربى القشيب . ولها من وزنها العربى مايسمو بها فوق الأوزان الأفرنجية الركيكة .

وفى قصيدة رابعة يحدثنا عن (قبر الشاعر) . وقد أثارها فى نفسه حديث عن الشاعر الفاضل المرحوم فوزى المعلوف ، الذى قضى نحبه وهو بعد فى ريعان الشباب ومُزْدَهَرِ الشعر ،

وسيحس القارئ فى هذا التمجيد للشاعر شيئاً من تقدير المؤلف لنفسه ، وإن لم يقل كلمة واحدة عن نفسه ، وهذا خير مثال نضربه للذين لم يفهموا بعد أن هنالك مدرسة جديدة ومذهباً جديداً فى الشعر العربى . فالقدماء من الشعراء كانوا هم أيضاً يقدرون للشاعر قدره . ولكن هذا الشعور كان مظهره فخر الشاعر بنفسه وبأدبه :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
هذا عتابك الا أنه مقة ... قد ضُمّنَ الدر إلا أنه كلم
وانى وان كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

وفى الشعر العربى من هذا الشىء الكثير جداً ، ذلك كان دأب القدماء ومن نحوا نحوهم من المحدثين ، وقد تلطف شوقى وسلك طريقاً جديداً حين جعل غادته تقول : « أنتم الناس أيها الشعراء ! » ولكن على محمود طه لم يقل عن نفسه شيئاً ولم يفتخر بل جعل يصف لنا الشاعر فى مولده وحياته وفى أحلامه وأوهامه وفى تفكيره وحيرته ، وفى أثناء ذلك نتبين ما للشاعر من قدر جليل ومكانة سامية .

ورجائى إلى الذين لم يصدقوا بعد أن هنالك تجديداً فى الأدب العربى أن يفكروا فى هذا المثل وحده الذى ضربته ! فلعل فيه ما يقنعهم بأن هنالك نواحى جديدة قد أخذ شعراؤنا يسيرون فيها وأنها من غير شك أكثر ملاءمة لروح عصرنا ، فنحن اليوم لانعبأ بشاعر يقول لنا إنه اذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً . فلقد كان للفخر والتفاخر زمان غير هذا الزمان . ولكننا نرحب ونستأنس بهذه الصور التى تمثل الشاعر فى أطواره المختلفة كما يحكيها لنا على محمود طه .

***

تمجيد الطبيعة

الظاهرة الثانية التى تكاد تبرز أمامنا واضحة قوية فى كل صفحة من صفحات (الملاح التائه) هى تمجيد الطبيعة ، وهذه الظاهرة بادية فيما ظهر من أدبنا الحديث كله ، ولكنها شديدة الظهور فى شعر على محمود طه ، وليس ذكره للطبيعة ذكراً سطحياً بل فيه تدبر وتعمق وإمعان فكر . وهى أحياناً تسيطر على القصيدة كلها كما هى الحال فى (الشاطىء المهجور) و (صخرة الملتقى) و (القطب) و (عاشق الزهر) و (الى البحر) . ولكنها إلى جانب هذا منتشرة فى الكتاب كله ، ولن نعدم اشارة اليها فى كل موضع .

وهذا يرينا كيف يسير شعراؤنا ، بفطرتهم — ومن غير تعمد على ما أظن — فى نفس الدور الذى سارت فيه حركة الرومانتزم فى الشعر الغربى ، فقد كان من أهم مظاهرها الرجوع إلى الطبيعة

والقارىء يعلم أن للوصف — سواء كان لظاهرة طبيعية أو لغيرها — طريقتين الأولى موضوعية Objective . فيحاول الكاتب بالألفاظ والعبارات أن يعطينا صورة واضحة لما يراه أمامه كقول القائل :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

وكقول على محمود طه نفسه :

نزلت فيه تستحمُّ النجوم الزُّ ... هرُ فى جلوة المساء المنير
راقصات به على هزج المو ... ج عرايا مهدلات الشعور
وعلى صدره الخفوق طوينا الـ ... ـليل فى زورق رضى المسير
ورياح الخليج دافئة تثـ ... ـنى حواشى شراعه المنشور

والطريقة الثانية فى الوصف ذاتية Subjective يرينافيها الشاعر تأثير الموصوف فى نفسه ، ويتخذ من مظاهر الطبيعة وسيلة لأخراج ما يكنه صدره من عاطفة أو حب أو ذكرى . كقول مهيار :

يانسيم الريح من كاظمة ... شدما هجت الجوى والبرحا
الصبا — ان كان لابد — الصبا ... انها كانت لقلبى أروحا

وكقول على محمود طه فى قصيدة (عاشق الزهر) :

ياليت لى كالفراش أجنحة ... أهفو بها فى الفضاء هيمانا
أروح للنور فى مشارقه ... وأغتدى من سناه نشوانا
وأرشف القطر من بواكره ... فلا أرود الضفاف ظمآنا

والأمثلة على هذا ونحوه كثيرة جداً لاحاجة الى الزيادة منها . وقد كانت عناية القدماء بالنوع الأول أقل من عنايتهم بالثانى . وأما هاهنا فسيجد القارىء من النوعين قدراً وافياً . . ومن رأيى أن قصيدة الوصف يجب أن تشتمل على النوعين فيبدأ الشاعر بتصوير الظاهرة التى أمامه حتى يكاد القارىء أن يلمسها ، ثم ينتقل الى تأثيرها فى نفسه والى ما توحى به من حكمة أو عاطفة ، وهذا سر القوة الهائلة التى نجدها فى قصيدة مثل سينية البحترى فى إيوان كسرى

***

الغموض

والآن فلأعد الى على محمود طه . وهنا أريد أن أسر الى القارئ

أن مطالعة هذا الشاعر هى أحياناً عبارة عن لذة سهلة سائغة كما يجدها القارئ فى قصيدة (عاشق الزهر) أو (قبلة) أو (غرفة الشاعر) . أو رثاء عدلى يكن . ولـكنه أحياناً ، وفى بعض القصائد الخطيرة ، سيجدها لذة لا تدرك بسهولة . بل لا بد لها من التأنى والتدبر . أما الموسيقى فهى هناك لاشك فيها . لـكن المعانى فيها بعض الخفاء .

وقد يرجع هذا الخفاء لازدحام المعانى متعددة فى البيت الواحد . أنظر مثلاً الى قوله فى مطلع (الوحى الخالد)

لوجهك هذا الـكون يا حسن كله   وجوه يفيض البشر من قسماتها

فمثل هذا البيت لابد أن يقرأ فى هدوء وتؤدة وأن يعاد غير غير مرة حتى نستوعبه فهما .

لـكن هذا النوع من الخفاء لا يعترض عليه ؛ بل قد يكون جميلاً مستحسنا . أما النوع الآخر فهو الذى دار فيه الجدال فى (الرسالة) من قبل . وذلك أن هنالك شعراء لا يعنون فقط بالصور الواضحة الملموسة البارزة ، بل يعنون كذلك بالصور التى يحيط بها غشاء من الأبهام ، كالتى يراها الحالم بين النوم واليقظة أو كالظل لا هو نور ساطع ولا ظلام حالك . وهذا ما يعبر عنه فى الفرنسية بكلمة nuance . ذلك مذهب الرمز بين أمثال فرلين وأتباعه ويمثلهم فى الشعر الانكليزى الى حدّ ما الشاعر سوِنْبِرْن .

فالقارىء لأمثال هؤلاء الشعراء يجد فى شعرهم موسيقى بديعة وأنغاماً رخيمة . أما المعانى البارزة الملموسة فاننا قد نطلبها دائماً ، ولـكنا لن نجدها دائماً . ويجب أن نكتفى منهم بصورة لا نعيها تماماً . بل نفهمها نصف أو ربع فهم . وذلك بالطبع لأنهم هم أنفسهم لم يفهموها الفهم كله ، وانما تأثروا بها غامضة مبهمة خافية ، وأرادوا أن ينقلوا الينا هذا الأثر كما هو .

وفى شعر على محمود طه شيء يسير من هذا . نجده فى مواضع متفرقة ، فى مثل قصيدة (عاصفة فى جمجمة) ، أو فى (الله والشاعر) وفى غيرهما . وكثير منا يعز عليه أن يمر بالبيت فلا يحيط بمعناه تماماً ، أو بالصورة فلا يتبين شكلها تماماً . وهذا الطراز من الناس لا يميل الى هذا الضرب من الشعر وينكره . وقد يكون له بعض الحق فى هذا الانـكار ؛ ولـكن يجب أن نذكر أن الشاعر الذى يخلص لشعره ولشاعريته مضطر لأن ينقل الينا ما يراه أو يتوهمه من الصور واضحة كانت أو خافية .

والذى قد نؤاخذ الشاعر عليه حقيقة شيء واحد ، ومن السهل جداً عليه معالجته إذا وافقنا على رأينا فيه . وذلك أن للشاعر خيالاً قوياً مفرطاً فى القوة ، وكثيراً ما يركب هذا الخيال بلا سرج ولا لجام فيذهب به فى فياف بعيدة وأقطار قاصية لا نستطيع غالباً — أن نصحبه اليها . هذا الخيال القوى الذى كثيراً ما يطربنا ويعجبنا نراه أحيانا يتعبنا وينصبنا

يعجبنا حين يرينا أمثال هذه الصورة :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليل   وما زلت غارقا فى شجونك
مسلما رأسك الحزين إلى الفكر   وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى   فى ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفا   سك يطغى على ضعيف أنينك

أو هذه الصورة :

وأطلت الأزهار من ورقاتها   حيرى تعجب للربيع الباكر !
وجرى شعاع البدر حولك راقصاً   طربا على المرج النضير الزاهر

فهذا وأمثاله كثير فى (الملاح التائه) — هو من المعجب الطريف . وقد ساعده خياله القوى على إخراج هذه الصور الرائعة انظر الى البيت الثالث فى القطعة الأولى . ما أروعه وما أبدعه ، وهو مع ذلك لا يحكى سوى حقيقة واضحة ملموسة . حقاً إن أبدع الخيال ما كان وسيلة إلى تصوير الحقيقة .

والى جانب هذا سيجد القارىء أن شاعرنا قد يذهب به الخيال مذاهب بعيدة : انظر مثلاً الى قوله فى (أغنية ريفية)

الى أن يمل الدجى وحشتى   وتشكو الكآبة منى الضجر .

بيت موسيقاه جميلة مطربة . ولـكنا لا ندرى كيف تشكو الكآبة منه الضجر . وكذلك نرى خيال الشاعر قد بعد عنا إلى حيث لا نلحقه فى قصيدة (عاصفة فى جمجمة) ، ولا نستطيع أن نأتى بها هنا كلها ، ونكتفى بمثال أو اثنين كقوله :

أحياة سمتها صخر ونار   حفت الأشواك من يسلكه
تنقضى الآجال فيه والسفار   أبدى ، ويح من تهلكه !

***

احملوا أمس إلى حفرته   وتخطوا هوة الوادى السحيق
واحفزوا النجم الى ثورته   واحطموا أنوال ليل لا يفيق ،

وبالطبع عذر الشاعر فى هذا كله أنها (عاصفة فى جمجمة) ويجب أن تثور مثل هذه العاصفة فى جمجمة القارىء لـكى يستمتع بهذه القصيدة .

كذلك قد يجد القارىء أن الخيال قد ذهب بعيداً فى قصيدة

(النشيد) حيث يجرد الشاعر من حبه شخصاً يصاحبه الى لقاء الحبيب . وفى بعض المواضع نجـد من الصعب علينا أن نتصور الموقف تماماً .

هذا ما يبدو للناقد فى خيال الشاعر ، أنه قد يفرط فى القوة فيذهب مذاهب بعيدة . فاذا وافق الشاعر على هذا الرأى ، فمن أبسط الأمور عليه أن يخفف من حدة هذا الخيال .

***

الأسلوب

الأسـلوب هو طريقة الأداء ، وهو من المعانى كالجسد من الروح . وإذا نظرنا فى أسلوب على محمود طه نجد عبارته منسجمة طلية وألفاظه فى الغالب متخيرة ، ودليله فى الاختيار حسن وقعها فى الأذن ، وهذا نجده فى معظم الـكتاب ، حتى فى المواضع التى يخفى أو يغمض المعني لانعدم الموسيقى على كل حال .

وفى اختيار الشاعر لأوزانه نراه يكثر من الخفيف والرمل . ونصف قصائد الـكتاب من هذين البحرين ، وهو أحيانا يكتب القصائد الطويلة على الطراز المألوف من قافية واحدة ؛ وأكثر الـكتاب من هذا الطراز ولـكنه — لحسن الحظ — قد أتى بقصائد ذات قواف متعددة ، وهذه على ثلاثة أنواع ؛

(١) فى الأول منها تتغير القافية عدة مرار بلا قيود ولا شرط كما فى قصيدة ميلاد الشاعر

(٢) وفى الضرب الثانى تتغير القافية فى كل أربع أبيات كما فى (غرفة الشاعر) و (قبلة) و (قبر شاعر) و ترجمة (البحيرة) وقد نظم شعراء آخرون قصـائد على هذا النظام الرباعى . ولهذا يخيل لى أنه طراز طبيعى مستحسن . والمنتظر لهـذا النوع أن ينتشر ، ومن المستحسن جداً أن ينتشر .

(٣) أما النوع الثالث ومنه قصيدة (الله والشاعر) . فان فيه كل بيتين على حـدة ؛ والمصراع الأول يتفق فى القافيـة مع الثالث والثانى مع الرابع . وهذا الطراز منتشر أيضاً فى الشعر الحديث .

وهذا النظام الجديد للقافية من الظاهرات التى نرحب بها فى شعر شـعرائنا المحدثين . فقد انقضى الزمن الذى يفتخر فيه الشعراء بطول النفس ؛ وبأن الواحد منهم ينظم القصيدة فى مائة أو مائتين بل مئات من الأبيات ، لا يكرر فيها القافيـة . كان هذا الفخر سخفاً لا طائل تحته . فليس نظم القصائد الطوال فى قافية واحدة بالشىء العسير على من أراد أن يقيد المعنى بالقافية . وأن يجعل الجسم كله متوقفاً على شكل الذَّنَب ! وأكبر شعراء العربية لم يكونوا من المطيلين مثل أبى نواس . والمتنبى . ولم يخرج عن هذه القاعدة سـوى ابن الرومى . الذى كان يكرر معانيه ويفصلها ويستقصيها فتطول قصائده تبعاً لذلك .

وليس من شك فى أن تنويع القافية سيشق أمام شعرائنا طرقاً كانت مغلقة أمام المتقدمين ، ويفتح لهم أبواباً جديدة .

وقد لاحظ الأستاذ طه حسين على شاعرنا أن قوافيه أحياناً غير متفقة فى مثل (نورها وقبرها) وفى مثل (فاتها وبواقيها) و (وجهها وتيهها) فى قصيدة (الله والشاعر) وهذه الأمثلة حقيقة نادرة فى الـكتاب . ولـكن يجمل بشاعرنا الذى ينشد الـكمال أن يلاحظها :

ولقد يؤخذ على شعرائنا المحدثين أنهم قلما يهتمون بدراسة موضوع العروض والقوافى فى اللغة العربية . اتـكالاً على أن هذا من الأشياء التى تجىء للشاعر الموهوب عفواً . هذا مع أن الـكثير منهم — وليس صاحب (الملاح التائه) أحدهم — ربما خلط بين الوافر والهزج ، وبين السريع والـكامل ، وبين الـكامل والرجز . ولو أنهم أتعبوا أنفسهم قليلاً فى دراسة كتاب مختصر عن الوزن والقافية لـكفوا أنفسهم شر هذه الزلات .

إن العرب قد اصطلحت على أن القوافى الآتية — مثلا — : ليلى — ذَيْلا — قوْلا — هَوْلا . لا يجوز أن تجتمع فى قصيدة واحدة مع هذه القوافى — مثلا — : قَبْلا — عدْلا — جهْلا — مهْلا . فالمجموعة الأولى فيها حرفا علة — الواو والياء — لهما موسيقى خاصة لا تتفق مع الحروف السا كنة الأخرى . فلو عرف شعراؤنا هذا الاصطلاح العربى القديم لأمكنهم أن يتذوقوا القافية التذوق اللازم . وليس من حسن السياسة فى شىء أن نجهل أو نتجاهل ما اهتدى اليه الشعراء من قبل باحساسهم وذوقهم . ومهما كانت غرائز شعرائنا قوية وصادقة . فان مجموع غرائز شعراء العربية فى مختلف العصور والبلاد أقوى وأصدق . لهذا كان لابد لشعرائنا من دراسة العروض والقوافى دراسة وافية لـكى يطلعوا على زبدة تجارب المتقدمين .

القصص

من صور الريف

كفارة . . . !!

. . . نهار من أيام الخريف ، بدأ ثقيلاً طويلاً قاتماً ، ومضى عاصفاً صاخباً ، وأقبل الليل فسال الظلام على جوانب الكون كثيفاً مطبقاً . الريح تعصف عنيفة باردة والسماء يغشاها سحاب أسحم ومطر سخى ، أوراق الشجر تساقط مستسلمة ، وسعف النخيل يتحدى العاصفة ، والعاصفة تداعبه وتعبث به . فتشيع فى أطراف الليل حفيفاً موحشاً يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة فى أودية العذاب ، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى ، والكلاب ترد عليها بنباح قوى مختلط يتصل حيناً طويلا ، ثم ينقطع لحظات ، ثم يعود فيتصل ويختلط ، على أن هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلى أحياناً عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين فى حقل بعيد

سكون موحش يثير القلق ، ويحمل على الشك ، ويدفع الرهبة الى النفوس دفعاً . . . وقف بيومى قليلاً ثم تردد فى استئناف السرى . . . لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنها المردة السود ، وكان بيومى يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه فى صميم الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى : إنه يحمل فى جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة ، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبينه وبين بلده ساعة وبعض ساعة فلماذا لا يبيت فى بلدة «قلوصنا» وهى على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح ؟ إن له صديقاً قديماً هو شيخ الخفراء وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيىء له من أمره راحة وأمنا . . . ومن أحق بهذا من شيخ الخفراء ؟ ! ولكن بيومى لا يستريح الى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبت فيه لأنه يعلم عن شيخ الخفراء ماليس لنا به علم ، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنـه ، فلشيخ الخفراء صحائف فى ثبت الاجرام ، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف اليها فصولاً جديدة . ولكن أتراه يعتدى على ضيف ينزل بداره ويلجأ اليه ؟ ربما ! وهو فوق ذلك صديقه ! ولنترك بيومى يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع فى نفسه الأحجام والأقدام فلعل الله أن يجعل له فرجاً من الضيق ، ومخرجاً من الحيرة ، ومن الخوف أمناً وهدى . . .

أما عبد الهادى شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة ، شديد البأس ، قوى مفتول ، له وجه تشيع فى قسماته الصرامة ، وعينان ينبعث منهما التحدى والشر ، كان فيما فرط من أيامه يقطع الطرق ويهدد السارين ويسلب الناس ، ولم يكن يجد فى القتل حرجاً ولا فى السلب جناحاً ، بل إنه ليعدها من مفاخره . وعبد الهادى يثبت نظرية لمبروزو فى المجرمين بالطبيعة crtminel né فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الاجرام ، ويتحكم فى رجولتهم شر أسود فى لون هذا الليل العاصف المدلهم ، لم يكن يردعه قانون ولا دين ، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة ، عيّن شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة ، يغريهم بالناس ويدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الافلات . . . واتصلت جرائمه واضطرب الأمن فى بلده والبلاد القريبة ،

وفى الختام أهنئ صديق صاحب (الملاح التائه) على كتابه البديع الذى قد تبوأ مكاناً ثابتاً خطيراً فى الأدب العربى . واذا كان الأستاذ طه حسين قد قال عنه إنه مبتدئ فليس معنى هذا أنه ينقصه النضوج أو الجمال . فهذا واضح فى الكتاب كل الوضوح . ولكن معنى ذلك فى نظرى أن لديه ما للمبتدئ من حماس ومن قوة ومن سعى وراء الكمال .

چوان لى يان

عوضه

والناس يعلمون أن لعبد الهادى يداً فى كل شىء ، ولكنهم صامتون لا يهمسون ، لأن لعبد الهادى عيناً ترقب الثرثار ، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون اليه ما يفرض عليهم صاغرين اذا اختفت سوائمهم فترد اليهم من حيث يعلمون ولا يعلمون

أما بيومى فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة فى نفسه أخيراً . . . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة فى الله ودوافع الخوف من السرى فى الظلام والبرد ، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه الى بيت عبد الهادى ضيفاً . . .

طرق بيومى باب عبد الهادى فى رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم اليه طعاماً وأعقبه بالشاى مثنى وثلاث ، ثم سمر معه الى وهن من الليل وتركه ليجول فى البلد جولة بعد أن أوصى به ابنه سالماً أن يهىء له فراشه فى المنظرة ، سهر بيومى وسالم ما طاب لهما وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاى غير مرة ، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول ، وأحسا الحاجة الى الراحة فقام كل منهما الى فراشه ، ونام بيومى بعد أن قرأ ما تيسر من القرآن وتوكل على الله وأسلم اليه وجهه

وعاد عبد الهادى بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً ، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم فى نفسه طويلاً مع الواجب ، وأحسب أن بقايا المروءة المتناثرة فى زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه فى عنف واتصال ...! ربما لم يسمع ، وأكبر الظن أنه سمع ، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذى لم يألفه فى أعصابه ، اتجه الى الباب ففتحه ودار ببصره فى الظلام والنجوم ، ثم أرسل ضحكة مكبوحة كأنها فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدو له ما يرده إلى النكول أو التردد ، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المنظرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائم فناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى . . . !

وتحسس عبد الهادى جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً

عرته الدهشة . . ! أين اختفى المال الذى كان مع بيومى . ؟ لاشك أنه حفظه فى مكان ما فى نفس المنظرة . . . ولم يتردد عبد الهادى فى أن يخفى أثر الجريمة أولاً ... فلف الجثة وحزمها ثم حملها مطمئناً آمناً . لأن الشك ينحسر عنه وإن فاض حول جميع الناس . . شيخ الخفراء طبعاً . . ! ! وللمرة الأولى أحس عبد الهادى رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جاثماً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه . وثورة صاخبة تصم أذنيه وتدور برأسه .. لقد أخذه الندم : وأفاق ضميره ولكن متى . . . ! ؟ سمع عبد الهادى وقع حوافر الخيل تخب مسرعة وتناديه أن يقف . . إنهم العسس (الداورية) ! غامت الدنيا فى عينيه وملكه اليأس وأسقط فى يده ولم يملك إلا أن يتطامن للقضاء الأعلى ويعنو لارادة الله التى ترى كل شىء وتدبر كل شىء . . . ! قاتل ! وشيخ خفراء ! ! جريمة ذات شعبتين ، قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته .. وحسر الجند اللفائف وتفرسوا فى وجه القتيل وصرخ عبد الهادى وخر صعقا . . !

لقد قتل ابنه خطأ . . . ! واستيقظ بيومى فزعا فأدرك كل شىء ، وأعلن أنه كان ينوى أن يبيت فى المنظرة لولا أن سالما رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة أخرى وأخذ مكانه فى المنظرة . !

وكان يوم الحكم فشرقت القاعة بالوفود ووقف القاتل فى القفص يبكى فى إطراق طويل وصمت صاخب ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج . وساد السكون فجأة لما ارتفع صوت القاضى يدوى فى القاعة قوياً جلياً هادئاً « أشغال شاقة مؤبدة » .

وقاد الجند الرجل المحطم الى قاعة النيابة فى أعلى المحكمة وهو لا يزال ينشج كالأطفال . . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهوى خليطاً هامداً من اللحم والعظم ...

قوصنا **محمود البكرى القلوصنادى**

ديوان صر در

أخرجت دار الكتب المصرية « ديوان صر در » على مثال ما تخرجه من مطبوعاتها : من دقة التصحيح وحسن الطبع وجعلت ثمن النسخة منه للجمهور خمسين مليما ، ولباعة الكتب أو لمن يشترى عشر نسخ منه فأكثر أربعين مليما ، ويطلب من دار الكتب المصرية

يوم صيد

للأديب حسين شوقى

ما كادت تلوح بالأفق خيوط النهار الفضية الأولى ، حتى كنا انتبهنا من نومنا : صديقاى وأنا ، وقدأزمعنا الذهاب لصيد البط فى ضواحى الهرم ، وكان كل منا يحمل بندقية ذات عيارين وعدداً كبيراً من الخرطوش ، صعدنا السيارة ونحن أشد بهجة من فصائل اسكندر المقدونى الفتية لدى زحفها على آسيا .

أما المدينة فكانت غارقة فى النوم فى تلك الساعة المبكرة ساكنة بأحقادها وشهواتها ، ولم يكن أحد مستيقظاً ، اللهم الا محرك سيارتنا .

سارت بنا السيارة فى شارع الهرم ، ولما بلغنا المستنقعات الواقعة فى الجهة الغربية من طريق الهرم ، غادرناها وركبنا زورقاً طُلى بالطلاء الأسود حتى لا نشعر البط بوجودنا بالمستنقع ، وكان موجوداً بكثرة على سطح الماء .. هل كان البط نائماً وقتئذ ؟ لم يكن لدينا شك فى ذلك برغم اعتراض دليلنا — وكان فتى قرويا — وذلك لسكونه سكوناً عجيباً . .

ولكنا كنا مخطئين إذ لم نكد نقترب منه حتى انطلق فى الجو . كأنه سهم نارى فأطلقنا عليه البنادق فى الهواء ولكن بدون جدوى رغم عدده الكثير . . لقد ظهرنا فى عينى دليلنا القروى صيادين غير ماهرين ، فانتزع بندقية أحدنا وأطلق طلقة واحدة أسقطت بطة فى الحال !

وا أسفاه على الدروس التى تلقيتها فى صباى للصيد فى الهواء ! كنت أتمرن وقتئذ على البيض ، يقذفون لى البيض فى الهواء فأطلق عليه بندقيتى فاذا أصيب البيض وهو ما كان يقع نادراً — سال فأمطرنا مطراً أصفر !

وبعد محاولات يائسة لصيد البط ، غادرنا المستنقع اذ لم نجد سبيلاً الى البط فهو شديد الفطنة . .

كيف يدرك البط الخطر على مسافات بعيدة ؟ إن شأنه شأن الحمام الزاجل الذى يعرف طريق الوطن على بعد مئات من الأميال . هل تكشف لنا الطبيعة يوماً عن مثل هذه الأسرار ؟

قبل أن نغادر المكان تركنا لدليلنا القروى البطة التى صادها هو ، حتى لا تذكرنا فشلنا على الدوام . .

هل كنا نعود وقتئذ الى المنزل ؟ لم يكن فى استطاعتنا أن نفعل ذلك ، إذ لو عدنا لصرنا سخرية الجميع . . صممنا بعد ذلك على البحث عن طير يكون أقل فطنة من البط . .

ها نحن أولاء نسير وسط الغيطان التى كسيت بساطاً أخضر جميلاً من البرسيم . . ثم اعترضتنا ترعة لا جسر عليها للمرور ، وكنا فى حيرة من أمرنا حينما أقبل قروى وتطوع أن يحملنا على ظهره عبر الترعة . وقد مررت بهذه الطريقة ، ومر أحد صديقى . وأما الصديق الثالث وكان بديناً ، فقد غُرز هو وحامله فى الطين ، وبدلاً من أن يعمل على الخروج من الترعة ، أخذ يضرب القروى المسكين ! . ياله من منظر مضحك أنسانا فشلنا مع البط !

ثم أقبل قرويان آخران فقاما بعملية النجدة . . بعد ذلك بلغنا مكاناً مظللاً بالأشجار الكثيفة ، حيث أخذت العصافير تزقزق جزلة مسرورة . . وقد شاهدنا على أحد الغصون يمامتين تتناجيان ، كم كان منظرهما جميلا ، وقد طوق عنقاهما بطوق فاحم جميل ، كما رُصّع منقاراهما بالياقوت . .

ثم حدث ما كنت أخشى وقوعه ، فقد اقترح صديقاى أن نصطادهما ! لم يكن فى طاقتى أن أطلق النار على هذين المخلوقين الجميلين ، إنها حقاً لوحشية ! لذلك رفضت ، فقال أحد صديقى ليقنعنى : أطلق ولا تكن غبيا ، لقد حللت لك الصيد قوانين السموات والأرض ! فقلت : ليكن ، ولكن قلبى لا يطاوعنى !

ولما رآنى صديق مصمماً على الامتناع ، أطلق هو عياراً فأردى احدى اليمامتين ، سقطت وقد كسر جناحها ، كما أن خرطوشة أخرى لا بد أنها اخترقت قلبها ، لأن الدم كان يسيل من منقارها بغزارة .

ورغم وحشيتنا هذه كانت عينا اليمامة ترمقاننا فى حنان ، كأنها قد غفرت لنا فعلنا كما غفر عيسى من قبل لمضطهديه اليهود ! يا للأسف ! إننا ما زلنا متوحشين نسر لرؤية الدم ! كم نحن بعيدون عن المثل العليا التى ينشدها أفلاطون !

ومن ذلك اليوم كرهت الصيد ، فكل عام أجدد رخصتى دون أن أجدد رغبتى .

حسين شوقى

الكتب

علم الدولة

[الجزء الأول فى أصول الدولة وتطورات فكرتها]

تأليف الأستاذ أحمد وفيق

يقع الجزء الأول من هذا الكتاب الفذ فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهو ثمرة جهود شاقة وتجاريب طويلة وحسبك أن فكرة الكتاب قد جالت فى رأس مؤلفه الفاضل منذ خمسة وعشرين عاما ، وأن العمل على اصداره ظل شغله الشاغل طوال هذه المدة ، ذلك لأنه أثر التريث وامعان النظر واطالة البحث والاطلاع حتى جاء عمله فى النهاية جديراً بفضله وأدبه وواسع خبرته .

مهد الأستاذ لموضوعه الواسع بمقدمة ضافية محكمة فتكلم عن أسباب إصداره هذا الكتاب مشيراً الى حاجة الشرق فى نهوضه الى مثل هذه البحوث ، ثم عرف هذا العلم الى القارئ وجاء بلمحة تاريخية عنه ، وبين له كيف تدرس فكرة الدولة عملياً ، وتعرض لآراء العلماء فى ذلك وهى بحق مقدمة شيقة ، تدلك على شدة اهتمام الاستاذ بموضوعه كما تشهد بحسن فهمه واستيعابه له .

بعد ذلك تكلم الأستاذ فى هذا الجزء من كتابه عن أصول الدولة وعرض فى أسهاب ودقة النظريات المختلفة التى وضعت للدولة ، فتكلم عن نظرية الطبيعة ، وعن نظرية الأصل الاصطلاحى شارحا العقد الاجتماعى وأصله ، مورداً آراء الفلاسفة فى ذلك . ثم انتقل الى نظرية التكوين الاختيارى الضرورى للدولة ذاكراً فى كل نظرية مادار حولها من الآراء .

وبعد أن انتهى الأستاذ من سرد النظريات وشرحها ، عاد الى الكلام عن التطور التاريخى لفكرة الدولة : فتكلم عن فكرة الدولة فى الهند وفارس والصين ومصر ودولة الاسرائيليين واليونان والرومان ، ثم انتقل الى العصور الوسطى وعهد إحياء العلوم وعهد الاصلاح مورداً فى كل هاتيك الخطوات آراء العلماء والفلاسفة شارحا جميع الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية التى لم يكن منها بد لموضوعه ، وقد ختم الجزء الأول عند هذا الحد ، وسيفتتح الجزء الثانى بتناول الفكرة ابتداء من عهد الانتقال بين عصر الاصلاح وعصر الثورة الفرنسية .

وانى وقد أعجبتنى طريقة الأستاذ وفيق فى بحثه ، وراقتنى فصاحته وخبرته لأتقدم اليه باقتراح أرجو أن ينال عنده القبول ، ذلك أن يفرد باباً من كتابه لفكرة الدولة فى الاسلام وتطورها منذ عصر الخلفاء ، فان القارئ الشرق ليتطلع الى هذه الناحية فى شوق عظيم ، ولا سيما اذا صدرت من عالم جليل كالأستاذ وفيق له مثل هذه الخبرة عن الدولة وفكرتها ؟

م. الخفيف

غاندى والحركة الهندية

تأليف الأستاذ سلامة موسى

غاندى والحركة الهندية كتاب جدير بأن يطلع عليه كل شبابنا فهو حافل بدروس الوطنية الصادقة مصورة فى حركة من أروع وأجل الحركات الوطنية وفى شخصية من أعظم شخصيات التاريخ هى شخصية غاندى الرجل العظيم والزعيم النادر المثال والانسان الكامل ، الذى لا يجود الزمان بأمثاله من العظماء الا كل حقبة طويلة من الدهر .

أعجبنى فى هذا الكتاب تفصيل الموضوع وحسن تقسيمه وتقريبه الى أذهان القراء فى مهارة ولباقة عرف بهما مؤلفه الفاضل . ثم أعجبنى أكثر من ذلك ما أحسسته من حماس الأستاذ وصراحته وصدق تأثره بما يكتب واندماجه فى موضوعه حتى لتحار فيما لو كان الأستاذ يسرد عليك تاريخ وتطور حركة من الحركات الوطنية أم هو يسمعك آراءه الصريحة الجريئة فى الاستعمار وما ينجم عنه من نكبات كل ذلك فى أسلوب علمى دقيق جمع بين حماس القلب ورزانة العقل .

قسم الأستاذ هذا الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، ففى الجزء الأول

يتكلم عن الأحوال العامة فى الهند ، وفى الجزء الثانى يبسط لك سياسة غاندى وفلسفته ، وفى الجزء الثالث يورد لك بعض مقالات وحكم كتبها غاندى ونشرت فى المجلات الهندية .

وغاية الأستاذ من هذا الكتاب جديرة بالثناء ، انظر إلى قوله « ونحن فى جهادنا للمبادىء الأمبراطورية البريطانية نشبه الهنود وان كانت قدم الأنجليز فى الهند أرسخ وتاريخهم أطول ، ولهذا السبب نفسه يجب أن نستنير بحركتهم كما استناروا هم بحركتنا فان زعماءهم كثيراً ما ذكروا الاتحاد بين المسلمين والأقباط فى مصر ودعوا أبناء أمتهم المسلمين والهندوكيين الى مثله فى الهند .

وسيجد القارىء المصرى فى هذا الكتاب كثيراً من المواضيع التى يهمه معرفتها ، كأصل الحركة الهندية والديانة الهندوكية ، والفقر والنجاسة ، والدستور الجديد ، وغاندى وحياته وموقفه من المدنية الحديثة وما لم يعرف عن غاندى ، وصوم غاندى الأول ، هذا إلى بعض مقالات غاندى نفسه ، مما يجعل الكتاب جديراً بالمطالعة والانتفاع مما جاء فيه من دروس نحن أحوج ما نكون اليها ؟ م .

مثلنا الأعلى

قصة وضعها عبدالمجيد عباس المعلم فى مدرسة تطبيقات دار المعلمين

مطبعة الحكومة — بغداد

قصة تمثيلية تقع فى أربعين صفحة من القطع الكبير ، موضوعها الوحدة العربية والدعوة اليها ، أهداها صاحبها الفاضل الى روح المغفور له فيصل بن الحسين فقيد العرب العظيم وجاء فى هذا الاهداء أنها « مثلت فى حضرة جلالته فحباها بالاعجاب ، وظفرت من جلالته بالرضا »

ونحن لا يسعنا إلا الاعجاب بكل ما يكتب عن الوحدة العربية والدعوة إليها كما أنى أشعر بالغبطة والارتياح بعد تلاوة القصة ، وذلك لما تخللها من شعور كريم وآراء سديدة . ولكنى إذا نظرت للقصة من ناحية الفن ، أجدنى ميالا الى أن أصرح لمؤلفها الفاضل بأن هذا الموضوع الكبير ، كان يحتاج الى طريقة خير من طريقته التى اتبعها ، كما أن القصة يكاد ينعدم منها الجو القصصى ، وكأنى فى مواضع كثيرة منها كنت أستمع الى مناظرة فى موضوع الوحدة العربية ، فالحوار ينقصه الفن فى الأداء والتوجيه ، والآراء تسرد بطريقة سطحية جافة كما يجىء على لسان مدرس المطالعة عند شرح موضوع درسه ، هذا الى أنها تكاد تخلو من المواقف المثيرة والمفاجآت القوية ، كما أن مناظرها محدودة وأشخاصها قليلون لا أكاد أفرق بينهم فى خلق ، غير أنى أشعر بميل المؤلف الفاضل الى القصة واتخاذها أداة لنشر آرائه ، ولعلنا نجد منه فى المستقبل ذلك الفنان الناضج الذى يجمع بين الموهبة والثقافة ؟

م . الخفيف

صحيفة دار العلوم

تفضلت جماعة دار العلوم فأهدت الينا هذه الصحيفة الجليلة التى تصدرها كل ثلاثة أشهر فى العلم والأدب والاجتماع ، وهى ولا شك أثر نفيس من آثار هذه الدار المباركة التى حملت أمانة اللغة وأدت رسالة الأدب فى ثقة المؤمن وإخلاص المجاهد فى العصر الحديث

وأقلام الصحيفة كلها من الأقلام البارعة التى تخرجت فى الدار ونبهت فى الأدب والاجتماع والتربية

بدل اشتراك الصحيفة السنوى لغير الطلبة عشرون قرشاً وثمن العدد خمسة قروش

2 me Année, No. 53.

Lundi-9-7-1934

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ — ٩ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بين أســـلوبين . . .

بين الاطناب الذى تؤثره (الوادى) ، وبين الايجاز الذى تحبه (الرسالة) ، كادت تضيع صداقة رسخت قواعدها على الاكبار والحب ، وتأكدت أسبابها على الخفض والشدة ، وتمكنت ألفتها على ربع قرن من الزمان المضطرب تغيرت فيه مودّات الأخوة ، وتنكرت قلوب الجماعات ، وتحللت روابط الأمم .

وجملة الأمر أن صديقى طه قد بنى قصة من الأدب الجميل على رسالتين خاصتين أرسلها اليه الأستاذ توفيق الحكيم ، ثم نشرها ونشرهما فى الوادى ؛ فلما أصبح كل ذلك للجمهور والتاريخ جاءت الرسالة فنشرته ، لأنها كما قلت فى العدد الماضى كانت مسرحًا لهذه الرواية ، فمن حق قرائها أن يشهدوا فصلها الأخير ، ولأنها سجلٌ لألوان الأدب الحديث ، فمن حق الأدب أن نسجل فى تاريخه ما يقع بين رجاله من الخلاف الجدى فيه كاملاً غير منقوص . وان بقى لأصحاب الظنون والفروض سبب ثالث فلن يكون غير تعصب الصديق للصديق . وكان الأستاذ توفيق الحكيم فيما بين ذلك قد نشر بيانه الذى نقلناه فى الأسبوع الماضى عن

الوادى بعنوان (خصومة) ، فلم يُتَحْ لى الاطلاع عليه لحالة خاصة صرفتنى عن قراءة الصحف ذلك اليوم . ولو كنت قرأته وقرأت بجانبه تعريض الدكتور بالأستاذ فى مقاله (أخلاق الأدباء) لشق على فهمى أن يستنتج من المقالين عودة الصفاء وزوال الجفوة

تصافى الصديقان إذن على غير علم من الوادى ولا من الرسالة .

فلما رأى الأستاذ الحكيم عودة المقالة فى الرسالة خالجته فى الصفاء ريبة ، وأراد صديقى الدكتور أن يجلو شبهة الأمر ، ويخرج من تبعة النشر ، ويترضى الغاضب المرتاب ، فأرسل إلىّ كلمته العاتبة تتنمرّ على صفحة الوادى

كان المألوف فى مثل هذه الحال أن يقف العتاب عند الترضى والتنصل ، ولكن الأسلوب المطنب الذى يؤثره صديقى من خصائصه التدفق ، والتدفق لا يخلو من كدورة ، فأخذ يولد من العتاب ويفرع فيه ، حتى خرج به إلى التلويح والتجريح والاستعداء ، لأننى نشرت ما نشرت بغير اذنه . علقت على هذا (العتاب) الموجع بأن صديقى طه استغل حيائى منه ووفائى له فى ارضاء الحكيم وانصاف الوادى ، لأنه يعتقد انى اذا عاتب واشتد لا أجيب ، واذا أجبت لا أعيب : ولكن الأسلوب الموجز الذى اصطنعته كان على ما يظهر أقرب الى الاخلال والغموض ، لأن صديقى لم يفهم (الاستغلال) على الصورة التى اقتضاها المقام و بالمعنى الذى قصدته ، وانما فهمه بمعناه الشنيع الذى لا يكون بين أخوين ، ثم رتب على هذا الفهم فى رده على تعليقى ما رتب مما لا أعده موجهاً إلىّ ما دام قائماً على هذا الأساس !

فأنت ترى أن أكثر ما حدث انما نشأ من أسلوبين استعمل كل منهما فى غير موضعه ، وان الأمر كله ما كان ليقع لولا حرفة الصحافة التى تغرى بالنشر كما يغرى على القتل حمل المسدس . فان أكثر من هذا يقع كل يوم بين الأصدقاء والاخوة فتزيله كلمة فى التليفون أو تحية عند اللقاء

قال الذين وقفوا على ملابسات هذا الأمر انى اذا كنت أخطأت فى نشر المقالة وهى عامة ، فان صديقى أخطأ فى نشر الرسائل وهى خاصة ، وما يُسَوِّغ موقفه من الحكيم يسوغ موقفى منه . ولكنى لا أقول هذا القول ولا أستعين به ، فإن الواقع أن ما صرفنى عن الاستئذان فى النشر إنما هو اعتقادى بارتفاع الكلفة بين طه والزيات ، و بين الوادى والرسالة

* * *

أما بعد ، فإذا جاز لهبَّة الريح أن تزعزع الجبل ، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر ، جاز لنشر مقال أدبى من غير إذن أن ينال من صداقة رفيقَى الصبى وخدينَى الشباب ، فينتزع المحبة من خلال النفس ، ويقتلع العلاقة من صميم القلب ، ويقتطع الماضى من حساب الزمن ، بالسهولة التى تنشر بها كلمة فى صحيفة !

وما كان ليقع فى الوهم أن قلبين ألفت بينهما براءة النشأة ، وطول الصحبة ، ووحدة الهوى ، وطبيعة الثقافة ، يجرى بينهما من سوء التفاهم ما يجرى بين القلوب المتناكرة والصلات الحديثة !

كذلك ما كان ليسبق الى الظن أن صديقى الذى لم تكشف الحوادث و الأيام منه إلا شعوراً سليما وخلقاً كريماً وذكاء متقدا وضميراً يقظاً ونفسا طيبة ، يخضع لأثر الحر وثقل العمل وعنت الظروف ، فيقول فى صديقه ما لا يحب ، ويرميه بما لا يعتقد !

أخى طه !

إن بينى و بينك ماضياً جليلاً لا تمحوه طوارئ الحاضر الحقير ، وصداقة خالصة لا تكدرها شوائب الظن السوء ، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع ، وإخوةً كراماً جزعوا لهذا الخلاف و يسرهم أن ينقضى

وإذا أمكنك أن تجد فى ذاكرتك القوية المعجزة غميزة فى خلق أخيك على طول عهدك به ، كنت خليقاً أن تطيع فيه نوازى الغضب ، وتقبل عليه شواهد الظن ، وتسلكه فى ذوى الخلق المعوج والطبع اللئيم !

أما اذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقى بيننا وهو الود ، وتعتدى على كل ما بقى لنا وهو الخلق ، وتمتد الى رأس مالنا الوحيد وهو الشرف ، فادع الله لى ولك أن يخرجنا منها ، و يغنينا عنها ، و يحفظ البقية من عمرنا الكادح فى كنف رعايته وفضله .

احمد حسن الزيات

حديث قطّـــين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام فى موضوع الانشاء ما يأتى :

« تقابل قِطّان أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القِطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، وإلى أىّ غاية ينصرف القول فى محاورتهما ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال — أن تكون فى رءوسهم عقول السنانير ؛ وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة فى هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة ، فيكتنهوا تدبير هذه القِطاط لحياتها ، وينفذوا إلى طبائعها ، ويندمجوا فى جلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزقوا بمخالبها .

قال بعضهم : وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل — أن نكون حميراً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقردة ، وخنازير ، وفئراناً ، وقططة وما هب ودب ، وما طار ودرج ، وما مشى وانساح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقنونا مع العربية والانجليزية لغات النهيق ، والصهيل ، والشحيج ، والخوار ، وضحك القرد ، وقُباع الخنزير ، وكيف نصىء ونموء ، ونلغط لَغَطَ الطير ، ونفحّ فحيح الأفعى ، ونكش كشيش الدبّابات ، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوى الجليل الذى تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهها ..؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزت ، قال أستاذه : أجدت وأحسنت ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال كتبت هكذا :

يقول السمين : ناوْ ، ناوْ ، ناوْ . . . فيقول النحيف : نَوْ ناوْ ، نَوْ . . فيرد عليه السمين : نَوْ ، ناوْ ، ناوْ . . فيغضب النحيف ، ويكشر عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نَوْ ، نَوْ ، نوْ . . . فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ : ناوْ . . . فيثب عليه النخيف ويصطرعان وتختلط « النَّوْنَوَة » لا يمتاز صوت من صوت ، ولا يبين معنى من معنى ، ولا يمكن الفهم عنهما فى هذه الحالة إلا بتعب شديد بعد مراجعة قموس القِطاط . . !

قال الأستاذ : يابنىّ ، بارك الله عليك ! لقد أبدعت الفن إبداعاً فصنعت مايصنع أكبر النوابغ ، يظهر فنه باظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القطّ بلغتنا إلا معجزة لنبىّ ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا سبيل إلا ما حكيت ووصفت ، وهو مذهب الواقع ، والواقع هو الجديد فى الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِراً ، فكنت فى إجابتك هِراً إستاذاً ، ووافقت السنانير ، وخالفت الناس ، وحقّقت للممتحنين أرقى نظريات الفن العالى ، فان هذا الفن إنما هو فى طريقة الموضوع الفنية ، لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ؛ ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورعوا عهد الفن لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً فى النادرة والتهكم ، وغرابة العبقرية ، وجمالها وصدقها ، وحسن تناولها ، وإحكام تأديتها لما تؤدى ؛ ولكن ما الفرق يابنىّ بين « ناوْ » بالمد ، و « نَوْ » بغير مد ؟ . . . قال التلميذ : هذا عند السنانير كالاشارات التلغرافية : شرطة ونقطة وهكذا . قال يابنى ولكن وزارة المعارف لاتقرّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هِراً . . . والامتحان كتابى لا شفوى . قال الخبيث : وأنا لم أكن هِراً بل كنت إنساناً ، ولكن الموضوع حديث قِطين ، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلفين له ، المتطفلين عليه ؛ فان هم خالفونى قلت لهم : اسألوا القِطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقطين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرّشوها ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحان ، وليكتبوا عنها مايسمعونه وليصفوا منهما مايرونه ، فو الذى خلق السنانير والتلاميذ والممتحنين والمصححين جميعاً — ما يزيد الهرّان على « نَوْ ، وناوْ » ولا يكون القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفت ، وما بُدٌّ من المهارشة والموائبة بما فى طبيعة القوى والضعيف ، ثم فرار الضعيف مهزوماً ، وينتهى الامتحان !

* * *

إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هِرتين ، لا الحديث عنهما ؛ فان إجادة الانشاء فى مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السوىّ الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت

فى الكلام قلب هِر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الأطفال فى الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولها ؛ وكيف لهم فى هذه السن أن يترجموا بدقائق الوجود ، ويداخلوا أسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شىء رهناً بعلله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية « كن زهرة وصف . واجعل نفسك حبة قمح وقل » وإنما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ إذ النبىّ تعبير إلهى تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمها التى تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التى تسمّى الفن .

وقد كان فى القديم امتحان مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحِن هو الله جل جلاله ؛ والموضوع حديث النملة مع النمل ؛ والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملةٌ : يأيها النمل ، أدخلوا مساكنكم ، لا يحْطِمنّكمْ سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها »

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً ، وكان سر كل شىء هو من النور والشعاع يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء ، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحانى هو بذاته تعبير فى البصيرة وإدراك فى الذهن . وهو أساس الفن على إختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثال والنغْمة ؛ أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتمّ إشراقاً إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فان من عجائب السخرية بهذا الانسان أن يكون تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التى ينتهى فيها العلوّ من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السُّفْل ؛ ومن ثم كانت الفنون لا تُعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله . وبلاغة الأداء وروعتُها ؛ ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن ، كما للجنة حق فى نوابغه ؛ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة ؛ أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلى . وكيف لعمرى يستطيع إبليس أن يؤدى عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟ . .

***

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما .

كان القط الهزيل مرابطا فى زقاق ، وقد طارد فأرة فانجحرت فى شق ، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزّها ، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم . وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلّع تخلُّع الأسد فى مشيته وقد ملأ جلدتَه من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غِلظا ، وفى عصبه شدةّ ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابه ينشق سِمناً وكدْنة . فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً متقبضاً ، طاوىَ البطن ، بارز الأضلاع ، كأنما همّت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر . فقال له : ماذا بك ، ومالى أراك مُتيبّساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحى ، أوليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد ، فمالك — ويحك — رجعت صورة مختزلة من الهر ؟ أفلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ، ويفتون لك الخبز فى المرق ، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه ، وتدللك الفتاة على صدرها ، وتمسحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه . ؟ ومالجلدك هذا مغبرّاً كأنك لا تلطمه بلعابك ، ولا تتعهده بتنظيف ، وكأنك لم ترقطْ فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما ؛ وأراك متزايل الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهدت ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك ، ولا يركبك

من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشيّة ولا وسادة ولا بساطا ولاطرازاً ، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس ، فما له لحم يجيء من لحم ، ولادم يكون من دم ، وانحطّ فيه جسم الأسد ، وسكنت فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمة وشحمة ، ولبناً وسمكا ، وجبناً وُفتاتاً ، وإنك لتقضى يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلاً ، أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً . أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً ، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة ، وأحكمت طبعاً ونقضت طباعا ، وربحت شبعاً وخسرت لذة ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقلّ ، وقد صرت معهم كالدجاجة تُسمن لتذبح ، غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً .

إنك لتأكل من خوان أصحابك ، وتنظر إليهم يأكلون ، وتطمع فى مؤاكلتهم ، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا ، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها .

إن كان أول ما فى الحياة أن تأكل فأهون ما فى الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شيء كاستواء الحال ، ولا يحييك شيء كتفاوتها ، والبطن لا يتجاوز البطن ، ولذته لذته وحدها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العلل الباطنة التى تحركنا إلى لذات أعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيش من قِبَلِ الجسم كله ، لا من قبل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة ، وأرانى بإزائك معدوما بزوال أسلافى منى ، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتك الله إلا ما وصفت لى هذه اللذات التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمت ــ ويحك ــ أن المحنة فى العيش هى فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة ، وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة الكسب ، وسُعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عُدِل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة ، فإن رغباتنا لابد لها أن تجوع وتغتذى كما لابد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كلٌّ منهما حياته فى الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مطمئنة ، فإن لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها ، ولكن مكابدة الحياة زيادة فى الحياة نفسها .

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو ، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارٌّ محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ إنك كالأسد فى القفص ، صغرت أَجَمَتُهُ ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصا يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد ، أما أنا فأسد على مخالبى ووراء أنيابى ، وغَيْضَتى أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً ، وإن الحرية لتجعلنى أتشمّم من الهواء لذة مثل لذة الطعام ، وأستروح من التراب لذة كلذّة اللحم ، وما الشقاء إلا خَلَّتان من خلال النفس ، أما واحدة فأن يكون فى شرهك ما يجعل الكثير قليلاً ، وهذه ليست لمثلى مادمت على حد الكفاف من العيش ــ وأما الثانية فأن يكون فى طمعك ما يجعل القليل غير قليل ، وهذه ليس لها مثلى مادمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء كالحق والباطل ، كلاهما من قبل الذات ، لا من قِبل الأسباب والعلل ، فمن جاراها سعد بها ، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت فى هذا الشق فطعمت منها لذة وإن لم أطعم لحماً ، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عَقْرِى فأحدث لى وجعاً ، ولكن الوجع أحدث لى الاحتراس ، وسأغشى الآن هذه الدار التى بإزائنا فأية لذة فى السَّلَّة والخَطْفة ، والاستراق والانتهاب ثم الوثب شداً بعد ذلك ! هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جُرذ ، أو أدركت يوما فرحة النجاة بعد الرَّوَغان من عابث أو باغٍ أو ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هوّ لك طفل بالضرب فهوّ لته أنت بالعضّ والعقر ففرّ عنك منهزماً لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لا أدرى ؟ هلمّ أتوحش معك ، ليكون لى مثل نُكرك ودهائك واحتيالك ، فيكون لى مثل راحتك المكدودة ، ولذتك المتعبة ، وعمرك المحكوم

عليه منك وحدك . وسأتصدى معك للرزق أطارده وأواثبه ، وأغاديه وأراوحه و . . . فقطع عليه الهزيل وقال :

ياصاحبي ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة أسرك ، فلا يلقانا أول طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً ، وأهوى عليَّ بالضرب لأنطلق حراً ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاء عليَّ

وكانت الفأرة التي انجحرت قد رأت ماوقع بينهما ، فسرها اشتغال الشر بالشر . . وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من ينجو بحياته ، ودخلت فى باب مفتوح ، ولمحها الهزيل ، كما تلمح العين برقا أومض وانطفأ ، فقال للسمين : اذهب راشداً ، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة أن الوقوف معك ساعةً هو ضَياعُ رِزقٍ ، وكذلك أمثالكَ في الدنيا ، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل . .

مصطفى صادق الرافعي

من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قد تفوق الحقيقة أحياناً من حيث الغرابة والروعة والميل الى المدهش الخارق ، كل ما يتصوره الخيال المغرق . وهذه ظاهرة نلمسها فى كثير من حوادث التاريخ ، كما نلمسها فى الحوادث الفردية . ومن الأشخاص العاديين من تهيأ له حياة فياضة بالمخاطر والمغامرات المدهشة تجعل منه شخصية فريدة تخلق بذكر التاريخ ، وان لم تؤثر فى مجرى حوادثه . وكثيراً ما تبدو هذه السير الشخصية العجيبة برائع حوادثها ومفاجآتها فى لون خارق لا تسبغه الحوادث العظيمة على التاريخ نفسه ، ولا يسبغه الخيال المغرق على القصة المبتكرة .

ومن هذه النماذج الخارقة للحياة الفردية ، حياة الفنان الايطالى بنفونوتو تشلليني Benvenuto Cellini ، وهو نموذج ليس له فيما نعتقد مثيل فى الغرب أو الشرق ؛ ومما يزيد فى قيمته وروعته انه صورة رسمتها يد ذلك الفنان البارع الذى نقرأ حياته ، عن نفسه وعن حوادث حياته . وكم من تراجم شخصية بديعة انتهت الينا لشخصيات عظيمة وبأقلام قوية ساحرة ؛ ولكنا لا نستطيع أن نلمس فيها رغم روعتها ، تلك الحياة المضطرمة التى تفيض بها سيرة بنفونوتو تشلليني . ومن الغريب أن تشلليني لم يكن كاتباً ولا أديباً ، يسبغ من أدبه وقلمه على حوادث حياته سحراً وقوة ؛ ذلك أن معظم التراجم الشخصية العظيمة التى انتهت الينا أتيحت لها أقلام بارعة صاغتها فى أوضاع أدبية باهرة ، وكثيراً ما يتفوق الجمال الأدبى فيها على روعة القصة وسحر الحوادث . ويعرف الذين قرأوا «اعترافات» جان جاك روسو ، أو ترجمة المؤرخ الفيلسوف جيبون لنفسه ، أى جمال يسبغه القلم ويسبغه البيان الرائع على تلك الصحف الشائقة التى يقدمها الينا كل من روسو وجيبون عن نفسه ، حتى أن سحر البيان ليسمو فى مواطن كثيرة ، على روعة الحوادث ذاتها . ولكن تشلليني كان أكثر من كاتب وأديب ؛ كان فناناً عظيما تتجلى عبقرية الطبيعة فى مواهبه ، ويستمد منها سحر البيان وآية الوصف ؛ وإنا لنلمس فى تلك الصحف القوية التى تركها لنا عن حياته العجيبة ، روعة هذه المواهب الساذجة ، وتحملنا بساطتها المؤثرة الى أعماق هذه النفس التى تحدثنا لا بواسطة اللفظ الساحر ، ولكن فى نوع من الوحى والتأثير الروحى ، ونكاد نشعر ونحن نتتبع تلك الصورة الحية التى يرسمها لنا تشلليني عن نفسه ، اننا نرى تشلليني نفسه ، لا تفصلنا عنه القرون ، ونشهد معه تلك الحوادث العجيبة التى يقصها علينا ، ونشهد أحوال عصره ماثلة أمامنا ، فى ألوان ساطعة ، تسبغ عليها ريشته البارعة كل ما فى الحقيقة من قوة وروعة وحياة

* * *

كان تشلليني من غرس عصر الأحياء ، ذلك العصر الذى تفتحت فيه مكامن العبقرية البشرية ، وأخرجت لنا ثبتاً حافلاً من تلك الشخصيات التى يزدان بها تاريخ الانسانية ؛ وقد بزغ فجر هذا العصر فى ايطاليا ، منذ القرن الرابع عشر ، وأشرقت طلائعه على يد دانتى وبتراركا وبوكاشيو وماكيافيللى ، وميراندولا وجاليليو ، ثم على يد رافائيل سانزيو وميشيل انجيلو وعشرات

آخرين من أبطال الفن الرائع ترجمهم لنا جميعاً ، جورجو فازارى فى أثره الضخم [1] ؛ وكان بنفونوتو تشاللينى من جنود ذلك الجيش الباهر الذى لبث ضوء عبقريته يسطع فى جنبات ايطاليا زهاء قرنين . ولم يكن فى الصف الأول من ذلك الثبت الحافل ، ولكنه يقدم الينا بحياته الغريبة أقوى وأصدق مثل لعصره ، بكل ما فيه من حسنات ورذائل ؛ ولا غرو فقد عاش تشاللينى فى عصر البابوية الذهبى ، وعصر الحروب الأهلية والغزوات الأجنبية فى ايطاليا ، واشترك بقسط وافر فى كثير من الحوادث العظيمة التى كانت تهز أسس المجتمع الايطالى يومئذ ، وشهد عن كثب سير أولئك البابوات والأحبار الذين كانت أقوالهم ونزعاتهم يومئذ كل شىء فى الملك والحياة العامة

وولد تشاللينى فى أسرة متوسطة الحال فى سنة ١٥٠٠ بمدينة فلورنس (فيرنتزا) التى كانت يومئذ فى طليعة المدن الايطالية الزاهرة ، وكانت موئل الفنون والآداب ؛ وكان أبوه مهندساً وموسيقياً يجيد العزف بالمزمار ، وفناناً يقوم بصنع التحف العاجية الدقيقة ؛ وكان يحاول أن يغرس فى نفس طفله بنفونوتو حب الموسيقى ويرغمه على العزف والغناء . ولكن بنفونوتو كان يتضجر من الموسيقى ، ويؤثر عليها الرسم . ولما بلغ الخامسة عشرة التحق على كره من أبيه بحانوت صائغ ماهر ؛ وكان يهوى هذه الصناعة بطبيعته ؛ ولكنه لم يلبث أن اضطر الى مغادرة فلورنس على أثر اشتراكه فى شجار دموى وقع بين أخيه وبين جماعة من جند الأمير ، وقضى من جرائه بنفى الأخوين من فلورنس ؛ فسار تشاللينى الى مدينة سيينا ، واشتغل هنالك حيناً لدى صائغ آخر ؛ ثم سعى والده لدى الكردينال دى مديتشى الذى انتخب لكرسى البابوية باسم كليمنضوس السابع ، فسمح للأخوين بالعودة الى فلورنس ؛ واقترح الكردينال على الأب أن يرسل ولده بنفونوتو الى بولونيا ليتعلم هنالك الموسيقى على أساتذة الفن بتوصية منه ، فاغتبط الأب لذلك أيما اغتباط ، وقبل الفتى رغم ارادته لأنه كان يكره الموسيقى وينعتها « بالفن الملعون » ، ولبث مدى أشهر يتعلم الموسيقى ، ويشتغل أيضاً بصناعته المحبوبة أعنى الصياغة وصنع القطع الفنية الدقيقة ؛ ثم عاد الى فلورنس يزاول صناعته حتى اشتهر رغم حداثته ، وتحدث الناس بمواهبه . وهنا اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين فتى يدعى تاسو ، وهو فنان حفار ؛ فاقترح عليه أن يسافر الاثنان الى رومه ؛ وكانت هذه أمنية تثير خيال فتى ذكى مخاطر مثل بنفونوتو ، فقبل الاقتراح ؛ وسافر الاثنان الى رومه ، وكان تشاللينى يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره

وفى رومة اشتغل تشاللينى لدى أقطاب فنه ، وزاد كسبه ، وتفتحت أمامه الآمال الكبيرة ؛ وكانت رومة فى ذلك العصر مدينة الأحبار ، ومعقل الفاتيكان ، تنثر عليها البابوية من سلطانها وبذخها وبهائها ألواناً رائعة ؛ وكان الاتصال بذلك المجتمع القوى الباهر أشد ما يثير طلعة ذلك الفتى الطامح ؛ وكانت البابوية وأولياؤها من الأحبار الأكابر يومئذ موئل الفن الرفيع ، وملاذ الفنانين الموهوبين ؛ فاستقر تشاللينى فى رومة يرقب فرصه ، ولبث الى جانب عمله يشتغل بدراسة النقوش والصور الخالدة التى خلفها ميشيل انجلو ورافائيل ، فى صروح رومة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى أتيحت له فرصة الاتصال بحبر كبير هو أسقف شلمنقة أصلح له بعض التحف وسر من مهارته وعهد اليه بصنع اناء بديع مزخرف ؛ وعهدت اليه زوج الأمير تشيجى بصنع حلية من الجوهر . وهنا يفيض تشاللينى فى وصف التحف والحلى البديعة التى كان يصنعها افاضة تدل على ما كان يجيش به من شغف بفنه ومهنته ، وهنا أيضاً يطلق تشاللينى العنان لأهوائه المضطرمة ويصف لنا بمنتهى الصراحة والجرأة مواطن لهوه ، ومواطن عبثه وفسقه مهما كانت من الوضاعة ، ويقص علينا كيف أصابه الوباء الذى عصف يومئذ برومة ، عقب ليلة غرام قضاها مع فتاة خادمة لبنى حسناء جاءت لزيارة صديق له ، فاختص الصديق بها ، واقتنص هو الخادمة خلسة عنها . وقد قص علينا روسو فى اعترافاته كثيراً من مواطن لهوه وفسقه ، فى أحاديث صريحة واضحة ؛ ولكن روسو يسبغ من بيانه على تلك الأحاديث فى كثير من الأحيان لوناً من الحشمة ، وتكاد تنم عن شعوره بالاثم والندم واحتقار مواطن الضعف الانسانية . أما تشاللينى فانه يقص علينا تلك المناظر الآثمة بكل بساطة ، ويصف لنا طبيعته المضطرمة الجامحة دون استحياء ، ويكشف لنا عن دخائل نفسه دون تحفظ . وأخص ما يلفت النظر فى ما يقصه علينا من تلك الصفات النفسية ، انه

(١) وهو كتاب فى أربعة مجلدات يحتوى على تراجم المصورين والمهندسين الايطاليين حتى القرن السادس عشر

كان كثير الافراط والعنف ، شغوفاً بالمخاطرة ، تواقاً الى الانتقام، كثير المجون والاستهتار .

ونجا تشلليني من الوباء ، بينما احتمل كثيراً من أصحابه ؛ ولكن رومة لم تكد تفيق من عيث الوباء حتى دهمتها مصائب الحرب والحصار، وزحفت الجنود الأمبراطورية - جنود الأمبراطور شارلكان - على رومة بقيادة الكونستابل دى بوربون (سنة ١٥٢٧) . وهنا يبدو تشلليني فى ذروة الجرأة والمخاطرة ، فنراه رئيس سرية من الجند المأجورين يتولى حراسة قصر الساندرو دلبيني . ثم يخف مع سيده الى الأسوار المحصورة ليرى الجيش المحاصر . وفى ذلك الموطن يقص علينا تشلليني قصة لا ينقضها التاريخ ؛ وهى أنه حينما أشرف على الأسوار مع زملائه ليرقب سير المعركة ، رأى وسط الدخان رجلاً يرتفع عن الجميع ، فصوب رصاصه نحوه ، وأطلق مع زملائه فى تلك الناحية عدة رصاصات ، وحدثت على أثر ذلك فى قلب الجيش ضجة كبيرة ؛ وشاع بعد ذلك أن الكونستابل دى بوربون قد قتل من رصاصة أطلقت عليه من وراء الأسوار . ويدعى تشلليني انه هو الذى أصاب الكونستابل برصاصه . وليس فى ذلك ما ينقضه التاريخ ، ولكن ليس فيه أيضاً ما يؤيده . فقد سقط بوربون قتيلا فى بدء القتال من رصاص الجند المحصورين ؛ ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن تشلليني هو صاحب الطلقة القاتلة . وعلى أى حال فان الحادث دليل على جرأة تشلليني ووافر شجاعته . ولم يمنع مقتل بوربون جنوده من اقتحام المدينة ، فدخلوها فى عدة مواضع دخول الضوارى المفترسة ، واضطر البابا كليمنضوس السابع أن يفر مع بطانته الى حصن سانت انجيلو الذى يتصل بقصر الفاتيكان بأقبية سرية ؛ وكان ذلك الحصن الشهير الذى ما يزال الى اليوم قائماً فى رومة على ضفة نهر تفيرى ، من أمنع وأعجب معاقل العصور الوسطى ، يلجأ اليه الباباوات بكنوزهم كلما دهم رومة خطر السقوط فى يد العدو ، ويتخذ فى أوقات السلم سجناً تزج اليه البابوية أعداءها . واختار الجنرال دى مديتشى قائد الحرس تشلليني ضمن حرس الحصن اذ كان يعرف شجاعته ؛ وكان الحصن مجهزاً بالمدفعية من جميع نواحيه ، فانتخب تشلليني ليتولى إطلاق احدى وحدات المدفعية ، ولبث مدى شهر يتولى هذه المهمة . ويقول لنا تشلليني انه أتى فى ذلك بالعجب العجاب ، وحصدت قنابله كثيراً من جند العدو ، وباركه أكابر الأحبار وهنأوه على براعته . وفى خلال ذلك استدعاه البابا كليمنضوس ، وكان قد عرفه من قبل وعهد اليه بصنع بعض التحف وأعجب بافتنانه ، وطلب اليه أن يقوم باستخراج جميع التحف والحلى الرسولية من علبها واطاراتها الذهبية ؛ وبعد أن خبأ البابا الجواهر فى بطانة ثيابه وثياب بعض خواصه ، أمره أن يصهر القطع الذهبية سراً ؛ فأخذها تشلليني واشتغل بصهرها فى ركن صغير الى جانب مدفعيته ؛ ولبث أثناء العمل يطلق القنابل على جند العدو ؛ وهنا يقول لنا تشلليني انه أطلق قنابله ذات يوم على فارس يسير حول خنادق العدو فأرداه وتبين انه هو البرنس دى اورانج كبير الجيش المحاصر

وبعد أيام قلائل عقد الصلح ؛ وسار تشلليني الى فلورنس ليزور أباه وأسرته ، ملىء الجيب ، يركب فرساً جميلاً ، ووراءه خادم خاص . وبعد أن مكث قليلاً سار الى مانتوا ليزورها ، واتصل بأميرها دوق مانتوا ، وصنع له بعض التحف الجميلة . ثم عاد الى فلورنس ، فألفاها تتأهب للدفاع عن نفسها ضد جنود البابا كليمنضوس ، فاعتزم أن يشترك فى الدفاع عن وطنه ، ولكن البابا كليمنضوس أرسل يستدعيه اليه ، ويعده بوعود حسنة ، فعاد الى رومة ، واستقبله البابا مراراً ، وعهد اليه بصنع حلى وتحف خاصة بثيابه وتاجه ، ثم عهد اليه بصنع نماذج للنقود تستعمل فى دار الضرب البابوية ، وأبدى تشلليني فى ذلك كله من المهارة والدقة ما جعل البابا يضاعف له العطف والبذل ويعينه ناظراً لدار الضرب . وهنا وقع حادث جديد يدل على صرامة تشلليني وعنفه ؛ ذلك أن أخاه الأصغر جوفانى الذى كان يومئذ فى رومة ضمن جند الدوق الساندرو دى مديتشى اشتبك وبعض فتيان من صحبه ذات مساء مع جماعة من الحرس كانت تقود الى السجن صديقاً لبعض أولئك الفتيان ، فأصيب جوفانى خلال المعركة بجرح خطير ، وحمل مغشياً عليه الى قصر الدوق الساندرو ، فهرع اليه بنفونوتو ، ولكنه أسلم الروح بين ذراعيه ؛ وعرف بنفونوتو الرجل الذى طعن أخاه الطعنة القاضية ، فسار الى منزله ذات مساء ، وكان الرجل يتنزه أمام داره ، فطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر لها صريعاً ، وبذا انتقم لأخيه وشفى نفسه . وعاد الى عمله كأن لم يحدث شىء .

وكان القانون يومئذ صريع الجاه والهوى ، فمن كان ذا جاه أو حماية استطاع أن يجرى القصاص لنفسه وأن يستبيح دم خصومه

واستمر بنفونوتو حيناً يقوم بخدمة البابا ، فأعاد صنع التحف الرسولية كما كانت قبل الحصار ، وكلفه البابا بصنع تحف أخرى ، فوضع رسومها ونماذجها ، وكان البابا دائماً فارغ الصبر يستحثه على السرعة ، وبنفونوتو لا يدخر وسعاً فى العمل ؛ وأصابه ذات يوم مرض فى عينيه ، وعاقه عن العمل حيناً ، فغضب البابا واعتقد انه يتقاعد عن إتمامه قصداً ، وكان ثمة بعض رجال البطانة ممن يحقدون على بنفونوتو ، ويستكثرون عليه هذه الرعاية ، يدسون دائماً فى حقه ويلتمسون الفرص لاحفاظ البابا عليه بحجة انه مقصر فى أعمال قداسته وانه كثير الحب للمال لا يقنع أبداً بما يدفع اليه من الأجور والهبات ، وانه كثير الادعاء والغرور ؛ فأثمرت هذه السعاية ثمرها ، وطلب البابا من بنفونوتو ما لديه من تحفه ، فامتنع بنفونوتو من تسليمها بحجة انها لم تتم وانه لم يقبض أجرها ، فقبض عليه بأمر البابا ، وأخذت التحف قسراً عنه ، ثم أطلق سراحه ؛ بيد أنه كان قد فقد عطف البابا . فحاول أن يجد يومئذ عزاءه فى الحب وكان قد تعرف بسيدة صقلية ذات ابنة حسناء ، وهام بحب الابنة ، واعتزم أن يختطفها ويفر بها الى فلورنس . ولكن الأم شعرت بمشروعه ، فسافرت مع ابنتها خلسة الى صقلية ؛ ولجأ بنفونوتو الى ساحر فى رومة ليعاونه على الاجتماع بحبيبته ، ولبث أياماً يحضر الجلسات السحرية خارج رومة ؛ ولكنه لم يفز طبعاً ببغيته . ثم نسى غرامه ، ووجد عزاءه مرة أخرى فى فنه وفى التماس صنع بعض الحلى والتحف النادرة التى تدلل على أنه أستاذ عصره ، وأنه لا يجارى فى ابتكاره وبراعته .

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

دق على الخشب

أو « بص وراك »

من عبارات الدعاء والتشميت لجلب الخير وطرد الشر عند الأنجليز قول الواحد منهم « مسّ الخشب » أو « دقّ على الخشب » كما نقول نحن « بص وراك » كأن هذا المسّ أو هذا الدقّ يطرد الشيطان أو العفريت الذى يتحفز غير منظور وغير مشعور به لقطع الخير عن أهله . يراد به أن يكون كالبسملة عند المسلمين أو كذكر الصليب عند المسيحيين ضماناً لحسن البدء وحسن الختام

وقد رأينا مقالاً لعالم انجليزى بهذا العنوان حاول فيه تعليل هذا المسّ وتسلط الخرافات على الناس قال :

« كلما مرّ يوم رأى العالم وقد عراه الدهش انه لا يزال فى القرن العشرين أناس يؤمنون بالسحر . أما أنا فلا أفهم قدرة الناس على أن تدهشهم هذه الحوادث التى تتكرر فى مدة قصيرة

ففى سنة ١٩٢١ كان حديث القوم عندنا ذلك المنزل المسحور الذى كانت فيه قوى غير منظورة تبعثر الأثاث والرياش فى جميع جوانبه ، وفى سنة ١٩٢٦ اتهم بعضهم بالسحر فى محكمة ملون ، وفى سنة ١٩٢٨ روع الناس بوقائع سحرية فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية .

هذا بعض من كلّ ، وهم كلما سمعوا بحادثة من هذا النوع دهشوا لها ما دهش وقالوا انها مستحيلة ، ومن التخرص والأحاديث الملفقة . ثم تراهم يدقون على الخشب ويحاذرون المرور تحت السلالم الخشبية ويلقون الملح من فوق أكتافهم الى غير ذلك ، هذا كله مع علمنا بأن السحر خارج عن دائرة العقل والحقائق العلمية

***

فان كان ذلك كله مستحيلاً وخارجاً عن دائرة العقل فكيف قوى على البقاء آلافاً من السنين ، على حين أن خصوم السحر والسحرة جعلوا ديدنهم فى كل زمان ومكان القبض على السحرة وحرقهم أينما وجدوهم . فهل هذا كله مناقض للعقل ؟

كنا منذ مئة وخمسين سنة نقول إن طيران الانسان مناقض

للعقل ، وكنا منذ عشرين سنة نقول ان من مناقضات العقل جلوس امرئ فى منزله بلندن ينصت إلى عزف الموسيقى فى برلين

وقد علل بعضهم هذه الغرائب بقوله إنها من فئة الحقائق التى تخضع لناموس طبيعى مجهول . ومتى يعرف هذا الناموس تصبح الغرائب حقائق لا علاقة لها بالسحر ، لأن السحر لايخضع للنواميس الطبيعية

وقد تكون هنالك نواميس نجهلها ، ومع ذلك فهى تعمل عملها كل يوم أمام عيوننا

وفى سنة ١٧٧٠ كان الناس يسمون التنويم المغناطيسى سحراً أى ضبط انسان لحركات انسان آخر وأعماله وهو يجهله تمام الجهل فلا يمكن أن يقال أن بينهما تواطؤاً وتدبيراً سابقاً

ثم جاءت سنة ١٧٧٨ فسموه بالسمرزم وسلموا به جدلاً وعلى كره منهم كما نسلم نحن الآن بالتليباتى أى انتقال الأفكار وننتظر ناموساً طبيعياً لتعليله ، ولكن هذا الناموس لم يكشف بعد ونحن نسميه فى هذه السنة ، سنة ١٩٣٤ بالهبنوتزم . فهل نستطيع أن نعلل بناموس طبيعى كيف يتمكن بعض الناس وفى أيديهم غصن من شجر البندق من أن يدلونا على ينابيع ماء تحت الأرض التى يقفون عليها وذلك بانحراف الغصن فجأة فى أيديهم ؟

وهل نستطيع كذلك أن نعلل تعليلاً طبيعياً حوادث شفاء المرضى والمفلوجين والمقعدين والمبتلين بسائر العلل فى كهف لورد وتربيبه (فى فرنسا) فان كنا لا نستطيع ذلك وجب علينا الايمان بالسحر ونبذ القول اننا نرفضه لأنه لايعلل بناموس طبيعى نعرفه

ثم ماهى هذه التى يسمونها حقائق علمية . أنا لا أعرف كثيراً منها ، وإنما أعرف كثيراً من المذاهب والآراء العلمية . ففى أيام تلمذتنا كان من الأوليات أو البديهيات قولهم « إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين » . ولكننا بعد مذهب اينشتين نعلم علماً ليس بالظن أن ذلك ليس صحيحاً

وكان من الحقائق العلمية فى حداثتى أن أهل الكيمياء القديمة كانوا جهلاء وحمق لأن القاعدة التى كانوا يبنون عليها تجاربهم وامتحاناتهم كانت فاسدة . فقد كانوا يقولون إن عناصر معدن من المعادن يمكن تحويلها الى عناصر أخرى يركب منها معدن آخر . وعليه استدلوا أنه يمكن تحويل معدن ما ذهباً أو فضة باستعمال الوصفة الصحيحة لذلك . وبالفعل استحدثوا الذهب من النحاس ، ولكن نفقات التجربة كانت أعظم من الانتفاع بها عملياً كما أن استقطار الزيت من الفحم كان الى عهد قريب عظيم النفقة بحيث لايمكن استخدامه تجاريا

وبعد ما تقدمت فى السن وجد العلماء أن تحويل المعادن بعضها الى بعض حقيقة علمية كما ظن أهل القرن الثامن عشر لاخداعاً كما ظن أهل القرن التاسع عشر بعده . فصار العالم بعد ذلك أكثر إجلالاً لأهل الكيمياء القدماء وصرت أنا أكثر شكا فى الحقائق العلمية

أما المذهب السحرى فخلاصته هى أنه كما أن حولنا قوى عظيمة الفعل كالكهربائية ، وهذه القوى تنتج أشياء لا نزال نجهلها الى الآن كذلك فى داخلنا قوى عظيمة الفعل كالهبنوتزم و « التبصير » نستطيع بها بعد تربيتها وإتقانها أن نأتى أفعالاً لا تخطر لنا الآن على بال

ويقول الخبيرون بالسحر إننا نستطيع بهذه القوى أن نخضع جميع الأشياء المادية التى نراها حولنا من شفاء الأمراض والتكهن بالمستقبل . والمعيشة بلا طعام . والعوم فى الهواء كما صنع الوسيط دوجلاس هوم فى القرن الماضى بشهادة الشهود العدول . وتحكم الانسان فى مصيره

وقد قسم المعاصرون الأعمال السحرية قسمين : سموا مايراد به الخير والرشد السحر الأبيض ، وما يراد به الشر والنكد السحر الأسود . فمن قبيل الأول الشفاء بالايمان وهو الشفاء الذى يجرى على أيدى أئمة التبت . ومن قبيل الثانى سحر سحرة أفريقية بين قومهم السود . ومن غريب ما يذكر فى هذا الصدد أن الموظفين الانجليز والمبشرين فى أواسط أفريقية يعودون منها وهم يعتقدون أن لأولئك السحرة قوة خارقة وإن لم يدركوها ويعرفوا لها تعليلا

وغاية « علم » السحر إن صحت تسميته علماً هى إضعاف شهوة الجسم بسلسلة من أعمال التمرين والرياضة والتقشف اعتقاداً أن « أماتة ماهو مادى انما هى أحياء ماهو روحانى وما وراء الطبيعة فينا . وهكذا نتمكن بالأشياء غير المنظورة من اخضاع الأشياء المنظورة والتحكم فيها » .

ولا نستغرب أن يصدق أهل أواسط أفريقية سحر سحرتهم وكهانة عرافيهم وكهنتهم ونحن نرى الأوربيين الذين يعيشون بينهم مبشرين وتجاراً ومستعمرين يحارون فى تعليل بعض الحوادث

مصطفى كمال وموسوليني

كيف أجاب بطل تركيا على تهديد بطل ايطاليا

منذ بضعة أسابيع وقف دكتاتور ايطاليا وباعث نهضتها ليلقى خطبة من خطبه النارية على شباب ايطاليا الفاشيست ليزيدهم حماسة ووطنية فوق ما خلق فيهم منها كما هى عادته منذ أن تقلد زمام أحفاد الرومان ، فرأى أمامه بحراً زاخراً من ذوى القمصان السود وكلهم ممتلئون حرارة وحماسة ، ومتعطشون لليوم الذى تتاح لهم الفرصة فيه لأبراز مقدرتهم الجسمانية ، ومهارتهم فى فنون الحرب والفروسية ، فغره ذلك : نعم ، غر الدوتشى ذلك الجمع المحتشد وتلك الصفوف المتراصة ، الثابتة كالبنيان . وخيل اليه فى تلك اللحظة أن العالم كله قد ارتدى القمصان السود وجاء ليقدم آيات الخضوع وفروض العبودية لموجد ايطاليا الأوحد ، ليزداد كبراً على كبريائه

وهنا لعب الغرور دوره وزلت بموسوليني القدم زلة سياسية فظيعة . أجل ، فقد أوحى الغرور الى هذا الجبار أن يميط اللثام عن أمور كان حريصاً على كتمانها حتى تلك اللحظة حرصه على حياته . . فأشار فى سياق كلامه الى رجاله . . شباب ايطاليا الحاضرين ساعتئذ ، ان أرض القياصرة لم تعد تسعهم وأن عليهم بعد الآن أن يتطلعوا بأبصارهم نحو الشرق ونحو الجنوب . . .

(تلك البلاد التى غدا أحقر علوج الغرب يمني النفس بالسيادة عليها ؟ ! . .)

* * *

لقد غفل عن نفسه موسوليني هذه المرة وارتكب فى غفلته هذه خطأ سياسياً لا يمكن تلافيه بالسهولة التى كان ظنها . ذلك انه قد تحرش وبالأحرى صوب سهام كلامه ، بقصد أو بغير قصد لذلك الذى أثبت مراراً لأوربا ، المفتونة بنارها وحديدها ، انه مستعد دائماً وأبداً لأن يعطيها درساً جديداً أقسى وأمرّ من كل الدروس القاسية التى أعطاها اياها فى الماضى القريب فقط . . .

وما كاد الأثير يحمل صدى هذه الخطبة الى قاعة مجلس الأمة الكبير ويوصله الى آذان جبار تركيا العتيد ، حتى أوعز الى سفيره فى روما أن يقابل الدكتاتور ويستوضحه عن كلمة «الشرق» التى قالها وأومأ اليها فى عرض خطبته تلك . وما كاد موسوليني يعلم ان سفير تركيا يريد مقابلته حتى انتبه للغلطة التى وقع فيها . فأسرع للقاء الوزير وأكد له بأنه ليس إلا محباً لتركيا ومعجباً بغازيها الأعظم . ولم يقصد قط الأراضى التركية فيما أراد من « الشرق » فى خطبته . وانه لا يضع تركيا فى مصاف الأمم الشرقية ، بل يعتبرها دولة أوربية من صديقات ايطاليا . . .

فبمثل هذه التأمينات ظن موسوليني انه يستطيع اليوم أن يلعب مع الكماليين (أو ليسوا هم فى الحقيقة شرقيين أيضاً ؟ ؟) الدور الذى لعبته ايطاليا بالذات مع حكومة « الباب العالى » فى حرب طرابلس وبنغازى بالأمس القريب ، فلذا شعر كأن الكابوس الذى ضايقه من يوم إلقائه الخطبة المذكورة ـ وربما كان لأول مرة فى حياته الدكتاتورية ـ قد زال بانصراف سعاد بك من لدنه ، فوجئ على حين غرة بضربات سياسية قوية متتالية من منقذ تركيا العظيم

* * *

قلنا لم يكد موسوليني يضحك من تحت شاربيه الحليقين بعد

التى يخبرونها بأنفسهم ويرونها بعيونهم ، فما كدنا ننتهى من نقل مقالة العالم المتقدمة حتى قرأنا حكاية لضابط انجليزى فحواها أن بعض الأقوام الذين يعيشون حول بحيرة البرت نيانزا فى أعالى النيل يقدسون التمساح ويقدم كاهنهم قرباناً له من آن الى آن — فتاة صغيرة من فتياتهم لردّ غضب الآلهة اذا أنسوا غضبها

وقد روى هذا الضابط أنه أنقذ فتاة أعدت طعاماً للتمساح المقـــدس بترويع التمساح من غير أن يلحق به أذى . وأرسلها الضابط الى مكان بعيد تشفى فيه من الروع الذى أصابها

وفى اليوم التالى علم الكاهن بما صنع الضابط فجاءه معاتباً وقال له فى جملة ما قال :

« أتظن الفتاة تنال الشفاء . لن يمضى عليها شهر من هذا التاريخ حتى تموت » . وكان ما قال الكاهن

وقد روى الضابط ما حدث وعلق عليه بقوله : « ومما كان سبباً فى أسفى أنه مع كل ما بذل من الجهد لشفاء الفتاة ماتت فى خلال شهر كما أنبأ الكاهن . أفكان موتها من لعنة الآلهة أم من تأثير الروع ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد معرفته » ! ع . س

انصراف الوزير الشرقى حتى ذهل ووقف واجماً ، اذ علم أن قيامة الجيش التركى قد قامت ، ذلك الجيش الذى لم تكن كتائبه قد تنفست بعد من غمار الحرب الكبرى فى وجه أوربا العاتية ، قبل عشر سنوات فقط ، وهددت جيوش أقوى دول العالم على أبواب الآستانة فى الوقت الذى كان قد خيل الى العالم أن حملة الـ « آل سنجاق » (العلم التركى الأحمر) قد أصبحوا فى خبر كان ودخلت سلطتهم وسيادتهم فيما قدر لها من صفحات التاريخ . .

وقف اليوم هذا الجيش اللجب ، الشاب القوى ، المزود بأحدث معدات الحرب الآن ، وقف ليستعرضه وليرد له تحياته العسكرية الصميمة المشير « الغازى مصطفى كمال باشا » ، قائده العام بالأمس القريب — يوم أن كانت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء فى الجبهة الغربية من بلاد الأناضول — ورئيسه الأعلى اليوم الذى أخذ يزور الأماكن التى قد يغر ضعف فى استحكاماتها أو عدم اعتناء فى حراستها من يسوقه سوء حظه من جيوش الغرب إلى أن يشتبك معها . .

وعلى أثر عودة الغازى الى الآستانة من طوافه لغرب الأناضول ومن استعراضاته لحماة سواحل تركيا الغربيـة والجنوبية دوى فى قاعات عصبة الأمم والقاعات السياسية الأخرى فى أوربا خبر التوقيع على معاهدة أصبحت بموجبها دول البلقان — كلها تقريباً — كتلة واحدة بزعامة سيدة البوسفور ، وأعقب ذلك اتفاق بين فرنسا وروسيا السوفيتية حليفة تركيا القوية . ومن ثم اعتراف شبكة بلقان بروسيا نتيجة للمساعى التى بذلها فى ذلك السبيل توفيق رشدى بك (ساعد الغازى السياسى) . .

.وليس هذا كل ما فعله الأتراك على أثر غلطة « الدوتشى » الزعيم الايطالى الأعلى ، تلك الغلطة التى القت فى يد الكماليين سلاحا قوياً ليستعملوه الى أقصى حد ممكن ؛ فرصـة انتهزها الأتراك واستغلوها لصالحهم الى أبعد الحدود المستطاعة . .

أمر داهية تركيا أن يخصص فوراً — بحجة الخوف من غارة ايطالية — ثلث الميزانيـة العامة لهذه السنة لاعلاء شأن الدفاع القومى ؛ وأوصى اليابان — صديقته الجديدة — بصنع بوارج وغواصات ونسافات وطرادات وغيرها من معدات القتال البحرى ، كما أوعز فى الوقت نفسه الى وزير خارجيته وممثله فى عصبة الأمم أن يطلب الى ممثلى الدول أن يأذنوا لتركيا لتلحق القسم المعتل الوحيد من معاهدة لوزان بامثاله من مجموع فصول معاهدة (سيفر) التى كان توقيع الكماليين عليها قد جرى ، لا كما جرى عليها توقيع باقى دول الإتفاق الرباعى ، انما برؤوس الحراب المسمومة التى مزقتها إرباً إرباً وقبرتها فى مهدها فيما يتعلق بتركيا ، بينما ألمانيا الهتلرية الآرية العظيمـــة لاتزال الى يومنا هذا تعمل المستحيل للتخلص من بعض أغلال تلك المعاهدة . وعلى ذلك تقـدم ممثل تركيا الى مجلس جنيف وأبلغ أعضاءه رغبة الأمة التركية فى تحصين المضايق وتسليحها ، اذ أن هذا القيد الوحيد الذى أجبرت ظروفه الدقيقة تركيا أن ترتضى به كتذكار — وقتى على الأقل — لمعاهدة لوزان التى اعترف فيها باستقلال تركيا المطلق ، لم يعد الآن يقوى على نمو ساعد تركيا الفولاذى

إن هـذا القيد قد أكله الصدأ وتصدع من جوانبه كلها ، ولا يلبث حتى يتفتت من تلقاء نفسه إن لم يسرع ممثلو الدول فى التقاط أوصاله التى ستتطاير فى القريب ليحتفظوا بما محوا فى الدردنيل . .

(ولو أن السير جون سيمون صرح حديثاً وهو ، مسرور ، فى مجلس العموم «أن توفيق رشدى بك قد وعده أخيراً بأن تركيا سوف لا تصر على هذا الطلب فى الوقت الحاضر ؟ ! . .)

***

وها هى ذى الأسلاك أخذت تنبئنا الآن بأن صاحب الجلالة رضا شاه پهلوى امبراطور ايران العظيمة قد ترك بلاده لأول مرة فى أيام حكمه ، واجتاز الحدود التركية ووصل بموكبه الشاهانى المؤلف من (٤٠) وزيراً وقائداً واختصاصياً ومرافقاً الى (أنقرة) عاصمة الكماليين ، محروساً طول الطريق بقوات مضيفه من البر والبحر والجو ، ومستقبلاً ومشيعاً حيث ما مر من بلاد جارته العزيزة بهتاف الشعب التركى بحياة جلالته الغالية ، وذلك اجابة منه لدعوة بلغته من زميله الحاكم الشرق الكبير ، وجاره القوى العزيز ، الذى اقام على انقاض حكومة (الرجل المريض) البائدة ، هذا الصرح الشامخ ، وهذا السد المنيع فى وجه أوربا كلها ، والذى دعاه ليرتبط واياه بروابط ستهلع لهـا قلوب الكثيرين من طغاة أوربا المتجبرين . ومن بينها ، على كل حال قلب

الدكتاتور الأيطالى ، صاحب التهديد . الذى لابد وقد بلغته أيضاً الخطب الشديدة والكلمات النارية التى ألقاها أخيراً فى المجلس الوطنى الكبير نواب الأمة التركية ، جواباً على تهديداته المعروفة ، وكذلك التصريحات الرسمية التى ختم بها هذه الجلسة شكرى قايا بك بالنيابة عن زميله وزير الخارجية الغائب ، عن موقف تركيا فى الحرب المقبلة والتنويه الصريح الذى نوه به هذا الى المصير السيء المنتظر على حدود تركيا وسواحلها الصلدة الصلبة المهلكة لكل من تحدثه نفسه بأن ينظر خلسة أو بأن يمد فى ساعة جنون أو غرور يده الى الأرض التى يفتديها فى كل لحظة ١٧ مليون تركى وتركية ، من أعظم الأمم وطنية وشجاعة ، وعلى رأسهم وفى مقدمتهم صناديد تركيا العظام الذين باعوا النفس فى سبيل هذه التربة عشرات المرات : وهم الغازى وجماعته من كبار القادة

وعلى كل حال فلسنا هنا فى معرض الانتقاص من قدر موسولينى انما أردنا أن نبين أن الشرق مهد البطولة والأعمال الخالدة ومهبط الوحى ومنبت العلم والمدنية لا يعدم فى أيامنا أيضاً أن يرد الغرب على أعقابه خاسراً نادماً ، ويرفع رأس الشرق والشرقيين عالياً.

وقد أردنا بهذا المقال أن نبين بصورة خاصة كيف أجاب جبار الشرق على تهديد جبار الغرب ، وكيف ان القوة وحدها هى التى يحترمها الأقوياء ويهابون جانبها ، وكيف ان القوى وحده هو الذى يطلب وده وتلتمس صداقته .

بغداد ج . مولود

الأدب كما ينبغى أن يكون

بقلم الأستاذ احمد احمد بدوى

ماغاية الأدب ؟ وما رسالته فى الحياة ؟ سؤالان إذا نحن استطعنا الاجابة عنهما أفلحنا إلى حد كبير فى تحديد ما ينبغى أن يكون عليه الأدب ، وما يجب أن يأخذ به الأدباء أنفسهم حتى يصلوا أو يقاربوا المثل العليا التى ننشدها فى الحياة ، ولا تظنوا أن الاجابة عن هذين السؤالين هينة يسيرة ، بل هى عسيرة جداً ، ومع عسرها تختلف باختلاف العصور إن لم تختلف باختلاف الأفراد ، ولكننى أستطيع أن أقول : إن الأدب الخالد ، أو بعبارة أخرى مايجب أن يكون عليه الأدب ليكون خالداً ، هو تصوير المثل العليا للانسانية ، ونشدان هذه المثل ، إذ أن غايتنا فى الحياة هى السير إلى المثل العليا بجد وعزيمة حتى نحققها أو نقاربها ، وبما أن الأدب هو المعبر الدقيق عن عواطف الانسانية وآمالها وأحلامها ، فلتكن مهمته فى الحياة هى تصوير المهمة الملقاة على عاتق الانسانية وإن الانسانية لتسير إلى المثل العليا على قدمين : العلم الذى يحقق الناحية المادية للمثل العليا ، والأدب الذى يحقق منه الناحية الروحية . وقد فرغ العلماء من إثبات مابين الناحيتين من تآزر وارتباط ، وليس من واجبى الآن أن أتحدث عن المثل العليا للانسانية فذلك يحتاج إلى كتب تؤلف فيه ، ولكننى فقط أحدثكم عن بعض هذه المثل مصورة فى الأدب ومقتبسة من حياتنا المصرية الحاضرة

— ١ —

إذا نحن ذهبنا إلى الشعر العربى وجدنا فيه القيم الخالد ، وإلى جانبه الكثير من الردىء البائد ، ولن أحدثكم عن رداءة الشعر أو جودته من الناحية اللفظية ، ولكن من الناحية الروحية وناحية مايبعثه فى النفس من وجدان وشعور ، يسمو بنا إلى حيث نحقق ماخلقنا له ونعيش من أجله .

فى الشعر العربى صور لا أغالى إذا قلت إنها ضعيفة لا تستحق خلوداً ، ولا ينبغى أن نلقنها نشأنا ، ونؤدب بها أبناءنا ، لأنها تنأى بنا عن بلوغ غاياتنا ، وسأعرض طرفاً من هذه الآداب مقتصداً فى إيراده ما استطعت . فى الأدب العربى كثير من الشعر الذى

أسميه شعر الضعف والاستسلام للواقع ؛ فتسمع فيه تلك النغمة التى تحقر العمل وأرباب العمل ، وتدعو بملء فيها إلى الرضا وإلى الاستسلام ، ومنشأ هذه النغمة على ما أرى هو إيمان أصحابها بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً ؛ إذا هم قد حسبوا ، وهم مخطئون فيما حسبوا ، أن القضاء أو القدر لهما تأثير فعلى فى فعل الانسان وإرادته ، وإذا كان الأمر كذلك فما قدره الله جل وعلا لابد واقع لامحالة ، سواء أعمل المرء أم لم يعمل ، وإذا كان العمل . وترك العمل سواء ، فمن العبث البين أن يكلف الانسان نفسه مؤونة الجد والجهاد والمزاحمة فى تلك الحياة ، لأنه لن ينال على ذلك أجراً . غير ما كان يناله لو كف عن جده وجهاده ، وليس غرضى الآن أن أبين خطأ ذلك التفكير ، فانه من البين الواضح أن القضاء والقدر ليسا إلا علم الله فحسب بما سيكون ، والعلم ليس من صفات التأثير بل هو من صفات الكشف والايضاح لادخل له فى قدرة الانسان وإرادته

الايمان بالقضاء والقدر على تلك الصورة التى أسلفت ذكرها هو إيمان بالجبر ، وإيمان بالحظ على الصورة السطحية التى لا تتغلغل فى حقيقة الأشياء ، فأنكرت قدرة الانسان وإرادته ودعتنا إلى الضعف والاستسلام وأنتجت لنا هذا اللون من الأدب الضعيف

قال الشاعر :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمر سببته المقادر
وفى الأصل غش والفروع توابع ... وكيف وفاء النجل والأب غادر ؟
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً ... أأنت على تغيير لونك قادر ؟

وقال أيضاً :

ويجرى قضاء مالكم عنه حاجز ... فألقوا إلى مولاكمو بالمقالد

وقال أيضاً :

وجبلة الناس الفساد وفضل من ... يسمو بحكمته إلى تهذيبها

وقال أيضاً :

لاتمدحن ولا تذمن امرأ ... فيها ، فغـير مقصر كمقصر

وقال غيره :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب ... وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيها أن يذلها ... فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفعك ذو علم وتجربة ... من مأكل جشب أو مشرب رنق
وذو الجهالة منها فى بُلَهنية ... من مسمع حسن أو منظر أنق
تبارك العدل فيها حين يقسمها ... بين البرية قسماً غير متفق .

ذلك شعر ينبع كله من واد واحد ومعين واحد ، هو الجبر والايمان بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً ؛ والايمان بالحظ إيماناً ساذجاً ، وسأتركم إلى أنفسكم تحكمون على هذا الأثر الذى يتركه ذلك الشعر فى النفوس ، وهل يقربها إلى مثلها العليا ؟ أو هو على العكس من ذلك يؤخرها ويسير راجعاً إلى الوراء ، إنكم رأيتموه يدعونا إلى الرضا بفساد أخلاقنا ؛ لأن الفساد ليس باختيارنا ، ولكن بأمر سببته المقادر ، ونحن عاجزون تماماً عن تغيير أخلاقنا عجز الغراب عن تغيير لونه ، ورأيتموه يدعونا إلى الضعف والاستسلام للقضاء والالقاء إليه بالمقالد ، ورأيتموه يسوّى بين الناس مقصرين وغير مقصرين ، فكلهم لايستحقون مدحاً ولا ذماً ، لأنهم لم يأتوا ما أتوه بقدرتهم واختيارهم ، بل هم مجبرون على أن يفعلوا ما فعلوا ، ورأيتموه يقرن الرزق الواسع بالجهل ، والرزق الضيق بالعلم ، لأنه يؤمن بالحظ ، وإذن فعلى العلم والتعلم السلام ، لأن أحداً من الناس لا يرضى برزقه مقتراً ، ورأيتموه يؤمن بالحظ ويزرى بالعمل والجد ، فقدروا بأنفسكم ما يبعثه هذا الشعر فى النفوس من ضعف واستكانة واستسلام تبعد بنا عن المثل العليا التى لاتثبت ولا تقوم إلا على دعائم من العمل ثابتة وطيدة ، حقاً أنا أومن بالقضاء والقدر ، وأنا شخصياً أو من بالحظ ، ولكنه إيمان ليس كايمان هؤلاء ، إذ أنى أعتقد أن الايمان بذلك كله لايحول بين المرء وعمله ، لأنه مايدريه أنه قد كتب له الشقاء وقدر عليه التعس ، وأن حظه بائس منكود ، وما يدريه أنه على العكس من ذلك قدر له السعادة ، وكتب له النجح وأن حظه حظ السعيد الموفق ؟

وبعد ذلك آخذ بيدكم لأريكم أدب القوة والهمة والأرادة وهى هى التى تأخذ بيدنا إلى بلوغ المثل العليا ، قال الشاعر :

ذرينى من ضرب القداح على السرى ... فعزمى لايثنيه نحس ولاسـعد
سأحمل نفسى عند كل ملمة ... على مثل حد السيف أخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثلى بغى الغنى ... ليكسب مالاً أو ينث له حمد
وإن مت لم أظفر فليس على امرئ ... غدا طالباً إلا تقصيه والجهد

وقال غيره :

ذرينى أنل مالا ينال من العـلا ... فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين إدراك المعالى رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال أيضاً :

يهون على مثلى إذا رام حاجة ... وقوع العوالى دونها والقواضب

ويعجبنى هنا ما قاله أحد شعراء الانجليز وترجمه إلى العربية بعض أدباء الشباب قال :

لىَ قلب لايهـاب ... فزعت منه الصعاب
بين أيامى وبيـنى ... حادثات وغـلاب
لست أشكو إنما الشـكوى من الحر تعاب
أنا ربان سـفينى ... هاج أو قر العباب
فلْيلن أو يقس دهرى ... إن قلبى لايهـاب

فافرقوا بين الاحساسين اللذين يبعثهما هذان الشعران المختلفان مورداً وينبوعا ، وإنى واثق الثقة كلها من أن الاحساس الذى يبعثه فيكم الشعر الثانى هو الاحساس بالقوة والاحساس بالارادة ، وإنا نطلب من الشاعر أن يحدثنا دائما عن قوة إرادتنا ، وأنا نستطيع فعل كل شىء لأن ذلك يبعث فينا إيماناً جديداً وعزيمة جديدة بل ويخلقنا خلقاً جديداً ، وإن قوة الارادة هى المنبع الفياض والمعين الذى لاينضب للنجاح فى الحياة وبلوغ المثل العليا ، أما الشعر الأول فشعر ضعيف مستسلم لاينفعنا ولا يهذب من إرادتنا

ولون آخر من ألوان الأدب الضعيف يتصل بالأدب الجبرى ، وقد يكون خدينه وشقيقه لأنه يستقى من معينه وينبع من ورده ، وأعنى بهذا اللون أدب الزهد والقناعة ، ويطول بى الحديث إذا حدثتكم عن العوامل التى أنتجت لنا هذا النوع من الأدب ، وإن كنت أرجع جل هذه العوامل الى سوء فهم الشرق للدين ، فقد فهمنا وكنا مخطئين حين فهمنا أن الدين الاسلامى وهو دين العمل والجهاد ودين الرفعة والطموح — يدعونا إلى الزهد فى الدنيا والقناعة بما نصيبه منها من صبابة قليلة ، فهمنا ذلك ، ووجدت هذه التعاليم التى أخطأنا فهمها مرعى خصباً من قلوبنا الضعيفة الخائرة ، وآنست من قلوبنا ضعفاً وقلة ثقة بالقدرة على الجهاد ، والتغلب على مايعترض سبيل الحياة وسبيل النجاح من صعاب وعقبات ، فقنعنا بما فى أيدينا من قليل لايرضى به إلا ضعاف النفوس ضعيفو الهمم ، فكان ذلك أكبر عامل فى خلق هذا الأدب الزاهد القنوع ، فأصبحت تسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

تبغى من الدنيا الكثير وإنما ... يكفيك منها مثل زاد الراكب

وقوله :

أيها البانى قصوراً طوالا ... أين تبغى ؟ هل تريد السحابا ؟
أأمنت الموت والموت يأبى ... بك والأيام إلا انقـلابا
أبت الدنيـا على كل حى ... نالهـا إلا أذى وعـذابا
إنمـا داعى المنـايا ينـادى ... احملوا الزاد وشـدوا الركابا

وقول الآخر :

مرحبا بالكفاف يأتى هنيئا ... وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرىء يشمر فى الجـم لعيش مشمر للفنـاء
دائبا يكنز القناطير للوا ... رث والعمر دائباً فى انقضاء
حبذا كثرة القناطير لو كا ... نت لرب الكنوز كنز بقاء
يحسب الحظ كله فى يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء
ليس فى آجل النعيم له حظ ... وما ذاق عاجـل النعماء
ذلك الخائب الشقى وإن كان ... يرى أنه من السعـداء
حسب ذى إربة ورأى جلى ... نظرت عينه بلا غلواء
صحة الدين والجوارح والعر ... ض وإحراز مسكة الحوباء
تلك خير لعارف الخير مما ... يجمع الناس من فضول الثراء

إلى غير ذلك من أدب يحمل الدعوة إلى الزهد والقناعة ، وإذا نحن أردنا أن ندرك آثار هذا الأدب فانه يجب علينا أن نتصور شعباً نائماً كسلاً ، لايجد ولايعمل إلا بقدر ضئيل ، وماله يجد وماله يعمل ، وقد وجد ما يمسك حوباءه ووجد قوته الضرورى ؟ وإنى أكاد أعتقد أن تأخر الشرق فى ميادين الاختراع وفى ميادين العمل يعود كثير منه إلى خلق الزهد وخلق القناعة الذى غرس فى قلبه وأثر فى كل عمله ، بل إنى أكاد أعتقد أيضاً أن استغلال الغرب للشرق يعود إلى هذا الخلق الوبيل الذى يجرنا الى الفناء ، فلندع القناعة بمعناها الذى ضرنا وأخرنا ، ولنتقبلها بمعنى ألا نطمع فيما فى يد غيرنا ، أما بمعنى الرضا بالقليل فيجب أن نذهب بها إلى قبر لاتخرج منه لترى ضوء الحياة ، ولنقبل على أدب الطموح وأدب الآمال الذى يسمو بنا عن الرضا بالقليل نناله من غير نبذل عناء فى نيله ولا تعباً ، ولنكرر دائماً مثل قول الشاعر :

ولو أن ماأسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وقول الآخر :

ذرينى للغنى أسعى فانى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأضيعهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
يحقره الندىُّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

زرياب ★

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانسيه فى الآداب

رجل من رجال الفن ، خلق له وفطر عليه ، لعل فى سيرته الطريفة مثلا للموهبة الطبيعية ، ترفع من شأن صاحبها فتبلغ به الذروة وتجعله شيئاً مذكورا ، يتحكم فى حياة أمة بأسرها ، فيبدل فيها ويغير منها ، ويؤثر وحده فى طبائع أهلها وما ورثوه من تقاليد ، ويخلق فيها من العادات والفعال ما لم يكن بها وما ليس يخطر لأهلها على بال .

هو أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى الخليفة العباسى كان أسود اللون ، حلو الشمائل ، وكان شاعراً مطبوعا فصيح اللسان ، لقبه قومه بزرياب تشبيهاً له بطائر عندهم أسود اللون ، عذب الصوت ، حلو التغريد ، وكان زرياب رقيق الحس ، دقيق الشعور ، له حنجرة لم تخلق لغير الغناء ، وأنامل كأنما أعدت للعود ، ونفس تميل الى الفن ، وروح يهفو الى الطرب ، تتلمذ لاسحق بن ابراهيم الموصلى ببغداد يدرس عليه أصول الصناعة ويتعلم منه دقائق الفن ، وكان اسحق يعلمه الأغانى ويلقنه الألحان ، حتى اذا خلا زرياب بنفسه خلق من فن اسحق فناً جديدا ، وهداه صفاء نفسه وسمو روحه الى كل معجب مطرب ، واسحق لا يعلم من أمر تلميذه شيئاً ولا يدرى أنه أخذ منه فتفوق عليه .

وذهب اسحق الى مجلس الرشيد يبعث فيه السحر كعادته وينطق فيه العود بالغناء الشجى والنغم العذب ، والخليفة مصغ اليه معجب به ، تأخذه حلاوة التوقيع وتروقه عذوبة الألحان ، حتى اذا فرغ اسحق من غنائه التفت اليه الرشيد يثني عليه ويمدحه ويحادثه فى صناعة الغناء ، فما هو الا أن يتشعب بهما الحديث حتى يقترح عليه الرشيد أن يسمعه مغنياً غريباً يجيد فنه ويحسن صنعته ممن لم يشتهروا عنده ولم تبلغ مكانتهم اليه ، فيذكر له اسحق تلميذاً له قد علمه وأعجب به يتوسم فيه الاجادة وعلو الكعب فى صناعة الغناء .

مثل زرياب أمام الخليفة فسأله عن معرفته بالغناء قال « نعم ! أحسن منه مايحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لايحسنونه ... فان أذنت غنيتك مالم تسمعه أذن قبلك » وأخذ يصف له عوده وما ركب عليه من أوتار لها فى الترنم والصفاء والعذوبة ما ليس لغيرها وما أن يأذن له الرشيد حتى يوحى الى عوده فيغني معه :

يا أيها الملك الميمون طائره ... هرون راح اليك الناس وابتكروا

ويظل يغني والرشيد يسمع حتى يتم أبياته فى نغم لم يسمع الخليفة مثله ، ولحن لم تردد نظيره جنبات القصر ، ويطير الرشيد طرباً ويسمع من الانغام جديداً لم يسمعه اسحق مثله فيعاتب اسحق كيف ترك الرجل من قبل فلم يعلمه به ، ثم يأمره أن يأخذه لديه فيعنى به حتى يفرغ هو له .

أما اسحق فأسرها لتلميذه ، ولم يكد يخلو به حتى عنفه واشتد فى تعنيفه وصارحه بما هاج به من الحسد له والغيظ منه ، وخيره بين اثنتين لا ثالث لهما ، فاما أن يغادر تلك البلاد فلا يراه بعد ذلك أبداً ويعطيه على ذلك أغلظ الايمان وأوثق العهود وله عليه مايريد من مال أو عطاء ، وإما أن يقيم على كره منه وشركة له فى الصناعة وعند ذلك لن يأمن غدره ولن يغنيه الحذر شيئا ، وأما زرياب

---

* نشرنا عن زرياب فصلا ضافيا ممتعا للأستاذ العبادى فى ص ٨ من العدد (٧) من الرسالة

ويلق ذو الغني وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

وقول الآخر :

من الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكنّ قلبا بين جنبيّ ماله ... مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وقول غيره :

ياشباب الغد وابناى الفدا ... لكمو ، أكرم وأنعم بالفداء
لاتقولوا حطنا الدهر ، فما ... هو إلا من خيال الشعراء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

وإنى مع شوقى يوم قال واصفاً شباب مصر :

شباب قُنَّع لاخير فيهم ... وبورك فى الشباب الطامحينا

ولكنه من الواجب ألا نلقى العبء كله على الشباب ، بل هو ملقى على التربية والآداب ، فالأدب الشعبي الدارج ملىء بالقناعة والأدب المدرسى مثله .

« يتبع » أحمد أحمد بدوى

فلم يكد يرى أستاذه ينفس عليه رضاء الخليفة ، ولم يكد يسمع منه هذا الوعيد المخيف حتى قام من فوره يبغي بلاداً غير هذه وناساً غير هؤلاء ، وأما الرشيد فانه لم يكد يفرغ من بعض شؤونه حتى سأل عن زرياب أستاذه فزعم له اسحق أنه رجل غر أحمق ماهو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين حتى رحل غضبان ينعى على الأيام أن أوقعته فيمن لايقدرون النبوغ ولا يكرمون النابغين ولا يعرفون الغث من السمين فسكن الرشيد الى قول اسحق .

سار زرياب اذن من المشرق وكان المغرب قبلته فولى نحوها وجهه ، وراح في الأندلس يلتمس مالم يظفر به في العراق من بعد الصيت ورفعة الشأن ، وكتب الى عبد الرحمن بن الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة ويسأله الاذن له في الوصول اليه ، وما هو الا أن يقرأ عبد الرحمن الكتاب حتى يرحب بصاحبه ويوصي عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة ، وفي قرطبة يبدع زرياب ويملك على الأمير نفسه فيطرح كل غناء سواه ويقدمه على جميع المغنين ويقطعه الأرض ويمنحه المال ويبلغ اعجابه به حداً لامثيل له ، فيفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده ، وزرياب يذهب في الغناء كل مذهب ويضرب في التجديد بسهم وافر : هذه أعواد القوم لها أوتار أربعة ، فليزد هو عليها وتراً خامساً يستهوي النفس بما يحدثه من النغم ، وها هي أعواد المغنين كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فليكن عوده خفيفاً مرهفاً دقيق الصنع ، وهذا مضراب العود قد استعمله الناس من خشب فهو ثقيل في اليد قاس على الأوتار ما يلازمها قليلا حتى يقطعها أو يفسدها ، فليكن مضراب عوده من قوادم النسر فهو خفيف على الأنامل رفيق بالأوتار وان طالت ملازمته لها ، وها هي ألحان القوم معدودة وأغنياتهم معروفة فليجدد هو في اللحن ، وليأت من النغم بكل طريف وليُسمع القوم من أغانيه وألحانه ما يعد بالآلاف .

وكان زرياب أيضاً قد جمع إلى براعة الفن وحلاوة الترجيع سلامة الذوق وترتيب الذهن فهو سمير اذا جالس الأمير أو أشراف الأمير ، وهو طيب الحديث إذا تحدث ، ماهر في خدمة الملوك ، يجيد استقبال الضيوف والزائرين ، متأنق في ملبسه يعني بزينة نفسه حتى صار مثالاً في الأناقة يحتذى ، أخذ عنه أهل الأندلس وحاكوه ، فلم يعودوا إلى إرسال الشعر مفروقا وسط الجبين مسدلا إلى الخدين والحاجبين وانما فعلوا كما يفعل زرياب ونساء زرياب ، فحذفوا شعورهم وقصروها دون الجباه وسووها مع الحواجب ودوروها الى الآذان وأسدلوها إلى الخدود ولم يعودوا الى ملاحف الكتان يلتحفون بها ، وانما فعلوا كما يفعل زرياب فآثروا على الكتان أنطاع الأديم الناعمة ، ولم يبق الناس على ماهم عليه من خلط بين ملابس الشتاء وملابس الصيف ، وجهل بما يلائم الربيع ومايناسب الخريف ، وانما علمهم زرياب أن لكل زمان ثيابا ، فللربيع الملون الزاهي ، وللخريف الخفيف اللون ، وللشتاء الثياب الكثيفة ذات الحشو والفراء ، وللصيف البياض من الثياب ، وكذلك عرف الناس مذ جاءهم زرياب صنوفا من الطعام لم تكن لهم بها دراية ولا بطعمها علم واستعمل القوم في الأندلس من العطور مالم يألفوه من قبل ، وفضلوا آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة لأن زريابا كان يؤثر الزجاج ويتناول شرابه فيه

وكان زرياب ايضاً قد علم بناته وجواريه أحسن الأغاني وأدبهن بأدبه فبرعن في الغناء وأتقنّ الصناعة ، فكانت حمدونة ابنته عند أهل بيتها في الصدر ، وكانت أختها علية كذلك ، وتزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، أما جاريته مصابيح فقد جمعت إلى جمال الصوت جمال النبل كتب صاحب العقد الفريد الى مولاها وقد حجبها عن الناس واختص بها مجلسه يقول له :

يامن يضن بصوت الطـائر الفرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فأدخله مولاها الى مجلسه وأذن له في سماعها

ووضع زرياب المراسم لافتتاح الغناء فما يفتتح غناء في الأندلس الا وأوله النشيد وآخره الاهزاج فأكسب زرياب المحافل روعة وأهدى المجالس باقات من الفن زاهيات ، وكان وحده فنا انتقل الى الأندلس ، وحضارة عمت قرطبة ؟

محمد قدري لطفي

فن البنـــاء
عند المصريين والأغريق

بقــلم محمد علوى

لا شك أن أهم مظاهر الحضارة الفرعونية هو فن العمارة. ولما كان للدين عند الفراعنة المنزلة العليا نجد أن درجة اهتمامهم به ظهرت جلية فى معابدهم، وهى أهم ناحيــة ضرب فيها الفنان المصرى بسهم. ولم تـكن مصر هى البلد الوحيد الذى اهتم بأمر المعابد، فقد تبعها فى ذلك الأغريق أيضا، وكفاهم فخراً معبد (البارثينون) فى (الاكروبوليس) بأثينا؛ فلقـــد كان هذا المعبد ولا يزال آية فى الجمال، أجمع جميع الفنانين على أنه لايوجد له فى العالم مثيل. فقد راعى فيه بانيه خداع النظر فى الأجسام المنظورة فتلافاه بكل الوسائل، فـكان معبـده أشبه بيللورة طبيعية جميلة. ومع كل ذلك فان الفنان المصرى قد سبق زميــله الاغريق فى تصميم معبده؛ فانك اذا وقفت أمام المعبد الاغريقى لاشك تشعر برهبة وذهول. ولـكن هذه الرهبة ليست إلا نتيجة لقوة الجمال وحسن التنسيق، أو بمعنى أقرب إن تأثير هذا المعبد كتأثير حسناء كملت فيها معانى الجمال. فكأنما فن البناء الاغريقى أراد أن يأسر لب المتعبدين بسلطان الجمال. ولـكن ليس هذا هو الغرض الذى من أجله كلف بتصميم المعبد، وفى رأيى أن هذا خروج عن الموضوع الدينى، ولو أنه خروج لم يخل بقيمة المعبد من حيث جماله.

أما المعبد الفرعونى فهو يشعر بالهيبــة والعظمة فالخضوع والرهبة، ولـكن هذا الخضوع ناشىء عن الشعور بالضعف أمام القوة والرهبة الدينية، وهذا ما أحسه أنا الآن وأنا بعيد عن البيئة التى كانت تحيط بالمعبد فى حداثته، وبعيد عن العقيدة الدينية التى كانت تتملك شعور أسلافنا.

إن الفنان المصرى كان أعظم مما نقدره به وأوسع خيالا، فنراه قد راعى فى معبده صلاحيته للعبادة من جميع النواحى، فجعله لا يصلح إلا للعبادة، بل والعبادة لا تصلح أن تقام إلا بين جدرانه. فتصميم المعبد واختيار موقعه فى مكان بعيد عن الحياة المادية الدنيوية، والبيئة الدينية التى أحاط بها الفنان البارع معبده، كل هذا يفصل المتعبد عن العالم المادى فيحصر ذهنه فى دائرة روحانية بحتة.

لست أريد أن أحكم على مقدرة هذا المهندس البارع، بل سأوضح عمله، وأترك لـكم الحكم على كفايته وموهبته

اختار هذا الفنان لجميع معابده أن تقع فى نهاية طريق مستقيم جداً ومتسع، بحيث ينتهى هذا الطريق بواجهة المعبد الشامخة، يتوسطها بابه الصغير، وقد خصص هذا الطريق مهما بلغ طوله، (وقد يصل الى ثلاثة كيلو مترات) للمعبد فقط، فلم يسمح بانشاء أى نوع من المصالح أو المبانى على الجانبين، بل أنشأ على حافتيه وعلى مسافات متساوية تماثيل ضخمة متساوية ومتماثلة لمعبود معروف رأسه رأس كبش، وجسمه جسم أسد. فتصور تأثير هذين الصنفين من التماثيل المتوازية المماثلة، والأفريزين الممتدين بجانبى الطريق، تلك المستقيمات المتوازية تظهر للرائى كأنها تتقابل وتتجمع فى نقطة واحدة كما تجمع العدسات الأشعة الضوئية فى نقطة واحدة، وهذه النقطة هنا هى باب المعبد الصغير الذى يظهر عن بعد. وكما أن النظر تقوده تلك المتوازيات الى النقطة، كذلك يكون التأثير على الأذهان الشاردة، فهذا يساعدها على أن تتجمع وتتركز فى العبادة. هذا بخلاف ما كان يعتقده الفراعنــة من أن هذا الطريق مقدس لا يطؤه غير المطهرين الأبرياء، وأن تلك التماثيل الجانبية كانت تراقب حركات المارة وأفكارهم طوال الطريق. وكان المصريون يتوجهون الى المعبد تحت هذه التأثيرات فى موكب تتمثل فيــه معانى الخشوع، يتقدمه غالباً الفرعون وحاشيته، حتى اذا اقتربوا من المعبد يمرون تحت قوس نصر فخم أشبه ببوابة شامخة يبلغ طولها نحواً من ثمانية وثلاثين متراً فى معابد الـكرنك. فتصور كيف يشعر المار من تلك البوابة بضآلته أمام هذا العلو الشاهق وهو يعتقد أنه بمجرد مروره منها تطهر نفسه مما قد يكون عالقاً بها من الأدران، فيصبح طاهراً يصلح لأن يقترب من المعبد، وبعد ذلك يمر الموكب بين مسلتين شاهقتين، كتب عليهما تاريخ انشاء المعبـد وبعض الرموز التى تمثل شارة المعبود الذى فى المعبد؛ وهنا يجد الموكب نفسه أمام بناء شامخ مثال للقوة والبطش والجمال، وهذا هو المعبد ذو الواجهة الجرانيتية

الضخمة التي تتكون من هرمين شامخين ناقصين متقاربين ، يتوسطهما باب المعبد الصغير ، وعلى جانبيه تمثالان عظيمان (يصل طول كل منهما الى عشرين مترا كما فى معبد « أبي سمبل » شمال الشلال الثانى) ، وهذان التمثالان يمثلان فرعون ، ويرى الواقف بباب المعبد عدة أبواب متتالية ومتساوية الاتساع ، تقع جميعها على محور واحد عمودى على الواجهة غالباً ، وقد تصل المسافة بين المدخل والباب الأخير الى ثلثمائة متر ، وهذا الباب الأخير هو باب مخدع الآلـه الأعظم .

وأول ما يلفت نظر الداخل فى المعبـد هو البهو الـكبير ذو الأعمدة الضخمة ، وقد بلغت مساحة ذلك البهو الفخم فى معابد الـكرنك ثلثمائة متر فى خمسين مترا ، وهذا البهو مسقف بكتل عظيمة من الأحجار يحملها أربعة وثلاثون ومائة عمود ، مصطفة فى ستة عشر صـــفاً ، وطول أعمدة الوسط منها ثلاثة وعشرون متراً وقطرها ثلاثة أمتار ونصف . فتصور بهواً يحوى هذا العدد من هذه الأعمدة التي يبلغ ارتفاع الواحد منها ارتفاع عمارة مكونة من سبع طبقات تقريبا . كيف يكون تأثير مثل هذا البهو الرهيب الفخم فى نفوس المصلين ؟ ألا يمكننا اعتبار هذا البهو رمزاً للقوة والبطش كما أنه مثال العزلة والرهبة ؟ إن طول قامة البشر فى هذا البهو لا يتجاوز قاعدة العمود . وبين تلك الأعمدة يقوم الشعب بتأدية الصلاة ؛ أما فرعون وحاشيته فيستمرون فى موكبهم مخترقين الردهات والدهاليز حتى يصلوا الى مخدع المعبود ، وهو مظلم لا يصله الضوء إلا من فتحة واحدة فى السقف ، قد وضعت بهندسة خاصة بحيث لا تضىء من المـكان سوى تمثال الاله ، حتى يخيل للرائى أنه يشع الضوء من جسمه . وأمام المعبود وتحت قدميه يوجد نضـد عظيم من الحجر ليضع عليه فرعون قربانه بين التراتيل والتعاويذ الدينيـــة ذات الأنغام الساحرة الرهيبة .

ولو كانت لى موهبة فى الايضاح أرق من ذلك لاستطعت أن أضع لـكم صورة أقرب للحقيقة للمعبد والدرجة التى وصل اليها من الابداع ، ولـكن عظمة ذلك الفن وروعته فوق أن يصفها قلمى الضعيف .

وهنا أقف بسيدى القارئ لأسأله : هل يوجد مكان أنسب لبناء المعبد من المـكان الذى اختاره الفنان المصرى ؟ هل يوجد بناء تتمثل فيه معانى القوة والخشوع والرهبة أصلح للعبادة من تصميم هذا الهيكل الفرعونى ؟ وهل يمكن إيجاد بيئة تحيط بالمعبد من الوجهة المعنوية والفنية أقرب للكمال من تلك البيئة التى هيأها هذا الفنان الحاذق ؟ أظن أنه لا يمكن أن نجيب على تلك الأسئلة إلا بالنفى . ولقد أجمع عظماء الفنانين فى العالم على أن المعبد المصرى هو صاحب المنزلة الأولى بين معابد العالم ، واذا أمكن تصور منزلة أسمى من الأولى لـكانت هى منزلة معبدنا ، وبالتالى فن عمارتنا الذى نفر ونهرب منه ، ونتناسى منزلته حتى فى هذا العصر الذى هو عصر تجديد وانقـلاب ، لم يفـكر أحد من كبار الفنانين المصريين فى إحياء هذا الفن الجميل ، أو ادخال روحه فى المنشآت الحديثة ، الا اذا استثنينا بعض الشواذ .

محمد علوى

قسم العمارة — مدرسة الفنون الجميلة العليا

١٠ — بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والـكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

تحدثنا معك فى المقال الماضى عن ابن القارح ، وتوسله بالسيدة فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان من أمر هذا التوسل والأذن له بدخول الجنة

والآن ماذا صنع ابن القارح ؟ انه تعلق بركاب سيدنا ابراهيم عليه السلام حتى بلغ الصراط ، وأشير اليـه بأن اعْبرهُ ، فلما وجد نفسه لا يستمسك قالت الزهراء لجارية من جواريها يا فلانة أجيزيه . فجعلت هذه تمارسه وهو يتساقط عن يمين وشمال ، فقال لها : ياهذه ان أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل :

ست إن أعياك أمرى فاحمليني زقفــونه

فقالت : وما زقفونه ؟ !

فقال أن يطرح الانسان يديه على كتف الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت بقول الجلجول من أهل (كفر طاب)

صلحت حالتى الى الخلف حتى صرت أمشى الى الورى زقفونه

فقالت : ما سمعت بزفقونه ، ولا الجلجلول ، ولا كفر طاب إلا الساعة ! ! !

ثم تحمله وتمر به كالبرق الخاطف حتى يبلغ الجنة ، فيمنعه رضوان طالباً منـه جواز المرور ، فيطلب ابن القارح ورقة من صفصاف الجنة ليرجع بها الى الموقف ، ويأخذ عليها الجواز ، ولـكن رضوان يأبى عليه هذا ، فيقول ابن القارح إنا لله وإنا اليه راجعون ، لو أن للأمير أبى المرجى خازناً مثلك ، ما وصلت أنا ولا غيرى الى قرقوف[1] من خزانته

ولا يطول بينهما الحوار ، حتى يرجع اليه ابراهيم عليه السلام فيجذبه جذبة شديدة يحصله بها فى الجنة . . . أفرأيت اذاً كيف كان سبيل المعرى الى الفردوس مليئاً بالدعابة وبالمرح حين سقوط صك التوبة من ابن القارح ، وحين تدخله فى فض النزاع بين أبى على الفارسى ومشاجريه ، وفى دعابته مع الجارية ، وهو على الصراط فى أحرج المواقف وأدقها . فهل كان طريق دانتى كطريق المعرى ، كله دعابة وظرف ؟ لا . فقد كان طريق دانتى على العكس من طريق المعرى ، آلام وأوصاب ، وأهوال وعذاب . . . لقد كان طريق دانتى على النار يعبرها أولاً ثم (المطهر) بعدها حتى يصل الى الفردوس . فما ظنك بذلك الطريق الشائك المترع بالأهوال والآلام ؟ !

فبينا هو فى غابة موحشة اذا به يتخلص منها الى أكمة تكلل هامتها شمس الصباح فيهم بصعودها حتى اذا سار قليلاً رأى نمراً قبيحاً يسد عليه شعاب طريقه ، ثم يرى أسداً مخيفاً وذئبة قاحلة حدقته بنظراتها ، فكر راجعاً الى سفح الأكمة فرقاً ورعباً ، فثار فى نفسه اضطرابها حتى أتاه (فرجيل) فاستغاثه فهدأ روعه ، وحدثه بأن سبيل النجاة من هاتيك المخاطر هى رحلة فى أعماق الجحيم ، ومنها الى الأعراف ، ثم الى الفردوس . ثم حدثه بأن بياتريشى أوفدته لانقاذه مما هو فيه من أخطار . فاطمأن قلبه وهدأ روعه وعقد عزيمته على اجتياز الجحيم فاجتازها بين أنين العصاة وعويل المذنبين ، مما حدثتك عن كثير منه فى المناسبات الماضية . حتى اذا انتهت رحلته من جهنم أمسك فرجيل بابليس ، وأمسك دانتى بعنق فرجيل ، وساروا قليلاً حتى خلصوا من الجحيم ، وأسلمت الجحيم دانتى الى الأعراف فدخلها وسار فى جنباتها يتحدث مع العصاة الذين يتطهرون من ذنوبهم ومن آثامهم ، حتى اذا قارب نهايتها رأى نهراً ينفرج عن ماء رقراق ، فبصر بالنهر وبفتاة على سيفه الآخر ، وهى تغرد بصوت مطرب وتقطف الزهرات ، فطرب دانتى واقترب منها فقصت عليـه حديث النهر ، وأن اسمه نهر ليتى (lete) نهر التوبة ، من اغتسل منه طهر من ذنوبه ، وبرئ من آثامه ، ثم عاودت الفتاة الغناء ، وعاد له من الفتاة الطرب

ثم تراءت أمام عينيه أضواء تشع فى أرجاء الغابة ، وتواردت على سمعه نغمات حلوة لم يكد يطرب لها حتى تراءت له من بعيد سبعة أجسام كأنها شجرات من خالص الذهب ، تبينها فاذا هى مصابيح تحمل أضواءها كل ألوان الطيف ، ويتلوها أربعة وعشرون شيخاً بجللهم وقارهم ، وتلقى عليهم الهيبة رداءها ، وتكلل رءوسهم زهرات الزنبق وتتبعهم عربة يقودها حيوان يشبه الأسد ، بيد أن له رأساً ، وأن له أجنحة كأجنحة الطيور ورءوسها

تلك العربة كانت تحمل بياتريشى جاءت تستقبله لتكون دليله فى جنبات الفردوس المحرمة على فرجيل أن يلج بابها . وقد افتن شاعر الطليان فى وصف بياتريشى وعربتها ، وما احتف بها من راقصات ، ومن سحائب الزهور افتناناً جعل ذلك الوصف فى طليعة كوميديته ابداعاً وفتنة . وكذلك نرى فى رسالة الغفران وصف الطريق الى الفردوس ، وامتداح رضوان وزفر ، ودعابة الجارية على الصراط بناحية جد مخصبة من خيال أبى العلاء ومن ابداعه ذلك هو طريق الفردوس ، وها هو ذا وصفه فى الروايتين ،

فأما الفردوس وطبقاته وأقسامه وما تخيله المعرى من حيات يسبحن فى الخلد فوق كثبان العنبر . وقد كان منهن فى الدار العاجلة من تسكن فى جحر بدار حمزة بن حبيب امام القراء . ونقمت عليه قراءته واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (بخفض الأرحام) بعد أن كانت تسكن من قبل فى دار الحسن البصرى . ثم تحولت عنه لأنها رغبت عن بعض حروف فى قراءته حين يقرأ الأنجيل . وفالق الأصباح (بفتح الهمزة فيهما) . فأما الحديث عن تلك الحيات والرد على المعرى فى تخطئته حمزة فموعدنا به العدد القادم ؟

« يتبع » محمود احمد النشوى

(١) القرقوف : الدرهم

شركة مصر للغزل والنسيج

المحلة الكبرى منشستر مصر

لمندوب الرسالة

لا يتم استقلال سياسى صحيح لأمة من الأمم ما لم تستقل استقلالاً اقتصاديا أولاً . تلك حقيقة لا يختلف فى صحتها اثنان . والاقتصاد فى كل الأمم هو العمود الفقرى لحياتها ، والمقياس لعظمتها وتقدمها ، حتى أضحى شغل العقول الكبيرة التى تخلص لأوطانها ، وتعمل لرقيها باخلاصها وإيمانها

ولقد ظلت مصر ردحاً من الزمن تضع السياسة فى المنزلة الأولى من تفكيرها ، وفى غمرات ذلك الاضطراب السياسى ساءت الأحوال المالية فيها ، وامتدت الأيدى الى المصارف الأجنبية التى استغلت الفرص أحسن استغلال ، وأخذت تضيق على من يقع فى حبائلها الخناق ، حتى ضج الناس وغمرهم الذهول . هنالك تفتحت الأذهان ، وحدقت العيون الى نصير منهم يأخذ بأيديهم ويهديهم صراطاً اقتصاديا مستقيما . عندئذ قام ذلك الوطنى المخلص «طلعت حرب باشا» ووضع هو وصحبه الأكرمون نواة ذلك الصرح الوطنى الشامخ ، فخر مصر وعنوان مجدها الاقتصادى ، ووجّه ذهنه الخصب ، وعقله الجبار ، لانجاح ذلك العمل القومى العظيم ، حتى صافح الفوز وتجاوز حد الثقة وأصاب مشاكلة الغرض

وبعد أن وصل ذلك المشروع الى الحد الذى يحسد عليه ضاق على جسامته وخطورته بنشاطهم وبنتاج هممهم فأخذوا ينشئون الشركة تلو الشركة ، والمصنع تلو المصنع ، ومن بين هذه المشروعات الجليلة التى قام بنك مصر بتأسيسها « شركة مصر للغزل والنسيج » التى أقيمت فى المحلة الكبرى

نما غرسها منذ سنوات ثلاث ، وأخذت أغصانها تزداد قوة وامتدادا ، وتؤتى أكلها جنياً شهياً ، كلما زادت الأمة فى الاقبال عليها وتشجيعها ، وأبواها بنك مصر و « طلعت حرب » يتعهدانها ويؤازرانها بادخال كل مستحدث من الآلات ، وكل جديد من الفن ، حتى كان آخر ذلك هذا التوسع الكبير الذى يجرى اليوم فيها على قدم وساق ، والذى شاء لنا حسن التوفيق أن نشهده تلبية لدعوة وجهها الينا رجال الشركة

كان يوم الخميس الماضى يوماً حافلاً حقاً ، فقد شهدنا فيه بأعيننا صرحاً من صروح قوميتنا العزيزة ، وغرساً من غراس تلك الأيدى العاملة الكريمة

كان فى انتظارنا رتل من السيارات أمام دار بنك مصر أقلتنا الى المحلة الكبرى ، فلما دخلنا المدينة وبلغنا مقر دار الشركة كان فى استقبالنا رهط من موظفيها الكرام على رأسهم مدير الشركة العام الدكتور محمد عبد اللطيف محرم ، فطافوا بنا أقسام المصنع يشرحون لنا مختلف آلاته ومتنوع غاياته

تبلغ مساحة الأرض التى شيدت عليها مصانع الشركة مائة فدان ، وقد بنيت كلها على أحدث النظم الصحية وجميع العمال والمديرين والمهندسين من المصريين إلا اثنين من الأوربيين دعت الضرورة القصوى الى استخدامهما

وقد افتتحت مصانع الشركة لأول مرة فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وعدد أنوالها ٤٤٨ فزيدت فى عام ١٩٣٢ الى ١٢٠٠ ولن يأتى العام القادم حتى تبلغ ٤٠٠٠ ، أما المغازل فكان عددها ١٢٠٠٠ مغزل فى عام ١٩٣٢ فزاد حتى بلغ الآن ٥٠٠٠٠ مغزل وسيزداد ان شاء الله باطراد كل عام

وكان عمل الشركة فى بادىء الأمر قاصراً على غزل القطن ونسجه ، ولكن ما وافى عام ١٩٣٣ حتى أدخلت فيها صناعة غزل ونسج الكتان ، وفى عامنا هذا انشئت مصانع لغزل الدوبارة والفانلات والجوارب وبكر الخيط وغيرها ، ويعدون العدة منذ الآن لكى يقوم مصنع الصوف فى عام ١٩٣٦ بصنع البدل الصوفية ولوازمها من الصوف كذلك

وإن الذى يزيد فى سرور كل مصرى وابتهاجه أن يعلم أن عمال الشركة الآن يبلغون ٦٠٠٠ عامل سيزداد عددهم بعد عامين على الأكثر الى ١٨٠٠٠ عامل ، ولحرص الشركة على أن يكون كل شىء مصرياً انشأت مصنعاً كبيراً لصنع ما تحتاج اليه من الآلات ، ولكى لا تضطر إلى استخدام أجانب فيه أوفدت عدة بعثات إلى أوربا من خريجى المدارس الصناعية . وتخرج الشركة الآن أنواعاً عديدة من الأقمشة معروفة فى سائر الأسواق : منها (التيل الكاكى) و (فولار) و (دبلان) و (تيل المراتب) و (زفير) و (سكروته) و (فوط للوجه) و (بشا كير) الى غيرها مما لا يتسع المقام لذكره

هذا قليل من كثير مما قام به بنك مصر من جسيم المشروعات التى سار بها من نجاح الى نجاح بفضل اخلاص اولئك المجاهدين القائمين على أمره ، وبفضل الأمة المقبلة على تعضيده وشد أزره .

٧ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى

أحمد أبو الفرج الدمنهورى الشاعر الأديب ، ظريف الجملة والتفصيل ، حلو النادرة والفكاهة ، انجذبت اليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله . ولد بدمنهور ونشأ بها فى ضنك وحرقة حال ، ولم يكن مشتغلاً بالأدب فى أول أمره ، ثم لازم الشيخ محمداً الوكيل القبانى أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج فى النظم ، وصحب أيضاً الشيخ حميده الدفراوى ، وهو أديب لكنه لايبلغ درجة الوكيل ، ولم يحضر المترجم العلم على شيخ ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلاً ولا نهاراً فيكتب عنه كل مايسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره ، أخبرنى ثقة أنه اجتمع بدمنهور حوالى سنة ١٢٨٥ فرآه شاباً نيّف على العشرين مخفوض الجانب كثير التواضع لايستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلاً .

ثم نظر المترجم فى كتب الأدب ودواوين الفحول وبدأ ينظم الشعر فكان يعبث بالبيت والبيتين ، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات ، إلا أنه كان قليل الاجادة كثير الخطأ واللحن ، يتكلف التجنيس والتورية ، وأحسن شعره مانظمه فى المجون وضمنه ألفاظ العيارين والشطار . وكان حضوره إلى القاهرة بصحبة الوكيل ، فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية فأعجب بظرفه ومجونه ، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة ، وهى إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان وفى الناس بقية ، فكانوا يهشون له ويتهادونه إذا حضر ، ويراسلونه إذا غاب ، فحسنت حاله قليلاً بما كان يناله من هباتهم . ثم اتصل بشاهين باشا كنج فى طندتا لما كان مفتشاً على الأقاليم سنة ١٢٩٣ فانتظم فى حلبة ندمائه ، واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه ، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافراً اشترى به عقاراً ورمّم داره بدمنهور ، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله افندى نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب ، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع فى أثنائها بغيره من الكبراء وذوى الوجاهة فيهدى إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه

وكان على قلة إجادته فى شعره مفتوناً به مبالغاً فى تقريظه وقت انشاده ، يمزج ذلك باشارات وحركات تستظرف منه ، ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه فى النظم ، ولعمرى لاأرى عبارة تفى بوصفه ووصف حركاته عند الانشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستدعائه الحاضرين إلى استماعه ، فانه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولاً بتقريظها ونبه الحاضرين إلى مواضع الاجادة منها ، فاذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته ، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعاً خبيئة رأيهم فيه ، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله فى عمرهم ، وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له فيه من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين ، ثم يمضى فى البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر ، ويقول سبحان المانح ! كم ترك الأول للآخر ! وأمثال هذه الجمل التى اشتهرت عنه وصارت من لوازمه ، ثم يمضى فى الانشاد ، فاذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم نظر للحاضرين وقال لهم اسمعوا من الفتى العربى اللعوب ، تُفّ على المتنبى وسحقاً له ، أين له السلاسة والسهولة ؟ وهكذا حتى يتم القصيدة ، فان رأى من السامعين استحساناً تمادى فى غلوائه وأعجب وأطرب ، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستئناساً بمحاورته ، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحاضرة . بلغنى أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيفاً من أهل الأدب فأنشدهم قصيدة من نظمه وبالغ فى استحسانها كعادته ، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها ، فانتبذ له صديقنا العالم الفاضل ، والشاعر المجيد ، الشيخ عبد الرحمن قُرّاعة مداعباً ، وقال له أخطأت فى بيت منها فأدخلت حرفاً على حرف وهو مما لايجوزه النحاة ، فاما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك ، ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم ، فنكس رأسه هنيهة ، ثم نظر اليهم كالمتعجب وقال ياليت قومى يعلمون !

وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبى البقاء الزرقانى ، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه ، ويعرض للشيخ مايشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الالحاح عليه بترك ماهو

فيه والاصاخة اليه ويضايقه بذلك مضايقة شديدة ، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه نادرة ينقلب لها المجلس ضحكاً ، فكان يقول فيه إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشا كل لا أدرى أهو ثقيل أم ظريف .

وكان أول اجتماعى به فى مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله ، ولم أكن لقيته من قبل ، بل كنت أسمع به وأشتاق رؤيته فرأيت عجباً : رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهبت احدى عينيه ، عليه جبة واسعة الأكمام وهو جالس فى زاوية من المكان يملى على شخص حسن الخط داليّة من الطويل منصوبة الروى جعلها تهنئة للخديو محمد توفيق باشا بقدومه من الاسكندرية ، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والاعجاب به على ماتقدم ذكره مانبهنى للالتفات اليه ، ثم مر ببيت قافيته لفظة (ومعتّضداً) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها تورية باسم الخليفة المعتضد بالله فلم يوافقوه ، فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية حتى أضجره ورمى الدرج من يده ، فغلبنى الضحك واستظرفته وقصدت محادثته ، فقلت لعل سيدى الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبى الطيب التى يقول فى مطلعها :

لكل امرئ من دهره ماتعودا

وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

فسكت ثم نظر الىّ شزراً ولم يزدنى على قوله : تفّ على المتنبى ، فاستغربت فى الضحك وسألت عنه بعض الحاضرين يخبرنى به فكدت أطير سروراً بلقائه ، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الاجادة فيها وأستعيدها منه ، فأبرقت أسرته وأقبل على أيما إقبال وأسمعنى بعض مقطعات من شعره ، فقلت له : أما كان الأولى بهذه اللآلئ أن تنظم فى سمط ؟ فقال نعم ياسيدى إنى مهتم بذلك وسيكون ديواناً مرقصاً ، وامتد بنا المجلس فرأيت منه مالو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال . ثم فارقته وأنا أشوق الناس اليه ، وكأنى به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبى فى اليتيمة وأورد فصولاً للصاحب بن عباد فى وصفهم .

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يُستملح منه مايستثقل من غيره ، فقد رَوَوْا عن بشار أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده وعن البحترى أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره ، وقد عيبا بذلك وعد من سقطاتهما التى نعاها عليهما الناعون بخلاف المترجم .

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته وكثيراً ما كان يتدرج بها إلى الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين كأبى الفرج ابن الجوزى وأبى الفرج الاصبهانى صاحب الأغانى وغيرهما ، فلا يدع أحداً من المتكنين بها إلا وينتسب إليه ، تارة لهذا وتارة لذاك ، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ، ووسع أكمامه وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمنهور . حدثنى صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكرى أفندى المكى قال : لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النِسبة وأردت مداعبته فقلت : ياأبا الفرج إن كنيتك تنبىء عن شرف عظيم فلعلك من نسل أبى الفرج بن الجوزى ، فقال نعم ياسيدى صدقت وأصابت فراستك ، ثم لقيته بعد ذلك بأيام وقد نسى مادار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له إجادتك فى الشعر مع هذه الكنية تدلنى على أنك من نسل أبى الفرج الببغاء ، فقال أى نعم وهو الواقع اﻫ . ولا خلاف فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه ، إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد حتى مع أخص الناس به ويغضب ممن ينكر عليه فتستظرف منه .

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لا يشذ عنه شىء من مفرداتها ، وتمادى فى هذه الدعوى وتبجح بها فى المجالس ، وتصدر للاجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه فتوالت عليه الأسئلة وهو يجيب عليها خابطاً خبط عشواء لا يبالى بمن يحتج عليه بكتب اللغة . وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معانى يجيب بها ، وربما أحال تخرصاً على كتب لغوية يعينها ، ونظم له بعضهم بيتاً كبيت الخنفشار وسأله عن معناه فى جمع كبير من الأدباء وهو :

وبخرنق الأقيال عاثت فالتثت وركاء تعترض الأكام بشيظم

فقال نعم ! هذا بيت لعنترة ، ذكره له صاحب الأغانى وهو يصف به حمامة ، والخرنق شىء يشبه نسج العنكبوت وليس به ، يكون بين أغصان الأشجار ، فيقول إن هذه الحمامة عاثت بين الأقيال ، أى

الأشجار الكبيرة فالتثت قدماها بالحرنق أى اشتبكت به ، وأما الشيظم ، وأراد أن يفسره فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس .

وبالجملة فقد كان خفيف الروح محبّباً إلى القلوب أديباً ظريفاً حاضر الجواب حلو النادرة ، وكانت وفاته فجأة بدمنهور فى ثانى ليلة من شهر ربيع الثانى سنة ١٣١٠ بعد أن صلى العشاء ، وكان آخر قوله انا لله وإنا اليه راجعون ، فشق نعيه على من عرفه وشيع جنازته الألوف تغمده الله برحمته .

الشيخ زين المرصفي

الشـافعي

هو من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشرى ، إلا أن الشيخ سليماً أ كبر منهما سناً ، حضر إلى الأزهر وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس ، ثم جعله الخديو اسماعيل معلماً للعربية لولده الأمير حسين كامل باشا سلطان مصر الآن (١) ، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألم ببعض اللغات ، وسافر مع الأمير إلى القسطنطينية وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر ، فصار ينقل منها فى تآليفه نقولاً يُغرب بها عليهم . ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها ، ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ ، فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس ، وأمر ناظر المعارف فسار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها وأناب عنه نائباً حضرها ، ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبّنه ورثاه ببيتين من نظمه هما :

سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى ... بها ركن بيت العلم إذ دكه الحين
فـلا غرو إن أضحت وجوه علومنا ... مشوهـة فاليوم فارقهـا زين

رحمه الله رحمة واسعة .

وفى مقدمة شرح أحمد بك الحسيني لكتاب الام للأمام الشافعي الذى سماه بمرشد الأنام لبرّ أمّ الأمام مانصه « زين المرصفي كان عالماً فاضلاً أخذ عن علماء وقته وجد واجتهد حتى صار من أكابر العلماء ، وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو اسماعيل باشا وكان يجيد اللغة الفرنساوية ، وله كتابات فى المنطق والحكمة وكانت وفاته سنة ١٣٠٠ » . انتهى

---

(١) كتبت هذه الترجمة طبعاً أيام ولاية المغفور له السلطان حسين كامل

شعراء الجاهلية

طرفة بن العبد

للأستاذ بشير الشريق

مسكين طرفة ! لقد ثكلته آلهة الشعر والهوى والخمور با كراً غضاً نضير العود ، مسكين لم يمتع بالشباب ؛ بل كان لايتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حينما طوته المنون فى سجل العدم ودفنت معه عبقرية فياضة ، وذهنية جبارة ، وشاعرية قوية حارة . خمسة وعشرون حجة ، انها لحلم قصير ياطرفة . . ولكنه حلم لذيذ ، وحلم جد عجيب . أيها الشاعر الاغتنامى والشاب الفيلسوف المتهتك .

* * *

على رمال الصحراء الطليقة ولد طرفة ، ولكن متى ؟ هذا مالا يعلمه أحد ؛ كان والده من سادة « بكر وائل » ومن ذوى الشرف الرفيع والمقام المحمود فى قومه ، وسمع طرفة يفتخر بأصله :

لقد علم الأقوام أنا بنجوة علت شرفاً من أن تضام وتشتما
لنا هضبة لايدخل الذل وسطها ويأوى اليها المستجير فيعصما

وتشاء الأقدار أن تسلب الشاعر والديه وهو لم يزل طفلاً فى المهد فينشأ المسكين كما نشأ الحطيئة والأخطل وبشار وأبو نواس وابن الرومى ، يتيما محروماً من كل عطف ورعاية ، لايعرف سوى أعمامه الذين أهملوا تربيته وهضموا حقه .

لقد ثار طرفة فى شبابه على هؤلاء الذين نبذوه وظلموه وكانوا علة شقائه ، ثار على أعمامه وذوى قرباه ، وفى ساعة ذكرى ماض محروق مهان ، وطفولة نكدة محرومة ، تلهم عرائس الشعر هذا العبقرى الصغير أبياته الخالدة :

فمالى أرانى وابن عمى مالكاً متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم ، وما أدرى علامَ يلومني كما لامني فى الحى قرط بن معبد
وظلم ذوى القربى أشدمضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ولا أعلم كيف عاب بعض النقاد الادباء هجاء طرفة لقومه فى قوله :

أسلمني قومى ولم يغضبوا لسوءة ، حلت بهم فادحة
وكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

وكيف رموه من أجل ذلك بكثرة الشر ولؤم الطبع ، ما كانوا محقين وما كانوا منصفين ، انهم لم يفطنوا الى أن الشاعر ما قال بيتيه إلا بعد أن لاقى من قومه كل احتقار وقسوة ؛ وكل ما من شأنه أن يجعل الشاعر يثور على البيئة التى نشأ فيها .

ثم هل تظن أن طرفة عنى قومه فقط حينما قال : « كلهم أروغ من ثعلب » انا لا أظن ذلك بل أرجح أنه عنى الناس اجمعين ؛ وأنه كان سيىء الظن بالبشر شديد الحذر منهم ، اليس هو القائل فى ذم الأخلاء :

كل خليل كنت خاللته لاترك الله له واضحه

* * *

ولد طرفة عبقرياً وشب عبقرياً ، فأسمعنا وهو فى زهرة العمر وفجر الشباب أناشيد الحياة والموت فأطربنا بانغامه إلى حين ، نعم الى حين ، فقد أخرس الزمن لهاته قبل أن يكمل الخامسة العشرين ربيعاً ؛ وكأن طرفة كان يشعر بمصيره ويعلم أن أيامه فى الحياة قصيرة ؛ فراح يسخر بمن يردعه عن اغتنام لذائذ الدنيا ويزجره عن الخمر والنساء واقتحام الهيجاء :

ألا أيهذا الزاجرى احضر الوغى وان أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فان كنت لاتسطيع دفع منيتى فدعني أبادرها بما ملكت يدى

واعتقد طرفة أن « الكل باطل » ورأى أن هنالك شيئاً واحداً ثابتاً ، هو أن الحياة تمضى ، وما عدا ذلك أباطيل :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطِّوَل المرخى وثنياه باليد
لعمرك ما الأيام الا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود

وما دام طرفة يرى أن اسمه سيمحى من سجل الوجود وأن قبر البخيل النحام فى شرع الفناء كقبر الغوى الضال الذى قضى عمره فى الشرب واللعب :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ما دام يرى ذلك فقد صمم على أن يغتنم أويقات الحياة ويتمتع بكل ما تناله يده من لذائذ ومتع فعاش — وهذا طبيعى ممن مات ولم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه — صريع الكأس والأعين النجل ؛ واهباً روحه للجمال وحسه للذة ، أما نفسه فظلت كبيرة

لم يذلها الهوى ولم يخضعها الحسن ، أبداً محترمة مهيبة طموحة إلى المجد :

اذا القوم قالوا « من فتى » ، خلت أنني
عُنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وان تقتنصنى فى الحوانيت تصطد
متى تأتنى أصبحك كأساً روية
وإن كنت عنها غانياً ؛ فاغد وازدد
وان يلتق الحىُّ الجميع تلاقنى
الى ذروة البيت الشريف المصمد
نداماى بيض كالنجوم وقينة   تروح إلينا بين برد مجسد
ومازال تشرابى الخمور ولذتى   وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها   وأفردت افراد البعير المعبد

شعر رقيق عبر به صاحبه فأحسن التعبير ، وطريقة واقعية مذهبها الاباحة والصراحة ، حقاً لقد خلق هذا الصغير طرفة شاعراً فياض القريحة ، انظر ، إنه مافكر فى غير نفسه ، ولااستمد إلا من حسه .

***

ربما دهشت اذا قلت لك إن هذا الشاعر الشاب الذى مات قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، والذى عاش كما قال بشار :

عشت بين الندمان والراح والمز
هر فى ظل مجلس حسن

قد امتاز أيضاً بما نظم من الحكم البالغة والأمثلة السائرة ، لاتعجب ، إن طرفة لم يكن مخلوقاً عادياً ، بل كان عبقريا ملهماً ، نظر بعين بصيرته الى الحياة نظر الشيخ المجرب ، فحدثنا عن الوجود والعدم حديث العارف الحكيم ، وعالج لنا خلال السنوات القليلة التى عاشها كثيراً من مسائل الحياة واحوال المجتمع وخوالج النفس

قال يطلب الغيث لديار حبيبته :

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمى

شعر جزل فصيح ، طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار ؛ وقد قال محمد (ص) « اللهم اسقنا سقياً نافعاً » أنا وأنت وكل الناس نتمثل بقول هذا الشاب :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

واسمع إنه يحدثك عن الخير والشر :

الخير أبقى وان طال الزمان به   والشر أخبث ماأوعيت من زاد

وتأمل قوله وهو فى السجن — يخاطب قاتله (١) عمرو بن هند

أبا منذر كانت غروراً صحيفتى
ولم أعطكم بالطوع مالى ولاعرضى
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ألا تشعر معى أن فى قوله « أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا » نقاء وحرارة ، وليناً وروعة واستعطافاً ، وان قوله « بعض الشر أهون من بعض » آية يتمثل بها .

وذكروا أن من حكمه التى حملت فحول الشعراء كلبيد وجرير والاخطل على الاعتراف بفضله وتقدمه قوله :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ويروى عن عائشة رضى الله عنها قولها : كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا استراب الخبر يتمثل بقول طرفة « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » وكان ابن عباس يقول عن هذا البيت « انه كلام نبى » .

النبى محمد يتمثل بقول طرفة . !

وابن عباس يقول إن كلامه كلام نبى .

وأبو العلاء المعرى يقول فى رسالة الغفران « .. لو لم يكن لطرفة أثر إلا قصيدته التى على الدال لكان قد أبقى أثراً حسناً » .

أما قصيدة طرفة التى على الدال فهى معلقته ، اسمع مطلعها الرائع :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجلد

ونظر طرفة الى الحياة ، الى المستقبل ، بعين فيلسوف حكيم ، بعين شيخ مجرب بصير بعواقب الأمور فقال :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره   حتى تظل له الدماء تصبب

رحم الله طرفة شاعر الشباب والجمال والحكمة ؟

شرق الاردن

بشير الشريقى
المحامى

---

(١) يذكر الرواة أن طرفة اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله فى ندمائه ، ثم أرسله بكتاب الى المكعبر ، عامله على البحرين وعمان — يأمره فيه بقتله لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها فقتله المكعبر حوالى سنة ٦٠ ق . هـ

من طرائف الشعر

البلبل المسحور

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

ألهمتنى الشعر وأنغامه وحسرة الذكرى وشجو الهوى
وحيرة صاحبها ذاهل مروّع يضنيه فرط الأسى
نادتك روحى فى دجى صمتها ممرورة غلغل فيها الجوى
واسمك حوّام يناغى فمى قلبى طواه ولسانى روى
وطيفك الرفّاف فى خاطرى ينضّر الماضى ويحيى المنى

* * *

آمنت بالحلم فكم مأمل مستبعد أدنت خطاه الرؤى
وعالم ضلّلنى لغزه مدّ عليه جنحه فانجلى

* * *

يطمعنى فى عزلتى أننى أرى بستر الغيب ما لا يرى
أعى حديثاً حافلاً بالرضا يهدهد القلب إذا ما وعى
وتسكن النفس إلى نغمة هابطة من سدرة المنتهى
كم صغت أشعارى من وحيها وكم تغنيت بها فى الدجى
قلت لنفسى فى سجوّ الرؤى لم آت دنياى لعمرى سدى
لئن شجانى أننى ميّت لقد نمى شجوى أنى صدى
كتبت روحى قصة لذة وصغت قلبى نغماً يشتهى
ليس ينال الترب من مهجتى ولا يذيب اللحن منها البلى
طوّفت الأفلاك فى سبحها كأنها ما حفلت بالردى
أترعت الدنيا شذاً باقياً وغلغلت طىّ الرحاب العلى

* * *

أعاضنى من فرحتى حسرة من بدّل الضحك بمرّ البكا
مررت فى دنياى مستعجلاً كأننى فى الغمض طيف سرى
تزيّن الأحزان لى عيشتى وترسم الشك وتمحو الهدى
يئست من صحوى ومن غفلتى كلاهما بعض خيال الكرى
أسلو، وما سلواى إلا البكا أحيا، وما عيشى إلا الشجا
ضاعت أمانىّ ولم يبق لى فى عمرى من أمل يرتجى
ولم يعد لى مطمح مشرق إلا انتحاه الموت نضر الصبا
أمس صباى الغض ودّعته وغاب عنى فى سحيق الهوى
وذا شبابى اليوم مسترجع يمشى إلى الموت حثيث الخطى
وقلبى الموجوع ما يأتلى يمعن فى النوح إذا ما اشتكى
حنّت إلى الماضى جراحاته وجرحه قدّس لمّا مضى

* * *

آهاً على نعمى تخيلتها ما جزعت أن هدّمتنى ضنى
تعتادنى الأشجان فى وحدة لا فرح يسعدها أو سنا
داجية نكراء طفّاحة بالسهد والبلوى وبرح الأذى
العدم الراعب فيها لقى تحسر عن أسراره ما اختفى
والوهم ملموس بها بيّن والغيب فيها ماثل يجتلى

* * *

بلبلك المسحور يا فتنتى مات، وعش الحب منه خلا
الورد قد جفّ على قبره والنغم المطراب فيه ثوى
فأرهفى أذنك تسمعى إنشاده من جوف هذا الثرى

* * *

. . . .
يا طيفها قاسمتنى وحشتى وظلت فى قربى برغم النوى
عش فى فؤادى بلبلاً ناغماً وابق أنيساً لى طول المدى
أسمعنى الألحان علوية وأنسنى الدنيا وهذا الورى
وطف بروحى عالماً سامياً عاش به الحب ومات القلى
تعتنق الأملاك فى ساحه ويسعد المشتاق فيه اللقا

دمشق **أنور العطار**

من الأدب الهندى

عود الى محمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت فى الرسالة عام أول طرفاً من أخبار شاعر الهنـــد العظيم ، وفيلسوف الاسلام النابغة الدكتور محمد إقبال ، وترجمت نبذاً من ديوانه « بيام مشرق » . ولاقبال كتاب اسمه « أسرار خودى » ، وهو كتاب منظوم شرح فيه « أسرار خودى » أى أسرار الذاتية ، فبين بأسلوب شعرى رائق أن حياة الانسان والأمة فى تقوية النفس ، واستخراج كل مافيها من قوًى ومواهب ، وأن الهلاك أن يغفل الانسان عن فطرته ، ويردّد آراء الناس ، ويحاكى أعمالهم . الخ

ولاقبال كتاب آخر اسمه « رموز بيخودى » أى رموز اللاذاتية ، يبين فيه كيف يؤلف الانسان نفسه القوية فى الجماعة ساعياً الى المقاصد العامة . والكتابان منظومان فى بحر الرمل على القافية المزدوجة .

وسيرى القارئ فى هذا المقال وما يليه نبذاً من الكتابين ، على أن قارئ هذه الترجمة العربية المنثورة يفوته كثير مما يحس به قارئ شعر إقبال فى لغته .

وفيما يلى قطعة من أسرار خودى :

« قصة شاب من مرو ذهب الى السيد المعظم على الهجويرى (١) فشكا اليه حيف أعدائه عليه » :

سيد هجويرى قبلة الأمم الذى صار مرقده حرماً فى پيرسنجر ، جاب الأقطار ، وقطع سلاسل الجبال ، وبذر فى أرض الهنود بذور السجود ؛ تجدد عهد الفاروق بجماله ، ورفع صوت الحق بجداله ؛ عزّت « أم الكتاب » بحماسته ، وخربت دار الباطل بنظرته ، وحيّت أرض البنجاب بأنفاسه ، وتلألأ صبحنا بشمسه ، عاشق وهو رسول للعشق سيار ، تتجلى من جبينه للعشق أسرار .

(١) أحد كبار الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ؛ طوف فى الأقطار الاسلامية ثم استقر فى لاهور حيث مات سنة ٤٦٥ . وله مؤلفات فى التصوف أسيرها « كشف المحجوب »

أقص عليك من أنبائه عبرة ، فأطوى بستاناً فى زهرة :

ورد لاهور شاب من أهل مرو مرير القوى ، فأمّ حضرة السيد الرفيع ليقشع بشمسه ظلمات نفسه .

قال : ياسيدى أحاط بى الأعداء الفجار ، فأنا منهم كزجاجة بين أحجار ؛ فعلمنى ياذا السنا والسناء ، كيف العيش بين هؤلاء الأعداء .

قال المرشد العليم الذى ائتلف فى نفسه الجمال والجلال :

يا جاهلاً بأسرار الحياة ، وغافلاً عن مبدئها ومنتهاها ؛ افرغ من همٍّ غيرك ، وأيقظ القوة النائمة فى نفسك . إن الحجر الذى يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار ، ينقلب زجاجة غايتها الانكسار . ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه ، فقد أسلم لقاطع الطريق روحه . حتَّامَ تعدّ نفسك طيناً وماء ؟ أخرِج من طينتك شعلة الطور ناراً وضياء . ما ذا التكبر على الأصـدقاء ، وما هذه الشكاة من الأعداء ؟ لا ريب أن عدوك صديقك ، وأن وجوده رونق حياتك . كل من وعى مقامات الذاتيـة يحمد الله كلما ألفى عدوه فى قوة . العدو من الانسان كالسحاب من الأرض ، يغشاها ، فيوقظ من سباتها قواها . وإن حجر الطريق ليسيل كالماء ، أمام الهمة القعساء . وما السهل والحزن أمام السيل المنهمر ، عقبة الطريق مِسنّ لسيف العزم ، وقطع المراحل اختبار لهذا السيف ، ما العيش فى أكل ودعة كالحيوان الأعجم ؟ وما غناء الحياة وأنت فى نفسك غير محكم ؟ حصّن نفسك بالذاتية يسخَّر لك العالم كله . تجردِ من نفسك إن ترد الفناء ، واعتصم بنفسك إن تبغ البقاء . هل الموت إلا غفلة عن الذاتية ؟ وهل افتراق الروح والجسم إلا هذه المنية ؟ اتخذ من نفسك مستقراً لتنجو من الهلاك ؛ ثم امض قُدُماً ـ كيوسف ـ من الاسار الى الملك . تفكر فى الذاتية وكن رجل الجلاد السباق الى الغايات ، كن رجل الحق الملئ بالآيات . هأنذا أشرح بالقصص الأسرار ، وأفتح بالنفحات أكمام الأزهار . « خير أن يأتى سر الأحباب حديثاً فى قصص الآخرين » (١)

« قصة الطائر الذى أنهكه العطش »

بلغ العطش من طائر جهده ، فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ، فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء ، فخيل اليه العطش أنها ماء . وخدعت الطائر المجهود هذه الشـذرة المتلألئة

(١) هذا البيت مقتبس من مولانا جلال الدين

كالشمس ، فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا ، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته . قالت الماسة : أيها الطائر المسحور ! لشدّ ماضربت بمنقار الغرور ؛ لست قطرة من الماء ، ولا شربة للظماء ، ليست حياتى من أجل غيرى . إن محاولة التقاطى جنون وغرور ، وغفلة عن الحياة الذاتية الطهور ، إن مائى يكسر من الطير منقاره ، ويصدع من الانسان جوهر روحه .

خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة ، وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أنيناً هذه النغمات . ثم بصر بقطرة من الطل على فنَنٍ من الورد ، تتلألأ كدمعة فى عين البلبل[1] ، ضياؤها استغراق فى حمو الشمس ، وهى من جوف الشمس فى رعدة . كوكب خفاق ولدته السماء ، فلبث لمحة فى نشوة الظهور والضياء ؛ وخدعته ألوان الأكمام والأزهار ، فلم يأخذ من الحياة نصيباً ، كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .

ويسرع الطائر الى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى .

أيها المبتغى نجاة من الأعداء ! خبّرنى أجوهر أنت أم قطرة من ماء ؟ ألم تر الى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقى بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة فى صلابة الجوهر ، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ، وكن قطعة ماس لا قطرة . كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال ، وتحمّل بحاراً من السحاب الهطال . وجِدْ نفسك بقوى نفسك ، واستحِل فضته بجمود زئبقك . أظهر نغمة الذاتية من أوتارها ، وتجلّ للناس بأسرارها .

« قصة الماس والفحم »

وهذا حديث آخر يفتح لك من الحقيقة بابا :

قال الفحم للماس وهما فى المعدن : يامن أودعت هذا التجلى الأبدى ! نحن رفيقان ، وفى المنشأ صنوان ، وهأنذا أموت فى معدنى ذلة ، وأنت تعلو تيجان الملوك عزّة ، وقدرى من سوء الجبلّة دون الحصاة ، وجمالك يصدع قلب المرآة . يضىء بظلمتى المجمر الوقاد ، فاذا غاية جوهرى هذا الرماد . منزلتى من الناس مواطئ الأقدام ، وغايتى أن أكون طعام النيران . إنها لحياة جديرة بالبكاء ، فما وجودى إلا هباء ؛ موجة من الدخان مركومة ، وأما أنت فكالنجم وجهك وسيمتك تفيض بالنور كل جوانبك . فأنت حيناً قرة عين قيصر ، وأخرى حلية فى مقبض الخنجر .

قال الماس : أيها الرفيق البصير إن التراب الأغبر اذا نضج فهو جوهر ، وأنا مازلت أجالد ماحولى حتى أنضج الجلاد نفسى ، فانقلبت صلباً كالحجر ، مضيئاً كالنجم ، وامتلأ صدرى بهذه التجليات . وأنت من حياتك النيئة ذليل ، محترق من رخاوة بدنك العليل ، فرّغ من الخوف والغم فؤادك ، وانضج كالصخر وكن ماساً بجهادك . فكل من جاهد فى الحياة صبوراً ، يملأ العالمين نوراً . إن الحجر الأسود كان تراباً بالتكريم غير خليق ، فصار حلية فى صدر البيت العتيق ، فاق الطور رفعة وصعّد ، حتى صار مقبل الأحمر والأسود .

إن فى الصلابة ماء الحياة وسر البقاء ، وإن فى النيوءة الهوان والضعف والفناء .

عبد الوهاب عزام

(١) البلبل فى الشعر الفارسى عاشق هائم بالورد

بين الشك والايمان

الشاعر الايطالى «ليوپاردى»

« Léopardi »

١٧٩٨ — ١٨٣٧

للأستاذ خليل هنداوى

« أيتها الشريعة الجميلة ! أنت ستعيشين طويلا معصومة من كل خطأ ، واذا هاجمنا الضلال نعوج اليك ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويدك وحدها تقودنا الى شاطىء السلام »

« ليوپاردى »

— ١ —

فى نفس « ليوپاردى » سكن الألم الممض والشك العنيف متجاورين . فجعلا منه — فى العمر الذى يبسم فيه كل شىء — شاعراً يحمل للناس مقاطع الأحزان ، ونفاثات الأشجان .

قضى أيامه الأولى يساوره الداء من ناحية ، والدرس والاعتزال ينهكان قواه من ناحيــة ثانية ، على أن الدرس برغم متاعبه كان ينفخ فيه روح النشاط فيهب ، ويحيى أهواءه النائمة فتحيا .

كان لوالده الـكونت (مونالدو) شغف بالأدب ، يعوج الى مجالسه وندواته ، وقد بعثه شغفه هذا على أن يغرس فى ولده هذه الروح ، وأن يسهل له ادراكه . فكان أدبه الأول أدب إيمان وتقوى ، يتعصب لهذا الأدب ، ويحله من صدره أسمى مكان ، ويحسب من لا يؤمن به جاهلاً ، وهو القائل فى ساعات شكه وجوده « ايتها الشريعة ، انك ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ ، واذا هاجمنا الضلال نعوج اليك ، ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويفر الضلال فرار الذئب من الراعى ، ويدك وحدها تقودنا إلى السـلام »

— ٢ —

كان الدافع الأول الى شك « ليوپاردى » هو سأمه من كل شىء فى بلده ، قال فى إحدى رسائله [لا تحدثونى عن «ريكانانى» اننى سأحب وطنى عند ما أغدو بعيداً عنه ، ماذا فى ريكانانى ؟ هل تنظرون ما أستطيع صنعه هنا ؟ فالـكل يجهلوننى ، وأنا مؤثر الحيــاة فى هذا الموطن الذى لاتعرفونه بدون معجم جغرافى ، مستخف بكل شىء . الآن صنع الآله الوجود جميــلاً ، والناس يصفون العظائم فى كل الأنحاء ، وهنالك كثيرون من الرجال يعدون بلهاء لأنهم جربوا أن يروا وأن يعرفوا ! الأرض مــلأى بالعجائب]

وهكذا قضى أيامه الأولى مغترباً عن أبيه الذى دعاه مراراً وتكراراً الى العودة ، وهو يأبى ويصر على البعد اصراراً . كتب له أبوه ، « وما هى الحاجة المـاسة التى تدعوك إلى هجرة دارك وأهلك إلى دار لا تتمتع فيها بمثـــل عطفى ورضاى ؟ » ولـكن ليوپاردى كان يهمل كثيراً هذه الأسئلة ، واذا أجاب أجاب بنفس ناقمة غاضبة ثائرة ، وكتب إلى أحد أصدقائه « لأسهل عليك أن تحرك الجبل من أن تدفعه (والده) الى صنع شىء من أجلى » ثم يقول : « على أننى اخترت هذه المرحلة ؛ فلا آخذ منه شيئاً ، ولا أطلب شيئاً » وهكذا يغلب الـكبرياء على ليوپاردى ويصبح شقاؤه شقاء جباراً .

أوى ليوپاردى إلى الدرس يجد فيه لذته النفسية ، ولـكن هل كان الدرس كله راحته من عنائه ، وهناءه فى شقائه ؟ كتب فى أحد كتبه يعبر عما يجد فى ساعة الدرس :

[إن سبب تعسى هو عقـلى ، اننى أظن أنـكم تعرفون ، ولـكنى أثق بأنـكم تجهلون كيف يقتل العقل صاحبه الذى يحاول أن يفكر على غير ما يفكر به الآخرون ، عند ما لا يكون لهذا الصاحب من لهو غير لهو الدرس . . أما العقل فقد أعطانى ويعطينى أمثال هؤلاء الشهداء ، وبهذا وحده يفرض سلطته على ويكون سبب أذاتى . وسوف يقتلنى اذا لم أبدل خطتى ! ألا إن العزلة ما خلقت لمن يحترقون بأنفاسهم ويذوبون بأنفسهم]

بلى ! ما كان أصدق ليوپاردى فى كلمته الأخيرة ! لأنه كان معبراً عن حالة نفسية هى فيه . فقد تسرب اليه الداء حتى أنهك قواه فشحٌ ناظراه وساءت صحته وركبته العلة إثر العلة . ووقر على

ظهره عبث الحياة فقال [إننى ناضج للموت] . ولكن الموت كان يرى هذه الثمرة غير ناضجة ، فتركها عشرين عاماً تنضج خلالها وتحمل من آلام الحياة ماينوء بالجبابرة حمله ، تائهاً ضالاً فى مسارب الشك . مستجلياً الحقيقة كما استجلاها من قبله ، طالباً ما تعده من وصل . ووعدها بالوصل علالة .

أما نظرته الحادة وصوته الرنان وتألق نفسه وكل تلك الملامح القوية التى مثلها — سانت بوف — قد تغيرت فى أخريات أيامه وانما غيرهـا وقر الهم لا وقر الهرم ، واذا بليوباردى كما يصفه (رانيرى) صديقه الوفى « ذو قامة مقوسة ، ولون أبيض مشرب بصفرة ، وجبهة مربعة عريضة ، وعينين زرقاوين ذابلتين ، وأنف دقيق ، ولهجة مبهمة جافة ، وبسمة ترافقها العذوبة والشقاء »

وهو يكتب عن نفسه :

[وأخيراً أتعبتنى تلك الأعوام التى قضيتها فى الدرس وأودت بجسدى ، حتى لايرجى لى شفاء غير الموت . وهكذا حطمت رجائى لأفهم أن الطرب لايلائم قلبى . واذ ذاك وجب على أن أرتدى ثياب الحداد وأن أتخذ التشاؤم رفيقاً لى لايمكن فصله عنى إلى الأبد ، نظرتُ فألفيت أن حياتى لايمكن أن تكون إلا تعسة ، ولكن هذا لم يعشنى على اليأس ، فحبذا لو أن قواى تحملها بدون خوف وتحولها إلى شىء مفيد بعض الشىء]

وهكذا نستطيع أن ندرك أن أهم العوامل التى تألبت على هذا القلب فبدلت ايمانه شكاً معذباً إنما هى عوامل جسدية ونفسية تضافرت على نضاله ، وما فتئت تلح عليه وتنال منه ، حتى تركته لا يهديه الا شك ، ولا يقنعه الا جحود .

— ٣ —

فى هذه العزلة الموحشة التى اختارها لنفسه ارتبط مع الأديب الايطالى (بيانرو جيوردانى) بصلات مودة متينة ، وكان نجم هذا الأديب متألقاً فى سماء بلاده ، وهو ممن طرح القديم وأعلن شكه فيه ، وراقت له المذاهب الجديدة فأخذ بها ، فتمنى لو يرى ليوباردى بعد أن سمع عنه الشىء الكثير ، فقصده فى عزلته فمال اليه وأعجب به وكتب عنه « اذا كان دانتى نجمة صبح فى سماء إيطاليا ، فان ليوباردى هو نجمة مسائها »

لليوباردى صفحة مؤثرة كتبها فى ليلة تحت أضواء القمر والنجوم المشعة ، ذاهبة نفسه فى الليل العميق كل مذهب :

[وفى ذلك المساء كانت نافذتى مفتوحة ، وناظرى يتمتع فى هذا الصفاء السماوى وشعاع القمر المتهادى . أتروح نسيما عليلاً ، وأصغى إلى عواء الكلاب المتناوحة فى مواطن قصية عنى . تخيل الى أن صوراً ترقى إلى نفسى وأن قلبى يتسلط عليه قلق غريب ، فهتفت كمن أصابه مس ، طالباً رحمة الطبيعة التى خيل الى أنها تسمعنى . فى هذه اللحظة ألقيت أنظارى على ماضى ، فتجمدت من الخشية اعضائى ، وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الناس أن يتحملوا الحياة بدون أوهام ولا أفراح ولا عواطف ، بدون خيال ولاهيام ، وبدون ما كان يملأ وجودى قبل عام ، ويجعلنى سعيداً برغم مخاوف ، أما اليوم فاننى يابس كالقصبة ، لا عاطفـة تتمشى فى حنايا نفسى البائسة ، وقوة الحب الخالد المطلقة قد ماتت وهلكت فى العمر الذى أنا فيه .]

كم مرة ذكر ليوباردى هذه الليلة العنيفة ! وكم مرة تمثلت له هذه الليلة وهو ينظر فى المروج الفضية الهادئة يغمرها نور القمر وهو ينجلى وراء (الابينين ، وقمم الألب الشامخة) أو يتهادى على حضن البحر اللانهائى ، وسائق العجلة يردد أغنيته الحزينة ، مودعا آخر شعاع النهار » ثم يردد الشاعر : [وهكذا يغادر الشباب الحياة ويتركها تخمد رويداً رويداً ، الاوهام الجميلة تتطاير مع الآمال التى كانت مساعـدة للانسان ، ولكن أنتن أيتها الروابى التى ينحدر عنها النور ، أنتن لن يغشاكن الظلام طويلاً . . . ولكن حياة الانسان بعد فرار الشباب لن يلونها شىء ، وستظل غريبة حتى النهاية . . . والقبر وحده هو الذى يضع حداً لليل عمرنا !]

وفى عام ١٨١٨ نظف الشاعر رأسه من كل شىء . طلق الايمان وودع الاوهام ، فبقى وحده وسط خرائب جسده وروحه ازاء عالم فارغ وتحت سماء من نحاس ، ومنذ ذلك العهد لم يتغن الشاعر إلا بأنشودة الشك التى رافقته حتى ودع الحياة

— ٤ —

وأخيراً نزع عنه الشك العابس كل ايمان بالله والخلود والعناية ، فتلاشى منه كل شىء وانصرف عنه كل شىء ، فلا آله عنده غير

الطبيعة ، تلك القوة العمياء التى لا تُدرك ، يسألها عن سر الاشياء فتجيبه « وأنا طائعة للمقادير ، أما أسباب الاشياء فهى ألغاز ، لاأنا ولا أنت نستطيع ادراكها ، فالأجدر ببني الانسان أن يصرفوا عيونهم عن هذه الألغاز التى تُقلقهم ، فان حلّها كلما خُيّل الينا انه صار قريباً زاد عنا بعداً »

لننظر ما هو الايمان الجديد الذى اعتنقه الشاعر فى بعض مقطوعاته (مومياء تُبعث) بعثاً مقيداً بلحظة زمنية ، يسألها فيها « كيف ماتوا وماذا وراء الموت » ؟ ولكنها تجيب « اسكت ! لم يحن وقت الجواب . . . » وهكذا تكر هذه اللحظة ، وتعود المومياء الى رقادها الأبدى .

وهنالك مقطوعة صغيرة تدور حول رجل (ايزلاندى) فرّ فى الأرض على وجهه من الطبيعة ، ولكنه تلاقى معها فى وسط الصحراء ، فألح عليها بأسئلة كثيرة منها هذا التأنيب :

[لماذا قذفتِ بى فى هذا العالم دون استشارتى ، ولماذا بعد ايجادك لى لم تشغلى نفسك فىّ ؟ فما هى غايتك ؟ وماعسى تبتغين ؟ وماذا تريدين ؟ هل أنت لئيمة أم عاجزة ؟]

فأجابته الطبيعة : بأن ليس لها الا سأم واحد وواجب واحد أن تُدير دولاب العالم دورة واحدة يناجى فيها الموت الحياة ، والحياة الموت . وإذ ذاك سألها الرجل «ومن عسى يبتهج بحياة هذا العالم الذى لايبقى ولايدوم إلا بموت كل الاجزاء التى تؤلف عناصره ؟ ولكن الطبيعة لم تجشم نفسها عناء الجواب . . . وإذ ذاك انقض أسدان جائعان عليه فالتهماه فهوى هيكله على التراب منتظراً أن يسقط كلاهما بدورها على رمال الصحراء .

السكوت هو الجواب البليغ على هذه الأحاجى والاسرار ، لأن المستقصي عنها لن يرى إلا جداراً يعثر به ويدفعه الى الوراء ، وإذا سار فلن يسير إلا فى صحراء لايجد منها مخرجاً .

لم يختر ليوپاردى شيئاً من حياة المستقبل ولا الحاضر ، ولم ينظر الى مستقبل الانسانية ، ولم يجرب أن يقف هواه على شىء فى الحياة ، واذ أراد أن يمجد وطنه فلن يرى شيئاً جديراً بالتمجيد إلا ذلك الماضى ، أما الغد فهو لايؤمن به

[أيها الأسلاف العظماء ، ألا تزالون تصونون لديكم شيئاً من الرجاء فينا ؟ أم نهلك نحن جميعاً ؟ انى محطم لا أملك أية قدرة أجابه بها الشقاء ، أما المستقبل فهو جهم فى عينى ، والذى أتبينه هو الذى يرينى الأمل حلماً أو جنوناً]

لهجته — أينما صعدت — مبطنة بالكآبة العميقة التى لايخفف منها مجد ولا علاء . يُسألُ عن الرجل العظيم فيقول « هو اسم سرعان مايصبح كاللاشىء . ان فكرة الجميل تتبدل دائما مع الزمن . فالمسائل العلمية سرعان مايتفوق عليها غيرها وتصبح نسياً منسياً ، وإن أدنى رجل رياضى منا يعرف أكثر مما يعرف (غاليلوونيوتن) فالمجد ماهو إلا خيال ، والبراعة التى تكون مكافأة للمجد ليست إلا حاضراً مشؤوماً لمن يتقبلها » ثم يتكلم عن دانتى ويقول . « وعلى هذه الأرض القبيحة لم يؤثر إلا الجحيم ، وأى منزل فى الحقيقة لايفضل على منازلنا الأرضية ، ان الشقاء الذى يؤلمنا هو أقل ثقلاً وأقل شراً من السأم الذى يخنقنا . ألا أيها السعيد ، أنت الذى حياتك فى بكائك» وينظر ليوپاردى الى المستقبل نظرة سوداء ويعتقد أن الأجيال تسفل ولا ترتقى ، ويسخر من المتأملين فى تسامى الأحفاد

هنالك راع يخطر على قمم جبال (حملايا) متكئاً على عصاه يطيل التأمل فى السكون المحيط به ، وينظر الى القمر الهائم مثله فى السماء فيسأله : [قل لى أيها القمر ! ما قيمة حياة الراعى ، وما قيمة حياتك أنت ؟ بل ماقيمة حجى الفقير و سُراك الأبدى ؟ أنتَ أيها المسافر المنعزل الخالد والملك المفكر ، ربما تفهم أنت حياتنا وآلامنا وتنهداتنا ، وربما تفهم الموت والصفرة السامية ، وسفر الأرض ووداع الصداقات الجميلة . انك بلا شك تفهم أسرار كل هذه الاشياء ولكنى لاأفهم ولاأعرف إلا شيئاً واحداً . ليأخذ البعض من هذه الحياة خير ما فيها ، يستنقذونه من ثوراتها الهوجاء ومن كائناتها الضئيلة . قد يمكن لهم ذلك . ولكن الحياة هى شر من اجلى]

وهل فى هذه القطعة إلا اليأس من الحياة والكفر بها فى شعر جميل ؟

«يتبع» خليل هنداوى

العلوم

تغير شكل الأرض من الكروية

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

كلنا نعرف أن الأرض التى نعيش عليها كروية الشكل . وقد برهن علماء الجغرافية على صحة هذه النظرية ببراهين عديدة كانت ولازالت موضوعاً من مواضيع دروس الجغرافيا فى المدارس ، من أهمها الظل المستدير الذى تلقيه الأرض على سطح القمر إذا ما حالت بينه وبين الشمس .

إلا أنه قد ظهر أخيراً بين العلماء المحدثين من يقول بأن الأرض يتغير شكلها من كروى وهو ما يطلق عليه Spheroid الى شكل هرمى له أربعة أضلاع ، كل منها مثلث متساوى السيقان .

والنظرية لا تعتمد فى إثباتها على براهين نظرية أو خيالية ، وانما تعتمد على حقائق جغرافية ملموسة موجودة فعلاً على الأرض ، فهى براهين عملية ثابتة . وسأنقل النظرية لحضرات القراء ملحقاً كل نقطة بالتفسير الكافى وذلك لخطر الموضوع الذى نبحث فيه وخطر النتيجة التى تنتج عن إثباتها علمياً .

قال صاحب النظرية :

« هناك على سطح الأرض منخفضات لم تغمرها المياه بعد ، من أهمها ذلك المنخفض العظيم الذى يقع فيه بحر الكاسبيان[1] The Caspian sea الذى يفصل وسط وشرق آسيا عن أفريقيا وأوربا ، والذى غمرته المياه فى العصور الحديثة . اذا علمنا هذه الحقيقة الجغرافية وعرفنا أن هذا المنخفض Depression على اتصال بالمنخفضين اللذين تغمرهما مياه المحيطين الأطلسى والهادى سهل علينا أن نفهم أو نعرف كيف أن شكل الأرض يبعد عن الكروية بالتدريج مقترباً نحو الشكل الهرمى Tetrahedron Shaep »

(١) لعله بحر قزوين

فى هذه النقطة يمهد صاحب النظرية الطريق للفكر لتسوغ نظريته ، وذلك بالقاء حقائق جغرافية ثابتة يرى أنها تساعد على فهم نظريته اذا ما أراد البرهنة عليها . وها هو ذا بعد ذلك يريد أن يعلل سبب اتخاذها الشكل الهرمى دون سواه مستعيناً فى ذلك بحقائق جغرافية أخرى . فيقول :

« باطن الأرض لا زال حاراً منصهراً يبرد بالتدريج ، فهو يقل حجماً بالبرودة . ولما كانت القشرة الأرضية صلبة لا يمكنها تقليل حجمها تبعاً لذلك فانها تتقلص وتتغير من شكلها تبعاً لانكماش باطن الأرض فتتخذ الشكل الهرمى » .

أى أن باطن الأرض حارٌ ملتهبٌ منصهر ، ولكنه يبرد بالتدريج ، فسيجىء وقت مستقبل يصل فيه الى أقصى درجة ، أى لدرجة التجمد ، وعندها يقل حجمه تبعاً لقانون الانصهار . وبما أن الحيز الذى كان شاغلاً له قبل التجمد سيكون جانب كبير منه بعد ذلك شاغراً ، فان القشرة الأرضية أو الغلاف الخارجى سيضطر بفعل الفراغ الداخلى أن يغير من شكله لملء هذا الفراغ مع عدم تغير فى حجمه . وقد وجد الأستاذ صاحب النظرية أن الأرض سائرة فى هذه الطريق ، وأنها ستتخذ الشكل الهرمى دون سواه لحقائق جغرافية تبرهن على صدق قوله وصحة اعتقاده . ولظنه أن هذا الشكل يمكن القشرة الخارجية من التمشى مع وصول الباطن الى أقل حجم ممكن دون المساس بحجم الغلاف الخارجى .

« ولو أنني أعرف جيداً أن المعضدين لهذه النظرية أقلية صغيرة إلا أننى أقول إن هناك حقائق جغرافية كثيرة تؤيد وجهة نظرى وتبرهن على صحة نظريتى :

أولاً : تركز اليابس حول مساحة مائية فى النصف الشمالى من الأرض

ثانياً : كل مساحة مائية فى جهة يقابلها كتلة أرضية فى الجهة الأخرى

ثالثاً : وجود ثلاثة مناطق مرتفعة تكون عقداً أو أحزمة

أرضية شمالية وجنوبية يفصل بعضها عن بعض منخفضات هى منخفضات المحيط الأطلسى والهادى ومنخفض الكاسبيان . والشكل رقم (١) يساعدنا على فهم ذلك .



شكل ١

وتفسيراً لذلك نقول . أنه لما كانت الأرض فى حالة الليونة الأولى وكانت تدور حول محورها بسرعة ، أخذت الشكل الكروى كأى جسم لين يدور حول محور ، وانبعجت عند خط استوائها ثم تفرطحت عند القطبين بفعل قوة الدوران .

وكانت الأرض فى العصر الأيوزوى Eozoic Age. أقرب فى شكلها من الكروية التامة تغطيها المياه . فلما أخذت تبرد بدأت القشرة الخارجية فى التقلص فظهرت أراضٍ ارتفعت عن المياه المغطاة بها (شكل ٢ ا) . وفى العصر الباليوزوى Palaeozoic Age. أخذت مساحة اليابس تتزايد وأخذت الأرض شكلا كما يقول العلماء عبارة عن هرمين غير كاملين متصلين ببعضهما (شكل ٢ ب) وكانت الأحزمة أو الكتل الأرضية بدلا من اتجاهها من الشمال للجنوب (مثل الأمريكتين) كما هو حادث الآن . متجهة من الشرق الى الغرب . وكانت عبارة عن كتلتين أو حزامين Belts كما يطلق عليهما احدهما شمالا والآخر جنوبا يفصل سطحيهما مساحة مائية عظيمة . ولما كانت الأرض لازالت آخذة فى البرودة بالتدريج فان الكتلة الجنوبية قد بدأت فى الانكماش وكادت تختفى ، وأخذت الأرض تسير نحو تكوين شكل هرمى واحد هو تكملة للكتلة الأرضية الشمالية (شكل ٢ ح) »



(ا) (ب) شكل ٢ (ح)

هذا هو شرح صاحب النظرية لفكرته وهو شرح واضح وافٍ نعرف منه أن الأرض التى نعيش عليها سائرة فى طريقها الى تكوين شكل هرمى . وقد يعترض معترض فيقول لم لا تأخذ الأرض أى شكل آخر غير هذا الشكل الهرمى ؟ ولم كان هذا الهرم مقلوب الوضع ، أى أن قاعدته من أعلى . وردى على ذلك بسيط للغاية . لأن الحقائق الجغرافية والخرائط التى أمامنا يظهر عليها أن اليابس يتركز فى الجزء الأعلى ، وأنه من الممكن جداً أن ندخل شكل اليابس داخل أضلاع مثلث . وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فلا أقل من أن الجزء الأعلى يكون القاعدة . ثم إن هناك نقطة أخرى وهى أننا نلاحظ جميعاً أن القارات الجنوبية ينتهى أغلبها بأشكال مدببة ، فأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأستراليا بمجموعة جزائرها تكون أشكالاً تنتهى بمدببات ، ومن جهة أخرى فان الشكل الهرمى كما سبق ذكره يمكّن القشرة الأرضية من التشكل تبعاً لنقص حجم باطن الأرض بالبرودة دون أى مساس بحجمها هى . وفى قوله هذا شرح أورد للاعتراض الثانى أى أن شكل الأرض الآن على ماهى مرسومة عليه فى الخرائط يبين أن القاعدة من أعلى لا من أسفل .

وفى هذه النظرية يقول البروفسور و . ه . هوبز مامعناه «إن الكرة الأرضية لا يمكن أن تعتبر بأى حال من الأحوال كرة تامة التكوير إذ لابد من أن تعاقب العصور الجيولوجية المختلفة قد أثر فى شكلها التأثير البين وحور فيه . وهى تقترب فى الوقت الحالى نحو الشكل الهرمى . ويجب ألا ننسى أن الزوايا الحادة قد استدارت ، وأن الشكل الهرمى قاعدته من أعلى ، يبرهن لنا على صحة ذلك رحلتا نانسن أولا ، وبيرى ثانياً ، الى القطب الشمالى إذ أثبتت وجود كتلة أرضية فى الشمال تزيد ارتفاعها على ١٠ آلاف قدم عن سطح البحر يمكن اعتبارها أكبر مساحة أرضية على سطح الأرض إذا ماضمت اليها مساحة ثلاجاتها وجزرها .»

القصص

الدون جوان

لموليير العظيم

ترجمة حامد اسعد محمد

الفصل الرابع . المنظر الثانى

(الدون جوان أحد فقراء الأشراف الفرنسين . يغلق بابه دائماً فى وجه الدائنين . يحضر المسيو ديمانش بائع الملابس والخائط وهو أحد دائنى الدون فيطلب مقابلته)

الخادم زجانارل : سيدى . قد حضر المسيو ديمانش وهو يريد التحدث اليك .

الدون جوان : دعه يدخل . ان التهرب من مقابلة الدائنين لا يجدى نفعاً . سأعمل جهدى لاستقباله استقبالاً حسناً دون أن أدع له فرصة المطالبة بدينه

(يدخل المسيو ديمانش)

الدون جوان : أهلاً وسهلاً بالمسيو ديمانش . كم أنا مسرور رؤيتك . وكم أنا آسف لأن الخدم تركوك تنتظر فى الخارج أكثر مما ينبغى . ولكن معذرة ، إذ أننى أمرتهم بعدم دخول أحد ، ولكن هذا الأمر طبعاً لا يسرى عليك فان لك الحق أن تحضر دائماً دون أن يمنعك أحد .

المسيو ديمانش : سيدى . أنا عاجز عن شكرك . لقد حضرت لـ . . . .

(يقطع الدون جوان عليه حديثه فينادى خادمه)

الدون جوان : اسرع باحضار كرسى (فوتيل) للمسيو ديمانش .

المسيو ديمانش : سيدى . لا داعى (للفوتيل) . إننى مستريح

الدون جوان : لا . أبداً . يجب أن تجلس بجانبى

المسيو ديمانش : لا ضرورة لذلك . لقد أتيت فقط لـ . . . .

(يمنعه الدون جوان من إبداء الغرض من زيارته له فيقول للخادم)

الدون جوان : خذ هذا الكرسى الصغير وأسرع باحضار (فوتيل)

المسيو ديمانش : سيدى . أنت تهزأ بى . لقد جئت لـ . . . .

الدون جوان : لا . لا أقصد السخر منك . إننى أود أن أستقبلك كما يليق بك . وأود ألا أجعل هناك فرقاً بينى وبينك .!

المسيو ديمانش : سيدى . . . .

الدون جوان : تفضل بالجلوس .

المسيو ديمانش : لا ضرورة للجلوس يا سيدى . أريد أن أقول لك كلمة فقط . لقد حضرت لـ . . . .

الدون جوان : تفضل بالجلوس .

المسيو ديمانش : لا ضرورة لذلك يا سيدى . انى مستريح كذلك . لقد حضرت لـ . . . .

الدون جوان : لا . لا . لن أستمع اليك حتى تجلس .

المسيو ديمانش : سيدى . سأفعل ما تريد . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : ماشاء الله يا مسيو ديمانش . إن صحتك جيدة جداً ! !

هذه هى النظرية أقدمها لحضرات علماء الجغرافيا فى مصر راجياً الأدلاء برأيهم فيها . على أنه يجدر بى أن أذكر أن هذا التغير والتطور فى شكل الأرض هو تغير تدريجى بطىء يحتاج لآلاف السنين ، وأنه لذلك يمكن اعتبار الأرض التى نعيش عليها كروية أو قريبة للكروية ولو أنها فى الحقيقة سائرة فى طريقها الى تغيير شكلها الذى نعرفه .

المسيو ديمانش : نعم ياسيدى . أنا فى خدمتك . لقد حضرت لـ . . . . !

الدون جوان : إنك فى صحة حسنة حقاً . وجهك متورد . وعيناك يلمع فيهما بريق القوة .

المسيو ديمانش : أنا شاكر لعطفك ياسيدى . لقد حضرت لـ . . . !

الدون جوان : كيف حال مدام ديمانش زوجك ؟

المسيو ديمانش : نحمد الله ، إنها فى صحة جيدة ياسيدى .

الدون جوان : انها امرأة طيبة القلب حقاً .

المسيو ديمانش : انها خادمتك ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : وكيف حال ابنتك كلودان ؟

المسيو ديمانش : انها على أحسن حال ياسيدى .

الدون جوان : كم هى جميلة وذكية . انى أحبها من كل قلبى

المسيو ديمانش : انه لشرف عظيم لها ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : وطفلك كولان . ألا يزال يكثر من ضوضائه ؟

المسيو ديمانش : نعم ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : (ضاحكا) وكلبك « برسكيه » لا يزال يعض كل من يزورك ؟ !

المسيو ديمانش : اكثر من قبل ياسيدى . ولكنى جئت لـ . . . . .

الدون جوان : لا تعجب من كثرة أسئلتى عن أسرتك فاننى أحبها كثيراً وأود سماع كل ما يتعلق بها .

المسيو ديمانش : اننا عاجزون عن شكرك ياسيدى . لقد . .

الدون جوان : (يقف ويمد يده للمسيو ديمانش مشيراً بذلك الى أن المقابلة انتهت)

ضع يدك فى يدى كصديق

المسيو ديمانش : انى خادمك ياسيدى .

الدون جوان : يا إلهى ! كم أنت رقيق وظريف . انى أحبك كثيراً

المسيو ديمانش : انه لشرف عظيم ياسيدى . لقد حضرت لـ . . .

الدون جوان : انى على أتم استعداد لعمل كل ما تريد .

المسيو ديمانش : سيدى . لقد أحسنت إلى كثيراً .

الدون جوان : وكل هذا بدون مقابل

المسيو ديمانش : إنى لا أستحق كل هذا العطف . ولكننى حضرت لـ . . . : .

الدون جوان : العفو يامسيو ديمانش . هلا شرفتنى بتناول العشاء معى هذه الليلة ؟

المسيو ديمانش : شكراً لك ياسيدى . يجب أن أرجع إلى منزلى فى الحال . لقد جئت لـ . . . . . .

الدون جوان : (يقف ويمد يده للمسيو ديمانش اشارة إلى أن الأخير يجب عليه أن يستأذن فى الانصراف)

أسرع يا زجانارل وأحضر المشاعل لتوصيل المسيو ديمانش . وخمسة من خدمى بأسلحتهم لحراسته اثناء رجوعه إلى منزله

المسيو ديمانش : (يقف أيضاً مضطراً) سيدى . لاضرورة لكل ذلك . يمكننى الرجوع وحدى ، ولكننى جئت لـ . . . .

(يأتى الخادم فى الحال ويأخذ الكرسى الذى كان يجلس عليه المسيو ديمانش)

الدون جوان : كيف لا ياسيدى وأنا خادمك أو بالأحرى مدينـــك ؟

المسيو ديمانش : (تنبسط أسارير وجهه ويقول) آه . سيدى

الدون جوان : انه فضل لا يمكن أن أخفيه . وانى لأعترف به امام جميع الناس .

المسيو ديمانش : شكراً . اذاً لقد حضرت لـ . . . . .

الدون جوان : ألا تتنازل بالسماح لى بأن أوصلك ؟

المسيو ديمانش : سيدى . انك تهزأ بى . سيدى لقد . . . .

الدون جوان : ضع ذراعك فى ذراعى إذا تفضلت . أود أن تكون على ثقة من أننى خادمك . وانى على استعداد لأبذل لك كل غال ونفيس

(يخرج المسيو ديمانش ويوصله الخدم الى بيته)

حامد أسعد محمد عاشور

قصة في رسائل

ســـــعادة لم تتم

بقلم عبد الوهاب الخطيب

صديق :

تسألني مابالك كثير الاطراق ، دائم التفكير ، حائر البصر ، مشرد اللب ، بادية عليك علائم السقم ؟ كأنك تعالج كتمان أمر في نفسك شديد على لسانك إعلانه . أو تشكو داء لا قِبل لمثلك باحتماله . وتعلم ياصديق أنني كنت قبل ذلك مرحاً غاية المرح ، طروباً نهاية الطرب ؛ وأنني كنت في مرحي وطربي لا أخرج عن كوني شاباً سعد حقبة من الزمان بالأمل الباسم وعين الزمان نائمة — والأمل جذوة الشباب وشعلته ، وروحه وقوته ، ومرحه وطربه ، ولهوه ولعبه — فكنت بما بين ضلوعي من أمل أجري مع الشباب الى تلك الغاية التي رسمتها لنفسي ، مستسهلاً في سبيلها وراء الأمل كل صعوبة أمام الشباب ، حتى إذا كنت من آخر المضمار قاب قوسين أو أدنى ، فتح الدهر عينيه ، ثم تثاءب وتمطى ، ثم التفت إليّ ونظر نظرة أنت تعلم ماذا كان وراءها !

يا ويحي ! ! لقد تأنق في مكروهي القدر ، أخ في الورد من أيامه بالورد عثر ، وعم ظلله المشيب ففر منه ونفر ، وأملٌ على آثارها تحطم واندثر . ثلاثة أشباح كانت صروح سعادة ومنتديات أحلام ، لم يفارق العين خيالها ، ولم يهدأ القلب من طعناتها ، ولم أفتأ أذكرها من حين الى حين .

قلت قضاء حُمّ ، وأمر من الله نفذ ، لاراد لقضائه ، ولامعقب لحكمه ، واستعنتُ الله على هذه النوازل فأعانني ، واستهديته فهداني . وإن كانت في القلب جمرات من الأسى ، مغطاة برماد من الصبر خفيف ضئيل . ولبثت على ذلك برهة كانت أقصر من عمر آمالي وسنات أحلامي ، لم أشعر فيها بشيء من معاني الحياة ، اللهم إلا بذكرى في قلبي تتمثل ، وخيال أمام عيني يتنقل . وكنت مع ذلك أرى كما يرى الناس ، وأسمع كما يسمعون ، وأسير كما يسيرون . غير أني كنت أنظر بعينين فيهما انكسار من بقايا آثار المدامع ، وأسمع بأذنين فيهما رنين من صدى تلك الفجائع ، وأمشي على قدمين يؤودهما حمل هذا الهيكل السقيم الناحل المتهدم ، مشيَ مَن حنَتْ ظهره السنون ، وأثقلت كواهله الليالي والأيام ! !

ثم رأيتها لأول مرة ، وقد ألقى عليها باريء النسم ثوبين ضافيين من جمال وجلال ، فأحسست نحوها بحنان كأنه رقة العشق ، سرى في دمي سريان الكهرباء في أسلاكها ، ومكثت طول يومي أفكر فيما سيصير اليه أمري بعد تلك النظرة التي كانت توفيق أقدار لأقدار .

يالله ياصديق ! لشد ما ملكت على إحساسي وشعوري في المرة الثانية ؛ والقلب الهواء تجد فيه كل غيداء فراغاً لها . وكان قلبي لا يزال واقفاً على أطلال الأمل ، يندب شجوه ويبث لوعته . فنظر اليها نظرة كنظرة إبراهيم في النجوم وقال إني سقيم . وكأنما أرادت أن تداويه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، فرنت اليه بنظرة جمّعت شعبه ولمت شتاته ، وأطفأت لهبه وأحيت مواته ، فالتفت في مثل انكسار جفونها ، ورفع الراية بالاذعان في شكر ، والتسليم في طاعة . ثم كان بعد ذلك ما كان .

أخذ فكري يسبح رويداً رويداً في ملكوت لا نهاية له من الخيال وراء هذه الظاهرة الغريبة التي ملكتني ، وأصبحت أشعر بحياة جديدة فيها معنى حائر بين سعادة لا نهاية لها ، ذلك أني احتويتها في جوانح القلب ، واتخذت من عبقرى جمالها ريشة لعبقري خيالي ، فكان لا يرتسم في ذهني معنى إلا وفيه من حسنها مثال ، ولا يقع نظري على شيء إلا وفيه منها رونق بهجة أو شعاع جمال ، تلك سعادة علوية ساحرة قاهرة ، تغطي على كل سعادة في الأرض لتظهر هي في صورتها البديعة اللطيفة فتنة لمن يراها أو يحس بها من الناس أجمعين .

لا أستطيع يا صديق أن أصفها لك ، فهي روح ، والروح لا توصف ، وهي حياة ، والحياة لا يمكن إنساناً في الوجود تكييفها ، وهي مع هذا وذاك سر لا يدركه غيري ، ولا يحسه أحد سواي ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك إنها مشرقة الطلعة ، معتدلة القامة . مطمئنة السير ، فيها لمحات محدودة من الانسانية العالية السامية . هبطت بها الى هذا الملأ الذي نعيش فيه كدليل حسي على أسمى مراتب الجمال وأتم مظاهر الجلال .

لقد مضت علي يا صديق مدة تزيد على ثمانية عشر شهراً ،

لم أحاول فيها أن أطرق سمعها — على قربها مني — بكلمة واحدة تفهم منها ما يكنه قلبي من الحب لها والوجد بها ، وكم تمنيت أن أسمع من فمها الرقيق الساهم الحالم كلمة واحدة ، فلم أجد إليها من سبيل ، كما أني لم أملأ منها عيني حياء وخجلا ، واكتفاء بصورتها المرسومة في حبة القلب وفوق صفحات الخيال ، على أن طريق كانت تتحول تبعاً لها على غير قصد مني . حتى إذا لم يكن من توديعها بالنظرة بد ، وضعت يدي على صدري كمن يتلمس شيئاً فقده ، وما فقدت إلا قلباً تقطر كالدمعة الحمراء من بين أهداب الجفون .

لا يزال صولجان المقادير يقذف بقلبي في واد من الذكريات القديمة ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، كلما طال عليّ الأمد في لقائها ، والآن يا صديقي وقد مضت على مدة تزيد على شهرين لم ألمحها فيها لمحة واحدة ، أقول لك إن هذا هو سر اطراق وتفكيري ، فلا تسألن عن شيء بعدها حتى أحدث لك منه ذكرا ؟

٢١ — ٧ — ١٩٣٢ صديقك جمال

***

صديق :

أوقد فعلتها ؟ يا قلبي !! ما كان أحرصني على الاحتفاظ بالسر وكتمانه ، لولا أنني أعتقد أن لي من قلبك وإخلاصك ووفائك ما يجعلني أستريح إلى أن أبوح لك (في شيء من التحفظ كثير وبعد مضي زمن على كتمان هذا السر طويل) بما كنت أقاسيه آناء الليل وأطراف النهار من لواعج قلبي ، وزفرات أنفاسي ودموع عيوني ، ولكن غفر الله لي ولك يا صديقي ما تقدم من ذنبنا وما تأخر ، فان هذه القلوب الطاهرة البريئة ، المكتهلة في شبابها ، الرزينة في حبها ، لا يمكن أن تتصل في يوم من الأيام بغير ما يماثلها شرفا وطهرا ، ورزانة ونبلا .

ولئن وقع خطابي في يد غير يدها ، ورأته عين غير عينها ، وطرقت نبراته الحزينة سمعاً غير سمعها لخطأ في الاسم كما يقال ، فانني لسعيد مغتبط ، هنيء ملء قرارة نفسي وطوايا فؤادي ، ذلك أن خطابي وقع في يد شريفة وعند قلب ذي إحساس سام ، يعرف المعنى المرتسم فيه كما أريد ، وأغلب الظن أن الله قد يهيئ لي من أمري هذا رشداً . ولعله يكون قريباً والسلام ؟

١٤ — ٩ — ١٩٣٢ صديقك جمال

***

عزيزتي :

عبثاً كنت أخادع قلبي بالسلو عنها أو الافلات من براثن حبها بعد أن جاءني خطابك الأخير ، فانها لم تدخل قلبي إلا بعد أن صهرته آلام الحياة وأحزانها ، وأصبح نقياً شديد الايمان بقضاء الله وقدره ، صادق الاحساس بما يجري حوله في الحياة من مظاهر خادعة وأخرى مخدوعة ، مطمئناً الى الحياة من حيث هي وجود ناقص حيناً وتام أحياناً ، عالماً أن لكل شيء نهاية لا بد وأن ينتهي اليها

ولقد أيقنت من يوم أن أحسستها تجري في دمي أن الله قدر لي أن أحبها ، فأحببتها لنفسي ، وأحببتها لأن الله أراد ذلك ، وكان قلبي صادق الحس بها ، فلم تكن خادعة ولم يكن مخدوعاً ، وكان وقوراً حكيما فاكتفى بأن يحبها هو من غير أن يتساءل ماهي ميولها نحوه ؟ وهل تعلم أن في العالم المحيط بها قلباً يرفرف عليها في غدوها ورواحها ، في مسائها وصباحها ، في يقظتها ومنامها ، في دمعتها وابتسامها ؟ ومن هو صاحب هذا القلب ؟ وبعد ذلك اطمأننت الى أن الحياة من حيث هي وجود ناقص ، هي تلك الساعات التي لا تجري فيها المدامع من شوق ، ولا تسيل فيها النفوس من ذكريات وحنين ، وأيقنت بعد هذا وذاك أن الحب كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ولا يقال في نقطة منها إنها نهاية إلا قيل في نفس الوقت إنها بداية

لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب في أمري ، بل أيقنت أنك قد أصبت المرمى حين أرسلت إليّ خطابك المفوّق ، وإني أقول لك بلغة يقطر منها الشكر إن خطابك كان فيه الشفاء لقلبي من الناحية التي تريدينها ، وإني ما سكتُّ هذه المدة إلا لأختبر قلبي وأستشير عقلي ، أما القلب فلم يجد عنها حولا ، وأما العقل فأشار بأخذ رأيك فيها من جهة ميولها نحوي ، فان كنت عندها شيئاً فابسمي يا دنيا ، وأشرق يا أمل

كنت في بعض الأيام أراها ، فيحترق قلبي من الشوق اليها وهي أمامي ، ولا يكاد نظري يلتقي بنظرها حتى ينقلب إليّ خاسئاً

وهو حسير ، وكنت أستجمع قواى كلما رأيتها لألقى اليها بالتحية فيحتبس لسانى من العى — لا طبيعة فيه ولكن جلالا لا أدرى له مدى ، وجمالا لا أعلم له غاية ، وسحراً بين هذا وذاك قوياً شديداً ، كانت ثلاثتها تقيد لسانى عن النطق تقييداً أعتبر نفسى منه فى حد من السعادة محدود — ولقد كان الجو المحيط بنا يمرح فى عبق من أنفاسها وتحايا قلبى ، غير أنها كانت كالزهرة تفوح رائحتها عنـد الصباح ، وكان قلبى كعود الصندل ، كلما لامسته النار فاح .

مرت تلك الأيام كأحلام الكرى لذيذة مستعذبة ، قصيرة كالنظرة ، طويلة كالعبرة ، وخلفتها أيام أعانى من مرها ما أعانى !

فلقد سافرت الى البلدة لقضاء بضعة أيام هناك ، وكأنما كانت الأسقام منى على ميعاد :

يا ويح أهلى يرونى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائى

ومكثت هناك بدل سبعة الأيام التى صرح لى بها سبعة عشر يوما . ثم عـدت الى القاهرة وفارقت الحى الذى ولد فيه هواى وترعرع ، إلى حيث أنا الآن ، وهأنذا أبعث إليكما منه وراء قلبى بتحيات كأضغاث الريحان لاتكاد تبلل بندى المدامع حتى تجفف بزفرات الأنفاس ، والسلام ؟

فبراير سنة ٣٣ — جمال

* * *

صديق :

كتب أحد الحكماء الى صديق له يقول «ياأخى إن أيام العمر أقل من أن تحتمل الهجر» وكنت قرأت فيما قرأت كلمة للامرتين يقول فيها « إن الحب القوى المطمئن صبور » فأنا بين هذين فى حيرة ، ترى متى أهتدى إلى سبيل ؟ ؟

مارس سنة ٣٤ — جمال

* * *

أختى سعاد :

لماذا لا تكونين بجانبى فى كل لحظة كما كنت من عهد قريب ؟ أنا فى شدة الشوق إليك وإلى سماع حديثك العذب الجميل ، وكم أود أن أفضى إليك بسر يجيش به صدرى ولا يمكن أن ينطلق به لسانى لغيرك .

كنت إلى الأسبوع الماضى فارغة الفؤاد ، وكنت على أن أطلب إليك الحضور لأناقشك موضوعاً خطيراً قرأته ليلة أمس فى رواية «مجنون ليلى» وهو لماذا حكم على ليلى بالموت قبل قيس؟ ألأنها كتمت حبها ؟ إن كان الأمر كذلك فانى — خوفاً على حياتى الشابة — أقول لك ياعزيزتى — واثقة منك كل الوثوق — إنى بدأت أشعر بقلبى يميل رويداً رويداً الى شاب كان يطالعني بعض الأحيان كئيباً حزيناً كأنه دفن قلبه بيده ، رأيته على حالته تلك منذ ثلاثة أعوام ، ويخيل لى أنه محب يكتم حبه أيضاً .

ألا ما أسـعد تلك الفتاة التى تتيح لها المقادير مثقال حبة من احترام هذا الفتى النبيل ! !

ضعى ياعزيزتى بجانب هذه الجملة سعادة من استولت على قلبه كله .

أرجو أن أراك يوم الخميس المقبل والى اللقاء . ؟

٢ أبريل سنة ٣٤ — اختك فتحية

* * *

وفى عصر الخميس تلاقت الصديقتان فى منزل فتحية هانم ، وكان بيد الآنسة الزائرة إحدى جرائد المساء ، فجذب نظر فتحية اليها صورة شاب غضير الشباب فى صدرها فتناولت الجريدة من صديقتها ورأت الصورة وقرأت تحتها ما يأتى :

(المرحوم جمال الدين افندى الموظف بوزارة المالية ، علقته المنون وهو فى ريق شبابه)

فامتقع لونها وأدركتها حال شديدة من الذهول والحيرة ، فأقبلت عليها صديقتها تسألها ما بهـا ، فقالت لها وهى تشير الى الصورة الضاحكة ، والخبر المبكى :

أمل لم يزدهر ، وناشئة حب لم تبق ، وسعادة مرجوة لم تتم !

ثم ألقت فى يدها مجموعة من الرسائل البالية ، وقالت والدمع يسيل على خديها ، ومرارة الأسى تجرى على شفتيها : اقرئى !

عبد الوهاب الخطيب

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

«يحررها الأستاذ محمد التابعي ومعه زملاؤه ومنهم الرسام المشهور الأستاذ صاروخان»



(المصرى افندى) : ياجماعه . . انتظروا يا اخواننا . . يعنى فاكرين إنى رايح أفوتكم ؟ . لاوالله . . رجلى على رجليكم ومعاكم على بركة الله !

(تصدر مجلة آخر ساعة يوم السبت ١٤ يوليه)

2 me Année, No. 54.

Lundi-16-7-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـدد ٥٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ١٦ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـدد

أحمـــــد زكى باشا



رحم الله زكى باشا ورضى عنه ! لقد كان علماً من أعلام هذا العصر ، ورسولاً من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضة معلومون معدودون ، لا تزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم المجافاة ، ولكل واحد منهم ناحية من نواحى الاصلاح

أشرقت فيها نفسه ، وانتشر فى جوانبها سناه . وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الايمان والعصبية ، ورسالة روحية بلاغها الجهاد والتضحية . فمحمد عبده فى الناحية الدينية ، ومصطفى كامل فى الناحية الوطنيـــــة ، وقاسم أمين فى الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول فى الناحية السياسية ، وأحمد زكى فى الناحية القوميـــة ؛ قد بلَّغوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو مابلغ المرسلون رسالات الوحى . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعى اليها ووسائل لها ؛ ثم لازمتهم فى أطوار العمر ، وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعى والغاية من الحياة

فزكى باشا منذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثاله ، واستعلنت فى ذهنه رسالته : رأى العروبة لفظاً تغير مدلوله فى الناس ، وجنساً تنكرت معالمه فى الأجناس ، ولساناً فشا فيـه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطلُ ، وأثراً عبث به الجهل ، وتاريخاً تطرق اليـه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له البغى ، وإرثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادى . فصمد لاصلاح ذلك كله صمود المصلح الملهَم ، والمؤمن الواثق . وكان أول ماعانى من وسائل العيش معالجة الترجمة فى الديوان ، ثم تعليمها فى المدرسة ؛ فصرف جهده فى تنقيح التراكيب الديوانية ، وتصحيح الأعلام العربية ، وتصويب الأخطاء التاريخية ، ونَقْل ما يعلن محامد الاسلام الى اللغة الفرنسية ، ثم لا يسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الأولية فيها للعرب . فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (بوانكاريه) يهنئونه بالرياسة فما شكر أحداً بما شكر به الآخر ، فيكتب فى تلك الصحف نفسها ان الوزير ابن زيدون قد سبقه الى ذلك فى موقف حرج من مواقف العزاء ؛ وتتبجح أوربا باختراع الطيارة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار فى الجو وأول من مات فى سبيل الطيران ؛ وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فيقول لها إن العرب أول من فطن الى وجودها وسعى لكشفها

ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه الى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الاســـلام ، فجح الأندلس وزار العواصم الأوربية ، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر فى سبيل ذلك جهداً ولا ثروة .

ثم لابس المستشرقين دهراً مليًّا . يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث ، وحذق أصول التحقيق ، ومهر طرائق النشر ، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة

فلما اعتزل المنصب الحكومى تسايرت قواه وهواه الى خدمة الأمة العربية ، فوفد على ملوكها ، وسفر بينهم بالصدق والألفة ، حتى أذهب الموجدة ، ومهد لتوحيد الكلمة

ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبى ، وعزم الشاب ، وصبر الرجولة ؛ فشـــغل الصحف بالمقالات والمناظرات ، وعمر الأندية بالخطب والمحاضرات ، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات ، وفى كل يوم يعتكف الساعات الطوال فى مكتبته الجامعة يحرر مسألة ، أو يحضِّر اجابة ، أو يحبِّر مقالة ، أو يصحح تجربة ، حتى اذا فرغ من ذلك كله رجع الى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر ، فينشر عليـه الأنس ، ويفيض فيـه الكرم ، ويبث خلاله المعرفة ، فكانت حضرته كحضرة الصاحب بن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد من كل قطر وطبقة

ثم أسلم وجهه الى الله فى عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره . فكنت تراه لا يفكر إلا فى هذا المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولا ينفق إلا عليه ، ولا يُبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا فى شأنه . فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربى

***

ثقافة زكى باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شىء ، ولـكنه غير راسخ فى شىء ؛ وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق فى ملبسه ، أنيق فى مأكله ، أنيق فى مسكنه ، أنيق فى أسلوبه ، أنيق فى نشر مقاله ، أنيق فى طبع كتابه ؛ وخلقه خلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، حلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب فى السذاجة الى حد العُجب ، ويخرج من تقرير مجهوده فى العلم الى التفاخر به

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوروبية : فتفكيره استطرادى لا يعنى بالوحدة ، ولا يحفل كثيراً بالتناسق ، وأسلوبه أندلسى يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع ، ومرجع ذلك الى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشرقيته ، واعتماده فى تكوين نفسه على أدب أمته

ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

عرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاما ، شاباً رقيق البدن ، ضئيل الجسم ، مسنون الوجه ، شاحب اللون ، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين . حيي الطبع ، شديد الخجل ، إن جلس في قوم اعتقل لسانه ، وأطرق رأسه . وأرخى عينيه ؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة ، تمنى لو ساخت به الأرض . وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها ، فآثر الانفراد وأخلد الى الوحدة ، واستأنس بالوحشة ، فقلّت معرفته بالناس ، وقلّت معرفة الناس به ، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التي يدرس فيها ، وبيته الذي يأوي اليه ، ومسجده الذي يتعبد فيه ؛ فأما الحياة وشؤونها ، وجدها وهزلها ، وملاهيها وألاعيبها ، فلا يدرى منها شيئاً .

لا يجلس في مقهى لأنه يخلّ بمروءته ، ولا يذهب الى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة ، ولا يشترى شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التي يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير ، فلا يطهرها مسح ، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب ؛ ويغض طرفه اذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة .

أعز شيء عليه في الوجود دينه ، حياته كلها دين ، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين ، وبطانته دين ، تفتير عينيه في خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله في عبادة ومناجاة . أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر ، فلا يأسى على فائت ، ولا يجزع على ميت ، ولا يستخفه الفرح لخير ، ولا يغلو في الحزن على شر ، راض بما كان وما يكون . فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ، كل أحكامه صادرة عن دين ، فالرجل الطيب من تدين ، ورجل السوء من لم يتدين ، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر ، أو لعب لعبة ميسر ، أو ترك صلاة أو زكاة — يوفق دائماً بين أعماله في الحياة وأوامر الدين ، إذا أراد الرياضة ذهب الى سيدى بشر لزيارته ، أو لسيدى جابر لصلاة الجمعة فيه ، أو أخذ جزءاً من « الاحياء » وذهب الى « طابية قايتباى » يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الاحياء . وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ في نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين ، وإن عرضت فرصة في دراسته للغة العربية خرج من اللغة الى الدين ، وانقلب واعظاً لتلاميذه ، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين .

عرفته اتفاقاً ، ولست أدرى الآن سبب المعرفة وكيف كانت ، وكل ما أذكره أني عرفته ، وفي لمحة تحولت المعرفة الى صداقة فحب ، فكان من خاصة إخواني وأقربهم مودة الى قلبي ، يأنس بي وآنس به ، ويفضي إليّ بدخيلة نفسه وكامن أسراره ، وكان حبي له مشوباً بعطف عليه ورحمة له ، عطفني عليه ظرف فيه ، وأرأفني به رقة حواشيه ، وملأ نفسي رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها في كل شيء بالأشد الأحزم ، قد ملك الدين عليه نفسه ، فروّعه من كل نعيم خشية السؤال ، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب ، وغلبت عليه في كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده ، إن قال له قائل « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء ، وتقاسمنا الصفاء ، أسافر الى الاسكندرية فأرى أول واجب عليّ أن أزوره ، ويحضر الى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورني ، وأكتب

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الاصلاح في عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيّ عن بينة ، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم الا ليقع

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص في ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره ، وصورة شعاره ، ومرجع حديثه . وهي :

وقفت على احياء قومي يراعتي ... وقلبي وهل إلا البراعة والقلب
ولي كل يوم موقف ومقالة ... أنادي ليوث العرب ويحكم اهبوا
فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة . وعوض العروبة والعربية والاسلام من فقده خير العوض .

احمد حسن الزيات

اليه ، ويكتب إليّ ، ثم عفّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ، وخمدت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة كـكل حيّ إذا لم تُغذ دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع اليها الذبول فالفناء .

***

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت فى الاسكنـدرية بانسان جديد ، فاذا هو صديق القـديم ، هو فى هذه المرة بدين بطين ، مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت فى أيامى الأولى أقرأ فى أرنبة أنفـه وصفاء جبهته آيات السذاجة والاخلاص ، وكنت أرى فى وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً فى الاستكثار منها ، ورضى بميسورها ؛ وكنت ألمح فى فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات ؛ وكنت أرى فى نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فاذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء الى ثلج . علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لى الظروف بمخالطته فأدهشنى ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل الناس ويمازجهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم وافر فى الفاكهة والتنادر ، جيـد القصص ، حسن الحديث ، لا يأنف من حديث فاجر اذا كانت فيه نـكتة حلوة ، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى ، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خبير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما فى كل أسبوع ، وما يمثل من روايات فى كل فصل من الفصول ، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية ، وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الأسـكندرية تغنى أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه ، ويحملق فيه ويشتهيه ، حلت المسائل المالية جزءا كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها ، له ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ، وله آمال مالية واسعة

حادثته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذى كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذى كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته ، فاذا عقله حر شديد الحرية فى تفكيره ، قد تحرر من كل قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأى ويستوحيهـا النظر ، ويتخذ عمـاد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الاوربيون وما لا يفعلون . قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادىء دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمجم فى القول ويتبين فى قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل نزع إلى الحرية فى آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد فى تحوير الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه ، ومنتهى حريته — هذا عقله ، وأما قلبه فدينه فى رف من رفوفه ، لم يمـلأه ولم يخل منه ، لذلك حرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً ، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح هذا موضع سجود ، فصلى على الرمل ، ودعانى مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب ، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، ولا دين مال حديثاً إليه ، حينا يتحرك دينه الذى فى الرف وينتعش حتى يعم قلبـه ، وحينا ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس

***

حننت اليه لما بيننا من حب قديم ، ولـكن لست أدرى لِمَ لم تتأكد بيننا الصداقة فى هذه المرة كما تأكدت من قبل ، أكان يعطفنى عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحننى عليه ما فيه من ضعف — مظهره الحياء والخجل ، وقد قوى فلا حياء ولا خجل ، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد فى الحياة فتفرقت بنا السبل ، لعله شىء من ذلك ، ولعله كل ذلك ، ولعله شىء غير ذلك ، على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل فخف ، وصداقة جال فى نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته ، وأنا أفكر فى شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو شاب ، وعاش شاباً وهو شيخ — عصى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً ، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً ، وليت شعرى هو فى أى حاليه أسعد ، أيوم فر من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه إلى العالم ؟ — انه ليمثل فى حياته العالم خير تمثيل ، موجة دين تتبعها موجة الحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا دواليك ، وما أدرى أيقف صديقنا فى تطوره عند هذا الحد ، أم يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك ؟ الله أعلم ؟

أحمد أمين

سمو الفقر
في المصلح الاجتماعي الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان النبي صلى الله عليه وسلم على مايصف التاريخ من الفقر والقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقير لايجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزل بعرض ، فما كانت به خَلّة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال ، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدرّ معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة ، ولا استقر في قلبه العظيم مايجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فان المعنى الحيّ لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة .

إن فقرهُ صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتّسع في الكون لا في المال ، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبّرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها . معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً ، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه « إنما أنا رحمةٌ مُهْداة »

نحن في عصر تكاد الفضيلة الانسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التي تدل على ماكان قديما . . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراد لتحريك النسيم اللغوي الراكد في الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتّطاريف الوردية على ذيل الشمس ؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشيّ لو لمس لضرب أو طعن أو ذبح ؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لانسانها الغني ترفا ونعمة وافتناناً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفاحش في الاباحة ، فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش ، فزاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لانسانها الفقير ، فكأنما نزعت عقلاً من إنسان ، فضلت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَف الهوى ، وكان مع الثاني سَرَف الحماقة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية هي عَمَلُ الغِنَىَ للأغنياء . . وأن يكون الغنيُّ غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره .

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعايشة الانسانية التي يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها . . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حيّ مايجعله في قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه ، ويكون أغيظ له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه العَدَمِيّة (١) يأمر القوة أن تجعل الانسان كالحيوان المُسْتَوْلِغ فيما يجده من طيب وخبيث لايبالي ذماً ولا عاراً ، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً . . .

هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدها ونصفها لطال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أسخف مما هي ، وأقبح مما كانت ؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقى ليلاً على النفس ، في حين أن الدين والانسانية لايعملان غير بث هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتمعة فتصبح أوضح مما هي في نفسها ، وأجمل مما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعلت من العلم في صدر الانسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضج ضجيجه المزعج في قلب

(١) الفوضوية وما هو في معناها من طيش النزعة

كل حى حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثل هذا البلاء الماحق تتلفت الانسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الانسانى القديم تطِبّ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر فى علاج مشاكله الانسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى لن يبلغ أحد فى وصفه الاجتماعى ما بلغ هو فى قوله « إنما أنا رحمة مهداة »

***

هذا المصلح الاجتماعى الأعظم يلقى فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحىّ العظيم الذى تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكون مُصَرَّفاً على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعانى الآلهية لتظهر للناس إلّهية مفسرة . وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفتّنة مختلفة المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الانسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ؛ فان الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقىّ ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإيثاره كل عاجل وإن قلّ ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كمالها ، فاذا استطعت أن تُخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الانسانية وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شىء إلّهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس وأنت به شىء أرضى كالحجر والتراب .

هنا ، أى فى الارادة التى فيك وحدك ، لا هناك ، أى فى الخيال الذى هو فى كل شئ . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لاتدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة . هنا ، فى الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الانسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره بوشك فنائه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينلْ ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموت الحيوانى بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

***

إن الحكيم الذى ينظر إلى ماوراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ، هذا الأخير هو فى نفسه شئ من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالا يطيقه الناس ولا يضبِطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز ، وينشأ من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شىء مادىّ هى نهايته فى التوّ واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مبتدىء منتهٍ معاً . وبذلك تبطل عنده الاشياء المادية وتأثيرها ، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لهاعنده هو جذر ولا فرع . وبهذا لم يفتنه شىء ولم يتعلق بشىء ، وكانت الدنيا تطول الناسَ وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب فى نموه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدةً خالية مما جمع فيها الزمن وأهله

من طمع وشَرَه ، وجاء آدم ليعطى الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطى الناس قوانينهم من فضائله ، فآدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الانسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ، وأن الانسان الصحيح الذى لم تُزَوِّره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح فى حكم النور وانطلاقه وحريته ، ولا ينكمش فيحصره جسمه فى غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ماهو أسفلَ أسفلَ حتى يعود فى حكم التراب وأسره وعبوديته . فالفقر وما اليه ، والزهد هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك ان هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شىء ، لتضىء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تقيم لها وزنا . فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ، وبهذا تكون النفس العظيمة فى الدنيا كأستاذ المعمل ، تدخل المادة إلى معمله وهى مادة وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهى إنما تُحس فى ذلك المعمل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرّز ، وليست فى أسر المادة ، ولكن المادة فى أسرها ماشاءت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ، ولا يحققون أصوله النفسية ، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تُريهم ما ترى العينُ إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لا تفصيل لها ، مُفرغة لا تبيين فيها ، وما بها من ذلك شىء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لا تتمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومُثْلَة ، وهى فى رأيى تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير لانسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسير بالتراب . . . .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويجده ، وكان أجودَ به من الريح المرسَلة ، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت فى عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لأحساسه الروحى ، فهو رسول تعليمى ، قلبه العظيم فى القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الانسانية ، وأن هذا الانسان مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة ، وأن الدين قوة روحية يلقَى بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شىء على شيئيته ، إذ الروح خلود وبقاء ، والمادة فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها ، فان لم تخضعَ لم تُخضِعْها ، وإن لم تتغير لا تتغير الروح بها ، وأساس الايمان أن ماينتهى لا ينبغى أن يتصرف بما لا ينتهى .

وماقيمة العقيدة إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثر ما يُصنع هذا المال : إما الكذب الصُّراح فى الحياة ، وإما شبهة الكذب ، ولهذا تنزَّه النبى صلى الله عليه وسلم عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبيّ الانسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كأى فى الناس إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسّعا من ناحية وتضييقا من الناحية الأخرى ، ولا جمعا من هنا ومنعا من هناك ، بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى اقرار التوازن فى الانسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون . وبهذا العقل الكونى السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشىء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الانسانى — أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فاذا هو فى قانون السمو ، وإذا المادة فى قانون الثقل ، فيرتفع وتتهاوى ، ويصبح الذهب — وإنه ذهب — وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب .

مصطفى صادق الرافعى

مجهولو الأبطال

عيسى العـــوام

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

وقفت الى جانب الطريح المسكين وقد فقد المحيطون به الأمل فى حياته ، وكان رجلاً نيف على الستين ، ظل يجاهد فى عمله حتى وقع وهو يدفع عربته وعليها حملها الثقيل فكان فى وقعته أجله ، وهو من أهل الصعيد الأعلى كما تنم عليه عمامته وسحنته ، إذ كان ثوبه المهلهل لا يكاد يتماسك فى رأى العين ليكون آية دالة على منبت لابسه، فكان موته فى جوار البحر الملح موت المهاجر الشهيد ، لا تحيط به عناية أهل ، ولا ترفه عنه شفقة البنين . ومن يدرى ماذا كان يعانى ذلك المسكين قبيل ضجعته من آلام تحملها صامتاً ، وجاهد فى سبيله وهى تخزه وتطعنه ؟ ومن يدرى على أية حال من الضعف كان يدفع بحمله فى سبيل القوت ، وسوط الجوع من ورائه يلهب ظهره ؟

ووقف حوله معى جماعة من أهل الساحل بقوامهم السمهرى ولونهم الخمرى ، فكانوا يؤدون له تحية الوداع على غير معرفة ، والشفقة بادية فى محياهم ، ولم يكن أحدهم خيراً منه بزة ولا مظهرا ، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون كنه ما فى هذه الحال من عظمة لأنهم يجاهدون مثله ، ولعلهم هاجروا مثله من بلاد قصايا فى التماس الخبز وما يبلله من رقيق الأدام . « أولئك قومى بارك الله فيهمو »

وانصرفت وفى عيني دمعة كما كان فى عين سواى من الوقوف إشفاقاً على ذلك المسكين ، وجعلت أفكر فيما تدين به الحياة لهؤلاء. فهم عدة السلم ، وهم سواعد العمل ، وهم جنود النضال . وأذكرنى ذلك التفكير بطل من هؤلاء الدهماء ذكر التاريخ اسمه ، وأقام له تمثالاً هو رمز لمجهولى الأبطال ، فلسنا نعرف أهله ولا منبته . ولا شيئاً مما يمسه غير اسمه ، وهو « عيسى العوام »

كان ذلك الرجل يعيش فى عكاء ثغر الشام منذ نيف وثمانمائة عام . فى أيام النضال الكبير بين الشرق والغرب — أيام الحروب الصليبية — وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى ذلك الوقت فى صراع الحياة أو الموت مع ملوك الفرنج قد بلغ به الجد أن كان يتمثل بقول عبد الله بن الزبير وهو يصارع الاشتر النخعى فى موقعة الجمل مصارعة من لا يريد هوادة ، إذ قال :

اقتلونى وما لكا واقتلوا مالكا معى

وكان الفرنج قد جمعوا جموعهم وحشدوا حشدهم أمام عكاء ، وجعلوا التغلب عليها مقصد همهم . فكان هناك ملوك ثلاثة هم أكبر ملوك أوربا وزعماء فرسانها . وحاصروا المسلمين فى ذلك الثغر من قبل البر ومن قبل البحر ، وأتى صلاح الدين من خارج المدينة يحاول رفع الحصار عن اخوانه وجنوده .

واستمات جنود الجانبين فى القتال ، وبذل كل قصاراه فى النضال ، وعض على النواجذ من الأضراس . واستطالت بهم الحرب نيفاً وسنتين ، حتى اشتد الأمر بالمحصورين ، وعجز صلاح الدين عن أن يرفع عنهم نطاق الأعداء ، فأخذ ذلك النطاق يتضايق ويشتد ، حتى بلغت الشدة بالمحصورين مبلغاً عظيما ، وتراخت همة الدفاع من طول الجهد وشدة القتال .

فذهب جماعة من صيادى عكاء ممن درجوا على أمواج البحر ونشأوا على أمواهه ، فعرفوا مداخله ومخارجه ، وبرعوا فى اقتحام تياراته وخوض غمراته ، وعرضوا على قادة المسلمين ما فى طاقتهم من المساعدة فى ذلك المأزق . وتساءل القادة ماذا عسى هؤلاء يصنعون فى قتال العدو ؟ وماذا تراهم يستطيعون أن يرزأوا فيه ؟ فأقبل عليهم الصيادون يعرضون أن يحملوا الأخبار الى اخوانهم المحصورين ، وأن يحملوا المال اليهم إذ استحال على السلطان الاتصال بهم ، وقالوا انهم يستطيعون أن يستتروا بجنح الليل فيسلكوا سبيلهم بين سفن الأعداء سباحة ، فاذا ما تعذر ذلك سلكوا بينها غاطسين فى الماء كما تسلك الأسماك وتسبح الحيتان . وكان صلاح الدين فى أشد الحاجة الى الاتصال بالجنود والقواد الذين يدافعون عن المدينة ، فقبل ما عرض هؤلاء الأبطال ، وكانوا منذ ذلك الوقت لا ينقطع وافدهم من المدينة الى عسكر المسلمين ، أو من عسكر المسلمين الى المدينة . وكانوا لا يطلبون فى سبيل ذلك جزاء ، إن هو إلا قربان يقدمونه احتساباً ، وواجب يؤدونه عن رضا وسخاء .

وظهر من بينهم « عيسى العوام » فكان أسرعهم سبحا وأجرأهم على الليل والنهار ، وأكثرهم إقداماً على الاخطار . فصار يهتف باسمه ، ويدعى إذا ما اشتد الخطر وادلهم الخطب . وكان هو لايخيب ظناً ولا يخيم عند دعوة . وكانت بسالته تزداد كلما ضاقت حلقة الحصار . والتأمت فروجه واتصلت سلسلته . فكان أقر لعينه وأثلج لصدره أن يغوص فى شبر بين سفن الفرنج ، أو يسبح على مرمى سهم من نبالهم . وبقى على أداء واجبه مدة حتى طلع يوم ، وانتظر أهل عكاء طلوع عيسى عليهم من ثنايا الموج كعادته ، فلم يتحقق لهم ذلك . وطال وقوفهم وامتدت أعناقهم نحو البحر ، كلما برق لهم شيء سابح ، أو لمع لهم جسم طاف ، أشاروا إليه إشارة الملهوف ، وتوقعوا أن يكون هو عيسى ، ثم تبين لهم أنه حباب الماء أو رشاش الموج ، فعادوا الى ناحية أخرى ، فشدوا اليها أبصارهم ثم لم يلبثوا أن يجدوا خيبة لظنونهم وتكذيباً لأوهامهم . ولما طال بهم الوقوف وملوا الأنتظار انصرفوا وفى قلوبهم هلع وتوقع للمحذور ، ولم تخل صدورهم من شكوك ساورتها فى أمانة عيسى وديانته . وقديماً كان فى الناس الطمع وأعماهم الجشع ، وقديماً فتنهم حب المال وأغواهم شيطان الغرور . أ يكون عيسى كبعض من خان وافتتن ؟ أ يكون عيسى ممن خذلتهم نفوسهم عندما استطال بها النضال ، وانخلع فؤادهم عندما اكفهر الجو وأظلم ؟ لم يرد الله أن يدع تلك الشكوك تساور ذكرى عيسى ، ورحم ذلك الرجل أن يهمس هامس عند ذكرى اسمه بما ثار فى صدره من شك ، فتسود بين الناس صحيفة بيضاء عند الله . فأرسل الموج حاملاً جسمه نحو الشاطىء ، فرأى الناس بعد بضعة أيام من غيبته وانقطاعه جثته ملقاة على الشاطىء ، ولا تزال حولها أكياس الذهب التى كان بعث بها صلاح الدين معه الى المدينة . فرأى الناس عند ذلك جثة شهيد قضى وهو يؤدى الأمانة ، وجاد بالنفس وهو فى سبيل الخير والمجد .

رحم الله « عيسى العوام » ! وكم فى الناس من مثل عيسى ؟ . غير أن التاريخ لايذكر منهم أحداً إلا فلتة ليشير الى أن بين المجهولين الآف الألوف من أفذاذ الأبطال .

محمد فريد أبو حديد

٢ - من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم ينعم بنفونوتو تشلليني بالسكينة طويلاً بعد الحوادث العاصفة التى خاضها ، وبعد أن فقد عطف البابا وحمايته . وفى ذات يوم وقعت مشادة بينه وبين صديق قديم من مواطنيه كان برومة وكان يدينه بشيء من المال ، وسبه ذلك الصديق بألفاظ جارحة ، فغلب عليه عنفه المعهود وضربه فى رأسه بحجر فسقط مغشياً عليه . وأبلغ الحادث الى البابا ، فأمر بالقبض على تشلليني وشنقه فى مكان الجريمة . ولكن تشلليني شعر بالخطر الذى يهدده ، واستطاع أن يفر من رومة فى الوقت المناسب . وقصد الى نابولى ، وأقام بها حيناً ، واتصل بدوقها وحظى بعطفه ورعايته ؛ والتقى هناك بحبيبته انجليكا الصقلية . ثم وصله خطاب من الكردينال دى مديتشى حاميه القديم يأمره فيه بالعودة سريعاً الى رومة ؛ فسافر اليها فى الحال ومعه انجليكا ؛ واستقبله الكردينال بترحاب وطمأنه على نفسه وحريته ؛ وبعد أيام قلائل استطاع أن يزور البابا كلمنضوس ، وأن يقدم اليه « مدالية » بديعة من صنعه ، ثم سأله الصفح والرعاية بكلمات رقيقة ؛ فأعجب البابا بهذه التحفة ، وأمره أن يصنع له تحفاً أخرى تمثل بعض مناظر التاريخ المقدس ، ووعده بالعفو والرعاية . ولكن البابا لم يعش طويلاً ليحقق وعده ، ومرض وتوفى بعد أيام قلائل ؛ وحدث على أثر موته ذلك الاضطراب الذى يحدث عادة قبيل انتخاب البابا الجديد ؛ ولبث بنفونوتو يرقب الفرص ؛ ولكنه ارتكب فى تلك الأثناء جرماً جديداً ، وقتل رجلاً آخر من رجال البطانة يدعى بومبيو تحرش به ذات يوم بكنيسة القديس بطرس ، فسار اليه ولقيه على مقربة من منزله وطعنه بخنجره بين أصدقائه وأعوانه فألقاه صريعا . ويقص علينا تشلليني هذا الحادث الدموى وأمثاله فى عبارات صريحة هادئة ،

كأنها حوادث عادية لا خطورة فيها ، ويصور لنا بذلك مبلغ اضطرام نفسه ، ومبلغ استهتاره بالحياة البشرية

وانتخب الكردينال فارنيسي لكرسي البابوية باسم بولس الثالث ، وعهد الى تشلليني بصنع نماذج نقوده ، وأعطاه عهداً بالأمان . ولكن جماعة من خصومه وأصدقاء بومبيو القتيل لبثوا يدسون له لدى السينور بير لويجي ولد البابا حتى اعتزم القبض عليه ، ولكن بنفونوتو علم بهذه المؤامرة فى الوقت المناسب ففر الى فلورنس ، وأقام بها حيناً يخدم أميرها الدوق الساندرو دى مديتشى . وهنالك أصابته حمى شديدة كادت تقضى عليه ؛ فلما برئ من مرضه ، عاد الى رومة بعد أن استيقن أنه لم يبق ثمة ما يخشاه من كيد خصومه . وكان البابا يستعد فى ذلك الحين لاستقبال الامبراطور شارلكان ، فعهد الى تشلليني بعمل صليب بديع من الذهب المرصع بالجواهر ليهدى الى الامبراطور ، وتحلية كتاب للصلاة ليهدى الى الامبراطورة . ويصف لنا تشلليني هذه الزيارة التاريخية ، وكيف شهد استقبال البابا للامبراطور ، وقدم اليه الكتاب المرصع وخاطب جلالته بفصاحة وجنان ثابت ؛ وكيف عكف بعد زيارة الامبراطور على صقل جوهرة بديعة أهداها الامبراطور للبابا وتركيبها فى خاتم بديع الصنع . وكان تشلليني دائماً هائم الذهن والخيال ، يهوى التنقل والمخاطرة ، فما كاد ينتهى من صنع التحف البابوية حتى اعتزم تنفيذ مشروع قديم عنده ، هو السفر الى فرنسا

وسرعان ما نفذ عزمه ، وسافر الى فرنسا بطريق سويسرا وألمانيا ، مع خادم فتى يدعى اسكانيو . ولما وصل الى باريس سعى لرؤية فرنسوا الأول ملك فرنسا ، فاستقبله بترحاب فى فونتنبلو ؛ وسافر بنفونوتو فى ركبه الى ليون ؛ وهنالك مرض ولزم فراشه ، وأصابت الحمى فتاه اسكانيو ؛ فكره المقام فى فرنسا ، وعول على الرجوع الى رومة ، وغادر فرنسا فى أول فرصة ، فوصل الى رومة بعد رحلة شاقة ؛ وافتتح له حانوتاً كبيراً فخماً ، واستأنف عمله ، واتسعت موارده ؛ ولكنه لم يكن يتمتع بذلك العطف البابوى القديم الذى كان يستظل برعايته وحمايته ؛ وكان القدر من جهة أخرى يهيئ له أروع مفاجأة عرفها فى حياته . ذلك أنه كان يستخدم عاملاً من بروجيا ، وكان يدينه ببعض المال ؛ ففر الرجل من حانوته ولم يؤد ما عليه ، فطالبه بنفونوتو بواسطة القضاء وحصل على حكم بحبسه ؛ فاستشاط الرجل غيظاً واتصل ببعض أتباع السينور بير لويجي ولد البابا وكان يعرف عندئذ بالدوق كاسترو ، وأفضى اليه أن تشلليني يملك ثروة طائلة من الجواهر ، وأن هذه الجواهر إنما هى من جواهر الكنيسة ، سرقها تشلليني وقت الحصار حينما كان فى حصن سانت انجيلو ؛ وأنه يجب القبض عليه قبل أن يفر مرة أخرى . فأثمرت هذه السعاية ثمرها ؛ وفى ذات صباح جاء ضابط الشرطة مع سرية من الجند الى حانوت تشلليني ، ونبأه الضابط بأنه أضحى سجين البابا ، وأنه مكلف بأخذه الى حصن سانت انجيلو حيث يعتقل الأكابر والرجال الممتازون ؛ ثم أحاط به عدة من الجند ، وجردوه من سلاحه ، ثم اقتادوه الى الحصن ، وهنالك ألقى الى غرفة فى البرج الأعلى ؛ وكانت هذه أول مرة يذوق فيها مرارة السجن ، وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين

***



حصن سانت أنجيلو

كان حصن سانت انجيلو فى ذلك العصر أمنع معاقل رومة ؛ ولا يزال الحصن الشهير قائماً على مقربة من قصر الفاتيكان وميدان القديس بطرس ، على ضفة نهر تفيرى ؛ يشهد بطرازه العجيب ومناعته الخارقة بما انتهت اليه هندسة القلاع فى العصور الوسطى من الأحكام والتقدم . ولقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يزور حصن سانت انجيلو مراراً وأن يتجول فى أقبيته ومخادعه المظلمة ، وأن يرقى الى ابراجه الشاهقة ، وأن يتأمل طويلاً فى جنبات ذلك

الأثر المدهش ، وهو اليوم يستعمل متحفاً حربياً تعرض فى طابقه الأول أسلحة العصور المختلفة . ولكن طبقاته العليا لا زالت خالية تعرض لنا بعض الآثار الغريبة ، وأخصها الجناح الذى كان يسكنه البابوات كلما التجأوا الى الحصن ، وغرفة نوم البابا بولس الثالث وسريره وكرسيه . على أن أروع ما فى الحصن مخادعه المنيعة الواقعة فى الجهة الخلفية ، وهاوياته السحيقة التى تنساب الى أعماق مظلمة لا يدرك غورها . وهنـــالك مخادع معينة ، اشتهرت على كر العصور بمن زج اليها من العظماء والسادة ؛ فهذا مخدع تقول الرواية إنه هو الذى سجن فيه بنفونوتو تشلليني ؛ وهذا مخدع تقول إنه هو الذى زج اليه جاليليو ، وآخر زج اليه جوردانو برونو وهكذا ؛ ولقــد لبث هذا الحصن المروع عصورا سجنا لمحاكم التحقيق (التفتيش) ، وكان مقبرة لكثير من العلماء والأحبار الذين قضوا نحبهم فيه ضحية المطاردة الدينية ؛ ولا يزال السائح المتفرج يشعر فيه برهبة تلك العصور وروعتها

زج بنفونوتو تشـلليني الى مخدع فى البرج الأعلى ، لا تزال تعينه لنا الرواية حتى اليوم ؛ ولبث ثمانية أيام منسياً لا يفاتحه أحد بشئ ، وفى اليوم التاسع قدمت الى السجن لجنة من ثلاثة على رأسها حاكم رومة ، ووجهت الى تشلليني تهمة اختلاس مقدار من الحلى الرسولية وقت أن كان يعمل أيام الحصار بمدفعية الحصن ، وأسر اليــه البابا كليمنضوس أن ينتزع الحلى الرسولية من اطاراتها ؛ وأن قيمة هذه الحلى قدرت بمبلغ ثمانين ألف جنيه (كرونا) ، وأن عليه أن يردها أو يرد قيمتها ، والا فانه يترك ليرسف فى سجنه . وعبثاً حاول تشلليني أن يقنع اللجنة ببراءته ، وأن الحلى الرسولية مرصودة فى دفاترها فلتراجع فيها ، وأن دفاتره رهن تصرف اللجنة لترى أنها فى منتهى الدقة ، وأنه قد خدم الكرسى الرسولى بفنه واخلاصه مدى أعوام طويلة ، فلا يحق أن يجزى بمثل ذلك القصاص . ولما نقل دفاعه الى البابا أمر بمراجعة الحلى على قوائمها فوجدت تامة لا ينقصها شىء . ومع ذلك ترك تشلليني يرسف فى سجنه ؛ وكان البابا يحمله سى بطانته ، قد أصبح يرى فى تشلليني رجلاً شريراً يجب التنكيل به ؛ وزاد حنقه عليه أن رسولا جاء الى رومه من قبل فرانسوا الأول ملك فرنسا يسعى فى اطلاق سراح تشلليني ، ورد على السفير بأن تشـلليني رجل شرير ، لا يستحق اهتمام جلالته . وكان محافظ الحصن رجلا طيب القلب فلورنسياً من مواطنى تشلليني ، فعمل على تخفيف وطأة سجنه ، وتركه فى الحصن حراً طليقاً يتجول فيــه كيفما شاء مكتفياً بعهــده ألا يحاول الفرار ؛ وكان تشلليني ينفق وقته فى التجوال بالحصن وصنع بعض الحلى التى يأتيه بها فتاه المخلص اسكانيو ، وكان يسمح له بزيارته وبأن يحمل اليــه ما شاء . ويقول لنا تشلليني أنه لم يشأ أن يفكر فى الفرار لولا أن حادثاً وقع فى السجن وحمل تبعته ، وهو أن قساً زميلاً له سرق منه قطعة من الشمع الذى يتخذ منه نماذج للحلى ، وطبع عليها مفتاح غرفته ليحاول صـنعه ثم الفرار فيما بعد ، ولـكنه ضبط واعتقد المحافظ أن تشلليني شريك فى هذا العمل ، فأمر باعتقاله فى غرفته والا يبرحها بعد ، وشـدد عليه الخناق ، ولم يحله من هذه القيود الا بعد أن أقنعه تشلليني ببراءته ؛ وهنا أدرك تشلليني خطورة موقفه ، وأيقن أنه سيبقى عرضة لهذه المفاجآت الخطرة ؛ إذا قضى عليه بالبقاء فى هذا الأسر ؛ ونمى اليه أيضاً أن البابا يصر على اعتقاله ، وأن مساعى الملك فرانسوا فى سبيله لم تثمر شيئاً ، فأخذ يفكر فى مصيره ويرى الا نجاة له من تلك المحنة الا بالفرار

وزاده عزماً على الفرار حادث جديد وقع بينه وبين المحافظ . ذلك أن المحافظ كانت تنتابه فى بعض الأحيان أعراض جنون غريب فيتصور أنه ضفدعة أو وطواط ، أو يتصور أنه ميت يجب أن يدفن ، ففى ذات يوم من أيام جنونه سأل بنفونوتو هل يفر ويطير اذا استطاع ، فأجابه بنفونوتو ، أنه اذا أطلقت له الحرية ، فانه يصنع لنفسه أجنحة يطير بها ؛ وعنـدئذ أقسم المحافظ أنه سيعتقله كرة أخرى ويشدد عليه الحراسة ؛ وفى الحال نفذ وعيده ، وزج بنفونوتو الى غرفته ، ووضع تحت الرقابة الصارمة . ومن تلك الساعة أخذ بنفونوتو يدبر وسائل الفرار ، وكان خادمه اسكانيو قد حمل اليه أغطية جديدة لفراشه ، فمزقها شرائح وجعل منها حبــلا طويلا ، وكان لديه أيضاً خنجر ، ومقبض حديدى كبير سرقه من نجار الحصن ، فخبأ هذه الأشياء فى مرتبته ؛ وبدأ يعمل لانتزاع المسامير الغليظة التى ثبتت بها مفاصل الباب ، ويغطى مكانها بشمع قاتم حتى لا يكتشف أمره ؛ وأنفق فى هذا العمل جهداً كبير حتى انتهى منه . وفى ذات ليلة اشتدت فيها

النوبة على محافظ الحصن واجتمع حوله معظم الحرس ، اعتزم أمره . ويصف لنا تشلليني فراره في عدة صحف ساحرة رائعة كنا نحب أن ننقلها بنصها لولا ضيق المقام . وقد بدأ بأن دعا الله بحرارة أن يرعاه وينقذه . ثم رفع مفاصل الباب وعالجه حتى استطاع الخروج ، وثبت الحبل المصنوع من شرائح الأغطية بنتوء في سور البرج وأدلاه ، وعاد فرفع بصره الى السماء قائلا : « رباه ، إنك تعلم عدالة قضيتي ، فاشملني برعايتك» ؛ ثم أمسك بحبله وتدلى حتى وصل الى الأرض من ذلك العلو الشاهق ؛ وظن أنه غدا حراً طليقا ، ولكنه كان في الساحة الداخلية يفصله عن الخارج سوران كبيرا . بيد أنه لم ييأس ، ورفع قطعة كبيرة من الخشب كانت ملقاة هنالك على السور الأول وتسلقها حتى القمة ، ثم تدلى بحبل صغير كان معه الى الساحة الأخرى ؛ وهنالك رأى أحد الحراس على مقربة منه فاعتزم أن يسحقه ، وقصده شاهراً خنجره ، ولكن الحارس ولاه ظهره ؛ ثم تسلق السور الآخر ؛ وهنا خانته قواه قبل أن يصل الى الأرض فسقط من ارتفاع ، واصطدمت رأسه بالأرض وأغمى عليه ، ولكنه كان عندئذ خارج الحصن .

يقول تشلليني « وقد كاد النهار يسفر ، فهب على الهواء الصبوح الذي يسبق بزوغ الشمس ، ورد الى حواسي ؛ ولكن صوابي لم يعد تماماً ، وخيل لي أن رأسي قد فصل ، وأنني انحدرت الى عالم العدم ، ثم عادت الى قواي شيئاً فشيئا ، وأيقنت أني غدوت خارج الحصن ، وتذكرت في الحال كل ما وقع ، وشعرت بجرح رأسي قبل أن أشعر بكسر رجلي ، وذلك حينما مسستها ، ورأيت يدي قد خضبتا بالدماء ، بيد أني رأيت بعد فحصها أن الجرح لم يكن خطيرا . ثم أردت النهوض ، وعندئذ رأيت ساق قد كسرت مما يلي الركبة ؛ ولكني لم أيأس ، واستخرجت خنجرى من غمده وألقيت الغمد ، لأنه كان ينتهي بكرة كبيرة ، وهي التي اصطدمت بساقي وكسرتها ، وقطعت بخنجري قطعة من القماش وضمدت ساق ؛ وأمسكت خنجري بيدي وزحفت على أربع نحو باب المدينة ؛ وكان الباب مغلقاً ، ولكني رأيت تحته حجراً ، فأزحته فتحرك ، فدفعته ونفذت من الخرق الى داخل المدينة . وكان بين الحصن والمدينة نحو خمسمائة خطوة ؛ ولما دخلت المدينة هجم على عدة من الكلاب ، وأخذت تلاحقني وتعضني عضاً أليما ، فسحبت خنجرى وطعنت أحدها طعنة نجلاء جعلته يصيح محتضرا ، فالتف باقي الكلاب حوله ؛ وأسرعت زاحفاً على اليدين والركبتين نحو طريق « القديس بطرس » (الكنيسة) ؛ وكان النهار قد أسفر ، وشعرت بالخطر الذي يهددني . وهنا قابلت سقاء وراء حماره المحمل بالقرب ؛ فناديته ، ورجوته أن يحملني الى شرفة سلم القديس بطرس ، وقلت له انني شاب فررت من نافذة صاحبتي ، فكسرت ساق ؛ ولما كان المنزل الذي اقتحمته منزل أسرة كبيرة ، فاني في خطر القتل ؛ ووعدته بأن أعطيه ديناراً من الذهب وأريته كيسي المنتفخ ؛ فحملني في الحال على ظهره وسار بي الى ميدان القديس بطرس ووضعني عند الشرفة ، وعاد مسرعاً الى حماره »

واستمر تشلليني في زحفه قاصداً الى منزل قريب لأميرة يعرف أنه يستطيع الالتجاء الى حمايتها وهي زوجة الدوق الساندرو مديتشي ؛ ولكن رآه عندئذ أحد حشم الكردينال كرنارو الذي يقع قصره في ذلك المكان وعرفه ، فهرول الى الكردينال ونبأه ، فأمره بحمله . فلما رآه هدأ روعه وطمأنه ، واستدعى الطبيب لعلاجه . وذاع نبأ الحادث في رومة ، فاهتز الشعب الروماني دهشة وإعجاباً لهذه الجرأة . وذهب الكردينال كرنارو مع بعض زملائه الى البابا وسألوه الصفح عن ذلك الرجل الموهوب ، فأجاب بالعفو ووعد الانابة . ولكنه طلب الى كرنارو فيما بعد أن يسلمه تشلليني ليقيم عنده في أحد الغرف السرية ، فاضطر كرنارو الى تحقيق رغبته لكي يحقق له بعض مصالحه ، وكانت نيات البابا نحو تشلليني غامضة ؛ وحمل تشلليني الى القصر البابوي ، واعتقل هنالك عدة أيام ؛ وفي ذات مساء قدمت الى غرفته سرية من الجند وحملته الى حصن سانت انجيلو ، وألقته في مخدع صغير يطل على إحدى الساحات الداخلية ؛ وبذا رد الى سجنه المروع كرة أخرى ، وغاضت كل آماله في الخلاص ، وغلبت عليه الروعة والاستكانة . يقول تشلليني : « وكان قبس ضئيل من النور ينفذ الى غرفتي التعسة من ثقب صغير مدى ساعة ونصف في كل يوم ، فلا أستطيع القراءة إلا في هذه الفترة ؛ أما باقي النهار والليل فكنت أمكث صابراً في الظلام ، لا يفارقني التفكير في الله وفي ضعفنا الانساني . وكنت على يقين من أنه لن تمضى أيام قلائل حتى أقضى نحبي في

هذا المكان وفى هذه الظروف . بيد أنى كنت أروح عن نفسى ما استطعت ذاكرا أن الموت بضربة من سيف الجلاد أشنع من ذلك وأفظع ، هذا بينما أستطيع الموت هنا هادئاً كأنى فى غفوة النوم . وشعرت شيئاً فشيئاً أن لهب حياتى يخبو ، حتى اعتاد جسمى البديع على ذلك الانحلال ، وحتى شعرت أنه اطمأن الى تلك الظروف التعسة ؛ واعتزمت أن أحتمل آلامى المروعة فى سكينة وجلد ما بقى لى شىء من قوة الاحتمال » . وكان ذلك لعام ونصف من اعتقاله الأول ، أعنى فى منتصف سنة ١٥٣٩ .

« الخاتمة تأتى »

محمد عبد الله عنان
المحامى

الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكى دياب المحامى

عبثت الامتيازات ولا زالت تعبث بمرافق الدولة العامة ، ووقفت فى سبيل نموها عقبة ليس من اليسير تذليلها إلا على الأيام . وأثرت فيما أثرت على التشريع المالى تأثيراً بالغا ، ووددت لخطورة شأنه أن أفرد له هذا الفصل .

* * *

إن المبدأ العام الذى يحكم تشريع الضرائب فى البلاد المتمدينة هو وجوب قيام كل فرد يقطن الأقليم بقسطه فى الضريبة التى تفرض ، بغض النظر عن تباين الجنسيات . تلك هى القاعدة العامة التى يأخذ بها الشارع والتى تقتضيها حكمة التشريع . وهى تستند على فكرتين أوليتين : محلية الضرائب ، وعمومية الضرائب . والأولى بدورها تعتمد على الحقيقة المعروفة القائلة بأن سيادة الدولة محدودة فى نطاق أقليمها . وعماد الفكرة الثانية ضرورة تحمل كل فرد نصيبه من التكاليف العامة ، حتى تقوى الدولة على انجاز المشروعات الكبار التى تضطلع بها .

والآن وقد أوردنا المبدأ العام متعجلين ، نقول فى أسف شديد إن مصر أكرهت تحت عبء الامتيازات على عدم التمشى مع ذلك المبدأ الذى أخذ به العالم كله ؛ فالأجانب معفون أصلاً من الضرائب إلا اذا وافقت دولهم سلفا . وقد استطاعت مصر أن تحصل على هذه الموافقة بعد جهود كبيرة بالنسبة لأربعة أنواع من الضرائب يسوى فى جبايتها بين الوطنى والأجنبى وهى : —

أولاً : الرسوم الجمركية ، والضرائب التجارية المفروضة طبقاً للمعاهدات التجارية . فللحكومة أن تفرض من هذه الضرائب ما تراه لازماً كضريبة الكحول .

ثانياً : ضريبة الأراضى طبقاً للفرمان العثمانى الصادر بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٨٤ ، وهو الذى خول لهم بمقتضاه حق تملك العقار .

ثالثاً : عوائد المبانى طبقاً لاتفاق لندن سنة ١٨٨٥ ، وللدكريتو الخديوى الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ .

رابعاً : عوائد مجلس بلدى اسكندرية طبقاً للمادة ٣١ من الدكريتو الخديوى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٩٠ .

فاذا ما حصلت الحكومة من أحد الأجانب رسوماً أو ضرائب فى غير نطاق ما ذكرناه ، كان له الحق فى طلب استردادها أمام المحاكم المختلطة ، التى تحكم طبقاً للمادة ١١ من لائحة ترتيبها فيما يمس حقوق الأجانب المكتسبة بالمعاهدات .

وفى الطريق الذى استطاعت به مصر أن تحصل على موافقة الدول على تلك الأنواع المذكورة من الضرائب تفصيل رأيت أن أبسط شيئاً منه :

وافقت الدول الأجنبية على سريان قوانين الضرائب على رعاياها فيما يتعلق بالضريبة العقارية على الأراضى الزراعية ، والضريبة العقارية على أراضى البناء ، وهما نوعان من الضرائب المباشرة .

أما عن الضريبة العقارية على الأراضى الزراعية فلم يكن يسمح قبل القرن التاسع عشر لأجنبى ما أن يتملك عقاراً فى الدولة العلية . ولم يعف الأجانب من هذا الحظر إلا عند ما حل عام ١٨٦٧ إثر مفاوضات طويلة . على أنه بالرغم من ذلك المنع السابق ، اعتاد الأجانب أن يسلكوا طرقاً ملتوية moyens derournés للحصول على تلك الملكية المحرمة ، فكان الواحد منهم يبتاع الأرض باسم شخص متجنس بالجنسية التركية . وازاء ذلك رأت الدولة

العلية أن تضع حداً لتلك الحال ، فأباحت تحت تأثير هذا العامل الملكية العقارية لكل فرد . بغض النظر عن تباين الجنسيات . ولقد تعرض الحظر الهمايونى الصادر سنة ١٨٥٦ لهذا الموضوع . فنص صراحة على إباحة الملكية العقارية للأجانب فى أراضى الدولة وولاياتها ، على أن يذعن هؤلاء الملاك لما يفرض على الجميع من التكاليف المالية ، فاستووا بذلك مع الأهالى .

ولكن حركة الاصلاح لم تنجح ، إذ تأجل نفاذ هذه النصوص الصريحة ؛ فحاول الباب العالى بعد ذلك مرة أخرى أن يخضع هؤلاء الأجانب للوائح والقوانين التى تسرى على الملكية العقارية ، وطلب ذلك مُلحّاً ، فأجابته الدول الى ماطلب بقانون صدر بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٨٦٧ الموافق ٧ صفر سنة ١٢٨٤ . وسمح للأجانب أن يكونوا ملاكاً عقاريين للأراضى الزراعيـة فى الدولة العثمانية ، وألزموا بالقيام بكافة الفرائض المالية على الأراضى الزراعية ـ أسوة بالوطنيين ـ فى أى صورة تتشكل بها تلك الفرائض

ولقد خول الأجانب فى مصر حق تملك الأراضى وكلفوا فى الواقع بضرائبها قبل أن يُسن قانون ٧ صفر ومن قبل أن يسمح لهم بالملكية فى تركيا . ذلك أن الأجانب الذين حازوا فى مصر ملكية عقارية لم يفكروا فى منازعة الحكومة المصرية فى حق كانوا يرون من الطبيعى الخضوع له ، فكانوا يعتبرون الضريبة ديناً على الأرض نفسها لا على مالكها (دو روزاس ص ٤٦٥) ، ومن أجل ذلك كان غير صحيح القول — كما يرى دو روزاس — بأن فرمان ٧ صفر هو الذى قرر الضريبة العقارية على الأجانب فى مصر .

تلك هى الأدوار التى مر بها تشريع الضرائب العقارية على الأراضي الزراعية وخضوع الأجانب لها .

أما الضرائب العقارية على أراضى البناء فقد قبل الأجانب سداد الضرائب العقارية عن الأراضى الزراعية بعد اقتناع وتسليم بوجاهة الطلب . ولكنهم رفضوا جميعاً الوفاء بضريبة أراضى البناء حتى بعد صدور فرمان ٧ صفر الذى صادقت عليه الدول ، والذى تقضى مادته الثانية بإلزام الأجانب بالضرائب على الأراضى الزراعية والأراضى المبنية . وفى انكار هذا الحق وعدم النزول على ارادة القانون تحميل ثقيل للنص الصريح .

ولا عجب فلقد ذهبت المحاكم المختلطة مذهبهم وعززت وجهة نظرهم فى أحكامها ، فقررت أنه برغم اطلاق النص فى قانون ٧ صفر وشموله الضرائب العقارية عن الأراضى بنوعيها ، فان العرف قد أكسب الأجانب حق اعفائهم من الضرائب على أراضى البناء . ونحن لا يكفينا ازاء الدور الذى تلعبه المحاكم المختلطة فى موضوعنا هذا أن نمر سراعاً على حكم لها ، بل سنبين فيما بعد أكثر أحكامها معلقين على بعضها عندما نرى ضرورة لذلك .

وأخيراً وبعد لأى وافقت الدول على تطبيق دكريتو سنة ١٨٨٤ المتعلق بالضريبة على الأراضى المبنية على رعاياها ، وكانت تلك الموافقة سنة ١٨٨٥ .

هاتان الضريبتان المباشرتان يخضع لهما الأجانب حالاً فى مصر بعد الجهود المضنية التى بذلت للموافقة عليهما وبخاصة للموافقة على ضريبة المبانى ، فمن انكار تام لمشروعيتها ، الى عبث بالنص صريح ، الى أحكام منتقدة تصدر من المحاكم المختلطة ، ولا أرْجعُ أنا هذه المحاورات والتمحل من الطرف الأجنبى الا الى رغبة كمينة فى النفس الأجنبية تدفعها دائماً الى أن تجعل فى يدها جماع الحقوق وأكثر المنافع .

ولسنا فى حاجة الى أن نبين كيف وافقت الدول على النوعين الآخرين من الضرائب ، فلقد حمَّل دكريتو ٥ يناير سنة ١٨٩٠ فى المادة ٣١ منه الأجانب عبء عوائد مجلس بلدى الاسكندرية ، شأنهم فى ذلك شأن الأهالى ، لما لبلدية اسكندرية من شخصية معنوية ممتازة ، ونظراً لتمثيل الأجانب فيها تمثيلا صحيحاً . أضف الى ذلك كثرتهم فى الثغر ، فلو تخلصوا من عبء الضرائب فقدت بذلك البلدية مورداً هاماً .

وللحكومة المصرية بما تبرمه من معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية أن تفرض الضرائب التجارية والرسوم الجمركية .

* * *

أما المحاكم المختلطة فلقـد لعبت دوراً خطيراً فى الموضوع ، فكلما همت الحكومة راغبـة فى فرض ضريبة جديدة حال بينها وبين ما تبغى عدم اعتراف المحاكم المذكورة بحق الحكومة فى فرض ضرائب جديدة تُحَمَّل بها الأجانب فلا تستطيع

ازاء ذلك شيئاً . فلا بد من موافقة الدول سلفاً ، ويجب أن توافق هى مقدماً على كل ضريبة مستحدثة . وكل اجراء مالى سن به قانون أو شرع فى سنه وكان يلقى على عاتق الأجانب عبء ضريبة أو فريضة مالية أياً كان نوعها .

ووقف قرار الجمعية العمومية بالمحكمة فى سبيل فرض ضريبة السيارات التى شرعت الحكومة فى سنها أخيراً ورأت أن الحكومة تريد بذلك أن تفرض نوعاً مستتراً من الضرائب العقارية على الأجانب لأن تلك الضريبة كما تراها هى رسوم لاستعمال الطريق العام .

وأخيراً وبعد جهود عادت فأقرتها . وقضت تلك المحاكم فى القضية التى رفعها الفيكونت روفو نتارس سنة ١٩١٢ بأن الضرائب التى تفرضها مجالس المديريات للصرف منها على المنافع العامة ليست خاضعة لشروط موافقة الجمعية العمومية المقررة فى مادة ٢٤ من القانون الصادر فى أول مايو سنة ١٨٨٣ .

وقضت كذلك فى عدة قضايا ، منها قضية شركة سكة حديد القاهرة الكهربائية، وقضية أوجست قساجيه ضد مديرية البحيرة. وترى المحاكم المختلطة أيضاً فيما يتعلق بالأشخاص المعنوية أنها إن كانت مؤلفة من الأجانب تخضع للضرائب المباشرة التى تقررها الحكومة المصرية على الأشخاص الطبيعيين المصريين .

وخلاصة القول أن المحاكم المختلطة انتهت الى التفريق بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، فهذه الأخيرة يجوز فرضها ، أما الأولى فيجب لفرضها موافقة الدول ، على أن ذلك القيد قديم نشأ نتيجة لعرف فاسد منتقد لا نتيجة نص صريح .

ومما يستنبط من ذلك أيضاً ومن مجموعة الأحكام التى لم نشأ أن نورد كل ما لدينا منها أن للحكومة أن تفرض ضريبة مباشرة أو غير مباشرة على رعايا الدول غير المتمتعة بالامتيازات، وعلى الشركات المساهمة المؤسسة فى مصر وقد حكم بأن جنسيتها مصرية ولو كان أعضاؤها أجانب ، وان كانت تشملها فى حالة تقاضيها نظرية الصالح المختلط . ولكن ذلك لا يزيل مالها من صفة مصرية يظهر أثرها فيما يتعلق بالضرائب .

زكى دياب

[بقية البحث فى العدد القادم]

نقابة للأدباء الشبان

لأديب كبير

أخرج اليوم من معتزلى إذ سمعت ضجة حسبتها ضجة معركة حربية ، وتحركت نفسى لمرأى ميدان تلك الضجة ، فعز علىّ أن أرى الصرعى يئنون من الألم وجراحهم تجرى بالدماء ، وأن أرى العماليق تزأر ، وترغى وتزبد ، وسيوفها تقطر من دماء ضحاياها ؛ وعولت على أن أنزل الى الميدان لألقى فيه نصيبى من الأذى إذا لم يتح لى أن أنصر ضعيفاً أو أنتصر لمظلوم .

وقد يحسب قارئ أنى أهزل فى قولى — ولا بأس عليه إذا هو ظن ذلك — فانى لا يضيرنى أن يحسب قارئ أنى أهزل ، ما دام لا يظن فىّ أنى أسخر منه أو من سواه ، فانى لا أحب أن يظن أحد فىّ أننى أسخر منه ، فان السخرية مُرة الطعم ، وقد ذقتها فوجدت قبحها فوق كل قبح .

ولكنى مع ذلك أرجع الى نفسى فأقول : إننى لا أخشى من أن يظن أحد فىّ أننى أسخر ، فقد طالما سخر كبار الأدباء من قرائهم ، ولا يزيد قراؤهم مع ذلك إلا إعجاباً بهم ؛ بل إن بعض شيوخ الأدب قد زاد وبرز فى ذلك الباب إلى أن قال لقرائه فى صراحة عجيبة إنه يسخر منهم ، وإنه عالم بأن القراء لا يعجبون بالكاتب الأديب أشد الاعجاب ، إلا إذا تفنن فى السخرية بهم . فلا بأس علىّ إذن إذا حسب أحد القراء أننى ساخر ، فاننى قد أصل بذلك الى إعجابه وإكباره .

وإنى هنا قاصد الى الأدباء الشبان أدعوهم الى اتباعى والأخذ برأيى ، بعد أن شهدت صرعاهم فى النضال الأخير مع مشيخة الأدب وكباره . وقد يقول قائل وكيف تجعل نفسك بين الشبان وقد بلغت من السن فوق مبلغ الشبان ؟ ولكن ذلك القول لن يثنينى ، فانى لا أردع بمثل هذا العنف ، وإنى لا تزال فىّ بقية من الشباب تكفى لأن تبرر مدخلى فيهم وانخراطى فى سلكهم . على أن الأديب لا يعد شاباً إذا كانت سنه من الشباب ، فان الشباب والشيخوخة فى الأدب لهما اصطلاح خاص واعتبار موضوع . فالأديب الشاب هو الذى لم يبلغ من الشهرة مبلغاً مذكورا ولو كان قد نيف على الخمسين ؛ والأديب الشيخ هو من ضرب اسمه فى

الخافقين ولو لم يكن ممن بلغوا سن الثلاثين أو الأربعين . وعلى هذا فأنا شاب فى عرف الأدباء ، لأننى بحمد الله قليل الحظ من ذيوع الاسم ، بل أكاد لا أسمع اسمى يذكره ذاكر إلا فى أمر من أمور هذه الدنيا البعيدة عن عالم الأدب ، ولقد حبب إلىّ الخمول والبعد عن الشهرة منذ اقترن ذلك الخمول باسم الشباب ، فانى كنت دائماً أحب الشباب واسم الشباب ولو كان مقترناً بالذم ؛ وقد كان لى صديق — عفا الله عنه — عرف فىّ ذلك الطبع ، وكان يحلو له أن يشتمني ؛ ولـكنه مع ذلك كان حريصاً على مودتى ، فدفعه خبثه الى أن يجعل سبابه لى مقترناً باسم الشباب ، فكان اذا رآنى بدرنى بقوله : « ما هذا الذى فيك من طيش الشـباب ؟ » وقوله : « إنك تظهر فى عملك هذا ضروباً من جهل الشباب » وقوله : « إنك والله ملىء بنزق الشباب » . فـكنت أقبل الشتم ما دام دفيناً فى وصف الشباب المعسول ، وبذلك توصل صديقى الى ما شاء من سبابى ، ولم يخش أن يخسر شيئاً من مودتى . ولم أفطن الى حيلته الخبيثة إلا بعـد لأى ، ولـكننى مع ذلك لم أعاتبه ولم أغضب عليه ، بل بقيت راضياً بما ينالنى من شتمه لأحظى بوصف الشباب من ورائه . وعلى هذا فلست إلا حفياً بدخولى فى زمرة الشـبان الأدباء ، قانعاً بوجودى بينهم . وما دمت كذلك فانى لا بد مذمرهم على الشيوخ ، ومعصبهم ومحرضهم . وأول آيات ذلك التعصيب أننى أدعوهم اليوم الى تأليف نقابة لهم ، لتـكون جامعة لـكلمتهم ، ورابطة لهم عند الملمات اذا ما فـكر الشـيوخ مرة أخرى فى أن يصبغوا لهم العيون بلون الدماء .

وأى شىء يستنـكر فى دعوتى هذه الى تأليف نقابة للأدباء الشبان ؟ وهل فى ذلك بدعة أو ضلالة ؟ إن الأديب الشاب شبيه بالعامل الفقير الذى لم يدخر بعدُ مالاً ، ولم يتأثل شيئاً من حطام الدنيا ، والشيوخ الأدباء هم الذين ادخروا وتأثلوا . ألسنا نراهم اليوم يقولون للشـبان إنـكم مدينون لنا بكل شىء ؟ أليسوا قد أعلنوا للملأ أنهم الأوصياء على انتاج الأدب وتوزيعه ؟ وما دام هذا هكذا — كما يقول شيخ منهم — فان الأمر لا بدعة فيـه ولا ضلالة ؛ فقديماً اجتمع ضعفاء العمال لـكى يحموا أنفسهم من وقعة أصحاب « رءوس الأموال » بهم ، فلما أن فعـلوا أظهروا للعالم أن العمل شىء واجب أن يرعى فيه الحق ، وأن يتخذ فى معاملته العدل .

فهلموا الى العمل أيها الأدباء الشبان .

وإنى منذ اليوم أجعل نفسى ردءا لمن يدخل منكم نقابة الأدباء الناشئين أدفع عنهم عادية الشيوخ ، وأقف دونهم إذا ما سمع أحدهم يزأر أو يزمجر ، أو اذا ما رؤى بعضهم يرغى أو يزبد . ولست أقف هذا الموقف لأنى آنس فى نفسى قوة فوق قوة الشاب أو قدرة على الدفاع لم يؤتها سواى منكم معشر مسا كين الأدباء ، بل أقف موقفى هذا متدرعا بدرع قلدت فيه بعض شيوخ الأدباء ، فقد رأيت أحدهم عفا الله عنه ، وزاده بسطة فى الأدب ، وأمتع به بابى الجد والفكاهة فى الـكتابة ، وحفظ عليه دهاءه وبهاءه — ولا مؤاخذة اذا لم يسعفنى الخاطر الـكليل بسجعة خير من تلك — أقول رأيت ذلك الصديق القديم قد لجأ إلى حيلة خلقها له عقله القوى ، وهى أن يبدأ نزاله وطعانه بأن يتبرأ من كل ما كتب فى الماضى وما يكتب فى الحال والاستقبال من نثر ونظم ، ومن جد وفكاهة . فاذا ما وثق من أن الناس انخدعوا بذلك واعتقدوه ، أقبل على المسكين أو المسا كين الذين اختارهم لطعانه فما زال يخزهم ويضحك ، ثم يطعنهم ويضحك وهو يتسلى بما يراه من عنف حركات مسا كينه وعلو صراخهم . فاذا ما دفع الألم أحدهم إلى الدفاع أو الانتقام وسدد طعنته إلى عضو من أعضائه قال له ثابتاً غير منزعج « ومن أدراك ان هذا العضو يهمني أمره ؟ ومن قال لك أنى أعبأ بطعنتك لى فى هذا الموضع أو ذاك ؟ » فيصدقه المسكين وتنفجر عيناه بدموع الحنق والعجز ظناً منه أن هذا النازل متحصن فيما لا مطمع فيه ، ثم يرمى بحربته أو سهمه ، ويعدل عن انتقامه ، وتلك حيلة فطنت لها دون سواى من الأدباء ، وستكون لى عدة فى نزال الدفاع عن أفراد النقابة إذا ما التأم أمرهم ، وتم اجتماعهم ؛ فاذا هم جعلونى نقيبهم جعلت نفسى فداءهم ، ولن يصيبنى بفضل حيلة صديقى الشيخ أذى ولا ألم ، وسأجعل همى أيها الأدباء الشبان إذا ما وفقكم الله إلى اختيارى زعيماً لـكم أن أقوم فيكم بدعوة أو « دعاية » كما يقول بعضهم تـكون لـكم فيها بركة ان شاء الله ، وذلك أن أنصح لـكم أن تقللوا من الاهتمام لما ينالـكم من وراء ما تؤلفونه ، وأن تقفوا من مؤلفاتـكم موقف النـاظر « المتفرج » لتروا ما يقول الناس فيها ، ولـكم الحق فى أن تضحكوا ملء أفواهكم من سواكم سخرية إذا رأيتم أنه لم يوفق الى فهم ما فى مؤلفاتـكم من جمال أو حقيقة

وبذلك تكونون قد وقفتم من ناقدكم على سوأة — فاذا لم تستطيعوا ذلك ، ورأيتم أن الناقد قد أخذ عليكم مسامع الناس فساء عندهم ذكركم ، فنى أنصح لكم أن تروضوا أنفسكم على فلسفة الأستاذ الذى وصفت لكم حيلته حتى تصلوا بعد حين من رياضتها على تلك الفلسفة إلى مرتبة القدرة على أن تنظروا إلى مؤلفاتكم فى شيء من الاحتقار . أليست مؤلفاتكم من صنعكم ؟ وإذا لم تكن معجبة ولا باهرة . أليس فى طاقتكم أن تخلقوا سواها ؟ فاذا كانت باهرة ولكنها قد ظلمها النقاد . أليس فى استمراركم على التأليف وإتيانكم بعد الآية الآية الأخرى ، واتحافكم الناس بمؤلف فى أثر مؤلف أقوى دليل على حسن استعدادكم ، وعلو كعبكم ؟

وبعد ، فهذه نصيحة أخرى ، وهى أن يؤلف من يؤلف منكم لأنه مندفع إلى ذلك بميل فى نفسه لا لكى يطلع الناس منه على مايمدحونه به، فالأديب الصحيح من ألف لنفسه أولاً ، ولا تظنوا أننى سأجتزئ من واجبات النقابة بالنصح لكم ، بل سأتجه بكم نحو نضال يجعل المشايخ يطلبون عفو الشبان وهم جاثون خاضعون مذعنون ، وليس فى خطتى شيء عجيب ، فانى لن أفعل شيئاً أكثر مما يفعله نقباء سائر النقابات ، فانى اذا ماحزبكم أمر سأدعوكم إلى الاعتصاب والأضراب عن التأليف والكتابة اضرابا تاماً ، فيعدل عندذلك عن الاقتراب من الأقلام كل من يكتب منكم فى مجلة أو صحيفة ، أو من يؤلف الكتب سواء أكان ممن يكتبون فى الجد أم فى الفكاهة ؛ وإذا ما رأى بعضكم أن ذلك غير ممكن لتغلب شهوة الكتابة عليه مهدنا له السبيل بأن نجعل فى دار النقابة مطبعة ونجعل لها صحيفة ونقصر قراءتها على أفراد النقابة أو أعضائها كما يقولون أحياناً ، وعند ذلك يجد شيوخ الأدب أنفسهم عدداً ضئيلاً ، كما حدث لأشراف رومة من قبلهم منذ قرون ، فلا يستطيعون أن يخرجوا جريدة ولا مجلة ، ولا يجدون شيئاً ينتقدونه ويظهرون بنقده سيادتهم فتقف دواليب أعمالهم ويعضون البنان أسفاً على احراجكم واغضابكم ، ويلجئهم الحرص على مصلحتهم إلى طلب الصفح وإلى معاملتكم بالعدل والحق . حقاً قد يستريح الجمهور بضعة أيام من القراءة ، غير انه قد يستجم فى أثناء هذه الأيام قدرته على الاستقلال فى التفكير فيكون أقدر على أن يزن أقوال مشايخ الأدباء فيكم وحكمهم عليكم ، وعند ذلك لا أتشدد فى مطالبى ، بل سأقتصر على طلب واحد إلى مشايخ الأدباء ، وذلك أنهم إذا شاءوا انقد مؤلف أحدكم فهم بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يذكروا محاسنه ومساويه كما قال أحد قدماء مشايخ الأدب ، وأن يعدلوا فى الحكم ماداموا يجعلون عنوان كتابتهم « نقد كذا » وإما أن يجعلوا عنوان كتابتهم « محاسن كذا » ويكتفوا بذكر محاسنه أو « مساوئ كذا » ويكتفوا بذكر مساوئه ، فاذا هم قبلوا ذلك الشرط أبحت لكم العودة إلى معاونتهم ومشاركتهم ، وإن هم أبوه مضينا فى الأضراب حتى تلجئهم ضرورة الحياة الى النزول عند العدل .

فهل من مجيب أيها الأدباء الشبان ؟ « أديب »

وفاء الطـــائر

للآنسة أسماء فهمى

درجة شرف فى الآداب

امتقع وجه الشمس ، وخبت أشعتها ، وعلاها اصفرار ، وأصابتها رعشة ، وغشى الأفق حمرة الوجد فى ساعة الغروب ، ثم وجمت الطبيعة ، واطمأن الجدول فى سيره ، ورق النسيم واستولى على الكائنات شعور منقبض حزين . . .

ثم حالت نضرة الحقول فى الأصيل ؛ ونظر الناس الى الشمس الغاربة فآثروا الرواح ، وتململت الماشية ، وقلق الصغار ، فسارع القرويون الى جمع شتات أدواتهم من فؤوس وسلات ، وامتطوا دوابهم فصارت تعدو بهم يدفعها الحنين والشوق الى الدار بعد نصب النهار ؛ وسرعان ما ازدحمت بالعائدين الطرق والمسالك الموصلة الى القرية . وكلهم مفتون بروعة المساء ، الانسان والحيوان فى ذلك سواء . . .

وأمام الدور فى القرية تجمهرت النساء والأطفال ، وسرت الحياة فى الارجاء ، وتطاولت الأعناق لاجتلاء طلعة القادمين كما لو أن أمد الشوق والفراق قد طال . . .

والطير لمحت بدورها احتضار الشمس من بين الأغصان ، فتبادلت النظرات ، وتجاوبت بالأغاريد كأنها تذكرت أمراً ذا بال ، وسرعان ما جمعت جموعها وغادرت أسرة الأغصان ، وحلقت فى الفضاء أسراباً تندفع اندفاعاً نحو العش بقوة الحنين وعزم الجناح . . والحق ليس هناك أروع من منظر الطير ، يدفعها الحنان نحو العش فلا تعود تأبه بتدليل الغصن ولا بجمال

الزهر ولا بوفرة الحَـب ، ولا بالمرح والتغريد . . .

ولـكن طائراً جميلاً يمتاز بقوة تغريده وشدة جرأته ، وتدفق مرحه وحيويته ، أغرته أكوام القمح الذهبية فترك أفنان الشجر وكاد يقع فى شراك الفلاح لولا أن أنقذته سرعة قفزه . فنجا بأعجوبة بعد أن أصابه خدش فى الجناح . ولم يدر الطائر لشدة فرحه بالنجاة حقيقة ما أصابه الاّ عندما حان ميعاد الرحيل للعش ؛ وناداه الرفق فرفرف بجناحيه وفاضت نفسه بنشوة الحنين ، ودفع جناحيه محاولاً أن يأخذ مكانه فى مقدمة السرب ، ويكون كعادته أول من تضمه أحضان الوكر .. وصاح صيحة الطرب ، واندفع الى الأمام كالسهم ، ولـكن لم يلبث أن أخذ منه الجهد ، إذ اتسعت شقة الجرح . فترنح فى سيره ، وأخذ يدور حول نفسه ثم استسلم لجاذبية الأرض . . وسرعان ما استحال طيرانه الى قفز . . ونظر أمامه فوجد السرب قد توغل فى الفضاء فداخله الهم ، ولـكن بقى لديه شىء من الأمل الذى كانت تحمله اليه بقايا أسلاك الشمس الغاربة ، فصار يتعلق بها كما يتعلق الغريق بالأعشاب الطافية على وجه اليم . . على أن شعاع الأمل سرعان ما انطفأ مع أشعة الشمس ، وانتشر الظلام فى الأرجاء ، وتسربل الـكون بحلة سوداء . . والطائر المسكين لا يزال بعيداً عن العش ، بينما الطيور الأخرى كانت فى تلك الآونة تنعم بدفء الوكر وحنان الأهل ، وتستقبل الظلام فى هدوء واطمئنان ؛ والناس والماشية بلغوا مستقرهم ، والليل يهمس حولها : نعم عقبى الدار . . .

أخذ الطائر الشريد يسير على غير هدى فى دياجير الظلام واليأس — يرتطم بالحوائط والجدران والأشجار ، ويتعسر فى الوحل والشوك ، وقد كان فى وسعه لو أراد أن ينزوى فى ركن من الأركان ، أو يقضى الليل فوق غصن من الأغصان ، ولـكنه لم يشأ أن يتخذ عن عشه بديلاً ، بل آثر الجهد والنصب آملاً أن تسوقه الأقدار بعد طول السهاد إلى العش الوثير المحبوب . . . واستحالت فى نظره حرية الفضاء إلى سجن قاتم ، وجمال الشجر الى قبح دميم ، ونفح النسيم إلى شواظ من نار ، وأنسى الطائر فقد العش كل ما كان ينعم به من لذة ومتعة وشدو ، طليقاً فى سماء الصفاء والجمال . . .

وبقى على تلك الحال من القلق والاضطراب إلى أن قاده الحظ العاثر إلى كوخ فلاح ينبعث منه نور ضئيل ، فاندفع اليه فى ساعة يأسه وحيرته دون تفكير . وهاجت الأطفال وماجت عند ما رأت وسطها الطائر الجميل، واجتهدت فى حصاره وإلقاء القبض عليه ، فاشتد هلع الطائر وقاوم مقاومة الأبطال . ولـكن آلام جرحه اشتدت ، وازداد تخبطه وتكرر سقوطه ، وأخيراً وقع فى الميدان صريعاً ، فهجمت عليه الأعداء ، ولـكن سرعان ما تراجعت ووقفت مبهوتة صامتة مأخوذة برهبة الموت . . .

ولم يعلم الأطفال والـكبار شيئاً عن سر دخول الطائر فى ظلام الليل ، ولو علموا سبب حيرته واضطرابه ، وأنه قاوم القدر وأبى أن يهجع فى غير العش الرؤوم اخلاصاً منه وولاء ، لنثرت عليه الزهور والرياحين ، ولشغل مكاناً من القلب أسمى من المكان الذى يشغله آلاف الناس — الذين لا يتعصبون فى الحياة لأمر ، ولا يتطرفون فى الغرام بشىء ، ولا يفضلون داراً على دار . . بل قد لا يعبأون أن تضحّى سعادة أوطان بأكملها . . . بينما يموت طائر صغير شهيد الوفاء للعش . . .

أسماء فهمى

من الشعر المنثور

المدينـــة الهاجعة

للأستاذ خليل هنداوى

مهداة الى مدينتى الصغيرة الراقدة رقاداً عميقاً على الشاطئ الأزرق . . . صيداء ؟
خليل

خاطر أزعج نفسى   ياله من خاطر !
ما له من أول   ما له من آخر

***

دعوا مدينة البحر تنم هادئة ، فقـد أرقتها يقظة الشاطىء ،
لاتوقظوها اذا جاء الفجر . . . إنها نائمة .
نامت عن الأرزاء والشجون .
واستسلمت للأحلام الجميلة وأطبقت عليها الجفون .
من فاته فى اليقظة الهناء
فليطلب النوم ، ففيه شفاء
وليغر أحلامه بألوان الضياء
فتصبح الروح بها ناعمة
ألا لا توقظوها . . . إنها حالمة .

***

نامت فى غابر الزمن على الشاطىء الأزرق نوماً عميقاً ،
وفى النوم تتبدل الخاطرات ، وتتغير الأرواح ،
إذ لا سكون فى عالم الحركة ، ولا وقوف فى عالم الضوضاء .
تبــدلت مدينتى وهى راقدة ، وهبت فلم تر من آثار أخواتها إلا أطلالاً بالية ، ورسوماً عافية .
فمشت بين مدائن غريبة حائرة ذاهلة ، مشية أهل الـكهف بعد يقظهم !
رجعت الى شاطئها الأزرق كما قفل أولئك الى كهفهم ،
لأن الحياة تنكرت لها ولهم
فنامت . . . ولا تزال نائمة
لا توقظوها . . . إنها حالمة .

***

يهوى على قلبى أسى مبهم
أكتمه قسراً فلا يكتم
ألا أيها الأسى فى أية جانحة تجثم ؟
لاخمر تقوى على أمرك !
ولاغادة تقوى على قتلك . . .
أى أسى فى روحى السائمة ؟

***

تذوقت أيها الغريب جمال الصحراء الذى لاتنتهى حـدوده كما لاتنتهى لها حدود ،
وفنيت مع طيوبها ، وامتزجت مع ألوانها
وجربت مع (فرانها) الصامت ، ورتلت مع أطيارها ،
فمالك لم يشبعك جمال ، ولم تدهلك هذه الأشكال ؟

***

فيك وحشة من كل شىء ، لايغلب عليها شىء ،
ولاتنير آفاقك المظلمة شمس ، ولا ينفذ اليها قمر
لأن فى روحك وحشة من كل شىء . . .
لا الطبيعة تشبع نفسك ، ولا عبيرها يسكر روحك .
لأن مدينتك الصغيرة بعيدة عنك . . .
وإن لم يكن لك فى مدينتك — أيها الغبى — إلا الصخور والأمواج ، فانها ستدعوك اليها .
لاحبيب فى زواياها يناديك .
ولا صديق يناجيك .
الرمال التى تحسبها جامدة ميتة . . . الرمال التى كنت تعبث بها طفلاً تناديك .
تناديك لتحتضنك . . . هى مبعث وحشتك ؛ وموئل ذكرياتك .
للصخور الصلدة روح ، وللأمواج المتقلبة روح
تحيا كلها فى حنايا روحك
هى نائمة كمدينتك النائمة . . .
لاتوقظوها . . . إنها نائمة

***

ترقد مدينتى الصغيرة فى كل شىء أراه ، حتى فى ذرات الرمال وقزعات السحاب .
وبرن صوتها فى كل مبعث صوت ، حتى فى وقع الامطار .
فأين أفر من وجهها ، وكيف أصم اذنى عن صوتها ؟

وكل الأشياء التي نحيا فيها تحيا فينا .

هي حية في نفسي . . . مدينتي الصغيرة

هي مبعث وحشتي في هذه الحياة الغريبة .

هي التي تجذبني اليها وتخيم فوق رأسي في غربتي كالسحابة السوداء ، وهي مجمع ذكرياتي التي تصطف للقائي في كل زاوية من زواياها ، وفي كل ثنية من ثناياها

***

سأحاول أن أنسى . . . وسيساعدني الزمان على النسيان ؛ وأية ذكرى وأية خطرة تستطيع أن تثبت أمام سلطان الأزمان ؟ لكن شاطئك الأزرق الجميل . . شاطئك الذي امتزج دمه بدمي ، وخفق قلبه في قلبي ، أنى لي أن أنساه ؟ . .

هو كالقطرة التي تنعكس فيها كل السموات والنجوم . . .

ألا هنيئاً للجالس على شاطئك الازرق فانه مالك كل شيء !؟

صيداء **خليل هنداوي**

دنيا الأدب

بقلم محمد قدري لطفي

ليسانسييه في الآداب

ليست هي دنيانا ، فما ينبغي أن يكون هذا الأدب منها . وليست هي عالمنا ، فما يجب لهذا الأدب أن يدخل فيه ، وانما هي طبيعة الأدب تأبى أن يكون من دنيانا في شيء ، فان أكثر دنيانا قبيح . وأكثر الأدب جميل ، وعماد دنيانا الحقيقة وعماد دنيا الأدب الخيال ، والعقل في دنيانا عنصرها الأكبر ، والعاطفة في دنيا الأدب عنصرها الأول ، والمرء في دنياه يرى بعيني رأسه ، ويرى في دنيا الأدب بعين قلبه ، وهو في الدنيا مادي ، قد يمسك بالزهرة فيقطعها في غير رحمة إلتماس عبيرها ، فيظل به حتى ينفد ، ثم يلقيها كأن لم تبهره لحظة بجمالها ، ولم تنعشه برهة بأريجها ، وهو في دنيا الأدب روحي ، إذا أمسك بالزهرة فانما يمسها في رفق ، وإذا التمس شذاها فانما يفعل في حذر واحتياط ، حتى إذا أعجبه عبيرها لم يقتطفها ولم يلقها ، وانما تراه يستخلص من عبيرها الطيب بيتاً ينظمه ، أو قصيدة ينشئها ، أو سطوراً يكتبها ، وتراه يغوص في قرار المعاني ويصعد إلى عنان اللغة ليسجل للخالق حسن الصنعة ودقة الخلق وجمال التكوين ، وتراه يوفي الزهرة حقها من الاعجاب والاطراء ، ويبادلها حسنا بحسن ومتعة بمتعة . والمرء في دنياه يتكلم فيما يشاء عما يشاء ، وهو في دنيا أدبه لا يتكلم إلا فيما حرك شعوره وهز عاطفته ، فاذا فعل فبا للفظ المختار وبالمعنى المنتقى ، والمرء في دنياه حين يتكلم لا يكاد يقع قوله إلا من نفوس قليلة مهما تكثر فلن تخرج عن الحصر ، ولن تفوق العد ، وهو في دنيا الأدب يتكلم فيلتقي بعواطف الجموع ويضرب على أوتار القلوب ، وقد ينتقل قوله من لغة إلى لغة وينتشر حديثه من لسان إلى لسان ، فيفنى هو وما قال باق على الدهر خالد على الأيام ، وقد يظل المرء في دنياه من غير صاحب ، وقوله في دنيا الأدب يلقى الصحاب في كل مكان ، ويتخذ سميراً في الجماعات أو خليلاً في الوحشة ، أو مؤنساً في الوحدة ، يصادف من كل قلب مبتغاه ، ويلقى عند كل امرئ قبولاً ، ويقع من كل نفس موقع البرء من السقام

ودنيانا محدودة وان ترامت حدودها ، مقيدة وان اتسعت قيودها ، ودنيا الأدب لا تعرف الحد ولا تعرف القيد ، فالأدب يعيش في كل مكان ويحيا في كل زمان ، يتناول كل شيء ، وقد يتخذ لنفسه موضوعا من لاشيء ، وليس توخي الجمال فيه ولا التزام أوجه الحسن في فنونه قيداً له ولا عيباً في دنياه . وانما هو الجمال طبيعته وعنصره ، ما أن يفقـده حتى يخرج من دائرة الأدب إلى دائرة الكلام البحت والحديث الصرف . فالشعر إن فقد الجمال كان نظما فحسب ، لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ، قد وقف بين الصناعتين لا يدرى أهو من هذه أم هو من تلك ، والنثر إن فقد طلاء البلاغة لم يكن من الفن في شيء ، وكما تغلو الأشياء في دنيانا وترخص ، يغلو الأدب في دنياه ، وتنحط قيمته تبعا لمقدار الجمال فيه ، وأكثر موازين دنيانا الكم ، وميزان دنيا الأدب الكيف .

على أن دنيا الأدب وان كانت جمالاً كلها فليست نعيما كلها ، وان كانت إعجابا كلها فليست تخلو من العجب ، فقد أقام البؤس فيها إلى جانب الجمال ، وسكنت الفاقة فيها إلى جانب الحسن ، وكثيراً ما تحالفا على غير فكاك ، وتوافقا على غير خلاف ، شأن دنيا الأدب في ذلك شأن دنيانا ، فانك لتجد فيها الوجه الجميل في المسكن الذليل ، وغالباً ما يلقاك الشرف الرفيع في الكوخ الحقير ، وكثيراً ما تحل السعادة حيث ترق الحال ، ويقيم الهناء حيث يحل الفقر .

ودنيا الأدب لا آخرة بعدها ، ولا إمهال فيها ، وإنما يلقى صاحب الأدب فيها حسابه سريعاً فيجزى به أو يعاقب عليه ، فما هو إلا أن يظهر أهل دنياه على ماأتى من عمل فني حتى يتولاه النقاد من قومه بالحساب ، يحاسبونه حسابا فيه يسر حيناً ، وكله عسر أحياناً ، وحساب أهل الأدب على عسره ليس يخلو من عجب ، فلا الخير فيه خير بالاجماع ، ولا الشر فيه شر بالاجماع ، وإنما الخير عند زيد شرٌّ لدى عمرو . والشر يراه هذا خيراً ، والخير فى عرف ذاك شر ، قد تفاوتت الموازين ، وتباينت المكاييل ، وليت شعرى متى يشاء ملائكة النقد أن يكون لدنيا الأدب ميزان يزن به الجميع ، وكيل يكيل به الجميع . فقد خلق الناقدون وكل معه ميزانه ، وكل فى يده كيله ، فاختلفت أحكامهم على العمل الفني الواحد ، وتعددت أقوالهم فى انتاج الأديب الواحد ، ولعل دنيا الأدب لم تظلم صاحب الأدب حين أباحت له حرية الدفاع عن آثاره الأدبية والرد على محاسبيه ، والتماس الحق لجانبه . ومن غريب دنيا الأدب أنها تبيح حساب المرء حياً وميتاً ، فيتناول النقاد سيرته بالتحليل ويتولون حياته بالتمحيص ، ويظهرون الناس على أقواله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وانك لتجد الشاعر أو الناثر قد فارق دنياه منذ قرون ، وأسدلت السنون عليه وعلى قومه حجابا من النسيان ، ومع ذلك فهو فى دنيا الأدب حى مذكور لا يزال النقاد يحاسبونه على شعر قرضه ، أو نثر كتبه ، أو قصة حاك أطرافها ، ولا يكتفون من ذلك بالمئات من المرات .

ومما يحاسب المرء عليه فى دنيا الأدب عدا الأجادة فى الفن أو التقصير فيه ماقد يرتكبه من سرقة لثمار العقول أو نتاج العواطف فينتحل لنفسه ماليس له . غير أن الحساب على هذا الذنب ليس كما ينبغى له من العسر والشدة ، وليس كما يتفق مع خطره من القسوة والقوة ، وإنما هو مباح أو كالمباح حتى خشيت دنيانا هذه الأباحة من دنيا الأدب ، وخافت على أهلها من دعاة الأدب أن يبيحوا فيها ماليس الى إباحته من سبيل ، فأفسحت صدرها لمن يلجأ اليها من دنيا الأدب ، شاكياً ما استحله الغير من ثمرات قريحته ووحى خاطره فخمته بتشريعها ، وأحاطته بسياج من قانونها .

وفى دنيا الأدب من المفارقات العجيبة والسير الطريفة ما لا تتسع له الصحائف ، فكيف يقوى كاتب على دنيا بأكملها يحصى مابها ويعدد مافيها ؟

محمد قدرى لطفى

٨ــ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ مصطفى السفطى

مصطفى السفطى بن مصطفى الفاكهانى السفطى بن على السفطى ابن احمد شلبى ، نسبة الى سفط القطايا ، ولد بمصر القاهرة حوالى سـنة ١٢٥٠ ، وأرسل الى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر . ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى ، ولما أعيى عليه أمره ، وتعذَّر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ، ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد احمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره بحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية ، فلم يستفد شيئاً أيضا ؛ وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى ، فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه اليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البيجرمى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لاخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له اقرأ هذه الجملة ثم تفهَّم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح ، فيفعل ، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب ، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة ؛ وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به ،

وأخبره أن عند على افندى العروسى شرحاً للرملى على الآجرومية ، فاستعاراه منه وقرآه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً . ثم اجتمع المترجم بانسان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومى . له باع فى العربية ، فقرأ عليــه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية ، والقطر ، وابن عقيل ؛ ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبيني بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشمونى عم الشيخ الشيخ محمد الأشمونى الشهير ، وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلّط ، وهو آخر حضوره فى الفقه . ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، والعروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعة بك : كقدرى باشا وابراهيم بك مرزوق . وبعــد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ فى أول نظارة رياض باشا على المعارف ، وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشرى فى النحو ؛ ثم كُلف بتأليف رسالة فى الصرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل فى البلاغة والصرف بتوسُّع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات ، ثم أُمر بقراءة العروض والقوافى فى المدارس ، فاستحسن رسالة أبى الجيش وأقرأها ، ثم وضع رسالة فى العروض والقوافى أتم بها ما أراده أبو الجيش . ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ، ثم كلف بوضع رسالة فى علم الرسم ، فوضع رسالته « عنوان النجابة فى قواعد الكتابة » وقرئت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة (بالمبتديان) ، وكان ذلك سنة ١٣٠٦ ، فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره فى المترادفات ، ثم نقل الى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات ، فبقى بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن الأعمال » ، ولما عرضت على المجلس العالى بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات . ثم أخذت قوته فى الوهن ، وبصره فى الضعف لكبر السن ، فعرض استقالتــه على النظارة مبيناً السبب . فأحيل على الكشف الطبى ، ثم أحيل على المعاش . وله من التآليف غير ما تقدم رسالة فى الصرف اسمها « قرّة الطرف » أوسع من المتقدمة ، وأخرى فى النحو وهى « منحة الوهاب فى قواعد الاعراب » ، وهى نظم . ومن شعره :

الحمــد لله لا فقر يضرّ ولا غنى يغرّ فلا حزن ولا فرح
وليس لى مطمع فى الناس يلجئنى للذم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا
وأسأل الله حاجاتى فيمنحني من فضله فوق ما أهوى وأقترح

وله :

قد يسر الله أسباب المعاش لنا بالعقل والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من يشاء بالفضل لا بالسعى والهمم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً على الذى أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف فى داره بعد فصله من المدارس على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع بعض من يسمر معهم من اخوانه وأخلائه . أو استقلالاً بنفسه ، وكان فى مبتدا أمره مولعاً بالسماع ، وتشبث بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور ، وكان متقناً لها ، فأخذها عنه وأتقنها ، ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية ، ومعرفة بجيــد الشعر ونقده . ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكِبَر وضعف عن المشى ، فلزم داره لا يخرج منها إلاّ لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد اليه ، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشــقة زائدة .. وتوفاه الله الى رحمته فى يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧ .

الشيخ احمد أبو خطوة

الحنــفى

أحمد بن أحمد بن محمد بن حسب الله بن على بن محمد بن على ابن مدكور بن أبى خطوة المدفون فى مطوبس ابن مدكور بن شكر بن هاشم بن محمد وهو أول من نزل بكفر ربيع منهم ودفن به ، ابن سالم المدفون بالحدّين بالبحيرة ، ابن موسى بن حسن بن احمد ابن على بن شكر بن ابراهيم بن أحمد بن شاكر بن حسن بن على ابن محمد بن على ابن السيد عبد الرحيم القنائى صاحب الضريح المشهور بقنا ابن هريدى بن جعفر بن حمّاد بن سعادة بن عبد اللطيف القاسم بن عبد الله بن عبد اللطيف بن هاشم بن عبد الجواد ابن محمد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على بن أبى طالب . هكذا أملى علىّ نسبه من لفظه . ولد فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ ببلدة كفر ربيع التابعة لتلا من أعمال المنوفية ونشأ

بها ، فحفظ القرآن وبعض المتون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر فى ١٦ شوال سنة ١٢٨١ واشتغل فيه بالطلب وقراءة الفقه على مذهب الامام الأعظم . ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونى البيانى ، والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد الله الدرستاوى ، والشيخ حسن الطويل

وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن الطويل ولازم صحبته وتخلّق بأخلاقه ، وقرأ عليه بداره العلوم الحكميّة والرياضيّة فتلقى عنه شرح الهداية للميبدى ، والطوالع ، وأكثر المقاصد والمواقف ، واشارات ابن سينا بالشروح لنصير الدين الطوسى والامام الرازى ، والمحاكمات ، وبعض كتاب النجاة لابن سينا ، وأشكال التأسيس بشروحها فى الهندسة ، وتحرير أقليدس ، وفى الهيئة شرح الجغميني ، وتذكرة نصير الدين الطوسى . وفى الحساب خلاصة بهاء الدين العاملى بشرح البورصاوى ، والمعونة وشرح ابن الهائم وغيرها ، وفى المنطق القطب بحواشيه والمطالع والخبيصى وايساغوجى وغير ذلك من هذه العلوم .

وامتحن للعالمية والتدريس فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكان مجلس الامتحان مكوّناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوى والشيخ عبدالقادر الرافعى الحنفيّين ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى والشيخ زين المرصفى الشافعيّين ، والشيخ احمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى المالكيّين ، برئاسة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد المهدى العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به اعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدّة ذكائه فأجازوه ، إلاّ أنه اخر التدريس لسبب اشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على شيخه الطويل ثم ابتدأ فى القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرّج عليه جمع من الأفاضل منهم السيد محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد بخاتى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ مصطفى سلطان وغيرهم .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف فكانت له اليد الطولى فى اصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه . وحسبك انه دخله وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على المائتين . ثم نقل عضواً فى المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ورأس المجلس العلمى للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ومنع شهادات الزور وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ .

حسن افندى عبد الباسط

الحَوَىّ

كان خِلاسىّ اللون يشبه الحبش ، وبوجهه أثر جدرىّ ، وكان أديباً شاعراً هجّاء ، خبيث اللسان مجيداً ، إلا أنه مقلّ ، استخدم بالاسكندرية فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ ، وبقى بها الى سنة ١٢٩٠ ، وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى باشا الشاعر المشهور ، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء ، فيسمرون معاً ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر ، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِرْبَد ، وألا يقبلوا به أحداً إلا اذا ارتضوا به جميعاً ، فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء المربد ، وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر ، ويعيّنون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه ، فكان أحدهم اذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها ، أو لها معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت ، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية .

ثم تنقلت الحال بالمترجم فاستخدم معاوناً بمديرية الشرقية ، ثم فصل فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة ، المسماة فى العرف الآن بالعطارة ؛ وكان أمره بها عجباً ، فانه اقتنى كتباً من مفردات الطب وقانون ابن سينا ، وصار اذا طلب منه أحدهم بيع عقّار من العقاقير ، سأله عن سبب حاجته اليه وقام الى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه وما يداوى به من العلل ، وبقى مدة على ذلك حتى توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ .

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب افندى كبير كتّاب ديوان البحر :

رأيت العلا ترتاد بعلاً لنفسها ... وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل
فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها ... عساها بنا ترضى ويجلى التواصل
فلما رأتنا واقفين ببابها ... أشارت لفتح الباب منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه طرفة من الطرف ، وأعجوبة

من العجائب : فى حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب ؛ رآه مرة بعضهم وهو مسافر الى الزقازيق فى القطار ومعه جراب يحمله بيــده ، فقال له مداعباً : أظن هذا جراب الحاوى ، أى المشعبذ . فقال لا ياسيدى ، هذا جراب الْحوَى ّ !

ابراهيم بيك مرزوق

الشاعر

تلقى العـلم بمدرسة الألسن ، وتخرّج على ناظرها رفاعة بك رافع الشهير ، فقرأ بهدّه المدرسة النحو والصرف وباق علومها ، وبرع فى الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة فى تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيـــد من المقطّعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧ فى ديوان سماه «الدرّ البهىّ المنسوق ، بديوان ابراهيم بك مرزوق » وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم فى ديوان كان يقال له (ديوان الهرجلات) وهو خاص ببيع الخيـل والماشية التابعة للحكومة ، ثم نقل منه للقلم الافرنجى بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر ، ثم عاد اليـه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاكسة للافرنج إذا وقع أحـدهم فى سجن الضبطية ، أو كانت له دعوى بها ، فلما كان يسلم من أذاه ، حتى ضج منه وكلاء الدول وأ كثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شىء عند التحقيق ، والسبب فى ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه ومرءوسيه بالضبطية على إيصال الأذى اليهم سراً ، نـكاية بهم لطغيانهم على الرعيـة ، وتدرّعهم بدروع الحمايات .

وفى مدة وكالة اسماعيل باشا الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الافرنجى بالخرطوم قاعدة بلاد السودان ، فبقى الى أن توفى بها سنة ١٢٨٣ . وكان مربوع القامة ، أبيض اللون، قد وخطه الشيب ، ومات بعد ما تجاوز الستين ، رحمه الله تعالى .

الشيخ مصطفى سلامة

النجّارى

توفى والده وهو صغير ، فتـكفل به زوج أمه ورباه . فلما ترعرع مال للأدب ، وقرض الشعر ، فاتصل بالشيخ على الدرويش ، وتخرّج عليه فى النظم ، واتصل بعد ذلك بأسرة المويلحى . ففتحوا له حانوتاً بالتربيعة لبيع الحرير فلم يصادفه النجاح ، ثم جعل منشئاً بالوقائع المصرية ، ولم يزل يكافح زمنه حتى اتصل بوالى مصر سعيد باشا ، وصار شاعره وتقرب اليـه ونال جوائزه ، فحسنت حاله ، واجتمع بأكابر الدولة ومدحهم وداخلهم فنال وجاهة وصار له شأن يذكر ، وجمع ما نظمه فى مدح سعيد باشا فى ديوان خاص ، وهو الذى جمع ديوان أستاذه الدرويش وسماه الاشعار بحميد الأشعار .

الكنـــدى

« هو من الاثني عشر عبقرياً الذين ظهروا فى العالم »
كاردانو

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

مقدمة :

ليس أصعب على الباحث من الكتابة عن حياة عالم لم يعطه التاريخ حقه من البحث والاستقصاء ، ويزيد فى الصعوبة التشويه الذى نجده فى حياة كثيرين من علماء العرب والمسلمين . فكم من حقائق لم تذكر ، وكم من حوادث أخذت على غير حقيقتها فسيء فهمها ، وكم من اختراع للعرب نُسب لغيرهم ، وكم من تلاعب طرأ على التراث الأسلامى فجعل كثيرين من شبابنا يشكون فى مجد أمتهم ومدنيتها وقابليتها على الأنتاج . ومن الغريب أن تجد بعض علماء الفرنجة (لبقين) فى الكتابة عن نوابغ العرب ، فهناك شخصيات عربية واسلامية لمعت فى نواح عديدة من المعرفة ، ومن الطبيعى أن يختلف اللمعان ، فبينما تراه شديداً فى فروع ، تراه فى الأخرى وفى الوقت نفسه غير شديد . ويأخذ بعض الافرنج النواحى الشديدة اللمعان ويذكرونها ويهملون النواحى الأخرى اهمالاً كلياً لا يعيرونها أى اهتمام ولا يأتون على ذكرها . ولا شك أن فى هذا إجحافاً لا يستسيغه عقل ولا يقبله منطق ، وعلينا أن نعمل جهدنا لنظهر هذه ونعطيها حقها من التنقيب والبحث . خذ ابن سينا (مثلاً) فقد اشتهر فى الطب والفلسفة ، وقليلون جداً الذين يعرفون أنه كان رياضياً وطبيعياً ، وأن له فى كل هذه جولات وآراء سديدة قيمة ، فلقد أفاد الفيزياء ببحوثه المبتكرة فيها ، كما أنه استطاع أن يقدم خدمات جليلة لبعض الفروع من العلوم الرياضية . واذا اطلعت على ترجمة حياة ابن يونس فى دائرة المعارف الاسلامية تجد أن كاتب الترجمة (H. suter) قد وفى حق ابن يونس فى نواح ولم يوفها فى نواح أخرى فلقد جهل أو نسى أو تناسى (لاأدرى) ان يذكر ان الرقاص (بندول الساعة) هو من مخترعات ابن يونس وناهيك بالرقاص والفوائد التى جنتها المدنية منه . ولا أكون مبالغاً اذا قلت إنه يندر أن تجد واحداً يعرف أن عمر الخيام كان من كبار رياضيى زمانه ومن فحول فلكيي عصره ، فلقد قدم خدمات حقيقية للرياضيات والفلك لا تقل عن خدماته للشعر والفلسفة . وما يقال عن هؤلاء يقال عن غيرهم .

منشؤه :

والآن . . نعود الى الكندى فنقول : قل من يجهل أن يعقوب الكندى من أشهر فلاسفة الاسلام ، ولكن قل من يعرف أيضاً أن له فضلاً على العلوم الرياضية والفلكية اذ كان من الذين امتازت مواهبهم فى نواحيها العديدة ، ومن أوائل الذين اشتغلوا وألفوا فى العلوم الدخيلة . يقول كتاب التمدن الاسلامى « . . فبعد أن كان العربُ فى صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الاسلامية . . أصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الفلسفية الدخيلة ، وأول من اشتغل فيها أبناء ملوكهم . . » كان الكندى عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم ، وتأليف اللحون ، وطبائع الأعداد . وهو يمت بالنسب الى أحد الملوك العرب ، وكان أبوه أميراً على الكوفة (محل ولادته) . وقد وُلد فى بداية القرن التاسع للميلاد ولم نتمكن أن نعثر بالضبط على تاريخ ولادته . أما تاريخ وفاته فيرجح أنه فى أواخر القرن التاسع .

درس الكندى فى بادىء أمره فى البصرة ثم أتم تحصيله على أشهر العلماء ، هذه الفرص التى لم تكن تسنح لغيره ، واستعداده الفطرى واستغلاله لكل ذلك أوجد له مكاناً ذا حرمة واعتبار عند خلفاء بنى العباس حتى أن الخليفة المأمون انتخبه ليكون أحد الذين يُعهد اليهم ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من حكماء اليونان . ولم يخل الكندى من أناس يناصبونه العداء إما حسداً وإما غير ذلك كالقاضى صاعد بن احمد القرطبى ، وأبى معشر جعفر بن محمد البلخى ويُقال إن هذا الأخير كثيراً ما كان يشاغب عليه ويشنع بحجة أخذه بعلوم الفلاسفة ، وقد تمكن الكندى مرة بثاقب نظره أن يتخلص منه ، وذلك بأن بعث مَن حسّن له النظر فى الرياضيات وفعلاً اشتغل أبو معشر بها زمناً ، ولكنه لم يوفق ، فعدل عنها الى علم النجوم ، وقد وجد فيه لذة فعكف عليه وأحب من يشتغل فيه وأصبح من أصحاب الكندى ومن المعجبين بعلمه ونبوغه

آثاره :

والكندى أول من احتذى حذو ارسطوطاليس ، كان ملماً بحكمة الهنود ، فسر كثيراً من كتب الفلسفة ووضع بعض النظريات الفلسفية فى قالب مفهوم حتى ان كتبه فى المنطق وغيره لقيت إقبالاً عظيماً ، « وله رسائل ومؤلفات فى علوم شتى

نفقت عند الناس نفاقاً عجيباً . وأقبلوا عليها اقبالاً مدهشاً » (١)

هذا وغيره اوجد له فى قلوب معاصريه حسداً فنقموا عليه وحاولوا مراراً النيل منه . وأن يوقعوا بينه وبين الخليفة فنجحوا فى ذلك ، ولكن إلى زمن لم يطل أمده .

كان الكندى مهندساً قديراً كما كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً عظيما ومنجما ماهراً . وقد ترك آثاراً كباراً جليلة جعلت العالم الأيطالى « كاردانو » يعده من بين الاثنى عشر عبقرياً الذين هم من أهل الطراز الأول فى الذكاء . وجعلت أيضاً « با كون » الشهير يقول « إن الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس » ويقول كتاب (آثار باقية) « إن الكندى أول من حاز لقب فيلسوف الاسلام . » وكان يرجع إلى مؤلفاته ونظرياته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات . وعلى ذكر الأقنية يقال إنه كان فى بلاط المتوكل أخوان اشتهرا بالهندسة والأعمال التطبيقية ، وهما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر ، وكان يعز عليهما أن يظهر غيرهما بمظهر الماهر المتفوق ، وبذلك لم يتركا فرصـــة للنيل من كل من عرف بالمعرفة والتفوق فى علم من العلوم ، ومن الطبيعى أنه لم يكن يروق لهما أن يسمعا عن الكندى وفضله ، سيما وأنه ذو مركز عظيم فى البلاط فسعيا فى الوشاية عليه ، وكان لهما ما أرادا فى بادئ الأمر ، واستطاعا أن يجعلا الخليفة يأمر بمصادرة مؤلفاته وكتبه . وكان يقال إن مراد ابنى موسى من المصادرة هو أن يستفيدا من مراجعة الكتب فى حفر القناة الجعفرية ، ولكنهما فشلا فى إنشائها فاستدعيا المهندس الشهير سند ابن على لحل بعض المعضلات التى وجداها عند حفر القناة ، فوعد بحلها وبمساعدتهما على شريطة أن يرجعا للكندى كل كتبه ، وأن يسعيا لدى ولى الأمر فى العفو عنه وفى ازالة ما أوجداه من فتور وسوء تفاهم .

وقال الكندى باحكام النجوم ؛ وكان يرجع بعض الظاهرات والحوادث الى أسباب فلكية فيستمد من أوضاع النجوم وحركاتها بعض التنبؤات . فيقال إنه نهى عن الأشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، وقال إن فى ذلك تضييعاً للوقت والمال ، وقد ألف فى هذا الموضوع رسالة سماها « رســـالة فى بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم » . وقد افادت رسالته هذه بعض معاصريه والذين أتوا بعده ، إذ لا يخفى أن كثيراً من علماء القرون الوسطى أضاعوا معظم أوقاتهم فى الكيمياء للحصول على الذهب ، وله مؤلفات فى المرئيات والبصريات وقد وضع كثيراً من نظرياتهما فى قالب رياضى ، وكان لبحوثه هذه تأثير كبير على دراسات با كون (١) وواتيل ، وكتب فى الموسيقى وأعطى طرقاً لأيجاد التردد .

مؤلفاته :

وللكندى مآثر جمة تظهر فى أكثر العلوم بل تكاد تسجلها كلها فقد ألف فى الفلسفة وعلم السياسة والمنطق والحساب والكريات والموسيقى والنجوميات والهندســة والفلك والطب والاحكاميات والجدليات والنفسيات والاحداثيات والابعاديات والتقدميات ، كل هذه وغيرها مذكورة فى كتاب الفهرست لابن النديم ، وتربو على ٢٣٠ كتاباً ، وله فوق ذلك رسائل فى علم المعادن وانواع الجواهر والأشباه وفى أنواع الحديد والسيوف وجيدها ووضع انتسابها . أما تآليفه فى الرياضيات والفلك فاهمها رسالة فى المدخل الى الارثماطيق خمس مقالات ، كتاب فى استعمال الهندى أربع مقالات ، رسالة فى تأليف الأعداد ، رسالة فى تسطيح الكرة ، رسالة فى علل الأوضاع النجومية ، كتاب فى أغراض كتاب أقليدس ، كتاب فى تقريب قول ارشميدس فى قدر قطر الدائرة من محيطها ، رسالة فى تقسيم المثلث والمربع وعملهما ، كتاب فى كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة ، رسالة فى قسمة الدائرة ثلاثة أقسام ، رسالة فى صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، رسالة فى ظاهريات الفلك ، رسالة فى استخراج بعد مركز القمر من الأرض ، رسالة فى استخراج آلة وعملها يستخرج بها ابعاد الاجرام ، رسالة فى الحيل العددية وعلم اضمارها ، وو . . . الخ

تلاميذه :

وقد أخذ عن الكندى طلاب كثيرون منهم أبو العباس ابن محمد بن مروان السرخسى ، وكان متفنناً فى علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب ، قرأ على الكندى وعنه أخذ ، اشتهر فى الفلسفة والطب وكان موضع سر المعتضد ، وكذلك أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى فقد أخذ عن الكندى ، وكان له مقام رفيع ، ودعى جاحظ خراسان . ومن تلاميذه أيضاً حسنويه ونفطويه وسلمويه وغيرهم كثيرون .

نابلس — قدرى حافظ طوقان

(١) أبو حيان التوحيدى — المقابسات — ص ٨٥

(١) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٥٥٩

من طرائف الشعر

فرحة الألم

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

لَقَدْ صَاغَنِى اللهُ جَمَّ الشُّجُونِ ... وَيَأْبَى فُؤَادِىَ إِلاَّ الْمَرَحْ
يُبَدِّدُ أَحْزَانَ قَلْبِى الرَّجَاءُ ... وَيَمْحُو صَفَائِى طُولَ التَّرَحْ
أُهَدْهِدُ أَوْجَاعِىَ الصَّارِخَاتِ ... وَأُرْقِدُهَا بِالْمُنَى وَالْمُلَحْ
سَكِرْتُ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى انْتَشَيْتُ ... فَلَسْتُ أُبَالِى بِخَمْرِ الْقَدَحْ
كَأَنِّى أَخُو سَفَرٍ لاَغِبٍ ... تَهَالَكَ مِنْ جَهْدِهِ وَارْتَنَحْ
فَطُوبَى لِجُرْحِىَ إِمَّا اسْتَفَاضَ ... وَطُوبَى لِقَلْبِىَ إِمَّا انْجَرَحْ
تَعَلَّمْتُ بِالنَّوْحِ سِرَّ النَّعِيمِ ... وَأَدْرَكْتُ بِالشَّجْوِ مَعْنَى الْفَرَحْ

***

سَجَتْ لَيْلَتِى وَتَرَامَى الظَّلاَمُ ... وَمَالِىَ عَنْ خَوْضِهِ مُنْتَدَحْ
وَقَدْ رَوَّحَ الْغُيَّبُ النَّازِحُونَ ... وَأَلْقَى الْمُسَافِرُ عِبْئًا فَدَحْ
وَفَضَّ الْكَرَى سَامِرَ الْعَاشِقِينَ ... وَلَمْ يَبْقَ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ شَبَحْ
يَحُومُ عَلَى عَالَمٍ نَائِمٍ ... رَمَى بِمَتَاعِبِهِ وَاطَّرَحْ
يُطَوِّفُ فِى اللَّيْلِ مَا يَأْتَلِى ... يُنَاجِى وَيَرْعَى حَبِيبًا نَزَحْ
وَقَدْ سَكَنَ الْغَابُ إِلاَّ صَدًى ... تَوَلَّهَ مِنْ وَجْدِهِ وَافْتَضَحْ
كَأَنِّى أُصْغِى إِلَى بُلْبُلٍ ... يُبَشِّرُ الْمَفَارِحَ إِمَّا صَدَحْ
فَأَحْسَسْتُ دُنْيَا مِنَ النُّعْمَيَاتِ ... وَأُفْقًا جَدِيدَ الْأَمَانِى انْفَسَحْ
وَأُذْنِى إِلَى هَمْسَةٍ فِى الدُّجَى ... وَعَيْنِى إِلَى بَارِقٍ قَدْ لَمَحْ
وَأَقْبَلَ طَيْفُكَ جَمَّ الْجَلاَلِ ... تَدَثَّرَ بِالنُّورِ حَتَّى اتَّشَحْ
مَدَدْتُ يَدَىَّ وَعَانَقْتُهُ ... فَغَمْغَمَ قَلْبِى وَدَمْعِى شَرَحْ
وَضَاعَ اللَّجَاجُ وَغَابَ الْعِتَابُ ... كَأَنَّ الزَّمَانَ صَفَا أَوْ سَنَحْ
قَرَأْتُ بِعَيْنَيْهِ فَرْطَ الْحَنِينِ ... وَشَجْوًا يُذِيبُ إِذَا مَا قَدَحْ
وَعَايَنَ بِى غَمَرَاتِ الرَّدَى ... تَرِفُّ عَلَى هَيْكَلٍ قَدْ جَنَحْ
فَأَطْرَقَ مُسْتَعْبِرًا نَادِمًا ... وَبَانَ عَلَيْهِ الْأَسَى وَاتَّضَحْ
فَقُلْتُ لَهُ خَلِّ عَنْكَ الْبُكَاءَ ... وَلاَ تَجْزَعَنْ إِنْ قَلْبِى صَفَحْ
إِذَا مَنْ أُحِبُّ جَزَانِى الصُّدُودَ ... هَتَفْتُ عَفَا اللهُ عَمَّا اجْتَرَحْ

***

... ...
... صَحَوْتُ فَلاَ الطَّيْفُ يَحْنُو عَلَىَّ ... وَلاَ نِعَمٌ تُشْتَهَى أَوْ مِنَحْ
وَعُدْتُ إِلَى وَحْدَتِى رَاضِيًا ... أَرَى فِى الْأَسَى غَايَةَ الْمُقْتَرَحْ

أنور العطار

يقظة الهوى

تعالى قد سجا الليلُ ... ونام الدوح والطيرُ
تعالى قد حلا الوصل ... وطاب السهد والسمر
تعالى ضاحكى البدرا
تعالى ناغى الزهرا
تعالى طارحى الجدولْ ... نشيد الأعصر الداوى
تعالى نرشف السلسل ... ونروى روحنا الذاوى

شجتنى رنة العودِ ... وصوت الناى أغرى بى
تعالى أنتِ معبودى ... وهذا الروض محرابى
تعالى فجّرى قلبى
ينابيعَ من الحب
تعالى عطّرى النرجسْ ... بعطر الورد والشوق
تعالى نوّرى الحندس ... بنور الحب والعشق

أيا ليل ألا أمهلْ ... معنًى فيك ذا مأربْ
وقل للصبح لا يقبل ... وقل للنجم لا يغرب
هلمى نفحة الوردِ
هلمى ملكة الخلد
هلمى قبل أن يجفو ... ويمضى الليل والبدرُ
هلمى فالهوى يغفو ... اذا ما استيقظ الفجر

البصرة

فنى شط العرب

جائزة الأدب الكبرى

هنرى دو منترلان

Henry de Montherland

بقلم على كامل

لمحة عن أدبه وفنه

منحت الأكاديمية الفرنسية جائزة الأدب الكبرى للكاتب الشاب هنرى دو منترلان ، فارتفع بذلك اسمه إلى مصاف أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين ، وتنبهت الأذهان إلى الطابع المخصوص الذى يمتاز به أدبه كفن من فنون القصة الفرنسية الحديثة :

وهنرى دو منترلان كاتب من كتاب الشباب الذين تفتحت عيونهم على ضوء هذا القرن العشرين . ولد عام ١٨٩٦ . ودخل مدرسة سانت كروا دو نويبى . ولما شبت الحرب الكبرى خرج من المدرسة ليشترك فيها وجرح جروحا بليغة . وكان طبيعياً أن يعود منترلان وقد ملأت نفسه نزعة التشاؤم والثورة ، فقد هجر مدرسته ليخوض غمار المجزرة البشرية الكبرى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، فعانى فيها أشهرا من الحرمان والتضحية لم يجد لها مبرراً أمام عقله الذى يفكر وقلبه الذى يحس ، كما يفكر ويحس كل أديب فنان ينزع نحو مثل عليا فى الحب والرحمة والأخاء

عاد منترلان من الحرب ضائع العزم محطم الآمال . وكان استعداده الأدبى قد ابتدأ يتفتح على ضوء تجاربه ومحنه السابقة ، فانصبت آلامه وثورته فى أدبه تلمسها من بين خفايا السطور ، وكانت إنسانيته الحزينة تدفعه — كغيره من كتاب الشباب الذين خاضوا غمار الحرب — لوصف أهوالها وما جرته وراءها من التدهور الأخلاقى والفكرى . كذلك فاز (أنانية الفنان) التى تغمره كانت تأبى عليه أن يضحى بشىء دون أن ينال على تضحيته جزاء يبررها ويلتمس منه العزاء . لذا لم يغفر منترلان لأمته وللمجتمع تضحيته الكبيرة حين جرفته العاطفة الوطنية كغيره دون وعى الى ميدان القتال ليتعذب شر عذاب ويعود جريحاً بين الحياة والموت فاقد الأمل فى إتمام حياته المدرسية .

ولقد كان هذا الشباب المعذب دافعاً لهنرى دو منترلان الى أن يهيم بتلك السن التى ضحى وتألم فيها ، فأصبح يمجد سن الشباب (تلك السن — كما يقول — التى لاتعترف بجميل . سن القلب والنفس . نجم الحياة المتألق) . ولقد تدرج منترلان من ذلك الى الغرام بالألعاب الرياضية لأنها المظهر الذى تتمثل فيه حيوية الشباب وجبروته ، ولأنها الوسيلة لأطالة عهد الشباب الى أبعد مدى مستطاع

و (أدب الالعاب الرياضية) فن حديث جداً فى الأدب الفرنسى . وترستان برنار هو صاحب الفضل الاول فى تغذية القصة الفرنسية بالأفكار الرياضية ومعالجة شئونها ووصف أبطالها ، وكان يحب الكتابة عن ألعاب الملاكمة وأبطالها كما فى قصته Nicola2 Bergère على أن هذه الحركة ظلت بطيئة الخطر ، ولم يتعد نشاط قادتها القليلين الكتابة فى الصحف والمجلات ، وإخراج عدد قليل من الأعمال الأدبية التى لم تكن ذات قيمة تذكر . . الى أن كانت الالعاب الاولمبية عام ١٩٢٤ فنشط أنصار (أدب الالعاب الرياضية) وأرادوا أن يدخلوا الفنون الرياضية فى القصة الطويلة والقصيرة وفى الشعر أيضاً ، وكثر عددهم واتسعت مدرستهم وأصبح كل منهم متخصصاً فى الكتابة عن فن من فنون الالعاب الرياضية ، فمنهم من هام بالسيارات مثل هنرى كستما كرز Kistemackers كما فى قصته M. Dupont Chauffeur ومشيل كورداى Kordoy فى قصته Nonsieur. Nadrme et L'auto وأكتاف ميربو Mirbeau فى قصته الشهيرة La 628-E8 التى تعتبر فى نظر النقاد أروع قصة فى (أدب السيارات)

ومنهم من ولع بألعاب كرة القدم مثل جان برنييه Bernier فى قصته Tête de mêlée ولوي هنرى دستل Destel فى قصته Desroches footballeur وتعتبر قصة L, Histofre de quinze hommes لمارسيل برجيه Berger خير ما كتب فى (أدب كرة القدم)

وهناك غير هؤلاء الكتاب عدد كبير من أنصار هذه المدرسة جعلوا من شخصيات قصصهم أبطالاً لفنون رياضية أخرى مثل سباق الخيل والطيران وغيرها.

وهنرى دو منترلان يعتبر اليوم زعيم الأدباء الشبان على الاطلاق ، وأدب الالعاب الرياضية على الخصوص . وقد برع فى الكتابة عن المصارعة . وسافر خصيصاً الى اسبانيا وتعلم طريقة مصارعة الثيران

ودرس نفسية أبطالها وأخلاقهم ثم عالج ذلك فى قصته Les Bestiaires

كان أول أعمال منترلان كتابه La Relève du Matin الذى كتبه عام ١٩١٦ وظهر عام ١٩٢٠ وهو قطع من الشعر المنثور يصف فيها ذكرياته عن الحرب والمدرسة التى كان يتعلم فيها . وفى عام ١٩٢٢ ظهرت قصته Le Songe وفيها يمجد الالعاب الرياضية والصداقة التى بين الابطال الرياضيين . تلك الصداقة التى يضعها (البان) بطل القصة فوق الحب . وفكرة (البان) عن الحب هى فكرة الكثرة العظمى من أبطال الرياضة الذين يقعون فريسة النزاع الدائم بين نداءين : نداء القلب ونداء الواجب الرياضى الذى يطالبهم بالابتعاد عن النساء كيما يحتفظوا بعناصر القوة فيهم . وينتهى بهم الأمر الى انتصار النزعة الرياضية وعبادة القوة والمجد فيتضاءل مركز المرأة فى نظرهم . وهم لذلك لا يؤمنون بالحب العاطفى . فالحب فى نظرهم ميل جسدى اذا ماتحقق مات ما يسميه الناس بالحب ، ولذا نرى (البان) يرفض حب القلب بقسوة

ولألبان هذا رأى غريب الى حد ما . فهو يقول إن العالم خاضع لفلسفتين : فلسفة النساء وفلسفة الرجال . فالأولى تتمسك بالديموقراطية ، أما الثانية — وهى التى يؤمن بها بعناد — فهى تتشبث بالماضى المجيد وبالقومية .

وفى قصة le Paradis à l'ombre des épées (١٩٢٤) نرى منترلان يبرر اهتمامه بالألعاب الرياضية إذ يعتبرها مرحلة من مراحل تحقيق الشخصية ، على أن فكرته فى علاقة الرياضة بتكوين الشخصية تتكرر بشكل أقوى بروزا فى قصة (مصارعى الوحوش) Les Bestiaires (١٩٢٦) . إذ يعرض لنا منترلان نوعاً من أنواع المخاطرة الجريئة ، تلك التى يستهدف لها مصارعو الثيران يعرضها مصاغة فى قالب بارع يدفعنا لاحترام أولئك المصارعين البواسل الذين يغامرون بحياتهم حباً فى السيطرة وإظهاراً للقوة وامتحاناً لشخصياتهم التى لا تعتبر كاملة فى نظرهم إذا عرفت للوجل معنى !

وقد كتب منترلان فى هذه الفترة القصيرة من حياته الأدبية عدداً كبيراً من القصص أهمها عدا ما ذكرنا قصة Aux fontaine du Désir (١٩٢٧) و Pages de Tendresses (١٩٢٨) و La Petite Infante de Costille (١٩٢٩) و La Rose des Sables و Hispano Maurésque .. وكانت آخر قصصه قصة (العزاب) Les Cilibataires

والآن قد يتساءل القارىء . كيف يبشر منترلان بقيمة الألعاب الرياضية ويخصص أدبه لخدمتها والدعوة لنشرها وهو الناقم على مظاهر العنف ، الثائر على نظام الجندية والحرب ، الداعى الى الأخاء والمحبة والتعاون ؟ ومنترلان نفسه يحس بالتناقض الظاهر بين طبيعته الثائرة المتمردة وبين نظام الألعاب الرياضية الذى يدعو اليه وما فيه من معانى الترف البرجوازى . على أنه يقبل ذلك كارهاً غير مرتاح الضمير . يقبله كوسيلة لتحقيق فلسفته التى ترى فى الألعاب الرياضية — كما ذكرنا — وسيلة لأبراز الشخصية والسمو بها على سائر الشخصيات التى تحيط بها . والواقع أن منترلان قد أجاد تصوير فكرته بطريقة غاية فى الابداع . فأنت تلمح من خلال شخصيات قصصه كيف تتفتح الشخصية وتسود حين يصبح صاحبها بطلاً من أبطال الرياضة . وكيف يغمر صاحبها النشاط والحيوية وعبادة البطولة التى تدفعه للاستهداف للموت راضى النفس مرتاح الضمير

وأدب منترلان أقرب إلى الرومانتيكية منه إلى الواقعية وهو فى ذلك يقول (إن الواقع والحقيقة تقع عندى فى المرتبة الثانية) وإذا كان كل كاتب لابد أن يتأثر بروح بعض من سلفه من الكتاب ، فان بلزاك وشاتو بريان يطبعان أدب منترلان بطابع لا يمكن إنكاره وتناسيه

ويمتاز هنرى دو منترلان بأسلوبه الرائع ، فثروة الألفاظ وحسن اختيارها وأدائها ، والموسيقى السامية التى تلبس عباراته فتعبر عما يدوى بين أرجاء نفسه من النزعات والعواطف هى أظهر ما يميز فنه وشخصيته بين الكتاب الفرنسيين المعاصرين .

على كامل

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد فى مصر وبخمسين قرشا فى البلدان الأخرى

العلوم

مدام كورى وقصة الراديوم

١٨٦٧ – ١٩٣٤

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

مسيو ومدام كورى :

توفيت مدام كورى فى صباح الرابع من شهر يوليو الحالى بعد أن نالت من النجاح فى حياتها العلمية والعملية مالم تنله أخرى من قبل ، فانطفأ ذلك السراج المنير الذى أضاء سبيل بعض علماء العصر الحديث فى الوصول إلى أخطر انقلاب علمى حديث ، وهو النظرية الحديثة فى تركيب المادة

ولدت مارى سكلود وفسكا فى فارسوفيا عاصمة بولونيا فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، ولكنها نزحت عن وطنها الأول إلى وطنها الثانى فرنسا لأسباب سياسية . فذهبت تطلب العلم فى السوربون ، وقد اضطرها الفقر إلى الخدمة فى معامل المعهد ، فكانت تغسل الزجاجات وأنابيب الاختبار لتنال من ذلك ما يساعدها على تسديد نفقات التعليم

تعرفت بالمسيو « پيير كورى » الذى كان يعمل فى السوربون هو الآخر ، وقامت تساعده فى أبحاثه التى كان يقوم بها فى ذلك الوقت فى الكهربائية وخواص الأجسام المغناطيسية فى درجات الحرارة المختلفة . وقد انتهى بها هذا الارتباط الذى ابتدأ فى العمل الى الزواج به فى سنة ١٨٩٥ . وقد ظلا يعملان معاً احد عشر عاماً توصلا فيها إلى الكشف عن عدة عناصر أهمها « البولونيوم » و « الراديوم » . وقد كشف الأستاذ الفرنسى « بيمون » عن وجود عنصر الراديوم مستقلاً عنهما ، ولكن اسمه لا يكاد يقرن باسميهما عند الكلام عن الراديوم إلا فى القليل النادر

قصة الراديوم :

لم يكن الكشف عن الراديوم من هذه الاكتشافات التى أتت عفواً وكاد مكتشفها يتعثر فيها أثناء سيره فى عمله ، كما حدث للأستاذ الألمانى « رُنتجن » عند كشفه عن الأشعة التى تعرف باسمه ؛ ولا من تلك الاكتشافات والاختراعات التى كأنه قد أوحى بها إلى أصحابها ، كما حدث للأستاذ « ويلسون » عند تفكيره فى صنع « الغرفة القائمة » ، وهى الجهاز الذى يمكننا من رؤية مسار الدقائق المتحركة التى لا يمكن رؤيتها بالعين ولا بأقوى ميكروسكوب [1] . بل كان من هذه الاكتشافات التى عمل لها أصحابها وكانوا يتوقعونها نتيجة لأبحاثهم الرياضية أو الطبيعية ، كما حدث عند البحث عن السيار « نبتون » فقد رآه « لفربيه » بالرياضة قبل أن يراه « جال » بتلسكوبه

اذن لا بد أن يكون قد سبق الكشف عن الراديوم دراسة بعض الظواهر التى مهدت السبيل لظهور هذا العنصر ، وهذا ما أود أن أسرده الآن مرتباً ترتيباً تاريخياً

فى سنة ١٨٩٥ ، وهى السنة التى ارتبط فيها « الكوريان » بالزواج ، كان الأستاذ « رنتجن » يمرر التيار الكهربائى فى الأنابيب المفرغة تقريباً من الهواء ، وهى المعروفة بأنابيب « كروكس » ، وذلك للكشف عن أشعة غير مرئية للعين . فلاحظ أن لوحاً مغطى بطبقة مومضة — وقد وضع عفواً بجوار الأنبوبة — قد تألق وأومض وهو فى الظلام . فاذا انقطع التيار انقطع الوميض . هذا الوميض يحدث لمواد معينة إذا سقطت عليها أشعة الشمس ، وبالأخص ما كان منها بعد البنفسجى ، وامتصت جزءاً من الطاقة الضوئية ، ثم أخذت إلى الظلام . فالطاقة الممتصة تنطلق ببطء ، وتومض المادة حتى تزول الطاقة

(١) الجهاز عبارة عن صندوق يحتوى على بخارماء دون التشبع بقليل ، فاذا برد هواء الصندوق وأطلقت الدقيقة فانها فى انتقالها تمزق الذرات فتتأين وتصبح مراكز لتكاثف البخار . فنرى خطاً أبيض من بخار الماء المتكاثف على طول الطريق الذى أخذته الدقيقة المتحركة

المخزونة . يحدث هذا إذا عرضت هذه الأجسام إلى أشعة الشمس ، ولكن لوح « رنتجن » لم يتعرض تعرضاً مباشراً لأشعة الشمس ولا للأشعة الخارجة من أنبوبة « كروكس » لأنها كانت مغطاة بورق أسود يمنع نفاذ كل الأشعة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ولكن مادام اللوح قد أومض فيجب أن يكون « رنتجن » قد توصل إلى أشعة غير معروفة من قبل ويمكنها النفاذ من الأجسام المعتمة ، وقد سماها رنتجن « أشعة اكس » أو « الأشعة السينية » أو « الأشعة المجهولة » . ولكن عدم معرفته لكُنه هذه الأشعة لم يمنعه وغيره من دراسة خواصها ، فعرف أنها تخترق الصفائح الرقيقة المعدنية ، وأن مقدار نفاذها من هذه الصفائح يختلف باختلاف المعادن نفسها ، وأنها تؤثر على الألواح الفوتوغرافية وتلقى عليها ظلالا للأجسام المعتمة التى توضع بين مصدر الأشعة واللوح الفوتوغرافى ، وأنها تجعل الغازات موصــــلة للكهربائية ، وأنها تضيع شحنة الأجسام المكهربة

هذه هى نتائج التجارب الأولى التى أجريت على « أشعة رنتجن » فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، وفى السنة التالية فكر أحد علماء فرنسا وهو الأستاذ «هنرى بيكرل» فى شىء آخر وهو : إذا سقطت « أشعة رنتجن » على جسم مومض فانه يومض ويتألق ، فهل العكس صحيح ؟ هل المادة بعد تعرضها لأشعة الشمس ثم تركها تومض فى الظلام ، تخرج « أشعة اكس » أو أشعة نفاذة مثلها ؟ للاجابة على ذلك السؤال اشتغل « بيكرل » بأملاح الأورانيوم المومضة ، فتركها فى الشمس مدة ثم لفها فى ورق أسود ووضعها فى الظلام بجوار لوح فوتوغرافى ، فوجد بعد مدة أن اللوح قد تأثر . اذن هناك أشعة خرجت من ملح الأورانيوم المومض ونفــذت من الورق الأسود ، فهى كأشعة رنتجن فى ذلك ، وقد وجد لها أيضاً بقية الخواص المعروفة لهذه الأشعة . ولكن استمرار البحث بيّن له أن هذه الأشعة الخارجة ليس لها علاقة البتة بالوميض كما كان يعتقد . فالوميض يضعف عادة مع الوقت ، ولكن هذه الأشعة النفاذة لم يكن ليعتريها الضعف بمقدار محسوس . أذاب الأملاح المومضة وبلوَرها فى الظلام دون تعريضها لأشعة الشمس فوجدها تخرج نفس الأشعة . أخذ أملاح الأورانيوم غير المومضة فوجدها تخرج نفس الاشعاع النفاذ.

جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة التى كان من نتيجتها الكشف عن « المواد المشِعّة » أو المواد الراديومية [(١)]

انقسم العلماء بعد تجارب « بيكرل » إلى فريقين : الأول ذهب يبحث عن ماهية الأشعة التى تصدر من أملاح الأورانيوم ، والثانى يبحث عن مواد أخرى لها نفس خواص أمـــلاح الأورانيوم ، وقد تزعم هذا الفريق « مدام كورى » وزوجها ، بعد أن أبدت رأيها فى مبحث الفريق الأول من العلماء بأن قالت : إن « الفعل الأشعاعى » لأملاح الأورانيوم راجع إلى خاصية فى المادة لم تعرف بعد ولا تشبه فى ذلك أشعة رنتجن .

وأول ماوصلت إليه « مدام كورى » فى بحثها أن إشعاع أملاح الأورانيوم « خاصية ذرية » . أى أن مقدار الاشـعاع يتوقف على مقدار الأورانيوم أو عدد ذرات العنصر الموجودة فى المادة المختبرة . وليس له أية علاقة بالمواد الأخرى الداخلة فى تركيب الملح . وإلى ذلك يعزى سر نجاحها فى الكشف عن مادتين مشعتين أخريين

وجدت بقياس الفعل الاشعاعى لبعض المواد التى تحتوى الأورانيوم أن قوة اشعاعها تفوق ما ينتظر أن يكون ، على حساب أن الموجود فى المادة أورانيوم فقط . فلو كان الفعل الاشعاعى « خاصية ذرية » كما وجدت هى فــلا بد أن توجد مادة أخرى أقوى فى فعلها الاشعاعى من مادة الأورانيوم نفسها . وعلى هذا الأساس بدأت « مدام كورى » تعمل لكى تفصل هذه المادة الجديدة . وقد شجعتها حكومة النمسا على المضى فى بحثها بأن أهدت اليها طناً من المعادن المحتوية على أملاح الأورانيوم المستخرجة من « بوهيميا » . ففصلت بالتحليل كل الأورانيوم الموجود فى الخامات ، ولكنها وجدت أن الباقى كان أشد فعلاً واشعاعاً من مقــدار الأورانيوم المستخرج بأربع أو خمس مرات . فاستخرجت ملح البزموث الموجود فى الخامات فوجدته متحداً مع مادة فعالة مشعة سمتها « بولونيوم » نسبة إلى وطنها الأصلى « بولونيا » . ثم استخرجت ملح الباريوم الموجود فيما تبقى من الخامات فوجدته متحداً مع مادة مشعة أخرى سمتها « راديوم » أو « المشِع » ، وهى تسمية موفقة . لأن هذه المادة الجديدة تفوق فى إشعاعها « الأورانيوم » بمقدار مليونى مرة إذا قورنت به وزناً بوزن . وقد أعلنت « مدام كورى » عن هذا

(١) الأفضل تسميتها المواد المشعة لأن اسمها Radioactive Substances مشتق من كلمة Radius اللاتينية ومعناها « شعاع »

الاكتشاف العظيم فى رسالة قرأتها أمام « أكاديمية العلوم » فى باريس سنة ١٨٩٨

وقد أثارت رسالتها الرغبة فى نفوس كثير من العلماء للبحث عن ماهية الاشعة المنطلقة ذاتيا من المواد المشعة ، وقد كان من قادة هـذا البحث سير « جوزيف تومسون » وسير « إرنست رثر فورد » (وهو الآن لورد رثر فورد) . فلم تأت سنة ١٩٠٠ حتى كان من المعروف أن هناك ثلاثة أنواع من الاشعاع تصدر عن المواد الراديومية .

الأول — اشعة لاتقدر على النفاذ من ورقة رقيقة ، وقد سميت « الاشعة الالفية » . وقد درسها « رثر فورد » فى المدة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠٩ فعرف أنها ليست أشعة بل دقائق متحركة بسرعة كبيرة ، وأنها مشحونة بشحنة كهربائية موجبة ، وأنها عبارة عن ذرات غاز الهليوم الذى تملأ به المناطيد الحديثة . وقد استخدم « رثر فورد » هذه الدقائق كقذائف يرمى بها الذرات فيحطمها ، وكان من نتيجة بحوثه فى ذلك أن وضع النظرية الذرية الحديثة ، القائلة بأن الذرة عبارة عن نواة متركزة فى الوسط موجبة التكهرب ، يدور حولها الكترونات سالبة .

الثانى — أشعة يمكنها النفاذ من ألواح من الالومنيوم سمكها بضعة مليمترات ، فهى أكثر نفاذا من الاشعة الالفية وقد سميت « الاشعة البائية » . وفى سنة ١٨٩٩ تمكن «بيكرل» و «جيزل» و « كورى » من معرفة أن هذه الاشعة تنحرف بتأثير المجال المغناطيسى ، فهى ليست أشعة بل دقائق كهربائية سالبة .

الثالث — أشعة أشد نفاذا من سابقتيها كشفها « ڤيّار » فى سنة ١٩٠٠ ، وسميت « الاشعة الجيمية » ويمكنها النفاذ من ١٥ بوصة من الصلب أو ٦ بوصات من الرصاص . وهى من نوع أشعة رنتجن .

وفاة بيير كورى :

انهالت على « الكوريين » التهانى والاسئلة بعد كشفهما عن الراديوم . وفى سنة ١٩٠٣ منحتهما الجمعية الملكية بلندن مدالية « داڤى » . وفى نفس السنة قسمت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية بينهما وبين «هنرى بيكرل» . وقد عين « كورى » استاذاً للطبيعة فى السوربون ، واختير فى سنة ١٩٠٥ عضوا فى «اكاديمية العلوم» بباريس . وبعد ذلك بعام واحد ، بينما كان خارجا من الجامعة صدمته عربة ومرت عليه فقتلته لساعته . وقد أثر ذلك فى زوجته حتى خيف أن تترك الاشتغال بالعلوم بعد تلك الفاجعة ، ولكنها تشجعت واستعانت بذلك الصبر الذى لازمها فى أبحاثها العلمية الشاقة . وقد عينت استاذة للطبيعة فى السوربون مكان زوجها .

وقد تمكنت « مدام كورى » من فصل عنصر الراديوم من أملاحه ، وهى عملية شاقة لأنه سريع التحول الى الايدروكسيد ، وعينت وزنه الذرى فوجدته ٢٢٥ ، ولكنها تمكنت بعد ذلك من تصحيحه الى ٢٢٦,٢ ، ثم وجده « ثورب » ٢٢٧ . وقد نالت من أجل ذلك جائزة نوبل فى العلوم الكيماوية ، وبذلك تكون قد نالت جائزة نوبل مرتين وهو مالم يظفر به عالم من قبل .

تأثير الراديوم فى خلايا الجسم :

استخدم الراديوم فى بحوث نظرية وعملية . ومن النظرية الكشف عن كيفية تركيب المادة وتحطيم الذرة . كذلك تقدير عمر الكرة الارضية بالاستعانة بما يوجد من الراديوم بين الصخور فانه يتحول ذاتيا الى مواد أخرى تنتهى بالرصاص بنسب معينة فى أزمنة معينة . ومن البحوث العملية التى يستخدم فيها الراديوم معالجة بعض الاورام الخبيثة مثل « السرطان » . وأول من عرف تأثير الاشعاع الخارج من المواد المشعة على جلد الانسان وخلاياه هو « بيكرل » فى سنة ١٩٠١ . ولكنه دفع ثمناً لذلك التهاب جلد صدره زمناً طويلا . فقد كان يحفظ أنبوبة صغيرة بها مواد مشعة فى جيب صديريته ، فاصيب فى مدة أربعة عشر يوما بالتهاب جلدى حاد تحت موضع الانبوبة ، سمى « حرق بيكرل » ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث تترى فى تأثير الراديوم على الخلايا المريضة فى الجسم ، فافتتح فى سنة ١٩٠٦ فى باريس « المعمل البيولوجى للراديوم» . وفى سنة ١٩٠٩ افتتح مركز يماثله فى لندن ولكن لا يزال النجاح غير كامل فى استخدامه للعلاج ، وان كان موثوق به فى الاضرار بالخلايا السليمة اذا أسىء تعريضها اليه .

وفاة مدام كورى

ظلت « مدام كورى » تحاضر فى السوربون ، وتجرى بحوثها العملية حتى هذا العام . فاصيبت بفقر فى الدم وانتقلت الى مصح حيث ماتت فى الساعة الرابعة من صباح ٤ يوليو سنة ١٩٣٤ بعد أن خلدت اسمها فى صحائف المجد .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

من الواقع

طارق الليـــل

للأستاذ أديب عباسي

كان ذلك فى ليـــلة من ليالى الحرب الكبرى وفى شطرها الأخير ، وكنا يومئذ لا نعلم من أهوال ذلك الصراع العنيف إلاّ مايستطيع الصغار — وما رُكِّب فى رءوسهم من عقول محدودة — أن يعلموا . فلم تكن الحرب عندنا إذ ذاك إلا تلك القترة وذلك الوجوم يعلوان وجوه الكبار ، وإلا ذلك القلق المقيم فى اللحاظ ، وتلك الهمسات يتبادلونها فيما بينهم ، ولا ينُون فى التلطف حيناً والمخاشنة حيناً آخر ، ليصرفونا عن الاستماع والاصغاء اليها . ولكنها كانت محاولات فاشلة ، إذ ليس شىء أعلق بنفوس الصغار وأخلب للبّهم وألصق بخيالهم وأدعى لفضولهم من حديث يتسارُّ به الكبار فيما بينهم ، ثم يُراد لهم ألا يُلمُّوا منه بشىء . فكنا — لنرضيهم ونأمن منا كدتهم — ننأى ونصد عنهم لا عبين ظاهراً ، ونتكنَّى عليهم بالسمع نرهفه لنلتقط ما يتسارُّون به ويتهامسون . فلم يكن يفوتنا شىء من أحاديثهم عن الحرب ، وما يقدرونه لها من استطالة ، وما يترقبون من مفاجآت ، ومايخشون من عواقب ، وما يتوجهون به من عطف ، وتمنى الانتصار لهذه الدولة أو لتلك .

على أن أظهر ما كان يبدو من آثار الحرب هو ما كنا نلمحه من مظاهر الفاقة والحاجة الى الغـذاء ؛ وهو أثر ليس للتجمل والابتسام المقسور عليه حيلة . فالحزن والغضب ، والحب والفرح ، والبغض والعطف ، والكره والحقد والخوف ، جميعها يستطيع المرء بالمران والممارسة أن يروض نفسه على إخفائها ، بل والظهور معها فى عكس مظاهرها الصحيحة . ولكن الجوع اذا أزمن لا يستطيع وجه أن يخفيه مهما رُزق صاحبه من قدرة على الاخفاء وحيلة فى التمويه .

أقول : كان هذا أكثر مظاهر الحرب بُدُوّاً عندنا وأشدها بروزا : وماذا ينتظر ممن كان فى سننا وفى مثل خبرتنا غير هذا ؟ وهل كان بوسعنا أن نستشرف من حوادث ذلك النضال غير هذا الأثر الذى لم يستجد علينا مع الحرب غيره ؟ فى الحق أننا لم نكن نعى من معانى تلك الحرب فى ذلك الحين سوى أنها شدة تقاسى فيها المعدة وتوابعها أشد مايقاسى ، وهى نظرة لم تكن من الضحولة وقرب الغور على قدر ما حسبنا لها فيما بعد ، حينما بدأنا نقرأ عن الحرب فى بطون الكتب وفى ثنايا الخطب ! وهذا فى الحق مما يُحسب للطفولة من بداهة مسدَّدة وإلهام صادق . ومن منا يشك بأن أقسى ماقاساه الناس عموماً فى الحرب هو الجوع ، حتى بين الجنود الذين كانت تشويهم نيران المدافع وتجزّئهم قذائفها !

***

أوينا الى فراشنا ليلتئذ على هدهدة قبضة من الأخبار المتناقضة عن الحرب مما ترشَّح الى البلدة النائية . وكنا نتلقى هذه الأخبار

وقد خلفت « مدام كورى » وراءها ابنتها مدام « جوليو » زوجة العالم الفرنسى الاستاذ « جوليو » . وهى كوالديها شغوفة بالبحوث العلمية ، وهى تسلك نفس الدرب الذى شقه والداها من قبل . فقد أجرت مع زوجها فى سنة ١٩٣١ بعض تجارب فى اطلاق « الدقائق الالفية » على عنصر « البريليوم » مما كان من نتيجته الوصول الى معرفة أحد الاحجار البنائية فى الكون وهو « النترون » . فان لازمهما التوفيق فسيكون للعلم « مسيو ومدام كورى » آخران ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه

فى كثير من الاستمتاع واللذة . وما هو إلا أن أغمضنا أجفاننا حتى نُقلنا من عالم الواقع المنغص الى عالم الأحلام والرؤى اللذيذة : من عالم الحرمان الى عالم الرغائب المحققة والمتع الدانية . فكان لنا من شهى الحلوى التى حرمتنا الحرب ما نشتهى ، ومن طريف اللعب التى غابت مع الحرب ما نختار . على أنها كانت لعباً من نوع آخر غير الذى ألفنا . فهى لعب صورها مشتقة ومؤلفة من الأوصاف التى كانت توصف بها أدوات الحرب يومئذ : طيارات تئز فى الفضاء ، وسيارات تنهب الأرض وتتخطف الأميال ، ودبابات تجوز الوهاد وتتخطى العقبات ، وأمور أخرى شتى . وكنا فى يومنا يشنُّ بعضنا الغارات على بعض ، وسلاحنا هذه الأدوات التى أعارها لنا الخيال . فلم يكن يكلفنا اقتناؤها جهداً ولا نقداً ، إلا أنها متع لم تدم ، وأحلام رُوِّعت ؛ فقد هببنا مذعورين بعد موهنٍ من الليل على طرق يُوالى دراكاً على باب أحد الجيران . وأصخت بملء جوارحى أتبين ضوضاء السيارات وقعقعة المدافع ، ورغاء الطيارات ، فيتصل ما بين يقظتنا والمنام : وهى الصورة التى تبادرت حالاً الى الذهن بعد ذلك الليل الحالم وبعد تلك الانكسارات والانتصارات التى عالجناها نياماً .

وأطللت فيمن أطلَّ من خصاص الباب نتبين الأمر ونجتلى الواقع ، وكلٌّ فى ذهنه — على ما أقدّر — صورة تباين ما فى ذهن الآخر تبعاً لأول بوادر الخيال المروِّع والبداهة المجفلة . ولم نلق صعوبة فى تبين الطارق ؛ فقد كانت ليلة قمراء فائضة النور كشفت لنا عن شخص فى بقية أثواب لا ينفكُّ يقرع الباب بجُمع يده قرعاً فيه عنف وفيه شدة ، يصيح بين الفينة والفينة فى نبرات شديدة يطلب فيها فتح الباب ممن كان وقتها وراء الباب

أما صاحبنا الذى كان الطارق يقصده بالطرق ، وبهذه الصيغة الآمرة بفتح الباب ، فقد ذهب به الخيال مذهباً آخر . وهل يتجه فى مثل هذا الحال الى غير اللصوص خيالُ من امتلأت صناديقه بالذهب وفاضت بالأصفر الرنان ؟ إن صاحبنا كان على ثروة لا بأس بها فى مثل ذلك العهد . فقد كان صاحب مطحنتين ، وكان لا يتخلّى عن صاع القمح بأقل من خمسة مجيديات ، ليس من طمع أو جمود عاطفة كما كان يقول ، بل لأنه حلف حلفة لا يبيع الصاع بأقل من هذا المقدار ! ! فكانت تجيئه المرأة وبيدها الخمسة مجيديات تنقص بضعة قروش تروم بها دفع أجور الطحن فى مطحنته ، فيبادرها بهز الرأس مشيراً فى أسف الى يمينه التى أقسم والتى ستجرُّه إن هو حنث بها الى الجحيم !

أيقن صاحبنا إذن أن لصاً شديداً جاء يقتحم عليه الدار عنوة ، وإذن فليتحصن ما تيسر له أن يتحصن ، وليتخذ من العدَّة كل ما يستطيع من عدة ، وليضع من الصناديق وراء الباب ما يضع ، وليأخذ بيده مسدسه محشواً ، وليوسّط بينه وبين الباب أمه العجوز يتترَّس بها ، ففى جسمها الدسم الغنى بالشحم واللحم ، وفى قامتها العريضة المديدة وقاء له خير وقاء إذا همَّ هذا الواغل بشىء من خلف الباب ، وتشجع صاحبنا المحاَصر ونادى بصوت كالحشرجة : مَن الطارق ؟ ! من الطارق ؟ ! فجاءه الجواب زيادة فى الطرق ولجاجة فى النداء والطلب . وتكرر السؤال الذى جعله الرعب على وتيرة واحدة ، وتكرر الجواب الذى جعله الاصرار على وتيرة واحدة أيضاً .

* * *

وقال كبيرنا : ليس هو باللص الذى يخشى . وعهدنا باللصوص لا يقتحمون المنازل على السكان ، بل هم يتسللون اليها فى غفوة من الناس وغفلة من الحراس . وهو كذلك ليس بالسائل والعهد بالمتسولين يقرعون الأبواب قرعاً خفيفاً فى أبصار غضيضة ، ورؤوس منكسة ، وأصوات خفيضة لا تكاد تبين ، الاَّ الأغرار منهم الذين لم يجربوا ولم يعرفوا من طباع البشر ما يعُرف المتسولون المجربون .

ولم نشأ أن نطيل الحدس والتخمين ، فتوجه كبيرنا إلى الطارق وسأله فى جفاء ماذا يريد فى ذلك الهزيع من الليل ، ولم ذلك القرع العنيف والنداء الصاخب ؟ فأجاب فى نظر شارد وفى غير أناة :

لقد مضى على ثلاثة أيام لم أطعم طعاماً ، فأوشكت أن أهلك وقد طرقت فيمن طرقت حياً من أحياء الاعراب المخيمين فى ضاحية البلد الجنوبية على بعد غلوتين أو ثلاث ، فوصفوا لى هذه الدار من البلدة ، وقالوا انك واجد هناك قوتاً ومأوى ليلتك هذه ، وعساى لم أخطىء الاستهداء .

وهم كبيرنا ليدخله بعد الذى عرف من أمره دون أن يزيد فى

سؤاله ، فينال بعض الطعام ويبيت ليلته . غير انه حدث فى هذه اللحظة ماراعنا جميعاً : ذلك أن صاحبنا المحاصر ، بعد أن أنس إلى أصواتنا ولهجة الحديث الذى دار بيننا ، أيقن أن الأمر من الخطورة على غير ما توهم وجسم له الخيال الزائغ . ففتح الباب بعنف ظاهر ، والسدس يلمع فى قبضة يده والعصا فى قبضة يده الأخرى ، ولم يتريث لنوضح له جلية الأمر ، بل أقبل على المسكين بهراوته الثقيلة وانهال يكيل له بلا حساب حتى كاد يقضى عليه بين أيدينا ، لولا أن لطف المولى وتداركه برحمته فسقط مما ناله بين أيدينا التى جعلنا منها شبه حاجز بين عنف الرجل الهاجم وضعف هذا الطارق . ولم يستطع صاحبنا معها أن يستعمل العصا فاندفع يكيل له بقبضة يده حيثما وجد سبيلاً إلى ذلك من بين أيدينا . وأدرك كبيرنا أى شىء يصير إليـه الرجل إذا لم يحل حيلولة تامة بينه وبين مهاجمه المحنق ، ولم تسعفه سنه من أول الأمر فى تخليص الرجل ، فلجأ أخيراً إلى أسلوب فيه شى من القسوة ، ولـكنه الأسلوب الذى لم يكن بالامكان ارتجال ما يفضله فى هذا الظرف الحرج . فقد أمسك بتلابيب الرجل وجره إلى حيث استطاع أن يوقيه من لكمات مهاجمه الذى أراد أن يثبت لنا بعد ذلك الموقف من الجبن أنه على شىء كثير من البأس والاقدام

وبعد أن هدأ روع الرجل وتناول بعض الطعام أقبلنا نلومه مشفقين ، وسألناه ما شأنه ولِمَ لم يختر له غير ذلك الأسلوب الغريب للاستجداء واستدرار العطف . فأجاب عن أسئلتنا جميعاً بقوله :

إننى جندى من فلول الجيش التركى فى فلسطين ، طوح بى السير إلى هذه البلاد بعد أن نال منى الجوع والتعب أقصى ماينالانه من حى . فقد كنت لقلة خبرتى بالطرق أسير من البلد الواحد أبغى بلداً آخر فأنتهى غالبـاً حيث أبتدىء ، وأبتدىء حيث أنتهى . وكنت حيناً أصيب طعاماً أو شيئاً شبيهاً بالطعام وأحياناً أمضى ساغباً أياماً لايخالط الماء فى جوفى شىء من الزاد ، وآخر عهدى بالطعام — كما أخبرتكم — كان منذ ثلاثة أيام . فقد استجديت واستجديت ، مصطنعاً كل أساليب الخشوع وأنواع الضراعة ، ولـكن فى غير طائل . وأخيراً وصلت ذلك الفريق من الأعراب فوصفوا لى هذه الدار ، فآليت لا أصبر زيادة عما صبرت فاما شبع يرد إلى الحياة . أو موت أرتاح معه من ذلة السؤال وآلام الجوع . وعوّلت على أمر . قلت أبادر أصحاب الدار بالعنف والصياح : فان كانت فيهم بقية من رحمة وأثارة من انسانيـة لم يمنعهم صياحى إذا ما شاهدوا ما أنا فيـه ، من الرثاء لحالى والجود على بشىء . وان كانت الأخرى وكانوا كبقية الناس نالنى منهم ما أرجو معه أن أضع حداً لهذه الحياة المثقلة . وحياة الجندى — كما قد تعلمون — لاتساوى فى هذه الأيام شيئاً ، ولا تعسر على أحد ، ولولا كم — جزيتم خـيراً على كل حال — لـكانت هذه آخر ليالى من الشقاء .

ولحظت عند هذا الحد من حديث الرجل الدمع يجول فى عينيه بين متحير ومتحدر ، يهبط به الحزن لحظة ، وتـكفكفه الرجولة أخرى . وكأنه آنس منى عطفاً صادقا عليه وإشفاقاً على ماصار اليه ، فأقبل على يحدثنى ويبثنى شكواه . وأغلب اليقين أنه لم يكن يعتقد أننى مدرك الى أى الأغوار والاعماق النفسية تنحدر آلامه وأشجانه . إلا أن ذلك لم يكن بمانعه قط عن الحديث . والمرء اذا زخرت نفسه بالألم وأترعها الحزن تحدث الى كل شىء ، تحدث الى نفسه ، تحدث الى سواه ، تحدث الى الأطفال ، تحدث الى الحيوان ، تحدث الى الجماد ، تحدث الى لاشىء . فكأن المرء فى ذلك الأناء يمتلىء فيفيض بالزائد على ماحوله .

كشف الجندى عن صدره وأرانى أثر جرحـين أو ثلاثة ، وكشف عن ساقه وأرانى مثل ذلك وشرع يقول : أترى ياولدى؟ هذا بعض نصيبنا من هذه الحرب . هذا بعض ما أصابنى . ولـكننى كنت كلما اصبت أتغلب على آلامى وأتحامل على نفسى فألوذ بربوة أو اهبط حفرة تقينى زيادة الأذى الى أن ينصرف العدو أو يزول الخطر ، فأقوم اذا كنت قادراً ، أو أحمل الى حيث أعالج ، لأعود الى القتال أمضى عزيمة وأشد بأساً . ولـكن الزمن — يابنى — والجوع والخذلان ، قد ذهبت بالـكثير من قوانا وصبرنا ، فعدنا لايهمنا أ كنا فى الطليعة أم فى المؤخرة . وأخيراً رأيتنى على غير ارادة منى أتخلف عن الجيش وأهيم على وجهى فى غير قصـد أو اتجاه ، الى أن انتهى بى المطاف الى هذا البلد ثم هذه الدار ، فنالنى ما نالنى على يدى ذلك العلج الذى كاد يميتنى بهراوته . . . أهـذا ياولدى جزاء هذه الجراح ؟ أهذه خاتمة الجندى الذى يدفع عـنكم

عدوان الأعداء بدمه وحياته ؟ ! إننى من غدى مسلم نفسى الى أقرب سلطة عسكرية تفعل بى ماتشاء . ذلك خير لى وأبقى .

والتفت اليه عند هذا الحد من حديثه وخاطبته متحمساً :

نعم ! ذلك أفضل ياعماه . لو كنت محلك ما فعلت غير هذا . انك هناك لا تضرب بالعصى على ما أعتقد ولا تجر على الأرض :

ونظر الى المسكين نظرة ذاهلة حزينة وقال :

نعم يا بنى ، سوف لايضربوننى بالعصى ، لأن العصى ليست جزاء من يتخلف عن واجبه فى الجندية ! إنما هى قطع من الرصاص صغيرة يدفنونها فى أحشائنا أو يولجونها فى رؤوسنا . فنضحى وكأن لم نكن . ولكن يميناً غموساً لن يحول هذا دون ما أنا عازم عليه من غدى !

وخُيل الى كأننى أدركت معنى هذا الكلام الغريب فراعنى من الرجل هذا العزم ، ونظرت اليه فى رعب ظاهر وذعر متوسل . وبعد لحظة من الصمت خيل الى فيها أن الرجل يتذكر أموراً ويستعيد صوراً رفع عينيه وقال :

كلا ياولدى الصغير ! كلاّ ! سأجاهد اذاً فى سبيل الحياة ، سأحاول أن أعيش . إن لى صغيراً فى سنك . لقد نسيته حينما أقسمت ، ولكننى الآن أذكره . انه ينتظرنى الآن : ينتظر أن يطوقنى بيديه الصغيرتين . سأعيش ، سأعيش

وانحدر الدمع المعلق فى مقلتيه منذ حين ، وذهب يسير فى أخاديد وجهه المجعد . وكان بعضه يقع على الأرض وبعضه الآخر تتلقاه كفه وفيها قِدّة من القماش أخذها من بقية قميص على صدره

وعدت الى فراشى وليس أقر منى عيناً ، وليس أدمى منى قلباً كذلك .

اديب عباسى

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

المغفل المخـــدوع

« إذا أصيب الرجل بداء الغفلة فقد الثقة من نفسه ، وعاد لا ينظر بعينه ، ولا يسمع بأذنه ، ولا يفكر بعقله »

أولع ملك من الملوك بالجديد من الثياب ، فكان يتأنق فى لباسه التأنق كله ، وأصبح لا يرى اللذة إلا فى الاغراب فيه ، وكثرة الانفاق عليه ، وما كان يعبأ بعد ذلك بأمر أمته ، فترك الجند هملاً ، وهم حصن الأمة وسلسلتها الفقرية ، واحتقر علماء الدنيا والدين ، وهم مصابيح الكون يضيئون الحياة ، ويبصرون الناس بسبلها المعوجة وطرائقها العجيبة ؛ وكان لا يذهب الى التمثيل حباً فيه ، وإنما ليعرض على الناس زخرف ملبسه وجميل هندامه ، وكان لا يخرج للنزهة ترفيهاً لأعصابه واستمتاعاً بجمال الطبيعة ، وإنما ليدهش من يقابل ، ويثير فيه عاطفتين : العجب من تأنقه ، والاعجاب بذوقه .

مرت الأيام هادئة فى حاضرة الملك الواسعة ، وأخذ يأتيها الناس من كل فج عميق . وفى ذات يوم قدم الى الملك لصان متشردان ، ضربا فى فنون الاحتيال السهم ، وذهبا فى صنوف الخداع كل مذهب ، وتظاهرا أنهما أستاذان مبرزان فى النسج والحياكة ؛ فأقبل عليهما الملك بسمعه وبصره . ثم قالا له : « أيها الملك المعظم ، إنا نريد أن نقدم لك خدمة جليلة ، إذ أنت بها خليق ، وهى بك أنسب ، إنا نستطيع أن نعد لك ثوباً شفيفاً جميلاً لا يراه عليك إلا من كان مخلصاً لك ، معجباً بك ، أو كفؤاً فى عمله ، قديراً عليه » .

فتهلل الملك واستبشر وقال : « لله دركما ياصديق ، ما أكرمكما وما أجمل صنيعكما ، إننى ولا شك أصبح بما تنسجان وتحوكان بصيراً بأحوال الخلق جميعاً ، فأعرف من كان لا يحسن عمله ، ولا يصلح للقيام بما وكل اليـــه ، وأعرف كذلك المخلص من المخادع المداهن ؛ فابدآ من الساعة بهذا العمل الخطير ، وأنا أعرف كيف أجزل لكما العطاء » .

ثم أمر الملك أن يعطيا مبلغاً كبيراً من المال ، وأُخلى لهما قصر رحيب على مقربة من قصر الملك ، ثم انتشر الجند حوله

يحرسونهما من اعتداء المعتدين (من غير المخلصين وغير الأكفاء !)

جلس اللصان المحتالان فى القصر الجديد ، ونصبا المناسج والأنوال ، وتظاهرا بالجد فى العمل ، والمثابرة التى لا تعرف الملل ، وطلبا من الحرير أرقه وأنعمه ، ومن الخيوط الذهبية أدقها وأنقاها . فجئ لهما بما أرادا ؛ ولما انفردا فى المكان وضعا الحرير والخيوط وما أخذاه من المال فى حقيبتيهما ، وجلسا الى مناسجهما القائمة يديرانها على لا شئ ، لا خيط عليها ولا قطعة حرير ، يديرانها بهمة غير محدودة الليل كله ، والملك فى قصره ساهر يسمع أزيز المناسج والأنوال ، وهى لا تضعف ولا تخمد . وأخذ النعاس يغالب جلالتـه حتى غلبه وأخضعه لسلطانه ، ولم ينزح عنه حتى تنفس الصبح ، وجلا الليـل جلاء تاماً ، فقام الملك مسرعاً الى نافذته ، تواقاً الى معرفة ما قد تم ، وأخذ يقلب وجوه الآراء فيمن يبعث ، فقر رأيه على رئيس وزرائه ، وما كان أخلص منه ولا أكفأ فى نظر الملك .

كلف الوزير الأكبر بهذه المهمة الشاقة ، فانطلق فى سبيله واثقاً من نفسه ، ودخل على الدجالين الكاذبين فوجدهما يتصببان عرقاً ، ويديران المناسج الفارغة بالقوة والعزم اللذين يميزان عمل المخلصين المصممين على النجاح ، فدهش الوزير الجليل وقال فى نفسه : « ماذا أرى ؟ أيمكن أن أكون غير مخلص للملك أو غير جدير بمكانتى الاجتماعية العاليـة ؟ أيمكن أنى لا أرى ولو قطعة صغيرة من الخيط أو الحرير على هذه المناسج القائمة الدائرة ؟ لله ما أشقانى ! » ثم صـدر من اللصين سؤال قطع عليه تفـكيره الصامت ، إذ طلبا منه أن يقترب قليلاً من المناسج ويخبرهما برأيه فى اتساق الألوان ؛ ودقة التطريز وجمال الأشكال ، ثم أشارا فى الوقت نفسه الى مناسجهما الفارغة .

اقترب الوزير الخطير ووضع منظاره على عينيه ليرى مالم تبصره عينه المجردة . نظر فلم ير شيئاً . ثم رجع البصر كرتين فعاد البصر اليه خاسئاً وهو حسير . اتهم الرجل نفسه وكفايته ودب الحزن فى قلبه . وقال فى نفسه : لا لا ! لا يمـكن أن يعرف الناس عني أننى غير مخلص أو غير كفء ، ولن أعترف أبداً أنى ما رأيت النسيج الشفاف .

لم يكد السيد الرئيس يفرغ من خاطرته الشجية المضحكة حتى فاجأه أحد المحتالين بقوله : « سيدى ، يظهر أنك لا تبصر محاسن ما قد صنعنا . » فأجابه الوزير : « لا أبصره ! ! ومن ذا الذى يستطيع الابصار اذن ؟ ما أبدع ما أرى وما أدقه ، بنفسى تلك الألوان المتسقة . وهذه التصاوير الرائعة . و . . و . . . نعم سأخبر الملك سريعاً بهذا البدع وهذا التفنن » فشكره اللصان شكراً جزيلاً على حكمته وكفايته . وأخذا يشرحان له الأشكال المختلفة الموهومة . ويذكران أسمـاء الألوان . ويبينان مواضع الحسن فى ذلك القماش الخيالى . والوزير يصغى اليهما ويهز رأسه لبعض ما يسمع حتى يسرده على الملك عنـد عودته حرفا بحرف

رجع الوزير والهم حليفه الى الملك ، وأخذ يصف ذلك الجمال الذى سمعـه بأذنه . وعجز عن رؤيته بعينه . والملك يترنح عجباً وسروراً . وفى اليوم التالى بعث الملك ضابطاً من ضباطه الذين سمعوا وصف الوزير وإعجابه بما شهد . فذهب الرسول ولم ير من المناسج إلا خشباً قائماً لا شئ فيه . ولـكنه اتهم عينيه واتهم كفايته وأخذ يفكر تفكيراً هو الحريق الداخلى ويقول لنفسه : « لاشك أنى غير كفء لمكانتى ذات الأجر الـكبير . أف ما أتعسنى ! كيف أعجز عن إبصار مارآه السيد الرئيس وافتتن به ؟ لا يجوز أن يعلم أحد عنى ما أعلمه الآن من نفسى . » ثم ارتفع صوته فجأة بالاعجاب والمديح ، وعاد إلى الملك يبالغ فى الثناء . فازداد الوزير (وكان حاضراً) اتهاماً لنفسه وكفاءته . وسر من كذبه الصالح . ثم عزم الملك على زيارة تلك المناسج العجيبة . فقام مع حاشيته ورئيس الوزراء والضابط الممتاز وذهبوا إلى اللصين جميعاً

دخلوا حجرة اللصين فصاح الوزير الأكبر صيحة العجب والاعجاب : « ما أجمل ذلك الزخرف . وما أدق هذه الصنعة ! وما أبدع تلك الألوان المتداخلة . وتلك الأشكال المتماثلة . » ثم صاح الضابط : « يالله ! ما كنت أحسب قبل اليوم أن فى طاقة الانسان أن يعمل كل هذا البـدع : ثوب شفيف مطرز . وبالأشكال الجميـلة مزخرف . وهو مع ذلك لا تراه إلا عيون المخلصين والأكفاء ، ولا تمسه الأيدى ولا تدركه الظنون . »

فوجم الملك وقال فى نفسه : « ما هذا ؟ ألا أرى شيئاً ؟ إنها لمصيبة كبرى ؟ هل يمـكن أن أكون معتوهاً أو غير خليق بالملك ؟ لا . لا بد أن أسدل على الأمر ستار الخفاء . » ثم صاح

« حقاً ما أجمل ذلك القماش ! إنى راض عنه الرضى كله » ثم ابتسم وحدق فى المناسج الفارغة . ولكن هيهات لنفسه الضعيفة أن تنكر وجود شىء أقره رجلان من كبار رجاله ! ! وانطلق رجال الحاشية يحدقون كذلك ويصيحون : بديع ! مدهش ! فخم ! عجيب ! رائع ! تلك كانت الصفات التى أخذت ترن فى أنحاء المكان الواسع . ثم عطف الملك على الحائكين وأجزل لهما العطاء ورفعهما إلى الدرجات العالية ، وقرر الملك أن يلبس تلك الحلة الرائعة ويسير فى موكب فخم فى أنحاء المدينة يعرضها على الأنظار . .

جاء يوم الاحتفال — ذلك اليوم المشهود — فخرج الناس من منازلهم ، وساروا زرافات فى الطرق ، حتى فاضت بهم السبل ، وكأن الأرض صفحة كتاب ، سطورها الشيوخ والشباب . أما الملك فقد جرده اللصان من ملابسه إلا قميصه وسرواله ، ثم أوقفاه أمام المرآة ، وأخذا يروحان ويجيئان ، ويرفعان أيديهما ويضعانها ، ويديران الملك أمام المرآة ليرى الحلة الجديدة ، وأفراد الحاشية وقوف بين متعجب ومسرور ، ثم صاح اللصان أن قد تم كل شىء فتقدم الخدم الى رفع الذيل الموهوم لتلك الحلة الخيالية ، وسار الملك فى طليعة السائرين ، والوزراء والأعيان حوله ووراءه ، والنساء مطلات من النافذ والشرفات ، والناس مبهومون بالنظرات . وما وقعت عيونهم عليه حتى علا الصياح يشق جوف الفضاء : « ما أجمل الثوب ، وما أبدع الذيل » ! ! . . .

وهكذا ظل كل انسان يخدع نفسه ويكذب عينيه ، ظناً منه أنه وحده قد عجز عن رؤية الثوب ، وأن الباقين يرونه كما يرى بعضهم بعضاً . واستمر الحال كذلك برهة والناس جميعاً خادعون ومخدوعون ، ثم صاح طفل ساذج : « ليس على الملك ثوب جديد ! الملك عريان ! » فبهت الجميع . . . ثم صاح شيخ كهل :

« اسمعوا صوت الحق ، اسمعوا صوت الطبيعة التى لا تعرف الملق والنفاق » . فاغتم الملك غماً شديداً إذ علم أن ما قاله الطفل حق صراح ، يبصره هو ويشعر به ، ثم عاد أدراجه بين سخر الساخرين ، واستهزاء الضاحكين .

م . ك

سيوة

تقع واحة سيوة فى صحراء مصر الغربية على الحدود ما بين مصر وطرابلس على مسافة مائتى ميل جنوبى السلوم وأربعمائة ميل غربى وادى النيل .

ويمكن القول أنها الواحة الشمالية من سلسلة واحات تتبع إحداها الأخرى من الجنوب إلى الشمال فى صحراء « ليبيا » وكان الأقدمون يسمون هذه الواحات « بالأراضى المقدسة » لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة منحت هذه البقاع ماء وسط تلك الصحراوات القاحلة ، ولأن هذه الواحات قد حمتها الطبيعة بأن أحاطت كل واحة منها بسلسلة من جبال كلسية تمنع عنها الرمال الدقيقة التى تحملها معها الرياح ، إذ لولا هذه الجبال لغطتها كثبان الرمال وجعلتها فى عالم النسيان ، كذلك عيون الماء المتفجرة فى هذه الواحات سببت الحياة والرخاء وسط ذلك المحيط القاحل غرب وادى النيل .

تتكون سيوة من عدة واحات صغيرة متجاورة تقع فى منخفض من الأرض يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلا وعرضه ستة أميال تقريبا ، وينخفض عن سطح البحر حوالى عشرين متراً تكنفها صحراء جرداء محرقة لا تسقط فيها الأمطار

ولقد زارها الاسكندر الأكبر حينما غزا مصر وتبرك بزيارة معبد « جوبيتر آمون » إرضاء للكهنة المصريين ورغبة منه فى إظهار احترامه لدينهم

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وهم سلالة أقوام قديمة من البرابرة ، ولا يشبهون أعراب الصحراء فى شىء . ولهم لغة خاصة بلهجة ولكنة غريبتين ، ولعلها لغة أجدادهم البرابرة القدماء ، والغريب فى أمرهم أنهم يتكلمون بتلك اللغة ، ولكنهم لا يتكاتبون بها ، بل إنهم يتكاتبون باللغة العربية ، ولا شك فى أن بقاء هذه اللغة البربرية راجع إلى بعد الواحة عن العمران . وصعوبة المواصلات بينها وبين الأجزاء الأخرى من القطر فقل اختلاط السكان بالمصريين والأعراب ، بل إن أهالى سيوة لهم عادات خاصة ، وطباع تخالف فى جوهرها طباع العرب و سكان وادى النيل

ليس لهذه الواحة تاريخ معروف ، بل إن ماضيها مظلم ، وليس من

سبيل لالقاء أشعة من النور لمعرفته إلا إذا قامت بعثات علمية بالحفر فى جبالها وآثارها والتنقيب فى معابدها وخرائبها حتى يمكن أن يرفع ذلك الستار الكثيف عن تلك المدنية البائدة الغريبة

والطريق الأكثر استعمالا للوصول إلى سيوة هو من مرسى مطروح والسلوم ، ويمكن للسيارات الصغيرة الخفيفة أن تقطع مابين مرسى ومطروح وسيوة فى ثمانى ساعات . أما السيارات الثقيلة المعدة للتحميل فتقطع المسافة فى يومين . وتقطعها الجمال فى سبعة أيام ، ويقطع كثير من أعراب الصحراء المسافة من شاطىء البحر الأبيض إلى سيوة مشيا على الأقدام وهى مسافة لا يستهان بها إذا أضيف اليها ندرة الماء فى الطريق .

وكل ما يعيش عليه الأعرابى فى الطريق ، قليل من التمر ولبن الناقة وقطرات من الماء ، وبهذه المناسبة أقول إن السيارات لم تبدأ بالسير بين مرسى مطروح وسيوة إلا منذ سنة ١٩٢٦ أما قبل ذلك فالمواصلات بين البلدين كانت بالجمال ، غير أنه حدث أن زار الخديو السابق عباس باشا سيوة سنة ١٩٠٥ مع بعض الألمان الذين كانوا ينقبون عن الآثار فى مدينة «سانت منياس» القديمة التى تقع فى الجنوب الغربى من الاسكندرية وكان بصحبته الهر إيوارت فولز . Ewart Falls وقد قطع المسافة لسيوة على عربة مكشوفة (فيتون) تجرها جياد تستبدل بغيرها كلما أصابها الكلال والتعب ، وهذه هى المرة الأولى التى سارت فيها عربات ركوب فى الصحراء فى تاريخ سيوة الحديث ، وتألفت حملة الخديو السابق فى هذه الزيارة من أربعة علماء من الألمان وعشرين جنديا وإثنين وستين حصانا و٢٨٨ جملا لحمل الأمتعة . هذا عدا خدم الخديو الخصوصيين .

وتهتم مصلحة الحدود الآن باصلاح الطريق ما بين مرسى مطروح وسيوة ، فهى تزيل الصخور من الطريق وتضع مخلوطاً من خرسانة الأسمنت فى المواضع التى يغطيها مطر الشتاء ، ثم إنها أصلحت بعض المستودعات القديمة الرومانية التى تجمع فيها الأمطار وسقفتها بأسقف من خرسانة الأسمنت وعملت فيها فتحات حتى يتمكن المارة من أن يحصلوا على الماء بالقاء دلو مربوط فى حبل كى يأخذوا مايشاءون من الماء ، وحتى لا يضيع أى قدر من ماء الأمطار ، وازدادت تلك العناية عقب زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك الأخيرة سنة ١٩٢٨ إذ أن مصلحة الحدود تعمل على إيجاد أكبر عدد من مستودعات ماء المطر فى طريق الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة لدرجة أن العربى الذى يقطع المسافة سائراً على قدميه يمكنه أن يجد فى طريقه كل يوم مستودعاً فيأخذ منه ما يحتاجه من ماء يكفيه طول اليوم ، ومن أكبر هذه المستودعات أو الآبار هو بئر جلالة الملك فؤاد الأول عند البويب وهى منتصف المسافة تقريباً بين مرسى مطروح وسيوة ، وتوجد آبار أخرى فى الطريق أذكر منها بئر الكنائس والحجفا وغيرها .

يقطع المسافر من مرسى مطروح الصحراء الغربية فى رقعة من الأرض متشابهة الأشكال والمنظر لا تغيير فيها ، فهى رمال صفراء تغطيها قطع صغيرة من الأحجار المتناثرة هنا وهناك ، ويمر فى طريقه ببعض التلول الصخرية القاتمة اللون . ولا يرى إلا سراب الصحراء على امتداد البصر . ولقد رسمت السيارات دروباً واضحة فى الصحراء بحيث أصبح السائقون على إلمام بها بحيث لا يضلون الطريق كأنما هم يسيرون فى شوارع البلاد الآهلة بالسكان ، وقبل الوصول الى سيوة بما يقرب من عشرين كيلو متراً تبدأ العربات بالانحدار فى طرق منعرجة وسط الصخور التى تحيط الواحة ، ولا تزال هذه الطرق تنحدر فى ميلها تدريجياً حتى تتمكن السيارات فى نهايتها من الوصول الى الواحة نفسها . وذلك الانحدار طبيعى لأن هضبة الصحراء ترتفع عن سطح البحر ، بينما الواحة نفسها منخفضة عن سطح البحر حوالى عشرين متراً ، وما أن ينتهى ذلك الانحدار حتى ترى أشجار النخيل وقد مالت كل منها على الأخرى وكأنما هى عرائس وضعت على رؤوسها أكاليل من أوراق الربيع الخضراء ، وتراها وهى فى وسط الواحة الهادئة الساكنة كأنما تسر كل منها للأخرى أسرار الكون وأسرار وجود الحياة وسط تلك الصخور الصامتة الخرساء . ولا شك فى أن القادم على سيوة حينما يقع بصره على أشجار الزيتون والنخيل يشعر بالفرق الشاسع بين تلك الصحراء المملة برمالها ودروبها ، وبين تلك الواحة باخضرارها ووجود الحياة البالغة فيها . ثم يستمر السير وسط حقول الواحة وقد أحيط كل حقل بسياج من جريد النخل الذى لفحته حرارة الشمس فتحول لونه من أخضر زاه الى أصفر ذهبى ، وبعد مسير بضع دقائق تصل وسط البلدة عند مركز سيوة .

« يتبع »

ثابتى

الكتب

رســـائل سائر

من بلاد العرب الى بلاد اليونان

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان

من الأمور اليسيرة العسيرة ، السهلة الممتنعة ، التى تستعصى اجادتها إلا على ذوى الأفهام النادرة ، والأقلام القادرة ، وإن خدعت ظواهرها ، وخيل لأوساط الكتاب أنها هنة هينة ، تستطيع أرباع الاقلام وأنصافها أن تجول فيها وتبرز ، هى تصوير الشعوب تصويراً صادقا ناطقاً قوياً رائعاً . . . يروى عن سائح فرنسى زار انجلترا ، أنه لم يكد يقيم بها أسبوعا حتى حمل القلم وهم بالكتابة عنها ، فلم يقطر قلمه إلا كلمات متقطعة وأسطراً ركيكة فلم يشأ أن يرد ذلك الى قصوره وعجزه ، وزعم لنفسه أنها سبعة الايام لا تجمع فى الذهن محصولاً من الصور يكفى لاجادة التصوير ، وعول على الاقامة شهراً كاملاً ، فانقضى الشهر واهتز القلم ، وانغمس فى الدواة مراراً وجف مراراً ، دون أن يهبط عليه الوحى الذى يرجو ، ولكنه ليس عاجزاً ولا مقصراً ، انما هو الشهر لاينفع ولايجدى كاتباً يريد أن يجيد . فصبر حتى دار الفلك دورة كاملة ، وانسلخ العام بشهوره الاثنى عشر . والذهن على ركوده والقلم على جموده ، فأيقن بعجزه عن الوصف وارتحل

فليست الكتابة عن الأقطار والشعوب هينة لينة كما يبدو ، إنما هى مرتبة عالية ، تحتاج الى قلب كبير حساس ، يعى ما يرى من الصور وعياً تاماً ويحسها احساسا قوياً ، حتى لكأنه نشأ بينها ودرج فى أحضانها ، والى عقل راجح لايميل به الهوى ، فيزن القول وزناً دقيقاً عادلاً ، والى قلم قدير ينطق بما يحسه القلب ويحكم به العقل . وقد اجتمعت هذه الأدوات الثلاث لدى الاستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان ، الذى طوف فى أرجاء فلسطين وسوريا وزار بلاد اليونان ، فلم يعوزه ذلك القلب اللاقط الحساس ، ولا غرابة فهو أبو التلاميذ جميعاً ، الذى وسعت رحمة قلبه ألوف الأبناء ، ولم ينقصه العقل الراجح المتزن العادل ، فقد عرفته منصات القضاء أعواماً وأعواماً ، فاذا ما أحس قلبه واذا ماحكم عقله ، ألفيا قلماً بليغاً ينطقانه فى بيان ساحر خلاب .

طوف الأستاذ فى تلك الأنحاء ، فأحس كثيراً وعلم كثيراً ، فأملى على القلم إحساسه وعلمه ، فصدع القلم ودبج فصولاً لست أعرف خيراً منها ، أستغفر الله بل ما يدنو منها فيما كتبه الرحالة المتجولون حديثاً ، وأخذ ينشر تلك الفصول تباعاً فى صحيفة سيارة ، ثم نظمها اليوم فى كتاب ، حتى يطالعه الأخلاف كما قرأه المعاصرون ، فكان هذا الكتاب القيم : رسائل سائر

قرأت الكتاب فراعتني منه جوانب ثلاثة : التصوير الدقيق ، والملاحظة الصحيحة ، واستخلاص العبرة ، ولو أردت أن أسوق اليك الأمثلة لنقلت اليك الكتاب الذى أدعوك لقراءته من السطر الأول إلى السطر الأخير

على أن فى الكتاب هنات يسيرة ، كنا نرجو أن يبرأ منها كالتطويل القليل الفائدة فى بعض المواطن ، وقلة عدد الصور ، وهذا القليل لم ينل حقه من الاجادة تصويراً وطبعاً ؛ وكالأطناب فى خالد بن الوليد ، ومن رأينا أن مايمكن تحصيله وأنت هادىء ساكن فى مكتبك ، ليس مما يحسن ذكره فى كتب الرحلة ، وبوقوع بعض الأخطاء اللغوية ، أو التى نحسب أنها كذلك ، فى صفحة ٧ يقول « ظاهرة حقة » ونظن أن الصفة هنا لاتؤنث كقولك رجل عدل وامرأة عدل . وفى صفحة ٣٥ ذكر الريح مذكراً وأظنها أو يحسن على الأقل — أن تكون مؤنثة . وفى صفحة ٣٨ ذكر « باقة زهر » والباقة لا تكون إلا للبقل ، أما حزمة الزهر فيقال لها طاقة الزهر .

وانما نذكر هذه المآخذ لضرورة ذكرها فى مجال عرض الكتاب ، على انها لاتشوه من جمال الكتاب فى شىء ما

زكى نجيب محمود

2 me Année, No. 55. — Lundi-23-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــــــــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٢٣ يوليه سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بمناسبة ذكرى حافظ

بين السياسة والأدب

ينظر الأدب المصرى اليوم الى السياسة نظر المَغيظ الحانق لطغيان جاهها على جاهه، وعدوان سلطانها على استقلاله، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث القوى المتحكم بقوانين العدالة!

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا، وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك، وذكرى أدبية لحافظ ابراهيم بك: فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة. شملت البلاد، وشغلت الصحف، وأرهفت الشعور، وأرهبت الحكومة، ونفّست عن العاطفة العامة المكروبة: وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا شاهدين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب؛ فشيّع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة، ونسى الثانية كل الأصدقاء وكل الخاصة. ثم تهامست بين الناس الشكوى، وتمتمت من الأنصار المعاذير.

وتجاوبت فى الأقطار الشقيقة أصداء الأسف ، ونعى كاتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة : وليس الأمر فى نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة . ويثير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فإن السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه .

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر . وتحميها المظاهر . ويقويها الحشد ، وينشرها الاعلان ، ويديمها التذكير ، وتجددها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرم فى ذكرى الميت كما كان يكرم فى وجود الحى ، وما حالات السياسى إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو بتكريم البطولة الى البطولة . وبتعظيم التضحية الى التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكبوتة أن تتلمس الحرية فى كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فُرْجَة

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة

والسياسة بعد ذلك كله للشعب ، فرجالها زعماؤه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها مواقفه

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك ، ليس عقيدة للعامة . ولا فكرة للأمة . ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبة ؛ إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف ، فاذا لم يحتفل أهله بأهله ، وبنوه جمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة

***

الأدباء هم الملومون على هذا العقوق ، والصحفيون هم المسئولون عن هذا الأهمال ، وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة ، هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع الى ذلك ؛ والأديب الذى يَنْفِس على أخيه محنة الوجود ، يجد الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود .

والأدب فى الحياة وفى الممات شر على صاحبه . فإنا لا نزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ، ثم لا تترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطى بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكى ، كأن للكاتب يداً فى تركيب مزاجه ، وتكوين بيئته . وتأليف ظروفه ، وتثقيف ملكاته . كذلك لا نزال نسمع من يشدد النكير على شوقى لأنه عالج فى بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ فى ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ، وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبى كان يمدح سيف الدولة !

***

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ . إن حافظاً رحمه الله ما يزال يقتضى أصدقاءه الخلّص حفلة التأبين وتأليف الكتاب ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال ؟

ولقد كان من جرائر نحسه الذى ظل بعد موته حياً يعيش ، أن مواهبه السامية فى الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ؛ فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ؛ حتى خشينا أن يصبح فى الخاصة ما أصبح أبو نواس فى العامة . !

***

فَمَنْ مُبْلغٌ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لا تبقى على المحن ، ولا تقوى على الأهواء ، ولا تثبت لظروف ، ولا تتجاوز كذب الحياة الى صدق الموت !

ومَنْ مبلغٌ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر ، تهيمن عليه المنافسة الكاذبة ، وتغض منه المحاسدة اللئيمة ، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة ؟

ومَنْ مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الانسان وظلم الزمان ، رائعاً ما راع الجمال ، ساطعاً ما سطعت الشمس . خالداً ما دام هذا الخلود ؟ ! .

احمد حسن الزيات

ســـمو الفقـــر

فى المصلح الاجتماعى الاعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

— ٢ —

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قطّ ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

وقالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعنها : كنا آلَ محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء .

وقالت : ما رَفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قط غداءً لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولا اتخذ من شىء زوجين ، لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى .

وقالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالىَ المتتابعة وأهلَه طاوياً لا يجـــدون عشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالاً لذكر الله ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمته .

وعن ابن مجير ، قال : أصاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألا رُبَّ نفس طاعمةٍ ناعمة فى الدنيا — جائعةٌ عارية يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مُكرمٍ نفسه وهو مهين لها ؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها »

وخُـيّرَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له مثل « أُحد » ذهباً فقال : لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك .

وكان يقول فى دعائه ويكثر منه : اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

* * *

هذا هو سـيد الأمة ، يمسكه فى الحياة نبياً عظيماً ما يُخرج غيره منها ذليـلاً محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فردّه أشعة نور ، على حين يُلقِى الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبـقى تراباً ، بل يرجع ظلاماً ، فكأنهم يطئون المجهول بخوفه وروعته ؛ ثم لا يستقر ظلاماً ، بل يرجع آلاماً ، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبت آلاما ، بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات الحمق والجنون فى النفس . هؤلاء الذين تعيش أنفسهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه — ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دُوداً لا يقع فى شىء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قوماً سوساً لا ينال شيئاً إلا نخره أو عابه ، فهم يوقعون الخلل فى نظام أنفسهم فذا هى طائشة تخيّل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا ، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم ، وشَغَلَهم وفرّغ مَن عداهم . وابتلاهم على مُسْكَـة الرزق بالشهوة المسعورة التى لا تتحقق ، فضربهم بالمجاهدة التى لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التى لا تُقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى صلى الله عليه وسلم . وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضر ، وأنه لم يجعل نفسه فى همّ المال ، ولا جعلته نفسه فى هم الفقر ، وأنه لقى الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقر فيها هادئاً لا مضطربا — كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبُعث وعاش ليكون درسًا عملياً فى حل المشكلات الاجتماعية ، يعلّم الناس أنها لا تتعقّد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمر بقوتّها ، ولكن بامداد قواهم لها ؛ ولا تغلب بصولتها ، ولكن بجَزَعهم منها ؛ ولا تُعضل من ذات نفسها . ولكن من سوء أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

فاذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً و تقلُّلاً ، ولا فقراً وجوعاً ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تترجمها نفسك أو تحسها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعية مُفصَّلة على طبيعة النفس ، قائمة على أن تأخذ نفس الانسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها . والحياة العاملة غير الحياة الوادعة ، هما ذكر وأنثى ؛ فأما الأولى فهي ماوصفنا وحكينا ، وأما الثانية فهي تَغلُّل النعمة ، وإطلاق قانون التناسل في المال ينمى بعضُه بعضا ، وينبت بعضه على بعض ، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوِّماتها ، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه ، فيُقْبل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها ، ويحب منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها . وكل ما رأيت وعلمت في رجل قُوَّته القوة فهو هناك ؛ وكل ماعلمت ورأيت فى أنثى قوتها الضعف فهو هنا .

فالسواد الذي تراه فى فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحيّ ؛ سواد الليل حول الروح النَّجْميَّة الساطعة ؛ وذلك التراب هو التراب الحيّ ؛ تراب الزرع تحت النضرة والخضرة ؛ وتلك الحاجة الجسميّة هي الحاجة الحية الدافعة الى حرية النفس ؛ وذلك الاقلال من فهم اللذة هو الاقلال الحيّ الذي يزيد قوة فهم الجمال فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيق فى حيز المتاع للحاسة هو الضيق الحي الذي يوسع حيّز المتاع للروح . وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفي النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقار للعرَض الفاني الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقي .

فليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولارهن الدرع عند اليهودي . كلا . كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متزنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفق والحلم والتواضع ، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله ، وهو الذي بُعث لتنقيح غريزة تنازع البقاء ، وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه ، وإثبات أنه الممكن لا الممتنع ، والحقيقي لا الخيالي .

ليس هناك درع مرهونة في ثلاثين صاعا ، ولا الفقر ، ولاخبز الشعير . كلا ،كلا ، بل هناك تقرير أن النصر فى معركة الحياة لايأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ، وأن التقدم الانساني لايباع بيعاً ، ولايؤخذ هوناً ، بل هو انتزاع من الحودات بالاخلاق التي تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات — في حقائق الحياة ومصائرها — كـكنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذي يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز ، وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه »

كلا ، كلا ، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما ، بل هناك وضع هذه الحقيقة : ينبغي أن تجد نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزة نفسك ، فاذا أدركت ذلك ورفعت نفسك الى موضعها الحق ، وأقررتها فيه وحبستها عليه ، وحددتها بالانسانية من ناحية ، وبالله من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتعطى ، لاغاية تأخذ وتعمل لتأخذ ـ ومهما ضيق عليك ، فانما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة . وما قط نبتت شجرة فى مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب ، وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعاً فى إفساد الصلة بينهما ، فلا يجد القانون فيها نظامه ، ومن ثم لاتجد فى القانون نظامها ، فيهلكها الذي كان يحييها ، وتستعبد لحظّ نفسها فيفقدها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

* * *

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن بكل خير على كل حال ، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل . » فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الانسانية

ومايأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعانى التى أومأنا إليهاشعوراً اجتماعياً عاماً ، مقرراً فى النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح فى السنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثر ماتأخـذه أو قل ، وإذا كان أساس الحياة فى الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمر النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنْتَزَع وما بها أنها نُزِعت ، ولكنها أدت ما تؤدِّى ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنت ولا افتقرت ، ولا أكثرت ولا أخفَّتْ ؛ بل حققت موضعها ، فانها ما نبتت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الايمان ، الصادق النظر فى الحياة ؛ هو أبداً فى قانون آخرته ؛ فهو أبداً فى عمل ضميره .

والناس فى هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فاذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرهم الوقاية ، وفى نظامهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانون جميعهم ، فأيما رجل شذّ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك . والموت أشق الموت هنا — اعتبارُ الحاضر بنفسه ، والضجرُ منه ، وجعل الانسان نفسه غاية ؛ والحياة أهنأ الحياة – اعتباره بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الانسان نفسه وسيلة .

* * *

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودى من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الانسانية أن الرجل العظيم النفس لايكون فى الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلُّل من خلق الأثَرَة . والبراءةِ من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسْرة رمز ثالث على مجاهدة المال الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الايقاظ النفسى للأمة العزيزة التى تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للانسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حثّ على طلب اليسار ، والتغلُّل من الأعمال الشريفة بالغلَّة والمال ، فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يعوله ؟ قالوا كلنا نعوله . فقال : كلكم خير منه ! . . إلى أحاديث كثيرة مرويّة ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحىّ . ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده فى تِلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورِّثه — فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لارخصة فيه على ألاّ يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً ، لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواة النفسية لا غيرها ، وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله ، بمعنى التقوى ؛ والأقوم بالواجب ، على معنى الواجب ؛ والأكفأ للانسانية ، فى معانى الانسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة فى طبيعة التملك ، لقيام التعاون الانسانى على أساسه العملىّ ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبى الفقير العظيم هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم . ؟

مصطفى صادق الرافعى

بين يدى شهرزاد

للأستاذ توفيق الحكيم

شهرزاد متكئة على الوسائد تنظر باسمة فى حوض ماء من المرمر وبين يديها الوزير قمر . . . . .

شهرزاد — (فى مكر) أراك ياقمر تسرف فى إطرائى وتبخس قدر صديقك .

الوزير — لم أبخس قدره .

شهرزاد — (فى مكر) يخيل إلىّ أنك نسيت ماييننا من ود عجيب .

الوزير — (فى حدة) لم أنس شيئاً .

شهرزاد — (فى خبث) بلى !

الوزير — (فى حدة عمياء) انى لم أنس شيئاً . انما أبين لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة أخرى . انى لست أُخدع . لست أُخدع . لست أُخدع !

شهرزاد — (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير — (يثوب الى رشده) مولاتى مغفرة . . انى . .

شهرزاد — انك أحياناً لا تملك نفسك .

الوزير — إنى . . أردت أن أقول انك غيرته ، وأنه انقلب انساناً جديداً منذ عرفك .

شهرزاد — انه لم يعرفنى .

(يسمعان طرقاً شديداً)

الوزير — (يرهف السمع) هذا هو .

شهرزاد — ان شهريار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر ليلاً إلا من سردابه .

الوزير — مَن هذا الطارق اذن ؟

شهرزاد — اذهب وجئنى بالخبر .

(الوزير يخرج مسرعاً)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) مسكين أنت يا قمر !

(الوزير يعود على عجل)

قمر — مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجيب الزى ، يقول انه المؤلف ، ويلتمس المثول بين يديك .

شهرزاد — (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف ؟

قمر — لم أفهم مراده . انما هذا ما قاله لى .

شهرزاد — أدخله لنتبين أمره .

قمر — أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

شهرزاد — وماذا يضير . انك معى .

قمر — نعم سألبث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) المؤلف ؟ : أتراه أحد السحرة قد أرسل فى طلبه شهريار ؟

(قمر يعود وخلفه توفيق الحكيم يلتفت يمنة ويسرة منبهر البصر مما فى القصر من عجائب لم يسبق لعين مثله أن وقعت على مثلها)

شهرزاد — (تلتفت اليه وتتأمل زيه قليلاً وتأذن له فى الدنو منها ولكنه يقف مكانه جامداً) (تقدم يا هذا .)

توفيق — مولاتى ...

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا بين يدى شهرزاد ؟

قمر — نعم أنت فى حضرة الملكة العظيمة .

توفيق — (كالمخاطب لنفسه) نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

شهرزاد — بِمَ تهمس كمن به مس ؟

توفيق — مغفرة أيتها الملكة ، إنى . . .

شهرزاد — لماذا تنظر إلىَّ هكذا ؟ .

توفيق — هذا الجمال ...

شهرزاد — (لقمر) أرأيت يا قمر ! انك قد جئتنى آخر الليل بمُعْجَب مفتون .

قمـر — (لتوفيق) ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

توفيق — (همساً) لست أدرى ... (يعود فيتأمل شهرزاد)

شهرزاد — أرجو منك ألا تطيل النظر إلىّ هكذا .

توفيق — مولاتى ! لا أستطيع .

شهرزاد — أين الجلاد ؟

توفيق — خير لك أن تأمرى بى فتطاح رأسى من أن تطلبى إلىّ ألا أعجب بك .

شهرزاد — أتراني حقاً جميلة ؟

توفيق — نعم .

شهرزاد — ان لى جسداً جميلاً ! أليس لى جسد جميل ؟

توفيق — ليس الجسد وحده .

شهرزاد — اقترب .

توفيق — كلاّ .

شهرزاد — لماذا ؟

توفيق — (يشير الى الحوض) هذا الحوض ...

شهرزاد — أيخيفك هذا الحوض ؟

توفيق — أخشى أن تزل قدمى فأسقط وأنا لا أحسن السباحة ...

شهرزاد — انه قليل الغور

توفيق — لا شئ عندك قليل الغور .

شهرزاد — (تتفرس فيه) عجباً ! انك تتكلم كما يتكلم شهريار ! من أنت ؟

توفيق — خادمك توفيق الحكيم .

شهرزاد — أتعنى أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة ؟

توفيق — لا هذا ولا ذاك ، ولكنه اسم من الأسماء .

شهرزاد — وما صناعتك ؟

توفيق — أؤلف القصص .

شهرزاد — مثلى ؟

توفيق — لم أبلغ شأوك . وليس لى ذكاؤك ولا خيالك .

شهرزاد — انك تسرف فى اطرائى وتبخس قدر نفسك .

توفيق — قدر نفسى ؟ وما أدراك به ؟ وهل عرفت لى قصصاً على الأقل أيتها الملكة ؟

شهرزاد — كلاّ . ماذا صنعت من القصص ؟

توفيق — قصة « شهرزاد »

شهرزاد — (فى عجب) أنا ؟

توفيق — نعم أنت .

شهرزاد — متى صنعتها ؟

توفيق — ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .

شهرزاد — أصنعتها فى الماضى ؟

توفيق — بل فى المستقبل .

شهرزاد — فهمت . هذا الزى العجيب ...

توفيق — نعم . انى أهبط اليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين كما يهبط الطائر من الشمال الى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .

شهرزاد — يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهريار .

توفيق — أترين هذا ؟

شهرزاد — لكنك أهدأ نفساً منه .

توفيق — نعم ، الآن .

شهرزاد — (تنظر اليه ملياً) انى أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

توفيق — لقد جمع بيننا دائماً .

شهرزاد — أين ؟

توفيق — (يشير الى قلبه) هنا .

شهرزاد — (فى عجب تشير الى قلبه) هنا ؟

توفيق — نعم . ومن هنا خرجت أنت الى الوجود . فما أنت إلا صنع النار والنور الكائنين هنا (يشير الى قلبه)

شهرزاد — هذا جميل .

توفيق — أرأيت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتى العزيزة !

قمر — (يتململ) من هذا الرجل ؟

توفيق — صه أيها الوزير . فكر فى شأنك أنت . ودعنى فيما أنا فيه . فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

شهرزاد — جئت من أجلى ؟

توفيق — نعم .

شهرزاد — وماذا تريد منى ؟

توفيق — أريد أن أعيش الى جانبك .

قمر — (فى غضب وهياج) أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل ؟

توفيق — أنا كائن أشقى منك حالاً .

شهرزاد — (باسمة لتوفيق) لماذا ؟

توفيق — لأنى أشعر ببرد الوحدة يكتنفنى فى تلك السماء ذات السحب .

شهرزاد — ويل للمبدعين !

توفيق — صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعش المبدع فى مخلوقاته لقتله برد الوحدة .

شهرزاد — تريد إذن أن تهبط الى الأرض .

توفيق — لقد قلتها يا شهرزاد . لا شىء غير الأرض . ؟

شهرزاد — أين شهريار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الأرض يريد السماء . !

توفيق — لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود اليك .

شهرزاد — متى ؟

توفيق — يوم يعلم أن السماء فى الأرض .

شهرزاد — يا هذا . أريد منك شيئاً ...

توفيق — ماذا ؟

شهرزاد — أمنحك قبلة . !

توفيق — تمنحيننى قبلة ؟

شهرزاد — نعم .

توفيق — وهبتها قمرا .

قمر — (فى استنكار) مولاى !

توفيق — خذها أيها الأبله . من ذا يرفض قبلة من شهرزاد ؟

قمر — (يخرج سريعاً) ...

توفيق — هرب الأحمق .

شهرزاد — (تنظر الى توفيق ملياً) عرفتك أخيراً .

توفيق — (باسما) أعرفتنى ؟ من أنا ؟

شهرزاد — أأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

توفيق — من هو ؟

شهرزاد — شهريار !

توفيق — صه . لست أدرى ... لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغى أن يوضع . ولا ينبغى أن يلقى علىّ .

شهرزاد — اذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

توفيق — شبح من ؟

شهرزاد — شبح شهريار . !

توفيق — لا تقولى هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

شهرزاد — أمام الأبد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مرّ الأيام . وان ذكر اسمك على الدهر فانما يذكر خلف اسمه . انك تزعم الآن أنك صانعنا ومبدعنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن فى الحقيقة صانعوك ومبدعوك فى الغد أمام الخلود ...

توفيق — ويل لى .

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى ينخر فى نفسى الشك . فاذا هبطت بينكم ألتمس اليقين علمت أنى شبح لا حقيقة . وانى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

شهرزاد — كل شىء يصنع كل شىء ...

توفيق — نعم .

شهرزاد — ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

توفيق — ماهى ؟

شهرزاد — أننا جميعاً لسنا حقيقة .

[البقية فى أسفل الصفحة المقابلة]

٣ - من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل عال للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبـــد الله عنان

زج بنفونوتو تشلليني إلى غيابة الحصن الرهيب (حصن سانت انجيلو) مرة أخرى ، وهو كسير الساق ، طريح الفراش وألقى فى تلك المرة إلى غرفة مظلمة ضيقة رطبة ، تتمثل فيها روعة الأسر ، ورهبة العدم ؛ وشعر أن لهب حياته يخبو ، فانكب على قراءة الكتاب المقدس استعداداً للقاء ربه ؛ ولكنه بعد أن لبث أياماً فى قراءته ، شعر أن قبساً جديداً يضىء حياته ، وتولاه نوع من السكينة المعنوية وصفاء النفس ؛ ويصف لنا تشلليني ذلك التطور النفسى الغريب الذى حقق له خلال الألم المبرح نوعاً من السعادة ، وحوّله من فتى مضطرم الأهواء والنزعات ، إلى شبه قديس يتجرد بعواطفه نحو الملكوت الأعلى ، لا يذكر شيئاً من ملاذ هذا العالم وحواسه ؛ ويقص علينا فى عدة صحف شائقة حوادث حياته الهادئة فى ذلك الظلام الدامس ، وكيف غدا عرضة للأحلام الروحية البديعة ، ويبدو تشلليني فى هذا الوصف كاتباً بارعاً ، فى بيانه كثير من القوة والسحر ؛ والمحن تطلق البيان والشاعرية ؛ أجل ، وغدا تشلليني شاعراً أيضاً ، يكتب فوق الصفحات البيضاء من « توراته » أبياتاً من الشعر الصوفى ، ويشتغل بوضع قصيدته الكبيرة (الكابيتولو) فى وصف السجن ومديحه ، ووصف ما عانى من ألم ، وما آنس من سعادة نفسية

ثم توفى محافظ الحصن ، صديقه القديم الذى كان يرعاه ويجتهد فى تخفيف محنته وخلفه أخوه فى منصبه . وكان البابا كلما خطر له أن يطلق تشلليني من أسره تدخل ولده السنيور بيرلويجى وحال دون قصـده . وكان خصوم تشلليني يودون موته بأى الوسائل ، وكان السم بالطبع أيسر وأنجع الوسائل التى تستعمل فى هذا العصر الفياض بالجريمة والغدر . وعلى ذلك عهد أحد رجال البطانة إلى أحد حراس السجن أن يضع شيئاً من مسحوق الماس فى طعام تشلليني ، وعهد بسحق الماس واعداده إلى صائغ من أريزو ؛ وقدم الطعام المسموم إلى تشلليني فأكله ، ولكنه لاحظ فى النهاية ذرات تلمع فى أحد الصحون ، فخفق قلبه ، واعتقد بعد فحصها أنها ذرات الماس القاتلة . يقول : « فأيقنت عندئذ بأنى هالك ، وامتزج الحزن والايمان فى قلبى حينما هرولت إلى الصلاة . ولبثت مدى ساعة أواجه الموت المحقق ، وأضرع إلى الله ، وأشكره على أن هيأ لى هذا الموت الهين ، وشعرت برضى عميق ، وباركت العالم والزمن اللذين عشت فيهما ؛ والآن فانى أعود إلى أرض أفضل برعاية الله التى أيقنت أنى كسبتها » . ولكن أملاً غامضاً فى الحياة حمله على أن يتأمل الذرات اللامعة مرة أخرى ، وأن يفحصها بواسطة مدية صغيرة ، فانتهى بعد فحصها وسحقها إلى أنها لايمكن أن تكون من الماس ، وأنها مسحوق مادة لامعة أخرى لعلها لاتؤذى الحياة . والظاهر أن الصائغ الذى عهد إليه بسحق الماس قد طمع فيه واستبقاه لنفسه واستبدله بهذه المادة . وعلى أى حال فقد نجا تشلليني من هذه المحاولة ، واستمر أياماً يرفض الطعام الذى يحمل اليه مالم يذقه أمامه حارس السجن

وقضى ربك أخيراً أن تختتم المأساة المروعة وأن يطلق سراح البرىء . ذلك أن الكردينال دى فرارا مبعوث فرانسوا الأول ملك فرنسا قدم إلى رومة لمفاوضة البابا فى بعض الشئون ، وانتهز هذه الفرصة فالتمس من قداسته أن يفرج عن تشلليني ، وأن يسلمه إليه ، منوهاً باهتمام ملك فرنسا بأمره ، فاضطر بولس الثالث

توفيق — وأنا معكم .

شهرزاد — وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا .

توفيق — (بعد لحظة) صدقت ! ولا أمل لى مع ذلك فى أن أعيش الى جانبك .

شهرزاد — اليوم كلا .

توفيق — ومتى اذن ؟

شهرزاد — فى الغد ، يوم تصبح من مادتنا ، لو أن لنا اليوم مادة .

توفيق — فهمت . وداعاً يا شهرزاد .

شهرزاد — الى الملتقى !

توفيق الحكيم

أن يجيب ملتمسه ، وأوفد رسوله فى الحال الى الحصن مع كبيرين من حاشية الكردينال ، وأفرج عن تشلليني ، وأخذ الى الكردينال دى فرارا ، فاستقبله بترحاب ، وأنزله بقصره . فلبث به مدى حين ينفض عنه عثار السجن ، ويستجمع قواه الذاهبة ، ويستعيد مواهبه التي كادت أن تخبو . ولما انتعشت نفسه ، عاد فانكب على عمله المحبوب ، وأخذ يشتغل بطائفة من الأوانى والتحف التى عهد اليه الكردينال دى فرارا بصنعها . ولما أتم الكردينال مهمته فى رومة اعتزم السفر إلى فرنسا ، فسار تشلليني فى ركبه مع فتاه اسكانيو وزميل له يدعى باجولو ، وسبقه الكردينال إلى فرنسا ، وتخلف هو حيناً فى فلورنس وفيرارا ، ثم كتب اليه الكردينال ليوافيه إلى باريس ، فسار اليها مع عامليه ، ولم يكن راضياً عن معاملة الكردينال له من الوجهة المادية ، ولكنه لم يستطع التخلف قياماً بحق الوفاء والعرفان لأنه هو الذى أنقذه من إسار السجن . ووصل الى باريس ، ثم سار الى فونتنبلو حيث كان يقيم الملك وبلاطه ، وهنالك لقى الكردينال ، فأكرمه وأنزله منزلاً حسناً ، ثم استقبله الملك فرانسوا الأول بترحاب وأغدق عليه عطفه ، وقدم اليه التحف والحلى التى صنعها لحسابه ، فأعجب بجمالها ودقتها وهنأه على براعته ، وعهد اليه بصنع تحف أخرى ، وأقطعه منزلاً للعمل والأقامة ، وأجرى عليه راتباً حسناً . وهنا يفيض تشلليني كعادته فى وصف التحف التى عهد اليه ملك فرنسا بصنعها والزخارف التى وضع نماذجها لبعض أبواب قصر فونتنبلو ، ثم يصف لنا حياته اليومية فى عاصمة فرنسا . وكانت كالمعتاد حياة عاصفة مليئة بالشجار والنازعات ، وكان قد اتخذ له صاحبة جديدة ، هى فتاة فرنسية تدعى كاترينا ، تشتغل لديه كنموذج فنى ، فكانت هذه العلاقة مثاراً لعدة منافسات وفضائح غرامية يصفها لنا تشلليني بصراحته المعروفة . ويقص علينا كيف فاجأ ذات يوم فتاه باجولو متلبساً بالخيانة مع كاترينا ، وكيف تسممت بينهما العلائق من أجل ذلك ، وطرد الفتاة الخائنة وصاحبها ، ثم انتهى بأن رتب لهما انتقاماً جهنمياً هو أنه عقد زواجهما بالاكراه ، وسيفه معلق على رأسيهما ثم عاد بعد ذلك فاستخدم كاترينا نموذجاً وخليلة لكى يذل بذلك أنف عامله السابق باجولو ، وكيف أنه استخدم بعد ذلك فتاة أخرى ، وأولدها طفلة ثم صرفها مع طفلتها بشىء من المال ، ولم يرها بعد ذلك قط

ولبث تشلليني فى خدمة ملك فرنسا حيناً من الدهر ، ولكنه لم يحظ بعطف الدوقة دتامب صاحبة الملك ، وكانت تستأثر يومئذ بالنفوذ فى البلاط ، وأنفت نفسه من أن يترضاها بوسائل لاتتفق مع كبريائه ، فلبثت من جانبها تدس له لدى الملك وتخلق الصعاب فى وجهه . ولكن الملك أعرض عن تحريضها حيناً ، وعهد الى تشلليني بأعمال فنية كبيرة منها تماثيل فضية عديدة ، وأحواض زهر ، وباب برنزى وغيرها ، وأدى الفنان هذه الأعمال كلها ببراعته الفائقة ، وأعجب بها الملك أيما اعجاب . وأخيراً شعر تشلليني بأن عطف الملك قد فتر ، وعاف هذه الحياة المضطربة الفياضة بالأحقاد والدس ، فاستأذن فى السفر ، وذهب الى الكردينال دى فرارا يلتمس اليه العون فى العودة الى وطنه ، فاجاب ملتمسه ، وغادر فرنسا غير آسف على فراقها ، ووصل الى إيطاليا بعد رحلة شاقة ، وقصد الى مدينة فلورنس مسقط رأسه ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٤٤٥ . وبعد أن أقام أياماً إلى جانب أسرته ، سعى إلى لقاء الدوق كوزيمو دى مديتشى أمير فلورنس ، فاستقبله بترحاب وعهد اليه بصنع تمثال « لبرسيوس » وتمثال نصفى له ، وقضى حيناً فى خدمته ، ولكن سوء تفاهم وقع بينه وبين الدوقة زوج الأمير ، حمله على مغادرة فلورنس ، وعندئذ سافر الى البندقية وأقام بها حيناً ثم سافر الى رومة وزار هنالك ميشيل أنجيلو المهندس والفنان الخالد ، وكان يومئذ يعنى ببناء كنيسة القديس بطرس وزخرفتها ، ليفاوضه فى بعض المسائل الفنية . ثم عاد الى فلورنس ، بعد أن عاد التفاهم بينه وبين الدوق ، واشترى هنالك ضيعة صغيرة بما اجتمع له من المال ، واستقر هنالك منكباً على تحفه وتماثيله

* * *

وهنا ينتهى ما كتبه بنفونوتو تشلليني عن حياته . وقد كتب تشلليني هذه الصحف بين سنتى ١٥٥٨ و ١٥٦٦ ، ولكنه يقف فيها عند سنة ١٥٦٢ . وكانت أوصاب الشيخوخة قد دهمته يومئذ ، وذهبت بذلك العزم المضطرم الذى كان يلتهب أبدا ؛ وملك تشلليني سحر القلم فكتب فى ذلك الحين أيضاً قصته « تراتاتى » يكرر فيها القصة القديمة المعروفة بذلك الاسم . وليس فى حياته ما يستحق التدوين يومئـذ غير زواجه سنة ١٥٦٥ ، وهو فى الخامسة والستين من خادمته بيرا دى سلفادورى ، تزوجها عرفاناً

بما قدمته فى خدمته أثناء مرضه من الغيرة والاخلاص ، ورزق منها بولدين هما ابنه أندريا سيمونى ، وابنتــه مادلينا ، وتبنى أيضاً أبناءها من زوجها الأول . وتوفى الفنان الـكبير فى ١٣ فبراير سنة ١٥٧١ ، بمنزله فى فلورنس ، ودفن باحتفال فخم ، وخبت تلك الحياة التى لبثت سبعين عاماً تملأ ما حولها حركة ونشاطاً واضطراما .

***

هذه خلاصة لذلك المجلد الضخم الذى تركه لنا بنفونوتو تشلليني عن حياته الغريبة الحافلة . وإذا كان تشلليني قد عُدّ من أقطاب الفنانين فى عصر الأحياء ، فانه يرتفع بأثره الى صف أقطاب كتاب هذا العصر . ولم يكن تشلليني كاتباً كما قدمنا ، ولم تهيئه تربيته الساذجة . ولا حياته الشريدة المضطربة لمعالجة الـكتابة ؛ ولـكن البيان هبة الطبيعة ؛ وقد كان تشلليني ابن الطبيعة ، وهبته كثيراً من خلالها الباهرة ؛ فـكان القلم فى يده يدون به حوادث حياته ، كالريشة يرسم بها نماذج تحفه . وليست روعة ترجمة تشلليني فى هذا البيان القوى الساذج الساحر فقط ، ولـكنه أيضاً فى تلك الصراحة الخشنة التى يحدثنا بها تشلليني ، وفى تلك البساطة الرائعــة التى يكشف لنا بها عن دخائل نفسه . ويقول لنا تشلليني فى الخطاب الذى يوجهه الى صديقه بنديتو فارشى بشأن ترجمته أنه لم يكتب إلا ما وعته الذاكرة من حقائق حياته . يقول : « والواقع أننى لم أكتب سوى الصدق ، وقد أغضيت عن كثير من الحوادث العجيبة التى كان غيرى يعطيها أهمية خاصة . ذلك أن لدى شئوناً عظيمة كثيرة أقصها ، وقد تركت كثيراً مما هو أقل أهمية منها لـكى لا يفيض بى القول فأخرج مجلداً ضخماً جداً » . ولم ينته الينا قبل تشلليني أو بعده أثر كأثره يمتاز بتلك الروعة والصراحة والحقائق المدهشة ، وإن كانت هنالك ثمة تراجم شخصية عديدة غربية وشرقية ترتفع الى ذروة البيان والطرافة الأدبية . وقد أشرنا فيما تقدم الى ما بين ترجمة تشلليني و « اعترافات » جان جاك روسو من وجوه الشبه والتباين ، وأخصها أن جمال ترجمة تشلليني مستمد بالأخص من روحه التى تـكاد تمثل فى كل صفحة من صفحاته ؛ أما جمال الاعترافات ، فهو مستمد على الأغلب من السحر الذى يسبغه بيان روسو وقلمه على حوادث حياته . وفى رأينا أن ترجمة تشلليني تتفوق من ناحية الفن والطرافة والروعة على اعترافات روسو ؛ وعلى أى أثر غربى آخر من نوعها .

ولدينا فى العربية أثر هام من نوع التراجم الشخصية القوية . ذلك هو ترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لنفسه ، وهى المشهورة « بالتعريف » . فقد دوّن ابن خلدون حوادث حياته فى مجلد خاص فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، أعنى قبل أن يكتب تشلليني ترجمتــه بقرن ونصف ؛ و « التعريف » ترجمة شخصية ، ولـكن الحياة السياسـية العاصفة التى خاض ابن خلدون غمارها والتى يقصها علينا فى هذا السفر ، تسبغ على « التعريف » لون التاريخ العام ؛ ذلك أن ابن خلدون ضنـين علينا بمواطن الافضاء الشخصى التى تملأ ترجمة تشلليني ، وهو يؤثر دائماً أن يدون من حوادث حياته ما يرتفع الى أهميــة الحياة العامة وحوادث التاريخ : بيد أنه يحـدثنا أيضاً عن نفسه وعن خلاله ، ولا يتردد فى الافضاء بكثير مما لا يحسن الافضاء به ، لا عن حياته الداخلية ولـكن عن حياته العامة . وفى تعريف ابن خلدون ، كما فى ترجمة تشلليني عنصر القصة الشائقة لحوادث حياة حقيقية . فان فيلسوفنا يصف لنا فى تعريفه كيف يجوز من قصر الى قصر ، ويتعرض لمخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة ، ويسير فى ركب الجند ، ويمثل الى جانب أميره فى المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الخطرة فى أعماق الهضاب والصحارى . ونراه فى دمشق فى السبعين من عمره يجوز مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ليقصد الى معسكر الفاتح التترى تيمورلنك ، وغير ذلك من الحوادث الغريبة الشائقة . والواقع أن هنالك شبهاً عظيما بين ترجمة ابن خلدون وترجمة تشلليني مع اختلافهما فى النوع ، فكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الافضاء والصراحة . واذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر فى الأدب الغربى نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان « تعريف » ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المـكانة فى أدبنا العربى .

ولأثر تشلليني فوق ذلك أهمية تاريخية ، فهو يصور لنا كثيراً من ألوان الحياة الاجتماعية فى عصر الاحياء ، وهو عصر تطور

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

٢ـ الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكى دياب المحامى

يرى بعض الشراح أن اعفاء الاجانب من الضرائب التى تفرضها الحكومة المصرية قائم على اتفاقات دولية ، وهم فى زعمهم خاطئون . وآية ذلك أن الاتفاقات الخاصة بالامتيازات كانت ترمى الى اعفاء الأجانب من الضرائب الكيدية ، وخصوصاً ضريبة الرأس (Capitation) وهى ماتقضى قواعد الشريعة المطبقة فى الدولة العلية حينذاك بأن تجبى من كل أجنبى يقيم أكثر من سنة فى بلد اسلامى . وكانت تعتبرها الشريعة أيضاً نوعاً من الجزية ، فضلاً عن أن فى دفعها مظهراً للاستبداد والتعسف المالى . هذا ويلاحظ أنه وإن كانت هذه الاتفاقات تحمى الأجانب من حملة المكايد إلا أنها لم تعفهم اعفاء مطلقاً من الضرائب بكافة أنواعها . وقد كان الأجنبى منظوراً اليه بعين الكراهية لنزعته الدينية ، وبدراسة نصوص الاتفاقات الفرنسية والأنجليزية يظهر ذلك جلياً . على أنه وإن كانت الاتفاقات الفرنسية تعفى الأجانب من فرائض صغيرة فيها شيء من التعسف ، فان ذلك الوضع لايمنع من فرض ضرائب معروفة لدى الدول المتمدينة ، فالهوة سحيقة بين الجزية القديمة التى كانت تفرض من جانب الظافر على المهزوم وبين الضرائب التى تفرض فى الدول الحديثة .

وترى الأوساط الأجنبية هنا وجوب الأعفاء من كل تلك الضرائب ، ضريبة الأراضى العقارية والرسوم الجمركية ، ويرد على هذا بأن العامل الوحيد الذى حدا بالدول الى طلب هذا الامتياز والحرص عليه هو وضع الأجانب فى مأمن من تيار الضرائب الكيدية التى كان يفرضها الحكام فى ذلك الوقت بدليل أن نص الاتفاقات لايتضمن اعفاء عاماً للأجانب ، فالدول فى الواقع كانت تقصد حماية رعاياها من حيث طريقة جباية الضريبة ولكنها لاتعارض فى فرضها . ومادامت قد ذهبت العلة فلا داعى لبقاء المعلول . فدوافع الكيد معدومة .

ولاغرو فمبدأ المساواة فى تحمل الضرائب قد حبذته لجنة التحقيق فى بيانها سنة ١٨٧٨ . وهى مؤلفة من أجانب عينوا بعد مفاوضات مع الدول . أليست هذه حجة قوية ؟ وأليست هذه شهادة شهود من أهلهم ؟

وفى مؤتمر لندن سنة ١٨٨٥ أكدت الدول بصراحة رغبتها فى المساواة ، ورأت من العدل اخضاع الرعايا الأجانب القاطنين بمصر لنفس الضرائب التى يخضع لها المصريون . . وقبلت (الدول) تنفيذ ديكريتو سنة ١٨٨٤ الخاص بالضرائب على أراضى البناء فسرى على الأجانب والمصريين كما سبق القول . وفى قرارات ذلك المؤتمر الخطير حجة لنا دامغة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وفى مستهل القرن العشرين استنكرت الشخصيات الكبيرة المعروفة فى عالم السياسة نظام الامتيازات فى مصر فصرح اللورد ملنر فى كتابه (England in Egypt) أو (انجلترا فى مصر) بأن إعفاء الأجانب من الضرائب فى القطر المصرى من المنح التى خلقتها الامتيازات بدون وجه حق ، وفى عبارته التالية مبلغ ذوده عن رأيه الحكيم : —

« L'exemption des impots pour les étrangers est le plus insolite des privileges accordés sons le régime des Capitulations. »

وأعرب لورد كرومر بأنه لا يتردد فى القول بأن النظام المعروف بالامتيازات فى مصر لا يتفق اطلاقاً وحالة مصر الحاضرة :

عظيم فى تاريخ الانسانية ؛ وفيه وصف شائق لكثير من أحوال البابوات وبذخهم وقصورهم ، ووصف لأخلاق الأحبار ودسائسهم واستغلالهم لطبقات المجتمع الأخرى ، ووصف لأحوال الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر وأمرائها وسادتها ؛ والخلاصة أنه يلقى أكبر الضياء على تاريخ عصر من أهم عصور إيطاليا ، وعصر يعتبر بحق فجر التاريخ الحديث . وفى رأينا أن كتاب تشلليني من أخلد الآثار الغربية وأحقها بالترجمة العربية ؛ وقد ترجم فعلاً من الايطالية الى جميع اللغات الأوربية ؛ فعسى أن يتقدم بعض شبابنا المثقف فيتحفنا بترجمة عربية بديعة لذلك الأثر البديع ؟

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

« Je n' hésite pas à dire que le système connu sous le nom générique de Capitulations, tel qu'il est partiqué aujourd'oui en Egypte, est tout a fait incompatible avec la siluation actuelle de l' Egypte.

وبعد ، أليس من الجور فى أخص صوره أن مصر وقد خطت فى سبيل المدنية الصحيحة والتقدم خطوات لم تنكرها عليها الدول ؟ أليس من الجور أن مصر هذه إن أرادات فرض ضريبة جديدة تستعين بها على ما تقوم به من أعمال كبار أن تلجأ الى اثنتى عشرة دولة تلتمس موافقتها ؟ إنه مظهر من مظاهر قصور السيادة ، وجرح لا يندمل فى صميم العزة القومية .

ومن ذلك ما حدث خلال المدة التى أعلنت فيها الأحكام العرفية على البلاد ، إذ جرت السلطة العسكرية على إصدار أوامر تسرى على الوطنيين والأجانب سواء بسواء ، وكان بين هذه الأوامر ما يتعلق بفروض مالية قبل الأجانب ، والوطنيون يحملونها . فلما ألغيت الأحكام العرفية أثار إلغاؤها دفائن العصيان المدنى لأوامر الحكومة المصرية ، فامتنع أكثر الأجانب عن دفع ضريبة الخفر ، وأشار بذلك بعض القناصل وعللوا الامتناع بأن دولهم لم توافق عليها . وما كانوا ليقولوا كلمة وقت أن فرضتها السلطة العسكرية .

ومجمل القول أن نظام الضرائب فى مصر جد متناقض ، وعلة ذلك نظام الامتيازات العتيق والتوسع الضار الذى خلقه العرف السائد الآن والقواعد القديمة البالية ، والأوضاع الكيدية المهينة التى صورتها الامتيازات . وهل ترى من العدالة أن الأراضى الزراعية وجلها فى يد المصريين تثقل بالضرائب حتى لتكاد تستغرق الايراد ، أما التجارة الواسعة وهى فى يد الأجانب ، والصناعة الممتازة المكسبة ، والمصارف الكبرى وكل ذلك فى يدهم ، فمعفى من الضرائب .

***

وأخيراً فلا تردد فى إبراز الحقيقة نيرة فى سطور معدودة ذلك أن قيام الأجانب متمسكين فى وجه مصر بامتيازاتهم كلما حاولت الحكومة المصرية السعى لالغائها أو تخفيف وطأتها سيكون له من الأثر الخطير ما يقرب أجل الامتيازات ، لأن الحال على ماهى عليه لن تدوم طويلاً ولا بد لمبادىء العدالة أن تسود يوماً ما ؟

« تم البحث » زكى دياب

الذكرى

للأديب حسين شوقى

مضى عام كامل منذ أن رافق (س) رفاتها الى المقر الأخير ، فرأى أن يزور القبر بهذه المناسبة وأن يضع على الضريح طاقة من البنفسج ، لأنها كانت تحب هذا الزهر الذى طالما لاحت زرقته فى انسانىْ عينيها ، ثم قصد الى محل الشاى حيث اعتاد مقابلتها لدى خروجها من عملها ، وجلس الى المائدة التى كانت تجلس اليها وهى تنتظره فى شغف وسرور . . ثم أقبل الخادم وكان هو بعينه الذى خدمهما فى العام الماضى ، فحياه (س) كالعادة فى لطف ودعة ، ثم طلب منه الطلب نفسه : قدحيْن من الشاى ، فدهش الخادم لأن الرجل لم يكن معه أحد ، ثم أخرج (س) مجموعة من الرسائل التى علتها صفرة القدم ثم أخذ يتلوها واحدة واحدة للمرة المتممة للمائة ، ولكن كان يجد فيها دائماً لذة جديدة كأنها لحن من ألحان ديبوسى الشجية التى لا تملها النفس أبداً . .

هاهى ذى ذكريات الماضى ماثلة أمامه : مقابلاته الأولى مع محبوبته ، رحلاتهما ، نزهاتهما ، نوادرها ، جلساتهما فى هذا المكان نفسه ، تناولهما الشاى فى هذه الساعة نفسها ، كل ذلك كان يحس وجوده ، حتى المحبوبة خيل اليه أنها بجواره . . كان يشعر بلذة عظيمة من أجل هذا ، لقد أتى عملاً يعد من معجزات الرسل اذ تحدى الفناء وعلا سلطانه فوق سلطان الدهر ، ولو الى زمن قصير !

مضت ساعة ، فساعة ولم يحضر أحد . . وكان الخادم يرقبه فظن أن الرجل ضحية خيبة أمل من عشيقة . . ولكن على حين فجأة تذكر قصة هذا الرجل ففهم الحقيقة المؤلمة لما كان يبدو على (س) من مظاهر اليأس المتجلد ، فخجل من نفسه وأشفق على الرجل شفقة عظيمة ، كما أعجب من تحديه للموت ومن وفائه لمحبوبته المتوفاة ، ثم اقترب منه ومد اليه يده معتذراً لسوء ظنه قائلا: آسف جداً ياسيدى لقد شككت فى وفائك ، سامحنى ! فصافحه (س) فى حزن وألم مردداً : لا بأس لا بأس . . وكأنه أفاق من حلمه الجميل فعاد الى عالم الألم والشقاء ، يئن تحت سلطان الزمن .

حسين شوقى

رأى عربى مسيحى فى محمد

محمـــــد والعرب

قصيدة فى ذكرى مولد الرسول

بقـلم وصفى قرنفلى

توطئة

عقيدتى الشخصية ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كبقية الرسل ، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح (ص) صفتى الألوهية والانسانيـة المتمازتين ، فقد يجوز لى أن أرى فى سيد قريش نبياً دينياً ومنقذاً قومياً فى آن واحد . فأنا أحترمه (ص) كنبى جاءنا بالهدى والرحمة ، وأنضوى الى لوائه كمنقذ لهذا الشرق من إسار الفرس والرومان ، وأنا أرى فى الدين الاسلامى قوة للشرق فى جهاده القومى يجب استغلالها ، واذا لم يكن للقرآن من يدٍ إلا صيانة لغتنا — واللغـة أجلّ مظاهر القومية — لـكفاه ذلك فضيلة تحمد ، ويداً تشكر .

فاعترافاً بفضل محمد وقرآنه على العرب والعربيـة كتبت ما كتبت ، وأكتب من طوال الفصول فى جرائد الفتح فى (مصر) والاعتصام فى (حلب) والرابطة فى (دمشق) وسواها من الصحف الاسلامية ، عدا رسائلى وقصائدى القومية فى بقية الصحف العربية

وفى سبيل محمد وقرآنه لقيتُ وألقى ما أكابد من عَنَتِ الجهل وسخر رجاله ، فُجبيتُ « الرياء » وساماً ، ورُميت بالـكفر والضلالة ، وقيل إننى أدارى الأكثرية فأصانع المسلمين ، وأنى حزب القوة أنى كانت القوة ، وكان أشد أولئك الغاضبين عنتاً وغيظاً ، كهل مسيحى يدعى « سمعان » قرأ لى مقالاً فى (الجزيرة) فهزّه الغضب حتى لقد همّ بى لو استطاعنى ، ولـكننى هزأتُ به وترفعت عن خصامه ، فالى « سمعان » هذا ومن أخذ أخذهُ صرفتُ وجه الخطاب فى مستهل القصيدة .

إننى مسيحى كما يحب « سمعان » أن أكون ، ولـكنى لا أرى فى مسيحيتى ما يمنعنى عن الاعتراف بهدى محمد ويده على الانسانية والعرب !

ولعل الضلالة كل الضلالة أن نحصر الفضيلة والهدى فى دين من الأديان ، فلكل دين ميزاته ، ولـكل دين فضائله ، ومرجع كل دين الى الله (ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، والى الله تُرجع الأمور)

القصيدة

قد يقولون « شاعر نصرانى   يُرسل الحبّ فى كِذاب البيانِ »
« يتغنى هوى الرسولِ ويهذى   بانبثاق الهدى من القرآن »
« ينتحى الجبهة القوية يحدو   ها رياءً . والشعر (لاوجدانى) »
« قسماً بالمسيح ، لوقام للشيطا   ن حزب ، أشاد بالشيطان . »
كذبوا والرسولِ ، لم يجر يوماً   ـ بخلاف الذى أكنّ ـ لسانى
ما تراءيت بالهوى ، بل سقانى   طائفُ الحبّ والهوى ماسقانى
أوَعارٌ على فتى يعربىّ   أن تغنّى بالسـيد العدنانى ؟
أوَليس الرسول منقذَ هذا (م)   الشرق من ظلمة الهوى والهوان ؟
صاح بالشرق واستثار بنيه   فتنادوا بالفرس والرومان
ومشوا للحياة تحت رايته السم   حاءِ صفّاً موطّد الأركان
وبنوا مجدنا المؤثّل صرحاً   من نِثار العروش والتيجان
وأتوا قمّـــة الزمان فكانوا   سادة الأرض فى شباب الزمان
أفـكُنا لولا الرسول سوى العب   دان ؟ بئست معيشة العُبدان !
أوليس الوفاء أن تُخلص الن   قد حباً إن كنت ذا وجدان ؟
فالتحيات والسـلام أبا القا   سم تُهـدى اليك فى كل آن

* * *

قلْ « لسمعان » إنما فى عروقى   عربى ، وأنّ ما فى لســانى
أتغنّى بالحـق ، والحق يا صا   ح لا مسـلم ولا نصرانى
إنما الشاعر الذى أنا منـه   فوق ذاك الارجاف والبهتان
قد تعالى عن الرياء بريئاً   من هوى الشيخ أو هوى المطران
كلُّ هذى الاديان ـ لو عقل النا   س ـ سبيل هادٍ الى الرحمن
أخذته الغاياتُ فانشعب السي   رُ وضلت قوافل الركبان
فاذا الناس فى مريج من الأم   ر حيارى مشـلولة الأذهان
يترامون بالكبائر والآثا   م ويمضون طيّبة الأضغان(١)
أيها الناس ! ما أتى الرسل للتف   ريق لـكن لوحدة الانسان
كلنا مسلمون لله ، فحتا   م الترامى بالـكفر والايمان ؟
كلنا صائرون لله يوماً   « يوم تنشق وردة كالدهان »(٢)
أتدينون بعضـكم ؟ مَن حباكم   أيها الناس سلطة الديان ؟
فاتقوا الله ! واتركوا الأمر للـ   ـه ، وخلّوا ضلالة الكهّان
أم تراكم علمتم الغيب فأصدر   تمُ إذ أصدرتمُ عن عيان ؟

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) الطية القصد والسبل ، والمعنى أتنا بتنا يكفر بعضنا بعضاً ويخطىء بعضنا بعضاً ، ولو صدقنا جميعاً لـكنا جميعاً من الـكافرين !

(٢) إشارة الى قوله تعالى فى ســورة الرحمن : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

لماذا أخفقت جمعية الأمم

فى نشر السلام فى العالم ؟

للكاتب الانجليزى الشهير .H. G. Wells

« ولز » من أعظم كتاب العالم اليوم ، أصالة رأى وقوة بيان ؛ يزيد كتاباته روعة نزعته الانسانيـة الصادقة التى تتجلى فى كل ما يكتب . لايشاطره مكانته الرفيعة فى عالم الأدب الغربى من كتاب اللغة الانجليزية سوى « برناردشو » الكاتب الارلندى الشهير بنقده اللاذع . غير أنه يختلف عن « شو » فى أنه لا يقتصر على هدم الأنظمة الاجتماعية التى يتراءى له فسادها ، وإنما يكلف نفسه عناء خلق أنظمة جديدة تخلفها . فهو يهدم ليبنى ، وينتقد ليصلح .

من أحدث ما كتب « ولز » ومن أروع ما أنتج ، كتابه « شكل الأشياء القادمة » الذى يبحث فيه ما يكون عليه العالم فى سنة ٢١١٦ ؛ فقد تصور شخصاً يعيش فى هذا التاريخ ، أخذ يدرس تطورات العالم الاجتماعية منذ سنة ١٩١٣ ، حيث انتهى ذلك التطور بحكومة عالية يعيش فيها كل فرد سعيداً ، لا استعباد فيها ولا استبداد ، ولا احتكار ولا منافسة .

وليُلمّ قراء الرسالة الذين لم تصل أيديهم الى هذا الكتاب ببعض ما فيه ، ترجمت فصلاً منه بالعنوان المذكور آنفاً ترجمة حرة مختصرة :

بحث فى الفصل السابق لهذا الفصل معاهدة فرساي بحثاً مستفيضا وانتقدها انتقاداً مراً ؛ ثم أخذ فى هذا الفصل يشرح أسباب فشل جمعية الأمم كما يأتى :

« قبل أن نضرب صفحاً عن ذكر « ويلسون » ، ذلك الرجل الخيالى ، يجدر بنا أن نلفت الأنظار الى العوامل التى أدت الى فشله .

لم تكن شخصيته مكتملة للميزات الضرورية لنجاح الهدف الذى كان يرمى اليه . ولكن هذا النقص يجب ألا يجعلنا نتناسى استحالة تحقق مطمحه فى ذلك الوقت .

فأنانيته الضيقة ، والروح الانتقاميـة التى عوملت بها دول أوربا الوسطى وما الى ذلك ، جعلت من الخطر مجابهة العالم غير المستعد آنئذ بجمعية أمم .

فلم يكن فى ذلك الوقت استعداد فكرى كاف لقبول نظام عالى ؛ و « الحكومة العالمية » أو الحكومة الحديثـة الحاضرة كانت مجرد فكرة غامضة لم تبحث جيداً . فلا ريب إذن أن ويلسون تسرع فى خلقه جمعية الأمم ، إذ كان لزاماً أن ينتشر علم النفس الاجتماعى ، وأن يطبق قبل القضاء على فوضى الحكومات الملكية واستبدالها بسلطة مركزية .

غير أن ويلسون الذى لم يسبر غور الواجب الذى ألقى على عاتقه ، ولم يحط بما يكتنفه من عقبات ، رأى من غير روية ولا تبصر ، انه من السهل عليه توحيد البشر . فقد حاول أن يرتق نظام ذلك الزمن البالى ، وأن يجيزه كنظام جديد .

لم يحلم بتهذيب نظام النقد ، ولم يفكر بالحاجة الى انتشار النظام الاشتراكى فى العالم ، وانقلاب النظم التربيوية انقلاباً شاملاً ، قبل أن يكون فى الامكان استقرار السلام فى العالم .

ولكن على الرغم من كل نقائصه يظهر أنه كان أبعد رجالات زمنه نظراً .

فجمعية الأمم هذه غير الناجحة ، والعديمة الأثر ، لم تساعد على توطيد السلام الدولى ، وإنما على العكس من ذلك كانت حجر عثرة فى سبيله ؛ إذ منعت الناس أن يفكروا تفكيراً حراً فى هذا الموضوع .

ومن المؤسسات التى وجدت لمساعدة جمعيـة الأمم وعرقلة مساعى ناقديها « جمعيـــة الأمم البريطانية » فكانوا يقولون بأن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

فقذفتم فى النار زيداً وبوأ … تم عميراً مقصورة فى الجنان
جلّ سبحانه عن الشرك فى الرأ … ى وعلم المصير والسلطان !

***

منقذ الشرق ! قد أتيناك نشكو … ضيعة الحق وانخذال الأمانى
فاحى فينا ميْت العزائم وابعث … نائرات الهدى ودُرس المبانى
قد أضعنا ذاك التراث وضعنا … فى شعاب الحياة والوديان

***

منقذَ الشرق ! أنت لم تنقذ المسـ … ـلم دون المواطن النصرانى
فجزاء الاحسان أن ينهض الشر … ق جميعاً بواجب المهرجان

حمص (سورية) — وصفى قرنفلى

١ – كتاب نهج البلاغة

بقلم محمد محمد العزازى

ذلك الكتاب المنسوب إلى فارس الفصاحة وصيقل البلاغة وإمام الخطابة ، والضارب فى ميدان البيان بما لم يلحقه فيه لاحق ، ولا وصل إليه سابق . أمير المؤمنين على بن أبى طالب . كتاب نابه الشأن ، رفيع القدر ، بليغ الموعظة ، صادق الحكمة ، قد توفرت عليه سنين طوالاً أقرأ مابين دفتيه مرة وأخرى وثالثة حتى بدت لى فيه آراء أردت بها تحقيق أمره . والكشف عن سره . مستنداً فى بحثى الى ماهدتنى إليه الفكرة وطول المراس .. وجل الذى قيل فى الكتاب كلمات مجملة . لا تشفى غليلاً ولا تقوم دليلاً ، فالشيعة على أن الكتاب بجملته وتفصيله لأمير المؤمنين على ، والمتصفون من النقدة والنظار على أن فيه ماهو مدخول منحول بدعوى أنه يتعرض لبعض الصحابة بالطعن والتجريح ..

وهناك من يدعى أن الذى لعلى من القلة بحيث لايصح أن ينسب الكتاب إليه . وعلى كل فهذه كلمات – كما قلنا – مجملة لاتشبع الباحث . ولا توقف الناظر عند حد أو تلزمه رأياً . وهذا ما يدعونا ألى بحث المسألة على ضوء العلم والأدب والحقيقة والتاريخ . والكتاب فى جملته عالى الأسلوب فخم العبارة صقيل الديباجة ، لطيف الروح يتحدر إلى النفس بسهولة . والذى يدور عليه الكلام فى الكتاب كما يقول الرضى « أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ » وهذا تقسيم حسن ، والمعقول ألا يخرج كلام أمير المؤمنين عن هذا . . فأمير المؤمنين أحد رجالات الاسلام غير مدافع . وله فى الفصاحة والشجاعة والفضل والنبل يد طولى . بايع أبا بكر نزولاً على حكم الأجماع . ورضى بعمر نزولاً على اختيار أبى بكر ، وأخطأته الشورى بعد ابن الخطاب ، ثم انتهت اليه بعد عثمان . فكان أمير المؤمنين أربع سنين وتسعة أشهر أخذ يصلح فيها ماراه فاسداً ويجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم . وقد نقض بعض الصحابة بيعته فكانت حروب . انتهى بعدها الحكم إلى معاوية بعد تنازل الحسن . فكل هذا يدعو أمير المؤمنين إلى الخطب فى شأنه . وفى صلاح المسلمين وفى رجال جيشه . يحثهم على الأخذ بحقهم ، ويستنفرهم للقاء عدوهم وإلى الأوامر يصدرها إلى عماله ورجاله وأعوانه . وإلى الكتب والرسائل يبعث بها إلى الثغور والعمال ، بل وتجرى بينه وبين معارضيه ، كل يؤيد رأيه ويقيم حجته ويدعى الحق فى جهته والباطل فى جهة صاحبه . أما الحكم والمواعظ فأشياء كانت فى نفس على غرسها فيها حب الصلاح للناس يلقيها عليهم يبين لهم طريق الهدى ومنارة الحق ويذكرهم بالله ويفهمهم المعاش والمعاد ، مما يدل على اخلاص على وطيبة نفسه وسمو روحه وكرم أخلاقه وقوة ايمانه وحبه للمسلمين . . .

ولكن الذى يعنيناهو : هل كل مافى الكتاب من خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواعظ لأمير المؤمنين على .؟ أم أن فيه ماليس له .. نريد أن نعرض أمام القارئ صوراً مختلفة من الكتاب نشرحها له تشريحاً دقيقاً ثم نخرج على ما يهدينا إليه البحث . وليكن أول ما نعمل فيه المبضع الخطبة الأولى من الكتاب التى يقول الرضى فى عنوانها إنها خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم ، وعبارات هذه الخطبة منسجمة سيالة آخذة بعضها

« وجود جمعية الأمم خير من عدمه » . وقد فاتهم أن البدء الخاطئ أسوأ من عدمه .

فى العشر سنين التى تلت الحرب العالمية لم تكن أفكار مجددة فى السياسة العالمية يؤبه لها ، ولم يرجع البشر الى بحث توحيد العالم ، إلا بعد أن ثبت لهم ثبوتاً لا شك فيه عدم صلاحية جمعية الأمم للغرض الذى كونت من أجله .

ظلت حركة « الحكومة العالمية » فى الاثنتى عشرة سنة التى تلت تلوح وتختفى . وكان من الضرورى أن تتوحد جهود محبى السلام والشيوعيين والاشتراكيين ، وكل من سار على نهجهم من الذين حاولوا حل المعضلات الاجتماعية ، وكانوا لايزالون يقضون أوقاتهم فى مناضلة بعضهم وفى التراشق بالتهم .

وعلى كل فقد انقضى منتصف القرن العشرين قبل أن يتسع نطاق الدعاية فى العالم « للحكومة الحديثة » .

نابلس عبد القادر صالح

بحجز بعض . وهى مبتدأة بتحميد بديع يعقبه تنزيه لله عما لا يليق به ، وكلام فى معرفته مترتب على بعضه على مثال القضايا المنطقية ، ثم ذكر للخلق من ابتدائه إلى انتهائه على مثال ما فى الكتب المقدسة ، وذكر لخلق آدم ومعصيته وخروجه من الجنة . وذكر لذريته فى الأرض ، وكلام عن الأنبياء من أبنائه حتى انتهى إلى محمد وبعثه ؛ والقانون السماوى الذى نزل به ، وخص من ذلك الحق ، فتكلم فيه كلاماً كثيراً . ولو نظرنا إلى هذه الخطبة لوجدنا أسلوبها أقرب إلى الأسلوب التأليفى منه إلى الأسلوب الخطابى ، فهى خالية من الاندفاعات الخطابية ، ويظهر على عباراتها أنها وليدة التفكير ، فترتب العبارات على بعضها ترتباً مطرداً على مقتضى قوانين المنطق مما لا يتيسر فى الخطابة ولا يتأتى فى الارتجال ، وما كان على ليخطب غير مرتجل ، والتحميد الذى فى أولها (الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون . ولا يحصى نعماءه العادُّون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ولا غوص الفطن . الخ .)

هذا التحميد أشبه بالتحاميد التى تبتدأ بها الكتب . وهو يخالف التحاميد فى صدر الأسلام . وهو ملحق بتنزيهات كالتى تلحق التحاميد فى العصر العباسى حتى ان فى العصر العباسى مايوافقه فى المعنى ويكاد يشبهه فى اللفظ ، ويجرى معه فى النسق والترتيب والروح ، مما يجعلنا نرجح أنه من تحاميد ذلك العصر التى منها (الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين ، وتحديد الواصفين ، وتكييف الناعتين . يوصف لا بالعرض والطول ، وينعت بغير الشبح المثول . ويحد لا بالخلق المعدود ، والجسم الموجود ، بل يتناهى من وصفه ، الى مادل عليه من صنعه ، ويوقف من نعته ، على ما أخبر به عن نفسه . وكيف يوصف من لم يره أحد ، أو يحد من لم يحده بلد ، أو يشبه غير ذى أعضاء ، أو يكيف غير ذى أجزاء . لو رئى لوصف ، ولو وصف لمثل ، ولو مثل لكان له نظير الخ)[1] فكل هذه التنزيهات من منع التحديد والرؤية ، ونفى الصفات على نسق واحد فى التحميدين . مما يجعلنا لا نشك فى أنها وليدة عصر واحد ، ونشك فى أنها وليدة عصرين ، ثم لو قارنا هذا التحميد بتحميدات أمير المؤمنين التى يهدينا البحث الى أنها له .. لوجدنا بوناً شاسعاً فى المعنى والاسلوب والروح مما يظهر منه أن القائل غير واحد . . . ثم لنا نظرة فى هذه التنزيهات وهى قوله فى صفة الله (الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود . ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل محدود ... أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به . وكمال التصديق به توحيده . وكمال توحيده الأخلاص له ، وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزاه . ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار اليه . ومن أشار اليه فقد حده . ومن حده فقد عده . ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى منه) . هذه التنزيهات تجرى على نسق بديع من البيان والمنطق وكلها عقائد كلية فى علم الكلام .

وأهم مايطالع الباحث فيها شيئان : هما المحور الذى تدور عليه . والغرض الذى صيغت من أجله هما منع رؤية الله ونفى الصفات . فمنع الرؤية يؤخذ من العبارات الأولى ، لأن الأدراك قد نفى ، والرؤية أحد الأدراكات ، ولأنها تقتضى تكييفا وقد دلل على بطلان التكييف . ولذلك نرى ابن أبى الحديد عند شرحه لهذا الكلام يطنطن فى هذه المسألة ، ويدلل عليها بأدلة المعتزلة ، ويرد على الأشاعرة رداً قوياً ومعقولاً . وأما نفى الصفات فقد جاء صريحاً فى قوله . « وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » .. ونفى الصفات كلام جرى بين علماء الكلام وأخذ به المعتزلة — واحتدم فيه النزاع والجدال بينهم وبين الأشاعرة . والمعتزلة ينفون الصفات بدعوى أنها تثبت تعدد القدماء ، وأنه لابد من تغاير بين الصفة والموصوف ، وأن الموصوف يسبق الصفة ، ولذلك يحرجون الأشاعرة فيسألونهم عن كيفية قيام الصفات بالذات ان كانت زائدة عنها . والذى يعنينا من هذا الكلام أن مسألة الرؤية ومسألة نفى الصفات لم تنشآ إلا بعد نشوء مذهب الاعتزال ، وإلا بعد أن اختلف واصل بن عطاء واستاذه الحسن البصرى فى مسألة الاختيار ومسألة مرتكب الكبيرة إن لم يتب . فلم يكن لهذه المسائل أثر فى زمن على . ولم يكن لعلى أو الناس وقت يخلون فيه إلى نفوسهم ويفكرون فى مثل هذه الاشياء . . وليس عندهم مايدعوهم إلى التفكير فى هذه الاشياء . وإنما كانوا فى زمن الرسول والخليفتين من بعده يفكرون فى الفتوح وفى انهاض الدين الجديد

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ١٥١

وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد . (١)

وفى زمن الخليفة الثالث حصلت فتن سياسية أفضت الى قتله . ولم تكن هذه الفتن لتترك الناس يفكرون فى مثل هذه العقائد ، وفى زمن على قام الخلاف بين أمير المؤمنين وبين ناقضى بيعته فاشتعلت به نار الحرب وانتهى الأمر إلى الأمويين . وحصل بهذا الانقسام خلاف جديد لا فى الاشياء التى نحن بصددها وإنما فى شىء آخر هو الامامة ، انقسم الناس به إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .

فالمعقول إذن والمعروف من التاريخ السياسى وتاريخ علم الكلام أن هذه العقائد جاءت متأخرة عن على وزمن على وأنها نشأت بعد نشوء مذهب الاعتزال وصارت من مسائله وكلياته . . .

فالدليل ناهض والحجة ناصعة على أن علياً لم يقل هذه العبارات ولانشأت فى عصره . . وربما كان الرضى قائلها . أو أنها وقعت للرضى منسوبة للأمام فالحقها بالكتاب

وبنظرة فى هذه العبارات نجدها عبارات تأليفية محضة ، فعبارة (نفى الصفات) وعبارة (لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف الخ) هى بعينها الجارية على ألسنة المؤلفين والباحثين فى علم الكلام حتى أن ابن أبى الحديد يقول عند العبارة الأخيرة هذا دليل المعتزلة بعينه . . ويظهر على هذه العبارات بأجمعها أنها جاءت وليدة جدل وبحث ، وأن فيها تكلفاً محسوساً جاء من إقامة الدليل المنطقى ومن قرع الحجة بأختها مما يشهد على أن هذا الكلام من أحد المتحمسين لهذا المذهب . والمنافحين عنه وأنه حدث بعد احتدام الجدل بين الفريقين ؟

« يتبع » — أبو حماد **محمد محمد العزازى**

---

(١) رسالة التوحيد . والملل والنحل

العلم الحديث ينصف العرب

العصـــــور المظلمة

تسمية تاريخية خاطئة

للأستاذ بشير الشريقى

هذا هو الموضوع الطريف الذى أثاره فى هذه الأيام الدكتور جورج سارتون أستاذ علم التاريخ فى جامعة وشنطون ، وانى أنقله فيما يلى كما لخصته مجلة « أخبار العلم Sciernce News » فى عددها ٦٧٤ سنة ١٩٣٤

« ليعلم المؤرخون المعاصرون بأن « العصور المظلمة » لم توجد حقيقة ؛ من الجائز أن غربى أوربا قد عانى المتاعب خلال القرن السادس حتى العاشر الميلادى من جراء تراجع الثقافة الرومانية التى لم ينعم بها غربى أوربا الآ زمناً قليلاً ؛ وان المشعل الرومانى قد همد تحت أقدام البرابرة المهاجين ؛ ولكن نور الثقافة لم يخمد أبداً فى الأرض التى تطل على شرق البحر الأبيض المتوسط ، والتى هى الوطن الحقيقى والطبيعى لما نسميه خطأ «بالمدنية الغربية» لقد انتقل مصباح الثقافة الدرى من أيدى اليونان البيزنطيين إلى أيدى العرب الفاتحين المؤمنين بالله وبمحمد ، وكان فى أيديهم أكثر تألقاً وبهاء .

إن سبب اضطراب آراء مؤرخى القرون الوسطى هو أنهم وان كانوا يجيدون اللغة اللاتينية ، فقد كانوا يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً ، على حين كان كل تقدم فى العلم والثقافة ، يسجل منذ عهد محمد حتى منتصف القرن الثانى عشر باللغة العربية .

ولكن هذا لا يعني بأن مدنية الاسلام المشرقة التى امتدت من قلب الهند حتى منتهى غربى أسبانيا المتوحش كانت من عمل الفاتحين فحسب ؛ يقول الدكتور سارتون ، إن العرب أول من نزلوا الميدان أسياداً للعالم ، لم يكونوا أحسن ثقافة من قبائل الهند الغربية ، ولكنهم كانوا ذوى أهبة ممتازة فاقتبسوا بسرعة عجيبة كل ما يمكن اقتباسه من مدنية البيزنطيين ، واستطاعوا فى خلال جيلين اثنين فقط أن يرتقوا فى العلم منزلة لم يرتق إليها أحد

[البقية فى أسفل الصفحة التالية

تحليل نفسى

الأفعال المفقودة أو الفلتات

Les actes manqués

للدكتور عبد الفتاح سلامة

إذا كانت الأمثلة السائرة والقصص المتداولة بين الجمهور تدل على شىء ، فانما يكون ذلك لأنها نتيجة لتجارب كثيرة ، لمس كل فرد حقيقتها ، وعرف مقدار الحكمة فيها ، ويمكن له الاستفادة منها بتطبيقها على ما قد يصادفه من حوادث . وقد تكون القصة الآتية واحدة من هذه القصص ، وإنا لنذكرها هنا لأنها تحتوى على فعل مفقود أو فلتة . وإذا عرفنا أن راوى هذه القصة هو أحد رجال البوليس فان من السهل معرفة الى أى حد يمكن للبوليس والقضاء الاستفادة من هذه الفلتات .

قال صديقنا — والعهدة على الراوى — إن اثنين كانا يسيران فى جهة بعيدة عن العمران فأراد أحدهما اغتيال الآخر ، وبعد أن استعطفه دون جدوى قال له : وهل تظن أنك ناج من القصاص ؟ فأجابه : ولمَ لا ؟ فقال المسكين : « الهوا يخبر » . ولكنه قتله

من قبلهم ، وكذلك برهنت الثقافة التى نشروها على انها توافق طبيعة كل الشعوب .

إن تكييف العرب لعلوم اليونان وتوسيعهم لفنونهم قد بلغ بهم الذروة فى الفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والكيمياء ، وهم لم يقتصروا على نشر الثقافة فيما بينهم ، بل نشروها خارج ممتلكاتهم . إن موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود ، لم يكن يكتب بالعبرية ، بل بالعربية ، ومن المسلم به الآن أن تأثير العرب كان قوياً فى نجاح القديس توماس أكوناياس مؤسس مناهج الدرس فى العصور الوسطى Scholastieisn التى تعتبر بحق جسراً بين تفكير القرون الوسطى والتفكير الحديث .

وعلى ذلك فان سلسلة الثقافة ظلت تامة ولم تنقطع من عهد اليونان الى ثقافة العرب الى مدنية أوربا الحديثة ؟

شرق الأردن

بشير الشريقى
المحامى

ووارى جثته التراب ورجع وحده الى بلدته ؛ ولم يهتد أحد الى مقر القتيل المسكين . مضى على ذلك وقت غير قصير ، واطمأن القاتل الى النجاة . وفى ذات ليلة قمرية جميلة جلس القاتل وزوجه يتبادلان الحديث — والحديث ذو شجون — وتوالت الأفكار على رأسه ، واذا به يبتسم فى غير موضع للابتسام ، واذا بزوجه تصر على معرفة سبب الابتسام ، فيقول لها إنه تذكر كلمة قالها رجل معتوه أثناء قتله ، وهذه الكلمة هى (الهوا يخَبّرْ) . فلا تزال هى به حتى يعترف لها بكل شىء يتعلق بالجريمة وبمكان الجثة . فالابتسام إذن هو الفلتة التى كشفت سراً كان يحرص على كتمانه ؛ وهى التى حققت المثل القائل : « مهما تبطن ، تظهره الأيام » . ولا حاجة بنا الى القول بأن فلتات مشابهة لهذه قد اضطرت الزوجة الى الاعتراف الى صديقة لها ، وهكذا شاع الأمر وأمكن إدانة القاتل . ولعلنا نكون قد توصلنا بايراد هذه القصة الى إيضاح ما نقصد من كلمة « فلتات ، أو أفعال مفقودة » ، إذ أننا بعد أن تكلمنا عن تأثير الايحاء فى بعض الأمراض العصبية وكذلك فى بعض الأمراض الأخرى ، نود أن نتكلم عن التحليل النفسى ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة للكشف عن الشادة اللاشعورية ، وهى التى تحدث بين ذلك الشيطان — اللاشعور — والنفس .

ويكون التحليل النفسى ممكناً بالمناقشة والاستفادة من الفلتات ومن الأحلام ومن الأعراض عند المرضى . وقد سبق أن تكلمنا عن تفسير الأحلام التحليلى .

أما الفلتات أو الأفعال المفقودة فانها أفعال تصدر فى الغالب عن غير إرادة الانسان ، كأن ينطق فى سياق حديثه بكلمة لا يريدها ، وقد ينتبه أو لا ينتبه الى ما صدر منه ، (فلتة لفظية) . أو قد يكتب كلمة غير التى يريد كتابتها ، أو قد ينسى كلمة كان يود أن يكتبها ، (فلتة كتابية) . وقد ينسى الانسان شيئاً كان يذكره منذ لحظة قصيرة ، فيبحث عن قلم وهو فى يده ، أو يريد أن يتذكر اسم شخص أو بلد كان يعرفهما تماماً ، ولكنه لا يمكن له ذلك ، (فلتة من فلتات الذاكرة ، وهو ما نسميه بالنسيان) .

وكذلك قد تتحدث الى شخص وهو منتبه اليك ، ولكنه لا يلبث أن يسرح ببصره فى الفضاء ، أو أن يتغير لونه ، أو أن يلعب بأصابعه فى أى شىء ، ثم يسألك أو لا يسألك بعد ذلك عما كنت تتحدث به اليه لأنه (لم يأخذ باله) . وهذا بالطبع معناه أنه حدث له ما صرف انتباهه الى ناحية أخرى .

فلماذا لفظ الانسان أو كتب ما لا يريد ؟ ولماذا نسى ما كان يعرفه تماماً منذ لحظة قصيرة ؟ السبب فى ذلك هو فى وجود رغبتين عند الانسان ، وفى أن إحداهما مكبوتة refoule ، والرغبة المكبوتة قد تكون لاشعورية أو شعورية أو تمييزية كذلك ، ولكنها فى الغالب رغبة لاشعورية ، حيث لا يعرف عنها صاحبها شيئاً إلا بعـــد التحليل . أما اذا كانت شعورية أو تمييزية فان صاحبها ليس فى احتياج الى تحليل لمعرفتها . هذا فيما يتعلق بالرغبة المكبوتة . أما الرغبة الأخرى فانها فى الغالب رغبة تمييزية ، ولكنها قد تكون شعورية أو لا شعورية كذلك ؛ فصاحب الفعل المفقود إذن يجد نفسه أمام رغبتين ، وهو فى أثناء تعبيره عن الرغبة غير المكبوتة عنده تتحين الرغبة المكبوتة أى فرصة للظهور . وهى عند ماتسنح لها هذه الفرصة تجد سبيلها الى الظهور بواسطة أى لفظ أو حركة تنم عليها ، وهذا اللفظ أو الحركة هو ما نسميه الفلتة أو الفعل المفقود أو الفعل غير الارادى acte manqué أو lapsus

ومع أن الفعل المفقود قد أظهر الرغبة المكبوتة فانه لم يتمكن من تنفيذ هذه الرغبة ، لأن الانسان سرعان ما يستنكر صدور هذه الفلتة منه ، ويتساءل كيف أخطأ فى تعبيره . والواقع أن الرغبة المكبوتة وهى التى سببت هذه الفلتة قد اكتفت بهذا التحقق الرمزى أو التلميحى بواسطة الفعل المفقود ، لأن التحقق الفعلى تأباه عليها ظروف الحياة ، فهو إذن غير ممكن لها . وهكذا تكتفى الرغبة المكبوتة بالأوهام بدلاً من الحقيقة الواقعة ، ومثلها فى ذلك مثل الأفكار الذاتية التى سبق أن تكلمنا عنها سواء بسواء . لأن الرغبة المكبوتة مهما كانت شعورية أو تمييزية فانها فى الأصل من اللاشعور ، وهو الذى يكتفى فى تنفيذ رغباته بالأوهام .

وأما الفرص التى تنتهزها الرغبة المكبوتة فهى كثيرة : فالتعب واهتياج الشعور والاجهاد الفكرى وكل ما من شأنه أن يقلل من انتباه الانسان يساعد على إيجاد هذه الأفعال المفقودة .

والرغبتان اللتان نشأ عنهما الفعل المفقود قد تكونان متعارضتين ، فيكون اللفظ إذن عكس ما كان يراد تماماً ، وقد تكون إحدى الرغبتين معدلة للأخرى أو مكملة أو مؤكدة لها ؛ وسنذكر فيما بعد بعض الأمثلة على كل نوع منها . ولنرجع الآن الى ابتسامة القاتل التى سببت اكتشاف سره ، ونرى هل هى الأخرى وليدة رغبتين عنده ؟ وهل فى هاتين الرغبتين مايدل على التعارض ؟ والى أى حد يمكن استخدام الفلتات فى الكشف عن خفايا نفسية المجرم ؟ فلقد جلس هذا الى زوجه وعنده رغبتان : الأولى حب الظهور بالبطولة ، وإظهار بأسه وقوته . والثانية حب كتمانه لما فعل خوفاً من تسرب الأخبار والوقوع تحت طائلة العقاب ، فهو إذن بين رغبتين تتنازعانه . وبينما تشـــتد رغبة النجاة فى كبت رغبة الزهو والاعتداد بالنفس إذا بهذه الرغبة الأخيرة تنتهز الفرصة للظهور فى وقت ضعف الرغبة الأولى تحت تأثير الهوى . وهكذا يتحقق الزهو والفخر ، ولكن هذا التحقق ان هو إلا تحقق رمزى وذلك بالابتسام ، وما الابتسام إلا رمز الانتصار ، لأن رغبة النجاة مهما ضعفت فانها لا تسمح بالاعتراف والفخر الصريح . وهكذا كان ، فقد ابتسم الرجل فى غير موضع الابتسام ، ولكنه مع ذلك يأبى الاعتراف الصريح أولاً . وهنا نرى الزوجة تقوم بدور المحلل النفسى فتستخلص منه ما كان يأبى الاعتراف به .

وإذا كنا فيما سبق قد قلنا إن الشعراء والأدباء والفنانين يستخدمون الخيال ، فان ذلك من دواعى الفخر لهم ، لأن التخيل ممكن وموجود عند كل انسان ، وانما امتاز هؤلاء بامكان استخدام خيالهم وتحقيق أحلامهم على صورة رمزية جميلة تأخذ بالألباب . وفوق ذلك فان لهم من حسن الذوق ودقة الحس مايسمح لهم بملاحظة كل ما يمر أمامهم من دقائق الحياة ، وهكذا فان الأفعال المفقودة أو الفلتات لم تفت عليهم ، بل انهم استخدموا هذه الأفعال لتجميل الأسلوب وتوضيح المقصود ، وقد أظهر لنا فرويد مثلين من ذلك . ففى رواية تاجر البندقية لشكسبير تقول بورشيا لبسانيو الذى يتقدم إلى الصناديق الثلاثة ليجرب حظه فى نيل يدها « إن عينك هذه تقسمنى إلى نصفين . فالنصف الأول لك وأما النصف الثانى فهو لك . . . . أريد فهو لى » . والسبب فى هذه الفلتة الكلامية هو أن بورشيا تريد أن تقول إنها كلها له . وفى رواية أخرى . يقول كاستنبرج لا وكتافيو . (إلى أين أنت ذاهب) . فيجيب اوكتافيو (إليها . . . إلى الدوق هيا بنا) والسبب فى هذه الفلتة أيضاً هو رغبة اوكتافيو فى اللحاق بالفتاة التى يحبها

وأما النكت والفكاهات التى تقال على البديهة فنها نوع آخر من الأفعال المفقودة، إلا أن قائلها يتذرع بالضحك لستر رغباته الكامنة، ومع ذلك فإن هذه الرغبات كثيراً ماتكتفى حقيقة بالأوهام، فلا تصر على التنفيذ الحقيقى لها، وإنما تكتفى بالرموز والتلميح كما تقدم.

ويمكن استخدام هذه الأفعال فى انتخاب الأسئلة المحرجة وفى توجيه الاتهامات والمناقشة إلى الهدف الذى يرمى اليه المحقق، أما فيما يتعلق بالمرضى فان التحليل النفسى لا يطمع من المريض أن يعترف برغباته اللاشعورية، ولكنه يطمع فقط فى أن يعرف المريض رغباته فى أثناء المناقشة معه، ولو أنه قد ينكرها بتاتاً، وقد يكون ذلك الانكار خجلاً أو لأى سبب آخر، ولكن إنكاره هذا لايمنع من وصول رغبته إلى الشعور، ومن ثم إلى التميز لمناقشتها. فليس الاعتراف إذن ضرورياً للشفاء مادامت الرغبة قد وصلت إلى التميز، والانكار نفسه قد يكون طريقة من طرق السمو بالرغبة، وهذا السمو هو فى الواقع ميزة من ميزات التحليل النفسى ومن أجلها يفضل على الايحاء. والرغبة المحرمة يسمو بها الانسان إذا صورها وعدلها فاصبحت غير مخالفة لنظام المجتمع وتقاليده. فقد يفكر الانسان فى الاضرار بأى شخص كان لكراهيته له، وذلك إظهاراً لمقدرته على البطش والأذى، ولكنه قد يسمو فيكتفى فقط باظهار قدرته على الأذى ثم يعفو ويتسامح بعد ذلك. وهذا هو مايحدث تماماً عند مايسمو المريض العصبى برغبته. ولكن رغبة هذا المريض العصبى ليست من هذا النوع البسيط من الرغبات فانها هى والرغبات التى تتجلى فى الأحلام والتى تملى على الفنان فنه ليست إلاّ رغبات جنسية تتعلق بأشخاص من ذوى القربى، وقد عرف كل من المريض العصبى، وصاحب الرؤيا، ورجل الفن طريقه إلى تحقيق رغبته. وإن كان هذا التحقيق رمزياً مشوهاً لايدل فى الظاهر على أى رغبة محرمة، ولكن التحليل فى كل الحالات قد أثبت أن أعراض المريض والرؤيا ومنتجات الفن ليست إلاّ هذا التحقيق الرمزى المشوه لهذه الرغبات. فالرغبة المحرمة المجهولة لصاحبها لأنها مكبوتة بفعل الضمير هى أصل كل أعراض المرض، وهى أصل الرؤيا، وهى التى توحى الفن إلى الفنان، بل هى سبب التخيل وكل ما يبنيه الخيال من تصورات وأمان، وإذا كنا قد ذكرنا الفنان هنا فان من الانصاف أن نقول إنه عرف كيف يسمو برغبته ذلك السمو البارع الجميل.

ولا يمكن أن يكون هذا الموضوع تاماً إلا إذا تكلمنا عن المسألة الجنسية، وعن قصة أوديب الملك كما ينظر اليها فرويد، وهذا ما نرجو أن نتمكن من إيضاحه فيما بعد، إلاّ أن ماسبق أن أوردناه يسمح لنا أن نقول إن الأيحاء وحده لايمكن أن يثمر الشفاء التام الدائم إلا إذا سبقه التحليل والكشف عن الرغبات الكامنة السالفة الذكر. ولنرجع الآن إلى الموضوع الذى يشغلنا وهو الفلتات أو الأفعال المفقودة. فقد بينا أن هذه الفلتات قد تكون كلامية. كأن يذكر كلمة غير التى كان يود أن يقولها أو يقرأها إذا كان يتكلم أو يقرأ من أى ورقة أو كتاب. أو فلتة سماعية، كأن يسمع كلمة غير التى قيلت له أو يمعنى آخر يتخيل سماع الكلمة المعينة، أو فلتة كتابية كأن يكتب غير الكلمة التى كان يريد كتابتها أو يمحو كلمة غير التى كان يريد محوها. أو فلتة من فلتات الذاكرة وهو ما نسميه بالنسيان — وقلنا إننا سنذكر بعض الأمثلة على كل هذا، وأن الكلمة الخطأ قد تكون عكس الكلمة المطلوبة — المخالفة قد تكون فى ترتيب الحروف وفى معنى الكلمة — أو معدلة لها أو كلمة مدغومة فى غيرها. الخ والواقع أن الأمثلة على كل نوع منها كثيرة ولا تدخل تحت حصر، ومن منا لم يسمع أو يلاحظ الكثير منها فى كل يوم وفى كل مكان؟. ولهذا فانني أترك الأمثلة لمن يود أن يلاحظ بنفسه هذه الفلتات وأن يتعرف إلى الغرض الذى حدثت من أجله. وأتكلم الآن عن فلتات الذاكرة أو النسيان، فقد أخبرنى صديق لى أنه أراد مرة أن يتحدث عن شخص عرفه من مدة قريبة وعرف اسمه وسمع ذلك الاسم مراراً، ولكنه مع ذلك كان ينسى اسمه كلما أراد أن يتحدث عنه. وبعد جهد فى محاولة استذكار الاسم فانه يذكر اسما آخر على أنه الاسم مطلوب — وهكذا يسمى صديق ذلك الشخص (شافعى) دائما بدل اسمه الحقيقى، وذلك بعد جهد فى التذكر بدون جدوى، وهو إذ يقول إن اسمه شافعى لايقولها بصفة التأكيد أيضاً فى كثير من الأحيان: وفى ذات مرة بعد لحظة قصيرة من التأملات أخذت الأفكار تتوالى على

عقله ولم يكن يقصد أن يتذكر الاسم الذى ينساه دائماً وإذا به يصيح فجأة إن اسمه (شلبى)

نعم . هذا هو ماحدث لصديق ، وأراد أن يعرف لماذا نسى ذلك الأسم ، ثم لماذا ذكر شافعى بدل شلبى مع شكه أيضاً فى أن ذلك هو اسمه الحقيق . ولما سألته أن يذكر لى كل مايعرفه عن أى شخص آخر يسمى بنفس هذا الأسم (شلبى) أخبرنى أنه كان يعرف شخصاً بهذا الأسم ولكن لم تكن بينهما صداقة ما . بل بالعكس فانهما كانا متنافرين — هذا يفسر لنا نسيان الأسم (شلبى) ولكنه لايفسر لماذا يسميه شافعى فى كثير من الأحيان فسألته أن يذكر لى شيئاً عمن يعرفهم باسم شافعى هذا . وهنا صاح متعجباً أنه يعرف شخصاً محترماً بهذا الأسم وأن هذا الشخص المحترم (شافعى) من حيث الخلقة والشكل العمومى يشبه (شلبى) ذلك الشخص المكروه الذى مضى على معرفته إياه وقطعه كل علاقة به زمن طويل — هذا هو اذن سر ابدال الأسم ، وهو جواب ما كان يسأل عنه .

وقد ذكر فرويد أن رجلاً كان بينه وبين زوجته نفور ، ولكنه لم يكن قد صارحها بأى شىء ، وهى مع ذلك تحبه وتخلص له . وقد أهدته كتاباً شيقاً فى نظرها ليقرأه . ولكنه وضعه فى جهة معينة ولما اراد البحث عنه لقراءته لم يتمكن من تذكر المكان الذى وضعه فيه برغم كل الجهود التى بذلها فى هذا السبيل . ثم حدث أن والدته مرضت مرضاً شديداً حمل زوجته على أن تعتنى بها وتمرضها ، وكان من نتيجة ذلك أن شعر الزوج بشكره لزوجته لعنايتها بوالدته ، وتحول هذا الشكر الى تقدير ، ثم رجع الحب الى سابق عهده . ثم لما رجع الى بيته ذات يوم فتح درجاً من أدراج المكتب بدون أى فكرة عن امكان العثور على الكتاب ولكنه لدهشته وجده فيه ، برغم مضى أكثر من ستة أشهر على وجوده فيه ، وبحثه عنه على جملة مرات فى هذه المدة .

أليست عوامل المودة والنفور هى التى تؤثر فى النسيان والتذكر وحدها ؟ فاننا سبق أن تكلمنا عن فعل الضمير فى هذا الشأن ، وكيف أنه يكبت الرغبة فيردها الى اللاشعور ، ولست فى حاجة الى القول بأن الأنسان لايذكر أو بمعنى آخر لايشعر إلا بما يعرفه الجزء الشعورى من عقله . فكل فكرة تتمكن من الوصول الى الشعور فهى شعورية ، أى أن الأنسان يعرفها ويذكرها ، وكل فكرة ترتد الى اللاشعور أو تحفظ فيه فهى فكرة لاشعورية لايعرفها الأنسان ولا يذكر الحوادث المتعلقة بها . على أنه من السهل التنقيب عما يوجد فى ذلك المخزن — اللاشعور — اذا ترك الأنسان لحرية تفكيره العنان ، فلا يعترض حرية التفكير هذه بنقد أو تجريح ولا يرمى أى فكرة تأتى اليه بأنها غير معقولة أو غير جائزة أو الخ . . . بل يترك نفسه للتفكير فلا تلبث الأفكار إذن أن تتوالى كما يقول المثل — الشىء بالشىء يذكر — لأننا سبق أن بينا أن الأفكار والرغبات مسجلة على قواعـــد الأصطحاب والقرينة ، أى أن الأشياء المتشابهة أو المتضادة — والمتقاربة والمتباعدة مسجلة بالقرب من بعضها ، واذا ذكر أحدها فلا بد من تذكر الآخر . واذا ذكر الأنسان صديقه فلا يلبث أن يذكر أشياء كثيرة معه كبيته أو المقهى الذى يجلسان به أو الكلام الذى حدث بينهما ، واذا تذكر هذا المقهى فقد يذكر مقهى آخر فى أوربا أو أى بلد آخر ، ويذكر معه الحوادث التى مرت به فى هذا المقهى الآخر وهلم جراً .

فاذا كانت الفلتات تخدم التحليل النفسى لأنها توجه نظر المحلل الى وجهات مهمة فتوحى اليه بالاسئلة الواجب القاؤها على المريض ، وهذا يتطلب من المحلل ذهناً صافياً وفكراً سليماً ، فان على المريض واجباً آخر يجب عليه أن يرعاه ، وهو أن يلتزم الأخلاص فى كل اجاباته على الأسئلة التى توجه اليه ، ويجب أن يعلم أن مقدار اخلاصه هذا يعرفه الطبيب المحلل نفسه . وفوق ذلك فانه يجب أن يترك أفكاره حرة من كل قيد فيجيب بكل ما يخطر على باله بصرف النظر عن موافقة ذلك للمعقول والجائز أو مخالفته لهما .

ولايفوتنى أن أذكر هنا أن شاعرنا شوقى بك فى روايته الخالدة « مجنون ليلى » قد ذكر فلتة على لسان ليلى العامرية ، فقد ذكرت المسكينة اسم قيس مرتين دون أن تشعر ، ولما نبهتها زميلة لها الى ذلك قالت : وأى شىء فى ذلك لو ذكرت قيساً ثلاثا . ثم قالت « ياقيس ناجى باسمك   القلب اللسان فعثر » .

دكتور عبد الفتاح سلامه
طبيب مستشفى برقاش

٩ - أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

محمد افندى أكمل

هو محمد أكمل بن عبد الغني بك فكرى بن لطف الله بن حسين ، الشاعر الأديب الظريف ؛ ولد بالقاهرة ونشأ بها واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه ، ثم أدخله فى الديوان الخديوى للتعلم كتلميذ ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان مدة الخديو اسماعيل باشا ، يجود الخط به وألمّ باللغة التركية ، وكانت له حدبة بظهره شوهت خَلْقه ، ورأى والده أن لامطمع فى استخدامه بمنصب لائق ، لحدبته وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلازم الطلب به وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورىّ ، والشيخ محمد البجيرمىّ ، وكان أحدب مثله ، وكثيراً ما كان يقعده بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جمّاعة للكتب ، مغالياً فى اقتنائها شراء واستنساخاً ، ينفق عليها جلّ ما يصل ليده ، ويحيى الليالى فى مقابلة مايستنسخه منها وتصحيحه وضبطه ، فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثيرمن الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، وعاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين كالشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، والشيخ أحمد مفتاح وحفني بك ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً ، ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح ، وكان كثيراً ما يجعل محور تنديره دائراً على حدبته ، فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لايأنف من ذكرها فى شعره ، كقوله من زجل فى الوباء الذى حلّ بمصر أوائل سنة ١٣٢٠ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

شاعرْ وناثرْ زجّالْ عالْ ... فنّ الأدبْ فيدُهْ (١) لِعبَهْ
لطيفْ زكى وِفهْمُهْ سَيَّالْ ... ورِقّتُهْ مِنَ اللهْ وَهْبَهْ
مخْلِصْ .لا ْخوا ُنه ومَيَّالْ ... نادْرِةْ زَمانُهْ ولُهْ حَدَبَهْ
مافِيهْش عيبْ ظاهرْ معروفْ ... قَصِيرْ ولكن فِيهْ أقْصَرْ
واللى يعيش ياما بِيْشُوفْ ... واللى بيمشى يِشُوفْ أكترْ

ومن ولوعه بحدبته شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدباز وما قيل فيهم من الأشعار ، وتراجم مشهوريهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه

ونقل والده مدة محمد توفيق باشا الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً ، وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ وخلف له ولاخوته ضيعة بالصعيد أصاب المترجم منها ستون (فداناً) باعها وبدد ثمنها بالاسراف حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضض بعد ما تعوده من السعة والرفاهية ، وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال وحل وترحال وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه فيأخذ بيده فلم يستفد شيئاً وراح تغزّ له فى الريح ، وكان قصر شعره فى أواخر عمره على هذه التواريخ فنظم منها الغث والسمين . وكنا إذا قرب عيد أو سفر أو قدوم للخديو لاننتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية فيصير هذا ديدنه فى غدوه ورواحه وقيامه وقعوده حتى يمن الله عليه بشىء يرتضيه

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة فى نفائس الكتب ونوادر الأسفار ، وهى التى أفنى عمره وماله فى جمعها ، وأتعب نفسه فى تصحيحها وضبطها . وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها ، فوق ما كان يتكلفه من السعى فى البحث عنها فى الخزائن المهجورة وعند الورّاقين ، واتخذ له فى داره مصنعاً للتجليد ، واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه ، وكان هو وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان فى ذلك ويتسابقان . أخبرنى المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الورّاقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له وبينها ديوان البحترى

(١) أى فى يده

وكان اذ ذاك لم يطبع بل لايعرف فى مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه ، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده وأحضر فى الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت ، ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد بك وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال له خفّض عليك يا أخى هذا شئ أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه ، ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة . وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسعه إلا أن قام فى الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وساومه فى الرسالة بقيمة فوق قيمتها ولم يمهله للصباح بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ففتحه ليلاً وأخرجها له ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده . فلما مات عرّض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر ، وكان من مستعربى الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا أواخرها فاقتنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ما هو بخط عبد الغنى بك نفسه ، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التى كان يقابلها بها

وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق بك ، وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته ، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفعل التفضيل ، وأجهدت نفسى فى درسين متواليين على تفهمه ، فلم يفتح على بشئ فيه ، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسنى. ثم تأهل ببنت حنفى بك ، وكان لأسرتها نوع اتصال بنا ، فاتصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب ، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا ، فكان يزورنى عصر كل يوم ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف ، فتارة كنا نحيي الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية ، أو بمطالعة بعض الكتب ، وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه ، وكان لا يمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها ، ويقول هذا شئ دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر . وأشار علىّ مرة استاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطالع أمالى ابى علىّ القالىّ مطالعة امعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها ، وأخبرت المترجم أننى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى ما بهذه الكراريس ، فغاب عنى ثلاثة أيام ثم حضر ومعه زجل ، ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الاخوان ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا

وقد أطلعته على رسالة عندى جمعها الشيخ احمد الفحماوى صاحب الخط الحسن ، المشهور بكتابة لزوم ما يلزم للمعرى وسماها (بنات أفكار وعرائس أبكار فى ألقاب أهل العصر) ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع ، وابراهيم افندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم ، أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به ، أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى افندى المنموت بكامل بالعكوّك ، لأنه كان قصيراً جداً معوّج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعى الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملاّ مسكين ، لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه تواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى بك أبا المترجم بالأخطل ، لأنه كان ضخم الجسم كبير الهامة . فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً وشرع فى وضع رسالة تماثلها فى فضلاء عصره ، وسألنى مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان فامتنعت خشية اللوم ، فانفرد هو بتأليفها وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة باشا ابن رفاعة بك المشهور ، بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى افندى الأفغانى ، بالقدورى لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدورى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحفنى المهدى ابن أخى مفتى مصر الشيخ العباسى المهدى ولعاً بذم الناس

منقباً عن معايبهم ، لهجاً بها فى المجالس ، لم يسلم منـه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه وتحاموا عن الاجتماع به ، فلقبه بابن هِرْمة ، وهى كلمة سب عند العامة ، فقلت له هذا لا يستقيم لك لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله فتأفف وقال لا أجد له لقباً ينطبق عليه غير هذا فدعنى من شنقيطيتك . ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه ، ففكر وقال أحسن لقب ينزل علىّ ابن قتيبة ، ثم تركه وتلقب بالمقوتس . وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم ، فانه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ احمد مفتاح سلامة طويته ، بالأبله البغدادى ، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما ، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح فى مشيته كما يتدحدح البط لأنه لقبه بابن بطوطة ، فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً فى الزجل ، متقناً لصياغة الأدوار التى يتغنى بها ، وأكثر ما كان متداولاً منها بين المغنين فى عصره كان من نظمه ، وأما شعره فالاجادة فيـه قليلة إلا ما ضمنته النكت والتندرات العامية ، فمن أحسن ما وقفت عليـه منه قوله من مرثية فى صاحبه على رفاعة باشا

جزعت وللحرّ أن يجزعا ... وودّعت صبرى إذ ودّعا
وجادت عيونى على بخلها ... وحُق لها اليوم أن تدمعا
وروّع قلبى النوى بعد ما ... أمنت ومثلى كم رُوّعا
لحا الله يوماً أشاعوا به ... وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأبينه ... وما كان أسوأه موقعا
وما كان حقى البكاء ولـكن ... فزعت ولا بدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب ... وغيرى من الناس كم جرعا
وما دار فى خلدى أننى ... أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولـكن شأن الزمان عجيب ... فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعىّ علىّ قضى ... ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سـيداً صيته طائر ... حوى الفضل فى شخصه أجمعا
فدكت رواسى الدنى بعده ... وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما ... ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقـل للخطابة ذوبى أسى ... ولا تطابى بعـده مصقعاً
وقـل للـكتابة لا تحفـلى ... بمن يتبجح فى المـدعى
وقل للعلوم فقدت أميراً ... مضى تاركاً فضله مشرعاً

وقال موريا باسم الطبيب سعد بك سامح :

ياســـعد مالك معرضـاً ... عنىّ وقلبى فيـك طامحْ
إنى أتيتـــك قائـــلاً ... أنا تائب ياسـعد سامح

وقال موريا باسم محمد ثابت :

ان كنت فى ريب بصدق محبتى ... وسمعت عنى ما تقوّل شامت
فاعلم فديتـك دائماً انى على ... عهد المحبّـــة يا محمد ثابت

ولما مرضت شقيقتى السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل نظمت فى مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها وهى :

قد كنت عائشة فنوديت ارجعى ... للقبـر مأوى كل حىّ فان
فأتيت صفر الـكف عن مرضاته ... ومقرة بالعجز والعصيان
جرّدت من ثوب الهدى لـكن لى ... تاجاً من الاسلام والايمان
ونزلته مستشفعاً بمحمـــد ... وتوسّـــلى عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار لحدىَ راجياً ... خير الدعا وتلاوة القرآن
لـكم البقا إخوان دينى أرّخوا

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قـبر لعائشة سما بجنان)

٣٠٢ ٨١١ ١٠١ ١٠٦

١٣٢٠

وله غير ذلك مما ذهب عن الذهن الآن ، ولـكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتى فيها أحياناً بغرائب فى ابراز المقصود بدون حشو كقوله فى تاريخ ولادة ولده عبد الغنى : (عبد الغنى ابن أكمل) .

وكانت وفاته فجأة قبـل ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٢١ ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله تعالى .

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد فى مصر وبخمسين قرشا فى البلدان الأخرى

من طرائف الشعر

تعالى

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

تعالَىْ نسْألِ الذِّكرَى عَنِ الْحُبِّ وَماضِيهِ
وَعَنْ سِحْرِ لَيالِيهِ وَعَنْ حُلْوِ أَمانِيهِ
حكاياَ ما تنِى تَنْهـلُ مِنْ ضِحْكٍ وَتمْوِيهِ
قَصَصْناهَا عَلَى قَلْبَيْـنِ مَغْمُورَيْنِ بالتِّيهِ
وَهذَا اللَّيْلُ كَمْ أَصغى وَكَمْ أَصْغَتْ دَرَارِيهِ
لَقَدْ قَرَّبنَا الْحُبُّ وَضَمَّتْنَا أَوَاخِيهِ
وَلَمْ تَنوِ القِلَى أَهْلِى فلَمْ أَهْلُكِ تنْوِيهِ
حَيَاتِى مِنْكِ فى نَوْحٍ وَتَعْذِيبٍ وَتأْوِيهِ
فهَلْ أَظْفَرُ فى الْهَجْرِ بطَيْفٍ مِنْكِ أُصْبِيهِ
أُفَدِّيهِ بأَحْلاَمِى فيُسْلِينِى وَأُسْلِيهِ
وَأُغْرِيهِ بِأَشْعارِى فيُبْكِينِى وَأُبْكِيهِ

***

وَكَمْ قَاسَمَنِى اللَّيْلُ أَنِيناً بِتُّ أُخْفِيهِ
شَجَانِى مِنْهُ مَا أَشْجَى وَأَضْنَانِى مُضْنِيهِ
أَسًى لِلْقَلْبِ مَا يَنْشُدُ إِلاَّ مَا يُعَنِّيهِ
وَمَا يَبْرَحُ طُولَ الدَّهْرِ طِفْلاً فى تَمَنِّيهِ
يَعُدُّ الفَرْحَةَ الْكُبْرَى لِحُبٍّ كامِنٍ فِيهِ

***

إِذَا سَاوَرَنِى الْوَجْدُ وَأَطْيَافُ لَيَالِيهِ
وَأَضْنَى قَلْبِىَ الْهَمُّ وَأَحْزانٌ عَوَادِيهِ
لَمَسْتُ الْبُرْءَ فى اللَّيْلِ وَفى صَمْتِ دَيَاجِيهِ
كِلاَنَا مُوحَشٌ زُوحًا سَقِيمٌ غَابَ آسِيهِ

***

إِذَا ضَاعَ لَكَ الْحُلْمُ الذى عِشْتَ تُرَجِّيهِ
فمَا تَطْمَعُ فى الْعَيْشِ وَلاَ يُغْرِيكَ حَالِيهِ

***

لَقَدْ لَقَّنْتِنِى الْحُبَّ وَمَعْسُولَ أَغَانِيهِ
وَأَوْحَيْتِ لِىَ الشِّعْرَ وَمَنْ غَيْرُكِ يُوحِيهِ ؟
وَنَجْوَى لَحْنِهِ الباكِى وَأَنَّاتِ قَوَافِيهِ

***

قَطَعْنا الْعُمْرَ فى الْحُبِّ وَفى غَمْرَةِ وَادِيهِ
فَلَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْهُ سِوَى طَيْفٍ نُنَاجِيهِ

دمشق **أنور العطار**

ليلة الزورق

لعبد العزيز افندى عتيق

حينما ذَهَّبَ الأصيلُ مياه النيل ، واختال فى الرياض جميلا
أبصرتنى أطوف حول حِماها سادرَ الخطو ، حائراً ، مخبولا
هتفتْ بى : إلىَّ يا صاح أقبلْ أنا مَن قد بحثتَ عنها طويلا
ذاك وكرُ الهوى ، ألستَ تراه مثلما كان شاعرياً ظليلا ؟
ذاك روضى ، فقرَّ عيناً ونفساً ياحبيبى ، واجلسْ إلىَّ قليلا
واسقنى بالجمال والسحر شعراً شفقياً يُميت منى الغليلا

***

كيف جانبت روضكَ الفينانا أتسلّيت ؟ أم نسيت المكانا ؟
كلما طفتُ بالمكان أثارتْ وقفاتُ الوداع منّى الحنانا
وأرى القلب فى غيابك أمسى ياحبيبى موزَّعاً حيرانا
أيها الغائب الذى خالط القلب هواه ، تعال نحىِ هوانا
خُذْ ذراعى إلى ذراعك واصعدْ ربوةَ الأمس ، واسقنى الألحانا
رُبَّ ليلٍ سهرتُه أتقلّى فيه وحدى ، وأشتكى الحرمانا !

***

ها هو الناىُ حالماً بالأغانى فأعدْها سحريّةَ الأنغام
ها هو الناى ياحبيب فؤادى غنِّ للحب ، للنفوس الظوامى
فاذا ما شُغلتُ عنكَ بنفسى وبما هاج من هوى وضرام

فدعِ النايَ جانباً، وأدِرْها … قُبُلاتٍ من ثغركَ البسّام
ودع الربوةَ السحيقة تخفى … أثرينا عن أعين الأقوام
ولنعش هاهنا كما نتمنى … للأغانى، للحب، للالهام

* * *

وانظر الشمس! هل شجتك اختلاجاً
وهى تخطو الى الفنـاء السريع؟
كم أضاءت وجددت من حياة … وتجلت فى كل أفق وسيع
ثم همَّتْ فليس فى الكون إلا … نائحٌ فى مواكب التشييع
ياحبيبى خلِّ الوقارَ وهيا … نوقظ اللهو بعد طول هجوع
بالأغانى، وبالحديث، وبالشعـ … ـر، وبالسحر، والهوى والدموع
فغداً تذهب الحياة بشمسيْـ … ـنا وتمضى بنا لغير رجوع!

* * *

وانظر البدر فى الفضاء سَبوحاً … يغمر الكونَ وجهُه بالنور
أطلَقَ السحرَ فى السماء وفى الأر … ض، فبتنا فى عالم مسحور!
لا نرى فيه غير ليلٍ وضىءٍ … يبعث الشوق والهوى فى الصدور
ياحبيبى خذنى اليك وأنعِشْ … شفتينا بثغركَ المخمور..
قرِّب البدر بيننا ورعانا … فتمتَّعْ بساعة من سرور
ما غناء الساعات، تمضى خُواء … من لقاء، أو رحلة، أو سمير؟

* * *

وارقب الزورق المقدسَ يبدو … من بعيدٍ كالطائفِ الجوّالِ
كم عبرنا به الخضمَّ وقد أغـ … ـفى وجُلْنا به بكل مجال
نوقظُ الموجةَ الصغيرة بالهمـ … ـسِ، فتبدى تثاؤب الأطفال
وأغانى المجداف تُضفِى على اليمِّ (م) رداءً من رهبةٍ وجلال
يا حبيبى حان الوداع فهيا … جئتَ نقضى حقَّ الليالى الخوالى
كم حبتنا بصفوها ورعتنا … نضَّر الله وجهَها من ليال

* * *

ورسا الزورق المقدسُ للشطْـ … ـطِ فيا للصفاء يخطو الينا
ودعانا الملاحُ بالنغم العذْ … ب، فأورى بصوته مهجتينا
أيهذا الملاحُ أيَّة ذكرى … فوق هذا الخضمِ هجتَ لدينا؟
قرِّب الزورقَ المقدس كالأمـ … ـسِ، وهيِّ لنا به مجلسَينا
وامض فى اليمِّ حيث نسعد بالصفـ … ـو، ونُحيِى فى ظله أملينا
طال شوقى الى المطاف بدنيا … كم شجتنا وأطلقتْ خاطرينا!

* * *

قلتُ والبدرُ حالمٌ، والدرارى … حالماتٌ، والكون وسنان صاح

يارجاءَ القلبِ الجريحِ — وماذا … ل — أما آن أن تداوى جراحى؟
بى ظِماءٌ الى حديثكِ عذباً … واشتياقٌ لوجهكِ الوضاح
قد سهونا عن الحياة وبتنا … فى محيطٍ من الطلاقة ضاح
فابعثى النور فى جوانب نفسى … وارحمينى من وحشة الأرواح
شدَّ ما ضقتُ بانفرادى وسُهدى … واغترابى، فى غدوتى ورواحى!

* * *

أنا لولاكِ لم أعشْ فى حياةٍ … ثقلتْ محملاً وساءت مَقرّا
ليس تصفو لنا، وهيهات تصفو … للذى ازداد بالحقائق خِبْرا
أنتِ جمَّلتِها لعينى ونفسى … وفؤادى، فلست آلوكِ شكرا
فتعالَىْ نعِشْ هنا فى حمى اليمِّ (م) وننسى ما ساءنا، أو سرَّا
نتناغى كالطير فى كنَف الدو … ح ونطوى الساعات أسىً وبشرا
ذاك لبُّ الحياة، بل ذاك أندى … ما حوته الحياة برّاً وبحرا

* * *

وصحا الشوقُ عارماً فاذا هى … فى جنونٍ ورعشةٍ قبلتنى
ثم ألقتْ برأسها فوق صدرى … كالذى نام من مَلالٍ وأيْنِ
وسرى الريح ليناً فاطمأنتْ … واستراحتْ فى جانبى المطمئن
وشجاها الهوى فألقت بأذنى: … يا حبيبى طاب المكان فغَنِّ
غنِّ لى غنوةَ الربيع على اليمِّ (م) ورقِّ الفؤاد من كل لحن
فاحتضنتُ العودَ الحبيب الى النفـ … ـس، وأيقظته ورحت أغنى:

* * *

حينما يشرق الربيعْ … فى سماء الحـدائق
ونرى حسنَه البديع … فى وجوه الشـقائق

* * *

سوف ألقاكِ ها هنا … فوق ذا الزورق السبوحْ
حيث تصفو لنا المنى … ويَقِرُّ الهوى الجموحْ

* * *

يا مُحيّاً عبـدْتُه … مثلما يُعبدُ الآله
وجمالاً عشِقتُه … عِشقَ من لا يرى سواه

* * *

كم تمنيت لو نكونْ … فى حمى اليمِّ مفردَيْن
فى وقاءٍ عن العيونْ … حيث نحيا كطائرَيْن!

* * *

قدَّر الله يا حبيبْ … للغريبين بالتلاقْ
فمتى تسعدُ القلوب … بلقاءٍ بلا افتراق؟!

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكرى وفاة الامام

وقفة على دار الامام محمد عبده

بعين شمس

للشاعر الحاج محمد الهراوى

أظلاماً وأنت فى عين شمس   وعبوساً من بعد صفو وأنس ؟
كيف أصبحتِ يا مثابة غاد ؟   كيف أمسيتِ يامنارة ممسى ؟
كنتِ والعهد منك غير بعيد   بيت مَلك بغير تاج وكرسى
كنتِ للفضل والمكارم والنبـ   ـل جميعاً ، للناس من كل جنس
كنت للعلم ، والمعلم ، والطا   لب ، مجلى نهى ، ومعهد درس
عطلت هذه الدروس وكانت   ملء أهل الزمان فى كل حس
وانطوت ثم لا يزال صداها   بين صدر يرن فيـه وطرس
فانظر الدار وهى قفر خلاء   بعد أهل ، فهل ترى من محس ؟
واسأل الرسم إن أصبت جواباً   فى كلام أو فى إشارة خرس
هيه يادار بعـد أنس أجبى   كيف أوحشت بين يوم وأمس ؟
لا تراكِ العيون من دمعها المـ   ـبل حزناً ، إلا بنظرة خلس
نظرات تعيـد ذكرى إمام   كاد ينسى ، وصنعه غير منسى
حسدت مجدك الليالى فمالت   بعـــد لين عليك ميلة بأس
أقفرت هذه الربوع وأقوت   واستحالت الى معالم درس
لا يكاد البناء يقوى على الأر   ض ولا يثبت الجدار بلمس
ما بناك الذى بناك ليزهى   بالذى شاد من قباب وأس
وهو لو شاء شاد عرشاً وفرشاً   من لجين ومن حرير الدمقس
إنما آثر التواضع حكماً   للذى فيه من تواضع نفس
ليس يعنى بزخرف العيش حُرٌّ   قطع العيش بين نفى وحبس
فأقام البناء من لبنـات   خشنات أطرافها غير مُلس
لا يبالى وكل شىء سيبلى   أن يطوف البلى عليه بطمس
أنـكر النفس ثم باع هواها   فى سبيل الأوطان بيعة بخس
ومضى يحمل الكريهة فرداً   مستهيناً بكل بأس وبؤس
مستعيناً بالله والحزم والعز   م ووحى الحجى وتدبير رأس
نفس حر تجملت بخـــلال   يتجافين عن صغار ورجس
خصـــه الله بالمواهب والرأ   ى بعيد المرام صلب المجس
رجل كان حين يقطع أمرا   يتقاضاه من مخالب يأس
ليس يثنيـه عن أياديه قوم   يصبغون الجميل صـبغة ورس
فلقد عاش (عبده) فى زمان   جل من فيه أهل كيد ودسّ
حسدوا نيـــه نعمة الله فيهم   ورموه بكل منـكر حدس
فاذا مات أيقنوا أى ركن   هدمته يد الضـــلال بفأس
قل لشعب حظ النوابغ منه   حظ سقراط حين أودى بكأس
تقتـلون النبوغ حياً وتمضو   ن بُـكيا عليه فى بطن رمس
أيها الناس ، ههنا قام بيت   فوق آثار خفرع وكيوبس
لم يكن من صروح هامان فرعو   ن ولا كان من حصون الفرس
فاذا ذل فالذى قـــد بناه   ليس من طينة الذليل الأخس
آه لو كان شكسبير بناه   أو بناه أخوه «هيجو» الفرنسى
لرأى الناس أى دار تجلت   واستحالت الى حظيرة قدس
أثر النابغين فى كل شعب   هو ميراث كل جيل وحرس
أيها الناس ههنا سر مجـد   قبست منـه نورها عين شمس
وهنا ههنا أشـعة ذكرى   تستضىء العقول منها بقبس
فأقيموا البناء من قبل أن يأ   تى يوم يحول فيـه للبس
واجمعوا فيـــه ما تشتت منه   بيد الدهر من متاع ولبس
واجعلوه للعـــلم داراً وللد   ين مناراً ، أو مرجعاً للتأسى
ينـبرى للوفود منه خطيب   صامت القول فى بلاغة قُسّ
يوعظ العقـل للحياة ويمضى   يفتح العين من عماء ونعس
ذاك من جانب الوفاء الى الشعـ   ـب نداء لصاحب غير نكس

محمد الهراوى

ورسا الزورق المقدس للشطْ   طِ ، فصاح الملاح : هيا ، فقمنا
ومشينا على بساط من العشْـ   ـب ندىٍّ ، يهتز فى حيث سرْنا
ووقفنا فى كل مجلس حُبٍّ   وادَّكرْنا من سحره ما ادكرنا
ثم ودَّعتها وعدْتُ وأحلا   مى إلى عالمى الشقىِّ مُعنّى
أسأل القلب : كيف ياقلب مرَّت   ليلةُ الزورق الحبيب ، وأينا ؟
وأرانى مُردّداً فى حنين :   ليت أنا نعيدها ! ليت أنا ! !

ميت غمر   عبد العزيز عتيق

بمناسبة ذكرى حافظ

شاعر النيـــــل

بقلم الأديب أحمد عثمان عبد المجيد

لولا أن الخطب فى شاعر النيل هو خطب الشرق الذى كان الفقيد لساناً من ألسنته ، وعموداً من عمد نهضته ، وبطلاً من أبطال المحاماة عن حريمه ، والذود عن حقيقته ، وقائداً من قواده البسلاء الميامين ، وداعية فيه إلى الاخلاص فى الجهاد ، والاحسان فى البلاء ، ليظفر بحقه فى الحياة والسلطان . لولا أن الفقيد كان ذلك الرجل ماجل الخطب فيه وما فدح وما كان لمثلى أن يجاوز طوره ، ويصطنع مالا يطيق ، ويدفع نفسه دفعاً فى مزدحم الكرام الكاتبين عن حافظ شاعر النيل فيعرضها لشىء كثير من العنت والمشقة .

***

ومن أعجب العجب أن يريغ هذا القلم اللدن تلك السبيل برغم ما يتعاور حامله من تبلد القريحة ، وركود الذهن ، وأن يأسره ذكر شاعر النيل وحده فيتحدث عنه يوم مضى على وفاته الأربعون ، ثم العام ، وهاهوذا يتحدث عنه وقد تصرم العام الثانى على وفاته أمس .

وأعتقد أن حافظاً ماملك من نفسى إلا بما غلب عليه من إيثار الوطن وفدائه ، وغلب على شعره من الحماسة الوطنية والنزوع إلى الحرية ، والولوع بالاستقلال والسيادة . ولعل أقل مانجزى به حافظاً (رحمه الله) أن نكثر الحديث عنه ، وأن نقدمه إلى شعرائنا الذين آثروا أدب الصبابة واللذة ، وجنحوا بالأدب عن أن يكون وسيلة من وسائل إلهاب الشعوب المستضعفة وإنهاضها للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الذمار ، وظنوا أن تزويق الحديث وتليين المعارض والمقاطع ووصف الغانيات ، وأسباب الترف من الأوليات التى يجب أن يعنى بها الأديب ، وأن يخلص لها الأدب .

لمثل هؤلاء يجب أن نقدم حافظاً مثلاً للأديب الذى عرف غاية الأدب السامية فجعل نتاجه الجم وقفاً عليها ، وجهاداً فى سبيلها ، ولم يحاول أن يسلك بالأدب مسلك أكثر أدبائنا الذين جحدوا حق الوطن عليهم ، وتأثروا طريقة الأدب العربى فى فنونه التى خلت إلا قليلاً جداً من الشعر الوطنى الذى يحدث عن آمال الشعوب ورغائبها .

لذلك لم يأل جهداً فى تسجيل ماللشرق من مفاخر ، عز بها حقبة من الزمن ، وما ينبعث لتحقيقه فى إيمان ثابت ، وجهاد صادق من مآرب وغايات . ضارباً له الأمثال ليشد أزره ، ويصحح عزيمته ، ويثير حفيظته ، ويزيد إيمانه بحقه ، واعتزازه بمجده

***

فتش فى آثار حافظ كلها يأخذ ببصرك هذا الطابع المجيد ، وتر أنه لم ينس الحديث عن مصر والشرق حتى فى مدائحه ، ومراثيه ، لأنه لم يمدح ولم يرث إلا العطارفة الذين عرفهم وعرفتهم مصر مجاهدين فى سبيلها ، مخلصين فى الذود عنها ، بل لم ينسه فى خمرياته التى يستعبد الحديث عنها السمع والبصر واللب جميعاً ، ويأخذ بذمام الفكر فلا يدعه يجنح إلا إلى اللهو والخمر والقيان والندمان وما إليها .

لم يذهب حافظ فى أدبه ذلك المذهب إلا متأثراً بمصريته الصميمة ، وما أفاده من صحابة الأحرار من كره للاستعمار وضيق بالذل ، وما لقيه من عناد الانجليز بالسودان وما منى به بعد من بؤس وشدة .

كل هذه العوامل قربت بينه وبين الشعب ، فأحس منه ضعف النفوس ، وتزايل الوحدة ، وتردد المستضعف ، وخوف الذليل ، وأراد الاصلاح ما استطاع فاتخذ سبيله ليرضى بسعيه عن نفسه ، ويكون كما قال : —

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... ومالى دونها أبداً مرام

وقوله :

انى لأحمل فى هواك صبابة ... يامصر قد خرجت عن الأطواق

لذلك لم يدع باباً من أبواب الجهاد الا ولجه ، فكان له فى سبيل الوطن والدين والأخلاق مواقف عز بها وبز ، وأقعد غيره عن أن يلحق به ويدانيه ، واصطنع فى جميعها الجرأة والصراحة وخلطها أحياناً بالتهكم اللاذع ، والسخرية المرة ، لتكون أبلغ فى التأثير وأبقى فى الآذان . واليك حديثه مع غادة اليابان مثلاً تر فيه كيف برز حافظ فى هذا المضمار ، وجمع إلى سلامة

الشعر وشرف القصد دقة التصوير ، وسمو التصور : —

لا تـلم كفى إذا السيف نبـا   صح منى العزم والدهر أبى

أنا لولا أن لى من أمتى   خاذلا مابت أشكو النوبا

أمة قد فت فى ســـاعدها   بغضها الأهـل وحب الغربا

وهى والاحــداث تستهدفها   تعشق اللهو وتهـوى الطربا

لاتبـــالى لعب القوم بهـا   أم بها صرف الليـــالى لعبا

ثم يمضى يصف تفريط أمته . وعشقها الألقاب فى غير العلا ، وجهادها بالنفوس فى سبيل الرتب ، وتباغضها وتحاسدها ، وما إلى ذلك مما يقعد بالمصلحين ، ويثبط همم المجاهدين إلى أن يقول مخاطباً غادة اليابان : —

قلت والآلام تفرى مهجتى   ويك ما تصنع فى الحرب الظبا

فسلينى إننى مارســتها   وركبت الهول فيها مركبا

وتقحمت الردى فى غارة   أســدل النقع عليها هيـدبا

جال عزرائيـل فى أنحائها   تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى

فدعيهـــا للذى يعرفهـــا   والزمى ياظبية البان الخبا

وهو بذلك الحديث كله يمهد لـنا يريد أن يقدمه نصيحة للشباب ويجعله مثيراً لهممهم ، باعثاً لهم من مراقدهم ، فأى شاب يعرف للرجولة حقها يسمع حديث حافظ على لسان هذه الغادة فيرضى أن يسيغ المذلة ، ويقيم على الخسف الذى يراد به فيكون أحد الأذلين ؟

فأجابتنى بصوت راعـنى   وأرتنى الظبى ليثـــاً أغلبا

إن قومى استعذبوا ورد الردى   كيف تدعونىَ الا أشربا

أنا يابانيـــــة لا أنثنى   عن مرادى أو أذوق العطبا

أنا إن لم أحسن الرمى ولم   تستطع كفاى تقليب الظبا

أخدم الجرحى وأقضى حقهم   وأواسى فى الوغى من نكبا

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول : إن حافظاً قد بلغ فى هذه القصيدة مبلغاً من الاحسان يحسد عليه ، وأشرف بها على الغاية ، وأسمعت كلماته من به صمم

ولم يزل يتبع الصيحة المدوية أخرى أشد وأعلى ليستقيم له قياد النفوس . ويدفع الشباب المترف المنعم الذى سدر فى شهواته وغلا فى مباهجه ، ونسى حق الوطن عليه — الى مايجب أن يعمل له ويشغل نفسه به فانه

عار على ابن النيل سباق الورى   مهما تقلب دهره أن يسبقا

فتدفقوا أسداً وصونوا نيلكم   فلكم أفاض عليكم وتدفقا

فمن البلية أن تباع وتشترى   مصر وما فيها وألا تنطقا

تلك هى البلية البالغة ، والهوان الأكبر ، والفعلة النكراء ، فأحر برجال الغد المأمول أن يلموا الشعث ، ويرأبوا الصدع ، ويسعوا الى خير هذا الوطن المسكين سعياً ملاكه التضحية بالنفس والتفدية بالعزيز .

رجال الغد المأمول إن بلادكم   تناشدكم بالله أن تتذكروا

فكونوا رجالاً عاملين أعزة   وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا

وياطالبى الدستور لاتسكنوا ولا   تبيتوا على بأس ولا تتضجروا

فما ضاع حق لم ينم عنه أهله   ولا ناله فى العالمين مقصر

* * *

لست أدرى إذ أقرأ لحافظ هذا وكثيراً غيره فأرى دعوته الى الثورة سافرة غير مقنعة ، وحفيظته على الاستعمار صريحة غير منكتمة ، ماذا يكون منه لو أفسح له القانون قليلاً فى الحرية ؟ وأى شىء بعد هذا نرتقبه من مجاهد ، ونرجوه من حر . ؟

إن من يعرف صرامة القانون إذ ذاك وما رمى اليه المشترع الانجليزى من كبت الشعور ، والتفزيع والكيد للاحرار ، ليعتقد أن حافظاً آثر عنت القانون ، وشدته ليقضى حاجة نفسه ، وحاجة أمته فى ذلك الوقت العصيب الذى سعى فيه كثير من الخاصة الى رجال الاستعمار متزلفين مؤثرين أنفسهم على الوطن .؟

فهذا يلوذ بقصر الأمــير   ويدعو الى ظـــله الأرحب

وهـذا يلوذ بقصر السفير   ويطنب فى ورده الأعـذب

وهذا يصيح مع الصائحين   على غير قصد ولا مأرب

لله درك ياحافظ ! لقد جاهدت والغمرات من حولك منكرات والقوم مشغولون عنك بذات نفوسهم . فما فنيت عزيمتك ولاوهى صبرك ، ولادفعك ذلك الى اليأس إلا حين ترجو الالهاب والتهييج ، فما أجمله يأساً يوقظ الشعور ويحفز الغافل الى المناداة بالحقوق

حطمت اليراع فلا تعجبى   وعفت البيان فلا تعتبى

فما أنت يامصر دار الأديب   وما أنت بالبـــلد الطيب

وكم فيك يامصر من كاتب   أقال اليراع ولم يكتب

فلا تعذلينى لهذا السكوت   فقد ضاق منك ما ضاق بى

أيعجبنى منـك يومَ الوفاق سكوت الجماد ، ولعب الصبى
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضب

غضب الناس لحقوقهم فاستردوها ، ونمنا نحن عن حقوقنا وهى ملء الأرض ، وشغلنا عن مجدنا الدابر وهو ملء التاريخ ، ورضينا بالدون من العيش قسماً وحظاً وقد

كناقلادةجيد الدهرفانفرطت وفى يمين العلا كنا رياحينا
كانت منازلنا فى العز شامخة لاتشرق الشمس إلافى مغانينا
وكان أقصى مُنى نهر المجرة لو من مائه مزجت أقداح ساقينا
والشهب لوأنها كانت مسخرة لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولاجاه ولاحسب ولاصديق ، ولاخل يواسينا

فى هذه الأبيات وفى كثير غـيرها يذكرنا حافظ بسلطان الشرق وملـكه ، وعلمه وفلسفته ، وأيامه الخالية ، ثم بعبوديته وفقره المادى والأدبى ليبعث من ألقى السمع الى النهوض ، وينبه الغافل الـكسل الى ماله من حقوق مسلوبة

وليس من شك فى أن شاعرنا قد أدى بقصائده هذه ماوجب عليه كمصرى صميم إن لم يكن زاد وأربى ، وأن الشعب قدأحمسه تذكيربنعمى عريضة تحولت أبؤساً ، وعز باهر آض ذلاً . ولكن نفسه الـكبيرة ما كانت لترضى بهذه التضحية الحق ، فلولا صرامة القانون لأرتنا عجباً ، فمثلها لايقنع بما دون النجوم .

متى أرى النيل لا تصفو موارده لغـير مرتقب لله مرتهب
فقدغدت مصرفى حال اذاذكرت جادت دموعى لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقت فقاع السجن متكئى وان سكت فان النفس لم تطب

وكما لم يحمد حافظ جهاده وبلاءه لم يحمد للشباب نهوضهم المقدور ، وجهادهم المحدود ، وهو يريدهم أسوداً ضارية لا ترتدع عن الغاية أو تبيد ، فأنحى عليهم باللائمة وأغلظ لهم فى القول ، وقرعهم وتحدى رجولتهم فقال :

أنابتـة العصر إن الغريب مجـد بمصر فلا تلعبى
يقولون فى النشء خير لنا وللنشء شر من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين وبين المساجد مثوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب

هذه النابتة التى راضها حافظ على التضحية فارتاضت بعـد شماس ، وأدبها ذلك الأدب الجميل وطالما أوضعت فى اللهو وجنحت الى الأثرة فجنت على الأمة ، هى التى تسعى اليوم غير وانية ، وتمضى غير متريثة . لا يشغلها عن جهادها الشريف ما يُمنى لها من كيد ، وما يراد بها من هون ، لقد علمها بالصراحة ، وعرض عليها شر ما فيها من الخصال لتتوقاه ، وكان عليها حديد اللسان ان ترددت حين العزم وتقاعست عند النائبة

حسبى هذه الصور البارعة التى تدل دلالة واضحة على أن حافظاً — أحسن الله جزاءه — كان شاعر الوطنية الثائرة ، لم يقدع ثورته الخوف ، ولم يأسرقلمه التزلف والرياء ، ولم يخالف بين قوله وفعله

وستظل هذه الناحية من شعر حافظ شغل الباحثين ما دام الحديث عنها يمتد ويمتد فلا يقوم بالايفاء فيه الاطناب المطنب ، ومادامت النفوس الألمية تستروح برد الراحة فى دراسة هذه الآثار التى تحدث عن أشهى أمنية من أمانيها ، ومادام ـ حافظ ـ نفسه يأبى أن يحتفل بغير هذه الناحية ، ويقول مامعناه « إن من قضى شبابه فى الجيش ، ثم انغمس بعد تسريحه فى شعر الوطنية ؛ هيهات أن يجد متسعاً لما وراء ذلك » وأختتم الـكلام بعرض مختار من إحدى قصائده فى داهيـة دنشواى الدهياء ، وقد صاغها من حسرات نفسه وآلام شعبه ، ورثى فيهـا العواطف الشريفة ـ يقتلها حب الاستعمار فى نفوس أهله ـ فجاءت طرازاً وحدها فى قوة التأثير وجمال النظم قال :

خفضوا جيشكم ، وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
واذا أعوزتـكم ذات طوق بين تلك الربى فصيدوا العبادا
انما نحن والحمـام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولـكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

ثم يقف بعدُ من المستعمر موقف الخصم العنيد ، فلا يدع له حجة ولا ينجيه من التثريب والملامة :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا ؟
ليت شعرى أتلك محكمة التفـ ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟
كيف يحلو من القوى التشفى فى ضعيف ألقى اليـه القيادا ؟

ثم يمضى بعدُ ينفث حسراته وزفراته حتى ينتهى الى تقريع

أبناء مصر الذين ينقلبون حرباً عليها ، ويكونون عوناً للمستعمر على خضد شوكتها ؛ ويَخلص من ذلك الى قوله وقد أنكر تصرف هؤلاء الأعيان وزرى عليه :

لاجرى النيل فى نواحيك يامصر ... ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبتّ ذلك النبت يامصر ... فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبتّ ناعقاً قام بالأمس ... فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مدره القضاء ويا من ... ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا ... قد لبسنا على يديك الحدادا

***

هذه الروح القوية التى استبانت فيما أوردنا من شواهد هى التى صدر عنها حافظ فى جهاده الوطنى الذى صار من أجله شاعر النيل غير مدافع ولا منازع .

وما زال – رحمه الله – يغذى الحركة الوطنية ، ويشيد بها حتى ألقى عصاه بدار الكتب ، فصرم بها زماناً لاينشدنا إلا لماما .

وما كان للنفوس التى خالطها حبه ، وغذاها أدبه ، وطبعت على أن تسمع صوته متصلاً لا ينقطع ، أن تسكن الى تلك الحال ، وأن ترضى بذلك القليل يأتيها منجما فى أوقات متباعدة .

فلما ترك – رحمه الله – المنصب محالاً الى الراحة والدعة ، أملت خيراً واستشرقت وأنست الى مقطوعاته التى كان ينظمها اليوم بعد اليوم ، ولكن ماهى إلا جولة أو جولتان حتى رفع القلم ، وطوى الأثر ، وودعنا حافظ

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أبى البؤس الذى ألح على حافظ حياته أن يدعه بعد وفاته ، فكفرت الأمة بأياديه عليها ، ولم تعرف لذكراه حقها ، وكان أقل مايجب عليها لمن عاش حياته مجاهداً فى سبيلها ، مسبحاً باسمها ، أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدات ، تهرع فيه الى تمجيد ذكره وإعلاء قدره ، وأن تنشر صحيفة جهاده للأدباء ليتأثروه فيه ويعملوا على شاكلته .

وليس هذا وحده هو كل ما أصاب حافظاً من بؤس بعد وفاته ، فان خلصاءه الذين عاشروه ولابسوه ولزمهم بذلك ما يجب على الصديق للصديق ، قد نفضوا أيديهم مما تعاهدوا عليه إثر وفاته واجتمعوا من أجله ، وقد كان فيه قليل من كثير جداً يجب عليهم لذلك الشاعر الصديق الذى أضحى حظه بين هؤلاء الصفوة الأنساء أو النسيان وكلاهما شر .

وبعد ، فتلك كلمة فيها إيجاز وقصور ، لم أرد فيها كشفاً عن فضل مستور ، وبياناً لقدر منكور ، ولكنى أردت أن أؤدى لشاعر النيل بعض ما وجب علىّ بالأخذ عنه ، والانتفاع بآثاره . فان أكُ قد قربت ما أردت فحسبى ، وإلا أكن فالمجتهد يعذر ؟

أحمد عثمان عبد المجيد

بين الشك والايمان

الشاعر الايطالى «ليو پاردى» *

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

أعجب ليوپاردى بالموت والفناء ، فقال فى مقطوعة له :

[أيها الموت الرحيم الذى لم أزل أدعوه إلىَّ منذ تألق صباى : تعال أغلق إلى الأبد عينيَّ ، فقد طرحت بعيداً عنى كل أمل خادع يتعلل به العالم ، ويلهو كالطفل . أنا لا رجاء لى إلا بك ، ولن أرتقب إلا النهار الذى أرقد فيه مسنداً جبينى على صدرك الطاهر]

وهكذا أصبحت نفسه لا يشبعها لون من ألوان الحياة وآمالها ، لا الحب ولا زهوه ، ولا الأمل وآفاقه ؛ لا يشبعها ولا يطفىء رغائبها إلا لقاء الموت .

قد تسمع هذه اللهجة من غير ليوپاردى فتصد عنها ، ولكنك تسمعها من هذا القلب الخافق والروح المعذب فتوقظ نفسك الهاجعة وتهيج قلبك الهامد ، لأن اللهجة التى ينطق بها الشاعر ليست لهجة خاصة ، وإنما هى لهجة الانسانية التى تأتى من حيث لا تعلم ، وتنطلق إلى حيث لا تدرى .

يقول ليوپاردى : إن الجميل هو عدو الحقيق ، ولكن هذا الجمال الخادع هو — عندى — خير من الحقائق الأرضية الدنيئة . ألا فلنهذب الأشياء التى تفسح ساحات الخيال ، فهى اجدى نفعاً على الناس لأنها تبعث على النسيان . إن الأداب هى رفيعة المقام ، وهى القائدة إلى المثل العليا ، والدرس يبعث على التعزى ، وهو يبهج ويلهى النفس . أما الحب فهو نعمة لأنه يتصور ويتأمل . أما الأمل فهو الأريج الفواح الذى يعطر مسارب كل مكان . وإذا كنت أعتقد أن الموت هو خير هذه الأشياء ، فلأنه يفاجىء الانسان المترسل فى أوهامه ، لا يقتل هذه الأوهام إلا بقضائه على الحياة ؛ لماذا تصلح حياتنا ؟ هل تصلح إلا للازدراء ؟

— ٥ —

ومن الغريب أن ترى ليوپاردى الكاتب يناقض ليوپاردى الشاعر ، فرسائله لا تكاد تخلو من ذكر الله وهو فى شعره جاحد لوجوده ، يقول فى إحدى رسالاته « والأجل الذى كتبه الله لى لما يحن ! ولكننى أرجو من الآلام التى أنهكتنى أن تسوقنى إلى الراحة الخالدة التى أطلبها كل يوم ، هرباً من العذاب الذى أضوانى . »

كان ليوپاردى يجحد وجود العناية الآلهية ، والآن يثبتها لأنه يحس وجودها بالضرورة التى تفرض وجودها . يقول الشق « إذا كان هنالك كائن فى السماء أو على الأرض أو فى قاع البحار ، فلا أقول عنه إنه رحيم ، ولكنه شاهد على عذابى »

كان ليوپاردى يحتقر البراعة ، وينسى الأسماء الخالدة اللامعة وها هو الآن فى ذات مساء ، فى مدينة (رومة) يرقى ربوة (سانت أونوفريو) حيث قضى (لوتاس) نحبه ، ينحنى إزاء قبر هذا الشاعر الكبير ، ويستوى تحت ظلال الشجرة التى ألف الشاعر أن يفىء إليها متأملاً فى غروب الشمس ، هنالك يقول ليوپاردى لا شىء جميل على الأرض ؛ عظمة البراعة التى تعيش وتخلد هى فوق كل عظمة . وكان يقول عن الحب إنه حلم فارغ ، غير خليق به أن يقلق نفساً صافية ، وها هو ذا الآن يجعل من الحب رسول السعادة الحقيقية ، ترسله الآلهة إلى قلوب بنى الانسان . (فهو إذا هبط الأرض تحرى عن أشرف القلوب وأطهرها ، وبث فيها من روحه وعذوبته . حتى ليحس صاحب الحب أن فى قلبه روحاً غريبة تثنيه عن العالم) وهو الكاتب إلى أخيه (بالله أجبنى . . . أنا فى حاجة إلى الحب . . . الحب . . . النار . . . الهيام . . . الحياة) وهو الذى يحدث عن صداقة أنقذته ، وبدلت بؤسه هناء وجعلته يؤمن بأن فى الحياة أفراحاً كان يحسبها مستحيلة .

كان ليوپاردى يساير مذهب الجاحدين وجود المشاعر السامية فى الانسان ، والآن أصبحت هذه الأكاذيب عنده أسمى

* انظر العدد ٥٣ ص ١١٥٠

شيء فى أخلاق الانسان ، تدل على شيء هو أعظم من الرداء الترابى ، فيصرف وجهه عن الأرض ليتأمل فى عظمة الفضاء الشاسع والعوالم السابحة فيه ، فيرى كل شيء صغيراً حقيراً عند هذه النفس ، فيعرف أن النفس هى أوسع بخاطراتها وتأملاتها من كل عالم ، فتشكو هذا النقص وتحس الفراغ والسأم ؟ أليس هذا بما فيه برهاناً على شرف الطبيعة الانسانية ؟

هذه المشادة هى المعركة التى تقوم بين القلب والروح ، ولكن هذه المعركة التى تتخذ من صدر (ليوپاردى) ميداناً عنيفاً هى معركة دائمة لا انتهاء لها . يحفزها الألم ويسعر ضرامها الشقاء ذلك الألم الذى نحا بالشاعر إلى هذه الوجهة العابسة من فلسفة الشك ، وطبيعى أن تكون هذه الوجهة غيرها فيما لو قيّضت المقادير لهذا الشاعر حياة ناعمة وعيشاً رغداً ؛ اذاً لكسبت الحياة متفائلاً جديداً يشدو بمحاسنها ويلهج بالثناء على جمالها ، وسيان عندها شاعر بكى وشاعر شدا :

فلله ما أظلم الفلسفة إذا كان قليل من هناء يبيض وجهها فيبيض العالم ، وقليل من شقاء يسوّد وجهها فاذا العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض . والحقيقة — وأجدر بالحقيقة أن تكون وراء هناء الانسان ووراء شقائه ، ولكن قل لى من الذى يستطيع أن يتجرد من جميع هذه الظواهر ، ومن ذا الذى يقدر على أن يضمن سلامة عقله إذا جاع بطنه ، وأن يبقى على هنائه إذا عضه ألم أو فرّ منه أمل

— ٦ —

وهكذا ظل ليوپاردى تتشاطر قلبه نوازع مختلفة ، وينحط على جسده الداء إثر الداء ، يحاول أن يهدىء ثائرتها عنه بتنقله من رومة إلى بولونيا ، ومن بولونيا إلى فلورنسا ، إلى نابولى ، والداء لايزيد إلا تمكناً منه ، حتى آثر الشاعر الموت لنفسه على ان يذلها بسبب الحاجة ، وقد دفعه ألمه هذا للكتابة إلى والده (. . . ان مارتبته لى لا يكفى . . . على أننى أريد ألاّ أحيا كما يحيا الناس ، ولكن الموت هو أفضل عندى ، ولكن الموت يجب ارتقاب أجله ، فلو كان الأمر بيدى لما طلبت اليك — والله شهيد على — أن تمنحني شيئاً .)

تعرف فى نابولى إلى صديقه (رانيرى) ذلك الصديق الذى أخلص له كل الاخلاص ، وظل أميناً له حتى اللحظة التى غادر فيها ليوپاردى الوجود ، وفى نابولى اعتزل الشاعر الناس ، فلا يبصر منهم أحداً ، ولا يسمع عنهم شيئاً ، كأنما عزلته هذه هى عزلة الموت . ينطبق عليه فيها قوله « اصبحت جزعاً يفكر ويقاسى العذاب ، هو لا يزجى حياته إلا فى التفكير ، ولا يشغله فى عزلته إلاّ التأمل . إذا رآه الناظر يخطر بين خرائب (بومباى) عند الغروب ، تمثل شبحاً قديماً يزحف بين الخرائب يرثى حظها وحظ نفسه

وجد على قمة جبل تنفث مائعاً نارياً نبتة ضعيفة تحاول أن تنزل فيها جذورها ، فمثل الشاعر نفسه بالنبتة الحقيرة وناجاها قائلاً : [وأنت أيضاً ، ستخضعين لقوة النار ، وستنحنين تحت الأثقال ، ولكنك لن تنحنى جبانة أمام الظالم ، ولن تلتفتى إلى السماء بكبرياء أهوج]

يطغى على ليوپاردى هذا الشك العنيف ، فينكر الخلود ويعلن قبل موته أن هذه الفلسفة البائسة — كما يدعوها — ليست نتيجة ألمه وشقائه ، ولكن نتيجة اعتقاد وايمان ، ويؤلف مقطوعة الموت والحب ، معنوناً اياها ببيت للشاعر (ليناندر) (هنالك يموت شاباً من تحبه الآلهة)

وإزاء هذا التناقض الذى شاهدناه بين قصائده ورسائله كتب أيضاً (وداعاً ياصديقى العزيز . . انني أحسُّ فى نفسى رغبة هائجة لعناقك ، ولكن كيف ؟ وفى أى موطن أستطيع ؟ أخاف جداً ألا يكون هذا بقدر طول حديقة (أسفوريل) . حدثني عن دروسك ، وأحببنى دائماً ، وداعاً لك من كل قلبى)

انتشرت الكوليرا فى نابولى وكثرت ضحاياها ، فنقله (رانينى) صديقه الحميم إلى (بورتيسى) . وفى الرابع عشر من يونيو عام ١٨٣٩ اخذت الشاعر نوبة اغماء قوية تزايلت لها أعضاؤه ، ولم يكن عند الشاعر إلا صديقه وأخت صديقه ، كانت تمسح العرق المتصبب من جبين العليل ، وكان (رانينى) يساعده بحركات رياضية على التنفس ، وكل هذا لم يغنه شيئاً . فعاد بعد

[البقية على صفحة ١٢٣٧]

العلوم

تطور فكرة النظام الشمسى
عند اليونان

بقلم فرح رفيدى

. . . هذه أول مقالة من عدة مقالات فى تطور فكرة النظام الشمسى عند اليونان وعند الكنيسة فى العصور الوسطى ، وعند العرب ، ثم الانقلاب الأخير الذى حدث على عهد كوبرنيكس وجاليليو .

وقفت فى مساء ليلة من ليالى الصيف متأملاً انحدار الشمس الى المغرب انحداراً بطيئاً ، وكان الشفق بألوانه ممتعاً للأنظار ، محركا للنفوس . لكنى لم أبال بجمال المنظر أكثر من أن الشمس ستتوارى عنى وراء الجبال بعد بضع دقائق

وأجهدت نفسى فى تلك الآونة لأرى الشمس واقفة وأشعر نفسى متحركاً مع الأرض ، لكن جهدى ذهب عبثاً ، إذ مازلت أرى الشمس تهوى مسرعة لتختفى عن ناظرى ، والشفق يزداد احمراراً كلما دنت من المغيب . فبالرغم عنى لم أرها إلا متحركة وبالرغم عن كل شىء لم نلاحظ الشمس تقف ثانية واحدة فى مجراها اليومى ، فهى أبداً فى كل يوم نشاهدها صباحاً فى المشرق ، ترتقى رويداً فى هذه القبة الزرقاء ، الى أن تصل أوجها فى منتصف النهار ، ثم تأخذ فى الانحدار والاختفاء وراء الأفق الغربى ، فتضىء هناك ماكان مظلماً ، وتبقى خلفها الظلمة ترقبها النجوم بأعين ساحرة متلألئة .

وقد نشاهد القمر أحياناً يظهر بعد اختفاء الشمس ، فيسلك مسلكها ، ويتبع خطاها واحدة واحدة ، الى أن يتدرج فى انحداره وراء الجبال أو وراء البحار . ففى أثناء هذه الدورة العظيمة من الشمس ، أو هذا الانقلاب الخطير المتعاقب من ليل ونهار ، من يفكر أو يشعر أنه دائر حول محور الأرض بسرعة تقرب من الألف ميل فى الساعة ، وأنه فى اثنتى عشرة ساعة ينقلب أسفله الى أعلاه وأعلاه الى أسفله ؟ وكيف يكون هذا الدوران السريع ولا نرى البنايات تتهدم ، والأشجار تتساقط ، والمياه تتطاير فى الفضاء والناس تقع وتقوم ؟ . إن هذا الدوران حركة عنيفة قادرة على تفتيت الأرض وهدمها . فبما أن كل هذه الأشياء لا تحدث ، فالأرض إذن ثابتة لا تتحرك فى وسط هذه القبة المستديرة . نعم ذلك ما اعتقده اليونان الاقدمون وجاهر به بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد . فثبات الأرض فى مركزها كان النقطة الاساسية فى النظام اليونانى القديم .

لنقف الآن قليلاً ، ولنتصور أنفسنا فى يوم ٢٢ يوليو عند ما يكون النهار على أطوله ، والشمس مشرقة تماماً على الخط المار بين الغرب والشرق منا . لندع الشمس تدر حول الأرض كعادتها ونحن نرقبها كل يوم من مسقطها ونعين موضعها بين الجبال أو ان شئنا بين النجوم ، ، فبعد أيام نرى أن الخط المار بنا وبها قد بدأ فى الانحراف قليلاً عن خط الشرق والغرب ، ولا يزال الخط فى الانحراف ولا تزال الشمس متنقلة بين النجوم الى أن يأتى الخريف بعد الصيف الحار ، ويقترب الشتاء ببرده القارس ، ويأتى يوم ٢٢ ديسمبر حينما يكون النهار على أقصره ، فبلغ الخط منتهى انحرافه ، وبدأ بالرجوع الى مكانه الأول . ثم لحق الربيع الشتاء ، وما كاد يطرب بنضارته وجماله الشعراء حتى يباغته الصيف بحره وجفافه ، ويأتى يوم ٢٢ يوليو حيث يرجع الخط لمكانه الأول . وذلك بعد أن أتمت الشمس مسيرها بين النجوم . لأن ذلك كان ما اعتقده ارسطو وبطليموس فى النظام الكونى وعللاه بقولهما : إنه لو كانت حركة الشمس هذه ظاهرية فقط ومسببة عن حركة فى الأرض فى جهة معكوسة ، لكنا رأينا النجوم أيضاً تسير بهذه الحركة الظاهرية مع الشمس ، وبما أننا لا نلاحظ أى انتقال أو تغيير فى النجوم فالأرض إذن ثابتة لا محالة ، وأى تغيير قد يحدث فى بعض هذه اللوامع فى الليل فانه راجع الى

الأجرام نفسها لا الى حركة الأرض أو دورانها . وهذا التعبير الذى أذاعه المعلم الأول ارسطو تعبير منطق يسلم به العقل ، ولذلك ظل معتقداً راسخاً فى قلوب الناس قروناً عديدة

أول ما يلاحظ الناظر فى الليل الى السماء هو الاختلاف البيّن فى لمعان النجوم ، فاستدل اليونان من ذلك على أن النجوم الأشد لمعاناً هى أقرب الى الأرض من غيرها ، وقد وجدوا أن من غريب أمر بعض هذه النجوم ، أنها تتنقل من مكان الى آخر ، لذلك سميت بالنجوم السيارة Blanets ، فبثوا العيون وراءها ترصدها أينما حلت ، واعتقد أرسطو أن هذه النجوم السيارة إن هى إلا أجسام طبيعية تدفعها الى الحركة أرواح حالة فيها . وبما أن الأرواح تسير بقوة الآله الأكبر ، والكاهن هو الواسطة بين الله والانسان ، فالكاهن إذن عالم بأمر هذه النجوم . فادعى الكاهن هذه المعرفة فأخذ يدرس حركاتها ، فلما لم يعلم بسر حركتها ظن أن الروح تحركها ، ولما رآها تسير بنظام لا يدركه قال هى تسير بلا نظام ، وأن بعضها يسلك على حسب حظ الواحد وسعده ، فمنها مايتحرك لخير ومنها يتحرك لشر . ومن ذلك انتشر الاعتقاد بمعرفة حظوظ الناس من معرفة حركات النجوم ، فصار العالم بالأرواح عالماً بالنجوم ومسالكها ، وأصبح صاحب الدين فى الدنيا وهو صاحب العلم أيضاً ، ولم يمكن عندذلك التمييز بين الاثنين .

عرف اليونان من الكواكب خمسة غير الشمس والقمر . عرفوا : (١) الزهرة ، وهى الكوكب المتألق فى السماء عند الصباح أو عند المساء ، وقد دعاها الرومان إلهة الحب لجمالها وافتتانهم بها ؛ وليس من الغريب أن يقرن نابليون حظه بها ، إذ قال لأحد جنوده ذات ليلة : « انظر ! هذه نجمتى ، ما دامت متألقة فلا شك فى نجاحى » .

(٢) عطارد ، رسول الآلهة ، يُرى أحياناً فى الشفق فقط بعد مغيب الشمس ، يلبث قليلاً ثم يتبعها ، وهو كالزهرة يرى أيضاً فى الصباح .

(٣) المريخ ، ونراه أحياناً متألقاً ، وأخرى ضعيف الاشعاع ، أحمر اللون ، وهو إله الحرب عند الاغريق .

(٤) المشترى ، إله الآلهة ، وهو كزوس عند اليونان ، وثانى الكواكب بشدة لمعانه ، فلا عجب إن عرفه الناس من زمن قديم .

(٥) زحل ، المعروف ببطء حركته بين النجوم الثوابت ، عرفه الأقدمون كأبعد سيار عن الأرض .

ليس لنا أن نبين الأبحاث التى قام بها علماء اليونان فى علم الهيئة والنجوم ، ولكن المهم الآن أن نعرف بعض من قاموا بتأسيس فكرة النظام الشمسى التى عرفت بالنظام البطليموسى ، والتى ما كانت إلا تعديلاً لما اعتقده أرسطو العظيم فى هذا الكون العجيب .

فى سنة ٥٣٢ ق . م قام فيتاغورس Pithagoras وأنشأ أخوية دينية كان لها اعتقادها الخاص فى كروية الأرض ، وكان هو أول من فرض حركة الأرض حول الشمس ، لكن أرسطو رفض هذا الفرض لعدم ظهور دواع تؤيده ، وكان أيضاً هبارخس Hipparchus أول من أظهر استدارة فلك الشمس والقمر حول الأرض .

وفى سنة ٣٧٠ ق . م ، أظهر يودكسس فكرة الكرات المتراكزة ، فبنى على هذه الفكرة من بعده أرسطو ورؤساء الكنيسة فى العصور الوسطى .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد قام المعلم الأول أرسطو ، الذى تلقى على أفلاطون فيلسوف ذلك العصر ، وجمع ورتب التعاليم اليونانية بعد أن حللها وناقشها مع تلاميذه ، وقاسها بمقياس العقل والمنطق ، وعزا الحوادث والتغيرات فى النجوم الى مسبباتها الظاهرة ، وخلّف للملأ خلاصة التعاليم اليونانية منقحة بفلسفته المنطقية ، فأكبر العالم هذه العظمة فيه ، فمال على كتبه ومؤلفاته يدرسها ، فوجدها غاية المنطق ، وسداد الرأى ، وقوة الدليل ، فاقتنع وآمن بها إيماناً ذهب بالشك فى صحتها من قلبه

لم يكتف أرسطو بأن جعل الأرض ثابتة ، بل تصور النظام الكونى كله مؤلفاً من كريات مستديرة الشكل فى أحجام مختلفة والواحدة فى جوف الأخرى ؛ وعلى هذه الكرات جعل الأجرام السماوية تدور حول الأرض .

وقد حسب النجوم الثوابت كلها على أبعاد متساوية من الأرض ، لذلك جعلها على سطح كرة واحدة ، وقد علل اختلاف الأضواء المنبعثة من بعض السيارات باختلاف بعدها عن الأرض . ولما زادت العناية بمراقبة النجوم ، ودقت ملاحظاتهم لها ، تبينوا

اختلافات كثيرة فى حركاتها ، لم يقدروا على تعليلها بكرة واحدة ، فزادوا عليها كرات ، وقالوا إن هذه الحركة الظاهرة ما هى إلا مجموع حركات دائرية على كرات مختلفة ، وزاد أرسطو على هذه الكرات اثنتين وعشرين كُرة ، كانت سبباً فى تعقيد النظام اليونانى بدلاً من تسهيله .

الأسم الأكبر الذى كثيراً مانصادفه فى كتابات اليونان القديمة فى علوم الهيئة وبين مؤلفات العصور الوسطى ، وفى الكتب العربية المنقولة عن اليونانية هو بطليموس (Btolemy) . مؤلف كتاب الماجسطى الذى ترجمه الى العربية الحجاج بن يوسف بن مطر سنة ٧٨٦ م . وكان لهذا الكتاب المقام الأول بعد ارسطو لمدة أربعة عشر قرناً .

عاش بطليموس من سنة ١٠٠ الى سنة ١٧٠ ب . م . وكان مولده على أيام الأمبراطور هـدريان ، وكان مقيماً طول مدته فى الاسكندرية ، وهو معدود من أشهر رياضيي ذلك العصر . وكتابه الماجسطى يحوى كثيراً من العلوم الرياضية والجغرافية عن أبحاثه فى علمى الهيئة والنجوم . وقد وافق هبارخس فى تراكز الأجرام السماوية ودورانها حول الكرة الأرضية ، ونزع فكرة الكرات فكرة ارسطو ، وأدخل نظام الدوائر الصغيرة (epicycles) وهو النظام الذى عرف باسمه من بعده ، وهو أن الكواكب تدور فى دوائر مراكزها تدور فى دوائر أكبر منها حول الأرض .

بهذه الفكرة تمكن بطليموس من تعليل حركات الكواكب السيارة فى السماء ذهاباً وايابا ، ومن تعليل ثباتها مـدة من الزمن عند تغييرها من ذهاب الى اياب وبالعكس . فقد قال إن حركة الذهاب والاياب مسببة عن كون حركة الكوكب فى جهة عمودية لاتجاه خط النظر (line of sight) . وثبات الكوكب مسبب عن كون حركة الكوكب فى اتجاه واحد مع خط النظر ، وذلك كما يلاحظ فى حركة اقتراب أو ابتعاد الكوكب عن الأرض ، إذ يعجز الانسان عن ادراك الحركة فيظن صاحبها ثابتاً .

وأما انحراف السيارات عن دائرة البروج (ecliptic) أو فلك الشمس فهو ناتج عن ميلان سطوح الدوائر الصغيرة عن سطح الدائرة الكبيرة .

وهذا النظام الكونى نظام بطليموس وهبارخس ، وان كان مرتكزاً على جعل الأرض ثابتة بالنسبة الى عوالم النجوم حولها فان الأرصادات الدقيقة للحركات الظاهرية لم تذهب قط سدى ، وهى من الأهمية بمكان فى تقدم علم الهيئة الحديث . والحقيقة فى فكرة النظام البطليموسى أنها لم تبتدىء مع بطليموس ، فأول من عرض هذه الفكرة كان ابولونيوس (Apollonius) فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فقبلها هبارخس فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ولما أتى بطليموس فى القرن الثانى بعد الميـلاد ، توسع فيها وزاد عليها وشرحها شرحاً وافياً فى كتابه الماجسطى ، وظلت أساس معتقد الناس والكنيسة فى النظام الكونى أربعة عشر قرناً .

فرح رفيدى

ليو پاردى

[بقية المنشور على صفحة ١٢٣٤]

لأى إلى وعيه واتسعت عيناه ، ونظر إلى صديقه نظرة عميقة ، وقال له بلهجة يمازجها التنهد : (لن أراك أبداً) ثم انقطعت أنفاسه وهمد قلبه الهمدة الأخيرة

ووورى جثمانه فى الكنيسة الصغيرة (سانت فينال) حيث يرقد غير بعيد عنه رفات الشاعر الأكبر (فرجيل) . فيا لله من هذا الحظ الذى جمع بين لحدى هذين الشاعرين العظيمين ، وهما على قربى فى الوطن والفكر والشعر . قد انشق الاثنان من نبعة واحدة ، وانطلقا ليرقدا فى رقعة واحدة . كلاهما تألم ، وكلاهما لقى حتفه فى ميعة الصبا ، وكلاهما أيس من العالم الثانى ، وود أن ينتقم من المقادير ويثأر لشقائه فقالا : « هى المقادير ! ما أوجدت الانسان ليحيا ، وانما أوجدته ليموت »

وهذه الفكرة التى تجعل الموت غاية الوجود قد رددها ليوپاردى فى مقطوعته (انشودة الديك)

(يخيل الىَّ أن المآل الوحيد لكل موجود هو الموت ، لن يموت شىء لم يوجد ، ولن يولد شىء من العدم .
يتجه كل مخلوق بأعماله وآماله إلى السعادة .
فيسعى ثم يقف مجهوداً دون أن يدركها .
ثم يجد أن جميع أعماله — لاتؤول واأسفاه ! إلا إلى مشيئة الطبيعة المكتوبة على كل موجود — وهى الموت)

وكأنه يقول ، وهو التألم ، خلقنا لنتألم ، ثم لنفنى ؟

(بيروت) خليل هنداوى

القصص

الهيكل العظمى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

في الغرفة المجاورة لحجرة نومنا — نحن الأطفال — كان هناك هيكل عظمى معلقاً ، يجلجل في الليل حين يداعب النسيم عظامه ، أما في النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا ، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامبل ، ذلك لأن مَن حولنا وطدوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرّزين في كل المواد ، ومهما كان نجاحنا فلم نكن لنخبر به أحداً ممن يعرفنا ، كما كنا نخفى ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة .

مرت سنون اختفى في أثنائها الهيكل من الحجرة ، كما محيت بقايا علم الأستولوجيا من ذاكرتنا ، ولم تترك وراءها أثرا ، وفي يوم من الأيام كان منزلنا في هرج يموج بالضيوف ، وقدّر لي أن أقضى الليلة في تلك الحجرة القديمة ، وعبثاً كنت أحاول إغراء الكرى ليطرق جفوني ؛ وبينا أنا أتقلب في مضجعي سمعت كل ساعات الليل تدق واحدة إثر أخرى في المعبد المجاور لي ، وبعد عدة دقائق انطفأ المصباح الموضوع في ركن الحجرة ، بعد أن ظل شعاعه الخفّاق يضطرب ، فأسلمني الظلام الى تذكر بعض أحباء فقدناهم ، وتأملت خفوت الشعاع في محيط من الديجور القاتم ، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالني الشبه العظيم بينهما .

وقد جعلني تداعي الأفكار أفكر في الهيكل العظمى ، وبينا أنا أرسم في خيالي صورة للجسد البشرى الذى كان يكسو هاتيك العظام النخرة ، خيّل إليّ أني أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتتلمس الجدران ، وأحسست أني أسمع أنفاس المتجول المضطربة ، وكأنما أعياه البحث فمضى يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وخدعت نفسي بأن ما أسمع ليس إلا من قبيل الوهم ، وما صوره لي الا الأرق الطويل ، وتشتت العقل ، ومحاكاة اضطراب أعصابي حاكى لوقع الأقدام ؛ ومع ذلك فقد عرتني قشعريرة سرت في جسدي ، ولكي أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً : « مَن هنا ؟ » وإذا بالسارى يقف حذاء فراشي ويقول : « إنه أنا ، لقد جئت أفتش عن هيكلي الذى بارحته » . فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صوّره وهمى ، وجسّمه خيالى ؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت : إنه عمل جميل في هذا الوقت المتأخر من الليل ! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن ؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلة نفسها ويقول : ياله من سؤال عجيب ! إن في هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقي قلبي الفتى الذى لم يجاوز السادسة والعشرين ، أفلا يحق لي أن أراه مرة أخرى ؟ . فقلت له : « لاشك في ذلك ، إنها رغبة سامية محترمة ، فلتبحث عنه ماشئت ، ودعني أنعم بالكرى قليلا ! »

فقال الصوت : « أظنك هنا منفرداً ، حسن ، إني لأغتنم هذه النهزة لأجلس برهة معك ، نتجاذب فيها الحديث ، وتلك سجيّتي ، فقديماً كنت أجلس إلى الرجال نتحادث ، ولكن في الخمسة والثـلاثين عاماً الأخيرة ، أبدلت ذلك بأنيني مع الرياح الداوية عند قبور الأموات ، وهأنذا أتكلم مع فرد من بني البشر لأول مرة منذ مماتي » .

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريرى ، فأذعنت للواقع وأجبت : « إن هذا في الحقيقة لشيء جميل جدا ، وهيا بنا نتكلم في شيء طريف » فقال الصوت : « إن أجمل شيء أتذكره هو تاريخ حياتي ، فدعني أقصه عليك »

وحينذاك دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال :

« عند ما كنت في ميعة العمر في دنيا كم ، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت ، ألا وهو زوجى ، وكانت احساساتي أشبه باحساسات سمكة علقت بالشص ، إذ كنت أحسبني هذه السمكة ، وقد نزعت من ذلك الهدوء الذى شعرت به في منزل الصبا . لقد مات زوجي عقب زواجي بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظى التعس ، أما أبوه فقد نظر إلى وجهى ذات يوم وقال لزوجه : ألا ترين في عينها نذير الشؤم ؟

ثم قال الصوت : « أمنصت أنت لقصتى : آمل أن تكون قد أعجبتك ! »

فقلت : « لقد أخذت على جماع مشاعرى وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها . »

« ثم عاد الصوت يقول : دعنى أتمها ، لقد عدت إلى منزل والدى ، والسرور يملأ نفسى ، واستنكر الناس هذا منى ، ولكني كنت أعرف جيداً أنى على قسط وفير من الجمال ، ألا ترى ذلك ؟ »

« فقلت : لاشك فى ذلك ، ولكن يجب أن تتذكرى أنى لم أرك أبداً . »

فصاح الصوت : « عجباً لك ! ألم ترنى مطلقاً ! إذن فما هذا الهيكل العظمى ، ها ها ، لا بأس عليك ، لقد كنت أمزح معك وهل فى مقدورى أن أعرفك كيف كان فى هاتين الحفرتين الغائرتين عينان يشع منهما السحر ، وألا تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفتران عن ابتسامة فتانة وبين تلك الأسنان القائمة التى تعودت أن تراها ، وإنى كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقرى ، وحسن وبهاء ورقة ، ابتسمت طربا كما أشعر بشىء من الحزن والغضب ، وإن أشهر أطباء عصرى لم يكن يخطر على بالهم أن عظامى ستكون يوماً وسيلة لتفهيم دروس الاستولوجى ، أتعرف طبيباً شاباً — كما أعرف — قارن بينى وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخلده أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هى زهرة الجمال ، وكلما سرت شعرت بأنى قطعة من الماس المتلألىء ألقيت فى جوف الثرى ، وأن كل حركة منى تثير عاصفة من الاعجاب ، وكم أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناهما كثير من الشبان المتيمين ، ولكن هذا الهيكل الجامد ، لايستطيع أن يحرك شعورك نحوى ، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الافتراء الذى يوحيه إليك هيكلى ، ولذلك أشعر بمقت للرجال ، وهأنذا أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفى لك شفتى الورديتين . »

فصحت قائلاً : « أقسم لك بجسدك ، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجى أثر فى ذاكرتى ، ولكان الذى يملؤها هو صورة الحب القوى العاصف يلوح لى فى غياهب الليل ، ولست أذكر لك أكثر من ذلك . »

فتابع الصوت كلامه قائلاً : « لم تكن لى فتاة شقيقة ، أما أخى الوحيد فقد وطد العزم على ألا يتزوج ، وكنت أقضى الوقت منفردة فى الحديقة أتفيأ ظلال الأشجار المتهدلة ، وأسبح فى بحر الخيال . فأتصور العالم كله يعبد جمالى ، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتى ، وأن الرياح تدوى إعجاباً بى ، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه ، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التى أطؤها بقدمى ، ولكن قلبى لأمر ما كان ينطوى على شىء من الألم ، وكان لأخى صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة ، وكنت أرقبه عن كثب من خلال الأستار ، أما أخى فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس ، وأوى إلى ركن مظلم ، وإذ كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لى أن ألقاه ، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء ، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر . أمنصت أنت إلى ؟ فيم تفكر الآن ؟ »

فقلت : « أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا ! »

فقال الصوت : « تمهل قليلاً ، وأنصت للقصة كاملة ، ففى يوم ممطر ، أصابتنى الحمى ، وجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها ، وكنت أتكىء على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتى ، وحين جاء الطبيب تأمل فى وجهى ملياً فقلدته ، وتأملت فى نفسى نخيل إلى أن وجهى وردة حمراء ، قد ألقيت على وسادة بيضاء ، فسأل الطبيب أخى أن يجس النبض ، ولم أر طبيباً أجبن منه ، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمى ، وفى النهاية سجل حرارة الحمى التى انتابتنى ، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه ، أعندك شك فى ذلك ؟ »

فقلت : « كلا . كلا ، إن خفقات الفؤاد لتحكى قصته ! ! »

فقال الصوت : « بعد أن أبللت من مرضى المنهك ، ألفيت كل أحبابى قد رغبوا عنى ، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب ، وكنت فى هذه الأمسيات أرتدى ثوباً أبيض ، وقد تدلت عليه ضفائر شعرى المحلاة بزهور الياسمين الأبيض ، ومن ثم أتخذ مقعدى المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتى فى يدى ، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله فى المرآة تجعله ملولاً . ولكن الواقع غير ذلك ، لأنى لم أكن أرى نفسى بعينى رأسى ، لقد كنت شخصين فى جسد واحد ، فكنت أنظر لنفسى بعين الطبيب ، وشعرت بجنون الحب ، ولكن برغم هذا الدلال الذى أسرفت فيه قد كانت هناك آهة حبيسة تتردد فى صدرى وتئن كما تئن رياح الليل ، ولم أكن فى ذلك الحين وحيدة ، بل كنت حين أسير أتطلع بعين

كئيبة إلى أصابع قدمى وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه شاهدنى الآن ، أما فى الظهيرة ، حين تتوسط ذكاء كبد السماء ، ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن تتلاشى ، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادى « صقور زجاجية للبيع » وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء أجلس عليهـا وأعتمد رأسى بكفى ، ويدى الأخرى تعبث بالحشائش ، وكنت أتخيل أن هناك من يرقبنى فى مجلسى هذا ويعجب بى ، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعى الوردية . . ولـكن كيف أتم لك قصتى ، وفى استطاعتى أن أسامرك حتى الصباح ولـكن ذلك يبغضها لك . . . . إذن دعنى أظل فى قصتى ، أما الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة فى الدور الأرضى بمنزلنا وجعلها عيادة للمرضى ، وكنت أتسلى بسؤالى إياه عن الأدوية والسموم والمقـدار الذى يميت من هذا الدواء أو ذاك ، ولـكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر ، فقد جعلتنى أتأمل فى فكرة الموت ، وكان الحب والموت شاغلى تفكيرى وحياتى

مضى على ذلك ردح من الزمن ، لاحظت فيه على الطبيب تشتت الذاكرة ، وخيل إلى أنه يحتفظ فى صدره بسر يخجل أن يحدثنى عنـه ، وفى ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من الملابس واستعار مركبة أخى ، وهنا ثارت الدهشة فى نفسى ، ومضيت استفسره عن كل شىء ، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته : ألك أن تخبرنى يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار مركبتك ؟ . . . . فأجابنى أخى فى صوت أجش « الى الموت » فصحت به « أخبرنى حقيقة أين هو ذاهب » . . فقال فى شىء من الصراحة « مضى ليتزوج » فتعالت ضحكاتى طويلاً وقلت : أحقاً ماتقول ؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرية ، ستنفح الطبيب مبلغاً كبيراً من المال ، ولـكن لماذا كان يخدعنى طيـلة الوقت باخفائه ذلك عنى ، وهل توسلت اليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبى ؟ ولـكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها فتصديقهم ضرب من البلاهة ، لقـــد عرفت فى حياتى كلها رجلاً واحداً ، ولـكنه سرعان ما اختفى وتفقدته فلم أجده .

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد الينا ، وتهيأ للعمل سألتـه ضاحكة : لقد أحسنت يادكتور ، أعزمت على الزواج هذه الليلة ؟ ولم يفقده سرورى ابتسامة محياه فحسب ، بل أثاره ذلك فسألته : « ولمَ لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى ؟ »

فأجابنى فى تنهد : « وهل تحسبين فى الزواج سعادة أو لذة ؟ » فانفجرت ضاحكة وقلت : لا ، لا ، لن يكون ذلك ، وهل هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى ؟

وظللت أزعج أخى حتى أصدر أمره باحضار جماعة الموسيقى ، وكنت أبتسم طيـلة الوقت ، وأتحدث عن العروس وحياتها ، وما سأفعله حين تأتى المنزل . وسألته : خبرنى يادكتور هل ستظل تجس النبض ؟ ثم انفجرت ضاحكة ؛ وتم عقـد الزواج فى ساعة متأخرة من الليل ، وقبل ابتدائه كان أخى والطبيب قد جلسا إلى خوان صغير يشربان كأساً من الخمر ، ولما هتك القمر أسداف الظلام ، سألت الطبيب : «أنسيت عرسك وقد حان الوقت ؟» ومضيت إلى صيدليته ألتمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته فى كوبته حين كان مشغولاً عنها . وإذ ذاك رفعها الى فمه وتجرعها دفعة واحدة ، ثم صوب إلى نظرة اخترقت شغاف قلبى وقال : الآن سأذهب الى حيث لا عودة لى أو مآب .

ولما صمتت الموسيقى للراحة ، مضيت إلى غرفتى وارتديت ثياب عرسى الحريرية الموشاة بالذهب ، وأخذت جواهرى كلها ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرقى ، ومن ثم هيأت فراشى تحت شجرة فى الحديقة .

وكانت ليلة جميلة ناعمة ، ورياح الشمال الهادئة تقبّل ماتمر عليه فتحمل الطمأنينة الى القلوب ، وقد فاح فى أرجاء الحديقـة عطر الياسمين الشـذى ، وبينما الموسيقى آخذة فى الهدوء شيئاً فشيئاً ، كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب المغبر القاتم ، وبدأت أغيب عن الدنيا رويداً رويدا ، وأفقـد شعورى ، وأغلقت عينى مبتسمة ، وتذكرت مجىء الناس ومشاهدتهم إياى هنا ، ولـكن وا أسفاه على الملابس الحريرية المذهبة ؛ وحين استيقظت على صوت لغط حولى ، ألفيت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على هيكلى ، فجاشت فى نفسى الآلام ، وأخذت زهرات الشباب تتفتح عن أكمامها ، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه الى عظامى مسمياً إياها بأسمائها العلمية ، ولـكن أترى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة ، وهل أعجبتك القصة ؟ فقلت يالها من قصة رائعة !

وفى هذه اللحظة رنت أول صيحة وقلت : « أأنت هنا ؟ » فلم يجبنى سوى الصدى ، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفذت الى الحجرة !

حسن محمد محمود

استدراك

فاتنا أن نذكر أن قصة الطفل المخدوع التى نشرناها فى العدد الماضى ترجمها كاتبها عن الانجليزية

2 me Année, No. 56.

Lundi-30-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بين السياسة والأدب أيضاً

أشارت « الرسالة » فى عددها الماضى الى كلمة أسف وعتاب كتبتها إحدى الزميلات الدمشقيات لمناسبة وفاة شيخ العروبة المغفور له أحمد زكى باشا ، تشكو فيها من طغيان السياسة على الأدب فى مصر ، وتنعى علينا تقصيرنا فى حق العظماء الراحلين من أدبائنا ومفكرينا ، وتلاحظ أن العلامة الراحل لم يشيع الى مقره الأخير بما يجب لعلمه وأدبه وخدماته للاسلام والعرب ، من التجلة والاهتمام ؛ هذا بينما تغمر ذكرى بعض الراحلين من رجال السياسة بمظاهر الاجلال الشامل ، وتفرد لها فى الصحف عشرات الفصول الرنانة ، ويحتفى بها أيما احتفاء

ونعود فنعقب على ما كتبته الرسالة بأن ملاحظة الزميلة الدمشقية جديرة بكثير من التأمل ، وفيما تنعيه علينا كثير من الحق . فنحن نشعر منذ أعوام طويلة بطغيان الاعتبارات السياسية على كثير من مظاهر حياتنا العامة والخاصة ، ونشعر بما تجنيه هذه الاعتبارات على كرامة التفكير والأدب . وقد ظهر هذا الأثر فى مواطن مازالت تثير فى نفوسنا كثيراً من الأسى والألم . فى مثل هذا الوقت منذ عامين ، توفى شاعر مصر الكبير المغفور له

حافظ ابراهيم ، فكان حقاً لعظمته وعبقريته أن يكون جنازه حادثاً قوميا عظيما تشترك فيه الأمة كلها شعباً وحكومة ؛ ولكن حافظاً شيع الى قبره فى حشد متواضع من الأصدقاء والمعجبين ، وحالت الاعتبارات السياسية دون أن يسبغ على جنازه أية صفة رسمية أو قومية ، ولم يقم لذكراه أى حفل تأبين لائق . وكان لهذا الاغفال المؤلم صداه يومئذ ، فألفت لجنة من بعض الكبراء والأدباء أصدقاء حافظ لتستدرك هذا التقصير المعيب فى حقه ، ولتقوم بما يجب لتخليد ذكراه ؛ ولكن هذه اللجنة لم توفق للأسف الى القيام فى هذا السبيل بعمل يذكر ؛ ولم تبد دوائر الأدب من جانبها أى اهتمام بحافظ وتراثه ، ولا زالت ذكرى الشاعر العظيم نسياً منسيا

وثمة حادث آخر ظهر فيه طغيان هذا التيار السيء ، هو أنه لما أرادت الحكومة أن تكرم ذكرى أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك فى حفل رسمى دعت اليه ممثلى الأقطار العربية الشقيقة ، لم تفكر فى زميله وقرينه حافظ ؛ ولو أنها أرادت أن تكرم ذكرى الشعر للشعر والأدب للأدب ولم تبد مثل هذه التفرقة بين رجلين اشتركا فى حمل زعامة الشعر العربى زهاء ربع قرن ، وساهما فى مجد مصر الأدبى بقسطين متعادلين لكان عملها جديراً بكل تقدير . ولكن ظروف هذا الحفل كلها كانت تنم عن تغلب هذه الاعتبارات الخاصة فى إقامته وفى تنظيمه ؛ وهى ظروف واعتبارات شعر بها ولاحظها وأسف لها جميع اخواننا مندوبى الأقطار العربية الذين شهدوا هذا الاحتفال

***

وبعد فهل نسى أحد قصة مثال مصر العظيم مختار وماجنته الاعتبارات السياسية على شخصه وفنه أثناء حياته ثم بعد وفاته ؟ لقد قضى مختار معذبا منسياً مهضوم الحقوق ، لا تحفل الحكومة بأمره ، ولا تذكر أن له فناً وآثاراً رفعت اسم مصر عالياً ؛ وحذت الهيئات العلمية والأدبية حذو الحكومة فى تناسى مختار وفنه وذكراه .

وهذا الروح المعيب يكاد يتغلغل فى جميع الهيئات المصرية ، رسمية ، وغير رسمية . وفى كل يوم ترتكب فى ظله وتحت تأثيره تصرفات يأباها العلم والأدب ، وتأباها اللياقة والذوق السليم . وكثيراً ما تجنى هذه التصرفات على قضية العلم والأدب ، وحقوق العلماء والأدباء . والأمثلة عديدة معروفة لا يتسع المقام لذكرها ، والتبعة فى ذلك لاتقع على الهيئات الرسمية أو الحزبية وحدها وانما تقع أيضاً على الهيئات العلمية والأدبية نفسها ، وعلى العلماء والأدباء أنفسهم . أما تبعة الهيئات ، والهيئات الرسمية بنوع خاص ، ففى انها تمزج بين السياسة والأدب عن عمد وتدبير ، وتخضع الأدب والعلم لمؤثرات السياسة وهواها ؛ هذا مع أن التفكير والأدب تراث قومى عام ، بل هما تراث انسانى يرتفع فوق جميع الاعتبارات والمؤثرات الحزبية والمذهبية . ومن واجب الحكومات والهيئات المستنيرة ان تقدر هذا المبدأ وأن تحترمه دائما . وانما تبعة الهيئات العلمية والأدبية والعلماء والأدباء ، ففى انهم بجمودهم وتقصيرهم يشجعون على تلك التصرفات المغرضة المعيبة ، وأحيانا يساهمون فى ارتكابها متأثرين بنفس تلك الاعتبارات التى يجب عليهم أن يحاربوها بكل قواهم

***

لقد جنت هذه الاعتبارات والمؤثرات على تفكيرنا وأخلاقنا وأصابت حركتنا الأدبية بكثير من ضروب الفساد والشر ، وكانت هيئاتنا الرسمية والعامة دائما فى ذلك قدوة لا تحمد . وما زلنا منذ أعوام نعانى هذا الافساد ونستكين له . أفلم يحن الوقت إذن لكى نحارب هذا التيار الخطر ونعمل على اقناع حكومتنا وهيئاتنا العامة بأن الحركة الأدبية يجب أن تحرر من تلك المؤثرات والاعتبارات الخاصة ، وان التراث الفكرى والأدبى يجب أن ينظر اليه لذاته ، وان من حق المفكرين والأدباء أن ينالوا دائما ، أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، من رعاية حكومتهم وأمتهم ما هو جدير بأقدارهم العلمية والأدبية قبل كل شىء ؟ ?

« ع . ا »

نجـــار ونجار

للأستاذ أحمد أمين

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار

وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، مهزول الجسم ، أصفر الوجه ، ينتعل نعلا بالية ، ويلبس ثيابا رثة ، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود ، وأعلاه أحمر ، قد دفعه الى الوراء ليظهر « قصته » من شعره ، فرّعها فروعا ورفعها الى السماء لتناطح السحاب

ينظر اليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد — دائماً — بنوم طويل ثقيل ، ويمشى متطرحا كأن فى رأسه — دائماً — فضلة خُمار ، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً ، أقوى شىء فيه لسانه فى السباب ، وصوته فى النزاع

ليس لفتح دكانه أو اغلاقه موعد ولا لعمله وراحته وقت محدد ، يحلو له أحياناً أن يغلقه فى الصباح ويفتحه فى الظهر اذا بدأ الناس يَقيلون ، وأحياناً يسره أن يتركه مغلقاً طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس فى النوم ، فيضىء مصباحه ويخرج عدده وأدواته فى الشارع ، ويأخذ فى نجارته ما حلا له ذلك ، فحيناً الى الفجر ، وحينا الى الصباح ، تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر فى خطته ؛ وأحياناً تنقلب دكانه فى الليل حلبة الكميت ، يتنادمون ويتشاربون ، حتى اذا تمشت الخمر فى مفاصلهم ، ودبت فى عظامهم ، ذهبت بهم كل مذهب ، وأخذت منهم كل مأخذ . فتغنوا أحياناً ، فوقع الغناء فى نفوسهم أحسن موقع ، وصاحوا جميعا بصوت واحد : آه ! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم — وأحياناً يعدلون عن الغناء الى تبادل النكات ، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم ، وتخرق آذان جيرانهم

واذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب ، لا لجودة المصنوعات ولا دقة المعروضات ، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بانجاز أعمالهم ، والشكوى من تأخير طلباتهم ، ثم يصل الأمر فى أغلب الأحيان الى تدخل البوليس ، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمرّ ، اذ يكون قد سلَّم اليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لاصلاحه فلم يجد دولابه ولا كرسيه ، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه

وهكذا أصبح شارعنا بمحمد الله معرضا فى النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس ، ومنتدى جميلا ليلا لأهل السماح الملاح ، الى الصباح

وأخيراً عدت من عملى يوما فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن ، واذا جلبة وضوضاء ، وصياح يملأ الآذان ؛ واذا المنادى ينادى لبيع عدد النجارة وأدواتها :

منشار فى حالة جيدة !

عشرة قروش — أحد عشر — اثنا عشر

ألاوونا — الادو — الاتريه

وهكذا حتى تم بيع كل ما فى الدكان وفاء لكرائها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن

وكان شعورى إذ ذاك مزيجا من غبطة وألم ، وحزن وفرح ، فقد آلمتنى خاتمته ، وأفرحنى ما منيت به نفسى بعد ذلك من نوم هادئ سعيد

ودعوت ربى جاهداً ألا يرغب فى الدكان مستأجر بعدُ ، فان كان ولابد فكواء أو عطار ، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس ، وقصرت شكواى على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف ، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتى — وكأن الدكان وقف على سكنى النجارين — فقد سكنها هذه المرة أيضا نجار ، ولكنه من صنف آخر — هو نجار رومى ، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر ، لأنه لم يكن فى عمله شئ غير عادى ، فهو يفتح دكانه وقت العمل ، ويغلقها عند الغروب ، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته فى أصوات البائعين وحركات المارين وأصوات السيارات

دعوته يوما لاصلاح دولاب ، فاذا شاب يشترك مع الأسطى حسن فى سنه ، ويختلف عنه فى كل شىء آخر ، جميل الهندام وان

لم يكن ثمينه ، صفف شعره فى أناقة ولمعان بينما اعتنى الأسطى حسن « بقصته » فقط — عمل عمله فى هدوء واتقان ، وكأنه يحترم نفسه و يحترم عمله ، و يقدر نوع معيشته وما يلزمها ، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا

له فى جوارنا ستة أشهر أو تزيد لم أسمع صوته ، ولم أسمع شاكياً من تأخر موعد أو تصرف سيئ . ولم يقلق راحتى كما أقلقها مَن كان قبله ، فهو و إن لم يكن كواء أو عطاراً كالذى رجوت فليس شراً منهما ، وتبين بعدُ أن الأمر ليس نوع الصناعة ، و إنما هو نوع الصانع

***

ونزلت بيتاً فى ضاحيــة من ضواحى الاسكندرية ، فرأيت (ڤيلا) جميلة على شاطئ البحر ، لا يسكن مثلها — عادة — إلا مَن ورمت جيوبهم ، وانتفخت محافظهم ، راديو ، و بيانو ، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش ؛ ولـكن لفت نظرى رجل يلبس قباء ، و يحزم وسطه بحزام ، وعليـه جاكتة بسيطة نظيفة ، قد أرخى لحيته ، ودفع طربوشه الى وراء ، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينوء بحملها ، وهو من الصنف اليهودى الذى تراه يجول فى الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا) . حيرنى أمر هذه (القيـلا) بجمالها ونظافتها ، وأمر هذا الرجل ، يخرج صباحاً يحمل سلعته على كتفـه وقد سمنت ، و يعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت ؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة فى البيت ، أم قريب فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه واحتملوا منه أن يعيش بينهم و ينزل فى مسكنهم ؟ — وفى الحق كان هذا لغزاً شغلنى شرحه ، وأعيانى حله ؛ ثم هدتنى المصادفة البحتة الى اكتشاف الأمر وافتضاح السر : هو ربُّ البيت ! وهو عميد الأسرة ، وليس فيها إلا زوجه وأولاده ، ولـكن كلهم يعمل ، وكلهم يكسب : هذه خياطة ، و إحدى بناتها معلمة بيانو ، وهذا ابنه كهربائى ، وهذا الآخر يعمل فى مصلحة التلغراف ، وكل كاسب يعطى ما كسب لأبيـه ، و يجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط ، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون ، وكيف ينعمون بالعيش بأقل مصرف ، و يعلمون ما ينفقون وما يدخرون

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصرى آخر كان يجول أمام بيتنا أيضاً ، يحمل سلعة كسلعة اليهودى . وينادى على (حرير المحلة) ، وتصورته و بؤسه ، وتصورت أسرته و بؤسها ، وكيف يتحد العملان ، وتتباين المعيشتان

***

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين ، والمتعلمين العاطلين ، ونسمع من يرجع العلة الى تفشى الأمية حيناً ، و إلى نوع الدراسة حينا ، والى غير ذلك من أسباب ، وليس فى نظرى سبب أهم من نقص الأخلاق ؛ ولست أعنى أخلاق الـكتب ، ولـكن أعنى أخلاق العمل ، من معرفة طرق الـكسب ، و إجادة العمل ، وحسن العرض ، وعدم الأنفـة من مزاولة الحرفة مهما حقرت ، وضبط الدخل والخرج ، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة .

أحمد أمين

القبلة الأولى . . !

هى البريد الذى حمل عنى رسالة حبك ، والاخلاص لك ، فأداها فى أمانة وطهر . .

هى الوحى الذى هبط بالألفة ، وارتفع بالـكافة . .

هى الرسول الذى بلّغك ذوب عاطفتى فى صدق وفطانة . .

هى طابع الوفاء ختمتُ به على ثغرك الزاهى الجميل . .

هى اعتراف بالمحبة أبرقتُ به الى قلبك من أخصر طريق . .

هى تذكار الصفاء سجّلتُه على لطف شفتيك . .

هى برهان الولاء استخلصتُه من سحر عينيك . .

هى التصريح الصامت لما يكنه القلب من لوعة وهيام . .

هى الضغطة الرفيقة التى تذكى فى النفس الحب والغرام . .

هى السلسبيل الصافى الذى يندّى لهاة المدنف الولهان . .

هى النسمة الوادعة اللينة التى تطيف بالنفوس فتنتعش . .

هى الأرج الذاكى الذى تمتلىء به الصدور فتنشرح . .

هى الرحيق المختوم ، والوردة النضرة ، والزهرة المتفتحة . .

هى الجمال كله . يعلن عن نفسه فى خفوت وهمس يزيدانه روعة ورهبة . ويملآنه إجلالا وهيبة . . ؟

كمال الدين حسين
مدرس

أحـــلام فى الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد ، ويلتحفان جوًّا رَخامياً فى برده وصلابته على جسميهما .

الطفل مُتكَبكِبٌ فى ثوبه كأنه جسم قُطِّع ورُكِمت أعضاؤه بعضها على بعض ، وسُجِّيتْ بثوب ورُمِيَ الرأس من فوقها فمال على خده .

والفتاة كأنها من الهزال رسم مُخطَّط لامرأة ، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه . كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة : أنها صارت قَشًّا . . .

نائمة فى صورة ميّتة ، أو كميتة فى صورة نائمة ؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها وبقى وجه أخيها فى الظل ؛ كأن فى السماء ملكاً وجَّه المصباح اليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس فى وجهه علامة همٍّ ، وأن فى وجهها هى كلَّ همها وهم أخيها .

من أجل أنها أنثى قد خُلقت لتلد ، خُلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها .

من أجل أنها أُعدت للأمومة ، تتألم دائماً فى الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم .

من أجل أنها هى التى تزيد الوجود ، يزيد هذا الوجودُ دائماً فى أحزانها .

وإذا كانت بطبيعتها تقاسى الألم لا يُطاق حين تلد فَرَحَها ، فكيف بها فى الحزن . . . !

* * *

وكان رأس الطفل الى صدر أخته وقد نام مطمئناً الى هذا الوجود النسوىّ الذى لابدّ منه لكل طفل مثله مادام الطفل إذا خَرج من بطن أمه خرج الى الدنيا والى صدرها معاً .

ونامت هى ويدها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفلها . يا إلهى ! نامت ويدها مستيقظة !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثال للانسانية التى شقيت بالسعداء فعوّضها الله من رحمته ألا تجد شقيا مثلها إلا تضاعفت سعادتها به ؟ تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيبين فى الجسم الآخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصل الدنيا اليه بفقرها وغناها ، ولا سعادتها وشقائها ، لأنه وجود الحب لا وجود العمر ؛ وجودٌ سحرى ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب ، والأمير والصعلوك ؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم ، وإذ المعنى ليس فى أشياء المادة ولكن فى أشياء الارادة .

وهل تحيا الألفاظ مع الموت ، فيكون بعده للمال معنى وللتراب معنى ؟ . . . هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيهاً بما يفعله الموت فى نقله الحياة الى عالم آخر ، بَيْدَ أن أحد العالَمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

* * *

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد خفّ ثقل الدنيا على قلبه .

لم يبالِ أن نبذه العالم كله ، مادام يجد فى أخته عالَم قلبه الصغير .

وكأنه فرخ من فراخ الطير فى عُشّه المعلّق ، وقد جمع لحمه الغضّ الأحمر تحت جناح أمه ، فأحسّ أهنأ السعادة حين ضيّق فى نفسه الكونَ العظيم وجعله وجوداً من الريش .

وكذلك يسعد كل من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفى هذا تفعل الطفولة فى نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزاتُ الفلسفة العليا فى جملة أعمار الفلاسفة .

وما صنع الذين جُنّوا بالذهب ، ولا الذين فُتنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتعطيهم فى الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوّلَتْه هذا الطفلَ المسكين النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكبٍ روحه الأرضى .

ألا إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشترى الطريقة الهنيئة التى ينبض بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل .

* * *

وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل ، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة ، فان الله مع المنكسرة قلوبُهم ، ولعلى أن أتعرض لنفحة من نفحاتها ، ولعل ملكاً كريماً يقول : وهذا بائس آخر . فيرفُّنى بجناحه رفّة ما أحوج نفسى اليها ، تجد بها فى الأرض لمسة من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر .

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحا ، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه الى الصبح ، ثم يُفتَح له لينطلق معمِّراً ، أيْ مخرّبا . . . أو هو جسم جبارٍ كفر بالله وبالانسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره .

ياعجبا ! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطَّوَى والهم ، ثم لا يكون وسادها إلا عتبة البنك ! تُرَى مَن الذى لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعَهما ذلك ليثبت للناس أنْ ليس البنك خزائن حديديةً يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب .. ؟

***

وقفت أرى الطفلين رؤية فكرٍ ورؤية شعر معاً ، فاذا الفكر والشعر يمتدان بينى وبين أحلامهما ، ودخلت فى نفسين مضهما الهم واشتد عليهما الفقر ، وما من شىء فى الحياة إلا كادَّهما وعاسرهما ؛ ونمت نومتى الشعرية . . .

قال الطفل لأخته : هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقف على باب (السيما) تتفرج مما بنا ، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم .

انظرى هاهم أولاء يُرَى عليهم أثر الغنى ، وتُعرَف فيهم روح النعمة ؛ وقد شبعوا . . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم ، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء ؛ إنهم أولاد أهليهم ، أما نحن فأولاد الأرض ؛ هم أطفال ، ونحن حطبٌ إنسانىّ يابس ؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون ، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت ، إلى أن نموت ؛ لهم عيش وموت ، ولنا الموت مكرراً .

ويلى على ذلك الطفل الأبيض السمين ، الحسن البزّة ، الأنيق الشارة ، ذاك الذى يأكل الحلوى أكلَ لصّ قد سرق طعاماً فأسرع يحْدِرُ فى جوفه ما سرقَ ؛ هو الغني الذى جعله يبتلع بهذه الشراهة كأنما يشرب ما يأكل ، أو له حلق غير الحلوق ، ونحن — إذا أكلنا — نغصّ بالخبز لا أُدْمَ معه ، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأصبناه عفِناً أو فاسداً لا يسوغ فى الحلق ، فاذا انخفضنا فليس إلا ما نتقمّم من قشور الأرض ومن حُتات الخبز كالدواب والكلاب ؛ وإن لم نجد ومسّنا العُدْم وقفنا نتحيّن طعام قوم فى دار أو نُزُل فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بألمين ، ونفقد بالضرب ما كان يمسك رمقنا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفال يتضوّرون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلوا ، ونحن نتضوّر جوعاً ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم وبصرهم ؛ ما من أنةٍ إلا وقعت فى قلب ، وما من كلمة إلا وجدت إجابة ؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها ، أنين ضائع ، ودموع غير مرحومة !

آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إننى أخنق بيدىّ كل هؤلاء الأطفال !

— سَوْأة لك ياأحمد ، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التى ماتت ، وله أخت مثلى ؛ فما عسى ينزل بى لو ثكلتك إذا خنقك رجل طويل عريض ؟

— لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير . . . أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أرأيت عربة الاسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل الهرم المحطم الذى أغمى عليه فى الطريق . ؟ سمعتهم يقولون : إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غُفْل لم يتعلم من الحياة مثلنا ، ولم تحكِمْه تجارب الدنيا فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لايحييه المدير ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجد من الناس من يبتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة ، لابقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزق وعيش .

إن عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل . . ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتُصنع له أم .

كل شىء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة أدبارها ، وما قطُّ رأيت الأمور فى بلادنا جارية على مجاريها ؛ فهؤلاء الحكام لاينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لابقانون الغني والقسوة ، وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس ، وخلق ودين ورحمة ؛ فانه لاينهزم فى

معركة الحوادث إلا روح النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه ؛ فان كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لايكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطة درجة فوق الغني ، ومن نال هذه استشرف لتلك ، فاذا جمعوها كان منها الخلق الظالم الذى يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوًّا ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذى يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للانسانية. ويحرصون على مابه تمامهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانعة والمهاونة ، نازلاً فنازلاً إلى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ماداموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملاً شريفاً يصيبون منه رزقهم بأيديهم لابأيدى آبائهم ، فانه والله لولا العمى الاجتماعى لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطلٍ فى أملاك أبيه من القصور والضياع وابن فقير متبطل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع . . .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعفُّفه وكرمه ، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانة والصدق ، إذ هو لايكذب ولايسرق مادام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً فتكون حرفته التجارة ، وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثرَ عمره مادةَ كذبٍ وإثم ولصوصية .

آه لو صرت مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمد الى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الانسانية ، وأحملهم عليها حملاً ، وأصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ماأخلَّ به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ، فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون . ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الانسانية فى أفرادها ، فتقطَّع مابينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهل وطنهم

ومتى أُحكمت الصفات الانسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حَقى) ونحن نريد أن يكون (حَقى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة .

***

أنا أحمد الدير . . . لست الدير بمافى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . كلا ، أنا عمل اجتماعى منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلقٌ ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأمّ مع الحياة الأطفال الاُخوةِ فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندى الجنة ولكن عندى جهنم أيضاً مادام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكنى الأصلاح .

هأنذا قد صرت مديراً أعسّ فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما الرقعة ، فى دنيا تمزقت عليهما ، قم يابنىّ ، لا تَرُعْ إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : انك مانمت من الجوع ، ولكن مضمضتَ عينك بشعاع النوم ؟

ياولدىّ المسكينين بأى ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقاً وطحنتكما طحنا ، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا وبنت فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه ، ماالذى ضرّ الوطن منكما فتموتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا؟

إن كنت يابنى لاتملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلوم إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيف إلى أن آخذ لك الحق .

إلىّ بابن فلان باشا وبنت فلان باشا .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية

ياهذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًّا ، وياهذه ، عليك أختك الآنسة أمينة . . . .

أتأبيان ، أنفرةً من الانسانية ، وتمرداً على الفضيلة ، أحقاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ! ؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأنتما فى النفس من أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد .

ورفع أحمد يده . . . .

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، واليه حراسة البنك قد توسنها[1] ودخلته الريبة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة وقبل أن تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى قد ركله برجله فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدْوَ الخيل من ألهوب السوط .

. . . .

وتمجدت الفضيلة كعادتها . . ! . . أن مسكيناً حلم بها . .

مصطفى صادق الرافعى

(١) توسنهما أتاهما نائمين

أدب الرواد المسلمين

فن فى الأدب العربى يحتفظ بقيمته وجدته

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فن من فنون الأدب العربى لم تذهب الأيام بجدته ؛ ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية ؛ ذلك هو فن السياحة والمشاهدة . ففى الأدب الغربى ، القديم والحديث ، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة ، سواء أكانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته ، أو لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره . وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين أو ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التى كتبت لها كتب استكشاف تلقى أضواء جديدة على أحوال المجتمعات التى كتبت عنها ؛ فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب ، وكثر تعارفها ، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية ، لم يبق للسائح المتجول ما يكتشفه من أحوال الشعوب المتمدنة أو التى تأخذ بقسط من الحضارة ، إلا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب ، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار أو اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار أو الأنواع . وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الأدبى ، وأما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمى .

وقد عرف الأدب العربى فن السياحة والمشاهدة فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب يطوفون أرجاء العالم المعروف يومئذ للوقوف على أحوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم فى كتب لا زالت حجة عصرها . ومن أعظم هؤلاء الجغرافيين الرحل ، اليعقوبى الذى طاف العالم الأسلامى من السند الى الأندلس وتجول فى جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب والأندلس فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، ووضع كتابه الجامع « البلدان » ، والمسعودى المؤرخ والجغرافى الذى طاف أنحاء العالم الأسلامى شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق المحيط الهندى حتى شواطئ افريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر ، وشهد عجائب هذه الآفاق ، ودونها فى كتبه ولا سيما مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى . بيد أننا لا نريد أن نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الجغرافيين ، وإنما نتحدث بالأخص عن طائفة من الرحل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم أحوال البلاد والمجتمعات التى شهدوها ، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل أن تعتبر آثاراً جغرافيــة . ولدينا فى الواقع ثبت حافل من أولئك الرواد الشغوفين بالسياحة ودراسة أحوال الأمم ، ولدينا كثير من آثارهم التى ما زالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً . وما نذكره منهم ومن آثارهم فى هذا الفصل ، نذكره على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر ؛ وإنما نلاحظ أن الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم أقلية صغيرة بالنسبة الى أولئك الذين لم تصل الينا آثارهم أو التى انتهت آثارهم إلينا ، ولكنها ما زالت مخطوطات منسية فى ظلمات المكاتب العامة والخاصة .

ومن أقدم أولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم إلينا

أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الذى أنفق نحو ثلاثين عاماً فى الطواف بالأمم الاسلامية من بغداد إلى الأندلس ، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها ، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) . وقد دون ابن حوقل رحلته ومشاهداته فى كتاب أسماه «المسالك والممالك» ، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية . بيد أنه يعنى بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة ، وفيه يدون ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التى مر بها وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التى تستحق الذكر . وقد مر ابن حوقل أثناء رحلته بمصر ، فى أواخر الدولة الاخشيدية ، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيه مصر الفسطاط ومعاهدها والنيل ومجراه ، وكثيراً من أحوال المجتمع المصرى يومئذ[1] . وأسلوبه يجمع بين الطابعين العلمى والأدبى . ولدينا فى القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق الى المغرب ، والآخر يجوبه من المغرب إلى المشرق ، والأول هو أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى ، نسبة الى هراة بلد أسرته . وقد ولع أبو الحسن بالأسفار منذ حداثته ، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصـــد سوى التفرج والاستكشاف ، وذلك نحو سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ، وأنفق زهاء ربع قرن فى رحلته ، فطاف أرجاء الشأم وفلسطين ومصر ، وقبرص وغرب الأناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، واخترق البحر الأبيض وتجول فى جزائره حتى صقلية ؛ ولم يترك ، على قول ابن خلكان « براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل الى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » . واشتهر ذلك فى الآفاق كلها ، وهو الوحيد الذى تلقبه الرواية الاسلامية « بالسائح » وأسره الفرنج والقرصان مراراً ، وضاعت كتبه ومذكراته ، كما يخبرنا بذلك فى كتابه الذى انتهى إلينا ، وهو سفر صغير عنوانه « الأشارات إلى معرفة الزيارات»[2] وفيه يقص باختصار سير رحلته ، وما شاهده من الأماكن والمعاهد ، دون وصف ولا إسهاب . وفى أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن فى حلب بعد طول التجوال . ونال حظوة لدى أميرها وتوفى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ودفن بتربة أعدها لنفسه ، وكتب عليها حسب وصيته ومن انشائه تلك الكلمات المؤثرة : «هذه تربة العبد الغريب الوحيد على بن أبى بكر الهروى ، عاش غريباً ، ومات وحيداً ، لاصديقاً يرثيه ، ولا خليلاً يبكيه ، ولا أهل يزورونه ، ولا اخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجة تندبه ؛ آنس الله وحدته ، ورحم غربته »

وأما الثانى فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الأندلسى . رحل من الأندلس شرقاً الى افريقية ومصر والشأم والحجاز . وكان رحالة بطبيعته قوى الملاحظة والوصف . رحل من غرناطة الى المشرق ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٧٨ هـ والثانية سنة ٥٨٥ هـ ، والثالثة فى أواخر القرن السادس ، وقطع البحر الأبيض مراراً ، وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية ، وتجول فى بلاد مصر والشأم والحجاز ، وقاسى فى أثناء تجواله كثيراً من الشدائد ، وأشرف مراراً على الهلاك فى البحر ، واستقر أخيراً بالاسكندرية وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودون أخبار رحلاته فى سفر كبير ممتع يسميه « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » . وفيه يدون مشاهداته فى الأمم والبلاد التى زارها ؛ ويقص حوادث أسفاره مفصلة بالتواريخ فى نوع من « المذكرات » ؛ وهو أثر شائق الأسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لأدب الرواد .

ونستطيع أن نذكر من الرواد المسلمين فى هذا العصر أيضا ، عبد اللطيف البغدادى الطبيب العلامة الذى وفد على مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وطاف بعد ذلك فلسطين والشأم وبلاد الروم الأناضول يدرس أحوالها ومجتمعاتها . وقد دون عبد اللطيف مشاهداته فى مصر فى كتاب كبير لم يصل إلينا ، ولكن وصلت الينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب « الافادة والاعتبار » وهى فصول قوية بديعة عن أحوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعيـة ، يغلب عليها الأسلوب العلمى الذى يمتاز به مؤلفها

* * *

على أن أعظم الرواد المسلمين على الأطلاق هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الطنجى الشهير بابن بطوطة . ولم يكن ابن بطوطة

(١) راجع هذا الفصل فى كتاب « المسالك والممالك » (وهو ضمن المكتبة الجغرافية التى أصدرها المستشرق دى جويه)

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب رقم (٣ م جغرافيا)

رحالة عظيما فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان أيضاً مكتشفاً عظيما يقصد الى مجاهل البر والبحر . وكتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربى فى هذا النوع من الأدب . وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) يجوب أقطار العالم ، واخترق بلاد المغرب ومصر والشأم وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية ، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية ؛ واخترق فى عوده قلب أفريقية من السودان الى بلاد النيجر ؛ ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التى لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة ؛ ووصل الى أعالى نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل اليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزى منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون . وسلخ فى رحلاته نحو ربع قرن ؛ وترك لناعن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الأثر الذى يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف .

وقد لبث أدب الرواد متصلاً فى العربية حتى العصر الحديث ؛ فنجد المقرى مؤرخ الأندلس — مثلاً — يصف لنا فى فاتحة «نفح الطيب» رحلته البحرية من المغرب الى المشرق فى أسلوب رائع ؛ ونجد العلامة الصوفى عبد الغنى النابلسى يجوب بلاد الشأم ومصر والحجاز ، وذلك سنة ١١٠٥هـ (١٦٩٤م) ، ويترك لنا عن أسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب «الحقيقة والمجاز» الذى تحتفظ دار الكتب بنسخة خطية منه

***

ومما تقدم نرى أن أدب السياحة قد بدأ فى العربية فى عصر مبكر ، واستمر على كر العصور . وكثيراً ما قيل إن تراث الأدب العربى أضحى قديماً لا يساير العصر ، وأن فنونه قد عفت ، وأنه ليس فى تعداد فنونه ومناحيه كالأدب الغربى . ولكنا نستطيع أن نقول هنا على الأقل ، إن الأدب العربى قد سبق الأدب الغربى فى فن السياحة والمشاهدة بعصور طويلة ؛ وهذا مترتب بالطبع على أن الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين الى التجوال فى أنحاء العالم المعروف يومئذ ، والى ارتياد كثير من الأنحاء المجهولة . والواقع أن أول رحالة غربى كبير ارتاد انحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الايطالى مركو بولو ؛ وكانت رحلته الى المشرق فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين الى القرنين الثانى والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد) . وأقدم أثر غربى قيم فى السياحة هو أثر مركو بولو الذى يصف فيه أحوال الأقطار الأسيوية ولاسيما الشرق الأقصى . وقد كان أول أثر استطاع الغرب أن يقف فيه على عظمة الشرق يومئذ وبذخه وبهائه وروعة حضارته . ولكن الأمم الاسلامية كانت تعرف أقصى الأمم الشرقية ومعظم الأمم الغربية على يد جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون .

على أنه مما يؤسف له أن أدب السياحة فى العربية قد انحط فى العصر الأخير ، كما انحط كثير من فنونها ، وأضحى نوعاً من المشاهدات الطائرة تكرر فى كل فرصة وفى كل أثر جديد ، وتكتب بالأسلوب الصحفى الركيك ، وتقف عند الأخبار والمشاهدات السطحية ، كوصف السفينة والبحر والشوارع والفنادق والملاهى ، بأساليب وعبارات مملة ؛ وقلما يعنى السائح المتفرج بالمشاهدات والدراسات العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، ومن الأسف أننا لا نستطيع أن نجد بين كتب السياحة التى أخرجت فى العصر الأخير كثيراً من الآثار التى تمتاز بقيمتها الأدبية والفنية [1] .

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) يسرنى أن أنوه بهذه المناسبة بالكتب القيمة التى يخرجها صديقنا الرحالة محمد ثابت عن رحلاته ، وقد أخرج منها إلى اليوم ثلاثة تمتاز بدقة دراساتها ومشاهداتها الجغرافية والاجتماعية .

حول اقتراح

نقابة للأدباء الشبان

بقلم حنفي غالي

قرأت المقال الشيق الممتع الذى نشرته مجلة الرسالة الغراء لذلك الأديب الكبير مقترحاً فيه تأليف نقابة للأدباء الشبان ، تجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ، ويكون لهم منها قوة ترد عنهم هجمات المعتدين ، ودرع يقيهم طعنات الطاعنين ؛ فراقنى منه ميل خالص للعدل ، ورغبة صادقة فى الانصاف ، فأحببت أن أقول فى هذا الموضوع كلمة صريحة لوجه الحق ، غير متأثر من جانبى الشبان أو الشيوخ برغبة أو رهبة .

وكم كنت أود أن يتجه اقتراح الأديب اتجاهاً غير اتجاهه ، ويرمى الى غاية غير غايته ، فيدعو الى تكوين جماعات من الشباب تلتف كل منها حول شيخ أو أكثر من شيوخ الأدب ، تفيده وتستفيد منه ؛ تفيده باعلاء ذكره وإظهار فضله وإعانته فى عمله ، وتستفيد منه بالاستماع لنصائحه والتشرب بروحه والتأدب بأدبه ؛ ويكون هذا خيراً من تأليف نقابة تغرى بالمصارعة وتغرى بالمناجزة ، وأليق برجال يجتمعون قاطبة حول عرش الفن ، ويتعبدون له ويتقدمون بقرابينهم اليه ، لا فارق فيهم بين شاب وشيخ ، وخامل ونابه ، ومغمور ومشهور . نعم كنت أصبو الى تلك الأمنية وأتحرق شوقاً اليها ؛ ولكننى الآن قد انصرفت عنها وزهدت فيها ، فقد هممت بالعمل على تحقيقها وإنفاذها فى العام الماضى إجابة لرغبة شيخ من شيوخ الأدب محبب إلىّ ، عزيز علىّ ، فوجدت السبيل الى ذلك شائكاً وعراً بسبب المعركة التى احتدمت حينئذ بين الأدباء الشبان والشيوخ والتى لا زال جرحاها وقتلاها يسقطون حتى اليوم ، فرغبت فى الوقوف على أسبابها ، وتعرّف من أوقد شعلتها الأولى ، أهم الشيوخ أم الشبان ؟ واستطعت باتصالى بهؤلاء وأولئك أن أستشف روح كل منهما ، وأستكنه خبيئة نفسه ؛ فعلمت علم اليقين أن التبعة فى ذلك إنما يقع أكثرها على الشيوخ ، لأنى وجدت فى أدباء الشباب كرماً وصفحاً ، وإن كان فيهم غرور . أما الشيوخ فلست أغلى إذا وصفتهم بعنت الحزازة وصلف الأستاذية — كما يقول الأستاذ صاحب الرسالة — بل بالخروج عن طور الحكمة والرزانة المعروفة عنهم . أو المفروضة فيهم على الأقل ؛ ولله ما أعجب تقلبات الأيام ! فقد كان هؤلاء الشيوخ بعينهم ينعون على رجال المدرسة القديمة استبدادهم وتخطيهم الرقاب بشهرتهم ، واستغناءهم عن الاخلاص والصدق ، ويفاخرون بأن مذهبهم الجديد إنما يقوم على أساس من الحجج الناصعة ، والبراهين الدامغة ؛ ولا يبغى سوى الحرية والحق ، ومازالوا يعملون المعاول فى المذهب القديم حتى أحالوه صعيداً جرزاً ، ولكن ما كادوا ينتصرون ويفرح الشباب بهذا الانتصار ، وتفيض نفوسهم غبطة به وابتهاجاً له ، حتى تبدلت نفوسهم ، وتجهمت قلوبهم ، وأصبحوا للشباب ألد الأعداء ، بعد أن كانوا أخلص الأصدقاء ، وأخذوا يضعون اللجم فى الأفواه والأصفاد حول الأعضاد ، والعقبات فى سبيل النفوس الناشئة السائرة على الدرب ، وبذلك مثل شيوخ الأدب فى مصر وفى القرن العشرين المأساة المبكية المضحكة التى مثلها من قبلهم رجال الثورة الفرنسية حين ثاروا على استبداد البوربون ، فقوضوا صرحه ، ثم أقاموا مكانه استبداد نابليون ، أليس كذلك ؟ !

رحم الله المدرسة القديمة وطيب ثرى رجالها الأبرار ! لقد قال الأستاذ الدكتور طه حسين عن أحدهم وهو المغفور له حفنى بك ناصف « كنا نستعينه على أن نكون خيراً منه ، وكان يعيننا على ذلك راضياً به مبتسماً له راغباً فيه » . فأين هذه العلاقة الأبوية العطوفة من علاقة الأذلال والاستعباد التى يريد شيوخ الأدب أن تكون بينهم وبين الشباب ؟ هم يخيرون أدباء الشباب بين أمرين أحلاهما مر ، أما أن يندمجوا فى أشخاصهم ويفنوا فيهم ويسبحوا لهم بكرة وأصيلا وغدوا ورواحا ، وإلا فالويل والثبور لهم أن حدثتهم أنفسهم بإبداء رأى حر فى كتاب شيخ أو قصيدة ، أو يتربصون بهم حتى إذا وقعوا فى أيديهم فرائس أثخنوهم طعناً فما يبقون فيهم ذماء من حياة ؛ فالموقف الأول مفسد للنفوس مميت للضمائر ، والموقف الثانى مثبط للهمم مضعف للعزائم ، وكلاهما لا يرضى الكرامة ولا العدل ، وما كان للشباب وهم الذين ظلماً غسلوا بدمائهم الزكية طريق الحرية أن يقبلوا الابتعاد فى الأدب بعد أن أبوه فى السياسة

ولست أرى مبرراً لهذا الموقف الشاذ الغريب من الشيوخ

فالمألوف أن الأدباء يختلفون فى الرأى ويختصمون فى الفن فماذا يخيفهم من نقد الشباب لآثارهم ؟ إلا أن الأمر لا يخلو من أحد اثنين : أما أن انتاج الشيخ الفنى قوى لا مغمز فيه فلا يعقل أن النقد يغض من قدره وينقص من قيمته، أو انه ضعيف فيكون من حق الفن ألا يدخل فى حرمه المقدس . أما دعوى الشيوخ بأنهم وحدهم حراس الفن وامناء هيكله فهى دعوى مرفوضة شكلاً وموضوعاً ، هى مرفوضة شكلاً لسخافتها الظاهرة وبعدها عن الجد بعد مابين الأرض والسماء ، وهى مرفوضة موضوعا لأن وسائل النقد هى الذوق والاطلاع وهما متوفران لكثير من أدباء الشباب والحق أن من شيوخ الأدب من هو مقدور فوق قدره ، ولعل هذا سر فزعه من النقد وجزعه من كل يد تمتد إلى آثاره ولو كانت عاجزة ضعيفة

على أننى لست أخلى أدباء الشباب من كل تبعة ، ففيهم غرور يحمل بعضهم على النزول إلى ميادين لم يعدوا لها العدة ولم يتخذوا الأهبة ، ولكن أى ضير على الشيوخ لو قابلوا نزوات الشباب بابتسام الأب البار الحنون الذى يغفر ويتجاوز عن كثير ؟

ولقد نشأ عن هذا الموقف الشاذ بين الشيوخ والشبان أن غشى الحياة الأدبية فى مصر غشاء من الحقد والرياء فى النقد فلا يكاد يظهر مؤلف أدبى حتى يرفعه الأنصار الى السماء ، ويهبط به الخصوم الى الغبراء بغير حق ، فانظر ماذا فعل شيوخ الأدب بديوانى الشاعرين المهندس وناجى ؛ أو ليس فيهما ما يستحق الأعجاب والتقدير ؟ بلى ، وإنى لأترك الكلام هنا للأستاذ المنصف صاحب الرسالة إذ قال : إن ما فيهما من مساوىء هو من ضئال العيوب التى تختفى فى بهر الجمال وروعة الصنعة ، فالحكم فى حياتنا الأدبية الآن للهوى والغرض لا للعقل والعدل ، فما علاج هذه الحالة . إننى وإن كنت أرى فى تأليف نقابة لأدباء الشباب ما يغرى بالصراع والنضال ، ولكننى أؤيد الاقتراح كل التأييد على أن يكون الشباب عند حسن الظن بهم تسامحاً ونبلا ، فلا يكونوا البادئين بصبغ العيون بلون الدماء — كما يقول الأديب الكبير — فاذا بغى من الشيوخ باغ أو عدا عاد فليقف منه الشباب موقف المدافع فى سبيل أعلاء كلمة الحق ، واقرار العدل فى نصابه ، ورد الأمور الى مجراها الطبيعى .

فالنقابة بما تبثه من روح التعاون بين الشباب ، وبما تخلقه من قوة الاتحاد فى الغاية والغرض ، ستزيل كل العقبات المصطنعة من طريقهم ، وتبدد هذه السحب التى تراكمت فى سماء حياتنا الأدبية ، وحبذا لو امتد نشاطها فشمل جميع الأقطار العربية ، وضمت بين أعضائها أدباءها الشبان ، فيكونون رسل محبة وسفراء خير

ولكن النقابة لن تكون جديرة بالتقدير والاحترام ، إلا إذا كان وجه الفن قبلتها وغايتها ، والاخلاص له قائدها ورائدها ، فلا يتقارض أعضاؤها المديح والثناء الزائف ، بل يتبادلون النصح والارشاد الصادق ، فاذا ما سارت سفينة الشباب فى هذا السبيل القويم والصراط المستقيم ، فلا شك أنها بالغة غايتها منتهية الى بر السلامة محوطة برعاية الله مكلوءة بعنايته

قد أمن الله مجراها وأبدلها بحسن عاقبة من سوء منقلب

منفى غالى

حقـــائق

١ — الاثينيون القدامى والفرنسيون الحديثون يبذون غيرهم من الأمم فى شغفهم بجمال الحياة ومباهجها . كما يبذونهم كذلك فى رقة الأخلاق وظرف الشمائل .

٢ — يقول المثل « لا ألفة بين اللصوص » ومعنى ذلك أن الشر يهدم الصداقة

٣ — أن دراسة الشعر والفصاحة والموسيقى والتصوير وغير ذلك من الفنون الجميلة تبث فى الناس روح الدماثة والرقة والايناس .

٤ — إن لتداعى الأفكار تأثيراً عظيما جداً على العقل والأخلاق ، فنرى أن أشغال الذوق توجه العقل إلى مواطن الجمال والسمو . وترد عنه أسباب الضعة والفساد ، وذلك لأنها تبعث على حب الأولى . والنفور من الثانية بقوة التداعى والترابط .

٥ — كما أن الموسيقى تطرب السمع . والألوان البهيجة تفتن العين . كذلك بدائع الذوق تهذب العقل . ولذلك نرى أن الموسيقى يؤلمه اختلال الألحان . والفنان يزعجه اضطراب الألوان ، والذوق الرقيق تؤذيه شراسة الأخلاق وغلظة الطباع

ترجمة عامر عبد الوهاب عامر

الموت والخـــلود *

للأســتاذ زكى نجيب محمود

أما أحدهما فكان يحب الحياة ويخشى الموت ، وأما الآخر ففيلسوف يستصغر شأنها وينفذ ببصره وراء ظواهرها الزائلة إلى حيث الحقيقة الخالدة . جمعت بينهما الأيام على مائدة واحدة فدار بينهما الحديث وتشعبت أطرافه ، وما لبث الحوار بينهما طويلاً حتى مس موضع التناقض بينهما . . .

تراسيما كوس — لله ما أعجب الموت ! لايكاد يمس الحى بأطرافه الباردة ، حتى تنقلب تلك القوة المفكرة المدبرة الفعالة إلى جمود الصخر ، يلقى بها فى جوف القبر الصامت ، وكأنها بعض تربته ، أفتستطيع ياصديقى أن تحدثنى حديثاً جلياً واضحاً لايغمض ولا يلتوى عن قصة هذا الموت العجيب ؟ ماذا عساى أن أكون بعد هذا القضاء المحتوم ؟

فيلاليثس — ستكون كل شىء ، ولن تكون شيئاً

تراسيما كوس — لم أكن والله أتوقع منك حين طرحت السؤال ، إلا عبارة كهذه مبهمة مرنة ، أسرفت فى المرونة والابهام حتى وسعت كل معنى ، فلم أظفر مما أريد بشىء ، وماذا عسى أن أفيد من جواب يتنافر الصدر فيه مع العجز ، ويتناقض شطره الأول مع شطره الثانى ، فيزيد المشكلة تعقيداً على تعقيد ولا يوضح منها شيئاً ؟ ولكنها الفلسفة العقيمة تأبى إلا أن تعلو بنفسها فوق مستوى الأفهام فتربك العبارة إرباكاً وتغلقها إغلاقاً ، كأنما أريد لها أن تقتصر على قائليها ، وكان خليقاً بها إن أرادت أن تمكن لنفسها من العقول ، أن تلتمس سبيلاً طيعاً ذلولا ، لا وعراً ولا شائكا ، فيرده الرائدون جميعاً .

فيلاليثس — عفواً صديقى ، فما قصدت إلى التناقض عمداً بل اضطررت اليه اضطراراً ، فهذه اللغة التى تواضع الناس على اصطناعها فى التفاهم ، لم تنشأ أول أمرها إلا لكى تكون أداة للتعبير عما يقع تحت الحس من أشياء ، فلما درج الانسان صاعداً فى سلم الرقى ، وبدأت تدور فى رأسه خلجات من الفكر المجرد ثم أراد أن يبرزها فى ثوب من اللفظ ، لم تسعفه إلا هذه اللغة ، التى انما خلقت للمحسوسات ، والتزم أن يجرى فى قوالبها المحدودة تلك الآراء المطلقة التى لاتعرف الحدود ، فلم يكن بد من هذا التناقض والاضطراب ، فأنا ان فكرت فى مصيرك بعد الموت ، فلست أعنى بجسدك وما يطرأ عليه ، بل يسبح الفكر فى حقيقتك التى تكمن وراء هذا الستار من اللحم والعظم فى جوهرك مجرداً عن قوالب المادة ، وما أضيق اللغة عن هذا النطاق الفسيح !

تراسيما كوس — ويحك ! أو تريد أن تجعل منى رجلين ، فرجل من مادة فى إهاب من الجلد ، ورجل مجرد خبىء وراء الأستار تراه أنت من دون صاحبه ؟

فيلاليثس — وأى غرابة فيما أزعم ياصديقى ؟ أفتظن أن هذه الأجسام والأجساد التى تنبث فى أنحاء الكون ، والتى تدركها بوساطة الحواس ، هى كل شىء ؟ اللهم إن صح هذا لكان الانسان كتلة من اللحم والشحم والعظام ، وقل على أفكاره ومشاعره وشتى مظاهر حيويته العفاء ، لأنها لا تسلك اليك سبيلاً من عين أو أنف أو أذن ! ! لا ، لكل شىء حقيقة كامنة وراء ظاهره ، ما فى ذلك شك ولا ريب ، فان أدركك الموت ياأخى أفنى منك هذا الفرد الذى يحاورنى الآن ، هذا الشخص المعين الذى أراه وأسمعه ، ماذا أقول ؟ هذا التراسيما كوس ، فلن يكون بعد الموت شيئاً مذكوراً ، ستنحل مادته وستسلك ذراتها سبلاً شتى ، فطائفة الى شجرة تدخل فى تركيبها ، وطائفة الى حيوان ، وثالثة الى صخرة تلقى فى طاق الكوخ لتصد عن ساكنيه الهواء ، كما يقول شاكسبير ، ولكن ليست هذه الشخصية إلا ظهارة فانية مع الموت ، ولها بطانة باقية الى الأبد ، ليست إلا قالباً صيغت فيه حقيقتك الخالدة . فالفرد منك ظاهرة مادية عارضة محصورة فى أطواق الزمان والمكان ، فلها بدء وخاتمة ، وهى تشغل حيزاً من الفراغ ، فأما سرك وجوهرك ، أما الحقيقة التى اندست فى مادتك فلا تعرف زماناً ولا مكاناً ، فهى فى الكون منذ الأزل ، أرادت أن تثبت وجود نفسها ، فتجسدت فى الكائنات التى ترى ، فهى لا تختلف فى شخصك عنها فى شخصى ، أو فى شخص هـــذا

* يوضح هذا الحوار فلسفة شوبنهور فى إرادة الحياة ، وخلاصتها أن الحياة تستعين بالأفراد على بقائها ، فهى لاتعنى بالفرد مادامت تحقق البقاء فى الأفراد الآخرين ، وقد أخذنا مادة هذا الحوار وأشخاصه من فصل كتبه شوبنهور .

الطائر الذى تراه يخفق بين أطباق الهواء . . . فان أدركتك المنية سيفنى منك الفرد ، وستخلد الحقيقة ممثلة فى سائر الأحياء ، لعلك الآن قد آمنت بما زعمته لك من أنك لن تكون بعد الموت شيئاً ، وستكون كل شىء ؟

تراسيما كوس — ولكن خلودى فى أشخاص آخرين لا يساوى عندى جناح بعوضة ، مادمت لن أحيا بشخصى هذا ، فان كان تراسيما كوس الذى يطارحك الحديث الآن ، سيفنيه الموت ، فسحقاً للحقيقة ، إذ ليس لى فى خلودها غناء .

فيلاليثس — مهلاً ! هب أنك خيرت فى أن تعيش بعد الموت بشخصيتك التى تتشبث بها على شرط واحد ، وهو أن تسلب منك تلك الشخصية شهوراً ثلاثة فحسب ، ثم ترد اليك الى الأبد ، فماذا أنت قائل ؟

تراسيما كوس — لا أتردد فى القبول فرحا راضيا .

فيلاليثس — ولكنك تعلم أنا لو سلبناك الوعى والشعور حيناً من الدهر ، ثم بعثنا فيك اليقظة والحياة ، فلن تدرك كم لبثت فى غيبتك إلا أن يقص عليك نبؤها بعد البعث . فهؤلاء أصحاب الكهف أووا الى كهفهم فضرب الله على آذانهم عدة سنين ، ثم بعثهم ، فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ؛ مع أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا . فان كنت كهؤلاء ستفقد إدراك الزمن ، فما ضرك لو أطلنا أمد الرقاد المفروض الى آلاف ثلاثة من السنين ؟

تراسيما كوس — لا شىء ، أحسبك مصيباً فيما تقول !

فيلاليثس — وإذا فرضنا أن تلك الآلاف الثلاثة قد تعاقبت عليك فى رقدتك ، وأن أحداً لن يوقظك بعدها ، أفتظن أن فى ذلك وبالاً عليك ؟ اللهم لا ! فان كانت عشرات قليلة من السنين قد عودتك الحياة وربطتك بها رباطاً وثيقاً ، يعز عليك كثيراً أن تنفصم عراه ، أليس أجدر بذلك الأمد المديد أن يعوّدك الموت ويوثق بينك وبينه الصلات ؟ وأحسب أنك لو ظفرت بمن يبعثك ويرد اليك وعيك المفقود ، لن ترضى عندئذ أن تطرح حالاً لابستك طوال ذلك العهد الطويل ، وسيزيد فى اطمئنانك حينذاك علمك أن هذه القوة السحرية العجيبة التى تحببك فى الحياة الآن ، ستظل تنشر من الأحياء ملايين وملايين لا تنفك متعاقبة الى الأبد .

تراسيما كوس — ما أبرعك فى الحوار ، وما أروعك فى سحر المنطق وطلاوة الحديث ! ! انى لأكاد أستخف بشخصى وأستصغر حياتى ، التى طالما أحببتها وحرصت عليها أشد الحرص ولكن هيهات ، فلن أنخدع بهذا الأغراء ، ومازلت أريد بعد هذا كله أن أحيا بهذه الشخصية نفسها

فيلا ليثس — يارعاك الله ! كأنما بلغت شخصيتك من الكمال شأواً بعيداً ، بحيث يعز ضريبها على الدهر ، وكأنك عاجز الخيال لا تستطيع أن تتصور حالاً خيراً وأسمى ؟ عجباً ! ألا تريد أن تستبدل بنفسك الناقصة المحدودة نفساً أسمى مرتبة وأبقى خلوداً ؟

تراسيما كوس — ولكننى ياصديقى لست أملك فى ذلك اختياراً ، فشخصى بالغاً مابلغ من نقص وتحديد ، هو نفسى ، وهو عندى أعز مافى الوجود ، لاأعدل به شيئاً ، ولا أرجو إلا أن يمتد الأجل بهذه الذات التى ترى صورتها وتسمع صوتها ، ولا يعنينى فى كثير أو قليل تلك الحياة الخالدة التى تظل باقية فى الكائنات الأخرى ، والتى تحاول بكل ماوسعك من دليل أن تقيم الحجة على أنها حياتى أنا ، فلست أرى خيراً فى حياة لاأحس بنفسى أنها حياتى .

فيلا ليثس — لست وحدك ياصاح تريد أن تبقى ، فكل كائن دبت فيه الحياة يريد البقاء ، وحسبك هذا دليلاً قوياً على أن هذه الرغبة الشاملة هى التى تنطق فيك بهذا الرجاء ، إنها ليست صيحة الفرد منك ، ولكنها نزعة الوجود بأسره ، إنها قوة عامة تنشد البقاء ولا عبرة عندها بالأفراد مادامت تحقق بقاءها المنشود ، فرغبة البقاء ، أو ارادة الحياة ، وقد التمستْ لنفسها الوجود والخلود ، فجسدت نفسها فى أفراد الكائنات ، وألقت فى أنفسهم وهماً بأنهم غايات مقصودة لذاتها ، لكى يحرصوا على الحياة ويكونوا وسيلة صالحة لبقائها ، والواقع أنهم ليسوا إلا أداة تستغلها تلك الارادة ، وسواء لديها أفنى هذا الفرد المعين أم امتد به الأجل ، مادامت تجد من غيره مايضمن بقاءها . . . حسبك ياأخى أن تعلم أنك أداة لتلك الارادة الشاملة ، وأنك صورة من صورها ، وأنك لست غاية مستقلة قصدت لذاتها ، وأن الحياة لن تخسر بفقدك شيئاً ، بل لعلها تجنى من ذلك خيراً كثيراً ، لأنها كانت سجينة فى قيود فرديتك ، مثقلة بمادة جسدك ، ثم انطلقت الى حيث لا قيود ولا حدود ! حسبك هذا لتعلم أن قصة الموت صبيانية تافهة ،

[البقية فى اسفل الصفحة التالية]

خواطر المصيف

المـــاء والسماء

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانسييه فى الآداب

كلاهما أحب الزرقة نآثرها لنفسه لونا ، وكلاهما آثر الرهبة فاتخذها لنفسه وصفا ، وكلاهما يمتد فلا يبلغ البصر منتهاه ، ويسرح فلا يعرف الطرف مداه ، قد حجب كل منهما الذى وراءه ، ولم يبد كل منهما غير صفحته ، لا تمل السماء النظر الى البحر ، ولا يمل البحر التطلع الى السماء ، صفحتان متشابهتان ، ووجهان متقابلان ، قد يبسم كل منهما لصاحبه فيصفو أديم السماء وتنبسط أسارير البحر ، ويكتنف ما بينهما هدوء يشرح الصدور وترتاح له النفوس ، وقد يُدِل كل منهما على صاحبه ، ويعكر كل منهما بعقابله ، فيعلو وجه السماء سحاب خفيف ، أو يسدل عليها نقاب منه شفاف ، وترتسم على وجه البحر تقطيبة من الموج . لا يلبث معها أن يهدأ فتزول ، وقد يتجهم كل منهما لصاحبه ، ويتجنى كل منهما على الآخر ، فتسدل السماء على وجهها حجاباً من السحاب أدكن اللون ، لا يشف عن شيء ولا ينم على شيء ، ويثور البحر فى عنف ، ويحتد فى غضب ، فيرغى ماؤه ويزبد موجه ، ويشتكى من لطماته شاطئه ، وقد تستسلم السماء الى البكاء ، فترمى البحر برذاذ من الدمع أو بوابل من المطر ، وقد يزأر البحر فترعد السماء ، ويزهو بياض الموج فيشتد من البرق اللمعان .

سبحان الذى جعل بينهما هذا الفضاء مجالا للطير ومسرحاً لكل ذات جناح ، وتعالى الذى جعل بينهما هذا الهواء حياة للكون ، ومطلباً لكل ذى روح . ثم شاء الا تتقطع بينهما الأسباب والا تبعد بينهما الوسائل . فتقاربا على بعد ، وتدانيا على تناء ، أضاءت السماء بنور الشمس . فأرسلت على الماء من شعاعها فضة لا تذوب ، وتحلت السماء بضوء القمر . فأهدت الى الماء صورته ، ورسمت على سطح البحر ظله . وتجملت السماء بوشى النجوم ، فبعثت الى البحر منه ببريق . ويا عجبا لوفاء تلك السماء لهذا الماء ، ما يكاد ينقضى النهار وتعتزم الشمس المغيب ، حتى توصيها الا ما قصدت الماء فى طريقها الى الغروب ، وأبلغته سراً من الأسرار لا يلبث وجه الشمس أن يحمارّ له احمراراً ينبئ عن السر ، ويفصح عن مدلول الكلام . ويا عجبا لهذه السماء تضحك من أهل الأرض ، فتخيل اليهم أنها تلاقى الماء عند الأفق ، وتحسب أهل الأرض لها عُذَّلا ، فتوهمهم أنها طوقت الماء بجناحها ، وأرخت على صفحته طرفاً من ذيلها ، وتمكر بأهل الأرض ، فكلما قربوا من الأفق ابتعد عنهم ، وكلما علوا عنه اتسع أمامهم مداه ، ويا عجبا لهذه السماء حين تدِل على الماء ، وحين تتجنى على البحر ، فتغرى به الشمس أن الفحيه بشواظ من نارك تنفذ منه الى الصميم ، وارميه بسهام من شعاعك تخترق منه الفؤاد ، فما تكاد الشمس تأتمر بأمر السماء ، حتى يضيق البحر بوهج الأشعة وألم السهام ، فتذوب حشاشته ، وتتبخر عزيمته ، وما تكاد السماء تحس حر أنفاسه ، وتشعر بلافح زفراته ، حتى تسيل من الأسى دموعها ، وتتقرح من البكاء مقلتاها ، لله شأنها ! ! تريد أن تلعب بالنار فلا يمسها سوء ولا يلحق بها أذى .

ويأبى البر أن يترك الأمر خالصاً بين السماء وبين الماء ، فيود أن يكون له معها شأن أى شأن ، ويجب أن يكون له من كلٍّ نصيب وافر ، فيلجأ البر الى أهله يغريهم بالبحر ، وويل للبحر يومئذ من الانسان ، ويسلطهم على السماء . ويا للسماء يومئذ من أهل الأرض ، أما البحر فقد قدروا عليه ، وهزئوا به ، فركبوا متنه ، ومخروا بالسفن عبابه ، وجرءوا عليه فغاصوا بالعلم الى قاعه ، لم يخفهم منه موت ، ولم يرهبهم فيه وحش . أقاموا فوقه الجسور ، وشيدوا عليه السدود ، فقطعوه ولم تبتل لهم قدم ، وعبروه ولم يخلعوا لهم ثوباً . وهكذا قرب البحر من الانسان فاستخف به ، وتكشف البحر للانسان فلم يخش ما فيه ، ولو قد كان بعيداً لما استخف به أحد ، ولو قد كان غامضاً لما اطمأن اليه انسان ،

فليس جديراً بالخوف والاشفاق ، وليست حياة الفرد خليقة بهذا التقدير العجيب ، ولكم يعثنى على السخرية إنسان يتمسك بحياته ويتشبث بها ، ويشفق من الموت ويخشاه ، كأنه وحده الكائن الحى الذى نيط به بقاء الحياة

تراسيما كوس — ليس لعمرى أبعث على السخرية من هذا الهراء ، ولولا رغبتى فى السمر واللهو ، لما استمعت اليك لحظة واحدة .

زكى نجيب محمود

ففي الغموض سر رهيب ، وفي عسر المنال رغبة في النوال .

ولم يكف هذا الانسان أن يلزم الجد مع الماء ، وأن يتخذ منه معيناً على الحياة ، وطريقاً الى الممالك والديار ، وانما أراد أن يمزح مع البحر ، وأن يلهو بالشاطىء ، فاتخذته الغيد مسرحاً يخطرن فيه ، وميداناً يصلن في أرجائه ، سلاحهن الجمال ، وعدتهن الرشاقة ، واتخذه الرجال معرضاً يرون فيه مالم يكن من قبل الى رؤيته سبيل ، ويشاهدون فيه ماليس يوجد عند غيره ، واتخذه هؤلاء وهؤلاء ملهى وملعباً ومصطافا ، فلم يبق للبحر من هيبته الا اتساع مداه وتراكم لججه ، ولم يعد للبحر من رهبته الا خواطر المتأمل فيه ، الناظر اليه حين يخيم عليه الظلام ، وتضن عليه السماء بنورها .

أما السماء فلم يبلغ منها أهل الأرض مابلغوا من الماء ، وإنما تنافسوا في العلو اليها ، وتسابقوا في الارتفاع الى ذراها ، فحالت الطبيعة بينهم وبينها ، وأوقفتهم عند حد من الفضاء محدود ، لا يكاد المرء يعدوه حتى يضطر الى الهبوط أو يورد نفسه موارد الهلاك ، فتعلق الناس بالريح ولم يبلغوا عنان السماء ، ووقفوا منها على الأبواب ولم يبلغوا منها الصميم ، وقديماً تمنى فرعون لو أنه بلغ عنان السماء ، وقال : « ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع الى إله موسى » فهلك عنه سلطانه وصدعن السبيل .

وهكذا بعدت السماء عن أهل الأض فعزت عليهم وخارت دونها قوائهم ، وأسرفت في النأى عن الناس ، فما زالت وراءها أسرار هيهات للمرء أن يكشف عنها ، ومازال فيها من الافلاك والاجرام ماليس يعرفه الناس إلا أماني ، وقد كان أهل الأرض يفرحون لرؤية السحاب ، ويستبشرون بنزول المطر ، ويضحكون لبكاء السماء ، فما زالوا يرون فيها مصدر الخير وسر الطبيعة وينبوع الحياة ، ومازال الناس يلتمسون ضوء النهار من السماء ، ويفتقدون فيها ضياء البدر أو سناء النجوم حين يخيم الظلام ، فحفظوا للسماء قدسيتها ، وقدروا لها هيبتها ، وعرفوا الجن في الأرض ، وقالوا الملائكة في السماء .

والناس يوقنون أن الله معهم أينما حلوا ، موجود أينما وجدوا ، قد كان في كل زمان ، وهو كائن في كل مكان ، ولكن شاءت قدسية السماء ألا تلهج الألسنة بالدعاء حتى ترفع اليها الأكف وتتطلع نحوها الأبصار ؟

الاسكندرية **محمد قدري لطفي**

من الفصول التي يجب أن تقرأ مراراً

العاطفة في الأدب

لغوستاف لانسون

الأستاذ بكلية الآداب في باريس

ترجمة الأستاذ محمد روحي فيصل

— ١ —

تعوق العقلَ عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة ، أهمها في نظرنا هذا الاعتقاد السائد أن نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة ، ويقتل النزوة الحية ، ويحبس القلب الخفاق ، فلا أماني ترف ، ولا أحلام تطيف ، ولا ذكرى تلوح ، ولا هوًى يبوح ، وانما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود ، واستيقظ من نوم الجمود ، رأيٌ في إثر رأي ، وخاطر يتلوه خاطر ، ومقدمة تسوق الى نتيجة ، وتحليل يسلم الى استنباط ! إنه ليحسن بالأديب المبين أن يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه ، ثم لا يُنطق سوى قلبه ، ولا يترجم عن غير لبه . إذن لخلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة ، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الزائفة ، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور ، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد .. !!

هذه دعوى — على جمالها وروعتها — عاثرة خاسرة ، ووجه الخطل فيها أن القلب لا يستغني عن العقل ولا يستطيع أن ينكره في حال من الأحوال . فان قوى النفس متحدة مشتبكة ، يتصل بعضها ببعض ، وتتداخل احداها في جارتها الأخرى ، ويندس الضعيف منها في القوى ، والكامن في البارز ، والوديع في المتمرد . وانما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير ، والطلعة البصير يفطن الى ألطف ما يضطرب في الفؤاد من الميول والنزعات ، ويشعر بأدق العواطف وأهدإ الأحاسيس ، وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب ، أو الفقر والجدب ، يكون القلب عظيما رفيعا ، أو وضيعاً خسيسا ! ! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والاحسان ، ثم أصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين ، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم

حيوانات هائمة سائمة ، ولئن كانت محبة الله وبرّ عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور ، فان تأسيس المدارس والأندية وبناء المستشفيات والملاجئ صورة من صور المنطق المنظم ، ومظهر من مظاهر الرأى والتدبير .

— ٢ —

يستبد الهوى المبرح ، ويجور الألم البالغ ، ويطغى الهيجان الثائر ، فتختبط النفس وتهتاج الأعصاب ويغلى الدم ، ثم تنطلق من شفاه العانى همسة محزونة ، أوصرخة يائسة ، أو قولة قوية جليلة ، تجرى خالدة على وجه الدهر ، وتذهب فى الناس مثلا سائراً وحكمة مضروبة ! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع ، ولا يمنحه التعظيم والاجلال مثلما تمنحه الأمم والأجيال ، وانما يراه من عمل الراوى المؤرخ الذى سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم الى يومنا هذا ، ويستنكر نسبته الى القائل الحساس ، والمؤرخ — بخلاف الصحافى — يملى على الحادث رأيه ومذهبه ، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه ، ويسكب الكلم فى قالبه ومثاله .

ويغضب الرجل فيحول باطنه ، ويختل ظاهره ، ويضطرب احساسه ، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله ، وكوّنتها الوراثة ، ووجهتها البيئة !! يقذف الكلمة من فيه فاذا هى كالسيف مضاءً ونقاوة ، واذا هى جماع فطرته النائمة ، وعادته الراسخة ، وغريزته الكامنة ..!!

لغة القلب آهة أو أنة ، أو نداء أو عويل ، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوى أو الألم المميت ، وقد قيل إن الهوى يعمى ويصم ! فمن يفرق بين القلب والعقل ثم يروز الأول ويهمل الثانى ، لزمه الايجاز فى البيان ، والاقتضاب فى الكلام ، ذلك بأن المبين اذ يسمى شكواه ويدل على بلواه ، إنما يعلن جميع ما يكنه فؤاده من الخلجات ، ويذكر كل مايحز نفسه من اللواعج ، ثم لايرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحا للتحدث والافاضة ! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه ، وتغلغل فى حناياه وأحشائه ، واختلط بلحمه ودمه ، شاء أن يصور هيامه المستفيض فى إسهاب وتفصيل ، فلتجدنه أحرص الناس على الايجاز فى التصوير ، وأقلهم تبسطاً فى الحديث ، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة : « إنى أحبك » حتى يعيد لفظها ويكرر معناها . سطران لا غير يخطهما المحب ، ثم يرى القلم فى انكماش ووجوم ! !

ونلاحظ أن النفس الراضية المطمئنة قد تلتوى على الكاتب ، وتجهده عند الاعراب والتبيين ، وتستهلك ملكاته النابهة وأدواته القوية . أما الميول المصطدمة والأهواء المتعاكسة ، فهى تظهر فى يسر وسهولة ، ولا تستلزم عبقرية عالية أو مبيناً كبيراً . ويرجع هذا الى أن النفس الراضية المطمئنة ، لاتتطلع لغير حاضرها ولا ترغب إلا فى هدوئها وراحتها ، وهى انما تنطوى على مشاعر حلوة صافية لا سبيل الى الخلوص اليها بلفظ أو كلام ، وحسبها من ذاتها أن تستمتع بما تحس ، وتتملى ماتشعر ، وتذوق ماتحلم : ولكن الميول والأهواء اذ ترتطم وتتعاكس تثير ألف خاطرة ولاعجة ، من ندامة على الماضى وأمل فى المستقبل ، وخوف من المصير ، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير ، بله الألمعى القدير ، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس ...

مظهر الألم صوت ملجلج ، ووجه أغبر ، ورعشة باليد ، ودمعة فى المحجر . فالاعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض انما يحتاج الى عقل خصب يتأمل وجه الألم الذى يتحسسه ويدرك قيمته وأثره ، ويعرف أين يتحد مع غيره من العواطف ، ومتى يختلف ثم يعرضه تاماً صحيحاً غير منقوص ولا مشوه ، وكلما كان التأمل العقلى كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحا وأبهر لوناً وأدق تعبيراً .

تلكم صفحات الأدب الباكى فاقرأوها بامعان ، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر ، وتبينوا النفس المعذبة ، ألستم توافقوننا على أن الأديب انما اتخذ العقل مبضعاً يشق مطاوى القلب ، ويسبر غور الضلوع ، وينفذ الى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة ؟ !

ولقد حفظ التاريخ القديم فيما حفظ فى ذاكرته الواعية رسائل طريفة انحدرت إلينا كاملة من شيشرون ومدام سيفينيه . وهى رسائل تفيض بالشكوى وتنزى يأساً وألماً ، كشف فيها الخطيب الرومانى عن الحب الأبوى حين ماتت ابنته وذهبت الى حيث لارجعة لها ، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الأم الرؤوم حين تزوج ابنتها فى الديار النائية والغربة الطويلة ! وإن الآباء

والأمهات ليكون أبداً أولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق ، ولكنهم لا يستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان ، وليس الذنب فى ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة ، وانما هو ذنب عقولهم القاحلة ، وألسنتهم البكيئة ، وأقلامهم الجامدة

والطريف فى هذا الباب ما يزعمه هيجو من ان الشاعر مصلح عظيم ونبى كريم ، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب ؛ وقد دفع هيجو الى هذا الرأى الأرستقراطى غروره المسلكى ، وحماسه الوطنى ، وتطرفه المعهود ، وخياله الواثب . والحق أن الشاعر رجل مثلى ومثلك ، يرى ما نرى ويشعر بما نشعر ، وانما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به الى صف المصلحين ولا يرفعه الى مقام الأنبياء – يمتاز من غيره من الناس بهذا العقل الحاجى المسجل الذى يقدر على الأبانة عما يرى ويشعر ، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من المنازع والأهواء

فالتأمل الذهني كما ترى ضرورة من ضرورات البيان ، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذى قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة ، الا بالمراقبة الباطنية العميقة . والممعود انما ينبغى أن يكون على شيء من العلم بمواقع الأعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذى ينتابه والداء الذى ينهشه ، ولكن الطفل إذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه الا فى ابهام : يصرخ ويبكى ، وهذا كل ما عنده من وسائل الاعلان وأدوات الأفصاح !!

إن الأدباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لأحاديثهم فى الصباح وفى المساء ، يلتزمون البساطة فى اللفظ والمعنى ، ثم ينحدرون الى النفس المتأخرة الابتدائية التى لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية ، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة ، وهم موقنون أن الأخلاص فى الأدب أو الصدق فى التعبير لا يكون الا حيث يكون الطفل الصغير أو الجاهل الأمى موضوع الحديث ومدار البيان ، ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً فى المنطق يشبه ذاك الانحراف وهذا الخلل ، فان الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور ، ولن تمنعها عن البوح والظهور

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون أبطال رواياتهم ، ويستدرون عبرتهم ، ويتعمدون إيلامهم . وكانوا يسهبون فى وصف الألم ، ويذكرون بواعثه ونتائجه ، ويتغلغلون الى كنهه وحقيقته . فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم ، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية ، أصحاء الذوق أقوياء الحواس ، يجمعون الى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الألم الداخلى ، وأفاعيله النفسية ، وأثره فى الرءوس والقلوب . وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم ، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ الى الألم ذاته ، ويربط بين اضطراب الحواس اللدنة ، وهيجان النفس الباطنة

ونحسب الآن أننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل ، ونبهنا الى خطر التفريق بينهما ، والى قلة الابداع والانتاج عند إهمال التأمل والتفكير ، فان كثيراً من الناس ليحسون أقوى الاحساس ، ويشعرون بأشد الشعور ، ولكنهم لا يعبرون عن احساسهم وشعورهم ، لأنهم ضعاف العقول ضئال التفكير ، وأغلب الظن أن المبين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق فى رسالته أحسن التوفيق ، ومضى الى غايتــه كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون

— ٣ —

ما دام الأديب أداة تصوير واعية مرهفة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة ، وصور الحياة ، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه ، وهو أبداً يرقب جيشان عاطفته ، ويرصد خفوق قلبه . ثم يستمتع بهواه وشعوره ، والاستمتاع هنا معناه استيقاف الحياة قبل أن تطوى ، والاحساس بها احساساً «مضاعفاً» قوياً . وفى النفس نزوات مبهمة خافتة ، يبصرها الأديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائى الشاهد

ويعتقد الأستاذ إميل فاجيه أن التكلف فى البيان أشر ما يبلى به الأديب الفنان من العلل والأدواء ، وهذا حق لا ريب فيــه ، وانما الريب فى قول من قال إن مراقبــة النفس تقتضى التصنع ، وتؤدى الى التكلف ، لأنها إنما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفتية ، والقوة الدافقة . والحق إن المراقبة اذا كانت منظمة متصلة توسع إطار الاحساس ، وتوضح بداءة الشعور ، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة . . فلقـد تستكين العاطفة ويخمد أوارها ، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها ، وليس هذا مما نسميه النضوب والأمحال ،

وانما هو أثر من آثار الأعياء والنصب الشديد ، كأنما العاطفة المكدودة تنام في جو مظلم ساكن ، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان ! وفي هذه الحال لقد يأخذ الأديب نفسه بوصف منظر أو تبيان خلجة فيقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد القلم

فالمراقبة انما توقظ العاطفة النائمة أو هي تهيجها كلما غفت ، ومن العجب أن تكون سبيلاً الى التكلف المرذول والتصنع الممقوت ، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لافونتين ولامارتين أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل ، كانوا أطلق الشعراء لساناً ، وأرقهم بياناً ، وأسلسهم لفظاً

ومن الأدباء من لا يستوحي نفسه ، ولا يترجم عن طبعه ، وانما يستقي من ذاكرته ومحفوظاته وقراءته ، وهؤلاء يكتبون في غير جدوى ولا طائل ، والمعروف المتـــداول أنهم يأتون غالباً بتشابيه مستعارة ، وكنايات معادة ، وصور مبتذلة لا تعبر عن « شخصية » ولا تنم عن جديد مبتدع . وانما الرجوع الى الطبع دون الذاكرة الحافظة هو مصدر الأدب الخالد والابتكار القويم ، وليس من شك في أن التكلف يضمحل ويتزايل أثره ، كلما رجع الفنان الى نفسه وعوّل على طبعه واستقى من عبقريته . ولقد يجمل بالمبين أن يتناول ما تمده القريحة في الوهلة الأولى واللمحة الخفيفة ، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد في أطواء نفسه بل يأخذ ما جادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء ! !

وكلمة « أنا » وما يشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البياني ، لأنها تتصف بالشمول وتجمع الشتات كأنما هي عنوان النفس ورمز العاطفة ، والسبيل الذي ينبغي أن يسلكه الأدب الرفيع هو أن يحمل كل لفظ من ألفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة ، أما « أنا » فما ينبغي أن تكون إلا عيناً تتفجر منها الأفكار والمعاني ، وتصدر عنها الأساليب واللغات ، وتصب فيها فروع الكلام وأغراض البيان

فاذا كان في هذا عسر ومشقة ، فان الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شيء ، وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها ، والجبال ليتسلقها ، والوديان ليهبط اليها ، كذلك يخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية ليمارسها ، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية ، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح ، وأسباب العاطفة الحيـــة ، وأدوات الكتابة الخالدة . وكانت الظروف والأحوال تنشيء المرء إنشاء جميلا قوياً ، وتعده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط ، ومن الأبداع والانتاج ما يزري بحياتنا الحاضرة الراكدة ، ويستخف بعيشنا اللاهي الهازل ..!!

كان الطالب إذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم إلا قليلة موجزة ، ولا يعتقد في نفسه إلا القصور والجهل ، فما يزال يقرأ في الكتب والأسفار ، ويتلقى عمن هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة ، حتى يريش ويهرم ، فهو أبداً في دراسة دائبة ، واختبار متصل . ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية ، وانما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة . وكانت الآداب على اختلافها دروباً متشعبة تنحدر كلها به إلى النفس الانسانية يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك ، ويستعمل النابه ويعني بالضعيف الخامل . أما القصة فما كانت تتلى للتسلي والمفاكهة أو لتزجية الوقت والفراغ ، وهي التي قد تبلغ عشرات المجـــلدات مخطوطة ومطبوعة ، وتلاقي من الرواج والذيوع مايستدعي الدهشـــة والأكبار ! هذا إلى تراجم المؤرخين ، وتأملات الحكماء ، ومواعظ الزهاد والخطباء ، مما يوقظ العاطفة والشعور ويربي ملكة الانتباه والتفكير . وفي حضرة المرأة والطفل الناشيء كانت تثار في غير تحرج ولا تقيـــة أعوص مسائل الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد . وكان العرف الديني والاعتراف الكهنوتي ، وحب الفضيلة يقلق المؤمن ، ويقض مضجعه ، ويضطره إلى مراقبة نفسه وإلى التعبير الدقيق عن خطراته ونياته

ومن ثم كانت النساء اللواتي لم يتعلمن سوى الأدعية والصلوات ، وكان الشبان الذين لم يفقهوا غير المبارزة والرقص — كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً ، ويفكرون تفكيراً صحيحا ، فكانت الكتابة عندهم كالحادثة والحوار ، ينحونهما الجهد والأناة ، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

١٠ – أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ حسن الطويل

المالكى

الامام العلامة ، شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرّد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول ، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلوّ النفس ، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات .

وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن على ، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفيـة ، حوالى سنة ١٢٥٠ كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ أحمد أبى خطوة . وذكر الشيخ بشـير الظافر فى كتابه اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سـنة ١٢٥٦ ، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الـكريم وحفظه بها ، ثم انتقل الى طندتا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث ، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر ، مثل الشيخ محمـد عليش المالـكى فى الفقه والحساب وغيرهما ، وعلى الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ ابراهيم السقاء ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ أحمـد شرف الدين المرصفى ، فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور السعد ، وكان من دأبه فى أول أمره معاكسة المشايخ فى الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات ، حتى حدث مااضطره إلى الأنقطاع عن الأزهر ، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول فى الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشـا والى مصر ، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم

تجنيده بأمر سعيد باشا

وجند مع من جند فصاروا واحداً منهم ، إلا أنه لم يسلك مسلك أكثرهم فى التفريط فى الفروض ، فكان يواظب على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى ، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الـكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم اهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ماوقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سـعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالنمارده ، فغضب مرة على النماردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له ، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية ، وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة ، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر اليه فسافر الى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال المنية أى منية ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق

فراره

ثم طلب الى الجندية مرة ثانيـة فذهب اليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه الى قريته فوجدهم أهملوا طلبه ، فحمد الله وأراد والده ابقاءه معه فى القرية خوفاً من أن يعود الى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج

أما اليوم فالذاكرة الحافظة هى غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون فى المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمـة لا أكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذى ينتهى عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده مااكتسب من العلوم . ذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً ، تعلم كما تدور الآلة من غير وعى ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سىء .
وجملة القول أن التربية الحديثة ، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيئ العاطفة للفن والـكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلا ، فان تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغى العناية بأمرهما والنهوض بهما ما ؟

حمص « سوريا » محمد روحى فيصل

من غير علم أبيه من القرية وهو لا يملك شيئاً ، فمشى على قدميه يبيت فى كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ، ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله ، وذهب الى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقّارىّ فى طريقه ، فلمّا رأى المترجم أسرع اليه وهش له ، وأخبره أنّه يطلبه من مدّة . ثم أنزله بداره وحلف أن يبق بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده ، وكان مراد السقّارىّ نظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له وأخذ السقّارىّ عليها أربعين ديناراً جائزة . ولمّا انقضى الشهر حفّ الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوىّ لتصحيح البخارى ، وكان شرع فى طبعه فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب الى ديوان الجهاديّة لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحا وقال عنـــه هذا جوهرة خفيت عنّا ، واستخدمه فى الحال للتصحيح بهذا الديوان ، وسعى له حتى محَوا اسمه من الجيش حتى لا يعاد طلبه .

ثقافة شاملة

وكان المترجم فى هذه المدة عاد لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهل للتدريس فدرّس بالأزهر ، وكان أول درس قرأه فى شوّال سنة ١٢٨٣ . وابتدأ فيه بالقراءة فى الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقّب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الافغانىّ فتلقّى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقّى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملىّ ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبّر ، وطالع كتب اللغـة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسّل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلّا ويسعى اليـه ، ويتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وقريع دهره ، فى سائر العلوم مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الأنكار على البدع والمستحدثات فى الدين .

مشاهير تلاميذه

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين ، فكان الشيخ الأجلّ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد عبده ، والسيد احمد الشريف ، وابراهيم بك اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى ، ممن قرأ عليه فى الطبقة الأولى من تلاميذه . ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ محمد الغريبى ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعه ، وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربىّ ، والشيخ أحمد الزرقانىّ ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختصّ به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، فكانوا يقرأون عليـــه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل الى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها ، ولما مات الشيخ زين المرصفىّ مفتّشها الأول سنة ١٣٠٠ ، وأقيم بدله الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرّساً بمدرسة دار العـلوم ، فعمّ الانتفاع به ، وتخرّج عليه أحسن من نراهم الآن من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدىّ ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ عبد الوهّاب النجّار وغيرهم من أفاضل الوقت .

وفاته

وبقى فى هذه المدرسة الى سنة ١٣١٧ ، وكانوا شرعوا فى الامتحان قبل الأجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته . ثم ذهب لداره معافىّ ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح . ثم طلب الافطار والقهوة ، وأخذته غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم الا والنعاة ينعونه والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأمّ داره شيخ الأزهر الشريف الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين رحمه الله وغفر له عدد حسناته . ومن غريب المصادفات أنه زارنى قبل وفاته بيومين فى ليلة مقمرة ، فجلسنا فى صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة اجادته فيه ، فقال لى عند ما أراد الذهاب نحن الآن فى الامتحان ، وقد قربت الأجازة ، وصدرى ضيّق فى هذه الأيام من الناس ، ونفسى تجنح للعزلة ، فهل تعرف لى مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت يا سيّدى اذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً الى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلوا

فيها بكتاب نقرؤه ، فقال نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشترك معنا فى القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله الى جواره ويسر له العزلة ، ولكن فى دار قراره ، فاصبت فيه مصيبة لم أصبها فى بعيد ولا قريب ، لما كان له علىّ من الفضل ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفيّة السمحاء لكفى .

الأستاذ يرشد

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه ، فانى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يُتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالاسلام ومحاسنه ، والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات . ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ماعليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها ، وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلى أجد عندهم مفرجا فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فاما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرّوننى منه حتى بالغ بعضهم عامله الله بما يستحق ورماه بالزندقة ، فقلت اذا كنت لم أجد طَلِبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه ، والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسع وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة فى شرح الدوانى على هياكل النور للسهروردى ، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك . ولما رآنى مجدّا فى التحصيل ، قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها ، وأنا فى كلّ هذه المدّة أستوضح منه ما أشكل علىّ فيحلّه لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى ، وكثيراً ما كان يغضب منّى ويؤنّبنى اذا رأى منى تهاوناً فى الصلاة .

وكان من عاداته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحى القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فودة فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر فى بعضها إلى ضيعتنا التى بقويسنا أو إلى حلوان حيثما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه فيقرر لى المسائل ونحن سائران

كان متصوفاً

وكان رحمه سنىّ العقيدة ، صوفىّ المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد أصبع ، آخذاً بمذهب الامام ابن تيمية فى مسئلة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد انكار ، آية من آيات الله فى معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة فى كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات ، وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره فى ذلك عجباً وشأنه فيه مستغرباً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومع انحراف علماء الأزهر عنه لانكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فانهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه فى معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين

أخلاقه وساعيه

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ؛ وتواضع مع كل انسان ، وسذاجة فى المطعم والملبس والمسكن ، لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ويتصدق بالباقى فى الخفاء ؛ فلما مات قام الصراخ فى دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم فى كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به إلا بعد موته .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر فى مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم ؛ ولذلك لما قام المهدى بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، حتى اضطر الانكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله

ولمداومة اشتغاله بالاقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً ، غيرأ ن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع مايلقيه من الدروس ، وكان يدرّس التفسير بمدرسة دار العلوم ، شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه « عنوان البيان » لم يطبع منه غير المقدمة سنة ١٣١٦ ، أى قبل وفاته بسنة

أحمد تيمور

المعلقـــــات

رأى جديد فيها

للأســتاذ عبد المتعال الصعيدى

اختلف علماؤنا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية تلك القصائد لتى جمعها حماد الراوية باسم المعلقات ، وكان حماد أول من جمعها فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر بنى العباس ، وذلك أنه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويراد بالشعر الذى زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلى القديم ، وإلا فان سوق الشعر كانت رائجة فى عهد حماد ، وكان الشعراء المحدثون فى ذلك العهد لايحصون من كثرة ، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويزهدون فيه ويهجرون مذاهبه وأساليبه ، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذى يعد فى رأس الشعراء المحدثين ، وكان من أصدقاء حماد المقربين ، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور ، وترغيب الناس فى حفظه وروايته ، فجمع هذه القصائد لهم ، ولعلها كانت أول ماجمع من هذا الشعر

ويؤخذ من نص الرواية السابقة فى جمع حماد لها أنها لم تكن قبل جمعه لها تعرف بهذا الأسم « المعلقات » وأنها كانت تسمى عقب جمعه لها القصائد المشهورة ، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المشهورات » ولو كانت تسمى قبل جمعه لها باسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المعلقات » فسماها باسمها المعروف ، ولم يعدل عنه إلى ماذكره فى تميزها ، فعدوله إلى ذلك دليل على أنها لم تكن تعرف باسم المعلقات ، بل إن عنايته بجمعها وما عمله فى ذلك من أقوى الأدلة على أنها لم تكن تعرف بهذا الأسم ، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها ، وكانت مجموعة بالفعل فيه ، ولم يكن هناك من حاجة الى جمع حماد لها

فاذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الأسم « المعلقات » لها بعد جمعها ، فلننظر ماجرى للناس معها بعد جمع حماد لها ، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها ، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التى دونت فى العلوم بعد جمعها ، وشغف النـاس بحفظها وتعليق الشروح عليهـا ، ولـكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون ، حتى أتى عليها زمن وهى منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحا ، فشاع لها بين الناس هذا الأسم الجديد « المعلقات » ونسوا به اسمها القـــديم « القصائد المشهورة » ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عنى بفهم هذا الأسم الجديد لها ، ومعرفة سر اطلاقه عليها ، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التى سنبين فيما بعد خطأها

ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد مماعنى به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها ، فان الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه ، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له ، ولاتزال الشروح التى توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات ، وقد جاء فى القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك ، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها ، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر

فهذا إن لم يكن هو الذى وقع فى حدوث هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد بعد جمعها ، فهو فرض قريب يرتاح اليه العقل فى بيان وجه تسميتها بذلك ، وهذا شأن كل الفروض العلمية التى يراد منها تقريب فهم بعض المسائل العلمية من العقول ، إذ تستعصى عليها ، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها . وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التى يذكرها من يذهب الى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات ، ولايذكرها على أنها

فروض يهون الخاطئون فيها ، بل على أنها أمور وقعت وكانت سبباً فى تلك التسمية

قالوا إن الشعراء فى الجاهلية كانوا يقصدون أسواق العرب التى كانو يقيمونها كل سنة بجوار مكة فيتناشدون الأشعار ، وكان ينصب للشاعر فيها ربوة فيصعد اليها ، وتحدق به العيون ، وتشرئب اليه الأعناق ، فينشد قريضه عليهم حتى يأتى على آخره ، فلا يقاطعه أحد ولا يستوقفه ، فاذا ما أحكم القول ، وبلغ من الفصاحة ماوقع اتفاقهم على حسنه وإجادته كتبوه بحروف الذهب على نفيس الديباج وعلقوه على الكعبة المشرفة ، تنويهاً بشأن صاحبه ، وتخليداً لذكره

وممن قال بهذا أو نحوه فى سبب تسمية تلك القصائد بالمعلقات أحمد بن عبد ربه القرطبى صاحب العقد الفريد ، وابن خلدون ، وابن رشيق . قال ابن عبد ربه : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات »

وقال ابن خلدون بعد كلام له فى ذلك « حتى انتهو إلى المباهاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام ، موضع حجهم ، وبيت أبيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع »

وقال ابن رشيق « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم ، فكتبت فى القباطى بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء »

وكان أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ يخالف صاحب العقد ومن تابعه على هذا المذهب فى علة تلك التسمية ، وكان أبو جعفر معاصراً لابن عبـد ربه وهو من علمـاء المشرق ، أما ابن عبد ربه فمن علماء الأندلس والمغرب ، وقد ساح فى بلاد المشرق وسمع من علمائه ، ثم رجع الى بلاده

وقد قال أبو جعفر فى هذا من شرحه على تلك المعلقات « واختلفوا فى جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوا لنا هذه ، وأثبتوها فى خزائنى ، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة »

ولم يذكر أبو جعفر من هو هذا الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزانته ، وقد رجح بعضهم أنه النعمان بن المنذر لأنه هو الذى كان يعنى من ملوك المناذرة بجمع أشعار العرب ، وكان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول ، وقد صار ذلك الديوان أو مابقى منه الى بنى مروان على مارواه أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى فى كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين

ويستند أبو جعفر فى رأيه هذا على ماقيل الى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ويؤخذ من ذلك كله أن تسميتها بالمعلقات عند أبى جعفر يرجع الى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا الى أنها علقت فى الكعبة ، ولست أدرى على أى شىء يستند أبو جعفر فيما ذكر عن حماد فى جمع هذه القصائد ، وهو كما قلنا ينقض تسميتها بالمعلقات قبل جمعه لها ، سواء أكان ذلك للوجه الذى ذكره أم كان للوجه الذى ذكره غيره

ولاشك أن عصر النعمان بن المنذر أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات ، مثل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته ، بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ ، واستحسانه إنشادها ، بل إن سوق عكاظ ، ويكادون يجمعون على أن تلك القصائد كان ينشدها أصحابها فيه ، أحدث بكثير من عهد هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب المعلقات ، فقد أقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وهو العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيت الى مابعد الاسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وفى عهد إنشائها كان جيل امرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة قد انقرض ، أو كاد ينقرض ، وانا نستطيع أن نجزم بأن هذه القصائد السبع لم تقل فى سوق عكاظ ، ولا فى غيره من الأسواق العربية التى كانت معاصرة له ، وقد ذكروا لها أسباباً معروفة قيلت من أجلها ، وأمكنة غير سوق عكاظ أنشدت فيها ، وذكروا لبعضها ملوكاً غير النعمان قيلت أمامه ، ولسنا فى حاجة الى تفصيل هذا كله لشهرته ما؟

عبد المتعال الصعيدى

من شعر الشباب

السحاب

مُزجي الشتاء بخيله و برجْلِهِ   والمنذرُ الدنيا بوشْك إيابِهِ [1]
يَشْجُوك من ماشٍ على لِمَم الرُّبَى   طَرّاقِ أجْوازِ المدى جوّابه
تسعى جنود البرد تحت جناحه   والريح والإعصار حول ركابه
حيث انتحى أرخى مسائح [2] دَجْنِه
وتجلَّلَ الآفاقَ جَوْنُ حجابه
ورمى على شمس الضحى بمسوحه   وطوى محياها دُجى جلبابه
ليس الربيع بمانعٍ رَجَعَاتِهِ   رغم الربيع ورغم وَفْرِ شبابه
فإذا دنا انقبض الفؤاد تطيُّرًا   بقدومه من بعد طول غيابه
وأثار في النفس القنوط وأشفقتْ   . من ثِقْلِ خطوته ومن إبابه [3]
فإذا سرى بردُ القِلال مخالطاً   أجزاءه وانسلَّ في أعصابه
أوْهَى عُرَاهُ وفتَّ في أوصاله   فانصبَّ ملءَ السهل في تسكابه
فَجَّرَتْ عيون الأرض بعد جفافها
وروى نبات الأرض من أكوابه
في كل غابٍ دَاغِنٍ أو غَيْضَةٍ   غَدِقَتْ غَوَادِيهِ وأفرغ ما به
وبكل قاع مُمرعٍ ويفاعةٍ   توقيعُ وكَّافِ النَّدَى صبَّابه
وبكل منحدرٍ تدفُّقَ مَشْرَعٍ   ينساب في إزباده وحبابه
لم يُلْفِ شيئاً ثم يشكو جَدْبَهُ   ظمآنَ إلاَّ لَجَّ في إخصابه
حتى إذا أفنى غزيرَ شؤونه   همياً وأنْفَدَ كلَّ ما بِوِطَابِهِ
وسخا على الوادي اليَنيع بروحه   وعلى ثناياه وبين شعابه
وَلَّى وغادر بعده أسلابه   تزهو بقاع الأرض في أسلابه
تمايد الأعواد في أندائه   طربًا وتَغْدَقُ [4] في نَقيِّ رُضابه

(١) في سياق القصيدة محاكاة لطريقة ترديد المعنى بصدى الألفاظ المتبعة في بعض الأشعار الغربية
(٢) مسائح : ذوائب   (٣) إبابه : مكثه
(٤) تغدق : تبتل بالماء

فأعجبْ لأسودَ ذي يدٍ بيضاءَ لا   ينفكُّ يُسبغ من شهيٍّ رغابه
جهم المحيا لا يُرام لقاؤه   والجودُ والبركاتُ ملءُ إهابه
عَبَسَتْ لغُدْوته الرياضُ فإن مضى
هشَّتْ لفيض يديه بعد ذهابه
وترقرقت في كل روض قُضْبُهُ   مُخْضَلَّةً رَيًّا ببَرْدِ شرابه
وتألَّقت حُمْرُ الزُّهور وصفرها   حَلْيًا ووَشْيًا في اخضرار ثيابه
وسَرَى النسيم مُجَمَّمًا أين انتهى   من زهره الزاهي شذَىً مَلابه

كمبردج   **فخري أبو السعود**

حيرة

إن روحي في الفضا حيرى تحوم   مثل طير ضل عن سرب الطيور
واشتهى الشمس فأخفتها الغيوم   واشتهى الريح فضنت بالمسير
فانثنى تعلو جناحيه الهموم   ودعا يشكو ويبكي في دعاه

* * *

إن روحي ترتقي هذا الفضاء   وهو ليل مظلم رطب فسيح
فيحيط القدس قلبي بالهناء   وأحس الشك في صدري يصيح
وظلام الجو للشك وعاء   وانفساح الأفق للروح صلاه

* * *

هذه شتى انفعالات النفوس   كرياح البحر تأتي عاصفات
جافلات في عَرا قلبي تجوس   دون وعي منه بل دون التفات
اي وعي عند تهتان الكئوس   للذي استعبدت الراح هواه ؟

* * *

ما أرى جرما ولا قبحاً بدا   لم يكن يغمر نفسي بعضه
أو جمالا أو حناناً أو هدى   لم يكن يغمر نفسي فيضه
سكن العيش فؤادي والرّدى   وفؤادي بهما يقضي مناه !

* * *

عقد الكون بنفسي الاتصال   فكأن الكون مني قطعةٌ
وجرى الدهر عليه كخيال   هو مما في جفاني صورةٌ
ما احتياجي للمطايا والرحال !   انني للدهر والكون نواه !

الظلام الوحش حولى لا يريد عن محيا الحق القاء النقاب
فهو يغرينى به كى أستزيد ثم يمهيه أمامى كالسراب
ليتنى ألقى غشاء من حديد دامج الليل على عينى رماه !

***

لست أخشى الحق بل أخشى الوجود
وأخاف الزهر يبكى للنسيم
وأخاف البحر هدار الوعيد وأخاف الطير يشدو كاليتيم
وأخاف الغصن يذوى كالشهيد وتلاشيه المنايا فى صباه

***

اننى أخشى بنفسى الانفراد ثم أخشى الناس أن تُجمعَ بى
كم يصيح الدمع فى ليل الفؤاد كهزيم عاصف مضطربِ !
انما الحيرة فى فهم المراد مثل داء يجهل الطب دواه

***

أنا من شئْ الى شئْ أفرْ حول نفسى مثل مخمور أدورْ
عقرب وسط لهيب مستعرْ لا يرى فيه سبيلا للعبورْ !!
كُتب الهم على لوح القدرْ يوم حار الفهم فى معنى الحياه

***

هتفت عيناى بى تشتكيان قسوة الظلمة : خوفا وعمى
وهما من كل نور تخشيان ما يوارى : حرَقًا أو عـدَما
الحياة النور والنور الأمان والظلام الخوف والخوف الحياه !

***

انظرا هذا شعاع الحق لاح كشهاب يرتقى عرش السماء
كلما جئناه عن قرب أشاح فهو كالشمس التى تطوى الفضاء
يتبع الطفل خطاها فى الصباح علها تقرب... ماجدوى خطاه؟

***

يا شعاع الحق فيماذا الفرار أتُرى لقياك تُعمى بصرى ؟
أنت للقلب ملاذ ومنار فأَنِر قلبى وأطقْ نظرى
إن يكن لابد من حمل الستار لن تضىء العين للقلب عماه .

باريس

حسن عارف

رسالة

رسالة كفتيت المسك عاطرةٌ بكل مايشتهيه القلب من وطرِ
ما إن تناولتُها حتى أحاط بها قلبى ولم يكُ يدرى سرها نظرى
ورفَّ فى جنباتِ الصدر مبتهجًا كالطير عادت اليه الأمُّ بالثمر
و بثَّها الدم فى الأحشاء فانتعشت كالزهرِ جاد رُباه هاطل المطر

***

مُنى الفؤاد الذى انضمت جوانحه على لهيب من الآلام مستعر
أهفو اليك وما أندى على كبدى
من أن أناديك فى الآصال والبُكَرَ
دعنى أُذِعْ بعض ما تخفيه جانحتى
ففى الجوانح حب ثائر الشرر
وأصطفيك بشعر أنت مُلهمهُ عفٍّ عن اللغو والاسفاف والهذر
فمنك أنهل شعرى ثم أبعثه إليكِ عقداً بديع النظم والدُّررِ
أوْلا فإن حيائى منك يمنعنى من أن أبوح بحبٍ عنك مستتر

فريد عين شوكه

زهرة

زهرة فى الروض تزهو فى ثياب المترفين
جلست تستقبل الصبـ ـح على العرش المُكين

***

أُهديت من كل زهر عاطـــــر أنفسُه
وحباها الله خـدًّا ناعمـا ملمسُـه

***

فهى ريحان وور د وهى ريا الياسمين
وهى من مسك وكل الزه ر من ماء وطين

***

زينت زنداً جميلا بسوار الزَّردِ
تعسل الخدين منها بمياه البَرَدِ

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكراه الثانية

حافظ بك ابراهيم

الشاعر الوفى لمصر

بقلم السيد احمد العجان

حافظ شاعر النيل متعدد النواحى فى الدراسات ، متشعب المباحث فى التناول ، والتحليل الدقيق إنما يكشف كل ناحية ويبين كل مبحث ، وليس الألمام بعبقريته ونبوغه وشاعريته وخياله مما تأتى عليه هذه العجالة ، ولـكنا سنقتصر على ناحية واحدة هى وفاؤه للنيل وأهله ، وكيف كان هذا الوفاء دفيناً فى نفسه ، مستقراً فى جنانه العامر ، يتحرك به لسانه فى كل مناسـبة ، ويجرى به قلمه كلما عنت فرصة

والذى نلاحظه فى شعر حافظ هو ما يحملنا على اليقين بصدق وفائه وإخلاصه ، ومحبته لمصر وأهلها ؛ فهو إذا انتقد كان لاذع النقد قويه ، يظهر المثالب ، ويعدد المساوئ ، ويود لو نتخلص منها ، ونحيد عنها . وقد يكون فى النقد المرّ اللاذع شكاً فى الوفاء والأخلاص لو أنه ضن بالنصيحة وبخل بالأرشاد . ولـكن حافظاً حين يهزه الألم من حالة مصر حتى ليود الخلاص من الدنيا ، والفرار من الحياة ، وحين يسخط شديد السخط عليهم ؛ لم يكن لـكراهته لهم ، وبغضه إياهم ، وإنما لأنه يرجو لهم الخير الشامل الغامر ، والرق الدائم السديد ، يحدثنا حافظ عن ذلك بأجلى عبارة وأوضح أسلوب

أنا لولا أن لى من أمتى | خاذلاً ؛ ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتّ فى ساعدها | بغضها الأهل ، وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا | وتفـدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها | تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بهـا | أم بها صرف الليالى لعبا

وممـا يقوى لدينا الأدلة على وفاء حافظ للنيل ، وحبه لهذا الشعب أنه لم يكن يقنع بالتحدث عن الغرض الواحد عدة مرات بهذا الأسلوب العالى الرصين ، كالذى نراه فى وصفه للحالة الداخلية وموقف بعضنا من بعض ، وموقف الصحافة منا ومن الوزارة ، ثم موقفنا من دار المندوب البريطانى ، وبيانه أن طريق الرق هى العلم ، وأنه الوسيلة فى النجاح والظفر ، وهو من وراء ذلك يضع أمله قوياً فى الشباب ، ويكثر من ندائه لهم ، ولا يزال يستنهض الهمم ويضرب المثل باليابان كما سنوضح ذلك من شعره

إن إخلاص المخلص لا يؤدى ثمرته إذا لم تتوفر فيه عناصر ثلاثة : نقد قوى اللهجـة للمثالب حتى يحس المنتقد ضعفه ، ويقف على عيوبه ؛ فيجتنب الغرور ويقترب من الفضـيلة ؛ ونصح سديد الفـكرة تظهر فيه سبل الخير ويبين منه طريق الهدى ؛ كى يسلـكه المنصوح له دون عثار أو ضلالة ؛ وأمل فى الله والشعب كبير رجاء التوفيق وابتغاء الاصلاح .

وهذه العناصر الثلاثة قد ظهرت بوضوح فى شعر حافظ ، وكان لـكل منها مظاهره العدة ، وأثوابه المتنوعة . وسنتناول كلا منها على حدة :

١ — نقده : فى الشعر السابق وصف حافظ ما نحن عليه من كراهة الأهل وحب الغرباء ، وأننا كرماء لضيوفنا ، نهوى الألقاب فى غير العلا ، ونعشق الرتب . ويحدثنا عن حالتنا النفسية بلغة سليمة مستقيمة فنحن :

ألفنــا الخمول ويا ليتنــا | ألفنا الخمول ولم نـكذب
تضيع الحقيقـة ما بيننـا | ويَصْلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحـكيم | ويـكرم فينا الجهول الغبى

ونراه يحدثنا عما هو واقع بيننا من الفخر بالمال الموروث أو بالرتب ، ثم تأخذه حميـة الغضب : فيقول إنما الفخر بالعلم والاختراع ، وبالفضل والأدب :

بَسَمت للشمس لما | سطعت فوق الخميله
وبدت فى الروض تزهو | مثل حسناء جميـله

***

فاسلمى يا زهرة الوا | دى من الأيدى العوادى
وانبذى الماء على الأرْ | ض الى ماء الغوادى

محمد مصطفى حموده

وهل فى مصر مفخرة   سوى الألقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا   بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما   لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلاً   ركيناً واضع الحسب
أرونى نصف مخترع   أرونى ربع محتسب
أرونى نادياً حفلاً   بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم   من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم   من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم   سوى التمويه والكذب

ولقد عاب علينا اعتبارنا للمظاهر ، وانخداعنا بالملابس :

إن قومى تروقهم جدة الثو   ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب   باهر لونه وبين حذاء

وضعف الرجولة داء كمين فى بعض المصريين كشف عنه حافظ ، وأبان طوائف الناس بين مهلل مع المهللين لا يعرف له غرضاً ، وبين ساع إلى دار المندوب البريطانى ، أو متردد على أبواب الحكام

فهذا يلوذ بقصر الأمير   ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير   ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين   على غير قصد ولا مأرب

وداء آخر أشد فتكاً ، وأقوى بطشاً ، وهو الصحف التى تطن طنين الذباب ، وما هى إلا حصائد ألسن تجر إلى الويلات وأنها أيبست ما بيننا فى الأخذ والرد ، فصحف ترى رأى المندوب البريطانى ، وأخرى تعد هذا جرماً وإثماً كبيراً ، والوزارة من وراء ذلك فى رغد ونعيم

وصحف تطن طنين الذباب   وأخرى تشن على الأقرب

وماذا فى صحائفكم   سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت   إلى الويلات والحرب

وأرى الصحائف أيبست   ما بيننا أخذاً ورداً
هذا يرى رأى العميد   وذا يعدّ عليه عدّاً
وأرى الوزارة تجتنى   من مرّ هذا العيش شهدا

ومصابنا الذى يفوق كل مصاب ، وداؤنا الذى يعلو على كل داء ، هو تزلفنا لدار المندوب البريطانى وهو البعيد عنا لغة ، وجنساً ، وديناً ، والأجنبى عنا مهبطاً وميلاداً ، والذى لا نلتقى وإياه إلا فى وادى بؤسنا ودار نعيمه ، والذى لا تجمعنا وإياه آلام ولا آمال . وحافظ يبرئ المندوب من كل ذنب ، ويخليه من الملام فسبيله أن يستبد ، أما نحن فشأننا أن نستعد

وقالوا دخيل عليه العفاء   ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياماً ولما نفق   فشمر للسعى والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا   ونحن على العيش لم ندأب

أنا لا ألوم المستشار (م) إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد (م) وشأننا أن نستعدا

٢ — **نصحه وإرشاده** : ولكن حافظاً لم تفل من عزمه هذه العيوب ، ولم تثن همته تلك المثالب ، ولم تقعد به هذه المخازى عن إسداء النصيحة وحث الهمم ، وضرب اليابان مثلاً ، وجعلها قبلة

فهبوا من مراقدكم   فإن الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان   جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً   وهمنا بابنة العنب

أيجمل من بعد هذا وذاك   بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمة الصفر قد مهدت   لنا النهج فاستبقوا الموردا

ثم نراه لا يرسل النصيحة خلواً من كل سند ، بل يشفعها بتلقين عظمة الآباء ، والأيحاء بعزة الماضى ، ومجد التاريخ ، ويرى أن الزمان قلب ، والفلك دوار ، وأنه لا علينا أن نهزم اليوم إذا كنا نتوثب للغد ، وأن نبتلى فى الحاضر كى نتأهب للمستقبل

فدنياك يا نيل لا تجزعن   إذا اليوم ولى فراقب غدا
فلا يؤسنك قول العداة   وإن كان قيلاً كحز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم   ويمشى لك الغرب مسترفدا
ويقضى عليك قضاة الضلال   طوال الليالى بأن ترقدا

وتراه لا ينسى هذا التلقين والأيحاء والاعتداد بالماضى فى كل مناسبة وفرصة كما فى وداعه لصديقيه محمد بك بدر ، وأحمد بدر عند سفرهما الى بلاد الانجليز

سيرا أيا بدرى سماء العلا   واستقبلا النجم ولا تأفلا
سيرا الى مهد العلوم التى   كانت لنا ثم ازدهاها البلى
وخبرا الغرب وأبناءه   بأننا نحن الرجال الأولى

لئن غدا الدهر بنا مدبرا   لابد للمدبر أن يقبلا

ويختم حافظ نصيحته بالوسيلة الأولى للنجاح والظفر، والتغلب على الصعاب ألا وهى العلم. ويرى أن انشاء الكتاتيب لا يغنى عن العلم الصحيح، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية، أو جامعة منظمة تضم بين جنبيها رجالاً أكفاء يتعهدون الناس بالتعليم، والمداواة، والسهر على الأمن والأرواح، والقضاء فيهم، والاشراف على موارد المياه وتصريفها، ورصد الافلاك والكواكب، والبحث عن بقايا القدماء، ومخلفات الآباء بالحفر والتنقيب

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد   ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا   أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبو الأجير أو الحراث قد بلغا   حد الكتابة فى صحف وفى كتب
من المداوى اذا ما علة عرضت؟
من المدافع عن عرض وعن نشب؟
ومن يروض مياه النيل ان جمحت
وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم؟   حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
. . . .
ومن يميط ستار الجهل ان طمست   معالم القصد بين الشك والريب
فمالكم أيها الأقوام جامعة   ألا بجامعة موصولة السبب

٣ — **رجاؤه فى تحقيق هذه الآمال:** ثم إن حافظا — رحمه الله — كان عامر الفؤاد بالرجاء فى الاصلاح، قوى الايمان بالتوفيق، يود لو هيأ الله لمصر صلاحا وللنيل سعادة. وقد وضع أمله بين يدى الشباب ونابتة العصر، ولا غرو فالشباب أقوى من يحمل الأمانة، ويؤدى الرسالة تحت إرشاد الشيوخ. وموعظة الكهول.

يامصر هل بعد هذا اليأس متسع
يجرى الرجاء به فى كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا   كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكى على بلد سال النضار به   للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه.   كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب

ثم هو فى ندائه للشباب يضع آلام الوطن بين يديه، ويثير عواطفهم لحبه والأخلاص له، بأسلوب أخاذ بمجامع القلب والنفس جميعاً.

وهو رحمه الله حين يأمل الخير للنيل وواديه، ويرجو له أن تحقق آماله وأمانيه، وألا تحلو موارده إلا للمخلصين من بنيه؛ تهيج به الآلام، وتحرك كوامن غيظه ودفين حيرته

متى أرى النيل لا تحلو موارده   لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت   جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها   قرم تردد بين الموت والهرب

هذا حافظ الشاعر الوفى لأهله ووطنه، والمخلص لشعبه وأمته، مر عامان على وفاته، دون أن يذكره شعبه أو يحيى ذكراه؛ لولا أدبه الخالد الذى يأبى الركود ويعشق الحياة

قد أضاعوك غير أن الذى أذ   هرت من عبقرية لا يضيع

فرحمه الله وجزاه باخلاصه، وعوضه عن نكران شعبه حياة أدبه

السيد احمد العجان

من الأدب الهندي

محمـــد اقبال

للدكتور عبـــد الوهاب عزام

قدمت في الرسالة نبذاً من كتاب إقبال الذي سماه « أسرار خودى » فعرف القارىء رأى الشاعر فيما سماه « الذاتية » ورأى كيف ضرب مثلاً من الطائر الظمآن وقطعة الماس ، ومن الفحم والماس .

وفي هذا المقال يرى القارىء كلمتين من الكتاب نفسه : الأولى قصة الشيخ والبرهمن ، ونهر الكنج وجبل هماله ، والثانية « الوقت سيف » . وإذا رأى القارىء غموضاً في بعض الجمل فمرجع هذا أن كثيراً من المعاني والعبارات غير مألوف في العربية ، وأن الشاعر الكبير يعرض آراء من فلسفته الخاصة ، لم تذلل لها اللغة التي كتب بها . وهو يشكو في كلامه عن الوقت من أن الألفاظ تضيق بالمعاني التي يحسها .

وكان أهون عليّ أن أكتب في موضوعات أخرى هي أقرب الى القراء ، لولا أني أود أن أبين جهد الطاقة عن جوانب مجهولة من أدبنا الشرق ، ولاسيما فلسفة شاعر الاسلام الأكبر محمد اقبال

ويرى القارىء أني أحاول بالسجع تدارك بعض مافات من الوزن والقافية .

— ١ —

« قصة الشيخ ، البرهمن ، وحديث كنكا وهماله في بيان أن حياة الأمة تستمر بالمحافظة على سننها »

كان في بنارس برهمند من الكبراء ، غواص في بحر الحياة والفناء . ملك زمام الحكمة ، وشحذ في الطلب الهمة ، متوقد الذهن ، يتحرى الدقائق ، ويحلّق فوق الثريا في طلب الحقائق . أوغل في لوح الجوّ كالعنقاء ، واضطربت الشمس والقمر في شعلة فكره الوضاء . مُنى زماناً بالحرمان والحسرة ، لم تصب كأسه قطرة من الحكمة ، وألقى شبكته في رياض المعرفة ، فلم تر طائر المعنى عين الشبكة ، وأدمى مخالب الفكر المجهود ، ولم يحل عقدة الوجود ، نطقت بعجزه آهاته ، وصورت حيرة قلبه قسماته .

ذهب يوماً الى شيخ عظيم ، ذى قلب سليم ، فأصغى الشيخ لحديثه حتى عرف مكنون صدره ، ثم قال : أيها الطائف في الأفلاك ! اتخذ في الأرض مثواك . اغتربت عن المرج والصحراء فجاز فكرك آفاق السماء . ياطاوى السماء اسكن الى الأرض قليلاً ، ودع حقائق النجوم حيناً . لا أقول لك اهجر أصنامك ، أنت كافر فكن جديراً بزنارك . ياأميناً على التهذيب القديم ، لاتحقر دين آبائك الأولين . فان في الألفة حياة الأمة ، والكفر كذلك من أسباب الألفة . أنت ناقص حتى في الكفر ، فلست أهلاً للطواف في حرم القلب . لقد بعدنا عن جادة التسليم ، بعدتَ عن آذر وبعدتُ عن ابراهيم . قَيْسُنا ليس هائماً بالمحمل ، وهو في جنون العشق لم يكمل (١) ، ماجدوى الخيال الذى يطوى السماء ، إن كان شمع الذاتية الى انطفاء .

قال نهر الكنج يوما لجبل همالة وهو يجرى في سفحه : أيها المتوّج بالبَرد من فجر الخليقة ، والمتخذ زناراً من الأنهار الجارية . جعلك الله نجيّ السماء ، ولكن حرمك التبختر في العراء ، ماغناء هذا الوقار والرسوخ والرفعة ، وقد سلبت رجلك الحياة والحركة؟ الحياة سعي دائم كالموج ، وجوده من الاضطراب المتصل .

فلما سمع الجبل تعيير النهر ، أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يامن اتخذتُ صفحته مرآتي ، وأكننت مثات من مثله في صدري إن هذا التبختر زينة الفناء ، من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء ، قد غفلت عن مقامك ، ونخرت بهلاكك ، ياوليد الفلك الرفيع (٢) ، خير منك الساحل الوضيع ، جعلتِ نفسك قربان المحيط ، ونثرت جوهر روحك لقاطع الطريق ، كن وَرداً في بستانك ، ولا تذهب وراء قاطف الورد لتنثر عبيرك ، ان الحياة أن تنمو في مكانك ، وأن نقطف الورد من بستانك ، خلت القرون وأنا في طينتي ثابت القدم ، وتحسبني الى الغاية لم أتقدم ، كلا قد عظمت حتى بلغت السماء ، واستراحت على سفحي الجوزاء ، وقد ضل وجودك في البحر الخضم ، وصارت ذروتي مسجد الأنجم عيني بأسرار الفلك بصيرة ، وأذني بطيرانه خبيرة ، احترقتُ بنار السعي الدائم ، فجمعت في صدرى الجواهر « في صدرى حجارة وفي الحجارة نار ، ليس للماء سبيل الى هذه النار » (٣) ان كنت

(١) اشارة الى قصة مجنون ليلى
(٢) يعتقد الهنود أن الكنج يأتى من السماء
(٣) اقتباس من شعر مولانا جلال الدين الرومى

قطرة فلا ترق نفسك بيدك ، وجاهد اللجة وحارب اليم لحياتك ، كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء ، أو اسمُ بنفسك وأسرع التسيار ، وكن سحابا يرمى البروق ويمطر البحار ، ليستجدى البحر احسانك ، ويشكو ضيقه بانعامك ، ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويطرح نفسه أمام قدميك .

— ٢ —

أتبع الشاعر الفصل السابق بفصل عنوانه « نصيحة أمير نجاة النقشبندى المعروف ببابا الصحراوى ، التى كتبها لمسلمى الهند »

وهو فصل ممتع بلغ فيه الكاتب من سمو الشعر ، وعظمة النفس مبلغه . ثم أتبعه بكلمة عنوانها « الوقت سيف » وهذه ترجمتها : - .

سقى الله ثرى الشافعى ، كما استقى الناس من فيضه ، لقد اقتطف فكره كوكبا من السماء ، حين سمى الوقت سيفاً ذا مضاء ، ماذا أقول فى سر هذا السيف الذى يفيض بالحياة ماؤه ؟ ان صاحبه فوق الخوف والرجاء ، ويده أنصع من يد الكليم البيضاء ، يلين الحجر لضربته ، وييبس البحر لهيبته ، كان هذا السيف فى يد موسى فعلا أمره على التدبير ، شق صدر بحر القلزم ، فانقلب براً ذلك العيلم ، وكان فى كف حيدر فاتح خيبر ، ذلك السيف العظيم الأثر .

إن البصير يرى دوران السماء ، ويدرك تقلب الليل والنهار فى الفضاء ، انظر يا أسير الأمس والغد ، تر فى قلبك عالما لا يحد ، زرعت بذور الظلام فى طينتك ، وتوهمت الوقت خطاً بجهلك ، ثم قست طول الزمان بمعيار الليل والنهار ، واتخذت هذا الخيط زنارا ، فملت الى الأصنام واتخذت الباطل متجرا ، كنت كيمياء فانقلبت قبضة طين ، وولدت الحق ثم صرت الباطل المهين .

إن تكن مسلماً فتحرر من هذا الزنار ، وكن شمعاً فى محافل الأحرار . لقد جهلت أصل الزمان فجهلت الحياة الخالدة ، يا أسيراً فى الليل والنهار مثواه ، تعرف رمز الوقت من « لى مع الله »[1] كل شىء من سير الوقت ظاهر ، والحياة سر من أسرار الوقت الباهر ، ليس الوقت من دوران الشمس العلية ، هو أبدىّ وهى ليست أبدية ، الوقت هو السرور والغم ، والعيد والمأتم ، وهو سر الضياء ، فى القمر وذُكاء ، قد بسطت الوقت كالمكان ، ثم فرقت بين الأمس والغد فى الحسبان ، يامن جفلت كالشذى من بستانك ، وبنيت سجنك بيدك ! إن وقتنا الذى لا أول له ولا آخر ، ينبت من بستان الضمير الناضر ، الحياة من الدهر والدهر من الحياة ، وقد قال الرسول لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله .

استمع نكتة تضىء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحرّ : العبد ضالّ فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحر ضالّ . العبد ينسج من الأيام كفنه ، ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحرّ يخلع نفسه من الطين ، ثم ينسج على الزمان عزمه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء ، وصدر الحرّ الهمام ، قفس لطائر الأيام ، فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قاتل ، مقامه من الخمود واحد ، وصوته بالليل والنهار راكد . والحر كل حين خلاّق ، يسكب وتره نغمة مجددة فى الآفاق ، فطرته لا تحتمل التكرار ، وليس طريقه حلقة البركار ، العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء والقدر ورد لسانه . وهمة الحر مشيرة على القضاء ، تصوّر يده الحادثات كما تشاء ، الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه .

هذا كلام برىء من الصوت والصدى ، يأبى على الادراك أبدا . أقول ولفظى من المعنى يخجل ، ومعناى من ذلك اللفظ أجلّ ، يموت المعنى الحى فى هذه الحروف الجامدة ، وتخمد ناره بأنفاسك الباردة . ان فى القلب نكتة الغيبة والحضور ، وإن فى القلب رمز الأيام والمرور ، مزهر الوقت ذو نغمة صامتة ، فغُص فى قلبك لتدرك أسراره الخافتة .

نضّر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ، وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوة الحق بين الخلق ، يا من أترعت كأسه الخمر المعتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرقة ، وملأه الكبر والغرور والأثرة ، فعيّرنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك ، زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد ، ينجلى بكل أمل بعيد وروّيت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عُبّاد الحق بيلائنا ، ودوّى العالم بتكبيرنا ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) اشارة الى الحديث الذى يرويه الصوفية « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبى مرسل ولا ملك مقرب » .

العلوم

أصل الأرض وماهية تكوينها

بقـــلم نعيم على راغب

اختلفت الآراء وتضاربت ، ثم كثر الحدس والتخمين فى أصل الأرض من قديم الزمان ، واستمر الحال كذلك الى أن جاء القرن التاسع عشر يحمل معه مخترعات جليـلة الشأن ، عظيمة الفائدة ، نخص منها بالذكر المنظار المقرب أو التلسكوب ، ثم آلات تحليل الطيف الضوئى ، فأمكن تـكوين رأى لايزال حتى الآن غير محكم عن أصل تـكوين الأرض .

وخلاصـة المأخوذ به حتى الآن هو أن الأرض التى نعيش عليها جزء من المجموعة الشمسـية التى تتركب من عدة أجرام سماوية تتوسطها الشمس ، وهى ثمانية كواكب سـيارة Plauets مرتبة حسب قربها من الشمس : (عطارد . الزهرة . الأرض . المريخ . المشترى . زحل . أورانوس . نبتون) . كذلك من ٦٣٥ كوكباً صغيراً سياراً بين المريخ والمشـــترى ، وكذلك التوابع Satelites وهى أجرام سماوية صغيرة تدور حول الـكواكب السيارة (كالقمر بالنسبة الى الأرض) ؛ هذا غير عدد لا يحصى من أجرام سماوية صغيرة اسمها الشهب Meteors تدور على غير هدى .

ونحن اذا رجعنا الآن الى تـكوين الأرض من هذه المجموعة ، وجدنا أن الآراء متفقة على أنها كانت قبل انفصالها عبارة عن كتلة واحدة متماسكة ، ثم انفصلت الى أجزاء صغيرة كانت الأرض أحدها . واليك بيان ذلك :

كانت المجموعة الشمسية فى البـداية سديما ، (وهو جسم يُرى بالعين المجردة كأنه سحابة بيضاء ، ولـكنه فى الحقيقة جسم غازى شديد الحرارة جداً ، له مركز أشـد صلابة ولمعاناً من باقى جسمه ، وهو بيضاوى الشكل) ، انخفضت درجة حرارته بعامل من العوامل فانفصلت أطرافه على شكل حلقات دائرية ، واستمرت بعد عملية الانفصال تدور حوله فى نفس الاتجاه الذى كان يدور فيه ، فتـكونت من هذه الحلقات الـكواكب السيارة ، وكان أولها فى التـكوين أبعدها عن الشمس ، وهو نبتون الواقع على طرف المجموعة الشمسية ؛ وكان آخرها أقربها اليها وهو عطارد . وتعرف هذه النظرية بالنظرية السـديمية Nebuler Theory ، وهى النظرية التى قال بها العالم الفرنسى الشهير Laplas فى أواخر القرن الثامن عشر .

حار العلماء فى تفسير منشأ حرارة السديم ولم يتمكنوا من ايجاد تعليل معقول يستسيغه العقل فسكتوا على مضض حتى تقدم سير نورمان لوكيار Sir Norman Lockyer بنظرية الشهب Theory Meteoric وخلاصتها أن النيازك العديدة التى تسبح فى الفضاء إذا ما تقاربت نشأ عن اتحادها واحتكاكها درجة حرارة تبدأ

وعمرت كعباتٌ من ترابنا . وأنزل الحق كلمة « اقرأ » فينا ، ثم قسم رزقه بأيدينا . فان يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا نحقر ذلك الفقير المحتاج . ان نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين . فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين ِ والله شهيد .

فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن فى قلب الحق سر مكنون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون ، لا نزال نورنا فى الشمس والقمر مصونا ، ولا نزال سـحابنا بالبرق مشحوناً

إن ذات المسلم مرآة الحق ، وإن وجود المسلم من آيات الحق .

عبد الوهاب عزام

قليلة المقدار لكنها تزداد كلما ازداد مقدار تقاربها من بعضها بفعل الجاذبية نحو المركز ، وهكذا إلى أن تصل إلى حد تتحول معه النيازك إلى مادة غازية Gassic . ثم يأتى وقت بعد ذلك تزيد فيه الحرارة المتشععة من الشهب عن الحرارة الناشئة من الاحتكاك فتتكاثف هذه الغازات ثانية . وتأخذ درجة حرارة السديم فى الانخفاض تبعاً لذلك . وتكون أبعد الأماكن عن المركز أولاها فى هذه العملية . ومن هنا نعلم أن أبعد السيارات عن مركز المجموعة أقدمها فى التكوين كما سبق ذكره .

استمرت النظرية السديمية مأخوذاً بها طول القرن التاسع عشر غير أنه كان فيها بعض نقط غامضة احتاجت إلى إيضاح كثير : من ذلك مثلاً أن هذه النيازك التى قيل إنها تكون السديم صغيرة الحجم إلى حد كبير تسير فى الفضاء على غير هدى وبسرعة عظيمة . ومن الصعوبة أن نتصور القوة الجبارة التى سببت اتحادها بعضها ببعض . وبغير هذه القوة لا يمكن بأى حال من الأحوال تفسير النظرية السديمية . ومن الاعتراضات الأخرى التى قامت فى وجه هذه النظرية حقيقة جغرافية ثابتة ، وهى أن توابع كل من أورانوس ونبتون تدور حولها من الشرق إلى الغرب على عكس باقى اجزاء المجموعة الشمسية .

وقد تقدم فى القرن العشرين بعض علماء الانجليز والأمريكان بنظرية عن أصل تكوين الأرض تعرف بنظرية المد Tide Theory خلاصتها أن تكون الكواكب السيارة وغيرها من المجموعة الشمسية قد نشأ عن اقتراب نجم كبير من سديم الشمس فى أوقات مختلفة . فنشأ عن اقترابه أن جذب اليه جزءاً من كتلة السديم انفصل منه بقوة هذه الجاذبية .

ولا تختلف النظرية الأخيرة وهى نظرية المد عن النظرية السديمية فى شئ إلا فى تعليل انفصال الحلقات المكونة للمجموعة الشمسية عن جسم السديم الأصلى .

وهناك اختلاف بيّن بين قولنا هذا وبين من يقول إن الأرض أصلها جزء من الشمس لأن القول الأخير غير صحيح إذ أن الأرض والشمس جزءان من سديم واحد أو كتلة واحدة وليست جزءاً من كل بالنسبة للثانية .

باطن الأرض :

كانت الأرض كما قلنا جزءاً من السديم الشمسى وكانت حرارتها فى البداية شديدة جداً ثم انخفضت وأخذت فى القلة تدريجاً بفعل الاشعاع فبردت قشرتها الظاهرية شيئاً فشيئاً حتى وصلت لحالة الصلابة ، ثم تجمدت هذه القشرة تبعاً لبرودة الأجزاء الباطنية وأخذت فى التقلص فتكونت فيها منخفضات ملأتها الأبخرة المتكاثفة (الماء) وأخذت معالم الحياة تظهر شيئاً فشيئاً وكان آخر هذه المعالم هو الانسان . إلا أن باطن الأرض ظل مرتفع الحرارة . تدل على ذلك ظواهر طبيعية عديدة :

١ — تزيد درجة الحرارة بمعدل درجة واحدة فهرنهيت لكل عمق مقداره ٥٦ قدماً

٢ — سخونة المياه التى تخرج من الينابيع الساخنة . وقد وجد أن درجة حرارة الماء الخارج من نافورات ايسلنده ٢٦١ ف

٣ — خروج المواد منصهرة من البراكين .

ولقد أثارت الظاهرة الأولى اهتمام العلماء وكانت سبباً فى اختلافات كثيرة وقعت بينهم فى القرن التاسع عشر ، لأنه اذا كانت زيادة درجة واحدة فهرنهيت لكل ٥٦ قدماً بعد الخمسين قدماً الأولى صحيحاً واستمرت هذه الزيادة باطراد لوجب أن تكون حرارة الباطن ١٥٠٠ درجة حرارة مئوية على عمق ٢٨ ميلا أو على عمق $\frac{١}{٢٤٢}$ من نصف قطر الأرض . وهذه الدرجة تذوب عندها أشد العناصر صلابة . فوجب على هذه الحال أن يكون سمك القشرة الأرضية Hot Geysers الصغرى غايته ٢٨ ميلا وفيما يلى ذلك يكون الباطن منصهراً .

غير أنه ثبت فى القرن الحالى أن باطن الأرض صلب ، وأن الأرض تتكون من طبقتين متميزتين عن بعضهما :

الأولى : طبقة سطحية تتكون من صخور قليلة الكثافة يطلق عليها اسم Lithosphere

الثانية : طبقة معدنية عظيمة الكثافة تسمى Barryspher وأن الطبقة السطحية تحتوى بالقرب من الظاهرات على جيوب مملوءة بالمواد المنصهرة ، وهى ما تعرف بالحمم Magma ومنها تفيض البراكين عند ثورانها . وهناك أدلة تثبت أن باطن الأرض أصلب منها :

(١) كلما تعمقنا فى باطن الأرض زاد الضغط بنسبة العمق الذى نصل اليه ، ومعنى ذلك أن الطبقات على عمق ١٠٠ متر مثلا تقع تحت ضغط يساوى عمود الهواء وثقل الطبقات التى تعلوها . ولذا فان المواد التى توجد على هذا العمق تحتاج الى درجة حرارة أكثر بكثير من الدرجة التى تنصهر عندها نفس المواد اذا ماوجدت على سطح الأرض .

(٢) لما كانت كثافة الأرض ٥،٦ وكثافة السطح الخارجى ٢،٥ وجب أن تكون كثافة الباطن أعلى من ذلك بكثير حتى يكون الناتج ٥،٦

(٣) تزيد سرعة الموجة الزلزالية عند مرورها فى باطن الأرض عنها على السطح ، فقد لوحظ أنه بينما تسير الموجة بسرعة ١،٨٦ ميلاً فى الثانية على السطح ، فانها تسير بسرعة ٥،٠٥ أميال فى الثانية فى باطن الأرض .

(٤) لو كان باطن الأرض سائلا لوجب أن يتأثر بالمد والجزر ، فيظهر ارتفاع فى القشرة الأرضية من جهة المد ، وانخفاض فى الجهة الأخرى .

(٥) قد ثبت أن النشاط الراديومى Radio Activity محصور فى دائرة ضيقة غاية قطرها ٤٥ ميلاً من السطح الخارجى . ولو كانت الصخور التى دون هذا العمق ، تحتوى على راديوم لازدادت كمية النشاط الراديومى . ولما كانت المواد الحديدية التركيب من المواد القليلة الخالية من هذا النشاط . يثبت لنا من ذلك أن باطن الأرض يتكون من مادة حديدية عظيمة الكثافة ، وهذا يتفق مع النظرية الشهبية التي قال بها السير نورمان لوكيار . كما يتفق مع الحقيقة الثابتة فى النقطة الثالثة .

انتهينا الآن من ماهية باطن الأرض ، وسنبحث فى مقال آخر فى ظواهر حرارة باطن الأرض ، فنتكلم عن البراكين وظواهرها وأسبابها . ثم نبين التضارب الحادث فى تعريفها جغرافياً ، والتغليط العلمى فى شرح ظواهرها وأسبابها م؟

نعيم على راغب

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

من التاريخ

ذكرى زينب

بقلم مهدى الجم الطرابلسى

أقبلت عليه متهادية ، تحمل أذيالها الجوارى السود ، وجلست قربه وقالت بصوتها العذب : عِمْ صباحاً أيها الأمير . فقال : عمى صباحاً أيتها الأميرة . قالت : مالى أراك طويل التأمل ، عميق التفكير ، مؤرق الليل ، محزون النهار ؟ قال : آه يازينب ! كيف لا يأرق العربى ويموت أرقاً ، ويحزن ويذوب حزناً ، إذا استُلب الكرامة ، وفقد الحرية ؟؟

حنانيك يا زينب ! إنى أكاد أموت هماً وكمداً ! إنى أريد أن أستقل استقلالاً تاماً ! إنى أريد أن أملك زمام المشرق والمغرب ! إلى متى أنا خاضع للروم ؟ إنى أخاف هؤلاء اللئام يازينب ، وأرهب غدرهم ، فهم لا يرعون ذمة ، ولا يوفون عهداً ، ولا يصدقون قولاً . إنى أشفق أن يمر بنا حينٌ نذل فيه ، ونُساق للهوان والصغار سوق الابل !

إن الحرية يا زينب لا تُنال بمعاهدة ولا مفاوضة ، بل تنال بالدم ، والدم وحده . ونحن لا جيش لنا ولا عدة ، فمن أين نأتى بالدم ؟ أبالشجاعة وحدها ؟

أفديكِ يازينب ! اهدِنى بنور وجهكِ المشرق ، وحبك إياى ، وإخلاصكِ لى سُبل الحرية !

فقالت حييت أيها الأمير ! هيِّ جيشك ، وحالفْ سابورَ ذا الأكتاف ملك الفرس ، ولأَسِرْ معك نحارب الروم ولا نرجع إلا ظافرين أو مقتولين . فلَلْموتُ فى سبيل الحرية خير مايتصف به العربى ! !

عاد أمير تدمر بعد أيام وقال لزينب : لقد سار ملك الروم بجيش جرار على سابور ملك الفرس ، وخفت أن يظفر به ، فصالحته من بعد ما اتفقت مع سابور عليه . إلا أن الفرس هزموا جمع الروم ، وأسروا مليكهم ، فأشفقت كثيراً أن يسير سابور الينا يطلب الوِتر ، وما أحسبه إلا قاضياً علينا القضاء الأخيرُ !

ولقد أرسلت اليه رسول الاعتذار ، وكتاب الوفاء ، وإعلان السلام ، وهدية المحبة والاخلاص ، فعتا اللئيم عُتواً كبيراً ، فأهان الرسول ، ومزق الكتاب ، ورفض السلام ، ورمى بالهدية ، وتهددنى أمام الوفد الذى أرسلته اليه ، ثم طرده من مجلسه ، وأخشى أن يحقق وعيده ! فهبت زينب تقول : الساعة يلتئم المجلس الحربى ، والساعة يُعلن الحرب على العِلج ، والعِداء على لئيم العجم . . .

وفى تلك الساعة التأم المجلس الحربى التَدْمُرِىُّ ، وبدا من القادة أنهم يترددون فى اعلان الحرب ، لأنهم يعلمون أن سابور ملك عظيم ، تتصدع له الجبال خشية . وانهم لفى ترددهم اذا زينب تبدو على المنبر متلثمة ، ثم تخطب خطاباً بليغاً ، تحرك به العواطف ، وتلهب القلوب ، وتهيج النفوس ، وتهتف قائلة : العربى لا يرضى بالذل والهوان ، وانما يرضى بهما الفرس والرومان ، فهو للعز يموت ، وهما للذل يحييان .

وبعد أيام تكون الجيوش العربية فى طريقها الى الفرس ، يتقدمها أمير تدمر (أذينة) وأميرة تدمر (زينب) الزبّاء .

***

تلاقى الجمعان ، وكانت جولتان ، ثم انهزم الفرس ، وسبى أذينة من قصور سابور الحور والولدان ، وأسر الأحرار والعبدان .

وأُتى بسابور ترهق نفسه ذلة ، ووجهه قترة ، فاعتذر واسترحم ، وذل واستكان ، ودفع الجزية عن يدٍ صاغراً ، وأضحت تدمر جنة البادية بما نُقل اليها من بلاد فارس .

امتلأت نفس أذينة بنشوة الانتصار ، فلم أن بعض الروم عصوا ملكهم وثاروا عليه ، فسار اليهم ورد عصيانهم اياه طاعة ، وثورتهم عليه استكانة ، وعاد مع زينب الى قاعدته بين هتاف ودعاء ، وما انقضت أيام حتى أتى وفد ملك الروم (جاليانُوس) برأسه الأمير (سولڤا) ، ومثلَ بين يدى الملك العربىّ والملكة وشكرهما باسم الملك والامبراطورية الرومانية ، وقدَّمَ اليهما ولاءها وصداقتها . انفتحت أمام أذينة مدارجُ الآمال ، وأمِل السيادة التامة ، والحكم المطلق ، فكتب الى جاليان يسأله إياها وأشياء أخرى تضر بملكه ، فحنق ملك الروم وغضب وأرسل قائده (أورل) بجيش ليحرق تدمرَ ويخربها ، وينيل هذه العقبة الكأداء من طريق مطامعه فى الشرق . فانتهز الفرصة سابورُ فزحف بجيشه الى حاضرة البادية يريد الانتقام ، وكان فى حمص ابن أخٍ لاذينة يلقب بالمعنّى ، وكان يحسد عمه ، ويريد سريرَه ، فلما رأى تألب الأمتينِ عليه قالحان حينه . اقتله وألبس تاجه ، وأرث عرشه .

فأما سابور فهزمته زينب بشجاعتها وبسالتها . وأما الروم فلم يبدأوا الحرب بعد . وأما المعنى فاستأذن أذينة . ودخل عليه بوفد من أتباعه وأنصاره ، فلما اشتد الهجير ، وهدأ القصر ، اغتاله وأعلن نفسه ملكاً على تدمر .

هاجت زينب هياجاً شديداً ، وهتفت بقوادها المخلصين إلى الانتقام ، وأهابت بشعبها إلى الثورة ، وسارت بالجيوش إلى حمص ، ثم حاربت المعني حروباً كثيرة ، وصاولته بنفسها ، وأخيراً أسرته ، وحكمت عليه وعلى من ساعده ولاذ به بالصلب والفصد ، وقالت هذا أقل ما يعاقب به خائن الوطن ، وهكذا استأثرت بسرير تدمر وحدها ، وما أجدر زينب بسرير تدمر ، وما أليق زينب لأعظم ممن مثله .

***

كانت مىّ جميلة رائعة الجمال ، حسناء بارعة الحسن ، وكانت مىّ وفية كريمة شجاعة صبوراً ، وكيف لا تكون كذلك وهى الابنة البكر لزينب ملكة العرب ؟

وكان سولڤا رئيس الوفد أميراً جميلاً فتاناً كريماً ، اعتاقته مىّ اعتلاقاً شديداً ، وشغفت به كثيراً ، ولم يكن ما يضمر لها من الحب بأقل مما تضمر له ، ولطالما اجتمعا وتشاكيا الهوى والجوى . إلا أن سولڤا فارقها إلى روما ليفى عهد الرسالة ، ومىّ تعذبت لفراقه كثيراً ؛ وحنت اليه حنيناً ، وبكت حتى كادت تتلف . وعلمت أمها بأمرها فعذرتها فى نفسها ، لأنها تعرف الحب ودلائله وأفعاله ، وجنونه وفنونه . إلا أن الذى آلمها أن الروم أعداؤها وسيحاربونها ، وما سولڤا إلا رجل من رجالهم ، بل قائد من قوادهم ، فاذا خان وطنه فى سبيل حبه استصغرته ولم ترض أن تصهر إليه ، وإن لم يخن فابنتها مائتة غراماً مافى ذلك شك .

ولقد أقبلت عليها ذات يوم فقالت لها : أىْ مىّ ! أى ابنتى العزيزة ! لقد وكلت إليك ملك تدمر إلى حين ، لما أعهد من حزمك ودرايتك ، وأما أنا فذاهبة لأحارب الروم وأموت ، أو أملك مابين المشرق والمغرب . فتوكلت مىّ راضية مسرورة . إلا أنها بكت لفراق أمها كثيراً ، وتجلدت لفراق سولڤا وتصبرت فما ازدادت إلا حزناً ولوعة .

انقضى شهر ، ثم أتى البشير يعلن انتصار مليكته على الروم ، وأنها أسرت كثيراً من قادة الجيش وضبّاطه ، فأمرت مىّ بسوق الأسرى الى تدمر ، وفى تدمُر أطلت عليهم من الطاق ، فرأت بينهم الأمير سولڤا ، ففرحت كثيراً واندفعت اليهم وحيتهم ، ودعتهم الى قصرها ، وأكرمتهم كثيراً ، لأن سولڤا بينهم ، لا لأنهم قادة ، ولا لأنهم من الروم . وهؤلاء أعجبوا بها وبحنكتها وأخلاقها كثيراً ، وأول من أعجب بها سولڤا . وبعد حينٍ أقبلت زينب فارسةً كمياً ، فزغردت النساء ، وهزجت الأطفال ، وغردت طيور الأمانى . وما انتهت الى قصرها حتى سرّحت الأسرى ، فأعظم الناس كرمَ خلقها ، وهتف العرب والروم وكثير من الفُرس : مرحى زينب الزباء ! مرحى ملكة العرب !

***

لم تقنع زينب باستقلالها التام ، بل أرسلت جيشها فغزا ساحل البحر الأبيض الأسيوى كله ، وأعدت جيشاً آخر لغزو النيل ، وفتح مصر ، فجعلت تدمر مملكية عظيمة يخشى بأسها القياصرةُ والأكاسرةُ . وملك الفرس الجديد « بهزاد » عقد معها معاهدة ليجعل منها ملاذاً وحمىّ ، وخطب مياً من زينب ،

فأقبلت هذه على ابنتها ، وقولت بشراك يخطبك بهزاد ملك الفرس ، فاعترفت لها مىّ بحبها سولڤا وغرامها به . ولكن زينب تريد أن تزوجها ببهزاد لتأمن شره ، فقد يكون له شر . فدعت سولڤا اليها وقالت . أهكذا أيها الأمير تسىء الى من أحسن اليك ؟ قال ماكان لى ذلك أيتها المليكة المعظمة ! قالت نمىَ الى أنك جاسوس لقائدك « أورل » . قال اسمحى لى أيتها المليكة أن أقول لك ، إن مثلى أرفع من أن يكون جاسوساً . انى لا أخفى أنى صديق «أورل» ، وصديق مَلِكى ، وصديق الروم كلهم ، كما أنى أعترف أنى صديق مخلص اليك ، والى ابنتك . فوجمت زينب وقالت أيها الأمير ! لقد وجدتك قائداً شجاعاً ، ووطنياً مخلصاً ، وصديقاً لى أميناً . وسأجعلك القائد الثانى للجيش الذى سأسيّره الى مصر ، لحارِبْ وَعُدْ الى ظافراً منتصراً . فقال سأكون إياه ، وكان إياه .

إلا أن ميّاً خافت أن يُقتل فى هذه الحرب . وعلمت أن أمها لم ترسله إلا لتنجو منه .

وبعد شهور أقبل فارسٌ يقول . إن الجيش العربى قد انتصر ، وعاد الى المعسكر غانماً ، غير أن أمراً أحزن الجيش كله ، هو أن الأمير سولڤا الذى ناضل كثيراً ، وكان سبب النصر والفوز الأكبر ، اختفى بغتة .

ما وصل الخبر الى مىّ حتى صاحت قائلة : آه إنها حيلة مدبرة ! إن سولڤا قد قُتِلَ . ثم انزوت فى حجرتها ، وأنشأت تبكى وتنتحب . ولبثت على حالها أياماً ، لا تأكل ولا تتكلم ، حتى وهنت ووقعت فى سرير المرض . فعالجها الطبيب فشفيت ، إلا أن وجهها الناضر الزاهى أضحى شاحباً حائلاً ، لا رونق فيه ولا حياة .

أقبل رسولٌ بعــد ذلك يقول إن الأمير سولڤا حىٌّ ، وهو يحارب المصريين بعيــداً عن المعسكر . فطار لب مىّ فرحاً ، وكادت تُهوى على يدى الرسول تلثمهما شكراً ، لكنها خلعت عليه خلعة ، ووصلته بالمال والحلى .

عاد القائد العربى «زبدا» بعد أيام يرافقه الأمير سولڤا فاستأذنا على زينب ، ومَثَلا بين يديها فقال « زبدا » أيتها الملكة المعظمة ، إن الأمير سولڤا بطل يجب أن يُفتخر بمثله ، فهو هو الذى هزم المصريين ، وجعل العلم العربى يخفق على ربوع النيل .

* * *

ما زال الروم يسألون زينب أن تعترف بسلطانهم عليها ، وأن تدفع لهم جزية الانتــداب ، وما زالت زينب على شممها وإبائها ، لاتعترف لهم بشىء . وأرسل اليها أورل ذات مرة يقول ، تعترفين بسلطاننا عليك ، وتدفعين الجزية ، أوأحاربك وأخلعك ، وأصلبك ، وأسبى ابنتك ، وأُتَوِّجُ على سريرك زيدَ بنَ المعنّى . فثارت زينب ثورتها ، وغضبت غضبتها ، وجمعت المجلس . وقالت الى الحرب أيها الأبطال ، الى الانتقام أيها الرجال ! إن تدمر العربية لا تستكين أبداً لتطاول الروم أو البربر . . .

وهكذا اضطرمت الحرب ، ورحل الروم القيمون فى تدمر الى وطنهم ، بينهم الأمير سولڤا . ولاقت زينب جيش الروم ورأت أن زيد بن المعنى تحت لوائهم ، فقالت الويل له من عاقبة كعاقبة أبيــه ، وحاربت وناضلت كثيراً ، وشجعت القادة ، وتقدمتهم الى الموت .

غلب الرومُ ، وانهزم جمعهم ، فتبعتهم زينب تريد التنكيل بهم والقضاء عليهم ، فما أحست إلا وفرسان جيشها فى مستنقعات (العُوَيْق) يغالبون الموت والموت يغالبهم ، وما أحست إلا والروم قد طوّق الشاة من جيشها ، واعمل فيهم السيوف ، فجزعت كثيراً ، وخطبت فى سائر جنودها الخطب الحماسية ، فما أفادت ، وما زالت عددها تنفد ، وعددها يقل حتى أوشكت على الهلاك فاستنجدت ملك الفرس قال مىّ ابنتك وأعنيك . فما رأت بداً من التراجع فتراجعت ودخلت تدمرَ محزونة مكتئبة ، وأغلقت الأسوار .

* * *

بينما كانت زينب تحارب الروم جوار (انطاكية) كانت مىّ ابنتها ترسل اليها العدد ، وتدير أمر المملكة ، وأقبل عليها ذات يوم رسول وقال لقد وجدنا الأمير سولڤا يا سيدتى قتيلاً فى سهول حماه . فقالت فى نفسها اذن اهلك معه . وأمرت خادماً لها أن يأتيها بثعبان تتعلم امساكه . ففعل . نخلت بالثعبان وقربت الناب القاتل من الثدى الزاهى وهتفت قائلة : نفسى فداء الأمير سولڤا ، وما كاد الناب يغرز فى الثدى حتى هتفت وقالت : لا لا .

نفسي فداء الوطن . ورمت الثعبان من النافذة . وإنها لتفعل إذا رسول بالباب يقول سيدتى هذه خوذة الأمير سولفا يرسلها اليك وهو جريح نعالجه وسيشفى عن قريب ، فقالت : وافرحتاه ! ووصلت الرسول بما يستحقه .

***

حاصر أورل بجيشه تدمر ، وطال الحصار فملّ ، ونفدت مؤن المدينة ، وتضاغى الناس جوعا ، فجمعت زينب المجلس الحربى ، فلقيها القادة باكين ، فقالت لم البكاء أيها الأبطال ؟ إما الموت ، وإما الحياة !

وصعدت ابنتها مىّ المنبرَ وقالت إن حفيدة السميْدعِ ميّاً لتضحى بنفسها فداء الوطن .

أخرج بكم أيها الأبطال ، من السرداب الخفى الذى يصل تدمر بنهر الفرات . ثم أسير الى ملك الفرس وأعلن له قبول خطبته إياى ، ثم نرجع بجيش وعدةٍ من عنده ، فنكرُّ على الروم ، ونمزقهم شر ممزق ! .

فأكبرت زينب إخلاص ابنتها ، وتفاديها وتضحية حبها فى سبيل الواجب ، وأكبر القوادُ اخلاص أميرتهم وشجاعتها فى تلك الساعة قال زيد بن المغنى لأورل قائدِ الروم : إن بين الفرات يا سيدى وبين المدينة سرداباً خفياً ، ترسل منه زينب رسولها إلى بهزاد ، ليمدها بالرجال والزاد ، قال اذن الليلة تمسكون الرسول ، وتفتحون الأبواب ، وتدخلون المدينة ، وتدكون القصر دكاً دكاً وتثلون العرش ثلاً ثلاً !

وما غشى الليل واختلط ، حتى كانت مىّ متقلدة حمائل سيفها تتقدم القواد فى السرداب ، وتشجعهم . وما أطلت حتى كان زيد يطوقها بجنده ، فأهابت به قائلة الويل لك أيها الخائن ، وأقامت تحارب وتناضل ما تقدر أن تفعل ، وودّت لو تُقتل ولا تؤسر ، إلا أن أورل أقبل بجيشه فأسرها ، وفتح المدينة ، وأسر زينب ، ولكن لم يثل العرش ثلا ، وإنما توّج على سرير تدمر زيداً الخائن .

سيقت زينب وابنتها والقواد الى منزل الذل والهوان ، وحكم أورل على زينب بالصلب ، وفى الساعة التى كادوا ينفذون بها الحكم ، كان قائد جميل رومانى يدفع الجموع بمنكبيه ، ويهيب بالجلاّد قائلاً : رويدك أيها العِلج . ويتقدم الى أورل ، ويركع عند قدميه ، ويقول : أنا صديقك سولفا أناشدك الصداقةَ التى بيننا أن تعفو عن زينب ! إنها بطلة يا سيدى ! إنها لم تحاربك إلا دفاعاً عن حريتها واستقلالها وكرامتها ، فلا تلطخ جبين الدولة الرومانية الناصع بقتل البطلات اللائى يضحين أنفسهن فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ! ! فصرخت زينب قائلة : لا ، لا ، الموت أعذب لى من الحياة بعد الآن ! إن العربية لا تعرف الحياة إلا بالعز ، ولن تعرفها إلا به أبداً ! !

عفا أورل عن زينب وابنتها وأمر بنقلهما معظّمتين الى قصره . وتقدم الأمير سولفا يوماً من مىّ يخطبها فقالت : أنا لا أخفى عليك أيها الأمير أنى أحبك كثيراً ، ولكن لا أقدر أن ألبى طلبك إلا حين أُبعث ؛ وأنا اليوم ميتة ! إن العربيات اللائى دوخن الفرس والروم ، وخفقت رايات نصرهن فى لبنان وربوع النيل ، لا يرضين التزوج بالروم ، ولا يعرفن الحياة والحب إلا مع العز والكرامة والحرية[1] . . .

حماه
مهدى الجم الطرابلسى

(١) لم يعرف التاريخ قط امرأة تشبه زينب بعفتها ، وفضلها ، وكرمها ، وشجاعتها ، وحزمها ، وإدارتها ، وصدقها ، ووفائها . ويمكن ن نقول إن زينب المثل الأعلى للمرأة الكاملة — بالنسبة للعصر الذى وجدت فيه — بل لأعظم من الكاملة . وكمثل الشعار الذى اتخذته زينب لها يجب أن يتخذ سائر نساء العرب شعارهن ! إن زينب فريدة عصرها بل فريدة عصور غيرها . نعم إن هنالك الفتاة الفرنسية جن دارك ، لكنها لا يمكن أن تقاس بزينب على حال ، لأنها لم تبلغ ما بلغت . والذى يؤسف له أن الفرنسيين يقيمون لجانداركهم عيداً كل عام . ونحن العرب إذا ذكرنا زينبنا يوماً فانما نذكر أسطورة بالية ، وخرافة قديمة ! ؟

النقد

شخصية أبي شادي

فى ديوانه « الينبوع »

بقلم الأديب حسن كامل الصيرفي

يمرُّ صدى المطرب أمام جهاز « الراديو » فيطوف فى الأثير بين رياح عاصفة ونسمة هادئة ، ويمتزج فى ضجيج الحياة وجلبتها ويغرق فى صمت البوادى والقفار ، حتى يتلقاه جهاز الاستلام فاذا الصوت ناطق بشخصية صاحبه . . كذلك يمر ذهن الشاعر بمحيط الحياة ، يسمو إلى الأفلاك فلا يسمع منه أهل الأرض إلا همسات ونجوى يستشعرون فيها حناناً وراحة ، ويهبط منها إلى صخب الحياة فيحاول أن يلطف من حدة ذلك الصخب بأنغام قيثارته ، ولكن جمود الحياة يستثيره فيترك القيثارة لحظات تراه فيها صاخباً ثائراً متململاً ، وهو بين سموه عن الحياة وبين اندماجه فيها محتفظ بشخصيته

وهنـاك شعراء يفقدون شخصياتهم فى جولاتهم الواحد منهم كالمهرج عليه رُقع ليس بين ألوانها وحدة وتنـاسب . فالاحتفاظ بالشخصية يرجع إلى مؤهلات الشاعر الفنية ، فالأول يطوف ويقف ويحلق ويهبط ، وهو ينظر إلى العالم كما ينظر المصور إلى اللوحة التى يخط عليها بريشته عارفاً حدودها . أما الآخرون فيسيرون فى طريقهم على غير هدى لم يرسموا لأنفسهم غاية .

وبمقدار احتفاظ الشاعر بشخصيته تكون قوته أو ضعفه ، فلننظر إذاً فى ديوان « الينبوع » ولنبحث عن شخصية أبى شادى ، وعن مدى ظهورها أو تلاشيها . ولقد قرأت هذا الديوان فما كانت شخصية ناظمه تنأى عنى أو تنمحى من أمامى قد يفقد الشاعر فى أثناء حلمه الجميل ذاته ولكنه لن يغيب عن قارئه إذا استطاع أن يمزج روحه بآثاره .

فأبو شادى الذى أعرفه فى حياة الناس شعلة فانية يريد أن يجمع العالم فى يده فيحيله قطعة فنية فى أقصر وقت كما تحيل النظرة الفاتنة دنيا العـاشق لحظة قصيرة العمر مسرعة الخطى يتعجل اقتناص ما وراءها ، هو نفسه أبو شادى الذى عرفته فى حياة الشعر شعلة فانية يشقيها التسامى ويفنيها الكد .

فلأبى شادى شخصية واحدة تظهر دائماً وإن تنوعت ثيابها وتشكلت ، فهو محب للحياة متصوف فى حبه عالى الروح ، يريد الحياة خالصة سامية ، يريدها قطعة فنية ، فهو يحاول تهذيبها ، أو هو يحاول تلوينها بألوان من السعادة تختلف فتبدو للناس عجباً ، وتجتمع عنده فى قرارة نفسه ، فلا يراها إلا وحدة متماسكة الأطراف متساوقة لاتناقض فيها ، ويراها طريقا الى غايته وسبيلاً الى أداء فكرته ، وإنه ليشعر بحيرته بين كل هذا ، ولكنها حيرة الشاعر أمام ربط معانى قصيدته حتى يلم بها فاذاهى آية تؤلف بين أبياتها وحدة تامة فيقول :

عييت من قلق فما وجدت له ... وفى المعانى لكونى أولأحلامى
أسـائل الدهر عنها وهو مضطرب ... مثلى ، وأصحب كالمبهوت أعـوامى
وأنتحى عن وجودى شـبه منعدم ... فى الصمت ، والصمت آمالى وآلامى
فى حيرة وكأنى عالَمٌ يئست ... منه الحياة فعافت روحه الدامى
أبكى وأضحك فى نفسى فان بها ... من التناقض إيسارى وإعدامى
مابين ضدين قدعاشت وليس لها ... من شاغل غير معنى عيشها السامى
تصدَّرت لهموم الناس تسعدهم ... وعوقبت بين أحباب وأخصام

ولقد ظلت غايته ، وهى نشدان المثل الأعلى ، تتبعه كظله حتى أكسبته هذه الشخصية : شخصية الصوفى العالى ؛ فهو أمام الجمال المغرى صوفىّ يحوّل الشهوة الصاخبة فى أعماق جسده فناً يملأ روحه ويغمرها ، ولايرى فى ذلك الجمال إلا روح الوجود وروح الفن كما فى قصيدته « العيون المتكلمة »

ولقد جاهر الكثيرون ممن نقدوا أبا شادى بأن فى قصيدته « الينبوع » التى يقول فيها :

أيها الينبوع كم سـاع إليك ... يدعى بغضاً كما أهوى لديك
كل مايرجوه موقوف عليك ... فاذا الانعام منك وإليك !

أنت سحر غامضٌ للعـالم   أنت ينبـوع الرجاء الدائم
أنت موسيقى الخلود الباسم   أنت ومض للشريد الهائم !
أيها الينبوع يارمز الأبد   ياشعاع الله فى طيف الجسد
كم معانٍ فيك كادت لاتحدّ   وعزاءٍ عن حياة تفتقد !

دعوةً صريحة إلى الشهوة ، وأن ليس فيها نظرة صوفية ، ذلك أن فيها تقديساً للجسد ، وتقديس الجسد ليس من معانى الصوفية عندهم . فهل يرى هؤلاء أن الشهوة حقيرة للدرجة التى لا تسمح للشاعر بأن يتناولها فى فنه مع أنها الدافع الأول الى خلق مواهب الفنانين ، وليست العبقريات إلا شهوة تجمعت فى عدسة عين صوفية فتطهرت واستحالت سمواً . ومن منا ينكر أن هناك مثّالين عبدوا تماثيلهم وفتنوا بها بعد أن كانت فتنتهم وقفاً على المثال ، وهل عيب عليهم تصويرهم جسد امرأة عارية تحمل معني من معانى القداسة يراها المثّال ويراها كل من مسته يد الفن وإن خفيت على بعض الناس .

إن الفنان عند ما يتكلم عن الأجساد أو يصفها لا تكون لديه إلا فكرة واحدة هى تقديس الجمال ، وهذا هو ما عناه الدكتور أبوشادى فى قصائده عن الجمال والحب ، وما عبر عنه بقوله :

عبثى هو الفن الجميل ، وروحه   روح السموّ وإن يعد ضلالا

***

يعيش أبو شادى فى بيئة ظالمة جاحدة ، تحيط به خصومات وأحقاد وأعداء مناوئون ، وقصيدته « المهزلة » التى صور فيها هذه البيئة تصويراً بديعاً سكب فيه من شعوره ما يتدفق حاراً ، من أقوى الشعر الاجتماعى العاطفى . وفيها يقول :

ويلى من الدهر! يبكيني ويبتسمُ   ولا يرد عوادى جَورِهِ السقمُ
قد عدّ شر ذنوبى ما يفيض به   قلبى الى الناس من حب ويزدحم
ويلى من الدهر! ويلى! مَن أقرّ له   هذا العتوّ ؟ وهل فى الحب متهمُ
أطلّ دمعى وماء العين مضطرم
وهاج وجدى وسخط القلب محتدمُ
أنا الذى فى شكاتى يزأر الشمم   وفى بكائى ونارى يهزم الألمُ
سخرت من بيئتى لما برمت بها   ونُحتُ لكن نواحى كله كرمُ .
لست الذى إن تغالى فى محبته   فساءه الدهر عمراً ناله الندم

وهو إذ يصور لنا البيئة المصرية — وكم له من صور عنها ! منها الحزينة الهادئة والصارخة الملتهبة والمتهكمة اللاذعة ! — وينغمس فى مناقشات ومجادلات لا يفقد شخصيته البارزة ، تلك الشخصية الصوفية الزاهدة فيقول :

وعشتُ فى وحدتى الموفورَ فى شرفى
أبكى وأضحك والاحداث تلتطمُ

ولقد جمع ديوان « الينبوع » صوراً شتى لصوفية أبى شادى الغالبة عليه منها هذه الأبيات من قصيدة « غليون الشاعر »

أشعلُ الغليون من نا   رى وحيداً فى الظلامِ
ناظراً نحـو سماء   فى ضرام كضرامى
خبـأتها غـير لمعٍ   فى نجوم كابتسامى
حرقة الدنيا أطلت   من ثقـوب فى الغمام
كل ما فيهـا جميل   هو قلب فى اضطرام
وكأن الخالق الفنـ   ـان يشقى بالتسامى

وهذه الأبيات من قصيدة « وداع الشاطىء فى الاسكندرية » هى لوعة الفنان العازف بين الصخور الصمّاء :

إيه ياقلب تأمـل   هذه دنيا الصراعِ
يبـدع الفنان لـكن   هو كالنور المشاعِ
خاسر مهما تفـانى   فى وفاءٍ وابتـداع

وفى قصيدته « عيش الألوهة » صفحة ٦٣ نزوع قوى الى التغلغل فى أعماق كل ألوان الجمال ، ليعيش فى لبه وصميمه عيشة الألوهة ، بعيداً عن أذى الحياة فى حلم من أحلام الجنة . ولقد تلعب ريشته وترقص ، فترسم لنا أخيلة لتلك السعادة التى يحكم بها فى هدوئه وتصوفه

فأبو شادى ذلك الانسان الدائم الحركة ، الموزّع الجهود ، المختلف الصور ، المتناقض السبل ، رجل يحمل فى طياته شخصية واحدة تظهر فى شعره دائماً أتم الظهور ، وفى قصيدته « بعد الكفاح » التى يتكلم فيها عن القطن المكدس بعد جنيه ، فيعطينا منه فكرة ، هى تلك الفكرة التى تشغل باله ، والتى تشرق وتغرب فيها شخصيته ، فيقول :

هذى بقايا القطن ترقد فى الثرى   كجنود حرب بعد طول كفاحِ
صرعى مجندلة ، ولـكن بعدما   ضحّت بأجمل نورها الوضاحِ
حتى النبات يرى الضحية واجباً   ومُنى فليس يضنُّ بالأرواح

هذه الشخصية التى تجلت لى فى مطالعة « الينبوع » شخصية أبى شادى التى تلابس شعره هى بنفسها التى طالعتني وتجلت لى يوم قرأت دواوينه السابقة ، وهى هى بنفسها التى يعيش بها بين الناس ، فليس من الحق أن ننكر على شعرائنا ثبات شخصياتهم فى شعرهم إلا اذا دققنا واندمجنا فى روح الشاعر ؟!

حسن كامل الصيرفى

2 me Année, No. 57.

Lundi-6-8-1934

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٦ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

حول باخرتنا « النيل »

بيننا وبين الأجانب

لمصر ماض بحرى مجيد يرجع الى عهد الفراعنة ، وكان لمصر أساطيل حربية وتجارية تشق عباب البحر الأبيض ، ليس عهدنا بها بأبعد من قرن ، ولو لم تتألب أوربا النصرانية على مصر المسلمة في نافارين ، ولو لم تصب مصر بعد ذلك بما أصيبت به من المحن السياسية التي هدت من إرادتها وحريتها ، لكان لها اليوم أسطول يحمى ثغورها ، وكانت لها سفن تجوب البحار وتأخذ بنصيبها من حركة النقل والتجارة . فلما أتيح لمصر الناهضة أخيراً أن تبدأ بغزو الميدان الاقتصادى ، اتجهت الأماني والجهود الى إحياء الملاحة التجارية المصرية ؛ ووفق بنك مصر — أمتن وأعز صروحنا الاقتصادية — الى وضع الدعامة الأولى في سبيل تحقيق هذه الأمنية ، فاقتنى باخرتين كبيرتين هما « زمزم » و « النيل » ؛ وأدت « زمزم » في موسم الحج الماضى للحجيج من مختلف الأمم الاسلامية أجلّ الخدمات ؛ وخصصت « النيل » لقطع البحر الأبيض والسفر بين الاسكندرية ومرسيليا ، وقامت الى اليوم بأربع رحلات موفقة ؛ وأثارت بحسن استعدادها وفخامتها ودقة

نظامها ، واعتدال أجورها إعجاب كل من شهدها أو سافر على ظهرها من المصريين والأجانب ؛ واغتبط المصريون أيما اغتباط إذ أصبحوا يستطيعون السفر على ظهر باخرة مصرية فخمة ، تسيرها وتستثمرها أموال ومصالح مصرية ، ويشعرون أثناء السفر عليها أنهم بين أهلهم وذويهم .

بدأت مصر إذن بغزو ميدان اقتصادى جديد كان حتى اليوم وقفاً على الأجانب ، هو ميدان الملاحة البحرية ؛ ومن قبل غزت مصر — خلال الأعوام الاثنى عشر الأخيرة على يد بنك مصر وشركاته — مختلف الميادين والأعمال الاقتصادية والصناعيـة ؛ ونمت هذه المؤسسات وأزهرت ، تحفها عناية الله ، وإخلاص القائمين بأمرها وعطف الأمة كلها ، حتى غدت ركناً هاماً فى حياة البـــلاد الاقتصادية التى كانت من قبل كلها غنماً للمصالح والأيدى الأجنبية ؛ وبثت هذه الحركة المباركة فى الأمة روح الاهتمام بالمشاريع الاقتصادية والثقة فيها ؛ وأخذت المصالح الأجنبية التى غصت بنجاحها تنظر الى المستقبل بعين الخوف والجزع ؛ وتلتمس لمحاربتها مختلف الوسائل والدعوات . وآخر ما أذيع عن جهودها فى هذا السبيل موقفها من شركة الملاحة المصرية ، ومن باخرتها « النيل » ، فقـد عرف أن بعض الجهات التى تخشى أن تتأثر مصالحها بجهود الشركة الجديدة تبث ضد « النيل » دعوة سيئة ، وتحث الأجانب على مقاطعتها ، وتشترك بعض وكالات السياحة فى هذه الخصومة فتأبى نشر « النيـل » فى قوائمها ، وتأبى التعريف عنها وعن أجورها أو مواعيدها ؛ وهذه خصومة غريبة فى الواقع ؛ أولاً لأن شركة الملاحة المصرية تدخل ميدان المنافسة المشروعة عزلاء من كل حماية خاصة ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومؤازرة مواطنيها ؛ وثانياً لأنها أنشئت لخدمة مصر والمصريين قبل كل شىء ، والمصريون لا يمكن أن تحولهم أية دعوة عن مؤازرة شركتهم وباخرتهم ؛ وثالثاً لأن هذه الدعوة فى ذاتها غير صحيحة ، إذ الواقع أن النيـــل من أفخم بواخر البحر الأبيض وأحسنها استعداداً ، هذا فضـلاً عن اعتدال أجورها ومصرية جوها ومحيطها .

***

على أن هذا التحرش من جانب المصالح الأجنبيــة بالجهود المصرية المشروعة لا يمكن أن يضر هذه الجهود ، وإنما يرتد أثره بالعكس الى المصالح الأجنبية ذاتها . فقد طال عهـد مصر بعسف هذه المصالح التى تحميها الامتيازات الأجنبية الباغيـة ؛ وقد عرفت مصر التى تطمح الى استكمال حرياتها السياسية أن التحرير الاقتصادى دعامة قوية فى هذا السبيل ؛ وعرفت المصالح الأجنبية أن هذه الامتيازات التى تتمسك دائماً بسلطانها وحمايتها لا يمكن أن تحقق لها ما تريد من عطف الشعب الذى تعمل بينه ، لأن عطف الشعوب لا يكسب بالقوة والعنف ، وعرفت من جهة أخرى أن هذا العطف ينثال على كل مشروع مصرى خطـير ، ورأت أخيراً أن مصر تغزو الميدان الاقتصادى الذى احتكرته عصرا ، بقوة ونجاح ؛ فهذه العوامل كلها تجعل المستقبل مظلماً فى وجه المصالح الأجنبية ، وتحملها على أن تقف أمثال هذه المواقف التى لا تعرب عن فطنة ولا كياسة من مصالح بلد مازالت تستغل كرمه ورعايته وضعفه .

إن فى هذا الموقف وأمثاله لعبرة جديدة لمصر والمصريين . وفى وسع مصر دائماً — فى مثل هذه الظروف على الأقل — أن تقابل هذه الخصومة بمثلها ؛ فالمصريون الذين يسافرون على البواخر الأجنبيـــة ألوف وألوف ؛ ولن تتأثر شركة الملاحة المصرية و « النيل » بهذه الدعاية الوضيعة ؛ ولـكن الشركات الأجنبيـة يمكن أن تتـكبد خسائر فادحة يوم يقاطعها المصريون بحق ، ويؤثرون عليها « النيل » وغيرها من البواخر التى نرجو أن تقتنيها مصر فى أمد غير بعيد .

فلتسر شركة الملاحة المصرية ، ولتسر كل شركاتنا المصرية فى طريقها محفوفة بالرعاية القوميـــة الشاملة ، فان هذا العدوان لن يضيرها فى شىء ، ولـكنه بالعـكس يكسبها عطفاً جديداً ، ويمدها بروح جديد لمتابعة العمل المجيـد الذى تقوم به فى سبيل مصر ؟

« ع »

فى اللهب ولا تحترق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أفى الممكن هذا ؟

لعوب حَسَنة الدَّلّ ، مفاكِهة مداعِبة ، تحيى ليلها راقصة مغنية ؛ حتى اذا اعتدل الليل ليمضى ، وانتبه الفجر ليقبل — انكفأت الى دارها فنَضت وَشْيها ، وخرجت من زينتها ، وخلعت روحاً ولبست روحاً ، وقالت : اللهم إليك ، ولبَّيك اللهم لبَّيك . ثم ذهبت فتوضأت وأفاضت النور عليها ، وقامت بين يدى ربها تصلى . . . . !

***

هى حسناء فاتنة ، لو سطع نور القمر من شىء فى الأرض لسطع من وجهها . وما تَراها فى يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت ، حتى لتظن أن الشمس تزيد وجهها فى كل نهار شعاعةً ساحرة ، وأن كل فجر يترك لها فى الصبح بريقاً و نَضرة من قطرات الندى .

وتحسب أن لها دماً يَطْعم فيما يَطعم أنوار الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسماتِ الليل .

وإذا كانت فى وَشْيها وتطاريفها وأصباغها وحلاها لم تجدها امرأة ، ولكن جمرة فى صورة امرأة ؛ فلها نور وبَصيص ولهب ، وفيها طبيعة الاحراق . . . . إن الذى وضع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهبة — وضع على جمالها خاتَمَ قرص الشمس

فاذا رأيتها بتلك الزينة فى رقصها و تَثنّيها — قلتَ : هذه روضة مُفْتَتِنَّة اشتهت أن تكون امرأة فكانت ، وهذا الرقص هو فنُّ النسيم على أعضائها .

وهى متى نفذتْ الى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت فى نفسك الربيعَ ساعة أو بعض ساعة .

وتنسجم أنغام الموسيقى فى رشاقتها نغْمة الى حركة ؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامتة تُسمع و تُرى فى وقت معاً وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى ، لتخرج لك بظرفها صراحةَ الفن من إبهامين كلاهما يعاون الآخر .

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواقَ الحياة وأفراحها وأحزانَها ، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسمِ المرأة .

وكأن الليل والنهار فى قلبها ، فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة .

وهى إلى القِصر ، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامها حسبتها طالت لساعتها .

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فاذا هى رابية كأن بعضها كان مختبئاً فى بعض .

ويخيل إليك أحياناً فى فن من فنون رقصها أن جسمها يتثاءب برعشة من الطرب ، فاذا جسمك يهتزّ بجواب هذه الرّعشة لا يملك إلا أن يتثاءب . . . .

ويُجنّ رقصها أحياناً ، ولكن لتحقّق بجنونِ الحركةَ أن العقل الموسيقىّ يُصرّف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفن فى تأوّدِها ولفتها ونظرتها وابتسامها وضحكها — ففى وجهها دائماً علامة وقور عابسة تقول للناس : افهمونى .

***

ولما رأيتها شهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها متحرّزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن ، يبسط الأمنَ والسلامة على ظاهرها ؛ وأن لها عيناً عذراء لا تحاول التعبير ، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما ؛ وأن قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها ، فيكون ما فى جمالها شيئاً غير ما فى النساء — شيئاً عبقرياً بالغَ القوة ، يكفّ الدواعى ويحسم الخواطر ، ويُرغم الاعجاب أن يكون ذهولاً وحيرة ، ويُكرِه الحبَّ أن يرجع مهابة واحتشاماً .

والرواية كلها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهها إلا الشاشة البيضاء لهذه «السيما» ، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب أو الفكر ؟

وعندى أن المرأة اذا كان لها رأى دينى ترجع اليه ، وكان أمرها مجتمعاً فى هذا الرأى ، وكانت أخلاقها محشودة له ، متحفلة به — فتلك هى الياقوتة التى ترمى فى اللهب ولا تحترق ، وتظل

مع كل تجربة على أول مُجاهدَتِها ، إذ يكون لها فى طبيعة تركيبها الياقوتىّ ما تهزم به طبيعة التركيب النارىّ .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتيــة ، هى فطرتها الدينية التى فيها ؛ إن بقيتْ لها هذه بقيت معها تلك ، ولـكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعة معاً ، فيجعل الله عِقابها فى عملها ، ويَكِلها الى نفسها ؛ فاذا هى مقبلة على أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية إن كانت عالمة ، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة . وما بُدٌّ أن تَستسرَّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة الى الفساد ؛ ويرجع ضميرها الخالى محاولاً أن يمتلئَ من ظاهرها ، بعــد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها ؛ وتصبح المرأة بعد ذلك فى حكم أسباب حياتها ، مُصرَّفة بهذه الأسباب ، خاضعة لمـا يُصرّفها ؛ ويذهب الدّين وينزل فى مكانه الشيطان ؛ ويزول الاستقرار ويحل فى محله الاضطراب ؛ وتنطفئُ الأشعة التى كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم ، فاذا الغيوم ملتفّ بعضها على بعض ؛ وتخذَل القوة السامية التى كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال ، فاذا المرأة من الضعف الى تهافت ، تغلبها الكلمة الرقيقة ، وتَغترُّها الحيلةُ الواهنة ، وتوافق انخداعها كلُّ رغبة مزيَّنة ، ويستذلها طمعها قبل أن يستذلها الطامع فيها . ولتكن بعــد ذلك مَن هى كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفة ، فلو أنها امرأة من « الاسمنت المسلح » لتفتتت بالطبيعة التى فى داخلها ، ما دامت الطبيعة متوجهة الى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تهدِم وأن تنهدم .

لقد رقّ الدين فى نسائنا ورجالنا . فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمة « حرام ، وحلال » قد تحولت عنــد أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلت عنــد كثير من الشبان والفتيات الى « معاقب عليــه قانوناً ، ومباح قانوناً ... » ثم انحطت آخراً عند السواد والدهماء إلى « ممكن ، وغير ممكن ... »

***

قلت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت فى نفسى أن الصلاة لا تصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكر نفسه طاهراً يصلّى لله مع الجسم ، فان كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرءُ من روح الصلاة إلا بعدا . وقَرَّ هذا فى نفسى واعتدته ، إذ كنت أتعبّد على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، فأصحّح الفكر ، وأستحضر النية فى قلبى ، وأنحصر بكلّى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرج منها ثم يعود اليها ؛ ونشأت فيه القوة المصمِّمة التى تجعله قادراً على أن ينصرف بى عما يفسد روح الصلاة فى نفسى ، وهى سر الدين وعماده .

ويا لها حكمةً أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً إما متصــلة أو مهيَّأة لتتصل . ولن يَعجز أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملك نفسه بضع ساعات ، متى هو أقرّ اليقين فى نفسه ، أنه متوجه بعدها الى ربه ، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو اذا ملك نفسه الى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها فى عمرٍ على صيغة واحدة لا يتبدّل ولا يتغيّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملٌ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيت أبى يصلى ، وكذلك رأيت أمى ، فلا تكاد تُلِمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى فأكره أن أستأثم اليهما فأكون الفاسدة وهما الصالحان ، واللئيمة وهما الكريمان ؛ فدمى نفسه ببركة الدين يحرسنى كما ترى .

قلت : فهذا الرقص . . . ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِى علىّ أن أكون راقصة ، وأن ألتمس العيش من أسهل ثلاث طرق ، وألْيَنها وأبعدها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهِرها . أريد : الرقص ، أو الخدمة فى بيت ، أو العمل فى السوق . وأنا مُطيقة لحريتى فى الأولى ، ولـكنى لن أملـكها فى الأخيرتين مادام عَلَىّ هذا الميسم من الحسن ؛ وكم من امرأة متحجِّبة وهى عارية الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجبة . إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه ، وليس السؤالُ ما سألت ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ما ترى هو فى ثيابى فقط ، أو هو فى ثيابى ونفسى ؟

ها أنت ذا تُتغَلْغِل نظرتك فى عينىّ إلى المعانى البعيدة ، فهل ترى عينى راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينَىْ راقصة ، ولكنْ عينَى مجاهد فى سبيل الله . . ! فاستضحكتْ وقالت : بل قل : عينَى مجاهد يهزم كل يوم شيطاناً أو شياطين .

إنى لأرقص وأغنّى ، ولكن أندرى ما الذى يُحرِزُنى من العاقبة ، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريض النفس ؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ، ولا بروح المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيعين اليها ؛ فهيهات بَعْد ذلك هيهات ! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملا فنياً على ملأٍ من الأساتذة الممتحِنين ، والنظّارة يحكمون لها أو عليها ؛ فهى فى فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا . . .

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعهم يخطىء فى طريقة تناوله السيّال الكهربائى المنبعث من نفسى ، ولكن لا عَلَىّ ، فهذا السيال نفسه ينبعث مثله من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لانسان فيها ذكريات قديمة ، أو نبّهت بيعض معانيها بعضَ معانيه .

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ اضطرب وجوهاً من الاضطراب فى جذب الناس ودفعهم معاً . واذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها سلمت من أن يغلبها الرجل على فضيلتها . وفى النساء حواس مغناطيسية كاشفة منبّهة خلقت فيهن كالوقاية الطبيعية ، لتسلم بها المرأة من أن تُخطِرَ عفتها لغرض ، أو تُغرِّر بنفسها لانسان ؛ فانك لتكلم المرأة ، وتزيّن لها ما تزيّن ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفك يَشِفُّ ويفضح ، لا فى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يُبطل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعها المادىّ فى المال والمتاع والزينة ؛ فان هذا الطمع هو القوة التى يغلب بها الرجلُ المرأة ، فبنفسها غَلَبَها : واذا تبذّلَ طمعُ امرأة فى رجل فهى مومس ، وإن كانت عذراء فى خدرها .

ويا عجبا ! إن وجود الطبيعة فى النفس غير الشعور بها ؛ فليس يشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة . فكأن الحكمة قد وَفّتها وعرّضتها فى وقت معا ، لتكون هى الواقية أو المخطِرَةَ لنفسها . فبعملها تجزى ، ومن عملها ما تضحك وتَبكى .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمع فى شىء من أشياء الناس ، وسَخوْت عن كل ما فى أيديهم ؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى . وحسبى أن يبقى لعينى قلبى ضوؤهما المبصر . وأنا أعتمد على شهامة الرجل ، فان لم أجدها علمتُ أنى بازاء حيوان انسانى . فتحذّره حذرى من مصيبةٍ مقبلة . واذا جاءنى وقح خَلق الله وجهه الحسن مسبةً له ، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح ، ذكرت أنى بعد ساعة أو ساعات أقوم الى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعدا وإن كان بازائى ، فأغلظ له وأتسخط ، وأظهر الغضب وأصفعه صفعتى .

قلت : وما صفعتكِ ؟

قالت : إنها صفعة لا تضرب الوجه ولكن تخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة : أما تعرف ياسيدى أنى أصلى وأقول « الله أكبر » فهل أنت أكبر . . . ؟ أأقيم لك البرهان على صَغارك وحقارتك ، أأنادى الشرطى . . . ؟ !

***

تختنق بالرقص وتنتعش بالصلاة . وفى كل يوم تختنق وتنتعش . ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى الترادف شرعاً : رَقصتْ وصلت . . . ؟

مصطفى صادق الرافعى

أزمة الكتاب

ومصير الكتب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن التاسع عشر عصر الآلات والاختراعات الصناعية ، فحلت الآلة مكان اليد العاملة فى معظم الصناعات ، وحرم ملايين العمال من العمل اليدوى ، وساد البؤس فى الطبقات العاملة ، واستمر هذا التطور طوال النصف الأخير من القرن الماضى حتى استقرت الصناعة أخيراً على قواعدها الجديدة ، وتهيأت الطبقات العاملة للعمل فى الظروف الجديدة ، وحل العمل الفنى والآلى مكان العمل اليدوى .

واليوم نشهد انقلابا عظيما آخر فى مصاير الانتاج العقلى ؛ فقد كان « الكتاب » حتى أوائل هذا القرن أهم وأنفس غذاء عقلى للطبقات المثقفة ، وكانت قراءة الكتب المختارة أسمى وأمتع وسائل التربية والتهذيب والرياضة العقلية ، ولكن التطورات العلمية والأدبية والاجتماعية التى حدثت منذ الحرب الكبرى كان لها أثر كبير فى تطور الذوق الأدبى أو بعبارة أخرى فى قيمة الكتب وفى مركز القراءة وميول القراء . وليس من ريب فى أن الكتاب قد فقد اليوم كثيراً من سحره وقيمته المادية والاجتماعية ، وقل الاقبال كثيراً على اقتنائه وقراءته ، ولكن ذلك لا يعنى أن منسوب القراءة قد هبط ، فالقراءة بالعكس قد كسبت من هذا التطور بصفة عامة ، وزاد منسوبها بلا ريب تبعاً لازدياد نسبة المتعلمين فى مختلف الأمم ؛ واذا كان الذوق الأدبى قد تطور وخسر الكتاب القيم كثيراً من قرائه ، فان أولئك القراء تحولوا الى ألوان جديدة من الأدب الخفيف والى قراءة الصحف والمجلات . والواقع أن الصحافة أول وأقوى العوامل الجديدة التى أثرت فى مركز الكتاب ومدى انتشاره . ففى ربع القرن الأخير تقدمت الصحافة تقدما عظيما ، وغزت كل ميادين التفكير والعلوم والفنون ، ولم تبق دوريات خبرية فقط ؛ ومعظم الصحف اليومية السياسية ، فى جميع الأمم ، تخصص للأدب والنقد والعلوم والفنون والمسرح والاقتصاد والمالية والرياضة صحفاً خاصة حافلة بمختلف البحوث والشذور القيمة ، هذا عدا القصة الصغيرة اليومية ، وعدا الرواية المسلسلة ، وعدا الصور الكثيرة ؛ ثم هنالك المجلات الأدبية والعلمية ، الأسبوعية والشهرية ، وقد بلغت مدى عظيما من التقدم والذيوع ، وأضحت مسرحا لأعظم الأقلام ، ومعرضاً لمختلف البحوث وأهمها . وتمتاز المجلة على الكتاب بتنوع مادتها ، فهى تجمع بين الفصول الأدبية والعلمية والسياسية ، والقصة والمسرح والأزياء ، ويكاد كل عدد منها يكون كتابا مستقلا بذاته ، وهى دائما متنوعة متجددة ترضى مختلف القراء والأذواق بأكثر مما يرضى الكتاب الموحد الفكرة والموضوع ، والصحافة الأدبية هى بلا ريب أشد خصوم الكتاب ومنافسيه ، وأشدها تأثيراً فى مركزه ومدى انتشاره ، لأنها تبدو فى بعض ألوان من الكتاب ، وتأخذ بالسهل الموجز منها ، حتى انك لترى أحياناً موضوعات وبحوثا خطيرة تشغل فى الكتاب مجلداً أو مجلدات تلخصها المجلة فى فصل لا يتجاوز عدة صفحات ، وربما كان ملخصها مؤلف الكتاب ذاته ؛ هذا الى ماتتوخاه المجلة من اختيار الموضوعات الشائقة والأساليب السهلة التى تغرى كثيراً من القراء على تفضيلها على الكتاب

هذه المنافسة الأدبية القوية كانت وما تزال شديدة الوطأة على الكتاب ، ولم يكن فى وسع الكتاب أن ينافسها ، لأنها تجرى طبقاً للعوامل النفسية وطبقاً لتطور الظروف الاجتماعية ؛ أضف الى ذلك المسألة الاقتصادية أعنى مسألة الثمن ، فالصحف والمجلات تعرض بضاعتها الأدبية على الجمهور بأثمان بخسة يستطيع أن يؤديها اللايين ، معتمدة فى ذلك على كثرة انتشارها وما تجنيه من أجور الاعلانات . ولكن الكتاب القيم لم يستطع حتى اليوم وليس فى الامكان أن ينزل الى هذا المستوى . نعم حاول كثير من المؤلفين والناشرين أن يسايروا هذا التطور فى الذوق الأدبى ، فعمدوا الى اخراج الكتب السهلة الموجزة ، والى معالجة الموضوعات العلمية الخطيرة فى أساليب خفيفة عادية مما يعرف اليوم بتبسيط العلوم ، وهى طريقة تعالج بها اليوم أخطر وأعقد الموضوعات العلمية فى الصحف والمجلات ، وان كانت لا تؤديها دائما بما يجب من الدقة والتحقيق ، وكذلك عمد كثير من المؤلفين والناشرين الى إخراج الموضوعات الخطيرة العلمية والسياسية والاجتماعية وغيرها فى ملخصات صغيرة ، وفى فصول متناثرة ، أو الى جمع القطع المختارة فى كتاب واحد ليكون له بذلك ما للمجلة أو الصحيفة من التنوع ، وعمدوا فوق ذلك الى اخراج هذه الكتب فى

طبعات شعبية رخيصة لتكون فى متناول جميع الطبقات ، ومن المعروف أيضاً أن كثيراً من كتاب القصص العالميين يخرجون اليوم كتبهم فى طبعات شعبية عديدة ، ويتحرون اختيار القصص والحوادث المثيرة والشائقة ، وكثير منهم يفضل كتابة القصص الشرطية ، وقطع السينما لأنها تدر عليهم أرباحا حسنة . والخلاصة أن الكتاب اضطر تحت ضغط هذه المنافسة الشديدة التى شرحناها أن يتطور نوعا وأن يساير الذوق الأدبى والظروف الاجتماعية الجديدة . ولكنه مع ذلك لا يزال بعيداً عن أن يسترد مركزه أو يقاوم هذا التيار الجارف الذى يهدد مركزه وقيمته وتقاليده

وقد غدت السينما والراديو من أشد خصوم الكتاب ، فنى السينما تلخص أو تمسخ أمهات القصص حتى يمكن اخراجها فى صور تلائم الجمهور ، ولا يقع الجمهور منها إلا على الجانب القصصى ، ولا يلمس شيئاً من قيمتها الأدبية أو الفنية . وأما الراديو فهو أشد خطر على الكتاب من كل ما تقدم ، وربما كان هذا الخطر اليوم فى بدايته ، وقد يستفحل كثيراً فيما بعد ، فنى الراديو تنقل اليوم فى سائر انحاء العالم جميع الأنباء والأحاديث السياسية ، ومعظم المحاضرات العلمية والأدبية والنقدية الهامة ، وتذاع فيه ملخصات عن معظم المباحث والموضوعات الخطيرة التى تعنى بها الحركة الفكرية ، ومزيته فى أنه ينقل ذلك كله للسامع وهو جالس فى مكانه الوثير فى المقهى أو المنزل ، لا يكلفه عناء القراءة ، وخطره على الكتاب والحركة الفكرية فى أن الاذاعة الموجزة السهلة تمسخ معظم الموضوعات العلمية والأدبية التى تتناولها ، وتصرف بذلك ملايين السامعين عن قراءتها وتتبعها فى مصادرها القيمة .

* * *

وفى ظل الطغيان السياسى الذى يسود اليوم بعض الأمم المتمدنة تواجه الحركة الفكرية ويواجه الكتاب أشد المخاطر والأزمات ، فنى بلاد كايطاليا والمانيا وتركيا وبولونيا وروسيا تسودها النظم « الدكتاتورية » ، وتخمد الحريات السياسية والفكرية ، تصطبغ الثقافة والتفكير بنفس الألوان التى يفرضها الطغيان وتقتضيها مصلحته وغاياته السياسية ؛ وحيثما تنعدم حرية الفكر ، تخبو حركة التأليف الحر وتغدو الصحافة والمفكرون والكتاب طوعاً أو كرهاً جنود النظام القائم ، ويطارد المفكرون الأحرار ، وتطارد كتبهم بلا رأفة ؛ وفى ظل هذه الأنظمة الطاغية ، التى يزعم فيها الطغاة وأعوانهم أنهم يعبرون عن رغبات الشعب وآماله وتفكيره ، يختنق الانتاج الفكرى القيم ويتحول إلى نوع من الأدب الذليل الخانع ، يشيد بالطغاة ونظمهم ومبادئهم وأعمالهم . وقد شهدنا من مناظر هذا الاضطهاد الفكرى فى العهد الأخير ألواناً شنيعة فى ألمانيا ، فى ظل الطغيان الهتلرى ، حيث طورد جميع المفكرين والكتاب الذين لم يسايروا الطغيان الجديد ولم يرتضوا فظائعه ، ففر منهم من فر خارج ألمانيا ، وقتل من قتل ، واعتقل من اعتقل ؛ وشرد كثير من أقطاب الأدب الألمانى المعاصر ، وحظر على دور النشر الألمانية أن تتعاقد معهم أو تنشر لهم شيئاً ، ومنعت كتبهم من التداول ، وأحرقت كتب كثيرة فى أوائل عهد النازى فى شوارع برلين على نحو ما كان يجرى فى العصور الوسطى على يد محاكم التحقيق ؛ والخلاصة أن الانتاج الأدبى فى المانيا قد أصيب فى عهد الطغيان الهتلرى بضربة مميتة ، وأضحت الثقافة الألمانية والأدب الألمانى الحاضر والصحافة الألمانية الحاضرة صورة متماثلة مملة للمبادىء والنظريات والآراء التى يفرضها الطغيان الحاضر على الشعب الألمانى . وحيثما يوجد الطغيان السياسى يمر الانتاج الأدبى دائماً بهذا الدور ، ويصاب التأليف بمثل هذا العقم والتماثل ويواجه الكتاب أشد المحن .

وهنالك أخيراً روح العصر ؛ فعصرنا عصر سرعة ورياضة ، والسرعة تدفع كل الناس بلا هوادة ، وشغف الرياضة يستغرق اهتمام الشباب وفراغه ؛ فلا يجد من الوقت أو الرغبة ما يحمله على التماس القراءة ، ولا سيما القراءة الرزينة الهادئة . وإذا أتيحت للشباب فرصة القراءة اليوم فماذا يقرأ ؟ الكتب أو المجلات الخفيفة ، المبتذلة غالباً . لأنه لا يقرأ دائماً للفائدة وانما يقرأ للهو فقط ، ولا يريد أن يبذل جهوداً عقلية فى استيعاب كتب الثقافة الرفيعة ، وهذه الروح السيئة بلا ريب ، من أقوى العوامل فى صرف أنظار الشباب عن الكتاب

* * *

وهل نحن بحاجة للقول بأن جميع ماقدمنا من العوامل والظروف ينطبق على سير الحركة الفكرية والانتاج الأدبى فى مصر كل الانطباق ؟ إن الكتاب يواجه فى مصر نفس الأزمة الخطيرة التى يواجهها فى جميع الأمم المتمدنة ؛ وقد صرفت الصحافة والمجلات الأدبية والقصصية ولا سيما المجلات الخفيفة

والماجنة أنظار الشباب عن القراءة الرزينة المفيدة ؛ وأفسد الأدب المبتذل، ولا سيما الأدب الجنسى ذوق الشباب وعقليته ، فانحط مستوى تفكيره وتقديره ؛ وأضحى الكتاب القيم لايجد بكل أسف بين الشباب كثيراً من الأنصار . أضف إلى ذلك ظرف مصر الخاص وهو انتشار الأمية فيها ، وضعف نسبة المتعلمين إلى حد لايزال يزرى بكرامتها ، ولولا ان الشعوب التى تتكلم العربية التى نكتب بها فى مصر تبلغ زهاء سبعين مليوناً ، لكان خطب الانتاج الأدبى العربى مضاعفاً ؛ ومع ذلك فالمعروف أن الكتب العربية القيمة تواجه أشد الأزمات ، وأن الكتاب الذى لايطبع منه سوى الفى أو ثلاثة آلاف نسخة يمكث أعواماً طويلة قبل أن تنفد نسخه بين السبعين مليوناً من الشعوب التى تتكلم العربية

والخلاصة أن الكتب تواجه أشد أزمة عرفتها فى العصر الحديث . وقد تتفاقم هذه الأزمة ، ويزداد مركز الكتاب حرجا ويزداد ذيوعه كساداً ، ولكن الكتاب لايمكن مع ذلك أن يختنق أو يموت . ذلك أن الكتاب قد ولد مع المدنية الانسانية ، ولبث مدى العصور أقدس متنفس للذهن البشرى ، وما دام الذهن البشرى ينتج ويعبر عما يجول فيه ، فلا بد من التجائه إلى الكتاب ، وقد مر الانتاج الفكرى ومرت الكتب خلال العصور المظلمة بمحن شديدة ، ولاذت بالاختفاء أيام الغزوات البربرية فى عهد الهون والوندال ، ولبثت فى الأمم الأوربية مدى قرون تقبع فى ظلمات الأديرة ، ولم تجد متنفساً وملاذاً إلا فى الدول الاسلامية ، فى ظل المدنية الاسلامية الزاهرة ؛ واستمرت محاكم التحقيق (التفتيش) عصوراً تجد فى مطاردة التفكير الانسانى وفى مصادرة الكتب وحرقها ؛ ولكن هذه الخطوب والمحن كلها لم تخمد جذوة التفكير الانسانى ، ولم تقض على حياة الكتاب ؛ وخرج الكتاب ظافراً من هذه المحن ، وجاءت المطبعة فى فجر العصر الحديث فاستطاع بعونها أن يغمر العالم ؛ ولم تقو عصور الطغيان ونظمه على مغالبة الذهن البشرى ؛ فاذا كان الكتاب يجوز اليوم أزمة فكرية اجتماعية ، نظراً لتطور الحياة والاختراعات العلمية ، فتلك أزمة مؤقتة ، سوف يتاح للكتاب أن يتغلب عليها متى استطاع أن يهيىء نفسه للسير مع الظروف الجديدة فى ألوان لاتغض من قدره ورفيع مكانته ؟

محمد عبد الله عنانه
المحامى

ابراهيم بك مرزوق

ومحمد سعيد بك

بقلم الأستاذ محمود خيرت

نقلت الرسالة فى عددها الرابع والخمسين مادونه المغفور له تيمور باشا من حياة المرحوم ابراهيم بك مرزوق وأنه كان شاعراً مجيداً نظم كثيراً من المقطوعات والقصائد . ولكنه مع توسعه فى ذكر مولده ونشأته وأدوار تقلبه فى مناصب الحكومة أوجز كثيراً فى حياته الأدبية مقتصراً على أن المرحوم محمد بك سعيد هو الذى جمع ديوانه ونشره فى سنة ١٢٨٧ هـ ، فلم يتعرض الى شىء من شعره ليعطينا صورة ريانة من تلك الحياة .

وقد كنت أود لو أن بين يدى ديوان هذا الشاعر الذى لم أهتد اليه فى المكاتب ، فأسد هذا الفراغ ، ومع ذلك فانه لايزال عالقاً فى ذهنى منه هذان البيتان :

لم يُرضنى الهجرُ حتى عُمـــر الحبيب تقضى
والأرض ضمَّتهُ قبْلى ياليتنى كنت أرضا (أرضى)

وقد لايكون هذا القدر القليل كافياً للحكم على هذا الشاعر من حيث ميوله المختلفة فى مجموعها وعلاقتها بالبيئة التى عاش فيها ، ولكنه على كل حال شاهد صدق على ما كانت عليه نفسه من الرقة وكان عليه أسلوبه من الفخامة والحلاوة والسهولة ، فهذان البيتان مع أنهما من المجزوء تضمنا قصة بحالها يجول فيها الحب وجنَّاته ، والهجر وأناته ، والموت وأظفاره ، والدمع وأنهاره ، وهو بين الحبيب الذاهب ، واليأس الغالب ، يعود باللائمة على نفسه التى لم تقنع بالهجر وتجد لذتها فيه ، حتى ضمته الأرض قبل أن تضمه حنايا قلبه الشجى المحترق ، وهو مع كل هذا لايفوته حكم الصناعة فيخرج لنا جناسا لانحس عنده جهدا ولا تكلفاً ولا مللاً ، يجمع بين الندم على عدم الرضى ، والحسرة على فوز الأرض بالحبيب من دونه

***

على أن الذى هدانى الى هذا الديوان وأنا فتى هو نفس

المرحوم محمد سعيد بك الذى عنى بجمعه ونشره ، فقد كان كثير التردد على المرحوم جدى ، (وكان صديق أبيه) ، وكان من ترديده علينا أن حبب الى نفسى قرض الشعر فى ذلك العهد .

ولقد كان محمد سعيد بك واسع الاطلاع غزير المادة فياضاً مجيداً . أذكر أنه زارنا مرة فوجد معى قريباً جميل الطلعة ، فمال علىّ هامساً فى أذنى ما اسمه ؟ قلت مصطفى ، وعند ذلك انفرد بنفسه فى ركن من الغرفة ، حتى اذا مضت أربع دقائق أقبل علىّ يقول بصوت خافت : اسمع ، ثم أنشدنى هذا البيت :

وأعطشني وجـدى الى رشف ريقه
لفرط صباباتى فمذ قال مُصْ طَفَى

ومن شعره رحمه الله فى سيدة رثاها :

أيها المغرور بالدنيا اعتبر — فبوعظ كم ينادى الزمن
بينما الانسان فى الدنيا اذا — قائلٌ هذا فـلان يدفن
هاهنا درة بخدر فارقت — قصرها الزاهى وهذا المسكن
أنشد الرضوان فى تاريخها — رحمــة الله عليها جلشنْ

وُجمّل عجز البيت الأخير يعطيك تاريخ السنة التى توفيت فيها تلك السيدة ، واذا علمنا أن محاولة الحصول على التاريخ عـند قرض الشعر من الأمور المعقدة التى لايمكن فيها الجمع بين التاريخ وحلاوة الشعر أدركنا من هذا الشعر مقدرة هذا الشاعر الكبرى فى تذليل هذه الصعوبة ، فان ارسال الرحمة فى هذه الصيغة التى ألفها الناس وذكر اسم المرثية والحصول مع ذلك على التاريخ المطلوب فى شعر من بحر الرمل حلو الألفاظ والمعنى كاف للتدليل على مكانته . ولقـد بلغ من مقدرة محمد بك سعيد أنه نظم مرة قصيدة من عشرين بيتاً كان كل صدر وكل عجز منها تاريخاً ، وقد سمعت ذلك من جدى رحمه الله ، وكان وقتئذ وكيلا للمطبعة الأميرية ، ولعل هذه القصيدة منشورة بالوقائع الرسمية التى كانت تنشر وقتئذ له وللمرحوم الليثى وغيرهما من الشعراء .

وقد روى لى محمد سعيد بك رحمه الله انه هو الذى وضع القطعة الغنائية المشهورة التى مطلعها :

بستان جمالك من حسنه — أبهى وأجمل م البستان

على خلاف ما شاع بعد وفاته من أنها للمرحوم اسماعيل باشاصبرى

هؤلاء الناس الموفقون فى الأدب والشعر قد لا يعلم الناس عن كثير منهم شيئاً ، وهكذا يذهبون وتذهب معهم آثارهم . روى لى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أن كتبة محكمة الاسكندرية الشرعية كان رئيسهم (الباشكاتب) فى وقت ما رجلا نسيت اسمه خفيف الروح جيد الشعر ، ولكنه كان مولعاً بالشراب . وقد صادفه مرة أحد أصدقائه وهو يحتسى فى حانوت خمّار فطلب اليه أن يسايره حيث هو ذاهب (وكان لا يزال فى القنينة نحو ثلثها) فأبى قائلاً وبلسانه التواء من أثر السكر

مضى بها ما مضى من عَقل شاربها — وفى الزجاجة باقٍ يطلب الباقى

ولا أدرى اذا كان هذا البيت من مقوله أو قديم ، ولكنه على كل حال دليل على سرعة ارتجاله أو سرعة خاطره

ومما يدل على ظرف هذا الرجل ان حضرة القاضى رئيس المحكمة كان معتاداً أن يقبل الموظفون (وهو معهم) يده عند كل صباح . ولكنه بلغه مرة انه مدمن على الخمر ، وانه يعترض فى الطرقات الفتيات المتبرجات بالهوى ، فغضب عليه وأسرف فى تعنيفه حتى اذا ضاقت نفسه خرج من صمته صائحاً ليكن مابلغ فضيلتك عنى صحيحاً فمالك وسلوكى فى غير أوقات عملى . وعند ذلك جُنَّ جنون الشيخ وصرخ فيه أن اخرج من هنا . أنت طالق . أنت طالق . أنت طالق .. !

وفى صباح اليوم التالى لم يره الشيخ مع باقى الكتبة فتذكر ما كان من أمره معه بالأمس ، وأرسل فى طلبه ، ولكنه أبى أن يحضر فذهب اليه بنفسه ، وعند ذلك أسرع صاحبنا فغطى وجهه بطرف ثوبه ... وفى هذه الحركة من حسن الاشارة ما فيها بعد صدور ذلك اليمين ...

رحمهم الله جميعاً

محمود خيرت
بقلم قضايا وزارة المالية

فى ربوع جوته وفرتر

من رســالة

فرنكفورت — صباح الأحد ٨ يونيو سنة ١٩٢٤

. . . . الاسرة التى أقيم فيها مؤلفة من أرملة وأولادها : بنتين وصبياً أصلهم من الريف ، من وتسلار حيث كان جوته موظفاً ، وحيث عرف شرلوت وأحبها ، وكتب آلام فرتر — نزحوا الى فرنكفورت طلباً للعيش ، وسأقص عليك الآن قصة كبرى الابنتين ، ويبلغ عمرها أربعة وعشرين عاما —

عرف قلبها الحب وهى فى السادسة عشرة حينما كانت فى وتسلار ، وأحاطت بحبيبها ظروف قاسية اضطرته أن يتزوج من سواها ، فلم تطق البقاء فى وتسلار فرحلت الى فرنكفورت تبحث عن وظيفة . . . وتبعها شاب من مواطنيها كان يحبها ولا يجرؤ على التصريح لها بحبه . تبعها ليدرس بالجامعة ، واصطحبا وتكتم الحب ثلاث سنوات قضى اثنتين منها فى ميدان القتال ، فلما انتهت الحرب عاد الى فرنكفورت ليتم دراسته ، وعادت علاقة فلتر بحبيبته تيا (Thia)

باح لها بحبه وطلب يدها ، وظنت هى أنها تحبه فأجابته بالقبول ، وتمت الخطبة ، ومرت سنتان وهو يستعجل الزواج فتؤجله محتجة بغلاء الأثاث وهبوط قيمة المارك فى ذلك الحين ، فلما زاد الحاحاً صارحته برغبتها فى فسخ الخطبة ، لأنها لا تستطيع أن تجد معه السعادة التى تنشدها ، فهى مادية وهو خيالى ، هى تحب الرقص ولا تفهم الموسيقى ، وهو يحب الموسيقى ولا يعلم الرقص ، فكانت بينهما القطيعة .

وهنا أنقل اليك أيها الصديق قطعاً من رسائله التى كتبها بدموعه بل بدماء قلبه ، والتى أطلعتنى الأم عليها ذات مساء وتركتها لدى ليلة لأقرأها .

يقول فلتر فى خطابه الأول : « مهجور ! أنا مهجور ! وما أطول الليل على مهجور مثلى فى هذه المدينة الكبيرة ! لو كنت فى قرية صغيرة لخرجت الى الجبال والغابات أشكو اليها حبى وأحدثها عن بؤسى ، ولكنى فى هذه المدينة الكبيرة اذا خرجت لا أجد إلا السكارى وهم عائدون آخر الليل الى مساكنهم ، والنساء الخليعات وهن يتسكعن فى زوايا الطرق وعلى مقاعد المتنزهات »

وعلم أن « تيا » أخذت ترفض تسلم كتبه ، فكتب الى أمها يقول : « قولى لتيا إننى سأكون من نفسى شخصاً آخر كما تحب هى أن أكون . قولى لها إننى تقدمت فى دروس الرقص وأصبحت غيرى بالأمس . قولى لها تسمح لى بأن أراها مرة واحدة ، وسوف لا أحدثها عن حبى ولا أذكر لها شيئاً عن الماضى . قولى لها ترحمنى فانى بدونها لا يمكننى أن أعيش . اسأليها عن ذنبى لديها ، فان كان لى ذنب غير شدة حبى فسأكفر عنه بدمى وحياتى . »

وكتب فى ثالث : « فى مثل الغد ولدتُ ، ولقد تعودت منذ خمس سنوات أن أتناول هديتى من المحبوبة « تيا » قبلة وعهداً على حبنا ، قولى لها إننى أنتظر هديتها غداً ، وأن تسمح بالعودة الى مثل ما كنا . سأحضر بنفسى اليكم وكلى أمل ، فأستحلفكم ألا تصدمونى فى كل آمالى . »

وعلمت أنه لما حضر رفضت تيا أن تقابله فأرغمتها أمها على ذلك ، فأساءت لقاءه ، فكتب الى أمها : « قولى لها تجربنى شهراً واحداً ، وسوف لا أحدثها عن حبى ، غداً تبدأ حفلات يتهوفن السنوية . ذكريها أنها لما سمعتها لأول مرة ، وكانت معى بكت . . . وفى تلك الليلة حدثتها لأول مرة عن حبى . . . لقد اشتركت لها ولى ، وسأمر بكم غداً لأرافقها »

ولما بلغه أنها تخطب الى آخر كتب الى أمها :

« إنى آمل وآمل ولا أستطيع أن أيأس قبل أن يضع القسيس على رأسها إكليل الزواج من غيرى ، آمل لأن حبى لها لا يفنى ، ولأنى بدون هذا الشعور لا أستطيع أن أحيا . »

وكانت آخر رسائله هذه الكلمات : « سوف تتزوج من غيرى ! إن هذا يطن فى رأسى طنين حلم مروع ، وما كنت لأتصور حدوثه يوماً من الأيام ، وهل هناك أحد فى العالم يستطيع أن ينيلها من السعادة ما أستطيع ؟ . قولى لها إنى أتمنى لها الهناء من صميم فؤادى ، وأن الشىء الوحيد الذى أحذره أن تذكرنى يوماً من الأيام بالأسف حين لا ينفع الأسف . . . . وداعاً الى الأبد ! . . »

وفى الشهر القادم موعد حفلة زفافها الى خطيبها الجديد ، وهو دميم الخلقة ، قصير ، أعرج ، ولكنه غنى ؛ فلقد كان أيام هبوط قيمة

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

البغـــاء

بقـــلم حبيب المعوشى

لقد كثرت فى هذه الأيام الأقاويل وتباينت الآراء فى البغاء ومنعه من البلاد ، واقصاء البغايا الأجنبيات عنه عملاً بقانون يسنّ لهذا الغرض . فمن مؤيدين لهذا القانون ، ومن معارضين له ، ولـكل فريق فيما يدّعيه حججه وبراهينه . فالذاهبون الى تحريم البغاء مدنيا يقولون إنه آفة الاجتماع ومصـدر الفاحشة ومجلبة البوائق ، وانه الحائل الـكبير دون الزواج وتكوين الأسر ، وانه العقبة القائمة فى وجه كثرة المواليد الى غـير ذلك من الأدلة . والقائلون مدنياً باباحته يؤيدون دعواهم بأنه السور الذى يصون الـكثير من شرف المحصنات ، والحاجز الذى يخفف — ان لم يقف — الاعتداء على شرف العذارى وأعراض الأسَر . أما أنا فلست أريد بهذا المقال أن أؤيد رأياً أو أخالف آخر ، ولـكننى إجابة لطلب بعض الاخوان من الأدباء رأيت أن أنشر بايجاز ما أعرفه من هذا القبيل وما قيل بهذا الشأن فى العصور الخالية وما كان للبغايا لدى مختلف الأمم من المنزلة والمقام .

كانت البغايا فى العهد القديم من بواعث الحمية فى الرجال . فـكنّ ينبهنَ فيهم الحماس البدنى والنشاط العقلى ويحملنهم على الدفاع والجهاد والتضحية ، والتفانى فى سبيل الوطن والعقيدة . فى حرب شعواء شهرت على قورونتية قامت البغايا فى اليونان يشجعن الرجال ليذودوا عن الحمى ، فهبّ الرجال هبـةً واحدة وخرجوا بحشدهم زمراً وكتائب لمواجهة العـدو مستبسلين مستميتين بفضل حضّ البغايا واغرائهنّ . ولم تقف البغايا عند هذا بل قمنَ وجذذن شعورهن — وكان الشعر فى ذلك العهد أنفس حلى النساء وأجمل أزيائهن — وقدّمنها قرباناً للزُهرة آلـهة الجمال كى تساعد الاغريقيين على أعدائهم وتهبهم الفوز والظفر ، وبفضل ما أبدينـهُ من ضروب التضحية والحضّ والتنشيط واستفزاز الهمم انتصر الاغريقيون انتصاراً عظيما ، وعزوا أهم أسباب فوزهم للبغايا ، فأكبروا عملهنّ وأعلوا قدرهنّ — ومثل هذا كان يجرى أيضاً فى كثير من البلاد الأخرى بحيث خصهنّ رجال تلك العصور الخالية بالمكان الأول فى الاجتماع وقالوا إن التمدين لا يقوم إلا بهنّ ولا يزداد انتشاراً إلا بمعاونتهن ، وقد شبههنّ بعض الـكتاب الأقدمين بأريج ذكى يعطر الجو ويولى مستنشقيه الاغتباط ويحرك فيهم الهمة والجرأة والاقدام .

وظلّ فيهن على هـذا حتى ظهر الدين المسيحى فحرمت النصرانية البغاء تحريماً مطلقاً وجعلت من أهم أسس الـكمال فى الدين قهر الجسد وكبح الشهوات البدنيـة ، ومنذ العهد الذى انتشرت فيه هذه التعاليم أخذ نجم البغايا فى الأفول ، وبدأ مجدهن فى الزوال ، فأمرت كنيسة المسيح بنبذهن من الاجتماع ، فأقـصِينَ من المجالس ، واضطهدن وحقرن ، حتى غدون أحط من سقط المتاع

وعند ما كانت الأوبئة كالطاعون والهواء الأصفر تتفشى فى العالم أو تصيب الأمم نـكباتٌ ومجاعات كان الناس ينفون البغايا من البلاد ويرهقونهن بألوان العـذاب ويذيقونهن شر الميتات ظناً منهم أنهم بما يفعلون يلطفون غضب السماء

ففى بعض البلاد كان الزواج محرماً على البغايا ، وفى بعضها كانت البغايا يعزلن فى الحظائر شأن المواشى ، وفى عهد البابا بولس

المارك يضارب — مع اليهود — على إسقاط عملة بلاده فأثرى

وقد سمعتها أمس فقط تقول إنها تأسف على ڤلتر ، فصرخت أمها فى وجهها تقول « ألم يكن ذلك من قبل ؟ . » فقلت لها إننى أتعهد بأن أرده اليهم لأنه معى فى الجامعة . فقالت الأم « هذا مستحيل ، انك لاتعرفه ، إن كبرياءه جرحت بلا شـفقة ، فلا يمكن أن يعود ، انك لاتعرفه » — والحق ياصديقى انك لو رأيته لما رأيت إلا الـكبرياء والعظمة ، هو ليس بالجميل . . طويل القامة كبير الوجه ، واسع العينين ، تحيط بهما هالةسوداء ، بوجهه خطوط كثيرة وتجعدات عميقة ، يتكلم بصوت خافت يكاد لايسمع مع كبر جسمه ، وأظهر مايتجلى عليه الـكبرياء والتـكتم ، وقد سألته يوماً عما ينوى عمله بعد حصوله على الدكتوراه فقال : انه سوف يرحل إلى أمريكا الجنوبية ليعيش هناك ، فقلت له ألا يعز عليك مفارقة أهلك ووطنك ؟ فاجاب «لا. ليس هنا أحد يهمه أمرى »

الرابع أى فى القرن السادس عشر كان شبان الأشراف فى إيطاليا يعدّون التغاضى عن حرق منازل العهر عاراً وفضيحة. وفى مدينة تولوز فى فرنسا كانت البغى التى تجرؤ على اجتياز عتبة أحد الأديرة تعدّ جانية فيقبض عليها وتلقى فى السجن، ثم تساق للمحاكمة فيحكم عليها بأقسى عقوبة.

وفى مدينة بوكير من أعمال فرنسا أيضاً كان يفرض فى كل عام على البغايا الجرى عاريات فى أحد الميادين إلى أن تنقطع أنفاسهن وتسكت دقات قلوبهن، وفى مدينة مانطو فى إيطاليا كانوا يوجبون على البغى شراء ما تلمسه من الأشياء لدى مرورها فى الأسواق بحجة أنها دنسته بلمسها ولوثته بيدها النجسة الذليلة وأفسدت تجارته على صاحبه. وفى هذه المدينة أيضاً كان يحتم على البغايا تعليق الجلاجل فى أعناقهن عند ما يطفن فى المدينة أسوة بالمصابين بداء الجذام تنبيهاً للمارة كى يبتعدوا وتحذيراً لهم من العدوى.

هذا قليل من كثير مما كان يجرى على البغايا فى القرون الوسطى، ولكن عند ما أخذ التمدين الحديث يتمشى فى أنحاء العالم قل اضطهاد البغايا وأبيح لهن مخالطة الناس والظهور فى المجتمعات والأندية والمجالس، بل عدّ البعض وجودهن من عوامل النهوض والارتقاء، وللبلوغ بالتمدين إلى أرقى درجات الكمال. ألسن هن اللواتى يبتدعن التأنق فى المعيشة: ويطلقن الأزياء البديعة فى العالم، ويروجن أسواق الحلى الغالية، والملابس الأنيقة، والمنسوجات الناعمة، والمطارف الثمينة، والمفروشات الفاخرة؟ أو لسنَ هن اللواتى يخرجن من خزائن الشيوخ الاشحاء ما اكتنزوه من تحف، وكدّسوه من نفائس، وخبّأوه من أموال، فيغدقنها على الأسواق وينتفع بها المجموع الانسانى.

هذه هى الكلمة التى توخيت نشرها فى هذا الباب لعلّ فيها فائدة، ومنها يرى أن البتّ فى تحريم البغاء أو إباحته يستلزم كثيراً من التروى والتفكير لمعرفة أيهما أفضل وأصلح للبلاد، ولا نخال حكومتنا وهى لم تزل مترددة فى سن قانون التحريم إلا مواصلة الفحص والتمحيص حتى تهتدى إلى الأصوب والأنفع فتقره.

وبهذه المناسبة أذكر ما قاله ديموستين كبير خطباء أثينا، من ثلاثة وعشرين قرناً ونيفاً — فى النساء والبغايا وما يبتغيه الرجال منهن وهذا تعريبه:

« نحن الرجال، بحاجة الى ضروب ثلاثة من النساء:

المرأة الرشيدة المثقفة لنشغل بها العقل ونلهى بها النفس

والمرأة البارعة فى الجمال لنرضى بها الحواس ونسكن ثورات الجسد

والمرأة الصالحة الحكيمة لتلد لنا البنين وتدبر لنا المنازل. »

وقد رأى أن وجود البغايا فى البلاد ضرورى لاستفزاز همم الرجال إبّان الحروب لأن المحصنات قد يحجمن عن ذلك كيلا يعرّضنَ أزواجهن وفلذات أكبادهن الى الهلاك.

وقال أحد علماء الفرنسيين وكتابهم فى البغاء وفى الدفاع عن البغايا ما معناه:

« ينحى الناس باللائمة على البغى التى تبيع جسدها وينبذونها ويصمونها بالعار، ويعطرونها وابلاً من السبّ والثلب، على حين ان الكثيرين منهم يبيعون عقولهم وأفكارهم وضمائرهم، فاذا كان العقل فى حكم الناس أفضل من الجسد وأسمى منه منزلة، فلماذا يُحجم عن نبذ ممتهنيه ويغضى عن تعيير بائعيه، بينا أن بيعه أجلب للعار والثلب والاستنكاف من بيع الجسد.؟

ثم لماذا نرانا نجلّ من الرجال العظام والعلماء الأعلام من باعوا فكرهم وحريتهم وأباحوا عقولهم لقاء الدرهم. أليس هؤلاء أدعى للاحتقار والازدراء والنبذ من البغى التى تبيع جسدها وهو المادة الدنيئة الحقيرة الخاضعة للعقل ودونه قيمة ومقاماً.؟

أجل، ولكن بينا الناس يتخبطون فى الخطأ والغواية ويعمهون فى كثير من الضلال، وشرّ الضلال احتقار المرأة البائعة جسدها واجلال الرجل الذى يسلم للعهر عقله وفكره وضميره وحريته الوطنية والأدبية.

فلا مراء أن فى هذا الكلام حقائق يحسن النظر فيها وتعاليم يجدر بالعاقلين والنابهين التسليم بصحتها والاستفادة منها — سدد الله خطواتنا وهدانا سواء السبيل »؟

حبيب المعوشى

مخترع الرقاص منجم مصرى

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يعتقد كثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الايطالى الشهير غاليلو (١٥٦٤ م — ١٦٤٢ م)، وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه. وهؤلاء الكثيرون يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح، وإن الفضل فى اختراعه يعود الى عالم مسلم عربى، عاش فى مصر ونشأ على ضفاف النيل، وقد سبق غيره فى استعماله فى الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليلو مسبوقاً بهذا الاختراع بستة قرون. أقول إنهم يستغربون وأزيد على ذلك وأقول إنهم قد يستهزئون، ولكن ما كان لنا أن نجرؤ فننسب هذا الاختراع الجليل الى العرب لولا اعترافات المنصفين من علماء الافرنج، فاذا تصفحت كتاب تاريخ العرب للعالم الفرنسى المنصف سيديو تجد نصاً صريحاً بأسبقية العرب فى اختراع الرقاص: «... وكذا ابن يونس المقتنى فى سيره أبا الوفاء ألف فى رصدخانته بجبل المقطم الزيج الحاكمى، واخترع الربع ذا الثقب، وبنـدول الساعة الدقاقة» [١]. وكذلك يقول (تايلر Tayler) و (سدويك Sedgwick) إن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن [٢].

من هنا يُستنتج أن العرب سبقوا غاليلو فى اختراع الرقاص وفى استعماله فى الساعات الدقاقة. أنا لا أقول إن العرب وضعوا القوانين التى تسيطر على البندول، ولا أقول إنهم وضعوا ذلك بقالب رياضى على الشكل الذى نعرفه الآن، ولكنى أقول إنهم سبقوا غاليلو فى اختراع الرقاص وفى استعماله، وفى إيجاد علاقته بالزمن؛ وفوق ذلك كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص (قانون مدة الذبذبة). يقول سمث العالم الأمريكى فى كتابه تاريخ الرياضيات فى ص ٦٧٣ من الجزء الثانى ما يلى: «ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه فى معرفة شىء عنه، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد...»

يظهر مما مر أن العرب عرفوا شيئاً عن القوانين التى تسيطر عليه، ثم جاء من بعدهم غاليلو، وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه، إذ وجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل، ووضع ذلك بشكل رياضى بديع وسّع دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه.

وأخشى أن يختلط الأمر على القارئ فيظن أن كمال الدين بن يونس هو نفسه ابن يونس الذى ذكره سيديو، مع أن هذا خلاف الواقع، فكمال الدين بن يونس كان «علامة زمانه، وواحد أوانه، وسيد الحكماء، قد أتقن الحكمة، وتميز فى سائر العلوم [١]». ولد فى الموصل سنة ١١٥٦ م، وتوفى بها سنة ١٢٤٢ م، وتلقى العلم فى بغداد فى المدرسة النظامية. كان ذا اطلاع واسع على العلوم الشرعية، وتعـين مدرساً فى الموصل، قرأ الطب والفلسفة «ويعرف من فنون الرياضة من أقليدس، والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطى وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقى بطريق الخطائين، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا فى ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، واستخرج فى علم الأوفاق طرقاً لم يهتد اليها أحد... [٢]»

ولنرجع الآن الى ابن يونس المصرى، فهو مخترع الرقاص، واسمه أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى. كان من مشاهير الرياضيين والفلكيين الذين ظهروا بعد البتانى وأبى الوفاء البوزجانى، ويعده سارطون من فحول علماء القرن الحادى عشر للميلاد، وقد يكون أعظم فلكى ظهر فى مصر، ولد فيها وتوفى بها سنة ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م. ويقول بعض معاصريه إنه كان ذا طباع شاذة، يضع رداءه فوق عمامته، اذا ركب ضحك الناس منه لسوء حاله وشذوذ لباسه، «وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة فى النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان متفنناً فى علوم كثيرة، وكان يضرب على العود

(١) سيديو — تاريخ العرب ص ٢١٤
(٢) تايلر وسدويك — مختصر تاريخ العلم ص ١٦٣

(١) ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ١ ص ٣٠٦
(٢) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٣٢

على جهة التأدب [١] » . وهو سليل بيت اشتهر بالعلم ، فأبوه عبدالرحمن بن يونس كان محدّث مصر ومؤرخها ، وأحد العلماء المشهورين فيها ، وجده يونس بن عبدالأعلى صاحب الامام الشافعى ، ومن المتخصصين بعلم النجوم [٢] . وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس وقدروا علمه ونبوغه ، فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه فى الهيئة والرياضيات ، وقد بنوا له مرصداً على جبل المقطم قرب الفسطاط ، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات ، وأمره العزيز الفاطمى أبو الحاكم أن يصنع زيجاً ، فبدأ به فى أواخر القرن العاشر للميلاد ، وأتمه فى عهد الحاكم ولد العزيز ، وسماه (الزيج الحاكمى) . ويقول عنه ابن خلكان « وهو زيج كبير رأيته فى أربعة مجلدات ، ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه » . ويعترف سيديو بقيمة هذا الزيج فيقول : إن هذا الزيج كان يقوم مقام المجسطى والرسائل التى ألفها علماء بغداد سابقاً . ويقول سوتر الشهير فى دائرة المعارف الاسلامية : « ومن المؤسف حقاً أنه لم يصل الينا كاملاً ، وقد نشر وترجم (كوسان) بعض فصول هذا الزيج التى فيها أرصاد الفلكيين القدماء ، وأرصاد ابن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف واقتران الكواكب » . وكان قصده من هذا الزيج أن يتحقق من أرصاد الذين تقدموه وأقوالهم فى الثوابت الفلكية ، وأن يكمل ما فاتهم ، وأن يضع ذلك فى مجلد كبير جامع « يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب والتسيير [٣] » . وابن يونس هو الذى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر فى القاهرة حوالى سنة ٩٧٨م ، وأثبت منها تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائر البروج ، فجاء حسابه أقرب ما عرف الى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة [٤] . وأصلح ابن يونس زيج يحيى بن أبى منصور ، وعلى هذا الاصلاح كان تعويل أهل مصر فى تقويم الكواكب فى القرن الخامس للهجرة [٥] .

(١) ابن خلكان — وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥
(٢) ابن القفطى — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٥٥
(٣) ابن القفطى — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٥٥
(٤) صروف — بسائط علم الفلك ص ١١
(٥) صاعد الأندلسى — طبقات الأمم ص ٩٣

وبرع ابن يونس فى المثلثات وأجاد فيها ، وبحوثه فيها فاقت بحوث كثيرين من العلماء ، وكانت معتبرة عند الرياضيين ، ولها قيمتها الكبيرة فى تقدم علم المثلثات . وقد حل أعمالاً صعبة فى المثلثات الكروية [١] واستعان فى حلها بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقى ومستوى الزوال [٢] . وهو أول من استطاع أن يتوصل الى إيجاد القانون الآتى فى المثلثات الكروية :

جتاس جتاص = ½ جتا (س+ص) + ½ جتا (س−ص) [٣]

وكان لهذا القانون [٤] قيمة كبرى عند علماء الفلك قبل اكتشاف اللوغارتمات ، إذ يمكن بواسطته تحويل عمليات الضرب الى عمليات جمع ، وفى هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة . وفى زمن ابن يونس استعملت الخطوط الماسة فى مساحة المثلثات . ويقول سيديو : « ولبث ابن يونس يستعمل فى سنة ٩٧٩ م الى سنة ١٠٠٨ م أظلالاً أى خطوطاً مماسة ، واظلال تمام حسب بها جداول عنده تعرف بالجداول الستينية ، واخترع حساب الأقواس التى تسهل قوانين التقويم وتريح من كثرة استخراج الجذور المربعة . . . » وهو الذى اخترع الربع ذا الثقب ، وبندول الساعة الدقاقة ، وفوق ذلك فقد كان ينظم الشعر نأتى على بعض منه للتنويع ، فمن قوله فى الغزل :

أُحمّلُ نشر الريح عند هبوبه   رسالة مشتاق لوجه حبيبه
بنفسى من تحيا النفوس بقربه   ومن طابت الدنيا به وبطيبه
لعمرى لقد عطلت كأسى بعده   وغيبتها عنى لطول مغيبه
وجدّد وجدى طائف منه فى الكرى   سرى موهناً فى خفية من رقيبه

« نابلس »   قدرى حافظ طوقان

(١) كاجورى — تاريخ الرياضيات — ص ١٠٩
(٢) دائرة المعارف الاسلامية — مادة ابن يونس
(٣) سارطون — مقدمة فى تاريخ العلم ج ١ ص ٧١٧
(٤) نلفت نظر الأساتذة مترجمى دائرة المعارف الاسلامية الى ضرورة التدقيق فى نقل المعادلات والقوانين الرياضية ، فقد وقع خطأ فى نقل المعادلة المذكورة ، فنسوا أن يضعوا الكسر ½ فى الحد الثانى من الطرف الثانى من القانون الموجود فى ترجمة ابن يونس فى العدد الخامس من المجلد الأول .

ذكرى أدبائنـــــا

بقـلم محمد محمد مكين

كتب الدكتور زكى مبارك فى البلاغ ينصح أصدقاء شيخ العروبة بجمع ما تناثر من مقالاته وبحوثه وضمها فى كتاب ، وخشى فى نهاية الأمر أن يلحق بشيخ العروبة ما لحق حافظاً واسماعيل صبرى من إهمال ونسيان . وكتب الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى مقالاً أرسله من لبنان يذكر فيه انه خجلان لأن إخواننا السوريين يخلدون ذكرى الامام الشيخ محمد عبده ونحن نهمله . وكتب الأستاذ احمد حسن الزيات فى الرسالة كلمة بكى فيها حظ الأدب والأديب وما يلاقيان من جحود وإنكار . وكتب الأستاذ محمود الشرقاوى كلمة بمجلة الأسبوع عن المنسيين (من الأدباء) قال فى ختامها انه يجب على كل أديب أن يعد نفسه كالذبيح ثم يموت مدحوراً لا ينال حتى كلمة الذكر .

فهل ياترى نستخلص من تلك المقالات أننا استيقظنا وتلمسنا تلك الظاهرة المعيبة — ظاهرة عقوق الأدباء وجحود العباقرة .؟ أخشى أن تكون اليقظة يقظة الموت .

نعم مات حافظ فلم نوفه حقه ولم نقم بالواجب نحوه ، ووالله إن أبناء العروبة فى أمريكا لخير منا ألف مرة ، فقد قاموا بواجبهم نحو حافظ وشوقى خير قيام

ومات من قبله الأديب محمد السباعى وذهب كأنه لم يخلق ، وكأنه لم يخلف آثاراً أدبية لو كانت فى أمة غير مصر لصعدت بها الى الأوج .

وانتقل الى جوار ربه المرحوم احمد باشا تيمور ، وفضله على الأدب والعلم غير منكور ، فماذا قدمناه لاحياء ذكراه ؟

ورحل المرحوم اسماعيل صبرى عن هذه الدار ، وما زال شعره متفرقاً لم يجمع فى ديوان .

تمضى الأعوام فنحيى المنفلوطى بطعنات داميات ، ونرمى خير الدين يكن بالمروق ، ونتهم جبران بالسخف . ثم ننسى البارودى ، وصروف ، وجورجى زيدان ، وحفنى ناصف . ولولا وفاء أبناء دار العلوم لذهب شعر عبد المطلب هباء منثوراً .

أذكر من سنين قليلة أن أدباء مصر أرادوا الاحتفال بذكرى ابن خلدون فتقاعست هممهم ، وقام أدباء المغرب على ما أذكر بذلك العمل الجليل . وأذكر انهم يتحدثون عن الاحتفال بذكرى المتنبى والمعرى . فهل تراهم يفلحون ؟

ها هو ذا عام ١٩٣٤ عام حافل بالذكريات . فيه مناسبات كثيرة لاحياء ذكرى أدبائنا وعلمائنا . فى هذا العام كانت مناسبة صالحة لذكرى قاسم امين . ولكنها ضاعت بكل أسف فلم نفعل أكثر من كتابة مقالات تافهات نشرتها الصحف وذهبت بذهاب الأمس . على أن فى ذلك عبرة ، هى أن دعوته لما تثمر الثمر الطيب ، وإلا لعرفت المرأة المصرية قدر محررها فقامت بواجب غفل عنه الرجل .

أقول ان عام ١٩٣٤ عام حافل بالمناسبات ، ففيه يكون قد مضى خمسة عشر عاماً على وفاة حفنى ناصف ، ويكون قد مضى عشر سنين على وفاة المنفلوطى .

وفى أغسطس القادم يكون قد مضى عشرون عاماً على وفاة جورجى زيدان . وفى ديسمبر القادم يكون قد مضى ثلاثون عاماً على وفاة أمير الشعراء محمود سامى البارودى .

وفى هذا العام يكون قد مضى حولان على وفاة حافظ وما يزال « يقتضى أصدقاءه المخلص حفلة التأبين وتأليف الكتاب » .

فماذا نعد لهذه المناسبات ؟ أندعها تمر فنضع رؤوسنا فى الرغام ونرمى بأنفسنا فى وهدة الذل والصغار ، أم ننتهز هذه الفرصة ولا ندعها تفلت من أيدينا ؟

لست أدرى ماذا تفعل جماعاتنا الأدبية على كثرتها حتى تهمل ذلك الواجب المقدس ؟ أحق عليها ما كتب بمجلة كل شىء فى عددها الأخير من أن جماعاتنا الأدبية تقوم على صرح واه لأنها ترمى الى أغراض تلعب فيها الحزازات الحزبية والمآرب الشخصية الدور الأول ! ! وأنه ينقصها روح التعاون والقدرة على كبح جماح العواطف الشخصية فى سبيل الفكرة التى تعمل من أجلها الجماعة . .

الى جماعة الأدب العربى ، وجماعة أبولو ، والى أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر أتوجه بالرجاء أن يعالجوا ذلك النقص المعيب ، فهم خير من يعهد اليهم ذلك الأمر .

وأخيراً أذكر الأدباء قاطبة بأن يفوا لأسلافهم حتى يفى لهم أخلافهم . وإلا كان مصيرهم مصير من سبقهم : جحود وإنكار ونسيان !!

« طنطا » محمد محمد مكين

جولة بين أطلال بومبي

للأديب حسين شوقي

كانت بومبي المدينة التي يقصدها سراة روما وعظماؤها للمتعة واللهو، لما توافر فيها من أسباب ذلك، كما يقصد اليوم المترفون من الغربيين ساحل الرڤييرا الساحر . . .

وقد يرى المتجول بين أطلال بومبي آثار الطريق التي كانت تصل روما — حاضرة الدولة الرومانية العظيمة — ببومبي . . .

وبومبي اليوم تبعد كيلو مترات قليلة عن البحر، أما في زمانها الغابر فقد كانت تشرف على البحر، كما كانت ترسي في مينائها يخوت أقيال الرومان الأنيقة.

وبومبي التي لم يزد عدد سكانها على خمسة وعشرين ألف نسمة، كان فيها من المسارح والحانات والحمامات العامة وأماكن المصارعة ما يجذب النفس ويستهوي الفؤاد . . .

وكل ذلك باق أكثره على رغم الزلزالين الكبيرين اللذين منيت بهما بومبي من عشرين قرناً خلت . . .

وما أجمل الدور التي شيدها سراة روما في بومبي ليخلوا اليها في أوقات فراغهم للهو واللعب، وقد حليت أرضها وسماؤها بالفسيفساء الملون الرائع، وبالصور الزيتية الجميلة، المنقولة عن الأساطير، وقد شيد أكثر هذه الدور على طراز خليط من الطرازين الروماني والأغريقي . . لأن الرومان أعجبوا بالحضارة اليونانية، فنقلوا منها إلى بلادهم فنونها، وآدابها، وديانتها . . ! وقد بلغ إعجاب القيصر نيرون بالأغريق أنه تعلم لغتهم فأتقنها، وكان يشجيه أن يغني بها، وقد وهب صوتاً رخيماً . . .

وقد شيدت هذه الدور على النظام الآتي: باب ضخم على الشارع، يلج منه الزائر إلى دهليز ضيق يوصل إلى فناء فسيح ليس له سقف، سوى سماء نابولي الصافية الزرقاء، وقد زين هذا الفناء بالأزهار النادرة، كما حلي بالتماثيل المرمرية الجميلة التي تمثل الآلهة، وبعض هذه التماثيل لا يزال قائماً في مكانه وبعضه هدمته الزلازل، والبعض الآخر نقل الى متحف نابولي . .

وفي وسط هذا الفناء تقوم نافورة من المرمر، يتفجر منها الماء عذباً سلسالاً . . .

وحول جنبات هذا الفناء بنيت حجر الدار، وقد بلغت عناية القوم بأولادهم أنهم أنشأوا لهم حجراً خاصة زينوا جدرانها بالصور الزيتية الفكاهية التي تلائم مزاج الأطفال . . .

كما أن بومبي كانت لها معابد فخمة صدعتها الزلازل فأودت بمعظم عمدانها الكورنثية الأنيقة . . وقد شيدها القوم زلفى للآلهة حتى يغمضوا أعينهم عما يقترفونه من كبار الآثام الخلقية بين جدران هذه المدينة المتهتكة . . .

كذلك الآلهة المصرية إيزيس، التي ذاع صيتها في العالم القديم وعظم شأنها، لها معبد خاص في بومبي، وقد عبدها الرومان في صورة سيدة رومانية!

وقد شاهدت تمثالها في متحف نابولي . . .

وهناك حي للمتبذلات كن يقبلن من أهل المرح وعودهم بأن يدفعوا شيئاً . . . وشاهدت في إحدى الحجرات اسماً منقوشاً على الحائط يتعهد صاحبه بأن يدفع الأتاوة في الزيارة المقبلة!

وشوارع بومبي مرصوفة مرصعة بالحجر، وقد وضعوا في مفترقاتها أحجاراً بعلو الأرصفة، ليعبر عليها المارة من الشعب في الأيام الممطرة، أما المترفون فكانوا يسيرون في عربات محمولة على أكتاف عبيدهم . . .

ولكن يلوح لي أن أهالي بومبي قد بالغوا في الاستهتار واقتراف الرذائل، حتى أغضبوا الآلهة عليهم برغم ماشيدوه لهم «رشوة» من معابد، فسلطوا على المدينة جارها الرهيب بركان فيزوف فزلزل أرجاءها، وأخذ يرميها بشواظ من النار السائلة والدخان الكبريتي الخانق، حتى تصدعت قصورها ودورها، وهلك معظم أهلها، وقد رأيت على عتبة إحدى تلك الدور أسرة قد أدركتها القارعة وهي على أهبة الفرار فتحجرت جثثها، وكانوا في فرارهم يحملون حليهم، ففنوا وبقيت هذه الحلي الى اليوم معروضة في متحف نابولي، شاهدة على حرص الانسان حتى وهو ملاق حتفه!

أي بومبي! أيتها المدينة الساحرة كنت هوة الأخلاق وبؤرة الرذيلة، فضربتك الآلهة، فأصبحت اليوم مثلاً خالداً على الدهر

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

أدب الزراعـــة

للأستاذ محمد محمود جلال

ما زلنا نحس حنيناً الى الأدب ، ولو أقصتنا ظروف الحياة عن بيئاته ومجامعه ، ويهفو بألبابنا شوق مُلح الى كتبه ورسائله برغم الفارق الظاهر ، والحجاب الذى تكاد تسدله شواغل الحياة فى الزراعة والمال والاقتصاد . فنتلمس فى أجوائنا جهـد الطاقة نسيمه المنعش ، وهو للروح حاجة كحاجة الزرع للماء .

والأدب فى عرفى روح كل كيان ، ولا ينقبض بفضله عن أى عمل أو مهنة ، وانما يتلون ويختلف باختلاف الأعمال والبيئات . وهو عنوان الحياة والذوق — فلا يعرض نفسـه إلا لراغب الاجتلاء . وعنـدى أنه بشىء من التفهم ، وحسن النظر يجده المرء ماثلاً . ويجد غذاءه دافقاً بغير مَنّ .

وها هى ذى رحمة الله تقرب البعيد ، وتعوض من طرف ما يخال ضناً من طرف آخر . فتبسط لنا يده جل شأنه — فيما تبسط — من صحيفة الحقل قصائد عامرة الأبيات ، شجية النغمات . وفى أمثال إخواننا الفلاحين وإشاراتهم واستعاراتهم قطع من المنثور الملىء بالمعانى الدقيقة القيمة ، ولـكن بالأسلوب الذى يتفق والنشأة ، ويتسق مع البيئة .

رافقت مرة أحد مفتشى الجمعية الزراعية متعهداً حقـلاً للقطن من الزراعة الخاصة ، سائرين خلف ناظر الزراعة ، نطوف باحثين كل منا بقدر علمه ، وعُنينا جميعاً بالتحقق من خلو الحقل من الآفات . ثم من النبات الغريب ، وتدرجنا الى حالة الزرع ودرجة العناية به . ثم الى البذرة وانتقائها ، والناظر فى كل ذلك فخور بنتائج اشرافه ، ينتظر الحكم فى ثقة وثبات .

ظننا حين هنأناه بحسن عمله ، أننا فرغنا وليس لنا إلاّ أن نعود أدراجنا ! ! واذا بالناظر يغير السير ، ويتجه الى أقصى الجهة الشرقيـة فى خطوات متئدة ، وفى معان من التوسل للاقتداء به . ثم نظر نظرة هادئة الى أسفل ، أعقبها بأخرى أبعد مدى الى الغرب ، وقال يخاطب المفتش : « أرجو أن تنظر لترى النبات فى خطوط لا تشكو عوجاً ؟ ثم انظر فى أى ناحية ، ألا تجد النبات فى مستوى واحد فى الارتفاع ؟

أليس هذا الحقل قصيدة إذن ؟ أليست خطوط القطن مفصولاً بينها (بالمساق) القاطعة لها — أبياتاً من الشعر من صدر وعجز ؟

ثم أليس فى نغمة الناظر على سذاجتها شاعرية ؟

أى والله ! ولقد روحت عنى هذه الملاحظة كثيراً من العناء ، وسرى فى جسمى ما يسرى عنـدما أخرج من عملى مكدود الذهن ، كليل الخاطر ، فأقرأ قصيدة للمتنبى أو مقطوعة لشوقى بك رحمهما الله !

على أنى بين مشاغل المادة من مرور وفحص وارشاد ، وبين متعة الأدب الذى خبرت فذكرت ، لم أزل بين القطن ، ولم أعد الحقل وفيه ريان . وذكرت قول شوقى بك فى (باريس) :

إن كنتِ للشهوات ريّاً فالعلى شهواتهن مُرَوّيات فيك

* * *

ولطالما عز القطن وعز معه زارعوه ، فلم تـكن تسمع بيننا إلاّ تنويهاً بذكره ، وتدليلاً لاسمه ، ففاز من أدب الزراعة بأقشب الأثواب ، وأجذب الأسماء والاشارات ، فدعى « بذى العين البيضاء » وسمى « أبا الذهب »

حتى اذا دهمت الأزمة ، وحلت الـكارثة ، فى سنة ١٩٣١ بتدهور أسعاره ، لم يبخل عليه أدب الزراعة « بذى القلب الأسود » فاذا تساءلت دَهشاً أو أنـكرت عدم الوفاء لمن سبقت على الفلاح نعمه : ! قيل لك : أوليس بذوره سوداء حقاً ؟ أوليست تقع من « اللوزة » فى الصميم ؟ .

جزاء فجورك ، وما انبث فى كل شق من شقوقك من دعارة وفساد . . .

أى بومبى ! أيتها المدينة الفاتنة ، لقد كان ما حل بك من عقاب عدلاً ، حتى لتجزع الطير من أن تحوم بين أسوارك رهبة وذعراً ، على رغم مضى عشرين قرناً على نكبتك !

أى بومبى ! أيتها المدينة الخالدة ! لا تجزعى على ما أصابك فالدنيا دول ، فـكم من مدن كانت أعظم منك شأناً ، وأرفع بنياناً اندثرت كأن لم تـكن ، حتى أن بعضها تلاشى فلا يعرف الآن مكانه . . . !

حسين شوقى

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذممت فقل قيء الزنابير

ألم تر الى حقل القطن فى أواسط شهر اكتوبر ، وقد كادت تجف سوقه وقد اشتد سواد لونها ، ودنت قطوفه بيضاء تحلى عاطله وتلين من وحشة جفافه . أليست الأولى أشبه بالليل ، جاءته الثانية نجوماً ذات لألاء تخفف من قساوة ظلمائه ، منتشرة بين أعاليه وأسافله وأواسطه هدى للسارى .

فاذا حان القطاف ، وانتشر فى الحقل الصغار يجمعون ثمار عمل طويل الأمد ، عُوضوا من شدة السوق وأذاها طراوة القطوف لينة طيعة فى بياض ناصع خلال سواد قاتم

يمزج الوصل بالصدود ويا ما أعذب الوصل من خلال الصدود !

فاذا انتهى اليوم وقاربت الشمس المغيب ، فنى آخر الحقل « الموازين القسط » منصوبة للعاملين ، تحدد نتائج أعمالهم . وتحدد لكل ما يستحق من جزاء ، ويؤجر الانسان بقدر عمله .

ولقد يمر الصبى وما جمع بأكثر من يد . فهذا ينظر الى خلو القطن من طين الأرض ، وذاك يحقق خلوه من الرطوبة (عب الندى) ، وآخر ينظر فى النظافة عموماً ، كما يفعل جمهرة الأدباء وصفوة النقاد حين يطالعهم بديوانه شاعر ، أو ينشر كتابه ناثر ، فكل وذوقه ، وكل وما يستسيغ من المعانى . فيرهفون أقلامهم بما يعن لكل منهم ، وكل يؤدى أمانته

بل إن اليوم الواحد فى موسم « الجنى » ليمثل رواية كاملة للدنيا . فمن جد للسعى ، الى تشعب للعمل ، الى تنافس فيه ، الى اختلاف فى النظر والمذاهب ، الى وضع لنظريات الحياة ، فبينا فريق يجمع بكلتا يديه ما تصلان اليه أياً كان نوعه ، الى فريق ينتقى ويدقق عن يقين بمآله ونتائج سعيه . فالأولون يفرحون بالكم ، والآخرون يدخرون النوع والدرجة شفيعاً اذا نقصت الموازين .

فى نهاية اليوم ما يشبه تصفية الحياة ، والنظر فى صحيفتها ، فمن مقل مجيد ، الى مكثر مسىء ، الى سابق بالخيرات

ثم ما هى إلا لحظات حتى لا ترى للازدحام أثراً ، وينصرف كل بما أفاد ، ويتفرق الجمع الى مختلف الجهات . وتمر أيام قليلة فتجعل من تلك البقاع التى تشبه المناجم الغنية ، أحطاباً سمراء مهجورة ، ثم تحيلها الأيام هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ؟

محمد محمود جلال

الرســـالة ...

للأديب أحمد على المكى

كان صدور « الرسالة » فتحاً جديداً فى الأدب العربى ، وخطوة كبيرة فى ميدان العلوم والفنون ، وهى الآن فى شكلها الحاضر تعد آية فى غزارة موادها ، وحسن طبعها ، وأنيق رسمها ، وسحر مقالاتها ، وبديع منظرها ، ومنظر غلافها الرائع .

وإذا أنعمنا النظر اليها من حيث مركزها الأدبى فى الوقت الحاضر ، نجدها — مع قرب صدورها — قد أصبحت فى طليعة المجلات العربية الأدبية ، وكونت لنفسها مركزاً سامياً ، بين كثير من أخواتها التى مع قدمها لا تزال سائرة متطلعة الى مثل هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة .

وصدورها فى « مصر » العربية — التى لها الحق فى أن تفتخر وتزهى على بقية الأقطار العربية بكثرة مجلاتها المتنوعة ، ووفرة جرائدها المختلفة — لم يكن حاجزاً دون انتشار صداها فى عموم البلاد العربية وأبنائها ، ولم يمنعهم وجود البون الشاسع ، والحواجز الطبيعية الجغرافية ، وتفرقهم فى مختلف الأقطار ، من أن يجعلوها « منبراً » عاماً لنشر ثمار قرائحهم الوقادة ، وعصارة أفكارهم الثاقبة ، ونتائج تجاربهم الأدبية والعلمية ، وآرائهم القيمة العالية ، واقتباساتهم الطريفة الظريفة ، من الثقافة الغربية الملائمة للذوق العربى الشرقى .

خذ أى عدد من أعدادها الثمينة فلن تجده إلا عنواناً للرابطة الأدبية العربية الوثيقة . فهذه مقالة لكاتب مصرى بليغ ، وتلك قصيدة منشأة أو مترجمة عن الانجليزية أو الفرنسية لشاعر فى سوريا أو العراق أو الموصل ، من غير أن تتعصب لطائفة مخصوصة — شأن كثير من المجلات — أو تقديم كاتب وطنى على غيره ، أو التشدق بالنعرة الوطنية .

هذه الظاهرة الجليلة التى امتازت بها هذه المجلة الغراء تحملنا على أن نسميها بحق : مجلة العالم الأدبى العربى — ولا تتجاوز سياج الحقيقة والواقع ، إذا سميت بهذا الاسم أو اتخذته شعاراً لها .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

وهذه الميزة الواضحة السامية ، هى التى ألجأتنى وحفزتنى الى كتابة هذه الأسطر ، مع إظهار الأسف الزائد اذ لم تقع عينى وأنا أراجع الفهرس للسنة الأولى ، وأتتبع أعداد السنة الثانية على اسم كاتب حجازى يكون قد اشترك مع إخوانه وزملائه المعاصرين فى الأدب ، على صفحات هـــذه الصحيفة الغراء ، ليساهمهم فى هذه النهضة العلمية الفكرية المباركة ، وليتعرف اليهم ، ويعرفهم بنفسه ، وألا يكون بعيداً عنهم ، اذ هو أقرب الناس الى هذه المجلة الراقية علاقة ورابطة ، وأحوجهم الى الاشتراك فى مثل هذه الخدمات الأدبية الجليلة ، وباشتراكنا معهم يمكننا أن نؤمل من مديرها الفضال الأستاذ الزيات ، اذا أراد أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين ألا ينسى « الحرمين » كذلك .

مكة المكرمة أحمد على

***

(الرسالة) جاءنا بهذا المعنى رسائل وقصائد للسادة الأفاضل محمد الرضا آل السيد هاشم الخطيب ، والأستاذ السيد مصطفى شريف ، والأديب حافظ غريب ، والسيد محي الدين الفضل ، والشيخ ابراهيم احمد ابو الفرج . . . فرأينا فى نشرها إساءة منا الى الحياء ، واعتداء على حق القراء ، فحفظناها تذكاراً لهذه العاطفة النبيلة ونقدم لهم أسمى ما يقدم الصديق المخلص من الشكر والمعذرة ؟

مهمة النـــاقد

بقـــلم نظمى خليل

شغلت الصحف فى الأيام الأخيرة ببعض الدواوين الشعرية وانبرى النقاد والكتاب لهذه الدواوين بالعرض والتحليل . وهذا أمر مألوف ، فقد اصطلح الناس على أن يتناولوا كل أثر فنى جديد يعرضون له تارة فى شىء من التقدير والاعجاب ، وتارة فى شىء من التحقير والسخط ، وحجة كل ناقد أو مستوعب لهذا العمل الفنى أنه يراه كذلك ، وأن ذوقه الأدبى يوحى له بهذا .

ولست أريد اليوم أن أسلك هذا الطريق أو أتناول ديواناً من هذه الدواوين بالعرض أو النقد . ولكنى أريد أن أتساءل فى هدوء ما فائدة النقد وما مهمة الناقد ؟

لا أرغب من طرح هذا السؤال أن أثير ضجة فى ميدان النقد ، أو أن أحط من شأن النقاد ، ولكنى أتساءل مخلصاً ما الفائدة الحقيقية التى تعود على الفن من نقد النقاد وتحليلهم ؟

لقد انحط فن النقد عندنا حتى صرنا نرى الناقد لا يعدو أحد رجلين : رجل يكيل المدح فى كرم وسخاء ، وآخر يرمى بالشتائم والهجاء اللاذع المؤلم فى غير تحرج ولا استحياء ، وليس هذا عمل الناقد الفنان ، فما كان النقد فى يوم من الأيام مدحا أو هجاء ، ولن تكون مهمة الناقد فى يوم من الأيام أن يقف من الأثر الفنى موقف من يقول إنه حسن أو إنه قبيح ، ولكن الناقد الفنان هو الذى يستوعب ويقف على هذا الخلق الفنى سواء فى الأدب أو النحت أو التصوير أو الموسيق ، ويقول لماذا هو حسن وأين موضع القبح فيه .

ويجب عليه ألا يبنى حكمه هـــذا على ذوقه الشخصى ، فلو اعتمد النقد على الذوق فقط لنالته الفوضى وعمه الفساد . ولكن النقد لابد له من قواعد وأصول تقوم بجانب هذا التحكم الفردى فتخفف من غلوائه وتوقفه عند حده . ولست أذهب الى ماذهب إليـه تين Taine المؤرخ الفرنسى من أن زماناً معيناً ومكاناً معيناً وجواً معيناً تنتج أدبا خاصاً . فأنا لا أريد أن أحشر النقد فى زمرة العلوم ، ولكنى أرى أنه لايمكن أن يكون فناً خالصاً يقوم على الذوق ، أو علماً محضاً مرجعه القواعد والأصول .

أعود بعد هذا الاستطراد إلى سؤالى السابق الذى طرحت ، والذى شغلنى كثيراً ولا سيما فى هذه الأيام ، إذ لا يكاد ينقضى يوم حتى أقرأ فى صحيفة أو أكثر من صحيفة بحوثاً مستفيضة تارة عن ديوان « وراء الغمام » وتارة عن ديوان « الملاح التائه » وهكذا ، أتساءل فى شىء كثير من الاخلاص ما الفائدة الحقيقية التى عادت على أصحاب هذه الدواوين ، ولست أعنى بأصحاب الدواوين أشخاصهم ولكنى أعنى ملكة الانتاج وقوة الابداع فيهم .

هل استفاد هؤلاء الشعراء من تلك البحوث المستفيضة ؟ هل زادت ثروتهم الفنية ؟ هل نجد فى آثارهم المستقبلة أثراً لهذه البحوث ؟ ليس من شأنى أن أتعجل الزمن فأحكم على آثار هذه البحوث ومواضيع النقد التى كتبت وتكتب حول هذه الدواوين . ولكنى أعرض لكاتب من كبار كتابنا الذين ظهروا حديثاً وهو الأستاذ « توفيق الحكيم » لم يكن هذا الكاتب معروفاً لدى القراء قبل عام ، ولكنه استطاع أن يتبوأ مكانة سامية بين كبار كتابنا فى

أقل من أسبوع ، إذ ما كاد يذيع باكورة آثاره الفنية الرائعة « أهل الكهف » حتى ذاع صيته وعرف فى كل مكان . وهنا ألقى السؤال « هل كانت شهرة الأستاذ توفيق الحكيم آتية من جانب النقاد الذين تناولوا روايته أو قصته التمثيلية فى إعجاب وتقدير شديدين ؟ أم من تلك المسرحية نفسها وما فيها من فن صاحبها وقدرته على تفهم أصول القصة والمحاورة . ؟ »

إنى لا أتردد فى الاجابة على هذا السؤال معلناً رأيى فى صراحة أن شهرة توفيق الحكيم استمدت غذاءها من روح صاحبها الفنان ، ودعمت أسسها على فنه الخالد ، أجل ، أنا لا أنكر فضل أساتذة النقد عليه ، فقد شادوا بفضله ، ووقفوا الناس على فنان كان أمره مجهولاً من الكثيرين .

ولكنى أسأل ما الذى عاد على فن الأستاذ الحكيم من هذا التهليل والتكبير . قد يكون أساتذة النقد أفادوا الأستاذ كمؤلف يريد أن يتعرف للجمهور ويتحدث عنه الناس ويقبلوا على شراء كتبه . وقد يكون أساتذة النقد أفادوا القراء بما استكشفوه فى نتاج توفيق الحكيم من فن رائع وعبقرية كامنة . فأقبل القراء على مؤلفاته متزاحمين مدفوعين على قراءتها بما كتبه هؤلاء الأساتذة عنها . ربما كان فى هذا الكلام الصواب كله أو بعضه ، فكلنا يعرف أن القراء إنما يقرأون بالتأثير كما يتمغطس بعض المعادن من بعض .

فاذا قرأ قارىء كتابا وأعجب به أخذ يبدى هذا الاعجاب لمن حوله فيثير فيهم الرغبة القوية لقراءة هذا الكتاب . وهو لا يقنع بهذا ولا يهدأ حتى يقبل أصدقاؤه على هذا الكتاب ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فقد يقرأ قارىء كتاباً فيضيق به ويسخط على صاحبه ثم هو لا يبقى على هذا السخط فى نفسه بل يخلق المناسبات لاعلانه فى المجالس وفى الأندية والمجتمعات ، ثم هو لا يرتاح ولا يستقر حتى يجد من يشاركه هذا السخط والضيق بالكتاب وصاحبه . وهكذا شأن القراء ، فهم يقبلون على القراءة بالعاطفة والشعور سواء أكانت هذه العاطفة جميلة أم غير جميلة . وسواء كان هذا الشعور فى جانب صاحب الكتاب أو عليه .

وقد يكتب أحد أساتذة النقد مقالاً يتناول فيه كتاباً من الكتب بالبحث والتحليل فيستهوى هذا المقال لب قارىء من القراء – وقد يستهوى كثيرين – فيعلن هذا القارىء آراء هذا الناقد فى ذلك الكتاب بين أصدقائه وإخوانه وتكون النتيجة أن يتزاحم هؤلاء الأصدقاء على قراءة هذا الكتاب مدفوعين بما سمعوا أو قرأوا عن هذا الكتاب . فيقرأونه وهم تحت تأثير هذا المقال . وإنى أسوق الى القارىء مثالاً على هذا

كنت منذ أربعة أعوام أكره الشاعر « تنيسون » وأضيق به كلما هممت أن أقرأ شيئاً من شعره . كان هذا منذ أربعة أعوام لم أكن قرأت قبلها نقداً أو تحليلا لشعر هذا الشاعر . قضيت على ذلك عامين وأنا أكرهه ، بل كنت أقرأ كل من يذكر اسمه أمامى أو يعجب به ، حتى كان لى مع الأستاذ « سكيف » أستاذ الدراما وشكسبير بكلية الآداب نقاش شديد حول هذه الكراهية الغريبة . فأخذ الأستاذ يبسط لى جمال شعر ذلك الشاعر ، ثم كان أن قرأت كتابه الصغير وهو ثلاث محاضرات كتبها مستوعباً بعض قصائده مقدراً فنه . فأخذ رأيى يتغير وأقبلت على قراءة شعر ذلك الشاعر فى حب وتقدير عظيمين .

وإنى أقف اليوم من الشاعر براوننج ما وقفته بالأمس من الشاعر تنيسون ، ولست أدرى أأوفق إلى أستاذ كذلك الأستاذ أو إلى كتاب كذلك الكتاب يحبب إلى قراءة شعر هذا الشاعر ، أو أنى سأقبل عليه من نفسى أو أظل على انصرافى عنه بقية أيامى .

أعود إلى سؤالى الأول « هل استفاد الأستاذ توفيق الحكيم شيئاً من هذه الضجة الكبرى التى أثارها بمؤلفاته الثمينة . إنى أرى أن الفائدة الفنية معدومة ، ولكنى مع ذلك لا أتجاهل فائدة النقاد للقراء وللمؤلف . للقراء كمرشد يأخذهم إلى مواطن الحسن الفنى ، وينبههم إلى مواضع الضعف ومواطن القبح ، وللمؤلف كأعلان عن كتابه وكأشادة بفنه السامى .

ليس فى هذا الكلام تعسف ولا مغالاة . وإنى أرجو كل من يرى أو يخيل إليه أنه يرى أن فى هذا إجحافاً بحقوق النقاد ألا يثور ويحنق ، بل أرجو منه أن يهدأ ويخلو إلى نفسه يسائلها هل غير الأستاذ توفيق الحكيم شيئاً فى فنه نزولاً على رأى أو تنفيذاً

لنقد ، هل تفتحت طبيعته عن أشياء كانت أثراً للنقد أو نتيجة لنصائح النقاد . هل زادت ملكة الانتاج وقويت عنده بعد نشر هذه البحوث وكتابة هذه المقالات . كلا .

أرجو كل من يرى فى هذا تطاولاً على النقد والنقاد ألا يحنق ويسخط بل يهدأ ويخلو إلى نفسه يسائلها ما الفائدة التى عادت على فن شكسبير من مئات الكتب التى كتبت عنه . لقد كتب عن شكسبير مالم يكتب عن أى انسان آخر . وإنك لترى اختلافاً كبيراً فيما كتب عنه . فمن النقاد من تناول حياة شكسبير الأولى ومنهم من تحدث عن شكسبير شاعر الانسانية ، وشكسبير الممثل ، وشكسبير المؤلف المسرحى ، وشكسبير المصور المبدع ، وشكسبير الفنان وهكذا .

هناك مئات الكتب عن شكسبير وهناك عشرات الكتب كتبت فى غرض واحد مثل شكسبير « المؤلف المسرحى » ولكنك لن تجد رأيين يتفقان ، ولن تعثر على كاتبين قد سلكا مسلكاً واحداً فى بحثهما ، ثم أرجو أن تسأل نفسك هذا السؤال : « مابال أولئك النقاد يصلون لياليهم بأنهارهم صامدين للبحث صابرين على الشدائد فى هذه البحوث الطويلة المستفيضة ؟ ستقول إنهم يريدون أن يحلوا ألغاز شكسبير ويشرحوه حتى يعرف الناس من هو شكسبير . ستقول إنهم يريدون أن يحللوا مسرحيات شكسبير ويطبقوها على الحياة الواقعية التى نحياها كل يوم . يريدون أن يبرزوا مواهب شكسبير الفنية ودقة فهمه للطبيعة الانسانية وما فيها من شتى العواطف والاهواء من حب وبغض وحقد وغيرة وحيرة ويأس وأمل وخيبة وخيانة وغدر . إنهم يريدون أن يكشفوا عن أثر الطبيعة فى فن شكسبير وأثر الحياة الطبيعية فى شعره .

إنهم يريدون هذا وغير هذا ، ولكن هل وفقوا إلى شىء من هذا الجواب . لا . لم يوفقوا إلى ازاحة الستار عن سر تلك العبقرية الشاذة وعن ذلك الفن الخالد . لقد كتب كثيرون عن مآسى شكسبير Tragedies ، كتب برادلى كتابه « المأساة عند شكسبير » Shakespearean Tragedy وهو أحسن ما كتب فى هذا النوع : حلل فيه أبطال مآسيه الكبرى عطيل وهاملت والملك لير وماكبث . وكتب كثيرون غير برادلى عن فن شكسبير الدرامى أو التمثيلى . ولكن هل استطاع كاتب من مئات الكتاب أن يكشف الستار عن سر هذه العبقرية وجلاها ؟ هل أفلح كاتب من مئات الكتاب أن يقدم لنا صورة واضحة لنفسية هاملت الحائر وطبيعته العميقة وفلسفته الغامضة ؟ هل استطاع كاتب أن يحدد لنا غرض شكسبير من مأساته الخالدة « الملك لير » وهل استطاع علم وظائف الأعضاء وعلم النفس الحديث أن يفسرا ظواهر الجنون فى الملك لير وهاملت ، وغرائز الغدر والخيانة فى « ياجو » ، والشعور بالغيرة فى عطيل ، ومطامع الانسان فى ما كبث ؟ بل هل استطاع كاتب أو وصاف بارع أن يصف لنا شكسبير شاعر الطبيعة الفذ فى كوميدياته : « كما تحبها » . « وحلم ليلة فى منتصف الصيف » ، « والعاصفة » لا . لا . لقد أجهد مئات الكتاب أفكارهم فى شرح رجل واحد وفى تفهم نفسية فرد فلم يفلحوا ، بل تشعبت بهم البحوث وتباعدت آراؤهم وتضاربت .

فعلام كان كل هذا الاجهاد والنصب ؟ وعلام كان كل هذا الاهتمام ؟ لم يأت هذا الاجهاد بثمرة ، ولم تكن لاهتمامهم نتيجة ، فقد فشلوا جميعاً وعجزوا عن تفهم روح الشاعر نفسه ، عجزوا عن ادراك سر عبقريته .

فياليت شكسبير الذى أبدع كل هذه المسرحيات وجاء بهذه المعجزات الفنية فى الشعر أراح أولئك النقاد وأراحنا نحن القراء ، فكتب موجزاً صغيراً لمآسيه وكوميدياته يشرح فيه فكرته وأغراضه ، ولكن شكسبير معجزة الدهور قد أبى أن يقف الناس على أسرار فنه ، ومن يدرى ؟ ربما لم يعرف هو نفسه من أمر فنه شيئاً فمات وبقى لغزاً لن يحل . فاذا ألقينا نفس السؤال « هل استفاد فن شكسبير من هؤلاء النقاد الذين يعدون بالمئات ؟ كان الجواب بالنفى طبعاً ، لأن شكسبير لم يعش حتى يرى هؤلاء النقاد ، وأغلب الظن أنه لم يعن بأمر هؤلاء النقاد ولم يأبه بمعاصريه الذين تناولوا مؤلفاته بالنقد سواء المعجبون المشجعون أو الناقمون الحاقدون . فان شكسبير لم يكتب ليعجب النقاد أو يسخطهم ، بل أغلب الظن أنه لم يفكر فى اغضابهم أو اعجابهم ، وهذا شأن الفنان الحر الطليق لا يفكر إلا فى نفسه وفى فنه ولا يأبه إلا لرأيه ولا يخلص إلا لفنه .

ولكنى مع ذلك لا أنكر أن هذه المئات من الكتب التى كتبت عن شكسبير قد أعانت وستعين كل دارس لشكسبير ؛ ستعينه بقدر ما وصل اليه هذا الكاتب من تفهم لروح شكسبير ووقوف على أسرار عظمته الفنية . أقول أعانت القارئ وستعينه ، ولكنها لن تقفه على موطن الاعجاز فى شكسبير الأصيل ، فلن يعرف قارئ هذه الكتب موطن الاعجاب بهاملت والغرض الأساسى الذى كتبت من أجله ، وسيظل البطل هاملت حيرة الألباب والعقول ما بقى فى العالم إنسان مفكر .

فاذا كان هذا أمر النقاد والشراح من الفنانين العظام ، ففيم إذن تنحصر مهمتهم ؟ هل لهم رسالة يؤدونها كالكتاب ؟ فى رأيى أن الناقد عالة على الكاتب ، أرى أن الناقد شخصية ثانوية تعيش على غيرها ؛ فلولا الكاتب لما وجد الناقد ، ولولا الخلق والابتكار والانتاج لما وجد النقد ولما سمعنا صياح النقاد الذى يصم الآذان . فلولا شخص واحد كشكسبير لما وجد مئات النقاد الذين وإن كانوا قد أرشدونا إلى بعض مواطن الحسن والاعجاز فى فن شكسبير ، إلا أنى أرى أن هذه المهمة وإن كانت عظيمة الفائدة فى ذاتها ، أقل من أن تكون مهمة مئات من الرجال قد استمدوا حياتهم الفنية ووجودهم الأدبى من عبقرية فرد واحد هو شكسبير ؟

نظمى خليل
بكالوريوس آداب

جواب عن سؤال

الالياذة والأوذيسة*

... أشرتم فى كتابكم (تاريخ الأدب العربى) إشارة موجزة الى ديوانى الالياذة والأوذيسة . فهل تتفضلون وأنتم ... بكلمة فى الرسالة عن موضوعى هذين الديوانين ...

(سنغافورة) م ٠ ع ٠ ج

الالياذة والأوذيسة منظومتان يونانيتان نسبتا الى هوميروس ، واستفاضتا فى الشعوب والأجيال تحملان أثر العبقرية الاغريقية ، وترددان صدى الحرب الطروادية ، وتمدان الآداب العالمية بالغذاء والقوة . موضوع الالياذة غضب أخيل ، وهو حادث بسيط من حوادث حرب طروادة وقع فى السنة العاشرة من حصارها ، واستغرق واحداً وخمسين يوماً ، تبتدئ بشجار أخيل وأغاممنون وتنتهى بقتل هكطور . وتنقسم هذه الملحمة الى أربعة وعشرين نشيداً تمثلت فيها صور الحياة اليونانية بأساطيرها وعاداتها وآدابها جلية رائعة مؤثرة . وأهم أبطالها من الاغريق أغاممنون ملك ارجوس ومسينا وأمير الجيش ، ومينيلاس أخو أغاممنون وملك اسبارطة ، وأخيل ملك الفذوتيد ، وبتروكل صديق أخيل ، ونسطور ملك بيلوس ، وأوليس ملك أتيكا ؛ ومن الطرواديين هكطور وفاريس ابنا فريام ملك طروادة ، واينوس حمو فريام الخ . وللآلهة فى الالياذة شأن خطير وأثر كبير : فزحل ومنيرفا مع الاغريق ، وأبولون والمريخ مع الطرواديين . فهم يدبرون القتال ، ويحمون الأبطال ، ويتقارعون فيما بينهم انتصاراً لطائفة على أخرى .

وملخصها أن أبولون سلط الوباء على معسكر الاغريق ، فأعمل فيهم منجله انتقاماً منهم على سبيهم بنت كاهنه كريزيس . ثم جل الخطب بوقوع الخلاف بين أغاممنون وأخيل من أجل سبية نفسها الأول على الثانى فاستأثر بها دونه من غير حق . ولما عجز أخيل الباسل عن الأخذ لنفسه من أمير الجيش

---

* ترجم الالياذة الى العربية المرحوم سليمان البستانى ، أما الأوذيسة فلم تترجم

اعتزل الحرب وهو يكاد ينشق من الغيظ والحنق ، فرجحت كفة الطرواديين باعتزاله ، وحالفهم النصر منذ استراحوا من قتاله . ودارت الدائرة على الاغريق فجُرح ديوميد وأوليس ، وأخذ هكطور يحرق أسطولهم وأحدق بهم الخطر من كل جانب . فلما رأى ذلك بتروكل استعار سلاح أخيل وصمد الى العدو فأجلاه عن موقفه . إلا أن أبولون أسعف الطرواديين فتصدى للبطل فأسقط خوذته ونزع درعه ، حتى أمكن هكطور أن يضربه الضربة القاضية . وجاء نعى بتروكل الى صديقه أخيل فسارع الى الخنادق ، وما كادت العيون تأخذه حتى وقع الرعب فى قلوب الطرواديين ، وسرت الحمية فى نفوس الأغريق . فاستخلصوا جثة بتروكل ، وشق على أخيل أن يطل دم صديقه ، فصالح الزعماء وأزمع قيادة الجيش . وأرسل أمه الى فلكان إلـه النار تأتيه منه بسلاح ولأمة . فلما تسربل بالحديد خاض المعركة فأوقع بالطرواديين وقذف بهم فى نهر الاجزنت ، والتقى بهكطور فحمل عليه وقتله ، ثم شده الى مركبته وطاف به مسحوباً على وجهه حول جدران طروادة على مشهد من أسرته الضارعة الحزينة . ثم احتفل بعـد ذلك بجنازة بتروكل ؛ وأوحى إلـه من الآلهة الى فريام أبى هكطور أن يذهب الى أخيل يسأله جثة ولده ؛ فذهب الشيخ يسترحم البطل المنتصر ، ويتوسل اليه بذكرى أبيه حتى رق له وردّ اليه أشلاء القتيل .

***

أما موضوع الأوذيسة فهو مخاطر أوليس بعد سقوط طروادة ورجوعه الى أتيكا بعـد أن عوقته عن هذه الأوبة أقدار الآلهة المعادين عشر سنين . وتنقسم هذه الملحمة الى أربعـة وعشرين نشيداً أيضاً ، وقعت حوادثها فى خلال أربعين يوماً ، وهى دون الالياذة فى الأسلوب والقوة والجاذبية ، حتى كان هذا الاختلاف الشديد دليلاً من أدلة الأستاذين الناقدين فيكو الايطالى ، وولف الفرنسى ، على أن هاتين الملحمتين ليستا من صنع مؤلف واحد . وملخصها أن أوليس لدى عودته من حصار طروادة حل عليـه غضب نبتون إلـه البحر فأضـله بين جزره وسواحله ؛ وطال نزوحه عن وطنه حتى ندبه أهله وبكاه قومه ، وحتى جرؤ الطغاة من الأمراء على أن يستبيحوا ذماره ويهلكوا ماله ، ويكرهوا بنيلوب زوجه ، على أن تختار أحدهم لها بعلاً . وغضب تلماك ابن أوليس على حداثة سنه لانتهاك حرمتـه ، وانتهاب ثروته ، وابتذال فنائه ؛ فخرج فى البحث عن أبيه عند رفاقه من أبطال طروادة ، ائتماراً بمشورة الآلـهة منيرفا . فذهب الى نسطور فى بيلوس ، والى منيلاس فى أسبارطة ، فقص كل منهما عليه ما كابداه فى أوبتهما من الأهوال ، ونعيا اليـه بتروكل وأخيل واغاممنون وأجاكس ؛ أما أوليس فانهما لا يعلمان شيئاً عن مصيره

وكان أوليس فى ذلك الحين أسيراً فى جزيرة « أُوجيجى » عند الحورية جاليبسو ، فظفر بالنجاة على ظهر طوف[1] ، ولكن عاصفة هوجاء هبت عليه فقذفت به فى ساحل جزيرة (الفياسين) على حالة بين الحياة والموت ؛ فاقتاده أهلها الى ملكهم ألسينوس ، فقص عليه أوليس ما عاناه من الشدائد منذ غادر طروادة ، فأعجب الملك بشهامته وفصاحته ، وأعدّ له سفينة أقلتـه الى أتيكا ، فلما وطئت قدمه أرضه تنكر فى زى سائل ، ونزل عند الشيخ (أُوميه) حارس قطعانه ؛ واتفق أن رجع تلماك الى وطنه فى ذلك الحين فلقى أباه وعرفه ، وأخذا يديران الحيلة معاً لهلاك أولئك الأمراء المعتدين بمعونة الخدم المخلصين . وكانت بنيلوب طوال هذه السنين قد نجحت فى مماطلة هؤلاء الخطاب الملحفين بأن علقت قبولها الخطبة على فراغها من الثوب الذى كانت تنسجه ، وهيهات أن تفرغ منه ، لأنها كانت تظل النهار كله تنسج فيه ، حتى إذا جاء الليل نقضت ما نسجته . فلما طال الزمن وانقطع الرجاء من أوبة الغريب ، وكلت الحيـلة ، وأهلك الخطاب الزرع والضرع ، أوشكت أن تذعن لولا أن دخل أوليس متنكراً الى قصره وفتك بأعدائه ، وتعرف الى زوجه الوفية بنيلوب ، وجده الشيخ لايرت ، وأخذ يجمع أهبته لمقاومة أهل المقتولين ، إلا أن منيرفا حلت فى شخص منطور صديق أوليس ومشير تلماك ، فضمنت بحكمتها لمملكة أتيكا السلام الدائم والرخاء العميم .

(الزيات)

---

(١) الطوف خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر ويقال له الرمث أيضاً : Radeau

١١ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ على الليثى

سيّد الندماء

ولد سنة ١٢٣٦ ، كما تحققته من بعض أفراد أسرته ، كان فى ابتداء أمره مقيما بمسجد الامام الليث ، وكان ينزل الى الأزهر لطلب العلم ، ويعود للمبيت هناك ، وكان كريماً على فقره . ثم ورد على مصر الشيخ السنوسىّ الكبير قاصداً الحجّ ، فاتصل به ، وأخذ عنه الطريق وحجّ معه ، ولما عاد الى مصر لم يفارقه . بل سافر معه الى جغبوب ، وأقام هناك مدة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد . ثم فارقه وعاد لمصر ، واتصل بأمّ عباس باشا الوالى فجعلته شيخاً على مجلس دلائل الخيرات عندها . ثم اتصل أيضاً بالأمير أحمد باشا رفعت بن ابراهيم باشا الكبير . فاعتقد فيه ، وأطلعه على خزانة كتب عنده ، فاطّلع على ما فيها واستفاد منها . وبسبب سفره الى جهة المغرب اتهموه بمعرفة الزايرجة والأوفاق ، فلما تولى سعيد باشا على مصر ، أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات ، ونفيهم الى السودان ، فسيق المترجم معهم لما علق به من هذه التهمة ، فبقى فى السودان الى أن عفى عنه وعاد لمصر .

ولما تولى اسماعيل باشا على مصر ، تلألأ نجم المترجم ، وبدأ سعده ، فاتصل به ، وقربه هو والشيخ علياً أبا النصر ، وجعلهما نديمين له كنديمى جذيمة ، وصار لا يصبر عنهما فى مجالس أنسه ، فكانا إذا حضرا تلك المجالس أزاحا الكلفة وتبسّطا معه فى القول والتندر ، فكانت لهما فى ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار . وقد بلغ من شغفه بهما أن خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه . وحدث مرّة أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة فى الديوان ، ليُعرف من بها ، كقلم التشريفات ، وقلم التحريرات ونحوها ، وسألهما العامل عمّ يكتبه على قاعتهما ، فقال المترجم أكتب عليها : إنما نطعمكم لوجه الله . وبسبب تقرّب المترجم من الخديو قصده الناس فى الشفاعات عند الكبراء ، ونفع الله به خلقاً كثيراً ، جزاه الله عز مسعاه خير جزاء .

ثم لما عزل الخديو ، وتولى ولده محمد توفيق باشا ، شغف أيضاً بالمترجم وأحلّه محلّه من القبول . حتى كانت الفتنة العرابية وسفر الخديو الى الاسكندرية ، فانضمّ المترجم الى العرابيين اضطراراً أو اختياراً ، فلما عاد بعد الفتنة لم يؤاخذه ، وصفح عنه ، وقابله المترجم بقصيدة مطلعها .

كل حالٍ لضده يتحوّل فالزم الصبر إذ عليه المعوّل

تبرأ فيها من الفتنة ، وأبان عذره فى الانضمام الى العرابيين ، وزاد بعد ذلك من الخديو قربا ، وخصوصاً لمّا بنى قصره بحلوان ، فانه كان اذا سافر اليه كل اسبوعين ، ركب من هنا سفينة بخارية وذهب بها الى ضيعة المترجم التى بشرق أطفيح ، فيقيم عنده يوما ويتغدى فيها ، وهو شيء لا يفعله مع غيره . ولهذا السبب اعتنى المترجم بتلك الضيعة ، فغرس فيها البساتين والكروم ، وبنى قصراً صغيراً لنزول الخديو ، وحرمه وحاشيته ، ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديو ، فلم يكن له حظّ مع ولده عباس باشا ، كما كان مع أبيه وجدّه ، فجعل أكثر اقامته بتلك الضيعة ، يشتغل باستغلالها ومطالعة كتبه ، فاذا حضر لمصر نزل بداره التى بجهة باب اللوق ، فيقيم بها أياماً . ثم يعود ، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه أشهراً ، حتى توفاه الله الى رحمته فى يوم السبت ١٠ شعبان سنة ١٣١٣ عن سنّ عالية ، وقد شبع من الأيام وشبعت منه ، ونال من العز والجاه الى مماته مالم ينله غيره

وكان رحمه الله آية فى حسن المجالسة ، محبباً الى القلوب ، أديباً شاعراً ، حاضر الجواب ، فكه الحديث ، اذا عرفه انسان تعلق به ، وكره مفارقته ، مع أنه كان دميم الصورة ، أطلس ، ليس فى وجهه إلاّ شارب خفيف ، وشعرات على ذقنه . ولما حضر لمصر السلطان برغش ملك زنجبار ، ندبه الخديو اسماعيل باشا لمرافقته ومجالسته ، فلازمه مدّة مقامه بالقاهرة ، وأعجب السلطان به اعجابا شديداً . ثم لما عاد لبلاده ، صار يتعهّده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كلّ سنة ، فيهدى هو بها أخصّاءه وأصحابه . وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة ، وأصناف

الأعناب النادرة ، كان موقوفاً جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً . واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالاهـــداء والشراء ، والاستنساخ وغالى فيها ، وبذل الأثمان العالية . فجلبت له من الآفاق وعرفه تجار الكتب والورّاقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته ، وبقيت الى الآن محبوسة تحت أيديهم لا ينتفع بها .

وكان أدباء مصر وفضلاؤها يقصدونه فى تلك الضيعة ، فينزلهم على الرحب والسعة ، ويقيمون عنده الأيام والأشهر ، وهو مقبل عليهم بكرم خُـلُـقه ولطائفه ، ومحاضراته المستحسنة ، وقد يقيم الانسان عنده شهراً أو أكثر ، وهو يؤنسه كلّ يوم بحديث جديد لا يعيده . وبالجملة فقلّ أن يوجد مثله ، أو يجتمع لانسان ما اجتمع له ، مع الورع والتقوى خصوصاً فى أواخر أيامه رحمه الله رحمة واسعة .

الشيخ محمد شهاب الدين

المصرىّ الشاعر

شريف النسب اشتغل أولاً بالقبانة ، ثم دخل المحكمة الشرعية تلميذاً للتعلم ، ومال للأدب ، ونظم الشعر ، وداخل الأعيان حتى اتصل بعباس باشا والى مصر ، وتقرب اليه ومدحه بالقصائد فأحبه وقرّبه حتى صار كبير جلسائه وندمائه ، وجعل له فى كل قصر من قصوره حجرة يبيت فيهـا الليلتين والثلاث اذا طلبه للمجالسة والمنادمة ، وأفاض عليه من نعمه ، وقبل شفاعته حتى صار له بذلك جاه طويل عريض ، وله معه نوادر غريبة ، منها أن المترجم كان جالساً فى حجرته مرة فى أحد القصور ، ومعه بعض جلساء الوالى ينتظرون الاذن بالدخول اليه ، فقال فى عرض كلامه : يقولون إنّ البغلة لا تحمل ، أفلا يكون ذلك بسبب رطوبات أو ما أشبهها تعيق حملها ؟ وعند أفندينا أطباء كثيرون ، فلو أنه أطال الله بقاءه أمر بعضهم بالبحث فى سبب هذه العلّة وازالتها ، فلست أشك فى أنها تحمل بعد ذلك . وأسرع بعض العيون ، فبلّغ عبّـاسا باشا كلامه ، فجاءه بعد هنيهة أحد رجال القصر يقول له : يا أستاذ يقول لك أفندينا أننا سنأمر الأطباء بما أشرت ، ولـكن إذا لم تحمل البغلة ماذا يكون ؟ فبهت القوم لنقل المجلس بهذه السرعة إلاّ المترجم ، فانه وقف وقال : بلّـغ أفنـــدينا أنّ عبده شهابا له كذبتان كل سنة أيام الباذنجان ، هذه إحداها .

وكان رحمه الله رقيق المزاج ، أنيس المحضر ، لا يملّ جليسه من نوادره ، وتعـلّق بعلم الموسيقى فبرع فيه ، وأخذه عنه كثيرون وجمع فيه كتاباً سمّـاه سفينة الملك . وله ديوان شعر طبع بمصر ، وكانت وفاته سنة ١٢٧٤ .

الشيخ محمد أبو الفتح الحنفى

مفتى الاسكندرية

ولد فى أوائل القرن الثالث عشر ، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوى وغيره من شيوخ الوقت ، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها بنت السيد عباسى من مشهورى رشيد . وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الـكبير ، فلما انتقل الشيخ الى اسكندرية انتقل المترجم معه وبقى بها وانتخب أميناً لفتواها ، وكان مفتيها إذ ذاك الشيخ الدويرىّ ، ثم لـما مات الدويرىّ تولى البناء الافتاء فنقل المترجم لمنصب آخر ، ولـما مات البنا تولى هو إفتاء الثغر وبقى به الى أن مات . وكان له شغف زائد بجمع الـكتب واقتناء نفائسها ، حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمن بخس . وكان رأى بناته وزوجته ابقاءها فلم يرض ولده ، فذهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى فى شرائهـا واستنساخها . وكان له ولع أيضاً بجمع الساعات فجمع منها نوادر وطرفاً بيعت بعد موته أيضاً ، ولم يترك شيئاً من الحطام سوى دار باسكندرية كان يسكنها فى أواخر أيامه وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة ١٢٩٤ ودفن يوم الثلاثاء ، ورثاه الشيخ عبـد الرحمن الابيارى قاضى اسكندرية بقصيدة مطلعها :

أهذى سيوف الدهر جرّدها الدهر
أم السنة الشهباء جفّ بهـا الزهر

ومن مؤلفاته كتاب تبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وشرع فى كتاب آخر فى الفقه لم يكمله ، وكانت له يد طولى فى علم الميقات ، وهو جد صاحبنا العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لامّه .

أحمد تيمور

في الأدب العربي

أبو العتـــاهية

بقـلم عبد الحليم عباس

لا أعرف . ماهو هذا الشيء الذى يجذبنى الى قراءة هذا الشاعر ، ومعاودة هذه القراءة الفينة بعد الفينة .

فليست جودة شعره هى كل شيء ، فهناك من يفوقه طلاوة لفظ ، وصحة أداء ، وسموا فى الشاعرية .

لا لأنه يعيد لنا صورة حقبة رائعة للمجد العربى ، والحضارة العربية ، التى نما فى أحضانها وتقلب فى أعطافها ، والتى تغذى فينا هذه العزة القومية ، التى نشعر أنها مثلومة ، كلما رأينا الوطن نهباً مقسماً مهيض الجناح . . . هناك غيره من الشعراء ، يمثلون أروع الحقب ، وأزهى الأزمنة للفتح الاسلامى ثم نحن لانستطيب أحاديثهم ، ولا نستملح سيرهم بهذا المقدار . . ولعلَّ السبب يعود الى هذه العواطف والفكر ، التى يبعثها فيك هذا الشاعر ، والى هـذا التركيب النفسانى ، الذى يبعث فيك صدى متضارب النغمات ، ومزيجاً من العواطف فيها السخرية المشوبة بالعطف ، وفيها الضحكة العالية ، تنطلق لتقطعها عواطف الرثاء والرحمة . . وليس هذا بالقليل ، وأية متعة أسرُّ للنفس ، وأخصب للفكر ، من أن تفخر وترثى وتتفكه وتعبث . ثم تستعبر لتعود فتضحك ملء أشداقك . انهـا الحياة مصغرة فى سيرة شاعر ما أحراها منا بدراسة مستفيضة .

نسب أبى العتاهية وعصره

قوام النقد فى العصر الحديث

النقد الحديث يقول إن العبقرى ثمرة عصره ، غذتهـا هذه الأصلاب ، وهذه البطون تتلقفها ، وهى تنسل من الأجيال ، وتمشى يبطء الى زمنها المقدور وميقاتها المحتم ، فللبحث فى خصائص العباقرة ، يجب أن تتناول قبل كل شيء البحث فى أزمانهم ، وتحليل هذه العوامل التى تتضافر على خلقهم . ثم مقياس إبداعهم الفنى ، وما يتركون من آثار ، بمقاييس الجمال والفن المتواضع عليها فى أزمانهم . .

ولا مشاحة فى أن هذه النظرية ارتفعت بالنقد الى حيث أصبح مأمون الجانب من عبث الأهواء ، وتقلب الميول ، وألقت ضياء على هذه الدياجـير التى كانت تعتور الباحث ، وتتكاءد المنقب . ؛ بيد أنها من وجهة ثانية جادت على العبقرى ، ولم تحسب لهذا السر يُودَعُ فى نفسه حساباً فى أبحاثها ، فليس الزمن ، وليست قوانين الوراثة ، هى كل شيء فى إيجاد العبقرى وتـكوين رسالته . وإنما هو سر غامض مستعص حله كغيره من هذه الأسرار التى تحيط بهذا العالم الأكبر والأصغر ، والتى يحاول العقل جهده إماطة اللثام عنها ، ثم لا يجد غنيمة بعـد الـكد إلا سلامة القفول . . . وإلا فأى شيء هذا الذى يَخلق الأثنين من صلب واحد ، وفى زمن بعينه ، ثم تتسامى نفس احدهما وتفتح أفكاره ، فاذا هو يغذى الانسانيـة بزاد المعرفة ، ويتسامى بها ، ويزيد فى ذخيرة الخلود . وأما الثانى فيعيش خاملاً مغموراً ويندس فى سواد الناس . . فقمين بنا أن نحسب لهذا حساباً فى أبحاثنا . . ثم نحسب لهذا المزاج والتركيب النفسى فى الشاعر ، وهو أثر من آثار هذه الهبة ألقته القوة المجهولة ، فى نفس الفنان وركبت أعصابه على مثال خاص ، ليتلو رسالته ويهتف بلحنه على نغمة مرقومة ونحو خاص : حساباً علَّه لايقل أهمية عن عوامل الزمن وقوانين الوراثة . . .

وما أحرانا ونحن نبحث بحثاً مقتضباً عن الشاعر — أبو العتاهية — أن نغفل — ولو الى حين — عوامل العصر والوراثة لنتكلم عن مزاجه ، وحسبنا أن نعلم عن العصر والأصل . . أن أبا العتاهية تحدر من أصل وضيع ، ومن الموثوق أنه اشتغل ببيع الفخار ، ورافق المخنثين . أما الزمن فيكفينا أن نعلم أنه من هذه الأزمان التى كانت تنكر كل فضيلة ، والتى يطلق عليها كلمة المتشائمة « pessimistes » والتى كان الشك ، والاغراق فى المجون أظهر مميزاتها .

مزاج أبى العتاهية

وأول مايطالعك من مزاج أبى العتاهية هذا التناقض ، وهذا الاضطراب ، فيما يأخذ ويدع ، وفيما ينهج من سبل

فلقد تجاذبت نفسه طرفي النقيض ، وكان يرى الدنيا ويلابس الوجود على هدي نزعتين بينهما من الاختلاف مابين النقيض ونقيضه . . فهو آونة مندفع بتيار اللذة مستغرق بهذا المجون ، الذى وصل بعصره حدَّ الشناعة ، وطوراً تتقمصه أرواح الزهاد ، فيلبس المسوح ويهجر اللذائذ ، وتتملكه تملكاً عنيفاً فكرة الخوف من الموت . فاذا هذه الدنيا باطلٌ ، وإذا هو موفٍ من الصلاح على الغاية .. حتى ليحار فيه أهل عصره ، وقد تصل بهم الحيرة الى حد أن يحيلوا أمره الى العبث ، ويرموه بالتدجيل ، والحق أن ليس فى هذا عبث ولا تدجيل ، وأن الأمر صادر عن عقيدة خالصة طهور ، وهذا التناقض قريب المرد إذا رحنا نستوضح خافيه على ضياء مزاجه ، حتى لنرى أن قد تقاربت هذه المتناقضات ، فاذا هى تنبع من عين واحدة . .

فأبو العتاهية — لم يكن مستقيم المزاج وانما هو مضطربه ، وقد طغى فيه الجانب العاطفى ، ولم تتح له نشأة صالحة ، ولا بيئة هادئة ، تخفف من حدة هذا الأضطراب ، وتأخذ بزمام هذه العاطفة الى حيث يتملكها العقل ، ويفرض عليها سلطانه ، وقد بلغ من طغيان هذه العاطفة أن أصبح الشاعر عرضة لانفعالات مخيفة مستهجنة فى عرف العقل ، والعاطفة الصحيحة ، كأن يتخذ — مثلاً — لباسه من قوصرتين يدخل رأسه فى احداها . ويدخل رجليه فى الأخرى ، كل ذلك زهادة فى الدنيا وكرهاً لنعيمها ، ولكن أية سخرية تتملكك إذا رأيته يلقيها بعد حين ليتخير على المنى ، ويجرى مع الغواية ، وليسيم سرح اللهو ، على أن ينفض يده كرة أخرى من نعيم الدنيا ، ويجلس حجَّاماً لأبناء الفقراء ، يبتغى المثوبة ، ويطلب الباقيات الصالحات ، ثم تكون آخر أمنياته . وقدمه فى حياض الموت أن يسمع غناء مخارق .

كل ذلك جائزٌ فى عرف هذا المزاج المضطرب وليس بمستغرب منه ، وانما المستغرب أن يمشى وفاق نظام معين ، وخطة مقررة . . وإذا عرفنا هذا من أبى العتاهية ، فقد عرفناه ظاهراً وباطناً ، وأصبح سيرنا معه مأمون الغرابة . وأصبح لهذه الخطرات المستغربة عللها الأصيلة المعروفة المنبع والمورد . وأصبحنا نرقب منه فى كل أمر شذوذاً وانحرافاً الى ضده . فاذا رأيناه مثلاً ينعى على الناس حرصهم ويقول :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذلَّ الحرص أعناق الرجال

ارتقبنا منه أن يكون نادرة فى الحرص .

وإذا نهض ليرى الناس صغارة دنياهم وحقارة بدرهم وأموالهم .

إن مال المرء ليس له منه إلا حظه الحسن
كل حى عنــد ميتته حظه من ماله الكفن

عرفنا أنه أعجوبة الزمن ، ونادرة العصر ، فى البخل والتقتير . .

عاتبه صديق له على هذا البخل المنقطع النظير وقال له : إن الناس يزعمون أنك من شدة بخلك ، وفرط تكالبك على حطام الدنيا لا تأكل اللحم — أو الأصح تشتريه — إلا فى العيدين ، فتأوه أبو العتاهية وقال : والله لقد ظلمونى . وأنى قد اشتريت لحماً وتوابل فى يوم عاشوراء .

على أننا نرى هذا البخل فى حاجة الى كلمة خاصة ، فلقد كان من المنتظر أن يهب أبو العتاهية ولو مرة ليتلف هذا المال ويبذره جرياً مع هذا المزاج ، ولكنه لم يفعل هذا ولا جال بنفسه : وعلة هذا تعود الى أمرين ، أولها أنه نشأ فى صميم الفقر ، وذاق غصته ، وعرف أن المادة هى كل شىء فى قيم الرجال

ما الناس إلا للكثير المال أو مادام فى سلطانه

وكان سيء الظن بالناس ، يخشى عادية الفقر ، ويخشى أن طاح به غدر الزمان ألايجد أخاً معيناً

أنت ما استغنيت عن صا حبــك الدهر أخوه
فاذا احتجت إليــه ســاعة مجـك فوه

والسبب الثانى ، أنه أرضى مزاجه الغريب ، بمناقضة الناس وشدة حرصه وتكالبه ، فكلما عنَّ له أن يتلف ماله ذكر سوء المنقلب . فيندفع غلواً فى التقتير .

***

وأبو العتــاهية سوداوى المزاج من نوع خاص يميل إلى ما يميلون اليه ، ولكن أعصابه ما كانت لتقوى على السير على منهاجهم . فهو يتبرم بالناس وينشد الوحدة

برمت بالناس وأخلاقهم وصرت أستأنس بالوحده

ولكنه لايقوى على وحشة الوحدة . فيعود ليندفع بشدة فى صخب الاجتماع ، فهو ضعيف الأعصاب من جهةٍ ، ومضطربها من جهةٍ ثانية ، وأصدق مظهر يدل على ضعف أعصابه

ما كان من أمره فى شأن الدين . فقد زعم أهل عصره أنه كان زنديقاً ، وقد انتابه الشك فى أمر العقائد ، وجاراهم فى هذه النظرة رجال النقد الحديث ، ولكنهم لم يبينوا لنا مدى هذه الحيرة فى أمر الدين ، ومقدار هذا الشك . فهو قد شك وحار ، ولكنه شك الطفل وحيرته ، تروعه الأشباح وتتملك وعيه الهواجس ، فلا يجد بداً من الاستسلام فيروح يتعلق بالدين تعلق الخائف . ويستسلم الى خرافاته استسلام العجائز

إلهى لا تعذبنى فانى مقرٌ بالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وانظر اليه لتتحقق صدق هذه النظرة وهو يناجى الموت . فما كان ليقف عنده وقفة المعرى يسأله ويستوحيه عن أسراره وغوامضه ، وانما هى وقفة الخائف الرعديد ، تلجمه روعة الموقف وتأخذ عليه الدهشة مسارب الفكر ، فاذا كلُّ مايهجس بخاطره ويدور بخلده ، خشوع عميق ، ووصف مقتضب للموت يلوذ بعده ، إلى إظهار التوبة والضراعة

كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحن عليهن المسوح
نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح

ويزيد فى رخاوة هذه الأعصاب واضطرابها أن أبا العتاهية لم ينل حظاً وافياً من الثقافة ، وكان أيضاً ضعيف الخبرة بالدنيا لم يمر عليه من التجارب ، ما يصقل هذه العاطفة المستوفزة .

ولمعترضٍ أن يقول : كيف يكون ضعيف الخبرة ، قليل التجربة من طفحت بأمثاله كتب الأدب وأسفاره . فهو قد نظم أرجوزة فحسب ، أودعها مئات بل آلاف الأمثال والحكم الرائعة ، وصحيح هذا ، بيد ان هذه الأمثال ونحن نقلبها ونعيد تلاوتها ، لا نجدها تدل على علم مستفيض وخبرة واسعة ، فكلها فى معنى واحد ، وان تجاوزته فالى معان متشابهة مطروقة ، فهو يرى أن الدنيا ما برح مقدورا عليها الفناء ، فخير زاد للمرء التقى ، أو السمعة الحسنة ، ومن يقل غير هذا ؟

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكى لمعة الآل

وهكذا دواليك من العبر الرخيصة القريبة المتناول ، والتى لا تحتاج إلى سعة فى العلم ولاسمو فى التفكير كالتى تجرى على لسان المتنبى مثلاً : وانما نحتاج إلى هذا اللسان الذرب ، والشاعرية السمحة . ومن أولى بها من هذا الذى كان يتناول الشعر من كمه كما يقول الأصمعى ، ولعلَّ هذا هو السبب الذى يعود إليه كثرة السقط فى شعره .

شرق الأردن **عبد الحليم عباس**

أغنية النيل ..

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

يا جسر إسماعيلْ بُورِكْتَ من جسرِ
أنت سِوَار النيلْ رُصِّعَ بالدُّرِّ !

حلا بِهِ وازدانْ معصمُهُ الناعِمْ
كأنَّهُ وسْنانْ بالأملِ الحالِمْ !

بين المصابيحِ فى نورها الفاترْ
تُوحِى بما توحى للمُلْهَمِ الشاعرْ

من نجمةٍ وسنى لنجمة وسنى
قد كسرت جفنا فأغربت حُسنا !

مَنْ عَلَّم النُّورا فلسفةَ الكسرِ ؟
أستلهَمَ الحُورا دقائق السِّحْرِ ؟ !

مَنْ عَلَّم النُّورا ترنيقةَ الطَّرْفِ ؟
أستلهم الحورا صناعة الحَتْفِ ؟ !

***

فى شطِّهِ قامتْ بواسقُ النَّخْلِ
عرائس هامتْ بالمَيْسِ والدلِّ

برزْنَ ممشوقاتْ ورافعات الهامْ
يُحْسَبْنَ ـ منسوقاتـ علامَ الاستفهام ! (١)

والقمر المحزون مبتسم الثغرِ
يبكى لمن يبكون من عَنَت الدهرِ

يسامر العاشق ويسعد الولهانْ
ويسعف الغارق فى لجج الأحزانْ

وساخراً يبسمْ بَسْمَةَ فُولْتيرِ
من هالك ينعمْ بعيش مغرورِ

سخريةً تعلَمْ بواعث السِّخرِ
من عالَمٍ يحلُمْ وقدَرٍ يجرى !

يطوف بالأرضِ فى سِجْنة الناقمْ
لسُنَّةٍ تقْضى فراقَها الدائمْ

منعكس نورُه فى صفحة الماء
راقصة حُورُه بلحن لألاء !

كأنه أحلامْ أحلام حسناء
لا تعرف الآلام تعصف أهواء !

***

والنَّسَمُ الهامِسْ فى أُذُنِ الليلِ
يَبُلُّ ما لامَسْ بطَرَفِ الذيلِ

يمسُّ — فى رفقٍ — جسمك مبتلاً
كصالحٍ يَرقى ، بالذكر معتلاًّ ! ! (١)

***

والزورق الناعِسْ يغفو على الماءِ
كالبائس اليائس فى وسْطِ نعاءِ !

يرتِّل الشِّعْرا مجدافه اللاغبْ
يشيِّع العمرا ويندب الصاحبْ

يجرى فيرعاه — فى ألمٍ — بالى
يهيجُ مسراه ذكرى الهوى الخالى !

غنَّى به المَلَّاحْ أغنيَّة الحُبِّ !
يكرِّر التَّصداحْ بالنغم العذب

يمدّها : يا ليل ! ياليل . ! يا عينى !
مناديا بالويل من ألم البين

يجرى على نهرٍ سِيماؤه العطفُ
يهفو على مصرٍ وشَدَّ ما يهفو ! !

يمشى على هَوْنٍ مشىَ الطواويسِ
من عهد فرعونٍ موسى ورمسيس

يطوى لها البُعدا شهراً على شهرِ
من خاف (اوغندا) فى لُهَفٍ يجرى !

يخترق السودانْ لأختهِ مِصْرِ
قُطران معدودان ألدهرَ كالقُطرِ !

حتى إذا وافى من بعد ما أعيى
طوَّف تطوافا بكعبة الدنيا !

(١) علام : جمع علامة

(١) يرقى : من ارقية

وراح ينصبُّ . . للبحر فى اطمئنانْ
كما قضى الصَّبُّ بعد اللقا جذلانْ ! !

* * *

ما جشّم النّهرا تلك المشقّاتِ ؟
عـلّ بها سِرًّا من أجله يأتى
أراحمٌ يسقى جُرْد صحاريها ؟
أم عاشقٌ يبغى لثم عذاريها ؟ !
فقطْرَةٌ منهُ ترشفها غادهْ
لاهيةٌ عنهُ تكفُل إسعادهْ ! !

* * *

أوّاه ! هل نجهلْ ما عرف الماء ؟
فى عزّها تُقتَلْ ونحن أحياء ! !
يا مصر نفديكِ نحنُ بنى يعربْ !
آمالنا فيكِ كالشمس لا تغرب ! !
مَنْ ذا يواسيكِ إن لم نكنْ نحنُ ؟
لَحْنُ أمانيكِ لكنّنا لَحْنُ ! !

* * *

جزيرة العُرب مصرُ لها أمُّ
عقيدةُ الربّ تجمع والجِذمُ
ليس لها عنها صرفٌ ولا تحويل
معدودة منها ما دام يجرى النيل !
(فؤاد) يحميها مليكها العادِلْ
من طامع فيها مخادعٍ خاتِلْ
وراءه الشّعبُ نَسلٌ الفراعين
تحفزه العُربُ وعزّةُ الدين
مَلْكٌ به باهَتْ ممالك الدنيا
بفضله نالتْ رُتبتَها العلْيا
قلّدَها مجداً لمجدها التّالدْ
جدَّدَ أو ردَّا جلالها الخالدْ
فى عهده الميمون ارتقت « الفُصْحى »
إذ كان كالمأمون لم يألُها نُصْحا
(جامعة) الآداب و (الدار) و (الأزهرْ)
تهيِّئ الطلاب للحادث الأكبر !
يختصُّ بالاعظام وخالِصِ الحُبِّ
جامعةَ الاسلام ووحدةَ العُرْبِ
عاشَ و (فاروقا) لبَيْضة الاسلام
كلاهما يُوقَى من نُوَب الأيام
للوِحدة الحقِّ ! للوحدة العظمى !
مُبلغةِ الشرق مكانه الأسمى

* * *

يا مصر نفديك ! نحن بنى يعربْ
آمالنا فيك كالشمس لا تغرب !
مَنْ ذا يواسيكِ إن لم نكن نحنُ ؟
لَحْنُ أمانيكِ لكنّنا لَحْنُ ! !

على احمد باكثير

يا طبيب ..!

لا تقل يا طبيب إنك ماضٍ بشحوبى ولوعتى وذبولى
حبذا الضعف والهزال دواءً لفؤاد المشَرَّدِ المتبولِ

***

إيه يالحظة الوداع ، لقد جُرْ تِ على المدنَفِ الطريد العليلِ
قبلاتٌ مسكوبةٌ فى سكونٍ وعناقٌ فى ضجّةٍ وعويلِ
ودموعٌ ممزوجةٌ بدمٍ يجرى من القلب ، مستفيضِ الهطولِ
وزفيرٌ يكاد يحرق أحشاء المُعَنَّى من وَقْدِهِ والغليـــلِ
وذراعٌ هوتْ تعانق خصراً صِيغَ من تربة الضنى والنحول
ويَدٌ فى يدٍ تُسِرَّانِ أشياءَ بضغطٍ مُحَبَّبٍ وذهولِ
وعيونٌ تَقُصُّ بالنظر الفاتِرِ أقصوصةَ الغرامِ الجميلِ
وتَنُصُّ الآمالَ تاجًا من السحْرِ على مفرق الزمان الجهولِ !

***

حين سار القطار طارَ صوابى وتمايلتُ فى ذهولٍ طويلِ ...
وطَغَتْ عِلّتى . وجُنَّ جُنونى ووَهَتْ قُوَّتى . وضلَّ سبيلى !

***

لا تقل يا طبيبُ إنك ماضٍ بشحوبى ولوعتى وذبولى
ثغرُها يا طبيبُ طِبِّى فعَجِّلْ بِبَوَاكيرِ رِيقِهِ المعسولِ !

مختار الوكيل

فى الأدب الانجليزى

ديكنز وولز

بقلم رشدى ميخائيل السيسى

فترات تقصر أحياناً ، وأحياناً تطول وتطول ، ليس يعنينى أن أعرف أهى من صفاء الذهن وراحة البال ، أم ضجر طارئ وملال ، أعكف فيها على القراءة والاطلاع ، فأذهب إذ ذاك الى دنيا غير هذه الدنيا ، ويغمرنى احساس غير مايغمرها من احساس ، وسأخفق إن حاولت أن أظفر بتعليل لهذا العكوف : أتدفعنى اليه رغبة الاعراض عن حقائق الحياة خشية الاصطدام بها ، أم يغرينى به نزوع الى تفهم هذه الحقائق ونشدان هـذا الفهم فيما ضمته صفحات الكتب من عصارة الأذهان ؟

لن أظفر بجواب قاطع ، ولا يعنينى أن أظفر به ، إنما أؤكد أنه ليس أحب الى نفسى فى مثل هذه الفترات من أن أتناول بيدى أثراً من آثار « ديكنز » معبود الانجليز ومهبط وحيهم بعد شكسبير ، وأن أذهب معه فى سلسلة من الرحلات نغشى فى خلالها رياضاً من الأمل الواسع العريض فنستنشق العبير ونتفيأ الظلال ، ثم نروح تائهين فى صحارى من الشقاء ، فنكتوى بلافح الحر وقاسى الهجير ، ثم لا نحرم فى هذا المدى المترامى من الشقاء القاحل أن نلمح واحة الرجاء من بعيد فنتسابق اليها نتقى وهج الحر ولفح الهجير ، ولـكننا لا نأمن بين الحين والحين على أقدامنا وجسومنا أن تدميها أشواك من اليأس والخيبة ، ثم لا نلبث أن نرتفع على أجنحة الخيال الى سماء من السعادة والثراء .

وديكنز فى هذه الأثناء لا يفتأ يحدثنى فى لهجة تلين وترق حتى لـكأنها حفيف الأشجار وموسيقى الآلهة ، ثم تعلو وتشتد حتى لـكأنها دوى العواصف وقصف الرعود ، يروح يحدثنى عن القناعة وعن البؤس والبائسين ، ويحدثنى أيضاً عن التمرد وعن الظلم والظالمين ، وكأنه يسكب على جراحات التمرد من نفسى بلسما من القناعة والرضا ، ولـكنه لا ينى بعد ذلك أن يمزق بيده ماعالج من جراحات فى قسوة الحقيقة وعنف الواقع ، بينما هو يتحدث الى فى لهجة يفعمها الألم والغضب عن استبداد الغنى بالفقير ، وعن افتراس القوى للضعيف ، ويهيب بى وبقارئيه جميعاً فى فكر عنيف وفى لفظ ملتهب شديد : أن ارحموا البائسين ودافعوا عن المظلومين !! ذلك هو ديكنز الـكاتب الانجليزى الـكبير الذى يملأ عين القارئ بالدموع وفمه بالضحكات فى الفترة الواحدة ! والذى يمزج الجد بالهزل ، ويخلط الحـكمة بالدعابة ، ويسوقها جميعاً فى كتاباته طعمة سائغة فيها تنوع وجدة ، وفيها قوة وحق وجمال

* * *

وقد يعلم القارئ أن ديكنز مات عن ثروة كبيرة تبلغ عشرات الألوف ، فهو إذن قد ذاق حياة الترف والثراء وتنعم بها ، وهو لهذا لم يعجز عن تصوير هذا الضرب من المعيشة تصوير فنان خبير ، ولـكنك إذ تقرأه وهو يقص تاريخ طفولته الحزينة القاتمة وما لاقاه إبانها من صدمات متتالية ومن متاعب جمة مع شظف العيش والحرمان ، لابد ستأخذك رعدة عنيفة من فرط التألم لهذه الطفولة المعذبة الشهيدة ، وستعلم السر آنئذ فى قدرة ديكنز على التعبير عن آلام البائسين وشقاء الفقراء والمعوزين تعبيراً رائعاً مفعما بالحياة

وليس يخلو مؤلف لديكنز من آهات متوجعة ، ومن صرخات حزينة ، ومن دموع ملتهبة ، يسكبها فى غير حرص أو تقتير على مذبح الانسانية المضطهدة المعذبة ، الا انه لم يكن فى كتاباته ناقماً عنيفاً الى الحد الذى يثير الفقراء على الأغنياء ويدفعهم الى الحاق الأذى بهم ، بل كل ما كان يرمى اليه أن يهز النخوة ويلين القلوب ويستدر منها العطف والرحمة والايثار ...

ولد ديكنز عام ١٨١٢ وعاش ثمانية وخمسين عاماً قاسى فى العقدين الأول والثانى منها ما قاسى لفقر والديه المدقع ولزجهما فى السجن وفاء لديونهما ، ولـكنه بدأ يرقى سلم المجد منذ استهل العقد الثالث ... واشتغل فى أوائل شبابه بالصحافة فكان مخبراً لبعض الصحف ، ثم مندوباً برلمانياً فمحرراً ، فكان بحكم عمله هذا مضطراً الى ان يزج بنفسه فى كل بيئة ، وأن يختلط بكل طبقة ويعاشر كل طائفة من الناس ، فاكتسب خبرة وافرة بمختلف الشخصيات ومختلف النفسيات بعد دراستها دراسة وافية ، فأفاد كل الفائدة بهـذه الخبرة ، إذ تيسر له أن يوفق الى أبعد حد فى تصويره للشخصيات المختلفة التى تناولها فى قصصه ورواياته

ويشبه ديكنز من هذه الناحية بعض الشبه « ولز » الكاتب الانجليزى المعاصر الذى اشتغل بالصحافة فأصبح لا يكف عن التعرض لشتا كل العالم الاجتماعية الراهنة والاجتهاد فى معالجتها

وفرض الحلول المختلفة لها فى أسلوب رائع مفيد ، بيدأنه على الرغم من هذا لن يكون الخلود من نصيب كتبه ، لأن قيمتها موقوفة على الجيل الذى عاش فيه ، وإن طال أجلها فلن تتعدى الجيل الذى يليه ، إذ سيجد العالم المتطور إذ ذاك أن كل ماجاء بها من نظريات ومبادئ قد تحقق جميعه أو جله ، واقتصرت أهميتها على الناحية التاريخية دون غيرها ، ذلك « لأن النزعة الصحفية فى الكاتب انما تعمل لفنائه لا لخلوده ، وهذا الفناء هو فى الواقع تضحية الكاتب بنفسه فى سبيل جيله » على حد قول بعض كتابنا الاجتماعيين

وإذا صدق هـذا الرأى عند تطبيقه على « ولز » الذى لم يكترث لغير علاج المشاكل الاجتماعية فهو لا يصدق إذا أرسلناه على إطلاقه ، وخاصة إذا أردنا تطبيقه على ديكنز

صحيح أن ديكنز قد كتب معظم قصصه الرائعة للصحف إذ ذاك ، ولكنها ستظل خالدة على مدى العصور ، خلود مافيها من قوة ومن حق ومن جمال ، ولأنها انتزعت من صور الانسانية انتزاعاً ، فملأتها عواطف هذه الانسانية التى لن تتغير ، أجل ، وستظل خالدة لأنها صورة من الفن الخالد رسمتها ريشة أديب فنان سيعيش تراثه على مدى العصور ، وليست موضوعاً اجتماعيا يتغير ويختلف وفقاً للحوادث والظروف ، ويزداد مقدار ما فيـه من الصحة أو يقل تبعاً لقدرة كاتبه على وضع الفروض والاحتمالات الصحيحة والاستطراد منها الى تقرير نتائج يثبت المستقبل القريب أو البعيد صحتها ، فولز إذن ليس كاتباً اجتماعياً فحسب ، ولكنه كاتب ثاقب البصر بعيد النظر ، صادق الفراسة ، سليم المنطق والاستدلال . أما ديكنز فأديب فنان ينقل الينا أحاديث الطبيعة والانسانية وعواطفها ، ويعبر عنها جميعا أصدق تعبير وأجمله ، وهو فى مهمته السامية لايختلف بأى حال عن المصور المبدع أو الشاعر المطبوع . فى الحق انه يكفيك أن تقرأ أى كتاب لديكنز حتى تصل الى هذه النتيجة الصحيحة عنه دون لأى ودون اجهاد

والأديب اذا تناول أى موضوع من المواضيع التاريخية أو الاجتماعية — أو حتى الاقتصادية الجافة — وجعله مادة لكتابته تراه لايفتأ يرويه بدماء قلبه الحية ويغذيه ، ولا يفتأ يسبغ عليه من روحه ونفسه وشتى عواطفه واحساساته ، حتى يبعث فيه الحياة بكل معانيها وصفاتها ، ويكفينا اذا أردنا تطبيق هذا القول على ديكنز ومخلفاته الأدبية أن نستعرض كتابه أو بتعبير أدق طرفته الفنية الرائعة « قصة عن مدينتين » فنؤمن بصحته كل الايمان ، نعم ! فبالرغم من أن موضوع هذه القصة تاريخى جاف وهو تاريخ الثورة الفرنسية ، وبالرغم من أنه تاريخ دموى مروع تقشعر منه الأبدان ، وأنه غير حديث العهد بنا . فنحن مع هذا لا نكاد نقرؤه حتى نحس فى أعماقنا أن هذه القصة فى جوهرها انما قد كتبت لنا وبيننا ، والتعليل المعقول لهذا أن الكاتب قد استمدها من وحى الانسانية الخالدة غـير المتغيرة - الانسانية التى تؤلف بين جميع المشاعر وشتى الاحساسات — وانه قد استلهمها من معنى الحياة غير الزائلة ، التى هى حق للجميع دون استثناء ، والتى قد ترك أمر فهمها وادراكها لهذا « الجميع » كل حسب اجتهاده ومدى تفكيره .

بيدأن هذا لن يكون حال كل اجتماعى مهما علا كعبه ونبه أمره ، لأنه إنما يعالج المشاكل الراهنة فى عصره التى لابد أن تقتصر أهميتها على العصر الذى كتبت فيه ، وهو قد يفرض لها حلولا مختلفة يصدق بعضها أو معظمها كما هو الحال مع ولز فى كتابه الذى نشره قبل الحرب الكبرى وقدر فيـه احتمالات صدقت فراسته فيها ، حتى لقد اعتبرها البعض من قبيل النبوءات ، ولكن بالرغم من صدقها فان يقدر لها الخلود بأى حال كأى « تراث أدبى فنى » من مخلفات ديكنز العظيم ؟

رشدى ميخائيل السيسى

العلوم

فكرة النظام الشمسي عند الكنيسة

في العصور الوسطى

بقلم فرح رفيدي

ماهب صرح مدنية روما ينهار بقدوم البرابرة الأوربيين من الشمال حتى انتشرت الديانة المسيحية انتشاراً سريعاً ، وصادفت في قلب الشعب التعس تربة خصبة تنمو فيها ، لانتنائه بوعودها الجميلة ، ولأنها واسطة انتقال من حياة ملأى بالمصائب والعذاب الى حياة السعادة والهناء . فتأبس من معتنق هذه الديانة الجديدة جماعات أخوية تحت رعاية أحدهم يرشدهم الى الحياة القويمة ، أو يلقنهم دروساً في الحصول على الحياة الأخرى . ومن هذه الجماعات أو رؤسائها تكونت طبقـــة الاكليروس ، وفي يدها أمور الشعب الدينية والدنية . وكان نظام هذا الاكليروس أشبه بنظام دائرة التأمين على الحياة : تتاجر بالنفوس ؛ فكان الانسان يُعطى ماله وأرضه ودينه ، وحتى عقـله للكنيسة ، لكي يؤمّن حياته بعد الموت . فان راعى قوانينها أُعطى تلك الحياة في الجنة ، وإن خالفها حرمته من الكنيسة وكان نصيبه جهنم بعد الموت .

لكن الكنيسة لم تنشأ فقط بعقائدها الدينية ، ولم يكن الكتاب القدس دعامتها الوحيدة في بناء صرح نفوذها وتحكمها في الشعب ؛ بل كان هناك مع الديانة المسيحية المدنية اليونانية ، وهي ثروة كبيرة وتركة ثمينة خلفها الأقدمون ، فلم تقدر على اهمالها وطرحها جانباً والاكتفاء بتعاليم المسيح وحـدها . ويرجع السبب في هذا إلى أن أثر المدنية اليونانية في قلوب الناس لم يذهب باعتناقهم الديانة الجديدة ، وليس من السهل أن يذهب تأثير قرون طوال بقيام نزعة جديدة ، وفي أمد قصير ؛ دعك مما كان لأرسطو وكتاباته من التأثير الجسيم في العقلية اليونانية أولاً وفي الكنيسة ثانياً .

قد نرى هنا الكنيسة بازاء الدين المسيحي والمدنية اليونانية تكاد تقع في مأزق حرج من احتمال تناقض العلم القديم بالدين المقتبس الجديد ، وقد ينتج عن رأينا هذا سؤال : كيف تمكنت الكنيسة إذن من التوفيق بين الاثنين ؟ أو كيف قدرت أن تستمسك في تلك النقطة الحرجة ؟ الجواب على ذلك هو أن الدين المسيحي والمدنية اليونانية القديمة لم يتناقضا قط ، وكيف يتناقضان والأول خرج من تأثير الثاني ؟ فمثلاً لم تكن هناك فكرة واحدة أساسية في أصل الكون عند اليونان ، حتى تناقض قصة الخليقة في كتاب التكوين ، وأساطير اليونان القديمة تحتوي على قصص كثيرة مختلفة في أصل الكون ؛ فليس من الغريب إذن أن تقتبس شعوب أوربا المتنصرة في ذلك الحين فكرة التوراة عن بدء العالم ، وأن تطرح خرافاتها القديمة جانباً . فالديانة المسيحية أتت موافقة للتعاليم اليونانية .

فاستمرت الآراء والمعتقدات اليونانية في النظام الشمسي وحركته آراء ومعتقدات للناس في العصور الوسطى . ولم يحدث هناك أي تغيير جديد أو انقلاب أساسي في النظام اليوناني القديم ، إلا ما زيد عليه بسبب الدين المسيحي ، من إدخال فكرتي الجنة والنار فيـه . وذلك ظاهر بالنظام الذي تصوره الشاعر الايطالي دانتي في منتصف القرن الثالث عشر :

تصور دانتي الأرض ثابتة في وسط الأفلاك السبعة ، ووراء الفلك السابع أي فلك زحل تصور منطقة البروج (zodiac) مكان النجوم الثوابت ، وفوق منطقة البروج ما يسميه بسماء السموات أو عِليين (empyrean paradise) . ووضع جهنم في وسط الأرض ، وفوق الأرض تحت الأفلاك قسمه الى طبقات مختلفة العلوّ ، الأولى طبقة الماء من حيث تنزل الأمطار ، والثانية طبقة المطهر حيث يطهر غير الواقعين في الخطيئة المميتة ، وأخيراً طبقة الجنة الأرضية ، وتقع ما بين فلك القمر والمطهر .

هذا النظام دليل بين على مقدار توافق العلم والدين ، وامتزاج الاثنين معاً بصورة يصعب فيها تمييز الواحد من الآخر . ولأن دانتي شاعر خيالي يتصور نظاماً شمسياً يدلنا على عدم سير العلم حينئذ في الطريق الذي يضمن له التقدم الصحيح أو الانقلاب الى

ماهو صحيح وغير ذلك ، فقد كان الاعتقاد الشديد بأن منطقة البروج لها تأثير فى جسم الانسان . فالاثنا عشر برجاً كل واحد منها له تأثير خاص على عضو خاصّ فى جسم الانسان ، فمنها ما يؤثر على الرأس ، ومنها ما يؤثر على القلب ، ومنها ما يؤثر على الأطراف وباقى الأعضاء . وقد تخيلوا أيضاً أن بعض الكرات التى تدور عليها السيارات تختلف بحسب نظام خاصّ فى العدد والموسيقى ، وأن هذه الكرات تحدث فى دورانها نغمات متلائمة ، لا يحظى بسماعها إلا أناس مخصوصون . وهذه النغمات هى ما يسمونه بموسيقى الأفلاك (music of the spheres) تصعد لتمجيد الله الجالس فوق الأفلاك فى سماء السموات .

وأما لماذا لم يتقدم العلم فى العصور الوسطى ، فذلك ليس لتناقض العلم والدين ، وعدم مقدرة الشعب والكنيسة على التوفيق بينهما ، كما قال الدكتور سارطن (Sarton) ، بل لأن الديانة المسيحية زادت تأثير المدنية اليونانية على الشعب تأثيراً جسيماً ، حتى لم يكن عنده شك فى صحتها وضرورة الاستسلام اليها . من الأمور الظاهرة أن بعض العلوم اليونانية ، بصورتها كما تلقاها أهل العصور الوسطى ، لم تكن قابلة للتطور الأساسى ، وخصوصاً فى علمى الهيئة والنجوم ، وذلك لأن الأساس المبنى عليه علم الهيئة مثلاً كان خطأ محضاً . فنظام اليونان الشمسى مهما أتى أهل العصور الوسطى بالبراهين والحجج الدامغة ، ومهما زادوا عليه من تفاصيل وشروح ، لم يكونوا ليزدادوا إلا تعمقاً فى الخطأ وبُعداً عن الصواب . وبعظم تأثير الكنيسة وأرسطو معاً على عقول الشعب كثر الاختلاف والتناقض فى الآراء والتعابير العلمية والدينية ، فعم الغموض وتولد الشك فى قلوب الناس فى كثير من المعتقدات السائدة . إلا أن الأرض ظلت ثابتة بين يدى الآلـه أطلس (Atlas) (١) مدة أربعة عشر قرناً الى أن أتى كوبرنيكس فى أواخر القرن الخامس عشر ، وحركها من بين يديه . وذلك لأنه رأى الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس أسهل من الاعتقاد بأن الكون بجلاله وعظمته وعدد شموسه يدور حول ذرة صغيرة فى الفضاء تدعى أرضاً .

فرج رفيدى

وقعت بعض أخطاء مطبعية فى المقال المنشور فى العدد ٥٥ بتاريخ ٢٣ يوليو الماضى فى هذا المكان فرأينا تصويبها وهى :

خطأ	صواب
Blanets	Planets
Btolemy	Ptolemy
فلل	فلك
٢٢ يوليو	٢٢ يونيو

(١) من اعتقادات اليونان أن الاله أطلس هو الذى يحمل الأرض بين يديه

مظاهر الحرارة الباطنة للارض

بقـلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

إذا كان هناك شك وتضارب فى الآراء الجغرافية عن ماهية باطن الأرض وحالته التى هو عليها ، سائلاً كان أم صلباً ، فانه ليس هناك أدنى شك فى أن هذا الباطن حار ، تدل على حرارته مظاهر ثابتة منها :

١ — المناجم والحفر العميقة : من المعلوم أن هواءها أشد حرارة من هواء السطح الخارجى ، وكلما زاد العمق ارتفعت درجة الحرارة تبعاً لذلك . ففى منجم Rosebridge بالقرب من Loigan الذى عمقه ٢٤٤٥ قدما ترتفع درجة الحرارة الى ٩٤° ف يقابلها فى الخارج ٥٠° ف ، كذلك شأن الحفر العميقة ، فان الماء يخرج منها فى درجة حرارة مرتفعة ، وبالقرب من باريس بئر عمقها ١٧٩٨ قدماً يخرج الماء منها فى درجة ٨١,٥ فرنهيت .

٢ — الينابيع الحارة : Hot Springs وتلك ظاهرة تكاد تكون عامة فى العالم أجمع ، وعلى الأخص فى المناطق البركانية ، ومن أمثلة ذلك تلك الينابيع التى توجد فى مدينة Wiesbaden وكرلسباد ، وشمال غربى أسبانيا ، إذ يخرج الماء منها فى درجات حرارة عالية ١٥٨° ف و١٦٧° ف و١٩٢° ف على التوالى حسب الترتيب السابق .

٣ — النافورات : geysers وهى عبارة عن ينابيع ساخنة توجد عادة فى المناطق البركانية ، وتمتاز من الينابيع السالفة فى رقم ٢ بارتفاع درجة حرارة الماء الخارج منها ، إذ قد تبلغ ٢٦١ ف كذلك بقوة اندفاعه منها الى علو كبير قد يزيد على ٢٠٠ قدم ويطلق عليها بعض الجغرافيين أحياناً اسم البراكين المائية .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نعرف النافورات وأسباب ثورانها فنقول : — إنها عبارة عن عيون تتصل بباطن الأرض بواسطة قصبة على شكل أنبوبة يتراوح قطرها كثرة وقلة تبعاً للنافورة نفسها (فى النافورة الكبرى بجزيرة الجليد iceland يبلغ قطر النافورة ٨ أقدام ويحيط بها شبه حوض قطره يبلغ ٥٦ قدما وارتفاعه ١٥ قدما)

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

من الأدب التركي

فتاة الصحراء

رآها لأول مرة في صحراء فلسطين فأحبها وتزوجها ، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة ، من وطنها العزيز إلى وطنه استانبول ، إلى ضوضاء المدن وجلبتها .

عاش الزوج سنين طويلة في البلاد النائية ، في الأماكن البعيدة عن وطنه ، ثم عاد ومعه كنز حبه ، تلك الفتاة التي تشبه زهرة ذابلة ، والتي نشأت وترعرعت في الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة ، عاد بها إلى استانبول تلك البلدة العظيمة التي تجمع أصنافاً من الناس وأنواعاً من البشر ، وتعج بمن فيها من السكان . أراد أن يجد لها في استانبول العظيمة مكاناً تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل (١) ولا تجف فتسقط .

كان متوسط الحال، فهو لا يستطيع أن يقدم اليها في بلد كاستانبول حياة صحراوية ، فلا بد له أن يجد لها في أقاصي البلدة مكاناً هادئاً منزوياً .

لم يتركا مكاناً في استانبول ولا محلة إلا بحثاً فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما ، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما يلائمها وما يلائم روحها الصحراوية ، وكانت تظن أنها إذا بحثت كثيراً في أنحاء تلك البلدة العظيمة وجدت منزلاً فيه روح الصحراء

كلما زارا داراً كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى

(١) نصل الثوب تغير لونه .

ولتفسير أسباب النافورات يجب أن نذكر حقيقة جغرافية وطبيعية وهي أن الماء يغلي عند درجة ٢١٢ فرنهيت أو ١٠٠ مئوي تحت ضغط يعادل الضغط الجوي ، لذلك اذا زاد الضغط وجب أن ترتفع درجة الغليان ، وعلى هذا فان الماء الذي يوجد في أسفل قصبة النافورة قد تزيد درجة حرارته على درجة الغليان ولكنه لا يغلي عندها لوجوده تحت ضغط عمود الماء الذي يعلوه ، إلا أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب تمدد الماء ويرفعه الى مستوى أعلى من المستوى الذي كان عليه في قصبة النافورة ، وهذا يسبب تمدد الماء السطحي فيفيض على جوانب الحوض ، ولما كان الضغط قد قل بذلك على الماء الموجود في أسفل القصبة فانه يتمكن من الغليان ويتحول جزء كبير منه الى بخار يدفع طبقات الماء التي تعلوه ، ويسمع لمحاولته الخروج الى السطح العلوي أصوات شديدة كأصوات الفرقعة ، وعلى قدر قوة البخار يكون ارتفاع الماء المندفع .

وتوجد النافورات في مناطق ثلاث من العالم هي : —

١ — ايسلندا : ويوجد بها ما ينيف على ١٠٠ نافورة تزدحم بها منطقة بركانية صغيرة المساحة لا تزيد على ميلين مربعين .

٢ — منطقة يلوستون بارك Yellowstone Parck : في الولايات المتحدة وتقع في الغرب منها وفيها بضع مئات من العيون ، منها ما تزيد حجماً وقوة على النافورات العظمى بايسلنده وأشهرها نافورة Old Faithful دقيقة في مواعيد تفجرها حتى لتكاد تضبط عليها ساعتك ، إذ أنها تقذف كل مدة تتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دقيقة نحو عنان السماء عموداً من الدخان الأبيض الى ارتفاع ١٥٠ قدماً مكوناً منظراً من أجمل المناظر الطبيعية .

٣ — في نيوزلند : توجد الجزيرة الشمالية التي تشتهر نافوراتها بعظم مقدار السليكات التي تخرج ذائبة في مائها والتي ترسب حولها وتكون مدرجات كانت الى ما قبل سنة ١٨٨٦ مجموعة من أجمل المناظر الطبيعية في العالم حتى حدث أن ثار بركان في نفس السنة هدم الجانب الأكبر منها .

٤ — البراكين : وهي المظهر الرابع لمظاهر الحرارة الباطنة للأرض ومن أهمها إن لم يكن أهمها ، ولذا سنترك الكلام عليها الى مقال آخر يتسع للكلام عنها بالتفصيل اللائق بخطر موضوعها ؟

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

فى عينيها الصافيتين ماينطبع فيهما من انقباض أو انشراح ، إلا انها كانت بعيدة الغور لا يظهر فى عينيها ما يجول فى قلبها . وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز .

وفى يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهى فى محلة (السلطان أيوب) فذهبا اليها وتسلقا الهضبة التى قامت عليها تلك المحلة حتى بلغا الدار المقصودة ، كانت الزوجة كعادتها لا تبدى اعتراضاً أبداً ، بل كانت تمشى بجانبه كآلة صماء ، وقد تعبت من البحث عن الدار التى تريدها فى تلك البلدة التى لم تر أولها ولم تعرف آخرها .

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة ، وكانت فتاة الصحراء تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فاذا بشىء يعلق به نظرها ، لقد لمعت أمام عينيها شمس الصحراء : هناك فى الحديقة الصغيرة شجرة نخل ، نعم انها صغيرة هزيلة ، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز .

لقد أثر منظر تلك الشجرة فى فتاة الصحراء تأثيراً عظيماً ، وأعطى روحها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذى جمد فى عروقها منذ فارقت صحراءها ، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها : فرأت أباها وأمها واخوتها ، وعلى قيد غلوة منهم رأت جملها الذى يغمض عينيه السوداوين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام .

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء ، الصحراء العزيزة عليها ، وبكل شىء قد تركته هناك ، وألقته فى أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه ويلامسها .

نظرت الى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور ، كانت تلك النظرة تفيد معنى : انني وجدت مبتغاى ، وانى هنا ، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة .

لقد حلت تلك الدار المشرفة على مياه الخليج من قلب المرأة محلاً رفيعاً ، فأحبتها بعد زوجها ، بقدر حياتها ، بقدر وطنها .

نزلا فى الدار وعاشا فيها سنة طويلة .

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كان ، بعيدة عن الحياة الغريبة ، عن الوجوه الغريبة ، فى تلك البلدة الغريبة .

لقد زارتها جاراتها يوماً ، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التى تطلب بها الرحمة والشفقة ، ذهبن فى الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأيا ، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف فى اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم ، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل الى سخرية واستهزاء .

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل الصحراء دونهم فى كل شىء ، وهكذا كان شأن نساء تلك المحلة ، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة ، وكن يضحكن منها ويقهقهن ، لأنها لا تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها ، وكن يجدن فى ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة فى تعذيب الحيوان الذى لا حول له ولا قوة ، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطرى أنهن كن يضحكن منها ، فنفرت منهن ولم تعد تقابلهن .

لقد نسى نساء الحى وجود فتاة الصحراء بينهن ، عدا عجوز دردبيس كانت تتردد على نساء الحى فتقص عليهن أحاديثها وجدالها مع كنتها ، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التى لا تعرف الانتهاء ، حتى مللنها وسئمن ثرثرتها ، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم ، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهى تقول للمرأة التى لم تفهم منها غير دموعها : « الى الملتقى يا بنيتى لقد أزعجتك بثرثرتى ، شرفينا »

كانت العجوز لا تني عن زيارة فتاة الصحراء ، وأخيراً شعرت أنها وحدها التى كانت تتكلم طيلة هذه الأيام ، فقالت لفتاة الصحراء : مالك لا تتكلمين يا ابنتاه ؟ أبكماء أنت أم ماذا ؟ فلما رأت أن فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على ألا تعود اليه مرة أخرى

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة ، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها ، إلا انها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه الى النزهة ، ولكنها كانت تعود الى بيتها وهى مريضة قلباً لا جسما ، لقد كانت تشبه

طائراً صغيراً فارق عشه ليطير ، فوهى جناحاه ووقع على الأرض .

إنها لا تـكون سعيدة إلا إذا كانت فى منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة فى رؤياها ، وفى ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها ؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة ، فى تلك الساحة التى يبدو لها منها وجه السماء ، والتى تشبه فى نظرها قصراً من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها ، وتعود بخيالها فى غفلة لذيذة الى تلك البحار الرملية التى تجرى فيها بقوة هائلة سيول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمراً ، وتملأ أرجاءها ونواحيها .

إنها فى ذلك الحين حين تجلس الى تلك النخلة التى تشبهها فى محبة الوطن ، وتشاركها الأسف والحزن ، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة ، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها ، تجمع تلك الهضاب والتلال التى أمامها بعضها الى بعض ، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذى أمامها ، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء ، وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرءوس

فاذا رسمت فى خيالها هذه الصورة الجميلة ، وأتقنت صنعها كل الاتقان ، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقيـة ، خُيل اليها أن أباها وأمها وإخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين الســوداوين أمامها وتحت نظرها ، نخفق قلبها لهم ، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة .

وربما ذهبت بعض الأحيان فى النهار الى الحديقة ووضعت حصـيراً تحت النخلة التى لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها ، ورفعت عينيها الى السماء ، وسافرت بفـكرها الى أقصى حدود الخيال .

كانت ترى قطع السحب تمشى فى السماء على غير انتظام ، فهى إذن إما ذاهبة نحو قومها ، أو آتيـة من عندهم ؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو ستراهم ، فـكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن : ألم يجئنها بسلام من قومها وصحرائها ؟ أو تسألهن أن يتركن لها فى أجنحتهن مكاناً صغيراً يسع خبراً عنها لقومها وأهلها

***

فى أعقاب خريف السنة التى قضتها فى تلك الدار رأت الطيور تطير أسراباً أسراباً فى السماء ، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها : « إنها ذاهبة الى بعيد ! الى البلاد الحارة » . فقالت فى نفسها إنها ستمر إذن بوطنها العزيز . فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغنى بصوت حزين أناشـيد قومها وألحانهم الشجية ، مضمنة ذلك شوقها الشديد ، متوهمة أن تلك الطيور ستقفل راجعة اليها تحمل اليها أجوبة تلك الألحان والأشواق .

جاء الشتاء بخيله ورجله ، وأصبحت فتاة الصحراء لا تقدر على الجلوس تحت نخلتها ، والتمتع بظلها ، وشم رائحتها ، فأخذها من اليأس ما زاد فى آلام نفسها ، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة فى بحر من الآلام والأفكار ، فما يدرى ما الذى كان يشغل خيالها ويقلق بالها فى ذلك الحين ، أمنظر النخلة التى كانت تخشى عليها من البرد القارس ، والهواء العاصف ؟ أم انتظار الطيور تقبل عليها من ناحية من نواحى السماء المستورة بالغيوم ، تنقل اليها أخبار أهلها ووطنها . ؟

كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت ، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجاً . فلم يخف ذلك على زوجها ، فقال لها : « ما بك ؟ أراك تخفين عنى شيئاً يمضك ويؤلم ، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك » كانت تنكر ذلك ، ولكنها كانت فى شوق زائد الى رؤيتهم ، إنهـا اشتاقت الى الصحراء ، الى شمسها ، الى جوها الصافى ، الى نخيلها ، الى والديها واخوتها ، الى جملها ، أجل ! اشـتاقت الى كل هؤلاء ، ولـكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الانكار ، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها ، ألا وهو نخلتها وتنظر اليها بحزن عميق .

أقبل الربيع :

علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت : جاء الربيع ، كانت تظن أنه اذا جاء الربيع أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها ، ولـكن هيهات ، جاءها الربيع بالمصيبة الـكبرى : ستباع الدار ، وهما مضطران الى النزوح عنها الى غيرها

الدار يبيعها صاحبها : ستفارق إذن فتاة الصحراء حلمها الجميل ، ستفارق النخلة ، خطر لها خاطر فجائى وهو أن تأخذ معها شجرتها الى الدار التى ستسكنها ، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك ، وقررا أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة

رحلا الى دار صغيرة مظلمة فى حى فقير مظلم فصنعنا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعناها فيه وربطناها الى حديد النافذة

لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة ، ما كانت ترى فى هذه الدار السماء الصافية ، ولا الشمس المشرقة ، ولا القمر الزاهى ، ولا النجوم الزاهرة ، ولا الدور الشاهقة ، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها ، فحياتها منوطة بها . تجلس دائماً بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها ، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى . ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصباً من حضن أمه ، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها ، فاستحكم الذبول فى الاثنتين ، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتيهما ينطفىء تدريجاً .

نهضت يوماً من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها ، ولكنها تراجعت إلى الوراء دَهِشة ، ماذا ترى ؟ رأت نخلتها العزيزة رفيقها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط ، وسقط رأسها إلى الارض ، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة ، فجلست بجانبها وذرفت دموعاً غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل .

عاد زوجها مساء فالفاها على تلك الحالة باكية حزينة . فسألها قائلاً : « مابك ؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك ، ما الذى يبكيك ؟ » فاعترفت لأول مرة قائلة : « لنذهب ! لنذهب إلى هناك ! » وأشارت بيدها إلى بعيد ، إلى ديار أهلها وقومها .

***

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها ، ولكن ما الذى يهمها من ذلك الآن ، إنها ذاهبة بنفسها الى الصحراء ، الى الوطن الذى طالما فكرت فيه وأضناها بعدها عنه ، وذرفت لذلك دموعاً غزيرة . .

لقد ذهبا الى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل . .

فليت شعرى ، أفتاة الصحراء لاتزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل ، تغنى أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذى كانت ترى بجانبه جمال الآستانة قبحاً ، وماءها ملحاً ، وهواءها رديئاً ، وجوها وبيئاً ، وشمسها قاتمة ، ونجومها مغمضة نائمة ، أم هى نائمة نوماً أبدياً تحت أطباق الثرى ، وحيدة منفردة وظلال أشجار النخيل تبكى عليها ؟ . .

فتاة الفرات

« حلب »

من المسرح الغنائى

١ – سافو

لأوجييه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

مقدمة

ليس الفونس دوديه بمجهول من المشتغلين بالأدب الفرنسى وهو ذلك الكاتب الوجدانى الرشيق الأسلوب ، السليم الذوق ، البارع فى وصف الحقيقة ، فهو المنبع الصافى ، والسهل الممتنع ، يأخذك جلال ما يكتب ، ويسحرك بيان مايصوِّر ، فلا يلبث أن يشد أعصابك شداً ، ويجرى دموعك سيولاً ، ويلهب مشاعرك إلهاباً وأنت ذاهل تشارك بالرغم منك أشخاص قصصه ما يوزعه عليهم من مختلف العواطف المضطربة المتباينة .

وسافو إحدى آياته الكبرى التى جمع فيها بين الشهوة الثائرة ، وعاطفة الأمومة الطاهرة ، ظهرت فى سنة ١٨٨٤ وهو فى الرابعة والأربعين من عمره (لأنه ولد سنة ١٨٤٠) وقد امتلأ تجربة وخبرة ، وشبع شهرة وصيتاً ، فكانت من القصص الخالدة ، حتى ان قطعة سافو التمثيلية الغنائية (أوبرا) التى أخذت عنها دائماً متجددة الشباب تمثل فى فرنسا إلى الآن ، وفى مصر بدار الأوبرا الملكية كل موسم تقريباً . وهذه القطعة هى التى عنينا بنقلها « للرسالة » إلى لغتنا العربية الكريمة(١)

واسم سافو على مايظهر غير فرنسى ، لأنه اسم امرأة أغريقية اشتهرت مابين القرن السادس والسابع قبل الميلاد بشعرها ، كما اشتهرت بخلاعتها واستهتارها ، حتى أنها لما ملك اليأس عليها كل سبيل القت بنفسها من أعلى صخرة (لوكاد) فى اليم .

ولقد وضع پراديه المثال الفرنسى الشهير فى سنتى ١٨٤٨ و ١٨٥٢ تمثالين أولهما من البرونز والثانى من المرمر كانا محل اعجاب الناس ، حتى أن كثيراً منهم حصلوا على نسخ منهما ، وقد سماها باسمها . ولا يمكن أن يكون أراد بهما تخليد تلك القصة الشهيرة التى لم تظهر كما قدمنا إلا فى سنة ١٨٨٤ لأن أول هذين

(١) مؤلف هذه القطعة هو أوجييه اميل وقد طبعت بمطبعة كالمان ليفى باريس وهذا على ما أذكر لأننى فقدتها بعد الفراغ من تعريبها

التمثالين تم وودويه فى الثامنة من عمره ، وظهر ثانيهما قبل نشر قصته بنحو اثنتين وثلاثين سنة . ومن هذا يتضح أن پراديه انما وضع التمثالين المذكورين تخليداً لذكرى تلك الأغريقية .

واذا علمنا أن دوديه رجل (شأن كل كاتب) واسع الاطلاع مفروض وقوفه على تاريخ تلك الأغريقيـــــة وظروف حياتها ، وكذلك علمه بأمر هذين التمثالين جزمنا بأنه ما كتب تلك القصة إلا وهو متأثر بهذين الظرفين لقيام وجه الشبه بين هذه المرأة وبين سافو ربيبة قلمه من حيث الحب والخلاعة والاستهتار . ولأن قصته والقطعة الغنائية المـأخوذة عنها تناولتا ذكر التمثال المرمرى الذى أشرنا إليه .

على أن من العجيب ما لحظناه من أنه جعل فتاة قصته مصرية ، وأن واضع القطعة التمثيلية المنقولة عنها جعلها أندلسية ؟

أما الناقل فقد يكون التبس عليه الأمر بين هذه المصرية وبين راقصة أخرى أندلسية جاء ذكرها أيضاً فى نفس القصة . ولـكن دوديه أكد وصف سافو بالمصرية فى أكثر من موضع منها ، فلا بد إذن أن واضع تلك القطعة تعمد جعلها أندلسية ، لأن سافو كما وصفها دوديه امرأة فطرت على الحب العنيف المتقد ، وهى أيضاً كثيرة الأهواء لاتستقر عند حبيب واحد ، ولا تطيب حياتها إلا بالتنقل من حب إلى حب ، وكلها صفات تتوافر كثيراً فى الاسبانيات ، حتى أن بروسبير ميريميه اضطر إلى اختيار « كرمن » فى قصته البديعة من بينهن

ودوديه الـكاتب القدير لايفوته ذلك أيضاً ، ولـكنه قصد الى تمصير سافو قصداً ، وقد خصها بالاجادة فى رقص « البطن » فاذا كان هذا ما اراده فقد التوى عليه قصده ، لأن مثل هذا النوع من الرقص ليس من عادات الباريسيات ، وقد أراد بقصته وصف تلك العادات ، ولأنه كان عليـه ما دام هذا قصده ألا يسمى فتاته سافو ، لأن سافو الأغريقية لاتعرف مثل هذا الرقص ، ولأن المصرية لا تتسمى بهذا الاسم .

وعلى كل حال فقد رأى ألا يجعل الخاتمة واحدة فى سافو التاريخ وسافو القصة ، فغلّب هذه على اليأس الذى ذهب بحياة أختها ، وأحياها الحياة الـكبرى حياة الأم التى تحطم قلبها وتتطهر من أقذار الأثم لتنصرف الى تربية طفلها . فـكان فيما اختار عظيما رائعاً ، وهو ينزل على حكم الطبيعة ، ويساير غريزة التكوين البشرى ؟

محمود خيرت

الرواية

الفصل الأول

(بهو ينتهى الى مصنع المثال كاوودال . يموج البهو بالمقنعين والعذارى المقنعات ، لأن الليلة راقصة ، وأما المصنع فتدوى فيه نغمات الآلات الوترية ، وسافو (واسمها المستعار فنى) ترقص وتغنى ، والمجتمعون يصيحون من النشوة والطرب . وأخيراً يظهر فى البهو كاوودال ولا بودرى مقنعين)

كاوودال — انظروا أيها الشبان كيف أصبح الشيوخ أكثر فتوّة منكم !

لابودرى — إنى راحلٌ يا أستاذى

كاوودال — طبعاً لأن المجلس لم يعجبك

لابودرى — كلا ، ولـكنى لا أستطيع البقاء فوق هذا

كاوودال — بل قل إن هذه الراقصة ذات العيون السود لم تفتنك ، إن رشاقة هذه الأندلسية لا تدع عقلا لعاقل ، وهى تجتمع دائما هنا بأصحابها ، فلم لا تشاركهم هذا الأنس ؟ (يغنى)

يا غصون الشباب

الجميع — يا غصون الشباب

فنى (سافو) — إن عذب القُبَل هان فيـه العذاب
وسواد المقل طاب فيـه الجنون

الجميع — يا شباب الغصون

لابودرى — مهما كان من الأمر فانى سأرحل

كاوودال — يا عدوّ الملاح

الجميع — ما علينا جناح فانتظر للصباح

كاوودال — ما أغربك أيها الفتى . تفرّ من هذا الأنس وتزعم أنك شاب

لابودرى — وكأنى بك فى سنّ العشرين

كاوودال — مع انى فى الستين (ثم يخاطب حنا) وأنت لم لا ترقص يا حنا ؟ كنت أظنك فى مجلى هذا السرور أكثر نشاطا ومرحا

حنا — إننى ما رقصت عمرى

كاوودال — ولـكن الرقص ينفض عنك تراب القرية . تشجع

لابودرى — العبرة بالخطوة الأولى . هيّا

كاوودال — ألا تعرف هؤلاء الفتيات الجميلات ؟

حنا — لا يا سيدى

كاوودال — وكيف تراهن

حنا — رائعات

كاوودال — ألا أقدّمك إليهنّ

حنا — أشكرك وأعتذر ، فقد أكون محل سخريتهنّ

السيدات — ها ها ها (ضاحكات)

لابودرى — (وكأنه يكلم نفسه) ولمَ ؟ ما أبسط هذا الفتى !

كاوودال — تعالَ معى

حنا — دعني بالله (يمتنع فينصرف كاوودال ومن معه الى المصنع)

كأنني فى حلم . أهذه هى السعادة التى يتغنون بها !

(هنا يسمع ضجيج المجتمعين فى المصنع وهم يغنون) :

نماذجُ المصنعِ سافو لهـا تاجُ

جبينهـا يسطع كالتّبرِ وهّاج

سُبحان من أبدع جمـالها سافو

ماذا أسمع ؟ كل شىء فى هذا المصنع يشدّ أعصابى . فأين أنا من قريتى كنز السكون والنور ؟ ومن خمائلها يحمل النسيم أرجها فيعطّر الأرجاء . لقد كنت فى المساء أجوب غاباتها النضرة فتهزنى الأحلام ، وهواؤها العليل يشدو من خلال أوراقها فأنسى قسوة الشتاء . قريتى التى تفيض بالأمل والحب ما أبعدها الآن عنى !

(يسمع هرج فى المصنع وضحك طويل ثم يخرج بعضهم يتعقب فنى)

أحدهم — قُبلةً يا فنى

فنى — اخسأ

هو — (الذى يتعقبها) قبلة واحدة صدقة عن هذا الحسن ...

فنى — تظهرون الغرامَ لى فى ابتسام مُغرّر

خِدعةٌ ليس ينطلى سبكها فى نواظرى

إنكم تصدَعوننى انكم تخدعوننى

(تفلت منهم وتسأل كاوودال)

من هذا الفتى الجميل (مشيرة الى حنا)

كاوودال — لاأعرفه

فنى — ولم لا أسأله أنا ؟

كاوودال — شأنك معه (يبتعد ضاحكا)

فنى — (تقترب من حنا) ما اسمك ياصاحبى ؟

حنا — حنا جوسين

فنى — قروى ؟

حنا — نعم

فنى — وهل أنت مصور ؟

حنا — لا ياسيدتى (مطرقاً)

فنى — أحسنت . ولكن لمَ أنت مطرق؟ وماذا رابك منى ؟

حنا — بالله لاتسخرى منى يا سيدتى

فنى — أنا ؟ إنك بالعكس سحرتنى وإن كنت غير مصور

(يسمع صوت كاوودال ولابودرى يناديان)

الطعام . . الطعام

فنى — (فى اذن حنا) الى الملتقى ياحنا

كاوودال — هيا يا إخوانى

الجميع — (داخل المصنع) الغداء ! الغداء !

ان لذة الأنام فى تذوق الطعام

الغداء ! الغداء !

كاوودال — (من الداخل) سافو !

(يحاول حنا الدخول فتمنعه مضطربة)

فنى — لاتدخل ياحنا . تعال معى

حنا — ولكن . . .

فنى — تعال . تعال

حنا — (يخضع) غلبتني مقلتاها فسبيلى قدماها

فنى — عقل فنى فيك تاها سهم عينيك رماها

حنا — ياالهيى !

فنى — ياحبيبى !

(يذهبان بينما المصنع فى هرج وأنس)

« يتبع »

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد فى مصر و بخمسين قرشا فى البلدان الأخرى

2 me Année, No. 58.

Lundi-13-8-1934

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر المالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٥٠٥٣٠

العـــدد ٥٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ١٣ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

ذكرياتنا القوميـــة

تعاودنا فى كل عام بعض الذكريات الأليمة التى يغص بها تاريخنا الحديث ؛ وفى الأمم المغلوبة التى سلبت أعز ما تزهو به الأمم ، أعنى حرياتها القومية ، تنسخ الذكريات الأليمة كل ماعداها من ذكريات الفخار والمجد ؛ وإذا أتيح لها يوماً أن تحتفل باحدى هاته الذكريات المجيدة ، فان محنتها الحاضرة تكدر دائماً صفاء شعورها القومى ، وتذهب بكل ما يمكن أن تأنس به من كبرياء وغبطة ونخار .

وقد مرت بنا منذ أسابيع قلائل بعض هذه الذكريات السود فى تاريخنا : حوادث الاسكندرية المشئومة فى ١١ يونيه ؛ وضرب الأسطول الانجليزى للاسكندرية فى ١١ يوليه ؛ وستحل بعد أسابيع قلائل ثالثة الذكريات المفجعة ، أعنى تمام احتلال الانجليز لمصر فى ١٥ سبتمبر ؛ ومنذ عامين كان قد انقضى على ضياع الحريات القومية وقيام الاحتلال الأجنبى فى مصر خمسون عاما . فكيف نستقبل هذه الذكريات المؤسية فى تاريخنا القومى ؟ وماذا نفيد منها من عظات وعبر ؟

الواقع أننا لا ننسى هذه الذكريات التى تعاودنا كل عام ،

وينبهنا اليها دائماً استمرار المحنة واستمرار الأعداء على حقوقنا وحرياتنا. وقد تكون الذكرى وحدها فضيلة. ولكن الذكرى المجردة لا تكفى دائما للافادة من عبر الحوادث وتغذية الشعور القوى وإذكاء الهمم للنضال فى سبيل استرداد الحقوق المسلوبة. وما الخير فى أن نستقبل هذه الذكريات كل عام بعدة فصول ومقالات فى الصحف تكاد تتفق دائماً فى ألفاظها ومعانيها: بكاء على الماضى، ورثاء للاستقلال الذاهب، واستنكار للاعتداء الواقع، وتنديد بنكث المعتدى، وتشهير بأساليب الاستعمار؟ هذا ما نقرأ دائماً فى صحفنا فى هذه المناسبات، وهذا كل ما نفعل لاستقبال ذكرى الحوادث والخطوب التى ذهبت بحرياتنا واستقلالنا. وهذا حسن بلا ريب؛ ولكنه لا يكفى لتحقيق الغاية القومية التى يعلق تحقيقها عليه.

وليس هنا مقام تفصيل مايجب أن تعمله أمة كأمتنا فى مثل هذه المناسبات. ولكن الجهاد السلمى لاحياء الشعور القومى، وإعداد الأمم للنضال فى سبيل استرداد حقوقها متعدد الوسائل والصور. وترديد النواح والعبارات المؤثرة لا يفيد شيئاً فى سبيل استقلال الأمم؛ وإنما يفيد أن تثير دعوة مقنعة لبيان حقك، وأن تتخذ هذه المناسبات لتنظيم جهود سلمية جديدة، سياسية أو اقتصادية فى سبيل الكفاح القومى؛ وأن تعقد الاجتماعات والمحافل السلمية، وأن تنظم الاحتجاجات بالقول والفعل، وأن تلقى رسالة المستقبل الى الشباب بطريقة عملية؛ ويحسن أن يدوى صدى احتجاجك فى الخارج، فى جميع أنحاء العالم، فقضايا الأمم المغلوبة دائماً بحاجة الى التعريف، وقد يلقى التعريف أحياناً شيئا من التأييد أو العطف فى ثنية الضمير الدولى. ومن جهة أخرى فان هذه المناسبات يمكن أن تتخذ ذريعة حسنة للقيام ببعض الأعمال والمشاريع الوطنية النافعة، فتكون دائماً رمزاً عملياً لاذكاء الشعور القومى

***

ونود بهذه المناسبة أن نشير الى نقطة أخرى جديرة بالتأمل، ذلك أننا نشهد فى مصر احتفال بعض الأمم الغربية بأعيادها القومية؛ ومن هذه الأمم من تسيطر بقوة الغصب والاستعمار على شعوب عربية وإسلامية شقيقة، وتسومها أمر ضروب الاضطهاد والذلة، فى مثل هذه المناسبات نجد بكل أسف صحفنا ومجلاتنا تشيد بأعياد هذه الأمم المستعمرة وتشاركها فى الاحتفاء والابتهاج. خذ مثلا عيد ١٤ يوليه الفرنسى الذى يزف الينا دائماً بأنه عيد الحرية والاخاء الانسانى، وتأمل كيف تفيض صحفنا كل عام فى الاشادة به وبآثار الحوادث التى ارتبطت به فى تحطيم صروح الظلم والاستبداد، وكيف يشترك كثير من شباننا الاغرار فى الحفلات التى تقام لهذه المناسبة، وكيف ينسى هؤلاء وهؤلاء أن هذه الأمة التى تتغنى بنشيد الحرية والاخاء والمساواة، هى نفس الأمة التى تفرض نير الذلة والاستعباد على ملايين المسلمين، وتعصف سياستها الاستعمارية الحديدية بدينهم ولغتهم وكل تراثهم القومى؛ هذا بينما يقضى الواجب الوطنى وواجب التضامن الاسلامى أن نقف دائماً من هذه المناسبات موقفا سلبيا، بل أن نذكّر هذه الأمم الاستعمارية بما فى دعواها من تناقض، وبأن الأمم المغلوبة لا يمكن أن تؤمن بنداء الحرية، وهى ترى أن أولئك المنادين به هم نفس الجناة على حرياتها واستقلالها.

***

إن تقدير الذكريات القومية، وتنوع الاحتفاء بها، وحسن الاستفادة منها، من شواهد اليقظة القومية؛ وإن المتغلب المستعمر لا يفوته أبداً أن يلاحظ هذه المواقف فى حياة الأمم المغلوبة لأنها فى نظره مقياس للشعور القومى؛ وهو أشد مايخشى هذا الشعور وأحرص ما يكون على محاربته وإخماده، وإن كثيراً من الخطط والوسائل التى يدبرها الغالب لتثبيت نيره أو مصانعة فريسته يتوقف على مبلغ ما يأنسه فيها من قوة الشعور القومى أوضعفه، ومن الأسف أننا نجوز مرحلة فتر فيها الشعور القومى، وفترت فيها قوة المقاومة؛ فلنعمل بكل ما وسع الجهاد المشروع لاذكاء هذا الشعور، ولنلتمس دائما لاذكائه ذكريات المحن القومية، فالمحنة تشحذ همم الأمم الحية، والشعور القومى لا يكفى فى تغذيته أن تردد الفصول الفاترة المتماثلة كل عام، والحريات لا تغنمها إلا شعوب فياضة الوطنية، فياضة الشعور بكرامتها؟

«ع»

حول الحـــر

للأستاذ أحمد أمين

اشتد الحر وشغل الناس بالتفكير فيه ، وبطرق التغلب عليه ، وبالتأفف منه ، فهذا يدبر المال للأقامة فى مصيف فيوفق ويرحل ، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مضض ، وهذا نزاع عائلى بين ميزة الاصطياف فى أوربا والاصطياف فى الاسكندرية ، وهذا غني أفلس يأتى عليه الحر فيذكره بأيام هنية قضاها فى أجود المصايف وأنزه الأماكن ، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى — وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد فى الحر حتى يكثر بيعه ، ويزيد ربحه ؛ وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أتحسن الجو أم ساء ، وهو يتبع المقياس فى رضاه وسخطه ، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والاسكندرية ، والقاهرة وبور سعيد ، فان كان فى الاسكندرية رثى لمن فى القاهرة ، وإن كان فى القاهرة حسد من كان فى الاسكندرية ؛ وإن كان فى أسيوط عزى نفسه بقـــلة الرطوبة وجفاف الهواء ؛ ومن كان فى مصر كلها حمد الله على أنه ليس فى أمريكا حيث يختنق الناس — وهذه شغلها التفكير فى المقارنة بين حمام ستانلى وسيدى بشر : أيهما أكثر ناسا ، وأنظف مرتاداً ، وأحسن للعرض وأمتع للنفس . وهذا يرتقب غروب الشمس التى تكويه بنارها ، ليخرج الى الجزر والأنهار والمقاهى المفتوحة والملاهى فى الجو الطلق ، فينتقم فى ليله من نهاره — وهذا وهذا وهذه وتلك مما لا يعد ولا يستقصى ؛ ولكن لابد من « هذا » أخرى أُنسيتُها ، فهذا كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى فهو يريد تشبيهاً جميلاً للحر أو تعبيراً بليغا ، فيقول : هذا الجو أحرّ من الرمضاء ، وأحرّ من دمع الصب ، وأحر من قلب العاشق ، ومن فؤاد الثاكل ؛ ثم لا تعجبه هذه كلها فيريد تشبيهاً مخترعا ، أو عبارة مبتكرة ، أو استعارة بديعة ، فيسبح فى الخيال ، وينسى الحر ، وهى حيلة لطيفة للتخلص منه !!

أما أنا فقد ضايقنى الحر ، وحرت بين مصر والاسكندرية ، تؤلمنى الأولى بحرها القاسى ، وتؤلمنى الثانية برطوبتها الثقيـلة ، وددت أن لو كان لى من المال ما يمكننى من أن أطير صباحاً فأقضى النهار فى الاسكندرية ، وأطير مساء فأقضى الليل فى القاهرة

وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير فى الكتابة فيه ، وقلت إنها فرصة جميـلة أن أكتب فى الحر ، فان خرج المقال قيماً ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن فى عمله — وليس لى كبير أمل فى ذلك — وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت الى الناس فرفهت عليهم ، وانتقمت من الحر ، وأعنتهم عليه ؛ وأية فرصة للكاتب خير من هذه ؟ يَحسن اذا أحسن ، ويحسن إذا أساء ؛ وللانصاف لابد أن أعلن أنى لست مبتكراً لهذا المعنى ، إنما سرقته من نادرة لها اتصال بالحر ، فقد أنشَدَ بعضهم بيتاً من الشعر ، فقال سامعه : إن هذا البيت لو طرح فى نار المتنبى لأطفأها ، ويريد ببيت المتنبى قوله :

فى فؤادِ المحب نارُ جَوىً أحرُّ نار الجحيم أبردُها

فكذلك أردت أن أثأر لنفسى وللناس من حر هذا العام بكتابة مقالة تطفئه ، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة ، لا بالحارّة فتعجب ، ولا بالباردة فتطفئ

* * *

أول ما خطر لى فى الحر أنى الآن لابس ثوباً خفيفاً أبيض ، واسعاً فضفاضا ، مكشوف الرأس ، عارى القـدمين ، جالس فى حديقة ، أشجار عن يمينى ، وأشجار عن يسارى ، وحوض زهر أمامى ، وقد رشت الأرض من حولى ، وبجانبى إناء مما يحفظ فيه الماء مثلوجاً ، لا أدرى ما اسمه بالعربية ، وأخشى أن أقول « ترمس » فينقدنى علماء اللغـة ؛ وكل شيء حولى يرطب الجو ويلطفه ويعدّله ، وأنا مع هذا كله برم بالحر ، ضيق الصدر ، مغيظ محنق ، ألتمس أقل سبب ، لأعلن الغضب — وعلى البعد منى أصوات ترتفع بالنـداء ، هذه تحمل قفصاً مملوءاً بالفراخ ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر ، وهذا ثالث يحمل على رأسه سفطا كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب ، وهو سائر طول نهاره فى هذا القيظ ينادى ، لا يعبأ بشمس ولا حر ، ولا يضجر كما أضجر ، ولا يألم كما آلم ، ولا يفكر فى الحر كما أفكر — أليس فى الأرض عدل ؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة ؟ أو ليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتنى الجلد والاحتمال ؟ إنه ليسعد بما أشقى به ، إنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية ،

ويسعد بالارتماء فى ظل بيت فى الشارع بعد أن أعياه التعب وأضناه السير ، ويسعد بقرش يكسبه ليشترى به خبزاً جافاً يأكله فينعم به — إن كانت السعادة فى اللذة والطمأنينة وهدوء البال فمما لا شك فيه أن هناك مجالاً للتفكير العميق « أينا أسعد » وتباً للعيش الناعم ، والمدنية المعقدة ، والرفاهية المترفة ، التى أرهفت حواسنا وإحساساتنا ، وأفقدتنا الصبر واحتمال المكاره ، وجعلتنا نفر من نعيم إلى نعيم أدق منه نظن فيه السعادة ، وما السعادة إلا فى العيش البسيط والمران على الجلد ، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب ، وأقلها الحر والبرد ، إن تحتمل الحر فلا حر ، وان تحتمل البرد فلا برد ، وان تعتد بساطة العيش تكره نفاق المدنية ، وان السعادة لخير ما يحقق مذهب « اينشتين » فى النسبية ، فكل شىء فى الحياة من لذة وألم نسبى ، وليست اللذة والألم يعتمدان على الشىء الخارجى فحسب ، بل هما نتيجة تفاعل بين الشىء الخارجى والنفس ، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس ، فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها ، بل إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو ، فلا يصلح أن يكون مقياساً لألم النفس من الحر ، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس ، إنما لكل انسان فى الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص ، ولذلك ترى من يموت من الحر ، ومن يموت من الضحك على الحر — ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالاصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات ، ولا يبذلون أى جهد فى الناحية الأخرى وهى الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال ، وتعويدها الصلابة ، وهذا فى نظرى ليس أقل شأناً ولا أصغر قيمة من العلاج الأول

* * *

وخطر لى أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعاً من الأجرام تكثر فى الصيف كالأجرام الجنسى ، وأنواعاً تكثر فى الشتاء كأجرام السلب والنهب ، فقلت لعل ذلك أيضاً فى الأدب ، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفاً أكثر مما يهيجون شتاء ، ويهيجون فى القاهرة أكثر مما يهيجون فى الاسكندرية ، إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسمونهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب ، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم وبعض ، وأدباء الشباب بعضهم وبعض . أليس هذا كله فعل الحر ؟ أوليس من كان فى الاسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر فى أدباء القاهرة ؟ — ولئن كان الحر يؤاخذ على ماجنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر ، فانه يشكر على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعاً فنية بديعة أكملت أبواب الأدب ، فان القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح — كما أنه يشكر إذ لم يسلط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوّل عدسته الى غيرهم ليتنازعوا فنجا الأدباء من ثورته ، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم

* * *

وأخيراً خطرت لى محمدة جليلة للحر القائظ ، والبرد القارس ، وقلت إن هذه المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء ، ولولاها لما تقدمت الانسانية ، ولما رقى النوع البشرى هذا الرقى ، ولظل هائماً على وجهه كالوحوش ، ذلك أن الشمس بنارها اللافحة ، والحر بشدته اللاذعة ، والبرد بحدته القاسية ، وأمطاره المنهمرة ، وبرده وثلوجه ، والطبيعة العنيفة — بعواصفها ورياحها — كل ذلك هو الذى ألجأ الانسان قديماً الى أن يبحث له عن ملجأ يأوى اليه من الحر والبرد ، فسكن الكهوف فى نشأته الأولى وظل يرتقى فى ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت ، وأسس الأسرة ، وكونت الأسر القبائل والمدن ، وكونت هذه القبائل الأمم ، ثم تعاونت الأمم على ترقية النوع الانسانى ، فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت ، ولولا البيت ما كانت أسرة ، ولولا الأسر ما كانت أمم — أليس الحر والبرد إذن كانا أفعل فى ترقية النوع الانسانى من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون ؟ فاذا قلنا إن تقدم النوع البشرى مدين فى تقدمه لرداءة الجو ، وشدة الحر والبرد ، لم نُبْعِد

* * *

خطر لى كل هذا حينما حاولت أن أكتب فى الحر فبدأ الضجر يقل ، والألم يحتمل ، والنفس تهدأ ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى — فهل هذا يستمر ؟ سأجرب

على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته — ولو الى حين — بكتابة مقال فيه ؟

احمد امين

قصة أب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدثني المسكين فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباء فَنَسأ بالولد في آثارهم ، ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضمَّ به الى قلوبهم قلوباً ، وملأ أعينهم من ذلك بما تقرّ به قُرَّة عين كانت لم تجد ثم وَجدت . فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التي ترجعهم أطفالاً مثلهم في كل ما يسرهم ، فيكبر الفرح في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظم الأمل في أشيائهم وإن كان هو عن شيء حقير لا يُؤْبه له ؛ وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى ، وهي القوة التي يتحول بها الكون في قلب الوالدين الى كنز من الحب والرحمة وجمال العاطفة ، بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة ، أو بكلمة منهما أو حركة ، على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ولا بملك الدنيا .

رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنه ابتلاني بأن أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجل ملك داراً يستمتع بها ، فتمنى أن يشرع[1] في جانب منها غرفة يُزَخرفها ، فلما تم له ذلك وبلغ المقترح انهدمت الدار ، وبقيت الغرفة قائمة !

عَمْرَكَ اللهَ ، أيشعر هذا الرجل في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد أو نقص ؟ ويا ليتهما بيت وغرفة من بيت ؛ فان الحجارة تحيا بالبناء اذا ماتت بالهدم ، ولكن من ذا يحيي الزوجة ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأول والآخر :

إنها طفلة وُلدت وكأنما أُخرجت من تحت الردم إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدم . وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أُكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي ! فالمسكينة على الحالين منقطعة أولَ ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها .

(1) أي يفتح غرفة الى الشارع

طفلة وُلدت صارخة ، لا صرخة الحياة ، ولكن صرخة النوْح والندب على أمها .

صرخة حزينة معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر !

صرخة ترتعد كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفئها !

صرخة تتردد في ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات : « يا رب ارحمني من الحياة بلا أم . ! »

* * *

قال المسكين وهو يبكي امرأته :

ولما ضَرَبها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة ، وستكون روحين لا روحاً واحدة ، وتلد لي الحياة والحبَّ الآلهيّ معاً ، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأتي الرجلَ إلا من زوجه . كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدَّدها ، ولكن ما أسرع ما تبينتْ أنه الموت إذ عُضِّلتْ وعسر خروج مولودها وجاءها الجراحيّ بمبضعه ، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينيها إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين .

كانت بنظرة تبكي عليَّ وعلى بؤسي ، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرة تودعني ، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت اليها ؛ وبنظرة تتوجع لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاد أجن .

نظرات نظرات .

يا إلهي ! لقد خيل إليَّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً . وكل نظرة من عينيْ زوجتي إليَّ كانت منها هي نظرةٌ ، وكانت عندي أنا مرآةَ الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حية منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لي وهي تموت ، وهي تلد ، وهي تذبح !

* * *

ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا اذا كانت حرارة الشمس

التى تحيي الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلب النسوى المستقر فوق أحشاء تحمل الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها — هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه. وللرحمة الالهية أدلة كثيرة تدل الانسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة ؛ فالشمس تدل عليها بالضوء الذى تَطعمه الحياة، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفسه الحياة، والماء يدل عليها بالضوء الذى تشربه الحياة، وهكذا الى أن يأتى فى الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذى تقوم به الحياة.

ابتسامة الحب غالبت زفراتِ الموت التى تعتلج من تحتها حتى غلبتها، وأعادت الحياة لحظة الى وجه زوجتى لأراها آخر ما أراها فى صورة المُحبة، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعنى وداعاً حزيناً متبسما يتكلم ؛ يتكلم بعجزه عن الكلام.

ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها ؛ فكأنما التمعت بأشعة من الخلد ترفّ رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت.

***

قال المسكين: وتر الطبيب ذابطنِها فكانت طفلة، وما كانت زوجتى تقترح أن يكون الجنين غيرها، بل كانت مستيقنة أنها تضمها أنثى، وصنعت لها ثيابها، ووشتها بزينة الأنوثة، وعرضت أسماءَ البنات فاختارت اسمها أيضاً، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لا بنتا، فكانت تغـــايظنى بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء.

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كنت أعجب لذلك، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح، فكان الالهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لهـا، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها، تضم ثيابها الى صدرها، وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبّلها، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه. وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة!

لكِ الله يا معجزة الرحمة، يا نفس الأم!

ولما قيل: ماتت — جعل يكلمنى المتكلم ولا أعقل، فإن الكلمة التى تأتى بالمصيبة المتوقَّعة طال ارتقابها — لا تأتى بمعان لغوية كغيرها من الكلام، بل بأسلحة تضرب فى النفس وفى العقل، وتُثْخِنُهما جراحا وفتكا.

وجعلني موتها كأنى ميت يحمل نفسه. ماحوله إلا المشيّعون، وأحسست كأن قوة أخذت باحدى رجليّ فوضعتها فى الآخرة، وتركت الثانية فى الدنيا، ولحقنى من الجزع ما الله عالم به، ووجدت أحرق الوجد، وبكيت أحر البكاء ؛ وجعلتْ أفكارى تنحدر من رأسى إلى حلق فأختنق بها، ثم لا يُنفّس عني إلا الدمع، كأن أعضائى اختلّت مما ضغطنى من الحزن فأنا أتنفس برئتيّ وعينيّ.

بموتها شعرت بها، ولعله من أجل ذلك لايشعر الانسان بلذة الحب كاملةً إلا فى آلام الحب وحدها. وكانت فى حياتها تضع من روحها فى سرورى، وهذا هو سرّ المرأة المحبوبة، يجد مُحبُّها فى كل سرور لمحات روحانية، وكذلك فعلت بعد موتها، فجعلت روحها فى أحزانى ؛ ولولا أن روحها فى أحزانى لقتلتْنى المصيبة.

وكنت أدلف وراء النعش وقد بطل فى نفسى الشعور بالدنيا، وكان الناس يمشون حولى بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان، أما أنا فكنت أمشى بما فيّ من الحب منكسراً منخذلا متضعضعاً، لأنى وحدى سائر وراء مالا يُلحق.

وثقل الناس على قلبى، ورجع كل أمرهم عندى إلى العيب والنقيصة، إذ كان لى عقل طارئ من الحالة التى أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم، وكنت وحدى المصاب بينهم، فكنت وحدى بينهم العاقل.

أنا أمشى لأنتهى إلى آخر مصيبتى، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق ؛ وشتّانَ ما نحن وشتان!

ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناى تنظران بالدموع لابالنظر، ورأيت التراب كأنه غيوم ملوّنة بألوان السحب السوداء تتهيأ فى سمائها تحت الظلام لتخفى كوكبا من الكواكب ؛ وظهر لى القبر كأنه فم الأرض يخاطب الانسان بحزم صارم، يخاطب الفقير

والغنى ، والضعيف والقوى ، والملوك والصعاليك : « إن كل قوة تُنزع هنا »

***

قال المسكين : وكما يجد الانسان فى أيام المطر رائحة النسيم المبتلّ بالماء كنت أستروح فى رجعتى إلى الدار رائحة نسيم مبتلّ بالدموع ، وحضرت المأتم وعزّانى الناس فكنت فيهم كالمأسور بينهم لا أتمنى إلا أن يدَعونى فأنجوَ على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرّعوننى الوجودَ غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة غُصة ، إلا أن تفرقوا مع سواد الليل ، فانكفأت إلى الدار فاذا كل شىء قد تغير ولمسه الموت لمسة ، واذا الدار نفسها كالعين المقروحة من آثار البكاء ، ما تَنمّ إلا ليطالعنى بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبح لعينىّ الساهرتين صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول : « لم أطلع لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبت أمشى فى دنيا هى الكآبة المضيئة ، سخِرت الأقدار منها باظهارها فى هذا الضوء مَظهرَ وجه العجوز المتصابية فى زينة لا تزيدها إلا قبحاً !

ومضيت على وجهى لا غاية لى ، أضرب فى كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يوم جديد ، بل كنت عنـد نفسى لاأزال فى أمس ، وتغير عندى الزمان والمكان ؛ فأحدهما ساعة موت لاتترك مافيها ، والآخر قبر ميّتة لا يرد ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الموجود ليعذبنا بالتذكر أنه كان موجوداً !

***

قال المسكين : ثم أعادتنى قدماى إلى البيت لأرى طفلتى — وما كنت رأيتها — ولقـد كانت ولادتها أولَ الحياة لها ، وأول الحياة لى أيضاً ، إذ لولاها لانتحرت غيرَ شكّ .

يا ويلتا ! لم تلتق عينى بعين الطفلة حتى انفجرت تبكى ، أتبكين لى يا ابنتى أم علىّ ؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة ، أم هو صوت قلبك اليتيم ؟

أصوتكِ أنتِ ، أم هى روح أمكِ تصرخ تَرْثى لى وتتوجع لفرط ما قاسيت !

ياابنتى ، إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة — خيالات الأيام السعيدة التى مرّت !

يُخلَق المواليد من اللحم والدم ، وأراكِ أنتِ يامسكينة خلقتِ من اللحم والدم والدموع !

بقيَّة حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقيةموتٍ يحيا ؟

مسكينة ، مسكينة ، لو أن نواميس العالم متغيرة لشىء لتغيرت من أجل بؤسك فردّت لك الأم ، ولـكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا تراث الحياة فى أجسامنا الأرضية ؛ كل ذلك طبيعة ، ولـكن بقعة أنظف من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيت الذى هُدِم أوّل ما بنى يملؤه ترابه !

لن تتغير النواميس ، فلن تجدى عطف الأم ، ولـكن لن يتغير قلبى أيضاً ، فلن تحرمى عطف الأب .

وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعانى الصبر لك ، وأعانى الصبر لى ، وأعانى الصبر عن أمك ، سأصبر على الصبر نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمكِ ، وأبٌ مسكين مقفل على آلامه ؟!

***

قال المسكين : وهكذا كُتبتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنع لى حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لى حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لى دموعى ؟!

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

مجهولو الأبطال

ابنـــا النقيب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أرأيت التاريخ اتسع يوماً لذكر الألوف المؤلفة ممن سيروا حوادث الدهر ، ودفعوا تيارات الزمان نحو مستقرها ؟ قد يذكر التاريخ عظيما أو بعض عظماء ، وهؤلاء قد يكونون من قادة الحرب وزعماء أرباب السيف ، وقد يكونون من أهل السياسة وأصحاب الدهاء والكياسة ، الذين تألفوا الناس وحركوا الأحزاب ، وقد يكونون من أهل القلم ، لا بل قد يكونون من أصحاب العلم الذين أضاءوا للناس سبلهم فى الحياة . ولكن كم يكون هؤلاء الذين يذكرهم التاريخ ؟ أيكونون بضع مئات فى كل عصر ؟ أم لعلهم يبلغون بضعة ألوف ؟ وأين يقع هؤلاء من ذلك التيار الأتىّ الذى تزدحم به الأيام والليالى من الناس ؟

قد يزعم زاعم أن الأفذاذ كانوا أبداً قليلى العدد ، وأن التاريخ لا يذكر إلا هؤلاء الأفذاذ . وذلك زعم أكل الحكم فيه لكل من وقعت عينه على هذه الكلمات ، فانى لا إخال فيهم الكثيرين ممن بلغت بهم الأنانيــة الى التطلع لذكر التاريخ والخلود فى صحائفه . فاذا كان أكثرنا لا يطمع فى ذكر التاريخ والخلود فيه ، أيكون ذلك مُخَذلاً لنا عن القيام بما يجب علينا ؟ إن من الناس من يعطى المسكين أمام أعين الناس . حتى يشتهر بينهم بالأفضال والاحسان ، وإن منهم من يرفع رأسه بكلمة الحق ، وهو على مسمع من قوم يطمع أن يقولوا عنه إنه حر أبى كريم النفس ، وإن منهم من تدفعه الحمية وهو على مرأى من الناس الى أن يخوض الأخطار فى سبيل المكارم ، لتكون له بذلك ذكرى بينهم وحسن أحدوثة . وهــذا والحق لا بأس على الناس أن يأتوه ، فان الخير لا يضره أن يكون من ورائه منفعة لمن يقدمه . غير أن تلك المرتبة فى المحل الثانى من المكارم ، وأما المحل الأول فقد سبق اليه من يواسى فى الخفاء ، وهو لا يطمع فى شكر من يواسيه ، ولا يتطلع الى إعجاب من حوله من الناس ، ومن يصدع بالحق لا يبتغى من وراء ذلك إلا أن يقوم بواجبه أمام نفسه ، ومن يصنع الخير للناس لا ليجازوه بالاجلال ، ولا ليفوز منهم بالاعجاب . بل لأنه يطيع طبيعته فى ذلك وينطلق على سجيته . ومن ثم كان الأولى بشكر الانسانية من يقوم على المكرمات ، ويمضى فى الخير ، وهو فى غمار الناس لا يستشرفه أحد من الناس ، ولا يشرئب هو بعنقه اليهم . فاذا نحن رضينا بذلك كان انتدابنا الى أداء الواجب من تلقاء أنفسنا غاية ما يحرص عليه أماثلنا ، ولم يكن إعجاب الناس ولا ثناؤهم بما يطمع فيه الكرام أو تطمح اليه النفوس العالية .

* * *

ولقد كان فى مصر فى مختلف العصور جماعات كثيرة ، بلغت من سمو النفس أنها أدت واجبها ، ولم تعبأ بأن يتخلف عنها فى التاريخ ذكر . ومضى التاريخ بذكرياته وأسمائه ، فلم يذكر من هؤلاء إلا النزر اليسير . ونحن اليوم موردون ذكر اثنين من هؤلاء أبى الله الا أن يحفظ لنا اسميهما لتكون تلك آية دالة على أن فيمن مضى جماعات لا عد لأفرادها أدوا واجبهم ، ومضوا فى ثنايا ضباب الماضى ، ولم يعبأوا بأن يلتفتوا التفاتة واحدة الى الناس يطلبون منهم شكراً ولا ثناء . وتلك هى مكارم الأخلاق ومروءة الحياة .

كان فى مصر جماعة الأمراء المصريين الذين يظلمهم التاريخ بأن يطلق عليهم اسم « المماليك » ، وكانوا يسمون أنفسهم الأمراء المصريين . ومهما يكن من محامدهم أو مساوئهم ، فقد كانوا معتزين فى كل الأحوال بمصريتهم يحبون هذه البلاد كأعظم ما يحب الرجل بلاده .

وكان من هؤلاء الأمراء من استقل بمصر استقلالاً تاماً وأحاط ذلك الاستقلال بسياج من قوة قلبه وحماسة نفسه . ثم عدت على ذلك الاستقلال العوادى فآثر أن يبذل دمه قبل أن يبصر صرحه ينهار ، وقضى قتيلاً فى دفاعه كما يموت الأسد وهو يدفع عن عرينه . وكان أحد هؤلاء أمير مصر الأشهر على بك بلوط قبن المعروف بعلى الكبير . وقد كان فى أيام هذا الأمير كثيرون من الأفاضل الأمجاد ، منهم أخوان من نسل هاشمى حسينى : أحدهما اسمه السيد على بن موسى الحسينى الأزهرى المصرى ، والآخر اسمه بدر الدين الحسينى المصرى . ويعرف كل منهما بابن النقيب ، لأنهما من سلالة بيت كان منه نقباء فى بيت

المقدس . وكانا عالمين ، نالا من العلم أقصى ما ينال من زمانهما . وبلغا من ذلك مرتبة التدريس ، فكان أكبرهما (على) يدرس فى المشهد الحسينى التفسير والفقه والحديث ، وتبعه أخوه الأصغر بعد موته فى إملاء الحديث فى المشهد الحسينى نفسه . وكانا مع ذلك كاتبين مبرزين ، فكان السيد على يتبع فى النثر طريقة طريفة « لايتكلف السجع ، وإذا سئل عن مسئلة كتب عليها الجواب أحسن من الروض جاده الغمام »

غير أن هذين الأخوين لم تقنع نفساهما بما بلغتا من مرتبة العلم ، إذ رأيا أن دونهما واجبا عاما يجب عليهما أن يضطلعا به ، وذلك أنهما رأيا الحياة العامة محتاجة إلى كثير من التقويم والتهذيب ، فكان الأخ الأكبر يخرج فى دروسه عن التلقين المجرد « إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والأكابر وملوك الزمان » حتى انه اضطر للهجرة فى سبيل الحق من مصر إلى بلاد السلطنة العثمانية ، ثم اضطر مرة أخرى إلى أن يهاجر إلى مصر هارباً من حكومة السلطان لأنه لم يرضها ولم ترضه .

وكان الأمراء يعرفون له إخلاصه ، ويقدرون له صراحته فى الحق ، فان الأمير محمد بك أبا الذهب الذى آل اليه الأمر بعد على بك الكبير سأله مرة على سبيل المباسطة فقال له : « كيف رأيت أهل اسلامبول ؟ » فقال له : « لم يبق باسلامبول ولا بمصر خير » فلم يغضب الأمير من شدة رده ، بل قضى ديونه وأعانه بما يتصدق به على الفقراء .

وكان السيد على فارساً شهما « لايخلو (اصطبله) من الخيل ، ويضمرها ويعتنى بأحوالها ، ويرغب فى شرائها لمعرفته بالفروسية فى رمى السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك » فكان مقصد اللاجئين من الناس ، وموئل المظلومين من العامة ، ومكان الاجلال من أهل الحكم ، يقضون ما يأتى فيه شافعا ، ويخشون نقده ، ويكرمون نصحه . ثم مات السيد على وتبعه أخوه الأصغر السيد بدر الدين . فسار على منهاج أخيه من « التردد الى الأعيان والأمراء ، والسعى فى حوائج الناس ، والتصدى لأهل جهته وخطته فى دعاويهم ، وفصل خصوماتهم وصلحهم ، والذب عنهم ، ومدافعة المعتدى عليهم ، ولو من الأمراء والحكام » ، وصارت له مكانة كبرى فى البلاد وعند الأمراء « يخشون جانبه وصولته » ثم ذهبت أيام هؤلاء الأمراء المصريين وهبطت على مصر كارثة الأجنبى ، إذ دخل الفرنسيون مصر ، فدمروا وهدموا وغيروا ، وأبوا إلا أن تكون مصر على مثال خططهم ومدنيتهم . فغضب كرام المصريين لذلك ، ورأوا فى تلك المحاولة قضاء على شخصيتهم وازدراء لمدنيتهم الموروثة التليدة . فانتهزوا الفرصة وثاروا على الفرنسيين ، وكان السيد بدر الدين من زعماء الثوار . « فجمع جموعه من أهل الحسينية والجهات البرانية ، وانتبذ لمحاربة الفرنج ومقاتلتهم وبذل جهده فى ذلك » غير أن الثورة لم تنجح كما هو معروف ، فخرج السيد بدر الدين من مصر منذ رآها غير صالحة لمقامه فيها . وأى مقام للحر الكريم المجاهد فى بلاد الضيم وبلاد الله واسعة يستطيع أن يهاجر فيها ؟ واتبعه غضب الفرنسيين فى داخل البلاد وفى خارجها ، وانتقموا منه بهدم ما ترك فى مصر من أبنية ، وسلب ما خلف فيها من أموال ، غير أنه لم يبال بشىء من ذلك ، ولم يكن مثل بدر الدين ليعبأ بما يصيبه فى المال من خسارة ، ومازال فى خارج مصر يجاهد مع المجاهدين حتى عاد منصوراً فيمن عاد بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ولم يبطره النصر كما أنه لم يضعف فى أيام المحنة من الخيبة والخذلان ، ولما عاد إلى مصر استأنف السعى فى خير المجموع وهو قرير العين بما نال من توفيق ، وكان مما يزيد قلبه اطمئناناً وسلاماً أن يذكر ما أصابه من الألم فى جهاده .

ولم يكن ابنا النقيب سوى درتين من عقد أبطال سمى التاريخ بعضهم ونسى البعض ، ورحم الله من سمى ومن لم يسم .

لقد طوى الماضى فى بطون الثرى ألوف الألوف من الأجداد ، وقد يكون منا من يتهم هؤلاء الجدود ببعض التهم ، وجدير بنا أن نفكر مرتين قبل أن نجرؤ على ذلك الاتهام .

لقد كان فى الماضين من هم أقوى منا مروءة فى حياتهم وجهادهم وسعيهم الى الخير ، منذ كانوا يؤدون أماناتهم غير طامعين فى أن يعرف الاحفاد عنهم ماصنعوا . وحرى بنا أن نتسامى الى مثل هذا الكرم فنسعى الى أداء الأمانة ، ونحن فى ستر الخفاء لا يطلع علينا إلا الله ، ولا ترقبنا بعد الله سوى عين الضمير ؟

محمد فريد أبو حديد

ملاحظة : كل ما نقلناه هنا من المقتبسات منقول عن تاريخ الجبرتى .

شعب شريد

النــــور

نشأتهم وخواصهم وفنونهم

النور (الغجر) جنس غريب من البدو الرحل ، مشتت فى سائر أنحاء العالم ، فى أوربا وغرب آسيا وشمال افريقية وأمريكا وأستراليا ، ويقدر تعداده بنحو تسعمائة ألف نسمة ، منهم فى المجر وحدها نحو ٢٨٠ ألفاً ، وفى رومانيا نحو ٢٥٠ ألفاً ، وفى تركيا نحو مائة ألف ، وباقيهم مشتت فى سائر الانحاء . ويقول بعض علماء اللغة أن كلمة « Gypsies » ومثيلاتها فى الأوربية ، ومعناها النور ، مشتقة فى الأصل من كلمة « Egypt » أعنى مصر ، ويستدل البعض بذلك على أن النور ربما نزحوا من مصر الى أوربا فى غابر العصور . بيدأن أصلهم غامض جداً ، وكل ما يمكن أن يقال فى ذلك أن النور ظهروا فى أوربا ، وبالأخص فى بلاد البلقان ، منذ القرن الرابع عشر ، ثم انتشروا فى جميع البلدان الأوربية حتى سواحل البلطيق وانكلترا ، وعرفوا بالبداوة وعدم الاستقرار ، يتنقلون دائما ويقيمون فى الحقول والغابات فى خيام يحملونها ، ويسافرون على الخيل والعربات المقفلة ، ويزاولون الحرف المريبة كالسحر والتنجيم ؛ وعرفوا أيضاً بكثير من الخلال السيئة وبانحلال الأخلاق والاقدام على ارتكاب الجرائم .

ولما اشتد عيثهم فى أواخر القرن السادس عشر ، قررت فرنسا ومعظم دول أوربا نفيهم وعقاب المخالفين بالاعدام ؛ فطوردوا فى كل مكان وعذبوا وأحرق منهم كثيرون لأنهم « نور » فقط . وفى القرن السابع اشتهروا بخطف الأطفال ، وهبت عليهم من أجل ذلك ريح جديدة من المطاردة ، وكانوا فى كثير من البلاد ولا سيما رومانيا والمانيا يعتبرون رقيقاً يحل بيعهم وشراؤهم . ولكنهم منذ القرن الثامن عشر ، أخذوا يتقدمون فى اكتساب الحقوق العامة ، ومنحوا الحرية فى المجر ، واهتمت بأمرهم الامبراطورة ماريا تيريزيا ، وأمرت بتعليمهم الزراعة ، وتحسنت أحوالهم وأطوارهم نوعا . وفى القرن التاسع عشر اعترفت بهم معظم البلدان كرعايا ، ومنحوا الحقوق والحريات السياسية . وفى سنة ١٩٠٦ عقد النور ومن يهتم بأمرهم مؤتمراً فى صوفيا عاصمة بلغاريا ، وطالبوا بالاعتراف لهم بكافة الحقوق التى تمنح لباقى الرعايا

وعرف النور منذ عصور باتقان بعض الحرف مثل صنع الحلى والأوانى النحاسية الدقيقة ، وأجراس الكنائس ، والنجارة ، وصنع السلال ، والحفر أحياناً ، واشتهروا بالاتجار فى الخيل ؛ بيدأنهم اشتهروا بالأخص بالبراعة فى الموسيقى ، وهى موسيقى خاصة بهم ، وذهب بعض النقدة الموسيقيين فى تقدير الموسيقى النورية الى حد بعيد ، حتى قال الموسيقى المجرى الكبير (لستز) إن الموسيقى المجرية ترجع الى أصل نورى . كذلك برع النور فى الغناء والرقص ، واشتهر نساؤهم بالتنجيم وقراءة الكف والورق ، ولنساء النور جمال شرقى خلاب ، ولكن تغلب عليهم الرثاثة ، ولهن ولع بالثياب والحلى ، ويغلب عليهن الانحلال الخلق

وليس للنور دين خاص بهم ، ولكنهم يعتنقون فى الغالب دين البلد الذى يحلون به ، وتغلب عليهم التقاليد الوثنية والخرافات ، كذلك ليس للنور لغة خاصة معروفة ، ولكنهم يتكلمون لهجات عديدة ، وقد دل البحث على أن هذه اللهجات ترجع الى بعض اللهجات الهندية ، حتى اعتقد البعض أنهم نزحوا أصلا من الهند .

* * *

هذا وقد قرأنا عن النور وخواصهم وأخلاقهم وفنونهم بحثاً ممتعاً للكاتب المجرى الكبير يوليوس كودولانى ، رأينا أن ننقله لقراء «الرسالة» فيما يلى ، وحديث الكاتب يتعلق على الأخص بالنور المجريين ، وهم كما رأينا أكبر كتلة من النور فى العالم . قال الكاتب :

لبث النور المجريون حتى أحدث العصور يقاومون كل محاولة لتمدينهم ، وقد كانوا كأبناء جنسهم فى البلاد الأخرى يعيشون فى جماعات بدوية متنقلة لا ترتبط برباط المواصلة ، ولم ينتهوا إلا فى أيامنا الى البدء بالاستقرار ومزاولة الأعمال المنظمة . ويوجد فى المجر نوعان من النور : « نور الكولومبار » ، « ونور الفلاج » وكلاهما يرجع الى أصل آرى كباقى النور ، ولكن توجد بينهما

فروق ظاهرة فى طرق الحياة وفى اللغة والأخلاق ، وكذلك فى القوام والمحيا ، وبينما يميل الكولومبار الى الرباعة والغلظة ، اذا بالقلاج غالباً ممشوق القد ، وسيم المحيا . ولنور الكولومبار لدى الفلاحين سمعة سيئة ، ويشعر الفلاحون نحوهم ببغض مقرون بالخوف ، فاذا مانزلوا بجوار قرية ما بذل الفلاحون كل ما استطاعوا للتخلص منهم ، واتخذوا كل تحوط للمحافظة على دجاجهم ومواشيهم وثيابهم .

ويشتغل نور الكولومبار بصنع الآنية وأقمشة الخيام وبعض أعمال الحدادة . ويزاول نساؤهم السحر ولهن فيه براعة ، ويتبعن فى مزاولته كثيراً من الرسوم الوثنية التى اختفت من بين الشعوب المتمدنة ، وهن يتنبأن بالمستقبل ويكشفن الأوراق ، ولهن براعة مدهشة فى الوقوف على عواطف الرجال وغرائزهم ، ويعبرن فى نبوءاتهن عن الأمانى الخفية ، والشهوات المكتومة ؛ ويلجأن الى الرسوم الرمزية ، ويكتشفن ما يجول فى صدور قصادهن من الرغبات والشهوات . وقد بثت الحياة الخشنة المضطربة ، والعزلة الدنيوية ، والحرمان المستمر ، فى نفوس هاته القبائل ميلاً الى تحقيق الغاية دون عنف وبوسائل ملتوية ؛ فهؤلاء النور يكذبون ببراعة ، ولهم فصاحة مقنعة ، ومثابرة مدهشة . ولو أردنا أن ندرس من الوجهة النفسية أساليبهم وتأثيرهم الغريب ، شبه الروحى ، الذى يبثونه فى نفوس ذوى الغرائز المضطربة لانتهينا الى نتائج فى منتهى الأهمية . وهم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ فى قلب أوربا ، وفى قلب المجتمعات المتمدنة بالحياة البدوية التى تذكرنا بحياة الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية أو الزنوج فى افريقية . ذلك أنهم معرضون دائماً لنزعات الطبيعة ، ولهم علاقات دائمة مع قواها ، فهم يحملون بذلك الى كل ما يقرب من الحيوان والغريزة

والنور لا يملكون شيئاً ، ولذا فهم لا يحترمون الملكية ؛ فاذا استطاعوا الاستيلاء على شىء استولوا عليه بأى الوسائل ، وحياتهم العائلية منظمة على قاعدة الشيوع ، وأن لا ملكية يعترف بها

ونور «القلاج» أظرف وأفضل خلالاً من نور الكولومبار ؛ وهم يشتغلون عادة بصنع الآلات الخشبية بمهارة ، ويطوفون القرى لبيعها ، ويبدون فى جميع الأسواق مثقلين بالسلع . ويرتدون ثياباً وأزياء غير تلك التى يرتديها زملاؤهم ، ويسكنون غالباً فى السهل ، عند أطراف القرى ، فى بيوت من الطوب الأخضر ، ويعنون بتربية الماشية . وفى أقاليم المجر الغربية ينشئون نوعاً من القرى المنعزلة بجوار الغابات ، ويلعب أطفالهم عراة بين الأعشاب والماء . ولهاته القبائل قضاة منها يختصون بالفصل فى المنازعات الصغيرة ؛ ولا يعيشون عيشة العائلة إلا حينما اكتسبوا نوعاً من الملك كقطعة أرض أو منزل قروى . ولهم ولع بالخيل واقتنائها بأى الأثمان

وأهل القرى لا يبدون لنور « القلاج » من البغض ما يبدونه لنور الكولومبار . وهم يعاملونهم بكبرياء واحتقار ولكن بنوع من العطف ؛ ولا يخشون منهم على متاعهم وأموالهم بمثل ما يخشون من زملائهم ؛ ويكثرون من التصدق عليهم ، ويعهدون اليهم بصنع الأشياء الخشبية . وعلى ذلك فاذا كان النورى القلاجى لا يمكن أن يعتبر عضواً فى المجتمع ، أو إنساناً متمدناً ، فانه فى طريقه ليصير كذلك . وهو منذ الآن ينزل عن بعض العادات التى كان يتمسك بها دائماً فيقص شعره ويرتدى السراويل ، ويعتاد العمل ، ويرغب فى اقتناء الملك شيئاً فشيئاً ؛ وهذا بلا ريب أساس قوى للتطور

***

وأخلاق النورى نتيجة محتومة لنوع حياته ، فهو لا يملك أرضاً ولا بيتاً ؛ وما يملك من المؤن والأدوات وغيرها ليس له فى الواقع ، بل هو ملك الجماعة كلها ؛ وهو لا يشعر بشعور الأسرة ولا يقدر معناها ، ولما كان لا يرث ولا يورث ، فسواء لديه أكان ولده منه أم من آخر . وكذلك المرأة النورية لا تختص برجل واحد كنساء الشعوب المتمدنة ، فهى مخلوق همجى ، لا تنكر غرائزها ، ولا تستطيع أن تكبح جماحها ، والطفل النورى يعيش مع أسرته فى نفس الخيمة أو الكوخ ، ويشهد عن قرب حياتها التناسلية ، فاذا شب اتجهت شهواته الجنسية الأولى الى الأسرة ، فيعاشر الأخ أخته ، والولد أمه ، والأب ابنته ، وتجرى هذه المعاشرة دون ذرة من الحرج أو الندم . ولا حاجة للقول بأنه لا وفاء بين الأزواج ، فهم كاثوليك ويذهبون الى الكنيسة فى

الحفلات الكبرى ، ولكن مبادئهم الأخلاقية ليست نصرانية فى شئ ، بل هم غالباً صرعى غرائزهم الوحشية

وقد اهتم الارشيدوق يوسف (١٨٣٣ — ١٩٠٥) بأمر النور وأبدى نحوهم عطفاً ، وبعث ذلك الى الاهتمام بشأنهم ، وكان هذا الأمير العظيم الذى يعشق حياة البداوة والبساطة ، ينفق كل أوقات فراغه بين النور ، ويدرس حياتهم ، ويتذوق رقصهم وأغانيهم وأمثالهم وأطوارهم وخلالهم ، وقد حاول أن يعودهم الحياة المنظمة ، وأن يجمعهم فى مكان مستقر ، ولكنه لم ينجح كثيراً فى محاولته ، ثم عكف الباحثون على جمع الأغانى والأمثال النورية وترجمتها ، ولكن هذا الاهتمام فتر فيما بعد ، ولما كان النور اليوم فى طريق التحضر والاندماج فى المجتمع المتمدن ، فقد يعود هذا الاهتمام بعد فوات الوقت ، وبذا تضيع معالم جنسية ونفسية الى الأبد . بيد أنه قد يكون ثمة أسر أو قبائل ما زالت تحتفظ بخلالها الوثنية ، وبأساطيرها ، وقصصها ، وأغانيها ورقصاتها ، وتلك يمكن تخليدها بواسطة السينما أو « الجراموفون »

وقد قلنا إن إبعاد النور عن المجتمع المتمدن ، واضطهادهم المستمر ، وحياتهم البدوية ، تحملهم على الريبة والوجل والعنت وانتهاز الفرص وسرعة التأثر ، وهم لا يهتمون بغدهم ، ويحتملون شقاء الحاضر بجلد الشريد ، كالأطفال أو الشعوب الهمجية . وهذه الصفات ذاتها تمثل فى فنهم ، فرقصاتهم عاصفة مضطرمة الروى ، فياضة بالغزل ، ونصوص أغانيهم فياضة بالرموز الغرامية ، والكلمات الضخمة ، والأخلاص الساذج ، وألحانهم محزنة منكسرة ، روى مطبق ، وغزل مطلق ، وفسق خالص يلهب أعصابهم ، وهذا ما يشحذ مشاعرهم بنوع خاص ، ويعاونهم على التمكن من روح الموسيقى والقوافى الأجنبية ، واعتيادهم المستمر على الوسط والعنف ، وعشرة الأجانب تحدث فيهم نفس الأثر ؛ فالنورى الرومانى ينشد الأغانى الرومانية ، والنورى السربى ينشد الأغانى السربية ، والنورى السلافى ينشد الأغانى السلافية ، ويجمعون فى كل مكان عناصر الموسيقى الخاصة بالشعب الذى يعيشون بين ظهرانيه ؛ والنورى المجرى ، هو الوحيد الذى لا تتأثر موسيقاه بخواص الموسيقى الريفية المجرية ، وذلك لأسباب خاصة به وبظروفه

ذلك أن الموسيقيين من النور المجريين هم أشراف النور ، فهم يرتفعون فوق مستوى جنسهم ، وفى أحيان كثيرة نراهم وقد نسوا لغتهم الأصلية ، وغيروا كل ظروف حياتهم . وفى القرى يتحول النورى من حرفته العادية الى الموسيقى . وفى يوم الأحد وأيام الحفلات أو السوق يحمل آلاته الموسيقية ، القيثارة أو المزمار أو غيرهما ، ويذهب مع بعض زملائه الى مجالى النزهة ، ولموسيقاه ضجيج مروع ، وصخب يصم ، ولا تشترك مع موسيقى الحضر الا فى الروى ، ويتحول النور الى احتراف الموسيقى شيئاً فشيئاً ، ويهجرون صنع الأوانى والسلع الخشبية والآجر ، ويجتمع بعضهم فيؤلفون فرقة (أوركستر) ويتجولون يوم السوق من قرية الى قرية ، ويلاحظ أيضاً أنهم أخذوا يستبدلون ثيابهم النورية بثياب الحضر ، وبين النور المجريين كثيرون ممن درسوا فى معهد الموسيقى الأعلى (الكونسرفتوار) ، ومنهم من درس الموسيقى نظريا وعملياً ، ومنهم فنانون يعجب بفنهم العالم كله ، فهم حقاً من أمراء الموسيقى ، لهم مقامهم فى المجر وفى الخارج ؛ وممن قدر موسيقاهم وأعجب بها أساتذة عظام مثل هيبرمان ، وكيبورا ولسزت

وقد كان من المستطاع أن نحمل النور المجريين على درس الموسيقى الريفية الأصلية ، كأخوانهم نور رومانيا أو سلوفينا أو روسيا ؛ فالنور يتلقون ببراعة مدهشة كل فن وكل روى ؛ وتلك أعظم خواصهم ؛ والنورى يغتبط جد الاغتباط اذا ألفى مستمعاً يستطيع أن يرشده وأن يعلمه الأسلوب الحق ؛ وعندئذ يدرك معنى الموسيقى الريفية وينفذ الى روحها ، ويترك تلك الألحان الصاخبة التى يملأ بها أغانيه . ولسنا ممن يجارى بعض المتشائمين من نقدتنا الموسيقيين فى قولهم بوجوب القضاء على الموسيقى النورية ؛ فان لديهم خواص عجيبة ترجع الى مقدرتهم على التشبه والاقتباس .

* * *

هذا وقد استطاع النور فى اسبانيا وانكلترا وبسارابيا واليوكرين أن ينشئوا ثقافة موسيقية خاصة . وأغانى النور الأوكرانيين ورقصاتهم ذائعة معروفة فى كل مكان . أما النور

المجريون فلا يعرضون علينا فنهم قط ، حتى ليقال أن ليس لهم فن . ولكنهم فى الواقع ينشدون أغانيهم فيما بينهم ، ويرقصون رقصاتهم ، ويتلون أمثالهم وقصصهم . وهم يعيشون فى عزلة مطبقة حتى أن البحث عن خواصهم الجنسية والفنية ليصطدم بأكبر الصعاب . ولديهم وسيلة أخرى للدفاع هى لغتهم التى هى مزيج من العناصر السلافية والرومانية وغيرها . وهم يضمرون البغض والريبة للأجانب لما فرض عليهم من الحياة الوضيعة التى تكاد تنحط الى المستوى الحيوانى ، وشأنهم فى ذلك شأن القبائل الهندية التى غزاها الأوربيون . والنورى يقدر ما بينه وبين الغير من الفروق ، ويعرف أن الغير لا يعتبره انساناً بالمعنى الصحيح ؛ ولا يجد سوى الموسيقى للتعبير عن نفسه ومقدرته ؛ فاذا سنحت له فرصة العزف ، فانه يملأ موسيقاه وألحانه بكل ما يشعر به من الشهوات وألوان البغض والغضب ، والحنان ، والثورات ، والاحتقار ، والفرح ، واليأس ؛ ويبقى النورى فى ذلك المجتمع المتمدن الرأسمالى ، النصرانى ، الذى برغمه على الاستقرار والاعتراف بالملكية ، والتنصير ، والخضوع للقوانين بين الغابات والسهول الموحشة — يبقى دائماً وثنياً ، جامح العاطفة ، مخلوق الغريزة ، ويلجأ الى الموسيقى لبث مقاومته وشكواه ؛ ولو نبذ النورى أساطيره وسحره ، ونسى لغته ، وترك قصصه وأناشيده ورقصه ، فانه يبقى مع ذلك نورياً بالموسيقى .

ولن تمضى أعوام أخرى حتى يغمر النور ذلك البحر الانسانى الذى يحيط بهم ؛ ولن تمضى أجيال قليلة حتى يغدو النور كالزراع ، وينسون كل خواصهم وتقاليدهم ؛ ولن يبقى من الفن النورى سوى قليل من الأغانى والقصص ، ذلك الفن الذى هو أعجب الفنون الشعبية وأكثرها طرافة ؛ وعندئذ لن نجد سوى بعض الفنانين الذين ينحدرون من أصل نورى ، يتجولون هنا وهنالك فى بعض المدن ؛ بقية شعب كبير كان يجوب السهول والغابات ، يزاول السحر والكهانة ، ويخاطب الأرواح ، ذليل عزيز مع ذلك لأنه حر . وتلك خسارة فادحة للنور وللوثنية والقصص والحرية ... بيد أنه يستحيل علينا أن ننقذ النور فى ذلك المجتمع الذى يناقضهم فى كل شىء .

بين توفيق الحكيم

وأهل الكهف

بقلم شهدى عطيه الشافعى

قرأت لتوفيق أهل الكهف فيمن قرأ . وأحببتها حباً يفوق حب الناس لها . ولكن ناحية منها لم ترضنى ، وليس ذلك بجريرة للمؤلف آخذها عليه . ولكنه شعور نفسى تملكنى

منظـــر

فى إحدى جنان الخلد . ثلاثة رجال متكئون على الأرائك وأمامهم أباريق وأكواب من ذهب وفضة ، والأطيار من حولهم تشدو

مرنوش : (متأملاً حوله) — يالله ! ماأبدع هذا وما أجمله ! مشلينيا أيها الكسول . ألا تستيقظ لتستمتع بهذا الجمال .

مشلينيا : (يفرك عينيه) أهذا أنت يامرنوش ! أين نحن ؟ لسنا فى الكهف .

مرنوش : (فى حدة) الكهف ؟ تباً لك ! لاتذكرنى به ، لقد كان كابوساً مخيفاً .

مشلينيا : لعنة الله عليه ما أشأمه . . . وهذه الثلثمائة عام التى لبثناها فيه . ! وملك آخر مسيحى مكان دقيانوس الوثنى . . وبريسكا غير بريسكا . كيف كان كل هذا ؟

يمليخا : (مستيقظاً) حمداً لك يا خالق السموات والأرض . اللهم إنا نمجدك ونؤمن بعيسى نبيك

مرنوش : (مأخوذاً) يمليخا ؟ كيف أنت ؟

يمليخا : (فى خشوع) ألا تحسان فيضاً من النور الآلهى يخترق شغاف القلب . كأنى على قيد ذراع من الله . يالروعة هذا !

مرنوش : (فى عجب) إنك لتبدو جميلاً يا يمليخا . أنّى لك هذا الثوب المزركش وذلك الوجه الصبوح ؟

مشلينيا : (فى دهش) ولكنك لم تر ثيابنا يامرنوش . إنها موشاة بالذهب . مَن أتانا بها (ناهضاً) . مرنوش ياللعجب !

لقد شف جسمي حتى لأرى ما بداخله ! مرنوش !
مرنوش . لقدَ خف ثقـلي حتى لأحسبنى طيراً ذا جناحين !

مرنوش : مشلينيا ، ماهذا ؟ لقد صدقت . ألا تذكر استكراش بطنى وانتفاخ رجليّ . لقد ذهب كل هذا (يتحسس وجهه) لله ما أنعم وجهى وما أرقه !

مشلينيا : وأنت يايمليخا (لايجيب ولكنه يذهب بعيداً) يمليخا ! أتاركنا ؟ إلى أين ؟

يمليخا : إلى حيث قطمير كلبي .

مرنوش : (ضاحكا) أليس لك فى هذا الجمال سلوة عن قطمير ؟

يمليخا : (مبتئساً) قطمير . عزيزى قطمير . حارس غنمى ورفيق طريقى وصاحبي فى السراء والضراء (متهللا فجأة) يالله ! هاهو ذا مقبلاً . انه يهز ذيله فرحا

مشلينيا : (عابثاً) أهذا قطمير كلبك ؟ أين هذا ذو الشحم واللحم من قطمير الضاوى البطن البارز الأضلاع ؟

يمليخا : (فى سرور) إنه قطمير بعينه . إننى مستطيع أن أتبينه من كلاب الأرض جميعاً . تعالت قدرتك ياإلهى . لقد أنلتنى بغيتى وجمعتني بكلبي !! سبحانك اللهم نسبح بحمدك !

مرنوش : (مشيراً الى رجل مقبل من بعيد) مشلينيا ! انظر ! ألا ترى رجلا ؟

مشلينيا : (متجهاً بنظره) وما يدريك لعله امرأة . (بعد برهة) إنه يضع قرصاً أحمر فوق رأسه ويشد عنقه بمنديل

يمليخا : انه ليسرع فى خطاه نحونا

مرنوش : لعل ذلك لحاجة له . إننى أرى تقاطيع وجهه جيداً . إنه رجل يامشلينيا . يا لغرابة لباسه . إنه يشد عنقه بحبل ملون لا بمنديل

توفيق الحكيم : (بلباس افرنجى وفوق رأسه طربوش متبينا القوم) ميشلينا ! مرنوش ! يمليخا ! . وقطمير أيضاً هنا ! يا لحسن حظى . كيف أنتم ؟ لقـد كنت أتوق لرؤيتكم .

(أهل الكهف يتلاومون ويتأملون توفيقاً فى خوف غيرقليل)

يمليخا : (متشجعاً) ومن عساك تكون ؟ ومن أنباك بأسمائنا ؟

توفيق : ألا تعرفوننى ؟ لكننى أعرفكم حق المعرفة ، وأحفظ وجوهكم كأنى عشت بينكم ألف عام . أنا توفيق الحكيم

مشلينيا : ماذا يقول ؟

يمليخا : (هامساً) انه يخبر عن صناعته . فهو حكيم

مرنوش : (فى اضطراب) ولكن ليس بنا من مرض يا سيدى

توفيق : لا . لا . إنه اسمى . توفيق الحكيم . لقـد قرأت سيرتكم وتحدثت عنها فى قصـة حوت فن باريس وفلسفة أثينا وحكمة الروم

يمليخا : (فى همس) إنه يذكر الروم

مرنوش : (فى ذكاء) آه . لقد فهمت يا سيدى . لعلك — رأيتنا إذ بعثنا من كهفنا بعد نومنا الطويل

توفيق : لا ، لا ، ليس هذا . انى قرأت عنكم وامتزجت روحى بروحكم ، ولـكننى لم أركم قط رؤيا العين

مشلينيا : ولـكن أنى لك بمعرفة وجوهنا ؟

توفيق : (فى دلال) إنه الفن يا سـيدى . يسمو بالمرء حتى ليرى مايختلج به نفوس القوم ، وما تضطرب به أفئدة البشر ، إنه الفن الذى يصل الماضى بالحاضر . لقد ترجمت عما فى نفوسكم واستكشفت خباياها بعـد موتكم بعشرات القرون . أفيعجزنى الآن أن أتعرف الى وجوهكم ؟

مرنوش : (هامساً فى خوف) لعل به مسّاً من الشيطان !

يمليخا : (معترضاً كالهامس) لعله قديس وهبه الله قبساً من نوره فقرأ مافى نفوس البشر .

مرنوش : (فى همس) لقد عرفنا وعرف أسماءنا ، برغم أنه لم يرنا قط

مشلينيا : بل ويزعم أنه استطاع ما فى نفوسنا .

توفيق : (عابثاً) نعم . ألست أنت مرنوش (مشيراً اليه) . ألم يكن لك زوج تحبها . وبنيت بها فى الخفاء فأنجبت لك غلاماً ، ثم نجوت بنفسك الى الكهف خوفاً من دقيانوس وشروره ! !

يمليخا : (هامساً) ألم أقل لكما إنه قديس ؟ (فى صوت عال) صدقت أيها القديس .

توفيق : (متمماً حديثه) ولولا زوجك هذه يامشلينيا لما كنت مسيحياً ، ولمت وثنيـــاً ، ونقمت على المسيح والمسيحيين . أنت يا ساعد دقيانوس الأيمن فى مذابحه قبل زواجك . . فاذا ما افتقـدت زوجك وغلامك انقلبت ساخطاً على السماء والأرض « ومت مجرداً من كل شىء عارياً كما ظهرت ، فلا أفكار ولا عواطف ولا عقائد »

مرنوش : أتعنيني أنا ؟ (هامسا الى زميله) لقد حسبت به مساً من الشيطان ، ولـكني واثق الآن أنه الشيطان نفسه . ولعله كان يسكن هذا الـكهف المظلم المشئوم الذى لبثنا فيه حقبة من الدهر . ولابد أنه تحسس أخبارنا ونحن فى ظلمة لا نتبين من أمره شيئاً .

(ثم يتوجه بكلامه الى توفيق فى صوت عميق حار) لا يا سيدى لقد عشت مسيحياً ، ومت كما عشت ، ولقد أرتنى زوجى الطريق الى الله فأحببته بكل جارحة ، وما عبأت بدقيانوس ولا بمكانى عنده .

مشلينيا : (هامساً) لنمتحنه ! فلعل مايدريه عنى خير مما عرفه عنك (فى صوت مرتفع) وماذا عندك لى يا . . يا . . معذرة ياسيدى الفاضل .

توفيق : (متردداً) مشلينيا الذى أحب بريسكا وأحبته ، بل عبدته ، حتى لقد اعتنقت المسيحية من أجله ، ورضيت بدين عشيقها عن دين آبائها بديلا .

مشلينيا : (محاولا كتمان غضبه) تالله لقد أخطأت . إنها أرادت لنفسها هذا الدين وآمنت به قبل أن تدرى عن مسيحيتى شيئاً . لقد كان دين الحب ، وكانت تعاليمه البساطة عينها والنبل نفسه ، فآمنت بريسكا الطاهرة الساذجة ، وكان ايمانها قوياً .

ألا تذكر يامرنوش كيف كانت تمزج قبلاتها لى بالصلاة لله شاكرة له أن هداها سواء السبيل ، وأن أرشدها الى نوره الحق ؟ أو تذكر عند هروبنا تحت جنح الليل . وقد كشفوا أمرنا كيف كانت مطمئنة واثقة أن الله سينجى عباده المخلصين ؟ وكيف أخذت على نفسها عهداً أن تصلى وتصلى لعل الله ينجينا . ؟

يمليخا : (هامساً فى ذعر) إن هذا الرجل لا يعجبنى ! ماذا يقفه ببابنا ؟ ما أقبح عينيه ! انه ليشع منها ذكاء خبيث !

مشلينيا : ألم تحسبه قديساً ؟

يمليخا : لقد نسيت أن الشياطين تتخذ أحياناً ثوب القديسين

توفيق : (محاولا التقرب بعد ما أحس منهم نفوراً) ويمليخا . . . الراعى الذى آمن فى اخلاص ، وأحب الله فى قوة . ورضى قرير العين أن يترك غنمه ليرشدكم الى كهف تلجأون اليه . ؟

مرنوش : ولماذا جعلته من بيننا وحده المؤمن ؟

توفيق : (بين التردد والاحجام) لم يكن له أهل « وكان قلبــه خليّا ، فلا يضيره أن يمنح قلبه لله »

مرنوش : (هامساً لزميله) ألا تشمان فى عبارته رائحة الخبث والسخرية المخبوءة ؟

مشلينيا : (فى ضجر) لقدصدقناك ياسيدى . ولـكن مادفع بك الينا ؟

توفيق : لقـد اتصلت روحى — روح الفنان بروحكم ، ولم تستطع الأجيال أن تفصل بيننا ، فبعثت قصتكم بعثاً جديداً الى القرن العشرين .

مرنوش : (فى تهكم خفيف) أكنا فى حاجة الى هذا البعث . ؟

توفيق : (فى غيظ) أتنكرون فضلى ؟ . لقد أصبح القوم ولا حديث لهم إلا أهل الـكهف . ولقد أخرجتكم الى الناس فى ثوب من الفن أنيق ، أتقنت فيه الصياغة ، وأجدت فيــه الانسجام ، وسخرت له كل ما قرأت من فلسفة اليونان ، وفلسفة القرن العشرين ؟ ! !

مرنوش : ولـكنك مسختنا وأنـكرت علينا إيماننا ومسيحيتنا التى كانت كل شىء لنا .

مشلينيا : ولقد أهنت بريسكا الطاهرة الجميلة .

يمليخا : (فى سأم وضيق) سيدى القديس ! لعـل فى جوارنا أهل كهف آخرين . فلتبحث عنهم . أما نحن فلسنا من ذكرت ..!!

شهدى عطية الشافعى
بكالوريوس آداب

مصر تنسى شاعرها

حافظ ابراهيم

للأستاذ كرم ملحم كرم

تألم صاحب «الرسالة» المصرية لحظ الأدباء المنكود . وأوجعه أن يسير حافظ ابراهيم الى مثواه الأخير بين حفنة من رجال الفضل والأدب ، وألا يمشى وراء نعش أحمد زكى باشا رجل العلم والهدى غير نفر معدود ، على حين أن السياسيين إذا ماتوا اندفعت وراءهم الأمة بأسرها فى شبه مظاهرة ، وأبدت عليهم من الأسف واللوعة مالا تفكر أن تبديه حيال أى أديب .

ومما زاد فى إيلام صاحب «الرسالة» أن القوم فى مصر تناسوا أدب حافظ ابراهيم ، وبات الرجل لديهم أشبه بأبى نواس فى مجونه ، فهم إذا ذكروه تحدثوا عن نوادره لا عن أدبه ، كأنما شاعر البائسين أضحى من الهازلين ، كأنما أضحى جحا فى مداعباته مع أن حافظاً خالد فى شعره ونثره ، فقد أبقى من المنظوم والمنثور مايحق للغة العربية ، وخصوصاً لمصر ، أن تفاخر به . فان حافظاً شاعر الوطنية وشاعر الأدب البائس . وقد أحيا فى قصائده كما أحيا شوقى والمطران ، عهداً للأدب مشرقاً فى مصر ، فأعادوا على ضفاف النيل عهد الفرزدق والاخطل وجرير على ضفاف بردى .

ومصر مدينة لحافظ بشىء من هذه النهضة الوطنية البادية فيها . أما هز النفوس بقصائده فى ضرورة انقاذ مصر من الطغيان الأجنبى ؟ أما أظهر استبداد المحتلين وجورهم وسعيهم الى اذلال مصر ؟ . . .

لقد ترددت قصائد حافظ تحت سماء وادى النيل كأنها أنفاس بوق يدعو المصريين الى الجهاد والاستشهاد ، ومع كل هذه الغيرة الملتهبة على مصر من حافظ ، لم يجد حافظ من المصريين أى وفاء ، فما اعترفوا له بمكرمة ولا بمأثرة فى غير بطون الكتب والصحف والمجلات . أما عامتهم ، ولاننسى خاصتهم ، فما فكروا فى أن يقيموا لشاعرهم ضريحاً . ولقد ضل الوفد اللبنانى طريقه الى هذا الضريح وهو يحمل اليه إكليلاً مضفوراً من فلذة أكباد اللبنانيين الذين يجاهدون فى سبيل أدبهم ، الأدب العربى ، ويقدرونه قدره ، والذين لاينسون لحافظ أقواله فيهم وحبه لهم وإعجابه بهم

مع أن من واجب مصر ألا تجحد فضل شاعرها عليها ، من واجبها أن تقيم له ضريحاً يليق به ، من واجبها أن تذكره كشاعر قبل أن تذكره كماجن ، فالمجون فى حافظ لايغلب على الشعر

وكنا نعتقد أن صداقة حافظ لمحمد محمود باشا ستدفع به الى تخليد ذكرى الشاعر بانشاء ضريح فخم يضم رفات فقيد الأدب . ومما حملنا على هذا الاعتقاد مايتمتع به محمد محمود باشا من ثروة ، ولقد أخلص حافظ ابراهيم للرجل ، ولقى من عنت حكومة اسماعيل صدقى باشا مالقى لأجل اخلاصه لمحمد باشا محمود وصداقته له ، أيكون هذا جزاءه منه ؟ . .

أيضن الرجل المصرى العظيم الثروة بقليل من المال فى سبيل تشييد ضريح يرقد فيه جثمان حافظ بأمان ؟ . . .

من حق صاحب « الرسالة » أن يتألم ، وإننا لنشاطره ألمه ونأسف على مصير الأدب والأدباء فى البلاد العربية . فالأديب لايجد من ينصفه ، لافى حياته ولافى مماته . فان قيمته لدى الناس لاتزيد على مايملك فى جيبه من المال . فاذا كان ذا ثروة وجد من يحفل به ويشيعه الى مرقده الأخير . أما اذا خانته الثروة فلا صديقه يتأثر لفقده ولا بنو قومه . فالمال هو كل شىء فى هذه الحياة .

ولو لم يمت شوقى عن ثروة ضخمة لكان نصيبه من بنى قومه نصيب حافظ ، وربما كان دون نصيب حافظ . إلا أن ثروة شوقى شفعت له فى حياته ومماته ، فساعدته على التربع فى عرش أمارة الشعر ، وحملت الناس على الاطناب فيه ، وهى هى التى دفعت الحكومة المصرية الى إقامة ذلك المهرجان العظيم لرثاء شوقى والاحتفال بذكراه .

نعم ، هى المآرب السياسية وصلات القربى التى مالت باسماعيل صدقى باشا الى اقامة ذلك المهرجان نكاية فى الوفديين والأحرار الدستوريين الذين أخلص لهم حافظ ، وتودد اليهم فى أيامه الأخيرة ، إلا أن الوفديين والأحرار الدستوريين هم الفئة الكبرى فى مصر ، فكيف تناسوا حافظاً ولم يحتفلوا بتخليد ذكراه ، ولو لأجل النكاية

كما احتفلت حكومة اسماعيل صدقي بتخليد ذكرى شوقي ؟ .

إن حافظاً ليس في حاجة الى ضريح خاص يقام له ليخلد ، ولا بحاجة الى مهرجان أدبي تقال فيه قصائد الرثاء لميسى الرجل ذا قدر في عالم الأدب ، فان آثاره تكفي لتخليده ، وتلك المظاهر الزائلة ليست ذات شأن في مقام حافظ الأدبي ، بل هي عديمة الشأن ، إلا أن الفضل يجب أن يعلن ، والوفاء واجب على من طوق حافظ جيدهم بجميله ، وعلى كل ذي مروءة وحمية ألا يصدف عن هذا الواجب المفروض .

لسنا نجهل أن حكومة اسماعيل صدقي ماتت ، ولكن الوفديين والأحرار الدستوريين لم يموتوا ، وما فاتهم بالأمس يجب ألا يفوتهم اليوم ، وعلى مصر بأجمعها ألا تنسى بنيها ذوي الأدمغة النيرة فيها ، وتلك النشرة الخاصة التي أذاعتها جريدة «السياسة» لاحياء ذكرى حافظ لا تكفي ، فمن الواجب الدعوة الى المهرجان ، من الواجب تشييد الضريح ، وإن مجلة « الرسالة » لا تخطىء إذا خصصت أحد أعدادها بحافظ ، فتدعو أدباء الأقطار العربية جمعاء الى إعلان كلمتهم في الشاعر المبدع الموهوب ، فان نشرة كهذه يذهب لها صدى بعيد ، وتحمل كل ذي شمم على الاهتمام بشاعر كل عيبه أنه رغب في توطيد دعائم الأدب في وادي النيل وفي الاشادة بوطنه ، وفي لفت أنظار سائر البلاد العربية الى ذلك الأدب الريان المورق في خمائل مصر .

وإن تكن « الرسالة » تطمع في المساواة بين حافظ وشوقي فلتخصص نشرة من نشراتها بحافظ ونشرة أخرى بشوقي ، فذلك اليها ، على أن تبث الدعوة الى مهرجان حافظ والى بناء ضريحه ، وبهذه الهمة تخدم الأدب وبنيه خدمة لم تسبقها اليها صحيفة عربية ، ويكفي أن تعظ المصريين بتذكيرهم بواجبهم حيال علم من أعلامهم خفق في ميدان الوطنية والأدب ، فان هذا التذكير لابد منه لأجل مصر قبل الجميع ، لئلا تتحقق كلمة المتنبي وحافظ فيها :

فما أنت يا مصر دار الأديـ ... ب ولا أنت بالبلد الطيب

نحن نتألم لنصيب حافظ من بني قومه كما يتألم صاحب « الرسالة » الأستاذ الزيات . وإنا لعلى اعتقاد تام أنه لن يغفل عما نبدي من رأي . وحرام وألف حرام أن يطرح حافظ جانباً كالمنبوذين من الناس ، وأن يقصد الغريب عن مصر الى ضريحه يحج اليه فلا يجد من يهديه الى هذا الضريح ، وقد تناست مصر واجبها حيال شاعرها ، فما جادت ببضعة دنانير تحفظ بها بقاياه !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب مجلة العاصفة

والرسالة ترجو أن توفق الى رأي الاستاذ

حول مقال

نجار ونجار

بقلم محمد السيد محمد المويلحى

تشاء سخرية القدر اللاذعة أن تحملنى قسراً ، وأن تضطرنى اضطراراً ، وأن تخرج قلمى عما اعتاده نحو أساتذته من الاشادة بنتاجهم والفخر بأدبهم الذى يضفى علينا ألواناً من الثقافة الحق التى هى جماع مافى الآداب من رقة ودقة وجمال . .

أقول : تشاء هذه السخرية المرة أن تحملنى على نقد مقال لصاحب فجر الاسلام ، وضحى الاسلام ، بل صاحب الثقافة الناشئة فى شمم المجد ، السامقة فى سماء الخلود . . لزلَّة زلّها ، وكبوة كباها ، ولا أحب أن أكون قاسياً شديداً فأقول : « إنها زلّة وطنية ، وكبوة قوميّة » سوف تكون سلاحاً ماضياً ، وحجة دامغة فى يد أعدائنا الذين يتصيدون هفواتنا ، وأخطاءنا ، والذين يستغلون عيوبنا الصغيرة الناشئة من جهل بعضنا ، لتكون سيفاً يشهرونه فى وجوهنا كلما هممنا أن نطلب العزة ، وأن ننشد الكرامة ، وأن ندَّعى الكفاية . .

إنما أحب أن أكون هادئاً ومرشداً الى حقيقة ربما تجاهلها الأستاذ ليرفه عن قرائه ، ويضحكهم بذكر عيوب إخوانهم وأبناء وطنهم ، وليهرب فى الوقت نفسه من عناء البحث المضنى والتفكير المرهق ، الذى لايتفق مع هـذا الحر . وهذه الحقيقة : هى أن ضيوفنا الأجانب الذين يمتصون دماءنا ، ويسلبون أموالنا ، بمختلف الطرق وشتى الأساليب . . يؤلمهم جداً ، ويخيفهم جداً ، أن يروا تلك النهضة المباركة التى قام بها المصريون ، وتلك المزاحمة التى أوشكت أن تتغلغل فى كل شىء بعد أن كان أغلب المهن المُزَاحَم فيها وقفاً على الأجانب دون غيرهم . لذلك تراهم يسرفون فى اتهامهم وفى محاربتهم لجهودنا ، بل تراهم يقاومون كل عمل مثمر لنا أشد المقاومة وأخسها وأبعدها عن الشرف والكرامة . . فكيف بهم ، وهم يرون أستاذاً جليلا ، وعالما رزيناً ، يعتقد المصريون فيه كل الخير ، ويؤمنون بوطنيته أعمق الايمان ، كيف بهم ، وهم يرون الأستاذ يتطوع للدفاع عنهم بطعن شخصية مصرية بلُغة تبعث على احتقارها وتشويهها . ثم ينبرى لتمجيد نفر منهم ، وتكريم شخصيته بأسلوب يطفح إعجاباً ، ويشجع على لثم يد صاحبها التى تعمل بسكون وهدوء ، والتى لاتقلق راحة الأستاذ ، بل تدفعه الى النوم ، لأنه لايحس بها ولا بحاملها . .

أكبر ظنى أن الأستاذ نال منا أكثر مما ناله الأجانب ، وحقَّر فئة منا لم تحقرها الأجانب ، لأنها مشتركة معها فى عيبها

وكيف لا يكون قد نال منا وحقرنا وهو يصف بقلمه الخصب المطاوع شخصية شاب مصرى يمتهن النجارة . ويعمل فى حانوت أمام منزل الأستاذ الذى كان يراقبه عن كثب ، ولا ينصرف عنه إلا ليصف « قُصتَهُ » الكبيرة الخارجة من طربوشه صاعدة الى السماء . . وإلا تلك الملابس القذرة الممزقة التى تعلو جسمه .. وإلا تلك الحفلات التى كان يقيمها « ليلا » فى حانوته ليشرب وإخوانه بنت الحان . . وإلا تلك الأشياء التى كان يأخذها المسكين ليرممها فيبيعها . فيأتى أصحابها ويلتحم الجميع فى معركة حامية لا يعيرها البوليس أدنى اهتمام لأنه كما يقول أستاذنا : لا يهتم بهذه السفاسف . . وإلا تلك الضجة الهائلة التى كان يحدثها عند ما يشتغل ليلا والناس نيام .. فيأمره الأستاذ بالكف عنها رحمة بالجيرة فلايصدع بما يؤمر .. وإلا هذا الحجز الذى وقع عليه . .

أفرأى الناس . . وبخاصة القاصّينَ منهم كيف أن الأستاذ قد بذَّهم فى ابتكار شخصية مصرية ليطعنها كل هذه المطاعن ؟ . فتارة يرميها بالقذارة والعربدة والكذب ، وطوراً يرميها بالنصب والعمل على إقلاق راحة الناس ؟ ؟

هب ياسيدى الأستاذ أن هذه الشخصية المصرية حقيقية . فهل يجوز أن تذكرها فى مجلة نبيلة واسعة الانتشار فى مشارق الأرض ومغاربها . ؟ على أننى أستميح عذر الأستاذ وحلمه فأقول :

إننى أشك كثيراً فى هذه الشخصية المسكينة . . فكلنا يعلم أن زمن « القُصة » قد انمحى . .وكلنا يعلم أن قذارة الملبس ، وتمزيقه لا تكون لنصاب يبيع أدوات الناس وأثاثهم . بل كلنا لم يشاهد نجاراً واحداً يغلق حانوته نهاراً ، ويفتحه ليلا ليشرب ويعربد ثم يقوم فيشتغل ! ! أين البوليس الذى يقوم بالحراسة والمحافظة على راحة الناس ، وبخاصة فى الأحياء الراقية التى يقطنها الأستاذ ؟ ؟

هل كان يترك الأسطى حسن يعربد . ويشرب ، ويدق ، ويشق ، ويتركك ترجوه وتستعطفه دون أن يعير هذا أدنى اهتمام . أم كان كما تقول فى حديثك عنه « لايهتم لهذه السفاسف . » .؟؟

وإذا كان النصب والاحتيال ، والسكر والعربدة ، وإقلاق راحة الناس سفاسف ، فما هى الكبائر . . ؟ ؟

أعترف أن الحر يؤثر فى نشاط العقول حتى الكبيرة منها ، وأعترف أيضاً أن جوضاحية الأستاذ قد ظلم الأسطى حسن المصرى أفحش الظلم ، وأشاد بفضل الأسطى « الرومى » كل الاشادة ، حتى أن الأستاذ لفرط إعجابه به لم يسمع شقه ودقه . لأنه يشق ، ويدق فى حرير لا فى خشب ! ! وإلا لما قال ما معناه . .

« . . وحلّ محل الأسطى حسن شاب رومى يماثله سناً ومهنة . ويختلف عنه نظافة وأدباً وإتقاناً وصدقاً . . حتى أننى لم أحس به إلا بعد ستة شهور . لأنه يفتح حانوته نهاراً ، ويغلقه قبيل الغروب . وأذكر أننى استدعيته مرة ليصلح دولاباً فطلب ضعف ما كان يطلبه الأسطى حسن فأعطيته ما طلب لوثوق من وفائه ، وصدق ميعاده . . »

يا لله . . وكيف لا يكون وفياً صادق الوعد ، وقد أعطيته ضعف ما كان يأخذه المسكين حسن الذى لو جرؤ وطلب هذا الضعف لرميته بالجشع والطمع . .

لعلى فى هذه الكلمة قد أرضيت الحقيقة التى تكلمت عنها فى كلمتى السابقة بالوادى الأغر ، والتى قلت فيها

« إننى لا أحب إلا الحق ، ولا أكتب إلا له ، وله وحده : لا فرق عندى بين شيخ وشاب ، ومشهور ومقبور »

ولعل الأستاذ يعتقد أننى لم أكتب هذه الكلمة إلا لأنى أحب أن أقرأ لصاحب فجر الاسلام وضحاه شيئاً غير هذا الأدب الذى يبعث الأجانب على احتقارنا .

ولعلى أيضاً لم أغضب أستاذنا فيتقبل كلمتى بقبول حسن ، ويحملها محملاً خالياً من الغرض ، بريئاً من اللؤم . فانها لا ترمى إلا الى تمجيد أمة فتية تتوثب نحو الكمال والنور ؟

(الرسالة) نعتقد ويعتقد معنا الكاتب الفاضل أن الأستاذ الجليل احمد أمين لم يرد بما كتب تحقير العامل المصرى ولا إيثار الأجنبى عليه ، وانما أراد ايقاظه واصلاحه من طريق المقارنة والمثل . واخفاء العيوب خوف الشماتة مظنة لعدم الشعور بها ، ومن حق الناقد الاجتماعى أن يجسم بعض العيوب لتتمثل فى الاحساس الضعيف ، وتبرز أمام العين الكليلة . ولأن نسمع عيوبنا من أساتذتنا نقداً ونصيحة ، خير من أن نسمعها من خصومنا سباً ونقيصة !

نسبة شعر

قرأت فى مقال (ابراهيم بك مرزوق) المنشور فى العدد السابع والخمسين من الرسالة بقلم الأستاذ محمود خيرت فيما روى عن المرحوم المنفلوطى هذا البيت :

مضى بها مامضى من عقل شاربها ... وفى الزجاجة باقٍ يطلب الباقى

أورده فى قصة حكاها عن رجل قال إنه كان رئيساً (باشكاتب) لكتبة محكمة اسكندرية الشرعية ؛ ثم قال الراوى : « ولا أدرى اذا كان هذا البيت من مقوله أو قديم »

والبيت قديم من قصيدة لعبد الله بن العباس الربيعى (١) يقول فيها :

ومستطيلٍ على الصهباء باكَرَها ... فى فتيةٍ باصطباح الراح حُذّاقِ

يمضى بها مامضى من عقل شاربها ... وفى الزجاجة باقٍ يطلبُ الباقى

فكل شىء رآه خالَهُ قدَحاً ... وكل شخص رآه ظنه الساقى

والذى نسبتْ اليه القصة لم يكن رئيساً للكتبة ، ولكنه كان أحدهم ، واسمه الشيخ احمد ، وكان مليح النادرة معروفا بالنكتة ، سمعت عنه مضحكات كثيرة ، منها انه كان ذات يوم نازلا من المحكمة فالتقى برجل صاعد يطلب مقابلة الرئيس ، فسأله الرجل : ياشيخ احمد هل الرئيس فوق ؟ . قال هو فوق ولكن أعضاءه نزلتْ . . . ومنها أن عمى المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الرافعى ، وكان نقيباً لمحكمة اسكندرية ، سئل فى ميراث يراد معرفة ما يُفرض منه لكل وارث ، وكان الشيخ احمد هذا يكتب عنه الفتاوى ، فكلفه المفتى أن يعمل ما يسمونه « شبّاكا » وهو رسم ذو بيوت يُذكر فيه الورثة أصولا وفروعا وفريضة كل منهم ، ولما كان الغد سأله : ياشيخ احمد هل عملت « الشباك » ؟ فقال ياسى الشيخ : ما ليش « طاقه » .

أما النادرة التى رواها الأستاذ خيرت وحكاها له المنفلوطى فليست بصحيحة على ذلك الوجه ألبتة ، إذ لا يعقل أن عالما فاضلا رئيساً لمحكمة شرعية يقول لرجل : أنت طالق

والذى رُوى لى أن أحد الموظفين مع الشيخ احمد قاطعه على

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) وهى تنسب أيضاً الى أبى نواس (الرسالة)

طريقته فطلقه ثلاثاً ، وجاء الباقون يسعون فى الصلح بينهما وأخذوا المعتدِى الى المعتدَى عليه ترضيةً له ، فلما دخلوا « بالمطلق » على الشيخ احمد فعل بجبته ما تفعل المطلقة بملاءتها اذا استترت ممن لا تحلُّ له ... فضحك الجميع وشاعت النادرة ، ولعل الشيخ احمد نظر فيها الى نادرة قريبة منها رواها صاحب الأغانى فى كتابه والله أعلم ؟

مصطفى صادق الرافعى

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى (١)

١ - الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الرواية تمثيل طائفة من الناس لحادث متحقق أو متخيل لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الامكان . فكونها تمثيلاً يخرج الملحمة لأنها حكاية صرفة ، والرواية مدارها على التطبيق والعمل ، فليس لمؤلفها وجود فى المسرح ولا حضور فى الذهن ، وانما يرى المشاهد ويسمع الأشخاص يعملون بعينه وأذنه .

و كون الحادث متحققاً أو متخيلاً يفيد أن الحقيقة التاريخية ليست شرطاً فى الرواية ، فيستطيع الكاتب أن يكملها بالزيادة ويجملها بالمبالغة كما فعل كورنى فى (بوليكت) ، أو يختلق الحادث وحده اختلاقاً كما فعل فى (السيد) ، أو يخترع الحادث والأشخاص اختراعاً كما فعل ڤولتير فى (زَيير) .

وقولنا (لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الامكان) احتراس من إدخال الخوارق فى الرواية ، لأن قانونها الأساسى أن تكون صورة للحياة البشرية ما استطاعت . ولن تستطيع أن تتصور الحياة أو تقلدها إلا بتوخى الحوادث الحقيقية الواقعة أو الممكنة . وشرط الامكانية يوجب على الكاتب أن يقف عند حدود الممكن المعقول فى الموضوعات المتخيلة ، وأن يضحى بالواقع أحياناً اذا بعد احتماله لشذوذه وغرابته فى الموضوعات المتحققة . على أن من الجائز استعمال الخوارق قليلاً فى الرواية إذا كان الكاتب قادراً والمخرج المسرحى ماهراً كما وقع فى رواية « فيلوكتيت » لسوفوكليس ، ورواية « أتالى » لراسين ؛ ومحل ذلك حين يراد تقوية الشعور وإثارة العاطفة وتحريك الهوى فى شخص من أشخاص الرواية ، بإبراز هواجس فكره ووساوس نفسه فى صورة مشخصة مجسمة ، كما صنع شكسبير بشبح (هملت) وساحرات (ماكبث) . وليس من الضرورى أن يهبط الآلهة والأشباح والهواتف على منصة المسرح ، بل يجوز أن يحدث ذلك فى ظاهره ثم يخبر به شخص من الأشخاص كما حدث مثلاً فى حلم أتالى وبولين ، وفى موت هيبوليت وأوديب .

(١) تطلق كلمة الدرام على كل الأنواع التى تمثل ، ثم أطلقت بعد ذلك على نوع خاص منه سيأتى تعريفه وشرحه

منشأ الرواية وتأثيرها

كان منشأ هذا النوع من الأدب تلك اللذة التى يبعثها فى نفوسنا ويفيضها على حواسنا تقليدنا لطبيعة الانسان وعمله . فتمثيل الطبيعة الناطقة والصامتة بالأحجار والألوان والألحان إنما يلذنا منه ذلك التقليد الذى أجاده الفنان وأحكمه . قال أرسطاليس فى كتاب (الشعر) : « إن الانسان مقلد بطبعه ، وأشد ما يطربه ويعجبه من الفنون إنما هو التقليد » . وليس من شك فى أن التقليد فى الرواية أكمل صنعاً وأقوى ظهوراً منه فى غيرها من سائر الفنون . لأن التقليد فيها لا يقف عند الأشكال الخارجية للانسان كالنحت والتصوير ، وانما يتغلغل فى باطنه ، فيصور نوازع نفسه وخواطر فكره ودواعى عمله . أضف الى ذلك تلك الحاجة الملحة التى تدفع الانسان الى السبوح فى أجواء الخيال فراراً من وحدة العيش وضيق الحياة وثقل الحقيقة

وجد الانسان تحقيق تلك اللذة وقضاء هذه الحاجة فى التمثيل المسرحى ، فسرَّه أن يخرج من نفسه ، ويقلد أبناء جنسه ، ممثلاً لعينه ذلك المثل الأعلى الذى طالما رسمه فى خياله ، وتمنى أن يعيش على مثاله . ظهر ذلك أولاً عند الأغريق فى أعياد باخوس إله الخمر ، إذ تقدم (إبيجين) من أهل (سسيون Sycione) فمثل ذلك الإله على المسرح ، وقطع مابين الأناشيد بحكاية بعض الحوادث الحماسية ، فاستغل (يسبيس) ذلك الابتكار ، وجاء (أسخيلوس Eschyle) أبو المأساة ، فأضاف الى الممثل الأول ممثلاً آخر ، فخلق الحوار ثم اخترع الوجه الكاذب ، والثوب الضافى والحذاء العالى ، واستعمل الألفاظ الجزلة ، والتراكيب الفخمة ، واختصر الأناشيد التى سميت بعد ذلك (خورس) ، فضعف شأنها فى الموضوع

على هذا النحو نشأت المأساة ، وهى أحد فرعى الرواية كما ستعلم بعد . أما فرعها الآخر وهو الملهاة فمنشؤه ذلك التهريج الذى كان يستبيحه الشعب الأغريقى لنفسه فى مواكب باخوس وهو يجول جولان الفرح فى قرى (أتيكا) . ومن ذلك يعلم أن الرواية

منذ خلقها الأغريق تنقسم الى قسمين مستقلين : هما المأساة والملهاة أو التراجيدية والكوميدية كما سيجيئك تفصيله بعد قليل .

أما تأثير الرواية أو المسرح فلا جدال فى قوته وخطره ، فالحكاية مهما قويت فى التعبير وبالغت فى التأثير لا تبلغ شأو الرواية فى ذلك ، إذ القصص الحكائى لا يخاطب إلا المخيلة ، وهى تختلف فى الناس ضعفاً وقوة ، فلا يكون تأثرها إلا بمقدار ، أما القصص الروائى فيخاطب الخيال والحس ، ويملأ البصر والسمع ، فيكون فعله أقوى وأثره أشد . أرأيتك اذا قرأت أو سمعت حادثة قتل مثلا ، فهل يبلغ أثرها منك مهما عظم واشتد ما يبلغه ذلك الأثر الذى يستولى على نفسك وحسك حين تسمع استغاثة المذبوح ، وترى انسكاب الدم المسفوح ؟ لذلك كان حقاً على الكتاب أن يتوسلوا بهذه الوسيلة الناجعة الى إقرار الخير فى النفوس ، واقتلاع الشر من الرءوس ، وتغذية القلوب المريضة بالعواطف النبيلة بتصوير مُثلها العليا كما فى المأساة ، أو الى اصلاح الفاسد وتقويم المعوج من العادات والأخلاق باتخاذ أهلها مضحكة للناس كما فى الملهاة . أما تلك القطع الداعرة التى يلفقها ضعاف الكتاب ، ويمثلها صغار الفرق ، تملقاً للشهوة وتصيُّداً للمال ، فهى من عمل الزور وتجارة المحظور وإذاعة الفاحشة ، وهى لا تجــد مكانها إلا فى الشعوب البهيمية الجافية التى لم يثقفها علم ولم تهذبها حضارة ، فواجب النقد ألا يني عن مهاجمة هذا الخطر ، فان ضرره لا ينال الخلق وحده ، وانما ينال الأدب والذوق والفن جميعاً

العمل الروائى (Action)

العمل الروائى هو الفعل الذى يجرى على المسرح من قيام وقعود وحركة وسكون . وبعبارة أدق هو العراك الناشب بين الوسائل والحوائل التى تتنازع حادثا من الحوادث ، فالأولى تعمل لوقوعه ، والأخرى تعمل لمنعه أو لانتاج ضده .

فمن هذا التعريف نستنتج أن العمل لابد أن يكون مريباً غير مؤكد ، ثم لا يزال فى عماية من الشك وغيابة من الظن حتى آخر الرواية ، لأن عقدة العمل اذا لم يكن لها إلا حل واحد يدل عليه المنطق ، ويتنبأ به المشاهد ، فقد المداورة ، وهى تحول ذهن المشاهد من الضد الى الضـد تبعاً لتصرف الأشخاص وتقلب الظروف ، فتارة يقدر للنتيجة على نحو معين ، وتارة يقدرها على نحو آخر ، وهكذا دواليك حتى ينتهى العمل ، وربما انتهى على غير ما فكر وقدر . فالتباس العمل هو الذى يوجد هذه المداورة ويفرض كثيراً من الحلول ، ويقف المشاهد بين الخوف والرجاء ، وعلى ذلك كله يقوم أساس التشويق والجاذبية ، ولـكن ماذا عسى يصنع الكاتب لو كان للعمل حلان ممكنان فسبقه ذكاء المشاهدين اليهما ، ووقف قبل النهاية عليهما ؟ أو لو كانت روايته على ما يريد الفن ، ولكنها مثلت غير مرة ، فعرف الناس كيف تتعقد وكيف تتحلل ، ألا يكون معنى ذلك أن إبهام العمل لا يفيد المشاهد ولا يجذبه إلا أول مرة ؟ وجواب ذلك أن تذليل هذه العقبة ليس فى طوق الكاتب ولا هو من واجبه ، وانما هو عمل الممثل وأخص واجباته . وهل يكون الوهم المسرحى بالغاً كماله الا اذا أنساك ما تعلم وشغل فكرك بما ترى ؟

كذلك نستنتج من التعريف أن الحوادث المتعارضة كلما كانت مسافة الخلف بينها بعيدة ، ومناقضة بعضها لبعض شديدة ، كان شأنها أهم وجاذبيتها أقوى ، وذلك حق لا جدال فيه ، فان حوادث العمل اذا تتابعت طائفة منها مفرطة فى الحزن ، وأخرى مفرطة فى السرور ، كان حلها أمتع وألذ مما لو سارت ضعيفة فى جهة وقوية فى أخرى ؛ أضرب لك مثلا برواية ُبوليُكت (١) لكورنى : لو أن كورنى جعل (بولين) مشغوفة الفؤاد بحب زوجها لكانت المشكلة أعقد وأصعب ، وموقف بولين أقسى وأرهب ، ولكن كورنى جعلها عاشقة (لسڤير) ففضل جاذبية الاعجاب على جاذبية الارهاب ، وأطاع عبقريته فى هذه القطعة فحرك الدهش وسكّن الفجيعة

وليس تعاقب الحزن والسرور والخوف والرجاء من خواص المأساة ، وانما يكون فى الملهاة أيضاً ، فان جاذبيتها لا تتم إلا بشيئين : أولهما أن تجعل المشاهد يتمنى أن يؤول أمر الأضحوكة الى السخرية والاحتقار ، ثانيهما أن تولد فى نفسه القلق والفضول والرغبة فى أن يرى هذه الأمنية كيف تتحقق . فى رواية البخيل يدور فى نفس المشاهد هذا السؤال : أيتزوج البخيل من مريان أم يتخلى عنها لابنه ؟ وفى رواية ترتوف أو الشيخ متلوف تتردد على خاطره هذه المشكلة : أيفتضح أمر ترتوف عند أرجون ويبوء باللعنة والخزى أم يتمتع بثمرة حبه وخبثه ؟ على أن الحزن فى الملهاة يجب ألا يتعدى أشخاص الرواية الى جمهرة الشاهدين فان ذلك ميزة المأساة . ومن حق النظارة عليك أن تسرهم على حساب أشخاصك فتضحكهم من بكائهم وتسعدهم بشقائهم . وسيمر بك تفصيل ما أجمله التعريف من صفات العمل وتحليله فنجتزئ الآن بذلك .

يتبع **(الزيات)**

(١) سنلخص فى فصلى المأساة والملهاة جميع ما نستشهد به من الروايات

بمناسبة الفيضان المبارك

النيــــل

للأديب حسين شوقي

عند ما انتهى المصريون من تشييد معبد الكرنك الفخم، تكريماً للآله (آمون)، دعا (آمون) الآلهة الآخرين إلى اجتماع خاص ليختاروا أحسن هدية تقدم لبنى مصر مكافأة لهم على عملهم، ولا سيما أن المصريين ما برحوا يبنون مثل هذه المعابد الشاهقة لآلهتهم من آن لآخر . . . فاقترح (هوروس) الآله الشاب أن تقدم الى فرعون آلة سينما لتسليته هو وأولاده فى ليالى الشتاء العابسة، ولكن الآله (سوكر) وكان شيوعى النزعة اعترض على هذا الإقتراح قائلاً: إن الشعب المصرى هو الذى أُرهق فى بناء المعبد، فالهدية يجب أن تكون له لا لفرعون، فثار بعضهم على اعتراض (سوكر) وكاد المجلس ينقلب إلى عراك بين شيوعيين وفرعونيين، إلا أن (أنوبيس) — إلّه الموتى — صاح فيهم بصوته المزعج: أنصتوا إلىّ لقد وجدت ضالتكم، أقيموا للمصريين جبلاً من الذهب بجوار طيبة أو منفيس فانهم يعبدون هذا المعدن فى حياتهم، ويستصحبونه معهم فى قبورهم بعـــد مماتهم. ولكن (حوتيب) إلّه الحكمة اعترض على هذا فقال: إن وجود الذهب بمثل هذه الكثرة فى مصر يعلّم أهلها الجشع والكسل . . ثم هنالك الأجانب الذين يرهقون البلاد وهى فقيرة، فما بالك إذا عرفوا وجود مثل هذا الكنز؟ إن هؤلاء القوم لاحدّ لطمعهم، تصوّر انهم أنشأوا بوارج فى السموات ليستولوا بها على عالمنا العلوى بعد ما انتهوا من الأستيلاء على الأرض؟

ثم رأى إلّه ثالث غرس غابات فى مصر حتى تخف حرارة الجو فى الصيف، ولكن (ست) وكان إلّها أنانياً صاح: هل جننت حتى ترى مثل هذا الرأى؟ ألا تدرى أن الجو إذا رطب صارت هيا كلنا رماداً فى سنين قليلة . ؟

ثم نهض (آمون) الآلّه الأكبر الذى لازم السكوت طول الحديث وقال: أبنائى الأعزاء لا تتعبوا أنفسكم، ولا تجهدوا قرائحكم، لقد وجدت ما تنشدون وعرفت أحسن هدية تقدم لمصر ولشعبها الوفى، سأعطيها حياة هنيئة سعيدة، سأعطيها نهراً عظيما ينتفع به الحاكم والمحكوم، الانسان والحيوان على السواء. سأعطيها وادياً خصباً . . سأعطيها النيل . .

فوافق الآلهة باجماع الآراء على هذا الرأى المفيد، ثم استمر (آمون) قائلاً: وسندعو الآلهة الأجانب إلى الاحتفال بهذا الحادث الجليل، ثم جلس (هوروس) الآلّه الشاب الذى كان يقوم بأعمال السكرتارية فى المجلس، بناء على اشارة من الرئيس، إلى آلته الكاتبة فكتب الدعوات على وجه السرعة، ثم ناولها إلى (آمون) فمهرها بخاتمه، ثم أعطيت إلى (إبس) الآلّه الطائر فحملها فى منقاره وطار بها إلى الأقطار الأجنبية . . بعد ذلك أخذوا يبحثون عن المكان الذى يبدأ منه النهر فرأى أحدهم أن تكون بدايته أسوان، ولكن الحكيم (حوتيب) اعترض مرة أخرى قائلاً: إن مصر سوف يزيد عدد سكانها مع الزمن، فيحسن لذلك أن نعطى لها فسحة . . وبعد البحث اختيرت إحدى بحيرات بلاد (البونت) المقدسة لارتفاعها، ولتكون تحت إشراف الآلهة ورعايتها . . ثم جاء يوم الاحتفال وكان يوماً فريداً فى التاريخ، شرب فيه الآلهة كثيراً من نبيذ قبرص اللذيذ الذى جاء به (دينوزيس) إلّه الخمر الأغريقى هدية (لآمون)، كما أن (إيزيس) الآلّهة الساحرة قامت بألعاب سحرية مدهشة سرّ لها الناظرون، منها أنها قطعت بالسكين رأس دجاجة، ثم أشارت بعصاها إلى ذلك الرأس فعاد فالتحم بالجسد . وقد أعجب بهذا المنظر، بصفة خاصة، (بعل) إلّه آشور الكبير فأخذ يضحك ملء شدقيه . . ثم قصد الجميع إلى جبل قائم بجوار البحيرة، فأشار (آمون) إليه بيده وأخذ ينادى أرواح الماء بصوت عظيم يشبه الرعد، فتفجرت المياه نقية عذبة من الصخور . . فى جلال وروعة . . وكان (بنتاؤر) الشاعر، البشرى الوحيد الذى دعى إلى الحفلة . ليخلد على قيثارته ذلك اليوم المهيب، ولكنه أرتج عليه من هيبة المنظر وظل صامتا لحظة، وقد اخضلت عيناه بالدمع، ولم تحل عقدة لسانه إلا بعد أن شرب جرعة من ماء النيل، فأنشد: «سلامٌ عليك أيها النيل! يامن يتفجر من الصخر حياة ويسراً! إنك حينما تهبط تخضّر الأرض، كما أن عيدان القمح تنحنى لك إجلالاً، وتقدم لك بذورها قرباناً . . إنك تخلق للصانع العمل، وللأرض الغبطة . كما أن كل معدة تسر لمقدمك، كذلك يهتز كل منكب من شدة الفرح . . دم أيها النيل حياة لمصر ويسراً للمصريين!»

فصاح الحاضرون: آمين! آمين!

حسين شوقي

١٢ – أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ أحمد مفتاح

العالم الشاعر الناثر ، أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبى النعاس ينتهى نسبه الى عُمار بضمّ العين المهملة وتخفيف الميم ، أحد العرب النازلين من الصفراء الى أرض مصر حوالى القرن العاشر ، وبين أبى النعاس وعُمار جدان أو ثلاثة ، ولما ورد عمار مصر قطن بأقليم منية ابن الخصيب فى صعيد مصر ، وقامت بين عرب تلك الجهة منازعة أدت الى مقاتلة ، كان لجدّ المترجم أبى النعاس اليد الطولى فيها ، ويقال إنه حضر بعض الوقائع بدون سلاح ، ولقوّته أمسك جحشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجحش .

وقطن هرون الجدّ الأدنى للمترجم فى بلدة على الشاطىء الغربى للنيل بأقليم المنية تابعة لبنى مزار ، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم من جهة والدته ، وهى بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم أبى عجيز محرفاً عن أبى عزيز ، يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها ، على عاداتهم فى تكنية الرجل باسم أبيه ، ومازال هرون المذكور بها حتى ولد له مفتاح أبو المترجم سنة ١٢٢٩ ، وكان فى هذه البلدة رجل اسمه على أبو محمد ، من أقارب والدة المترجم ، جعلته الحكومة شيخ المشايخ ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدّة بلاد ، وكان جائراً فى معاملته فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك فاضطر بعض أهلها الى الشكوى للمذير مستعينين بعلى افندى الشريعى والد حسن باشا الشريعى ، وبعد اللتيا والتى ساعدوهم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالى أبى عزيز سنة ١٢٦٤ سموها نزلة عمرو ، وانتقل اليها هرون بولده أبى المترجم ، وبنى بها داراً كبيرة ، وبقى بها حتى مات بعد أن أسن ، وكان سديد الرأى يُرجع اليه فى المشكلات .

ثم سكن هذه البلدة بعده ولده مفتاح ، وتزوج بها وأعقب جميع أولاده ، وحج سنة ١٣٠٤ فأرخ حجه ولده المترجم بقوله :

حَجَّ مفتاحُ أبى معتمرا
سنة ١٣٠٤

ومات سنة ١٣٠٨ ، وكان طويلاً خفيف اللحية ، وقد وخطها الشيب ، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها ، ويتحرى الحلال فى كسبه ، ويقول الحق ولو على نفسه ، وتعلم القراءة والكتابة فى الكبر ولم يجدهما ، ولما وصل نعيه الى ولده المترجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله :

قضى والدى بالرغم منى وليتنى ... سبقت لأمر ساورتنى غوائله
لقد عاش دهراً لم يشبه بريبة ... حياة سخىّ فاض بالقوم نائله
وقوم بعبء الدين والفضل صادقا ... وما المرء إلاّ دينه وفضائله
عليه سلام كلما غاب كوكب ... وسالت من الجفن القريح هوامله

وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة ١٢٧٤ ونشأ بالبلدة المذكورة فى حياطة والده ، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى ، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون ، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات ، ثم حضر الى القاهرة سنة ١٢٨٩ لطلب العلم بالجامع الأزهر ، وتلقى عن شيوخ وقته ، فقرأ النحو على الشيخ محمد الشعبونى المغربى ، والشيخ عرفة سالم السفطى ، والشيخ عبدالله الفيومى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد الانبابى ؛ والفقه الحنفى على الشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ صالح قرقوش ، وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر إذ ذاك ؛ والبيان على الشيخ عرفة ، والشيخ على الجنائنى ، والشيخ محمد البحيرى ؛ وآداب البحث على الشيخ محمد البحيرى المذكور ، والمنطق على الشيخ محمد عبده ، والشيخ أحمد أبى خطوة ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد البحيرى ، والعروض على الشيخ محمد موسى البجيرمى .

وفى أثناء مجاورته بينما كان مسافراً من بلدته الى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ، نزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة فانحدر مع الماء فى وسط النيل ، وتبعه أحد المغتسلين لانجاده ، فما زال سابحاً حتى كلت سواعده وكاد يغرق ، ثم نجا وخرج على الشاطىء الغربى للنيل وأرسل اليه من بالسفينة زورقا وصل به اليها ، وسافر مرة من القاهرة عائداً الى بلدته فى سفينة ، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى الى اخراجه منها ، فخرج الى بلدة يقال لها الرّقة بإقليم بنى سويف ، لايملك شروى نقير ، سوى كتاب مخطوط

رهنه فى أجرة القطار لبلدته ، وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشى على القدمين مسافات بَعيدة ، والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته .

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجداً فى طلب العلم ومباحثة الشيوخ ، عاد الى بلدته ومكث بها نحو سنتين مشتغلاً بحفظ الشعر ونظمه ، ولم يكن له بالأزهر كبير عناية به لانصرافه الى تحصيل العلوم ، ثم حضر الى القاهرة ، ودخل مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٨ فأعاد بها معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة على الشيخ حسين المرصفى ، ثم خلفه فى تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ حسن الطويل فتلقى عنه بعض المثل السائر ، ورسالة ابن زيدون الهجوية ، والزوراء للجلال الدوّانى فى الحكمة ، وانتفع به كثيراً ، وقال فيـــه وفى الأستاذ المرصفى :

دار العلوم شكت فراق أبى الهدى ... المرصفى الحبر أوحد ذا الزّمَنْ
فأجبتها حَسن المعارف بعده ... لا تجزعى إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ احمد شرف الدين المرصفىّ ، والفقه الحنفى عن الشيخ حسونة النواوى ، والعلوم الطبيعية والرياضية على أساتذة آخرين بالمدرسة ، ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعتــه سنة ١٣٠٢ ، فقال بعد مفارقته المدرسة مضـمّناً :

دار العلوم نثرتِ نظم أحبة ... كانوا بدوراً فى سماء علاك
حتى بَلِى عهدى بهم وتغيروا ... يادار غيّرك البلى ومحاك

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة فى صحف الأخبار كالأعلام والقاهرة ، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكرى ، ولما اتصل به حسّن له خلع العمامة والجبة وإبدالها بالملابس الافرنجية والطربوش ، ثم فارقه واستُخدم كاتباً بمحكمة بنى سويف الأهلية نحو عشرة أشهر ، ثم انفصل وورد القاهرة فكتب فى المؤيد أياماً قليلة ، ثم امتحن للدخول بمدرسة دار العلوم مدرساً للانشاء فحاز قصب السبق وعاد للعمامة والجبة ، وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة وتخرّج عليه كثيرون ممن يحسنون الكتابة الآن . ثم نقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية فى الأقاليم ، فحطوا من درجته إلا أنهم أبقوا له مرتبه ، وكان أخيراً بمدرسة بنى سويف ومرض بها فأحيل على المعاش واختار السكنى بالقاهرة ، وابتنى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفــه ، فاختار مصر الجديدة واكترى بها داراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم مسنّ كان يقضى له حاجاته من السوق ، ويقوم بتنظيف المكان ، وكان الشيخ مريضاً بمرض يعرف عند الأطباء بتصلّب الشرايين وهو لا يعلم بأمره ولا يهتمّ بنفسه ، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلاً ، ثم تركه الخادم وعاد لبلده ، فبقى وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المحتوم فجأة والأبواب مغلقة عليه ، وبقى أياماً لا يعلم به أحد ، حتى ظهرت رائحته للجيران فأخبروا رجال الشرطة فحضروا وكسروا الأقفال فألفوه مائلاً فى سريره وجزء من كتاب الأغانى ملقى بجانبه ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٨ المحرم سنة ١٣٢٩ ، وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً ، فنقلوه ودفنوه تغمده الله برحمته .

***

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء ، بل كان جلّ اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر ، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره ، وكلف بتصحيح شرح القاموس عنـد طبعه برّمته المرة الثانية . وكان اشتغاله بالشعر فى الأزهر قليلا كما قدمنا ، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالبا ، وقد أرّخ أول إجادته فيه بقوله :

أقول الشعر عن فكر سليم ١٢٩٨

ونظم بعـد ذلك القصائد المتينة والمقطّعات الثمينة ، وكان ينهج فيها منهج العرب لكثرة نظره فى دواوينها واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً بيده ، ولو تم له الخيال الشعرى كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع . ولما عاد الأمير محمود سامى باشا أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان ، وكان بعيد العهد بشعراء مصر ومن حدث منهم لم يعجبه إلا شعر المترجم فى رصانة البناء وسلامة التراكيب . وأما نثره فتوأم شعره فى الأسلوب العربى ، وكان مولعاً بالتضمين فيه من شطر عربى أو مثل سائر ، لا تكاد تخلو قطعة منه من ذلك .

وقد ترك من التآليف « رفع اللثام عن أسماء الضرغام » جمع فيه ماينيف على خمسمائة اسم للأسد ، طبع بمصر ؛ و « مفتاح الأفكار فى النثر المختار » جمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب من الجاهلية الى هذا العصر ، وهو كتاب جليل الفائدة ، طبع بمصر أيضاً ؛ و « مفتاح الأفكار فى الشعر المختار » جمع به مختار الشعر من الجاهلية الى عصرنا هذا ، لم يطبع ولم نطلع عليه ؛ وله ديوان حماسة من شعر العرب استدرك به على أبى تمام ما فاته ؛ و « مفتاح

الانشاء » لم يكمله ، وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار ، سريع الغضب سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره ، أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل الى الطول ، له هزة وتبختر فى مشيته لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه . ولما انتقل الى مدارس الأقاليم صار يحضر الى القاهرة فى فترات فينزل عندنا ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه فى ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجهما فى حياته ، رحمه الله .

الشيخ أحمد وهبى

كان طالب علم فقير ثم تزوج باحدى الموسرات فحسنت حاله وفتح له حانوت طرابيش بالغورية جعلها مجتمع الأدباء والشعراء ولم ينجح فى التجارة فتركها وأخذه الشيخ مصطفى سلامه النجارى معه فى الوقائع المصرية وجعل محرراً ثانياً بها ثم فصل وتقلبت به الأحوال فاتصل بأسرة المويلحى ثم بالشيخ على أبى النصر شاعر الخديو اسماعيل باشا فسعى له فى الاستخدام بنظارة المعارف فلم يوفق .

وكان طلبه العلم على الشيخ منصور كساب وغيره من شيوخ الوقت وتعلق بالأدب ونظم الشعر الجيد وكانت وفاته سنة ١٢٧٣ ، كما فى ص ٣٣٠ من ديوان الشيخ شهاب . اه

احمد تيمور

(**الرسالة**) بهذه الترجمة انتهى ما كتبه العلامة الجليل المرحوم أحمد باشا تيمور من تراجم علماء القرن الرابع عشر وأدبائه ، وسيدرك القراء ولا ريب حزاز من الأسف على انقطاع هذه السلسلة الفريدة فى روحها اللطيف ، وأسلوبها العذب ، ومعرضها المشرق ، وصدقها الأخاذ ، وطابعها الجميل . فهل لشيخ من شيوخ الأدب اجتمعت له مزايا الفقيد من فهم العصر ، وملابسة الأشخاص ، وتذوق التاريخ ، وتوخى الايجاز ، وصراحة اللهجة ، يصل ما انقطع من هذه السلسلة ؟ ومَنْ أحق بهذه الخدمة الجليلة للأدب والعلم والوطن من الأستاذ عبد الوهاب النجار ؟

فى تاريخ الأدب

رأى جديد فى المعلقات

نقد وتعقيب

بقلم محمد طه الحاجرى

كتب الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المتعال الصعيدى فصلاً فى « الرسالة » جعل عنوانه : (المعلقات . رأى جديد فيها) ، وقد والله فتننى هذا العنوان أيما فتنة ، واستوقفنى عن قراءة المقال برهة ، وأسلمنى الى طائفة من الخواطر غير قليلة . فقد طال عهدنا بالطريف من الآراء فى تاريخ الأدب ، واشتدت حاجتنا الى اعادة النظر وتقليب الفكر فى تراثنا الأدبى ، واستشفاف الحقيقة المستكنة فى ثنايا النصوص المختلفة ، والتأويلات الكثيرة ، ولاسيما فيما يتعلق بالعصر الجاهلى ، وقد وقفنا منه فى مجهل لا يتبين الباحث فيه إلا لمحات خاطفة ، وأثارات ضئيلة ، يكتنفها الغموض ويحيط بها الابهام وتلعب بها الأوهام . . . وما نشك فى أن المعلقات صورة صحيحة من ذلك العصر ، مهما كان أمرها ، ومهما اختلفت فيها مذاهب الباحثين وآراؤهم . فكل رأى جديد فيها جدير أن تلتفت اليه القلوب ، وتصغى اليه العقول ، ويتلقاه المتأدبون بالبشر والترحيب ، إذ الجديد وحده هو الذى ينتظر منه أن يبدد الظلمات ويزيل الشبهات ، ويفسر المشكلات . وليس الأستاذ الصعيدى ممن يتهم بأن له مع المستشرقين علاقة هوى ، فيميل ميلهم ، ويفسد الأدب والتاريخ بآرائهم ! فجديده لابد أن يكون الجديد الخالص لا يشوبه شوب من تقليد . وهو رجل محافظ بطبعه ، فيما يظن الناس ، فجديده خالص لوجه العلم والحقيقة ، لا عن رغبة فى الخلاف وهيام بالتجديد .

حدثتنى بهذا الحديث نفسى ، وأنا واقف عند حد العنوان . ولكنى كنت أنتقل فى مدارج الغبطة والفخر والسرور ، حتى أقبلت على المقال ألتهمه التهاماً ، فاذا بى لا أحس شيئاً مما خيله

لى المقام ، وزينته لى الأوهام ، ثم اتهمت مشاعرى فعدت الى المقال أقرؤه جملة جملة وكلمة كلمة . فاذا بى أرتكس على عقبى ، وأحس فى نفسى مايحسه الطاعم لقاء طعام سئمته نفسه ، ومجه حسه ، وبرمت به معدته من كثرة ما تقلب فيها .

أما هذا الرأى « الجديد » فليس رأيا فى المعلقات من حيث هى صورة للجاهلية ، نلمح فيها صفاتها ، ونقرأ فيها خلائقها وعاداتها ، وليس بحثاً فيها من حيث وثاقة رواتها ، أو الوضع فى أبياتها ، ولكنه رأى فى سبب تسميتها ، ثم مايحتاج من توجيه وتعضيد ، وانحاء على الآراء الأخرى بالمحاجة والمجادلة ثم التوهين ، وهذا بحث جليل لايضع من قيمته جزئية موضوعه ، مادام متمشياً مع الأسلوب العلمى ، قائماً على أصول البحث الصارمة .

يقول الأستاذ فى سبب التسمية : « فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها وتتبعهم اياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر » .

فهو يذكر هنا سببين متداخلين : الحب والتتبع ، ثم التتبع بالحفظ والشرح ، وما أدرى فيم هذه المعاظلة ؟ . أما كان الأدنى الى الاستقامة أن يقتصر على السبب الأول ، ويكون مابعده مرتباً عليه ، راجعاً اليه ناتجاً منه ، فيكون سبيل التسمية هو هذه الدرجة الرفيعة التى قدرها الناس لهذه القصائد ، فتعلقوا بها ، وأولوها حبهم وإعجابهم ، وما يمليه عليهم الحب والاعجاب من القيام عليها بالأستظهار والشرح ، أما التعليق بمعنى كتابة الشرح على المتن فما نحسبه مما كان يسوغ فى عرف اللغة حينذاك .

هذا هو الجديد فيما يزعم الاستاذ ، ولوددت والله لو كان جديداً حقاً ، فنرفع به رءوسنا تيهاً وفخراً ، ولكنه رأى مقرر ، يدرسه طلاب المعلقات فيما يدرسون من الآراء فيها منذ أصبح لدراسة المعلقات فى مصر سبيل علمى معبد ، وأسلوب جامعى ثابت ، فليس الجديد فى حقيقة الأمر إلا اعتبار هذا الرأى جديداً اليوم .

وإذا كان لابد من ثبت لما ندعيه من قدم هذا الرأى وإمعانه فى الشيوع بين جمهرة العلماء ، فها هو العلامة المستشرق الجليل نولدكه Noldeke ، وحسبك به من علامة ذائع الصيت ، يقول فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية ، وهى أدنى مايقصد اليه الباحثون :

« إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع الى تسميتها بالقصائد المذهبات ، وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها ، وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه ، فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة ، وأن هناك اشتقاقاً آخر من المادة نفسها ، وهو كلمة «علق» ، ومعناها الشىء النفيس»(١)

فمدار القول هو الاعتبار المجازى فى فهم الكلمة وإغفال المعنى الحرفى لها . فأين هى الجدة التى يسندها الأستاذ الى رأيه ؟

وأما قوله إن المعلقات هى أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه فدعوى لا نحسب الا أن علم الأستاذ وفضله ينوءان بها ، وأيا كان الأمر ، فان تعيين الأولية فى هذا العصر الغامض البعيد أمر ليس من السهولة بحيث يلقى فى كلمة فى درج الكلام ، بل لابد من النص الواضح أو الاستنتاج القاطع

وبعد أن انتهى الأستاذ من عرض هذا الرأى وتوجيهه عمد الى ما يخالفه من الآراء عرضاً ومناقشة ، وقد اكتفى من هذا برأيين : الأول رأى ابن عبد ربه وابن خلدون وابن رشيق ، والثانى رأى أبى جعفر النحاس المصرى ، وكان المنتظر أن يعرض الى غير هذين الرأيين من آراء المحدثين ، فقد جعل مُستهل مقاله أن العلماء قد اختلفوا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية هذه القصائد ، فالقارىء معذور اذا ظن أن الأستاذ يعرف مذهب المحدثين الى التفسير المجازى ، ثم أغنى عنه تمهيداً لوصف رأيه بالجدة والابتكار ، والا فأين ما خالف فيه المحدثون عن رأى المتقدمين ؟ ولكنا لا نقول بهذا ، فليس مذهبنا فى النقد أن ندخل الى الضمائر ونحاسب على النيات ، ولا نقول هنا إلا أن أول واجب يفرضه العلم على الباحث المؤرخ هو التقصى فى طلب النصوص ومعرفة الآراء ، والتثبت فى وصف الرأى . والعصمة لله وحده

(١) ويرى الأستاذ كليمان هيار أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً «السموط» بمعنى العقود أو القلائد «الرسالة»

أما أول الرأيين فيقول إن المعلقات كتبت بالذهب ، وعلقت على أستار الكعبة ، وكأن الأستاذ رأى هذا الرأى بين البطلان ظاهر الاستحالة ، فاكتفى بعرض أقوال القائلين به وأغفل مناقشته ونقضه

وأما الرأى الآخر فينكر دعوى تعليق المعلقات على أستار الكعبة ، ويذهب الى أن الملك كان اذا استحسن قصيدة مما كان ينشد فى سوق عكاظ قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى

فانظر ماذا يصنع النقد فى هــذا الكلام ؟ يقول أبو جعفر « الملك » مطلقاً من غير تعيين ، فيأبى الأستاذ الا أن يفترض أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، ثم يبنى على هــذا الافتراض الذى افترضه هو اعتراضه موجهاً الى أبى جعفر ، فيقول إن عصر النعمان أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ واستحسانه انشادها ، وهذا ولا ريب سبيل ملتو ، وتحكم فى النقد غير محمود ، وتحريف للكلم عن مواضعه ، وتخصيص للعام بدون مخصص

ويتوارد العلامة نولدكه والأستاذ الصعيدى فى نقد عبارة النحاس عند هذه النقطة ، أما الأستاذ الصعيدى فقد ذهب إلى ما رأينا من التحكم والبناء على الفرض ، وأما نولدكه فيقول إن من الصعب احتمال أن ملكاً عربياً كان يشهد سوق عكاظ . ويؤلمنا والله أن يكون هذا العلامة الأعجمى أكثر توفيقاً ، وأهدى إلى الجادة فى فهم الكلام وتخريج النصوص .

ثم ينتقل الأستاذ إلى وجه آخر من وجوه النقد ، فيقول إن سوق عكاظ التى أجمعوا على أن تلك القصائد كانت تلقى فيها أحدث بكثير من عهد أصحاب المعلقات ، لأنها أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ولوددنا والله لو دلنا الأستاذ على مصدر هذا القول ، فلسنا نذكر أن ياقوتاً تعرض فى معجمه إلى تاريخ إنشائها ، والذى نحسبه أن عهد هذه السوق أقدم مما ذكر الأستاذ ، ففى سيرة ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد حرب الفجار وعمره أربع عشرة سنة ، ويذكرون فى سببها أن قريشاً حين بلغها مقتل عروة الرحال ، كانت فى عكاظ ، وفيها قامت الحرب ، وسميت باسمها ، وقال ابن الزبعرى فى مدح العنابس :

وفى يوم عكاظ منعوا الناس من الظلم

بل إنهم ليذكرون فجاراً آخر قامت وعمر الرسول صلوات الله عليه عشرة أعوام ، ويذكرون فى سببها أن أحد الغفاريين كان له مجلس فى سوق عكاظ يفتخر فيه ، ويزعم أنه أعز العرب فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته .

وأوضح من هذا فى الدلالة على قيام هذه السوق قبل التاريخ الذى حدده له الأستاذ ما جاء فى أخبار عبد شمس بن عبد مناف أن زوجته عبلة بنت عبيد كانت قبله تحت رجل من بنى جشم ابن بكر فبعثها بانحاء سمن تبيعها له بعكاظ ، فباعت السمن وراحلتين كان عليهما وشربت بثمنها الخمر . . الخ القصة ، وهى مذكورة فى الجزء الأول من الأغانى فى أخبــار عمر بن أبى ربيعة ، وهى تدلنا دلالة قاطعة على قيام سوق عكاظ فى عهد عبد شمس ، وأين عبد شمس مما ذكره الأستاذ ؟ فكيف يصح مع هذا أن يكون عام ٥٨٦ تاريخاً لبدء قيامها ؟

والأمر بعد هذه النصوص كلها بعيد الاحتمال بالنسبة للأمة العربية ، وهى أمة تجارية منذ أقدم عصورها ، وقد جعلت من أسواقها نطاقا يحيط بالجزيرة ، ونظمت قيامها تنظيماً يتفق مع سير التجارة ، وكانت عكاظ حلقة من هذه السلسلة . فكيف يسوغ القول بأن إنشاءها كان فى هذا العهد المتأخر ؟ ولكن لعل الأستاذ قد اعتمد على نص صريح قوى يضعف ما قدمنا من النصوص ، ويهدم ما رأينا من منطق الأمور .

وبعد ، فلا يحسبن القارىء أننا ندافع بهذا القول عن رأى أبى جعفر النحاس ، فلسنا ، ولله الحمد ، من القائلين بالتفسير الحرفى لكلمة المعلقات ، وما نبغى من كل ما أسلفنا إلا أن نقر الأمور فى نصابها ، فلا نغمض فى الاقرار بالحقوق لأصحابها ، وأن نصطنع الانصاف فى نقد ما نراه جديراً به ، فلا نتجنى على الشىء مالا يحتمل ، ولا نستعصم إلا بالقاطع من الأدلة والصحيح من الحجج . ونرجو أن نكون قد وقفنا على الجادة فى هذا النقد فلم يستزلنا الهوى ولم يخطئنا التوفيق .

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

من طرائف الشعر

نادره

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ما أنت إلاّ نادره   في كل فنٍّ ساحره
للسمع أنت مُتعةٌ   ومُتعةٌ للباصره
أنتِ لشعبٍ كُسِرَتْ   منه القلوب جابره
أميرةَ الفنّ على الـ   إبداع أنتِ قادره
أنتِ جديرة بحـ   قٍّ أن تكوني الآمره
وأنتِ عبقرية   من أكبر العباقره
معجزة بالغة   من معجزات القاهره
بين أغانيك ووجـ   هكِ الجميل آصره

***

ليلتنا بيضاء مِنْ   خير الليالي الساهره
حسبُكِ أن الناس حو   لَ الرافدَين شاكره
أما الأغاني فهي من   قلب رقيق صادره
في جوّها الأرواح من   أفراحهنّ طائره
بما بعينيكِ من   السحر القلوبُ شاعره
رفقاً فإنا لا نطيـ   ق النظرات القاهره
ما حيلة الضعيف تلـ   قاء السيوف الباتره
ليس له من حُجّة   غير الدموع الطافره
تعطي القلوبُ جزيةَ الـ   غرام وهي صاغره

***

من الجمال ليس تشـ   بع العيونُ الناظره
الغادة الحسناء تشـ   به النجومَ الحاسره
أنحن فوق أرضنا   أم في السماء الزاهره ؟
لو كان يحيا المَيْتُ أحـ   يته الأغاني الساحره
فحبذا الفن وحـ   بذا أغاني « نادره »
نحن بمحفل جامع   للنخبة المؤازره
كأنما عاد الربيع   ناثراً أزاهره

***

ياعندليب الروض غرّ   د للوجوه الناضره
أميرةَ الفن تحيّـ   تي اليكِ عاطره
كوني لشيخ قد صبا   الى الجمال عاذره
لا تحسبي الشيوخَ أمـ   ثالَ الرسوم الداثره
كل امرئٍ يتبع في   أمياله عناصره
وهل اذا النفس صبت   في الشيخ فهي وازره ؟
وقد يعود لي الصبا   وعهدُه في الذاكره
أبكي اذا ذكرتُه   على سنيه الغابره
إن لم أُجِلِ الفن فلْـ   تدُرْ عليَّ الدائره
ولْنَتَمَلَّ قبل أن   نردى الحياةَ الحاضره
إن الحياة كلها   الى الحتوف صائره
ولْنكسِب الدنيا وربـ   ي غافرٌ في الآخره

***

هذا غناء فيه آ   ثارُ النبوغ ظاهره
أجـدت يا نادرتي   أوّلَه وآخره
أشيم ناراً سُعِرت   وأنتِ أنت الساعره
والناس في حرب الهوى   مدحورةٌ وداحره
يا زهرتي حيتْكِ أنـ   داء الربيع الماطره

***

تحذّري تحذّري   من الزهور الغائره
هذا الهتاف المستطيـ   ـر كله لنادره
غنّتْ فكانت فتنة   في النغمات الثائره
وردّدت فهيجت   فينا الشجون الخادره
تجسّ نبضَ العود أحـ   ياناً بأيدٍ ماهره
فيصرخ العودُ كطفـ   ـلٍ دغدغته الخافره
العـودُ شاعرٌ بها   وهي به لشاعره

***

غنّى لحرّيتنا الـ   حبيبة المهاجره
كنا بها في حقبة   من الشعوب الظافره
قضت على آمالنا   يدُ الزمان الغادره
هوت بنا ساعةَ أد   ركنا الجدودُ العاثره

ثمالة كأس

للأستاذ فخرى أبو السعود

بقية أيام تقضّى كثيرها … بنعماء أو بأساء والعيش قُلَّبُ
غدوتُ أقضيها بأرض عَلِقْتُها … وطاب بها لى مستراد ومذهب
وطاب اجتلاء الحسن بين شعابها … أشرّق فيها تارة وأغرّب
تبسّمُ أحياناً فيعذب بِشْرُها … ولستُ بخاشٍ سُخْطَها إذ تقطّب
بها مُسْتَجَمٌّ للجسوم ومتعة … وَرِيٌّ وللنفس الشجية مهرب
إذا ما سقاها الغيث صفّى أديمها … ونقّى ثراها حيثما يتصبب
ورفّ بها عشب وشفّ بها صفاً … وماد بها غصن ندىٌّ مُرَطَّبُ
وفاح بها عطر ورقّت نسائم … وتاه على البلور قاعٌ ومَشْعَب
فكم ثَمَّ من حُسن نثير منظّم … وشِعْرٍ إلهيّ هنالك يُكتب
على هامها حيناً وفى وهَدَاتها … أُصَعِّدُ فى جنح الدجى وأُصَوِّبُ
فى نشوة الآصال أو يقظة الضحى … وعند شروق الشمس أو حين تغرب
فكم ليلة قد جمّد البردُ ماءها … بأحشائها أقبلت لا أتهيّب
وقد عوت الأرواح فيها وأطفأتْ … مصابيحها لم يبْدُ ثَمّ كوكب
وكم مُشْرِقٍ بادرته فى طلوعه … ومازال ماء المزن فى الغصن يضرب
وقد غطّ أهلوها وأقبلتُ مِثْلَ مَنْ … له عند قرص الشمس فى الأفق مأرب
يُنَقّطنى غصنٌ بمُنْهَلِّ قَطْرِهِ … ويعبق من حولى نسيمٌ ويلعب
صِحَابى هاتيك الشعابُ ألِفْنَنِى … ويعرفن خطوى حيثما رُحتُ أدأب
لقد آذنتْ بالبين صُحبتنا سوى … ثمالة كأس عن قليل ستنضب
أُباكِرُها صفوًا وأعلمُ موقنا … بأنّ ثمالَ الكأس أشهى وأطيبُ
سأذكرها يوماً فأحمدُ عهدها … وأهفو إليها مستهاماً وأطرب

فخرى أبو السعود

ما كان هذا فى مظنّـ … ـة النفوس الثائره
وربما دار الزما … نُ معلِناً بشائره
تخوّل الشعبَ حقو … قَ الأمم المجاوره

بغداد — جميل صدقى الزهاوى

العودة الى الريف

بقلم فريد عين شوكه

أمل على رغم الزمان يوافى … يا طالما ضنّ الزمانُ الجافى
لجّ الحنين بمقلتىّ الى القرى … مأوى صباىَ ومُنتدَى الألاف
يانفسُ فاستبقى الزمانَ الى غد … فغدٌ قرارُك بعد طول طواف

***

اسكندرية ياعروس الشرق من … ماضى العصور وغابر الأسلاف
ومُنى الشباب وبُغية الفتيات فى … الصيف الحرور ومتعة المصطاف
مهما حبتْك يد الرشاقة حليها … ولبستِ أبراد الجمال الضافى
وبهرتِ شبان البلاد وشيبها … برُوائك المترقرق الرقاف
فالريف أزين من حِماك حرائراً … وأحبّ لى من هذه الأطياف
خطرت عليه يد الإله فأبدعت … ما شاء من وشى ومن أفواف
وصفت أصائله وطاب نسيمه … كنسيم جنات النعيم الصافى
وسعى اليه وران فوق ربوعه … سحر عن العين الكليلة خاف
سحر تحيرت النُّهى فى كنهه … فسمتْ به عن رائع الأوصاف

***

ياريفُ شاه جمالك السحرىّ من … سيل الخطوب الماحق المتلاف
وعدتْ عليك يد المدائن فاجتنت … مافيك من ثمر وطيبِ قطاف
وازدان مغناها بمالك فاغتدت … فتانة الأحشاء والأطراف
حتى استطال الفقر فيك وصوّحتْ … دنياك من تحفٍ ومن ألطاف
وتكبكب الفلاحُ فى أزماته … وغدا بمصر ضحية الاسراف
وأمضّه الفقر المضوض فخاله … ما بين مسغبةٍ وبين كفافِ
وبنوه يالبنيه! من غول الضنى … زهرٌ ذوَى من حُرقة وجفاف
إن ضجّ بالشكوى فما من مُسعد … أوضاق بالبلوى فما من واف
آذانهم صمّاءُ عما يشتكى … وعيونهم عما دهاه غوافِ
لكنهم متدافعون عليه كالطير الصدِىّ على النمير الشافى
يجبون من دمه العزيز نقودهم … لتضيع فى سرَف وفى إتلاف
يا شقوة الفلاح فى مصرَ التى … لولاهُ لم تك غير بعض فيافِ

***

اسكندرية كم رثيتك إذ رأيـ … ـتكِ للأجانب سهلة الأكناف
سيلُ الأجانب فيك كم ألقى على … عينى المضيئةِ حالك الأسداف

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

رسالة فلسفية

بين فولتير وروسو

للأستاذ خليل هنداوى

طوّح بليسبونة زلزال روّع النفوس وذهب بكثير من الضحايا ، فراع ڤولتير — وهو رسول العطف — أن تعمد العناية الآلهية الى مثل هذه الوسائل فى إعلان الشر ، فهاجم ربوع القائلين بنظرية الخير الشامل ، وأين هو الخير ؟ ونظم هذه المقطوعة يرثى بها من نكبهم الزلزال ، ويتخذ منه برهاناً يؤيده فى جحوده العناية الآلهية ، ويرى أن الوجود مبنىٌّ على الشر والعذاب . وأجابه روسو على مقطوعته برسالة فلسفية عميقة ينكر عليه هذا الاسراف فى التشاؤم ، وهذا الاستسلام الأعمى لسلطان العاطفة ، ويُظهر فلسفة الرضا عن الوجود وعن أنظمته رغم مايشيع فى بعضها من فساد ، ويعتقد أن هذا الكون هو خير ما أبدعته فكرة المبدع « إذ ليس فى الامكان أبدع مما كان »

وهذه هى المقطوعة :

« أيها الأموات التعساء ! أيتها الأرضُ الخاشعة !

أنتم يامن قذفتكم قواذف لا معنى لوقعها .

وأنتم أيها الفلاسفة الذين تصيحون فى الأرض « ليس على الأرض إلا الخير

تعالوا معى واهرعوا الى هذه الخرائب الدامية ، هذه البقايا الهاوية ، أنظروا الرماد الحائل ، وهؤلاء النساء والأطفال يتهاوى بعضهم على بعض مهشمى الأعضاء تحت الحجارة ، وهناك ألوف الضحايا التهمتها الأرض .

وجوه دامية ، وقلوب خافقة ، وأشلاء ممزقة .

قد ماتوا ! ولم يدركهم مسعف .

ماتوا ! وهم ينظرون الى الموت

* * *

أتقولون أيها الفلاسفة ،

وأنتم تسمعون أنينهم وترونهم وهم يحتضرون :

« إن هذا الا صنع الشرائع الخالدة ،

وإن إلٰهاً حراً فى مشيئته شاء لهم ذلك .

أتقولون : إن الآله قد انتقم لنفسه منهم لأنهم كانوا آثمين ، وما كان تقتيلهم إلا جزاء آثامهم . فأية جريمة أم أى رجس فعل هؤلاء الأطفال الذين لقوا مصارعهم على صدور أمهاتهم ؟

ليسبونة التى أمست لا شىء ، أكانت أكثر رذائل من (لوندرة) ومن (باريس) الغارقة فى بحر من الملذات . ليسبونة هوت فى الهاوية . وباريس لا تزال ترقص .

* * *

إن بعض المشاهدين يتأملون فى مصيبة إخوانكم

وهم يتحرون عن أسباب العاصفة بهدوء وسلام .

ولكنهم حين يشعرون بضربات الحظ الأعمى تنصب عليهم ، يتحرك فى نفوسهم معنى الانسانية ، ويكون مثلنا على مصارعهم .

* * *

آمنوا إنى صادق الشكوى واللوعة !

وأن مظالم الحظ شائعة فى كل مكان . . .

ذرونى أشكُ !

كل شىء فى العالم يئن ، بعضه يفنى بعضاً ! .

وكل شىء يولد للهموم والأذى .

وأنتم — هنا — تجعلون من شقاء كل موجود سعادة مطلقة ، فأية سعادة أسندوها اليك أيها الانسان الذى يكتنفه الموت والضعف والشقاء . . . ؟

أنتم تصيحون هاتفين « ليس على سطحها إلا الخير ! »

الوجود يكذبكم ، وقلوبكم تدحض آراءكم !

وهذه عناصر المادة ، حيوانها وإنسانها وجمادها ، كلٌ فى نزاع مستمر ! . .

يجب أن تقولوا معى « ليس على سطحها إلا الشر »

* * *

يلقونَ منك التبر فى جوف الثرى … واللؤلؤ المشفوف فى الأصدافِ

ويرون فيك النُّعميات وليتهم … جازوك غير الكفر والاجحاف

صِيغَ الأجانبُ فى ربوع الشرق من … فرط الجحود وقلة الانصاف !

* * *

غَفراً (منوفُ) إذا هجرتكِ حقبة … وحُرِمتُ روعةَ حسنك الشفاف

سأزيح عن قلبى تباريح النوى … وأحُطُّ عبء البعد عن أكتافى

فريد عين شوكة

إن سر الوجود لايزال مجهولاً . . .

فهل يصدر هذا الشر عن مصدر صاحب الخير نفسه ؟ ولكن كيف يُدرك الفكر أن رباً يزجى الى أبنائه الخير الذى يرتضيه لهم، هو بذاته يصب عليهم سوط عذابه ؟ أية عين تستطيع أن تتبين فى هذه الاغوار العميقة ؟ . لايمكن أن يكون مصدر الشر كله من الوجود .

والشر لن يرسله أحد غير الله ، لأنه هو سيد الوجود وهو الكائن فى كل موجود .

يالها من حقائق مؤلمة ! . .

وياله من مزيج لعناصر متباينة ! . . . »

وهذه هى الرسالة التى كتبها روسو جواباً على هذه المقطوعة :

« اسمح لى أيها العزيز بأن أشكو اليك من هذه العقيدة ، إذ كنت أرتقب منك ماهو خير وأهدى لهذه الانسانية التى تريد منك أن تنفس عنها . أنت تلوم (پوب)(١) و (ليبنتز)(٢) لأنهما خففا عن الانسانية عذابها باعلانهما (أن لاشىء عليها إلا الخير) ورحت ترينا شقاءنا وتهدينا الى تعسنا ، تدفعك الى هذا عاطفتك الهوجاء ؛ وبدلاً من أن تكون رسول تعزية لى لم تعمل إلا على إثارة حزنى . قد يقال إنك تخشى أننى لا أرى مبلغ شقائى فى هذا الوجود ، وأنك إذا تركتنى أسىء الظن بالكون تخفف عنى شقائى .

قال لى (پوب وليبنتز) : صبراً أيها الانسان فان الألم شىء ضرورى فى الطبيعة والوجود ، فان الموجد الخالد المحسن الذى يحكم هذا العالم ودّ أن يعصمك فيه عن كثير من الأنظمة المطلقة ، فانتخب نظاماً هو أصلح الأنظمة وأقلها شراً وأكثرها خيراً ، فلماذا المكابرة ؟ لنقل هذه الكلمة وان كانت قاسية : « إذا لم يصنع إله الكون خيراً مما صنع ، فلأنه لايقدر على أن يصنع خيراً منه »

وأنت ماذا تقول لى فى قصيدتك ؟ تقول : تألم إلى الأبد أيها الشقى ، فاذا كان — ثمت — خالق أوجدك فهو قادر بدون شك على أن يزحزح عنك آلامك ويطلق نفسك من قيودها . ولكن لاترج من آلامك أن تتزحزح ، لأن من المحال أن تعرف لماذا وجدت إذا لم توجد للألم والموت .

إننى لأرانى أتحرى عن أسباب الشقاء الأدبى فى الانسان الحر الكامل والانسان الفاسد . وأما الشقاء المادى فاذا صح ما أشعر به فان بين المادة الحساسة والمادة الجامدة الميتة نزاعاً مستمراً ، فهذا الشقاء وجوده محتم فى كل جزء يتصل به الانسان . واذ ذاك يصبح سؤالنا «لماذا لم يخلق الانسان سعيداً» لغواً لا معنى له . وانما يسأل « لماذا وجد الانسان » ؟

وأقول : إن كل مصائبنا — ماعدا الموت — إنما نوطن لها بأسباب تتقدمها . وجل مصائبنا المادية تجنيها علينا أيدينا . عد إلى موضوع قصيدتك نفسها ، وهب أن الطبيعة لم ترفع هنالك عشرين ألف منزل بطبقات مختلفات ، وأن سكان هذه المنازل قد توزعوا فرقاً فرقاً فى مساكن حقيرة ، أفليست النكبة تكون أهون شراً إذا كان لامفرّ من النكبة ؟

ولكى يتسنى لنا العودة إلى المذهب الذى ضربته ، فلا غنى لنا حال تجريبه وامتحانه عن أن نميز الألم الخاص الذى لاينفى وجوده فيلسوف من الألم العام الذى ينفى وجود التفاؤل . ولا ينبغى هنالك أن يسأل أحدنا الآخر : أذقت ألماً أنت أم لم تذق ؟ وأنا ينبغى أن نفهم إذا كان الوجود بنى على أساس الخير ، أو إذا كانت آلامنا فيه محتمة لامحيص عنها ؟

وهكذا أرى قولنا « مجموع الكل هو خير » أدنى إلى الحقيقة من قولنا « كل شىء هو خير » وإذ ذاك لاسبيل لأحد أن يأتى ببراهين لأثبات شىء أو لدفع شىء . لأن هذه البراهين تتعلق رأساً بمعرفة عمارة الكون والاطلاع على غاية خالقها ، وهذه المعرفة يبعد على العقل البشرى أن يُلم بها ، والقواعد الصحيحة لمذهب التفاؤل لا تستمد من متاع المادة ولا من ميكانيكية العالم ، ولكنها تُستَمد بواسطة العقل من كمالات الله التى يدبر بها كل شىء .

اذا عدتَ بهذه الأسئلة المتباينة الى مصدرها الشامل رأيتها كلها تعود الى مسألة وجود الله ، فاذا ثبت وجود الله فلا بدّ أن يكون كاملا ، واذا كان كاملا فلا بد أن يكون عاقلا وقديراً وعادلاً ، واذا كان عادلاً وقديراً فكل شىء مبنى على خير وصلاح ، وإذا كان عادلاً وقديراً فروحى هى خالدة ، واذا كانت روحى خالدة فان ثلاثين عاماً من عمرى لا توازى شيئاً عندى ، وربما كانت ضرورية لانقاذ الكون . فاذا ما سلمتَ لى بالقضية الأولى فلم تتزعزع هذه النتائج التى وقفتها عليها ، وإذا لم تسلم بها وكان نصيبها منك الجحود فان كل مجادلة فى توابعها تذهب عبثاً » .

بيروت **خليل هنداوى**

---

(١) پوب : (١٦٨٨—١٧٤١) شاعر انجليزى مذهبه التفاؤل

(٢) ليبنتز : (١٦٤٦—١٧١٦) فيلسوف ألمانى نشر مذهب التفاؤل فى كتابه الفلسفى عن عدالة الله .

العلوم

بلـــوتو Bluto
السيار التاسع

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

فى العدد (٥٦) من مجلة الرسالة مقال ذكر به أن الكواكب السيارة ثمانية ، وأنها — مرتبة حسب قربها من الشمس — (عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زحل ، أورانوس ، نبتون) . وقد كان هذا القول صحيحاً حتى شهر مارس سنة ١٩٣٠ ، فكان مدار « نبتون » يحدد نهاية المجموعة الشمسية التى تنتمى اليها كرتنا الأرضية ، ثم اتسعت هذه المجموعة باكتشاف سيار تاسع هو « بلوتو » وإلى القارىء قصة هذا الكشف .

الفرق بين النجم والسيار :

فى المقال المشار إليه سابقاً نظريتان من النظريات التى وضعت فى تفسير كيفية تكوين السيارات حول الشمس ، ولعل أقرب هاتين النظريتين إلى الصحة هى أحدثهما ، وهى نظرية المد التى يؤيدها الآن كثير من العلماء تأييداً رياضياً ، منهم العالم الانجليزى المشهور « سير جيمز جينز » ، فشمسنا الحالية ومعها كل ماانفصل منها على شكل كواكب وذرات متحطمة وإشعاع كانت فى الماضى السحيق تكون نجماً هائلاً ، اقترب منه نجم ثان — ربما كان أكبر منه — فجذب اليه جزءاً من الأول على شكل السيجار ومن هذا السيجار انفصلت الكواكب السيارة . ولعل ترتيب السيارات بحجومها الحالية يؤيد هذه النظرية ، فأضخمها فى الوسط وأصغرها فى الطرفين . وهذه المجموعة الشمسية تسبح كلها فى الفضاء تفصلها ملايين ملايين الأميال عن أقرب نجم إليها . فاذا نظر الانسان وهو على الأرض إلى القبة السماوية رأى بعينه المجردة آلافا من هذه النجوم ، وقد يكون الوقت ملائماً لأن يرى سياراً أو أكثر [١] . ويمكنه أن يميز السيار عن النجم بشدة لمعانه وعدم تألقه وتغييره لمكانه النسبى بين النجوم الثوابت على مر الشهور والأعوام (ومن هنا نشأت تسميته بالسيار أو التائه) وكذلك يميز السيار بظهوره على شكل قرص صغير فى عدسة التلسكوب ، على حين أن النجوم لا يمكن أن تظهر أكثر من نقطة ، ولكن ذلك لا يساعدنا دائما على الكشف عن السيارات ، فعطارد لا يبعد عن أمه الشمس إلا قليلا ، فتصعب رؤيته بالعين المجردة الا فى البقعة المنبسطة قبيل شروق الشمس أو بعيد غروبها ، وأورانوس ونبتون لاتراهما العين المجردة لبعدهما عن الشمس والأرض بعداً يجعل الزاوية التى يحدثها قطر كل منهما عند العين لا تمكنها من الرؤية ، وهذا هو السبب فى عدم معرفة العرب القدماء لهما قبل اختراع التلسكوب

وكلما ابتعد السـيار عن الشمس صعب كشفه وتمييزه عن النجوم ، وقد كشف « هرشل » عن اورانوس (أب زحل آله الزرع) عفواً فى سنة ١٧٨١ وهو يوجه منظاره الى جزء من السماء ، وقد ظنه فى أول الأمر « مُذنبا » وكشف « جال » عن نبتون (آله البحر) فى سنة ١٨٤٦ بعدبحوث « ليڤرييه » الرياضية

البحث عن سيار تائه :

وفى أوائل القرن الحالى كان الأستاذ « برسيڤال لوول » يقول بوجوب وجود سيار آخر تابع لمجموعتنا الشمسية أبعد من نبتون ، وقد جاء هذا القول نتيجة لبحوثه الرياضية فى مدارات السيارات المعروفة فى ذلك الوقت ، وعدم اتفاق المدار الرياضى مع المدار المشاهد . فانطلق الفلكيون هواة ومحترفين يبحثون عن ذلك السيار التائه ، ولعله لولا التعاون الدائم بين فروع المعرفة العامة فى الوصول الى الحق لما تمكن أحد الى الآن من الكشف عن هذا السيار ، فان محاول الكشف عنه كان عليه أن ينظر الى جزء

(١) يمكن الناظر إلى السماء أن يرى بعد مغيب الشمس بساعة أو ساعتين «المشترى» يميل هو الآخر إلى المغيب . ويميزه الناظر بشدة لمعانه بالنسبة إلى ما يجاوره من النجوم . ويمكنه أن يرى أيضاً «الزهرة» قبل شروق الشمس (نجمة الصباح) لامعة لمعاناً يبعث فى النفس مزيجاً من السرور والرهبة والخشوع

من السماء فى وقت معين من كل ليلة ويطيل النظر الى آلاف النقط اللوامع التى يراها ، ويحاول أن يجد أيها يغير موضعه على مر الليالى ، وبذلك يميز السيار عن النجم الثابت ، فهذه النجوم « الثوابت » وإن كانت فى حركة مستمرة الا أن بعدها السحيق يخفى عنا هذه الحركة ولا يظهرها الا على مر الأجيال الطويلة ، وذلك كما يلاحظ الانسان أن القطار السريع البعيد يدب دبيباً

وعملية ملاحظة حركة السيارات هذه عملية شاقة تحتاج الى صبر كثير ودقة وأمانة فى التقدير ، فان إطالة النظر الى عدسة التلسكوب تتقب شبكية العين وتجعلها ترى ما ليس له وجود ، ولكن تضافر نواحى المعرفة للوصول الى الحق هو الذى مكن العلماء من الوصول الى السيار التاسع ، وذلك باستخدام الكمرا فى تصوير السماء بدلا من الملاحظة والتخطيط ، فأغلب تلسكوبات العالم الآن مجهزة بآلات فوتوغرافية تمكن الفلكى من تصوير أى جزء من السماء بكل دقة وأمانة ، كما أنها تزيد من قدرته على الملاحظة ، فالجسم الضعيف النور قد لا يؤثر فى العين باستمرار النظر الى موضعه ، ولكنه يؤثر فى اللوح الحساس باستمرار تعريضه اليه عدة ساعات ، وأحياناً عدة ليال ، وذلك بادارة التلسكوب إدارة تعادل حركة الأرض ، فيصبح اللوح دائماً فى مواجهة الجزء المراد تصويره

الكشف عن بلوتو :

قلنا إن الأستاذ « برسيفال لول » كان قد تنبأ فى أوائل القرن الحالى بوجود تابع تاسع لمجموعتنا الشمسية ، وقد تمكن فلكيو مرصد « لول » فى « أريزونا » من الكشف عن هذا السيار ، وبذلك أصبحت التوابع المعروفة لشمسنا تسعة إذا استثنينا مئات التوابع الصغرى Asteroide التى تقع بين مدارى المريخ والمشترى ، والتى قد تكون بقايا سيار منفجر أو متحطم

ابتدأ البحث عن هذا السيار الجديد بأن عرضت الألواح الفوتوغرافية الى أجزاء السماء المشتبه فيها مدة من الزمن تكفى لانطباع آثار كل ما فى السماء على الألواح ، وتكررت هذه العملية فى الليالى المتتالية ، ثم امتحنت الألواح المختلفة فلوحظ أن جميع النقط اللامعة لم تغير مواضعها بالنسبة لبعضها البعض ، إلا نقطة واحدة جعلت تسبح بين مواضع النجوم الثابتة ، فكانت هى السيار المنشود ما دامت جميع السيارات المعروفة بعيدة عن الموضع المصور ، وبهذه الطريقة تم الكشف عن السيار التاسع ، فان الفلكى الشاب مستر « كليد تمباو » لاحظ بامتحان لوحين أخذا فى ٢ مارس سنة ١٩٣٠ ، ٥ مارس سنة ١٩٣٠ أن نقطة لامعة قد غيرت موضعها تغيراً محسوساً (شكل ١ ، شكل ٢)





وبذلك يكون هو أول من كشف عن « التائه » التائه . وكان بعده عن الأرض فى ذلك الوقت ٤٠٠٠ مليون ميل ، أى أن الضوء المنعكس عن سطحه يصل الى الأرض بعد خمس ساعات ونصف ساعة من وقت انعكاسه ، وقد سمى بلوتو (إله العالم السفلى) ، وهو الاسم الذى أطلقته عليه فتاة كان سنها ١١ عاماً تدعى « فينيتا » . وهى ابنة أخى الأستاذ « مادن » أستاذ العلوم فى كلية « ايتون »

ولا يعرف الآن كل شىء عن هذا السيار ، وذلك لبعد المسافة التى تفصلنا عنه ، ولكن مداره حول الشمس قد عرف بدراسة الألواح الفوتوغرافية التى يظهر فيها من وقت لآخر ، ويعتقد أنه يعادل الأرض حجماً ، ولكنه أكبر منها كتلة ، فمادته أكثر كثافة من مادة الأرض

ولا يمكن أن يقال الآن إن بلوتو يحدد نهاية مجموعتنا الشمسية ، فقد تسفر دراسة الخرائط السماوية عن وجود سيار آخر فتتسع مجموعتنا الشمسية ، ولكن ذلك قليل الاحتمال لأن قوة جاذبية الشمس لهذه السيارات تضعف مع البعد ، فتقل قدرتها على الامساك بالسيار وجعله يدور حولها ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة امبابة للمعلمين

القصص

من صور الريف — قصة واقعية

الشقراء المجنونة ...!!

بقــلم محمود البكري

... فتاة مثقفة على خلق عظيم ، تناولت من التعليم حظاً غير قليـل وفيها شيء من الجمال : عينان ساجيتان ، شعر يشبه أن يكون خيوطاً من ذهب ... ثم نفس شاعرة متمردة تحس الجمال وتتذوق الأدب .. كانت «فتحية» صورة نادرة في الفتيات : امتزج فيها سمو الروح بجمال الصورة ، تعلمت في La mère du Dieu وقرأت جوت ولامارتين ودي موسيه . فظمئت روحها الى حب عنيف ، وعرفت «سامي» فوجدت عنده رياً لروحها الصادي ، فأنست اليه وهام بها ، وكان حب بينهما : حب جبار قوي كأنه الأعصار لا تسيره المنافع ولا تغيره المطامع ولا توهنه أحداث الحياة ، وهو فوق هذا نبيل بصورة لا تقع في الوهم ، طاهر بشكل لا يتعلق به ظن

... وكانا يقضيان حياة فيها حظ من الشعر والخيال : يتقابلان في الحدائق فيجلسان على العشب الندي ، ويخلوان الى نفسيهما فيأخذان في فنون من الحديث والأدب ، حتى يتقـدم الليل فيفترقان الى عود ... وكانا يتفقان على الاعجاب بالأدب الفرنسي ، وينفقان في القراءة وقتاً غير قليل ، ويستطيل كل منهما على صاحبه أحياناً في رقة ورفق ودعابة

ومضى على هـــذا الحب سنوات ثلاث . ثم أحيط أبوها بخبره ، وكان صارماً قاسياً شديد القسوة ، عنيداً مسرفاً في العناد ، فاستدعى فتحية فجأة ..

... وكان يوم الوداع ثقيل الظل سريع الخطو ... وجاء القطار ! فجاشت الدموع في صدر فتحية ، ولـكنها تجلدت ونهنهت عينيها ، وأخذت نفسها بصمت عميق ؛ وإن كانت روحها تـكتم ثورة صاخبة تضطرم في عينيها الحالمتين في ذهول واستغراق .. وكانت تخرج منديلها الأزرق الصغير من حين الى حين فتلتقط به دمعة أو دمعتين .. ثم تحرك القطار وغاب في أحشاء الطريق . فاهتدت الدموع الضالة الى عين فتحية وغلبتها على أمرها ، فاستسلمت للغريزة ، وأرسلت عينيها في حرارة وغزارة وذلة وصمت ... !!

... وخطبها الى أبيها رجل كبير من أعيان الريف أوتى بسطة في المال ، إلا أن بضاعته من الثقافة والعلم مزجاة ، وكان يكبرها بثلاثين سنة أو تزيد ! ... مانعت وتمردت . وثار بينها وبين أبيها نقاش قصير ولـكنه حاد . أيهما أشد إسرافاً في الجريمة ؟ أهو لأنه يريد أن يقضي على سعادة ابنتـه ؟ ! أم هي لأنها تخالف أباها في أن تتزوج رجلا لا تفهمه ، وليس بينهما صلة من عاطفة أو سن أو ثقافة ، وكان جدال عنيف في شيء لا يُحتمل الجدال ولا يستدعي الحجة . لأنه بين لا لبس فيـه ولا غموض ، ولأن حق حرية اختيار الزوج لا يسخط الله ويرضي الناس ، يقره العقل ولا يرى القانون بأساً في أن يسمح به ، ولـكن الحق مهما يكن ، ينكره ويلتوي به المكابرون ، والمكابرون لا حيلة فيهم ولا دواء لهم . والوالد يحتال حيناً ويتلطف ، ويقسو حيناً آخر ويهدد ، والفتاة على كل حال تتمرد وتثور ... !

... وأخيراً استقرت ثورتها وانتهت إلى مثل ما تنتهي اليه ثورات النساء في منازلنا : استسلام مغلوب

... وأخيراً ! ! تبددت في مهب الظلم آمال ، وتحطمت على شعاب العناد أحلام ، وضاعت في غمرة الطمع أماني ..

... وأخيراً .. زفت فتحية التي تعلمت في «La mère du Dieu» إلى الرجل الذي اختير لها وأكرهت عليه إكراهاً ... أغدق عليها مالا وحلياً وثياباً ، فلم تبهرها هذه المظاهر ، ولم تكسر من حدة نفارها ولم ترد جماحها ... كانت تبكي في اتصال ومرارة.!

وكان حب سامي لما يزل يستبد بها فينسيها في النهار الراحة والقرار ، وفي الليل المنام .. كانت تغفو أحياناً قليلة ، ثم تفيق صارخة مضطربة روعتها الاشباح ، وطاردتها أرواح الذكريات في إلحاح وقسوة ، فراحت حياتها خليطاً مشوشاً من الصور المرعبة ، كانت تحبه حبا طاغيا عنيفاً جعل حياتها في البعد عنه سلسلة طويلة متصلة من الشقاء

حاولت جهدها أن تنسى : فكانت تخرج إلى الحقول ، وتقرأ كثيراً ، ولكنها كانت تفر من عذاب إلى عذاب

وكان زوجها سخيف العقل ضعيف الرأي ضيق النظر ؛ وعنده أن المرأة لم تخلق إلا لتكون ماء أو شيئاً يشبه الماء يطفئ به الرجل جذوة الحيوانية ... فاما أن تتعلم أو تقرأ أو تكتب أو تحب ، فكل ذلك حياد عن القصد وجور عن السبيل ، وخروج على العرف ، وانتقاض على التقاليد

كانت الهوة بينه وبين فتحية عميقة سحيقة لا حد لها ولا غاية ولا قرار : انصرفت هي إلى حبها وذكرياتها وكتبها فاستغرقتها واستأثرت بها ، فلم تجعل لشئ آخر في قلبها مستقراً ولا مقاماً

وتولى هو إلى مزارعه وماله عن كل شئ عداها ، وكان حقير النفس فقير العاطفة مجدب الشعور ، لا يضطرب في نفسه إحساس ولا تعرف العواطف إلى قلبه سبيلا : كل أيامه بعد أعماله أكل ونوم ... يمر النهار فلا يكاد يتحدث إلى زوجه بأكثر من كلمات آلية معدودة ، وإن تحدث ففي شئون مزارعه وماشيته حديثاً تافهاً ضئيلا لا يدل على معنى ، وإن كان يدفع السأم ويرد إلى الضجر القاتل

ضاقت فتحية بهذه الصور المتشابهة من العيش ، وأسقمها هذا اللون من الحياة المضطردة الباردة ، فاندفع السأم واليأس إلى نفسها اندفاعا قويا

وضاعت في تيه الذكريات والظلم هذه المخلوقة الشقية التي تستقبل الصباح بالدموع وتودع النهار بالدموع ... فزعت إلى الكتب تقرؤها إذا كان وجه النهار إلى الضحى ، فاذا أقبل العصر خرجت إلى الحقول مطرقة ذليلة لا تحدث إنساناً ولا تستمع إلى إنسان فتقضي وقتاً ما ، ثم تأخذ طريقها الصامت إلى المنزل فتخلو إلى نفسها في غرفتها ، ثم تخرج صور سامي فتتحدث إليها وتسكب أمامها الدمع كأنها عابد في المحراب ..!

... وظهر زوجها على صور سامي ورسائله ، فثارت نفسه وارتد وحشاً ضاريا عاتياً ديس عرينه وأبيح حرمه واستحل حماه ، وبدت في خلقه صورة جديدة : الغيرة الصارخة العنيفة . فمسخت تصرفاته كلها وصبغت حياته بلون قاتم ظالم مستبد

العرض والشرف في الريف شيئان يهون معهما كل شئ ..!

ومضى الوحش يفكر في انتقام هائل مروع بعيد الأثر : فكر في قتلها وفي طلاقها : ولكن هذه الصور لم ترض شعوره المحنق ، ولم ترو نفسه الصادية إلى الدم ، لأن في كل هذا موتاً سريعاً مريحاً ، ولكنه يريدها أن تموت على مهل في نزع طويل بطيء

واستقرت نفسه الحائرة أخيراً على تجربة بدأها حالاً ، فعمد إلى كتبها وأوراقها فجعلها وقوداً للنار ، ثم أخذها هي بالقسوة وسوء الحساب : يضربها إذا كان النهار ، ويهجرها إذا كان الليل ، وهو فوق هذا يكلفها من أعمال المنزل مالا طاقة لها به ...

ومضى السجان الجبار في تجربته والضحية البريئة تذبل على مهل . تمادت بها الآلام فأغرت بها اليأس ، وردها اليأس إلى لون من الحسرة ملح ، عميق يسوقها إلى الجنون سوقا متداركا سريعاً . !

***

كل هذا قصته على أختي عن صديقتها زوج جارنا الغني

ولأيام خلت كنت أجلس في حديقتي في ظل شجرة هرمة إلى جانب الساقية التي تنوح أبداً .. سمعت صرخات متصلة ومتقطعة ، وكلها ثائرة ومجنونة ، وسمعت كلمات مبهمة مختلطة ... صمت وصمتت الساقية وحبست دموعها ، ومالت الغصون على الغدير هامسة « إذن أفلحت التجربة وجنت الشقراء !! »

واستأنفت الساقية نواحها ... وأرسلت دموعها ... على الشقراء المجنونة ... !!!

« قلوصنا » **محمود البكري القلوصناوي**

من المسرح الغنائى

٢ ـ سافو

لأوجييه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

الفصل الثانى

(منزل حنا جوسين بباريس وبه حنا ووالده سيزار ثم أمه ديفون وايرين ابنة عمه)

حنا — إنك تتعب نفسك يا أبى

سيزار — صه . صه

حنا — (متأملا صورة فوق الحائط) ما أجمل منزلنا وهو يتحكّم فى السهل ، وتمتد كرومه نحو الأفق . وما أحلى ما ألمح أمى عند الباب فيتضاعف اجتهادى . ولكن أين هى ؟

سيزار — فى الدير ياولدى عند ابنة عمك إيرين

حنا — وهل تعود إيرين معكما ؟

سيزار — نعم لنتسلّى بها فى غيبتك

حنا — حسناً تفعلان يا أبى

(تدخل ديفون وإيرين)

ديفون — آه يا ولدى ما هــذه المدينة . ما أكثر مبانيها ، وما أكثر الحركة فيها . إن طرقاتها تموج بالعربات والناس ، فأين هى بجلَبَتها من قريتنا الهادئة . آه يا ولدى المسكين !

سيزار — قضى الأمر فلا محل للتبرّم الآن

ديفون — ولكن هل نسيت إيرين يا حنا ؟

حنا — حقيقة كيف أنت يا ابنة عمى ؟

ديفون — وكيف تراها الآن ؟ أليست صَبُوحةً كالنهار ، جميلة جمال المِلكات . ولقد ضمّك وضمّها صدرى من الصغر (لزوجها) يجب أن نرحل يا سيزار فهيّئ نفسك ، بينما ألقى نظرة الى غرف الدار (لولدها وهى خارجة مع سيزار) ضمّها يا حنا (يخرجان)

حنا — ما كان أسعدنى بهما . فأنا أغبطك يا إيرين لأنك ستكونين معهما بقريتنا ، هبة الشمس وموطن الأمل والحب

إيرين — ولعلك تذكر أيام كنا نقصد إلى الغابة فوق حمارنا بلانشيه بينما أجراسه تجلجل تحت عنقه وهو يهب بنا الأرض

حنا — نعم يا إيرين وأذكر أيضاً ساعة كنت أضع يدى فى يدك وأنا معتزّ بك مباهٍ بحسنك

إيرين — وكنا نقلد اليهود عند فرارهم من مصر وأنا أسميك يوسف وأنت تدعونى مريم . هل نسيت ؟

حنا — لا . لم أنس

إيرين — وكنا بعدئذ نفر إلى النزل كأنما يطاردنا هيرود العاتى الذى أسرف فى دم الأبرياء ، وأذكر أيضاً اغتباطنا عند عودتنا ونحن نسمع صياح الأوز يحمله إلينا النسيم .

حنا — وإن إيرين عند ما كانت تقترب من الدار كانت تسرع فتضمني

إيرين — ما كان علىّ وقتئذ من حرج

حنا — والآن ؟

إيرين — آه . . .

حنا — إذن لاتغضبين لو أننى ضممتك

إيرين — كما كنا نفعل فيما مضى ؟

حنا — نعم كما كنا فى ذلك العهد (يضمها ويقبلها فى جبينها)

(يدخل سيزار وديفون وفى يدها مصباح وقد رأياها)

ديفون — (هامسة فى أذن زوجها) أرأيت يا سيزار ؟

سيزار — رأيت

ديفون — فى رعاية الله ياولدى

حنا — دعينى أصحبك يا أمىّ

ديفون — (تمنعه) مكانك . فهذا المكتب أولى بك . إن العمل فى هذه المدينة الواسعة هو الذى يدفع عنك خطرها

سيزار — صدقت باديفون

ديفون — الوداع ياحنا . ثم احتفظ بهذا المصباح القديم . فقد كنت على ضوئه أهيّىء لك الثياب ، وأنظر إلى وجهك من خلل الأستار وأنت طفل فى المهد . إلى الملتقى ياولدى

حنا — (متألماً) أمى . . ؟

سيزار — (لديفون وهى متأثرة) ديفون !

ديفون — ثم عليك ياولدى بالدرس . واجعل نصب عينيك أن تكون رجلاً . والله يرعاك

حنا — (باكياً) ما أكرمك يا أماه

ديفون — (متأثرة جداً) تشجّع ياولدى

سيزار — (متأثرا مثلها) حنا . . .

ديفون — أراك على وشك البكاء أنت أيضاً

إيرن — ولكن ألا تشعر بالوحدة هنا

حنا — يجب يا إيرن . . .

سيزار — إلى الملتقى ياولدى

حنا — إلى الملتقى يا أبى . إلى الملتقى يا أمى . إلى الملتقى

(يخرجون ولا يبقى إلا حنا ثم فنى)

هاهم رحلوا وها أنا فى وحدتى . ولكن كيف تطيب حياتى هنا بعد أن ذقت لذة لقياهم ، وبعد أن عشت معهم تحت سماء ذلك المنزل . لقد أصبحت فريداً فى باريس تدوى بضوضائها من حولى كما تدوى العاصفة من حول السفينة . آه لم لايحين الفراق إلا فى الساعة التى يحلو عندها الحب ؟ لقد دلوا الألم على طريق قلبى . وعرّفو الدموع مكان أجفانى . . .

(تدخل فنى بيطء بحيث لا يشعر بها)

فنى — بيبى (١)

حنا — (يلتفت) أنتِ . . . ؟

فنى — نعم أنا . أظننت أن كل شىء انتهى . إننى ممن ليس لحبهن مدى . وإذا كنت قد انقطعت عنك فلأننى علمت بمقدم أهلك . ولكن قل لى : من تكون تلك الفتاة الصغيرة التى كانت معهم ؟ أختك . . ؟ رهه ؟

(ثم تضحك)

حنا — بل ابنة عمى

فنى — (ببرود) إنها لطيفة حقاً . . إننى أخذت أرقبهم حتى رحلوا فأسرعت إليك .

حنا — لقد أعدّت لى أمى هذا المنزل لأنصرف فيه إلى درسى

فنى — إذن أذهب حتى لا أضيع وقتك

حنا — ولم ؟ . أما كنت أشتغل من قبل وأنت إلى جانبى

فنى — على أننى سأكون عاقلة وحكيمة ياحنا (يقع نظرها على تمثال لها من المرمر) ولكن كيف حصلت على هذا التمثال ؟

حنا — إنه لسافو التى صورها كاوودال . ألا تعرفينها

فنى — شافو ! . . إسمع ياحنا إننى أمقت أولئك الفنانين فلا تذكرهم لى فكم أساؤا الى

حنا — ولكن الفن جميل يشرح النفس ويرسل السرور إلى القلب وينثر أزهار الأمل فى طريق الناس

فنى — بل الجميل أن يكون لى مثل شبابك الغض ، وقلبك المتّقد . الجميل هو تلك النفس التى يرفعها الحب فوق مستوى النفوس فتدرك أن السعادة لاتكون إلا حيث تأتلف القلوب

(يحاول هنا حنا أن يقبلها فتشير إلى مكتبه)

عد إلى عملك يابيبى

حنا — لابأس من لحظة

فنى — إذا كنت تحبنى فانصرف إلى درسك

(يعود الى عمله متظاهراً بالمطالعة وهو يراقبها وكأنها تناجى نفسها)

يامَن تملّكنى هواهُ وقد سرى بمفاصلى
خُذلى أماناً من لِحاظِكَ إنهنّ قواتلى

حنا — آه يافنى ليتك تنشدينى دائماً شعر هذا الحب

أنعشى مسمَعى وغنى قصة الغرامْ
واعلمى يامناى أنى فيك مُستهامْ
كلما هجتِ مسمَعى لا أرى خاطرى معى
فارحمى المُتيّم

(١) أى حبيبى

فتى — هل تُرى حلَّ قلبهُ   صادق الهيامْ
أم تُرى أنَّ حبَّهُ   ما لهُ دَوامْ
ربَّما خاب مَطْمعِي   وانطوى فيه مصرَعي
فالرحيل أسلَمْ

(تحاول الذهاب فيمنعها)

حنا — أنت مِلْكِي لا مَرَدْ
فتى — لستُ ملكاً لأحَدْ
حنا — آه ما كنتُ أظنْ
فتى — إن تُرِدني فليكنْ
حبُّنا ملكُ الأبَدْ
حنا — أنا يا فتىَّ فقيرْ
فتى — في الهوى كل الغِنَى
انما البؤسُ يصيرْ   في رِحى الحبِّ هَنا
حنا — مستحيلٌ . مستحيلْ
فتى — ليس في الحُب مُحالْ
أنا في البيت أزيلْ   عنكَ أسباب المَلالْ
كلما أبصرتني   أتثنى زدتَ جِـد
فاجتهـد لا تنثني   ولـكن ملكَ الأبدْ
حنا — دعى شفتي تَغتنمْ قبلةً   من الوجنتينِ لأحيا بها
فقد صار حسنك لى قبلةً   يصلي غرامي بمحرابها
فتى — ودعني لصدرك أنسى به   عذاباً بقلبي وحظاً قسا
فياليتهم علِموا ما بهِ   وما جرَّعوني كؤوس الأسى
معاً — نعمنا على غفلةٍ من رقيبْ   وتمَّ المـرامْ
كذاك الحياةُ فليستْ تطيبْ   بغير الغـرامْ

(قبل وعناق)

الفصل الثالث

المنظر الأول

(في مطعم « نعيم البطون » بحديقة مدينة أفريسي في يوم أحد)
(فتى في نافذة تطل على الحديقة وحنا من خلفها)

فتى — ما أطيب الحب تغمره مثل هـذه الشمس ، ألا نخرج يا حنا ؟

حنا — نعم نخرج (محاولا ضمها)

فتى — ألا تخشى أن يرانا الناس

حنا — بعد سنة : . . ونحن هنا : ما أسرع مر الأيام . آه كم ملكت مشاعري يا فتى ؟

فتى — ولكنك مع هذا لم تصبح كلك لى . إني أود أن تكون لى وحدى . وألا تشوب سماءَ هذا الحب غيوم حياتي الأولى

حنا — ألم نقطع شهى الحياة في هذه المروج الساحرة ؟

فتى — وأنا أرقب عودتك عند كل مساءٍ

حنا — فاذا ما عدت هزَّتنا أحلام القُبَلِ وأناشيد الحب والأغصان خفاقة نشوى بتغريد الطيور (يجذبها اليه) آه يا فتى ؟

فتى — ليس هكذا . دع لى ساعدك ليشعر الناس أنك الى جانبي

حنا — (يفعل ما طلبت)

فتى — نعم هكذا . هلم الآن

حنا — (يغني)

أضاءَت حياتي فيوضُ السَّنا   فليلي نهار
وأطربني بنشـيد المُنى   لسان الهزار

فتى — وطوّق خصري حبيب الهنا   وحسني إزار
أنا مِعْصَمُ الحسن يزهو أنا   وأنت السوار

(يختفيان حيث يؤم الحديقة لابودرى وبعض فتيان وفتيات وكذلك كاوودال حيث تقع عينه على المطعم فيشير اليهم)

كاوودال — من هنا . من هنا

لابودرى — حقاً إنه مكان بديع

كاوودال — (مشيراً إلى اسم المطعم) ، ثم انظر هذا العنوان

لابودرى — لقد صدق والله . إن الطعام في الواقع نعيم البطون

(يقترب الباقون لاغطين فرحين)

« يتبع »   محمود خيرت

٢ – ســـيوة

بانى سيوة

إذا تسامحت كثيراً يمكنني أن أقول إن سيوة فى مبانيها ومنازلها وصوامعها تعادل فى تفصيلها وشكلها أحقر قرية من قرى وادى النيل . فالمنازل فى تلك الواحة تبنى بقطع من الملح والطين بغير نظام فى البناء أو حفر لوضع الأساس فى الأرض ، بل إن البنّاء و(أسميه بناء على سبيل المجاز) إذا أراد أن يبنى منزلاً فانه يضع قطعة من الجبل يحدد بها أربع حوائط المنزل ، ثم يبنى بعد ذلك فوق سطح الأرض بقطع الملح والطين بارتفاع متر تقريبا ، ثم يترك تلك المبانى مدة اسبوع حتى تجف ، ثم يبنى فوقها متراً آخر وينتظر أسبوعاً ثانياً ثم يكمل البناء لسقف المنزل . وفى العادة أن الحجرات فى سيوة لا تزيد ارتفاع سقفها على مترين ونصف متر أو ثلاثة أمتار ، والحوائط يكون سمكها فى نهاية ارتفاعها أقل كثيراً منـه وهى قريبة من سطح الأرض ، وتتكون الأسقف بعد ذلك من خشب النخيل ، وطريقة ذلك أن يشقوا بالطول خشب بعض النخلات المتينة ثم يضعوا أنصاف النخيل فوق الحوائط ويسمونها « قناطر » ثم يضعون فوقها ألواحاً يقطعونها من النخيل أيضاً ثم يغطون هذه الألواح بالطين .

ولبعد الواحة وصعوبة المواصلات إليها لا يمكن للسكان أن يحصلوا على أخشاب ليصنعوا منها أبواباً ونوافذ للمنازل ، ولذا فنوافذ المنازل صغيرة ، لا تزيد اتساع احداها على نصف متر مربع ، ويصنعون النافذة نفسها من خشب صناديق البنزين التى تحملها سيارات النقل معها ، ولذا فالنافذة الصغيرة تعمل من أربعة مصاريع رغم صغر حجمها ، وتتكون المنازل عادة من طابقين ، وبعض الأغنياء يقيمون أمام منازلهم مظلات يجلسون تحتها وقت الحر الشديد ، لأنه من الصعب أن يتعرض إنسان لحرارة الشمس فى سيوة مدة الصيف ، إذ تصـل درجة الحرارة فيهـا الى ٤٨ سنتجراد ، وتمتاز سيوة بدروبهـا الضيقة وحواريها المتعرجة الملتوية ، حتى ارتبك مأمور البلدة كيف يضع أحد مصابيح الانارة فى احدى الجهات لأنه وجد أن المصباح لن ينير إلا الموضع الذى هو فيه لكثرة الالتواء والانحناء ، ولأن المنازل متنافرة غير منسجمة الوضع

وعدا ذلك فان جزءاً من القرية وهو الجزء الغربى مبنى على صخرة ترتفع تدريجياً عن باقى القرية ، ولذا تجد منزلين متقاربين يرتفع أحدهما عما يجاوره بما يقرب من ثمانية أمتار .

ومن الظواهر الواضحة فى سيوة أن الزائر لها يرى وهو فى وسط سوقها صخرة مرتفعة تشرف على ميدان السوق وقد علتها منازل من الملح والطين ونزعت سقوفها وتهدمت جدرانها ، وظهرت بشكل بشع مخيف ، وليست تلك المنازل إلا سيوة القديمة هجرها أهلها من فوق الجبل بأمر الحكومة من زمن غير بعيد وأقطعتهم أراضى فى سفح الجبل وفى الأرض الواطئة المجاورة له فبنوا منازلهم الحالية .

وكان الأهالى يقطنون فوق الجبل فى تلك المنازل المتلاصقة ، وقد أحاطوا منازلهم بسور مرتفع يضم القرية كلها ، وفتحوا فى ذلك السور فتحات صغيرة كفتحات الحصون الكبيرة التى تعملها الجيوش لرؤية العدو ولاطلاق النار منهـا ، ووصل ارتفاع هذا السور فى بعض الجهات الى نحو خمسين متراً ، وصنعوا فى ذلك السور عدة أبواب ضخمة من خشب النخيل كانت تقفل أثناء الليل حينما يأوى سكان الواحة الى منازلهم .

وقد سألت عن الغرض من سكنى السيويين فى الماضى فى مثل هذا الحصن فوق الجبل ، فعلمت أنهم إنما فعلوا ذلك حفظاً لأنفسهم من هجوم أعراب الصحراء الغربية ، إذ أنهم كانوا يحضرون بالليل لنهب سيوة وسلبها .

وبدأت منازل سيوة القديمة فوق الجبل متجاورة كالمعتاد فى كل القرى ، ولكن لما زاد عدد سكان الواحة بنوا منازل أخرى فوق المنازل القديمة حتى لا يخرجوا على السور الخارجى الذى هو حصن لهم ، ولذا فبدلا من أن تتسع رقعة الواحة كلما ازداد سكانها بدأت ترتفع أبنيتها وهى فى نفس المساحة الضيقة التى ابتدأت فيها . وهكذا استمر الحال وبمرور الزمن ازدحمت الأبنية فوق بعضها ، وضاقت أزقتها وشوارعها وتعرجت منافذها حتى أصبحت أشبه شئ بخلية النحل ، بل وصل الأمر ببعض المنازل أن أصبحت وهى داخل السور أكثر ارتفاعا من السور نفسه وأصبحت الشوارع لا تسع رجلين يسيران متجاورين فيها ، وأظلمت جميع أنحاء القرية من ارتفاع المنازل وضيق المنافذ التى توصل الضوء الى فتحاتهم الصغيرة التى كانوا يفتحونها على أنها نوافذ ،

وأصبح السائر فيها يحتاج فى الواقع الى مصباح يحمله معه أثناء النهار لينير له الطريق. على أن الذى يقف فوق تلك المنازل يرى أمامه الواحة بحقولها الخضراء وحدائقها اليانعة بأشجار الزيتون والليمون، ونخيلها الهادئ الساكن، فيأخذه هذا المنظر الجذاب، ويرجع بذاكرته الى تلك المواقف البهيجة التى أكثر عمر الخيام من وصفها فى رباعياته.

وطبيعى أن الحرارة تكون شديدة فى منازل القرية، لأن الشمس شديدة التأثير بينما التهوية تكاد تكون معدومة.

وفى وسط القرية فى مكان متسع قليلاً بين هذه المنازل المرتفعة المظلمة توجد بئر منحوتة فى الصخور بهـا ماء عذب. لأن فى أسفل الصخر عين ماء تغذى تلك البئر، وأيضاً تغذى بئرين صغيرتين مجاورتين للبئر السالفة. عند قاعدة هذا الجبل بنى الأهالى منازلهم الحديثة بعد أن تركوا تلك القرية التى كانت مزدحمة بهم وهم الآن آمنون من الهجوم، بل إن هذه الفكرة لا تتطرق إلى مخيلتهم، فالحكومة مسيطرة على الصحراء بأعرابها وقبائلها جميعاً، وقد فضل كثير من السكان أن يبنوا منازلهم وسط حدائقهم وحقولهم فى ناحيتى السبوخا والمنشية، وللأغنياء منهم منازل للشتاء حيث يرجون الدفء وسط القرية، ومنـازل للصيف وسط الحدائق المتسعة يقضون فيها فصل الصيف حينما تشتد حرارة الشمس وتصبح غير محتملة، وتمتاز منازل المشايخ والأغنياء بطلاء جزء منها بالجير الأبيض من الخارج، ولذا فانهم يغضبون إذا حاول أحد الفقراء أن يطلى منزله بالجير تشبهاً بهم، بل إن معظم الفقراء لا يفكرون فى ذلك تلافياً لغضب مشايخهم عليهم، وبهذه المناسبة فان كل الأضرحة للأتقياء منهم تمتاز بطلائها بالجير إكباراً لشأنها وشأن أصحابهـا. وهذا الدهان يكون عادة من تبرعات يدفعها السكان تبركاً بصاحب الضريح.

* * *

توجد بسيوة ثلاث أسواق كبيرة لبيع البلح والزيتون تسمى بالمساطيح، والمسطاح مكان متسع تكتنفه حائط يبلغ ارتفاعها مترين، وهذه الحوائط تخالف فى بنائها حوائط المنازل، إذ أنهم رغبة منهم فى توفير العمل صنعوها من جريد النخيل، ثم أحاطوا الجريد من الوجهين بقطع من الملح والطين، فاذا جف الطين تماسك بسعف الجريد وهى فى الحقيقة فكرة قديمة للخرسانة المسلحة ورغبة منهم فى الاقلال من سمك الحائط، وضعوا الجريد رأسياً وهو يعادل أسياخ الصلب فى الخرسانة. وأحد هذه المساطيح للسكان الغربيين من الواحة، والثانى للسكان الشرقيين، والثالث وهو أكبرهم وأعمهم لجميع سكان الواحة. ويقطن رجل سودانى أو كفرى (نسبة إلى واحة الكفرة) منزلاً صغيراً عند مدخل المسطاح ليحرس بلح الناس وزيتونهم طول العام نظير هبات يعطونها إياه من الشعير والبلح والزيت، ويحضر الأعراب عادة فى فصل الخريف من وادى النيل ومن الصحراء ليشتروا البلح من سيوة، ثم ينقلونه على الجمال لوادى النيل حيث يباع فى الأسواق بثمن معتدل

وحول هذه المساطيح أقام بعض الأعراب الذين يتاجرون بالبلح حظائر لجمالهم ومنازل لهم، وفى فصل الخريف ترى مئات من هؤلاء الأعراب بأرديتهم البيضاء يجوبون أنحاء المساطيح بين أكوام البلح ذات الألوان المختلفة من أحمر إلى أصفر إلى داكن بين الحمرة والسواد يساومون أصحابها فى أثمانها على حين تنتظر جمالهم خارج المساطيح مجلجلة بأصواتها كأنما تنادى أصحابها فى الداخل، وتزيد الحركة بعض العبيد وهم يحملون البلح المشترى مكبوساً داخل «مقاطف» كبيرة من الخوص ليحملوه على الجمال. وما أجمل منظر الناقة تحمل حملها وتسير وسط السوق تشق طريقها بين الناس كأنها باخرة تشق طريقها فى الماء، أضف إلى ذلك صهيل خيول الأعراب ونهيق الحمير ونباح الكلاب، منظر يدل على أن فى البلد حركة كبيرة، ولا شك فان البلح والزيتون هما عماد الثروة فى واحة سيوة.

ويقضى العرف بين الناس بالسماح لكل من يشاء أن يأكل ما شاء من البلح فى المساطيح من غير مقابل، غير أنه ممنوع أن يأخذ معه شيئاً خارج المسطاح، ولذا ينتهز الشحاذون من الأعراب فرصة هذا الموسم ويدخلون المساطيح سائلين أصحاب البلح أكلة منه ليفوزوا بالشبع

وبيع «العجوة» شائع فى السوق أكثر من غيره، وبعض الناس يبيعونها من غير (نوى)؛ وفى عرض البلح للبيع بهذه الطريقة خطورة كبيرة: فالذباب يملأ المساطيح، والناس يطأون البلح بأقدام قذرة، ويعبثون به بأيد لا يفكر أصحابها فى نظافتها. ولو أن العناية تصل الى تنظيم طريقة البيع لكان فى ذلك أمان وطمأنينة لمن يأكلونه.

« يتبع » ثابت

2 me Année, No. 59.

Lundi-20-8-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٥٩ « القاهرة في يوم الاثنين ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

صراع بين ثقافتين

فتنة الثقافة الأجنبية

ظاهرة فى تفكيرنا وأدبنا تحمل على جد الأسف ، هى أن الشئون والنواحى القومية ماتزال مهملة منسية ، فى حين أن الشئون والنواحى الأجنبية تلقى بيننا دائماً كثيراً من العناية والاهتمام

وتلك ظاهرة قديمة فى تاريخنا الحديث ، ترجع الى سبب معروف ، هو سيادة النزعة الأجنبية فى برامج التعليم التى تفرض على مصر منذ نصف قرن ، والتى يلحظ فيها دائماً إقصاء عناصر الثقافة القومية أو إضعافها حتى لا تكون عاملاً فى تغذية الشعور القومى وإذكائه ؛ وإذكاء الشعور القومى شر ما يخشى المستعمر من أمة مغلوبة تطمح الى استرداد حريتها

وقد رجونا خيراً يوم قيل لنا إن برامج التعليم سوف تحرر من أصفادها القديمة ويعنى فيها بكل مايرفع شأن الثقافة القومية ، وتتخذ فيها لغة البلاد وتاريخها ومسائلها وشئونها مكانها اللائق ؛ ولكن سرعان ما خاب هذا الأمل ، وإن كانت اللغة العربية قد استردت فى العهد الأخير شيئاً من حقها المسلوب ؛ وما زالت

النزعة الأجنبية تبث اليوم فى برامجنا وثقافتنا كما كانت تبث بالأمس ، ولم تتغير الغاية وإن تغيرت الوسائل

ومازالت هذه النزعة الأجنبية تتجلى فى تفكيرنا وأدبنا بشكل واضح . فى بضعة الأعوام الأخيرة مثلاً صدرت بالعربية كتب عن الدكتور مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والسنيور موسوليني ، والغازى مصطفى كمال ، وجيته شاعر ألمانيا الأكبر ، وأخيراً عن الهر أدولف هتلر ؛ وصدر بالعربية أيضاً كتابان عن باريس وكتاب عن لندن . فهذه كلها كتب عربية أخرجتها أقلام مصرية فى موضوعات أجنبية فى بضعة أعوام فقط . هذا الى ما تنشره صحفنا ومجلاتنا من فصول ومباحث لا نهاية لها عن الموضوعات والشخصيات الأجنبية ، وما يغرق فيه بعض أدبائنا الناشئين من الكتابة عن الكتاب الغربيين والأدب الغربى مما يسمونه بميسم الطرافة والتجديد

وهذا حسن فى ذاته لو أن مثل هذه العناية بالموضوعات الأجنبية يبذل لتناول الموضوعات والمسائل القومية . ولكن ماذا أخرجنا من الكتب والرسائل عن عظمائنا ؟ وماذا نشرت أو تنشر عنهم صحفنا ومجلاتنا ؟ لقد أصدرنا كتباً عن مازاريك وموسوليني ومصطفى كمال وجيته وهتلر ، ولكن لم نصدر فى تلك الفترة كتاباً واحداً عن أحد من عظمائنا الذين يحفل بهم تاريخنا الحديث مثل عرابى ، والبارودى ، ومحمد عبده ، وعلى مبارك ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وسعد زغلول ، وحافظ ، وشوقى ، وغيرهم وغيرهم ممن يغمطون الى اليوم حقهم من الناحية الأدبية ، ولا يفكر أحد من كتابنا فى أن يعنى بدراستهم وترجمتهم بما يجب من إفاضة وتحقيق

نعم إن الأدب لا وطن له ، والتفكير تراث الانسانية كلها ، والقلم حر له أن يجول أنى شاء ؛ ولكن هذه الفتنة الغربية التى تأخذ علينا سبل التفكير فى تراثنا القومى جديرة بكثير من التأمل والاهتمام ؛ فى الأمم الحرة التى يزدهر تفكيرها وأدبها فى ظل الاستقلال والحرية ، تأخذ جميع ألوان التفكير والأدب ، قومية كانت أو خارجية مكانها من النهضة الأدبية العامة . ومع ذلك فان التراث القومى يحتفظ دائماً بالمقام الأول ، ويعتبر دائماً أقوى وأنفس غذاء للشعور القومى . فاذا كانت هذه الأمم التى يحتفظ فيها الشعور القومى بكل قوته واضطرامه تقدر دائماً فعل التراث والذكريات القومية فى تغذية هذا الشعور وتكوينه ، فأولى بالأمم المغلوبة التى يعمل فيها الغالب الأجنبى على محاربة الشعور القومى وإضعافه أن تجعل تراثها وذكرياتها نصب عينها دائماً ، وأن تتخذها عدة وذخراً لتغذية هذا الشعور وإذكائه . ولما كان التفكير والأدب خير أداة لتحقيق هذه الغاية ، فان الواجب الوطنى يقضى على كتابنا أن يرعوا هذه الناحية وأن يجعلوا لها أوفر نصيب من عنايتهم ، وأن يؤثروها دائماً بدرسهم واهتمامهم

إن الآداب القومية التى نضجت وازدهرت فى كل النواحى والفنون لا غبار عليها اذا عنيت بالنواحى والشئون الأجنبية ما شاءت وما وسعت ، فهى بذلك تكسب دائماً ثروات جديدة ، ولكن حيثما كانت الآداب القومية فقيرة كآدابنا ، وحيثما كان التاريخ القومى منسياً مغموطاً ، وحيثما كانت برامج التعليم والتربية عرضة لأهواء المستعمر ينفث فيها من وحيه الخطر ، ويعمل دائماً على محاربة عناصرها القومية ، يجب على قادة الفكر أن يتداركوا هذا النقص بأقلامهم وتفكيرهم ، وأن يقاوموا هذا الخطر ، فيقدموا دائماً الى الشباب الذى يحرم فى معاهد الدرس من الالمام الشامل بعناصر الثقافة القومية ، كل ما يقوم الشعور الوطنى ويصقله ويغذيه ؛ ويجب على الأدباء الناشئين أن يفكروا طويلاً فى اختيار الطريق المنشود قبل أن يحملهم تيار هذه الفتنة الأجنبية المضللة من عالم الآداب القومية الى فوضى موضوعات وشئون لسنا فى كبير حاجة اليها

يجب علينا قبل أن نقرأ عن مازاريك وموسوليني وهتلر ، وقبل أن نشيد بذكرهم فى كتب خاصة ، أن نقرأ عن أبطالنا وعظمائنا الذين يغمرهم النسيان والجحود . وأن ندرسهم ونكتب عنهم ؛ فذلك دليل الأدب القوى المستنير ، وذلك دليل الوطنية الرفيعة ، والشعور القومى الحى

« ع »

عرش الورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت جَلوَةَ العروس كأنها تصنيفٌ من حُلم ، توافتْ عليه أخيلةُ السعادة فأبدعت إبداعَها فيه ، حتى إذا اتسق وتمّ ، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من إيامها الفَرْدِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العددُ القليل ، لتحقّق للحي وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيَه فيما يُنسَى مالا يُنسى .

خرج الحُلم السعيد من تحت النوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثّل قصيدةً بارعة جعلت كل ما في المكان يحيا حياة الشعر ؛ فالأنوار نساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسيقى بين ذلك تتمم من كل شيء معناه ، والمكان وما فيه ، وزْن في وزن ، ونغم في نغم ، وسحر في سحر .

***

ورأيت كأنما سُحرت قطعة من سماء الليل ، فيها دارة القمر ، وفيها نَثرة من النجوم الزُّهر ، فنزلت فحلت في الدار ، يتوضّحن وتأتلِقْن من الجمال والشعاع ، وفي حسن كل منهن مادة فجرٍ طالع ، فكنّ نساء الجلوة وعروسَها .

ورأيت كأنما سُحر الربيع ، فاجتمع في عرش أخضر ، قد رُصّع بالورد الأحمر ، وأقيم في صدر البهو ليكون مِنصّةً للعروس ، وقد نسِقتْ الأزهار في سمائه وحواشيه على نَظمين : منهما مفصّل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما ؛ ومنهما مُكرّسٌ بعضه فوق بعض ، من لون متشابه أو متقارب ، فبدا كأنه عُشّ طائر من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سقى الكوثر أغصانَها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه ، يحملهما حَمْلٌ من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تتهافتُ من رقتها ونعومتها .

وعُقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر كأنما نُزع عن مَفرِق ملك الزمن الربيعيّ ، وتنظر إليه يسطع في النور بجماله الساحر سطوعا يخيّل إليك أن أشعةمن الشمس التي ربّتْ هذا الورد لا تزال عالقة به ، وتراه يزدهي جلالاً كأنما أدرك أنه في موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة تألفت من عروسين كريمين .

ولاح لي مراراً أن هذا التاج يضحك ويستحي ويتدلّل ، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثّل وجه الورد .

ونُصّ على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما ، ويكسوهما طِراز أخضر تلمع نضارته بشراً ، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحة لِمسةٌ من فرحها الحيّ .

وتدلّت على العرش قلائدُ المصابيح كأنها لؤلؤ تخلّق في السماء لا في البحر ، فجاء من النور لا من الدر ؛ وجاء نوراً من خاصته أنه متى استضاء في جو العروس أضاء الجوّ والقلوب جميعاً .

وأتى العروسان إلى عرش الورد ، فجلسا جِلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء ؛ وأقبلت العذارى يتخطرْن في الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح ، ثم وقفن حاقّاتٍ حول العرش ، حاملات في أيديهن طاقات من الزنبق ، تراها عطرةً بيضاء ناضرة حَييّة ، كأنها عذارى مع عذارى ، وكأنما يحملن في أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانيَ قلوبهنّ الطاهرة ؛ هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيحَ أخرى فيها نورها الضاحك .

واقتعدَتْ درجَ العرش تحت ربوتي الزهر ودون أقدام العروسين — طفلةٌ صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتَها ، فكانت من العرش كله كالماسة المدلاة من واسطة العقد وجمعت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبانُ مُنزَوٍ لا يريد أن يُرَى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيار من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له روحَ طفل بَغتتْه مسرةٌ جديدة .

وكانت جالسة جلسة شعر تمثل الحياة الهنيئة المبتكرة لساعتها ليس لها ماضٍ في دنيانا .

ولو أن مُبدِعا افتنّ في صنع تمثال للنية الطاهرة ، وجيء به في مكانها ، وأخذتْ هي في مكانه لتشابها وتشا كل الأمر .

وكان وجودها على العرش دعوة للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه .

وكانت بِصِغرِها الظريف الجميل تعطى لكل شيء تماماً ، فيُرَى أكبرَ مما هو ، وأكثر مما هو فى حقيقته . كانت النقطةَ التى استعلَنت فى مركز الدائرة ، ظهورها على صِغَرِها هو ظهور الاحكام والوزن والانسجام فى المحيط كلّه .

***

لا يكون السرور دائماً إلا جديداً على النفس ، ولا سرور للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن فى كل دينار قوةٌ جديدة غير التى فى مثله لما سُرَّ بالمال أحد ، ولا كان له الخطر الذى هُوَ له ؛ ولو لم يكن لكل طعام جوع يُورده جديداً على المعدة لما هَنأ ولا مَرَأ ؛ ولو لم يكن الليل بعد نهار ، والنهار بعد ليل ، والفصول كلها نقيضاً على نقيضه ، وشيئاً مختلفاً على شيء مختلف — لما كان فى السماء والأرض جمال ، ولا منظر جمال ، ولا إحساس بهما ؛ والطبيعة التى لا تُفلح فى جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك — لن تُفلح فى جعلك مسروراً بها ، لتكون هى جديدة عليك .

وعرش الورد كان جديداً عند نفسى على نفسى ، وفى عاطفتى على عاطفتى ، ومن أيامى على أيامى ؛ نزل صباحُ يومِه فى قلبى بروح الشمس ، وجاء مساءُ ليلته لقلبى بروح القمر ؛ وكنت عنده كالسماء أتلألأ بأفكار كما تتلألأ بنجومها ؛ وقد جعلنى أمتــدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلها ، إذ قدرت على أن أعيش يوماً فى نفسى ؛ ورأيت وأنا فى نفسى أن الفرح هو سر الطبيعة كلها ، وأن كل ما خلق الله جمال فى جمال ، فانه تعالى نور السموات والأرض ، وما يجىء الظلام مع نوره ، ولا يجىء الشر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الانسانى خَلْقَ أوهامه فى الحياة ، وإخراجِه النفسَ من طبائعها ، حتى أصبح الانسان كأنما يعيش بنفسٍ يحاول أن يصنعها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يزيغ بالنفس التى فطرها الله .

يا عجبا ! ينفر الانسان من كلمات الاستعباد ، والضعة ، والذلة ، والبؤس ، والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها .

***

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحاً ، لأنه من الأيام التى تجعل الوقت يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكون بالعواطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها .

كان الشباب فى موكب نصره ، وكانت الحياة فى ساعة صلح مع القلوب ، حتى اللغة نفسها لم تكن تلتقى كلماتها إلا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة ، آتية من هذه المعانى دون غيرها ، مُصَوَّرة على الوجوه إحساسَها ونوازعَها ؛ وكل ذلك سِحْرُ عرش الورد ؛ تلك الحديقة الساحرة المسحورة التى كانت النسمات تأتى من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل : أهذه حديقة خُلِقت بطيور إنسانية ؛ أم هى شجرة ورد هبطت من الجنة بمن يتفيّأن ظلها ويَتنسّمنَ شذاها من الحور ؛ أم ذاك منبع وردىّ عطرىّ نوارنىّ لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش ؟

يا نسمات الليل الصافية صفاءَ الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلــة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد البهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيى ؛ فان هذه العروس المتلية عرش الورد :

هى ابنتى !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

شخصية نسوية أندلسية

١ — صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حظية خليفة ، أم خليفة ؛ سيدة مطلقة الرأى ، تولى وتعزل الوزراء والقادة ؛ وتدير شئون السلام والحرب ، حسناء يغنم جمالها ملكاً ، ويأسر خليفة ، ويسيطر على قصر وحكومة ؛ صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الاسلام ؛ نصرانية ناقارية مع ذلك ؛ تلك هى صبح أو صبيحة أو « اورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس ، وأم ولده هشام المؤيد بالله

يقدم الينا التاريخ الاسلامى أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى ، سطعن فى قصور الخلفاء والسلاطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ؛ ولكنه لا يقدم الينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانية بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخير الاسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلاً أسطع من مثل صبح أو « اورور » ، تلك الفرنجية الحسناء التى لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى احدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات اللائى يقدمهن الينا تاريخ الأندلس منذ الفتح ، واللائى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحياناً . ونستطيع أن نذكر منهن « ايلونا » القوطية أرملة ردوريك (لذريق) ملك القوط عند الفتح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » ، فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووحيها السيئ من الأسباب التى أدت الى مقتل عبد العزيز بن موسى (سنة ٩٥ هـ) ؛ ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء ابنة اودو أمير اكوتين ، تزوجها عثمان بن أبى نسعة الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » ، وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه) ، وتحالف مع أبيها الدوق اودو ، وأخذ يدبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايته ؛ ولكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قوياً لبث يطارده فى الجبال حتى أخذ وقتل وأسرت زوجته الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت الى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) ؛ ومنهن ماريا الاسبانية النصرانية زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الاسلام فى الأندلس ويسميها العرب « مزنه » ؛ ومنهن أخيراً « ثريا » النصرانية زوج السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة أسبانية وابنة قائد شهير ، أخذت أسيرة فى بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها ؛ وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير فى إضرام نار الحرب الأهلية فى غرناطة وفى سير الحوادث التى أدت الى ذهاب دولة الاسلام فى الأندلس .

ظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) (٩٦١ — ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى ؛ وكل ما تقدمه الينا الرواية الاسلامية فى ذلك هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية[1] أى ناقارية[2] ؛ ولا تذكر الرواية ان كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع بين المسلمين والنصارى ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ؛ ولكنها تصفها بالجارية والحظية . وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة « اورورا » Aurora الفرنجية ومعناها الفجر أو الصبح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[3] . وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[4] ، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ، ولم يكن رزق ولداً بعد ؛ وكان يتوق الى ولد يرث الملك من بعده ؛ فحققت أمنيته على يد صبح ، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن سنة ٣٥٢ هـ

(١) البيان المغرب — ج٢ ص٢٦٨ و٢٦٩ — دوزى (الطبعة الجديدة) ج ٢ ص ١٩٠

(٢) يسمى العرب اقليم نافار بلاد البشكنس محرفة عن اسمها القديم « Bascon » وأحياناً يسمونها « بكونية »

(٣) راجع كوندى — (الترجمة الانكليزية) ج ١ ص ٤٩٣ — ودوزى — ج ٢ ص ١٩٠

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و٢٥٣

(٩٦٢ م) وفرح بمولده أيما فرح ، وسمت لديه مكانة صبح ؛ ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاماً (سنة ٣٥٤ هـ) ، ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن فاشتد حزنه عليه ، وعقد كل آماله على ولده هشام ؛ ولبثت صبح تستأثر فى البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم ، بارعة فى تدبير الشئون ، مخلصة لسيدها تعاونه فى تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الاسلامية الى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ؛ ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ، فالرواية الاسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[١] ، وتصفها التواريخ الافرنجية «بالسلطانة صبح»[٢] . بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و « أم ولد » فقط . وتصفها الرواية الاسلامية بعد موت الحكم بأنها « أم ولد »[٣] ، وهو فى الشريعة وصف الجارية التى حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده .

وعلى أى حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع فى البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له ؛ وكان الحكم يثق باخلاصها وحزمها ويستمع لرأيها فى معظم الشئون ؛ وكانت كلمتها هى العليا فى تعيين الوزراء ورجال البطانة . وكان كبير الوزراء ، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية فتى مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ؛ أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طرش ، ووفد على قرطبة حدثاً ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الآداب والشريعة . وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال ، وكان فى نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ — والبيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) راجع كوندى — ج ١ ص ٤٨٠ و ٤٩٣ — ودوزى — ج ٢ ص ١٩٠ و ١٩٨

(٣) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٩ — المعجب للمراكشى ص ١٤

مشرفاً لادارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصحفى فيمن رشح لتولى هذا المنصب . وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[١] . ولما توفى عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة فى وظائف الدولة فأضيف اليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث ، فقاضياً لكورة اشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص)

ويرجع الفضل فى تقدم محمد بن أبى عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لا تزال فى زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الاعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتن من جهة أخرى فى خدمة صبح وإرضائها ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حملهم من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً . فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جميعاً ويعجب له ؛ ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ؛ انه لساحر عليم أو خادم لبيب . وإنى خائف على ما بيده »[٢] ، ولم تلبث علائق

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقرى عن ابن حيان رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصته أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت صبح من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسنت كتابته وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧)

(٢) البيان المغرب — ج ٢ ص ٣٦٨

صبح وابن أبى عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ؛ ولم يك ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التى عين للنظر عليها فى شراء التحف والانفاق على أصدقائه ؛ فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها ؛ وكان بالخزانة عجز لجأ ابن أبى عامر فى تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن جدير فأغاثه ؛ وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ؛ فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه ، واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه ، ينتدب لعظيم المهام والشئون ؛ وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصحب والانصار بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم فى آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبى الوليد هشام ، وهو يومئذ غلام فى نحو العاشرة من عمره ؛ وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ؛ وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع . ونفذ هذا المشروع فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام فى حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ودعى له فى الخطبة على المنابر ونقش اسمه فى السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحى لأخذها من الأكابر والأعيان ، وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً . ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر ؛ وكان المرض يشتد عليه منذ حين ، ثم أصابه الشلل ، وتوفى فى الثالث من صفر سنة ٣٦٦ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م)

* * *

ولما توفى الحكم المستنصر بالله كانت مقاليد السلطة مجتمعة فى أيدى ثلاثة : هم صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص) . ولم يكن يعترض على بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ؛ وكان رأيهم أن تؤخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ؛ ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم فى الحال ، واستدعى القواد والجند الذين يثق باخلاصهم تحوطاً للطوارىء ، واتفقت الكلمة على تولية هشام ، وقتل المغيرة ؛ ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده هشام ولقب المؤيد بالله ، وتولى الحاجب جعفر وابن أبى عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبى عامر فى نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه ؛ ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ، وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره ؛ وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر ، ومشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده . وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ؛ وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته والمحسنة اليه ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ما يضطرم به من الأطماع الخفية ، أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوى كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً ، ولا سيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر ، وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر فى عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً ، وكان ابن أبى عامر يرى عندئذ فى صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم ، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ، ولكنه مذ توفى الحكم ، وأضحت جميع السلطة الشرعية مجتمعة فى يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ، أخذ يتأهب للعمل فى طريق آخر ، ويرى فى خليلته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لارادته ، ويسخرها لمعاونته ، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل الذى سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى . فلم تمض

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

الحـــرمان

للأستــاذ على الطنطاوى

كتب الأديب المكى الغيور السيد احمد على ، فى الرسالة السابعة والخمسين : (يظهر الأسف الزائد اذ لم تقع عينه — وهو يراجع الفهرس للسنة الأولى ، ويتتبع أعداد الثانية ، على اسم كاتب حجازى ، يكون قد اشترك مع اخوانه وزملائه المعاصرين فى الأدب ، على صفحات هذه الصحيفة الغراء . . . ويؤمل من مديرها المفضال الأستاذ الزيات ، اذا أراد ، أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين ، ألاّ ينسى الحرمين ، كذلك)

فأحببنا أن نلحق بكلمته هذه لكلمة :

* * *

ألم يشد أستاذنا الزيات بذكر الحرمين يا سيد احمد على ؟ فما هو اذن عدد الهجرة الممتاز ، وما هى تلك المقالات الاسلامية العربية ؟

أما ان الرسالة اذا نظرت الى أمر ، فانما تنظر اليه نظرة سامية فيها حكمة وفيها جلال ، ولا يعنيها من « الحرمين » أخبار دائرة الصحة ، ورسوم الحج ، ولكن يعنيها حياة محمد (ص) وظهور الاسلام ، وعظمة الفتوح ، وجلال حكومة الراشدين ؛ ولا يهمها من «النيرين» تنظيم الميزانية ، ومناقشات المجلس البلدى ، ولكن يهمها تاريخ بنى أمية ، وسعة الفتوح ، وعز العروبة ؛ ولا تحفل من « الرافدين » بقرارات الغرفة التجارية ، وأخبار الجند ، ولكن تحفل بحضارة الاسلام ، ومجد المنصور والمأمون ، ونهضة العلوم والفنون .

وتحفل بعد هذا كله ، بالصورة المشرقة الوضاءة ، صورة هذا الماضى الجليل ، حين تظهر فى صفحة الأمل الجميل ، ذلك لأنها « تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية » ولأنها ليست جريدة يومية إخبارية .

فهل تراها بعد . لم تشد بذكر الحرمين ؟

* * *

وهل نسى أستاذنا الزيات الحرمين ياسيد احمد علىّ ؟ وهل يستطيع مسلم واحد على وجه الأرض أن ينسى الحرمين ، وهو يستقبل الحرم خمس مرات كل يوم ؟

يستقبله اذا سمع المؤذن يشق سكون الليل ، بهذا النداء العلوى الجليل : « حىّ على الفلاح ، لا إله إلا الله » فينهض من فراشه ، يستأنف الحياة والليل يولى ساكناً خاشعاً ، والنهار يقبل مشرقاً زاهياً ، والأطيار تتلو بلغة الطير سورة الحمد والشكر ، فيتوضأ ، ويحسّ فى نفسه السموّ والجلال — ذلك السموّ الذى حالت الحضارة الغربية ... بيننا وبينه ، فقطعنا مذ لبسناها أجمل مراحل الحياة نياماً ، وغفلنا عن داعى السماء ، حين ينبعث فى تلك الساعة هاتفاً بالنفوس المؤمنة الطاهرة : ألا من مستغفر فأغفر له ؟ ألا من داع فأستجيب له ؟ ألا من سائل فأعطيه ؟

يتوضأ ، ثم يستقبل «الحرم» وينسى كل شىء إلا« الحرم » ، ثم يخشى أن يشغله الحرم عن الصلاة ، والصلاة انقطاع عن الدنيا الفانية ، واتصال بجلال الله الباقى ، فيرفع يديه ويقول : الله أكبر ، ويدخل فى الصلاة فينسى كل شىء ، إلا الله الذى يقوم بين يديه .

ويستقبله إذا زال النهار ، وقامت الدنيا على قدم وساق ، تدعو أبناءها وعبادها ، إلى ما أعدت لهم من اللهو واللعب ، فاستبقوا اليه ، واقتتلوا عليه ... معرضاً عن نداء الدنيا ، مجيباً داعى الله ، فيقوم بين يدى رب العالمين ، مولياً وجهه شطر المسجد الحرام ، تاركا وراء ظهره الدنيا وما فيها !

بضعة أيام على تولية هشام ، حتى رفع ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة ، فى نفس الوقت الذى أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له (١) ، وهكذا أشرك ابن أبى عامر فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً ، وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ، ويرتاب فى أطماعه ونياته ومن ذلك اليوم اضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته .

محمد عبد الله عنان
المحامى

« للبحث بقية »

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٧٠

ويستقبله اذا أخذت نفسه حظها من طعامها وشرابها وراحتها وقنعت من الدنيا بما نالت منها — وما الدنيا إلا ما يملأ بطناً ، ويكسو جسما ، ويريح نفساً ... يستقبله حامداً شاكراً .

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) إياك نعبد وإياك نستعين (لا نعبد غيرك ، ولا نخشى سواك ، ولا نرجو النفع إلا منك ، ولا نخاف الضر ممن دونك . أنت الضار وأنت النافع ، وأنت المعطى ، وأنت المانع ؛ لامعطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا يجير عليك من نبى ولاولىّ ، ولا يشفع عندك إلا باذنك ملك ولا رسول »

ويستقبله إذا أطفئ المصباح الأعظم ، وغطى الليل بسواده الفاحم على بهاء الدنيا وجمال الأصيل ، فلاتشغله الرياض والجنان ، ولا الورود والثمار ، عن واد غير ذى زرع ، عند بيت الله المحرّم .

ويستقبله إذا عمّ الظلام ونام الكون ، وأقبل على الفراش يسلم روحه إلى خالقها . لا يدرى أتعود أم تبقى فى عالم الخلود ، فيكون « الحرم » آخر ما يقبل عليه ويذكره من هذه الدنيا .

فهـل ينسى مسلم « الحرمين » . أو هل ينساها أستاذنا الزيات وهو الذى يذكر الناس ؟ !

* * *

أولم ترَ ياسيد احمد على كاتباً حجازياً فى الرسالة ؟ أين أنت يا سيدى ؟ وأىّ شىء يكون كتاب الرسالة اذا لم يكونوا مسلمين عرباً حجازيين ؟ أهم روم ؟ أهم يونان ؟ أهم فنيقيون ؟ أهم فرس ؟

أليس أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام من أبناء الحجاز الذين خرجوا من الجزيرة تحت راية محمد ، ففتحوا العالم واستقروا فيه؟ أليس عمرو وجيشه من أهل الحجاز ؟ أليس سعد وجنده من أهل الحجاز ؟ أليس أبو عبيدة وخالد وأصحابهما من أهل الحجاز ؟ أليس بنو أمية حجازيين ؟ أليس بنو العباس حجازيين ؟

كأنى بك تريد أن تقول : هاك كتاب الرسالة السابعة والخمسين : إن مختار الوكيل مصرى ، وطوقان فلسطينى ، وعباسى أردنى ، وفتاة الفرات عراقيـة ، وباكثير حضرمى . ولـكن لا . ليس فى قاموسنا مصرى ولا شامى ! ولـكن فيـه مسلم ، وفيه عربى .

وأى مسلم لا يرى الحجاز وطنه الأول من جهة النسب ومن جهة الدين ؟

وأى عربى (كائناً ما كان دينه) لا يرى الجزيرة محتده وأصله ، ومحمداً سيد العرب فخره ؟

* * *

وهل ينسى مكة مسلم يتلو قول الله :

(لتنذر أمّ القرى ومن حولها)

(والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين)

(لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد)

(وليطّوّفوا بالبيت العتيق)

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس)

(رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام)

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم)

و يتلو قول رسول الله (ص) حين فارق مكة مهاجراً :

(إنى لأعلم أنك أحب البلاد الىّ ، وأنك أحب أرض الله الى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت)

* * *

ومن ينسى مكة وفيها تاريخ أشرف أمة . وهى أشرف مدينة : لم تدن مذ خلقها الله لملك أجنبى عنها ، ولم يؤد أهلها أتاوة لأحد ، كانت تحج اليها ملوك حمير وكندة ولخم وغسان ، فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضاً مفروضا ، وشرفاً لهم عظيماً ، وكان أهلها آمنين ، يغزون الناس ولا يُغزون ، ويَسْبون ولا يُسبون :

أبوا دين الملوك فهم لقـــاح ... إذا هيجوا الى حرب أجابوا

وكان أهلها فى جاهليتهم حلفاء متألفين ، ومتمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه السلام ، ولم يكونوا كالاعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقره دين ، ولا يزينه أدب ، وكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ، ويقيمون المناسك ،

وكانوا يتزوجون أى القبائل شاءوا ، ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشرطوا عليه بأن يكون متحمساً لدينهم ، يرون أنه لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدين لهم

وكان العرب منـــذ الجاهلية يحجون البيت ، ويعتمرون

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

قرطبة*

نبذة تاريخية عنها

كانت قرطبة تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبنيتها الجليلة الفخمة، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة. وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولاسيما الجامع المعروف «بجامع قرطبة» وظلت عاصمة للأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوك بني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس، وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لاحدى مكاتب (دور كتب) تلك المدينة العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن ادارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح والمطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها «قرطبة» إذ استقلت سنة ٤٢١ هـ — ١٠٢٩ م، واستولى عليها «أبو الحزم بن محمد بن جهور»، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢ هـ — ١٠٣٠م)، ولما مات (٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) تولى الأمر بعده ابنه «أبو الوليد محمد بن جهور»، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلعوه، وأخرجوه من قرطبة (٤٦١ هـ) متحدين مع جيش محمد بن عباد. وبسقوطه انقرضت دولة بني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة ١٢٣٦ م استولى عليها الأفرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم، وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسمة . . .

معيشة أهلها وصنائعهم:

أما في تلك العصور الزاهرة فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في خفض من العيش ورفاهية وسعادة، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم، كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها وطليطلة بتفننها في صنع الأسلحة، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ . . وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى الى المدن الأندلسية، والى خارج البلاد أيضاً . .

العلم والأدب:

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد (مؤلف الحلة المذهبة في مملكة قرطبة): «أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث: بأصالة البيت، وبالجندية، وبالعلم. قال: وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب، ويحتفظ فيها، ليس إلا لأن يقول: عندي خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . . .»

وكان فيها مكاتب كثيرة كبيرة، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار

* من كتابنا عن الأندلس وسينشر عن قريب

ويطوفون. فاذا أرادوا الانصراف أخذ رجل منهم حجراً من حجارة الحرم، يتذكرها به ويجله (١) . . .

***

هذا ولك الحق ياسيدي الأديب، في أن تأسف إذ لم تر لواحد من سكان بلدك بحثاً أو مقالة في الرسالة، ولكنما هم الملومون ياسيدي لا الرسالة. وما أحسب الرسالة تنشأ (لتسجل ظواهر التجديد في الأدب العربي، وتكون ديوان العرب المشترك) ثم تسد بابها في وجه قوم هم خلاصة العرب، وبنو خلاصتها، فانشروا فيها ياسيدي، نقرأ لكم، ونستفد منكم، ونشكركم. وعليك ياسيدي الأخ الأديب السلام ورحمة الله . م؟

دمشق — علي الطنطاوي

(١) ياقوت

الأخرى ، بكثرة علمائهم وأدبائهم ، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف ، وعلى حبهم للعلماء والأدباء ، واحترامهم لهم ، ولصناعة العلم والأدب .

وكان للحكم الثانى فى قرطبة مكتبة ، فيها ستمائة ألف كتاب(1) لها أربعة وأربعون فهرساً ، فى كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط ! ! . ويقول جستاف لوبون — بهذه المناسبة — إن شارل الحكيم الذى تولى أمر فرنسا بعد خلافة الحكم باربعمائة سنة (١٣٦٤ م) بذل جهده فى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين أسسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية ! . . .

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة ، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة ، يقصدها طلاب العلم الراقى والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة ، ومنهم البابا سلفستر الثانى ، وكان قد ذهب الى أشبيلية فدرس فيها زمناً ، ثم الى قرطبة ، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩ م) ، وكان يسمى قبلاً الراهب جربرت ، وممن تخرجوا فى جامعات قرطبة ، بطرس فرابل وقسيس كولونى ، وكذلك « شانجه » ملك ليون ، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب اليوم الى جامعاتهم التى حلت محل الجامعات العربية ، والله يغيـــر ولا يتغير ، والله على كل شيء قدير ! . . .

وكان فى قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون ، نذكر منهم « أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدى القرطبي » الملقب « بصائن الدين » وهو أحد الأئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة الخ . . ولد بقرطبة (٤٨٦ هـ) ومات بالموصل (٥٦٧ هـ) . وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف (بابن الفرضى) وكان فقيهاً عالماً من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (حسن فى المختلف والمؤتلف) و (فى أخبار شعراء الأندلس) ، وقد ولد سنة ٣٥١ هـ . وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣ هـ وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤ هـ . ومات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

وأحمد بن محمد بن عبد البر ، من موالى بنى أمية ، له كتاب فى الفقهاء بقرطبة ، ومات فى السجن لليلتين بقيتا من رمضان . ومنهم (أحمد بن محمد بن موسى) له مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس ، توفى فى ١٢ رجب سنة ٣٤٤ هـ . وولد فى (١٠) ذى الحجة سنة ٢٧٤ .

و (خالد بن سعيد القرطبي) أحد أئمة الأندلس ، مات فجأة فى سنة ٣٥٢ هـ فى الستين من عمره ، وحسن بن الوليد بن نصر وابن الدباغ الأزدى ، وغيرهم . وغيرهم . .

خطط قرطبة :

تقع قرطبة على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير ، وبينها وبين البحر خمسة أيام ، وذكر ياقوت الحموى فى معجمه أنها كانت « أعظم مدينة فى الأندلس ، وليس لها فى المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة ، ويقال إنها كأحد جانبى بغداد ، وان لم تكن كذلك فهى قريبة منها ، وهى حصينة بسور من حجارة ، ولها بابان مشرعان فى نفس السور الى طريق الوادى من الرصافة — والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها ، مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربيها وجنوبيها ، فهو الى واديها ، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها . . . »

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً ، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً ، فى كل ربض من المساجد والأسواق مايقوم بأهله ، ولا يحتاجون الى غيره ، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية فى كل واحدة منها منبرٌ وفقيه . »

وكان فيها (٢٠٠٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوق ، فضلاً عن الثمانين مدرســة التى ذكرنا ، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٢٠ ذراعاً ، وفيها ثمانى عشرة حنية ، وتسعة عشر برجا .

وقد تنافس الخلفاء والأمويون فى تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها ، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له ، وشيد المنصور بن أبى عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادى الكبير ، وانتقل اليه سنة (٣٧٠ هـ) وبنى باقى الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكرمنها « الحائر » ، الروضة ،

(1) ويقول المقرى فى نفح الطيب إن المكتبة كانت تحوى أربعمائة ألف كتاب ، وهو مخطىء ولاشك ، لأن أغلب المؤرخين الحديثين (ولاسيما الغربيين منهم) يقولون إنها ستمائة ألف ، وليس أربعمائة ألف

المعشوق ، المبارك ، التاج ، السرور الخ . .

ولكن أعظم بنايات قرطبة ، بل الأندلس كلها ، المسجد الجامع ، الذى شيده عبد الرحمن الداخل ، وكان فى الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة .

جامع قرطبة :

والواقع أن هذا المسجد آية من آيات الفن العربى ، ودليل قاطع على علو كعب العرب فى النقش والبناء ، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربى ، والمقدرة الفنية العربية . ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور فى ذلك العصر سوى الجامع الأموى بدمشق ، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارىء وصفاً وتصويراً صادقين ، بل ليس من السهل على القارىء أن يدرك عظمته إذا ما نظر الى عدة صور فوتوغرافية عنه ، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا فى أن نعطيك فكرة عامة عنه :

فطول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٢٠ متراً ، وفى عرضه الأيمن ٣٨ صحناً ، والأيسر ٢٩ صحناً ، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة . « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع) ، وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من العسجد »

أما الباب العمومى — وهو باب المنارة — فهو من النحاس أيضاً ، عرضه ٨ م وارتفاعه ٢٠ م ، وفى الزاوية القبلية من المسجد تقوم منارته العظيمة ، وهى مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ م وارتفاعها ١٣ م ، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية ، محيط كل منها نصف متر أو أكثر بقليل . ويقول صاحب « رحلة فى الأندلس » : إنها خمس طبقات فى كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر ، والمحراب والمقصورة من أجمل ما فى المسجد ، ففى تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون « وهى بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جداً ، وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية » وأما المحراب ففسيح واسع ، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية ، وكان فيه المصحف العثمانى الشريف ، وقد نقله عبد المؤمن بن على الى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢ هـ .

وفى المسجد (٤٧٠٠) قنديل من الذهب الأبريز ، واحد منها فى المحراب ، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيتاً و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود القاقلى . . .

***

قال الأستاذ سديو : « وكانت هذه المدينة تصبح مضيئة ، وحاراتها مطيبة ، بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة فى المتنزهات والميادين العامة . . »

هذا بعض من كل ، وقليل من كثير ، عن حالة قرطبة فى تلك العصور التى بلغت العظمة العربيـة فيها الحد الأقصى من الرفعة والسمو ، والتى خلد فيها أبطال العرب أسماءهم فى أنصع صفحات التاريخ ، ورفعوا أمتهم الى المكانة اللائقة بها .

البصرة **عبد الكريم وعبد الصمد الناصرى**

مصادر البحث : وقد ترجمنا الأسماء الأفرنجية الى العربية

١ — معجم البلدان : ياقوت الحموى

٢ — نفح الطيب فى تاريخ الأندلس الرطيب : المقرى

٣ — رحلة فى الأندلس : محمد لبيب البتنونى

٤ — ملخص تاريخ العرب : سديو

٥ — فلسفة التاريخ : ميلر

٦ — دائرة معارف القرن العشرين : فريد وجدى

شلفون بعد نصف عام !...

بقلم منير الجم الطرابلسي

رحم الله هذا الموسيقى الراحل ، فقد عاش طريداً شريداً ، غريباً فى وطنه ، منبوذاً من أهله ومن الناس ، ومازال مع الخطوب فى صراع وعراك حتى فجأته كارثة دهماء أجهزت على حياته المنكودة ، فكان ضحية غالية على مذبح الفن لم يدر أحد من أمرها شيئاً !

عاش فى دنياه مجهولاً ، وجاهد فى سبيل الفن مغبوناً ، ولقى حتفه باليأس والبؤس ، ثم لجأ إلى بارئه يشكو مكر الانسان ، وختل الصديق ، وجور الدهر !

وقعت الواقعة ، ونزلت النازلة ، وانهار صرح (كوكب الشرق) فى بيروت ، فكانت نكبة نكباء ، وجبت لهولها الأفئدة ، وهلعت القلوب ، والناس حول الضحايا فى مأتم يبكون ، هذا يرثى أباه ، وذاك يبكى أخاه ، وآخر يذرف الدمع على صديقه مدراراً . إلا هذه الضحية المجللة بروعة الفن ، كانت فى عزلة عن اهتمام الجمع ، فانهم جهلوها أو تجاهلوها ، ونسوا ماضيها وحاضرها ، وما أسرع الناس فى نسيان الماضى ، وجحد الفضل ، ونكران الجميل !

ولكن لم تخل الأرض من أخيار بررة قاموا بواجب التأبين فى محفل الوليد ، وشاركتهم بعض صحف حرة فى نشر الترجمة ، وتعديد المناقب والمزايا ، فكانت تعزية للراحل الكريم فى الأولى والآخرة ؛ ثم أسدل الستار على ذكراه ، فلم يفطن اليه محفل أوناد ، حتى ولا تلاميذه ، وما ذلك إلا لأنه كان بائساً معدماً ، أبىّ النفس ، عالى الهمة ، كارهاً للشهرة والظهور ، شأنه فى ذلك شأن عظماء الفن ، يصهرون نفوسهم الزكية فى مثلهم العليا ، ثم يتلاشون فى سكون وهدوء !

كان موسيقياً نابغاً فياض العواطف والشعور ، وكان أديباً كبيراً مملوءاً بنفس سامية تأبى أن تذل ، جاهد فى مصر زمناً ينشر علينا من أريج (روضة بلابله) الغناء مايسر النفس ، وينعش القلب ، حيث المبتكر الساحر ، والجديد السائغ فى الموسيقى والأدب ؛ ثم ناهضه الحساد فرحل إلى دمشق علّه يخفف اللوعة فيها والأسى ، فكان نصيبه الصد والفشل والأخفاق ! فلما ضاقت الأرض عليه بما رحبت سعى إلى عاصمة لبنان ، وكأنه كان على موعد من منيته ، فدهمته أشنع ميتة يموتها إنسان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

مات ولما يتم جهاده الشريف ، ولم يجن ثمار أدبه وفنه ، وأبى حظه العاثر أن يكون موفقاً فى حبه وإخلاصه ، بل فى حياته ومماته ، فقد كان يعلم ذلك كل العلم ، ويتأكده كل التأكيد ، فألف قطعته الخالدة (الألم) رمزاً لذاته ، وشعاراً لبؤسه ، وعزفها على مسمعنا يوم كنا لديه فى عاصمة الأمويين ، فسحرنا بأنغامها الشجية ، وغمرنا فى ذهول من الحزن عميق ، نرثى لحاله ونتألم ، ولا غرو فحياته سلسلة آلام مبرحة ، ختمت بفاجعة مروعة ، قضت على آماله الجسام ، وذهبت بنبوغه الرائع

أما ورثاء نوابغ الفن علينا واجب ، وذكر الفقيد البائس أوجب ، فقد أديته قسطى على قدر المستطاع ، كما أرجو أن يذكره كل مخلص غيور ، ففى ذمة الله والتاريخ فقيدنا الكريم ، وفناننا المجهول !

حماه   منير الجم الطرابلسى

العامل الاقتصادى فى الأدب

للآنســة فكرية زكى

دبلوم فى التربية والآداب

أريد أن أعالج موضوع الأدب من الوجهة الاقتصادية ، لأن كثيرا من الأدباء يمنعهم الحياء من التبسط فى شرح ذلك ، مع أن هذا الموضوع جدير بالبحث والنظر ، لأن هناك صلة تصل المؤلف بالقراء ، فالمؤلف لا يكتب إلا لقرائه ، سواء فى الجيل الحاضر أو فى الأجيال الآتية ، ولم يخلق بعد المؤلف الذى يكتب لنفسه . وإذا رجعنا بالبصر قليلاً وجدنا أن كثيرا من أمهات الكتب القديمة التى ننعم بها لم يكتبها مؤلفوها إلا تحت رعاية عظيم أو تشجيع كبير ، مما لا نتبسط فى شرحه وبيانه ، غير أن هذه الكتب لم تكن فتحاً فى الأدب .

فالأدب الصحيح الذى يصور الحياة فى صورها الصادقة لا يولد فى كنف عظيم أو رعاية كبير ، لأنه إذ ذاك لا يصدر عن نفس حرة طليقة من قيود المادة ، ولذلك لم تولد أمهات الكتب فى الأدب الحديث إلا مع وجود القراء ، وإذا أردت دليلاً على ذلك فان لويس الرابع عشر أغدق المال على رجال العلوم والفنون إغداقا ليس له نظير ولا ضريب ، ثم لم ينبغ فى عصره كاتب ولا فنان ، لأن يد الاحسان كانت تعقل أفواههم ، فلا يقولون إلا مايرضيه ، ولا يعملون إلا مايحسن لديه ويجمل فى ناظريه ، ولم أجد كاتباً فصل ذلك فى وضوح وجلاء إلا (بكل) Buckle فى كتابه الممتع تاريخ الحضارة فى انجلترا .

والكاتب مهما قنع بالقليل يجب أن يعيش قبل كل شىء ، فاذا كانت رعاية الكبراء تحول دون الانتاج البكر فى الأدب ، بَلْهَ عدمها الآن ، فليس هناك وسيلة للأدب والأديب غير القراء . ولذلك نتساءل : هل يوجد الآن بيننا جيل القراء الذين يقبلون على قراءة الكتب القيمة فيساهموا فى إحياء الأدب ؟ . أم نحن نعيش فى عصر لم يخلق فيه القراء بعد ؟ ولا يمكننا أن نعلل ذلك بفقر القراء ، أو غلاء الكتب ، لأن ثمن أكبر كتاب لأشهر مؤلف لايتجاوز ثمن تذكرة من تذاكر دور السينما .

وإذا قال مكابر بأننا نعيش فى ذلك العصر فاننا نطالبه بالدليل على ذلك ، أين هى الكتب التى طبعت مراراً ؟ لا أعلم كتاباً طبع للمرة العاشرة ، بله الثالثة أو الرابعة ، وتكرار الطبع دليل على رواج الكتب وانتشار الأدب . إذن ففى أى عصر نعيش ؟ أنعيش فى ذلك العصر الذى باع فيه ملتون روايته الخالدة « الفردوس المفقود » بعشرة جنيهات ؟ أم فى العصر الذى كان يعيش فيه جنسون موحد اللغة الانجليزية فلا يجد قوت يومه ؟ أستغفر الله ! بل نحن نعيش فى عصر الانتقال ، فى عصر تتكون فيه أجيال القراء ، «فالرسالة» تطالعك كل أسبوع ، والجرائد اليومية تطالعك كل صباح ، وهى تؤدى عملاً نافعاً لا يفطن اليه كثير منا ، فهى تخلق جيل القراء المقبل الذى سيساهم فى رواج الأدب ، ومتى وجد هذا الجيل فلا شك فى تطور الأدب تطوراً آخر غير ما نراه الآن . وإنى أرى بعين المستقبل أديباً كبيراً يقول لنا كما قال ما كولى عن أدباء عصره : « إنهم ينعمون بالثراء ومباهج الحياة ، بينما أشباههم ونظراؤهم من سبعين عاما كانوا يتضورون جوعاً . » غير انى أدعو الله أن تكون هذه الفترة فى تاريخ أدبنا أقل من سبعين سنة ، فانها وإن كانت قليلة فى أعمار الأمم طويلة فى حياة الأفراد . م؟

فكرية زكى

ابراهيم بك مرزوق وشعره

بقلم صلاح الدين الوداعى

قرأت فى العدد السابع والخمسين من الرسالة ما كتبه الأستاذ محمود خيرت عن الشاعر المصرى ابراهيم بك مرزوق تعقيباً على كلمة المغفور له احمد باشا تيمور التى لم يلم فيها بنواحى حياته الأدبية إلماماً وافياً ، فوجدته فى مستهل كلمته يقول إنه كان يود لو أن بين يديه ديوان هذا الشاعر ليسد الفراغ الذى تركه تيمور باشا ، ويسرنى أن أحمل هذا الواجب الأدبى عنه ، فقد أتيح لى أن أقرأ نسخة مخطوطة من هذا الديوان ، سأنقل هنا شيئاً منها يعطينا صورة لحياة هذا الشاعر ومقدرته الأدبية

أسلوبه فى الشعر :

أما غزله فهو من الملاحة بمكان ، قال رحمه الله :

أشجتكَ شمس ملاحةٍ   فى غيهب الليل استنارتْ
أم بدر حسنٍ طالع   من حسنه الأقمار غارت
نَظرت له عين المها   فتعجبتْ منه وحارت
مَن منصفى من أعين   فى حكمها فى القلب جارت
يا جنـــة نيرانهـا   فى قلب عاشقها استعارت
ما ضرها لمــا نأت   لو أنها فى النوم زارت
يا شمس حسن بالحجا   ب السندسى عنى توارت
غصن القوام عليــه كـ   ـل قلوب أهل العشق طارت
ودوائر الأحزان من   أطواقها بالصب دارت
وركائب الأشواق بالـ   ـقلب الأسير اليك سارت

وقال أيضاً من قصيدة :

ما احتيالى قد صير الصد عاده   ليته حين أسقم الصب عاده
ما احتيالى وكل من هام وجداً   سلب الحب لبــه ورشاده
بين كاس الهوى وكاس الحميا   قدرٌ غالبٌ له وإراده
فهو فى حالتيه حيران ألقى   بيــد الذل والهوان قياده

ومن قصائده أيضاً هذه الخمرية البديعة :

هيا اسقيانى ثلاثاً واشربا قدحا   يا ساقيَّ فزند اللهو قد قدحا
وأحييا دولة القصف التى دثرت   وخليا الزهد للوعاظ والنصحا
وبادرا فرص اللذات واجتنبا   من لام فى رشف كاسات الطلا ولحا
فقد خلعت عذارى غير معتذر   ورحت أرفل فى برد الصبا مرحا
وقلت للرشد مالى فيك من أرب   فارحل وقمت بثوب الغىّ متشحا

وفيها يقول بالتورية :

فعاطيانى وعين النجم شاهدة   شمساً يقصّر عن أوصافها الفصحا
لو أن عائبها قد ذاق لذتهـا   ما كان عاب لها كأساً ولا (قدحاً)

وعلى ذكر التورية هنا أقول إنه كان ولوعاً بها مجيداً لها ، فمن ذلك قوله فى الرثاء :

يا راحلا فيــه ذقنـا   ما كنا منــه احترزنا
كم قد حوينا هموما   لما رحلت (وحزنا)

ومن محاسن اقتباساته قوله :

ومليح له سـلاسل شـعر   وقلوب الورى بهن أسارى
كلما جال طرفه ترك النا   س سكارى وماهمُ بسكارى

وقوله أيضاً :

قد كنت سليماً لا تدرى   ما حلو الوصل من الهجر
فأطعت النفس وشهوتها   إن الانسان لفى خسر

وللشاعر فى التخميس والتشطير مقــدرة عظمى تشهد له بالتمكن فى النظم مع سمو الخيال ، واتساق المعنى ، وقد نظم فى ذلك مقطوعات كثيرة لفحول الشعراء فخمس أغلب القصائد والمقاطيع المتداولة على ألسنة أهل الأدب للمتنبى ، والكمال ابن النبيه ، وتقى الدين السروجى ، والمعرى وغيرهم ، وكلها فى غاية الطرافة والحكمة ، ولولا طولها وكثرتها لأوردت هنا طرفاً منها لاثبات كفاية هذا الشاعر النادر ، وأنا لذلك أكتفى بذكر تشطيره للبيتين المنسوبين الى إبليس فى الخمر — على سبيل المثال — قال :

(وحمراء قبل المزج صفراء بعده)   كوجنة خود راعها لثم سارق
إذا صبّها فى عسجدى مخضب   (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق)
(حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا)   على نهبها الألحاظ من كل وامق
وصاغ حباب الماء فى حال صبه   (عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق)

وعلى قلة الوصف والتشبيه فى شعره بلغ حد الاجادة والابداع ، فمن ذلك وصفه لمنشية النزهة باسكندرية :

باسكندرية للصفا منشيــة   غراء واضحــة البها غنــاء
سطعت شموس الحسن فى أرجائها   وبدوره فلها سنيّ وســناء

حيث التفت رأيت أبهى روضة   (سال النضار بها وقام الماء)

وقال فى (فسقية) يتصاعد منها الماء

لله بل للحسن ماءٌ أحكمت   فسقيـة تصعيـده فتقطـرا
يجرى لجيناً أومذاب الدر أو   سيَّار بَلّور سما فتقنطرا

ومن قصائده فى الفخر والحماسة هذه القصيدة :

قامت تساجلنى العلاء جدودى   حتى تحقق فىّ رأى جدودى
واستنجدت فينا شمائل ماجد   واستنجزت شيم الوفاء عهودى
وتغبّ فى ذم الخمود مليحة   لتشب نارى غير وشك خمود
وبمسمع منى تقول لمن دنت   منها أهـذى حالة المجـدود
أُيردّ عمـــا يبتغيه وعزمُه   ماض وطالعـه بسعد سعود
أولم يكن من لم تغر طـــلابه   يوماً عليه لفضـــله والجود
أوليس من بهر الكواكب رفعةً   بعلوّ صائب رأيه المعهود — الخ

وفى الديوان غير ذلك من المدائح والتهانى والمراثى والتعازى وباقى الفنون الأدبية من القصائد الشىء الكثير ، وكلها مليئة بالمحاسن والغرر — ولا سبيل إلى استقصائها هنا لكثرتها وتشعب أغراضها .

أسلوبه فى النثر

وقد عثرت للشاعر على هذه الرسالة الفريدة ، المساة « برحلة الكرامة » التى كتبها إلى سعادة خيرى باشا مهردار ، واقتصرت على بعض فقرات منها خشية الاطالة ، وهى التى ضمنت وصف رحلته الى الخرطوم ، قال رحمه الله :

« أهدى إلى نسيم الصبا ، الحاملة لرياض الربا ، ووفود النسيم ، المتحملة بالتكريم والتعظيم ، ورسل الأصائل ، المتضوعة بنشر الخمائل ، ما يزرى بنور الرياض ، وتغازل المقل المراض ، أرق من الدموع ، فى الربوع ، وألعب من الراح ، بالعقول والأرواح ، وأشهى من الأمان ، فى الزمان ، ووفاء الاخوان ، وألذ من عناق أهل الاشتياق ، بعد الفراق ، وأعذب من الرحيق ، على الريق ، وأحلى من الأقبال ، ببلوغ الآمال ، وأحب من الأتحاف ، بالأسعاف ، وأهنأ من الورود ، على حياض الوعود ، وأشفى من الوصال ، وأوفى من طيف الخيال . . . ولكنى حيث تنقلت فى البلاد ، وهمت فى كل واد ، من أقطار السودان ، القاصى منها والدّان ، واعتسفت طرقها[1] ، وشسوعة أسواقها ، حيثما ذكره الأستاذ فى الوقائع ، وجنيته من ثمرها اليانع ، التزمت أن أذكر بوجه الاختصار ، ما يتـذكر به أولو الأبصار ، وعسى أن تنفق عنده بضاعتى المزجاة ، وأفوز ببركة دعائه بطريق النجاة ، فأقول معتمداً على الله ، وماتوفيقى إلابالله ... « قد اقتعدنا غوارب الأقتاد ، وجبنا الصخور والأوتاد ، مسئدين[1] فى المهامه والقفار ، مستندين الى أعواد الأكوار ، مصطحبين ما يفت فى عضـد الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، إلى أن وصلنا الى بندر الخرطوم ، فـكانت المحفوفة بالقـذى ، المحروسة بالأذى ، لأنها القرية الظالم أهلها ، المستحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الأسماء والصفات ، التى ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الشت الجهات ، الى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث بالسعير ، فى أوقات الزمهرير ، فهى بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، كأول يوم الحساب . »

بلاد لاسجين من رعاها   ولا حسن بأهليها اليسار
إذا لبس الدروع ليوم بؤس   فأحسن مالبست لها الفرار

قلت مما اتفق لى نظمه فى بلاد السودان وأهلها من جملة أبيات هذا البيت :

قوم تخيلتهم جاناً لرؤيتهم   وقلت إن خديوينا سليمان

فلو مكثت غير بعيد ، واجتلبت خيل المعتصم والوليد ، واستعديت بذى القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين . ونشرت أبا مسلم الخراسانى ، وخرجت فى رايات السفيانى ، وبعثت بالرياح السوافى ، ورميت بثالثـة الأثافى ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت فى جنود صفين ، وقاتلت إلى يوم الدين ، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ، فانا كنا فى مصادمة الأمطار ، ومزاحمة الأقدار . . . . . »

وبعد ، فهذه صورة من أسلوب الشاعر المجيد ابراهيم بك مرزوق المصرى فى الشعر والنثر ، أعرضها على قراء الرسالة علها تجد من أدبائنا من يولى أمثال هذا الشاعر المجيد ، ما يستحق من ذكر وتخليد

القاهرة   صلاح الدين الوداعى

---

(١) اعتسف طرقها : خبطها على غير هداية .

(١) بات يسئد السير : يديمه .

الحركة الفكرية لشباب العرب

خبا ريق الثقافة العربية بعد أن بلغت أوجها فى القرون الوسطى عقب غارة التتار على البلاد العربية

وقد قال جوستاف لوبون : « إن الكلام على الشعب العربى وتاريخه وتألقه وعظمة مدنيته لهو كلام عن شعب كان أكثر من أضاف الى ميراث المدنية وزاد فى ثروة الانسانية العامة والمدنية العربية آخر هدية قدمها الشرق الى الغرب وأكبر مدنيات الشرق أهمية ، لأنها نتاج كثير منها ، وقد تركت فى محيط العلم آثاراً لا تمحى »

حتى اذا كان القرن الثامن عشر وهو عهد تقسيم الامبراطورية العربية التى طبقت كل البلاد العربيـة وآسيا الصغرى والعجم والهندستان ومصر وشمال افريقية وكل أسبانيا تقريباً ، عانت الثقافة العربية عهداً طويلاً من الجمود بله القهقرى

فقد غلّت سيادة الأجانب ملكات الذكاء التى أوتيها العرب ، وقتلت حبهم الشديد للمعرفة ، وأضعفت قوتهم المبدعة ، حتى اذا كان عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى الى إحياء الفكرة العربيـة وتجديد ثقافتها القديمة . فكانت هذه الحركة الذهنية ، وهى على أشد ما تكون من المضاء فى سوريا ، القبس الأول الذى سطع منه عهد الأحياء العربى الجديد ، ممـا كان له دوى فى باقى البلاد العربية وصدى عميق فى نفوس الشعب الراسف فى الجهالة والجمود

ولقد واجهت هذه اليقظة الذهنية الحركة السياسية التى يقوم بها فتيان الأتراك من أجل « تتريك » كل العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربيـة ، وبذلك نشأت وطنيتان متعارضتان : العربية والتركية ، يقود كلا منهما شباب الشعبين المثقفون ، فنجم عن هذا التعارض بينهما حركة عنيفة أدت الى تكوين جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسها شباب الضباط والطلبة الذين تلقوا علومهم فى القسطنطينية مما جعل الجامعات مركزاً لوحدة الشباب وألفته

وصارت وعود الاصلاح التى وعدها الترك لتحسين حال العرب ومن بينها إدخال اللغة العربية فى مدارس الأقاليم هباء ، فلم يتورع الأتراك عن استعمال كل وسيلة للضغط ومقاومة هـذه الكتلة العربية المفكرة مما ألجأ معظمها الى النزوح الى مصر التى غدت مثابة للثقافة العربية

ولقد كان من جراء هذا الخطر الأجنبى توثيق عرى الاتحاد بين شباب العرب الذين استشهد منهم طائفة كبيرة على مشانق الأتراك فى سبيل المسألة العربية ومثلهم الأعلى

ولم يكن لدى هذه الشبيبة الى حين قيام الحرب العالمية الا بعض المدارس الحكومية تلقن العلوم باللغة التركية وغير المدارس الأولية الخاصة لتتاق فيها لغتها وآدابها . وأما العلوم العالية فلم يكن هناك سبيل اليها إلا القسطنطينية أو أوروبا أو الأزهر

ولما كانت الدراسة العالية غير ميسورة إذن إلا للموسرين ، والحكومة التركية لا تكترث لمصير الشباب العربى اضطر هؤلاء بموارده الخاصة الى الخروج من هوة الجهل التى ألقوا فيها عمداً حتى يسلس قيادهم ويسهل إخضاعهم ، إذ كانت سياسة الأتراك نحو العرب تركهم ضُلالا فى ظلام الجهل

وفى خلال سنى الحرب العصيبة قاد الشباب العربى حركة العصيان ضد المستعمر وانحازوا الى الحلفاء الذين وعدوهم باستقلال البلاد بعد النصر ، فهجر شباب الضباط والطلبة كلياتهـم واستبدلوا بأقلامهم وكتبهم البنادق لانقاذ ثقافتهم ونصرة حقهم بالمهج والدماء

ولشد ما كانت دهشة العرب بعد الحرب ! أملوا من الحلفاء استقلال بلادهم بالوعود المأخوذة فاذا بهم يقسمونها الى سوريا وفلسطين والعراق ، لتكون تحت انتداب انجلترا وفرنسا ، دون أن يكون لرغبات العرب ومصالحهم حساب ، واذا بالعرب يقاسون بعد الحرب كما قاسوا قبلها عنت الحكم الأجنبى وظلمه ، وكان لهذا التقسيم السياسى أوخم العواقب فى تكوين العقلية العربية للجيل العربى بعد الحرب ، فان الطرق التعليمية المختلطة التى تمارس فى هذه البلاد ترمى الى تطورات متنافرة وعقليات متعارضة لتكسر من حدة الثقافة العربية والوحدة الوطنية ممـا عانت منه البلاد كثيراً ولا سيما سورية

ثم كان من توزيع التعليم بين مدارس الحكومة الرسمية

والمدارس الأجنبية الخاصة ، كمدارس الفرير ، والفرنسيسكان والجزويت ، والاتحاد الاسرائيلي ، والمدارس الأمريكية ، وجميعها لا تخضع لأية رقابة ، ومن تباين الطرق التعليمية المختلفة فيها ، والتنافس القوى الأعمى بينها ، شر النتائج مما لم يكن يقع غبنه وغرمه إلا على الشباب العربى وحـــده ، فأفسدت الاتجاهات المختلفة والأهواء المتباينة والمؤثرات المتعددة روح الشباب ، وباعدت بين بعضهم وبعض فأصبحوا كأنهم غرباء لا يجمع بينهم تفاهم ولا تناسق ، فترددوا بذلك فى عذاب أدبى مروع ، وفوضى فكرية فظيعة ، وجهلوا أو لم يعرفوا إلا لماماً أدبهم الوطنى وتاريخ أسلافهم الباهر .

وإن الشبيبة التى لا تتغذى ثقافتها الوطنية بالاعجاب بالماضى والزهو بالاسلاف ، لا يمكن أن تتعاون وتعمل فى سبيل رفعة الوطن ، فلقد لاحظنا أن طلبة مدارس الارساليات مثلاً وجلهم من المسيحيين قد خلوا تماماً من الوطنية وحل مكانها التعصب الدينى ، وهذه حالة نفسية تساعدهم على قبول الاستعمار الأجنبى وتباعد بينهم وبين إخوانهم المسلمين .

على أن من الحوادث السعيدة الجديرة بالذكر أن نخبة من مفكرى المسيحيين قد ألقوا منذ سنين نير الرق الأدبى ، وبرئوا من الريبة التى خامرت النفوس ومدوا يد المودة الى إخوانهم المسلمين .

أما تنظيم المدارس الحكومية فقد تم وفقاً للنظام الانجليزى فى فلسطين والعراق ، والنظام الفرنسى فى سوريا ، دون أن يتفق مع حاجات البلاد .

وقد أنشأت هذه الحالة مسألة غاية فى الدقة والخطورة ، وهى مسألة توحيد التعليم القائم على الثقافة الوطنية ، وتحقيق هـذه السياسـة التعليمية هو الوسيلة الوحيدة السريعة لانضاج ذكاء الشباب العربى وتحقيق الوحدة مهما كان وسطها أو دينها . فتوحيد التعليم ينتج وحدة الفهم والتفكير والأرادة ، وهى العوامل الثلاثة الأساسية اللازمة لتخلق فى الشباب قوة التعاون على توحيد الجهود وإنهاض البلاد مادياً وأدبياً .

ولقد اشتدت الضرورة الى وحدة التعليم بازدياد عدد الشباب المتعطش للدراسة ، فان عدد المقبلين على التعليم ازداد عقب الحرب كثيراً من الذكور والأناث على السواء . ومع ذلك فان المدارس الرسمية أضيق من أن تسع الطلاب ، مع أنه ليس للبلاد العربية مصروفات حربية ، وميزانيتها تسمح بفتح مدارس جديدة وعلى الأخص فى القرى كما تسمح بتحسين المدارس الحالية على وجه السرعة ، وفى نظرنا أن هذا الواجب هو من أول الواجبات الملقاة على عاتق الحلفاء . فلماذا أهمل ؟

ومن جهة أخرى ، فان المتعلمين يعانون الآن أزمة شديدة فى جميع البلاد العربية لما يصادفونه من العقبات فى المهن الحرة ، إذ لا يجدون بعد سنين طويلة من الدراسة الشاقة فى أوربا أو فى الوطن مايحتاجونه من عوامل الكمال بعد أن سدت فى وجوههم كل طرق الحياة أو ألقيت فيها العراقيل ، دون أن تفكر أية حكومة فى معونتهم وتمهيد الطريق لانماء معارفهم وجنى ثمار عملهم ، بل أنهم أبعـــدوا عمداً عن وظائف الدولة وجميع الأعمال المتصلة بها تقريباً إذ يشغلها طبعاً رجال الانتداب ، فرنسيون وإنجليز ، وكل ذنبهم أنهم تنكروا لنظام الانتداب ففرت منهم معظم وظائف الأدارة فى بلادهم ، وحرموا من مورد عدل مشروع .

وها كم مثلا لتوضيح ما تقدم : إن بمجلس النواب كثيرين أميين ، على حين أن البلاد تزخر بالمتعلمين الذين لا يبغون إلا أن يخدموا بلادهم بمعارفهم ، وتفسير هذا الأمر أن حكومة الانتداب ترغب فى توطيد مركزها بسهولة

أما الوظائف القليلة التى شغلوها بعد لأى فلا تتناسب مع مستوى تعليمهم ، والحاجة هى التى أرغمتهم على قبول وظائف أبعدتهم تماماً عما تخصصوا له ، ولطالما خضعوا لرؤساء من رجال الانتداب لا يحملون أية درجة جامعية

وكذلك كانوا فى ميادين الحياة الأخرى ، تميز الأجانب عليهم وارتفعوا على أكتافهم بفضل سلطات الاحتلال

ولا ينبغى أن ننسى أن بالبلاد العربية أراضى شاسعة ما تزال بكراً كان يمكن أن تقوم بها مشروعات زراعية وصناعية فتشغل كل هذه الطبقة العاطلة

ولقد كان لهذه الأزمة الفكرية أثر نفسى سيء فى الشباب فألقوا نفوسهم دون وعى فى أكثر الدراسات قدرة على تأمين مكسب متواضع سريع مما أدى الى وقف النضوج الذهنى وقتل الطموح

وأحس الجميع بهذه الأدوار المادية والفوضى الذهنية المنتشرة فاذا أضفنا الى هذه الحالة المعنوية ما يعانيه الشباب من الاذلال والامتهان المستمرين فهمنا بجلاء سبب جنوحه عن غرضه الأصلى بالنسبة له ولبلاده واندفاعه بحرارة وحماسة نحو السياسة لكفاح الاستعمار الأجنبى الذى سبب كل هذه الأدواء، وهو لم يكن قد أدرك الا بعد سنين طويلة من الألم أن حاله تزداد سوءاً ، وأن بلاده تشرف على الهلاك ، وأن الضرر لابد أن يقتلع من أساسه ، لكنه ازاء الصعوبات الحاضرة والانقلابات الاجتماعية المتوالية ظل مغلولا محروماً من كل وسائل الكفاح ، فالحاضر يفلت منه إذ لا يعاونه نظام البلاد الاقتصادى والسياسى ، والمستقبل لا يمثل له الا نذيراً من الابهام والقلق المخيف

ولطالما شل المستعمرون المتعاقبون على البلاد الحركة الفكرية فيها فقاست منهم الأمرين

واليوم قد نهضت هــذه الحركة برغم كل القيود ، وأحس الشباب الذى يقاسى شر هذه الأدواء هذه الحاجة وترمم ذلك الثل ، فهبت ريح من الوطنية الحارة تقوض كل الحواجز الزائفة التى وضعتها القوى الأجنبية ، وتدعم أواصر هذا الشباب الذى وحد بينه التاريخ والعادات واللغة

وإن هذه الوطنية لتتغلغل اليوم بقوة فى الطبقات الدنيا من هذا الشعب الذى قوته ذكريات ضحايا الحكم التركى ونظام الانتداب ودفعته لانقاذ ثقافته وحريته

وقد بدت فى هذه الأيام نفسية عجيبة فى روح هذا الشعب ، هى التعطش لتعليم الأبناء حتى يصبحوا قادرين على نيل الاستقلال وتتجه الحركة الفكرية بالشباب العربى نحو إحياء مجد اورشليم وبغداد القديم من الوجهة الذهنية والسياسية ، وستستعين فى ثقافتها بكل العوامل الضرورية لارتقائها روحياً وسياسياً ؟

أ . الجابرى (آسيا الفتاة)

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٢ – الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

صفات العمل

من صفات العمل الأساسية الوحدة ، والسرعة ، وتوجيه الأثر الى الذهن

فوحدة العمل هى اتحاد الأجزاء المختلفة التى يتركب منها العمل الروائى على إيجاد حادث واحد أو منعه . ولا يتحقق ذلك إلا بحصر الأهتمام كله فى بطل الرواية ، وجعل هذا البطل فى خطر واحد لا يختلف من ابتداء التمثيل الى انتهائه . لأن الخطر اذا زال انتهى العمل ، والبطل اذا وقع فى خطر غير الأول ابتدأ بوقوعه فيه عمل آخر . على أن العمل قد يكون مركباً متشعباً تملؤه التغيرات وتعوقه المفاجآت ولا يؤثر شىء من ذلك فى وحدته . إذ يكفى أن تكون هذه التفصيلات وتلك الاعتراضات مسوقة الى غرض واحد ، موصلة الى نتيجة واحدة . وقد يتسامحون أحياناً فى تطبيق شرط الوحدة ، فيكتفون فى تحققه بأن يتحد الخلق الفعال فى الرواية ، فيجيزون أن تتنوع المواقف وتتعدد الحوادث مادامت تدور كلها حول خلق واحد تحلله وتفصله

الوحدات الثلاث

ولقد كان القدماء من أشياع المذهب الاتباعى (Classique) فى فرنسا أثناء القرن السابع عشر يشترطون فى العمل غير هذه الوحدة وحدتين أخريين : هما وحدة المكان ، ووحدة الزمان ، ويسمون ذلك قانون الوحدات الثلاث ، وظلوا يطبقونه فى غير لين ولا هوادة حتى ظهر المذهب الأبتـداعى (Romantique) فى صدر القرن التاسع عشر فهاجم هذا القانون فيما هاجم من قوانين القدماء . وكان من أثر هذا النضال العنيف بين أنصار المذهبين أن تجوز الأدباء فى تطبيقه ، وأغضوا النظر قليلا عن تحقيقه ،

فذهب ما يشينه من تكلف وتعسف ، وبقى ما يزينـــه من دقة وتحديد . فماذا كانوا يريدون بوحدتى المكان والزمان ؟ كانوا يريدون بوحدة المكان أن يفرض وقوع العمل كله فى مكان واحد لا يتعداه ، فاذا وقع فى مدينة أو معسكر أو طابق بيت ظل ذلك المنظر واحداً فى كل فصل من فصول الرواية من بدء التمثيل الى ختامه . وإن اقتضى الحال أن يعمل أحد الأشخاص عملاً يحتاج الى نقلة أو رحلة عمله خارج المسرح ثم نبأ به الشاهدين فى وقته المناسب . وكانوا يريدون بوحدة الزمان ألاّ يستغرق العمل الروائى أكثر من أربع وعشرين أو ست وثلاثين ساعة . وكان أرسطاليس يحتم ألا يتجاوز هذا الزمن دورة الشمس . وعلتهم فى اشتراط هذه الوحدات الثلاث محاراة السلف من الأغريق فى سلوك هذه الطريقة ، والمحافظة على الأمكانية بمقاربة الحقيقة ؛ فان الذوق السليم يقتضى أن ما يمثل فى ثلاث ساعات أو أربع يكون قد حدث حقيقة أو فرضاً فى زمن يسير ومكان واحد . ولكن المحدثين يقولون لماذا تستطيع المخيلة أن تتصور الحادث الذى أتت عليه القرون حاضراً ، ولا تستطيع أن تتعقب الحادث من مكان الى آخر ؟ واذا قبلت مخيلاتنا أن يمثل لها فى ساعة أو ساعتين ما لا يحصل إلا فى يوم وليلة ، فكيف ترفض أن يمتد العمل الى ما وراء ذلك ؟

الواقع أن الكتاب يتوسعون فى هذه القاعدة حتى القدماء منهم ما داموا محتفظين بالامكانية ووحدة الجاذبية . وقد أصبح اليوم تغيير المكان وتطويل الزمان من الأمور الميسورة على المسرح الحديث ، فعالجوا الأول بارخاء الستار هنيهة ريثما ينتقل الممثلون الى مكان آخر — والستار ميزة لم تكن لمسرح القدماء من قبل — وعالجوا الثانى بتقسيم الرواية الى فصول يفرضون مرور الزمن الذى يريدونه فى الفترات القصيرة التى تتخللها . على أن هذا الزمن وإن يكن غير محدود لا ينبغى أن يطول حتى يخرج عن حدود الامكان ، فلا يجوز مثلاً أن يكون البطل صغيراً فى الفصل الأول ثم يدركه الشيب فى الفصل الأخير .

أما السرعة فيجب أن يكون العمل فى الرواية أسرع منه فى الملحمة ، لأن الملحمة مسرحها الطبيعة ، ومرماها ذهن القارئ ، فهى تحتمل من التطويل والتفصيل والاستطراد والوصف ما لا تحتمله الرواية لضيق مسرحها وقرب مداها . فهى لا بد أن تبدأ فى عنفوان العمل وعلى مقربة من الحل ، لأن طبيعتها من قوة الحركة وشدة الاندفاع ، وما تحدثه فى نفس الشاهد من شدة القلق وقوة الانجذاب ، تأبى الأسراف فى خلق الظروف وابتكار الوسائل ، فلا تسيغها إلا بقدر الحاجة الملزمة . فالرواية ولا سيما المأساة ، سيل يقطع السدود ويقتحم الحواجز ، ولكن الملحمة نهر فياض يتحدر هادئاً طليقاً الى مصبه ، فيطول مجراه بكثرة منعطفاته وتعدد محانيه . واذا امتازت الملحمة بالتنوع والغزارة والفخامة ، امتازت المأساة بالسرعة والتأثير والحرارة .

بقيت الصفة الثالثة وهى توجيه الأثر الى الذهن لا الى الحواس ، لأن المسرح اذا غلّب التأثير فى الجسم على التأثير فى الفكر كان أقرب الى الملعب (Cirque) وهو مظهر العجائب البدنية من الحيوان المروض والانسان الممرن ، وكان جزاءه أن يفقد سلطانه ومكانه فى قليل من الزمن . وعلة ذلك أن التأثير المادى محدود متشابه ، فلا يلبث الناس أن ترى أعينهم مداه وتتعود آذانهم صداه ، ويدركوا أن ما قرع أسماعهم أول مرة من أصوات الألم المروعة ، وأنات الاحتضار الموجعة ، انما هو صوت واحد متكرر الأثر ، ويؤول الأمر بالشاهدين والمؤلفين حتماً الى أن يفقدوا التأثر منه والتأثير به لتشابه موضوعاته وتكرر مؤثراته . من أجل ذلك لا ترى على المسرح تفاصيل الحوادث المرعبة كالقتل مثلاً ، بل يفرض حدوثها فى ظاهره (Coulisse) ، ثم تلقى الى الشاهد على لسان شخص من أشخاص الرواية . ومسرح الأغريق نموذج المسارح فى هذه السبيل . أما المسرح الرومانى فقد دعاه غلظ الطبع وجفاء الشعور الى أن يسمع النظارة أنين مصارعى الثيران وهم فى سياق الموت ، ويريهم دماء الضحايا وأشلاء القتلى مبعثرة على أرضه ، فتأخر الفن الروائى عند الرومان من جراء ذلك كثيراً

(الزيات)

يتبع

في الأدب العربي

كثير عزة

مدى التطور فى شعره ، خَلْقه وخلُقه ،
شيعى وشاعر الأمويين ، عشقه

بقلم عبد الحليم عباسى

يعجبك فى الأدب العربى القديم ظاهرة جديرة بالبحث العميق ، وهى شيوع هذا الأدب الغنائى ، فالشعر الجاهلى الذى وصل الينا لا يتعدى هذا النوع فى الأعم ، فهو غنائى فى لفظه ، وفى موضوعه ، بينا تجده فى الأمم ذوات الأدب لم يسم الى هذا الضرب إلا بعد قيام الدولة وازدهار النهضة . . . فالشعر اليونانى لم يصل الى هذه المرتبة إلا بعد أن اشتد أمرهم وعظم سلطانهم ، فأخذوا يقيمون المستعمرات على شواطئ البحرين ، وكذلك الشأن فى الأمم الأخرى ، فهو عند الرومان مثلاً لم تقع عليه قرائح الشعراء إلا بعد قيام الدولة ببضعة قرون ، وهو فى الأمم الأوربية الحاضرة كذلك قد ساوق النهضات وقيام الدول .

ويجىء على الضد من ذلك فى الأدب العربى ، فقد نهض وما برح العرب يهيمون فى أوديتهم القاحلة ، لا يلم شعثهم بأس الدولة ، ولا يحكم أمرهم شرف الملك ؛ ولعل البحث فى علة هذا يعود الى ضرورة البحث فى خصائص الخيالين : الآرى والسامى ، والى تفهم المزاج العربى الأصيل ، مما نرجئه الى وقت يكون أكثر ملاءمة من هذا الوقت الذى نخصصه للبحث عن كثير ، وحسبنا هنا أن نشير الى ذلك ، وأن نشير الى أن من هذا الشعر الغنائى ما يتصل بكل نفس ، ويخلد على وجه الدهر ، وهو الشعر الذى ينبعث من نفس الشاعر ، لا يبتغى من ورائه غرضا ، وإنما يقوله إرضاء لرغبة الجمال والفن فى نفسه ، ومنه الغزل والحنين ، وهو شائع فى الأدب العربى شيوعاً كبيراً ، استطاع معه أن يلوّن خيالهم ، وأساليب تفكيرهم ، وأن يجعل الرقة فى الحديث والحوار ، والبكاء على الدمن من أظهر صفات العرب . . ومن هؤلاء الشعراء الذين زادوا فى ذخيرة الأدب الوجدانى كُثيّر بن أبى جمعة .

مدى التطور فى شعره

كانت الحقبة التى أعقبت عاصفة الفتح الاسلامى الجتاحة ، والتى دوخت بلاد فارس ، وأدخلت فى حوزة المسلمين كثيراً من الأيالات الرومية ، حقبة فيها شىء من الهدوء والاستقرار على الأقل — فى الأطراف النائية عن مقر الملك الأموى ، وكان من ذلك ، ومن هذا الرخاء الذى أخذ يمتد بما هيأ له الفتح الاسلامى من فىء يفيض عن الحاجة ، أضف إلى هذا ما اقتضته سياسة الملك من ضرورة مشايعة الشعر والأخذ بناصرهُ أن نهض الشعر ، وازدهر سلطانه ، وقامت له مدارس كثيرة من أشهرها هذه المدرسة التى لم يقتصر التطور على تغيير أسلوبها اللفظى ، وانما تناول مع القالب الشعرى الفكرة ، وكُثيّر أقرب إلى هذه المدرسة منه إلى أية مدرسة أخرى . . .

وقد غارت هذه المدرسة الأنماط الشعرية المتواضع عليها من القديم ، فقد أنشأت القصائد يقصدبها النسيب فحسب ، ويقصدبها موضوعات غير هذه المعروفة قديماً من الهجو والمدح والاستجداء .

وكُثيّر وإن يكن من هذه المدرسة الا أن العوامل والمؤثرات التى أثرت فى نفوس أصحابها لم تكن عميقة الأثر فى نفسه ، فقد مدح وهجا ، وكل ذلك بلفظ شيق سمح صقلته الحضارة الأسلامية التى بدأت تتفتح ، وباعدت بينه وبين وعورة الأسلوب الجاهلى ، وليس لذلك من تعليل غير أن النفسية العربية لم تتطور بعد التطور كله ، ولم يحن لهذا التمازج الهين مع الثقافات والأمم الذى أخذ يظهر ، ان يبدو عنيفاً . . كما ان كثيراً لم يك له هذا الحسب الباذخ والغناء الفاضح ، الذى للعرجى وابن أبى ربيعة ، فالزمن يقسره على المدح ويضطره الى الهجاء ، ليأخذ الجوائز والهبات ، ويستفيد من موالاة هذه العصبيات التى أراد القابضون على مقاليد الأمر انبعاثها حية ، ليطرد لهم الملك . . بعد أن جاهد الاسلام فى اخفائها زمناً طويلاً . . .

ولكنه إذ يمدح يجانب بعض الشىء هذا المثل الذى يحتذيه شعراء العرب ، وهو النمط الجاهلى . . فهو يضيف الى رقته شيئاً من هذه الصور الوضاءة ، التى بعثها عيشة الهدوء والاستقرار .

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى نافعاً ... بكت فبكى مما شجاها قطينها

وهو يجيد بصفة خاصة مدح الملوك إجادة منقطعة النظير، حازت إعجاب معاصريه حتى كانوا يرون من أبرز صفاته القدرة على ذلك. فلا غرو بعد هذا أن كان أثيراً عند ملوك بني أمية يعلمون أبناءهم شعره :

خَلقه وخُلقه

عن الوقاصي قالت : رأيت كثيراً فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب، وقد تشاجر هو والشاعر الحزين، فقام كثير وحمل على الحزين ولكزه، فحمله الحزين في يده مثل الكرة، ورمى به الأرض.. وهو الى ذلك دميم أحمر، أما أخلاقه فكان شديد التيه والكبر، كثير العجب بنفسه، تقع من ذلك على نوادر مضحكة. فمن ذلك أن بعضاً من فتيان قريش كانوا يتحدثون على مسمع منه، بأن كثيراً من تيهه لا يلتفت الى ورائه، ثم يتبعونه عن يسحب رداءه فلا يلتفت أبداً، وقد عُرف عنه أنه أحمق وفيه غفلة، ولسنا نشك في ذلك، ولكننا نشك في عامة هذه الروايات التي تقص علينا نوادر حمقه، والتي توصله من الغفلة والانتكاس في العقل حداً يصعب تصوره، في مثل من هو مثله في قوة شاعريته.. فمن ذلك أنه قال لعمته مرة : أتدرين من أنا ؟ فقالت : نعم، أنت فلان بن فلان، فقال : لا، وإنما أنا يونس بن متى !... وقال لأصحابه وهو في مأدبة الموت : ستروني بعد أربعين ليلة طالعاً على فرس عتيق من شعاب هذا الوادي.. وقد كان له الى ذلك آراء في الرجعة والتناسخ، وهذه من العوامل التي جنت عليه في عامة هذه الروايات، فما عرف الناس منه هذا حتى راحوا يختلقون ويضيفون اليه شتى الروايات التي تؤيد مزاعمهم انتقاماً من تيهه وكبره، ثم يتعاقب الزمن، فتصبح هذه المزاعم حقائق ثابتة يتناولها الكتاب دون ما نظر ولا تمحيص، وليس لدينا مايقوى هذا الشك في صدق هذه الروايات، غير ما نلمحه في سيرة كثير من أنه كان محاطاً بزمرة حبب اليها التندر والفكاهة، ومن أولى بهما من هذا القزم الذاهب بنفسه. من ذلك أن أبا هاشم عبد الله محمد بن علي وضع عليه من يأتيه بأخباره، فكان يلقاه فيحدثه بما كان منه في خلال يومه، وكثيّر يعجب من هذا، حتى جاءه يوماً بكلام جرى بينه وبين آخر، وقال له : لقد جرى منك اليوم كيت وكيت... فقال كثير : أشهد أنك رسول الله...

فمن هنا نرى مبلغ ولوع الناس بالعبث به حتى كانوا يرصدون له بمن كان يأتيهم بأنبائه، لا يسقط منها حرفاً..

وزاد في الطين بلّة أنه كان دعي النسب الى قريش، وأكثر الرواة يلحقونه بخزاعة، ولكنه هو يأبى إلا أن يكون من كنانة قريش، ويأبى إلا أن يدل بهذا النسب المختلق على القرشيين أنفسهم، وإذا عوتب في ذلك وأعوزته الحجة قال : لدعيُّ النسب في قريش خير من صريحه في غيرها من القبائل. ومن هنا ندرك مبلغ ما انطوت عليه نفسه من حماقة، وما ركب فيه من تبجح وادعاء.

على أننا إذا شككنا في كثرة هذه الروايات التي تمثل حمقه وغفلته، فلا نشك في أنه كان دميماً الى حد البشاعة، وكان تياهاً بنفسه، وهذا ما يكفي لصد الناس عنه واستثقالهم لظله.

شيعيٌّ وشاعر الدولة

من المعروف عن كثيّر انه كان متشيعاً مغالياً في التشيع، وكان ملوك بني أمية يعلمون ذلك، ولكنهم يحسنون مع هذا وفادته، بل يذهبون الى أبعد من هذا في إكرامه، فينعتونه بشاعر الدولة، وتعلل الروايات الاسلامية هذا بلطف مدخل كثير وجلاله في أعين الخلفاء، وهي قولة ليس فيها سداد منطق ولا عمق بحث.. فأين لطف المدخل عند هذا البغيض الروح ؟ وأين هذا الجلال عند من لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار ومن هو دعي النسب في قريش ؟.. ولا سيما إذا علمنا بأن صدر الدولة الأموية لم يكن يتسع للشيعة، فكم أخذتهم بأساليب العنف والقوة، وكم صرعت من جلة الناس، وما حوادث زياد بن سمية وتنقيبه عنهم تحت كل حجر ببعيدة المدى، بل هذا الحجاج في العراق، يقتفي آثارهم ويأخذهم هبراً بالسيف وبعجاً بالرماح.

إذن فلابدَّ من أن يكون في الأمر شيء غير هذا الجلال المزعوم، ولطف المدخل الموهوم، مكّن لكثيّر من أن يحتمله الأمويون، وأن يستحلفه الخلفاء في مجالسهم بعلي ؛ إذا ما أرادوا

أن يصدقهم بخبر دون أن يروا فى ذلك غضاضة .

ولنبحث بايجـــاز فى طبيعة هـذا التشيع الذى كان يعتنقه كثيّر فلعل فيه العلة ، وما نخال إلا ذلك . . .

نشأت الشيعية فـكرة بسيطة ، تتلخص فى أن علياً وأحفاده أحق بالخلافة من كل من عداهم ، ثم أخذت تتطور هذه الفكرة حتى أصبح الشيعيون فى هذه الفترة التى نكتب عنها فرقاً متباينة لا يستبان بها . . .

وأشهر هذه الفرق فرقتا الزيدية والأمامية ، ومن هـذه الأخيرة تتشعب فرق متعددة يختلفون فى أشخاص الأئمة ، منها هذه التى تنتظر خروج محمد بن الحنفية . وقد كان من أتباعها شاعرنا كثيّر ، فهو يمدح هذا الامام وينعت أحفاد على بالأنبياء الصغار ، وليس فى طبيعة هذا التشيع ما يضير الأمويين إذ هو لا يتعرض للقضية الـكبرى وهى قضـية الملك والخلافة ، وأن أحفاد على أحق بها من آل مروان ، فقد ألهته هذه الأمور أو ألهى بها نفسه — لا ندرى — عن القضية الأساسية الـكبرى كما أسلفنا .

أقر الله عينى إذ دعانى أمين الله يلطفُ بالسـؤال
وأثنى فى هواى علىّ خيراً ويسأل عن بنى وكيف حالى
هو المهـدى خبرناه حق أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

***

وسبط لا تراه العـين حتى يقود الخيل يقـدمها اللواء
تَغَيَّب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنـده عسل وماء

فهل ترى فى هذا النوع من التشيع ضيراً على الأمويين ؟ بل نزعم أكثر من هذا وهو أن الأمويين ما كانوا ليروا حرجاً فى أن يشيع هذا النوع ، ليمدوا فى أسباب الخلف بين فرق الشيعة من جهة ، وليلهوهم من جهة ثانية ، وما عليهم ان قعدت بهم هممهم ، ينتظرون هذا الذى يقود الخيل يقدمها اللواء

فلا جرم أن لم يأبهوا لتشيع كثيّر ، وما عليهم وهو يجيد مدح الملوك ، وقد تغلغل حب القرشيين فى صميمه ، يحب من والاهم ، ويعادى من عاداهم ، ان اتخذوه شاعرهم يقـدمونه ويروون شعره ، وهو بعـد الشاعر البعيد الصيت ، المستفيض الشهرة .

عشقه

يشك بعض الرواة ، فى أن كثيرا كان صادق العشق لعزة ، ويدللون على ذلك بروايات نرى فيها أثر الاختلاق والتكلف ، فمن ذلك أن كثيرا تبع مرة بثينة وقال لها متغزلاً :

رمتنى على عمـد بثينة بعـدما تولى شـبابى وارجحن شبابها

فالتفت فرأى وراءه عزة فاستدرك وقال :

ولـكنما ترمين نفساً مريضة لعزة منها صفوها ولبابها

وهكذا دواليك من هذه المزاعم التى يلحظ فيها الانسان أثر الصنعة ، ولا نعرف من أين غلب على الرواة هذا الظن ، لعلهم ظنوه قلد جميلا فى غزله ، دون أن يعرف قلبه هذا الحب المبرح . .

والذى نعتقده ونحن ندرس شعره الذى تركه فى عزة ، فنرى اللوعة وبرح الهـوى ووقدة العاطفة ، أنه أحب عزة حباً قوياً جارفاً كما يقولون ، وكان من أثر هـذا الحب أن زفر بهذا الشعر الذى يحمل نجيع القلب ، وذوْب العاطفة ؛ وهاك ما قاله فيها لما أخرجت الى مصر ، ولك أن تحكم :

وقال خليلى مالهـا إذ لقيتها غداة السنا فيها عليك وجوم
فقلت له إن المودة بيننـا على غير فحش والصفاء قديم
وإنى وإن أعرضت عنها تجلداً على العهـد فيما بيننا لمقيم
وإن زماناً فرق الدهر بيننا وبينكم فى صرفه لمشوم

ولـكن أنى لهذا الحب أن يدوم وقد فترت داوعيه . فمن الرواة من يشك فى أن كثيرا رأى عزة واجتمع بها ، والذى صح عندنا أنه رآها ، ولـكن فى مرات معدودة ، وأنها لم تـكن تبادله الحب قوياً كحب بثينة لجميل بن معمر ، فمن هنا مال لغيرها وقصد القصائد فى أم الحويرث ، وأخرى اسمها ظلامة ، والمرء إذ يطالع شعره فى هاتين ، يراه بارد العاطفة ركيك الصنعة .

تقطع من ظلامة الوصل أجمع أخيراً على أن لم يك الوصل ينفع

وقس هذا بهذين البيتين يقولهما فى عزة :

وأجمع هجراناً لأسماء إن دنت بها الدار لا من زهدة فى وصالها
فإن شحطت يوماً بكيت وإن دنت تذللت واستكثرتها باعتزالها

وأخيراً فشعره فى عزة هو الذى زاد فى ذخيرة الأدب الوجدانى ، ومحال أن يكون مجرد صياغة وصناعة

عمان

عبد الحليم عباسي

مِنْ طرائفِ الشِّعرِ

الى شبان المسلمين

للشاعر الحاج محمد الهراوى

قل للشباب المسلمين تحيةً — من مسلم ثبت على إيمانه
ويزيده فى الله حُسنَ عقيدة — ما جرّه الالحادُ من خسرانه
الغربُ مجلبة الخسار جميعه — والشرقُ مفتتنٌ به عن شأنه
متوددٌ ، والغربُ لم يأبه له — لا فى مودته ولا شنآنه
ماذا من الغربىّ فى إحسانه — والشر غلّابٌ على إحسانه
ما زال يرمى الشرقَ من نيرانه — حتى تردّى فى لظَى نيرانه
فى كل يوم معقِدٌ لِلجانه — والمشكلاتُ تنزُّ تحت لجانه
لو أخلص الغربىُّ فى نيّاته — ما ثارت النيرانُ من بركانه
ما باله ، والعدل من ألحانه — تبكى العدالةُ فى صدى ألحانه
لو يحفظُ الشرقىُّ طابعَ قومه — لم يطوِهِ الغربىُّ فى سلطانه
أو كان يزهدُ فى الحياةِ لعزّه — ما هان بعد العزّ فى أوطانه
أو كان متبعاً لآى كتابه — لمَضَى ، وهذا الدهرُ طوعَ بنانه
لكن سَبَتْهُ حضارةٌ غربيةٌ — ألقى الى مضمارها بعنانه
أين الغزاةُ الفاتحون وأين ما — فتحت سيوفُ الله من بُلدانه
أين السراةُ الخيّرون وأين ما — شادوا لدينِ اللهِ من بُنيانه
أين البيوتُ العامراتُ بأهلها — سل كلّ بيتٍ دالَّ من سكانه
والأزهرُ المعمورُ أين مكانهُ ؟ — سل عنه: أين، وأنت فوق مكانه
فرِحوا وهم يبنون كلياته — فليفرحوا بالطوب تحت دهانه
من يوم أن نقلوه عن جُدرانه — قد طار سر الله عن جدرانه
فاسأل عن الأحياءِ من علمائه — والفتيةِ الأطهار من شبانه
المتّقــين اللهَ حقّ تُقاته — الحافظين لدينهم وكيانه
العالِمينَ بشرعه وكتابه — العاملين بروحه وبيانه
خرجوا وحتى الزى لم يبقوا له — ظِلّاً لجبته ولا قفطانه

***

مولاى : يامالكَ البلادِ وذخرَها — وملاذَ هذا الدينِ عند هوانه
مصرٌ بأزهرها القديمِ كما بدا — بالطابع الموروث منذ زمانه
فأعِدْ اليه عهدَه واستبقِهِ — تدفعْ به الإلحادَ فى عُدوانه
أدعو شبابَ الشرق من أجناسه — وعلى اختلاف الشرق فى أديانه
أدعو لجامعةٍ تضمُّ شتاتَهُ — من صينِهِ الأقصى الى تطوانه
إن لم يكن فى الدين جامعة له — كبرى ، ففى آلامه ولسانه
مابالُنا والغربُ غربٌ دائماً — فى ظِلّه نمضى وتحت ضمانه
فخذوا سبيل الدين فهْوَ كفيلكم — ليردَّ سيلَ الغرب عن طُغيانه
والدين للدنيا وللأخرى معاً — وسعادةُ الدارَيْنِ فى قرآنه

أهذه الأرض ؟

للأستاذ فخرى أبو السعود

مَنْ غازَلَ الرَّوضَ حتى افْترَّ جذلانا — وكان منقبضاً بالأمس غضبانا ؟
ونضَّرَ الزرعَ فاخضرتْ لفائفه — وانبث فى الأرض آكاماً ووديانا
وأخرج الزهر من أقصى منابتِهِ — فرصَّعَ العُشْبَ أشكالاً وألوانا
وصاح بالريح حتى قرَّ ثائرُها — إلّا نسيماً بعَرْفِ الزَّهر مَلآنا
وكفكفَ الغيثَ فانجابتْ عوارضُه — وكان لا يأتلى هَطْلاً وتهتانا
وقشَّع السُّحْبَ عن أُفْقِ السَّما فبدا — طَلْقاً وأطلع وجهَ الشمس ضَحْيانا
وَرَدَّ غائلَ بَرْدٍ كاد يُهلكنا — عاتٍ وأرسلَ دفئاً منه أحيانا
أهذه الأرضُ مازالت كما عُهِدَتْ — أمْ بَدَّلَتْها جنودٌ من بسليمانا ؟
قد ظلَّ ملتحفاً بالدَّجْنِ محتجباً — حُسْنُ الطبيعة طولَ العامِ وسنانا
حتى انجلى فبدا من طول لهفتنا — إليه آخَذَ بالألباب عُريانا
وللطبيعة حُسْنٌ حيثما سفرتْ — فى الشرق والغرب سابٍ أينما بانا
ليست أقلَّ بأرض الثلج فِتنتُهُ — منها بوادٍ يغذّى النَّخْلَ والبانا
وَدِدْتُ لمّا تمشّى فى الجزيرة لو — يُتاح لى فى حماها الخُلْدُ أزمانا
علّى أعُبُّ مليّاً من مناهِلِهِ — ويغتدى القلبُ من ريّاهُ ريّانا
ذرَعْتُها من جنوب الأرض مبتغيا — شمالها ممعناً فى السير إمعانا
والشمس ترمى شُواظاً من أشعتها — آناً ويَفْتُرُ عنّى وَقْدُها آنا

مقلقلَ الشخص تعلو بى غَوارِبُها   حينًا وتهبط بى الأغوارُ أحيانا
تبدو على الافق الآطامُ ماثلةً   خلف المزارع أسرابا وأُحْدانا
وَقَدْ عَلَتْ بينها الابراجُ راسيةً   طَوَتْ بموضعها دهراً وحِدْثانا
إذا هَبَطْتُ قُراها أو مدائنَها   رأيت خيراً وإثراءً وعمرانا
ماجت بمن درَجُوا فيها ومن ركبوا   كالنمل تعمُرُ ألواذاً (١) وكثبانا
وإن أوَيْتُ لأحضان الطبيعة لمْ   ألاقِ أحْنى على الأبناء أحضانا
أهْدَتْ إلىَّ وفوداً من نسائمها   تترى وظلاً من الأغصان فينانا
قد أمَّنَ العدلُ قُطّانًا وَسابلةً   بها وظَلَّلَ أجوازاً وبلدانا
وَفاءً للحق شعبٌ فى مَنا كِبِها   على الإباءِ لِوَجْهِ الحقِّ قد دانا

فخرى أبو السعود

(١) ألواذ الجبل : جوانبه وما يطيف به

زفرة

للأستاذ محمد خورشيد

ذكّرونى كيفَ أبتسِمُ   قد طوى عهدَ اذنَا الألمُ
وشؤونى باتَ زاخرها   بدمِ ابنِ الجنبِ يلتطِمُ
وربيعى للخريفِ حَبَا   وَشبابى اغتاله الهرَمُ
أشتكى همى فيشمت بى   زمنٌ أنوارُه ظُلَمُ

***

أنا فى ليلِ الشقا همدت   جذوتى واجتاحنى السَّحَمُ
لمْ يَشأ ليلى السُّرَى فغفا   وطلبتُ الفجرَ أعتصِمُ
فذوى فى مهده أملى   حين زلّت بالمُنى القدمُ

***

لحياتى — والأسى قدرٌ —   صفحاتٌ كلهُنّ دَمُ
حسبونى بينَ مَن وُجِدوا   ووجودى ـ لودَرَوا ـ عَدَمُ
زفرةٌ كالجمرِ لاذِعةٌ   سَلَّها من صدرىَ القلمُ

القدس   محمد خورشيد

أستاذ الأدب العربى بالرشيدية الثانوية

خبيئة نفسى

للأديب سيد قطب

خبيئةَ نفسى، قد غفا الكونُ فاسفُرِى   وكونى سميرى، بعد إذ نام سُمَّرِى
سها الدهرُ والأقدارُ رنّقَها الكرى   وهوَّمَ فى جوفِ الدُّجَى دوحُ خُيَّرِ
يُطيف على العانين بالعطفِ والرضا   ويغمرُ بالأغفاءِ رأسَ المفكرِ
وينتظم الدنيا هدوءاً كأنها   عوالمُ فى وادى المنى لم تُصوَّرِ
فلا صوتَ إلا خفقةٌ من جوانحٍ   كما خفقتْ للضوءِ عينُ المصوِّرِ
ولم يَبقَ من هذى الحياةِ وأهلِها   سوى طيفِها السَّارِى بوادى التذكرِ

***

خبيئة نفسى من عهود سحيقةٍ   ومن جوف آبادٍ مضت قبل مولدى!
أمسّكِ فى أغوار نفسى ولا أرى   محيَّاكِ إلا كالخيال المشرد
علمتُكِ حتى أنتِ مِنّىَ بضْعةٌ   جهلتكِ حتى أنتِ فى غير مشهدِ !
ويا طالما أخلفتِ لى كلَّ موعدِ   ويا طالما ألقاكِ فى غير موعدِ !
عجبتُ فكمْ مِنْ نفرةٍ تنفرينها   على فرطِ ما تبدينه من توددِ !
حديثُكِ من نفسى قريبٌ وإنما   إخالُكِ فى وادٍ من التيهِ سرمدِ

***

خبيئةَ نفسى، ماترى أنتِ؟ إننى   أريدكِ فى جوٍّ من الضوءِ مَعلمِ
أعنصرُكِ الايمانِ والطهرُ أصلُه   وإلا إلى الكفرانِ والرجسِ مُنْتَمِ
وفى أىِّ وادٍ أنتِ تسرينَ خلسةً   ومن أىِّ عهدٍ فى الجهالاتِ مبهمِ
وكمْ فيكِ من نصرٍ وكمْ من هزيمةٍ   مجاورتا فى حشدكِ المتزحِّمِ
وكمْ فيكِ من يأسٍ وكمْ فيكِ مأمل   وكمْ مِنْ تردٍّ أو وثوبِ تقحُّمِ
وكمْ فيكِ من حبٍّ وكمْ فيكِ بغضةٌ   ومن رشد إلهامٍ إلى خبطِ مظلمِ

***

خبيئةَ نفسى فى ثناياكِ معرضٌ   لما لقيته الأرضُ فى الجولانِ
وفيكِ من الآباد سرٌّ وروعةٌ   وفيكِ صراعات بكل زمانِ
وفيكِ التقى الانسانُ من عهد خلقه   وفيكِ التقى الروحىُّ والحيوانى
وانتِ طِلَّسْمُ الحياة جميعها   وصورتها الصغرى بكل مكان
أبينى إذن عن ذلك العالم الذى   تضمّنتِه من صورةٍ ومعانِ
أبينى أطالعْ فى ثناياكِ ما مضى   وما هو آتٍ من رؤًى وأمانِ

سيد قطب

٢ – بين الشك والايمان

بيـــرون

للأستاذ خليل هنداوى

تسمع قلبه يخفق ، وتصغى إلى ضميره يهتف ، فتعرف أن الشك قد فتح فى قلبه الذى يريد ألا يحس شيئاً جراحات لم تفقده الحياة ولا يرجى له منها شفاء . «وباطلاً ترتسم الابتسامات على شفتيه ، وباطلاً يتحرى الطرب عن سبيل ينفذ منه اليه فى الليالى التى يثور فيها قلقه » ، ويشبه نفسه بذلك الأكليل الغض ظاهره ، الذاوى باطنه ، وإزاء هذا الشقاء قد نراه ينتفض كالجبار فيقول بلهجة صارمة « ليقل عنى من رآنى حانى الجبين ومن أورثه قلق نفسى ضعفاً »

إن الشاعر لا يعاند فى احتمال الشقاء ، ولكنه يريد أن يقابله وهو قوى لا ذليل مستكين ، يريد أن يصبر عليه كما يصبر الرجل عند البلاء ، يريد أن يموت كالسراج الذى لا ينطفىء حتى يشيع ما حوله بشعلة ساطعة يختم بها حياته ، ولكن هذه الانتفاضات المؤقتة سرعان ما تتلاشى ليبدو وراءها (بيرون) نفسه .

يقول هارولد « إن آلامنا العاصفة تترك وراءها أثراً بعد ذهابها : قليل من شيء يسقط على ذلك القلب فيهزه إلى الابد وقد يكون هذا الشيء نغمة شائعة ، أورنة موسيقية ، أو ذكرى ليلة من ليـالى الصيف ، أو ربيع بهى ، أو زهرة أو ريح ، أو البحر الذى يفتح على حين فجأة جراحاتنا »

وراء هذه الخاطرات يكمن بيرون الذى يصف نفسه ونفوس كثيرين مثله ، فهو سئم من الماضى القاتم ، وهو شاك من الحاضر الظالم ، ويائس ناقم من الغد القادم . تقرأ فى أسارير وجهه المتجعد هذه الآيات التى كانت كل همه فى الحياة .

وروح بيرون هل ارتاحت إلى شقائها أو غلب عليها أمل فى غد هو أزهى من الحاضر ؟ وإنما يهمها من ذلك الغد أن تجتمع فيه إلى أحبابها وأصدقائها .

« وما عسى يحول إليه هؤلاء الأحباب المختفون ؟ وهل نراهم بعد أن تواروا فى الثرى ؟ ألا يبقى منهم شيء غير الأسماء المنسية ؟ »

وقف بيرون على قبر صديق له مات فى مقتبل عمره وقال : «هل يمكننى أن أومن أنك أمسيت لا شيء وأنت حى مقيم فى ذاكرتى . أجل ! إننى أعلم بأننا سنجتمع معاً . وهذا الوهم سيملأ فراغ قلبى»

وهكذا نجده لا يذكر المستقبل إلا مصحوباً بوهم أو بحلم ، ولـكنه وهم خلقته له الحاجة ، فهو لو لم يرغب فى لقاء من مات من أترابه لما خلق هذا الوهم .

وبيرون هو الذى يهتف : « أصدقائى يتهاوون على الثرى من كل جنس ، وأنا سأرسو على الأرض كشجرة منفردة قبل أن يغشاها ذبول . يستطيع الرجال الآخرون أن يلوذوا بأهليهم وأنا لا ملجأ لى إلا عواطفى التى لا ترينى فى حاضرى وفى غدى إلا الرضاء الأنانى يبقانى حياً بعدهم ، إننى لشقى ! »

وقد يبلغ به اليأس مبلغاً أشد وأقوى فيقول « أيها الانسان ! ترفع عينيك إلى السماء وأنت لاصق بالأرض ، ألا يكفيك أن تعرف من أنت ؟ وهل كان الوجود منحة ثمينة تنعم بها مرة ثانية بعد هذه ؟ وترغب فى التوجه إلى مكان لا أدريه ، جل ما تطلبه أن تستعجل الفرار من هذه الأرض ، والفناء فى السماء »

وفى حالة يأس كتب بيرون هذه الفقرة «الموت ! وا أسفاه ! ذهاب دائماً ! فالى أين ذهبوا ؟ وإلى أين يذهبون ؟ أسأحول إلى العدم الذى كنت فيه قبل حياتى وشقائى الحى ؟ »

وهذه الفقرة الثانية « الحياة تحلق بين عالمين : كالنجمة المعلقة فى حاشية الأفق يكتنفها عالما الظلمة والنور . إن أوقيانوس الزمن الخالد يمشى ويجرف معه (حبباً خفيفاً) . الحبب القديم يتلاشى والحبب الحديث يتألف منفصلاً من زبد العصور . وخلال ذلك ترى بقايا هذه الممالك تجرفها أمواجه الهاربة »

ولـكن هذه الثورة النفسية يتخللها شيء من الهدوء . أوقل هدوء الخضوع للقدر المجهول الذى يعمل دون أن يرى . فيخلق الشاعر من هذا الرضا شيئاً يبعثه على الرجاء فيناجى الموت قائلاً : «أيها الموت القاسى ، قد ملكت منى كل ما تستطيع أن تأخذه : سلبتنى أمى ، ثم صديق ، والآن نزعت منى أسمى من صديق ، ولـكننى أنحنى بوقار أمام الله » وإذا بهذا الوقار ينمو فى نفس الشاعر ويوقظ فيه الايمان القديم ويحيى فيه حنيناً إلى السماء ، فيأسف على القيود التى تحول بينه وبين الصعود إلى السماء التى تدعوه إليها بنظراتها الخلابة ، وإذا بشعره تبدو على ديباجته مسحة روحانية صوفية .

قال الـكونت (غامبا) : لأول مرة فتحت حديثاً دينياً مع الشاعر بيرون فى نزهة لنا قضيناها على ظهور الجياد بين غابات الصنوبر ، فكانت تلك العزلة باعثة على التأملات . فقال : والنهار مشرق الصفاء « كيف يشك الانسان فى وجود الله على الأرض إذا رفع عينيه الى السماء وخفضهما على الأرض ، ثم انحدر بهما الى

نفسه ، أفى استطاعتنا أن نشك فى أن هنالك شيئاً هو أسمى وأبقى من التراب الذى نشأنا منه ؟ . » وهو الذى كتب قبيل وفاته : « يخيل الىّ أن الانسان إذا تأمل فى أعمال الروح لايستطيع أن يجد شكاً فى خلودها ، إننى شئت أن أشك ، ولكن التأمل أبدى لى خطئى . أما هل حالتنا الثانية تشبه حالتنا الحاضرة ؟ فهذا سؤال آخر . أما أن الروح هى خالدة ، فهذا شأن ثابت عندى ثبات فناء الجسد . » ولكن بيرون الذى يؤمن بالحياة الثانيــة نراه لا يؤمن بها على المثل الذى جاءت به الكتب الالٓهية ، فهو يجعل من الجنة مستقراً للجميع ، ولا يود أن يحشر فى النار أحــداً .

ويقول فى هذا الموضوع : « إن كل بعث جسدى هو غريب منكر لايقبل به العقل إلا إذا كان المراد منــه إزال العقاب . ولكن كل عقاب غايته الانتقام من المذنب لا تهذيبه فهو عقاب سيء غير أدبى . والأهواء الانسانية هى التى بدلت — كما يتبادر الى الظن — المذاهب الالٓهية . والخلاصة إنه سر عظيم . »

وتراه يطلب الى الدين أن يحقق ما أبت الفلسفة أن تميط عنه اللثام : « ما هى الحقيقة ؟ ومن هو الذى يملك دليلها ؟ الفلسفة ؟ كلا : لأنها تنفى كثيراً من الأشياء ! الدين ؟ بلى . ولكن أى دين ؟ أما قد حان للالٓـه أن يحيى إيماننا فيرسل الينا نبياً جديداً . »

وهكذا تتوزع بيرون نوازع مختلفة ، منها ما يدنيــه الى الجحود بعد أن تجهد نفسه فى التنقيب والتفكر ، فلا تصل الى شيء . ومنها ما يصرفه الى الايمان بعد أن تكل عزيمته ، ويأخذ منه الأعياء كل مأخذ . فآياته منها الآية الشاكة الجاحدة ، ومنها الآية المؤمنة الزاهدة ، هو كالعصفور الذى يود أن يحلق فيحلق فى الأجواء حتى يبلغ الأوج الذى يستطيع ، ثم يهبط ويرضى بهبوطه لأن ارتفاعه لم يغنه شيئاً .

وكيف انتهى بيرون ؟ وهو الذى كان يرجو الموت فلايلقاه . وبكرهه أشد الكراهية اذا تمثل فى الانتحار ، أراد موتاً شريفاً فى ساحة الأبطال ، فيممّ أرض اليونان حيث دعاه داعى تحرير الانسان من الانسان ، فوجد نفسه يحيط بها القلق ويغلب عليها الاضطراب . وهناك وهو فى السادسة والثلاثين من عمره نظم مقطوعة ودّع بها الشباب والحياة ، وهو فى أزهى ريعان الشباب والحياة ، فلم يتمنّ إلا قبر الجندى البطل . فناجى نفسه قائلاً : « إذا فقدتِ من الحياة أعذب شيء ، فمن أجبرك على احتمال هذه الأعباء الثقيلة ؟ هى هنالك ساحة الشرف ، فاذهبى واختارى مضجعاً عظيماً ، اذهبى وتخيرى موطناً يهدأ فيه رمادك ثم استريحى »

وفى اليوم الموعود طار النبأ بأن (الرجل العظيم قد مات)

وقد أفرد النقادة الفرنسى (تين) فى كتابه « تاريخ الأدب الانجليزى » صفحات مختارة ، تناول فيها الشاعر (بيرون) ووصف بحذق ودراية (مرض العصر) (la maladie du siècle) الذى فشا بين الأدباء ، فأسقط كواكبهم ، وصرع عظماءهم .

يقول تين : [وهكذا عاش ومات هذا الرجل العظيم التعس ، فكان فريسة سمينة لم يعلق بمثلها مرض العصر (١) ، ومن حولها يتساقط الآخرون ضحايا . . . . . البعض انطفأ غارقا فى الذهول والنشوة ، والبعض قتله السرور والغناء . أما هؤلاء فقد آل أمرهم الى الجنون والانتحار ، وأولئك غلب على أمرهم العجز والداء . وكلهم عاشوا ناقمين حانقين متألمين ، وأشدهم عزماً من استطاع أن يحتمل جرحه حتى صار كهلاً ، وأكثرهم هناء من تألم كما يتألم الغير ، يحرص على جراحه وهى بريئة . قد ملأ أنينهم العصر كله ونحن وقوف حيالهم نصغى الى قلوبنا التى تردد هتافهم همساً ، ونحن كئيبون مثلهم ، تسيطر علينا الثورة ، فالديمقراطية قد فتحت مطامعنا دون أن ترويها ، والفلسفة أضرمت رغائبنا دون أن ترضيها . فرجل الشعب يشكو وضاعته . والشاك من شكه !

وانما هذا الرجل — كالرجل الشاك مصاب بسويداء حلت فى قلبه قبل أوانها . . . . فتراه يستسلم بعواطفه للشعراء الذين يقولون باستحالة السعادة ، وفساد بناء المجتمع وسقوط الانسان

لارجاء فى شفاء هذا الداء . لأنه داء لا تقوى على محوه عوامل السرور ولاالدين ولا أى شيء . . . وطويلاً سيشعر الناس بأن عواطفهم ترتعش لأنين شعرائهم العظماء . وطويلاً سينقمون على قدر يفتح لأهوائهم فضاء بدون حدود ، ولن يقدر لهم الشفاء حتى يحطموها . . . إن ذريتنا مصابة كالسابقين بهذا المرض نفسه . . إننا ذاهبون الى الحقيقة لا الى السكون ، كل ما نستطيع أن نعالجه فى هذه اللحظة هو عقلنا . . . إذ ليس لنا ما نؤاخذ به عواطفنا ، ان لنا الحق بأن نتفهم آمال غيرنا التى ليس لنا مثلها ، وأن نهيء لمن يأتى بعدنا سعادة لن نتمتع نحن بها ، وستكون لهم أرواح صافية المعدن عند ما ينشأون فى محيط صافى المعدن .

ولكن أين يكمن مورد هذا الصفاء ؟ إن مورده العلم وحده ، فان فى استخدام العلم وفى ادراك الأشياء ، فناً وأدباً وسياسة وشريعة جديدة ، وانما واجبنا اليوم أن نتحرى هذه الأشياء »

(بيروت) **خليل هنداوى**

---

(١) مرض الأسلوب العاطفى

العلوم

فكرة النظام الشمسى عند العرب

بقــلم فرح رفيدى

امتــدت الممالك العربية فى أيام الدولة العباسية ، والــكنيسة حينئذٍ فى أول عهد نفوذها ، وما قويت شوكة الخلافة فى بغداد ، حتى هدأت الزوابع السياسية التى كانت شديدة فى أيام بنى أمية ، وانصرف همّ الخلفاء الى نقل العلوم اليونانية والزيادة عليها . وأقول كما قلت فى أمر الــكنيسة ، إن العرب تلقنوا هذه العلوم ، وخصوصاً علمى الهيئة والنجوم من اليونان ، لــكنهم شرحوها شرحاً أقرب للحقيقة مما شرحته الــكنيسة . والسبب فى ذلك واضح ، لأن الــكنيسة كان غرضها الأكبر من تفسير العلوم اليونانيــة المحافظة على مقامها وتعاليمها لدى الشعب ، فأبقت العلوم لديها مختلطةً بالدين أو جزءاً منه . لــكن العرب لم يختلط عندهم العلم بالدين اختلاطه عند الــكنيسة ، فكان ما نقلوه وزادوا عليه هو لأسباب علمية بحتة ، وأيضاً لم يكن عندهم هيئة خاصة كمحكمة التفتيش تحاسب الفرد على اعتقاده ودينه .

لــكنا إذا سلمنا بكل هذا ، فلماذا لم يحدث الانقلاب العلمى فى أيام العرب ؟ أى لماذا لم يتوصل العرب الى حلّ رمز هذا الــكون الجليل بطريقة تبيّن إعوجاج النظام اليونانى ؟ نذكر لذلك سببين :

لما ابتدأ العالم العربى فى نقل العلوم كان ذلك فقط فى أيام المأمون فى أوائل القرن التاسع للميلاد ، أى فى بداية العصر العباسى الثانى ، ونعلم أنه قبل القضاء على الخلافة العباسية فى القرن الثالث عشر للميلاد قامت دول شتى فى كل أنحاء البلاد ، فعمّت الفوضى وكثرت القلاقل والحروب ، فلم يستتبّ السلام فى أيام بنى العباس إلا مدة قصيرة جداً . أى إن الوقت لم يكن كافياً للعرب ليقوموا بانقلاب أو تجديد فى العلوم اليونانية ، فاذا قابلنا مثلا المدى الذى تطورت فيه حضارة اليونان بالمدة التى قام فيها العرب بنهضتهم العلمية وجدنا الفرق كبيراً . فلو اقتصرنا ببدء حضارة اليونان من عصر تاليس وبيتاغوراس فقط فى القرن السادس قبل الميلاد ، الى عهد بطليموس وبوكايدفى القرن الثانى بعد الميلاد لوجدنا المدة تقرب من الثمانية قرون . أما عند العرب ، فيمكن أن يُقال إن ترجمة العلوم اليونانية ابتدأت فقط من العصر العباسى الثانى ، أى فى ابتداء القرن الثالث للهجرة ، وبقيت حتى أواخر القرن الخامس للهجرة وهى مدة لا تزيد على الثلاثة قرون . فاذا كان اليونان بعظمة نبوغهم ، وباعتبار أن قسماً كبيراً من مدنيتهم مرتكز على المدنية المصرية القديمة ، لم ينتجوا ما أنتجوه فى أقل من ثمانية قرون ، فكيف يقدر العرب أو غيرهم ، أن يستوعبوا ما أبدعه اليونان من تعاليم طبيعية وفلسفية وغيرها فى مدة لا تتجاوز ثلاثة قرون ؟ خصوصاً والعرب كانوا حينئذ أمة جديدة على الحضارة ، لم تتعود ما اعتاده اليونان قبلا .

زِد على ذلك أنه لو لم يعتن العرب بعلوم اللغــــة والدين والتوسع فيهما توسعاً زائداً ، فى عهد بنى أمية وما بعده وصرفوا اهتمامهم الــكافى لبعض العلوم اليونانية ، لــكان العرب عنــدئذ أولى بأن يقوموا بحركة علمية جديدة .

لم يكن علماء العرب فى ذلك الوقت راضين عن النظام اليونانى أو محبذين له . فانه عنــد ما بدأ العرب ترجمة العلوم اليونانية ، ورأوا فكرة اليونان فى المجموعة الشمسية ، وما هى عليه من التعقيــــد والتناقض وعدم تلاؤم أجزائها بعضها داخلهم الشك فى صحتها وارتابوا فى كثير من أقسامها . وجعل هذا الشك منهم عيوناً دقيقة الملاحظة ، حريصة فى التنقيب ، لا تدع شيئاً مهما كان حقيراً دون بحث أو تفسير . ولم يتركوا سبباً إلا فحصوه وشرحوه ووازنوه مع غيره من الأسباب ، وقابلوه مع ما تأتى لها من نتائج أرصادها ، فأنقصوا من النظام اليونانى أشياء ، وزادوا عليه أشــــياء ، واعتمدوا فى كل شروحهم وتعليلاتهم على ما يستسيغه العقل ويقبله المنطق محاولين بذلك اتباع طريق غير طريق بطليموس وشرح نظام جديد ربما تصوروه ولــكن لم يدون .

قام حينئذ من العرب ابن رُشد وابن طفيل وتلميذه البتروغى فى القرن الخامس للهجرة ، وانتقدوا كتاب الماجسطى حتى أنهم

لعدم اكتفائهم بتفسير النظام البطليموسى أتوا بأفكار مبتكرة فى حركات الكواكب السيارة، وألفوا نظاماً جديداً يقال له Homocentric خلاف النظام اليونانى، فأنكروا وجود الدوائر الصغيرة epicycles للكواكب، وبذلك عللوا حركة الكواكب من الغرب الى الشرق وبالعكس تعليلا مخالفاً لكتاب الماجسطى، ومنهم من اعتقد أن الكواكب لم تبعد مسافة واحدة ثابتة عن دائرة البروج (zodiac)، بل هى فى أبعاد مختلفة، إذ هذا هو السبب فى اختلاف شدة الضوء المنبعث منها.

ومن المشهورين فى تطور النظام الشمسى من العرب الخوارزمىّ سنة ٢٢٠ هـ. وهو صاحب الارصاد المختلفة والمرتبة بنظام خاص يقال له الزيج Astronomical Tables

والفرغانى سنة ٢٢٥ هـ. وله قياسات فى أبعاد وأقطار الكواكب الخمسة، وكتابه «كتاب فى الحركات السماوية وعلم جوامع النجوم» ترجمه أكثر من واحد الى اللغة اللاتينية.

وثابت بن قرة (سنة ٢٣٥ هـ) ويُعدُّ أكبر المشتغلين فى العلوم الهندسية من العرب، أصلح ترجمة اسحق بن حنين لكتاب اقليدس، ووضع عدة شروح عن النظام اليونانى، محاولاً فيها كلها ابتكار نظريات جديدة، وشروح سهلة لدرس النظام البطليموسى، وله ارصاد مختلفة فى قياس بُعد الشمس وتحديد السنة الشمسية، وقد أضاف فلكاً تاسعاً الى النظام القديم وراء فلك النجوم الثوابت، وكان أول من وصف الكرات التراكزة من العرب.

البتانى سنة ٢٧٠ هـ. وهو الذى اشتهر بدقة ارصاده من أيام هبارخس الى كوبرنيكس، حتى فاق الخوارزمىّ بدقة ملاحظاته فى الكواكب السيارة. وكان من منتقدى بطليموس، وقد وجد ميل دائرة البروج عن دائرة خط الاستواء ٣٥َ ٢٣ْ وهو رقم مطابق لقيمة الميل الحديث، وعمل ملاحظات دقيقة عن القمر واختلاف حركاته، وعن أوقات الخسوف والكسوف. وهذا ما قاله عنه ابن خلكان. «له الأعمال العجيبة، والارصادات المتقنة، وأول من ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤هـ، وله من التصانيف: الزيج، وكتاب معرفة مطالع البروج، وشرح أربع مقالات بطليموس، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء».

الزرقالى سنة ٤٦٠هـ. اشتهر بصنع أدوات الرصد وخصوصاً الأداة المسماة بالصفيحة Astrolabe، وهى لقياس أبعاد وأقطار الكواكب السيارة. كتب شرحاً ترجم على أيام الملك الفونسو ملك كاستيل Castille، وقد أخذ عنه وعن البتانى كوبرنيكس فى تعليل نظريته الجديدة.

ولعل أشهر التجارب العملية التى قام بها العرب أيام المأمون هو قياس الدرجة من خط نصف النهار، بواسطة ثلاثة إخوة يقال لهم بنوموسى، وبطريقة غير التى عمل بها اليونان الأقدمون ذهبوا الى موضع فى سهل سنجار فى العراق، فذهب بعضهم شمالاً والبعض جنوباً، حتى رأوا فى الشمال النجمة القطبية ترتفع درجة وفى الجنوب تهبط درجة. ثم قاسوا المسافتين ووجدوا الوسط بينهما، ولكنهم اتخذوا الرقم الأكبر منهما وهو ٥٦ ⅔ ميلاً

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم، قام أناس كثيرون من العرب أتوا بأبحاث جليلة مختلفة فى شكل النظام الشمسى، وتعليقات شديدة النقد على النظام اليونانى لا يسعنا ذكرها الآن.

قد يبدو النظام اليونانى للبعض بسيطاً بالصورة التى شرحناها، ولكنه فى الحقيقة معقد وغاية فى الصعوبة، وفيه كثير من المتناقضات لعدم ثبوته على أساس راسخ، والذى زاد فى المسألة تعقيداً هو نظرهم للظواهر كما ترى لا كما يستسيغها العقل البشرى.

فتعقُّد النظام اليونانى وتناقضه، من كثرة ما زيد عليه من الكرات والدوائر الصغيرة، ولَّد الشك فى قلوب الكثيرين من العرب. وهذا الشك هو الذى حرضهم على البحث والتدقيق فى ملاحظاتهم، وعلى التأمل فى نتائج ارصاداتهم فى الكون، وربما يمكن أن تكون أسباب التناقض وعلل النقائص ومسببات الحركات الشاذة والمختلفة التى لاحظوها ولاحظها اليونان من قبلهم. لكن هذا الشك الذى نراه فى كثير من شروحهم ومؤلفاتهم لم يتخذ طريقاً محسوساً معيناً يمكننا معه أن نسميه انقلاباً علمياً كالذى قام به كوبرنيكس وكبلر وغاليليو فيما بعد.

ومع أن العرب لم يتوصلوا الى اكتشاف جديد فى ميزة هذا الكون العجيب، وتعليل ظاهراته تعليلا صحيحاً، فان دقة ملاحظاتهم وحسن ترتيب نتائج أبحاثهم، جعلتهم يفوقون الأغريق ويبذونهم فى أشياء كثيرة. فقد مهدت السبيل لاكتشافات مقبلة، وجعلت فكرة النظام اليونانى سهلة التغيير قابلة للانقلاب الى الفكرة الصحيحة، حتى لم يكن بينهم وبينها إلا مسافة قصيرة جداً بدليل أن كوبرنيكس مبتدع الفكرة الجديدة لم يتوصل الى ما توصل اليه إلا بعد مراجعة كتب العرب، وقد عاش بعد ما انطفأ نور العلم فى الشرق بمدة غير طويلة.

فرح رفيدى

القصص

رجل ... وامرأة

بقلم محمد سعيد العريان

— ١ —

جلس شوكت افندى كاظم فى حجرة الانتظار بمدرسة . . . يجيل طرفه فى قطع الأثاث المبعثرة ، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان . لم يتغير شىء فيها عما رآه لآخر مرة منذ سنوات أربع ؛ هذا النضد الصغير فى زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان لم يتزحزح عن موضعه ؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدَّدَ عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح فى أحلام اليقظان ؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة ، فى أساريرها مرح الطفولة ، وفى عينيها بريق الأمل — إنها فى موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين ، ولكنها زادت أخرى ، لا شك أنها صور الفِرَق التى أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها . . . ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطراً من حياته فى منزلة الأب الثانى ، ثم فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج الى حيث لا يدرى من فِجاج الحياة . ما أسرع ما تمر السنون ! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم ؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو مازال حيث تركوه فى منصبه وجاهه ! . . . ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة ، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره ؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضى ، ذكريات حيَّة ما يزال قلبه بدمها ينزف . وحدق فى الصورة طويلاً تحديق العانس فى المرآة تنعى الشباب وتتهم الزمن . . . منذ ثمان سنوات حين دُعِى ليجلس بين تلاميذه فى هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذى يعيش اليوم ، لقد كان يومئذ يعيش فى وادٍ من الأحلام : أحلام الشباب والمرأة والحب . أين هو اليوم مما كان ؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن ، وأما الحب فقد دفنه هنالك ولفّه فى أكفان اليأس ، وأما هى . . .

ودخل الضابط يحييه بصوت غليظ ، فى يده عصاً ومن ورائه غلام . واندفع عادل شوكت الى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه ، فلم يخش عصا الضابط ولا صوته البغيض ؛ وضم الرجل ولده الى صدره ومال عليه يقبله فى ظمأ وشوق ؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته ؛ وسبح أبوه فى ذكريات ينشرها ويطويها :

لقد كان يحبها أعنفَ الحب وأرقَّه ، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يُصفيها الحب ويخلص لها الوداد ؛ وقد ظفر بها ونالها ، فأين هو اليوم من سعادة الحياة ؟ ! لقد أفلتَتها فلم يبق بين يديه من تلك المنى الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها فى عينى هذا الغلام .

وعاد الى الماضى يسترجع ساعاته ولياليه ، ويحصى على الزمن سيئاته وأياديه : لقد عرفها فتاة فى إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دلٌّ متواضع وكبرياء تبتسم ، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش فى وهم الأمانى . . . واستطاع أن يلفتها اليه وأن يجعلها تهتم بأمره ؛ ومدت اليه خيط الرجاء فتعلق ، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدنى نفساً الى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شىء فى حياته ، وأنه كل شىء فى حياتها . وشاركته سعادةَ الأمل ، وأخذ يُعِد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه ، وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء فى إباء الراغب ورغبة المتأبى ؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة ؛ فيوماً دلال ، ويوماً عتاب ، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد وتريد . . . وهكذا راح الزمن يذكى فى صدريهما لواعج الشوق ، ويضرم لهيب الوجد — أربعَ سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل ؛ ثم زُفّت اليه . لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته ، ولكنه أعطاها مَقادَته من اليوم الأول ، ولم يتلقها إلا بتقديس وعبادة ، وظل بعدها فى العبادة والتقديس ! . وإنها لتحب السيطرة والسلطان ، بعض ما فى دمها من طباع الشركس ؛ وإن فيه لطراوة وليناً من ضعف العاشق الذليل ؛ فأخذت تملى عليه إرادتها وهو كالكرة فى يد الصبى . ولم تجد فيه رجل أحلامها الذى قدّرت أن يكون ، فراحت تنتقص من

سلطانه وهى تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال . وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته ؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يملى إرادته ، ويُلوِّح للحب بالبغض ؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد ، ولا يستطيع أن يكون رجلاً حين يريد . . .

— ٢ —

ورأت كل حاجاتها لديه مقضية ؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية فى هذه المملكة الصغيرة ، حتى الرجل الذى كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها . وراحت تبالغ فى مطالبها ، لا تقف عند حد ولا تنتهى الى غاية . وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا الى الاسكندرية فلم يجد فى نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن أكلاف الاصطياف هناك فوق مايتحمل مرتبه الضئيل . . وقضيا فى المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجه بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق ، وكان لهما فى نفسه لذع ومرارة . وأخذ الحب الذى كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً ؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى ؛ وصار همها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صواحباتها ، أو ليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر ، أو سفرة الى هنا أو هناك تجتلى من مشاهدها أنساً وبهجة . ولم يكن يضن عليها بشيء . . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج ؛ فكانت تقضى نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو ، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً ، حتى اطمأنت الى حريتها كاملة فى الغدوّ والرواح ، وفى السهر أيضاً ؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب ! . . وألف شوكت أن يعود الى البيت فى النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيئ له الطعام ، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً ، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة ، وأن يستيقظ فى الصباح على نغمات من صوتها الندى الرقيق ، وأن يمسى ووجهها آخر ما يراه من دنيا اليقظة . ولكن الكرة مازالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه . . !

وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة فى البيت ، ودق الباب فلم يجب أحد ، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى يرن ثم يتلاشى فى مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة . . . ترى أين ذهبت الخادم ، وأين زوجه الآن ؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام ! أليس له عليها مثل حق الأزواج ؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق ؟ . . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه الى الأرض ، يمد بصره بين حين وحين يرقب الطريق . . ورأى زوجه مقبلة فى سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن فى فتنة مغرية ، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات . ورأته زوجه فقالت : « أنت هنا ؟ » ولم تزد ، وسبقته تفتح الباب وانصرف صواحبها . ولما اطمأن بهما المكان قال لها :

— « لقد ضايقنى الانتظار يا إلهام ، أين الخادم ؟ » . قالت :

— « الخادم ؟ لقد سافرت لترى أباها . ألم أنبئك ؟ » .

قال وقد رسم الاستياء خطين على جبينه :

— « وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكونى فى انتظارى ولا تتركينى بالباب ؟ ! »

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان ، وقالت تداعبه فى لين وتكسُّر : « ليتك لا تغضب يا شوكت ، أنا أحبك ! » ثم كانت قُبلة نسى معها الغضب والعتاب . . .

وتتابعت أيامها من بعدُ بين غضب ورضى ، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه ، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه إرادته . . . ومر عام ، وصار شوكت أباً . هذا ولده عادل .

* * *

ودق الجرس فى فناء المدرسة ، فانفلت الغلام من بين يدى أبيه كما فرت سعادته من قبل . . !

أين هى الآن ؟ إنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه ، ولكنه قد فارقها إلى الأبد ! وآلمته الذكرى ، فأخرج علبة من جيبه فأشعل دخينة ، واعتمد بذراعه على حافة المقعد ، وأسند رأسه إلى راحته ، وزفر زفرة ، وتلوت ثعابين الدخان صاعدة ، وراح يتابع الذكرى الأليمة :

لقد كافأته زوجه على حبه ووفائه وطاعته — بالسخر والتمرد والعصيان ! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة وأغلب إرادة ، فلعله كان أحبَّ إليها صلباً غلاَّباً صاحب إرادة وعنفوان . . . !

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل ، ليس له حدود تحصره فى دائرة الممكن ، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل ؛ فلما ظفر بها ضل الطريق إلى السعادة ، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها . . !

وحين أراد أن يهيء لها سعادة الرضى فى جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهى فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه اليه آمرة مطاعة . . . !

ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن فى حراسة التقاليد ، لتفاهم قلباهما على الود الكريم ، ووضعا الأساس لحياة الغد على غير جُرُفٍ هار من الوهم والخيال . . . !

لم يكن يومئذ يدرى أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذى يغلبها ويفوقها ، بقدر ما تحتقر الرجل الذى يترامى على قدميها فى ضعف وهوان ، ولو كان ضعف المحب وهوان العاشق . . . !

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه فى البيت كضيف على ميعاد ، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه ! وربما قضى الساعات فى البيت وحيداً . وهى هناك تتنقل زائرة من بيت الى بيت ، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً فى الأسبوع ، هو يوم الاستقبال . . . ولقد كان فى البيت مرة وسمع بأذنيه أى الشئون يتحدث فيها النساء : حديث الأزواج ، وشح الأزواج ، وغفلة الأزواج ، ثم الأزياء والملاهى ولا شىء غير ذلك ! . . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعْن يوم الاستقبال . لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه ، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام ، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسىء الظن بأخلاق زوجه ، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع ؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر . . ! . . آه لو كان يدرى يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه ، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها الى الصواب !

— ٣ —

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه ، حتى حين مرض بالاسكندرية صيفَ عام واشتدت به العلة ، وأمره الطبيب أن يعود الى بلده ، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف ، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطىء فى حراسة الشيطان ، تداعب أمواجاً فى البحر وأمواجاً فى البر ، لقد كان لها يومئذ رغبات نسيت فى سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم ، فلم تعد إلا بعد شهر !

لم تهنأ إلهام بالحياة فى بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة ، وحالت بعد عودتها امرأة أخرى ؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها ، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم ، ومزقت القناع عن وجه عابس ، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها فى كنف الزوج الحبيب ، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً ، ويتحبب إليها فلا تبدى غير البغض والكبرياء . . . وآلمه ماتغير من أخلاقها ، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها ، ويحصى ما قصر فى حقها وما اقترف . فلا يبدو له إلا صفحات كلها حب ووفاء وتضحية . وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس .

وترامت اليه الأخبار بما يتحدث الناس من شأنها ؛ وكان آخر من عرف ... ياللهول ! وأفاق من وهم الحب . لقد مدّ لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت فى أعماق الهاوية وجذبته معها !

واستعاد رجولته ، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره ، وفارقها فى صمت ، عيوفاً أبيّاً ، ولكنه خلف قلبه هناك . . . تحت وسادتها وبين الحشايا !

وكان له ما أراد ، ونقل من البلد الذى دفن فيه الشباب والحب والأمل ، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً ؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج .

وهاهو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش فى حضانته ، بعيداً عن عار الخطيئة — عن المرأة التى كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أمّ ... !

***

وصلصل الجرس وما زال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة فى يأس ؛ يأس المحب الوفى جوزى بحبه ووفائه غدراً وخيانة !

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح : « أهلاً ، شوكت ، متى حضرت ؟ »

وهز يده بقوة ، وربت على كتفه بحنان ثم أردف :

— « إن صديقنا « أحمد » لموفق ، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه ، وقد حضرت . »

قال شوكت : « زفافه ؟ وماذا ترانى أصنع له فى زفافه ؟ »

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه : « لاأحسبك نسيت ما كان بينكما من ود ؛ أفليس من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التى يهواها ، وإنك لتعرف أين كان أمله ! »

وابتسم شوكت فى ألم ، وقطب جبينه ، واسترجع كل ماضيه الأليم فى لمحة ، وقال لصديقه ساخراً : « وهل تراه ظفر بشىء يستحق التهنئة ، أم ترانى أعزيه . . . ! »

وتولى عن صاحبه وهو ممسك بيد ولده ، والأرض تجاذبه

إلى الخلف — إلى حيث يرى المرأة التى أحبها تخاتنه . ولكنه عرف كيف يكون رجلاً ، وكيف يقمع فى صدره ذلك الحب الذليل الذى نزل به إلى الهوان والعار . ومضى فى طريقه إلى البلد الثانى وكأنما كان يدوس بقدميه قلبه الدامى فيحس وخزاً أليماً فوق ما تخزه الذكرى وتؤلمه .

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضى حجاب النسيان ، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه ، حتى برىء من دائه . وأخذت ذكريات الماضى تتضاءل فى رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى ، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التى كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل .

وانقضت سنوات ثلاث ، ثم رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التى كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض ، ويبغض من أجلها النساء جميعاً . لقد أخفقت فيما سعت إليه ، فلم تظفر بالسعادة التى انطلقت وراء أوهامها وحطمت فى سبيلها عش الزوجية ، وحالت الثمرة التى كانت تشتهى حلاوتها مُرّةً كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين اليها من الرجال ، لقد انفضّوا عنها جميعاً بعد أن ملوّها ، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة فى غرام جديد أبىّ ، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغيب المجهول . . وتنكرت لها الحيـــاة فعادت الى الماضى تستلهمه ، فاذا هى ماتزال تحب شوكت . . . وذكرت فى النهاية الرجل الذى كان يحبها ، والذى كان يبيع من أجلها كل شىء ، فجاءت تسعى اليه معترفة تائبة . هيهات ! لقد أضلها السراب طويلاً ، فلما همت أن تعود الى المناخ كان الركب قد تحرك ، فلم تدرك غير الغبار يُقذى عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق !

وأغلق الرجل دونها بابه ، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه . لم تؤثر فيه دموع الندم ، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم ، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة ، فبقى معها بليد العاطفة ، وعلمته ألا يؤمن بالحب ، فأثبت لها أنه لايؤمن بالحب ، وعلمتـه ألا يثق بوعود امرأة ، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة .

وحين عادت المسكينة إمرأة ذات قلب . . . . عاد المسكين رجلا بلا قلب ! . . ؟

محمد سعيد العريان

٣ ـ سافو

لأوجييه اميـــل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

كاوودال — (ينادى) هِى . هِى

لابودرى — يا صاحب المطعم

الجميع — أنت يارجل

(يظهر صاحب المطعم)

كاوودال — أسرع فلقد قتلنا الظما

صاحب المطعم — أهلا أهلا بأسيادى (وكأنه يعرف كاوودال) سيدى كاوودال . . . ما أطيب هذه الفرصة تفضلوا. فاجلسوا عندهذهالبراميل أو تحتهذهالشجرةالظليلة

كاوودال — نبيذك الطيب أولاً !

لابودرى — الأبيض ؟

كاوودال — أصبت

صاحب المطعم — كما تشاؤون . والطعام ؟

كاوودال — عند المساء متى عدنا ، ولكن ماذا عندك منه

صاحب المطعم — كلُّ ما تشتهون

كاوودال — شواء مثلا ؟

صاحب المطعم — نعم . وفرختان !

لابودرى — حسناً

صاحب المطعم — وضلع

كاوودال — لا بأس

صاحب المطعم — ثم . . .

الجميع — هذا يكفى

كاوودال — (منشداً) ولكنْ أيها الشيطان

لابودرى — اذا أهملتَ فى الألوان

آخر — والمـــــزاتْ

ثان — والسَّـــلطات

ثالث — وحذار أن تنسى كذا البصطرْمه

رابع — معها والا فالجزاءُ

صاحب المطعم — « الصَّرْمه »(١)

(ضحـك عام)

(١) رصدنا هذا اللفظ العامى المألوف لتستقيم القافية سيما وأن المقام مقام هزل

صاحب المطعم — (منادياً) نبيذ أبيض حالاً (ينظف الموائد ويرتب المقاعد حيث يجلسون ، وعندئذ يظهر الخدم حاملين قناني الشراب والكؤوس)

كاوودال — ليحيى النبيذْ ليحيى الشرابْ
الجميع — ليحيى النبيذْ ليحيى الشرابْ
كاوودال — شراب النبيذ شراب لذيذ
بردُّ الشبابْ لصرعى الخضاب
الجميع — ليحيى النبيذْ ليحيى الشرابْ
كاوودال — ألا فاشربوا ولا تحسبوا
لهَمٍّ حسابْ فهذا الصواب
الجميع — ليحيى النبيذْ ليحيى الشرابْ
صاحب المطعم — ليحيى الصنم
الجميع — لتحيى الصرم

(ضحك عام)

(يظهر حنا)

كاوودال — (وقد لمحه) حنا ؟

حنا — (يقترب ويحيي بقبعته) نعم أنا

كاوودال — ما أجملَ هذه الصدفة

لابودرى — كيف أنت ياحنّا . أنت مقيم هنا

حنا — بل هناك (مشيراً) لأنى أميل للغابات أتفيأ ظِلّها واملأ عينى منها . نعم إن الحياة بالقرب منها خير من حياة المدن حيث السكون والنسيم العليل

كاوودال — وهل لازلت مع سافو

حنا — سافو ؟ من هي سافو

لابودرى — فنى . نموذج المصنع

حنا — (مفكراً) إذن هي سافو (متردداً ثم يتكلم) لا . إننى تركتها .

كاوودال — تركتها ؟ إنها فتاة حسناء . ولكنها مع ذلك . . .

حنا — ولكنها ماذا ؟

كاوودال — . . . لا شيء

حنا — لا شيء ؟ ولكنك قلت إنها . . .

كاوودال — فتاة لا وفاء لها . نعم إنها تحفة من تحف الُحسن . ولكن حبّها مشوب بالآلام . على أن من يقع فى شركها يصعب عليه أن يسلوها .

لابودرى — لقد صدقك كاوودال يا حنا

كاوودال — ومع ذلك فدليلى قصّتها مع ذلك الحفّار الفنان

لابودرى — فرومان

كاوودال — بعينه . فلقد دفعته إلى تزوير زجَّ بسببه فى السجن . على أنى لا أزال أذكر يوم أخذوه اليه وهى تودعه بأطراف أناملها وتقول له تشجع يا بيبى فعما قريب تخرج ونعود الى سيرة حبِّنا .

حنا — (لنفسه وهو مفكك) إنها تنادينى بمثل هذا أيضاً

كاوودال — مالك يا صديق ؟

حنا — الحقيقة أنى كذبتكم . فأنا من سنة أتلوّث بصحبة هذه الفاجرة . ولقد استسلمت لمكذوب حبها ، ومعسول كذبها حتى أَبَحتُها قلبى ومشاعرى لأنى كنت أجهل أمرَها ولكنى الآن أُقسم لكم أن كل ما بينها وبينى قد انقطع وانتهى

(تظهر فنى من بعد)

آه . . .

كاوودال — (يلمحها) سافو

سافو — (وحنا يفر منها) حنا

حنا — دعينى (ثم يختفى)

سافو — (فى نفسها) نمُّوا عنده عليَّ (لهم بحدة) الآن وقد فرَّ بسعيكم فلن أخشاكم أيها الأنذال

كاوودال — (يسكن ثورتها) هوّنى عليك يا سافو . اسمى

لابودرى — عودى الى رشدك ولا تتحدّى

فنى — لقد أكلكم الحسد على حبه الذى أسعدنى وغير سبيل حياتى فصورتمونى له فى أشنع صور الرذيلة حتى التوى وفرَّ منى . إنكم غلاظٌ قساة (للابودرى) وأنت أيها المنافق طالما أسهرت جفنى وأجريت دمعى . ولا زال صدرك طافحاً بالحقد على صفوى فحطمت قلبى الذى أصلحه هذا الفتى ، وهكذا لم أخطئْ فى حسبانى إذ علمتم فوشيتم فانتقمتم . فأنا الآن إذا كنت أتعلق بأذيال الحياة فلكى ألعنكم وأستنزل غضب الأقدار عليكم .

الجميع — (بغضب) سافو (يتجاذبونها كأنهم يحاولون جرها معهم)

فنى — دعونى فما عادت تطيب بعد ذلك نفسى للحب . لقد أصبحت أمقتكم جميعاً أيها الأخسّاء

(تهجم على لابودرى فيضحك ويضحكون)

« يتبع »

محمود ضيرت

٣ ـ سيــــوة

تجارة سيوة

يجاور مسطاح البلح الكبير مقام سيدى سليمان ، وهو عبارة عن بناء بسيط يحتوى على مقبرة ، إلا أن له مكاناً محترماً فى قلوب سكان سيوة ، ويحيط بهذا المقام بعض قبور أخرى يقال إنها للمقربين اليه من أتباعه ، ويعلو المقام سعف نخيل معلقة فى نهايته قطع من أقمشــة مختلفة الألوان ؛ ويلاصق هذا المقام مسجد جلالة الملك فؤاد الأول ، وبدئ فى بناء هذا المسجد فى عهد الخديو السابق عباس باشا ، حتى وصل ارتفاعه أربعة أمتار ، غير أن العمل وقف فيه لقـــلة المال وكثرة التكاليف ، ثم تم بناؤه فى عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول فى سنتى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، وأصبح مسجداً يضارع مساجد القاهرة الكبيرة فى كبر حجمه وروعة بنائه . ولقـــد تحريت عن السبب الذى حدا بالخديو السابق أن يفكر فى بناء مسجد كبير كهذا فى واحة منعزلة مثل سيوة على الرغم من صعوبة المواصلات وقلة وسائل العمل فى الوقت السابق ، فروى لى أنه كان يقصد ببنائه أن يكون جامعة إسلامية فى الصحراء الغربية ، يؤمها السنوسيون وغيرهم لتكون لهم بمثابة الأزهر فى وادى النيل ، وأنه كان يتصور أن مثل هذه الجامعة تمكن له فى قلوب السنوسيين فيفيدوه فى الصحراء وقت الحاجة . وعدا هذا المسجد الكبير توجد مساجد أخرى مقامة على نظام المنازل الســـيوية من الملح والطين ، وسقوف من خشب النخيل ، ولها مآذن غريبة الشكل ، أشبه بمداخن المعامل ، وسمك حائطها من أسفل حوالى مترين ، ثم يقل سمكها تدريجيا كلما ارتفع بناؤها حتى يصل فى النهاية الى ثلث متر تقريبا

وكان أئمة هذه المساجد يدرسون فى الوقت الماضى القرآن للصبيان على طريقة عتيقة غير مألوفة ، وهى أن يحفظوهم القرآن من غير أن يعرفوا القراءة والكتابة ، ولكن مصلحة الحدود أنشأت مدرسة أولية بسيوة تتبع فى تدريسها منهاج وزارة المعارف العمومية ، ويؤمها أولاد السكان ؛ غير أن الأقبال عليها غير كثير برغم كل تسهيل يقدم للأولاد ، وتتساهل المدرسة فلا تطالب من الطلبة إلا أن يلبسوا جلباباً نظيفاً وطاقية نظيفة ، على أن معظم الأطفال يحضرون حفاة من غير أحذية ، ومع كل ذلك فالرجل يفضل أن يشغل ابنه فى الحقل أو الحديقة على أن يعلمه أبسط المبادئ من القراءة والكتابة والحساب ، ووصل الأمر بعناية الحكومة بهؤلاء النـاس أن أرسلت اثنين منهم للجامع الأزهر ليتلقوا فيه العلوم الدينية على أحسن الأساتذة ، غير أنهما بعد بضع سنين كرها الأقمة فى القـاهرة ودفعهما الحنين إلى سيوة فعادا إليها ولم يحصلا من العلم إلا قليلا

تتكون السوق فى سيوة من بضعة حوانيت متجاورة تبيع كل ما يحتاجه السكان من مختلف الأصناف ، وأثمان جميع الحوانيت واحدة ، ولذا فلا يهم الشارى أن يشترى من هذا أو من ذاك مادام الثمن واحداً ، وإذا دخلت حانوتاً من هذه الحوانيت خيل اليك لأول وهلة أنك فى مخزن بضائع إذ ترى فيه عدة رفوف من خشب قديم وميزان وبعض الأكياس « والمقاطف » فيها دقيق وعدس وفول وسكر ، وفى ركن من أركان الحانوت بضعة أثواب من البفتة ، ومعلق بسقف الحانوت بضعة مناديل للرجال وللنساء ذات ألوان متنافرة غريبة . وترى فى ركن ثان من الحانوت بضع صفـائح بها زيت الزيتون وأبسطة من الصوف تنسجها نساء العرب بأيديهن ويبعنها للتجار . ويربح بعض التجار كثيراً من حوانيتهم وبخاصة من بيع البلح وزيت الزيتون ، على أن النقود المتداولة فى سيوة هى النقود المصرية بجميع أنواعها ، ولم أر بها عملة أخرى كما هو الحال فى السلوم ، إذ أننى رأيت فيها العملة التركية القديمة وبعض النقود الايطالية متداولة فى أيدى التجار والأهالى ، وقد اعتاد الأهالى أن يرهنوا حدائقهم وحقولهم لبعض التجار نظير أرباح باهظة ، حتى أن بعض التجار يتمادى فى الجشع فيطلب من المدين أن يسـدد دينه بلحاً وزيتوناً ، ولكنه ينص فى شروط الرهن على أن يكون سعر البلح والزيتون نصف سعره المعتاد فى السوق ، وبذلك يكون التاجر قد ضاعف مبلغه الذى أقرضه للمدين زيادة على الارباح التى ينالها عن مبلغه الذى دفعه للمدين ، وفى ظروف كثيرة يقبـل المدين كل تلك الشروط الباهظة لحاجته للمال . وقل أن يرى المرء امرأة أمام حانوت من حوانيت البلد ، والعادة أن تمر زوجة التاجر أو أمه ببضاعتها على المنازل

ليشترى أصحابها ما يشاؤون ، وما تشــــتريه النساء عادة يكون الكحل والحناء وبعض حلى من الفضة : كالدمالج ، والأقراط الكبيرة الحجم التى تتدلى أطرافها من الأذن حتى تصل كتفى المرأة أو الفتاة . ثم إنهن لا يلبسن العقود الملونة من حبات متلاصقة كما هو الحال فى المدن . بل إنهن يلبسن أطواقاً من الفضة حول أعناقهن بأن يدخلن رؤوسهن فيها . ولذا فهى تباع كثيراً لدى التجار ، وأيضاً فإنهن يشترين أحذية من جلد أحمر رقيق ، وملاءات يلتفقن بها وقت خروجهن ، وهى من قماش قطنى ذات خطوط زرقاء تجاورها خطوط رمادية ، وهذه الملاءات يحضرها لسيوة أحد التجار المصريين ، إذ أن لعمه مصنعاً خاصاً ببلده بمديرية الجيزة ، ويشترين أيضاً بعض الاصباغ الخضراء والحمراء والزرقاء ، لصبغ سعف النخيل الذى يصنعن منه « مراجين » وسلات وغيرها

وكثيراً ما تبيع زوجات التجار بعض الأحجبة والتعاويذ الفضية التى عليها آيات من القرآن الكريم . وقد لاحظت أن النساء لا يحاولن تغيير ملبسهن بأحسن منه ، وكلهن فى ذلك سواء . وليس فى السوق سوى قصابين يبيعان عادة لحم الجمـــال للأهالى والعرب ، ولكنهما مكلفان ببيع لحم الضأن ثلاثة أيام فى الأسبوع هى الأحد والثلاثاء والجمعة ، وهذا طبعاً ليتمكن الموظفون الحكوميون من أكل لحم الضأن . ولذلك لا يذبح القصاب إلا كبشاً واحداً يكفى الموظفين ، لأنهم يشترون فى الأيام الثلاثة اللحم الذى يكفيهم كل الأسبوع .

وأهم ما يشتريه الأهالى من التجار الشاى والسكر فهما عماد الحياة والعمل لدى السيويين والعرب ، ولا يمكن أن يستغنى عنهما منزل قط ، ولاحظت أن إقبال السيويين على شرب القهوة قليل جداً ، بل يمكن القول بأنه معدوم ، وحدث أن احتاج خادمى بناً لعمل قهوة فبحث فى حوانيت الواحة كلها فلم يجد .

* * *

يحيك السيويات ملابسهن وملابس أزواجهن وأولادهن باتقان ودقة ، وبعضهن يطرزن ملابسهن بخيوط حريرية مختلفة الألوان ، غير أنه يخالف ما ألفناه فى القاهرة ، وبعض السيويات يغزلن الصوف وينسجنه ويصنعن منه جبباً للرجال يلبسونها وقت الشتاء القارس ، وهذه الجبب وان كانت رديئة المنظر إلا أنها تساعد الرجال على تحمل برودة الشتاء على كل حال .

على أن للسيويين والسيويات طباعاً نراها نحن شاذة لا تتمشى مع ما ألفناه من عادات وأخلاق ، وسنأتى على سرد تلك العادات تباعاً إن شاء الله ؟

ثابت

الكتب

كلمة الى الشباب الطلبة على ذكر كتاب

مرشــــد المتعلم

ترجمة الأستاذ محمد أحمد الغمراوي

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كثيراً ما هممت أن أكتب فى أمر من أمور التعليم الى الرسالة الغراء، عالماً أن صدرها الرحب يتسع لذلك البحث لما فيه من مساس بناحية حيوية من نشاطنا، غير أنى كنت كلما هممت بذلك قعدت بى معان صدتنى عن عزيمتى. فاننى معلم بى ما بصاحب الفن من حب لفنه وانصراف بقلبه اليه. غير أن التعليم مرتزق، وسبيل الأرزاق غير حبيب، فما يكاد الرجل ينصرف من مضطرب عيشه حتى يود أن يتناسى ما اعتراه فى ذلك المضطرب، فتراه يقبل على كل حديث غير حديث فنه، ويحب الخوض فيما يبعد به عن ذكر صناعته. ومع ذلك قد رأيتنى أقرأ كتاباً أهداه الىّ صديق كريم قد ترجمه عن الانجليزية الى العربية، وهو الأستاذ محمد أحمد الغمراوى، فبدأت قراءته لأنه كتاب صديق، ثم رأيتنى أسير فى قراءته مقبلاً عليه لما فيه، واضمحلت صورة الصديق شيئاً فشيئاً من ثنايا السطور حتى صرت بعد لا أجدها، وصرت أعاود الكتاب لنفسه، وأطلب صحبته وحديثه لما أجده فيه من فائدة ولذة ونشاط.

ذلك الكتاب سفر قيم. أقل ما أصفه به للشبان أن قراءته ضرورة لازمة لهم إذا شاءوا أن يخرجوا من دراستهم على أكبر قسط من الفائدة من وراء جهدهم وعملهم. وإذا كنت أخاطب الشبان بذلك فانى أفعل ذلك لعلمى بأنهم أحوج الناس الى قراءة مثله، ولكن ليس معنى هذا أن من هم من طبقة أعلى من الشبان سناً قد بعدوا عن أن يجدوا فى قراءته فائدة، أو استغنوا عن أن ينتفعوا بما فيه من بحوث طريفة فانى أقول غير مجامل ولا مبالغ أننى قد خرجت من قراءة ذلك الكتاب وقد علمت كثيراً مما كنت أجهل، واستوضحت كثيراً مما كان غامضاً مبهماً عندى، وغيرت كثيراً مما كنت متجهاً اليه، قانعاً به. وفضل ذلك الكتاب لمن يقرؤه من الكبار أنه يوحى اليهم معانى جديدة بما يأتى به، مما قد يكون معلوماً لهم، فيرى القارىء المعانى تهم فى نفسه وهو يقرأ كأنما تلك القراءة تثيرها وتوقدها.

قلت إن الطالب الشاب لا غنى له عن قراءة ذلك الكتاب، وذلك لأننى أعرف أن الطالب الشاب فى حياته اليومية يسير سيراً غير مهتد. فلا هو يجد من يهديه ولا هو إذا وجد من يهديه يأخذ عنه نظاماً تاماً شاملاً يستطيع أن يهتدى به فى كل جهوده وأعماله على اختلافها. فالطالب يقرأ، ولكنه وهو يفعل ذلك يتجه إلى حيث تدفعه المصادفة أو المثل، وقد يكون موفقاً فى طريقته كما انه قد لا يكون موفقاً، ولكنه على أى حال لا يكون فى اتجاهه مرتكناً على أساس قوى علمى. ولا أظن أن بين المعلمين أو أساتذة الجامعة من يجد فرصة فى وقت درسه يستطيع أن يرشد الطالب فيها إلى خير الطرق التى يسلكها فى دراسته، فان الوقت مخصص كله لمدة الدروس بطبيعة الحال. ولقد كان من أشد الأمور إيلاماً لنفسى أن أرى فى بعض الأحيان بعض تلاميذى وهم ينكبون على دراستهم انكباباً غير موفق، إذ يتبعون فى ذلك طريقة تجعلهم كمن يحاول السباحة فى وجه التيار، فلا هو موفر جهده، ولا هو سالك سبيله. وكنت إذ أرى ذلك أحاول جهدى أن أرشد بمقدار علمى، ولكنى كنت لا أستطيع أن أبسط المعنى بسطاً تاماً يستقر فى النفس استقراراً متمكناً، ويحيط بالمصاعب من جميع أطرافها. فكنت أتمنى لو أتيح لهؤلاء المساكين كتاب يستطيعون أن يجدوا فيه الهداية.

وما كنت أجد تلك الطلبة حتى أتحف الصديق الغمراوى قراء العربية بكتابه.

يبدأ ذلك الكتاب بمقدمة ككل كتاب في مثل موضوعه ، يهيئ فيها المؤلف عقل الطالب الى أن يدخل على عمله بذهن مفتوح وعقل فاحص يقظ ، وهذا هو الفصل الأول وعنوانه « تولى المرء أمر نفسه » ثم يلقى عليه في الفصل الثاني خطة العمل ويسميها « خطة الغزو » يبين له كيف يقسم وقته للمذاكرة والدراسة ، وما مقدار الوقت الذي يجب عليه أن يجعله لتلك المذاكرة ، وطريقة تقسيم ذلك الوقت على مختلف المواد ، وأي المواد يبدأ بمذاكرتها ، وأيها يؤجله في ترتيب المذاكرة ، ثم يبين للطالب أي الطرق أصلح في توزيع الوقت على الدروس : هل الأصلح أن يجعل لكل مادة قسطاً صغيراً كل يوم ، أو أن يجعل قسطاً أطول من ذلك بين حين وحين . وهو في كل ذلك يستضيء بنور التجارب العلمية الثابتة .

وأسلوبه في ذلك البيان أسلوب حي بديع ، فهو يقول مثلاً ، « ومن الخطر الكبير في استعمال جدول المذاكرة الجمود . إن من الصعب أن نفرغ من عملنا في كل مادة في اللحظة التي يحل فيها وقت مادة أخرى ، وقد يخطر لنا تخلصا من هذه الصعوبة أن نفرد كل ليلة في نهاية المذاكرة حصة صغيرة ، قل خمس عشرة أو عشرين دقيقة نجعلها كزمن احتياطي ننهي فيه أي شيء صغير قد نكون اضطررنا الى إغفاله في أية حصة عادية من حصص المذاكرة . لكن هذه الخطة محفوفة بالمخاطر . » وهكذا يسير بالطالب حتى يستقر معه على خير الخطط وأوثقها .

ومن خير ما جاء في هذا الفصل ما كتبه على التعب وماهيته في المذاكرة ، وطرق التغلب عليه أو تقليل ضرره .

وفي الفصل الثالث بحث طريف في « تصريف المذاكرة » وطرق الحفظ ، ويليه في الفصل الرابع بحث آخر في مثل طرافته في « طبيعة الدراسة والتفكير » والفصل الخامس بيان « طريقة المذاكرة » وهو بحث عملي لا يستغنى عنه طالب ، وقد أفاض فيه المؤلف إفاضة أحاطت بالموضوع من أطرافه

وأجد نفسي ضنيناً بأن أترك باباً من أبواب الكتاب لا أكتب عنه كلمة ، بل أجد نفسي ميالاً الى أن أنقل الى القارىء منه نموذجاً لعله يعرف أي قول فيه وبأي أسلوب ، غير أني أعود الى نفسي فأذكر أنني إنما أنوه بكتاب رأيت فائدته ، على صفحات مجلة قد لا تتسع لكل ما أريد ذكره من ذلك . ولكن لا بد أن أنوه بالفصل الثامن الذي يعالج فيه المؤلف « الاصغاء وأخذ المذكرات » فان هذا الفصل يسد حاجة ماسة عند طلبة المدارس ولا سيما طلبة الجامعة والمدارس العليا

وقد أضاف المعرب فصلاً بعد الفصل العاشر ألحقه بالفصل السابع وجعل موضوعه « كتب المراجعة في اللغة العربية » . والحق أن هذا الفصل بحث عميق في تراثنا اللغوي والعلمي ، وفق فيه المعرب كل التوفيق ، وأصاب في إضافته كل الاصابة ، وقد تناول فيه أمهات المراجع العربية بالوصف والتحليل فكان فصله دليلاً يرجع اليه من شاء المراجعة في تلك الأمهات ليهتدي الى أيها شاء .

فأزف الى الأستاذ المعرب إعجابي الذي لا حد له بذلك الكتاب وأرجو أن ينتفع به أبناؤنا في جهادهم العلمي ، وأوصي من يطلع على كلمتي هذه من الاخوان أن يصفوه لمن حولهم من الأبناء ، ففيه خير عون لهم ونعم الهادي ؟

محمد فريد أبو حديد

جولة في ربوع الشرق الأدنى

للدكتور عبد الوهاب عزام

سمعت بسياحات الأستاذ محمد ثابت ، فأعجبت به واغتبطت ، أن كان من المصريين سيّاح يجوب الآفاق الى أقصى الأرض ليرى ويصف ، ويقص على أمته من أنباء الأمم الأخرى . ولم يُتح لي أن أطلع على ما كتبه هذا الرّحالة المصري الا الأسبوع الماضي ، اذ اطلعت على كتابه « جولة في ربوع الشرق الأدنى » وقرأت ما كتبه عن العراق وإيران ، فاذا الرحالة الهمام يعوزه العلم والتثبت في مواضع كثيرة ، وأنا أربأ به أن يكون كبعض سائحي الأمريكان ؛ يقدم واحدهم الى القاهرة فيرى في ساعات قليلة الاهرام والأزهر والقلعة ومسجد السلطان حسن ، وخان الخليلي ، ويرى في الشوارع أناساً لا يعرف وجوههم ولا يفهم لغتهم ، ولا يفقه عاداتهم ثم ينقلب الى أهله فيكتب أو يحدّث عما يضطرب في رأسه من خوفو باني الأزهر ، وجوهر الصقلي مشيد الاهرام ، والسلطان حسن مؤسس القاهرة وهلم جرّا ! ! ثم يتحدث عن أخلاق المصريين وتأثير تاريخهم وجوهم في هذه الأخلاق

إنما يراد بالرحلات المشاهدة ، والعلم عن عيان ، وبحث بعض

الأمور فى مواطنها وإفادة علم جديد ، أو إبطال وهم قديم ، أو التثبت من رواية شائعة . وأما أن يطوف الانسان بالبلاد مسرعاً كراكب القطار يخيل اليه أن الأرض والجبال والشجر سائرة وأن السيارة التى تجرى الى جانبه واقفة فذلك قلب الحقائق أو تشويهها ، وتلك سبيل علمها شر ، وجهلها شر .

وأحسب رحالتنا اعتمد فى بعض ما كتب على كتاب من الأدلة الأوربية ، وبهذا يفسر كثير من الغلط والتحريف فى الأسماء ، وتأريخ الحادثات الاسلامية بالتاريخ الميلادى ، ونحن معشر المسلمين ، يكذب علينا كتاب أوربا ويفترون على ديننا وتاريخنا وأخلاقنا ، ويسيئون بنا الظن إساءة تقلب حسناتنا سيئات . فينبغى للسائح المسلم ألا يشاركهم فى ضلالاتهم ، فيكتب كل ما يسمع غير متثبت ، ولكن الرحالة المصرى المسلم لم يتوقّ الغلط والغلو مع نية حسنة وقصد سليم . وأصل البلية أن الأمم الأسلامية قد تقطعت بينها الأسباب ، وجهل بعضها بعضاً إلا ما يقرءون فى كتب الأوربيين ، فصار المصرى إذا رحل إلى العراق وإيران وتحدث عن أخلاق أهلها ومذاهبهم ، فانما يقص عن بلاد مجهولة لم يعرف ماضيها ولا حاضرها ، على قرب ما بين الأمم الاسلامية وكثرة ما بينها من أواصر ، وسهولة تفهم أحوالها ودرس تاريخها .

وفيما يلى نماذج من الأغلاط التى وقع فيها المؤلف :

من الغلط فى بديهيات التاريخ الاسلامى قوله إن الحسن بن على رضى الله عنه فرّ من العراق وقتل ، وأن الحسين قتلته جنود معاوية ، وقوله إن بلاد الفرس فتحها المسلمون فى ستين عاماً ، وجعلُه معاوية بن أبى سفيان فر من خالد بن الوليد فى قيادة الفتوح أيام عمر ، وقوله عن خلافة عثمان بن عفان « ثم جاء عثمان وقتل عاجلاً » كأنه لم يل الخلافة احدى عشرة سنة ، وقوله فى أثناء الكلام عن الحجاج : « وكان زياد فى البصرة » كأن زياداً والحجاج وليا العراق فى وقت واحد ، وبين موت زياد وولاية الحجاج زهاء عشرين سنة ، وقوله إن خالد بن الوليد صلى فى جامع همذان ، وقوله إن الفرس رأوا فى العباسيين أعداءهم فحاربوهم بالتشيع ، وهذه كما يرى القارئ أغلاط كنا نربأ بالأستاذ أن يقع فيها .

ومن التحريفات كتابته مدينة هيرات بالياء . ونصر الدين شاه بدل ناصر الدين بالألف . وجبل ألفند ، ودمافند . وكرفان سراى بالفاء بدل الواو فى الكلمات الثلاث . وقصر جولستان بالواو بعد الجيم . وهذا تحريف النقل من الكتابة الافرنجية . وأشنع من هذا أنه قال عن الايرانيين الذين سافروا معه الى مشهد إنهم كانوا يصيحون بين الحين والحين : « لاهم سل الى مهمد آلى مهماد » فهل عرف الرحالة المدقق أن هذه الكلمة التى سمعها هى « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » فان كان قد عرفها فلماذا لم يفسرها بالكتابة الصحيحة ، وإن كان لم يعرفها فلماذا لم يسأل عنها ؟

وأفظع من هذا كله قوله عن اخواننا شيعة ايران انهم يفضلون مشهداً على مكة . وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض وقاعدة من قواعد الاسلام — كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج الى مكة ؟ ربما بالغ عامة الايرانيين فى تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين فى تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى وابراهيم الدسوقى ، ولكن عمل العامة لانفسر به عقائد الأمة . وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب ، ولست أنسى غضب إخواننا شيعة العراق من قول بعض أساتذتنا : إن الشيعة الأمامية يتبرأون من الشيخين ، ولست أنسى عتب أحد علمائهم فى بغداد ، ولا عتب السيد الحجة محمد الحسين آل كاشف الغطاء حينما شرفنا بزيارته فى النجف فقال : لماذا تكتبون عنا ولا تقرأون كتبنا . لقد كان عتاب الأخ للأخ يود ألا يكون بينهما من الغلط ما يكدّر صفو الأخوّة الأسلامية ، وقد اعتذرنا للسيد يومئذ واعترفنا بتقصيرنا فى الاطلاع على كتب أئمة الشيعة . وأنا أعتذر هنا مرة أخرى عن الرحالة محمد ثابت واثقاً بحسن نيته ، وإن كان حسن النية لا يعد عذراً كافياً لمن لم يتحرّ الحق فى كلامه .

وفى الكتاب أغلاط أخرى ، أرجو أن يتوقى أمثالها فى رحلاته المقبلة .

وإننى لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاســلامية ، حتى لايكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وإنصاف ، والله ولى التوفيق .

عبد الوهاب عزام

التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث

تأليف الأستاذ سلامه موسى

للأستاذ سلامه موسى فى خدمة الأدب العربى المعاصر همة تذكر فتشكر ، فهو ماينفك يتحف جمهور المثقفين بأبحاثه الطريفة على صفحات مجلته الغراء وغيرها من الصحف . ومن آثاره الأدبية الأخيرة كتابه هذا عن التجديد فى الأدب الانجليزى ويقع فى نحو مائة صفحة من القطع الكبير . شرح الأستاذ الحركة الفكرية فى العصر الفيكتورى ، ثم تكلم عن بعض المذاهب الأدبية فى ذلك العصر ، وذكر بعض الأجانب وأثرهم فى الأدب الانجليزى . كذلك ذكر اثنين غيرهما وجارى ماكس نورداو فى تسميتهما بالمنحطين وهما : والتر باتر وأوسكار وايلد ، ولخص مذهبهما فى أنه ينحصر فى الدعوة الى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف ،

ثم ترجم الأستاذ لبعض أعلام الأدب الانجليزى مثل كبلنج وهو فى رأيه شاعر الاستعمار ، وبرنارد شو وداروين وولز وجالزورثى وغيرهم ، ولقد تعرض لمذاهبهم وفلسفتهم فى دقة ومهارة . ولقد يبدو موضوع الكتاب غريباً عند من لم يكن له إلمام بالأدب الانجليزى ، والحقيقة أنه نافع لكل مثقف فهو يدرس حركة فكرية ، والحركات الفكرية وثيقة الصلة بالحياة ، ومن ثم فأنت تقرأ فى هذا الكتاب ملخص الحياة الاجتماعية فى انجلترا منذ عام ١٨٣٠ ، بيد أن الأستاذ المؤلف يغالى فى بعض آرائه مغالاة تنتهى بأحكام لا يمكننا أن نمر عليها دون أن نعارض الأستاذ فيها ، وخصوصا لصدورها من أديب نابه كالأستاذ سلامه موسى . فهو ينعت العصر الفيكتورى ما بين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ م بأنه عصر خمول فى الأخلاق والأدب ، مع أنه من أرقى عصور الأدب الانجليزى وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة ، بلغت فيه المدرسة الرومانتيكية غاية نموها وتطورها ، وتعددت فيه مذاهب الكتاب واتسع الأدب فى نواح عديدة كالقصة والشعر والتاريخ وأدب المقالات وغيرها . يتجلى ذلك فى شعر الشعراء الذين افتتحوا هذا العهد ولم تمهلهم المنية كشلى وبيرون وفى شعر غيرهم ممن عاشوا بعدهم كورد ثورث وتنسن ، كما يتجلى فى قصص سكوت العديدة وقصص شارلز دكنز العظيم وثكرى ومن ذهب مذهبهم أو خالفهم من القصصيين ، كما يتجلى فى كتابات ماكولى وكارليل ورسكن وغير هؤلاء ، وهؤلاء ممن ارتفعوا بآدابهم الى درجات المجد ، وما التجديد الذى يشير الأستاذ الى ظهوره فى عام ١٩٠٠ إلا ثمرة من ثمار العصر الفيكتورى الناهض ، وانك لتلمس أسبابه فى حركات ذلك العصر وترى هذه الأسباب واضحة فى كتاب الأستاذ نفسه مما لا يتفق مع وصفه هذا العصر بالجمود . لذلك لا أستطيع أن أشايع الأستاذ فى قوله إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام » ، هذا مع احترامى لآراء الأستاذ الفاضل ومزيد إعجابى بطريقته فى عرض آرائه وثقافته الواسعة ، فهو كما يتجلى فى كتابه هذا وفى سواه من مؤلفاته العديدة يعتبر بحق مثالاً للأديب العصرى المثقف ؟

محمود الخفيف

2me Année, No. 60. Lundi-27-8-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٠ « القاهرة في يوم الاثنين ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

٣٠٢١

من فضائل الأزمة

المصري يكتشف بلاده

من صفات الأزمات الاقتصادية أنها تعلم الناس الاقتصاد، وتحملهم على الاعتدال في كثير من مواطن الاسراف والتطرف، وقد دهمتنا الأزمة الاقتصادية منذ أربعة أعوام، فقضت على كل أسباب الرخاء والسعة، وألقت على ذوى البذخ والترف دروساً قاسية؛ ولكنها علمتنا من فضائل الاقتصاد مالم نكن نعلم، وفتحت عيوننا الى أمور كثيرة كانت دعة الرخاء تحملنا على إغفالها، وبثت إلى الأعصاب المضطرمة كثيراً من عوامل الهدوء، وإلى النفوس الجامحة كثيراً من عوامل الاعتدال

وكان الاصطياف من الأمور التي كشفت لنا الأزمة بعض أسرارها؛ ففي أعوام الرخاء والسعة، كان المصريون في كل صيف يهرعون ألوفاً الى عواصم أوربا ومصايفها، وينفقون مئات الألوف في فنادقها ومنتدياتها وملاهيها، ثم يعودون وقد استنفد التجوال الممتع كل مافي جيوبهم؛ وكان ما ينفقه المصريون كل عام في الاصطياف خارج القطر يبلغ زهاء المليونين، تذهب كلها الى يد الأجانب. فلما حلت الأزمة، وذهبت بالدخل الفياض، قبع

كثير من المترفين السابقين الذين كانت تجذبهم « موائد » دوڤيل وبيارتز ومونت كارلو فى دورهم . وذكر كثيرون أن هنالك مصايف مصرية يمكن انتجاعها ، ولا تكلفهم ركوب البحار وإنفاق المئات والألوف ، وذكر كثيرون أيضاً أن هنالك مصايف شرقية قريبة لا بأس بها .

كان للأزمة فضل هذا الاكتشاف . فبالأزمة وحدها اكتشف المصريون بلادهم ، وعرفوا بعد فوات كثير من الوقت أن إنفاق الملايين خارج القطر على هذا النحو سفه لا يغتفر ، وأنهم يستطيعون بقليل من المال أن ينتجعوا الراحة والعافية فى مصايف بلادهم كالاسكندرية وبور سعيد والسويس ورأس البر ؛ وكان لما بذلته مصلحة السكك الحديدية لتسهيل الاصطياف أحسن الأثر ، فقد شعر الناس أخيراً أن الاصطياف ليس ترفاً ، وليس وقفاً على الأغنياء ، ولكنه ضرورة صحية ، وأنه فى متناول جميع الطبقات .

واتجه كثير من المصريين ، ممن شاءوا الأصطياف خارج القطر ، الى مصايف البلاد الشرقية القريبة التى لا تجشمهم كبير نفقة ، فأموا فلسطين والشام ولبنان ، واستطاعوا أن يتصلوا عن قرب بإخوانهم فى تلك البلاد الشقيقة ، وأن يعملوا على توثيق الروابط المشتركة بينها وبين مصر ؛ وكان ذلك من فضائل الأزمة أيضاً .

***

نذكر أنه لما وقعت كارثة النقد فى فرنسا سنة ١٩٢٥ ، وهبط الفرنك الى نحو نصف قيمته ، بادرت الصحف الفرنسية الى نصح الشعب الفرنسى بأن يقلل من شراء العملة الأجنبية جهد الاستطاعة ، وأهابت بالفرنسيين الذين اعتادوا السفر والسياحة أن يبقوا داخل فرنسا حتى لاتبدد ثروات البلاد وقت المحنة النقدية فى بلاد أجنبية ، وأهابت بهم بالأخص أن يحاولوا أن يكتشفوا فرنسا أولاً ، فيجدوا فيها من بدائع الطبيعة وساحر النزه ، وتنوع المناظر فى البر والبحر ، مايخفف من شغفهم بارتياد مواطن السياحة والنزهة الأجنبية . فاستمع الفرنسيون الى هذا النداء القوى ، وكانت فرصة اكتشفوا فيها بلادهم على نحو ماقالت صحفهم يومئذ ، واقتصدت فرنسا يومئذ مئات الملايين ، وازداد الفرنسى شغفاً بالتجوال فى بلاده ، وتفضيلها على غيرها فى قضاء فترات العطلة والراحة .

ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الحالية ، واضطربت أحوال النقد فى كثير من البلاد الأوربية ، وضعت ألمانيا والنمسا والمجر ويوجوسلافيا وغيرها قيوداً شديدة على شراء العملة الأجنبية لتحول دون تسرب أموالها الى الخارج ، ولتمنع مواطنيها جهد الأستطاعة من السفر خارج بلادهم وإنفاق أموالهم فى بلاد أخرى . ووضعت دول أخرى قيوداً شديدة على شراء المنتوجات والحاصلات الأجنبية ، واشترطت أن يكون الدفع بعملتها أو من منتوجاتها ، وكان للقيود الأولى أثرها فى ركود موسم السياحة المصرى ، وكان للثانية أثرها فى كساد سوق صادراتنا .

ولكننا فى مصر نغفل هذه الاعتبارات دائماً ، ومال المصرى مباح أبداً ، وعرضة للتبديد خارج القطر حتى فى أحرج الأزمات ؛ ولم توفق الحكومة المصرية حتى اليوم الى أن تضع لها أية سياسة أو تقاليد ثابتة فى مثل هذه الشئون ؛ فهى لم تفكر مطلقاً فى اتخاذ أية إجراءات للمحافظة على أموال المصريين الذين لا يحملهم أى وازع على حفظها ، وللحد من حريات ذلك النفر الذى مازال فى كل صيف يحمل الأموال التى يعتصرها من عرق الفلاح الى «موائد» العواصم والمصايف الأوربية ، والى مراقصها وفتياتها .

***

يقولون إن لمصر موسم سياحة ، وإنها تغنم من ذلك الموسم مالاً لابأس به ؛ فلماذا لاينفق المصريون مثل هذا المال فى مواطن السياحة الأوربية . والحقيقة أن مصر تظلم بهذا القول أيما ظلم ، ففى مصر موسم سياحة حقاً ، ولكن معظم الغنم فى هذا الموسم لا يعود إلى مصر والمصريين ، وإنما يعود الى الأجانب : إلى شركات السياحة الأجنبية ، وإلى شركة الفنادق الاجنبية ؛ وما بضع عشرات الألوف التى تعود على خزينة الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، ثم على بعض المصريين المتصلين بهذا الموسم ، إلا فضلات ما يجنيه الأجانب باسمنا .

لقد بدأ المصرى يكتشف بلاده ، وعلمته الأزمة شيئاً من الاقتصاد والاعتدال ؛ فهل سيعتبر بهذا الدرس دائماً ، ويذكره أيضاً أيام الرخاء ، فيضن قدر الاستطاعة بماله أن ينفق فى غير بلاده ؟ أم هو درس الساعة فقط ، يزول أثره بزوال الظرف الذى ألقاه ؟

وعلى أى حال فانه يبقى للأزمة فضل التذكرة وفضل العبرة .

« ع »

الشخصـــــية

للأستاذ احمد أمين

أعجب ما فى الانسان شخصيته ، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على ظهر الأرض من إنسان ؛ فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر ، ويصعب عليك أن ترى بينهما فرقا ، وترى المطبعة تخرج آلافاً من الكتب تتشابه وتتماثل ، ولا تميز بين أحدها والآخر ؛ وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة فى رائحتها ولونها وكل شيء فيها ؛ وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس عليك بعضها ببعض — أما الانسان والانسان فلا ، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحده — فان كان علماء « الأنثولوجيا » استطاعوا أن يقسموا الانسان الى أنواع ، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته ، فذلك عمل تقريبي محض ؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلا بد لهم أن يضعوا كل فرد فى قائمة وحده ، له مميزاته الخاصة فى جسمه وعقله وروحه وخلقه ؛ فاذا أردنا أن نحصى الشخصيات فى هذا العالم فعلينا أن نحصى عدد الناس فنضع مايساويه من عدد الشخصيات — وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية اسماً خاصا ، فاكتفت فى الجسم بأن تقول : طويل أو قصير ، وسمين أو نحيف ، وأبيض أو أسمر ؛ مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها ، فهناك آلاف من أنواع الطول ، وآلاف من أنواع القصر ، وآلاف من الألوان ؛ ولكنها عجزت فقاربت ، ولو حاولت أن تضع اسماً خاصا لكل نوع من أنواع العيون وحدها ، على اختلافها فى الألوان واختلافها فى النظرات ، واختلافها فى السِّحر ، واختلافها فى السعة والضيق لوضعت فى ذلك معجما خاصا ، وهيهات أن يغنيها

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح ، مع أن هناك آلافاً من درجات الجمال ، وآلافاً من درجات القبح ، بل إنك لا تستطيع أن تُنزل إنسانين فى منزلة واحدة من الجمال والقبح ، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل ، واكتفوا بالاجمال عن التفصيل

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا فى ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال ، فقسموا الأعمال الى خير وشر ، وقسموا الصفات الى فضيلة ورذيلة ، وسموا الانسان خيِّراً أو شريرا ، وهيهات أن يكون ذلك مقنعا . فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد ، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج الى سنج بعدد ما فى العالم من إنسان

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزاً تاماً عن أن يجاروا الشخصيات فى كل مناحيها ، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلا ، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه ، فعنوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف ، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق ، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة وإن شملها الخطأ ، وأن يضعوا قواعد عامة وإن عمها الغموض والأبهام ، وقالوا ليس فى الامكان أبدع مما كان

* * *

هذه الشخصية لكل فرد هى التى ميزته عن غيره من الأفراد ، وجعلتنى أنا أنا ، وأنت أنت ، وهو هو ، ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئاً واحداً — هذه الشخصية هى مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية ، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك وطريقة حديثك ، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح ، وإيمائك وإشارتك كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء ، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك ـ كما تتكون من تصرفاتك وموقفك نحو المال ودرجة حبك له ؛ وعلى الجملة كل علاقتك بالحياة ، وكل علاقة الحياة بك ـ وإذ كان الناس مختلفين فى هذا كله اختلافاً يسيراً أو كثيراً كانت الشخصيات كذلك مختلفة ، وبين بعضها وبعض وجوه شبه فى بعض الأشياء ، ووجوه خلاف فى بعضها ، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتتحاب ، وبعضها تتباغض وتتنافر — وفى الواقع إن معنى أحبك أو أبغضك ، وأعرفك أو أنكرك ، أن شخصيتى تحب شخصيتك أو تكرهها ، وتعرفها أو تنكرها ، وصدَّق الحديث « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد ، وأن ميولها متقاربة ، بل إن ذلك يرجع الى قانون أكثر تعقيداً مما نظن ، فقد يتحاب الشخصان لأن ميلهما العلمى فى اتجاه واحد ، أو ميلهما الى كيفٍ من الكيوف متحد ، وقد يتحاب الشخصان لأنهما مختلفان ويكمل نقصُ أحدهما الآخر ، كما يحب أحياناً كثيرُ الكلام قليلَ الكلام ، وكما يحب الساكنُ الهادىء المتحفظُ

المرِحَ النشيطَ المتحركَ ، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة — على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلاً يمكن الفصل فيه بكلمة

* * *

هذه الشخصيات الأنسانية تختلف قوة وضعفاً اختلافاً أكثر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية ، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة . لا يكاد يتبينها الانسان إلا بعسر ، ولا يكاد يراها إلا بمنظار ، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود ، هى « كاللمبة » قوتها شمعة واحدة ، بل هى فوق ذلك مغبشة لتضعف قوتها ، هى من جنس مايستعمل فى حجر النوم ، نور كلا نور ووجود كعدم ، لاتتعب نظر النائم لأنه لايشعر لها بوجود ، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار لأنها كامنة الحياة ، مسكينة فى فعلها وانفعالها ، ضعيفة فى تأثيرها وتأثرها ، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ماشئت من قوة ، تضىء فتملأ البيت نوراً ، بل هى أكبر من أن تضاء فى بيت ، إنما تضاء فى شارع كبير أو ساحة عامة ، إذا وضعت فى بيت أقلقت راحة أهله بقوتها ، وأعشت الناظر بضوئها ، وعد وضعها غير ملائم لجوها ، وكان مثل ذلك مثل من وضع « فناراً » فى بيت ، أو أشعل أكبر وابور جاز ليصنع عليه فنجان قهوة — وبين اللمبة الأولى الضعيفة الخافتة ، والثانيـة القوية الباهرة درجات لاتحصى ، فكذلك الشخصيات ، بل أكثر من ذلك — ولكن هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات ، أهمها أن اللمبة الكهربائية لايمكنك أن تنقلها من قوة الى قوة ، فاللمبة التى قوتها شمعة واحدة هى كذلك أبداً ، والتى قوتها مائة أو مائتان هى كذلك أبداً ، وكل ماتستطيع أن تفعله أن تنظف اللمبة وتجلوها حتى لايضعف غبش من قوتها ، ولايقلل غبار من ضوئها — أما الشخصية الانسانية فقابلة للتحول ، بل هى قابلة للطفرة صعوداً وهبوطاً ، علواً وانحطاطا — فبينا هى خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوى أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقاً آخر ، وكأنه لااتصال بين يومها وأمسها ، هى اليوم مخلوق قوى فعال يلقى أشعته الى أبعد مدى ، وكانت بالأمس لايؤبه بها ، ولايحس بضوئها — كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوؤها ، فاذا هى مظلمة بعد نور ، وضعيفة بعد قوة ، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها — وكذلك شاء الله ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويخلق الانسان فى أحسن تقويم ، ثم يرده أسفل سافلين — وتاريخ الانسان مملوء بالأمثال ، فكم من نابغ بعد خمول ، وخامل بعد نبوغ ، وميت فى الحياة الأدبية والاجتماعيـة حى ، وحى مات ، وهكذا شخصيات الناس فى مد وجزر دائماً .

وهـذا التغير المستمر فى الشخصيات هو الذى أبقى على أمل المصلحين فى إصلاح الناس ، وباعد بينهم وبين الياس .

* * *

وكل شىء يواجه الانسان فى حياته يؤثر فى شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً فالغنى بعد الفقر ، والفقر بعد الغنى ، واليأس بعد الأمل ، والأمل بعد اليأس ، ومايعتريه من شدائد وكوارث ، وما يبذله فى صراع الحوادث ، وما يلاقيـه من رخاء ونعيم ، وما يبعثه ذلك من هدوء واطمئنان — كل هذا وأمثاله له أثر فى تكوين الشخصية يختلف ضعفاً وقوة ؛ وأهم غرض للتربيـة الصحيحة فى نظرى أن تجعل ممن تربيهم شخصيات هى أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم ، فأنجح مرب هو الذى يستطيع أن يصل بطلبته الى أقصى ما فى استعدادهم من رقى ، ويبلغ بشخصياتهم الى آخر حدودها الممكنة — ولكن بجانب هذا التأثير العادى اليومى تحدث حوادث بارزة فى تاريخ الانسان وخاصة العظماء يكون لها الأثر البالغ والتغيير الخطير — وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتعليلها وحصرها — فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيـدة دينية تملأ نفوسهم حماسـة وقوة وعظمة كما رأينا فى فعل الاسلام فى رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، فلولا الاسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة ، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة ، ولو سبقوا زمنهم بسنين لماتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية ، وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ فى الانسان على أثر مقابلته عظيماً ، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشـعل فى نفسه فألهبها ، وأضاء مابين جوانبه وحفزه للعمل ، وهون عليـه الأخطار ، بل قد تـكون العظمة نتيجة لشىء أتفه من ذلك ، فقد يقرأ جملة فى كتاب ، أو يسمع عبـارة من خطيب ، فكأنها كانت مفتاح عظمته ، وكاشف حيرته ، بل قد تـكون العظمة لم تأت من شىء

[البقية على صفحة ١٤٣٨]

الانسانية العليـا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السَّكت . لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المَهين ، يعظّم النعمة وإن دقّت لا يذم منها شيئاً ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فاذا تُعُدِّىَ الحق لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره الى السماء ، من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه ، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه . ولا يطوى عن أحد من الناس بِشْرَه ، قد وسع الناس بسطُهُ وخُلقُه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواءً ، يحسّن الحسنَ ويقوّيه ، ويقبّح القبيحَ ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، وكان أشد الناس حياء ، لايثبّت بصره فى وجه أحد ، له نور يعلوه ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، لا يؤيس راجيه ، ولا يخيب فيه ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير(١) .

***

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التى لا يجد الكمال الانسانى مذهباً عنها ، ولا عن شئ منها ، ولا يجد النقص البشرى مساغا إليها ، ولا إلى شئ منها ، ففيها المعنى التام للانسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للايمان .

هى صفات إنسانها العظيم ، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية ، فهى بذلك من براهين نبوّته ورسالته .

ولو جمعت كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية — لرأيت منها كوناً معنويا دقيقاً قائما بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت أن هذا النبى الكريم إن هو إلا معجم نفسى حىّ ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتّها ، لتتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديداً ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله .

ولن ترى فى الانسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض ، وإنى لأكاد كلما تأملتها أحسب هذا السمو قضاء وقدراً بانسان على الانسانية كلها . وهى دليل على أنه الانسان الذى خُلق للدنيا لا لنفسه ، فهو لا ينمو بما يكون له على الناس من الحق ، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها ، فما تكون فى الوجود إلا لتقرر وجودها هى ، ولا تنتهى حين تنتهى بذاتها إلا لتبدأ معانيها فى غيرها ، فهو صلى الله عليه وسلم إنسان غُرِسَ فى التاريخ غرساً ليكون حداً لزمن وأولاً لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه ، وهو أبداً قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته . وقد أصبح فى الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس ، فلن يتغير أو يُمحَى إلا إذا تغير أو مُحىَ المشرق والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمائل من أمثالها — لا نقرؤها أوصافاً ولا حلية ، بل نراها صفحة إلـهية مصنفة أبدع تصنيف وأدقه ، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدّى الفكر البشرى لأحسنَ منه ولا أصح ولا أكمل ، فقد اجتمعت تلك الصفات فى إنسانها اجتماع الأجزاء فى المسئلة الرياضية لا ينبغى أن تزيد أو تنقص ، إذ كان فى مجموعها ما وُجِدَ له مجموعها .

ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسئلة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ، فان كل جزء منها موضوع وضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلةٍ أو كثرة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وأنت إذا دققت فى هذا الحديث أدركت من معناه أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجرى على قانونها الذى وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم — أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها نخالفة القلب

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

الانسانى ، نظامه حياته وحياته نظامه ، وكأنما اعترته حالة نفسية كالتى تعترى القلب فى استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد — من القوة والصبر يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة ؛ وفى هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدّرة بميزان ، مضبوطة بقياس ؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونةً يؤازر بعضها بعضاً ، وكان قانونها الطبيعى أن تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجيء بها الشئ وضده معاً : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمود الساكن ، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز ؛ ولكنها فى استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضاً ، ويتمم النقيضُ منها نقيضَه ، وتجرى كلها فى قانون واحد : هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر فى أشد من القيد ، وكأن فيه غير طبيعته .

وهل ينبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتاتُ الوجود فتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة فى منبعها . وتلك الحالة — كما مرّ بك — تجعل وجود الانسان هو وجود إرادته وعقله ، لا وجودَ شهواته وغرائزه ؛ وبذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو مدةَ حياته فى وجود إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة ، كأنه خُلقٌ تشدّه نية مستيقظة قد نبهها ما ينبّه النفس من الغَرَرِ والخطر . ولعل هذا الشعور فى نفسه صلى الله عليه وسلم هو التفسير لقوله : « نيةُ المؤمنِ خيرٌ من عمله » إلى أحاديث كثيرة مما يجرى فى معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نية المؤمن لا تنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو ما دامت نيته على صلاحها ، وسرُّه على إخلاصه — لا يَعدُّ اليسير من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصل القائم فى تلك النية المؤمنة ألاّ يبدأ الشرُّ كى لا يوجد ، وألا ينتهى الخيرُ كى لا يفنى ؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً ، فى حين أن عمله بطبيعته الانسانية يتناول الخير والشر جميعاً ، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتى الخير فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه ليحقق ضميرَه الطيب فى كل ما يهمّ به ، ويحصر أفكاره فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساس فى علم الأخلاق ، لا أساس من دونه

والنية من بعدُ هى حارس العمل ، فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية ، واستجابة ومُطاوَعة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للارادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الارادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانون المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة ؛ فالتزوير والتلبيس كلاهما سهل ميسور فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلصت .

وهى كذلك ضابط للفضائل توجّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف ، فيكون طريق ما بين الانسان والانسان ، من ناحية الطريق ما بين الانسان وبين الله .

وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية ، يحاول أن يطمس بهذه على تلك ، وأن يغلّب الحيوانية على الروحانية ، فإذا كانت النية مستيقظة كفّتْه وأماتت أكثر نزعاته ، ووضعت لكل حاجة حداً ونهاية ؛ وبذلك ترجع النية الى أن تكون قوة فى النفس يخرج بها الانسان عن كثير مما يَحُدُّه من جسمه ، ليخرج بذلك عن كثير مما يحده من معانى الأرض .

وهى بعد هذا كله تحمل الانسان أن ينظر الى واجبه كأنه رقيب حىّ فى قلبه ، لا يرائيه ولا يجامله ، ولا يُخدع من تأويل ، ولا يُغَرُّ بفلسفة ولا تزيين ، ولا يُسكته ما تسوّل النفس ، ولا يزال دائماً يقول للانسان فى قلبه : إن الخطأ أكبرَ الخطأِ أن تنظّم الحياة من حولك وتترك الفوضى فى قلبك .

وجملة القول فى معانى النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره ، فتتعاون الغرائز المختلفة فى النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطَّرداً ، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها فى اطراد وسهولة وطبيعة .

* * *

وكل صفات النبي صلى الله عليه وسلم — مما ذكرناه ومالم نذكره — متى اعتبرت بذلك الأصل الذى بيّناه انتظمها جميعاً، فجاء بعضها تماماً على بعض فى نسق رياضى عجيب، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة، ورأيتها فى مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بل كله أجزاؤه، وأجزاؤه كله؛ كالوضع الهندسى؛ إما أن يكون بِكله، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها.

وليس مجموع تلك الصفات فى معناه إلا صنعة الانسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتكسر القالب الأرضى الذى صُبَّ فيه وتفرغه فى مثل قالب الكون، فاذا هو غير هذا الانسان الضيق المنحصر فى جسمه ودواعى جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتَى من سوء نظره لنفسه، ولا تغرّه الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هى صفات المستعبَدِ بأهوائه لا الحرّ فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبورِ فى إنسانيته لا الحيّ فوق إنسانيته. ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا فى حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتصل بكل شىء اتصالاً مبتوراً ينتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون فى الانسان الاجتماعى حيوان تقابله الحكمة فى الحيوان الأليف بانسان؛ وحكمهما واحد ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الانسان لقال لك: هو غَلّتى ومزرعتى. ولو سألت كلباً عن حبّه صاحبَه ومبلغِ هذا الحب فى نفسه لما زاد فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظمة . . .

ومتى كان الانسان فى حكم حواسه لم تَعُد الأشياء عنده كما هى فى نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وانقلبت كما هى فى وهمه بمعان متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بائتلاف الوجود وتعاونه، ولكن باختلافه وتناقضه، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل فى كل حب بغضٌ، وفى كل رغبة طمعٌ، وفى كل خير شرٌّ، وفى كل صريح خبىء، وهلم جراً؛ إذ لا بد من هذا كله متى غلب الفانى على الباقى، ولا بد من كل هذا فى تمثيل رواية الحواس الخادعة التى أساسها التغيّر والتقلّب، حتى لكأن النفس إنما تعيش بها فى ظاهر من الحياة، لا فى الحياة نفسها.

وهذا الخداع جاعلٌ كلَّ شىء من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهى، ثم لا ينتهى إلا ليبدأ؛ فما تزال هذه النفس طامعة فيما لا تناله، ولا تزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسية؛ ثم إذا هى نالت منالتها سئمت، فلا تزال من ذلك مصدر آخر لآلامها المعنوية. ولن يجىء الصحيح من غير الصحيح؛ فالكون كله ليس إلا كذباً فى النفس الكاذبة بحواسّها.

ولذا كان أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم راجعاً الى خروجه من سلطان نفسه، فلا يغضب لها، ولا يطْلقها من الدنيا فيما تذمه أو تمدحه، ولا يحب فيها، ولا يبغض من أجلها، ولا يهاونها، ولا يستلين لها فى مأكل ولا ملبس، ولا يأخذها إلا من ناحية الايمان بالله والايمان بالانسانية؛ فأفراحها أحزانها، وآمالها أشواقها، وأملاكها أعمالها، وحسابها فى طبيعتها، وحوادثها من العقل لا من الحواس، وعظمتها إثبات ذاتها فى غيرها، لا إثبات غيرها فى ذاتها؛ وغايتها فى الباقى لا الزائل، وفى الخالد لا الفانى. ومادام الحاضر متحركا فهو طارىء عابر أوشكُ أمورِ الدنيا زوالا، والعمل له على مقداره فى قلة لبثه وهوان أمره، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لا به.

فأول النفس النية العاملة لآخرتها، وآخر النفس ما تؤدى اليه أعمال هذه النية؛ فليس فى إنسان الدنيا إلا إنسان العالم الآخر؛ وبهذا يُقدَّر صمته وكلامُه، وحركته وسكونه، وما يأتى وما يدع، وما يحب وما يكره؛ إذ كل شىء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه.

وجماع الأمر ألا يكون مستقبل الانسان علامة استهزاء بجانب ماضيه، ولا علامة استفهام، ولا علامة إنكار.

* * *

وتدل صفات النبى صلى الله عليه وسلم باجتماعها وتساوُقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد؛ وهى أن جميع خصائصه النفسية مرهفة متيقظة، وهذا مما يندر وقوعه وإمكانه؛ فان الرجل من الناس ليكون حياً بالحياة، ولكن جوانب كثيرة من

نفسه قد طاح بها الموت ، أوهى مريضة ، وذلك أول الموت ؛ أو غافلة ، وذلك شبه الموت . أما الحيّ العظيم فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحى الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها، تملؤه الحياة فيملأ الحياة ، ويتمدد السرّ فيه ليريه حقائق الأشياء ، ويهديه ويدلّه ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور لبس اللحم والدم ، وبين تراب لبس الدم واللحم .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتب أعلاها الامتياز فى النبوة ، ثم النبوة ؛ ثم تنزل الى الامتياز فى الحكمة ، ثم تهبط الى عبقرية الشعر . فأكبر الشعراء قاطبة كالنبى فى معناه إلا أنه نبى صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاث هى التى أبدعتها الحكمة الالـهية لتحويل الحياة والسموّ بها ؛ فالشاعر يستوحى الجمال إذا تألّه الجمال فى قلبه ، والحكيم يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسه ، والنبى يستوحى الألوهية نفسها .

***

(كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان) ولكنها أحزان النبوّة تكسو الحياة فرح النفس الكبيرة ، وهو فرح كله حزن وتأمل ، وفكرة وخشوع ، وطهر وفضيلة . وما فرحُ أعظمِ الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلاّ شئ قليل من حزن النبى .

(وكان دائم الفكرة ليست له راحة) إذ هو مكلَّف أن يصنع الانسان الجديد وينقح الآدمية فيه . وفكرة النبى هى معيشته بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيش فى الناس . وهى الفردية واستقلالها وسموُّها لأنها إطاقة النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تطيقها ، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعبد له ، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريح اليه من ذاتها . ومتى كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفراغها ، فهى تفر منه إلى ما يلهيها عنه . ولكن العظيم يعيش فى امتلاء نفسه ، وعالمه الداخلى تسميه اللغة أحياناً : الفكرة ، وتسميه أحياناً : الصمت .

(وكان صلى الله عليه وسلم طويل السكتِ لا يتكلم فى غير حاجة) ومن الصمت أنواع ، فنوع يكون طريقة من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يحيط به ؛ ونوع يغشى الانسان العظيم ليكون علامة على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة ، ونوع ثالث يكون فى صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم ، ونوع رابع هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح فى ساعة أعمالها ؛ ونوع خامس يكون صمتاً على دوىٍّ تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلام جميلة تتحرك .

***

على هذا النمط يجب أن تُفسر كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ؛ فهى بمجموعها طابع إلـهى على حياته الشريفة يثبت للدنيا بكل براهين العلم والفلسفة أنه الانسان الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

طنطا — **مصطفى صادق الرافعى**

بضع كلمات

خير زمام لمطية الشجاعة الحلم

لا تستقلّ أمة نفوس أفرادها غير مستقلة

لا يخرج أبو الهول من صمته حتى تتكلم

الحياة كأس تحلو وتمر ، ثم تتحطم

لا تنهر السائل فقد ينهرك غداً

العفاف كالمعدة يشبع ويجوع ، فاذا لم يجد ما اعتاده من طعام الزوجية الطيب انصرف الى غيره من خبيث الطعام

المرأة شيطان جميل

السكير يملأ فى آخر أيامه قواريره عقاقير

ما رأيت أستاذاً يعلمنى الحلم خيراً من زوجتى وأولادى

شباب التاريخ يتجلى فى آثاره القديمة

الطبيعة الجميلة ليست ملكى ولكنها ملك عينىّ ، فلمَ لا أتمتع بها؟

الأولاد مصابيح البيت

المرأة كالطفل ، نفر منه فيتبعنا ، ونتبعه فيفر

أعمى البصيرة أعمى مرتين

المخدرات كالمرابى ، ولكنها تتقاضى ربحها من صحتك

محمود خيرت

شخصيات نسوية أندلسية

صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تولى محمد بن أبي عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها كما بينا ، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له . ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط الى ذلك الحب القديم الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي ، ولكنها كانت ترجع أيضاً الى ثقة صبح في مقدرته وبراعته ، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد السلام والأمن في المملكة . فكان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض اليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الأمير الفتى ، هشام المؤيد بالله ، ميالاً بطبعه وسنه الى اللهو والدعة ، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة التي تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب . وكان ابن أبي عامر يشجع هذه الميول السيئة في نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده ؛ ومذ ولي هشام ، حجر عليه ابن أبي عامر ؛ ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين في قصره لا يعرف شيئاً من العالم الخارجي إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب . وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي : « حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولي الحجابة . وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، واذا سافر وكل من يفعل به ذلك[1] » . ويروي كوندي أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم ، جاء من ماردة الى قرطبة يوم البيعة

(١) المقري — ج ١ ص ٢٧٦

لهشام ليؤدي يمين الطاعة ، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع[1] . وفي الفرص النادرة التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج كان ابن أبي عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتزم ابن أبي عامر أن يحدثه في نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .

ولا يتسع المقام للأفاضة في شرح الوسائل والاجراءات المتعاقبة التي تدرع بها ابن أبي عامر لتحقيق مشروعه ؛ ولكنا نقول فقط إنه سار الى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ في تحقيقها الى أشد الوسائل ؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . وفي ذلك يقول لنا ابن خلدون : « ثم تجرد (أي ابن أبي عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم »[2] . وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر ، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر ؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم ، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا ؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر ، ويحرض صبحاً عليه ، وبنوه كلما سنحت الفرص بقصوره وسوء تدبيره ، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات ؛ وجدّ بعد ذلك في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة . وفي ذلك يقول ناقم منه :

أبني أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وعمد ابن أبي عامر الى الجيش فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه ، وأبعد عنه كل العناصر المريبة ، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة ؛ وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة في ضاحية قرطبة على ضفة الوادي الكبير وسماها بالزاهرة ، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين ؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة ؛ واتخذ سمة الملك ، وتسمى

(١) كوندي — ج ١ ص ٤٩٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة ؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم (١)

***

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبى عامر على إحداثه ؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها يدفعها دائماً الى مؤازرته والأذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التى يسعى الى تحقيقها ؛ هذا اذا لم نفترض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب فى حبها الى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت فى ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه ؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شئ فى يديه (٢) ؟

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ؛ وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب وأمه حبلى وقاض . . . (٣)

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة . وتتفق الرواية الاسلامية فى الاشارة الى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، وان كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربى يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٤)

ولم يخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلاً جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور اسماء ابنة غالب مولى الحكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته باشراف الخليفة ، وبعبارة أخرى باشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجا سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة (١) وان كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل

***

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس ، ويسير من ظفر إلى ظفر ، ويثخن فى ممالك أسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ أسبانيا المسلمة مابلغته فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ اسبانيا النصرانية مابلغته فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل أسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فتح فى عهد الحكم المستنصر ؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكما من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله العنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب سلطاتها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المغتصب ، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه . على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه ، معتمداً على قوته ووسائله ، لايحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على ولده عبد الملك ، وهو فتى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الكريم » (٢) وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — ابن الابار (الحلة السيراء) — ص ١٤٩ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً الى المقتدر العباسى « الرسالة »

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ — نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١

(٤) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ — دوزى ج ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦

ينسخ الخلافة الأموية حكما كما نسخ سلطانها فعلاً ، وأن ينشىء دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة .

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والارادة ، لاتسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هى صبح أو « أورور » صاحبته القديمة ، وعونه السابق فى الوصول إلى ذرى الحكم ، وفى الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغاياته ، وكانت صبح يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذى شغفها بالمنصور دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ومنازعته واسترداد سلطانه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وأذاعت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعوة شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت فى القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيرى بن عطية أقوى زعماء المغرب ، وكان مخلصاً لبنى أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها فبادر برؤية هشام المؤيد سرا ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لاتمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب . وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم فى نهايتها زيرى ومزق جيشه وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧ م) (١)

* * *

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يكن الخليفة الأموى سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بنى أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائى . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت الى السكينة والعزلة ؛ فلا نسمع عنها بعد ذلك فى تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الأسلامية فى ذلك إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام(٢) . والظاهر أنها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالى سنة ٣٩٠ هـ ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب يتيمة الدهر للشاعر الأندلسى أبى عمر بن محمد بن دراج القسطلى قصيدة رثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتى :

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعـزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

* * *

وحاشا لرزئك أن يقتضيه ... عويل الرجال ولدم النساء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى مابها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ — دوزى — ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠

فى السعادة

للورد افبرى من كتابه (فائدة الحياة)

ترجمة الأستاذ بشير الشريق

لا تسير الرفاهية مع السعادة دائماً ، وإن كثيراً من الناس بؤساء وإن كانوا يملكون فى الظاهر كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء .

يمكن أن تقدم الطبيعة إلى أحب عشاقها الغنى والقوة والشهرة والحياة الطويلة ، ولكنها لا تستطيع أن تجعله سعيداً ، إذ يجب أن يعتمد فى ذلك على نفسه .

إذا لم تكن عناصر السعادة موجودة فى نفس الرجل فان كل ما فى العالم من جمال ومشاهد وملذات ومبهجات لن تستطيع أن تهبها له أكثر ما تتوقف عليه السعادة انما هو ضبط الرجل لأفكاره وقيادته لها متجنباً ماهو مؤلم ، مستعيداً أجمل الذكريات .

يقول «شوبنهور» — يرى أحدهم العالم قاحلاً مظلماً حقيراً ، ويراه الآخر غنياً مبهجاً مملوءاً بالمعانى .

السعادة شىء يحتاج إلى المران كالعزف بالناى .

إذا سرنا على الصراط المستقيم وصلنا إلى ماتصبو إليه نفوسنا ولكن حذار أن نبحث عن هذا الصراط باهتمام شديد .

يقول « فرانكلن » — اتبع السرور يتبعك .

لاتفكر كثيراً فى نفسك ، أنك لست الوحيد فى هذا العالم ،

يقول «راسين» — لاتفتش عن اللهو ، ولكن كن مستعداً دائماً أن تلهو .

إنه من الصعب أن تجعل الحياة تعاقب لذائذ ،

يقول « تشفورت » — إن أضيع يوم فى حياتنا هو اليوم الذى لانضحك فيه .

إذا كان اليوم مظلماً فأضئه .

يقول أحد القساوسة ـ إن البشاشة هى تسعة أعشار المسيحية[1]

يحتاج النزاع إلى شخصين فلا تكن أنت أحدهما .

لاتدع الشمس تغرب على غضبك .

إن أنت فكرت فى نفسك كنت تعساً ، وان أنت فكرت فى غيرك كنت سعيداً .

يتذمر بعض الناس دائماً ، ولكنهم مساكين لم يدركوا أنه لو قدر لهم فولدوا فى جنات عدن لوجدوا هنالك أشياء كثيرة يتشكون منها ويتذمرون .

الغبطة مقوٍ أخلاقى عظيم ، وكما أن الشمس تفتح الأزهار وتنضج الأثمار . كذلك الغبطة

الشعور بالحرية والحياة يبعث فينا كل بذور الوجود .

مادام الانسان محافظاً على بشاشته فهو محافظ على قوته وشبابه .

يظن بعض الناس أن السرور دليل عدم التفكير وهذا خطأ ، إذ ليس من علاقة ضرورية بينهما .

لانستطيع أن نمنع آلام هذه الحياة عنا ، ولكننا ـ إذا أردنا ـ نستطيع أن نسمو فوقها ؛ ولذلك يجب أن نعلق على جدران غرفة ذكرياتنا صوراً جميلة ضاحكة . وكما يلأم الزمن الجراح يشفى الزمن الأحزان .

يقول « كوكريتوس » يخاف بعض الرجال فى النور بقدر ما يخاف الأطفال فى الظلام .

إن العقل المثقف ، ولا أعنى بالمثقف عقل الفيلسوف ، بل كل عقل فتحت له منابع المعرفة فعرف كيف يمرن قواه ، سيجد فى كل ما يحيط به منابع للسرور والتسلية لاينضب معينها ؛ سيجد فى بدائع الفن غبطة ، وفى جمال المرأة راحة ، وفى خيال الشعراء وحوادث التاريخ سلوة ، وفى عقائد الناس تفكهة .

الطبيعة نعمة لمن لايكفر النعمة .

لا الغنى ولا الجاه بضامنين لك السعادة .

قد تكون غنياً وعظيماً وقوياً من غير الحُب والاحسان والاطمئنان ، ولكنك لن تكون سعيداً .

لقد اتفق أحكم الحكماء على أن السعادة لايمكن أن تشترى بالمال ولا أن تنال بالقوة .

يقول « هريو » لسيمونيدس : لقد أغرت مفاخر الأمارة وعظمة الملوك ورفاهيتهم السواد الأعظم من الناس ؛ أنا لا أعجب من ذلك ، لأن الناس كما يظهر لى يحكمون على بعضهم بمجرد الظواهر فقط ؛ إننى أؤكد لك ياسيمونيدس ان الملوك يملكون أقل نصيب من «المسرات العظيمة» ، وأعظم سهم من «البلايا العظيمة»

لاينبغى أن نخاف الموت ، فالموت كما يقول « باسكال » هو المصيبة الوحيدة التى لانشعر بها .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه :

بنى إن البر شىء هين وجه طليق وكلام لين

حول كتاب « هتلر »

قضية طريفة أمام القضاء الباريسي

نعرف أن الهر أدولف هتلر رئيس الحكومة الألمانية الحالية ، وزعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني ، كتاباً كتبه أيام المحنة ، وقت أن كان زعيم جماعة صغيرة وحزب ناشيء ، وكان وقتئذ معتقلا فى إحدى القلاع يقضي حكما صدر عليه لاشتراكه فى مؤامرة دبرت فى ميونيخ لقلب الحكومة . ولم يكن لهذا الكتاب الذى صدر فى سنة ١٩٢٥ بعنوان جهادى Mein Kampf ، أهمية سياسية أو أدبية ، وفيه يقص هتلر سيرة حياته ، ويعرض برنامج حزبه ، وآراءه السياسية فى أسلوب عادى لا يمتاز بشيء إلا بما يتخلله من المبادىء والآراء المتطرفة . فلما تطورت الحوادث ، وغدا هتلر زعيم أعظم الأحزاب الألمانية ، واستولى على مقاليد الحكم ، اتجهت الأنظار الى كتابه ، وتخاطفته الملايين ، وطبع مراراً عدة ، وترجم الى عدة لغات ، واتخذ أهمية جديدة يسبغها عليه مركز مؤلفه وما انتهى اليه من السلطان والنفوذ

وقد رأى أحد الناشرين الباريسيين أن يخرج الكتاب باللغة الفرنسية لما للكتاب من خطر فى نظر الجمهور الفرنسى بعد أن غدا مؤلفه أعظم خصم لفرنسا ، فأرسل الى شركة فرانز أيهر الألمانية التى فُوضت جميع حقوق النشر يستأذنها فى الترجمة ، فأجابت بالرفض المطلق . والظاهر أن ذلك يرجع الى أسباب سياسية أكثر مما يرجع الى أسباب مالية ، لأن الهر هتلر لم يشأ أن يطّلع الشعب الفرنسى على ما كتبه ، وفيه كثير مما لا يدعو الى الطمأنينة . ولكن الناشر الباريسى لم يعبأ بهذا الرفض ؛ وأخرج لكتاب « جهادى » ترجمة فرنسية بديعة كاملة بقلم ثلاثة من الكتاب المعروفين . فبادرت شركة فرانز أيهر الألمانية الى رفع الأمر الى القضاء الفرنسى ، واستصدرت أمراً بالحجز على النسخ المطبوعة لدى الناشر الباريسى ، ورفعت عليه دعوى تطلب مصادرة النسخ المحجوزة ، والحكم عليه بغرامة قدرها ألف فرنك عن كل نسخة ، والحكم عليه فوق ذلك بتعويض مالى كبير

وكانت نظرية الشركة الألمانية أمام المحكمة أن نشر الترجمة دون إذن يعتبر اعتداء واختلاساً ، وقانون سنة ١٧٩٣ الفرنسى الذى يحمى الملكية الأدبية يعتبر ذلك « تزويراً » تترتب عليه جميع حقوق التعويض والمصادرة

ولكن الناشر الباريسى أجاب على لسان محاميه الأستاذين جابيه وفيليب لامور أن هذه الحالة لا يشملها قانون سنة ١٧٩٣ . ذلك أنه لا يمكن أن نشبه كتاب هتلر بكتاب عادى أو رواية لمؤلف عادى ؛ والواقع أن كتاب « جهادى » إنما هو كتاب عمومى لرجل من الرجال العموميين ، ورؤساء الحكومات الذين تغدو كتاباتهم ملكا للجميع على نحو ما يغدو تصريح وزارى أو خطبة عرش ؛ فلكل إنسان الحق ، بل ومن واجب كل إنسان يهمه الاطلاع على الشئون العامة أن يعرفها وأن يقرأها . هذا الى أن العقد الذى تزعم الشركة الألمانية أنها حصلت بمقتضاه على حقوق النشر لا يوجد ولم يقدم . وليس لديها غير تصريح شفوى من « الزعيم » هتلر . ورفع الدعوى بهذه الصورة باطل ، وكان واجباً على هر هتلر ، إذا شاء أن يحمى حقوقه أن يتقدم بنفسه ، وعلى أساس الاعتبارات السياسية التى هى جوهر القضية ؛ ولكنه لم يكن لديه من الشجاعة أو الصراحة ما يحمله على اتباع هذا الطريق ، ولهذا آثر أن يتقدم بواسطة شركة للنشر وعلى أساس الاعتبارات التجارية

وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً فى الدوائر القضائية والأدبية ، ولا تزال منظورة أمام محكمة السين التجارية ، رهن صدور الحكم فيها . على أنه يرجح منذ الآن أن يأخذ القضاء الفرنسى بنظرية الناشر الباريسى فى اعتبار كتابات الرجال العموميين وأقوالهم ملكا مباحاً يسوغ لكل إنسان أن يحصل عليه وأن يذيعه ؟

بشير الشريقي
المحامى

« شرق الأردن »

مادمنا كائنين فما ثمة موت . وإذا جاء الأجل فما ثمة وجود .

يجب ألا ننشد السعادة فى الخارج بل فى نفوسنا ، فى عقولنا .

الجنة فيك ، فان أنت لم تستطع أن تكون سعيداً على الأرض فكيف تنتظر أن تكون سعيداً فى السماء ؟

يقول « سقراط » : خير الرجال من يسعى لضبط نفسه ، وأسعدهم من يشعر بأنه ضابط لها » .

خذ الغبطة إلى بيتك

واسمح لها أن تنمو ودارها .

إنها ستخفف من آلامك وأحمالك

وتغنى لك وأنت تجاهد فى حراثة أرضك .

إنه لعمل عادى أن تكون مسروراً .

صورة من صدر الاسلام

عبد الله بن مسعود

بقلم محمد طه الحاجرى

أخذ الناس فى مكة يحسّون شيئاً جديداً يداخل روح الحياة عندهم ، وينشر ظلالاً خفيفة من حولهم ، ويبعث فى أنفسهم شعوراً شديد الغموض لا يتبينون كنهه ولا يتحققون أمره ، شأن الجماهير فى فجر الأحداث الخطيرة . وكأن لهم من وراء الحواس الظاهرة حساً باطناً لا يستند اليها فيما يدرك ، ولا يدرك إلا المعنى العام الذى لا يحدد . وكان الجو فى تلك المدينة المقدسة يزخر بشتى التيارات ، ويموج بلمحات النبوة ونفحات السماء ، كما يموج الأثير بأمواج الكهرباء : تحمل فى أطوائها معانى القوة دون مظاهرها ، وتخفى فى أثنائها الصوت المجلجل ، والضوء الساطع ، كامنة كمون الروح ، خفية خفاء القدر ، حتى تتاح لها الظروف المواتية ، والحالات الملائمة ، فتجهر وتستعلن وتؤدى رسالتها . . . وكذلك كان الأمر فى الأيام الأولى للبعثة : تنزل الملائكة وتصعد ، ويترادف الوحى ويمتد ، ويزخر الجو بنفثات الرسالة ، والناس مستمرون فى شأنهم ، لا يحمون شيئاً إلا حفيفاً لا يعبأون به ، ولمحات خفيفة لا ينظرون اليها ، حتى تصادف قلباً أعدّ لها ، و « جهازاً » صالحاً لقبولها ، فتجهر وتستعلن وتؤدى رسالتها . . .

وفى يوم من هذه الأيام ، خرج الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه صاحبه وصفيه أبو بكر ، وأخذا يسيران فى ظاهر مكة ، على نجوة من العيون ، وأمنة من الأسماع . يتناجيان نجوى المودة الصادقة ، ويتحدثان حديث العقل المتزن ، وقد أقبل الرسول على صاحبه ليجد عنده راحة نفسه ، وطمأنينة قلبه ، لقاء ما ألقى عليه ربه . وبينما كذلك لقيا شاباً فى نحو العشرين ، ضئيل الجسم ، ضعيف المنة ، آدم البشرة ، تلمع عيناه ذكاء وعزيمة وصفاء سريرة يرعى قطيعاً من الغنم ، هو ذا عبد الله ابن أم عبد الهذلى ، مولى أخوال الرسول من بنى زهرة ، يرعى غنماً لابن أبى معيط أحد السادة المتجبرين من بنى أمية . فوقفا عليه واستسقياه بعض اللبن فسقاهما ، حتى اذا ما فرغا من شرابهما أقبل بدوره عليهما ، وأخذ يسائل الرسول عما سمع بعض الناس يهمسون به ، من كلام بدع تتضاءل أمامه كل صنوف الكلام ، وأمر جديد يتنزل عليه من السماء ، يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام . فهش له الرسول ومسح على رأسه ، وجعل يقرأ عليه ، وإن صوته ليتجاوب بين قلبه وعقله ، وجعلت كلمات التنزيل تتنزل على نفسه ، كما تتنزل قطرات الماء على حلق يتحرق ظمأ ، حتى شرح الله صدره للأسلام . ومضى الرسول وصاحبه ، رضى النفس مغتبط الضمير . وخلفا عبد الله وقد ملكته نشوة هذا الأمر ، وقد جعلت كلمات الرسول يتردد صداها بين سمعه وقلبه ، وهو يحسب أنه قد ظفر بسعادة الأبد . وما زال كذلك حتى يقبل الليل ، فينطلق الى دار الأرقم ، يلقى الرسول وصحبه يتذاكرون آيات التنزيل ، ويضرعون الى الله أن يسدد خطاهم ويمكن لهم دينهم .

أى رجل هذا ؟ شاب يافع محروم من أسباب القوة ووسائل المنعة ، ليس له عشيرة يلجأ اليها ، ولا عصبة يعتمد عليها . ضعيف فى ذاته الجسمية ، قضيف العظام مترهل العضلات مجرد من وسائل الحياة المادية ، يمتهن نفسه لأشراف مكة فى الخدمة ورعى الغنم ، لقاء ما يحفظ عليه روحه ويمسك عليه الرمق . ثم لا يعبأ بعد هذا أن يخرج عليهم ، وهو يعلم مقدار حميتهم لدينهم وتعصبهم لأنفسهم . ولا يأبه لما لابد أن يصيبه فى هذا السبيل من تصرم وسائله ، واستهداف حياته فى تعرضه لعداء سادته وهم من هم : سدنة البيت الحرام ، والقوام على ميراث اسماعيل عليه السلام ، والخيرة المتخيرة من أبناء العرب ، وأصحاب الحول والطول فى كل أنحاء الجزيرة .

ولكن عبد الله كان يملك من أسباب السماء بقدر ما حرم من وسائل الأرض . كان قوى النفس ، متين الخلق ، بقدر ما كان هزيل القوام ضعيف الجسد . كان يشعر بالسؤدد الروحى يوجهه ويعلى عليه ، وإن كان يضطرب فى أسمال الخدمة وأهدام الحاجة . فلم تكن الضرورات المادية لتخضع روحه أو تغلب ضميره ، وما كان للخوف أن يغشى بصيرته فيخلد الى الأرض . وكذلك انطلق

مع روحه فاعتنق الاسـلام وأخلص له ، وأحب محمداً الى غاية ما يبلغه الحب الروحى ، فاصطفاه الرسول ليكون تابعه الأمين ، وخادمه الذى ليس من دونه حجاب ، فـكان يرى وكأنه واحد من آل بيته ، مما كان يركن اليـه ويطمئن له ويتلطف معـه ويحسن عشرته ، فأخلص للرسول الاخلاص كله ، ووصل حبه له الى قرارة قلبه ، حتى صار جزءاً من حياته ، بل لقد اصطبغت حياته كلها به ، وتأثر به فى مخبره ومظهره ، فـكان أقرب الناس له سمتاً ، وأدناهم اليه دلاً ، وأشبههم به فى سكينته ووقاره .

***

مضت الأيام والأسلام نجوى الضمائر ، وحديث القلوب ، وهمس الشفاه . والقرآن لا يعـدو بيت الرسول ودار الأرقم وأطراف مكة القاصية . ثم جاء أمر ربك فأتيح للخافية أن تظهر ، وللسر أن يستعلن ، وللدعوة أن تأخذ سبيلها فى وضح النهار ؛ واجتمع ذلك النفر من المسلمين يتدبرون الأمر ، وكانوا يعرفون موضع الأحساس الدقيق فى نفس العربى ، وموطن التأثر البليغ من قلبه : إنما هى تلك الحاسة البيانية المرهفة التى أمسكت بقياده ، وسيطرت على حياته ؛ وجاء القرآن وافياً بها متحكما فيها ؛ فـكان من الطبيعى أن يكون سبيل الدعوة . فقالوا من لقريش يسمعها هذا الـكلام ؟ فانبرى عبد الله يقول : أنا لها . وهو يعلم مقدار مايستتبعه هذا من الأذى ، ولا عاصم له من قوم ولا عشيرة . فراجعوه فى هـــذا الأمر ، وبصروه بعاقبته ، وذكروه ضعفه ووحدته ؛ فأبى أن يفوته هذا الشرف ، أو أن يرده عنـه اعتبار لا قيمة له فى ميزان المجد . فاعتصم بإيمانه القوى ، ويقينه الثابت أن لا إله إلا الله ، فلا نافع ولا ضار إلا الله ، وأن لو اجتمعت الجن والأنس على أن ينالوه بشىء ما استطاعوه الا بقضاء الله وقدره ، وأحبب به أذى فى سبيل الله وإعلاء كلمته . ثم تخير غداة الغد حين تكون قريش مجتمعة فى أفناء الحرم حول الـكعبة ، يدبرون أمورهم ، ويتحدثون عن أموالهم ، ويتكهنون بمقادير أرباحهم ويتراهنون على مايدور بخواطرهم ، وتذهب اليه مطامعهم وتراوحهم به مخاوفهم . فلما كان موعده أقبل الى البيت الحرام ، واستقبل الـكعبة بوجهه ، وأخذ يتلو من كتاب الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الرحمن علم القرآن ، خلق الأنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

أى صوت رهيب دوى فى أرجاء الحرم ، فالتفتت إليـه أسماعهم ، ودهشت له قلوبهم ، واستطارت منه ألبابهم ، وأذهلهم عما هم فيـه من حجاج ولجاج فى تجارتهم وحياة أموالهم ؟ ! فانصرفوا إليه يقولون : ما شأن ابن أم عبد وماذا يقول ؟ فلما علموا أنه يتلو بعض ماجاء به محمد أقبلوا عليه يضربونه فى وجهه ويدفعونه فى صدره ، ما شاءت لهم الحمية ونخوة الجاهلية ، حتى نالوا منه وتركوا آثار الدم فى وجهه . ثم عاد إلى أصحابه وهو يقول : « ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً » فقالوا له : حسبك . وتم لهم ماشاءوا .

استشرف عبـد الله إذن لعواصف النـكير والاستهزاء ، واستهدف لسهام التنـكيل والاعتداء . إن كان فى بيت الرسول فهناك جيرانه : أبو لهب وعقبة بن أبى معيط والحكم بن العاص وعدى بن حمراء الثقفى يترصدون له وينالون منه . وإن كان فى السوق فما شاءت جماهير قريش من أذى وتجهم وسخرية ، وإن كان فى المسجد ، وقد جلس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى المستضعفين من أصحابه فـكذلك ؛ وما يفتأ القوم يمرون بهم ، فيتغـامزون عليهم ويسخرون منهم ، ويقول بعضهم لبعض : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه »

وهكذا مضت الأيام بعبد الله ، وما يزيده هذا إلا صفاء فى نفسه ، وصلابة فى يقينه ، واستشراقاً لهدى الله جل شأنه ، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصنعت منه هذه الخطوب ما تصنع حرارة الأرض وضغطها من الماس وكرائم الأحجار ، فأصبح كالماسة الصافية صلابة وإشعاعاً .

فلما اعتدل ميزان الأمور ، وتمت كلمة ربك الحسنى على المسلمين ، وأصبحت القوة فى جانب الحق ، وأصبح الاسلام فى يثرب صاحب الـكلمة ، كان عبد الله سيفاً قاطعاً ونجماً ساطعاً ، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، لم يقعد به ضعفه . ولم يخلفه هزال جسمه ، إذ كان قوى القلب ثابت الايمان . وكانت بصيرته فى الدين قوية الأشعاع دائمة السطوع ، حتى لقد أوصى

الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بعهده ، وشهد له كبار الصحابة كعلى وحذيفة ، وبمكانهما من هذا الأمر ما نعلم ، وكان من العلم بالقرآن فى المكان المرموق : مامن سورة فى القرآن أو آية من سورة إلا وهو يعلم سبب نزولها ، ومكان مجيء الوحى بها ، لاينكر عليه ذلك منكر . ولقد كان إيمانه يتلألأ فى قراءته كما كان يتألق فى جبينه ؛ حتى كان يحبب إلى رسول الله أحياناً أن يسمع القرآن منه . فقال له مرة : اقرأ على سورة النساء . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأ عليه حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً رسوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » فبلغ التأثر من الرسول مبلغه ، وفاضت عيناه بالدموع .

وحين نذكر فصاحة منطقه ، وخلوص لسانه ، لا ننسى أنه هذلى الأصل ، مع عرق فيه يمت الى زهرة ؛ ثم هو مع هذا قرشى المولد والمربى ؛ فلا غرو أن كان جيد الأداء حسن القراءة ، بعد أن اجتمعت له مقومات لسانه ونصاعة إيمانه .

* * *

انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، فانتقلت الدعوة الى الشمال ، تكافح بالسيف ولاة فارس وعمال الروم ، فما كان أسرع عبد الله الى الجهاد فى سبيل الله ، وقد مكن له فقهه وبصره وورعه أن يتولى أمر الأنفال ، فكان لا يفتأ فيما بين هذا يعلم القرآن ، ولا يترك فرصة دون أن ينتهزها لتفهيمه والتبصير به ، وإنه لجالس ذات مرة فى حمص وقد جيء اليه بسبائك من الفضة ، فجعل يذيبها ، وإنها لتتلون ألواناً ، فرأى فى ذلك صورة بينة للمهل الذى جاء به القرآن ، فالتفت الى أصحابه يقول لهم : أتدرون ما المهل ؟ هذا أشبه شيء به . لله أنت يا ابن مسعود ! ما كان أبصرك بكتاب الله وأحرصك عليه !

ثم بعثه عمر إلى أهل الكوفة معلماً حين بعث عماراً عليهم أميراً ، وكتب اليهم هذه العبارة التى تدل دلالة واضحة على قيمة ابن مسعود فى نظر أصدق الصحابة بصراً ، وأنفذهم رأياً ، وأعرفهم بقيم الرجال : « إنى بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبدالله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وكفى بهذه الجملة الأخيرة شاهداً بمكانة الرجل .

فلبث فيها ما لبث قيما على بيت المال ، قائما بتعليم القرآن وبث تعاليم الاسلام ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان فوق هذا يضرب بخلقه وورعه خير الأمثال ، حتى كان أصحابه يقولون : « ما رأينا رجلا أحسن خلقاً ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا من ابن مسعود » . فكون فيها مدرسة تحبه وتتعصب له ، فلما كان عثمان وأخذ يقلب بين الولاة والعمال ، بعث الى ابن مسعود يستقدمه اليه ، فجزع أصحابه أيما جزع ، واستشعروا أثر النازلة ، إذ يوشك أستاذهم الذى وهبهم قلبه وألهمهم حبه أن يفارقهم ، فاجتمعوا اليه يرجونه أن يقيم بينهم ، وله عليهم أن يمنعوه مما عسى أن يصل اليه من مكروه ، ولكن عبد الله ما كان ليعبأ بالمكروه يصيب شخصه ، فما أهونه فى ذات نفسه لقاء الخير يصيب أمته ، ولكنه كان يرمى ببصره الى ما وراء الشخوص الماثلة أمامه ، فيرى بوادر شر تتربص بالأمة الدوائر ، ودلائل فتنة توشك أن تنقض . وما كان له أن يفتح بعصيانه ثغرة فى بناء المسلمين ، فصرف القوم عنه وهو يقول : « إن له على حق الطاعة ، وأنه ستكون أمور وفتن ، فلا أحب أن أكون أول من فتحها » فمضوا عنه وهم يشدون على قلوبهم ، ثم أخذ أهبته وسار الى المدينة .

وقد لبث فيها وإن الفتن لتموج بالناس من حوله وهو قار ساكن ، يسأل الله العصمة وإطفاء الثائرة ، ولا يكاد يلفته شيء إلا كتاب الله الذى تلقاه عن رسول الله ، فهو موضع عزته ، ومناط كرامته .

ولم يطل به العهد حتى اصطفاه الله لجواره ، رضى الله عنه ؟

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

القضاء عند قدماء المصريين

بقلم حامد أسعد محمد عاشور

قبل أن نطرق هذا الموضوع يجب أن ألفت نظر القارئ الى أن مصر كانت على درجة عظيمة من الرقى والحضارة ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان موطدة الدعائم ؛ وأن النظم الديمقراطية التي يدعى الأوربيون اليوم أنها من بنات أفكارهم أو مما ورثوه عن الأغريق والرومان ، لم تكن إلا وليدة النظريات السياسية الفرعونية فى عصور سحيقة ؛ وأن الحريات المدنية والسياسية وحماية الملكية الفردية التي يباهى بها القرن العشرون بعد الميلاد ، عُرفت فى مصر وتوطدت أركانها فى القرن العشرين قبل الميلاد تحت حكم ملوك مصر وفراعينها العظام .

كذلك قبل أن أبدأ الكلام أرى لزاماً علىّ أن أذكر أننى استقيت معلومات هذا المقال من مصادر تاريخ مصر المعروفة من كتابة على جدران القبور والمعابد الى ما كتب فى أوراق البردى ، ثم من محاضرات أستاذى الدكتور زكى عبد المتعال فى كلية الحقوق ، ثم من كتاب « وصف مصر » الذى وضعته الحملة الفرنسية بعد رجوعها من مصر .

***

يرجع أصل سكان البلاد الى بعض العناصر الاسيوية التى غزت مصر من الشرق ، ثم امتزجت بعناصر أخرى من السود آتية من الجنوب .

أما تكوُّن الأقليم فهناك رأيان فيه : الأول يقول إن البلاد كانت تتكون من قبائل اتحدت فكونت مدناً ، ثم اتحدت هذه فكونت أقاليم ومقاطعات ، ثم تكونت مصر العليا مستقلة عن مصر السفلى الى أن وحد سكوربيون ملك نخعة (مصر الوسطى) قسمى الأمبراطورية ، ومن بعده جاء مينا فأتم ما بدأه سلفه .

أما الرأى الثانى فيقول : إن مصر لم تمر بهذ التطور التدريجى بل أنها من يوم أن دبت الحياة فيها وهى أمة موحدة ، ويستند أصحاب هذا الرأى الأخير الى أن نهر النيل هو منبع الثروة الوحيد فى البلاد ، فلا يمكن إلا أن توحد جهود السكان فى سبيل الغرض المشترك وهو حب البقاء ، والدفاع عن أموالهم ومورد رزقهم ؛ هذا الى أن الوثائق وأوراق البردى لم تذكر أن البلاد مرت بالدور التطورى السابق ذكره .

ولما تكون الاقليم وجدت الأسرات . فى عهد الأسرتين الأولى والثانية كان الحكم مطلقاً ، فكان المُلْكُ قائماً على الحق الالهى . وبذا كان الملك ممثلاً للسلطتين الزمنية والدينية ، فكان يصدر القوانين بنفسه وبمساعدة كتبة خصوصيين .

وفى عهد الأسرة الثالثة كان الملِكُ مصدر جميع السلطات ، يستعملها بمساعدة موظفيه المدنيين لا الدينيين ، وكان خاضعاً للقوانين التى يصدرها وتسرى على شعبه ، وبذا كان الحكم مطلقاً مشبعاً بروح العدالة والأنصاف ، فالجميع متساوون فى الحقوق لا فرق بين أمير وحقير أو غنى وفقير ، وكانت الدولة إذ ذاك زمنية لا دينية أى لم يكن للكهنة نفوذ كبير فيها .

وفى عهد الأسرة الرابعة أصبحت الدولة دينية ، وأصبح الملك ممثلاً لرع وهاتور الالآهين ، وقدمت الديانة الملكية على الادارة الحكومية ، والكهنة على الموظفين ، وكانت هناك ادارات حكومية كثيرة ، منها (ادارة الرى ومياه النيل ، وادارة الحربية ، وادارة الاحصاء والضرائب ، وادارة المالية ، وادارة العقائد والتموين .) وكل هذه الادارات كانت تحت اشراف مجلس العشرة الملكى ، وهو يقابل مجلس الوزراء الآن ، وكان الوزير الأكبر هو الذى يرأس هذا المجلس .

هذه نظرة عامة عن اختصاصات السلطة التنفيذية ، أما فيما يتعلق بالتشريع والقضاء — وهو موضوع هذا المقال — فان القوانين عرفت ودونت فى مجموعات عند ما اخترعت الكتابة فى القرن الخمسين قبل الميلاد ، فوضع (تحوت) إله القانون مجموعته القانونية فى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد .

وقد شملت هذه المجموعة الالتزامات والأموال وجميع العقود الأخرى ، والزواج والطلاق . وكان مما نص عليه فى هذا الشأن أن الزواج يتم بعقد مدنى بطريق الشراء ، ثم يجرى بعد ذلك احتفال دينى . أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق عليها فى مشارطة الزواج على أحد أمور ثلاثة : (١) فصل مال كل من

الزوجين عن الآخر فيكون للزوجة فى هذه الحالة حق التصرف فى مالها بدون إذن الزوج (٢) تخصيص جزء من مال الزوجة لمساعدة الزوج على المعيشة العائلية ، ويكون للزوج فى هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال (٣) اشتراك الزوجين فى بعض الأموال أو جميعها . وكان للنساء امتيازات كثيرة عللها المؤرخ ديودور الصقلى باحترام المصريين للآلـهة إيزيس .

أما الطلاق فقد أجازه الشارع الفرعونى كما أباح للمرأة أن تتزوج ، بشرط أن يكون لها الحق فى فسخ الزواج كما كان لها حق الرهن العام على أموال زوجها ضماناً لعدم تعرضها لخطر الطلاق منه

ويترتب على البيع الصحيح (باليمين والشهود) التزام البائع بتعهدين : الأول وموضوعه تسليم سندات الملكية — والثانى وموضوعه ضمان كل تعرض للمشترى . وينقسم عقد البيع إلى عقدين أحدهما اتفاق والآخر عينى وبه تسلم العين المبيعة .

وقد أخذت سائر العقود الأخرى صورة عقد البيع ، حتى أن الوصية كان يكتب لها عقد اتفاق بين الموصى والموصى له بشرط ألا يتم استلام الأخير للوصية إلا بعد وفاة الموصى وتسلم الوارث العقد العينى من باقى الورثة .

ولما تشتت مجموعة تحوت جاء بو خوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين وجمع شتاتها وعدلها فى مجموعة نظم بهـا جميع المعاملات المدنية والأحوال الشخصية فى مجموعة قوانين سميت باسمه كما سماها اليونانيون بمجموعة العقود .

ولما جاء أحمس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أصدر مجموعته المسماة باسمه . ثم جاء من بعده الملك نفريت فأعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد أن نقحها ، واستمر العمل بها حتى نهاية العهد الفرعونى . ثم طبقت على المصريين فقط فى العهد الأغريقى حتى جاء الرومان فمنحوا ممتلكاتهم الرعوية الرومانية فى عهـد الأمبراطور كراكلا ، وبذا طبقت فى مصر القوانين الرومانية .

هذه نظرة عامة عن تطور التشريع فى عهد قدماء المصريين حتى الفتح الرومانى ، والآن نستعرض نظام المحاكم واختصاصاتها وسلطة القضاء فى الدولة .

كانت سلطة القضاء العليا فى يد الملك يباشرها إما بنفسـه أو بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين تبعاً لازدياد نفوذ الكهنة فى الدولة . وفى حالة ازدياد نفوذ رجال الدين (كما كانت الحال فى عهد الأسرة العشرين) كان يجرى العمل على استفتاء الالـه آمون فى القضايا الجنائية والمدنية ، فـكان يقدم المتهم أمام تمثال الالـه فيقر بذنبه ، وإذا أنكر أعيد إلى السجن ، وفى حالة تعدد المتهمين كان الالـه يشير بيده إلى السارق مثلاً قائلاً هذا هو السارق ، فاذا أنـكر أعيد إلى السجن حيث يلاقى أشد أنواع العذاب ، إذ لا يمكن تـكذيب الألـه ، ثم يعاد إليه فيقر بذنبه ويؤمن التمثال على كلامه ، ومن ثم يقدم إلى المحـكمة بعـد أن يقسم اليمين الآتية :

« أقسم بآمون والملك أن أقول حقاً ، ولئن كذبت فلأعودن إلى السجن ولأسلمن الى الحراس » ثم تأخذ المحكمة بأقواله وتحـكم عليه .

وكان القضاة يقسمون يميناً أمام الملك بعد تعيينهم يتعهدون فيها بعدم طاعته إلا فيما يوافق العدالة . وكان يرجع إليه كثيراً عند تعذر الحـكم فى بعض القضايا الهامة .

أما المحاكم فكانت على أنواع كثيرة : محاكم جزئية بالقرى والمدن ، ومحاكم ابتدائية فى عواصم الأقاليم ، ومحكمة استئناف عالٍ بعاصمة الدولة ، ثم محاكم عسكرية للجند ، ومحاكم عائلية تفصل فى المسائل المتعلقـة بالأسرة ، ثم محكمة للأموات يقوم الـكهنة بتكوينها ومحاكمة كل ميت أمامها ، فان كان سىء السيرة قضت بحرمانه من الدفن .

أما المحاكم الجزئية فكان يرأسها حكام المدن ، وقد أعطى لرئيس مقدرى الضرائب اختصاص الفصل فى المنازعات التى تقوم بين دافعى الضرائب والمقدرين .

أما المحاكم الابتدائية فكان يرأسها حاكم الاقليم وأعضاؤها الأعيان ، وكانت مختصة بالفصل فى المنازعات المدنية فقط ، وترفع أمامها عريضة دعوى وجميع الاجراءات أمامها كتابية .

أما المحكمة العليا فقد كان يرأسها رئيس أسرار الملك وأعضاؤها

كتمة الأسرار . وكان الملك يقوم بالقضاء فيها بنفسه ، وعلى الأخص في القضايا الجنائية .

وكانت هذه المحاكم ترجع في اختصاصها الى الادارة القضائية وهي تشبه وزارة الحقانية الآن .

وقد وجدت وظيفة النائب العام في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وكان يسمى إذ ذاك «لسان الملك» ولكن كان له بجانب سلطته القضائية ، وظيفة أخرى يقوم بها بصفته مدير شئون السراي الملكية وكبير الأمناء ، وكان له وكلاء في الأقاليم يباشرون الدعوى العامة أمام المحاكم الجنائية .

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة قسم القضاء الى مدني وجنائي منفصلاً كل منهما عن الآخر ، وكان للجميع حق رفع الدعوى المباشرة الجنائية

هذا فيما يتعلق بالقضاء الجنائي العادي أي الذي يتعلق بأفراد الشعب ، أما القضاء الجنائي غير العادي الذي يتعلق بشخص الملك أو الدولة ، فقد كان موكولا الى محكمة خاصة تشكل من اثني عشر قاضياً بعضهم من رجال الجيش ، وكان النائب العمومي هو الذي يختارهم بناء على أمر من الملك ذاته ، فتتكون المحكمة وبمجرد انعقادها تنقسم الى هيئتين تفحص كل منهما الدعوى على حدة ، ثم تجتمعان ، وكانت محاضرها مختصرة وسرية ، فكانت تصدر الأحكام دون نشر الأسباب ، وبالرغم من أن النائب العمومي هو الذي يختار هؤلاء القضاة فقد كان لا يتدخل مطلقاً في عملهم حتى أن اسمه كان يأتي بعد أسمائهم وقبل أسماء كتاب الجلسة .

هذا ما كانت عليه حال القضاء في عهد قدماء المصريين ، ومنها يرى القارئ أنها كانت على درجة عظيمة من الثبات والاستقرار ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان قوية الدعائم . وقد ظلت كذلك حتى انتهى العهد الفرعوني السعيد ، ودخل الأغريق البلاد فأفسدوا نظمها ، وقد كان للبطالسة شأن كبير في طرد العدل من البلاد ، إذ أدخلوا امتيازات أعطوها للأغريق دون المصريين في القضاء وفي الضرائب ، فكان على المصري الغُرم ولهم الغنم ، ومما يدل على صحة ما قلت تقسيم المحاكم في عهدهم الى إغريقية ومصرية ، وكانت الاجراءات أمام الثانية معقدة تتبع شكل القانون الضيق دون التوسع فيه ، بعكس المحاكم الاغريقية التي كانت تحكم طبقاً لقواعد العدالة والانصاف والقانون الطبيعي . وكان نظام المحاماة معروفاً في المحاكم الاغريقية بعكس المصرية حيث كان الخصوم ملزمين بالدفاع عن أنفسهم كما كانت تقدم الوثائق والمستندات أمام المحاكم المصرية ، فاذا لم تكن كافية مُزقت علانية في الجلسة !

حامد أسعد محمد عاشور

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٣ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقـــلم أحمد حسن الزيات

أجزاء العمل

العمل الروائى كالعمل الحكائى يتألف من العرض والتعقيد والحل

فالعرض فكرة عامة مجملة عن العمل الروائى يتقدم بها الكاتب فى الفصل الأول، ليهيئ الأذهان الى الحادث، ويشوق النفوس الى المتأخر، ويعرف الظروف والأمكنة والأشخاص الى المشاهد. وهو فى الرواية أصعب منه فى الملحمة، لأن أداءه لابد أن يكون بالعمل. ولأن الأشخاص وهم مشغولون بأعمالهم الحاضرة وأحوالهم القائمة، ملزمون بتقديمه الى المشاهدين فى معرض حديثهم الخاص دون أن يظهر عليهم أنهم يريدون ذلك. فالطبعية إذن هى الصفة الجوهرية للعرض. وهناك صفة أخرى لا تقل عنها خطورة، وهى أن يكون العرض وسطاً بين الغموض والوضوح: فيكون واضحاً بقدر ما يدلك على أدوار الأشخاص الأساسيين، ويضع بديك على الخيوط التى سيحيك العمل منها عقدته؛ وغامضاً بقدر ما يخفى عنك الحل ويدخر لك سرور المفاجأة

ولقد كان عرض المأساة فى الفن القديم بأن الطول، قوى الفعل، شديد الأثر؛ ولا تزال عروض اسخيلوس وسوفوكليس مضرب الأمثال فى ذلك. فأصبح فى الفن الحديث سريع الحركة، ضعيف التأثير، ولكنه أدق وأبلغ. إذ من القواعد الأولية المقررة فى فن المسرح أن تتدرج الجاذبية فى أجزاء الرواية، فتبدو ضعيفة فى العرض، ثم تنمو على التدريج رويداً رويداً حتى تبلغ الغاية فى النهاية. فاذا ما بدت قوية فى صدرها فأسالت العيون من الرحمة، وخلعت القلوب من الرعب، كان من الصعب على الكاتب أن يدرج المواقف الروائية ويرتبها فى الفصول. لذلك نجد كتاب العصر لا يضمون الجاذبية فى العرض، وانما يكتفون بالتهيئة لها والدلالة عليها

إن العرض يسهل بناؤه ويخف أداؤه كلما اشتهر موضوع الرواية أو كان مما ألفه الناس فى اجتماعهم، وعرفوه من طباعهم. ولذلك كان فى الملهاة أسهل منه فى المأساة، لأن العمل فيها قريب العلاقة محدود الفكرة، لا يخرج فى معظم الأحوال عن دائرة الجماعة أو الأسرة. والمآرب والأخلاق، والعادات والأهواء، فى هذه الدائرة معروفة مألوفة، توضحها كلمة وينبئ عنها منظر. ومع ذلك فلبعض الملاهى عروض بلغت حد الاعجاز من الفن كعرض ترتوف، والمريض المتوهم، والنساء العوالم لموليير.

والتعقيد هو الجزء الذى تشتبك فيه الظروف والوقائع والمنافع والمنازع والأخلاق فى اعتراضها طريق البطل، فينشأ عن اشتباكها الشك والتطلع والقلق وفروغ الصبر وبذلك تقوى الجاذبية. وأفضل التعقيدات وأجدرها بالفن ما نشأت فيه العوائق من أخلاق الأشخاص وأهوائهم، لا مما يصدر عن غير طبيعتهم ولا إرادتهم، كالأخطاء القهرية، والحوادث الخارجية. ولابد أن يسير التعقيد على سنن الطبيعة حتى يسهل على المشاهد أن يتصور وقوع الحوادث كما يراها. والحوادث الطبيعة كما تعلم نتيجة وعلاقة وتسلسل، فينبغى إذن أن يكون التعقيد سلسلة من الحوادث بينها من التواصل والتفرع ما بين الحلق

لم يكن للتعقيد فى المآسى القديمة ماله اليوم من شأن وخطر. فقد قسم ارسطاليس الموضوع تقسيما كمياً الى أربعة أقسام. وهى المقدمة والوقائع والنتيجة والخورس. (والقسم الأخير قد حذف اليوم)، ثم تكلم عن التعقيد دون أن يُعنى به، وقسم الموضوع الى بسيط وهو ما كان العمل فيه مستمراً متحداً ينتهى من غير انقلاب(١) ولا تعرف(٢)، ومركب أو معقد وهو ما اشتمل على هذين الموقفين أحدهما أو كليهما. فالقاعدة التى وضعها ارسطاليس

(١) الانقلاب (Révolution) هو أن يحدث فى آخر العمل حادث يغير وجهة الأشياء، فيرد الشقى سعيداً والسعيد شقياً

(٢) التعرف (Réconnaissance) فى اصطلاح المسرح هو اللحظة التى يعرف فيها شخص من أشخاص الرواية لنفسه أو لغيره. فقد يحدث أحياناً أن يجهل الشخص حقيقة أمره أو حقيقة غيره حتى تتهيأ الظروف فيعلم المجهول ويكشف المستور فيكون له ضجة ودهشة

للنوعين جميعاً هي أن تستمر سلسلة الحوادث متصلة ، وألا يكون تسلسلها تعاقبيا ، بل يتوالد بعضها من بعض على غير ما يترقب المشاهد حتى تنتهي الى الحل . والحق أن ارسططاليس لم يكن محتاجا الى غير هذا ما دام كل ما يبغيه هو حادثاً يبعث في القلوب الرعب والرحمة . فهو لا يشغل باله إلا بالحل ، أما التأثير الداخلي للموضوع فذلك مالا يحفل به كثيراً . فأنت ترى أن المسرح الأغريقي كان يعتبر الموضوع الذي يتمخض عن الفاجعة الأليمة المحزنة بسيطاً . وما كانت تلك البساطة في الواقع الا فراغا في عمل عقيم بطبعه ، وكيف يكون في مثل هذا الموضوع الساذج محل لتناقض الأخلاق وتصادم الأهواء ، وأسباب حوادثه خارجة عن إرادة الأشخاص أو سابقة للعمل الروائي نفسه ؟ ففي رواية أوديب الملك ماذا ترى ؟ ترى كل شيء قد وقع قبل ابتداء العمل . (فلبُّوس) قد قتل ، وأوديب قد تزوج من (يوكاست) ، فلم يبق إذن بين البطل وبين الشقاء الا أن يعلم أنه زان بأمه قاتل لأبيه ، فرويداً تنكشف الحجب وتنجلي الحوادث ، ويستيقن أوديب أنه نفذ إرادة الآلهة فيعاقب نفسه . تلك هي رائعة الأدب الأغريقي وكل ما فيها انكشف عن جريمتين وقعتا قبل عملها ، فكان ذلك الكشف الرهيب الأليم كافياً لشغل المسرح وملئه . فكيف استطاع الأغريق إذن أن يشغلوا خمسة فصول بحادث محتوم لا حيلة للأشخاص فيه ولا منجى لهم منه ؟ كانوا يمثلون على التتابع مآسي كثيرة في يوم واحد ، وكان الخورس يقتل جزءاً من الزمن ، وما بقي من الفراغ كانوا يملأونه بالشكاوى والوعظ والوصف والانشاد والمجادلات في الفلسفة والسياسة

تلك حال التعقيد الروائي في الفن الأغريقي ، وهو كما ترى ضئيل الخطر قليل الأثر ، لايقوى الجاذبية ولا يزيد التشويق ، وإنما كان سبيلهم الى ذلك هو التعرف وحده ، وكان شعراؤهم يؤثرونه ويرونه أنجع الوسائل لإيقاظ المسرح وإحياء الرواية . ولولاه لما كان لمعظم روائعهم الفنية شأن يذكر كأوديب وإيفجيني وفيلوكتيت

أما التعقيد في الفن الحديث فهو جسم الرواية وروح العمل ، وكان سبب ما أحله تلك المكانة هو امتداد نواحيه ، وتشعب أطرافه ، وحرية وجهه ، فقد تخلص من ربقة القضاء والقدر والكهانة ، وأصبح مظهراً للعواطف المؤثرة المنتجة ، وصدى لأصوات الحياة الصاخبة المزعجة ، وصورة للبيئة الحاضرة المعقدة ؛ وصارت جاذبية المسرح معقودة بما يحدثه اصطدام الأهواء واضطرام النفوس وتباين الأخلاق وتعارض الأطماع من خير أو شر ، وأخذ الحب والبغض والانتقام والطمع والغيرة تحل من حياة الانسان محل الاقدار والحظوظ ، وتعقد العمل بتفاوت الشعور وتنازع النفس واختلاف الهوى وثورة العاطفة فبعث في المسرح الحديث حركة شديدة وروحا قوية كان القدماء يجهلونها كل الجهل ، لأن مسرحهم كان يقوم على حكم الضرورة ، ومسرحنا يقوم الآن على نظام الطبيعة ، والضرورة عامل قاهر ، ومتسلط مستبد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . أما الطبيعة فلها مبادئ وقوانين تُصدر عنها وتسير عليها ، فكل حادث لعلة ، وكل غاية لأصل ، حتى في اضطراب الأهواء وفوضى الميول تجد نظاماً خفياً لا تستطيع أن تقلبه دون أن تصرخ الطبيعة في نفسك بأنك خرقت قانونها وانتهكت حماها ، لذلك كان بناء المأساة الحديثة من أدق الأمور وأشقها على الكاتب : فالحوادث تتدرج في الصعوبة بحكمة ، والجاذبية تتوزع في الأجزاء بدقة ، والعمل يتسلسل بعضه من بعض في حدود الطبيعة سواء أكان منتزعا من جوهر الموضوع أم من خلق الأشخاص . ولو شاء ربك أن يبعث الآن ارسططاليس فرأى كيف نسجت العقدة في أمثال (بُلْيُكْتَ) و(الزِيرَ) لملكه الدهش وأخذه العجب ، ولاعترف أن هناك فناً آخر أسمى وأبلغ من فن اوريبيذس وسوفوكليس يدور العمل فيه على الأخلاق والعادات ، لا على الضرورة والخرافات

بقي الحل وهو الجزء الذي تنتهي به الرواية وتتحلل فيه العقدة بزوال الخطر أو قضاء الوطر أو تذليل العقبة أو حلول الكارثة . وبراعة الحل أن يدبر دون أن يظهر . فتدبيره يكون بوضع العمل على طريقة تجعل اللاحق ناتجاً عن السابق . فان بين الحوادث المتوالدة والحوادث المتعاقبة بوناً بعيداً كما قال ارسططاليس ، وبذلك يكون الحل طبيعياً منطقياً متفقاً مع أخلاق الأشخاص وأعمالهم ؛ وعدم ظهوره هو أن يكون فجائياً ولا سيما اذا كان ساراً ، لأن

الجاذبية إنما تقوى بتعاقب الرجاء والخوف على قلب المشاهد ، ولا مصدر لهذا التعاقب الا الشك ، فاذا علم من قبل أن الحل سيكون ساراً انتفى سبب الرجاء والخوف ، وسكن بانتفائه محرك الجاذبية . حتى فى الموضوعات المعروفة يجب أن يخفى الحل . وخفاؤه انما يرجع الى براعة الكاتب فى سوقه العمل على وجه ينسى المشاهد ما يعلمه من قبل . وتلك هى قوة الوهم وعبقرية الفن ، ولولاهما لما رأينا ذوى الحساسة من الشاهدين يبكون للمأساة الواحدة عشرين مرة .

إن معنى فجائية الحل هو انتقاله طفرة من حالة مبهمة الى حالة واضحة . وتقريب ذلك أن حظ الأشخاص فى سياق العمل أشبه بسفينة تناوشتها الأمواج واصطلحت عليها العواصف — وتلك هى العقدة — فاما أن تغرق وإما أن تبلغ الساحل — وذلك هو الحل —

ثم إن الحل قد ينتهى إما بالتعرف اذا تعقد العمل على أساس الجهل والتناكر ، ثم تحلل بجلاء الموقف وتعارف الأشخاص ؛ وإما بالانقلاب اذا حدث تغيير فجائى فقلب حال البطل من نعيم الى بؤس أو من بؤس الى نعيم ، وفى الحالة الأولى يسمى الحل محزناً [1] وفى الحالة الأخرى يسمى ساراً . وكان ارسطاطاليس يفضل الحل المحزن ويقول بابعاد الفضيلة المطلقة والرذيلة المطلقة من المسرح ، ليكون لأشخاص الرواية نصيب من كلتيهما بارتكابهم جرائم عن غير عمد فيعاقبون عليها جميعاً فى النهاية . أما سقراط وأفلاطون فرأيهما على خلاف رأيه : يريان أن المأساة لا بد أن تتفق مع القوانين فتقف البرىء على المسرح إزاء المجرم ثم تحكم للأول على الثانى . وعلى الجملة فالحل عند القدماء كان يعوزه اجتماع التأثير والمغزى وهما قوامه وكماله ، لأن الحوادث التى تؤدى الى الحل كانت خارجة عن إرادة البطل صادرة عن سواه ، والشقى اذا أشقته أخطاء غيره لا يكون مثلاً ، واذا أشقته أخطاء نفسه لا يستحق عطفاً . أما الحل فى الفن الحديث فمن السهل اجتماع هاتين الخلتين فيه ، لأن الرجل اذا أضله الهوى وأعماه الغى فتردى فى هوة الشقاء وهو طيب القلب نبيل النفس ، كان مثلاً قوى التأثير شديد الروعة جليل المغزى ، يشعر قلبك الخوف دون أن يفزعك بالبلاء ، ويثير فى نفسك الرحمة دون أن يثيرك على القضاء . وليس الكاتب فى حاجة الى أن يغمس يد أشخاصه فى الجرائم ليهز النفوس ويبكى العيون ، فانه يجد لهم فى صميم أفئدتهم العدو الكاشح ، والطاغية المستبد ، والسياف القاسى ، وإذن يكون عذابهم ومصابهم من طريق الهوى المضل أبلغ مثلاً وأقوى أثراً وأفظع صورة . وفى ذلك يتجلى فضل الطريقة الحديثة على القديمة فى الحل المحزن . أما فضلها عليها فى الحل السار فهو أظهر وأكبر ، لأن هوى النفس مقروناً بسلامة القلب لا يقابل على المسرح بما تقابل به الدناءة الغريزية والشر الصادر عن روية من الزراية والمقت . وإذن يستطيع الكاتب أن يجد للبطل الذى أضله هواه مخرجاً من شقوته ومخلصاً من ورطته ، وهو جازم بوقوع هذا الحل السار من نفوس الشاهدين موقع الرضا والمسرة ، لأنهم طالما ابتأسوا لبؤسه ، وشقيت نفوسهم لشقاء نفسه .

ويجمل بنا قبل أن نفرغ من الحل أن ننبه الكتاب الى عيب أصلى من عيوبه وهو الطول

ومنشأ ذلك العيب سوء توزيع العمل على خمسة فصول ، فيجعلون الفصل الأول للعرض ، والثلاثة التالية للتعقيد ، والخامس للحل . وطبيعة ذلك التقسيم تقضى بأن يبلغ الخطر أقصى درجته ومنتهى قوته فى الفصل الرابع . فاذا جاء الفصل الخامس وجد الكاتب نفسه مضطراً أن يحل العقدة ببطء وتدرج ليملأه ، فيطول بذلك الحل ويفتر ، والجاذبية اذا انتهت فى الزيادة بدأت فى النقص ، أو هى كالنار تتغذى بالوقود فاذا ماسكت عنها انطفأت . فينبغى الأسراع فيه على شرط ألا تضر السرعة بالأمكانية ، ولا الأمكانية بالشك . أما حل الملهاة فهو بحكم العادة كشف خديعة وإزالة غرور وفضيحة خبث وقطيعة سخرية . ويغلب أن يكون الحب محور التعقيد الهزلى فينحل بالزواج . وهو يشارك حل المأساة فى ترتبه على ما قبله وانتزاعه من نفس الموضوع وتولده من تسلسل الحوادث . ويختص دونه بعدم المفاجأة ، فقد يزداد هزله كلما وضح أمره . وفى المأساة يخدع الشاهدون ، أما فى الملهاة فيخدع الأشخاص .

يتبع **(الزيات)**

---

(١) فى المسرح الأوربى يطلقون على الحل السار كلمة Pérépitie بيرييسى ومعناها الحل المتقلب ، وعلى الحل المحزن كلمة كتستروف Catastrophe ومعناها هنا : القاضية أو الحل الحاسم . واذا حدث التغير بسرعة ومفاجأة سمى : بالضربة المسرحية Coup de Theatre

من الشعر المنثور

موعظـــة الحكيم

للأستاذ خليل هنداوى

وسمعته وقد جمع إليه تلاميذه فى الساحة يودعهم ويشجعهم ، وقد لمعت بوارق الأمل فى وجوههم ، وكأنما كل واحد منهم رسم على صفحة وجهه ما يُوارى له الغد .

قال لهم : يا أبنائى ، إنكم داخلون فى أقطار تعرفونها وتجهلونها ، وحاملون اليهم ما يعرفونه ويجهلونه ، فابذلوا تعاليمكم فى سبيل الحياة ، لأن من يعمل للحياة تضمه الحياة إلى صدرها . لا تكونوا كأولئك الحكماء الدجالين الذين يسخرون من جهل الناس وما عرف جهلهم إلا أنفسهم ، يقولون للناس : هلموا الينا ، إننا أتيناكم بالحياة ، وما يحملون إلا الموت . لتعط ألسنتكم من خزائن قلوبكم ، وليخرس اللسان اذا أراد القلب ألاَّ ينطق .

الكلمات المنثورة — من غير صدق اعتقاد — تمضى كما تمضى الأصداء ، وتنقش فى الصدور ، كما تنقش على الرمال السطور ! أريد أن أسمع كلماتكم فى عزلتى ، وأريد أن ترسخ على وجوه الجبال وصفحات البحار . ولن تقدروا على تخليدها إلا إذا اعتقدتم بخلودها .

اذهبوا كما تذهب السواقى من البحر مبشرة بنعمة البحر . لا تمدحوا عذوبتها قبل أن تذكروا ملوحته . البحر يوزع الحياة على الأرض ، ويُعطى بلا نفاد ، لأن لذة حياته لم يقفها على الأخذ دون العطاء .

تذهب السافية من البحر لتعود الى البحر نقيةً طاهرة لامعة تؤوب كما ذهبت . لأن الأرض لا تقابل يد الطاهر إلا بجسدها الطاهر ، ولا تقابل الرجس إلا بالطهر .

اذهبوا أنتم وعودوا إلىَّ أنقياء طاهرين كما تذهبون طاهرين ، أما الطاهر فلن يعود إلا طاهراً كالسافيــة النقية تذهب حبلى بأسرار البحر ، وتعود حبلى بأسرار الأرض ! وأما الدنس فانه لن يعود الىَّ كالسافيــة التى خبثت نفسها فعرجت على بطون الرمال تتهادى فيها ولا تنفع الحقول . فهى الى موت لا حياة بعده ، وهى فى موطن لا ترتقب فيه سافية ثانية تحملها الى مستقرها .

كونوا كالسافية الأولى ، تذهب مرننة على أجنحة الغيوم ، وتعود كرّارة ثرثارة بين تعاريج الجبال والوديان .

الماء لا يحيا إلا اذا كان يغنى ، واذا سكن هديره فهو آسن قد فقد الحياة .

الماء يغنى فى صدر البحر والجداول والأنهار ، ولا يسكت إلا فى الغدران الراكدة ، وأية حياة فى هذه الغدران ؟ غنوا اذاً ، وليكن غناؤكم فى سبيل الحياة كما يغنى كل حى من أجلها . وعلموا الناس أن يبتسموا لأن غاية الحيــاة هى أسمى من أن توجدنا لنشقى ونتألم ، ومتى علمتموهم أغنيــة الرجاء هان عليكم تعليمهم غيرها من الأغانى :

ما أكفرك أيها الأنسان !

كل شىء يضحك للحياة إلا أنت ؟!

« بيروت » خليل هنداوى

١٣ ـ أعيان القرن الرابع عشر

أحمد باشا تيمور

بقلم حسن عبد الوهاب

والده المرحوم اسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور بن اسماعيل، تقلب فى الوظائف الكبيرة إلى أن كان رئيساً للديوان الخديوى فى عهد المغفور له اسماعيل باشا

جده محمد كاشف تيمور كان ضابطاً فى جيش محمد على وساعده على إبادة دولة المماليك وترقى حتى كان والياً على الحجاز وتوفى سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٧ م)

مولده

ولد فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وقد تلقى دروسه الأولية على مدرسين خصوصيين، ثم تلقى اللغة العربية على المرحوم العلامة الشيخ رضوان محمد العالم الشهير فى علمى القراءات والرسم

ودرس اللغة الفرنسية بمدرسة كليبر وعلى الأستاذ عبيد بك حتى نبغ فيها مع نبوغه فى اللغتين التركية والفارسية

وتلقى علم المنطق وعلوماً أخرى على الأستاذ الكبير الشيخ حسن الطويل، ثم تلقى علم اللغة على اللغوى الثقة الشنقيطى الكبير، فحضر عليه شرح المعلقات وغيره، فكان يذهب إليه الفقيد فى منزله ويتلقى الدرس عليه وهو جالس، فكان حيناً يشعر بألم ويبدل رجلاً بأخرى يقول له لا تتألم يا أحمد فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية

وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم حتى أصبح الحجة فى اللغة بعد الشنقيطى فى عصره والوحيد بعده

ناديه بسراى درب سعادة

يرى السائر الآن فى شارع درب سعادة بجوار مسجد آسنبغا فضاء كبيراً هو سراى تيمور، وقد كانت منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة فى القاهرة للبحث والمناقشة فى المواد العلمية والأدبية، أمثال المرحومين الشيخ أحمد مفتاح والعلامة الشيخ طاهر الجزائرى الحجة الثقة فى المؤلفات العربية، والمرحوم الشيخ محمد عبده، ويحيى افندى الأفغانى وأصدقاؤه الأجلاء السيد رافع والسيد محمد الببلاوى والشيخ حسن منصور والشيخ محمد شاكر أطال الله بقاءهم، وغيرهم كثيرون ممن يضيق المقام عن سرد أسمائهم، وقصارى القول أن تلك الدار كانت كعبة العلماء والأدباء فى مصر والأقطار العربية، وما كتبه فى الصحف والمجلات من مباحث علمية وتنقيب عن حضارة العرب بأسلوب شيق وتمحيص للحقائق أكبر دليل على ما له من أدب ونظر سديد فيما يعانيه من الأبحاث.

وقد جمع خزانة كتب هى مفخرة مصر بل والشرق.

الخزانة التيمورية

بدأ فى تكوين خزانته سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وقد كان لديه نواة صغيرة لها من جمعه أيضاً، وظل طوال تلك السنين ينقب عن النوادر من المخطوطات القيمة ويشتريها بأغلى الأثمان حتى اجتمعت لديه نوادر يندر وجود مثلها فى خزائن أخرى، بل انفردت بتحف كثيرة

ويبلغ عدد كتبها ١٥٠٠٠ كتاب فى نحو ٢٠٠٠٠ مجلد غالبها خط، جميعها مجلدة تجليداً متقناً، واستنسخ فى عهده الأخير مجموعة صالحة من مكاتب أوروبا بالفوتوغرافيا. وبها القليل من المؤلفات الفرنسية والانجليزية مما له علاقة بحضارة العرب أو تاريخ مصر ونشرات المجمع العلمى الفرنسى

وتمتاز هذه المكتبة بوفرة كتبها الخطية وخاصة فى التاريخ واللغة، ولعل القارىء يعجب إذا أكدت له أن هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمه الله وعلق عليه ملاحظات له ماين وفاة مؤلف، أو بيان ذيول وضعت على الكتاب، أو الاشارة الى قوة المؤلف والاعتماد عليه فى النقل. هذا مايتعلق بالكتب المطبوعة

أما الكتب الخطية وهى أكبر قسم فيها، فقد استنفدت منه مجهوداً لايقدر عليه أشخاص. ومن يطلع على جميع الكتب الخطية يجدها مبتدأة بترجمة المؤلف ومنمرة، ثم فهارس بالتراجم الواردة فيه، والموضوعات المهمة، وآخر بأسماء البلدان والأماكن. وبيان الكتب الواردة فيه، ومن حبه للعلم ومساعدته على نشره لم يبخل على من أراد طبع بعض هذه الكتب بالترخيص له بطبع

فهارسه ، وهذا مشاهد فى كتاب الطالع السعيد للأدفوى المطبوع سنة ١٩١٤ فانه محلى بالفهارس التى أشرت اليها ، وكما حصل أخيراً من إعطائه مفتاح الخزانة ، وهو مجموعة الفهارس التى وضعها لكتاب الخزانة للبغدادى الى المطبعة السلفية لدرجها فى الطبعة الجديدة ، وفعلاً طبعتها ، وأمثال هذا كثير .

ومن اللطيف فى هذه المكتبة تدقيقه رحمه الله فى انتقاء كتبها ، فاذا اطلع مطلع على نسختين من كتاب فلا بد وأن يكون هناك فرق بينهما ، كأن تكون هذه كتبت فى عصر المؤلف أو قرئت عليه ، والأخرى طبعت بمصر أو أوربا أو الهند .

أما المجاميع الخطية فقد وضع لها فهارس بمشتملاتها ، وكل هذا المجهود بخطه .

وكثيراً ما أعار المكاتب والمستشرقين أو استنسخ لهم لحسابه هدية منه ، كما أنه أعار دار الكتب الملكية بعض نفائس خزانته لتصوير نسخ منها مثل الأجزاء التى كانت تنقصها من كتاب عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، وما لديه منه بخط المؤلف . وأخيراً أعارها الجزأين الأول والسابع من كتاب الضوء اللامع للسخاوى ، وتاريخ ابن الفرات الذى استنسخه من ڤينا بالفوتوغرافيا ، وسمح للدار بتصوير الفهارس التى وضعها لكل جزء فى أوله ، وعدد أجزائه سبعة عشر جزءاً .

أما النفائس التى امتازت بها المكتبة فكثيرة ولا تسعها تلك العجالة ، ومن مميزات تلك المكتبة النادرة وجود تواقيع مئات من أكابر العلماء فى القرن السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر الهجرى ، وقد حصرها جميعها ، وبعد وفاته رحمه الله أهديت مكتبته الى دار الكتب المصرية ، فأفردت لها مكاناً خاصاً بها .

مقالاته ومؤلفاته

كان رحمه الله دقيقاً فى البحث والتمحيص ، وقد نشر مقالات كثيرة فى المؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والاهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية ، وكلها فى حضارة العرب وتحقيقات تاريخية

فمن مقالاته الممتعة « الخلافة والسلطنة » نشرت فى المقطم سنة ١٩٢٢ ومنها «المهندسون الاسلاميون» نشرت تباعاً فى السنة الثانية ١٩٢٢ والثالثة ١٩٢٣ من مجلة الهندسة ، وأيضاً خص تلك المجلة بفصول قيمة من كتابه « التصوير عند العرب » نشر منها « التصوير على الجدران » فى العدد الأول والعدد الثانى من السنة الثامنة يناير وفبراير سنة ١٩٢٨ ؛ « التماثيل المتحركة والمصوتة » فى العددين ٣و٤ مارس وأبريل سنة ١٩٢٨ — وسبق أن نشر بمجلة الهلال الغراء مقالات عن التصوير عند العرب .

وقد انفردت مجلة الزهراء بنشر قسم كبير من مقالاته نذكر منها : بئر الثنيتين — حول تصحيح القاموس — شعر يزيد — دار ابن لقمان بالمنصورة — انتشار المذاهب الأربعة — الكرات العربيـة الأرضية والفلكية — الكتابات الدقيقة ، غرائب أخرى فى الكتابة — لقب الطواشى — الطربوش وتاريخه — وصف ساعة المدرسة المستنصرية — المشتهى وتحقيق موضعه بالروضة

ومن مقالاته التى كان يوافينا بها أخيراً (الآثار النبوية) خص بهـا مجلة الهداية الاسلامية ونشر منها تسع مقالات فى الأعداد محرم ، وربيع الثانى ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذى القعدة سنة ١٣٤٨ وظهر المقال العاشر فى عدد الحجة بعد وفاته رحمـه الله ، تكلم فيه عن الآثار النبوية فى الأقطار الاسلامية باسهاب لم يسبق ، وتحقيق وتمحيص نادر ، وباقى هذا البحث معد للنشر أيضاً .

وكلها مباحث تدل على سعة الاطلاع والتعمق فى البحث ، بل هى خلاصة معلوماته وعصارة أفكاره ، وآثار تنقيبه فى خلال السنين الماضية .

والحق أنها رسائل فريدة وليست بمقالات ، وذلك لغزارة مادتها ودقة مباحثها التى لم تطرق من قبل .

مؤلفاته

هذه المؤلفات قسمان : ما نشر وما لم ينشر . أما ما نشر فهو

١ — تصحيح لسان العرب نشر القسم الأول منه سنة ١٣٣٤ ﻫ

٢ — القسم الثانى من تصحيح لسان العرب نشر سنة ١٣٤٣ ﻫ

٣ — تصحيح القاموس طبع سنة ١٣٤٣ ﻫ

٤ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها طبعت سنة ١٣٤٤

٥ — قبر الامام السيوطي وتحقيق موضعه مزين بالصور طبع سنة ١٣٤٦

٦ — الزيدية ومنشأ نحلتهم طبع سنة ١٣٤٧

٧ — تاريخ العلم العثمانى مزين بالصور . طبع سنة ١٣٤٧

أما مؤلفاته التي لم تطبع فهي

١ — الأمثال العامية : وقد رأيتها بعيني تملأ مجلدات كبيرة وكلها معدة للطبع صرف في جمعها زهرة شبابه ، حتى أنه رغم جمعها بنفسه أعد جوائز لمن يأتيه بمثل لم يدونه

٢ — التصوير عند العرب : اطلعت على قسم كبير منه وجميعه معد للنشر ، ومن يطلع على ما نشر منه في مجلة الهندسة يعلم مقدار حاجتنا الى مثل هذا المؤلف بعد أن رأينا ما ظهر من مؤلفات الغرب في هذا الباب وجلها اقتصر على ما عثر عليه من التصوير الفارسي وكلها لا تسمن ولا تغني من جوع بجانب هذا السفر القيم العديم المثال

٣ — معجم تيمور في العامية المصرية : وهو بمثابة إصلاح للأخطاء الدخيلة على اللغة العربية فيذكر الكلمة وأصلها الصحيح ، وبيان التحريف الذي طرأ عليها ومنشأه . وقد اطلعت على قسم كبير منه فاذا هو مجهود مضن لا يستطيع المضى فيه إلا من أوتى بسطة في العلم مثل تيمور رحمه الله ، وقد نشر منه قطعاً في مجلة المجمع العلمى بدمشق ، ونقلت البلاغ الغراء قطعتين منه في العددين المؤرخين ٢٥و٢٦ مايو سنة ١٩٢٦

٤ — السفن الاسلامية وأسماؤها

٥ — شرح التبرّى من معرّة المعرّى

وهو كتاب لطيف جمع فيه أسماء الكلب بمناسبة ما قرأه في ترجمة الامام أبي العلاء المعرى من أنه دخل على أبي القاسم المرتضى فعثر برجل فقال من هذا الكلب فقال له أبو العلاء الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

٦ — ولديه أيضاً مجموعة كبيرة من الوفيات منذ العصر الذي يلي العلامة الجبرتي الى عصرنا هذا ، ويكاد يكون منفرداً بها أيضاً .

هذا قليل من كثير ، ولديه أشياء لم يطلع عليها أحد ومقالات لم أشر إليها في مجالتي هذه

أعماله ومآثره

كان عضواً في مجلس الشيوخ منذ تكوينه حتى أوائل دورة العام الذي توفى فيه واستقال لانحراف صحته

وكان عضواً بلجنة حفظ الآثار العربيـة . والمجمع العلمى العربي بدمشق . والمجلس الأعلى لدار الكتب الملكية ، ومن مؤسسى جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ومن مؤسسى جمعية نشر الكتب العلمية ، وفي سنة ١٩٢٤ أهدى إلى المجمع العلمى بدمشق مجموعة من الموازين (الصنج) الزجاجية مع قسم كبير من الكتب

وأهدى إلى دار الآثار العربية خنجراً مرصعاً بالأحجار الكريمة وسيفاً كان لجده تيمور كاشف وأهدى إلى جمعية الشبان المسلمين كتباً قيمة وأيضاً منح جمعية الهداية الاسلامية في شهر ابريل سنة ١٩٣٠ ١٢٠ كتاباً

ولو لم يكن من مآثره إلا مكتبته النادرة لكفى .

أخلاقه

كان رحمه الله مثلاً عالياً في الأخلاق . حلو المعاشرة هادئاً حليماً ، على دين متين ولهجة صادقة ، وسمت حسن ، وعقل وافر ووقار ، محباً للخير لا يصل إلى الشر مطلقاً

وقد كان محسناً متواضعاً لا يحب الظهور ولا المباهاة ، وانظر إلى تواضعه الملموس في مقدمة كتابه تصحيح لسان العرب وهو أكبر كتاب في اللغة حيث يقول :

« ولسنا في ذلك بمدعين عصمة أو متبجحين بفضل »

وما أجمل تواضعه حينما يصف لنا مقالاته « التصوير على الجدران » و « التماثيل المتحركة » بأنهما من رسالة التصوير عند العرب ، يمين الله أن المقال الواحد منهما حرى بأن يكون رسالة وافية فما بالك بكتاب ضخم يصفه لنا برسالة

وكان مثلاً عالياً في التقوى والغيرة على الاسلام والمحافظة على العوائد القومية

خاتمة

لقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال قضى معظمها في البحث والتنقيب والذود عن الاسلام ، وجمع نفائس الكتب ، حتى

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

فى المعلقات أيضـــا

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

. . . وكنت عازماً على العودة اليها بتكملة رأيى فيها ، وأقول رأيى وإن حاول بعضهم أن يجعله رأى عالم أوربى سبقنى اليه فلا يكون لى جديد فيه ، وقد اشتغلت بالكتابة فى العلم والدين والأدب والتاريخ من نحو خمس عشرة سنة ، ولى فى ذلك بفضل الله آراء كثيرة جديدة خالصة جِدّتُها لى ، ولم يحاول أحد فى رأى منها ماحوول فى رأيى الجديد فى المعلقات ، اللهم إلا ما كان من الأستاذ الجليل أنطون الجميل فيما كان بينى وبين الأستاذ زكى مبارك فى نقد تسمية العصر الأدبى قبل الاسلام باسم العصر الجاهلى ، لأنها تسمية دينية لاأدبية ، وكان بيننا فى ذلك جدال فيمن هو صاحب ذلك الرأى منى ومنه ، فذكر الأستاذ الجليل أن هذا الرأى ليس لى ولا له وفلاناً مسبوق به ، فأما أنا فذهبت إليه فلم أجد عنده فى ذلك شيئاً فاكتفيت بذلك منه ، وأما الأستاذ زكى فانه سكت على ذلك ، وهو من عادته ألا يسكت عن شىء ، وألا يرضى بالهزيمة وهو منهزم ، ولعله رضى من ذلك بما رضيت به إحدى المرأتين اللتين تنازعتا فى ولد عند سليمان عليه السلام .

وكذلك هـذا الرأى الذى أذهب اليه فى المعلقات ليس هو رأى الأستاذ نولدكه ، ولا رأى الأستاذ كليمان هيار ، وإنما هو توجيه جديد لتسمية هذه القصائد باسم المعلقات أصح من توجيههما لها ، فانى أرى أن المعلقات اسم مفعول مشتق من التعليق بمعنى الحفظ أو الشرح أو الحب و التتبع كما قال الشاعر :

علقتهـا عرضاً وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

وكما يقولون فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك

وأما الأستاذ نولدكه فيحاول أن يحمل اسم المعلقات معنى علق ، وهو الشىء النفيس فتعنى هذه التسمية عنده أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة ، وهى محاولة خاطئة ، لأن العلق بمعنى الشىء النفيس صفة مشبهة لا يشتق منها اسم مفعول هكذا (معلقات) ، وإنما يشتق اسم المفعول من المصادر وما فى معناها ، ولم يقل أحد إن اسم المعلق يطلق على الشىء النفيس ، وإنما الذى يطلق عليـه إسم العلق فقط فأخذ أحدهما من الآخر خبط وخلط

وأما الأستاذ كليمان هيار فيرى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود أو القلائد وهو أيضاً توجيه خاطىء لأن كلمة معلقة تطلق على التميمة وعلى المرأة المعلقة وهى التى ليست بذات زوج ولا مطالقة وعلى غير ذلك من أمور كثيرة وهى أشهر فى المرأة المعلقة (١) من التميمة والقلادة وغيرهما من كل ما يعلق ولو كانوا يريدون هذا المعنى فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات لسموها باسم القلائد كما سموها باسم السموط حتى يكون هذا الاسم نصاً فى ذلك المعنى ولا يحتمل معنى التميمة أو غيرها مما يصح أن يطلق عليه اسم المعلقات . وقد جاء فى الأساس أنه يقال أعلقت المصحف جعلت له علاقة يعلق بها واشتقاق اسم المعلقات لهذه القصائد من نحو هذا أجدر من اشتقاقها من المعلقة بمعنى القلادة . وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ما يقرب من هذا فى سبب تسمية تلك القصائد باسم المعلقات فقال إن العرب لم تكن تكتب فى دفاف ولم تكتب قبل القرآن

(١) قال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

نـكب بوفاة نجله المرحوم محمد بك تيمور فى أوائل سنة ١٩٢١ فـكانت صدمة قوية لم يقو على كفاحها ، فأثرت فى صحته ، ومن ذلك الحين أصبح يميل إلى العزلة

ومع أن مصيبته بفقد نجله هذا من أكبر المصائب فانها لم تثنه عن المثابرة على الكتابة والبحث ، غيران نوبات المرض كانت تنتابه بين آونة وأخرى ، وخاصة فى أعوامه الأخيرة وهو لم يرحم نفسه ولم يشفق عليها

وفاته

فى الساعة الرابعة من صبيحة يوم السبت ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٨ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٠ انتقل إلى رحمة الله تعالى فانطوى ذلك العلم الخفاق ، واندك ذلك الركن الركين ، وكان لنعيه رنة حزن وأسف جزعت لها القلوب وفاضت بالبكاء العيون إنا لله وإنا إليه راجعون . ودفن وقت الغروب بمقبرة عائلته المجاورة لقبر سيدنا الامام الشافعى ، رحمه الله وطيب ثرى تربته .

حسن عبد الوهاب

كتاباً مدففاً ، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أوعث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، وذلك تأويل قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طى الكتاب وتعليقه

فهذا هو رأيى فى المعلقات مع رأيى الأستاذين نولدكه وكليمان هيار وهذه ميزته عليهما ولا أقول الفرق بينهما . لأنه من الوضوح بحيث كان يغنى ذلك الناقد عن نقده ، ويغنينى عن هذا الرد عليه إلى ما هو أنفع عندى منه . ولا أثقل على نفسى من أن يقول ناقد رأيى إننى أغفلت مناقشة ونقض رأى القائلين بأن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها كانت تكتب بالذهب وتعلق بأستار الكعبة فيلجئنى إلى أن أعيد له ماذكرته فى نقض هذا الرأى عن أبى جعفر النحاس من أنه لا يعرفه أحد من الرواة ، فكيف أكون مع هذا قد أغفلت مناقشته ونقضه

ولا أثقل على نفسى من أن يذكر ناقد رأيى أن أبا جعفر النحاس أطلق الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزانته إطلاقاً وأنى أنا الذى حملته على النعمان بن المنذر ليتأتى لى نقض رأى أبى جعفر فيلجئنى إلى أن أعيد له ما قلت من أن أبا جعفر لم يذكر من هو هذا الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزائنه وأن بعض علماء الأدب هو الذى رجح أنه النعمان بن المنذر ، فلم أكن أنا الذى حملته عليه ليتأتى لى بذلك نقض رأيه ، ثم إنى لم أكتف بهذا فى نقض رأيه بل ذكرت ما ينقضه ، ولو كان ذلك الملك ملكاً آخر قبل النعمان بن المنذر وأشرت إلى الأسباب المعروفة التى قيلت المعلقات من أجلها وإلى الأمكنة التى قيلت فيها وهى أمكنة غير تلك الأسواق التى يقول أبو جعفر وغيره إنها كانت تقال فيها

ولا أثقل على نفسى من ألا يطلع ناقد رأيى على النص الذى أخذت منه أن سوق عكاظ أنشىء بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . ثم يطلع على نصوص أخرى قد تخالف ذلك فيمضى فيها الى أن يعود فيسألنى عن النص الذى اعتمدت عليه فى أمر قيام تلك السوق بعد عام الفيل ، فيلجئنى الى أن أدله فى ذلك على كتاب متـــداول مشهور هو كتاب « الوسيط » للأستاذين الفاضلين الشيخ أحمد الاسكندرى ، والشيخ مصطفى عنانى ، وانى أذكر لناقد رأيى نصاً أقدم مما ذكره من النصوص التى ذكرها فى إثبات قدم سوق عكاظ

قالوا فى تفسير المثل المشهور (الحديث ذو شجون) إنه يضرب فى الحديث يتذكر به غيره ، أى ذو طرق يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها الى بعض ، والواحد شجن قاله ضبة بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقد نفرت إبل له فطلبها ابنـاه « سعد وسعيد » فوجدها سعد فردها ، ومضى سـعيد فلقيه الحارث بن كعب فأخذ منه برديه وقتله واختفى خبره على أبيه إلى أن وافى عكاظ فرأى بردى سعيد على الحارث فسأله عنهما فأخبره بأنه رآهما على غلام فطلبهما منــــه فأبى فقتله بسيفه ، فقال له ضبة : أعطنيه أنظر اليه فانى أظنه صارما ، فأعطاه له فهزه فى يده وقال : (الحديث ذو شجون) ، ثم قتله به ، فقيل له يا ضبة : أفى الشهر الحرام ؟ ! فقال : (سبق السيف العذل) فذهب أيضاً مثلاً .

ولا شك أن عصر ضبة أقدم بكثير من عصر عبـد شمس بن عبد مناف ، ولكنها نصوص قد تحمل على الاشتباه وأن ذاكرها يريد سوقا أخرى غير سوق عكاظ فاشتبهت عليه لشهرتها ، وهكذا يغطى كل مشهور على كل شىء سواه ، فيبقى النصّ الذى يعين قيام سوق عكاظ بعد عام الفيل غير قابل للتأويل ويقدم على غيره من النصوص الأخرى لأنه نص سيق لبيان تاريخ بدء هذه السوق ونهايتها ، وتلك نصوص فى حكايات أخرى ذكرت هذه السوق عرضاً فيها ، فيمكن حملها على الاشتباه كما ذكرنا .

وإذا أراد ناقد رأيى بحثاً فى وثاقة رواية هذه القصائد وأمثالها فيمكنه أن يجد ذلك فى بحث صحة أشعار امرىء القيس من كتابنا (زعامة الشعر الجاهلى) فلعله يقتنع بأنا قد نحسن هذا النوع من البحث ، وأرانى بعد هذا قد أطلت ، ومنعنى الأستاذ الحاجرى من العود فى هذا المقال الى تكملة رأيى فى المعلقات فليكفه هذا منى وليتركنى فى سبيلى وجزاه الله خيراً ؟

عبد المتعال الصعيدى

مِنْ طرائفِ الشِّعرِ

على الشاطئ

للأستاذ محمود خيرت

انظر الشاطئَ البهيَّ الرّواء   ضاحكاً كالجميلة الغنَاء
كل غصنٍ به تمثَّلَ قــدًّا   أنبتَتْ وَردَه خدودُ الظباء
فاتناتٍ وقد خطرْنَ سَكارى   برحيقٍ من الرِّضى والصَّفاء
سافراتٍ وكيف يحتبس الحُسْـــنُ وقد كان من فُيوض السَّماء
عارياتٍ كأنما قد تستَّرْ   نَ عليه بحُلَّةٍ من رياء (١)
باسماتٍ والابتسامةُ تحيي   فى قرار النفوس مَيْت الرّجاء
فترَى أعيُنَ الشّباب عليهـــنَّ خِفافاً من كل قاصٍ ونَاء
وتراهنَّ آمناتٍ بمنأى   عَنْ تجنٍّ أو نفرةٍ أو جفاء
قد تأكّدْنَ أنَّهـا نظراتٌ   أرسلَتْها العيون بالإطراء
والغوانى يهزّهنَّ كما قد   قال شوقى العظيم سِحرالثناء (٢)

***

وانظر البحر هل ترى لمداهُ   آخِراً . رائعاً كرحب الفضاء
وهو حىٌّ له نصيبٌ منَ الحِسـ(م)س وحالاتُ فتنةٍ والتِواء
فاذا مسَّهُ النَّسيم عليـــلاً   كان مثل الصحيفة الزَّرقاء
وتراهُ كأنما الرّعدُ يَدوى   حول أمواجه من الأنواء
قام يُزجى مياهَه صاعداتٍ   نحو أقدامهنَّ فى إغراء
فتواثبْنَ كالعرائس (٣) لكنْ   كُنَّ فيــه عرائساً من ضِياء
وتناثرْنَ كالدُّمى سابحاتٍ   فى انحرافٍ عن سطحه واستواء
هاديات لقاعِـــه غائصاتٍ   ثم يظهرْنَ عند سطح الماء
ثم يأخُذْنَ فى التَّراشُق بالما   ء رشاشاً وهنَّ فى ضوضاء
هكذا ينعَمُ الملاح على الشّا   طئ حتى يرفَّ ظلّ المساء

«الاسكندرية»   محمود خيرت
بقسم قضايا المالية

(١) (ثوب الرياء يشف عما تحته) (٢) (والغوانى يغرهن الثناء)
(٣) Sirènes

ليلة الاهرام .....

شَهِدَ الأهرامُ والبدرُ عليه   موثِقُ الحبِّ الذى صِحْنَا به
ومضى يبعثُ بالعهد إليه   شَقَّ كلٌّ صدرَهُ عن قلبهِ

***

ومَضَتْ أعيُننا تروى الغرَامْ   وتَبُثُ الوَجْدَ وحياً خالدا
رَفْرَفَ الأمنُ عليها والسلام   وضياء البدرِ يسرى هاجدا

***

آهِ من فرصة لَثْمٍ وعناقْ   لم تُتَحْ إلاَّ لِسُكَّانِ الجِنَانْ
اختلسناها ، وعُدْنا فى احتراقْ   نحقرُ الدنيا، ونزْرى بالزمنْ..!

***

ثغرىَ الصديانُ كم لاذَ بثغركْ   يرشفُ النورَ الذى رَفَّ وحَامْ
وذراعى كم هوتْ تعطف خَصْرَكْ   والهوى الصادقُ فى الأعْيُنِ نامْ.!

***

لا تقولى ما مضى فاتَ ، فما   يَطَّبِينِى غيرُ ماضى الذكريات
أنا أهواكِ جبيناً وفماً   وضياء شاع فى كلِّ الجهات

***

قُلْتِ لى، والبدرُ للأهرام يرنو،   وأنا فى سَكْرةٍ مِمَّا أرى :
«أتُرَى أحْبَبْتَنِى أمْ أنت تحنو.
مُشْفِقاً ، أمْ ذاكَ حُلْمٌ فى الكرى ؟ »

***

قلتُ : « أهواكِ ولا أهوى سواكِ »
ثم لاذَ الثغــرُ ظمآناً بثغركْ
وطعِمْتُ الحبَّ حلوى فى لَماكِ
وشربتُ الضوء من جامات سِحْرِكْ !

***

ثم قُمْنَا ، وانحدرنا فى الطريقْ   مثلَ مخمورَيْن لجّا فى الغبوقْ
ضمَّ صدرانا من الوجدِ حريقْ   وثوى فى ثغرها حُلْوُ الرحيقْ !

مختار الوكيل

فى الريف

للشاعر محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا وعشقتُ فيكَ جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها أنعم بشمسك مشرقاً وغروبا
ولقد نزلتك فادكرت طفولتى وتمائمى . طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات . وليتهم زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهى القرائح أنت مصدر وحيها كم بت تلهم شاعراً وخطيبا
حييتُ فيك الثابتين عقائداً والطاهرين سرائراً وقلوبا
والذاهبات الى الحقول حواسراً يمشى العفاف أمامهن رقيبا
سلبت عذاراك الزهور جمالها فبكت تريد جمالها المسلوبا

***

كست الطبيعة وجه أرضك سندسًا وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما يممت خلت سرادقاً منصوبا
وحنت على الماء الجذوع كأنها أم تضم وليدها المحبوبا
وبدا النخيل غصونه فيروزج يحملن من صافى العقيق حبوبا
أرأيت علاقًا عليه مظلة أو مارداً ملء القلوب مهوبا ؟
يارب ساقية لغير صبابة أنّت وأجرت دمعها مسكوبا
وحمامة سمع الفؤاد هتافها فحسبته بين الضلوع مجيبا
والغيد تغمس فى الغدير جرارها فيظل يضحك[1] مل ء فيه طروبا
سربان من بط وبيض خرّد يتباريان سباحة ووثوبا
وترى الجداول فى الأصيل كأنها من فضة فيها النضار أذيبا
يابدر أنت ابن القرى وأراك فى ليل الحواضر إن طلعت غريبا

***

نشر السكون على القرى أعلامه فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا
بدت الحياة هنالك فى ريعانها ولو انها سارت تدب دبيبا
ولقد ينام القوم ملء العين فى زمن يقض مضاجعا وجنوبا

(١) ضحك الغدير صوت الفقاقيع الناشىء عن حلول الماء محل الهواء

وهى السعادة كم أوت كوخاً وكم هجرت أشم من القصور رحيبا
قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها وبدت محاسنها فكن عيوبا

***

ما ضر أهل الريف ألا يحفلوا بالطب أو لا يعرفوا (الميكروبا)
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم وصفا هواؤهمو فكان طبيبا
رضعوا رحيق[1] السائمات وما دروا غير النمير وغيره مشروبا
وسرى شعاع الشمس فى أبدانهم فجرى بأوجههم دما مشبوبا
شمس القرى كست الوجوه نضارة أرأيت وجها فى القرى مخضوبا ؟
سر فى الحقول تر الرياضة عندهم فنا . وخطا عندنا مكتوبا

***

أ كبرت فى القروى صحة عزمه وحسبته فى صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية ووداده سهل المنال قريبا
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ضحك النواجذ بالخديعة شيبا
أنا لا أقول : تشينه أميّة كن خيّرا لا كاتبا وحسيبا
كم ضل من أهل الحواضر قارئ فاغتال أعراضا وشق جيوبا
فى الريف فتيان تسيل جباههم عرقا فيصبح لؤلؤاً مثقوبا
لا فتية مرد بأيد بضة فى كل يوم يلبسون قشيبا
بذلوا لمصر فوق ما فى وسعهم ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

محمود غنيم

(٨) رحيق السائمات اللبن

العلوم

البراكين

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

هى ظاهرة من أهم الظواهر التى تدل على حرارة الأرض الباطنية . وانه لمن المدهش حقاً أن نجد حتى الآن وبين مدرسى الجغرافيا من يخطئ فى تعريف هذه الظاهرة ، ولذلك سأبدأ بحثى بتعريف البركان ووصف أجزائه بالتفصيل ، ثم أختتمه ببيان الغلطات الشائعة فى تعريف البركان ووصفه :

البركان عبارة عن شق يصل باطن الأرض بظاهرها، فهو بمثابة قصبة تخرج عن طريقها المواد المنصهرة من باطن الأرض الى سطحها اذا كان البركان ثائراً . فاذا ما همد لسبب ما وخمدت ثورته سدت القصبة إما بتجمد المواد المنصهرة فيها ، أو تجمع المواد المفتتة بها .

أجزاء البركان

يتكون البركان عادة من أقسام ثلاثة هى : —

١ — القصبة Funnel وهى واسطة الاتصال بين باطن الأرض وسطحها . تخرج منها المواد المنصهرة ومقذوفات البركان وهذه القصبة تظل مفتوحة مادام البركان مستمراً فى ثورانه حتى اذا ما سكنت ثورته أو خمدت تجمدت فيها المواد الذائبة وتراكمت فى الفتحة الصخور والأحجار فتنسد .

٢ — الحوض Crater هو تجويف يقع فى نهاية القصبة البركانية يختلف فى اتساعه تبعاً لقوة ثوران البركان . فى البراكين الصغيرة يصغر مقدار قطر الحوض كما فى بركان كوتا بكس وفزياما .

٣ — المخروط Cone وهو عبارة عن تراكم المقذوفات على جوانب الفتحة أو القصبة . والمخاريط على أنواع فهى إما لابية كمخروط بركان Mauna Lua وإما ترابية كما فى بركان Misti (الواقع على الساحل الغربى لجمهورية بيرو) أو أن يكون المخروط جامعاً بين النوعين وهذا شائع الوجود . وقد تتجمد المواد المنصهرة هنا بين الطبقات الترابية والحجرية وتكون عروقاً صلبة يطلق عليها اسم السدود Dikes . أما ارتفاع المخروط البركانى فيختلف باختلاف قوة البركان وقد يبلغ ارتفاعا كبيراً : فمخروط فيزوف يبلغ ارتفاعه ٤٠٠٠ قدم واتنا ١١٠٠٠ وكوتا بكس ١٨٨٧٦

ثوران البركان

اذا ما ثار البركان جمع الشياطين معه ليقوموا سويا بعملية الهدم والتخريب فيقذف من فوهته بالحمم ويلقى فى الجو بالصخور مكوناً سيلاً من مواد منصهرة مخربة ينحدر على المدن والقرى القريبة ليدمرها . ينحدر الهابيطء حقيقة ولكنه ينحدر بلا تردد .

ويسمع للبركان الهائج دمدمة تصم الآذان وينتشر مع الثوران دخان يعمى العيون ، فتذبل الأزاهير وتتحطم الأشجار ، وتعود الأماكن التى كانت كالجنان جحيما ثارت فيه الشياطين ، ويغدو الجو الذى كان عطراً بالاريج خانقاً لا يحتمله الصدر ولا مجال للتنفس فيه .

ويغلب أن يحدث الثوران البركانى بعد مقدمات تسبقه بدقائق معدودات لوحظ منها : —

ا — ارتفاع صوت كصوت الرعد يرتفع منقطعاً لكنه لا يلبث حتى يزداد شدة فتصحبه هزات أرضية شديدة تتعاقب بسرعة كبيرة .

ب — انخفاض مستوى الماء فى الآبار المجاورة وذلك ناشئ من تسرب المياه فى الشقوق الحادثة فى باطن الأرض .

ولو أنه قد يثور البركان دون إنذار سابق كما حدث فى بركان فيزوف عام ١٨٥٣ ميلادية . ويجب أن لا نظن أن البركان اذا ثاراندفعت منه المواد المنصهرة دفعة واحدة فهذا غير حقيق لأن للمقذوفات البركانية ترتيباً يقرب من الترتيب التالى حين الثوران :

١ — يبدأ الثوران البركانى بخروج الأبخرة والغازات قاذفة معها أثناء خروجها أتربة كثيرة وفتات الصخور التى كان قد سبق أن تجمدت فى فوهة البركان . ويعلو فى الجو الى ارتفاعات عظيمة بخار الماء المتصاعد وما معه من الغازات الأخرى (بلغ ارتفاعه فى بركان كركاتو ١٧ ميلا) وعلى أثر ارتفاع الأبخرة المائية الى هذه الارتفاعات العظيمة تتكاثف وتنهمر على شكل أمطار غزيرة تمتزج بالأتربة الكثيرة فتكون أنهاراً طينية Lund Stuame

٢ — يتلو ذلك الأتربة والأحجار المفتتة التى تندفع على أثر البخار والغازات وتنشأ عن انفجار الصمامات البركانية والتصدع الناشئ فى الجوانب الداخلية للمخروط بفعل الاضطرابات البركانية وقد ميزوا بين أنواع مقذوفات الدور الثانى بالنسبة للحجم فهناك

ا — التراب البركانى Volcanic Ash وهو عبارة عن فتات رفيع يتراوح حجمه بين حبة الرمل والدقيق

ب — القنابل البركانية V. Bombs وهى عبارة عن كتل حجرية مستديرة أو بيضاوية أصلها صخر منصهر قذفها البركان وهى فى حالة السيولة فتجمدت واستدارت أثناء وجودها فى الهواء وتكون مسامية غالباً

حـ — Scoraie Cinders وهى كتل لابية الأصل تخرج من البركان جامدة .

٣ — يأتى بعد ذلك خروج المواد المنصهرة وهى ما يطلق عليها اسم اللابة من القصبة المركزية أو من الفتحات الجانبية . وهى آخر مايقذفه البركان ، وبخروجها يتعين هدوء الاضطرابات البركانية . وهذه تخرج فى درجة حرارة عالية ثم تبرد تدريجاً بتعرضها للجو الخارجى ، ويقتم لونها إذا مابردت كما أنها عندما تتجمد تصير كثيرة الثقوب .

وتختلف سرعة سير المادة اللابية باختلاف درجة سيولتها وانصهارها كذلك تبعاً لانحدار الأرض ولذلك تكون سرعتها فى المبدأ كبيرة نسبياً تقل تدريجاً كلما بعدت عن فوهة البركان .

وقد يحدث أن تحتفظ هذه الأنهار المكونة من المادة اللابية بسيولتها لمسافات طويلة فمثلا فى سنة ١٧٨٣ م ثار بركان فى جزيرة الجليد Iceland خرجت منه مقادير عظيمة من المواد المنصهرة ملأت مجارى الأنهار والبحيرات والفتحات المجاورة لمكان البركان لمسافات كبيرة فبلغ امتدادها فى احدى هذه الجهات ٢٨ ميلاً وفى الأخرى ٥٠ ميلا وارتفاعها ١٠٠ قدم وعرضها ١٥ ميلا . وليتصور القارىء الكريم معى بعد ذلك مجرى بهذه المقاييس مكوناً من مواد منصهرة تشع حرارة وتصعد أبخرة وغازات خانقة .

ومما يدل على عظم مساحة الأراضى التى كانت تغمرها المواد اللابية المنصهرة ماهو مشاهد الآن من وجود مساحات كبيرة على الأرض ، طبيعة تكوينها لابية تكسوها مادة لابية الى أعماق كبيرة خرجت من باطن الأرض فى عصور جيولوجية حديثة . أشهرها هضبة الدكن وكولومبيا والحبشة .

ويميز عند ذكر كلمة بركان بين ستة أنواع للبراكين .

١ — البراكين الثائرة Active volcanoes . وهى دائمة الثوران كسترامبولى ، ومتقطعة الثوران كفيزوف .

٢ — البراكين الساكنة Dormant وهى التى تهدأ لمدة من الزمن ثم لا تلبث أن تثور فتهدم مايقوم بجانبها من مدن أو مساكن كما حدث فى فيزوف سنة ٦٩ م

٣ — البراكين المتآكلة أو ما يطلق عليها اسم Solphatara نسبة الى بركان بهذا الاسم سكن وأثرت عليه عوامل التعرية فتآكل مخروطه ولم يبق منه إلا فتحة تخرج منها الغازات .

٤ — البراكين الهامدة أو المائتة وهى ما ينعدم فيها كل أثر للثوران ولا يبقى منها إلا المخاريط على شكل تلول كتلك التى وجدت قرب أسوان ومثل براكين أوفيرون فى هضبة وسط فرنسا .

٥ — البراكين الطينية وهى نوع تخرج منه كميات كبيرة من الماء مختلطة بالأتربة فيسيل الوحل على الجانبين مكوناً أنهاراً طينية ، وتوجد هذه الظاهرة فى كثير من المناطق البركانية وتعين آخر مظهر للثوران البركانى مثل براكين صقلية ونيوزلند وباكو وجنوب بلوخستان

٦ — البراكين المائية . وفيها لايخرج سوى الماء كما فى الينابيع الحارة والنافورات

أسباب البراكين

سبق لى القول فى العـدد ٥٣ من هذه المجلة الغراء الصادر بتاريخ ٩ يوليو الماضى ، أن القشرة الظاهرة للأرض عرضة لعامل الانكماش بفعل انخفاض حرارة الباطن وانكماش الجزء الداخلى فتلتوى القشرة الظاهرية لـكى تتلبس على الباطن الذى نقص حجمه . وقد يكون الالتواء الحادث من الانكماش فى بعض الجهات أكثر منه فى جهات أخرى ، ولذلك فانه حيث ينظم الالتواء تنكسر الطبقات الأرضية ، وتشقق مكونة مناطق ضعف فى القشرة الأرضية Lines of weakness

ولما كانت مناطق البراكين فى توزيعها على العالم تتبع هذه المناطق الضعيفة فاننا لا نشك لحظة فى أن السبب الرئيسى لحدوث البراكين هو تكوين هذه الشقوق أو العيوب faults التى تستفيد من وجودها القذوفات البركانية والمواد المنصهرة ، فتندفع خلالها ، وتخرج منها الى السطح الخارجى .

على أن هذا السبب يحتاج لبعض التفسير ، فهناك قوة البركان القاذفة ، وتكرار الثوران بين كل آونة وأخرى ، وهذان يمكن تفسيرهما بوجود الشقوق البركانية مجاورة للمساحة المائية العظيمة ، ولذلك فان الماء المتسرب الى الباطن يتحول الى بخـــار بتأثير الحرارة ، يجتمع مع الغازات الأخرى التى فى الباطن ، ويكوّن منها قوة دافعة عظيمة تقذف بالمواد المنصهرة وغيرها الى السطح .

هذا وهناك من يرى أن المادة المنصهرة التى تخرج فى نهاية الثوران مصدرها « جيوب » فى أسفل القشرة الظاهرة ، وتوجد هذه بكثرة فى الجهات المرتفعة حيث يكون الضغط قليلاً .

غلطات شائعة

لا زلت حتى الآن ، وأنا أكتب هذا المقال ، أذكر كيف كنا نحفظ تعريف البركان بأنه « جبل يخرج ناراً ودخانا » ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هناك اليوم من لا يعرف إلا هذا التعريف للبركان .

البركان ليس جبلاً . وقد جاء فى تعريفى الأول للبركان ، أنه فتحة أو شق فى ظاهر الأرض يوصل بينه وبين الباطن ، وليس الشكل المخروطى الذى هو حقيقة شبيه بالتل أو الجبل إلا المقذوفات والأتربة التى قذفها البركان ، فتساقطت وانحدرت حول الفتحة البركانية مكونة هذا الشكل المخروطى .

وليس البركان جبل نار . إذ أن ذلك الذى يراه الناس فيحسبونه ناراً ليس إلا خطأ أو خداعاً نظرياً لأن انعكاس لون باطن البركان المتوهج على الغازات المتصاعدة يوحى إلى الناظر أن المتصاعد نار . ويجب أن نعرف أن هناك بين النار والتوهج فرقاً عظيماً فقد تـكون قطعة من الحديد تتوهج احمراراً من الحرارة ولـكن لا يصلح أن نطلق عليها اسم نار .

وهناك من يقول بأن البركان يخرج دخاناً وليس هذا القول صحيحاً ، لأن ذلك الذى يطلق عليه اسم الدخان ما هو فى الحقيقة إلا بخار الماء المتصاعد من باطن الأرض بفعل حرارتها عند ثوران البركان . كذلك لا يشترط فى ثوران البركان أن يحدث الانفجار من أعلى المخروط أو بمعنى آخر أن تـكون الفوهة فى أعلى المخروط ، لأنه يحدث كثيراً أن تـكون الفتحة جانبية وأن يكون للبركان الواحد أكثر من فوهة واحدة

ويحسن بى الآن وقد انتهيت من الـكلام على البراكين أن أذكر ظاهرة طبيعية تقترن بثورانها ، وهى الاهتزاز الذى يحدث فى المنطقة المحيطة بالبركان الثائر ، وهذه يطلق عليها اسم الزلزال البركانى ، وهذا النوع من الزلازل ولو أنه محلى إلا أنه عنيف ، وقد يحدث تلفاً وأضراراً عظيمة كما حدث فى زلزال جزيرة Iscia (فى خليج نابلى) سنة ١٣٨٨ الذى أهلك ألفى نسمة ؟

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

القابلة[1]

للأستاذ محمود خيرت

تقيم تلك القابلة مدام دوبوا فى ركن عند ملتقى شارع سان لازاك وشارع روشفوكولد حيث كتبت اسمها على باب منزلها بخط كبير

وهذا المنزل أو تلك (العيادة) التى لا تقتصر فى باريس على مساعدة الحاملات عند وضعهن ... لا تجرؤ الفقيرات على الدنوّ منها ، لأن مدام دوبوا تشتطّ فى الأجر فلا تستقبل فيها إلا طبقة السيدات الغنيّة التى ترى فى الحمل عبئاً ثقيلاً

وفى ذات يوم نزلت من العربة أمام تلك الدار فتاة رشيقة ثم صعدت الى الطابق الثانى . وبعد أن استقبلتها الخادمة وأدخلتها عند سيدتها أخذت هذه تطيل النظر فيها كأنها تستطلع أمرها ، لأن الزائرة كانت مع حسنها وصباها يشق جبينها من وقت لآخر خط ينم عن تفكيرها وتكتمها حالها

على أن القابلة لم يخفَ عليها من أول نظرة أن هذه الفتاة حامل ، ولكنها مع ذلك تجاهلت أمرها ، وسألتها عن سبب زيارتها وقد عادت إليها حالتها العصبية السالفة :

« لقد اقتضى مجيئى إليك كثيراً من الشجاعة ياسيدتى لأننى لم يعد فى وسعى الاحجام بعد ذلك الصبر الطويل الذى غلبنى . بل إننى لا أدرى كيف قدرت على كتمان أمرى الى الآن . لذلك قصدتك وأنا أرجو السلامة على يديك فما أنا بذات بعل ولا أنا مخطوبة ، حتى اننى لأخشى أن يفتضح أمرى فيلحقنى العار ويلحق بأهلى »

وعند ذلك عادت القابلة تسألها : لماذا لم توحى لأمك بذلك فلعلها كانت تهيئ لك أسباب السفر الى مكان قصى تضعين فيه حملك . ولكنها كانت يتيمة من أمها ، وما كانت لتجد شجاعة على مكاشفة أبيها بأمرها وإن كان يحبها ويعزّها خشية أن تنغص حياته وتكدر صفوه

وقد علمت منها القابلة أن عشيقها مات قبل أن تشعر بهذا الحمل الذى مضى عليه أربعة شهور ، فلامتها على إهمالها شأن نفسها الى تلك اللحظة قائلة إنها لو كانت قصدتها قبل ذلك فربما كانت وُفقت الى الأخذ بيدها . أما بعد هذه المدة الطويلة ...

وعند ذلك سقطت الفتاة باكية عند قدميها تستصرخها وتتوسل اليها صائحة : أنقذينى يا سيدتى فانك قديرة على ذلك . على أننى ما قصدتك الا بعد أن هدتنى إليك إحدى صاحباتى

أما القابلة فتجاهلت تلك الصاحبة قائلة إنها ما أقدمت مرة على عمل ممقوت كهذا ، فأخذت الفتاة تنوح وتستعطفها وتنشد مروءتها إن لم يكن اكراماً لتلك الصاحبة فشفقةً بها ، ثم قالت اننى لن أبخل بما تطلبين ، وأقسم لك أيضاً أننى لا أخرج من هنا الا صمّاء فلن يعرف أحد شيئاً من أمرك وأمرى

ولقد هدّأت هذه الأقوال من روع القابلة سيما بعد أن اطمأنت على أجرها ، ولذلك قالت لها إنى أعرف هُناجرّاحاً شهيراً فى وسعه أن يخلصك من هذا الحمل بغير عناء ما دمت تدفعين له ما يطلب ، ولكنه لا يقبل أقل من ثلاثة آلاف فرنك . فلما قبلت المسكينة أوصتها بالعودة اليها فى صباح اليوم التالى

***

وفى الموعد وقفت عربة الدكتور تيسو عند باب منزل خلوى كان يعدّه لعملياته الجراحية المحرمة . وكان قد علم من القابلة بأمر هذه الفتاة وأنها جاءت كما أوصتها ، وناولته الأجر الذى اتفقت معها عليه . وعند ذلك سألها ما إذا كانت قد عرفت من هى أو من هم أهلها ، فقالت له إنها لم تشأ أن تذكر لها شيئاً من ذلك ، ولكنها سلمتها خطاباً أوصتها أن لا تفضه إلا إذا كتب لها أن تموت لا قدر الله

(1) معربة عن الافرنسية

وعند ذلك هز الطبيب كتفيه ثم قصد إلى معمله قائلاً ، إذهبى أنت فخدريها بينما أغسل أنا يدى وأعقم سلاحى

وبعد لحظة كان الطبيب بغرفة العملية ، والفتاة نائمة عارية إلا أن وجهها كان مختفياً تحت حجاب المخدر

وعند ذلك شرع فى عمله بغير شفقة على هذا الشباب المنطرح أمامه ، ولـكنه فوجىء بمضاعفات أخطأ حسابها ، وقطع القطن تتساقط من يديه فوق الأرض وقد صبغها الدم بينما القابلة تراقب تأثير المخدِّر فى ضربات القلب ، وكان قد مضى على بدء العملية عشرون دقيقة . غير أنه صاح فجأة : ماهذا ؟ لقد ثقبت الجدار . فصرخت شريكته ، إذن هلـكنا

ولقد اضطر الطبيب إلى اتباع آخر وسيلة كانت أمله الأخير فأخذ يقتطع من لحم الفتاة ، والغضب والاضطراب باديان على وجهه ولـكن القابلة صاحت فجأة صيحة مزعجة : لقد وقف قلبها . ماذا نعمل الآن . وكيف ندفع عنا شر هذه الخاتمة المشئومة . ثم أخذت تستر جسم الفتاة بغير أن تنزع عن وجهها ذلك القناع

أما هو فبعد أن غسل يديه كما يغسل القاتل يديه من دم قتيله صاح : كيف حصل هذا ؟ وما عسى أن نفعل بعد ذلك ؟ لقد قضى الآن علىّ وعلى اسمى وشهرتى ، وابنتى التى تعلم أننى رجل شريف ماذا يكون الآن حكمها علىّ ؟ ثم تحقيق النيابة ثم محـكمة الجنايات . . اسمى يادوبو : قولى إذا سئلت أنها لم تـكن حاملاً وأنها . . ولـكن القابلة أفهمته أنه لن يصدِّقها أحد ثم ذكرته بأهلها الذين قد لا يسكتون أيضاً . وعند ذلك تضاعف يأسه وتذكر ذلك الخطاب الذى نوهت له به فطلبه منها لعله يهتدى منه إلى مكان أهل الفتاة ، وربما إذا غمرهم بالمـال اكتفوا ووقفوا عن الشكوى .

ولـكن ماكادت تقع عيناه عليه وأصابعه ترتجف وعرقه يتصبب حتى صرخ صرخة دوت لها الغرفة ثم أسرع فنزع ذلك القناع، فاذا بتلك الفتاة لبزا ابنته !

ولا تسل بعد ذلك عما حلَّ به فقد أخذ يلطم خديه ويدق صدره ويدفع رأسه دفعاً شديداً فى الحائط كمن جُنَّ . وأخيراً جحظت عيناه فأخذ مبضعاً قريباً منه وغيبه فى صـدره حيث سقط ميتاً بعد أن جر ابنته إلى جانبه عند سقوطه .

محمود خيرت

ســـحر المرأة

بقـــلم محمد عبد الحميد

وأنت يا أمين ألا تتزوج ؟

أنا ؟ لا . لن . . .

بهذا الرد القاطع أجابنى « أمين » يوم سألته وكنا فى رفقة من الزملاء ، نقطع الوقت بالحديث ، وأغلب مايدور حديث الشباب حول المرأة

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٠ ، وكان « أمين » معاوناً فى وزارة الأوقاف ، مات والده قبل أن يبدأ مرحلة الدراسة الثانوية ، وهو مازال صـــبياً لم تثقله الحياة بهمّ أوتصبه بكارثة ، فشاء أو شاءت له الظروف أن يختصر طريق التعليم ، فلم يكد يقطع شهوراً فى مدرسة مشتهر الزراعية ، حتى لحقت أمه بأبيه

قضى أمين زهرة حياته محروماً من عطف أبيه وحنان أمه ، لم تكد تتفتح نفسه ، ويلمع بريق الحياة فى عينيه ، حتى ألفى نفسه وحيداً ، لا تضمه الى صدرها أم ، ولا يتولاه بالارشاد أب . لم ينسكب فى نفسه هذا النور الذى تشعه عيون الأمهات حناناً ورحمة ، وخرج الى الحياة بقلب صلب لم تصهره قبلات الأم الحارة البريئة ، ونفس جافة لم ترققها شفقة الوالد ورعايته . كذلك إخوته الثلاثة قطعت الحياة بينهم وبينه ، فلم يلمس حنان الاخوة ، ذهب أولهم فى بعثة الى أوروبا لدراسة الطب ، والتحق الثانى والثالث قبل وفاة أبيهما بوظائف الحـكومة ، وعاش كل منهما مع زوجته فى منزل وحده

وكذلك عاش أمين وحيداً أكسبه جفاف حياته خشونة لم تـكن تروق فى أعين الذين يحتكون به ، فكان صريحاً جافاً ، لايفكر فى أحد من الناس ، ولا يفكر فى الاتصال به أحد من الناس

غير أنه كان يضم فى كيانه قلباً حياً نائماً لم يتح له أن يثور ، فرقت بيننا ظروف العمل ، فنقـل الى مأمورية الأوقاف فى طنطا ، وهناك ولأول مرة بعد وفاة والديه اتصل برجل من أهله . فقد كان له فى هذه المدينة « خال » لم يتصل به منـذ صباه . زار منزل خاله ، فرحب به أهل الدار : خاله وزوجتـه وابنه وابنته « زينب » ، وهى عذراء ، أتمت السادسة عشرة من عمرها

مضت الأيام وتوالت الشهور دون أن يعنى كثيراً بزيارة أقاربه حتى أحسَّ يوماً بالمرض يسرى فى جسمه ، وإذا هى الحمى ، وإذا

هو مضطر أن يستريح كما أشار عليه الطبيب ، ولكن أين يجد الراحة وهو «أعزب» ليس فى منزله من يعني به أو يهتم بأمره ، وهو مضنى لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه . إذن لتكن دار خاله ملجأه اليوم فى مرضه ، لعله يجد فيها بعض الراحة مما يعانى

لقيه أهله فى عطف ، وأحاطوه بقلوبهم ، ووقفت الى جوار سريره « زينب » لا تكاد تخرج من بين شفتيه كلمة حتى تسعفه بما يبغى ، وتقوم له بما يحتاج ، وما تكاد الساعة تدق حتى تسرع الى الدواء تسكب له منه بالقدر الذى أشار به الطبيب ، وهى ما تفتأ بين الحين والحين ، تضع يدها على جبينه تجس بها حرارته . كانت تقضى النهار الى جواره ، وتقطع الليل أو أغلبه حول سريره ، ما يكاد يلمع ضوء الفجر حتى تهب اليه تسأله فى كلمات رقيقة عذبة ، ألم يشعر بتحسن ؟ ألا يزال يمقت ماء الشعير ؟ أتستطيع أن تحضر له مقداراً يغذى جسمه وتستريح به معدته ؟ وهى الى جانب هذا لا تنقطع كلما صحا من نومه المتقطع تعمل على راحته وتسعى جهـــدها لتغتصب الابتسامة من بين شفتيه اغتصاباً ، واشتدت به العلة يوماً فارتفعت درجة حرارته ، وأغمض عينيه ، ووقف حوله أهله يبتهلون الى الله من أجله ، حتى اذا كان الليل وهدأت الحياة ، واستسلم الجميع للنوم ، أفاق أمين قليلاً وارتفع جفن عينه المغمض فاذا هو يواجه « زينب » الى جواره تنظر اليه بعين قد التهبت من البكاء .

ماذا ؟ هل تبكين ؟ ثم انهمرت من عينه دمعة لعلها أول دمعة تفيض بها عينه منذ وفاة والدته .

توالت الأيام وزال عن « أمين » ما كان قد أقعده فعاد الى عمله يستعيد مع الأيام الطويلة بعض الذى فقده

لم يكن يعيش مع أقاربه فى مدينة واحدة ، بل كان يعمل فى « منطقة » من مناطق الأوقاف القريبـة من طنطا فلم يكد يقطع اليوم الأول فى مقر عمله حتى أحس فى أعماق نفسه شعوراً قوياً يدفعه الى العودة .

إنه يحن إلى طنطا ، بل هو يحن الى منزل أهـله . طغى على قلبه شعور قوى لم يكن يدركه قبل اليوم يدفعه الى العودة .

إلى أين ؟ الى منزل أقاربك . ولكن لماذا ؟ لقد شفيت ولم تعد لى بالعودة حاجة ، وأنا لم أقض بعيـداً عنهم يوماً كاملاً ؟ لقد كانت هناك حاجة قوية تدفعه ، وشعور جبار يغريه .

نام ليلته الأولى بعد تفكير طويل لم يكد يتبينها واضحة جلية ، فاذا هو يقطع الليل فى أحـلام متقطعة رأى فيها أشباحاً بيضاء رقيقة تدور حوله ، فلما حاول أن يتعرفها لم تتمثل له غير « زينب »

زينب العذراء الحلوة الفاتنة ، زينب الجميلة الساحرة ، هذه عيونها تلمع بفتنة الحياة ، وهذا قوامها البديع ، وهذه يدها الرقيقة تمتد اليه فى دلال ولين ، وهذا صوتها العـذب يتدافع الى أذنيه حلواً سـائغاً .

هب من نومه مع الصباح الباكر فألفى السماء ساكنة صافية وهذه الأشجار لاتزال تلمع بقطرات الندى ، والقرية ساكنة إلا من أصوات أفراد قلائل يصل اليه وقع أقدامهم وهم فى طريقهم الى المسجد يؤدون فريضة الصباح ، غير أنه يشعر بوحشة ويحس بالهم والحاجة . . .

لابد أن يكتب الى خاله يشكره على عنايته به فى مرضه ، فاذا هو يختتم خطابه فى حرارة لم يـكن يحسها قبل اليوم ، وإذا هو يحاول أن يختص زينب بتحية يقنع نفسه أنها ستدركها رغم أنها صادرة للجميع .

لقد أحب أمين . ! أمين الجامـد الصلب قد تفجر قلبه فاذا اللهب يكاد يحرقه ، وإذا العاصفة التى ثارت فى أعماقه تكاد تسحقه ، فاذا هو يعود الى منزل أقاربه ، وإذا هذه الزيارة تتكرر فى الاسبوع الواحد مرات ، وإذا هو لا يصمد لهذه الثورة المجتاحة .

لقد نفذت العاطفـة الحارة الى قلبه فألهبته وصهر العطف نفسه فاذا هو يرى فى الحياة ألواناً جـديدة ، هو يهواها ويفنى نفسه فى سبيلها . لقد لمسته المرأة بالعصا السحرية فانبثق النور فى أعماقه ، فاذا هو مفتون .

كانت الأيام قد توالت ، وكنا على وشك أن نختتم عام ١٩٣٢ فاذا أنا أتسلم منه كتاباً لم يزد فيه على كلمات :

عزيزى محمـد :

لقد أدركت سر الحياة لأول مرة ، فى عينى المرأة ، سأتزوج .

أخوك . أمين

لقيته بالأمس فاذا هو كالعصفور يكاد يطير . ينطلق فى حديثه فاذا هو ينساب فى رقة وعذوبة ، وينقطع عنـــه ، فاذا ابتسامة مشرقة تنشر على صفحة وجهه نوراً لامعاً جذاباً

أتذكر يا أمين يوم سألتك عن الزواج ، فأجبت فى لهجة الواثق أنك لن تتزوج ؟ لا يصديق . لقد كانت الحياة إذ ذاك قاحلة جدباء . هيا هيا نشترى معاً « تربية الطفل » لزوجتى تقطع به الوقت ، وتخفف به عن نفسها عبء الحمل ، ونشترى لعبة مما أعده للمستقبل لابنتى المرتقبة « كامليا »

محمد عبد الحميد

٤ – سافو

لأوجيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

المنظر الثانى

(غرفة بدار حنا بها دولاب ومائدة فوقها شمعة موقدة وحنا وحده ينزع من الدولاب ملابسه بيدين مرتجفتين ويضعها فى حقيبة)

حنا — (كارهاً الحياة) نعم أفر من وجه هذه المدينة فلعلى لا أعود أشعر بآلامها وأقصد إلى قريتى فلعل نسيمها ينسينى مرارة هذا الحلم .

(يعثر فى الدولاب على علبة من صنع اليابان فيتأملها)

علبتها . والحفيظة على ذكرياتها . لمَ تعيدين لخاطرى أيتها العلبة صورة ذلك الماضى القذر (تظهر فنى)

فنى — (جازعة وهى تراه يستعد للرحيل) حنا . لا ترحل

حنا — قضى الأمر

فنى — لقد كذبوا عليك حسداً . ثم كيف أصغيت إليهم وكيف صدقتهم

حنا — سافو . (متعمداً لكى تفهم أنه يعلم ماتخفى من أمرها) يالها من خيانة . أنت التى أبحتك قلبى ، واتخذتك معبودى تقدمين على خيانتى . أهكذا فى وسع امرأة أن تعبث بنفس هادئة مطمئنة وأن تحطم قلباً لم ينغمس فى إثم . ليتك تشعرين بما أشعر به الآن من مرير الألم . ولكنى أرحل فلعلى فى وحدتى أنسى وأنا أستنزل غضب الله ولعنته عليك . لقد بلغ من جهلى أن أكرمتك وتخذتك امرأتى ، حتى انكشف لعينى ماضيك الذى سترته عنى . وبلغ من نفاقك أن أعميتنى فتمكن سلطانك من إيمانى ، ولكن الحمد لله فقد نضب الآن معين حبى ووقف من دونك شبح كراهيتى ومقتى . فعودى الى ما كنت سافو الخليلة العاهرة الفاجرة .

فنى — (وقد صدعها الألم والفضيحة) هب كل ماسمعت صحيحاً أفنسيتَ أن المصادفة هى التى جمعتنى بك . ثم ألم تقم هذه المصادفة سداً بين سافو الغابرة وفنى الحاضرة . أقسم لك أن سافو ماتت من يوم أن عرفت فنى

حنا — كما أقسمت لغيرى

فنى — أنا ما أحببت سواك ياحنا

حنا — تكذبين

فنى — (مضعضعة) بل إنى لصادقة وإنى لأعبدك

حنا — إذن لم احتفظت بهذه العلبة ؟

فنى — (مفكرة) أوعلمت بها ؟

حنا — (مشيراً الى الدولاب) إنها لا تزال هنا . انظرى

فنى — ولكنها لا تحوى شيئاً . . .

حنا — أبداً ؟ (يتناول العلبة بين يديه ليفتحها)

فنى — (بصوت خائر خافت) ما هذا الجنون

حنا — إنها تحوى الشواهد الناطقة بفجورك

فنى — مهما جرّعتنى من القسوة فما زلت أحبك

حنا — (بخشونة) أين مفتاحها ؟

فنى — لا أدرى

حنا — (مهتاجا يعالج فتحها بالقوة) سأعرف كيف أحتال على فتحها

فنى — (تحاول منعه ويكون قد فتحها) ولكنك تعالج النار بالنار

حنا — ها قد أفلحت . انظرى . إنها هنا مكدّسة منكمشة خشية أن يفوح نتن عارها

فنى — أحرقها إن شئت فهى لك

حنا — لى أنا ياسافو . . .

فنى — لم أعد سافو يا حنا (تتناول بيد مرتجفة بعض رسائل سقطت على الأرض) نعم أحرِقها أو مزّقها لتصدق أننى أصبحت لك وحدك (بلطف) بالله لاتجر خلف شكوكك ودع ما أقاسى يتصاعد فى دخانها . إنها ما كانت غير سحب بعيدة فلا تحجب الآن بها سماء طهارتى

حنا — (ببطء وألم) كنت أود أن أقف على ما فيها

فنى — إذن أنت تريد أن يصل الهم الى قرار نفسى (تقترب وإحدى يديها الى ظهرها حيث تمسح بيدها اليمنى خده كما كانت مع كاوودال)

حنا — (منفجراً) إنك بهذه الحركة تعيدين الى ذهنى صورة ما اعتدته مع سيدك كاوودال

(تأخذ بحالة عصبية لفافة وتشعلها)

وعلى هـذه الصورة أيضاً كنت تدخنين لفافاتك معهم . إنك لا زلت تكلمينني بلغة المصنع وأسلوب العاهرات حتى كأني بين عشاقك أسمعهم وأراهم

فني — (تلقي اللفافة بغضب وتفركها بقدمها) ما أقساك

حنا — كل هـذه الرسائل على ما بها من صفرة القدم وتأثير الزمن . . .

فني — (تقطع حديثه) دعني أنا أشعل النار فيها

حنا — بعد أن أتبين ما بها (يقرأ إحداها) : « ليتك ياسافو تعلمين كم أحرقت من دمي لأجري الحياة فى الرسم الذى نعم بتصوير جسمك الغض ... »

فني — (معترضة) بالله عليك (تخطفها وتحرقها)

حنا — (يتناول كتاباً آخر) إنه شعر هذه المرة

سافو لقد ذقت الهوى من مقلتيك فذقت أنسا
لكنّ بُعـــدك شفني وجنى علي فكيف أنسى

(متأثراً) ماذا فعلت معهم حتى تركتهم على هذه الحال

فني — (حزينة) ليتني أدري

حنا — (يقرأ رسالة أخرى ورقها وردي اللون) : أنا بانتظارك الليلة فى دار التمثيل » (تطرق فى خجلا . أما هو فيحرقها ولكنه يحس كأن سهماً مسموماً أصابه حين يقع بصره على تخطيط يصورها عارية)

وهذا الرسم ؟ إذن كانوا يصورونك عارية (ثم يقرأ ما هو مكتوب تحته) : « حبيبتي سافو . . . »

فني — (متجهة اليه) إنني ما استبقيته الا لشهرة مصوره

حنا — (يلقيه اليها) احتفظي به

فني — (ترده اليه) بل احرقه واحرق كل ما بقي معه (بحزن) كفى ياحنا وارحم ألمي (يشتد حزنها) وليتك تعلم كيف نشأت ، فلقد كنت وأنا طفلة على ما يُروى زهرة القرية أمرح فى الطرقات وقد تيتمت من أمي وربما أيضاً من أبي ، وما كان يعود إلا آخر الليل يترنح من السكر ، وكان شديد القسوة معي حتى اذا ما بلغت سنّ الخامسة عشرة ، وأنا أجمل فتيات الناحية فررت الى هذا المصنع . أما أولئك الفنانون فانتهزوا فرصة احتياجي وبؤسي فعبثوا بطهارتي ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا الى طريق قلبي ولا تركوا فى نفسي من الأثر غير الحقد واللعنة ، فهذا القلب ما كان لهم يوماً ما فحطّمه إن شئت فانه لك

حنا — وما هذه الرّزمة المخبّأة

فني — (تصرخ متألمة) لا إلاّ هذه يا حنا

حنا — وما الفرق بينها وبين أخواتها

فني — حنا . دعني أحرقها . أتوسّل اليك

حنا — إنك تحيّرينني

فني — قلت لك دعها (تحاول اختطافها فيتغلب عليها) إذن ليكن ما يكون

حنا — (متهكماً) طابع السجن ! (ينظر الى الامضاء) فرومان ! فرومان المزوّر ؟

فني — بل فرومان القدير . أما التزوير فما يعيبه ، وما دفعه اليه غير فقره

حنا — (باحتقار) إنه مجرم

فني — (متلطفة به) بيبي

حنا — (يستشيط غضباً) هذه الكلمة كنت تداعبين بها أيضاً ذلك اللص

فني — ليكن ، ولكن مالك به وأنا لك

« يتبع » . محمود خيرت

الشخصية

[بقية المنشور على صفحة ١٤٠٤]

خارجي بل أتت من تفكير الشخص فى نفسه وتحليلها وتبين موقفها فى العالم ، وموقف العالم منها ، وتساؤله لها ما رسالتها فى العالم وكيف تؤديها ـ فإذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبساً من نور إلهي ألهب نفسه ، وأضاء العالم أمامه ، فهو يسير على هدى ، ويؤدي رسالته كما بُلّغ ، الى كثير من أمثال هذا مما لا يستطاع حصره .

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها ، وظهور عظمتها ، والصوفية يقولون : « صاحب الخصوصية لابد أن يظهر يوماً ما » ولكن كم فى العالم من شخصيات كامنة لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت ، ولو أتيح لها القبس لأنارت ، وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها ، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة ، وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابتها ريح هوجاء عصفت بها — وعمل المصلحين والشخصيات القوية فى كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء ويتعهدوها بالنماء ؟

أحمد أمين

الكتب

صلاح الدين الأيوبى

لمؤلفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم عبد الحميد حفني الشواربي

لجنة التأليف والترجمة والنشر، هي بلا ريب في مقدمة الجمعيات العلمية الحديثة، التي ساهمت — الى حد كبير — في النهوض العلمي والانتاج الفكري في الشرق العربي، الذي يقاسي فوق فقره المادىّ من أثر الاستعمار الأوروبي فقراً أشد فتكاً وأبعد خطراً، هو غزو اللغات الأجنبية له، فقامت هذه اللجنة في جهد الجبابرة، تنشر وتترجم وتؤلف بلسان عربي في مناح مختلفة في الفلسفة والعلوم والآداب والاجتماع.

والذي يحز في قلوبنا وينال من إحساسنا القوى، أن تنهض هذه الجمعية على أكتاف أفرادها، دون أن تمكن لها من مال الدولة أو الأمة بالقدر الكافي، أو ما يوازى على الأقل ما حصلت عليه الجمعيات العلمية الأجنبية مع ما فيها من مكمن الخطر التبشيري وما تحمله من نزعات الشر والكراهية لمصر والمصريين.

هذه الجمعيات قد منحت من أملاك الدولة، في الصميم من قلب المدينة وخير بقاعها، فضلاً عما تمدها به حكوماتها وشعوبها، بينما ترى مركز لجنة التأليف والترجمة والنشر، في ركن متواضع من أركان بيت ضج بالسكان، أو المرضى من الناس في شارع الساحة. هذا فضلاً عن حرمانها من امتيازات لو مُنحتها لدرت من أنواع الثقافات أفضلها وأعظمها قدراً

وأذكر أن المرحوم ثروت باشا قد أشار الى وجوب إصدار سلسلة معارف عامة تعين على ثقافة الشعب، فكانت هذه اللجنة هي أول من لبى أمنية وزير مصر الكبير

وكان أستاذنا النابه «محمد فريد أبو حديد» أول من وقع اختيار اللجنة لرسالته كسلسلة معارف عامة في صلاح الدين الأيوبي.

والمؤلف غني عن التعريف لولا ما تأخذنا به أصول التحليل والنقد. فهو أستاذ تخرج في المعلمين العليا، وفي مدرسة الحقوق المصرية، وتقلب في مناصب عدة في التعليم الثانوي، على أن هذه العناوين ليست كل شيء في الرجل، فان كثيرين قطعوا مراحل التعليم منفعلين لا فاعلين، ومروا بها مر امتحانات متأثرين لا مؤثرين، ولكن هذا الرجل وقد عاشرته عن كثب — تجد فيه الابن المصري البار الذي كلف نفسه حمل رسالة النهضة من وجهتين: أخلاقية وعلمية — ليؤديها الى الناس في نفس كبيرة وجسم ضئيل

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

انظر إليه وهو يلقى عليك هذا السؤال في مؤلفه صلاح الدين ما الحياة؟ فانك لتستشف من جوابه على هذا السؤال ناحية أبية من نواحي النفس المصرية النادرة، أو قليلة العدد على الأقل، التي يغتبط بوجودها، بل ويفتقر إليها المجتمع المصري، وهاك جوابه: «أليست تلك الأنفاس التي تتردد في تلك الفترة المحتومة ما بين واجب البلاد وواجب الموت؟ ألا إنها فترة مملة مسئمة إذا لم يكن بها ما يهز النفوس».

ثم هاك كتابه وقد تناول بالبحث الشيق بطلا من أبطال العالم الاسلامي تقف فيه على خير عصر من عصور التاريخ عانى من غشاوة الجهل والتعصب التي اكتنفت أوروبا في القرون الوسطى. وترى كذلك كيف تكون السياسة الحكيمة يمليها رجل الشرق فترتفع الحواجز وطلاسم الحياة التي بيننا وبين أية أمة بالغة ما بلغت من العظمة والسلطان، اسمعه يقول في تقدير صلاح الدين «والناس إذا تولى أمرهم عظيم تساموا إلى مستوى عظمته فأتوا بالعجب» وها كم رجل الساعة مصطفى كمال مصداق لما ذهب إليه المؤلف الجليل. والكتاب في جملته وتفصيله حافز للهمم دافع للعزم الصادق في نفوس شباب طغت به مدنيات

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

للدكتور محمود النشوى

...

استقبلت صباح اليوم وهو ينبلج عن عامل البريد يزدلف نحوي ويحمل بين أعطافه هدية ثمينة ، بل منة خالدة من الأمير الأكبر (عمر باشا طوسون) تلك هي كتابه الذي طوق به جيد مصر وأسماه (يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢) ولم أكد أتصفحه حتى ذكرت الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية مشرع الترجمة ومبتكرها في الأمة العربية وإبان فجر المدنيـة الاسلامية . ثم انتقلت بي الذاكرة إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وجالت في خيـالي صورته وهو يهيب بالأمام مالك رضوان الله عليه أن يؤلف الموطأ فيأبى ، ثم يرضى متأثراً بألحاح المنصور . ثم يرسم له خطة التأليف حتى يقول إمام دار الهجرة لقد علمني المنصور التأليف

ثم تذكرت الرشيد ومجالسه الأدبية وشعره الرقيق . وانتقل بي الخيال إلى المـأمون وحدبه على العلماء وعلى العلـم . وتفرده بكثير من مسائله ثم ذكرت قابوس بن وشكمير وشعره العالى الرصين ، وعضد الدولة بن بويه ، وسيف الدولة الحمداني ، وأبا فراس بن عمه . وتلك الحلقة من الأدباء والشعراء والمؤلفين التي كانت تحف بهؤلاء الملوك والأمراء فتستمد منهم ومن مشاركتهم في الشعر والعلم روحا تبعثها للأمة قوة ونهوضاً . ذكرت ذلك كله ، وعهدا ساهم فيه الأمراء والملوك في العلم . فـكان عصر العلم وكان عصر النهوض . وعلمت أن مؤلفات الأمـــير هي تباشير الصباح ، وبواكير النهضة العلمية في مصر وفي غير مصر .

. . وإنك لتواجهك الوطنية المخلصة في كل حرف من حروف كتاب الأمير الجليل حتى في اسم الـكتاب ، وفي مقدمته . فاسم الـكتاب يذكر باليوم المشؤوم . يوم الاحتلال . ومقدمته لا أصفها . بل أذكر فقرات من أولها . وأدعها توحي للقارئ بالغيرة على الوطن . وبالتفاني في حب مصر . فاستمع للأمير الجليل حين يقول [1]

(يقبل علينا شهر يولية في كل سنة فيذكرنا باليوم الأسود يوم ١١ يولية ذلك اليوم الذي داست فيه انكلترا المعاهدات الدولية وتعلقت بأوهى الأسباب . وضربت مدينة الاسكندرية فاقترفت بذلك سبة الاعتـــــداء على أمة لم يكن بينها وبينها إلا السلام واجترحت إثم التهجم على بلاد لم تناوئها الحرب . ولم تبادئها بالعدوان والخصام) . ثم نراه يرسل زفرة الأسى محيياً أبطال مصر وضحايا يوم ١١ يولية فيقول (لحيا [2] الله أولئك الأبطال الذين راحوا ضحية الدفاع عن الأوطان ، وتغمدهم برحمته ورضوانه)

. وكذلك ترى حدب الأمير على مصر يحدو به أن يذكر شهادة الأعداء ببطولة مصر فيحدثنا عن الماجور تلك Tulloche [3] أنه دهش من بطولة جنود مصر حتى وثب الى حافة السفينة ورفع يده قائلا : لقد أجدت العمل أيها الجندي المصري .

ثم يروي عن الأميرال سيمون قائد الأسطول إذ يقول في تقرير يرفعه الى سكرتير الأميرالية [4] (ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتـة) . ثم يختم أميرنا الجليل شهادة الأعداء لأبطال مصر بالأسف على الشهداء ، وعلى الوطن فيقول [5] (رحمهم الله وعزانا وعزى هذا الوطن الأسيف) ذلك قل من كثر . وغيض من فيض من الوطنية في كتاب الأمير .

وإن في الـكتاب من وراء ذلك لضبطاً ونقلاً عن مصادر لا تلين قناتها لغير الأمير حين يعتمد دار المحفوظات المصرية ، وحين ينقل عن تقرير القائد الأمريكي (جون دريتش) الذي قدمه لحكومته ، ثم نرى الأمير ينقل عن الأثبات ، فيروي عن ابن عبد الحكم مما ذكره في كتابه (فتوح مصر) ، وعن خليل شاهين الظاهري مما سطره في كتابه (كشف الممالك) ، وعن صاحب الخطط التوفيقية ، وغير هاتيك المراجع التي ذكرها الأمير وذكر صفحاتها ، فأرانا كيف يكون الضبط ، وكيف يكون البحث العلمي الدقيق . فلتهنأ الأمة بأميرها وليهنأ العلم بمؤلفات الأمير .

محمود النشوى
دكتور في الآداب

(١) ص ٣ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ٩٩ (٤) ص ١٠١٣ (٥) ص ١٣١

الاستعمار حتى ماع ، وبهره سراب خلب حتى هوى واستسلم إلا من عصم ربك ، فبعث فينا من يعاني النظر في أمراضنا والبحث في وسائل علاجها

ولولا مغالاة المؤلف في أسلوبه العلمي وتوخيه البحث على نمط مدرسي وهو يكتب للشعب ، لـكان مؤلفه قد بلغ الغاية وأوفى حتى انتهى إلى درجة الـكمال . ولـكن نشكره على جهده وما بذل في وسط كوسطنا المصري يعاني ذكرى مؤلمة لمجدنا السالف ، ومحنة راهنة بسبب فقرنا العلمي .

قليوب البلد عبد الحميد حفني الشوادبلي

2 me Année, No. 61. | Lundi-3-9-1934

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦١ « القاهرة فى يوم الأثنين ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

الأخـــلاق والتشريع

إذا كان الصيف موسم التنزه والاستحمام وجوب الشواطىء ، فهو أيضاً موسم التحدث عن الأخلاق . ففى كل صيف يتجدد لدينا حديث الأخلاق وانحلالها ، وما تجنيه عليها مناظر الاستحمام والعرى المثيرة ؛ وقد بلغت هذه المناظر على شواطىء الأسكندرية فيما يظهر حداً مزعجاً من التبذل والتهتك ، وأثارت عاصفة شديدة من الاحتجاج والسخط ، وارتفعت الصيحة بوجوب وضع حد لهذه الأباحة الخطرة ؛ فاهتمت الحكومة وتدخلت إدارة الأمن العام ، ووضعت قيوداً جديدة على الاستحمام والنزه البحرية والركوب أو الجلوس بملابس البحر ، تحقق فى نظرها مستوى معيناً من الحشمة والحياء والصون

وثار أيضاً حديث الأفلام والمناظر السينمائية المنافية للحياء ، وانتهى إلينا صدى تلك الحملات القوية التى تنظم فى أمريكا ، وتنظمها الكنيسة بالأخص لمحاربة هذه الأفلام والمناظر المثيرة المفسدة لأخلاق النشء والشباب ؛ وقيل بحق إننا فى مصر أشد حاجة إلى مقاومة هذا الخطر الأخلاقى ؛ فاهتمت لذلك لجنة الرقابة الأدبية ، واقترحت على وزارة الداخلية أن تشدد الرقابة على الأفلام المصورة الواردة من الخارج ، فأقرت الاقتراح وستعمل لتنفيذه .

وهكذا كلما ارتفعت الشكوى من خطر على الدين أو الأخلاق ، اتجهت الأنظار إلى الحكومة ، وطلب إليها العمل لمقاومة هذا الخطر . والحكومة فى مصر هى حامية الدين والأخلاق . والحكومة فى جميع الأمم المتمدنة تضطلع بمثل هذه المهمة وتحمل مثل هذه التبعة ؛ ولكنها لاتنفرد بتأدية هذا الواجب ، وإنما تقوم به إلى جانب القوى المعنوية والاجتماعية الأخرى ، وتمد إليها يد العون متى احتاجت . أما فى مصر فالمفروض أن الحكومة تقوم فى هذا السبيل بكل شىء ، وتحمل كل تبعة ، وعليها وحدها يقع عبء التقويم والاصلاح

وليس هنا مقام التحدث عن أسباب هذه الظاهرة ، وإن كان وجودها طبيعياً فى بلد تقبض حكومته على جميع السلطات ، وتسيطر على جميع الحريات والقوى المادية والاجتماعية ؛ ولكنا نتساءل فقط : هل يكفى تدخل الحكومة لدرء الشر ، أو بعبارة أخرى هل يعتبر التشريع وسيلة ناجعة لتقويم الأخلاق ؟ لقد اعترض بعض النقدة حينما فرضت الحكومة تلك القيود الجديدة على ملابس البحر والنزه البحرية ، وقالوا إن الأخلاق لاتقوم بالتشريع ، وإن تيار الفساد أقوى من أن تحده مثل هذه القيود . وربما كان ذلك حقاً فى ذاته ؛ فالتشريع وحده لايكفى لقمع الفساد وتقويم الأخلاق ، بل يجب أن تتضافر معه جميع القوى والعناصر التهذيبية الأخرى ، فى البيت والأسرة والمدرسة والمجتمع ، ولكن التشريع لابد منه فى بلد تسيطر الحكومة فيه على كل شىء : على التعليم والتربية ، وتكوين التفكير والأخلاق ؛ وتنظيم المجتمع ، والتشريع أول وأهم خطوة فى بلد لم يستكمل نضجه فى التهذيب والثقافة ، وفى بلد تغزوه أسفل عناصر المدنية الغربية ؛ وفى مجتمع لايفهم التمدن إلا بأنه اقتباس للخلال والأزياء الغربية الخليعة ، والانحدار إلى مهاوى التهتك ، وإهدار قواعد الحياء والحشمة ، والانغماس فى شر ما تنغمس فيه العناصر الأجنبية الوضيعة .

وحيثما يسرى الفساد إلى مجتمع ضاع فيه وازع التربية والحياء والأخلاق ، وجب أن يمثل وازع التشريع والأكراه ، ونريد هنا التشريع الحكيم النزيه المبنى على دراسة عميقة وتمحيص مستنير . نعم إن التشريع لايحدث أثره سراعاً ، ولكنه يذلل الطريق دائماً للغاية المثلى ، وفى جميع الأمم الغربية يتخذ التشريع وسيلة لحماية الأخلاق وتقويمها ؛ فى انكلترا قوانين لحماية الأحداث من خطر ارتياد المقاهى والملاهى منفردين ولحماية أخلاقهم فى المصنع ؛ وقد لجأت الفاشية فى إيطاليا إلى التشريع لمعالجة الفساد الأخلاقى الذى بثته فوضى ما بعد الحرب إلى كل طبقات المجتمع ، فأصدرت قوانين عديدة لمحاربة الخلاعة والتهتك ومطاردة الملاهى المبتذلة ، وتناول التشريع أزياء المرأة فحتم أن تكون ذات طول معين ؛ وردت المرأة الايطالية بقوة التشريع إلى الأسرة والمنزل ، وحملت على تقديس الزواج والأمومة ، واحتقار الأمعان فى التبرج واللهو الخليع ؛ وحذت الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا حذو الفاشية فى ذلك ، فلجأت إلى التشريع فى مطاردة الفساد الاخلاقى والملاهى المبتذلة ، وأغلقت مئات الحانات والمنتديات المريبة فى برلين وغيرها ، وردت المرأة الألمانية الى حظيرة الأسرة ، وبوعد بينها وبين العمل الخارجى جهد الأستطاعة ، إلى غير ذلك من الوسائل والاجراءات التى أريد بها صون الأخلاق بعد ما وصلت إلى أبعد حدود الانحلال ، ورفع مستوى الحياء والحشمة بعد أن هبط إلى الدرك الأسفل .

وفى تركيا الكمالية ، كان التشريع وسيلة التحرير والتمدن ، فلما طغى سيل الفساد الأخلاقى فى مجتمع لم ينضج بعد لمثل هذا الأغراق والتطرف ، عادت حكومة أنقرة فلجأت إلى التشريع أيضاً لكبح جماح ما أطلقت عنانه بادىء بدء ، وحماية النشء والشباب من الاندفاع فى حريات لم يألفوها ، وكانت وبالاً على أخلاقهم ونفوسهم .

والخلاصة أننا لانعترض على التشريع فى ذاته كوسيلة لحماية الأخلاق والآداب ؛ فلنا فى ذلك أسوة بكثير من الأمم الغربية ذات الأخلاق والدنية ؛ ومادمنا نخضع لمثل هذه الظروف والنظم ، فلا مناص من الألتجاء فى الاصلاح إلى وسائل الاكراه ؛ ولكن الذى نعترض عليه حقاً هو أن هذه القوانين التى توضع لمعالجة هذه الشئون ليست دائماً على جانب كبير من الحكمة والاتزان ، ولا تقوم دائماً على نزاهة القصد والغاية ؛ وإنما توضع فى الغالب لتهدئة بعض الحملات المزعجة ، ومعالجة بعض الحالات المؤقتة ، والتماس شىء من المديح والرضى ما

« ع »

تربيـــة لؤلؤية

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كتبتْ إلىّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى :

. . . أما بعد فهذا الذى كنا ظننّا وظنّتْ ، فاقرأ الفصل الذى انتزعته لك من مجلة . . . وستعرف منه وتنكر ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى . . . وتجد فتاةَ اليوم على ماوقع بها من الظِنّة ، وكثر فيها من أقوال السوء — لا تَشْمس على الريبة ولا تريد أن تنتفى منها ، بل هى تعمل لتحقيقها ، وتبنى مع تحقيقها أن يَتَعالَمَ الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ماشاءت ، ويسوّغوها مقارفة الاثم ، ويُقِرّوها على منكراتها .

أما إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلات هنّ أمسنا الذاهب بلا فائدة ، فان فتياتنا المتعلمات هن يومنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَد ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمة لم تكد تَنْفُق ومعها الرذيلة ، ولَتَاجرٌ أمّىّ طاهر الاسم تتحرك سوقُه وتحيا ، خير من تاجر متعلم نجس الاسم قد ماتت سوقه وخمدت ، فما تتنفّس من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحْكَمَتْه المتعلمات منا كن بين الشرق والغرب كالسَّبِخَةِ النشّاشة من الأرض ، طَرَفٌ لها بالفلاة وطرف بالبحر ؛ فهى رمل فى ماء فى ملح ، لا تَخْلُص لفساد ولا صحة . فاعتبر هذه وهذه فستجدها بحكاية واحدة ، أصلا وطبق الأصل . ؟

* * *

وقرأتُ الفصل الذى أومأت اليه السيدة وكان فى كتابها فاذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) وإذا فى أوله : « كتبت آنسة أديبة فى عدد سابق من . . . الأغر تقول : « أجلْ ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فان أخطأناهم أزواجا فلن نخطئهم أصدقاء . . . » وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطها الآنسة الجريئة فى غير حق ، الثائرة فى نزق . ثم قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حيوية صارحة . . . . فجزعت لأن قاسم أمين عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، وولى الدين يكن عندما جاهر بعده فى سبيل السفور ، وهدى شعراوى عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ماظنت وماظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور الى حد أن تقف آنسة مهذبة تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها من أجل الزواج . . . »

* * *

وأنا فلست أدرى والله مِمَّ تعجب هذه الكاتبة وإنى لأعجب من عجبها وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلا وهُوَيْنَى مُظهِرةً الجدَّ والقصد والغضب . أئن أطْلِق للنساء أن يَثُرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلت فى حريتها ، فامتدَّ بها أمدها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً فى غير مداراة ولا حذق ولا كياسة يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله ، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكسراً مما به من اللهفة والوثبة يتوجع ، يتنهد ، يتلذّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جرى عليكِ وكنتِ حرة ، وتَزَعْزَعتِ وكنتِ ثابتة ، وأفحشتِ وكنتِ عفيفة ، وتعَهّرتِ وكنتِ طاهرة . أفلا تقول لهـا : سَفَرتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرة بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنتِ مُخلاَّة مهملة ، وَغلَوتِ إذ كنت فى المبالغة من البدء . أفلا تقول لها : لقد تَلطّفْتِ فجئت بالمعنى المجازىّ لكلمة (العُرْى) ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأة ظريفة اجتماعية مُخيلَةً للشعر والفن ، وحقّقْت أن واجب الظريفة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً مِنْ ومن ، ومن لحمها . . . . .

نعم إن قاسم أمين — رحمه الله — لم يكن يظن . . ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صوابا ؟ بل هو أحرى أن يُلبّسه على الناس فيُشبّهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون اليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يوماً الى أن يَنْتسِفَ خطوُه صوابَه ، ويغطىَ باطلُه على حقه ، ثم تستطرق اليه عواملُ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد اليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدُّ له فى الغى مداً . ثم تنتهى هى أيضاً الى نهاياتها ، وتؤُول الى حقائقها ؛ فاذا كل ذلك قد

داخل بعضه بعضاً ، واذا الشر لا يقف عندما كان عليه ، واذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين ، ولا نزعم أن له خفيّة سوء أو مُضْمَر شر فيما دعا اليه من تلك الدعوة ، ولكنى أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلّف مالا يُحسن ، وذهب يقول فى تأويل القرآن وهو لا ينفذ الى حقائقه ولا يستبطن أسرار عربيّته ، وكان مناظروه فى عصره قوماً ضعفاء فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء غَيّرْن وبدّلن ؛ فلما أطعْنه وبدّلن وغيّرْن ، وجاء الزمن بما يفسّر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات المتخيّل أو التشيّع — إذاً معنى التغيير والتبديل هو ما رأيتَ ، واذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر ، واذا المرأة التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج ! واذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ، ولكن نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة كأنها مجرمة عوقبتْ على فساد سياستها ؛ وهى فى بيتها ، ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها .

كانوا يحتجون لنفى الحجاب بالفلّاحات فى سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهُنَّ من كونهن لسن فى المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة . ومثل هذا السفور لا يكون فى طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعى فطرى أساسه الخلط فى الأعمال لا التميز بينها ، والاشتراك فى شيء واحد ، هو كسب القوت لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التى ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرفة بها ؛ ويحسبْنه توسعاً من الطبيعة فى الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبة منها فى أن تُحدّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كله بما فيه ، وتُعْطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها وتخرجها الى النور والحرية فانما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خشباً لا ثمراً ، ومنظرَ شجرة لا شجرة ! لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى فى قانون حياتها ، لا فى قانون حجابها . أفليست كذلك جذور الشجرة الانسانية ؟

كل ما يتغير يسهل تغييره على من شاء ، ولكنّ النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يُقْضَى فلن يسهل تبديلها ، ولا تحويلها ولا رَدُّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبّبو للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسه الرائحة الذكية فى البخور ... !

* * *

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءُ سعرها فى الاجتماع ، وصونُها من التبذل المقوت لضبطها فى حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم ؛ قانون العَرض والطلب والارتفاعُ بها أن تكون سلعة بائرة ينادَى عليها فى مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيله ، الخدود الوردية ، الشفاه الياقوتية ، الثغور اللؤلؤية ، الأعطاف المرتجّة ، النهود الـ .. الـ .. أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب الى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هـــذا فانهن لا يظهرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا ؟ وهذه التى كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجا ، وتفتّش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى فى مخزيات هذا التطور ، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَمُوحاً مطروفة ، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو اليها الخطوة المقابِلة . . .

ما هو الحجاب الشرعىّ إلا أن يكون تربيةً عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصّها الرحمة ؛ هذه الصفة النادرة التى يقوم الاجتماع الانسانى على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظ المرأة به منزلتها ، وتؤدى فيــه عملها ، وتكون مغرساً للأنسانية وغارسة لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليد الحيوان تولّد كلها : إما ساعية كاسبة لوقتها ، وإما محتاجة الى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضى فتكدح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هى الوجود فى ذاته لا فى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفل لا فى الأعلى . غير أن طفل المرأة يكون فى

بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك سنةً بكل شهر . فهل الحجاب إلا قصرُ هذه المرأة على عملها لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؛ وهل قصرها فى حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمة ذات ولد ، تترك ابنها فى أيدى الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية .. وتمضى ذاهبة عن يمين الصباح ويمضى زوجها عن شماله .. وقد رأيت هذا الطفل مرة فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال ، له سمة روحانية غير سماتهم ، كأنما يقول لى إنه ليس لى أب وأم ، ولكن أب رقم (١) ، وأب رقم (٢) ..

***

وقد كنت كتبت كلمة عن الحجاب الاسلامى قلت فيها : « ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يخالطها السوء أو يتدسس إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب ، وليس يؤدى شىء إلا أن تكون المرأة امرأة فى دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى . »

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المتعبدية وهو كالصدفة لاتحجب اللؤلؤة ولكن تربيها فى الحجاب تربية لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازن والاستقرار والهدوء والاضطراد وأخلاق هذه المعانى وروحها الدينى القوى الذى ينشىء عجيبة الأخلاق الانسانية كلها ؛ أىْ صبر المرأة وإيثارها . وعلى هذين تقوم قوة الدافعة ، وهذه القوة هى تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهى سر المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذات الدين والصبر والدافعة . إنها فيها تشبه أخلاق نبى من الأنبياء .

وقد مُحق الدين والصبر ، وتراخت قوة الدافعة فى أكثر الفتيات المتعلمات ، فابتلين من ذلك بالضجر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العَفَن فى الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن فما منهن من عرفتْ أن طبيعتها سلبية فى ذاتها ، وأنه لايشدها ويقيمها إلا الصفات السلبية ، وملاكها الصبر فروعه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده . إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطىء المرأة فى شىء خطأها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الإيجاب ، وتمردها على صفات السلب كما يقع لمهدنا ، فان هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأةُ نقائصَ أخلاقها من أخلاقها كما نرى فى أوربا ، وفى الشرق من أثر أوربا . فمن هذا تَلبق الفتاة حياءها وتبذؤ وتُفحش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعاً فبالمعانى وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر فى هذه وتلك ؛ وكانت الاستجابة لهذا مافشا من الروايات الساقطة والمجلات العارية ؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون عِلْمَ الفكر الساقط .

وعادت الفتاة من ذلك لاتبتغى إلا أن تكون امرأة رواية ؛ إما فوق الحياة ، وإما فى حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر ! وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ، فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛ فانسلخت من كل شىء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير فانسلخت من إنسانية الغريزة

***

أما إن غلطة الرجل فى المرأة لاتكون إلا من غلطة المرأة فى نفسها ، وهى قد أعطيت فى طبيعتها كل معانى حجابها ؛ فاحساسها محتجب مختبىء أبداً كأنه فى إتب[1] وملاءة وبرقع وأفكارها طويلة الملازمة لها لاتكاد تتركها كأنها منها فى بيت ، وطبيعة الحذر لا تبرحها كأنها الحارث الثابت فى موضعه القائم بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ؛ وطول التأمل موكَّل بها كأن عمله مصاحبة وحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا فى داخلها هى قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى ؛ وضغطة الحياة طبيعية فيها حتى لايساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها والتى تمزقها الحياة كلما ولدت لاتكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها .

فخروج المرأة من حجابها خروج من صفاتها ، فهو إضعاف لها ، وتضرية للرجال بها ، وماذا تجدى عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ، فيكون حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكون إغفالاً ليمهد الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع غلطة فهذا أول

(١) الاتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (الملس)

السقوط ومبدأ الانقلاب والتحوّل . وليس الفرق بين امرأة نفور من الريبة ، شَمُوس لا تطالع الرجال ولا تُطمعهم ؛ وبين امرأة قَرُور على الريبة ، هلوك فاجرة — إلا حجابَ الحذر أُسْدِلَ على واحدة ، وانكشف عن أخرى .

وإذا قرّتْ المرأة فى فضائلها فانما هى فى حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غير الرجل ؛ فهو مسمّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأى لايدركون مذهبه ، ولا يحققون ماينتهى اليه ، وينفذون فى حكمهم على الظاهر لا على البصيرة — هؤلاء لايعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكساء والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النسوية شىء يصنعه الحائك والبانى والمستعبد ، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ، فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكونَ قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة لتكون قوة سلب ؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب صابر هادىء منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعى تتم به الطبيعة .

وينبغى أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لاضعفاً ، وزيادة لانقصاً ؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحةً فى معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعاً على طاعته كصوت الأم فى بيتها .

* * *

أيتها الفتاة ، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا فى مظاهرها التى تكذب أكثر مما تصدق ؛ فساعدى الطبيعة واحجبى أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين منها ومنكِ ، فيسرع انقلابه إليكِ وبحثه عنكِ ؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيركِ .

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه أن يُرْجِف بكِ الظن ويسىء فيك الرأى ، وعقابك على ذلك ماأنتِ فيه من الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم . ؟

طنطا — **مصطفى صادق الرافعى**

فى الأفق الدولى

حديث الحرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحرب المقبلة ، وعن أسبابها المحتملة ، وعن مواطن نشوبها والدول التى قد تشترك فيها . وكلما اظلم أفق السياسة الأوربية ، وتفاقمت مشكلة من المشاكل ، تكرر حديث الحرب ، وازداد المتشائمون تمسكاً باعتقادهم فى قرب نشوبها . ومنذ أشهر نشهد فى جو السياسة الأوربية ما ينذر فعلاً باضطراب العلاقات الدولية وتوترها ؛ فمن محالفات سياسية وعسكرية تعقد بين مختلف الدول ، ومن اعتمادات مالية ضخمة تقررها معظم الدول لتعزيز قواتها واستكمال أهباتها الحربية ، ومن تصريحات سياسية هنا وهناك تحمل على التشاؤم والجزع . ولقد كشفت الأزمة النمسوية التى وقعت منذ أسابيع قلائل من جراء الثورة التى أضرمها دعاة التحريض الألمانى لقلب النظام فى النمسا والتمهيد لاعلان انضمامها الى ألمانيا عن مبلغ توتر أعصاب الدول العظمى ، وعما يجثم فى ثنية المشكلة النمسوية من خطر على السلام الأوربى ؛ ولم تحجم أيطاليا فى هذا الظرف الدقيق عن حشد جنودها على حدود النمسا الجنوبية استعداداً للطوارئ . فاذا ذكرنا أن الحرب الكبرى أضرمت شرارتها الأولى فى تلك المهاد ، أى فى امبراطورية النمسا والمجر القديمة ، استطعنا أن نقدر طرفاً من العوامل التى تملى بحديث الحرب ونبوءاتها .

على أننا مع تقديرنا لخطر هذه الظواهر المزعجة فى سير الحوادث الأوربية ، نخشى أن يكون خطر الحرب جاثماً فى جهة أخرى غير أوربا القديمة ؛ ففى الشرق الأقصى تقع حوادث ذات مغزى خطير ؛ وهذا التلاحم المستمر بين اليابان وروسيا يبطن من الخطر على السلام أكثر مما يدلى به ظاهر الحوادث . ولنلاحظ أولاً أن هناك خصومة تاريخية خالدة بين اليابان وروسيا منذ الحرب الروسية اليابانية فى سنة ١٩٠٤ ؛ وأن بينهما منافسة قديمة مستمرة مدارها التنازع على النفوذ فى الصين واقتسام المصالح الصينية ؛ وهما يلتقيان فى الصين فى مناطق ، ومراكز فى منتهى الأهمية . وفى الأنباء الأخيرة أن حادثاً جديداً قد وقع فى

منشوريا ، وزاد فى تحرج العلائق بين البلدين . ذلك أن سلطات منشوكيو (منشوريا) قد قبضت على عدد كبير من الموظفين الروس فى الخط الحديدى الشرقى ، وأنها تتحرش بممثلى روسيا القنصليين . وحكومة منشوكيو كما نعلم هى التى أنشأتها اليابان فى منشوريا بعد افتتاحها ، وهى التى تسيرها كما شاءت . وليس هذا التصادم هو الأول من نوعه ، فقد تكرر مراراً فى الفترة الأخيرة ، ومصـدره دائماً هو النزاع على الخط الحديدى الشرقى . ولـكى نعرف أهمية هذا الخط الذى يجمع بين الدولتين المتنافستين ، نقول إنه يخترق منشوريا من غربها مبتدئاً من مدينة منشولى ، ثم يسير نحو الجنوب الشرقى فى قلب منشوريا حتى يتصل بخط «أسورى» الذى يمتد الى ثغر فلاديفوستك على شاطىء المحيط الهادى . ومنه يمتد فرع الى الجنوب من هربين ويتصل بخط منشوريا الجنوبى . وقد أنشىء هذا الخط فى أوائل القرن الماضي بالاتفاق مع حكومة الصين الأمبراطورية بأموال روسية وفرنسية ، وتحملت روسيا أكبر قسط فى نفقاته ، واشتركت الحكومة الصينية فيه بقسط ضئيل ؛ وبعد الحرب ادعت حكومة منشوريا بتحريض اليابان على الخط حقوقاً ؛ ثم ظهرت اليابان فى الميدان واحتلت القسم الشرقى من الخط بحجة حماية مصالحها وحماية الخط من العصابات ؛ ولما افتتحت اليابان منشوريا منذ نحو عامين أصبحت تسيطر على الخط الشرقى كله . وكان النزاع قد اشتد بين الروسيا واليابان على شئون هذا الخط الحديدى فى سنة ١٩٢٩ ، ووقعت بين قواتهما بعض المعارك الدموية ، وخشى يومئـذ أن تقع بينهما الحرب . ولـكنهما انتهيا بالاتفاق والتفاهم على شئون الخط ونظامه فى مؤتمر عقد بينهما فى سنة ١٩٣٠ .

ومنذ افتتحت اليـابان منشوريا وسيطرت على شئونها ، شعرت روسيا أن مصالحها فى هذه المنطقة من الشرق الأقصى أضحت مهددة ، وأضحى التلاحم مستمراً بينهما . ولروسيا فى الخط الحديدى الشرقى مصالح حيوية جداً . لأنه يتصل بخط سيبيريا الـكبير ، ويقصر أمد المسافة إلى فلاديفوستك ، وهو الآن تحت رحمة اليابان . ثم إن حلول اليابان فى منشوريا واقترابها بذلك من منطقة النفوذ الروسى فى منغوليا ، يهدد نفوذ الروس فى هذه المنطقة ، ويحول دون التوسع الروسى ؛ ولا تخفى السياسة اليابانية مذ وطدت أقدامها فى منشوريا أنها تعمل على سحق النفوذ الروسى فى تلك الأنحاء ؛ ولا تخفى حكومة موسكو من جانبها أنها تحرص على مصالحها ونفوذها فى الشرق الأقصى كل الحرص ، وأنها دائماً على أهبة لحمايتها بالقوة المادية ؛ وروسيا تحتفظ منذ أعوام بقوات كبيرة فى منطقة شيتا على مقربة من الحدود المنشورية ؛ وهى تحيط بمنشوريا من الشرق والشمال والغرب ، واليابان تحتفظ فى منشوريا بقوات كبيرة وتحتل الخط الحديدى الشرقى كله ، وتثير فى وجه موظفى الخط الروس كل الصعاب الممكنة وتعتقلهم من آن لآخر بتهم مختلفة على نحو ما حدث أخيراً . وقد احتجت حكومة موسـكو لدى الحـكومة اليابانية احتجاجاً شديداً ، وطالبت بالأفراج عن رعاياها المعتقلين ، ونوهت فى مذكرتها بروح العداء الذى تبديه بعض المقامات اليابانية نحو روسيا ، وحملت اليابان كل تبعة فيما يترتب على هذه السياسة من العواقب الخطيرة .

ومما يلفت النظر أنه فى نفس الوقت الذى يتفاقم فيه النزاع بين اليابان وروسيا إلى هذا الحد ، تذاع أنباء عن عقد معاهدة أو تحالف بين اليابان وبريطانيا العظمى . ولهذا الحادث إذا صح مغزى دولى خطير ، ذلك أن النافسة الصناعية والتجارية بين اليابان وانـكلترا بلغت فى العهد الأخير مدى بعيداً ، واستطاعت اليابان أن تنفذ بتجارتها إلى جميع الأسواق التى تسيطر عليها التجارة البريطانية ، وأثارت بذلك فى وجه التجارة البريطانية صعوبات فادحة . واستعملت بريطانيا كل نفوذها وسلطانها المادى لمحاربة هذا الخطر ؛ فاذا صح أن التفاهم قد عاد بين البلدين ، وأنهما سيؤكدان هذا التفاهم بمعاهدة سياسية تجارية ، أو أنهما قد عقدا بالفعل مثل هذه المعاهدة ، فمعنى ذلك أن نوعاً من التوازن الدولى يقوم فى الشرق الأقصى ، وأن اليابان قد استطاعت بعد عزلتها منذ نحو عامين على أثر حوادث منشوريا وانسحابها من عصبة الأمم ، أن تجد حليفة قوية تؤازر سياستها فى الشرق الأقصى ضد روسيا . والمعروف أن بريطانيا العظمى هى ألد خصوم روسيا البلشفية ، وأشدهم مقاومة لسياستها ، وأنها مثل اليابان تخشى دائماً من تقدم نفوذها ودعواتها الثورية فى الصين ، وتخشى بالأخص من دسائسها فى الهند ؛ على أن مثل هذا التحالف سيحمل روسيا بالطبع على التماس المعونة من جهة أخرى ، والظاهر أن أمريكا هى الدولة التى يمكن أن تميل إلى محالفة روسيا على مقاومة التوسع اليابانى ؛ والمنافسة شديدة بين أمريكا واليابان على سيادة المحيط الهادى ، وقد ظهرت خصومة أمريكا لليابان فى العهد

الأخير حينما احتجت غير مرة ضد توسعها فى الصين وأنذرتها بسوء عواقب هذه السياسة ، وظهر تصميم اليابان على تحدى أمريكا وغيرها من دول الغرب حينما أعلنت أنها ستعتبر الصين منذ الآن فصاعداً ميداناً للتوسع اليابانى وحده ، وأنها ستقاوم كل مجهود تبذله الدول الغربية لاكتساب نفوذ جديد فى الصين . وعلى ذلك فقد نشهد فى القريب العاجل قيام هذا التوازن الخطر فى الشرق الأقصى بين الدول ذات الشأن ، وقد تتفاقم الحوادث بسرعة ، ويضطر البلاشفة أخيراً إلى خوض حرب مازالوا منذ بعيد يحاولون اجتنابها .

***

هذا ونرى مثل هذه السحب القاتمة يحلق فى أفق القارة الأوربية . وصحافة أوربا كلها تفيض اليوم بحديث الحرب ، بعد أن كانت منذ أعوام قلائل تفيض بحديث السلام والتعاون الدولى . وقد توارت عصبة الأمم من الميدان وغاضت كل الآمال التى علقت على جهودها فى تعزيز السلم ؛ ولايحجم الساسة المسئولون اليوم عن التحدث بوقوع الحرب ؛ وأقرب شاهد على ذلك ماصرح به السنيور موسولينى فى خطاب ألقاه أخيراً على أثر انتهاء الجيش الايطالى من تمارينه السنوية ، من « أن الشعب الايطالى يجب أن يكون شعباً عسكرياً لأن بقاء الأمم رهين بقوتها ، ومن أنه إذا لم يكن أحد فى أوربا يرغب فى الحرب ، فان نذير الحرب يرى مع ذلك ظاهراً فى الأفق ، ومن المحتمل أن تنشب الحرب فى أية لحظة ، فعلى إيطاليا أن تستعد لحرب اليوم لا لحرب الغد ؛ ولقد نشأت فى أواخر شهر يوليو (يريد حوادث النمسا) حالة تشبه الحالة التى كانت عليها أوربا قبل نشوب الحرب الكبرى ، فلبت ايطاليا فى الحال دعوة الخطر وأرسلت جنودها الى الحدود ، وقضت بذلك على الأزمة » . والسنيور موسولينى سياسى عملى ، وقد كانت تلميحاته الى الحرب تثير منذ أعوام فى أوربا كلها عواصف من النقد القارص . ذلك أن أوربا كانت ماتزال يومئذ غارقة فى أحلام السلام ؛ وكانت الآمال معلقة على مواثيق السلام والتحكيم التى سادت الأفق الدولى حيناً ، وظن المتفائلون أنها ستقضى على كثير من أسباب الاحتكاك بين الأمم ؛ ولكن الأمم الأوربية تشعر اليوم أنها تعيش فى جو من التشاؤم والجزع ؛ وقد توالت فى العامين الأخيرين أحداث سياسية خطيرة ، كقيام الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا وعملها لأحياء الروح العسكرى القديم ، وتفاقم المشكلة النمسوية من جراء تهديد ألمانيا بالقضاء على استقلال النمسا ، ونشاط السياسة الفرنسية لجمع أمم أوربا الشرقية والوسطى حولها بمعاهدات سياسية وعسكرية ، وتفاهم فرنسا مع روسيا واهتمامها بمضاعفة تحوطاتها وأهباتها العسكرية رداً على نشاط ألمانيا العسكرى ، واهتمام انكلترا بزيادة تسليحاتها البحرية والجوية ، وتصريح المستر بلدوين زعيم حزب المحافظين الانكليز بأن حدود انكلترا تمتد حتى نهر الرين ؛ فهذه كلها أحداث وتطورات ترجع باوربا الى عهد ماقبل الحرب ، وتثير فى أفقها سحباً قاتمة ، وتجعلها تشعر بأن تصريحات كالتى يلقيها السنيو موسولينى إنما تعبر عن الحقيقة والواقع .

والخلاصة أن خطر الحرب يجثم فى الشرق والغرب معاً . والدول العظمى تعمل كلها لمضاعفة تسليحاتها وأهباتها . ولكن متى تقع الحرب ، وفى أى ساحة ، ومن أى جانب ؟ هذه أسئلة تستحيل الأجابة عنها الآن . وكل مايمكن قوله أن مانراه اليوم من توتر أعصاب أوربا يجعل خطر الحرب محتمل الوقوع لأى بادرة أو احتكاك يحدوه التحرش أو سوء القصد ، كما دلت عليه تطورات المسألة النمسوية ، فلو لم تبادر المانيا بوقف تحريضاتها الثورية وتعديل خطتها نحو النمسا ، ولو دفعت المانيا الجرأة الى حد إرسال الخوارج النمسويين الذين تجندهم فى أرضها الى النمسا ، لبادرت إيطاليا باختراق الحدود النمسوية ، ولتحركت فى الحال دول الوفاق الصغير ، ووقعت مصادمات يخشى أن تثير حرباً عالية أخرى . وقد تقع الحرب نتيجة للنزاع الألمانى الفرنسى أو الايطالى الفرنسى ، أو نتيجة لما بين ايطاليا ويوجوسلافيا من التنافس ؛ وقد تقع فى الشرق الأقصى بين الروسيا واليابان ؛ وقد تكون ساحتها الأولى فى النمسا أو فى البانيا أو على حدود الرين . تلك احتمالات تبررها الحوادث والتطورات الجارية ، ولكنها لاتخرج عن حد الاحتمالات .

لسنا من المغرقين فى التفاؤل أو التشاؤم ، ولكنا لا نستطيع أن نؤمن بقول مستر لويد جورج أن الحرب لا يمكن أن تقع قبل عشرة أعوام .

محمد عبد الله عنان
المحامى

ماهو أدب اليوم ؟...

للأستاذ كرم ملحم كرم

أدب اليوم رواية وقصة

فالمنشئون من أى طبقة كانوا لا يعتمدون فى معظم مؤلفاتهم على غير الحكاية والرواية ، فالفن القصصى هو السائد . وأكثر الأدباء بلغوا القمة فى إخلاصهم لهذا الفن . ولا بدع ، فالرواية محك الأدباء . المنشىء البليغ يظهر فيها ، والكاتب الركيك السمج يفضح نفسه إذا توكأ عليها

وأكابر الأدباء فى العالم لجأوا إلى القصة يذيبون فيها بلاغتهم وقوة بيانهم . فما أحجم عنها « فولتير » ولا « جان جاك روسو » ولا « لامارتين » ولا « ألفرد ده موسيه » ولا « فكتور هوجو » ولا « فرنسوا كوبيه » ولا « تولستوى » ولا « ادجار والاس » ولا « كونان دويل » ، فكلهم مال إلى القصة يعالجها

وإذا لم تكن رواية « غرازييلا » أو رواية « رافائيل » أسمى من شعر لامارتين فهما لا تقلان سمواً عن هذا الشعر . وإذا لم تكن رواية « البائسون » لفكتور هوجو أرفع من منظومه فلقد عادلت هذا المنظوم ، ونفحت الشاعر بشهرة فوق شهرته ، وزادت فى تخليده ، وحملت عشاق الأدب الروائى على التحدث عنها فى العالم أجمع . فان شهرة « البائسون » شهرة عالية لا يجهلها نادٍ أدبى . وما يقال فيها يقال فى « غرازييلا » و « رافائيل » للامارتين ، وفى اعترافات جان جاك روسو . أليست إعترافات جان جاك روسو حكاية من الحكايات وفيها يحدث الرجل عن نفسه ؟ . . .

نعم لقد تربع جان جاك روسو فى « عقده الاجتماعى » فى ذروة الفلسفة ، على أن « اعترافاته » رفعت من مقامه كأديب ، وباتت خالدة كمؤلفه الفلسفى ، فمن شاء الوقوف على حياة الرجل فليس له إلا أن يقلب « الاعترافات » فيدرك من هو جان جاك روسو

و « اناتول فرانس » أستاذ الأدباء فى مطلع القرن العشرين مدين بشهرته لرواياته ، ومثله بلزاك ، وأميل زولا ، وموريس بارس ، ومارسيل بريفو ، وهنرى بوردو ، ورينه بازان ، وبول بورجيه ، فان أعظم أدباء فرنسا لا تقوم شهرتهم على سوى الروايات التى أنشأوها ، ومثلهم أدباء انكلترا وروسيا . فالقصة إذاً أساس الأدب العالمى

والدين نفسه يقوم على الروايات . فما هو كتاب التوراة ، وما هو الانجيل ، وما هو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب الدينية أكبر نصيب ؟

وإن تكن التوراة أقدم كتاب تتداوله الأيدى ويتسنى للجميع الاطلاع عليه ، جاز لنا القول أنه أول كتاب عرفه العالم مشيد الأركان على القصة . فهو يبدأ بقصة وينتهى بقصة . والكتب الخالدة فى معظمها — إذا استثنينا كتب الفلسفة والعلم — كتب قصصية سواء صبت نظماً أو نثراً

ولا شأن اليوم فى المؤلفات الأدبية لسوى المؤلفات القصصية ، وهذه الكتب التى تتمتع بالجوائز الضخمة ، ولا سيما جائزة « نوبل » ، لا تخرج فى سوادها الأعظم عن النطاق الروائى

ولقد جاء الأدب العربى فى عهده الأول بما يعجز عنه الغرب من قصص وروايات . فما هى « كليلة ودمنة » ، وما هى « الف ليلة وليلة » ، وما هو « عنتر » ، بل ماهى « الأغانى » ، وما هو « المستطرف » ، وما هو « العقد الفريد » ، وما هى « نهاية الأرب » ؟ . . . كلها روايات وقصص : وإن تكن كليلة ودمنة غير عربية المولد فهى لم تخلد فى سوى النص العربى . وباستطاعة لغة الضاد أن تتبناها ، خصوصاً ولها عليها باستبقائها يد بيضاء

وما يقال فى كليلة ودمنة يقال فى ألف ليلة وليلة . فالأدب العربى احتضن الف ليلة وليلة وتعهدها بالبقاء . ويمكن الأدعاء أنها عربية الوجه واللسان . أما رواية « عنتر » فقد روى أنها من سبك الأصمعى . والأصمعى — الف رحمة الله عليه — خير من لفق واختلق ، وروى وتحدث . وسرد وابتكر واخترع . ولقد أتى بالعجائب وهو فى تلك الصحراء الكاوية اللاذعة . فبهر العيون وملك الألباب بغزارة علمه وفرط ذكائه وعذوبة حديثه وفيضان بحره . فانه ليتدفق كالسيل فى الحديث عن الأعراب وعشقهم وغرامهم . ويروى حكاياتهم بدقة وإبداع ، فيسحر سميعه وجليسه ، ويستدر رفد الملوك والعظماء ، ويجود

بالمعجزات فيقصر عنه المتطاول والمقلد واللاحق ، كأن سر الرواية فى الأدب العربى القديم لم يفتح على غير الأصمعى

ولو ظهرت كليلة ودمنة والف ليلة وليلة فى هذا العهد لكان الأدب العربى سيداً فى الفن الروائى ، حتى وإن يكن ثمة من زعم أن الكتابين ليسا من مبتكرات الأدب العربى ، فليس من أدب غير الأدب الشرقى يسبح فى هذا الخيال الرحيب الخصيب

ولا ننسى أن أداء القصة وسياقها فى كليلة ودمنة والف ليلة وليلة يختلفان كل الاختلاف عن مثلهما فى روايات اليوم . فهما جديدان مبتكران لقوة المخيلة فيهما اليد الطولى . ومن المحال أن يوفق فيهما ويهتدى اليهما من لم يكن يحلق فى الأفلاك

واختلافهما عن روايات اليوم يحببانهما إلى عشاق الروايات ويفسحان لهما المقام الأول فى الأدب العالى ، ولكن أين من يقوى على توفير ذلك النسيج ؟

ربما جهل الأدب العربى يوم طلعت فى سمائه « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » قيمة هذين السفرين . ربما أعرض عنهما وشغف بمقامات الهمذانى والحريرى — ومقامات الهمذانى والحريرى فن روائى خاص — على أنه اليوم يدرك شأنهما ولا يتنكر لهما بل يفاخر بهما وإن يكن استمدهما من بلاد الهند وفارس كما ذاع وشاع

لقد كان الأدب اليونانى يحفل بهذه الأقاصيص البارزة فى كليلة ودمنة والف ليلة وليلة . ومن هذا الأدب نهل « لافونتين » فى أقاصيصه الفرنسية ذات الشعر الطليق . على أن ثمة من يقول ، ويثبت ما يقول ، أن « لافونتين » سمع بكليلة ودمنة فاقتبس منها وصاغ تلك الأقاصيص الواقفة فى طولها عند الفتر ، وإن تجاوزته فالى الشبر ، الملأى بالمغزى الرائع والارشاد البليغ ، فاستعان بالحيوانات على تأديب الملوك شأن ابن المقفع فى كليلة ودمنة . ومما يدل على اقتباس « لافونتين » من كليلة ودمنة أن بين ابن المقفع ولافونتين نحواً من ألف سنة ، وأين كان الأدب الفرنسى يوم كان الأدب العربى زاهراً رياناً يناطح السماء ؟ . .

قد نسمع ممن نحدثه عن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أنهما شيء قديم . غير أن هذا القديم لاتخلق جدته . فهو أبداً جديد . وعشاق الروايات وقد ملوا طراز اليوم ، وبعضه يشبه بعضاً ، يميلون الى الجديد . وروايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ممايجوز أن نسميه جديداً ، وإن تكن انبثقت منذ ألف عام .

ولا نكير فى أن ثمة خرافات وأساطير ، على أن الخرافات والأساطير إذا عرضت على الناس فى إناء مزخرف براق وكانت دسمة طيبة ازدردها الناس وهضمها المعد . وخرافات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة كالفاتنة الحسناء ، وكل مايعاب على ألف ليلة وليلة المجهولة الأم والأب أنها ركيكة ضعيفة فى قالبها ، ولو اتفق لها من يصوغها فى بيان ابن المقفع لنافست كليلة ودمنة فى متانة تعبيرها وصحة مبناها .

ومما نستدل به على أن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يثيران ضجة بعيدة الصوت فى الأدب العربى ، لو برزا اليوم الى النور ، ويتربعان فى القمة العليا من الفن الروائى ، مايلقيان من غزو الروائيين الأجانب . فكل يوم يرزحان تحت غارة جديدة . وليست رواية « حديقة على العاصى » للكاتب الفرنسى المشرق الديباجة « موريس بارس » غير قبس من ألف ليلة وليلة . وما رواية « الأتلانتيد » لبيير بنوا غير صفحة من صفحات الف ليلة وليلة . فكأنها مستوحى أدباء الفرنج يسلبونها أطايبها المباحة دون أن يقف فى سبيلهم من يقول لهم : ماذا تفعلون ؟ .

ومع كل احترامنا للتوراة وتقديرنا لها نجرؤ على أن نقارن بينها وبين ألف ليلة وليلة مقارنة صادقة لاترمى مطلقاً الى الحط من قدر الكتاب الكريم . إن هى إلا مقارنة أدب بأدب . وكل مانريد إثباته أن ألف ليله وليلة أضحت لدى كتاب الغرب أشبه بالتوراة . فكما يغيرون على التوراة يستوحونها يغيرون على ماجادت به علينا شهرزاد اللسانة ، أو الثرثارة ، التى لا تسكت عن الكلام المباح إلا حين يطلع الصباح .

ولاتقف غارة كتاب الغرب عند الف ليلة وليلة ، بل هم يشنون أبداً الغارة علينا ويستأثرون بكنوزنا ونحن عنهم فى غفلة ، فلا نراهم إلا يشدون الرحال الى هذا الشرق ، هذا الشرق الحافل بكل غريب ، الطافح بالأسرار ، المنبثقة منه الأديان ، المتصاعدة من معابده روائح البخور تنفثها المجامر الحمراء . هذا الشرق القديم فى حضارته وهياكله وآلهته ، المثقل بالرموز والأشباح والعفاريت ، المخيمة عليه حسرات داود وحكمة سليمان ، هذا

الشرق الراسخة فيه المساجد العالية القباب ، والمآذن الناطحة السحاب ، والمستورة فيه المرأة وراء ألف حجاب وحجاب . هذا الشرق مهد الناقة والبعير ، المتهادية فيه العمائم والقلانس والطرابيش ، المكردسة فيه الذكريات أطباقاً فوق أطباق ، من عهد الفراعنة ، الى عهد العبرانيين ، الى عهد الأشوريين ، الى عهد الفرس ، الى عهد العرب ، الى عهد الأتراك .

وعلينا ألا ننسى الصليبيين . فالصليبيون أموا هذه الديار . ومنذ أقبلوا والغارات علينا تتلو الغارات فى الميادين كلها ، فى السياسة والأدب ، فمن غزو الى استعمار . !

***

ومن غزاتنا فى أدبنا « بيير بنوا » القصصى الفرنسى . فهو يفكر اليوم فى وضع رواية تتناول فصولها جماعة الصليبيين وتدور حوادثها عليهم . فهم أبطالها وسادتها وحجر الزاوية فيها ، ولبيير بنوا أن يقول فى الصليبيين ماشاء . فالقول ذو سعة ، ومخيلة الكاتب قد تأتيه بالمبتكر ، ولكن هل عوّدنا بيير بنوا الأبتكار ؟ . . .

كل مارأينا من بيير بنوا لا يزيد على كونه مقتبساً ، وهذا الأقتباس لاغبار عليه لوعرف الكاتب كيف يتلاعب به ويمنحه من قوة الخيال والجمال ما يرفع من شأنه ويزيد فى قدره ، أما أن يكتفى بالاقتباس دون أن يضيف أليه الأبتكار الورق السمين فأى عمل أتاه ؟ . . .

وبيير بنوا ليس من المبتكرين فى إنشائه ولا فى حوادث روايته فهو من الطبقة الوسطى فى الروائيين ، وفى طبقة دون الوسطى فى المنشئين ، حتى وإن يكن يكتب باللغة الفرنسية . فليس كل مايكتب باللغة الفرنسية وبسائر اللغات الحية بليغاً عالى الديباجة باقياً على ممر الأيام . فكل لغة حافلة بالمبتذل السخيف . كل لغة يتلاشى منها معظم مايكتب الكاتبون وينشر الناشرون . ولايخلد من ثمار القرائح غير جزء من عشرة آلاف جزء . وإذا بقى شىء من مواليد « بيير بنوا » الأدبية ، فلا ريب بأن روايته «ربة قصر لبنان» — وقد استمدها من لبنان — ليست بذلك الجزء الباقى ، فهى تحت رحمة الفناء ، وربما استطعنا أن ننعاها منذ الآن .

قد تبقى منه رواية «الاتلانتيد » ; على أن رواية « الاتلانتيد» من سرقاته لا من مبتكراته . وكل تفننه فيها أنه انتقل بها الى أفريقيا ، الى الصحراء ، الى تلك الديار القاحلة العجراء . وماذا يقال عنه فيها ؟ . . . يقال إنه صاحب « الاتلانتيد » ليس غير . وقد يجوز لك أن تقرأ « الاتلانتيد » كما يجوز ألا تقرأها . فاذا قرأتها خرجت منها صفر اليدين . وإذا وقفت عن قراءتها ربحت الوقت إن يكن الوقت عزيزاً عليك . وقد تسأل : كيف بلغت رواية « الاتلانتيد » هذه الشهرة العالمية ؟ . . . وجوابنا أن المؤلف أجاد بث الدعوة لروايته ، فذاع لها الصوت العاطر فى الأندية الأدبية جمعاء قبل أن تقف هذه الأندية على مضمونها . وشاق الذين طالعوها من الغربيين تلك الصبغة الشرقية فيها . وجاءت دور السيمياء ترفع من مكانتها . والحق يقال إن « الاتلانتيد » نجحت فى عالم السيمياء أكثر منها فى عالم الأدب

واليوم و « بيير بنوا » يفكر فى وضع روايته الصليبية سوف نرى أى وحى هبط عليه . أيدرك التوفيق أم لا يوفق ، ونحن نرتاب فى توفيقه لمعرفتنا شأنه الأدبى . غير أننا لانستطيع الانكار ان الرجل من الغزاة الفاتحين . فهو يقبل علينا ينتزع منا موضوعاته الروائية ونحن نشاهد ما عندنا من كنوز ولا نكلف أنفسنا نبشها وإبرازها إلى النور . فالرواية فى الأدب العربى الجديد لاتزال فى المهد ، مع أن الأعصر العباسية حفلت بها وراحت تفاخر العالم بثمارها اليانعة الشهية ، ولا يبرح العالم يتذوق هذه الثمار وسيتذوقها ما دام الأدب وضاء الجبين

وليت أدباء اللغة العربية يدركون اليوم شأن القصة ، فتعالجها أقلامهم بما يعيد إلى الأدب العربى مكانته الأولى وعزه القديم . فالرواية حجر الزاوية فى كل أدب ، وفى كل نهضة ، وفى كل دين !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

لا تحزنى . . .

بقلم جورج وغريس

لا تحزنى يا سيدتى . فهكذا شاء القدر أن يدفع بك الى محيط هذا العالم ذرة مضطربة من ذراته التى لا تستكين ولا تهدأ . .

كلما حضرنى أمرك أيتها السيدة ، شعرت بالألم يحز فى قلبى ، وأحسست بالحياة كلمة غامضة فى سجل مبهم ، ورأيت السعادة كذبة هائلة انحدرت من شفاه الأبالسة الى آذان هذه الأجيال التعسة الحالمة . .

لا تحزنى أيتها السيدة الكريمة ، وكفكفى دمعك لأنك لست بمستطيعة أن تغطى الأفق الوسيع بكفك الصغير ، ولست بقادرة أن تحولى دون الريح وهبوبها ، أو النهر وجريانه . .

قبل أن تغرب شمس اليوم رافعة بأشطانها أوزار العالم وأوحاله لتقدمها الى صاحب العرش الأعلى . . . جاءنى طفلك الصغير ، وكأن أحزان العالم قد وسعها قلبه الغض وهو يلهث من التعب ، وأخذ يبكى ويقول لى فى كلمات يقطعها البكاء : « تعال لتخفف عن أمى . . . إنها حزينة من الصباح . . . إنها طريحة الفراش . . . باكية منتحبة ... وكلما سألتها السبب قالت : إن أباك لم يعد . . . فمن يكون أبى ؟ ومتى يعود . . ؟ إننى لا أفهم ما تقوله أمى . . »

فيا رحمة الله أدركينى . . . بأى لسان ينطق هذا الطفل . . ؟ أتستطيع ملائكة الرحمة أن تظل واجمة ساكنة ؟ أتظنين يا سيدتى أن الرياح حملت فيما تحمل تلك الكلمات التى نطق بها هذا الصبى البرىء . . . ؟ كلا بل إنها ستبقى خالدة فى نفسى ما بقيت . . . وستظل حائمة فى فضاء هذا العالم لتصرخ فى آذان الجيل بعد الجيل أن الانسانية ما وجدت إلا لتشقى ، وأنه ما من أرض إلا وزرعت فيها التعاسة ، وما من حاصد فيها إلا وهو للبؤس ربيب . .

من يقول لطفلك أيتها السيدة الحزينة إن أباه هو الشر الذى ولد الخير ، والحبة النتنة التى أنبتت الزرع الجميل ، والحشرة القذرة التى انبثق منها الشهد ، والريح الخبيثة التى خلفت النسمة الطيبة ، والغيم الحالك الذى بعث ببهجة الأرض ، وهو اليد التى دفعت به الى الحياة . ثم تراجعت متخفية كاليد السارقة التى تأخذ غادرة ولا تعترف بعطاء . . .

من يقول لطفلك ياسيدتى إنه ما من وليد من أمثاله إلا وله أب يرعاه بعنايته . أما هو فيتيم وإن كان أبوه حياً يرزق ، ولكنه يشاء اليتم لابنه ويريد العقم لنفسه ، وليس واأسفاه فى قوانين الأرض ما يرد تلك المشيئة أو يمنع تلك الارادة ، وليس واأسفاه فى نتاج الانسانية بعد جهاد القرون ما يخفت أنين الطفل وهو يسائل الحقيقة « من يكون أبى . . . ؟ »

ياسيدتى الحزينة — خففى عن نفسك فما أردت أن أثير أشجانك . . . دعى الماضى يمر أمامك كالأطياف السريعة . . . ماذا يؤلمك وماذا يبكيك ، وأنت ربيبة الألم ووليدة البكاء ؟ . . . لقد كنت فتاة فى منزل أبيك تقاسين من غلظته ، وتعانين من زوجته ، وتشكين فراق أمك المطرودة البعيدة . . . وكما خرج موسى من أرض مصر ، خرجت أنت من سجن أبيك الى دار زوجك ، ولكنك لم تجدى فى صحرائه مَناً ولا سلوى . . فمسكينة أنت أيتها السيدة . . لقد رضعت الشقاء ، والشقاء ما زال فى أحضانك رضيعاً يترعرع . . . ورشفت الكأس وثمالته أشد مرارة . . .

مسكينة أنت أيتها السيدة . بل مسكينة كل امرأة تعيش فى كنف زوجها الغاصب ، لأنها لا تستطيع أن تلامس أطراف السعادة ولو كانت الجنة تحت قدميها . . . غريب أمر الرجل فى هذه الحياة ، خلق الله له المرأة ليأتنس بها نخلق هو لها الوحشة ، وجعل الله له القوة ليحمى ضعفها فنازلها بقوته . . . ومنذ انحدر آدم الى هذه الأرض والفضيلة والرذيلة تعتركان ، أما الحق فمخبوء أبداً . . .

لا تحزنى ياسيدتى لأن الحزن لا يقدم من شأنك ولا يؤخر ، فانما أنت مخلوق ضعيف أسلمته يد الأقدار الى قبضة عاتية . . . وما دامت المرأة فى دولة الرجال ، فسوف لا تعيش إلا ذليلة مسكينة . . . لأنهم يصنعون الشرائع ويحتكمون الى أنفسهم ثم يحكمون . . .

لا زلت أذكر ياسيدتى اليوم الذى أتيت فيه الى جوارنا ، وكان زوجك يتعهد هذا الوكر برعايته ، يبادلك الوفاء ويقاسمك السعادة ، ولكنه كان متكلفاً فى هذا العناء فقبل أن يرى طفلك النور . انسل كاللص السارق ليعيش فى الظلام . . . ومنذ ذلك الحين الى الآن وزوجك مقبور فى حفرة الأحياء ، لا يتلمس النور ولا يتسقط الماء . . .

ما أغرب هذه الطبيعة البشرية وما أعجب أمرها . . . إذا أصابها التقلب والتلون نسيت ما فعله يومها فى أمسها ، وبَعُد خيرها عن شرها ، وتنكر حاضرها لماضيها . . . فاذا بصاحبها إنسان لا يستأنس ، وإن كان الحيوان قد بدأ ينسى ما فى أحط غرائزه من غدر وفتك وبطش . . .

قومى ياسيدتى ورفهى عن نفسك فلكل بداية نهاية ، ولا بد لحقك أن ينتصر اليوم أو غدا . لأن الألم الذى تعانى لم يحترق بمثل ناره قلب من قبل ، والدمع الذى ينهمر من عينيك الغائرتين على وجهك الشاحب لم تدانه فى حرارته ما سكبته عيون الشقاء منذ ولادته . . .

. للمريض آلام وللفقير آلام ، للمتعب آلام وللضعيف آلام ، للغريب آلام وللطريد آلام . . . وآلامك أنت أيتها الشقية المظلومة تسمو على كل ألم . فيجب أن تسمو نفسك بقدر سموها . ويجب أن ترفعى رأسك فوق الطوفان الذى يغمرك ، ولكن مثلك فى ذلك مثل الحادى وراء الابل يقطع الفيافى على قدميه ، وقد أمضه التعب وأضناه الجوع وعضه الفقر ، وهو يغنى أنشودة الحياة والحب والفرح . . .

فى بكائك المتواصل « قولى ما يقوله الفلاحون عن غيث السماء : هذا المطر كله حنطة » . . .

فى ظلامك الدامس تطلعى الى الخيوط الرفيعة البيضاء التى تتراءى لك من وراء الأفق ، وارفعى نحوها بصرك . . .

قومى ياسيدتى . ولا تجعلى للألم سلطاناً على نفسك . فقد فعلت بك العلة فعلها . . وارحمى طفلك الذى هوى على صدرك ليمزج أنات قلبه بدقات قلبك . . قومى ياسيدتى وهات يدك . . .

***

قلت هذا بجوار سريرها . . ثم مددت يدى الى يدها . فاذا بها باردة ! . . .

يا لشقاء نفسى ! . لقد كنت بكلماتى الأخيرة أخاطب الأرواح الحائمة حولى . . فى استطاعة المرء أن يذكر كل ما يجول بخاطره ، ولكنه ليس فى استطاعته أن يقول كل ما يبدو لناظره .

أيها الرجل .. لقد ماتت تلك المرأة !

اسكندرية — جورج وغريس

الأزمة كما يراها الاقتصاديون

بقلم عبد العزيز عبد الكريم

كانت الشعوب القديمة تشكو من القحط والمجاعات . قال الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة يوسف : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » . هذا ماراه ملك مصر فى منامه ، فلم يعرف أحد تأويل رؤياه ، وكان يوسف حينئذ فى السجن ، فاستدعاه الملك واستفتاه فى أمر الرؤيا ، ففسر يوسف المنام قائلاً له : إنه سيمر عليكم سبع سنين خصبة ، فازرعوا فيها واخزنوا ما زرعتم وهو فى سنابله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة ، تأكلون فيها مما ادخرتم .

***

وقد تطورت الآن وسائل المعيشة وأحوالها ، وتبدلت طرق الكفاح فى سبيل العيش ، وارتقت الزراعة والصناعة والتجارة ؛ فنشأت بازاء هذا التبدل مشاكل جديدة ، وظهرت معضلات خطيرة . وأشد مانعانيه الآن من النظام الاقتصادى الحالى هو الأزمة التى انتابت العالم بأسره ؛ وقد خلقت للعالم مشاكل عديدة لاتنحل ولا تزول إلا بالسلاح .

الأزمة هى اضطراب فجائى فى التوازن الاقتصادى ؛ ولها أعراض وعلامات تشابه أعراض الأمراض التى تصيب الانسان ، فبعض الأزمات يقتصر على بلد واحد ، وبعضها وبأى ينتقل فى أنحاء العالم كمرض الكوليرا .

***

عرف الاقتصاديون بعد طول البحث أن ظواهر الأزمة وأعراضها هى هى فى كل الأزمات تقريباً . وأول مايشير إلى نشوء الأزمات تناوبها ؛ فقد رؤى أنها تتبع بعضها بعضاً فى القرن التاسع عشر بنظام منتظم عجيب ، فبين كل أزمة وأخرى مدة تبلغ عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، نصفها يمثل حالة صعود ،

والنصف الآخر يمثل حالة هبوط ، ويظهر ذلك فى تقلبات الأسعار والأجور ، وأسعار الفوائد .

ومن ظواهر الازمة وبائيتها ، ففى بادىء الأمر يزيد الانتاج فى احدى الصناعات أو ينقص ، وينتقل هذا الاضطراب من صناعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر .

هناك ثلاث علامات خاصة تسبق الأزمة ، وتعلن قرب حلولها :

(١) ارتفاع فى الأسعار يدل على نشاط الاستهلاك ، ووفرة الأموال المتداولة وسهولة الاقراض .

(٢) ارتفاع فى قيمة الضمانات القابلة للتحويل وخصوصاً الأسهم والسندات ، ويدل ذلك على تقدم المشروعات التجارية وزيادة الانتاج ، وزيادة الحصص فى رؤوس الأموال .

(٣) ارتفاع فى الأجور يشير إلى نشاط سوق العمل ، وزيادة الطلب للعمال .

غير أنه بعد وقت ما ، تتغير الحال وتنقلب حالة الصعود الى حالة هبوط ، ونجد أمامنا :

(١) تدهوراً فى الأسعار : يدل على عجز الاستهلاك ، وندرة الأموال المتداولة وصعوبة الأقراض .

(٢) تدهوراً فى قيمة الضمانات : يدل على تدهور الأرباح والحصص ، وفشل المشروعات الكبرى الخطيرة ، وسقوط يرافقه ارتفاع فى سعر الخصم والقطع .

(٣) تدهوراً فى الأجور : يدل على شلل الأنتاج ، ووقف طلب العمال ، والاشراف على الوقوع فى خطر العطلة والعاطلين .

والأزمات التى وقعت فى القرن التاسع عشر تواريخها كما يلى :

١٨١٥	١٨٥٧	١٨٩٠
١٨٢٧	١٨٦٦	١٩٠٠
١٨٣٦	١٨٧٣	
١٨٤٧	١٨٨٢	

وقد لاحظ جيفونز gevons من هذه التواريخ أن الأزمات والت بعضها فى خلال فترات ومسافات منتظمة تبلغ كل واحدة منها عشر سنوات تقريباً . وقد ظن أن الأزمات يرجع سببها إلى ظاهرة فلكية لا سلطان لأحد عليها . ولكن القرن العشرين قد دحض نظريته هذه ، فان أول أزمة وقعت فيه كانت فى عام ١٩٠٧

***

اهتم الاقتصاديون بالبحث عن أسباب الأزمات ، وأخذوا يبحثون عن علة توالى الأزمات وتناوبها ، فاهتدوا أخيراً إلى الأسباب الآتية :

(١) وفرة الانتاج (over-production) : لاتنشأ وفرة الانتاج إلا عن تقدم الصناعة الكبرى . فمن البديهى أن البضائع المعروضة فى السوق سوف تزيد يوماً ما على حاجة الاستهلاك ، ويصبح من العسير تصريف شىء ما من هذه المقادير ؛ فينتج عن ذلك تدهور عام فى الأسعار ، ولكى يتجنب الصناع البيع مع الخسارة يحصلون على الأموال من المصارف ، أو يبيعون الأسهم ، فينشأ عن ذلك ارتفاع فى الفوائد ، وتدهور فى قيمة الأسهم ، حتى يصبح المال نادراً ، وذلك راجع إلى زيادة السلع المعروضة . وسرعان مايصبح هؤلاء الصناع فى حال من الافلاس والضنك يرثى لها .

وها قد رأينا كيف يسبق الانتاج الاستهلاك ، وكيف يقف الانتاج عن السير عند حد معين ، وكيف يسير الاستهلاك حتى يلحق الانتاج ، فيسبقه بدوره ؛ وهذا السبق لابد منه . فظاهر لنا فى هذه الحال علة تناوب الأزمات : وكل أزمة يعقبها وقت تعوض فيه الصناعة خسارتها ، وتنتعش حالها ، ويتجدد إنتاجها ليسد مطالب الأفراد الحديثة .

(٢) قلة الأستهلاك (under-consumation) : ويذهب بعض الاقتصاديين الى أن الأزمات هى فى الغالب راجعة إلى زيادة الانتاج الناشئة عن شراهة أصحاب رؤوس الأموال الذين يحاولون استرداد ما فقدوه من الأرباح عن طريق الكمية ؛ ولكن السبب الأساسى هو عدم كفاية ثروة أغلب المستهلكين — وأغلبهم من طبقة عمال اليومية — لابتياع ما أنتجوه وما صنعوه بأيديهم ، فزيادة الحاجة إلى الصناع لتوسيع الانتاج وزيادته ، وزيادة عمال الأجور ، وعدم القدرة على تسديد أجورهم ، تؤدى إلى اضطراب التوازن فى وقت من الأوقات . ويزيد الاضطراب وتشتد الأزمات حتى يحين الوقت الذى يقضى فيه على نظام الرأسمالية .. فهذا النظام مقضى عليه بالفناء بسبب النتائج التى أدى إليها .

(٣) زيادة الرأسماليـــة (over-capitalisation) : انفق

الأقتصاديون على أن زيادة الرأسمالية أخطر من زيادة الانتاج فى إحداث الأزمات . إن المصانع الكبرى يلزمها ترتيب حركة دولاب العمل بتجهيز الآلات ، والمناجم ، والعربات ، والسفن وغير ذلك . وإذا كان المصنع على أهبة الاستعداد للعمل ، فقد يرسل غلالاً لاحصر لها إلى السوق . وليس فى الامكان وقف هذه الحركة متى رغبنا ، لأن رأس المال ثابت لايمكن سحبه بأى حال من الأحوال . تتدهور الأسعار تبعاً لذلك ، وتفلس أكثر المشروعات ، أو تستسلم للأمر ، حتى تتصرف الزيادة بزيادة الاستهلاك نظراً لتدهور الاسعار .

والاقتصاديون يعتبرون أن قلة الانتاج ليست سبباً من أسباب الأزمات أو ظاهرة من ظواهرها : فلماذا ؟ ألا يضطرب الميزان الاقتصادى بقلة الأنتاج كما يضطرب بزيادته ؟ بالرغم مما تحدثه قلة الأنتاج من البؤس والفناء والموت ، وبالرغم من القحط والمجاعات التى سجلتها الحوادث المخيفة والشهيرة فى تاريخ الشعوب كلها ؛ فان الاقتصاديين لم يجمعوا الآراء على أن القحط والمجاعات نوع من أنواع الأزمات ، إذ ليس من خواصها التناوب ، ولا ارتفاع الأسعار قبلها ، ولا هبوطها بعدها .

***

أما علاج الأزمة : فيقف على نوع الأسباب التى أدت إليها . فاذا اعتقدنا أن السبب هو زيادة الانتاج ، وجب علينا أن نعمل على تحديد ذلك الانتاج ، فيمكننا توحيد الشركات وتضامنها ، وتنظيم إنتاجها لنتمكن من منع زيادة الأسعار المطردة وهبوطها أيضاً ؛ ويمكننا إيجاد حركة تعاون بين الشركات لتنظيم حركة الأنتاج تبعاً للحاجات لاتبعاً للأرباح .

ولو اعتبرنا أن سبب الأزمة هو أن طبقة العمال ليس لديها من الثروة ما يعينها على زيادة الاستهلاك كلما زاد الانتاج ، كان من الضرورى أن نبحث عن نظام يضمن للعامل نجاح كل ما ينتجه .

وإذا نظرنا إلى زيادة الرأسمالية ، وجب أن نلجأ إلى المصارف إذ هى أكبر عضد لمساعدة الشركات وإمدادها بالأموال . قد تتدخل المصارف ، إما برفع سعر القطع لديون الآجال المحدودة ، إذا رأت أن سرعة التداول تزداد إلى درجة مقلقة ، وإما بانقاذ البيوت الكبيرة الوشيكة السقوط والضياع ، إذا كان لسقوطها الأثر الفعال فى إحداث الاضطراب وشل الحركة التجارية .

والأزمة الناشئة عن زيادة الرأسمالية تزداد وتشتد وطأتها بسبب الذعر والتشاؤم الاقتصادى . والتنبؤ بالأزمة يزيد الخطر ويعوقنا عن العمل على تلافيها ، فما أجدرنا ألا نعتقد ذلك ، فالخوف من الشر يولد الشر ، والتفاؤل بالخير يجلب الخير ؟

اسكندرية عبد العزيز عبد الكريم

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٤ – الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

أجزاء أخرى للعمل

ذلك هو التقسيم الأساسى للعمل ، وهناك تقسيم آخر أغفله اليونان واستعمله الرومان ، وهو تقسيم العمل الى فصول ، والفصول الى مناظر . فالفصول هى مراحل العمل أو درجاته ، تفصل بين كل درجة وأخرى فترة تسمى استراحة ، والمناظر أجزاء الفصل المختلفة ، وتحدد بدخول ممثل أو خروجه . ولعلك لا تكتفى بالتعريف فى شرح هذه الكلمات ، فدونك شيئاً من التفصيل :

الفصل : لم يعرف الأغريق كما قلت تقسيم الرواية الى فصول ، وإنما كانوا يعرفون شيئاً يشبه ذلك فى تمثيل ثلاث مآس فى موضوع واحد ، كل مأساة لها كيان مستقل عن الأخرى . أما اللاتين فقد قسموها إلى فصول حصرها هوراس فى خمسة لا تزيد ولا تنقص . ففى الأول يعرض العمل ، وفى الثانى يبسط ، وفى الثالث يُعقد ، وفى الرابع يهيأ حله ، وفى الخامس يحل . ولكن جعل هذا التقسيم قاعدة مطلقة لا يخلو من ضرر . وإلا فماذا يصنعون فى موضوع يعرض فى منظر ويحل بكلمة ؟ أيترك وهو طريف مؤثر صالح للتمثيل ، أم يملأ بالتطويل والحشو حتى يكمل ؟ وما حكمهم على مأساة أو ملهاة محكمة النسج لا تبدأ عقدتها إلا فى الفصل الثالث ، ثم يخصص لحلها الفصل الخامس ؟ إن التعقيد هو جسم العمل وروحه كما علمت ، فينبغى أن ينزل من الرواية فى أوسع محل ، بل يجب أن يكون كالتيه ، مدخله العرض ومخرجه الحل . وأمهر الكتاب وأقدرهم من عجل بالتعقيد ثم طوله ما استطاع محكما لقوته ، متدرجا فى عقدته .

الحق أن جريان العرف بتقسيم الرواية الى خمسة فصول ليس قائماً على أساس متين فيفرض ، ولا هو خالياً من الفائدة الفنية فيرفض ، إنما المرجع فى ذلك كله إلى طبيعة الموضوع ، فاذا كان قويا غنياً يستطيع أن يملأ خمسة الفصول كان ذلك التقسيم أدعى الى انفساح العمل وتقوية الجاذبية وتحليل الأخلاق واطراد الحوادث من غير ضغط ولا اصطدام ولا مباغتة . وأما اذا كان بسيطا لا يحتمل البسط ولا يقبل التطويل فخير لك أن تغلب حكم الطبيعة على حكم العرف فتتصرف فى التقسيم تصرفاً يلائم الموضوع ويتفق مع الأمكانية ويعصمك من الحشو والتكلف . على هذا الرأى يسير الكتاب اليوم فتجد الروايات تتردد بين فصل واحد وخمسة . على أن الشرط الأساسى هو الدقة فى هذا التقسيم حتى يحسن توزيع العمل ، ويمكن تدرج الجاذبية فى الفصول والمناظر بحيث يكون العمل كالساعة : فالحوار يرصد الثوانى ، والمناظر ترصد الدقائق ، والفصول ترصد الساعات ، لأنك اذا أرحت العمل فى منظرين متعاقبين فترت الحركة وخمد الأثر . اقرأ رواية ترتوف لموليير — وهى منقولة الى العربية — وراقب فيها سير العمل وتدرجه وتقسيمه تجدها فى كل ذلك المثل الأعلى . علام يدور العمل فى هذه القطعة الخالدة ؟ يدور إما على هتك الحجاب عن نفاق ترتوف وخبه ، وإما على استيلائه على بيت أرجون وثروته ، وحرمانه ابنه ، وزواجه من ابنته . فماذا صنع موليير فى الفصل الأول ؟ عرض على أنظارنا صورة المنزل الداخلية ، وأرانا سلطان ترتوف المنافق على أرجون الساذج وأمه العجوز ، وأطلعنا على سوء رأى الباقين من الأسرة فى هذا اللئيم . أعلن كل ذلك فى المنظر الأول فاشتبكت المعركة وابتدأ العمل بقوة . وفى الفصل الثانى حمل أرجون على الأقرار بطاعته العمياء لترتوف ، وترتوف قد قطع مابينه وبين بنيه وزوجه ، وأفسد ما كان صالحاً من نفسه ، وجعله يعلن أن ترتوف سيكون زوج ابنته ، وابنته تحب ڤالير ، ولكنها لم تجرؤ على عصيانه . ومن ثم نشبت المعركة المضحكة بين العاشقين . وفى الفصل الثالث كاد داميس بن أرجون يفضح أمر ترتوف ، وأوشك العمل أن يشارف الحل لولا براعة المنافق وسذاجة أرجون ، فاستحكمت العقدة وقويت الجاذبية بعزم أرجون على معاقبة بنيه بالخروج عن ماله كله لترتوف . وجاء الفصل الرابع فانكشف سر ترتوف وانجلى أمره لأرجون فهم بطرده ، إلا أنه عارضه بعقد الهبة ، وهدده بوثائق تتهمه وتجرحه ، فاضطرب البيت ونال من أهله الهم والجزع . وفى الفصل الخامس زاد الاضطراب ، واشتد القلق حتى حانت ساعة الانقلاب فبعرف

الملك خيانة الماكر فقبض عليه وعفا عن أرجون . فأنت ترى أن العمل قسم بدقة ، وأن الجاذبية وزعت بحكمة ، وأن الموضوع كان كافياً لتغذية الفصول فبرئت القطعة من الاستطراد واللغو

الاستراحة :

هي فترة بين فصل وآخر من فصول الرواية يقف أثناءها التمثيل وينقطع انتباه المشاهد ، أما العمل الروائي فلا بد من فرض استمراره خارج المسرح مجاراة للطبيعة والواقع ، ومحافظة على شرط الأمكانية . فهي راحة للمشاهد وضرورة للمسرح ، ولكن الممثل يجب أن يشتغل فيها ، وإن كان في الواقع يستنشي هو أيضاً نسيم الراحة في ظاهر المسرح (الكواليس) . ولا مناص للكاتب من أن يراعي ذلك وهو يُكوِّن هيكل الرواية ويقسم العمل على الفصول . فلا يجوز مثلاً أن يحرك العمل عند ما وقف في الفصل الأول . بل يفرض أن العمل قد قطع في أثناء الاستراحة مرحلة طويلة أو قصيرة على حسب الظروف ، فحكمه في ذلك حكم مهندس البناء يرسم في تخطيطه الأماكن الفارغة والمشغولة ولكل منها نصيب من عنايته وتقديره . وبعد ، فإن الاستراحة عظيمة النفع جليلة الخطر . وحسبك أنها أجل مزايا المسرح الحديث ، اهتدى إليها فحقق بها مبدأ الامكانية ، ووثق بها عقدة الجاذبية . أما الأغريق فما كانوا يقفون التمثيل ، وانما كانو يشغلون ما بين الفصول بالقيان (الخورس) وكان يساعدهم على اتباع هذا النظام اشتراط وحدتي الزمان والمكان . فلما تحلل المحدثون من سلطان هاتين الوحدتين وأجازوا لأنفسهم الخروج عن مداها لم يكن بد من هذه الاستراحة يسدون بها خلل التمثيل ، ويتقون بها ملل التطويل ، ويفرقون ما بين الحوادث والواقع . وأظن في هذا الكلام شيئاً من الغموض فاليك توضيحه:

لاشك أن في الطبيعة كثيراً من الأشياء لايمكن أن تمثل على المسرح ، ولا أن تغفل في الرواية ، فاذا أسأنا تمثيلها أضعف الوهم المسرحي ، وإذا أغفلنا ذكرها شوهت العمل الروائي . فلا مخرج لنا إذن من هذه الحيرة إلا الاستراحة ، نفرض حدوثها في خلالها ، ثم نكتفي بعد ذلك بذكرها . كذلك لايخلو العمل المسرحي غالباً من تطويل لازم وتفصيل واجب يملان المشاهد ويُفتّنان في طبعه ، وهو يأبى إلا أن يظل مشغول القلب متمتع الحواس بتأثير لذيذ قوي ، فنستطيع إذن أن نوفق بين شعور المشاهد وحقيقة الواقع ، بأن نعرض على المسرح ما يلذ ويؤثر ، ونبقي للأستراحة ما يمل وينفر .

بقي أن الكاتب بفضل الاستراحة يستطيع أن يحقق مبدأ الأمكانية الزمنية بفرضه حدوث أشياء لو مثلت على حقيقتها لاقتضت من الزمن مالا تتسع له مدة التمثيل

المناظر : المناظر هي أجزاء الفصل المختلفة كما علمت ، وتحدد بدخول شخص أو خروجه ، وليس لها عدد معين . ولكن لها قاعدة عامة ، وهي ألا يبقى المسرح خالياً من ممثل حرصاً على الوهم واستبقاء للخديعة واستدامة للأثر . فاذا اضطر الممثلون جميعاً إلى تركه ليخلفهم عليه آخرون ، وجب إما أن يوجهوا الخطاب إليهم ، وإما أن يعلنوا دخولهم عليهم ، حتى لايدخل المسرح أحد أو يخرج منه دون أن يُعلن المشاهدون بسبب دخوله ، أو يكونوا قد علموه من قبل حصوله . أما أن يخرج ممثلو المنظر السابق ويدخل ممثلو اللاحق من غير مخالسة النظر ولا مبادلة الكلام فذلك اخلال بشرط الامكانية .

الأشخاص : يشترط في أشخاص الرواية أن تكون صفاتهم وعاداتهم (محلية) تلائم الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما ، (مناسبة) تتفق مع عمرهم وجنسهم وطبقتهم ، (ممكنة) لاتناقض التاريخ ولا التقاليد ولا الأساطير ، (ثابتة) تلازم الشخص من بدء العمل الى انتهائه ، (متنوعة) لاتتشابه في شخصين ، بل يختلف كل شخص عن الآخر في صفته وعادته ، جارية مع العرف ، فلا تكون شاذة ولا غريبة كوصف اللص بالكرامة ، وقاطع الطريق بالشهامة ، والسفاح بالنبل . وتلك نقيصة من نقائص المسرح الحديث.

أداء العمل

يحدث العمل في نفس الممثل فيؤديه بالعبارة مستعيناً بالاشارة . والعبارة تكون حواراً وقد تكون نجوى نفس . وبحث هذه الكلمات الأربع يحتاج الى شيء غير قليل من الأناة والعناية

العبارة : الأسلوب الروائي هو أسلوب الحديث النبيل المونق . فشرطه أن يكون طبيعياً لاتفسده الصناعة والتعمل ، حيا لاتخمده الغثاثة والتبذل ، بسيطاً لاتعقده الروية والتأمل ، ملائماً تتناسب لهجته مع نشأة المتكلم وتربيته وطبيعته وعادته وموقفه . ولن يتسنى

للكاتب أن يحقق هـذه الشروط إلا اذا نسى نفسه وفنى فى أشخاصه ، فيطرح المقاطع الوجدانية والمحسنات البديعية والتشابيه الغريبة من كل ما ينم على الدرس والبحث والتحذلق . اللهم إلا المأساة بنوعيها فانها تقتضى الأسلوب الرائع ، واللفظ المختار ، واللهجة المؤثرة ، لملاقتها بالوجدان وصلتها بالعواطف . والبيان كان وما زال شرك العقول وسحر القلوب . وأكثر المآسى لم يضمن لها الخلود إلا روعة الأسلوب وبلاغة الأداء . ولقد أخطأ بعض الروائيين القصد فغلَّبوا جانب الحركات والاشارة ، على جانب الكلمات والعبارة ، فوجهوا التأثير للعيون لا للقلوب ، وهيأوا الرواية للتمثيل لا للقراءة . وفاتهم أن العمل المسرحى مؤلف من الكلام والحركات . فلا الممثل متكلم لاغير كالمحدث ، ولا هو متحرك لا غير كالخيال الشمسى ، وانما الكمال أن يُعنى بالطريقين جميعاً ، فما كان من العمل قويا ماديا عاميا أدته الحركة ، وما كان منه جليلاً دقيقاً عميقاً كآثار العادات وصور الأخلاق وتباين العواطف وتضارب الأهواء وتعارض المنافع شرحته العبارة . فظواهر الغيرة والاشمئزاز والغضب تستطيع الحركات والملامح أن تؤديها واضحة جلية ، ولكن تحليل القلب البشرى وهو سر الجمال فى أدوار ديدون(1) واريان وفدر وهرميون لا يضطلع به إلا البيان المعجز . وهل يعلق بذهنك من القطعة الفنية بعد تمثيلها غير مواقفها الشعرية القوية التى أوحاها اليراع فانتقشت فى لوحة ذهنك ؟

إن العمل الروائى يتجه الى العين أو الى القلب تبعاً لطبيعته وملاءمته للبلاغة أو للتصوير ، ولكن الأثر الذى يحدثه فى النفس عن طريق الأذن أهدأ وأبطأ ولكنه أبقى وأعمق ، أما ما يحدثه فيها عن طريق العين فهو قوى فجائى سريع ، ولكنه قريب الغور قليل البقاء ، لأن الأذن إنما تنقل الفكرة وهى نامية ولود ، والعين انما تنقل الاحساسة وهى جدباء عقيم . ذلك الى أن القطعة اذا قامت على البلاغة فهى التى تخلق الممثل وتدفعه وترفعه ، أما اذا قامت على الحركات فحياتها ومماتها رهن بقوة المسرح وقدرة الممثل . ولك فيما تشهده على المسارح المصرية من روائع الفن الغربية دليل قائم على صحة ما نذهب اليه ، فان بعض المتعسفين من أدعياء الكتابة ينقلونها نقلاً لفظيا ، فيهدمون فيها ركن البلاغة وهو عمادها الأقوى ، فتثير الضحك وهى فاجعة ، وتستوجب الهزء وهى رائعة ! !

ولا يقعن فى بالك أنا نريد أن نضع من قدر الحركات أو ننكر أثرها فى الفن ، فان ذلك ليس فى حسابنا ولا هو مفهوم من كلامنا ، وإنما نريد أن يوفى الكلام حقه من العناية أيضاً حتى تقوم الرواية على قدميها فلا تسير عرجاء ولا شوهاء

بقى علينا أن نعرض لمسألة دقيقة خلقتها فوضى الأدب فى مصر ، ودعوى كل أديب حق التشريع لهذه اللغة الأسيفة ، وانصراف القادرين من الكتاب عن الأدب المسرحى انصرافهم عن كل جليل مثمر . تلك هى لغة الرواية ! فقد يزعم بعض الكاتبين أن لغة المسرح المصرى يجب أن تكون العامية تثبيتاً للون المحلى وتحقيقاً لشرط الأمكانية . وكل ما يمكن أن يقولوه تأييداً لمذهبهم إن العامية لغة الأشخاص التى سايرتهم فى كل سن ، ولابستهم فى كل ظرف ، فعبرت عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم ، وأنها حملت خلاصة تجاربهم وثمرات قرائحهم من لطيف الكنايات وبديع الأمثال وبليغ الحكم ، وانها مرآة لبيئتهم انعكست عليها صور حياتهم ومظاهر معيشتهم ، وانها أكمل دلالة وأسهل إبانة عن التصورات الجديدة التى تخرج من أعماق النفس أو تدخل فى ثنايا الحوار . ذلك كلام وجيه لا غبار عليه ولا نكير فيه ، ومايسوغ فى رأينا أن ننقضه وقد قررناه من قبل . ولكن ليقولوا لنا متى طبق قانون الامكانية بنصه على اللغة والأسلوب ؟ إن الناس فى كل زمان وفى كل مكان لا يتكلمون فى الواقع كما يجعلونهم يتكلمون على المسرح . وهذه جميع المآسى ومعظم الملاهى قديمها وحديثها مكتوبة بالشعر الرصين ، ذى اللفظ المنضد والأسلوب الفخم ، فهل يزعمون أن أشخاصها كانوا فى الحقيقة يتحاورون بالشعر ويتجادلون بالمجاز ؟ أم يزعمون أن لغة راسين وشكسبير وهوجو وجوت وهى نموذج البلاغة للكتاب ، وموضوع الدراسة للشباب ، كانت لغة الشعب الذى كانوا يمثلونه أو يمثلون له ؟ واذا جاز لهم أن يجعلوا الفرنسيين والانجليز يتكلمون على المسرح المصرى بلسان عربى ، فلم لا يجوز لنا كذلك أن نجعل خاصة المصريين بل عامتهم أيضاً يتكلمون بلهجة عربية فصحى ، وهى أقرب الى هؤلاء منها الى أولئك ؟ ليفرضوا أن العامية لغة أجنبية ننقلها الى لغتنا العربية ، وليغضوا على تلك القذاة الضئيلة ابتغاء رقى اللغة ونهضة الأدب وتعليم الشعب . إن الفن الحقيقى أبدى خالد ، ومن المحال أن تخلده لغة جيل واحد ، ولهجة قطر واحد ، لأن العامية تتغير من جيل الى جيل ، وتختلف فى قطر عنها فى قطر .

ونحن لا نريد أدباً مصرياً فحسب ، وإنما نريد أدباً عربياً يمثل حضارة مصر وثقافة المصريين ، وينقلهما الى الأقطار النائية ، والأجيال الآتية

على أن أحداً من الناس لم يقل بأن المسرح لا بد أن يعرض الحقيقة جرداء عارية ، بل المعروف أن من واجبه أن يحسنها بالخيال ويزينها بالكذب ، وفى ذلك التحسين والتزيين سحره وجاذبيته ، والمشاهد ذاهب اليه وفى نفسه أنه سيخدع ، وهو راض بهذه الخديعة ما دام فيها لذته وفائدته ، ومن قواعد المسرح أن الصدق يتوخى فيما يؤثر فى الذهن والنفس من الأفكار والعواطف ، أما مايؤثر فى السمع والبصر فلا بأس فيه من الكذب ؛ فشكل الأسلوب من النظم والنثر والعامى والفصيح كشكل المسرح من المناظر والستائر والأضواء والأصباغ ، تعرف الآذان والعيون أنه صناعى مختلق ، ولكن الأذهان والنفوس لا بد أن تتأثر لما يقع فى الامكان من المواقف والعواطف والأخلاق والعادات

إن المسرح مهبط البيان ومورد البلاغة وطريق النفوس الى الجمال والخير والحق ، فليس من غايته التأثير واللهو ، وانما يعمد اليهما تخفيفاً لثقل الحكمة عن النفوس كما يساغ الدواء الشديد المرارة بالسكر أو العسل. فاذا لم يخرج المشاهد من المسرح وهو أوفر علماً وأرجح حلماً وأحسن حالاً من قبل أن يدخل فقد أخطأ المسرح غرضه وضل طريقه . ولعمرى كيف يستطيع أن يرفع النفوس فى مراقى الكمال ، اذا لم يترفع هو عن حقارة الحياة العامية ، ويصور للناس المثل العليا من الجمال والفضيلة فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهمائه ؟ وعافنى نشدتك الله من احتجاجك على بنجاح الرواية الفلانية وهى مكتوبة باللغة العامية ، فان نجاح الرواية لايقدر بما تستدره من المال والدموع ، وإنما تقدر بما يبقى فى نفسك منها بعد أن يسكن الممثل وينسدل الستار .

أن الضوء الباهر يبقى أثره فى العين ملياً بعد اختفائه ، والنغم الجميل يرن صداه فى الأذن طويلاً بعد فنائه ، وكذلك الفن الساحر يستولى على نفسك وحسك حيناً بعد انتهائه . فهل تجد الأمر فى هذه الروايات كذلك ؟ أم الحقيقة المخجلة أن أكثر هذه القطع تسود فى ليلتين وتمثل فى ليلة ، ثم تذرو أوراقها عواصف البلى والعدم ؟ !

يتبع **(الزيات)**

مثل اوربى لعرفانه الجميل !

منزلى هو منزلك !

« قصة مقتبسة عن (F. Duviard) تمثل آراء هؤلاء الأوربيين الذين يعيشون بيننا ، ويأكلون خبزنا ثم يجزوننا عن الكرم لؤماً وعن المعروف نكراناً »

— الشرق . آه على الشرق !

همست الفتاة بهذه الكلمات ، وقد رأت رودلف ڤالنتينو فى رواية الشيخ .

وكان بير ازناى المدرس فى تجهيز ڤالاندر قد طوّحت به الحاجة مرّة الى مصر فكان معلماً فى المدرسة العلمانية الفرنسية فى (النزهة ؟) ولبث فيها عشر سنين . ثم عاد الى فرنسا منذ عشرة أشهر ، وليس فى جيبه شروى نقير ، ولم يربح إلا حكايات وتجارب حملها معه من الشرق ، فلما سمع مقالة الفتاة اغتنم الفرصة فقال :

* * *

— الشرق يا سيدتى ؟ هل تحبين أن أقصّ عليك حادثة وقعت لى فيه ، إنها مأساة هازلة عن الصداقة العربية . كان فى مدرستى الفرنسية عشرون معلماً أوربياً ومعلم واحد عربى ، عربى قحّ ، ذو وجه أسمر مستطيل ، يلبس القفطان والجبة الواسعة ، ويبدلهما كل يوم بلون جديد . وهو مدرس للغة القرآن — الأجبارية فى مصر — ومعرّض دوما لاحتقار الأساتذة الأوربيين الذين يرون أنفسهم أرفع منه ، فلا يتنزلون لمصاحبته .

أما أنا فكنت أحييه التحية المعتادة لا أبالى بسخط زملائى ودهشتهم ، ولا بدهشته هو المسكين الذى ما كان يجرؤ على ردّ تحيتى إلا بابتسامة عريضة ، ونظرات ملؤها العطف والاحترام ، ولا تمتد صحبتنا الى أكثر من هذا ، لأنه لايعرف كلمة من الفرنسية ، ولأننى أجهل العربية الا المائة كلمة التى لابد منها للسير فى الشارع مثل Andak huna arbagui عندك هنا عربجى و Esma fène chareh Fouad اسمع فين شارع فؤاد .

ثم شاء القدر أن نلتقى مرّة فى شارع فؤاد صباح يوم من ديسمبر حار ملتهب كأنه الظهيرة من أغسطس فى فرنسا ، وكان

معه ابن عم له أقل عروبة منه ، له المام بالانكليزية ، إلا أننا لم نكن نتفاهم إلا بصعوبة ، وكان علينا أن نفترق ، ولكنّ رغبتى فى تعرف الحياة الشرقية وضجرى من الوحدة أبقيانى معهما . والفضل فى بقائى لابن عمه هذا . . وللّغة الانكليزية (وأى انكليزية ؟.) ولم تكن إلا أيام حتى كنا أصدقاء .

***

كان طيب القلب ، بسيطاً محبباً ، ولكنّ فيه شيئاً من العنجهية والجفاء ، وكنا نذهب كل خميس وكل أحد الى النزهة جميعاً : أنا وهو وابن عمه ، فنزور معاهد النزهة ومتاحفها فى عربة أو سيراً على الأقدام .

وكان ابن العم كثيراً مايتخلف عن الموعد . هرباً من مهمته الشاقة فى الترجمة بيننا ، فنبقى وحيدين ، وتصورى موقفنا إذن ! نسير جنباً الى جنب ونحن ساكتان ، نتبادل النظرات فى ابتسامة ساخرة حزينة ! ونسلم على المارة ، وكنت قد تعلمت التحية العربية ، وهى الأشارة باليد الى الجبهة والشفة والصدر ، رمزاً الى أن الصداقة تشغل العقل بالتفكير ، واللسان بالنطق ، والقلب بالعاطفة . وكان صاحبى يتعلم الفرنسية ، ولكنه كان يحفظ مقطعاً واحداً فى كل ساعة بعد أن أردده عليه مرات ويعيده على محرفاً ، فأشكره بابتسامة .

وكنا إذا بلغنا مسجداً ودخل هو وقفت أنا على الباب أستشعر الزهو بأننى رومى لا كالأروام ، وأننى صديق الشيخ ، وأننى تشرفت بالوقوف فى عتبة قبور الصالحين .

***

وكان مساء السبت ، وكنت فى المدرسة ، فدنا منى أحد الطلاب وأعطانى رسالة من الشيخ ، مكتوبة بالفرنسية باللغة التى يحسنها طالب صغير ، ففتحتها فاذا فيها :

« ياصديق الغربى العالم الفاضل ، تفضل بالمجىء غداً الى دارى الحقيرة ، لنتناول الغداء معاً . واعلم أن منزلى هو منزلك . . . »

منزله منزلى ! ولكن من الظهر الى الساعة الرابعة ، وطعامه طعامى ، وكنت وا أسفاه مضطراً إلى الاجابة ، لأن أى رفض منى يكسر هذا القلب الطيب ، ولا أنسى ماحييت تلك الأكلة المنحوسة وهى التى يسمونها (الملوخية) ، ولا أنسى كيف يأكلون من غير صحاف ولا شوكات ، إنما يغمسون خبزهم جميعاً فى صحفة واحدة ، وكان على أن آكل بأصابعى هذه الدجاجات المحمرة التى أكرمنى بها ، وجعل نصيبى منها اثنتين ، وقد ذهبت من الدعوة رأساً الى الفراش ، فلبثت ثلاثة أيام مريضاً !

ورأيت فى هذه الزيارة عقيلة الشيخ سافرة ، لأن المعلم كالقس ليس كالرجال ، ولا ضرورة للتحجب دونه (هكذا . . .)

***

وتوثقت صداقتى مع الشيخ ، فعرفنى بالقاهرة وحياتها ، ولم يكن غنياً ، غير أنه لم يمكنى من فتح كيسى مرة واحدة حينما أكون معه ، بل يكون السابق الى دفع الحساب المطلوب ، كنا نزور الأهرام ، ونجول فى القاهرة وهى أشبه بعشرين مدينة مجتمعة منها بمدينة واحدة ، بل هى عالم لا بد لرؤيته من ثلاثة أشهر . أما أنا فقد لبثت فيها مع الشيخ مدة قصيرة وإن أنس ذكراها لا أنس وقوف القطار بنا يوماً فى المحطة ، ورؤيتنا قريب الشيخ ينتظرنا ومعه البلح والبرتقال والموز المصرى الصغير وغير ذلك مما لا أدرى من أين أتى به ، وما كنا نتحدث إلا بالأبتسامات والجمل المقطعة والأشارات ، كأن صداقتنا صداقة صامتة تتكلم فيها القلوب لا الألسنة ، ولما اعتزمت العودة الى فرنسا ، فى منتصف تموز ، ودعنى على المحطة وألقى علىّ نظرة كلها حب وعطف ، وقال لى : إلى الملتقى ! ولا تنس أن منزلى هو منزلك . ثم اختفى بين الجموع وأنسانى البحر الواسع ، وشواطىء الوطن المحبوب كل ما عداها .

فقالت الفتاة :

— أهذا هو الشرق ؟ ياضياع أحلامى !

فهز الأستاذ كتفيه ، وعاد يقول بصوت خافت : وبعد أمد من رجوعى عينت مدرساً فى مدرسة ماجيدى الثانوية فى الألب ، فلبثت فيها مدة ، وتزوجت فيها ، وكنت جد مشغول بأمور المدرسة ، حتى أنه لم يكن فى وقتى ساعة واحدة خالية ، وإذا أنا ذات يوم أفاجأ بكتاب عليه خط ردىء ، وطابع من طوابع (النزهة) ! ففتحته فاذا هو من الشيخ ، وإذا هو يخبرنى بمجيئه مع

امرأته وولديه ليقضى عندنا عدة أشهر ، كأنما جاء يتقاضانى بذل ما أحسن الى ، وتصوروا وقع هذه المفاجأة على امرأتى التى أغمى عليها من شدة الدهشة ، ولم أر بداً من الأنغماس فى هذه المهزلة ، ولا سيما وأنهم أبحروا دون انتظار جوابى .

نزلت الى مرسيليا أنتظرهم ، فوجدت شيخاً غريباً فى سراويل متهدلة وطربوش ، ومعه امرأة ضخمة ، على رأسها منديل أسود والى جانبها بنت صغيرة . واتفق أن تفتحت أبواب السماء يومئذ فهطل المطر غزيراً ، حتى شعرنا أن السماء قد هبطت على الأرض فدخلنا مقهى قريباً ، ولكن البنت ارتاعت منه ، فملأت الدنيا بكاء ولم تشأ السكوت ، وأخيراً أزفت ساعة القطار فركبناه الى ماجيدى ، والناس يرمقوننى يحسبون أنى أنقل الى البلد (سركاً) غريباً . وبلغنا المنزل ، فكان استقبال زوجتى بارداً ، وجاءت ساعة الطعام ، فلم تألف أيديهم الأكل بالشوكات والصحاف ، وانتشروا بعد الطعام فى قاعة الأكل وفى الغرف المجاورة ، وبكى الطفل بكاء شـديداً ، فبكت زوجتى أيضاً ، ووقعت أنا فى حيرة بينهما ، فلعنت الشرق ومن شاد بذكره .

* * *

ولما كانت صبيحة الغد سمعت وأنا نائم أصواتاً غريبة تمتزج بأحلامى ، فصحوت فاذا بزوجتى ترقص أمام السرير ، وتغنى وتصيح : لقد سافروا يابيير ، لقد سافروا ! . .

ونظرت فاذا الشيخ قد ترك لى بطاقة صغيرة ، فيها جملة واحدة عربية ، حملتها الى من يترجمها لى ، فاذا فيها : — وداعاً ! لقد علمت الآن أن منزلك ليس منزلى .

دمشق : (زو الطاهر)

ناحية خفية من نواحى السودان

القـــعب

مصح ومصيف جميل

بقلم أبو القاسم محمد بدرى

القعب واحة مشرقة بين صحراء محرقة ، يشتد بها الحر ويعنف فيها القر ، تكاد تصعب فيها السكنى وتستحيل الأقامة ، لولا أن الله وهب لها تلك الواحة البهيجة ، والروضة النضرة ، فتوقت إليها السكنى وطيبت بها الاقامة وحببت فيها الحياة .

ليس القعب واحداً فى عدده ، ولاشاسعاً فى بعده ، فهو عدة واحات متقاربة الأطراف مختلفة الأسماء ، متحدة المنفعة والدواء ، سُميت بالقعب فى مجموعها ، ولكن لكل قعب منها اسم خاص به ، كقعب اللقية وهو أشهره ، والسوانى ، وأبو تمل ، وما إليها . مما يبلغ العشرة أو ينيف عدّاً .

يشغل القعب جزءاً كبيراً فى الجزء الغربى من مديرية دنقلا ، ويبعد عن النيل بضع ساعات ، ويسافر اليه بالمطايا نظراً لقلة السيارات فى هذه المديرية ، ولكنها ستعم فى المستقبل القريب كل أنحائها ولاسيما بعد أن انتظم طريق المواصلات بالسيارات بين مديريتى دنقلا وحلفا . ولايفوتنا أن مشقة السفر هذه لاتمنع الوصول اليه على متون الابل بأجرة زهيدة وزمن وجيز ، وخصوصاً إذا توجه المسافر اليه من مدينتى دنقلا وأرجو ، أو من احدى القرى المنتثرة بينهما على طول الطريق ، ويبتدىء موسمه عادة فى آخر فصل الصيف فى الزمن الذى يقرب أو يتم فيه نضج البلح الذى له — على مايزعم البعض — أثر كبير فى الشفاء وصحة البدن ، ويصنع منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، منـــه ماهو سائغ الطعم لونه أصفر مشرب بحمرة ، حلو لذيذ لايسكر ، يسمى « الشربوت » ومنه ماهو مر المذاق حائل اللون يسكر فى الغالب ، ويطلق عليه « الدكاى » وكلا النوعين مفيـد للصحة ، مجدد للنشاط ، مقو للبدن .

والقعب بلدة طيبة المناخ غنية المرعى خصبة الثرى وافرة النعيم .

يؤمها البدو صيفاً ويرحلون عنها شتاء ينتجعون الكلأ والماء ، ويطلبون الغنى والثراء من أكف المرضى وأيدى السائحين الذين يفدون الى القعب زرافات ووحداناً من أقصى جهات السودان وبعض البلدان الأخرى . يقاضونهم أجراً على عملهم ومسكنهم ، ويمنحونهم فيضاً من نعمهم .وفضلهم ، على أن هاته الأجور وتلك المنح لا يأخذونها من جراء الكراء وتملق النزلاء وحب الاستجداء ، كلا ، ففطرة البدوى الصميم تأبى عليه أن يتطلب الغنى والجاه من سبل كهذه ، لولا أن حاجات العيش الملحة ومطالبه الكثيرة ترغمه على أن يتقبلها كارها طائعاً إذ لا سبيل لعيشه بدونها ؛ وهو لسمو نفسه وكرم محتده لا يقبلها إلا بعد أن يرهق بدنه فى هناء ضيفه وخدمة نزيله لما رُكّبَ فيه من طباع الكرم والنجدة والمروءة ، وبعد أن يقدم له قرى فاخراً وهدايا جميلة من حمر النعم ، وطيب الغنم ، ومشتهى الأزاد ، وهى كل ماتصل اليه يد ذلك البائس الكريم ، والبدوى الى ذلك لطيف المعشر بسام الثغر ، سريع البدار الى لقاء الزوار ، يستقبلهم بطلاقة ويحييهم ببشر ، ويستدبرهم بكرم غيب وطيب ذكر ، تلمح فى وجهه سمات السذاجة المشوبة بالجهل ، وآيات الوداعة الممزوجة بالأنفة والاخلاص مع بساطة عيش وهدوء نفس ، وصبر جميل على معاناة النوائب والشدائد .

وهؤلاء البدو لا يختلفون — عادة — عن باقى العرب فى أساليب العيش والسكنى وطرق التفكير والتدبير فى شئون الحياة ، فعيشهم تغلب عليه البساطة ، يعتمدون فى غذائهم على الألبان واللحوم وبعض التمر والحبوب ، أما مسكنهم فحقير متواضع ، مصنوع من القش والوبر وخشب النخيل ، إلا أنه مع تواضعه وحقارته نظيف الحجرات بارد الظل والنسيم ، بديع الشكل . ويعتمد البدو كثيراً فى جلب قوتهم على الاحتطاب ، وهو أهم موارد رزقهم لفقر بلادهم المجدبة التى لا تصلح أن تكون إقليماً زراعياً مع خصوبتها لندرة الأمطار وصعوبة الرى .

وأرض القعب رملية ناصعة تصعد طوراً حتى تكون نجداً ، وتهبط آخر حتى تنحدر الى وهد أو سهل فسيح تنتشر فيه هنا وهناك كثبان الرمل المتقاودة ، وقد قامت فوقها أشجار النخيل الباسقة حانية أغصانها الخضراء المورقة فوق سفح الوادى وحول حافة الينبوع ، ومن بينها تتدلى أقناء البلح موشاة بصفرة الذهب وحمرة العقيق ، فيتكون من ذلك منظر طبيعى جميل تتجلى فيه الطبيعة بأجلى معانيها وأروع صورها الفاتنة الساحرة . هناك تحت ظلال النخيل وفوق الرمال وحوالى الينبوع ، حيث تخلد النفس الى الراحة وتنعم بالهناء والصفاء ، تحسن المتعة وتطيب المسرة ويلذ الأنس ، بل هنالك وحده يصفو العيش ، وتسعد الحياة ويحلو المقام . .

وكأنى بك وقد جلست عند الأصيل فوق ربوة عالية تسرح الناظر وتمتع الخاطر بمشهد الغزالة عند الغروب ، وهى تستل أشعتها الشاحبة من أحضان الوادى الكئيب بعد أن زفت اليه تحية الوداع ، وبعد ما ألقت عليه نظرة ساجية تفيض بالألم الممض والحزن العميق . أو نهضت من فراشك مبكراً فألفيت الشمس تهبط من خدرها باسمة مشرقة تشيع الحرارة وتنشر الضياء ، وتبعث الحياة فى جوف ذلك المهمه القفر ، وبين جوانب الطبيعة الصامتة ، فيستيقظ الطير من سباته الطويل ويصدح بأغاريد الصباح بنغمة سحرية أخاذة وصوت عذب حنون . وهنالك حول الينبوع النمير وبين مدارج السبل ترى فتيات البدو السذج فى ثياب فضفاضة وقد بدون سافرات الوجه فى صورة مليحة تسحر اللب وتستهوى القلب ، لم تعبث بها يد الحضارة الفاسدة ، ولما تنل منها مظاهر التجمل الخادع والتكلف المزرى الشائن ، خرجن يردْن الماء وبأيديهن الجرار وهن ينشدن نشيداً بدوياً ساذجاً فى لفظه حلواً فى معناه ، فتمتزج تلك الأغاريد العذبة بهاته الأناشيد السحرية فتتولد منها نغمة قوية مشجية هى كل مافى تلك الطبيعة الجافة الغليظة من موسيقى رائعة ، وصوت رخيم . فى المساء ، وما أسعد سويعات المساء فى ليالى القمر البيضاء ، إنها والله داعية أنس ومسرح لبانة ، ومذادهمّ ، ومعهد سرور . وما أجمل تلك السويعات التى تنفقها فى السمر مع بدوى ساذج وديع ، يجلس معك ويسمع منك ، ويتحدث اليك بأحاديث ممتعة خالية من الحقد والحسد والنميمة . أو تلك التى ترتاد فيها مواطن الرقص فى سبيل لذة بريئة ، ووراء متعة طاهرة ، حيث ترى الفتيان يصفقون والفتيات يغردن ، والكل يقف فى حركة مستديرة ومن بينهم الراقصة النحريرة ، ترقص على توقيع الدف ونغمات العزف ، وتمايل فى حركات ريفية واهتزازات بدوية تستلهمها من فن الطبيعة ، وتستوحيها من جمال الطبيعة ، ولكنها مع سذاجتها

وبساطتها بديعة ، لأنها صدرت عنها عفو الخاطر . وبدرت منها دون تكلف في الظاهر . وقد يستمر هذا الأنس حتى مغيب القمر ومطلع السحر ، وفى النهار تشغل الوقت فى عملية الدفن ، وماذا عسى أن تكون عملية الدفن هذه ؟ . وهل هى نوع من أنواع التسلية أو وسيلة من وسائل المعالجة ، أو ضرب من ضروب الرياضة ؟ . وهل اتخذت المعالجة بالقبر طريقة للحياة ؟ وليس بعجيب أن تنشأ من القبر الحياة كما قد يطغى على الحياة القبر .

إن عملية الدفن هذه ضرورية للقعب ضرورة « الحمام » للمصيف و« الدفء » للمشتى . ولا أعدو الحقيقة إن قلت إن أثرها فى جلب المنفعة ودفع الداء أبعد من ذلك وأسمى : فهى بمثابة العلاج الناجع والدواء الوحيد لشتى الأمراض التى استعصى علاجها بالعقاقير والأدوية المختلفة . وكم من مريض لصب جلده من الهزال ، وارتهكت مفاصله من الأعياء ، وطحطته العلل والسقام ، وكان إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، جاء إلى القعب ومكث به قليلاً فاستحال هزاله سمناً وضعفه قوة ، وتجددت فيه قوى الحياة المضمحلة ، وانتعش فيه روح الأمل البائد . وأنواع الأدواء التى يمكن علاجها فى القعب عديدة ، منها ما هو عضال يصعب علاجه ، وما هو وسط يخشى استفحاله ، وما هو يسير يسهل استئصاله . وهى فى الغالب كل أنواع الأمراض العصبية والروماتزم « داء المفاصل » وبعض العلل الباطنية المزمنة ، والشلل بنوعيه الجزئى والعام . . . الخ . ومهما يكن من شىء ، فعلاجها أمر موكول إلى التجربة والاستقصاء أكثر منه إلى شىء آخر . على أنه قد يشفى منها الكثيرون بعد ما يقطع الأمل فى شفائهم . ولا يزال الأطباء فى حيرة من أمر القعب لم يهتدوا حتى الآن إلى معرفة حقيقته معرفة تامة تستند إلى البحث العلمى الصحيح ، وقد اكتفوا من ذلك بالاشارة إلى جودة هوائه وصحو سمائه ، وأثرهما الحسن فى نفوس المرضى ، وإسداء النصح لمن يستشيرهم فى الذهاب إليه من ذوى العاهات والأمراض . وللناس أقوال متضاربة وإشاعات عديدة يتناقلونها ويروونها عن القعب . فمنهم من يذهب فى القول إلى أن مصدر قوته السحرية هذه إنما هى عذوبة الماء ، ويزعم أناس أنها جودة الهواء ، ويجزم فريق آخر أنها أكل الأزاد والشواء . وعلى كل حال فحقيقة القعب لاتزال غامضة حتى يستجليها البحث والاستقصاء ، ويتولى ذلك نخبة من شبيبتنا المثقفة تحت إشراف الحكومة وبتعضيد الشعب . وبالمناسبة ألفت نظر الجميع إلى وجوب العناية والاهتمام بشأن القعب ، وذلك طبعاً بتوفير كل معدات الراحة والرفاهية ، وتشييد المساكن الفخمة ، وتنظيم طرق المواصلات حتى يسهل السفر إليه والأقامة فيه ، فيكثر بذلك عدد المصطافين والمرضى ، وحينئذ نحصل على مورد لابأس به من موارد الرزق نصلح به أحوال البلاد خصوصاً هذه المديرية البائسة فى مثل هذه الأزمة الطاحنة

ولعلك تشتاق إلى معرفة طريقة الدفن ، ولشرحها نقول فى إيجاز : تشق الأرض على شكل أخدود أوحفرة أو قبر أو كما شئت فسمّه ، ثم ينصب حول هذا القبر المزعوم سياج من أعواد النخيل يسقف ويغطى من الجوانب بأغطية كثيفة تحجب أشعة الشمس عنه ، ويكون فى شكله أشبه شىء بالتابوت ، ويترك حتى يبرد أديمه ، ثم يؤتى بالشخص المراد دفنه ، وبعد أن يجرد من جميع ثيابه يضطجع ويهال عليه التراب ويدفن كل جسده ما عدا رأسه ووجهه ، ويستمر على هذه الحال بضع دقائق يضيق خلالها نفسه ، وتسرى فى جسمه حرارة خفيفة فى بدء الأمر تأخذ فى الاشتداد كلما طال مكثه ، ويشرع فى إخراجه متى بدت عليه مظاهر التعب والضيق . والمدة المحددة لدفنه تستغرق مابين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة . وبعد خروجه من ذلك القبر يكون مغبر الصورة معفر الوجه والبدن ملبداً بالتراب الممزوج بالعرق فى شكل يثير منك الضحك والعجب وبعد الانتهاء من الحمام يشعر بخفة فى بدنه وسرور يغشى نفسه ، ويلتهم بعد ذلك طعامه بشهية وهم مجيبين ، وتكرر هذه العملية مرة أو مرتين فى اليوم على حسب استطاعة المرء ورغبته ، وهى تفيد — على الوجه الأصح — جميع الأمراض العصبية والروماتزم والفالج ، ولعل مفعول هذه الحرارة المكتسبة من الدفن يقرب فى الغالب — على ما أظن — من مفعول الحمام الشمسى فى معالجة هذه الأمراض . ويبتدىء زمنه المناسب من الساعة الثامنة صباحاً والساعة الخامسة فى المساء فى الزمن الذى تلائم فيه الحرارة الجسم . والدفن كما ذكرنا ضرورى للمرضى . أما ماعداهم فعلى سبيل التسلية والرياضة ، ومع ذلك فمنفعته لايستهان بها فى الفتك بالأمراض عند بدئها وإزالة الضعف والنحافة وتقوية العضلات والبدن ؟

كلية غردون (سودان) أبو القاسم محمد بدرى

١ - مصطفى كمال

سيرة حياته

للكاتب الانجليزى ارمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

هنالك فى الحى العثمانى بسالونيك فى بيت حقير متهدم ، قائم فوق أحد التلال فى ظل حصن عتيق ، رأى الطفل مصطفى نور الحياة عام ١٨٨١ ، فى عصر كانت الأمبراطورية العثمانية تعالج سكرات الموت من جراثيم الأمراض الخلقية والاجتماعية التى تنخر فيها ، وتكاد تلفظ النفس الأخير ، لولا أن قضت السياسة الأوربية فى ذلك الحين أن يبقى « الرجل المريض » ليذود الدب الروسى عن حياته ، ويحول دون امتداد طغيانه حتى يوافيه أجله المحتوم . فكأن العناية الالـهية قد أرسلت الطفل العظيم فى هذا العصر لتبصره بموطن الداء ، وتهيئه لتأدية رسالته لانقاذ أمته .

كان أبوه على ريزا رجلاً مغموراً نزح من ألبانيا إلى سالونيك طلباً للعيش وسعياً وراء القوت ، فابتسم له الأمل فيها نوعاما ، واشتغل كاتباً بادارة الدين العثمانى ، ولم يكن مرتبه الضئيل ليقوم بمطالب أسرته ، فزاول تجارة تعينه على الحياة .

أما أمه زبيـدة فكانت كسائر النساء العثمانيات ، قعيـدة البيت لا ترى نور الشمس إلا من كوته ، ولا تغادره إلا فى رفقة أحد محارمها لتعود ذويها أو جيرانها الأقربين ، فظلت فى ظلام دامس من الجهل بشئون العالم الخارجى لا تلم حتى بمبادىء القراءة والـكتابة ، ولـكنها كانت ربة أسرة بحق تعرف كيف تدبر أمورها بحزم ، وتسوسها بنظر بعيد ، فى مزاجها شىء من الحدة ، وفى محياها سيماء النبل والسيادة . يمتزج فى عروقها الدم الألبانى بالدم المقدونى ، وكانت أقرب الى الرجولة فى بنيانها ، مديدة القامة ، قوية الصحة ، وقد آثرت الحياة بجوار الريف الذى أحبته ونشأت فى أحضانه ، فظل لها خلق أهله من إيمان عميق ووطنية صادقة ، واستمساك بالقديم ، وعقـل رجيح صائب الحكم فى مسائل الحياة الأولية ، وكانت كـكل امرأة عثمانية تهب نفسها ، وتصفى ودها لزوجها وأطفالها الثلاثة الذين توفى أحدهم فى طفولته ، ولم يبق سوى مصطفى وأخته مكبولا .

كان مصطفى هزيلاً نحيلاً ، وكان طفلاً فى سنه ، كهلاً فى خلقه . فلست ترى فيه جذل الأطفال ومرحهم . بل وقار الرجال ورزانتهم ، وكان عصى النفس عسير القياد ، كثير التمرد على أوامر والدته ، فاذا همت بتأديبه ثار واهتاج ، وكان قليل المخالطة للداته من الأطفال مسـتقلا بنفسه عنهم ، اعتزل أبوه منصبه فأراد أن يعلمه الأتجار ليساعده ويعينه ، ولـكن أمه أرادت أن تفقهه فى دينه ، فأرسل الى مكتب ليتعلم مبادئ القراءة والـكتابة ويستظهر القرآن . ثم الى مدرسة شمس أفندى حيث بدت بواكير نبوغه .

وفى ذلك الحين فجعت الأسرة بموت عائلها ، فأضحت فى فقر مدقع ، وبؤس ملح ، فلجأت زبيدة الى أخيها فأوى اليها وعطف عليها ، واحتضن مصطفى وأخرجه من المدرسة وأبقاه معـه ، وناط به رعى الماشية وإطعامها ، ومال الفتى الى هذا اللون من الحياة واطمأن اليه ، إذ كسب منه قوة فى بنيته ومتانة فى صحته ، ولم تزده الأيام إلا حبا له وشغفاً به ، وإباء لـكل ما يرمى الى انتزاعه منه ، ولـكن الأم الحـكيمة لم تنزل على هوى الفتى الغرير ، فأغرت أختاً لهـا بالأنفاق على تعليمه وكان لها ذلك . ألحق فتانا مرغماً باحدى مدارس سالونيك ، فألفى البون شاسعاً بين حياته الأولى الحرة الطليقة ، وبين حياته الجديدة السجينة المقيدة ، فأضحى دائم الثورة كثير التبرم بنظام الدرس ، ولـكنه ظل كما كان شديد الأعجاب بنفسه ، كثير التفاخر على أقرانه ، قليل المخالطة لهم حتى فى ألعابهم المدرسية ، فاذا هموا بمضايقته والتحرش به ، ناضلهم بشدة ، وردهم على أعقابهم مدحورين ، فاشتد بغضهم له ونفورهم منه وإنكارهم لـكبريائه ، حتى اشتبكوا فى شجار معه وشكوه الى أحد المدرسين فصفعه صفعة أطارت صوابه ، ففر من المدرسة وعاد الى ذراعى أمه ، وعبثاً حاولت أن تعيـده اليها رغم توسلها بالترغيب حيناً وبالارهاب أحياناً ، فاقترح خاله إرساله الى المدرسة الحربية بسالونيك ، لأن التعليم فيها لا يكلفهم من النفقات كثيراً ولا قليلاً ، وهى تحت رعاية السلطان عبد الحميد ، فاذا ظهر تفوق الفتى ارتفع الى مرتبة ضابط ، وإلا التحق جندياً بالحرس السلطانى . فمستقبله على أى حال واضح مأمون . وما كانت الأم لترضى بهذا

أو تميل اليه ، إذ كانت تريده فقيهاً على غرارها فى التقى والورع ، ولـكن فتانا الثائر نال منه الاقتراح كل منال ، وأخذ منـه كل مأخذ ، فما كانت نفسه الطموح لتقنع بما تريده الأم . بل هو يريد أن يرتدى حلة الجندية التى يرتديها تربه أحمد ابن أحد جيرانهم ، ويخطر بها غادياً رائحاً فى زهو وإعجاب ، ويمنى نفسه بأن يكون ضابطاً يصـدر أوامره فيتلقاها مرؤوسوه بالأذعان والخضوع ، ولم يطل بفتانا الأنتظار بل عول على نفسه فى تحقيق غايته . فلجأ الى ضابط متقاعد من معارف أبيه ، ورجاه أن يكون ولى أمره لدى المدرسة المذكورة . ثم تقـدم للامتحان فجازه ، والتحق بها دون أن تعلم أمه من الأمر شيئاً ، وهكذا أرادت الأم شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فكانت إرادته جلت قدرته أرحم بالفتى وبأمته من الأم الورعة الزاهدة ، وفى المدرسة وجد الفرصة التى هيأتها له الأقدار فى عالمها المحجوب ، فبرزت مواهبه رائعـة فى الرياضة وسائر العلوم الحربيـة ، أما خلقه فظل كما هو ، بل زاد مزاجه حدة وطبعه تمرداً ، يثور لأقل نقد يوجه اليه ، أو لوم يلقى عليه ، وكان يحب دائماً أن يكون قبلة الأنظار ومدار الحديث ، ولم يكن أبغض اليه من أن يرى نفسه خاملاً ذاهباً فى غمرة الاهمال ، إذ كان شديد الشعور بشخصيته ، قوى الأحساس بارتفاعها عن أقرانه ، حتى كان يرد من حاول الأتصال به منهم قائلاً « أنا لا أريد أن أكون واحداً من أمثالكم » ويمضى فى سبيله قدماً لا يلوى على شيء ، كذلك كان لرغبته الملحة فى التفوق والتبرز ، شديد الحسد لـكل من بذه منهم ، ولعلك تعجب حين تعلم أن هذا الفتى الجافى الخلق الفظ الطباع يلعب الغرام برأسه ، فيرى دائماً يخطر فى أبهى ملابسه وأزهاها ، مداعباً للفتيات مغازلاً لهن ، محاولاً الاستيلاء على قلوبهن ، ولـكن لم العجب ؟ أوليست هى الطبيعة تأبى إلا أن تبرز العظيم فى جميع أدوار حياته نمطاً شاذاً ؟

ومهما يكن من أمر فتانا فقـد نبغ نبوغاً لفت نظر أحد أساتذته واسمه مصطفى ، فاختاره مشرفاً على إحدى الفرق الصغرى ووكل اليه إلقاء بعض الدروس ، ولتشابه الأسمين ميز الأستاذ تلميذه باضافة اسم كمال ، فأصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم مصطفى كمال ، وقد تخرج فى المدرسة فى سن السابعة عشرة . ثم أرسل الى المدرسة الحربية العليا بموناستير

(يتبع) حنفى غالى

مشـــــهد ومكة

بقلم الأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

سارت الرسالة فى عددها التاسع والخمسين ، بكلمة ناقدة للأستاذ عبد الوهاب عزام ، عن كتاب « جولة فى ربوع الشرق الأدنى » للرحالة محمد ثابت ، وقد عنانى من هذه الـكلمة تفظيع الأستاذ عزام خطأ الرحالة فى قوله عن شيعة إيران : إنهم يفضلان مشهداً على مكة ؛ فنشطت لـكتابة هذه الـكلمة لاأنصافا للناقد أو المنقود ، فهذا شيء قد يكون عند غيرى حسابه ، إنما عنيت بذلك لثلاث : إحداهن حب الحقيقة ، وإنها لحقيقة أن تبتغى لذاتها ، ويجمل إلى الناس تصحيح ماخالفها تطوعاً . وثانيتهن : أن فى هذ الحديث عن تفضيل الشيعة مشهدا على مكة مثلاً شيقاً طريفاً للباحث النفسى عن فرق مابين العقيدة والفكرة ، وصلة مابين العقل بمنطقه ، والاعتقاد بسلطانه . كما أن أمثال هذه الحقائق النفسية هى الأصول القوية لتفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً صادقا . والثالثـة : أننا حـين نعمل جادين ، وندعو محبين للوحدة الأسلامية ، وتقريب مابين الشعوب الأسلامية على تنائى ديارها ، واختلاف أنظارها ، يجب أن نعرف الحقائق على ما قد يكون بها من قسوة وشدة ، إذ لاغناء فى إنكارها ، ولاخير لنا فى تناسيها أو نسيانها .

* * *

قال الأستاذ الناقد « وأفظع من هـذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران ، إنهم يفضلون مشهداً على مكة ، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شـديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج الى مكة ؟ . ربما بالغ عامة الايرانيين فى تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة ، كما يبالغ عامة المصريين فى تعظيم مسجد سيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيد البدوى ، وابراهيم الدسوقى : ولـكن عمل العامة لاتفسر به عقائد الأمة .

وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب » (ص ١٣٩٩ عدد ٥٩ من الرسالة) .

والأستاذ عزام خير من يعرف أن القياس قليل الجدوى وضائع الأثر فى مثل هذا المقام . فما لا يعقل وما يعقل قد يُعتقد ويهرب معتقده من الحوار فيه أو الجدال حوله ، بل يهرب من طلب النفس تفسيره ؛ على أن الأستاذ لو أنصف لذكر من كتب الشيعة التى بين أيدينا شيئاً بعينه يفند هذا الزعم ، أو يحتسبه على العامة ، فيرد عليهم بدعتهم ، كما ترد على عامة المصريين بدعهم فى تعظيم المشاهد المصرية والقبور ، ولكنه لم يفعل فلم يرح القارىء . وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل المكانى بقسوة وعنف ؛ وتجعل مكة وبيتها الحرام ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لكربلاء ، وإلا هوى الله بها فى نار جهنم ! ! . وهذا عالم فارسى شيعى من المحدثين قد أشرب روح العصر واعتداله أو تساهله إن شئت ، وهو مع ذلك ينقل عن قديم كتبهم هذا التفضيل ؛ بل يعـد المروى فيه متواتراً عندهم ! ! ذلك العالم هو الشيخ أحمد بن عبد الله الكوزه كنانى ، صاحب كتاب روضة الأمثال فى تفسير آيات التمثيل بالقرآن الكريم ، وكتابه مطبوع فى فارس ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية .

عقد الشيخ فصلاً « فى فضيلة أرض مكة وفضائل بيت الله . » الخ ص ١٨٧ . واستطرد فى خلاله بفصل عنوانه « فى أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة » ص ١٨٨ وفيه يقول مانصه : —

« أقول قد ورد فى أخبارنا الخاصة أن أرض كربلاء أفضل من الكعبة مثل مافى البحار [(١)] عن . . . عن . . . عن أبى عبد الله . . . قال إن أرض الكعبة قالت مَنْ مثلى : قد بنى بيت الله على ظهرى ، يأتينى الناس من كل فج عميق ، وجعلت حرم الله وأمنه ؛ فأوحى الله اليها أن كفى وقرى ، مافضل مافضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الأبرة غرست فى البحر ، فحملت من ماء البحر ، ولولا تربة كربلاء مافضلتك ، ولولا ما تضمنته أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذى افتخرت به ، فقرى واستقرى ، وكونى ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً ، غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء ، وإلا سخت بك وهويت بك فى نار جهنم » إلى مرويات أخرى فى هذا المعنى آخرها قول الرسول عليه السلام « يقبر ابني فى أرض يقال لها كربلاء هى البقعة التى كان عليها قبة الاسلام التى نجى الله عليها المؤمنين الذين آمنوا مع نوح فى الطوفان » ، ونختم هذا الفصل بقوله « والأخبار فى هذه المعانى فى خصوص كربلاء متواترة من أرادها فعليه المجـلد الثانى والعشرون المسمى بمزار البحار » .

فليس الأمر من مبالغة العامة ، ولا من عمل العامة الذى لا تفسر به عقائد الأمة ولا نكر على الرحالة ، ولا فظاعة فيما أخبر به .

أنا لا أقول بصحة هذه المرويات بله تواترها ، وليس يعنيني فى شىء مطلقاً أن يستمسك إخواننا الشيعة بها ؛ بل أحب ألا يكون لذلك أثر حتى تتضاءل الفروق بين المسلمين ، ويهون التقارب ، لكن مالا نحبه قد يواجهنا صارخا به الواقع .

وأكتفى بهذه الكلمة قائلا مع الأستاذ عزام فى ختام كلمتى : إننى لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاسلامية ، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وانصاف ، والله ولى التوفيق . ؟

أمين الخولى

(١) لعله يريد كتاب بحار الأنوار ، وهو كتاب كبير بعد مجمع علم الشيعة وفيه بيان عقائدهم ومذاهبهم .

اليابان

تلقى على الشرق درساً

للأستاذ محمد مختار المحامى

جاء فى الصحف اليومية منذ عهد قريب أن مصانع اليابان أخرجت سيارات زهيدة الثمن فى طاقة كل شخص أن يقتنيها وهى تريد أن تغمر بها أسواق العالم ، وقد كان لهذا الخبر رجة عنيفة فى جميع الدول ، فقد أوقعها فى حيرة شديدة إزاء هذا التيار الجارف السادر من أقصى الشرق .

منذ نصف قرن تقريباً استيقظت اليابان من أحلامها ، وبخطوات العمالقة اقتحمت الهوة التى تفصلها عن الحضارة الغربية الحديثة فتركت وراءها قروناً غطت فيها فى سبات عميق ، ورفعت الحجاب عن أعين الشرق ونبهته إلى الحقيقة التى غابت عنه ، وأظهرته على باطل مايلقى إليه المستعمرون من أن الشرق يعيش فى الماضى ، وأن من المحال إحياءه وجعله يسير فى طريق التقدم لأن وجهه دائماً إلى الخلف ، وقد قبلنا هذا الاتهام وآمنا به ، وفعل فينا فعل التنويم المغناطيسى إلى أن أتت اليابان ففكت طلاسم هذا السحر ، وكنا قد نسينا أن نشأة الفلسفة والعلم والآداب وكل أديان العالم لم تكن إلا فى الشرق ، فكيف تتهم أراضيه بالعقم وعقوله بالجمود ، وهى التى قد حملت مشاعل الحضارة وقت أن كان الغرب يتخبط فى الظلام ؟

لقد دهش العالم أيما دهشة حين حطمت اليابان الحواجز التى كانت تحجزها عن العالم بين يوم وليلة ، ثم خرجت منتصرة أيما انتصار ، فقد فعلت ذلك فى وقت قصير كالوقت الذى تغير فيه الثياب ، لا الوقت الذى توضع فيه أسس حضارة جديدة ، وقد أظهرت أصدق مظاهر قوة الخصب والقدرة على العيش فى هذه الحياة الجديدة ، فقيل إن هذا الانقلاب ليس إلا مسخة من مسخ التاريخ ، أو فقاعة كفقاقيع الصابون كاملة فى استدارتها ولونها ، جوفاء فى قلبها ومادتها . ولكن اليابان أثبتت أن تطورها لم يكن لحظة دهشة قصيرة ، أو فرصة من فرص مد الزمن وجزره .

الحقيقة أن اليابان قديمة وحديثة فى آن واحد ، فهى لم تترك تراث الشرق القديم وثقافته التى تدفع الانسان إلى البحث عن القوة والسعادة الحق فى أصل نفسه والتى توحى اليه برباطة الجأش عند مواجهة الخسائر والأخطار ، وبالتضحية التى لا تحسب حساباً للكسب وبتحدى الموت . فاليابان زهرة من أزهار اللوتس تنمو بسهولة ورشاقة محافظة على الأعماق التى منها نمت ، ومع ذلك فقد تسلقت اليابان إلى آخر ما وصل إليه الغرب وصارت تعج فيها الحضارة الحديثة بكل مسئولياتها .

إذن الحياة والقوة كائنتان فى الشرق ، ولكنهما كامنتان تغطيهما قشرة ميتة يجب أن تزول ، لأن الاحتماء بالميت موت ، واحتمال أخطار الحياة حياة .

ولا يظن أحد أن اليابان قد وصلت إلى ما وصلت إليه بالتقليد ، لأننا لا نستطيع تقليد الحياة والقوة لأمد طويل ، بل إن التقليد مصدر من مصادر الضعف ، فهو يعوق طبيعة الأمة الحقيقية ، لأنه كالباس هيكل عظمى لانسان ما ، إهاب إنسان آخر .

لقد استمدت اليابان غذاءها من الغرب ، ولكنها لم تستمد منه حيويتها ، بل احتفظت بروحها ، وهذه هى المعجزة التى بهرت أعين العالم ، فقد علمت عن حق ويقين أنه لا يمكن قبول المدنية الغربية على علاتها ، تلك المدنية التى لم تحل بعد أعظم مشاكل الوجود كالتنازع بين الفرد والدولة ، وبين العمل ورأس المال ، وبين الرجل والمرأة ، والتنازع بين شره الكسب المادى والحياة الروحية للانسان ، وبين أطماع الأمم المنظمة والمثل العليا للانسانية ، تلك المدنية التى تتغنى بالحرية ، ثم تأتى بأقسى ضروب العبودية ، تلك المدنية التى يفقد الانسان تحت تأثير سحرها كل ثقة فى المثل العليا التى جعلته من قديم الزمن إنساناً .

والحق يقال إن النفس الشرقية بما انطوت عليه من قوة روحية وحب للبساطة واعتراف بالواجبات الاجتماعية عليها أن تحكم العقل الشرقى إذا أرادت أن تشق طريقاً وسط هذه المعمعة الغربية ، وعليها ألا تلقى وراء ظهرها تراث الأجيال الماضية كما تلقى الملابس البالية ، إذ أن هذا التراث فى دمها وفى نخاع عظمها وفى تكوين لحمها ، وفى ألياف مخها ، وهو يكيف دون أن تشعر ودون أن تريد كل ما تضع عليه يديها بتكييفه الخاص .

ومن تراث الماضى وغذاء الحاضر المستمد من الغرب عليها

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

ليـــــلى العفيفة

للمرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب

. . . لعل أسمى مراتب العظمة الانسانية فى الحياة الدنيا هى تلك الكلمة الصغيرة التى تفنى الأجيال وهى باقية ، وتتقلب الأزمنة وهى ثابتة ، وتخفت الكواكب والأقمار وهى متلألئة متوهجة ، والتى أسميها ؛ ويسميها الناس معى « . . الخلود . . » ! !

نعم . . إن أعظم مافى الحياة الدنيا وأبقى مافيها من خير هو الخلود من غير شك . . وإذا قلنا إن الخلود هو أمتع مافى الحياة من جمال وروعة ، فلأننا نريد أن نقول أيضاً إنه صعب المنال عسر الادراك . لا يشترى إلا بأعز مافى النفس البشرية ، وأغلى ما فيها . . وهى الحياة . . فمن ضحى بحياته ، أو كان على استعداد لتضحيتها فى سبيل سعادة غيره ورفاهيته ورفع الظـــلم عنه نال الخلود لأنه أناله لغيره ، أو حاول أن ينيله إياه — إن قصر أجله عن إتمام ذلك —

ومن ضحى بوقته وراحته فى سبيل تثقيف الغير وتعليمهم ، وتهذيبهم ونشر نور العلم بينهم . لن يفنى وإن فنى جسمه ، ولن يُنسى وإن اختفى شخصه ، ورجع الى الأرض التى منها نشأ وعليها تربى .

فالحياة والذكرى ليستا وقفا على الجسوم الحية المتحركة . . وإنما هى رهينة تلك الأعمال الجليلة التى أداها أصحابها ، وعلى تلك الخدمات الصادقة التى بذلوا فى سبيلها راحتهم وشبابهم ، والتى لن تفنى حتى يفني الفناء ، ولن تزول حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فكم من حى لا تعرفه إلا نفسُه ، وكم من ميت بلى عظمه وفني جسمه ، ومع كل فهو يملأ القلوب بحبه ، ويملأ الدنيا بذكره واسمه .

ومن هؤلاء الخالدين المرحوم الأستاذ « محمد عبد المطلب » الذى تعرفون عنه أكثر مما أعرف ، وتقدرون أعماله الجليلة كما أقدر ، وتؤمنون بعبقريته الفذة كما أومن ، وتعترفون بشاعريته الخصبة الساميــة كما أعترف ، وتفخرون بدرره اللامعة — التى حلى بها جيد العربية — كما أفخر .

لهذا فانى أعتقد أنكم تودون أن تقرءوا له شيئاً لتمتعوا أنفسكم بسحر هذا الشاعر البدوى الذى سيدهشكم الآن بأسلوبه الحضرى الرقيق ، وبتفكيره العصرى الذى نَعجز عنه ونحن فيه .

وقبل أن أعرض للأستاذ المرحوم شيئاً أود أن أقول : إنه كان من أسبق الشعراء الى تأليف الروايات ، فله فى دار الكتب من عشرين سنة مضت روايتا « المهلهل » و « امرىء القيس » وله أيضاً عدة روايات وضعها للمدرسة السعيدية وقت أن كان مدرساً بها :

وكأن المرحوم شعر بحاجة المسرح المصرى الى روايات عربية سليمة التفكير رقيقة التعبير ، فوضع له فى سنة ١٩٠٩ رواية « ليلى العفيفة » ، ولكن حظ المسرح التعس حال دون ذلك ، لأن الأستاذ لكثرة أعماله فى مدرستى دار العلوم والقضاء الشرعى لم يستطع إتمام القصة ، وحاول فى أواخر أيامه أن يتمها ولكن الموت القاسى عاجله ، فحرمنا من تراث أدبى نافع . على أننا سنعرض الجزء الذى كُتِب من « ليلى العفيفة » بنت لكيز ، وهى التى حاربها الزمن على يد أبيها بضع سنوات ، فأذاقها مُرَّ الحياة وشقاء العيش ، وذل الأسر . . . ولكن الله جلت قدرته أنالها سعادتها مضاعفة ، ورد عليها فتى قلبها وبطل أحلامها جزاء وفائها وإخلاصها . . .

أن تخرج خلقاً جديداً لامجرد تكرار ، ولتكن لنا من اليابان عبرة

إنا لنصغى إلى ما يقوله الغربيون من أن مدنية الشرق ليست إلا فلسفة لاهوت ، فان الأصم يرى فى اللعب على (البيانو) حركات أصابع مجردة عن نغم الموسيق ، وهم لايعرفون إننا قد بنينا تقاليدنا على أساس من الحقائق التى تدخل الطمأنينة والسلوة فى قلب الانسان ، والتى تجعل وجدانه دائم اليقظة والحياة .

لقد واجهت الشمس المشرقة العالم فكانت الأولى فى الشرق فى هذا السبيل ، ولقد أشعلت الأمل فى فؤاد الشرق فحق عليه أن يقدم لها الثناء ، ومن يدرى فقد يكون هذا بشيراً بأن يعم النور الخالد هذا المكان الذى بزغت فيه شمس الآدمية لأول مرة .

محمد مختار المحامى

ولعـل القارئ يدهش من هذا ويعجب ، إذ كيف يحارب رجل ابنته ويذيقها الألم الممض ، ويمنع عنها سعادتها ورفاهيتها . والمعروف أن الآباء يتسابقون الى جلب السعادة لبناتهن ؟ !

ولعله لا يدهش ولا يعجب عند ما أقول له : حقاً إن الآباء يفعلون هذا وأكثر من هذا ، ولـكنهم فى مسألة واحدة ، بل وفى لحظة واحدة يهدمون حياة بناتهن ، ويسقونهن كأس الموت مترعة ، ويقاومون شعورهن ، ويتجاهلون إحساسهن ، ويدفعونهن الى الهاوية باسم المحافظة عليهن . فترى الرجل منهم عند ما يعلم أن ابنته تهوى إنساناً وتحبه ، وتود من صميمها أن يكون رجلها . تراه فى هـذه اللحظة قد تنمر وركب رأسه الأخرق ، ووقف بينها وبين من تحب رافضاً زواجهما ، آبياً جمعهما ؛ بل يزوجها ممن يحب هو ويريد ، محتجاً بأنه أعرف منها بمصلحتها ! فتـكون الطامة ، وتـكون النهاية السوداء فى أغلب الأحايين ! .

وهذا ما حصل فعلاً مع ليلى بنت لـكيز فانها كانت مخطوبة لابن عمها البراق ، وكان الحب يجمعهما برباطه المقدس . فرأى لـكيز بعقله الأخرق ، وحماقتـه المجنونة أن يفسد هذه الخطبة ، وأن يقبل خطبة عمرو بن ذى صهبان لابنته طمعاً فى ماله وشجاعته !.. فانظر اليه وقد زاره أحد بنى كليب لينهاه عما فعل حرصاً على البراق ورحمة بابنته التى تحبه وتهواه :

كليب : ما لأبى ليلى حزيناً مطرقا ؟

لـكيز :

أرقنى شـغل بليـلى أرقا   جمّع من همى ما تفرقا

عمرو بن ذى صهبان لما حققا   أن لها فى الحسن جدا صدقا

وفى المعالى غاية لن تلحقا   بادر فى خطبتهـا مستبقا

كليب :

رام ابن ذى صهبان صعب المرتقى   إن سمع البراق أو تحققا

بأن عمـرا باب ليـلى طرقا   أرعـد كالليث لنـا وأبرقا

وطبق الأرض علينا طبقا

لـكيز :

لـكن عمراً بالأيادى سبقا   قـلدنا نعماءه وطوقا

يجود كالغيث علينا غدقا   إذا بنا صرف الليالى أحدقا

كليب :

لـكنـه ليس من البراق   أحق بالطـاهرة النطـاق

نقيـة الأعراض والأعراق   وهو فى الجيش لدى التلاق

وما لبـكر غـيره من واق   إذ تأخذ الخطوب بالخناق

وتلعب الأرواح بالتراقى   فى يوم هول مظلم الآفاق

حتى إذا يئس كليب هدده بقوله :

إياك يا ابن العم أن تجيبـا   فان فيـه اللوم والتـأنيبا

وإن ليلى — إن تكن أريبا —   تأبى سوى ابن عمها خطيبا

وهو وان كان لها حبيباً   فمـا أنت نـكراً ولا عجيباً

فلا يزال السـيد الأريبا   فى قومهـا والبطـل المهيبا

يكفيهم البأساء والـكروبا

فيغضب لـكيز من قول كليب ويستأسد قائلا :

ويحك ! هل ليلى ترد أمرى   برد هـذا وقبـول عمـرو ؟

رضيتُ عمرا أن يكون صهرى   ماحجتى فى رده ؟ ما عذرى ؟

أليس فى منعيه عين الغـدر   ولو أبى البراق إلا هجرى ؟

فليجر فى قطيعتى ما يجرى

وقد أنصف كليب كل الأنصاف حينما ذكره بأنه غدر بابن أخيه فقال له :

يا أبا ليـلى كفى . فالحقوق . أنكرتها . ذلك الغـدر

وأحاديث الجفا . والعقوق . كررتها . حـلوها مر

غضب البراق . مر لا يطاق . وله العـذر

ولـكن أترى لـكيزاً يأبه لهذا ويهتم به ؟ كلا وإنما يمعن فى قسوته ، ويسترسل فى شدته ، ويأبى إلا تنفيذ ما رآه . ولو كان ما رآه هو الخطل بعينه ، فاسمع الى ابنته ليلى وقد عرفت من أمرها ما عرفته : فأخذت تشكو الى الله ظلم أبيها ، وتعـدد مناقب ابن عمها ، وتبثه لواعج غرامها . ثم تعرج على خطيبها المـكروه فتتمنى من الله أن يقبض روحها قبـل أن تزف اليه ، فتواسيها صديقتها سلمى فلا تستمع اليها ، ولا تزداد إلا أنيناً ، وإلا حسرة على بعاد براقها

ليـلى :

رب ! كم تبـلو وتمتحن   إن قلبى شـفه الحزَن
كلما قلت انجلت محن   عاودتنى بعـدها محن

سلمى :

هل أتى عن ركبنا نبـأ   محزن،من بعد ما ظعنوا ؟

ليلى :

لا ، ولـكنى أرى جللا   عاجـلا يسمى به الزمن
يا ابن عمى إن لى كبداً   قد براها بعدك الشجن
إنمـا البراق خـير فتى   فيـه بنت العم تفتـتن
صـده عنى أبى سـفها   وأبى فى رأيه أفن
وأتى عمرو ليخطبنى   فأذلتهـم له المـنن
ليت شعرى ما الذى خبأت   لىَ من أحداثهـا اليمن
ليتنى يوم أزف له   يحتوينى قبـله الـكفن

سلمى :

إن فى الأيام معتـبراً   والليـالى بيعها غبن
اصبرى ليلى ! ولا تهنى   إن عزم الحر لا يهن

ليلى :

ارحمى يا سـلم والهـة   غلقت من قلبها الرهن
وارحمى البراق فهو بنا   قد جفـا أجفانه الوسن

وكما قلنا من قبل أن أرواح العاشقين متجاوبة تشعر بشعور واحد ، وتحس باحساس واحد وفى وقت واحد . فاننا نستطيع أن نقول هنا إن براق أحس ما أحسته ليلى ، وشكا مما شكت منه ، فقال لصديقه عقيل :

براق :

ياعقيلا ، ياعقيلا ،   ما ترى الليل طويلا ؟
ما لنجم الليـل لا يبـــغى عن الأفق أفولا ؟

عقيل :

طال ليـلى وهو أولى   بعد ليـلى أن يطولا

براق :

بالأسى قد عيل صبرى

عقيل :

أى نعم ، صبرك عيلا
يا ابن روحان رويدا   واصبر الصبر الجميـلا

براق :

إن يحـل دونى فانى   عن هواها لن أحولا
يرتضى مثل ابن ذى صهبـــان من ليـلى حليـلا
إن ليلى يا عقيل   لا ترى منى بديـلا
ظلمونى ظـلموها   أغضبوا السيف الصقيلا
أنا إن لم أسـق عمى   بالردى كأساً وبيلا ...

فيخاف عقيل من هذا التهديد ويخشى عاقبته . . ويشفق للـكنز أن يقتله ابن أخيه فيقول لصديقه بخبث :

عقيل :

أوَ ترضى يُشْتَم ليلى ؟

فيستفيق براق حينما يسمع اسم ليلى ، وتأخذه عليها الشفقة والرحمة ، ويخاف كرهاً إن هو نفذ تهديده . . فيكرر صديقه الخبيث قوله :

عقيل :

أوترضى يُشْتَم ليلى .؟

براق :   لا ولا ، حسبى ذهولا
قطـع السيف يميناً   تـترك العم قتيـلا
والفـتى من كان للأهـــلين مسماحا وصـولا

غير أن براق يرى أن من المستحيل عليه معاشرة أهله ، وقد حطموا قلبه وفتتوا كبده فيقول :

غــــير أنى لا أرى عن   أرضكم إلا الرحـــيلا
يا لقومى للنـــوى زمـــوا عن الحى الحمـولا
وإلى البـــحرين فى   صبح غـد ، حثوا الرعيلا

حتى إذا كان الصباح رحل براق الى اليمامة ليأسو جرحه ، وينسى ماهو فيه من عذاب وألم . فهل ترى الأقدار ساعدته ؟ أم أنها كانت تعـد له من مخبآتها ما أثار شجونه واستفز رجولته وألهب حميته وهو العربى الصميم ؟

نعم إن الأقدار حاربته وعذبته ، فانه ما كاد يستقر فى اليمامة حتى علم أن قومه فى حرب ضروس مع طىء وخزاعة . فماذا يعمل ؟ أيذهب ويحـارب معهم حتى ينتصروا وهم هم الذين عذبوه ومزقوا قلبه . . ؟ ؟ أم يتركهم لأعدائهم يسومونهم سوء

العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ؟ إنه إن فعل هذا فقد لحقه العار وركبه الذل ، وناهيك بعار العرب وذلهم ، على أنه مع هذا وذاك لم ينس أن يتهكم ويعتد بقوته فيقول :

أتانى أن قومى جد فيهم   من الحدثين شر مستطير
أناخت بينهم حرب عوان   ضروس للردى فيها زئير
وما أدرى أيذكرنى لكيز   إذا استعرت وطار لها زفير؟
وهل هو بابن ذى صهبان يغنى   إذا عميت على القوم الأمور؟

وما إن ينتهى براق من قوله حتى يخبره خادمه بضيوف يطلبونه ، وسنرى الآن من أخلاق براق ما يدهشنا ، وما يثير إعجابنا

الضيوف : نزلنا بأبى نصر   سلام يا أبا نصر
دعوناك الى أمر   فهل تصغى الى الأمر؟
بنو عمك قد جاروا   ومدوا سبب الشر
وقد خانوك من قبل   بمحض البغى والغدر
فخالفنا وأيدنا   عليهم واسع فى النصر
نحالفك على من شئـ
ت فى بر وفى بحر

براق :
ذرونى لست أترك آل قومى
وأرحل عن فنائى أو أسير
بهم ذلى إذا ما كنت فيهم
ولكن لى بهم شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسر
وأرحل إن ألم بهم عسير ؟

وفى إثر هذا القول الذى خيب ظن القوم يخرجون وهم يتميزون غيظاً ويحترقون ألماً . بل وفى إثره أيضاً يعلم براق بموت أخيه وانكسار قومه ، وأسر أغلبهم وفيهم « ليلى » فيطير عقله ، وينخلع قلبه ، ويسافر تواً الى قومه ويجمع شملهم وينظم عقدهم . ويشاء الله أن ينتصر انتصاراً حاسماً وأن يشتت أعداءه ، ويمزقهم شر ممزق ثم يرجع بجبيته ليلى ليستأنفا سعادتهما وحبهما ، وهو يقول :

يا ليل قومك عنك قد نكلوا   يا خجلتى يا بئس ما فعلوا
أفأسلموك وأمعنوا هرباً   وتخطفتهم دونك السبل ؟
أم كانت الحلى فما ثبتوا   وعن الحريم لهولها ذهلوا ؟
أهلوك لا ميل ولا كُشُف   عند اللقاء ، إذا هم نزلوا
إن يخذلوك فرب معترك   عميت به النجدات والحيل

* * *

هذه عجالة رأينا من الخير للأدب أن ننشرها للناس لتكون ذكرى طيبة للأستاذ الخالد ، ولتكون نواة صالحة ، وقدوة حسنة لمن يود أن يكتب الشعر العربى الرصين للمسرح المصرى . رحم الله الفقيد وأسكنه مساكن الشهداء والصالحين .

محمد السيد المويلحى

مِنْ طرائفُ الشِّعرُ

وحي المصيف

ليلة البـدر

للشاعر الوجدانى أحمد رامى

غبرت أعـدّ ليالِى العُمُر وأرتقب البـدر حتى ظهرْ
وفى القلب أمنيّـة للقـاء وفى النفس عاطفـة للسمرْ
أسوق اليك حديث الشجون وأشكو اليك صروف القـدر
وأرسل شعرى على مِزهرى فأسمع منك حنين الوتر

***

تعـالَىْ الى زورق سابح نشـقُّ عليه عُبابَ النَّهَرْ
ونبصر بدرَ الدجى زاهياً يرصّع أعطافه بالبـــــدَر
وفى الشاطئين حسان المغانى تجلّت لأعيننـا كالصوَر
سجا الليل إلا اصطفاق الشراع وأبلس إلاّ حفيف الشجر

***

بقلبى شـكاةٌ تكتّمتها وقد كتم القلب حتى صبر
توالى المغيب وكان الغروب وعينى على الموعـد المنتظر
ظللت أودّع شمس النهـار وأستقبل الليل بين الذّكر
خلا الـكون إلاّ نجىّ الفؤاد تنـاغى مع الموج لمّـا هدر

***

هُنـا البحر أقبــل آذيُّهُ هنا النيل طالعه وانحـدرْ
تلاقى الغريبان بعد النوى وضِنّى الذى أرتجى ما ظهر

تعالى

له أيضـــاً

تعالى نسعد الروح الحزينا فقـد قرّت نواة الوجـد فينا
حرمتِ هوى الذى ترضين إلفاً وعزّ علىّ من أهوى خدينا
كلانا ناشـد قلباً حنوناً و كلٌّ يحتوى القلب الحنونا
تعالى كفكفى الدمع السخينا فـكم أرسلت بالدمع الجفونا
عرفتِ الحزن فى فجر الليالى وذقتُ من الأسى فيـه فنونا
وملتُ عن الهوى ونأيتِ عنه فذكرنا اللقاء وما نسينا
بكيتِ مودة وبكيتُ شجواً ومن يبك العهود يكن أمينا
فواسينى ترى قلبى حنونا وباكينى ترى دمعى هتونا

رأس البر **أحمد رامى**

من الأدب الغربى

الضـجر

للشاعر الانجليزى هنرى لنجفلو

ترجمة محمد متولى بدر

يا قدَما من سُرى الليالى ورحلة العمر والسـنين
أدمتـكِ أحجارها ففاضت بِجاجها بالدم الثخـين
تجرين بالعبء — والأمانى تفرُّ — موصولةَ الأنين
ها أنا أوشكت أن أُوافى لبيتك الهادئْ الأمين
هناك نسى الذى عرانا ومضّنا ، فى حمى السكون
لشدّ ما أرهقتْ فؤادى يا قدمى رحلةُ السـنين !

***

ويا يداً ، لا أراكِ إلاّ كثيرة الوثب والنضال
آنًا مليكاً ومستبـدا وتارة موطئْ النعال
الجود يُعْليـكِ بالعطايا والفقر يدنيـك بالسؤال
أنا الذى خضت مستميتاً معترك العيش بالمقـال
يا طالما رحتِ فى شـقاء تَشكين من كثرة الأمالى
كم أنا يا عدتى حزين !! فؤاد من دائكِ العضال !

***

وأنت يا قلب يا صَغـيرى يا دائم الخفق والوجيب
أراكَ تهتاج بين هـذى الـ ضلوع كالثائر الغضـوب
كأنما أنت — والأمانى بعيـدة — ملْتَ للغروب
يا عجبا ! هـل رماك رامٍ غير أمانيكَ بالخطوب ؟
نارٌ كنار الغضى وجمر متقـد ثائر الشـبوب

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

العلوم

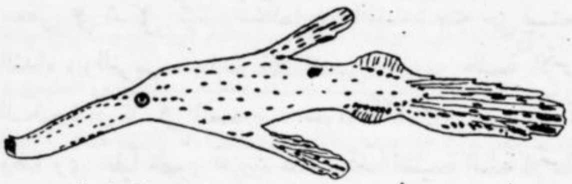
بعض الأسماك الغريبة بالبحر الأحمر

للدكتور كرسلاند
مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

لم تمض بضع سنوات قليلة على إنشاء الجامعة المصرية حتى فطنت إلى أهمية البحر الأحمر من الوجهة البيلجية . فأقامت على شاطئه الغربى محطة الأحياء البحرية بالغردقة لمساعدة البحاث من العلماء على دراسة هذا البحر واستنباط أسراره . وهنالك فى هذه المحطة يمكننا أن نشاهد دون ما عناء تلك الحيوانات الغريبة التى تختلف كثيراً عن حيوانات البحار الشمالية والبحر الأبيض المتوسط ، والتى لم يرها حية إلا نفر قليل من العلماء تكلفوا فى سبيل ذلك من المال والعناء الشىء الكثير .

ويكفى أن تجرف قاع البحر — قريباً من مرسى المحطة حيث تغزر الحشائش — بجرافة صغيرة كى تحصل على نحو من ثلاثين نوعاً من الأسماك الصغيرة ، أغلبها غريب فى شكله وعاداته . ومن هذه الأسماك فرس البحر والأسماك الأنبوبية الفم (Pipe fishes) ولا يبدو فرس البحر لأول وهلة من الأسماك ، لولا زعانفه الصغيرة . وقد فقد زعنفته الذنبية فليس يفيد الذنب فى العوم ، وانما يلتف حول الحشائش التى يعيش بينها فرس البحر فيمسك بها . أما الأسماك الأنبوبية الفم فبرغم جسمها العصوى الشكل الكثير الحراشيف ، فهى أشبه بالأسماك العادية من فرس البحر ويمكننا أن نرى جلياً حلقة الاتصال بينها وبين فرس البحر . فهنالك واحدة من الأسماك الأولى ذات ذنب قابض قد فقد زعنفته ، فاذا أخذت هذه السمكة وثنيت رأسها بزاوية قائمة ونفخت بطنها حصلت على فرس البحر . . كل هذه الأسماك تشابه الحشائش البحرية فى لونها ، وتحمل نقطاً حمراء قاتمة أو سمراء تشبه تماماً صدأ الحشائش التى تعيش بينها .

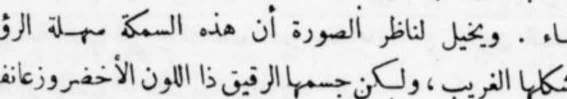
وتبلغ مشابهة الأسماك للحشائش أقصاها فى نوع ماصة الفم (Solenostomus) (شكل ١)



شكل (١) سمكة ماصة الفم (Solenostomus) فيصعب رؤيتها بين الحشائش البحرية

فهذا النوع يبلغ فى الطول ثمانية سنتيمترات ، ومع ذلك تصعب رؤيته جداً بين الحشائش التى يعيش بينها ، حتى خارج الماء . ويخيل لناظر الصورة أن هذه السمكة سهلة الرؤية لشكلها الغريب ، ولكن جسمها الرقيق ذا اللون الأخضر وزعانفها الصدرية العريضة والنقط السوداء المنتشرة عليها ، كلها تكسبها شكلاً يحول كثيراً دون رؤيتها بين الحشائش خارج الماء . فكم تتعذر رؤيتها فى مكانها الطبيعى ؟

وهناك جنس آخر لا يمت إلى الأسماك الأنبوبية الفم بصلة يعرف بالأمفسيل (Amphisile) (شكل ٢) يشبه الأولى فى فمها



ش ٢

(شكل ٢) أمفيسيل (Amphisile) سمكة ذات حراشيف كبيرة ملتحمة ، «ذ» الزعنفة الذنبية متحولة إلى الجهة البطنية «ظ» الزعنفة الظهرية وهى التى تكون نهاية جسم السمكة

الأنبوبى الماص ، وتغطى جسمه حراشيف كبيرة ملتصق بعضها

الآن فاهدأ فسوف نرضى — وتنطفى شعلة اللهيب
وأنت يا روح ، يا حياتى — يا هبة الرب والسماء
هبطت من عالم خفى — أنقى وأصفى من الضياء
يا روح ، هذى سحائب العمـ — ـر كالأواذيّ فى الفضاء
تمعن فى سيرها وراحت — تنتهب النور فى ظماء
يالى من العمر ! كيف ولّى — وانحدرت شمسه ورائى ؟!
يالى من الموت ! كيف حانت — واقتربت ساعة اللقاء ؟!

محمد متولى بدر

بعض ، تكسب السمكة صلابة فى الحركة — وجسم أسماك هذا الجنس مفرطح رقيق صلبٌ ، فهو أشبه شىء بحد السكين . ولا ينتهى بالذنب كالمعتاد ، فقد تحول هذا من مكانه الأصلى وتقدم قليلاً نحو الجهة البطنية . ويستدل من زعانفها الصغيرة على بطء حركتها — ولا يمكننا أن نتكهن كيف يعيش هذا السمك الغريب ، إذ يصعب الحصول عليه حياً أو على الأقل فى حالة جيدة ، وذلك بالرغم من صلابة حراشيفه التى هى بالنسبة إلى حجمه أقوى من درع التمساح . والمفروض كما وصف بولانجيه (Boulenger) فى كتابه « المربى المائى » (Aquarium Book) أن هذه الأسماك تتغذى على الحيوانات المائية الدقيقة تمتصها بفمها الأنبوبى .

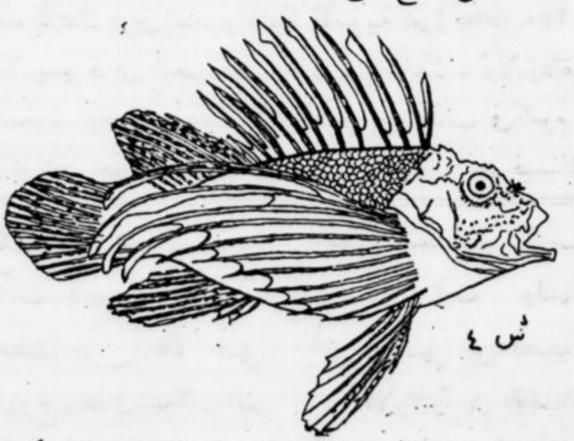
وتعطينا الأسماك الأنبوبية الفم مثلا من الأمثلة النادرة بين الأسماك ، اذ يحتفظ السمك ببيضه حتى يفقس ، وبيرقاته حتى تتطور وتصبح قادرة على الأخذ بأسباب الحياة . والذكر وحده هو الذى يرعى النسل ، فله كيس بطنى تضع الأنثى بيضها وتثبته فيه . ومن بين الأسماك الصغيرة هنا سمكة تلصق بيضها بعضه ببعض على شكل كرة ، تمسكها بفمها فتسد فتحته حتى ليستحيل الغذاء ، والغريب أنها مع ذلك تتنفس — ومن طبيعة الأسماك الكبيرة أن تأكل الصغيرة ، سواء أكانت من نوعها أم لا . وهنا نرى جلياً ظهور غريزة تخالف تماماً الطبيعة العامة للأسماك ، وهى تشبه فى ذلك غريزة بعض الأقراش الكبيرة (Sharks) يقال إنها تأوى صغارها فى فمها — ولا يمكننا أن نقول إن مثل هذه الأسماك يمكنها أن تتعرف صغارها ، فان عقل الحيوانات لم يصل الى الدرجة الدنيا التى يمكنه معها تمييز صغارها الا فى ملايين السنين بعد أن بلغت الأسماك نهاية تطورها المخى .

وعائلة السكوربينويد (Scorpaenoids) كلها أسماك قبيحة المنظر ، لها أشواك حادة فى كل مكان يمكن أن يظهر فيه الشوك . وكلها ضارة اذا أمسكت ، وبعضها خطر يهدد الحياة . اذ أن للأشواك غدداً سامة — ومن أفراد هذه العائلة أسماك صغيرة تعيش بين الحشائش المائية أيضاً ، ونحصل عليها بالجرافة . وهذه أدنأ أفراد العائلة وأقلها تخصصاً . ويمكن امساكها بشىء من الحذر . ومن هذه أخذ التطور طريقين . فنشأت من ناحية أسماك منتفخة كثيرة التجاعيد والنتوءات (شكل ٣) هى أقبح المخلوقات ، يبدو التمساح بجانبها حيواناً جميلا وديعاً . وقد بلغت هذه الأسماك حد مشابهة الصخور المرجانية فى شكلها ولونها حتى لتكاد تستحيل رؤيتها فى موضعها الطبيعى اذا وطئها انسان عارى القدم أو بحذاء رقيق أصابه ألم مبرح قد ينتهى بالموت . وهى غير منتشرة هنا ، وان كان يوجد منها نوعان . وشىء واحد نحمده لها ، ذلك أنها تلوذ بالفرار اذا أوجست خيفة أو لمحت انساناً يسير على الشعاب ، فاذا هربت سهل رؤيتها لوضوح زعانفها الصفراء الفاقعة ، فى أحد النوعين ، وخطوط عريضة بيضاء فى ذنب النوع الآخر ، فيها نحذر من شرها .



(شكل ٣) سمكة من عائلة السكوربينويد تسمى هنا (البومة) (Synanceia) تشبه تماماً الصخور المرجانية ولها أشواك سامة جداً

وذهب التطور من الناحية الأخرى الى سمكة تعرف هنا بالجِنِخْ — (شكل ٤) — (Pterois) وهى وان شابه جسمها جسم الأسماك العادية ملاسة ، الا أن لها رأساً مجعداً كبقية أفراد عائلتها . والزعانف فى هذه السمكة تأخذ شكلا غريباً ، اذ تطول أشعتها كثيراً وتصير أشبه شىء بريش الطيور ، وليست كزميلاتها تهاب أعداءها ، وتحاول التخفى بمشابهة الصخور والأعشاب ، بل تبدو جلية واضحة بألوانها الزاهية الجميلة . فجسمها مخطط أسمر وأشهب ، بينما ريشها الطويل ملون بالأحمر والأسمر والأبيض . وتكثر الجنانخ (جمع جنخ) هنا — وقد اعتدت أن أزور صخرة



(شكل ٤) الجنخ . الزعانف الصدرية والظهرية طويلة جداً وتشبه ريش الطيور وألوانها زاهية

مرجانية قريبة من المحطة لأتمتع بمشاهدة المرجان اللين النامى عليها ولألاحظ النجوم الريشية (Feather Stars) تخرج من جحورها .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

أقصوصة من الأدب المجرى

الأنشـــــودة

بقلم الكاتب المجرى يوليوس كرودى (١)

« أن ينفق المرء وقته فى الليـل ، تحت نافذة ، ومن وراء حجاب ، ولا يعمل شيئاً إلا أن يفكر فى امرأة ، أمر حاوله بلا ريب كل انسان فى هذه الحياة » . والحق أنه من السخف أن تجد رجلاً رزيناً يسير فى الطريق نهاراً رافع الرأس ، يُحمل من وقت الى آخر ، اذا ما جاء الليل على ارتـكاب الحماقة تحت تأثير الجوى والأفـكار التى تحملها الخفافيش ؛ فيذهب ليلاً ويتربص تحت نافذة ، بينما لا يشعر انسان بأمره ، وليس لعمله أى معنى ، إذ ربما كانت السيدة المنشودة تحلم فى مثـل هذا الوقت بأوراق « اليانصيب ، أو تحلم برجل آخر ؛ أو يعمد الى تلاوة نظم بوشكين تحت الأشجار ، بينما لا يصغى اليه انسان سوى الليل . . . والله شهيد على انه ليس ثمة حياة أكثر حزناً وإنما من حياة رجل عاشق ! »

دونت هذه الأسطر فيما مضى حين كنت أعتقد من الضرورى أن أسطر على الورق بعض مشاعرى ، فى مذكرة عتيقة ذات غلاف أحمر ، وقد مرَّ على ذلك زمن طويل ، وكنت يومئذ فى العشرين ؛ وكنت ألاحظ كثيراً من الأشياء المختلفة التى لا أتنازل اليوم بالالتفات اليها . وكنت أحب السياحة فى العربة من مدينة الى أخرى ، فكنت أحفظ أسماء نسيت أصحابها ، وأدون فى مذكرتى بكل عناية ما أقف عليه فى الفنادق العتيقة ، محطات أسفارى ؛ ففى فندق «الوردة البيضاء» كانت هناك آنسة خادمة تدعى فالى ، وكانت تتعلم الفرنسية خفية ؛ وسمعت صاحب حانة ليليـة فى الطريق الأعظم يتحدث عن الأمبراطور فرانز يوسف ، ويقول أنه مرَّ وهو فتى من هذا الطريق فى عربة تجرها

(١) من أعظم كتاب المجر المعاصرين (١٨٧٨ — ١٩٣٣)

وتنشر ريشها ساعة الأصيل . وقتئـذ يخرج الجنخ من مضجعه ويعوم بتؤدة وهوادة ، حتى اذا وصلت الى هذه الصخرة ، دفعت رأسها الى أسفل ، ونشرت أجنحتها الـكبيرة أفقياً ، ورفعت زعنفتها الذنبية ، وهى كالزعانف الظهرية الخلفية والشرجية رقيقة شفافة تصعب رؤيتها فى الماء . وتمـكث هكذا طويلا دون حراك ، ولا تزال الغاية من عملها هذا سراً خفياً .

***

البحر الأبيض المتوسط بحر النور والألوان ، ولـكن الخبيرين بأحيائه يشـدههم كثيراً زهاء الألوان فى أسماك البحر الأحمر عندما يزورون الغردقة — لا يقتصر ذلك على الأسماك الدقيقة ، التى تسبح كالفراش بين الشعاب المرجانية ، أو التى يجاور بعضها بعضاً فى الـكهوف بين المرجان — بل يتعداها الى الأسماك الغذائية الـكبيرة . وقد يظن من ليس لهم خبرة الا بأسماك المنطقة المعتدلة ، أن الصور التى نشرها روبل (Ruppell) سنة ١٨٢٩ لم تكن الا محاولة ضـعيفة لتصوير ألوان هذه الأسماك ، وأن فيها قدراً من المغالاة غير يسير ، اذ ما كان فى استطاعة الطباعة فى ذلك العصر أكثر من ذلك . والحقيقة إن روبل لم يغال مطلقاً ، بل ان معظم الصور جاءت كأدق ما يكن عمله الآن بالطرق الحديثة ، فقد يجتمع فى بعض الأحيان الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر الى غير ذلك جنباً الى جنب فى خطوط أو بقـع ، دون أن يختلط أحدها بالآخر وأحياناً تمتزج هذه الألوان الواحد بالآخر فى أجمل صورة . وأخرى قرمزية لا يداخلها لون آخر ، غير أن لها بريقاً فضياً يكسبها جمالاً لا نجده فى أى سمكة فارقت الحياة ، مهما بلغت من الجمال فى حياتها .

كيرلس كرسلاند
مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

أربعة جياد ؛ وفى بلدة صغيرة تحف بشوارعها الأشجار وتتدلى أغصانها ذابلة ، وتأتى اليها أصوات الأجراس خافتة من وراء التل كأنما تأتى اليها من أجراس البلدة المجاورة ، كانت هررة هزيلات تجوب طرقاتها يوم الخميس المقدس ، وثمة رجل فى فناء داره يشمر عن ساعديه ويحتسى النبيذ الأحمر ويقرأ فى جريدة عتيقة ، وهو كئيب كأنه متسول ترك هنالك جيش الأمبراطور ؛ وترى فوق التل أطلال كنيسة متهدمة تنعى حظها ، وعن بعد مجرى نهر يترقرق بين القصب القصير ؛ فى تلك البلدة كنت أطوف ذات مساء ، غريباً لا يعرفنى أحد ، لأن سائقى احتسى من الشراب أكثر مما يجب ، وأبى قطعاً أن يواصل السير فى ذلك الحلك الذى يغمر كل شىء .

والحق أنى لست أذكر بعد اسم تلك البلدة ، ولا بد أنها تقع فى ناحية من شمال المجر ، فقد كان لها قنطرة مغطاة ودار بلدية ذات تماثيل للقديسين . وكان المطعم يسمى «الفندق الأرجوانى» فذهبت أتعشى وحيداً غريباً ، لأن سائقى أبى إلا أن يتسلل هذا المساء إلى مكان معين ، وأذكر أنى اخترقت حديقة صغيرة ؛ وكان ثمة فى المقهى الصغير محصلة تقرأ جريدة مصورة وهى تعتمد رأسها بيديها اللتين تغوصان فى شعرها المتهدل ووراء باب مدهون باللون الأبيض يبدو فناء صغير يجلس فيه بعض الموظفين فى صدريات سود وهم يدخنون « السيكار » إلى جانب الكؤوس الصغيرة ؛ وكنت تسمع عن بعد شخصاً لعله طالب ينفخ فى مزمار ، ويغنى تلك الأنشودة التى أولها : « إذا ما ابتعدت يا حبيبتى » فقلت لنفسى : أجل توجد هنا أيضاً قلوب ، وتوجد عواطف . . . وكان ذلك مساء ربيع ، وربما كان الطالب المذكور قد رسب فى الامتحان

وكانت الحديقة تمتد جانباً فى قفر مطبق ، يذكرك بقفر فناء المحكوم عليهم ، ولا بد أنها تكون فى العصر منتجع الشيوخ ، والضباط أو ذوى المعاشات ، يفكرون فى موتاهم أو فى خليلاتهن القديمات ؛ وكانت أشجار الصنوبر التى ترتفع فوق كل مقعد هزيلة محزنة كأنها حياة تصرمت وانطفأت فى غمار السل ؛ وكان يعمر هذه المقاعد أحذية عتيقة وسترات خرجت عن الثرى ، وفوق الحصى الصغير الذى يغطى المشى ، ترسم العصى الباهتة التى ربما كانت فى شبابها أيادى مظلات ، خطوطاً ذاهلة

جلست على مقعد ، وأخذت أفكر فى شتى الأمور المحزنة : فى نساء البلدة المسكينات اللاتى يرتدين أثواباً شديدة الحفيف ويبكين أكثر مما يضحكن ، وفى الرجال الحزانى الذين يتجملون توقعا لرؤية الأميرة الحسناء ، ولن تأتى الأميرة قط ، وفى المحادثات العقيمة التى تدور حول المائدة المقفرة أو فى السرير المضنى لمعرفة من هو أغنى انسان فى البلدة ؟ وفى الشهر القادم ستأتى فرقة تمثيلية الى « الفندق الأرجوانى » . . . وكثيراً ما يعرف الأزواج أن لزوجاتهن عاشقا !

آه ، تباً لحياة البلدة الصغيرة من حياة محزنة ذات رائحة كرائحة كسرات الخبز ؛ وفيها يضج المرء بالضحك ، ولكنه لا يستطيع أن يتناول فيها عشاءه . رباه ، إن النساء هنا لا يتكلفن العناية بالنظافة ، إذ يستوى ذلك عند الرجال .

شعرت أننى جد تعس ، إذ قضى على أن أضيع وقتى فى تلك النزهة الحقيرة المحزنة فى البلدة الصغيرة ، بدلاً من أن أجلس فى مقهى فخم فى مسكولك أو كاسا أو بودابست .

وكانت نغمات المزمار قد انقطعت حيناً ، ولكنها عادت فدوت فى الحديقة ذاتها . وإذن فقد كان الموسيقى الفتى موجوداً هنالك ؛ وكان يقوم فى ركن المكان الى جانب الحاجز منزل عتيق له نوافذ صغيرة جدا ، حتى لا يتسنى لغير رأس امرأة رشيق جدا وهزيل جدا أن يبرز منها

وكانت النجوم منزورة لا تسطع فى ذلك المساء المظلم ، وربما لم تك ثمة نجوم فوق تلك البلدة الموحشة . وكان هنالك مصباح زيتى ينشر ضوءه ، ويتأمل ذات اليمين وذات الشمال وجلاً كأنما يخشى أن يقيم رجال المطافىء احتفالهم فى تلك الليلة ، وعلى بعد تقوم منازل ضيقة ، لا يعمل ساكنوها بلا ريب شيئاً طول حياتهم إلا أن يقتصدوا وأن يتكوا ، ولا يفكر نساؤها منذ العشرين فى شىء سوى غسل الثياب

وكان صاحب المزمار يعزف أنشودة محزنة تحت الأشجار ، ولا ريب أنه كان يقصد بعزفه ماوراء الحاجز ، وربما كانت لأنشودته صبغة غرامية ، وربما كان مؤلفها الشاعر المتوفى يحيى فيها القمر أو الصبية ذات العينين البراقتين ؟ بيد أننى لم آنس

فيها شيئاً غــير الذلة والمرارة والفقر ، والسلوة الوحيدة لفتى مسكين من القرية . . . رباه ، وكنت قد عرفت يومئذ خادمات فرنسيات .

وأخذت الموسيقى تنحـدر الى الأنين شيئاً فشيئاً ، وكانت الأنشودة تضرع تضرع السائل ، الى سيدة لاتريد — وربما كانت أيضاً حمقاء آثمة — أن تصغى من فوق الحاجز الى اعتراف فتى ، لعله فى ظروف أفضل كان يصلح أن يكون فارساً فى ملعب ، أو حاجبا فى حانة ليلية فى بودابست يلقى على الغانيات أجوبة ساخرة . . .كان الزمار يئن كالهرة المريضة ، وكأنك ترى وجهاً شاحباً لفتى تعس لايملك من المال ما يمكنه من التلهى بلعبة « الخشب » (لعبة مجرية قومية) ، وكان البؤس المؤلم الساحق والثياب الخلقة ، والمستقبل الذى ينذر بما هو أشنع ، كلها تبكى فى الأنشودة ، ذلك المستقبل الذى ربما استجابت فيه السيدة الخفية الى التضرع ، وأتت للفتى البائس بعدة أولاد لاخير فيهم

نهضت من مكانى وسرت لأبحث عن ذلك الفتى الذى يعزف بزمباره بين الأدغال

وقد كان حدثاً ذا محيا حزين بائس ، وربما كان كاتب مسجل فى البلدة ؛ وكان مكشوف الرأس ، وشعره الأشقر كث منفوش قائم كالمسامير

فقلت له بمنتهى الخشونة : عد الى منزلك ، ولا تسمم هواء هذه الحديقة ؛ ألا تشعر بالخزى إذ تذل نفسك على هذا النحو من أجل امرأة ؟

ثم هرولت فأيقظت سائقى من سباته ؛ وفى الليـلة نفسها غادرت البلدة الصغيرة ، التى شعرت فيها بمثل ذلك الأسى من جراء عازف سخيف .

٥ ـ سـافو

لأوجيبه اميـل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

حنا — لنر الآن ماذا أكتب إليك : « لا أنسى عطفك على زيارتى يافنى » ولـكن متى كان ذلك (يقرأ) إبريل من هذه السنة . . إذن فقد أقدمت على زيارته وأنت معى . . .

فنى — شفقة به وحياتك عندى

حنا — (يقرأ) : « وإنى أفكر الآن فى أمر ولدنا . . » ولك منه ولد ؟

فنى — نعم . فماذا تريد الآن

حنا — ها . ها . ما أكبر فخرك بهذه البذرة التى نبتت فى السجن !

فنى — (صارخة شامخة فى غضبها) لاترد على ذلك حرفاً

حنا — وما أجمل طفلاً أبوه فرومان وأمه سافو !

فنى — لاتسبه فهو ولدى

حنا — (وقد غلبته صرخة الأمومة) حسناً

فنى — (بصوت مخنوق) قضى الأمر بيننا ، فعد إلى أهلك لعلك تسعد إلى جانبهم

حنا — يالك من قذرة !

فنى — يالأمك وابنة عمك من حواصير !

حنا — ماذا ؟ (يهم بضربها فتحتقره هازة كتفيها)

فنى — حقيقة إنك نذل . أخرج الآن من هنا

حنا — على هذا عزمت (يأخذ حقيبته وعند ما يصل إلى الباب يلقى الخطاب فى وجهها ثم يختفى فتتناوله وتضعه فوق المائدة وهى تبكى وتنشد)

فنى — ظلمونى وأسرفوا حين تموا وأرجفوا
كم تخيلت أنــه ذو شعور فيعطف
فاذا الطبع واحــد دب فيه التعسف
وإذا من بذكره كنت فى الحب أهتف
حانث فى يمينــه واعــد وهو مخلف
قضى الأمر لم يعد لى من الناس منصف

الفصل الرابع

(فى أفينون منزل أسرة جوسين الى اليمين ، وله حديقة بئرها فى الجهة اليسرى ، وعلى بعد نهر الرون . والأشخاص حنا ووالداه وإيرين ثم سافو وهم عدا سافو على المائدة حيارى لحزن حنا ، وعندئذ تشير ديفون اشارة فيخلو المكان إلا منها ومن ولدها .)

ديفون — مالك ياحنا ؟

حنا — أمى !

ديفون — (تمسح رأسه بكفها) مِمّ تشكو ياولدى ؟

حنا — لا أدرى !

ديفون — لا تكذبنى . أحدث لك حادثٌ هناك ؟

حنا — كلا . ياأمى

ديفون — إذن لِمَ تعجّلت العودة حتى كأنك فررت إلينا فراراً ؟ .

حنا — لا ، لاشىء يا أمى

ديفون — لعل امرأة خدعتك أو حباً غير موفق صادفك ؟ . لاتخف عن أمك شيئاً ياحنا . إنك لاتجهل مالك فى فؤادها من الحب .

حنا — أمى . ما أخطأتِ ولكنى شُفيت

ديفون — أصدقنى ياحنا

حنا — كانت ياأماه ثورة ولكنى نسيتها ، فهل أستحق بعد ذلك صفحك عنى ؟ .

ديفون — وماذا فعلتَ مما يستوجب صفحى ياولدى ؟

حنا — آه ليتك ياأماه تنزلين الى أعماق نفسى ؟

ديفون — إن حنو الأمهات يخترق الحجب فتتكشف لهن الأحزان والدموع

حنا — ليقاسمن أبناءهن إياها

ديفون — نعم يا بنى حتى تغسلها قُبلاتهن . تشجع ياحنا واذا عادت اليك همومك فأستحلفك ألا تكتمها عنى

حنا — سأفعل ياأماه ودعينى أضمك

ديفون — نعم . نعم تعال فادفن همك عند صدرى (يضمها)

حنا — الآن خف حمل ألمى . وهدأت ثورتى . وربما أخطأ الحزن بعد ذلك طريق قلبى مادمت الى جانبى

ديفون — اذن أدعك لأزف الى أبيك هذه البشرى ، فانه يطرب اذا رأى نور السكينة يتلألأ فى عينيك

حنا — نعم أسرعى اليه ياأمى (تخرج أمه)

ايرين — (مقبلة على حنا) ماذا يحزنك يا ابن عمى؟

حنا — لست السبب على كل حال يا إيرين

ايرين — ألستُ صديقتك . أنسيت مريم ويوسف ؟ . إننى ساعة الأسى أندفع الى صدر صديق تذيب حرارته همى ويطرد حديثه وحشتى

(يدخل سيزار)

سيزار — (مسرعا اليه) حنا

حنا — (مندفعاً اليه) أبى

سيزار — (لأيرين) اذهبى أنت لديفون

ايرين — ولمَ لاأبقى ؟

سيزار — قلت لك اذهبى

ايرين — كأنك غاضب على ؟

سيزار — لا . ولكن دعينا الآن (تخرج حزينة) (لولده) آه ياولدى المسكين . إنها هنا . . .

حنا — (مضطربا) هنا ؟ أو عادت ؟

سيزار — نعم وتلحُّ فى أن تراك !

حنا — سافو ؟

سيزار — نعم هى ياولدى . أحسبتنى عميت عن أمركما وأنت تكتمه عنا . ولكن تشجع عند مقابلتها ياحنا

حنا — سأكون عند نصيحتكَ يا أبى ، ولقد كنت من برهة أنتفض وأتلوّى . أما الآن فسأستقبلها بقلب ثابت . نعم نعم يا أبى (سيزار يخرج وتتقدم سافو بخطى بطيئة وهى تنظر حولها حتى إذا وقع بصرها عليه أسرعت نحوه ثم وقفت فجأة)

سافو — (بعد سكوت طويل) لا تعتب على إذ عدت وما ودعتك الوداع الأخير . وقد كنت وأنا بعيدة عنك أشعر بألم خفى يعذبنى . أما الآن وقد رأيتك فقد ذهب ألمى .

حنا — إننى لا أحمل لك فى نفسى غلاً

سافو — (والألم يرجها) ماذا ؟ آه لو تعلم كم بكيت وكم

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

الكتب

ماقل ودل

بقلم أحمد الصاوى محمد

جزءان فى نحو ٥٨٠ صفحة طبع دار الكتب

عنوان هذا الكتاب هو نفس العنوان الذى يتخذه مؤلفه منذ أعوام عنواناً لما يكتب كل صباح فى جريدة الاهرام الغراء، وما يحتويه الكتاب هو مجموعة مختارة من هذه القطع التى غدت تقرن باسم كاتبها.

ولمؤلف ماقل ودل طابع خاص يسبغه على مقالاته؛ فهو يتناول من مادة الحياة اليومية مسائل الساعة، مابين اجتماعية وأدبية واقتصادية، ويعالجها بايجاز ولكن بوضوح؛ ويميل بنوع خاص الى تناول المسائل الاجتماعية وعلاقات الجنسين ومسائل الزواج والأسرة، ويبسط فيها آراءه المحدثة ببساطة وشجاعة. وقد لاتوافقه أحياناً على كثير من آرائه وتعليقاته، ولكنك تأنس دائماً فيما يكتب حرارة الاخلاص، وحسن القصد ومحاولة الاصلاح.

وعندنا أن عنصر الفن يتغلب عند الأستاذ الصاوى على عنصر الكتابة، فهو يكاد يرسم أكثر مما يكتب؛ ومقالاته تبدو كأنها صور سريعة لما يتناول، ويخيل اليك فى كثير من الأحيان أنك تتأمل فيما يكتب صورة رمزية ناطقة لما يجول فى ذهنه. وأسلوبه بسيط واضح ينم عن خفة روح ودعابة مستملحة فى كثير من الأحيان، وهو لذلك لايتكلف اختيار اللفظ أو إجادة البيان، لأنه يتجه دائماً فى خطابه الى الرجل «المتوسط»، والى الشباب اليافع؛ ولايهمه أن يمزج العربية بالعامية فى أحيان كثيرة، لأنه يرى ذلك المزج من مقتضيات البساطة والسلاسة فى عرض مايريد لمن يريد. وهذا أسلوب له أنصاره ومؤيدوه؛ ولكن له معارضوه أيضاً، ممن لايسيغون مثول الألفاظ العامية الى جانب الألفاظ العربية بمثل هذه الحرية وهذا الاسراف؛ وقد يسيغون وجود اللفظ أو العبارة العامية لضرورة محلية لايؤديها البيان الفصيح؛ ولكن كثرة الألفاظ العامية مما يذهب دائماً بقوة الأسلوب ورواءه، وإن كانت تكسبه فى بعض الأحيان لوناً من الخفة والدعابة.

ولسنا بحاجة بعد ذلك الى أن نقدم الكتاب ومؤلفه، ففيما يكتبه الأستاذ الصاوى كل صباح فى الاهرام الغراء خير تقدمة، ولكن الذى نريد أن نهنىء الأستاذ الصاوى عليه حقاً، هو توفيقه فى حل مشكلة النشر والتوزيع بطريقة يغبط عليها، فما زال الكتاب فى مصر يعانون متاعب هذه المشكلة؛ وليس فى مصر ناشرون يعتمد على فطنتهم وأمانتهم وحسن تقديرهم؛ وما زالت معظم جهود المؤلفين نهباً لتجار الكتب. وقد وفق الأستاذ الصاوى الى تجنب طغيان هؤلاء السادة، واستطاع فى شجاعة

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

هدنى الجهد حتى لا أدرى كيف أننى لم أزل من بين الأحياء (بدهشة) أترانى تغيرت؟

حنا — وهل تقيمين دائماً هناك؟

سافو — وأين تريد أن أقيم؛ وهناك تلك الذكريات التى أحيا عندها بالألم. وكثيراً ما كنت على أثر البكاء تقتلنى وحدتى فأضطر إلى العمل لأتسلى. وكم من مرة كنت أستيقظ عند الصباح باسمة فأرتدى ثوبى الأبيض وأصلح شعرى على ما كنت تحب، ثم ألزم نافذتى إلى مغرب الشمس، وأنا أتسمع خطواتك وأتلمس عودتك، حتى إذا يئست أغلقتها واستسلمت لحــزنى.

«يتبع» محمود منيرت

المهاتمـــا غاندى

حياته وجهاده

للأستاذ فتحى رضوان المحامى

أثارت شخصية غاندى وحياته ومبادئه الروحية ، وأساليبه السياسية فى الأعوام الأخيرة كثيراً من الاهتمام فى جميع أنحاء العالم ؛ وكان غاندى منذ سنة ١٩٢٠ أعظم شبح يروع السياسة البريطانية فى الهنـد ، وكان لذلك الرجل الذى يضطرم جسمه النحيل بقوة روحية هائلة فى الأعوام الأخيرة مواقف اهتزت لها السياسة البريطانية ، واضطرت أن تنحنى أمامها ، أشهرها موقفه سنة ١٩٣٠ حينما أعلن العصيان المدنى الأكبر ، وأشهر دعوة عدم التعاون ، واضطرمت الهند من أقصاها الى أقصاها بدعوته ، واضطرت حكومة الهند الى اتخاذ أشد الاجراءات الدموية لسحق الثورة ، واضطرت الحكومة البريطانية أن تصرح على لسان اللورد ايروين حاكم الهند أنها ترمى الى السير بالمسألة الهندية الى منح الهند استقلالها الذاتى ، وأنها تعقد لبحثها مؤتمراً خاصاً هو الذى عرف بمؤتمر المائدة المستديرة ، والذى استدعى غاندى من أعماق سجنه الى شهوده ، بعد أن التزمت حكومة الهند بوقف الاجراءات الاستثنائية ، وإعادة النظر فى ضريبة الملح ؛ ومن مواقف غاندى المشهورة أيضاً ، موقفه منذ عامين فى مسألة المنبوذين حينما أعلن أن يصوم حتى الموت مالم تعدل الحكومة البريطانية موقفها نحو المنبوذين ؛ ولبث غاندى فى صـيامه حتى أشرف على الموت ، واضطرت الحكومة البريطانية فى آخر لحظة أن تنزل عند وجهة نظره نحو المنبوذين اتقاء لموته ، وما يجره ذلك الموت فى الهند من العواقب الخطيرة

هذه الحياة العظيمة الفياضة بمواطن الكفاح القومى المضطرم ، ومواطن القوة الروحية الهائلة ، يتناولها الأستاذ فتحى رضوان فى سفر كبير تربى صفحاته على الثلاثمائة . وقد سبق أن نشر الأستاذ فتحى رضوان عن غاندى عدة فصول قيمـة فى بعض الصحف اليومية ؛ ولـكنه يقدم الينا الآن دراسة كاملة متصلة عن حياة هذا البطل القومى الممتاز . فأعوام غاندى الأولى ، ثم مراحل الدراسة فى الهند وفى انكلترا ، ومرحلة الحياة العملية الأولى فى المحاماة ، ونزوح غاندى الى جنوب أفريقية . حيث هاله ما رأى من اضطهاد مواطنيه وجهاده فى سبيل إنصافهم ، وبث الدعوة الأولى الى عدم التعاون ، وظفره فى هذا الـكفاح ؛ ثم استئناف العمل فى الهند ، ونمو الدعوة الى عدم التعاون ، وحياة السجن والمحاكمات المختلفة ، ومراحل الـكفاح القومى المختلفة حتى سنة ١٩٣٠ — هذه كلها يفصلها الأسـتاذ فتحى رضوان فى إفاضة وترتيب ووضوح — ونلاحظ فقط أن المؤلف فاته أن يشرح أدوار المسألة الهنـدية ، وما اتخذته السياسة البريطانية نحوها فى الأعوام العشرة الأخيرة ، وأعمال لجنة الأصلاح الدستورى وما يتعلق بها . فهذه كلها مسائل هامة يجب أن يستوعبها كتاب يوضع عن غاندى ؛ ونلاحظ أيضاً أنه لم يتناول مراحل الـكفاح التى خاضها غاندى فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ، وقد كان حرياً به أن يتناولها .

وفى حياة غاندى عبر قومية عميقة يجب أن يستعرضها شباب الأمم الشرقية المغلوبة . ومن واجب الشباب المصرى أن يدرس هذه الحياة الفياضة بمواطن الـكفاح القومى . وبين الهند ومصر محنة مشتركة ، وعدو مشترك . فيجدر بشبابنا المثقف أن يقرأ حياة المهاتما غاندى . وأن يدرس ما فيها من أسرار العظمة ومقومات البطولة القومية .

« ع »

ولباقة أن يتجه الى قرائه رأسـاً وأن يقدم إليهم كتابه بطريق الاشتراك ؛ واستطاع أن يخرج لهم كتابه فى جزءين كبيرين ، وفى أتقن طبع وأجوده ، محلى بالصور الرمزية الممتعة ؛ وذلك كله بثمن لايتجاوز عشرة قروش للجزءين !

وإنا لنرجو أن يكون فى هذا المجهود الموفق عبرة للناشرين فيحد من جشعهم وطغيانهم ؛ وأن يكون فيه درس يستفيد منه الـكتاب والمؤلفون .

كما نرجو لمؤلف « ماقل ودل » ماهو جدير بأدبه وفنه من تشجيع وتقدير م؟

2 me Année, No. 62.

Lundi-10-9-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٢ « القاهرة فى يوم الاثنين أول جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

٣ ، ٢٦

حقائق التـــاريخ

لايمكن أن يطمسها التشريع

صُفد القلم ، وصُفدت حرية الرأى والفكر فى مصر ، فى الأعوام الأخيرة ، بأغلال وقيود شتى لم نعرفها حتى فى أشد أيام الاحتلال ؛ والتمس المشرع لصوغ هذه الأغلال والقيود مختلف المعاذير فى مختلف الفرص ؛ فتارة يقال لنا إنه يشرع لحماية النظم الأساسية للدولة من الدعوات والمبادىء الثورية ، أو لحماية الحكومة والهيئات العامة من مطاعن خصومها السياسيين ؛ وتارة يقال لنا إن سيل الأدب الملحد أو الماجن يكاد يطغى على الدين والأخلاق ، فهو يشرع لحماية الدين والأخلاق ؛ وكان التشريع يجرى فى هذه الحدود الى ماقبل بضعة أعوام ؛ وكنا نعتقد أن المشرع قد وصل فى مختلف القوانين التى أصدرها الى ذروة الشدة والتحوط لما يريد تحقيقه من الغايات السياسية والاجتماعية ، وأنه لم تبق للقلم والرأى حريات حقيقية يستطيع أن يحد منها بعد ؛ ولكن صدرت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة عدة قوانين جديدة للقضاء على مابقى من مظاهر حرية الرأى والقلم ، أولها قانون الصحافة المعروف ، وثانيها قانون تحريم نشر الأخبار الجنائية والقضائية والادارية إلا فى حدود معينة ، وثالثها قانون تعديل

العقوبات الخاصة بجرائم النشر والسب والقذف ، ودفعها الى حدود لم يسمع بها من قبل ، وأخيراً ، فى هذه الآونة ، يقال لنا إن المشرع ينشط من جديد لفرض أغلال وأصفاد جديدة لاعلى الصحافة وحدها ، بل على ناحية أخرى هى عرض التاريخ أيضاً .

إذاً لم تنته حلقات هذه السلسلة المدهشة من قوانين وأحكام فريدة فى شذوذها وشدتها ، بل يراد أن تكمل بما يرى المشرع أنه نقص فى حلقاتها حتى يكمل سحق البقية الباقية من هذه المظاهر الضئيلة التى يستطيع القلم المصفد أن يبدو فيها خلال هذه الخطوب التى تغمره ؛ ويراد فوق ذلك أن يتناول التشريع الجديد ناحية علمية أدبية محضة كان المشرع يحوم حولها من قبل بطرق ونصوص غير مباشرة ؛ ولكنه يزمع اليوم أن يتناولها صراحة وبطريقة مباشرة ؛ فيفرض قيوداً خاصة على كتابة التاريخ ، ويعاقب أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بحرية العرض أو النقد فى تدوين حوادث التاريخ أو تراجم أشخاصه .

ليس هنا موضع التحدث عن هذه القوانين من الناحية الدستورية أو السياسية فقد قتلتها الصحافة السياسية من هذه الناحية بحثاً ومناقشة ؛ ولكنا نريد فقط أن نتحدث عن أثر هذا التشريع المنشود فى سير الحركة الأدبية والمباحث التاريخية .

لا ريب أن هذا الحجر الجديد على عرض الحقائق التاريخية سيثير صعاباً علمية جمة ، وسيكون ضربة شديدة لحرية البحث ونزاهته ؛ بيد أنه لن يحقق الغاية التى يعقد عليه تحقيقها ؛ وقد أشير إلى طرف من الأسباب التى تتخذ حجة لتبرير هذا الحجر ، فقيل إنه قد ظهرت فى العهد الأخير كتب ومباحث تاريخية بها مطاعن ومثالب فى حق بعض الأمراء السالفين ورؤساء الحكومات الأجنبية الحاليين ، واتخذ العرض التاريخى شعاراً لهذا التجريح ، وانه يجب أن يوضع حد لذلك . وجوابنا أن حقائق التاريخ لاتتجزأ ، والمؤرخ المحقق لايمكن أن يتقيد فى سرد هذه الحقائق إلا بالمراجع والأسانيد والوثائق ، ولايمكن أن يخضع لغير ضميره ومقتضيات الحق والنزاهة . وحياة الذاهبين من الزعماء والقادة ملك التاريخ ، لاسلطان لانسان عليها غير سلطان العلم ؛ فالتوسل بالتشريع إلى طمس الحقائق التاريخية تدخل غير مسوغ فى حرية العلم والبحث ، وبجن على الحقيقة لايخلق بعصرنا عصر العلم والحقيقة والنور .

والحجر على حرية البحث والكتابة على هذا النحو يلقى سحبا من الشك على قيمة الكتب والمباحث التى تصدر فى ظله حتى ولو كانت جديرة بالتقدير ؛ ومن المستحيل أن تنقلب المثالب إلى مناقب بقوة التشريع ؛ والعلم ليس له اليوم حدود ولا وطن ، فاذا استطاع المشرع أن يصفد الأقلام فى مصر ، فليس فى وسعه أن يصفدها فى أي أرض أخرى ؛ وأرض الله واسعة . والتاريخ يكتب بكل اللغات الحية ؛ وهذه اللغات تقرأ فى مصر ، كما تقرأ فى غيرها . هذا إلى أن مالدينا اليوم من الكتب والمباحث فى الميادين والموضوعات التى يراد حمايتها بقوة القانون يلقى عليها ضياء لايمكن أن تطمسه بعد أية قوة أو بطش .

كان لويس الخامس عشر يعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للملكية الظالمة الباغية المسرفة ؛ وكانت النشرات القاذفة تنثال عليه إبان حياته من أقلام قاسية لاذعة كقلم ڤولتير ؛ فكان الباستيل مأوى القاذفين ؛ ولكن هل استطاع الباستيل وكل ضروب البطش والمطاردة الأخرى أن تخمد الصيحات المنبعثة أو تطمس الحقائق الثابتة فى هذه الحياة الفياضة بالأثم والبغى ؟ ومع ذلك فقد وجد فى أيامنا من كتاب التاريخ من يذهب فى سيرة هذا الملك رأيا آخر ، ويقول إن التاريخ قد ظلمه ، وأنه كان فى أخطائه ومثالبه دون ما يصوره بكثير .

وكانت لوكريزيا بورجيا إبنة البابا اسكندر السادس تعتبر حتى عصرنا أشنع مثل للأميرة الفاجرة التى تضطرم بأوضع الأهواء والشهوات ، وتنحط إلى أسفل درك من الرذيلة والأثم ، فجاء أخيراً مؤرخ بارع هو العلامة فونك برنتانو ، وأصدر كتاباً عن حياة هذه الأميرة ، وفيه يصورها لنا امرأة عفيفة فاضلة ، ويدفع عنها كل الجنايات والآثام التى نسبت إليها . وكان الباستيل يعتبر حتى عصرنا أروع سجون التاريخ فجاء فونك برنتانو أيضاً يقول إن الحياة فيه كانت ناعمة ، وكانت تنتظم بين جدرانه القاتمة جميع مجالى اللهو والانس والترف .

والخلاصة أن التاريخ ملك البحث الحر وملك الزمن ، فاتركوه يجر مجراه الحر ؛ وثقوا أن من المحال أن يحول التشريع دون ظهور الحقائق غير المرغوب فى ظهورها ؛ فللتاريخ مسمع جاد يصل الى ماوراء الجدر ، وبصيرة ثاقبة تنفذ إلى أعمق الظلمات . وإنما تطلب الحماية للحقيقة لا لغيرها .

« مؤرخ »

ســـيدنا

للأستاذ أحمد أمين

كان لسيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن كتّاب فى حى وطنى فى قسم الخليفة ، أسلمنى له أبى وأنا فى السادسة من عمرى .

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف ، يتكون من طابقين ، طابق أرضى فيه حجرتان احداها سبيل لسقى الماء كان قد هجر عندما ذهبت اليه ، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً ، وفى الطابق العلوى حجرتان كذلك ، احداها لأولاد الكتاب يقرأون فيها ، والأخرى لسيدنا أيضاً ، وبين الحجرتين «فسحة» فى أحد أركانها زير ماء لاتعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان ، وعليه غطاء من خشب ، قد كسر ولم يهتم أحد باصلاحه ، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شُد بحبل فى مسمار فى الحائط ، حتى لايذهب به الأولاد من مكان الى مكان ، وخشية أن يقع الكوز فى أسفل الزير ، فاذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل ، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه ، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه .

وأدوات الكتاب : حصير فرش على البلاط ، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه ، ومع ذلك يبقى الى أن يحنن الله على سيدنا فيشترى حصيراً جديداً ، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع فى زاوية من زوايا الحجرة ، نضع فيه ألواحنا — وهذه الألواح أكثرها صفيح ، تسوَدّ أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لاتتبين الكتابة منها — وكيف يبين أسود من أسود ؟ وأقلها خشب قد طلى بدهان أبيض ، وله أطار لُونَ بلون بُنى ، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم .

هذا كل ما بالكتاب من أدوات ، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله ، وهو مجموعة عصى من جريد النخل ، تختلف طولاً وقصراً ، أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يُسمّع عليه اللوح أو « الماضى » فيخطىء فتدركه هذه العصا ، وأما الطويلة فعند ما يرى سيدنا طفلاً فى آخر الحجرة لايهتز وقت قراءته أو يتهاون فى حفظه ، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا « اهتز ياولد » — وقد كان لهذه العصى ماطال منها وما قصر ، أثر فى نفوسنا لاينكر ، فكثيراً مارعبنا لأن خيالنا صوّر لنا أن سيدنا يريد أن يهوى علينا بعصاه ، وفى الواقع لم يكن شىء من ذلك ، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا ، ويحصل هذا أحياناً حتى فى البيت ، فننسى أننا خرجنا من الكتاب ، وأننا بين أهلينا ، فنجفل بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا فى الكتاب .

وإلى جانب هذه العصى « فلقة » وهى عصى غليظة من خشب متين قد ثقب فى وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر ، وركب فى هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه ، فاذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه فى هذا السير ولواه عليهما ، وأمسك بطرفى الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب ، فلم تستطع الرجلان حركة ، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح « فى عرضك ياسيدنا » « حرمت» «أتوب» ! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبي وسال منه الدم ؛ وكان عزائى الوحيد أنى مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين .

وهذا كل ما كان فى الكتاب من « موبليات » .

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً ، ويكتب كتابة عاجزة ، وهذا كل ماله من ثقافة ، كان يطوف فى الصباح على البيوت يقرأ فيها ماتيسر من القرآن ، ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته ، وكان موظفاً فى مسجد يؤذّن فيه ، فاذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للأذان والصلاة — وفى غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه ، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا ، فكنا نتنفس الصعداء إذا خرج ، ونصاب بالرعشة إذا حضر .

وكان برنامج الكتاب ينحصر فى كلمة هى « تحفيظ القرآن » فيبتدىء بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة ، فأول درس كان هو « أألف » وهى كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب فى مدرسة القضاء . إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف لكانت ألفاً ولاما وفاءً ، وما أدرى ماالسر فى هذا البدء على هذا الوضع — حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن فى اللوح يحفظه كل يوم وهو فى اثناء ذلك « يثبت الماضى » ويمضى النهار كله فى هذا الباب ، فلا إملاء ولا حساب ، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك ، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء .

فاذا حان الظهر جمع « سيدنا » من كل ولد ملليمين أو ثلاثة

أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين ، أحدهما فيه قليل من فول نابت وكثير من مرق ، والآخر مملوء مخللا بمائه وخله ، وتحلق الأولاد حلقة . وأخرج كلٌّ رغيفه ، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه ، وضربوا بأيديهم فى الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً — وقد رحمنى الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود — وبين هؤلاء المريض والقذر ومن تلوثت يده بالحبر .

لا تعجبنْ من هالك كيف توى   بل فاعجبن من سالم كيف نجا

***

كان « سيدنا » غريب الأطوار عرف فى الحى باسم الشيخ سيد المجذوب ، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يوماً لبس « مركوبا » جديداً ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين ، فكأنه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه ، كان يتزهد فى أكله ولبسه وحديثه ، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتا ، فهو يمشى مسرعاً مشياً يشبه الجرى ، ويأكل فى الشارع وهو على هذه الحال ، وإذا ناداه منادٍ لا يلتفت إليه ، فكان بذلك يلفت أنظار الناس والأطفال ، ويعجب منه بعضهم ، ويتبرك به بعضهم ، وكان فى المجالس العامة غريباً ينتحى ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم ، وفى مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً .

لم أره مرة يقرأ فى كتاب ، وما أظنه كان يعرف ذلك ، ولكنى مع هذا أذكر له حادثة حيرتنى حقاً — فقد خرجت من كُتّابه ، وأتممت التعليم فى مدرسة ابتدائية ، ثم قطعت مرحلة بعدها فى التعلم — ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات ، ثم لقيت سيدنا فى الطريق فسلمت عليه فى احترام واجلال اعترافا بفضله علىّ فى أول مراحل التعليم ، ولكنى أطوى بين جنبىّ إدلالاً بنفسى عليه ، فأين هو الآن منى ؟ لقد درست طبيعة وكيمياء ، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات وتوافيق وتراتيب ولوغارتمات ، ودرست علوما دينية مختلفة الأشكال والأنواع ، وعلوما مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام ادارة وما إلى ذلك — فأين سيدنا من هذا كله وهو لاحظ له من علم إلا أن يحفظ القرآن ، ولكن ما أدهشنى حقاً أنه أخذ يسألنى عن حالى وجرى من ذلك إلى الأدلاء برأيه فى العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفى ، فاذا أنا أسير معه ملتذاً من حديثه معجبا بقوله إعجابا يفوق ما كنت أضمره لأساتذتى فى المدارس العالية ، واذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ فى ساعتين أو أكثر ، ولوددت أنه طال أكثر مما كان — لست أذكر الآن حديثه وقوله ، ولا أذكر ماذا كانت نظراته فى الحياة ، ولكنى أذكر لذة حديثه وفائدة درسه .

***

ثم راحت أيام وجاءت أيام ، وإذا لى ولد ، واذا بى أرسله إلى « روضة الأطفال » ، وإذا مكان الكُتّاب ذى السبيل والحصر ، بناء فسيح ذو حديقة غناء ، وتخت وأدوات شتى ، ومكان العصى و « الفلقة » ، بيانو وآلات موسيقية ، ومكان مواجير الفول والمخلل ، لبن وبسكوت فى الساعة العاشرة ، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب فى الظهر ، ومكان برنامج كتابنا الذى ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب ، وفيه مبادىء القراءة ، وفيه ماشئت من تنوع واختلاف ، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن آنساتنا العزيزات .

وأتى ابنى يوماً يقول إن « أبلة » فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً ، قالت هذه « ستى » ا ، وهذه « ستى » ب ، وستى ا لا شيء عليها ، وستى ب من تحتها نقطة ، فقلت أين هذا مما كنا نتعلمه من أ الف ، بابا ليف ، بوبا واو بى با يه » .

ورأيته ينشد أناشيد « سمير الأطفال » ونحوها فقلت أين أنت من أبيك ، وقد كان ينشد فى العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية .

ورأيته يزكم فيجلس فى البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتى بشهادة طبيب بأنه برىء ولم يكن مرضه معدياً ، فقلت لحا الله زماناً لم نكن نعرف فيه طبيباً ، وكان حولنا فى الكتّاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض ، وكان أصحاؤهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد .

ورأيته فى سنه لا يحفظ شيئاً ، وكنت وأنا فى سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن .

ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين مالا أعرفه إلى اليوم .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

قصيدة مترجمة

لحوم البحر...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لكأنما والله قد تمدد على سيف البحر في اسكندرية شيطان مارد من شياطين ما بين الرجل والمرأة. يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها. وقد امتلأ به الزمان والمكان؛ فهو يرعش ذلك الرمل بذلك الهواء رعشة أعصاب حية؛ ويرسل في الجو نفخات من جرأة الخمر في شاربها نار فعربد، ويطلع الشمس للأعين في منظر حسناء عريانة ألقت ثيابها وحياءها معاً؛ ويرخي الليل ليغطي به المخازي التي خجل النهار أن تكون فيه.

ولعمري إن لم يكن هو هذا المارد فما أحسبه إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامها تحت عين التقي والفاجر لتعمل عملها في الطباع والأخلاق؛ فسول للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاج الملل من الحر والتعب، حتى إذا اجتمعوا فتقاربوا، فتشابكوا، سول لهم الأخرى أن الشاطئ هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين.

ولئن لم يكن اللعينان فهو الرجيم الثالث، ذلك الذي تألى أن يفسد الآداب الانسانية كلها لفساد خلق واحد، هو حياء المرأة؛ فبدأ يكشفها للرجال من وجهها ولكنه استمر يكشف. وكانت تظنه نزع حجابها فاذا هو أول عريها.. وزادت المرأة، ولكن بما زاد فجور الرجال، ونقصت ولكن بما نقص فضائلهم، وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع. فاذا تلك المرأة ممن يقرونها على تبذلها بين رجلين لا ثالث لهما: رجل فجر، ورجل تخنث..

* * *

هناك فكرة من شريعة الطبيعة هي عقل البحر في هؤلاء الناس، وعقل هؤلاء الناس في البحر؛ إذا أنت اعترضتها فتبينتها فتعقبتها، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان في تزيينه وتطويعه، وأصبت فكره مستقراً فيها استقرار المعنى في عبارته، آخذاً بمداخلها ومخارجها. وما كان الشيطان عيياً ولا غبياً، بل هو أذكى شعراء الكون في خياله، وأبلغهم في فطنته، وأدقهم في منطقه، وأقدرهم على الفتنة والسحر. وبتمامه في هذا كله كان شيطاناً لم تسعه الجنة إذ ليس فيها النار، ولم ترضه الرحمة إذ ليس معها الغضب، ولم يعجبه الخضوع الملائكي إذ ليس فيه الكبرياء، ولم يخلص الى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه.

وما أتى الشيطان أحداً، ولا وسوس في قلب، ولا سول لنفس، ولا أغوى من يغويه إلا بأسلوب شعري ملتبس دقيق، يجعل المرء يعتقد أن اطراح العقل ساعة هو عقل الساعة، ويفسد برهانه مهما كان قوياً إذ يرتد به من النفس الى أخيلة لا تقبل البراهين، ويقطع حجته مهما كانت دامغة، إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق.

فكرة من شريعة الطبيعة ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدري، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدري وما كانت الشرائع الآلهية والوضعية إلا لاقرار العقل في شريعة الطبيعة كي تكون إنسانية لأنسانها كما هي الحيوانية لحيوانها. وليجد الانسان

ورأيته ورأيته؛ ورأيتني ورأيتني

* * *

أخشى أن نكون في كلا الحالين مفرطين ومفرطين، وأن نكون في «كتابنا» قد غلونا وفي «رياض أطفالنا» قد غلونا

أخشى أن يكون الكتاب قسا وأسرف في القسوة، ورياض الأطفال ماعت وأسرفت في الميوعة، أخشى أن نكون في كتابنا قد وضعنا أمام الطفل كل العقبات فلم يستطع أن يجتازها إلا القليل، ونحينا في «رياض الأطفال» كل العقبات فاجتازوها جميعاً، ولكنهم خرجوا لا يعرفون كيف يجتازون عقبة عرضت، ولا يصبرون على شدة ألمت، ولا يتحملون مشقات العلم ومعاناة الدرس، ولا يعالجون ما يعن من مصاعب الحياة — وآية ذلك أن الجيل السابق — مع كثرة من تخلف — كانوا أصبر على الدرس وأحمل للمكاره والمشاق، وأن الجيل الحاضر أنعم وأظرف وألبق، ولكنهم لا يصبرون على مكروه حتى العلم.

أحمد أمين

ما يحفظ به نفســه من نفسهِ التى هى دائماً فوضى ، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى . .

وبالشرائع والآداب استطاع الانسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه ، وأن يرى فى هذه الطبيعة أثر جوابه ؛ فكلمتها هى : أيها الانسان أنت خاضع لى بالحيوانيّ فيك ؛ وكلمته هو : أيتها الطبيعة وأنت لى خاضعة بالالـهيّ فىّ .

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التى نظمها الشيطان على رمل الشاطئ فى اسكندرية ؛ وقد نقلتها أترجها فصلاً بعد فصل عن تلك الأجسام عارية وكاسية ، وعن معانيها مكشوفة ومغطاة ، وعن طباعها بريئة ومتهمة ، حتى اتّسقت الترجمة على ما ترى

قال الشيطان :

ألا إن البهيمية والعقلية فى هذا الانسان ؛ مجموعهما شيطانية ...

ألا وإنه ما من شىء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به .

هنا تتعرى المرأة من ثوبها ، فتتعرى من فضيلتها .

هنا يخلع الرجل ثوبه ، ثم يعود إليه فيلبس فيه الأدب الذى خلعه .

رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظر بالعين والعاطفة .

يرى ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد .

ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط . . .

تحول بصرها أو تخفضه ، وهى من قلبها تنظر .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

يالحوم البحر ! سلخك جزار من ثيابك .

جزار لايذبح بألم ولكن بلذة . .

ولا يحزّ بالسكين ولكن بالعاطفة .

ولا يميت الحىّ إلا موتاً أدبياً . .

إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء .

فهنا تلتحم نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق .

للطبيعة أسلحةُ العُرْي ، والمخالطة ، والنظر ، والانس ، والتضاحك ، ونُزُوع المعنى إلى المعنى . .

وللأخلاق المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صَدِئ ، وسلاحٌ من الحياء مكسور .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

الشاطئ كبير كبير ، يسع الآلاف والآلاف .

ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير ، حتى لا يكون إلا خلوة ...

وتقضى الفتاةُ سنتها تتعلم ، ثم تأتى هنا تتذكر جهلها وتعرف ماهو . .

وتمضى المرأة عامها كريمة ، ثم تجىء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعى . . .

لو كانت حَجَّاجةً صَوَّامةً ، للعنتْها الكعبة لوجودها فى « استانلى » .

الفتاة ترى فى الرجال العُرْيانين أشباح أحلامها ، وهذا معنى من السقوط .

والمرأة تسارقهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد ، وهذا معنى من المواخير . . .

أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين ؟

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

هناك التربية ، وهنا إعلان الاغفال والطيش .

وهناك الدين ، وهنا أسباب الأغراء والزلل .

وتَكلُّفُ الأخلاق ، وهنا طبيعة الحرية منها .

والعزيمة بالقهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخُّص يوماً بعد يوم .

والبحر يعلّم اللائى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر . .

لو درى هؤلاء وهؤلاء مَعرَّةَ اغتسالهم معاً فى البحر ، لاغتسلوا من البحر .

فقطرة الماء التى نجّستها الشهوات قد انسكبت فى دمائهم .

وذرة الرمل النجسة فى الشاطئ ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم . .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

يجيئون للشمس التى تقوى بها صفات الجسم ،

ليجد كل من الجنسين شمسه التي تضعف بها صفات القلب.

يجيئون للهواء الذي تتجدد به عناصر الدم ،

ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسد به معاني الدم .

يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية ،

ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية : سمكةٌ تطارد سمكة . .

ويقولون ليس على المصيِّف حرج .

أي لأنه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حرج .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . .

***

المدارس ، والمساجد ، والبِيَع ، والكنائس ، ووزارة الداخلية ، هذه كلها لن تهزم الشاطئ .

فأمواج النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب ، تنهزم أبداً لترجع أبداً ؛ لايهزم الشاطئ إلا ذلك «الجامع الأزهر» ، لو لم يكن قد مُسخ مدرسة . فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح ، وتردُّ الأمواج نقيةً بيضاء(1) ، كأنها عمائم العلماء .

وتأتي الى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء ، ولكني أرى زمناً قد نقل حتى الى المدارس روح «الكازينو» . .

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

***

هنا على رغم الآداب ، مملكةٌ للصيف والقيظ ، سلطانُها الجسم المؤنثُ العاري .

أجسامٌ تعرض مفاتنها عرض البضائع ؛ فالشاطئ حانوت للزواج . !

وأجسامٌ تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها لا في الشاطئ . . .

وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها تحيط بها معانيها ملتمسةٌ معانيه ، فالشاطئ سوقٌ للرقيق . .

وأجسامٌ خفيرةٌ جالسةٌ للشمس والهواء ، فالشاطئ كدار الكفر لمن أُكْرِه (2) .

وأجسامٌ عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها ، لأنها جعلت الشاطئ مستشفى . . . !

وأجسام خليعة أضافت من استانلي وأخواتها الى منارة اسكندرية ، ومكتبة اسكندرية ، مزبلة اسكندرية . . .

كان جدال المسلمين في السفور فأصبح الآن في العُري .

فاذا تطوّر ، فماذا بقي من تقليد أوربا إلا الجدال في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشِبْه الزوج(1) . ؟

انتهى ما استطعتُ ترجمته ، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة الى بعض القواميس الحية . . ، الى بعض شبان الشاطئ ! !

طنطا **مصطفى صادق الرافعي**

(1) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم ، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج ومنه قول الشاعر :

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

ومن هذا يقال في الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) أي ذاق الطعم الذي وصفه أناتول فرانس . .

(1) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ولسنا من هذا الرأي ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه لغفلتهم عن السر في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد ومرة في الوصف بالجمع .

(2) إشارة الى الآية الكريمة : « إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

حول ذكرى الشاعرين

شـــوقي وحافظ

كتب كثير من الأساتذة الغير ، يأسفون على إهمال حافظ ، ويتألمون على أن كتاباً لم يصدر عنه . ولم يذكر واحد منهم ، أن المكتبة العربية في دمشق ، قد اخرجت كتاباً في ذكرى الشاعرين في (٧٥٠) صفحة كبيرة . فيه (١٢) مقالة عن حافظ لطائفة من أكبر كتاب مصر والشام كالرافعي والمازني وطه حسين وهيكل والبشري والمغربي و (١٦) قصيدة في حافظ لطائفة من كبار الشعراء كشوقي (رحمه الله) والزهاوي ومطران والعقاد ومحرم والبزم والهراوي وجبري ، وأكثر من الف بيت من شعر حافظ الذي لم ينشر في ديوانه ، ومثل هذا عن شوقي ، وخمس مقالات في المقارنة بينهما للزيات وطه حسين والمازني ومطران وسعيد الأفغاني .

أفليس من الحق ان ينوّه بهذا العمل ، وان يشكر لدمشق ؟

« دمشق » « متأدب »

أعظم حادث فى حياة روسو :

روسو ومدام دى فَرِنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

صدر أخيراً فى باريس كتاب عنوانه « مدام دى فَرِنس » Mme de Warens ، وهو عنوان لا يثير لأول وهلة كبير اهتمام ؛ ولكنا متى علمنا أن صاحبة هذا الاسم هى المرأة التى كان لها أكبر أثر فى حياة جان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الأشهر ، وأنها إذا لم تكن معروفة شهيرة لذاتها فان روسو يخلدها فى آثاره ، ويفردها فى « اعترافاته » أو ترجمة حياته أكبر مكانة ، استطعنا أن نقدر أهمية بحث يتناول هذا الجانب من حياة روسو ، وما كان له من عظيم أثر فى تكوين تفكيره وفلسفته .

نلمس أثر المرأة فى حياة كثير من عظماء الرجال ، وتمتاز هذه الشخصيات النسوية فى أغلب الأحيان بخلال قوية بارزة تمكن لها فى النفوذ والتأثير ؛ ولكن مدام دى فَرِنس تبدو لنا فى صورتها وخلالها شخصية عادية ، لا تخلق فى ذاتها لأن توحى بشىء من مقومات العظمة أو البطولة ؛ وكان مثولها فى حياة روسو أيام كان فتى مغموراً شريداً لا قيمة له فى مجتمع وطنه وعصره . على أن هذه الصلة طبعت نفس روسو وروحه بأعمق طابع ، وأثرت فى عواطفه وتفكيره أعظم تأثير ، وأثارت من قلمه عن مدام دى فَرِنس وعن صلاته بها تلك الصحف المؤثرة البديعة التى نعتقد أنها أجمل ما فى « الاعترافات » .

كانت لروسو مع مدام دى فَرِنس قصة من أغرب القصص وأجملها ؛ قصة « أم » وولد ، ومربية وتلميذ ، وحامية ومحسوب ، وأخيراً قصة عاشق ومعشوق ، وصاحب وخليلة ؛ وكان اتصاله بها سنة ١٧٢٨ وهو حدث فى نحو السادسة عشرة من عمره ؛ فى ذلك الحين فر روسو من جنيف مسقط رأسه ، وغادر أسرته بعد أن التحق حين كان صبيا بمكتب محام ولم يأنس ميلا للعمل فيه ، ثم بحانوت حفار لم يطق خشونته وسوء معاملته ؛ وسافر على غير هدى إلى بلدة كنفنيون من أعمال سافوا ، وقصد قسيسها المسيو دى بونفير وكانت بينه وبين أسرته صداقة ، فأرسله بتوصية منه إلى سيدة خيرة محسنة هى مدام دى فَرِنس ، لكى تعاونه على البحث عن عمل يعيش منه .

وكانت مدام دى فَرِنس تقيم يومئذ فى بلدة « انسى » ؛ فقصد إليها الفتى جان جاك ، وقلبه يتردد بين الخيبة والأمل . ويقول لنا روسو إنه لما وصل إلى «أنسى» فكر فى وسيلة مؤثرة يكسب بها عطف مدام دى فَرِنس ، فكتب إليها خطابا منمقا ضمنه كل ما وسع من الكلمات والعبارات البليغة ، ووضع معه خطاب المسيو دى بونفير . ثم ذهب إلى منزلها فلم يجدها هنالك ، وقيل له إنها سارت توا إلى الكنيسة على مقربة من المنزل ، فهرول فى أثرها ولحق بها وناداها . ثم يقول ؛ « وانى لأذكر هذه البقعة بلاريب . وكثيراً ما بللتها بعد بدموعى وغمرتها بقبلاتى . وإنى لأود أن أسور هذه البقعة السعيدة بقضيب من الذهب ، وأود أن ألتمس لها إجلال العالم . ومن يقدس آثار انقاذ الانسان فعليه أن لا يقربها إلا راكعا » . وشد ما كانت دهشة روسو حينما رأى مدام دى فَرِنس لأول مرة ، وكان يتصورها امرأة عانسا مظلمة المحيا شديدة الورع ، وما كانت المحسنة التى يختارها القس دى بونفير لتكون فى نظره غير ذلك . ولكنه رأى بالعكس محيا يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالرقة ، وبشرة ناصعة باهرة . فاستقبلته باسمة وتناولت الخطابين وقرأتهما . ثم طلبت إليه برفق أن ينتظرها فى المنزل حتى تعود من القداس .

وهنا يحدثنا روسو طويلا عن مدام دى فَرِنس ؛ فهى لويز الينور دى فَرِنس سليلة أسرة نبيلة من لوزان ؛ تزوجت صغيرة بالمسيو دى فَرِنس ؛ وكان الزواج عقيما ، ولم يكن سعيداً ؛ فعافت حياة الأسرة ؛ وانتهزت فرصة وجود الملك فكتور أمديه (ملك سافوا) ذات يوم فى أفيان ، فغادرت أسرتها ووطنها واستغاثت به ، فمنحها حمايته ورعايته ورتب لها نفقة حسنة . ثم ذاع بعد ذلك انه يهواها ، فأبعدها إلى « أنسى » ، وهنالك نبذت مذهبها البروتستانتى واعتنقت الكثلكة إرضاء لمليكها وكان كاثوليكيا متعصبا . وكان قد مضى عليها ستة أعوام فى أنسى يوم وفد عليها روسو ؛ وكانت يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها . وكانت حسناء « جمالها من ذلك النوع الباقى الذى يبدو فى المحيا أكثر مما يبدو فى التقاسيم ، هذا إلى أن جمالها كان مازال فى ذروته الأولى ؛ وكانت ذات هيئة ناعمة

جذابة ، ونظرة ساحرة ، وبسمة ملائـكية . وكانت صغيرة القد ، أميل إلى القصر ، عبلة نوعا ولـكن دون قبح ؛ بيد أنه لم يك أجمل منها رأساً ، ولا أجمل صدراً ويدين ومعصمين » .

وقد تلقت مدام دى ڤرنس تربية مضطربة متنوعة ترجع إلى أنها فقدت أمها عند مولدها ، فتعلمت شيئا من مربيتها ، وشيئا من والدها ، وشيئا من أساتذتها ، وكثيراً من عشاقها . وتلقت بالأخص عن والدها قشوراً من الطب والسمياء ، وكان للأفاقين من الأطباء والسميائيين نفوذ كبير عليها ، فكانت تقلدهم فى عمل المركبات والأدوية ، وتبدد فى ذلك ذكاءها وسحرها اللذين كانا يخلقان بأرفع المجتمعات . بيد أنها لبثت خلال هذه الغمار محتفظة بطيبة قلبها ، ورقة شمائلها ، وبشرها وصراحتها ، وحبها للبائس والمسكين ، وكان جديراً بذكائهـا ورفيع خلالها أن تشغل مكانة غير التى وجدت فيها ، وأن تؤدى عملا أجل من ذلك الذى كانت تؤديه .

ولقى روسو مدام دى ڤرنس « فغزت لبه وحازت ثقته من أول مقابلة وأول كلمة وأول نظرة » . ولا يستطيع روسو أن يدرك كنه هذه العاطفة العميقة التى بثتها إليه مدام دى ڤرنس منذ الساعة الأولى ، ويتساءل إذا كانت هذه العاطفة حبا ، فكيف اقترنت منذ البداية بسلام القلب ، والسكينة ، والبشر ، والثقة ؟ وكيف أنه وهو فى حضرة امرأة رفيعة رائعة الحسن ، يتوقف عليها مصير مستقبله فى معنى من المعانى ، استطاع أن يشعر بمنتهى الحرية والطمأنينة ، ولم يخالجه أى اضطراب أو وجل ؟ هذا وهو الحدث الحيى الذى لا يعرف شيئاً عن العالم .

وسألته عن أحواله ورغباته ، فقص عليها قصته ، وبعد أن فكرت ملياً فى أمره ولم تجد له حلا موافقاً ، اقترح أحد ضيوف المنزل على مضيفته أن يسافر الفتى الشريد الى تورينو ليلتحق هنالك بمعهد لتخريج الكهنة ، وفيه يلقى العون المادى والروحى ، فوافقت مدام دى ڤرنس لأنها لم تجد حلاً آخر ، وساعدت روسو ببعض المال ، فسافر الى تورينو بعد أن أقام لديها بضعة أيام أسرته فيها بساحر خلالها وبثت اليه شعوراً خالداً بالمحبـة والعرفان ؛ وهنالك قدم أوراق التوصية التى يحملها . وكان المعهد معهد تبشير للـكثلكة ، فلم يمض حين حتى حمل روسو على تغيير مذهبـه البروتستانتى واعتناق الـكثلكة ، ثم أخرج على أثر ذلك من المعهد ونفح بمكافأة صغيرة فلبث حيناً يتجول فى المدينة ، وينتقل من مسكن الى آخر ، وهو شريد لا يدرى ماذا يصنع ، حتى ألقى به

القدر الى خدمة سيدة نبيلة تدعى الـكونتة دى ڤرتشلى . وكانت أرمل متقدمة السن ولا ولد لها ، وكانت أديبـة قارئة ، فكان روسو يكتب ماتمليه عليه من القطع والخطابات ؛ ولـكنها لم تلبث طويلاً حتى مرضت ثم توفيت ؛ وغادر روسو المنزل آسفاً شريداً ؛ حتى سنحت له فرصة أخرى ؛ فألحق بتوصية من بعض الأصدقاء بخدمة الـكونت دى جوڤون أحد رجال البطانة ، وتعرف عندئذ بالأب دى جوڤون أحد أعضاء هذه الأسرة ، وتلقى عليه دروساً فى اللاتينية والأدب القديم ، ولبث فى عمله الجديد أشهراً أخرى ، ثم أقيل منه فخرج خالى الوفاض مهموم النفس وكره البقاء فى تورينو ، واعتزم العودة الى أنسى والى مدام دى ڤرنس .

فغادر تورينو على قدميه ، ووصل الى أنسى بعد رحلة شاقة ، وقصد الى منزل المحسنة اليه ؛ وآنس فى الحال منها ذلك العطف القديم ، فارتمى على قدميها وهو يلثم يدها فرحاً ، وفاض قلبه سعادة إذ علم أنها أعدت له غرفة بالمنزل وأنه سيقيم الى جانبها باستمرار . وهنا يفيض روسو فى وصف عواطفه نحو هذه السيدة البارة الساحرة ، فيقول لنا إن علائقهما لم تثر منذ الساعة الأولى أية كلفة ، فكانت تسميه « ولدها الصغير » ويسميها « أمه » وأن هذه التسمية كانت أصـدق معبر عن بساطة هذه العلائق وسذاجتها ، وبالأخص عن تجاذب قلبيهما ، وان الشهوة الجنسية كانت بعيدة عن ذهنه ، ولـكنه كان سعيداً إذ وجد « أماً » فتية حسناء تغمره مداعباتها وقبلاتها — أجل قبلاتها — سحراً ، وانه كان يشعر الى جانبها ولدى نظراتها وأحاديثها بمتعة خالدة لا يستطيع أن يدرك كنهها ، يقول روسو : « كان يأخذنى سحر المقام معها ، ورغبتى المضطرمة فى أن أقضى حياتى الى جانبها ، فكنت أرى فيها دائماً ، أكانت غائبة أم حاضرة ، أماً رؤوماً ، وأختا محبوبة ، وصديقا ممتعاً ، ليس غـير ؛ وكانت صورتها التى لا تفارق قلبى قط لا تفسح مجالاً لأية صورة أخرى ، فلم أك أرى فى العالم امرأة سواها ، وكانت عذوبة المشاعر التى تبثها الى تمنع حواسى من أن تنتبه الى مشاعر أخرى ، وتحمينى منها ومن جنسها كله ، وبعبارة أخرى كنت عفيفاً لأنى أحببتها ، فتأمل هذه النتائج التى لا أكاد أحسن عرضها ، وقل لى من ذا الذى يستطيع أن يصف طبيعة شغفى بها . . . »

« البقية فى العدد القادم »

محمد عبد الله عنان
المحامى

من المدنية الاسلامية

الأرقام الهنـــدية

شرقية لا غربية

للأستاذ محمد عبد السلام البرغوثي

ثلاثة عوامل أساسية دفعت الانسانية من حظيرة الهمجية التي رتعت فيها أجيالا إلى مستوى المدنية الذي تتبوأه في يومها هذا . ولا تزال هذه العوامل دعائم مدنية الانسان الثابتة وهي

(١) التقاليد الاجتماعية المتوارثة جيلاً بعد جيل ، وقد انتهت هذه التقاليد بالعقائد الدينية الراسخة التي حولت وجه البشرية شطر المثل العليا .

(٢) اللغة التي تطورت إلى آداب رفيعة سمت بالانسان إلى مدارك الحياة العليا .

(٣) العلم الذي توج بانتصارات باهرة سلمت للانسان مقاليد الحياة .

ولقد كان هذا الشرق مهبط وحي الأديان الحنيفة التي خلصت البشر من ديجور الجهل وأنارت لهم سبل الحياة القويمة . وقدم هذا الشرق للعالم الحروف الهجائية فكانت واسطة تخليد آدابه الرفيعة واكتشافاته المجدية في مجاهل الحياة ، ومفتاح ثقافة متماسكة مسرعة الخطى نحو الكمال . ومن قرائح أبناء هذا الشرق أخرج الله للعالم الدعامة الثالثة لصرح مدنيتهم هي — ألف باء الحساب — أس العلم الحديث ، فتم بذلك للانسان ثلاث وسائل فعالة تتحد وتأتلف لتدفع به في سبيل القوة نحو غاية سامية قدرها الله .

لقد بلغت الحضارة الأغريقية شأواً بعيداً من السمو ، ووضعت العقلية الأغريقية قواعد المدنية الأساسية ، وخطت للبشرية معالم مدنيتها فكانت مبرزة في كل مضمار إلا في الحساب والجبر لعوزها الارقام وهي اللبنات الأساسية في بناء هذا العلم .

ولو لم تزد الحضارة الأسلامية على تراث الاغريق سوى تلافيها هذا النقص الذي كان يعتورها لكفاها مأثرة وفخراً .

حوالى سنة ١٥٦ هـ وفد إلى بغداد تاجر هندي يحمل مقالة في الرياضيات وأخرى في الهيئة . فكانت الأولى أول رسالة رياضية ترجمت إلى العربية ترجمها ابرهيم الفزاري بأمر من الخليفة . وكانت هذه المقالة على ماهو شائع ومتعارف تحوى الأرقام التسعة والعمليات الحسابية الأساسية . ولهذا كان للحساب عند العرب اسمان : (الهندي) وهو ما كان على الطريقة الرقمية الهندية ، والارتماطيقي وهو ما نسج على أسلوب الاغريق الخالي من استعمال الأرقام .

لعل أول من أشار إلى أصل هذه الأرقام ، العالم سفيروس سيبوخت Severus Sebokht أحد أعلام مدرسة نيسابور على ما يظن في القرن السابع الميلادي ، فقد جاء في كتاب له مؤرخ سنة ٦٦٢ م عن براعة أهل الهند في العلم مايأتي :—

« . . ولايتسع المقام لشرح ما كان للهند من حذق للفلك وبراعة في الاختراعات التي تفوق براعة الأغريق والبابليين . ونخص بالذكر طرق حسابهم للمقادير والكميات وتفوق كل وصف ، وصفوة القول في هذا الصدد أن هذا الاحصاء والتقدير يتمان باستعمال علامات تسع » . « فعلى من يعتقد من الأغريق انهم قد بلغوا نهاية القصد في العلم أن يفقه ذلك ويدرك أن من الأمم غير الاغريق من ضرب في العلم بسهم وافر » ا هـ

وعلى هذا كان الاعتقاد السائد في العالم العربي وفي أوروبا طيلة القرون الوسطى أن الأرقام من أصل هندي . وقد نشر العلامة الفرنسي ووبوك Woepocke M. F في المجلة الأسيوية التي تصدر في باريس عام ١٨٦٣ بحثاً مستفيضاً عن تاريخ الأرقام مرجعاً إياها إلى الأصل الهندي ، فكانت كلمته فصل الخطاب في ذلك العهد .

وفي مستهل القرن الحالي أثيرت ضجة حول هذا الموضوع كان فرسان حلبتها وحاملوا لوائها ثلاثة من علماء الغرب الأعلام ، أولهم كيس C. R. Kays الأميركي البحاثة في علوم الهند ، والثاني كارادفو Carra de Vaux الفرنسي الحجة في تاريخ المدنية الفارسية ، وثالثهم نيقولاوس بهنوف Nicolaus Buhnof الروسي وهو ضليع في اشتقاق اللغة . وقد شك هؤلاء في صلة الهند بالأرقام ، وقدم الأخيران فرضاً جديداً لتاريخ الأرقام .

نشر الأستاذ كيس عدة مقالات عام ١٩٠٧ في المجلة الأسيوية في البنغال عن تاريخ الرياضيات في الهند . وكتب دفو de Vaux

بحثاً فى مجلة Scientia سنة ١٩١٧ عن أصل الصفر . أما بهنوف فقد أخرج مؤلفين عام ١٩٠٨ أولهما « استقلال الثقافة الأوروبية فى العلوم الرياضية » وقد ترجم إلى الألمانية عام ١٩١٨ وثانيهما « تاريخ الأرقام »

تصدى الأستاذ كيس فى تحرياته إلى سبع عشرة لوحة نحاسية بها مخطوطات هندية يرجع تاريخها إلى ماقبل القرن العاشر الميلادى وتحوى أساس استعمال القيمة المنزلية للأرقام والأرقام ، وأثبت أنهـا جميعها مزيفة إلا واحدة مؤرخة سنة ٨٦٧ م . أما أقدم مخطوطة هندية تحوى الأرقام العشرة فترجع إلى سنة ١٠٥٠ .

على هذا الأساس رفض كيس قول المؤرخين السابقين الذين ذهبوا إلى أن الأرقام كانت معروفة لدى الهنود منذ القرن الثالث للميلاد . ورد على من زعم بأن الفلكى الهندى أريابهاتا Aryabhata وعاش فى القرن السادس الميلادى هو مخترع الأرقام زعمه عليه .

كان ووبوك قد عرض فى أبحاثه عن تاريخ الرياضيات إلى مخطوطات عربية جاءت على ذكر بعض مسائل حسابية كطريقة تحقيق عمليات الضرب والقسمة باسقاط التسعات ، ونعتها بالطريقة الهندسية . ولما خيل اليه أن هذه الأعمال حسابية بحتة ولا صلة للهندسة بها ، قرر أن الـكلمة مصحفة عن « هندية » . اما كيس فقد استطاع أن يثبت أن شرح هذه الطرق الحسابية ممكن هندسياً وانه كان فعلاً معروفا لدى العرب . وعدا ذلك فقد تحرى جميع المراجع العربية التى عثر عليها فوجد أن معظم هذه المراجع لم يبحث فعلاً عن العمليات الحسابية بالطريقة المعروفة برغم أن عناوينها تشير إلى ذلك . فمن هذه المؤلفات وأقدمها مؤلف الخوارزمى الذى عثر على ترجمة لاتينية له عنوانها Algoritmi de numero Indorum وليس فيها مايشير إلى استعمال الأرقام غير هذا الاسم .

وقد عثر كيس على مخطوطات هندية جاء فيها نظام للأعداد التسعة دون الصفر يخالف النظام الآخر الذى وجد وفيه الصفر فرجح أن النظام الأخير جاء الهند من البلدان المجاورة فى أزمنة متأخرة .

ومما قوى عزيمة كيس على إنكار نسبة الأرقام للهند أن الأعداد تـكتب من اليمين ، أما الـكتابة الهندية فمن اليسار .

أما العالم الفرنسى دڤو فقد كان أشد جزأة فى رفض فضل الهند على الأرقام إذ قال إن مؤلفى العرب جروا فى تسميتهم الأرقام الهندية على ماجاء فى حادث الفلـكى الهندى الذى وفد إلى بغداد فى عهد المنصور وهى حكاية يراها هو أنهـا مدسوسة من علماء النساطرة والسريان نـكاية فى الاغريق الذين كانوا يتوخون التنقيص من فضل مدنيتهم ، واشارة سبوخت إلى ذلك واضحة فى روايته التى مر ذكرها . وقد تناقض رواة هذه الحـكاية فى تاريخها : فالبيرونى فى مؤلفه « تحقيق ما للهند من مقولة » المطبوع بلندن سنة ١٨٨٧ (ص ٢٠٨) يسند هذه الحكاية إلى عام ١٥٤ هـ ويشاركه فى ذلك المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » . اما القفطى صاحب طبقات الأطباء (ص ١٧٧ طبع مصر) فيسندها إلى عام ١٥٦ هـ نقلاً عن الزيج الـكبير لابن الآدى . والمظنون أن البيرونى المتوفى سنة ١٠٣٨ م أخذ روايته عن المسعودى المتوفى سنة ٩٤٣ م دون تحقيق لها ، ونستدل على ذلك من اقتضابه هذه الرواية وعدم شرحها أو تمحيصها على خلاف ماعهد عنه من الاطناب والتمحيص فى أخباره الأخرى عن أهل الهند .

ويجرى دڤو فى حكمه على روايات المؤلفين العرب على طرفى نقيض من ووبوك إذ يرى أن كلمة « هندى » مصحفة عن هندسى فى كتب الرياضيات العربية . ولقد برع العرب حقاً فى تحقيق الأعمال الجبرية والحسابية هندسياً .

والعالم الروسى بهنوف بحث القضية من وجهة لغوية وذلك اختصاصه . وله فى اشتقاق اللغة سبق . فلم يرجح إلى نسبة الأرقام إلى الأصل الهندى . ويذهب إلى أن مبدأ استعمال القيمة المنزلية للأرقام كان أولاً فى (العداد Abacus) إذ يقول إن بعض هذه العدادات كان يتـكون من صفوف فى كل صف حبات عشر كل واحدة تخالف الأخرى شكلا وترمز إلى رقم من الأرقام العشرة الأساسية ، وإن الأعمال الحسابية كانت ممكنة باستعمال هذه العدادات . ثم قلدت هذه الرموز كتابة فجاءت الأرقام على الصورة المعروفة . ويعتقد ان قدماء الاغريق واليونان استعملوا هذه العدادات بالرغم من عدم قيام أى حجة أو دليل يدعم مقولته .

إذا صح ماذهب إليه بهنوف من أن الأرقام تطورت من العداد

فمن المتعذر نسبتها للهند ، لأن الهنود القدماء لم يثبت استعمالهم للعداد ، وقد أخذ العرب هذه الآلة عن الفرس ، وفي تسميتهم إياه «بالتخت» الدليل القاطع على ذلك .

لقد شهد الأستاذ كاجوري المؤلف المعروف في تاريخ الرياضيات بأمانة كيس في البحث وتوخي الدقة العلمية وعدم التحيز والمغالاة ، والحقائق التي توصل إليها تضعف النظرية الهندية ولكنها لا تنقضها من الأساس .

اما العالم الفرنسي فقد ركب متن الشطط ومرق من أمانة العلم إلى خسة التعصب والأثرة . فقد ذهب إلى أن الأرقام من تراث المدنيـة الاغريقية انتقلت إلى الشرق عن طريق الثقافة الأغريقية فيما بين النهرين على العهد الفارسي ، وأخذها العرب عن الفرس . بينما نقل الرومان هذه الأرقام إلى أوروبا ، ولهذا تباينت هذه الأرقام شكلاً عند مختلف الأمم . وليس من باعث على هذا الاعتقاد الواهن إلا ماوقر في نفوس علماء الغرب من إعلاء شأن الثقافة الاغريقية ونعتها بما لا تستحقه من صفات ، والحط من قدر الشرق واستهجان مدنيته . ولقد طمس هذا التعصب الخسيس مآثر المدنية الاسلامية إذ رماها بالتقليد والتقيد واللبس بينما قصر الابتكار والسمو والوضوح على مدنية الأغريق .

ومما لاريب فيه أن الأرقام تداولتها أمم الشرق في العهد الاسلامي أجيالاً قبل أن تعرفها أمم الغرب ، وعن العرب أخذتها أوروبا ، ولا تزال تسميها بالأرقام العربية . فان كان تداولها في القرن العاشر الميلادي على مايقرر كيس فلا بدع أن هذه الأرقام نشأت في طرف من أطراف الامبراطورية الاسلامية الشاسعة ، ثم عمت هذه الامبراطورية قبل أن تعرفها أمم الفرنجة .

وللمستقبل أن يأتي شعاعاً على ماغمض من تاريخ هذه الأرقام ويردها إلى منبتها الذي فيه نشأت . وليس لعالم غربي أن يستأثر بهذه المبرة الشرقية في غفلة من الشرق وعجز عن التمتع بحقوقه كاملة غير منقوصة . وويل من العلم لمن ينتهك حرمة العلم ! هذا وفي فصل آخر سنأتي على انتقال الأرقام الى أوربا

محمد عبد السلام البرغوثي
مدير مدرسة حيفا الثانوية

الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة :

إذا تقدم أحد أقاربك من الشبان لوظيفة من الوظائف ، ثم سئلت عما تعرفه عنه بالتفصيل ، فقد تجيب بأنه : شاب أمين نزيه ، صادق في قوله ، كريم الخلق ، حسن السلوك ، سليم القلب طاهر السريرة ، كثير التفاؤل ، قليل التشاؤم . يقول ما يعتقد ، ويعتقد مايقول ، هذا من الوجهة الخلقية . أما من الوجهة العقلية فهو : ذكي ، حاضر البديهة ، حسن البصيرة ، صافي الذهن ، صادق الحس ؛ وأما من الناحية الاجتماعية فهو محب للتعاون ، عدو للأثرة ، يشارك الناس في مسراتهم ، ويواسيهم في أحزانهم ، يوقر الكبير ، ويعطف على الصغير . مطيع للرئيس ، وفيّ للنظير ؛ وأما من الناحية الجسمية . فهو قوي الجسم ، معتدل القامة ، حسن الهيئة ، جميل الذوق ؛ وأما من الوجهتين العلمية والعملية فهو مثل في النشاط وأداء الواجب ، واسع الاطلاع ، غزير المادة . . . . . وما إليها من الصفات المختلفة التي يتصف بها ذلك المثل الأعلى من الشباب

فمجموع هذه الصفات هو عبارة عن شخصيته العليا بصورة واضحة مفصلة . وقد أثبت علم النفس التطبيقي أن الشخصية شرط اساسي للنجاح في الحياة ، وان المؤهلات العلمية وحدها لا تكفي للنجاح ، بل يجب ان تصحب بالشخصية القوية . فكثيرون من الأطباء والمدرسين والمحامين وغيرهم قد فشلوا في حياتهم العملية لضعف شخصياتهم مع كفايتهم من الوجهة العلمية[1] .

ولكن ما تلك الشخصية التي طالما سمعنا الناس ولا نزال

(١) ولا يفهم مطلقاً مما تقدم أن الشخصية مقصورة على الصفات المحمودة بل إن هناك أشخاصاً ذوي شخصيات معروفة قد اتصفوا بصفات ممقوتة كالخيانة واللؤم والتشاؤم والخداع والغباوة والأثرة وحب العزلة وقبح المنظر والحمق والمهارة في التلصص .

نسمعهم يتكلمون عنها ، ولا ندرى من أمرها شيئا ؟ وإجابة عن هذا السؤال نقول : —

تعريف الشخصية

ليس من السهل أن نحدد الشخصية ونعرفها تعريفا علميا جامعاً مانعاً ؛ فهى كالكهرباء والمغناطيسية والجارس « الراديو » لا تعرف إلا بآثارها . ولكن هذا كله لا يمنعنا ان نحاول البحث عن سرها وتعريفها ولو تعريفاً تقريبياً فنقول : —

(١) الشخصية هى مجموع الصفات والمزايا الذاتية التى يمتاز بها الشخص من غيره. أو هى :

(٢) مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والأرادية التى يتوج بها الانسان. أو هى :

(٣) مجموعة الفروق التى تميز الشخص من غيره .

والحق أن هذه التعريفات كلها تقريبية ، وأن الشخصية لايمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية تحليلا محسا ، ولكنها تبدولنا فى مقدار ماعند الشخص من الاستقلال الفكرى ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقوة الروح ، وهى كالحب والكره اللذين لايمكن تعليلهما عادة ، فقد تحب شخصاً أو تبغضه لمجرد رؤيته بدون معرفة سابقة ، وقد لا يمكنك إبداء السبب . وكل ماتستطيع أن تذكره هو أن تقول : إنى أحبه أو لا أحبه . أما السبب فلا يمكن تعليله لأنه أمر معنوى وسرٌّ خفى يتعلق بشخصية ذلك الرجل . وقد يكون الشعور بالحب أو البغض ناشئاً عن صفات أو عيوب خاصة فى الشخص الذى تعرفه وتقابله من حين لآخر، فنحن نحب فلاناً مثلاً لأنه مخلص كريم شجاع متفائل ، يواسى الفقير ويساعد البائس . ونكره فلاناً لأنه لايعرف الأخلاص ، والأخلاص لايعرفه ، يتمثل فيه البخل ، والجبن ، والتشاؤم ، والقسوة والغلظة ، لا يحنّ إلى مسكين ولا يتألم لحزين . وفى مثل تلك الأحوال نعرف إلى حد ما سبب المحبة أو الكراهة ، ولكن ليس ذلك بسهل دائماً ؛ فقد نحب الشخص فى أول لحظة نقابله فيها ، وقد نبغضه لأول وهلة قبل أن نعرف شيئاً عنه ، نحبه لظاهره أو نكرهه لهذه المظاهر ، ولا يمكننا أن نوضح الأسباب التى جذبتنا إليه ، أو التى نفرتنا منه . والسبب الجوهرى هو أن شخصيته محبوبة أو مكروهة .

هل الشخصية هبة طبيعية أو صفة مكتسبة ؟

والجواب أن الشخصية توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الحق ، ولكن الطبيعية أقوى من المكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبيعية فحسب لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أى أثر فى تكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب والفن . ولكن أثرها لاينكر فى تكوين الشخصية والعظمة فى نفوس العظماء . وهنا نسأل هل قامت التربية وقام المربون حقيقة بواجبهم نحو تربية الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونتكلم بما قاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا أصبحنا مقلدين فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ، لأن التربية تربية اتكالية ، لاتعرف معنى الثقة بالنفس والاعتماد على النفس فى التفكير والقول والعمل . وقد نادى كبار المربين وبخاصة « السر پرسى نن » المربى الانجليزى الكبير بأن الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة ، ولكن كتب التربية فى واد ، والمدارس فى واد آخر . فبينما نقول : يجب أن يربى الفرد تربية كاملة من كل الوجوه ، جسما وعقلاً وخلقاً واجتماعا ، نجد أن الفرد مهمل إهمالاً تاما من جميع الوجوه ، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسى ، وتصب فى قالب خاص ، فتفقد مظاهرها الطبيعية . كل ذلك حباً فى النظام ، ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائداً ، بل إننا ننادى بالنظام ، ونقول دائما : النظام هو الحياة ، ولكننا نعترض على الطريقة التى بها يسود ذلك النظام ، تلك الطريقة التى تقتل شخصية الطفل وتضعف مواهبه ، ونريد طريقة أخرى بها يستتب النظام من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته أو جسمه أو شخصيته ، وليست هذه الطريقة بسهلة ، لأنها تتطلب مشاركة فى الوجدان ، وفهما لكل فرد من حيث الذكاء والميول والبيئة والظروف . . وما ذلك بالأمر الهين ، فنحن لانفكر إلا فى المظاهر ، والنظام الشكلى ، والسكون العسكرى . مهما ضحينا فى سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ؛ ووجدت الصلة الروحية بينهما

فمن المحال أن تكون هناك صعوبة فى نظام أو غيره ، ولن تضحى شخصية الفرد او الأفراد بعد .

الاختلاف فى الشخصية

كما أن الناس يختلفون فى الذكاء والميول الفطرية كذلك يختلفون فى الشخصية ؛ فبينما تجد هذا قوى الشخصية قد تجد ذاك خاملاً ضعيف الشخصية ، وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب ؛ ففى الشخصية الألمانية تتمثل الروح العسكرية ، والطاعة العمياء ، والاتكال على الحكومة فى كثير من الأشياء . وفى الشخصية الانجليزية تبدو الثقة بالنفس ، واحترام الذات ، وتقدير الحرية الشخصية والاستماتة فى سبيلها . وفى الشخصية الأمريكية تظهر الروح العامة أو « الديموقراطية » ، وعدم الاكتراث للتقاليد ، لأن أمريكا كأمة حديثة لا تقاليد لها . وفى الشخصية الفرنسية تتغلب العاطفة على التفكير ، والنظريات على الأعمال ، وتكثر الآمال ، والميل الى الخيال ، وحب الظهور ؛ فكل فرنسى يريد أن يكون ضابطاً إذا تقدم للحرب . ولا ندرى من أين يؤتى بالجنود إذا كان الجميع ضباطا ، وإذا كانوا ضباطاً فهم لا يفكرون فى الجنود ولا يحتفظون بهم خوفا من أن يقل احترامهم . والمثل يقال فى العلاقة بين المدرسين والتلاميذ ، فأولئك فى واد ، وهؤلاء فى واد آخر ، والصلة بين هؤلاء وأولئك لا تتجاوز صلة الحجرة الدراسية تزول بمغادرتها وتتجدد بالعودة اليها .

والشخصية صفة نسبية وقوة سرية توجد فى كل شخص الى حد ما ، وتختلف فى نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص . وقد تكون بارزة واضحة فى بعض الأفراد يشعر بها الانسان فى الحال ، وقد تكون كامنة خفية فى البعض الآخر .

وليست الشخصية مقصورة على جنس دون آخر . ولا على طبقة دون أخرى ، فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم ، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين . وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء ، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء ، ولكل تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة . والعاديون من الناس قد يكونون فى ضنك من العيش ، ولكن لهم شخصية خاصة ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا عن الحوادث المحلية ، ويذكروا حقائق قومية ، بروح قوية لا تنقص عن روح الكبار من القوم وقد يمتازون عنهم لأنهم لا يرددون ما يقرءون من أفكار غيرهم ، ولكنهم يصلون الى هذه الحقائق بتفكيرهم الخاص .

« يتبع »

محمد عطية الابراشى

صورة

بغـــير عنوان !

للأستاذ على الطنطاوى

« هذه صورة من صور الحياة ، أعرضها على علاتها فى الرسالة ، ليلحق عليها من شاء من القراء شرحاً وحاشية وتعليقاً . »

ذهبت أمس الى الحلاق ، وتخيرت آخر ساعة من النهار كى يخلو لى المكان ، ولا تعرونى نَظِرة . . فوجدت عنده شاباً ، وكرهت أن أدخل فأنظره ، وأنا أكره الناس للانتظار ، فهممت بالرجوع . ولكن الحلاق أومأ الىّ أن أدخل ، لن يلبث حتى يقوم فقد أوشك أن ينتهى . فدخلت

وكان الشاب قد انتهى حقاً ، وكان قذاله وعِذاره وسالفته مقصوصة ، وكانت جُمّته مرجلة مصففة ، وكان وجهه كالمرآة الصقيلة ما فيه (والحمد لله) أثر من لحية أو شاربين ! فما باله لا يزال قاعداً على الكرسى ؟ وماذا ترى الحلاق صانعاً به بعدُ ؟ ثم اطمأننت وقلت : قد انتهى وإنه لقائم . وقعدت أرقبه فلم يرعني إلا الحلاق يقبل على شعره فينفشه نفشاً وهو ساكت لا ينكر عليه . فقلت : لعله قد بدا له ، فأحب أن يقصر من هذا الشعر ، ولن يطول أمد هذا التقصير ، وإنى منتظر .

وتنظرت والحلاق ماضٍ فى عمله ، حتى اذا تم النفش غدا على رأس صاحبنا شجرة ذات فروع . . . فعجبت كيف كان هذا الشعر كله مصففاً مستقراً ، ورثيت له إذ يحمل على رأسه أبد الدهر هذا الحمل الثقيل ، وأعجبنى منه أن يزمع الخلاص منه . ولكنه لم يقصه كما قدرت أن يفعل ، بل أشار الى الحلاق

فعمد الى هَنات سوداء لا والله ما عرفتها من قبل وسنّى سنّى : فأدخلها النار حتى احمرّت ثم أدناها منه ، فأشفقت أن يصيبه منها أذى ، ثم فكرت فقلت : لعلّه مريض بكتوى ، وقديماً قالت العرب : آخر الدواء الكيّ . ونظرت فاذا هو يقبض على شعره باحدى هناته تلك ، ويديره عليها ، ثم يستلّها منه استلالاً ، ثم يفعل مثل ذلك وأنا أعجب ، حتى انتهى فاذا صاحبنا قد عاد جعد الشعر ، وقد كان سبطا ، فقلت : إنا لله ! رجل أصله من البربر فهو يحب أن يتشبه بأصله ، والتمست له المعاذير .

وحسبته قد انتهى وظننت أنه قائم ، ولكنه لم يقم بل أشار الى الحلاق . فضمّخ رأسه بماء (كلونية)(١) وأقبل فسرحه تسريحاً ، وعاد فمسحه بدهن استخرجه من حق صغير ، فصار لرأسه وميض ولمعان . فقلت الحمد لله قد انتهى ، ونزعت عني طربوشي ، ثم أعدته الى رأسي حين لم يقم . ولبثت أنتظر ، وجاء الحلاق بكُمَّةٍ فوضع فيها رأسه وشدها من حوله شداً ، فقلت مُصدَّعٌ متألم فهو يخفف من صُداعه .

* * *

ثم أخذ الحلاق الملقاط ، وعمد الى حاجبيه ، فجعل ينتش منهما نتشاً وأنا أرثى له ، وألح عليه بالنظر ، علّ عينه تقع على عيني ، فأبذل له عوني ونصرتى ، فان هذا الحلاق لا يكاد يرحمه فلا يبصرني . ثم أدركت الحلاق رحمة فعفا عنه وأبقى عليه ، فنظرت فاذا حاجباه خطان كأنما خطا بقلم ؟ فقلت سبحان الله أي فتاة تعطى مثل هذين الحاجبين ثم لا تنزل راضية عن سنين من عمرها .

وفتح الحلاق خريطة فاستخرج منها كُبَّة ، أخذ منها خيطاً لفه بين أصابعه وجعل في وسطه فرجة تضيق وتتسع كلما شدها أو أرخاها ، وأمرّ هذا الخيط على وجهه .ووجهه يتمعر ويخيل اليّ أنه يقاسي ألماً شديداً ، ثم كف عنه . فلا والله ما ترك في جبينه زغبة إلا اجتثّها هذا الخيط .

فقلت : قد انتهى ، ولم يبق في وجهه ما يذهب به ، إلا أن يكون أنفه ، فيكون كباغى الجمال بجدع الأنف ، ولكن سرعان ما خاب ظني في أنه انتهى . ورأيت الحلاق يدلك وجهه دلكاً ويقرصه قرصاً ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قد جُنّ الرجل . . وإلاّ فماذا يكون هذا القرص من الحلاّق ، ثم كف فنظرت في وجه الشاب فاذا عليه حمرة الخجل ، وأنعمت النظر والتفكير فعلمت أنها حمرة الصحة والحياة ، أو حمرة الدلك والقرص ، فهممت أن أقوم اليه فالتزمه وأهنئه على هذا الاختراع : يصيب الناس الصحة بالغذاء وبالرياضة ويصيبها هو بالدلك وبالقرص ، ثم تخاذلت ورحت أنظر مشدوهاً الى الحلاق وهو يصبغ وجهه بالأبيض والأحمر ، ورأيتني لا أطيق احتمال هذا منه وأنا أكره من النساء أن يفعلنه ، وعجبت كيف لا ينكره هو ؟ وكيف لا يغضبه أن يعامل كامرأة .

ولكنه لم ينكر شيئاً ، بل أشار الى الحلاق ، فجاء باصبع حمراء فمس بها شفتيه كما تفعل قينات السينما سواء بسواء ، فلم أستطع المكث بعد هذا وقمت فجلت في السوق جولة . ثم عدت لما فارق الكرسي .

* * *

وما أدرى بعد كيف أصفه ؟ أأبدأ من رأسه أم من رجليه ؟ أما رأسه فقد عرفت أي شيء هو ! أما صدره وظهره فبادٍ أعلاهما ، وأما ذراعاه فمكشوفان . . ولو أنت عرضته على الناس بزينته تلك ما عرفوا أرجل هو أم امرأة .

أما (بنطلونه) فأبيض رقيق يبدو ما تحته واضحاً إلا شبراً تستره سراويلات قصار .

* * *

ثم كانت الطامة الكبرى واقترب مني الشاب يسلم عليّ ويزعم أنني أعرفه .

— أنا أعرفك ؟ كلا . أراك مخطئاً .

— أوه ؟ كيف ؟ أنا تلميذك منذ كذا سنين في مدرسة كذا ، وأنا الآن معلم في المدرسة التي فيها ابنك .

— أنت معلم ؟ !

وندّت مني صرخة تعجب ولم أجب .

دمشق (على الطنطاوى)

(١) كأفريقية وصقلية

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٥ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

اداء العمل — الحركات

هى أحد لسانى العمل . ومصاحبتها للكلام فى إبانة الفكرة طبيعة فى الناس منشأها ضعف العبارة وعجز اللغة عن تصوير ما يجول فى النفس من خواطر ومشاعر . لذلك تجد حركات الجسم وملامح الوجه تشتد وتحتـد كلما أصاب اللسان عِى أو لكنة . ومن ثم كانت الشعوب ذات الخيال القوى والأحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة . والمرء اذا ما التاث عليه القول لنقص طبيعى فى منطقة أو لضعفه فى اللغة التى يعبر بها ، اعتمد على هذه الدلالات المنظورة فمرنها وقواها كما ترى فى الأخرس والبادئ فى تعلم لغة جديدة . وأشد ما تكون الحركات قوة وظهوراً حين تثور النفس وتضطرم العواطف ، فتتفجر من اللسان والجوارح والملامح . لذلك كانت الحركات عنصراً من العمل الروائى ، وجزءاً من الفن الخطابى ، لشـدة انفعالاتهما وكثرة مفاجآتهما وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الساخرة . على أن الحركات قد تقوم بنفسها مقام الكلام كما ترى فى الخيال الشمسى والخيال الظلى والرقص التمثيلى مثلا . وليس من شأننا أن نتعرض لهذه الابحاث فلها فن آخر ، وانما حملنا على ذكر الحركات ذيادنا عن حق البلاغة فى العمل الروائى والمسرحى ، وقد مر شىء من ذلك عند الكلام عن العبارة ، وربما عدنا اليه عند بحثنا فى الدرامة

الحوار : الحوار هو مطارحة الحديث بين شخصين أو ثلاثة على الأكثر ، أما الرابع فقلما يكون له شأن فى الحديث أو خطر . ومن الصعب أن تشركه فيه مالم يكن دوره أن يظل صامتاً أثناء الحديث ، أو يؤيد بعض المتحدثين بكلمات قليلة . وشرطه أن يكون جيد المناقلة ، سديد المساجلة ، حسن التقطيع ، مطابقاً لموقف المتكلم وخلقه ، متغير اللهجة والجرس تبعاً لمقتضى الحال ، سريع الجواب قصير الخطاب ، فلا يشبه دفاع المحامى ولا خطبة الخطيب ، لأن ذلك يزهق روح الجاذبية ويبعث السأم فى النفس . وأجدر الأساليب به أسلوب الطباق والمقابلة

نجوى النفس . نجوى النفس هو حديث الممثل مع نفسه بصوت مسموع ، ومحله حين تضطرب حال الشخص ، فيغلبه الجزع ويفترسه الشك ، فينفجر بالكلام الجهير معلناً عن ضميره مصرحاً بسره ، ولو لم يكن هناك من يسمعه . وقد غالى رجال المذهب الابتداعى فى استعمال نجوى النفس ، قاصدين بذلك الى حذف الأنجياء (Les confidents) وهم أشخاص كان كتاب الأغريق ومقلدوهم من القدماء يضعونهم فى الرواية لا لشىء غير أن يسر اليهم البطل ما يفكر ويقدر بدلا أن يتحدث الى نفسه . ولكن الابتداعيين باسرافهم فى النجوى ، وإسهابهم فيها لم يبرئوها من النقص والاملال . فلهوجو مثلا فى رواية هرنانى نجوى ألقاها (دون كارلوس) على قبر شرلمان بلغت ستين ومائة بيت ! وجمال النجوى أن تكون قصيرة إلا اذا كان اضطراب الشخص قوياً فلا بأس أن تطول قليلاً .

أنواع الرواية

موضوع الفن الروائى هو حياة الناس بأسرها . فهو يصور المضحك والمبكى من الحوادث ، ويصف الخامل والنابه من الناس . فاذا كان العمل الذى يمثله جديا ، والأشخاص الذين يصورهم من الطراز الأول والطبقة العاليـة سمى مأساة . وإذا كان العمل هزلياً منتزعا من حياة العامة مصوراً لعيوبهم سمى ملهاة . أما اذا جمع بين الجد والهزل ، أو اقتصر على الجد ولكن أشخاصه من طبقة العامة والسوقة ؛ فتلك هى المأساة الحديثة أو الدرامة . وكل ذلك يؤدى عن طريق الألقاء ، فاذا أدى عن طريق الموسيقى والغناء ، كانت الغنائية وفروعها . وسنتناول كل نوع من هذه الأنواع بالشرح والتفصيل والتحليل ، إلا الغنائية فسنلم بها إلماماً على قدر صلتها الواهية بالأدب والبيان .

المأساة La Tragédie

تعريفها : المـأساة هى تمثيل عمل عظيم يبعث فى النفوس الرعب والرحمة والأعجاب . وليس من الحتم أن تسفك الدماء وتنثر الأشلاء فوق المسرح لتحدث تلك الآثار ، بل يكفى أن يكون العمل جليلاً والشخص نبيلاً ، والهوى المتحكم رفيعاً ، حتى ينشأ ذلك الحزن الرهيب الذى يجدر بالمـأساة . ومعنى ذلك أن يكون العمل خطيراً كأرجاع ملك مغصوب ، أو إخضاع هوى مستحكم ؛ وأن يـكون الأشخاص من ذوى التيجان وطلاب العروش ، لأن وجيعة النفس لمصاب الملوك أشد من وجيعتها لمصاب السوقة ؛ وأن يكون الموضوع مقتبساً من الماضى ليكسب العمل جلال القدم ؛ وأن يكون الهوى المحرك للرواية هو الطمع أو الأنتقام أو الحب .

هكذا كانت المأساة بعـــد كوزنى : أرستقراطية العمل والأشخاص والأسلوب والغرض . وقد درج الناس دهوراً يوجبون أن تكون نهايتها فاجعة محزنة ، أخذاً برأى أرسطاليس كما علمت ، ولـكن هذا الرأى جانبه المنطق وخالفه الواقع فأصبح غير واجب ولا محتوم ، لأن العمل قد يثير الأعجاب ويبعث الرهبة والرحمة ، ثم ينتهى مع ذلك بالسرور والغبطة .

غرض المأساة : فغرض المأساة إذن هو إصلاح النفوس باثارة الرهبة من الجرم الفاضح ، والرحمة للفضل المعذب ، والاعجاب بالصنع الجميل . وطريقها إلى ذلك أن تمثل لنا أمثالنا وهم يصارعون الخطر ويكابدون المصيبة ، على شرط أن يكون هذا الخطر مما يفزعنا ، وتلك المصيبة مما يروعنا ، وأن يكون هذا التمثيل مصبوغاً بلون الحقيقة حتى يخدع أبصارنا ويملك بصائرنا ، فنتأثر التأثير الذى نحبه

على أنك تسألنى ما لذة المرء فى شهوده نوائب الناس وسماعه أنين غيره ؟ يقول ارسطاليس إن مصدر هذه اللذة هو إتقان التقليد ، ويقول (لُكْريس) إن مصدرها شعور الانسان بالنجاء والأمن من مصائب يصْلاها غيره وهو بعيد عنها ، كلذة الجالس على شاطىء البحر يبصر فى عرضه سفينة تصارع الموج وتـكافح الخطر وهو رخى البال هادىء السر . ويؤخذ من خطاب الشاعر الهندى طاغور الذى ألقاه فى مسرح الأزبكية حين مر بمصر أن مصدر هذه اللذة تمثيل الحقيقة . « لأن الحقيقة من حيث هى ، جمال لا يعد له جمال . ألست ترى إلى صورة المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ؟ إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالها ، ولـكن العجوز التى فيها ليست على شىء من الجمال ، وإنما جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة على حقيقتها »

ونحن لا ننكر أن المرء يروقه أن يفزع من الخطر وهو بعيد ، ويلذه أن يألم لمصاب غيره وهو آمن ، وأن تفـكيره فى سلامته من هذه الأرزاء وبراءته من تلك الأدواء سبب من أسباب سروره حين يشهد مأساة على المسرح ، ولـكن السبب الذى يبعث فينا تلك اللذة الغريبة من رؤية الألم وسماع الأنين غير هذا كله . فان الأطفال وهم لا يفـكرون هذا التفـكير يلذ لهم أن يستشعروا الرعب والرحمة من سماع الحـكايات المروعة المؤثرة . يظهر أن منشأ هذه اللذة فينا عند مشاهدة المنظر الفاجع هو ميلنا الغريزى الى تمرين قوانا الجسمية والنفسية ، وما يحدثه ذلك الميل فى نفوسنا من قوة الشعور بحيويتنا وعقليتنا وحساستنا وقدرتنا على العمل والتصرف . وما الأمن الذى نشعر به عند شهود هذه الفجيعة إلا شرط ضرورى لاحداث منظرها تلك اللذة لا مُسببٌ لها . وذلك التمرين الطبيعى هو علة ما نجد فى الطفل من شره الى سماع الخوارق التى ترعبه ، والحوادث التى ترهبه . وهو كذلك سبب ما نرى من سعى العامة والسوقة الى الساحة التى كان يشنق فيها المجرمون أيام كان الشنق علنياً ، وهو السبب أيضاً فى ميل الأمم الغليظة أو القوية الى صراع الثيران وأناشيد الحماسة ، وميل الأمم الرقيقة أو الضعيفة الى تمثيل العواطف وقصائد الغزل .

أما السبب فى جعل الجاذبية المزدوجة من الرعب والرحمة أساس المأساة وروحها ، فهو ما لهاتين العاطفتين دون سائر العواطف من التـدرج مع الحادث ، والترقى مع الخطر ، والأخذ بمجامع القلب شيئاً فشيئا الى أن يبلغا الغاية عند انتهاء العمل . أما عواطف الحماس والفرح مثلاً فانها تنشأ بقوة ثم تضمحل بسرعة

موضوع المأساة : يقع الرجل فى التهلكة والبؤس لأسباب خارجة عنه ؛ أو صادرة منـه . فالأولى تنشأ من حظه وموقفه وواجباته وعلاقاته ، ومن صروف الحياة وأحكام الآلهة ، وأفاعيل الطبيعة وأضاليل الناس . وأفجع هذه الأسباب وأوجعها ما دهمت البائس من مأمنه ، وأتته ممن لا يتوقع منهم إلا الخير والنفع .

والأخرى تنشأ من ضعفه وغفلته وميوله وأهوائه ورذائله ، وقد تأتيه أحياناً من فضائله . وأسباب الهوى المقرون بطيبة القلب وسلامة النية ، هى أقوى الأسباب تأثيراً وأكثرها خصوبة وأروعها حكمة . ومن هذا الفرق بين الأسباب الداخلية والخارجية نشأ للمأساة مذهبان : مذهب القدماء أو مذهب القضاء والقدر ، ومذهب المحدثين أو مذهب النفس والهوى .

مذهب القدماء : فأما مذهب القدماء أو الأغريق بتعبير أصح فيعزو مصائب الأشخاص دائماً الى سبب خارج عن إرادتهم ، حتى لو اتفق أن حدث لهم ما يكرهون بسبب غفلتهم أو ضعفهم أو ميلهم كأوديب وهيكوب مثلاً حرص الكاتب على أن يخلق لهذه الأسباب أسباباً أولى كمشيئة القدر وغضب الآلهة . ولقد انتقل مذهب الأغريق الى من خلفهم من كتاب العالم باقتباس رواياتهم أو موضوعات تاريخهم ، واستعان المقلدون من كتاب الفرنج بالوهم المسرحى على تمثيل العادات والعبارات ، فظهرت مقتبسات ميروب وأوديب وإيفجينى وأورست لراسين وڤولتير على المسرح الفرنسى ، أقوى وأروع وأبدع مما ظهرت به لأوريبيدس وسوفوكليس على مسرح أتينا .

والذى حمل الأغريق ومن لف لفهم على الأخذ بمذهب القضاء والقدر فى الرواية أنه أشد تأثيراً وأقوى فجيعة . فانك لا تجد أبعث للرعب وأدعى الى الرحمة من رجل يعميه القدر فتسيره قوة غير قوته ، وتسخره مشيئة غير مشيئته ، وتعبث به إرادة متحكمة غير إرادته ، ثم تراه يجهد عبثاً فى الفرار من جريمة تراصده ، أو النجاء من مصيبة تطارده . وذلك هو مذهب الرواقيين الذى لخصه (سنيكا) فى هذه الجملة :

(إن القدر يقود ذوى الأرادة ولكنه يجر فاقديها) ذلك فضلاً عن موافقة هذا المذهب لمسرحهم وعبادتهم وسياستهم وعاداتهم مما لا نجد داعياً لشرحه وتفصيله .

مذهب المحدثين : على أن القدماء كان لهم بجانب مذهب القدر الذى أملاه عليهم الدين والتاريخ والاقليم مذهب آخر هو مذهب النفس والهوى ، ولكنهم أغفلوه إما لضعف تأثيره وإما لعدم انطباقه على نظام مسرحهم فى سعته وشكله ووسيلته ، حتى جاء المحدثون وأولهم كرنيى أبو المأساة الحديثة ، فأخذوا به وساروا عليه ، وجعلوا المأساة صورة لمصائب الرجل الخاضع لهواه ، لا لمصائب الرجل الطائع لحظه ؛ وأصبح الرجل الحر الذى يخضع لآله عادل يسمح بالشر ولا يأمر به ، ويتعرض لأرزاء الدهر بسبب أهوائه وأهواء غيره ، موضوع المأساة الحديثة وينبوع الأثر المروع الموجع الذى يأخذ بأذهاننا ووجداننا . ومزايا هذا المذهب هو أنه أخصب إنتاجاً لاستمداده من ينابيع القلب البشرى الفياضة ، وأتم شمولاً لتحليله الانسان فى كل زمان ومكان دون الاقتصار على شعب معين وتاريخ معين ؛ وهو مع ذلك أبلغ حكمة وأتم ملاءمة للمسرح الحديث ، وأروع جمالاً فى التمثيل العصرى . ولولا الخوف من أن يسأم القارىء من تفصيل قد لا يعنيه لأفضت فى شرح هذه المزايا واحدة فواحدة ، ولكن فيما ذكرته غناء للقارىء المستفيد . وأما عمل المأساة وصفاته كالأمكانية ، والوحـــدة والجاذبية والتأثير والمغزى ، وأجزاؤه الأساسية كالعرض والتعقيد والحل وما الى ذلك من الانقلاب والتعرف والأسلوب ، فقد سبق القول فيــه .

يتبع (الزيات)

بمناسبة عيد موزار (Mozart)

تكريم النـــوابغ

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

فى الوقت الذى وصل فيه العدد الأخير من الرسالة إلى أيدى القراء كان سكان مدينة سالزبرج (Salzburg) خاصة والنمسا وبون عامة قد انتهوا من عيدهم الذى يقيمونه سنوياً ذكرى للموسيقار النابغة (Mozart) الذى لم يطل عمره أكثر من ستة وثلاثين عاماً بذّ فيها جميع معاصريه الموسيقيين وأحدث فى الموسيقى الغربية حدثاً عظيماً لايمحوه الزمان . ولد هذا النابغة فى ٢٧ من يناير سنة ١٧٥٦ فى مدينة (Salzburg) مدينة الحدائق والجمال ، ونشأ وترعرع فى حضن والده ليوبولد الذى كان موسيقاراً فى خدمة الكنيسة فى تلك المدينة ، وقد ظهر ميله إلى الموسيقى ولما يبلغ الثالثة من عمره ، وبدأ فى سن الرابعة يعزف بعض القطع الصغيرة وفى سن السادسة رحل مع والده إلى ألمانيا فحاز عزفه إعجاب الملوك والأمراء حتى أن الأمبراطور فرنسوا الأول أجلسه بجواره وسماه « الساحر الصغير » كما أن البرنسيس مارى أنتوانت التى صارت فيما بعد ملكة فرنسا رفعته بين ذراعيها لشدة إعجابها به ، فقال لها الطفل عندئذ : « حقاً إنك لطيفة وعند ما أكبر سأتزوج منك » وفى سن السابعة بدأ يعزف على الكمان والأرغون فى رحلاته مع والده كما بدأ يؤلف بعض قطع صغيرة . وفى أبريل من سنة ١٧٦٤ زار مع والده انجلترا . فكان إعجاب الأسرة المالكة به كبيراً ، وقد أملى على الملكة قطعة موسيقية من تأليفه ، كما أنه أهدى إلى المتحف البريطانى مقطوعة أسماها « الله ملجأنا » « G od is our refuge » ولما بلغ الحادية عشرة ألف أول أوبرا له أسماها « La finta Semplice » بناء على إشارة الأمبراطور جوزيف الثانى قالت عنها لجنة الفحص « إنه عمل لا يضارع » ومن ذلك الوقت أخذ يظهر حقد الموسيقيين عليه وهبوا يدسون له الدسائس فى قصر الأمبراطور ، فكان ذلك سبباً فى البؤس والفاقة اللذين لازماه طول حياته تقريباً . غير أن هذا لم يمنعه من إبلاغ رسالته وإخراج تآليفه العظيمة أثناء جولاته فى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا

وفى يوليه سنة ١٧٦٩ أى عند ما كانت سنه ثلاثة عشر عاماً تقريباً منحته أكاديمية بولونيا لقب « مؤلف » مع أن القانون يحرم منح هذا اللقب لمن هو أصغر من عشرين عاماً . ولقد كان عجباً أن يخرج هـــذا الصبى النمساوى المولد والنشأة واللغة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٧٦٩ ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره أوبرا باللغة الايطالية فى ميلانو أسماها « Mitridate Re di Ponto » أحرزت نجاحاً منقطع النظير ، ومنذ ذلك الحين اعتبر هذا الفتى سيد الموسيقى وزعيمها . وفى سنة ١٧٧٣ وبعد أن عاد إلى مسقط رأسه أخرج أوبرا بمناسبة زواج البرنس فرديناند فاقت كل ما أخرجه قبل ذلك حتى قال عنه أكابر الموسيقيين « إن هذا الصبى سيجعلنا نسياً منسياً » وزاد حسدهم له وحقدهم عليه كما زادت دسائسهم عليه فى قصر الامبراطور . وبالرغم مما كان يلاقى بسبب ذلك كله من ويلات ، وما كان يعانى من ضيق وضنك ، فانه استمر فى إتمام رسالته بما كان ينفثه فى الموسيقى من سحر ، حتى اعترف له الجميع بأنه أدخل عليها تعديلات وتحسينات غيرت من طبيعتها . وكان أشد الحاقدين عليه فى حياته « Salieri » . ولما توفى فى يوم ٥ من ديسمبر سنة ١٧٩١ مات معتقداً أن هذا الرجل هو الذى دس له السم فى الدسم كما كان يعتقد الكثيرون ، فراح بذلك ضحية نبوغه وعبقريته . ولكن النمساويين الذين يقدرون الفضل لذويه إن كان فاتهم أن يواسوه فى حياته ، فلم يفتهم أن يكرموه بعد وفاته فلقد رأيت له تمثالين عظيمين رفع أحدهما بين القصر الامبراطورى ودار الأوبرا فى ڤينا يحف به تلاميذه بآلاتهم الموسيقية ورفع الثانى فى أفخم ميدان فى مدينة « Salzburg » . وهم فوق ذلك يقيمون لذكراه فى هذه المدينة عيداً سنوياً فى شهر أغسطس من كل عام حيث يهرع اليها أكابر الموسيقيين والممثلين من ڤينا وغيرها من بلاد النمسا لاقامة الحفلات وتمثيل مختلف الروايات ، فتراها غاصة بالجماهير من مختلف الشعوب بين انجليز وأمريكيين وغيرهم . وقد بدأ عيد هذا العام يوم ٢٨ يوليه وانتهى يوم ٢ سبتمبر وكان لى حظ مشاهدة كثير من مظاهره فى تلك المدينة الجميلة . وقد مثلت هذا العام فى هذا العيد بعض الروايات المشهورة مثل Faust ،

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

من الأدب الاغريقى

الشـــاعر الصائم

بقلم بسام كرد على

لقد أطبق شفتيه ولم يرد — بعد أن قضى الأيام الطوال ينشد أهل أثينا شعره الرائع العذب — أن يظل مثابراً على ما بدأ به ، فألقى نفسه فى داره والتزم حياة العزلة ، وانقطع ذلك الصوت الذى كان يغذى جميع سكان أثينا ، وسكنت تلك العواطف الثائرة وخليق بها ألا تسكن ، وهدأت تلك النسمة الالـهية التى كانت تحمل الحياة لمن يطلب الحياة ، وتشرق بأنوار الجمال لكل من يريد الجمال

فدخل عليـه هوبول وكان من أصدقائه الملازمين ، فوجده مستلقياً على فراشه النابى ، وصاح به هوبول وقتئذ :

يا قيثارة الأرض ! ويا عندليب السماء . هل حبست صوتك انتقاماً منا نحن أهل الأرض الذين أصمت آذاننا كلمات الحسد ، وأعمت عيوننا ترهات النعيم ، وشغلت عقولنا سفاسف الملذات ، فلم يبق منا إلا هذه الأجسام المركبة من عظم الكبر ولحم الفرائس ، ودم نجس كالخمر المسكوبة فى مجلس الدعارة .

فقام هايكلوس من مكانه وحمـل جسمه المنهوك وحاول إخراج جملة قصيرة من صدره المتهدم قال : إنى لا أزال أرى فى نومى ويقظتى ملائـكة أبولو تحاسب أهل أثينا عما حفظته من أشعار هوميروس ، وعما تعى من كلم زيوفراست ، وهيراقليط ، وسقراط ، فلا تجد غـيرك ياهوبول ، وتصرخ فى أعلى السموات بصوت موحش مهول · لقد نسى أولئك الطاغون أشعار اليونان وكلها ، وتركوا عبـــادة آلهتها ، فدعهم ياهايكلوس فى ظلمات الجهل يعمهون .

دعهم فقد عبدوا البطون والقدود ، وأضحوا قوقعات نجسة تدنس الأرض بسائلها اللزج ، ماأشدهم طغياناً وفجراً ، إنهم نسوك ياهايكلوس فثابر على صومك ولا تعد تنشدهم شيئاً ، وإن الثلاثين يوماً التى انصرمت على انقطاعك لا تكفى ، بل ثابر على صمتك فهؤلاء قوم قد نسوا ماضيهم وحاضرهم ، وعليك أن ترحم نفسك . لأنى أرى أن كل كلمة من أشعارك الباهرة قد سلبت خلية من جسمك الغض .

إنى ياهوبول رأيت الملائـكة تخاطبنى غضبى : «سنترك المدينة طعماً للشياطين ، وسنحرسك فقط بعنايتنا »

[وكان هوبول جثياً على ركبتيه بجانب الشاعر هايكلوس مصغياً لما يفسر له من أقوال الملائـكة] فوخزه هايكلوس وأشار اليه ليرى المدينة ، فأبصر الشياطين تمرح فى أسواقها وقد خيمت عليها السحب الربداء ، وأعقبها قصف الرعود الصاخبة ، فصرخ الأهلون ... وجزعوا ، وهرعوا الى الجبال والآكام ومنهم من فر واختفى فى الغابات . . . ومنهم من رضى بالاستسلام للشياطين ، فلم يستطع هوبول أن يبقى صامتاً ساكتاً ، فألقى نفسه من النافذة ، وركض نحو القوم صائحاً :

ألم أذكركم بصوم هايكلوس ، ألم أبين لـكم غضب الآلهة لعدم انقيادكم لصوت الحق .

إنكم لم تعوا الحكم المرسلة على ألسنة شعرائكم ، ولم تعبأوا بما صاغ لـكم خطباؤكم من الأقوال المأثورة .

إن هايكلوس قد بلغ به الأعياء حد النزع ، وأضحى لا يستطيع

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

Jedermann ست مرات كما أعيد تمثيل كثير من الروايات الأخرى فى ال « FestsPieli » . وفى مدينة « Salzburg » مسرح اسمه « Marionetten Theater » لا يعرف له قط نظير فى العالم وقد حضرت فيه تمثيل رواية Faust : يرفع الستار فترى أمامك دُمَى لا تزيد طول الواحدة على ثلاثين سنتيمتراً تتحرك أمامك على المسرح وتتكلم وتمثل أدوارها بغاية الدقة والاتقان تسطع عليها أنوار قوية زاهية مختلفة الألوان . ولقـد كنت دَهِشاً طوال مدة التمثيل لحركات تلك الدمى العجيبة وللمناظر الرائعة التى كانت تسحر الأنظار وتأخذ بمجامع القلوب . فلعل أحد علمائنا يفسر لنا حركة تلك الدمى على المسرح .

وبعد فلا يسعنى الا أن أعلق أمنيتى العظيمة فى أن يحل الوقت الذى يكرم فيه الشعب المصرى نابغيه كما يكرم الأوربيون عامة والنمساويون خاصة نابغتهم العظيم موزار

عبد الحميد فهمى مطر

رد على نقد

مكة ومشـــهد

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت وأنا على أهبة السفر كلة فى الرسالة لأخى الأستاذ أمين الخولى عنوانها « مشهد ومكة » فلم أجد بين مشاغل السفر فراغا لاجابته ومناقشته ، وعزمت أول الأمر أن أترك كلمته حتى تتهيأ لى المناقشة فيها ، ثم بدا لى أن أكتب كلة كعجالة الراكب ، أو كلُهْنَة الضيف ، يروى بها الأستاذ بعض ظمئه للحقيقة « وإنها لحقيقة أن تبتغى لذاتها » .

أترك كلام الأستاذ عن « فرق ما بين العقيدة والفكرة وصلة العقل بمنطقه ، والاعتقاد بسلطانه » فهذه فلسفة لم أتهيأ لفهمها ، وأعمد إلى الموضوع :

أخذت على الرحالة محمد ثابت فى مآخذ أخرى تاريخية ولغوية قوله إن الشيعة يفضلون مشهداً على مكة ، فقلت : «وأفظع من هذا كله قوله عن إخواننا شيعة إيران أنهم يفضلون مشهداً على مكة ، وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الاسلام كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة الخ » ، ففقه المسألة أن الشيعة يعتقدون أن الحج قاعدة من قواعد الاسلام ، ولا يرون زيارة مشهد كذلك ، خلافاً لما رواه محمد ثابت .

فهل استطاع الأستاذ أن ينقض هذه الدعوى بما روى من حديث هذا (الكوزه كنانى) الذى تسلح به للجدال ولم يستطع إخفاء فرحه به ؟

قلت : « ربما بالغ عامة الأيرانيين فى تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين فى تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى وابراهيم الدسوقى ، ولكن عمل العامة لاتقاس به عقائد الأمة . وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب » فطالبنى الأستاذ متحدّيا بأن أذكر له من كتب الشيعة التى بين أيدينا شيئاً بعينه ليرتاح القارىء

ثم قال : « وكيف يكون الأمر إذا كانت كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل المكانى بقسوة وعنف الخ » وساق مانقله من كتاب الكوزه كنانى . وظاهر أن دليل الأستاذ الخولى لايفى بدعواه ، فقد أدعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل ثم لم يرجع إلى كتب الشيعة ولم يتحر أقوال أئمتهم ، ولكنه اكتفى برواية فى كتاب فرد لمؤلف لايعرف عنه الأستاذ إلا أن له كتاباً مطبوعاً منه نسخة فى دار الكتب . فلو فرضنا أن كتب الشيعة الأخرى تؤيد رواية الكوزه كنانى لكان الأستاذ مجازفاً فى الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الاطلاع عليها

أنا لا أطيل على القارىء بنقل نصوص من كتب أئمة الشيعة ، ولكن أعرض عليه خلاصة قراءتى :

فى كتب الشيعة روايات فى تفضيل كربلاء على مكة ، وفيها روايات يؤخذ منها تفضيل مكة على غيرها مثل هذا الحديث المروى عن جعفر الصادق فى كتاب « وسـائل الشيعة الى أحكام الشريعة » « ماخلق الله خلقا أكثر من الملائكة ، وأنه لينزل كل

مقاومة مرضه الممض ، وإن جوبيتر يرثى لحالكم الأسيفة بعد أن فقدتم كل ما فى الحياة من معنى ، وأصبحتم فى حياة لا روح فيها ، فان أثينا بعد اليوم ستقفر من الفن ، ستقفر من مواهبها السماوية ، ستقفر من بلابلها الغريدة . لم يعد يخرج بين ظهرانيكم شعراء وحكماء يفنون أجسامهم لتغذيتكم ، وينشرون الرائحة لتعطيركم ، ويصوغون الحكمة لأرشادكم .

ومازال هو بول يجول فى أحياء المدينة ويقص ما سمع من هايكلوس عن جوبيتر وأبولو والملائكة ، حتى فزع القوم ، فانتدبوا من يذهب الى هايكلوس ويرجوه وساطته بينهم وبين الآلهة ، لئلا تستمر الشياطين فى تمردها ، فانتدبوا أشخاصاً من كل طبقة وتوافدوا مستجدين أشعاره صائحين : لقد أيقنا بحكمة الحكماء ، وآمنا بحاجتنا لأمثالكم الرفقاء . . . .

فخرج هايكلوس من داره وأخذ ينشد دعاءً يعيد لاثينا حياتها الأولى . . . .

بسام كرد على

يوم سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت المعمور فيطوفون به ، فاذا هم طافوا به نزلوا فطافوا بالكعبة ، فاذا طافوا بها أتوا قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه ، ثم أتوا قبر أمير المؤمنين فسلموا عليه ، ثم أتوا قبر الحسين فسلموا عليه ، ثم عرجوا ، فينزل مثلهم أبداً الى يوم القيامة . »

وفى كتب الشيعة أيضاً روايات عن فضل زيارة الحسين والرضا ، ولكن خلاصة الروايات كلها ، وفقه النصوص الكثيرة أن الحج والعمرة الواجبين لاتعدلهما زيارة أحد ، وأن زيارة الحسين قد تعدل عمرة أو حجة أو أكثر من ذلك من الحج والعمرة المندوبين بعد أداء حجة الاسلام المفروضة . وفى « وسائل الشيعة » : قلت لأبى عبدالله (جعفر الصادق) : ماتقول فى زيارة قبر الحسين ، فانه بلغنا عن بعضكم أنه قال : تعدل حجة وعمرة ، فقال : ما أصعب هذا الحديث . ما تعدل هذا كله ، ولكن زوروه ولا تجفوه ، فانه سيد شباب أهل الجنة . . الخ

فهذه خلاصة قراءتى فى كتب الثقات ، وذلك تصديق ماقلته فى مقالى السابق ، وفى صدر هذا المقال .

وقد ختم الأستاذ الخولى مقاله بعد أن أثبت علىّ الخطأ بقوله : « وأكتفى بهذه الكلمة ، قائلاً مع الأستاذ عزام فى ختام كلمتى : وإننى لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاسلامية ، حتى لا يكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وأنصاف ، والله ولى التوفيق . »

وإعادة كلمتى هنا تعريض معناه أن محمد ثابت كان ثبتاً فيما كتب ، وأننى أنا غير المتثبت . ولعل الأستاذ قد عرف الآن أينا ينقصه التثبت ، على أن من فاته التثبت وهو يصف أمة مسلمة بما هو حرىّ بها وبديها خير ممن فاته التثبت فى الادعاء على بعض المسلمين أنهم يفضلون زيارة كربلاء على الحج ، وهو قاعدة من قواعد الاسلام عند المسلمين كافّة .

عبد الوهاب عزام

فجيعة الحياة

« أبى »

للأستاذ محمد محمود جلال

يا أبعد الناس عن لغو وايذاء ... جوزيت بالخلد عن همّ وعن داء
مضت حياتك ركناً يستظل به ... سُغْب العُفاة ويؤوى البائس النائى
فكنت آية خير ، فى حمايتها ... دفع الخطوب بحزم دون ضوضاء
وإذ يمينك بالاحسان فى شُغُل ... تمد يسراك ستراً عيب أعداء
عف اللسان كثير العفو فى أدب ... كم طوح الخصم فى وغظ واطراء
تغار للحق والدنيا على ملق ... وتصرع الظلم والدنيا بأملاء
حتى أتى القدر الغلاب عن أجل ... على الصبابة بين السين والراء
فهز نعيك فى الدنيا مكارمها ... وقوّضت من حياتى كل سراء
فى غربة فجعتنى قبل موعدة(١) ... وهونت بعد رزئى فيك أرزائى

(١) افترقنا فى ١٧ يوليه — وتوفى أبى فى غيبتى ، وعلمت النبأ مساء ٢٩ أغسطس سنة ٣٣ لدى وصولى ميناء الأسكندرية

التوبة

يا حبيبى هَدَأَ الحبُّ فما يُجدِى التمنّى
واسترحنا من غرامٍ وعذابٍ وتجنّى
وانتهينا لسكونٍ هاتفِ الصمتِ يُغنّى
وفرغنا من أمانٍ قرّبت بالأمسِ حَيْنى

***

يا حبيبى هَدَأَ الحبُّ بقلبى وضلوعى
وتراءى الكونُ ليلاً فى سكونٍ وخشوع
وطيورُ الروضِ غنّت فى الضحى لحنَ الربيع
أقفرَ القلبُ من الحبِّ فما جدوى دموعى ؟

***

كان هذا الحبُّ لحناً من لحونِ الأبديّة

على هامش اللزوميات

الى المعرى

لعل موتاً يريح الجسم من نصب — إن العناء بهذا العيش مقترنُ
(المعرى)

للشاعر التونسى محمد الحليوى

أبا العلاء ، أحقاً أنتَ فى دَعةٍ — من الخطوب، وفى سِلْمٍ من الكُرَب
هل فى رُقادِك فى بيتٍ تُقيم به — على الغضاضة، ما أغنى عن النَّصب
وهل طريقُ الرَّدى زهراءُ مونقةٌ — أم حفَّها الله بالوَيْلات والحَرَب
وكيف كأسُ الرَّدى هل فى ثمالتها
خمرٌ ، وهل شربها أشهى من الضَّرَب
وما رأيتَ وراء القبْر من عمهٍ — حارت عقول الورى فى سره العجبِ
أبا العلاء ، لقد حاولتَ مجتهداً
فكَّ الرُّموز ، وكشفَ السرِّ عن كَثَبِ
فما رأيتَ سوى طخياء حالكةٍ — وكنتَ تنظر خلف الباب من ثقب
واليومَ ها أنتَ لا بابٌ ولا حجبٌ — فقل لنا ما وراء الباب والحُجُبِ
ما علة الكون ... ما سرُّ الوجود ، وما
فى هذه الأرض من صدقٍ ومن كذب
ما غايةُ الحىّ من دنيا يُقيم بها — وما يُراد به من عَيْشه اللَّجب
والموتُ ماهو ... هل جسر نمرُّ به — أم هُوَ غايتنا من كلِّ ذا التعب !
هىَ الحقيقة تحكى ربَّةً ملكتْ — عرشَ الأُلْبِ على الأرْباب والرسلِ
وجرَّبتْ سحرَها فى الأرض فافتتنتْ
به الخليقةُ من فَسْلٍ ومن بَطَلِ
خلفَ النقاب بدتْ هيفاء ساحرةً — تبادل الصبَّ أفناناً من الغزل
أهلُ الصَّبابة فى الأشواق ما برحوا — يَستشهدون ولا يحظون بالقبل
كم من قتيل قضى فى حبِّ ربَّته — وكم رماه الهوى بالحادث الجلل
لكنَّ ربَّته ظمأى إلى دمه — لا ترتوى الدهرَ من علٍّ ومن نَهَل
أبا العلاء ، لقد راعتك نَضْرتها — فهمتَ مفتتناً فى حبِّها الأزلى
وعشتَ رهنَ العمى والحبس فى شظف
تنهى لها كلَّ ما تأتيه من عمل
وقد مضيتَ وما أُدخلتَ هيكلها — ولا أحلَّتْك يوماً قنةَ الجبل
وكيف! وهى التى فى الدهر ما رفعتْ — عنها النقاب ، ولم تُسفرْ إلى رجل
كلٌّ مشوقٌ وكلٌّ آملٌ ظفراً — بوصل ليْلَى ، وكلٌّ خائبُ الأمل
يا ليتَ شعرِى هل تُخفى غلالتها — ملاحةً ، أم حِمَى ليلى على دَخَل

***

أبا العلاء ، وهل أجدتْك موجدةٌ — على الحياة وتجديفٌ على القدر
الكون ما زال مثل العهد مشكلةً — وسرُّه مُضمرٌ فى مُغمَر العصر
والدهر يمشى.. فلا شكواك توقفه — ولا سبابك يثنيه عن الوطر
يمشى لطيته والحىّ يتبعه — يأتى على الكُرْه أو يأتى على قدر
رحاهُ لا تنتهى فى الدهر ضجتُها — ولا تدورُ الرَّحى إلاَّ على البشر
وما علِمْنا على التحقيق من خبرٍ — سوى القُصور على الاتيان بالخبر
نمشى على الدَّرب فى جهلٍ وفى عمهٍ — والليل فى حلك والدَّربُ فى خطر
ما تطلعُ الشمس مصباحا لترشدَنا — كلاَّ ، ولكنها رَمزٌ على الحَقَر
والبدرُ يضحك فى عليائه أبداً — وكيف لا .. وهو يلقانا على سَخَر
وذا الفضاء كتابٌ نُصْبَ أعيننا — يُتلَى فيلقى علينا خالد العِبَر
يقول فى كلِّ سطر من صحائفه :
« أفٍ لكم ما لكم فى الكوْن من خطر »
ما أنتمُ فى قضاء الله من أحدٍ — سوى هباء على الأكْوان منتثَر
سَوْأى لكم يا هباءُ هل ضجيجكمُ — ولعنةُ الأرض تثنى الدَّهرَ عن سَفَر!

(تونس) محمد الحليوى

كان هذا الحبُّ إشعا — ع الأمانى القدسيَّه
كان رَوْضاً من جمالٍ — وزهورٍ ذهبيَّه
وهْوَ طيفُ اللهِ فى الأرْ — ضِ وَلِى أسنى عطيَّه

***

يا حبيبى كم تغنَّيْـ — ـنا بألحانِ الإلَه
وشَدَوْنا فوقَ نايِ الـ — ـحبِّ أصداءَ نداه
وتذوَّقنا مداماً — من سُلافات الشفاه
وهتفنا فى حنينٍ : — إنما الحبُّ الحياه !

حسن محمد محمود

فى تاريخ الأدب المصرى

أيدمر المحـــيوى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

١

فى عصر الدولة الأيوبية ، حينما كانت مصر زعيمـة العالم الاسـلامى ترفرف رايتها عليه ، وتقف فى وجه المغيرين من الصليبيين وتصد هجماتهم ، وتدفع عن بيت المقدس وتذود عن حياضه ، وتحمى مدنية الشرق وتحوطها بسياج من المناعة والقوة ، وحينما كانت مصر تقف أمام أوربا مجتمعة ، يريد الأوربيون أن ينالوا منها منالاً ، فتأبى مصر أن ينكسر عودها أو تلين قناتها ، فى ذلك العصر الملىء بأسباب القوة ، الفعم بالعظمة المصرية والمجد المصرى ، عاش الشاعر ايدمر المحيوى ، وربى فى أرض مصر ، وفوق ثراها المخصب الندى ، وهو فى أصله ينتسب الى الترك ، وإن كنا نجهل مايتعلق بأسرته وآله ، ويظهر أن التاريخ يجهل كذلك أسرته ، ولايذكر إلا أنه كان مملوكاً للأمير محيى الدين محمد بن محمد بن سـعيد ، ثم أعتقه وأصبح حراً ، غير أنك إذا ذهبت تبحث عن السنة التى ولد فيها شاعرنا بله الشهر واليوم ، فانك غير مهتد الى شىء ، اللهم إلا أنه نشأ فى عصر الدولة الأيوبية فى منتصف القرن السابع الهجرى ، نستنبط ذلك استنباطاً من قصائده التى مدح بها بعض سـلاطين تلك الدولة ، وإذا أنت سألت التاريخ عن تربيته وتعليمه فانك سوف تجد غموضاً وإبهاماً لاتستبين خلالها إلا ماقد ينم عنه شعره من أنه درس اللغـة ، واطلع على كثير من شعر الشعراء السابقين والمعاصرين ، فتثقف به وتأثره ، وعارضه أحياناً كما فعل ذلك مع ابن المعتز وابن النبيه ومسلم بن الوليد والمتنبى — وإلا ماقد يكون قد تثقف به من علوم اللغة العربية على يد ولى نعمته محيى الدين الذى نسب اليه والذى ظل أيدمر حافظاً لنعمته عليه يذكرها ، ويمدح سـيده بغرر القصائد والموشحات .

٢

ليس لنا اليوم إلا أن نحدثك عن شعره الذى بين أيدينا ، وقبل أن نصفه لك أو نحدثك عنه حديثاً مسهباً ، يحسن بنا أن نخبرك أن ماسوف نتحدث عنه ليس بكل شعره ، بل هو مختار منه أبقته لنا الأيام ، ولسنا ندرى إن كنا سنعثر على كل شعره أو أن الزمن بذلك ضنين ؟

أول مميزات شعر شاعرنا طول نفسه ، فقصائده أغلبها طويلة ، وقد يبلغ بها الطول الى أن تقارب المائتين ، وذلك إن دل فانما يدل على تمكن فى اللغة ، واطلاع واسع يهيئه لأن يطيل كما يشاء حتى يوفى مابنفسه ويستوفيه . ثانيها الرقة وجمال الأسلوب مع متانته ، فلست تحس بالتنافر أو نبو الألفاظ أو أن تركيباً قلق فى موضعه غير مستقر ، أو أنك تجد عسراً فى فهمه ، أو تحتاج الى وقوف طويل حتى تستبين معناه ، فهو سلس سهل ، يسبق معناه الى قلبك قبل أن يسبق لفظه الى سمعك ، وانك لتجد نفسك مسوقاً الى قراءته متى بدأت أول القصيدة لطلاوته وعذوبته ، وهو يذكرنا بالبحترى حينما نجد الألفاظ له منقادة متخيرة ، مع السهولة والعذوبة . ولا يذهبن بك الوهم الى أنه لم يستعمل ألفاظاً غريبة فى شعره ، فانه قد استعمل منها طائفة صالحة ، غير أنه كان حكيماً فى استخدامها ، حصيفاً فى استعمالها ، لا يكثر منها ولا يضعها فى غـير موضعها . ثالثها استعمال بعض المحسنات البديعية من غير إكثار منها ولاتكلف ، بل إنها تجىء سلسة سهلة ، لاتذهب برواء القصيدة ، ولا تضيع من بهجتها ، ولقد استخدم فى شعره التورية والجمع والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، والاقتباس ، فهو يقول :

فى جوده السفاح أم فى عزمه المنصـــور ، أم فى غيبه المأمون

ويقول :

قضت لك الشيمتان : العـــدل والكرم ... أن تخضع الأمتان العرب والعجم

وشرف الدين والدنيا بدولتك الـ ... ـغراء ، والأشرفان العلم والعلم

ويقول :

ملك إذا امتدت يداه الى العدا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول :

هو الناهب الأرواح والواهب اللهى ... وبانى العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لايفارقـه ... صب الفـــؤاد به متيمه

يدعو بصوت أستبين به ... معنى الحنين ، ولست أفهمه

فيميل بى طرباً تمايـــله ... ويهزنى شوقاً ترنمـــه

يبدى أسى الباكى ورقته … فى نوحه ، والدمع يكتمه
بحر الأمى إنسان مقلته … يجرى فخضب رجله دمه

ويقول من موشح :

أنت ياموسى رجائى آنسا
نار جـدواه فوافى قابسا
رحت فى حضرة قدس دائسا
فى طوى السؤدد ، فاخلع نعلكا … وادعه يأت بكبرى يوشع

وكان أكثر ماأتى به فى شعره حسن التعليل ، على أن كل المحسنات التى أتى بها قليلة ، فهو غير مغرم بها ، ولاملزم نفسه كغيره السير على منهاجها .

٣

شعر المحيوى ينضوى تحت لواء واحد وفن واحد من فنون الشعر الغنائى ، هو المدح ، فهو الغرض الأول فى شعره ، يقصد اليه قصداً ويلم بغيره عرضاً من غير قصد ، يبدأ به قصيدة المدح أو يختم به الموشح ، وكان ماأتى به عرضاً يدخل فى الوصف أو فى الغزل ، ولنقف وقفات قصيرة لدى كل غرض من تلك الأغراض التى طرقها واصفين ودارسين .

أول مانلمسه فى شعره المدحى أنه قد خلا من الغزل فى أوله حينما يمدح سلطاناً من سلاطين الدولة الأيوبية ، بينما هو يبدؤه بالغزل عندما يمدح ولى نعمته محيى الدين بن سعيد أوغيره من الوزراء ، فأى شىء تستطيع استنباطه من تلك الملاحظة ؟ وعلى أى شىء تدل ؟ لقد قلبنا الأمر على وجوهه ، ثم خرجنا بنتيجة قد تكون قريبة من الصواب : تلك هى أن هؤلاء السلاطين لم تكن عنايتهم موجهة للغوانى والحب والغرام حتى يأسرهم الحديث عن الحب ويسترعى انتباههم ، وإنما كان كل همهم موجهاً الى الحرب والقتال ، وقهر الأعداء ، ورد العادين من المغيرين على دولتهم ، فقد كانوا كما قال أيدمر فى أحدهم :

متفرغ للمجد ، لاهو من دد … يلهيه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى … يطربنه ، لا البيض مما يولد
والأسمر الخطار يبهج نفسه … ويسرها لا الأسمر المتأود

وإذا كانت عنايتهم متجهة نحو ميادين الحروب فماله يشغل نفسه بشىء لا يملك عليهم نفوسهم ، ولا يأسرها ؛ حقاً لقد كانت لهم مواطن لهو ولذة ، ولكنها لذة العظمة وأبهة الملك

كذلك يسترعى نظرك فى شعره كثرة مدحه لسلاطين هذا العصر بذبهم عن حياض الدين وحياطته بسياج من العزة والمهابة فهو يقول للملك الصالح :

ملك يلوذ الدين منه بمعقل … أشب ، سطاه سوره والخندق
فالدين بعد تفرق متجمع … والكفر بعد تجمع متفرق

ويقول له :

فاسلم لدين قد هديت إليه من … لايهتدى ، وجمعت مالا يجمع
وحميت حوزته ، فأصبح وهو فى … أيام دولتك الأعز الأمنع

ويقول للملك الكامل :

فالله يشهد أن دين محمد … بمحمد ، وله الخليقة تشهد

ويقول له :

لولاه كان الدين سرحا ماله … راع ، وزندا ما عليه سوار

وذلك نتيجة طبيعية لهذا العصر الذى صبغ بالصبغة الدينية وكان القتال يدور فيه باسم الدين وباسم الدفاع عن الدين ، فليكن الشعر كذلك مصبوغاً بهذه الصبغة ، مثنياً على السلاطين لأنهم خدموا الدين وقاموا على صيانته .

تلمس فى شعره المدحى كذلك قوة ملوك مصر فى هذا العصر حتى لكثيراً مايسميهم ملوك الملوك وكثيراً ما تسمعه يقول لهم :

من ألقت الدنيا مقالد أمرها … بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيك عنه أنه … ملك الملوك الحق حين يحقق

إلى أن قال :

فجلست حيث جلست منه تزينه … شرفا فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه … فتراه ، وهو لغير فكر يطرق
هيهات جزت مدى الملوك إلى مدى … رجم الظنون اليه لايتطرق

ويقول :

منح رآك الله أهلا أن تقلـ … ـدها فقلدك الذى تتقلد
ذكرت مفاخرها الملوك وخيرما … ذكرته منها أنها لك أعبد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة … فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فاذا هم نظروا إليك فأعين … حسرى ، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له التـ … ـيجان فى قدم الزمان وتعقد

وإذا أنت علمت أن ملوك مصر فى ذلك الحين كانوا حقاً زعماء الملوك فى العالم ، وكانوا أكبر رؤوس تطأطىء لها هام الملوك ، وتنخلع من هولها قلوب الأعداء ؛ وإذا أنت علمت أن مصر فى تلك الأزمان كانت أكبر مملكة فى الشرق والغرب ، وأقوى دولة يقصدها الأوربيون بجموعهم ، فلا ينالون منها إلا ماناله

الوعل من الصخرة ، وإذا أنت علمت أن الجيش المصرى هو الذى حمى الشرق وحفظه من الأجنبى الذى يريد أن يتحكم فيه وإذا أنت علمت أن الاسلام وحرية الأديان كانت تسهر عليهما مصر وملوك مصر ، ويحيطونهما بسياج الحفظ والمناعة ، إذا أنت علمت كل ذلك أيقنت أن هذا الذى مدح به هؤلاء الملوك لم يكن بالكذب ولا المغالى فيه ، وأمامك كتب التاريخ فاقرأها تعد مؤمناً بصدق ماقال فى قوة مصر وملوك مصر .

شعر شاعرنا المدحى يعطيك صورة عن بعض نواحى الحياة المصرية فى ذلك الحين ، فهو يحدثك عن النزاع الذى كان قائماً بين المصريين والصليبيين حينما وجه هؤلاء تيار حروبهم إلى مصر نفسها قلب العالم الاسلامى ؛ فأغاروا على دمياط ، ولكنهم فشلوا أيما فشل ، واستطاع المصريون أن يخلصوا دمياط من حوزتهم ويرجعوهم بخفى حنين ، وهو يحدثك عن هذه الجموع الكثيرة التى كانت أوربا تمد بهـا الجيش المحارب لدمياط ، والذى يريد الغلبة عليها ، قال أيدمر :

أيام قال الشرك بغياً للهدى ... دمياط لى ، ولك الغداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة ... والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسـيل إلا أنه لا ينقضى ... والليـل إلا أنه يتوقـد
وأتى بك الأسلام وحدك موقناً ... أن سوف تهزم جمعهم وتبـدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما ... بالنصر تشق من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك، وهو مسربل ... خزياً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم : فمكلم ... ومجـدل ، ومشرد ، ومصفد

كما يحدثك عن هذا النزاع الذى كان قائماً حول جلق (دمشق) أتبق فى حوزة المصريين ، أم يحكمها غير المصريين ، وكانت الغلبة غالباً فى جانب المصريين ، وهو حين يحدثك عن هذا الفتح يشعرك بما فى نفوس المصريين من حب لأن تبقى دمشق ضمن حدود مملكتهم ، وأن يخفق عليها علم الامبراطورية المصرية . حتى إنه حينما كان يأتى البشير بفتح دمشق يزين المصريون دورهم ، ويرفعون الأعلام على شرف الجدران تخفق كما تخفق قلوبهم بالفرح والسرور ، واستمع اليه يقول :

قد قلت إذ جاء بالفتح البشير به ... الله أكبر هـذا غاية الأمل
ترنح الدهر ، واهتزت معاطفه ... وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها
وازينت ، فهى فى حـلى وفى حلل
مسرة فى قلوب الناس قد ظهرت
حتى على شرف الجدران والقلل . الخ

وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة ، وسوف تصبح فى دعة وأمن مادامت ضمن المملكة المصرية :

فليهن جلق أنها قد أصبحت ... فى مستقر الملك ، لا تتحول
وأنا الضمين بأن سيسلى جلقاً ... عما مضى من عمرها ما يقبل

ونختم حديثنا عن مدحه بتلك القطعة الصغيرة لتكون نموذجا لبقية مدحه ، قال يمدح الملك الكامل :

الله جارك ، والورى أنصـار ... فانهض ، ونل بهما الذى تختار
خضعت لهيبتك الأقارب والعدا ... وجرت بوفق مرادك الأقدار
ملك إذا امتدت يداه الى الظبا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمـار
من وجهه قمر ينير ، وسخطه ... قدر يبير ، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطايرت فى موطن ... نزلت عليـه سكينة ووقار
ملك له من بأسه وغنـائه ... حصن أشم ، وجحفل جرار
ملك يميل الى المكارم لا الدمى ... وتهزه العليـاء لا الأوتار
ملك تهيم به بنـات قلوبنا ... حباً ، وتعشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحا ماله ... راع ، وزنداً ما عليـه سوار

فأنت تحس حقاً بأنك تقرأ أسلوب البحترى وتحس جماله وعذوبته، مدحه لغير الملوك يبدأ بالغزل ، وهو وان لم يكن مقصوداً لذاته لا بأس بجماله وعذوبتـه ، حتى لتتمنى حين تقرأ غزله أن لو كانت القصيدة كلها غزلية ، وإن كنا نؤكد أنه فى غزله مقلد آخذ معانى من سبقه من الشعراء ، واستمع اليه يقول من موشح :

قال لى العـاذل لما نظرا
من غدا قلبى به مشتهرا :
أكذا تعشق ؟ ماذا بشرا ؟
حاش لله ؟ أراه ملكاً ... مثل ذا فاعشق ، والا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البـدر تغيب ويحكا ... ما احتياج الناس للبدر معى ؟ !

فأنت لا شك تحس بالعذوبة فى ألفاظه وان كان الكثير من معانيه مقتبساً ، وكم كان بودنا لو أطال الحديث فى الغزل أو لو قصد اليه قصداً وظل يروى لنا عاطفتنا الظامئة الى غزله .

(البقية فى العدد القادم) احمد احمد بدوى

بمناسبة الذكرى الأولى للملك فيصل

فقيد الأمة العربيـــة

للشاعر القروى

لحيٌّ برغم القبر فليخسإ الردى وقد سلم الغازى فلا يهنأ العدا
ولو كل موتٍ يضمن الخلد سارعت اليه ملوك الأرض مثنًى وموحدا
ولو كل حظ حظُّ غازى من العلى تفاءلَ بالدنيا مُهلٌّ فأنشدا
بنيتَ له المُلكَ الذى هو أهله وأطرفتَ ما هارون بالأمس أتلدا
فمكّنت آساساً وزخرفت قبةً وذهّبت آفاقاً وأطلعت فرقدا
ورممت فى بغداد عرشاً مهدماً وخلّفت فى الأكباد عرشاً مؤبدا
وما أنت إلا السيف أعقبَ خنجراً بلوناه فى الحُلى فكانَ المهندا
لدن أدّب الجبّارَ بالصفعةِ التى تداول أسماعَ النجوم لها صدى (١)
وصبَّ على رأس السفير صواعقاً نزلن على أكبادنا البرد والندى
رآه وقد ضلّ الهدى فانتضى له يداً قدحت من عينه النور فاهتدى
يمينَ شريفٍ تقعد الطود قائماً ولو شاءت اليسرى أقامته مُقعدا
أذابت قلوبَ الخائنين وفوّرت دما فى عروق الانجليز تجمدا
ليَرْضَ عليك الله ياسبط أحمد فانك قد أرضيت جدك أحمدا
شفيت بهذا الموقف الحر نفسه وزحزحت عن صدر العروبة جلمدا
وكم غضبٍ أدنى من الحلم للتقى وأهدى الى المجد الرفيع من الهدى
وما شأن مَلكٍ سامه العبد ذلة وأبرق صعلوك عليه وأرعدا . !
وكم تاج ملك صار نيرًا لربه ! وكم صولجان عاد فى العنق مقوَدا . !
أيزعم ذو القرنين أنك عبده ومثلك من يلقى السلاطين أعبدا
تعوّدَ منا أن نغضّ على القذى فعوّدته نسيانَ ما قد تعودا
ليعلمْ عبيد التاج أنك سيد تزيد به التيجان مجداً وسؤددا
وأن قريشاً أعظم الخلق هيبة وأكرم أخلاقاً وأشرف محتدا
تخرّ منيعات الجبال مهابة لبيت على رمل الحجاز تشيدا

(١) إشارة الى وقفته الجريئة مع السفير البريطانى فى بغداد وقت حادثة الاشوريين

زكا أصله قبل النبى محمد فكيف وقد أزكى النبىَّ محمدا
تمكينه عهد من الله خالد على الدهر ما كرَّ الجديدان جُددا
تشيب الثريا قبل إنذار شيبه ويوشك خدُّ الشمس أن يتجعدا

***

أفيصل إنى مرسل فيك شُرّداً يثبن اليك اللانهاية غُرّدا
أكلفها نوحاً فتمضى شواديا أوَابِيَ أن ترثيك حياً مخلدا
كأن حروف الخط أعواد جنة على كل فرع بلبلٌ للعلى شدا
وقلدتُ منها كلَّ شطرٍ مهندا يظل على هام العداة مجردا
اذا قرّع الراوى به سمعَ خائنٍ تذوّقَ طعمَ الموت شعراً مُردّدا
وحسب القوافى أنها فيك أُلهمت لأغدو بها رب البيان المسوّدا
فقد يهب الحق الغرابَ فصاحة وقد يُخرس البُطْلُ الهزارَ المغردا
سبيلكَ لم تسلكه الا منورا وسهمكَ لم ترسله إلاّ مسدّدا
وكنت لأشتات البلاد موحدا كما كنت فى الدين الحنيف موحدا
وكنت لأجل المجد بالمال زاهداً وكنت لأجل العرب بالمجد أزهدا
وكم خضت لاستقلال شعبك لجة وكم جبت آفاقاً وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تلقِ مرساةَ مطمحٍ الى المجد الاّ سامك المجد أبعدا
مشيت له تستبطىء البرق مركبا وأدركته تستوطىء النجم مقعدا
أرحْ كبدًا حمّلتها كلَّ فادح من الهم يعيى الشُّم لو كنَّ أكبدا
طعامٌ على مضٍّ وشربٌ على قذًى ومشىٌ على جمرٍ ونومٌ على مُدى
تصبّرتَ حتى الصبرُ كاليأسِ قاتل وحتى ذممنا فى الخطوب التجلدا
صعدت جبال الألب تنشدُ راحة وعدت كأن الألب فى القلب صعّدا
كلا كلُ همٍّ لو أنيخت (بيذبلٍ) لعاد (زوفاً) يقذف الجمر والردى
خيانةُ أحلافٍ وإخلافُ ساسة وغدر الذى أكرمتَه فتمردا (١)
مشوا بك بين الجيش والتاجِ موكباً أعدّت له نظّارةُ الخلد مرصدا
فلم يرَ أهلُ الأرضِ أروعَ مشهدا ولم تر عينُ الغيبِ أفظعَ مشهدا
يمدون للتسليم فى لندنٍ يدا ويخفون للتسليح فى نينوى يدا
وقالوا مليك العرب فى الغرب مكرمٌ فقلت إذن باتَ المليكُ مهددا
نصحتك لاتمدد الى أبرص يدا ولو مطرت كفاه درا وعسجدا

(١) مار شمعون زعيم الأشوريين

رسول الوحدة العربية !

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

يا أبا غازى ! ومافينا سوى   مُستطار يمزج الدمع بدمْ
يا أبا غازى وما فينا فتًى   « عربىّ دمعُه » إلا انسجم
يا أبا غازى وما فينا فتًى   ماراه ــ يوم ودّعت ــ الألم
ليت شعرى ، سامعٌ أسئلتى   أنت ؟ أم فى مسمع الموت صمم ؟
فيم ودّعت على أجراحها   أمة العرب ولمّا تلتئم ؟
فيم غادرت بنى قحطان فى   مِرْجل يغلى ، ونار تحتدم ؟
أو لم تشرع لها وحدتها ؟   لو تلبّثت بها حتى تتم !
لم تجب قولى.. بلى ! هذا صدى   رنّ فى أعماق قلبى كالنغم :
مُكرهٌ . . لو كان أمرى بيدى   لم أمت إلا وقد فقنا الأمم
ورأيتُ العرب فى وحدتها   كشعاع النور يجرى فى الظُّلَم !
همُّها أن تُصلح العالَم ، فى   يدها السيف، وفى الأخرى القلم !
هذه (الخُلد) ! وما أبنى بها   وبنو الضاد بيؤس وضَرَمْ ؟
وأرى (الحوض) فأوّاه متى   ترد العرب ينابيع الحِكَمْ ؟ !
وأرى (الحُور) فلا يُنسين ما   لفتاة العُرب عندى من ذِمم
ربّ لا نقض لما أبرمته   فارزق العُربَ هُماماً ذا شممْ
بدوى العيش والخلقِ معاً   حضرىّ العِلم ، غربىّ الهمم
طابعُ (الوحدة) فى ناموره   بعد توحيدك مرقوم بدم ! !
يخرج البدو فيبنى منهم   ثكنَ الجيش كأمثال الهرَم

لأمرٍ يلاقيك الفرنجىُّ باسمًا   فزد حذراً مازاد ذنب تودُّدا
تراه صحيح الود وهو سقيمه   كما تُكسِبُ الحمَّى الخدود تورُّدا

حفيدَ رسول الله يا غوث أمة   اذا استنجدت لم تلق غيرك منجدا
بكل لسان رتلت لك آية   وكل جنان شيدت لك معبدا
أذبت عليها حبة القلب ساهراً   فسافر بحبات القلوب مزودا

الشاعر القروى
من العصبة الاندلسية

يجعل (العرفان) كبرى آيه   ويرى (القوة) فى الدنيا الحكمْ

* * *

ذالكم (فيصلُ) فابكوه وقد   غاب عنكم شخصه ، والرُّوح لمْ
من إذا ما عزم الأمرَ مضى   وإذا ما أبصر الرأى عزمْ
وإذا ما قــدمٌ زلّت به   قام يمشى ــ غيرَ وانٍ ــ بقدم !
وإذا ما وقف الدهرُ مضى   وإذا ما عبس الدهرُ أبتسم !

* * *

يا مليكا هاشمــياً ما له   غير توحيد شعوب العرب هَمْ
يختم النومُ عليــه جفنَه   فيراه فى تهاويل الحُلُم !
بسناه كنت فى (سوريّة)   ملِكاً فى عرش (أقمار الحكم)
وبه فى (ميسلون) استُشهدت   مُهَجٌ لو لم تقمها لم تقم
وبه اخترتَ ــ على كرهكِه ــ   عرش (بغداد) ولم تأنف ولَمْ .
واثقــاً أنك تشفِى داءه   بطريق الحرب أو طرق السَّلَم
فيصلٌ يفسَح للخطب اذا   جاءه لا ينثنى ، لا يصطدمْ
فاذا الخطب الذى قــد أمه   قد تولّى خلفــه كالمنهزمْ !
فيصلٌ لا يعرف اليأس ، ولا   يرهب الموتَ ، ولا يخشى النُّقم
فيصــل العامــل يمتدُّ لَه   أمل النهضة ما امتدّ الألم
فيصــل يعمــل ما يعملــه   صامتاً فى غير عىٍّ أو سَأم
يسهر الليــل تناجيه المنى   من رعى آمال شعب لم ينمْ
هذه (يعرب) ضلّت سيرها   فهى حيرى تترامى فى ظُلم
بعضها يعثر بالبعض ؛ وقــد   غرب الطالع ، والليل ادلهمْ
وفم (الغرب) ــ وأخفى شخصه ــ   جاهداً ينفخ فى النار الضرم

* * *

أيها الآوى الى فردوســه !   طالما أسهرتَ عينيك فنَمْ !
لا تخف شراً على العرب ، فقد   لقنتْ مبدأك الحُرَّ الأشم
ومرى فيهــا ، فلن يهضمها   طامع أجنبُ ، أو طاغٍ صنم
ولقد خلّفت فيهم (غازياً)   علَماً يهديهمُ بعد عَلم
لم يمت من عاش (غازى) بعده   يرفع الملك ، وللشّعث يلُم
قم تهيأ للقــاء (المصطفى)   جدّك المبعوث فينا بالحكم
فسيدنيك إليــه فرحاً   بمساعيك كباراً والخدم
والق (آل البيت) وارتع بينهم   فى كروم الخلد أمثال النُّجُم !

على أحمد با كثير

بين الشك والايمان

الشاعر الانجليزى بيرون (١)

Byron

(١٧٨٨ – ١٨٢٤)

للأستاذ خليل هنداوى

روح هائمة ونفس معذبة طغى عليها الشك فى جميع أدوارها ، فارتعشت واضطربت وجدّفت ، وما تجديفها إلا صدى تلك الحرقة الملتهبة فى قلب الشاعر الذى يريد أن يزيح ذلك الغطاء عن الحقيقة المحتجبة .

قضى الشاعر طفولته الأولى حراً لاتقرعه عصا الأبوة ، لأنه نشأ تحت رعاية أم كثيرة الاشفاق عليه ، دخل المدرسة وشيطان الشعر والفن أخذ يوسوس له ويقويه وهو لما يلبس أردية الشباب ، فأنفق أيامه يزجى الفراغ متسلياً بالنظم لاهياً بالطرب . وفى هذا العمر الزاهى تسرّب إليه الشك ودعاه زهوه إلى الجحود ، فجحد باليوم الآخر وحطم قيود التقاليد . ولكن سرعان ما أعياه التفكر فى حقائق الوجود وكم أعيت من قبله ؛ فتعب من نفسه وهو الرقيق النفس ، وتعب من الناس وهو ذو الروح الشاعر .

هجر وطنه وفى خلال هذه الهجرة بدأ ينظم مقطوعته الخالدة « طواف شيلد هارولد »

ومن هو هارولد ؟ « هارولد عرفه الناس شر من جاور الناس ، يعيش مستقلاً عنهم مزهواً بيأسه ، يعرف كيف يتلمس الحياة فى زوايا نفسه . كذلك الكلدانى الذى أرسل عينيه فى النجوم ، ومازال يحدق فيها حتى أسكن نجومها المضيئة كائنات مثلها مضيئة ، فاذا استطاع أن يرقى بنفسه فى هذا الأوج كان سعيداً ، ولكن الطين الذى جُبل منه يثقل عليه ، وتراه — وهو الراغب فى النور الساطع — يبتغى أن يُهدم السد الذى يحول بيننا وبين السماء ، تلك السماء التى تتفتح لنا فى أعاليها عوالم مضيئة . وانه لهائم فى منازل بنى الانسان يغلب عليه القلق ويزعجه التعب ؛ مظلم النفس كثير الهم كاسف اللون كالصقر المهيض الجناح لايجد له وطناً إلا الفضاء الفسيح ، فيأخذه هيمان يسلبه عقله ، فهو يريد انقاذه منه ، فيهيج ويدأب كالطائر الذى يقرع قضبان قفصه فيصبغ كساءه بدمائه ، ونفسه السجينة المضطرمة أخذت ترشف هذه الدماء ، دماء قلبه . . . »

فأى فتى يتوارى وراء هذه الأبيات ؟ هل هو غير الشاعر ؟ وكل من قدر له أن يتذوق ماوراءها من يأس ومرارة يحس أن الشاعر لايستطيع أن يخرج عن نفسه ، لأنه يستمد كل عوامل نظمه من نفسه ، فلندعه يخلق الأشخاص ويولد الأبطال . فلن ترى وراء هؤلاء كلهم ناطقاً غير الشاعر ، ولا قانطاً غير الشاعر ، فهو ذلك الفتى النبيل الذى غامر فى ملذاته حتى عاده السأم ، والسأم داء يقتل فى المسرات كما يقتل فى الأشجان ، فتراه يهجر عالم الانسان كالمسحور « هائماً وراء أحلام مظلمة ، يخنقه السرور ويهفو إلى الشقاء والحزن لأنه يجد فيهما مروّحاً عن نفسه ، مغادراً وطنه ، حاملاً معه إلى المواطن التى وطئها — وهى مواطن الانس ومرابع النزهة — فكرته التى تسعى وراءه كأنها شيطان لاحق به (١) » .

عرّج على الاندلس ونزل فى (أثينا) مدينة الفلسفة ، وهنالك استفزته هذه المشاهد التى تحمل طياتها التراث الفكرى الذى استلمه الحاضر من الغابر . وهذه المشاهد هى التى أوحت إلى (رينان) (٢) صلاته الخالدة ، وفجرت فى قلب (شاتوبريان) (٣) ينابيع العاطفة والتصور . هنالك وقف (بيرون) ازاء هذه الآلهة المتناثرة على الحضيض ، فسخر من الآله الموجود والآله المفقود .

يا ابن يوم واحد ! أنهض وادنُ منى . . . .

أنظر إلى هذا المكان . . . هو وطن شعب ، ومأوى آلهة تبعثرت هيا كلهم .

الآلهة نفسها تتلاشى ، ولكل شريعة أجلها . . . !

(١) نشرنا فى العدد ٥٩ الجزء الثانى من هذه المقالة قبل أن ننشر جزءها الأول لأنه فقد فى البريد ، وقد أرسل إلينا الأستاذ الكاتب صورته اليوم فعدنا لنشره (الرسالة)

(١) Taine : تاريخ الأدب الانجليزى

(٢) اشارة إلى صلاة هذا الفيلسوف على الأكروبول . وهى المقطوعة الأولى والأخيرة التى ظهر بها (رينان) شاعراً عميقاً تجرد من اثقال الفكر واتبع صوت العاطفة .

(٣) هو الكاتب الوجدانى الذى مهد الطريق بكتاباته للمدرسة الرومانتيكية .

بالأمس ساد (جوبيتر) واليوم يسود (محمد) [1] والعصور الآتية ستتخذ لها من مذاهب القوم مذهباً حتى يجيء عصر يجد فيه الانسان أن مايضرمه من بخور ويهدره من أضاحيّ يذهب عبثاً !

أيها الولد الحقير ! ياقذفة الشك والموت ! يامن يتوكأ رجاؤه على أقدام من قصب . . . ! »

وقف الشاعر إزاء (البريتون) وتحت قبته المنقوبة فرحَّب بالعدم وجعل عصره خير عصر لنا وغده خير غدلنا . فقال : « هاهنا قبة العقل ، هاهنا مأوى النفس . كل ما كتبه القديسون والسفسطائيون والعقلاء ، أقادر على أن يعمر هذا الجوب المنعزل ؟ ألا إن الراحة تنتظرنا على شواطىء (الاشيرون) . هنالك لايكره الذى شبع من الحياة على ان يستوى على هذه المأدبة المملة . ولكن السكون يُعد ذلك المرقد الذى يحمل للجالس عليه السبات الأبدى »

ولكن بيرون لم يكن بذلك الجاحد الذى استراح ضميره وأراح ، فالحيرة لاتزال تغشاه ، والتردد لايزال يطغى عليه كأنما اتسع قلبه لنوازع يأكل بعضها بعضاً ، ويدمر بعضها بعضاً ، شأن الذى يركبه الشك ، ويتوارى عنه اليقين . وإنما يتميز بيرون من غيره من شعراء الشك بثورة دامية فى نفسه يُقدم وقودها من قلبه ليحرق بها قلبه ، وهو قلب قتله الظمأ الى اللانهاية ، هذا الظمأ الذى عجزت عن إطفائه سواقى الأرض .

قال (لامينى) لزملائه يوماً : أتعرفون ماذا جعل الانسان أشقى الكائنات ؟ هذا لأن له قدماً وضعها فى العالم المتناهى ، وأخرى فى العالم اللا متناهى ، وهذه هى حالة بيرون .

ولكن وجه الغرابة فى ثورة بيرون أنها اضطرمت فى صدره ولما يبلغ الثامنة عشرة ، وحق لمثل هذه الثورات أن تثور على مهل لأنها تأخذ غذاءها من العاطفة لامن العقل . وقد طغى اليأس عليه وهو مازال فى ميعة صباه ، ولكن قلبه يخفق ويخفق معلناً « أن الشباب ولّى ، وأن الحياة بليت ، وأن الرجاء نفسه قد أسدل على وجهه حجاباً . »

جاز بيرون بأحد القبور فقال : « ياأحلام طفولتى ! كم حسرة تتصاعد منى عليك . أنا لا أستطيع أن أنساك ، لأننى أجد ماحولى ظلمات متراكماً بعضها على بعض ، لاشيء أعز على قلبى منك باشعاع الماضى . »

وكتب وهو فى ڤينوس « إننى سأنفق شبابى حتى ينفد ، وبعدئذ أقول : عمى مساء أيتها الحيـاة ، فقد عشت وكنت مسروراً . »

ولكن ياله من سرور ! وهو القائل « أتيقظ فى كل صباح وبى يأس وسآمة من كل شيء ، حتى من الذى يبطن سهدى بالسرور . »

مِمَّ يشكو الشاعر ؟ وماهى الأسباب التى أورثت قلبه هذه السآمة وهو ممن لم تعوزهم أسباب الهناء ، ولا ممن نزلت بهم حوادث الدهر ، وهـذه المواطن التى جابها فى سياحاته تشفى البائسين وتداوى أصحاب الهموم ، ميدان الهوى أمامه رحب الفناء ، ومجال الحرية والمجد والبراعة واسع الفسحة ، فأية سعادة يطلبها ، ويلح فى تناولها ، ويشقى نفسه فى تتبعها ، وأين يجب أن يتحرى عنها إذا لم يجدها هنالك ؟

قد علل بعض النُقاد أسباب هذه المظاهر بافعام نفسه بالسرور الذى يخلق السأم ، ولاعجب إذا قتل السرور الكثير صاحبه كما يقتل الحزن صاحبه ، ولنسمع الشاعر نفسه يعلل هذه السآمة قائلاً :

« وا أسفاه ! عواطفنا الفتية تذوب ضائعة ، حيث لاتنتج إلا قفراً فارغاً ، ولاينبت منها إلا أشواك مؤذية . . . ونبات بقدر ما يروق للعين منظره ، يؤذى القلب ويؤلمه . وأشجار يقطر منها السم القاتل ، هذه هى الأشجار التى تولد تحت أقدام الأهواء .

أيهـا الحب ! لست أنت من سكان هذا الوجود ! أيها الساروفيم الذى لايرى ، نحن نؤمن بك . أنت شريعة أصحاب القلوب المنكسرة فيها ، همّ الشهداء ، ولكن العين لاتراك ، ولن تراك بحقيقتك .

الحب هو هذيان ، وهو جنون الشباب ، لكن علاجـه أمر من عذابه ، وعند ما نرى تلك الجواذب تتلاشى الواحدة بعد الثانية من أصنامنا الغرامية ، وعندما نرى تلك الروعة التى كانت تتمثلها مخيلتنا فى حالة التسامى قد زالت ، فسرعان مايذهب هذا

(١) اشارة إلى الاتراك الذين كانوا يسيطرون على اليونان

الانجذاب عنا ، وبعد أن زرعنا الريح لم نحصد إلا العاصفة .

يأتينا الذبول ونحن فى فجر العمر . . . نشق ونسأم ونسعى الى الغاية ، والغـاية تمعن فى الفرار . . . وظمؤنا لا ينقع غلته شىء . . . وفى اللحظة الأخيرة ، ونحن على حافة القبر يعودنا خيال جميل هو خيال السعادة التى تحرينا عنها فى مطالع الحياة . ولـكنه زار متخلفاً ، وجاد بالوصل حين لا ينفع الوصل ، فنذوق الشقاء مرتين . . . .

الحب والطمع والبخل ، كل هؤلاء سيء ، ماهى إلا شهب واحدة تجيء باسم واحد . والموت وحده هو الدخان القاتم الذى يطفىء نارها . »

ما أدنى هذه العواطف من القلب ، لأنها ماخرجت من قلب إلا لتدخل فى قلب . . . ولـكن بيرون المظلم قلبه ماوجد على الأرض إلا الظلام ؛ وما أبصر إلا خيال السعادة مولياً أمامه ، فقيد الحقيقة — التى هى حقيقة الدهر — بهذا الخيال . وهو الشاعر قبل أن يكون فيلسوفاً . ولـكن هل كل جمال مآله الزوال؟ أكل حب يستقى من نبعة واحدة ، فهنالك أنواع كثيرة لجمال يزول وجمال يبقى ، وحب يتلاشى وحب يحيا ، فبأى نوع قيد الشاعر سعادته ؟

هاهو حائر كيف يقضى أعوامه هنا ؟ وكيف يستقبل ذلك العالم الهامد ؟ يأتيه الضجر فيبدع أشخاصاً وأبطالاً تغلى فيهم نزعة الضجر لأنهم يستمدون عواطفهم من عاطفته .

فهذا (ما نفرود) يملك عليه السأم ، سأله الجنى : ماذا تتمنى ؟ فأجابه : النسيان ، نسيان نفسى .

وهذا هارولد كان يدعى : « الفتى السائم من الوجود » وهذا (جيور) كان لا يجد أقفر من صحراء القلب الفارغ

وأخيراً آل به هذا الشك إلى جحود كل شىء ، فخلا قلبه من الحب وفرغ من الأمـل . واستحالت كل هذه الصفات النبيلة إلى كره للبشر ، وهل فى استطاعة من كرههم وأوسعهم ذماً أن يبدلوا ظلمة قلبه نوراً إذا لم يكن النور ابن قلبه ؟

لنصغ إليه وهو يحدثنا عن الناس « هل أعود إليهم كرة ثانية أتحرى عما يرجوه قلب هادىء فى هذه المواطن التى يغلب فيها إنهاك أصحابها فى المنكرات ، وحيث الضحكات ترتفع عبثاً لتخفى حقيقة القلب . هذه الابتسامة هى تؤلف أخدوداً لدمعة طافرة ستنسكب »

لم يستطع أن يحمل نفسه فطاربها فى الآفق يسليها بالوحدة فطابت له حياة منعزلة تقصيه عن الناس فى مواطن آهلة بالجبال التى يدعوها أصدقاءه ، منتحياً عن قوانين وحكومات أقسم ليكرههما حتى يقضى نحبه .

وكأن هذا الألم قد أكسبه قوة ومناعة « أما الجمل فانه يحنى ظهره تحت الحمل ثم يمشى ساكتاً ، والذئب يموت ساكتاً ، ونحن الأولى تسمو جبلتنا على جبلتهم ، لنتعلم أن نتألم مثلهم »

ويقول بلسان أحد أبطال روايته « إننى شبيه بهذه الريح المشتعلة التى لا تسكن إلا الصحراء ، ولا تهب لوافحها إلا على الرمال . . الأسد وحده أتخذه لنفسى مثلاً » وعثل هذا الـكبرياء حلى بيرون أبطال رواياته ، وجعلهم ناقمين ثائرين غير راضين عن الوجود ، فأتعب نفسه كثيراً وأتعبهم كثيراً . فاذا كان القعود عن الشيء يعد عجزاً فان التحليق فوق حدود الامكان ماهو إلا ضرب من ضروب العجز ، وان رفض الانسان الوجود رفضاً باتاً بحجة نقصه ، وان يهرب منه ومن اصحابه بداعى هذه الحجة هما من نقائص النفس التى تستر عجزها وترددها وراء هذا التهور الفارغ .

هذا هو الوجود ؛ إن وجدت فيه الجميل فاملكه ، وإن وجدت القبيح فحسنه وأصلحه ، وإياك ان تعفَّ عن الأول بسبب الثانى ، لأن قوانين الحياة قاسية تسحق من يحاول ان يسحقها . هكذا أرادت أن تـكون ، وهكذا تريد أن تمشى

وفى النهاية لاتجدى هذه الـكبرياء شاعرنا شيئاً ، فهو تعس يود أن يعترف بتعسه لأنه لا يستطيع أن يمشى كالجمل ساكتاً او يموت كالذئب صامتاً . فيقول :

« ما أشد تعسى ! أيامى أمست تجرى على وتيرة واحدة ، وليالى أقضيها بالسهاد ، لا أخالط المجتمع البشرى الاقليلاً ، اذا جاءنى احد منه لذت بالفرار . . إنها لحال مؤلمة لا ينقذنى منها إلا الجنون »

كل هذه الأهواء الصـاخبة ، والأنات المتصاعدة يرسلها الشاعر وراء محبوبته ، الحقيقة . . ولـكن أين يجدها ؟

(بيروت) خليل هنداوى

العلوم

١ – التلفزة فى عهدها الأول

للأستاذ محمود مختـــار
بكلية العـلوم

مقدمة :

ليس لعالم اللاسلكى حد ينتهى عنده . فهو يأتينا كل يوم بمعجزات لم تخطر على قلب بشر . فما كاد وليـده بالأمس يكبر ويترعرع ويلعب دوراً جدياً فى الحياة يملأ الدنيا بهجة وسروراً عما ينشر من موسيقى شجية وأحاديث عذبة ومسامرات طريفة ، أقول ما كاد هذا الوليد يكبر حتى قال الأنسان الطماع « لو أن لى أن أرى ذلك الذى يشجينى بتلك الموسيقى ، ويبعث إلى بأحاديثه . لو أن لى أن يُكشف عن بصرى كما كشف عن سمعى . إذاً لـكنت إنساناً آخر » . وسرعان ما وصلت هذه الأحـلام إلى العقل البشرى الجبار حتى قام لفوره يقول « ليس فى الوجود معنى لـكلمة مستحيل » فلم تكن كلمته محض هراء ، وهو الذى لا يلقى الـكلام جزافا .

فى سنة ١٩٢٦ طلع علينا العالم الانجليزى الـكبير جون بيرد (John Baird) بجهازه الأول فى عالم التلفزة وعرضه بالمعهد الملكى فى لندن ونقل به صوراً لأجسام بسيطة كانت موضوعة بغرفة مجاورة . وبالرغم مما كانت عليه الصورة التلفزة من صغر واهتزاز وعدم وضوح ، كانت فـكرة جبارة جريئة شغلت العالم بعدها وملأت الرؤوس فقام الـكثير يعمل على تحسينها وإنمائها . فلم يمض عليها بضعة أشهر حتى قامت مصلحة التلفونات والتلغرافات الأمريكية بعرض هائل لتلفزة بعض الأجسام مابين واشنجتون ونيويورك ، وقد كان من بين من اشترك فى هذا العرض مالا يقل عن ألف مهندس كهربائى .

تخطى الوليد دور المهد بعد سنوات ثلاث تحت رعاية مخترعه الأول الذى تمكن من إذاعته مع أخيه الأكبر بنجاح تام من محطة B. B. C. للاذاعة اللاسلكية فى لندن على موجتين مختلفتين كما استقبلهما بجهازين منفصلين أيضاً .

ولأترك الآن النقطة التاريخية فى الموضوع لأنتقل إلى شرح جهازى بيرد للارسال والاستقبال كل على حدة . ويلاحظ أن التلفزة يقصد بها إرسال الصور الثابتة أو الأجسام المتحركة على حد سواء كما يمكن أن تنقل بواسطة أسلاك أو بدونها .

وتأخذ عملية الارسال ثلاث خطوات . تبدأ أولاها بتقسيم الجسم المتلفز إلى مساحات صغيرة ، وثانيتها بتحويل الأضواء المنعكسة من هذه المساحات إلى دفعات كهربائية ، وثالثتها بتكبير هذه الدفعات وإذاعتها على التعاقب بواسطة أسلاك أو بالأثير إلى جهاز الأستلام .

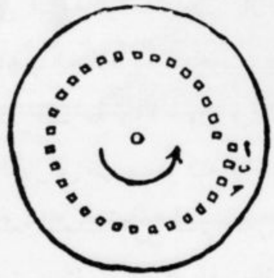
وللاستلام خطوات ثلاث أيضاً هى بنفسها خطوات الأرسال مأخوذة فى الأتجاه العكسى . فتبدأ باسـتقبال هذه الدفعات الـكهربائية من الأثير وتـكبيرها ثم تحويلها إلى دفعات ضوئية ، ثم أخيراً جمعها وإعادة تركيبها لتخرج صورة الجسم المتلفز .

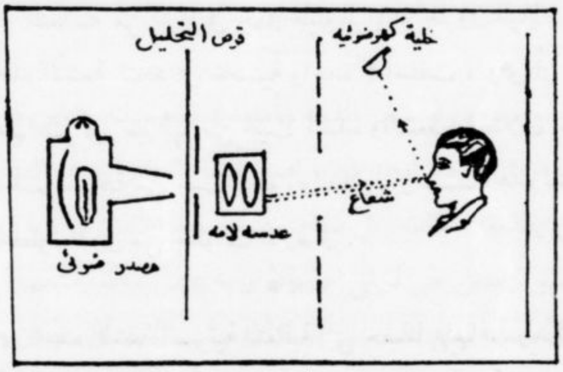
ولأبدأ ببحث كل من هذه الخطوات على حدة متدرجاً من أبسط الأجهزة إلى ما تطور منها .

جهاز الارسال

فلتحليل الجسم المتـلفز – ولنفرضه الصورة $ا_١ ا_٢ ى_٢ ى_١$ شكل (١) – يستعمل القرص المثقب ويكون عادة من معدن خفيف كالألمونيوم ويبلغ قطر دائرته حوالى ٤٠ سنتيمتراً ويحوى قرب حافته المستديرة ثلاثين ثقباً صغيراً مربعاً تقع على منحن على شكل لفة مفردة من حلزون صغير الزاوية كما هو مبين بالشكل ، ويوضع الجسم المراد تلفزته خلف هذا القرص كما يوضع أمامه ضوء قوى من قوس كهربائى . ويكون موضعى الجسم والضوء بحيث أن الخط الواصل بينهما يكون متعامداً على مستوى القرص ومارا

بأحد ثقوبه . ويدار هذا القرص بسرعة منتظمة قدرها ١٢½ دورة فى الثانية بواسطة محرك كهربائى مركب على محوره .







شكل (١) صورة رمزية لجهاز التحليل

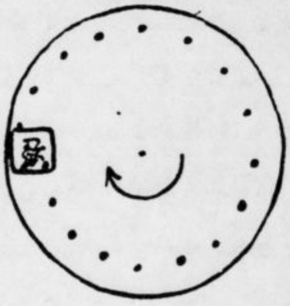
ولنفرض الآن أن القرص فى موضع بحيث أن شعاع الضوء المار من المربع (ا) يقع على النقطة (ا١) على الجسم فيضيئها ، وتمكسه هذه بقوة تتناسب مع قدرتها على العكس ، فان كانت قاتمة كانت نسبة الأنعكاس صغيرة ، أو ناصعة كانت نسبتها كبيرة . فاذا تحرك القرص فى اتجاه بحيث يحمل معه المربع (ا) إلى أعلى تحرك تبعاً له شعاع الضوء الساقط على الجسم إلى أعلى فيضىء على التعاقب نقطاً من الجسم تقع على خط رأسى حتى إذا ماانتهى عند حافة الجسم العليا عند (ا٢) بدأ شعاع آخر يخرج من المربع ب ويقع على الجسم من أسفل عند (ب١) الملاصقة للنقطة (ا١) . وهذا هو الغرض من وضع ثقوب القرص على لفة من حلزون حتى يكون كل ثقب مزاحا عن سابقه بقليل بحيث يرمى شعاع الضوء الخارج منه على نقط ملاصقة لنقط الثقب الذى قبله . فاذا ما أتم القرص دورة كاملة شاهدنا ظهور الضوء أولا عند (ا١) ثم سيره إلى (ا٢) ثم اختفاءه وظهوره ثانياً عند (ب١) وسيره إلى (ب٢) ثم إختفاءه وظهوره عند (حـ١) وسيره إلى (حـ٢) وهكذا حتى (ى٢) وبذلك تكون كل نقط الجسم قد أضيئت على التعاقب ، ويمكن أن نشبه حركة النقطة المضيئة على الجسم بحركة العين عند ماتقرأ كتاباً كتبت أسطره فى اتجاه من أسفل إلى أعلى .

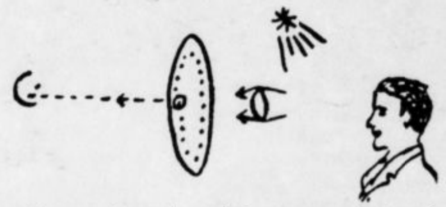
وعند مايأخذ القرص سرعته العادية (١٢½ دورة فى الثانية) لايمكن للعين أن تتبع حركة هذه النقطة المضيئة على الجسم بالتفصيل ، ولاحتى هذه الخطوط الرأسية المتلاصقة المتتابعة . بل سيخيل إليها أن الجسم كله مضاء إضاءة واحدة منتظمة من مصدر واحد مستمر .

ويوضع عادة بين الجسم والقرص عدسة لامة تعمل على جمع الأشعة الخارجة من الثقب على نقطة واحدة من نقط الجسم كما يغطى مصدر الضوء حتى لايتسرب منه ضوء إلى الجسم بطريق غير طريق الثقب .

وقد وجد أن هذه الطريقة تستلزم مصدراً ضوئياً قوياً إذ أن الجزء الساقط منه على الجسم صغير ، وهذا يسبب قلة استضاءة الجسم . هذا فضلاً عن أن هذه الطريقة تستلزم أيضاً وضع الجسم المتلفز فى ظلام حالك لايتسرب إليه أى ضوء خارجى وذلك ممايمنع تلفزة أجسام موضوعة فى ضوء النهار . فنقحت هذه الطريقة باضاءة الجسم ذاته من مصدر الضوء ، ثم وضع عدسة أمامه لتكوّن له صورة تقع على حافة القرص المثقب . بحيث لايمكن أن تغطى أكثر من ثقب واحد فى أى موضع من مواضع القرص كما هو مبين بشكل (٢) ففى أى موضع من مواضع القرص ينفذ من ثقب واحد منه شعاع ضوئى تتناسب شدته وشدة استضاءة نقطة الصورة الباعثة له . وبحركة دوران القرص يسير كل ثقب على الصورة على التعاقب فى اتجاه رأسى من أسفل إلى أعلى حتى إذا

ماخرج من حافة الصورة العليا بدأ الثقب الثاني له يظهر في أسفل





شكل (٢) صورة رمزية لجهاز التحليل في ضوء النهار

الصورة ليمسح من الصورة خطاً رأسياً آخر يلاصق الأول وهكذا حتى إذا اما أتم القرص دورة كاملة أرسلت من ثقوبه على التعاقب أشعة تمثل في شدتها وضعفها شدة استضاءة نقط الصورة كلها .



شكل (٣) طبلة المرايا للتحليل

وفي السنوات الأخيرة استبدل هذا القرص المثقب بعجلة على شكل الطبلة تثبت على حافتها الخارجية مرايا مستوية صغيرة بعدد ثقوب القرص تميل كل منها بزاوية صغيرة جداً على سالفتها شكل (٣) فتعكس الضوء الساقط عليها من المصدر على نقطة واحدة من نقط الجسم بمساعدة عدسة لامة وبدورا العجلة تمسح أشعة الضوء المنعكسة من المرايا المتعاقبة الجسم المتلفز بطريقة تشبه تمام الشبه الطريقة الأولى للقرص

كذلك استعمل لنفس القرص حلزون المرايا وهو شكل ثان لطبلة المرايا . وميزة أجهزة المرايا هذه أنها لا تشغل فراغا كبيراً .

* * *

وبأي طريقة من الطرق السالفة لتحليل الجسم المتلفز الى نقط صغيرة نجد أن كل عملية التحليل لا تستغرق سوى ١ من ١٢½ جزءاً من الثانية كما أسلفت . ومعنى هذا أنه يرسل للجسم ١٢½ صورة في الثانية الواحدة . فإن كان متحركاً اختلفت كل صورة عن سابقتها اختلافاً طفيفاً بحيث أنه عند عرضها في جهاز الاستقبال بنفس السرعة ١٢½ صورة في الثانية تظهر للرائي حركة الجسم كما هي الحال في ظهور حركته بواسطة آلة السينما مثلاً .

هذه الأشعة المنعكسة من الجسم المتلفز في حالة طريقة القرص الأولى أو المارة من ثقوب القرص في حالة طريقة القرص الثانية أو المنعكسة من المرايا في جهاز طبلة المرايا أو حلزون المرايا . كل هذه الأشعة تتحد في خاصية واحدة كما أسلفت ، وهي أن كلا منها تمثل في تغيراتها من حيث الشدة والضعف اختلاف نقط الجسم المتعاقبة من حيث الضوء والظلام . وعنـــد هذه تنتهي الخطوة الأولى من خطوات الارسال .

* * *

هذه الأشعة الضوئية المتعاقبة التي حصلنا عليها . نريد الآن أن نحولها الى دفعات كهربائية تختلف شدة وضعفاً تبعاً لاختلاف شدة هذه الأشعة . وهذه هي الخطوة الثانية من خطوات الارسال .



شكل (٤)
الخلية الكهرضوئية
Photoelectric Cell

العين الكهربائية أو ما نسميها علمياً بالخلية الكهرضوئية هي المحور الأساسي والجزء المهم في جهاز التلفزة للارسال كما تكون أيضاً أهم أجزاء جهاز عرض السينما الناطقة . ولها أنواع كثيرة منها ماهو مبين [بشكل (٤)] . وهي عبارة عن انتفاخ زجاجي مفرغ من الهواء أو به غاز مخلخل ويحوي قطبين بداخلها ، أحدهما يبطن الزجاج من الداخل ويسمى الكاثود ويكون عادة من معدن البوتاسيوم ، أو الصوديوم ، أو الروبيديوم أو السيزيوم . والقطب الآخر وهو الأنود ، ويكون عادة على شكل سلك رفيع في وسط الانتفاخ. ويوصل الأنود هذا بالطرف الموجب من جهد

القصص

الضـــيف ...

بقلم الأستاذ محمد سعيد العريان

ودّ توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فانه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء ، لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة ، ودقّ حسّه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال . وكان في إجازة طويلة ، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم ؛ وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد فلا طاقة له على البقاء في البيت ساعة من نهار ، ولا يجد في القهوة ما يسلّي نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم . . !

وتصورت في خياله القرية التي مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتي لا يذكر — لبعد العهد — متى هاجروا منها إلى المدينة . وله . . . لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ، ويهدى إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صور جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ؛ وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته في القرية ، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الساقية تحت شجرة التوت الغليظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته في جلبابه الفضفاض تحت المعطف الابيض على شاطىء الترعة وبين الحقول ، يتملّى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذيول ، ويحملن الجرار على رؤوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل في نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر مجالس الأنس والسمر في الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل في لذة وسحر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التي تحوطه هناك .

***

كهربائي عال يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ فولتا ، ويوصل الكاثود بطرفه السالب . ولهذا الكاثود خاصية غريبة ، وهي أنه إذا ما سقط عليه ضوء انبعثت منه ألكترونات واتجهت نحو الأنود ، وتسبب تياراً في دائرته تتناسب قوته مع شدة الضوء الواقع على الكاثود .

فاذا ما سلطنا الأشعة الضوئية المتعاقبة التي حصلنا عليها سابقا من تحليل الجسم على كاثود هذه الخلية سببت تيارات كهربائية في دائرة الخلية تتغير تبعاً لاختلاف نقط الجسم المتلفز بالنسبة للضوء والظلام ، وتكون هذه التيارات عادة ضعيفة جداً ، أي أنها لاتتعدى بضعة ميكروأمبيرات [الميكروأمبير يساوى واحدا من مليون من الأمبير] . لذلك كان من الواجب تكبيرها قبل إرسالها ، وهذه هي ثالثة خطوات الارسال .

أما كيفية تكبيرها وارسالها فهذا موضوع آخر يختلف تمام الاختلاف في بحثه عن موضوع اليوم . وهو موضوع قائم بذاته يتطلب دراسة وافية لعلم الصمامات . فكل مايهمنا الآن هو أن نعلم أن هذه التيارات الكهربائية المتغيرة المارة في دائرة الخلية الكهرضوئية تؤخذ إلى هذا الجهاز المكبر ومنه إلى جهاز الاذاعة حيث تذاع في الأثير بنفس الطريقة التي تذاع بها الأمواج اللاسلكية . ومن ثم إلى جهاز الاستقبال وموعدى به الرسالة القادمة .

محمود مختار

وفى اليوم التالى كان القطار يغذّ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح فى أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر بناتها . . .

وتلقّته أخته بالترحيب والعناق . وجاءت إليه قليلاً تحدثه وتحدثها ، ثم تركته لتهيىء له الطعام بيدها ؛ طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيّونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال . . :

وخرج معهم فى العصر يطوف بأزقة القرية يتعرّف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلاً وعرة بين الحفر وكومات السماد ، وبيوت متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف فى دار له بها عهد ، لأن صاحبها من ذوى قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ ، ويتناولون شتى الذكريات ، ويخوضون فى كل حديث ، ويتبادلون أنباء القرية وحوادثها ، وأنباء السياسة أيضاً ، وإن لهم فى السياسة لأحاديث لاتخلو من حكمة وبعد نظر .

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه فى لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أبى الهول وأطياف وادى الملوك . !

وأديرت فناجين القهوة وانعقدت فى جو الغرفة سحائب الدخان ، واشتد الحر وأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يختنق وأن أعصابه تخونه ، وهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس ، وأخذوا فى حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث عما سمع ومارأى ! وتفننت عبقرية الجهل فى اختراع القصص المروّعة والروايات الغريبة ، وطفقوا يعدّدون الشياطين بأسمائها وحوادثها وضحاياها . . . وأشار « الشيخ » بيده فأنصتوا وماًلوا برءوسهم إليه وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه فى انفعال عصبىّ ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذى كان يتسوّر عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه وفراشه أيضاً فلا ينصرف إلا مع آذان الفجر ، والزنجية الحسناء التى كانت تصحبه ليالى فتحتل موضعه من الفراش ، وتضطره أن يقضى الليلَ معقودةً يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لايفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم ، أو عَضوَين من نار تلهبان ظهره ، جزاء رضاه أو سخطه على مايصنعان . . !

وكان حديثاً غريباً على الضيف فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلّل ، ولكنهم أنكروا منه ذاك ، وطلبوا إليه التسليم ، أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ، وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت ، واستمروا يتحدثون . وأحس رعدة خفيفة تتمشى فى جسده فسحب رجليه فى هدوء فدفنهما فى أطراف ثيابه ، وجمع يديه فى حجره ، ومال إلى المحدِّث يستمع إليه هادئاً منصتا فى شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ولكن صاحبنا ظل جامداً فى مكانه ، لم يهمّ بالقيام حتى دعوه ، فنهض كسِلاً متراخياً يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته ، وهو سارٍ بينهم يتعثر فى أوهامه . .

ووجد أهل البيت نياما فلم يبق ساهراً إلا مصباح ضئيل موقد فى الردهة يرقص لهبه على عزيف الهواء . وكان يعلم أنهم أعدّوا له غرفة فى الطبقة الثانية فصعد فى السلم بطيئاً متثاقلا يتلفت بين الخطا والمصباح فى يمينه ، ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتاً يشبه أنين المستصرخ ، فأدار ظهره فى فزع ليرى من هناك ولكنه لم يجد شيئاً ، وعاد يدفع الباب فسمع حشرجة خشنة ، ثم ضحكة بشرية ناعمة . . !

ووقف فى وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها فى رعب وفزع ، وكانت به رغبة فى التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان ، وتتجاوب فى أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة . ودفن نفسه فى الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفيّة تُطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود ، ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتاً غريبة هامسة ليست من صوت البشر ! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتاً ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه . واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهمّ أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم

يتحرك لسانه . وشبّه له أنه يرى شبحا من الضباب فى شكل غير إنسانى — وإن كان يمشى على رجلين — ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليـه بالصمت فى إنذار وتهديد ! . . وسحب الغطاء يخفى عينيه فى حركة آلية ، ولـكنه أحس شيئاً بارداً يلمس أطراف قدميه ، فاستوى جالسا وأفلتت منه صرخة مكتومة . وتوارت الأشباح فلم يعد يبصر شيئاً ، ولـكن همهمة غير مفهومة ، ودبيباً وهمساً وأصواتاً غريبة كانت تصكّ أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدّق فى الحائط الذى أمامه تحديق الخائف الذعور ، فقد أبصر ظلاً أسود مطبوعا عليه يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث الى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ماوراء ليرى المشار إليه ، ولـكنه خاف ؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان فى أذنيـه ، وتتراقص الرُّؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم ينم ليلته ؛ وفى الصباح مع أول خيط من ضوء النهار كان جالسا فى فراشـه يصفق بيديه فى عنف يستدعى الخادم ، ودخلت أخته تحيّيه ، فراعها مارأت فى وجنتيه من صُفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له :

« توفيق ماذا بك ؟ »

— « لاشىء ، ولـكنى مسافر اليوم فأعدى لى ركوبة الى المحطة »

— « مسافر ؟ ولـكنك عرفتنى أمس أنك قد تمكث لدينا شهراً ، فلماذا غيرت رأيك ؟ »

— « لاشىء ، لاشىء ، قلت لك لاشىء . إن حقيبتى فى الغرفة الثانية ! . »

وآلمها لهجته فمطّت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله :

— « حدثنى يا توفيق ، هل تألمت من شىء هنا ؟ »

— « لا . ولـكنى لم أخبر أمى أمس أنى مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابى أو يؤلمها ، لذاك سأعود . »

— « ليتك لم تحضر يا توفيق ! » وانصرفت لبعض شأنها . »

* * *

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها فى جيبه قبل أن يقرأها .

ولمـا جلس فى القطار وضع يده فى جيبه ليخرج شيئاً فعثر بالورقة ، ونشرها بين أصابعه يقرؤها . . . وضحك توفيق وشاع فى وجهه السرور حين عرف ما هناك ؛ لقد كانت أخته تربى له ماعزة ولوداً ، فـكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن فى ضيافة ماعزته فوق السطح جدْياً فلا يفزعه دبيبهما ريثما تردّ الجدى الى صاحبه فى الصباح . . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته لأنه كان يظن أنه وحـــده ضيف البيت . . . ! ؟

محمد سعيد العريان

٦ – سافو

لأوجييه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

حنا — إن الشتاء قرس هناك فلم لا تقصدين الى باريس ؟

سافو — وماذا أعمل فيها وأنت بعيد عنى . ثم إننى ما عدت أجد فى الوسط الذى كنت قديماً فيه غير أسباب الأسى والهم . ولقد امتلأت يدى منك فحسبتها امتلأت من حب كُتِب له الدوام ، وما لبثت امرأتك أكثر من سنة . عد يا حنا فتعود الينا تلك الأيام من جديد ، وتعود السعادة فتملأ جوانب قلبك وقلبى . تعال معى وسأكون كما تريد محِبةً طائعةً ، وسأفتح لك صدرى وأنزلك فى عينى . تعال إنك لا زلت تحبنى . رقَّ لحالى فليس غيرك يروى ظمئى وينسينى همى

حنا — لا يا فتى لم يعد هذا فى طوق

سافو — ولِمَهْ ؟

حنا — لأننى لا أريد !

سافو — وآلامى وعذابى ؟

حنا — وماضيك ؟ (مبكتاً)

سافو — (وقد ملكها اليأس) الذنب فيه على الأيام . ومع ذلك ألم يمت ؟

حنا — بل هو حىٌّ يحول دون كل أمل فى الحياة معك بغير عذاب ودون كل أملٍ فى الحب بغير ريبة وعار . على أننى سأرحل .

سافو — قل إنهم هيأوك للزواج وأنت تسخر من دموعى . وتلتذُّ على حساب ألمى . لقد حطَّمتَ قلبى ونثرت البقية الباقية من رجائى

حنا — (بشدة) ماذا ؟

سافو — سامحنى فما عاد لى غير أملٍ واحد هو أنت .

حنا — وهو وا أسفاه أمل ضائع !

سافو — إننى أحبك يا حنا . أحبك ولن أجد سواك يملأ فراغ قلبى . رق لحالى . إرحمنى ، إننى أجثو عند قدميك

حنا — (وهى تحاول وقد تزعزع صوابه) فتى !

(هنا يدخل سيزار وديفون خلسة)

سيزار — كفى ياولدى وتعال

حنا — آه يا أبى . . .

سافو — لا . لن أصبر على بُعده (تتعلق به وأبوه يجتذبه فتدفعها أمه)

ديفون — (لها) دعيه واذهبى من هنا

سافو — ولكن مَن أنتِ ؟

ديفون — أنا أمه

سافو — آه سامحينى فما كنت أعلم ياسيدتى

(تمد ساعديها نحو حنا وأبوه يجره وهو يتلفت إليها وهى تبكى) ها أنا ذاهبة ياحنا

ديفون — (لاتستطيع أن تنظرها وهى على هذه الحال) آه يا مسكينة

***

الفصل الخامس

(الفصل شتاء والمنزل فى أفرنى ويظهر منه غرفة لها باب به مربعات من الزجاج يطل على الفضاء وقد كساه الثلج)

سافو — (حزينة مفكرة ثم تنشد)

حال عهدُ الهوى   بعد ما ابتسمْ
فهو حلمٌ حوى   يقظة الألمْ
وكؤوس المُنى   فى سنا القُبَلْ
جرَّعتني العنا   من يدِ المَلَلْ
واستبدَّت مِى   قسوة القدَرْ
فجرَتْ أدْمعى   تشبه المطرْ
ها حبيبى هجَرْ   إنَّ هجرَهْ
مثل وخز الابَرْ   ما أمرَّهْ
ليتَهُ أنصفَا   قبلما رحَلْ
يا فؤادى كفى   أخطأ الأملْ

(بعد سكوت)

سافُ هيّى فأكرمى   ساعة الواجب
إنَّه مهجتى . دَمى   طفلِيَ الغائب
قم فقبّله يا فَمى   قبلة التائِب

علّ طُهرَ السّنينْ ألذى ما عَرفْ
أين قلبي . يزين قلبــــه بالشرف
فلى الواجبْ عقَّنِى الصَّاحِبْ

حنا — (يدخل فجأة) فنى ؟

فنى — (ذاهلة) أنتْ ؟

حنا — نعم فلقد خانني جلدى ولم أقو على البعد

فنى — وعدت

حنا — ساءتك إذن عودتى ؟

فنى — ولـكنني سأرحل يا حنا فأولى لك أن تَنْسى

حنا — (فاقداً صبره) نعم ترحلين . ولـكن الى غير صدرى

فنى — قسماً بك لا

حنا — إننى حطَّمت من أجلك قلبي وأهــــلى وأعزائى ومزرعتنا والغابة والنهر وكل ما هو عزيز علىّ . وكذلك أمى التى كانت فى منتصف الطريق تستَبْقِينى وتبكى . وبعد هذا كله ترحلين وتطلبين الىّ أن أنسى . اذهبي إذن . إذهبي ولا تطيــــلى ساعة عذابى

سافو — (منتبهة) لازلت تحبنى . إذن أبقى وأعبدك ياحناً
(يتعانقان ويلبثان هكذا برهة)
ولـكن مالوجهك مُصفَراً ياحبيبي

حنا — ماذا قُلتِ . إن هذه الـكلمة تعيد إلى ذهنى تلك الذكريات الأليمة

سافو — (باكية) هكـذا طاب لك ان تعذّبنى من جديد . فهل لهذا عدت إلى مَن كانت تلتمس قبلة العفو عند شفتيك .

حنا — لقد أخطأت يا فنى فاحملى ذلك على جنونى
(يذهب فيرتمى فوق مقعد وقد خارت قواه)

سافو — لابأس عليك فان شفتيك تختلجان وعينيك تصهرها الحمى

حنا — خانتنى قوایَ وما نمت إلى الآن

سافو — إذن نم ياحبيبي

حنا — ولـكن إلى جانبك

سافو — بل عند صدرى

حنا — (ينام ورأسه عند صدرها) آه لو تعلمين كم أحبك

سافو — إنس تـكن سعيداً

حنا — نعم إن السعادة فى النسيان (ينام)

سافو — ولـكن كيف نسيتْ . خير لى أن أرحل من الآن
(تتخلص منه وتسند رأسه فوق وسادة)

حنا — (حلماً) زوجتى . . .

سافو — (تضطرب وتنحنى عليه) هل استيقظ ؟ لا .
(تبتعد رويداً رويداً نحو الباب وهى تنشد بصوت خافت)

ساعةَ الرحيلْ ساعة العذاب شتّتت فِكرى
أيها الجميــــل أقصر العتاب واجبي عُذرى
يا لهــــا ليالْ عهدها النضير مرّ كالـفجر
هكذا الجمال عمرُه قصير فهو كالزهر
أيه يادموعْ أنتِ لى المتاع بعده فاجْرِى
أسعفى الضلوع ساعةَ الوداع من لظى الجمر

(وأخيراً تودعه بأطراف أصابعها ثم تختنى)

(تمت الرواية) **محمود خيرت**

بقلم قضايا المالية

بعض الكتب الجديدة

فيصل ملك العرب

حياته . أثر فجعته . أربعينه

بقلم عبد الجبار الرجبي

وضع هذا الكتاب الصغير أحد أدباء دير الزور الأفاضل . وقد حلاه بكثير من الصور وأهداه إلى جلالة الملك غازى . وفى هذا الكتاب تجد كثيراً من المعلومات الشيقة النافعة عن المغفور له صاحب الجلالة الملك فيصل عاهل العرب العظيم وعن أثر فاجعته فى العالم العربى . والعالم الأوروبى . كما تجد فيه كثيراً من نصوص برقيات التعازى ، وقصائد الرثاء . وبالجملة ترى فى هذا الكتيب على صغره ما يعجبك من هذا الحديث العطر حديث تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال . وما أجدر شباننا وشبان العالم العربى أن يقرأوا سيرة هذا العظيم الراحل فى تبصر واعتبار .

الخفيف

ابراهيم فى الميدان

تأليف الأستاذ حبيب جاماتى

عنيت بنشره إدارة الهلال بمصر

يقع هذا الكتاب فى نيف ومائتى صفحة من القطع الكبير وهو مجموعة أقاصيص تاريخية تدور حول معارك البطل المصرى العظيم ابراهيم باشا ، وقد أصدره الهلال هدية لقرائه هذا العام ، ولاشك فى أن الهلال قد أحسن صنعاً باختياره هذا ، فهى مجموعة أقاصيص تجمع بين اللذة والفائدة ، ولصاحبها الفاضل قدم راسخة فى فن الأقصوصة ، ولقد أضاف بكتابه هذا إلى ذلك الفن الناشئ ثروة يعتد بها ، ومن أقاصيصه التى راقتنى بنوع خاص ، الأخذ بالثأر ، وخرساء البادية ، والضريح الخاوى ، والحقيقة أن كل مايكتبه الأستاذ جاماتى فى باب القصص جدير بالعناية والاهتمام .

م

رواد الشعر الحديث فى مصر

تأليف مختار الوكيل

كتاب صغير يقع فى نحو ثمانين صفحة افتتحه مؤلفه الفاضل بكلمة رشيدة فى النقد الأدبى وشروطه وما يجب على الناقد ، ثم بكلمة أخرى فى الشعر وأغراضه ومظاهره فى المدرستين القديمة والحديثة ، وبعد ذلك ترجم لهؤلاء الشعراء الذين سماهم رواد الشعر الحديث فى مصر وهم بحسب ترتيبه الأساتذة خليل مطران ، وعبد الرحمن شكرى ، وأحمد زكى أبو شادى ، وعباس محمود العقاد . ولقد أعجبتنى دقة المؤلف الشاب ونزاهته فى بحثه ، وحسن ذوقه فى النقد ، كما راقتنى فطنته فى تعرف مواضع الجمال أو القبح فى شعر هؤلاء الشعراء ، مما يجعل بحثه متفقاً تمام الاتفاق مع ما جاء فى مقدمة كتابه من شروط النقد ، ومما يجعل هذه الرسالة على صغرها جديرة بالقراءة فى تمهل وامعان . م

الخفيف

2me Année, No. 63.

Lundi-17-9-1934

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

على ذكر اعانة الكبتن كرسويل

تشجيع التـــأليف

أذاعت الصحف نبأ هذه الهبات السخية التى أغدقتها وزارتا المعارف والأوقاف على الكبتن كرسويل المحاضر المنتدب بالجامعة المصرية فى الآثار الاسلامية ، وقد بلغ مجموع هـذه الهبات بضعة آلاف جنيه ، دفعت اليه معاونة له على إخراج مؤلف يضعه بالانكليزية عن العمارة الاسلامية فى مختلف العصور ؛ وقد أخرج منه الى الآن الجزء الأول من أربعة أجزاء ، ويتعهد الأستاذ كرسويل مقابل هذا السخاء الحاتمى الذى شملته به الحكومة المصرية أن يسمح لوزارة المعارف بترجمة مؤلفه الى العربية ، وأن « يهدى اليها » خمسين نسخة من كتابه .

وتشجيع المباحث العلمية والتاريخيـة على هذا النحو أمر مستحب لذاته . ولنترك البحث فيما إذا كانت جهود الأستاذ كرسويل ومباحثه جديرة بمثل هذا التشجيع . ذلك أننا نحمد المبدأ لذاته ونؤيده بكل قوانا ؛ بيـد أنا نود أن نلاحظ أنه لم يسبق لوزارة المعارف أو وزارة الأوقاف أن أبدت مثل هذا العطف أو أسبغت مثل هذه الرعاية على أحد من المصريين الذين يشتغلون بهذه المباحث أو غيرها ، مما يجدر تقديره وتشجيعه ؛ ولم تضع

وزارة المعارف أو الجامعة المصرية وغيرهما من الهيئات العلمية الرسمية لنفسها أى تقاليد فى هذا الشأن بالنسبة للعلماء المصريين ، وإن كان من تقاليدها أن تشجع العلماء الأجانب لأى مناسبة .

وربما قيل فى ذلك إن المباحث العلمية والتاريخية لم تبلغ فى مصر مستواها المنشود من التقدم والنضوج ، وأن جهود العلماء المصريين لم تظهر بعد بمظهر يجدر بالتقدير والتشجيع . ولكنا نبادر فنقول إن هذا الاعتراض لم يبق له محل بعد ، وإنه يرجع الى نوع من التحامل القديم الذى نألفه دائماً فى حكومات يطبعها الأجنبي بوحيه وتأثيره ، والذى يتخذ مظهره فى انتقاص الجهود القومية والاغضاء عن تقديرها وتشجيعها حتى لا تنمو وتزدهر وتكون قوة معنوية فى الأمة . ومن التحامل أن ننكر أنه يوجد بين العلماء والباحثين المصريين عدة ممن ينافسون الكبتن كرسويل ومن هم فى مستواه من العلماء الأجانب ، على الأقل فى ميدان المباحث الاسلامية ؛ وإنه إذا كانت جهودهم مغمورة غير ظاهرة ، فذلك لأنهم يعملون فى جو من العزلة واليأس ، ولا يأنسون لدى حكومتنا أو لدى هيئاتنا العلمية أى عطف أو تشجيع . واذا سلمنا جدلاً بأن علماءنا وباحثينا لم يبلغوا بعد من العلم والكفاية مايبلغه أمثال صاحب كتاب العمارة الاسلامية ، فانه ليس من الحكمة أو العدل أن يتركوا حيث هم ؛ وأن تضن عليهم حكومتهم بالعطف والتشجيع ؛ وإنما السبيل الى شحذ هممهم ومواهبهم وإبراز جهودهم فى المستوى اللائق ، هو أن تشملهم حكومتهم بشىء من ذينك العطف والبذل اللذين تغدقهما على العلماء الأجانب .

خذ مثلاً مسألة المباحث الأثرية التى كانت الى ماقبل أعوام فقط وقفاً على العلماء الأجانب . فقد لبث المصريون نحو قرن محرومين من التنقيب عن آثارهم فى نفس بلادهم وأرضهم ؛ وكانت البعثات الأجنبية والعلماء الأجانب يستأثرون بهذه المباحث فى أرضنا بفكرة أنهم دون غيرهم يستطيعون إجراءها . ومع أن معظم آثارنا الفرعونية قد تسربت على يدهم الى الخارج ، وغصت بها المتاحف الأجنبية فى مختلف أنحاء العالم ، فان حكومتنا لم تكن تضن عليهم بكل صنوف التشجيع المادى والمعنوى . فلما أن قررت الجامعة المصرية إجراء بعض الحفريات على يد بعض أساتذتها من المصريين ، ولما بذل للمصريين ما كان يبذل لزملائهم الأجانب من العون والتشجيع ، ظهرت كفاية المصريين ناصعة فى الكشف عن آثار بلادهم واستقرائها ، وظهر خطأ النظرية القديمة الجائرة التى كانت تنكر على المصريين كل كفاية لتقصيهم عما هو من صميم حقوقهم وميادينهم لكى يتسع المجال للأجانب .

لقد ظهرت فى العهد الأخير طائفة قيمة من التآليف والمباحث الاسلامية ، والآثار الأدبية الرفيعة ، ولقيت كثيراً من التقدير بين العلماء الأجانب ؛ فماذا كان نصيبها من التشجيع الرسمى فى مصر ؟ كل مايطمح اليه المؤلف الذى أنفق كل ذكائه ووقته وماله على اخراج مؤلفه ، هو أن تتفضل عليه وزارة المعارف بتقرير كتابه لمكتبات مدارسها وشراء بضع عشرات نسخ منه ، وذلك بعد أن تفحصه لجنة فنية تقره وتوصى به ، وهذا كل ما يعرفه المؤلفون المصريون من تشجيع وزارة المعارف ، ولا يحظى بهذه المؤازرة الضئيلة سوى القليلين منهم . أما أن تشمل وزارة المعارف برعايتها مجهوداً علمياً أو أدبياً معيناً قبل أن يتم إخراجه ، وتبذل لصاحبه شيئاً من العون المادى على نحو ما فعلت مع الكبتن كرسويل ، الذى استطاع بمجرد الطلب أن يحمل ولاة الأمر على بذل هذه الآلاف المؤلفة له قبل أن يتم مؤلفه أو يخرج منه سوى الجزء الأول فقط ، — فهذا أمر لم نسمع به قط ، ولا نعتقد أنه تقرر بعد بالنسبة للمصريين فى تقاليد وزارة المعارف

على أننا نرجو أن يكون فى الضجة التى أحدثها تصرف وزارة المعارف ووزارة الأوقاف فى هذه المسألة ، والأثر المؤلم الذى تركته فى أذهان المصريين جميعاً ، ما يلفت نظر ولاة الأمر فى وزارة المعارف وفى غيرها من الهيئات الحكومية المتصلة بالشئون العلمية والأدبية ، إلى التفرقة الجائرة بين المصريين والأجانب فى نفس الميدان الواحد ، وإيثار الأجانب على المصريين بالعطف والتشجيع

لا بأس أن تشجعوا العلماء الأجانب بأموال المصريين ، وإن كان هذا التشجيع لا يصادف أهله فى معظم الأحيان . ولكن الحكمة والعدالة وحسن الذوق تقضى كلها بأن يبذل للعلماء والكتاب المصريين من أموال المصريين أضعاف ما يبذل لزملائهم الأجانب حتى لا تبقى جهودهم ضحية الانتقاص والنسيان والنكران . « ع »

س . ا . ع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العُزوبة ، ويحبّون المرأة حباً خائفا يقدِّم رِجلاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبل إلا أدبر ، ولا يعزم إلا انحلّ عزمه . بلغوا الرجولةَ وكأنْ ليست فيهم ؛ وتمرّ بهم الحياة مرورَها بالتماثيل المنصوبة ، لاهذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك ؛ ومابرحوا يجاهدون ليحتملوا معانيَ وجودهم ، لاليطلبوا سعادة وجودهم ، ويَمْخَـرِقون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل وبالليل على النهار ، يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالىَ ، إذ لايعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً نصفه أسود مُقفر مظلم .

فأما « س » فرجل « كشيخ المسجد » يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض . . . ذو دينٍ وتقوى مايزال بهما ينقبضُ وينكمشُ ويَتزايَل حتى يرجع طفلاً فى الثلاثين من عمره . . . وهو حائر بائر لايتجه لشىء من أمر المرأة وقد فَقَـدَ منها مايحلّ ومايحرم ، ولاجرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على المُوبقات ، ولايزين له الشيطان ورطةً منها إلا امَّلَسَ منه ، فانله ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب ؛ إذ يخشى الله ، ويتوقَّى على نفسه ، ويستحي من ضميره .

وأما « ا » فرجل مِعْزابةٌ ، ولـكنه كالاسفنجة امتلأت حتى ليس فيها خلاء لقطرة ، ثم عُصِرت حتى ليس فيها بَلال من قطرة ؛ وقد بلغ مافى نفسه وقضى نَهْمتَـه حتى اشتفى مماأراد ؛ ثم قلب الثوب . . . فاذا له داخلةٌ ناعمة من الخزّ والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيفُ الدَّخْلَة مانتطلق له نفسٌ إلى مأثم ، ولايعرف الشيطانُ كيف يتسبّب لصلحه ومراجعته الود . .

وأما « ع » فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجِلٍ واحدة ، ولـكنه يمشى . . وهو « ملك الشوارع » لايزال فيها مقبلاً مدبراً طَرَفاً من النهار وزُلَفاً من الليل ؛ فاذا لم يكن فى الشارع نساء ظَنّ الشارعَ قد هرب من المدينة وخرج من طاعته . ولهذه الشوارع أسماء عنده غير أسمائها التى يتعارفها الناس ويستدلّون بها . فقد يكون اسم الشارع مثلاً « على الحكيم » ويسميه هو « شارع مارى » . . . ويكون اسم الآخر « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطويلة » . . . ودَرْبٌ اسمه « درب الملاّح » واسمه عنده « درب المِليحة » . . . وهلم جرّا ومَسْخاً . وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجد فصلّى ، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دحرجه فى الشوارع . . .

* * *

وافيتُ هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة « تربيـة لؤلؤية »(١) يناقشونها بثلاثة عقول ، ويفـتّشونها بستّ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأة السافرة التى نبذت « حجابَ طبيعتها » على مابيّـنته فى تلك المقالة — إن هى إلا امرأة مجهولة عند طالبى الزواج بقدر مابالغتْ أن تـكون معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة قدر ما اقتربتْ من خيالها الفاسد ، وأتقنتْ الغلط ليصدّقها فيه الرجل فلم يكذبْها فيه إلا الرجل ، وجعلتْ أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . . !

وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطبيعة من الرجل العَزَب للمرأة التى أهملها أوتركها مهملة . . . وأين تبلغ ضرباتها فى عيشه ، وكيف يكون أثرها فى نفسه ، وكيف تـكون المرأة فى خائنة الأعين ؛ فتسرحت مع أصحابنا فى الـكلام فنّا بعد فن ، وأزلتُ حِذارهم الذى يحذرون حتى أفضَوْا إلىّ بفلسفةعقولهم وصدورهم فى هذه المعانى .

قال « س » : حسبى والله من الآلام وآلام معها — شعورى بحرمانى المرأةَ ؛ فهو بلاء منعنى القرار ، وسلبنى السكينة ؛ وكأنه شعور بمثل الوحدة التى يعاقَب السجينُ بها مصروفا عن الحياة مصروفةً عنه الحياة ؛ تجعله جدرانُ سجنه يتمنى لوكان حجراً فيها فينجـوَ من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة المخَلّى بينها وبينه تو سِعُه مما يكره ؛ شعورٌ بالوحدة والعُزْلة حتى مع الناس وبين الأهل ، فما فىّ إلاعواطفُ خُرْسٌ لاتستجيب لأحد ولايحاوبها أحد فى « ذلك المعنى » .

وتمام الذِّلة أن يجد العَزَبُ نفسَه أبداً مُكرَهاً على الحديث عن آلامه بكلّ من يخالطه أو يجلس إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا ينفّس منها إلا كلامه عنها . وهذا هو السرّ فى أنك

(١) نشرت بالعدد ٦١ من الرسالة .

لاتجد عَزَباً إلا عرفته ثرثاراً لاتزال في لسانه مقالةٌ عن معنى أو رجل أوامرأة ، وأصبْتَه كالذباب لايطير عن موضع إلاليقع على موضع .

ومع جهد الحرمان جَهْدٌ شرٌّ منه في المقاومة وكف النفس ، فذلك تعب يهلك به الآدميّ إذ لايدعه يَتَقَارُّ على حالة — من الضجر — فيما تنازعه الطبيعةُ إليه ، وهو كالمزْعِ في أعصابه يحسها تشدّ لتقْطَع ، ودائماً تشَدّ لتقْطع .

وقد رَهقني من ذلك الضَّنَى النّسويّ ماعيل به صبري وضعف له احتمالي ؛ فما أراني يوماً على جمام من النفس ، ولا ارتياح من الطبع ؛ وكيف وفي القلب مادة همهِ ، وفي النفس علّة انقباضها ، وفي الفكر أسباب مَشْغَلتهِ ؟ وقد أوقدتْ سَوْرة الشباب نارها على الدم ، تلتعج في الأحشاء ؛ وتطير في الرأس ، وتصبغ الدنيا بلون دخانها ، وفي كل يوم يتخلّف منها رمادٌ هو هذا السواد الذى ران على قلبي .

وما حالُ رجل عذابُه أنه رجل ، وذلّه أنه رجل ؟ يلبس ثيابه الانسانية على مثل الوحش في سلاسله وأغلاله ، ويحمل عقلاً تَسُبُّه الغريزةُ كلَّ يوم ، وتراه من العقول الزُّيُوفِ لاأثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنونَ الفكرةِ الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذتْه الغريزةُ مجترحاً جريمة فكر . . .

وفي دون هذا ينكر المرءُ عقلَه ؛ وأيّ عقلٍ تُراه في رجلٍ عزب يقع في خياله أنه متزوج ، وأنه يأوي إلى « فلانة » وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ، وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر ، وفاءً لها ، وحفظاً لعهد الله فيها وقد دلّهَتْه بفنونها التي يبتدعها فكره ؛ وهي ساعة تؤاكله على الخِوان ، وساعة تضاحكه ، ومرةً تعابثه ، وتارة تجافيه ، وفي كل ذلك هو ناعمٌ بها ، يحدّثها في نفسه ، ويسمر معها ، ويتصنّع لها وتتصنع له ؛ ويعاتبها أحياناً في رقة ، وأحياناً في جفاء وغلظة ؛ وقد ضربها ذات مرة . . ؟

ألاَ إن المرأة عندي هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمي بي في كهف أو غابة رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الانس ، دنياه أحجار وأشجار ، وهو حجر له نموُّ الشجر .

لقد توزّعتْ المرأةُ عقلي فهو متفرّق عليها وهي متفرقة فيه ، لا أستطيع والله أن أتصوّرها كاملة ، بل هي في خيالي أجزاء لايجمعها كلٌّ ؛ هي ابتسامة ، هي نظرة ، هي ضحكة ، هي أغنية ، هي جسم ، هي شيء هي هي هي . أكل تلك المعاني هي المرأة التي يعرفها الناس ، أم أنا لي امرأةٌ وحدي ؟

وإني على ذلك لأتخوّفُ الزواجَ وأتحاماه ؛ إذْ أرى الشارع قد فضح النساء وكَشَفهنّ ؛ فما يُريني منهنّ إلا امرأةً تزْهي بثيابها وصنعة جمالها ، أو امرأةً كالهاربة من فضائلها ؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلةَ الصَّناعَ ، تخيط ثوبها بيدها فتباهي بصنعته قبل أن تباهي بلبسه ، وتزهي بأثر وجهها فيّ ، لا بأثر المساحيق في وجهها . وإن مكابدة العفّة ، ومصارعةَ الشيطان ، وتوهُّج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل — كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل ، أُبتَلى منها في صديق العمر بعدوّ العمر .

إن أثر الشارع في المرأة هو سوء الظنّ بها ، فهي تحسب نفسها معلنةً فيه أنوثتها وجمالها وزينتها ، ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب وفساد خلق وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله في الأخرى ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلقاً يتعلق به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لاتصيب الذين ظلموا خاصة .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحلامي . . !

* * *

وقال « ا » : لقد كانت معاني المرأة في ذهني صوراً بديعة من الشعر تستخفُّني إليها العاطفة ، ولا يزال منها في قلبي لكل يوم نازيةٌ تنزو . وكانت المرأة بذلك حديث أحلامي ونجيّ وساوسي ، وكنت عفيف البنطلون (١) ؛ ولكن النساء أيقظنني من الحُلم ، وفجَمْنني فيه بالحقيقة ، ووضعْن يدي على ماتحت ملمس الحيّة . ولو حدثْتك بجملة أخبارهن ، وما مارست منهن لتكرّهْت وتسخّطْت ، ولأيقنْت أنّ كلمة تحرير المرأة إنما كانت خطأً مطبعياً ، وصوابها : تجرير المرأة . . فهؤلاء

(١) يقول العرب في الكناية عن العفة : هو عفيف الازار ، وترجمتها في عصرنا ما رأيت .

النساء أو كثرتهن — لم يُذِلْن الحجاب إلا لتخرج واحدة مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف ، وتخرج الأخرى مما تعرف الى أكثر مما تعرفه ، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة

لقد عرفتُ فيمن عرفت منهن الخفيفةَ الطيَّاشة ، والحمقاء المتساقطة ، والفاحشة ذات الريبة ؛ وكل أولئك كان تحريرهن أى تجريرهن — تقليداً للمرأة الأوربية ؛ تهالكْن على رذائلها دون فضائلها ، واشتدّ حرصهن على خيالها الروائى دون حقيقتها العلمية ، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هى ، بل نزيد عليها ضِعْفَنا فاذا هى رذائل مضاعفة .

كان الحلم الجميل فى الحجاب وحده ، وهو كان يُسعر أنفاسى ويستطير قلبى ، ويرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرّم ورمز الأدب وشارة العفة ، وأن هذه المحصّنة المخدّرة عذراءَ أو امرأةً لم تُلقِ الحجابَ عليها إلا إيذاناً بأنها فى قانون عاطفة الأمومة لا غيرها ؛ فهى تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها ، ورمزُ الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن ، ولأن وراءه صفاءَ روحها الذى تخشى أن يكدّر ، وثباتَ كِيانها الذى تخشى أن يُزعزع .

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النســاء بأنواع الحلى وصنوف الزينة والكسوة الحسـنة : « ياهؤلاء ، إنكم إنما تعلمونهنّ محبةَ الأغنياء لا محبة الأزواج » وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الالـهىّ الصارم عمر بن الخطاب : « إضربوهن بالعرى . » فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريرها ، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لاظهار زينتها . فلو مُنِعت الثياب الجميلة حبستْها طبيعتها فى بيتها . فماذا تقول الشوارع لو نطقت ؟ إنها تقول : ياهؤلاء ، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت ، وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحيائهن . ولقد كان الحجاب معنىً لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارع معنىً لسهولتها ورخصها ؛ وكان مع تحقُّق الصعوبة أو توهّمها أخلاقٌ وطباعٌ فى الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحقُّقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك ما زالت تَنْمى وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقَّ بمن لمس المرأة فى الطريق من « الجنحة » إلى « الجناية » .

وتَخَنَّثَ الشبان والرجال ضروباً من التخنُّث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال ، وتحلّلت فيهم طباع الغيرة ، فكان هذا سريعاً فى تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعاً فى إفساد اعتقادهم ، وفى نقض احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب ، وأخذوها بمعنى الأنوثة وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قل طلاب الزواج ، وكثر رُوّاد الخنا .

ولقد جاءت الى مصر كاتبة إنجليزية وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معانى الحجاب ، فلما رجعت الى بلادها كتبت مقالاً عنوانه «سؤال أحمله من الشرق الى المرأة الغربية» قالت فى آخره : « إذا كانت هذه الحرية التى كسبناها أخيراً ، وهذا التنافس الجنسى ، وتجريد الجنسين من الحجب المشوّقة الباعثة التى أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء ، وأن يزول من القلوب كل ما يحرّك فيها أوتار الحب الزوجى فما الذى نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال الى تغيير خططنا ، بل قد نستقرّ طوعا وراء الحجاب الشرقى ، لنتعلم من جديد فنّ الحب الحقيقى . »

***

وقال « ع » : لست فيلسوفا ، ولكن فى يدى حقائق من علم الحيـــاة لا تأتى الفلسفة بمثلها ، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع . فأعلم أن العُزّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض ، وهم كاللصوص لا يجتمع هؤلاء ، ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياة اللص معناها وجود السرقة ، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق .

ومن حكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يباهى باظهار فسقه قدرما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها ؛ وهذه إشارة من الطبيعة الى أن المرأة مسكينة مظلومة . فما ابتذال الحجاب ، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار العزوبة فى الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلا إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلج ماءٌ يعتذر من تحوُّلِهِ وانقلابه بعذر طبيعى قاهر له قوة الضرورة الملجئة ، وكذلك المرأة الذالّة أو الطامحة أو المتبذلة أو المتهتكة — ماصفاتهن إلا توكيد لأعذارهن . وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربةَ قانون صـارم ، فالعزب وإن كان رجلاً حراً فى نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقّها فيه ، فمتى جحد هذا الحق واستكبر عليه رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه ؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامُها وقوتها التنفيذية .

وإذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاباً

فماذا يكون إلا أن تمحى الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلاشى الفضائل ؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها ، ولا ينبغى أن تتربص بها الحكومة حتى تعمّ ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هى ، ويجب تفسير كلمة « العَزَب » فى اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكَّرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأى العزاب فى النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا فى أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزناً يستمتعون فيه ولكنهم يَهْلكون ويُهْلِكون به : هم والله أساتذة الدروس السافلة فى كل أمة ، وهم والله بغاة من الرجال فى حكم البغايا من النساء ، يَجْرُون جميعاً مجرى واحداً . ومن هى البغىّ فى الأكثر إلا امرأة فاجرة لا زوج لها ؟ ومن هو العزب فى الأكثر إلا رجل فاسق لا زوجة له ؟ على أن مع المرأة عذرَ ضعفها أو حاجتها ، ولكن ماعذر الرجل ؟

ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذى اعتاد فوضى الحياة ، وسيرها على غير نظامها ، وتحققَها على أسخف مافيها من الخيال والحقيقة ؟ وأى عزب يجد الاستقرار أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو قد فقد تلك الروح التى تتمم روحه وتنقحها وتمسكها فى دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وبجيئه بالأرواح الصغيرة التى تشعره التبعة والسيادة معاً ، وتمتدّ به ويمتدّ بها فى تاريخ الوطن .

كيف يُعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حىّ مختلّ فى وجود مستعار ، يقضى الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضى النهار نافراً من حياة الليل ؛ فيقضى عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل يبعضها ، بل بالممكن من بعضها . . !

أيّة أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب ، وأيّة خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزباً ؟ هذه هى لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال !

قال الراوى : وهنا انتفض « س » و « ا » وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويرداها إلى حلق « ع » . ثم سألنى ثلاثتهم أن أسقطها من المقال ، بيد أنى رأيت أن خيراً من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا « س » و « ا » و « ع » . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

أعظم حادث فى حياة روسو :

٢ ــ روسو ومدام دى ڤرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ـــ

والحقيقة أن مدام دى ڤرنس نفثت فى چان چاك ضرباً غريباً من السحر والجوى ، لا هو بالحب الجنسى الخالص ، ولا هو بالحب البنوى الخالص ، ولا هو بالصداقة الحميمة ، بل كان مزيجاً من ذلك كله ، يقترن بنوع من عبادة الجمال والسحر ، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة . وسنرى أن له الى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى . وعلى أى حال فقد كان لهذا السحر الذى بثته مدام دى ڤرنس فى چان چاك أعظم أثر فى تكوين عواطفه وفلسفته فى الجمال والحب والمرأة ، وكان مستقى خياله ومشاعره فى بضعة الأعوام التالية التى اكتمل فيها شبابه ، وتفتحت أمامه عوالم الحياة . وفى ظلال هذه السعادة أقام چان چاك معززاً مكرماً يقضى أوقات فراغه فى القراءة ودرس الموسيقى والأحلام اللذيذة ، والسمر مع مدام دى ڤرنس . وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها ، وأنها لذلك لن تدوم ، ويرتجف فرقاً كلما تصور يوم البعاد وانقضاء هذا العهد الأمثل .

وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام وبعضه ، ثم رأت مدام دى ڤرنس أن ترسله الى ليون لقضاء بعض المهام ، فسافر اليها ، ولم يغب سوى أيام قلائل . ولكنه لما عاد الى أنسىّ لم يجد « أمه » وموئل سعادته ، ولم يستطع أن يعلم شيئاً عن غيابها سوى أنها سافرت الى باريس مع خادمها كلود آنيه ، فلم ير سبيلا سوى الانتظار ، وأقام وحده بالمنزل يتنسم أخبارها وموعد عودها ، وهو يدرس الموسيقى ويؤلف الأناشيد . وهنا يقص علينا روسو عدة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة . وكانت معرفته بالموسيقى سبباً فى اتصاله ببعض الهواة . ولما طالت غيبة مدام دى ڤرنس ، سافر الى جنيف ، ثم الى نيوشاتل ، وهناك استقر حيناً يكسب عيشه بتدريس الموسيقى ، ولكن شبح مدام دى ڤرنس كان يساوره أبداً ، وكان العود اليها أبداً أعز أمانيه ، فلم تمض عليه بضعة أشهر فى هذا التجوال حتى عاد الى ساڤوا .

وكانت مدام دى ڤرنس قد غادرت يومئذ أنسى الى شامبرى

واستقرت هناك . وسافر اليها وتحققت أمنيته بالمقام الى جانبها كرة أخرى . واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة فى ديوان مسح الأراضى فى تلك الناحية نفسها . فكانت سعادة مزدوجة ، وكان الهدوء والسكينة والاستقرار . وكان ذلك سنة ١٧٣٢

وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هذه الأعوام الثلاثة ؛ تلك هى علاقة مدام دى ڤرنس بخادمها وأمينها كلودآنيه ؛ فقد عرف روسو فجأة أن الخادم ينعم بحب سيدته ؛ وعرف ذلك من مدام دى ڤرنس ذاتها ، ففى ذات يوم ثارت بين السيدة وخادمها مناقشة عاصفة وجهت اليه خلالها بعض الألفاظ الجارحة ؛ فهرول كلود آنيه خفية الى زجاجة من « اللادونوم » فابتلع ما فيها لكى يزهق نفسه ، ثم أوى الى غرفته ينتظر حشرجة الموت ؛ ورأت سيدته وخليلته الزجاجة الفارغة فأدركت الأمر ، وهرولت صارخة الى غرفته . ونادت روسو واعترفت له بكل شىء ورجت منه العون ؛ فعاونها على إسعافه ، ونجا الخادم المحبوب . ودهش روسو لغبائه إذ خفيت عليه هذه الحقيقة من قبل . ولكنه لم يشعر نحو كلودآنيه بشىء من الحقد ، برغم أنه يسلبه معبودة قلبه ، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها .

***

ولبث روسو مدى الأعوام التالية الى جانب مدام دى ڤرنس ، ولم يفارقها إلا فى فترات قليلة ولأسباب طارئة . كانت شامبرى موطنه ومستقره ، وكانت مدام دى ڤرنس أمه وأسرته وكل شىء فى الوجود بالنسبة اليه . وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة ، وقد أخذ روسو يشعر بشىء من الثقة بنفسه وبمستقبله ؛ وكان يوزع وقته بين عمله ، ودرس الموسيقى ، ومدام دى ڤرنس . وكانت ثمة سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو ، ترفرف عليه فى ذلك المقام الرغد ، بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة فى حياة روسو . ذلك أن علائقه الساذجة الافلاطونية مع مدام دى ڤرنس تحولت فجأة الى علائق حب عملى . ولذلك التحول قصة غريبة يرويها لنا روسو فى عدة صفحات ساحرة مؤثرة . فقد كان روسو يعطى دروساً فى الموسيقى لبعض أكابر السيدات فى شامبرى ، وكانت علائقه النسوية تزداد بذلك يوماً عن يوم ؛ وكان بين أولئك السيدات ، سيدة تدعى الكونتة دىمنتون كان روسو يعلم ابنتها الغناء ؛ وكانت سيدة مضطرمة الأهواء تحب الدسائس الغرامية ، وبينها وبين مدام دى ڤرنس صلة ومنافسات نسوية . فلما اتصلت بچان چاك وقدرت ذكاءه ومقدرته على الكتابة الساخرة ونظم الأناشيد والأغانى . فكرت فى استهوائه والانتفاع بمقدرته ، واستقبلته بعطف وإكرام . وشعرت مدام دى ڤرنس بذلك ، ففكرت فى انقاذ روسو من شراكها وشراك غيرها من النسوة اللائى يحطن به . والتمست لذلك أغرب وسيلة يمكن تصورها . فختلت روسو ذات يوم . وأفهمته أنها لم تر وسيلة لانقاذه من أخطار الشباب سوى أن تقدم نفسها اليه ، وأن تفتدى بجسمها كل ما يهدده من الأخطار . وأنها تمهله ثمانية أيام للتفكير والعزم . ويقول لنا روسو إنه دهش لهذه المفاجأة أيما دهشة ، وإنه لم يكن يتوقع قط هذا المصير لعلائقه مع المحسنة اليه ؛ بيد أنه يقول لنا إن ذهنه لم يكن بعيداً عن تصور هذه السعادة ؛ فقد كان يضطرم جوى نحو النساء ؛ ولم يكن قد لامس إحداهن بعد ؛ وإن مدام دى ڤرنس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين ، كانت ما تزال فتية فتانة وافرة الأنوثة والسحر ، ولم يثره أنها كانت خليلة غيره ، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل ، فقد كانت هذه الشركة مؤلمة حقاً ، ولكنها لم تغير ذرة من عواطفه نحوها .

ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دى ڤرنس مرة أخرى . لقد كان يحبها حقاً ، بل كان يهيم بها حباً ؛ ولكن ذلك الهيام كان أقوى من أن يحمله على الرغبة فى وصالها . وقد أنفق هذه الأيام الثمانية فى اضطراب ذهنى لا يمكن تصوره ، وكأنها كانت قروناً ثمانية . ولكنه كان يبغى المزيد منها . ثم جاء اليوم المروع أخيراً ؛ فهرول روسو إليها ، وصرح بالقبول والأذعان ؛ وبر فى الحال بوعده . ويصف لنا روسو ذلك اللقاء المدهش فى تلك العبارات القوية المؤثرة : « لقد توج قلبى كل نذورى دون أن أرغب فى المكافأة . بيد أنى حصلت عليها . وألفيت نفسى لأول مرة ، بين ذراعى امرأة — وامرأة أعبدها . فهل كنت سعيداً ؟ كلا ! ولقد تذوقت السرور ، ولكن شعوراً قاهراً من الحزن كان يسمم سحره ؛ وكنت أشعر أنى أرتكب عشرة محرم ؛ ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاث مرات ، بينما كنت أضمها إلى فى شغف وهيام . أما هى فلم تكن حزينة ولا مضطرمة ، ولكنها كانت ناعمة هادئة . ولم تكن تحدوها الشهوة ، ولم تكن ترجو المتاع ، ولهذا لم تشعر بمتعة ، ولم يؤنبها الضمير قط »

وهنا يفيض روسو فى تحليل عواطف مدام دى ڤرنس وميولها الغرامية . ويحاول أن يعتذر عن أخطائها وزلاتها ؛ فقد

نشأت نشأة حسنة ، ذاتِ فضيلة واستقامة ، وذوق رفيع ، وخلال بديعة ، ولكنها كانت تصنى إلى العقل والفلسفة دون القلب ؛ وقد عنى معلمها وأول عشاقها ، مسيودى تاقل ، بأن يغرس فى ذهنها جميع المبادىء التى تسهل له إغواءها ؛ فعلمها أن الاخلاص الزوجى سخف ، وأن الاجتماع الجنسى أمر تافه ، وأن الفضيلة والعفة والحشمة أمور ظاهرية فقط . فغزتها هذه المبادىء وطغت عليها حتى أصبحت تعتقد دائماً أنه لا يصفد الانسان بحب امرأة قدر الوصل . وفى تلك الصحف التى يصف لنا فيها روسو ذلك التحول فى علائقه مع مدام دى ڤرنس ، يبلغ روسو ذروة البلاغة والافتنان ، ولعلها أبدع قطعة فى « الاعترافات »

***

وهكذا تحولت القصة البنوية الأموية إلى قصة غرامية ، وغدا روسو خليل المرأة التى لبث بضعة أعوام يقدسها كأم رؤوم . واستمرت هذه العلاقة مابقى إلى جانبها ، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه فى الوصل مدى حين ، ولكنه لم يلبث أن توفى . ثم انتقلت مدام دى ڤرنس وروسو إلى منزل خلوى فى ضيعة « لاشارميت » ، وهنالك قضى روسو ، فى ذلك المقام المنعزل أياماً سعيدة فى الدرس ، مستأثراً بصحبة « أمه » وحبيبته . ثم اعتلت صحته ، واشتد به الهزال والضعف ، وفكر فى السفر لينتجع العافية ، وأشير عليه أن يسافر إلى مونبلييه حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته ، ولم تمانع مدام دى ڤرنس فى تنفيذ ذلك العزم ، فسافر إلى مونبلييه ، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت فى ذهنه إضطراباً وجوى . وبعد أشهر عاد إلى « أمه » وكانت تلك العاطفة المضطرمة التى لبثت مدى أعوام تدفعه إلى جانب مدام دى ڤرنس قد خبت نوعاً ، واستحالت إلى نوع من الصداقة الهادئة ، والظاهر أيضاً أن مدام دى ڤرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لعواطفها الهائمة ، فلما عاد روسو ألفى إلى جانبها فى المنزل رجلاً آخر يدعى فنتزنريد ، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غدا صاحبا لمدام دى ڤرنس ، وأنه قد حل مكانه ، فحزن روسو لذلك ولم يطق البقاء حيثما هدمت سعادته ، فسافر إلى ليون ، ولم تبد « أمه » كبير أسف لسفره . وبعد أن أقام بها حيناً عاد إلى مدام دى ڤرنس كرة أخرى ، وأقام بالمنزل حيناً فى عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام ، وكانت آخر زياراته لها . وكان يومئذ قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ونضجت دراساته ومواهبه وآنس فى نفسه طموحاً إلى غزو ميدان الحياة الواسع ، فاتجه ببصره إلى باريس ، فودع « أمه » الوداع الأخير ، وسافر إليها تحدوه مختلف العواطف والآمال .

وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دى ڤرنس ، فلم يوهابعد ذلك ولم يحاول رؤيتها ، وألقى به القدر فى باريس الى غمار حياة جديدة عاصفة ، ولكنه لم ينس ذكرى المحسنة اليه قط ، ولما توفيت بعد ذلك بنحو عشرين عاماً — سنة ١٧٦٤ — اشتد حزنه لفقدها ، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن فى نفثة مؤثرة فى « الاعترافات » .

محمد عبد الله عنان
المحامى

ماذا يعنى ؟

سيدى الأستاذ البليغ صاحب الرسالة

انى قرأت فى رسالتكم الواحدة والستين كلمة نَدَّت من الأستاذ كرم ملحم كرم ، وهو يتحدث عن « أدب اليوم » صغيرة فى ذاتها ، ولكن فيها طبيعة كطبيعة (الديناميت) لا يمس شيئاً إلاجعله يباباً ، فأكبرتها ، وأعددت فصلاً طويلا فى الرد عليها ، ثم بدالى فقلت : لعل الأستاذ كرم ، لا يعنى هذا الذى يفهم من كلمته ، ولعله إذا نبه إليها نظر فيها ثم رجع عنها ، فكفى الله المؤمنين القتال ، وعهدنا بالأستاذ أنه ذكى متأن ، وكاتب مفكر ، فطويت فصلى وبعثت بهذه الكلمة إليكم راجياً منكم أن تنشروها وتسألوه الجواب عنها :

***

ماذا يعنى الأستاذ كرم بقوله ، وهو يتحدث عن روايات ڤولتير وروسو ولامارتين وهوغو : « والدين نفسه يقوم على الروايات ، فماهو كتاب التوراة ، وماهو الانجيل ، وماهو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب ؟ » اه .

هل يعنى دين التوراة والانجيل فقط ، فلا ننازعه ولا يكون لنا أن ننازعه وهو صاحب الدار وأدرى بما فيها ، أم يعنى دين القرآن ؟ وهل يعنى أن القرآن رواية كروايات روسو ولامارتين ؟ وان ما فيه من عبرة التاريخ الصحيح ، هو ملهاة الرواية الباطلة ؟

***

هذا ما أرجو أن تتفضلوا بسؤال الأستاذ عنه ، وأن يتفضل بايضاحه .

على الطنطاوى
عضو « جمعية الهداية الاسلامية » بدمشق

٢ ـ الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

إن العناصر الجوهرية التي تتكون منها الشخصية القوية كثيرة منها :

(١) الجاذبية : وهي قوة طبيعية إن وجدت في الشخص استطاع أن يجتذب قلوب غيره ممن يتصلون به بدون أن يتكلف أو يتصنع : وهذا العنصر يعد من أقوى العناصر التي تتكون منها الشخصية إن لم نقل أقواها ، ولكن بماذا يجتذب الانسان غيره من الناس ؟ والجواب أنه يستطيع أن يجتذبهم ويسيطر عليهم بأدبه وعلمه ، وضبط نفسه ، وسداد رأيه ، وسرعة خاطره ، وحسن حديثه ، وكرم خلقه ، ومراعاة شعورهم ومشاركتهم في وجدانهم . وهذه الصفات بعضها وراثي ، وبعضها يمكن أن يكتسب بالتربية والتعلم ، في البيت والمدرسة والملعب والمجتمع ،

(٢) النشاط العقلي أو الذكاء : العنصر الثاني من العناصر المكونة للشخصية القوية هو النشاط العقلي أو الذكاء ، وبعبارة أخرى حضور الذهن . وسرعة الخاطر ، وصفاء القريحة . فقد يكون الرجل مثقفاً ، واضح التفكير ، غزير المادة ، واسع الاطلاع ، ولكنه قد لا يكون متقد العقل ، وضاء الفكر ، حاضر البديهة . فلا يستطيع أن يدرك ما يرمي اليه محدثه ، ولا أن يشاركه في رأيه ؛ وقد تكون المرأة وسيمة الوجه ، حسنة المنظر ، جميلة الملبس ، ولكنها قد تكون فاقدة ذلك النشاط الفكري والاتقاد العقلي ، فتعجز عن التأثير في غيرها أو اجتذابه والسيطرة عليه . فهي كصورة جميلة المنظر ، ولكنها فاقدة الروح الفنية ، تلك الروح التي تؤثر في الصورة فتعطيها قوة وتأثيراً وحياة معنوية .

فللنشاط العقلي تأثير حسن في شخصية الانسان ، وفي ارتفاع منزلته بين إخوانه وذويه ، وللغباوة وقلة الفطنة والكسل العقلي أثر سيء في خمول الشخص وتأخره ، وعجزه وارتكابه الجرائم أحياناً ؛ ولا عجب إذا قلنا إن معظم المجرمين من الأغبياء وضعاف العقول ، وتبدو شخصية الأذكياء في أعمالهم وأقوالهم كما تبدو في منطقهم وتفكيرهم المنظم ، وآرائهم المرتبة ، وحججهم القوية ، وقدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التي تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقل وحدة ذهن وصدق حس .

ومن كان لذكائهم أثر في نجاحهم في حياتهم « ابراهام لنكولن » ، أحد رؤساء الولايات المتحدة الذين تدين لهم تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقي وإصلاح . ولد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ ، وكان أبوه نجاراً ؛ نجاراً عادياً . توفيت والدته ولما يبلغ من العمر عشر سنين ، تعلم مبادىء القراءة والكتابة وهو طفل ، وكانت أمه قبل وفاتها تعنى به العناية كلها ، اختارت له من الكتب الكتاب المقدس وكتاباً عن حياة « جورج واشنطون » قرأهما وأعاد قراءتهما مراراً حتى كاد يحفظهما . وكان في بعض الأحيان يسير أميالاً ليستعير كتاباً يقرؤه . كان في حياته الأولى عاملاً ، ثم ثقف نفسه بالقراءة في أوقات الفراغ ، وكان في الليل يوقد قطعاً من الخشب ، يتدفأ بنارها ويقرأ على نورها ، ولولا ضيق المقام ، والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير فارجع إلى تاريخ حياته إن شئت ، وكل ما نريد أن نذكره هو أنه درس القانون أخيراً ، ثم كان محامياً مدرهاً يشار إليه بالبنان ، حاضر الذهن متقد الفكر ، قوي الشخصية ، ثم كان عضواً بمجلس النواب ، فسياسياً ، فرئيساً للولايات المتحدة بأمريكا . فضلته زوجته — وكان فقيراً — على منافس آخر من الأغنياء ، وقد اختارته زوجا لذكائه وإخلاصه وشخصيته . تنبأت أنه سيكون عظيما ، وقد كان مثلاً للعظمة ؛ ولئن قام واشنطون بتحرير الولايات المتحدة ، فقد قضي لنكولن على ما كان فيها من الاضطراب ، وقام بكثير من الاصلاحات ، وقد ترك لنكولن اسماً خالداً محبوباً لا من الأمريكيين فحسب ، بل من أبناء الانسانية في جميع الشعوب ، فقد كان يعمل للانسانية ويفكر كثيراً في الانسانية وينسب اليه كثير من الحكايات التي تقرب من الخيالات والروايات .

ومن كان لحدة ذهنهم وشخصيتهم أثر كبير في نجاحهم أيضاً

. « اللورد ما كولى » الاسكتلندى ، فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكان مؤرخاً وقانونياً ، وكان خطيباً وسياسياً ، ولد فى ٢٥ من اكتوبر سنة ١٨٠٠ م وتوفى فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ م . أظهر حباً للقراءة وتعطشاً للعلم منذ نعومة أظفاره ، توسم فيه أبوه كثيراً من علامات الذكاء والمقدرة العقلية منذ طفولته ؛ فقد قلد « السير وولتر سكوت » فى كتابته وعمره لم يزد على سبع سنين ، فكتب ثلاث قصائد ، ومختصراً تاريخياً عاماً ، وهو طفل . كان قوى الذاكرة ، محباً للعمل مولعاً بالأدب وبخاصة الروايات . وكثيراً مالامه أبوه على قراءتها ، التحق فى اكتوبر سنة ١٨١٨ بجامعة « كمبردج » . وحصل على أربع جوائز منها . وكنا نود أن نكتب عنه كثيراً لولا الخوف من التطويل . وكل مايمكننا أن نقوله هوأنه اشتغل بالقضاء ، ثم اتخذ الأدب مهنة ، ثم انتسب إلى أحد الأحزاب السياسية ، ونجح فى حياته النيابية نجاحاً باهراً لنشاطه العقلى ، وتأثيره الخطابى ، وإخلاصه فى قوله . وكان ينضم لآرائه كثيرون حتى المعارضون لحزبه . وله خطبة هى آيات بينات يدافع فيها عن تعميم التعليم المجانى ، تدل على غيرته ، وحضور بديهته . ولم يفخر الشعبان : الانجليزى والاسكتلندى إلى اليوم بأحد من رجال السياسة والأدب فخرهما بما كولى : ومن كتابته تكاد تلمس قوة حجته ، وروح خطابته ، ووضوح لغته ، وصفاء ذهنه ، وسلامة ذوقه فى كتابته ، وجمال تعبيره ، وحسن أسلوبه ، ووفاءه لبلاده وأقاربه وأصدقائه ، تكاد تلمس نقده المر البرىء الذى ينبىء عن الاخلاص والايمان بما يقول .

وممن كان يشهد لهم بالذكاء وحضور البديهة كثير من رجال العرب ونسائهم نذكر لك منهم : معن بن زائدة ؛ فقد دخل على أبى جعفر المنصور ، فقارب خطوه ، فقال المنصور : « لقد كبرت سنك ؛ قال فى طاعتك . قال وإنك لجلد ؛ قال على أعدائك . قال : وأرى فيك بقية ؛ قال : هى لك . » فانظر إلى أجوبة معن تجد أنها تدل على سرعة الخاطر وحسن الجواب .

فالنشاط العقلى يساعد على النجاح فى الحياة ، وينقذ الانسان من أدق المراكز ، ويحفظ شخصيته فى أشد المواقف ، ويسهل الصعب ، ويقرّب البعيد . وله أثر كبير فى حسن الخلق والسلوك . وبالاحصاء وجد أن أكرم حكام أوربة خلقا فى القرون الثلاثة الأخيرة الماضية كانوا على قسط كبير من الذكاء .

(٣) المشاركة الوجدانية :

العنصر الثالث من العناصر التى تكون منها الشخصية يدعى المشاركة الوجدانية ؛ فاذا لم نشعر بشعور الناس ونشاركهم فى مسراتهم وأحزانهم ، ونتأثر بآرائهم وأفكارهم ، فهذا دليل على أننا فى حاجة إلى أن نضع أنفسنا موضعهم ، مهما كانت علاقتهم على شرط أن يكون لدينا استعداد للفهم والتفكير والشعور ، مهما كانت مراكزنا بالنسبة إليهم ، من غير نظر إلى رئيس أو مرءوس ، غنى أو فقير ، عظيم أو حقير ، رفيع أو وضيع ، وألا تكون مناصبنا العالية حجر عثرة فى سبيل فهمنا لغيرنا ، وتقدير ظروفه المحيطة به ؛ بل تكون معينا على أن نشاركه فى حالاته ، فنسر لسروره ، ونتألم لآلامه ، وبذلك نمتلك قلبه .

أما صاحب المزاج البارد الذى يتمثل فيه الجود والقسوة والغلظة فلا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، ولا يحب أن يتفاهم مع أحد ؛ فهو ينفر من الناس ، والناس ينفرون منه . وهو يؤثر فى غيره بالايذاء ، كما يؤثر الهواء البارد فى النبات الغض الشديد الاحساس ، فيتجمد قبل أن ينمو أو يترعرع .

ومن أكبر عيوب نابليون التى كان يتخلق بها شدة قسوته على النوع الانسانى ، وعدم مشاركته له فى شعوره ، ومن ثم كانت شخصيته غير كاملة . وإننا فى الوقت الذى نطالب فيه بالعدالة نطالب أيضاً بالرحمة .

ومن الحكمة إذا كنت رئيساً أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك من غير التجاء لاظهار سلطتك ، وأن تفوز بطاعة مرءوسيك من غير احتماء بالقانون . ومن المهارة أن تبين لمرءوسيك أخطاءهم ، ونقط ضعفهم ، وتسيرهم كيف تشاء ، بدون أن تحط من كرامتهم ، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى أو أرقى منهم ، ومن غير اضطرار إلى اتخاذ شدة أو عنف . إذا أمكنك الوصول إلى كل هذا كانت شخصيتك قوية ، وكان تأثيرك كبيراً .

وإن قوة التأثير لا تستدعى قسوة أو غلظة ، ولكنها تستدعى أن تشارك الناس فى شعورهم ووجدانهم ، وتتألم لما يدهمهم من حوادث الدهر ، وتواسيهم فيما يُلم بهم من نوائبه ، وتنظر الى حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفى صوابهم قبل خطئهم ، وتقدر

حسناتهم إذا أحسنوا ، وتفكر فى البواعث التى اضطرتهم الى الخطأ إذا أخطأوا ، وتعدل فى أحكامك اذا حكمت ، لاتنزع الى جانب الظلم ، ولا تميل الى ناحية التهاون ، وبهذه الوسيلة تكون قويا ، ليناً فى غير ضعف ، متواضعاً فى غير ذلة ، موفقاً فى عملك محبوباً عند غيرك .

أما هؤلاء الذين يلجأون الى الشدة والقسوة دائماً فهم ضعفاء ، يشعرون بالضعف فيلجأون الى الغلظة ، ظانين أنهم بتلك الطريقة يسترون ذلك الضعف ، ويكملون ذلك النقص . مثلهم مثل الكلاب ، تنبح فى الطرق لافى ضوء النهار ، بل فى ظلام الليل ، كى تبحث عن فريسة تفترسها ، أو خيانة تخونها ، أو طعام تسرقه . هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم ، ويفرحون لهفوات سواهم . وأمثال هؤلاء لاشخصية لهم ، فأشخاصهم مكروهة ، وأسماؤهم منبوذة ، وأفعالهم مذمومة مشئومة .

فالمشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية تجعل القلب متقداً يشعر بشعور غيره ، ويقيس نفسه بمقياس سواه من الناس . يقول (السير وولتر سكوت) الكاتب الاسكتلندى الكبير : « إن المشاركة الوجدانية هى الحلقة الفضية أو الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ، ويربط العقل بالعقل ، والجسم والروح » فاذا كانت الشخصية هى القوة التى بها يجتذب الغير فالمشاركة الوجدانية من أهم الأشياء التى بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم .

واذا قدرْنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فاننا ننتظر منه أن يقابل المثل بالمثل ، فيقدرنا ويفكر فينا ، ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه ، أما إذا لم نقدر أحداً ، ولم نفكر فى أحد ، فاننا لا نترقب أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

ومن المشاركة الوجدانية أن يخلص الأستاذ فى نصح طلبته وإرشادهم ، والتفكير فى عملهم وظروفهم ومستقبلهم ، فيقابل الطلبة ذلك بالوفاء والطاعة والتقدير . فالشخصية تستدعى أن نتأثر للغير ، ويتأثر الغير لنا ، ونشعر بشعورهم ، ويشعروا بشعورنا . ولا أثر للتربية والتعليم إذا لم يصحبا بمحبة غيرنا ، والتفكير فيهم بقلوبنا ، فالمشاركة الوجدانية يجب أن تتحقق فى القادة ، قادة الفكر وقادة العمل ، حتى تكون لهم شخصية جذابة قوية . غير أنه ينبغى ألا يتدخل الوجدان والعاطفة فى أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا تدخلاً كبيراً ، حتى نستطيع أن نزن الشىء بميزان العدالة لا بميزان العاطفة . ويجب ألا ننظر الى الأمور من ناحية واحدة وهى الناحية الوجدانية ، لئلا يختل التوازن ، ويصبح العقل عبداً خاضعاً للتأثيرات الوجدانية العاطفية التى تعمينا عن حقائق الأشياء وعلاقتها بغيرها .

ونظراً لطول الموضوع وتشعبه أرجىء البقية إلى بعض الأعداد التالية من الرسالة . ؟

محمد عطية الابراشى

الصقور البحرية

فى البحر الأحمر

للدكتور كرسلاند

مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة

تقل الطيور البحرية فى شمال البحر الأحمر حيث محطة الأحياء البحرية التابعة للجامعة المصرية . وأكثرها الصقر البحرى « Pandion haliaëtus » وبدهى أن تندر الطيور البرية فى أرض مجدبة لم تجُدها الأمطار منذ اثنى عشر عاماً . أما الغربان فكثيرة الانتشار وتعتمد فى غذائها على جماعات الانسان ، ولكنى لم أعثر للآن على النسر البحرى المصرى الذى كان يوجد بكثرة عند المحطة التى كنت أديرها على شاطىء السودان .

أما فى فصلى الربيع والخريف فيمر بالمحطة عدد كبير من الطيور من كل نوع ، كنوعين من البط وبعضها كالخطاف وأبى فصاده ينساب طوال الفصل . أما الصفير (العصفور) فيمر فرادى .

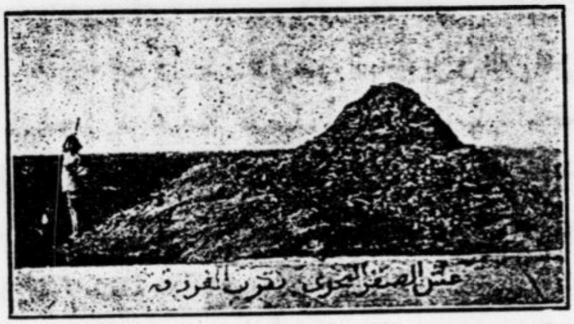
وصقر البحر يختلف فى نوع فريسته وطرق صيده عن الطيور البحرية الأخرى . إذ لم يتأقلم تماماً للحياة البحرية ، فبرغم تشوك أصابعه واندثار الريش الطويل من أرجله ما زال يشبه الطيور الأخرى من فصيلته . ولا يمكنه أن ينقض على جماعات الأسماك التى

تعوم بسرعة قريباً من سطح الماء كما تفعل النورزه « Sea gull » والخطاف البحرى « Tern » بل يفترس عادة الأسماك البطيئة كأبى صندوق « Box fish, Ostracion » والحجم « Balistes » والدرمه « Tetraodon » والمشط « Holacanthus » وهذه الأخيرة سمكة زرقاء اللون تزينها بقعة صفراء فاقعة ، وتكثر حول الشعاب المرجانية . وكثيراً ما نرى عظام هذه الأسماك وجلودها بكميات كبيرة حول أعشاش الصقر . وإنه وإن بدت هذه الأسماك محصنة من الأسماك المفترسة بكيفية لا نعرفها إلا أن ذلك لا يقيها شرين : حربة الصياد ، ومخالب الصقر .

وقد التجأ الصيادون هنا إلى استعمال الحراب لانتشار الشعاب المرجانية مما أدى إلى تحديد صلاحية الشباك للصيد . وقد لا يجدى الصيد بالشص كثيراً إذ تتحصن الأسماك المصيدة بالشعاب فيفقد السمك والشص معاً ، لذلك انتشر استعمال الحراب . وتتكون الحربة من قضيب من الحديد يبلغ سمكه سنتيمتراً أو سنتيمترين ، ويصل طوله إلى ثلاثة أمتار ، أحد طرفيه مدبب وبالآخر ثقب صغير يثبت به الخيط . ويشتغل الصيادون مثنى فى كل هورى (قارب منحوت من الأشجار) ينظر أحدهما فى منظار الماء بينما يجدف الآخر ببطء ، ويبحثان عن صدف اللؤلؤ ، ولكن إذا ما تراءت لهما سمكة أمسك أحدهما الحربة من منتصفها وصوبها ثم قذف بها بمهارة لا تفلت منها الأسماك الصغيرة . وأكثر ما يصاد عادة بهذه الطريقة الأسماك البطيئة الحركة . وقد تقتنص الأسماك السريعة كأنواع البياض « Caranx » وأميز هذا الجنس ما يسميه الأوربيون خطأ « Dolphin » فانه يتلون بألوان براقة جميلة حينما يحتضر خارج الماء .

وقد صادفت مرة جماعة من صيادى اللؤلؤ وقد أمسكوا درمة (جنس من السمك) فسألتهم « كيف أمسكتم هذه السمكة وليس معكم حربة واحدة ؟ » فأجاب أحدهم « أمسكتها بيدى » . والدرمة سمكة معروفة بأنها سامة ، ولكنها تؤكل كثيراً بالبحر الأحمر ، ويقال إن لحمها جيد وإن كان قليلاً .

وعلى شاطىء البحر الأحمر لا توجد جروف ولا أشجار يبنى فى وقايتها الصقر عشه . فيلجأ إلى أفرع نباتات الأرض المالحة على الشاطىء المنبسط مثل الشمرة البحرية « Samphire » والحزيس « Zygophyllum album » والساليكورنيا « Salicornia » وغيرها من النباتات التى تنمو على الأرض المنخفضة بجانب البحر بل وعلى رمل الشاطىء نفسه ، وكذلك على الأعشاب البحرية وجلد الأسماك وعظامها والأجسام الطافية على سطح الماء من أى نوع . والصقر لا يغير عشه بل يضيف إليه كل عام حتى يصبح ربوة عالية — وعلى مقربة من المحطة عش يربو ارتفاعه على المترين . ورأيت آخر على شاطىء السودان كان يسكنه صقر مدة خمسة عشر عاماً ولست أدرى كم أقام به الصقر قبل ذهابى إلى السودان .



عش الصقر البحرى على مقربة من الغردقة

وبيض هذا الصقر كبير الحجم وعليه نقط سمراء داكنة ، أما الصغار فسمر الألوان ، وإذا أزعجت خرجت من عشها وجثمت بين الأعشاب المجاورة .

ومما يساعد على وقاية هذه الطيور عزلتها فى الصحراء ورغبة (البشاريين) عن أكل الطيور وبيضها . ولكن انتشار السيارات فى الصحراء قد سلبها عزلتها . وكم نشفق الآن على بعض هذه الطيور التى ما زالت تأوى عشاً لا يبعد إلا قليلاً من الأمتار عن الطريق الموصل بين آبار البترول ومحطة الأحياء البحرية ! أما الجزر فما زالت ولن تزال حصناً منيعاً لها .

وقد أقمت عدة علامات لتحدد الشعب المرجانية ، وسرعان ما انتفع بها الصقر للاستراحة والتهام فريسته ، ولا شك أن هذه العلامات توسع نطاق صيدها . إذ أن الصقر طير برى ، ولا بد له من الرجوع إلى الشاطىء لأكل فريسته ، ولكنه الآن لا يحتاج إلى ذلك كثيراً بفضل انتشار العلامات على بضعة أميال من الشاطىء . وكثيراً ما يرى الصقر ممسكاً بفريسته بين مخالبه باحثاً عن مكان يلتهمها فيه ؛ وهو يمسك فريسته موازية لجسمه ، بخلاف الطيور الأخرى التى تمسكها فى اتجاه مستعرض .

كرلس كرسلاند

الامتيازات والديك..

للأستاذ محمد محمود جلال

منذ عشر سنوات كنت أعالج « ضرساً » لدى طبيب انجليزى يقيم فى مصر من زمان طويل بل لعله ولد بها. والعجيب من أمره أنه خالف سنة قومه فأكثر من معاشرة المصريين وأتقن الكلام بالعربية، واندمج فى مختلف بيئاتهم، وهو على خفة فى روحه وظرف فى طبعه حلو النكتة حتى لتحسبه « ابن بلد ».

ففى يوم من أيام العلاج، وقد أخذ يعد دواءً، أراد أن يروح عني من شدة الألم ومرارة الانتظار بنادرة مما حفظ فقال: إن أحد الشيوخ مر ذات يوم بشارع ضيق من شوارع القاهرة، وبينما هو فى سيره إذ قفز من أحد المنازل ديك على عمامته فأتلفها وهوى بها، فاستاء الشيخ وبحث عن صاحب المنزل ثم رفع أمره للقضاء. ولم يشك المدعى يوم الجلسة فى صـــدور حكم لصالحه، فحقه فى التعويض واضح، زكته اعترافات المدعى عليـه فى أول إجابته..

بيد أنه ذهل إذ سمع المدعى عليه يدفع بعدم الاختصاص!! والخصمان مصريان والمحكمة مصرية، وصرخ عجباً!! قال المدعى عليه « كل ذلك حق » ولكن الديك « رومى » فقضت المحكمة بعدم اختصاصها!!!

إحدى الخرافات الفكاهية التى لا يعدو أثرها حين تطلق فى مجلس أن تنتزع ضحكة، ولا نفيد منها إلا نصيباً من الترويح، لكنها من خير ما يصور الأثر الذى تركه ذلك النظام فى بلادنا، والطابع الذى أقامه فى روح الحياة بعد أن نال من مصالحنا وكرامتنا وآدابنا.

فكم تعطلت إجراءات عادلة بدعوى أفاق، حتى إذا فصل فى أمره كان الزمن قد ذهب بالمصلحة والغرض، وكم من غاش تعب فى أمره رجال الأمن وهو كل يوم يظهر بحيلة جديدة، وكم من حقوق مصرية بحتة أخرجت من دائرتها الطبيعية ودفعت لمجرد شبهة فى صالح أجنبى، إلى محاكم استثنائية.

يعيش بيننا كثيرون يسيئون إلى سمعة دولهم أكبر الاساءة، فهم يؤجرون للتعرض فى التنفيذ ويتخذون ذلك مهنة لهم، وإنى لأذكر واحداً تعرض مرة فى تنفيذ حجز على محصول لقاء مبلغ الايجار — وكان المتعرض شخصاً معروفاً للناس تأنف منه الجالية التى ينتسب إليها ولا يملك شيئاً إلا هـذه المهنة — ومع ذلك فقد ادعى بأنه اشترى المحصول، وكان هـذا وحده إشكالاً رجع معه المحضر ليتلافى الأمر من طريق الاجراءات — فلما أخذنا المتعرض بشىء من الحزم اعترف وأخرج من جيبه « جنيهاً واحداً ». قبضه أجراً لتعرضه

هذا وغيره كثير الوقوع وقد أصبح حديثاً مردداً. ولكن اليوم تشاء سخرية القدر أن يقع ما هو شر من الخرافة.

قضت أعمالى أن أغيب عن مصيفى ببور سعيد فى أوائل أغسطس الماضى، فلما عدت أخبرت أن ضابطاً مصرياً جاء إلى المنزل بأمر الحكمدار الانجليزى، وأبلغ الخادم أن « ديكاً » يزعج الجار الأوربى، فهو يأمر بنفيه إلى « السطوح » أو ذبحه!!

ليس بالمنزل سلم « للسطح »، ومكان الطيور بالحديقة بناه المالك ولا يد لنا بتغييره، لأننا نشغل المنزل لموسم الصيف، وإذن نفذ الأمر، وذبح « الديك » مأسوفا عليه من الدجاج مسطراً بدمه صحيفة عن آثار الامتيازات والعبث بالكرامة! ضابط خلق لمهمات عالية من صيانة أرواح وأموال وأعراض، يحمله الرئيس الانجليزى رسالة حقيرة فى أمر حقير!!

عندما يحس الجار إقلاقاً لراحته يكفى فى دفعه عادة كلمة طيبة لجاره، وتقفه رسالة من خادم لخادم. هكذا نفعل، ولكن الاعتزاز بالامتيازات والاحتلال بدّل الجوار الحسن تفرقة وتحكما.

ولست أشك فى أن المناحة التى أقامتها الدجاج حزناً كانت قوية مؤثرة تضاعفت معها حركة الأقلاق، مما جعل الجار يندم على شكواه والحكمدار يرفه عنه، ولعلهما نسيا بهذه الصيحات المزعجة صوت الديك « الفقيد ».

وأمام ما تخيلت ثقة بوفاء هذه الطيور تساءلت: « ألم يتجدد الأمر بذبح البقية المقلقة؟ » فلما أجيبت بالنفى قلت: لعل الآمرَين قد أخذا بروعة الوفاء، وصعقة الحزن فنسيا الجريمة!! أو لعل فى

ذلك إشارة إلى قرب الخلاص ! ! والله سميع مجيب .

على أن فى بيت الجار التالى « دجاجاً » سمعت صوتها وصياحها ولكن الشاكى لايتحرك !! والحكمدار الانجليزى لايهتم ! والضباط المصريون لا يسخرون ! لأن الجار يتمتع بالامتيازات ، وما فى كنفه تابع له ، ولو أن الديك « بلدى »

ولقد هممت أن أكتب الى الحكمدار — واحدة بواحدة — ولكني خشيت أن أكون سبباً فى نكبة تحل بواحد أصله « مصرى » وأنا الذى أفدى الوطن وما ينسب اليه بكل غال .

أنظر إلى ماحدث على تفاهته — انه سيصبح حديثاً يتناقله خادم طارىء عن خادم مقيم ! وينشره الأول والثانى — ثم يصبح موضوعاً يتنادر به أكثر من جماعة فى مقهى أو شارع أو مجلس ، ثم تبني عليه نوادر وخرافات أصلها حقيق عن أمر صدر من رئيس كبير وبلغه مرءوس كبير ، ثم قل بعد ذلك ماشئت فى التسلسل الطبيعى وأثره فى البيئة وما ينشأ عنه من إكبار النفوس البسيطة للنفوذ الأجنبى — وما يتبع ذلك من صبغها بنوع من الخنوع أو نوع من الوجل .

ولكن الله سبحانه وتعالى يتدارك الشعب بأبنائه النابهين وما أظن نافذاً بإذنه إلا مشيئة البلاد .

ولقد راجعت نفسى وواجبي فكتبت الى الحكمدار منبهاً الى كرامة الضباط وغرابة الحادث ، ودخول البيوت بغير إذن ، وهم العاملون المكلفون بطبيعة وظائفهم بالسهر على الحقوق .

وبعد : أليس فى الخرافة الأولى حق وعظة ؟

محمد محمود جلال
المحامى

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد فى مصر و بخمسين قرشا فى البلدان الأخرى

الرياضيات فى الشعر

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يقولون إن عداءً مستحكما موجود بين الرياضيات والأدب بما فيه الشعر ، ولكن الحقيقة تنفى وجود هذا العداء ، والواقع لا يؤيده ، إذ ليس فى أحدهما ماينافض الآخر ، وكثيراً ما استعان العلماء بأحدهما على الثانى . واذا كان هناك عداء موضوع أو خصام موهوم ، فهو فى الحقيقة والواقع بين الرياضيين من جهة ، والأدباء من جهة أخرى ؛ وماعلمت لهذا سبباً ، وماقدرت أن أجد الدافع لذلك . فالأديب أو الشاعر يغيظه أن تذكر أمامه كلمة رياضيات ، ويزيد فى حنقه أن تجرى أمامه بحوث فى الأرقام والمعادلات والأشكال والخطوط ، يتملص من جلسات الرياضيين ويشمئز حين الاجتماع بهم . وليس هذا خاصاً بالأدباء ، فكذلك الذين يعنون بالعلوم الرياضية هم أشد حنقاً على الأدباء من الأدباء عليهم ، لايتركون فرصة دون ذكر النوادر عن الأدباء والشعراء ، وقد يتمادى بعضهم فيستهزىء بلغة العواطف والنسيم والطلول وهند وليلى ومجنونها . وتراهم (أو على الأقل يتظاهرون) بأنهم لايفهمون معنى لأبيات يتخللها وصف بديع أو مجاز بليغ . هذا صراع موجود لايمكننا إنكاره . وقلَّ أن تجد أديباً أو شاعراً يعنى بالأرقام ، كما أنه قلَّ أن تجد رياضياً يعنى بالأدب أو الشعر . وأصبح الجمع بين الرياضيات والأدب والشعر فى شخص واحد من الخوارق ، بل من ضروب الشذوذ التى تثير الدهشة والاستغراب . فاذا قيل هذا أديب أو شاعر ، فمعنى ذلك ضمناً أنه يمج الرياضيات ويكره كل شيء يحتوى على الأرقام والمعادلات . واذا قيل هذا رياضى فمعنى ذلك ضمناً أنه يكره الأدب والشعر ، ولايفهم إلا الملموس المحسوس ، ولايتكلم إلا بلغة الأرقام . ولكن برغم ذلك فاننا نجد أشخاصاً برعوا وبرزوا فى الناحيتين ، وكان لهم فيهما جولات موفقات ، فهناك رياضيون اعتنوا بالأدب ووجدوا فيه تسلية ، وسحرهم الشعر وفنونه ، ووجدوا فيه ملهاة ، ولم تمنعهم الرياضيات من النظم أو من الغوص على كنوز الأدب ،

بل قد بلغ فى بعضهم حب الجهتين أن استعمل الشعر فى التعبير عن القوانين والمعادلات الرياضية . واذا اطلعت على كتاب (مخطوط) للبيرونى : (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) رأيت أدباً عالياً ، ودقة فى التعابير بالغة الدرجة العليا من الاجادة .

وهناك شعراء عكفوا على دراسة الرياضيات والفلك ، وشعروا بلذة فى دراستهما ، وبلغوا فيهما ذروة عالية يحسدهم عليها الكثيرون .

لا أعرف شاعراً أو شاعرة قبل زرقاء اليمامة نظم شعراً وضمنه مسألة حسابية . ومما لاشك فيه أنها لم تكن تقصد وضع معضلة رياضية فى قالب شعرى ، إنما جلّ مافى الأمر أنها كانت حادة البصر ، وقد رأت سرباً من الطيور ، فرغبت فى وضع عدده شعراً . وأرجح أن إيجاد العدد يحتاج الى عملية حسابية يعجز عنها الكثيرون من فحول الشعراء وكبار الأدباء ، أما الأبيات فهى:

ليت الحمام ليه   ونصفه قديه
الى حمامتيه   صار الحمام ميه

والمعنى المقصود من هذين البيتين أنه اذا أضيف الى هذا السرب نصفه وحمامة واحدة لكان حاصل الجمع مئة ، فاذا أخذت الحمامة كان الباقى تسعاً وتسعين ، وهذا العدد يعدل عدد الحمام ونصفه ، أى أن عدد الحمام ست وستون . وقد علق النابغة الذبيانى على هذه الأبيات ، ويظهر منها أنه يعرف عدد الطيور مع أنه لم يذكر ذلك صراحة . قال النابغة :

أحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت   الى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانباً نيق وتتبعه   مثل الزجاجة لم تكمل من الرمد
قالت : ألاليتما هذا الحمام لنا   الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما زعمت   تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها   وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

واذا اطلعت على ديوان أبى نواس وقد غمره الحب والخمر واستوليا عليه ودخلا فى كل أعماله الصغيرة والكبيرة ، أقول اذا اطلعت على ديوانه العجيب الغريب وجدت فيه بعض أبيات أشار فيها الى تقسيم قلبه بين جنان حبيبته والساق والعشاق تقسيماً حسابياً غريباً فى بابه . وإليك تقسيمات أبى نواس :

جنانٌ حصَّلت قلبى   فما إن فيه من باق
لها الثلثان من قلبى   وثلثا ثلثه الباق
وثلثا ثلث مايبقى   وثلث الثلث للساق
فتبقى أسهم ست   تجزأ بين عشاق

ولقد وجد فى العرب من استطاع أن يضع كثيراً من الطرق والقوانين التى تتعلق بالأرقام والأعمال الأربعة شعراً . واعتنى بعض علماء الرياضة بالشعر والأدب ، ورغب غير واحد منهم فى وضع الجبر شعراً ، فابن الياسمين وضع أرجوزة فى علم الجبر وقد شرحها كثيرون . وفى هذه الأرجوزة نجد خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التى يجدها القارىء فى كتب الجبر الحديثة . وتدل الأرجوزة على تضلع الناظم فى الجبر وبُعد غوره فيه ، على أن ثروته الأدبية لايستهان بها ، وتدل أيضاً على أن لديه شاعرية قوية قد لانجدها فى كثيرين من شعراء زمانه ، وانى أعتقد أنه لولا إحاطته بالجبر والشعر إحاطة كلية لما استطاع أن يضعها فى قالب سلس جذاب . ولدينا نسختان من أرجوزة ابن الياسمين ، أخذنا الأولى عن مخطوطة قديمة موجودة فى المكتبة الخالدية فى القدس وهى (شرح الياسمينية للماردينى) ، والثانية أرسلها الينا الصديق الأديب عبد الله كنون من شباب طنجة بالمغرب ومن نجومها اللامعة فى سماء الشعر والتاريخ .

ولنرجع إلى الشعر الموجود فى أرجوزة ابن الياسمين فنجد أنه يبدأ بذكر خواص القواعد الأربع الأصلية وشرح طرق حلها للأعداد الصحيحة والكسرية ، وبعد ذلك ينتقل إلى علم الجبر فيقول :

على ثلاثة يدور علم الجبر   المال والأعداد ثم الجذر

ثم يفسر كل واحد من هذه الأشياء الثلاثة بقوله :

فالمال كل عدد مربع   والجذر واحدُ تلك الأضلع
والعدد المطلق مالم ينسب   للمال أو للجذر فافهم تصب

من هنا يفهم أن المال هو كل عدد مربع ، والجذر أحد ضلعيه ، والعدد المطلق هو الذى لم ينسب إلى جذر ولا إلى مال ولا إلى غيرهما ، فالاثنان (مثلاً) عدد

والجذر والشىء بمعنى واحد   كالقول فى لفظ أب ووالد

أى أن الجذر والشىء مترادفان ، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال

إن الجذر هو العدد المجهول ويعبر عنه بالحرف (س) فى علم الجبر وعلى ذلك يكون المالَ (س^{٢}) . ثم يبحث ابن الياسمين فى المعادلات وأقسامها وأنواعها وطرق حلها ويأتى بعد ذلك على شرح طريقة إكمال المربع لحل المعادلة ذات الدرجة الثانية ، وإذا تتبعت خطواتها بالدقة تجدها هى بنفسها الخطوات المتبعة فى الكتب الجبرية الحديثة .

فربع النصف من الأشياء واحمل على الأعـــداد باعتناء
وخذ من الذى تناهى جذره ثم انقص التنصيف تفهم سره
فما بقى فذاك جـــذر المال وهذه رابعـــة الأحوال (١)

ولم يستطع العرب أن يدركوا القيم السالبة ، أى أنهم لم يعتبروا من جذور المعادلة إلاّ الموجب . ثم يشرح طريقة استخراج المجهول فى المعادلة التى يكون فيها معامل (س^{٢}) غير الواحد ، وهى نفس الطريقة التى تجدها فى كتب الجبر للمدارس الثانوية . وأعطى طرقاً لكيفية حل بعض المعادلات التى تكون فى أوضاع مخصوصة مثاله :

فاجع إلى أعـــدادك التربيعا واستخرجن جـذرها جميعا
واحمل على التنصيف ما أخذتا فذلك الجذر الذى أردتا (٢)

ولم يقف ابن الياسمين عند هذا الحد ، بل نجده يشرح بعض النظريات التى تتعلق بالقوى والأسس وطرق ضربها فى بعضها وقسمتها على بعضها . ولم ينس أيضاً أن يذكر معنى كلمتى (جبر) و (مقابلة) فقال :

وكل ما استثنيت فى المسائل صيره إيجاباً مع المعادل
وبعد ما يجـــبر فليقابل بطرح ما نظـــيره يماثل

ولولا الخوف من الملل الذى قد يتسرب إلى القراء ولا سيما الأدباء منهم لأتينا على شرح هذين البيتين تفصيلاً . ولقد سبق أن شرحت معنى الكلمتين (جبر) و (مقابلة) فى مقالى فى المقتطف.

وتنتهى الأرجوزة بالصلاة والسلام على النبي .

ويوجد شعر كثير حوى مسائل حسابية وهندسية ومعضلات فلكية من الصعب فهمها وقد يكون حلها أيضاً .

وفوق ذلك أخـذ الشعراء بعض الاصطلاحات والأسماء والآلات الفلكية والرياضية واستعملوها فى شعرهم فقد كتب أبو اسحاق الصابى فى يوم مهرجان مع اصطرلاب أهداه إلى عضد الدولة ما يلى :

أهدى إليك بنو الآمال واحتفلوا فى مهرجان جديد أنت مبليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى علوّ قدرك عن شىء يدانيه
لم يرض بالأرض مهداة إليك فقد أهدى لك الفلك العالى بما فيه

وكتب أيضاً مع زيج أهداه — والزيج هو كتاب يتضمن جداول وحسابات فلكية :—

أهديت محتفلاً زيجاً جداوله مثل المكاييل يستوفى بها العُمر
فقس به الفلك الدوار واجر كما يجرى بلا أجل يخشى وينتظر

ومما كتب إليـه فى يوم نيروز مع رسالة هندسية من استخراجه :

رأيت ذوى الآمال أهدوا لك الذى تروق العيون الناظرات محاسنه
وحولك خزان يحوزونه وما له منك إلاّ لحظ طرف يعاينه
ولكننى أهديت علماً مهذباً يروق العقول الباحثات بواطنه
وخير هدايانا الذى إن قبلته فليس سوى تامور قلبك خازنه

وأخـذ بعضهم من الأفلاك والكواكب ومن الظواهر الطبيعية والفلكية ميداناً لنظم الشعر ومسرحاً للخيال ، قال أحدهم ، ولا يحضرنى اسمه الآن :

اما ترى الزهرة قد لاحت لنا تحت هلال لونه يحكى اللهب
كـكرة من فضة مجلوة أو فى عليها صولجان من ذهب

وقال التهامى فى البقع السوداء التى تظهر على سطح القمر :

فبات يجلو لنا من وجهها قمراً من البراقع لولا كلفة القمر

---

(١) أى إنه إذا كان لديك معادلة من الدرجة الثانية : مثال ذلك : مال وعشرة أجذار (أو أشـياء) تعدل ٧٥ أو بالتعبير الجـبرى الحديث س^{٢} + ١٠ س = ٧٥ فالنصف من الأشياء يعدل $\frac{١٠}{٢}$ = ٥ وتربيعه يعدل ٢٥ ، ثم احمل على الأعداد باعتناء .أى أضف الـ (٢٥) إلى الـ (٧٥) فيكون الناتج (١٠٠) ثم خذ جذر المئة وهو عشرة واطرح بعد ذلك منه التنصيف أى اطرح الخمسة من العشرة فيكون الباقى (٥) وهو جذر المال أى مقدار جذر المعادلة . وإذا أردنا أن نتتبع الطرق التى نعرفها والموجودة فى كتب الجبر، يكون الحل على الصورة الآتية س^{٢} + ١٠س = ٧٥ ، س^{٢} + ١٠س + ($\frac{١٠}{٢}$)^{٢} = ٧٥ + ($\frac{١٠}{٢}$)^{٢} س^{٢} + ١٠ س + ٢٥ = ١٠٠ اى ان (س + ٥)^{٢} = ١٠٠
∴ س + ٥ = ١٠ ∴ س = ٥ مهملين بتلك القيم السالبة

(٢) إذا كانت المعادلة فى هذا الوضع : س^{٢} = حـ س + د فاستخراج جذرها يكون :

$$س = \frac{ح}{٢} + \sqrt{(\frac{ح}{٢})^{٢} + د}$$

وقال ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وجاء فى سقط الزند للمعرى وصف للسماء وما فيها من اجرام وقد صُوِّرت أحسن تصوير فى قالب شعرى جميل :

كأن سهاها فى مطالع أفقه مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بنى نعش ونعشاً مطافل بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا
كأن سهاها عاشق بين عوّد فآونةً يبدو وآونةً يخفى
كأن قدامى النسر والنسر واقع قصصن فلم تسمُ الخوافى له ضعفا

وجاء أيضاً :

سقتها الذراع الضيغمية جهدها فما أغفلت من بطنها قيد أصبعِ
بها ركز الرمح السماك وقطعت عُرى الفرغ فى مبكى الثريا بأدمع
ويستبطأ المريخ وهو كأنه إلى الغور نار القابس المتسرع
وتبتسم الأشراط فجراً كأنها ثلاث حمامات سدكن بموضع
وتعرض ذات العرش باسطةً لها إلى الغرب فى تغورها يد أقطع

وجمع الشيخ اليازجى أسماء البروج فى ثلاثة أبيات فقال :

من البروج فى السماء الحملُ تنزل فيه الشمس إذ تعتدل
والثور والجوزاء نعم المنزله وسرطان أســـد وسنبله
كذلك الميزان ثم العقرب قوس وجدى دلو حوت يشرب

وقال أبو العباس ابن الخليفة المعتز بالله فى مخاطبة القمر :

ياساق الأنوار من شمس الضحى يامشكلى طيب الكرى ومنغصى
أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلخ بهقا كلون الأبرص

ولا يمكننا فى هـذه العجالة الاتيان على أكثر ماقاله الشعراء وعلماء الفلك والرياضة فى مبادىء العلوم الرياضية والفلكية فهو أجل من أن يحاط به فى مقالة أو مقالتين آملين العودة إلى البحث فيه بصورة أوسع وأوفى للمرام .

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٦ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

المأساة فى خلال القرون

لعلك تذكر أننى أشرت عند الكلام عن منشأ الرواية إلى أن أصل المأساة هو تلك الأناشيد التى كان يغنيها القيان (الخورس) إجلالاً لباكوس إله الخمر يوم عيده . وكلمة (تراجيدى) اليونانية لا تزال تحمل دليل هذا الأصل . فمعناها غناء الجدى ، وهى مركبة من كلمتين: (تراجوس tragos) : جدى،و(أودى ôdê) : غناء . وذلك لأن الجدى كان مخصصاً للقربان فى ذلك اليوم ، ولأن القيان كن ينشدن تلك الأناشيد أثناء ذبحه . وقلت إن (إبيچين) وضع الحجر الأول فى بناء المأساة ، ولكن اسخيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق م) هو الذى صورها وسواها بخلقه الحوار ؛ ثم أبقى على القيان ، وبث فى المأساة الرعب على الأخص ، وجعل تصريف الأشخاص بيد القدر . وجاء سوفوكليس (٤٩٥ — ٤٠٥ ق م) فقلل من عمل القيان ، وأضعف من شأن القدر ، وعزا جزءاً من العمل إلى أهواء الانسان وحريته ، وأحكم العقدة الروائية . وأشهر مآسيه أنتيجون، وإلكْتر ، وأوديب الملك ، وفيلوكتيت. ثم كان أوربيدس (٤٨٠ — ٤٠٢ ق م) فكاد يلغى القيان ، وأخفى أثر القدر من رواياته ، وجعل الأمر كله لتصارع الأهواء ، وبث فيها الرحمة على الأخص . وأطلق عليه أرسطاليس اسم أمير المأساة . ولكنهم أخذوا عليه الاغراق فى تعقيد العمل ، والالتجاء إلى معونة الآلهة فى الحل ، وحشوه القطعة بالحكم الفلسفية . وأشهر مآسيه ألسسْت وهيكوب وإيفجينى وأوليس . ثم نضبت قرائح اليونان من المأساة بعد أوربيدس فلم ينبغ فيها منهم أحد .

أما الرومان فميلهم الغريزى إلى المشاهد الوحشية الدموية

كمصارعة الوحوش والثيران أزهق فيهم روح الفن الروائى ، وشغلهم عن إجادة المأساة . وما نسبوه من المآسى إلى سنيكا (٦١ ق م — ٣٠ ق م) ليس إلا تطبيقات مدرسية صيغت فى أسلوب روائى . ثم درست معالم المأساة ، وانقضى أمرها فى العصور الوسطى ، فلم تعد ثانية إلى الظهور إلا مع النهضة العامة فى القرن السادس عشر . ظهرت فى فرنسا واستمدت موضوعاتها من الأساطير اليونانية واللاتينية ، واقتبست قواعدها من الأدب القديم ، حتى جاء اسكندر هاردى فاستقاها من موارد الاسبان والطليان أيضاً . وظلت المأساة على هذا النحو من التقليد والفوضى حتى أدركها كرنى زعيم المسرح الفرنسى ، وخالق المأساة الحديثة ، فزاد على غرضيها الأولين وهما الرعب والرحمة ، غرضاً ثالثاً وهو الاعجاب ، وحصر أسباب هذه الأغراض الثلاثة فى قلب الرجل وهواه ، ووصف الناس كما ينبغى أن يكونوا ، وجعل الخلق الغالب على أشخاصه النبل والبطولة ، وضحى بالهوى على مذهب الواجب ، وأضعف أثر الحب فى رواياته ماعدا « السيد » . ثم أعقبه راسين فحرك الرحمة فى النفوس على ضحايا الأهواء ، ولا سيما ضحايا الحب والغيرة ، وأرخى عقدة الرواية إيثاراً لجاذبية التصور الخلقى على جاذبية التعقيد الروائى ، وجعل للحب المحل الأول فى رواياته ، ووصف الرجل كما هو لا كما ينبغى أن يكون كما فعل كورنى . ثم يأتى ڤولتير فى حسن الأثر وعظم الفضل ثالثاً لكورنى وراسين ، ولكنه دونهما فى البراعة والاجادة . فقد أنكر النقاد عليه مزجه الحكاية بالفلسفة ، وقصوره عن تصوير أخلاق أشخاصه ، غير انهم يذكرون له حسن صنيعه فى تقويته حركة العمل الروائى ، وحرصه على حفظ اللون المحلى فى المسرح

***

ثم جاء القرن التاسع عشر ، وظهر المذهب الابتداعى فهاجم المأساة وطاردها فى المسارح حتى قضى عليها ، واستبدل بها المأساة العصرية أو الدرامة ، ولم يبق من أنصارها المؤلفين فيها والناضلين عنها إلا تلما Talma المتوفى سنة ١٨٢٦ ، وراشيل المتوفى سنة ١٨٥٨ ، ودلافنى المتوفى سنة ١٨٦٨ مؤلف لويس الحادى عشر وأطفال إدوار . ثم بُنْسار المتوفى سنة ١٨٦٧ مؤلف لُكريس ، وأنيس دمورانى ، وشرلوت كردى . وقد ظل هذا الكاتب حيناً من الدهر زعيم المعارضة لفكتور هوجو عميد المذهب الابتداعى .

أما أمر المأساة فى غير فرنسا فقد كان ساقط الشأن قليل الجداء ، اللهم إلا فى انجلترا فقد ألف شكسبير جملة من المآسى الخالدة كروميو وجوليت . وعطيل ، والملك لير ، ومكبث ، وهملت ، ويوليوس قيصر ، وانطوان وكليوبطرة ، وكريولان . وكلها ماعدا الثلاث الأخيرة مقتبسة من التاريخ الحديث

تحليل موجز لأشهر المآسى

نريد بتحليل ما اخترناه من المآسى الرائعة الكشف عن هيكلها المطمى ليتبين القارىء فيها كيف يتوزع العمل فى الفصول وتتدرج الجاذبية فى الحادث ، وتراعى الوحدة فى الموضوع ، وتسير الرواية على حكم ما قرأ من القواعد . وسنختار ما نحلله مما خلد على الدهر وعلق بالقلوب من روائع كورنى وراسين وڤولتير وشكسبير عسى أن يكون فى اختصارها له حادياً لقراءتها ودراستها

مآسى كورنى : (السيد Le Cid)

وقعت حوادث هذه المأساة فى أشبيلية أواخر القرن الحادى عشر فى ساحة من ساحات المدينة ، ثم فى دار كُنت جُرماس ، ثم فى قصر الملك . وأهم أشخاصها : الدون ديبيج أبو رُدْريج ، والدون جوميز كنت جُرماس أبو شيمين ، وردريج حبيب شيمين ، وشيمين خطيبة ردريج ، والدون فردناند الأول ملك قشتاله ، والدون سانش منافس ردريج فى حب شيمين . وموضوعها زواج ردريج من شيمين ، والحيلولة دونه بلطمة الكنت للدون ديبيج ، وانتقام ردريج لأبيه من والد خطيبته

ففى الفصل الأول : بينما كانت أسرتا الأميرين (دون ديبيج ودون جوميز على وشك الاتصال بالمصاهرة أسند الملك امارة (الانفانت) إلى الدون ديبيج ، وكان الدون جوميز يرى نفسه أحق بها وأهلها . فيتبارى الأميران وهما خارجان من مجلس الملك وتتسعر بينهما نار الجدل حتى يلطم الدون جوميز صاحبه لطمة يريد أن يدفع عارها عنه بالسيف فيخونه عزمه ويظهر عليه خصمه . فليجأ إلى ولده ردريج يطلب منه أن ينتقم له . فيتردد ردريج هنيهة ، ثم يقول : هما خطتا خسف لا مَعْدى لى عن واحدة منهما : إماسمة

الاهانة إلى الأبد ، وإما الانتقام من أبى الحبيبة . ثم لايلبث أن يغلب واجبه على هواه فيقبل .

الفصل الثانى : يأبى الـكنت أن يعتذر عن فعلته للدون دييج على الرغم من إلحاح الملك . ويدخل فى أثناء ذلك ردريج فيدعوه إلى المبارزة ويقتله . ويعلم الملك فردناند بغزو العرب وقتل الـكنت فى وقت معاً ، وينعى الناعى لشيمين أباها فترفض الزواج من ردريج القاتل وتطلب إلى الملك عقابه ، ويتولى الدفاع عن ولده الدون دييج

شيمين (للملك) : أنا أطلب العدل .

دون دييج : احمى دفاعى .

شيمين : لقد كسر ايها الملك عضادة صولجانك ، وهدم ركنا من أركانك . إنه قتل أبى .

دون دييج : انه انتقم لأبيه !

شيمين : إن من واجب الملك أن يحقن دماء رعيته .

فيسمع الملك لها وله ، ثم يحيل الفصل فى القضية إلى مجلسه .

الفصل الثالث : وفى أثناء انتظار الحـكم يدخل ردريج على شيمين يسألها أن تقتله هى بيدها ، فتقف موقف الحيرة ما بين الحقد والحب ، ثم يفوز الشرف فتصرفه من وجهها وهى مصرة على القصاص . ويلقى الدون دييج ولده فيهنئه بفوزه ، ويمدحه على شهامته ، ويرسله إلى قتال العرب وقد أوشكوا أن يفتحوا أشبيلية ، عسى أن يكون بلاؤه الحسن فى جهاد العدو وسيلة إلى عفو الملك وصفح شيمين .

الفصل الرابع : يهزم ردريج العرب تحت أسوار أشبيلية ويعود مظفراً بالأسرى وقد لقبوه بالسِّيد — وهى كلة السَّيد بالعربية محرفة — فيقص على الملك أنباء مجـده ونصره ، وتأبى شيمين مع ذلك إلا القصاص . فيجيبها الملك ويأمر بالمبارزة القضائية ، وهى أن تختار من تشاء ليبارز السيد على أن تـكون زوجة الغالب ، فاختارت الدون سانش .

الفصل الخامس : يلقى السيد شيمين فيصرح لها أنه لن يدافع عن نفسه ، وانه لم يجىء إلا ليودعها الوداع الأخير فتحاول صده عن عزمه ، ويأبى هو إلا إنفاذه ، فتقول له : «دافع عن نفسك وانقذنى من دون سانش ، وإذا خرجت من المعركة فائزاً كنت لك »

فيخرج من عندها قويا بهذا الوعد وينقض على خصمه فيجرده من سيفه ، ويحكم الملك عليه أن يحمل سيف السيد لشيمين ، فينالها الجزع الشديد ظنامنها أنه قتل ، ولـكن الملك يطمئنها على حياته ، ويعلمها أنها تستطيع أن تتزوجه متى كفكف من دموعها الزمن

(**هوراس** Horace) : وقعت حوادثها فى روما فى غرفة من بيت هوارس عام ٦٦٨ قبل الميلاد . وموضوعها انتصار روما على « ألب » فى موقعة شعواء دامية نشبت بين بنى هوراس وبنى كرياس ، ومغزاها إيثار محبة الوطن على محبة الأسرة ، وأهم أشخاصها ملك روما ، والشيخ هوراس فارس رومانى ، وهوراس ولده . وكرياس أحد أشراف ألب وحبيب كاميـل ، وڤالير فارس رومانى وعاشق كاميل ، وسابين زوجة هوراس وأخت كرياس ، وكاميل حبيبة كرياس وأخت هوارس ، وجوليا نجية سابين وكاميل .

الفصل الأول : أزف يوم المعركة الحاسمة بين الرومانيين والألبيين ، فتجد سابين جالسة تشكو الى نجيتها صرامة القدر الذى جذم الحبل بين ألب مسقط رأسها ، وبين روما بلد زوجها ، وتألم لحظها النـكود وهمها المتقسم . وتنبئها كاميل أيضاً مخاوفها المتوقعة ، وعواطفها المتوزعة ، ويهدىء روع كاميل إشارة من الآلهة ، ولـكنها ترى رؤيا تقلق بالها وتقلب حالها . ويقدم خطيبها كرياس فينبئها أن المعركة لن تـكون ، وأن قوميهما رأوا حقناً للدماء أن يقصروا المعركة على ثلاثة أبطال من كلا الفريقين ، ويكون فوز الثلاثة فوزاً لقومهم .

الفصل الثانى : يجتمع مجلس الشيوخ الرومانى فيختار للمعركة أبناء هوراس الثلاثة . ويقبل كرياس خطيب كاميل فيهنىء صهره بما أحرز من ثقة وشرف . ويأتيه النبأ بعد قليل بأن مدينة ألب اختارت عنها أبناء كرياس الثلاثة . يتأهب الأبطال للذهاب الى المعركة ، ولـكن خطيب كاميل يكره أن يقاتل إخوة حبيبته . بينما زوج سابين لايرى فى أصهاره إلا أعداء لروما وأخصاماً للوطن . وتجهد كاميل وسابين فى تخذيل الأبطال عن القتال . ولـكن الشيخ هوراس يقبل فيشجعهم على الحرب ويبعث بهم الى الميدان .

الفصل الثالث : تدخل جوليا فتنبىء سـابين وكاميل بأن الأقران برز بعضهم لبعض ، وأن الجيشين أدركتهما الشفقـة فعارضا فى تقاتل الاخوة ، وطلبا إما المعركة بين الجيشين ، وإما الاختيار من غير هاتين الأسرتين . ولـكن الشيخ هوراس يقبل

وعلى لسانه الخبر المشئوم بأن الملك استشار الآلهة فى هذا الاختيار فأقروه ، وأن المبارزة بين الاخوة قد بدأت . وتطالع جوليا القتال عن بعد فترى اثنين من بنى هوراس يسقطان مجندلين ، والثالث يلوذ بالفرار ، فتبادر القوم باعلان هزيمة روما . ويتحدم الشيخ هوراس حنقاً وغضباً من جبن ولده . فتقول جوليا : وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة ؟ فيجيبها الأب فى شدة وحدة : يموت ! ثم يقسم الشيخ جهد اليمين ليغسلن عار الرومان بدم هذا الابن الجبان .

الفصل الرابع : ولكن ڤالير وقد شهد نهاية المعركة يعود ويقول : استغفروا الآلهة فقد ظلمتم بطل روما ! انه لما بقى وحده أمام بنى كورياس الثلاثة ، وهم مجروحون وهو سليم ، رأى أنه أضعف منهم مجتمعين ، وأقوى عليهم منفردين ، فعمد الى الخديعة وأوهمهم أنه يفر فطلبوه . حتى اذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحداً بعد واحد فقتلهم ، وبذلك انكسرت ألب ! فتنساغ غصة الشيخ ، ولكن كاميل تجزع على حبيبها جزعاً شديداً يفقدها الرشد فتنحى باللعنة والسخط على أخيها ووطنها . ويدخل حينئذ أخوها المنتصر فيسمعها ، فينزو فى رأسه الغضب ، فيلطخ انتصاره بدم اخته

الفصل الخامس : يجعل هوراس حياته فى يد أبيه تكفيراً عن الجريمة التى ارتكبها ، ويجىء الملك مهنئاً هوراس بفوزه . فيتقدم اليه ڤالير متهماً الأخ بالقتل طالباً موته ، ويستسلم القاتل لعدل الملك . ولكن الشيخ هوراس يتولى الدفاع عن ابنه فيقول: «معشر الرومانيين !! أترضون أن تقتلوا رجلاً لولاه ما كانت روما اليوم ؟ قل لنا ياڤالير وأنت تريد قتل هوراس : فى أى مكان يقتل ؟ أبين هذه الجدران ، ولاتزال آلاف الأصوات ترن فى جنباتها بأعماله العظيمة ؟ أم فى وسط هذه الساحات ودماء بنى كرياس لاتزال تدخن فيها ؟ أم بين قبورهم الثلاثة فى ميدان الوغى وكلها شواهد على شرف روما وشهامة هوراس ؟ . . . » ثم تكون نتيجة هذا الدفاع البليغ البراءة .

ومما أخذه النقاد على كورنى فى هذه القطعة الخالدة أنه لم يراع وحدة العمل . فجعل فيها عملين مختلفين ، الأول حرب روما مع ألب ، وينتهى بالمنظر الثانى من الفصل الرابع . والثانى قتل كاميل ومحاكمة هوراس وينتهى بالرواية .

(الزيات)

يتبع

شخصية ابن خلدون

فى

كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى

هيأت لى فرصة حسنة قراءة كتاب الأستاذ عنان الأخير عن ابن خلدون وتصفح مقالات بعض كتابنا المصريين فى التعليق عليه ، وبخاصة مقال الدكتور هيكل والأستاذ العقاد . وقد لفت نظرى فى مقال هذا الأخير ملاحظة تتضمن أن عناناً لم يتناول شخصية ابن خلدون فى كتابه ! ولعل الذين درسوا الكتاب يذكرون أن كل فصل من فصوله حوى مادة غزيرة عن هذه الشخصية ، وإن لم تجمع هذه المادة فى فصل مستقل .

فلقد أفاض المؤلف كثيراً فى ذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية أى فى العناصر المهمة التى تقوم عليها كل شخصية . ولعل كتابه وعى من هذه الصفات أكثر مما وعى عن تراثه الفكرى الذى لازال الكثير منه مبثوثاً فى طى المجهول .

أبرز الأستاذ عنان صورة تقارب الحقيقة من صفات ابن خلدون المنيرة والمظلمة أبرزها كما هى بين النور والظلمة ، كما يفعل النابهون فى كتابة التراجم . ووقف من شخصيته موقفاً نزيهاً . فلم يقف منه موقف المحامى الذى يدافع عن الحقيقة حيناً ، ويستخدم فصاحته فى الظفر أحياناً ، بل وقف موقف القاضى النزيه الفطن الذى لا همّ له الا الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة دون سواها . وهذا هو موقف المؤرخ العلمى .

فها نحن أولاء نراه لايقطع برأى فى خلال ابن خلدون حتى يرجع إلى الثقات الأذكياء من المؤرخين ، ويتخذ مقاييسه فى الحكم من أعماله وتصرفاته . ونراه أيضاً يربأ بضميره أن يطاوع بعض الكتاب فى الزراية بابن خلدون ونسبة القبيح إليه ، لئلا يكونوا قد اندفعوا فى هذا السبيل جريا وراء الانفعال الأعمى أو العاطفة الهوجاء . وهذا مانوافقه عليه ، وبخاصة إذا علمنا أن لابن خلدون

أعداء حداداً أسرفوا فى ذمه ، وتدفقت أقلامهم فى الطعن عليه غيرة منه وحقداً .

* * *

وقد حفل الكتاب بذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية إلا أنه مَرَّ مَرَّ الكرام على صفاته الجثمانية ومظهره الخارجى. فقد نقل إلينا المؤلف عن السخاوى أن ابن خلدون كان فصيحاً مفوها جميل الصورة ، ونقل عن ابن حجر أنه كان يتمسك بزيه المغربى ، ولم نعثر فى الكتاب على شىء من ملامح وجهه وسمات جسمه ، ولا أعلم ما إذا كانت هناك مادة فى هذه الناحية تعمد المؤلف إغفالها لأن بحثها ليس من عمله ، بل من عمل الفنان والأديب ، أو أنه لم يجد هذه المادة فى كتب القدماء، كما هى مع الأسف عادتهم فى إغفال صفات الجسم ، ولعل هذا هو الأرجح .

* * *

ومن حسن الحظ أن المؤلف أمدنا بمادة وافرة عن خلال ابن خلدون وخلقه ، فنقل إلينا طائفة من أقوال الكتاب الأذكياء أمثال المقريزى والسخاوى وابن تغرى بردى ، والجمال البشبيشى ، والعنتابى ، وابن الخطيب ، وابن حجر . فذكر أن المقريزى وكان تلميذاً له وسمه بسمات حميدة وذكره بالخير ، ولسان الدين بن الخطيب ، وكان من معاصريه ، نعته بحسن الخلق والطموح وعلو الهمة ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى أشاد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء بقوله : « إنه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته » وأبو المحاسن من ثقات المؤرخين المصريين .

إلى جانب هذه الصورة النبيلة لابن خلدون نجد أقلاما ضئيلة مسمومة تشوه صورته وتبهت عليه ، وتزرى بخلقه ، وترميه بالتهمة المؤذية الجارحة . فالعنتابى مثلاً ذكر أن ابن خلدون كان يتهم بأمور قبيحة (ص ٩٤) — والجمال البشبيشى اجترأ بقوله إن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومباشرة الأحداث ، وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ! (ص ٩٤)

* * *

جمع الأستاذ عنان هذه الأقوال وعلق عليها بقوله : « إنها أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف » وقد يكون الأستاذ محقاً فى هذا التعليق لأن نسبة أمثال هذه التهم إلى هذا العبقرى بلا سند ، مما لا يقبله الضمير النزيه ، وقد تكون هذه التهم أراجيف أذاعها الكاشحون عن قصد وتعمد ولا ظل للحقيقة فيها ، فليس على الأستاذ المؤلف من غبار إذا حكم حكمه الحاسم ، واحتقر هذه التهم كى لا يجرى الوهم إلى تصديقها ، وتصير فى الأذهان اعتقاداً وهى مجرد إرجاف ومراء .

ومع هذا فقد أورد المؤلف كثيراً من صفات ابن خلدون غير المحمودة ، واعتمد فى إيرادها على أقوال ابن خلدون نفسه وأعماله ، فلقد نعى عليه خلتين : أولاهما تلونه ووصوليته ، وثانيتهما كبرياؤه وصلفه . أبرز هاتين الخلتين ابرازاً جلياً ، فإنه ليقول فى القسم الأول من كتابه أن ابن خلدون كان من عباد الحوادث ، وكان ينتهز الفرص ويسعى لها بأى الوسائل (ص ٢٨) مهما نافت الوفاء والولاء والعرفان (ص ٤٨) وجلا هذه الخلة فى مكان آخر من الكتاب قال : « وكان ابن خلدون يصدر فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافللى فيما بعد . » وأشار فى كثير من المواضع الى خلته الثانية من خلاله البارزة وهى خلة الكبرياء ، وهذه الخلة قد تدل على عزة النفس وعظمتها فتكون خلة محمودة ، وقد تكون متغالية فتصير كريهة مذمومة ، ولقد أيد المؤلف تخلق ابن خلدون بها فى بعض الأوقات وأنها كانت سبباً من الأسباب التى جعلت كثيراً من المصريين يناصبون الرجل العداء .

ومن دلائل هذه الخلة ما يقوله البشبيشى من أن ابن خلدون كان يكثر الازدراء بالناس (ص ٩٥) وما يقوله ابن حجر فى كتابه رفع الأصر من أن ابن خلدون كان معروفا بخلق الكبر والازدراء بمقام غيره ، وروى أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك .

* * *

وأورد المؤلف غير هاتين الخلتين البارزتين خلالاً أخرى عول فى إيرادها على طائفة من الكتاب أثنت على ابن خلدون وأخذت عليه بعض المآخذ ، فمن هؤلاء ذكر ابن تغرى بردى وما قاله فى المنهل الصافى من أن ابن خلدون كان محباً للمنصب ، وما

قاله ابن الخطيب الذى وسمه بالفضائل الجمة يأخذ عليه الخفة فيقول : « إنه كان بعيداً عن التأنى » ، وعلل تحامل رجال الدولة عليه الى هذه الخلة . وابن حجر نقم عليه سوء الأدب أيام كان قاضياً فقال : « كان فظاً جافى الطبع ، وكان يعزر الخصوم بالصفع » .

ولم يقتصر المؤلف فى سوق هذه الحقائق على أقوال الكتاب السالفين ، ولكنه اعتمد فى ذكرها على أقوال ابن خلدون نفسه فى كتاب — التعريف — وهذا الكتاب هو ترجمة ابن خلدون لنفسه . وهذا التعريف الذى يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة فى الأدب العربى ، فهو صورة حقيقية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت فى كثير من الحرية والصراحة ، حتى إنها لتفصح فى كثير من المواطن عن خلال صاحبها ، وليست هذه الخلال دائماً مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة ، فهناك الكبرياء والزهو والأثرة ، وهنالك الطمع وحب التقلب وشغف الدس ، وانتهاز الفرص بأى الوسائل ، ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة ، هذه الخلال كلها أو بعضها نلمحها من آن لآخر ماثلة فى أعمـــال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه (ص ١٤٠)

***

وبعد هذا الدرس الطويل الحر لخلق ابن خـلدون كشف الأستاذ عنان فى الجزء الثانى من كتابه ركناً من أركان شخصية ابن خلدون المضيئة ، وهذا الجزء يلقى ضوءا قوياً على عبقرية ابن خلدون ، تلك العبقرية التى صيرته موضع اجلال السلاطين والملوك وذوى النفوذ والجاه ، فهاهم سلاطين المغرب والأندلس يخطبون وده ، وهاهم بنو عريف يكرمون مثواه وينزلونه ضيفاً عزيزاً مع أسرته بأحد قصورهم أربع سنين ، وها هو شعاع العبقرية يسبقه الى مصر المتحضرة ، فيلقاه أهلها بالحفاوة والتعظيم ، ويولونه الدرس فى الأزهر النابه فى ذاك الحين ، ثم يتولى بعـد ذلك قضاء المالكية عدة مرات ، وهاهم الكتاب يجمعون على قوة عقله وحدة ذكائه وعلو تفكيره ، حتى أنصفه الحاقدون عليه ، فجمال الدين البشبيشى وهو من ألد خصومه اعترف له بالفصاحـة والتفوه ، وابن حجر الذى زرى عليه خاقه ، يظهرنا على ناحية من نواحى عقله يقول : « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم ، وكان جيد النقد للشعر ، وإن لم يكن بارعاً فيه » (ص ٩٣)

ولقد كشف لنا الأستاذ عنان عن عبقرية هذا الرجل الفذ وعن شاعريته أيضاً ، وأتى بقليل من قصائده ، وأبان أن هذه القصائد كان يطبعها طابع المرح الصوفى ، وهذه الأبيات تجرى بين دفتى الكتاب كالنهر العذب فى الأرض المثمرة ، ولقد أضاف المؤلف فى القسم الثانى من كتابه أراء كتاب الأفرنج فى عبقرية ابن خلدون وتراثه الفكرى فذكر ما قاله جمبلوفتش من أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأنه أتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة (ص١٥٢) وذكر أيضاً ما قاله فون كريمر من أن ابن خلدون نثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى . »

***

وأظن بعد هذا البيان يمكن للقارىء أن يخرج بصورة صحيحة عن شخصية ابن خلدون ، صورة لاتشيع فيها ولا تحيز ، ظهرت فيها الظلال كما ظهرت فيها الأنوار . وهذا المنحى الذى نحاه الأستاذ عنان فى درس هذه الشخصية جدير بالتفات كتابنا المصريين المغرمين بتراجم العظماء ، ولعل الذين وقع فى وهمهم أن كتاب عنان لم يتناول شخصيته ، يصححون رأيهم بعد هذا البيان الموجز .

***

وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أدعو القراء إلى قراءة هذا الكتاب القيم ليتذوقوا فيه حرية البحث ونزاهة الحكم ، ودقة الأسلوب وثباته وإيجازه ورزانته .

وأسمح لنفسى بعد هذا أن أهنىء الأستاذ المؤلف على كتابه ، فلقـد أعجبت به وبخاصة بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والتفكير المصرى » الذى أبان لنا فيه خلق ابن خلدون وأوقفنا على تفكير المؤرخين المصريين فى القرن التاسع الهجرى . وأعجبت كذلك بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والنقد الحديث لأعلام الغرب » . والذى كشف به عن تفكير ابن خلدون الدقيق الذكى .

وأرجو الله أن يزيد المؤلف قوة ليتم ما أخذ به نفسه من التنقيب عن التاريخ الاسلامى ، وحياة أعلام مصر النابهين .

(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السحرتى

المحامى

٢ ـ مشـــــهد ومكة

للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

أصبح من الواجب أن أعود الى الحديث عن مشهد ومكة، إذ عاد الأخ الأستاذ عبد الوهاب عزام الى الموضوع، ففتح أبواباً كثيرة للكلام، وإنها لحقيقة من حقها علينا أن تنجلي وتتكشف

* * *

ويأذن لى القارىء أن أرسل أول الأمر تحية خالصة الى الأخ فى حله ورحيله، ودعوات صالحة بأن يوفقه الله دائماً، وسلاماً اليه . . . ثم سلاماً على عبارات مهتاجة وردت فى كلمته التى رد بها كل ما فى الأمر: ١ ـ أن الأستاذ قال مالفظه: « وأفظع من هذا ـ أى الخطأ كله ؛ قوله ـ الرحالة ـ عن اخواننا شيعة ايران أنهم يفضلون مشهداً على مكة » . فقلت له : « لاخطأ ولا فظاعة، لأن فلاناً العالم الشيعى قال فى كتاب كذا صفحة كذا نقلاً عن كتاب البحار الذى يعد من أمهات كتب الشيعة: « إن كربلاء أفضل من مكة، فلا خطأ » . قضايا محدودة، قصيرة، وجيزة، واضحة، متقابلة الأطراف؛ لاأجد فيها محلاً للمخالفة . . . وليس يقال مع هذا التحديد إنى مجازف فى الاستشهاد بكتب الشيعة قبل الاطلاع عليها، لأنى قرأت بلا شك ما نقلت، وقلت بقدر ما قرأت وفهمت . قرأت فى كتاب شيعى عن كتاب شيعى من أكبر إن لم يكن أكبر ما يرجع اليه فى بيان عقائد الشيعة ومذاهبهم، كتاب عن كتاب، فهناك على الأقل جمع منطق أيسره اثنان . . . . ثم ماذا قرأت ؟ قرأت أخباراً تنعتها كتب الشيعة بأنها متواترة أى رواية جمع عن جمع، كما تنعتها بالكثرة، ويدل مرجعى على مكانها من أجزاء الكتاب الكبير الذى يعزو اليه . . . فدليلى واف بدعواى ؛ وليس من الموضوع فى شىء أنى فرحت بالكتاب أو لم أفرح ؛ وليس يجب فى شىء أن يكون لى بالشيخ مؤلف الكتاب صداقة قوية أو صلة شخصية .

٢ — مع هذا كله يقول الأستاذ عزام فى رده على: « فقد ادعى أن كتب الشيعة تقرر هذا التفضيل، ثم لم يرجع الى كتب الشيعة؛ ولم يتحر أقوال أئمتهم، ولكنه اكتفى برواية فى كتاب فرد لمؤلف ... الخ » فهل لم أرجع الى كتب الشيعة ؟ !! . وهل اكتفيت برواية فى كتاب ؟ ! وهل هو كتاب فرد ؟ ! . على أن الأستاذ بعد هذا بقيراط من الورق ذكر « كتب الشيعة » وما فيها مرتين، فتتوقع من صاحب الملاحظة السابقة أن يحتج من « كتب الشيعة » بأقل الجمع ولو عند الناطقة وهو اثنان، ولكنك لاتراه يذكر إلا كتابا فرداً هو « وسائل الشيعة الى أحكام الشريعة » على حين يكرر الحديث عن قراءاته وخلاصة قراءاته فى كتب الثقات، ويتحدث عن قراءاته فى كتب الثقات وهو ذاكر أنى اكتفيت بكتاب فرد، وأنه لايرى ذلك، فكيف يجىء هذا ؟ ! .

٣ — لما أراد الأخ الأستاذ نقد خبر الرحالة « تفضيل الشيعة مشهداً على مكة » استنتج استنتاجا وقال: « وكيف يعقل أن أمة مسلمة ... الخ » فسلمت له اختصاراً واقتصاراً أن هذا غير معقول، وقلت عرضا إن مالا يعقل قد يعتقد، وان العقل ومنطقه شىء، والاعتقاد وسلطانه شىء آخر . فقال أعزه الله: إن هذه فلسفة لم يتهيأ هو لفهمها . فليسمح لى اذن أن أقول فى غير فلسفة :

ا — إن من المعقول أن يكون الحج إلى مكة فرضاً وأن تفضل الشيعة مع ذلك مشهداً على مكة ! فالأخ يعرف أن الوقوف بعرفة ركن فى فريضة الحج، ويعرف أن زيارة الرسول عليه السلام ليست ركناً فى تلك الفريضة ولاواجباً ؛ ويعرف فى الوقت نفسه أن المسلمين جميعاً يفضلون زيارة الرسول عليه السلام ويتطوعون بهذه الزيارة فى غير موسم الحج من أيام السنة ؛ ويشدون الرحال لها، ويتمنون المجاورة بالمدينة المنورة، ويؤثرون الموت فيها . ولاأعرف واحداً منهم جاور بعرفة أو حرص على زيارتها . فتفضيل مشهد على مكة يتفق تعقله مع كون الحج إلى مكة فرضاً . هذا هو القدر المعقول فى المقام، والذى يتصل بفرضية الحج إلى مكة وتفضيل مشهد عليها .

ب — لكن الأستاذ عزاما لايقول هكذا، بل يقول: « وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن

الحج إلى مكة فرض ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج إلى مكة » . ولنا هنا مواقف : إن الرحالة ناقل يخبر ، ولا يرد الخبر بهذا الاستنتاج العقلي ؛ فأثم التناقض على المفضلين لا على المخبر . ولا يقال لناقل الخبر إنك خاطىء ، بل يقال إنه كاذب أو غافل أو غير متحر أو ما إلى ذلك .

على انا لو جاوزنا هذا نرى التناقض المعقود غير ما نحن فيه . نخبر الرحالة أو دعواه — ان شئنا — أن الشيعة تفضل مشهداً على مكة ؛ وكذلك تقول عبارة الأستاذ عزام في نقده ، وتفضيل مشهد على مكة غير تفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة ؛ ولا يلزم من تفضيل مشهد على مكة تفضيل زيارة مشهد على الحج إلى مكة ، كما لم يلزم من تفضيل مسجد الرسول عليه السلام على عرفات تفضيل زيارته على الوقوف بعرفة ؛ ولن ننسى أن الرحالة — في نقل الأستاذ عزام — يخبر بتفضيلهم مشهداً — لا زيارتها — على مكة — لا على الحج إليها —

ح — والعجب أن الأخ الأستاذ يقحمني أيضاً في مسألة الزيارة والحج ويضع في رده خطاً تحت قوله « زيارة مشهد أفضل من الحج » كأني كنت فيما كتبت مشتغلا بنقد استنتاجه لا بتصحيح خبر الرحالة من كتاب شيعي غير عامي ؛ والأستاذ بذلك يقول عني إني أدعي « على بعض المسلمين أنهم يفضلون زيارة كربلاء على الحج وهو قاعدة من قواعد الاسلام » وأنه فاتني التثبت في ذلك الادعاء . . الخ . ومن الفكه أن لفظتي « حج » و« زيارة » لم تردا في كلمتي مطلقاً ، بل لم تقعا كذلك فيما استشهدت به من كلام العالم الشيعي المحدث مطلقاً ؛ ولم تردا إلا في الفقرة المنقودة التي نقلتها من كلام الأخ عزام ، فكيف حملني عبء هذا الادعاء ؟ لا أدري ! ولعله هو يدري .

وأخيراً ، نقل الرحالة ثابت تفضيل الشيعة مشهداً على مكة متفق مع ما ينقله عالم شيعي عن عالم شيعي ويعدانه متواتراً ، وليس يتنافى هذا التفضيل مع فرضية الحج إلى مكة ، وليس يلزم من هذا التفضيل زيارة مشهد على الحج المفروض ، وهذا التفضيل لمشهد على مكة شيء آخر مغاير لتفضيل زيارة مشهد على الحج الى مكة ؛ وأسأل الله لي ولأخي الثبات والتثبت دائماً ؟

أمين الخولي

في تاريخ الأدب المصري

أيدمر المحيوي

تتمة

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

أما الوصف في شعر شاعرنا فهو وإن كان غير مقصود له بالذات يحدثنا كذلك عن بعض نواحي الحياة المصرية ، وبعض الجمال فيها ، يحدثك عن الطبيعة المصرية في زمن الربيع ، فيصفها وصفاً دقيقاً ، ويحدثك عن الاحتفال بوفاء النيل ، فيصفه كأنك تراه ، ويصف لك الأبنية التي بناها الملك الصالح فيجعلك تشعر بالعظمة والأبهة اللتين تمتعت بهما تلك الأبنية . ويصف لك الجيش المصري فتحس بالمجد المصري والقوة المصرية والشجاعة المصرية التي لا تنثني عن قصد ولا تهزم أمام حصن مهما كان عظيماً .

قال يصف الجيش المصري الذي فتح دمشق :

جيشاً تغص به الأرض الفضاء كما ... تراكم الغيم يوم الدجن ذا زجل
من الكماة التي تطوى ضلوعهم ... على العزيمة والاقدام ، لا الفشل
من كل أمضى من الهندي في يده ... عزماً ، وأنفذ إقداماً من الأسل
يكون أثبت يوم الروع من جبل ... راس ، وأجول في الصفين من مثل

ولننصت اليه حين يصف لنا الاحتفال بوفاء النيل ، وكأنه يصف لنا الاحتفال الذي لا نزال نراه بأعيننا في كل عام ، قال :

يوم تجلى الدهر منه بزينة ... لما غدا المقياس وهو مخلق
هو ثالث العيدين إلا أنه ... للهو ؛ ليس على العبادة يطلق
جمعت لمشهده خلائق غادرت ... فيه رحيب البر ، وهو مضيق
وعلى عباب البحر من سباحه ... أمم يغص بها الفضاء ، ويشرق
كادت تبين لهم على صفحاته ... طرق ، ولكن يفتقون ويرتق

ثم مضى يصف الأنوار ، ويصف المليك تحف به حاشيته الى آخر ما وصف به ذلك اليوم ، فاذا أنت ذهبت تستمع إليه ، وهو يحدثك حديث إبداع عن طبيعة مصر في الربيع سمعته يقول :

الروض مقتبل الشبيبة مونق ... خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده ... فالزهر منه متوج ، ومنطق
وارتاع من مر النسيم به ضحا ... فغدت كأنم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه ، فالتقى ... منها ومنه سنا شموس تشرق
والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويغبق

والطير ينطق معرباً عن شجوه … فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غرداً يغني للغصون فتنثني … طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل … لايستطيع الرقص ظل يصفق
فتملَّ أيام الربيع ، فإنها … ريحانة الزمن التي تستنشق

فهو قد رسم لك بشعره ذلك صورة جميلة للرياض والزهر المتفتح الذي ارتاع من مر النسيم في الضحا فتفتحت أ كامه . وقد كان الندى عليه كحبات العقد فأضحى عليها كالتاج أو النطاق . ثم هذه الغصون المياسة كأنها سكرى والطير يغني على تلك الغصون فتهتز لهذا الغناء طرباً ، والنهر يصفق فرحا ، والشمس تلقي أشعتها على هذا الجمال كله ، فيبدو للمرء منظر هو أبدع مافي الطبيعة من مناظر الجمال .

٤

لشاعرنا المحيوي موشحات عارض بها سواه ، وهي تعد بحق من أجل الموشحات وأبدعها ، وهو أحياناً يسير على أوزان الشعر العربي ، وأحياناً لايسير عليها ، وأنت تحس في بعض موشحاته بآثار الصنعة اللفظية ظاهرة جلية ، وهو حين يعارض سواه في موشحاته يضمن موشحه أول بيت من الموشح الذي عارضه . ولذلك يضطره الحال إلى أن يدع المدح وينتقل منه إلى الغزل على عكس السنة المعروفة لدى الشعراء .

ولقد كان شاعرنا فخوراً بشعره الفخر كله ، مملوءاً به تيها ، يعتقد أن شعره يفوق شعر غيره ويسمو عليه حتى قال :

إن القريض – وإن تكاثر ساكنو … أفيائه – للعبد فيه الأوحد

وكان أحياناً لاينشد الممدوح قصيدته إلا بعد أن ينشده سواه ليتمكن الممدوح من أن يرى الفرق بين شعره وشعر غيره . غير أنه في بعض الأحيان كان لايجد مركزه ومايوائيه به الدهر متناسباً مع جودة شعره وبلاغة قوله فيشكو ويلح في الشكوى ، ويتألم أشد الألم ، ولقد كان شعره فضلاً عن عذوبته التي تحس بها جاريا على قوانين النحو والصرف إذا استثنينا بعض أخطاء لاتكاد تذكر . غير أنه قد أخطأ حقاً حين قال يهنيء بالعيد :

لاأهني مولاي بالعيد إلا … خوف تعطيل سنة تعتاد
فمن الجهل أن يهنا بعيد … من به الدهر كله أعياد

فمع صحة المعنى لانشك مطلقاً في أنه ليس من أدب الخطاب أن يقال لأحد لاأهنيك بالعيد في مفتتح الكلام ، ولكن شاعرنا لم يعن إلا بالمعنى وصحته بدون نظر إلى جمال الافتتاح وهو ليس أول من هفا تلك الهفوة بل سبقه بها سواه من الشعراء والشعراء المبرزين .

نظم شاعرنا قصيدة طويلة سماها الوسيلة المشفعة في مناقب الخلفاء الأربعة ، وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعة وسبعين ومائة بيت . عدد فيها مآثر الخلفاء وذكر فضائلهم ، وبدأها برأيه فيهم كلهم وهو :

كل من الخلفاء غير مُحَلَّأٍ … عن مورد الشرف الذي لايورد
ولهم سوابق أنزلت كل امرىء … حيث اقتضاه له التقى والسؤدد
وأقر بعضهم لبعض بالذي … يسمو به من فضله ويمجد
فمضوا ، ولم يتدافعوا حسناتهم … كل لصاحبه يقر ويشهد

ثم مضى يعدد فضائل كل مبتدئاً بأبي بكر ، ذاكراً مآثره في الاسلام : فهو أول من آمن بالنبي ، ولما مرض النبي أنابه عنه في الصلاة ، فكان ذلك من النبي تقليداً له بالخلافة ، ولذا كان أولى الناس بها ، ولقد جمع أبو بكر أمر المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون يوم السقيفة ، وحارب أهل الردة حرباً موفقاً أعاد للاسلام بهجته ، ثم حارب الروم والفرس ، وكانت خاتمة حسناته أنه ولى الأمر عمر من بعده ، وعمر هذا طالما نزل القرآن موافقاً لرأيه وما بدا له ، كما أن النبي كان يطلب من الله أن يعز الاسلام بدخوله فيه ، حتى إذا دخل فرح المسلمون ، وجهروا بدينهم بعد أن كانوا يخفونه ، لما كان له من المكان العظيم بين قومه وعشيرته ، حتى إذا ولى أمر المسلمين بعد أبي بكر سهر على الرعية ومصالحها بعين لاتغفل ، ففتحت الدنيا في عهده ، ودرت الخير الوفير على المسلمين ، فاذا أنهى عمر وتحدث عن عثمان ذكر له إعانته للمسلمين بماله ، وصومه وصلاته ، وزواجه من بنتي النبي وفضله يوم جيش العسرة ، ويوم بيعة الرضوان ، ثم رد على من ينتقصه بقوله :

نطق الكتاب بفضله فمن الذي … يرتاب فيه جهالة أو يجحد
إلا كفور للهدى متنكب … أو جاهل في غيه متردد
ولكبر مانقموا عليه ضلة … قربى تبر ، وهفوة تتعمد

ثم انتهى إلى علي فحدثنا عن قربه من النبي ، وتربية النبي له ، وزواجه من ابنته ، وإسلامه صبياً فلم يدنس الكفر نفسه ، ولم يسجد لصنم طوال حياته ، ثم وصف عدله ، وعلمه ، وتواضعه ، وعبادته وورعه وزهده وشجاعته وبلاغته ، وكل هذا الحديث عن الخلفاء الراشدين ينطق بأن شاعرنا سني يفضل الخلفاء كلهم لاشيعي يقدم علياً على سواه ، بل هو يرتبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، غير أنه مما يلاحظ أنه أثنى على أبي بكر

وعمر بأعمالها بعد الخلافة ثناء مستفيضاً ، حتى إذا جاء إلى على وعثمان أثنى عليهما بفضائلهما الشخصية أكثر مما أثنى عليهما بأعمالهما بعد الخلافة ، وربما يكون منشأ ذلك أن أبا بكر وعمر كانت أعمالهما بعد الخلافة فى تثبيت دعائم الاسلام ونشر دعوته أكثر من زميليهما ، ومن أجل هذا كان الثناء المستفيض .

قبل أن نختم حديثنا عن صاحبنا المحيوى نريد أن نشير إلى أنه كان ناثراً مثلما كان شاعراً ، غير أن نثره لم أعثر عليه ، ولعلى أوفق يوماً ما إلى الاطلاع عليه ودراسته ، ولقد ألف كذلك كتاباً أهداه إلى ولى نعمته محيي الدين محمد بن سعيد لا نعلم اسمه وإن كنا نستطيع أن نفهم موضوعه حين نقرأ قوله واصفاً إياه .

العبد أيدمر تطلب تحفة تكسى القبول لسيد الأصحاب
فرأى أجل هدية تهدى له ذوب النهى ، ونتائج الألباب
فأجال فى روض القرائح فكره ثم انتقى منه لباب لباب :
من طيب نادرة ، ولطف فكاهة
وبديع بادرة ، وحسن خطاب
وسوائر الأمثال قد وشحتها
فيه بمعجز سنة وكتاب
والجد موصولا بهزل ينشط الـ
قارى ، ويطرب أيما إطراب
ونوادر الحكماء والبلغاء ، والـ
خطباء ، والشعراء ، والكتاب
وجمعت فيه إلى سلامة رقة الـ
حضر اللطيف جزالة الأعراب
فأتاك كالحسناء قد لبست على الـ
أتراب ثوب نضارة وشباب
والروضة الغناء أهدت نشرها
ريح الشمال ضحى غداة سحاب

فهو مجموعة فيها النوادر والفكاهات ، وفيها الأمثال والحكم ، وفيها طرف من نثر الخطباء والكتاب ، وبعض من شعر الشعراء ، فأنت تنتقل فيه من جد إلى هزل ومن هزل إلى جد ، فتطرب ولا تسأم القراءة ؛ وتلك طريقة معروفة لدى مؤلفى اللغة العربية فهم من قديم قد استنوا تلك السنة وساروا عليها فى مؤلفاتهم .

٦

لم نهتد إلى تعيين عام وفاته كما ضن علينا التاريخ بمعرفة عام ولادته ، غير أنه مما يروى عنه أنه كان لطيف المحضر فاضلاً مهذباً ، أحضر ديوان شعره إلى ابن العديم وكان قد حضر رسولاً عن السلطان الملك الناصر فتصفحه وأعجبه ، وكتب على الديوان :

وكنت أظن الترك تختص أعين لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان .
إلى أن أتانى من بديع قريضهم قواف هى السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم يقر لهم هاروت فيه وسحبان .

وعسى أن يواتينا الزمن يوماً بكل شعره ونثره ، وتاريخ حياته مفصلاً فندرسه دراسة مستفيضة تليق ببلاغته .

أحمد أحمد بدوى
المدرس المنتدب بثانوية نابلس

مِنْ طرائفُ الشِّعرُ

بين الليل والصبح

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

انظر الى الكواكبِ   يسبحن فى الغيــاهبِ
مِن ذاهب فى شوطه   ولا حـقٍ بالذاهب
الى الطوالع الوِضـا   ء الزُهر والغوارب
الى الجمال آخذاً   الى الشعاع السائب
والليل ساجٍ قد خـلا   من العَصوف الصاخب
يعبرن عُرضَ بحره   من جانبٍ لجـانب
غَرقى الى الجيد ، الى   الثدى ، الى الترائب
أرسلن شَعراً من أشـ   ـعّةٍ على المناكب
وقد حللن ما على الر   ؤوس من عصائب

***

ما إن رأت عين امرئ   أبهى من الكواكب
يلمعن مثل الماس أو   كومضة الحُباحب
يمشين أسراباً كأتـ   ـرابٍ من الكواعب
يذهبن من مشارق الا   أرض الى المغـارب
والليلُ ضاربٌ روا   قه على الجوانب

***

كلّ الجمال فى النجو   م اللُمّع الثواقب
العـاريات للخلا   عات من الجلابب
الغـامزات بالعيو   ن النُجل والحواجب
ما إن لهن غـير نشـ   ـر النور من مآرب
يضحكن من شيبى ومن   آمالىَ الـكواذب
أشدو بما لهنّ من   حسنٍ ومن مناقب
كأنهن الحور يُطـ   ـلِلنَ من المَراقب
أمن بنات الليـل هُنّ   أم من الربائب؟
أم من طيورِ الخلد يَر   فُفنَ على المشارب
عصائب يقعنَ أسـ   ـرابا على عصائب
والماء فى المَجَرّة الـ   ـبيضاء غير ناضب
وربما اختلفن فى الـ   ـميول والمذاهب
خاطبتهنّ لو سمعـ   ـنَ القولَ من مُخاطِب
يا لهفتى على ضيا   ع للشهاب الثاقب
قدخرّ من عين الدجى   ليلا كدمعٍ ساكب (١)

***

وخيّم الليـل ونا   م القطبُ فى المضارب
ماذا الذى قد خلّف الـ   ـقطبَ عن الصواحب
ما أجهل الليل ، وقد   خيّم ، بالعواقب
فليس يدرى ما يلا   قيه من المصائب
لقد رماه الفجر فى الصـ   ـدر بسهم صائب
وكان لمّا ناله   بالسهم غير كاذب
وكشر الليلُ عن الـ   ـأنياب كالمغاضب
وجرّد الصبح عليـ   ـه السيفَ كالمحارب
وظلّ يفرى جلدَه   فَرْىَ حَنيقٍ غاضب
جرّ الغرورُ الليلَ مخـ   ـذولا الى المعاطب
ملاقياً جـزاءه   من ثائرٍ مُعاقِب
والليل لا يقوى على   ردّ الصباح الواثب
يفرّ كالمغلوب من   وجه القوىّ الغالب
وهو جريح ، دمُه   يجرى على الجوانب

***

ما انتصر الليلُ بما   جَمَّعَ من كتائب
بل إنه اختفى عن الـ   ـعين كملحٍ ذائب
إن عبس الليل فليـ   ـس الذنب للكواكب
فهنّ يبتسمنَ حتـ   ـتى للعدوّ الناصب
هو الذى جنى فكُنْـ   ـنَ عرضةَ النوائب
وظلّت الشعرى تنا   جى الصبحَ كالمعاتب

***

بين الصباح مُسفِرا   والليل ذى الغياهب

(١) من سكب اللازم بمعنى جرى

ثأرٌ سيبقى نَفثُهُ دهراً بغير راتب
غمَّ النجومَ ما تُقا سيه من المصائب
والصبحُ لمّا راعها ما كان بالمداعب
كأنه بازٌ جرى يسطو على أرانب
أو قسورٌ حُمارسٌ سطا على ثعالب
يريد أن يفترس الـ أنجمَ بالمخالب
فغرنَ جمعاء من الـ خشية فى المذانب
انى لأقرأ الأسى فى الأوجه الشواحب
أجفلنَ لا يحملنَ غيـ ر الخوف فى الحقائب
تؤذى العذارى فى الحيا ة قِلَّةُ التجارب
تالله ما هـذى الوجو ه الغرُّ للنوائب

***

والعندليب هبَّ يَشـ دو بانتصار الغـالب
والديك صاح يعْلن السرورَ للصواحب
كأنما قد فرحا بنـكبة الكواكب

***

يا كوكبَ الصبح لكَ الصـ بح من الأقارب
ما كان ينبغى له صفعُك كالمعاقب
لا تيأسَنَّ وانتظر ليلَ الغد المُقارب
تكن كما قد كنتَ فى الـ عين من الرغائب

***

يا أيها الصبح الجميـ ل يا ملاذَ الراغب (١)
لقد قسوتَ حين أخـ نيتَ على الكواكب
رميتَ شملهنَّ بالـ شتيت والمصاعب
ما ضرّ لو حميتهنَّ مثـل أمٍ حادب
كنَّ ينبنَ عنك فى الـ لّيل الطويل اللازب
وكن زينـةَ السما ء فى عيون الراقب

***

ما أجمل الشمسَ بدت مُرخيـةَ الذوائب
قد طلعت فى موكب من أفخم المواكب
تنثر من ضيائها تبراً على الجوانب
على البحار والجبا ل الشمّ والسباسب
ياشمس أنت للورى من أكبر المواهب
حبيبةٌ أنتِ الى الشبّان والأشايب
أكبِرْ بما تُهدينَ من نورٍ ومن كهارب !

بغداد — جميل صدقى الزهاوى

(١) الخائف

بســمة

للأستاذ محمد خورشيد

هاتها مِن فم القدَرْ بَسمةً تفتِن البشرْ
تُفسحُ الصدرَ للرَّجا ءِ وتَفنى قوى الكدرْ
إنّما الحظُّ خِلسةٌ فاغتنمْ منهُ ما بدَرْ
إجعـلِ الهنا كعبةَ المُنى
يضحكِ العُمُرْ

أهمِلِ الدَّهرَ ما طغَى لا تخَفْ منهُ إن بغَى
وادّرِعْ بابتسامةٍ تُحرِزِ النصرَ فى الوغى
لم يُجندلْهُ غيرُ من لاذ بالهُزءِ والسَّخَرْ
عِشْ لحربِهِ لا تتقِ بهِ
طالَما غـدَرْ

أمسِ ، كالحُلم أدْلجَا عودُهُ ليسَ يُرتجَى
وغدٌ ، مِن ضميرِهِ لمْ يرَ الغيبُ مَخرجا
فابتغ (اليومَ) كلَّ ما يشتهى السمعُ والبصرْ
روِّ بالأمـلْ فُسحةَ الأجَلْ
تصرفِ الغِيَرْ

دَغدغِ الناىَ واعزفِ لحنَ هَيمانَ مُترَفِ
واسقِنى قبلَ صحوتى ريقَ عـذراءَ قرقفِ
فنـداماىَ أكؤسٌ راحُها يخطفُ البصرْ
رحمةُ الصَّمدْ صاحِ لا تحَدْ
كمْ وكم غفَرْ!

القدس : — محمد خورشيد

النفس الضائعة

للأديب سيد قطب

أثِنى أنا ؟ أم ذاك رمزٌ لغابرٍ ؟
لأنكرتُ من نفسى أخص شعائرى !
لأنكرتُ إحساسى ، وأنكرت منزعى
وأنكرت آمالى ، وشتَّى خواطرى
وأنكرتُ شِعرى ، وهو نفسى بريئةً
ممحضةً من كل خِلطٍ مخامر
ويفصلنى عما مضى من مشاعرى
عهودٌ وآباد طوال الدياجر
وأحسبها ذكرى ، ولكنَّ بُعدَها
يخيِّل لى أن لم تمر بخاطرى !

***

أنقِّب عن ماضىَّ بين سرائرى
فألمحه كالوهم أو طيف عابر
أعيش بلا ماضٍ كأنى نبتةٌ
على السطح تطفو فى مهب الأعاصر
وما غابرُ الإنسان إلا جذوره
فهل تمَّ نبت دون جذر مؤازر ؟
أنقب عن نفسى التى قد فقدتها
بنفسى التى أعيا بها غير شاعر
وأطلبها فى الروض إذ كان همها
تأمله ، يُفضى بتلك الأزاهر
وفى الليل إذ يغشى وكانت إذا غفا
تيقظ فيها كل غاف وسادر
وفى الليلة القمراء إذ تهمس الرؤى
وتومئ للأرواح إيماء ساحر
وفى الفجر ، والأنداء يقطرن ، والشذى
يفوح ، ويشجى سمعه لحنُ طائر
وفى الحب إذ كانت شواظاً وحرقة
ومهبط آمال ومطمح ثائر
وفى النكبة النكباء ، والغبطة التى
تجود بها الأقدار جود المحاذر
ولكننى أُنِستُ أن ألتقى بها
وتاهت بوادٍ غامر التيه غائر
سأحيا إذن كالطيف ، ليست تحسُّه
يدان ، ولا يجلوه ضوء لناظر

سيد قطب

من وحى المرض .

الى صورتها الحبيبة . . .

بقلم مختار الوكيل

ياصورةً قد عبدتُ فيها	صورةَ مَنْ أبدعَ الوجودْ
أنتِ التى قد ضمنتِ خلدى	بوحيك الباسم السعيد

***

أعيش فى عَالم الدنايا	سأمان من حِصَّة العبيدِ
الداء ! يا ويلتا ، غزانى	بجيشه الساغب المبيدِ
والصحب ! أواه من صحابى	لم يرأفوا بالفتى العميدِ
ياليتهم حين أهملونى	لم يطلقوا الهجوَ كالرعودِ !

***

يا طلعةً قد لمحتُ فيها	تهلُّلَ الوردِ فى الخدودِ
وبسمةً قد قَبَسْتُ منها	بشائرَ العالم الجديدِ
أموتُ والنورُ منكِ ضافٍ	على دُجى قلبىَ الشريدِ !

***

ياما أُحَيْلَى الممات ، لولا	مرارة الحَبْسِ فى اللحود !

***

كم هاجس ضجَّ فى خيالى	وثارَ فى خاطرى البليدِ
وأنت يا فِتْنَتى أمامى	وبين كفَّىَّ كالوليدِ !

***

غَفَرْتُ كلَّ الذى دهانى	فى عالَمِ الظُّلم والكنودْ
ببسمةٍ منكِ لا تُرَائى	ونظرةٍ تضمن الخلودْ !

مختار الوكيل

الأدب الانجليزى

فى القرن التاسع عشر

للأستاذ بشير الشريق

اطلعت فى عدد الرسالة التاسع والخمسين على كلمة موجزة للأستاذ محمود الخفيف فى نقد كتاب « الأدب الانجليزى الحديث » الذى قدمه الأستاذ سلامه موسى للجمهور مؤخراً ، وقد ظهر لى من هذه الكلمة .

أولاً — ان الأستاذ مصنف الكتاب أو مؤلفه قد نعت العصر الفيكتورى مابين ١٨٣٠ — ١٩٠٠ بأنه عصر خمول فى الأخلاق والأدب ، بينما يرى الأستاذ محمود الخفيف هذا العصر من أرقى عصور الأدب الانجليزى وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة .

ثانياً — ان الأستاذ سلامه يشير فى كتابه إلى تجديد فى الأدب الانجليزى ظهر عام ١٩٠٠ فيوافقه الأستاذ محمود على ظهور هذا التجديد ويذكر أنه ثمرة من ثمار العصر الفيكتورى الناهض .

وأنا بدورى أود أن أقول كلمة فى الموضوع أختلف فيها مع الأستاذين الفاضلين فى مسائل ، وأتفق معهما فى أخرى ، فأرجو أن توسع مجلة الرسالة الغراء صدرها لهذه الكلمة :

١ — إن مؤرخى الأدب الانجليزى الحديث لا يوافقون الأستاذ سلامه موسى على قوله : « إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام » ويرونه قد حاد كثيراً حين رمى الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر بالضعف والقبح والفساد لأن هذا العصر الذى يمتد من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٩٢ من أزهى عصور الأدب عندهم اشتهر بمذاهبه الأدبية الجديدة وبتنوع شعرائه وكتابه الذين خرجوا فيما ينظمون ويكتبون عن أساليب القدماء . وإلى القارىء مايذكره المؤلفان الانجليزيان «وايت Wyatt » و « كلى Clay » عن الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر فى كتابهما « الأدب الانجليزى الحديث . Modern English Literature » ص ١ — ٣ :

إذا كان من العسير أن نقع على تاريخ يحدد لنا نهاية عصر من عصور الأدب أو بدايته ، وكان من النادر أن يتفق مثل ذلك التاريخ مع فسحة الزمان إلى قرون أو عصور أو أجيال ، فإن القرن التاسع عشر قد امتاز بأنه كان ممثلاً أحسن تمثيل لدور انتقال بيّن فى الأدب الانجليزى . نشر (وردثورث) و (كوليردج) (قصائدهما الغنائية) قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر بعامين فقط فى عام ١٧٩٨ ، فكان ذلك النشر خدمة عظيمة للفن والأدب وعاملاً من أهم العوامل التى قلبت المذاهب الشعرية الأولى وهدمت النظريات الأدبية القديمة ، وكأنى بتلك القصائد الغنائية قد أعلنت نهاية الطريقة الاتباعية (Classic) فى الشعر باحياء الطريقة الابتداعية Romanticism

إن الروح الرومانتيكية لم تكن حتى أيام (ورد ثورث) و (كوليردج) قد استيقظت والأساليب الشعرية القديمة لم تكن قد نسخت .

هذا مايذكره المؤلفان العالمان عن أهمية عام ١٧٩٨ بالنسبة لتاريخ الأدب الانجليزى ، فلنصغ إلى حديثهما عن وحدة الأدب فى القرن التاسع عشر :

« فعام ١٧٩٨ إذن يكاد ينفرد فى انه يعين بوضوح ابتداء عصر جديد للأدب ، عصر إصلاح وتجديد أطلق الشعر فيه من قيود « الاتباعيين » والقرن التاسع عشر يبدو لنا ذا وحدة تامة كما كان عصر الياصابات ١٦٦٠ — ١٧٩٨ فلم يفقد فيه الشعر الروح الابتداعية Romantic التى أمده بها (ورد ثورث) ومعاصروه ، وقد ظلت رواياته النثرية فى تقدم مطرد . إن أدب العلم والتاريخ والفلسفة قد امتاز فى هذا العصر بطريقته الجديدة التى أدنت مسائله وأوضحتها ، والتى اختلفت عن طريقة القرن الثامن عشر اختلاف (دارون) عن « لوك »

قد ترى الأجيال المقبلة فى مذاهب (ماثيو أرنولد) الاتباعية أو فى الطريقة (الابتداعية) الجديدة التى دعا إليها (روسيتى) و(موريس) مالم نره نحن من خطورة وأهمية ، غير أن مايمكننا قوله الآن هو أنه لم يقم حتى العهد الذى ظهر فيه (ورد ثورث) و(كوليردج) ثورة تهدم الطرق القديمة وتكون جديرة بأن تعتبر فاتحة عصر جديد .

لا ينبغى أن نطنب — طبعاً — فى وحدة أدب القرن التاسع عشر أو بالفروق التى كانت بينه وبين أدب القرن الثامن عشر ، إن كل ماننوى التحدث عنه هنا هو أن نظهر أن الوحدة الأدبية كانت فيه تامة ، وأن الفارق الذى يدعونا إلى درس أدبه كأدب عصر خاص كان ظاهراً جلياً .

ولقد تظهر فوارق الشعر أكثر وضوحاً فى هـذا العصر ، يرجع ذلك إلى النزاع العنيف الذى قام بين شعراء المدرسة القديمة فى القرن الثامن عشر وبين شعراء الطريقه الابتداعية فى فجر القرن التاسع عشر ؛ أما الروايات النثرية فمن المؤكد أنه لم يدخلها تبدل ظاهر ، لأن روائيي القرن التاسع عشر كان يرضيهم بوجه عام ان ينشروا فن أساتذتهم فحسب — أساتذة القرن الثامن عشر .

ولو تتبعنا حقل النقد الأدبى الآن لأ مكننا أن نقع على تغير واضح فى طرقه وأســاليبه وقواعده ، وهذا التغير يظهر بارزاً جلياً منـذ اليوم الذى تفتحت فيه عبقرية « كارليل » ودفعت بالنقد فى طريق جديدة . كان النقد فى الربع الأول من هذاا القرن يتفق فى أصوله وأساليبه مع نقد القرن الثامن عشر ، وكان الناقد هو من يحسن وضع الخلاصات ، ويجيـد المدح والهجاء ، حتى اذا جاء « كارليل » كان أول مبشر بطريقة النقد الحديثــة الصحيحــة ، التي يهمها الشرح والتفسير والايضاح الاصولى للمبادىء الجديدة . »

دور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ .وخطره .

ويقول المؤلفان الفاضلان :

مات « اسكوت ، وكريب ، وبنتام » عام ١٨٣٢ وعاش من بعدهم « وردثورث » ثمانيـة عشر عاماً أيضاً ، و « كوليردج ولامب » عامين ، و« مور» عشرين ، و« سواسى » احد عشر ، و « كامبيل » اثنى عشر ، لقد أدى كل واحـد من هؤلاء الأعلام رسالته قبل عام ١٨٣٢ ، أما (كارليل) و (ما كولى) . و (تنسون) و (هود) و (بالوير) و (ليتون) والسيدة (براوننك) من مشاهير الـكتاب فلم يكونوا قد نشروا حتى عام ١٨٣٢ سوى خواطر صباهم . وفى عام ١٧٩٨ كان عمر كيتس وشيلى وبيرون يتراوح بين الثالثة والعاشرة ، ثم لم يأت عام ١٨٣٢ حتى كان قد مضى على وفاة الثلاثة ثمانى سنوات أو أكثر ، وهكذا تظهر لنا أهمية الخمسة والثلاثين عاماً التى بين ١٧٩٨ ، ١٨٣٢ من الناحية الفنية الشعرية .

وفى الحق أنه مامن عصر من عصور الأدب الانجليزى حتى عصر الملـكة الياصابات يستطيع مناظرة هـذا الدور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ فى سمو التصوير وسرعة الانتاج ، فقد بذّ ببدائعه الفنية الرائعة عصر الملـكة الزاهر .

إن فى مجرد تعداد كتاب الطبقة الأولى والثانيـة شيئاً من الغرابة والقوة والتأثير ، يكفى أن نذكر من الشعراء (وردثورث) و (كوليردج) و (بيرون) و (شيلى) و (كيتس) و (لاندور) و (مور) و (ساوس) ، ومن الـكتاب (اسكوت) و (اوستن) و (هازلت) و (ويلسن) ، حتى يجعلك تؤمن بعظمة هـذا الدور ، ثم إليك نتاج عام واحد : فى عام ١٨٠٦ ظهرت رواية (اما) لجان أوستن ، و(تشايلد هارولد) ، (وحصار كورنث) و(سجين تشيلون) لبيرون ، و(الفناء القديم)لاسكوت ، (وحاجتنا الى الجحود) لشيلى ، وكثير من المؤلفات القيمة .

بعد كل ماتقدم ماأحسب أن القارىء يشايع الاستاذ واضع كتاب (التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث) فى قوله : (إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسـع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام) ، وفى قوله : (ان العصر الفيكتورى مابين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ كان عصر خمول فى الأخلاق والأدب . . الخ) بل أعتقد أنه يرى الصواب والحكمة فى معارضة الأستاذ محمود الخفيف له فى رأيه هذا .

***

أما هذا التجديد الذى أشار الأستاذ سلامه موسى الى ظهوره فى الأدب الانجليزى عام ١٩٠٠ ووافقه عليه الأستاذ محمود فانه فى رأى (وايت) و (كلى) لم يوجد حقيقة ، وان الشعر فى هذا العام وما أعقبه من أعوام (من عام ١٨٩٢ — ١٩١٩) قد سرى اليه الضعف ، وجهل أربابه (روبرت بريدج ، بلانت ، وليام ونـون ، ارثر سيمون ، حنا دافيـد سون ، كبلنج ، هاردى) الغرض منه ، فمالوا الى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع وأوغلوا فى ذلك حتى قبحت مبانيهم وسمجت معانيهم . والى القارىء ما يذكرانه فى كتابهما المشار اليه ص ٢١١ — ٢١٢ .

« يرينا الشعر فى هذا الدور ١٨٩٢ — ١٩١٩ ضعفاً بيناً ؛ ليس فى صور التعبير وآداب النظم ، بل فى النجابة واتساع أفق التفكير ؛ لقد تجنب فيه معظم الشعراء السجايا النفسية وعواطف الحب وفتنة الجمال ، فاكتفوا بمغازلة الوداد العائلى ، وقراءة أفكار الرجل من غير أن يتعرضوا لخوالج نفسه ؛ كانوا أطفالاً فى تفكيرهم ونظراتهم ، قل أن يخوضوا فى البحث والجدل والتفسير ، بل كان مجرد (التبليغ) هو كل ماتصبو اليه نفوسهم ؛ يطربهم الجمال الطبيعى (الفيزيكى) أو أن يكتشفوا فى صورة اصطلح الناس على

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

العلوم

٢ – التلفزة فى عهدها الأول

للأستاذ محمود مختـــار
بكلية العلـوم

جهاز الاستقبال .

تحدثت فى رسالة سابقة عن جهاز الارسال للتلفزة . والخطوات التى مرت بها صورة الجسم المتلفز من بدء تحليلها الى مساحات صغيرة بواسطة القرص المثقب أو حلزون المرايا ، ثم إسقاط الأشعة الضوئية المنعكسة من هذه المساحات الصغيرة على التعاقب على خلية كهرضوئية حيث تحولت الى دفعات كهربائية ، ثم تكبيرها فاذاعتها فى الأثير .

والآن نحن عند جهاز الاستقبال حيث تصل الينا هذه الدفعات الكهربائية بعد أن التقطها الهوائى « Arial » وأرسلها الى الكاشف اللاسلكى « Detector »

وتأخذ عمليـة استقبال هذه الأمواج حتى إخراج الصورة النهائية ثلاث خطوات أيضاً هى بعينها ماينـاظر خطوات الارسال مأخوذة فى ترتيب عكسى . فتبدأ أولى الخطوات بكشف هـذه الأمواج وفصلها عن باقى الأمواج اللاسلكية المنتشرة فى الأثير وتكبيرها . ثم تليها الخطوة الثانية وهى تحويلها من دفعات كهربائية الى أخرى ضوئية . ثم تأتى الخطوة الثالثة وهى إعادة تركيب هذه الدفعات الضوئية بجوار بعضها لتخرج صورة الجسم المطلوبة .

أما خطوة الكشف والتكبير « Detection, Amplification » فهى كنظيرتها فى جهاز الارسال — خطوة التكبير والاذاعة — فى المقام الثانى من الأهمية لباحث التلفزة . ويكفى لنا الآن أن نعلم أنها تتم بواسطة دائرة من الصمامات هى بنفسها دائرة أجهزة السمع العادية — ولا داعى للخوض فى تركيبها وعملها فى مثل هذه العجالة — وكما تؤخذ تلك الأمواج الكهربائية المكبرة فى جهاز السمع الى البوق لتحويلها الى دفعات صوتية تؤخذ هذه بعد تكبيرها أيضاً الى المصباح الغازى أو الى خلية كر « Kerr cell » لتحويلها الى دفعات ضوئية ، وهذه ثانية خطوات الاستقبال .

والمصباح الغازى ولو أن لفظه ليس مطروقاً إلا أنه كثيراً ما تقع عليه أبصارنا على واجهات المحلات التجارية الكبيرة فى شكل أنابيب ضوئية كهربائية للاعلانات تأخذ ألواناً مختلفة أحمر أو بنفسجياً أو أزرق أو غيرها . هذه الأنابيب الضوئيـة ما هى إلا شكل محور من المصابيح الغازية المستعملة فى التلفزة لتحويل الطاقة الكهربائية الى أخرى ضوئية . وهى عبارة عن انتفاخ زجاجى (شكل ١) فى حجم الصمام الكهربائى العادى يحوى بداخله غاز النينون أو الأرجون أو بخار الزئبق تحت ضغوط صغيرة جداً تقرب من بضعة مليمترات . وبه قطبان أحدهما الكاثود ، ويكون القطب السالب للمصباح وهو عادة على شكل صفيحة رقيقة من النيكل . والثانى الأنود ، ويكون القطب

تقبيحها شيئاً يدعونه جمالاً حقاً ؛ تقيدوا بأوزان العروض وعانوا طول الدرس ليتمكنوا من تحسين عباراتهم وتطبيقها على مايتخيلون من التشابيه والاستعارات ؛ هم تلامذة (لوردثورث) نبذوا مثله الأسلوب الشعرى ونظموا معظم منظوماتهم غنائية ، إنما كانوا يوقعونها على أوتار خرساء ، نعم على أوتار خرسـاء لأنها تقف بمعزل عن الحياة ومسائلها ، ولا تدعونا الى التفكير فى سر الوجود والعدم تفكيراً يجعلنا نرى بعين عقلنا العالم أكثر وضوحاً . . »

***

هذا ما رأيت أن أثبته تعقيباً على كلمة الأستاذ محمود الخفيف التى انتقد فيها كتاب (التجديد فى الأدب الانجليزى) تأليف الأستاذ سلامة موسى ؟

شرق الأردن بشير الشريقى

الموجب . ويكون عادة على شكل سلك حلزونى أو قضيب قصير يواجه صفيحة الـكاثود . وعندما يوصل الأنود بالطرف الموجب لجهد كهربائى عال — حوالى ١٥٠ الى ٢٠٠ ڤولت — ويوصل الـكاثود بالطرف السالب لهذا الجهد يتوهج المصباح بأحد هذه الألوان التى نراها فى أنابيب الاعلانات تبعاً لنوع الغاز الموجود به . وأفضل هذه الغازات هو بخـــار الزئبق إذ يعطى لوناً بنفسجياً فاتحاً . والسبب فى هذا التوهج فى المصباح هو انبعاث ألـكترونات من الـكاثود — تحت تأثير فرق جهده عن الأنود — وسيرها بسرعة نحو الأنود ، ومصادمتها فى طريقها بذرات الغاز المنتشرة فى المصباح التى تتذبذب سريعاً تحت تأثير الصدمة فتتوهج .



شكل (١)
المصباح الغازى

وربما عنّ لسائل أن يقول إننا كان يمكننا أن نحول الطاقة الـكهربائية الى أخرى ضوئية بطريقة المصباح المتوهج البسيط المستعمل فى الاضاءة ، فما هو إلا جهاز لتحويل طاقة كهربائية الى أخرى ضوئية . والجواب على ذلك : أن عملية تحويل الطاقات فى هذا المصباح نشأت من مرور تيار كهربائى فى سلك المصباح ذى المقاومة الـكبيرة الذى ترتفع درجة حرارته كلما اشتد التيار عليه حتى يحمى فيتوهج . وبمقارنة هـذه النظرية فى التوهج بنظرية المصباح الغازى السالفة الذكر نرى أنهما يختلفان تمام الاختلاف . ولـكن لِمَ فضلنا هذه على تلك ؟ ذلك لأن المصباح الغازى يفوق المصباح المتوهج بحساسيته الشديدة للتغيرات الـكهربائية ، فلو أُمِرّ فى كليهما تيار سريع التغير لظهرت إضاءة الأول متذبذبة تبعاً لذبذبة التيار ، على حين تظهر إضاءة الثانى منتظمة مستمرة . لا يلاحظ فيها أى ذبذبة أو تغير ، وهذه طبعاً ميزة لاستعمال المصباح المتوهج للاضاءة العادية . ولـكنها ليست المطلوبة فى التلفزة ، بل المطلوب هو المصباح الأكثر حساسية للتغيرات حتى يمكنه أن يترجم ترجمة حرفية مايصله من دفعات كهربائية سريعـة التغير خارجة من جهاز الـكشف والتكبير . ويوجد سبب آخر لتفضيل المصابيح الغازية ، وهو أن الطاقة الضوئية المنبعثة منها تتناسب تناسباً طردياً مع الطاقة الـكهربائية الداخلة اليها .

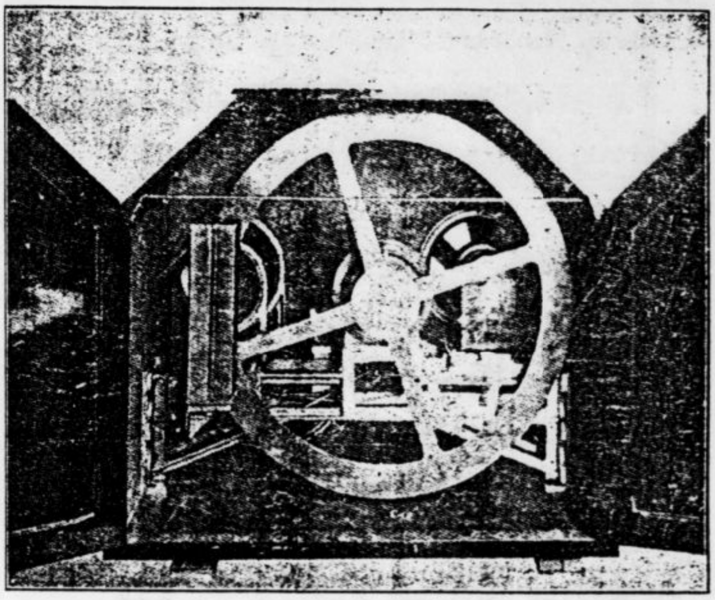
وقد يستعاض عن مصباح الغاز بخلية كِرّ ، وهذه فكرة حديثة صائبة ، يتوقف عملها على خاصية سائل النيتروبنزين فى استقطاب الضوء إذا ماوقع تحت تأثير مجال كهربائى . وربما عدت لشرح هذه النظرية فى فرصة أخرى .

والآن بعد أن حصلنا على دفعات ضوئية متعاقبة تختلف شدة وضعفاً باختلاف الدفعات الـكهربائية المستقبلة من الأثير والتى كان اختلافها يتبع اختلاف نقط الجسم المتلفز نفسه فى ضوئها وظلامها ، لم يبق علينا إلا أن نعود فنركبها بنفس الطريقة التى حللناها بها ، وذلك بوضع كل نقطة فى مكان يناظر المكان الذى انبعثت منـــه على الجسم المتلفز ، وهذه هى خطوة تكوين الصور النهائية .

وتتم هذه الخطوة بنفس الجهاز الذى حللها ، وهو كما تقدم : إما القرص المثقب أو طبلة المرايا ، أو حلزون المرايا . ولأقصر الـكلام على القرص المثقب وحده إذ علمنا أن الطبلة أو الحلزون يمكن أن يستبدلا بدون أى تغيير .

فيوضع مصباح الغاز أمام القرص تجاه ثقوبه ، ويوضع حاجز فى الجهة المقابلة له من القرص ليتلقى الصورة [شكل ٢] ويدار القرص بنفس السرعة التى يدار بها نظيره فى جهاز الارسال — ١٢½ دورة فى الثانيـة — ويكون دائماً فى خطوة واحدة معه ، ويخرج المصباح الغازى دفعاته الضوئية المتتابعة ، والتى تنم كل دفعة منها عن خواص نقطة واحدة من نقط الجسم المتلفز فى لحظة من لحظاته . فتقع على القرص الذى هو صورة مضبوطة لقرص الارسال فى حجمه وشكله وعدد ثقوبه وسعتها وسرعته وخطوته ، فيعمل هذا على وضع كل نقطة فى مكان على الحاجز يناظر تماماً مكانها الذى انبعثت منه على الجسم المتلفز ، وبذلك تظهر الصورة .

غير أن العملية لا تتم بمثل هذه السهولة . فنقطة الصعوبة فيها هى إمكان ضبط سرعة دوران القرص بحيث تساوى تماماً سرعة دوران قرص جهاز الاذاعة . وظاهر تماماً أنه لو اختلفت



شكل (٢) جهاز كامل للاستقبال

السرعتان ولو اختلافاً بسيطاً لحصلنا على خيال لا يدل إلا على سحب غير مفهومة من الضوء والظلام . والطريقة الوحيدة لضبط السرعتين هي إرسال دفعات كهربائية ثابتة التردد من مصدر منفصل آخر لاعلاقة لها بالجسم المتلفز أو توزيع الضوء أو غيره . بل تتوقف ذبذبتها على سرعة دوران قرص جهاز الارسال فحسب . وهذه تستقبل عند جهاز الاستقبال بجهاز منفصل أيضاً حيث يكشفها ويكبرها ويسلطها على محرك القرص لتضبط سرعته تبعاً لسرعة قرص الارسال . وهذه طريقة فضلاً عن أنها تستلزم جهازى استقبال منفصلين فهى تزيد الاذاعة والاستقبال تعقيداً على تعقيد .

فكر (بيرد) فى أن يرسل من نفس جهاز الاذاعة باشارة يكون ترددها لايتوقف إلا على سرعة دوران القرص ، وذلك بأن جعل شعاع الضوء الخارج من ثقب القرص فى جهاز الارسال عند ما ينتهى من رسم خطه الرأسى من الضوء على الجسم المتلفز لايبدأ شعاع الثقب التالى له إلا بعد وقت قصير ، وهكذا بين كل ثقب وآخر يمضى مثل هذا الوقت الذى يسبب دفعة ضوئية مظلمة فى الخلية الكهرضوئية ترددها ثابت ويتوقف على سرعة القرص ، أى يساوى ٣٠ × ١٢ ½ = ٣٧٥ ذبذبة فى الثانية ، لأن بالقرص ثلاثين ثقباً وسرعته ١٢ ½ دورة فى الثانية . هذه الاشارة ترسل وتستقبل مع باقى دفعات الجسم كأنها واحدة منها ، ولكن يمكن فصلها بسهولة عنها ، لأن ترددها صغير جداً بالنسبة لتردد دفعات الجسم . وعلى ذلك تفصل عند جهاز الكشف الأول وتأخذ طريقاً آخر حيث تكبر ثم تسلط على محرك قرص الاستقبال لتنظم سرعته .



شكل (٣) صورة مشطورة نشأت من اختلاف خطوة القرصين

وقد تتساوى سرعة القرصين تماماً ، ولكنا نرى الصورة النهائية مشطورة إلى نصفين [شكل ٣] وينشأ هذا من اختلاف الخطوة . ومن أمثلة اتحاد السرعة واختلاف الخطوة ما نشاهده إذا لاحظنا صمامى عجلتين متشابهتين فى دراجة مثلاً أثناء سيرها . كلتا العجلتين تسيران بنفس السرعة ، ولكن ذلك لا يستلزم أن يأخذ صماماها موضعين متشابهين تماماً . فهما فى هذه الحالة متحدتان فى السرعة ومختلفتان فى الخطوة . واختلاف الخطوة هذا هو مايسبب شطر الصورة وأظن ذلك واضحاً بقليل من التفكير .

* * *

وبالرغم من كل هذه المجهودات الجبارة مازال جهاز التلفزة للاستقبال محروماً من دخول المنازل . وبالرغم من نجاح التجارب التى عملت عليه حتى الآن نجاحاً كافياً ، فان الأجهزة مازالت على شىء من التعقيد وصعوبة التداول لشخص عادى . والعالم بطبيعته يرغب فى البساطة بقدر الأمكان كما يتمنى أن يتخلص — فى منزله على الأقل — من الأجهزة ذات الحركات الميكانيكية . فهو يأمل فى جهاز للتلفزة له سهولة جهاز السمع فى استعماله . فهل يقف العلم دون ذلك ؟ ؟ . . .

قريباً سوف يتحقق له ما يريد . فمذبذب أشعة الكاثود على الأبواب والجميع ينتظره . وآمل أن آتى على ماوصل العلم فيه فى رسالة قادمة .



شكل (٤) أول صورة تلفزت

وقبل أن أختتم هذه اللمحة عن التلفزة أريد أن أنوه ببعض نواح مختلفة تخرج عن مجرد إرسال صور أو أشخاص .

أولاً : التليتوكى وهى تلفزة أفلام سينمائية ناطقة كما تذاع الاسطوانات الموسيقية . ولنقدر من الآن ما سيهدد دور السينما بانتشار هذه التلفزة .

ثانياً : التلفزة فى الظلام أو «Noctovision» وذلك باستعمال الأشعة تحت الحمراء بدل الضوء العادى . وستكون هذه ساعد البحّار الأعظم لخوض البحار المجهولة فى ظلام حالك ، وكأنه فى وضح النهار . كذلك فى الحروب سوف تمكن هذه من رؤية حركات العدو وسكناته وهو فى ظلام حالك بدون أن يشعر .

ثالثاً : التلفزة بالألوان الطبيعية ، وذلك باستخدام قرص ذى ثلاث لفات من الثقوب مغطاة بثلاث زجاجات شفافة ملونة بالألوان الأحمر والأزرق والأصفر . واستعمال ثلاث خلايا كهرضوئية وثلاثة مصابيح غازية كل منها يعطى أحد الألوان الســابقة .

رابعاً : التلفزة المجسمة «Stereoscopic Television» أو عرض الصور مجسمة بدل أن تكون فى مستوى واحد

خامساً : حاكى التلفزة «Phons-vision» وكما يدل عليه اسمه هو جمع ما بين الحاكى [الجرامفون] و المتلفز . وهو إشراك الصور وحركات الأشخاص مع حديثهم وموسيقاهم على اسطوانة واحدة من اسطوانات الحاكى . بحيث ترى وتسمع فى آن واحد .

محمود مختار
معيد بكلية العلوم

القصص

من صور الحياة — قصة واقعية

ظمأ الروح

« مهداة الى : H. M »

للأستاذ عبد الحليم عباسي

كان فتى خيالى النزعة ، أغرته هذه الأفكار السوداوية ، فاندفع فيها . لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها الى حيث الحد بين الدنيا والآخرة . ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه ، الى أن غدا وهو فى مَيعة العمر . ناحلَ القدّ ، حائل اللون ، رطبَ الجفن كأنما عَلِق به أثر من أدمع البارحة .. واذا ما أصغيتَ اليه وهو يتحدث أسرتك هذه الغُنّة فى صوته ، وهذا العمقُ فى أفكاره ، ورحتَ تعجب كيف يستطيعُ هذا الظلُّ حمل كل هذه الشجون ؟ .

عرفته فى بلدة الجمال — الشام — فقامت بيننا صداقة مُوثَقة العقد ، متينة الأواصر ، يشوبها الاجلالُ من جانبي ، والرثاء من جانبه . فقد كنت فى نظره واحداً من هذه الملايين التى تتعثر بآمالها ، وتتمرمر بأمانيها ، وعبرنا على هذا زمناً الى أن فرقت بيننا دواعى الحياة ، وبقى خالداً فى فكرى ، خالداً فى روحى ، ومضت سنون لم نتلاق فيها ، الى أن جاءتنى منه هذه الرسالة أثبتها للقارىء ، ففيها قصة طريفة :

ياصـديق :

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل ، فلقد اعترضتنى هذه — الجنية — التى شد ما حدثتنى عنها ، واستطاعت أن تلامس حياتى بعصا سحرها ، فتغير منها . . ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفانى فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوى على أشياء كثيرة جميلة .

. . . وتفصيل الخبر أنى هبطت هذا البلد . وشدتنى اليه ضرورات لاأستطيع الافلات منها ، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة ، وقد كنت لا أزال أسدر فى كآبتى ، وأتخبط فى مآتى أشجانى ، حتى كان يوم اللقيا بهذه الساحرة ، فكأنما بُعثت خلقاً جديداً ، واستطاعت أن تنقى حياتى من كل هذه الأفكار الشائكة . . . فلقد كانت تكبرنى بأعوام ، وكانت تكبرنى بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل ، وشاء الدهر الساخر أن يكون بين أبى وزوجها علاقة . . . وزوجها هذا — غفر الله له — ليس له ميزة من علم أو جاه . غير هذا الجاه الرخيص الذى تبعثه المادة ، وهو يجمع بعد الى قبح الجهل ، دمامة الشكل ، وسمح لى أن أتردد الى بيته ، وراقه أن يجد أن زياراتى تبعث فى زوجه روح الغبطة والسرور ، فينضر فرعها الذابل ، وتدب الحياة فى روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذى يعج فى صدرها . . . وكأنه كان يشعر أن بينه وبينها عدا فارق العمر ، تبايناً فى الروح والفكر . .

وكنت أشعر وأنا أتردد اليها أنى أقاد الى الهاوية ، فهذا الصوت الهادىء المتزن ، يعيد اليك ذكرى لذة غابرة ، وهذه العين غرقى فى صفائها تنازل النور ، محال أن يقوى على ندائها روح يتعشق الجمال . . . ولقد كنت قادراً على أن أكتمها حبى ، وما حاجتى الى الافضاء به ، وأنا لا أطلب أكثر من أن أجلس اليها ساعات ترفه عن روحى ، وتغذى مشاعرى ، غير أنا فى احدى جلساتنا ، وقد تشعب بنا الحديث ، وأخذت علينا الغبطة يقظات الارادة ، سمعت صرخات روحى فى داخل البدن . . . أننى فى حاجة الى الامتزاج بها ، الى الفناء فى ذاتها ، وكأنها أحست بما أحسست به فالتحمنا بالنظر .

وقالت عينها ، لاحاجة الى الثورة — إنى أحبك —

فأجابت روحى من عينى — وأنا أحبك —

ولكنَّ عينها عادت فقالت إنى أحتقر ملذات البدن ، فلا تطمع بها ، فقلت وأنا أحتقرها ، لقد مللتها ، إن روحى هى الصادية.

وفى تلك الجلسة أعلنت لها حبى ، وباحت لى بمثله . . .

***

ومن ذلك الحين ، أصبحت لا أقوى على فراقها ، ولا أطيق الأبتعاد عنها دقيقة ، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود — لاأدرى — فأصبحت هى كل شىء فيه ، واستقرَّ حبها فى أعماق ناراً ، فغدوت بجانبها أحترق .

ومرت الأيام مفعمة بالهناءة ، فكنا نلتقى كل يوم ، لاأرتوى من هذه الكلمات تندُّ عن هذه الشفاه الجميلة ، ولااشبع من النظر الى هذا المحيا الذى يبعث اليك فى كل لمحةٍ فكرة تحمل معانى الرضى عن الحياة . . .

وأشهد أن جمالها أدنانى كثيراً من حمى الله . . وارتفع بنفسى الى عالم أندى من عالمنا هذا ، يرى منه الانسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات ، ومبلغ ماتنطوى عليه البشرية من حماقة .

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها ، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب ، وكأنها وهى ترق القمم ، أو تنساب معى الى الوادى دُنيا من الفتنة تتحرك . . على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسى ولاأجرؤ على إسماعها إياها . . . فهى لا تسمح لى أن أصور تموجات النسائم على غدائرها ، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر ، قبالة ضحكتها وبسمتها ، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الأمتعاض ، فقالت : ذلك أن الجمال ليس فى الشكل ، وإنما هو فيما وراءه . . . على أن فى كلامك غلواً ، قلت : نعم ولا ، الجمال فيما وراء الأشباح ، وليس فى كلامى غلواً ، وكذا أنتِ ترين أن جمالك أمثلُ من أن نتطاول الى وصفه ، فصمتت ثم قالت : دع هذا وخذ فى غيره .

قلت : فليكن فقد يجرُّ الى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه . . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذى تريد ، مبتعدة فيه عن كل مامن شأنه أن يستثير فيك هذا الذى يطمع فيه عباد البدن . وهى إذ تحدثك لاتجهد فى إقناعك ، بل تلقى الفكرة موجزة واضحة ، ثم تتركك تتخيل ، وتقيس وتقارن ، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشىء المهم ، وإنما المهم أن تفكر ! .

***

شارف العام أن ينتهى ، وأنا لاأزال فى غمرة حبها أصوى جسماً ، وأنمو فكراً وإحساساً ، أصبحت شغلى الشاغل ، لقد لهوت عن العالم ، ونسيت أن به خلائق يعزُّ عليها أن ترى الآلاماً تمتزج بالمحبة ، وتلتحم بالروح ، حتى كان اليوم الذى سحق فيه قلبى ، وتحطمت كأس سعادتى ، فقد جئتها فى عصاراه كالعادة ، لنذهب الى نزهة اتفقنا عليها ، فجلست إليها ريثما تنهى عملها ، وتصلح من شأنها ، ولكنى أوجست خيفة ، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول جهدها إخفاءه ، ثم رأيتها تتحفز للكلام ، وبعد لأى استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت :

إصغ الىّ . . . . قلت : كلى آذان . . . .

قالت : أو لم تسمع ؟ . . لقد أكلتنا الألسنة ! .

قلت : لاأدرى ماتقصدين ؟ قالت : ستدرى . إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة ، المتهافتة على الساقط من اللذة ، لاترى من الممكن أن تقوم علاقةٌ بين متحابين ، لا تمت الى هذه الأسباب الدنيا ، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التى منها يستقون علاقاتهم.

قلت ، وقد قام بنفسى أن أدارى ألم الصدمة : ليكن هذا لخلهم وصغائرهم ، فما تصاحبنا لبذل فى الخلق .

فوجمت قليلاً ، ثم قالت : ليس عن غباوة تتكلم ، وعاجلتها دموعها ، وقد والله ياصاح رأيت أنواعاً من الدمع ، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة ، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الانسان .

قلت : هونى عليك أو بلغ الأمر الى هذا الحد ؟ ! . . .

قالت : أجل ! ومن حين وأنا أكتمك إياه ، وزوجى وأقرباؤه لقد طلبوا منى أن اقطع معك هذه العلاقات ، انهم يرونها خطراً على كرامة الأسرة ، وغداً يسافر بى الى بلد ناءٍ كتم عنى اسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت ! ! . . .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

الكتب

القيثارة السارية

لطاهر محمد أبو فاشا

قرأت ديوان هذا الشاعر الشاب فأعجبني منه تنوع موضوعاته وراقني هذا النشاط الذي يبدو في قصائده ، وهذه الحركة التي تنتقل به من الوصف إلى التوجد إلى نقد بعض مظاهر الاجتماع .

بيد أني أصارح شاعرنا بأنه قليل العناية بتهذيب شعره وإحكام قوافيه ، فان في قصائده بعض العيوب اللفظية وبعض المجازات والأخيلة التي لا يستسيغها الذوق ، كما أني ألاحظ على الشاعر الفاضل أنه شغوف بالتلاعب بالألفاظ ، يتدفق في غير روية ، وعهدي به سليم الذوق سريع إلى معرفة مواضع الجمال فيما يقرأ من الآثار الأدبية ، وليت شعري كيف تنسب مثل هذه الأبيات إلى من كانت هذه صفاته إلا أن يكون أساس ذلك الأهمال . أنظر إليه يقول :

وأني قد دعوت وبح صوتي ... وأنك لا ترق ولا تجيب

وانظر إلى قوله :

اهدمي مهجتي بصبرك هدما ... واسألي الحب في الفؤاد المهدم

وإلى قوله :

أنا بين هاتيك الحمام حمامة ... تصف الشعور بشعرها الرنان

المرء يقتله الشعور وربما ... هز الشعور الميت في الأكفان

وانظر إلى قصيدته في ملكة الجمال عند سفح أبي الهول :

يكاد أبو الهول لولا الجلال ... يعربد مما رأى حوله

وكم سبع قد من صخرة ... يحب الجمال ويصبو له

وأوهمها أنه كالجماد ... لتأمنه فتطيل الوقوف

ولولا مخافته أن تخاف ... لقام يدق لها بالدفوف

إلى غير ذلك من الأخيلة التي نحب أن يخلص منها شعر طاهر إن شاء الله ؟

الخفيف

ودارت بي الأرض الفضاء وصرخت كالمذعور :

محال هذا ، إنهم يملكون منك الجسد ، أما الروح فهو وقف على محبتي ، لن أدعهم — وأنا قادر — يحطمون كأس حياتي ..

كيف يفصلونك عني ؟ ! أيفرق الروح عن الجسد دون أن يتقوض ؟ . . .

ثم كانت ساعة افتضح فيها جلدي ، فطفقت أبكي ، لقد بكيت كثيراً ، وماصحوت إلا وهي تضمني ، وتبللني بدمعها ، ثم طبعت على فمي قبلة ، طبعت على فمها مثلها ، هي أول وآخر قبلة ، هي أثمن ما أمتلك من ذ كرى . .

***

ومالي أشق عليك ، لقد انتزعوها مني كما ينتزع الطفل عن ثدي أمه ، لقد ذهبوا بأجمل حياتي ، وموئل ذكرياتي .

لقد كانوا قساة ، فلم يرحموا غرباء جاءوا دنياهم على عجل ، وسيمضون كما جاءوا .

لقد ذهب معها الصبر ، فأصبحت هذه الدنيا في نظري كشرك الطائر ضيقة قفراء من كل ما يلهم العزاء

وأنى لي أن أحمل كل هذه الدنيا من الأوصاب ، فسقطت مريضاً خائر القوى ، ولي هاهنا — بالمستشفى — شهران لا أبل إلا لأنتكس . .

وقد جاءتني بالأمس منها كلمة هي : « الى الملتقى .. » إذن فهي تعرف أني بالمستشفى ، بدليل أنها كتبت العنوان ورقم الغرفة ، تخبرني أين تكون لقيا المرضى . . وأكبر ظني أنها مثلي مريضة إن الدنيا أضيق من أن تتسع للقيا القلوب الطاهرة .

الى الملتقى . . حيث يتبع الحسن دون رقيب ، وحيث تروى القلوب الظامئة الى الجمال . . . الى الملتقى . . . الى الملتقى . . .

شرق الأردن ... عبد الحليم عباسي

همام

قصة تمثيلية شعرية لعلى احمد باكثير

ناظم هذه الأقصوصة أديب حضرمى تعجبك فيه براعة نظمه وعربية ديباجته ، ويحمل بين جنبيه قلبا يخفق للعروبة التى خالطت دماءه كما يتبين لك ذلك من مقدمته النثرية التى يقول فيها « والشعب الحضرمى شعب عربى صميم تجرى فى عروقه دماء قريش وهمدان وحمير وكندة ومذحج » وتدور القصة حول محور واحد ، ألا وهو حفلات الزواج فى عاصمة الأحقاف ... والناظم ممن يتشيعون لتعليم البنت فيقول على لسان همام (ص ٥)

صار فرضا عليك أن تنشرى هـ — ذا الهدى فى جماعة النسوان
فهدى الشعب من هدى أمهات — الشعب فى كل موطن وزمان

ويقول فى موضع آخر فى هذا الموضوع نفسه على لسان فتاة :

فيم غادرتم البنات على جَهْـ — ـل وقمتم تعلّمون البنينا
كيف نستطيع بالجهالة يوْما — أن نؤدّى أمانة الله فينا

والناظم يجيد الوصف ويحسن التصوير مما يدل على ذوق محمود ، ومقدرة قوية فى رسم ما تقع عليه عيناه ، فيقول مصوّرا الشاى فى الكأس :

لولا انتصاف الكأس خيل أنها — فى كف ساقيها تقوم بذاتها

ويسوؤه أن يرى الألاعيب والمهازل تمثل فى وطنه تحت ستار الدين وهو برىء من تلك الأفاضيح الساقطة ، ويهزأ برجال الدين الذين يدعون أنهم يذودون عن حياضه ، ويدافعون عن بيضته وهم أبعد الناس عنه ، فيسخر بهم قائلاً :

ولى الله ذو الحبـ — ـوة والأرْدية الخضر
وذو المسواك فى العمة — قد أرْبى على الشبر
ورب السبحة الغارق — فى التسبيح والذكر
بها يذكر فى الناس — ولا يذكر فى السر

والأقصوصة على هذا المثال البديع من النظم التقليدى ، وهى فى أسلوبها وفنها أروع منها فى روحها ومعناها ، وهناك هفوات كنا نودّ أن يترفع عنها الناظم كما فى قوله :

يوم ما أجملها من فتاة — يوم ما أصلحها لهمام ؟
صلوات الله تغمر طه — وحماها الله من عين رام

ومثل المبالغة الممجوجة فى قوله يصور الحب :

ولقد لقيت به دواهى لو — رُعْنَ الجبال تركنها تربا

ومن حسن الحظ أن مثل هذه الأبيات قليل ، ولا يشين أقصوصته مثل هذا المغمز ، وإنا لنهنئه على ذلك خاصة وهو مازال فى غضارة الصبا وميعة العمر .

م

تربيــة الطفل

للدكتور شخاشيرى

وهذا الكتاب أيضاً من الكتب التى نتناولها فى غبطة وإعجاب ، فما أحوجنا فى حياتنا الاجتماعية إلى مثل هاتيك الكتب القيمة التى تبحث فى الصحة وعلى الأخص مايتعلق منها بالطفل .

والكتاب الذى أحدثك عنه قد سار على نهج فريد ، فهو سلسلة أحاديث موضوعة على طريق الحوار بين طبيب وإحدى الأمهات ، ويتناول كل حديث ناحية من نواحى حياة الطفل كتغذيته ونظافته وخصائص الأطعمة الصالحة له ، وما يطرأ عليه من الأمراض ...... الخ مما جعل الكتاب سهل المأخذ بعيد المرمى ، خفيف المحمل ، هــذا إلى علم واسع وتفاصيل دقيقة ما أجدر الأمهات والآباء أن يستوعبوها لخير أطفالهم ، ولقد أضاف الدكتور الفاضل إلى الكتاب نص محاضرته التى ألقاها فى دار جمعية الحشرات الملكية فى مؤتمر المجمع المصرى للثقافة العلمية وموضوعها التأمين على صحة الطفل ، كما اختتم الكتاب ببعض الآراء القيمة فى موضوع الطفولة لثلاث من فضليات المربيات ، وإنا لنشكر للدكتور الفاضل عمله الانسانى وإخلاصه الذى يتجلى فى كتابه للطفل ووالديه .

الخفيف

أدولف هتلر

زعيم الاشتراكية الوطنية

مع بيان المسألة اليهودية

تأليف أحمد محمود الساداتي بدار الكتب

كتاب يقع في نحو مائة وستين صفحة من القطع المتوسط جيد الطبع، متين الورق، وضعه مؤلفه الفاضل ليشرح به حركة من أهم الحركات التي تشغل بال العالم الآن. وإنه ليسرنا أن يكون بين إنتاجنا الأدبي ما يشهد باهتمامنا بتلك الحركات الشعبية التي تخرج عنها المطابع في الغرب مئات الكتب. وإن هذا الكتاب الذي أحدثك عنه ليزيد في اغتباطنا أنه بحث منظم واف بالغرض تقرؤه فتقف على الأحوال السائدة في ألمانيا اليوم وموقف حركتها الوطنية من العالم، ولقد أحسن المؤلف جداً بما أورده من مقدمات تاريخية عن ألمانيا منذ عهد تأسيس الامبراطورية الى الحرب العالمية، ثم بما قام به من شرح المسألة اليهودية، وشرح النازية وبرنامجها وروحها والشيوعية في ألمانيا وموقف النازية منها إلى غير ذلك من الأبحاث الوافية، وليس ثمة ما يؤخذ على المؤلف الأديب سوى تحمسه لهتلر تحمسا ظاهراً، كاد أن يفقده في بعض المواضع اتزان المؤرخ وانصافه، وفيما عدا ذلك فالكتاب يشهد بمجهود محمود، وهمة مشكورة. م؟

محمود

ديوان صالح جودت

أتممت قراءة هذا الديوان لشاعرنا الشاب، فأحسست روح لطيفة ونبرات ساحرة هادئة تطن في أذني، وأشهد لقد أعجبتني موسيقاه وصفاء ديباجته، ولكني عدت فنظرت في بعض القصائد نظرة تمحيص وتعقيب فوقعت عيني على بعض الأخطاء اللغوية وصدمتني بعض القوافي، ولو أن شاعرنا قد عني بنظمه أكثر من ذلك لكان لقصائده شأن غير هذا الشأن، ففيها روح وفيها شاعرية لايمكنك أن تنكرهما عليه، بل إن شاعريته لتستميلك حتى ولو لم تكن ممن يقبلون على الشعر، هذا وإني لأنكر عليه وأعاتبه في شدة على تلك النزعة الطائشة التي جعلته وهو ذلك العصفور الغريد الوديع يضطرب في أجواء خانقة ويتعثر في أشواك موبقة، ما كان أغناه عنها، فإنه في الحقيقة لم يرجع بطائل ولم يفد شيئاً، ولعله كان في نزعته تلك متأثراً بقراءته أو مقلداً لغيره، فانك لا تجد في تلك القصائد التي جرته إليها الغالاة تلك الروح العذبة الرقيقة، ولا تلك النغمة الهادئة الساحرة، التي تجدها في باقي قصائده. والخلاصة أن شعر صالح جودت كالذهب، ولكنه «خام» لابد أن يستخلص مما يعلق به من الأوشاب

الخفيف

المرافعات والتوثيقات الشرعية

عني فضيلة الأستاذ الشيخ علي قراعة رئيس محكمة الزقازيق الابتدائية الشرعية بوضع «كتاب الأصول القضائية في المرافعات الشرعية — وكتاب مذكرة التوثيقات الشرعية».

استوعب في الأول طرق القضاء وقواعد المرافعات الشرعية، وفي الثاني كل مايلزم الموثق والموثقين في كتابة الاشهادات المنوعة وصور الدعاوى الشرعيـة، والوثائق المختلفة، مما لايستغني عنه موظفو المحاكم الشرعية، وطلاب الحقوق، وأقسام التخصص في القضاء الشرعي، ويكون مرجعاً للقضاة والمحامين ومدرسي القانون والشريعة، ويطلبان من المكاتب الشهيرة.

2^me Année, No. 64.

Lundi-24-9-1934

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

السنة الثانية « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ » العـــدد ٦٤

فهرس العـــدد

طغيان النيل

على الشاطئ الغريق ...

هكذا الطغيان يا نيل يجعل مصدر الحياة مورد هَلَكَة، ومنبع الخيرات مغيض بَرَكَة، وأصل العمارة غاية دمار وخُسر ! !

هذه شواطئك الخضر يانيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم، وتتدفق بالخـير، وتترقرق بالجمال، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار، وتلتطم بالمخاوف، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجدب ؛ وهذه مدنك البيض وقُراك السُّمر كانت تتفيأ على ضفافك ظلال الخفض، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة المسلسلة، وهى توقع بين القصب الألَفّ ألحان الثراء والغبطة فتعتزّ بك وتقدّس لك، فأصبحت تحشد فى وجهك الجنود، وتقيم بينها وبينك السدود، وتضرع إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك ! وهؤلاء أبناؤك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكى وثمرك الغالى، فيدفعون الحشرات عن القطن، ويدرأون الطفيليات عن الذرة، ويسائلون فى الحقول نضارك الذائب، ويستقبلون بالشوق الآمل موسمك الآنب، فأصبحوا وهم من هَوْلك قائمون على رجل، لا يستقر لهم جنان

من الروع ، ولا يطمئن بهم مجلس من الجزع ، ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، من أسوان إلى مَصبَّيك ، يدافعونك مدافعة العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ، ويكابدون فى صدّ غارتك الجهد والجوع و (السخرة) ! ذلك والقرويات ينتظرن بالقلق الجازع الفرق المخشيّ ، ويرصدن الأهبة للهجرة المتوقعة ، فهنّ يجمعن المتاع ، ويشددن الغرائر ، ويلقين النظر الحزين على القطن المكتهل على أعواده ، والذرة الناشئ على سُوقه ! وهكذا الطغيان يانيل يروّع السكينة فى القلب ، ويفزع العدالة فى الدولة ، ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشيئة فرد ! !

* * *

وقفت منذ أيام على شاطئ من شطئانك المنكوبة ، أرسل طرفى الساهم فى تيارك الجارف ، وداراتك المدوّمة ، ولججك الفائرة ، ثم أرده الى السواحل الغصّانة والمزارع الغَرِقة ، وفكرى بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة ، ويستخرج المشابهات الأليمة . فذكرت بهذا المنظر المحزن تِرَةً بيني وبينك موروثة ! فقد طغيت فى عام ١٨٧٨ على قريتى الصغيرة ، فاحتملتها هى ومئات من أمثالها كما يحتمل السيل الدافع أكوام الهشيم ! وكان قومى قد سمعوا بانفجارك على مقربة من سمنود ، وبيننا وبينها عشرات من الأميال ، ولكن ماءك الطاغى نحر هذا المَفيضَ حتى انحدر فيه مجراك كله ، فلم يكن بين السماع والرؤية الا ريثما حزموا المتاع وشدوا المطايا ، ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل ، فتركوا الأرزاق وطلبوا النجاة . فحمل الكبارُ الصغارَ ، والطوالُ القصارَ ، والنساءُ الأطفالَ ، ومضوا يتحسسون الطرق تحت الماء ، ويتلمسون المصاعد فوق الأرض ، حتى بلغوا — وما كادوا يبلغون — ساحلَ نهر (شبين) ، وهو على بضع دقائق من القرية ، وهنالك وقف المهاجرون على الشاطئ العالى بين البحرين ، يودعون بالنظر العبران قريتهم الهالكة ، والماء يُغيِّب الدور ويبتلع الشجر ، حتى لم يبق ظاهراً منها إلا شرفات بيت الله ، وغُرفات[1] بيت العمدة . ثم تمزقوا فى البلاد يطلبون المأوى عند ذوى القربى أو عند أولى المودة ، حتى انحسر الماء فعادوا ، واستأنفوا عمارة القرية فعادت

ثم لا يزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الغرقة) ، ويهولون فى أحداث تلك الهجرة ، ويستعدون كل عام لطغيان النهر ، قبل أن يئون أوانه بشهر ! وهكذا الطغيان يا نيل يفرق الآلاف ، ويشتت الوحدة ، ويوهن بين الأوداء أسباب المودة !

* * *

يطغى الحكم كما طغيت يا نيل فيجرف السدود ، ويتعدى الحدود ، ويتخطى الحواجز . ثم يدور بالتجسس ، ويفور بالإرهاب ، ويقذف بالتهم ، ويُسخّر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطماح نفسه ونفاذ حكمه . وأصل الطاغية كان مثلك يا نيل فياض اليد فقدسه الناس ، جارف التيار فاتبعه الشعب ؛ ثم ناصرته شهوة الخاصة ، وساعدته غفلة العامة ، فرد أهواء النفوس الى هواه ، وشورى العقول الى رأيه ، وحدود القوانين الى إرادته ، وسطوة الجماعة الى يده ، ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى ، ويزيد السلطان المفرط على غرور الانسان فيتأله ، ويومئذ لا تسأل عن حدود الله كيف تُطمس ، ولا عن رسوم العدل كيف تُدرس ، ولا عن حقوق الناس كيف تُنسف ، ولا عن نظام الأمر كيف يتبدد ، ولا عن جوح الأثرة كيف يبغى ويتحكم .

وهكذا الطغيان يا نيل يعطل منابع الخير ، ويبدل طبائع الفطرة ، ويقتل مواهب العقل ، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الكفاية .

* * *

ويطغى الأدب كما طغيت يا نيل فلا يكترث للقواعد ، ولا يَعُوج بالأصول ، ولا يحفل بالمنطق ، ولا يأبه للخلق ؛ ثم يرغى بالبذاء ، ويُزبد بالهراء ، ويطفح باللغو . وكان الأدب الطاغى مثلك يا نيل عذب الشمائل ، سهل الشريعة ، فروِى الناس من نبعه ، وبَرَدت أكبادهم على نداه . ثم انتكس المجتمع ، وانقلبت الأوضاع ، وفسدت المقاييس ، واستفاضت الدعوى ، وتبجح الغرور ، واستبهم الأمر ، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن ، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس ، ولؤم الوقيعة أشد لسلطانه من كرم النفس ، وشهوة الجدل أقرب الى قلبه من حب الحقيقة . وفى العهود التى تسطو فيها اليد ويستخذى القانون ، يَسْلُط فيها اللسان ويستكين المنطق ! ثم يمكن لمثل هذا الطغيان تكرمُ الأدباء عن مقام المسافهة ، ضناً بأخلاقهم على الغمز ، وباحساسهم على المضاضة وفى التاريخ السياسى والأدبى يا نيل أمثال وأشباه ! ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق ، ومحض الخير ، ولباب الجمال ، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى ، بحكم الطبيعة ومشيئة الله !

احمد حسن الزيات

(١) الغرفات جمع هى الحجرات العليا من البيت

استنوق الجمـــل ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال الشاب : لا قِبَل لى بهذا التعب المُعنِّى الذى يسمّونه « الزواج » فما هو إلا بيت ثقله على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسى ؛ وامرأة همها فى موضعين : فى دارها ، وفى قلبى ؛ وما هو إلا أطفال يلزموننى عمل الأيدى الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأتحمل فيهم رَهقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامى ، وأجمع هموم رؤوسهم كلها فى رأس واحد هو رأسى أنا ؛ يُولَد كلٌّ منهم بمعدة تهضم لتوّها وساعتها ، ثم لا شىء معها من يد أو رجل أو عقل إلا هو عاجز لا يستقلّ ، متخاذل لا يطيق ولا يقدر .

قال : وإذا كان أول الزواج أيْ عَسَلُهُ وَحَلْواه أنه امرأة تُذْهب عُزوبتى — فأنا وأمثالى ما نزال فى عسل وحلوى ؛ ولكل وقت زواج ، ولكل عصر أفكار ، وما أسخف الليالى إذا هى ترادفت على ضرب واحد من أحلامها ، فهذا يجعل النوم حكماً بالسجن عشر ساعات . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العزّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتهم فنيَّة ؛ وفضيلتهم فنيَّة ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكل شىء فى الفن هو لموضعه منه لا من غيره ؛ فاذا قلت : هذا خالٍ من الفضيلة عار من الأدب ، وعِبْت الفن لذلك — فما هو إلا كَعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خالٍ من لحية ..! هات الظلام وسواده ، فانه لون كالنور وإشراقه ، لابدّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنىّ فى تناسب الأشياء لا فى الأشياء ذاتها ؛ ويد الفنّى كيد الغنىّ ؛ هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليتعدد ثم يتعدد ؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد ؛ وفى كل دينار قوة جديدة ، وفى كل امرأة فنّ جديد .

قال : ومذهبنا فى الحياة أن نستمتع بها ضروباً وأفانين ؛ من أطاق أنواعاً لم يقتصر على نوعين ، ومن قدر على نوعين لم يرض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصوّان ؛ إذ هى لا تلد أشعة كواكب ولا قطراتِ ندى ، وحسب الجسد برأس واحد حملاً .

قال : ومن الذى تعرض عليه الحياة سلامها وتحياتها وأشواقها فى مثل رسالة غرام ثم يدع هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجاجتها فى مثل قضية من قضايا المحاكم ، كل ورقة فيها تلد ورقة . . !

ثم قال الشاب : لاتحسبنَّ أن المرأة هى السافرة عندنا ، ولكنّ اللذة هى السافرة ؛ وما أحكم الشرْع ! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة : — ما أحكم الشرع الذى لم يُرَخّص فى كشف وجه المرأة إلا لضرورة ، فان الواقع فى الحياة أن هذا الكشف كثيراً ما يكون كنقْب اللص على ما وراء النقب ؛ وإذا كسر ما فوق القُفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر فالباب الحديد كله سخرية وهزؤ من بعد . . !

***

هذه عقلية شابّ محامٍ طوى عقلَه على الكتب القانونية وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية . وليس يمترى أحد فى أنها عقلية السواد من شبابنا المثقف الذى لبس الجلد الأوربى . ومن البلاء على هذا الشرق أنه مابرح يناهض المستعمرين ويواثبهم غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التى تناهضه وتواثبه ، جاهلاً أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية ؛ وتسوق الأسطول والجيش ؛ والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة والحب . ولو أن عدواً رماك بالنار فاستطارت فى ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها . فكيف لعمرى غفل الشرقيون عن أخلاق ناريّة حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مساغاً ، وألين أخذا ، وأسرع فى الهضم .

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا فى أعصابه ، وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لا تكون إلا صَيْحة ، وليس بينه وبينها فى الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها ، لامن ناحية فائدتها منه .

وتلك المعانى كلها مشتق بعضها من بعض ، ومرجعها إلى

أصل واحد ، كالأمراض التى تبتلى الجسم يُمَهِّد شىء منها لشىء ، ما دامت طبيعة هذا الجسم زائغة أو مختلّة ، أو متراجعة إلى الضعف ، أو ذاهبة إلى الموت .

وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقفَ بلادة ، فلا يخطو الى الرجولة ، ولا يكمل بنموّه الاجتماعى كما يكمل الرجل الوطنى ، فمن ثمّ يكون خَوّاراً لا يستطيع أن يحمل أثقالا مع أثقاله ويستوطىء العجز والخمول فلا يكون إلا قاعد الهمة رِخو العزيمة ، قد استنام الى أسباب عجزه وتخاذله ، ولا يكون فى بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حميلةً على ذويه ضُجَعَةً لا يمشى ، نُوَمَةً لا ينهض ، مستريحاً لا يعمل .

وبهذه المكسلة الاجتماعية فى الشبان يبدأ الشعب يتحول من داخله فينصرف عن فضائله ويتخذ فى مكانها فضائل استعارة يقلّد فيها قوما غير قومه ، ويجلبها لبيئة غير بيئته ، ويقسرها على أن تصلح له وهى فساد ، ويُكْرِهها على أن تنفعه وهى ضرر ، وتلك حالة يغامر فيها الشعب بكيانه فلا تلبث أن تَصْدَعه وتُفَرّقه .

ولو أن فى السحاب مطرا وغيثا لما كان له فى كل ساعة لون مصبوغ ، ولو أن فى الشباب دينا لما صبغته تلك الاخلاق الفاسدة ، وما ذهاب الحارس عن مكان إلا دعوة للّصوص اليه ، وهل كان الدين إلا واجبات وتبعات وقيودا يراد من جميعها إعداد الانسان لأمثالها فى الاجتماع ، حتى يقر فى إنسانيته الصحيحة على النحو الذى يصلح له منفرداً ويصلح له مجتمعاً ؟ فليست الزوجة وحدها هى التى خسرت الشاب بل خسره معها الوطن والدين والفضيلة جميعا ، وبهذا انعكس وضعه من الجماعة ، فوجب فى رأيه أن تُسخَّر الجماعة له وأن يستقل هو بنفسه . وبهذا العكس وهذا السقوط وهذا الاستمتاع الذى يجد سعادته فى نفسه أصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدم لهم بغايا لا زوجات . . . . بغايا حتى من الزوجات . . . !

قَبَّحَ الله عصرا يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة فى الوطن كلمتان تفسر الانسانية إحداهما بالأخرى تفسيرا إنسانيا دينيا بالواجبات والقيود والأحمال ، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق ، كما تفسِّر الحيوانيةُ الذكر والأنثى .

والنفس الدنيئة أو المنحطة فى أخلاقها ومنازعها من الحياة لا تكون إلا دنيئة أو منحطة فى أحلامها وأخيلتها الروحية ، دنيئة كذلك فى طاعتها إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع ، دنيئة فى حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلة من السلطة . ولو تنبهت الحكومة لطردت من عملها كل موظف غير متأهل ، فانها إنما تستعمل شرا لا رجلا يمنع الشر ، وكل شاب تلك حاله هو حادثة تَرْتَدِفُ الحوادث وتستلزمها ، وما يأتى السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه .

* * *

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة فى طبيعة ثالثة تقوم بالأنثيين معا ، وهى طبيعة الشعب . فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفرّ الشاب القوى من تبعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الانسانية ، ولا يقيم لوطنه جانبا من بناء الحياة فى نفسه وزوجه وولده ، بل يذهب يجعل حظ نفسه فوق نفسه وفوق الانسانية والفضيلة والوطن جميعا ، ولا يعرف أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعاف فى طبيعته لمعنى الاخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل فى أى أسبابها عرضت .

ومن فُسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهرب هذا الجندى من ميدانه الذى فرضت عليه الطبيعة الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعى متعلّلا لفراره المخزى بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعانى فيه كما يحتج الجبان بخوف الهلاك وعَناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات وبَوارَهن على الوطن ، وأن يتواطأوا على نبذ هذه الأحمال وإلقائها فى طرق الحياة وتركها لمقاديرها المجهولة كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم فى أمهات الجيل المقبل ، ويضيع بالفضيلة فى تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهمومها السامية . إن الجمل اذا اسْتَنْوَق تخنث ولان وخضع ، ولكنه يحمل ، وهؤلاء إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا .

ومن سقوط النفس فى الرجل النِّكْسِ العاجز المقصّر أن يحتج لعزوبته بعلمه وجهل الفتيات ؛ أو تمدنه وزعمه أنهن

لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولايدرى هذا المنحط النفس أن الزواج فى معناه الانسانى الاجتماعى هو الشكل الآخر للاقتراع العسكرى ، كلاهما واجب حَتْمٌ لا يعتذر منه إلا بأعذار معيَّنة ، وماعداها فجبن وسقوط وانخذال ولعنة على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يَغْنَى الشابُ عن الزواج لفجوره فيقره ويُمكن له ، وكأنه لا يعلم أنه بذلك يحطم نفسين ، ويحدث جريمتين ، ويجعل نفسه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفس أن يَغْترَّ الشاب فتاةً حتى إذا وافق غِرَّتَها مكر بها وتركها بعد أن يُلبسها عارها الأبدى ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك ، هو أبداً عند من يسرقهم فى باب الخسائر والنكبات ، لا فى باب الربح والمكسب ؛ وعند المجتمع فى باب الفساد والشر ، لافى باب المصلحة والخير ؛ وعند نفسه فى باب الجريمة والسرقة ، لا فى باب العمل والشرف .

***

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج فى أصلها وفروعها الكثيرة التى منها المغالاة والشطط فى المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية وإهمال ذات الدِّين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء وعزوفها عن الفاضل ذى الكفاف أو اليسير على غنيٍّ فى رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة ، والسبيكة بالدينار ، وكأن الطبيعة قد ابتليت هى أيضاً بالسقوط ، فأصبحت تعتبر الغنى والفقر ، فتجعل فى دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس ، وتُلقى فى دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة . . . على حين أن الجميع مستيقنون لا يتدافع اثنان منهم فى أن الطبيعة لا تبالى إلا بوراثة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط فى رأيى هو ضعف التربية الدينية فى الجنسين ، وخاصة الشبان ؛ ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لا غيره نظام هذه الحياة وقوامها فى كل مايتصل منها بالنفس . وليست المدنيـــة الصحيحة كما يحسب المفتونون هى نوع المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها . والى هذا ترى كل مبادىء الاسلام ؛ فان هذا الدين القوى الانسانىّ لايعبأ بزخارف كهذه التى تتلبس بها المدنيـة الأوربية القائمة على الاستمتاع وفنون اللذات وانطلاق الحرية بين الجنسين ؛ فهذا بعينه هو التحطيم الانسانى الذى ينتهى بتهدُّم تلك المدنية وخرابها ؛ وإنما يعبأ الاسلام بالعقيدة التى تنظم الحياة تنظيماً صحيحاً متساوقاً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط والفوضى .

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهر آخر هو سبب من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعف التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سبب آخر هو تخنُّث الطباع واسترسالها الى الدعة والراحة ، وفرارها من حمل التبعة « المسئولية » التى هى دائماً أساس كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى .

وبذلك الضعف وذلك السقوط وُضعت المرأةُ البغىّ العاهرة فى الموضع الطبيعى للأم ، ونزل الرجل السافل المنحط فى المكان الطبيعى للأب ، وتحلّلت قوى الوطن بانحراف عنصريه المعظيمين عن طبيعتهما ، وجَمَعت فضيلةُ الفتيات المسكينات تتأكَّل من طول ما أُهمِلَتْ ، وأخذ سوسُ الدم يتركها فضائل نخرة ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ، مادامت الفضيلة فى حكم الناس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين . ومادامت قوة النفس قد أخلَتْ موضعها للقوة التنفيذية .

لقد قُتلتْ رُوحيّة الزواج ، وهى على كل حال جريمة قتل . فمن القاتل ياصاحبنا المحامى ؟

قال الشاب : هو كل رجل عَزَب

قلت : فما عقابه ؟

فسكَتَ ولم يَرْجِعْ إلىَّ جواباً

قلت : كأنى بك قد تأهَّلْتَ وَخَلاكَ ذمٌّ . . فما عقابه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب ، فليعاقبهم الشعب بتسميتهم أرامل الحكومة . . واحدهم : رجلٌ أرملة حكومة . . .

ثم قال : اللهمّ يسرها ولا تجعلنى رجلاً بغلطتين : غلطة فى نساء الأمة ، وغلطة فى ألفاظ اللغة .

طنطا مصطفى صادق الرافعى

انقـــلاب عظيم

فى السياسة الدولية

روسيا البلشفية فى عصبة الامم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجوز العلائق الدولية فى تلك الآونة أعظم انقلاب عرفته منذ الحرب الكبرى ، وتستعد عصبة الأمم لاستقبال أعظم حادث عرفته فى تاريخها ؛ فمنذ أشهر يجرى الحديث بأن روسيا السوفيتية ستدعى إلى الالتحاق بعصبة الأمم . وستغدو عما قريب عضواً فيها ، وتتمتع بكرسى دائم فى مجلسها . وقد كان ذلك مثار دهشة وريب ممن يعرفون ظروف روسيا السوفيتية ، ونزوعها إلى التباعد عن الدول الغربية ، وما تقضى به طبيعة نظمها من مخاصمة الحكومات « الرأسمالية » ، ومناوأتها بكل الوسائل الخفية ، والعمل على هدمها وهدم النظم التى تحميها ، وإضرام نار « الثورة العالمية » . وقد كان للبلاشفة فى عصبة الأمم منذ قيامها رأى يناقض ما يرونه اليوم كل المناقضة ؛ فقد كانت فى نظرهم عصابة من الدول الرأسمالية تحركها هذه الدول وتوجهها كيف شاءت . وهيئة استعمارية منافقة تعمل من وراء ستار لتحقيق غايات الاستعمار الغربى . وأداة لتمكين نير الأمم القوية الغالبة من أعناق الأمم الضعيفة المغلوبة ؛ وكانت الحوادث تؤيد كثيراً من هذه الريب الظنون ، فلم تر الأمم الضعيفة ولا سيما الأمم الشرقية شيئا من الأنصاف على يد عصبة جنيف ، بل ابتدعت لها نظام الانتدابات أو الحماية المقنعة لتسبغ على استعبادها صفة مشروعة ، ولم تحاول مرة أن تحد من مزاعم الدول الاستعمارية أو أطماعها — وهذه الدول هى بعينها التى تسيطر على مجلس العصبة — ولم تجرؤ مرة على أن تصدر فى أى المسائل التى طرحت أمامها أى قرار يناقض آراء هذه الدول أو غاياتها ، ولا زلنا نذكر موقفها من النزاع بين تركيا وانكلترا على كردستان . والنزاع بين الصين واليابان على منشوريا ، وخذلانها حينما احتلت إيطاليا كورفو ، وتحاملها فيما اقتضته من العراق شرطاً لالتحاقها بالعصبة ، وموقفها من أمانى فلسطين وسوريا ؛ ولا زلنا نذكر بالأخص موقفها العقيم من مسألة نزع السلاح وفشلها الذريع فى معالجتها ؛ وسواء أكانت روسيا السوفيتية مخلصة فى رأيها بالنسبة لعصبة الأمم أم كانت تمليه بواعث السياسة فقط . فان العصبة لم تحقق خلال هذه الأعوام العديدة من حياتها شيئاً مما علق عليها من الآمال فى إنصاف الشعوب المظلومة أو تخفيف الخصومات القومية أو توطيد دعائم السلام .

والآن ماذا حدث ؟ لقد تطورت العلائق الدولية خلال الأعوام الأخيرة تطوراً سريعاً مدهشاً ؛ وأخذت روسيا تخفف من خصومتها للدول الغربية شيئاً فشيئاً ، وأخذت الدول الغربية فى التقرب من حكومة موسكو البلشفية ، بعد ما لبثت أعواماً تحاول القضاء عليها ، وتحشد لمناوأتها كل ما استطاعت من القوى الخفية والظاهرة ؛ وعاد عهد التوزان الأوربى القديم وعهد المعاهدات السرية والمحالفات السياسية والعسكرية ، وغاض ذلك الأفق المصطنع الذى ساد فيه حديث السلامُ والتضامن الدولى مدى حين . وقد كان من الطبيعى أن يعتبر التحاق روسيا بعصبة الأمم عاملاً فى صفاء الأفق الدولى ، وتعضيد قضية السلام ، لأن تباعدها عن الدول الغربية كان عقبة دائمة فى سبيل تقدم التفاهم الدولى واستقرار العلائق الدولية ، وعدم اعترافها بالعصبة يعرض جهودها فى سبيل السلام للأنهيار : هذا على الأقل ما كان يتردد فى دوائر جنيف كلما حبط مسعى فى سبيل التفاهم أو مجهود فى سبيل نزع السلاح . ولكن التحاق روسيا اليوم بعصبة الأمم يدلى بمعان أخرى . وروسيا لم تغير رأيها فى العصبة ولا فى الدول « الرأسمالية » التى تتكون منها ؛ ولكن روسيا اليوم تعلق على هذا الانضمام آمالاً كبيرة وترى أنه يحقق لها من المصالح مالم تحققه سياسة القطيعة والعزلة ، والسياسة الغربية التى تسعى منذ حين لتحقيق هذا الانضمام تحاول أن تقنعنا بأنه يزيد العصبة قوة ويزيد كلمة أوربا توحيداً ، ويقرب أمد التفاهم فى مسألة نزع السلاح ، ويعاون على استقرار السلم فى أوربا ؛ ولكن الحقيقة أن هذه النظرية القديمة قد تطورت اليوم . وما ترشيح روسيا لدخول العصبة الا نتيجة لسياسة التوزان الأوربى الجديدة التى ظهرت

بوادرها قوية منذ قيام الحركة الوطنية الأشتراكية فى ألمانيا وظهورها بمظهر المهدد لسلام أوربا ، وفشل مفاوضات نزع السلاح وعود فرنسا صراحة إلى السياسة القومية القديمة بحجة الدفاع عن نفسها أمام الخطر الألمانى . ومنذ عامين ونحن نشهد نتائج هذا التطور الجديد ، فى وقوع الجفاء بين ألمانيا وروسيا أولاً ، ثم انتهاز فرنسا لهذه الفرصة وتقربها من روسيا ، وتفاهم الدولتين على إحياء التحالف الفرنسى الروسى القديم الذى كان قائماً قبل الحرب ، ثم مساعى السياسة الفرنسية المتواصلة فى جمع كلمة دول أوربا الشرقية حولها فى كتلة واحدة تخاصم ألمانيا جميعاً ، وحملها حليفاتها دول الاتفاق الصغير على الاعتراف بروسيا السوفيتية ، وسعيها أخيراً فى ضم روسيا السوفيتية إلى عصبة جنيف .

ولروسيا صلة قديمة بعصبة الأمم وإن لم تكن من أعضائها ، فقد اشتركت فى لجنة نزع السلاح ومؤتمراته بصفة رسمية منذ سنة ١٩٢٥ ، و قدمت اليها عدة مشاريع لنزع السلاح كانت جميعها مثار البحث والمناقشة ولكنها رفضت جميعا ، وكانت السياسة الروسية خلال هذه الأعوام تثابر على خصومتها لعصبة الأمم وعلى الطعن فيها وفى نزاهة مقاصدها ، وتتخذ من فشل مؤتمر نزع السلاح دليلا على نفاق الدول الغربية وتمسكها بسياسة الحرب القديمة ، وبالأخص على ائتمارها بروسيا السوفيتية . أما اليوم فان روسيا لا تأبى التفاهم مع الدول الغربية والأندماج فى فى عصبة جنيف . ووراء هذا التطور الخطير فى سياسة البلاشفة عاملان جوهريان : الأول حوادث الشرق الأقصى ، والثانى موقف الدول الغربية من روسيا السوفيتية ، فأما فى الشرق الأقصى حيث تسيطر روسيا على أراض ومصالح عظيمة ، فقد نشط الاستعمار اليابانى فى الأيام الأخيرة نشاطا عظيما وانتزع إقليم منشوريا من الصين ، ولم تحفل اليابان باحتجاج الدول الغربية أو تدخل عصبة الأمم ، وآثرت أن تنسحب من العصبة لكى تكون مطلقة اليدين فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ولم تحجم عن أن تصرح بأنها تعتبر الصين ميدان نشاطها وتوسعها دون غيرها من دول الغرب ، وأنها ستقاوم كل محاولة جديدة تقوم بها الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مصالحها فى الصين ، ولما كانت روسيا تجاور اليابان فى الشرق الأقصى فى أكثر من منطقة ، فان هذه السياسة اليابانية الجديدة التى تؤازرها عسكرية قوية تهدد أملاكها ومصالحها أعظم تهديد ، وروسيا تريد من أجل ذلك أن تصفى خصومتها مع الدول الغربية لكى تستطيع أن تتفرغ لمقاومة هذا الخطر . وأما عن موقف الدول الغربية إزاء روسيا السوفيتية ، فان هذه الدول قد نبذت خصومتها المطلقة القديمة لروسيا بعد ما اقتنعت بأنه يستحيل عليها أن تسحق الثورة البلشفية ، وبعد ما تطورت البلشفية ذاتها وتركت كثيراً من تطرفها القديم وآثرت جانب الاعتدال ، وأصبحت روسيا تميل الى العود إلى حظيرة أوربا القديمة والتفاهم مع الدول الغربية وإعطاء بعض الضمانات السياسية والاقتصادية ، وقد كانت السياسة الفرنسية روح هذه التطور كما بينا لأن فرنسا أشد الدول اهتماما باكتساب تلك القوة العظيمة فى شرق أوربا ، لتعود كما كانت قبل الحرب مصدرا للخطر على ألمانيا يزعجها ويشغلها .

وقد نجحت السياسة الفرنسية فى إقناع انكلترا وإيطاليا بتعضيد التحاق روسيا بالعصبة ، وهذه الدول هى التى تسيطر على مجلس العصبة (بعد انسحاب اليابان وألمانيا) وجرت مفاوضات تمهيدية بين فرنسا ومعظم الدول المنضمة الى العصبة لتوافق على قبول روسيا ، واستطاعت أن تحقق الاصوات اللازمة لذلك ، ويشترط لقبول الدولة المرشحة أن يؤيد قبولها ثلثا أصوات الجمعية العمومية واليك ما ورد فى ميثاق العصبة بخصوص ذلك .

« كل دولة ، أوملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة تحكم نفسها حرة لم يرد اسمها فى الملحق (ملحق الدول المنضمة) تستطيع أن تغدو عضوا فى العصبة اذا وافق على دخولها ثلثا الجمعية العمومية بشرط أن تقدم الضمانات اللازمة على إخلاص مقاصدها وعلى مراعاة تعهداتها الدولية . وأن تقبل القواعد التى تقررها العصبة بخصوص القوات والتسليحات العسكرية والبحرية والجوية » (المادة الاولى الفقرة الثانية)

« تتألف الجمعية العمومية من ممثلى أعضاء العصبة . وتجتمع فى أوقات معينة أو فى أى وقت آخر إذا اقتضت الظروف ذلك فى مركز العصبة أو فى أى محل آخر يختار لذلك ، وتختص الجمعية بالنظر فى كل مسألة تدخل فى دائرة نشاط العصبة أو تتعلق بسلام العالم ، ولا يجوز لأى عضو فى العصبة أن يختار لتمثيله فى الجمعية أكثر من ثلاثة مندوبين ولا يحق له أكثر من صوت » (المادة الرابعة)

وأما عن مجلس العصبة فقد ورد فى الميثاق ما يأتى : « يتكون المجلس من ممثلى الدول الكبرى المتحالفة والمشتركة ، وكذلك من ممثلى أربعة أخر من أعضاء العصبة . وهؤلاء الأربعة تختارهم الجمعية حسب رغبتها وفى الوقت الذى تختاره لذلك . . . ويستطيع المجلس بموافقة أغلبية الجمعية أن يعين أعضاء آخرين من أعضاء العصبة يكون لهم كرسى دائم فى المجلس ، ويستطيع بنفس الطريقة أن يزيد فى عدد أعضاء العصبة الذين تختارهم الجمعية للمثول فى المجلس » (المادة الرابعة فقرة أولى وثانية) .

أوردنا هذه النصوص لنبين الاجراءات اللازمة لالتحاق دولة ما بالعصبة ، ثم لنبين أهمية الكرسى الدائم فى المجلس ، ذلك أن روسيا مرشحة للفوز بكرسى دائم فى المجلس الى جانب باقى الدول العظمى ، وقد تمت الاجراءات الخاصة بترشيح روسيا فى الجمعية العمومية ، وحصلت روسيا على أكثر من ثلثى أصوات الجمعية ، ولم يعارض فى قبولها سوى ثلاث دول أو أربع هى سويسرا وهولندا والأرجنتين وبلجيكا ، وعقب ذلك دعوة العصبة لروسيا للانضمام اليها وقبول روسيا لهذه الدعوة ؛ وبذا تمت الاجراءات وغدت روسيا عضواً فى عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى فى الهيئة التى شد ما خاصمتها وحملت عليها ، ومما يلفت النظر أن هذه الاجراءات تجرى وروسيا بعيدة عنها لا تحرك ساكناً ولا تصرح بشىء ولا تعلق صحفها بكلمة ، ولتفينوف الشرف على الشئون الخارجية الروسية يقيم فى أحد مصايف فرنسا الجنوبية . ذلك أن هذه الحركة كلها من صنع فرنسا وهى التى تحمل كل أعبائها وتسهر على تنفيذها ، وقد جرت جميع المفاوضات بشأنها وراء الستار مما أدى الى احتجاج بعض أعضاء العصبة ، فقد حمل مستر دى فاليرا ممثل إرلندة على هذه السرية ، ونوه بما فيها من الشذوذ . ولكن كل شىء يسير مع ذلك وفقاً للبرنامج المرسوم .

ومن المعروف أن دخول تركيا فى العصبة انما هو نتيجة لدخول روسيا فيها . وقد كانت تركيا تحذو حذو حليفتها الكبيرة فى موقفها إزاء العصبة وتنظر اليها بنفس نظرتها ، وهى الآن تسير وراءها فى سياستها الجديدة .

***

ولهذا التطور الذى انتهى بأقبال روسيا على عصبة الأمم واندماجها فى زمرة الدول الغربية مغزى عظيم فيما يتعلق بمصاير روسيا البلشفية ذاتها ، فقد كان شعار موسكو منذ ظفر البلشفية فى سنة ١٩١٧ ، خصومة العالم « الرأسمالى » كله ، والعمل على إضرام نار الثورة العالمية فى سائر جنباته ؛ ولم يقبل البلاشفة فى ذلك أى مناقشة أو هوادة ، وكانت الشيوعية تتقدم فى غزو الدول الصناعيـــة تقدماً حثيثاً ، وتؤازرها موسكو بكل ما وسعت . ولكن البلشفية لم تستطع أن تعيش طويلا بمثلها وغاياتها المتطرفة ولم تلبث أن تأثرت بقطيعة العالم ومقاومته ، واضطرت أخيراً أن تسلك مسلك الاعتدال سواء فى سياستها الداخلية أو الخارجية . ورأى سادة موسكو أن موارد روسيا البلشفية وقواها المادية والمعنوية تتحطم تباعاً أمام ضربات الدول الغربية ، وأن روسيا لا تستطيع الحياة الى الأبد فى ظل نظام يؤلب عليها العالم كله ، ويحرمها من كل عطف وتعاون ، فجنحوا الى تغيير السياسة القديمة ومدوا يدهم الى الدول الغربية ، ولم تهمل الدول الغربية الانتفاع بهذه الفرصة فمدت يدها الى روسيا وجذبتها الى حظيرتها . فالآن نستطيع أن نقول إن البلشفية قد دخلت فى دور انحلالها ، وأنها تنزل شيئاً فشيئاً عن مثلها وغاياتها الثورية المتطرفة ، وأن روسيا تعود شيئاً فشيئاً الى حظيرة الماضى ، فى ظل نوع من اشتراكية الدولة لا يلبث أن يستقر أو يختفى مع الزمن .

وترى الدول الغربية أن دخول روسيا فى العصبة يقويها كهيئة دولية ويزيد فى هيبتها ونفوذها فى سير السياسة الأوربية خصوصا بعد أن غادرتها اليابان ثم ألمانيا . وقد يكون ذلك صحيحاً من الوجهة المحلية ، لأن العصبة تتخلص بذلك من خصم قوى كان يشتد فى مناوأتها ، وتكسب نفوذاً جديداً فى مسائل أوربا الشرقية . ولكن العصبة لا تكسب كثيراً من الوجهة العامة ، ذلك لأنها قد خسرت كثيراً من هيبتها ونفوذها خلال الأعوام الأخيرة ، ونستطيع أن نقول إنها فقدت نهائياً ثقة العالم كعامل فى توطيد السلم العالمى ، وأداة من أدوات التفاهم الدولى والعدالة الدولية ؛ وقد اختفت مثل العصبة القديمة بعد تخبط وفشل استمرا منذ قيامها ، وبعد أن قدمت الأدلة العملية العديدة على أنها لا تستطيع العمل إلا فى الدائرة التى ترسمها لها الدول المستعمرة المسيطرة على مجلسها وعلى ارادتها .

هذه المعركة المزمنة بين أدبين !

للأستاذ كرم ملحم كرم

إنها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لاتنطفئ لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والمشيب يتطاحنان . المتربع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب في أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الوقوع في اللجة . الهاتف بملء فيه « الغــدُ لي ! . » يغالب المتمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصــل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراغب في أن يشق لنفسه طريقاً إلى الشمس ، القائل للقديم المزمن : « دعني أحتل مقعدك ! . » ، هذا التنــافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الـكون ، وسيرافق الـكون في مراحله الطوال لا يزول منه إلا يوم يزول

فالشباب يغيظه أن يطأطئ الرأس للمشيب ، أن يعترف له أبداً بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي ! . . » فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويغضب الشباب وفي أعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة . ولا يسلم الفريقان من شظايا القدح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بثمار عقول الشباب . والرائع في مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهدداً متوعداً ، وتتساقط الضحايا في الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! . . » ويخيل إلى بعضهم أن الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون في السن . وأن الأدب الجديد هو مايتحفهم به كل ناضر العود . على حين أن بين ذوي الأنياب الصفر فئة لايبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما أن بين الفتيان الأفراخ الزغب الحواصل ، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لفارق في القديم إلى الأذنين ، ويأبى إلا أن يحارب كل من أسنّ وشاب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الأخير !

وهذه المعركة لايصح القول عنها أنها بين أدب قديم وأدب جديد . إن هي إلا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا بأطايب دهرهم وأدركوا الشهرة الواسعة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقونها ، مع أنهم في الخطوات الأولى من عهد الفطام

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . أما سمعنا جريراً يقول حين سئل رأيه في الأخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني !

فالأخطل أكبر من جرير سناً . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فأدركها . وهناك من شاء الاقتداء بجرير في التحكك بالطاعنين في السن . نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير . فقد راش بسهامه جريراً . على أن جريراً لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهذا الغلام الخامل الغرّ نرفع قدره !

فقيل لبشار : بم أساء إليك جرير ؟

قال : لم تنلني منه إساءة . على أني وددت أن يهجوني . ولو فعل لـكنت أشعر شعراء العرب أجمعين !

وغاظ المعري أن يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » فأنشد قصيدة من عالي الشعر جاء فيها :

على أنه قد تترتب على هــذا التطور نتيجة هامة هي توطيد دعائم التوازن الأوربي واقصاء شبح الحرب من أوروبا الى حين . ذلك أن وقوف روســيا إلى جانب فرنسا ودول الاتفاق الصغير على نحو ما بينا يقوى الجبهة الشرقية المعــادية لألمانيا ، ويحمل ألمانيا على التأمل والتريث ، ويزيد من جهة أخرى في طمأنينة فرنسا ، وفرنسا والمانيا هما طرفا الخصومة الأوربية ، وعلى موقفهما وعلائقهما يتوقف السلام والحرب الى حد كبير . وهذا التحالف بين فرنسا وروسيا يعود بنا الى ما قبــل الحرب ، وهو نتيجة طبيعية للسياسة التقليدية التي سارت عليها روسيا وفرنسا منذ الحرب الفرنسية الألمانية في سنة ١٨٧٠ ، وأثناء الحرب الـكبرى .

محمد عبد الله عنان
المحامي

وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائلُ

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكلٌّ يريد المقام الأول . والشجيرة يؤلمها أن تخيم عليها الشجرة فتسعى إلى امتصاصها كى تذبل وتجف . هى سنة تنازع البقاء . الشاب يدفع الشيخ إلى الهوة ليقوم مقامه ، والقوى ينشب أظفاره فى الضعيف لتخلو له الساحة . وقد يكون هذا الشيخ من أنصار التجديد . ولكن الشاب لم يطق ظله ، فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها .

إذاً من هم أنصار الأدب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لاجدال فى أن الأدب القديم ركن الأدب الجديد . فالأدب الجديد لم ينشأ عفواً ، بل تسلق قواعد القديم وشيد عليها قواعده الخاصة يستند إليها ويحيا بها . فالأدب القديم أبوه ، على أن الابن وإن يكن تغذى من أبيه فقد أظهر فيما شيد لنفسه من بنيان أنه مستقل . فان حجارة هيكله تختلف فى حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين . بل هو خالفهم فى البناء نفسه . فجعلوا هيكلهم مستطيلاً . فأبى إلا أن يشيد هيكله مستديراً ، وبنوه على القباب فرفعه ناتئاً يشك فى الأجواء . بدا هيكلهم فى منظر خشن فتلألأ هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران ، ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والأدب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلاً ولوناً وذوقاً . كل عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد . وليس نصير القديم من وقف على الأطلال فبكى واستبكى ، فان بعضهم يقف على الأطلال ويجود بالشائق الرضى . أما أنشد داود عمون :

هاج أشواقى الى الدمن طائرٌ غنى على فنن

وداود عمون شاعر ثوى منذ سنوات قلائل فى مقره الأخير . وقد جاء شعره فى الدمن من أرق الشعر ، فلا هو بالخشن المبتذل ولا الجاف الغليظ ، فالعذوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة فى ديباجته العالية .

وليس كل من تحدث عن الأبل والنوق بنصير القديم .

فالمنخل اليشكرى لم يكن من أنصار القديم حين قال :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

لا ، فان فى هذا الشعر لظرفاً ، وإن فيه لأمعاناً فى التوكيد على نحو ما جاء فى قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

إن فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف فى سبكه ومعناه . وكل شعر جامع للرونق خال من التكلف والغلو الفحّاش يطمئن اليه كل جيل ، ويرضى عنه الأدب الجديد .

فما هو الأدب القديم إذاً ؟ . . .

الأدب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشى الألفاظ ، المثقل بالتقليد ، الراكد فى معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الأجوف القائم على صناعة الألفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البارد لفرط ما لاكته الألسن ومضغته الأفواه .

الأدب القديم هو الأدب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاءه من يبعثه حياً فى عصر لم يخلق له ، فاذا نحن رأينا فى شعر امرىء القيس شيئاً جديداً فهناك مالا يصح قوله فى عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل فى زمن يجب ألا يتخطاه الى زمن آخر ؛ وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد فى شعر امرىء القيس تشابيهه واستعاراته . وهذه التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لا يجوز لأحد أن يسطو عليها وإلا كان سارقاً . كان أشبه بالضاحك من نفسه ليخدعها وانما يهين نفسه .

فالابتكار فى الأدب أشبه بالأبتكار والأختراع فى سائر الفنون . فمن ابتكر فى أسلوب الانشاء مذهباً جديداً بات هذا الأسلوب معروفاً باسمه ، ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لايجوز لأى أديب بعده أن يأخذ عنه هذا التشبيه ويتبناه وهو ليس من تواليده ، وإلا كان سالخاً ضعيف المخيلة ، قاصر اليد .

والأديب العربى لا يكون اليوم مبدعاً إذا أتحف الأدب بروايات أشبه بمقامات الهمذانى والحريرى ، فان ذلك النسيج من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياكته فى أيام الانحطاط لأنهاض اللغة وإذاعة مفرداتها ، فتلتقطها الأذهان وتستعين بها الأقلام ، أما اليوم فان أسلوب المقامات لايحتسيه أبناء العصر

ولا يستسيغونه ، فقد تبدل أسلوب الأنشاء تبدلاً عظيماً ، فمات السجع ، ومات التقعر والتحذلق والأنصراف الى الألفاظ دون المعانى ، وأضحى الأسلوب السارى كلٌّ واضح جلىٌّ قريب الى الذهن والفهم .

ولا فرق فى هذا الواضح الجلىّ سواء انتقل الينا من الجاهلية أو صدر الاسلام ، أو الأعصر العباسية ، أو عصر الأنحطاط ، أو عصر الأنبعاث ، فان إنشاء ابن المقفع لايبلى فى أى عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الأثير ، والأصبهانى ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع أن انشاء ابن خلدون أخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل مافيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الأنشاء . وإنها لتحوى من الأساليب الممتعة مالا تقوى على محوه يد الدهر ، ولاتؤثر فيه سنة بقاء الأنسب ، فهى صامدة للصروف لاترثُّ منها القوى ولا ينصل لونها وهى صافية نقية كزرقة السماء .

وهذه الأساليب يصح أن نطلق عليها اسم الأدب الجديد ، وهى الخالدة ، وهى مرجع الطلاب والأدباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل فى المبنى السليم ، فأضحت لا تنبو عنها الأذن ولاينكرها أى جيل ، وهو بها قرير ضنين .

وما يقال فى النثر يقال فى الشعر . فالشعر الناضج بالعصير الشعى لايفنى ، على حين أن الشعر اليابس لاتقوم له قائمة فى سوى يومه ولو أنشده المتنبى ، فان شعر عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وابن الدمينة ، وعباس بن الأحنف ، وابن زريق ، وأبى نواس ، والشريف الرضى ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وأبى فراس ، وشعراء الأندلس فى معظمهم ، مما يصح أن يقال اليوم وينشد ، وتقتبس طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تغاضينا عن بعض مناحى هذا الشعر اقتضاه روح العصر ، وكثيراً مايكون هذا الروح نائياً عن حضارة العصر الذى يلى .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكل شعر يرتع فى هذه الميزات لا يعرف الأنقراض ، خصوصاً وهو مستمد من العاطفة ، والعاطفة لا تموت ، فالقلوب تخفق أبداً بها . وكل شعر أوحت به العاطفـة وعته الذاكرة ، ورددّه اللسان ، وابتهج به الخاطر ، وتناقلته الكتب والأفواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذى يفرض مشيئته على الأيام والسنين .

وللشعراء الهجائين منزلة وشأن لدى الحفّاظ والرواة . ويمكن القول أن شعرهم يقوم على العاطفة ، أفلا تتبدل هذه العاطفة عما يتبدل به القلب ؟ . . ألا تخضع لسلطان الهوى ؟ . . . وشعر الهجاء يثيره الهوى . إذاً فهو شعر عاطفى . ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود إن يكن جميلا فريدا ، على طراز ما أتحفنا به الحطيئة والأخطل والفرزدق وجرير وبشار ودعبل وابن الرومى والمتنبى . فان شعر الهجاء أقرب الى الحفظ وأبقى أثراً . فالنفس وهى الأمارة بالسوء تميل إلى الهجاء ، وترتاح له أكثر منها الى إحراق البخور وتقبيل الأذيال .

ولسنا ندعو بالخلود لـكل شعر عاطفى ، ولـكننا نقول إن شعر العاطفة يملك ميزة الخلود أكثر من أى شعر آخر . ويأتى بعده شعر الوصف ، على أن يكون بليغاً رشيقاً غير مسبوق اليه . ويقبل فى الدرجة الثالثـة شعر الحـكمة إذا أفرط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

ولا يكتب الخلود لشعر الحـكمة إلا اذا قاله من أرغم الدهر على الاصغاء الى إنشـاده وأسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع أن المتنبى يسير فى طليعة من صاغ هذا الشعر فلا يستطاع الجزم بأن حكمياته تستاغ فى كل عصر ، فهى من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال أن يحـاول تقليدها أى عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة المحافظين .

لا نكير فى أن فى هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولـكن صب الحـكمة فى الشعر ليس مما يشمله الأدب الجديد . فالأدب الجـديد فى الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العـاطفة والوصف بليد . ويجوز أن تطفو الحـكمة فى بعض المواقف . إلا أن الأغراق فيها يذهب برونق الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق أكداس القديم .

ومن الواجب على الأدباء والتأدبين الأكثار من مطالعة أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء . فى مطالعـة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة والقوة والفخامة . إلا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ، يدل على الانغماس فى التقليد ، على الغرق فى بحيرة ملأى منذ الف عام . فمن خاض عبابها ، لن يبلغ شاطئها

الآخر وإذا بلغ هذا الشاطىء فأى فضل هو فضله وقد كان تابعاً لا متبوعاً ، وقد وقف حيث وقف سواه ؟ . .

ولماذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجانح الى القديم أكثر منه الى الجديد ، وهناك عمر بن أبي ربيعة في قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟... فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين أن المتنبي ابن عصر أو عصرين أو ثلاثة . فان شعر زعيم الغزليين يقال وينشد ويردد اليوم وغداً وبعـد غد ، ويدغم فيه يقال اليوم وغداً وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أى عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف به سيد الشعراء .

وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته :

تقول وليـــدتى لما رأتنى ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت أمراً ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ما شئت فارقت القرينا
بعينك هل رأيت لها رسولاً ... فساقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا الىّ أخ محب ... كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علىّ ما يلـــقى بهند ... فذكّر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وإن تعزى ... مشوق حين يلقى العـاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من مواليد كل يوم ، وهو الوضاء الصافى ، الأنيق الرقيق ؟ . .

وهذا ابن الدمينة هلا أصغينا اليه فى قوله :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادنى مسراك وجدا على وجد
أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الحزين صـــبابة
وذبت من الشوق المبرّح والصد

هلا أصغينا الى هذا الشعر البهى القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم وروح اليوم ؟ . . .

قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هـذا الشعر تترنح منه الأعطاف ، وكاد لفرط اعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تعتقه ابن الدمينة بلا خمر .

وأبو فراس أى عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

وماذا تقول فى شعر المنازى يوم فزع الى الوادى الظليل هربا من الحر .

نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنوّ المرضعات على الفطيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

ألا يسير هذا الشعر فى ركاب كل عصر ؟ .

والبهاء زهير ؟ . . أتنسى البهاء زهيراً ؟ . .

أنا من تسمع عنه وترى ... لا تكذّب فى غرامى خبرا

وماذا نطالب فى الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، إلا أن يصدر عن هذا المورد ؟ . ماذا نبغى منه إلا أن يبقى أبداً شهى المذاق ، اذا رددناه فى كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من الأزمان ، ولا تشد دونه الأسماع كما قام للأدب العربى كيان .

فالأدب الجديد إذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ، الواضح الجلى ، الذى يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا يؤلم السميع بغريب الألفاظ ، ولا بالنـافر من المعانى ، ولا بالتكلف والتعقيد .

والأدب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص لا يعـدوه ، المنغمس فى السجع فى نثره ، والمتوكىء على الألفاظ والتفلسف فى شعره ، العويص ، الخشن ، الوحشى الكلمات والمعانى . هو ما يحتاج إلى القاموس كما خطر لك أن تجيل الأنظار

ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين يستمرئونه ، بينما أنصار التجديد يشنون عليه الغارة ، وينادون إلى استئصاله وهو أدب راكد ، والأدب الراكد لا يعيش :

وقد طال التطاحن بين أنصار الأدبين . وسيطول كما بقى فى الأدب قديم وجديد . وعندنا أن الأدب الجدير بالحياة ما استوفى شروط البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ، وأرغمك على قراءته والأصغاء اليه ، واستعادة قراءته والاصغاء إليه ، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت على بدائعـه وآياته . هو مارمى إلى أبعد مما يرمى اليه مقال فى صحيفة سيارة ينشر اليوم ليطوى غداً . . !

بيروت — كرم ملحم كرم

صاحب جريدة « العاصفة »

الشريف الأدريسى

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضى
عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

١ — تمهيد :

إننى إذا تحدثت عن الخريطة الأدريسية فانما أتحدث عن مجهود علمى خالد من مجهودات أحد أسلافنا الأمجاد ، عن مبرة من مبرات رجل من رجالاتنا فى التاريخ ، ويد من الأيادى البيضاء التى أسداها أحد علماء الاسلام وأبناء العرب الى العلم والعالم يوم كانوا قادة المعرفة وحملة لوائها على وجه البسيطة ، ويوم كان الشرق يملى كلمته على الغرب ويقوده الى مسالك الحياة الحق على ضوء العلم ، وفى سبيل الهدى والمعرفة . أتحدث عن أقدم خريطة عالمية جغرافية صادقة عرفها التاريخ ووصلت الى أيدينا ، وأقرب صورة عرفت فى تلك العصور السالفة مطابقة لما وصل اليه العلم الحديث ولما نعلمه الآن علم اليقين ، تلك هى «خريطة الشريف الأدريسى» التى أظهر فى وضعها براعة علمية فائقة ، وخلد لنفسه بها ذكراً طيباً حسناً بين العلماء الأمجاد سوف لا يزال يضوع شذاه وينتشر عبيره مادام للعلم أهل يقدرونه ، وما دام هناك من يعرف للعلماء حقوقهم .

ولم يكن كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) إلا شرحاً لهــذه الخريطة وتعليقاً عليها ، وهو كتاب ضخم يقع فى جزئين كبيرى الحجم ، وإن كثيراً من علماء البحث فى الشرق والغرب وفى مختلف العصور ، قد بحثوا بحوثاً مستفيضة فى هذا الموضوع الشائق . ولقد كان آخر من عنى بذلك من علماء البحث الجديد الأستاذ « كونراد ميللر » أحد العلماء الألمان الأجلاء فإنه أخرج الخريطة فى ثوب قشيب ، وطبعها طبعة ملونة سنة ١٩٢٨ وكتب عنها الفصول الطوال ، وعقد الموازنات بينها وبين الخرائط الجغرافية القديمة والحديثة ، وأشاد بمنزلتها كأساس قوى متين . ومرجع منظور اليه بعين التجلة والاحترام من مراجع هذا العلم وأسسه .

***

٢ — من هو الشريف الأدريسى ؟

الأدريسى هو الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ينتسب الى بيت الأدارسة الذى حكم مدينة « مالقة » فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى بعد سقوط خلافة قرطبة فى بلاد الأندلس .

هذا البيت يمت بصلة القرابة الى الأسرة الأدريسية التى حكمت فى مراكش ١٣٥ سنة من ٧٩١ الى ٩٢٦ م .

وهاتان الأسرتان ترجعان معاً فى نسبهما الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

إدريس هذا أفلت من يد العباسيين بعد اشتراكه فى ثورة العلويين عليهم فى ولاية موسى الهادى ، وفر من وجههم الى بلاد المغرب سنة ٧٨٤ م وهناك أسس مملكة الأدارسة التى ورثها أبناؤه من بعده . بعد أن بسط يده على تلك الجهة التى نزل بها ، بعضها بموالاة سكانها له ، والبعض الآخر بواسطة الحرب وبعد تحكيم السيف ، وما زال الأدارسة هناك يدبرون ويحكمون حتى غلبهم الفاطميون على أمرهم وانتزعوا الملك من يدهم . صاحبنا الأدريسى ولد سنة ١١٠٠ ببلاد المغرب فى « تطوان » على إحدى الروايات أو فى « سبته » كما فى الرواية الأخرى حيث هاجر والده وبعض أقاربه فى نهاية القرن الحادى عشر ، وأين أتم الأدريسى دراسته وتلقى دروسه ؟ لم يذكر المؤرخون ذلك . ولكن الأمر كما قال الأستاذ « ميللر » ليس بعسير ، فان القارئ لوصفه الدقيق الوافى لمدينة « قرطبة » يستطيع أن يستنبط من ذلك أنها كانت مقر دراسته وموطن تخرجه . نشأ هذا الرجل وقد حببت اليه الأسفار من صغره ، فبدأ أسفاره وهو فى السادسة عشرة ، وسافر الى البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وتغلغل فى شمال أفريقية ، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدهم . فوق هذا سافر الى سواحل فرنسا فى المحيط الاطلانطى ، والى سواحل انكلترا كما حدث فى بعض كتاباته . وفى نهاية الأمر دعاه رجار « روجر الثانى النورمانى» ملك صقلية الى الرحلة اليه والنزول عنده فى « بالرم » على الرحب والسعة والأقامة ببابه كأحد أفراد الحاشية معززاً موفور الكرامة . رجاه ذلك الملك الجليل فى هذا بعد أن وصل الى مسامعه من هو الأدريسى ، وبعد أن علم منزلة الأمير العلمية . قبل الأدريسى هذه الدعوة الكريمة وشد رحاله نحو صقلية ليأخذ

منزلته فى البلاط الملكى هناك ، وليحدث هذا الدوى الهائل فى الأفق العلمى الذى ما زلنا الى الآن نسمع صداه ، شجعه على قبول هذه الدعوة رغبته فى الفرار من وجه أعدائه وأعداء أسرته فى البلاد العربية الذين بالغوا فى اضطهاده وطلبه ، وسعوا جهدهم فى النكاية به . رحل الأمير الى صقلية وأقام بها مدة حياته حتى قبض الى رحمة ربه سنة ١١٦٦ م . وهكذا كان حظه حظ جده الأول أدريس . كلاهما استخلص لنفسه الحياة من مخالب الموت ، وفر من حظيرة الاضطهاد الضيقة الأنحاء الى بحبوحة الملك الواسعة الأرجاء . كلاهما شاد بجده وعزمه دولة إدريسية ، غير أن دولة جده انقضت وأخنى عليها الدهر ، ودولتــه هو خالدة لا تنقضى . والأمر ليس بغريب . فهذا شأن دولة العلم نصيبها الخلود والبقاء بينما تقضي دولة الملك وتفنى . رحل هــذا العالم الجليل والأمير النبيل الى صقلية وقضى بقية أيامه هناك ، قضاها فى الانتاج والعمل المثمر . لم يحدد المؤرخون الوقت الذى رحل فيه الأدريسى الى صقلية تلبية لدعوة مليكها رجار «روجر الثانى» ولم يذكروا فى أى سنة كان هذا . غير أننا نستطيع أن نأخذ برأى الأستاذ « كونراد ميللر » ونستنبط ذلك من الحوادث التاريخية المرتبطة بالموضوع ، وعليه فلنا أن نفرض أن ذلك حدث قبل سنة ١١٣٨ م بقليل . فأننا نعلم أنه فى تلك السنة عقد « رجار الثانى » العزم على العمل لوضع خريطة جغرافية ووضع كتاب يشتمل على وصف أجزاء المعمورة المعروفة فى ذلك الوقت . هذا الأمر الخطير الذى لعب الأدريسى فيه دور البطل .

٣ — صقلية فى ذلك العهد وحالة البلاط الملكى فى بالرم .

كانت صقلية فى ذلك العهد ملتقى العقول المفكرة ، ومحط رحال العلماء يأتون اليها من كل فج عميق ، وكانت بالرم العاصمة كعبة رجال العلم يسعون اليها من الشمال والجنوب لما عرف عن مليكها رجار الثانى النورمانى من محبته للعلم وتقديره للعلماء واحترامه لهم من أى جنسية كانوا ، والى أى ملة انتسبوا . فقد كان بلاطه بحق حرم العلم ، من دخله من العلماء كان آمناً . هنا التقت الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية ، وتعرف فن الشرق المسلم الى فن الغرب المسيحى فتآخيا وأخذا يعمــلان جنباً الى جنب إخواناً متحابين لمصلحة العلم وفى سبيل خير العالم . هناك ورث النورمانيون حضارة العرب الذين حكموا الجزيرة ٢٤٢ سنة من سنة ٨٣٠ الى ١٠٧٢ م والذين ورثوا حضارة الروم من قبل . فى ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية قائمة على قدم وساق ، فكان هذا سبباً لوفود كثير من رجال دول أوربا ودول العالم المختلفة الى بالرم . هؤلاء الرجال الذين كان للكثير منهم شأن فى بلادهم ومعرفة بأحوالها السياسية والاجتماعية والجغرافية . كان ذلك الوقت هو العصر الذهبى للنورمانيين فى صقلية الذى عمت فيه سيادتهم جميع أنحاء الجزيرة ، والذى دخل تحت سلطانهم فى خلاله قسم من ايطاليا وشمال أفريقيا . كل هذه العوامل سهلت للأدريسى القيام بمهمته الكبيرة الشأن ، ومكنته من أن يجمع الى معارفه الخاصة وملاحظاته الشخصية التى اكتسبها بأسفاره الطويلة ورحلاته المتعددة ، وأن يضم اليها ما جعله يضع خريطته العالمية ويكتب كتابه « نزهة المشتاق » عنها بوجه لم يسبق اليه ، حتى كانت هذه الخريطة وذلك الكتاب مرجع المؤلفين الجغرافيين من بعده .

٤ — مؤلفات الأدريسى فى المدة التى قضاها فى صقلية .

لم يقتصر عمل الأدريسى فى تلك المدة التى قضاها فى بلاط بالرم على وضع تلك الخريطة ، ولـكنه ألف غير ذلك أربعة كتب (١) كتاب نزهة المشتاق أو كتاب رجار الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى اختصر فيما بعد تحت هــذا الاسم عينه ، ولقد اطلعت على نسخة من هذا المختصر فى مكتبة المعهد الشرقى بهامبورج مطبوعة بروما فى سنة ١٥٩٢ م ومكتوب على هامشها أن هذا الـكتاب أول ما طبع باللغة العربية (٢) كتاب الممالك والمسالك الذى لم يصلنا منه الا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفدا عند كلامه على الجغرافية العربية . كذلك حدثنا عنه الشاعر ابن بشرون الأندلسى ، وحدث أن الأدريسى ألف هذا الـكتاب سنة ١١٦١ لنجل رجار الثانى « فلهلم » الذى حكم من سنة ١١٥٤ الى ١١٦٦ م (٣) كتاب روض الفرج ، وهو كتاب جغرافى صغير اكتشفه أحد الباحثين من نحو ثلاثين سنة بمكتبة خاصة فى (استامبول) (٤) كتاب يبحث فى وسائل العلاج البسيطة . فوق هذا نقل الأستاذ « ميللر » عن المؤرخين أنه كان شاعراً وأنه لم يصلنا من شعره الا بعض مقطوعات ، ولـكننى لم أعثر على شىء من هذه المقطوعات لأعرضه على قراء الرسالة .

٥ — كيف فكر روجر الثانى فى وضع هذه الخريطة وكيف عهد الى الأدريسى بذلك ؟

عنى روجر الثانى عناية خاصة بالمسائل الجغرافية وأخذ يشتغل بدراسة الـكتب الجغرافية المختارة الموجودة فى ذلك العهد ، ولاسيما

العربية منها ، ولكنه لما لم يجد بعد البحث الطويل ما يطفيء غلته ويقضي به لبانته ويريح ضميره كباحث مجد . لما لم يجد جواباً واضحاً وحلاً موفقاً لما كان يجول بخاطره من المشكلات العلمية أخذ يستحضر رجال الخبرة الأجانب الذين وفدوا على مملكته من كل فج ويسألهم بواسطة المترجمين منفردين أو مجتمعين عن مواقع البلدان وحدودها ، وعن كل مايتعلق بها جغرافياً كلاً بقدر ماتصل اليه معرفته ، وقد كانوا كثيري العدد ، فان توافقت أجوبتهم ولم تتضارب أقوالهم اعتبر إجابتهم صحيحة وأعطاها قيمتها العلمية وقيدها وإلا ردها عليهم ولم يعتبرها ، وبعد أكثر من خمس عشرة سنة قضاها بلا انقطاع مع صاحبه الأدريسي في هذا العمل الخطير والبحث الشائق استقر الرأى على تقييد ماوصلوا اليه ورسمه فى خريطة عاليــة كاملة تبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك كما وصل اليه البحث وانتهى اليه الاستقراء ، فأعطيت القوس باريها ، وعهد بهذه المهمة الكبيرة الى الشريف الأدريسي الذى رسم أصل هذه الخريطة ، ثم بعد هذا أراد الملك أن تحفر هذه الخريطة ثانية على لوح من الفضة ، فأحضر الصناع المهرة الذين أتموا هذا العمل تحت رعاية الأدريسي ورقابته ، وبعد أن جعل الملك مقدار أربعمائة ألف درهم من الفضة كما روى خليل الصفدى تحت تصرف الأدريسي لهذا الغرض اتخذ الأدريسي أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة يبلغ طولها كما قدر الأستاذ «ميللر» ثلاثة أمتار ونصف متر وارتفاعها متراً ونصف متر تقريباً ، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة كما قدمنا خريطة بغاية الدقة والأتقان وتمام الموافقة لتلك الخريطة التى رسمها قبل القيام بعملية الحفر ، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل الشأن فى يناير سنة ١١٥٤ م .

وكشرح لهذه الخريطة وتعليق عليها ألف الأدريسي كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أو كتاب رجار الذى أشرنا اليه ، وإنه لجدير بهذه التسمية بعد أن بذل هذا المليك الجليل تلك العناية الكبيرة ، وقدم هذا السعي المحمود خدمة للعلم وحباً فيه ، وقد كانت العناية بتأليف هذا الكتاب شبيهة بأختها فى وضع الخريطة . فقــد اختار رجار الثانى والأدريسي عدة من الرجال الذين يصح الأعتماد عليهم فى مثل هذه العظائم وبعثوهم الى جهات العالم المختلفة ليدرسوا أحوال البلدان النائية ويدرسوا أهلها وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسيــة ، ويدرسوا حاصلات البلاد وحيواناتها وكل ماتنتجه ويعيش فيها الى غيــر هذا مما له أهمية جغرافيـــة وما يتعلق ببعض نواحى علم طبقات الشعوب وعلم الاجتماع . أمرهم بأن يدرسوا هذا ثم يضعوا تقريراتهم عنه ، ولقد حمل هولاء الرسل إذناً من الملك النورمانى رجار الثانى ليحضروا معهم كل مايعدونه غريباً فى بابه ذا أهمية جغرافية خاصة من الأمور الخارقة للعادة فى باب الطبيعة ، وبعد أن تم ذلك وعاد أفراد تلك البعثة الاستكشافية من الجهات التى أرسلوا اليها ، وقدموا تقاريرهم اجتمع لدى الأدريسي ما مكنه من وضع كتابه نزهة المشتاق .

٦ — كيف كانت صورة الارض فى نظر الادريسى عند وضع خريطته ؟

ولابد لنا قبل أن نتكلم عن شرح الخريطة وبيان بنائها أن نشرح الصورة الأرضيــة التى كان يعتقدها الأدريسي عند وضع خريطته . كان الرأى الشائع الى أواخر العصر المتوسط أن الأرض مسطحة عائمة على وجه الماء . نعم لقد شك بعض علماء اليونان فى ذلك وثار عليه أفراد آخرون بعدهم ، ولكنه لم يزل رأى الأغلبية حتى نهاية ذلك الوقت . أما رأى الأدريسي يشاركه فيه علماء الجغرافيا الأخصائيون من العرب فقد كان غير ذلك ؛ اعتقد الأدريسي أن الارض مكورة على شكل بيضة يحيط بها المــاء ويتعلق بها بواسطة قوة جاذبية طبيعية ، فالماء يغمر نصفها وينحسر عن النصف الآخر مع كون هذا النصف الأخير المنحسر عنه الماء آخذاً شكلا بيضاويا منقسما بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين : شمالى وجنوبى ، المعمور منها الشمالى فقط . أما الجنوبى فهو خراب غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء ، ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه المسلم (١١٢٦ — ١١٩٨) عارض الأدريسي فى هذه النقطة ، فلقد روى عنه ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) فى مقدمته [1] أنه ارتأى أن النصف الجنوبى من الكرة موافق للنصف الشمالى منها تام الموافقة فى الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان مثله ، وأن النقطة القريبة من خط الاستواء سواء كان شمالا أو جنوبا شديدة الحرارة ، ثم تتدرج درجة الحرارة فى الانخفاض بقدر بعد النقطة عنه . ووافق ابن خلدون ابن رشد فى أصل نظريته وأيدها بما ساق من الأدلة ، إلا أنه رأى أن النصف الجنوبى لا سكان فيه كما فى الشمال ، وعلل ذلك بأن معظم القسم الجنوبى الصالح للسكنى مغمور بالماء .

يتبع — *محمد عبد الله ماضى*

(١) المقدمة ص ٢٩ طبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

الصورة والتصور والتصوير *

للأستاذ الحومانى
صاحب مجلة العروبة

هنالك فى حيّز الشعر صورة وتصور وتصوير ، ولكل منها نصيب من الجمال فى الحياة ، ومناط الجمال فى كل منها إنما هو الفن إذا صح إطلاق الفن وحده على الشعر كما سترى . فالصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهى إما حقيقة أو خيال — والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها — والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني ، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط ، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة ، والصورة يتعاقب عليها فنان : فن المبدع وفن المصور ، ويقال للمصور مبدع إذا كانت الصورة من خلقه ، وهو يتصفح الحقائق فينتزع منها صورة مركبة نسميها خيالاً . فالخيال لايخلو من رمز يشير لك إلى المبدع الأول مهما افتن الشاعر فى صرفك عن لحاظه . فالمرأة ظاهرة من ظواهر الفن الطبيعى ، وتصويرها إحدى ظواهر الفن الصناعى . فجمال النفس فيها انما هو جزء من روح مبدعها الأول ، وجمال الشعر فى تصويرها انما هو جزء من روح مبدعها الأخير .

والتصور الذى هو لحاظ الفكر صور الحقائق يختلف شدة وضعفاً باختلاف الفكر الذى هو أداته ، فتصور الشاعر جمال الفن فى احدى ظواهر الحياة إنما هو الاحاطة بدقائقها واكتناه السر الذى كانت له ، والصورة الفنية إنما تتكون من جليل تحف به دقائق يمتاز بالوصول إليها شاعر الفن من غيره ، ومناط الجمال فى تصوير الشاعر وقوفه على دقائق لا يتبينها فى الصورة الفنية سواه ، ففى كل صورة فنية طبيعية كانت أم صناعية من معجزات الفن ماهو ظاهر وماهو خفى . فالشاعر يمتاز من غيره بتصور هذا الخفى ثم لايكون فناناً حتى يصوره . فالرسام إنما يصور لك المرأة الجميلة حتى كأنك ترى شخصها ، والشاعر إنما يصفها لك حتى كأنك تلمس روحها ، إنما يصور ذلك ويصف هذا ، وكلاهما شاعر فنان ، بفضل ما يدركان من خفى ما أبدعه الفن فى الصورة الجميلة فيصورانها . من ذلك نصل إلى أن الشاعر لايفهمه كالشاعر وناقد الفن يجب أن يكون فناناً ، ولا تنس أن الشاعر إنما يفهم الشاعر الذى هو دونه أو مساوله ، وأما من حلّق عليه فلا ينبغى له أن يمد بصره إلى أفقه وهو يحاول نقده حتى يكونه ، على أن الشاعر لايجب فى النقد أن يكون فناناً ، فرب شاعر غير فنان يستطيع بما أوتيه من فكر أوتى دقة التصور أن ينقد الشاعر الفنان .

فالدكتور طه حسين يستطيع أن ينقد أمير الشعراء لا من حيث كونه (١) شاعراً فناناً ، بل من حيث كونه شاعرا فقط ، إذ هو فى الفن دون أمير الشعراء ، ولكنه فى تذوق الفن قد يكون فوقه أو مساويا له ، فليس الشعر مرادفا للفن ولا الفن مرادفاً له . وقد يكون الشعر فنّا كما قد يكون الفن شعراً . والشاعر الفنان يستطيع أن ينقد الشاعر فناناً وغير فنان ، فكل من أبدع فى التصوير كان فى حيزه الابداع فى التصور ، وقد يكون فى حيز الابداع فى التصور الابداع فى التصوير ، وإذا صح لنا أن نطلق على الشعر أنه تصوير الجمال فى الحياة صح لنا أن نطلق عليه جمال التصوير ، فحيث يكون تصوير الجمال يكون جمال التصوير ، وقد يخامر السامع ريب فى صحة الأول ، وأن الشاعر قد يصور قبيحا فى الحياة فلا يخرجه عن كونه شاعرا فيما صور ، وجوابه سهل فيما إذا لحظنا ثبوت كون الجمال نسبيا فى الحياة وأنه لا قبح فيها ، وإنما هو جميل كما مر بك فى القول على الجمال .

وأما إذا اعتمدنا القول فى أن من الصور الفُنية فى الحياة ما هو حسن وما هو قبيح لزمنا القول فى أن حد الشعر بجمال التصوير أصح ، ولزمنا من جهة أخرى نفى الجمال المطلق عن الفن الطبيعى وهو مرآة الفن الصناعى ، فلزم الفرق بين فن الطبيعة وفن الانسان من حيث حده وتعريفه ؛ وهما فن واحد ، إلا أن يكون القبح فى الصور الفنية عارضاً بعد كونها والجمال ذاتى فيها فيستقيم إذ ذاك تحديده الثانى .

فالطبيعة لم تبدع غير جميل ، وما يتراءى لنا قبيحاً فلعارض حور مجراه الطبيعى فى نفوسنا ؛ أو لسرّ فيه خفى عنا إدراكه فعز علينا مناط الجمال فيه ، وليس الجمال فى الصورة أو التصور مناطا

---

* من كتابه (العبقرية) وهو تحت الطبع

(١) أى كون طه حسين

للجمال فى التصوير ، ولا شىء من جمال التصوير أو قبحه يستلزم جمال الصورة أو قبحها . فأى جمال فى صورة الأحدب يستلزمها جمال تصويرها فى قول الشاعر :

قصرت أخادعه وغاب قذاله   فكأنه متربق أن يصفعا
أو أنه قد ذاق أول صفعة   وأحس ثانية لها فتجمعا

فاللازم إنما هو جمال التصوير فقط ، وجمال التصوير يتحقق فى نقل الصورة على أتم وجه بأسلوب جميل ، والصورة أعم من أن تكون فى الخارج كصورة الأحدب التى مرت بك أوفى النفس كما فى قوله :

أعانقه والنفس بعد مشوقة   اليه وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاه كى تزول حرارتى   فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من الجوى   ليطفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يطفى غليله   سوى أن ترى الروحان تمتزجان

فلم يكن الشاعر ليصف لك فى هذا المشهد صورة العناق فى الخارج ، وإنما يريد أن يصور لك حالة نفسية تعتريه كما تعترى كل عاشق ، وهى انفعال النفس بما تجده فى قرب من تحب . وبلوغها حداً لاتشعر معه حتى تبلغ النهاية فى ثورتها وهى امتزاج الروحين ، ولم يكن ليطفىء ثورتها تلاصق الجسدين ، ووضع الشفاه على الشفاه وهما طريقها الى الغاية التى تصبو اليها . على أنى لا أرضى عن الشاعر فى إنكاره أن وراء العناق تدانياً ، فالحب اسمى من أن تناله المادة وهو وليد الروح ، ولعل دموع الحب عصارة هذه النفس المتألمة من وراء انفعالها به ، فاذا كانت الروح مناط هذا الحب فأنى للجسم أن يطفىء ثورته بالتقبيل أو العناق ، والصلة بين المتحابين إنما تتحقق فى امتزاج روحيهما ، فقد يتلاصقان ولما يزل هنالك بعد بين الروحين ، وحجاب كثيف يحول دون امتزاجهما . أفلا يكون إذ ذاك تدان وراء العناق ؟ على أن فى البيت الأخير وجعله امتزاج الروحين مناط شفاء النفس دليلاً على أنه إنما يقصد بقوله (وهل بعد العناق تدان) أن العناق أقصى ما يبلغه الحب فى الصلة بين شخصى المتحابين لا أن مطلق التدانى مرة وراء الحب قاصر على العناق إذ صرح فيما بعد أن هنالك امتزاجاً فى الأرواح ، وهو أشد ارتباطاً فى الحب من العناق ، وأبلغ تدانياً منه .

اذا وصف الشاعر قبيحاً فأبدع فى تصويره ، فقد صور لك جمال الفن ، فكان صادقاً عليه اذ ذاك أنه مصور جمال الحياة إذ الفن من الحياة ، فتصويره تصوير لجمالها أو لناحية من نواحى الجمال فيها . فقد لا تجد أثراً للجمال فى كوخ بال قذر يمرح فيه الفأر وتعلو جدره العناكب ويسود أفقه البق . وقد جلس فى احدى زواياه شيخ بالى الطمر وبين يديه سراج ضئيل يقاسى الى جانبه آلام البؤس .

قد يبدو لك ذلك قبيحاً وأنت تشرف عليه أو تلج اليه فتصفر الحياة فى عينك ماثلة بين جدره . ثم اذا صور لك رسام مفن حرك منظره من نفسك بين روعة الفن وجمال التصوير ما يقف بك خاشع الطرف بين يدى الفن وجلاله ، وهكذا تراك وأنت تقرؤه فى قول الصافى :

أكافح البرد فى سراج   يكاد من ضعفه يموت
فى غرفة كلها ثقوب   أوشئت قل كلها بيوت
يسكن فيها بلا كراء   فأر وبق وعنكبوت

فمناط الشعر فى ذلك إنما هو جمال التصوير ، ولعل الخيال أوفى نصيباً من الحقيقة فيه . ففى قوله (يكاد يموت) و(كلها بيوت) و (بلا كراء) من جمال الفن ما لم تكد تعثر عليه فيما لو جردت الأبيات منها ، ولم يكن ليستطيع الصافى أن يصور لك الجمال فى البؤس لو لم يكن هو بائساً ، ولعل أشعر الناس بالبؤس هو ألصقهم به وأقربهم نفساً منه . اذ البؤس إحدى ظواهر الحياة فى الحى ، والصورة الفنية إما أن تكون حقيقة محضة أو ملفقة من الحقيقة والخيال ، فالأولى تتحقق فى نقلها لك كما فى الواقع حتى كأنك تراها حقيقة مجردة عن الخيال كما مر بك فى تصوير الأحدب فى قول ابن الرومى ، والثانية نقلها لك وليدة خيال يوهمك وجودها فى الخارج كقوله(١) :

خلا بدك البيضاء ذم وللندى   على حافتيها مسرح ومقيل
حمت غصن المعروف أن يختطى الجنى   وزهر الندى أن يعتريه ذبول

لم يشأ أن ينقل صورة الغصن أو صورة المعروف ولا صورة الزهر أو صورة الكرم ، وانما شاء أن ينقل لك صورة لفقها الخيال من كلتا الصورتين على طريق الاستعارة ومن ورائها التشبيه المطوى كما يحققه علماء البيان .

بيروت   الجرمانى

(١) الناظم صاحب النفال

٣ - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشى
مفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية :

تكلمنا فيما مضى عن الشخصية وماهيتها ، وقلنا إنها قد توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الحق ، وبينا أن الناس يختلفون فى شخصياتهم كما يختلفون فى ذكائهم وميولهم الفطرية ، وذكرنا من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية ثلاثة عناصر وهى : الجاذبية ، والنشاط العقلى ، والمشاركة الوجدانية . واليوم نتكلم عن العنصر الرابع وهو الشجاعة فنقول :

ربما كانت الشجاعة أهم عنصر من عناصر الشخصية القوية فى أوقات الرخاء والشدة على السواء ، ولكن ما الشجاعة ؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الانسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذى يهدده ، سواء أكان ذلك الخطر حقيقياً أم وهمياً .

وكما أن الشجاعة فضيلة فى الجندى والملاح فكذلك هى فضيلة فى غيرهما من بنى الانسان . وهى خير مقياس يقاس به الشخص فى أوقات الشدة حيث يتطلب الثبات أو الاقدام . وبهذا القياس يمكن وضع الشخص فى مرتبته الخاصة بين الشجعان أو الجبناء وبين العظماء أو العاديين .

وقد قيل ، وقيل حقاً ، إن الشجاعة تتوقف على القوة الجسمية والعصبية والعقلية والخلقية التى لدى الانسان . وإن المدنية الحاضرة قد قللت من الشجاعة بين الأفراد ، فقد صرح أحد النظار السابقين لمدرسة (إيتون) الانجليزية المشهورة بأنه رأى غلاماً قد دخلت فى عينه ذبابة ، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى ، ولم يكن الأمر فى حاجة إلى أكثر من أن يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة ، ولكنه لم يتحمل آلام دقيقة — إن كانت هناك آلام . فأخذ فى عربة إلى طبيب فى مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية . كل هذا من أجل شىء يسير كان فى استطاعة أى فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة .

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بانجلترا . أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يغرسون الشجاعة ، وخلق الرجولة فى نفوس أبنائهم من الصغر ، ويعودونهم الصبر ، وضبط النفس وكتمان الشعور ، وتحمل الألم من الطفولة الأولى . وبهذه الوسيلة يبثون الشجاعة فيهم . ولا يظهر الخلق المتين ولا تبدو الشخصية القوية إلا بهذا النوع من الشجاعة ، وهو القدرة على احتمال الآلام . وإن من يستطيع أن يحتمل خمس دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر ، سواء أكان جندياً أم قائداً ، متعلماً أم معلماً ، غنياً أم فقيراً . وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة . والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها فى النجاح فى العمل وفى الحياة الاجتماعية فنقول :

مظاهر الشجاعة :

أولا : الشجاعة فى ضبط النفس ، وذلك بأن نقف موقفاً طبيعياً بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء أو عند الظهور أمام مجتمع لالقاء محاضرة أو الاشتراك فى مناظرة ، أو التعبير عن رأى ، أو الدفاع عن مبدإ أو عقيدة ، بحيث لا نرتعد أو نضطرب ، ونظهر بأحسن مظهر فى حديثنا وإلقائنا ، ونبرهن بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكل لطف وأدب . وإذا لم يكن لدى الانسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس فقد تضيع منه الفرصة الذهبية التى قد لا تصادفه مرة أخرى . وكثيراً ما تضيع الفرصة من الشخص ، ثم يندب سوء حظه ، ويشكو الظروف والمقادير ، مع أنه لم يكن فى حاجة الى أكثر من الشجاعة فى انتهاز الفرصة حين سنوحها .

ولا سبب يدعو الانسان الى الخوف من أبناء جنسه . وقد يكون الخوف مبنياً على وهم لا أساس له . واذا وثق المتكلم من نفسه ، وعرف ما يريد أن يقوله ، وعرف كيف يعبر عن خواطره ، وكيف يبرهن على نظريته بالعقل والمنطق ، فانه يستطيع أن يطمئن الى نفسه ، ويمسك زمامها ، ويقابل من يشاء ، ويخاطب من يريد ، مادام متحلياً بالأدب ، واثقاً من نفسه ، وكان عقله مرتباً وأفكاره منطقية ، بحيث لا يتسرع فى ذكر شىء يدل على عقل مضطرب ، أو روح قلق ، ولا يتظاهر بما ليس فيه . واذا وثقت مما تريد أن تقوله فهذا وحده كاف لأن تؤثر فى نفوس سامعيك ، وتنظر اليهم وتقابلهم بكل قلبك وجهاً لوجه ، وتجعل قلبك وروحك فى إثبات ما تريد إثباته ، أو نفى ما تريد نفيه ، فتتكلم بقلبك لا بلسانك .

ولا شىء يبرهن على الشجاعة ويخضد شوكتها أكثر من الهلع ؛ فحيثما وجد وجد الألم ، والقلق النفسى ، وتعب الضمير ، واضطراب العقل ، فتضطرب شخصية الانسان . ولئن كان الخوف ثمناً ندفعه فى سبيل المحافظة على الحياة فالافراط فيه عيب من العيوب الانسانية التى يجب تهذيبها ، والتى تقضى بأن يفكر الانسان فى الشىء وفى نتائجه .

وبجانب المخاوف التى تلحق الشخص فى حاضره ، وتحيط به من وقت لآخر ، مخاوف وهمية يتوهمها ، ويتخيل حدوثها فى المستقبل ، فيقلق باله ، ويضطرب فكره ، وتضعف شخصيته . وكثيراً ما تكون هذه الأوهام المخيفة مبنية على غير أساس ، وندر أن تقع . وكم اغتممنا لتوقع مصائب لم تحدث ، ولن تحدث . وتكثر هذه المخاوف عادة لدى الشخصيات الضعيفة . أما ذوو الشخصيات القوية فلا يكثرون من الهموم من غير ما سبب ، ولأقل سبب ، بل يستقبلون الحياة كما هى ، ويواجهونها بما فيها من مسرات وأحزان ، وسعادة وشقاء على السواء ، يبتسمون بهدوء حتى فى مواطن البكاء ، ويصبرون فى مواقف البأساء . وهؤلاء جديرون بالنجاح فى الحياة لشدة ثقتهم بالله .

والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب ، والعجائب والغرائب . ولا يستطيع الانسان أن يعرف ما ينتظره فى الغد من المقادير ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . فيفاجأ الانسان بأشياء ما كان ينتظرها ، كمرض أو فقد مال أو خسارة . فبهذه وبكثير أمثالها من الحوادث تختبر رجولتنا ، ويعرف معدن الرجولة فينا ، وبالروح التى نقابل بها هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستتر . ولا تظهر الرجال إلا عند الشدائد والمصاعب .

وبما أن النجاح فى الحياة ليس من السهل فيجب أن يتعلم الانسان كيف يبتسم فى الأيام المظلمة ، كما يبتسم عند المسرات فى أيام السعادة والهناءة . وينبغى أن يتعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه عند الملمات حتى يكتسب إعجاب رفقائه واحترامهم ، ويثبت ثبات الطود فى مهب الرياح . وليس من الشجاعة أن تكثر من شكوى الحياة والظروف والأيام ، فشكوى سوء الحال لن تغير ما حدث ، بل تذهب بنضرة العقل ، وقوة القلب . وإن الفرَق من الخذلان والهزيمة يؤدى إلى الهزيمة ، وقوة الأمل فى النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظ روح الانسان وهمته . وتبعث فيه كثيرا من الرجاء فى الفوز ، وبخاصة اذا عمل بعقله وقلبه ويده ، وإن الاعتراف بالنقص فضيلة ، والعمل على علاجه شجاعة .

فنحن فى حاجة الى الشجاعة التى بها نستطيع مواجهة المخاوف ومقابلتها بكل ثبات وصبر وتفكير حتى نتغلب على مصاعب الحياة ، ونقلل من الخوف الذى يهدم الرجولة من أساسها ، ويقتل الشخصية فى مهدها .

وإن أعظم انتصار فى الحياة هو الانتصار على النفس بضبطها وكبح جماحها ، والتغلب عليها . وليست الشجاعة فى أن تنتصر على سبع مفترس فحسب ، ولكن الشجاعة فى أن تسيطر على نفسك التى بين جنبيك . وأرقى مظاهر الشجاعة الصبر والتحمل عند المقدرة .

ثانياً : هناك مظهر آخر للشجاعة يتبين فى التغلب على الصعاب التى تعترض الانسان فى الحياة ، وإصلاح الأخطاء التى تمر بنا سواء أكانت هذه الأخطاء منسوبة الينا أم منسوبة إلى غيرنا . وهناك كثير من المصاعب التى يمكن التخلص منها بقليل من الشجاعة والحزم والثبات ؛ وكثيرا ما يكون الجبن سببا فى الفشل وعدم النجاح فى العمل . وكما تكون الشجاعة فى الاقدام على الشىء تكون فى الاحجام عند تحقق التهلكة . ولا تقل الشجاعة فى الأحجام والتريث حينئذ عن الشجاعة فى الاقدام .

وممن كانوا مثلاً للشجاعة واقتحام المخاطر بين العرب خالد ابن الوليد : ومن أقواله : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه طعنة أو رمية ، ثم هأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، فلا نامت أعين الجبناء .

ثالثاً : تظهر الشجاعة فى الاجابة وفى إبداء الرأى : ومن الشجاعة أن يجيب الانسان بكل أمانة وإخلاص عما يسأل ، وأن يبدى رأيه بكل صراحة ، ويدافع عنه من غير تغيير للحقائق ، ومن غير اضطرار الى الأنكار أو ذكر نصف الحقيقة خوفا من أن يظهر بنفسه الحقيقية كما هى ، وإذا اعترفنا بكل اخلاص أننا فعلنا كذا ، ولم نسمع رواية كذا ، أو لم نقرأ كتاب كذا ، أو أننا لا نحب فلاناً فقد يعجب المستمع العادى ، ولكننا لو ذكرنا السبب بطل العجب . وهذا أفضل من تشويه الحقائق بالتغيير والزخرفة وتضليل الغير . وهناك أسئلة شخصية تدل على تطفل السائل ، وتدخله فى شئون غيره ، فمثل هذه الأسئلة يجب أن تحارب برفض الاجابة عنها بكل أدب . عقابا لذلك المتطفل ؟

محمد عطية الابراشى

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٧ – الرواية المسرحية

فى الفن والتاريخ

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسى

مآسى كورنى : سنا Cinna — موضوعها حلم أغسطس على سنا ، وعفوه عنه وعن سائر المؤتمرين به ، ومغزاها انتصار العفو على الانتقام . وقد وقعت حوادثها فى قصر أغسطس بروما عام ٢٣ قبل الميلاد . وأهم أشخاصها : أغسطس أول امبراطور لروما . وسنا حفيد (بمپيه) وزعيم المؤتمرين بالامبراطور ، ومكسيم زعيم آخر من زعماء المؤامرة ، واميلى بنت طورانيوس قتيل أغسطس ظلماً ، وأوفورب عتيق مكسيم .

الفصل الاول : تناجى اميل نفسها أولاً ، ثم تصارح نجيتها ثانياً بعزمها على الانتقام من قاتل أبيها ، ولا تجد آلة لانتقامها إلا سنا حبيبها . فتشترط عليه ألا تقبله زوجاً إلا إذا انتزع من الامبراطور السلطان والحياة . فيجتهد سنا فى تدبير المؤامرة . ويعود اليها فينبئها باستعداد المؤتمرين للعمل فى الغد . ويفجأه الامبراطور باستدعائه اليه هو وشريكه مكسيم ، فترتعد مفاصلهم مخافة أن يكون أمر المؤامرة قد افتضح .

الفصل الثانى : على أن جزعهم كان سابقاً لأوانه ، فان الامبراطور مازال يجهل أمرهم . وانما يريد أن يستشير الزعيمين فى نزوله عن الملك ، فقد سئمه وزهد فيه . فيشير عليه مكسيم بترك العرش ، ويتوسل اليه سنا بالاحتفاظ به . فان الشعب لا يصلح أمره ولا يهنأ عيشه إلا إذا كان له سيد . أما حكومة الشعب فهى شر الحكومات . فينزل الامبراطور على رأى سنا . ويخلو الزعيمان الى نفسيهما ، فيلوم مكسيم شريكه على إظهاره خلاف ما يضمر . فيعلن اليه سنا أن موت الطاغية هو مهر اميلى ، وفى نزوله عن الملك إخفاق هذا الأمل :

الفصل الثالث : يغار مكسيم من سنا لأنه يحب اميلى أيضاً ، ويحاول إحباط زواجهما . ويغريه مولاه (أوفورب) أن يفشى سر المؤامرة الى أغسطس . ويحز سنا ضميره ويشتد ألمه وندمه كلما دنا الوقت العصيب فيتردد . وتدخل عليه اميلى وهو فى تلك الحال فتوقد صدره وتجمع أمره فيذهب ، ولكن فى نيته أن يقتل نفسه بعد أن يقتل الامبراطور .

الفصل الرابع : يبلغ أوفورب خبر المؤامرة الى أغسطس من قِبَل مكسيم ، ويوهمه أن سيده ألقى بنفسه فى نهر التبر كراهة للحياة بعد اقتراف جريمتين : جريمة التآمر وجريمة الوشاية . فيدهش الامبراطور ويناجى نفسه بالأمر نجوى جميلة ، ويقلب الرأى فيما يحسن أن يفعل ، فتنصحه زوجه بالعفو فانه أجدر بالقادر ، ولكنه يخرج على غير رأى ، وتخلفه أميلى على المسرح ، ويدخل عليها مكسيم يتضرع اليها أن تفر معه فتأبى الا الوفاء لسنا . وتعرف من الواشى الخيانة فتحتقره ، ويندم مكسيم على إطاعته مولاه فيعزم على قتله قبل أن يُقتل هو

الفصل الخامس : يجمع الامبراطور رأيهُ على أن يمن بالعفو فيدعو اليه سنا ويذكره بنعمه عليه ، وطول إحسانه إليه ، ويعجب أن يكافئه على حسن صنيعه بقتله . فيحاول سنا أن ينكر ، ولكن أغسطس يظهره على أنه يعلم سر المؤامرة . وتدخل حينئذ أميلى فتحمل تبعة المؤامرة وتعلن أنها تثأر لأبيها . ويبرئها سنا ويقرر أنه هو المسئول عن تدبيرها وحده . ويظهر مكسيم فيعترف بخيانته ، وتتحرك فى قلب أغسطس عواطف الكَرم والاريحية فيعفو عنهم جميعا ، وهو يقول : أنا سيد نفسى كما أنا سيد العالم !

* * *

بوليكت Polyeucte موضوعها استشهاد القديس بوليكت من اضطهاد الامبراطور (ديس) ، ومغزاها انتصار الايمان على الحب . وقد وقعت حوادثها فى ميليتين عاصمة أرمينية فى قصر فيلكس عام ٢٥٠ للميلاد ، وأهم أشخاصها فيلكس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى وحاكم أرمينية ، وبليكت أمير أرمنى وزوج ابنة فيلكس ، وسيڤير فارس رومانى وحظى الامبراطور ، ونيارك أمير أرمنى وصديق بوليكت ، وبولين بنت فيليكس وزوجة بليكت .

الفصل الأول : اعتنق بليكت الدين المسيحي ولكنه لا يجرؤ على الخروج إلى المعمودية ، مخافة أن يؤلم زوجته بولين . فقد رأت في النوم رؤيا مروعة أخافتها على حياة زوجها فمنعته من الخروج . ولكن صديقه نيارك يلح عليه فيذهب معه خفية . وفي غيبته تقص بولين على وصيفتها الحلم الذي أزعجها ، وتعلن إليها أنها أحبت سيفير وهي في روما ، ولكن أباها رفض أن يصادق على زواجه منها ، ثم قدمت أرمينية مع أبيها وفي ظنها أن سيفير مات ، فتزوجت من بليكت ؛ وفي الليلة البارحة رأت فيما يرى النائم أن سيفير منتصر وأنه منتقم . ويدخل عليها أبوها فيخبرها بقدوم سيفير وبحظوته عند الامبراطور ، ويخشى أن يعزله من منصبه لتزويجه ابنته من غيره . ويطلب إلى ابنته أن تحسن استقباله وتكفكف من غربه

الفصل الثاني : ينزل سيفير في قصر الحاكم ، ويعلم بزواج بولين فيملكه الذهول والدهش ويريد أن يراها . فاذا ما لقيها تعترف له بأنها تزوجت من بوليكت نزولاً على حكم أبيها ولكنها أحبته منذ تزوجته ، وتطلب إلى سيفير ألا يراها مرة أخرى .وفاء لزوجها فيتركها بعد أن يتمنى لها الخير . ويعود بوليكت من المعمودية فلا يرتاب في حضور سيفير لثقته بزوجه ؛ وتأتيه دعوة إلى حضور القربان الذي يقدمه الحاكم ابتهاجاً بانتصار سيفير ، فيذهب إليه مع صديقه نيارك ، وفي نيته أن يحطم الأصنام

الفصل الثالث : وبينما يعبث القلق والخوف بقلب بولين إذ تدخل عليها وصيفتها فتخبرها بأن نيارك وبليكت حطما الأوثان على ملأ من الشعب . ويستقل الغضب بفيلكس فيحكم على نيارك بعذاب الموت . ويعلن إلى ابنته أن بليكت إذا لم يرعو عن زيغه ويتعظ بمصير صاحبه حل به ما حل به ، ثم يريدها على أن تعيده إلى حظيرة الوثنية ، وإلا خشي أن يسخط الأمبراطور عليه إذا تساهل في أمره

الفصل الرابع : تُعلن إلى بوليكت زيارة بولين . فيخشى دموعها أكثر مما يخشى تهديد فيلكس ، ويبعث في طلب سيفير . وفي غضون ذلك يعبر عن عواطفه الدينية بقطعة من الشعر الخالد وينبو على حنان زوجته . ثم يطلب لها الهداية ، ويرجو سيفير أن يتزوج من بولين ، فقد صمم على أن يموت في سبيل عقيدته ، ولكن بولين تصرح أنها لا تتزوج رجلاً كان سبباً في موت زوجها ولو غير عامد . فيقرر سيفير في نفسه أن يسعى في نجاة خصمه ليكون أهلاً لحب بولين

الفصل الخامس : ولكن فيلكس يظن أن سيفير لا يطلب العفو عن خصمه إلا تدبيراً لمكيدة ، فهو يخشى أن يرميه عند الأمبراطور بالتساهل والمحاباة . فيدعو اليه بليكت ويحاول أن يفتنه عن دينه ، وتساعده بولين بدموعها فما يرجعان بطائل ، ويمشي بليكت إلى الموت مشية الظافر ، وتتبعه بولين ثم تعود إلى أبيها بعد أن شهدت زوجها يموت ، فتوبخه على وحشيته وتعلن إليه أنها مسيحية ، ويهدده كذلك سيفير على عدم اعتداده برأيه وقبوله لشفاعته ، فيتنصر فيلكس أيضاً ويستعد للموت . ولكن سيفير يؤثر فيه هذا المشهد فيطلب إليه البقاء في منصبه ، ويعده أن يمنع الأمبراطور عن اضطهاد المسيحيين .

مآسي راسين

أندروماك Andromaque موضوعها حادثة من الحوادث التي أعقبت حرب طروادة وهي سبي أندروماك أرملة هكطور في أبيريا . وقد وقعت حوادثها في بطرون من مدائن ابيريا في غرفة من قصر بيروس . وأهم أشخاصها أندروماك أرملة هكطور وسبية بيروس ، وبيروس بن أخيل وملك أبيريا ، وأوريست بن أغاممنون ، وهرميون بنت هيلين وخطيبة بيروس ، وبيلاد صديق أوريست

الفصل الأول : بيروس يهوى أندروماك التي سباها بعد سقوط طروادة ، وجلبها إلى أبيريا مع ولدها استيانا كس ، ويهجر خطيبته هرميون بعد أن شغفها حباً . ويقدم أوريست عاشق هرميون إلى بيروس موفداً من الأغريق يطلب منه تسليم استيانا كس ليقتلوه ، فيأبى الملك تسليمه ، وينبىء أندروماك بالخطر الذي يترصد ولدها ، ويأخذ على نفسه أن يحميه على شرط أن ترضى به زوجاً . ولكن أندروماك ترفض إخلاصاً لذكرى زوجها الأول ، فيثور الغضب في وجه الملك ويخرج وهو يقول : إن الولد سيكفر عن احتقار الأم .

الفصل الثاني : تتلقى هرميون الأمر من أبيها بالعودة مع الأغريق اذا أبى بيروس أن يسلم استيانا كس . فيرفض بيروس ، ولكن هرميون ترفض أن ترحل لأنها تغار من اندروماك . على أنها تلين لألحاح أوريست خطيبها الأول ، فيزهوه النصر . ولكن

بيروس يحنق على اندروماك لأبائها ، فيعلن الى أوريست أنه يسلم استياناكس ويتزوج منَ هرميون .

الفصل الثالث : يتحرق أوريست من اليـأس ، وتطفر هرميون من الفرح ، وتتقطع أحشاء اندروماك من الحزن ، وتتوسل الى هرميون أن تنقذ ولدها ، فتدفعها هذه باحتقار ، فتذهب الى بيروس فتجثو بين يديه وتسأله ولدها ، فيرضى أن يدفعه إليها إذا قبلت أن تنتظره عند الهيكل ، وهناك إما أن تربح التاج ، وإما أن تخسر الأبن ، فتذهب اندروماك مشردة اللب الى قبر هكطور تستشير روحه .

الفصل الرابع : تستكين اندروماك ابتغاء حيـاة ولدها ، وترضى أن تتزوج بمبيد أسرتها على نيـة أن تنتحر بعد الزفاف ، وترغب وصيفتها أن تموت هى أيضاً ، ولـكنها تنصح لها أن تعيش لتنفع استياناكس ، ولتمـكن له عنـد بيروس ، ولتحدثه عن أبطال قومه . ويثور ثائر هرميون فتطلب من أوريست أن يقتل بيروس على أن تتزوجه من بعده ، فيتردد طويلاً ثم يطيع .

الفصل الخامس : يذهب أوريست مع الأغريق الى الهيكل فيقتل الملك ثم يعود ، فيقص على هرميون مافعل ، فتقابله بالازدراء وتصفه بالخيانة ، ويصيبها الخبال من الحزن واليأس فتطعن نفسها بالخنجر فوق جثة الملك ، ويرى أوريست نفسه محاطاً بالأشلاء والدماء ، فيضل عقله ويفقد صوابه . ويسدل الستار على هذه الفاجعة الأليمة .

* * *

(أتالى : Athalie) موضوعها حادثة من تاريخ بنى إسرائيل وهى موت أتالى وتتويج جواس فى القرن الرابع قبـل المسيح . وذلك أن أتالى بنت آكاب ، وأرملة جورام ملك يهودا ، ذبحت أبناء ولدها أو كزياس جميعاً بعـد موته ليخلو لها الطريق إلى العرش والسلطان ، ولم تدر أن واحداً منهم أخطأه القدر ، فأنجته (جوزابيت) عمته وزوج الـكاهن الأكبر جُواد ، وربتـه هى وبعلها سرا فى معبد أورشليم باسم إلياسين حتى جاء يومه فرفعاه على عرش أبيه . وأهم أشخاصها جواس ملك يهودا وابن أوكزياس ، وأتالى أرملة جورام وجدة جواس ، وجواد كبير الـكهنة ، وجوزابيت عمة جواس وزوجة جواد ، وز كريا بن جواد ، وسالوميت أخت ز كريا ، وأبنير ضابط من ضباط الملك ، وقد وقعت حوادثها فى معبد أورشليم فى دهليز مسكن الـكاهن الأكبر .

* * *

الفصل الاول : يظل أبنير قائد جيش أتالى مخلصا الدين لله . وفى يوم عيـد العنصرة يبكر بالذهاب إلى الهيـكل فيلقى هناك جواد ، فيفضى اليه بمكنون صدره من الأسف على الماضى ، والأسى على الحاضر ، والانكار لما اقترفت أتالى من ظلم ، وأحدثت من بدع ، ويبدى لهما يساوره من الخوف عليه من سطوتها وبغيها . فيهدىء الـكاهن روعه ويجدد أمله ، ويعده أن يبوح إليه بسر خطير فى الساعة الثالثة من النهار . ثم يصرح لزوجته بأنه سيعلن نسب جواس فى ذلك اليوم نفسه . وتشدو القيان بتمجيد آلاء الله وإعلاء دينه .

الفصل الثانى : تجىء أتالى الى الهيكل فيغلق الـكاهن دونها أبوابه ، فتظل فى الفناء مع أبنير وماتان ، وتقص عليهما أنها رأت حلماً أزعجها وراعها : رأت أن أمها إزابيل جاءتها فى المنام منذرة بحلول كارثة فادحة . ثم ظهر لها بعد ذلك غلام طعنها بخنجره فى أحشائها طعنة قاضية . وما كان أشد عجبها ودهشها حين ترى فى الهيكل شبيه الغلام الذى طعنها ! فينصح لها ماتان أن تقتله . ويشير عليها أبنير أن تدعوه وتسأله ، فتـأمر به وتستفهمه عن أمره . ولـكنه لا يقول أكثر من أنه يحب الله ويبغض الأوثان وأهل الشر ثم يذهب . فيشتد قلقها وفرقها من هذا الجواب وتخرج . فيطهر الـكاهن الأكبر الهيكل من أثرها النجس . ثم تشدو القيان بسعادة الأبرار وشقوة الفجار .

الفصل الثالث : يفد ماتان من قِبَـل أتالى على كبير الـكهنة يطلب منه تسليم الغلام رهينة الصلح بين الملكة وبينه ، فيطرده الـكاهن طردا قبيحا فيذهب مهددا ، ويوقظ شكوك أتالى فيه . فيشتد الخطر ويفدح الأمر . ولـكن جواد يزداد بالله إيمانا وثقة ، فَيُطمئن امرأته ويتنبأ بسقوط أورشليم وقيام الـكنيسة المسيحية . ثم يأخذ فى أسـباب التتويج ويحرض اللاويين على القتال دفاعاً عن الهيكل ، وتنشد القيان أناشيد الخوف والرجاء

الفصل الرابع : يعلن الـكاهن إلى جواس حقيقة مولده ، ويبصره بحقه وواجبه ، ويقدمه إلى اللاويين ولياً لمهد داود ، ويأخذ عليهم الايمان أن يؤازروه وينصروه . وما هى إلا لحظة حتى يحمل إليه لاوى خبر محاصرة الهيكل بجنود أتالى . فتضطرب جوزابيت جزعاً على جواس ، وينظم الـكاهن صفوف المدافعين ، وتنشد القيان نشيد الغوث والمعونة من الله .

حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

دعوت الله ألا أرى القاهرة في الرابع عشر من سبتمبر. وكنت مقيماً بين مزارعي وشواغلي إلى الثاني عشر منه، فجد لي عمل هام يقتضيني سفراً اليها قد يستغرق يومين أو ثلاثة.

لست أكره الذكرى، بل أعمل لها، وعقيدتي أن ذكريات المحن كذكريات المنح في نتيجتها. لأنها تشحذ العزائم وتبعد تكرار الأخطاء؛ وليست ذكرتي بالضعيفة، وإنما تعذبني في الواقع بشدة إحساسها، ولكنما خيل إليّ أن أعصابي لا تحتمل شهود العاصمة المحبوبة في ذلك اليوم !!! كبر على أن أشهد المدينة القاهرة الزاهرة التي عاش أهلها في طهارة الاستقلال وعزه، يعيشون منذ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ غارقين في رجس الاحتلال وذله . . .

ما كدت أصل القاهرة مساء الثاني عشر من سبتمبر حتى استعرضت برنامج عملي على أن أعجل منه ما أستطيع وأرجىء منه مالا يضيره إرجاء. فلما أصبحت أسرعت الى عملي وفرغت منه في نحو العاشرة صباحاً، وذكرت على التو أن قطاراً يغادر القاهرة إلى بور سعيد في الحادية عشرة، وفي هذا زوال ما أخشى.

وأزمعت السفر لأعود بأسرتي من المصيف وقد قرب افتتاح معاهد الدرس، وخيل اليّ أني سأتلافى بسفري جواً خانقاً ويوماً من الدهر حانقاً ! . .

سيتحقق إذن ما تمنيت على الله، فلا أكون بالقاهرة يوم تشرق شمس جاء أصيلها على البلاد بمحنة المحن. فاذا جيش الاحتلال يدخل قلب البلاد، وإذا نائب عن الخديو يلازم الجيش ! ! . . وهل شر من احتلال أجنبي يظله اضطراب لا يستقيم معه فكر، ولا يتسق، وإياه منطق ؟ ! !.

الفيكونت ولسلي يرفع لانجلترا في قلب مصر رايه: وسلطان باشا يؤمن تلك الراية باسم الخديو ! . وأين عرابي وأين الجيش ؟ وفيم كانت الحرب ؟ وأي فكرة تنطبع في ذهن البلاد لصورة هي التناقض بذاته فوق ما تحمل من عار ؟ .

والله ما ابتلى شعب بمثل ما ابتلى به شعبنا في ميداني المادة والمعنى، ولولا أن الشعب كان قوياً بدينه وتقاليده، عظيماً بآثار المحن الغابرة في عزائمه، عزيزاً بكرامته، لنالت منه الأحداث أضعاف ما نالت، ولو حلت بغيره لأفنته.

***

جلست في القطار أتسلى بالقراءة، واتفاقاً بدأت بكتاب صغير اشتريته من (كشك) ليفاداس بالمحطة — مؤلفه فرنسي — والكتاب عن حصار « باريس » سنة ١٨٧٠ .

أخذت أقرأ وفي نفسي أني واجد في وطنية الفرنسيين الهائمين بعاصمتهم وبمجدهم، وفي كفاءة الألمان وحسن تنظيم جيوشهم خير عبرة وتسلية. ولقد أجاد المؤلف في المقدمة، وفي وصف الحالة العامة، ثم إذا به فجأة يتكلم عن باريس في ١٩ سبتمبر، فيصف الطوارىء، وحالة الرأي العام وصعوبة التموين، وضعف خطوط الدفاع ! .

إذن مازلنا في شهر سبتمبر ! ولازالت هناك سلسلة من هموم في ثناياه إذا خلفتها في القاهرة ذكرتها عن باريس في محنة مماثلة ! وفي المثل : يؤتى الحذر من مأمنه .

ما عتمت أن تمثلت بالكلمة الخالدة التي انتزعها من فم الرجل

الفصل الخامس : يدخل أبنير الهيكل المحصور سفيراً إلى الكاهن يحمل شروط أتالي الأخيرة وهي تسليم إلياسين، وتقديم الكنز المدفون في الهيكل، فيجيبه الكاهن : لتدخل الملكة فتأخذ ماتشاء بنفسها. ثم ينصب في أثناء ذلك عرشاً لجواس، وتدخل أتالي المكان المقدس يحف بها ثلة صغيرة من الحرس وهي تقول : أين الغلام وأين الكنز ؟ فيريها الكاهن جواس على العرش، ويقول لها : هذا كل ما بقي من كنز داود ! فتحتدم الملكة من الغيظ وتصيح : ياللخيانة ! ! ياللجند ! ! ولكن الجنود يأخذهم الفزع فيتمزقون شر ممزق، ويقبض اللاويون على الملكة ويسحبونها خارج الهيكل، ويذيقونها عذاب الموت بما كسبت؛ ويقول جواد لجواس في كلام طويل : « لا تنس يامالك اليهود أن للملوك قاضياً جبارا، وللبرىء منتقما عزيزا، ولليتيم أبا رحيما . ! ! »

(يتبع) الزيات

الحزين سيدنا كعب بن مالك — خطابُ عاهل غسان اليه ؛ فقلت معه رضى الله عنه : « وهذا أيضاً من البلاء » (١)

يقول المسيو « سارسى » مؤلف « حصار باريس » بعيد إعلان الجمهورية : « وبينما يشتد ضغط الجيش البروسى وتتوالى انتصاراته وتكتمها الحكومة عن الشعب كنت كثيرا ما تسمع واحدا يقول لرفيقه : (إنهم لن يجرؤا على دخول باريس مادمنا حصلنا عليها) أى ما دمنا أعلنا الجمهورية فلن يجرؤ البروسيون على فتح باريس . »

وهكذا تلهى الباريسيون بأعلان جمهوريتهم عن الغرض الأساسى وهو حماية باريس من هجوم الأعداء .

أوَ لَمْ نصب بهذا يوم أطلق سراح المرحوم سعد باشا زغلول وصحبه . ويوم ذهب اللورد ملنر يفاوض الوفد ، ثم يوم أعلن الدستور سنة ١٩٢٤ ففترت ثورتنا وتشتت شملنا ؟

كان لأحد أدباء باريس فى ذلك العهد غرام بجمع المؤلفات الأدبية ذات الغلاف الأنيق . فاقتنى منها ما يعد ثروة ضخمة رتبها فى منزل بجوار باريس . ثم صدق ما كانت ترددهُ الصحف من استحالة باريس على الهاجمين فمضى فى تنسيق تراثه . ثم إذا به بين يوم وليلة يتحقق أن الصباح قد لا يشرق إلا مغبراً بخيل العدو . أسرع بما استطاع حمله ، وآوى إلى أول فندق ثم استراح الراحة الأبدية ، فقد وجدوه ميتاً فى بكور الصباح . وكان بذلك مجدود الحظ سعيداً . فلم يرسنابك الأعداء فى العاصمة الحبيبة

وإذن لست أول الناس فى هذا الشعور الذى أقض مضجعى قبيل ١٤ سبتمبر ولو أنى لم أحظ بنصيبه ، فلعل الله يرينى يوماً ميموناً بالخلاص .

* * *

أغرق أهل باريس فى تحية الحكومة الجديدة بقدر ما أسرفوا فى الطعن على الأمبراطورية وما جرت من ويلات ، حتى رسخ فى ذهن الجمهور أن بروسيا لاتحارب فرنسا ، ولكنها تحارب الامبراطورية .

وقد يعجب القارئ إذا علم أن الأمبراطورية التى باتت مثالاً للشقاء فى أعين الفرنسيين هى النظام بذاته الذى تأيد بثمانية ملايين من أصوات الناخبين قبل ذلك بشهر

ولقد كان موقف نابليون الثالث شبيهاً بموقف عرابى باشا ، ولعل الخير كل الخير كان فى أن يموتا فى ميدان القتال .

ليست العبرة فيما ينفع أنه يرضى الناس بادى الرأى ، وإنما العبرة فى أن يكون نافعاً وكفى . ولا بد من تعويد النفس احتمال الكروب فى سبيل العقيدة ، وثبات العزم على صحيح الرأى

ألف الجنرال « تروشى » فى عهد الأمبراطورية كتاباً نقد فيه حالة الجيش وخطوط الدفاع من الوجهة الفنية نقداً أغضب الأمبراطور ورجال ذلك العهد حتى أضروه بسببه

فلما حوصرت باريس وبدا الضعف واضحاً فى خطوط التحصين عادت بالشعب ذاكرته إلى الجنرال المؤلف وإلى كتابه ، ووصل الرجل وكتابه إلى الذروة ، ولكن الوقت لم يكن يسمح يومئذ بتنفيذ شىء مما أشار به .

ولا بد لنا — لأحاطة أخلاقنا بسياج يقيها العثرات — أن نرجع البصر إلى خطوات الماضى ، وإلى عظات من سبقونا من رجالات مصر — فذلك كفيل بحسن التوجيه .

شىء من الثبات ، وعود إلى آدابنا القومية ، وتقاليدنا الشعبية ، وشىء من الشجاعة الأدبية ، لنقول للمخطىء أخطأت ، وللمصيب أصبت .

جعل الله لنا فى الماضى عظة ، وفى الحوادث عبرة . وجمع على الحق شتاتنا إنه كريم مجيب ؟

محمد محمود جلال
المحامى

---

(١) خلد الصحابى الجليل فى سجل التاريخ مثلا أعلى لمتانة الخلق والثبات والصدق : أسلم وحسن إسلامه . ثم جاهد ، ثم تخلف عن إحدى الغزوات عن غير نية مبيتة . فلما مثل بين يدى الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام قدم بأنه أوتى جدلا ، ولكنه يصدق نبى الله الحديث فيعترف بأنه كان معافى قويا ممونا ولكنه تخلف . يعترف وقد يغضب الرسول ولكنه لا يحب أن يكذب فيسخط الله .

قاطعه المسلمون ، ولا يشرفه النبى بكلمة . وبوعد بينه وبين زوجه — يسير فى الأسواق فلا يجد من يرد عليه تحيته . وهو فى كل ذلك صابر واثق من نفسه مقتنع بصدق نيته وهو فى هذه الحالة من القطيعة يسمع مناديا باسمه ، فاذا تطلع اليه دفع اليه المنادى كتابا من ملك غسان يغريه بالهجرة اليه . يقول له « إن الله لم يجعلك بدار هوان فامض الينا نواسك »

ولكن كعبا رضى الله عنه يرى فى عقيدته ومبدئه حصنا ومناعة فيأخذ الكتاب ويترقرق الدمع فى عينيه ويقول : « وهذا أيضاً من البلاء » ثم يمضى إلى تنور فيسجر فيه الكتاب .

من اللزوميات :

من أبى العلاء

الى الشاعر التونسى محمد الحليوى

(أبا العلاء أحقاً أنت فى دعة من الخطوب وفى سلم من الكرب)
« الحليوى »

أبا فلان ! جزاك الله صالحة فان وصلك حبلى أطيبُ القُرُب
هذا جوابك — لكنى أُسِرُّ به فاشحذ لتسمعنا أذنيك واقترب
(قدعشتُ رهن العمى والحبس) منقبضاً
عن رفقة طبعهم أعدى من الجرب
لم أعدُ أنى عددت القوم مذ نضحت حمقاً جلودهمو صنفاً من القِرَب
وما يضير الورى أن بت مكتفياً
من الطعام بمثل الصَّرْب والصَرَب (١)
أغربت عند أناس من غباوتهم بأننى مِزْتُ عود النبع والغَرَب (٢)

***

أمَّا الولاة ، فقوم أنت تعرفهم ! يُمنى مخالطهم بالويل والحَرَب
كم سارب منهمو خوفاً وآمننى
فى السِّرْب أنى اتخذت الدار كالسَّرَب (٣)

***

فدع (المُنْكَ) (٤) إنى لست أعرفه ،
من لى بذاك ، وصحن الدار مضطرَبى (٥)
وما مررت بقصَّاص فأسمعنى ألا وألفيتنى أمعنت فى الهرب
فليس يعمر قلب بات يملؤه بالإفك يصدره عن قلبه الخرب

---

(١) الصرب والصرب : اللبن الحامض والصمغ (٢) أغرب : جاء بالغريب . والنبع والغرب شجر قوى وشجر ضعيف (٣) السارب : الذاهب على وجهه فى الأرض . السرب : النفس والجماعة . والسرب : البيت فى الأرض (٤) الخطاب للشاعر التونسى حيث قال :

(هى الحقيقة تحكى ربة ملكت عرش الألمب على الأرباب والرسل)

(٥) المضطرب : المجال

قد عشت ما عشت رهن المحبسين ومن
يعاشر الناس باع التمر بالكَرَب (١)
فجـــــاء يوماً أبو يحيي وفى يده
كأس مذاقتها أشهى من الضَّرَب (٢)
فأسكرتنى بلا خمر وجدَّ بنا من شربها طرب ناهيك من طرب
واذ بعينىَ عادت وهى مبصرة واذ بذهنىَ ذهن الحاذق الدَّرِب
نظرت حولى فأبصرت الأُلى سبقوا على غرار وإذ بالعُجم كالعرب

***

حتى إذا النفس ثابت بعد دهشتها لاحت مجرَّدة من ثوبها التَّرِب (٣)
فراعنى أنها المرآة منعكساً نور الحقيقة فيها غيرَ مضطرب
أمانة حملتها النفس قد خفيت على البصائر لم تدرك من التَّرَب (٤)
ما كنت مدركها لو لم أمت أبداً أو كنت مبصرَها أو بالغاً أربى
ومن يمت مرة فى الدهر واحدة نال الخلود فما يخشى من الكُرَب

***

من يصقل النفس يكشف عن حقيقتها
ولست تكشفها بالمنطق الذرِب

مصطفى العلوى

---

(١) يعنى بالمحبسين : الدار والعمى . الكرب : أصول السعف . والمعنى باع القيم بما لا قيمة له (٢) أبو يحيي : كنية ملك الموت . والضرب العسل (٣) الترب : بالكسر المصاب بالتراب . والمراد بالبيت : أن النفس متى تجردت تدهش أولا ثم تثوب (٤) الترب : بالفتح الاصابة بالتراب . والمقصود بالأمانة هنا الحقيقة ، ويريد أن الحقيقة قائمة فى النفس ، وأن إدراكها ممكن .

من الأدب الأندلسي

التوابع والزوابع (١)

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

— ١ —

نشأ أبو عامر بن شهيد الأشجعي في الأندلس في قرطبة إحدى مدن العلم والأدب ، وكان هذا الرجل أديباً مغموراً توغل في شعاب البلاغة وطرقها كما يقول ابن خاقان (٢) ، وله في الأدب مجالس معمورة يبث فيها تعاليمه وآراءه ، ويا لها من تعاليم قيمة ، وآراء مبتكرة ، ولكنه كان مبتلى بحقد جماعة من معاصريه قصروا عن شأوه فناصبوه الخصومة ، فكان وهم كما يقول .

وبلّغت أقواما تجيش صدورهم عليّ وأني منهم فارغ الصدر
أصاخوا الى قولى فأسمعت معجزاً
وغاصوا على سرى فأعياهمو أمرى

ولكنه لم يلبث أن ضاق صدره بهم ، وشغله أمرهم ، فأصلاهم ناراً حامية من التهكم المر والتعريض اللاذع ، وتفنن في الانتقاص من قدرهم ، والحط من شأنهم ، وتحداهم بآرائه في النقد والبيان ، وازدهى عليهم بقدرته في الشعر والنثر ، وساق ذلك كله في قصة خيالية زعم أنها وقعت له في وادى الجن ، وأن حوادثها جرت بينه وبين شياطين الشعراء والأدباء — هذه القصة هي « التوابع والزوابع » موضوع بحثنا اليوم — وهي رسالة أدبية ممتعة تعد من خير ما خلف في تراثنا الأدبي قوة وجدة وطرافة .

ولما كان في التوابع والزوابع شبه من رسالة الغفران ، وكان عصر ابن شهيد مندرجاً في عصر المعرى ، رجح لدى الأدباء أن يكون أحد الرجلين ضرب على غرار الآخر ، وانساق مع تياره ، فاهتموا ببحث الصلة بين الرسالتين ، وتلمسوا فضل الأسبقية للسابق من الرجلين ، وكان من رأى الدكتور أحمد ضيف أن ابن شهيد هو الذي احتذى شيخ المعرة وحاكاه ، واحتج لذلك بأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في الخافقين ، وقد كان أهل الأندلس مولعين بتقليد المشارقة في آدابهم وأفكارهم بل وفي كل شيء ؛ ولكن الدكتور زكي مبارك أمعن في البحث والتدقيق ، ونظر الى المسألة من جانبين : الجانب الأول التاريخ الذي وضعت فيه التوابع والزوابع وقد استخلصه بالتقريب من قول صاحبها يخاطب جنية « من إخواننا من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة » . قال : وفي هذا اشارة الى أنه وضعها وهو كهل ، أي بعد سنة اربعمائة واثنتي عشرة للهجرة (١) ، وأما الجانب الآخر . فهو التاريخ الذي كتبت فيه رسالة الغفران ، وقد قال في تحقيقه : إن هذه الرسالة كانت جواباً على رسالة ابن القارح ، فاذا علمنا بأن هذا الرجل وضع رسالته بعد أن نيّف على السبعين كما وقع في ثنايا كلامه ، واذا علمنا بأنه ولد سنة احدى وخمسين وثلثمائة ، ثبت لدينا أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، أي بعد التوابع والزوابع بنحو عشر سنين ، وعلى هذا صار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد . ! !

فالدكتور زكي مبارك قد أنصف ابن شهيد حقاً ، واستطاع أن يثبت له فضل السبق على صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن يثبت تهمة التقليد التي رجحها على المعرى ، وهي تهمة كبيرة لو صحت لكان لها شأن كبير في الأدب ، خصوصاً إذا طاوعنا الذين يقولون بأن « دانتي » و « ملتن » — أخذا عن المعرى في « الكوميديا الالهية » و « الفردوس المفقود » والواقع أنه ليس في الرسالتين ما يدل على تقليد أو محاكاة ؛ نعم إن بينهما شبها في بعض الوجوه ، فكل منهما عبارة عن سياحة خيالية إلى عالم آخر ، كما أن في كل منهما عرضاً لكثير من المشاكل الأدبية واللغوية ، وزيادة على ذلك فقد اهتم كل من الرجلين بالتهكم بمعاصريه في رسالته ؛ ولكن هذا كله تشابه في أمور عامة تتوارد فيها الخواطر غالباً ، وربما تكون من وقع الحافر على الحافر كما يقولون . ولو أنك نظرت الى وجه الخلاف بين الرسالتين لرأيته أقوى وأدل على

(١) التوابع جمع تابع أو تابعة وهو الجنى أو الجنية يتبع الانسان ، والزوابع جمع زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن

(٢) مطمح الأنفس ص ١٦

(١) ولد ابن شهيد سنة ٣٨٢ هـ

تباعد الرجلين واستقلالهما فى الفكر والغرض ؛ فقد قصد المعرى فى سياحته الى الفردوس والجحيم فى العالم الآخر ؛ وذهب ابن شهيد إلى وادى الجن فى عالم الحياة ؛ واختار المعرى أشخاص قصته من الرواة والشعراء والملائكة ، وارتضاهم ابن شهيد من الشياطين — شياطين الشعراء والأدباء ، وعنى المعرى بالتعرض لكثير من المسائل الفلسفية والدينية ، ولم يتعد ابن شهيد القول فى البيان والنقد والشعر ، وكتب المعرى رسالته بأسلوب وحشى غريب فلا يستطيع القارىء أن يأتى عليها إلا بشق النفس ، وقوة الصبر ، وبعد الأستعانة بمعاجم اللغة ، وساق ابن شهيد قصته فى أسلوب عذب رقيق يخلق اللذة فى نفس القارىء ، ويدفع به إلى استيعابها بلا ملل أو سآمة ؛ ولقد أظهر المعرى كثيراً من التباهى بحفظ الغريب والتمكن فى قواعد النحو والتصريف ، وأطال ابن شهيد القول فى الغض من قيمة هـذه الأمور وتحقير الذين يجعلونها كل همهم ؛ ثم بعد هذا كله لا تجد فى إحدى الرسالتين فكرة اشتملت عليها الأخرى ، أو رأيا اتفق لكل من الرجلين ؛ فلكل منهما فضله فى عمله ، ولكل منهما شخصيته فى رسالته ؛ وأظن فى ذلك ما يكفى لدفع تهمة الأخذ والتقليد ، سواء أكانت فى جانب ابن شهيد كما يقول الدكتور ضيف ؛ أم ناحيـة المعرى كما يريد الدكتور زكى مبارك . وحسبى بعد هذا أن أفرغ معك للحديث عن التوابع والزوابع ، وأن أستعرض أمامك ما احتوته من الآراء والأفكار ؛ ويقينى أنك ستجد فيها كثيرا من الأبداع والأمتاع ، بل سترى شيئاً جديداً يثمره الفكر العربى ، وستشهد لصاحبها بالدقة فى الوصف ، والقوة فى التصوير ، خصوصاً وصف أحوال الشعراء السابقين ، وتصوير ميولهم ونفسياتهم ، وستعجبك منه روح خفيفة ، ونفس مرحة طروب يلذ لها أن تضحك فتجيد الضحك ، ويهمها النادرة الحلوة فتوفق كثيرا الى حلاوة النادرة وبراعة النكتة .

استهل ابن شهيد رسالته بمقدمة قصيرة أراد أن يبين فيها كيف وقعت له حوادثها ، وكيف رحل إلى وادى الجن فقال : « كنت فى أيام الحداثة أحن إلى الآدابُ ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين ، وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض فى عرق الفهم ، ودرّ لى شريان العلم ، ويسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً ، ولا كالحمار يحمل أسفاراً ؛ وكان لى فى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الأعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

ثم أرتج على القول ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم قد اتكأ على رمحه ، فصاح بى أعجز يا فتى الأنس ، فقلت لا وأبيك ، للكلام أحيان ، وهذا شأن الأنسان ؛ فقال قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته ، وقلت : بأبى من أنت ؟ قال : « زهير بن نمير » من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة فى اصطفائك ؛ قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت قلباً إليك مقلوباً ، وهوى نحوك محبوباً ، وتحادثنا ، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت له هل من حيلة فى لقاء من اتفق منهم ؟ قال حتى أستأذن شيخنا ، وطار عنى ، ثم انصرف وقد أذن له فقال حل على متن الأدهم فسرنا عليه ؛ وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ؛ وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال : حللت أرض الجن أبا عامر . فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، ولكنى إلى الشعراء أشوق . . »

وابن شهيد كما ترى يحاول الايجاز فى سرد الحوادث . ويود أن ينطلق على طبيعته فى إيراد القول ، ولكنه لم يوفق كثيراً فى هذه المقدمة كما يود ، وكما وفق فى عرض الرسالة ؛ فظهر على أسلوبه مسحة التكلف ، ووقعت بعض جملة قلقة نابية ، كأنه كان يدفع بها إلى غير موضع ، ويضعها حيث لا مستقر ؛ فمثلاً فى قوله : « ويسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى

طبقة ، ولم أكن كالنح تقتبس منه ناراً . ولا كالحمار يحمل أسفاراً » ثقل يحس به القارئ في اللسان وفي الذوق ؛ وزيادة على ذلك فقد اضطرب الرجل في وضع الكلام ، واختل به نهج القول . ألا تراه يقول في بدء كلامه « كنت في أيام الحداثة أحن إلى الآداب . . » ، ويسير في الحديث على هذه الكينونة ؛ كأنه رحل إلى وادي الجن غض الأهاب ، نضر الشباب ؛ مع أنه فيما بعد سيشكوا إلى إحدى التوابع ما فعلت الأيام به ! ! وسيذكر لها أن من إخوانه من بلغ الامارة ، وانتهى إلى الوزارة ! وفي هذا ما يفيد أنه طعن في الكهولة على أقل تقدير ثم نجده يصف صاحبه « زهير بن نمير » بأنه من أشجع الجن ، وكان الأوفق بداهة أن يجعله في الأدباء ، مادام القول في الأدب والشعر وما دام الحديث عن الأدباء والشعراء .

ولكن هذه هنات هينات . على أنها ترجع الى العرض ، ولا تمس الجوهر في شيء ، وقد تكون هي كل ما في الرسالة من المآخذ ؛ ولقد سلك الرجل طريقه بعد ذلك على أحسن ما يكون ؛ يجد ويهزل ، ويتهكم ، ويضحك . ويعالج كثيراً من الآراء العميقة ، والأفكار القويمة . وهو في كل ذلك طريف خفيف ؛ ملء قامه الفصاحة والبيان ، وملء تعابيره البلاغة والايجاز السليم ؛ ولقد حدثنا بعد هذه المقدمة أنه لما نزل بوادي الجن ، ورغب في البدء بلقاء الشعراء ؛ طلب من صاحبه «زهير بن نمير» أن يقدمه الى عيينة بن نوفل شيطان امرىء القيس ، فصاح به زهير : ياعيينة بن نوفل[1] ، أقسمت عليك بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل ؛ ألا عرضت لنا وسمعت من الأنسي ، وعرفتنا كيف إجازتك له — يقول ابن شهيد — فظهر لنا فارس على شقراء كأنها تلتهب ، فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك ، أهذا هو فتى أبي ؟ ثم قال أنشد ، قلت : السيد أولى بالأنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وضرب عنان الشقراء ، ثم أنشد : « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا[1] » حتى أكملها . ثم قال أنشد . فهممت بالحيصة ، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت : « شجته مغان من سليمى وأدؤر » حتى انتهيت فيها الى قولي :

ومن قنة لايدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حضنيَّ أبيض ذو شقائق ... وفي الكفّ من عسّالة الخط أسمر
هما صاحباي من لدن كنت يافعاً ... مقيلان من جدّ الفتى حين يعثر

« للكلام صلة »

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) الذي في كتب التراجم أن شيطان امرىء القيس اسمه لافظ بن لاحظ

(١) مطلع قصيدة جيدة لامرىء القيس يشكو فيها الزمان وتنكر الخلان ويذكر رحلته الى قيصر الروم مع صديقه عمرو بن قميئة الضبي الشاعر .

من طرائف الشعر

خمسة ...!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

فجعت الأمة العراقية الكريمة منذ أسبوعين باستشهاد خمسة من طياريها البواسل ، سقطت بهم الطيارة على مقربة من مطار الهنيدى ، فرثاهم شاعر العراق الكبير بهذه القصيدة

(١)

خمسةٌ طاروا من عيون الشباب ... فوق طيّارة كمثل العقاب
أخذت فى الجوّ الرفيع تعالى ... ثم خرّت من أوجها كالشهاب
إن ذاك الصعود فى الجوّ منهم ... كان للمجد والعلا والغِلاب
صدمةٌ فى هبوطها أهلكتهم ... بعد أن حلقت بمجرى السحاب
لا ترى بعدها على الأرض منهم ... غير أشلاء أو دمٍ مُنساب
انما أوقف المحرّكَ فيها ... سببٌ قاهرٌ من الأسباب
هلكوا فى شرخ الشباب فيا للـ ... رزء لمّا عرا ويا للمُصاب

(٢)

فتيةٌ طارت تبتغى المجدَ ذخراً ... ولأوطانها تخلّد ذكرا
فوق طيّارة تطوف بهم فى الـ ... جوّ هدّارةٍ فتشبه نسرا
كلما استذكرتُ الفجيعةَ أحسسـ ... تُ من الحزن فى فؤادىَ جمرا
ليس عندى ما أستقى منه شعرى ... غيرُ عينٍ من الكآبة عَبْرى
أنا فى الحزن أرسل الشعرَ دمعا ... ساخناً ثم أرسل الدمعَ شعرا
حسبُ مَن مات عند خدمته أو ... طانه أنه بها كان برّا
عاش مَن برّ بالمواطن محمو ... داً فان مات فهو بالحمد أحرى

(٣)

فتيةٌ صرعى فارقتها الحياة ... فبكتها الآباء والأمهات
وبكاها العراق حزنا عليها ... وبنوه ودجلةٌ والفرات
أينما ألتفِتْ أشاهد شحوباً ... فى وجوه عيونها خَضِلات
شيّعتها الى مقابر شتى ... عبراتٌ وراءها عبرات
إنما المجد لا يموت وان كا ... نَ ذووه لحادث قد ماتوا
أيها الشعب لا يثبّطك يأسٌ ... انما فى الموت المُلِمّ حياة
أيها النسر ما دهاك وقد كنـ ... تَ اذا طرتَ لم يخنك الثبات

(٤)

هى دنيا كثيرة الإمتاع ... ودّعوها ولات حين وداع
وهو المجد بالمساعى اقتنوه ... حبذا المجدُ يُقتنى بالمساعى
قد أضعناهم خمسةً ليس فيهم ... مَن به رِعدةٌ فيا للضياع
مشهدٌ للحياة والموت يُشجى ... ما به من تنازع وصِراع
لهف نفسى على شباب تردّوا ... فنعاهم إلىّ فى الصبح ناع
شاع ذاك النعىّ حول الفراتين ... فأثقِلْ به على الأسماع
جنحت للغروب شمسُ نهارى ... ثم منها لم يبق غيرُ شعاع

(٥)

وقف الموت للأنام رصيدا ... كلّ يوم يريد منهم شهيدا
شطّت الدار بالأحبة عنا ... وعسى مَن نأى بهم ان يعيدا
فتيةٌ كادتها صروفُ الليالى ... والليالى من شأنها ان تكيدا
أنا لولا شيخوختى ثم دائى ... كل يوم نظمتُ فيهم قصيدا
حبذا الليل والنهار لو أنا ... فيهما نستطيع ألاّ نبيدا
قد ظننت الذى ثوى يسكن القبـ ... ـرَ قريباً منى فكان بعيدا
فات مَن قد رأى السلامَ رغيبا ... أن يرى فى الأخطار موتا حميدا

(٦)

حلّ يودى بخمسةٍ أطهار ... قدرٌ نازلٌ من الاقدار
بنسورٍ قد حلّقت قبل أن يؤ ... ذن ضوء الصباح بالإسفار
خطرٌ كله الظلام ولكن ... لا تبالى النسور بالأخطار
ركبوها طيّارةً لم تخنهم ... فى تماريتهم وفى التكرار
ما دهاها حتى هوت كشهاب ... خرّ من جوّه بلا انذار
ثم دارت بهم على نفسها بالرّ ... غم عن كل حيلة الطيّار
ثم كان الذى به جرت الأقـ ... ـدار من سقطةٍ لهم وبوار

(٧)

كلّ يوم تُعطى الحياةُ ضحايا ... تبتغى إرضاء بها للمنايا
إن هذا الجيل الذى نحن منه ... هو من هاتيك الضحايا بقايا
نبتغى تخفيفَ الرزايا بلهوٍ ... نرتضيه فلا تخفّ الرزايا
لا أظن الحياةَ تَلقى سلاما ... من بلايا وراءهنّ بلايا
ان مَن اعطانا العقولَ اذا ما ... شاء أن نردى يستردّ العطايا
والذى أنشأ البرايا من البو ... ر مُعيدٌ الى البوار البرايا
كِبَرٌ شفّنى فلم يبق عندى ... غيرُ قلبٍ يئنّ تحت الحنايا

بغداد — جميل صدقى الزهاوى

في النقد الألماني

النقادة الكبير ليسنغ

(Lessing)

حياته ومذهبه

(١٧٢٩ - ١٧٨١)

للأستاذ خليل هنداوي

ما عرف الأدب ناقداً كليسنغ جباراً صحيح المقاييس ، بليغ التأثير ، لا يبنى مذهبه على المدرسة الأدبية القائمة فى عصره ، وإنما يبنى مدرسته الجديدة لترتكز عليها مدرسة للأدب جديدة ، يوم لم يكن عند الجرمانيين أدب بارز . لخار الناقدون فى تفهم هذا الناقد الذى افتتح أدب أمة عظيمة بالنقد ، وانما عهدهم أن يخلق الأدب النقد كما يخلق الأديب الناقد .

نشأ ليسنغ ميالاً فى بدء عهده إلى أدب الأوائل ، وما كاد يتمكن من هذا الأدب حتى تفتح لعينيه أفق جديد يريد استكشافه ، يحث معاصريه على السعى معه حثيثاً ليكون لهم مثل حظه من هذا الاستكشاف ، وما أصدق من قال : (كان الأدب الألمانى قبل ليسنغ مفازة يفتقر السائر المتخبط فيها إلى هادٍ ، وهذا الهادى لم يكن إلا إياه) هذا الذى أنار المسالك وهدى الأدباء إلى سبيل فى الأدب قويمة ، يبدى لهم مكامن الابداع ومواطن الخطأ ، وأسس الأدب الجديد على قواعد النقد ، وصاغ الشعر مزيجاً من الفن والأدب والفلسفة ، فكانت نفسه فى جميع حالاتها مصابة بطلب المعرفة ، هذه المعرفة التى ظن أنه لابدَّ ملاقيها ، فذهب وراءها فى أحناء الكتب والصحف ، وتحرى عنها فى مشاهد الوجود .

دخل فى أول نشأته أحد الأديرة يتلقى اللغات القديمة التى كانت لب برامج التعليم القديم ، فأبدى من الذكاء والانتباه ماترك أساتذته فى دهشة منه ، حتى قال عنه أحدهم : (نحن لانستطيع أن نقوم بواجب الشكر لهذا الطالب ، فان الدروس التى كان رفاقه يستثقلونها كان يجدها لسهولتها كالألهية ، إنه لجواد يبتغى علوفة مضاعفة) . حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره انكبَّ على علم اللاهوت ، ثم تتلمذ للحياة بعد أن أنجز تلمذه للكتب ، تلك الكتب التى قال عنها فى إحدى رسالاته « إنها صنعت منى عالماً عارفاً ولم تصنع منى إنساناً ، سأبدأ عاجلاً بدرس أطوارى » فترك علم اللاهوت وعمل على جمع رواياته التمثيلية ، وقد حثه قريب له أديب على الاختصاص بهذا الفن . فمثلتها غادة لامعة نجحت فى أداء تمثيلها ، فزاده ذلك انصرافاً إلى هذه الحلبة ، حتى ظُن أن هذا الفتى لن ينصرف بعد اليوم عن الفن الروائى .

على أن الضعف ليبرز فى هذه القطع التى عرضها ، ويغلب على أسلوبها اللون الفرنسى الذى كان يصبغ جميع الآثار الألمانية ، وكان مذهبه فيها نفس المذهب المدرسى الذى كان (راسين وكورنى وموليير) يبتدعونه ويتبعونه . كأنه كان يؤمن بجمال هذا المذهب ويحمل نفسه على الأخذ به . ولكنه فى بعض نظراته يشن الغارة على هذا المذهب ، ويطلب إلى معاصريه ألا يكونوا مقلدين لأذواق غيرهم . وإنما الأجدر بهم أن يتفهموا مذاهب غيرهم وألا يكونوا مقلدين لها . ونهاهم عن التهافت على أدب أمة واحدة كالأمة الفرنسية ، وهنالك آداب مهملة كأدبها جديرة بالدرس والتمحيص ، وفى هذا الصدد قال كلمته المأثورة « إذا أراد الألمان أن يتبعوا مذهباً يلائم طبيعتهم وجبلتهم فليتبعوا الأدب الانجليزى الذى هو أدنى لهم من الأدب الفرنسى »

وقد أشار فى أكثر من موضع الى هذه الروح التى شاء أن يغرسها فى أدباء عصره . وهو الذى كتب فى احدى رسالاته ينتقد المؤلف المسرحى (جوتشيد) ويؤاخذه لاسترساله الى الروح الفرنسية : « يطمع هذا الكاتب فى أن يمثل دور المبدع فى مسرحنا الجديد ، ولكن ماهو هذا المسرح الجديد ؟ انه مسرح نصف روحه فرنسية . . . ولعل صاحبنا لا يحفل بهذه الصفات إن لاءمت الروح الألمانية أو لا ؟ وهو لو أنعم النظر فى آثارنا القديمة لأوحت اليه أن الأدب الانجليزى هو أكثر ملاءمة لروحنا ، وأننا نتوق الى التأمل والتفكر أكثر مما يسمح به الأدب الفرنسى لنفسه ، وإن الأدب الذى تتمثل فيه الروعة والعظمة والظلمة هو أكبر سلطاناً علينا من أدب الرقة واللوعة والحب ، وإن البساطة فى الأدب لتضنينا أكثر من حالاته المركبة

المهوشة . . . يجب عليك أيها المؤلف أن تخط لك طريقاً يحملك الى المسرح الانجليزى . . . »

وقد كان انقلابه فجأة الى هذا المذهب وهذا الأدب موضع دهشة ، إذ تبادر الى أذهان بعض النقاد أن شكسبير وحده هو الذى أثر فى ليسنغ ، على أن الأسباب الحقيقية التى ساقته الى هذا الأدب كانت أعمق من ذلك . فليسنغ بعد أن درس حق الدرس أخلاق الشعب الألمانى وجد أن المأساة الحماسية هى التى تبسط تأثيرها فى النفوس . وأن المأساة المجردة ينبغى لها أن تهبط درجة الى عالم الحقيقة ، وأن الكوميديا قد تكون أدنى الى الحقيقة ، وهى التى تثير ما تثير من ضحك ومن بكاء .

وفى النهاية انغمس ليسنغ فى التأليف المسرحى . فكان فى أول أمره يترسم أقدام من تأثر بهم من الأقدمين ، وهو خلال ذلك لا يترك الجهاد إلا استعداداً لجهاد آخر يفتقر الى عنف كثير وصبر كثير ، والغاية التى يتطلبها من وراء ذلك عظيمة ، لا تلين إلا لمثل هذا النوع من الجلاد ، فهو يريد أن يخلق أسلوباً جديداً وتفكيراً جديداً ، ومازال يدأب ويجهد حتى وفق الى سعيه بعض التوفيق ، وضرب لعصره مثلاً عالياً للرواية التى تمثل أحسن تمثيل صفات قومه وأخلاق قومه . وهو — وإن لم يبلغ برواياته القمة التى لا تلين خياشيمها إلا للعباقرة فقد كاد . . .

ثم طفق ليسنغ يكتب فى احدى خلواته مقاطيع من الكتاب الذى خلد اسمه على الدهر فى عالم النقــد ، كتاب [اللاوكون[1]] الذى حشر فيه خلاصة نظراته فى التأليف المسرحى . وفيه عالج الشعر وعُنى بأسلوبه والوسائل التى ترمى الى إحيائه .

وما هو مذهب ليسنغ فى الشعر ؟

لقد كانت المدرسة الويسرانية تعتقد أن الشعر إن هو إلا تصوير صامت . والشاعر الألمانى (ڤينجيلمن Winckelmann) كان يرد أصول الفن مهما تنوعت فروعها إلى مثل عال واحد تنضوى تحته . وهذا المثل هو العظمة المتجلبة بالسكينة . . . وهذا المثل الأعلى مثله كالبحر العميق يبقى هادئاً مهما تقاذفته قواذف الريح . وحاله حال تصاوير اليونان فهى فى أحدى ثوراتها وأهوائها الجامحة تظل مالكة لعظمتها ولنفسها ، ومثل هذه الروح يمثلها تمثال (اللاوكون) بوجهه وأعضائه المتصلبة فى ساعة الألم العنيف . وقد لام هذا الشاعر الألمانى شاعر إيطاليا الكبير (ڤرجيل) لأنه وصف (اللاوكون) بصورة شعرية خالف فيها الصورة التى نحتها الحفار . إذ تركه فى مقطوعته الشعرية يصيح من الألم صيحات منكرة ، ولكن ليسنغ يجابه فى كتابه نقد الشاعر الألمانى ، ويعتقد أن للشعر قواعده الخاصة ، وللنحت قواعده الخاصة ، ويرى أن فى استطاعة الفن الشعرى أن يمثل لنا الشىء حتى نحدق به من جوانبه . بينا أن الفن الثانى لا يمثل لنا من هذا الشىء إلا لحظة موقوتة هى كل شىء فى هذا الشىء . وبينما نرى الرسم يخضع للهيئة الجامدة التى يتلبس بها نرى الشعر حرا طليقا يحيا بحركته واضطرابه واختلافه . وهكذا لبث هذا الكتاب أثراً ناطقاً للرجل ، وقد ترك وراءه صدى بعيداً وتأثيرا ترامى فى الأقطار . وهو كما قال فيه (جوته) شاعر الألمان « يجب أن تكون فتى أيها الرجل حتى تستطيع أن تتمثل ذلك التأثير الذى أدخله هذا الكتاب فى أرواحنا » وكفى بهذه الكلمات التى يرددها جوته شهادة .

وهكذا أراد ليسنغ أن يبنى نقده على نظريات ثابتة لا يذهب بها الوهم . فاستمد قانون (أرسطو) يعمل به لتنظيف الأهواء . ومن هذا القانون قد استمد ليسنغ أكثر نظراته النقدية كأنما كان يحاول أن يقتل الحدة والجموح والطيش فى الأدب ويترك إلى العقل سبيلاً ينفذ منه ليبقى مالكا على الأهواء فى أعنف ثوراتها . وقد شاء ليسنغ أن يغزو حقل الأخلاق دأبه فى كل حقل يغزوه ، فكتب مقطوعات فى الحكمة دلت على سمو نفسه . فهو يعتقد أن قيمة الرجل ليست بالفضيلة التى يحرزها ، أو بالفضيلة التى ظن أنه يحوزها ، ولكن قيمته تنحصر فى الجهود التى يقوم بها فى سبيل إحرازها ، لأن المجد لا يتوقف على صفة الاحراز ، ولكن على العمل للفضيلة التى يكثر به جنودها . ويعتز هو بانتصارها . ويقول أيضاً « إذا الله قبض على الفضيلة الكاملة بيده اليمنى ووضع فى يده اليسرى التوق الخالد — توق القلب — الى الفضيلة . مازجا معه انخداع الانسان ، وقال لى : انتخب ، فاننى إذ ذاك آخذ بيده اليسرى بكل تواضع وأقول . أعطنى يا إلهى .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) Le laocoon هو كاهن عظيم خنقه وأبناءه صلان خرجا من الأمواج [أساطير اليونان]

العلوم

بحث في تاريخ الإنسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

إذا أردنا الكتابة أو البحث فى تطور الانسان على ممر الدهور والأيام ، فانما نعني فى الحقيقة تاريخ الانسان ، تاريخ حياته وجهاده وكيف . . ومتى . . ومن أين أتى بشكله الطبيعى المألوف الذى نراه به اليوم . وكيف تكونت عنده القوى العقلية والقدرة على التكلم والتفاهم .

من الواضح الجلى أننا إذا حاولنا الكتابة فى هذه الحادثات التاريخية القديمة ، يجب علينا أن نوجه أبحاثنا وننظر بعيداً الى عصر قديم جداً من العصور ، يقع قبل التواريخ المدونة فى الكتب بمراحل كبيرة جداً . ونجد لزاماً علينا فى هذه الحالة أن نقص عليك أطيب القصص عن عصر لم يوجد به رأى يفكر أو يد تسطر لنا ثمرات هذا التفكير .

ولقد خيل للعلماء أجمع استحالة تتبعهم وتفهمهم لما حدث فى تلك الأحقاب السحيقة ، ثم تسطير تلك الحوادث التى حدثت منذ آلاف السنين ، لو لم تأت المصادفات ويساعد الحظ الحسن على كشف أستار الماضى الكثيفة . فانه فى حوالى سنة ١٨٢٥ قامت بعثة أثرية دنمركية بالبحث عما قد يكون مندثراً فى أراضى بلادها من أسلحة أو حلى أو آنية قديمة ، ثم وضعت كل ماوجد فى متحف كوبنهاجن .

وفى سنة ١٨٣٠ حينما ازدادت كمية المحفوظ به فكر مدير قسم الآثار س . ج . تومسون C. J. Thomsen فى تقسيم المحفوظات الى أقسام ترتب حسب نوع المعدن المصنوعة منه . إلا أنه فى ذلك الوقت أتته فكرة طارئة ، كانت ذات أثر بين فى سير التاريخ الانسانى ، وذلك أنه ساءل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن تكون تلك المحفوظات عنده فى المتحف كل منها يمثل عصراً خاصاً من عصور الانسانية ، وجاءت الحوادث بعد ذلك لتحقق صدق حدسه الذى خمنه ، فقد وجدت أشياء أخرى بطريق المصادفة لفريق من عمال البناء عند حفرهم آبار منازل كلها من مرافق الانسان الذى عاش فى العصور السالفة ، وكان أقربها لسطح الأرض الحديدية والبرونزية فالحجرية .

فأخذ علماء الدنمرك حينذاك يعرفون أن الأرض نفسها سجل صامت ثابت يحفظ تاريخاً صحيحاً لأعمال وحياة الانسان فى العصور السالفة ، ووجدوا ذلك صحيحاً فى كل جهة من جهات بلادهم : فى المقابر القديمة ، فى الآبار وفى شواطىء الأنهار مما تملى عليهم التاريخ الصحيح للانسان القديم .

... لأن الفضيلة الكاملة التى وضعتها فى عينك لم تصنع إلا من أجلك»

وقد ولدت عنده هذه الحكمة حكمة دينية أبداها فى بعض مقاطيع صغيرة . حيث أبدى أن الوحى الألهى ليس بواحد ولا بثابت ممتنع عن التغير . ولكنه يتنوع ويتقلب ويتقدم كالأنسانية نفسها . وقد أدرك ليسنغ الذروة العالية فى روايته (الحكيم ناثان) اذ أعلن أن الحكيم الحقيقى هو الذى يتروض على الفضيلة ويخضع لأحكام العناية الالهية الخالدة .

لقد فهم رجال الأدب بعض جوانب هذا الرجل العظيم ، ولن تظهر عظمته واضحة إلا بعد أن يرجعوا الى البذور الفنية التى نثرها فى طريقه ، وهل كان (جوته) و (هير دار) إلا أول فنن من هذه الشجرة ، أورق وأزهر وأثمر ، ثم أتى أكله فكان نعم الأكل (١) . . ؟

بيروت — خليل هنداوى

(١) آثرنا أن ننقل صفحة معربة من كتاب (اللاوكون) وفيها تحليل دقيق لبعض الصور الفنية التى كان لها تأثيرها البليغ فى تحوير الفن وإبداع صوره الجديدة فى العهد القديم ، وفيها يطلع القارىء على سمو نظر هذا الناقد .

من كل تلك الأشياء وصل تومسن Thomseu الى نتيجة نهائية ، هي أن تاريخ الانسان القديم مقسم الى ثلاثة عصور : الحجرى والبرنزى فالحديدى . وبذا كانت الدنمرك أحدث الجهات في التكوين جيولوجيا ، هي أول مكان بحث التاريخ السحيق للانسان على هذا النمط العلمي الجديد .

حول العلماء الفرنسيون بعد ذلك طريق كتابتهم لتاريخ الانسان وجاروا الدنمركيين في طريقتهم ، ووجدوا مادة بحثهم الجديد في كهوف مقاطعة Dordogne وبدأ ادوارد لاريت F. Larett ومعاونوه البحث فيها حوالى عام ١٨٦٠ فوجد أن معظمها كان مستعملاً قبل ذلك كساكن أو مقابر في كل عصور التاريخ القديم ، وكان من عدم اعتناء السكان الأقدمين بالنظافة وترك كهوفهم مملوءة بالبقايا والأدوات حظ حسن للتاريخ ، وكان من تساقط المياه اللحية من سقوف الكهوف خير معوان وخير عامل على حفظ تلك البقايا الانسانية بعيدة عن الضياع أو التلف ، وارتفع قاع الكهوف بالعوامل الطبيعية والجيولوجية ، فحفظت الأرض بين ثناياها على ارتفاع ينيف على الثلاثين قدماً آثاراً عظيمة الشأن للحياة الانسانية من مدة طويلة من الزمن .

ولم يطل الزمن بعد ذلك حتى عرف الفرنسيون أن كهوف بلادهم تحفظ تاريخ الانسان لمدة أقدم بكثير مما تحفظه مقابر اسكنديناوه أو قدماء المصريين . ولم تكن العصور الانسانية الثلاثة المعروفة لهم سوى عصور حديثة جداً إذا ما قيست بما تنم عليه آثار كهوف فرنسا ، ومن بينها الهياكل العظيمة المتحجرة للحيوانات التي كانت تعيش في تلك العصور ، كغزال الرنة ، والضبع ودب الكهوف . ولقد قسم اللورد ايڤبرى Lord Avebury العصر الحجرى إلى قسمين : أسمى أحدهما العصر الحجرى الحديث Neoliths القريب من العصر البرنزى وهو ما وجدت آثاره في الدنمرك ، وأسمى الآخر العصر الحجرى القديم Palaeoliths .

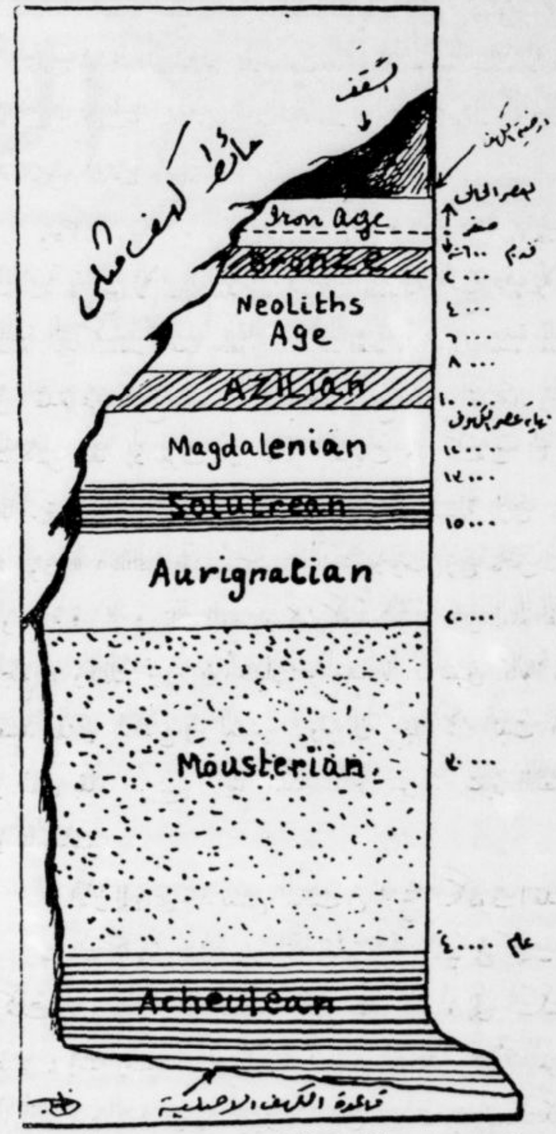
وكلما ازداد الفرنسيون تعمقاً في حفرياتهم ازدادوا يقيناً بصحة ترتيب تلك العصور المختلفة وبتغيرات عديدة قد حدثت للمناخ وقتذاك ، وعرفوا أنه لم يكن هناك عصر حجرى قديم واحد كما ظن السير ايڤبرى بل جملة عصور متتابعة متناهية في القدم يمتاز كل عصر منها بميزات مختلفة ، أمكن انتزاعها من الآثار التي وجدوها . وزاد يقينهم في هذه النظرية تكرار وتماثل ترتيب الطبقات في كل الكهوف التي بحثوها . وقد وجد علماء الانجليز والألمان والطليان والاسبان بدورهم نفس الظواهر والترتيب الذي وجد في كهوف فرنسا

وهكذا نرى أن الكهوف قد أمدتنا بالمعلومات والحقائق الخاصة بتاريخ الانسان القديم ، وأمكننا تسطير تاريخ دقيق لا عن المدة التي كشفت عنها حفائر الدنمرك فقط ، بل عن مدة تتناهى في القدم عن تاريخ قدماء المصريين أو تاريخ بابل القديم . وإنك لتدهش حقاً إذ تعرف أن تلك الحفريات قد كشفت لنا عن ظاهرة ليست غريبة عن عصرنا ، وهي مسألة الزى ، أو « المودة » fashion فقد ثبت منها أن مجرد وضع زى خاص للبس أو زينة في بلد في تلك العصور كان كافياً لانتشاره في العالم القديم أجمع ، ولذلك ترى أن أجدادك وأجدادنا الأقدمين كانوا مثلنا عبيداً للزى المتفشي في العصر . ولو أن زيهم كان أثبت قدماً وأطول بقاء من زينا الذي يتغير سريعاً بتغير الفصول والمناسبات

لنر الآن إلى أي حد تعمق البحث في تاريخ الكهوف القديم . من الشكل رقم «١» يرى القارئ قطاعاً رأسياً في كهف مثلى كملت فيه الطبقات والعصور التي وصل العلماء إلى الكشف عنها . ومنه يمكنه أن يلاحظ أن العصور الثلاثة المعروفة (الحديدى والبرونزى والحجرى) تقع في أحدث جهات الكهف كشفاً ، ومن بعدها عصر سماه العلماء Azilian (لأن الحفريات التي دلت على وجوده عملت بالقرب من قرية Mas d, Azile في فرنسا) يجيء بعده عصر سموه Magdalenian (نسبة إلى كهف La Madeleine في مقاطعة الدردون) يتبعه عصر سمى Solturean (نسبة إلى جهة Solutré بالقرب من ماسون بفرنسا) فعصر أطلق عليه إسم Aurignacian (نسبة إلى قرية Aurignac في أعلى الجارون) وآخر هذه العصور عصر أطلق عليه إسم Mousterian نسبة إلى الكهف Le Maustier في مقاطعة داردونى Dardogne

وليس هناك أدنى شك في صحة ترتيب العصور السالفة الذكر ، لأن الابحاث التي قام بها العلماء بعد ذلك لم تكشف لنا إلا عن تتابع صورة طبق الأصل لما قد بيناه في هذا المقال . إلا أننا نقف لحظة

٣ ٣٣



شكل (١) رسم تخطيطى لكهف مثلى يظهر عليه تركيب وتتابع الطبقات الجيولوجية

ونسائل أنفسنا ما هى فترة كل عصر من تلك العصور ؟ ومتى بدأ كل عصر منها ؟ . . ومتى انتهى كل منها ؟ .

إن السنين المذكورة فى شكلنا رقم « ١ » ما هى إلا عدد تقديرى تقريبى غير ثابت تمام الثبوت ، وربما كشف لنا العلماء حديثا ما يدفعنا إلى تغيير فى هاته الأرقام . لكننا مع ذلك نعلم أن فترة الكهوف قد انتهت بانتهاء عصر الجليد . ولقد استطاع علماء السويد وعلى الأخص البارون دى جير Baron de Geer أن يضعوا لنا تقديرا معقولا انتزعوه من آثار عصر الجليد وعرفنا منهم أن عصر الجليد قد بدأ فى السويد من مدة ١٢٠٠٠ سنة مضت تقريبا . ونحن إذا قدرنا أن حياة الانسان فى الكهوف قد انتهت من مدة ١٠٠٠٠ سنة أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد لأ مكننا أن نقدر لأقدم عصر من عصور الكهوف تقديرا غير مبالغ فيه وهو ٤٢٠٠٠ سنة

ولكى تعلم أيها القارئ أن أقدم عصر من عصور الكهوف هو أهم عصر فى هذه العصور جميعا ، يكفى أن نخبرك أنه بين طبقات الأرض فى هذا العصر قد وجدت بقايا عظام متحجرة لعنصر من عناصر المخلوقات يختلف اختلافا عظيما جدا يبعده عن الصورة التى كان عليها أقدم الأجناس البشرية المعروفة . هذا النوع أو الجنس يعرف باسم انسان النيادر انتال Neanderthal Man ويمتاز هذا النوع بفرطحة الجمجمة وبروز عظام محاجر العين . كان رجاله ونساؤه ذوى قامات محدودبة يعتمدون كما تعتمد القردة على أيديهم فى المشى .

وقد بدأ هذا النوع من أنواع الانسان القديم يظهر واضحا جليا بآثاره ومخلفاته فى أواخر أقدم عصر من العصور التى ذكرناها مستريان Mousterian

ومن الآثار والمخلفات التى وجدت فى الكهوف القديمة فى جميع أنحاء العالم أمكن تتبع حياة الانسان لمدة تنيف عن ٤٠٠٠٠ سنة فى وقت كانت فيه أوروبا مسكونة بعنصر من العناصر الانسانية يختلف اختلافا بينا عن العنصر الذى نحن منه . عنصر أطلقنا عليه كما سلف Homo Neanderthalensis . وثبت أن أوربا كان يسكنها فى العصر القديم الذى أطلقنا عليه اسم Mousterian عنصر من الانسان النياندرتال .

وبرغم أن الانسان الذى وجدت آثاره كان فطريا أقرب فى حياته الى الحيوانية فانه كان رجلا أو إنسانا بكل ما فى جسمه من صفات وما فى عقله من خواص وتفكير . وما دمنا نرمى الى الوصول لفجر الانسانية ومعرفة تاريخ النشأة البشرية فانه يجب علينا أن نتخذ لنا طريقا آخر يساعدنا على تفهم ما نريد ومعرفة ما نرمى اليه . هذا الطريق هو البحث فى الأنهار والمجارى المائية . وإن البحث والتنقيب اللذين قام الناس بهما فيها ، دلا على أن هناك آثارا ومخلفات قديمة تحفظها الأنهار والمجارى فى قاعها وشواطئها ومدرجاتها ، وكأنها تقدر مجهود الانسان لحفظ كيانه ، فعملت على حفظ آثاره وتخليد ذكره تنويها منها بعظمته وقوته . ولنا فى مدرجات نهر التيمس أكبر دليل على

القصص

من الأدب التركى

المعلمة الصغيرة ..

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

ركبت عربة الترام ولم يكن فيها غير السائق الذى كان مغمضاً عينيه يستريح قليلاً من عناء أربع عشرة ساعة ، أما بائع التذاكر فكان جالساً فى المكان المعد للسيدات يقرأ جريدته على ذلك الضوء الشاحب الهزيل الذى كان ينفذ من زجاج ذلك المصباح الأغبر ، وليس يعلم إلا الله كم مرة أخرجها من جيبه وأعادها اليه . وكأن دخولى الى تلك العربة وهى آخر العربات فى ذلك الوقت من تلك الليلة الشاتية نفخ فيها حياة بعد أن كاد يقتلها الأعياء ، فقد أفاق السائق من نومه وفتح عينيه المغمضتين ، وأبعد بائع التذاكر الصحيفة عن وجهه وصعد بصره فىّ كأنه يقول : وهل بقى من راكب بعد أن مضى الهزيع الأول من هذا الليل الممطر ؟ . ثم قام الأثنان ونظرا الى الخارج كأنهما يريدان أن يريا المطر الذى كان يسفع زجاج العربة بشدة ، وعادا فى الحال كل الى مكانه لأن وقت الحركة لم يحن بعد ، فأغمض السائق عينيه ، ورفع بائع التذاكر جريدته الى وجهه وأخذ يقرأ .

جلست وفى نفسى أن انتظارى سيطول ، لقد كان منظر العربة مؤلماً جداً ، كانت أطرافها ملوثة بالطين ، وكان زجاجها مستوراً بطبقة من مياه الأمطار التى كانت تسيل عليها ، وكان نورها ضئيلاً ، وهى واقفة تحت سيل الأمطار الذى لم ينقطع منذ ساعات وقفة حزن وملل تنتظر الوقت لتسير . كم كان مؤلماً منظر الخيل[1] وهى تنتظر بفارغ الصبر العودة فى تلك الساعة الى اصطبلها الدافئ ، ومنظر السائق الذى هدّ التعب جسمه وغلبه النعاس فلا يكاد يرفع رأسه ، ومنظر بائع التذاكر الذى كان يود النزوح ولو بخياله عن خط الترام الذى هو كل ماتراه عينه فى كل يوم منذ الصباح حتى المساء ، فهو يتلهى بالنظر الى جريدته كلما سنحت له الفرصة . .

كنت وأنا أنظر الى المياه التى كانت تسح من مظلتى التى ابتلت من المطر الغزير فتؤلف دوائر ، أقول فى نفسى : « إن هذه العربة التى كادت قطعها تنفصل عن بعضها لكثرة ما حملت من الناس لأراحتهم ، وهذين الحيوانين اللذين أكل عليهما الدهر وشرب ، وهذين الرجلين البائسين ، وهذا الخط الحديدى الذى يفسح لنفسه الطريق بين الأوحال من « الجسر » حتى « جنبرلى طاشى » . كل هؤلاء مكلفون فى هذا الليل المدلهم بحملى وحدى بأجرة لا تزيد على قرش واحد » .

دق الجرس فجأة ففتح السائق عينيه ونهض يتمطى . ونظر

(١) كانت عربات الترام فى الزمن القديم تسير بالخيل لابقوة الكهرباء كما هى الآن

ذلك . ولقد ساعدت عملية الردم والتكوين التى تقوم بها الأنهار بما تحمله من غرين وغيره أثناء طريقها على حفظ آثار الانسانية ، حتى جاء بورشيه دى بيرث B. De Perthes فوجد فى بلدة آبفيل Abebville صخورا نارية (كان الناس وقتذاك يعتقدون أنها من مخلفات الصواعق) اعتقد أنها من عمل الانسان ووجد بها أثرا من فن الانسان ، واعتقد أن الانسان قد استعملها قديما كـ(بلطات) يقطع بها الاشجار وغيرها ، أو يدافع بها عن نفسه وقت الخطر . كذلك وجد فى نفس الجهة عظاما متحجرة لحيوانات قديمة منقرضة ، وهنا نظر اليه الناس كنظرتهم الى من بعقله مس من الشيطان ، لأن العظام التى كشف عنها ترجع الى عصر Pre Deluvian وهو عصر اعتقدوا أن الانسان لم يوجد فيه . فكيف بهذا الرجل يقول إن الصخور التى وجدها من قطع وتشكيل من لم يكن قد وجد بعد ؟ . .

يتبع — نعيم على راغب

الى ما حوله حيران كأنه يعجب من وجود عمل يجب القيام به فى ذلك الوقت من الليل لأتمام عمل النهار . ففرك يديه وسار . فتح الباب فهجمت منه موجة هوائية باردة ، ثم خرج وأغلقه خلفه وبقى وحده معرضاً لموجات الهواء التى كانت تلطم عربة الترام .

انتفضت تلك العربة الكبيرة الثقيلة وتمطت واهتزت كأنها هى أيضاً كانت نائمة ، وتحركت بحركة مزعجة ، وأرسلت أصواتاً كأنها شكوى عميقة يثيرها اضطراب دائم ، ثم سارت وهى تحمل مع اضطراب ألواحها الزجاجية جسمين مضطربين وهما بائع التذاكر وزبونها الوحيد .

تقدم بائع التذاكر من الراكب الوحيد وسلمه تذكرته واستلم نقوده من غير أن ينبسا ببنت شفة ، ثم عاد بائع التذاكر الى جريدته يقرؤها ، وعاد الراكب الى ما اجتمع تحت مظلته من المياه ينظر اليها .

فى تلك الأثناء كثر اهتزاز العربة ، وأخرجت أصواتاً مزعجة كأن أسنان تلك العربة ، ذلك المخلوق البطىء ، تعض الخط الحديدى بشدة . مظهرة ألمها واستياءها ، وصلنا الى « سركه جى » فلم ير بائع التذاكر حاجة إلى وقوف العربة ، وهى آخر العربات حركة ، لوثوقه أنه لا يوجد راكب فى مثل هذا الظلام البهيم ، فصفر معلناً الحركة ، ولكن السائق صاح قائلاً :

— راكب !

وقفت العربة فقلت فى نفسى « شىء مؤلم ! كم كنت مستريحاً وحدى ! » ثم فتح الباب فما كدت أبصر الداخل حتى تغير رأيى ، فقد كان الراكب الجديد فتاة شابة قد ابتلت ثيابها من المطر لأنه كان ينزل عليها فلا ترده عنها مظلتها الصغيرة ، كانت صفراء الوجه من البرد ، وكانت شفتاها متقلصتين وأسنانها مصطكة ، وعليها ثوب أبيض فوقه معطف بنى اللون لايشك الناظر اليه فى أن ذلك الشتاء لم يكن أول شتاء مر عليه . فجلست بهذه الهيئة الفقيرة المؤلمة فى الجهة المقابلة لى ، وفى الحال مدت يدها الجامدة من البرد فى قفازها الذى امتدت منه أطراف أصابعها والمخيط بأسلاك بيضاء ، الى جيب معطفها لتخرج منه حقيبة النقود ، فأخرجت منديلا أبيض ثم حقيبة تقادم عهدها وحال لونها لكثرة الاستعمال وتمزقت جوانبها ، فأخذت تعالجها لتفتحها فلم تقدر كأن قفلها قد تعطل . فعالجتها المسكينة كثيرا ، والحقيبة مصرة على ألا تنفتح ، وبائع التذاكر واقف أمامها يهتز ذات اليمين وذات الشمال من حركة الترام وجريدته تحت إبطه ، ينتظر النقود منها ، لقد مللت النظر إلى الماء المتجمع أمامى من المظلة فرفعت رأسى وأخذت أنظر اليها نظرى إلى شىء جديد ، كانت هى على ما يظهر من حالها متألمة من عدم تمكنها من فتح الحقيبة بسرعة لأنها كانت تعالجها كمن يود كسرها ، وأخيراً فتحت الحقيبة فأدخلت أصبعيها فيها وأخذت تطوف بهما فى جوانبها على ضوء العربة الضئيل .

لقد شعرت وأنا فى مكانى أن الحقيبة لا تحوى أشياء كثيرة يحتاج المرء معها إلى كثرة البحث والتنقيب ، أدخلت يدها وهى

فى القفاز الممزق حتى غابت فى الحقيبة وأخذت تبحث عن شىء صغير مختبىء هناك .

بعد بحث طويل لمع بين أصبعيها شىء صغير وهى تخرجه من الحقيبة فناولته الى بائع التذاكر الذى لم يشأ أن يقطع لها التذكرة قبل أن يستلم النقود . . . . فتنفست الصعداء كأنها خرجت من مهمة صعبة وتمكنت من مقعدها كل التمكن . ثم رفعت عينيها اللتين لم أستطع أن أعرف لونهما تماماً .

لقد كانت تارة تنظر والعربة سائرة إلى قطع الجلود المتدلية من المسامير التى فى سقف العربة ، وآونة الى المطر الذى يسح من زاوية العربة ، ثم الى مافوق رأسها لتعلم أين مكانها منه ، وطوراً تقارب بين جفنيها وتتأمل فى ضوء المصباح الضئيل ، إلا أنها ضجرت من كل هذه الاشياء وسئمتها ، فمسحت بظهر يدها زجاج العربة المبتل ونظرت الى الشارع ، لترى أقربَ مكان نزولها أم لا يزال بعيداً ؟ إلا أنها لم تر غير أشعة المصابيح الضئيلة التى تشع من الحوانيت القليلة فى هذه الليلة الباردة فترقص أشعتها فوق الطين المتراكم فى الشوارع .

وأخيراً نظرت الىّ نظرة عجلى كأننى آخر ما يمكن أن يعرض على نظرها من الأشياء التى حولها . ولكنها وجدتنى كبقية الاشياء التى استعرضتها أمام ناظريها ولم تجد فيها مايوجب العناية ، فأعرضت عنى واستندت على مسند المقعد ، ومدت رجليها وفيهما حذاءان عتيقان قد قطع زر أحدهما وتمزقت عروة الثانى ولكنهما كانا جميلين ، ووضعت إحدى رجليها على الأخرى ، ثم أصلحت قبعتها وأسندت رأسها إلى ما خلفها وأخذت تنتظر .

هل كانت جميلة ؟ لا أدرى ! ولكنها مع ذلك كانت مركبة من أعضاء صغيرة ، حتى ليخيل للناظر إليها أن رجلاً من المولعين بالأشياء الدقيقة قد صاغها هذه الصياغة وركبها هذا التركيب ، فهى مليحة بعينيها الصغيرتين ، وفمها الرقيق ، وأنفها الدقيق ، ووجهها المخروط ، ولم يكن فى ذلك الجسم المركب من تلك الأعضاء الصغيرة طويل غير قامتها ، فقد كان طولها لا يتفق وصغر أعضائها ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من الملاحة .

لقد كنت أشعر بشىء غريب لوجودى فى تلك الليلة الشاتية فى تلك العربة بجانب تلك الفتاة منفردين ، كنت أشعر بلذة غامضة كالتى يتوهمها الانسان عند قراءة شعر لا يفهم معناه .

وفى تلك الأثناء رفعت رأسها بسرعة ومسحت زجاج النافذة ونظرت طويلاً نظرة تدل على ضجرها من التأخر . وكنا فى ذلك الوقت نسير فى محلة (چيفته حاووضلر) وكنت أقول فى نفسى « أين تذهب هذه الفتاة فى مثل هذا الوقت فى مثل هذه الحالة الجوية ؟ » ثم ارتدت مسرعة عن النافذة ، وانحنت قليلاً كأنها تريد أن تكلم بائع التذاكر الذى كان مغطياً وجهه بجريدته يغالب النوم ويغالبه ، ولكنها لم تجرؤ أن تكلمه فنظرت إلىّ نظرة تدل دلالة واضحة على أنها تريد أن تسألنى عن شىء ، فنظرت إليها نظرة أسألها فيها عما تريد ، إلا أنها بصورة من الصور لم تجد قدرة على الكلام فسكتت ، ونهضت على رجليها ونظرت ثانية من النافذة ، وفى هذه المرة ارتدت مصفرة فقلت لها :

— كأنك تريدين أن تسألى عن شىء أيتها الآنسة ؟

فقالت بصوت رقيق يشبه جسمها الصغير بلهجة تدل على الحشمة والوقار :

— عفواً ياسيدى ، فهل « الجسر » بعيد عنا ؟

فقلت :

الجسر ؟ أنت مخطئة أيتها الآنسة ، إن هذه العربة تسير بنا إلى « آق سراى »

فنظرت إلى وجهى نظرة جامدة كأنها لم تفهم شيئاً ، وبعد أن وقفت مدة على هذه الصورة لا تجد فى نفسها قوة على الاستيضاح قالت :

— إذن نحن الآن لا نسير نحو « الجسر » ؟

لفظت جملتها هذه بصورة تدل على فزع شديد علمت منه أنها ارتكبت خطأ ، فداخلتنى عليها شفقة وقلت :

— أنا آسف جداً يا آنسة ، أنت تريدين الذهاب إلى « الجسر » إلا أنك ركبت عربة تسير عنه لا إليه ، وقد أوقعك فى هذا الخطأ ظلام الليل ودهشة المطر .

كانت تسمع كلامى والبكاء يكاد يغلبها على عينيها وتقول بصوت مسموع : لقد تأخرت كثيراً . ثم قالت بصوت يخالطه شىء من الأمل :

— إذن سأعود أدراجى من أول موقف .

لقد وصلنا إلى موقف « صالقم سكود » فقلت لها :

— إنك مضطرة إلى الرجوع راجلة ، فهذه آخر عربة ولا أظن أنك تجدين عربة فى هذا المطر .

فلما سمعت ذلك اضطربت اضطراباً عظيماً ، وفى ذلك الوقت استيقظ بائع التذاكر واقترب منا يشاركنا فى الحديث ، ثم قال مبرئاً نفسه من التبعة :

— لماذا لم تذكرى لنا المحل الذى تريدين أن تذهبى اليه ؟ .

فلم تجد تلك المسكينة حاجة الى الجواب ، فنظرت الىّ نظرة حائرة تطلب بها المدد والمعونة ، وقالت :

— لطفاً يا إلهى ، فى مثل هذه الساعة ، فى هذا المطر ، وفى مثل هذه الأزقة المظلمة الخالية كيف أستطيع السير وحدى ؟ .

لم أجد حاجة لاتخاذ قرار بعد ذلك فى هذا الشأن ، فقلت لها :

— أيتها الآنسة ، هل لك أن تقبلى مرافقتى حتى الجسر ؟.

فنظرت الى دهشة وصاحت :

كيف ذلك ياسيدى ؟ كيف تعود لأجلى فى هذا الهواء ؟ وكيف أستطيع أن أقبل هذه التضحية ؟ . .

على أنه لم يكن أحسن من هذا الحل ، لأن السائق كان بفارغ الصبر ينتظر الحركة ، وبائع التذاكر ينتظر أن نعطى نتيجة حاسمة فقلت لها مصراً :

— أنت لا تقدرين على العودة منفردة فى مثل هذا الوقت ، ومن مثل هذا المكان ، مع أنى أتمكن من أن أركب عربة وأعود من الجسر ، وذلك يسير علىّ .

فنظرت الى عند ذلك نظرة فاحصة ، وبتلك النظرة علمت صفاء نيتى وصدق عزمى فأظهرت الأطمئنان وقبلت مرافقتى قائلة :

— سمعاً وطاعة يا سيدى ، لقد أظهرت إنسانية نبيلة وعطفاً كريماً ، وأنا أقبلها مع الشكر .

فتح بائع التذاكر الباب ليشرح للسائق القصة ، فنزلنا نحن من الباب الثانى ، وتحركت العربة فى الظلام كأنها خيال ذو عينين صفراوين ؛ كان المطر إذ ذاك رذاذاً إلا أنه كان متوالياً ، ففتحت الفتاة مظلتها ، فلما تأملتها وجدتها ممزقة الأطراف ، وفتحت أنا أيضاً مظلتى وأخذنا نمشى متكاتفين بقدر ما تسمح لنا المظلتان . كانت فى ذلك الظلام الدامس فى تلك الشوارع الخالية تشعر أنها محتاجة الى الاقتراب منى بدافع غريب مجهول المصدر يدفعها الى ذلك ، وكنت أنا أشعر بلذة منشؤها حمايتى لفتاة فى مثل هذا الوقت . على تلك الحال كنا نمشى صامتين لا نتكلم ، وكانت توسع خطاها لئلا تضطرنى الى المشى البطىء .

كنت وأنا فى الترام فى شك من جمال هذه الفتاة ذات القامة الهيفاء ، ولكنها الآن فى الظلام كانت تتراءى لى جميلة .

إن هذه المصادفة غريبة جداً ، وأظن أن تلك الفتاة التى رأيتها لأول مرة فى حياتى وبسطت عليها ظل حمايتى لو كانت غير جميلة لكانت اللذة التى أشعر بها الآن ناقصة ، كنت أقول وأنا سائر بجانبها : يا لجمال عينيها الصغيرتين .

(البقية فى العدد القادم)

نزيلة بعلبك **(فتاة الفرات)**

الكتب

تاريخ العالم القديم

تأليف الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

للأستاذ المؤلف شغف عظيم بالتاريخ القديم ، فهو ما ينفك يقلب صفحاته ، ويطيل النظر فى أدق موضوعاته ، حتى صار لهذا العلم المحل الأول من اهتمامه فى درسه وفى أوقات فراغه ، ولقد قام بتدريسه سنين متوالية فى المعاهد الدينية ، وعرف ما يوافق طباع الطلاب منه ، ووقف على الأسباب التى تحبب إليهم موضوعاته ، أو التى تنفرهم منها . وكانت ثمرة هـذه الخبرة هذا الكتاب الذى أحدثك عنه ، وهو فى طبعته الرابعة هذه على خير ما تصدر به الكتب دقة طبع وسلامة ذوق .

أما عن موضوعه فهو وفق المنهج الأخير لوزارة المعارف والمعاهد الدينية ، يشمل تاريخ قدماء المصريين والأغريق والرومان

على أن أهم مافى الكتاب هو تلك الطريقة الفريدة التى اتبعها الأستاذ فى كتابة التاريخ ، فلقد نبذ تلك الطرق التى تقتصر على سرد المعلومات الجافة يقصد بها استيفاء المنهج المقرر ، ونفذ بخبرته إلى صميم الموضوع ، فاهتم بالحيـاة الاجتماعية ومظاهرها فى تلك العصور القديمة ، إلى جانب اهتمامه بتفاصيل المنهج ، كل ذلك فى عبارة طلية متينة ، مما جعل كتابه جم الفائدة ، خفيف المحمل ، أضف إلى ذلك ما يحتوى عليـه ذلك الكتاب الفذ من الصور والخرائط ، وكلها موضوع لغرض إيضاحى فى تدبير حصيف وترتيب محكم مما لا نجد مثيلاً له فى غيره من الكتب ، ولا شك عندى أن هذه خير طريقة تحبب إلى الطلاب دراسة التاريخ والاستزادة منه .

ولئن كان أثر المؤلف مرآة نفسـه ، فان كتاب الاستاذ السرنجاوى خير شاهد على ذلك ، فانك تلمس فيه هدوء طبعه ، وقوة منطقه وعذوبة روحه وسـلامة ذوقه ، وإنى لأتقـدم إلى الأستاذ بالثناء على مابذل من جهد ، وبصادق التهنئة على ما صادف عمله من نجاح ما .

الخفيف

الرائد

فى تاريخ الأدب العربى ونصوصه ومتن اللغة

هذا كتاب جديد فى تاريخ الأدب العربى أخرجه فى هذه الأيام صديقاي الفاضلان الأستاذ عبده زيادة عبده المدرس بمدرسة الخديو اسماعيل الثانوية الملـكية ، والأستاذ محمد السيد عامر المدرس بمدرسـة بنبا قادن الثانوية الملـكية ، وهو يتألف من جزأين أولهما فى منهاج تاريخ الأدب الأخير للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية ومـدارس المعلمين والمعلمات ، وثانيهما فى منهاج تاريخ الأدب الأخير للسنة الرابعة بالمدارس الثانوية .

وقد ألف فى منهاج الأدب للسنتين الثانويتين كتب غير كتاب الأستاذين ، ولـكنه جاء آخرها فتداركا به مافاتها وامتاز عليها بأمور كثيرة ، وقد قال الأستاذان فى ذلك : « ولسنا ننكر أن للـكتاب أنداداً ، غير أن بعضها على قيمته جاوز المنهج الجديد فعاد كتاباً للمتأدبين ، لا لطلاب يتقدمون الى الامتحان فى موضوع بعينه ، وبعضها جاء مقصوراً على فن واحد من فنون كتابنا هذا ، وبعضها علا أسلوبه ودقت اشاراته على الناشئين حتى مايستطيعون فى غير عناء أن يدركوا مايريد .

وقد عنينا فى هذا الـكتاب أن يعالجا مسائل الأدب بذكر المقدمات فى شىء من البسط ليخلصا الى مسائله واضحة معقولة ، وأن يحللا نصوصه الأدبية من جميع نواحيها لغة ومعنى وإعراباً وبلاغة إلا أن يتركا لقُدر التلاميذ بعض الأبيات والجمل ليحاولوا شرحها على مثال ما فعلا ولا يهملوا مداركهم فتنشأ لا تبنى إلا على مثال .

وقد سار الأستاذان على هـــذه الخطة القويمة التى خطاها لأنفسهما فى كتابهما بما نعهده فيهما من علم واسع وإنشاء مهذب وترتيب محكم ، فيسرا لطلاب هاتين السنتين منهاجيهما الأدبى تيسيراً ، وأصبحت طلبتهم منهما فيه سهلة المنال دانية القطوف ، فنحمد للأستاذين مابذلا من جهد نقدره لهما ، ونترك من أجله بعض أمور نخالفهما فيها وقد تابعا فيها غيرنا . ولـكل وجهة هو موليها .

عبد المتعال الصعيدى

رواية ابنة الشمس

تأليف فرنسيس شفتشي

نالت هذه القصة التمثيلية جائزة وزارة المعارف العمومية في مباراة سنة ١٩٣٢ ، ولقد قرأتها دون أن يكون لهذا الاعتبار تأثير في نفسي فألفيتها قصة ممتعة طريفة ، جديرة بما نالت من حظوة واستحسان . فلقد نجح المؤلف نجاحاً عظيماً في تصوير المجتمع المصري في عهد الملك رعمسيس الثاني ، كهانة وسحراً وطباً وعرافة وسياسة ، كما أنه قد نجح في تصوير بعض العواطف الانسانية تصويراً بارعاً كالشفقة والحب والشك والطمع والحسد والاخلاص والخيانة وغيرها ، كذلك أحسن المؤلف تصوير أشخاصه ، ففنه في هذه الناحية قوي ، ولقد استمر على فطنته ويقظته فيما يتعلق بصفات أشخاصه حتى آخر القصة .

بيدي أني أرى في القصة بعض مآخذ ، لا بد لي إذا توخيت الأنصاف من مصارحة المؤلف الفاضل بها

وأول هذه المآخذ أن عقدة القصة مبهمة ، فقد حاولت أن أنتخب من بين حوادثها حادثة أعتبرها الرئيسية فلم أوفق الى ذلك ، فهنا بنت أنات تحب بنطاؤر ، وهنالك نيفرت تحب مينا ، وهذا رئيس الكهان يشترك مع والي مصر في إثارة الشعب ضد الملك ، وهذا بماكر قائد الطليعة يريد أن يكيد للملك . نعم إن هذه الحوادث لا تعدم رابطاً يربطها ، غير أنها روابط سطحية وليست روابط البسط أو حل العقدة التي تتشعب منها القصة مما كاد يخلي القصة من التطور ويفقد القارىء الانتظار ، فكل منظر يكاد يكون مستقلاً ، هذا إلى أن المؤلف قد جعل خاتمة المأساة متوقفة على نصيب رمسيس في الحرب ، وهذا معروف للقارىء ، فكأن القارىء يعرف ما سيؤول اليه أمر العصاة ومدبري الثورة ، وهذا ما يقضي على استمتاعه قبل نهاية القصة ، ولو أن المؤلف علق انتهاء القصة على حادثة غير هذه لاحتفظ بروعتها حتى النهاية ،

كذلك نجد في القصة عدة مواقف قوية ، ولكن المؤلف أضعفها بفتور العبارة أحياناً وبسذاجة الحوار أحياناً أخرى ، أو بارسال الحوادث على غير ما يتفق مع الموقف وما ينتظره القارىء في ذهنه . هذا إلى أنه في بعض المواقف أورد حوادث ما كان يتصور وقوعها بمثل هاتيك السهولة كرجوع بنطاؤر عن فلسفته بتلك السرعة وانقياده إلى بنت أنات كأنما كانا يتباحثان في موضوع تافه ، وكتصريح بنطاؤر بحبه إلى صديقه نبسشت دون تردد أو تحفظ ، وكسرعة انتقال وردة من الألم الشديد إلى الهدوء لدن لقاء الأميرة . . الخ . ولقد كان المؤلف يحاول تغطية هذه العيوب بحوار على لسان الأشخاص ، ولكنه في رأيي كان يكشفها بذلك .

ولم يعجبني من المؤلف الجمع بين التأليف والتمثيل في كتابته فكان يشير كثيراً إلى ما ينبغي أن يحدث على المسرح ، وأظن ذلك من عمل المدير الفني

ولقد قدم لكتابه بتحليل ضاف إذا قرأته عرفت القصة كلها فلن تعجب بها إلا على المسرح

ولكن هذه المآخذ على تنوعها لا تذهب ببهاء القصة ، ولا تنقصها قدرها ، ولا تضيع طرافتها ، ورجائي إلى المؤلف الفاضل أن يسابر على التأليف للمسرح ، فعنده استعداد عظيم وملكة قوية تضمن له التبرز في هذا المضمار

الخفيف

2 me Année, No. 65.

Lundi-1-10-1934

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

الأزمة والغـــلاء !

مضت أربعة أعوام ، وريح الأزمة الأقتصادية العالمية تهب على مصر بقوة ، تضاعفها وتذكيها الظروف المحلية ، وملايين الزراع والفلاحين يرون جهودهم وآمالهم تذهب هباء ، ومحاصيلهم تباع بأبخس الأثمان ، والدين يرهقهم ، والحاجة تنذرهم بشر العواقب ، وباقى الطبقات تشاطرهم هذا البؤس الأقتصادى . ولما كانت الحياة الأقتصادية كلها متصلة النواحى ، وكان الأنتاج والاستهلاك مرتبطين أشد الارتباط ، فقد اضطر الناس الى الاقتصاد بحكم الضرورة والنزول على أحكام الأزمة ؛ وكان فى هبوط نفقات العيش بعض التنفس ، ولاسيما للطبقات الفقيرة ، ولكن الضيق لبث مع ذلك يرهق كل الطبقات .

وإذا كانت الأزمات الاقتصادية محناً شعبية عامة تعانيها جميع الطبقات ، فانها تغدو فى كثير من الأحيان ميـداناً لنشاط بعض المستغلين الذين لا ذمة لهم ، والذين لا تزدهر ثرواتهم إلا فى أيام المحنة والضيق . وكذلك وقع خلال الأزمة الأخيرة ، فقد ظهر المستغلون فى الميـدان ، فظهر الغـلاء المصطنع فى حاجات

العيش الضرورية ، وهى التى تُشترى من المزارع والفلاح بأبخس الأثمان ، وصرخ الناس غير مرة ، ولكن ماذا يجدى الصراخ والحكومة لا تعنى بأمر المستغلين والمضاربين ؟

واشتدت وطأة الغلاء منذ أسابيع ، وظهرت بنوع خاص فى أثمان الخبز — قوت الشعب — واللحم ، والزبد ، وغيرها من ضرورات العيش ، وضج الناس ولا سيما الطبقات الفقيرة من هذا العنت الذى لا تبرره ظروف الأزمة ، ولا يتناسب مع نتائجها ، واتجهوا ببصرهم الى الحكومة لكى تتدخل لحمايتهم وإنقاذهم من شره المضاربين والمستغلين . خصوصاً وأن هذا الارتفاع الطارىء فى أثمان الحبوب ، وهو الذى ترتبت عليه هذه الموجة من الغلاء ، لم يرتفع إلا بعد أن خرج معظم المحصول من يد المزارع والفلاح ، فلن يفيد منه سوى القليل .

فماذا فعلت الحكومة ؟ قررت أن تشترى ربع مليون أردب من القمح الأسترالى لتستدرك — على ماصرح به رئيس الوزارة — النقص فى المحصول المحلى ، ولتنذر بذلك المضاربين والمستغلين بأنها سوف تضرب على يدهم إذا لم يقفوا عند حد الاعتدال .

ومن حق الشعب أن يتطلع فى مثل هذا المأزق الى حكومته ، والحكومات فى جميع الأمم المتمدينة تضطلع بمهمة محاربة الغلاء المصطنع أو الحقيقى ، وتسن لذلك القوانين الرادعة إذا اقتضى الأمر ، وكثير من الحكومات والبلديات يتولى الاشراف على تموين الشعب ، فيحدد وزن الخبز ونوعه وأثمانه ، ويتخذ غير ذلك من الاجراءات الكفيلة بالضرب على أيدى المحتكرين والمستغلين ؛ وإذاً فليس علينا لوم إذا نحن تطلعنا الى الحكومة لتتخذ ما يجب من الوسائل لحماية المستهلكين ومكافحة الغلاء ، ولحفظ التوازن المعقول بين ما يجنيه المزارع من محصوله ، وما يقتضيه التاجر من المستهلك ثمناً لوساطته . وليس من وسائل الحماية الناجعة أن تستورد الحكومة مقداراً محدوداً من القمح الأجنبى على نحو ما قررت ، ولكن الوسيلة الأولى هى أن تخفض الرسوم الجمركية على الحبوب الأجنبية ، وهى التى رفعت فى وقت كانت فيه وفرة المحصول المحلى تبعث إلى هبوط الأثمان هبوطاً شديدا .

لتتخذ الحكومة هذه الخطوة وغيرها مما تراه ضروريا لدرء كارثة جديدة تنذر ملايين الفقراء بالجوع ، ولا يستفيد منها سوى قلة من المحتكرين والوسطاء ، على أن هنالك عاملا آخر لم يتوفر لدينا بعد ، ذلك هو المقاومة الشعبية ، فمن الواجب أن نعود أنفسنا هذه المقاومة التى لابد منها فى مثل هذه الظروف . ولو أن الجمهور يعنى بالحرص على حقوقه الشعبية ، لكانت المقاومة الفردية والشعبية فى مثل هذه الأحوال خير وسيلة للحماية . ولو عنى كل فرد بأن يقتصد حينما وجب الاقتصاد ، وأن يحرم نفسه بعض الكماليات وقت الضرورة ، وأن يجرب جميع الوسائل الممكنة لمقاومة طغيان المحتكر ، وإنقاص منسوب الاستهلاك ، لكانت حاجته الى حماية الحكومة فى مثل هذه الظروف أقل بكثير مما نشهد اليوم ، إذ لا حول لجمهورنا ولا قوة إلا أن تنجده الحكومة ، وإذا أجابته فانها لا تستطيع أن تذهب معه دائما الى حيث يريد .

وهذا ظرف يستطيع الجمهور فيه أن يبدى الى جانب ما يمكن أن تقوم به الحكومة شيئاً من المقاومة الفردية الحكيمة ، فاذا استطاع أن يفعل فانه يبرهن على حيويته ، وعلى أنه حريص على حقوقه ، وأنه لا يذعن لنير المؤتمرين به من رهط المستغلين والمستفيدين الذين يعملون على سلبه دون أنفة ، ويبرهن أخيراً على أنه ليس عالة مطلقة على حكومته فى جميع شئونه ومرافقه ؟

فهرس المجلد الاول من السنة الثانية

وزعنا فهرس المجلد الاول من السنة الثانية مع هذا العدد على المشتركين والمتعهدين ومن أراده من غيرهم فليطلبه من الادارة

عدو الديمقراطيـــة

للأستاذ أحمد أمين

لندع الديمقراطية السياسية ، فلها نظرياتها ولها رجالها ، ولها نزاعها الحار بين دعاتها وأعدائها .

ولنتكلم فى الديمقراطية الاجتماعيــة وأعدائها — فأكبر مظاهر الديمقراطية الاجتماعية الاشتراك فى مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة ، فاذا رأيت فى القطار درجة أولى وثانيــة وثالثة فهذا مظهر أرستقراطى ، وإذا رأيت ذلك فى عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت أحياء يعنى فيها بالكنس والرش والنور ، وأحياء لا يعنى فيها هذه العناية . فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت فى المآتم والأفراح كراسى ضخمة مذهبة ، وأخرى عادية ساذجة ، وقوماً يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم فى الصدر ، وآخرين يُستقبلون فى غير حفاوة فيجلسون فى الذيل فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت فى قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوين ، وأخرى حقاً مشاعاً للدهماء . فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة ، ويغلقونها فى وجه ذى الجلباب الأزرق . فذلك نوع من الأرستقراطية . وإذا رأيت مقهى افرنجياً فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد . ومقهى بلدياً فيه فنجان القهوة بخمسة مليمات أو تنقص ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، ولا أسترسل فى ذلك ، فلعلك — ياصاحبى — فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية ، وعلمت أنك فى كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر فى أشكالها المختلفة ، وألوانها المتعددة .

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية ، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية ، ولهم على ذلك حجج وبراهين .

ولكن لعل أعدى أعداء الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعاتها ، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شيء واحد هو « الوساخة » أو « القذارة » أو ما شئت فسمه . فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم ، عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن الوساخة .

قد يركب راكبُ الدرجة الأولى فى القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أو نحو ذلك من أعذار كلها سخيفة ، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن ، وهو وساخة ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم .

وقد يتطلب بعض النـاس أغلى مطعم وأغلى مقهى حباً فى الظهور ورغبة فى الجاه ، وطلباً لمخالطة العظماء ، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة فى هذا المطعم وهذا المقهى ، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهى الرخيصة .

فلو عنى الناس بالنظافة ، وكان من لبس لبس نظيفاً ، ومن فتح مطعماً أو مقهى عنى بنظافته ، وكان الفرق بين لبس الغنى والفقير ، والمطعم الغنى والفقير ليس فرقاً فى الكيف ، فالكل نظيف ، وإنما هو فرق فى النوع والكم ، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية فى كثير من نواحيها ، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء فى مأكلهم ومشربهم ومركبهم ، ولسلحوا الديمقراطية بسلاح قوى متين ، ولهذا ترى الأمم التى عنيت بالنظافة والتزمتها فى صغيرها وكبيرها ، وفى فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبى المساواة ودعاة الديمقراطية . وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات فى السيارات العامة ، وقلّ منهم من يركب الدرجة الأولى فى القطار ، وقلّ من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى ، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح ، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لا يؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا

بأى شىء فيهم ، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء ، فى مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة .

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها ، ولكن إذا وصل الأمر الى احتمال عدوى مرض ، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة ، أو آلم عيونهم منظر بغيض ، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية .

* * *

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس فى العالم ، فقد ربطت صلواته الخمس بالوضوء ، وفرض عليه الاستحمام فى أوقات ، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة .

وأغتبط إذ أسمع وصف « ابن سعيد » لمسلمى الأندلس فيقول : « إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

ويؤلمنى أشد الألم ما ذكره ابن سعيد نفسه ، وقد زار القاهرة ، وركب منها حماراً الى الفسطاط يقول « فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ، ودنس ثيابى ، وعانيت ما كرهت ، وقلت :

لقيت بمصر أشد البوار   ركوب الحمار وكحل الغبار

ألِمَ من منظر الفسطاط ، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة ، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، ورأى الباعة يبيعون فى مسجد عمرو : والناس يأكلون فيه ، ورأى فى زوايا المسجد العنكبوت ، قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ . . .

آلمنى هذا الوصف لمصر ، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره ، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة الى الفسطاط فى أرض معبدة ممهدة ، لا تثير غباراً ولا تدنس ثياباً ، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً ، لا يأكل فيه آكل ، ولا يكتب على حيطانه كاتب .

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسى فى مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس فى النظافة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك .

لست أدرى لِمَ لم يلتفت الدعاة الى هذا الأمر فى الأمة ، فيدعون ويلحون فى الدعوة الى النظافة ، ويضعون الخطط الدقيقة لها ، فانها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة ، فلا يأنف بعدُ مثقف أن يجلس مع غير المثقفين ، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين ، وفى هذا الاختلاط نشر للثقافة ، ودعوة للآداب العامة ، وغلبة للعنصر المهذب .

يظن الناس أن النظافة غالية ، وأنها مرتبطة بالغنى ، وهذا خطأ بين ، فكم من غنى قذر ، ومن فقير نظيف ، والأمر يتوقف على تعويد النظافة أكثر مما يتوقف على المال ، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس ، وأن تأكل أفخم الطعام ، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب ، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام .

هذه بديهيات أولية ، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها .

* * *

لعل الأمر فى العلماء والأدباء على نحو ما بينا فى الماديات ، فالذى يفرق بين عالم أرستقراطى وعالم ديمقراطى ، وأديب أرستقراطى وأديب ديمقراطى ، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم ، وعكس ذلك فى الآخرين — ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم ، ونظافة كتاباتهم مهما اختلفت فى النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً ، ولكان الكل سواء . . .؟

أحمد أمين

تحرير الرسالة

انضم الى تحرير الرسالة الأساتذة :

مصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز البشرى

وابراهيم عبد القادر المازنى

كَلِمَة وكُلَيمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

نحن من التنظير بين المدنيتين الأوربية والاسلامية ، كأننا بإزاء جوادين أحدهما يُخلَّى له الطريق إلى غايته ، والآخر يُضرَب وجهُه مرة ويُصرف بالعوائق مرة ؛ ومع ذلك يُقابل بينهما فى السباق ! لو حكم الشرقُ أوربا لظهر جوادها حماراً . .

***

أربعة آلاف كلمة فى الثرثرة ، أقلُّ من أربع كلمات فى الحكمة

***

لاتغضبْ من حماقة امرأة تحبها ، ولا تغضبى من حماقة رجل تحبينه ، وإلا فأين تدسُّ الحياةُ سُمَّها إلا فى ألذ أطعمتها ؟

***

يموت الحىُّ شيئاً فشيئاً ؛ وحين لايبقى فيه ما يموت ، يقال مات . . .

***

قضت الحياة أن يكون النصر لمن يحتمل الضَّربات لا لمن يضربها .

***

غلَبَ رجلٌ على امرأة كانت تهواه وجعل يباهى بما صنع ، فقلت له : ياهذا إن من السخرية أن تزعم انك تعبت فى فتح باب مفتوح . . ..

***

حتى الأرادة ؛ هى فى الذكور مذكَّرة ، وفى الأناث مؤنثة ؛ فعند ما يغلب سحر الحقيقة التى فى الرجل على الحقيقة التى فى المرأة ، تلتمس المرأة إرادتها لتَعُوذَ بها فلا تجدها إلا صورة . . فاذا امتنعت كانت فى صورة امتناع على استجابة ، وإذا غضبت كانت فى صورة غضب على رضى . ولهذا ما يكره بعضُهن الحجاب فانه يُذَكِّرهن تأنيث الارادة ويُبعدهن ويحذِّرهن ؛

ويا شؤمَ من إذا نجت من ذلك الخطر نجت كارهة . .

***

هناك حبٌّ يسمو ولا يزال يسمو ؛ إذ يكون المحبوب فيه مع المحب كالتَّرجُمان مع السائح ؛ ذلك حب بعض الشعراء لبعض الأجسام المترجمة .

***

تكون الأمانىُّ مرةً كَسْبَ أفكارنا ومرةً لصوصية أفكارنا ! . . .

***

ينفر الأنسان من الكلمة التى تحكمه ، ولكنه فى الحب لا يبحث إلا عن الكلمة التى تحكمه .

***

من خُلقَ بطلاً فلا عجب أن توجدَ له الأقدار دائماً من كل ما حوله مادةَ حرب ، مائةٌ من مائة فى التوكل على الله تكون مائةً من مائة فى النجاح ؛ ولكن تسعة وتسعين من المائة فى التوكل لا تكون إلا خيبة محققة .

***

هل أستطيع أيتها الجميلةُ السوداءُ أن أقول فى وصف خديك إنهما فى حمرة الورد ؟ فلماذا تغضبين إذا قلت إنهما فى التماع الزيتون الأسود . . ؟ وأنت أيتها الحسناءُ المتكبرة السخيفة ! لماذا تغضبين إذا رأيت فى قلبك الزيتون ولم أر الورد ؟

***

فى بعض أحوال الحب ، تكون العواطف المحبةُ لك فى الباطن هى المعاديةَ لك فى الظاهر .

***

لا يسعد أحد بشعور غيره ؛ وطبيعىٌّ أن يكون هذا هو الذى يجعل السعادة ممكنة فى الناس ؛ ولكن العجيب أنه هو الذى يجعلها غير ممكنة ، إذلا يريد كل إنسان لنفسه إلا شعور غيره .

***

الناس يزاحمون فى الدنيا لأجسامهم ، فاما بؤسٌ وإما سعادة ، والحكماءُ والمحبون يزاحمون لأرواحهم ، فاما بؤسان وإما سعادتان

***

ما أظرفها كانت وأبلغها حين قالت لى : ألا تنظر ثانياً فتفهم ثالثاً . . ؟

* * *

يخيل إلىَّ والله أن قلب المرأة امرأةٌ معها ؛ فاما أن تأخذها نكبتين أو معونتين .

* * *

فلسفتى أن الكبرياء على المتكبرين هو أعلى التواضع .

* * *

مصادفة التعس حظاً تحتاج فى اتفاقها إلى مصادفة تجىء بها

* * *

تستطيع أن تقول فى كل نابغة عظيم : إنه أذكى البلداء . . فان كذَّبك الناس لم يكذبك هو .

* * *

المودَّة القوية تتحمل العتابَ والمحاسبة لتثبت أنها قوية

* * *

الحب يُخرج من نفسك شخصاً غيرك ، والبغض يخرج من هذا الشخص غيره . فتحب بنفسين وتبغض بثلاث .

* * *

إن رضى المحب قال فى الحبيب أحسنَ ما يَعرف ، وما لا يعرف ؛ وإن غضب قال فيه أسوأ ما يعرف ، وما لا يعرف ، وما لا يمكن أن يعرف .

* * *

إذا رأيت كبراءَ قوم همُّهم عيشهم ؛ فاعلم أنها أمةٌ مأكولة . فلو شهَرَتْ السيف الماضى لقاتَلَ بروح مِلْعقة . . ولو رَعَدَتْ بالأسطول الجبَّار لَصَلْصَلَ كآنية المطبخ . . .

* * *

لم تعد التربيةُ فى كل أمة تربيةً للناس ولكن للمطامع ؛ فما يكبر جيلٌ إلا كبرت معه الحرب . .

* * *

يراد من التجمُّل الصناعى حين تبالغ فيه المرأةُ أن يخفَّ فيثقل ؛ ويراد من الجمال الطبيعى أن يخفَّ فيزداد خفة . .

* * *

من النساء مَن إذا رأيتها حسبتَ روحَها زجاجةً مُلئت عطراً ؛ ومنهن من إذا رأيتها حسبت روحها زجاجةً ملئت زيت خروع . . . .

* * *

أول فلسفة الشريعة فى الزواج أنه حَصرُ المعانى البهيمية من كل رجل وامرأة فى الرجل والمرأة بذاتيهما . فآخر فلسفة الشريعة فى الزواج أنه إذا عمَّ وانتظم تراجعت بهيمية العالم فصغرت وصغرت حتى تكون كأنها فى اثنين فقط . . .

* * *

إذا سألت السياسى الداهيـة فسكت عن الجواب فقد قال لك قولاً . . .

* * *

من لا يملك على الأرض شيئاً يملك على الأقل أن يفرح وأن يحزن . . .

* * *

مات وأصبح كأن لم يوجد ، ومع ذلك فقد وجد ، ومع ذلك فكأن لم يوجد . إن خرج من هذا التركيب المنطق معنى يثبت فى الفهم ، كان للحياة فى الفهم معنى ثابت . . .

* * *

أيا غاضباً من صُروف القضا بنفسك تعْنُفُ لا بالقـدرْ
ويا ضارباً صـخرةً بالعَصا ضربت العصا أم ضربت الحجر؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

الشيخ احمد مفتاح

يرجو عباس شاكر شكرى ببنى سويف حضرات الذين لديهم شىء من آثار المرحوم الشيخ احمد مفتاح أن يتفضلوا بإرساله اليه سواء أكان شعراً أم نثراً بعنوانه المذكور ، لدرجه فى كتاب تحت الطبع سيجمع فيه شعر الفقيد ونثره ، ولحضراتهم الشكر سلفاً .

صفحة من التاريخ

روح مصـــر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

دع من شاء يتغنى بفرنسا وما في فرنسا ، ودع من شاء يتغنى بانجلترة وما في انجلترة ؛ دع هؤلاء جميعاً يمنفون مصر وما في مصر وينكرون ماضيها ، فما نحن منهم في شيء . وليس في الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا عفواً أو قصداً على كلمة لبعض هؤلاء ؛ حتى إذا مرت الساعة لم يبق من أثر لكلمتهم إلا كما يبقى من أثر قول الولد العاق في نفوس أهله ، فان الحب يغلب الكراهة ، وسعة صدر الوالد لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة . ثم لن تكون إلا أعوام فتنضج العقول الفجة ، ويتسع الأفق الضيق ، ويغزر المحيط الضحل ، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها ، وإعطائها ما يجب لها من الاجلال .

وأما نحن فما بنا ولله الحمد غير مصر وحب مصر ، والاعجاب بها والاشفاق عليها : نعجب بما فيها من جليل ، ونشفق على ما بها من عليل أو ضعيف . ليس في القلب نحوها موضع لغير عاطفتي الحب والاشفاق . هذه كلمة نفرج بها عن النفس مما تحسه ، إذ كثر في هذه الأيام حديث الزراية بمصر من قوم لا نجد في نفوسنا ميلاً إلا للدعاء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك وأكرم .

ولنعد إلى الماضي نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر ، لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبي ، ولو علا تلك الصفحة صدأ القدم ، أو غشاء الوهم .

لا حاجة بنا الى أن نعود إلى أيام الفراعنة ، أو إلى أيام مجد الدول الأسلامية التي كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوي ؛ بل نعود إلى أيام القرن الثامن عشر الذي يصفه بعض المؤرخين بالظلمة والأنحطاط ، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها ، وتعدوا فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى في التسمية ، فلا يعرفونه إلا باسم « عصر المماليك » كأننا بهم يعيرون حكامه بأنهم كانوا في أول أمرهم يُشترون بالمال . وإنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجد روح مصر خفياً ، بل نراه واضحاً مجلواً على عهده من الكرم والآباء :

لئن كان حكام مصر الأسبقون يُشترون في أول حياتهم بالمال ، فقد كانوا رجالاً حماة طالما ذادوا عن حوض مصر ، وحموا ذمارها . ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويعتزون بها ، ويسمون أنفسهم منتسبين إليها ، فكانوا يعرفون أنفسهم باسم « الأمراء المصريون » وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم ونتجنب تلك التسمية الجائرة التي رددها من قبل أعداء مصر ظلماً منهم وعدوانا . فلقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلقها عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر لينزعوها من أيديهم ويحلوا محلهم في حكم البلاد ، فكانوا يحاولون في كل مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم ، بغية أن يفسدوا عليهم قلوب أهل مصر . ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم « المماليك » وأن ينعتوهم بأشنع النعوت ، ويتهموهم بأبشع التهم .

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى ، وأن ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة ، فما كانوا بأهل لذلك ، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التي تعاقبت على مصر في مختلف العصور . فلقد تعاقب في عهدهم حكم العدل والظلم ، واختلف في زمانهم زهو النصر ، وذلة القهر — وأي عصر في التاريخ قد خلا من مثل هذا التقلب والاختلاف ؟ وكان شعب مصر في مدتهم يزن الدولة ، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة ، فاذا رأى الحسنة غالبة ، غفر السيئة في سبيلها ، وهو في ذلك مثل سائر الشعوب المتمدينة المستقرة ، لا تستخفه الحوادث الى العنف ضناً بالسلام والطمأنينة .

غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحياناً من الحكام من لا يستحق عطفه ولا إجلاله ، فكان عند ذلك يرفض الأعتداء بإباء العازم على عدم الاستكانة . وما أكثر الآيات الدالة على هذا لمن أراد النظر لنفسه ، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكارهين الكاشحين .

ولي أمر الحكم في مصر في أواخر القرن الثامن عشر أميران من أضعف من ولي أمر الحكم فيها ، وهما مراد وإبراهيم . فكان حكمهما في مصر أشبه شيء بالمرض يعتري جسم الشاب الناشيء ؛ وتهدم في أيامهما ما بناه أكابر الأمراء السالفين قبلهم منذ أيام إبراهيم ورضوان ، ومن جاء بعدهما مثل علي بك الكبير ومحمد بك

أبى الذهب . وشهد أهل مصر فى أيام هذين الحاكمين الضعيفين تغيراً فى نظام الحكم وعظ السياسة ، وأخذت شوكة الدولة تتجه نحو جوانب الناس تخزهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم ، وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم . فان الأمراء المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم ، وإذا اعتدى بعضهم فانما كان يعتدى على بعض ، وإذا غصبوا مالا أو سفكوا دما فانما كان الحزب الغالب منهم يغصب مال الحزب المغلوب ، ويسفك المتصرون منهم دماء اتباع الحزب المخذول . وقديما تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة ، وما كان بأهل مصر بأس من ذلك ، إذ كانوا فى كل هذه الحركات بمعزل عن الأذى . دماؤهم محفوظة ، وأموالهم محرمة ، وأعراضهم مقدسة ؛ وأما منذ تولى أمر الحكم ابراهيم ومراد ، فقد تغيرت الحال ، وخرقت الحدود ، وإذا بجنود الدولة تعسف بالناس ، وتنتهك حرماتهم ، فلم يرضهم ذلك ، بل احتجوا وشكوا ، ثم تحركوا واضطربوا ، وكان اضطرابهم ذلك ، قبل أن يتحرك شعب فرنسا فى ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات .

قال صاحب « عجائب الآثار » فى حوادث سنة مائتين والف للهجرة : أى فى سنة الف وسبعمائة وخمس وثمانين للميلاد ما يأتى :

« وفى صبحه (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالى الحسينية بسبب ما حصل فى أمسه من حسين بك (تابع مراد بك) وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول . والتف عليهم جماعة من أوباش العامة والجعيدية ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم : أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع وقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : (فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظان ، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفى كتخدا ابرهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحالة ، وقالوا للشيخ : (أ.كتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها من محل ما تكون) واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا ، وركب الشيخ فى صبحها الى ابرهيم بك وأرسل الى حسين بك فأحضره بالمجلس وكلمه فى ذلك . . »

ولم يقف الأمر عند حدود القاهرة ، بل اشترك أهل الأقاليم فى ذلك ، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا فى أيام مولد وليها المشهور السيد البدوى ، وكان الشيخ الدردير على رأس الحركة هذه المرة أيضاً .

قال صاحب تاريخ « عجائب الآثار » :

« فذهبوا (أى أهل طنطا) الى الشيخ الدردير ، وكان هناك بقصد الزيارة ، وشكوا اليه ما حل بهم ، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب الى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة ، فلما وصل الى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر اليه والشيخ راكب على بغلته ، فكلمه ووبخه وقال له : (أنتم ما تخافون من الله) ففى أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت ، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم ، وقبضوا على السيد أحمد الصافى تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت ، وهاجت الناس على بعضهم ، ووقع النهب فى الخيم وفى البلد ، فنهبت عدة دكاكين ، وأسرع الشيخ بالرجوع الى محله . . . ثم حضر كاشف المنوفية وهو من جماعة ابرهيم بك الكبير وحضر الى كاشف الغربية وأخذه وحضر به الى الشيخ ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان . . . ولما رجع الشيخ الدردير الى منزله حضر اليه ابرهيم بك الوالى وأخذ بخاطره أيضاً . وكذلك ابراهيم بك الكبير ، وكتخدا الجاويشية . »

غير أن الحوادث السياسية التى وقعت فى ذلك الوقت حالت دون استمرار سعى أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم ، وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاقبة المفسدين فى زعمه . فانخدع أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسعى ظناً منهم أن السلطان كفيل لهم بازالة المظالم وإصلاح الأمور . وبقى جيش السلطان فى مصر قليلاً ، ثم دعته الدواعى الى مغادرة البلاد فعاد الأمر الى ما كان عليه من عبث مراد وأتباعه ، وعاد الناس

يفكرون فى الدفاع عن أنفسهم والتحرك لازالة العسف ، وأضحت مصر والجو فيها مكفهر ، والقلوب غير مستقرة ، والشعب متحفز ، وأهل الدولة فى وجل وترقب .

قال صاحب « عجائب الآثار » فى وصف هذه الأيام :

« وركب ابرهيم بك الكبير فى ذلك اليوم وذهب الى الشيخ البكرى وعيد عليه ، ثم الى الشيخ العروسى ، والشيخ الدردير ، وصار يحكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف جداً . »

ثم أراد الله مرة أخرى أن يحول دون تمام تلك النهضة ، إذ لم تلبث البلاد أن شهدت طلائع الحملة الفرنسية ، فكان فى تلك الحملة المشئومة آخر قضاء على حركة مصر فى القرن الثامن عشر .

أمن الحق أن يقول قائل مع هذا إن أهل مصر ظلوا منذ القدم على الاستكانة والخضوع للمظالم ؟ . . .

محمد فريد أبو حديد

حركات الشــــباب

خواصها وأثرها فى بناء أوربا الجديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من أهم الظواهر التى يمتاز بها المجتمع الأوربى الجديد ، أن الشباب يقوم فى بنائه وتوجيهه بأعظم قسط ؛ وقد هلكت زهرة الشباب الأوربى القديم فى الحرب ، وخلفها شباب جديد حائر يتخبط فى غمار المتاعب والأزمات العديدة التى خلقتها الحرب ؛ ولكن الحركات والانقلابات السياسية العنيفة التى تمخض عنها العهد الجديد أفسحت للشباب مجالاً كبيراً للعمل ، وأسبغت عليه كثيراً من النفوذ والسلطان ، وخصته فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد بأعظم قسط . ويلاحظ أن هذا التطور قد بدأ فى أواخر الحرب ذاتها ؛ حيث قامت الثورة البلشفية فى روسيا وحطمت صرح المجتمع القديم كله ، ولبثت منذ قيامها تعمل بجد ومثابرة على خلق جيل جديد وشباب جديد يضطرم بالمبادئ والمثل الجديدة ويكون لها فى المستقبل عماداً وسياجاً . ثم قامت الثورة الفاشستية فى إيطاليا بعد نهاية الحرب بأعوام قلائل ، وأدركت ما للشباب من أهمية فى بناء المستقبل ، فأقبلت عليه واجتهدت فى حشده وتنظيمه وتدريبه ، وطبعته بطابعها القوى فأصبح من طلائعها وجندها المخلصين ؛ وأخيراً قامت الثورة الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا (الثورة الهتلرية) وكان قوامها منذ البداية ذلك الشباب البائس الذى دفعته خيبة الأمل إلى أحضان التطرف وإلى لواء أولئك الذين يعدونه بالعمل ورفاهة العيش فى ظل دولة جديدة يكون الشباب فيها كل شىء ويستأثر بكل شىء ؛ وفى تركيا الكمالية يشغل الشباب فى المجتمع التركى الجديد أعظم مكانة ، ويعلق عليه زعماء الثورة الكمالية أعظم الآمال ؛ وقد حذت الثورة التركية حذو الثورة البلشفية والثورة الفاشستية فى حشد الشباب وتدريبه وطبعه بالمبادئ والمثل الجديدة ؛ وفى معظم الأمم الأوربية الأخرى مثل اسبانيا وفرنسا وبولونيا يجتمع الشباب حول المثل الجديدة ، ويحاول أن يشق طريقه إلى بناء دولة جديدة ومجتمع جديد يكون له فيهما ما يطمح إليه من السلطان والنفوذ . وحتى فى انكلترا التى عرف شعبها بالروية والاتزان إزاء الآراء والتطورات الجديدة يبدى الشباب الانكليزى ميلاً كبيراً إلى التطور ، ولا يأبى تأييد الشيوعية والفاشستية إلى حد ما .

ونلاحظ أيضاً أن الشباب أشد ما يكون تطوراً ونفوذاً فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى ظل حركات الطغيان ، كالبلشفية والفاشستية والوطنية الاشتراكية الألمانية . ذلك أن هذه النظم الطاغية تقوم على القوة والعنف وتحتاج أولاً إلى السواعد الفتية تؤازرها وتحقق لها ما شاءت من ضروب العنف والارهاب ، فاذا ما استقرت بفضل هذه السواعد القوية والأذهان الملتهبة الطامحة ، اضطرت أن تفسح لها مجال النشاط والعمل تحت اشرافها ووحيها ، وأن توليها من النفوذ والمكانة ما يحقق بعض أطماعها ، على أنها لا تقنع بحشد الشباب الناضج المكتمل ، لأنها لا تأمن تطوره وانقلابه ، فتعمد إلى الشباب الفتى تبث اليه تعاليمها ، وتدربه على أساليبها ؛ ولا تفر الأحداث والأطفال ، لأنها ترى فيهم أجيالاً متعاقبة من الشباب الذى ترى أن تخلد زعامتها على يده ؛ ولذلك نراها تخضع نظم التعليم والتربية لصولتها ، وتطارد حرية التفكير والرأى بكل ما وسعت من ضروب العنف

٣٤ - ٣

والشدة حتى لا تفضح مثلها ووسائلها ، وحتى لا يلقى الشباب الذى تستعبده وتذلله لغـاياتها من النور والضياء ما يهديه إلى الحقيقة ويدفعه إلى تحطيم ذلك النير الوحشى الذى تضعه فى أعناقه . وتلجأ هذه الحكومات الطاغية دائماً إلى حشد الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، تحت أسماء وصفات مختلفة ، وتعنى عناية خاصة بتنمية الميول العسكرية والرياضية فى نفسه ، لتعوده أولاً على الطاعة العمياء ، ثم لتحكم قيادته وتوجيهه بواسطة رياسة متدرجة مباشرة ؛ وقد استطاعت الفاشستية الايطالية أن تحشد حولها بهذه الوسيلة ملايين الشباب والأحداث ، وحذت حذوها الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا فجندت الملايين باسم فرق الهجوم والحرس الأسمر ، وجيش العمل ، والشباب الهتلرى وغيرها . ويتخذ الطغيان ، الوطنية والغايات القومية ستاراً لهذه الحركات ؛ وقد يحقق بالفعل كثيراً من الغايات القومية المحلية أو القريبة المدى ، ولكنه يعمل دائماً بروح حزبى عميق ، ويؤثر المبادىء والغايات الحزبية على غيرها ، ويخضع الدولة لسلطان الحزبية ، كما فعلت الفاشستية فى إيطاليا والهتلرية فى ألمانيا .

وتثير حركات الشباب اليوم فى أوربا كثيراً من الاهتمام ، ولا سيما بعد أن أصبحت عماد انقلابات خطيرة فى نظم القارة ومجتمعاتها القديمة ، وأضحت عاملاً قوياً فى حياة أوربا السياسية . هل توجد بين حركات الشباب فى مختلف البلدان خواص مشتركة ؟ وما هى هذه الخواص المميزة وما علاقتها بالتطور الاجتماعى والسياسى فى كل بلد ؟ وهل تحفز الشباب فى جميع البلدان آمال وغايات مشتركة ؟ هذه الأسئلة وما إليها تثير كثيراً من البحث والجدل . وقد ظهرت فى الأعوام الأخيرة عدة كتب ومباحث هامة بأقلام جماعة من كبار الباحثين والساسة عن حركات الشباب الأوربية وخواصها وآثارها ، ومن أشهر هذه الدراسات وأحدثها كتاب بقلم الكاتب الفرنسى ايليا ارنبور عنوانه : « اليوم الثانى من أيام الخلق » Le deuxième jour de la création وفيه يدرس حركات الشباب فى روسيا السوفيتية ، ويستعرض خواصها وتطوراتها بطريقة روائيـــة ، وفى رأيه أن الشباب الروسى انما هو شعب جديد ، يفيض بمادة حديدة تستنفد اليوم فى مرحلة التوطيد الاشتراكى ، كل قواه بملء الحرية ؛ وأن المركسية (الشيوعية) قد انسابت الى دمه ، وأصبح يتذوق الأوضاع التى تقررها ، وأنها قد أسبغت عليه بالأخص صفتين : الأولى عاطفة التضامن البشرى الذى دعا اليه من قبل سولوسييف ، وتولستوى ، ودستويفسكى ؛ والثانية هى الثقة التى لاحد لها بالعقل والمنطق وما يترتب عليهما من الطموح المستمر الى النور ، واستعمال القوة المفكرة ، ونبذ الخرافات القديمة . ومن هذه الدراسات أيضاً كتاب الدكتور جريندل عن حركات الشباب الألمانى وعنوانه : « رسالة الجيل الفتى » Die Sendung der jungen Generation ، وقد ظهر قبل قيام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، ولكنه لا يزال مرجعاً فى موضوعه .

ويصف الدكتور جريندل الشباب الألمانى بأنه « وطنى » يخاصم الشيوعية أشـــد الخصومة ، وأنه يطمح إلى إقامة « اشتراكية ألمانية » تضع حداً لمساوىء النظام الرأسمالى وتقضى على الشيوعيـة أتم قضاء ، وتوفق بين مصالح جميع الطبقات والأفراد . ويمتاز الشباب الألمانى بصفة خاصة ، هى أنه يعتبر نفسه ذا قيمة فى نفسه ، ولا يكتفى بأن يعتبر ذخر المستقبل كما هو الشأن فى معظم الأمم ؛ فليس الشباب فى نظره حالة نضوج ينتهى عملها بعد حين ، ولكنها حالة نضوج تام تترك وراءها كل الأجيال السالفة والقادمة ، وهى ذات قيمة فى نفسها تتمتع بأعظم الخلال ؛ وإذا كان الشباب يتكون فى الأمم الأخرى على مثل الرجل الناضج ، فانه يرى فى ألمانيا أنه أتم نضوجاً وأوفر قيمة من الرجل الكامل . وليس أدل على ذلك من « حركة الشباب » الألمانية الشهيرة التى استطاعت أن تنشىء ثقافة شباب حق لها كل مميزاتها ، ولها مثلها الأعلى الخاص ؛ ومن المعروف أن الطموح الألمانى الى المثل الأعلى ، الذى غدا منذ الفيلسوف « كانت » ظاهرة الحياة العقلية الألمانية ، هو مصدر هذه النزعة التى تدفع الشباب الألمانى الى الامام ، فهو يتقدم فى سبيله لا يقعده شىء من الأعتبارات العملية التى تسحق الرجل الناضج ، وهو لا يعبأ بالمصاعب الخارجية ، بل يتحرى الغايات البعيدة دون النظر الى الحقائق ، وهذا الطموح الحر الى المثل الأعلى هو الذى خلق الشباب الألمانى .

هذا عن الدراسة الخاصة لحركات الشباب ، وقد صدرت

كتب وبحوث عديدة عن الفاشستية وأثرها فى تكوين الشباب الأيطالى . وهناك بحوث عامة عن حركات الشباب الأوربى ، منها كتاب لرنيه دبوى والكساندر مرك عنوانه « أوربا الفتاة » Juene Eurepe وكتاب لارنو داندييه عنوانه « الثورة المحتومة » La Révolution nécessaire وكلها تدور حول تنظيم أوربا الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، وحول تطور المجتمع الأوربى القديم ، وفشل الديموقراطية فى حشد الشباب ، وخصومة الشباب للنظم الرأسمالية والشيوعية معاً . وسر هذه النزعة نحو النظم الأقتصادية القائمة ، هو أن معظم شباب مابعد الحرب من أسر فقيرة ومتوسطة ؛ وهو يشعر بأنه ضحية إغراق النظم الرأسمالية فى استثمار الطبقات العاملة ، ويشهد من جهة أخرى أخطار الشيوعية ووسائلها المخربة ، فهو يرغب عن النظامين ، ويطمح الى نوع من الاشتراكية المعتدلة ؛ وأحياناً يرى مثـــله الأعلى فى الفاشستية ، وأحياناً فى الاشتراكية الوطنية ؛ غير أن الفاشستية والاشتراكية الوطنية لم تتمخضا بعد عن مثل هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى ينشده الشباب . ومن الغريب أن هذه الحركات الطاغية قد استطاعت أن تستعبد هذا الشباب الطموح المتوثب أحيانا بالوعود الخلابة ، وأحياناً بالمنح المتواضعة فى ميدان الكسب والعمل ، ولكنها تعمد بنوع خاص الى كسبه بالملق ، فتصوره دائماً بأنه كل شىء فى حياة البلاد ، وأنه صاحب السلطان المطلق فى شئونها ، وتمنحه من أجل ذلك بعض المناصب الرئيسية ، ثم تسيره من ورائها وفق مشيئتها ، مصورة إياه بأنه هو الذى يقود نفسه بنفسه ، على يد زعمائه الشبان .

* * *

ومن الحق أن نقول إن هذه الحركات الطاغية — الفاشستية والوطنية الاشتراكية والكمالية — كان لها مع ذلك فى تكوين الشباب من بعض النواحى الخلقية والقومية آثار حسنة ، تدعو أحياناً الى الاعجاب ؛ فهى فضلاً عن العناية بتكوينه من الوجهة الرياضية والعسكرية ، والسهر بذلك على رعايته الجسمية والصحية ، تعنى عناية خاصة بصقل رجولته وتقوية خلاله ومبادئه الأخلاقية ، وتعويده على الحياة الخشنة العمليـة ، وتدريبه على احتمال المشاق ، والاعتماد على النفس ، فهى تنشئه من هذه الناحية نشأة إسبارطية حسنة ؛ وأما من الوجهة القوميـة فان لها كل الفضل فى جعله جندياً متحمساً من جنود الوطن ، فهى تحشده باسم الوطن أولاً ، وتذكى فى نفسه حب الوطن وكل مايتصل به ، تاريخه وماضيه ، ومدنيته ، وربوعه ، وخواصه ، ثم تبعث اليه حب المثل القومية التى تجيش بها الزعامة السياسية وتدخره لتحقيقها ، وتذكى فى نفسه العزة القوميــة الى أقصى حدودها ؛ وتحميه من أخطار المبادىء الشيوعية والثورية الهدامة ، أو بعبارة أخرى تتخذه درعا لحمايتها منها . ولا يستطيع منصف أن ينكر ما لهذه التربية الأخلاقية والقومية من المزايا البديعة . على أن هذه الحركات تذهب أحيانا إلى حدود بعيدة ، وتركب متن الأغراق فى تصوير العواطف والغايات القومية ، ففى ألمانيا مثلا تبث الاشتراكية الوطنية فى نفوس الشباب نزعـة قومية مغرقة تذهب الى حد الأحقاد الجنسية ؛ وشعار الأشتراكية الوطنية (الهتلرية) فى هذه الناحية أن الجنس الألمانى هو خير الأجناس البشرية ، وأنه يتفوق عليها جميعا بمواهبه وخواصه ، وتستتر الوطنية الاشتراكية وراء التفرقة بين الأجناس الآرية والسامية ، وتعلم الشباب والشعب الألمانى جميعاً أن الجنس الآرى (ويجب أن نقرأ دائماً الجنس الألمانى) هو أجدر الأجناس بأنشاء المدنيات ، وأن الشعوب السامية والأسيوية كلها شعوب هدامة للحضارة يجب أن تستعبد وأن تستغل لمصلحة المدنية الآرية والجنس الآرى ؛ وتنظر الشبيبة الألمانيــة اليوم الى جميع أمم العالم من عل وتتوغل فى الأحلام المغرقة ؛ وكان من آثار هذه المبـادىء المغرقة التى تبثها زعامة محدثة متطرفة لا تتمتع بشىء من المواهب الممتازة أن وقعت تلك الحوادث والمناظر الدموية المثيرة فى ألمانيا باسم خصومة السامية ومطاردة اليهودية ؛ ومن الأسف أن هذه المبادىء المغرقة تهيمن اليوم على الثقافة الألمانية كلها . وقد شهدنا بأنفسنا آثار الفاشستية فى إيطاليا وآثار الثورة الـكمالية فى تركيا ، فأما فى إيطاليا فان الفاشستية تغذى العاطفة القومية بقوة ، ولكن فى نوع من الرزانة وحسن التوجيه . وقد تحمل الشبيبة الأيطالية بعيدا فى كبريائها وأحلامها ، بل تذهب أحياناً إلى حد التعصب والخشونة . ولكنها لم تذهب قط الى تلك الحـدود المغرقة التى انتهت اليها الوطنية الأشتراكية فى ألمانيا . وتتجه الشبيبة الأيطاليا اليوم ببصرها الى ماضى إيطاليا المجيد ، الى مجد رومة ومجد القياصرة ، فتتصور بعث الدولة الرومانية بكثير من حدودها وأملاكها القديمة ، وتتجه

أيضا الى إحياء الفضائل والخلال الرومانية القــديمة ؛ وهى اليوم أفضل مما كانت عليه بكثير من حيث الأخلاق والهمم والثقافة .

وأما فى تركيا فإن العاطفة القومية تبلغ بالشباب حــد التعصب الأعمى ، ومع أن الشبيبة التركيــة لا تتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقــافة ، فإنها مع ذلك شديدة الكبرياء والغطرسة تتصور أنها سيدة الشباب فى العالم كله ، وأنها على حداثة عهدها بالمدنية الأوربيــة وضآلة ثقافتها تضارع أرقى شباب أوربا ذكاء وثقافة ومدنية ، وليس هــذا بغريب فى بلد يدعى زعماؤه أنه هو مهد الحضارات البشرية ، وأن لغته (أى التركية) هى أصل اللغات البشرية . ويحسبون أن ما أسبغ على تركيا الجمهورية فى أعوامها القلائل من قشور المدنية الأوربية يكفى لوضعها إلى جانب أعظم الأمم رقياً وحضارة .

***

هذا وأما عن حركات الشباب فى الأمم الأسلامية والعربية فلا نستطيع أن نبسط القول ، ومن الأسف أنه لم تنتظم فى أممنا الأسلامية والعربيــة حركات منظمة قوية من الشبيبة . نعم قام الشباب فى مصر وفى البــلدان العربية بحركات متقطعة ، واشتركوا فى الحركات القومية ، وكان لهم فيها يوم قيامها أكبر الأثر . ولــكن هذا العمل القومى لم يكن منظما ولا مستمرا ، ولم تدعمه من الناحية الأخرى تلك المزايا القومية والأخلاقية التى ننشدها . ومن الأسف أيضاً أن شباب الشرق يتأثر من آن لآخر بنزعات الشبيبة الأوربية ، فيحاول أن يقلدها تقليداً أعمى . مثال ذلك ما أذيع من أن شباب بعض البــلدان العربية يحاول أن يقتبس من مبادىء الحركة الهتلرية ، مع أن الحركة الهتــلرية هى من أشد الحركات الحديثــة نزعة إلى الأستعمار ، وأبلغها عداوة للحرية ، وأشدها احتقارا للأمم الشرقية ؛ فمن الواجب على شبابنا أن يسترشد فى حركاته وأمانيه بالظروف المحلية والغــايات القومية قبل كل شىء ، ومن الواجب أن يعمل ولــكن فى روية واستنارة ؛ ومن الواجب أن يسترشد دائمــاً بمحن الوطن وماضيه المجيد فى تغــــذية العاطفة القومية ، وأن يكون شعاره العمل الرزين المنظم فى سبيل الأمانى القومية ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

النـــــاى السحرية [١]

The Magic Flute

للأستاذ بشير الشريق المحامى

حين قدم موزار Mozart (١٧٥٦ — ١٧٩١) النــاى السحرية للجمهور لم تلق ما تستحق من نجاح . ويقال إن مدير الجوقة الموسيقية لأول مرة ظهرت فيها الناى السحرية ، وبعد أن هدأت عاصفة التهليل ، تسلل الى موزار وكان يشرف على الأخراج ، وقبل يده ؛ فربت موزار على رأسه . لنا أن نذهب من ذلك الى أن المدير قد فهم ماعنته الموسيقى ، وأن موزار أدرك أن المدير قد فهمها . كلاهما لم يستطع وضعها فى كلمات رواية غنائية libretto وهى فى الواقع لم تكن مثبتة فى كلمات ؛ وما كانت كلمات الرواية الغنائية لتحول دون إدراك المعانى الموسيقية لولم يتساءل النظارة عن معانى تلك الــكلمات . لقد نجحت النــاى السحرية بعد موت موزار ؛ وسبب هــذا النجاح ولاشك أن النظارة لم يعودوا يتساءلون عن معانى كلمات الرواية libretto وأدركوا شيئاً من معانى الموسيقى .

كلمات الناى السحرية هى عناوين لموضوعات ضخمة ، ونحن نمر خلالها بسرعة الى موسيقى بابا كينو Papageno الواضحة ، ولــكنا سوف نضيع ذلك الوضوح إن نحن سعينا اليه عن طريق الــكلمات أو نشدنا موضوع الرواية فى هذه الــكلمات . إن حوادث الرواية ليس لها ارتباط بالــكلمات بعضها ببعض ، كما أن منطق الرواية كله فى الموســـيقى التى تخلق عالماً تقع فيه الحوادث عفواً ، عالما تصدر فيه النغمة عن أختها أو تنعكس عنها كما تنعكس قوى الطبيعة أو أفكار الرجل ؛ هذا العالم هو الــكون كما يراه موزار ، والرواية بكاملها هى إيضاح لايمانه الخاص . وعلى هذا فهى بذاتها عمل دينى وان كانت سليمة مما نجده فى الدين من مسائل مبهمة وورع جبان . لقد عاش موزار فى هذا العالم

---

(١) للاديب الانجليزى كلاتون بروك A. Clutton-Broch عن كتابه : « مقالات فى الفن Essays On Art »

أشبه ما يكون بملك همه أن يضحك ، ولكن بلا أذى ولا حقد . همه أن يضحك من شقاء بني الانسان ، وشر المصائب ما يضحك . وكان يعطف حتى على الفجار « إنهم أطفال خبثاء يمكن لمن عنده سر السحر أن يجعل منهم أهل خير وصلاح » وفي الناي السحرية يعمل السحر ، إنه يعمل في الناي نفسها ، وفي قيثار پاپا كينو . عند موزار سر الموسيقى ، وقد بلغ من جهل العالم بحكمته أن حسبه مجرد شحاذ يعزف بأنغامه في الشوارع ؛ وبعد جيل أصبح الناس يذكرونه كلما ذكروا الأنغام ، وأصبح الشعب ينظر اليه كما ينظر الى سوسن الحقل ؛ ولا تزال الناي السحرية الى اليوم أكثر من رواية غنائية عادية ذات أنغام وأسلوب بسيط قديم ، يمكنك أن تتمتع بها على كل حال اذا لم تقف إزاءها موقف المتهيب ؛ يمكنك أن تنعم بها كما تنعم «ببهمات» تلك الرواية المشجية ؛ وهي مثل «هملت» تحوي معاني دقيقة بعيدة ، معاني لا تدركها أفهامنا . إن پاپا كينو صورة مجازية ؛ ولكنها من أعظم الصور في جميع روايات العالم ؛ إنه كل شخص كما كان «هملت» ، واذا كنا نملك مهارة معرفة أنفسنا وجدنا فيه كلاً منا نفسه ؛ وبكلمة أخرى أنه ذلك العامل المستولي علينا والذي نحبه في أنفسنا ونحتقره في الآخرين ؛ إنه ذلك العامل الذي لا نعترف به للحظة ، الا وهو عامل الخوف والاعتزاز والكذب .

قدم موزار أغانيه لسارسترو Sarostro وپاپا كينو، حتى اذا أخذا في الغناء أحسسنا كأنا نشاركهما غناءهما ؛ وأي غناء ؟ ! غناء ليس فوق مقدرة فهمنا ولا سرورنا ؛ غناء الملاك الذي تعلم لساننا الأرضي وأدخل عليه الأصلاح فأقام بذلك سماء على الأرض ؛ سماء لا تبعد عنا ولا تصعب علينا ؛ سماء من غابة مقفرة نقدر فيها أن نضحك بقدر ما نقدر أن نغني ؛ سماء تضحك فيها الملائكة منا وتضحك معنا ؛ وفي هذا الفردوس الذي خلقه لنا موزار سرعان ما يتحول جلال الموسيقى الى هزل ، وسرعان ما تعود الموسيقى الى جلالها ، وهذا التبدل يظهر دائماً طبيعياً

ذلك هو عقل موزار الذي رماه الشعب بالطيش لسبب واحد هو أنه وقد أوجد في سمائه مكاناً لكل شيء لم يوجد مكاناً لمجد سليمان المتبذل ، أو للعنف والبشاعة والبلادة ، لا يوجد في الفن أبداً ما هو أعمق أو أجمل من أصول موسيقى سارسترو . لقد بلغ من وضوح عقيدة موزار أنها تبدو وكأنها ليست بعقيدة وانما هي مجرد بهاء ، مثلها في ذلك مثل القديسين الحقيقيين الذين يبدو عليهم أنهم ليسوا من أهل الصلاح بل من أهل الفتون . وهنالك من الناس من لا يجد في جمال موزار فناً ، وسبب ذلك أن جماله جمال حق . هم يحسبون أنه احتال على هذا الجمال احتيالاً ؛ إنهم ينشدون صرير الجهود ، وينشدون الأنانية ؛ لقد بلغ من نقاء جهوده ومن كثرتها أن حسبوها رخيصة لا ترضى إلا العوام .

يصعب علينا أن نشاهد الناي السحرية تمثل تمثيلاً مرضياً على مسرح اليوم ، ولكنا برغم ذلك سنسر ولا ريب من أي تمثيل لهذه الرواية التي حوت روح الموسيقى ، والتي يمكن للمرء أن يرى منها كيف تكون الناي السحرية ؛ لقد بلغ من رقة موسيقاها ورقة أنغامها أنها تقدر أن تجدد موسيقى هذه الأيام المسرحية الغربية .

يمكننا أن نصف تامينو Tamino وپانينا Panina كما نصف أحسن صور في مجمع فني ، وأن نتخذ كلا منهما مثالاً لأبطال

الروايات الغنائية وبطلاتها فى كل عصر ومصر . بلى قد لا تنتسب ثيابهما لعالم الحقيقة أو الفن ، وقد تعرض نماذج مصطنعة ومنمقة ، ولكن الموسيقى تلطف من ذلك وتساعد كل شخص على أن يقوم بدوره أحسن قيام . من الواضح أن موسيقى الناى السحرية تجلب السرور وتوافق أولئك الذين ينشدونها فاذا بهم كأنهم يقومون بعمل دينى أكثر مما لو كانوا يقومون بعمل مسرحى ، وأنك أكثر ما تشعر بذلك عند انسجام الأنغام حينما يتراءى لك أن ريح الفردوس تهب على جميع المغنين فيتمايلون لها تمايل الأزهار بالرغم من ثيابهم الكثيفة . ولكن الناى السحرية مفتقرة الى عالم متجانس فى النظر كما هو متجانس فى السمع حتى تظهر بمظهر كامل مرض ، ولهذا فنحن أحوج ما نكون لفترة إصلاح تتناول كل عاداتنا المسرحية ؛ نضرب لذلك مثلاً سارسترو ، إنه يعيش بين مناظر مصرية ، على حين أن هذا العالم المصرى لا يناسب الموسيقى وهو يعنى لدينا أعاجيب القاعة Hall المصرية ، ولكن هنالك عالماً مفرداً يناسب الموسيقى كل المناسبة ، عالماً تستطيع أن تمر فيه من العبث الى الجمال مروراً طبيعياً ؛ وفيه تكاد تكون جميع الصور متناسبة وواضحة ، ذلك العالم هو العالم الصينى كما عرفناه فى الفن الصينى حيث يوجد فى هذا الفن الخيال الروحى والهزل البهى ؛ حيث يوجد فى هذا الفن مزيج من طفولة وقداسة يوحى الى العين ما توحيه موسيقى موزار الى الأذن ؛ وفى الفن الصينى فقط يقدر پاپاكينو أن يكون قديساً : فى ذلك العالم فقط تعيش روح موزار بضحكتها وحكمتها ، وكأنها فى بيتها ؛ فى هذا العالم تساوت الأزهار وجميع الحيوانات فى الخطر مع جنس الانسان ، فى هذا العالم يظهر الافعى والثعبان وكأن كلاً منهما مصنوع من ورق مقوى ؛ فى هذا العالم لا يظهر السحر أنه مجرد تعاويذ ؛ فى هذا العالم يمكن للمرء أن يقع على مناظر طبيعية وصور جميلة ؛ وفيه لا يكون سارسترو ساحراً مسرحياً بل كاهنا كنسياً .

فى الحق أن الفن الصينى هو عالم الناى السحرية حيث تتدلى الأجراس الفضية من كل شجرة مزهرة ، وتزدحم الحدائق بالبلابل الساحرة ؛ هو عالم الحماسة والتأمل ، حيث يجلس الحكيم فى السرادق فى ضوء القمر ، ويبتسم ابتسام عاشق ، وحيث يبتسم العشاق كالحكماء . . حيث يوحى كل شىء للعين ما توحيه موسيقى موزار للأذن . وفى العالم الصينى يمكننا أن نتجنب كل تشدق فى الغزل الشهوانى اعتاد أن يلفظ به المسرح الحديث ؛ كما يمكننا أن نخضع أنانية أوربا الثقيلة للشرق المنكر لذاته .

لقد تمرّس موزار بالألم ، ولكنه لم ينغمس فيه ؛ إنه يعنى بجمال العالم أكثر مما يعنى بجمال نفسه ؛ عنده أن الشر من عمل الشياطين الذين تقدر الموسيقى على طرد أرواحهم

لقد كان موزار أورفيوس Orpheus هذا العالم الذى يستطيع إن نحن أصغينا اليه أن يذلل الحيوانية الكامنة فينا جميعاً ؛ ومع ذلك فان أقصى وقاره ومنتهى سر جماله إنما هو فى رحمته التى وسعت كل شىء ؛ وهو حين يترحم علينا أو على نفسه لا يأخذه البكاء ، بل يطلب الينا أن نجفف دموعنا وأن نكون من الصالحين ، وأن نصغى لنايه السحرية .

وهذا الحنان الذى ينبعث من أصواته خلال الناى السحرية يبعث فى الناى السحرية جمالاً وهزة وعجباً ، لا يمكن أن تبعثها أية عاطفة إنسانية .

سارسترو ليس بساحر ، إن هو إلا قسيس ، لأن فيه حكمة الرحمة المحببة ، ولأنه خصص مكاناً فى فردوسه لپاپاكينو ابن الطبيعة يلهو فيه مع صاحبته پاپاكينا . مرت پاپاكينو وهو فى فردوس سارسترو الوحش لحظة فكر فيها أن يشنق نفسه ، لأنه لم يجد من يشاطره الحب ، ولكنه لا يكاد يضع حبل المشنقة على عنقه حتى تسمع فى الموسيقى قهقهة تنبئك أنه يتململ من حبل المشنقة ؛ ولكن سرعان ما تقدم اليه پاپاكينا وسرعان ما يعود الى الفردوس أنسه ، ويأخذ الأثنان فى غناء دورهما فى نهاية الرواية .

نحن على يقين بأن عدالة الناى السحرية قضت ببراءة ملكة الليل ؛ والزنجى البشع وجميع معاونيه ؛ لم يعاقب منهم أحد ؛ لقد شقوا لغير ما سبب ؛ فجاءوا نادمين مستغفرين ؛ وهكذا تنتصر الناى السحرية على شرورهم وشقاواتهم ، فتدق الأجراس الفضية من كل شجرة ؛ وتغنى البلابل غناء يخلب الألباب ، ويبتسم الحكماء والمحبون ابتسامة الأطفال ، فتدخل ابتساماتهم دخولاً طبيعياً فى دين موزار المقدس ؛ هذا الدين المهيب الذى تآلف فيه الابتسام والعبوس ، ولم يتنافرا تنافرهما على الأرض .

شرق الأردن بشير الشريقى
المحامى

خيال الشـاعر

بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لعل من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكئ أكثر ما يتكئ فى فنه على الخيـال . أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الـكلام إذا ُقرر لذاته . ولـكنه يرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التى قد تدق على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذى نعالجه اليوم من هذا الطراز .

وبعد ، فاذا كان شعر الشـاعر إنما يتكئ أكثر ما يتكئ على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا ، ومهما حلّق وارتفع ، ومهما استحدث واخترع ، ومهما لوّن من الألوان وشكّل من الأشكال — فانه ُمستمدٌّ فى تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتدئ لا بد بها ، منتهٍ لامفرّ فى الغاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادته ، وهى ُمستعارُه فى كل ما سوّى وفى كل ما صوّر وشكّل ولوّن .

وذلك بأن الانسان مهما ُرزق من شـدة العقل وأوتى من قوة الخيال ، لايستطيع أن يتصوّر شيئاً لم يقع عليه ِحسُّه . وكيف له بهذا والحسّ وحده هو السبيل لاسبيل غيره إلى إدراك الانسان ، وإلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يحيط به ويشهده فى مضطربه لا أكثر ؛ وُدنيا الانسان فى الواقع ، هى ما يرى وما يسمع ، وما يدرك من الحقـائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمَ من طريق القراءة حاستى السمع والبصر . بل إن هذا الانسان نفسَـه لو قد كُفّ من أول مولده فى محبِـس لما قدّر أن دنياه شئ غير ما هو فيه ، وما يتصل من الأسباب بما هوفيه ، ولقد يعمد ذهنه إلى التقصى ، ولقد يتبسّـط فى القياس ، ولقد يذهب فى إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد . ولـكنه فى النهاية لن يقع على جديد لايتصـــل بمحيطه . ولا يرتبط بأسبابه[1] .

* * *

لك الحق بعد هذا الـكلام أن توجه هذا السؤال : إذا كان الخيال لا يمكن أن يعدو الواقع الذى ُيدركه الحس . فما الفرق بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين حقائق العلماء ؟

لقد توجه ، بادئ الرأى ، هذا السؤال ، على أنك لوفـكّرت وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون ُجهد فى التفكير والتدبير : فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها ، أو باستظهارها ، أو باستكشافها ، أو نحو ذلك من وسـائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فانه يعمد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تستوى له منها صورةٌ توائم فى قوتهـا وروعتها وتناسقها حظ مسوّيها من قوة التخييل ، وجودة الصنعة ، ودقة الذوق . والعكس فى العكس .

فقد بان لك أن الصورة المتخيَّلة مهما غـلا فيها صاحبها وأطرف ، ومهما أبعَد بها عما طالعه الفـكر ، فانها مشكَّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفقة من حقائق واقعة . ولست أصيب مثلاً لتوضيح هذا الـكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلى (المستحيل الوقوعى) بقيام جبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزئبق . فذلك وإن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه مما يمكن إيقاعه فى الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكل سعى الخيال فى تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجرم ، فيكون جَبـل الذهب ، ويكون بحر الزئبق .

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر فى الجملة ، ُمعطٍ ، أما العالم ، فى الجملة ، فآخذ : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق ، والتلفيق بينها ، وإفراغها فى غير صورها ، وتلوينها بغير ألوانها . أما العـالم فأبلغ جهده فى تلقى الحقائق . فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما

(١) سبق للكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماماً يسيراً فى بعض ما كتب من الرسائل

انكشف له فيها من الآثار ، وما جلى عليه من مكنون الأسرار .

***

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكىء فى فنه أكثر ما يتكىء على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلام الذى يجرى فى الحقائق المجرَّدة ، وإن كان مقفى موزوناً . ولقد عرفت أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صورها الواقعة . لهذا نفى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شعراً ، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) . (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) يردُّ جلّ مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القرآن شعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم بأنه سحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) . (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) . إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المُعْلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة .

***

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلةُ صوراً طريفة بديعة لهذا الذى أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته ، ونحو هذا مما يُرهف الحسّ ، ويُمتع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفنى فى أى وضع من أوضاعه ، وعلى أى شكل من أشكاله .

ولاشك فى أن أبدع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحسّ ، وأجلها موقعاً من النفس ، هى أدقها حبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتها التبست عليك بالحقيقة ، أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورهافة الحسّ ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء .

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير الى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذب الشعر أكذبه . وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع لرأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نعنى بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدق فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفض عليك ما يعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء .

ولا يذهب عنك أننا نحن سوادَ الناس تعرض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الادراك لا يتعدى ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة فى مطاوى كثير من الأشياء ، تُسلكها دقة حسه ، وهنا يتقدم خياله السرىّ فيسوّى منها صورة جميلة بارعة . فاذا واتته قدرة النظم ، فأداها كما أدركها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والاجمال يوائم حظه من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء .

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، ويصقل حسك ، وقد يغمز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك مالم تكن تشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبعث عاطفتك خلَّقت فى عالم الروح كل محلّق ، وترقرقت فى سرحات الجمال كل مترقرق .

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعة ؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها فى نفسك هذا الأثر ، وهى نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، فى غير تعسر ولا تعمل ، فنفضها فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه

الصناعة الشعرية :

ولست أعني بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربي إساءة بالغة ، فان الصنعة الخيالية لقدكانت فى الأساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفذ حسه إلى شيء . فيبعث خياله من مجثمه ، ويستكرهه استكراها على أن يصنع له صورة شعرية ، فيمشى متعثرا هاهنا وهاهنا فى الارتصاد لما عسى أن يسنح له من المعانى واقعة حيث وقعت . حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض والتذليل ، ويضيف اليهـا ما ظنه من جنسها ، أو ما حسبه ممـا يلابسها . ويطبع من هذه الأمشاج صورة شعرية (والسلام) ، صورة لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوقها ، ولا من يقرؤه شعر بالألف لها ، أو ذكا حسه بها .

وهذا الخيال المصنوع المتعمَّل المجهود به ليس من الشعر فى كثير ، وهـذا على أرفق تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد فى بسائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة ، تخفى معارف وجهها على ناظمها فكيف بقارئيه ؟ وعلى عينى أن أقول إن شيئاً من هذا يقع فى بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام ! .

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرغ من شأن القديم . وخبرنى بعيشك أى شيء هذا الذى ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل ! .

لو لم تـكن نيةُ الجوزاء خِدمتَه
لمَا رأيتَ عليها عِقـــد منتطق

وقول الآخر فى هذا الباب أيضاً .

لم تحكِ نائلكَ السحابُ وإنمَّا
حُمَّت به فَصبيبُها الرُّحَضاءُ (١)

اللهم أفكان من السائغ فى العقل أو فى الذوق أو فى الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء محيط بها دقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثانى الشاعرين فى السحاب وهى تهمى ، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته ، فأخذتها الحمى ، فلم يكن ماتسُح به إلاَّ من عرَقها !

اللهم أشهد إن هذا وهذا كلام بارد مليخ ، وهذا وهذا من الخيال الفَسْل السخيف ! .

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع فى قرض الشعر فى الجملة ، الى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنعاً ، ليجيء بنحو ما يجيء به الشعراء ، وإما للرغبة فى شدة المبالغة ، والايفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيسفُّ الشاعر ويسخف ، ويأتى بمثل هذا الهذيان الذى أتى به ذانك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح . ولا لخيال واضح صريح : والحمد لله الذى عفىَّ على كثير من هذا الأدب فى العصر الذى نعيش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زهير بن أبى سُلمىَ فى مدح هَرِم بن سنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غـلا فى ذلك أشد الغلوّ ، أتى لهذا الـكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة .

قد أحدث المبتغون الخير من هَرِم
والسالكون الى أبوابه طُرُقا

من يلقَ يوماً على عَلاَّته هَرِما
يلق السماحة منه والنـــدى خُلُقا

وذلك لأن ممـدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقاً ، وهو الى هـذا شاعر فحل ، خصب الذهن سرىّ الخيال ، فلم يتعمل ولم يتعسف ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التى جادت بها شاعريته فجاءت ، على إمعانها فى الغلو ، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع .

* * *

ولقد عرض ذكر الذوق فى بعض هذا الحديث . وللذوق محله غير المنكور فى الشعر وفى غير الشعر . ولقد كان ينبغى أن نفصّل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجىء هذا الى مقال آخر .

عبد العزيز البشرى

(١) يقال رحُض المحموم : أخذته رُحَضاءُ الحمَّى ، وهى عرَقها .

بين فنى التاريخ وفن الحرب

١ – خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمى
رئيس أركان حرب الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

يعد خالد بن الوليد من أكبر قادة العرب فى عهد الفتوح الأولى ، وهو بلا منازع من أفذاذ الرجال الذين حالفهم النصر وأيدهم الظفر فى المعامع والحروب بلا استثناء .

ولم يذكر قط له التاريخ وقعة خسر فيها المعركة وهو قائدها ، حتى فى معركة موته التى وقعت فى السنة الثانية للهجرة فى شرق الأردن بين الطفيلة والكرك ، أنقذ خالد المسلمين ببطولته وإقدامه ، برغم تفوق الأعداء الأكيد وموت الذين تولوا القيادة على التعاقب عملاً بوصايا الرسول

وفى غزوة أحد كان خالد يقود خيالة قريش فبقى فى الميمنة يشاغل ربيئة المسلمين الموفدة لحماية الميسرة بالهجوم عليها من حين إلى آخر ، ويراقب سير القتال بين المسلمين وقريش إلى أن رأى ربيئة المسلمين تركت موضعها وسارعت للاشتراك فى الغنيمة . فهجم بخيالته ملتفاً وراء المسلمين وقاطعاً عليهم خط الرجعة ، فقلب نصر المسلمين إلى انكسار انتهى إلى انهزام المسلمين وجرح الرسول .

قلنا من الوقائع التى اشترك فيها خالد بن الوليد فى عهد إشراكه وإسلامه أن تلك الوقائع جميعاً انتهت إلى النصر المبين .

ومما لا شك فيه أن خالداً من أقدر قواد العرب على القيادة . فجدير بالضباط أن يدرسوا حركاته إن فى حروب الردة أو فى فتح العراق أو فتح سورية . ومن الواضح أنهم سيطلعون على الأسس القويمة التى كان يسير عليها ويرون فيها تنفيذ مبادئ الحرب التى لاتزال مرعية حتى يومنا هذا .

ولقد قال خالد قبل وفاته إنه شهد مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة . ولا نبالغ إذا قلنا إنه خرج من تلك الزحوف باجمعها غالباً منصوراً .

١ – مصادر البحث :

من العسير جداً البحث فى أخبار الفتوح الأولى بحثاً يمكننا من الاطلاع على الخطط العسكرية والأسباب التى أدت إلى وضعها والنتائج التى أسفرت عنها الحركات . ذلك لأن القصاصين أو مدونى السير والمغازى أو مؤرخى الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح ، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلاً بالأسناد . وقد تراهم غير متفقين فى تدوينهم الأخبار على التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة ، ولا على مقدار القوة التى اشتركت فيها ، ومن المعارك ما لم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها . والحقيقة أن التاريخ العسكرى يثبت المعارك التى جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها ، وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء .

فالمعارك التى نشبت بين الجيش المكدونى بقيادة الاسكندر والجيش الفارسي فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة أقرب إلى الصحة من الوقائع التى نحن بصددها .

أما المعارك التى جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة ، والقتال الذى نشب بين القياصرة والقواد المطالبين بالعرش ، فأخبارها مفصلة فى كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة فى استقصاء الحوادث .

فمعركة (كانية) التى نشبت سنة ٢١٦ قبل الميلاد بين الجيش القرطاجى بقيادة هنبال والجيش الرومانى ، كانت ولا تزال مثالاً ينسج القادة العظام على منواله تعبئة الجيش فى ميدان المعركة ، وهى بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها .

والسبب فى تدوين أخبار هذه المعارك تدويناً صحيحاً مع أنها نشبت قبل الفتوح العربية بعدة قرون ، هو أن المؤرخين الذين أثبتوا أخبارها إما أنهم اشتركوا فيها فعلاً ، وإما أنهم قادوها بأنفسهم ، وإما أنهم عاشوا فى زمن وقوعها . فالقائد زينوفون

* وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

اليونانى الذى قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى بلاد اليونان راجعاً بهم إلى بلاده سجل حوادث تلك الرجعة فى كتابه « الزحف » (أنا باسيس Anbasis) وهذا الكتاب لا يزال مرجعاً ثقة للباحثين العسكريين . وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه فى بلاد جرمانية فى كتاب « الحروب الغالية » .

أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الغزوات النبوية وحروب الردة والفتوح التى تمت فى النصف الأول من القرن الهجرى إلا بعد انقضاء جيلين على أقل تقدير .

وأول من جمع الوثائق الباحثة فى الغزوات والفتوح الأولى عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية . فان عروة جمع تلك الوثائق فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان — أى بعد وفاة الرسول بستين سنة ، ودونها دون إسناد . ويلى عروة فى التدوين ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هجرية مقتبساً معلوماته من عروة . أما ابن هشام المؤرخ للسير النبوية فاستقى أخباره من ابن اسحق ، مع أنه توفى بعده بقرن ونصف قرن — أى سنة ٢١٣ هجرية . ويأتى بعده ابن سعد الواقدى الباحث فى حروب الردة والمدون للفتوح العربية فى العراق وفى سورية ، وتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، بعد أن عاش ٦٢ سنة . ويليه المؤرخ المشهور الطبرى وهو بلا منازع أول مؤرخ عربى أثبت الأخبار التاريخية بطريقة علمية وتوفى سنة ٣١٠ هجرية بعد الفتوح العربية الأولى بقرنين ونصف قرن على أقل تقدير .

والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبرى هو العمدة فى استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير . وهكذا يتضح لك أن رواة الفتوح أو مؤرخيها لم يشتركوا فى وقائع الفتوح أو أنهم لم يعاصروا أولئك الفاتحين ، بل إنهم دونوا أخبارها سماعاً أو نقلاً بعد مرور مدة غير يسيرة على الفتوح . وكان لزاماً أن تأتى الأخبار ناقصة ومشوشة ومتناقضة . حتى أمسى الباحث فيها لا يهتدى الى استنباط بعض الحقائق إلا بشق النفس . والذى يزيد البحث إشكالاً كثرة الرواة الذين استند اليهم المؤرخون فى تدوين الأخبار . وأنت تراهم يسخون برواية غثها ويبخلون بسمينها .

وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين الى الديوان الحجازى والرواة المنتمين الى الديوان العراقى . وكذلك نجد تناقضاً فى الروايات التى ينقلها المضرى والربيعى واليمانى والقيسى . لأن كلاً من هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة الوقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها .

٢ — دار الحركات :

إن الساحة التى جرت فيها الحركات تمتد من سواحل البحر الأحمر فى الحجاز وتنتهى فى أرض الدهناء التى تفصل بين مقاطعة الحسا ومقاطعتى العارض والسدير ، وهذه الساحة تتناول شمالى الحجاز وجبل شمر وبلاد نجد .

والأرض التى تتكون منها هذه الساحة صحراوية الوصف على العموم ، والمياه فيها قليلة ، والغابات لا أثر لها فيها ، وتتخللها واحات نبتت فيها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة . وقد تكونت فى المنخفضات التى تنصرف اليها مياه الأمطار بسهولة حيث تكثر الآبار الضحلة ، وتقطع الوديان هذه الساحة ، وتكاد تبدأ جميعاً من هضبة نجد المرتفعة فتجرى فى جهات مختلفة ؛ ويصب بعضها فى البحر الأحمر والبعض الآخر فى خليج فارس أو فى جهة الربع الخالى . والوديان يابسة على العموم وهى ضيقة ووعرة عند اجتيازها المناطق الجبلية وعريضة سهلة عند مرورها بالبادية .

وينبت فى بعض أنحائها شجر الأثل والشوك والطلح وغير ذلك من الأشجار التى تتحمل العطش . وعند ما تنزل الأمطار تجرى اليها المياه من كل جانب فتغطى الوديان سيول المياه الجارفة الجارية بسرعة ، وتصب إما فى البحر وإما فى الأنفدة الرملية .

والجبال فى المنطقة التى جرت فيها الحركات قليلة . وهى لا تتعدى سلسلة طويق فى نجد تمتد من الشمال الى الجنوب فى جبلين متوازيين ، ويشرف الجبل الغربى على الأنفدة الغربية بين نجد والحجاز . ويشرف الجبل الشرقى على رمال الدهناء الواقعة بين خليج فارس ونجد . والسلسلة جرداء ، لا نبت فيها ولا ماء . وفى القسم الجنوبى من منطقة العارض يفصل وادى حنيفة هذين الجبلين أحدهما عن الآخر ، فيجرى أولا من الشمال الى الجنوب بعد أن تصب فيه عدة شعب من الشرق والغرب ، وفى جنوبى الرياض يغير مجراه الى الجنوب الشرقى فيصب فى رمال الأحقاف

وما عدا سلسلة طويق نجد سلسلتين أخريين فى منطقة جبل

شمر وهما جبل أجأ وجبل سلمى ، وهما موازيان يفصل أحدهما عن الآخر وادى العش . ويمتد كلا الجبلين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . وجبل أجأ باتصاله بالجبال المنفردة الواقعة فى جنوب غربيه يكون سلسلة طويلة تمتد الى حرة خيبر فى الحجاز .

والسلستان حجريتان ارتفاعهما من ٥٠٠ الى ١٨٠٠ متر . والجبال المتفرقة التى تتشعب من هاتين السلسلتين تحيط بها الكثبان الرملية . والبادية الواقعة بين الحجاز وسلسلة طويق متكونة من هضبة مرتفعة يتفاوت ارتفاعها من ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ متر ، ويكتنفها بعض الروابى الحجرية المنفردة . وهذه الهضبة تنفصل عن هضبة جبل شمر بوادى الرمة الذى يبدأ من حرة خيبر ، ويجرى من الغرب الى الشرق ، وبعد أن يسقى بآبار منطقة القصيم الغنية يغير جهته الى الشمال الشرقى الى أن يصب فى أرض السواد بجوار البصرة .

والوادى هنا أخطر الوديان الواقعة فى دار الحركات ، وهو يفتح خطوط الحركات بين الحجاز ونجد . وعند ما تقطع الوديان وشعابها السلاسل الجبلية تكون العقبات المضائق والمنعطفات التى تنساب فيها الطرق .

والساحة مملوءة بالأنفدة الرملية ، والكثير منها يتجه من الشمال الى الجنوب ، أو من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، لذلك تعترض الوديان الطرق الممتدة من الغرب الى الشرق .

ومن جملة العوارض التى تتصف بها دار الحركات الحرات ، وهى الأراضى البركانية التى تكتنفها الحجارة الخامدة . وهذه الحرات واقعة الى شرق الحجاز ، وأخطرها حرة خيبر الواقعة فى شمالى المدينة مسافة بضع مراحل .

والبقاع الآهلة بالسكان فى هذه الساحة هى الواحات فى بطن الوديان أو فى الأرض المنخفضة التى انصرفت الى بطنها مياه الأمطار ، وأخطرها واحة المدينة فى وسط وادى الحمض ، ثم واحة بريدة وعنيزة فى وسط وادى الرمة . وواحات العارض الممتدة على طوار وادى حنيفة ، ثم واحات السدير وواحة خيبر وواحات جبل شمر .

وتمتد الطرق فى الوديان للاستفادة من المياه المتراكمة فيها فى زمن الأمطار من الآبار المحفورة على طوارها . وهذه الطرق تبدأ من المدينة ، ومنها مايتجه شمالاً ، فبعد أن يمر بخيبر يمتد الى وسط جبل شمر سالكاً السفوح الجنوبية لسلسلة أجأ ، ومنها مايتجه نحو الشمال الشرقى الى أن يهبط الى وادى الرمة فيسلكه حتى يصل الى واحات نجد الغنية . ولاسبيل الى السير على خارج الطرق لوعورة الأرض وندرة الماء فيها .

(يتبع) طه الهاشمى

٢ ـ الشريف الأدريسى

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضى

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

٧ — الادريسى يضع خريطته بناء على نظريته السابقة .

وبناء على نظرية الأدريسى التى شرحناها وضع خريطته العالمية هذه ، فهى تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية وهو القسم الشمالى منها كما قدمنا . هذا القسم يشمل القارات الثلاث : أفريقية الشمالية فى الجهة اليمنى العليا (الجنوب الغربى) ، أوربا فى الجهة اليمنى السفلى (الشمال الغربى) يفصل بينهما بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، وآسيا فى النصف الشرقى تشمل جميع الجهة اليسرى . وأميركا طبعاً لم تكن عرفت بعد ، وكذلك هذا التقسيم إلى القارات الثلاث لم يكن معروفاً لدى العرب على الاطلاق ، وانما كانوا يقسمون الكرة الأرضية إلى الأقاليم السبعة من الجنوب إلى الشمال ، ثم كل أقليم إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق ، وفوق هذا كانوا يقسمونها إلى الدول والممالك التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

٨ — الأقاليم السبعة وخطوط العرض .

والأقاليم السبعة كانت عند قدماء اليونان عبارة عن خطوط أفقية تبتدئ من خط الاستواء نحو الشمال وتحدد النقط التى تتم فيها زيادة النهار نصف ساعة على طوله فى المنطقة السابقة من جهة الجنوب ، ثم استعمل العرب الأقاليم وأرادوا منها المناطق التى تقع بين هذه الخطوط ، وتلك المناطق لم تكن متساوية عندهم . أما الادريسى فانه أراد من الأقاليم السبعة التى قسم خريطته إليها هذه المناطق التى كانت معروفة عند العرب ، ولكنها عنده متساوية المقدار إذا استثنينا الأقليم الأول الذى يمتد إلى درجة ٢٣° شمال خط الاستواء ؛ فالأقاليم الستة الباقية يشمل كل منها ست درجات من درجات العرض ، وعليه فالأقليم الثانى من ٢٤° — ٢٩° ، والثالث من ٣٠° — ٣٥° ، والرابع من ٣٦° — ٤١° ، والخامس من ٤٢° — ٤٧° ، والسادس من ٤٨° — ٥٣° ، والسابع من ٥٤° — ٥٩° .

ولما كانت نظرية الأدريسى أن المسكون من جهة الشمال هو لغاية درجة ٦٣° فقط ، لأن المنطقة التى تقع بعد ذلك شديدة البرودة ومغمورة بالثلوج فهى غير صالحة للسكنى والعمران . لما كانت هذه نظريته أضاف إلى الأقليم السابع الذى ينتهى بدرجة ٥٩° أربع درجات أخرى من جهة الشمال من ٦٠° — ٦٣° وبذلك يتم الجزء المعمور من الأرض . ومما يذكر للأدريسى بالاعجاب والفخر أنه حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديدها ، وأنه أفلح فى محاولته هذه إلى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص فى الوقت الحديث يطأطئون الرأس له إعجاباً وتقديراً . ابتدأ الأدريسى باثبات درجات العرض من درجة ٢٨° إلى درجة ٦٣° على التوالى ، والدرجات التى أثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة فى جميع البحار وفى معظم اليابسة حيث توفرت لديه الأسباب وأمكنه إجراء المقاييس الصحيحة ؛ وفى بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم لديه الأسباب تختلف الدرجات التى أثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافاً بسيطاً . فمثلاً وضع الادريسى مدينة « كلمار » ببلاد السويد عند درجة ٥٦½° وهى تقع عند درجة ٥٦½° ، وجعل الدانيمرك ابتداء من ٥٤½° إلى ٥٨° والصحيح انها من درجة ٥٤° إلى ٥٧½° ، وجعل انكلترا من ٥٢° — ٥٨° بدلاً من ٥٠° — ٥٨½° ، وهذا طبعاً فرق بسيط فى جهات قليلة دعا إلى ارتكابه عدم توفر الأسباب كما قدمنا ، ولم تنقصه عناية الأدريسى ودقته . أضاف الأدريسى إلى القسم الشمالى من الكرة الأرضية جزءاً بسيطاً من القسم الجنوبى إلى درجة ١٦° جنوب خط الاستواء ، هذا الجزء الذى تقع فيه منابع النيل ، وبين عليه منابع النيل بشكل واضح يدل على مقدار براعته العلمية ، ومد الساحل الشرقى لأفريقيا نحو الشرق وجعله حداً للمحيط الهندى من جهة الجنوب ، وطبعاً لم يلق هذا الجزء عناية الأدريسى لخلوه من السكان وعدم صلاحيته لذلك طبقاً لنظريته التى شرحناها . كذلك لم يثبت الأدريسى درجات العرض إلى درجة ٢٨° شمال خط الاستواء ، وانما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التى تقع فى هذه المنطقة . ولما كانت هذه الأرقام لا تتطابق مع درجات العرض للبلاد الموضوعة بجوارها وانما

تختلف عنها اختلافاً كبيراً فاننا نستطيع أن نفهم السر فى أن العلامة الأدريسى لم يثبت هنا درجات العرض متوالية كما فعل بعد تلك المنطقة ، بل اكتفى بوضع الأرقام التى وصلت إليه فى مواضعها كما أخبر بها .

٩ — التقسيم الثانى (تقسيم كل من الاقاليم السبعة الى عشرة أقسام) .

وبعد هذا قسم الأدريسى كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق ، فالأقاليم الأول يبتدىء من القسم الأول غرباً إلى العاشر شرقاً ، والثانى من الحادى عشر إلى العشرين ، وهكذا إلى الأقليم السابع الذى يبتدىء بالحادى والستين وينتهى بالسبعين . وعليه فأول الأقسام السبعين يوجد فى الجهة العليا من الغرب ، وآخرها فى الجهة السفلى من الشرق . بحث الأستاذ « ميللر » هذا التقسيم الثانى فتبين له كما ذكر أن الأدريسى لم يرد به إثبات درجات الطول ، وأن الباحث لخريطته والقارىء لكتابه نزهة المشتاق لايستطيع أخذ ذلك منهما ، فضلا عن أن هذا التقسيم يختلف اختلافا كبيرا عن درجات الطول . لهذا أريد أنا هنا أن أفرض أن الأدريسى اتخذ هذا التقسيم الثانى تسهيلا للقيام بالمهمة ورسم الخريطة لا غير .

١٠ — البحار السبعة .

وبعد هذا نريد أن نتكلم على البحار السبعة التى تضمنها الأدريسى خريطته ، وهى شىء آخر غير البحر المحيط أو بحر الظلمات الذى يحيط بالكرة الأرضية

(١) البحر الشامى أو الرومى (البحر الأبيض المتوسط) الذى يتفرع من بحر الظلمات الغربى ويمتد نحو الشرق .

(٢) خليج البندقية (بحر الأدرياتيك)

(٣) خليج النطاس (البحر الأسود) وهذان يتفرعان من بحر الروم .

(٤) البحر القزوينى أو بحر الخزر وهو بحر داخلى غير متصل بالمحيط الأعظم .

(٥) بحر الهند (المحيط الهندى) وهو يحتوى على ثلثمائة جزيرة يستمد ماءه من بحر الظلمات الشرقى .

(٦) البحر الفارسى .

(٧) بحر السويس أو بحر القلزم (البحر الأحمر) وكل من هذين يتفرع من بحر الهند .

١١ — الادريسى يسير فى وصف للكرة الارضية بناء على التقسيم الثانى .

هذه البحار السبعة تخترق الأقاليم السبعة بحسب مواقعها ، ولقد وصفها الأدريسى وصفاً مسهباً دقيقاً ووصف جزرها والبلاد التى تقع عليها إلى غير ذلك فى كتابه نزهة المشتاق عند كلامه على الأقاليم السبعين التى شرحناها فى التقسيم الثانى . فانه اتخذ فى طريقة وصفه للكرة الأرضية أن ابتدأ بوصف القسم الأول من الأقاليم الأول متدرجا نحو الشرق إلى العاشر ، ثم عاد الى القسم الأول من الأقليم الثانى متدرجا الى العشرين ، وهكذا سار فى طريقه الى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة وهو القسم السبعون ، وعند كلامه عن كل قسم منها حدده وبين موقعه ، وتكلم عن مدنه وجباله وبحاره وأنهاره وعن كل ما يحتويه من ماء ويابس ، وعن الدول التى تشغله وعن سكانه وجنسياتهم وعاداتهم ومعاييش فيه من حيوان وما ينبت فيه من نبات ، مبينا كثيرا من خواص ذلك ، طبيعية وطبية الى آخر ماضمنه نزهة المشتاق من الشرح المسهب والملاحظات الدقيقة .

١٢ — مصير المائدة الفضية وأثر خريطة الادريسى الذى نركنه فى علم الجغرافيا ورسم الخرط .

شرحنا كيف وضع الأدريسى خريطته وكيف ألف شرحها ،

ولقـد تم حفر المائدة الفضية ورسم الخريطة وتأليف الـكتاب ونشرهما واختيار الأسماء لهما بأمر رجار الثانى فى يناير سـنة ١١٥٤ كما سبقت الأشارة الى ذلك ، وبعد إتمام هذا العمل الجليل بستة أسابيع عاجلت المنية رجار الثانى ، ولـكن ولله الحمد بعد أن استراح ضميره ووصل الى حل ما استعصى عليه السنين الطوال . وبعد أن قدم للعالم والعلم على يد الأدريسى خدمة من أجل الخدمات فى التاريخ ، ولعله يشوق القراء الآن أن يعلموا مصير المائدة الفضية وماذا فعل الله بها وإن كان مصيرا يوجب الأسف ويثير العبرة ، ففى سنة ١١٦٠ ميلادية بعد وفاة رجار الثانى بست سنوات وفى عهد ابنه « فلهلم » هاجم الثوار القصر الملكى واقتحموه وكان أشنع أعمالهم التى لم تكن موجهة إلى الأسرة النورمانية فقط ، وإنما قد ارتكبت — علم الثوار أو لم يعلموا — ضد العلم والعالم أجمع . كان أشنع هذه الأعمال أنهم كسروا هذه المائدة واقتسموها فيما بينهم وما هى حقاً الا ثورة ، والثورات لا عقل لها ، تم هذا الجرم على مرأى ومسمع من الأدريسى الذى بذل مع مليكه من الجهد ما استغرق السنين الطوال وما كلفهما كثيراً من التضحيات . حتى أبرزا عملهما القيم للوجود . والذى كان يستطيع أكثر من غيره أن يقدر قيمة عملها العلمى والفنى . لم يبق بعد هذا إلا خريطة الحائط وخريطة الـكتاب الموزعة فى السبعين قطعة التى هى أقسام الأقاليم السبعين كما ذكرنا . انتشرت هذه الخريطة فى بعد أشد الانتشار وأعمه ، وتركت أثراً واضحاً فى المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر فى الشرق والغرب ، وظلت مع شرحها مئات السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والأفرنج . ومعينهم الذى يستمدون منه معلوماتهم . ولقد ذكر الأستاذ ميلر بعض أسماء المؤلفات التى يظهر فيها أثر خريطة الأدريسى وكتابه بوضوح عند أول نظرة ، منها كتاب الجغرافيا لابن زيد المولود بغرناطة سنة ١٢١٤ والمتوفى بتونس سنة ١٢٧٤ ومنها خرائط مارينو زانوتو Marino Sanuto التى وضعها (بطرس فيسكونتى Potros Vesconte فى سنة ١٣١٨ — ١٣٢٠ م . والتى انتشرت فى جميع أنحـاء أوروبة . الى آخر ما عدد من أسماء المؤلفين والمؤلـفات التى قد يكون لنا أن نكتفى منها بما ذكرنا .

(يتبع)

محمد عبد الله ماضى

في الأدب الدرامي

٨ – الرواية المسرحية

في الفن والتاريخ

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسي

(فدر Phédre) : موضوعها أسطورة من أساطير الأغريق في عهد الحروب الطروادية ، وأهم أشخاصها تيزيه بن ايجيه ملك أثينا ، وفدر امرأة تيزيه وبنت مينوس ، وهيبوليت بن تيزيه من انتيوب ملكة الأمازون ، وأريسى أميرة من أميرات أثينا ، وتيرامين مشير هيبوليت ، وأونون مرضعة فدر ونجيتها . وقد وقعت حوادثها في ترزين إحدى مدن (بيلوبونيز) وملخصها أن فدر امرأة تيزيه تبوح إلى مرضعتها (أونون) بهواها الدخيل وحبها المضمر لهيبوليت بن زوجها ، ويستفيض الخبر في الناس فجأة أن تيزيه قتل في أثناء رحلته ، فتهتبل هذه الفرصة فدر ، وتعلن إلى هيبوليت غرامها ، فيقابل إعلانها بالدهش والاباء ، ويظل مخلصاً لحبيبته أريس . ثم يعلمون أن الملك حي وأنه قدم المدينة ، فتيأس فدر من هيبوليت ، ويتسعر قلبها بالغيرة ، ويعضها الندم ووخز الضمير . فتخجل من لقاء الملك وتفر من وجهه ، وتظن أن هيبوليت سيفضي إلى أبيه بما كان منها فتترك أونون تؤلف المكيدة له ، وتدبر الوقيعة به ، فتتهمه عند أبيه بمراودة سيدتها عن نفسها فيثور ثائر الملك فينفي ابنه ، ويكله إلى غضب (نبتون) . ويستيقظ ضمير فدر ، فتنفجر باللعنة والعقوبة على مرضعتها الأثيمة ، ويرجع تيرامين فيقص على الملك في أسلوب بليغ مؤثر جموح الجوادين بمركبة هيبوليت ، وموته تلك الميتة الشنيعة . فيجزع الملك ، وتقوم الأدلة على براءة ابنه مما اقترف به ، فيتضاعف الحزن ويجل الخطب ، فيذهب إلى فدر يسألها جلية الأمر ، فتعترف له بخيانتها ، وقد كانت من قبل قد شربت سماً فيفعل في جسمها ، ولا تلبث أن تلفظ نفسها على المسرح .

مآسي فولتير

أشهر مآسي فولتير اثنتان وهما : (زبير) وميروب :

(زبير Zaïre) : موضوعها ذكرى من ذكريات الحروب الصليبية ، وقعت حادثتها لفتاة مسيحية أخذها أحد فرسان المسلمين في سبيه منذ طفولتها فرباها وأراد أن يتزوج منها ، ولكنها عرفت أباها وأخاها وهي على وشك الزفاف فأغرياها بالتنصر ، وهذه المأساة مكتوبة على مثال عطيل لشكسبير . أما أهم أشخاصها فهم : أورسمان وهو سوداني من سكان أورشليم وخطيب زبير ، ولوزينيان أحد أمراء أورشليم وابنته زبير وابنه نيرستان ، وثلاثتهم من أسرى صلاح الدين ، وشاتيليون فارس فرنسي ، وفاطمة جارية من جواري السوداني ، وقد وقعت هذه المأساة في أورشليم .

ففي الفصل الأول : تبوح زبير لفاطمة بسر زواجها المقبل من السوداني . فتذكرها الجارية أنها مسيحية . وكان نيرستان قبل ذلك قد نال الأذن من مولاه أورسمان أن يذهب إلى فرنسا ليأتي بالفداء له ولعشرة من الأسرى . فيعود ويطلب من أورسمان فك رقبة زبير وفاطمة وعشرة فرسان من الأسرى . فتفعل هذه الأريحية في نفس الأمير ، فيمنحه مائة أسير ليس فيهم زبير ولا لوزينيان .

وفي الفصل الثاني : تريد زبير أن تقضي نيرستان حق الشكر على مروءته وفضله ، فتحمل أورسمان على إطلاق سراح لوزينيان . فيتحرر هذا ، ولكنه يعرف ابنته زبير بصليب قد احتفظت به ، وابنه نيرستان بأثر جرح فيه . ويأخذه المقيم المقعد من الهم والحزن حين يعلم أن ابنته مسلمة ، ولكن زبير ترتمي في أحضان أبيها ، وتعده أن تتنصر .

وفي الفصل الثالث : يلقى نيرستان أخته ، وينمي اليها لوزينيان أباها ، ويحضها على أن تعجل باعتناق النصرانية . فتوافقه على ذلك ، وتقسم له أنها لن تتزوج من أورسمان . ويأتي هذا بعد قليل يطلبها الى المسجد[1] ليعقد عليها ، فتستمهله ريثما تدبر وسيلة للهرب .

وفي الفصل الرابع : يمهلها أورسمان يوما للأستعداد للزواج . وفي غضون تلك المهلة يرسل نيرستان كتابا الى أخته ، يرشدها فيه الى طريق الهرب ، ويدلها على باب سري تنجو منه ، فيقع

(١) ليس من عادة المسلمين أن يحتفلوا بالزواج في المسجد كما يحتفل به المسيحيون في الكنيسة ، وإنما هذا قياس من فولتير ورطه فيه جهله بالعادات الأسلامية فأساء به الى شرط اللون المحلي أيضاً .

هذا الكتاب فى يد أورسمان ، فيظن أن نيرستان يزاحمه فى حب زيير وهو يحاول الفرار بها . فيعد الوسائل للقبض عليه .

الفصل الخامس : وفى جنح الليل البهيم تتسلل زيير الى المكان الذى دلها أخوها عليه ، وتناديه فلا يجيبها غير أورسمان بطعنة نجلاء بخنجره ، ويسحب نيرستان فى المسرح الى موضع الجثة ، فيصيح الأخ المنكود : واأختاه !! فيعرف أورسمان خطأه ، ويعتلج فى صدره الندم واليأس فينتحر .

يأخذون على هذه القطعة فقدان اللون المحلى منها فى دورى زيير وأورسمان . فقد يخيل الى من يسمع تلك العواطف التى أكنَّاها وشرحاها ، أنهما من المختلفين الى أندية السمر الأوربى فى القرن الثامن عشر ، فضلا عن أنه جعل ذلك الأمير الكريم الحليم الوديع ينتقل فجأة الى جنون الغضب لرؤيته رسالة لم يتحقق ما فيها .

***

(**ميروب** Mirope) موضوعها استيلاء ايجسط بن ملك مسينا على العرش ، ومدارها على انتصار الحب . وأهم أشخاصها : ميروب أرملة كريسفونت ملك مسينا ، وولدها إيجسط ، وبوليفونت قاتل الملك ، ونرباس خادم كريسفونت الخ . وقد وقعت حوادث هذه المأساة فى مسينا .

الفصل الأول : قبل خمسة عشر عاماً من ابتداء المأساة قُتل كريسفونت هو وولدان من أولاده فى ثورة . أما إيجسط ثالث بنيه فقد أنقذه من المذبحة نرباس خادم أبيه ، ونجا به فى بلد غريب ، وكان القاتل هو بوليفونت ؛ وقد استطاع أن يكتم سر الجريمة خمس عشرة سنة ، فيبدأ الفصل بتحريض احدى الوصيفات ميروب على المطالبة بحقها فى العرش ، وهى تتربص قدوم ولدها الغائب ، ولكن الشعب يصمم على انتخاب ملك ، ويفاضل الآن بينها وبين بوليفونت . ويوهم بوليفونت الشعب أنه المنتقم للملك ، فيفضلونه وينصبونه عليهم ملكاً . ويريد هو أن يجعل تملكه شرعياً فيحاول الاقتران بميروب فترفض وتطالب بحق ولدها ، فيرسل طغمة من السفاكين يبحثون عن ايجسط ليقتلوه .

الفصل الثانى : وفى أثناء ذلك يقدم الى المدينة شاب فيتهم بقتل ايجسط ويساق الى قصر الملك ، وتسمع بأمره ميروب فتشفق أن يكون ابنها فترغب فى أن تراه وتسأله هى بنفسها ، فيجيب الفتى على أسئلتها فى طهارة قلب وسلامة ضمير ، فتأبى أن تحكم عليه . ومع ذلك تستفيض الاشاعة فى الناس أن ايجسط قد قتل ، وأن قاتله هو ذلك الشاب الغريب . وأقوى الأدلة على حدوث القتل منه أن سلاح القتيل معه ، فيستولى الهم واليأس على الملكة .

الفصل الثالث : تعزم الملكة الرأى على قتل الشاب ، وتحرص على أن تقتله بيدها انتقاماً لولدها واطفاء لكبدها . وبينما هى ترفع يدها بالضربة القاضية عليه يقبل نرباس لحسن الحظ فى الوقت المناسب فيمنع الضربة ، ويفشى لها سر هذا الغريب ، ويخبرها أن القاتل الحقيقى لزوجها هو بوليفونت .

الفصل الرابع : يُدهش بوليفونت أن المتهم لايزال حياً يرزق ، ويرتاب فى أمر هذا الغلام ، ويرى ميروب مقبلة فيأمر حراسه أن يضربوا الساعة عنق هذا الغريب ، فيضيق ذرع ميروب وتعييها الحيلة ويغلبها الجزع ، فتصيح بالجند : ويحكم أيها البرابرة ، كفوا إنه ابنى !!

الفصل الخامس : يقبل بوليفونت أن يُبقى على الولد إذا رضيت أمه أن تكون له زوجة . ولا ترى الأم بدا من الخضوع لقاتل زوجها ابقاء على ولدها ، ويذهب الناس جميعاً الى الهيكل ليحتفلوا بعقد الزواج ، ويأخذ الناس فيما هم فيه ، ويتقدم إيجسط الى الهيكل يريد أن يقسم يمين الطاعة للملك ، فيأخذ مدية القربان ويطعن بها بوليفونت طعنة نجلاء فيصرعه ، ويهتف الشعب بعد تردد قليل للملكة وابن ملكه .

يأخذون على هذه القطعة الرائعة ، بعد الأمكان فى بعض الحوادث ، فيسألون كيف يقتل بوليفونت الملك ، ثم يسير سَمْعُه فى الناس خمسة عشر عاما بأنه المنتقم له ؟ وكيف يتهم الفتى القادم الى مسينا بقتل ايجسط وهو نفسه إيجسط ؟ ولماذا تريد ميروب أن تقتل بيدها هذا الغلام ؟ ! والجاذبية مع قوتها لم تسر نامية ، فان الخطر الذى حاق بايجسط ساعة أن همت أمه بقتله فى ختام الفصل الثالث أقوى من الخطر الذى يهدده فى الحل .

***

وكان فى النية أن أختار نماذج من مآسى شكسبير إلا أن ما اخترناه لغيره قد كثر حتى حبسنا طويلاً عن الموضوع ، فلنكتف بما شاع له فى مصر من ملخص ومترجم ، ولنأخذ فيما نحن بسبيله .

بتبع . (الزيات)

٢ – مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

وفي ذلك الحين لم يكن يسمع في موناستير سوى صفير الرصاص ودوي المدافع، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش المتأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد، وكان الجو يضطرب بإشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الأمبراطورية، وأخذت نسور أوربا تتأهب للانقضاض على الجثة محاولاً كل منها أن يظفر بنصيب الأسد. أما في داخل الأمبراطورية فهناك فقر مدقع، وبؤس ملح، وحكم فاسد، واستبداد خانق، أضحت معه حياة الأتراك حلماً مروعاً وكابوساً ثقيلاً، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحريتهم، فنشر عيونه في كل مكان، وألقى بالأتراك في أعماق السجون. فعم الذعر وساد القلق كل الناس، ونادى الشبان بالإصلاح، واضطرمت النفوس بالثورة، ولا سيما في بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلاً أو آجلاً

وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة في أوربا في ذلك الحين وتشبع بها فخالطت لحمه ودمه، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والإرهاق غلى مرجل قلبه، ومنى نفسه أن يكون على رأس ثورة تقتلع الاستبداد من أساسه، ويكون هو بطلها البارز وسيدها المطاع، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا في حساسية نفسه الكبيرة التي تأبى أن يطمئن له بال أو يهدأ له ضمير حتى يتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى في الحياة.

وفي أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه، ولكنه كان ينأى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت، فأنكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحها بهذا، فتشاجرا وحل بينهما بعض الجفاء.

وقد تعلم إبان اقامته في سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان الدومنيكان، وتعرف إلى شاب يكبره قليلاً يدعى فتحي كان حيياً أنيس المحضر، وكانا يقرآن معاً في شغف شديد أدب روسو وفولتير وبعض الكتاب الفرنسيين. كما قرأ كتب استوارت مل وهبز في الاقتصاد. وكان بطلنا لا ينى عن حث الطلبة على انقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية متغنياً بجمال الحرية،

وصاحبه التوفيق في مدرسة موناستير كما صاحبه من قبل في مدرسة سالونيكا، وكتب أساتذته عنه إنه « شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته » وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالآستانة برتبة ملازم ثان، وهناك انغمس في حياة الاثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء، ولم يعرف عنه أنه أحب إحداهن ذلك الحب الافلاطوني النبيل، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذاوية ذابلة، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة وأقبل على عمله بجد ونشاط، ووفق فيه توفيقاً بالغاً يعزى قبل كل شيء إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر، ورقي إلى رتبة كبتن سنة ١٩٠٥، وكان يمزج السياسة بعمله دائماً. وقد ألفى نفسه في الآستانة بين ضباط صغار يقاربونه في السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية. وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتغاضون عما يفعلون، ولكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم.

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقى الخطب وتذيع النشرات مهاجمة فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين. بل لم يخل الدين نفسه من مطاعنها لحيلولته – كما كانوا يعتقدون – دون التقدم والارتقاء. فضلاً عن فساد النظم المؤسسة عليه، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفة واستبدالها بحكومة دستورية. وإنقاذ الناس من كابوس رجال الدين. وتحرير المرأة من عبوديتها. والواقع أن تركيا في ذلك الحين كانت تحتضر، وما كانت الحياة لتعود اليها إلا إذا لقحت بدم نقي جديد. وقد انخرط الشاب مصطفى في سلك أعضائها، وأخذ يكتب في نشرتها مقالات نارية وشعراً ملتهباً، ويلقى في اجتماعاتها خطباً لاذعة، ولكن السلطان

(*) أنظر العدد ٦١ من الرسالة

عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافية ، فعلم بأمر الجمعية من جواسيسه المنبثين فى كل مكان ، وجزع جزعاً شديداً إذ رأى فيها نواة عمل سينتهى بثل عرشه . فخاطب أحد أعوانه المدعو اسماعيل حق ، وتحدث هذا بشأنها الى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة ، فحرم الناظر عقد اجتماعاتها ، ولكن لم يفت هذا فى عضد أعضائها الثائرين ، فأخذوا يعقدون اجتماعاتها فى الخارج ، وأضحت احدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة فى الاستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره .

وبعد أن جاز مصطفى الامتحان بمدرسة الاستانة استأجر غرفة لتكون مكتباً للجمعية تطبع فيه نشراتها ، وكان الأعضاء يجتمعون فى منازل خاصة يأتون اليها خفية يترقبون ، وقد ارتاح بطلنا الى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة فى نفسه واستقراره فى طبعه ، وأخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها ، ولكن عيون عبد الحميد لم تأل جهداً فى مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة ، ولم يكن هذا بالعسير عليهم ، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات ، وإن لم تعوزهم الحماسة والشجاعة .

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل الى الجمعية ويتصل بها ، وازدادت على توالى الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه ، فتمت خديعته لهم وجازت حيلته عليهم ؛ وبينما هم يقسمون قسم الجمعية فى يوم من الأيام إذا برجال البوليس السرى يفاجئونهم ويقبضون عليهم ، فزج مصطفى وسائر الأعضاء فى السجن الأحمر بالاستانة ، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف ، واعتبر فى عداد الخطرين على النظم القائمة ، فعزل عن زملائه فى مكان قصى ، وتراءى له المستقبل مظلماً قاتماً ، إذ لو بدا لعبد الحميد أنه نذير خطر عليه لاختفى من الحياة كما اختفى أمثاله من قبل كوميض البرق .

وقد راع الأم الحنون مصير ابنها ، فأسرعت يحدوها الأمل والخوف لزيارته ، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بارسال بعض النقود اليه ، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها الى « زنزانة » ضيقة مظلمة قذرة لاينفذ اليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة ، فأثر هذا السجن الموحش فى نفسه أبلغ تأثير . وزاد خلقه غلظة ووحشية .

وفى يوم من الأيام اقتيد من غير انذار الى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد المقربين هو اسماعيل حق باشا ، فأخذ الرجل يديم النظر فى ملامحه ، ثم قال له : «لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة ، وأمامك مستقبل باهر ينتظرك فى خدمة صاحب الجلالة ، ولكنك من جهة أخرى شنت نفسك ولوثت شرفك الحربى ، فخالطت أسوأ الخلان . وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون الى الأمكنة الموبوءة ، وأشنع من هذا وأشد نكراً أنك نكثت عهد الاخلاص لمليكك ، فزججت بنفسك فى موج السياسة ، وظاهرت الدعاية الخائنة ضده ، وحرضت زملاءك على احتذاء مثالك ، والاقتداء بك ، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك رحمته وشملتك رعايته ومغفرته إذ رآك شاباً أحمق ، لعلك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب ، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان الى دمشق ، ويتوقف مستقبلك على مايعلم من مسلكك ، ولكن عليك أن تتجنب هذا الحمق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية ، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى » .

وفى نفس الليلة رحل فى سفينة إلى سوريا بدون أن يسمح له برؤية أمه أو أصدقائه ، وبلغ بيروت بعد سفر شاق ، فامتطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم إلى الفرقة فى دمشق فوجدها تتأهب للزحف على الدروز القيمين بجنوب دمشق والذين كانوا دائمى الثورة على الدولة العلية ، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ، ولكنها لم تكن ترضى الجندى النظامى إذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لاماء فيها ولا طريق معبد ، وكان الدروز قوماً أقوياء الشكيمة صعاب المراس دارسين كل شبر من أرضهم ، ومضت الأيام بين الفريقين فى كفاح غير مثمر ، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم ، فأحرقوا قراهم ودمروا حقولهم وعادوا القهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء ببرده القارس وجوه المكفهر المظلم ، وهناك أخذ بطلنا الثائر يعد العدة لانشاء فرع لجمعية الوطن ؛ ولم تغير الأيام السود التى قضاها فى سجن الأستانة منه شيئاً ، ولم تضعف نفسه القوية ، ولم تلن قناته الصلبة ، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه . إذ كان مصطفى ثائراً على كل شىء : على الدين والناس والنظم

والتقاليد ، ولم يكن لشىء ما فى نفسه حرمة أو قداسة ، ولـكنه كان يجمع إلى حماسة الشباب حذر الشيوخ ونظرهم البعيد ، وكان قد هجر الأدب لما وجده مدعاة للشك ، مجلبة للتردد موجباً للخطأ لما بين الحـكمة النظرية والحـكمة العملية من تناقض ، وأقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها ، وقد وجد التربة صالحة للبذر . فصغار الضباط مضطرمون بالسخط ، ورؤساؤهم يعطفون عليهم ويميلون اليهم ، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديماً له ، فاتخذ منه نصيراً ومعيناً له فى عمله ، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعيـة وتكاثر عدد أعضائها ، وأخذ بطلنا يشعر بمكانته وخطره ، ولـكن سرعان مافطن الى خطئه وعاد الى صوابه ، فعلم أن أهل البـلاد ليسوا متهيئين لقبول دعوته ، وإن كان ضباط الحاميـة التركية متأهبين لتلبيتها وإبرازها الى حيز العمل .

وقد أرسل اليه أصدقاؤه يخبرونه بأن البلقان هى مهد الفتن والقلاقل ، وأن عليه أن يسعى لنقله الى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته ، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه ، سواء أجابته الحـكومة الى طلبه أم أبته عليه ، وكان صاحب شرطة يافا عضواً بجمعية الوطن ، فاتفق معه على كتمان وجهته ، وحصل على أجازة بضعة أيام رحل فى خلالها الى يافا وأبدل اسمه واتخـــذ له لباساً مستعاراً ، فاستطاع أن يعبر البحر منها الى أثينا ، ثم الى سالونيك حيث ألفى السخط والقلق يساوران كل النفوس ، وهناك اعتكف فى منزل أمه ، ووجد أن الجو صالحاً لابلاغ رسالته ، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة ، فأخذ يتعرف بمعونة أمه وأخته الى صغار الضباط من زملائه القـدماء ، وطلب نقله الى سالونيك ليتسنى له الاشراف على تنفيذ خطته ، ولـكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستانة الأوامر بالقبض عليه ، فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه ، فنبهه الى الخطر المحدق به وأخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين ، وعليه أن يتأهب للرحيل ، فعاد مصطفى بطريق البحر الى يافا ، وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها ، ولـكن لحسن طالعه قيض الله له كبير الشرطة فى يافا ، وكان عضوا بجمعية الوطن ، فمهد له سبيل الفرار الى غزة ، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز على حكومة الأستانة ، فكتب اليها يطلب أن تزوده بتعليمات أوضح وأدق عن مصطفى كمال . ويقول إن ما وصل اليه منها فيه كثير من الخطأ . لأن مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقيما فى غزة ، ولم يبرحها الى سالونيك . وصادق على كلامه مفيد لطفى الضابط بغزة .

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظره البعيد . فقد رأى أنه لو وقع فى يد عيون الخليفة مرة أخرى ، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة ، فاعتزل الحيـاة العامة زهاء عام ، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك ، وأقبل على عمله بجد ونشاط ، حتى لفت أنظار رؤسائه اليه ، فأعجبوا به وأثنوا عليه قائلين . إنه لا يعنى بغـير واجبه ، وهو يؤديه على أكمل وجه ، وأتم شكل ، فأحسنت به حكومة الأستانة الظن ، ورجحت أن جواسيس سالونيك قد ظلموه باعتباره فى عداد الخطرين ، ولـكن خيال سالونيك لم يبرح رأس بطلنا ، وأنى له ذلك وفيها نذير الثورة التى يريد مصطفى أن يكون بطلها الذى يشار اليه بالبنان ، وبينما هو غارق فى تفكيره وتدبيره إذا به يتسلم أمر النقل الى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المـكذبين ؟

يتبع — منفى غالى

إلى النهر الغاضب

للأستاذ محمود الخفيف

غضبتَ فسهدتَ أجفانها   وزاد هياجك أحزانها
وقد أنستْك لطيف الأناة   ضحوك الأسرّة فتانها
جميل الوفاء شهى الصفاء   عريق السماحة هتانها
وفاؤك عيد يعم البلاد   ويغمر بالخير أركانها
تهز الحقول على جانبيك   ويملأ فيضُك غدرانها
وتذكر مصرُ إذا ما خطرت   وسال نضارُك، سودانها
فأنت لمصر وريد الحياة   ولم تر غيرك شريانها
حليم عليك سماة الجلال   تقابل بالبشر قربانها
وتلق برفقك فى المهرجان   وجوه البلاد وأعيانها
تود الرياض على شاطئيك   لو انك تسمع شكرانها
وتهفو الخمائل شوقاً إليك   فتنشر حولك أغصانها
تردد مصر أناشيدها   وتبدأ باسمك ألحانها
ويطربها منك حلو الخرير   فترهف للسمع آذانها
فتلقى إليها حديث القرون   وتحفز للمجد غلمانها
ومانسيت مصر هذا الحديث   ولا صرفت عنه تحنانها

* * *

تجهم وجهك بعد الصفاء   وروع بأسك سكانها
لبست الجفاء على غرة   فآلم غدرك وجدانها
تركت الكنانة فى غمرة   يهدد سيلك بلدانها
كأنك جيش تخطى الحدود   وأنذر بالموت قطانها
تقيم السدود على ضفتيك   وتحشد حولك فتيانها
تراقب موجك فى حسرة   تجدد للنفس أشجانها
ولم أر مثل جفاء القلوب   تفيأت من قبل رضوانها
ولا كالأساءة من راحة   تعود كفُّك إحسانها

* * *

ترفق بمصر فقد نالها   خطوب تزلزل بنيانها
توالت عليها عجاف السنين   وأعمى التنابذُ رُعيانها
وذاق بنوها بأوطانهم   صنوف العذاب وألوانها
ألم تر كيف دهاها الكساد   وكاد يدمر عمرانها
وكيف توقف فيها النماء   وأخرجت الأرض ديدانها
فأضحى فتاها كسير الجناح   كئيب الملامح خزيانها
وجاس الغريب خلال الديار   قوى المخالب يقظانها
ألم يكف يانيل هذا الشقاء   فجئت تضاعف خسرانها؟

* * *

تحيرت يا نيل ماذا دهاك   وأوحى لنفسك طغيانها
أساءك من مصر هذا السكون   فقمت تحرك شبانها؟
وأوغر صدرك يأس البلاد   فجئت تجدد ايمانها؟
ورحت تكذب ظن الدخيل   وتوقظ للجد أعوانها
تحرّكُ وحدك فى أمة   أذل التفرق وحدانها
بلوت بنفسك ماضى البلاد   وأدركت بالأمس سلطانها
وكيف تناهى اليها النبوغ   فراحت تعلم جيرانها
تلَقّى من الوحى شتى الفنون   وترفع فى الأرض ميزانها
تدب الحياة على جانبيها   فتُشعر بالعز ولدانها
على البر تحشد أجنادها   وفى البحر تنصر ربانها
تذكرت «أحمس» يزجى الصفوف   ويدعو الى النصر فرسانها
و«رمسيس» يخطر فى جنده   تخور المواكب مزدانها
وآنست فى مصر عهد الرشاد   وقد شمل العدل أركانها
تلَقّتْ الرسالة فى غبطة   ولو كره الروم اعلانها
تسير الى الحق منقادة   اليه وتخلع بهتانها
وتمسى من الأمن فى جنة   وقد كرهت قبلُ حرمانها

* * *

أسفت لحاضرها المستكين   وأنكرت يانيل خذلانها
كرهت هدوءك فى أمة   أطاعت إلى اللهو شيطانها
فجن جنونك يابن السماء   وقمت تنبه وسنانها
ألا فلتقر فقد بايعتك   وسوف تقدم برهانها
ستحذو مثالك فى فعلها   وتجعل عهدك قرآنها
ستنفض عنها غبار القرون   وتنزع يانيل أكفانها

محمود الخفيف

بين الشهرة والخلــود

لأميــل لدفيج

تلخيص محمد أمين حسونة

خطر ببالى ذات شتاء أن أمضى شطراً طويلاً منه فى منطقة الألب لأستمتع بدفء الجبال ، فكان مما استرعى اهتمامى فى منطقة التيرول ، تلك الكنيسة الفخمة التى اشتهرت منذ القرون الوسطى بأثرية ناقوسها وروعتـه ، فلما مر بخاطرى زيارته ، صعدت الى القبة لأشبع العين من فتنته ، وهناك تملكتنى الدهشة والعجب ، إذ كانوا يعلقون صورة « شيللر » الى جانب صور القديسين الأبرار ، كتذكار لمقطوعته الخالدة « نشيد الناقوس » !

فشيللر الكاتب الملحد ، عدو الكنيسة والكثلكة ، يجعلون منه رمزاً للقداسة والخلود ؟ ولكن لا عجب فقد تكون شهرته كشاعر مخلد لذكرى « الناقوس » هى التى حدت بهم الى رفعه فى مثل هذا الموضع الذى يرتكز عليه ، وهكذا تكون الشهرة حاميـة للأغلاط . إننا نذكر جميعاً غلطة « كوك » المعروفة ، وكيف دفعته الى مصاف العظماء ، وقذفت باسمـه الى أول قائمة المكتشفين الخالدين ، ولو أن لعبته لم تكتشف إلا بعد مرور فترة طويلة !

إذن فالشهرة ليست بمعناها المعروف ، هى « العظمة » ، وقد لا تهدينا شهرة الرجل الى تقدير مناحى عظمته فى ثوبها الحقيق ، وإلا كان من حقنا أن نفاخر « بشارلى شابلن » عن « برجسون » وأن نفضل « مستنجيت » على « مدام كورى » . مع أننا كمؤرخين فى عنقنا دين تجب تأديته للأجيال المقبلة ، ذلك هو تصحيح الأخطاء التى تلابس أولئك الذين يستحوذون على الشهرة عن طريق المخادعة .

وقد يماً ذكروا : ألا يجوز البتة إعلان كون الناس سعداء ماداموا أحياء[١] ! فاذا جاز لنا أن نحكم بأن حياة الانسان إن هى إلا رواية تمثل مشاهدها ، ففى مكنة « فصل خامس » منها أن يطفىء أنوار فصول أربعة تقدمته ، وفى ضوء هذه النظرية لا يمكننا الحكم على أعمال الرجال إلا بعد موتهم ، ولا أن نخلع عليهم ثوب العظمة وهم أحياء ، فمن المحتمل أن يأتى هذا الثوب فضفاضاً عليهم ، أو يحـدث فى أواخر أيامهم ما يدفعهم الى تشويه هذه الصفحات التى نكون قد ملأناها حمداً وثناء عليهم !

إن سرعة انتشار الأخبار تمكننا من معرفة أى رجل اشتهر فى أقل من لمح البصر ، فاسم « لينـدبرج » — قاهر الجو — عرفه فى ليلة واحدة خمسمائة مليون شخص من أقاصى منشوريا الى جنوب استراليا ؛ كذلك كان أمر « كوك » حين انتحل لنفسه اكتشاف القطب الشمالى ، ولو أن خدعته اكتشفت فيما بعد ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن رسخ اسمه فى قلب كل انسان كمكتشف عظيم !

إن الآلة التى تخرج لنا العظماء اليوم غيرها قبـل خمسين عاماً مضت ، فليس الرجل العسكرى هو الذى ينال إعجاب أبناء هذا الجيل ، وليس من حقنا تدوين اسمه فى ثبت العظماء ، كما فعل

(١) هذا الرأى مأخوذ عن أرسطو فى كتابه « الأخلاق »

مدينة الأحرار

للاستاذ محمد محمود جلال

الله اكبر « يا چنيفْ » فوق الجمال « دم خفيفْ »
طُهِّرت كالجنات من لغو ومن هم مطيفْ
وخلوت للأحرار إلا من نسيم أو حفيفْ
يأتى الربيعَ بك المُشَـرَّدُ بعد إعنات الخريفْ
كم صنتِ عزة أنفس ووقيتها ورد الحتوفْ
فوقفت سـدا مانعاً دون العواصف والصروفْ
فيـك التقيت بنخبة هم عـدة الشرق المنيفْ
وغنمت أمتع جلسـة فى « پارك[١] لَجْرَنْجَ » الرفيفْ
وإذا البحيرة ناظر إنسانه من (ليزوڤيفْ)[٢]
يذر الفـؤاد مردداً « الله أكبر يا چنيفْ »

(١) هو پارك لاجرنج La Grange من أوسع المتنزهات وهبه صاحبه والقصر القائم فى وسطه للبلدية ، وشرط ألا يدخله خمر ولا رقص — وتقوم بأدارته أرقى سيدات الأسر الكبيرة بجنيف — ويحظرون فيه إعطاء « بقشيش »

(٢) يهتم السويسريون ويعتزون ببحيرة ليمان . يحسنون استثمارها ملاحة وصيداً وشرباً ويدعون ماءها (Les eanx viues) ولهم ميدان لهذا الاسم فى المدينة .

الاسكندر وقيصر ونابليون ، كلا ! فالشعوب أصبحت لا تتهافت على معرفة اسم القائد المنتظر فى الميدان ، لكنهم يتساءلون عن الآلة الجهنمية التى أحرزت التغلب ، وخفقت فوق ربوعها بنود النصر . وخذ اسم الماريشال هيندنبرج مثلا ، فلا يتطرق الى أذهاننا أن شهرة اسمه راجعة الى عظمته الحربية وحدها ، بل لذلك الاعتقاد السائد فى النفوس ، وهو اعتباره «أبا للشعب». والاعجاب اليوم لا ينال الجيوش الظافرة فى ساحات الوغى ، أكثر مما ينال ذلك «الجندى المجهول» الجامع لرفات الانتصار والانكسار .

إن شهرة كبار القواد الذين خاضوا غمار الحرب العظمى ، وكان النصر حليفهم فى المعارك الكبرى ، قد تضاءلت حتى كادت تتلاشى ؛ كذلك مآل بلسودسكى ومصطفى كال وموسولينى ، فسوف يصبح اسم كل منهم خرافة سائدة فى أفواه الأجيال المقبلة .

* * *

ومن يحرز الشهرة إذن ؟ إن رجال الألعاب الرياضية وأبطال الملاكمة ونجوم السينما هم وحدهم الذين يحرزون الشهرة دون غيرهم . أما الأولون فلأن الجماهير تساهم بقسط وافر فى الشهرة التى يحرزونها عن طريق المراهنة فى مبارياتهم ؛ وأما نجوم السينما فيستولون على الشهرة بفضل الملابس الزاهية وإتقانهم الأدوار التى تتطلب المثل العليا فى الحب والتضحية .

ولأنهم جميعاً يشغلون قلوب الجماهير ويستدرون عواطفهم فى كل مناسبة ، فملامحهم وصورهم وحياتهم الخاصة مطبوعة على صفحة كل قلب بفضل الصحافة المصورة التى تمهد لهم سبل الشهرة والدعاية فكاروزو مثلاً اشتهر أكثر من غيره من المغنين السالفين بفضل اختراع «الفونوغراف» الذى خلد صوته

إن مهمة المؤرخ دقيقة وعسيرة فى هذا العصر ، فيجب ألا يعتمد على الشهرة وحدها فى جعلها مقياساً للعظمة ، وإنى باعتبارى مؤرخاً لا يحق لى مطلقاً أن أخدع نفسى وقرائى بجعل الشهرة عظمة . إنى لا أجد اليوم موسيقياً بعد «مولر» ، وأذكر «ليبرمان» فى أول قائمة الفنانين العالميين ، وأسائل نفسى وقرائى عن «كاتب القرن الحالى» الذى يحق له إحراز هذا اللقب النبيل ، والذى له الفضل فى تربية ملكة الذوق لجيلنا الحاضر فلا أجد غير «برنارد شو» ، كما كان «فولتير» كاتب القرن الثامن عشر .

نعم إن هناك كتاباً يفوقون «شو» سواء فى قوة الابتكار أو سلاسة الأسلوب ومتانة التعبير ، وأذكر منهم : ابسان ، وهمسون ومان ، ودانتزيو . وبير اندللو ، ورولان ، ولويس ، ولكن «شو» قد أثر بآرائه ومداعباته واستحواذه على لب القارئ أكثر من سواه .

* * *

وإذا خطر لنا أن نتكلم عن السياسة حق لنا أن نعترف بأن رجالها قد احتضروا واختفوا من الأفق سراعاً : ويلسن ، ولينين ، وكليمنصو . أما «لويد جورج» فشيخ رجال السياسة الحاليين وأكثرهم دهاء ، و «موسولينى» أخطرهم وأصغرهم سناً ، ولكن إذا تحدثنا عنه كسياسى ، أيحق لنا أن ننعته بالعظمة ؟ كلا ! فالحكم للمستقبل . وموسولينى يؤدى الآن دوره على خشبة المسرح ، وقد انصبت الأنوار فجأة عليه من كل جانب فأخفت «الرتوش والمكياج» التى تخفى شخصيته الحقيقية ، وتظهره أمام الجماهير فى ثوبه الخيالى معبوداً للشعب ؛ انه لايزال فى الفصل الثانى من الرواية التى تعهد القيام بدور البطل فيها ، وليس لأحد أن يتكهن إذا كان الستار سيسدل عن تصفيق وإعجاب ، أو عن استهزاء وسخرية (١) !

* * *

وإذ ذكرت سياسيي الجيل الحاضر ، فانى أتحدث عن «فينزيلوس» اليونانى و «مازاريك» التشيكى : فالأول سياسى محنك ورجل داهية ، والثانى حلم بنى وطنه لعشرين عاماً خلت ، كما أن زعماء المضطهدين — لسان حال الشعوب المظلومة — قد أحرزوا الاعجاب بمبادئهم الاشتراكية السامية ، وضربوا أحسن الأمثال لأممهم فى التضحية ، وأخص بالذكر منهم : «مكسوينى» محافظ كورك الذى ذهب ضحية إخلاصه لمبدئه ، و «غاندى» رجل الهند — بل الشرق — الوحيد .

* * *

أما رجال العلم والصناعة فقد كان الجيل الماضى حافلاً بالكثير من شخصياتهم البارزة . أما جيلنا الحاضر فمفتقر الى طائفة كبيرة

(١) لاميل لدفيج رسالة طويلة كتبها بعد هذا البحث عن «محادثاته مع موسولينى» ضمنها آراء أخرى يعارض فيها كتاب لويجى شتورزو عن «إيطاليا والفاشستية»

منهم ، فانه لا يوجد اليوم علماء للآثار القديمة جديرين باحراز هـــذا اللقب الذى استخلصه لنفسه شامبليون ، ولا مؤرخون يستطيعون إرواء ظمأ المتعطشين الى نظريات حديثة . ولا علماء فى الاقتصاد والتشريع والفلك كعلماء القرن الماضى من الانجليز أو الألمان .

إن عالمنا اليوم لاعمل له سوى الجمع بالنسبة للماضى ، والتمهيد بالنسبة للمستقبل ، ومع كل فهناك شخصيات برزت فى بعض الصناعات التى كان العالم فى أشد الافتقار اليها . فبركلند ، وآيد النرويجيان انتشلا شعوباً من المجاعات باقدامهما على استخراج النيتروجين من الهواء ؛ و «هابر ، وارنست ، وارينوس» أول من أحدثوا نظريات جديدة بشأن السوائل ، كذلك « بور » الدانيمركى و « بلانك » الألمانى ، والى جانبهما تأخذ «مدام كورى» مكانتها العلمية كامرأة واصلت البحث والدرس بعـــد موت بعلها بعشرين عاما .

أما علماء النفس فعلى رأسهم « فرويد » الذى أيقظت نظرياته الحديثة شعور ألوف المثقفين فى العالم ؛ ويجىء دور « اينشتين » شيخ علماء الحكمة الطبيعية الذى زحزحت نظرياته الرياضية الكثير من الاعتقادات العلمية التى كانت سائدة فى أذهان علماء الأجيال الغابرة .

وهناك «مركونى» الايطالى و « اركو » ، والى جانبهما «اخوان رايت» و «فورد» ، والى جانبهم أبطال الصناعة الذين لهم الفضل فى ابتكار اللاسلكى وبناء الجسور وحفر الترع وتشييد المنشئات الهندسية الحديثة كمحطات الكهرباء والخزانات والمصارف وناطحات السحاب .

ولكن أين هم هؤلاء الأبطال ؟ من هم أساتذة الصناعة والفن اليوم ؟ من يعرف منشىء جسر اليشون أو أرث الخامس أو خزان أسوان ؟ من الصعب أن نعرف أسماء كل هؤلاء الأبطال ، لأن أعمال الشركات خيمت على جهود الأفراد ، وجهود الأبطال قد اندمجت فى أعمال الشركات .

وعند ما تنحدر الشمس الى المغيب ونجد مكانها الأنوار الكهربائية المتلألئة ، لمن نتوجه بالحمد على كل هذا ؟ لمن الفضل فى سر الاتصال بين الأمم بأسلاك التلغراف وفى نقل الرسم والصوت من مكان قصى فوق ثلوج سيبريا الى عبيد الكونغو مثلاً ؟ إن أحداً لم يستطع تذليل العلم وتسخيره فى أغراض المجتمع وإفادته كما استطاع ذلك خالد الذكر « أديسون » .

وهكذا نأتى فى النهاية لنشيد بذكر أكبر عالم نظرى الى أعظم مخترع عملى ، أولهما ألمانى وهو عقل العالم الذى يميز به حقيقة الأشياء ، وثانيهما أمريكى وهو عين العالم التى ترى بها الضوء ، كلاهما نشأ فقيراً معدماً ، ليس مديناً لأحد إلا لعبقريته ونبوغه ، هما « اعانيس » الذى وهب الثقافة وحرية الفكر للعـــالم ، و « بروميثيس » الذى اختطف النور من الآلهة ليهديه الى البشرية هما :

انيشتين وأديسون .

محمد أمين حسونه

العلوم

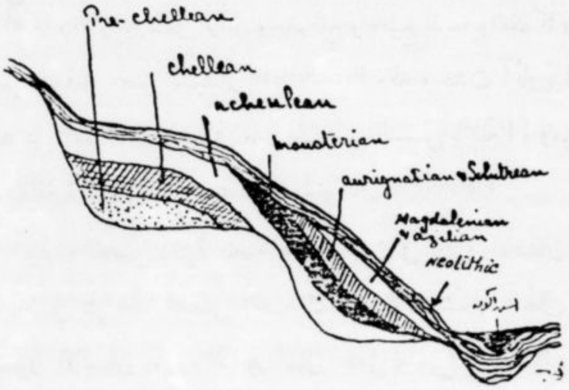
٢ ـ بحث فى أصل الانسان

بقــلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

استمر (بوشيه) برغم كل معارضة قامت فى وجهه ، ولم يتطرق إليــه خمول أو تهاون ، فنشر فى عام ١٨٤٧ كتاباً عن اكتشافاته قوبل بالاستنكار ،ونظر إليه الناس نظرتهم إلى مجنون . وظل على هذا الحال حتى أتى بعض العلماء الانجليز يساعدونه عام ١٨٥٨ فاختبروا صخوره وفحصوا ما وجدهُ من عظام متحجرة ، وظلوا يجادلونه ويجادلهم حتى اعترفوا وجاهروا — بعد التثبت والاقتناع — أن هذه الصخور من عمل الانسان وتشكيله. وهكذا ثبت أن الانسان كان موجوداً فى وادى نهر السدم بفرنسا عند ما كان المدرج الموجود الآن على ارتفاع ١٠٠ قدم مكوناً مجرى النهر فى ذلك الوقت حيث كانت تعيش أنواع غريبة من الحيوانات ؛ وبذا يفتتح العـالم أول باب لتاريخ حياة الأنسان فى المدرجات .

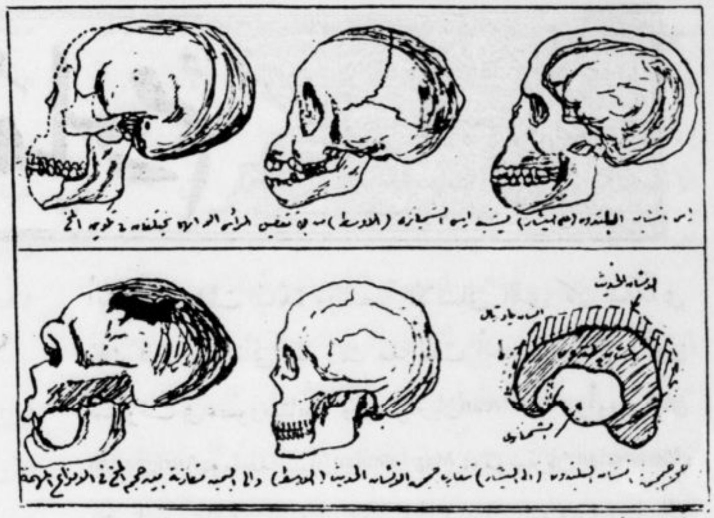
وعند ما عاد العلماء الانجليز إلى بلادهم وجدوا فى مدرجات نهر التيمس Tames نفس الصخور النارية أو Palaeoliths وعظاماً متحجرة تماثل تمام التماثل تلك العظام التى وجدت فى نهر السدم . وبذلك بدأ استخدام حفريات الأنهار لمعرفة تاريخ الانسان القديم منذ مائة عام تقريباً ، ولـكنها لم تتحول إلى فن صحيح ذى قواعد إلا فى السنوات الأخيرة

سبق لنا أن تتبعنا تاريخ الانسان القديم ممـا وجده الباحثون فى الـكهوف ، وسنحاول الآن أن نرى ما قد تكشف لنا عنه هذه المدرجات . وفى الشكل (٢) ترى مثلاً عاليا لتتابع المدرجات ، ومن الطبقات السطحية للمدرجات السفلى نجد شواهد الـكهوف نفسها ونفس الأدوات الحجرية عينها ، بل وهيا كل أنواع الحيوانات البائدة والعنصر الانسانى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت . تأتى بعد ذلك مدرجات أحدث من الأولى تـكونت فى عصور متتابعة هى: سولتريان Solutrean ، وأورجنتيان Aurignatian، وماجداليينيان Magdalenian ، وموستريان Mousterian، وهو العصر الذى يقع قبل عصر الجليد مباشرة ، وبذا نصل إلى



شكل (٢) يبين تتابع العصور الجيولوجية كما تحفظها مدرجات الانهار

عصر غمرت فيه الثلوج القارة الأوربية ، وفى هذه الفترة يقع عصر أطلق عليه اسم أشيوليان Acheulean . ومن عصر الموستريان حتى الآن تقع فترة يبلغ طولها ٤٠ ألف سنة . وليس هناك أدنى شك فى أنه كلـما اتسع أفق العـلم أمامنا وازدادت الابحاث أمكننا تقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى حلقات متتابعة — وفى هذه الفترة نجد أنواعاً من فؤوس Coup-de-poing صنعت من الصخر النارى . عليها أثر الصنع بل والاستعمال . وإذا أنعمنا النظر فى المدرجات عـــدنا إلى البقايا القديمة للعصر المسمى شيليان Chellean وهو السابق للمسمى أشيليان Achelean امتياز بزيادة دفء جوه عن جو العصر الجليدى . وفؤوس هذا العصر كبيرة نوعاً ما عن فؤوس عصر الأشيليان . ونحن إذا قدرنا لها مدة ليس فيها مبالغة وهى ٤٠ ألف سنة . فننا نصل إلى فترة من فترات تطور الانسان تبعد عنا بنحو ١٢٠ ألف سنة . ويأتى قبـل عصر الشيليان عصر لا يسـعنا لجهلنا به إلا أن



شكل (٣) يبين أوجه الشبه أو التقارب بين انسان البلتدون والانسان الحديث وأهم هذه الأوجه شكل الرأس وحجم المخ وتقاطيع الوجه والفك كما فى المثال

نسميه ما قبل عصر الشيليان Pre-chellean وقد وجدت آثار تدل عليه على عمق ١٠٠ قدم فى مدرجات نهر التيمس بانجلترا ، ومن هذه الفترة نصل إلى بدء عصر البلشتوسين Pleistocene

ولهذا العصر أهمية خاصة عند الباحث فى تطور الأنسان ، إذ أنه فى فجر هذا العصر أخذت الحيوانات شكلها الحالى ، وتطور الانسان تطوره الأخير الذى جعل له من الخصائص ما يمتاز به اليوم من سائر المخلوقات . وبابتداء هذا العصر يمكن القول بأن العالم الحى أخذ شكلا جديداً من مظاهر التطور الحديث ، ولذلك فان علماء الحيوان يضعونه فى المرتبة الأولى من فترة حديثة لتاريخ الانسان أطلقوا عليها اسم كواترنارى Quaternary ولسنا نعرف متى بدأت هذه الفترة ، ولو أن بعض العلماء قدر لها مليون سنة ، إلا أننا لا نبالغ فى التقدير اذا قلنا إن هذه الفترة بدأت من ٣٠٠ الف سنة كما فى شكل « ٣ »

ولحسن حظ التاريخ الحديث أن يصنع الانسان الأول أدواته وأسلحته من الصخر النارى ، لأنه قد مكننا من معرفة التاريخ وتتبع حركاته وأدواره حتى عصر البليستوسين بتتبع الآثار التى تركها لنا فى أدواته وحاجاته . وقد وجد الباحثون القواعد التى قطعت وشكلت عليها الأدوات الصخرية ، بل وجدوا عظاما من بقايا من قام بصنعها . إلا أنه برغم الأبحاث المتتابعة لم يوجد إلا بقايا قردين ممن سكن أوربا فى فترة البريشيليان : أحدهما سمى انسان هيدلبرج ، وكل ما وجد منه فكه الأسفل . وقد وجد فى أسفل واد من أودية نهر الرين القديم مع عظام متحجرة من عظام نوع من الحيوان كان عائشاً فى أوربا فى الفترة الأولى من عصر البليستوسين ، وكان معاصراً لانسان هيدلبرج . ولقد لوحظ أن الفك خشن كبير وأصلب من أى فك لأى عنصر من العناصر المعروفة ؛ أما نظام أسنانه فانه يماثل تمام التماثل نظام أسنان القردة ، إلا أن الأنياب الحادة البارزة فى قرد الانسترويد قد انخفضت واستوت هنا مع باقى أسنان الفك عند انسان هيدلبرج

وأما القرد الآخر الذى كشف عنه ومرّ ذكره بك ، فقد عرفنا عنه معلومات تزيد كثيراً عما نعرفه عن انسان هيدلبرج ، كان يسكن أوربا فى عصر ماقبل الشيليان Pre-Chellean وقد وجدت بقايا من عظامه المتحجرة فى جهة بلتداون Piltdown بانجلترا ، ولذلك سمى باسمها إنسان بلتداون Piltdown man ولنا من البراهين القوية مايثبت أن هذه الجهة أقدم بكثير من الجهة التى وجد بها فك انسان هيدلبرج . ولذلك فاننا نرجح أن يكون الحلقة الانسانية التى سبقت انسان هيدلبرج بما فيها من تطور .

ويرجع فضل الكشف عن هذا الانسان الى الأستاذ شارلس داوسون الذى كان محامياً فى ليوس Lewes ثم تفرغ لدراسة جيولوجية منطقة Sussex حيث وجد هذا الانسان .

فى عام ١٩٠٨ قبل أن يموت ذلك الأستاذ مأسوفاً عليه ممن قدر قيمة كشفه مر على طريق جديد قد رصف بنوع من الصخور النارية التى لم يكن قد رآها من قبل ، ولكنه كان يعرف أن هذا النوع كان يستعمله الانسان القديم فى صنع أسلحته وأدواته ، ولذلك أخذ يستعلم عن مصدر ذلك الصخر حتى علم أنه يستورد من منخفض فى وسط مزرعة على حدود Piltdown Common ، ولما كان يتردد كثيراً على هذه الجهة فانه عقد أواصر الصداقة مع عمالها ، وبمساعدتهم حصل بعد سنوات قلائل على لوح سميك من العظم اشتبه فى أن يكون جزءاً من جمجمة انسان قديم . ولكنه لم يتمكن من الحصول على باقى الجمجمة الا حوالى سنة ١٩١١ .

ثم قام بعد ذلك هو والسير آرثر سميث وودوارد Sir. A. S. Woodward بالحفر فى هذه المنطقة ، فوجدا بقايا أخرى من هيكل الرجل الذى وجدت جمجمته ، ووجدا أيضاً هيا كل

متحجرة لحيوانات قديمة بائدة ، وبقايا أدوات وأسلحة غالبها ينتسب الى عصر ما قبل شيليان Pre-Chellean ، ومنها ما يمت الى عصر أقدم من ذلك وهو عصر Eoliths

وأمكن بعد ذلك معرفة حجم الجمجمة وشكلها ، وتخيل شكل لها قبل التحلل والتكسير ، ثم بواسطة صب عجينة من المصيص داخلها أمكن معرفة حجم وشكل المخ الذى كان يُسير سكان العالم الأول خلال صعاب الحياة . وقد لوحظ أن حجم مخ البلتداون يرتفع عن المستوى المقدر للأجناس المنحطة من العناصر الانسانية ، إلا أنه من جهة أخرى يبتعد كل البعد عن مميزات الجنس الحديث .

أما تلافيف المخ فقد لوحظ أن هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الانسان بعكس انسان النيادرتال الذى يشبه مخه مخ القرد . مع أن تكوين وجه انسان البلتدون يقربه كثيراً من القردة .

وأما نصف الفك الأسفل فهو عجيب حقاً ، لأنه قد وجد أنه وتركيب الأسنان فيه يمتان الى القردة تماماً ، وأن شكل الأنياب عنده لا يختلف عن شكلها أبداً عنـــد صغار القردة . وهذا الفك يشبه تمام الشبه فك الشمبانزى مع أنه فى انسان هيدلبرج برغم كبر حجمه كبراً غير متناسب مع الانسان الحديث ، لا يختلف فى شىء كثير عن فك الانسان العادى المعروف لدينا جميعاً .



شكل ؟ يبين التدرج فى شكل الفك بين الاورانج وما شابهه ٦

وبذلك نرى أن انسان البلتدون يصل بنا الى درجة أو عصر لم يكن قد تغير فيـه شكل رأسه أو أسنانه عن شكلها عند القردة إلا قليلاً ؛ وبمعنى آخر أن التطور والارتقاء قد حدثا عنـده فى المخ وقوى التفكير ، قبل أن يحدث فى شكله العام وعلى الأخص شكل وجهه بفـكه وأسنانه .

ونحن إذا خامرنا الظن أو الشك فى نشأة النوع الانسانى ، وجال بنا الحدس أنه قد انحدر من عنصر أولى منحط يشبه القردة إن لم يكن منها بالذات ، فانه يلزمنا أو يلزم من يقول بذلك البرهنة على صحة هذا الظن أو ذاك القول .

ولذلك نظن ظناً كافياً أن نقول تدليلا على صحة ذلك أن العلماء حينما كانوا يبحثون عن أصل الأنسان الجيولوجى قد وجدوا أنه فى منطقة Piltdown بانجلترا كان يعيش عنصر انسانى قديم جداً جمع فى جسمه وعقله صنعة الانسان المعروف ، وفى وجهه وفكه شكل القردة وصنعتها .

وربما اعترض معترض علينا فى ذلك بأنه ربما كان يسكن هذه المنطقة من انجلترا نوع منحط من الانسان وعنصر راق من القردة أو الشمبانزى ، وأن الجمجمة التى بنيت عليها الأبحاث ، وجاءت هذه النظرية نتيجة لها ، لم تكن جمجمة قرد واحد ، بل مجموعة أو خليطاً من جمجمة انسان وجمجمة قرد انحلتا واختلطتا بعد التحلل ! .

إلا أن ذلك الاعتراض يمكن الرد عليه بقولنا إن الأجزاء التى تجمعت وتكاملت أجزاؤها مكونة جمجمة كاملة تتكامل أجزاؤها تمام التكامل ، وتتفق كلها فى المقاييس المقدرة لها ، كما أنها من نوع قد تحجر فى وقت واحد ، وهذا كله لا يمكن القول بأنه وليد المصادفة ، وبذا يثبت أن الجمجمة هى لفرد واحد هو انسان البلتداون

وقد بلغ اهتمام السـير ارثر سميث وودوارد بهذا العنصر الانسانى الجديد الشبيه بالقردة مبلغاً كبيراً حتى أنه اعتبره عنصراً انسانياً لم يكن معروفاً قبل اكتشاف بقاياه فى Piltdown وأطلق عليه اسم الانسان الأول أو Eoanthropus .

يتبع

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

من الأدب التركي

المعلمة الصـــغيرة..

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ثم تكلمني حتى وصلنا الى (سركه جي) حيث موقف الترام هناك فقالت :

— هنا كنت أنتظر ياسيدى . وفى كل يوم كنت أركب الترام من هنا . ولا أدرى كيف أخطأت فى هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن « الجسر » لا اليه ؟ ولا أدرى كيف لم أنتبه لذلك ؟ كان السبب كما قلت ياسيدى الظلام الحالك والمطر الكثير الذى أدهشني ، لو تدرى ياسيدى كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة لهواء الذى يعصف بشدة ، وكم لقيت من الانتظار ، لقد ظننت أن غشاء أسود قد ستر عيني ، لا أقدر أن أصف لك اضطرابى حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير فى الليل ، آه لقد تأخرت كثيراً . .

— لقد كانت كأنها فى حمية عن الكلام ثم تركتها وذهبت فيه مذهباً بعيداً وقالت :

— غريب جدا أن المصادفات فى بعض الأحيان تظهر للمرء عجائبها وغرائبها كأنها تسخر منه ، لقد فاتنى القطار أيضا فى « مقرى كوى » لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأنى انتظرت هناك طويلا ، ولم يكن يخطر لى على بال أنى هنا سأركب فى آخر عربة تسير فى الليل وفى غير الجهة التى أقصدها .

فسألتها :

— إذن أنت آتية من مقرى كوى ؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئاً فشيئاً لأن وجودى بجانبها طول المسافة التى قطعناها أظهرها على حسن نيتى وجعل لى فى قلب هذه الفتاة الشابة موقعاً حسناً فأجابتنى على سؤالى جوابا طويلاً مفصلا ، قالت :

أجل ياسيدى انى أذهب مرتين فى الأسبوع الى « مقرى كوى » لاعطاء درس خصوصى هناك لأحدى السيدات ، آه ياسيدى ! إن حياتى شقية جداً ، محتم علىّ أن أشتغل من الصباح حتى المساء فى جميع أنحاء هذا البلد الكبير ، تصور المسافات التى أقطعها كل يوم : ذهبت اليوم صباحا الى « طرابية » وعدت منها إلى « مقرى كوى » وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتنائى بعضها عن بعض . على هذه الصورة يجب أن أشتغل فى أربعة أطراف البلد ؛ فاذا كان الصيف احتملت كل ذلك ، لأن النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسى من غير كبير مشقة ولا عناء ، أما فى الشتاء فالمشقة فوق الطاقة وخاصة فى مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء ، لقد غلبنى اليوم البكاء أكثر من مرة ، ولا أتذكر أنى تأخرت مثل هذه الليلة ، وما الذى اقوله الآن فى البيت لوالدى ؟

وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها ، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها ، ولما لم تجد فى نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهى تنفض ذراعها المبتلة من المطر .

— لقد ابتلت ثيابى .

فقلت لها :

— إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذى مظلتى فهى تحفظك من المطر .

ولكنها لم تقبل وقالت :

— أشكرك ياسيدى ! لا أود أن تبتل ثيابك أكثر مما ابتلت ، ألا يكفى ما تحملت حتى الآن من أجلى ؟

أردت أن أعود بها الى الحديث عن حياتها فقلت لها .

— إذن لك والد فقط يا آنسة ؟

— نعم ياسيدى . ثم قالت :

— أظننا قد بلغنا الجسر ؟

وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شي أبداً ، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت فى حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وأن تحدثنى عن حياتها ، أجل ! بحاجة شديدة إلى ذلك ، فقالت :

— فقدت والدتى منذ سنتين ، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير . كانت والدتى فى حياتها هى التى تشتغل لنا ، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى بمرارتها وألمها . . هل لك والدة ياسيدى ؟

فأشرت اليها برأسى أن نعم ، على أنها ما كانت تنتظر منى جواباً ، لأن سؤالها هذا كان مقدمة لما تريد أن تحدثنى به فقالت :

— إن أكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدى من تاريخ وفاة أمه ، لقد كنت حتى وفاتها أجهل الحياة وما فيها ، كنت فى مدرسة داخلية لا أعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظرى بين جدرانها السامقة ، لا أعرف شيئاً ولا أعرف أحداً أبداً ، فلما توفيت والدتى واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء فى البيت علمت أننى أجهل كل شىء حتى أبى ؛ أما الآن فقد عرفت الحياة جيداً ، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم . لقد علمت كل ذلك ، ولم يكد يمضى على دخولى فى معترك الحياة أكثر من شهر . ولكن من المؤلم جداً أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لأن أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة . لقد وصلنا إلى « الجسر » ياسيدى . أشكرك شكراً جزيلاً ، وهذه عربة هنا تقلنى إلى البيت.

وهنا تهيأت لوداعى ، ولكننى رأيت أن المصادفات قد وقفتنى على قصة حياة مؤلمة ، فكنت أفكر فى وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت ، فقلت لها .

كلا أيتها الآنسة ، إنى سأرافقك حتى الجانب الآخر من « الجسر » لأنى عدلت عن الرجوع إلى بيتى فى مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك ، فلم تعارضنى بل اكتفت بتلك الايضاحات وسرنا نقطع « الجسر » ونحن ساكتان .

كنا نمشى معاً على أحد جانبى الطريق ، وكنا نلاقى مشقة شديدة فى إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذى كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب . وفى تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت :

— نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تضارعها مصيبة .

ثم استأنفت كلامها فقالت :

هل تدرى ياسيدى ما الذى يقلق فكرى أكثر من كل شىء بعد هذا التأخر ؟

كانت مضطربة تماماً واضطرابها يزداد شيئاً فشيئاً ، كانت تشعر أنها فى حاجة إلى أن تقص على هذا الرجل الذى لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التى خفيت من نواحى حياتها .

فسألتها بسكون قائلاً :

-- ماهو أيتها الآنسة ذلك الذى يقلقك ؟

قالت : والدى ! . ثم سكتت قليلاً وقالت :

— أرانى لا أقدر أن أصف لك والدى وصفاً دقيقاً ، لا أدرى كيف تنظر الى فتاة تشكو اليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها ، ولكنك بمرافقتك لى حتى هذا المكان أثبت لى طيبة قلبك وصفاء نيتك ، وأنك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التى ساقتنى الى الشكاية ، أليس كذلك ياسيدى ؟ .

كان الهواء يعصف بشدة ، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا ونقاوم الهواء الشديد فأغلقناها وأخذنا نمشى غير مبالين بالمطر

القليل الذى ينزل ، بل خففنا السير لندرك وقتاً كافياً للتكلم معاً ، وقد اقترب كلانا من الآخر ، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق .

كانت هى فى حاجة الى أن تشكو الىّ همومها ، أجل ! كانت فى حاجة شـديدة جداً الى أن تنشر كل ماخفى من نواحى حياتها ، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذى دعا كان اجتماعها به مصادفة واتفاقاً أول اجتماع وآخره ، فقالت .

— اعلم ياسيدى أنى الليلة ككل ليلة سأجد والدى سكران طافحاً ، وحيثما يرانى يستقبلنى بكلمات الشتم والتحقير ، وفى بعض الأحيان . . . . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لى بأكثر مما يجب ، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التى شرعت فيها بصورة أخرى ، فقالت :

— لا أذكر أن والدى عمل يوماً ما عملاً مثمراً يعود عليه وعلينا بربح ؛ كان فى شبابه صاحب مقهى صغير فى « بك أوغلى » ، وكان يأتى بمغنيات فى الشتاء الى قهوته ، وكانت والدتى إحدى أولئك المغنيات ، اشتغلت عنده ثم تزوجها ، وقد علمت هذه التفصيلات واحدة بعد أخرى مصادفة واتفاقاً ، ولا أدرى كيف تم الاتفاق بين أبى وأمى على الزواج الذى كنت ثمرته ، ولكن ظهورى فى الحياة كان سبباً لأمراض كثيرة أصابت والدتى ومصائب أخرى اضطرتها الى ترك العمل وأرغمت والدى على ترك المقهى . كانت والدتى موسيقية بارعة ، فبعد أن تركت المسرح صارت معلمة تعطى النساء دروساً فى الموسيقى ؛ وأنا أعرف والدتى وهى معلمة فقط ، لم تكن تملك دقيقة من دقائق حياتها ، بل كلها كانت رهن التعب والشقاء والتعليم والكدح فى سبيل القوت ، حتى اضطرت الى وضعى فى مدرسة داخلية ، أخرج منها فى الأسبوع مرة الى البيت ، أقول « البيت » وأنت تدرك بثاقب فكرك ماهو هذا البيت . كنا نسكن فى غرفتين فى الطابق الرابع من بناء كبير عال . كنت إذا جئتهما فى يوم عطلة أو فى يوم جمعة وجدتهما بعيدين عن الحياة العائلية كل البعد ، فأهرب منهما الى المدرسة . وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه طعام ، ولا تغسل فيـه ثياب ، ولا يعمل فيه شىء مما يعمل فى البيوت ؟ كانت والدتى تشتغل بلا انقطاع لتحصيل القوت ، وكان والدى بلا انقطاع يشرب الخمر ؛ فهذان المخلوقان وإن كانا متقاربين جسماً يعيشان تحت سقف واحد ، فقد كانا متباعدين كل البعد معنىً ، وكنت أنا فى سرور لأننى بعيدة عنهما ، حتى أنى لم أكن أجد لهما فى قلبى مكاناً . استدعتنى يوماً مديرة المدرسـة اليها وأخبرتنى بوفاة والدتى ثم قالت : « إن المرء تصيبه فى حياته مصائب جمة ، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر » ، لم أجد فى ذلك الوقت وفاة والدتى مصيبة كبيرة كما قالت المديرة ، ولكنى أصبحت أحب والدتى بعدوفاتها ، آه لو تعلم كم أحبها الآن . . . . كم أحبها !

سكتت هنا قليلاً ، وقد شعرتُ أن صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة فى أعماق قلبها ، ثم قالت :

— منذ ذاك الوقت أصبحت الحياة علىّ أضيق من سم الخياط . أخرجنى والدى من المدرسة ، وأخذ يسوقنى من مكان الى مكان . أجل ! أخذ يسوق فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، لا تعرف من الحياة إلا مارأته من نافذة المدرسة ، الى الأماكن التى كانت والدتها تعطى دروساً فيها لتقوم مقام أمها فى تحصيل اللقمة ! ومنذ ذاك الحين انتقلت الىّ وظيفة السعى وراء كسب القوت . وأنا الآن أسعى بكل قواى وأعطى دروساً ، وكل يوم أقطع مسافات شاسعة متعبة ، فمن « طرابية » الى « مغرى كوى » ، ومن « اسكدار » الى « بك أوغلى » ، ولكنى لا أدرى لماذا أشتغل كل هذا الشغل ؟ ولماذا أسعى كل هذا السعى ؟ . . إنهم يقولون لى (اشتغلى) وأنا أصدع بالأمر ! . .

كنا على وشك الوصول الى آخر « الجسر » فتراءت لنا أضواء « غلطه » ، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين أسليها بهما ، فقلت لها :

— لا تجزعى يا آنسة ، اصبرى وتجلدى ، فالصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء فى طريق الحياة . فهزت رأسها الصغير وقالت :

— الصبر ياسيدى ! إن الانسان أوجد لنفسه كلمات خداعة يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة . وازداد اضطرابها فقالت :

هل تعلم ياسيدى ماذا ينتظرنى فى البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ إن والدى فى مثل هذه الساعة يعود من الحانة يرسم فى مشيته لام ألف ، فاذا دخل المنزل جلس فى غرفته يتم ما فاته فى الحانة إنتظاراً لى ، وهو قد جعل لنفسه فى البيت حانة صـغيرة ، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة ، لو رأيت كل ذلك لدهشت ، كثيراً ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكنى لم أفلح ، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتى إلى ترتيب غرفتى الخاصة وتنظيفها ، لله تلك الغرفة الصغيرة ! إنها صغيرة إلا أننى أجد فيها راحة كبيرة ، أنزوى فيها بعد

عودتى من العمل ليلاً وبعد أن آخذ قسطى من كلمات التحقير والشتم التى يستقبلني بها أبى إرضاءً لنفسه وكسراً لحدته ، هناك فى غرفتى فقط أفهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عينى أن تسيل فأجد السعادة فى ذلك البكاء ، أغسل به قسماً مما تراكم على قلبى من الهم والبؤس .

تقول المسكينة « فأجد السعادة » ، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن فى البكاء سعادة ، وفى هذه اللحظة لو لم أخش أن ترتاب بى لأمسكت يدها وشددت عليها بكل قوتى مظهراً ما بقلبى من الرحمة لها والاشفاق عليها .

فقالت بعد صمت قصير :

— أنا على يقين أننى هذه الليلة لن أقدر على تهدئته ، آه ليت شعرى ما الذى سيكون لى منه ؟

فقلت لها :

— ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك ، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها ؟

وقفت عن السير فى الحال ورفعت وجهها إلىَّ ونظرت فى وجهى ولم تقل شيئاً ، إلا أننى أدركت فى الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها ، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذى يدعى أنه خبير بالحياة « أنت غر قليل التجربة » ثم خطر ببالى خاطر فجائى فقلت لها :

— أيتها الآنسة : إذا كانت مرافقتى لك حتى البيت وإعطائى الايضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئاً فاسمحى لى أن أرافقك حتى منزلك .

ترددت قليلاً ثم فكرت ملياً وقالت — وأكثر ظنها أن ذهابى معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته — :

— نعم ياسيدى أقبل لطفك هذا أيضاً .

ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة :

— لقد أثر البرد فى جسمك فهل لك فى قدح من الشاى أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت ؟

ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين . كنا فى ذلك الحين نتجه نحو « غلطه قوله سى » فقالت :

أتراني لو لم تكن معى كنت أجسر على المرور وحدى من هذه الأماكن ؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت « هنا »

دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار الرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزونى ، لا أدرى كم صعدنا ، ولكني شعرت بدوار فى رأسى وضعفت رجلاى عن حملى لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلاً نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذى فوقه . وقفت أخيراً وأنا أتنفس بقوة ، فقالت ضاحكة : لم يبق درج نصعده !

فدخلنا فى دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب ، فنظرت إلى وجهى ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدى فلم يجبنى أحد ؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتاً يشبه صوت حيوان وحشى ، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويداً رويداً خطوات غير منتظمة ، وشعرت باقتراب أنفاسه منا ، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى ما وراءه وفى قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها .

دخلنا فى ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقاربتين إحداهما مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته ، فنظر إلىَّ متحيراً بعينيه المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له : إن ابنتك اليوم قد وقعت فى خطأ . .

كان عند كل كلمة ألقيها عليه فى شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابة من البلاهة منشؤها ذلك الأدمان ابتسامة خفيفة وترتخى أعصابه وتنحل

كنت وأنا أسرد له القصة ، أنظر الى تلك السحنة البلهاء تارة ، وإلى غرفته أخرى . كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع ، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامه ذلك الهرم التصابى بقوة العلاج الذى كان يستعمله .

وكانت الغرفة قذرة بقدر ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، وكان كل ما فيها عبارة عن : كراسى عتيقة مكسرة ، ومنضدة صغيرة كمناضد المقاهى عليها مشمع أسود اللون ، وزجاجات خمر ونبيذ فارغات ، وصحون قذرة ، ومصباح قد طار من زجاجه قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة ينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع ، وفيها فراش إن صح أن يسمى مثله فراشاً ، حولت نظرى المتألم عن كل هذه الأشياء وقلت له :

— لقد جئت بالآنسة الى هنا وهأنذا أسلمها اليك .

فلما سمع منى تلك الكلمة ظهر مالم يكن فى الحسبان : ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذى ابتدأ حياته أجيراً فى أماكن الريب فى « غلطه » وأمضى قسما منها فى مرقص أنشأه بنفسه ، تقدم منى مشيراً إلى فتاته الطاهرة التى كانت تنتظر النتيجة ، وقد تجلت عليه تماماً أمارات البله وقال :

— لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد . . . !

ثم اقترب مني وقال وهو ينظر اليّ نظرة مرتاب :

— يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك . . .

فأدركت سوء نية ذلك الرجل. كم كانت يدى فى تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير ! حولت نظرى الى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار ، لأنها أدركت غاية والدها .

لله أنت أيتها المعلمة الصغيرة ! أيتها المخلوقة التى تشتغلين من الصباح حتى المساء لاشباع والدك ، هل أنت حقاً ابنة ذلك الرجل ؟!

حولت وجهها عنى فلم أشك أنهـا فى تلك الدقيقة كانت تود لألمها من تلك المهانة التى لحقتها فى عصمتها وعفتها ، والجرح الذى أصابها فى كرامتها ، أن تهرب من بين يدى وتذهب الى حيث لا أراها فتبكى . . . وتبكى . . .

لم أجبه بشىء ما ، إن الرجل كان لا يزال ينظر الىّ نظرة المرتاب ، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان . وكأنه أدرك ما دار فى خلدى ، فعرض علىّ مستهزئاً كأساً من « الكونياك » فقلت :

— شكراً . ليس لدى من الوقت ما يتسع لذلك .

وسرت نحو الباب، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معى حتى الباب تودعنى . لكنها لم تجسر على ذلك فى بادىء الأمر . ثم أقدمت عليـه وسارت ورائى . بقى والدها فى غرفته يضحك ضحكاً عالياً كأنه يعلن به ما قاله أولاً : « يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك !! »

تبعتنى الفتاة حتى باب الدار وقالت بصوت تخنقه العبرات :

— سيدى . . .

ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها .

حينذاك أخذت يدها وهى فى القفاز بكلتا يدى . وشددت عليها مظهراً ألمى على تلك الزهرة الناضرة التى نبتت فى ذلك المكان الملوث . وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها :

- أيتها الآنسة : أكرر لك جملتى السابقة وأقول . إن الصبر أقوى ما يعتمد عليـه المرء فى طريق الحياة . لا أظن أننا نلتقى مرة أخرى ، ولـكن كونى على ثقة أننى دائماً سأتمنى لك من صميم قلبى السعادة والهناء .

فانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها ، أعلنت بهما شكرها لى .

ففررت من ذلك المحل ، وكنت وأنا أنزل الدرج أقول فى نفسى : «لقد وعدتها أن أتمنى لها دائماً السعادة ، ولـكن أين منها السعادة ؟ !

لعمرى لو رأيتها حين يبدى الربيع نواره ، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره ، على عربة من تلك العربات الفخمة ، التى يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب ، وهى متجهة نحو «شيشلى» حيث تموت الفضيلة ، وتحيا الرذيلة ، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة ، لم أعجب لذلك بعـد الذى رأيت من حالها مع أبيها .

ما أتعس تلك الفتاة الصـغيرة ! إنها بين شقاءين : شقاء الحاضر بأبيها المختبل ، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل .

نزيلة بعلبك ... فتاة الفرات

2 me Année, No. 66.

Lundi-8-10-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العــدد ٦٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــدد

نهضتنا الاقتصادية

بمناسبة النمو العجيب فى شركة مصر للغزل والنسج

نهضتنا الأقتصادية هى وحدها الدليل الناهض على نضوج شعبنا المظلوم . لأنها نَسَق من الضرورة والقدرة والنظام والثقة قائم بذاته لا يقوم على الهوى ، ولا ينتظم على الطيش ، ولا يصبر على الفساد ، ولا يتقدم على العجز ، ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة . فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع الى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحل فتعود الى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتنقلب الى الفوضى ، وحمية الشباب تنكسر فترتد الى الفتور ، نجد هذا الركن القوى الذى يقوم على بنك مصر وشركاته يثبت أصله فى الأرض ، ويسمو فرعه فى السماء ، ويمسك هذا الوطن المنكود فى مهب الأزمات ومضطرب الكوارث . واطراد النجاح فى هذا العمل الشعبى الخالص مبعثه إخلاص القادة ، وثقة الأمة ، وضمان من الله يسميه الدين إيمانا ، والخلق ثباتاً ، والعلم كفاية ، ونسميه نحن : طلعت حرب

إن هذا اللحن الذى يتألف من صريف الأموال المصرية فى (البنك)، وهدير البواخر المصرية فى البحر، وأزيز الطوائر المصرية فى الجو، ودوى المصانع المصرية فى (المحلة)، لهو النشيد القومى القوى الذى يعلن استقلال البلاد، ويملأ مسامع الأجانب، وينبه مطامع الشعوب الى أن هنا أمة حية لها ماض تستهديه، ووطن تستغله، وغرض تسعى اليه؛ وأن هـذا التوسع المطمئن الحازم فى شركة مصر للغزل والنسج فى الوقت الذى تُتَّهم فيه كفاية البلد، وتطير الشائعات السود فى جو السياسة، تصحيح للأفهام الأجنبية التى تحاول استنتاج الحقيقة المصرية من أخطاء جماعة

***

كان نجاح شركات (بنك مصر) نجاحاً حقيقياً طبيعياً يطَّرد اطراد الزمن من غير بطء ولا طفرة. ولـكن نجاح هذه الشركة — شركة مصر للغزل والنسج — وهى كأخواتها مصرية الرجال والأموال والعمال والمادة، جاوز حدود الظن، وفات معاقد الأمل؛ فقـد أنشئت منذ ثلاث سنوات وعدد أنوالها ٤٤٨ نولاً فأصبح اليوم أربعة آلاف، وعدد مغازلها اثنا عشر ألف مغزل فبلغ هذا العام خمسين ألفاً، وعدد عمالها ستة آلاف فأصبح مع هذا التوسع ثمانية عشر ألفاً، وكانت مصانعها تنشأ بادئ الأمر على قدر الحاجة، فبسطها النجاح السريع، والفرص المواتية، والادارة الرشيدة، حتى بلغت مساحة الأرض التى تقوم عليها اليوم مائة فدان؛ وكان عملها مقصوراً على غزل القطن المصرى ونسجه، فصنعت الآن (الدوبارة، والفانلات، والجوارب، وبكر الخيط، والقطن الطبى). فأصبحت بهذا النمو العجيب فى هذا الوقت القريب من أكبر المصانع العالمية.

عمل جسيم من أعمـال الادارة والفن، غزت به هذه الشركة ميادين الاقتصاد فى البلاد، وفتحت الطرق الموصدة أمام الرءوس المصرية، والأيدى المصرية، لتفكر بنفسها، وتعمل لنفسها، وتنسج من القطن المصرى الجميل، مجد الـكنانة واستقلال النيل.

***

هذه هى الوطنية المثمرة بوسيلتها وغايتها. فأما ثمرة وسيلتها فتوظيف الأموال المصرية فى أضمن مكان وأربح مورد. وتخفيف العطلة باستخدام هذا الجيش الـكثيف من العمال وما يتبعه من مرشدين ومهندسين وكتبة، واستهلاك مقدار من القطن المصرى قد يربو على خمسمائة ألف قنطار، ثم نشر الثقافة الآلية الحديثة فى هذه الصناعة بمن ترسله من البعوث الى أوربا، ومن تدربه من الاحداث فى المصانع. وأما ثمرة غايتها فدفع هـــذا الاحتلال الاقتصادى الذى أفقر البلاد وأذل الشعب، وحبس أموالنا فى بلادنا حتى لا تخرج ذهباً من أيدينا لترجع حديداً فى أرجلنا، وانماء العزة القومية بشعور المصرى انه يلبس من زرعه ومن صنعه، وترفيـه الحياة المصرية بكثرة الانتاج ووفرة المـكسب وتوزيع الثروة، ثم تمكين النفوذ المصرى فى الأسواق الشرقية والأقطار العربية، وذلك مجد ورثناه ثم حرمناه منذ طويل.

***

قَدرت الأمة الرشيدة غاية هـذه الشركة، وعقدت آمالها بمستقبلها، وأخلدت بثقتها إلى رجالهـا، فلم تضن عليها بالعطف والمساهمة. وآية ذلك أنها أصدرت منذ ثلاثة شهور ١٧٥٠٠ سند بثلاثمائة وخمسين ألف جنيه بفائدة ٥٪ فبيعت كلها على رغم هذه الأزمة! وهاهى ذى تريد اليوم أن تطرح للاكتتاب العام خمسة وسبعين ألف سهم اقتضاها نمو المشروع، واتساع العمل، والتقدير الدقيق لحاجة البلاد، وضرورة التصدير، وضمان المستقبل.

ولا ريب أن الأمة التى تئن أنين الأسير العانى من الاحتلال والاستغلال والامتيازات، لا تنى عن تعضيد هذه الشركة وأخواتها بالأموال والآمال بعد ماعلمت بدلائل التجربة وشواهد الواقع أنهـا أنجع الوسائل وأخصر الطرق لادراك الاستقلال الصحيح؟

وزعنا مع العدد الماضى فهرس المجلد الاول من السنة الثانية، فمن لم يصله فليطلبه من الادارة

أرملة حكومة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا [1] هو الرجل العَزَب ، يكون مُطِيقاً للزواج قادراً عليه ولا يتزوج ؛ بل يركب رأسه فى الحياة ، ويذهب يُمَوِّهُ على نفسه كذبا وتدليساً ، وينتحل لها المعاذيرَ الواهية ، ويَمْتَلِق العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلْحِق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ؛ ويرميهنَّ بالسوء وهو السوءُ عليهن ، ويَتَنَقَّصُهُنَّ ومنه جاء النقص ، ويَعِيبهُنَّ وهو أكبرُ العيب ؛ لايتذكر إلا الذى له ، ولايتناسى إلا الذى عليه ، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا ، وتبدلت رسومُ الحياة ، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تَحمل تلك ما كان يحمل هذا ، فتُقْدِمَ ويَقَرَّ وادعاً ، وتتعب ويستريح ، وتعانىَ الهمومَ السامية فى الحياة الاجتماعية ، ويعانىَ المخنَّثُ ابتساماتِه ودموعَه ، متَكِئاً فى مجلسه النَّسيمىّ تحت جَناح المِرْوحة . . . فأما المرأة فتشْرِف على هَلَكَتِها ، وتخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيبقى من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائف المُبَهْرَج ، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزوراً ؛ إذ لا تكمل الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعانى تكوينها ، وأخصّ هـذه المعانى إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها ، أىْ مغامرةُ الرجل فى زمنه الاجتماعىّ ووجودِه القومىّ ، فلا يعيش غريباً عنه وهو معدود فيه ؛ ولا طُفَيْليّا فيه وهو كالمنفىّ منه . ولا يكون مَظْهراً القوة الجنس القوى هاربةً هروبَ الجبن من حَمْل ضعف الجنس الآخر المحتمى بها ، ولا لمروءة العشير مُتَبَرِّئةً تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها ؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان فى نساء أمته عملاً واحداً ، وأن يصبح هو والكساد لا يأتى منهما إلا أثرٌ متشابه ، وأن يبيت هو والفناء فى ظُلمةٍ واحدة كظلمات القبر ، تنقل الأحداثَ إلى الدور ، فتجعل البيت الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌ وأطفال — بيتاً خاوياً كأنما ثكل الأم والأطفال ، وبقيت فيه البقية من هـذا الرجلِ العَزَبِ الميت أكثرُ تاريخه . . . !

لقد رأيت بعينىّ أداةَ العزب وأثاثه المبعثر فى بيته ، كأنما يقصّ عليه كلٌّ ذلك قصةَ شؤمه ووحدته ، وكأنما يقول له الفَرْش والنَّجْدُ والطراز : « بعنى يارجل وردَّنى إلى السوق ؛ فانى هنالك أطمع أن يكون مصيرى إلى أب وأم وأولاد ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودى ، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابى ، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قدعملت عملاً انسانياً . أما عندك فأنت خشبة مع الخشب ، وأنت خِرْقة بين الخِرق . واسمع الكرسىّ إنه يقول : أفّ . وأصغِ الى فراشك انه يقول: تفّ .. »

شهد العزبُ وربُّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلًى بالعافية ، مستعبدٌ بالحرية ، مجنون بالعقل ، مغلوب بالقوة ، شقى بالسعادة . وشهدتْ الحياة عليه ورب البيت أنه فى الرجولة قاطع طريق يقطع تاريخها ولا يؤَمِّنُه ، ويسرق لذاتها ولا يكسبها ، ويخرج على شَرْعِها ولا يدخل فيه ، ويعصى واجباتها ولا ينقادلها . وشهد الوطن — والله — عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا ؛ إن كان نعمةً بصلاحه ، انتهتْ النعمةُ فى نفسها لاتمتد ؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لا تنقطع . وأنه شحّاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً ، ولا يُحْسن هو بنسل يبقى ، وأنه فى بلاده كالأجنبى ، مهبطه على منفعةٍ وعيشٍ لاغيرهما ، ثم يموت وجودُ الأجنبى بالنَّقْلةِ إلى وطنه ، ويموت وجودُ العزب بالانتقال إلى ربه ؛ فيستويان جميعاً فى انقطاع الأثر الوطنىّ ، ويتفقان جميعاً فى انتهاب الحياة الوطنية ، وأن كليهما خرج من الوطن

(١) أنظر مقالة « استنوق الجمل » بالعدد ٦٤ من الرسالة . والتاء فى « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هى تاء جديدة فى العربية ، تزاد فى هـذه الكلمة خاصة ، واسمها تاء الهزؤ . . . ويا حبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عَزَب « أرملة حكومة » فان هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر حامضاً لغوياً كحامض الفنيك . . . !

أَبتَر لا عَقِب له ، ويذهبان معاً فى لجج النسيان : أحدهما على باخرة ، والآخر على النعش !

***

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة الدقة البالغة فى الرَّقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذرُ البالغ أن يختلّ شىء أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يدخله السهو ، أو يقع فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضر فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة ، وكان الخيال للحقيقة ؛ وكان الخُرْق هنا لا يقبل الرُّقعة . ومتى فَصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فاما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختلّ .

بَيْد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد خَلَتْ حياته من الهندسة . . . وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطىء الصغار فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين . » فقد رَوَوا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى بهم فى مسجدها ، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجه لى وجهُ الحق فيها ، ولا أزال متحيّر الرأى ، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سَلْ ما أحببت .

قال الخطيب : أُشكِلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » . . . أىّ شىْ بعده . « تسعين ، أو سبعين » . . . ؟ أُشكِلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها : تسعين . أخذاً بالاحتياط . . . !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عَزَب أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تُكلّفنى الزواج وتُكرهنى عليه ، وتُمتّنُنى على العزوبة وتعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل . إن استحالة الزواج هى جعلتنى عَزَباً ، والعزوبة هى جعلتنى فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصل بها العَدْوَى . والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق .

قلت : لقد هوّلتَ علىّ ؛ فما مستحيلُك يا هذا ، ولِمَ استحال عليك ما أمكن غيرَك . وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا ، أم زُرِعوا زرعاً فى أرض الحكومة ؟ إسمع — ويحك — ألاَ يكون الرجال قد أقبلوا وتراجَعت ، وتجلدوا وتوجّعْت ، أو أقدَموا وخنسْت ، واسترجلوا وتأنّثْت ؟

قال : ليس شئ من هذا .

قلت : فان المسألة هى كيف ترى الفكرة ، لا الفكرةُ نفسها ، فما حملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يصدق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عَمِد إلى حَجرٍ لانفلق له عن رزق .

قال : أليس مستحيلاً ثُمّ مستحيلاً أن يجمع مثِلى يده على مائة جنيه يدفعها مهراً ؛ وما طرقت — علم الله — باباً إلا استقبلونى بما معناه : هل أنت معجزة مالية ، هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فان عملك فى الحكومة يُغِلّ عليك فى السنة مائة وثمانين ديناراً فلِمَ لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لا يستطيع الرجل العزب أن يدخر أبداً ؛ فهو فى كل شئ مبدّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتك على نفسك بالسفه والخرق والتبذير ؛ تنفق ما يكفى عدداً وتضيق بواحدة ، وماذا يُرَتّى مثلك فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبد فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع فى شهوات حياته ، ويتوسع فيها ضروباً وألواناً ، ليكون وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة ، كل منهم فى موضع رذيلة أو مكان لهو ؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبهم وعائلهم . ينفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى الملاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصل الرأى عند العزب ، فالعزب سفيه مجرم ، وهو إنسان خرب من كل جهة إنسانية . وهو فى الحقيقة ليس المتّسِعَ لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتل خمسة من أبناء وطنه ؛

[البقية على صفحة ١٦٧٩]

عصبة الأمم والأمم الشرقية

بمناسبة انضمام أفغانستان اليها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتظمت فى سلك عصبة الأمم دولة شرقية جديدة هى فغانستان ، وكان قبولها فى العصبة باجماع الآراء تقريباً ، ولم يبق خارج العصبة من أمم الشرق الأدنى والأوسط بعد دخول تركيا وافغانستان سوى مصر وسوريا والمملكة السعودية واليمن . ولعلائق الأمم الشرقية بعصبة الأمم وموقفها منها تاريخ خاص ، يصح أن نستعرضه بهذه المناسبة . وقد بدأت هذه العلائق منذ مولد العصبة ذاتها ، وكانت العصبة يومئذ إحدى نفثات ذلك الانجيل الجديد الذى بشر به توماس ودرو ولسون أعظم ذهن هائم فى التاريخ المعاصر ، والذى انهارت مبادؤه ووعوده فى ڤرساى مهد تطبيقه . كان انجيل الصلح بين الأمم المتحاربة على قواعد التسامح والعدالة ، وانجيل السلام والتفاهم ، وانجيل الحريات الدولية والاعتراف بحقوق الشعوب فى تقرير مصايرها ، فاستحال فى ڤرساى ، وفى نصوص معاهدة الصلح ، الى بركان من الشهوات القوية ، ومزقت باسمه شعوب ، وأرهقت أخرى ، ومنحت الحرية لشعوب ، وسلبت أخرى حرياتها ، وفرضت عليها العبودية بأسماء وصور جديدة . وكان المفروض أن عصبة الأمم ستغدو عصبة دولية انسانية تجمع الأمم على احترام السلام والمثل الانسانية الخالدة ، ولكنها جاءت منذ مولدها نفثة من تلك الروح التى أملت معاهدة الصلح ؛ روح الظفر والأثرة ؛ وكان موقفها من الأمم الشرقية بالأخص مناقضاً لجميع العهود التى قطعت ، والمبادىء التى قررت .

كانت اليابان والصين والهنـــد وسيام والحجاز هى الأمم الشرقية التى وقعت على ميثاق عصبة الأمم ومعاهـدة الصلح (وميثاق العصبة هو القسم الأول من المعاهدة) منذ وضعها فى يونيه سنة ١٩١٩ ، وبذلك غدت أعضاء فى العصبة منذ إنشائها ، وقد أبى الوفد الصينى أن يوقع معاهـدة الصلح احتجاجاً على بعض نصوصها التى تمنح الانتداب لليابان على بعض الأراضى الصينية التى كانت بيد ألمانيا ، ولكن الصين اعتبرت عضواً فى العصبة لأنها وافقت على الميثاق . أما الحجاز فقد كانت يومئذ هى المملكة العربية الجديدة التى أنشأها الانكليز للحسين بن على ، والتى انهارت قبل أعوام قلائل . وكانت فارس من الأمم التى دعيت الى دخول العصبة منذ إنشائها ، وقد انضمت اليها غير بعيد . وأما تركيا فقد كانت من أمم الأعداء ، وكان مقضياً عليها بالتمزيق والاعـدام ، وكانت افغانستان تخوض يومئذ حرب الحرية مع الانكليز . وأما العراق وسوريا وفلسطين ، فقد كانت من ضحايا الانتداب الذى ابتدع لتوزيع أسلاب الدولة العثمانية الذاهبـة على الحلفاء . وكانت مصر ضحية الحماية الانكليزية التى أعلنت عليها قسراً أيام الحرب ، وكانت تضطرم بثورتها التحريرية التى انتهت بعد ذلك بعامين بالغاء انكلترا للحماية واعلان استقلال مصر من الوجهة النظرية . والواقع أنه لم يكن للشرق فى العصبة عند قيامها سوى صوت قوى واحد هو صوت اليابان . ولكن اليابان كانت من دول الحلفاء ، وكان دخولها فى العصبة لتأييد نفس المبادىء وتحقيق نفس الغايات التى تؤيد وتعمل على تحقيقها الدول الغربية . وكان لها نصيبها من أسلاب الحرب ، ولم تكن فى سياستها الاستعمارية أقل شرهاً من انكلترا أو فرنسا . وأما الصين فقد كانت تتخبط فى غمار الحرب الأهلية ، وكان تمثيلها فى العصبة على يد وحدة صغيرة فيها هى جمهورية كنتون الناشئة . وأما الهند فقد دخلت باعتبارها من الأملاك البريطانية لتشد الى جانب استراليا وكندا وجنوب أفريقية أزر بريطانيا العظمى فى سياستها ومشاريعها داخل العصبة . ودستور العصبة يجيز دخول الأملاك المستقلة والمستعمرات الحرة . وأما الحجاز فلم تكن لها يومئذ أية أهمية سياسية أو دولية ، ولم يكن مثولها فى مؤتمر الصلح ، ودخولها فى العصبة إلا ضرباً من المجاملة النظرية .

كانت عصبة الأمم منذ قيامها إذاً هيئة غربية فى روحها وفى جوهرها ، ولم تكن تمثل من الوجهة العملية شيئاً من المبادىء الرنانة التى أعلنها الرئيس ولسون فى ختام الحرب ، والتى أريد أن تكون قاعدة لعقد الصلح الحر بين الأمم المتحاربة وقيام عصبة حرة من الأمم تعمل على تخليد مبادىء الحرية والعدالة

والوئام فيما بينها ، ومع ذلك فقد بعثت مبادىء الرئيس ولسون المتعلقة بحريات الأمم ومصير الشعوب فى بعض الأمم المغلوبة شيئاً من الأمل ، وكان مفروضاً أن ذلك الهيكل الجديد الذى أقيم ليعاون فى تطبيق هذه المبادىء الخالدة — أعنى عصبة الأمم — سيكون بالفعل سنداً للأمم الشرقية فى جهادها فى سبيل الحرية والاستقلال ، ولـكن ذلك الأمل كان وهماً ، وجاءت عصبة الأمم بالعكس لتقر من المبادىء والأسـاليب إزاء بعض الأمم الشرقية مايخالف كل عدالة وكل حق وكل عهـد مقطوع . ونذكر بهذه المناسبة أن الوفد المصرى برئاسة المغفور له سـعد زغلول باشا كان يوم وضع معاهدة الصلح فى باريس يعمل فى سبيل القضية المصرية ، وقد احتج عبثاً على نصوص معاهدة الصلح التى تمس مصر ، والتى تقر حماية انكلترا المفروضة عليها رغم ارادتها ؛ ونذكر أيضاً أن سعد باشا أرسل الى الرئيس ولسون يرجوه باسم مبادئه مقابلة يبسط له فيها ظروف القضية المصرية ، فلم يجبه الرئيس ولسون الى هذا الرجاء . وكانت أول خطوة عملية اتخذتها عصبة الأمم لتأييد الاعتداء الواقع على الأمم العربية هو أنها أقرت نظام الانتداب الذى وضعه الحلفاء لتقسيم البلاد العربيـة وحكمها رغم العهود الصريحة التى قطعت خلال الحرب بمعاهدات ووثائق رسمية ، فأقرت الانتداب على سوريا لفرنسا ؛ وأقرت انتداب انكلترا على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وأقرت عهد بلفور وما ترتب عليه من إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ؛ ولم تحاول العصبة أن تتدخل يوم قسم الحلفاء تركيا إلى مناطق ودفعوا اليونان لاحتلال أزمير والتوغل فى قلب الأناضول ؛ ولما وقع الخلاف بين تركيا وانكلترا على مسألة الموصل واتفقتا على رفع الأمر إلى عصـبة الأمم ، كان موقف العصـبة مريباً ظاهر التحيز ؛ وكثيراً ما حاولت الأمم العربية أن تتقدم إلى العصبة بالشكوى من نظام الانتداب وما يرتـكب فى ظله من ضروب الجور والعسف ، فلم تفز منها بالاصغاء قط ؛ ولم تـكن لجنة الانتدابات الدائمة بالعصبة إلا سيف المستعمر الشرعى مصلتاً على رقاب الأمم الواقعة تحت الانتداب .

هكذا كان موقف عصبة الأمم نحو الأمم الشرقية المغلوبة منذ البداية . وقد أثبتت العصبة خلال أعوامها الأربع عشرة أنها غير أهل لتحقيق شىء من المبـادىء والمهام العظيمة ، التى عهد اليها بالعمل على تحقيقها . وأسطع مثل لذلك موقفها إزاء مسألة تخفيض السلاح ، وعجزها المطبق عن أن تحقق شيئاً فى هذا السبيل ، لأن تحقيقه لا يروق للدول المسيطرة على مجلس العصبة ؛ وأسطع مثل لوقوع العصبة تحت نفوذ الدول القوية ووحى النزعة الأستعمارية ، موقفها فى مسألة منشوريا ، التى ثارت منذ ثلاثة أعوام بين اليابان والصين ، وكلتاهما من أعضاء العصبة ؛ فقد استغاثت الصين بالعصبة حين غزو اليابان لمنشوريا ، فلبثت العصبة بين التردد والتمهل حتى تم استيلاء اليابان على منشوريا ولم تستطع أن تتخذ أى إجراء حاسم تنوه فيه باعتـداء اليابان على الأراضى الصينية ، مع أنه قد نص فى ميثاق العصبة على عدة عقوبات تأديبية واقتصادية يتقرر اتخاذها ضد الدولة المعتـدية فى مثل هذه الظروف . ولم ترض اليابان عن هذا التدخل رغم عقمه . فانسحبت من العصبة لتكون مطلقة اليدين فى تنفيذ سياستها الأستعمارية . وقد كان فشل العصبة فى مسألة منشوريا ذروة ضعفها وانحلال هيبتها ، فعملت الدول الغربيـة التى تستتر فى العمل وراء العصبة على تدارك هذا الضعف ، بحمل روسيا السوفيتية على الالتحاق بعصبة الأمم ، ولبت روسيا هذه الدعوة ، والتحقت بالعصبة بعـد أن كانت تخاصمها وتعتبرها من أدوات الأستعمار المستترة حسبما فصلنا فى فصل سابق فى « الرسالة » . وأرادت الدول الغربية من جهة أخرى أن تقوى المظهر الشرقى لعصـبة الأمم ؛ فسعت لدى تركيا حتى التحقت بالعصبة ، وكان التحاقها بها نتيجة مباشرة لانضمام روسيا اليها ، لأن السياسة التركية الخارجية تسير مع السياسة البلشفية الخارجيـة جنباً إلى جنب ، ولأن موقف الخصومة الذى اتخذته تركيا نحو العصبة من قبل لم يـكن إلا مجاراة لسياسة حليفتها موسكو . ثم كان دخول أفغانستان أخـيراً نتيجة أيضاً لنفس السياسة ؛ وأفغانستـان تتأثر بنصائح موسكو ، وهى مدينة باستقلالها الأخير الى معاونة موسكو ومؤازرتها ، وهى تتأثر أيضاً بنصائح انجلترا ، وانجلترا يهمها تقوية المظهر الشرقى لعصبة الأمم؛ ولذلك رأينا أغاخان مندوب الهند وأحد أبواق السياسة الأنكليزية يقول فى خطابه الذى ألقاه لمناسبة انضمام أفغانستان : إن أخطار الطابع الغربى للعصبة كانت واضحة ، وكانت دائما تغشى صبغتها

العالمية ، فدخول أفغانستان يقوى طابعها العالمى ، ويزيدها قوة فى القيام بمهمتها .

هذا ويجب ألا ننسى أن العراق أيضاً عضو فى عصبة الأمم ، وقد دخلت العصبة منذ نحو عامين ، وكان دخولها نتيجة لعقد المعاهدة العراقية الانكليزية التى نالت بها العراق استقلالها الذاتى (سنة ١٩٣٠) وخروجها بذلك من ربقة الانتداب الذى كان مفروضاً عليها من قبل عصبة الأمم لمصلحة انكلترا . ويجب ألا ننسى أن دخول العراق فى العصبة كان مقروناً من جانب العصبة بمظاهرة تؤكد صبغة العصبة الغربية والاستعمارية معاً ، فقد وضعت العصبة لقبول العراق شروطاً تلفت النظر بتحاملها وشدتها ، ولا سيما فيما يتعلق بحماية الأقليات الدينية والجنسية ، وحرية البعثات التبشيرية فى القيام بأعمالها ، وتقرير الحق لكل دولة أن تشكو العراق إلى العصبة إذا رأت أنها قصرت فى تنفيذ تعهداتها .

ولم تنضم المملكة السعودية (نجد والحجاز) بعد الى عصبة الأمم ، وليس فى سياستها ما يدل على أنها تنوى أن تسعى الى هذا الانضمام فى القريب العاجل ، غير أنه يلاحظ أن المملكة السعودية معترف بها من جميع الدول الكبرى التى تسيطر على مجلس العصبة ، وأن علائقها بهذه الدول ولا سيما انكلترا حسنة ؛ وقد يكون فى الحوادث الأخيرة التى انتهت بدخول تركيا وأفغانستان فى العصبة ما يحمل المملكة السعودية على التفكير فى السعى إلى الانضمام الى العصبة ، أما اليمن فليست لها سياسة خارجية منظمة معروفة ، ومن الصعب أن يعرف موقفها فى هذا الشأن ، وإن كان المرجح أن الأمام لا يعلق على مثل هذا الانضمام أية أهمية . أما سوريا فهى لا زالت ترزح تحت الانتداب الفرنسى ، ومن المعروف أن السياسة الفرنسية تنوى متى استطاعت أن تعقد المعاهدة المنشودة مع سوريا ، أن تحذو فيها حذو المعاهدة الانكليزية العراقية من حيث العمل على التحاق سوريا بعصبة الأمم .

***

بقيت كلمة عن مصر وعن موقفها من العصبة ، فأما عن حق مصر فى الدخول فى عصبة الأمم فليس عليه غبار من الوجهة الدولية ، أولاً لأن مصر قد نالت استقلالها من الوجهة الدولية بتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ . وهى طبقاً لهذا التصريح دولة مستقلة ذات سيادة . وثانياً لأنه لا يوجد فى ميثاق العصبة ما يمنع دولة فى ظروف مصر السياسية من الانضمام اليها . فالفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق تنص على أنه يحق لكل « دولة أو ملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة حرة فى حكم نفسها أن تغدو عضواً فى العصبة إذا وافق على انضمامها ثلثا أعضاء الجمعية العامة » ، ومصر ليست ملكا مستقلا ولا مستعمرة ، بل هى من حيث المركز الدولى دولة مستقلة ذات سيادة ، وقد سلمت السياسة البريطانية لمصر بهذا الحق فى مشروع المعاهدة المصرية الانكليزية الذى وضع سنة ١٩٢٩ ، فنص فيه فى المادة الثالثة على ما يأتى « إن مصر رغبة منها فى أن تصبح عضواً بجمعية الأمم ، ستقدم طلباً للانضمام إلى تلك الجمعية ، طبقاً للشروط التى تنص عليها المادة الأولى من عهد الجمعية ، وتتعهد حكومة جلالة الملك البريطانية بتأييد هذا الطلب » ونص فى مشروع المعاهدة المصرية الأنكليزية الذى وضع سنة ١٩٣٠ على ما يأتى « بما أن مصر تنوى أن تكون عضواً فى جمعية الأمم فان صاحب الجلالة البريطانية يعترف بحقها كدولة مستقلة ذات سيادة فى أن تصبح عضواً فى جمعية الأمم عند ما تقوم بالشروط التى نص عليها فى عهد الجمعية »

ولكن هل تفيد مصر من الانضمام إلى عصبة جنيف سواء فى الحال أو الاستقبال ؟ لسنا ممن يعتقد ذلك . إن تاريخ عصبة الأمم إزاء الأمم الشرقية والأمم الضعيفة حسبما بسطناه لا يدلى بأن العصبة تأخذ بمبادئ المساواة والعدالة الدولية بين مختلف الأمم ؛ والعصبة سواء بنشأتها أو القوى المهيمنة عليها ، أو الغايات التى تعمل لها ، تنم عن روح غربية عميقة ، وربما نمت أيضاً عن روح نصرانية كما ظهر من موقفها نحو العراق فيما اشترطته عليها ثمناً لانضمامها إليها . ولن يكون شأن المثول فى العصبة فى ظروفنا الحاضرة إلا كشأن التمثيل السياسى الذى يكبد مصر مئات الألوف دون أن تجنى من ورائه مزايا عملية يعتد بها . وحتى لو سويت المسائل المعلقة بين مصر وإنكلترا وعقدت المعاهدة المصرية الانكليزية المنشودة ، وتأكد استقلال مصر من الناحية العملية ، فانا لانجد ما يحمل مصر على السعى إلى

الالتحاق بعصبة جنيف . ومن الخطأ أن يتصور البعض أن المثول فى العصبة من مظاهر الاستقلال ، فان بين أعضاء العصبة مستعمرات وأملاكاً مستقلة طبقاً لما ينص عليه ميثاقها .

لقد تمزق الحجاب أخيراً عن ذلك الرياء الدولى الذى استمر زهاء خمسة عشر عاماً ، والذى لبث حيناً يحتضن الدعوة إلى السلام وتفاهم الأمم ، ويعقد المواثيق للتحكيم وتحريم الحرب ؛ وعادت أوربا القديمة إلى سياستها القومية القديمة ، عمادها القوة والعنف ، وغايتها افتراس الأمم الضعيفة ؛ وما عصبة الأمم إلا عرين الأمم المفترسة قبل كل شىء ، ولا خير لأمة ضعيفة أن تقر الذئاب على ريائها ، ولا خير لها بالأخص فى أن تندمج معها فى صعيد واحد .

محمد عبد الله عنان
المحامى

٤ ـ الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشى
المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التى تتكون منها الشخصية القوية :

تكلمنا فيما مضى عن الجاذبية ، والنشاط العقلى ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية . والآن نتكلم عن بعض العناصر الأخرى المقوية للشخصية كالحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، ومظهر الانسان وقوامه ، وقوة البيان وأثرها فى الشخصية فنقول .

الحكمة :

إن شخصية الانسان لا تكون متينة إلا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، وقدرها حق قدرها . والرجل الحكيم هو السديد الرأى ، البعيد النظر ، الحسن التقدير ، الذى يعرف الحق فيتمسك به ، ويفعل ما يجب أن يفعل ، ويترك ما ينبغى أن يترك ، ويقول ما يجب أن يقال ، يرى الفرصة فينتهزها ، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه ، يحس بنتيجة الشىء حتى قبل حدوثها ، ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به ، ويحكم على غيره عما يود أن يحكم به عليه ، يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإذا حكم على غيره كان حكمه بعيداً عن الأهواء والأغراض ، تتمثل فيه النزاهة والعدالة . كل هذه الصفات نتيجة الحكمة وحسن التقدير . والحكمة صفة أساسية فى تكوين الشخصية السامية . أما إذا انتفت الحكمة فان الانسان يكون واهن الرأى ، مضطرب البصيرة ، سىء الحظ ، عاثر الجد ، ضعيف الشخصية ، يعجز عن تقدير الأشياء ، ويفعل ما يجب ألا يفعل . ويهمل أموراً تجب العناية بها ، ويهتم بأشياء لا قيمة لها . يحب ما ينبغى أن يكره ، ويكره ما ينبغى أن يحب ، فيصبح ضحية لوجداناته وأقواله وأفعاله ، ويصير مكروهاً لدى من يعرفونه .

ومن الحكمة أن نجتهد فى إرضاء الناس — وإن كان إرضاؤهم جميعاً غاية لا تدرك — من غير أن نضحى بمبدإ من مبادئنا ، أو مظهر من مظاهر رجولتنا حتى نمتلك قلوبهم ، وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة .

وكثيراً ما تفسد الحكمة وتشوه بالفخر ، أو التكبر ، أو الحقد ، أو الغيرة ، أو الغش . فينبغى أن يهذب الانسان نفسه ، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر أو يحقد على غيره ، ولا يغش أحداً أو يضله ، حتى تكون علاقته بغيره حسنة ، وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه .

التفاؤل :

من العناصر التى لا تقل أهمية فى تكوين الشخصية الممدوحة : التفاؤل والتيمن والنظر إلى الأشياء بمنظار الفأل الحسن ، ويمن الطالع ، لا بمنظار التشاؤم والتطير ، ذلك المنظار الأسود ، منظار الشؤم والطِّيَرَة . فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة . ولا نقصد بالتفاؤل أن نغمض أعيننا عن الحقائق ونتائج الأمور ، بل نقصد أن نعتاد فى تفكيرنا النظر إلى الأشياء بعين الأمل والرحمة ، لا بعين اليأس والقنوط . وننظر إليها فى نور الأمل لا فى ظلام اليأس ، من الناحية المضيئة من الطريق ، لا من الناحية المظلمة الحالكة . والمتفائل يرضى بالماضى خيره وشره ، ويثق بالمستقبل ، ثم يؤدى الواجب ويترك النتيجة لله سبحانه وتعالى . وتعتبر هذه العادة العقلية — عادة التفاؤل — من الأمور

الجوهرية فى تقوية الشخصية . وكثيراً ماينشأ التفاؤل عن نشاط الشخص وقوته العقلية والعصبية ، وعن نوع الأفكار التى يسمح لها بالدخول إلى العقل ، وإذا تعود الانسان أن يزود نفسه بالأفكار الصحية السارة فانه لا يتجنب التشاؤم والحزن فحسب ، بل قد يطل من نوافذ العقل على الناحية السارة المضيئة من الحياة .

وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية ، ووهن الرقابة العقلية (Mental control) فى الانسان ؛ فيسمح لنفسه بأن تسبح فى جو مظلم من الأوهام حتى يصبح عقله متلبداً بغيوم لاحقيقة لها ، ودخان لا أصل له ، هى غيوم التطير ودخان التشاؤم . وإن ضبط النفس والنظر إلى الناحية السعيدة دائماً مما يزيل عن أولئك المتشائمين وهؤلاء المتطيرين هذه الهموم والأحزان التى تسيطر على نفوسهم . وإذا كان التفاؤل موقظاً للعقل ، ومدعاة للنشاط وباعثاً على الاقدام ، ومحرراً للانسان ، ومنشطاً لجميع قواه العقلية ، فالتشاؤم سبب فى الخمول والكسل وكثرة التردد والفشل والشقاء والضعف لا فى التفكير فحسب ، بل فى الشخصية أيضاً .

فالشخصية الحية القوية ينبغى أن تتمسك بالتفاؤل ، وتلتزم الناحية السارة ، يقودها الأمل ، ويحييها الرجاء . تفكر فى النجاح أكثر من الخيبة ، وفى التقدم أكثر من التأخر . وتميل إلى جانب الثقة أكثر من الميل إلى جانب التردد ، وتثق بما تقول وما تفعل ، ولديها كل علاج وهى منبع النشاط والقوة . قال (روبرت بروننج) [(١)] : « من الحكمة أن ترجح جانب الخير على جانب الشر ، واللين على الشدة ، والتعقل على الطيش ، والأمل على اليأس ، والنور على الظلام »

التواضع وعدم التصنع :

العنصر السادس من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع ، وذلك بأن يكون لدى الانسان استعداد به يقدر نفسه ومركزه تقديراً يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع أو تظاهر بما ليس فيه .

فاذا تصنع المرء وادعى صراحة أو ضمناً ما ليس فيه ؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ويعطيها أكثر من حقها ، ويتعظم وما هو بالعظيم ، ويدّعى العلم وما هو بالعالم ، والثروة وما هو بالثرى ، والقوة وما هو بالقوى — إذا ادعى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس . ويتبين جهله أو فقره أو ضعفه على عكس ما ادعى ، فيعلمون كذبه ، فيحتقرونه ويزدرونه ، وينفرون منه ويتباعدون عنه ، ويصبح ممقوتاً عندهم جميعاً .

وإن مدح الانسان نفسه ثقيل لا يقبل ، وإذا قبل فانه يجب أن يستند إلى حقائق . والأولى أن يترك الانسان عمله ليدل عليه ويتحدث عنه ، بدلاً من أن يتحدث هو عن نفسه . وإن كان المرء جديراً بالمدح فسرعان ما تظهر حقيقته ، ويقدر الناس كفايته ، ويزنون أعماله ، ويعترفون بشخصيته ومقدرته . فالتواضع سبيل النجاح والرفعة ، والتصنع سبيل الفشل والذلة .

وإننا وإن كنا ضد التصنع والتظاهر لا نمنع أن ننزل أنفسنا منزلتها ونعدها وحدة من المجموع ، لها ما له وعليها ما عليه ، ونستحسن أن نترك للغير الحكم لنا أو علينا ، وأن نتحلى بالتواضع فى غير ضعف أو ذلة . فالتواضع أساس للشخصية المحبوبة الجذابة . وإننا نجتذب غيرنا بقدر ما يحبنا الغير . وإذا كانت الشخصية مظهراً لقوة النفس فهى عدوة الكذب والتضليل . فليس المهم فى أن تدّعى كذباً ، ولكن المهم فى أن تعمل حتى تثبت لنفسك العظمة إن كنت عظيماً .

مظهر الانسان وقوامه :

لمظهر الانسان أثر فى شخصيته ، فالرجل الصحيح الجسم الحسن القامة ؛ قد لا يحتاج فى إظهار شخصيته والتأثير فى غيره إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ؛ فبينما تجد الأول طبيعياً فى معاملته لأنه لا يشعر بنقص خارجى يريد أن يكمله ، إذ تجد الثانى محباً للتظاهر ، متكلفاً فى أقواله وأفعاله ، متخذاً كل وسيلة يستطيع أن يظهر بها نفوذه ، فيتظاهر بالعلم تارة ، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى . وقد يتخذ أحياناً وسائل ثعبانية أو ثعلبية ، ليظهر بها نفسه أمام من يبغى الظهور بينهم ، فيلجأ إلى الوشاية حيناً ، وإلى الملق حيناً آخر . وقد يضطر إلى

---

(١) هو شاعر انجليزى كبير (١٨١٢ — ١٨٨٩ م) مشهور بغموض الأسلوب

التجمل في جسمه ولبسه ، أو الدعابة في حديثه . كل ذلك ليكمل ما فيه من نقص جسمي .

فالانسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلاً تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ . فسقراط مثلاً شيخ الفلاسفة من اليونان ، كان أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، جاحظ العينين ، قبيح المنظر ، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى الى ذروة المجد . ويكفيه فخراً أنه أستاذ أفلاطون ، وأنه أكبر فلاسفة اليونان . والجاحظ كان أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وما لقب بهذا اللقب الذى كان مبغضاً اليه إلا لأنه كان جاحظ العينين (بارزهما) ؛ دميم الخلقة ، حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم ، فاستقدمه اليه (بسر من رأى) ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . ولكنه بجانب ذلك كان خفيف الروح ، ذكى الفؤاد ، واسع الاطلاع ، وكان يعد دائرة معارف فى الآداب والعلوم واللغة والتاريخ حتى أصبح لقبه — الذى كان يكرهه — دليلاً على التبحر فى العلم والأدب ، والتفوق فى فنون البلاغة والبيان ، سئل كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال : « حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلىّ . . . . » والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهة أجسامهم ، السامية أرواحهم وعقولهم ، فلا حاجة بنا الى التطويل . وكل ما نريد أن نقوله هو أنه إذا نقص الانسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى

قوة البيان :

إن قوة البيان ، وفصاحة اللسان ، وحسن المنطق والقدرة على التأثير فى السامع مع رجاحة العقل ، تكسب الانسان شخصية وتجعل له منزلة بين سامعيه ، ولذلك لما أُمر سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب الى فرعون ، شكا موسى الى فى القول ، وطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصاحته قائلاً : « وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى » يريد فرعون . وإننا لا نريد بالفصاحة الثرثرة والتشدق والتوعر فى الكلام ، كما لا نريد بها أن نزيد كلام الانسان على عقله ، بل نريد حسن التعبير عما فى النفس ، وقوة التأثير فى المستمع ، والتكلم من غير تهيب أو تخوف بحيث يكون الكلام حلواً رشيقاً ، سهلاً عذباً مؤثراً . أما العىّ والحصر واللجلجة ، والتمتمة والفأفأة وكثرة التردد فى القول ، والخجل فى أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص فى سامعيه . وإن حُسْن التعبير عما فى النفس شرط أساسى لقوة الشخصية ، وهو يتطلب العلم بالشيء الذى نريد التكلم عنه ؛ لأن أفكارنا إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها . وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول ، وما نريد أن نفعل ، كذلك يجب أن نحسن القول ونحسن العمل . وما أجمل الكلمة الصائبة فى اللحظة المناسبة . وكما ينبغى حسن التكلم والخطاب ، كذلك ينبغى حسن الاصغاء والاستماع للغير . وقد تكون لدينا الأفكار السامية ولكننا نحتاج الى شجاعة فى إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا . . . ؟

محمد عطية الابراشي

بين فني التاريخ وفن الحرب

٢ - خالد بن الوليـــد *

في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

٣ - أسباب الحروب :

مات رسول الله والاسلام لم يتمكن من قلوب جميع العرب الساكنين في الجزيرة . وادعى بعض الرؤساء النبوة في آخر أيام الرسول ، وارتد الكثير من العرب بعد وفاته .

والثابت أن الذين تمكن الاسلام من قلوبهم ولم يتزعزع ايمانهم هم المهاجرون والأنصار وقريش وثقيف والقبائل الساكنة بين المسجدين (المدينة ومكة) على مايذكره الطبري .

ولم يكن تأثير الردة في القبائل على نمط واحـد ، بل كان الأثر يختلف باختلاف العوامل ، وهي تتلخص فيما يلي : —

(ا) قرب المنطقة التي تسكنها القبيلة من المدينة أو بعدها .

(ب) علاقة القبيلة بالمدينة .

(ح) قرب عهد القبيلة بالاسلام أو بعده .

ولقد ناقش المستشرق الطلياني لئونه كايتاني هذه العوامل في كتابه « تاريخ الاسلام » (Annali del islam) فصنف العرب من حيث علاقتهم بحروب الردة الى خمسة أصناف ، فوضع في الصنف الأول القبائل التي أسلمت منذ مدة طويلة وخضعت لسلطة المدينة خضوعاً تاماً ، وهي القبائل التي تسكن بالقرب من المدينة ومكة وفيما بينهما كجهينة ومزينة وبلى وأشجع وأسلم وهذيل وخزاعة وغيرها .

ووضع في الصنف الثاني القبائل التي تعاقدت مع الرسول واشتركت في المدة الأخيرة في حروبه ، وقد كان فيها على اسلامها أقلية مختلفة تنتهز الفرص للتملص من سلطة المدينة ، ومن هذه القبائل هوازن وعامر بن صعصعة وطيء وسليم وخثعم .

ووضع في الصنف الثالث القبائل الساكنة على حـدود المملكة الاسلامية ، فخضعت هذه القبائل سياسياً لسلطة المدينة ، ودفعت الصدقات الى الرسول ، وفيها أكثرية تتحين الفرص للرجوع الى حالتها القديمة . ومن أخطر هذه القبائل بنو أسـد وبنو غطفان وبنو تميم الساكنون في مناطق نجد الغنية .

ووضع في الصنف الرابع القبائل التي لم تخضع لسلطة المدينة ، بل اكتفت بارسال الوفود الى الرسول وتظاهرت بالخضوع له . فيها أقلية مسلمة ضئيلة تستند الى قوة المسلمين في المدينة للاحتفاظ بمنزلتها . ومن أخطر هذه القبائل بنو حنيفة وعبـد القيس وأزدعمان وأكثر قبائل حضرموت واليمن . أوفد الرسول اليها عمالاً ليمثلوا الاسلام ، وليعلموا المسلمين أمور الدين .

أما القبائل التي وضعها في الصنف الخامس فهي القبائل التي لم تسلم وكانت نصرانية أو مشركة . وهي القبائل الساكنة في الشمال كبني كلب وبني تغلب وبني غسان وقضاعة وتنوخ وبني بكر . وبعض القبائل في حضرموت واليمن .

ولكني لاأجاري المؤرخ الطلياني في تصنيفه هذا ؛ بل من الثابت أن تأثير الاسلام في القبائل العربية كان يختلف باختلاف العوامل التي ذكرناها قبلاً ، والواقع أن الرسول لم يمت إلا وقد ظهرت حركة الردة في القبائل ، فمنها من طلب إعفاءه من اعطاء الزكاة ، ومنها من امتنع من اعطائها ، ومنها من قدم رجلاً وأخر أخرى في ذلك فأمسك عن الصدقة ، وأخيراً منها من ارتد وطرد عمال الرسول أو قتل المسلمين ومثل بهم .

وكان الرسول في حياته قد حرض عماله في اليمن على مقاتلة الأسود العنسي الذي ادعى النبوة واستولى على أكثر مقاطعات اليمن .

أما أبو بكر فرد الوفود التي أتت الى المدينة وطلبت منه أن يعفيها من إعطاء الزكاة ، وقال كلمته المشهورة « والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه » ولما وردت الكتب من أمراء الرسول

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل .
« الرسالة »

تنبأ أبو بكر بأن الناس ارتدوا عامة وخاصة وأنهم تبسطوا بالتمثيل بخارتهم.

٤ — قوات الفريقين :

١ – أهل الردة : إذا استقصينا الأخبار التي رواها الرواة توصلنا الى النتائج التالية :

(أولاً) لم ترتد القبائل الساكنة الى شرق مكة وغربيها وجنوبيها ، بل ظلت على الحياد غير ميالة إلى أحد الفريقين ، وهي قبائل كنانة وأزد وبجيلة وخثعم وعك وأشعر وحكم وغيرها .

(ثانياً) تأثر بحوادث الردة القبائل الساكنة الى شمال شرق مكة كهوازن وعامر بن صعصعة وجذيلة . أما بنو سليم فقد ارتد الكثير منهم ، بيد أن هذه القبائل جميعاً لم تشهر سلاحها في وجه المسلمين .

(ثالثاً) أما قبائل طي فانها لم تقرر الى أي جانب تميل ومع ذلك فان قسما قليلاً منها انضم الى جيش طلحة الأسدى مدة قصيرة

(رابعاً) وأما قبائل قضاعة الساكنة الى شمالي المدينة فانها شهرت سلاحها على المسلمين .

ومع ذلك لا يصح أن يقال إن هذه القبائل جميعاً ساعدت أهل الردة الذين ثاروا في وسط الجزيرة ، بل إن بعضها ظل في منطقته إما على الحياد وإما متردداً لا يحرك ساكناً ، وإما أنه طرد العمال الموفدين من المدينة في عهد الرسول .

لذلك لا يجوز اعتبار هذه القبائل من القبائل الساكنة في وسط الجزيرة التي حشدت رجالها وأغارت على ضواحي المدينة ، أو أنها تأهبت لمنازلة جيش المسلمين .

أما القبائل التي اشتركت في حروب الردة فعلاً فاليك بيانها :

(١) بنو فزارة وبنو غطفان الساكنون الى شرق المدينة على طريق نجد . فقد توافد رؤساء هذه القبائل الى المدينة وطلبوا من أبي بكر أن يعفيهم من الزكاة . ولما لم يجب طلبهم رجعوا فجمعوا رجالهم وتأهبوا لمباغتة المدينة .

(٢) بنو أسد الساكنون على منتصف الطريق التي بين الحجاز ونجد الى جنوبي جبل شمر . ويزعم الرواة أن طليحة بن خويلد الأسدى ادعى النبوة في حياة الرسول وجمع رجاله في السميراء . ولما توفى الرسول وامتنعت القبائل من إيتاء الزكاة سعى الى جمع القبائل حوله ، واقترح عيينة بن حصن الفزارى ترك المنازعات بين بني أسد وبني غطفان وعقد حلف بين بني فزارة وبني غطفان وبني أسد .

لبى بنو فزارة هذه الدعوة واتحدوا مع بني أسد ، وكذلك البعض من بطون طيء أيضاً انضم الى طليحة ، حتى أن رئيس جديلة بن طي ، ثمامة بن أوس ، جمع خمسمائة رجل وانضم الى بني أسد .

(٣) بنو تميم الساكنون في نجد في منطقة القصيم .

وتتألف هذه القبيلة من عدة بطون . ولما بلغها نعي الرسول امتنع أكثر بطونها عن أداء الزكاة . وكان الاختلاف قد دب فيما بينها ، ولما ظهرت سجاح من شمالي الجزيرة بجموعها من تغلب مدعية النبوة ، ودخلت حتى بني تميم لأنها كانت تمت اليهم بنسب ، التف حولها بعض من تميم وعلى رأسه مالك بن نويرة . ويزعم الراوى سيف بن عمر أنها كلفت مالكا بالمسير معها نحو المدينة للهجوم على أبي بكر . وكان البعض من بطون بني تميم لم يرتد فالتجأ اليه المسلمون الهاربون من البطون الأخرى فقاتل سجاحا ومن معها من بني تميم ومنعها من التقدم نحو المدينة . والرواة يزعمون أنه انتصر عليها وعلى حلفائها من بني تميم وألجأها الى مغادرة ديار بني تميم والذهاب الى مسيلمة الكذاب .

(٤) بنو حنيفة الساكنون في اليمامة . ادعى رئيس هذه القبيلة مسيلمة النبوة فآمن بنبوته جميع بني حنيفة . ويظهر أن دعوة الإسلام لم تنتشر فيها وكان معظمها مشركا . فلما ادعى مسيلمة النبوة آمنت بنبوته . وهي ولا ريب من أخطر القبائل التي اشتركت في حروب الردة وقاتلت المسلمين قتالاً عنيفا . وذاق المسلمون الأمرين في حروبها . ويزعم الراوى سيف بن عمر أن جيش بني حنيفة المحارب بلغ أربعين ألفاً .

ومن العسير معرفة قوات هذه القبائل التي اشتركت في المعارك ، والواضح أن قبائل غطفان وفزارة التي حاولت مباغتة المدينة حتى اضطر أبو بكر إلى مقاتلتها كانت دون القبائل شأناً . ولعل القوات التي جهزتها لم تزد على ألفي رجل .

أما القوة التي استطاع طليحة أن يجهزها ويقاتل بها جيش المسلمين فكانت تربو على أربعة آلاف مقاتل ، وانضم خمسمائة

رجل من جديلة طئ وسبعمائة فارس بقيادة رئيس بنى فزارة عيينة بن حصن .

أما بنو تميم فلو اتفقت بطونها وقابلت جيوش المسلمين لبلغت قوتها زهاء عشرة آلاف مقاتل ، غير أنها لم تتفق فيما بينها ، بل حارب بعضها بعضاً ، ولما وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى ديار بنى تميم كانت البطون قد تفرقت .

أما بنو حنيفة فكان جيشهم من أقوى الجيوش التى حاربت المسلمين ، ومع أن سيفاً يزعم أن قوتهم بلغت أربعين ألفاً ، بيد أننا لانميل إلى اعتقاد صحة روايته ، ولعل قوة جيش بنى حنيفة لم تزد على خمسة عشر ألف مقاتل .

والذى جعل الرواة يبالغون فى تقدير جيش بنى حنيفة هو وعورة المنطقة التى حارب فيها المسلمون ، والحقيقة أن أرض اليمامة أرض وعرة فيها وديان وشعاب وجبال وعقبات وثنايا . والذى زاد فى مناعة الأرض القرى المحصنة بالأسوار والحدائق المسورة بالأحجار المكدسة شأن الكثير من قرى العارض والسدير فى بلاد نجد .

ب . المسلمون :

جهز الرسول جيش أسامة قبل وفاته بمدة قليلة وكان يقصد إيفاده إلى الشمال . واجتمع الجيش فى الجرف فى شمالى المدينة ، ولما علم بمرض الرسول أجل حركته

وبعد وفاته أوفده أبو بكر لينفذ الخطة التى رسمها له الرسول فى حياته . ونصح بعض الصحابة أبا بكر أن يبقيه لكى يعتز به بعض الاسلام وأراد بعضهم تبديل قائده ، بيد أن الخليفة لم يجب طلبهم ، ولم يرض أن يبدل ما قرره الرسول . وليس لدينا معلومات موثوق بها عن قوة هذا الجيش ، لأن المؤرخين القدماء جريا على عادتهم ، بحثوا فى قائده والأوامر الصادرة اليه ، والغاية المتوخاة من إيفاده وغير ذلك ولم يذكروا مقدار قوته .

وإذا تأملنا فى سبب إيفاده ، ظهر لنا أن قوته يجب أن تكون كافية . وسبق أن جهز الرسول جيشين لهـذه الغاية ذاتها وهما : جيش جعفر بن أبى طالب الذى قاتل الروم فى البلقاء فى وقعة موتة ، وكانت قوته ثلاثة آلاف مقاتل ، والجيش الذى قاده الرسول بنفسه ليغزو به تبوك ، وقد بالغ المؤرخون فى قوته ، وزعموا أنه بلغ ثلاثين ألفا ، أما جيش أسامة ، فهو الجيش الثالث ، ونعتمد أن قوته يجب ألا تقل عن خمسة آلاف .

وكان المهاجرون والأنصار نواة هذا الجيش . فالمهاجرون والأنصار عماد الجيش الاسلامى ، وهم كالحرس الذى كان يؤلفه الملوك للأعتزاز به فى تنفيذ خططهم ، اصلاحية كانت أم حربية

واشترك هؤلاء فى غزوات الرسول وحروبه من أولها إلى آخرها . وكانوا يؤثرون النبى على أنفسهم فى جميع أعمالهم ، فكان الأسلام متمكناً من قلوبهم ، فلا غرو إذا رأينا الأسلام يقوم على سواعدهم بعد وفاة الرسول ، ولعل عددهم كان يتفاوت بين الألف والخمسمائة وبين الألفين لما توفى النبى .

وكان أكثرهم فى جيش أسامة ، ما عدا البعض منهم فانه بقى فى المدينة مع أبى بكر ، أو أوفد فى حياة الرسول عاملاً أو معلماً أو مبشراً الى الأقطار العربية النائية ، أو جابياً أو معلماً الى القبائل العربية القريبة .

ويلى المهاجرين والأنصار قريش التى أسلمت بعد فتح مكة وأبلت بلاء حسناً فى الاسلام بعد ذلك . أجل ، إنها لبت الدعوة أخيراً وقسراً ، الا أنها اقتنعت أن عز الأسلام من عزها فناصرت الرسول فى حياته من أعماق قلبها ، حتى أن الرسول بعد فتح مكة رضى أن يظل البعض من قريش مشركاً حتى يفتح الله قلبه ، ومع ذلك لم يحجم هذا البعض عن الجهاد معه فى غزوة صفين أو فى محاصرة الطائف .

ولعل القوة التى كانت قريش تستطيع أن تجهزها للقتال زادت على ألفى مقاتل على أقل تقدير .

ويلى قريشاً القبائل الساكنة بين الحرمين ، مكة والمدينة ، وهى التى ناصرت الرسول فى دعوته . وقد اشترك بعضها فى الغزوات ، وجاهدت أخيراً فى حروب الرسول . فقربت هذه الحروب بينها وبين المهاجرين والأنصار وربطتهما برباط متين . فلا مندوحة إذن من أن نرى أبا بكر يدعوها الى الجهاد لما كان جيش أسامة بعيداً عن المدينة ، فلبت دعوته راغبة مطيعة ، وهذه القبائل هى : أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب وغيرها .

ولعل القوة المحاربة فى هذه القبائل لم تزد على ثلاثة آلاف .

وتليها قبيلة بنى ثقيف الساكنة بين مكة والطائف وهى خير من أسلم من قبائل الحجاز . واشتهرت بشدة مراسها وصلابة عودها ؛ وكانت تعتز بعاصمتها الطائف المسوَّرة . ولم ترتد ثقيف على ما سبق ذكره ، بل بقيت متمسكة بالأسلام . وكانت قوتها المحاربة تقدر بأكثر من ألفي مقاتل .

هذه خلاصة القوات التي كان الخليفة يعتمد عليها فى محاربته أهل الردة . وقد ظهر لك أنها كانت تبلغ عشرة آلاف متى تيسر جمعها . والواضح أن جيش أسامة بن زيد كان مؤلفاً من معظم المهاجرين والأنصار وبعض رجال القبائل . وذلك لما كان أسامة بعيداً عن المدينة إذ أخذت القبائل المرتدة الواقعة الى شرق المدينة تهددها .

ولعل من الفائدة أن نذكر بهذا الصدد مقدار القوات التي استطاع الرسول أن يجمعها فى حروبه :

كانت قوة المسلمين فى غزوة بدر لا تزيد على ثلثمائة رجل ؛ أما فى غزوة أحد فكانت زهاء الألف ، وفى غزوة الخندق بلغت ثلاثة آلاف .

أما فى فتح مكة إذ ظهرت سطوة الأسلام ، وقويت شوكة المسلمين فكان جيش المسلمين عشرة آلاف ، نواته المهاجرون والأنصار ، وقوامه رجال القبائل الضاربة إلى شرق المدينة وشمالها وجنوبها .

ويزعم الرواة أن جيش الرسول بلغ ثلاثين ألفاً فى غزوة تبوك ، كان عشرون ألفاً منه رجالاً وعشرة آلاف فرساناً . أجل إن الموقف العسكرى كان ملائماً لمبادرة رجال القبائل إلى الالتفاف حول راية الأسلام للهجوم على بلاد الشام وهى المشهورة بخيراتها . وذلك يجعل جيش المسلمين يصل الى حده الأقصى ، إلا أننا لا نظن أنه بلغ القوة التي ذكرها الرواة ، ولعلها بلغت أكثر من خمسة عشر ألفاً .

ولما امتنعت القبائل العربية عن أداء الزكاة وارتد البعض منها لم يكن فى وسع الخليفة أن يجمع كل القوات التي يستطيع أن يعتمد عليها على ما سبق بيانه . لأن جيش أسامة كان فى الشمال ، وفيه نخبة الجنود المجاهدين . أما قريش وثقيف فكانتا بعيدتين عن دار الحركات ، لذلك دعا أبو بكر القبائل الضاربة بين المدينة ومكة أولاً ؛ ولما رجع جيش أسامة استنجد به . ثم أخذ رجال قريش وبعض ثقيف ينضمون الى الحملات .

ومن الثابت أن قوة المسلمين كانت جد ضعيفة لما تأهب بنو غطفان وفزارة للهجوم على المدينة ، ولعلها لم تجاوز بضع مئات .

(يتبع) طه الهاشمى

من مشاهداتي في أوربا :

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمي مطر

في بطن واد من وديان بلاد النمسا بين التلال والسهول المكسوة بالأشجار الباسقة والخضرة الضاربة ، قرية صغيرة كانت قبل خمس سنوات مجهولة لا يطرقها طارق ، ولا يذكر اسمها ذاكر . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٩٢٩ محط الرحال ، ومهبط الآمال ، تعرفها شعوب الأرض قاطبة ، ويحج إليها المريض الأوربي انجليزياً كان أو ألمانيا أو إيطالياً أو تركياً أو مجرياً كما يحج إليها مرضى القارات الأخرى أمريكا واستراليا وآسيا وأفريقيا ، تلك هي قرية جالزباخ Gallspach الصغيرة التي تبعد عن فينا أربع ساعات في القطار ، وتعلو عن سطح البحر بنحو ٣٠٠ متر تقريباً .

عرفت تلك القرية منذ أنشأ فيها (ڤالنتين تسايلايس) Valentin Zeileis ، رجل المعجزات والعجائب كما يسميه أفراد تلك الشعوب ، مصحته العظيمة التي كلفته نحو الأربعين ألفاً من الجنيهات . وإذا كان تسايلايس استطاع بمهارته وقدرته ومخترعاته أن يعالج بالألكترورادويوم الأعمى فيبصر ، والأخرس فينطق ، والمقعد فيمشي ، والأشل فيبرأ ، وغير ذلك من المرضى فيشفون . فقد حق لتلك الشعوب أن تطلق عليه اسم الساحر أو طبيب المعجزات والعجائب .

ولقد مكنت لي الظروف صيف هذا العام أن أتعرف إلى الكثيرين في تلك المصحة من المرضى النازحين إليها من مختلف شعوب الأرض ، بعضهم لعلاج العمى ، وبعضهم لعلاج الشلل ، وبعضهم لعلاج الربو ، وهكذا من شتى المرضى بالعاهات المختلفة ، ورأيت فيهم جميعاً روحاً غريبة هي روح الثقة بالشفاء على يدي هذا الرجل إن عاجلاً أو آجلاً ، كل حسب شدة المرض عنده . وقد تحدثت هنالك إلى رجل نمساوي كان أعمى وأبصر ، فعلمت منه أنه مستمر في العلاج بالألكترورادويوم لتحسين قوة نظره ، وهو يتطوع أبداً لقيادة العميان وأخذهم في صف واحد ممسكاً كل واحد منهم بقميص الآخر من الخلف في دخولهم إلى حجرة العلاج وخروجهم منها . كما أني تحدثت مع فتى انجليزي ، وآخر ألماني ، كان كل منهما أشل لا يستطيع أن يحرك نصفه الأيسر . وبعد العلاج مرتين أو ثلاث مرات أصبح كل منهما قادراً على المشي بعرج بسيط ، وكلاهما يأمل في الشفاء التام بعد تكرار العلاج مرة أخرى أو مرتين ، وهناك فوق هؤلاء وهؤلاء عشرات من الشيوخ الذين يحجون إلى مصحة هذا الساحر لاسترجاع شبابهم واستعادة قوتهم . وقد قابلت هناك من المصريين عبد الرحمن فهمي بك السكرتير السابق للوفد المصري ، وقد ذكر لي أنه كان يعالج عينيه مما يسمى بالذباب الطائر [(١)] ، وأنه قد برئ منه ، وأن هذه سابع مرة يحج فيها إلى تلك المصحة لأنه يشعر بعد كل مرة أن الشباب والقوة يتدفقان في جسمه ، وقد حدثني كثيراً عما رأى من معجزات تسايلايس . وكان مما ذكره أنه رأى أخرس عالجه هذا الرجل بطريقته الشاذة العجيبة حتى أنطقه . ورأيت هنالك أيضاً من المصريين أحمد حجازي بك عضو مجلس النواب السابق وأسرته لأول مرة له ، ليعالج نفسه من الربو ، وليعالج كريمته التي عجز نطس الأطباء في أوربا عن شفائها ، وهو وإن لم تطل مدة إقامته هناك إلا أنه ذكر لي أنه استفاد فائدة محسوسة من العلاج ، وأنه لابد أن يعود في العام المقبل مع كريمته ليستأنف علاجها مدة حتى تشفى على اعتقاده نهائياً . أما أنا وصديقي الأستاذ علم الدين القوصي فقد جمعتنا ظروف المرض العصبي الذي عجز أطباء مصر عن علاجه . فقصدنا لأول مرة تلك المصحة حسب نصيحة الدكتور يوسف قابيل مأمور القنصلية المصرية بفينا ، والذي نسجل له على صفحات الرسالة جزيل شكرنا على ما لقيناه منه من مساعدة ونصيحة . قصدناها فعالجنا الساحر النمساوي ثلاثة أسابيع بالألكترورادويوم ، فأحس كل منا بالتحسن الكبير في صحته ، وعدنا شاكرين الله سبحانه على اهتدائنا لهذا الطبيب .

وقد حصلت على إحصاء رسمي عن آلاف المرضى الذين عولجوا في تلك المصحة في خمس سنين من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٣ فكان كالآتي .

(١) هو ما يسمى بالعربية السمادير (الرسالة)

سنة ١٩٢٩ : ١٠١٠٠ مريض ، سنة ١٩٣٠ : ١٦٣٥٤ مريضاً ، سنة ١٩٣١ : ١٠١٥٥ مريضاً ، سنة ١٩٣٢ : ١٢٠٩٢ مريضاً ، سنة ١٩٣٣ : ٧٦٧٠ مريضاً ، وكان عدد المرضى فى شهور سنة ١٩٣٤ كالآتى .

يناير ٣٦٤ ، فبراير ٣٠٤ ، مارس ٤١٦ ، أبريل ٦٠٢ ، مايو ٦٠٤ ، يونيه ٧٢٥ ، يوليه ٨٨٣

والذى يتتبع هذا الأحصاء يرى تناقصاً فى العدد فى سنتى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ويرجع السر فى ذلك الى اقفال الحدود النمساوية الألمانية ، فقد قررت حكومة ألمانيا فى يونيه سنة ١٩٣٣ على كل ألمانى يرغب اجتياز الحدود النمساوية أن يدفع ألف مارك ، أى نحو ٧٥ جنيهاً ، فكان هذا سبباً فى صد تيار الألمان الذى كان يتدفق قبل ذلك الى جالزباخ ، ويكفى للدلالة على ذلك أن تعلم أن عدد الأجانب الذين هبطوا تلك القرية أخذ فى التناقص من ٧٤ ٪ من جميع المرضى فى ســـنة ١٩٢٩ الى ٥٥ ٪ فى سنة ١٩٣٣ الى ٤٧ ٪ فقط فى شهور سنة ١٩٣٤ .

أما تسايلايس ومصحته وطريقته فى العلاج فقد أثارت ضجة عظيمة فى الجرائد الأوربية عامة والنمساوية والألمانية خاصة بين سنتى ١٩٢٩ ، ١٩٣١ ، وقد اطلعت على بعض المقالات التى نشرت فى الجرائد الانجليزية تحت عناوين مختلفة ، منها مقالة فى «الديلى ميل» بتاريخ ١٧/١٢/١٩٣٠ تحت عنوان « عمليات بالآلة الكهربائية » أطرت فيها استخدام الكهرباء بدل المشرط فى العمليات الجراحيـــة ، ومقالة أخرى طويلة فى Literary Digest تحت عنوان « معجزات النمساوى صاحب العصى السحرية » وغيرها مما لا يتسع المقام لتفصيله . وسنأتى فيما بعد على طرف من أخبار انتصاره على أساتذة الطب فى النمسا وألمانيا ، كما سنذكر شيئاً عن الطرق التى يستخدمها فى العلاج والأمراض التى يعالجها . .

عبد الحميد فهمى مطر

٣ ــ الشريف الأدريسى

بضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضى

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

تتمـــــة

١٣. — الاستاذ كونراد ميللر يعنى عناية خاصة بدرس خريطة الادريسى وطبعها طبعة ملونة لأول مرة .

لم تخف قيمة هذه الخريطة العلمية والفنية على علماء الجغرافيا المستشرقين ، فالكثير منهم قد اشتغل بدراستها فى مختلف العصور ، ولكنهمْ شغلوا أنفسهم بنواحى خاصة منها ، ولم يجر واحد منهم بحثا شاملا مستقصيا مع اعترافهم جميعا بمنزلتها وتقـديرهم لها . وما زالوا على طريقتهم هـذه ولم يخرجوا عنها الى أن أتى الأستاذ كونراد ميللر فأجرى عن هذه الخريطة البحوث المستفيضة وكتب عنها الفصول الطوال التى استغرقت أعداداً كاملة من مجموعته العربية (Mappe Arabackae) تلك المجموعة التى ضمنها أبحاثه فى الجغرافية العربية ، ثم توج هذا العمل الجليل الذى نشكره عليه ونقدره له بطبع الخريطة سنة ١٩٢٨ لأول مرة طبعة ملونة . أبرزها فى تلك الحلة الفاخرة المتناسبة الأجزاء ، فدل على المدن بدوائر ملونة باللون الذهب ، ورسم الأنهار والبحيرات بلون أخضر فاتح ، والجبال بألوان مختلفة أحمر وأصفر وبنفسجى إلى جانب بعضها ، كل هذا فوق أرضية فاتحة اللون تدع نفسها متميزة بوضوح عن لون البحار المدلول عليه باللون الأزرق السماوى المموج بخطوط رفيعة بيضاء ، كما أنها تساعد على تحديد المسالك بعضها عن بعض بسهولة . ولقد كتب اسماءها بحروف لاتينية مميزاً الأقاليم السبعة بخطوط رفيعة حمراء وجعل طولها مترين وارتفاعها متراً تقريباً . وبهذا تكون مساحتها ⅑ مساحتها الأصلية التى قدمنا أنها كانت بطول ثلاثة أمتار ونصف متر، وارتفاع متر ونصف متر تقريباً . هذا وقد يظن أن المساحة الأصلية كانت كبيرة بشكل زائد على اللزوم ، ولكن سوف يتلاشى هذا الظن إذا علمنا أنها تتضمن من أسماء المدن فقط التى كانت مائجة بالعمران فى ذلك العصر ٢٠٦٤ اسماً : (٣٦٥)

بأفريقيا و(٧٤٠) بأوربا و(٩٥٩) بآسيا ، ويوجد بين هذه الأسماء كل أسماء المدن الشهيرة المهمة في ذلك الوقت .

قبل هذه الطبعة لم تكن الخريطة موجودة بشكل تام مشتبكة الأجزاء بعد فقدان الأصل للخريطة الحائطية ، وإنما كانت موجودة فى قطع متفرقة داخل كتاب نزهة المشتاق أو مستقلة بذاتها . ومجموع هـذه القطع الموجودة إلى الآن منها يبلغ ٢٥٥ قطعة كما ذكر الأستاذ ميللر ، توجد بمكاتب باريس وأكسفورد واستانبول ولينينجراد والقاهرة ؛ وكانت هذه القطع من الأصل الذى طبع عنه الأستاذ ميللر تلك الطبعة التى بين أيدينا .

وهنـاك خريطة أخرى تدعى الخريطة الأدريسية الصغيرة طبعها الأستاذ ميللر كذلك فى مجموعته ، وهى ليست لصاحبنا الأدريسى وإنما هى لابنه محمد وضعها سنة ١١٩٢ ، واسمها روض الفرج . ولقد وجدها بعض الباحثين كذلك فى استانبول فى ٧٣ قطعة ، وإذا وازنا بينها وبين خريطة والده فاننا نجده قد أخذها صورة طبق الأصل عنها بشىء يسير من التغيير ، ومع هذا فقـد فاتته عناية والده فى الرسم .

١٤ — خريطة الشريف الادريسى أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ . موازنات بينها وبين بعض الخرائط وبيان مميزاتها

بقى أن نذكر مع الفخر والاعجاب أن الخريطـة الأدريسية أقدم خريطة عالمية صحيحة كبيرة مفصلة وموضوعة بغاية الضبط والاتقان والوضوح عرفها التاريخ الى الآن . نعم لقد وصل إلى أيدى علماء الجغرافيا خريطة من عهد قياصرة الروم لها من العمر ضعف ما للخريطة الأدريسية وهى خريطة (بويتنجر) التى وضعت فى عام ٣٦٥ بعد الميلاد ، ولـكنها ليست خريطة عالمية للدنيا القديمة كخريطة الأدريسى ، وإنما هى خريطة لبيان طرق المواصلات فقط . فضلا عن أن المدن والمحطات التى ذكرتها أصبحت كلها أنقاضاً لايعرف لهـا أثر ، فالناظر إلى هذه الخريطة إنما يستطيع أن يتصور موضعها بالتقريب . وأما خريطة الأدريسى فهى فوق كونها عالمية تمثل الدنيا القديمة ، وبالرغم من أنها تبلغ من العمر نحو ثمانمائة سنة فـكل المواضع التى ذكرتها يستطيع الباحث أن يعثر عليها ويتثبت منها إلى الآن ، وما زال أغلبها يعرف بنفس الأسماء التى ذكرها الأدريسى إلى يومنا هذا . نحن لم نرث من العصر القديم خرائط جغرافية عالمية وإن كان قدماء اليونان قد وضعوا خرائط من هذا النوع مبنية على طريقة فلـكية متقنة ، وأشهرها خريطة الدنيا لبطليموس التى تزيد على خريطة الأدريسى بألف سنة فى القـدم ، ولـكنها ليست خريطة للدنيا بالمعنى الذى نعرفه ولا على منهج خريطة الأدريسى تبين الممالك ومواقعها إلى آخر ذلك ، وإنما هى خريطة للدنيا بمعنى أنها تعطى نظرة عامة فقط عن الدنيا القديمة وتبلغ مساحتها ٣٥ سنتيمتراً فى ٥٢ سنتيمتراً . هذه الصورة التى أعطتها خريطة بطليموس ظلت معتبرة فى بـلاد الشرق والغرب إلى آخر العصر المتوسط . ولقد أخذ الأدريسى حدودها واستعان بها عند وضع خريطته ، ولـكن من حسن الحظ كما عبر الأستاذ ميللر أن الأدريسى قطع النظر بالـكلية عما احتوته خريطة بطليموس بعد الصورة والتحديدات العامة تنفيذاً لأمر رجار الثانى ، نقول من حسن الحظ لأن الأسماء التى ذكرها بطليموس فى خريطته على كثرتها غير مطابقة للواقع بأكثر من ١٪ مع التسامح فى هذه النسبة . وكذلك درجات العرض والطول المثبتة فى خريطة بطليموس تختلف عن الحقيقة بمئات من الأميال ، لهذا كان من الحـكمة والسداد قطع النظر عما أثبت فى تلك الخريطة بالـكلية ، وكذلك فعل الأدريسى ووصل بمجهوده المستقل إلى أن يعطينا صورة صحيحة مطابقة للعصر الذى عاش فيه بما لا ينتظر خيراً منه ، الأمر الذى جعل لتقسيمات الممالك فى الخريطة الأدريسية وللتقسيمات السياسية على الاطلاق قيمة علمية فائقة . نعم أظهر بطليموس مقدرة العـالم الفلـكى عند وضعه لخريطته فى الوقت الذى أثبت فيه درجات العرض والطول بناء على حساباته العلمية المبنية على القواعد بمقدار لم يصل إليه الأدريسى ، ولـكن هذا لايغنيه شيئاً بجانب عدم التحرى للحقيقة . وعنـد الموازنة بين خريطته وبين خريطة الأدريسى نجد أن بطليموس أثبت خطوط العرض والطول معاً ولـكنها تختلف عن الواقع بشكل غير مقبول . أما الأدريسى فانه أثبت درجات العرض فقط ولـكن بعد قياسات صحيحة ، فهى مطابقة للحقيقة بمقدار يدعو القـدر للخريطة الأدريسية علمياً إلى أن ينظر اليها بعين الاكبار والاجلال .

وأما خطوط الطول فقد ترك إثباتها الأدريسى عن قصد ، إذ تبين له أن مقادير المقاييس التى وصلت إليه غير صحيحة ، ولأنه لم يتيسر له بعد هذا إجراء قياسات أرضية لبيان درجات الطول وقياس الـكرة السماوية ، وإن كان فى الاسـتطاعة فانه لايعطى نتيجة مقطوعاً بها .

هناك خريطتان أخريان

(١) خريطة Ebstorf نسبة للدير الذى وجدت فيه بمدينة هانوفر من أعمال ألمانيا.

(٢) خريطة Hereford التى وجدت باحدى كنائس هرفورد بانجلترا.

وهاتان الخريطتان بالرغم من أنهما وضعتا بعد الخريطة الأدريسية بمائة سنة فلم تكونا عملاً علمياً، وانما كانتا عبارة عن تخطيطات زخرفية كما عبر الأستاذ ميللر، تمثلان شيئاً من العصور السابقة لعصرها، غير محتويتين إلا على شيء يسير من الجغرافية المعاصرة لهما.

لعل القارىء يتساءل الآن عن مقياس الرسم للخريطة الأدريسية، وهنا أقول إن مقياس الرسم بالمعنى الحديث الذى نعرفه والذى بمساعدته يستطيع الانسان أن يعرف مساحة جهة من الجهات بقياس مساحتها فوق الخريطة، مقياس الرسم بهذا المعنى لانجده فى خريطة الأدريسى، وهو طبعاً لم يوجد فى جميع الخرائط القديمة، وإنما وجد بعد وضع خريطتنا بمئات السنين. على أن الأدريسى قد أشار الى طريق الوصول الى معرفة مثل هذا القياس الحديث. الأدريسى ذكر درجات العرض وقدر الدرجة بخمسة وعشرين فرسخاً، والفرسخ بثلاثة أميال، وعليه فالدرجة ٧٥ ميلاً، ولكن الذى لم يذكر قدره الأدريسى هو الميل، فان قدرنا الميل بما كان معروفا عند الروم وهو كيلو متر ونصف تكون الدرجة مقدرة عنده بـ ١١٢,٥ كيلو متر، وبهذا يكون الأدريسى أعطانا مقياس الرسم لخريطته بشكل واضح.

فى الختام أريد أن أذكر لحضرات القراء بعض المميزات التى تزيد فى قيمة الخريطة الأدريسية، وقيمة شرحها نزهة المشتاق:

(١) تجنب الأدريسى ذكر الخرافات التى كانت شائعة فى العصر المتوسط، والتى تورط فى ذكرها غيره من المؤلفين. ولقد كان من حنكته أنه إذا ذكر شيئاً خارجا عن حدود العادة نسبه الى ناقله، ثم أعقبه بكلمة احتياط كقوله: والقادر على كل شيء أعلم بما فى هذا من الحقيقة. ولم يرسم ما كان شائعاً رسمه عند علماء الجغرافيــة مما يمثل الغرائب الخرافية، وطبعاً كان لتعاليم الاسلام الفضل الأكبر فى هذا.

(٢) انفردت خريطة الأدريسى بأنها هى الخريطة الوحيدة التى تعطينا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزوينى وصحراء العجم فى مدة من الزمن تبلغ نحو قرن، هذه المدة التى لولا خريطة الأدريسى لظلت حلقة مفقودة فى تاريخ هذه البلاد.

(٣) إن خريطة الأدريسى وحدها هى التى مثلت لنا دولة الاسلام العربية وهى فى عصرها الذهبى، تلك الدولة التى كان حظها حظ المائدة الفضية التى علم خبرها والتى قضى عليها فى وقت وجيز على يد التتار والمغول. فما لم تصل اليه يد جنكيز خان بالتدمير من المدن العربية وحضارتها الى عام ١٢١٩ ميلادية صعقته يد هولاكو التترى يوم ضرب العواصم الاسلامية، وترك جنوده يعيثون فى بغداد فساداً فى فبراير سنة ١٢٥٨ سبعة أيام كاملة، قتلوا فيها أهلها، وخربوا عامرها، وحرقوا كتبها أو أغرقوها.

ومن هذا الوقت تغيرت العواصم، وتبدلت الأسماء، وخلفت الدولة العربية دولة المغول والأتراك، وأخذت الخرائط التى وضعت بعد ذلك وجهاً آخر جديداً. فالخريطة الأدريسية إذن هى آخر تمثال لدولة العرب الغابرة يلهمنا العظة ويحدثنا عن فتوحهم وعن مجدهم ومفاخرهم بأنصع عبارة وأجلى بيان.

وإننى فى الختام أدع الحكم على قيمة هذا العمل العلمى الكبير، وعلى مجهودات الأدريسى ورجار المشكورة لرجل خبير درس الخريطة وشرحها « نزهة المشتاق » دراسة وافية، لرجل لم يجر فى عروقه الدم العربى، ولا مجال لاتهامه بالتحيز فى حكمه، ذلك هو الأستاذ « كونراد ميللر » إذ يقول فى آخر بحث أجراه لشرح الخريطة ما معناه: « إن رجار الثانى والأدريسى بوضعهما لهذه الخريطة قد وضعا أهم حجر أساسى فى تاريخ انتشار العلم الانسانى. » واليكم عبارته بالنص الألمانى:

"Sicher ist, dass Kīnig Roger II., und der Scherif Idrisi mit dieser Karte ein Werk geschaffen habcn, welches eine der wichtigsten Marksteine in der Geschichte der Ausbreitung des menschlichen Wissens darstellt."

أما كلمتى أنا فانى أوجهها الى ورثة الأمة العربيــة، وأخص شباب مصر الناهض وأبناءها البررة العاملين، أوجهها الى هؤلاء جميعاً بعد أن نشرت بين أيدى القراء صحيفــة ناصعة من صحائف أسلافنا الامجاد، وبعد أن عرضت عليهم بعض ما يجعلنا نعتز بتاريخنا، ونفخر بماضينا، وأناشد هذا الشباب المصرى ليجد فى العمل كل فى ناحيته راجياً أن نوفق فى مسعانا، ونربط حاضرنا بماضينا لنصل بوطننا العزيز بمشيئة الله وعونه الى مكانه الذى أخذه فوق ذروة المجد، وعلى قمة العلياء تحت قيادة مليكنا المحبوب قائد النهضة وحامل لوائها فى مصر والشرق.

محمد عبد الله ماضى

لننشد الجمال !

للأديب حسين شوقى

فى مقدور شبابنا اليوم ولا شك أن يتعلموا فى مصر تعلماً صحيحاً بفضل الجهود التى بذلتها حكوماتنا فى السنوات الأخيرة لاستجلاب الفنيين والأساتذة الأعلام من الخارج . . حتى زادت بفضل ذلك نسبة المتعلمين فى مصر زيادة عظيمة ، وهو أمر محمود بطبيعة الحال ، ولكن . . . مما يؤسف له عدم اكتراث أولياء الأمور المسيطرين على تربية النشء بتنمية الذوق . . أجل ، الذوق أهمل أمره فى مصر إهمالاً شائناً . . . إنهم يزوّدون الشباب بمختلف العلوم ، ليدخلوا بها الحياة ، ولكنهم لا يحببونهم فى الحياة نفسها . . إنهم لا يرشدون الشباب الى مافى الحياة من أسباب الجمال ، مع أن الحياة الخالية من الجمال هى طعام خال من الملح . . .

يجب أن يتذوق الناشىء مافى الطبيعة التى تحيط به من جمال رائع ، لأنه كلما أنعم النظر فيها ، وتذوق جمالها ، ازداد عبادة للخالق تعالى وتقرباً منه ، فاستقامت بذلك أخلاقه بلا حاجة الى واعظ أو مرشد . . .

على طالب النبات قبل أن يدرس السماد الكيماوى الذى يزيد فى إنتاج زهرة ما ، أن يشم عبق هذه الزهرة ، وأن يملأ ناظريه من ألوانها البهجة . .

كذلك على طالب علم الفلك المنهمك فى تقدير عمر القمر ، أن ينظر قبل هذا الى جمال خيوط القمر الفضية وهى منعكسة على سطح الماء ، أو على رمال الصحراء ، وقد تلألأت كالماس النقى .

كذلك يجب أن يرشدوا النشء الى مافى الطبيعة من تآلف رائع غريب فى الألوان ، سواء فى الزهور أو فى الحيوان . . حتى إذا كبر الطفل . . صار ذوقه سليماً ، فلا يلبس مثلاً حذاء أبيض على رداء أسود . . .

كذلك ليتهم أرشدوا الأبناء الى العناية بالطعام ! يجب أن يتعوّدوا تنسيق المائدة بالأزاهير الناضرة ، حتى يدخلوا الغبطة على قلوبهم . أليس لنا أسوة فى آبائنا الأولين — المصريين القدماء — الذين كانوا يتناولون الطعام على أنغام الموسيقى الشجية . تلك العادة اللطيفة التى ورثها عنهم الأوربيون ؟ . .

كذلك يجب اهتمام النشء برشاقة أجسامهم ، فحذار ثم حذار من السمن الذى يشوه الشباب ، فضلاً عن أنها مضرة بالصحة إذ تسبب مع الزمن أمراضاً كثيرة للجسم . .

وياحبذا لو شجعوا ميول الشباب منذ الحداثة الى الفنون الجميلة ! . فاذا آنسو مثلاً ميلاً فى طفل الى عادة التصفير لقّنوه الموسيقى . . وإذا رأوا فى آخر حب إقتناء الصور علموه الرسم . .

أذكر بهذه المناسبة الواقعة المؤلمة الآتية التى حدثت منذ سنوات قليلة لأحد طلبة الطب الشرقيين فى لوزان :

كان هذا الطالب يكشف على مريض تحت إرشاد أستاذه ، فلم يرق للأستاذ طريقة نقر الطالب على بطن المريض ، بل وجدها غليظة فقال له :

انقر على بطنه كأنك تلعب على البيانو . .

فأجاب الطالب : ولكنى لا أعرف البيانو . .

— إذن أى فرع من الموسيقى تعرف ؟ .

— لم أتعلم الموسيقى بتاتاً ! ! .

— إذن كيف قضّيت شبابك ؟ .

فخجل الطالب ولم يعرف كيف يجيبه . .

كذلك علينا أن نوفر على النشء فى المستقبل ، مشاهدة بعض المناظر المؤلمة فى مجتمعنا الحاضر . .

ويالله مما فى مجتمعنا من مضحكات ! .

هذا مغرم بالمظهر . . يقتنى سيارة فخمة تبهر الأنظار ، بينما الدجاج يسرح فى حجر داره . . وأثاثه ليس له طراز معروف ، وإنما هو طراز « الشيخ أحمـــد » كالذى يفرش فى المآتم والأفراح . . .

وذاك يبنى داراً فخمة ، فلا يترك مكاناً لحديقة ، إذ ماله ومال الأزهار والأشجار وهى لاتزيد على كونها حشائش فى نظره تنبت بكثرة فى أطيانه الواسعة ؟ . .

كرمة ابن هانى حسين شوقى

في الأدب الدرامي

٩ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة La comédie

تعريفها : الملهاة تمثيل حادث منتزع من الحياة العامية يبعث اللهو ويثير الضحك . وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة . أما جهة الانسان الرفيعة ونكبات الدهر الفظيعة وجرائم الهوى السفيه فموضوع المأساة . ويخيل إلى أن الفرق بين الملهاة والمأساة لا يزال غير واضح ولا محدد ، فيحسن هنا أن نفصل القول فيه . فالملهاة تختلف عن المأساة في المبدإ والواسطة والغاية . فمبدأ المأساة حساسة الانسان وشعوره . وواسطتها التأثير ، وغايتها الرهبة من الهوى المضل . والرعب من الجرم الفظيع ، والرغبة في الخلق الكريم . وأما الملهاة فمبدأها خبائة الانسان وضعفه ، وواسطتها السخرية والضحك . بأن تنظر إلى عيوب الناس نظرة الضاحك الساخر مادامت غير مؤلمة فتثير الرحمة ، ولا محنقة فتثير البغض . ولا مخطرة فتثير الفزع . ثم تصور هذه النقائص بمهارة ودقة ، وتستعين على تقوية هذه الصورة بالمفارقات والمفاجآت لتكون مثاراً للاستهزاء والضحك . ولا ريب انه كان أجدر بنا وأنفع لنا أن نقابل عيوب الناس بالرثاء الأخوى والنظر الفلسفي بدلاً من هذه الضحكة الهازئة ، ولكنهم وجدوا أن أقرب الطرق وأنجع الوسائل أن يستخدموا فساد بعض الناس في إصلاح فساد الآخرين . كما تستخدم ذبابة الحجر من الماس في صقل الماس نفسه . وإصلاح العيوب بالعيوب هو غاية الملهاة . ومن الناس من يفرق بين الملهاة والمأساة بكيفية الأشخاص وكمية العواطف . فيقولون إن أشخاص المأساة من طبقة الخاصة . وأشخاص الملهاة من طبقة العامة . وإن درجة العواطف في الأولى قوية وفي الأخرى ضعيفة ، وذلك فرق لا يميز ولا يوضح ، لأن الآلهة والملوك قد يتخذون في بعض الأحيان أضاحيك كما نرى في رواية (امفتريون) Amphitryon لموليير ، ولأن اليأس القاتل الذي استولى على بخيل موليير حينما فقد خزانة ماله ، لا يقل في درجته وشدته عن يأس فيلوكتيت[1] سوفوكليس حينما خطفوا منه سهام هرقل .

إن النوازل الفادحة والمهالك الجائحة والعواطف الخارقة مرايا المأساة ودلائلها ، ولكن المنافع الخاصة والأخلاق العامة والعيوب الشائعة كيان الملهاة وخصائصها . فالأولى صورة من التاريخ ، والأخرى صورة من المجتمع ، والرذيلة لا تدخل في باب الملهاة إلا وهي مضحكة محتقرة . فاذا كانت ممقوتة مضرة دخلت في باب المأساة . فموليير جعل المنافق المحتال شخصاً مضحكا في (ترتوف) ، وشكسبير جعله شخصاً محزناً في (جلوستر) ، وذلك بالطبع راجع إلى طبيعة النفاق والحب في الحالين .

سبب الضحك في الملهاة : سبب الضحك هو خطأ حقيق أو ادعائي لا ضرر منه ولا تبعة له . فنحن إنما نضحك إذا لحظنا بين الشيء وبين الواقع اختلافاً لا يكون فيه مضرة لأحد .

فالرجل المفلس الذي يظن نفسه كفؤاً لأن يعلم الناس جمع الثروة ، والشيخ المتهدم الفاني الذي يتصابى في مشيته ، ويتظرف في لهجته ، يبعثان على الضحك ويستوجبان السخرية ، لأنهما يريان الأشياء على غير حقيقتها . والدمامة في ذاتها ليست مضحكة ، وإنما تصبح كذلك إذا ظن الدميم نفسه جميلاً ، أو رجا أن يظنه الناس كذلك . ولهذا السبب نفسه نضحك من اربجون بخيل موليير حين يطبق على خزانته ما يقوله له ڤالير عن ابنته . وكذلك نضحك من (مينالك) لابرويير حين أخذ نعله وهو يحسبه كتاب القداس ، كما حدث لأحد إخواننا من المعلمين الكهول إذ وضع « دفتر

(١) فيلوكتيت مأساة شهيرة لسوفوكليس . وعلم على بطل من أبطال طروادة النابهين . أوصى إليه هرقل عند موته بسهامه المسمومة . وبينما هو في طريقه إلى طروادة جرحه سهم منها . ونغل الجرح فسطعت منه ريح منتنة لا تحتمل . فبرم به القوم وخلفوه وحده في جزيرة لمنوس فلبث فيها عشر سنين . فلما أعلنت الآلهة ان طروادة لا تؤخذ إلا بسهام هرقل عاد إليه أوليس وديوميد يحتالان عنه فيها ، فلما لقياه خطفا منه السهام وعادا إلى طروادة .

التحضير» فى شباك المرحاض بجانب قطعة بالية من قفة خوص. ولما قضى أمره منها فأخذ (البرش) بدل الدفتر، ودخل به الفصل فكركر التلاميذ فى الضحك من هذا السهو الغريب.

على أن حدوث السهو أو الخطأ من إنسان لا يكفى فى حدوث الضحك، بل لا بد أن نلحظ ذلك الخطأ منه، وندرك التباين بين فكرته عن الشىء، وبين حقيقة ذلك الشىء نفسه. فاذا اتفق أن أحد الناس لم يفطن الى هذا الخطأ لفتور ذهنه أو قلة علمه بقى جاداً لا يضحك ولا يبتسم. وذلك سبب ما نرى من أن الشىء يضحك بعض الناس ولا يضحك البعض الآخر. ولا يلزم أن يكون الخطأ المضحك حقيقياً، بل يكفى أن نراه نحن كذلك، أو يتظاهر المضحك بأنه غلط فى شخص أو فى شىء. والمازح إذا أراد أن يمزح فانما يدعى الحماقة والسذاجة وهما مصدر السهو والخطأ. كذلك يجب ألا يكون لهذا الخطأ تبعة محزنة ولا نتيجة مشئومة كما ذكرت من قبل، وإلا أثار الرعب والاشفاق، بدل أن يثير الجذل والضحك. فميروب حين أخطأت فى ولدها فظنته قاتلاً، وأرادت أن تقتله لم يضحكنا ماتفعل، وإنما ملأ قلوبنا رعباً وخشية؛ والتكبرون لا يضحكون من أنفسهم إذا أخطأوا، لأنهم يجدون فى هذا الخطأ خدعاً لكبرهم وإهانة لصلفهم فيتألمون.

ومنشأ الخطأ الذى يولد الضحك إما نقص فى الخلق، وإما ضعف فى الذكاء، وإما ظروف خارجة عن شخص المخطىء. والخطأ يستتبع فى أكثر الأحوال أقوالاً وأفعالاً تخالف المرعى من العادة أو العرف أو القوانين أو الذوق؛ وتلك هى السمات التى تحدد لك أخلاق الملهاة. ففى ملهاة (المتوحش) لموليير تجد كل ما يقوله (ألسِسْت) ويفعله مناقضاً للعادات الجارية، لأنه فقد قوة الحكم على الأشياء، فبالغ فى تقدير الفضيلة الى حد أن يرى فيما أجازه العرف وأمضاه خطورة ليست فيه.

أنواع الملهاة: الملهاة ثلاثة أنواع: وهى الملهاة الاشكالية La comédie d'intrigne وتؤلف من الحوادث المضحكة الغريبة المتشابكة المعقدة التى تأخذ على المشاهد أنفاسه وتملك حواسه، حتى تنتهى بحل مرغوب غير متوقع. فالحوادث روحها وقوتها. أما وصف العادات. وتصوير الأخلاق، فهما فى المحل الثانى منها، كملهاة المريض الواهم، والطائش، والحضرى الشريف لموليير، والملهاة الاجتماعية La comédie de moeurs وتؤلف من الهزؤ بخبال الناس وسخف المجتمع، وتصوير ما أحدثته العادات السيئة فى الأخلاق من تشويه ومسخ، وذلك فى طبقة خاصة وعصر معين. ويجب أن يكون كل شىء فيها مهيئاً ليظهر مع غيره عيباً من عيوب الاجتماع. فالحوادث تختار عن قصد لبلوغ هذه الغاية، والظروف ترتب بدقة لأحداث هذا الأثر، والفرد يكبر ويعظم حتى يتضمن الجنس بأسره، والحوار يجرى على طريقة تبرز فكرة المؤلف واضحة فى كل خطاب وجواب، كالمتحذلقات السخيفات لموليير، ونصف العالم، ومسألة النقود، والأب المبذر، لاسكندر دوماس الصغير. والملهاة الخلقية La comédie de caractére وهى تهاجم العيوب والنقائص المسيطرة على الأخلاق فى كل زمان ومكان، ونزعتها الى الافادة والامتاع أقوى منها إلى السخر والاضحاك. كالبخيل، وترتوف، والمتوحش لموليير. وهذا النوع أنفع الأنواع الثلاثة وأقواها وأصعبها. فأما أنه أنفع، فلأنه يرجع الى مصادر العيوب وأصولها فيهاجمها فى مبادئها ومناشئها؛ وأما أنه أقوى فلأنه يقدم الى الناس المرآة فيخجلهم من صورهم ويضحكهم من أنفسهم، وأما أنه أصعب فلأنه يطلب من المؤلف دراسة عميقة للأخلاق، وبصيرة نافذة فى الملاحظة، وخيالاً قوياً ليجمع شتات الملحوظات الكثيرة فى نقطة واحدة.

هذه هى أنواع الملهاة الثلاثة، دون أن نعد منها تلك الأنواع التى تعتمد فى الأضحاك على النكت اللفظية، أو على المواقف الخليعة المجونية، فانها بضاعة الأذهان الكليلة، والأذواق السقيمة. ولها مع ذلك اسم غير هذا الاسم وموضع غير هذا الموضع. على أن هناك نوعاً رابعاً هو أسمى من تلك الأنواع وأقوى. ذلك هو الملهاة المختلطة التى تستوعبها جميعاً. فتجمع الى هزل المواقف هزل الأخلاق والعادات، فترى فيها الأشخاص مدفوعين بضعف عقولهم، أو مرض قلوبهم الى أن يقفوا مواقف مخزية تعرضهم الى سخر المشاهدين واحتقارهم. كالموقف الذى وقفه أرباجون بخيل موليير مع ولده حينما أقبلا يتعاملان بالربا دون أن يعرف أحدهما الآخر، فكانت مقابلة الأب المرابى والابن المبذر من سخريات الحياة وغرائب الأمور.

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بين فتاتين

فصل من رواية لم تنشر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أفاقت « خيرية » — في غرفتها — على صدر « سارة » ، أو لعل الأصح والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها استعادت سكينة نفسها فيما ترى العين ، بعد أن أسبلت ملء حفنةٍ من الدموع روت بها زهور خديها النضيرين ، وأصارت أرنبة أنفها كالجزرة . وفي قليل من البكاء شفاء للصدر وجلاء للبصر ، وغنى عن المساحيق !

وأحست « سارة » بانتظام أنفاسها فضمتها إليها في رفق وحنان ، فجاوبتها « خيرية » بضغطة خفيفة . وطاف برأسها وهي تفعل ذلك أن لو كان هذا صدر شاكر ! ؟ ! وتنهدت كالمتحسرة ، وذهبت تتصور ساعديه القويين على خصرها يهصرانه ، وثدييها يُعصران على تندوتيهما (١) ، وأنفاسه على شعرها ، وكلامه العذب في أذنها . فأخذها من هذا الخاطر مثل الدوران في رأسها ، وأظلمت عيناها . وشعرت بمثل النار تندلع في أحشائها وترقى إلى صدرها ونحرها وتأخذ بكظمها ، على حين كانت تحس بالبرد في قدميها .

وشدت « سارة » على خصرها في هـــذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات ، فرفعت « خيرية » وجهها المضطرم ونظرت إلى صاحبتها بعين ثابتة الحملاق إلا أن عليها كالضباب فهي لا تبصر . وأقبلت على فمها تقبله — قبلة حارة طويلة عصرت فيها روحها ونسيت نفسها ، وإذا « بسارة » تهتز وتنتفض وترسل راحتها تتحسس علواً وسفلاً ، و « خيرية » كالسكرى : تضم ، وتئن ، وتبوس ، وتمسح الخد بالخد ، وعينها مغمضة ، وأصابع يمناها تتقبض على لحم « سارة » والأخرى تعبث بشعرها وتتخلله وتشده ، وهما في عناقهما تميلان يمنة ويسرة ، وتقبلان إلى الأمام تارة ، وتنثنيان إلى الخلف طوراً ، وتزحف كل منهما إلى صاحبتها كأن بينهما متسعاً فتتزحزحان على الطارقة (١) حتى تهاوتا فتحاجزتا ، وصار صدراهما كالخضم المضطرب .

وقالت « سارة » بصوت يذوب من الرقة :

« أحسن ؟ »

فدانت « خيرية » بين جفونها وألقت إلى صاحبتها — بمؤخر عينها — نظرة فيها من الرضى والشكر والرجاء معانٍ ، وكانت كلتاهما مضطجعة ، فمدت « سارة » يدها وتناولت راحة « خيرية » وأطبقت عليها أصابعها — في صمت — وظلتا هكذا برهة : ثم شخصت « سارة » إلى السقف وقالت كأنما ترى من تخاطبه فيه « ليتك كنتِ أخاك ! »

ثم ثنت إلى « خيرية » وجهاً ينضح بالبشر ويغرى بالعبث والمصارحة ، فرفعت « خيرية » حاجبيها وأمالت رأسها على الوسادة ثم ردت وجهها إلى سارة وقالت :

إنك سعيدة ياسارة . . . »

فسألتها « سارة » :

« وأنت ؟ . . »

قالت خيرية « موزعة . . »

يتبع

(١) الثندوة مغرز الثدى وما حوله من لحم الصدر .

(١) الطارقة السرير الضيق وقد اخترتها للكنبة .

ماذا يجب في عمل الملهاة : إن الغرض الذي يتوخاه واضعو القواعد للعمل الروائي هو التقريب بين الافتراض والحقيقة . وأقوى الوسائل إلى هذا التقريب هي قاعدة الامكانية . ولما كان عمل الملهاة منتزعاً من العادات المألوفة ، والأخلاق المعروفة ، والنكتة الحاضرة ، كان بعده عن الحقيقة ، ومخالفته للواقع أمراً سهل الملاحظة صعب الاحتمال . لذلك وجب أن تراعى القواعد في الملهاة مراعاة شديدة ، وعلى الأخص وحدة العمل ، واستمرار الخلق ، وسهولة الأسلوب ، وبساطة التعقيد ، وطبيعة الحوار ، وصدق العاطفة . وقوة الفن في إخفاء الفن ، بحيث يكون كل ما يحدث ويقال على المسرح صورة ساذجة للمجتمع حتى ينسى المشاهد أنه في مشهد من مشاهد التمثيل ، لأن الصورة إذا رسمتها يد عاجزة اتجه فكرك فيها بعد النظرة الأولى إلى الرقعة والألوان والأطار . قبل أن يتجه إلى التدوير والنتوء والبعد .

(الزيات)

— موزعة ؟

— نعم ! ... وعسى أن أكون واهمة ... ولـكنه يخيل إلىّ أحياناً انى أحب « عبده » وهو لا شك يحبنى ... على طريقته ... حباً صامتاً ... أخرس ... يحيرنى ... أعنى ياسارة انه يحرك نفسى لحظة ثم يدعها فارغة لا أثر فيها له ... ليس عنده كلام يقوله ... ينظر إلىّ كأنه يشتهى أن يأكلنى بعظامى ... فهو يخيفنى ويفزعنى ، ويسحرنى أيضاً ويجذبنى حين يفتح علىّ عينه بهذه النظرة المهمومة ، ولـكنه يخيفنى أكثر مما يسحرنى ... آه لو كان ينطق ... ! ولـكنه لا يعرف الـكلام ... ولا المغازلة .

... جسمه ضخم ولسانه أبكم ... فهو قوة مرعبة ... لو كان رق فيننى الخوف !

... لو كان يشعرنى أن الحب يلينه أو يذيبه قليلاً ؛ ؟ ... ولـكنه ليس مثل ... »

وأمسكت ، ونزعت يدها من يد سارة ، وظلتا مفترقتين برهة وهما تفكران فى الغزل ! « خيرية » فى بكم عبده وفى خلو حبه من هذا العنصر الذى يلطف الوقدة ، ويخفف الحدة ، ويسلب العاطفة المشبوبة لذعها وكيها ، ويجعل الحديث أحلى من التقبيل والعناق . أما « سارة » فقد فتح لها كلام « خيرية » باباً جديداً من التفكير أعانتها دراستها العلميـــة على ولوجه ، فراحت تقول لنفسها إن الغزل ليس عبثاً ولا تكلفاً ، وإن الرقة فيه واجبة وليست ضـعفاً ، وإن الطبيعة لا تزال تطلب التوازن وتسعى له وتحدثه ، فلولا رقة الرجل القوى ، فى غزله ، لأرعب المرأة حبُّه ولما احتملته ، وهو حين يجثو أمامها ويريح خده على ساقها ، أو يناجيها بهواه ويشكو إليها ضعفه عن احتماله ، ويصف لها ضيق صدره بما يجن ، وقلبه بما يجد ، ويتذلل لها ويتوسل اليها ، انما يفعل ذلك بغريزته ليعتدل الميزان ، فيذهب عن المرأة الخوفُ من قوته ، وتشعر أن فيه موضع ضعف تستطيع أن تستغله وتقاوم به طغيان القوة ، وعلى قدر ما يبدى الرجل من الرقة فى موقف الغزل والمناجاة تحس المرأة أنها قوية وأنها كفء له ، فتطمئن وتعتقد أنها نده ، وإن كان فى ظاهره أقوى ، وتبادله حباً بحب غير مكرهة ولا محمولة على ذلك ، ولا شاعرة بتفريط فى كرامتها أو تضييع لشخصيتها أو محو لارادتها . .

ولم يشـعرا أن الصمت طال بينهما أو أن الحديث انقطع لما قالت « سارة » بعد ذلك :

« ولـكنك تحبينه . . ! لا شك فى ذلك »

فقالت « خيرية » بلهجة المفكر لا المستفسر .

« هذا ظنك ؟ »

قالت « سارة » :

« لقد كنت تفكرين فيه ونحن متعانقان » .

فاعتدلت « خيرية » فى جلستها ، وواجهت « سارة » وقالت بلهجة حازمة :

« كلا . . أبداً »

فوضعت سارة يدها على كتف صاحبتها وقالت :

« تعالى . . تعالى . . اطرحى عن صدرك هذا العبء . . . لماذا لا تبادلينى حبى ؟ »

فسألتها خيرية وهى تضحك :

« أتحبيننى ؟ »

« أتسألين ؟ »

« أعنى كحمادة ؟ »

« لا أزعم ذلك ولـكنى أحببتك »

« من أجله ؟ لأنى أخته ؟ »

« لذاتك »

« صحيح ؟ »

« أتشكين ؟ »

« لا أشك . . ولـكنى غيره . . أعنى أنى فتاة مثلك »

« وما دخل هذا ؟ ماقيمته ؟ ألم نكن نتعانق على حب قبل دقائق ؟ قد يختلف الغرض من الحب أو نوع الاحساس به ولـكنه يظل حباً »

« سارة ! »

« نعم »

« لا أدرى كيف أقول . . إنى لم أعرف من هو إلا الليلة »

ودفنت وجهها فى راحتيها فصاحت بها « سارة »

« أهو ذاك ؟ »

فرفعت « خيرية » رأسها كأنما تتحدى الدنيا والناس وقالت

وهى تسوى شعرها وترد عن جبينها خصله

« نعم . وقد عرفت الآن »

فقالت « سارة » باخلاص :

« يا حبيبتى هذا أسعد يوم فى حياتى . أنا لأخيك . وأنت لأخى »

فقالت « خيرية » وهى تكاد تبكى :

« كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ إنه لم يرنى قبل اليوم إلا مرة واحدة ! »

فسألتها « سارة » وهى تنظر اليها نظرة من يُحيى ذكرى تمعن فى الغمض :

« قبل اليوم ؟ أتعنين . . ؟ »

قالت « نعم كنت خارجة من سمعان فعثرت . . »

فصاحت بها سارة وقد صح ظنها :

« هو أنت ؟ »

« أهو أنا ؟ ماذا تعنين ؟ »

أعنى أنك فتاته التى يحبها ويبحث عنها . . يا لسعادتى »

فتعلقت بها خيرية وأمطرتها وابلاً من الأسئلة ، وسارة تضحك ولا تعرف كيف تجيب ، وإذا بحمادة ينقر ويسأل قبل أن يسمع الاذن بالدخول

« سارة ! ما هذا الذى يقوله عبده ؟ »

فوثبت الفتاتان ووقفتا مبهوتتين من المفاجأة ، واحتاج حمادة أن يعيد سؤاله

« أهو صحيح ؟ »

فقالت « سارة » وهى تبتسم له وترف : « ماذا يا روحى ؟ »

فأذابته ابتسامتها وراح يتلعثم

... أ ... أ ...

فقالت سارة « تعال يا حبيبى ... أم تخرج ؟ ؟ أظنه آن لى أن أخرج . بكرهى يا روحى ... فتعال احملنى الى سيارتك ... وفيها ... الى بيتى »

فنسى حمادة ما أفضى به اليه عبده ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

من الأدب الأندلسى :

٢ – التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

دخل ابن شهيد وادى الجن ، ورغب فى البدء بلقاء الشعراء على ما بيَّنا فى المقال السابق ، وقد حدَّثنا الرجل أنه طلب من صاحبه زهير بن نمير أن يقدمه أول ما يقدمه إلى تابع امرىء القيس ، وإنما حق له هذا ، أولاً : لأن امرىء القيس سابق فى عمر الزمن ، وحساب الأيام ؛ وثانياً : لأن النقاد جميعاً على أنه أمير الشعراء فى العصر القديم ، وشيخهم الذى أوضح لهم الطريق ، فهو مقدم بالطبع والوضع كما يقول المناطقة ، ولم يرد ابن شهيد أن يخرج على ماقضت به الأيام ، وما تواضع عليه النقاد ، فأنزل الرجل منزلته المقررة ، ووضعه فى مكانته المعلومة ، ولذا قدمه على نفسه فى الأنشاد ، ووصفه بتطامح الطرف ، واهتزاز المعطف ، علامة الغرور والثقة ، وأخذته الهيبة منه ، فهم بالحيصة والهرب من أجازته ، لولا أن شدَّ فى قوى نفسه ، وأنشده ما أنشد .

وعلى هذا النهج راح ابن شهيد يتحدث عن توابع الشعراء واحداً بعد واحد ، ويقرر ما وقع له معهم ، وما جرى بينه وبينهم من الأنشاد والمساجلة ، وهو فى أثناء ذلك يعرض بالتصوير لأحوال الشعراء ، ويهتم بوصف نفسياتهم وميولهم ويشير إلى ما اشتهر عنهم فى أخلاقهم وسلوكهم وآرائهم ، تارة بالتلميح ، وطوراً بالتصريح ، ومن حين لآخر تجده يجمل كلامه بالنادرة المستملحة ، فيجعل القارىء يقبل عليه فى سرور وائتناس ، استمع اليه وهو يحكى ما وقع له مع « بغلة » من التوابع أقبلت تحكمه فى شعرين لبغل وحمار اختلف فيهما الفريقان ، فقال لها حتى أسمع ، فقالت الشعر الأول لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل
سقام على جسد الهوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحا
إذا ما اعترى بغلاً فليس يزول

بنفسى التى أما ملاحظ طرفها
فسحر ، وأما خـــدها فأسيل ! !

تعبت بما حملت من ثقل حبها
وإنى لبغل للثقـــال حمول !

وما نلت منها نائلاً غـــير أنها
إذا هى بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت بهذا الحب منذ هويت
وراثت اراداتى فلست أريث

كلفت بالفى منـذ عشرين حجة
يجول هواها فى الحشا ويعيث

وغـــيرٌ منها قلبها لى نميمةٌ
نماها أحم الخصيتين خبيث

وما نلت منها محرماً غـــير أنها
إذا هى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : « فاستضحك زهير وتماسكت ، وقلت للمنشدة ما هويت ؟ قالت : هويت بلغة الحمير ؛ قلت والله ان للروث لرائحة كريهة ، ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعرين ، فقالت فهمت عنك » ثم يتفكه ابن شهيد فى القول أكثر فيقول « وقالت لى البغلة : أما تعرفنى أبا عامر ؟ قلت لو كان ثم علامة ، فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها فتباكينا طويلا ! وقد أخذنا فى ذكر أيامنا فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت ما ترين ! قالت : شب عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبة ؟ قلت شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ومن إخواننا من بلغ الأمارة ، وانتهى الى الوزارة ؛ فتنفست الصعداء ، وقالت ؛ سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود . . »

فالرجل كما ترى فكه ظريف ، وفى رسالته كثير من الفكاهات والنوادر ، وكلها على غرار هذه الفكاهة ملاحة وخفة وطرافة ، وإنما براعة الرجل تظهر أكثر فى تصوره — كما قلنا — لأحوال الشعراء والكتاب ، ووصف ميولهم ، والتحدث عما جرى له معهم ، ولعل من أعذب ما له فى ذلك ، وصفه لما جرى بينه وبين صاحب أبى نواس ، ذلك الشاعر الذى قطع العمر فى نشوة السكر ، وشرك الخمر ، واستطراده فى الحديث عن « دير حنة » مقام هذا الشاعر وما اشتمل عليه من الرهبان والغزلان ! ! فقد أجاد الرجل فى ذلك وأبدع ؛ أنظر اليه وهو يصور ذلك فيقول « ثم قال لى زهير فمن تريد ، قلت صاحب أبى نواس قال هو « بدير حنة » قد غلب عليه الخمر ، فركضنا ساعة ، وجزنا فى ممرنا بقصر . فقلت لمن هذا القصر يازهـير ؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحترى ، فهل لك أن تراه ؟ قلت : أجل ، إنه من أساتيذى وقد كنت أنسيته . فصاح يا أبا الطبع ، فخرج لنا فتى على فرس أشهب وبيده قناة ، فقال له زهير : إنك موفق ، قال لا ، صاحبك أشمخ ما رنا من ذلك لولا تنقصه ! ! قلت يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفزان ، وأنشدنا من شعرك فأنشد :

« ما على الركب من وقوف الركاب (١) »

حتى انتهى منها ، ثم قال هات أنت شيئاً فأنشدته :

« هذه دار زينب والرباب »

حتى أتيت فيها الى قولى :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم ، فصاح به زهير أأجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر ! !

قال ابن شهيد « ثم سرنا حتى انتهينا الى « دير حنة » فضرب زهير الأدهم ، فسار بنا فى قنته ، ففتق سمعى قرع النواقيس فقلت فصحت عن منزل أبى نواس ورب الكعبة ، وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتضوع نوافحه ، فوقف زهير ببابه وصاح به : سلام على أهل « دير حنة » فأرقلت نحونا الرهبـان مشدودة الزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، مبيضّة الحواجب واللحى ! مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا أهلا بك يازهير من زائر ، وصاحب أبى عامر ، ما بغيتك ؟ قال « حسن الدنان » ، قالوا : إنه لفى شرك الخمر منذ أيام عشرة ، وما نراكما منتفعين به ، فقال وعلىّ أنا ذلك ، ونزلنا وقادنى الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعلقت غزلانه ، وفى دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث الزهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة وحواليه

(١) مطلع قصيدة للبحترى يمدح فيها اسماعيل بن شهاب ونصفها فى الغزل والتشبيب والنصف الآخر فى المديح .

صبية كالظباء ، فصاح به زهير : حباك الله أبا الأحسان ، فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فقــال لى زهير : اقرع أذنيه باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد :

ولربّ حان قــد شممت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعاً لكبيره ! !
والقس مما شاء طول مقــامنا
يدعو بعود حولنــا بزبوره
وترنم الناقوس عنـد صلاتهم
ففتحت من عينى لرجع هـديره

فصاح من حبـائل نشوته . أأشجعى ؟ قلت : أنا ذاك ، فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه فأفاق ، واعتذر الىّ من حاله ، فأدركتنى مهابته ، وأخذت فى إجلاله لمكانه من العلم والشعر . . »

فهذه صورة دقيقة . تشتمل على حال أبى نواس كأنك تراه ، وتمثل أمامك « دير حنة » بغزلانه ورهبانه تمثيلا رائعاً كله براعة وقوة ، والواقع أن ابن شهيد لم يستمد هذه الصورة من خياله ، ولكنه صورها من الواقع ، ونقلها كما رأى وأبصر ، فقـد كان هذا الرجل ولوعاً بالتردد على كنائس النصارى فى قرطبة لا يتحرج من المبيت فيها مع الرهبان ، يرشف الكأس ، ويبهج النفس ، ومن ذلك « أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة ، وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور وائتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقسّ قد برز فى عبـدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح :

لا يعمدون الى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حميا ، كأنما يرشف من شفة لميا ، وهى تنفح له بأطيب عرف ، كما رشف أعذب رشف ، ثم ارتجل (١) فى وصف ذلك هــذه الخمرية ، التى قرع ببعضها سمع أبى نواس ، فتنبه من حبائل نشوته ، وصحا من سكرته ! !

وابن شهيد يذكر أنه تقابل فى طريقه بصاحب البحترى بعد أن قد أنسيه معرأنه من أساتيذه . ويذكر أنه أجازه فخذله حتى لقد هرب بخزى « وكر راجعاً الى الوراء دون أن يسلم » وهذه شنشنة ابن شهيد مع كثير من الشعراء والكتاب ، خصوصاً شعراء المشارقة وكتابهم ، فهو يحدث أنه التقى « بزبدة الحقب » تابع بديع الزمان ، وبعد أن تمّ التعارف بينهما ، طلب منه ابن شهيد أن يجرى على سمعــه وصفه للماء ، فتطاول زبدة بذلك الوصف ، وقال إنه من العقم بحيث لا يبلغه أديب ، ثم انطلق يقول ، « أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة » فعارضه ابن شهيد فقال « انظر ياسيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح ، ينصب من إنائه ، انصباب الكوكب الدرىّ من سمائه ، كأنه خيط من غزل فلق ، أو مخصرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتردى ، ويصدع به قلبك فتحيا » فلما سمع ذلك زبدة غار فى الأرض ، وهو مبهوت خجل ! !

وقد حسب الدكتور زكى مبارك ذلك غروراً من ابن شهيد وعَذَره فى هذا الغرور نظراً لنبوغه وعبقريته ، والواقع أن الغرور صفة تكاد تكون ملازمة لكل أديب ، وقد يكون ابن شهيد مغروراً فى نفسه الى أبعد حد ، ولكن كلفه بالتفوق على الشعراء والكتاب لم يكن مبعثه الغرور ، كما حسب الدكتور مبارك ، فان الرجل كما قلنا كتب رسالته فى جماعة من معاصريه ، حطوا من قدره حسداً له ، وغمطوه فضله حقداً عليه ، فأراد أن يطلعهم على مكانته فى الأدب ، وأن يبين لهم قدرته فى الشعر والنثر ، ولذلك فهو يحرص على الظهور أمامهم بالتفوق والتغلب ، ليس فى اجازة الشعراء والكتاب فحسب ! بل إنه ليذكر أن التوابع والزوابع احتاروا فى أمره ، وشدهوا لقـدرته فى الشعر والنثر والخطابة ، وأن أحدهم فتن ببيت من شعره فقام ينشده ويرقص ، وأنه قرأ عليهم رسالته فى وصف الحلواء فأعجبوا بها أيما إعجاب ، وقالوا « إن لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرته من حلاوة طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك » وأظن فى الجملة الأخيرة ما يكفى للفصل بيننا وبين الدكتور زكى مبارك .

على أن ابن شهيد لم يقف عند هذا الحد من التعالى وإظهار التفوق أمام معاصريه ، بل راح يحط من قدرهم ، ويتهكم بعلمهم وأدبهم فوصفهم ببلادة الطبع ، فهم — كما يقول — ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران ، الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها فى الرقة ، ولا مدبّ فى شعاع البيان ، كل بضاعتهم من الأدب ، كلمات من غريب اللغة . وبعض مسائل من النحو

(١) مطمح الأنفس

الغــد المجهول

للأديب سيد قطب

ياليتَ شعرى ، مايُخبِّئه غدى   إنى أروحُ مع الظنون وأغتدى
وأُجيلُ باصِرَتى بها و بصيرتى   أبغِي الهُدَى فيها ، وما أنا مهتدِ
حتى إذا لاحَ اليقينُ خلالَها   أشفقتُ من وجه اليقين الأسود
وأشحْتُ عنه ، ولو أطقتُ دعوتَه
وطرحتُ عنِّى حيرتى وتردُّدى
فكأننى الملاّحَ تاه سفينُه   ويخافُ من شطٍّ مُخيفٍ أجردِ

* * *

ماذا سيولَدُ يومَ تُولَدُ ياغدى ؟   إنى أحِسُّ بهولِ هذا المولد !
سيُصَرِّحُ الشكُّ الدفينُ بمهجتى
فأبيتُ فاقِدَ خيْرِ ما ملكتْ يدى
ستروغُ من حولى عواطف لم تزلْ
تُضْـــفِى علىَّ بعطفها المتودد
ستَجِفُّ أزهارٌ يفوح عبــيرُها
حولِىَ ، وينفحُ بها الأرَجُ الندى
والمشعَلُ الهادى سيخبو ضوؤه   ويَلُفُّنى الليلُ البهيمُ بمفردى

* * *

ماذا تُخَلِّفُ يومَ تذهبُ يا غَدِى
لا شىءَ بعـــــد الفقد للمتفقِّد
ستخلِّفُ الأيامَ قاعاً صَفْصَفاً   تذرو الرياحُ بها غُبارَ الفَدْفَدِ
لا مُرتجًى يُرْجَى ولا أسفٌ على   ماضٍ يضيعُ كأنه لم يُوجد
أبداً ، ولا ذكرى تجدِّد ما انطوى
حتى التألّمُ لا يعودُ بمشهدى !
ربّاه إنى قد سئمتُ تردُّدى   فالآن فلتقدمْ بهولكَ ياغدى

والصرف لا يفهمون منها إلا ما يفهم القرد اليمانى فى الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان . . . قال ابن شهيد : « ومن خلق هذه العصابة أنهم إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق ، وهم منطوون على الحسد والحنق ، فاذا جمعتنا المحافل ، وضمتنا المجالس ، تراهم الينا مبصبصين ، وإنما يتبين تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب ، وازدحمت الحدقُ ، واستعجل المقال »؟

« للكلام صلة »   محمد فهمى عبد اللطيف

إلى طائر . . .

للأديب فايز العمروسى

إلى أى وادٍ ترسل الصوت يجتلى
سرائر هذا الليل والليــل ساهر
وفى أى معنى تبعث اللحن صارخاً
فتطويه فى جوف السكون الدياجر
وقد غفلت عين الحياة وأســدلت
على الـكون من وهم الظنون ستائر
هتكتَ حجابَ الليل يا طير فاتَّئدْ
ورفه ، فقـــد هاجت بنفسى خواطر

* * *

هنالك أعشاش على دوح شاطئ
يمازجها طيب من الروض عاطر
تداعبها الأهواء وهى عوازف   وتهفو بها الأرواح وهى فواتر
هنالك أفراخ إذا ملت نحوها   تثنت ومالت نحو فيك المناقر
فرُدْها ، وخلِّ الليل عنك لشاعر
يطوف به سهران والفكر حائر

* * *

وفى أى واد فى الظلام مقدس   هتفت به ياطير والقلب ثائر
أذلك وادى الدهر يقضى شؤونه
على الخلق والأقدار فيهـا سواهر
تطل على الأكوان فى غفلاتها   فتكشف عما خبأته السرائر
ألا حدِّث الأقدار ياطير واتّنى   بما حجبته فى الغيوب المقادر
وأكبر ظنى والظنون خواطر   بأنك مثلى فى المقادير حائر

فى النقد الألمانى

صفحة من كتاب اللاوكون

طريقة التعبير عن الفن

للنقادة ليسنغ

للأستاذ خليل هنداوى

وهكذا بعد الملاحظة وجدنا أن الفن فى العصور القديمة كان يتمتع بمقاييس أكثر اتساعاً ، وكان بامكانه أن يتناول جميع الأشياء الطبيعية المرئية التى يُعد الجمال فيها جزءاً صغيراً . فكانت الحقيقة وطريقة التعبير هما فيه المطلب الأول . وكما أن الطبيعة تضحى فى كل لحظة بالجمال بناء على نظرات لها سامية . فكذلك الفنان نفسه ينبغى له أن يخضع للطبيعة برسمه الموضوع دون أن يطمع فى أكثر من الظفر بالحقيقة والتعبير . فاذا انقادا له فقد أوتى القدرة بهما على أن يُحيل القبيح فى الطبيعة جميلاً فى الفن .

هبْ أننا نريد أن نتقبل بدون مجادلة — عمر لحظة واحدة — هذه الأفكار صالحة كانت أم سيئة . أفلا يبقى هنالك مجال فسيح لندرس سبب اضطرار الفنان إلى مراعاته مقياساً خاصاً فى التعبير دون أن ينتخب الحالة التى يكون فيها الأثر المرسوم على أشد ثورته . ولكن مثل هذا الدرس سيكون رده سهلاً بدرس تلك اللحظة الواحدة التى تحدد أوضاعها الأوضاع الفنية . فاذا كان الفنان فى الطبيعة المتقلبة دائماً لا يستطيع أن يلتقط منها إلا لحظة واحدة ؛ وإذا كان المصور بعد ذلك لا يستطيع فى هذه اللحظة نفسها أن يلتقط إلا جانباً واحداً من جوانبها ، وإذا كانت آثار هذا الرسام إنما صُنعت لا ليمد إليها الناظر عينيه فحسبْ ، ولكن ليتأمل فيها طويلاً ، فان من الحق أن هذه اللحظة الواحدة قد انتخبها المصوّر ولم تكن مخصبة كثيراً . على أن المخصب حقاً هو ما يترك حقل المخيلة وسيعاً فسيحاً يجول فيه البصر كيف يشاء .

وبقدر ما نرى الأثر الفنى عميقاً يحتوى جوه على خاطرات كثيرة نرى قدرته على توليد الأفكار ، وبقدر ما نرى توليده الكثير للأفكار نتصور أننا نرى فيه أشياء وخواطر كثيرة .

فى كل مظهر لعاطفة نرى ساعة احتدادها هى التى تنعم بهذا الامتياز وعملك على إبداء هذا التأثير المثير للعين هو أن تسلم بأجنحتك إلى المخيلة ، فاذا لم يكن فى استطاعة المخيلة أن تعلو فوق ما تريد لها صورة التعبير فهى ولابد هابطة إلى أوضاع دانية ، ووراء هذه الأوضاع يُخشى عليها أن تتقيد « بافراط فى التعبير » فيقف بذلك مدى ارتفاعها وسموها . فاذا تنهد تمثال (اللاوكون) كان فى استطاعة المخيلة أن تسمعه يصيح ؛ ولكنه إذا صاح أصبحت المخيلة لا تستطيع أن تعلو درجة ولا أن تسقط درجة عما تفرضه الصورة . ولا تقدر أن تفرض جواً له أكثر احتمالاً وإن كان بنتيجته أكثر اعزاء . وإنما هى مضطرة إلى حالتين : فاما أن تسمعه ينوح وإما أن تراه يموت .

وبما أن هذه اللحظة الواحدة قد اكتسبت بواسطة الفن خلوداً لا يتغير فلا يجب عليها أن تُعبر إذ ذاك عن شىء يعرض ويزول . فان كل الحوادث التى تحكم عليها بطبيعتها تبدو وتتوارى فجأة ، والتى لا يمكن تمثيلها بحقيقتها إلا لحظة واحدة ؛ هذه الحوادث

مهما كانت طبيعتها إنما تمثل على قدر الخلود الذي وسمها به الفن منظراً غير طبيعي ؛ كلما مددنا إليه أبصارنا ضعف تأثيره فينا حتى لا يبقى بعد ذلك من هذا التأثير وهذا المنظر إلا الملل والسأم .

أنظر إلى تمثال (ديموقريطس) (١) الفيلسوف اليوناني الضاحك من جنون الانسان ، فانه لا يضحك إلا للوهلة الأولى حين تراه ، ثم يغدو الفيلسوف بليداً وضحكته تشنجاً ملتوياً ، وكذلك الحال في الألم الشديد الذي يرافقه الصياح ، فهو إما أن يهدأ ، وإما أن يشوه وضع المتألم ويذهب بجماله ، وإذا كان الانسان الجلد القوي لا يقدر على مواصلة الصياح بصورة دائمة ، فكذلك الأمر في الصورة التقليدية الفنية تحيل مواصلة الصياح فيها ضعفاً لا يأتيه إلا الأطفال في ساعات الألم . وهذا ما تحاشاه رسام (اللاوكون) في نفس اللحظة التي لا يضر الصياح فيها مظاهر الجمال . وفي نفس اللحظة التي تبيح له قواعد فنه ان يمثل الألم بدون الجمال .

قد أدرك الرسام (تيموماك) بين معاصريه الأقدمين مقاماً سامياً لحذقه التعبير عن الأهواء الجامحة . فللخلود صنع صورة (اجاكس الغاضب) وصورة (ميدى) الساحرة وهي تقتل أولادها . وبعد هـذه الأوصاف التي جئنا بها نقول : قد اتضح أن الفنان قد وقف على تلك اللحظة التي ترك فيها الناظر سارحاً في تأملاته يدرك من معاني التمثال هـذه القسوة العنيفة الملتهبة أكثر مما يرى . . . فهو لم يأخذ (ميدى) في اللحظة التي قتلت فيها أولادها ، ولـكنه رسمها قبل لحظات حين كانت تتنازعها عاطفتا الأمومة والغيرة . إنما نحن نتنبأ نهاية المعركة ، ونحن نضطرب إذ نراها في ثورة غضبها ونقمتها . ومخيلتنا قد تذهب في مسارب أبعـد غوراً قبل أن يحملنا الرسام على النزول في مساربه في مثل هـذه الساعة الهائلة . وبهذا وحده نرانا أمام هذا (البقاء) (٢) الذي يفرضه الفن لحيرة هذه الأم كمن ارتطم بشيء . إذ نريد أن يكون الوضع في الطبيعة كهذا الوضع ، حيث لا تنتهي معركة الأهواء في النفس ، واذا قدرلها الانتهاء انتهت ناجحة حتى يستطيع الزمن وإدمان التأمل أن يضعفا الغضب ويخففا غرب الحدة ، ويحققا انتصار عاطفة الأمومة . وحكمة هذا الرسام قد رفعته مقاماً عالياً ، ووضعت مرتبته فوق مرتبة رسام غيره مجهول ، إذ أراد هذا المجهول أن يرسم (ميدى) وكان غير فطن ؛ فرسمها في ثورتها العنيفة ، فأعطى هذه الثورة الخالية من صفة البقاء ما يتجاوز الحد الطبيعي ، وهنالك شاعر نظر إلى هذه الصورة وقد انتقدها بعقل صائب ، وناجى الصورة : «هل أنت ظمأى إلى الأبد لدماء أبنائك ؟ هل هنالك ولد لك جديد وابنة جديدة ، تجددين من أجلها غضبك وتصبين سوط نقمتك ؟ ألا فاذهبي إلى الشيطان وأنت بهذه الهيئة المرسومة » .

والصورة الثانية صورة (اجاكس الغاضب) لم يمثله الرسام في غضبه العنيف حين كان يقيد البهائم ويقتلها بدل الناس ، وإنما رسم هذا الرجل بعد هذا العمل الوحشي وقد أنهكه التعب وغلب عليه الوجوم وهو يتأمل في عاقبة عمله . . هـذه الصورة تمثل حقاً (اجاكس الغاضب) لا لأنها تمثله في سورة غضبه ، ولـكن لأنها مثلته بعد غضبه ، ولأن الناظر يدرك بواطن هذا الغضب من وراء الوجوم الذي يراه مرتسماً على وجهه ، واليأس البادي على ملامحه ؛ ألا يرى الناس العاصفة إذا رأوا الخرائب التي دمرتها والجثث التي بعثرتها على التراب ؟

(بيروت) خليل هنداوي

(١) ديموقريطس فيلسوف يوناني كان يضحك من جنون البشر كما كان هيراقليطس يرثي لهم .

(٢) المراد بالبقاء الهيئة التي تبرز بها الصورة وتتحلى بها أبداً .

العلوم

٣ - بحث فى أصل الانسان

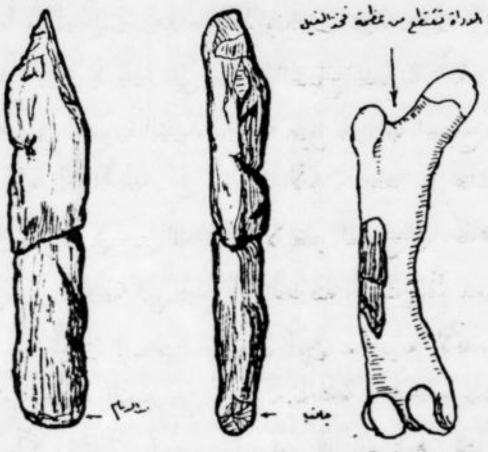
بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

مهارة الانسان الأول :

لم يكن الأنسان الأول إنسان عقله وتركيبه فقط ، بل كان إنساناً تميزه حقائق أخرى كثيرة عرفناها عنه . وإن الأدوات الحجرية التى وجدت عن ذلك الوقت الغابر لا تدل على مدى تفكيره فحسب ، بل تدل على ميل للفن والمهارة فى الصناعة.. وقد وجد المستر داوسون Mr. Dawson قطعة مستطيلة من العظام المتحجرة شكلتها يد الانسان القديم لتقوم له بوظيفة صنعها من أجلها ، وتشـبه فى شكلها شكل مضرب اللعبة المعروفة « بالـكريكيت » وحالة التحجر ودرجته تماثل تماماً ما وجد فى أقدم عصور إنسان البلتداون . وعند فحص هذه القطعة العظمية اكتشف أنهـا قد اقتطعت من عظمة فخذ نوع من أنواع الفيلة الضخمة البائدة التى تشبه المـاموث كانت تعيش فى انجلترا فى أوائل عصر البليستوسين (شكل ٥) ؛ فانسان البلتداون كان ذكياً ماهراً الى حد ما ، أو لدرجة أوصلته الى أن يشكل من عظام فخذ هذه الفيلة أسلحة مشوهة الشكل ، ومن العدل حينئذ أن نضيف الى ذكائه ومهارته شجاعته وقدرته فى الصيد والقنص .

سبق أن بينت أن إنسان الـكهوف Cave Man كان أسير التقاليد والأزياء . وكيف كان نوعُ وشكل واحد من أنواع الأدوات أو الأسلحة أوغيرها يعم استعماله القارة كلها ، وكيف أن بقاء الزى الواحد كان لمدة أطول بكثير مما هو عليه الآن .

وإذا نحن بعدنا إلى عصر الأودية فاننا نجد براهين أخرى على ما ذكرنا . حقيقة لا يمكننا معرفة وقت بدء استعمال هذه الآلات والأدوات الحجرية سواء فى عصر الأشيلية والشيلية



شكل (٥) وجدت أدوات من العظم طول الواحدة ١٦ بوصة قطعها بلا شك انسان البلتداون واستخدمها كسلاح يدافع به عن نفسه أو يستعملها فى صيد ما يقابله من وحش
(نقلا عن رسم سير سميث وودوارد)

أو البريشيلية ، إلا أنه يمكننا مع ذلك أن نقول واثقين كل الثقة أن المرأة كانت تحمل نفس الشعور والحواس النفسية التى تدفع أى امرأة فى أى عصر من العصور الى طريق العبودية للأزياء . وفى الوقت الحاضر بما فيه من وسائل مواصلات حديثة ، يكفى الزى الواحد أسابيع قلائل كى ينتشر ويعم استعماله العالم أجمع ، ولو أنه سريع الذهاب قليل البقاء أو الثبات ، وهذا الأمر هو ميزة العصر الحـالى ، عصر السرعة والتقلب فى كل شىء . بعكس القديم الذى نحن بصدده ، والذى ذكرنا فى فقرتنا السابقة أن انتشار الزى الواحد كان يلزمه وقت طويل ، ولـكنه عند ماينتشر يستمر عشرات آلاف السنين دون أن يتغير .

قد استطعنا من الآثار والمخلفات التى وجدناها فى المقابر والـكهوف وسواها أن نتتبع تاريخ حياة الانسان من نحو مائتى الف سنة ، وبذلك وصـلنا الى عصر من العصور سماه علماء الجيولوجيا عصر البليستوسين Pleistocene . ولدينا من البراهين

القوية ماثبت أن الانسان فى هذا العصر قد وُجد كامل التكوين جسما وعقلا ، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين لأن نرجع الى ما قبل هذا العصر ، الى عصر أطلق عليه اسم عصر البليوسين Pleiocene وبذا نجد أن مخلفات العصر السابق ليست ذات أهمية لنا ، ونجد ضروريا أن نبحث عن آثار أقدم . وقد وجد أن الأنهار الشمالية ومنها التيمس والرين والألب وغيرها تحفظ فى قاعها وبين طبقات شواطئها من مخلفات العصر الذى نحن بصدده ما يجعلها تفوق فى الأهمية أى متحف جيولوجى أو طبيعى .

كانت مصبات الأنهار الشمالية تصل الى أقاصى القارة الأوربية وتصب فى بحر الشمال . وكانت انجلترا تتصل بباقى أوروبا عن طريق سهل فسيح جداً ممتد بينها وبين القــارة . الا أن هذا السهل قد ذهب ضحية عوامل الانخفاض فى القشرة الأرضية فغمرته المياه ولم يبق منه إلا شريط مستطيل رفيع يمتد فى شرق انجليا . وإنك لترانا ما زلنا فى بحثنا عن إنسان البليوســين نعتمد على مخلفات الأنهار وما تحفظه المجارى المــائية بين طبقات قاعها أو كهوف سواحلها . وحقيق بى أن أذكر هنا عبارة Sir Arthur Keith حين قال :

« All rivers write history; the geologist deciphers their hieroglyphs for us. »

وهذا معناه أن الأنهار تحفظ لنا بين ثناياها التاريخ الصحيح لقــديم الزمان ، وعلى العالم الجيولوجى أن يقرأ لنا هذا التاريخ ويفسر ما التبس منه وما غمض .

قلنا إن شرق انجليا يكون جزءاً من سهل بحر الشمال البليوسينى ، فاذا كان هناك إنسان قد عاش فى أوربا وسكنها فى ذلك العصر فلا بد أن نجد آثاراً أو مخلفات تدل على سابق وجوده . وقد حدث أن المستر ريد موير Mr. J. Reid Moir بدأ يبحث فى طبقات البليوسين فى شرق انجليا فلاحظ أنه على أعماق مخصوصة وجد قطعاً صخرية صماء دلّته دلالة لا نقض فيها على أنها من عمل الانسان . وبعــد سنوات عديدة أمكنه أن يكوّن مجموعة من هذه الصخور تختلف اختلافاً بيّناً فى الشكل والنوع عما وُجد من مخلفات عصرى البريشيليان والشيليان . ثم وجه بحثه وراء إنسان البليوسين فبحث فى شواطىء سفولك ونورفولك ، حيث تكشف الأمواج المتلاطمة عن طبقات الربوات العاليــة البليوسينية . وقد ساعده الحظ فى العثور على صخور نارية دلت على عمل الانسان (شكل ٦) وقدرته على التشكيل والابتكار . لكنه لم يعثر ولم يعثر غيره على هيكل متحجر من هياكل ذلك الانسان الذى صنعها وشكلها فى تلك الأزمنة السحيقة المتناهية القدم وهى عصر البليوسين

وقبل أن نتقدم بعيداً عن ذلك نقف لحظة هنا لنقدر عمراً لهــذا العصر . قال العلماء إن سمك طبقات البليوستوسين يبلغ ٤٠٠٠ قدم ، وأن سمك طبقات البليوسين ٥٠٠٠ قدم . فاذا علمنا أنه يلزم لترا كم طبقات البليوستوسين (٤٠٠٠ قدم) ٢٠٠ ألف سنة فانه من الممكن أن نقول إن طبقات البليوسين (٥٠٠٠ قدم) تحتاج الى ٢٥٠ ألف سنة أى ربع مليون سنة . وهذا ما يمكن أن نقدره عمراً لعصر البليوسين . وقد كانت أقدم جهة وجد فيها

ريد مور مخلفاته الصخرية تقع في خمسي المسافة ، فاذا اعترفنا بذلك وجب أن نعترف أنه من مدة تبلغ نحو ١٫٣٠٠ ألف سنة كان يسكن العالم عنصر بشرى كان له من الذكاء والقدرة ما كشف له عن طريق عمل واستخدام الآلات والأسلحة .



شكل (٦) نماذج من أدوات مصنوعة من الصخر النارى من عصر Eoliths تدل على تفكير ومهارة قام بهما الانسان الأول
(نقلا عن رسم مستر ريد مور)

ولم تكن صخور ريد مور التي وجدها في شرق انجليا أقدم آثار لعصر البليوسين ، لأن هناك جهة تعرف باسم N. Drowns of Kent لوحظ أن بها مناطق لا تجرى فيها مجار مائية في العصر الحالي وإنما تدل الدلائل على أنه كانت توجد بها أنهار سريعة الجريان . وذلك من البقايا الرسوبية التي وجدت . في هذه الجهة بدأ بنيامين هاريسون بحثه في عام ١٨٦٤ فوجد أدوات صخرية نحتتها يد الانسان ، وقد سميت هذه الصخور باسم Eoliths ، ويعترف ريد مور أن هذه الصخور أقدم مما وجده في شرق انجليا . وقد وجد مدير دار الآثار الملكية البلجيكية في Belgium Rutôt أمثلة أخرى كثيرة لمحاولة الانسان الأول تشكيل الصخور واستعمالها أدوات وأسلحة .

ولم يقتصر البحث على مخلفات الطبقات الجيولوجية لمناطق بحر الشمال البليوسينية ، بل تعداها إلى كل أنحاء العالم . ففي هبترلاند وفي السهول الشمالية لأواسط آسيا دار البحث والتنقيب عن إنسان البليوسين .

ولعل الدكتور هنرى فيرفيلن أوزبورن Dr. H. F. Osborn كان يتوقع العثور في آسيا على الحلقة المفقودة لسلسلة تطور الانسان في مخلفات عصر البليوسين .

وبرغم الأبحاث المتوالية والجهود الجبارة التي قام بها العلماء في مختلف جهات العالم ، لم يعثر إلا على بقايا فرد واحد من العنصر الذي عاش في عصر البليوسين ، وجد في منطقة ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ٥٠ قدماً وتقع على الساحل الشرقي لنهر بنجوان Bengawan في أواسط جاوة ، وقد عثر عليه شاب هولندى طبيب ذهب الى جاوة سنة ١٨٩١ واثقاً من عثوره على ما يدله على خطوات التطور الانساني في هذه الجهة .

وكانت شواطئ نهر البنجوان غنية بالهياكل المتحجرة لحيوانات بائدة ، ولذلك استرعت هذه الجهة نظر الطبيب الشاب فوجه بحثه اليها .

الحلقة المفقودة

وبعد بحث وحفر طويلين وجد هيكلا لمخلوق غريب أطلق عليه اسم Pithecan thropus أى الانسان القرد ، إذ أنه قد ظن أنه وجد بقايا من يتكلم عنه الناس أجمع ولم يروه ، ألا وهو الحلقة المفقودة بين القرد والانسان .

وقد ظهر أن هذه الطبقة الأرضية التي وجدت بها بقايا هذا العنصر أو المخلوق لم تتكون إلا في أواخر عصر البليوسين ، ولذلك يمكننا أن نقول إنه اذا كان هذا الانسان القرد عاش هو وإخوته وأعمامه وأخواله وكل أفراد عائلته في جزيرة جاوة في العصر الذي تم فيه تكوين طبقات شرق انجليا ، فانه يمكننا أن نقدر لعصره عمراً يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف سنة .

بعد أن قدرنا هذا العمر لهذا المخلوق العجيب يجب علينا أن نبحث لنعرف نوع هذا المخلوق وأصله . فما الذي وجدناه منه ؟
كل ما عندنا من آثار : غطاء الجمجمة ، عظمة فخذ ، ثلاث أسنان منها ضرس من أضراس العقل .

فلندرس هذه كلها ، ولنر ما يمكن أن تكشف لنا عنه .

(يتبع) نعيم على راغب

البريد الأدبي

ذكرى الفردوسي

تحتفل الحكومة الفارسية فى هذه الأيام بذكرى الفردوسى الشاعر الفارسى الكبير بمناسبة مرور ألف عام على مولده . ولا يعرف تاريخ مولد الفردوسى بالتحقيق ، ولكنه يوضع عادة بين سنة ٩٣٥ وسنة ٩٤٠م ؛ وكانت وفاته نحو سنة ١٠٢٠ م . واسمه الحقيقى هو أبو القاسم منصور ، وأما الفردوسى فهو اسمه المستعار . وأعظم آثاره قصة « الشاهنامة » الشهيرة ، وضعها نظما ، واستمد موضوعها وحوادثها من تاريخ فارس القديم . وترجمها بالعربية نثراً الفتح بن على البندارى . وقد ترجمت الشاهنامة الى بعض اللغات الأوربية كالانجليزية والفرنسية والألمانية وظهرت منذ أوائل القرن الماضى . وظهرت الترجمة العربية مكملة محققة منذ عامين بعناية الدكتور عبد الوهاب عزام ، أستاذ الفارسية بالجامعة المصرية .

وقد اهتمت الحكومة الفارسية بتنظيم هذا المهرجان الأدبى اهتماماً عظيما ، ودعت معظم الحكومات والجامعات والهيئات العلمية لشهوده بصفة رسمية ؛ وسينزل المندوبون الرسميون ضيوفاً على الحكومة الفارسية منذ دخولهم الحدود الفارسية ؛ وتنظم الحفلات والزيارات الأولى ما بين الثالث والثامن من اكتوبر . ثم يفتتح جلالة الشاه الاحتفال الرسمى الكبير فى الثانى عشر من اكتوبر فى مدينة طوس حيث يرقد الشاعر العظيم ، وسيكون الافتتاح برفع الستار عن أثر تذكارى أقيم تخليداً لذكراه .

وقد وفد على فارس مئات من العلماء والمستشرقين ممثلين لحكوماتهم وجامعاتهم ؛ وانتدب لتمثيل مصر فى هذا المهرجان العظيم الأستاذان عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادى . وقد بلغ عدد المدعوين الى حفلة ذكرى الفردوسى الألفيـة من أوربا وأمريكا ٩٠ عالماً ، ومن الشرق الاسلامى ٢٤ ، وأعدت لهم الحكومة جميع مظاهر الضيافة والكرم ، وسيعودون الى بلادهم فى ٢٥ اكتوبر إذ تنتهى الاحتفالات القومية الفارسية .

وترجو الرسالة أن توافى قراءها بتفاصيل شائقـة عن هذا المهرجان وعن الخطب التى ستلقى فيه .

ألمانيا تحتفل بذكرى الفردوسى

احتفل فى برلين بذكرى مرور ألف سنة على مولد الفردوسى شاعر الأمة الفارسـية بحضور بعض سفراء الدول الأجنبية وأساتذة الدراسات الشرقية من الألمان .

وقد تكلم المستشار وهلن باسم وزير المعارف فقال : إن الفردوسى قد أثبت القرابة الموجودة بين أوائل الفرس وأوائل الجرمان ، وتكلم سفير فارس فقال إن الفرس سعداء فخورون لأن كلمة إيران التى تطلق على بلادهم معناها : وطن الشعوب الأرشية الآرية الأوربية .

اللغة الفارسية

يدور فى محافل وزارة المعارف الايرانية أن هناك فكرة ترمى إلى عقد مؤتمر لغوى فارسى بعد الاستئناس بآراء المستشرقين الموجودين فى طهران لحضور حفلات الفردوسى . والغرض من هذا المؤتمر هو : آلأصلح أن يستمر تقـدم اللغة الفارسية فى طريقها الحاضر مع إحياء المفردات القديمة ، أم اقتباس طريقة مصطفى كمال فى جعل اللغة التركية مجردة من الألفاظ العربية وسواها ؟ ويؤيد الرأى الأول فريق الشباب . أما المعارضون فهم أكثرية الشعب الايرانى لاعتبارات دينية وتقليدية .

اللغة التركية

إن المؤتمر اللغوى التركى قرر أن يكون يوم ٢٦ أغسطس من كل سنة ، وهو اليوم الذى انعقد فيه المؤتمر الأول ، عيداً قومياً للغة التركية فى جميع أنحاء الوطن التركى . وكانت الجمعية قد احتفلت بهذا العيد فى العام الماضى احتفالاً اقتصر على إقامة مأدبة رسمية فى مركز الجمعية فى أنقرة . أما فى هذه السنة فإن النية اتجهت إلى صبغ هذا الاحتفال بالصبغة القومية العامة ، وفى اليوم المقرر ياقى أعضاء لجان حزب الشعب الخطب والمحاضرات بواسطة

الراديو لتعميم فكرة استقلال اللغة القومية . وفى هذا اليوم تصدر الصحف التركية أعداداً خاصة تتناول فيها الموضوعات المتعلقة بمسألة اللغة القومية وتركيزها .

أول مؤلف فى اللغة اليابانية عن الاسلام

نشر فى طوكيو أخيراً كتاب جليل باللغة اليابانية اسمه « تطور الأمم الاسلامية » عنى بتأليفه ونشره الأستاذ أوقوباشى خدمة للاسلام ، ويجمع هذا الكتاب بين دفتيه خمسمائة صفحة من الحجم الكبير زين معظمها بالصور الشمسية التى تمثل نواحى الحياة والعادات فى بلاد الاسلام .

والكتاب يحوى كثيراً من المعلومات العامة عن الاسلام وأهله ، وقد اعتنى مؤلفه بعالم الترك اعتناء عظيما فنشر فيه مقالات وفصولاً طويلة فى تاريخ الترك والمدنية التركية ، وأحصى الدول التى أنشأها الأتراك ، وأعرب عن وحدة المدنية التركية بوضوح تام ، ثم وضع الانقلاب التركى الأخير فى مكان رفيع ، وشرحه للأمة اليابانية شرحاً وافياً كما شرح أحوال الأتراك المقيمين فى روسيا والصين ، وأسهب فى الكلام عن المسلمين عامة ، وزين الكتاب بصور عظماء المسلمين من أتراك وغيرهم كما زينه بصور زعماء ايديل أورال وتركستان وقريم وقوقاز .

البحث عن أصل النور

سبق أن نشرنا بحثاً مستفيضاً عن النور (الغجر) وخواصهم ، وما زالت آراء البحث الحديث متضاربة فى أصل ذلك الشعب البدوى الجوال ؛ وأكثر الباحثين على أنهم نزحوا فى الزمن الغابر من الهند الى الشرق الأوسط ، ثم تسربوا بعد ذلك الى مختلف الأقطار الأوربية . وما زالت منهم جموع عظيمة فى المجر ورومانيا وبولونيا وتركيا وأسبانيا وغيرها . وتعنى معظم الحكومات بتحضيرهم وتهيئة عوامل الاستقرار لهم لتجعلهم من الرعايا الخاضعين للقانون . ولكنها لم تنجح حتى اليوم فى تحقيق هذه الغاية . وقد ألفت أخيراً لجنة علمية دولية لتقوم بالبحث عن أصل النور ، وعن منشئهم الأول ، فى الهند ذاتها ، وفى نفس المنطقة التى يظن أنها كانت موطنهم الأصلى ، وهى منطقة تسمى « زجر بستى » وتقع بين نهرى الكنج والسند . وتتألف هذه البعثة من عضو انكليزى هو الأستاذ فرنك فيلو ، وعضو أمريكى هو الأستاذجا كوب كوركى ، وعضو رومانى هو الأستاذ لازوريكا وهو نورى الأصل ، وعضو بولونى ؛ ويصحب البعثة الأستاذ فالنى كانجا الرومانى ، وهو علامة فى اللغة السنسيكرتية التى يظن أنها أصل اللهجات النورية ؛ وسيقوم ببحث الوثائق التى يمكن الحصول عليها من المعابد والأديار البوذية والبرهمية بمعاونة الحكومة الهندية ، وقد يكون فيها ما يلقى الضياء على حياة النور الأصلية وهجرتهم من موطنهم فراراً من اضطهاد المغول أيام جنكيز خان وتيمور لنك ؛ وستزور البعثة اقليم مالا بار حيث توجد طائفة تتكلم لغة فيها كثير من العبارات والألفاظ التى توجد فى لهجات النور . وستنشر البعثة خلاصة مباحثها عن النور فى كتاب لاريب أنه سيثير عند ظهوره كثيراً من الاهتمام .

سر الحياة

قرئت أخيراً أمام أكاديمية العلوم الفرنسية وثيقة غريبة أودعها بالأكاديمية نائب وعلامة اقتصادى يدعى فرنسيس لور فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، واشترط ألا تفتح الا فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وكثيراً ما تودع بالأكاديمية أمثال هـذه الوثائق ، وتحترم الأكاديمية رغبات مودعيها . وإليك نص هذه الوثيقة الغريبة :

« أعتقد أننى قد استطعت وضع طريقة لأطالة الحياة . ولكنى لما كنت مهندساً ، فانى لا أعتقد بالنظريات إلا إذا تحققت بالعمل . ولهذا فانى أعلن اليوم أننى أريد أن أعيش حتى يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ على الأقل ، وفى هـذا التاريخ أكون قد بلغت سن التسعين ، وهى سن أرجو أن أبلغها ، إذا كنت مصيباً فى طريقتى لاطالة الحياة » . وقد توفى المسيو فرنسيس لور فى شهر مايو الماضى ، أعنى قبل الميعاد الذى حدده لوفاته بأشهر قلائل فقط . ومعنى هذا انه بلغ أمنيته ومات معمراً فى سن التسعين . ولكن الذى يؤسف له أنه لم يرفق تصريحه ببيان طريقته ، وعلى أى حال فسواء أكان هذا العمر الطويل نتيجة نظام غذائى أم أية تحوطات صحية أخرى ، فانه مما يدعو إلى الدهشة أن يؤكد هذا المعمر أنه سيعيش أربعين سنة ثم يعيشها حقاً . وقد أحيلت وثيقته إلى القسم الطبى بالأكاديمية لبحثها .

القصص

مقطفة

للأستاذ ابراهيم بك جلال
وكيل محكمة أسيوط الأهلية

كنا فى حاضرة صغيرة فى صعيد مصر ، يجرى فى سفحها النيل زاخراً فياضا ، وينطلق بين أغوارها رعاة الماشية فى إثر الكلأ ، وتستقيم على أنجادها بواسق النخيل يسطع بريق الضحى من سعفها كالأسنة فى متون القنا .

وكان فى أقصى المدينة خليج صغير يأخذ من النيل ، يجرى فيه الماء غديراً رقيقاً ، يفيض بركة ويمناً حول ربوة عالية فيها أكواخ بالية لقبيل من الناس ، عدتهم بين العشرين والثلاثين ، فيهم الشيخ والطفل ، وبينهم حفنة دون العشرة أهل بأس ونجدة .

وتمتد أكواخهم فى ذرى النجد كالحة الجدران ، تنساب بين شعابها عنزات عجاف ، وتنيخ بأفنائها الأباعر ، وتسبح فى أفقها أسراب الحمائم .

ولأهل ذاك القبيل حقل صغير فوق الربى العالية عزّ على القوم سقياه ، فشقوا له فى السفح ثلاثة « شواديف » ، يستقى أدناها من ماء الخليج فيسقى الذى يليه ، وذاك يحمل ما تعلل به من البلل إلى الثالث ، وذلك يلقى سقياه الى الحقل .

ويتناوب أهل النجد تلك الشواديف ؛ فهم أبداً جاثون تحت السعير المتقد من جمرة الصيف فى أسمال كشفها البِلى عن سواعد دونها الفولاذ ، فيشتدون فى ساريات الشواديف جذباً ودفعاً حتى يستوفى الحقل رياً ، فيُفيئون الى صفصافة فى الحى بها ظل وارف .

وكنا فى دهشة الحرب العظمى ، نخيم حول المدينة طائفة من جنود بريطانية يحرسون شعاب الصحراء ومفاوزها من أشياع السيد السنوسى ، فكنا نصطبح بفرسانهم دارعين يمشون الى المصاف ثم يعرجون الى المضارب .

وجاء فيض النيل غمراً كأحسن العهد بالوفاء ، وجرى الماء كثيفاً فى خليج أهل القبيل . فاندفع الغلمان يسبحون فيه ، وتوافد النساء يرتعن ويلعبن .

وكان بالنجد عذراء فتيـة . لونها الخمر اذا صفا ، وغرتها البدر ، وخطرتها الظبى ، وحدقها المها ، تسرى بين الربى فى قميص قُدَّ من قُبل فى غير إثم ولا حرج . وفى خصرها نطاق من نسيج قرمزى كبرزخ الحسن . يعلو بك صعداً الى معاقد ما بين ثدييها حيث الفتنة نائمة ، ثم يهوى بك الى كثيب تنوء به ساقاها .

ونشأت « مقطَّفة » فى حمى اليتم . فكفلها أخواها تحت جناحى رحمة ، وجمعا لها زخرف الثياب والعقود والأقراط ، وجمّلا قدميها بخفين فيهما كل طىّ من صنع المدينة ، وضربا لها خدراً كريماً بين الحى ، فاذا أقلها الخدر وربض أخواها ببابه بات عريناً دونه جبهة الأسد .

وكرّت مقطفة الى مشرع الخليج وحولها أتراب من الغوانى ، فأشرق النجد أغواره ورباه ، ونضت ثيابها عن قامة كالغصن ، فغمرها مدلا بروعة حسنها . ونسج الأتراب من معاصمهن حولها شفقاً رقيقاً كالذى نراه عند مغيب الشمس ، فكانت غرتها تشرق بينهن ثم تغرب فى دجى فرعها .

وقدمت فصيلة من جنود الانجليز الى الخليج أفراداً وجماعات حتى أكملوا المائة . فنزعوا نعالهم الغليظة ، وبعثروا فوق الثرى قلانسهم ومناطقهم ، ثم نضوا بقية الثياب وافترشوا أديم الأرض ، يستقبلون النيل فى فورته واندفاعه الى الخليج ، وكانوا بمعزل عن أهل الحى تحجبهم هضاب وشعاب .

وخرج من صفوفهم فتيان يسبحان فى الماء ، وظلا فى مرح واستباق وتراش بالماء ، حتى رنت فى أفقهما أغاريد بنات الحى من أقصى الخليج ، فهوى أحدهما الى القاع يسترق الخطى ويسبح

الهوينا . حتى كشف له عذارى النجد كالحلقة المفرغة حول « مقطفة » .

نخاب لبه ما صاغ المشرق من الحسن ، فهو كامن فى أفنان النخيل ، وطيف النسيم العليل ، وصفاء الماء السلسبيل . وملاحة ذلك القد الأسيل .

وسرّح الافرنجى حدق المأخوذ فى دمية النجد وغانية الحى ، وبهره وضح جبينها ودقة تكوينها ، وسولت له الفتنة أن يستقى حميا ذلك الثغر المصفى .

ونم على الذئب حر أنفاسه فنفر الظباء فى ذعر وفَرَق ، وتخلفت مقطفة تجمع أشتات العقود والعصائب ، وأسبلت قميصاً فضفاضاً يجرى ماء الحسن من جيبه إلى ذيله ، وهمت فى إثر أترابها لولا أن لاحقها الافرنجى فرأت بشراً من غير معدنها فى قميص مندى يكاد يلوكها بماضغ عينيه ، ويعتصر جموح غريزته الملحة ، فمد يمينه إلى جيدها الغضّ ، ولـكنها انتثرت كما ينتثر العقد بدداً ، وفرت إلى خدرها تملأ الحى رجعاً موجعاً والرجل يشتد فى إثرها ، وتعلقت فتاة الحى بذروة خدرها ولوحت لأهلها بالعصائب القرمزية فكانت نفير النجدة .

وأبطأ الفتى الجندى على رفاقه من الانكليز . فخفوا فى أثره وتسنموا ذرى النجد ، فخرج عليهم من ظلال الصفصافة حفنة من الفتيان غضاباً للأعراض والأحساب الـكريمة ، يحملون ساريات الشواديف وفلولاً من أعجاز النخيل ، وانهالت الساريات تدق الضلوع ، وتفلق الهام ، وتطهر باب الخدر بالدماء ، واستعر لهب الملحمة واشتد أوارها . وصرع من عامة الجنـد نيف وثلاثون .

وجاء النذير الى دار الشرطة بالمدينة ، فقدموا على ضوامر الخيل ، وطوقوا الحى سهله ونجاده . وحمل الجرحى الى مضاربهم . وسيق الفتيان الى السجن مصفدين فى الأغلال .

وحشر أهل المدينة فى الدروب والمشارق يستعرضون تلك الفئة القليلة التى غلبت فئة كثيرة باذن الله . فاذا هم بضعة نفر من البـدو غرا محجلين ، يمشون فى سكينة وعزة ويقين ، مشية آبائهم مفاتيح النصر الى اليرموك والقادسية ، حيث دكوا عروش الروم وفارس . وجاء على أعقابهم نساء النجد يبكون حماة الحريم ورفات المجد القديم . وفى طليعتهن مقطفة تندى النقاب . وتهتك الحجاب . وتندب الأهل والأصحاب .

وعقد مجلس التحقيق فـكان مستفيضاً ، وطال أمده يومين كاملين .

وجاءت البينات من جنود الانجليز تشهد جراحاتهم وما تركت الساريات بأضالعهم وسواعدهم وأعجازهم وهامهم ، وأنف حماة النجد من الـكذب ، وراحو يصورون للقاضى ما كانوا فيه من دعة وسـكينة بين الأهل والولد ، حتى وثب الجند بالعقائل يستحلون المحارم ويستبيحون الخدور ، فقامت سواعدهم بغريزة الذود وسجية الدفاع المشروع .

وكشف للناس فرسان من الانجليز يمشون فى ركاب أمير الجيش إلى المحكمة ، ودخل القـائد مجلس التحقيق فى عتاده وشارات حسن بلائه ، فساور القوم قنوط ويأس وظنوا بالله الظنون . وظلوا واجمين بالباب محتسبين عند الله أكرم القرابين .

ولهم معذرة ، فان مصر كانت فى أغـلال عرفية لاخيار لها ولا سلطان .

واستنار القائد بدخائل التحقيق وأسراره فنهض إلى الوثائق يجمعها ويطوى سجلها ويحكم رتاجها ، ثم عاد إلى مضاربه وبين يديه الجارمون من أهل النجد .

وهلل الفجر فغصت محاريب المساجد بأهل الدعاء ، يرفعون العقائر ويعلنون السرائر ، وتوارى بعضهم بين الشعاب المفضية إلى المضارب يتسمعون دوى البنادق وزفرات الشهداء .

فـكشف للناس فى أفق الصبح قوافل من السيارات تنوء بالعتاد والمضارب وفيها أشباح يخفقون ، وهى تطوى ما بين المضارب والمحطة .

وسارع الناس فرادى إلى الأفاريز فتبينوا بارقا من الرحمة ، وتوسموا الخير كله فى نواصى السيارات . فقد كان ركبها من الذين استباحوا حمى مقطفة وأهل نجدها ، طوح بهم القائد إلى أطراف الديار .

وذخر القطار يمشى بهم فى غير ذمة الله تشيعهم من ناحية القائد عين ناقة متبرمة .

وأومأ أمير الجيش إلى سيارة موصدة فانفرجت عن فتيان النجد فى أمن ودعة ، واستمعوا حكم البراءة مهللين مكبرين ، يلوحون بالعمائم ويعلوون الأفق حمداً وثناء على مكارم القائد ونبله . وتقدمتهم إلى النجد مقطفة تلوى عصائبها القرمزية ، وحولها حلقة مفرغة من بنات الحى يغنين نغم البيد ، ويرتلن حلو الأغاريد .

ابراهيم جلال

الكتب

ابنـــة الشمس

بقلم فرنسيس شفتشي

نشرت مجلة « الرسالة » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٢٤ سبتمبر الماضى نقداً لحضرة الأديب الفاضل (الخفيف) عن روايتى ابنة الشمس . وإنى لأتقدم بمصافحته ، راجياً أن يكون ذلك بدء التعارف بيني وبينه ، وأرى لزاماً فى عنقى أن أشير قبل كل شىء الى روح النزاهة التى بدت فى نقده ، وعدم تأثره بأية عوامل فى اصداره ذلك النقد ، وهو ما أرجو أن يتقبل عنه منى خالص الشكر ، غير أنى قد رأيت أن أدفع المآخذ التى أخذها حضرته علىّ بما يأتى :

قال حضرة الناقد المحترم : إن عقدة القصة مبهمة ، وإننى لم أوفق الى انتخاب حادثة رئيسية ، فهنا بنت اتات تحب بنطاؤر ، وهنالك نيفرت تحب مينا ، وهذا رئيس الكهان يشترك مع والى مصر فى إثارة الشعب ضد الملك ، وهذا بعاكر قائد الطليعة يريد أن يكيد للملك .

ولعل حضرة الناقد يوافقنى على أن الرواية المسرحية لا يجب أن يكون قوامها حادثة واحدة ، ولكن محور واحد تدور عليه الحوادث المختلفة ، وإن قليلاً من الامعان فى روايتى يبين للقارىء بسهولة : ان ذلك المحور هو النزاع القائم بين الكهنة والعرش وان جميع حوادث الحب والثورات والمظاهر المختلفة ، إنما تشعبت من ذلك الأصل . كما يوضح له أننى لم أحل العقدة التى كان أساسها ذلك النزاع إلا فى الفصل الرابع من الرواية ، أى فى الفصل الأخير . وقبل ذلك كان لزاماً علىّ أن أحيط العقدة بغموض وإبهام كما يثير حضرة الناقد ، حتى يكون المتفرج فى شوق الى معرفة الغاية التى أسير به اليها .

إن الكهنة يتآمرون على العرش ، وهم بحاجة الى شخص يكون آلة فى أيديهم ، وهذا الشخص يجب أن يكون حاقداً على الملك ، وهو قائد طليعته . فيجب إذن إيجاد سبب لذلك الحقد . هذا السبب هو حبه الشديد لنيفرت . وعدم توفيقه فى الوصول اليها بسبب أوامر الملك . هذا من جانب واحد ، جانب الهجوم — إذا صح هذا التعبير — أما من الجانب الآخر — جانب الدفاع -- فقد كان الملك غائباً عن دياره . وحلّت ابنته محله فى ادارة شؤون البلاد ، وقد اطلعت بواسطة حبيبها بنطاؤر على دسائس الكهنة . فتعاونا معاً على كشف الجريمة واتخاذ التدابير الكفيلة بانتصار رعمسيس .

وبسبب غياب رعمسيس وتنبه الكهنة الى نفوذ ابنته كانت سياستهم موجهة ضدها ، فاخترعوا لذلك قصة الدنس وما تفرع عن ذلك من الحوادث التى ليست فى مجموعها إلا إطاراً زاهى اللون لذلك المحور الذى ذكرناه ، وهو العامل السياسى . ولو خلت القصة من تلك الزخارف ، فلا شك أنها تكون جافة لا يستسيغها القارىء ولا المتفرج ، ولاسيما فى التراجيديات الكبرى التى تتطلب جهداً وانتباهاً عظيمين . وبراعة المؤلف هى فى حسن سبك هذه الحوادث وصبغها بصبغة الأهمية . وإعطائها اللون الذى يجعل لها فى نظر المطلع عليها قوة الموضوع الأساسى وعظمته ، وفى أن يشعره بأنها متصلة به اتصالاً وثيقاً . وهذا ما توخيته فى روايتى .

ولقد قال حضرة الناقد فى موضع آخر من مقاله : إن كل منظر فى الرواية يكاد يكون مستقلاً . فلعلى لا أكون مخطئاً اذا لفت نظر حضرته إلى أن القاعدة الفنية المعمول بها فى معظم المآسى العالمية الكبرى هى التى أوحت الىّ السير على هذا النمط الذى أجده معقولاً ، فان موضوع القصة يجب أن يقسم تقسيماً

عادلاً بين الفصول ، بحيث أن الحادثة أو جزء الرواية الذى يتناوله المؤلف فى أحد الفصول يجب أن تكون جزئياته كاملة بحيث لايسدل الستار على شىء أبتر والمتفرج فاغر فاه فى انتظار شىء يشعر بلزومه . إن المتفرج يجب أن يشعر إزاء كل جزء من الرواية أنه إزاء رواية كاملة بجميع جزئياتها فى دائرة جزء القصة المخصص لذلك الفصل ، على أن يربط هذه الحوادث جميعاً بحوادث الفصل التالى للموضوع الأصلى ، وهذا بالذات مافعلته .

أما قول حضرة الناقد أننى جعلت خاتمة المأساة متوقفة على نصيب رعمسيس فى الحرب وأن هذا معروف للقارئ . فليسمح لى بأن أقول لحضرته إن المعروف للقارئ عن انتصار رعمسيس لم يتطرق إلى ذهنه بواسطة روايتى إلا فى النهاية ، ومعرفة القارئ هذا الانتصار من كتب التاريخ لا يقلل من أهمية القصة ، بل بالعكس يجعل لها قيمتها التاريخية من حيث أن المؤلف مطالب بالاحتفاظ بروح التاريخ وإثبات الحوادث الكبرى المعروفة . فما يعتبره الناقد عيباً من هذه الناحية هو حجتى فى الدفاع عن الرواية . إن المؤلف لايبالى معرفة الجمهور بحادث تاريخى معين إنما هو يسير فى عمله على حسب مايقتضيه سياق القصة وحسن سبكها ، ومهمة المؤلف هى فى إيضاح تلك الحوادث المعروفة وتصويرها بدقة وإلباسها الثوب القشيب الذى يجعل الجمهور يتقبلها بغير عنت ولا نفور . فاذا نجح المؤلف فى ذلك فلا شك أن الاستمتاع بالعمل الفنى يكون كاملاً .

أما ما يأخذه على حضرة الناقد من سذاجة الحوار فى بعض الحوادث فان ذلك كان يتبع روح الأشخاص الذين كنت أتكلم بلسانهم .

أما ما يتعلق برجوع بنطاؤر عن فلسفته بسرعة وانقياده إلى بنت أنات ، فانى أوافق الناقد على انهما لم يكونا بصدد موضوع تافه بل بصدد موضوع خطير للغاية ، ولكن بنطاؤر كان مدفوعاً بعدة عوامل أظهرناها جميعاً بجلاء تام فى سياق القصة ، وخلاصتها أنه كان يحب بنت أنات حباً مبرحاً منذ عام ، وأنه كان يخالف فى قلبه جميع معتقدات الكهنة ويدين بما تدين به حبيبته ، وأنه خاف عليها أن يتولى عقيدتها الطاهرة الفساد . هذا فضلاً عن قوة الحجة التى أدلت بها بنت أنات فى حضرة الكاهن وثورتها عليه ولين عاطفة بنطاؤر ونفسه الشاعرية الحساسة . لقد اجتمع لديه كل ذلك فى وقت واحد فسلم السلاح . على أن ضميره عاد يؤنبه بعد ذلك فكاشف صديقه نبسشت بعد تردد قليل بما يكنه قلبه . ولا غرابة فى ذلك فان بنطاؤر ونبسشت صديقان حميمان وكلاهما يعد نفسه أمين سر للآخر وموضع ثقته وملاذه .

واما اننى جمعت بين التأليف والتمثيل باشارتى إلى ما ينبغى حدوثه على المسرح فلا أظن فى ذلك ما يعيبنى ، ولا سيما أن هذه هى الطريقة المتبعة فى كل المسرحيات الحديثة .

هذا ما وجب أن أدفع به المآخذ الموجهة إلى روايتى ، فلعلى أكون قد وفقت فى بيانى ، والله سبحانه وتعالى يهدينا جميعاً إلى ما فيه السداد .

فرنسيس مقنشى

أرملة حكومة...

[بقية المنشور على صفحة ١٦٤٤]

إذ كان بهذا مطيقاً أن يكون أبا ينفق على أبنائه ، لا سفيهاً ينفق على شياطينه .

فان كان قد بنى رأيه على أن يتعزّب مدة ثم يتأهل ، فهذا أحرى أن يعينه على حسن التدبير ، وهو مَضْراةٌ له على شهوة الجمع والادخار ؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يكدح لعياله وهو فى سعة منهم بعدُ ، وهم لا يزالون فى صُلبه على الحال التى لايسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهمماً وعزائم يرثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا .

إنما العزب أحد رجلين : رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائلِ الانسانية ، قاعدته : جُرَّ الحبل ما انجرَّ لك . وهذا داعر فاسق ، مبذر متلافٌ إن كان من المياسير ؛ أو مُرِيب دنىء حقير النفس إن كان من غيرهم — ورجلٍ غير ذلك ، فهو وناق الضرورة إلى أن تُطْلِقه الأسباب ، ومن ثم فهو يعمل أبداً للأسباب التى تُطْلقه ، ويعرف أنه وإن لم يكن آهلاً فلا تزال ذمته فى حق زوجة سيعولها ، وفى حقوق أطفال يأبوهم ، وواجبات وطن يخدمه بانشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده ، والقيام على سياستها ، والنهوض بأعبائها . فانظر ويحك أى الرجلين أنت ؟

قال : فتريدنى أن أقمر بتعب سنة وأنا بعد ذلك وما يُقْدَرُ لى ، وقد أشترى بتعب سنة من العمر تعب العمرِ كلّه ؟

قلت : فهذه هى خسّة الفرديّة ودناءتها الوحشية فى جنايتها على أهلها ، وسوء أثرها فى طباعهم وعزائمهم ؛ فهى فرديّة تضرب فيهم العاطفةَ الاجتماعية ضرْب التلف ، وتبتليهم بالخوف من التبعات حتى ليتوهم أحدهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة ، ولـكن على معركة . وهى تصيبهم بالقسوة والغلظة ؛ فما دام الواحد منهم واحداً لنفسه ، فهو فى تصريف حكم الأثرة . وفى قانون الفتنة بأهواء النفس ومنافعها ؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كلّه مَعِدَة ، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير .

قال : ولـكن الزواج عندنا حظٌ مخبوء « لوتريّة » والنساء كأوراق السحب ، منهن ورقة هى التوفيق والغنى بين آلاف من الفقر والخيبة المحقّقة .

قلت : هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم ؟ فلعلك الآن فى نومة عقل ، أولاً فأنت الآن فى غفلة عقل .

إن هذا المسكين الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لايخلو منها — يعلم علماً أكثر من اليقين أن عيشه هو من مسح الأحذية لا من الأخيلة التى فى هذه الأوراق ؛ فهو لا يعتدّ بها فى كبير أمرٍ ولا صغيره ، وما يُنزلها فى حساب رغيفه وثوبه إلا يوم يُخالطُ فى عقله فيتنزّه أن يمسح أحذية الناس ، ويرى أن عظيماً مثله لايمسح إلا أحذية الملائكة . . .

أنت ياهذا مهندس ، ولك بعض الشأن وبعض المنزلة ، فَهَبْك ارتأيت أنه لا يَحسن بك أو لا يُحْسِنُ لك إلا أن تتزوج بنت ملك من الملوك ، فهذه وحدها هى عندك « الثمرة الرابحة » وسائر النساء فقر وخيبة مادام الأمر أمر رأيك وهواك ؛ غير أنك اذا عَرضْت لتلك « الثمرة الرابحة » لم تعرفك هى إلا صعلوكاً فى الصعاليك وأحمق بين الحمق .

إن تلك الأوراق تُصْنع صنعتَها على أن تـكون جملتُها خاسرة إلا عدداً قليلا منها ؛ فاذا تعاطيت شراءها فأنت على هذا

همـــام

قرأت ما كتبه الأخ الأديب « م » عن قصة « همام » فى (الرسالة) الغراء ، وأشكره على حسن ظنه فى تقريظه ، وأدبه فى نقده ، وأرجو أن أكون أكثر ارضاء له فى المستقبل .

وما أريد أن أعقب على شىء من كلمته إلا قوله : (تدور القصة حول محور واحد ، ألا وهو حفلات الزواج فى عاصمة الأحقاف) والواقع أنها تدور حول العادات السيئة بحضرموت وإصلاحها ، ولم يرد وصف حفلة الزواج إلا عرضاً .

ولا بد لى من التنبيه على أن البيت (لولا انتصاف الـكأس الخ . .) ليس لصاحب القصة ، بل هو لصديق له من كبار شعراء الأحقاف ، ورد اسمه فى القصة تنويهاً بفضله وأدبه .

على أحمد با كثير

الأصل تأخذها ، وبهذا الشرط تبذل فيها ؛ وما تمترى أنت ولا غيرك أن القاعدة ههنا هى الخيبة ، وشذوذها هو الربح ؛ وليس فى الاحتمال غير ذلك ؛ ومن ثمّ فقد يرى ُ اليك الحظُّ إن لم يصبك شىءٌ منـه ، وأين هذا وأين النساء ، وما منهن واحدة إلا وفيها منفعة تـكثر أو تقل ، بل الرجال للنساء هم أوراق السحب فى اعتبارات كثيرة ، مادامت طبيعة اتصالها تجعل المرأة هى فى قوانين الرجل أكثر مما تجعل الرجلَ فى قوانينها . وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره ؟

قال المهندس : فانى أعلم الآن – وكنت أعلم – أن لا صلاح لى إلا بالزواج ، وأن طريقى الى الزوجة هو كذلك طريقى الى فضيلتى والى عقلى . وتالله ما شىءٌ أسوأ عنـد العزب ولا أكره اليه من بقائه عزباً غير أنه يكابر فى المماراة كما تحاقرت اليه نفسه ، وكما رأى أن له حالاً ينفرد بها فى سخط الله وسخط الانسانية . ولا مَكْذِبة ، فقـد والله أنفقتُ فى رذائلى ما يجتمع منه مهر زوجة سَرِيّة تشتطّ فى المهر وتغلو فى الطلب ؛ ولـكن كيف بى الآن وما جبَرَنى من قبلُ إصلاحٌ ، ولا أعاننى اقتصاد ، ومن لى بفتاة من طبقتى بمهر لا أتحمل منه رَهَقاً ، ولا تتقاصر معـه أمورى ، ولا تختل معيشتى ؟

قلت : فاذا لم يحملك الحمار من القاهرة الى الاسكندرية ؛ فانه يحملك الى قليوب أو طوخ . وفى النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقليوب ، وطوخ ؛ وما قرب وبَعد ؛ وما رخص وغلا .

قال : ولـكن بلدى اسكندرية . . .

قلت : ولـكنك لا تملك إلا حماراً . . . وللمرأة من كل طبقة سِعْرها فى هذا الاجتماع الفاسـد ؛ ولو تعاون الناس وصلحوا وأدركوا الحقيقة كما هى ، لَمَا رأينا الزواج من فقر المهور كأنما يركب سلحفاة يمشى بها . . . ونحن فى عصر القطار والطيارة ، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار والجمل – كأنه وحده من السرعة فى طيارة أو قطار .

***

حين يفسد الناس لا يكون الاعتبار فيهم إلا بالمال ؛ إذ تنزل قيمتهم الانسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذى لا تتغير قيمته . فاذا صلحوا كان الاعتبار فيهم بأخلاقهم ونفوسهم ؛ إذ تنحطّ قيمة المال فى الاعتبار ، فلا يغلب على الأخلاق ولا يسخرها . والى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لطالب الزواج : « التمس ولو خاتماً من حديد[1] . » يريد بذلك نفى المادّيّة عن الزواج ، وإحياءَ الروحيّة فيه ، وإقرارَه فى معانيه الاجتماعية الدقيقة . وكأنما يقول : إن كفاية الرجل فى أشياء إن يكن منها المال فهو أقلها وآخرها ، حتى إن الأخسّ الأقلّ فيه ليُجْزِىء منه كخاتم الحديد ؛ إذ الرجل هو الرجولة بعظمتها وجلالها وقوّتها وطباعها ، ولن يُجْزِىء منه الأقلُّ ولا الأخسّ مع المال ، وإن ملء الأرض ذهباً لا يُكَمّل للمرأةِ رجلاً ناقصاً ؛ وهل تُتِمُّ الأسنان الذهبيةُ اللامعة يحملها الرجل الهرم فى فمه شيئاً مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنع قواطعُ الذهب الخالص وطواحُنه لهذا المسكين بعد أن نطق تَحَاتُّ أسنانه العظميّة وتناثُرُها أنه رجل حلّ البِلى فى عظامه . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

(١) سنكتب – إن شاء الله – قصة المهر فى مقال آخر .

2 me Année, No. 67.

Lundi-15-10-1934

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رجب سنة ١٣٥٣ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

شــــوقى ... !

بمناسبة ذكراه الثانية

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد خرج فى هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع ألاّ يكون شاعراً . لقد تتصل الشاعرية بالطبع والجبلّة . وليس بِملك المرء أن يخرج عن جبلّته وطبعه . ولست أجد مثلاً أضرب به لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبى نواس فى الغابرين ، وأحمد شوقى فى المحدثين . وأغلب اعتقادى أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لا يقدر على صرفه عنه أو حبس لسانه أو قلمه عن الجريان به إلا برياضة ومطاولة وجهد .

هؤلاء يطلبهم الشعر أكثر مما يطلبونه . ويتغشّاهم البيان أكثر مما يتصدون له ، ويتجرّدون فى اصابته .

وبحسبك أن تطالع دواوين شوقى — والحديثُ فيه اليوم — لتعلم أنه لو كان رزق أعظم حظ من العزم والقوة والجبروت ، ما كان ليقوى على كتم شاعريته الفائضة الجيّاشة . وهيهات للسدّ بالغاً ما بلغ من المتانة والمناعة أن يكفّ النيل عن جريانه ، وأن يكبح إذا طغى من طغيانه !

تقرأ شعر شوقى ، فتتعاظمك هذه الكثرة الكثيرة من فاخر الشعر وبارع الصنعة وروائع البيان . ويذهب العجب بك كل مذهب ، وتروح تتساءل : أية قوة بدنية هذه التى احتملت كل هذا المجهود الفكرى ؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش ! . . .

والواقع الذى لا يتداخله الشك أن شوقى لم يكن على حظ كبير من صحة البدن ، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلاً مضعوفاً مختلّ الأعصاب من أول نشأته . فاذا طلبت السرّ فى شأنه ، فالسر كله فى أنه لم يكن يجهد فى قرض الشعر ، لأنه لا يكلَفه[1] ولا يتعمّل كما قلت لك ، فى طلبه ، ولا يُرهف فى ذاك حساً ولا يحد عصباً ، إنما هو الينبوع ينبثق فيجرى الماء دفقا ما يحتاج الى متح ماتح

نعم ، لقد كانت تكاليف الحياة تقتضى شوقى كما تقتضى غيره أن يستفتح الشعر ويبعثه فى مديح ، أو رثاء ، أو تهنئة ، أو فى غير ذلك من الأسباب الخاصة أو العامة التى لا يرى بداً من القول فيها . على أنه لا يكاد يُقبل على صناعة الشعر فيطلبه ، حتى تتحرك شاعريته ، فتجرّه عما هو بسبيله جراً ، وتملى عليه هى ما تشاء أكثر مما يملى عليها هو ما يريد . ولست أطلب فى هذا دليلاً أبلغ من أن شوقى لم يمدح أحداً قدر ما مدح سمو الخديو السابق . على أنه حين جرّد تلك القصائد من ذلك المديح ليدخلها فى ديوانه ، ظلت سوية قوية رائعة بما فيها من رقيق غزل ، أو من بارع وصف ، ومن بالغ حكمة وجليل مثل ، كأن لم تفقد شيئاً ، ولم يُعوزها شيء ! . .

إذن كان شوقى شاعراً مطبوعا أتم طبع ، سرياً أجزل السَّرَاء ، موفقاً الى أبعد غايات التوفيق .

تصرف فى فنون الشعر كلها فما ضعف قط فى واحد منها ، بل قل أن يتعلق بغباره فى أى باب من أبواب القصيد شاعر ، اللهم خلا الهجاء ، فلم يؤثر عنه فيه بيت واحد . ولعل ذلك يعود ، كما قلت فى (مرآته) ، الى لطف نفسه ، وأنفته من أن يشتهر الناسَ ويطلب معايبهم ، أو لعله يعود الى الخوف والورع من أن يزيد فى نورة خصومه به ، أو لعله فطن الى أن الزمان سيعفى على هذا الضرب الحقير من الشعر . وما أحسبه لو عالجه إلا موفياً فيه على الغاية والاحسان . على أن الله تعالى كان ألطف به من أن يدلّيه فى هذا الهوان

وإذا كان عجباً من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة فى فنون الشعر بدرجة سواء — فان هذا من شوقى وأمثال شوقى غير عجيب . فالرجل ، كما زعمت لك ، لا يملك من شاعريته أكثر مما تملكه شاعريته . وما إن اجتمع لقول الشعر ، ومضى يجيل الفكر ويُطير الخيال ، إلا ملكته تلك الشاعرية عن نفسه ، وراحت تجوده بالهاتن الحنان من وحى القريض . فان أصابت ما احتفل له ، وإلا ففى فنون المعانى الآفاق العِراض . وأرجوك أن تراجع شعر شوقى فى كل مايتورط فيه الشاعر ، ولا ينبعث له من نفسه لو كان أمره كله اليه ، لتزداد إيماناً بما أقول

وأرجوك ألا تحسبنى غالياً ولا متزيّداً إذا زعمت لك أن شعر شوقى كان فى بعض الأحيان ، بل فى كثير من الأحيان ، يتخطى إدراكه العادى . أعنى أنه لقد كان يصيب ألواناً من المعانى لو أنك راجعته فيها غداة نظمها لاحتاج فى فهمها الى فكر وتدبير ! . ولقد وقع لى أكثر من مرة أن راجعته فى بعض شعره أرى أنه قد مسّ فيه معنى رفيعاً جداً ، ولكن اللفظ أقصر من أن يطوله بواضح البيان ، وإنى لأضمر ما ألمح ، وأحياناً ما كان يلمح غيرى ، فاذا هو بادىء الرأى كقارئه متحير متردد ، وإذا هو فى فهم مرامى الكلام فى حاجة الى جس وإلى استخبار ![1] وأريد أن أقول لك إن هذا الرجل لقد كان يفاض عليه ساعة وحى الشعر ما لم يكن لفكره فى الحساب . ولقد ذكرت هذا من بضعة أيام لنفر من الأدباء ممن كانت لهم صلة بشوقى ، فأكد لى بعضهم أنه وقع له مثله مع هذا أمير الشعراء .

صنعة شوقى

وإذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يعد من

(١) يقال كلف الأمر : حمله على مشقة .

(١) أشار الكاتب إلى هذه الحالة من شوقى فى (المرآة) التى جلاها له فى « السياسة » الأسبوعية .

عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، فإن وانى اللفظ ولان ونَصَع وأشرق ، وإلا فلا؟مَ هذا اللفظ الهبَل !.

لم يكن شوقى إذن يكلف بالديباجة ، ولا يجهد فى تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا لقد يجيء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدث شوقى فى العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الاشراق . وأحسب أن قوة المعانى هى التى أرادته على هذا ودفعته اليه دفعاً

ولقد كان مما يعدّ على شوقى أنه يكثر من الغريب فى شعره ، حتى لقد كان يُضطر هو الى تذييل ما يُفشى من قصائده فى الصحف بالشرح والتفسير . ولا أحسب هذا سائغاً فى العصر الذى نعيش فيه ، بل إنى لأزعم أن محصول شوقى من متن اللغة لم يكن يُواتى هذا القدر الذى يشعره استكثارُه من الغريب فى قصيده ، فلقد كنت تسأله معنى الكلمة المفردة تكون قد خلت فى بعض شعره ، فإذا هو لايدريه فى بعض الأحايين . وإننى لأرجح أن الرجل لم يكن يُعمد بهذا للتكثر بسعة العلم ، ووفرة المحصول من اللغة ، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعانى ما لا يتيسر له أداؤه باللفظ الشائع ، كما كان يطيل أحياناً كثيرة فى القصائد إطالة يحتاج معها الى الكدّ فى التماس القوافى ، فكان يضطر فى هذا وفى هذا الى التماس الألفاظ من القواميس ينتزعها انتزاعاً .

التجديد والمجددون

وهنا أحب أن أقول شيئاً يسيراً فى التجديد والمجددين ، وإننى أوجه هذا الكلام ، بنوع خاصّ ، الى الناشئين من المتأدبين

إذا كان من آيات الحياة فى الكائنات تطوُّرُها ، ونموها ، وتجدُّدها . فالأدب ، ولاشك ، من هذه الكائنات التى لا تكتب لها الحياة إلا على التطوّر والنموّ والتجديد ، وإلا كان ميتاً أو أشلّ على أيسر الحالين

ولكننى أحب أن ألفت فى هذا المقام ، الى مسألة قد تدق أفهامَ الكثير أو القليل . وتلك أن هناك فرقاً بين التربية والتجديد ، وبين المسخ والتغيير . ولست أجد مثلا أسوقه فى هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات . كلاهما ينمو ويربو ، وكلاهما يطول ويزكو ، حتى يبلغ الحدّ المقسوم لكماله ؛ وقد تتغير بعض معارفه ، وقد تحوُل بعض أعراضه ، ولكنه ، فى الغاية ، هو هو لا شىء آخر ، فحَسَنُ الوليد ، هو حسن الطفل ، هو حسن الفتى ، وهو حسن الشاب ، هو حسن الكهل ، وهو حسن الشيخ ؛ وتلك الفسيلة الصغيرة ، هى هذه النخلة الباسقة ، كلٌّ نما وربا بما دخل عليه من الغذاء ، وما اختلف عليه من الشمس والهواء

لقد أصاب كل منهما ما أصاب من أسباب التّربية والأزكاء ، فاحتجز منها ما واءمه وما تعلّقت به حاجته ، ونفى عنه ما لا خير له فيه وما لا حاجة به إليه . ثم أساغ ما أمسك وهضمه ، فاستحال دماً يجرى فى عِرقه ، ويزيد فى خَلقه .

ولا شك فى أن لأدبنا العربى عناصر ، وله مقوّمات ، وله شخصية بارزة معينّة ، فمن شاء فيه تجديداً — ومن الواجب الحتم على القادرين أن يجددوا — فليتقدم ، ولكن من هذه السبيل .

ولا تنسوا أن من أهم هذه المقومات ، إن لم يكن أهمها جميعاً ، هو صحة العربية وتحرّى فُصَحها . فمن تهاون هذا وتجاوزه ، فليس ما يصنع من الأدب فى شىء أبداً . ومما يتّصل بهذا المعنى ما إخالنى لا أخطئ إذا دعوته تقاليد العربية ؛ فللعربية كسائر اللغات القوية تقاليدها المأثورة على الزمان .

وهنالك مقوّمان آخران لهما خطرهما العظيم ، ألا وهما التخييل والذوق العام . ولا أحسبك تنكر أن لكل أمة ذوقها الخاصّ بها فى كثير من أسباب الحياة ، ولقد تشارك غيرها من الأمم فى بعض هذا ، ولقد تفارقها فى بعض فراقاً شديداً أو يسيراً

أما التخييل فقد قلت لك فى مقال مضى إن خيال المرء مهما حلّق وعلا ، ومهما أسرف وغلا ، فهو لا يمكن أن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المحسّة الواقعة . وأنت بعدُ خبير بأن أصدق خيال وأروعه ، وأن أحكم تشبيه وأطبعه ، هو ما اشتقه الشاعر مما يحيط به ويقارنه ، ويقع لأسماعهما ولأبصارهما جميعاً . وإلا نبا عن السمع ، ونشز على الطبع ، ولو كان بالغاً غاية الغاية فى بيئة أخرى .

نعم ، لقد يشهد الشاعر من مجالى الطبيعة ما لم يشهد عامة

قومه . ولقد يظهر على كثير مما انتضحت به بلاغات أئمة البيان فى الأمم الأخرى . ولقد يتذوق هذا فى لغاتهم ، ويتأثر به الى حد بعيد ، ولقد يرى أن ينقل ما يطول من ذلك الى معشره باخراجه فى لغتهم لينعّمهم ويلذّهم ويرهف حسهم ، ويفتق فى أذهانهم ، ويفسح فى أدبهم بادخال جديد عليه ، وإضافة بديع من الآداب الأخرى إليه ، فان له من ذلك ما يحب ، على أن يصوغه فى صحيح لغته ، ويطبعه على غرار أدبه ، ويحتال على تسوية خلقه ، حتى يصبح تام المشابه بما ألِف قومُه ، حتى لا يحسوا فيه غَرابة ، ولا يشعروا منه بوحشة ، فاذا وفق الأديب الى هذا وأجاده وأحكمه فهو المجدد التام

شوقى امام المجددين

ولقد ضرب شوقى فى الأرض كثيراً ، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها ما لم تتهيأ رؤيته لكثير . وقرأ فى الفرنسية لأئمة البيان فى الغرب ما لا يكاد يملكه الاحصاء . ولقد أساغ ما استعار ، وجرى فى أعراقه طلقاً ، واستطاعت شاعريته الفخمة أن تجلو منه ما شاء أن يجلو عربياً خالصاً لا شك فيه . وهذه دواوينه تزخر بهذا البدع زخراً

فاللهم إن كان التجديد ما ذكرنا فشوقى إمام المجددين فى هذا العصر غير مدافع . أما إن كان التجديد هو المسخ ، واستحداث صور شائهة ، واستكراه ألوان من المعانى لا تمت إلينا بسبب ، على صيغ لا هى بالعربية ولا هى بالأعجمية ، فاللهم اشهد أن شوقى ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً ! .

***

ولقد جال شوقى بشعره فى كل غرض ، وقصد كل قصد ، وأصاب من كل معنى ، وطال نفَسه فى أكثر قصيده إلى ما لم يطله كثير من أنفاس الشعراء ، فما ضعف ولا تخلخل ولا أسف ، ولا فسُلت أخيلته ، ولا شاهت معانيه ، بل لقد يأتى أكثر ما يأتى بالجوهرى الرائع من حرّ الكلام

وليس شوقى بالذى يُستدل على مكانه بالبيت أو البيتين فى القصيدة ، أو بالقصيدة والقصيدتين فى الديوان ، بل إذا طلبت عليه دليلاً فهذه دواوينه ، شُقّ منها ما تشاء ، وقَعْ منها على ما تريد لك المصادفة ، فلن تصيب إلا أرفع الشعر وأفخر الكلام .

***

وبعد ، فلقد مات شوقى ، وانحسمت جميع أسبابه من الدنيا ، وفرغ من مودّات الناس ومن عداواتهم ، وأصبح شعره حبساً على التاريخ . فمن كان يرى حقاً أن شوقى لم يبلغ هذه المنزلة ، أو أنه لم يبلغ بعضها ، أو أنه لم يكن شاعراً ألبتة ، فهذا له رأيه ، وعليه تبعته . ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه . وأما من يقدر شوقى حق قدره ، فينزله هذه المنزلة أو ما هو أقرب إليها ، فمن واجب الذمة أن يشيد بقدره ، ويدل على جلالة محله ، لا قضاء لحق الانصاف وحده ، ولا أداء لشكر النعمة فحسب ، فلقد كان شوقى نعمة عظمى أسبغها الله على أبناء العربية جميعاً ، بل لاستدراج نشء المتأدبين إلى استظهار شعره ، وإنهالهم من أدبه . واتخاذه النموذج المحتذى إذا اجتمع أحدهم للبيان

هذا واجب الذمة للحق وللبيان جميعاً . وخاصة بعد هذا التبلبل الذى لا أحسب أن البيان العربى شهد مثله فى أىّ عصر من عصور التاريخ . وحسبى هذا ، فما أحب أن أقذف بنفسى فى هذه الحرب الناشبة من أنصار قديم وأصحاب جديد .

عبد العزيز البشرى

من قول شوقى يصف تمثال نهضة مصر ويشير الى المرحوم المثال مختار :

تعالوا تروا كيف سوى الصفاة فتاةً تلملم سربالها
دنت من أبى الهول مشىَ الرؤوم الى مقعد هاج بلبالها
وقد جاب فى سكرات الكرى عُروض الليالى وأطوالها
وألقى على الرمل أرواقه وأرسى على الأرض أثقالها
يخال لأطراقه فى الرمال سطيح العصور ورمّالها
فقالت : تحركْ فهمّ الجماد كأن الجماد وعى قالها

. . . .

وما الفن إلا الصريح الجميل إذا خالط النفس أوحى لها
وما هى إلا جمال العقول إذا هى أولته اجمالها

قصـــة زواج
وفلسفة المهر
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال رسولُ عبد الملك : ويحك (يا أبا محمد) لَكَأنْ دَمَكَ والله من عدوك فهو يفور بك لتَلِجَّ فى العناد فتُقْتَل ، وكأنى بك والله بين سَبُعَيْن قد فغَرَا عليك ؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تفرّ من حتف إلا إلى حتف ، ولا تَرحمك الأنياب إلا بمخالبها .

ههنا هشام بن اسماعيل عاملُ أمير المؤمنين ، إنْ دَخَلَتْه الرحمة لك استوثق منك فى الحديد ، ورَمى بك إلى دمشق ؛ وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يطعم لحمك السيف يَعَضُّ بك عضَّ الحية فى أنيابها السمّ ؛ وكأنى بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه ، وبهـذا الوجه مُضَرَّجا بدمائه ، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةً بترابها ، وبهذا الرأس مُحْتَزًّا فى يد (أبى الزُّعَيْزِعَة) جلاّد أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رَمْىَ الغصن بالثمرة قد ثقلتْ عليه .

وأنت (يا سعيد) فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها ، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لَسَرَّه » فان لم تَـكْرُمْ عليك نفسك فَلْيَكْرُمْ على نفسك المسلمون ؛ إنك إن هلـكت رَجَعَ الفقهُ فى جميع الأمصار إلى الموالى ؛ ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبى كثير ، وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الـكوفة ابراهيم النَّخَعىّ ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عَطاء الخراسانى . وإنما يتحدث الناس أن المدينة مِن دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشىّ العربىّ (أبى محمد سعيد ابن المُسيَّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علم أهل الأرض أنك حَجَجْتَ نيفاً وثلاثين حَجّة ، وما فاتتْك التكبيرة الأولى فى المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمت إلا فى موضعك من الصفّ الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجلٍ فى الصلاة ؛ ولا وجد الشيطان مايعرض لك من قِبَله فى صلاتك ولا قفار رجل ؛ فالله الله يا أبا محمد ، إنى والله ما أغشّك فى النصيحة ؛ ولا أخدعك عن الرأى ، ولا أنظر لك إلا خير ما أنظر لنفسى ؛ وإن عبد الملك ابن مروان منْ عَلِمْتَ ؛ رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبه وترهيبه ، فهو آخذُك على ما تـكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحبّ ؛ وإنه والله يا أبا محمد ، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثنِى إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك ، رعايةً لمنزلتك عنده ، وإكباراً لحقّك عليـه ؛ وما أرسلنى أخطُب إليك ابنتك لِوَلِىِّ عهده إلا وهو يبتذل نفسه إليك ابتذالاً ليَصِلَ بك رَحِمَهُ ، ويُوثِّق آصرته ؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبمُلْكه وَرَعاً وزهادة ، فما أحوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أصهارَ (الوليد) فيَسْتَدْفعُوا شرّاً ماله عنهم غنى ، ويجتلبوا خيراً مابهم غنى عنه ؛ ولستَ تدرى ما يكون من مصادر الأمور ومواردها . وإنك والله إن لجَجت فى عنادك وأصررْت أن تردّنى إليه خائباً ، لَتَهِيجَنَّ قَرَمَ سيوف الشام إلى هذه اللحوم ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها . ولأمير المؤمنين تارتان : لينٌ وشدة ؛ وأنا إليك رسول الأولى ، فلا تجعلْنى رسولَ الثانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الـكلام وكأنه لا يَخْلُص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه فى الأرض ، هيبةً منه وفرقاً من إقدامها عليه ؛ وقد لان رسول عبد الملك فى دهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذْب فى الحلق الظامىء ، واشتدّ فى وعيده حتى مايشكّ أنه قد سقاه ماء حميا فقطّع أمعاءه ؛ والرجل فى كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض ، لو تحوّل الناس جميعاً كنّاسين يثيرون من غبار هـذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم ، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ .

وقلّب الرسولُ نظرَه فى وجه الشيخ ، فاذا هو هوليس فيه معنى رغبة ولا رهبة ، كأنْ لم يجعلْ له الأرض ذهباً تحت قدميه فى حالة ، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه فى الحالة الأخرى ؛ وأيقن أنه من الشيخ كالصبىّ الغرّ قد رأى الطائرَ فى أعلى الشجرة

فطمع فيه فجاء من تحتها يناديه : أن انزل إلىّ حتى آخذك وألعب بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

« ياهذا ، أما أنا فقد سمعت ، وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هذه الدنيا لاتعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ماجئتنى أنت به ، وقسه إلى هذه الدنيا كلها ، فكم — رحمك الله — تكون قد قسمتَ لى من جناح البعوضة . . . ؟ ولقد دُعيت من قبل إلى نيف وثلاثين ألفاً لآخذها فقلت : لاحاجة لى فيها ولافى بنى مروان ، حتى ألقى اللهَ فيحكم بينى وبينهم . وهأنذا اليوم أُدعى إلى أضعافها والى المزيد معها ؛ أفأقبض يدى عن جمرة ، ثم أمدّها لأملأها جمراً ؟ لا والله مارغب عبد الملك لابنه فى ابنتى ، ولكنه رجلٌ من سياسته إلصاق الحاجة بالناس ليجعلها مَقَادَةً لهم فيُصَرِّفَهُم بها ؛ وقد أعجزه أن أبايعه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وماعبد الملك عندنا إلا باطلٌ كابن الزُّبير ، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك ، فانظر فانك ماجئت لابنتى وابنِه ، ولكن جئت تخطبنى أنا لبيعته . . .

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن منْ عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله اليك ؟ انك لراعٍ وانها لرعية وستُسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسىء رِعيتها وتبخس حقها ، وأن تعضُلها وقد خطبها فارس بنى مروان ، وان لم يكن فارسهم فهو ولىّ عهد المسلمين ، وان لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهنّ جميعاً ، وهنّ جميعاً فى الوليد . ؟

قال الشيخ : أمّا إنى مسؤول عن ابنتى ، فما رغبت عن صاحبك الالأنى مسؤول عن ابنتى . وقد علمت أنت أن الله يسألنى عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما الا يكونون فيه الا وراء عبيدِها وأوباشها ودُعَّارها وفجّارها . يخرجون من حساب الفَجَرَةِ الى حساب القَتَلَة ، ومن حساب هؤلاء الى الحساب على السرقة والغصْب ، الى حساب أهل البغى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين . ويخفّ يومئذ عبيدُها وأوباشها ودعّارها وفجارُها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما ، وعليهم أمثالُ الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى ، لو لم أضنّ بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقتُ نفسى . لا والله مابينى وبينكم عمل ، وقد فرغتُ مما على الأرض فلا يمرّ السيف منى فى لحمٍ حىّ .

* * *

ولما كان غداةُ غدٍ جلس الشيخ فى حلْقته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ، فسأل رجلٌ من عرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، إن رجلاً يلاحينى فى صَدَاق ابنته ويكلّفنى مالا أطيق . فما أكثرُ ما بلغ إليه صداقُ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداقُ بناته ؟

قال الشيخ : رَوَيْنا أن عمر رضى الله عنه كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : « ماتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا زَوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم(١) . » ولوكانت المغالاة بمهور النساء مَكْرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورَوَيْنا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء أحسنُهنّ وجوهاً وأرخصُهنّ مهوراً . »

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغليها على الناس ؛ تكثُر رغبتُهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : أنظر كيف قلت . أهم يساومون فى بهيمة لاتَعقل ، وليس لها من أمرها شىء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها ، يُغْلِيها على مطامع الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ خير النساء من كانت على جمال وجهها ، فى أخلاق كجمال وجهها ؛ وكان عقلها جمالاً ثالثاً ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء ، يَسَّرَتْ عليه ثم يسّرت ثم يسّرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارياً ، فهذه لايكون رخص القيمة فى مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها ، أىْ

(١) الدرهم خمسة قروش

لحمقها ؛ وهى بهذا المعنى من شرار النساء ، وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان الأثاث : رحى يد ، وجَرَّة ماء ، ووسادةً من أدَم حشْوها ليف . وأوْلم على بعض نسائه بِمُدَّيْن من شعير ، وعلى أخرى بمدَّين من تمر ومدَّين من سويق . وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر ، ولكنه يَشْرَعُ بسُنَّتِهِ ليُعلِّم الناس من عمله أن المرأة للرجل نَفْسٌ لنَفْسٍ ، لا متاعٌ لشاريه ، والمتاع يُقوَّم بما يُبذلَ فيه إنْ غالياً وإن رخيصاً ، ولكن الرجل يُقوَّم عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحْمل إلى داره ، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحْمَلَ إلى داره ؛ مهرُها معاملتها ، تأخذ منه يوماً فيوماً ، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رَجُلِها ما دامت فى معاشرته . أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النَّفْس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبْلى ، أفلا ترى هذه الغالية — إن لم تجد النفْس — قد تكون عروس اليوم ومطلَّقةَ الغد ؟ !

وما الصداق فى قليله وكثيره إلا كالايماء إلى الرجولة وقدْرتها ، فهو إيماء ، ولكنَّ الرجل قبْلُ ، ولكن الرجل قبْل . إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً ، والسيف إيماء إلى القوة ، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواءً ، وقد يحمل الجبان فى كل يدٍ سيفاً ، ويملك فى داره مائة سيف ؛ فهو إيماء ، ولكن البطلَ قبْلُ ، ولكن البطل قبْلُ .

مائة سيف يُمْهَر الجبانُ بها قوَّته الخائبة ، لا تُغْنِى قوّته شيئاً ، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله . ويوشك أن يكون المهر الغالى كالتدليس على الناس وعلى المرأة ، كى لا تعلم ولا يعلم الناس أنه ثمن خيبتها ؛ فلو عقلت المرأة لباهتْ النساء بيُسْر مهرها ، فانها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكفّتْ حماقتها أن تُفْسد عليه .

فصاح رجلٌ فى المجلس : أيها الشيخ ، أفى هذا من دليل أو أثر ؟

قال الشيخ : نعم ؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » . فهى زَوْجُه حين تجده هو ، لا حين تجدُ ماله ؛ وهى زوجه حين تُتَمِّمُه لا حين تنقصه ؛ وحين تلائمه لا حين تختلف عليه : فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معاً كالنَّفْس الواحدة ، على ما ترى للعضو من جسمه ، يريد من جسمه الحياة لا غيرها .

وأما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روينا : « إذا أتاكم منْ ترْضوْن دينه وأمانته فزوجوه . إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير . »

فقداشترط الدينَ ، على أن يكون مرْضياً لا أىَّ ذلك كان ؛ ثم اشترط الأمانة ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً وعلى حقوقها أميناً ، وفى معاملتها أميناً ، فلا يبخسها ، ولا يعنتها ، ولا يسىءُ إليها ؛ لأن كل ذلك ثلْمٌ فى أمانته . فان ردَّتْ المرأة منْ هذه حاله وصفتُه من أجل المهر — تقدَّم إليها بالمهر من ليست هذه حالَه وصفته ، فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرجل ، وفسد هُوَ بها ، وفسد النسلُ بهما جميعاً ، وأُهْمِلَ من لا يملك ، وتعنَّستْ من لا تجد ، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه ، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة ؛ فيقع معنى الزواج ويبقى المعطَّلُ منه هو اللفظ والشرع .

هل علمتْ المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها ، وتبلوَ فيه بلاءها ؛ وهل يقوم مال الدنيا بحقِّها فيما تعمل وماتجاهد ، وهى أم الحياة ومُنْشِئَتُها وحافظتها . فأين يكون موضعُ المالِ ومكانُ التفرقة فى كثيره وقليله ، والمال كلُّه دون حقِّها ؟ .

ولن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به وتكون مراتبهم على مقداره ، تكثر به مرة وتقل مرة — إلا اذا فسد الزمان ، وبطلت قضية العقل ، وتعطّل موجب الشرع ؛ وأصبحت السجايا تتحوّل ، يملكها من يملك المال ، ويخسرها من يخسره ؛ فيكون الدِّين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه ، والمتَدَلّى فى غير حقه ؛ وبهذا يرجع باطل الغنىِّ ديناً يتعامل الناس عليه ، ودينُ الفقير بَهْرَجًا لا يروج عند أحد . وليس هذا من ديننا

دينِ النفس والخُلُق ، وإن ألف بعير يقتنوها الرجل خالصةً عليه ثابتةً له لاتزيد فى منزلة دينه قدْرَ نملةٍ ولا مادونها . والحجران : الذهب والفضة — قد يكون شعاعهما فى هذه الدنيا أضوأ من شمسها وقمرها ، ولكنهما فى نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذُهما الرجل من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنهما فى قدرِ الشمس والقمر .

وهلاك الناس إنما يُقْضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم وذنوبهم ؛ فهذا هو الانسان المدْبِرُ عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لايكون أبوه أباً فى عطفه ، ولا أمه أمّاً فى محبتها ، ولا ابنه ابناً فى برِه ، ولا زوجته زوجةً فى وفائها ؛ وإنما يكونون له مهالك كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ؛ يعيّرونه بالفقر ، ويكلّفونه ما لا يطيق ؛ فيدخلُ المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك . »

***

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسَه وقام الى الصلاة ، ثم خرج الى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى : « ربَّنا آتِنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة» . فما حَسَنةُ الدنيا ؟ قال : يابُنَيَّة هى التى تَصْلُح أن تُذكَرَ مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ الصالحة ، ولا للمرأة . . . .

وطُرِق الباب فذهب الشيخ يفتح ، فاذا الطارقُ (أبو وَدَاعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياما . فدخل فجلس . قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تُوُفِّيَتْ أهلى فاشتغلتُ بها . »

قال الشيخ : « هلاَّ أخبرتنا فشهدناها ؟ » ثم أخذ يُفيض فى الكلام عن الدنيا والآخرة . وشعَر أبو وداعة أن القبر مازال فى قلبه حتى فى مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ؛ فقال (سعيد) : « هل استحدثتَ امرأةً غيرها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومَن يُزوّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا . . . . »

أنا ، أنا ، أنا . . . دوّى الجوُّ بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً فى تسبيح الله يَطِنُّ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ، ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد ، وكأنها كلمةٌ زوّجته إحدى الحور العين .

فلما أفاق من غَشْيَةِ أُذنِه . . . قال : « وتَفْعَل ؟ »

قال (سعيدٌ) : « نعم » وفسر (نعمْ) بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فحمد اللهَ وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوّجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) . ثلاثة دراهم مهر الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

وغشى الفرحُ هذه المرة عينى الرجل وأذنيه ، فاذا هو يسمع نشيد الملائكة يطِن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه ما يصنع ، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرّف اليه بهذا الصوت الذى لايزال يطنّ فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا»

وصار الى منزله وجعل يفكّر ممّن يأخذ ، ممّن يستدين ؟ فظهرت له الأرض خلاء من الانسان ، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . .

وصلى المغربَ وكان صائماً ، ثم قام فأسرج ، فاذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأن فى نوره وجهَ عروسٍ تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . . »

وقدّم عشاءه ليفطر ، وكان خبزاً وزيتا ، فاذا الباب يقرع ؛ قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ! . .

سعيد ؟ سعيد ؟ من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؟ أبو على ؛ أبو الحسن . فكّر الرجل فى كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب ؛ إلا الذى قال له : « أنا . . . . »

لم يخالجه أن يكون هو الطارق ، فان هذا الامام لم يطْرق باب أحدٍ قط ، ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فاذا به سعيد بن المسيَّب ، فلم تأخذه عينه حتى رَجَع القبرُ فهَبطَ فجأة بظلامه وأمواته فى قلب المسكين وظن أن الشيخ قد بَدا له ، فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذَّر إصلاح الغلطة ! فقال : « يا أبا محمد . لو . . لو . .

لو — لو أرسلت إلىَّ لأتيتُك ! »

قال الشيخ : « لأنت أحقُّ أن تُؤْتَى »

فما صكَّت الكلمة سمع المسكين حتى أُبلِس الوجودُ فى نظره ، وغشِيَ الدنيـا صمتٌ كصمت الموت ، وأحسَّ كأن القبر يتمدَّد فى قلبه بعروق الأرضِ كلّها ! ثم فاء لنفسه وقدَّر أن ليس محلُّ شيخهِ إلا أن يأمر ، وليس محلُّه هو إلا أن يطيع ، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكون مَعرَّةً على الرجولة ، ثم نَكَّسَ وَتَنكَّسَ ، وقال بذلّة ومسكنةٍ : « ما تأمرنى ؟ »

تفتحت السماء مرة ثالثـة ، وقال الشيخ : « إنك كنت رجلاً عزَباً ، فتزوَّجت ، فكرهتُ أن تبيت الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتُك ! »

وانحرف شيئاً ، فاذا العروس قائمة خلفه مستترةٌ به ، ودفعها إلى الباب وسلّم وانصرف .

وانبعث الوجود فجأةً ، وطنَّ لحنُ الملائكة فى أذن أبى وداعة : « أنا ، أنا ، أنا ... » .

* * *

دخلتْ العروس الباب وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانها ، واستوثق من بابه ، ثم خطا إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت ، فوضعها فى ظل السِّراج كى لا تراها ؛ وأغمض السراج عينَه ونشر الظلّ ...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بِحُصَيَّاتٍ ؛ ليعلموا أن له شأناً اعتراه ، وأن قد وجب حقُّ الجار على الجار « وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التليفون اليوم) فجاءوه على سطوحهم وقالوا : ما شأنك ؟ .

قال : « وَيْحَكُمْ ! زَوَّجَنِى سعيد بن المسيّب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلة . »

قالوا : وسعيد زَوَّجَكَ ! أهو سعيد الذى زوَّجك ! أزوَّجك سعيد ؟ . »

قال : « نعم »

قالوا : « وهى فى الدار ! أتقول إنها فى الدار ؟ . »

قال : « نعم »

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار . وغشيت الرجل غشيةٌ أخرى فحسب داره تتيه على قصر عبدالملك ابن مروان ، وكأنما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

* * *

قال أبو وداعة : « ثم دخلتُ بها ، فاذا هى من أجمل الناس وَأَحْفَظِهِمْ لكتاب الله تعـالى ، وَأَعْلَمِهِم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وَأَعْرَفِهِمْ بحقّ الزوج . »

قال : « ومكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلّمْتُ ، فردَّ علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرّق الناس من المجلس وخلا وجهه ، فنظر الىّ وقال :

« ما حالُ ذلك الأنسان ... ... ؟ . »

* * *

أما ذلك (الأنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولىّ العهد ابن امير المؤمنين وبين حجرة أبى وداعة التى تُسَمَّى داراً ... ! إلا أن هناك مضاعفةَ الهمّ ، وهنا مضاعفة الحُبّ .

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة سَتَخْفِتُ الروح من نورٍ نور ، الى أن تنطفىء فى السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدةَ الحياة — تسطع الروح بنور على نور ، الى أن تشتعل فى السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خير وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتـال (لسعيد) وَيَرصُدُ غوائِلهُ حتى وقعت به المحنة ، فضرب به عامله على المدينة خمسين سوطاً فى يوم بارد ، وصبَّ عليه جرّة ماء ، وعَرضه على السيف ، وطاف به الأسواق عارياً فى تُبَّانٍ(١) من الشَّعر ، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المَخْزَاة قال عبد الملك بن مروان : « أنا ... ... ؟ »

طنطا **مصطفى صادق الرافعى**

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المـايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويل قصير يلبسه الملاحون .

الترجمة فى الأدب العربى
وتراجم عظمائنا المحدثين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى العام الماضى فكر جماعة من الأساتذة والكتاب فى اصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعظماء مصر فى العصر الحديث . وكانت الغاية من اصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شىء ؛ فليس فى تراثنا التاريخى المعاصر مثل هـذه السلسلة ؛ ومازالت سير الكثيرين من عظمائنا مجهولة مغمورة ، وما زال شبابنا المتعلم يتوق الى استعراض هذه السير فى بحوث محققة ممتعة تغرى بالقراءة والدرس فلا يجدها . وسير العظماء زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء للشعور الوطنى . ولكن هذا المشروع العلمى الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير ، وطوى كما طويت مشاريع مثله من قبل .

إن تراجم العظماء تشغل فى آداب الأمم العظيمة وفى تاريخها أسمى مكانة ، فأقطاب الأمراء والساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين ، هؤلاء جميعاً يأخذون مكانهم فى التاريخ القومى العام ، ثم يأخذون مكانهم فى تراجم خاصة ، تذهب أحياناً الى البحوث النقدية المستفيضة التى تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا ؛ وتقتصر أحياناً على صور موجزة ، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب وللقراءة العامة . ويخص هؤلاء العظماء بالدرس فى كل عصر ووقت ، ويحظون بمختلف البحوث والدراسات ، وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، ولكل مقامها العلمى والأدبى . أما نحن فكما أن النقص يعتور تاريخنا القومى ، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بما يجب من تحقيق وإفاضة ، فكذلك يعتور النقص لدينا هذه الناحية الخاصة ، أعني ناحية التراجم والسير المفردة ؛ وقلما حظيت آدابنا التاريخيـــة بترجمة محققة وافية لعظيم من عظمائنا المحدثين .

على أن هذه الناحية الخاصة من المباحث التاريخية تشغل فى الأدب العربى القديم مكانة هامة . وقد بدأت العناية بها فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثانى للهجرة يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى تملأ فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العظماء ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين ، والكتاب والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة ، ومنها التراجم والسير الفياضة ، ومنها الموجزة . وفى الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لاتحظى به أية آداب أخرى ، اذا استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية ، ونهضت فيه الآداب الأخرى . غير أن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ، وينقطع سيره انقطاعاً تاما ، فلا نكاد نظفر فى ذلك العصر بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة ؛ وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق الى تداركها حتى اليوم .

ويجدربنا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفاً من تراث التراجم والسير الخاصة فى الأدب العربى ، لنذكر شبابنا المتعلم بما خص به هذا الفن فى أدبنا من العناية والاهتمام ، وما انتهى اليه من النضج والتقدم . وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط ، إذ يقتضى الالمام بجميع آثار هذا الفن فصولا بأسرها . وفى مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة ، وأشهرها وأنفسها سيرة ابن اسحاق التى دونت فى منتصف القرن الثانى من الهجرة . وكتب ابن النديم كتاب الفهرست الشهير فى أواخر القرن الرابع ، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره ؛ ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ؛ فنجد الخطيب البغدادى المتوفى فى أواخر هذا القرن يستعرض فى كتابه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة فى جميع الدول الاسلامية ؛ وفى القرن السابع وضع القاضى الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته العامة « وفيات الأعيان » فى تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان

من أنفس آثار الترجمة العربيـة إن لم يكن أنفسها جميعاً . فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الاسلامية ، ومنها تراجم ضافية تملأ صفحات كبيرة ، ومنها تراجم موجزة ، ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير ؛ وقد عنى ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة فناً حقيقياً ، وما زال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها .

وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره فى القرنين الثامن والتاسع ؛ وظهرت فيه الموسوعات الغنية الشاسعة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه ، ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر ، كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو موسوعة كبيرة فى تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات . وللصفدى أيضاً كتاب « الوافى بالوفيات » ، وهو موسوعة عامة فى تراجم أعلام الأمم الاسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره ، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات ؛ وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تغرى بردى بكتاب عنوانه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ضمنه تراجم الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أى إلى منتصف القرن التاسع . ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة ، يختص كل معجم منها بقرنه ، وأولها كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للحافظ بن حجر العسقلانى ؛ ثم كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوى ، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ؛ ثم كتاب « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى العامرى ، ثم « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى الحموى ؛ ثم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لأبى الفضل المرادى . وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر فى عهد الفتح الفرنسى طائفة كبيرة من أعيان مصر فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم . وترجم لنا المغفور له العلامة على باشا مبارك كثيراً من أعيان مصر فى العصر الأخير فى كتابه « الخطط التوفيقية » ؛ ووضع المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر فى القرن الرابع عشر ، وهى التى نشرتها « الرســـالة » تباعاً فى أعدادها الأخيرة .

هذا عن التراجم العامة . وأما عن الترجمة المفردة التى تقتصر على سيرة شخص معين ، والترجمة الخاصة التى تعالج طائفة خاصة من الأعلام ، فلدينا منها الكثير أيضاً ، ونستطيع أن نمثل للترجمة المفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى فى أوائل القرن الثالث ؛ وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المصرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليـلة ؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى « بعجائب المقدور » لابن عربشاه الدمشقى من علماء القرن الثامن ؛ وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقلمه ؛ وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوى ، وترجمـة ابن الخطيب للمقرى ، وغيرها . ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسـفة والأدباء والقضاة والنحاة وغيرهم ، مثل أخبار الحكماء للقفطى ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر ، وكثير غيرها ؛ هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها . (١)

والخلاصة أن الأدب العربى غنى بتراثه فى فن الترجمة ، وقلما تنافسه فى ذلك آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحـديث . ولكن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عنـد بدء تاريخنا الحديث ؛ ولو لم يوهب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبرتى فى القرن الثانى عشر (القرن الثامن عشر الميـلادى) ويتحفنا بموسوعته النفيسة « عجائب التراجم والآثار » لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولطمست سير الكثيرين من أعلامه . نعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى ، لأنها ازدهرت فى

(١) يستطيع من يريد التوسع فى معرفة كتب التراجم والسير أن يرجع إلى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسـخاوى ، وكتاب « كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون » لحاجى خليفة .

عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية ؛ ولكنها مع ذلك تتمتع فضلا عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخي ، وفي وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نفائس مادته ؛ وقد كان الجبرتي خاتمة هذا الثبت الحافل من مؤرخين عنوا بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة ، ولم يقع لتراثنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتي أي منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد تقدمت المباحث التاريخية في العصر الأخير تقدماً واضحاً ، وبدىء بكتابة تاريخ مصر الحديث [1] ؛ ولكنا حتى في هذه الناحية العامة مازلنا في مستهل جهودنا ؛ ومما يبعث على أشد الأسف والألم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواء من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا ، وأن نجد في مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجده في لغتنا العربية .

أما النواحي الخاصة في تاريخنا القومي ، وأما سير عظائنا ، وهي التي أوحت الينا بكتابة هذا الفصل ، فما زالت مغمورة منسية . وأي نسيان ، بل وأي نكران أشد من أن يبقى ذلك الثبت الحافل من عظائنا ومفكرينا في العصر الحديث دون ذكر محقق منظم ؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابي والبارودي وعلى مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم ضافية ، نقدية محققة يقرأها الشباب والخلف ؟ إن العظماء في الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكرهم بين مواطنيهم ؛ فاذا توفى أحدهم صدرت عنه غداة وفاته الفصول والكتب المحققة ، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته . أما نحن فننظر الى التاريخ المعاصر نظرة الجمود والاستخفاف ، ونكتفي يوم يذهب أحد عظائنا بأن نشيعه الى قبره ببعض المقالات والمراثي ، ثم لا يلبث أن يغمره النسيان الى جانب أسلافه ! وهكذا يتكدس أمامنا ثبت عظائنا فلا نتلقى من سيرهم وأعمالهم الا صوراً مشوهة ، بينما نعرف الكثير عن عظماء الأمم الأخرى ، لأننا نجد في سيرهم كتباً محققة ممتعة تشوق قراءتها .

(١) يسرني أن أنوه بهذه المناسبة بمجهود صديق المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك وكتابه الجامع القيم « الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » وهو خير ما أخرج بالعربية في تاريخ مصر الحديث .

ولاريب أن معظم التبعة في ذلك الاهمال المشين ترجع إلى نوع الثقافة التاريخية الذي نتلقاه في مدارسنا ؛ فهذه الثقافة ماتزال قاصرة ، بعيدة عن أن تخص التاريخ القومي بما يجب من عناية ، بعيدة عن أن تذكي الشعور الوطني في نفوس النشء . والشعور بالكرامة القومية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عظماء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها .

هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات « الرسالة » لننبه على احدى مواطن الضعف في ثقافتنا وآدابنا التاريخية ؛ ولنذكر بها إخواننا الذين فكروا منذ عام في وضع تراجم وافية محققة لعظماء مصر في العصر الحديث أن يعاودوا البحث في هذا المشروع العلمي الوطني الجليل ، ولعلهم موفقون هذه المرة الى تحقيقه وإخراجه ؛ فيسدون بذلك ثغرة مشينة في تاريخنا القومي ويضعون سنة حسنة في آدابنا التاريخية ، ويستحقون بذلك عرفان الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

محمد عبد الله عنان
المحامي

بين فنى التاريخ وفن الحرب

٣ ـ خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأننا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

٥ — أسلوب القتال :

من الخطأ القول بأن ليس للعرب أسلوب فى القتال قبل الاسلام . فان من تتبع أخبارهم فى الجاهلية اتضح له أن للقوم مبادىء يسيرون عليها فى قتالهم ، وكانت هـذه المبادىء ملائمة لاستعمال سلاحهم ومنطبقة على البيئة التى يقاتلون فيها .

أجل ، إن العرب لم تقاتل بالجموع التى كان يقاتل بها الفرس أو الروم الذين كانت جيوشهم كبيرة قد تربو على المائة ألف فى بعض المعارك . وجيش بهذه القوة يحتاج الى تنظيم لسوقه قبل المعركة وتعبئته فيها . فجيش أولئك الأعاجم كان ينقسم الى راجلين وفرسان والى طاعنين وضاربين ورماة . وكانت الفيلة عند الفرس والعجلات الحربية عند الروم ، تقوم مقام الأسلحة الثقيلة كالدبابات والمدافع الضخمة فى يومنا هذا .

فنظام القتال عند اليونان كان مستنداً الى « الفيلق » (الفلانكس) وهو وحدة تعبيوية يبلغ متوسط قوتها (٤٠٠٠) مقاتل ، يصطف الجنود فيها على ستة عشر صفاً طول كل صف (٢٥٦) مقاتلاً . والجنود فى « الفيلق » (الفلانكس) من المشاة مسلحون بالرمح والسيف والحربة والمغفر والدرع والترس . ويتكون من « الفيلق » القلب ويقف فى الخط الثانى الذى يسبقه الخط الأول المؤلف من الرماة ويليه الخط الثالث . وتقف الخيالة فى الميمنة والميسرة لحماية الجانب .

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

ويتألف الجيش عادة من أربعة « فيالق » (فلانكسات) متى تيسرت القوة فيه . فتقف « الفيالق » جنباً إلى جنب وبينها فاصلات صغيرة تتراوح بين عشرين وأربعين خطوة .

وكان هذا النظام لا يصلح للقتال إلا فى الأرض السهلة المنبسطة ، والمقدرة على الحركة فيه قليلة ، ولا يستطيع تغيير الجبهة متى اقتضى الموقف ذلك ، فضلاً عن أنه معرض للخسارة إذا أصيب برمى السهام .

أما نظام القتال عند الرومان فكان مستنداً الى (اللجيون) ، وهذا ينقسم الى الكراديس ومجموعها عادة عشرة . وكانت الكراديس سابقاً تُعبأ على خطين كل خمسة منها فى نسق وبينها فاصلة بجهة كردوس ، على أن تقف كراديس الخط الثانى وراء فاصلات الخط الأول .

ثم تطور هذا النظام فى عهد يوليوس قيصر ، فكان اللجيون يقف على ثلاثة خطوط : فى الخط الأول أربعة كراديس ، وفى كل من الخطين الباقيين ثلاثة ، وتبلغ قوة كل كردوس ألف مقاتل . وتؤلف الكراديس القلب ، ويقف أمامه الرماة الذين يرمون العدو بسهامهم أو بحرابهم قبل الاصطدام ثم ينسحبون الى المجنبات . أما الخيالة فتحمى المجنبتين .

وكان نظام الكراديس يفوق نظام « الفيلق » « الفلانكس » فى المقدرة على القتال والحركة والسير بسهولة ، وكان فى استطاعة الكراديس أن ينجد بعضها بعضاً .

والجانب فى اللجيون قوى بخلاف جانب « الفيلق » (الفلانكس) ، لأن كراديس الجانب متى غيرت ناصيتها استطاعت أن تقابل العدو الملتف حولها .

وسار الروم أو البيزنطيون فى قتالهم على نظام الكراديس . فأخبار الفتوح الأولى تدل على أنهم كانوا يعبئون قواتهم كراديس ويحمون مجنبتهم بالميمنة والميسرة . وكانت قوة الجيش تختلف باختلاف عدد اللجيونات وتقف على خط واحد ، فاما أن تؤلف القلب فتؤلف الخيالة وحدها الميمنة ، واما أن تؤلف القلب والميسرة والميمنة وتكون الخيالة على الجانبين .

وإذا كان عـدد اللجيونات كثيراً يحتوى القلب عادة على أكثرها . وقد زادت قوة الخيالة على ما كانت عليـه فى زمن

الرومان ، ذلك لأن الأقوام المتوحشة التي هاجرت من آسيا ودخلت أوربا باغتت رومية بجيوشها الخيالة الكبيرة . ولما توطنت هذه الأقوام فى أوربا ، واندمجت فى المقاطعات الرومانية وجهزت الجنود لجيوش رومية زاد عدد الخيالة فيها وأصبح للفارس شأن خطير فى القتال .

ولا يختلف نظام القتال عند الفرس عن نظام القتال عند الروم إلا اختلافاً يسيراً . والجيش الفارسى على ما يظهر كان منقسما إلى كتائب — والكتيبة تقابل الكردوس وتبلغ قوتها ألف مقاتل — وكان خط القتال فيه ينقسم الى القلب والميمنة والميسرة ، وكانت كتائب الخيالة تحمى الجانبين على ما هو شائع . وكانت الفيلة تتقدم فى جبهة القتال وعلى ظهورها الجنود المسلحون بالحراب والقسى . والذى يلفت النظر أنه كان للرماة شأن خطير فى الجيش الفارسى . ولعل المشاة كانوا جميعاً مجهزين بالقسى وجدّ ماهرين فى الرماية .

ومن الأساليب التى كان الجيش الفارسى يلجأ اليها فى حرج الموقف ربط الرجال بعضهم ببعض بالسلاسل لكى يثبتوا فى محلهم مهما كلفهم الأمر .

فازاء هذه الأنظمة الشائعة بين الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب ، كان طبيعيا أن يسير الحرب على أسلوب معين فى قتالهم . ولم يغزو العرب فى عُقر دارهم فى السنوات التى سبقت الفتوح . فالرواة يروون هجوم الحبشة على بلاد اليمن ، وتوغلهم فيها بعد انتصارهم على الجيش اليمانى ، ويشيرون الى التجاء تبابعة اليمن الى أكاسرة فارس وطلب النجدة منهم . فخاض الجيش الفارسى عباب البحر على أسطوله ، وأرست سفنه على شواطىء اليمن ، وحارب الأحباش وانتصر عليهم وطردهم من اليمن .

والقصاصون ينقلون أخبار المناذرة والغساسنة فى حروبهم ومساعدتهم لكسرى أو لقيصر فى الحروب الطاحنة التى دارت رحاها بين الفرس والروم . وقد ورد فى القرآن الكريم نتف من أخبارها .

أما مؤرخو الرومان فيذكرون انتصار ملك تدمر أذينة على الرومان واعتزاز زوجه الزباء (زينوبيا) بالعاصمة تدمر .

فهذا الاحتكاك المستمر بين العرب والأمم المجاورة لهم والاشتراك فى القتال مع الجيوش الأجنبية منجدين أو مستنجدين ، والغارات المتوالية على أرض السواد فى العراق أو أرض الشام ، كل أولئك حمل العرب على اقتباس بعض الأساليب الحربية الشائعة عند الفرس والروم ، لذلك لا يأخذنا العجب اذا سمعنا أن للمناذرة كتيبتين ، أى كردوسين : الدوسر والشهباء ، وأن بكر بن وائل قاتلت الفرس فى يوم ذى قار على تعبئة

ومن المبادىء الحربية التى كان العرب يتمسكون بها فى قتالهم مبدأ المباغتة ، والمقدرة على الحركة ، والأمنية . فالمباغتة من أخطر المبادىء التى كانوا يتوخون منها الفوز فى جميع خططهم . لذلك تدل أخبار أيامهم ووقائعهم فى الردة على عنايتهم الزائدة بالاستطلاع ، فكانت العيون تسبق حركاتهم ، فاما أن يباغتوا عدوهم بأخذه على غرة ، أو أن يكمنوا له فيفاجئوه .

أما مبدأ المقدرة على الحركة فظاهر من سيرهم على ظهور خيلهم أو جمالهم خفافاً مسافات بعيدة بسرعة فائقة . وأما عنايتهم بمبدإ الأمنية فمعلوم من إيفادهم الأرصاد والعيون ، ووضع الخيالة فى المجنبة فى القتال ، ومراقبة جانب العدو مراقبة مستمرة للهجوم عليه عند سنوح الفرصة .

ومن المحتمل أننا لا نرى فى كتب التاريخ مثالا للحركة السريعة التى قام بها خالد بن الوليد حين أمره عمر بنجدة جيش سورية وهو يحارب فى العراق . فقطع ابن الوليد البادية بجيش يبلغ عدده تسعة آلاف مقاتل على ظهور الخيل والجمال ، وابتدع وسيلة لضمان الماء اللازم لخيله ، وذلك عمل يدل على نبوغ نادر ، وسنشير الى ذلك عند البحث فى فتح العراق .

وفى غزوة أُحُد كانت قوة المسلمين الف رجل ، تخلف منها ثلثمائة رجل . وكانت قوة قريش ثلاثة آلاف رجل ، فنظر الرسول فى كثرة قوة العدو ، فأخلى المدينة وانسحب الى شمالها جاعلاً جبل أحد خلفه ، للاستفادة من مناعته ومن وضعه المشرف على ما حوله . ولما لم يكن الجانب الأيسر مسنوداً بقوة ، وضع فيه مفرزة رماة بقوة خمسين رجلا لحمايته . أما جيش قريش فرتب صفوفه للهجوم بعد أن وضع قوة الخيالة على مجنبته ، وكانت تبلغ مائتى رجل ، وقدم الرماة فى الخط الأول .

وكان خالد على رأس خيالة قريش فى الجانب الأول يراقب رماة المسلمين ويشاغلهم ويتحين الفرص للهجوم عليهم ، لكى

يقطع خط الرجعة على المسلمين . وفعلاً استطاع ذلك لما سنحت الفرصة ، فقلب فوز المسلمين الى انكسار مروع . فهذا كله يثبت لنا أن للعرب أسلوباً فى القتال ، وأن مبدأ المباغتة ومبدأ الأمنية كانا من أخطر المبادىء التى ساروا عليها .

وفى يوم ذى قار نرى بوضوح النظامَ الذى سار عليه العرب فى قتالهم الفرس ، وهو يؤيد ما ذهبنا اليه .

ولا يخفى أن معركة ذى قار وقعت بين غزوة بدر وغزوة أحد ، فانتقم فيها العرب من الفرس ، ونالوا ظفراً حاسماً شجعهم على الاستهانة بقوة فارس ، وساعدهم على غزو بلاد السواد غزواً متواصلاً ، حتى آل الأمر الى فتحهم تخوم العراق .

ويروى لنا صاحب الأغانى أخبـــار ذلك اليوم بالتفصيل . والواضح من ذلك أن العرب عبأوا قوتهم صفوفاً وقسموها إلى كتائب ، وجعلوا الظعن فى الوراء ليحموه بقلبهم ، وكان بمنزلة القاعدة التى يتموز منها الجيوش فى يومنا هذا وتوضع الخطط الحربية لحمايتها .

وأقاموا قوة فى الميمنة من بنى عِجْل ، وقوة فى الميسرة من بنى شيبان . أما القلب فألفته قبائل بنى بكر بن وائل . ومن الأساليب التى ساروا عليها أنهم لم يقدموا الصفوف للقتال دفعة واحدة لكى لا تصيبها سهام الفرس فتفتك بها . وكان الفرس على ما نعلم ماهرين فى الرماية . والحقيقة أن تقديم الصفوف بأجمعها فى وقت واحد يجعلها عرضة للسهام دفعة واحدة ، بينما البدء بالحركة بكتيبة واحدة يجعل الصفوف الأخرى فى مأمن من ضررها . وهـذا من الأساليب التى كانت تراعى فى هجوم الخيالة على المشاة ، إذ تبدأ الحملة بخط منتشر ضعيف من الخيالة وتليها الخطوط المنظمة .

فالعرب على ما يظهر جلياً دخلت ميدان القتال بنظام لم يكن أقل شأناً من نظام الفرس . وكان من أمره أن هزموهم شر هزيمة ، وطاردوهم الى أرض السواد بعد أن غنموا أحمالهم وأثقالهم .

ولعل الطريقة التى سار عليها الرسول (ص) فى غزوة بدر تدل على فكرة التعبئة عند العرب . كانت قوة المسلمين تبلغ ثلثمائة مقاتل . بينهم خيال أو خيالان فقط ، بينما كانت قوة قريش تربو على الألف وفيها مائة خيال .

وكان القصد من هذه الغزوة مباغتة قافلة قريش عند عودتها من الشام الى مكة . ولما وصلت قوة المسلمين الى مياه بدر علمت من الأسرى أن قريشاً أنجدت القافلة بقوة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف قوة المسلمين . وكان لابد من الاصطدام ، لأن انسحاب المسلمين دون القيام بعمل مما يؤثر فى سطوة الاسلام ويشجع المنافقين على الشغب .

لذلك قرر الرسول أن يقاتل قريشاً بقوته الضعيفة على أن يزيد مناعتها بالتدابير التعبيوية الموافقة . فاختار موضعاً يهيمن على معسكر قريش وقسم قوته الى ثلاثة أقسام ، وجعل لكل قسم قائداً ، ورتب الأقسام بعضها بجانب بعض ، وعبأها صفوفاً كالبنيان المرصوص ، وعرض الصفوف بنفسه فقدم المتأخر من الجنود وأخر المتقدم منهم فأصبحت الصفوف متراصة .

ومنع المسلمين من رمى السهام ومن التفاخر ، وطلب منهم أن لا يتقدموا من محلهم ، ولا يرموا إلا بعد أن تدنو قريش منهم على مسافة قريبة . وكان يقصد بذلك أن تصيب السهام قوة قريش الفائقة فلا تتبعثر . وبفضل هـذه الترتيبات انتصر المسلمون على قريش مع قلة عددهم وضآلة سلاحهم . ولاشك فى أن القتال بالكر والفر كان شائعاً عند العرب . ولعلهم كانوا يستعملونه كثيراً فى غزواتهم لأخذ الثار أو لجر مغنم . وكان يقع بين متقاتلين يبلغ عددهم العشرات ولا يجاوز المئات . ولما كانوا يقاتلون بالجموع فى أيامهم الشهيرة أو فى مقاتلتهم الفرس أو الروم كانوا بلا ريب يعبئون قواتهم صفوفاً .

(يتبع) طه الهاشمى

لبيك ، لبيك ! ...

للأستاذ كرم ملحم كرم

رأى أديب دمشقى فاضل أن يسألنى ماذا أعنى بقولى : « إن للتوراة والانجيل والقرآن من الرواية أكبر نصيب » ، وعلىّ أن أوضح للأديب الكريم ماذا أعنى وإن يكن فيما أوردت فى مقال « ما هو أدب اليوم ؟ . . . » بيان مسهب جلىّ .

فقد تحدثت فى أدب اليوم عن الرواية ، وقلت إنها ركن الأدب فى كل عصر وكل آن . أما القصد منها فلا يعدو تغذية النفس بالمواعظ ، والحث على الفضيلة ، ومحاربة الفساد ، وقد تخرج روايات كثيرة عن هذا الهدف ، فينصرف قائلها أو واضعها إلى امتلاك سامعيه أو قرائه بحوادث رائعة مدهشة ترمى إلى التفكهة وقضاء الوقت ، والوقوف على غرائب لا وجود لها فى أحيان كثيرة فى غير مخيلات ناسجيها .

والرواية نوعان : منها التاريخية ومنها الخيالية . بل هى محيط واسع تشمل الحقائق والأكاذيب ، تشمل الملموس المحسوس والخيالى المجهول . فمن حق الراوى أن يتفنن فى سرد حكاياته على ما شاء . له أن يستعين بالتاريخ وأن يسخر بالتاريخ . له أن يقدس الحقيقة وأن يعرض عنها .

فهو حرّ مطلق فى أن يقول ما شاء . وما يقوله رواية تختلف قيمتها باختلاف قدر قائلها وقوة تركيبها ومن تتناول من الأفراد .

والكتب المقدسة تحمل روايات عديدة . ففى كل فصل من فصولها رواية ، وإننا لنبدأ بالتوراة . ففى سفر التكوين رواية ، وفى تمرد الملائكة وسقوطهم إلى الجحيم رواية ، وفى عصيان آدم وحواء مشيئة الله وأكلهما الثمرة المحرمة رواية ، وفى حكاية ابراهيم وهاجر رواية ، وفى موقف عيسو من أبيه اسحق رواية ، وفى حب يعقوب لابنة خاله رواية ، وفى حكاية يوسف وإخوته رواية ، وكم من حكاية وحكاية فى التوراة . فالكتاب يجمع بين دفتيه حكايات العهد القديم فى معظمها .

ولننتقل إلى الانجيل . فالمسيح نفسه صارح سامعيه بأنه يخاطبهم بالأمثال لكى يفهموا . فحدثهم عن الابن الشاطر ، وعن تجار الوزنات الخمس ، وعن العاملين فى الكَرْم الذين أقبلوا فى أوقات متعددة ونقدهم رب الكرم أجراً واحداً ، وعن العذارى اللواتى يحملن زيتاً فى مصابيحهن . وهنالك حكايات لا تحصى ضربها المسيح مثلاً لتلاميذه وسامعيه .

والقرآن ما خلا من هذه الحكايات . خصوصاً الحكايات الواردة فى التوراة . من حكاية سفر التكوين ، إلى حكاية سقوط الملائكة ، إلى حكاية زكريا ، إلى حكاية مريم بنت عمران ، وربك نفسه قال فى سورة يوسف : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . فان قول ربك : « نحن نقص عليك أحسن القصص » دليل ناطق على أن القرآن لا يخلو من الرواية .

ولماذا يخلو من الرواية ؟ . أتكون الرواية نقيصة ؟ . أليس من شأنها تهذيب النفس ورد الخاطئين إلى الله اتعاظاً بما سبق ونال الضالين من عقاب وقصاص كما اتفق لعاد وثمود ؟ . .

فلا غضاضة إذاً على الكتب المقدسة ، والقرآن منها ، اذا حوت الروايات ؛ وفى الروايات عظات بليغة . ولا حاجة لقول الأديب الدمشقى عن التوراة والانجيل : « صاحب البيت أدرى بما فيه ! . . » ، فلا مجال فى بحثنا للطوائف والنيل من الأديان . فالحديث حديث أدب ، والطائفية فى واد ونحن فى واد ، وكل قصدنا مما قلنا أن الرواية تتغلغل فى أى مكان ، فى الكتب المقدسة وفى سواها . كل قصدنا أن نقول إن الرواية انبثقت بانبثاق الكون ، وإنها أدب كل يوم . كل قصدنا أن نحث أدباء العرب على الاشتغال بالفن الروائى ، فان آثار هذا الفن تكاد تمحى فى الأدب العربى .

أما أن نكون رمينا الى الحط من منزلة الكتب المقدسة ، فذلك مما لا نفكر فيه ولا يحق لنا أن نفكر فيه ، فنحن نحترم هذه الكتب ، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها ، وتؤمن كل الايمان بآياتها ؟ . .

والكتب المقدسة تطبع العقول على الخير ، وتثقف النفوس وتقودها فى الطريق السوىّ ، وإذا كان بعضنا يرتاب فى أصلها وطريقة وضعها ورموزها ، فليس له أن يعلن هذا الارتياب لئلا

يؤثر في عقول العامة ويخرج بها عن إيمانها وتقواها ، ويثير في قلوبها الشكوك . فلولا الدين لعمّ الانسانية البلاء ، وتفاقمت الشرور ، وتعاظمت الويلات ، وانغمس الناس في الرذيلة ، وعاشوا لأهوائهم ، وباتوا كالانعام ! .

فليطمئن الأديب الدمشقي إذاً بالاً ، فالدين نحترمه ونرغب في أن نصونه ممن يتاجرون به لو استطعنا الى صونه منهم سبيلاً . وما حديثنا عن الرواية في كتب الدين غير حديث اقتضاه الأدب لا الطعن على الدين . والأديب الفاضل رأى بعينيه ، مما أوضحنا له ، أن للرواية من أي كتاب ديني أكبر نصيب . فليهدأ روعه القلق ، ولتسكن حدته . ولينظر مرة أخرى في مقالنا « ماهو أدب اليوم ؟ . . » فيثبت له أننا وضعنا الكتب الدينية على مسافة بعيدة جداً من روايات «ڤولتير» ، واعترافات « جان جاك روسو » وغراميات « لا مارتين » . . .

وعهدنا بالأديب الدمشقي تكفيه الاشارة !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب مجلة « العاصفة »

من ذكريات الصبي

الذهاب الى المدرسة

للأديب حسين شوقي

حينما أعيد على نفسي الآن بعض ذكريات صباى ، أدهش من الشخصية المؤلمة التي كانت لي في ذلك العهد .

كنت مضرباً أولاً عن الذهاب الى المدرسة ، برغم تقدمي في السن ، وقد بلغت الثامنة . . وكان والدي يحبني كثيراً ، فلا يعارضني في رغبتي ، برغم إلحاح أفراد أسرتي جميعاً ، وبخاصة مربيتي العجوز ، وكانت امرأة شركسية شديدة المراس ، تفشل معها حيلي وتوسلاتي . . كانت هذه المربية مغرمة بالمشاكسة ، فاذا لم تجد من تشاكسه ، عمدت الى ضرب القطط والكلاب .

وكنا جميعاً نتحمل هذه المربية المتعبة ، لأنها قديمة العهد عندنا ، إذ كانت مربية لوالدتي قبل أن تكون مربية لنا .

وكان لا يروق هذه المربية أن تثير موضوع ارسالي الى المدرسة إلا أثناء الطعام ، فتنغص عليّ . فكان والدي رحمه الله يثور عليها ، وينحي عليها باللوم القارس فتسكت ، ولكن تعود فتتمتم شتائم — بالتركية — تتناول الجميع .. فكنت من جانبي أنتهز هذه الفرصة للثأر منها ، إذ أعيد بالعربية في صوت عال هذه الشتائم .. فيهيج عليها الجمع ، ويضطرونها الى مغادرة الحجرة مغضبة ثائرة . .

ولكن لما تكررت مني هذه «الدسائس الشرقية» افتضح أمري ، وأخذت مربيتي تقابل دسائسي بالدس لي ، فألحت إلحاحاً شديداً في إرسالي الى المدرسة حتى تمكنت من ذلك ، للتخلص مني غالباً ، لا حباً في العلم .

أدخلت مدرسة الآباء اليسوعيين « بالظاهر » بالقسم التحضيري الذي تديره الراهبات . . وكان بين مربيتي وبيني نضال كل يوم في الصباح ، إذ كنت أحاول ألا أذهب الى المدرسة ، متعللاً بالمرض . . ولكن مربيتي الخبيثة كانت تفهم حيلتي ، فتقول : حسين . . إذا كنت مريضاً فابق بالمنزل ، ولكن عليك أن تأخذ مسهلاً ، فكانت بقولها هذا تضعني بين أمرين أحلاهما مرّ . . وكنت في النهاية أفضل المسهل لأن المدرسة كانت سجناً ؛ إذ أغادر المنزل في الساعة السابعة صباحا (وكنا وقتئذ نقيم في المطرية) ، ولا أعود إلا في الساعة السابعة مساء ، أي أن النهار كان يولد ويموت وأنا بعيد عنه وعن ضوء شعاعه البهيج .

حقاً ، ما أتعس حياة التلميذ !

كان الخادم المكلف بمرافقتي من المدرسة الى المنزل يتأخر أحياناً لدى الخروج ، فكنت أجهش بالبكاء مخافة أن أقضي ليلي أيضاً بالمدرسة . .

وكان لي رفيق بالمدرسة ، مصري كذلك ، يبكي مثلي اذا تأخر عنه خادمه . فيا لنا وقتئذ من جوقة ندّابة !

أما داخل المدرسة فكان الراهبات الطيبات لا يألون جهداً في تحبيب الحياة المدرسية الينا . فكن يغمرننا بالهدايا ، من ورق ملوّن وحلوى وغيرهما . . ولكن برغم هذا كله كنت أطمح الى استرداد حريتي المفقودة ، فما أبعد الفرق بين حياة تقضى بين جدران أربعة في وسط الغرباء ، وبين حياتي الأولى التي كنت

أقضيها فى رياض المطرية الغناء ، متنقلا بين الخضرة والزهور .

إن الحرية لا تقدر فى كل وقت وفى كل زمن !

كم كان يرهقنى فى ذلك الوقت حفظ أشعار لا فونتين ! فكنت أبغض ذلك الشاعر المسكين ، كما كنت أسخر منه ، لأنه يجعل الحيوانات تتكلم شعراً . . من رأيى ألا يدرس لا فونتين وأمثاله فى مثل هذه السن التى لا يمكن فيها تقدير هذه النفائس الأدبية . .

ولكن ذهابى الى تلك المدرسة لم يدم طويلا ، فقد فصلت منها لكثرة انقطاعى ، فجيء لى حينئذ ـ بفضل تعضيد والدى ـ بمدرسين فى المنزل ! فكان هذا بداية عهد سعيد ، لم يطل مع الأسف ، إذ نفينا بعده بأشهر قليلة الى اسبانيا !

* * *

وأذكر من ذلك العهد أيضاً حادثاً يدل على مقدار حقد الطفل وعلى روح الانتقام الكامنة فيه ، وذلك خلاف ماينسب اليه من طهر وبراءة .

اشترى والدى وقتئذ سيارة (توربيدو) ذات أربعة مقاعد ، وكنت أطمح الى أن أقودها مثل أخى وهو يكبرنى بسنوات قليلة ؛ ولكن السائق رفض لصغر سنى ، فرفعت الامر كعادتى الى والدى فلم ينصفنى على خلاف عادته ، بل أعطى الحق للسائق إشفاقاً منه على حياتى . . فأقسمت أن أثأر من السائق ، واليك كيف أتيحت لى الفرصة أن أحقق هذه الأمنية :

كانت هناك فى المطرية فى ذلك الوقت حانة تديرها أجنبية فاسدة ، يحذروننا منها . فاتفق ذات يوم أننى كنت عائداً فى المساء من محطة المطرية الى المنزل — مشـــياً على الأقدام — فاعترضنى فى الطريق جنديان بريطانيان يستفهمان عن عنوان تلك الحانة ، فأعطيتهما من فورى عنوان منزل السائق ! فكان ما قدَّرته ، إذ عندما جاء السائق — الى منزلنا — فى صباح اليوم التالى ، كعادته ، كانت عينه اليمنى زرقاء اللون ، فقد تشاجر مع الجنديين البريطانيين ذياداً عن عرضه !

حسين شرقى

من ذكريات لبناد

النفوس المغلقة

للأستاذ أديب عباسى

نهضت فى الصباح الباكر ودعوت حمالاً يحمل الحقائب إلى المحطة . وكنت قبلها قد هممت مرتين فى صباحين متواليين أن أسافر ، ولكننى كنت بكل مرة أصل المحطة متأخراً عشر دقائق أو نحوها . وكعت بالطبع ألقى اللوم على أصحاب الفندق الذين يتعمدون التلكُّؤ عن تنبيهى صباحاً حتى يستنزفوا البقية الباقية من دراهمى ! والحقيقة التى لامراء فيها أن أصحاب الفندق لم يهملوا تنبيهى فى الوقت الذى سألتهم أن ينبهونى فيه ، ولكنها الرغبة الكامنة للبقاء فى هذا البلد الجميل — لبنان — كانت كل مرة تتغلب على الارادة الشاعرة فتغمض العينين بعد انفتاح ، وتضرب على الأذنين بعد انتباه ، وتهوم للشعور فيغفو بعد صحو ، ويغيب بعد حضور .

وكنت بعد أن أبلغ المحطة وأحملق فى القطار الذاهب فى حنق مكذوب أعود أرضى نفساً وأوفر بشراً مما لو كنت لحقت بهذا القطار — قطار لبنان العجيب — ليحملنى بين أنفاسه الفاسدة فى أنفاقه المتعددة ، وسيره المتخلع البطيء ، ويلفظنى بعد مسيرة سبع ساعات على حال شر من الحال الذى خرج عليه يونان بعد ضيافة ثلاثة أيام قضاها فى بطن الحوت فى غير رحب ولا سعة .

وسمعت ، وأنا لا أزال فى الطريق ، مناديا ينادى ؛ ياأفندى ، تفضل ! وأدركت أننى أنا المقصود بهذا النداء . . فاستدرت ونظرت وإذا شاب حسن البزة واقف بجانب سيارته البديعة وعينه الى ويده تشير إلى السيارة . ودنوت أسأله فى تلكؤ متكلف ماذا يريد ، فأجابنى متلطفاً : أوتوموبيل جميل . وخير لك أن تسير فيه من أن تسير فى القطار .

وبعد أن استنزف بلاغته فى صرفى عن السفر فى القطار قال إننى لا آخذ منك إلا مثل ما آخذه من كل راكب . وذكر مبلغاً هو

ضعف ما يؤخذ عادة أجراً على مثل هذه المسافة . وعندها أدركت أنى ألبس سدارة ، ومن هنا سيأتيني الخطر فى هذه الصفقة ، وبادرت أصلح الموقف على قدر ما يمكنني الاصلاح وقلت : لتعلم أن من غير العراقيين من يحب أن يلبس السدارة (واخواننا العراقيون — سامحهم الله — يبعثون ، حيثما حلوا ، موجة من الطمع فى نفوس الساقة والباعة . على أن السدارة من ناحية أخرى «حماية» وصاحبها لا يرزأ إلا فى نقوده . وفيما عدا ذلك فهو من نفوس القوم حيث تشاء الكرامة ويسمو الأباء والعزة) . وبعد مساومة قصيرة رضى صاحبنا بنصف القيمة التى ذكرها .

ووقفت السيارة أمام فندق جميل من فنادق (عاليه) . وبعد نفخة أو نفختين من بوق السيارة أقبل راكبان : رجل وامرأة يجرى أمامهما طفلان صغيران .

والرجل ربعة القامة ، تخطى العقد الرابع من عمره ، جامد الملامح ، محني الظهر كأنه يحمل عبئاً ثقيلاً . أما الفتاة ففى ربيع الحياة ، فى قامة هيفاء يخيل إليك أنها نحيلة وما هى بنحيلة ؛ ضحوك المبسم فى وجه صبوح ، ونظرات تشع ذكاء ، يكسر منها قليلاً خفر طبيعى ووداعة ملازمة .

***

وانطلقت بنا السيارة فى بطء ملحوظ . فكأن سائقها الذكى فهم من تلفتنا ونظراتنا الشائعة أننا نودع عزيزاً ونشيع غالياً ، فلا يحمد السرعة فى هذه الحال .

وأطلت زوجة الزامل من نافذة السيارة ، وأخذت تجيل الطرف فى كل ما يمكنها من اتجاه . والتفت إليها زوجها ونصحها مترضياً بأن تكف عن النظر والالتفات ، وإلا أصابها الدوار ؛ ثم إذا كان لابد من النظر فلتنظر إلى الأمام فقط .

والتفتت إليه الفتاة وقالت فى وداعة ظاهرة : لست أرى أمامى إلا الزفت ؛ فهل تريد لى أن أغادر لبنان وليس ما يقع عليه ناظرى إلا الزفت ؟ إننى أحب أن أشبع النظر من لبنان ، وأشبع الخاطر من فتنته قبل أن أغادره . فبادرها بقوله : ماذا فى لبنان مما يفتنك ويتصباك ، ويجعلك تعرضين نفسك لخطر الدوار المؤكد ؟ عندها خاطبته فى شىء من التبرم وكثير من الأغراء والرغبة فى استثارته إلى مشاركتها فى متعتها وقالت :

الله ! ألا ترى هذه الجبال كيف تهاوت صخورها عند الحضيض ، وكيف شخصت برؤوسها الممدة كأنها أعسال رصت صفاً وراء صف ؟ ثم ألا ترى إلى هذه الأخاديد والوهاد كيف تقطعها تقطيعاً بديعاً فتجعل منها مثل ما تجمل الشوارع من المدينة ؟ وإليك هذه الأشجار ، منها الجبار يقف ثابتاً لا تلويه ريح ولا يثنيه إعصار ، تستكين إلى ظلها هذه الشجيرات الصغيرات كأنها الحجلان تنىء الى جنح الأم وتلوذ بحنوها وتدنو قدر ما تدنو من قلبها الخفاق . ألا ترى فى ذلك جمالاً ولا جلالاً ؟ ؟ وأى جمال وأية فتنة فى هذه الجبال الجرداء الشامخة تقوم الى جانبها هذه التلال الوطيئة فى هذا الحقل من شجر الأرز ، والسنديان يكلل رؤوسها ، وكأن كل ربوة من رباها دوحة جبارة واحدة أغصانها جذوع هذه الأشجار وأوراقها أغصانها ! ثم هذه الغيوم ومنها الذى أسف الى قعر الوادى واختلط بأهله اختلاط الألفة ، وجاورهم جواراً زالت معه الكلفة ؛ ومنها الذى أبى إلا تصعيداً ومنافسة لأعلى هذه الجبال فيختم على رأسه إكليلاً من ذهب صباح مساء ، ومن فضة فيما بين ذلك ؛ ومنها الذى أبى إلا إمعاناً فى التحليق والتصعيد فوق ذلك ، فجعلت من التيارات القوية ما يجعله النسر من ريش الطائر ، وقد شحذ النسر عليه مخالبه وألهبه سعار الجوع ؟ ثم هذا البحر المسجى من ورائنا ، جاث عند ركبتى لبنان يبللها بزبده ويغسلها بموجه ، ويهمس فى أذنه أن خل مكانك ، وتعالَ أبوئك الصدر بدل أن تكتفى منى بالزبد ، والزبد دائماً يذهب جفاء . وقديماً أغراه همس البحر السحرى فتحرك وتناول خير ما أنبت ، وبعث به جوارى من الأرز ملء ضلوعها رجولة وقلوب كبيرة ... أونسيت الباروك وماءه القر النمير ؟ أنسيت ينابيع لبنان المثلجة وكيف كنا نتجرع ماءها قطرة قطرة لما كانت تفعل الجرع الكبيرة المتوالية فى الأسنان ؟ ثم هل نسيت البارحة وكيف أمطرتنا السماء وابلاً اضطرنا أن نتعطف المعاطف كأننا من العام فى شهر آذار ؟ أمثل هذا يجتمع ويتيسر لغير لبنان من بقاع الدنيا ؟ أوه ! وماذا أقول فى هذه المدن المنثورة المنورة ، وقد ألهبتها فى الليل مشاعل الكهرباء ، فغدت نجوماً تومض على الأرض ، وتتحدى السماء فتحار أيهما أجمل وأروع : تلك التى تحتك ، أم هذه التى فوقك ؟ وهذه البيوت المبثوثة هنا وهناك ، لا هى بالقرى المتراصة ولا هى بالصوامع المنعزلة . ترف عليها وحولها أغصان

السنديان والصنوبر رفيفاً كأن يداً سحرية تروّح عليها ؛ وأخيراً هذه الحمائم البيضاء فى عرض البحر تمد أجنحتها للريح تتلقى منه المدد . فتسير باسم الله مجراها ومرساها ؟ أنسيت كل هذا لتسألنى ماذا فى لبنان من جمال وماذا أرى من فتنة ؟ ألا يفتنك بالله هذا التعانق الشديد بين السماء والماء والغبراء ، وهذه الألفة الفاتنة بين هذه العناصر حتى لكأن هذا ما خلق إلا ليكمل ذاك ، ولا ذاك إلا ليكمل هذا ؟ ؟ !

وبعد أن غمرت فتاتنا فتاها بهذا السيل الجارف من الأسئلة صمتت ترقب وتتأمل . وفتح صاحبنا فاه . . أوتدرى بماذا أجاب عن كل ذلك ؟ قد تحسبه أضاف لوناً آخر الى هذه اللوحة التى رسمها خيال فتاتنا بهذه السرعة الطائرة ؟ لا ! إن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ لم يزد صاحبنا أن قال :

هذه الجبال قد رأيت مثلها وأعلى منها فى البرازيل . والأشجار — كذلك — فى البرازيل ، لفّة منداحة تكاد لا تدع لأحد منفذاً . والبحر رأيت أضعاف سعته فى طريقى الى أمريكا . والمطر كثير أيضاً فى تلك البلاد . والباروك يُعدُّ « حنفية » ماء بالنسبة الى الأمزون .

عندها كدت أنشقُّ غيظاً ، وهممت والله أن أتناول شيئاً وأطرحه فى وجه هذا الجلف الغليظ القلب ، الذى لا يرى إلا أن يقيس الجمال بالأميال ، ويكيله بالمكيال . وحاولت الفتاة محاولات يائسة أن تنبه من هذا الصخر مكامن الأحساس بالجمال ، فكانت — كما يقولون — كالصارخ فى واد ، وكالنافخ فى رماد .

***

وأدركت أخيراً مَن الفتاة ومَن فتاها : هى شعلة من الذكاء والثقافة العالية ، والاحساس العميق بالحياة ، والتفطن الى همس الجمال بله صوته . أما هذا الذى يجالسها فهو من هؤلاء الذين ذهبوا إلى أميركا ورجعوا خلواً من كل شىء ، إلا المال ، فتقدموا بهذا الطعم المغرى ؛ فاصطادوا خيرة الفتيات جمالاً وعلماً وذكاء .

وصاحبنا هذا — مع الأسف الشديد — ليس بالمثال النادر فى الشرق ولا بالشاذ ، وإلا ما كنا نُعنى به ونثقل على القارئ الكريم بعرض صورته البغيضة ، إنما هو يمثل لنا طغمة من الناس فى شرقنا كثيرة كثرة مفزعة حقاً ، لا تتفتح نفوسهم على جمال ، ولا تنبسط لفتنة ولا تنشط لمتعة من متع الفن . يعيش الواحد من هؤلاء فى بقعة ركم الجمال فيها ركماً ، ولكنه يحيا — ان صح أنه يحيا — ويموت ، وكأن هذا الجمال لا يعنيه بحال من الأحوال ، وكأن هذه المفاتن لأناس من غير طينته ، وفى عالم غير عالمه ، وقد يصيب بعضهم من ينبه فيهم مراكز الجمال ، والتفطن إلى مواطن الملاحة فتتبدل النفوس غير النفوس وتنقلب حياتهم انقلاباً شديداً ، وتنفسح أمامهم متع الحياة انفساحاً يمتد مداه على قدر ما تكشّف لهم من مفاتن الطبيعة ومجالى الجمال ، إلا أن السواد الأعظم منهم يظلون على جمودهم ونضوب أنفسهم مهما حاولت أن تثير فيهم مكامن الاحساس بالجمال ، وتذوُّق الفن . وإذا رأيتهم يستملحون أو يستظرفون فانما يفعلونها من طرف لسان ومجاراة ، خشية أن يرموا بتبلد الأحساس وعقم العاطفة ، ولسنا نعزو هذا إلى نقص طبيعى فى الأحساس ، ونضوب معين العاطفة فى الشرقيين ؛ إنما نعزوه متأكدين إلى نقص فى التربية وتقصير فى التوجيه . فمدارسنا قلما تعنى بتنبيه مواطن الأحساس بالجمال فى الصغار ، وإذا فعلت ففى صورة سطحية ميكانيكية ، وهو تقصير يدفع الشرقيون اليوم ثمنه غالياً — يدفعون ثمنه ضعفاً فى الوطنية ، وجموداً عن التضحية . وهل ترجو خيراً ممن لا يرى فى جبال بلاده ولا فى سهولها ، ولا فى حزونها ولا فى أنهارها ، ولا فى ينابيعها ولا فى أشجارها ، ولا فى أطيارها ، ولا فى سمائها ، ولا فى مائها سحراً ولا فتنة يربطانه بها بعرى من الشوق والهيام لا تنفصم ولا تهى ؟ ؟ هـذا الأوربى إجمالاً ، والانكليزى ، على التخصيص ، أنظر كيف ينقل ذكرى جباله وأنهاره ، وقراه ودساكره ، ووديانه وينابيعه ومدنه إلى أميركا وأفريقيا وأوستراليا وغيرها من قارات العالم ؛ لم يستطيعوا أن ينقلوا هذه الأشياء العزيزة عليهم بالذات فنقلوا ذكراها المحببة ، فظلّت تربطهم بها رابطة من الشوق والهيام يؤكدها التذكير ويديمها النوى .

***

ولنعد إلى فتاتنا . فقد شاقنى حقاً أن أتابع هذه الدراما الصغيرة إلى النهاية ، أبت الفتاة إلا تطلعاً وإسرافاً فى التطلع ؛ برغم نصائح زوجها الغالية . فكأن حديثها السابق قد أذكى شعورها

وفتح لها أفقاً أوسع للتفطُّن والاستشراف ، وقد آلمنى حقاً أمر هذه الفتاة . فهى تشعر شعوراً عميقاً بهذا الجمال الغزير وتأبى إلا أن تشرك غيرها معها فى هذا الشعور ، وهى نزعة طبيعية ملحوظة فى جميع الناس . فليس أحد يشعر بجمال الفن سواء أكان طبيعياً أم صناعياً ، إلا يرغب أن يرى من يساهمه فيه الأحساس ويشاطره المتعة ، ولعلّ متع الفن هى المتع الوحيدة التى لا يخشى المرء فيها الشركة ، بل هى المتع الوحيدة التى لا تطيب نفسه ولا يحسُّ بها أرهف الاحساس وأحده ، إلا إذا كان من يشاركه . فكأن كثرة الناظرين أو السامعين لآيات الفن ، المرايا تتقابل حول الصورة فتضاعف الأشباح وتزيد الصور .

* * *

ويئس صاحبنا من صرف الفتاة عما تريد من النظر والتلفُّت ، فراح يتلهى بالصغيرين ويناغيهما ، وانتهى به الحديث معهما والمناغاة إلى صيغته بعينها جعلها لازمة حديثه وهى : يا بابا ! صباح الخير يا بابا ! وراح يرددها ويدهورها فى حنجرته طوال الطريق . وخيل إلى أن الرجل لن يكف عن ترديدها ولو أمسى المساء ، وضاقت به الزوجة الوديعة ذرعاً (وللصبر حد) وطلبت اليه متوسلة أن يكف عن الحديث ، أو يغير هذه العبارة التى يوشك أن يتبرم بها الصغيرين ! وصمت قليلاً . نخيل إلينا أننا قد ارتحنا بهذا القليل من الجرأة من هذه القدر المقرقرة . غير أنه ما عتّم حتى عاد وكأن عشرين ضفدعاً تنق فى حلقه ! ولعله خشى إذ صمت أن نحسبه ذلّ وخنس . فضاعف الصخب وزاد الجلب ، وقلت : ليتك يافتاتى لم تحاولى إسكاته ، فقد زدته ضراماً على ضرام . على أنه لم يمض حتى فاجأه أحد الصغيرين بقىء شديد ملأ صدره وانحدر يسيل إلى أسفل ، وهنا عبس الأب وانقطع عن المناغاة ، واضطر أن يشتغل باماطة ما علق بصدره من هذا السائل المبارك ، وقلت فى نفسى : عوفيتَ معدة ياصغيرى ؛ فقد ابرأت سقمنا ، وجازيته جزاء وفاقا ، وليت معدتك أوسع قليلاً فقد نحتاج إليها مرة أخرى .

* * *

وبلغت السيارة دمشق . وغادرتها وفى القلب ما فيه من غصة وألم بهذا الدهر الأهوج الذى يجمع بين الأنسان وشبه الأنسان .

أديب عباسى

فى الأدب الدرامى

١٠ – الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة فى خلال القرون

أول ما نال الملهاة الأغريقية من العناية كان فى صقلية . وكانت يومئذ مقصورة على تصوير العادات العامة دون تلميح إلى السياسة . وكان عميدها فى هذا القطر إبيكارم (٤٥٠ ق م) . فلما انتقلت إلى أثينا تقلب بها الزمن . فمر بها على أدوار ثلاثة : دور الملهاة القديمة . ودور الملهاة الوسطى ، ودور الملهاة الحديثة . فالقديمة تمتاز بكثرة النقد الشخصى الصريح ، فتسمى الأشخاص وتعين الحوادث . وكانت تستمد موضوعاتها من الوقائع اليومية . وتتمتع بالحرية المطلقة فى مهاجمة العظماء . والوسطى ظلت كتلك تهاجم أشخاصاً معينين ، ولكنها عفت عن ذكر أسمائهم ، وأخذت تمثل أنماطاً من الناس وصوراً من الأخلاق ، وأما الحديثة فلم تطلب الجاذبية والتشويق فى الحوادث اليومية والأهاجى الشخصية ، وإنما طلبتهما فى تعقيد العمل الروائى ، وتصوير الأخلاق العامة . وأشهر من عالج الملهاة القديمة أرسطفان (٤٥٠ — ٣٨٧ ق م) وقد كان معروفاً بصفاء الأسلوب ، ومرارة الهزل ، وشدة الوطنية . غير أن مناظره كانت خليعة فاحشة . أما الملهاة الوسطى والحديثة فلم يؤثر منهما غير قطع منثورة مشتتة ، حتى سنة ١٩٠٧ ، فعثروا على ملهاة تكاد تكون كاملة ، وهى ملهاة التحكيم لميناندر .

وكان للملهاة عند الرومان من العناية والحظ ما لم يكن للمأساة ، فقد نبغ فيها كثير منهم ، أشهرهم (بلوت ٢٢٧ — ١٨٣ ق م) وقد سار على نهج إبيكارم ، إلا أنه عرف بسرعة العمل الروائى ، ونشاط الحوار . دون تصوير للعادة ، ولا تحقيق للخلق . ثم (تيرآنس) (١٩٢ — ١٥٩ ق م) ، وقد قلد منيناندر ، وامتاز

فى هزله بالحرارة والأناقة والأدب وتنويع الأخلاق والصدق فى وصفها .

ثم هجرت الملهاة فى القرون الوسطى ، وخلفتها فى الشهرة والذيوع الرواية الرمزية الخلقية (Moralités) ، والملهاة العامية (Farce) ، والأحموقة (Sotisè) ، فلم يدب فيها دبيب الحياة إلا فى القرن السادس عشر . فعادت إلى الظهور فى ثوب الملاهى الأغريقية والرومانية ، غير أنها كانت مصبوغة باللون الحديث ، مطبوعة بالطابع الفرنسى . وما زالت الملهاة تتردد بين الكساد والنفوق ، وتترجح بين الهبوط والصعود ، حتى جاءها موليير (١٦٢٢ — ١٦٧٣) فأقرها فى نصابها ، وشرع السبيل إلى كتابها ، وطبعها بطابع الملاحظة القوية والحرارة القلبية والذوق السليم . وقد عالج موليير أنواع الملهاة المختلفة بالنظم والنثر : فله غير الملاهى المجونية والاشكالية ، ملاهٍ اجتماعية : كالمتحذلقات السخيفات ، والنساء العوالم ، والحضرى الشريف ؛ وملاه خلقية : كترتوف ، ودون چوان ، والمتوحش ، والبخيل .

كان موليير يتناول العيب أو الحمق وهو فى عنفوانه ، فيصور منه مناظر طبيعية صادقة ، ثم ينتهى من هذا التصوير ببيان عواقبه الوبيلة على صاحبه وعلى المتصلين به . فتصوير العيوب هو أكثر ما فى ملاهى موليير . أما التعقيد الروائى فواهٍ ضعيف ، والحل فى جملته يعوزه الامكان والمنطق ، إذ ليس نتيجة طبيعية لحوادث العمل . ثم ذهب موليير وأعقبه رِنيَار (١٦٥٥ — ١٧٠٩) فكتب طائفة من الملاهى الاشكالية كالقامر والذاهل ، ولكن أخلاق أشخاصه ليست محددة الرسوم ، وإنما ملأها بالنكات المضحكة ، حتى قال فيه (چوبير) (رنيار يهزل هزل الخدم ، وموليير يمزح مزاح السادة)

ومن القرن السابع عشر ، ولم يشتهر فى الملهاة غير هذين الكاتبين . ولما جاء القرن الثامن عشر ظهرت فيه طائفة من الملاهى الجيدة . كملهاة تركاريه Turcaret أو المالى ، للكاتب لُساچ (١٦٩٨ — ١٧٤٧) فضح بها حديثى النعمة من المثرين ، وحلاق أشبيلية ، وزواج الفيجارو لبومارشيه (١٧٣٢ — ١٧٩٩) وهما ملهاتان قويتان إلا أنهما لم تراعيا حقوق الأسرة . ثم المسارات الباطلة ، والوصية ، والتجربة ، لمارسيفو (١٦٨٨ — ١٧٦٣) وهى ملاهٍ عُنى فيها كاتبها بتفصيل الدلال ، وتحليل الحب ، دون العناية بتصوير الأخلاق ووصف العادات . ثم اشتهر القرن التاسع عشر بنخبة من الملاهى القيمة لطائفة من نوابغ الكتاب . كبيكار (١٧٦٩ — ١٨٢٨) ، وسكريب (١٧٩١ — ١٨٦١) ، ولابيش (١٨١٥ — ١٨٨٨) ، وأوچييه (١٨٢٠ — ١٨٨٩) ، واسكندر دوماس الصغير (١٨٢٤ — ١٨٩٦) ، وفيكتوريان ساردو (١٨٣١ — ١٩٠٨) . وقد كان النوع الغالب على هؤلاء الكتاب هو الملهاة الاجتماعية (Comédie de moeurs) مشوبة بالمذهب الطبيعى ، فقد أخذ أوچييه ودوماس يقللان فيهما من تعقيد اسكريب وجاء هنرى بيك (١٨٣٧ — ١٨٩٩) مؤلف (الغربان) فمحا التعقيد وتوخى بساطة العمل وسذاجة الأسلوب . ثم انقلب المذهب الطبيعى من بعد هؤلاء إلى مذهب المسرح الحر ، وهو مذهب سطحى الفكرة خامد الحركة ، يهزأ بالقواعد المسرحية ، ولا يتقيد بالعمل الروائى ، وإنما يكتفى بتكثير المناظر المضحكة ، وتصريف الحوار فى مختلف النكات المستطرفة الحديثة . ولم يدم هذا المذهب الخليع إلا قليلاً ، ثم أودى به إسرافه وتهوره . وظلت الملهاة الاجتماعية أو الجدية أو البكية تسير مع الزمن ، وتتطور مع أهله ونظمه ، حتى حلت محل الدرامة الابتداعية (Le drame romantiqne) ، وأصبحت اليوم موضوع المسرح الحديث كما سنبينه عند الكلام فى الدرامة .

تلك حال الملهاة فى فرنسا . أما حالها فى إيطاليا فقد ظلت خافتة الصوت ضعيفة الأثر قليلة النجح حتى القرن الثامن عشر . فما كان يظهر منها قبل ذلك العهد إلا نوع غير مسطور ، يرتجله الممثلون تبعاً لخطة مرسومة من قبل . فلما نبغ الكاتب (جولودينى) (١٧٠٧ — ١٧٩٣) وهو عند الايطاليين كموليير عند الفرنسيين ، أسس قواعد الملهاة ونهج سبيلها لبنى قومه .

وأما فى اسبانيا فملهاتها الوطنية كانت ملهاة المعطف والسيف (Comédia di capa a espady) وهى نوع من الرواية المنزلية ، بطلها دَعىٌّ من أدعياء الشجاعة الذين يسمونهم ماتامور matamore (أى قاتل العرب) لأن الرجل من هؤلاء كان يملأ ماضغيه فخراً بكثرة ما قتل من العرب كذباً وادعاء . وكانت عنايتهم فى هذا النوع بتعقيد الحوادث أشد من عنايتهم بتصوير الأخلاق . وأشهر تلك الملاهى : الطاحون ، وكلب البستانى ،

للوبى دى ڤيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) ؛ وساحر أشبيلية ، ونديم بطرس ، لجبريل تلز ؛ والحقيقة المريبة لرويز دالَرْكون (١٦٣٩) وهى التى استمد منها موليير أخلاق ملهاة (الكذاب) .

وأما فى انجلترا فلم ينبغ فى الملهاة غير شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) فقد كتب : (ثرثارات وندسور الفرحات) ، وجعجعة ولا طِحن (Much ado about nothing) وتيمون أثخ . وهذا كل ما تجده من الملهاة الأصيلة فى الأدب الانجليزى .

أما غيره فقد اكتفى باقتباس الملاهى الفرنسية أو تقليدها .

وأما فى ألمانيا فلم ينفق فيها غير الملهاة العامية فى ألعاب (المرفع) ، وهو نوع من التمثيل المضحك البذئ . أما الملهاة الأدبية فلم يؤثر عن الألمان منها إلا شئ قليل القيمة عديم الأثر ، على رغم مانال كوتزيبو و إِمِرْمَان ، وبْلُوم ، وبِينِدْيكس ، وهَكْلِنْدَرْ من الفوز .

تحليل موجز لأشهر ملاهى موليير

كانت الملهاة قبل موليير تعتمد على قوة المواقف بدلاً من تصوير العواطف ، وعلى المضحكات الخيالية بدلاً من المضحكات الطبيعية ، وعلى أسماء الأجناس بدلاً من أسماء الأشخاص ، وعلى العمل الخارق المستحيل بدلاً من العمل الواقعى الممكن . فكانت خليطاً مبهما من الأسماء ، ومكارم ساقطة من السماء ، وعفواً فى موضع الانتقام ، ومزيجاً غريباً من التقاليد الأغريقية والرومانية والاسبانية والايطالية . فجاء موليير فخلق الملهاة الفنية الحقيقية لجميع العالم ، ولذلك نكتفى بأن نحلل بعض ملاهيه نموذجاً لبناء الملهاة ، وتقسيم فصولها ، وتدبير عملها ، وتدريج جاذبيتها .

* * *

(**المستوحش** Le misanthrope) صورة لرجل كريم غالى فى الصراحة والتشدد حتى كان موضع الهزؤ والسخرية ، وهى من الملاهى الخلقية التى لا وجود للعمل الروائى فيها . أهم أشخاصها : ألسِسْت المستوحش ، وهو خطيب سليمين ، وفيلنت صديق ألسست ، وهو رجل لطيف المعاشرة ، إلا أنه مفرط المزاح ، وسليمين فتاة أرملة تسعى إلى الاعجاب من طريق الزهو والصلف ، وأوُرنت حبيب آخر لسليمين ، واليانت بنت عم سليمين ، وآكاست وكلتياندر مركيزان ، وأرسيونيه صديقة سليمين . وقد وقعت حوادثها فى باريس فى قصر سليمين .

الفصل الاُول : السست وصديقه فيلنت فى قصر سليمين ينتظران خروجها عليهما ، وفى أثناء ذلك يؤنب ألسست صديقه فيلنت على أنه لقى رجلاً فى عرض الشارع لا يكاد يعرفه ، فبالغ فى تحيته وإكرامه . فهو يقول له : إن مثل هذا العمل لا يزكو بالحر ولا يتسع له العذر . وفيلنت يجيبه فى مداعبة ورفق : إن المرء مادام فى الناس مقضىٌ عليه أن يسايرهم بالمصانعة ، ويعاشرهم بالموادعة ، والحياة تحب التظرف ، والعقل يكره التطرف . ولكن ألسست مسرف فى بغض الناس فلا يستمع له ، حتى أن له قضية منظورة فى المحكمة لا يفكر فيها ولا يشغل باله بها اعتمادا على ظهور حقه ، بل يتمنى أن يخسرها لتهيء له أسباب السخط والحفيظة على ظلم الانسان . على أنه بالرغم من انقباضه واستيحاشه يحب فتاة أرملة تدعى سليمين ، ولكنه يعترف بدلالها وخلاعتها ، ويأسف لأنها تستقبل فى بيتها كثيراً من الخطاب والأحباب ، وهو لذلك يريد أن يستطلع رأيها فى هذا الموضوع . ويدخل على الصديقين فى هذه الساعة أورنت — وهو خطيب آخر لسليمين مولع بقرض الشعر — فينتظرها معهما . وفى أثناء ذلك يرجو منهما أن ينشدهما قصيدة من نظمه ، فيستحسنها فيلنت ويستهجنها ألسست ، ولكنه يمسك على مافى نفسه منها ، ثم يلمح بما فيها من المآخذ ، وينتهى به الأمر الى التصريح بأنها سخيفة ركيكة ، فيخرج الشاعر غضبان يتوعد . ويقول فيلنت لصديقه وهو يحاوره : هاك خصومة جديدة جلبتها على نفسك بافراطك فى الصدق وغلوك فى الصراحة .

الفصل الثانى : (بهو سليمين والغيبة) . يلقى السست سليمين فيلومها على خلاعتها ، ويريدها أن تصرح له بحقيقة حبها ورغيبة قلبها ، فيقطع عليهما الحديث قدوم (آكاست) و (كليتاندر) ، ثم (اليانت) و (فيلنت) فيأخذون مجالسهم ، ويخوضون فى أعراض الناس ، وتجيد سليمين وصف النفوس اللئيمة ، فيعجبون بها ويصفقون لها . ولكن السست ينكر ذلك منها ، ولا يجرؤ على مجابهتها بالانكار ، فتنفجر مراجل غضبه على المراكيز لتصويبهم رأيها . فاذا ما تساير الغضب عن وجهه عاد الى سليمين يسألها أن تعلن من اختارته من الخطاب ، ولكن شرطياً يقتحم الباب فجأة ويدعوه الى المحكمة للفصل فى الخصومة التى بينه وبين أورنت .

الفصل الثالث : (خبث الرياء وعبث الدلال) كذلك المركيزان آ كاست وكليتاندر يريدان سليمين على أن تعلن من اختارته منهما ، وتقبل (أرسيونيه) صديقة سليمين فيخرج المركيزان وتخلى الصديقتان فتتبادلان السباب فى أسلوب المناصحة : تحكى أرسيونيه لسليمين فى لهجة مرة ما يرميها به الناس فى الأندية والمجامع من الخلاعة والهتك ؛ وتحكى سليمين لأرسيونيه ما يتقوله الناس عليها من المراءاة بالحشمة وهى داعرة . ويدخل عليهما ألسست فتخرج سليمين لتكتب رسالة وتتركه مع أرسيونيه فتنتهز هذه الفرصة لايغار صدر ألسست على سليمين فتريه أنه مخدوع وأنها خادعة ، وتعده أن تقيم له على خيانتها إياه الدليل .

الفصل الرابع : (رسالة سليمين) يأتى فيلنت فيعلن أن الخصومة بين ألسست وأورنت قد انتهت بالصلح ، ويدخل من بعده ألسست وهو ينتفض من الغضب ، وفى يده كتاب غرام من سليمين إلى أورنت جاءته به أرسيونيه دليلاً على خيانة خطيبته فيقول : آه ! لقد خاب الرجاء ، وضاع الأمل ، وظهرت الخديعة ، وبان الغدر ! فترضاه سليمين بالدهاء ، وتفثأ غضبه بالملاطفة ، ويجرى بينهما الحديث ، ولكن خادمه يأتى مسرعاً إليه ينبهه إلى أن شرطياً جاء يقبض عليه فى خصومة .

الفصل الخامس : (القاطعة) يخسر ألسست قضيته التى أهملها فينحى باللوم والسخط على فساد الحياة ولؤم الناس ، ويعثر أ كاست وكليتاندر على رسائل لسليمين فيقرآنها على السست ويستيقنون جميعاً بأنها تخونهم وتخدعهم . وينصرف عنها المركيزان ويبقى السست مقيداً بسلاسل هواها ، فيعدها بالعفو عما سلف إذا رضيته زوجاً وعاشت معه فى خلوة الريف ، فترفض طلبه . فييأس المستوحش ويعتزل الناس وهو يقول :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

ملحوظات على الرواية :

الفصل الأول آية من آيات الفن ، فقد عرض فيه المؤلف فى حوار قوى على لسان فيلنت وألسست أسماء الأشخاص الأصليين وأخلاقهم ، وذكر غضب السست وغرامه ، وبرودة قلب فيلنت ، وخلاعة سليمين ، واخلاص إليانت ، ورياء أرسيونيه الخ . أما التعقيد فيؤخذ عليه ضعفه وبطؤه ، إلا أن العمل كاف وبسط الأخلاق متدرج . والحل يعيبه بعض النقاد بالنقص من غير حق . فان سليمين جوزيت على خلاعتها وخبها بأن هجرها خطابها جميعاً . وألسست اعتزل العالم ، والمركيزان ذهبا يعرضان زهوهما الأجوف فى مكان آخر ، وفيلنت واليانت يستعدان لحفلة الزفاف .

يتبع (الزيات)

فى المعلقات أيضاً

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

...... ولابد قبل المضى فى تكميل رأينا فى المعلقات أن نعود إلى الكلام على مذاهب علماء الأدب ، قدمائهم ومحدثيهم فى تسميتها ، فان الذى يراه أبو جعفر النحاس ليس كما ذكرناه فى (الرسالة) وذكره غيرنا قبلنا فتأثرنا به ، أن هذه القصائد سميت باسم المعلقات من قول الملك (علقوا لنا هـذه وأثبتوها فى خزانتى) فيكون أبو جعفر على هذا مشاركا لغيره من القدماء فى قدم هذه التسمية ، ولا يخالفهم إلا فى توجيههم لهـا بأنها مأخوذة من تعليقها على الكعبة . ويذهب علماء العربيـة الأوروبيون بفضل الرأى الراجح الآن فى هذه التسمية ، أنها حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل ، وأنا ننقل هنا كلام أبى جعفر فى ذلك لنرى مذهبه حقيقة فيه .

قال فى افتتاح شرحه للقصائد السبع : « الذى جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الأكابر فى تفسير غريب الشعر ، إغفال لطيف ما فيه من النحو ، فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورة ، وأتبعت ذلك مافيها من النحو ، ولم أكثر الشواهد ولا الأنساب ، ليخف حفظ ذلك إن شاء الله تعالى » .

وقال فى آخر شرحه لها : « فهذه القصـيدة آخر السبع المشهورات ، واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع ، فقيل العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون ، فاذا استحسن[1] الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها فى خزائنى . فأما قول من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر ، جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم هـذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا » .

فهذا صريح فى أن أبا جعفر لا يرى فى المعلقات أيضاً رأى من يذهب الى أن تسميتها بذلك مأخوذة من قول الملك (علقوا لنا هذه) وإن كان يراه أرجح من رأى من يرى أن تسميتها بذلك مأخوذة من تعليقهم لها بالكعبة ، فكلا الرأيين عنـده مبنى على أن هذه القصائد كانت مجموعة قبل جمع حماد لها ، فكانت معروفة عندهم بهذا الأسم (المعلقات) أو غيره إن كان لها اسم غيره ، لأن جمعها هو الذى يجعل لها وجوداً خاصاً تحتاج أن تتميز فيـه الى اسم من الأسماء .

وأبو جعفر ينكر جمع هذه القصائد قبل جمع حماد لها ، فهو عنده هو الذى جمعها ، لما رأى زهد الناس فى الشعر ، فجمعها لهم من الشعر القديم ، وحضهم عليها ، وهذا رأى آخر عنـد أبى جعفر غير ذينك الرأيين ، وقد رآه أصح ما قيل فى هذه القصائد

فهناك لقدمائنا اذن فى هذه القصائد ثلاثة آراء لا رأيان ، وأصح هذه الآراء الثلاثة عند أبى جعفر أن هذه القصائد لم يكن بعضها يمت إلى بعض قبل جمع حماد لها ، بل كانت مغمورة فى الشعر العربى الجاهلى مثل غيرها من القصائد الجاهلية ، ولم تكن تمتاز عليها باسم يجمعها من اسم المعلقات أو غيره ، فلما جمعها حماد للناس قال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وهو الاسم الذى ذكرها به أبو جعفر فى افتتـاح شرحه لها وفى آخره أيضاً . ولا شك أن تحاشيه ذكرها باسم المعلقات كما يسميها غيره ويوجهه بأحد ذينـك التوجيهين دليل على أنه لا يرى صحة تلك التسمية ولا يرى صحة التوجيهين اللذين وجهوها بهما ، فهى عنـده تسمية مستحدثة مصنوعة بعد الأسلام ، وبعد جمع حماد لهـا ، وهذا هو الذى ننسبه الآن الى علمائنا الأوربيين ليذهبوا بفضله ، وينسى فيه فضل أبى جعفر رحمه الله .

هذا وقد رأيت فيما رجعت إليـه قبل كتابة هذا المقال من شروح المعلقـات ، وقد تعلقت نفسى باستقصائها حتى يجىء بحثى وافياً فيها من تلك الناحية ، رأيت ما يتفق مع رأيى فى المعلقات فى مقدمة الطبعة المنيرية لشرح الخطيب التبريزى على المعلقات العشر ، إذ جاء فيها : (وذهب فريق إلى أن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم ورؤسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها) وهذا قريب من رأيى فى المعلقات وهو من عجائب توارد الخواطر ، ولـكنه لم يبين فى تلك المقدمة

(١) لا يمكن أن يفهم من هذا ما فهم الأستاذ نولدكه أن هذا الملك كان معهم فى عكاظ ، فقال إن من الصعب احتمال أن ملكا عربياً كان يشهد سوق عكاظ ، بل الذى يفهم منه أنه كان يفعل ذلك وهو فى حاضرة ملكه بعد أن يجمع العرب على استحسان القصيدة فى عكاظ ، ولا شك أن خزائنه فى حاضرة ملكه ، فلا يقول أثبتوها فيها إلا وهو بها .

هل يذهب من يرى هذا فى المعلقات إلى أن تلك التسمية على توجيهة قديمة أو مصنوعة ، والظاهر أنه يراها قديمة ، وهو خلاف ما نراه فيها على توجيهنا لها .

وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جمعاً آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعاً وأربعين قصيدة ، قال عنها المفضل الضبي إنها عيون أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ، وأنفس شعر كل رجل منهم ، وهى التى جمعها أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى فى كتابه جمهرة أشعار العرب .

ويخالف المفضل حمادا فى أصحاب هذه القصائد السبع ، فهم عند حماد : امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، ولبيد بن ربيعة . وهم عند المفضل : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة . وقد تبع المفضل فى هذا أبا عبيدة ، وقال عن الشعراء السبعة : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » . ثم ذكر بعد هذا السبع المجمهرات ، والسبع المنتقيات ، والسبع المذهبات ، والسبع المراثى ، والسبع المشوبات ، والسبع الملحمات .

وإذا كان المفضل يخالف حمادا فى هذا فهو يوافقه فى أنه لم يرد فيما رواه أبو زيد القرشى عنه تسمية هذه القصائد السبع بالمعلقات ، ولم يذكر إلا أن العرب تسميها السموط ، فاذا كان يعنى العرب الأقدمين فهى تسمية جاهلية ، وإذا كان يعنى العرب فى عصره فهى تسمية إسلامية . وقد كانت العرب قبل الاسلام تطلق هذا اللفظ على غير هذه القصائد السبع ، ومن ذلك ما رووا أن علقمة الفحل كان يأتى مكة فيعرض شعره على قريش ، وكانت العرب تعرض أشعارها عليهم ، فما قبلوا منها كان مقبولاً ، وما ردوا كان مردوداً ، فأتاهم مرة فعرض عليهم قصيدته :

هــــل ما علمتَ وما استُودعت مكتومُ
أم حبلُها إذ نأتْك اليـــــومَ مصرومُ

فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم فى العام المقبل فأنشدهم قصيدته فى مدح الحارث الغسانى ، وكان أسر أخاه شاسا فرحل إليه يطلبه :

طَحا بك قلب فى الحسان طَروبُ
بُعيْد الشباب عصرَ حانَ مشيبُ

فقالوا هاتان سمطا الدهر

ويمكننا بعد هذا أن نجزم بأن اسم السموط كان يطلق عند العرب على قصائد غير هذه القصائد السبع ، ولا يدل ما ذكره المفضل على حصر هذه التسمية (السموط) فى هذه القصائد السبع ، وإنما معناه أنها كانت تسميها السموط فيما كانت تسميه بذلك من قصائدها ، فلا يدل ذلك على أنها كانت مجموعة متميزة عند العرب بهذا الاسم قبل جمع حماد لها ، بل يتفق هذا أيضاً مع ما رجحه أبو جعفر النحاس من أن حمادا هو الذى جمعها ، ولا يخالفه فى شىء من المخالفة .

هذا وقد كانت وفاة حماد الراوية سنة ١٥٥هـ ، ووفاة المفضل الضبى سنة ١٦٨ هـ ، ووفاة أبى زيد القرشى صاحب الجمهرة سنة ١٧٠هـ ، فنستطيع مع هذا أن نحكم بأن هذه القصائد السبع ما كانت تعرف باسم المعلقات إلى سنة ١٧٠ هـ ، وإنما كانت تسمى القصائد المشهورة أخذاً من قول حماد فيها بعد جمعها هذه هى القصائد المشهورة ، وكان يقال لها السموط كما كان يقال لبعض قصائد أخرى ، فلم يكن هذا اسماً خاصاً بها ، وقد سماها المفضل السبع الطوال فيما نقله أبو زيد فى الجمهرة عنه .

وقد نقبنا فى المقدمة التى ذكرها أبو زيد فى جمهرته قبل القصائد السابقة التى أوردها فيها ، فلم نجد فيها ما يمكن أن يؤخذ منه أن السبع الأولى منها كانت تسمى فى عصره باسم المعلقات . وكان الواجب على طابعى الجمهرة أن يلاحظوا ذلك فلا يضعوها تحت اسم المعلقات ، ولا يذكروا قصيدة امرىء القيس (قفانبك) تحت اسم معلقة امرىء القيس ، ولا قصيدة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) تحت اسم معلقة زهير ، وهكذا فى باقى السبع ، وهو خطأ ظاهر . وتسمية لهذه القصائد بما لم يسمها به صاحب الجمهرة . فان كان هذا فى الأصل الذى طبعوا منه فهو خطأ من ناسخه قطعاً . ولعلنا نظفر بعد هذا بأول من سماها باسم المعلقات فى الزمن الذى بين أبى زيد القرشى وأبى جعفر النحاس وهو الذى أورد فيها ما نقلناه عنه من ذلك الخلاف ؟

عبد المتعال الصعيدى

مِنْ طرائفِ الشِعرِ

شوقيتان لم تنشرا

١ — قصيدة لم تتم للمرحوم شوقى بك فى (سعد) والثورة

يا شبابُ اقتدوا بشيخ المعالى   فالمعالى تَشَبُّهٌ وتَحَدِّى

هو لو لم يكن له من الفضل إلا   هذه كان غايةَ الفضل عندى

قد تصدّى لنائبات حقوق   غيرُ سهلٍ لمثلهن التصدّى

حزَّنته بلادُه وهى صَـيْدٌ   بين نابَىْ مُظَفَّرِ النّاب وَرْد

أُمَّةٌ من غرائب النصر نَشْوَى   تسلُبُ المُلْكَ مَنْ تشاء وتُسدى

أَخْرَسَتْ أفصحَ القياصر سيفاً   بأساطيلَ فى الخصومة لُدِّ

جاءها سعد شاهرَ الحق يدعو   سيفها المنتضَى لخُطَّة رُشْد

أعْزَلَ المنكبيْن إلا من الحق   ومن حجة كنَصْل الفِرِنْدِ

خاطبَ النارَ وهى فى شَفَةَ المِدْ   فع والسيفَ وهو فى غير غمد

غَمْرةٌ يُشفق الضياغِمُ منها   خاضها لم يَهَبْ عواقب ورْد

فنفَوْا فانتنى فصادف حظّاً   حبـذا الجِدُّ إن أُعينَ بِجَدّ

واذا مصرُ كاللبوةِ غَضْبى   لابنِها تبذُل الدماء وتفدى

. . . .

٢ — قصيدة أخرى للمرحوم لم تتم فى (موليير) الشاعر الفرنسى

.. و إن (مُولِيير) نجمٌ لاأُفولَ له   وان تغيَّب فى الأحقاب واحتجبا

شريعة من بيان الغرب صافية   وان يك الشرق أحياناً بهاشربا

وآيةُ الأدب الرومىّ فى لغة   لم تخل من سرها عجماً ولا عربا

لو استطاع ذووها من عنايتهم   بنشرها علّموها الجنَّ والشهبا

فاحفظ لسانك واجهدْ فى صيانته   كما يصون الكريمُ العرضَ والحسبا

***

كأنما كانت الدنيا على يده   يصوّر الناس عنها كلما كتبا

إذا مضى يعرض الأخلاق عارية   أراك من كل نفس صورةً عَجَبا

يأتى النفوس فينضو عن طبائعها   ستراً و يهتك عن أهوائها الحجبا

فربما ازددتَ علماً بالبخيل و إن   نشأتَ تلقاه جَدّاً أو تراه أبا

وقد يزيدك بالكذّاب معرفةً   وأنت تُضحى وتُمْسِى تسمع الكَذِبا

وقد يريك أخا الوجهيْن منكشفاً   وأنت تلقاه فى الإخوان منتقبا

. . . .

ومن جيد ما نشره المرحوم من الشوقيات قوله يعتب على بنى وطنه اختلافهم وتنازعهم :

وأين الفوز لا مصر استقرت   على حال ولا السودان داما

وأين ذهبتمو بالحق لما   ركبتم فى قضيته الظلاما

لقد صارت لكم حكما وغنما   وكان شعارها الموت الزؤاما

شببتم بينكم فى القطر ناراً   على محتله كانت سلاما

إذا ما راضها بالعقل قوم   أجدّ لها هوى قوم ضراما

ترامَيتم فقال الناس قوم   الى الخذلان أمرهمو ترامى

وكانت مصر أول من أصبتم   فلم تحص الجراح ولا الكلاما

إذا كان الرماة رماة سوء   أحلوا غير مرماها السهاما

وقال يوجه الخطاب الى توت عنخ آمون عقب كشف قبره :

قل لى : أحين بدى الشرى   لك هل جزعت على العرين ؟

آنست ملكا ليس بالشا   كى السلاح ولا الحصين

البر مغلـوب القنا   والبحر مسلوب السفين

لما نظرت الى الديا   ر صدفت بالقلب الحزين

لم تلق حولك غير (كر   تر) والنطاسىَّ المعين

أقبلت من حجب الجلا   ل على قبيل معرضين

تاج الحضارة حين أشرق   لم يجدهم حافلين

والله يعلـم لم يرو   د من قرون أربعين

حصن طارق

للأستاذ فخرى أبو السعود

أقام على شط الجزيرة مفرداً ... ورانت عليه وحشة وسكون
على الصخرة الصماء يصخب دونه ... من اليم لج زاخرٌ ومُتون
مُضِبٌّ، بجيش الشرق والغرب حوله ... صَمُوتٌ على كرِّ العصور مبين
به صَدْفَةٌ عمَّا يَرَى فى زمانه ... وفيه إلى ماضى الزمان حنين
تغيرتِ الدنيا ، وبادَ قَبِيلُهُ ... وغيَّرَهُ دهرٌ مضى وقُرُون
وقطَّبَ لمَّا أنكرَ العصْرَ حوله ... وسارت بما لا يشتهيه شؤون
وأنكرَ خيلاً حوله وأعاجماً ... تقرُّ لهم تلك الرُّبَى وتَدينُ
تَدِين لرئبالٍ بكل مفازةٍ ... له فى أقاصى العالمين عَرين

* * *

تَعطَّلَ مِن بَعد اعتصامٍ ومَنعةٍ ... أسيرٌ بأيدى الغالبين رَهين
وكان يصون القومَ فارتدَّ أعزلاً ... وأصبح حتى النَّفْسَ ليس يَصون
إذا لم تكن همَّاتُ قومٍ حصونَهم ... تداعتْ رواسٍ دونهم وحصون

* * *

حوَتْ من تلاد المجد صخرةُ طارقٍ ... على الدهر مالا يحتويه رَقين
تعالتْ بها ، اللهُ أكبرُ، مرَّةً ... فمادتْ سهولٌ دونها وحُزُون
وسالتْ شعابٌ بالصوارم والقنا ... وأُحرق خلف الفاتحين سفين
وقامتْ بأطراف الجزيرة دولةٌ ... وأزهرَ عِرفانٌ وأشرق دين
جلاَ أمسِ عنها آلها ، وبنُوهمُ ... عَلَى الضفَّةِ الأُخرى الغداةَ قَطين(١)
فمَنْ لى بمن ينْبى الجدودَ بأننا ... وقدعزَّ عُبدانُ الجدود نهون ؟
وأنَّا إذا اعْتَمْنَا رُسُومَ عَلائهم ... تناهبتِ القلبَ الحسيرَ شجون
خشعتُ وعادتْنى لدى حصن طارقٍ ... همومى وابْتلَّتْ لديه جفون
لشعبٍ يُسِيغ الذلَّ مِن بعد ما سَمَا ... له فى الورى مُلكٌ أشمُّ مَكين

القاهرة ... فخرى أبو السعود

(١) قطين : عبيد .

الوحيد المريض

للأستاذ محمد خورشيد

سالَ ذَوْبُ الفؤاد فى أنَّاتِهْ ... وتلاشى بُكاهُ فى آهاتِهْ
ساكنُ الطَّرفِ لا يرفُّ له جفنٌ ... ولا يعزفُ الضَّنى عن أذاتِهْ
واجفُ الصدرِ، شاحبُ الوجه خُطَّتْ ... نفثاتُ الأسى على قسماتِهِ
كادت الروح تستحيل أريجًا ... تتملَّى الجِنانُ من نَفَحاتِهِ
وظلامُ المنون مدَّ رواقَيْهِ ... ليطوِى فى الليلِ فجرَ حياتِهِ
وأبُوهُ المرورُ ضَمَّ إلى الصد ... رِ فتاهُ ليفتـديهِ بذاتِهِ
حابسًا ما استطاع أنفاسَ صدرٍ ... شَبَّ جمرُ اللأْواءِ فى جَنَباتِه
ولو اسطاعَ أسكتَ القلبَ حتى ... لا يَضِجَّ الصغيرُ من خفقاتِه
كلما أرسل ابنه زفرات ... كاللظى خالهَا صدى زفراته
كلما أسبل الدموعَ فتاهُ ... كاللآلى تَشِفُّ عن حسراته
ظنَّ وجهَ الفطيم أصبحَ مرآ ... ةً أرتهُ المدرارَ من عبَرَاتِه

* * *

باتَ قلبى طىَّ الضلوعِ سِجلاً ... لجَنانِ الوحيدِ فى نبضاته
إن هفا مسرعًا حكاه ابنُ جَنْبى ... أو تأنَّى شاكلتُه فى أناتِه
وضميرى ناجى الحبيبَ فأصغى ... وهو رهنُ الضَّنَى الى همساته
قد حُرِمتُ السُّباتَ والداءُ يقظ ... انُ يُوالى مُسدِّدًا رَمَياته

* * *

حارَ إذا عادنا الطبيبُ ولمَّا ... يدرِ أيًّا يَطِبُّه بأداته
أ(نزارًا) وقد ذوتْ مقلتاهُ ... أم أباهُ والرُّوحُ قُربَ لهَاتِه
إن سُقمَ الأبناء أقسمَ إلاَّ ... أن يكونَ الآباءُ مرمى تِراتِه

* * *

يا رسولَ الردى أمانًا فهذا ... قد عقدنا المُنَى على بسماتِهْ
إن أردتَ الفداء دونك روحى ... تلكَ عند الشبابِ أغلى هِبَاتِهْ
يرِثُ التاجَ أولياءُ العهودِ الصِّيدُ ... والمجدُ موقِعٌ نغماته
فاعفُ عنِّى، ولىَّ عهدى، لأنى ... خفتُ دهرى فكنتُ من أقواته
لم أُورِّثكَ غيرَ شعرٍ شجىٍّ ... سال ماءُ الفؤاد من أبياته

* * *

أصبحَ البؤسُ تَوْأَمَ الشعرِ عندى ... يزدهينى بندبِهِ وشكاته
إنَّ وحىَ الأسى المروِّعِ يحبو الشاعرَ الفذَّ مُجتبَى خطَرَاته

القدس ... محمد خورشيد

توماس كارليل

Thomas Carlyle

١٧٩٥ — ١٨٨١ م

بقلم عبد الكريم الناصري

— ١ —

« العبقرية الحق ، هي التي تعمل ولاتشبع ، وتجد في الألم لذة ، وفي الموت من أجل العمل حياة ، ولاتحسب يوماً أنها وجدت ماتنشده وتصبو إليه ! . . »

« العبقرية الحق ، هي التي تخلق وتنشيء ، وتنظر دائماً إلى الممكن والى المستقبل ؛ هي باذرة بذور الخير والحبّ والطيبة والجمال في الوجود ، والطامحة دائماً الى الأحسن ، والآخذة بالناس من الظلمات إلى النور ، ومن العبودية الى الحرية . ويخلد العبقري بقدر ماتترك رسالته من أثر على وجه البسيطة ؛ فكلما كانت رسالة العبقري إنسانية ، كان الأعجاب بها شديداً والثناء عليها قوياً . »

***

ولد توماس كارليل في قرية « اكلفكان » ـ بأقليم أناندال ـ بجنوبي اسكوتلندة ، في تشرين سنة ١٧٩٥ . وكان أبوه بنّاء ، وهو الذي بني البيت الذي ولد فيه ابنه ؛ وكان صلب الرأي ، ميّالاً الى الجدّ والعمل . أمّا أمُّه فكانت امرأة صالحة حنوناً طيبة القلب . أدخله والده — أوّل الأمر — في مدرسة القرية ، فتلقى فيها مبادىء العلوم ، ثم في مدرسة قرية « أنان » . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره دخل جامعة ادنبرج . وفي سنة ١٨١٤ عينّ مدرساً للرياضة بمدرسة أنان ، وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره . ولم تمض عليه ثلاث سنواتٍ حتى صار رئيس مدرسةٍ ببلدة « كركالدي » .

وفي سنة ١٨١٨ ترك حرفة التعليم متبرّماً بها ، ساخطاً على المنتسبين إليها ؛ وذهب الى ادنبرج باحثاً عن عمل يعيش منه ؛ ودرس هناك علم المعادن الذي أفاده فائدة كبيرة ، إذ اضطره الى تعلم الألمانية « التي كانت من أسباب ظهوره ورفعته . » مع أنه كان يمقته مقتاً شديداً . وكان يتقن الفرنسية أيضاً ويترجم عنها مقالات علمية فيتكسب من ذلك ...

— ٢ —

... اجتمعت في كارليل صفات أبيه وأمّه . ورث عن أبيه صلابة الرأي ، ومضاء العزم ، وخصب الخيال ، وقوّة التصوّر ؛ وورث عن أمّه دماثة الخلق ، وسلامة النيّة ، وطيبة القلب ، وكثرة الحنان ، وخفة الظلّ .

وفيه أيضاً اجتمع هدوء الانجليزي ووطنيته الصادقة ، واعتزاز الألماني بقوميته ، واعتداده بنفسه واستبداده برأيه ، وفكاهة الفرنسي ومزاجه .

كان فيلسوفاً نابغة ، ومؤرخاً مدققاً ، وناقداً صائب الرأي قويّ الحجة ساطع البرهان ، وكاتباً بليغاً ساحر البيان ، عجيب التصوّر للحقائق ، مدهشاً في عرضها على قارئه أو سامعه واضحة جلية ، وكان خياله يشبه النافورة التي يتدفق ماؤها فيسقي هيا كل الأبطال القدماء العظمية ، ويحيلها إلى أناسيّ مثلنا يتحركون ويضطربون ! ...

كان في كتاباته جادّاً وهازلاً ، مكتئباً وضاحكاً ، تلمح من خلال سطور كتاباته نفساً هادئةً ، مؤمنةً ، قنوعاً ، ولكنك تجده أحياناً ليثاً كاسراً ، غضوباً متمرداً ... وكان متبرّماً بالوظائف والحرف المقيدّة لحريته ، ولما ترك مهنة التعليم صاح محتداً ساخطاً : « لاطاقة لي بعد بهذه الحرفة المقوتة ! ... »

وأرى أنه كان في آرائه وأقواله قومياً ومتعصباً أحياناً ، وإنسانياً أحياناً أخرى . يتعصب حين يحدثك عن « كروموبل » أو عن فردريك الكبير ملك بروسيا ، فيغرق في مدحهما والاشادة بذكرهما ، ويحملك على تصديق أقواله بسحر بيانه وقوة برهانه ، لأن الأول انجليزي ، والثاني بروسي ، وكان كارليل حريصاً على إرضاء البروسيين . ويقول الكاتب والناقد الانجليزي ج . ك . تشسترتون : « لقد سلط كارليل تيار خياله القويّ المتدفق على شخصية هي كالجمجمة جفافاً ويبوسة وصلابة (أي فردريك) ، وسكب عبقريته الخلاّقة المبدعة ليخلق من أسفل وأدنأ وأوحش شخصيةٍ عرفها التاريخ انساناً شهماً ، كريماً ، عظيما ! . »

وهو انسانيُّ حين يحدثك عن محمد (ص) والاسلام مثلاً ، فيقول : « لقد أصبح من أكبر العار على أيّ فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى مايظن من أن دين الاسلام كذبٌ وأن محمداً خدّاعٌ مزوّر ؛ وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول

ما زالت السراج المنير بمدة اثنى عشر قرناً لنحو مليون من الناس . » أو حين يقول : « ما محمد بالكاذب ولا الملفق ، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فاذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع » ...

وقد قال « ريتشارد جازبيت » : « فلما كتب كارليل مقالته عن الاسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل عن دينه ، لم يبق هجّاء أطلق يده فى عرض محمد (عليه السلام) إلاقبضها مجذومة شلاء ، ولا خفاش يدّرى ذلك الأديم الأملس ، وتلك الصحيفة البيضاء ، بسهام السباب الاّ وردّت سهامه فى نحره حتى راح شرف النبيّ فى تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الأديم موفور الجانب ... »(١)

ومن هنا ترى أن الرجل كان يعتمد على ذكائه وصفاء ذهنه ، واستقامة منطقه القوّى ، وبلاغته وخياله أيضاً ، فى حمل الناس على اعتناق مذاهبه ، والأخذ بآرائه ، والايمان بمعتقداته ، وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما ، وفاز فوز جبار ! . .

— ٣ —

وقد أحبّ ذلك الفيلسوف فتاة جميلة تدعى « مرغريت جوردون » ، وقد ابتدأ ذلك الحب حين صار رئيس المدرسة التى ذكرناها ببلدة كركالدى . ووصفها فى كتابه « فلسفة الملابس » .

وكان كارليل « يعبد الجمال ويكبر مَلِكات العالم (أى النساء) ويقدسهن ، ويرى لهن جلالاً إلـهياً ! » ولـكن حظه منهنّ « لم يكن إلا حظ اللمس من الخيال ، والغليل من الآل ! »

لقد كان حبه عنيفاً جداً لمرغريت ، ولا تكاد تقرأ بضع صفحات — بل بضعة أسطر — من كتابه فلسفة الملابس ، حين يصفها ، إلا وتؤمن أنه لم يكن هوى أو حباً ، بل لاعجاً محرقاً ، بل هياما جنونياً ، ولـكن العبقرى المسكين أخفق فى ذلك الحب ولم يتزوج من بلومين (كما يسميها فى ذلك الـكتاب) لتعرّض أصدقائها . . .

اسمعه يقول باكيا(٢) . . . « فـكنّ للفتى (أى كارليل) كأنهن من الهواء مخلوقات ، ومن الضياء مصوغات ، أرواح فى أشباح ، وأذهان فى ألوان . . .

وكأنهنّ ملائكة تحمل كل منهن معراجاً يرتقى فيه العاشق الى مقامات الأبرار فى الجنان . فليت شعرى هل قضى الله للفتى المنفرد (يعنى نفسه) أن يظفر يوما ما بأحدى هذه الملكات ؟ بل أين منه ذلك ، هيهات هيهات ! ! »

« أما والذى خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه ، لئن قضى الله للفتى أن تهبط عليه واحدةٌ من تلك الخيالات المليحة ، فتتحول له جسماً حياً ملموساً ، وحقيقة محسة ، ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد ، وتقول له بعينيها : (لك الآن أن تُحِب وتُحَب !) إذن فأى بركان هائج يثور ، وأى جحيم كامن يجيش ويفور !!.»

« وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوما ما فى فؤاد الفتى المنفرد اشتعالاً بركانياً ؛ وكيف يكون الأمر غير ذلك والفتى مزاجٌ رقيق ، وطبع سريع الهياج — فيه « كاربون » الحدة ، و « فوسفور » الشهوة ، و « كبريت » الأنفعال — تنتظر أدنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر ، فتالة الألحاظ ، فتتأجج وتشتعل ؛ وما شرار اللحظ فى هذا العالم بالشىء المفقود ؛ فليت شعرى اذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء ، فرمت « كبريته » بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل ؟ ! . . . . »

واسمعه يخاطب فتاته المحبوبة : « وما هى إلا هنيهة حتى قُرّب الى الغادة وقُدم لها ! يارعاك الله أيتها الآنسة ! إنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات ، وتبهرين صواحبك من الغانيات ؛ كأنك الـكوكب الدرىّ هبط من السماء فتوسّط طائفة من المصابيح والشموع ! يا أشرف الفتيات ! وسيدةُ النساء ! يامن سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدناً وروحاً ؛ وهو مع ذلك منكس الجيد فى حضرتك ، من فرط هيبتك ، خاشع الطرف ، تعروه لذة أليمة ، وتعلوه حـيرة لذيذة !! أحقاً أصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويجتلى نور طلعتك ، وبهاء غرتك ، وحقاً تشرق عليه أشعة لحاظك ! ؟ وحقاً يتكلم فتنصتين ، ويقول فتسمعين ، ويمزح فتضحكين ، ويعظ فترقين ، ويشكو فتتوجعين ؟ وحقاً كان الحب متبادلاً ، والغرام متداولاً ، والعطف متقارضاً ، والودّ متقابضاً ، والقطبان يخفقان للالتصاق ، ويرجفان للاعتناق ، ؟ ! ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعبّ فى حضرة القمر ! ؟ بلى ! حقاً كان كل ذلك » .

البصرة — عبد الـكريم الناصرى

(١) ترجمة معرب « الأبطال » .

(٢) الفقرة التالية من ترجمة معرب الأبطال أيضاً . ولم أشأ أن أترجمها أنا لأنه أقدر وأفضل منى فى ذلك .

العلوم

٤ ـ بحث فى أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

بدراسة الجمجمة التى وجدت فى جزيرة جاوة ، إحدى جزائر الهند الشرقية ، وجد أنها تشبه جمجمة نوع من أنواع القردة ، وهو المسمى جيبون Gibbon ، وهذا القرد معروف أن نسبة مقاس جمجمته تتناسب تناسباً اطرادياً مع ارتفاعه وحجم جسمه . بمعنى أن مقاس كذا هو لقرد ارتفاعه كذا . . الخ

فاذا نحن طبقنا هـذه القاعدة على تلك الجمجمة التى وجدت خرجنا منها بنتيجة ، هى أن ذلك المخلوق الذى تخلفت عنـه هذه الجمجمة لابد وأن يكون فى ارتفاع قامة الانسان ، على عكس قردة ذلك النوع المشار اليه فانها لا تتعدى فى القامة قامة ابن خمس سنوات من الأطفال .

وإذا لاحظنا أن سطح الجمجمة وعظام محاجر العين وشكلها تعين عدم وجود جبهة لصاحب تلك الجمجمة ، نجد لزاما علينا من ذلك ومن نتائج أبحاث العلماء أن نقول إن هذا الذى عثل إنسان البليوسين كان عبارة عن قرد كبير ، وتبين لنا بعد ذلك من قياس تلك الجمجمة أننا لم نكشف عن الانسان القرد فحسب ، بل كشفنا عن أحط درجة من درجات التطور الانسانى . واذا كان للانسان صفات تميزه ويختص بها عن سائر أنواع الحيوان ، فانما هى ذكاؤه وقابليته للتعلم ، ثم حدة الشعور ، وهذه كلها تأتى من المخ مصدر الشعور والوجدان .

وإن قصـة تدرج الانسان ما هى إلا تاريخ لتطور قواه العقلية . فعند ما كشف الأمر عن جمجمة انسان النياندرتال عام ١٨٥٧ ، قال بعض من العلماء إنهـا بجمجمة القرد أشبه منهـا بجمجمة الانسان . لماذا ؟ لأنه لوحظ بها البروز الـكبير الظاهر فى محاجر العين ، وهو ما تمتاز به أنواع الغوريلا ، كذلك لاحظ أن غطاء الجمجمة الأعلى واطئ منخفض ومفرطح . لـكن الـكشف الذى تلا ذلك دلنا على المقدرة والقوة الفكرية عند هذا النوع من الانسان ، وهو انسان النياندرتال . وأنها قد تفوق كثيراً من الاجناس البشرية فى القدرة والمهارة والدقة .

والجمال في صناعة الأدوات الصخرية النارية .

ولم يجد الدكتور Dubois أى أثر فى طبقة الأرض التى وجد بين ثناياها الانسان القرد ، وليس هناك ما قد يلقى لنا ضوءاً على مقدار ذكاء هذا النوع وقدرته ، إلا أنه يمكننا أن نتكهن بشىء من ذلك من حجم فراغ جمجمته التى استطاع الدكتور دبوا أن يصورها لنا .

فأما من جهة حجم المخ فان الانسان القرد أو انسان جاوة (كما سنسميه) يقع تحت أسفل درجة من درجات المخ الانسانى . فالأبورجونيز سكان استراليا يتراوح حجم مخ الفرد فيهم من ١٣٠٠ إلى ١٤٠٠ سم مكعب ، ولو أن هذه النسبة تقل فى نسائهم فتصل إلى ١٠٠٠ سم مكعب أو إلى ٩٣٠ سم (كما يبالغ السير وليام تيرنر) ولكى نقول إن الرجل أو المرأة يفكر أو يستطيع التفكير يلزمه مخ لا يقل عن ٩٥٠ سم مكعباً ، ولكن أبحاث الدكتور ديبوا دلت على أن حجم مخ انسان جاوة لم يتجاوز مقدار ٩٠٠ سم مكعب ، برغم أن الأستاذ ج . ه . ماك جريجورى يرتفع به إلى ٩٤٠ سم مكعباً . وهكذا نرى أن الانسان المذكور لم يكن ليستطيع التفكير الصحيح كما نراه أو كما نعقله ، إلا أنه قد اقترب وصار على عتبة باب الانسان الحق بتفكيره وقوته العقلية .

وإذا قارنا إنسان جاوة بالغوريلا وجدنا أن حجم مخ الذكر من هذه القردة يبلغ فى المتوسط ٥٢٠ سم مكعباً ، ولو أنه قد يرتفع إلى ٦٥٠ سم مكعباً أو ينخفض إلى ٤٧٠ سم بينما نجده يرتفع إلى ستة أمثاله عن حجم مخ هذه القردة برغم التشابه العظيم بين شكل سقف جمجمة إنسان جاوة وقرد الجيبون .

إلا أن هذا النوع الانسانى وهو إنسان جاوة إذا قورن بالانسان الأوروبى الحديث وجد بينهما فرق كبير جداً . إذ أن الأخير يزيد فى حجم المخ على الأول بما لا يقل عن ٥٦٠ سم مكعباً إذا ما قدرنا للأخير متوسطاً قدره ١٥٠٠ سم مكعب .

أما عن حجم مخ إنسان البليوسين فانه يرتفع كثيراً عن مستوى أكبر أنواع القردة المعروفة ، ويصل إلى أسفل درجات الانسانية . ونصل إلى نفس النتيجة إذا ما قارنا بين مخ إنسان جاوة والغوريلا ، أو مخ امرأة الأبورجينز الأسترالية . وبفحص مخ قرد من القردة لوحظ أن الطبقة الظاهرية منه وهى التى تتصل بالقدرة على السمع والأبصار والحس كاملة التكوين ، وأن الطبقة الظاهرية التى تليها وهى التى تتصل بالقدرة على الفهم والتذكر تكاد تكون معدومة التكوين ، بينما نجد أنها فى إنسان جاوة برغم تناسب أجزائها واتساعها لا تصل إلى تلك التى توجد عند أحط وأسفل الأنواع البشرية المعروفة التى تعيش على سطح الأرض فى عصرنا هذا . ولذلك أمكننا بفضل اكتشاف الدكتور العلامة ديبوا أن نعرف الماهية التفكيرية والمقدرة العقلية التى كان يتمتع بها ذلك الجنس الذى عاش فى عصر البليوسين .

ونحن لا يمكننا مع ذلك كله أن نقرر ما إذا كانت عندهم القدرة على التخاطب والكلام . إلا أنه قد أمكننا أن نعرف من تلافيف المخ عند الانسان المعروف بانسان جاوة مقدار ما كان له من استعداد لذلك ، وما قد وجد عنده من عوامل تساعده عليه ، ومن المحتمل أنه قد تكلم وتفاهم ، ثم عبر عما يجول بخاطره بعبارات

صوتية غير منتظمة تعبر عن رغبة أو شعور ، ولكنها لم تكن لتعبر عن فهم . ويمكننا أن نقارن بين قدرتهم على الكلام وقدرتهم على صناعة الأدوات والمرافق بما نسمعه من لغات اليوم وما نراه بين أيدينا من مرافق وأدوات كادت أن تبلغ حد الكمال .

ونحن إذا اعتبرنا أن إنسان جاوة بالقوى العقلية التي سبق الكلام عنها وشرحناها فى الفقرات السابقة ، هو الحد الذى وصل اليه الانسان فى أواخر عصر البليوسين ، وأن إنسان البلتدون هو مثل لما قد وصل اليه الانسان فى أوائل عصر البلستوسين ، لوجب علينا أن نعترف أن هناك فترة تقع بين العهدين يمكن أن نطلق عليها فترة التطور العقلى للانسان القديم . لأننا نعرف أن حجم مخ انسان البلتدون الذى وصل الى ١٤٠٠ سم مكعب يتناسب مع حجم مخ الانسان الحديث ، ويقترب به الى الانسانية الحق . بينما نجد أن إنسان جاوة بمخه الذى يمكننا أن نقدر حجمه بمقدار ٩٤٠ سم مكعباً ينزل الى أسفل الدرجات ، ولا يصل الى أحط نوع من الأنواع البشرية المعروفة ، وأن تلافيف المخ فى انسان البلتدون ، ولو أنها لا تصل الى ما نراه من تلافيف مخ الأنواع المنحطة من الأنواع الحديثة ، إلا أنها تفوق وترتفع كثيراً عن مستواها عند انسان جاوة .

وإذا كنا قد أوضحنا فى مقالاتنا السابقة مدى أهمية فحص العلماء لمخ الانسان وما كشفه لهم حجمه من حيث تاريخ تطوره ، فيجب ألا ننسى أهمية فحصهم لأسنانه وما كشفت عنه الحفريات . فانه قد لوحظ أن أسنان القرد كانت أسناناً انسانية لا تختلف فى شىء عن أسنان الانسان الحاضر الا من حيث كبر الحجم . ولا بد لنا أن نذكر مما قد سبق ذكره ، أن إنسان البلتدون قد امتاز بأنياب حادة مدببة ، لا تختلف فى شىء عن أنياب القردة ، بينما نجد أنها تصغر عند انسان جاوة ، وتتناسب مع باقى أسنان الفم كما هو الحال فى انسان هيدلبرج وجميع الأنواع الانسانية الأخرى . فهل يمكننا القول أن أسنان الانسان بعد أن تعدل شكلها فى عصر البليوسين قد رجعت فزادت حجما فى عصر البلستوسين ، كى تنكمش بعد ذلك وتتناسب باقى نظام أسنان الفم فى النهاية ؟ ... وهذا ستجد له شرحاً وافياً فى مقال قادم . وفى الوقت نفسه لا يمكننا شرح كل هذه الغرائب إلا إذا اعتبرنا أن الانسان القرد وانسان الهوموهيدلبورجنيز يمثل كل منها فرعاً من أصل الشجرة التى نشأ وتطور منها الانسان ، والتى لم تكتشف من فروعها إلا أغصان قليلة محطمة ....

يتبع **نعيم على راغب**

دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

البريد الأدبي

القصة فى الأدب الصينى

تناولت مجلة الأخبار الأدبيــة (نوفيل لترير) فى عددها الأخير ذكر كتاب صدر أخيراً فى باريس بالفرنسية عن « القصة الصينية » بقلم كاتب صينى هو مسيو « أو اناى » . والقصة الصينية حديثة النشأة ؛ وكانت القصة حتى عصرنا تعتبر فى الأوساط الأدبية الصينية ضربا من العبث ؛ وكان التاريخ والشعر والفلسفة وحدها تعتبر خليقة بجهود العلماء وذوى الذوق الحسن . أما كتابة الحوادث والمغامرات الخيالية ، فقد كانت تعتبر خفة لا تليق برزانة العلم والأدب ، وكانت تترك لصغار الكتاب والمتأدبين . أما اليوم فان الأدب الصينى يقتفى أثر الآداب الغربية فى تقدير القصة ويتجه إليها ، ويخرج فى ميدانها آثاراً شائقة جديرة بالاهتمام .

على أن ما أخرج الأدب الصينى فى ميدان القصة فى القرن الماضى ليس مما يخلق إغفاله والحط من شأنه . صحيح انه لم يصل فى السعة والتنوع إلى ما وصل إليــه القصص الغربى ، ولكننا نستطيع أن نحصى منه مع ذلك كثيراً من الآثار الشائقة الجميلة . وقد ظهرت بعض هذه الآثار فى أوربا مترجمة إلى الألمانية والفرنسية والانكليزية ، فاستطاع العالم الغربى أن يقف على صفوة الأدب القصصى الصينى .

ويقول مسيو « أو اناى » فى مقدمته إن القصة الصينية ترجع فى أصلها الى الحكايات والأساطير الدينية . فى العصور الغابرة كان الشعب يشهد ظواهر الطبيعة الخارقة فلا يستطيع أن يدرك كنهها ويعتقد أنها فوق مقدرة البشر ، ثم يحاول أن يفسرها ويفهمها فى شروح وأقوال غدت أصل الأساطير الصينية ، ومن ثم تجىء أهمية عنصر السحر فى القصة الصينية . وقصص السحر هى أقدم وأغرب ما فى الأدب الصينى من عنصر القصص ، ثم تجىء بعد ذلك القصة التاريخية أو التى تقوم على بعض حوادث التاريخ ، ثم القصة العاطفية ، ثم القصص الاباحى ؛ وقد كان هذا النوع مما يطارد ويحرق ، ولكن نجا منه الكثير .

ومن أحب القصص إلى الذوق الصينى ، ذلك الذى يعالج « المعرفة » وتعرض فيه المعلومات والمعارف الغربية ، فى صور قوية واضحة من البيان والعبارات الرشيقة . وللقصص الساخرة مكانة أيضاً ، ولكن معظمها سياسى ، ويرمى إلى بث دعوة معينة . أما قصص المغامرات الشائقة والحب والبطولة فقد ظهرت حديثاً ولم تتقدم إلا فى القرن التاسع عشر ؛ ومنها آثار خطيرة فياضة بالمخاطرات والعجائب .

وقد كان هذا التراث كله مغموراً حتى هذا العصر ، ولكن الجيل الفتى يقبل عليه اليوم ويستكشفه ، ويتذوق ما فيه من كنوز الطرافة والخيال والجمال . بل لقد أنشئت فى الجامعات الصينية دراسات للقصص القديم ، وهو ما لم يكن يتصور منذ خمسين عاماً .

أزمة الأدب

يظهر أن أزمة القراءة والكتب أخذت تشغل الأذهان فى جميع الأمم المتمدنة ؛ فقد ضعفت حركة القراءة وركدت ريح الأدب والكتب فى الأعوام الأخيرة بدرجة محسوسة . وكان للراديو والسينما أثر كبير فى ذلك التطور . وقد رأت الحكومة الايطالية أن تعالج هذه الأزمة بالدعوة الى القراءة عن طريق الراديو وإثارة الاهتمام بالآداب الايطالية القديمة . ونشرت إحدى الصحف الأدبية الفرنسية فصلاً فى ذلك الموضوع نوهت فيه بانحلال الذوق الأدبى ، وانشغال الهيئات العلمية والأدبية بتنظيم الحفلات وتوزيع الجوائز ، وإغفال الحكومة لكل ما يذكى شغف القراءة ويصقل الذوق الأدبى ، حتى انها لم تفكر يوماً فى أن تنشى « وزارة للآداب » تقوم بالاشراف على الحركة العقلية ، مع أنها تقوم بالاشراف على ادارة الشرطة وإدارة الجمارك . وتخلى الحكومة

عن هذه المهمة يحول دون القيام بأى حركة منظمة لتوجيه الحركة الأدبية ، واحياء الذوق الأدبى بعد أن تولاه الذبول والضعف .

ويرى الكاتب أن تنظيم « المكتبة » من أنجع الوسائل لمعالجة هذا المشكل ، ويقترح أن تعنى ادارة معرض باريس الكبير الذى سيقام فى سنة ١٩٣٧ ، بانشاء مكتبة نموذجية يكون فيها من الطرافة وحسن الابتكار والتنسيق مايذكى شغف القراءة ويبعث إلى الذوق الأدبى حياة جديدة

حرارة الأزهار

نذكر أن العلامة الهندى جاجاديس بوز صاحب نظرية « حس النبات » زار القاهرة منذ بضعة أعوام ، وعرض تجاربه العلمية النباتية على جمهرة العلماء والمثقفين ؛ ورأى النظارة الذين شهدوا تجاربه كيف يرتجف النبات ويتأثر بمختلف العوامل ، والآن يتقدم العلامة الفرنسى بلارنجم ، الذى قضى حياته فى دراسة خواص النبات الى أكاديمية العلوم الفرنسية بنتيجة مباحثه عن « حرارة الأزهار » .

ويرى العلامة بلارنجم أن الأزهار كالانسان والحيوان ، يمكن أن تصاب بالحمى ، وأن حرارتها تختلف باختلاف درجة نموها وباختلاف الوقت . فمثلا يبدى معظم الأزهار حرارة أعلى من حرارة محيطها ببضع درجات ، وتبلغ بعض الأزهار أقصى درجة حرارتها بين الساعة العاشرة والظهر . ولبعض الأزهار مثل النرجس واليقطين والهندباء أوقات تصاب فيها بالحمى ، ويلاحظ مسيو بلارنجم أيضاً ، أن الأزهار المذكرة فى النباتات المزدوجة ، أى التى تحمل أزهارها المذكرة وأزهارها المؤنثة كل على أعواد مختلفة ، وفى النباتات الفردة ، أى التى تحمل أزهارها مختلطة على نفس العود أكثر حرارة من الأزهار المؤنثة فى نفس الشجرة . وهنالك أيضاً أزهار تختلف درجة الحرارة فيها باختلاف مواضعها ؛ وغير ذلك من المشاهدات والحقائق المدهشة .

فلوبير والمسرح

لما وضع القصصى الفرنسى الكبير فلوبير قصته الشهيرة « مدام بوفارى » فكر أحد كتاب المسرح فى اقتباسها وتقديمها للتمثيل ، ونفذ فكرته بالفعل ، وقدم الرواية الى المسرح ، وأرسل الى فلوبير يستأذنه ، فأبى بشدة أن يأذن له ، وكان فلوبير قد عاف المسرح وحقد عليه ، مذ فشلت قصته « الطالب » حين مثلت لأول مرة . واستمر فلوبير يعارض كل اقتراح بتمثيل « مدام بوفارى » حتى وفاته .

ولكن حدث بعد وفاته ، أن ابنة أخيه ووارثته مدام جرول صرحت لأحد كتاب المسرح باقتباس بعض المناظر من مدام بوفارى لكى تمثل على المسرح ، وكان ذلك سنة ١٩٠٦ . ولكن القطعة لم تشتهر يومئذ ، ولم تلق نجاحا يلفت الأنظار .

ومنذ أشهر قلائل عادت « مدام بوفارى » تلفت أقطاب السينما ، وانتهى الأمر باقتباسها للشاشة البيضاء ، وتلحينها للسينما الناطقة . ولن تمضى أشهر أخرى حتى يستطيع المعجبون بأدب فلوبير أن يشهدوا أعظم قصصه ، وقد أخرجت فى ثوب مسرحى بعد كتابتها بنحو تسعين عاماً .

ويقال أيضاً إن قصة فلوبير التاريخية « سلامبو » ستظهر قريباً على المسرح السينمائى ، وأن العمل يجرى بالفعل لاخراجها فى وقت قريب .

أمير شرقى شاعر

فى البريد الانجليزى الأخير أن صاحب السمو نظام حيدرأباد عميد الأمراء المستقلين فى الهند ، وأعظم رجالات المسلمين فيها ينظم الشعر ويجيده . وعما قريب يصدر فى الهند الجزء الأول من ديوان سموه ، وفيه قصيدة مطولة فى مولد المسيح .

المستشرق شخت

وصل إلى القاهرة الأستاذ شخت ليشغل كرسى أستاذ فقه اللغة واللغات السامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية خلفا للأستاذ شاده الذى انتهى عقده وعاد إلى جامعة همبرج .

والأستاذ شخت أحد تلاميذ المستشرق الكبير المرحوم برجستراسر وقد درس اللغة العربية بجامعة برسلاو وعين مدرساً فى جامعة فريبرج فأستاذاً بجامعة كونسبرج ، ثم وقع اختيار الجامعة المصرية عليه ليشغل كرسى اللغات السامية .

وقد طاف الأستاذ شخت بلاد الشرق فى طلب المخطوطات المجهولة فتمكن من العثور على عشرات الكتب فى تاريخ العلوم الاسلامية ونشرها بعد أن ترجم بعضها إلى اللغة الألمانية منها :

١ — رسالته فى كتاب الحيل والمخارج للخصاف وقد حصل بها على دكتوراه من جامعة برسلاو فى عام ١٩٢٥ .

٢ — ترجمة وشرح كتاب الحيل فى الفقه للقزوينى والمقارنة بينه وبين الحيل الحنفية .

٣ — المخارج للامام محمد بن الحسن الحنفى .

٤ — كتاب الشروط للطحاوى .

٥ — كتاب جالينوس فى الأسماء الطبية وقد اشترك مع الدكتور ماكس مايرهوف فى ترجمته وشرحه وتقديمه .

٦ — كتاب بالألمانية عنوانه : مجموعة متون إسلامية . وفى هذا الكتاب جمع كثيراً من تاريخ العلوم الاسلامية . مبتدئاً بالأحاديث النبوية ومنتهيا برسالة التوحيد للشيخ محمد عبده

٧ — كتاب ملتقى الابحر للشيخ ابراهيم الحلبى ، وقد كان أصل هذا الكتاب عند المستشرق المرحوم برجستراسر ولم يتم شرحه وتقديمه .

٨ — أخبار القضاة لوقيع .

جورج دوهامل مرشح الأكاديمية

منذ أشهر خلا بالأكاديمية الفرنسية كرسى بوفاة صاحبه المسيو كاميل جوليان المؤرخ الكبير . وقد تقدم للحلول فى كرسيه عدة من مشاهير العلماء مثل الأستاذ شارليتى مدير جامعة باريس ، ومسيو ركولى المؤرخ ، ومسيو ليون بيرار الكاتب الشهير ، ولكن أحداً منهم لم يظفر بالعدد اللازم من الأصوات . وسيعاد الانتخاب مرة أخرى . وفى هذه المرة يطرح مع المتنافسين اسم جورج دوهامل الكاتب والروائى الشهير ، وقد رشح نفسه للكرسى الخالى بصفة رسمية . وجورج دوهامل طبيب سابق حمله تيار الأدب وصرفه عن المهنة ؛ واشتهر برقة خياله وسحر أسلوبه وبراعة نقده . ويمتاز أسلوبه بالأخص بنزعة إنسانية مؤثرة ، وعطف عميق على المنكوبين فى الحياة . وتدور معظم نظرياته وفلسفته حول الدفاع عن الانسان ، ورفعة الفرد والأخلاق .

بنت مدام كورى تتابع أعمال أمها

— قالت « البتى جورنال » أن ابنة مدام كورى مكتشفة الراديوم وزوجها سيذيعان قريباً الطريقة المطلوبة منذ عهد طويل لايجاد الراديوم الاصطناعى

وسيعلنان هذه الطريقة لمؤتمر من العلماء فى لندن وكمبريدج بين اليوم الأول واليوم السادس من شهر أكتوبر .

اسبانيا ترشح شاعرا لجائزة نوبل

اقترحت جامعة سلامنكا الاسبانيـة على الحكومة ترشيح العالم الشاعر ميجل دى أونا مونو لجائزة نوبل للآداب فى العام الحاضر . فقبلت الحكومة اقتراحها .

النقد

أصدقائى الشعراء!
هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

ظهرت فى الشهور الأخيرة عدة دواوين شعرية ، فأثارت كثيراً من اللغط فى الصحف ، وكثرت عنها الكتابة الرديئة والحسنة ، وشاع الحديث بمناسبتها عن الشعر والأدب .

ولقد كان فى نيتى ألا أتعرض لهذه الدواوين بخير أو شر ، لأن نفوس الأدباء بمصر تضيق ذرعاً بالملاحظة والنقد ، ولا تتسع الصدور لكلمة الحق ، ويقل التسامح ، وتغلق أبواب النظر وسعة الفكر ورحابة العطف الفكرى . ولأن معظم من يكتب أو ينظم الشعر يعتقد أن الأدب نوع من الملكية الفردية يسوء صاحبها ألا تقول كلمة الأطراء عن بضاعته .

غير أن الحديث قد تشعب فى الآونة الأخيرة فى الصحف والمجلات الأدبية عن هذه الدواوين . ويسوء الناقد المخلص أن يرى أن معظم ما كتب فى هذا الموضوع لا يوجه القارىء الراغب فى الفهم ، ولا يصلح الأذواق الأدبية ويوجهها وجه الصدق وطريق الصلاح الأدبى .

وسبب آخر كان ينأى بنا عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وهو أن صاحب « وراء الغمام » صديق عزيز علينا ، أهدى الينا ديوانه ليلة ظهوره ، وكذلك فعل صاحب « الملاح التائه » . وهما ولا شك ينتظران المديح والثناء من صديق يجلس معهما ويأنس الى صحبتهما . غير أن الموضوع فى رأينا قد تعدى أخيراً هذين الأديبين الى ما هو أخطر وأبعد شأناً ؛ تعداه الى الحديث عن طبيعة الشعر والكتابة ، وأن الأقلام قد خطرت فى هذا الطريق بكلام نعد معظمه خطرا على الحركة الأدبية فى مصر ، وفهم الفنون الأدبية على الوجه الذى يفهم منها فى الجيل الحاضر .

ولهذا رغبنا فى كتابة هذه الكلمة لا لنمدح أو نذم ، ولكن لندلى برأى فى الشعر كما نقرؤه ونفهمه ، وكما ننتظر من الكتاب والقراء أن يقرأوه ويفهموه .

وأول ما يلاحظ على هاتين المجموعتين أن ديوان « وراء الغمام » يكاد ينحصر فى الحب ومطالبه ، وأن موضوعات « الملاح التائه » تكاد تنحصر فى النظم عن مظاهر الطبيعة الكبرى كالبحر والليل ، وأن أكثر أخيلته وألفاظه هى عن النسائم والأمواج والشواطىء العامرة أو المهجورة ، وما إليها من « الشعريات » التى تواضع العرف الدارج على أنها « الطبيعة » . فأولهما إذن يمكن تسميته « بشاعر الحب » والثانى « بشاعر الطبيعة » . فكيف يفهم صاحبنا الأول الحب ، وكيف يعى الثانى الطبيعة ، والى أى شىء منها يلتفت ذهنه ؟

والمفروض بالبداهة أن مثل هذا الشعر يكتب ليقرأه الرجل المصرى أو العربى المثقف ، الملم بشىء من حضارة هذا العصر وثقافته ، الشاعر « بوعى » هذا الزمن الذى يعيش فيه ، والذى تشغله مناظر وآراء ومسائل تثير شكوكه أو تبعثه على التفكير والتأمل والانتاج الفنى .

فلنتكلم عن الحب كموضوع شعرى يتناوله أى شاعر عصرى ، يود أن يقرأه أى مخلوق حى شاعر فى القرن العشرين ، فليس ثمت شك فى أن الحب كحاجة « فسيولوجية » هو كحاجة أى مخلوق حى الى الأكل والنوم . وهو مظهر عادى تشترك جميع الأحياء فيه (ويمكن أن يقال إن النبات والجماد يعرفان الحب أيضا والسلب والايجاب من قوانين الكون بأجمعه) فلم يختص اذن بنظم الشعر والنشيد والأغانى ؟

فاذا حدثنى صديق أو عشير بأنه يحب امرأة بذاتها ، وانه لا يطيق الابتعاد عنها ، وأنها تثير لواعج أشجانه وأمراض نفسه ، فقد يسمع مثل هذا الحديث ويحمل حينما أجلس إلى أى صديق هادىء فيحدثنى عن متاعبه ، ومايسمن من الآكال وما يستهجن ، وعما يحب أو يكره من ألوان الثياب ، ولكنى لا أطيق كقارىء

حتى أن أستمع إلى شعر لا يتعدى نغمه مثل ذكر هـذه الأشياء الأولية ، وإلا لكان كل فرد منا شاعراً ، لأن لكل فرد حاجاته وأذواقه وشؤونه التي تتعلق بالحب والأكل والنوم والمجىء والذهاب . فانما هذه « أبجدية » كل انسان .

أصدقائي ! . . إن هذا « الشيء » الذى نسميه شعراً والذى نود أن نقرأه نحن الأحياء العارفين لعالم الحبر والورق ، هو خلاف « الكلام الحسن » عن الأشياء العادية . إنه يتطلب وجود شاعر يأكل كبقية الناس ولا شك ، ويحب مثلهم ، ولكن نظره وأحاسيسه والتفاتات ذهنـه وقفزات وعيه نحو هذه الأشياء العادية « غير عادى » ؛ وهو شيء آخر خلاف ما يحس عامة الناس ويقفون عنده . ومن هنا كانت قيمة الشاعر الحق . أى أنه (ولو أننى لا أود استعمال الكلمة ولكنها كبيرة الدلالة) فيلسوف .

فالحب يصبح موضوعاً جديراً بالشعر كما تصبح أية حاجة إنسانية أخرى حينما يكشف لنا الشاعر معنى ونغماً وراء مظاهره المعروفة ومصاحباته العادية . وربما لا يقع من نفس القارىء هـذا النغم وذلك المعنى ، وقد يبدو سخيفا أو غير صادق ، فالأمزجة تختلف ، والثقافات تتباين وتفترق ، ولكنه لا يخطىء فى أن يبده أى قارىء محس بأن هنا شيئا جديراً بالالتفات والعناية .

أما الشاعر الذى يبدى ويعيد فى الحديث عن ملذاته وآلامه وحسراته التي يثيرها شخص المحبوب أو ذكراه فحسب ، (مهما اختلفت القافية وتعدد الايقاع) لا يعدو أن يكون انساناً لم تتسع أنانيته إلى أكثر من حاجاته البسيطة المتعارفة . وهو يشبه العليل الذى اكتشف لذة الخبز لأول مرة ، أو الرجل الصحيح الذى حيل بينه وبين النوم ، فيفرح الأول حينما يتناول وجبة فاخرة ، ويتألم الثانى لذلك النوم الهنىء الذى طلقه الآن ، وهذه ولا شك أشياء إنسانية عادية لا غبار عليها ولا نقد فيها ، ولكن ليس فيها ما يبرر وضعها فناً يسترعى اهتمام القارىء الصحيح ، وربما يصلح مثل هذا الشعر ويجمل عند أناس هم دون طبقة هذا « الكوكب الجديد » الذى اكتشف « قارة الأكل » أو « قارة المرأة » ثم وقف يسبح بحمدها .

والدكتور ناجى بعد كل هذا قد قرأ بعض قصائد « لورنس » « وت . س . ايليوث » وأضرابهما من الشعراء المحدثين والقدماء عن الحب ، أولئك الشعراء الذين نراهم جاهدين يفتشون عن الله ، ويبحثون فى الجنس ونشوة العفاف الروحى . ثم يعود كل منهم « وحقيبة وعيـــه » ملأى بالأحاسيس المختلفة ، والأفكار المريرة أو العذبة ، ملأى بالثمابين التى تبرق كاللؤلؤ ، وبالسلام الذى تعقبه أشد فترات الحرب تمزيقاً للأجسام والأرواح ، وبالذهول الذى يسمو إلى طبقات السماء ، وبالسخر الذى « يرى القمر فى أمسية حب أشبه ببالون يلعب به صغار الأطفال » ، ثم يذكر أن المساء ينام كرجل عليل ينتظر مبضع الجراح ، وبالاختصار « بمعنى » أو « لامعنى » عظيم أو « بتيار وعى » ربما يرى فى أنامل الحبيب أقطاراً متسعة ولو أنها بادية التناقض ، أو بأحاسيس متناقضة بعيدة ، حالكة الظلمة ، أو شديدة الوهج .

ونحن لا نريد من هذا الحديث أن يقلد أى أديب أحاسيس غريبة عن نفسه بعيـدة عن مطارح فكره ، ولكن كقراء مخلصين نطلب منه إذا لم يكن لديه ما يؤلم ويحير ، ويسعد ويشق الشاعر والمفكر والقارئ المعاصر ، أن يريحنا ولا يكلف نفسه هذا الجهد . ففى الحيـاة من التفاهات اليومية ، وفى أطراد هذه الحاجات التى نشعر بها فى صباحنا ومسائنا ما يجعلها عسيرة الاحتمال ، ويضاعف مشقة العيش ، فليس بنا ثمت حاجة الى أن نقرأها فى عالم الحبر والورق .

والشاعر العصرى — سواء فى مصر أو فى الصين — الذى لا تثيره تيارات الفكر المعاصر ، واكتشافاته ومتاعبه ، والذى ليس له وجدان يتغير ويتفاعل Catapisis بما يسمع ويقرأ ويفكر ويشاهد من عيوب فى نظام حياتنا الحاضرة ، أو نشوز فى أنغام فكرنا المعاصر ، أو ألوان تسترعى الاهتمام فى نسيج الثوب الذى يلفنا ، أو فراغ فى إنسان بادى الامتلاء ، أو أغنية فى زاوية من زوايا بيتنا المعنوى ، ليس له ، بل لنا الحق فى ألا نعده فى عداد الشعراء المخلصين .

والظاهر أن شعراءنا يعيشون فى أجسام محدودة الفكر والاحساس بحدود جسدها وغرفها التى تسكن ، وأن الأشياء التى تبعث الرجل المعاصر على أن يفكر ويضطرب أو يغنى لا تدنو منه أو هو لم يعرفها قط . إن نظرة واحدة حيث يتقاطع شارع عماد الدين بشارع فؤاد الأول مثلاً فى أى مساء لحرية بأن تبعث فى الفنان أحاسيس وأفكاراً تصلح لأن تكون قصيدة جيدة إذا كان له من الشعر نصيب .

والذى يبدو لى من قراءة هؤلاء الشعراء والحديث معهم أيضاً

الكتب

ابن سعود

سـياسته . حروبه . مطامعه

بقلم مصطفى الحفناوى

كتاب كبير يقع فى نحو مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير ، افتتحه مؤلفه بمقدمة بليغة عن بلاد العرب منذ عصورها القديمة حتى ظهور جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، ثم تكلم عن والد الملك وعن البيئة التى نشأ فيها ، وأخذ يسرد بعد ذلك تاريخ ابن سعود ، فشرح كيف استولى على الرياض ، ثم كيف أصبح أمير نجد و إمام الوهابيين ، وتكلم عن حالة بلاد العرب ، وظروفها قبيل الحرب العظمى ، وموقف الانكليز منها ، وموقف الملك حسين من هذه الظروف وما لعبه من الأدوار ، إلى أن أرانا ابن سعود ملك الحجاز ونجد ، ثم صوره لنا بطل بلاد العرب ، وأخيراً أخذ يشرح لنا إصلاحاته ومقاصده إلى أن اختتم الكتاب بملحق عن الحرب الأخيرة بين الحجاز واليمن ، وما آل اليه أمرها .

فأنت ترى أن الكتاب حافل بالمعلومات التى يتوق اليها من يميل إلى معرفة سيرة ابن سعود وبلاد العرب ، والحقيقة أن حاجة مصر الى هذه المعرفة حاجة شديدة ، ولذلك كان اغتباطى بهذا الكتاب عظيما ، ولقد وضع صاحب السعادة محمد على علوبة باشا مقدمة قيمة له ، تحدث فيها عما شاهده فى بلاد العرب أثناء سفره فى مؤتمر الصلح ، وإنى أشاطر الباشا رأيه إذ يدعو مصر « أن يكون لها هناك صوت مسموع ومشورة نافذة ، وأن تتبوأ المركز الذى وضعتها فيه العناية الالٓهية فى الأقطار الشرقية ، وفى مقدمتها مملكة العرب »

ولقد قرأت هذا الكتاب القيم النافع ، فبرزت لى فيه بعض

أن ليس فى حياتهم الفكرية والشعورية أى شئ يشبه الصحارى العارية الجرداء ، أو الظلمات الحالكة ، أو البريق الخاطف ، أو الحيرة الشاعرة ، أو أى اشتغال جدى بناحية من نواحى حياتنا الراهنة ، وأن الشكوك والمذاهب والقيم الفكرية التى تحرك الفنان العصرى فى أوروبا إلى الثورة حيناً ، وإلى السأم حيناً آخر . أو إلى أى فلسفة أو « عدم فلسفة » يكتشفها الفنان المرهف الاحساس ، الواسع العطف ، القدير الفهم ، وراء مظاهر الحياة اليومية من عمل ونوم ، وأكل وحب ، ومال وجنس ، مايجعله يقف وقفة قصيرة أو طويلة يحاسب نفسه ويحاسب العالم بأجمعه ، أو يجرؤ على حوار مع الطبيعة أو الأحياء أو ما وراءها ، لم تدن منه أو هو لم يعرفها أبداً .

ليس الشعر أيها الأصدقاء بالمادة الكاملة الصنع التى يمكن أن نشتريها جميعاً من الحانوت . أو يمكن صنعها كما تصنع الثياب على هذا الطراز أو ذاك . إنما الشعر هو « تجربة حية » يحسها شخص حى ، ويبصرها وجدان نير ، وهى تجربة فردة لم تحصل ولم تر إلا كما حصلت وكما رآها ذلك الشخص الحى ، ثم يحاول نقلها وإيصالها عن طريق الكلم والايقاع — على قدر مهارته — إلى أمثاله من الأحياء الشاعرين .

وشعر صديقنا ناجى ما زال نغماً واحداً بسيطاً لايتعدى — بعد زخرفة النظم — إحساس رجل عادى حينما يرى وجهاً مشرقاً ، أو جسماً جميلاً أو عملاً عظيماً . فيقف مشدوهاً ويقول : «ما أحلى ذلك الوجه ، وأى ألم أحس به لحرمانى من ذلك الشكل البديع » إلى آخر الأحاسيس التى تحسها أى مادة تحس ، وإنها لتبدو لى فى بداءتها وطفولتها بما يسمى « رد الفعل » « Reflex action » . وليصدقنى القارئ أن هذا هو كل ما يخرج به الانسان من شعر ناجى بعد تجريده من صناعة « الكلم » ورنين القافية . أما الرنين « والكلام العالى » كما يسمونه ، فقد أفضل أن أسمع الأول من « الجازبند » والثانى من الخطابة ، ولا أهرع للشعر لأسمع شيئاً من ذلك !

بقية المقال فى العدد القادم

مظاهر ، رأيت مع احترامى لآراء مؤلفه الفــاضل ، وتقديرى لجهوده أن أشير اليها إشارة وجيزة .

الكتاب شيق جذاب ، لن تضعه حتى تتمه ، ومن حسناته البارزة كثرة ما احتوى عليه من المعلومات ، مضافاً إلى ذلك حسن ترتيبها ومهارة سياقها ، غير أننى آخذ على المؤلف موقفه فى الغالب موقف من يكتفى بسرد الحوادث ، ولعل هذا يفسر لى ما أشار إليه المؤلف فى نزاهة وصراحة على غلاف الكتاب من أنه عن « ولميز وآرمسترنج بتصرف » فان إعجابه بابن سعود أولاً ، وبما كتبه هذان المؤلفان ثانياً ، قد حفزه إلى وضع كتابه ، فحماسته فيه ظاهرة ، وتحيزه إلى الملك واضح ، لذلك اكتفى كما ذكرت بسرد الحوادث ، ولم أجده برغم استعداده وما يتجلى فى عباراته من آثار ذكائه ، يعلق عليها معللاً استحسانه إذا استحسن ، أو استنكاره إذا استنكر ، و أظن ذلك أمراً جوهرياً فى صدد الكتابة عن بطل من الأبطال ، فالمؤرخ فى مثل هذه الحالة مطالب بأن يشرح الحوادث شرحاً علمياً ، مفنداً أوجه الصواب أو الخطأ مع ذكر الأدلة العلمية والأمثلة التاريخية كلما أمكن ذلك ، وبهذا تظهر شخصيته ، ويصبح لكتابه الى جانب ما يحوى من معلومات قيمته العلمية . كذلك ليسمح لى الأستاذ أن أعيب عليه هذا التحيز لابن سعود ، فهو لا يرى فيه إلا بطلاً ، فان أعانته الظروف أرجع الفضل إليه ، أو اكتفى بقوله إنه نصر من عند الله ، وإن أخطأ استخدام الظروف ، أشاد بعبقريته ونفوذه . ومما لاحظته بنوع خاص أن المؤلف يحمل على الانجليز حملات مباشرة مشيراً الى أطماعهم ومظالمهم فى عبارات سطحية أشبه بمقالات الجرائد ، وكان خيراً له فيما أعتقد وأجدى عليه ، أن يوضح أطماعهم ، ويترك للقارىء التعليق عليها ، فالأبحاث العلمية يجب أن تطبع بطابع الهدوء والرزانة ، ولن يعدم المؤلف القدير أن ينال من أعدائه بهدوئه ومهارته أضعاف ما يناله بحدته وضجيج عبارته .

على أن هذه المآخذ لن تغير من جوهر الكتاب ، ولن تقلل من نجاح المؤلف النابه فيما قصد اليه ، ولئن قدرت كتابه بما ترك فى نفسى من أثر ، فضلا عما احتوى عليه من شتى المعلومات ، فانى أشهد أنى استمتعت بقراءته واستفدت منه كثيراً ، وإنى أدعو كل أديب الى قراءته موقناً أنى أدله على أثر نافع طريف .

الخفيف

أصول التدريس الحديث

عن كتاب « التربية الممارسة » لشارّيه

تعريب واقتباس سامى الدهان

يبحث هذا الكتاب فى طريقة تدريس المواد المختلفة ، وهو مطبوع طبعة جيدة فى مطبعة العصر الجديد بحلب ، على ورق جيد ، ويقع فى نيف ومائتى صفحة من القطع المتوسط . تعرض مؤلفه لطرق تدريس الأخلاق ، والقراءة ، والخط ، واللغة ، والاملاء ، والمحادثة ، والأنشاء ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والتدبير المنزلى ، وإنك لا تكاد تقلب صفحاته حتى تشعر بمتانته ودقته ، وتحس بما لمؤلفه من خبرة ومران وسعة اطلاع ، ودقة بحث . خذ لذلك مثلا : أصول تدريس الخط ، فترى المؤلف قد ألم بجميع نواحى الموضوع ، فهو يتكلم عن درس الخط وفائدته ، ثم يتكلم عن الخط والصحة مشيراً إلى مساوىء الجلسة المعوجة ، ومحاسن الجلسة المستقيمة ، ثم يذكر كيفية تدريسه ، والى فائدة النماذج الخطية ... الخ .

من ذلك ترى مقدار اهتمامه بموضوعه . ولقد أعجبنى بنوع خاص ما ذكره عن تدريس التاريخ فتساءل أولاً عن فائدة هذه المادة ، ثم بين فوائدها الوطنية والاجتماعية والخلقية ، وشرح أهمية التاريخ من وجهة الثقافة العقلية ، وبين مقدار ما يجب أن يوزع منه فى المناهج بحسب الفصول الدراسية ، وأخيراً ذكر طريقتى تدريسه . ولقد تبينت فى بحثه الروح الفنية العلمية ، التى تميز الراسخين فى العلم من سواهم ، لذلك أقرر أن الأديب الفاضل سامى الدهان قد أحسن الى اللغة العربية والناطقين بها بنقل هذا الكتاب اليها ، وأعتقد أن المدرسين سيجدون فيه فائدة عظيمة ، فانى وإن كنت أعتقد أن الطرق الخاصة بتدريس المواد تختلف فى مملكة عنها فى أخرى ، بل وفى مدرسة عنها فى مدرسة ، فضلاً عما يطرأ من الظروف المحلية والمؤقتة ، مما يجعل التمسك بطريقة خاصة أمراً مستحيلاً ، أقول إنى على الرغم من هذا أعتقد أن القواعد لابد منها ، والمدرس الكفء جدير بأن يستأنس بها وأن يكيف ظروفه على ضوئها ، ولهذا أحمد للمعرب مجهوده ، وأثنى على مقدرته فى التعريب ، ولا شك أنها نتيجــة لصحة فهمه ما عرب وصدق ميله اليه ؟

الخفيف

2 me Année, No. 68.

Lundi-22-10-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم { ٢٣٩٠١ - ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ١٣٥٣ — ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

في سبيل التحرير الاقتصادي

موسم السيـــاحة

أقبل موسم السياحة . ولمصر موسم للسياحة مشهور فى جميع أنحاء العالم ، لا لأنها أغنى بقاع الأرض من الناحية الأثرية فقط ، ولكن لأنها تتمتع أيضاً فى الشتاء بجو بديع وطبيعـــة ساحرة . وفى جميع الأمم التى تشتهر بتراثها الأثرى أو جمالها الطبيعى ، يوجد موسم أو مواسم للسياحة ؛ وتنظم هذه المواسم بحيث تغدو موارد ينتفع بها أهل القطر من الناحية المادية ؛ بل توجد أمم وبقاع تعيش على السياحة كسويسرا مثلاً وبلاد التيرول ، وساحل الريفييرا والبندقية وغيرها . وتعتبر السياحة فى مصر أيضاً مورداً له قيمته وأهميته ، وتبذل الحكومة لترويجه كثيراً من المال ومن وسائل الدعاية ؛ ولكن هل استطاعت مصر أن تنظم موسم سياحتها على نحو يكفل مصالحها ومصالح أبنائها الذين يتصلون به كما تفعل جميع الأمم ؟ وهل تجنى مصر ويجنى المصريون منه ما يحق لهم أن يجتنوه من المزايا المادية والمعنوية ؟ الجواب معروف ، وهو أن مغانم موسم السياحة المصرى مازالت نهباً للأجانب ، يستغلونها باسم مصر والمصريين ، ولكن دون مصر والمصريين ؛ وما تفيده

الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، وما يفيده بعض المصريين المتصلين بالموسم لا يعد شيئاً بالنسبة لما تحققه الفنادق ووكالات السياحة الأجنبية من الأرباح الوفيرة .

هذه حقيقة لاريب فيها ، ولكن هناك حقيقة أخرى هي أن تبعة هذه النتيجة المؤلمة تقع على عاتق مصر حكومة وشعباً . فالحكومة لم تفعل حتى اليوم شيئاً جدياً لتنظيم موسم السياحة على نحو تراعى فيه المصالح المصرية ، ويوضع فيه حد معقول للأستغلال الأجنبي ؛ والمصريون من جانبهم لا يفكرون فى العمل على استثمار هذا الموسم الذى تهيئه لبلادهم مزاياها الأثرية والطبيعية . فمن المعروف مثلاً أن الفنادق تستأثر بأهم موارد الموسم ، وأن هذه الفنادق كلها أجنبية ؛ ولكن هل فكرنا نحن فى إنشاء فنادق يستطيع أن يؤمها السياح ؟ إن إنشاء الفنادق صناعة لها قيمتها وأهميتها ولا سيما فى مراكز السياحة المشهورة ؛ ففى سويسرا مثلاً تعتبر صناعة الفنادق من أهم الموارد القومية ، وقد عرف الأجانب فى مصر هذه الحقيقة فعنوا بانشاء الفنادق واحتكروا صناعتها ، ولكن المعروف أنهم يذهبون فى استغلالها إلى حدود مرهقة ، حتى أن كثيراً من السياح الذين يفدون على مصر يضجون بالشكوى من غلاء الأجور والأثمان التى تفرض عليهم . وهذا بلا ريب عيب فى موسم السياحة المصرى له أثره السيء فى سير الموسم ، وهو بلا ريب يصرف الكثيرين من متوسطى الحال عن القدوم إلى مصر والتمتع بآثارها وشتائها .

ونذكر أن الحكومة قدرت خطر هذه المسألة منذ أعوام ، وفكرت فعلا فى إنشاء فندق كبير فخم يقتضى من السياح أجوراً معتدلة ، ولكن الفكرة ماتت فى مهدها ككل فكرة يخشى منها على المصالح الأجنبية فى مصر . وإذاً فليس لنا إلا أن نعتمد على الجهود الخاصة فى غزو هذه الصناعة التى يحتكرها الأجانب فى بلادنا ، ويجنون منها الثروات الطائلة ، وهى صناعة لاتقتضى فنوناً أو مواهب خارقة ، ولاتقتضى سوى الاقدام وموهبة التنظيم وحسن الذوق ؛ وهى ليست أجل خطراً من الشئون المالية الدقيقة التى استطعنا أن نغزوها وأن نبرع فيها على يد بنك مصر وشركاته الفتية الميمونة . ولقد أتيح لهذه المؤسسة القومية العتيدة أن تبدأ بالفعل بغزو ميدان له صلة وثيقة بالسياحة وموسمها ؛ فقد أنشأت شركة للمواصلات الجوية وأسطولاً جوياً يقوم اليوم بنصيبه فى المواصلات المحلية ؛ وأنشأت شركة للملاحة لها اليوم أسطول بحرى لايزال فى مستهل حياته ، ولكنه يشق اليوم عباب البحر الأبيض ، ويربط مصر بالقارة الأوربية ؛ وإذا كنا ننبه اليوم على تقصيرنا فى العمل على استثمار موسم سياحتنا والأخذ بنصيبنا فى صناعة الفنادق المحلية ، فانما نتجه فى تلافى هذا التقصير بادىء بدء الى بنك مصر أيضاً ، والى تلك العصبة الميمونة من زعمائنا الاقتصاديين الذين أتوا فى الميدان الاقتصادى بالعجائب ، فهم أحق الناس بأن يتولوا الزعامة فى هذه الناحية أيضاً ، فينشئوا لنا شركة مصرية حقيقية تقوم بانشاء بضعة فنادق فخمة تشترك فى استثمار موسم السياحة لحساب المصالح المصرية ، وتفتح بذلك باب هذه الصناعة واسعاً أمام المصريين ، فيقتدون بها فى الاقدام والعمل ؛ ولا ريب أن صناعة فنادق مصرية إذا أقيمت على أسس مستنيرة تلقى نصيبها الأوفر من النجاح ، نظراً لقناعتها واعتدالها .

هذا وفى وسع المصريين أن يحققوا بغزو هذه الصناعة ، فضلاً عن الأرباح المادية لبلادهم ، مزايا أدبية جليلة عن طريق الاتصال بموسم السياحة ؛ فالسياح من مختلف الأمم ، لا يتصلون عند مقدمهم الى هذه البلاد بكثير من المصريين المستنيرين ، إذ يتلقفهم الأجانب والفنادق الأجنبية ، ويأخذون معظم معلوماتهم عن مصر من الأجانب ؛ وليست هذه المعلومات دائماً دقيقة ولا نزيهة . فاذا أتيح للمصريين أن يتصلوا بطبقات السياح عن غزو ميدان السياحة ، فانهم يستطيعون أن يقدموا لضيوفهم عن بلادهم كل المعلومات المطلوبة ، وأن يذيعوا بذلك مآثرها ومحاسنها بين السياح من مختلف الأمم ، فيكون لها بذلك حسن الذكرى فى كثير من البلاد .

هذه كلمة أوحى بها الينا إقبال موسم السياحة الذى يتجدد كل عام فى مثل هذا الفصل ؛ والذى ما يزال الأجانب يستأثرون بمغانمه باسم مصر ؛ نرجو أن يكون لها بعض الصدى والأثر .

« ع »

قُبْحٌ جميـــل

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلمُ بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحبِ الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يدى أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النظرَ إليهما ، ويُعجب من حسنهما وبزّتهما ورِوائهما ، حتى كأنما أُفرِغا فى الجمال وزينته إفراغاً ، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا فى مثل تهاويل الزهر من زينته التى تُبدِعها الشمس ، ويصقلها الفجر ، ويتندّى بها روحُ الماء العذب . وكان لا يصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالهما لا ينتهى فما ينتهى الاعجاب به .

وجعل أبوهما يسارقه النظرَ مسارقة ، ويبدو كالمتشاغل عنه ، لِيَدَعَ له أن يتوسّمَ ويتأمل ماشاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما . بَيْدَ أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمةَ الاعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليحس أنّ غريزةً فى داخله كلّمها الحسنُ من كلامه فردّتْ عليـــه من كلامها .

قال ابنُ أيمن : سبحان الله ! ما رأيت كاليوم قطّ دُمْيَتَيْنِ لا تفتَح الأعينُ على أجملَ منهما ؛ ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكةُ ثياباً من الجنة ما حسبْتُ أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسن مما صنعت أمهما .

فالتفت إليه مسلم ، وقال أحب أن تعوّذهما . فمد الرجل يده ومسح عليهما ، وعوّذهما بالحديث المأثور ، ودعا لهما ، ثم قال : ما أراك إلا استَجَدْتَ الأمّ تَحْسُنَ نسلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً ، صغارُه من كباره ؛ وما عليك ألاّ تكون قد تزوجت ابنةَ قيصر فأولدتها هذين ، وأخرجتْهما هى لك فى صيغتها الملوكية (١) من الحسن والأدب والرونق ، وما أرى مثلهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلْك ووقاره ؛ مما يكون حولهما من نور تلك الأم

فقال مسلم : وأنت على ذلك غير مُصدِّق إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلة التى تصف ، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمة هى بدمامتها أحبُّ النساء إلىّ ، وأخفُّهن على قلبى ، وأصلحُهن لى ، ما أعدِل بها ابنةَ قيصر ولا ابنة كسرى

فبقى ابنُ أيمن كالشدوه من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطين ويستطيبه لفسادٍ فى طبعه ، فلا يحلو السُّكر فى فمه وإن كان مكرّراً خالصَ الحلاوة . وَرَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكون هذا الرجل الجِلْف قد ضارّها (٢) بتلك الدميمة أو تَسرّى بها عليها . فقال وما يملك نفســه : أما والله لقد كفرتَ النعمة ، وغدرْتَ وجحدْتَ وبالغت فى الضُّر ، وإن أمّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوق النساء ، إذ لم يَتَبَيَّنْ فى ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدرِ نفسها ، وقد كان يسعها العذر لو جعلتْهما سَخْنَةَ عينِك ، وأخرجتْهما للناس فى مساوئك لا فى محاسنك ، وما أدرى كيف لا تَنِدُّ عليك ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت ، واستقامت بمقدار ما التويْت ، وتحبيبُ والله شأ نــكما ! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبتْ بى كلّ مذهب ، وأنستْنى كل جميلة فى النساء ، ولئن أخذت أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشَّوْهَةِ والدّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لا تجىء إلا دالّةً على أجمل معانى المرأة عند رَجلها فى الحظوة والرضى وجمال الطبع . وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادة فى الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائه ، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسّ ؟

---

(١) تجىء هذه الكلمة فى كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب وهو الافصح فى رأينا ، ومن ذلك تسمية الامام ابن جنى كتابه « التصريف الملوكى »

(٢) المضارة اتخاذ الضرة على الزوجة .

قال ابن أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عجّل الله لك من هذه الدميمة زوجتك التي كانت لك فى الجحيم ، لتجتمعا معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أمّ هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذى أدخلْتَ من القبح والدمامة فى معاشرتها ومعايشتها ، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك . أ فَبَهِيمَةٌ هى لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيباً : كنت أنزل « الأُبُلَّة » وأنا مُتَعَيِّش فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لى أن أتّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسطَ يدى للمال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت فى ميْعة الشباب وَغُلَوَائِهِ ، وأول هجمة الفتوّة على الدنيا ، وقلت : إن فى ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم فى بلادها ومعايشها ، وأتقلّبُ فى التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأفيد عظةً وعبرة ، وأعلم علماً جديداً ، ولعلنى أصيب الزوجة التى أشتهيها وأصوّر لها فى نفسى التصاوير ، فان أمرىَ من أوله كان إلى غُلوٍّ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمى إلا للسَّبَق ، ولا أرضى أن أتخلف فى جماعة الناس . وكأنى لم أر فى الأبلّة ولا فى البصرة امرأة بتلك التصاوير التى فى نفسى ، فتأخذها عينى ، فتعجبنى ، فتصلح لى ، فأتزوج بها . وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أُحرزه فى دارى ؛ فما زلت أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ »(١) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة ، تحمِلُ غَلَّتَهَا إلى جميع خراسان وإلى خوارزم ؛ وفيها يومئذ كان عالمها وإمامها « أبو عبد الله البلْخى » وكنا نعرف اسمه فى البصرة ؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرُّواة والعلماء ؛ فاستَخَفَّتْنِي إليه نَزِيَةٌ من شوق إلى الوطن ، كأن فيه بلدى وأهلى ؛ فذهبت إلى حلْقته ، وسمعته يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « سوداء ولود خيرٌ من حسناء لا تلد . » فما كان الشيخ إلا فى سحابة ، وما كان كلامه إلا وحياً يوحَى إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لى بمثله ، وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء وأداخلهم فى فنون من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخىّ ، ولقد حفظته حتى ما تفوتني لفظة منه ، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله ، ويدفعنى إلى معانيه دفعاً حتى أتى علىّ ما سأحدثك به . إن الكلمة فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا .

قال ابن أيمن : إطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لى كلام البلخى ، فقد تعلّقتْ نفسى به .

قال سمعتُ أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث : أما فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنبَّه اليه ؛ فانه صلى الله عليه وسلم لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كَنَى بها عما تحت السواد ، وما فوق السواد ؛ وما هو الى السواد من الصفات التى يَتَقَبَّحُها الرجالُ فى خلقة النساء وصُوَرِهن ؛ فألْطَفَ التعبيرَ ورقّ به ، رفعاً لشأن النساء أن يصفَ امرأة منهن بالقُبح والدّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيها للسانه النبوىّ ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إن ذِكْرَ قبح المرأة هو فى نفسه قبيح فى الأدب ، فان المرأة أمّ أو فى سبيل الأمومة ؛ والجنة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخَيَّلُ فى الحسن تحت قدمى امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما إن الحديث كالنّص على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصف امرأة بقبح الصورة ألبتّة ، وألاّ يجرىَ فى لسانه لفظُ القبح وما فى معناه ، موصوفاً به هذا الجنسُ الذى منه أمه : أيَوَدّ أحدُكم أن يمزّق وجهَ أمه بهذه الكلمة الجارحة ؟ .

وقد كان العرب يفَصّلُون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية . أما أكمل الخلْق صلى الله عليه وسلم ، فما زال يوّصى بالنساء ويرفع شأنهن ، حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات كان يتكلم بهن ، الى أن تلجلج لسانه وخفِى كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة . . الصلاة . وما ملكت أيمانُكم ، لا تكلّفوهم مالا يطيقون ؛ اللهَ اللهَ فى النساء . »

(١) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاةٌ تتعبَّد بها الفضائلُ ، فوجبتْ رعايتها وتلقّيها بحقها . وقد ذكرها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوع رقّ ؛ ولكنه ختَم بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوع عبادة .

قال الشيخ : ولو أن أمّاً كانت دميمة شوهاء في أعين الناس لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها ؛ في الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسّه ولفظه ، لم يكذب في أحدها ، فقد انتفى القبح إذن ، وصار وصفها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأى النفس ، ولا أقلّ من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما في معنى الحديث ، فهو صلى الله عليه وسلم يقرّر للناس أن كرَم المرأة بأمومتها ، فاذا قيل : إن في صورتها قبحاً فالحسناء التي لا تلد أقبحُ منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذي يقال إن الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دلمراً على تقدير أنْ لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزّهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فان كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبّ المرأة حباً على طريقة البهائم ، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته لا يتكذّبُ في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعها مرّة فوق الحدّ ، ومرّة دون الحد .

فأكبر الشأن هو للمرأة التي تجعل الانسان كبيراً في إنسانيته ، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الأيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لا فيما يصطلح عليه الناس ؛ فان الخروج من الحدود الضيّقة للألفاظ الى الحقائق الشاملة هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدى الى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ، وهو إنما يصل من هذه الى تلك ، فلا ينبغى أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابيّة الضيّقة . والقبح إنما هو لفظ ترابيّ يشار به الى صورةٍ وقع فيها من التشويه مثلُ معانى التراب . والصورة فانيةٌ زائلة ، ولكنّ عملها باقٍ ؛ فالنظر يجب أن يكون الى العمل . فالعمل هو لا غيره الذى تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا الى الشوهاء ، ولكن الى الحور العين . إنهما في رأى العين رجل وامرأة في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الايمان الروحيّ فهما إرادتان متّحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والانسانية ؛ ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلها ؟ . فقيل : العوراء . فقال : زوجونى إياها . فكانت العوراء في رأى الامام وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كلّ هذا الذى حكيناه يدلّ على أن الحب متى كانَ إنسانياً جارياً على قواعد الأنسانية العامّة ، مُتّسعاً لها غير محصورٍ في الخصوص منها — كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس ، واستطاع الانسان أن يجعل حبّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويردُّ على نفسه من لذّاتها ، فان لم يسعدْه شيءٌ بخصوصه ، وجدَ أشياءَ كثيرة تُسعدُه بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يُعدُّ جمالاً ، رأى الجمالَ في أشياءَ منها غيرِ الصورة ، وتعرّف إلى ما لا يَخفَى ، فظهر له ما يَخفَى .

وليست العينُ وحدها هي التي تُؤامَر في أيّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقلُ والقلب ، فجوابُ العينِ وحدها ، إنما هو ثلث الحق . ومتى قيل « ثلث الحق » فضياعُ الثُلُثين يجعله في الأقل حقًّا غير كامل .

فما نكرهه من وجهٍ ، قد يكون هو الذى نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الارادة السليمة تعمل عملها الانسانى بالعقل والقلب ، وبأوسعِ النظرين دون أضيقهما « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا . »

***

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طَربِ الحديث ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا ابن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعته من أبي عبد الله ؛ إنه والله قد حبّب إلىّ السوداءَ والقبيحة والدميمة ، ونظرتُ لنفسي

بخير النظرين ، وقلتُ : إن تزوّجتُ يوماً فما أبالى جمالاً ولا قبحاً ، إنما أريدُ إنسانيّـة كاملة مني ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ فى كل امرأة ، ولـكن ليس العقل فى كل امرأة .

قال : ثم إنى رجعتُ إلى البصرة ، وآثرْتُ السكنى بها ، وتعالَمَ الناس إقبالى ، وعلمتُ أنه لا يَحسُنُ بى المُقَامُ بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدّ هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عَضَلَـها و تعرّضَ بذلك لعداوة خُطّابِها ، فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأنٍ ، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملَهن ، ما ضنّ بها أبوها رَجاوةَ أن يأتيه من هو أغنى ، فحدثتْني نفسى بلقائه فيها ، فجئتُـه على خلوة ...

فقطع عليه ابنُ أيمن وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التى تَعشَّقْتَها

قال : مهلاً فستنتهى القصةُ اليها . ثم إنى قلت : ياعمّ ، أنا فلان بن فلان التاجر . قال : ما خَفِى عنى محلُّك ومحلُّ أبيك . فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بي عنـك رغبة ، ولقـد خطبها إلىّ جماعـة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لـكارهٌ من إخراجها عن حِضْنى إلى من يقوّمُها تقويم العبيد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدْخِـلَنى فى عَـدَدِك ، وتخلِطَنِى بشَمْلك . فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت :لا بدّ . فقال : أغد علىّ برجالك .

فانصرفت منـه إلى مَلأ من التجار ذوى أخطارٍ ، فسألتهم الحضور فى غدٍ . فقالوا : هذا رجل قد ردّ من هو أثرى منك ، وإنك لتُحرّكنا إلى سَعْى ضائع . قلت لابدّ من ركوبكم معى . فركبوا على ثقة من أنه سيردُّهم .

فصاح ابن أيمن ، وقد كادت روحه تخرج : فذهبتَ فزوّجَك بالجميلة الرائعة أمّ هذين ، فما خبر تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياســيدى قد صبرتَ إلى الآن ، أفلا تصبر على كلماتٍ تنبئُك من أين يبدأ خبر الدميمة ، فانى ماعرفتها إلا فى العرْسِ .

قال : وَغَدَوْنا عليـه فأحْسَنَ الاجابة وزوّجنى ، وأطعم القـوم ونحر لهم ، ثم قال : إن شئت أن تبيت بأهلكَ فافعل ، فليس لها ما يُحْتاجُ إلى التلوّم عليه وانتظاره .

فقلت : هذا ياسيدى ما أحبه . فلم يزل يُحدّثنى بكل حسن حتى كانت المغرب ، فصلاّها بى ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، وبقى مقبـلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك ، فأمضّني — علم الله — كأنه يرى أن ابنته مُقْبلةٌ منى على مصيبة ، فهو يتضرّع ويدعو . ثم كانت العَتَمَةُ فصلاّها بى ، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فُرِشتْ بأحسن فرشٍ ، وبها خدم وجوارٍ فى نهايةٍ من النظافة . فما استقرّ بى الجلوس حتى نهض وقال : أسْتوْدِعُـك الله ، وقدّم الله لـكما الخير وأحْرَزَ التوفيق .

واكتنفتنى عجائزُ من شمْلِه ، ليس فيهنّ شابّة إلا من كانت فى الستين . . . فنظرت فاذا وجوه كوجوه الموتى ، وإذا أجسام بالية يتضامّ بعضها الى بعض ، كأنها أطـلال زمن قد انقضّ بين يدىّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دميتك لعجوز أيضاً ... ؟ ما أراك ياابن عمران إلا قتلت أمّ الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جَلَوْن ابنته علىّ وقـد ملأن عينىّ هرماً وموتاً وأخْيِلَةَ شياطين وظلال قرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتى ، حتى أسرعن فأرخَيْن الستور علينا ؛ فحمدت الله لذهابهن ، ونظرت .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقـد أطلْتَ علينا فستَحْكى لنا قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ، فما خبر الدميمة الشوهاء ؟ .

قال مسلم : لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس ! ....

* * *

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطْراقَةَ مَن وَرَدَ عليه ماحيَّرَه . ولـكن الرجل مَضى يقول : ولما نظرْتُها لم ارَ إلا ما كنتُ حفظتُه عن أبى عبد الله البلخىّ ، وقلتُ : هى نفسى جاءت بى إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملا يعمل فىّ ويُديرنى ويُصرّفنى . وما أسرعَ ماقامت المسكينةُ فأكبّتْ على يدى وقالت :

« ياسيدى ، إنى سرٌّ من أسرار والدى ، كتمه عن الناس وأفضى به إليك إذ رآك أهـلاً لستره عليه ، فلا تُخْفِرْ ظنَّه فيك . ولو كان الذى يُطلَب من الزوجة حسنَ صورتهـا دون حُسْنِ تدبيرها وعفافِها لعَظُمَت مِحْنتى . وأرجو أن يكون

معى منهما أكثرُ مما قصَّر بى فى حُسن الصورة ؛ وسأبلغ محبَّتك فى كل ما تأمرنى . ولو أنت آذيتَنى لعَددْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعنى كرُمك وسَتْرك ؟ إنك لاتعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى . أفلا تحرص ياسيدى على أن تكون هذا السببَ الشريف ؟ »

ثم إنهـا وثبتْ فجاءت بمالٍ فى كيس وقالت : ياسيدى ، قـد أحلَّ الله لك معى ثلاثَ حرائر وما آثرْته من الاماء ؛ وقد سَوَّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجوارى من مال هـذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط .

***

قال أحمـد بن أيمن : فحلف لى التاجر : إنها ملكتْ قلبى مِلْكاً لاتصل اليه حسناءُ بحسنها ، فقلت لهـا : إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى : « والله لأجعلنَّك حظىَّ من دنيـاى فيما يُؤْثِره الرجل من المرأة ، ولأَضرِبَنَّ على نفسى الحجاب ماتنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبدا . » ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخىّ . فأيقنتْ والله ياأحمـد أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها ، وجعلتْ تحْسُن وتحسن كالغصن الذى كان مجرودا ثم وخزَته الخضْرة من هنا ومن هنا .

وعاشرتُهـا فاذا هى أضبط النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقهن علىَّ ، وأحبُّهن لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوَّلُ أمرها وآخره ؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر ، فجعل القبح يقلّ ويقل ، وزال القبح باعتيادى رؤيته ، وبقيتْ المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة .

ولما ولدتْ لى جاء ابنها رائع الصورة ، فحدثتنى أنها كانت لاتزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوج وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدعْ ذلك من فكرها قط ، وألَّف لها عقلُها صورة أجمل غلام تتمثّله ومابرحت تتمثله . فاذا هى أيضا كان لها شانُ كشانى ، وكان فكرُها عملاً يعمل فى نفسها ، ويديرها ويصرِّفها .

ورزقنى الله منها هـذين الابْنَيْن الرائعين لك ، فانظر أىُّ معجزتين من معجزات الايمان . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

صفحة من التاريخ

ميـــدان القَبَق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

....

صف لى ملاهى قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأنى حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً ، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبنى ما لم يهب سواى من قدرة على التكهن أو التنبؤ ، بل هى مجارى الأقدار تنساق فى سبيل لا حيلة فى الحيد عنها ، ولا وسيلة إلى الانفلات منها .

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ما كان يجرى فيها من فظائع . وايمن الحق ما كان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء ، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية . وقدرأيت ماتنم عليه آثار مدنية پومپى من هُوِىٍّ إلى سحيق الدعارة ، وما كان لك أن تتطلع فى مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط ، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى فى عاداتهـا وتغلغل فى حياتها . وللحياة القوية مطالب وتكاليف ، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها فى مباشرتها . ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح ، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله فى ممارسة الرياضة بأنواعها ، والجولان فى البحر والبر والهواء ، يجدون اللذة القصوى فى مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات . وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل ؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثْر فى كل عصر ، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته فى مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة . ولقـد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين فى ميـدان الحياة . بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم . ولست

أتردد فى أن أسميهم بالآباء ، على أنهم قد لايكونون لى آباء . كما أننى لا أتردد فى أن أسمى الفراعين آبائى ، ولعلهم لم يكونوا من آبائى . فاننى لاتجرى فىَّ دماء الملوك . ولئن كان فىَّ شئ منها فقد جهلته . فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا فى أنهم كانوا الحفظة لمثُلنا العليا ، والقوَّامَ على آمالنا القومية . فهم آباؤنا فى التراث القومى وإن بعدت بيننا علاقات النسب . لا ، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب .

فى جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقى حى اسمه الآن حى العباسية الشرقية ، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً . وقد اختطت فى بعض جهات هذا المتسع فى أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأنشئت الحدائق ، وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلى قلعة الجبل لاتكاد ترى فى كل هذه المسافة تلا يعكر سهولة السطح ، وهذه المساحة هى بعينها الميدان القديم الذى أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الاشارة إليهم ، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح فى تسمية العامة : (الميدان الأسود) أو ميدان السباق . وكان فى تسمية الخاصة : (ميدان القَبَق) .

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربى ، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق سارية عالية ، ويوضع وراءه هدف يرمى إليه الجنود سهامهم ؛ وكان الرمى بالقسى والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سنى القرن الثالث عشر الميلادى أو القرن السابع الهجرى .

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الاسلامى وكنانته . إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار ، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان . وكانت بلاد الشام لا تزال تعانى بقايا الفتح الأوربى الذى اعتراها فى مدة الحروب الصليبية ، وكانت أوربا لا تزال فى أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى ، ولا تزال على عقليتها القديمة التى دفعتها الى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الاسلام. فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الاسلام ، وتراث العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق ، وأن تدفع عادية أوربا المحنقة الثائرة من جانب الغرب . ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم ، وفؤاد يقظ حديد .

وكان بيبرس ممثل الدفاع فى القرن الثالث عشر الميلادى ؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً

لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو فى بلدة من بلاد الشام ، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح . وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة ، الجياشة بمعانى الرجولة والحياة القوية .

وكان ميدان القبق مشهد أكبر المواسم وأحبها الى الناس ، سواء فى ذلك العامة والخاصة . وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التى سادها السعد والتوفيق ؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها .

كان ذلك فى يوم شديد الحر فى شهر رمضان ؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال ؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) أن رشّ هذا الميدان الفسيح فى مثل هذا اليوم القائظ وفى شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس . وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى ، فأمر بأن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل هو وجنوده مشقة الاحتفال فى القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء .

وأبى الله أن يجزى مثل هذا العطف بغير جزائه . فكان من دلائل سعد السلطان ويمن أيامه أن ساقت الرياح غمامة فى ذلك اليوم على غير عادة فى مثل ذلك الوقت ، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه ، ثم أقلعت . وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهسا غير ملبد ولا زلق .

ودخل السلطان العظيم على رأس قواده وجنوده ، فكلف كبارهم باظهار ما عندهم من البراعة فى الرماية . ووقف الناس ألوفا حولهم يعجبون بما يرون ، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به ، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة فى الدفاع المجيد .

ثم ركب السلطان فى قمة الصف ، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة ، وحمل كما يحمل إذ يكون

فى ميدان الحرب وحمل وراءه أتباعه كباراً وصغاراً ، كأنما هم رجل واحد ، ولهم إرادة واحدة . فاذا كر السلطان كانت الألوف وراءه كجزء منه ، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هى قطعة واحدة — وتعالت عنـــد ذلك أصوات الأعجاب والحماسة ، واختلطت بزفرات الدعاء والولاء ، فلقد كان بيبرس العظيم مليكاً على الناس مسيطراً على الأفئدة .

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد ، ووزعت الهبات والصلات ، وتتابعت العطايا والهدايا ، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات ، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم ، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء .

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره ، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا فى تقديس أبطال الفرسان ، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر ، وأصبح بفضل هذا الروح فى مصر جيش من أبطال ما زالوا مضرب الأمثال فى النظام والشجاعة والمهارة ، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال ، لا يقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال . قال المقريزى فى وصف ذلك : « وصارت تلك الأمكنة لا تسع الناس وما بقى لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب » .

غير أن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده ، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال . ولم يكن فى الامكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع . وإلا فلم سمى الأفذاذ أفذاذاً ؟

حكم مصر فى أواخر القرن الثالث عشر المسيحى سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية ، إذ كان أبوه سلطاناً قبله ، غير أنه لم يكن فى مثل قوة بيبرس ولا فى مثل توفيقه وسعده ، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام ، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال ، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل . وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً . وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً لملك جده وأبيه ، وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر . وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود .

ومهد الميدان ورشت جوانبه ، وجهزت أدواته وآلاته ، وزينت طرقه وحواشيه ، وأقبل السلطان فى موكبه الفخم وركابه المهيب . وابتدأ الاحتفال يباهى الايام الماضية بجلاله وضخامته ، غير شىء واحد كان غير ماثل فيه ، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به . وجرى كل شىء على سَننِه المعتاد غير أمر واحد ، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه . فما هى الا جولة حتى اغبر الجو وأظلمت السماء ، وثارت عاصفة هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله . فتحول اليوم من احتفال وعيد الى فوضى واختلال ، وهدم فى ساعة ما قضى السلطان فى إعداده أياماً طوالا وبذل فى سبيله اموالا طائلة . ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى ، ولم يتحقق أمل السلطان فى وارث يحفظ الملك عقبه فى بيته .

وهكذا تجرى الأقدار فى مسالكها الغامضة . وإنما يرى الناس منها الآثار التى تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار ، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء ، فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال . حقاً لقد عاد اليه بعض الملوك حيناً وأرجعوا اليه الحلبة ، غير أن الروح لم يعد إليه ، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو اليه ، فانه يحل فلا تعرف أنه حل الا من آثاره ، ثم يذهب فلا تدرك ذلك الا من آثار ذهابه ، ولكنه غامض غموض الغيب المحجوب . ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع اقباله ، والنحس إنما يحل عند إدباره ، وانه إذا كان أدبر يوماً ، فلا جرم أنه يدبر لكى يعود فى يوم آخر ، ولو بعد حين .

محمد فريد أبو حديد

القتل السياسي

جريمة مرسيليا المروعة

عرض تاريخي لظروفها وبواعثها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يشهد العالم منذ مقتل الارشيدوق فرنز فرديننـد ولى عهد الامبراطورية النمسوية فى يونيه سنة ١٩١٤ ، جريمة سياسية أشد روعة وأبعد أثرا من تلك الجريمة التي وقعت فى التاسع من هذا الشهر فى مرسيليا ، والتى ذهب ضحيتها المرحومان الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية . وقـد كان مقتل الارشيدوق فرنز فردينند فاتحة الأزمة الدولية الخطيرة التى انتهت بنشوب الحرب الكبرى ، وكانت من أسبابها المباشرة . ومن المحقق أن جريمة مرسيليا ستحدث أثرها فى شئون يوجوسلافيا الداخلية ، وفى سير السياسة الاوربية بوجه عام ؛ ومن الصعب أن نقدر منذ الآن مدى هذه الآثار ، وإن كنا نشهد منذ الآن نذرها ومقدماتها .

كان الاغتيال وما زال على كر العصور وسيلة لتحقيق مآرب السياسة . وجريمة الامس جريمة سياسية وقومية كما كانت جريمة سنة ١٩١٤ . وقدشهدت اوربا فى العصر الحديث طائفة حافلة من الجرائم السياسية الرنانة ؛ وكان الملوك ، والملوك الطغـاة بنوع خاص هدف هذه الجرائم ، ولم تكن هذه الجرائم شخصية ، ولم تقع على الملوك أو الطغاة لمجرد اشخاصهم ، ولكن لانهم يمثلون فى نظر الجناة نظاما أو فكرة لاتتفق مع مثلهم القومية أو الديموقراطية . وكانت « النهليزم » الروسية أعظم مصادر الوحى للقتل السياسى خلال القرن التاسع عشر ؛ وفى ظلها وبتدبيرها ارتكبت عدة جرائم رنانة على أشخاص القياصرة وأعوانهم من الطغاة ؛ وذهب ضحيـة هـذه الجرائم قيصران : اسكندر الثانى سـنة ١٨٨١ ، واسكندر الثالث سنة ١٨٨٥ ، وعدة من اكابر الحكام والساسة . ولما خبت ريح النهليزم فى اواخر القرن المـاضى خلفتها الدعوة اللاحكومية (الانارشى) فى تنظيم الجريمـة السياسية ؛ وذهب ضحيـة هـذه الدعوة عدة من الملوك والا كابر مثل كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية ، والامبراطورة اليزابيث النمسوية ، وما كنفللى رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ثم الملك أومبرتو ملك ايطاليا الذى قتل سنة ١٩٠٠ بعد عدة محاولات دموية مروعة . ووقعت فى الاعوام الأخـيرة على الملوكيـة عدة محاولات جديدة دبرها اللاحكوميون ايضاً ، كان منها الاعتداء الذى وقع على الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا السابق (سنة١٩٢٦) ، والاعتداء الذى وقع على جلالة ملك ايطاليا (سنة ١٩٢٨)

هذه أمثلة قليلة من ثبت القتل السياسى الحافل الذى شهدته اوربا فى العصر الأخير . ولكن جـريمة مرسيليا تختلف عما تقدم فى ظروفهـا وبواعثها ؛ فهى جريمة قومية عنصرية كما سنرى ؛ وهى اثر بارز من آثار ذلك الصراع الجنسى الذى تضطرم به امة ينقصها التناسق الجنسى ، والتضامن القومى ، وتمثل فيها اقليات قومية غير راضية عن مركزها ومصايرها ؛ وهى كذلك أثر من آثار ذلك الطغيان الحديدى الذى تعيش فى ظله يوجوسلافيا منذ ستة اعوام ، والذى تشعر بوطأته الاقليـات الساخطة بنوع خاص . والقـاتل بتروس كاليمـن Petrus Kalemen ، كـرواتى الاصـل ، ينتمى الى الشعب الـكرواتى ، أو إلى تلك الاقليـة القوية التى ترزح تحت حـكم الاغلبية الصربية ولاتشعر نحوها الا بعواطف الغيرة والسخط . وقد وقعت الجريمـة المروعة فى ظل هـذه المعركة الجنسية المضطرمة ، واندفع الجانى او الجناة فى طريقهم بوحى الفـكرة الجنسية التى تسيطر على شعب يعتقد أنه مغبون مضطهد مسلوب الحقوق ،

ويجب لـكى نفهم ظروف الجريمة وبواعثها الحقيقية أن نعود بضعة أعوام الى الوراء ، فى سنة ١٩٢٨ ، وقـع الفصل الاول من حوادث هـذه المأسـاة فى بلغراد فى بهو الجمعية الوطنية (اسكوبشتينا) ذاتها ، وكان ذلك فى مساء ٢٠ يونية ، وكانت المناقشة تدور حادة بين نواب الأكثرية من الصرب والسلوفين ، ونواب الاقلية المعـارضة ، وهم نواب الشعب الـكرواتى حول العلائق اليوجوسلافية الايطـالية وموقف الحكومة منها ، وكانت المعارضة ممثلة فى حزب الفلاحين الكرواتى ورئيسه استيفان رادتش زعيم كرواتيا الوطنى ، والحزب الديموقراطى المستقل وزعيمه بربتش فتش ؛ فلم تلبث المناقشة أن تحولت الى نوع من السباب والتراشق المقذع ؛ وعندئذ نهض أحـد نواب الحزب

الراديكالى الصربى ، وهو حزب الاغلبية أو حزب الحكومة ، وأطلق الرصاص على مقاعد حزب الفلاحين فقتل من نوابه اثنان أحدهما بول رادتش قريب الزعيم رادتش واحد أقطاب الحزب ، وجرح ثلاثة آخرون منهم استيفان رادتش نفسه زعيم كرواتيا الوطنى . ووقع على أثر هذه الجريمة المروعة اضطراب لا يوصف فى بلغراد وفى كرواتيا ، وأوقفت جلسات الجمعية الوطنية واستقالت الوزارة القائمة ، واستمرت الأزمة الوزارية نحو شهرين . ثم كانت الطامة الكبرى بوفاة استيفان رادتش زعيم كرواتيا متأثراً من جراحه بعد ذلك بأسابيع قلائل ؛ فشيعه مواطنوه إلى قبره فى مظاهرات فخمة مؤثرة تجلت فيها البغضاء الجنسية التى يضطرم بها الكرواتيون نحو الصربيين ونحو حكومة بلغراد

كان لهذه الفاجعة الوطنية أثر عظيم فى إذكاء الأحقاد الجنسية فى مملكة يوجوسلافيا الجديدة ، وهى أحقاد تقوم على تراث التاريخ ، وتنافر العناصر التى تتألف منها . ذلك أن مملكة الصرب القديمة المتواضعة استحالت عقب الحرب الكبرى الى مملكة جديدة تسمى مملكة الصرب والسلوفين والكروات ؛ تضم مملكة الصرب القديمة ، وأمارة الجبل الأسود ، وسلوفينا ، وكرواتيا ، ودلماسيا ، والبوسنه والهرسك ، وبعض أنحاء أخرى من امبراطورية النمسا والمجر القديمة . والشعب الصربى هو الكثرة بين هذه الأجناس المتنافرة ، وهو صاحب الحكم والسيادة ، واليه تنتمى الأسرة الملكية ومعظم الوزراء والحكام والقادة . وكانت كرواتيا أو بلاد الكروات بين الولايات الجديدة أشدها مراساً وأعرقها قومية وتعصباً . وتشغل كرواتيا نحو خمس المملكة الجديدة وعاصمتها « زغرب » أو « أجرام » مدينة قديمة سكانها نحو ربع مليون وبها جامعة . والكروات شعب جبلى فلاح ساذج يبلغ زهاء ثلاثة ملايين من مجموع قدره ثلاثة عشر مليوناً . وكان الشعب الكرواتى قبل الفتح التركى فى القرن الخامس عشر يتمتع باستقلاله فى ظل مملكة بلقانية قوية ، ثم غدت كرواتيا كما غدت صربيا والمجر ولاية عثمانية ، وضمت منذ أواخر القرن التاسع عشر الى النمسا والمجر . ولم ينس هذا الشعب الجبلى الوعر استقلاله ونزعته القومية ، فكان فى ظل الأمبراطورية النمسوية يجيش بالأمانى الوطنية ، ويطمح الى الاستقلال الذاتى ؛ ولم يقف الى جانب آل هبسبورج أثناء الحرب إلا طمعاً فى تحقيق شىء من أمانيه القومية . واستمرت تحفزه مثل هذه الأمانى فى ظل يوجوسلافيا الجديدة ؛ وكان بطل كرواتيا الوطنى أستيفان رادتش رئيس حزب الفلاحين أقوى الأحزاب الكرواتية وأشدها نفوذاً ؛ وكان هذا الزعيم القوى الذى كونه مزيج من الثقافات الألمانية والفرنسية والروسية يسيطر ببيانه الساحر وخلاله القوية على مواطنيه ويقودهم حيثما شاء ؛ وكان حزب الفلاحين حتى سنة ١٩٢٥ جمهورى النزعة يطالب بالاستقلال الذاتى ؛ وكانت كرواتيا تضطرم من حين لآخر بالقلاقل والمظاهرات القومية ؛ فتخمدها حكومة بلغراد الصربية بمنتهى الشدة ؛ وتذكى بذلك أحقاد الكروات الجنسية . وفى سنة ١٩٢٥ أدرك الملك اسكندر خطر هذه الحركة على وحدة يوجوسلافيا ؛ فاستدعى الزعيم رادتش وتفاهم معه ؛ وعقد اتفاق بين الصرب والكروات يمنح به الكروات بعض الحقوق والمزايا القومية ؛ فهدأت حركة الكروات الاستقلالية نوعاً وأبدى الشعب الكرواتى شيئاً من الولاء نحو العرش والحكومة ؛ واحتل الكروات مقاعدهم فى الجمعية الوطنية ؛ واشتركوا فى حكم البلاد ؛ وكان لهم فى الجمعية ٨٥ كرسياً أى نحو ربع مجموع الكراسى . ولكن هذا التفاهم لم يلبث طويلاً ؛ لأن الجبهة العسكرية المحافظة التى تحكم البلاد من وراء الملك اسكندر لم يرق لها هذا التسامح مع الأقلية ؛ ورأى الكروات من جهة أخرى أنهم لم ينالوا بهذا التهاون كل مايطمحون اليـــه من المزايا الاستقلالية ؛ فعاد سوء التفاهم بين الفريقين مرة أخرى ؛ واشتدت الخصومة بينهما منذ سنة ١٩٢٨ ؛ ووقعت فى كرواتيا قلاقل جديدة ؛ واتخذت المعارضة الكرواتية فى المجلس اتفاقات « نتونو » التى عقدت يومئذ بين يوجوسلافيا وإيطاليا بشأن الحدود مادة لحملات قوية على حكومة بلغراد والملك اسكندر ؛ واستمرت هذه الحملات فى شدتها حتى ضاقت حكومة بلغراد وضاقت الأكثرية الصربية البرلمانية بها ذرعاً ؛ ووقعت بين الفريقين فى الجمعية مناقشات ومناظر عاصفة انتهت فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٢٨ بوقوع تلك المذبحة البرلمانية الرائعة ، وسفك دم الزعماء الكروات فى نفس المجلس الذى دعوا الى الاشتراك فى أعماله ، ومصرع استيفان رادتش زعيم كرواتيا القومى ومعبودها الوطنى .

وهنا أدرك الملك اسكندر خطورة الموقف ، وحاول مرة

أخرى أن يعمل على تهدئة الأحقاد القومية التى أثارتها الجريمة ، ولكنه لم يستطع فيما يظهر أن يغالب نفوذ العسكرية المسيطرة على الحكم ؛ فلم تتخذ حكومة بلغراد فى شأن النائب أو النواب القتلة إجراءات جدية تهدىء الشعور المضطرم ؛ وكان موقفها فى ذلك كموقفها يوم مقتل الأرشيدوق فردينند من عطف على الجريمة ورفق بالجناة ؛ وأخمدت حركات زغرب عاصمة كرواتيا ومظاهراتها بشدة ، وساد حكم الارهاب فى كرواتيا ، وطورد زعماؤها وأبناؤها أشد مطاردة ؛ وأبدت حكومة بلغراد وعمالها الصربيون فى معاملة الشعب المغلوب منتهى الخشونة والقسوة ؛ فتوجست العناصر الأخرى شرا واشتدت الأحقاد القومية ، وتعقدت الأزمة ، وكادت يوجوسلافيا تنحدر الى الحرب الأهلية ؛ عندئذ لجأ الملك اسكندر الى إجراء خطير حاسم ؛ ففى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٩ أعلن إلغاء الدستور والجمعية الوطنية ، وأعلن نظام جديد يقبض الملك فى ظله على كل السلطات ، وتؤلف الحكومة من ستة عشر وزيراً ، يُسألون أمام الملك شخصياً ؛ وألغى تقسيم يوجوسلافيا القديم الى ولايات عنصرية ، وقسمت الى تسع ولايات جديدة لكل ولاية حاكم مطلق ؛ وغير اسمها من مملكة الصرب والسلوفين والكروات الى مملكة يوجوسلافيا ؛ وحل حزب الفلاحين الكرواتى ، وقمعت كل حركة ومظاهرة عنصرية بمنتهى الشدة . وساد على يوجوسلافيا كلها حكم مطلق حديدى حتى اليوم . ولكن الملك اسكندر أبدى فى اضطلاعه بمهام الحكم المطلق كثيراً من الحزم وبعد النظر ؛ فاستقرت السكينة فى البلاد ، وخبت الأحقاد والنزعات القومية المحلية أمام البطش ؛ ولكنها لبثت كالنار تحت الرماد تسرى فى صمت ، وتتربص فرص الاشتعال .

وكان من المستحيل إزاء هذه المشاكل العنصرية الخطيرة ، وإزاء استئثار العنصر الصربى بالسيادة والحكم أن تحكم يوجوسلافيا بغير الحكم المطلق . ولم يكن فى تقاليد العسكرية الصربية التى تحكم من وراء العرش . ولا فى تقاليد أسرة كاراجورج فتش الجالسة عليه ما يؤيد النظم البرلمانية ، أو يفسح لها أى مجال حقيقى .

وقد تولت أسرة كاراجورج فتش التى ينتمى اليها المرحوم الملك اسكندر بوسائل عنيفة أيضاً . وكان العرش قبلها لأسرة أوبرينوفتش بتولاه الملك اسكندر أوبرينوفتش حتى سنة ١٩٠٣ . وفى يونيه من هذا العام دبر الحزب العسكرى بتحريض أسرة كاراجورج فتش مؤامرة كانت نتيجتها أن قتل الملك اسكندر أوبرينوفتش وزوجته مدام دراجا ماشين التى أثار زواجه بها قبل ذلك بعامين ضجة كبيرة ، فى غرفة نومهما ؛ وعلى أثر ذلك أعلن بطرس كاراجورج فتش ، والد الملك اسكندر ملكا ؛ وعهد بمهام الحكم الى الجناة الذين اشتركوا فى مقتل سلفه ، فدلل بذلك على أنه لم يكن بعيداً عن الجريمة . واستمر ملكا حتى سنة ١٩٢١ ، وخاض غمار الحروب البلقانية والحرب الكبرى ، وتولى ولده الملك اسكندر الحكم من بعده ، وكان مولده سنة ١٨٨٨ ، وكان أثناء حياة أبيه يتولى أخطر المهام العسكرية والسياسية ، فأبدى حزماً ومقدرة فى قيادة يوجوسلافيا الكبرى ، ولكنه لم يوفق الى حل المشاكل العنصرية ، ولم يستطع كبح جماح العسكرية كما قدمنا ، وشاء القدر أن يذهب ضحية الأحقاد العنصرية على ذلك النحو المؤسى .

* * *

هذه هى حقيقة البواعث والظروف التى أدت الى مقتل الملك الراحل ، فالأحقاد القومية هى التى سلحت القاتل كالمين وزملاءه الكرواتيين ، وهى التى دفعتهم الى ارتكاب جريمتهم الفظيعة انتقاماً لمصرع زعماء كرواتيا الوطنيين ، وانتقاماً لما تلاقيه من آلام الاضطهاد المنظم . ومن المحقق أن سيكون للحادث أخطر الآثار فى مصاير يوجوسلافيا ، وإن كان من المستحيل أن نتنبأ اليوم بما سيكون . وقد تكون ثمت وراء الجريمة عوامل تحريض أجنبية عرفت أن تستغل الأحقاد العنصرية وأن توجهها ، ولكن الجريمة تبقى مع ذلك جريمة عنصرية ، باعثها الانتقام القومى .

إن المسألة الكرواتية تعتبر بالنسبة ليوجوسلافيا كالمسألة الأرلندية بالنسبة لانكلترا ، وستبقى خطراً دائماً على الوحدة اليوجوسلافية ، ما دامت العسكرية الصربية تأخذ بسياسة السيادة العنصرية ، ومادام الشعب الكرواتى يشعر بأنه لم يأخذ حقه من العدالة والمساواة والاشتراك فى أعباء الحكم .

أما المرحوم مسيو لوى بارتو ، فقد كان ضحية بريئة للجريمة ، ولم يقصده الجناة بالذات ، وسيكون لمقتله أثر عميق فى شئون فرنسا الداخلية ، وربما فى سياستها الخارجية .

محمد عبد الله عنان

المحامى

ابن مَنْ يا فاجرة ؟

للدكتور احمد زكى
وكيل كلية العلوم

كانت فاجرة لأنها ادعت ابنها الوليد لغير أبيه ، وهى تعلم أنه لأبيه . وكان الرجل المتهم فى عرضه ، المقدوح فى طهارته ، رجلاً من ذوى الثراء ، جمع من المال ما جمع فى أيام صباه ، من أعمال واسعة النطاق ، وأشغال استغرقت كل زمانه فألهته عن ملذات الجسم ومُتع الشباب . وبلغته الشيخوخة على حين غفلة ، فأراد أن يدرك الفائت ، وأن يلحق بالهارب ، وأن يذكر نفسه ، ويسترجع حسه ، ويستجمع بقايا شبابه ، فطلب الأنثى الشابة ، فجاءته إناث كثيرات ، فعلم أنهن لم يُردنه ، وإنما أردن ماله ، وكان كلما أنس من بعضهن إلى الجناب الرفيق والصدر الحنون ، وكاد يَهمّ بالخطبة ، هتف فى نفسه الهاتف يقول : جناب عن قريب ينبو ، وصدر لا يلبث أن يخون . وظل على هـذه الحال زماناً ، يحدوه أمله ، وتردّه سنه ، وقام ثراؤه يتهم كل امرأة ولو أخلصته النية ، ورضيت صادقة برعايته وحضانته وبتمريضه بكل ما فيها من أنوثة

وفى أثناء ذلك اتصل بأحد المقرَّبين اليـه من مستخدميه ، فشكا له الوحدة عَرَضاً ، فذهب هذا المقرّب إلى زوجته تلك الليلة يذكر لها الشكوى . وفى الصباح أتت الثرىّ من الزوجة دعوةٌ على طعام ، وتلت تلك الدعوة دعوات ، فى حضرة الزوج ، وفى غير حضرة الزوج ، وكثيراً ما حضرها الشباب من الصحاب ، فامتلأت البطون ، واحتر الدم بالرقص والشراب ، وكثيراً ما نسى الشيخ وقاره فى تلك الأجواء الزائطة ، فنال من الزوجة المضيافة القبلة بعد القبلة ، فأعطت عن سخاء ، على أعين ضيوف اليوم الفرحين ، وشهود الغد المُحرَجين .

فلما ولد المولود ، وهمّ الشيخ بالتبريك ، جاءه رسول القضاء يعلن اتهامه . وانعقدت المحكمة ، وجاءها الشهود كأنما كانوا على موعد ، فأثبتوا روحاته وجيئاته ، وأثبتوا إختلاءه ، وأثبت الزوج تغيبه ، ولم يبق على استقلال الطفل بكل تلك الثروة الواسعة من بعد أبيه إلا حكم المحكمة

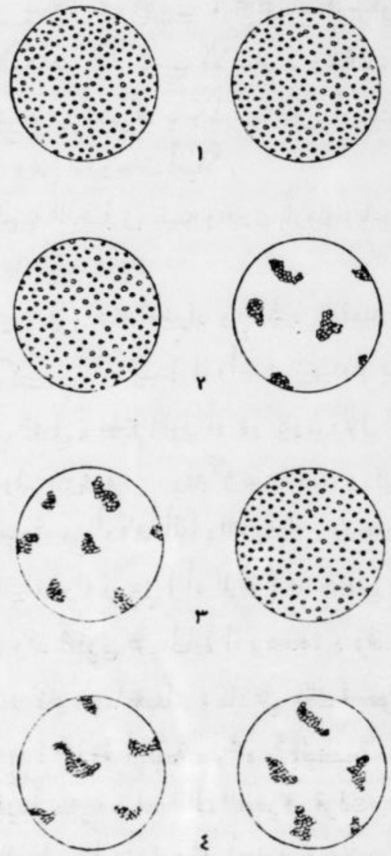
وفى اللحظة الأخيرة طلب الدفاع نجدة العلم ، والالتجاء الى المعمل عسى أن تكون عنده الشهادة التى لا تُرَد ، وفى الغد أو الذى يليه احتكموا عند أحد الاخصائيين المحلّفين الى قطعة زجاج ، وبعض سوائل فى أنابيب ، ثم الى المكرسكوب — جمادات كلها لاتكذب إذا كذب الانسان . وبذلك ، وبذلك وحده ، نجا الشيخ من الشرَك ، ونذر ماعاش أن يبتعد عن الآنسات ميلاً ، وعن المتزوجات أميالاً .

ثم غلب التهمة الملحّة فى نفسه واقترن بأرملة ، باعدت عنه الريب وحملت عنه أعباء الحياة

أما همنا اليوم ففى تلك الأشهاد من الجماد . وقصة ذلك أن الدم الانسانى يتركب من كُرَات حمراء وأخرى بيضاء ، يَسْبحن فى سائل يُسمى المصل ، عديم اللون أو هو كلون زلال البيض ، يحتوى عدة مواد ذائبة فيه . وقد كشف العلماء فى الكرات الحمراء عن مادتين تسمى أولاهما ألفاً والثانية باء . ووجدوا فوق هذا أن الكرات الحمراء للرجل (أو المرأة) قد تحتوى على المادة ألف وحدها ، وقد تحتوى على المادة باء وحدها ، وقد تحتوى عليهما معاً ، وقد تخلو منهما جميعاً . وبناء على ذلك قسموا الناس الى مجموعات أربع : مجموعة ألِفيّة ، ومجموعة بائيـة ، ومجموعة ألِفبائية ، ومجموعة صفرية ، نسبة الى الصفر فى قولك رجل صفر اليدين أى خاليهما . فأنا وأنت وكل أحد لا بد واقعون فى أحد هذه الأقسام . وتعرف المجموعة التى ينتسب اليها الفرد من تفاعلات تقع بين الدماء عند خلطها . فهب أنى أنا من المجموعة الألفيـة ولا فخر ، وهب أنك أنت من المجموعة البائية ولاحط من قدرك ، فلو أنك أخذت شيئاً من دمى ، وفصلت عنـه مصله ومزجته بنقطة من دمك لتجمعت كراتك الحمراء وتزاحمت فى هلع وارتياع ، كقطيع النعاج داهمها الذئب ، فاتخـذت تحت المكرسكوب شكل عنقود العنب . وسبب هذا أن بدمى مادة معادية خصيمةً لكراتك الحمراء ، أو بالأحرى للمادة البائية التى بها . وعلى هذا تسمىّ مادتى هذه بالخصيمة البائية .

ولو أنك مزجت مصل دمك بدمى لتعنقدت كراتى الألفيّة كذلك ، لأن بمصلك الخصيمة الألفية . فبدمى إذن المادة الألفية والخصيمة البائية ، وبدمك أنت المادة البائية والخصيمة الألفية ، والزوجان فى دمك وفى دمى بالطبع على غاية المحبة والوفاق وإلا لتعنقدت كراتنا جميعاً وودعنا الحياة ، لأن تلك الكرات لابد من نفاذها فى الشعريّات الدموية الرفيعة التى تصل ما بين الأوردة والشرايين

وهناك دم ثالث نستعير لشرحه صديق الأستاذ الزيات ، فدم الأستاذ تجمع كراته الحمراء المادتين ألفاً وباء معاً ، فلو أنك



فى كل سطر أفقى قطرتان من دم واحد أضيف إلى يسراهما مصل من دم ألفى وإلى يمناها مصل من دم بائى فكانت النتيجة المكتوبة أمام كل من الدماء الأربعة

خلطت نقطة من مصلى بقطرة عزيزة من دمه لتعنقدت كراته ، ولو أنك خلطت نقطة من مصلك بتلك القطرة لتعنقدت كذلك ، فصديق الزيات من المجموعة الألفبائية . أما الدم الرابع فخالية كراته من كلتا المادتين فهى لا تتعنقد لا بمصلى ولا بمصلك .

وتابع العلماء دراسة دماء الناس فى نواحى المعمورة تقصياً فى البحث ، وامتحنوا دماء الصغار والكبار ، والأبناء والآباء لآلاف من الأسر ليتعرفوا العلاقة التى قد تكون بين الولد والأصلاب والأرحام التى انحدر منها ، فوجدوا قوانين مطردة على مقتضاها ينسل التناسل . من ذلك أنهم وجدوا أن الطفل الألفى يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل ألفى . وأن الطفل البائى يتحتم أن يكون من أبوين أحدهما على الأقل بائى . وأن الأب أو الأم إن كان أحدهما ألفبائياً ورّث كلا من بنيه ألفاً أو باء . فالرجل الألفبائى لا ينتج طفلاً صفرياً . كذلك إن كان الطفل ألفبائياً تحتم أن يكون قد وَرِث ألفاً من أحد أبويه وباءً من الآخر ؛ ومثل هذا الطفل لا ينتج عن أب صفرى

وفى قضية الشيخ المثرى التى فات ذكرها امتُحن دم الزوجة بأخذ قطرة دم من أنملها ، وقسمت القطرة قطرتين ، ومزجت



الرجل يعطى من دمه

إحداهما بمصل الخصيمة الألفية فتعنقدت كراتها ، ومزجت الأخرى بمصل الخصيمة البائية فلم تتعنقد الكرات ، فَقُضِى بأن الأم من الفصيلة الألفية . وامتُحن دم الوليد على هذا النحو فكان من الفصيلة البائية ، فلزم على هذا أن يكون أباه بائياً أو ألفبائياً . فامتحن الزوج فكان بائياً . وامتحن الشيخ فكان صفرياً ، فنجا على أن امتحان الدم قد لا يؤدى الى نتيجة حاسمة . فلو أن الشيخ كان بائياً أو بائياً ألفياً لجاز أن يكون الوليد من صلبه ، ولجاز أيضاً ألا يكون . وقد حسب حاسب عدد الحالات التى يمكن فيها الجزم بوالد الطفل منسوبة الى الحالات جميعها التى يحدث فيها اشتباه ، فوجد أنها تبلغ الثلث

وأريد أن أنبه أن المعمل قد يبرّىء ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يتهم أحداً . فهب أن الولد كان بائياً ، والأم ألفية . وكان زوجها ألفياً ، وامتحن الشيخ فكان بائياً ، فهل يُقطع بأبوة الشيخ من أجل شهادة المكرسكوب وحدها ؟ كلا . فكم من الرجال بائيون ! ولم لا تكون الزوجة اتصلت بأحدهم ؟ وإذن كان يتحتم على الاتهام إثبات ما كان بين الشيخ والمرأة فى مسالك الحياة

أحمد زكى

عصران فى دار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هى أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد ، ولـكن عصور أفرادها متباعدة ، وثقافاتهم متعددة متفاوتة ، والحضارات التى يمثلونها لا تنفك تتصادم وتحترب فى دارهم . وقد عرفت بعضهم فى لبنان وبقيتهم فى مصر ، وكنت أتمشى يوماً قبل الغروب فى طريق « ضهور الشوير » ، والشوير « ضيعة » كما يسمونها ، أو قرية فى واد يشرف عليه الجبل ، فهذا هو « الضهور » أو « الظهور » ، فملت الى مكان هناك يسمونه « قهوة الحاج الياس » وهى قائمة بين بساتين فاكهة وزهر ، فلمحت فى طريقى مَنْ ظننتها واحدة ممن عرفتهن هناك ، فحثثت الخطى اليها ، فاذا هى فتاة لا عهد لى بها ، وليس بنظرى قِصر ، ولـكنى كنت مطفلاً ، وكانت الشمس قد اصفرت وضعف ضوؤها ، وكان الشجر يحجب وجهها عنى — أعنى الفتاة لا الشمس — فلى العذر إذا أخطأت . وعلى أنه خطأ لم يسؤ وقعه فى نفسى . بهذا أعترف . وكانت جالسة ترسم فأغرانى هذا بها ، فدنوت منها على أطراف أصابعى ، ثم وقفت أتأملها — من وراء ظهرها — وهى مقبلة على اللوح . فلما طال ذلك علىّ ، وهى لا تلتفت وراءها ، تنحنحت ، فأدارت وجهها بسرعة وقالت : « أوه ! » ولم يكن فى وجهها لا ابتسام ولا دهشة ، كأنما كان من المألوف عندها أن تسمع الناس يتنحنحون وراءها وهى ترسم ! .

فقلت وقد أحسست أن فى الفتيات عسراً :

« هل أزعجتك ؟ »

فقالت وهى ماضية فى رسمها وغير ناظرة إلىّ :

« أزعجتنى ؟ ؟ هل سمعتك تقول إنك أزعجتنى ؟ »

وكانت لهجتها واشية باحتقار يحول الأدب دون ظهوره على وجهها ، أو لعل الأصح أن أقول إن فى اللهجة تهكما خفيفاً حملته على محمل الاحتقار ، فحقدتها عليها — فى سرى — غير أنى لم أظهر ذلك لها واكتفيت بأن أقول :

« هذا ما كنت أخشى — فالحمد لله ! »

فمضت فى تخطيطها على اللوح وقالت : « إذا كنت تريد أن تتكلم فاجلس » . فكانت هذه صدمة ثانية . فتلجلجت قليلاً وقلت « أ ... إ ... أجلس؟ » فقالت وهى مكبة على اللوح « آه .. معذرة . . ثيابك بيضاء نظيفة ، والأرض بليلة . . . مفهوم »

فاجترأت وقلت : « هل تريدين أن تدعينى الى الجلوس ؟ . »

فقالت : « وماذا أصنع بك جالسا أو واقفاً ؟ معذرة ! إن غرورك هو الذى أجرى لسانى بهذا الكلام »

فسألتها وأنا مبهوت : « غرورى ؟ »

فقالت بلا اضطراب : « أعنى غرور الرجال . . . وكنت تستطيع أن تدرك قصدى ولا تحوجنى الى الايضاح »

وكنت فى أثناء هذا الحوار لم أبرح مكانى وراءها ، فتحولت حتى صرت أمامها وقلت وفى صوتى نبرة غضب مكظوم :

« هل تستطيعين أن تدعى أن بينى وبينك ثأرا قديماً ؟ »

فأدهشنى أنها أجابت ببساطة ومن غير أن ترفع وجهها الىّ :

« ثأر ؟ أوه لا ! . ولـكن ألا ترى أن أمثالك لا خير فيهم لمثلى »

فقلت : « معذرة فانى غير فاهم ! . »

قالت : « بالطبع ! ولست وحدك الذى لا يفهم . . . كلكم هكذا . . . لأنكم تفكرون بعقول معطلة . . . أعنى أن أهواءكم تغلبكم وتدفع عقولكم فى مجراها ، وتمنعكم أن تفكروا فى حاجات غيركم مثل تفكيركم فى حاجاتكم . قد يبدو هذا القول غريباً من فتاة مصرية ، لأن الفتاة فى نظركم ليست سوى مطية ... لا تستغرب هذه الصراحة ، فلستم وحدكم كل من تعلموا وذهبوا الى أوربا ورأوا بعيونهم وفكروا بعقولهم ... ماعلينا من هذا ... نعم الفتاة ليست عندكم سوى مطية ... لا تجادل من فضلك ... لا تحاول أن تكذب ... كلا ... لا تقاطعنى ... إنك هنا لتتحكك بى ... هـــذا واضح ... بالطبع ! دعنى أتمم كلامى ، لقد كنت أقول حين هممتَ بمقاطعتى إنكم معشر الرجال تعتقدون أن الفتاة مطية ، وإنها لـكذلك ، ولـكنها غير ذلك أيضاً ... إعترف بصراحة ... هل خطر لك مرة واحدة أن الفتاة أكثر من مطية ؟ ! »

فخجلت لأنى لم أكن أنتظر أن أسمع هذه المحاضرة ، وأورثتنى المفاجأة اضطراباً فقلت :

« ولـكن هل من موجب لهذا الـكلام ؟ ؟ إنى . . . »

فقاطعتنى قائلة « نعم فانك ما جئت إلى هنا إلا وفى أملك أن تقضى دقائق لذيذة مع فتاة ترجو أن تؤاتيك وأن تنيلك دقائق أخرى ألذ منها وأعذب »

فهممت أن أقاطعها ولـكنها أومأت إلى فسكت ، واضطجعت هى على الكرسى وقالت :

« لا تـكابر . . . واسمع منى ، ولا تعجب إلا إذا كنتَ غبياً . . لامانع عندى ألبتة أن أمنحك الدقائق اللذيذة لو كنت تستحقها فى نظرى . . فانى أنا أيضاً أطلب لنفسى دقائق لذيذة وأشتهى أن أتمتع بحياتى وأفوز بنصيبى من لذات الدنيا ، ولـكنّ هناك لذائذ أخرى تعدل هذه وتستبد بالنفس وتغلبها على أهوائها الأخرى ... هذا التصوير مثلاً هو مهنة لأ كل العيش إلى حد ما ، ولـكنه أيضاً فن يزاول لذاته وبغض النظر عن المنافع المادية . . إنى حرة . . فقيرة ، نعم ، ولـكنى أجد الـكفاية ، وقد استطعت أن أتعلم أرقى تعليم تسمح به مواردى ، والباقى أحصله باجتهادى . . درست التصوير فى انجلترا ثلاث سنوات بينما كنت مبعوثة إليها لأدرس شيئاً آخر ، ولـكنى لا أتـكسب به . نعم أبيع بعض صورى ، ولـكنى أستخدم ثمنها فى إتقان فنى . . فى تجويد أداته . . لقد بعدت عن الموضوع جداً . . . على الأقل فى نظرك . . ولـكن هذا الشرح كان لازماً لأمثالك حتى يستطيع أن يجتنب إساءة الظن حين أسأله . . هل تستطيع أن تـكون أنموذجاً لصورة ؟ »

فصحت « إيه ؟ أنمو . . . »

قالت مقاطعة « نعم ، أنموذج لصورة . . إن جسمك ليس معتدلاً ، وقوامك . . . غير حسن . . وهذا ليس غزلاً مقلوباً من فضلك .. ولـكن لو أمـكن أن أرسمك وأنت عار .. ولـكن بالطبع لا تستطيع ... كلا ... لا تستطيع ... لا فائدة ... خسارة ... إن فى ذهنى صورة تصلح لها ، ولـكن الحياء الـكاذب .. كلا .. لا فائدة »

فـكدت أجن من جرأة هذه الفتاة ، ثم تصورت نفسى واقفاً أمامها — على رجل واحـدة ! . وأنا كما خلقنى الله فقهقهت ، فصعّـدت إلىّ طرفها مستغربة مستفهمة ، فلم أ كتمها ما دار فى نفسى وتمثل لخاطرى ، ثم تعارفنا .

***

وفى مصر رأيت أباها ، وهو شيخ فى السبعين من عمره ، تخرج فى دار العلوم وزاول التدريس حتى أقعده الـكبر ، ولـكنه لا يزال على ارتفاع سنه نشيطاً . ومن شذوذه أنه لا يقنع بأن ينفى العامية من كلامه ، بل يفرض الـكلام بالفصحى حتى على الخدم :

كنت معه يوماً ، وكنا جالسين فى حديقة البيت ، فبصر بالخادم ، فصاح به « ليس هكذا ؟ »

فانتفض الخادم ودار حول نفسه ، وقال بلهجة الممتثل لقضاء الله فيه ولا ستبداد هذا المجنون به :

« أفندم ؟ »

قال الشيخ : « ليس هكذا »

فعاد الخادم يسأل « أفندم ؟ »

فقال الشيخ مفسراً : « أقول ليس هكذا . ارفع رأسك وافتح صدرك . ألم أنهك أن تمشى متخلعاً ؟ »

فقال الخادم معترفاً : « أيوه يا افندم ؟ »

فصاح به الشيخ : « قل نعم يا جاهل ! أو بلى »

فاستغرب الخادم وسأل بلهجة المنكر : « بلى ؟ »

قال الشيخ : « بلى »

فعاد الخادم يسأل : « بلى ؟ »

قال : « نعم بلى ! ماذا تظننى أقول ؟

قال الخادم : « بلى ! »

قال الشيخ : « إذن قلها » .

فحاول الخادم أن يعيدها ولـكنه نسيها فجعل يقول : « أ . . أ ... ب ... ب ... وحك رأسه .

فأنـكر الشيخ ضعف ذاكرته وقال : « نسيت بسرعة ؟ »

فتذكر الخادم وقال : « أ ... بلى »

فعاد الشيخ يصيح : « مدهش ! قل « لا » فى هذا الموضع »

فظن المسكين أن عليه أن يردد كل ما يسمع فقال : « لا فى هذا الموضع »

فضجر الشيخ وصاح : « ماذا كنت قبل أن تجىء إلى هنا ؟ ببغاء ؟ »

فـكرّ الخادم مسرعاً إلى الأولى استرضاء للشيخ وقال « أ ... أ ... بلى »

فيئس الشيخ وقال وهو ينظر إلىّ « لا فائدة ... لا فائدة ! »

نبتــــون

للأستاذ راشد رستم

فى ناحية من نواحى الحديقة المنسقة الواسعة، أنشأوا بحيرة صغيرة صافية، وحول هذه البحيرة الساكنة قامت الأشجار عظيمة السيقان، كثيرة الأغصان — تباعدت فى الأرض جذوعها، والتفت فى السماء فروعها — دوحة خضراء، نادرة المثال فى هذا النوع من التنسيق والجمال، اتخذت منها الأطيار الوديعة أراجيحها اللينة، وأقامت فيها أعشاشها الآمنة.

وفى وسط هذه البحيرة الصغيرة أقاموا تمثالاً كبيراً لإله البحر الأعظم: نبتون(١) بن زحل...

أقاموه فى هذا المكان الهادئ، واقفاً يحمل فى يمناه صولجانه مثلث الأسنان، ويمد يسراه فى اطمئنان مشيراً الى الماء الخاضع فى هدوء عند قدميه، وكأنه يقول: هذا ملكى، هذا عرشى!

***

أى نبتون! مزعزع ركن الثرى(١)

ما كنا لنجهل ملكك، أو نسلبك عرشك.

رمز لظلمات ذلك الخيال المضطرب لما رآك أجدادنا المتقدمون؛ ولذلك الرعب الآخذ بنفوسهم لما تركوك الى برهم؛ ولذلك التعدى، وقد جهلوه منك، عند ما حاولت أن تصل اليهم يدك؛ ولذلك الفشل، وقد تمنوه لك، لما عدت عنهم خائباً بجزرك.

على أنك لا تزال تطغى ولا ترحم، وستهشم ما تصل اليه يدك فى غدك، كما كنت تفعل فى أمسك، وإن كنت تحوى الدر، وتؤدى خيراً، فانك لا تدرى ان هذا خير وذاك در.

***

إن هذه البحيرة الصغيرة الهادئة لا تستحق من أهل السلام وأهل الجمال، أن تقوم أنت وسطها على جزيرة لا تكاد تفى بموطىء قدميك، تقوم فيها بثقيل هيئتك، وكالح وجهك وخشن شكلك. وهنالك فى المحيط الواسع جزائر عظمى، خذها مسكناً ومقيلا، فعندها تجد لخشونتك مجالاً، ولوحشيتك ميداناً، وهنالك حيث أهلها وسكانها أقرب طباعاً لما يرضيك، فتتخذهم أعواناً أو عبيداً أو خلقاً جديداً، تسخرهم فيما تشاء من إغراق وإغداق، وتراهم يرتاحون لجوارك ويحافظون على سلطانك، وهم يرون فى عتوك وجبروتك حماهم الذى لولاه لكانوا فى الأرض أغناماً لسباعها، أو أسلاباً لناسها.

***

أى نبتون!

تضيع بهجة هذا المكان، وتذهب وداعة هذه البحيرة، ما دمت قائماً فيها برمزك هذا الخشن.

وكأنى بصاحب المكان فظاً غليظ الفؤاد، إذ يجعل جباراً يداعب ضعيف الجناب! أى ضعف فى الذوق! وأى خشونة فى

(١) إله البحار. نبتون Neptune عند الرومان يقابل فوسيد Poseidon عند اليونان

(١) «مزعزع ركن الثرى» لقب من ألقاب فوسيد، جاء فى الالياذة ترجمة البستانى

وكاد العدى يحرزون الظفر — وفوسيد فيهم يهيج الزمر
فان مزعزع ركن الثرى — لنصرتهم بقواه انبرى

وحسب الخادم أن الكلام له فقال: «بلى.»

فصاح الشيخ. «اذهب... اذهب... وارم نفسك فى بئر.»

فظن المسكين أنه يحسن به أن يقول شيئاً آخر فقال:

«لا فى هذا الموضع»

***

هذه هى الأسرة — أو على الأصح، هذا هو الأب، وتلك فتاته، وهما يعيشان فى بيت واحد تحت سقف واحد، ولا أدرى أيشعران أم لا يشعران بما بينهما من مسافة الزمن التى تحسب بالقرون، ولكن الذى أدريه أنهما على تباعد عصريهما سعيدان. وقد ساعد على ذلك وأتاحه سعة أفق الفتاة وما تمتاز به الشيخوخة من الحلم والجنوح إلى التسامح، أو الضعف إذا شئت...

ابراهيم عبد القادر المازنى

الطباع أشد من أن يقيم المنسق رمزاً للخشونة الواضحة ، والقسوة المتجددة فى المكان الساكن ، ذى الروح الوديعة ، والجو الهادىء . . .

***

كأنى بهذا المنسق ، وقد أقامك بين هدوء المكان وبهجته ، بل وقد حبسك فى هذا القفص الرطب . كأنى به يستهزىء من قوتك ، ويستنزل من شأنك ، فيقيم الرمز الثقيل فى بحيرة صغيرة ، تكاد تكون نقطة من بحرك .

***

أم أن هذا المنسق حكيم بصير ! أراد تغليب صفاتك القاسية على ميزات المكان اللينة ، فيقول للناس بذلك ، وهم وقوف عند البحيرة المسكينة المستسلمة — يقول : أحقاً أيها الناس أرباب العواطف ، أحقاً تشعرون بجمال هذا المكان ووداعته ، وها هو ذا تمثال طاغية يذكركم بأمواج كالجبال ، وطباع كالبحار ، ودخيلة لا أمان لها ؟ أتظنون أن طائر الرحمة والرضا ، يأوى الى القلوب ، وهو يرى رمز القسوة والحماقة قائماً ماثلاً ؟

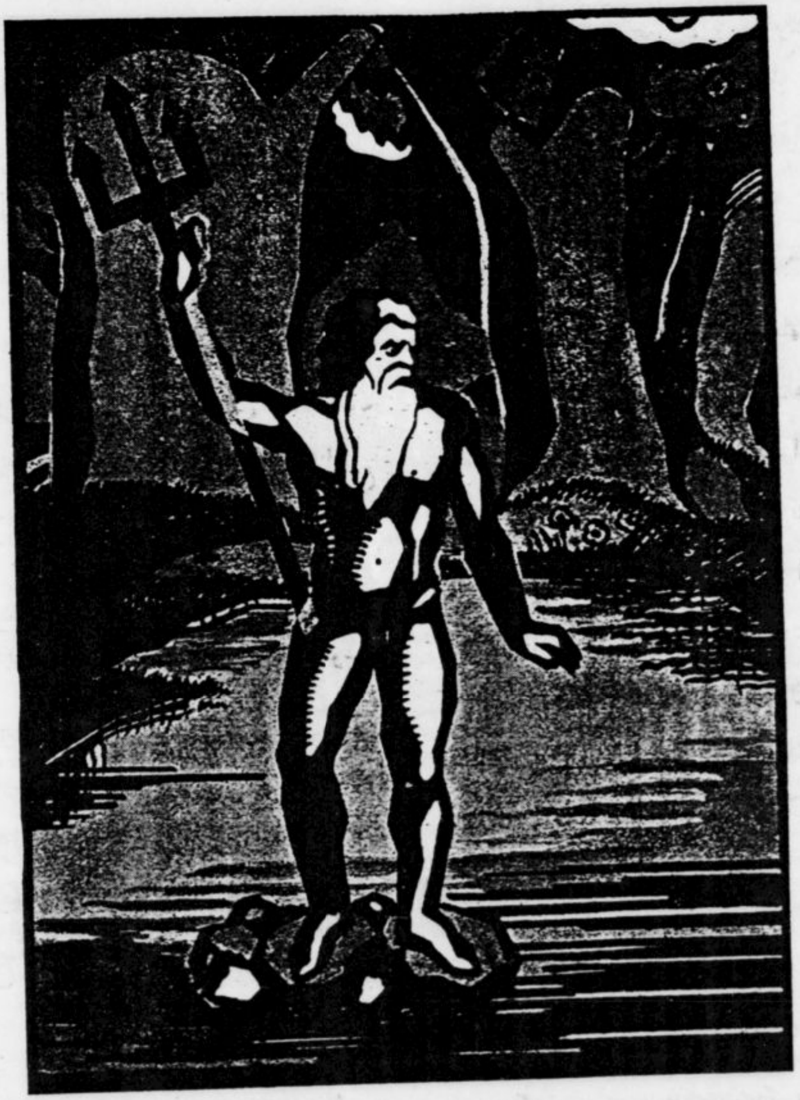
أتظنون أيها الفنانون أن فى هذا العالم جمالاً صافياً خالياً ... جمالا للجمال . . .

***

لا أدرى حقيقة ما يقصد صاحب المكان ، ولكن خط... ياسادة أن تقيموا هذا الرمز الخشن فى هذه الطبيعة الناعمة . إ... من جمال النفس أ... تجمع بين الما... والخضرة «والتمثال» ... الحسن

وإن الذى يأتى ... الى هـذا المكان ... الهادىء ، لا يقيم ... قليلا حتى يمسه تيار ... قاتم من روح هذا ... الجبار العتيق . ... يشعر وسط هـذا ... النعيم الأخضر ... بلفحات من جحيم ... الحياة القاسية .

***



نبتون فى البحيرة — تصوير الأستاذ محمد رفعت

فياحراس المكان ، وحفظة السلام ، ويا أهل الجمال ، أزيلوا هـذا الرمز الخشن ، وردوه الى حيث تتناسق صفاته وقسوة الطبيعة فتكونون قد صنعتم جميلا ، وأرضيتم أهل الخيال وأهل الحقيقة .

« حديقة انطونيادس »
اسكندرية

راشد رستم

٥ - الشخصيـــة

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية:

الثقة بالنفس والاعتماد عليها:

من العناصر الأساسية في تقوية الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانياً . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها في كل عمل ممكن من الأعمال ، وفي التغلب على صعوبات الحياة . والسبب في كثرة الاعتماد على الغير أن الغريزة الاجتماعية قوية في الجنس البشري متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعي لا التفكير الاستقلالي . فينبغي أن نعود الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال في تفكيرهم من غير اتكال على أحد ، حتى يستطيعوا في المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم . ولا نريد بذلك أن يعتزل الانسان العالم وينقطع عن الناس ، ويفكر في نفسه فحسب ، فليس هذا من الانسانية في شيء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلا قليلاً . ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصي والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على الغير في كل شيء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ونحو المجتمع . والاعتماد على النفس يتطلب الثقة بالنفس ، والدقة في العمل ، والتحقق منه ، حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأمورنا نافذة ، وأقدامنا ثابتة . أما إذا انتفت الثقة بالنفس أو الدقة في العمل ، أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام . والرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وحده منادياً برأيه مبرهناً على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه في أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً ، بل قد يكون مصيباً في رأيه ، وقد يسبق في آرائه المجتمع الذي يعيش فيه بعشرات السنين ، كما هي الحال في المصلحين الذين يكونون غالباً في واد والمجتمع في واد آخر ، لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع . وإذا مدحنا الثقة بالنفس فلا نمدح الافراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة فانه دليل على ضعف الشخصية .

المزاج :

من العناصر الهامة المؤثرة في الشخصية : المزاج ؛ فالناس يختلفون في أمزجتهم كما يختلفون في شخصيتهم ، فهذا متفائل ، وذاك متشائم ، هذا سريع التأثر ، وذاك بليد لا يكاد يتأثر ، هذا كثير التردد ، وذاك كثير الاقدام . كل له مزاج خاص ، وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج . ولكن ما السبب في اختلاف هذه الأمزجة ؟ وللاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر رأي العلماء قديماً وحديثاً ، حتى تتضح لنا الأسباب التي من أجلها اختلفت الأمزجة فنقول :

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام : دموي ، وصفراوي ، وبلغمي ، وسوداوي . وبنوا هذا التقسيم على السوائل والافرازات الجسمية .[1] فالشخص الاجتماعي المتفائل الواثق بنفسه ، الغيور على عمله ، الصافي الذهن ، الحاد الذاكرة ، كانوا يعتبرونه كثير الدم ، وبعبارة أخرى دموي المزاج . والشخص العنيد السريع الانفعال القوي الارادة ، كانوا يقولون إن لديه كمية زائدة من الصفراء ، أو المِرّة ، ويدعونه صفراوي المزاج . والشخص الهادىء ، الذي يغلب عليه الكسل ، وتلوح عليه البلادة ، الذي لا يبالي ولا يكترث كثيراً ولا يتأثر بسهولة ، كانوا يحسبون أن عنده مقداراً زائداً من البلغم ، ويسمونه بلغمياً .

أما الشخص الذي تنتابه الأحزان ، وتلعب به الوساوس ، وتتقاسمه الهموم والمخاوف من غير سبب ولأقل سبب ، فكانوا يخالون أن لديه زيادة في المِرّة السوداء أو الطحال ، ويعدونه سوداوياً . وقد زاد بعضهم مزاجاً خامساً وهو المزاج العصبي الناشىء من وفرة السائل العصبي .

أما المحدثون من العلماء فيرون أن هذا التعليل قديم ولا قيمة له من الوجهة العلمية ؛ لأنه مبني على الجهل بعلم وظائف الأعضاء ، وعلى نقص في المباحث العلمية قديماً . وهم وإن أنكروا هذا

(١) The fluids of the body.

التعليل فى اختـلاف الأمزجة لاينـكرون اختلافها ، ويسلمون بتعدد أنواعها ، ويعتقدون أن هناك أسباباً أخرى لاختلاف الأمزجة كالوراثة ، والبيئة ، والغذاء ، والمرض ، وضعف الأعصاب ، كما يعتقدون أن إفرازات الغدد لها أثر كبير فى اختلاف الأمزجة ؛ فمزاج الشخص يختلف باختلاف قوة إفراز الغدد أو ضعفه . فلهذه الافرازات تأثير كبير فى الجسم والعقـل ، وعنها وعن الأمور السابقة ينشأ الاختلاف فى الأمزجة . فالمزاج فى رأى المحدثين يتأثر بالمواد الـكيميائية وإفرازات الغدد المختلفة التى يحملها الدم إلى المخ والعضـلات ، لا بوفرة الدم أو الصفراء أو البلغم أو السوداء كما يقول القدامى من العلماء . ومن هذه الغدد :

(١) الغدتان الخاصتان بالـكليتين ، ولهما صلة بالانفعالات والعواطف ؛ فاذا كان إفرازهما قوياً كان الشخص سهل التأثر ، سريع الغضب ، وإذا كان إفرازهما ضعيفاً كان حليماً بطىء التأثر قليل الغضب .

(٢) والغدد النكفيـّة . وهى غدد صغيرة أسفل العنق ، ولها صلة بالذكاء ؛ فاذا كانت قوية الافراز كان الشخص ذكياً ، وبالعكس . ويرى (مكدُوجل) وهو حجة فى علم النفس أن الضعف العقلى قد ينشأ عن قلة إفراز الغدد النكفية أو عن عدم وجودها .

(٣) وغدة تفاحة آدم ولها صلة بنشاط الشخص ومثابرته على العمل ، وبالتجربة رأى بعض الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغدد تأثيراً قوياً فى الانسان ، وقالوا — ونرجو أن تثبت التجارب قولهم — إن العمليات الجراحية يمكن أن تنظم إفراز غدتى الكليتين ، وتغيير سلوك الشخص وطباعه . وإذا ثبت أن للغدد تأثيراً كبيراً فى ذكاء الشخص ومزاجه فينبغى التفكير فى معالجة الضعف العقلى ، وحدة الطبع من الوجهتين الطبية والنفسية معاً .

ومجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية :

(١) الجاذبية ، (٢) النشاط العقلى أو الذكاء ، (٣) المشاركة الوجدانية ، (٤) الشجاعة ، (٥) الحكمة ، (٦) التفاؤل ، (٧) التواضع وعدم التصنع ، (٨) حسن مظهر الانسان وقوامه ، (٩) قوة البيان ، (١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، (١١) اعتدال المزاج .

وهناك صـفات أخرى كثيرة لا بد منها فى الشخصية . سنتكلم عنها فيما بعـد عند التكلم على أنواع الشخصية والصفات الكمالية لها . ولـكن العناصر المذكورة هى الأساسية فى تقوية الشخصية الضرورية للنجاح فى الحياة .

تبع **محمد عطيه الابراشى**

بين فن التاريخ وفن الحرب

٤ - خالد بن الوليـــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

الحركات الأولية :

والواضح من أخبار الرواة أن مناوشات طفيفة وقعت قبل أن يتسلم خالد بن الوليـد قيادة الجيش للقضاء على أهل الردة فى بلاد نجد .

والظاهر أن الرواة لم يتفقوا على أخبار هذه المناوشات جرياً على عادتهم ، والروايات المنتهية إلى سيف بن عمر وهو الراوى الذى يستند اليه الطبرى فى ذكر الـكثير من أخباره تبحث فى قتال عنيف وقع بين المسلمين وأهل الردة قبـل أن يزحف خالد بجيشه الى طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة . أما الأخبار التى يرويها الواقدى والبلاذرى فتذكر قتالاً طفيفاً جرى فى ذى القصة أو البقعاء بين مقدمة المسلمين وعبس وذبيان انتهى بهزيمة المرتدين بعد أن رأوا أن كوكب (القسم الأكبر) جيش المسلمين وصل لنجدة المقدمة، وأن قسما من هذا الجيش طاردهم الى ثنايا العوسجة ، ولما لم يلحق بهم عاد الى المعسكر .

ولم يتفق الرواة على هـذا القتال أجرى قبـل عودة جيش أسامة بن زيد أم بعد عودته من بلاد الشام .

ومن الأخبار ما تروى أن كبار الصحابة أشاوروا على أبى بكر ألا يرسل جيش أسامة بعد أن وردت الأخبار بارتداد العرب ، إلا أن أبا بـكر لم يقدم على تغيير ما أمره الرسول به فى حياته .

والذى اتفق عليه الرواة أن جيش أسامة لم يغب عن المدينة أكثر من شهرين ، وكان الجيش متجمعاً فى الجرف فى شمال المدينة لما توفى الرسول . ومع أن أكثر الرواة يزعم أن أخبار الارتداد فى الشرق وفى الشمال وفى الجنوب الشرقى وردت قبل حركة جيش أسامة — وذلك ما جعل كبار الصحابة يشيرون على الخليفة بابقـاء الجيش ليعتز المسلمون به فى محاربتهم أهل الردة — إلا أن الواقع لا يؤيد ذلك ، إذ لا يعقل أن يصل نعى النبى الى بلاد عمان والبحرين فيرتد أهلهما ويصل ذلك النعى الى المدينة وجيش أسامة قاعد لا يحرك ساكناً . وإذا كان الخليفة يريد أن ينفذ أوامر الرسول فلماذا يؤخر حركة هذا الجيش طول هذه المدة ؟ وتدل الأنباء على أن أول من أنبأ بالارتداد عامل مكة وأعقبه عامل الطائف بالخبر ، ثم ورد عمرو بن العاص الى المدينة بخبر ارتداد أهل عمان والبحرين ونجد ، وكان الرسول بعد حجة الوداع قد أوفده الى عمان ، فلما بلغه نعى النبى قفل راجعاً الى المدينة وأخـبر بوضوح أن الغرب ارتدت من دبا الى المدينة ، والمـدة للتى تصل فيهـا أخبار الوفاة الى عمان ليست قصيرة ، كما أن السفر من عمان الى المدينـة أيضاً يتطلب عدة أيام ، لأن المسافة بين عمان والمدينة ١٢٥٠ ميلا (أعنى مسيرة أكثر من عشرين يوماً على الذلول)

ومن الواضح أن كبار الصحابة لم يرتأوا إبقاء جيش أسامة بمجرد رؤيتهم قبائل فزارة وغطفان يرتدون ، والأمر الذى لاشك فيه أن خبر امتناع بعض القبائل العربية القريبة من المدينة عن تأدية الزكاة وردت الى المدينة قبل حركة جيش أسامة .

وإذا صح ادعاء الرواة بأن خبر ارتداد العرب فى أقصى البلاد ورد الى أبى بكر فأطلعه على حرج الموقف قبـل سفر جيش أسامة ، فيكون الخليفة قد جازف مجازفة خطيرة ، بإيفاده الجيش شمالا بينما كان الخطر يهدد المسلمين فى عقر دارهم .

ومن الرواة من يزعم أن أبا بـكر شرع فى قتال أهل الردة بعد عودة جيش أسامة ، ومنهم من يدعى أن قتال ذى القصة والربذة جرى قبل عودة الجيش .

أما نحن فنميل الى الاعتقاد أن القتال وقع قبل عودة الجيش ، إذ لا يعقل أن تتواطأ غطفان على الهجوم على المـدينة ، وتعلم بأن

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

جيش أسامة مرابط فى شمالهـا . بينما الروايات التى يستند اليها الواقدى والبلاذرى تدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة فى ذلك القتال .

الشروع فى العصيان :

أول من شرع فى العصيان خارجة بن حصن الفزارى من رؤساء بنى فزارة ، إذ أنه أوقف جابى الزكاة فى طريقه إلى المدينة وأخذ منه مافى يده فرده على بنى فزارة ورجع الجابى إلى أبى بكر .

أما القبائل التى ثارت وتظاهرت بالعــداء فهى : بنو أسد وغطفان والبعض من بطون طئ ، فاجتمع بنو أسد فى سميراء ، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد ، واجتمعت فزارة فى جنوبى طية ، واجتمعت عبس وذبيان فى الربذة والتف حولهم جماعة من كنانة ، ولما كثر عددهم لم تحملهم البــلاد لأن المياه شحيحة والمرعى قليل فتفرقوا إلى فرقتــين ، فأقامت فرقه بالأبرق بالقرب من الربذة والأخرى فى ذى القصة ، وأمد طليحة فرقة ذى القصة بقوة من بنى أسد . والداعى الى تفرقهم هو أن الوقت كان صيفاً ، لأن الرسول توفى فى شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة . وهذا التاريخ يوافق شهر حزيران سنة ٦٣٢ ميلادية . والمياه على ما نعلم تشح فى الصيف ، وكذلك المرعى تقل حينئذ . فبعثت غطفان وفداً الى المدينة ليعرض على أبى بكر رغبتها فى أن تقيم الصلاة وألا تأتى الزكاة ، وكان عيينة بن حصن الفزاوى وأقرع ابن حابس فى الوفد .

فلم يلب أبو بكر طلبهم برغم إشارة بعض الصحابة عليه بالتساهل معهم الى أن يعود جيش أسامة ، إلا أنه فى الوقت نفسه قدر خطورة الموقف لما عاد الوفد الى أهله . وكان للوفد على ما يظهر مهمتان : عفو الزكاة ، والاطلاع على قوة المسلمين فى المدينة . وقد لاحظ أبو بــكر ذلك ، إذ لم يعد الوفد حتى جمع الصحابة وأطلعهم على حرج الموقف وكلفهم بحراســة المدينة ليلاً ونهاراً . فأقام رجالا فى الأبراج لمراقبــة الطرق الممتدة الى المدينة من جهة البادية ، ورتب قوة احتياطية فى المسجد لتكون على استعداد للنجدة عند الحاجة ، وحذر أهل المدينة بقوله « انكم لاتدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً وأدناهم منكم على بريد » يشير بذلك الى قرب المسافة بين المدينة والقبائل المتحفزة للهجوم .

وقد يُعجب الانسان بصلابة أبى بكر فى رفضه طلب الوفد بعد اطلاعه على أخبار عماله لدى القبائل وسماعه حديث عمرو ابن العاص . وكانت جميعها تنبىء بارتداد العرب عامة أو خاصة ولا يوجد فى المدينة سوى نفر قليل وجيش أسامة بعيد عنها .

ونظراً الى ما ذكره الواقدى فى كتاب الردة أن أبا بكر لم يكتف بالتدابير التى اتخذها فى المدينة ، بل طلب من القبائل العربية كأسلم وغفار ومزينــة وأشجع وجهينة وكعب أن تمده بالرجال فأسرعت الى نجدته . فأخذ الناس يتوافدون الى المدينة بسلاحهم ، وأرسلت جهينة أربعمائة راكب .

وإذا صدقنا رواية سيف بن عمر التى نقلها الطبرى ، ظهر لنا أن ظن أبى بكر كان فى محله ، إذ لم تمض ثلاثة أيام على عودة الوفد حتى كان المرتدون قد غزوا المدينة ليلا .

لابد أن الوفد بعد عودته أخبر القبائل المتحفزة للهجوم عن ضعف قوة المسلمين بالمدينة وشجعها على الهجوم وكانت من غطفان ، وهى عبس وذبيان وفزارة على ما نعلم .

المواقع التى جرى القتال فيها :

وردت أسماء السميراء والربذة وطية والأبرق وذى القصة عند البحث فى تجمع القبائل . ولا يوجد الآن من هذه الأسماء فى الخرائط الحالية الا السميراء . ولنا من الأخبار التى نستقيها من رواة العرب الأقدمين أن القبائل السا كنة فى شرق المدينــة وعلى طرفى الطرق الذاهبة الى العراق وخليج فارس هى بنو سليم وهى أقربها الى المدينة فى الشمال الشرقى ، ثم يليها بنو كلاب الى شمالى بنى سليم ، ثم عبس وذبيان فى شرق حرة خيبر الى الشمال .

أما قبائل طئ فتسكن فى جبليها أجأ وسلمى ، وفى شرق بنى عبس وذبيان وفزارة من غطفان فى وسط وادى الرمة وعلى جانبيه . وتأتى بعدها قبائل بنى أســد . وموقع سميراء على ما يظهر من الخريطة واقع الى شمالى وادى الرمة ، ويبــدأ منه وادى السميراء الذى يصب فى الوادى فى جوار الحاجر .

الربذة :

يذكر ياقوت الحموى أن موقع الربذة على الطريق التى تصل موقع فيد بالمدينة . وفيد فى حى طئ وهى قرية من قرى جبل شمر واقعة الى شرقى جبل سلمى على الطريق التى تصل الـكوفة بالمدينة

ويمر بها طريق الحج ، وهى بعيدة عن المدينة مسافة ست مراحل . وتلتقى فيها عدة طرق من الجوف والعراق والمدينة وبريدة والرس .

والربذة على هذه الطريق ، وهى تبعد عن المدينة اربعة وعشرين فرسخاً ، وواقعة الى شمالى شرقها ، ولعل موقع حناكية الحالى هو موقع الربذة القديم او قريب منه ، لأن بُعده عن المدينة زهاء ثمانين ميلاً . والفرسخ العربى طوله اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر أوأربعة كيلومترات . والذى يجعلنا نميل الى ذلك ان القوة لم تجتمع فى الربذة بل فى الابارق ، وكلمة ابارق اسم خاص لبعض المحلات تدل على أرض حجرية ورملية مختلطة .

وموقع الحناكية بالقرب من حدود حرة خيبر ، والحرة على ما نعلم ارض بركانية خامدة وفيها محلات يتراكم الماء فيها . ومادامت القبائل مجتمعة فيها فلا بد حينئذٍ من وجود الماء بها . والحناكية واقعة فى بطن وادى الحمض .

ذو القصة أو البقعاء : والظاهر أن كلتيهما تدلان على موقع واحد واقع فى شرقى المدينة وقريب منها ، وهو بلا شك على الطريق التى تمتد الى المدينة فى غربى الربذة او فى جنوبها ، وهو اما الشقرة او سابية .

والأخبار تدل على أن أبا بكر بعد أن هزم المرتدين فى البقعاء طاردهم بخيله الى ثنايا العوسجة بالقرب من الركبة ، وهذا الموقع الاخير واد يصب فى الرمة ، ولعله وادى الركب الذى ينبع من حرة خيبر ويجرى شمالا فى شرق وثنايا العوسجة فى المحل الضيق الذى يتسلق فيه الطريق صاعداً الى رأس الوادى او ينزل منحدراً منه .

أما موقع طية الذى اجتمع فيه غطفان وفزارة فلم نعثر عليه فى معجم البلدان ولعله فى شرقى الربذة أو فى شماليه . أو انه موقع طابة فى سفح جبل سلمى الجنوبى فى شمالى السميراء وهو من ديار غوث من طيئ .

اغتة المدينة :

لم يهجم المرتدون بكل قوتهم لانهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسماً منهم فى ذى حسى بين ذى القصة والمدينة ليكون ردءاً لهم ، واقتربوا ليلا من المدينة ولم يباغتوها لأن العيون اخبرت المسلمين بدنوهم ، فقاتلتهم الربايا الخارجية ، وأسرع ابو بكر عن فى المسجد فأنجد الربيئات وهزم الهاجمين ، ولم يكتف بذلك بل هاجمهم على الجمال التى تستقى الماء من الآبار لأسقاء مزارع المدينة ، الى أن نفرت الابل من الجلود المنفوخة التى دهدهها الفارون من أعلى الروابى . فرجعت على أعقابها نافرة حتى دخلت المدينة .

والظاهر أن الهاجمين لم يكونوا فى قوة كبيرة ، ولا سيما بعد أن تركوا قسماً منهم فى الخلف . ويظهر أنهم من بنى عبس وذبيان . أما فزارة فبقيت فى ذى القصة . وهكذا انقسمت القوة التى أرادت أن تهاجم المدينة الى ثلاثة أقسام : قسم فى ذى القصة وقسم فى ذى حسى ، والقسم الثالث أغار على المدينة . أما قوة المسلمين فلا شك فى أنها كانت ضعيفة ، ولعلها لم تزد على المائتين .

وتشجع المرتدون من فرار جمال المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا الى من بذى القصة بالخبر فلحقوا بهم .

يتبع

طه الهاشمي

في الأدب الدرامي

١١ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر ملاهي موليير

(البخيل L' avare)

موضوعها وصف البخيل ، وأهم أشخاصها : أرباجون البخيل أبو كليانت وإيليز وعاشق مريان ، وكليانت بن أرباجون وحبيب مريان ، وإيليز بنت أرباجون وحبيبة ڤالير بن أنسلم ، ومريان بنت أنسلم وحبيبة كليانت ومحبوبة أرباجون ، وأنسلم أحد الأغنياء وأبو ڤالير ومريان ، ومترچاك طباخ البخيل وسائقه ، وفرسين امرأة محتالة ، ولافيش خادم كليانت ، وسيمون سمسار : وقد وقعت حوادثها في بيت أرباجون بباريس .

الفصل الأول : (كنز أرباجون ومشروع زواجه) يتنكر ڤالير حبيب إيليز ، ويقيمه البخيل وكيلاً على بيته ، فيعلن إلى ابنته غرامه ، ويشكو إليها بَثَّه ، فتعده بالزواج . ويدخل كليانت فيفضي إلى أخته بحبه لفتاة فقيرة شريفة تدعى مريان . ويشكو إليها عجزه عن مساعدتها لبخل أبيه ، فهو يبحث عن مرابٍ يقترض منه ما يصلح به حالها . ثم يدخل أرباجون البخيل وهو يشاجر خادمه (لافيش) في عنف ويتهمه بالسرقة ، فيقرره ويعزره ويبحث في جيبه ومطاوي ثوبه ثم يطرده ؛ وهو لا يتحرج أن يعامل ولديه معاملة العدو ، ويتهمهما بالتبذير . وحينما يريد الولدان أن ينبئاه بمشروع زواجيهما يفاجئهما هو بأنه عقد العزم على الزواج من مريان ، وأنه فكر في مستقبل ولديه فخطب لكليانت أرملة غنية ، ولإيليز أنسلم المثرى ، لأنه قبل أن يتزوج منها من غير مهر تسوقه اليه . ثم هو لا يقبل جدلاً ولا يريد مشورة . ويدخل ڤالير فيتخذونه في الموضوع حكماً .

الفصل الثاني : (ربا أرباجون) يريد كليانت أن يقترض خمسة عشر ألف فرنك فيجدها له السمسار سيمون بشروط فادحة وربح خمسة وعشرين في المائة . ويقبض منها كليانت اثنى عشر ألف فرنك عينا ، ثم يأخذ باقيها مجموعة من الأثاث البالى . على أن أغرب ما في المسألة أن السمسار يطلب هذا القرض من أرباجون ، فيقف الابن أمام الأب موقفاً غريباً يتبادلان فيه ألفاظ التقريع على بخل أحدهما وتبذير الآخر ، فلا يخرجهما من هذا الموقف الحرج إلا دخول (فرسين) المحتالة تعلن إلى أرباجون أن أم مريان قبلت أن تزوجه من ابنتها ، وهى تطلب منه مقداراً من المال يسيراً تستعين به على كسب قضية لها في المحكمة ، فيبادر إلى الخروج قائلاً : آه ! إن أحد الناس يدعونى . . .

الفصل الثالث : (إعداد المأدبة) دعا أرباجون أنسلم وابنته مريان إلى العشاء . فهو يوزع العمل على خدمه : فيأمر كلود أن تنظف البيت ، ويحذرها أن تحك الأثاث بقوة مخافة أن يبلى ، ويخصص (براندافوان) (والامرلوش) للشراب ، وينهاهما أن يقدماه إلا إلى من به ظمأ شديد ، ويوكل إيليز بملاحظة المائدة ، ويأمر الطاهى چاك أن يهيىء الطعام بثمن زهيد . ولكن المترچاك يؤدى عمل الطاهى وعمل الحوذى معاً ، فهو باعتباره الأول يطلب مالاً كثيراً ، فيغضب أرباجون ويرشده إلى صنع المآكل التى تصد النفس وتميت الشهوة ، ويرفض باعتباره الثانى أن يشد الخيل إلى العربة ، لأن الجوع قد أضناها والتعب قد أنهكها ، ويلوم سيده على شحه القبيح فينهال عليه البخيل ضرباً بهراوته .

الفصل الرابع : (سرقة الكنز) يعثر الخادم (لافيش) على كنز سيده البخيل مدفوناً في الحديقة فيأتى به الى كليانت . ويحاول الابن أن يحول بين الأب وبين زواجه من مريان ، فيرميها عنده بالخلاعة والجفاء والغباوة ؛ ويرتاب الأب في نصيحة ابنه ، فيتظاهر بأنه يريد أن يزوجه منها حتى يحمله على الاقرار بحبه إياها ؛ فتثور ثائرة البخيل ، ويُلَوح له بالعصا ، ويحاول أن يصده عن حبها فيأبى كليانت فيخرجه الأب من ميراثه ويلعنه ، ثم يفتقد الكنز فلا يجده ، فينسى مشروعاته الجميلة ، ويصيح بملء صوته : يالى من اللص ! ! يالى من القاتل ! يالى من السفاك ! ! ثم يفزع الى القضاء يريد أن يشنق كل الناس ، حتى اذا لم يجد كنزه شنق نفسه . وهذا الموقف من أبدع مواقف الرواية

الفصل الخامس : (وجود الكنز) : يحضر رجال الشرطة فيسألون (الأسطا جاك) فيتهم الوكيل ڤالير . ويدخل الوكيل فيشهر به أرباجون ويقول له : أريد أن تخبرنى عن المكان الذى خطفتها منه ، فيظن ڤالير أنه يكلمه عن ايليز فيجيبه : إنى لم أخطفها ، ولا تزال عندك في منزلك . ويستمر هذا الخطأ بينهما طويلاً ، ثم ينتهى بأن يبوح ڤالير بحبه إيليز ، ويدخل حينئذ أنسلم فيعرف ابنه ڤالير وابنته مريان ، وقد فقدهما منذ ست

عشرة سنة . ثم يقترح أن يتزوج ڤالير من ايليز وكليانت من مريان ، فيقبل البخيل على شرط أن يردوا اليه كنزه ، وألا يغرم صداقاً الى ولديه ، وأن يفصلوا له ثوباً جديداً يوم الزفاف . وتنتهى الملهاة بقول ارباجون : ولنذهب لنرى كنزى العزيز ! هذه الملهاة متقنة محكمة ، فحركة العمل فيها سريعة قوية ، والأخلاق تبدو ظاهرة جلية ، والحوار طبيعي حي يملك الذهن ويسترعى الاسماع . ولكنهم يأخذون عليها أن الموضوع محزن وأن الحل ضعيف .

(النساء العالمات Les femmes savantes)

موضوعها تحذلق النساء وتركهن تدبير البيت ، واشتغالهن بالفلسفة والحساب والفلك . وأهم أشخاصها : كريزال وزوجته فيلامنت ، وابنتاه ارماند وهنرييت ، وأخوه أريست وأخته بيليز وخادمته مارتين ، ثم كليتاندر حبيب هنرييت وتريسوتين أحد الأذكياء ، وڤاديوس أحد العلماء . وقد وقعت حوادثها فى منزل كريزال بباريس .

الفصل الأول : هنرييت ترغب فى الزواج من كليتاندر ، ولكن أختها أرماند المتحذلقة تنصح لها أن ترفض هذا الزواج وتعكف على دراسة العلم فان ذلك أخلق بالمرأة اللبقة الذكية ، وتضرب لها المثل بأمها وخمولها فى الأندية والمجامع لجهلها ، فتتهمها هنرييت بالغيرة وتناقشها فى الموضوع بحضرة كليتاندر ، فيفصل فى هذه المسألة بتصريحه أن الذكارة من النساء لا يلائمن ذوقه ، وانه يفضل أن تكون المرأة مستنيرة فاهمة ، لا متشدقة عالمة . هو إذن يختار هنرييت ، ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة أمها فيلامنت بحبه ، لأنها مولعة بالدعى تريسوتين ، وهو يحتقره لادعائه وحذلقته . وتدخل بيليز فيستميلها اليه ويصارحها بأمره ، فتظن أن هذا الحب لها لا لغيرها .

الفصل الثانى : يأخذ على نفسه اريست أخو كريزال أن يخطب هنرييت لكليتاندر ، فهو يقول لأخيه : إن كليتاندر فقير من المال ولكنه غنى بالفضيلة . فيجيبه كريزال الى طلبه ، ثم يذهب الى زوجته يقنعها به . وفى تلك الساعة تطرد فيلامنت خادمتها مارتين ، لا لأنها كسرت وعاء أو سرقت إناء ، ولكن لأنها أهانت النحو والقواعد . ويضعف كريزال أمام امرأته فيقر هذا الطرد ، ولكنه يسخط كل السخط على حمق النساء العالمات ، ويختصر شكواه فى هذا البيت الجميل :

انني أعيش بالحساء الجيد ، لا بالانشاء البليغ !

فاذا ما كلمها فى زواج هنرييت من كليتاندر تأبى الأباء كله ، وتعلن اليه أنها ستزوجها من الشاعر الأديب تريسوتين . ويحرض أريست أخاه على المقاومة حتى يرفع عن كاهله نير هذا الظلم الفادح

الفصل الثالث : يقرأ تريسوتين للعالمات فيلامنت وأرماند وبيليز موشحا وأهجية من نظم الأميرة (أورانى) فيملك عليهن حواسهن وأنفاسهن ، إلا هنرييت فتظل فارغة البال من كل ذلك . لم يكتب هؤلاء المتحذلقات شيئاً ، ولكنهن يردن أن يتعمقن فى العلوم ، وينشئن أكاديمية لهن كأكاديمية الرجال . ويقبل المتفيهق ڤاديوس فيصفه تريسوتين للنسوة بأنه أعلم الفرنسيين باللغة اليونانية ، وأبرع الأدباء فى صناعتى النظم والنثر . ويبادله المتحذلقات صنوف التحية وضروب التعظيم ، ثم ينتقد ڤاديوس موشح الأميرة (أورانى)، دون أن يعلم أنه من نظم تريسوتين ، فيتخاصم الرجلان ويتسابان بأفحش السباب . ويخرج ڤاديوس محنقاً يتحدى خصمه بقوله : (إنى أدعوك لمساجلتى فى النظم والنثر واللاتينية واليونانية) . وتعزى فيلامنت صديقها تريسوتين عن هذه الفضيحة بأن تقدم إليه ابنتها هنرييت لتكون له زوجة ، ويصر كريزال على أن يزوج ابنته من كليتاندر .

الفصل الرابع : تتلهب فيلامنت من الغيظ ، فتقسم أن تقطع زوجها عن عزمه ، وتنفذ إرادتها على هنرييت ، ويلقى إليهما فى تلك الساعة كتاب من ڤاديوس يتهم فيه تريسوتين بالنفاق والطمع فى ثروة هنرييت ، فلا يضعضع ذلك من عزم فيلامنت فتبعث فى طلب المأذون (المسجل) ؛ ولكن كريزال يصمم على رأيه فلا يتقهقر

الفصل الخامس : تسخر هنرييت من تريسوتين ، وتريده على أن يرفض زواجها ، وأبوها يرغى ويزبد موغر الصدر على أمها ، ويقول إنى أريد أن أعلمها كيف تعيش ، ولقد أرجعت مارتين إلى الخدمة على الرغم منها . وتدخل حينئذ فيلامنت وفى أثرها المأذون وتريسوتين ، ويصل الأمر فى العقد إلى تسمية الزوج فتقول الأم : تريسوتين . ويقول الأب : كليتاندر . فتغضب فيلامنت وتنتصر الخادم مارتين لسيدها فلا تزداد السيدة إلا عتواً وإصراراً . ويوشك كريزال أن يسلم الأمر إلى امرأته لولا أن يدخل أخوه أريست ، فيخبرهم بالكذب أن أسرتهم قد أفلست لخسرانها قضية كبيرة . فلم يكد يسمع تريسوتين النبأ حتى يدير لهم ظهره ويخرج فيظهر نفاقه وأثرته ، وينتهى الأمر بانتصار كريزال وتحقيق أمل كليتاندر .

يتبع

(الزيات)

الى الفردوسى

أتينـــا محتفلين

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

« ذهب شاعر الفراتين ممثلا للأدب العراق فى الاحتفال الالفى بالفردوسى ، فألقى على قبر الشاعر الخالد هذه القصيدة الخالدة »

١

أنت فى شعرٍ كان فتحاً مبينا   واحـدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا   بك يا فردوسىُّ محتفلينا
والى قبرك الذى فيـه تغفو   نحمل الوردَ الغضَّ والياسمينا
ولو ان الإحداثَ ألفى مساغا   جعل القوم حجَّ قبرك دينا
لك فى تأريخ الملوك كتابٌ   يحمل الوحىَ والهدى واليقينا
قمتَ فى نظمه ثلاثين عاما   ثم لم تسأم طولَ تلك السنينا
حزتَ حينا تَجِلَّةً واحتراما   وتألمتَ للمصائب حينا

٢

شاعرٌ أنت جامعٌ للمزايا   خالدٌ لا تدنو اليك المنايا
أنت فى دولة البيان بحقٍ   ملكٌ ذو عرشٍ ونحن الرعايا
جاء ماقد نظمتَه من كتاب   تحفةً فارسـيـةً للبرايا
ولقدأهديتَ الكتابَ الى مَن   لم يكن ذا علمٍ بقدر الهدايا
وألمّت بك الرزايا ولـكن   أنت ما كنتَ عابئاً بالرزايا
يا إمام القريض بعـدك فينا   نفد الشعرُ الجزل إلا بقايا
قد طلبنا التحريرَ للشعر حتى   كثرت فى الطِلاب منا الضحايا

٣

إن ماقد قصصتَه من حروب   سوف يبقى تأثيره فى القلوب
أنت شمسٌ لها البيان شعاعٌ   لم تمل فى طريقها للغروب
ما الإلياذةَ التى حـبّرتها   يدُ هوميرَ مثلُ ذا الأسلوب
تلك ليلٌ جهمٌ وهذا صباحٌ   مُسفِرٌ ما بوجهه من شحوب
كنتَ تمشى الى الامام حثيثا   بخطًى لم تخلق لغير الوثوب
يهتف اليوم الوافدون من الأقطار أفواجاً باسمك المحبوب
جلّ ماقد نظمتَه فى مزايا   الفارسيّين عن جميع العيوب

٤

أنت فى شعرك البليغ امام   فسلام عليك ثم سلام
حبذا ما نظمتَه من كتاب   أكبرتْه الشعوب والأقوام
أنت للشرق شاعرٌ عبقرىٌّ   تتغذّى بقوله الافهام
«لستُ أُدرى وليتنى كنتُ أُدرى»   أهو السحر أم هو الالهام
كنتَ للناس كوكباً ذا بهاء   أينما ألقى النورَ زال الظلام
فى رياض الآداب غرسُك يحكى   شجراً من أثماره الآلام
حُلُمًا كان ما أملتَ ولـكن   بعد ألفٍ قد صحّت الأحلام

٥

أنت يامَن بهرتَ بالشعر عينى   شاعرُ المشرقين والمغربين
أنت لو تُمسك الثريا بأيدٍ   شعراء ، أمسكتَها باليـدين
أنت مما تشعّه من ضياء   يملأ العين ، ثالثُ القمرين
ما كتاب الملوك إلاّ بلاغ   من أبي قاسمٍ الى المَلَوَين
كلما جئتُ منه أقرأ فصلا   أسبلت عينى فوقه دمعتين
تحفةٌ من بلاغـة وشعورٍ   قد جلَتْ مابخاطرى من رَين
جمعت بعد أن مضى ألفُ عامٍ   بينه لُحمةُ القريض وبينى

٦

إن ما ناله الردى من حياتك   لم ينله للعجز من كلماتك
أنت فى شعرك البليغ نبىٌّ   وكتابُ الملوك من معجزاتك
لك فيـه بلاغة أدهشتنا   أىّ روحٍ نفختَ فى أبياتك
كلُّ ما كنا قد نظمناه قبلاً   نظرةٌ فى الحياة من نظراتك
كل ما عندنا من النظم والنث   ر قبسناه من سنا آياتك
كل ما قد قلناه فى هذه الذ ك   رى ثناء عليك بعضُ صفاتك
قيل لى أنت فى حفيرٍ ولـكن   لم أجد فى الحفير غيرَ رفاتك

٧

قصّرت فى تقديرك الآباء   فتلافت ما فاتها الأبناء
بعد ألفٍ من السنين أقامت   لك نيروزاً امةٌ شمّاء
لك ياحجّة البلاغة شعرٌ   عجزت عن تقليده الشعراء
بمصابيح شعرك ازدانت الأر   ضُ كما ازدانت بالنجوم السماء
نمّقته يراعةٌ ذات حوْلٍ   وبه لوّحت يدٌ بيضاء
واذا ضيم الشاعر الحرّ يوماً   فى بلاد جلاه عنها الإباء
بعد آمالٍ كنّ فيك خيالاً   فاجأتك الحقيقةُ السوداء

٨

يا كتاب الملوك أنت كتابٌ … فيه للناس حكمةٌ وصواب
خلق الفردوسيُّ منك خضمّاً … فاض يرغو كما يفيض العُباب
بك للشرق ما اهتدى الشرق فخرٌ … بك للغرب ما ارتقى إعجاب
بك في أمّةٍ قد ازدادت الأخـ … ـلاق طيبا وازدانت الآداب
معجزاتٌ وراءها معجزاتٌ … آمنت إعجابا بها الالباب
إنما في الشعر الحقيقةُ أصلٌ … والخيالات كلها أثواب
وإذا أنكرَ النبوغَ على الشر … ق فريقٌ فأنت أنت الجواب

٩

الذي لم يقم به الغزْنويُّ … قام مستوفيا به البهلويّ
مَلِكٌ من ارق الملوك عظيم … لاسمه في سمع الزمان دويّ
ملكٌ بالسياستين خبير … وله فيهما الطريق السويّ
أخضع الأمّةَ العظيمة بالحسـ … ـنى فلله عطفُه الأبويّ
وإذا قوّة الارادة جلّت … جلّ فيهم تأثيرها المعنويّ
والذي لا يرى الحقيقة أعمى … والذي ينكر الرشاد غويّ
انما اليوم ليس يصلح للمُلْـ … ـك على وجه الأرض إلا القويّ

١٠

إنك السيف في يدِ الأيام … قد نضته للحرب أو للسلام
حاقنا للدماء بالمثل منهـا … في صدام الأقوام بالأقوام
في يديك القويّتين إذا الأمـرُ … دعا حقُّ النقض والابرام
وإذا ما بدأتَ يوما باصلا … حٍ جديد فالبدء للاتمام
حبذا إيرانُ وعمرانُ ايرا … نَ وما في بلادها من نظام
ولقد سرّني كما سرّ غيري … ما بها من نزاهة الاحكام
زرتُ بالأمس الروضَ أمتِع عيني … وإذا الورد فيه ذو أكمام

١١

أهلُ إيرانَ والحديث شجون … أمّةٌ ما بها يليق السكون
شأنها في التاريخ أكبرُ شأنٍ … حبذا في التاريخ تلك الشؤون
وعلى عين الشرق رانَ رقادٌ … دونه في غير الرجاء المنون
ثم أنحى ينبّه الشرقَ منه … مَلِكٌ حدُّ سيفه مسنون
إنه لما قام للمجد يدعو … شخصت عن بعدٍ اليه العيون
طار بالشعب كله للثريا … صاعداً لو يكون مالا يكون
سيعود المجد القديم لإيرا … نَ فتفضي الى اليقين الظنون

١٢

أيها الشعر إنك ابن شعوري … تغتذي من كآبتي وسروري
حاملاً ضحكةَ الذي عيشه كا … نَ رغيداً أو دمعةَ الموتور
سالما من ضعفٍ يريبك منه … خاليا من زوائد وقشور
ليس شعراً ما ليس فيه شعورٌ … لا يهيج الشعورَ غيرُ الشعور
واذا الشعر لم يهزّك منه … روعةٌ فهو جامدٌ كالقبور
إنما الشاعر الموفق يمشي … من خلودٍ على رقاب الدهور
مُعجَبٌ بالهزار كلُّ بني الأر … ض وان لم يكن سوى عصفور

جميل صدقي الزهاوي

شوقي أيضاً

قطعة كتبها الأستاذ البشرى صدراً لحديثه في الراديو عن ذكرى شوقي ، ثم بدا له أن يرتجل .

سيداتي سادتي :

في مثل هذا اليوم من عامين مضيا أذّن مؤذن أن البلبل قد سكت بعد طول سجعه وتغريده ، وأن الزهر قد ذبل بعد إشراقه وتوريده ، وأن النجم قد هوى فلم يعد يتألق ، وأن الغدير قد غاض وهيهات له بعد الآن أن يترقرق .

مات شوقي ، ولو كان شوقي كسائر الناس ما كان لموته جليلُ خطر . ولرب رجل يموت فلا يفرق المجموع بين موته وحياته . ولكن موت شوقي شيء آخر : أرأيتَ الى النهر اذا يَبِس ، والى المطر حين يحتبس ؟ وارحمتا للسارين اذا لحق النجمَ الغروب ، وقد تشعبت الطرق واختلفت رءوس الدروب !

لقد كان شوقي نعمةً من النعم العامة التي تفضّل الله بها على هذه البلاد ، بل التي تفضل بها على أبناء العربية جمعاء . فموته من المصائب العامة التي يحسّ خطرَها كل امرئ يقدر روعة الفكر ، ويحتفل لأبهى صور الجمال .

ولو ان الله تعالى بعث الشعور في مظاهر هذه الطبيعة وأقدرها

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

العلوم

٥ - بحث فى أصل الانسان

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

إذا قلنا إن الانسان يمتاز من سائر الحيوان بقواه العقلية وقدرته على التفكير الحر فيجب ألا ننسى حينئذ أن من أهم مميزات الانسان اعتدال قامته وعدم اعتماده على شيء عند المشى : لكننا مع ذلك لا نستطيع القول بأنه خلق كذلك ، لأن صغار القردة Antrepoids تكون ذات جسم معتدل تحمل جسمها وكل عضلاته فى صغرها على اتجاه عمودى ، إلا أن أقدامها لا تساعدها على البقاء كذلك فى سيرها ، ولا يمكن لجسمها الاحتفاظ بتوازنه عليها ، لأنها لا زالت تعد وتستعمل أداة للقبض ، فانفرج ما بين أصابعها لهذا الغرض ، بعكس الجنس الانسانى الذى تطورت حالة قدميه ، فصار فى طاقته المشى عليهما وحدهما دون الاعتماد على يديه

هنالك أجزاء ثلاثة : وهى القدم وعظام الفخذ والسلسلة الفقرية ، وقد كان فى تطورها والتغيرات التى حدثت بها أكبر مساعد على اعتدال قامة الانسان وقدرته على المشى وحده . ولذلك يمكننا أن نحكم على أى مخلوق بالدرجة التى وصل اليها مقترباً من الانسانية أو مبتعداً عنها بمجرد فحص عظمة فخذ أو عظمة من عظامه المتحجرة .

كيف وقف انساه جاوة

إذا نحن دققنا البحث فى عظمة فخذ إنسان جاوة وهى الأثر الذى تركه ، نجدها طويلة دقيقة إنسانية فى كل شيء ، تدلنا على أن ذلك الانسان أو المخلوق الذى صارت هى بقيته الباقية ، لا بد وأنه كان يسير مستقيم الظهر يعرف الجرى والقفز . . . حقيقة هنالك بعض اختلافات فى تكوين وشكل هذه العظام المتحجرة إلا أن هذه الاختلافات لا تبعدها عن كونها إنسانية ولا تقربها بأى حال من الأحوال من شكل عظم فخذ القردة . وبرغم أوجه الشبه بين الانسان القرد والقرد فانه كان انساناً . ومن شكل وطول عظمة الفخذ هذه يمكننا أن نصور إنسان جاوة

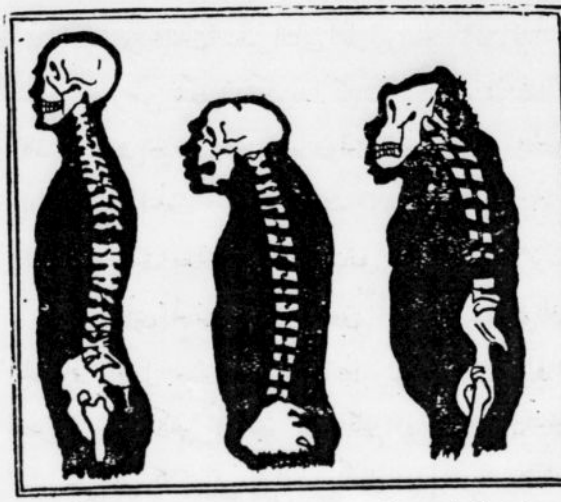
على النطق ، لشارك فى إحياء ذكرى شوقى البحرُ الخضمّ ، والجبلُ الأشمّ ، والفلك الدائر ، والنجم المختلج الحائر ، والعود اذا أورق ، والزهر اذا نوّر وأشرق ، ولاجتمعت لمأتمه كل سَجوع من بنات الهديل ، يقمن عليه المناحات بأحدّ النواح وأحر العويل . فلقد طالما أضحك وسرّى ، ولقد طالما أطرب وأشجى ، ولكم جلا من صور الطبيعة فأجاد وأحكم ، وأنطق الصخر فى مرسخه لو كان الصخر يتكلم ، ولكم لاغى الطير غادية ورائحة ، ولكم لاعب الغزلان شاردة وسانحة ، ولكم داعب الغصن حتى تثنى خصره ، وغازل الزهر حتى تنفس بهواه أرجه وعطره :

شوقى لم يمت ، ومثل شوقى لا يموت أبدا ، بل إنه ليزداد حياةً على تطاول الأجيال . هذا شوقى حى أقوى الحياة فى بيانه القوى ، وسيظل هذا البيانُ الشرعَ العذب النمير ينهل منه بنو العروبة ما قدّرت للعربية فى هذه الدنيا حياة .

سيداتى ، سادتى :

وافقت ليلة حديثى ذكرى وفاة أمير الشعراء . ولابد من أن أقول فيه كلاماً ، ولكن كيف لى بهذا الكلام ، وقد جئت الليلة الى المحطة وأنا متداع متهدم من أثر المرض ، هذا فضلا عن أننى لا أذكر أننى كتبت فى إنسان مثل ما كتبت فى شوقى . فلقد جلوت له من ثمانى سنوات (مرآة) عريضة فى السياسة الأسبوعية ، وحللت تاريخه وشخصيته وشاعريته فى كتاب المفصل المقرر للسنين الأخيرة فى التعليم الثانوى . وكتبت فيه هذه الأيام كلاماً كثيراً سينشر هذا الأسبوع فى مجلة «الرسالة» بمناسبة هذه الذكرى أيضاً ، فلم يبق لى مع هذه الأحوال طاقة بتجديد فيه الآن ، فأرجوكم أن تعذرونى إذا حدثتكم بعد هذا بنبذ مما سبق به القول ، أقتبسها من هنا ومن هنا ، ولعلها تجلو شوقى على من لم يدرسه بعض الجلاء . عبد العزيز البشرى

بأنه كان نحيفاً تبلغ قامته ٥ أقدام و ٩ بوصات ، وأنه كان معتدلها يمشى كما نمشى نحن الآن تماماً .



شكل (٧) الى اليمين عظام قرد ، ومنهـا يلاحظ ان العظام مركبة بحيث تسمح بالانتصاب عند الحاجة ، أما هذه التى الى اليسار فانها فقرات انسان بها ثلاث انحناءات وهذه ميزة خاصة به لانها تمكنه من الانتصاب الدائم ، وأما الوسطى وهى الخاصة بانسان النياندرتال فوسط بين الاثنين

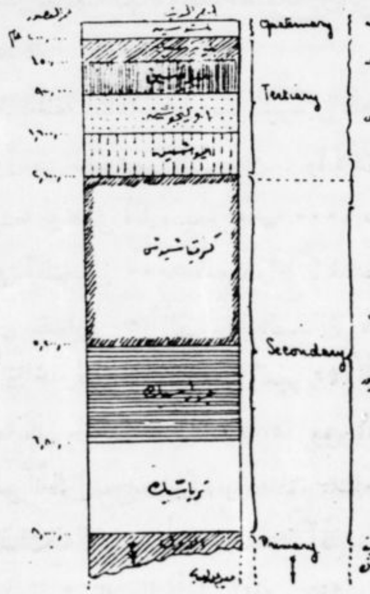
(نقلا عن رسم البروفسور بول)

وهنا يمكننا أن نقول بكل ثقة إن الانسان قد اكتسب هذا الاعتدال فى القامة والمشى قبل نهاية عصر البليوسين ، وإننا إذا أردنا البحث عن حاله قبل ذلك فانه يجب علينا حينئذ أن نتوغل فى عصر جيولوجى أقدم من ذلك بكثير ، ولكن قبل أن نتقدم بذلك يحسن بنا أن نذكرك بالحقيقة الهامة وهى أن الانسان قد اكتسب قوامه المعتدل قبل اكتسابه قواه الفكرية كانسان ، وانه قد ظل مطبوعاً بطابع القردة فى شكل الفك والجمجمة حتى نهاية عصر البليوسين ، وبدء عصر البلستوسين .

وبواسطة تلك الآثار والمخلفات التى وجدناها فى المقابر والكهوف ومدرجات الأنهار ، أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان الى عصور سحيقة من عصور التاريخ متناهية فى القدم . وعند ما أردنا البحث فى ذلك بدأنا البحث فى بقايا العصور الحديثة ، ومنها تعمقنا الى ما هو أقدم منها ، وطريقنا فى ذلك سهلة للغاية ، فاننا نبدأ بالمعلوم كى نصل الى المجهول ، وبالظاهر حتى نكشف عن الخفى ، ولذلك فانه بفضل تلك الأدوات والمخلفات الصخرية القديمة قد أمكننا أن نتتبع تاريخ الانسان فى عصر البلستوسين ، ومنه تدرجنا الى البليوسين .

جولة فى عصر ذرات الثدى «العصر الثالث» Tertiary

لذلك سوف نتعمق فى أبحاثنا نحو عصر من العصور القديمة جداً ، هو العصر الثالث أو الـ Tertiary . ولكن قبل أن نخوض غمار ذلك البحث نجد لزاماً علينا نحو القارىء الكريم أن نعطيه فكرة عن ذلك العصر الذى ذكرناه .



شكل (٨) نقلا عن رسم السير أرثر كيث ومنه يظهر تتابع العصور الجيولوجية وتتابع الحياة وعمرها

لا زلنا نذكر أننا قد أعطينا فى مقال سابق تحت عنوان مقال اليوم مقياساً تقـديرياً لعصور الكهوف ومدرجات الأنهار وتتابع الطبقات وأعمارها فى كل منهما ، وسنجد أنفسنا مضطرين لأن نفعل ذلك فى ذلك العصر الذى نحن بصدده الآن .

من الشكل «٨» يمكنك أن ترى تتابع عصر البلستوسين لعصر البليوسين ، وهذان العصران يفصلهما حد زمنى له أهمية فى هذا المجال لأنه عند تخطى عصر البليوسين للعصر الذى يتبعه نجد اختلافا كبيراً فى شكل الحيوانات الثديية الموجودة به ، ولذلك فان علماء الجيولوجيا يعتبرون عصر البلستوسين أول مجموعة من المجاميع التى تكون حلقات تاريخ الأرض وتاريخ الانسان الذى سكنها ، وقد وضع لهذه المجموعة اسم quaternary وهى تبدأ بعصر البلستوسين وتنتهى حينما تراجع الخط الجليدى الى الدائرة القطبية

أما الحلقة الثانية فقد بدأت (على قول العلماء) بعد ذلك بنحو عشرة أو اثنى عشر ألف سنة ، وفى إبانها أخذت

الانسانية تظهر بمظهرها الحديث ، ويبدأ الانسان باعداد نفسه بصقل مواهبه وقواه الفكرية ، ليغزو العالم ويسيطر على عرشه الذى قد أعده الله له .

أما عصر البـليوسين وهو الذى يقع فى الجانب الآخر من هذا الفاصل فهو الرابع والأخير لمجموعة تكون إحدى حلقات السلسلة التى تكلمنا عنها ، وهذه المجموعة هى التى أطلق عليها العلماء اسم Tertiary

وأما الحلقة الثالثة وهى عصر الميوسين Miocene فانها تشمل مدة أطول من مدة عصر البليوسين . ولما كانت الطبقات التى تدل عليـه وتحمل آثاره يبلغ سمكها ٩٠٠٠ قدم ، بينما طبقات البليوسين لم تتجاوز ٥٠٠٠ قدم ، واذا كنا قد قدرنا عمراً لعصر البليوسين مقداره ٢٥٠ ألف سنة بالنسبة إلى سمك طبقاته ، فاننا لا نغالى إذا قدرنا لهذا العصر من العمر ٤٥٠ ألف سنة .

وأما ثانى حلقات عصر الـ Tertiary وهو الأوليجوسين فانها تغمر عصراً أطول من سابقتها ، وقد بلغ سمك طبقاتها ١٢ ألف قدم ، ولذلك فانه لا يسعنا أن نقدر لها عمراً أقل من ٦٠٠ ألف سنة .

نصل بعـد ذلك إلى أولى وأقدم حلقات هذا العصر وهى الأيوسين ونقدر لها عمراً ٦٠٠ ألف سنة أخرى وذلك بالنسبة إلى سمك طبقاتها التى تساوى أو تقارب سمك الحلقة السابقة .

هذه هى الحلقات التى يتكون منها العصر المسمى Tertiary وهى فى الدرجة الأولى من الأهمية فى تطور الانسان . إذ أنها تشمل فجر نشوء الحيوانات آكلة الخضروات ، وهى التى ترضع صغارها ، وهى كلها من ذوات الرحم عدا أنواع قلائل يمكن استثناؤها . وفى فجر هذا العصر بدأت ذوات الثـدى فى تغيير شكلها وتكوينها تغيراً كبيراً ، وتغلبت فى تنازعها البقـاء والصلاحية على باقى الحيوانات الزاحفة القديمة .

ولما كان الانسان من ذوات الثدى ، فان من العبث أن ننتقل الى عصر آخر أقدم من هذا لنبحث عن نشأة الانسان ، لأن العصر الذى يلى ذلك لايشمل إلا كل زاحف . ومن الشكل (٨) نرى أن العصر الثانى وهو الشامل لعصر ذوات الثدى يمتد لفترة طويلة جداً قد يبلغ مقـدارها نحو ٦ ملايين سنة كما يقول العلماء ، وإنى لا أريد أن يتبادر الى ذهنك أنه عنـد الحد الفاصل بين العصرين قد حلت ذوات الثدى محل الزواحف دفعة واحدة ، أو أن الأخيرة صارت من الأولى بتغيير سريع فجائى ، لأن هذا التغير يلزمه وقت طويل مع بطء وتدرج ، وقد وجد من حفائر العلماء فى طبقات العصر الثانى آثار لزواحف كانت قد أخذت تتغير وتتطور من شكلها وتكوينها كى تتناسب مع الوسط الذى كانت ستعيش فيه ، وهو وسط ذوات الثدى ولتصير إحداها ، وأن هذه الزواحف قد أخذت تتغير وتتشكل حتى نهاية هذا العصر واتسمت بسمات خاصة ميزتها فى أوائل عصر الايوسين

ولست أرى أية ضرورة لأن أتعمق أكثر من هذا الى العصر الجيولوجى الأول حيث تظهر قوة التطور فى الأسماك والحيوانات البحرية حتى أمكنها أن تغير من شكلها فى أواخره وتستطيع العيش على البر كما تعيش فى البحر فأطلق عليها اسم Amphibians برمائية

والآن وقد تكلمنا عن العصور الجيولوجية ، وأعطيناك من المعلومات عنها ما فيه الكفاية ، نعود بك إلى بحثنا الأصلى وهو أصل الانسان .

عندما تتبعنا آثار الانسان القديم فى الطبقات الجيولوجيـة القديمة فى شرقى انجليا أمكننا الوصول والتعمق بأبحاثنا الى ما نريد بواسطة ما قد وجدناه من آثاره وأدواته الصخرية المتحجرة الى وسط عصر البليوسين ، وقد توصلنا بعـد ذلك الى الكشف عن بقايا مخلوق آخر أسميناه إنسان جاوه واعتبرناه أنموذجا للكائن الذى كان يسكن هاته الجزيرة فى ذلك العصر . وعرفنا أنه كان شبيهاً بالقردة فى شكل الجمجمة فقيراً الى تلافيف المخ ، قليل الادراك والتفكير ، لكننا مع ذلك عرفنا أنه كان إنساناً فى مشيته واعتدال قامته .

ولذلك كان واضحاً جلياً أن يعمد العلماء إلى التعمق فى بحثهم فى عصر أقدم من ذلك العصر بكثير حين تطور الانسان شكلاً وعقلاً من حال القردة . ومع أنه لم يوجد أى أثر لهذه الحلقة فى التطور الانسانى فى أى طبقة من طبقات الأرض ، وذلك ما جعل العلماء فى حيرة من أمرها ، فقد وجد فى الطبقات الأولى من عصر البليوسين ما ساعدهم على كشف سر هـذا التطور والوصول الى حلقتهم المفقودة .

يتبع نعيم على راغب

البريد الأدبي

مؤتمر الكتاب السوفييت

وسير الأدب الروسي الحديث

عقد أخيراً مؤتمر الكتاب السوفيتيين (الروسيين البلاشفة) فى موسكو ، فشهده زهاء ستمائة كاتب من مختلف الجمهوريات السوفيتيةمثل : اليوكرين ، والقوقاز ، وبلاد الكرج ، والتركمان ، والغرغيز ، ثم روسيا ذاتها ؛ وهم يمثلون اثنتين وخمسين أمة مختلفة هى أمم الاتحاد السوفيتى ، واثنتين وخمسين لغة وآدابا مختلفة ؛ وشهده أيضاً جمهور كبير من كتاب الأمم الأخرى والصحفيين من مختلف البلدان ؛ وألقى أعلام الأدب الروسى المعاصر مثل جوركى ، وبوخارين ، وإيڤانوف ، وبابل ، وايرنبورج ، واسكندر تولستوى ، خطباً ضافية فى وصف الروح الجديدة التى تسيطر على التفكير الروسى ، وهى روح الحقيقة الاشتراكية . وخطب فى جمهور الشباب الذين شهدوا المؤتمر الكاتب الفنان أوليخا ، فتساءل عن الجيل الروسى الجديد ماهو ؟ وماذا يغلب فى توجيهه ، أهى العاطفة أم العقل ؟ وهل هو حساس يفيض حناناً ودمعاً ؟ وماذا يشعر نحو المجتمع الأشتراكى الذى خلقه ورعاه ؟ وكان من المناظر الشائقة أن خطبت صبية سيبيرية فى الرابعة عشرة من عمرها ؛ فتحدثت عن أمانى الشباب نحو الأدب ، وطالبت الكتاب الروس بمضاعفة نشاطهم فى إخراج الكتب التى يحتاج اليها الشباب ، ثم نوهت بما يلاقى الأطفال من رعاية فى روسيا ، وبأنهم ينعمون بما لا ينعم به الأطفال فى أى بلاد أخرى من بلاد العالم .

وقد ساد فى المؤتمر على ما يصفه كاتب مشاهد ، جو من الحرية والصراحة والاخلاص قلما يبدو فى المؤتمرات العامة ، وألقيت فيه الآراء المضمرة والظاهرة بحرية لم يحدها شىء ؛ ولم يحجم الكتاب الضيوف عن إبداء آرائهم بمنتهى الصراحة ؛ وتولى الرد عليهم أقطاب التفكير البلشفى مثل بوخارين وكارل رادك ؛ وكان الجدل برغم احتدامه يطبعه كثير من الصراحة والولاء .

ونقول بهذه المناسبة إن الفن والآداب الروسية لم تتأثر بالموجة البلشفية الهدامة بل ازدهرت فى عهد الحكم السوفيتى ، وعنى البلاشفة دائماً برعايتها وتشجيعها . ذلك لأن أقطاب البلاشفة كانوا كتاباً وأدباء قبل كل شىء . والاشتراكية تقوم على توجيه الفكر وتغذيته بالأدب والفن ؛ وفى روسيا الآن نهضة أدبية وفنية تضارع أعظم النهضات المماثلة فى البلاد الأخرى . وبزغ فجر النهضة الأدبية الروسية المعاصرة منذ سنة ١٩١٩ بعد أن خمدت الحركة الأدبية مدى عامين كانت روسيا تضطرم فيهما بنار الثورة والحرب الأهليـــة . وظهرت الروايات والقصص الأولى المطبوعة بروح الاشتراكية سنة ١٩٢٠ ؛ وبدأ الكتاب القدماء باتخاذ أساليب وصور جديدة تناسب الروح والأحوال الجديدة . وفى وسعك أن تتبع مراحل البلشفية والمجتمع الجديدخلال الكتب . ففى المرحلة الأولى كانت المبادئ الثورية والاقتصادية الجديدة تطبع الأدب بطابع عميق ؛ ولما تطورت البلشفية ، وأبيحت الملكية الخاصة فى حدود معينة ، وظهر مجتمع « بورجوازى » جديد ، ظهرت الميول «البورجوازية» مرةأخرى فى الأدب الروسى ولكن بصورة مخففة . ونشبت هنا معركة بين الأدب الشيوعى المتطرف ، والأدب المعتدل ، وعاونت الحكومة دعاة التطرف فى هذه المعركة ؛ وسيطر الجناح الشيوعى على التوجيه الأدبى ، وعاق بذلك تقدم الحركة الأدبية . ولكن مهمة الجناح الشيوعى الأدبيـــة انتهت بتغلب السياسة الاقتصادية الجديدة . وفى ابريل سنة ١٩٣٢ أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى حل جميع الجمعيات الأدبية ، ومنها جماعة الحزب نفسه ؛ وأعلنت إنشاء هيئة واحدة تضم كتاب الاتحاد السوفيتى جميعاً ؛ واستمرت الهيئة الجديدة فى طور الانشاء مدى عامين ؛ وهذا المؤتمر هو أول مؤتمراتها .

المناعة ضد الحمى الصفراء

اكتشاف طبى جليل

قدمت أخيراً إلى أكاديمية العلوم الفرنسية مذكرة باكتشاف طبى خطير ، هو مصل جديد لمقاومة الحمى الصفراء . والحمى الصفراء من الأمراض الوبائية التى تجتاح المناطق الحارة فى

أفريقية وأمريكا الجنوبية، وتحدث من لدغ البعوض الذى يحمل ميكروبها، وهو المعروف فى اللغة العلمية Stegomuya fasciata وقد وفق إلى هذا الاكتشاف الجليل الدكتور ليجريه من أطباء معهد باستور فى تونس، والدكتور سيلاردس الأمريكى، ومذ اكتشف البعوض الذى يحمل الميكروب كانت مقاومة الحمى الصفراء تجرى بواسطة اتلافه فى المدن الاستوائية الكبرى مثل ريودى جانيرو وهافانا وثغور أفريقية الغربية، ولكنه كان فى الداخل يعصف بالسكان شر عصف. فعكف العالمان المذكوران على إجراء البحث لاكتشاف مصل يفيد فى المناعة ضد الميكروب ويقى الانسان نهائياً شر هذا البعوض الفتاك، وتوصلا إلى اكتشافه عن طريق القرد والجرذ. ذلك أن ميكروب هذا البعوض لا تمكن رؤيته بالميكروسكوب؛ وهو شديد الفتك بالقردة، ولكنه لا يؤذى الجرذان إلا إذا كانت الاصابة فى المخ، فعندئذ يتحول فعل الميكروب ويغدو شديد الفتك بها، وقد لقح العالمان المذكوران الجرذ فى المخ بدم البعوض، ثم استخرجا « الفيروس » (الميكروب) من الجرذ ولقحا به القردة فلم يؤثر فيها. ومن هنا نشأت فكرة المصل الواقى، وقد لقى الدكتور ليجريه صعاباً كثيرة، ومنع من اجراء تجاربه فى البشر فى معهد باستور، ولكنه استطاع أن يجربها فى ثلاثة من التونسيين تطوعوا لذلك، فجاءت النتائج العملية تؤيد اكتشافه. فانتقل إلى أفريقية الغربية، وفاوض السلطات فى دكار حتى سمحت له بتلقيح ثلاثة آلاف أوربى بالمصل الجديد؛ وكانت النتيجة باهرة، لأن ألفين لم يحدث لهم شئ؛ وأصيب الألف الباقى بشىء من رد الفعل والحمى اليسيرة؛ وكانت مناعة الذين لُقّحوا تامة ضد البعوض المعدى؛ وتأيدت بذلك صحة الاكتشاف وخطورته، وقدم بذلك مذكرة إلى أكادمية العلوم لتتوجه بصفة رسمية.

ويجرى اللقاح المذكور على ثلاث دفعات بين كل منها عشرون يوماً، وتؤخذ مادته من ميكروب الجرذان الحى، ويمكن تجفيفه وتصديره إلى الجهات الحارة دون أن يفقد خواصه.

ولا ريب أن سيكون لهذا الاكتشاف أثر عظيم فى مكافحة الحمى الصفراء وانقاذ الملايين من فتكها الذريع.

مؤرخ مسرحى

توفى فى أوائل هذا الشهر أديب ومؤرخ فرنسى كبير هو فيلكس جاف، أستاذ الآداب بالسوربون، وكان مولده فى سنة ١٨٧٤. وقد بدأ بتدريس النحو وفقه اللغة فى السوربون؛ ولكنه شغف بالموسيقى والمسرح والفن؛ وعنى عناية خاصة بدرس تاريخ الفن والمسرح؛ وأصدر فى سنة ١٩١٠ أول كتاب جامع عن « الدرامة »، وعنوانه « الدرامة فى فرنسا » Drame en France؛ ثم أصدر كتاباً عن « المتناقضات فى عصر لويس الرابع عشر » وشغل كرسى « تاريخ الأدب المسرحى » فى كلية باريس أعواماً طويلة، وكان حجة فى كل ما يتعلق بهذا النوع من الأدب.

ذكرى أناتول فرانس

كان يوم ١٢ أكتوبر الجارى هو الذكرى العاشرة لوفاة كاتب فرنسا الأكبر أناتول فرنس. وبهذه المناسبة عنيت جمعية تخليد ذكرى أناتول فرانس التى يرأسها الكاتب الكبير جول رومان بوضع لوحة تذكارية فى قرية بشيليرى التى قضى فيها فرانس أعوامه العشرة الأخيرة، وتوفى فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤، واحتفل بوضع هذه اللوحة فى جمع حافل من أصدقاء الكاتب الكبير والمعجبين به. وهى خطوة من خطوات تزمع الجمعية اتخاذها لتخليد ذكراه.

قبر سيرانودى برجراك

للفرنسيين ولع شديد باكتشاف قبور عظمائهم التى طمست وغمرها النسيان، وفى فرنسا جمعيات أثرية كثيرة تعنى بالعمل فى هذا السبيل. ومنذ أعوام قلائل استطاعت إحدى هذه الجمعيات أن تعثر بقبر الفيلسوف ڤولتير ورفاته تحت أقبية الكنيسة التى تذكر الرواية أنه دفن بها. ومنذ أشهر اكتشفت جمعية أخرى قبر الشاعر رونسار فى بلدته التى دفن بها؛ وقد قرأنا أخيراً أن جماعة أثرية أخرى تعنى باكتشاف قبر « سيرانودى برجراك » وهو السيد الذى خلد روستان اسمه فى روايته الشهيرة. والمعروف أن سيرانو حينما اشتد عليه المرض غادر باريس فى سنة ١٦٦٥ إلى بلدته الأصلية « سانوا » ومات هنالك، ولا يزال اسمه مسجلاً فى دفتر الوفيات بكنيسة القرية المذكورة. وقد أجريت مباحث فى السهل الذى يوصف بأنه دفن فيه فى ظاهر القرية. واكتشف بالفعل هيكل عظمى ظن بادئ بدء أنه هيكل سيرانو، ولكن ظهر من فحصه أن عظامه دقيقة كأنما هى عظام امرأة أوفتى لم يكتمل أطوار النمو. ولكن الباحثين لم ييأسوا، ولا زال البحث يجرى لاكتشاف رفات سيرانو ذى الأنف الضخم.

النقد

٢ – أصدقائى الشعراء !

هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

وعندى أن السر فى أن شعر على محمود طه المهندس قد نال شيئاً من التقدير والثناء مرجعه لأجادة الصنعة والصقل ، ولو أن مواده هى الأخرى تافهة بدائيـة المعنى ، غير صادقة ، يعوزها الشعور الفردى القوى ، والنظر الأصيل الواحد .

ثم لأن العرف الدارج والعقل الشعبى قد تعود أن يقرن الشعر بمظاهر الطبيعة المعروفة . فيقول الناس عن ليلة مقمرة : إنها ليلة شعرية ، أو عن روضة فيحاء : إنها تبعث على النشوة والسرور ، وإنهما لكذلك . غير أن الشاعر الذى لا يتعدى فى نغمه ووعيه الشعرى سوى ترديد ما تواضع عليه الناس وأقروا به ، إنما يدل على أن المحاكاة والتقليد والعرف الدارج هى أميز خواص فكره ، وأخص ميادين لعبه الفكرى .

وعلى محمود طه يكتب عن الطبيعة ويستوحى النهر والبحر والغدير والقمر والأشباح والرياض والشفق ، ويفهم أن «الطبيعة» التى يجدر بأن تنظم شعراً هى الطبيعة فى أضخم مظاهرها وأعظمها ، وأوقعها فى الحس ، وأشدها رائحة ، وأهولها منظراً ؛ وهو لا يفهم هذا الفهم ويتجه اليـه لأن مزاجه هكذا ، ولكن لأن هذه الأشياء قد كثرت فى الشعر وأصبحت معروفة معترفاً بها على أنها تصلح موضوعاً للشعر ، ولو لم يحس الأديب تجاهها بأى شعور غريب أو نظر حديث .

وبديهى أن الشاعر المعاصر الذى لا يلتفت فى عالم الطبيعة إلا الى المظاهر التى التفت اليها خلافه من عهد آدم ، يدل أولاً على أن تقدمه الذهنى وقف هناك ، وأن وعيه الفنى لم يتطور ؛ ففى الطبيعة خلاف البحر الذى يقف عنده القروى ، وفى الطبيعة خلاف الشواطئ التى تقف عندها سفن البحارة ، أشياء أخرى أدق وربما كانت ألصق بحياتنا وأجدر بالتفات الشاعر . فالحجر الصلد الذى يقف فى طريقك ، و « الشارع » الذى تصقله مصلحة التنظيم حيث يعمل جماعة المهندسين ، والفأر الهارب من سفينة خربة ، والذباب الذى يطن على جيفة عفنة ، وقطعة الحديد التى أكلها الصدأ ، والخشب الذى نأكل عليه ، والزرع الذى نلبسه ثيابا ، والعصفور الوحيد الذى ينتقل من بيت لآخر ، والنمل ، والنحل ، وصوت الباخرة ، وضجيج الترام ، وخلافها من المظاهر التى نراها ونسمعها فى غدونا ورواحنا هى أجزاء حية فى الطبيعة ، والالتفات اليها فى وضع جديد أتى به نظام حياتنا الراهنة وحضارتنا المعاصرة ، لأدلّ على فهم الطبيعـة من آلاف القصائد عن البحر والشفق والنجوم ! .

ويجب ألاّ يفهم من هذا أننا ننكر على الشاعر أن يعنى بمظاهر الطبيعة الكبرى البدائية الجميلة أو المتوحشة ، ولكن هنا يقل الابداع ، ولا يسلم الشاعر من الاسفاف والتفاهة ، إلا اذا كان عملاقاً عظيم النظر فريد الشاعرية ؛ كما أننا لا ننكر الالتفات الى « المظاهر الرومانتيكية » التى يولع بها المهندس ، ولكن هذا الالتفات وهذه العناية « بالربيعيات » يسهل فيه الغش ، وتندر به الاجادة والتفرد ؛ وهو أقرب طريق يلجه الأديب القليل الحيلة ، المقلد الأسلوب ، الذى لا تميزه شارة ، ولا يستشف فى تكوينه إصالة نظر أو عمق تفكير .

وكثير من شعراء أوربا المعاصرين اقتربوا من الموضوعات الرومانتيكية بأسلوب جديد ، فبدلاً من الحديث عن سحرها وخوفها وهولها ، تراهم يحاولون تفسيرها والنظر اليها من خلال شعور وعقلية رأت وسمعت وقرأت ما يجعلها تنظر الى هذا الجمال والهول والخوف من زوايا جديدة ليس فيها ذلك الجهل الناطق .

فان كل شيء لا يعرفه الانسان يبدو له سراً تحار فيه الأذهان، ولو كان من أبسط البسائط!

فالقروى الذى يزور القاهرة لأول مرة ويشاهد «المصعد الكهربائى» لا يمكنه إلا أن يذكر الله والأسرار، وتتملكه الحيرة والعجب، فاذا حاول مثل هذا الرجل أن ينظم قصيدة عن «المصعد» فقد تروق لأمثاله الذين لا يعرفون الميكانيكيات «وقوانين الطبيعيات». ولكن القارئ المتحضر لا يستطيع قراءة قصيدة تنسب الى هذا المصعد أهوال الجن وعمل الشياطين!

فالثقافة ووعى العصر الذى نعيش فيه لابد منهما لأى فنان يكتب ليقرأه الجيل الذى يعيش بينه، وذلك لأن الشاعر المصرى المعاصر لايعيش فى «شبره» أو «ديوان حكومى»، ولكنه قبل ذلك إنسان حى يعيش فى كل العالم، ويحس ببعض ما يدفع بالنفوس الآدمية الى مناجاة النفس مثلاً فى روسيا، أو الحركة والعمل فى أسبانيا واليابان. والذى يستطيع أن يرى فى شارع عماد الدين مثلاً وجوهاً وأجساماً وثياباً وآلات كاملة الصنعة مصقولة المظهر، يخبر مظهرها عن السكون والاطمئنان، غير أنها تفتح عوالم داخلية مروعة. وبالاختصار فان الفنان الذى لم يحس بقبس أو لمحة أو ناحية من «تيار وعى Stream of consciousness» كامل يمكنه من رؤية التشابه فى أشياء، ومظاهر بادية الاختلاف، أو بالعناصر والقوى والفكر التى تذهب جميعاً لاخراج فكرة أو مظهر عادى مما نراه فى حياتنا اليومية؛ ليس لديه تلك الملكة الشاعرة التى تستطيع أن تبنى القصور من الرماد والهواء، أو تحلل السيارة الجيدة الصنع، الجميلة المظهر الى عناصر حلم وغفوة إنسان وعصب حيوان، أو فقرات مادة سنجابية وجرح عامل فقير، ليس له ذلك الاحساس النافذ القدير على التكوين والتحليل، الذى يجبر القارئ على الانصات له والاستماع لنغمه الشعرى.

وإنى لأعجب كيف يعجب أى قارئ له حظ من الثقافة ودقة الحس بكلام مثل هذا:

رب ليل مر أمضيناه ضماً وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمراً تتساقى
فى طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه، وصفا الجو وراقا

فاذا كان هنالك حب وضم وعناق، وزهر وبدر وجو رائق، فالانسان العادى ليس به حاجة ليحس بنشوة آدمية حسية من غير أن ينظم له هذا الكلام شعراً. وإن أى افريقى فى أدغال أفريقيا، حينما يصفو الجو، وينمو الزهر، ويشرق البدر، ويحب امرأة يستطيع أن يقول هذا الكلام.

وعند على محمود طه أيضاً شعور غير محمود بأنه شاعر، ذلك لأنه قد ضم كل الشعريات وأحصاها فى ديوانه. فقصيدة ميلاد شاعر مثلاً كلها تمجيد لهذا الرجل الذى يحسب نفسه شاعراً، لأن لفظة الشعر والشاعر والزهور والألحان تكثر فى كلامه.

والرجل الذى يستطيع أن يكتب — بعد معرفتنا الحاضرة وشعورنا المحدود الذى أتاحه لنا العلم والبحث العصرى مثل هذه الأبيات الآتية، إنما أحسده لبساطته التى لاتحسد.

وتجلى الصدى الهتوف الساحر ... فى محيط من الأشعة غامر
وسكون يبث فى الكون روعاً ... وقفت عنده الليالى الدوائر (كذا)
واستكان الوجود والتفت الدهر ... وأصغت الى صداه المقادر (كذا)

وقد يتورط محمود طه فى غرامه «بالشعريات» برسمه صوراً مضحكة إذا لم تكن مستحيلة كقوله:

ماؤه ذوب خمرة وسنا شم ... س وريا ورد وألحان طائر

وعنده اذا لم يجعل هذا الماء ذوب خمر وسنا شمس وريا ورد وألحان طائر فى آن واحد فهو ليس بشاعر. وأى منطق يستطيع أن يفهم شيئاً يكون سنا شمس محرقة، وريا ورد، ثم يكون فى نفس الوقت صوت طائر؟!. اللهم إن هذا خلط قبيح لا نرضاه لصديقنا الشاعر.

وليس أدل على فهم شاعرنا لطبيعة الشعر من قوله فى رثاء شاعر:

وهو شعر صورت ألوانه ... بهجة الفجر وأحزان الشفق
ونشيد مثلت ألحانه ... همسات النجم فى أذن الغسق.

وفى قصيدة «الله والشاعر» بساطة مؤلمة فى أن يأمر أديب الأرض بأن:

مدى لعينيه الرحاب الفساح ... ورقرق الأضواء فى جفنه
وامسكى يا أرض عصف الرياح ... والراعد المغضب فى أذنه

فهذا كلام لا يشرف أى طالب فى مدرسة ثانوية، فضلا عن شاعر عصرى. والقصيدة ملأى بهذه الأشياء التى تواضع

البسطاء على أنها الطبيعة التى لا طبيعة غيرها .

من بهر دافق سلسبيل تهفو القمارى حول شاديه
فى ضفتيه باسقات النخيل ترعى الشياه تحتها غانيه

فاذا كان هذا النهر ملحاً مثلا ، وكانت هنالك ضفادع على حوافيه ، وأحجار تدمى الأقدام بدلا من النخيل ، فليس هنالك طبيعة تجدر بالشاعر والشعر ! :

حتى إذا شارف ظل الشجر فى روضة غناء ريا الأديم
قد ضحكت للنور فيها الزهر وصفقت أوراقها للنسيم

فهذا الشاعر لا يكفيه أن تكون هنالك روضة غناء ريا الأديم ولـكن لا بد أن يضحك الزهر ويصفق النسيم لأول مرة !

أما المسائل الفكرية التى أثارها الشاعر فى حواره مع الله فهى أول ما يقرأ الطالب فى العلوم الدينية فى باب القضاء والقدر . إن مسألة الأثم والشر لا يعالجها فنان عارف بمثل هذه البساطة

وفى قصيدة «قيثارتى» مثل قوى لهذه النزعة نحو «الشعريات» التى حاولنا إيضاحها ، وهذه هى أواخر الأبيات من غير تحوير ولا مبالغة ، ولو أنها أشبه بالمبالغة والتحوير :

الغور والآكام . الشعر والالهام . مودتى وذمامى — قديم هيامى . قلبى الدامى . دمعى الهامى . حبيسة الأنغام .

إن مثـل هذا الشعر ليوحى الى القارىء الدقيق الحس كراهة الآكام والزهور والبحار والأنغام وما إليها لهذه النغمة المبتذلة، الـكثيرة التكرار ، التى لا تحس معها بواقعة حال صحيحة ، أو شعور نضر مباشر !

وإنمـا أتينا بهذه الاستشهادات لنـدل القارىء على أننا لا نتعسف ، وإلا فان الديوان كله يَصح أن يستشهد به ، فما يخرج فى الفاظه ومعانيه عن هذه الألفاظ والأمثلة والمعانى .

وقد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر ، يفهمون الشعر على حقيقته ، وأنه ليس الفاظاً ومبالغات عن عالم الطبيعة والزهر والحب وما اليه من الألفاظ والأخيلة التى يسهل على أى يد تحرك القلم أن تأتى بها .

***

أصدقائى الشعراء ، أقولها لـكم مخلصاً : إن هذا عبث قبيح بالـكبار . وأقبح ما فيه أن يأتى من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها فى الصحف ، وهو على هذا التخلف المعيب فى فهم الفنون والحياة . ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحاً ، وأن الطريق الذى تسلـكونه مهما كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا ، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه ، غير أن الطريق من أوله خاطىء ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح ، وأن هذا الطريق لا يؤدى أبداً ، وأن الشىء الذى نسميه شعراً هو خلاف هذا فى جملتـه وتفصيله ، فمن شاء منكم فليرجع الى نفسه يحاسبها ، وينظر من جديد ، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول ، وخاصة المعاصرين فى أوروبا ليرى فى أى طريق تسير الأقدام ، واى عوالم يكتشف الفنان المعاصر ، وأى المسائل يبحث النقاد ، واى «وعى فنى» يجدر بالفنان الحى الذى يعيش فى عالم الأحياء الشاعرين .

معاوية نور

القصص

الأم الثانيـــة

للأستاذ محمد سعيد العريان

كم كان نجيب أفندى وفياً لزوجه براً بأسرته ؛ إنه لم يكن يسمح لنفسه أن يقضى خارج البيت قليلاً من الوقت لغير عمل ؛ فأيان تلتمسه لا تجده إلا فى الديوان أو فى البيت ، وفى فترات قليلة كان يجلس الى أصحابه فى النادى يستمع إليهم ويستمعون اليه ، ولـكنه كان حريصاً كل الحرص على الموعد الذى حدده لعودته الى حيث يجد فى الأنس بزوجه وولديه مالا يجد جزءاً منه فى مكان آخر . لقد كان من طراز غير طراز هؤلاء الكثرة من الرجال الذين لا يعرفون البيت إلا كما يعرفون الفندق أو المطعم ، ولا يفهمون من واجبات الأسرة إلا كما يفهم المدين ألح عليه دائنه ، ولا من حقوق الزوجة إلا ما تلهمه الغريزة ، ولا من بر الوالد أكثر مما يفهم مدير ملجأ اليتامى . . . !

ولم يكن يعجب لشىء أو يرثى لأحد عجبه ورثاءه لهؤلاء الذين لا ينفكون يصرحون بالشكوى والألم من متاعب الزوجية وقيود الزواج ؛ بل لقد كان يسىء الظن بهؤلاء الشاكين ويرميهم بالحمق وسوء التدبير فى سياسة بيوتهم أكثر مما يرثى لهم ويعجب .

ولـكن هذه السعادة التى كانت تشرق عليه بالبشر والايناس ، وتعمر صدره بالبهجة وحب الحياة — لم تلبث أن زالت ؛ وتبدل البيت من أنسه وحشة ، وتحولت ضحكات المرح والمسرة فيه إلى همسات حزينة باكية ، وخيم الظلام الموحش الرهيب . . لقد ماتت زوجه . . !

مَن لهذين الصغيرين يرعاهما ببره ، ويسبغ عليهما من عطفه وحنانه ما يعوض عليهما بعض ما فقداه من بر الأم وحنانها ؛ مَن لهذه الصغيرة (كريمة) يرتب شعرها ويغنى لها فى الصباح تلك الأغنية الجميـلة التى كانت تدللها بها أمها وهى توقظها فى رفق لتذهب مبكرة الى المدرسة الالزامية القريبـة . ومَن للصغير (صلاح) وما تزال الأرض تجاذبه فما يمشى خطوات إلا معتمداً على الحائط ، ثم يتم سيره حبوا على أربع ؛ من ذا يقطف من ثغره الزهرة الناضرة حين يبتسم ، ويطبع على خده القبلة الناعمة حين يبكى ؛ بل من ذا يجيبه حين يحرك شفتيه بالـكلمة العزيزة التى لا يعرف غيرها : « أمى ! » وقد ماتت أمه . ومن ذا يعوض على نجيب زوجه التى فقد بفقدها نضارة عيشه ، وبهجة حياته ، وأنس أليفه ، وأم ولديه . . ؟ إنه ما يزال يذكر ذلك الحديث القصير بينـه وبين كريمته غداة حملوا أمها الى حيث لا تراها ، فتسأله :

— أبى ، أين أمى ؟

— أمك عند أبيها يا كريمة .

— لقد كنت أظنها عنـد الطبيب ، وأين أبوها ؟ إننى لا أعرف بيته

— أبوها هناك . فى مكان بعيد لا تعرفينه ولا أريد أن تعرفيه .

— ولماذا لم تأخذنى معها ، لقد غابت كثيراً فمتى تعود ؟ !

وأخفى الرجل دمعة تنحدر على خده ، وأطبق فمه أن تفلت منـه زفرة محبوسة ؛ وقام يستحث الخادم على إعداد الطعام . . لقد ترك هذا الحديث فى نفس نجيب أثراً عميقاً كان عسيراً عليه أن ينساه ، وكان أليماً أن يذكره ؛ وكلما أحس أن ابنته توشك أن تعود الى مثله أسرع يقص عليها حكاية مسلية ، أو يروى نادرة مضحكة ليصرفها عن الحديث . .

وأنس الصغيران الى أبيهما ، ومرت يد الزمن رفيقة على رأسيهما فمحت منهما تلك الذكريات عن صاحبـة الوجه الجميل التى كانا يدعوانها أمهما الى قريب . ولـكن هذا الزمن لم يستطع بأيامه ولياليه أن يمحو هذه الذكريات وذكريات أخرى عزيزة كان يحتفظ بها نجيب أثراً من ماضيه السعيد .

وكلما مرت الأيام أحس نجيب بالوحشة والفراغ من حوله ، وعاد يستذكر الماضى بما فيه ، ويقلب حوله عيناً حزينة لا تقع على أثر من آثار ذلك الا عادت ملأى بالدموع . ومضت خمس سنين وهو يعيش فى هذا البيت عزباً يرعى ولديه ، ويقوم بأمرهما

قيام الأم والأب ، تعاونه خادم صغيرة على إعداد الطعام وتنظيف البيت وقضاء حاجات الصغيرين . .

* * *

وأتمت كريمة دراستها الأولية والتحقت بمدرسة ابتدائية قريبة من الحى ، وأخوها يتأهب لأن يفارق معلم (الكُتّاب) وعصاه إلى المدرسة ، ونجيب مازال على عهده يشعر بالضيق من وحدته ، ويتمنى لو يستطيع أن يظفر بزوج تعمر هذه الدار الموحشة ، وتعيد إليها بهجة فقدتها منذ عهد طويل ، بل تشرق بابتسامتها فى وجهه العابث ، وتمهد بيدها الناعمة فراشه الخشن ، ولكنه . . . ولكنه يحب ولديه ويريد أن يؤثرهما بهذا الحب ، وهو يرى أنه ليس فى الوجود إلا أم واحدة لكل مخلوق وأب واحد وقد ماتت أمهما ! وإنه ليخشى أن يفقدا فى سبيل البحث لهما عن أم ثانية — أباهما الواحد ؛ يخشى أن تستأثر به زوجه فلا يكون لهما أب ولا أم !

وتعرّف إلى صديق جديد ، هو زميله فى الديوان ، وتوثقت عُرَى الود بينهما فاطمأن كل منهما إلى صاحبه ، وتعاهدا على الوفاء فكانا روحاً فى جسدين ، واتحدا عاطفة وإحساساً فصارا — كالشخص وخياله — يبتسمان ويقطبان فى مرآة .

وعرف (إبراهيم) من حال صاحبه مانعرف فنصح له أن يتزوج ، وعرض عليه أخته زوجاً له وأمّاً لولديه . . . ومضى شهران زُفّت بعدهما (زينب) إلى نجيب ، فرأى من أدبها وإشراق طلعتها وحسن معاملتها لولديه — ما أعاد إليه بهجة الشباب . وكأنما تناول القدر مقصاً قطع به ذلك الجزء الباقى من صور الماضى القريب ليصل عهدين كلاهما له من السرور رونق ورواء .

وعاد إليه أنسه ، واطمأنت نفسه ، واستروح نسيم السعادة وتفيأ ظل الاستقرار ، ومضت أشهر .

وقالت له زوجه : « البيت مدرسة الفتاة ، فهلاّ احتجزنا كريمة عن مدرستها تعرف من شئون البيت ما عرفت من فنون العلم ، وتجيد فى الطهى ورفو الثياب ما تجيد من القراءة ومداعبة القلم ؟

وتريث نجيب قليلاً ثم سمع لكلام زوجه ؛ وبقيت كريمة من اليوم التالى فى البيت تستمع إلى دروس جديدة من فن تدبير المنزل ، وعرفت كيف تدير الملعقة فى القدر ، وكيف تقشر البصل وكيف تغسل الأطباق وترتبها على المائدة فى نظام جميل . وكانت تفرح حين تكلفها (أمها) إعداد شىء ، أو تطلب إليها مرافقة الخادم إلى السوق لقضاء حاجة ، ولم يكن يسوءها شىء أكثر مما تسوءها سرعة اتساخ ملابسها الزاهية ؛ لأنها كانت تغسلها بنفسها . . وخرجت الخادم مرة فلم تعد ؛ لأن زينب طردتها .

وقالت لزوجها :

— إن هؤلاء الخادمات لا يُحسِنّ القيام بشىء غير طلب الأجر ، وأكثرهن لايعرف الأمانة ولا يشكر النعمة ؛ فلا تتعجل فى اختيار أخرى قد تكون شراً من سابقتها ، وسأبحث على مهل عن خادم أمينة لاتضايقنا ما كانت تضايقنا تلك الفتاة الملعونة . . . وأسند عمل الخادم مؤقتاً الى كريمة ، ولكن هذا التوقيت لم يكن الى نهاية . . . ! فلم تعد تلك الفتاة الناضرة التى كانت ، وانطفأ بريق عينيها ، وذبل خداها ، وعلت وجهها غبرة من الحزن كانت تواريه عن أبيها . . . وأخذت تعود الى

رأسها الصغير ذكريات بعيدة مشرقة . تبدو خلف ضباب البعد فى فتنة الخيـال — ذكرياتٌ عن أم أخرى رفيقة كانت دائماً تبتسم فى وجهها ، وكثيراً ما كانت تحتضنها الى صدرها وتقبلها وتعنى بنظافتها وراحتها ، فتصنع لهـا اللُّعب وتشاركها اللَّعب بها ؛ وكانت إذا جاء المساء تروح تحدثها حديثاً عذباً ، وتقص عليها حكايات لاتزال تذكر بعضها ، فاذا جاء وقت النوم احتوتها بين ذراعيها ، ثم لاتستيقظ فى الصباح إلا على نغمات من صوتها الندىّ الرقيق . أين ذهبت تلك الأم فـلم تعُد ، ومن هذه الأخرى ؟ لقد كانت أمها الأولى أرحب صدراً وأوسع عطفاً وأكثر حناناً . ! وابتدأت الفتاة تتبرم بما تؤديه من عمل ، وابتدأت زينب تشكوها الى أبيها . وأولَ مرة سمعتها كريمة من بعيد تحـدّث أباها عنها ذهبت الى غرفتها وجلست تبكى ، فلم يسأل عنها أحد .

ويوما عاد صلاح من المدرسة فى الصباح ، فقد طرده الضابط لقذارته ، وانهالت عليه (أمه) توبخه وتشتمه ، وتركته منزوياً فى جانب من الردهة يبكى حتى عاد أبوه فى الظهر . ورفعت اليه الشكوى من (ولده) وتجاهلت أشياء واختلقت أشياء . وغضب الوالد ، وهم بالولد يخيفه برفع يده ، ووقفت كريمة فى الطريق :

« أبى ، ماهذا ؟ إن أخى لم يفعل ذنباً ، أمى هى التى تهمله ! »

وسقطت يد الرجل بجانبه ، لقـــد رأى كريمة فى صورة أخرى ، لـكأنه لم يسمع صوتها منذ زمن طويل . هذا الصوت الذى تحدثه به لَشدّ ماأثار فى نفسه من ألم وأعاد الى رأسه من ذكريات . ووازن بين صورتى ابنته أمس واليوم ؛ صورتها أمس فى طفولتها الجميلة وهى جالسة فى حجره تعبث بشاربه وتربت بيدها على خده . لقد كانت مثل زهرة تفتحت فى الربيع تتألق فى حسن وتفوح بعطر — وصورتها اليوم ! ماذا تلبس ؟ إنها ثياب الخادم المطرودة . . . وحوّل وجهــه الى ناحية أخرى فأبصر ولده متجمعاً من خوف فى زاوية المكان : صلاح . ووقف الولد يرتعد ، وجذبه أبوه برفق ، وطأطأ رأسه فى ذلة ، وانحدرت من عينيه دمعة : ولدى . وتهدج صوته فأمسك عن الكلام ؛ وأحست زينب عاصفة توشك أن تنقضّ فانسحبت فى هدوء

لم يتحدث نجيب مع زوجه فى شأن العناية بولديه ، فقد عرف معنى انسحابها ، وأدرك أنها فهمت ما همّ أن يفعله . . . وعادت الحياة فى البيت مطمئنة هادئة ، فقد غيرت زينب سياستها فى معاملة الولدين ، ونسى نجيب ما كان ، أو كاد .

وليلةً جلسوا على المائدة للعشاء ، ومد صلاح يده يتناول قطعة من الفاكهة ، فانجـذب اليه غطاء المائدة فتلف نظامها وسقط بعض الأطباق على ملابسه وملابس أخته فى جواره ، وغضب أبوه ونظر اليه نظرة ، وتوقفت زينب عن الأكل لحظة تقلب بصرها فى نظرات ذات معنى بين الولد وأبيه ، وتألم الولد فقام عن المائدة يدعى الشبع ، ثم نهضوا جميعاً . ولم يطل بهم السهر تلك الليلة فصحب الرجل زوجه الى النوم ، وترك الولدين يهيئان فراش نومهما فى غرفتهما . ولما سكن الصوت قالت زينب :

— نجيب ! أرأيت مافعل صلاح ؟ لقد فقدت شهوتى للطعام حين رأيتك متألما لِماَ فعل ، ألا ترى من الخير أن يأكلا وحدهما ؟

— زينب ! اسكتى . ونهض الرجل الى الفراش ولـكن لم يغمض له جفن ، لقد تعاورته أفكار مظلمة ، وأخـذ يردد النظر بين حاضره وماضيه ، لقد كان للأسرة معنى يحس وحدته فى قلبه فأصبح لها فى مرأى عينيه معنيان ؛ فى زوجه وولديه . ورجع أدراج الزمن يلاحق ذكريات عزيزة كاد يطمسها البعد الطويل ؛ ثم أخذته إغفاءة الفجر ، وخرجت له امرأته الأولى من فـكره المضطرب وقلبه المتألم — طيفاً يعاتبه ؛ وتخلت عنه حجة المعتذر ؛ وأغضى حياءً من عنف تأنيب تينـك العينين ؛ ورأى ولديه يفران فى رعب وفزع الى حيث يلتمسان الأمان فى صدر أمهما . وابتسم

الطيف فى رثاء وألم . . . واستيقظ ، فارتدى ملابســه على عجل وخرج مبكراً الى الديوان .

***

ووقف ابرهيم افندى على سر صاحبه ، وآلمه من أخته أن تكون على ما وصف زوجها قسوة وغلظة ، ولم يخش على عشها أن ينهدم أكثر مما يخشى على ما بينه وبين صديقه من ود أن تنفصم عروته ، وينحل وثاقه ، ويعبث فى عقدة الاخلاص منه إصبع الشيطان أو إصبع امرأة . . ودبرا أمراً وافترقا على ميعاد فى عصر ذلك اليوم دعا نجيب زوجه الى نزهة ، فركبا سيارة الى بيت أخيها حيث استودعها نجيب الى أن يعود . وأبدى إبراهيم لمقدمها شعور مرتاح وهو يخفى الغيظ فى صدره ، وتعلق بها أولاد أخيها يتجاذبون ثوبها فى سرور ظاهر ، واستقبلتها زوجه بقبلة وداد وعناق مشتاق ؛ واستدارت بهم حلقة يتناولون من كل حديث طرفا ، ويتبادلون شتى ذكريات أمس وأنباء اليوم وآمال الغد :

منذ أشهر لم تطأ زينب عتبة هذه الدار ؛ منـذ فارقتها الى بيت زوجها تعترك فى رأسها أحـــلام ، وتصطرع فى نفسها عواطف ، وتعبث بطمأنينتها رهبـة ، وتتحرك فى دمها غريزة امرأة ، ترى ماذا تحقق من أحـلامها وما أخفق وماذا تسعى إليه بعد ، وأى حاليها كانت خيراً : حالها الآن وقـد أصبحت ربة بيت وصاحبة أمر وسلطان ، أم حالها أمس فى تلك الغرفة من بيت أخيها ريانة شبعانة كاسية ، ثم حسبها مما وراء ذلك من سعادة العيش أحلام لا تولد إلا فى الظلام فلا تعيش تحت الشمس ؟

وانتهت تأملاتها وقد زحف الظلام ولم يعد نجيب ؛ ترى أى جليل من الأمر تلكأ به وهو الوفى إذا وعـد ! وهفت نفسها اليه ، وهتف باسمه الشوق ، وتحـــدثت اليه المنى : متى يعود . ؟ ومد الليل رواقه ولم يعد ، وراحت تتناهبها الأفكار ، وتنوشها الهواجس ، وتعبث بلبها مختلف الخواطر ، وذكرت موقفها من ولديه أمس وموقفـه ، وخشيت أن يكون به ألم من بعض مافعلت يريد أن يعاقبها عليه ...

وكأنْ لم يكن لها عهد بالأكل على مائدة أخيها فجلست تقلب بصرها فى أنواع الطعام وفى وجوه الآكلين ، لا تكاد تمد يدها أو تحرك فكيها . وقاموا عن المائدة ، ثم أوشك الليل أن ينتصف ولما يعد نجيب . . . وغلبها الخوف والألم ، وهمت أن تكاشف أخاها بما فى نفسها فلم تفعل ، وطوت صدرها على هم متكبر ! وقام أخوها يتثاءب فدعاها الى النوم هناك . . . فى الغرفة التى ودعتها منذ أشهر يوم صحت من أحلامها تستقبل الحياة التى طالما تمثلتها وتخيلت أيامها ولياليها فى كنف الزوج العزيز . . وساحت ليلتها لم تنم على جنب واحد ، وأقبل الصباح أقبح من ليل داج مخيف . ومضى يوم ويوم وأيام وهى تصبح وتمسى على حال واحدة ، وأحست أنها ضيف مملول . وشعرت بالوحشة تكتنفها ، واجتمعت عليها الأفكار السود ، ولم تستبن فى ظلام يومها ما يضمره لها الغد ، وأيقنت بما هناك . . . أترى زوجها يقدم على ذلك وهو الذى كانت تعرف من حبه إياها أنه يشق عليه أن يفارقها لحظة ، فهل يطيق أن يفارقها الى الأبد ؟ ولـكنها لم تحرص على هـذا الحب ، لقد كانت تطمع أن يكون لها وحدها قلبُه ، وأن تستأثر بحبه من دون ولديه ، ففقدت كل شىء ولم تظفر بشىء ! !

وقال لها أخوها وقد جلسوا للطعام :

— لماذا لا تأكلين يازينب ؟ لعلك تخجلين أن تجلسى معنا على المائدة ، فلا حرج أن تأكلى وحدك إن كان يحلو لك ذلك ؛ وتستطيعين أن تطهى طعامك بيدك إذا أحببت ألا تأكلى من طعامنا . ونظر الى زوجه ونظرت اليه . وسكتت زينب فلم تجب ، ولم تأكل أيضاً ، فقد ازدحمت فى عينيها الدموع . وقامت عن المـائدة فلم يلح عليها أن تجلس كما يلح على زوجه وأولاده حين يفرغون قبله من الطعام . أتراها ثقلت عليهم الى حد أن يكرهوا أن تأكل معهم من طعام واحد ؟ لقـد هانت عليهم من قبل ، حين أذنوا للخادم أن تسافر لزيارة أمها ، وتركوها وحدها تؤدى عملها ، فلم يساعدها أحد أو يشكر لها يداً ، أى هوان !

وخلَتْ الى نفسها تبكى وتدفن الزفرات فى صدرها ، ثم تحصى الزمن وتقدر حساب الغد . لقد طال بها الانتظار ونجيب لما يعد . . ومرت بها من المـاضى صورة فذكرت . . لكمْ كانت قاسية جبارة فى معاملة كريمـة وصلاح ، ما أقبح الجريمة وما أعدل الجزاء ! وانحدرت على خدها عبرة الندم . لقد كانت عمياء فأبصرت ، واشتملها احساس عميق بالرثاء والعطف ؛ كيف لم تدرك من قبل سوء ما كانت تصنع ؟ إنه ذنب الصغيرين ، ستكفِّر عنه حين تعود ، ولـكن ... هل تعود ؟

وتركت كبرياءها فى الغرفة وخرجت تحدث أخاها :

— إبرهيم ، ألم يقابلك نجيب ؟

— بلى .

— إنه لم يحضر !

— أعرف ذلك !

— وهل تعرف السبب؟

— السبب؟!

وتركها مطأطئة الرأس تبكي في حسرة وندم ومذلة، وراح يخفي علائم الظفر تبـدو في أساريره؛ لقد أفلحت الخطة ونجح العلاج!

وحين عاد في المساء كانت زينب لا تزال تبكي. لقد غلت القدر وتوشك أن تنفجر؛ واقترب منها فوضع يده على كتفها؛ ورفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع، واندفع في غير رفق يصب عليها جام غضبه، ويوجه إليها قارص اللوم وعنيف العتاب؛ وراحت تعتذر في كبرياء جريح، وراح يحملها تبعة ما يخشاه؛ يخشى أن يفقد صديقه أكثر مما يخشى أن تفقد زوجها... ثم ترك القدر في غليان.

والتقى الصديقان، وقص إبرهيم على صديقه ما سمع وما رأى... وجلست زينب تصارع اليأس بالايمان، وتغالب الحزن بالأمل. ومر يومان ولم يعد إبراهيم إلى التحدث معها في شأن زوجها، ولم يعد نجيب. وغلبها الهم واليأس، واستسلمت للمقادير مؤمنة بأنهـا إنما تلقى جزاءها العادل. وجاء يوم الجمعة ثالثاً وعاد ابرهيم من الصلاة ومعه ضيف.

لقد عاد نجيب بعد طول الغياب!

وجلسوا حول المائدة يتداعون إلى شهي الطعام، ويتبادلون بين اللقيمات كلمات قصيرة عذبة. ثم انفضوا عن المائدة يسمرون، إلا نجيباً وزينب؛ لقد ظلا صامتين، ولـكن ضمائرهما كانت تتناجى في حديث خافت، وخواطرهما تفترق وتتلاقى.

***

وفي اليوم التالي حين عادت زينب إلى عشها المهجور كانت أسعد منها يوم قدمت إلى هذا البيت أول مرة عروساً متوجة بالزهر مودعة بالزغاريد. ورأت كريمة (أمها) فأسرعت تسلم عليها في لهفة وشوق، وعلى فمها ابتسامة، وفي نظراتها بشر وفرح وترحيب. وهرول إليها صلاح يتعلق بذراعها ويجذبها إلى الخلف كأنما يخشى أن تهجره ثانية إلى غير لقاء.

لقد استوحش الطفلان لغيبة زينب، فنسيا كل ما كان من قسوتها، لأن قلوب الصغار طاهرة بريئة، لا تمسك العداوة، ولا تذكر السيئة، ودنياها يومها المتجدد. وكأنما أحس الولدان أن المصيبة إن كانت في فقد الأم، فتمامها أن يفقدا شبه الأم!.

ورأت زينب في ترحيب الصغيرين معنى لم تحسه من قبل، وتحركت فيها الأمومة، وتزاحمت في رأسها إحساسات شتى: من النـدم، ومن الحب، ومن التأثر بهذا الوفاء. وطفرت من عينيها قطرتان من الدمع تلهبان خديها بأقسى مما يلذع صدرها الندم. واقتربت منها كريمة وعلى شفتيها تساؤل مشفق:

— أمي، أنت تبكين؟ لا يا أمي، لا تبكي لا تبكي. ودفنت رأسها في صدر زينب مختنقة بالعبرات. ووقف صلاح على مقربة، وقد وضع إصبعه على فيـه في حيرة ودهش مما يرى. وتحرك في قلب زينب جنين الحب، فمسحت بيدها في رفق وحنان على رأس (ابنتها) وتدانى فم من وجنتين. وأقسمت، وأشهدت ربها، لتكونن من اليوم لهذه الطفولة الوفية — أمها الثانية؟

محمد سعيد العريان

2 me Année, No. 69.

Lundi-29-10-1934

بدل الاشتراك عن سنة
ﻁ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ١٣٥٣ — ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كيف نشأت فكرة هذه اللجنة ؟

بمناسبة عيدها الفضى

بقلم الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية وعضو اللجنة

لابد لمن يريد أن يفهم كيف نشأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن يرجع اذا أمكنه العمرُ ، وأسعدته الذاكرة ، الى حال مصر منذ عِقدين ، أى الى عام ١٩١٤ حين تأسست اللجنة ، لا ، بل لابد له أن يرجع بذاكرته الى عقد أو بعض عقد قبل ذلك ، أيام كانت الكثرة من أعضاء اللجنة المؤسسين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، تلك السن الحساسة التى فيها يتصل اليافع بالحياة العامة لأول مرة ، يتصل بها بقلبه أكثر من عقله ، ويهتز عنيفاً بحوادثَ قلَّما يفقه كُنه أسبابها ومراميها . فى تلك السنوات صاح أول صائح أُسْمِعَ بالاستقلال ، فسمعنا صوته خافتاً فى حجرات الفصول النهائية للمدارس الابتدائية ،

أو سمعناه أكثر وضوحاً وأعلى نَبرة فى حجرات الفصول الأولى من المدارس الثانوية ، ثم شاء الله أن يذهب بصاحب الصوت ويؤثره بجواره ، فكانت لانتقاله من الدار الى الدار رنة جزع دوت فى مصر والصعيد ، وأنتجت ذلك المشهد الخالد الذى بدأ كالبحر الزاخر عنـد « لازوغلى » ، ثم سال فى شوارع القاهرة خاشعاً صامتا إلا صوتا يوحد الله ، فبلغ الصحراء وما زال فى المنبع فيض ، وأبت المدارس على الطلبـة الخروج ، فحطِّمت أبوابٌ وفُتِّحت قسراً نوافذ ، ورأينا جبار المعارف يطل على المشهد الرهيب من وراء حجاب وهو لا يكاد يصدق عينيه

* * *

ذلك هو الحدث الأول الذى فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على شئ يُسْمَى وطنا ، وعلى ناس فيه بأنسين يُسمون أهلا ، أو هو أول صدع فى القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلا لحب الخير ورعاية الغير ، وقد كنا رُبِّينا تربية من لون العصر الذى نعيش فيه ، لاتعين على الأكثر إلا على حب الذات ، والاستعداد للرزق عن طريق المرتبات

وجاء من بعد هذا الحدث أحداث ، ونحن نتماشى معها حدثا حدثا ، وجاءت من بعد هذا على الشرق ، أو على تركيا ممثلة الشرق نوازل ، ونحن نتابعها نازلة نازلة ، فكانت حرب البلقان وكانت حرب الطليان ، وجرت الشائعات بالمزعجات ، وتجهم المستقبل ، فغلَت تلك القلوب الطرية الشابة ، فكانت جماعات ، وكانت اجتماعات ، وكانت مظاهر للاخلاص لا تكون إلا فى عهد النبوة ، وحوادث للتجرد من منافع النفس لا تكون إلا بوحى السماء ، وكانت آراء ، وكانت خطط للمستقبل اتسعت لها قلوبنا الكبيرة ، واتسعت لهـا كذلك رؤوسنا الصغيرة ، وضاقت بها مُمكنات الحياة ، وأخذ العود الليِّن يشتد ، والبصر القاصر يمتد ، والرأى الفطير يختمر ، والخيال العالى يهبط من لازورد السماء الى سواد الأرض ، حتى جاءت الحرب العظمى ، فلم يكن بد فى مصر من طلب النهضة من أوثق السبل وأقربها من مظاهر المسالمة والسلام ، من طريق بث العلم بكل وسائل البث ، ونشر الثقافة بكل أساليب النشر ، فتألفت لجنـة التأليف والترجمة والنشر من نفس ذلك النفر الذى كونته الحوادث ، وصهرته التجارب ، وميزته الآلام

* * *

« كم ربحنا من الحِلبة هذا العام يا فريد ؟ » و « كم خسرنا فى الفول يا يوسف ؟ » [1] تلك كانت بضاعة اللجنة الأولى ، وذلك رأس مالهـا الذى كان ، جمعته من قروش بقدر ما سمحت به أكياسهم الخفيفة منذ عشرين عاما ، ولم يكن لهـا مقر إلا بيوت متواضعة هى منازل أعضائها . وارتأوا تأليف الكتب المدرسية والشعبية ، وفاضلوا بينها ، ونزلوا بحكم الحاجة الى المـال الى أقرب الصنفين مكسبا ، فبدأوا بالمدرسية ، رجاء أن ينفق من أرباحها على الكتب الشعبية ، فكان أول كتاب أخرجته كتاب « مبادئ الكيمياء للمدارس الثانوية »

* * *

هذه هى اللجنة الى حين إنتاجها أول نتاج لهـا ، وهذه إشارة خفيفة الى تاريخ نشأتها ، وفى تَتَبع تفصيلات هذه النشأة تَتَبعٌ لبعض تفاصيل النهضة المصرية فى ذلك الأوان ، فليس تاريخ اللجنة تاريخ أفراد ، ولو كان كذلك لهـان ، وإنمـا هو فصل موجز من تاريخ هذا البلـد ، وقطعة صغيرة من نهضة هذه الأمة ، ومرآة يرى الرائى فيها بعض آثار ذلك الزمان ؟

أحمد زكى

---

(١) اشارة من الكاتب الى فرع من فروع الجماعة الأولى كانت تشتغل بالتجارة لتستثمر أموال اللجنـة . أما فريد فالأستاذ محمد فريد أبوحديد ، وأما يوسف فالأستاذ يوسف أحمد الجندى .

رؤيا في السماء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو خالد الأحول الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخنا أبي ربيعة الفقيهِ الصوفيّ ، ذهبتُ مع جماعة من الناس فشهدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُوِّيَ عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال : يرحمكِ الله يافلانة ! الآن قد شُفيتِ أنتِ ومرضتُ أنا ، وعُوفيتِ وابتُليت ، وتركتِني ذاكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بكِ معنىً ، فستكون بعدكِ بلا معنى ؛ وكانت حياتُكِ لي نصفَ القوّة ، فعاد موتُكِ لي نصفَ الضّعف ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتكِ هموماً في صُورها المخفّفة ، فستأتيني بعد اليوم في صُوَرها المضاعَفة ؟ وكان وجودُكِ معي حجاباً بيني وبين مَشقّاتٍ كثيرة ، فستخلُص كلُّ هذه المَشاقِّ إلى نفسي ؛ وكانت الأيام تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ في رقّتكِ وحنانِك ، فستأتيني أكثرَ ما تأتي متجرِّدةً في قسوتها وغلظتها . أَمَا إني والله لم أُرْزأْ منكِ في امرأةٍ كالنساء ، ولكني رُزِئتُ في المخلوقةِ الكريمة التي أحسستُ معها أن الخليقة كانت تتلطف بي من أجْلها !

قال أبو خالد : ثم استدمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزّي الناسُ بعضُهم بعضاً ، وأحفظَ لما وَرَدَ في ذلك ؛ غير أن للكلام ساعاتٍ تبطُلُ فيها معانيه أو تضعف ، إذ تكون النفسُ مُستغرِقةَ الهمّ في معنى واحدٍ قد انحصرتْ فيه ، إما من هَوْل الموت ، أو حبّ وَقع فيه من الهَوْل ظلُّ الموت ، أو رغبة وقع فيها ظلُّ الحب ، أو لحاجةٍ وقع فيها ظلُّ الرغبة . فكنت أحدّثه وأعزّيه ، وهو بعيد من حديثي وتعزيتي ؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلْنا وما فيها أحد ؛ فنظر يَمْنةً ويَسْرةً ، وقَلّب عينيه ههنا وههنا ، وحَوْقل واسْترْجع ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التي تتحرّك في داخله ؛ وما دام هو الذي يحفظها للرجل ، فهو في عين الرجل كالمُطرَف (١) تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظر كم بين أن ترى عيناكَ ثوب امرأةٍ في يد الدلاّل في السوق ، وبين أن تراه عيناكَ يلْبسها وتلبسه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفْقهُ من هذا شيئاً ، فأنت رجلٌ آليْتَ لاتقربُ النساء ولا يقرْبنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله ؛ وكأنْ كل نساء الأرض قد شاركْن في ولادتك لحَرُمْن عليك ! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لاتفهم أنت ما أجده الساعة إلا ألفاظاً ؛ وشتان بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلّف .

فقلت له يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطّرَحْتَ أثقالك وانبتّتْ أسبابُك من النساء — أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرُغَ للنُّسك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسماء انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ؛ فانه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحةً قانتة — فهي في منزل الرجل العابد مدْخلُ الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دارٍ من الطوب والحجارة لكانت امرأتُه كُوّةً يقتحم الشيطان منها .

ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سمواتٌ وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلّق روحُ الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بحوّاء ، وتتعلّقَ هي بآدم ؛ ومكر الشيطان فصوّرها لهما في صيغة مسئلة علمية ، وَمَكَرَتْ حوّاء فوضعتْ فيها جاذبيّة اللحم والدم ، فلم تعد مسئلة علمٍ ومعرفة ، بل مسئلة طبعٍ وحَاجة . فأكَلا منها فبدَتْ لهما سَوْءاتُهُمَا . وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها ، وشهواتها ومطامعها ، ومضارها ومعايبها — في معنى « بَدَتْ لهما سَوْآتهُمَا » . . . ؟

كلانا يا أبا ربيعة ممنْ لهم سَيْرٌ بالباطن في هذا الوجود غيرُ السير بالظاهر ، وممن لهم حركةٌ بالفكر غيرُ الحركة بالجسم ؛ فقبيحٌ بنا أن نتعلّق أدنى مُتعلّقٍ بنواميس هذا الكونِ اللحميّ الذي يُسمّى المرأةَ ؛ فهو تدلٍّ وإسفافٌ منا . ولعلك

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة في دارها ، وهو المسمى (بالروب)

تقول : « النسلَ وتكثيرَ الآدمية . » فهذا إنما كُتِب على إنسانِ الجوارحِ والأعضاء ، أما إنسانُ القلبِ فله معناه وحُكمُ معناه ؛ إذ يعيش بباطنه ، فيعيشُ ظاهرُه في قوانين هذا الباطن ، لا في قوانينِ ظاهرِ الناس . وإنه لشرٌ كلُّ ما نقلك الى طبع أهل الجوارح وشهواتهم ، فزيّنَ لك ما يُزيِّن لهم ، وشغلك بما يَشغَلُهم ؛ فهذا عندنا — يرحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب المجون الذى ينقل الرجلَ الى طبع الصبيّ .

فاطمس يا أخى على موضعها من قلبك ، وألقِ النورَ على ظِلها ؛ فالنور فى قلب العابد نُور التحويل إن شاء ، ونور الرؤية إن شاء ، يرى به المادّةَ كما يريد أن تكون لا كما تكون . وأنت قد كانت فيك امرأة ، فحوِّلها صلاةً واعمل بنورك عكسَ ما يعمل أهلُ الجوارح بظلامهم ، فقد تكونُ فى أحدهم الصلاةُ فيُحولُها امرأة . . .

قال أبو ربيعة : تالله إنه لرأيٌ ؛ والوحدةُ بعد الآن أرْوَحُ لقلبى ، وأجْمعُ لهمى ؛ وقد خلعنى اللهُ مما كنتُ فيه ، وأخذ القبر امرأتى وشهواتى معاً ، فسأعيش ما بقىَ لى فيما بقى منى . وزوال شىء فى النفس هو وجود شىء آخر . ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيامِها الى القبر ، فلبَدْءْ الآن من القبر ومعانيه وأيامه .

***

وتواثقا على أن يسيرا معاً فى (باطن) الوجود . . . ! وأن يعيشا فى عمرٍ هو ساعةٌ معدودةُ اللحظات ، وحياةٍ هى فكرةٌ مرسومة مصوَّرة . قال أبو خالد : ورأيت أن أبيت عنده وفاء بحقّ خدمته ، ودَفعاً للوحشة أن تُعاوده فتدخل على نفسه بأفكارها ووساوسها . وكان قد غمرنا تعبُ يومنا ، وأعيا أبو ربيعة وخذلته القوة ؛ فلما صلّينا العشاء قلت : يا أبا ربيعة ، أحبّ لك أن تنعَس فتريح نفسك ليذهب ما بك ، فاذا استجْمَمْتَ أيقظتك فقمنا سائر الليل .

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النعاس . وجلست أفكر فى حاله وما كان عليه وما اجتهدت له من الرأى ؛ وقلت فى نفسى : لعلنى أغريته بما لا قبل له به ، وأشرْتُ عليه بغير ما كان يحسن عمله ، فأكونَ قد غششته . وخامرنى الشكُّ فى حالى أنا أيضاً ، وجعلت أقابل بين الرجل متزوّجاً عابداً ، وبين الرجل عابداً لم يتزوج ؛ وأنظر فى ارتياض أحدهما بنفسه وأهله وعياله ، وارتياض الآخر بنفسه وحدها ؛ وأخذت أذهب وأجىء من فكر إلى فكر ، وقد هدأ كل شىء حولى كأن المكان قد نام ، فلم ألبثْ حتى أخذتنى عينى فنمت وَاستَثقَلت ، كأنما شُدِدْتُ شدّاً بحبال من النوم لم يجئْ من يقطعها .

ورأيت فى نومى كأنها القيامةُ وقد بُعِثَ الناس وضاق بهم المحشر ، وأنا فى جملة الخلائق ، وكأننا من الضَّغطَة حَبٌّ مبْثُوثٌ بين حجَرَىْ الرَّحى . هذا والموقفُ يَغْلِى بنا غَلَيان القِدر بما فيها ، وقد اشتدّ الكربُ وجَهَدَنا العطش ، حتى ما منا ذو كبدٍ إلا وكأن الجحيم تتنفس على كبده ، فما هو العطش بل هو السُّعار واللهبُ يحتَدِمُ بهما الجوف ويتأجّج .

فنحن كذلك إذا وِلدانٌ يتخلَّلُونَ الجمعَ الحاشد ، عليهم مناديلُ من نور ، وبأيديهم أباريقُ من فِضةٍ وأكوابٌ من ذهب ، يملئون هذه من هذه بِسَلْسَالٍ بَرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤيتُه عطَشٌ مع العطش ، حتى ليتلوَّى مَنْ رآه من الألم ، ويَتَلعْلعُ كأنما كُوِىَ به على أحشائه .

وجعل الوِلدانُ يَسقُون الواحدَ بعد الواحد ويتجاوزون مَنْ بينهما وهم كَثرةٌ من الناس ، وكأنما يتخللون الجمعَ فى البحث عن أُناسٍ بأعيانهم ينضَحون غليلَ أكبادهم بما فى تلك الأباريق من رَوْحِ الجنة ومائها ونسيمها .

ومَرَّ بى أحدهم ، فمددتُ اليه يدى وقلت : « اسقِنى فقد يَبِسْتُ واحترقت من العطش ! »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحول الزاهد . »

قال : « ألكَ فى أطفال المسلمين ولدٌ افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألكَ ولدٌ كَبِر فى طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ نالتْك منه دعوةٌ صالحة جزاء حقِّك عليه في إخراجه الى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبتَ في تقويمه ، وقُمْتَ بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمكَ الله ، إنى كلما قلتُ « لا » أحسست « لا » هذه تمرُّ على لسانى كالمِكْواةِ الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسبق إلا آباءنا ؛ تَعِبوا لنا فى الدنيا ، فاليوم نتعب لهم فى الآخرة ؛ وقدَّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم فى هذا الموقف الذى قامت فيه محكمةُ الحَسَنةِ والسيئة . وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال ، فما للطفل معنى من معانى آثامِكم يَحْتَبِس فيه لسانُه أو يَلَنجلجُ به »

قال أبو خالد : فجُنَّ جنونى ، وجعلتُ أبحث فى نفسى عن لفظةِ « ابن » فكأنما مُسحَت الكلمةُ من حِفظى كما مُسحتْ من وجودى ؛ وذكرت صَلاتى وصيامى وعبادتى ، فما خطرت فى قلبى حتى ضحك الوليدُ ضَحِكاً وجدتُ فى معناه بكائى وندمى وخيبتى

وقال : ياويلك ! أماسمعت : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفِّرها الصلاة ولا الصيام ، ويُكفِّرها الغمّ بالعِيال . » أتعرف من أنا يا أبا خالد؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابن ذاكَ الرجل الفقير المُعِيل ، الذى قال لشيخك ابرهيم بن أدهم العابد الزاهد : « طوبَى لك ! فقد تفرَّغتَ للعبادة بالعزوبة . » فقال له ابرهيم : « لرَوْعةٌ تنالك بسبب العيال أفضلُ مَن جميع ما أنا فيه . . . » . وقد جاهد أبى جهادَ قلبه وعقله وبدنه ، وَحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهل والولد حَمْلَها الانسانىَّ العظيم ، وفكَّر لغير نفسه ، واغتمَّ لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن وصبر ووثق بولاية الله حين تزَوَّجَ فقيراً ، وبِضَمان الله حين أعقب فقيراً ؛ فهو مجاهد فى سبلٍ كثيرة لا فى سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة ؛ هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، أمّا هو فيستشهد كل يوم مرة فى همومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا فى الدنيا

أَمَا بَلَغَكَ قولُ ابن المبارك وهو مع إخوانه فى الغَزْو : « أتعلمون عملا أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نَعْلَمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل مُتَعَفِّفٌ على فقره ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر الى صبيانه نياماً مُتَكَشِّفِينَ ، فسترهم وغطاهم بثوبه ؛ فعَمَلُهُ أفضل مما نحن فيه . . . »

يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته لِيُدْفِئَهم به ويتلقى بجلده البردَ فى الليل . إن هذا البرد — يا أبا خالد — تحفظه له الجنة هنا فى حرّ هذا الموقف ، كأنها مُؤتَمَنَةٌ عليه إلى أن تؤديَه . وإن ذلك الدفء الذى شمل أولاده يا أبا خالد — هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين

قال أبو خالد : ويَهُمُّ الوليدُ أن يمضىَ ويدعنى ، فما أملك نفسى ، فأمدّ يدى إلى الابريق فأنْشِطُه من يده ، فاذا هو يتحوّل إلى عَظْمٍ ضخمٍ قد نَشِبَ فى كَتِفى ومايليها من أسَلةِ الذراع[1] فغابت فيه أصابعى ، فلا أصابعَ لى ولا كَفَّ . وأبى الابريقُ أن يسقينى وصار مُثْلَةً بى ، وتجسّدتْ هذه الجريمةُ لتشهدَ علىّ ، فأخذنى الهولُ والفزع ، وجاء إبريقٌ من الهواء ، فوقع فى يد الوليد ، فتركنى ومضى

وقلت لنفسى : ويحك يا أبا خالد ! ما أراكَ إلا مُحَاسَباً على حسناتك كما يُحَاسَب المذنبون على سيئاتهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

وبلغتنى الصيحةُ الرهيبة : أين أبو خالد الأحول الزاهد العابد ؟

قلت : هأنذا .

قيل : طاووسٌ من طواويس الجنة قد حُصَّ[2] ذَيْله فضاع أحسنُ مافيه ! أين ذَيْلُكَ من أولادك وأين محاسنُك فيهم ، أُخلِقَتْ لك المرأةُ لتتجنَّبها ، وجُعِلَتْ نَسْلَ أبويك لتتبرَّأ أنت من النسل ؟

---

(١) الأسَلة : مايلى الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها . فالأسَلة هى العظمة التى تشد عليها ساعة اليد

(٢) حص ذيله : قطع وجذ

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعتَ للحياة نفسها إلا أن هربت منها وانهزمتَ عن ملاقاتها، ثم أنت تأمُل جائزة النصر على هزيمة . . !

عَمِلتْ الفضيلةُ في نفسك ونشأتك، ولكنها عَقِمتْ فلم تعمل بك. لك ألفُ ألفِ ركعةٍ ومثلُها سجداتٌ من النوافل، والخيرُ منها كلِّها أن تكون قد خرجتْ من صلبك أعضاءٌ تركع وتسجد

قتلتَ رجولتك، ووأدتَ فيها النسل، ولبثتَ طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبةَ الأب ! فلئن أقمت الشريعة، لقد عطّلت الحقيقة، ولئنْ . . . .

قال أبو خالد : ووقعتْ غُنّةُ النونِ الثانية في مِسمعيّ من هول ماخفتُ مما بعدها كالنفخ في الصُّور ؛ فطار نومي وقمتُ فزعاً مُشتّت القلب، كمن فتح عينيه بعد غشيةٍ فرأى نفسه في كفنٍ في قبرٍ سُدّ عليه . . . !

وما كدتُ أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أبا ربيعة يتقلّب كأنما دحرجتْه يد، ثم نهض مُستطار القلب من فزعه وقال : أهلكتني يا أبا خالد، أهلكتني والله .

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله !

قال : إني نمت على تلك النيّة التي عرفتَ : أن أجمع قلبي للعبادة، وأخلُص من المرأة والولد، ومن المعاناة لها في مرمّة المعاش والتلفيق بين رغيفٍ ورغيف، وأن أُعفيَ نفسي من لأوائهم وضرّائهم وبلائهم لأفرغ إلى الله وأقبل عليه وحده . وسألت الله أن يخير لي في نومي ؛ فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحتْ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً، أجنحةً وراء أجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر إليّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وينظر هذا الآخرُ إليّ ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

ومازالت « المشئوم، المشئوم » حتى مرّوا ؛ لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها، وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم، هيبةً من الشؤم، ورجاء أن يكون المشئوم إنساناً ورائي يُبصرونه ولا أبصره . ثم مرّ بي آخرهم، وكان غلاماً . فقلت له : يا هذا، من هو المشئوم الذي تومئون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، ثم ماتت امرأتك، وتحزّنت على مافاتك من القيام بحقها، فرفعنا عملك درجة أخرى ؛ ثم أُمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فرّوا وجبُنوا ! . . . .

* * *

إن سُمُوّ الرَّجُلِ بنفسِهِ عن الزَّوجةِ والولدِ طَيَرانٌ إلى الأعْلى . . . ولكنّه طَيَرانٌ على أجنحةِ الشياطين !

طَيَرانٌ بالرجُلِ إلى فُوّهةِ البئرِ كانَ الذي في الأعْلى . . !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الشيخ على يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشرى



الشيخ على يوسف

فى يوم ٢٥ أكتوبر من سنة ١٩١٣ والقلوب واجفة ، والأبصار زائغة ، ومصاير الأمور تتواثب للأوهام فى صوَر مبهمة غامضة ، تضطرب بين اليأس كله ، وبين الرجاء كله ، والناس يتساءلون متهامسين من الخوف ومن الورع : تُرى ماذا عسى أن يكون قَسم مصر من هـذه الحرب العامّة ، وماذا كتبت لها الأقدار ، فى صفحتى الليل والنهار ؟

فى ذلك اليوم من تلك الأيام السوداء مات رجل ليس مثله فى مصر كثير ، رجل إذا أحبه ناس أشد الحبّ ، فلأنه قوة كبيرةٌ فى مصر . وإذا كرهه ناس أشد الكره ، فلأنه قوة كبيرة فى مصر ، فالشيخ على يوسف ، على تفرق الأهواء فيه ، كان قوة هائلة فى هذه البلاد يحسب الناسُ جميعاً لها كل حساب

ولقد كنت من الذين أبغضوا الشيخ علياً أبعد البغض ، ثم كنت من الذين يحبونه أغلى الحبّ ، ولا والله ما رأيته فى حالى بغضى وحبى له إلاّ رجلا عظيما !

مات الشيخ على يوسف فى ذلك اليوم فما قامت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تقوم ، ولا قعدت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تقعد ؛ بل لقد شيِّع ودُفن كما يُشيَّع ويُدفن أوساط الناس ، وكأن الناس لم يشيعوا فيه مفخرة من مفاخر مصر ، ولا أودعوا الضريح كنزاً من كنوزها الثمان !

لا أقول إنه الاهمال السيء ، ولكن أقول إنه الظرف السيء ولا أريد المزيد

والآن تسأل الشباب المثقفين المتعلمين عن الشيخ على يوسف ، وكيف كان خطبه فى البلاد من إحدى وعشرين سنة فقط ، فترى أقلّهم من لا يعرف عنه كثيراً ، وترى أكثرهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلا !

أهكذا ، وبهذه السرعة السريعة ، تختفى سيَر الرجال عندنا كما تختفى الصور إذا ساد الظلام ، أو كما تختفى أشباح الرُّؤى ساعة الهبوب من النام ؟

وإننى لأضيف الوزر فى هذا أيضاً على الظروف . والحمد لله الذى جعل لنا من هذه (الظروف) تُكأة نعتمد عليها كلما غشيتنا غاشية من الاهمال ، أو طاف بنا طائف من سيء الأعمال !

* * *

ولقد قُلّد الشيخ على منصب مشيخة السجادة الوفائيـة ، فاستحق بهذا أن يسمى السيد علياً ؛ وقلده الخليفة العثمانى الرتبة الأولى من الصنف الثانى ، فاستحق بذاك أن يدعى على بك أو على باشا يوسف ؛ ولكننى لا أعبّر عنه إلاّ بالشيخ على يوسف . هذا الاسم الذى طالما رنّ فى الآذان ، وتجاوبت به الأصداء من كل مكان : الشيخ على يوسف ! الشيخ على يوسف ! وحسبه بهذا لقباً ، بعد ما اعتزّ بنفسه حسباً ، وكرُم بالرسول الأعظم نسباً

كان الشيخ على يوسف رجلا عصامياً بأوفى معانى الكلمة . نجم فى (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا ، فى أسرة إذا كرم أصلها فقد رقّت حالها . ولا تنس أن المال هو كل شيء فى هذا الزمان . وتعلم القراءة والكتابة فى كتّاب القرية ، وحفظ القرآن الكريم . ثم انحدر إلى بنى عدىّ من أعمال مديرية أسيوط . فطلب العلم هناك على الشيخ حسن الهوارى ، ثم قدم الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين

وإلى هنا كانت حياة الشيخ على حياة عادية بحتاً ، فلم يزد خطبه على مجاور مغمور فى ذلك الخضرم الزاخر بآلاف المجاورين .

وتستشرف نفس الفتى للأدب . والأدب فى ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفى موزوناً . فاذا أعوزك العروض ، وعُميّت عليك أوزان الشعر ، فحسبك أن يكون المصراع فى طول المصراع . فان

زاد الكلم فى تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متسع للجميع . وعلى ممرط أن تتغزّل . فتتغزل كلما طلبت مديحاً ، وتتغزل كلما أردت رثاءً ، وتتغزل كلما ابتغيت هجاء . وكانت هذه ، وخاصة فى البيئة الأزهرية أهمّ فنون الشعر ، إن لم تكن جميع فنون الشعر .

وعلى هذا قرضَ الشعر المجاور على يوسف ، فذهب له به بين المجاورين صيت وذكر

ولقد كان الأدب يُحمد من المجاور عند أشياخه إلا أن يسرف فيه ويجرد له صدراً كبيراً من وقته ، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه ، لأنه فى الواقع يشغله ، بقدرٍ ما ، عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح) والعياذ بالله ! وحسبه فى العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة أو اثنتين يرثى بهما من يموت من عِلية العلماء

وأسرف الشيخ علىّ فى قرض الشعر ، فمدح ورثى ، وتغزّل (بالطبع) وهجا ، حتى اتسق له من هذا النظم ما جمعه بعد فى ديوان كامل ، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً وإن حق عليه القول ، وتراءى له شبح الهول !

إذن أصبح الشيخ مجاوراً ممتازاً بين المجاورين بالأدب ، أو إن شئت قلت ، لقد أدركته من الناحية الأزهرية ، حرفة الأدب

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأدباء ، ومساهرتهم ومسامرتهم والتروّى عنهم ، ثم إلى غشيان دور بعض العلية ممن كانوا يجلسون لأهل العلم والفضل والأدب ، فيتحاضرون ويتذاكرون . وأقبل الشيخ على هذا الشأن بقدر ما أدبر عن الكد فى دروس الأزهر . ثم جعل يرسل المقالات المنثورة فى الصحف والمجلات التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وكان يكتب أول الأمر على طراز الكاتبين فى عصره : مقدمات طويلة تمهّد بين يدى كل موضوع ولو لم تدع إليها حاجة الكلام ، واحتفال للمحسنات البديعية تستكره استكراهاً ، ولو استهلكت الغرض المطلوب

على أن من حسن حظ الشيخ علىّ أنه ابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيه تلك النهضة البيانية الفاخرة ، تلك النهضة التى نفخ ضرامها بالأرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغانى ، وبالفعل من الأنشاء والتعليم والتأليف الشيخ حسين المرصفى ، وللشيخ على طبيعة ، وفيه فطنة قوية ، فجعل يدرّب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جزلاً خالياً من الاعتساف ، متطلّقاً من تكاليف البديع

وفى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه فى أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ورهافة حسّ ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفس الكاتب وقوة روحه . فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنىّ بتقصى منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطّع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعا . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أبين مثال على هذا الذى نقول . ولقد يعجب القارىء أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدى باشا ، وكان رجلاً قلّ أن تطّرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة الى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان !

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طرفاً من كتب الأدب ، واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — إلاّ أنه لم يكن مديناً فى بيانه لشىء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة روحه وسطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحداً لم ينته فى البيان منتهاه . ثم تُقبل على صيغه تفتشها وتفرّها ، فلا تكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكلّفه صدور الكتاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوىّ نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات

ولندع الآن بيان الشيخ على وأثره ، فلذلك موضع آخر من هذا الحديث . ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول إنه ما كاد يستوى له ذلك القدر من الأدب حتى أنشأ مجلة دعاها (الآداب) . وهى وإن لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى المجلات الأدبية القائمة الآن ، إلاّ أنها كانت شيئاً مذكوراً بالقياس إلى المجلات التى كانت قائمة فى ذلك العهد . وخاصة بعد إذ عفّى الزمن على مجلة روضة المدارس التى كان يقوم على تحريرها وإجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدورُ العلماء والشعراء والكتاب

المؤيد

وإذا قلت « المؤيد » قلت شطر من تاريخ مصر محتفلا بالأحداث العظام

راع أهل الرأى فى مصر أن ليس لهذه الأمة ، أعنى المسلمين وهم كثرتها الكثيرة . صحيفة تتحدّث عنها وتدلى بحاجاتها . وتترجم عن أمانيها ، وتذود عن حقوقها وكرامتها . وإن أمة ليس لها فى هذا الزمان صحيفة ، لهى أمة لا تحسّ لنفسها وجوداً . ولقد قوى الشعور بشدة الحاجة إلى صحيفة وطنية إسلامية بعد إذ صدر المقطّم صحيفة تظاهر الاحتلال الانجليزى ، وتروّج للسياسة الانجليزية فى هـــذه البلاد ، وتدفع فى صدر الأمانى القومية مااعترضت تلك السياسة فى يوم من الأيام . وهنا يتقدم الشيخ على مع صاحب له يدعى الشيخ أحمد ماضى فينشئان جريدة المؤيد يومية سياسية وطنيـة إسلامية . ثم لايلبث الشريكان أن يختلفا ، ولايخرج أحدهما عن الشركة إلاّ على مال ، والمال فى يد الشيخ على أقلّ من القليل . وهنا تحركت أريحية بعض كبار المصريين فأدوا المال عن الشيخ إلى صاحبه . وهكذا خلص المؤيد للشيخ على يوسف . وكان للمرحوم سعد باشا زغلول فى هذا سعى مشكور

وأذكر أنه لما أتى رحمه الله ، بمطبعة جديدة من طراز (الروتاتيف) وعقد لذلك حفلاً جامعاً فى إدارة المؤيد خطب فى الجمع فأتى فى سيرة المؤيد على هذه الحادثة ، ونوّه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذى أبى أن يسمع هـذه الخطبة إلاّ واقفاً

وجرى المؤيد طلَقاً ، والله يعلم كم عانى الشيخ على فى إخراجه فرداً لا مُسعد له من معين أو من مال . الحق أن الرجل لقد جاهد فى هذا جهاد الجبابرة ، وعانى عناء لو صوّره القلم على حقيقته لظنه الناس من إحدى القصص التى تمثلها أخيلة الكتاب . وهكذا لم يمض زمن طويل حتى جنى ثمرة الصبر العجيب (إنّ الله مع الصَّابرين) صدق الله العظيم

مضى المؤيد يحرره الشيخ على يوسف ، ويرفده بالمقالات البارعة أعيانُ أهل الرأى والعلم والأدب فى البلاد من أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد بك زغلول ، وقاسم بك أمين ، وفتحى بك زغلول ، وحفنى بك ناصف ، وكثير غيرهم من أصحاب البيان . وكانوا يُسرّون أسماءهم فى الأحاديث السياسية ، بوجه خاصّ ، فذلك مما لا تأذن به المناصب الحكومية بحال . وكذلك أضحى المؤيد مجالاً لأجل الأقلام وأنضج الآراء . بل لقد أضحى المدرسة التى تخرج عليها من شهدوا الجيل الماضى من أعلام البيان وبسير المؤيد . ويذهب صيته لا فى مصر ولا فى العالم العربىّ فحسب ، بل فى العالم الاسلامىّ كله ، فلقد أصبح لسانه المعبرّ أفصح تعبير عن حقيقة حاله ، والمترجم أنصح ترجمة عن آلامه وآماله ، ومتحدّث أخبار المسلمين ورواويها ، وملتقى أفكارهم فى قواصى الأرض وأدانيها

لايرحل الناسُ إلانحو حجرته   كالبيت يفضى إليه ملتقى السبُل

وحسبنا هـذا القدر الآن فى المؤيد وفى صاحب المؤيد . وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى عسى أن نوفيه بعض حقه إن لم نوفه كل حقه . رحمة الله عليه ؟

عبد العزيز البشرى

لا مؤاخذة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كنت أعرف رجلاً طيب القلب بلغت منه طيبة القلب مبلغاً عظيما . فكان يحب الخير ولا يميل إلى الأذى ، ويعف عما فى أيدى الناس ، ويعطيهم مما فى يديه أكثر مما كان ينبغى له ، حتى إنه كان يحب أحياناً أن يولم لبعض أصدقائه ولمية فلا يجد ما يولم لهم به من المال فى كفه ، فيدفعه حرصه على إرضائهم إلى أن يؤذى نفسه فى سبيل ذلك الرضا ، فقد استدان مرة بضعة جنيهات من صديق له وأولم فى اليوم التالى لبعض أصدقائه ولمية لذيذة ، وأبى عليه كرمه أن يهمل صديقه الذى استدان منه فدعاه إلى الحضور ، وكانت فكاهة الأصدقاء بنبأ الوليمة والدين الذى ركب صاحبها من ورائها سبباً فى شحذ شهوة الطعام فى الجمع حتى لم يبقوا على شيء من ذلك الطعام اللذيذ

غير أن هذا الرجل الطيب كان فيه عيب واحد لا أعرف فيه عيباً سواه ، وهو أنه كان يعنى عناية عظيمة برأى الناس فيه ، فلا يكاد يسمع من أحد مدحاً فى نفسه حتى يثور طربه ، ويهتز للمديح اهتزاز الغصن الرطب فى الريح ، وقد تدفعه الأريحية عند ذلك إلى الخروج عن طاقته فى جزاء المادح ؛ وأما إذا هو سمع أحداً يذمه ولو ذماً ضئيلاً ، فانه لا يتمالك نفسه من الغضب ، وقد تكون غضباته مضرية هائجة ، ولولا إنه من الثابتين المطمئنين إلى حكم القانون ، لكان لا يرى شيئاً يغسل عنه معرة الذم ، إلا أن يراق فى سبيلها الدم . وقد عرفت أنه سمع مرة أن بعض الناس يقعون فيه ويذمونه بأنه يأكل فى بيته الثريد بأصابعه الخمس ، وأنه ما يكاد يصل إلى بيته حتى يخلع ثيابه المحترمة ، ويلبس لباساً ساذجاً مما يلبسه علمة الناس من طبقات الفقراء ، فيضع على رأسه لبدة بيضاء من الصوف الخشن ، ويلبس فى رجله قبقاباً من الخشب الثقيل ، ويلبس على جسمه جلباباً من القطن الرخيص ، فما كاد يسمع ذلك القول حتى ثارت ثائرته ، وجعل يصيح فى الحاضرين بأعلى صوته واصفاً ما يلبس وما يأكل ، مجتهداً أن يطلع الناس على حاله فى بيته ، وعلى ما هو عليه من تمتع بأقصى ما يتمتع به المتحضرون المتأنقون ؛ ولعله قد لاحظ شيئاً من التردد بين سامعيه فى تصديق أقواله ، فجعل يزيد فى التأكيد حتى بلغ الأمر منه أن جعل يقسم لهم جهد الايمان ، ولما أحس مع كل ذلك أن السامعين فيهم المعاند والمكابر ، اتخذ خطة عملية حازمة لبيان صدق قوله . فقد حلف على الجميع وعزم أشد العزيمة أن يزوروه فى منزله فى صباح الغد ليقيموا عنده النهار أجمعه فيطلعوا على أسلوب حياته معاينة واختباراً . ثم ذهب من فوره إلى أقرب أصدقائه إليه ، وأوثقهم مودة عنده ، وأملئهم جيباً . فاستدان منه مايستعد به لحفلة الغد ، ولم ينس أن يدعوه فى المدعوين لشهود ما هو على نية إظهاره وإجلائه

ولكن لا يظنن أحد من القراء أننى أصف هذا الرجل لأنه ممن يستحق العناية الخاصة لميزة فى شخصه ، أو لمكانة له بين الناس . فانما أنا أسوقه مثلاً لقوم فى مصر يريدون أن يقحموا البلاد فى مثل ما تورط فيه صاحبنا هذا . فمثلاً قد تكرر ما قال القائلون من الدعوة لمصر فى الخارج ، وما صاح الصائحون من وجوب إظهار أهل الغرب على ما نحن عليه من رقى وتحضر ، وهم لا يضنون على ذلك السعى بالمال مهما عظم مقداره ، والحق إننى أعطف أشد العطف على وطنية هؤلاء وسلامة طويتهم . فمثلاً قد ذهب أحد المصريين إلى مؤتمر من المؤتمرات ، وكان بطبيعة الحال لابساً بذلة من البذلات الرسمية الوجيهة ، فمال عليه جاره وكان من ممثلى بعض دول الغرب فسأله عما هو صانع ببذلته تلك بعد انصرافه من المؤتمر . وأغلب ظنى أن ذلك الزميل الأوربى المحترم قد ظن فى الممثل المصرى أنه لا يكاد ينفلت من المؤتمر حتى يرمى بتلك البذلة فوق أقرب شجرة من شجر الجميز إذا بلغ الطريق المؤدية إلى عاصمة بلاده ، وهو راكب جملاً قوياً يحمله فى سفره ، ثم يقف تحت تلك الشجرة ينتظر مرور أول وعل من وعول الجبل فيرميه بسهم من قوسه الشديدة ، ويسلخ عنه جلده ، وينشره فى الشمس يوماً أو بعض يوم ، ثم يلبسه بدل بذلته الرسمية . ثم يتابع سيره نحو العاصمة لمقابلة أولى الأمر فيها ، وإبلاغهم نتيجة بحوث المؤتمر الذى كان يمثل بلاده فيه . لعل ذلك الزميل قد حسب هذا ، ولا بد أن الممثل المصرى قد تصور هذا الظن ؛ ورأى فيه مساساً عظيما بكرامته وكرامة بلاده

فغضب له ، وجاء يشكوه لبنى وطنه ليظهر لهم مقدار جهل الناس بحقيقتهم ، وقد سمع هذا القول طائفة من الناس فغضبوا له غضباً شديداً ، وجعلوا يطالبون بأن تبذل الحكومة من أموال الشعب بضع مئات من الوف الجنيهات الذهبية لكى تنظم دعوة لاطلاع أهل الغرب على حقيقة أمر الشعب المصرى

وإننى لا أرى مانعاً يمنع من بذل المال ، ولا من القيام بدعوة فى سبيل مصر ، فكل شىء فى خدمة مصر هين ، وكل قصد الحياة هو خدمة مصر

ولكنى مع ذلك أحب أن تتجه الدعوة نحو قصد مخالف كل المخالفة لما يريد هؤلاء السادة أن يدعوا اليه . ولا يسعنى إلا أن أعتذر لهم وللقراء عن هذه المخالفة التى قد تغضبهم متى وصفت لهم حقيقتها ، ولا أجد شيئاً أقدر أن أعتذر به اليهم إلا أن أقول لهم : « لامؤاخذة » ، فان هذه الكلمة كلمة سحرية ، وقد جربت أثرها فى مختلف المواقف ، فوالله ما خاننى سحرها يوماً ، ولا خذلنى نصرها فى ساعة من ساعات الشدة . فكم وطئت على أقدام فى الترام وقت الزحام ، فلما رأيت ثورة الذى وطئت قدمه أسرعت وتلفظت بذلك الطلسم ، فاذا وجهه تشرق عليه ابتسامة عريضة ، ويهز رأسه لى ، كأنما هو يعتذر عما ظهر على وجهه من التجهم فى أول الأمر . وكم أخطأت فلم ينجنى من تبعة الخطأ إلا هذا اللفظ المبارك ، وكم خرجت عن حدود اللياقة ونفذت الى العفو الفسيح من مداخل هذا اللفظ البديع . فلا مؤاخذة أيها السادة إذا كنت أعتقد أن خير مصر ونفع الوطن فى أن نبذل بضعة آلاف أو بضع مئات من الآلاف من جنيهات الذهب ، على أن يقوم جماعة من المخلصين لمصلحة هذه البلاد بدعوة فى شعوب العالم أجمع ، يعلون فيها من ذكر مصر ، بأن يصفوا أهلها بالتوحش والغلظة ، وينعتوهم بأقبح النعوت وأبشع الصفات — وحبذا يوم يعتقد فيه شعوب أوربا وأمريكا أن المصريين لايلبسون إلا جلود النمور والأسود ، ولا يعرفون من المساكن إلا الكهوف والأدغال ، وأن لهم قسياً قوية وسهاماً مسمومة ، وأنهم يقفون لأعدائهم تحت الصخور ووراء الجذوع ، فيسددون اليهم سهاماً مصمية لاينجو أحد من جراحها ، وأن الذى يدخل بلادهم لايلقى إلا مشقة ، ولا يرتاح فى حل ولا ترحال . وأن المصريين يأكلون لحم الحيوان بغير نضج ، فاذا لم يجدوا من لحوم الحيوان شيئاً أشبعوا الجوع بما يجدونه قريباً منهم من اللحم ، ولو كان آدمياً ؛ وأنهم حديدو الأسنان ، حُمش السيقان ، خُزْر العيون ، قبيحو الخلقة . أقول هذا «ولامؤاخذة» فان تلك الدعوة عندى آثر وأحب ، وأثرها فى ظنى أبلغ فى إجلال القوم لنا ومراعاتهم لحُرَمنا . فان الناس على حضارتهم لم يزيدوا بعد على أنهم متوحشون ، قد طلوا ظاهرهم بطلاء من الفضة أو الذهب ، وأما باطنهم فلا يزال فيه الحيوان البرى الذى يخشى القوة الوحشية خشية أعظم من تقديره لفضائل الفلسفة

وإنها لأهانة لاتعدلها إهانة أن يذهب نفر من أهل مصر ليعلنوا فى ملأ الشعوب الأخرى أن شعب مصر يلبس الملابس المتادة ، لا جلود الحيوان ، وأنه يأكل الخبز والطعام ، لا لحوم البشر ولا المن والجراد . أما أنا فيمين الحق إنه لأحب الى أن يذهب الناس عنى قائلين إنى متوحش ، أو إنى جاهل ، أو إنى غر ، أو إننى من أكلة لحوم الانسان ، من أن أكلف نفسى أن أبين لهم أننى لست كما يزعمون . لا بل إننى أحسب أنه لو ظن الناس فىّ مثل هذه الظنون لكان هذا مبعث فكاهة لنفسى أنعم بها وحدى وأنا أتأمل مقدار جهل هؤلاء الناس بى ، وضلالهم فى معرفة حقيقة أمرى

ولعل أهل الغرب إذا فشت فيهم عقيدة أننا من لابسى الجلود وآكلى اللحوم النيئة ، حملهم ذلك على بعض التحرز فى معاملاتنا ، وبعض الخشية من أنيابنا

ولا مؤاخذة ! . . .

محمد فريد أبو حديد

بوانكاريه وبارتو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فقدت فرنسا فى أسبوع واحد رجلين من أعظم رجالها ، وسياسيين من أقدر ساستها وكاتبين من أكبر كتابها ، هما مسيو لوى بارتو وزير خارجيتها ، ومسيو رايمون بوانكاريه رئيس جمهوريتها الأسبق ؛ فذهب مسيو بارتو ضحية بريئة فى حادث مرسيليا المروع الذى اغتيل فيه الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، وتبعه مسيو بوانكاريه الى القبر بعد أيام قلائل . وكان السياسى العظيم مريضاً منذ حين ، يستشفى فى الرڤييرا ، ولكنه عاد الى باريس منذ أشهر ممتعاً بالصحة والنشاط ، ثم توفى فجأة ، بينا كان يتابع الكتابة فى مذكراته ؛ فذهب بموته ركن من أعظم أركان السياسة الفرنسية المعاصرة . ولايشغل بوانكاريه وبارتو مكانتهما الممتازة فى عالم السياسة فقط ، ولكنهما يشغلان مكانتهما الممتازة فى عالم البيان والأدب أيضاً ، ولكل منهما آثار أدبية تتبوأ المقام الأول بين تراث الأدب الفرنسى المعاصر

كان رايمون بوانكاريه فرنسياً عظيماً من غلاة الوطنية الفرنسية التى تذهب الى حد التعصب ؛ وكان يمثل مدرسة سياسية خاصة شعارها القومية المغرقة فى كل شىء ، ووسيلتها القوة والتفوق المادى قبل كل شىء ؛ وكانت سياسته قبل الحرب وفى خلالها ، ثم من بعدها ، تمثل دائماً روح العسكرية المحافظة ، وروح الاستعمار الجشع ، فكان بوانكاريه من أعظم بناة العسكرية الفرنسية ، وكان من أعظم بناة الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية . وكان مولده فى « بارلديك » من أعمال اللورين فى اغسطس سنة ١٨٦٠ ، ودرس الحقوق فى باريس ؛ وبدأ حياته العملية فى الصحافة ، فتولى حيناً تحرير القسم القضائى لجريدة « لى ڤولتير » ثم عين موظفاً فى وزارة الزراعة ، ولكن جو الوظائف الحكومية لم يرقه ، فاستقال لنحو عام من تعيينه ؛ وكانت أحداث السياسة تهزه وتستغرق اهتمامه ، فخاض المعركة الانتخابية ودخل البرلمان لأول مرة فى سنة ١٨٨٧ نائباً عن مقاطعة الموز . ومن ذلك الحين بدأ نجمه السياسى فى التألق ؛ وامتهن المحاماة فى باريس ، فظهر فيها بمقدرته وساحر بيانه ؛ وجدد انتخابه لمجلس النواب سنة ٨٩ ، ثم فى سنة ٩٣ . وفى هذا العام دخل الوزارة وزيراً للمعارف وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، ثم تولى وزارة المالية فى العام التالى ، ثم المعارف مرة أخرى سنة ٩٥ . واستمر فى مجلس النواب حتى سنة ١٩٠٣ ، ثم دخل مجلس الشيوخ . وتبوأ بوانكاريه مركزه فى الزعامة السياسية ؛ كما تبوأ مركزه فى الزعامة الأدبية ؛ وكان الى جانب مقدرته السياسية كاتبا ممتازاً ؛ يلفت الأنظار بروعة كتاباته السياسية والأدبية . وفى سنة ١٩٠٦ تولى وزارة المالية مرة أخرى . وفى سنة ١٩٠٩ توجت زعامته الأدبية بانتخابه عضواً فى الأكاديمية الفرنسية . وفى يناير سنة ١٩١٢ ألف بوانكاريه وزارته الأولى خلفاً لوزارة كايو المستقيلة ، وتولى الى جانب الرياسة وزارة الخارجية . وهنا بدرت بوادر الأزمات الدولية التى مهدت الى الحرب الكبرى ، فأبدى بوانكاريه خلال هذه العواصف قوة ومقدرة ، وظهرت قوة وسائله بالأخص فى مسألة مراكش حيث استطاع أن يرغم السلطان على الاعتراف بالحماية الفرنسية ، وظهرت ميول بوانكاريه العُسكرية واضحة فى عنايته بمسألة التسليحات ، ومضاعفة قوى فرنسا البحرية . وفى سنة ١٩١٣ انتخب بوانكاريه رئيساً للجمهور الفرنسية خلفاً للرئيس فاليير ؛ واستدعى أرستيد بريان لرياسة الوزارة . وكانت أوربا تسير يومئذ الى الأزمة الكبرى بخطى سريعة ؛ وكان بوانكاريه يسهر على ثمار سياسته ، وعلى المحالفات التى انتهت اليها . وفى يوليه سنة ١٩١٤ كان بوانكاريه الى جانب نيقولا الثانى قيصر روسيا فى بطرسبرج ؛ وكانت بواعث هذه الزيارة ظاهرة واضحة ، وهى تمكين التحالف الروسى الفرنسى ضد ألمانيا والنمسا والمجر ، وتنظيم الخطط للمعركة القادمة

ولما عاد بوانكاريه الى فرنسا كانت الأزمة قد وصلت ذروتها ولاح شبح الحرب جلياً فى الأفق . وكتب بوانكاريه بهذه المناسبة الى جورج الخامس ملك انجلترا خطاباً اشتهر بقوة منطقه وبيانه . ثم كانت الحرب ؛ فكان بوانكاريه رجل الموقف ؛ وأبدى خلال هذه الأعوام العصيبة كثيراً من الحزم والقوة والبراعة فى تدبير شؤون الحرب ومعالجة المشكلات الخطيرة التى كانت تثيرها ، واستطاع أن يقف البرلمان عند حده وأن يحمى الجيش من نفوذه ،

وأن يرد حملاته عن الحكومة ، وأن يقضى على التنافس الحزبى وآثاره السيئة فى سير الأمور . ولم يحجم فى سنة ١٩١٧ عن استدعاء خصمه القديم جورج كليمنصو الى تولى الحكم ، فكان موفقاً فى اختياره ، وكانت وزارة كليمنصو وزارة النصر النهائى

وهنا نقطة خطيرة يجب أن نشير إليها تلك هى موقف بوانكاريه الحقيقى إزاء الحرب الكبرى ومبلغ مسئوليته فى العمل لأثارتها . وقد أثارت مسئولية الحرب منذ عقد الصلح كثيراً من البحث والجدل ، وألقى عليها كثير من الضوء سواء من الوثائق الرسمية المختلفة التى نشرت ، أو تصريحات أقطاب السياسة الأوربية الذين اتصلوا بمقدماتها . وقد ظهر منها جميعاً أن رايمون بوانكاريه يحمل فى إثارة الحرب الكبرى أكبر التبعات وأنه كان من العاملين لها قبل نشوبها بأعوام ؛ وظهر بالأخص من الوثائق السياسية التى نشرها مسيو أزفولسكى سفير روسيا فى باريس قبيل الحرب ، أن بوانكاريه كان دائب العمل بالتفاهم مع القيصر على تنظيم الخطط لأذكاء الأزمة ، وأن زيارته للقيصر فى يوليه سنة ١٩١٤ لم تكن إلا لأحكام خطط العمل والدفاع فى الحرب المنشودة . وهذه نقطة خطيرة تثقل كاهل بوانكاريه بلا ريب ، ولم يوفق هو قط إلى دحضها رغم كل ما قال وكل ما كتب .

وانتهت رياسة بوانكاريه للجمهورية فى سنة ١٩٢٠ ، وخلفه مسيو دى شانل الذى لم تطل رياسته سوى أشهر ؛ وعاد إلى مجلس الشيوخ ، وإلى العمل فى المحاماة والصحافة ، وفى يناير سنة ١٩٢٢ ، ألف بوانكاريه وزارته الثانية ، وتولى وزارة الخارجية ، وكان الجدل يشتد يومئذ بين فرنسا وألمانيا حول تنفيذ شروط معاهدة الصلح وأداء التعويضات المفروضة على ألمانيا ؛ وكان بوانكاريه يرى منذ البداية أن تذل ألمانيا ، وتسحق حتى النهاية ، وكان من أشد خصوم الهدنة ووقف الحرب ، وكان يرى مع فوش أنه يجب مطاردة الجيش الألمانى حتى عاصمة بلاده ، وجعل الرين حداً لألمانيا ؛ فلما بدأت ألمانيا فى التذمر من شروط الصلح ، ومن أداء التعويضات ، رأى بوانكاريه الفرصة سانحة للعمل ، فقرر احتلال الروهر فى أوائل سنة ١٩٢٣ تنفيذاً للعقوبات التى نصت عليها المعاهدة فى حالة التخلف عن التنفيذ ، وكان هذا الاجراء من أشنع الأخطاء التى ارتكبتها السياسة الفرنسية ؛ ولم يقف إلى جانب فرنسا فيه سوى بلجيكا ؛ وانتهى إلى عكس المقصود منه إذ أثار فى ألمانيا روح السخط والمقاومة ، وفقدت فرنسا من جرائه كثيراً من العطف ، وظهرت فيه بمظهر التحامل والتحرش ؛ وفقد بوانكاريه أيضاً كثيراً من ثقة مواطنيه وتقديرهم ؛ وظهر ذلك جلياً فى انتخابات سنة ١٩٢٤ حيث فاز فيها خصومه ومعارضوه واضطر إلى الاستقالة ؛ وتتابعت من بعده عدة وزارات ضعيفة كانت تسحقها الأزمة المالية وأزمة الفرنك بنوع خاص . ولما تفاقم خطب الفرنك وكادت فرنسا تنكب بكارثة مالية شنيعة دعى الرجل القوى (بوانكاريه) إلى الحكم مرة أخرى فى يوليه سنة ١٩٢٦ ، فلبى الدعوة ؛ واستطاعت وزارته بما اتخذت من التدابير السريعة القوية أن تجتنب الكارثة وأن ترد إلى الفرنك ثباته ، واستمر بوانكاريه فى الرياسة إلى سنة ١٩٢٩ ، ثم استقال لأسباب صحية ، وتفرغ إلى كتابة مذكراته التى بدأ باخراجها قبل ذلك بأعوام تحت عنوان « فى خدمة فرنسا » Au Service de France ، وفيها يبسط مراحل حياته السياسية ، وما اضطلع به من الأزمات السياسية قبل الحرب وفى أثنائها ، وما بذله من جهود لاحراز النصر . وكان بوانكاريه أثناء اعتزاله الحكم يكتب فى الصحف فصولاً سياسية قوية ، واشتهرت منها بالأخص سلسلة مقالات يكتبها تحت عنوان « الوعاء المتكسر » ، وفيها يندد دائماً بسياسة الضعف نحو ألمانيا ؛ وكما أن بوانكاريه كان يعرب فى سياسته عن عميق تعصبه القومى ، فكذلك تطبع كتاباته مثل هذه النزعة القومية العميقة ، وهو ينحو فى ذلك نحو مواطنه الكاتب اللوريني الأشهر موريس باريس الذى اشتهر بعنف حملاته على ألمانيا ، وتحريضه على سحق العنصر الجرمانى ؛ ولبوانكاريه آثار أدبية وتاريخية أخرى ، وله فى المحاماة مواقف مشهورة ، وقد وصل أثناء العمل بها إلى أرفع ما يطمح إليه محام ، وانتخب نقيباً للمحامين ، ورفع بذلك إلى صف أعلام الفصاحة القضائية ، كما رفع من قبل إلى ذروة المجد السياسى .

وقد لبثت السياسة الفرنسية مشربة بروح الأثرة والقومية

العميقة ، الذى عمل لاذكائه رجال مثل فوش وبوانكاريه وكليمنصو ؛ ثم تطورت منذ سنة ١٩٢٦ ، أى منذ اشتد ساعد الاشتراكيين والاشتراكيين الراديكاليين ، وقويت الدعوة إلى السلام والتضامن الدولى ، وتولى أرستيد بريان توجيه السياسة الخارجية الفرنسية ، ولاح مدى حين أن التفاهم ممكن بين أعداء الأمس ، وأن سلام العالم يمكن تحقيقه بالمواثيق والمعاهدات الصريحة ، ولكن بريان توفى بعد أن ازور نجمه ؛ ثم قامت الاشتراكية الوطنية فى ألمانيا ، وعادت موجة التطرف الهتلرى توجه النذير إلى فرنسا ؛ فعادت فرنسا إلى سياستها القومية المتطرفة ، وظهر بوانكاريه لمواطنيه مرة أخرى بأنه فى دعوته إلى هذه السياسة ، أبعد نظراً من الوجهة العملية ، من أولئك الذين ينشدون السلام بالتفاهم والحسنى .

***

وقد كان لوى بارتو من تلاميذ هذه المدرسة السياسية المغرقة فى القومية ، وكان مثل صديقه وزميله بوانكاريه يؤمن بسياسة القوة والتحالف العسكرى . وكان مولده فى بيارن من أعمال فرنسا الجنوبية سنة ١٨٦٢ ، ودرس الحقوق أيضاً ثم انتظم فى سلك المحاماة ، تلك المهنة الخلابة التى يتخرج فيها معظم الساسة الفرنسيين . ودخل بارتو مجلس النواب لأول مرة فى سنة ١٨٨٩ ، ولم يلبث أن ظهر بقوة منطقه وبيانه . ودخل الوزارة لأول مرة سنة ١٨٩٤ ، إلى جانب بوانكاريه وهو يومئذ فى الثانية والثلاثين من عمره . وكانت يومئذ بدعة أن يتولى الوزارة فتيان أحداث مثل بارتو وبوانكاريه . ولكن النبوغ المتفتح كان يسود كل اعتبار آخر؛ واستمر بارتو بين النيابة والمحاماة ، مدى حين . وتولى الوزارة بعد ذلك مراراً ، فى وزارة الأشغال والداخلية . ثم تولى وزارة الحقانية منذ سنة ١٩٠٩ فى وزارة بريان ، واستمر فى هذا المنصب أربعة أعوام . وفى سنة ١٩١٣ استدعى بارتو لرئاسة الوزارة ، فاستمر مضطلعاً بأعبائها إلى ماقبيل الحرب الكبرى ؛ واستطاع فى هذه الفترة أن يحمل البرلمان على إصدار قانون الخدمة العسكرية الجديد الذى يمدها إلى ثلاثة أعوام ؛ ثم تولى وزارة الأشغال مرة أخرى فى سنة ١٩١٧ ، ثم وزارة الحقانية فى وزارة بوانكاريه الثانية (سنة ١٩٢٤) . وعنى بارتو بدرس حركة النقابات وأصدر عنها كتاباً جامعاً بعنوان العمل النقابى L' action Syndical وظهر فى عالم الأدب ظهوراً قوياً ، واشتهر بروعة أسلوبه التحليلى ؛ وكتب تراجم نقدية بديعة لميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولامارتين وغيرهما وهى من أقيم كتب الترجمة الفرنسية ، وكتب كتاباً عن غرام فكتور هوجو Les amours d'un Poeté وهو من أرق ما كتب عن هذا الشاعر ؛ وكتب رسالة عن ڤاجنر ؛ وكتب غير ذلك من الكتب والرسائل مما يضيق المقام بذكره ؛ وانتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩٢٤ ؛ وكان محاضراً ومحدثاً ساحراً ، اشتهر بغزير ثقافته وقوة عارضته وتدفق بيانه .

ولما نشبت الحرب الكبرى دفع بارتو بابنه الوحيد إلى الصفوف المدافعة عن الوطن ، فقتل فى المعارك الأولى ، وأصاب فؤاد الوالد الكسير جرح لم يندمل قط .

وغادر بارتو مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٢٢ واستمر يخوض المعركة السياسية ؛ ولكنه كان من فريق الساسة الهادئين الذين لايظهرون كثيراً على مسرح المعارك الصاخبة . ثم تولى وزارة الخارجية منذ فبراير الماضى ، وكانت منذ سنة ١٩٢٧ وقفا على ارستيد بريان حتى توفى سنة ١٩٣٢ ؛ وتولاها من بعده بول بونكور . وكانت وفاة بريان نذيراً بتطور سياسة فرنسا الخارجية ، وعودها إلى الخضوع لروح الأثرة والوطنية المغرقة ؛ فلما تولاها بارتو كانت نظريات فوش وبوانكاريه قد غلبت فى توجيهها مرة أخرى ؛ وبارتو من أبناء هذه المدرسة كما قدمنا . وجاء عنف الحركة الهتلرية فى ألمانيا نذيراً جديداً لفرنسا بوجوب التحوط ومضاعفة الأهبات والمحالفات العسكرية . وقد أبدى بارتو فى تنفيذ هذه السياسة نشاطاً وبراعة فائقين فطاف بالبلاد المحالفة لفرنسا مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا ليحكم أواصر التحالف بينها وبين فرنسا ، ولكى تحاط ألمانيا بسياج قوى من الأمم الخصيمة التى تقف وقت نشوب الحرب إلى جانب فرنسا . بيد أن أعظم ظفر استطاع بارتو أن يتوج به سياسته هو تقوية التفاهم الفرنسى الروسى واستئناف سياسة التحالف القديم بين روسيا

وفرنسا ، وإدخال روسيا فى حظيرة عصبة الأمم وحظيرة الدول الغربية بعد أن لبثت بعيدة عنها زهاء ستة عشر عاما . وكانت هذه أول مرحلة فى سياسة فرنسا الجديدة لتحقيق عزلة المانيا عن باق الدول الأوربية ؛ وكانت المرحله الثانية ، هى توثيق أواصر التحالف بين يوجوسلافيا وفرنسا ، ثم حمل يوجوسلافيا على التقرب من إيطاليا ، وأخيراً تحقيق التفاهم بين فرنسا وإيطاليا وتسوية المسائل المعلقة بينهما وحملها بذلك على نبذ سياسة التفاهم مع المانيا الهتلرية بصورة نهائية . وكانت زيارة الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا تحقيقاً لهذا البرنامج . ولكن وقعت فاجعة مرسيليا التى ذهب ضحيتها الملك اسكندر ومسيو بارتو ؛ ولقيت السياسة الفرنسية بذلك صدمة قوية . بيد أنها صدمة مؤقتة ، والظاهر أن فرنسا ستمضى فى تنفيذ برنامجها السياسى ، وأن مسيو لاڤال وزيرالخارجية الجديد ، سيستأنف العمل حيث وقف مسيو بارتو ؛ وسيقوم مكانه بزيارة رومه ، كما كان مقرراً من قبل . ولكن الموقف ما يزال غامضاً ، ولا سيما إزاء ما يخشى وقوعه فى يوجوسلافيا عقب وفاة الملك اسكندر من الحوادث والتطورات الخطيرة

***

تلك سيرة الرجلين اللذين فقدتهما فرنسا فى أسبوع واحد . وقد فقدت فرنسا فى الأعوام الثلاثة الأخيرة جل أقطاب زعمائها القدماء ، مثل كليمنصو وفوش ودومير وبريان وبوانكاريه وبارتو ؛ وطويت بذهابهم مرحلة أو مراحل من تاريخ فرنسا المعاصر ، ولم يبق من أقطاب ساسة الجيل المنصرم سوى القلائل ، مثل تارديو الذى يمثل الكتلة القومية ، وهريو الذى يمثل السياسة الأشتراكية . ولا ريب أن فرنسا ستشعر بفداحة هذه الخسارة خصوصاً فى هذه الآونة العصيبة التى تقتضى كثيراً من العمل السياسى المستنير . بيد أن للسياسة الفرنسية تقاليد راسخة ، وسوف يبرز الى الميدان السياسى رهط من الساسة والزعماء الجدد ليملأوا ذلك الفراغ ، وليقودوا الجمهورية الثالثة الى نفس المثل والغايات التى عمل لها ساسة الجيل الراحل

محمد عبد الله عنان

المحامى

فى العيد الألفى لمولد الفردوسى

الشاهنامه

للدكتور عبد الوهاب عزام

ترجمة الكلمة التى ألقاها الأستاذ عزام بالفارسية على قبر الشاعر فى طوس

لست أريد أن أفصّل الكلام فى الشاهنامه أو بعض مباحثها الكثيرة . فأدباء إيران الكرام أعرف بذلك وأقدر عليه ، ولكني أريد أن أتقدم اليكم بكلمة موجزة تبين عن مكانة الشاهنامه فى آداب الأمم ولا سيما الأمم الشرقية :

قال بعض المؤلفين إن الشاهنامه إلياذة الشرق . وذلك التشبيه غير صحيح من بعض الوجوه ، فان الشاهنامه جديرة أن يكون لها بين أمم الشرق مكانة أرفع من مكانة الالياذة بين أمم الغرب . ذلكم بأن الالياذة قصة حروب وقعت فى معترك ضيق من آسيا الصغرى بين اليونان والطروادين . وهى زهاء ثمانية آلاف بيت ، تستمر حوادثها ستة وخمسين يوماً . والشاهنامه تقصّ حادثات ميدانها ما بين الهند والصين إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتشمل كل ما وعت الروايات من تاريخ الأمة الايرانية وأساطيرها من أقدم عصورها الى العهد الاسلامى ، ويشترك فى وقائعها التورانيون والعرب والروم والهند ، ولا تحرم الصين من نصيب فيها . فكل أمم آسيا العظيمة وبعض أمم أوربا يتناولها موضوع هذا الكتاب العظيم . فقد أوعى الكتاب من التاريخ والأساطير ما هو جدير بعناية المؤرخ الناقد ، مؤرخ السياسة أو مؤرخ الأدب والاجتماع

وصفت الشاهنامه نشوء الحضارة الايرانية وتطورها ، وقصّت تاريخ الايرانيين ملوكهم وأبطالهم وكبرائهم فى القرون المتطاولة ، وأبانت عما كان بينهم وبين الأمم المجاورة من عداء ومودة ، وحرب وسلم . وصفت الجلاد الهائل المستمر بين إيران وتوران ، ثم مثلت ما كان بين الأمتين من جوار ومودة فى القرابة بين ملوك إيران وتوران ، إذ جعلتهم جميعاً بنى أفريدون ، ثم وصلت هذه القرابة بمصاهرات عديدة : كتزوج سياوخسن بن كيكاوس جريرة بنت پيران أعظم قواد التورانيين ، ثم فرنگيس بنت أفراسياب أعظم ملوك توران ، ومن سياوخسن وفرنگيس ولد كيخسرو حفيد كيكاوس وسبط أفراسياب . وكذلك نجد فى العصور التاريخية تزوج أنوشروان بنت الخاقان

وأما العرب فقد أجل الكتاب فى أنبائهم ما كان بين الايرانيين والساميين من حوادث فى العصور المتطاولة ، فجعل الضحاك عربياً ، وقص وقائع كيكاوس وملك هاماوران (حمير) ووقائع أخرى بين الساسانيين والقبائل العربية . ثم ذكر طرفاً مما كان بين الأمتين من مودة وتعاون فيما كان من مصاهرة بينهما إذ تزوج بنو أفريدون الثلاثة سلم وتور وايرج ثلاث بنات لملك اليمن . وتزوج كيكاوس سوذابة بنت ملك حمير ، وتزوج زال بن سام رودابة بنت مهراب ملك كابل وهى عربية من نسل الضحاك ، فولد رستم بطل الأبطال من أب إيرانىّ وأم عربية . وأوضح من هذا ما كان بين الأمتين من مودة فى العهـــد الساسانى أعظم مظاهرها علاقة ملوك الحيرة بملوك الفرس ، وما كان للفرس من سلطان ومحبة بين العرب فى البحرين واليمن

والروم ذكروا فى أنباء الوقائع المتمادية التى كانت بين الساسانيين ودولة الروم الشرقية وفى قصة الاسكندر . ووصفت مودتهم فى قرابة ملوك الروم أبناء سلم بن أفريدون ، وفى تزوج گشتاسب بن لداسب من كتايون بنت ملك الروم ، وتزوج كسرى پرويز مريم بنت القيصر

والهند ذكروا فى حوادث منها وقائع كابلستان وحوادث بهرام گور وتزوجه بنت ملك الهند . والصين تذكر فى وقائع التورانيين وفى التجارة

فهذه المنظومة العجيبة التى تتناول حوادث قرون وأمم كثيرة لا ينبغى أن تشبَّه بالالياذة الضيقة الحدود ؛ وينبغى أن تكون عناية الشرقيين بها أعظم من عناية الغربيين بالالياذة

ولا ريب أن فى الشاهنامه أساطير كثيرة ، ولكن الأساطير فى الأدب أروع من الحقائق . ثم لا ينكر دلالة الأساطير على تطوّر الأمم وعلى كثير من عاداتها وأخلاقها . فان الأساطير وليدة خيال الأمة وأمانيها ، لا يحدها الواقع ولا تضيقها الحقيقة

وكم فى أساطير الشاهنامه فى العهدين الأول والثانى — عهدى البيشداديين والكيانيين — من حقائق دينية واجتماعية وتاريخية ألبست ثوب الخيال ، وحرفت فيها الوقائع والأسماء

وللشاهنامه ميزة أخرى على الإليـاذة ، وملاحم أخرى كالمهابهاراته والرامايانا ، بأنها كلها لشاعر واحد ، اذا استثنينا ألف البيت التى نظمها الدقيقىّ . والفردوسىّ ناظمها شاعر تاريخى معروف لا يشك أحد فى وجوده ، وأنه ناظم هذه الملحمة الرائعة ، على حين يكثر خلاف المؤرخين فى الالياذة وناظمها ، وعلى حين أن المهابهاراتا والرامايانا نظم شعراء عديدين بعضهم مجهول

فالشاهنامه سجل تاريخ أمة وأساطيرها منذ أقدم عصورها ، وهذا لا يعرف فى منظومة أخرى

* * *

لم يكن الفردوسى مخترع هذه الحادثات بل كان مصورها ، فقد نظم الرجل ما ادخرته الروايات ، ولم يكن حرًّا فى الذهاب مع خياله كيف يشاء . ودليل هذا فى الكتب الأخرى ولاسيما كتاب الثعالبى « غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » وهو أقرب الكتب الى الشاهنامه ، وقد عاصر الثعالبى الفردوسى وقدم كتابه للأمير نصر أخى السلطان محمود الغزنوى الذى قدمت اليه الشاهنامه



أبو القاسم الفردوسى لدى عودته من عند السلطان محمود الغزنوى

وهذا يزيد فى قيمة الكتاب ، ويجعله مرآة تاريخ الأمة وأفكارها ، لاصورة من خيال الشاعر وأوهامه . وهذا أيضاً يزيد فى قدر الفردوسى ، فعسير جداً أن يذلل الشاعر هذه الأكداس من الحوادث للنظم السلس المتين ، ويكلف نفسه السـير فى حزنها وسهلها ، لايتخير الأيسر والأسهل من موضوعات النظم

لو كانت الشاهنامه قصصاً منثورة خالية من روعة الشعر وموسيقى النظم ، لكانت مع هذا جديرة بعناية الايرانيين والأمم الشرقية ، ثم عناية المؤرخين والباحثين فى الأمم كلها . فكيف وقد أفرغت هذه القصص فى صور شعرية رائعة ، ونظم متين منسجم ، يزيد المعنى جلالاً وروعة ؟ كيف وهى جهد شاعر

نابغة فى أكثر من ثلاثين عاماً ؟ لاتقتصر الشاهنامه على قصص الحادثات ، ولكنها تصور الوقائع حتى يكاد القارىء يرى الفرسان فى حومة الوغى ، ويبصر النقع معقوداً فى الآفاق ، ويسمع صليل السيوف ووقع الأسنة ، وصياح الأبطال وصهيل الخيل

وهذا الفردوسى وصاف الحروب لايقصر فى تصوّر عواطف الانسان والابانة عنها على لسان أبطال قصته ، وهو ليس عاجزاً فى قصص الحب كما ترى فى قصة زال وروذابه ، وقصة بيژن ومنيژه ، وقصة گشتاسب وكتايون . وناهيك به رجل أخلاق لايألو فى الدعاء الى الخير والنهى عن الشر . وهو بصير بأحداث الزمان يستخرج المواعظ من وقائع الكتاب ، فلا يكاد يفتتح فصلاً أو يختمه إلا واعظاً بليغاً محذراً من غِيَرِ الزمان

وإنى أستشهد هنا أستاذا من كبار المستشرقين درس الشاهنامه درساً بليغاً ، هو الأستاذ نلدكه الألمانى قال :

« إن الفردوسى شاعر مطبوع ، يستولى على فكر القارىء ، ويحيى القصة التافهة بانطاق المثلين أمامنا ، بل كثيراً ما تضيع الحركات فى جلال الأقوال . وهو يفصل الحادثات فيبين أحسن إبانة عن حادثة لم يكتب عنها فى الأصل الذى نظم عنه أكثر من أنها وقعت ، ويبيح لنفسه أن يخلق حادثات صغيرة ليتم الوصف . وهو يعرف كيف يحيى أبطاله ، بل يخرج أحياناً البطل فى صورة جديدة غير التى عرفته بها الروايات ، وما أقدره على تبيان ماوراء أعمال الأبطال من أسباب وأفكار . والوصف النفسانى رائع جدا ، ونغمة البطولة تسمع فى الكتاب كله ، وعظمة الزمان القديم وأبهته ، وفرحه وترحه وجلاده ، مصورة فى أسلوب معجب ، حتى ليسمع الانسان صليل السيوف وجلبة المآدب . هو لا يبلغ فى التفصيل مبلغ هومير ، ولايستطيع مثله أن يجمل حادثة فى كلمات قليلة ، ولكنه مع هذا يمضى قدماً الى غايته حين يصف الوقائع ، وإن يكن فى الخطب والرسائل مكثاراً

مشاهد الحرب تستقبل القارىء فى كل مكان ، ولكن هناك ميادين للحب والعواطف الرقيقة ، فهناك قصص للحب عظيمة كقصة زال وروذابه ، وبيژن ، ومنيژه . وهى أجمل أقسام الكتاب ، والشاعر فى هذا ، بل فى كتابه كله ، يملك القارىء ببساطة الوصف . وعاطفة الأمومة والأبوة والقرابة واضحة فى الكتاب كذلك ، ولكن يصحبها التعطش للدماء ثأراً للأقارب ، فقصة الانتقام لسيا وخسن مثلاً تملأ صفحات من الكتاب كثيرة جداً ، وهذا الولع بالثأر يتمكن حتى نجد الرجل العاقل گو درز يشرب دم أطيب الأعداء پيراز . . . .

ويتجلى فى الكتاب كذلك ندب حظوظ الانسان فى هذا العالم الحائل والاعتبار بغَيَر الزمان » اه

هذه الميزات الأدبية والتاريخية جعلت للشاهنامه مكانة علية فى الأدب الفارسى منذ نظمت ، فحاكاها كثير من الشعراء بقصص متصلة بموضوعها ، فنظمت ست قصص أبطالها من أسرة رستم وهى : گرشاسب نامه ، وبطلها گرشاسب جدّ أسرة سام ابن نريمان . وسام نامه ، وبطلها سام بن نريمان جد رستم . وجهانگير نامه ، وبطلها جهانگير بن رستم . وفرامرز نامه ، وبطلها فرامرز بن رستم . وبانو گشاسب نامه ، وبطلتها بانو گشاسب بنت رستم وامرأة گيو بن گودرز . وبرزو نامه ، وبطلها برزو بن سهراب بن رستم . ونظمت بهمن نامه ، وبطلها بهمن بن اسفنديار

ثم نظمت بعد قصص أخرى كتيمور نامه التى نظمها الهاتفى ، وشاهنامة القاسمى الكونابادى ، وشاهية مجد الدين البابوى النسائى . ولا تزال محاكاة الشاهنامه مستمرة حتى العصر الحاضر

وقد حاكاها الترك إن صح ما يروى أن شاعراً فى القرن العاشر الهجرى من بروسه اسمه الفردوسى الطويل نظم شاهنامه طويلة جداً فى ٣٨٠ جزءاً ، وأهداها للسلطان بايزيد الثانى ، فأمر بانتخاب ٨٠ جزءاً منها وإحراق الباقى ، فغضب الشاعر وهجا السلطان وهجر بلاد الروم الى خراسان حيث مات غمّاً

وأولع الناس بترجمة الشاهنامه الى لغاتهم ، فترجمت الى عشر لغات . وكانت اللغة العربية أولى اللغات بترجمة الشاهنامه ، لما بين الأدبين العربى والفارسى من التقارب . ولذلك كانت العربية أسبق اللغات الى إحراز هذه الترجمة . فقد أمر الملك المعظم بن الملك العادل الأيوبى الفتحَ بن على البندارى الأصفهانى أن يترجم الشاهنامه الى اللغة العربية ، فشرع يترجمها فى جمادى الأولى سنة ٦٢٠ ، وأتمها فى شوال سنة ٦٢١ . استطاع أن يترجم هذا الكتاب العظيم فى ثمانية عشر شهراً ، وهى همة عالية ومقدرة عظيمة من هذا الأديب الكبير . ونحن نعترف لاخواننا الايرانيين بفضل إنشاء الشاهنامه وفضل ترجمتها الى اللغة العربية

ترجم البندارى الكتاب نثراً بلغة سهلة غير متكلفة ، ونقل الحوادث مجردة من التفصيل والتصوير الشعرى ، فجاء الكتاب

فى نحو ١٨٥٠٠ سطر ، فى كل سطر نحو عشر كلمات . وذلك نحو نصف الشاهنامه

ومعظم تصرّف المترجم يرجع الى ما يأتى :

١ — حذْف بعض الفصول الصغيرة كفصل تجريب أفريدون أولاده فى قصة أفريدون ، وقتل رستم الفيل الأبيض وذهابه الى الجبل الأبيض فى قصة منوچهر ، ومقاتلة رستم وجنكس فى قصة كامدس الكاشانى ، ونصح زال ابنه رستما فى قصة اسفنديار الخ

٢ — وحذْف بعض الحوادث كما حذف ما وقع بين رستم والتركان حينما ذهب لاحضار كيقباد من جبل ألبرز ، وحذف ذهاب امرأة كيو الى أبيها رستم حينما ذهب زوجها الى توران باحثاً عن كيخسرو

٣ — وحذف أكثر مقدمات الفصول التى يتكلم فيها الفردوسى عن نفسه أو يعظ ، كاحذف مقدمة قصة سهراب ورستم التى تكلم فيها الشاعر عن موت الشبان وحكمته ؛ ومقدمة قصة سياوخسن التى يتكلم فيها الفردوسى عن الشعر والكلام البليغ

٤ — اختصار الرسائل والخطب والوصايا المطوّلة ، واختصار الوصف فى الحروب وآلات الحرب ، ووصف الخيل والوحوش ، ووصف المآدب الخ

٥ — وحذف مدائح السلطان محمود ، وإثبات مدح الملك المعظم فى بعض مواضعها

٦ — ويزيد روايات من كتب التاريخ كالطبرى والمسعودى ، كا روى قصة ملك الحضر فى عهد سابور بن أردشير ، ونقَلَ ما كان بين هرمز بن نرسى ورعيته

والمترجم فى هذا أمين لا ينقل كلة من كتاب آخر إلا نبَّه اليها الخ . الخ . وقد أصلحت بعض هذه العيوب على قدر الطاقة حينما نشرتُ الترجمة العربية

لم ينقل المترجم الى العربيــة جمال شعر الفردوسى ، ولــكن نقل حوادث الشاهنامه مختصرة فيسَّر لقارئ العربية الأحاطة بموضوع الكتاب فى وقت قصير . ولا بد أن يكمل نقص هذه الترجمة بترجمة منظومة للكتاب كله أو لفصول منه

ولهذه الترجمة العربية قيمة أخرى ، فقد ترجمت فى أوائل القرن السابع الهجرى قبل أن يكثر الاختلاف بين نسخ الشاهنامه . وليس عندنا نسخة من الكتاب ترجع الى ذلك القرن . فيمكن أن يستعان بهذه الترجمة فى المقارنة بين نسخ الشاهنامه المختلفة وترجيح بعضها على بعض

***

اهتمت الأمم الشرقية الاسلامية من بعد بترجمة الشاهنامه ، فترجمت الى التركية العثمانية ، والى التركية الشرقية ، وطبعت الترجمة الأخيرة فى طشقند سنة ١٣٢٦ . وترجمت الى اللغة الكجراتية وطبعت فى بمباى (١٨٩٧ — ١٩٠٤) ، وترجمت الى اللغة الأردية كذلك

وفى القرن التاسع عشر الميلادى عرف الأوربيون الشاهنامه واهتموا بها ، فترجمها مول الى الفرنسية وطبعت على نفقة الدولة فى نصف قرن بين سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٧ وطبع معها الأصل الفارسى فى ثمانية مجلدات ضخمة ، وهى أعظم طبعة للشاهنامه عرفت فى العالم كله

وترجم اتكنسون الى الانــكليزية رستم وسهراب ، ثم الكتاب كله ترجمة مختصرة وطبعت فى لندن سنة ١٨٣٠ ، وترجم أرنولد سهراب ورستم أيضاً . ثم ترجم ورنر وأخوه الكتاب كله نظماً وطبع سنة ١٩٠٥ فما بعدها ، وكذلك ترجم رُجَرس معظم الكتاب وطبع فى لندن سنة ١٩٠٧

وترجم الكتاب الى الألمانية نظماً مرتين : ترجمة فون شاك وطبع فى برلين سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٦٥ ، ثم ترجمه رُكرت ، وطبع فى برلين من سنة ١٨٩٠ — سنة ١٨٩٥

ومن قبلها ترجم جُرِس خلاصة الكتاب الى موت رستم ، وطبعه فى برلين سنة ١٨٣٠

وأوفى ترجمة للشاهنامه الترجمة الايطالية ، ترجمها بزى نظماً ، وطبعها فى تورينو ١٨٨٦ — ١٨٨٨ فى ثمانية مجلدات

وطبع الأوربيون الشاهنامه الفارسية نفسها مراراً ، طبع الجزء الأول منها لمسدن فى كلكتا سنة ١٨١١ ، وطبعها كلها ترنر مكن فى كلكتا سنة ١٨٢٩ وهذه الطبعة أصل لطبعات أخرى . وطبعها مول فى باريس كما تقدم . وطبع ثلاثة أجزاء منها فون فولر فى ليدن بين سنة ١٨٧٧ و سنة ١٨٨٤

فهذا اهتمام الأوربيين بالشاهنامه وهم لاتربطهم بها وبقومها ما يربط الأمم الشرقية . وإنا لنرجو أن يزيد اهتمام الشرقيين بهذه المنظومة العظيمة حتى لاتخلو لغة من اللغات الشرقية من ترجمة كاملة منثورة ومنظومة

ولعل هذا الاحتفال العظيم بذكرى شاعرنا النابغة الخالد ،

يكون فاتحة نهضة فى الشرق توفى الشاهنامه حقها من العناية

وإن المندوبين المصريين ليسران ويفتخران بالمشاركة فى هذا المهرجان ، ويبلغان مشاركة الحكومة المصرية والأمة المصرية الاحتفال بالفردوسى الشاعر العظيم الذى تربطه بهم وأدباء الفرس عامة روابط أدبية وتاريخية لاتمحى على كر الأيام

عبد الوهاب عزام

الخميس ٢٠ جادى الأولى سنة ١٣٥٣
٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٤

٦ - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان : عملية وفكرية ، ولنتكلم عن كل منهما بالتفصيل فنقول :

(١) الشخصية العملية

كثيراً ما يُسأل الانسان : أيهما أفضل : الأمور النظرية أم العملية ؟ وبعبارة أخرى أيهما أفضل : الأفكار أم الأعمال ؟ وجوابنا على ذلك أننا لا نستطيع أن نفصل النظريات من العمليات ، فنحن فى حاجة إليهما معاً ، وكل منهما متوقف على الآخر ومكمل له ، لا ضده ونقيضه كما يظن البعض ، والأفكار أمهات الأعمال ، ومن الممكن اعتبارهما مظهرين لشيء واحد

وكما أن لكل أمر من الأمور ناحيتين : إحداها نظرية والأخرى عملية ، كذلك نقول إن للشخصية ناحيتين : نظرية وعملية ؛ فالرجل مثلاً قد يكون موضع الاعجاب لأفكاره وأعماله ، ولو أن الأعمال فى النهاية نتيجة للأفكار ، ومع ذلك قد تغلب على الانسان إحدى الناحيتين : النظرية أو العملية تبعاً لميوله وعاداته ، فهذا قد يميل إلى الجهة العملية ، وذلك قد يميل إلى الناحية الأدراكية فتنمى فيه بطريقة التعود هذه الناحية أو تلك

ولا شك فى أن الشخصية العملية التى تظهر بالعمل والتنفيذ أكثر أثراً وظهوراً فى الحياة العملية من الشخصية الفلسفية البعيدة عن هذه الحياة . والأولى كممثل يقوم بتمثيل دوره عملياً على المسرح أمام الناس ، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره فى الخفاء أو وراء الستار بعيداً عن الأنظار ، فأثر الأولى أكثر وضوحاً وظهوراً من أثر الثانية . وتتمثل الشخصية العملية فى المصلحين وقادة العمل والمستكشفين الذين ترى آثارهم فى أعمالهم التى قاموا بتحقيقها وتنفيذها خدمة للانسانية . وتتمثل الثانية فى الشعراء والفلاسفة والخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها ، فيسبحون تارة فى عالم الحقيقة ، وتارة فى عالم الخيال ؛ ولا ينكر فضلهم أحد ، ولكن أثرهم فى هذا العالم المادى أقل ظهوراً ؛ ففى اليوم الذى اجتاز فيه (بْلِيرْيُوت) القنال الانجليزى بطيارته كانت الأفكار كلها وأحاديث الفخر والاعجاب موجهة إليه ، لا إلى العالم الذى فكر فيها عدة سنوات حتى اخترعها

وإننا لانقصد بذلك أن نقلل من قيمة العلماء والمفكرين أو قادة الفكر ، ولكننا نقصد الاعتراف بأن تأثير رجال الأعمال أظهر من تأثير رجال الفكر ، وأننا نتأثر بالأعمال النبيلة أكثر من تأثرنا بالأفكار مهما كانت سديدة ، ولا ننكر أن الفكر والوجدان ينتهيان بالعمل

ومنذ زمن ليس بالبعيد كانت التربية تفكر فى العلم أكثر من العمل ، فكان الانسان إذا اختُبر سُئل عن « مقدار ما يعرفه » أما اليوم فقد تبدلت الحال وانعكس الأمر ؛ فأصبحت التربية تعنى كل العناية بالعمل والأعمال ، وأصبحت الأسئلة : « ماذا فعل الانسان ؟ وماذا يستطيع أن يفعل ؟ وما مقدار ما يفعل ؟ » ولم تكن الجامعات فيما مضى لتعنى بالجانب العملى من الحياة ، ولم تكن لتعمل على تربية رجال ليعملوا ؛ بل كانت عنايتها موجهة إلى تكوين رجال مثقفين حباً فى الثقافة ، معلَّمين حباً فى العلم ، ليكونوا كزينة لها أينما وجدوا فى الأسرة أو فى المجمع الدينى أو فى المجمع الأدبى . وكان الرجل الجامعى المثقف لا ينتظر منه أن يعمل شيئاً بيده ، فكان كأداة من أدوات الزينة ، وكان المجتمع يزدريه ويحتقره إذا حاول أن يعمل عملاً يدوياً . أما الأعمال اليدوية وأما الصناعات فكانت خاصة بالطبقة الفقيرة التى تُدْعى

الطبقة العاملة . وكان يظن خطأ أن هذه الطبقة خلقت لتعمل ، أما الطبقة الأخرى فخلقت لتفكر

أما اليوم فقد أصبحت الفكرة السائدة أن التفكير غير مقصور على طبقة من الطبقات ، وأن العمل لا تختص به طائفة دون أخرى ، وصار التعليم عاماً بين الفقراء والأغنياء على السواء فى الأمم المتمدينة ، لايمتاز به هؤلاء على أولئك ، وجعل وسيلة لاعداد الجميع للقيام بواجبهم العلمى والعملى والأدبى فى الحياة . وأصبحت الفرصة ، فرصة العمل سانحة أمام الجميع من غير ما تفريق . فالعلم الآن فى هذا العالم المادى لايصلح فى نظر الماديين — وما أكثرهم — لأن يكون غاية مستقلة ، بل يجب أن يكون وسيلة للعمل . ولسنا فى شك مطلقاً من أن العلم قوة ، لا ، بل أكبر قوة فى يد الانسان . وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس . وسيكون قوة الى الأبد ، ولكننا فى حاجة الى العلم الذى يؤدى الى العمل ، العلم الذى يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله الى عمل ؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه ، مثله كمثل شجرة بغير ثمر . هذا هو المقياس الذى يقاس به العلم ، ويحكم به على العلوم اليوم . ولا عجب ؛ فبعد أن كان العلم يطلب للعلم ، حباً فى العلم ذاته ، أصبحنا لا نفكر إلا فى الماديات ، نسأل عن مقدار ما يمكن أن يستفاد به عملياً فى الحياة من تعلم هذا العلم أو هذه المادة ، وأصبحت العلوم التى لا تؤدى إلى أكل الخبز ، أو الخبز والزبدة ، يُنظر اليها نظرة تشكك فى الاقبال عليها . ويكثر الاقبال على العلم أو المهنة بقدر ما يمكن أن تدرّه من المال فى أقصر وقت . هذا هو مقياس الاقبال على العلم الآن ، وهذا هو الرأى السائد بين الأكثرية من المربين والمتعلمين فى الأمم المتمدينة . فالعالم أصبح تجارياً ، والعلم كذلك أصبح ينظر اليه بنسبة ما يستطيع صاحبه أن يكتسبه بوساطته من وظيفة أو ثروة أو مركز أو نفوذ . ويكاد هـذا العصر المادى يقضى أو قضى بالفعل على العالم الروحى ، وعلى تعلم العلم حباً فى العلم ، والاشتغال بالفن حباً فى الفن . وإننا لا ننكره المادة ، ولا ننادى بكره المادة أو احتقارها ، ولكن يؤلمنا أن تسيطر المادة على كل شىء ، حتى على أفكارنا وتعليمنا . ولا ننكر أن النجاح هو الحياة ، وهو الفوز . وحبذا الأمر لو أمكننا أن ننجح النجاح المادى مع المحافظة على الروح العلمية الخالصة ، فنجمع بين عالم المادة وعالم الروح

فالحياة اليوم نزاع بين القديم والجديد : بين عالم الروح وبين عالم المادة ، وهو نزاع لا نهاية له ، ولكنه ليس نزاعاً عدائياً ، بل هو نزاع ودى تكميلى لا غرض منه سوى النجاح فى الحياة

ولكن ما النجاح الذى نبغيه ؟ وما الرقى الذى نريد الوصول اليه ؟ هو نجاح الشعب ورقيه ، روحياً ومادياً ، قوةً ونفوذاً ، علماً وعملاً ، مبدأ وإنسانية . ولكن هل يمكن الجمع بين الروح والمادة فى آن واحد؟ ولِمَ لا ؟ إن الانسان يستطيع أن يكون روحياً الى حد ما ، ومادياً الى حد ما ، بحيث لا تتغلب الروح على المادة ، ولا تسيطر المادة على الروح ؛ فيأخذ من كل منهما نصيبه ، ولا يعنى بناحية ويهمل الأخرى ، والنجاح هو الفوز بعد الجد والتعب ، التعب الجسمى والعقلى ، سواء أكان ذلك النجاح فى التأليف أو فى نسج القطن وغزله ، أو فى بيعه وشرائه ، أو فى صنع السيارات أو الطيارات ، أو فى كتابة الروايات . . الخ

ومن الضروريات الأساسية للشخصية العملية العلم بالشىء الذى يراد القيام به ، والرغبة فى النجاح فيه ، ولا فائدة فى العلم والرغبة إذا لم يصحبا بقوة تنفيذية معنوية أو حسية ، داخلية أو خارجية تعمل على التنفيذ

فكما أن السيارة لا تستطيع السير إلا إذا كانت معدة للسير تمام الأعداد . وكان بها المقـدار الضرورى من زيت الوقود ، وكان الطريق مُعبداً صالحاً لسير السيارات، كذلك الانسان لا يمكنه أن يقوم بعمل عظيم إلا إذا كان هناك علم به ، ورغبـة شديدة فيه ، وقوة دافعة تدفعه الى القيام به ، هى قوة الارادة والعزيمة الثابتة

. وطالما صادف الانسان أشخاصاً لديهم الوسائل الضرورية للنجاح فى العمل من علم وخبرة وذكاء وحسن تقـدير ، ولكنهم فقدوا صفة واحدة من أهم الصفات الضرورية للنجاح ، تلك هى قوة العزيمة والتنفيذ ، فلم ينجحوا فى أعمالهم ، لأنهم يميلون الى كثرة النقد والتحليل والتشكك فى كل شىء حتى فى أنفسهم فيمنعهم ذلك الشك من رؤية فائدة الشىء فيترددون فى الاقدام ، ويرجعون الى الوراء ، فتضيع منهم فرصة النجاح ، والفرصة إن أتت مرة قد لا تعود مرة أخرى . فالعزيمة الصادقة تعـد سراً عظيما من أسرار الشخصية العملية والنجاح فى العمل ؟؟

محمد عطية الابراشى

من مشاهداتى فى أوروبا

معجزات طبيب

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

يرى الداخل إلى مصحة تسابلابس حديقة جميلة زينت بالورود ونسقت بالزهور المختلفة الألوان . فاذا ما انتهى من الحديقة ودخل من الباب العام للمصحة ، وجد نفسه فى ردهة فسيحة ذات جناحين كبيرين أحدهما للرجال والآخر للنساء قد صفت فيهما الأرائك ، ونسقت أشجار الظل وأصص الأزهار المعروفة بالحدائق الشتوية Winter Gardens التى لا تنفك عينك تقع عليها أبداً فى بلاد النمسا الجميلة . ثم لا يلبث أن يرى أفواج المرضى يتدفقون عند ما يقترب موعد العلاج : وهو منظر يُذْعِر له من يراه لأول مرة ، ويكاد يذوب قلبه حسرة على أولئك المساكين وخاصة منهم المشلولين والمقعدين الذين يجرون فى العربات جر الأطفال الصغار لعدم قدرتهم على المشى والحركة . يأخذ كل مريض مكانه على تلك الأرائك . وفى يد كل تذكرة دخول ثمنها ثلاثة شلنات نمساوية أى نحو أحد عشر قرشاً مصرياً تبيح له الدخول مرة واحدة . وقبل ميعاد العلاج بعشر دقائق يفتح باب يوصل الى ردهة فسيحة ثانية توجد بها أرائك أخرى ومشاجب تعلق عليها الملابس ، وتقف سيدة تتسلم تذاكر الدخول وأخرى تأخذ بيد العميان الى أماكنهم . وهنا يخلع الجميع ملابسهم العليا ليصير النصف العلوى لجسم كل منهم عرياناً . فاذا دقت الساعة النصف بعد السابعة أو العاشرة صباحا ، أو الثانية بعد الظهر ، فتح باب حجرة العلاج على مصراعيه ، ووقف به ساحر جالزباخ يستقبل مرضاه ، وهو رجل مسن ، ولكنه بدين الجسم طويل القامة قوى الساعد مفتول العضل حاد النظر طويل اللحية أحمر الوجه دائم الابتسام ، يفيض البشر من عينيه الواسعتين البراقتين ، يحيى مرضاه بابتسامة ساحرة ، ويداعبهم بمختلف الدعابات ، ويقف بجواره نجله الدكتور فرتز الذى درس الطب فى ألمانيا ثم انقطع لمساعدة والده فى تلك المصحة العظيمة . أما حجرة العلاج فهى حجرة فسيحة مربعة طولها ١٢ متراً وارتفاعها ٧ أمتار ، غطيت جدرانها بطلاء بنفسجى اللون ، وأقيمت بجوار تلك الجدران عدة أفران كهربائية ذات أضواء مختلفة الألوان بعضها قوى جداً وبعضها ضعيف . فاذا دخل فوج المرضى تلك الحجرة تراصوا صفوفاً أمام آلة العلاج يتقدمهم الأطفال ويتلوهم المشلولون والعميان ويتبعهم باقى المرضى . أما الجدد فيجلسون على أرائك خلفية بعد أن يكونوا قد دونوا البيانات الخاصة بهم وبأمراضهم عند السكرتيرة التى تعرضها على الطبيب فيما بعد . تغلق أبواب الحجرة بعد ذلك فتصبح مظلمة إلا بصيصاً من نور ضئيل . ثم يبدأ الساحر بالعلاج : تسمع صوتاً يدوى فى أرجاء الحجرة كأنه الرعد القاصف يصم الآذان ، ويدخل الرعب فى القلوب ، فترتاع له أفئدة أولئك الذين كتب عليهم أن يلجوا هذه الحجرة لأول مرة ، ثم ترى شرراً كهربائياً بنفسجى اللون يتطاير من كرة معدنية كالبطيخة تتصل بأحد طرفى عصا يقبض عليها الساحر من الطرف الآخر ، ثم يمسك بعنق كل مريض ويمر تلك الكرة مرات سريعة بالقرب من عموده الفقرى من أعلى إلى أسفل ، ويضعها أحياناً على الجزء الذى يشكو منه ألماً ، ولا يستغرق ذلك كله أكثر من عشرين ثانية ، ثم يتركه إلى غيره وهكذا حتى ينتهى منهم جميعاً فى زمن لا يزيد على نصف ساعة ، فاذا خرج المريض من قبضة يده القوية ومن تحت تلك العصا السحرية مر فى أحد الأفران الكهربائية مروراً لا يستغرق بضع ثوان أيضاً بارشاد إحدى المرشدات هنالك

والحق أقول إننا لأول مرة سمعت أنا وصديقى ذلك الصوت المزعج ورأينا ذلك الشرر الكهربائى البنفسجى الذى علمنا عنه فيما بعد أنه نتيجة تيار كهربائى عالى الضغط جداً إذ يبلغ ٥٩٥ الف فولت ، أقول إننا عند ذلك ذعرنا وامتلأت قلوبنا رعبا ، وكاد صديقى يترك الحجرة ويعود أدراجه من شدة الخوف ، ولكنى تملكت قواى وشجعته ونبهته الى أولئك الأطفال والشيوخ الذين يتلقون ذلك الدش الكهربائى بلا خوف

ولا وجل ، واتضح لنا بعد التجربة أن فعل تلك الآلة فى الجسم أخف كثيراً من صوتها المرعب فى النفس حتى أن صاحبي بعد بضعة أيام أصبح لا يرهبها بل على العكس من ذلك كان يسعى ليكون فى المقدمة ، فكنت أذكره بقول الشاعر العربى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد

لنفسى حياة مثل أن أتقدما

أما الكشف على المريض الجديد فلا يستغرق أكثر من دقيقة لأنه يسأله عن الداء وموضع شكواه ، ثم يضع فوق ذلك الموضع أنبوبة زجاجية يمر بها تيار كهربائى ذو ألوان مختلفة ، وكأنى به يتعرف بذلك موضع الداء تماماً . ويدخل المرضى لتكرار ذلك العلاج بالألكتروراديوم ثلاث مرات يومياً . ثم إنه علاوة على ذلك العمل الأساسى يستعمل طرقا أخرى فى العلاج ، فانه يأخذ بالمحقن من كل مريض كمية معينة من دمه فى حجرة خاصة ويضعها فى أنبوبة كتب عليها اسم المريض ، ثم يمر فيها تيارات كهربائية لتقوية الدم ، وفى اليوم التالى يعيدها بالمحقن إلى جسم المريض نفسه ، وكأنى به يتمثل بقول أبى نواس :

وداونى بالتى كانت هى الداء

وفى المصحة فوق ذلك حجرات أخرى لعلاج بعض الأمراض الخاصة كالربو مثلاً حيث يستنشق المريض بعض غازات معينة فى أوقات تعين له . وهناك حجرة أخرى يدخلها المرضى بترتيب خاص حيث يحصر الجزء المريض من الجسم بين قرصين من المعدن تمر فيهما أشعة كهربائية قصيرة . وفى المصحة نحو ثلاثين موظفاً من رجال ونساء طبيبات وممرضات ، ولهم جميعا فى المصحة مسكنهم ومأ كلهم ومشربهم

ولقد تقابلنا مع الدكتور فرتز وتحادثنا معه طويلاً باللغة الانجليزية فكان مثال التواضع والأدب الجم ، وعرفنا منه أنه تجرى عمليات فى المصحة بوساطة التيار الكهربائى ذى الضغط العالى ، وأنهم يعالجون الأمراض على اختلاف أنواعها كالشلل والعمى والربو والسكر والسل الرئوى وعرق النسا الخ . ما عدا الحميات بأنواعها والصرع والجنون ، وعلمنا منه أيضاً أنه يبحث بحثاً جديداً فى استخدام الأشعة القصيرة فى العلاج ، وهو ينتظر فائدة كبيرة من وراء ذلك البحث . وأما والده زيليس Zeileis نفسه فهو فى الخامسة والستين من عمره وهو أقوى من أى شاب تراه ، ويأمل أن يعيش مائة سنة أخرى بفعل الألكتروراديوم ، وهو لم يتعلم فى المدرسة ليكون طبيباً ، وإنما كان إخصائياً فى النبات . ولما غادر المدرسة هوى الكهرباء ، وأخذ يدرسها ويجرب فعلها فى الأمراض حتى انتهى الى ذلك النجاح العظيم الذى صادفه باستخدام الضغط العالى الكهربائى ، وأخذ الشعب النمساوى والألمانى يقبل عليه وينتفع بعلمه وتجاربه حتى علا كعبه ، فأخذ الأطباء فى النمسا وألمانيا ومن ورائهم أطباء العالم يحملون عليه حملات شديدة وازدادت حملتهم عليه لما نبه ذكره وافتتح مصحته فى سنتى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ فحاربوه بكل ما أوتوا من قوة واتهموه بأنه دجال وأنه عالة على الطب ، وحرضوا عليه الحكومة ، فقبضت عليه وقدمته للمحاكمة ، فكان برغم ذلك رابط الجأش عظيم الثقة بنفسه وحصر دفاعه فى الكلمة القصيرة الآتية قال : « أولئك الأطباء المدبلمون كثيراً ما يخطئون ويكون فى خطئهم القتل لمرضاهم ، ذلك القتل الذى لا يقام له وزن . أما أنا فيجيئنى المريض بعد أن ييأس يأساً تاماً من شفائه على أيديهم فيبرأ من سقمه ويشفى من علته فيتركنى شاكراً مسروراً ، ولم يشك مريض واحد الى أحد بأن طريقتى أوقعت به أى أذى . فهل هذه الحملة إذن إلا حملة حقد وحسد ؟ » فكان فى ذلك الاقناع كل الاقناع للمحكمة فخرج منها منتصراً . ثم سار على نهجه ففاز بثقة الشعوب جميعاً . وفى نظرنا أن الخير كل الخير للأنسانية جمعاء ، ولهؤلاء الأطباء أن يتشجعوا وأن يضحوا بشىء من تعصبهم وغرورهم فى سبيل الصالح العام ، وأن يمدوا أيديهم إلى ساحر جالزباخ فيصافحوه معتذرين عما فرط منهم ، وفى يقيننا أنه لن يمتنع عندئذ عن أن يبيح لهم بسره الغامض وأن يطلعهم على أعماله وتجاربه ومخترعاته ، فتتكاتف الأيدى جميعاً وتتوافر على دراسة الأشعة القصيرة والألكتروراديوم . فيخطو العالم الخطوة الحاسمة نحو استخدامهما بدلا من المشرط ، ونحو إحلالهما فى العلاج محل الأدوية والعقاقير وفى هذا ما فيه من خير ونفع

عبد الحميد فهمى مطر

بين فن التاريخ وفن الحرب

٥ ـ خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ويختلف الرواة فى الحركة التى جرت ، فالأخبار التى يستند اليها الواقدى والبلاذرى لا تبحث فى غارة المرتدين على المدينة ، ولا تذكر موقع ذى حسى ، وتذكر أن أبا بكر لما علم أن القبائل اجتمعت فى ذى القصة بقصد الغارة قرر أن يقاتلها فى عقر دارها غير مبال بقلة عدده ، وقصده من ذلك إرهاب المرتدين والقاء الرعب فى قلوب العرب ، وجعلهم يعتقدون أن المسلمين أقوياء وأن ذهاب جيش أسامة لم يقلل من قوتهم ، فتقدم أبو بكر على رأس المقدمة الراكبة نحو ذى القصة يعقبه الكوكب (القسم الأكبر)

وبالنظر الى رواية سيف أن الجمال بعد أن نفرت براكبيها ، ودخلت المدينة بات أبو بكر ليلته يتهيأ للهجوم ، فبعد أن رتب قوته خرج مبكراً من المدينة وباغت عدوه فهزمه شر هزيمة . والذى يلوح لنا أن الروايات الأولى هى الأصح . وكانت قوة المقدمة تبلغ مائة رجل ، وسارت يومها وعسكرت مساء بالقرب من أجمة ، فباغتها العدو من مكمنه وألجأها الى الفرار ، فاحتمى أبو بكر بالأجمة منتظراً ورود الكوكب (القسم الأكبر) ولما نادى أحد المسلمين بوروده انهزم المرتدون ، فطاردهم المسلمون الى ثنايا العوسجة ثم قفلوا راجعين الى ذى القصة

ويذكر الواقدى أن أبا بكر لم يخرج الى ذى القصة إلا بعد عودة جيش أسامة الى المدينة ، غير أننا لا نميل الى رأيه ، لأن مجرى الأخبار يدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة لما خرجت من المدينة قاصدة العدو . ويزعم سيف أن بنى ذبيان وعبس بعد هزيمتهم هذه وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم ، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين فى كل قبيلة ، وليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين . وكانت وقعة ذى القصة والبقعاء أول نصر للمسلمين على المرتدين ، ومنها تظهر فراسة أبى بكر وصلابة عوده

لابد أن القارئ انتبه الى فساد خطة القبائل فى محاولتهم غزو المدينة ، إذ بدلاً من أن يجتمعوا فى محل واحد للهجوم على المدينة أو أن يقاوموا جيش المسلمين معاً اجتمعت كل قبيلة فى حيها ، فاجتمع بنو أسد فى السميراء ، وفزارة فى طيبة ، وجديلة وغوث من طيئ فى جبليهما ، وذبيان وعبس اجتمعت فرقة منهما بالقرب من الربذة والأخرى فى ذى القصة أو البقعاء

والداعى الى تفرقهم على ما يظهر أن المياه فى كل محل من تلك المحلات لم تكن كافية لأرواء جماعة كبيرة ، وكان الكلأ قليلاً فضلاً عن صعوبة اجتماع كلمة القبائل على غاية واحدة

وكان قبل ذلك حلف بين بنى أسد وغطفان وطيئ ، بيد أن قتالاً وقع بين غطفان وبنى أسد من جهة وطيئ من جهة أخرى فأمست القبائل متخاصمة . وكذلك كلمة طيئ لم تكن مجتمعة فمال الى المرتدين فرقتان منها فقط ، وهما جديلة وغوث . أما الفرق الأخرى فبقيت على إسلامها . وكانت القبائل فى قيامها على المدينة يراقب بعضها بعضاً ، ولا تريد أن تكون البادئة بالعداء ، ذلك ما جعل كلا منها يبقى فى حيه ويراقب عمل الآخر

وقد اختبر الصديق حالة القبائل وتأكد أن كلمتها لم تجتمع ، لذلك لم يشأ أن يؤخر جيش أسامة عن سفره ، واكتفى برجال المدينة والموالين من القبائل القريبة منها وقد أيدت الوقائع رأيه . وبعد انتصار أبى بكر على القبائل فى البقعاء قفل راجعاً الى المدينة ، ولما شاع خبر انتصار المسلمين على أهل الردة فى أول قتالهم أخذت الصدقات تأتى من الأطراف بعد أن تردد أهلها فى إرسالها ، فوردت صدقات عدى بن حاتم من طيئ وصدقات أخرى

وبعد مدة قصيرة عاد جيش أسامة من الشمال ، فقرت به أعين المسلمين فلم يمهل أبو بكر المرتدين بعد أن بلغه أن بنى عبس وذبيان

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

أوقعت بمن فيها من المسلمين ومثلت بهم . وبعد وقعة ذى القصة أراد أن يقفى من فى الأبرق فأراح جيش أسامة بضعة أيام وخرج بالقوة التى سار بها الى ذى القصة بعـد أن أنجدها بالناس من جيش أسامة وتوجه نحو الأبرق ، وفيه الفرقة الثانية من بنى عبس وذبيان وبنى كلاب وغيرهم

وقد ناشده كبار الصحابة بألا يعرض نفسه للخطر بقيادة الجيش بنفسه إلا أنه لم يجب طلبهم . فبعد أن عبأ جيشه باغت المرتدين فى الأبرق فهزمهم شر هزيمة وانسحبت فلولهم الى السميراء والتحقت ببنى أسد ، ولما رأى طليحة الخطر انسحب بجميع القوات التى التفت حوله الى بزاخة

وأقام أبو بكر فى الأبرق وكان يملكه بنو ذبيان ، فأعطى مراعيهم لخيل المسلمين وحرم بطون ذبيان منها

تولية خالد بن الوليد قيادة الجيش :

تدل الأخبار على أن خالداً اشترك فى قتال ذى القصة والأبرق مع المهاجرين ، ولما رجع أبو بكر الى المدينة انسحبت قوة المسلمين الى ذى القصة ، وتولى قيادتها خالد بن الوليد

وتذكر الروايات التى تبدأ بسيف بن عمر أن أبا بكر لما وصل الى المدينة جمع رجالاً من القبائل المجاورة للمدينة وأرسلها الى ذى القصة لتقوية جيش المسلمين . ثم عاد الى ذى القصة فاستعرض الجيش وقسمه الى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لـكل منها فوجهها الى مناطق المرتدين فى جزيرة العرب لقتالهم والقضاء على حركة الردة

وهذه الرواية التى يرويها سيف يصعب تصديقها وذلك :

أولاً — لأن قوة المسلمين لم تكن فى عدد يكفى لتقسيمها الى إحدى عشرة فرقة

ثانياً — إن ايفاد فرق البحرين وعمان ومهرة وحضرموت واليمن قبل قمع الفتنة فى قلب جزيرة العرب مسئلة فيها نظر .

ويمر طريق البحرين وعمان ومهرة ببلاد بنى حنيفة ، وفيها مسيلمة ثائر ، وهو معتصم فى بلاده الوعرة . والحقيقة أن قوة جيش المسلمين لم تجاوز بضعة آلاف على ما ذكرناه فى بحث تقدير قوة الفريقين . فجيش أسامة لم يجاوز ستة آلاف ، أما القوة التى جهزها لمقاتلة من اجتمع فى ذى القصـة فلم تتجاوز الألفين .

فتقسيم هذه القوات جميعاً الى أحـد عشر قسماً مما يجعل كلا منها ضعيفاً بحيث لا يستطيع القيام بالواجب المنوط به . بينما الأخبار تؤيد أن جيش خالد بن الوليد وحده كان يبلغ أربعة آلاف رجل ، ثم إن هناك أخبارا تؤيد حبوط هجوم فرقة عكرمة بن أبى جهل ، وكذلك هجوم فرقة شرحبيل بن حسنة على قوات مسيلمة وانسحابهما الى الوراء والتحاقهما بفرقة خالد بن الوليد مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد أن أبا بكر فكر قبل كل شىء فى القضاء على حركة الردة فى وسط جزيرة العرب ، وجمع لذلك ما فى يده من القوات التيسرة وناط قيادتها بخالد

قوة الجيش :

إن الرواة على عهدنا بهم لم يرووا لنا مقدار قوة المسلمين التى احتشدت بقيادة خالد بن الوليد فى ذى القصة . والمصدر الوحيد الذى يذكر لنا قوة خالد هو أبو حبيش ، إذ يروى لنا أنها كانت تبلغ أربعة آلاف مقاتل قبل حركته الى بزاخة

وكان الجيش على ماسبق بيانه مؤلفاً من القوة التى جمعها أبو بكر من القبائل المجاورة للمدينة على جناح السرعة للهجوم على المرتدين فى ذى القصة بعـد تهديدهم للمدينة ، ومن القسم الذى التحق به من جيش أسامة بعد عودته الى المدينة قبـل الهجوم على الأبرق . ومن الواضح أن البعض منـه تخلف عن الالتحاق ليقضى مدة من الزمن بين أهله بعد أن غاب عنهم مدة شهرين فى سفره الى الشمال

والذى يظهر من رواية سيف أن أبا بكر لما عاد الى المدينة أرسل هذا القسم المتخلف أيضا الى ذى القصة ، وبعد التحاقه أصبح جيش خالد أربعة آلاف أو أكثر . وكانت قوة الانصار وحدها تبلغ زهاء خمسمائة مقاتل . أجل ، إن هذا العدد ضعيف بالنظر إلى المهمة الخطيرة المنوطة به ، إلا أن تجانس القوة فى هذا الجيش وصلابة المعتقد فيـه ، وتفرق كلمة القبـائل المرتدة جعلته أهلا للعمل

منطقة الحركات :

يحد المنطقة التى جرت فيها الحركات من الشرق ، الدهناء ، وهى الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربى الى الشرق الجنوبى فى شرق القصيم . وكانت الدهناء ولا تزال المفـازة التى تفصل

أرض السواد (أعنى العراق) عن بلاد نجد . ويحدها من الشمال جبل شمر أعنى بلاد طيء المرتفعة التى تمتد جبالها على ما سبق من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وأخطرها جبلا سلمى فى الجنوب وأجأ فى الشمال ، وفيها وديان كثيرة أجلها شأناً وادى حائل ، وهو يبدأ من بزاخة طيء بشعاب متعددة ، ويفصل الجبلين أحدهما عن الآخر حيث تنصب فيه عدة شعاب من الشمال والجنوب وتغمره بالمياه فى موسم الأمطار . وقد شيدت على جانبيه القرى التى ترتوى بمياه الآبار المنصرفة اليها من الجبال . ولما كان جبل سلمى وجبل رمان يشرفان على وادى الرمة من الجهة الشمالية ، فالشعاب التى تمر بالأطناف الجنوبية تنحدر جميعاً الى ذلك الوادى . وهذه الأطناف هى الحدود الفاصلة بين حى بنى أسد وحى فزارة من بنى غطفان ، وقريتا فيد وطابة لبنى طيء وهما على الحدود

ويحد منطقة الحركات من الغرب حرة خيبر ، ومن الجنوب الهضبة المشرفة على وادى الرمة من الجنوب ، وفيها بنو سليم فى الشمال وبنو عامر فى الجنوب . وموقعا العمق فى الغرب ورابية أبان الأبيض فى الشرق فى أرض بنى سليم

والوادى أرض منخفضة بين هضبتين مرتفعتين تنصرف اليه جميع المياه التى تنزل عليهما فى موسم الأمطار . وإذا حفرنا الآبار فى بطنه على عمق بضعة أقدام نعثر فيها على ماء كثير . والطريق التى تصل المدينة ببلاد القصيم تمر بهذا الوادى . وبعد أن يترك المدينة يمر بالبقعاء أو ذى القصة بالقرب من سايبة ، ثم بالشقرة فالربذة بالقرب من الحناكية فالشقق فبئر الطرفة ، فالى جنوب أكمة الخيمة حيث يدخل أرض بنى أسد ، ويمر بعد ذلك بين الأبانين : أبان الأسود فى الشمال ، وأبان الأبيض فى الجنوب . والأسود فى أرض بنى أسد الى أن يمر بشمال الرس وهو بئر ماء لبنى أسد ، فيصل الى القريتين فى بلاد قصيم : أعنى العنيزة فى الجنوب وبريدة فى الشمال وكلتاهما فى حى بنى تميم

ويسكن بنو أسد فى الساحة الواسعة التى شمال الوادى من جنوبى فيد وأطابة غربى السميراء والظهران والسليلة .

وفى غربى النقرتين نقرة السلاسل ونقرة الخطوط وجبل صارة . وفى أرض بنى أسد يقع موقع الغمر وهو رابية مرتفعة تشرف على وادى الغمر الذى ينبع من سفح جبل الموشم الشمالى ويصب فى الكهفة . وبالقرب منه تقع بزاخة بنى أسد . وهى الموقع الذى نشبت فيه المعركة بين جيش خالد وجيش طليحة .

والذى جعلنا نميل الى الاعتقاد بأن موقع بزاخة فى هذا المحل هو ماذكره ياقوت الحموى فى معجمه نقلاً عن ابن الكلبى . أما الأصمعى فيروى أن بزاخة ماء لطيء . وفى جبل طيء موقع آخر يسمى بزاخة . وعلى ما يظهر لنا من مجرى الحركات أن القتال بين المسلمين وبين المرتدين لم يقع فى أرض طيء ، بل وقع فى أرض بنى أسد بالقرب من الغمر ، ولا سيما أن خالداً بعد انتصاره على طليحة وجه سراياه فى جهات مختلفة مطارداً فلول المنهزمين . وهذه السرايا قاتلت المنهزمين فى جبل رمان وفى الأبانين . ولا يعقل أن المعركة نشبت فى بزاخة طيء والمطاردون يطاردون المنهزمين الى رمان والأبانين ، بل من المعقول أن تنشب المعركة فى جوار الغمر فيشرد المنهزمون الى أنحاء مختلفة ، فينهزم بنو فزارة الى حيهم فى جنوبى الرمان وغربيه ، وبنو أسد الى الأبانين والى ظفر فى جوار كهفة والى النقرة — أعنى الى حدود الحى

وفى منتهى الشرق بلاد بنى تميم والقصيم على الحدود بين بنى أسد وبنى تميم . وهى من أغنى البقاع الواقعة فى نجد ، وتحدها رمال الدهناء من الشرق ، وفى غربيها مراعى الحزن ، وفى شرقيها مراعى الصمّان ، وكلتا البقعتين من أخصب المراعى وهما لبنى تميم . وبنو يربوع فى الحزن الى وادى حائل ، والصمان الى بنى حنظلة ، وماء الطريفة فى شمالى البريدة لهم أيضاً . والبطاح فى جنوبى الحزن وفيه قرية بريدة وموقع البعوضة والقمرة ، وهو مشهور بجودة الكلأ وفيه دارت الدائرة على مالك بن نويرة رئيس بنى يربوع

ولا تزال إحدى ضواحى البريدة تسمى بالبطاح ، والقصبة تتألف من أربع ضواح ، وهى جردة وجديدة وشمال وبطاح .

وموقع النباج فى حى بنى تميم وهو المحل الذى وصلت اليه سجاح برجالها فقاتلها بنو تميم وكسروها ، وهو واقع فى الحزن على طريق الكوفة بعد الفيد

يتبع — طه الهاشمى

قصة لؤلؤة

للأديب حسين شوقي

ولدتُ فى أعماق المحيط الهندى ، وكنت أقيم هادئة مطمئنة فى مقصورتى الصدفية ، إلا أننى سئمتُ الحياة التى كنتُ أقضيها على نمط واحد ، واشتقتُ إلى مشاهدة العالم الآخر القائم فوق سطح الماء الذى طالما حدّثتنا عنه الأسماك فى دهش وإعجاب ، ولكن أخواتى من اللؤلؤ أشرن علىّ بالصبر ، زاعمات أن الانسان سوف ينزل إلى الأعماق لينتزعنى من خلوتى ، لأننا معشر اللؤلؤ — على زعمهن — ذوات قيمة نادرة عنده ، وقد صدقن فى زعمهن ، إذ نزل إلينا ذات يوم زنجىّ ليأخذنى من صدفتى ، إلا أن الحوت افترس المسكين ، ثم حاول زنجىّ آخر بعد ذلك بقليل أن يفعل فعلة سابقه ، ولكنه لم يدركنى ، إذ كنت فى عمق سحيق فمات مختنقاً . . بعد هذين الحادثين لم يبق لدىّ شك فى قيمتى عند الانسان ، وأنا خاملة الذكر فى البحر ، لذلك ازداد شوقى إلى مشاهدة هذا العالم . . . ثم أتى زنجى ثالث مجدود استطاع أن يرفعنى إلى سطح الماء ، وهذا سلّمنى إلى رجل أبيض أخذ ينظر إلى فى بشره بعد أن انتزع عنى بسكينه الحاد صدفتى المسكينة !

وأراد زنجىّ رابع أن يسرقنى من الرجل الأبيض ، ولكن الأبيض داهمه أثناء السرقة فضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مزّق جلده وأسال دمه . . يا لخيبة أملى لو كان هذا هو كل ما يشاهد فى دنيا الانسان ! .

سافرت بعد ذلك إلى لندن على متن باخرة فخمة . . وهناك قامت فتاة حسناء بصقلى فى دقة وأناة . . وبعد أن انتهت من عملها رفعتنى بأصبعيها ، وأخذت تتأملنى طويلاً ثم تنهّدت من الأعماق . فخشيتُ عليها أن تفعل فعلة الزنجىّ السارق ، لأن جلدها ناعم لا يتحمل السوط . أما أنا فكان بودى أن أتعلّق بجيدها البلورى أو أعلق بيدها الناعمة . .

ثم أخذنى جوهرى فعرضنى فى زجاج دكانه . . وكان المارة ينظرون إلىّ فى إعجاب وفضول ، وذلك ما أدخل على نفسى الزهو . . والواقع اننى كنت جميلة حقاً بلونى الوردىّ الذابل ، ولاسيما بعد عملية الصقل التى قامت بها تلك الفتاة الحسناء . وقد لاحظت أن أهالى لندن فضوليون إلى حد بعيد ، وقد يصحّ مثل هذا الفضول من جانبى أنا مثلاً إذ قضيت حياتى سجينة فى صدفة . . أما من جانب الانجليز فهو أمر مستغرب ، وهم قوم رحّل أفّاقون . . وكان صاحب الجوهرى فى الغالب يهودياً ، لأن أنفه كان مقوّساً ، ثم إنه كلما وضعنى فى يده المجعّدة ، ضغط على فى قسوة وشره حتى كنتُ أخشى على نفسى الهلاك . وقد باعنى ذات يوم إلى سيدة متقدمة فى السن بربح وافر على ما أظن ، لأنه جعل يفرك يديه طويلاً عقب إتمام الصفقة ، وكانت نية هذه السيدة أن تصنع منى خاتماً . إلا أن ولدها وهو طفل «عفريت» فى السابعة من عمره ابتلعنى ظناً منه أنى قطعة من الحلوى . فغُشى على السيدة من الحزن ، أكان ذلك من أجل ولدها أم من أجلى ؟ لا أعلم ، ولكنى أرجح الثانية على الأخص بعد حادث الزنجيين اللذين ماتا فى سبيلى . .

وقد تناول الطفل مسهّلاً قوياً أعادنى إلى الحياة والنور . .

ثم انتقلت إلى أيد أخرى كلها مرتعشة مجعّدة . .

ربّ ! كيف نُظِّمَ هذا الوجود ؟ كيف يكون الجاه والغنى عند العجائز والدميمات فقط ؟

ولكن من حسن حظى وقعت فى النهاية فى يد فتاة أمريكية حسناء مثرية جداً ، أعطيت لها فى شكل خاتم قدّمه شاب خاطب ، وكانت الفتاة سعيدة بى . . فكم من رحلات شيقة قمنا بها — نحن الثلاثة — على متن طيارتها الخاصة ، إلا أنه اتضح للفتاة يوماً أن هذا الشاب يخونها ، وأنه لم يخطبها إلا طمعاً منه فى ثروتها ، لذلك ثار ثائرها : فألقت بى فى وجهه ، وكان ذلك أمام الباب الخارجى للدار الواسعة ، فتدحرجتُ حيث اختبأت فى حفرة مظلمة بالحديقة أنتظر من ينقذنى ، وأرجو أن يكون ذلك على يد فتاة جميلة .

حسين شوقى

تعليقات القراء على الرسالة

الى الأستاذ الرافعى

للأستاذ على الطنطاوى

سيدى :

أعرنى هذا القلم السحرى الذى تكتب به . . . لأصف لك الشعور الذى خامرنى وإخوانى هنا ، حين قرأنا فصلك الأخير : قصة زواج . . . فما أدرى والله كيف أصفه لك

وقد والله قرأناه مثنى وثلاث ورباع ، وقد والله قطعنا القراءة مرة وثانية وثالثة ، لأننا لم نكن نملك نفوسنا أن تفلت من قيود المادة ، وتنفذ من بين السطور الى عالم أسمى وأوسع ، تطير فى أرجائه لتلحق بهذه البلاغة العلوية التى تسمو بتاليها وتسمو . . . حتى تدنو به من حدود العالم الكامل — عالم القرآن — وتريه تحقيق ما قاله فيها سعد « بطل المشرق » : كأنها تنزيل من التنزيل !

وقد والله خرجنا منها وكأننا لم نعرف عبد الملك أمير المؤمنين ، وسعيداً سيد التابعين ، إلا الساعة . . . فاذا أنت قد نقلت الملك والجلال من ذاك الى هذا ، واذا مقالة منك واحدة ، تغلب عبد الملك على جيوشه وأمواله وملكه ، ثم تجرده منها ، ثم تعرضه جسداً هزيلاً ؛ وتمنح سعيداً على فقره وتواضعه ، أسمى العظمة والهيبة والجلال . . . حتى يقول هذا : « أنا . . . . . . » فترددها ملائكة السماء . ويقول ذاك : « أنا » فتستحيى أن تعيدها شياطين الجحيم !

وأقسم لقد سمعت هذه القصة وقرأتها ، وحفظتها ، وحدثت بها . وانحدرت بين أذنى ورأسى ولسانى عشرين مرة ، ثم كأنى لم أسمع بها إلا الآن . . . وكأنى كنت فيها فى ليل مظلم ، فطلعت على مقالتك شمساً ساطعة ؛ عرفت معها كيف تكون خصيات الليل لآلئ النهار . . . فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد ؟ وما بالك بمن لا يعرف فى الدنيا أدباً ، إلا الأدب الذى يسقط علينا من باريس أو لندن أو بونس ايرس ؛ ولا يدرى من البلاغة إلا أنها التى تلوح بين سطورها رءوس البنادق ، وأفواه المدافع ، وأجنحة الطيارات ؟

ومثل أولئك كثير ، فقد عابوك بالغموض ، ورموك بالابهام ، وادعوا أن كتبك لا تفهم ، ومعانيك لا تساغ ، فلما ظهر أن فى الغرب شاعراً خلا مذهبه الغموض يتخذه ويدعو له ويدافع عنه ، أصبح الغموض فناً من فنون الأدب تتمحل له الأسباب وتتلمس له الدواعى ! فما الذى جعل سيئة الرافعى حسنة بول ڤاليرى ، إلا أن ذاك من فرنسا وهذا من مصر ؟

أما إن هذا الايمان بالغرب اذا انتقل من الشيوخ الى الشبان لم يكن إلا كفراً بالشرق وإلحاداً بالعقائد الشرقية ، وجهلاً باللغة الشرقيـة ، وخروجاً من الجلدة الشرقية . . . وإن عنـدنا فى دمشق ندوة أرادت أن تعيب مجمعنا الأدبى ، فلم تجد أبلغ فى العيب من قولها : إن المجمع ثقافته شرقية ، بل لقد (ضبطتنا متلبسـين بالجريمة) ، وأشهدت علينا أننا كنا نحمل كتباً صفراء . وكان الذى نحمله « شرح المواقف للسيد » . ومثل هؤلاء لا يقرأون الأدب العربى إلا اذا صيغ هذه الصياغة

***

وعندنا أن هذه القصة بكل ما قرأنا فى العربية من قصص ما يزال أكثر أصحابها ينشئون أدباً فرنسياً أو انجليزياً بحروف عربية

وعندنا أنك إذا استكثرت من هذا النوع غطيت على خيام أهل الجديد ودورهم المبنية من الطين والقش ، بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر

وعندنا أن مائة قصة من مثل هـذه القصة ، تنشىء الأدب العربى إنشاء جديداً ، وتخرج من الشيخ الهم الفانى ، الذى ينتظر الموت شاباً قوياً بهياً ، جاء يستأنف الحياة بحنكة الشيخوخة . وتجعل من الأدب العربى أدبين : أدب أربعة عشر قرناً ، وأدب الرافعى

***

ولست والله أمدحك لأتملقك وأتزلف إليك ، وما بى بحمد

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

من شعر الشباب

لا تباهوا

للأستاذ فخري أبو السعود

مَنْ لِمُلْكٍ بات مهضوم الحمى ؟ — وتراثٍ بات نهب الناهبين ؟
ولأرض نام عنها أهلها — تاركيها بين أيدي الآخرين ؟
وتخلَّى قادةٌ عن أمرها — فاستوى المائنُ منهم والأمين
خيرُها يخطئ شعباً قانعاً — ويصيب الدُّخلاءَ الطامعين
كلُّ من هبُّوا على الأرض سَعَوْا — يبتغون الرِّفْدَ فيها والمَعِين
كلهم من عسكرٍ أو عُزَّلٍ — جُنْدُ إذلالٍ عليها يخطرون
أَمِنُوا فيها فكانوا حَرْبَها — ومَشَوْا في ظلِّها مستهزئين

* * *

مَنْ لشعبٍ فَتَرَتْ همتُهُ — لِلَّذي يجري عليه مُسْتَكين ؟

الله رذيلة التملق والتزلف ، وإني لأنقم منك أحياناً . إنك تبالغ في الدقة ، وتمعن في السبك الفني لمعانيك وألفاظك ، حتى ما أكاد أفهم عنك ، وإننا لنحفظ جملك هذه الغامضة ، ونتنادر بها ، على حين أنك تعرف من نفسك القدرة على أسهل الكلام وأوضحه ، وإن شعرك لين سائغ عذب كالماء

ولكني أمدحك ، وما أجدني صنعت شيئاً ، لأنك في نفسي أكبر من ذاك ، إنك واحد من عشرة هم كتاب العربية في كل عصورها ، إنك لسان القرآن الناطق

فاقبل تحياتي وإكباري وشكري ، وأسألك أن تزيدنا من هذا النوع من الأدب ، وأن تستكثر من هذه الفصول الاجتماعية ، وأن تعلم أن مقالاتك في الزواج كان لها من الأثر مالا يكون لقانون صارم من ورائه السجن والغرامة . وإننا نحمد الله على أن جعل في العربية مجلة صاحبها الزيات ، ويكتب فيها الرافعي

علي الطنطاوي
عضو المجمع الأدبي بدمشق

يتسامى كلُّ شعب للعلا — وهْوَ يشقى في حماه ويهون
وأرى حريةَ القوم دنتْ — مورداً لكنهمْ لا يَرِدُون
قيَّدَ الحرصُ من الشعبِ الخُطَى — فهْوَ بالعيشِ وإنْ ذَلَّ ضنين
ولو اعتزوا بعزمٍ لعَنَا — لاعتزامِ الشعبِ كيدُ الكائدين
ولدانتْ لهُمُ آمالُهُمْ — إنما الآمالُ بالعزم تدين

* * *

لا يطُلْ منَّا بفَضْلٍ أحَدٌ — لا يعِزُّ الفردُ والجمعُ مَهِين
لا تَسَامَوْا درجاتٍ بينكمْ — كلُّكُمْ للغاصب العادي قَطِين
لا تباهَوْا بمغانٍ رُفِعتْ — هِيَ للسُّكْنِ قبورٌ وسجون
أو بألقابٍ عُلاً زائفةٍ — تتغالَوْن بها مُفْتَتِنين
أو بأثوابٍ عليكم نُمِّقَتْ — أنتمُ أسْرَى بها لو تعلمون
حيثما راح ابنُ مصرٍ أو غدا — فهْوَ في الأسْرِ وفي القيد رهين
حَرِّرُوا أعناقكُم ثم افْخَرُوا — بحطامٍ أو بجاهٍ تَمْلِكُون
ما ارتقاءٌ ندَّعيه بيننا — ونهوضٌ وعلومٌ وفنون
يا لَشَعْبٍ باتَ عن حُرِّيَّةٍ — غافلاً يُلهيه سفسافُ الشؤون

* * *

تندبُ الحاضرَ نفسي وترى — فيه وجهَ الغدِ مُرْبَدَّ الدجون
عَصَفَ العصرُ اصطخاباً حولنا — وتفانَى آلهُ مشتجرين
وعلينا آلَ مصرٍ حُجُبٌ — مِن بقيَّاتِ الليالي والقرون
ليت شعري — إذْ تعالَى بينهم — صيحةٌ في كل يوم ورنين —
أأفاق القومُ من نَوْمِهِمُ ؟ — أم مَشَوْا في نومهمْ مختبطين ؟
نحن نحيا في خيالٍ ورُؤًى — نحن في كهفٍ عن الدنيا كَنِين
نحن — والدنيا اجتهادٌ ووغًى — نهبُ لذاتٍ ولهوٍ ومجون
صاح بعضٌ بهُراءٍ واحْتَمَى — بعضُنا بالصمت عجزاً والسكون
كَثُرَ القولُ وما أغنى الحِمى — عن دعاوَى اللاغطين القاعدين
إنما يطلبُ مِنْ أبنائه — عملاً ينسخُ قولَ القائلين

فخري أبو السعود

الحياة الغالية

للأديب سيد قطب

بالأمسِ كنتُ أعيشُ نِضْوَ ترقُّبٍ   أُزجِي حيَاتِيَ كالأجيرِ المتعبِ
أرنو إلى الإصباحِ ، ثم تَمُجُّهُ   نفسي ، وأنظرُ كارهاً للمغربِ
وأحسُّ بالقفرِ الجديبِ يلفُّني   فأعيشُ في ظُلَمٍ كقبرِ الغيهبِ
وَلوَ انّنا اختصرتْ حياتيَ لم أكنْ   أدرى بما نقصتْ ، ولم أتعتَّبِ
وإذا تشابهتِ الحياةُ وأقفرتْ   كُرهت ، فلم يُشعرْ بها أو تُطْلَبِ

***

واليومَ آسَفُ للدقائقِ تنطوي   من عمريَ الغالِي الثمينِ الطيِّبِ
واليومَ أرقُبُها وأرقبُ خَطْوَها   فأعيشُها مِثنَينِ بعد ترقُّبي (١)
وهي العميقةُ كالخلودِ وإنما   تَمْضِي حثيثاً في خُطا المتوثِّبِ
وأودُّ أنْ لو أبطأتْ وتلبَّثتْ   في خَطْوِها لُبْثَ الوئيدِ المُكْثِبِ (٢)

(١) ترقب الدقائق قبل حلولها ثم حياتها عند مجيئها يجعل الحي كأنما عاشها مرتين . (٢) المكثب : المقرب ، والبطيء الخطا القريب منك يمكنك من إنعام النظر فيه .

تغلو الدقائقُ في حياةٍ خصبةٍ   وتهون أعوامٌ بعمرٍ مُجدبِ !

***

الحبُّ فاضَ على الحياةِ بخصبه   وأجدَّ عُمراناً بكل مُخرَّبِ
وأزاحَ أستارَ الدُّجى فتكشَّفتْ   ظلماتُه عن كل زاهٍ مُعجِبِ
وكذاكَ تحلُو لِي الحياةُ وتُجتلى   وتعزُّ ساعاتُ الغرامِ المُخصِبِ

يا ثغرُ ...

أتأذن يا ثغر في قبلة ؟   فديتك يا ثغر بالمهجتين
فدتك البحار بمرجانها   وعوذتُ درَّك من كل عين
أريدك يا ثغر بشاً ضحوكا   ولو كان فيك خداع ومَيْن ،
فإنك مغرٍ وحق الجمال   تغر بفتنتك الحسنين (١)
فبالورد قد لُفَّت الشفتان   فأصبحتا فيك ريانتين
فبالله تأذن في قبلة   وان كنت سمحاً ففي قبلتين
فكل نعيم بهذي الحياة   يُنال على تَيْنِكَ الشفتين

حسين شوقي

(١) الحسنان هما الزاهدان الحسن البصري والحسن بن سيرين.

العلوم

فكرة النظام الشمسى الحديثة

تغلب النظام السكوبرنيكى على النظام البطليموسى

بقلم فرح رفيدى

من البدهيات التى لا تستلزم حيرة الانسان كثيراً هى أنا نرى الشمس تدور لأن الأرض تدور ، ولولا ذلك لما كان ليل ونهار ، ولكانت الأرض أبداً نصفين ثابتين ، نصفاً مظلماً قاتماً ، ونصفاً مستنيراً أبداً بشمس ثابتة

وهذا الذى قد نعتبره أمراً بدهياً اليوم ، كان بالأمس سبب الشقاق وموضوع الحوار ، وقبلة أنظار الباحثين من الفلكيين وغير الفلكيين . ومنذ مئة وخمسين سنة فقط كان الحوار قائماً على منبر جامعة هارفرد بأمريكا فيما إذا كانت الأرض تدور أو لا تدور ، وكان من برنامج الجامعة نفسها أن تدرّس الفكرتين المتناقضتين فى وقت واحد . وقبلها بوقت قصير كانت جامعة باريس تؤيد الفكرة القائلة بأن حركة الأرض حول الشمس فكرة مناسبة إلا أنها خاطئة . فخدانة هذه الفكرة تدل على أن الفكرة اليونانية عن نظامنا الكونى لم تزُل من قلوب الناس باعلان كوبرنيكس لفكرته الجديدة ، بل ظلت الفكرتان تتحاربان فى عقول الناس الى أن تغلبت إحداهما على الأخرى . وكان الانتصار الذى أحرزته الفكرة الجديدة انتصاراً نهائياً للحقيقة ، وموتاً أبدياً للفكرة الباطلة التى شغلت عقول الناس بتناقضها وكثرة تعقدها

قبل أن يبزغ نور الفكرة الحديثة بألفى سنة كان فيثاغورس اليونانى يعتقد بحركتى الأرض اليومية والسنوية ، غير أن هذا الاعتقاد قد قضى عليه أرسطو ، ورفضته الكنيسة لمنافاته للدين المسيحى فى العصور الوسطى . فمات قبل أن ينشر أو ينتفع به أحد ، والكنيسة لم تقف عند حد رفض الفكرة وتحريم الاعتقاد بها ، بل تعدته الى تضحية كل نفس جاهرت بمعتقدها الحرّ ، فأحرقت جيوردانو برونو Giordano Bruno سنة ١٦٠٠ لاعتقاده بعوالم عديدة فى الكون غير عالمنا ، وقاسى غاليليو ألواناً من العذاب لتأييده ما أقره كوبرنيكس . وكوبرنيكس نفسه كان محجماً طول مدة حياته عن أن يجاهر بعقيدته خوفاً من الكنيسة ومن أن يُهزأ بفكرته ، ولم يُنشر كتابه عن النظام الشمسى (De Revolutionibus Orbium Coelestinm) إلا بعد أن مات

أول شىء جعل كوبرنيكس يطرح النظام البطليموسى جانباً ويجاهر بنظامه الحديث هو صعوبة الأول وتعقده ، وعدم مطابقة الحجج الكثيرة للظواهر المشاهدة فى الكون ، وذلك ما يُفقده ميزة الجمال والبساطة الطبيعية . وليس بالأمر الغريب الذى جعل الفونس العاشر ملك قشتالة يقول لما رأى النظام اليونانى كما شُرح له . « لو استشارنى الله يوم خلق هذا العالم لكان الكون أبسط وأجمل مما هو عليه الآن » . وقد أصاب شيشرون الرومانى فى وصفه الكواكب بأنها لم تكن سهلة التعبير ، إذ هى تارة متأخرة ، وتارة متقدمة بين النجوم . وقد رآها فى بعض الأوقات سريعة ، وفى غيرها بُطيئة ، وأحياناً فى المساء وأخرى فى الصباح ، فهى لا تبقى على حال واحدة أبداً . واليونان أنفسهم أقروا بفظاعة أفكارهم وعُسر تعليلاتهم ، ولم يقدروا أن يتصوروا كوناً طبيعياً من صنع الإله الأكبر وفيه هذه المتناقضات والصعوبات الجمة التى شاهدوها فى حركات الكواكب السيارة . فكان عندهم الكون ظاهره وباطنه وما فيه من أجرام مختلفة الحجم متباينة الضوء مثالاً للتكامل والتلاؤم . فشكل الكون كان كروياً كشكل أجرامه التى تُحدث بدورانها دوائر مستقيمة متعادلة . ولأن الدائرة كانت أتمّ الأشكال الهندسية تلاؤماً ، والكون متلائم ومُتسق مثلها ، كانت صفة تابعة لحركات النجوم ومداراتها . على أن محاولتهم هذه من تفسير الكون كنظام يسير لتطبيق قواعد هندسية سطحية ، لا كنظام خاضع لنواميس طبيعية أصلية ، أفسدت عليهم الأمر

وكانت سبباً فى تعقيد الفكرة وإخراجها بصورة يصعب على العقل تصورها أو إدراكها . فكانت النتيجة أن قام كوپرنيكس بفرض نظرية أسهل على الفهم وأقرب للمنطق من الفكرة القديمة . فجعل فكرته سهلة التعبير، بسيطة خالية من الدوائر أو شبه الدوائر الموجودة فى النظام البطليموسى

فى سنة ١٥٠٧ آمن كوپرنيكس بدوران الأرض حول الشمس ، وكاد يذيع ذلك لولا خوفه من أن يُتهم بالهرطقة والكفر . وذلك لأن الكنيسة حينئذ كانت تدَّعى أن الانسان ما دام أعظم المخلوقات فى الكون ، وغاية ما أبدع الله على صورته ، وأن كل مخلوق ما عداه وُجد له وله وحده ، وما دامت الأرض هى موضع ذلك المخلوق العظيم ومكان الجبلة الممتازة المنفوخ فيها من روح الإلـه ، فهى بلا شك مركز الكون ، ومحور دورانه ، ومركز انعكاس أضوائه من مختلف الجهات حولها . وإن من أخذته أدنى ريبة فى ذلك فقد أهان الانسان وحط من مقامه الرفيع بين المخلوقات ونال من كرامة الإلـه وقوته وجبروته ، لأنه هو والانسان صورة واحدة

رأى كوپرنيكس أنه إذا كانت الأرض ثابتة فان كل شيء ما عداها يتحرك . أى أن الكون من كواكبه السيارة وغير السيارة فى حركة دائمة حول نقطة ثابتة فى مركزه ، ونقيض ذلك هو دورة الأرض وثبات ما حولها ، وإذا قابلنا بين الفرضين وجدنا أن الظواهر الناتجة من الثانى هى كالنتائج الظاهرة من الأول ، بل إن الفكرة الثانية ، أى دورة الأرض ، أسهل للعقل وأخف على الفكر من الفكرة الأولى . لذلك افترض كوپرنيكس دورة الأرض كشيء أقرب للحقيقة وأصدق للتعبير عن مظاهر الكون من فرض ثباتها ودورة الكون حولها . وقد رأى مما يبرر اعتقاده بدورة الأرض ، أن للكواكب السيارة شذوذاً فى حركاتها ، وأن اختلاف هذه الحركات يبيّن أن الكواكب تدور حول مركز غير الأرض . فبما أنها تظهر تارة قريبة وتارة بعيدة عن الأرض ، فان الأرض ليست مركزاً لدوائر حركاتها

أكد لبطليموس ثبات الأرض اعتقادُه أن الدوران يهدمها ويفتتها فتتناثر فى الفضاء قطعاً . فهاجم كوپرنيكس هذا بقوله : إن دورة الكون السريعة حول الأرض يجب بناء على ذلك أن تفتت الكون كله فى الفضاء ، ولو سلمنا بدورة الكون بدون تفتيت ، أليس من نتيجته أن يتسع الكون ويتمادى فى الاتساع حتى تبتعد أجزاؤه عن مركزه ؟ وهذا الابتعاد عن المركز يزيد بسرعة الكون وقوة دورانه ؟ وذلك لاتساع حلقته ولزوم دورتها فى مدة أربع وعشرين ساعة ؟ ثم إن قوة الدوران تدفع بأجزائه أكثر عن المركز فيتسع وتزيد بذلك سرعته التى تعود فتزيد بتوسيعه وهكذا إلى ما شاء الله . وعلى ذلك تصبح السرعة متناهية ويمتد الكون إلى ما لا نهاية له ؛ فاذا كان كذلك غير محدود الأطراف فالحركة ليست من صفاته لعدم وجود متسع فى الفضاء لأتمامها ، ثم لو كان الكون محدوداً ومتحركاً فماذا يكون وراء الجليد ؟ فاذا كان لا شيء فهل يمكن أن يكون شيء

محاطاً بلا شيء ؟ هكذا احتار كوپر نيكس فى أن يعتقد بكون محدود متحرك ، أو بكون متحرك غير محدود . والتناقض جلىّ بين الفكرتين . لم يدر كوپرنيكس ما إذا كان الكون محدوداً أم غير محدود ، ولكنه كان متأكداً من حد الأرض وإحاطتها بسطح كروىّ ، وقد عرف أن الاعتقاد بحركة شيء محدود أسهل من الاعتقاد بشيء متناهٍ غير معروف الحدود . فالأرض إذن حقيقة تدور ، ونتيجة هذه الدورة فى هذه الحركة الظاهرية فى السماء التى نشاهدها ليل نهار .

قبل أواخر القرن السادس عشر سمع بالفكرة الجديدة « تيخو ميراهى » ، ولاشتياقه لمعرفة صحتها اعتزم عمل زيج جديد دقيق لحركات الكواكب ، فبنى مرصداً ذا قبة متحركة ، وعمل ربعاً قطره ١٩ قدماً ، وكرةً تمثل الكون قطرها خمسة أقدام ، فحصل بذلك على أرصاد دقيقة جداً . على أنه لم يُتمّ ما أراد تحقيقه إذ مات فى سنة ١٦٠١

أتى بعد ميراهى رجل ألمانى اسمه يوهنس كپلر ، وكان هذا بعكس تيخو تنقصه الموهبة الميكانيكية . ولكنه كان ذا مقدرة كبيرة فى الاستنتاج والتمييز بين حالة وأخرى ، وجمع الحقائق بعضها الى بعض لتكوّن نتيجة حقيقية واحدة . فما كان منه إلا أن أخذ نتائج أرصاد تيخو فى الكواكب ، وصار يتأملها ويبحث فيها ويقابلها مع بعضها ، حتى توصل الى ثلاث حقائق أساسية فى بناء فكرة الكون الحديثة :

الأولى : توصل اليها كنتيجة لسبعة ارصاد للمريخ فى موضع واحد ، وهى أن الأرض تدور حول الشمس ، ليس بشكل دائرة كما اعتقد اليونان ، بل بشكل منحرف قليلاً عن الدائرة يسمى قطعاً ناقصاً (ellipse) ؛ والشمس تقع فى احدى بؤرتيه (focus)

الثانية : المستقيم الذى يصل الأرض بالشمس يقطع فى الفضاء مساحات متساوية فى أوقات متساوية .

الثالثة : نسبة مربع زمن دورتين لكوكبين هى كنسبة مكعب المسافتين من الشمس . أى إذا كانت مسافة الكوكب الأول من الشمس $م_1$ ومسافة الكوكب الثانى $م_2$ ؛ وكان زمن دورة الأول حول الشمس س ، وزمن الثانى ص فهذه الحقيقة هى كالمعادلة $م_1^2 : م_2^2 :: س^3 : ص^3$. وقد دل نيوتون فيما بعد بمعادلات رياضية وبالمقابلة أن هذه الحقائق الثلاث تنطبق لا على الأرض وحدها ، بل على كل كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ، وقد عرفت بقوانين كپلر نسبة لمكتشفها العظيم

فى العصر الذى كان فيه كپلر يجرب أن يُوَحد أجرام النظام الشمسى بقوانين أساسية ثابتة ، ويحكّم ظواهر الكون لمسبباتها الطبعية ، كان بعيداً عنه وفى بلاد بعيدة ، رجل ايطالى منهمك فى صنع تلسكوب جديد لينظر به سطح القمر ، وليرى قوانين كپلر تعمل عملها بين المشترى وأقماره . فى سنة ١٦٠٩ صنع غاليليو أول تلسكوب ، وفى سنة ١٦١٠ استطاع أن يرى سطح القمر ويميز الأماكن المرتفعة من المنخفضة فيه ، وأن يظهر حقيقة المجرة كمجموعة كبيرة من النجوم الصغيرة المتقاربة من بعضها ، والتى تُرى لكثرتها كأنها جسم واحد

فى مساء ليلة من ليالى يناير سنة ١٦١٠ أحرز غاليليو أعظم نصر عرفه النظام الكوپرنيكى على النظام البطليموسى ، إذ رأى حينئذ المشترى وحوله أقمار أربعة تحوم حوله . وهذا ما يؤيد

أن الأرض ليست هي وحدها صاحبة الكون ومركزه ، بل هناك أجرام أخرى لها ذات الميزة التي اختصها بها اليونان الأقدمون . واستطاع غاليليو بذلك أن يُسقِط أهم دعامات النظام البطليموسي الذي يقول : إن الأرض وهي — أهم الأجرام في السماء وأقدسها وموطن أرقى المخلوقات والمسرح الذي مثلت عليه مأساة المسيح ابن الله — لا بد أن تكون مركز الكون ومحور دورانه

ومن جملة الأسباب التي كان يحتج بها أرسطو في تأييد النظام القديم ، هو أنه لو فرض دوران الأرض حول الشمس ، فإن عطارد والزهرة يجب أن يظهرا بأوجهٍ كأوجه القمر ، وبما أنا لا نرى شيئاً من ذلك فدورة الأرض حول الشمس فكرة فاسدة ، ولكن غاليليو لم يُجب على ذلك قبل أن رأى في تلسكوبه أوجه الكوكبين واختلافها بحسب موقعهما من الأرض ، وهكذا سقطت دعامة أخرى من دعامات النظام البطليموسي ، ولم يبق لذلك النظام إلا أن ينهار من أسسه التي لم تقدر على احتمال ضغط التجارب الشديد

منذ تلك الاكتشافات كان غاليليو سبب ثورة عاصفة من النقد والبحث والشك في أوروبا . وكان الناس يتساءلون فيما قد تكون حقيقة هذا الكون الذي خدعهم ظاهره مدة طويلة من الزمن ؟ وماذا عسى أن يحدث من حطّ عظمة الأرض والانسان والخالق من مكانها الأول ؟ وما الذي تجيبه عليه الكنيسة والتوراة دحضاً لهذه المظاهر الجديدة وتطميناً للنفوس الحيرى المضطربة . ذلك ما زاد قلق الكنيسة والبابا على ضياع النفوس من حظيرتها ، فهبّت تناصر القديم بالتوراة والدين ، وتشددت في تعاليمها ورفضت كل معتقد غريب عنها ، وحاكمت من الشعب كل من عصى أمرها أو أهان قدرها . وكان غاليليو أول من صبت جام غضبها عليه ، فصادرت كتبه وأرغمته مرات على رفض معتقده والتمسك بما تقول الكنيسة ، وحوكم وعوقب من أجل ذلك . غير أن وقفة الكنيسة هذه لم تخفه ولم يهب سطوتها ، وقد جرب إقناع مناوئيه ببراهين منطقية وعملية على فساد فكرتهم ، حتى أنه كثيراً ما كان يناقضهم بحجج من التوراة ، وكان يقول لرؤساء الدين إن عملهم هو تعليم الناس كيف يذهبون إلى السماء لا كيف تدور السماء . بيد أن الكنيسة لم تعر ذلك سمعاً ، وأبت عليه أن يقارعها بالحجة خوفاً على هيبتها ووقارها أمام الشعب

وأخيراً في سنة ١٦١٦ التأم المجمع المقدس في روما ، وقرر رفض حركة الأرض رفضاً باتاً من تعاليمها وعد الاعتقاد بها هرطقة وعصيانا . وبعد ذلك بسنة أصدر البابا بولس الخامس أمره لغاليليو بألا يعتقد ولا يعلم ولا يدافع عن فكرته الجديدة . ومن بعض أتباع البابا وأصدقاء غاليليو من نصح له أن يفرض ما يعتقد به عن حركة الأرض فرضاً بدون أن يجزم بحقيقته . غير أن غاليليو ظل يشتغل حتى سنة ١٦٣٢ عند ما أظهر كتابه وفيه الحوار بين رجلين عن النظامين البطليموسي والكوبرنيكي ، فسمعت الكنيسة به ومنعت بيعه ، وأوعزت إلى محكمة التفتيش جلبه لروما ، وهناك حوكم وهُدد بالتعذيب إن عاد وجاهر بانكاره ، وحكمت عليه المحكمة أن يتلو كل أسبوع أمامها مزامير التوبة السبعة لمدة ثلاث سنوات . ولولا أصدقاؤه الكثيرون في روما لذهب ضحية أفكاره الجريئة

لكن برغم كل ما فعلته الكنيسة من إرهاب وتشديد ، وبرغم كل ما أصدره البابا من أوامر تحريم وتعذيب ، فإن الحقيقة ظلت سائرة في طريقها إلى الأمام ، وما كانت لتختفي مرة إلا لتظهر للملأ بصورة أوضح وأروع من الأولى . وبدأت فكرة النظام الحديثة تتحقق تدريجياً في عقول معتنقيها ، وتكبر وتتسع حول أساس جديد متين . وما زرع البذرة الأولى كوبرنيكس ونمت حتى أتى كِبلر وغاليليو بعده وزادا في نموها وتحكيم أصولها في النفوس . ثم جاء نيوتون وربط أجزاء النظام الجديد بقانون الجاذبية العام ، وأثبت صحة الحقائق التي استلمها عن غاليليو وكبلر ببراهين رياضية دقيقة ، وظلت الفكرة تنمو وتتسع ، والنظام الشمسي يكبر باكتشاف سيارات جديدة فيه كأورانوس ونبتون ، حتى اكتُشِفَ نهائياً بلوتو في سنة ١٩٣٠ وهو أبعد الكواكب السيارة عن الشمس . وكان ذلك خاتمة النمو المطرد في فكرة النظام الشمسي الحديثة ، الذي ابتدأ من كوبرنيكس وبقي نحواً من ثلاثة قرون .

فرح رفيدي

البريد الأدبي

فى دار لجنة التأليف والترجمة والنشر

فى مساء الخميس الماضى أقامت لجنة التأليف والترجمة والنشر فى دارها مأدبة عشاء شرقية فخمة احتفالاً بمرور عشرين عاماً على إنشائها دعت إليها أعضاءها وأصدقاءها وصفوة من وجوه الأمة ورجال الصحافة ، فتوافوا إليها فى الساعة الثامنة ، ثم تحلقوا حول الموائد الكريمة الشهية يتجاذبون ذكريات المودة ويتساقطون أعذب الأحاديث ، ويتمتعون بشعور الرضا عن اطراد النجاح لهذا العمل النافع المخلص . فلما فرغوا من الطعام وقف صديقنا الأستاذ احمد أمين رئيس اللجنة ، فألقى كلمة قيمة شكر فيها الحاضرين وألم بتاريخ اللجنة وأطوارها إلمامة وافية واضحة سننشرها فى العدد القادم ، ثم عاد القوم إلى السمر بعد أن وقفوا على سر هذا المجهود الموفق ، وأدركوا أن بقاءه ونماءه إنما يرجعان إلى تجانس الميول فيه ، وإخلاص النية له ، ونبالة القصد منه ، وقوة الايمان به . وكانت فرقة هاوية من أعضاء نادى الموسيقى تفصل بين الأحاديث الحين بعد الحين بألحانها الساحرة ، فأضافت إلى جلال العلم ، وجمال الأخوة ، بهجة الفن ونشوة الطرب ؛ ثم انقضى السمر بانقضاء الهزيع الأول من الليل ، وانصرف القوم مبتهجين بجمال الحفلة ، مغتبطين بنجاح اللجنة ، مثنين على جهود الأعضـــاء . .

أزمة المسرح

يجوز المسرح اليوم أزمة حقيقية ، وينظر المتشاءون الى مستقبله فى كثير من الجزع . وقد عقد أخيراً فى رومة مؤتمر دولى برعاية الأكاديمية الملكية الايطالية لينظر فى شئون المسرح ، وعلائق المسرح والدولة ، وشهده جمع كبير من أقطاب الكتاب المسرحيين فى مختلف البلدان . وخطب السنيور لويجى بيراندللو المندوب الايطالى ، فنوه بأهمية المسرح فى تنظيم الحياة الاجتماعية ، وقال بأنه الاعراب الأسمى للفن ، وإنه يستطيع وحده أن يثبت الظواهر الخالدة لعصر من العصور . وتحدث الكاتب المسرحى الأشهر موريس ميترلنك عن أزمة المسرح فأنكر خطورتها ، وقال بأن المسرح يشبه طفلاً مريضاً منذ مولده ، وقد لا يصل الى اكتمال صحته قبل مرور ألفى عام ، أى بعد أن يكون قد استنفد كل أمراضه ، وكل آلام نموه . وإذن فان الحمى التى يجتازها المسرح اليوم ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا التطور الطويل الأمد . ثم إن هذا العارض يرجع فى الغالب الى عوامل خارجية لا علاقة لها بالمسرح ذاته

وقد عنى المؤتمر عناية خاصة بشئون المسرح الدرامى ، وبحث عدداً من مسائله الهامة ، مثل ظروف المسرح الدرامى الحالية وعلاقتها بظروف المناظر المسرحية الأخرى ، وخصوصاً السينما ، وهندسة المسرح ، والمسارح العامة والخاصة ، وفن المناظر والزخرف ، وأثر المناظر المسرحية فى أخلاق الشعوب ، وعلاقة المسرح بالدولة ، وغيرها . وقد أثارت هذه المسألة الأخيرة فى المؤتمر كثيراً من الجدل ، لأن جميع الدول الأوربية تحاول اليوم أن تضع لها سياسة خاصة للمسرح ، وتحاول أن تجعل منه أداة تعبر عن المثل القومية العليا . ومنها من تحاول بواسطة المسرح إحياء التقاليد القديمة ، ومزج الأساليب الحديثة بأساطير الماضى . وقد بذلت بالفعل جهود لتحقيق هذه الغاية بصورة عملية ، فأسست معاهد للثقافة المسرحية ، ولاسيما فى روسيا والنمسا . وفى ألمانيا يغدو المسرح أداة حكومية . وفى هذه الوصاية التى تحاول الحكومات أن تفرضها على المسرح خطر على استقلال الفن يجب اتقاؤه

وتثير المسألة المسرحية اليوم كثيراً من الجدل ، ويذهب بعض المتشائمين الى القول بأن المسرح يحتضر . ولكن كثيراً من أقطاب المسرح يرون مثل موريس ميترلنك فى هذا التصور مبالغة كبيرة . وقد قرأنا أخيراً فى جريدة « الفيجارو » مقالاً بديعاً للكاتب المسرحى الكبير هنرى برنشتين ، يقول فيه إن أزمة المسرح نغمة قديمة ترجع الى عهد ارستوفان ذاته ، وإنها مازالت تتجدد خلال العصور المختلفة ؛ وفى رأيه أن أزمة المسرح اليوم محلية ترجع أولاً الى أسباب اقتصادية ، أسلمها شيئته

التنافس فى بناء المسارح منذ الحرب ، وضغط الحكومة على المسرح وإرهاقه بالضرائب الفادحة . وثانياً الى ندرة الموهبة الدرامية ، وصعوبة العمل الدرامى

وهل نحن فى حاجة الى أن نذكر أن صدى هذه الأزمة المسرحية يتردد فى مصر منذ حين ، وأنها قد تفاقمت حتى غدت خطراً حقيقياً على المسرح المصرى ، بل لانبالغ إذا قلنا إن المسرح المصرى لاوجود له الآن

احياء الأقصوصة الطويلة (الحكاية)

كتب الكاتب الكبير بول موران فصلاً ممتعاً عن الحكاية Nouvelle ، فلاحظ أنها تمزج بالقصة Roman ، وحمل على القائلين بأن الأقصوصة الطويلة إنما هى قصة من النوع الطويل ، ولكنها أقل منها حجماً . ويرى بول موران أن هنالك فرقاً جوهرياً بين النوعين ، فالأقصوصة الطويلة صغيرة الحجم حقاً ، ولكنها تخالف القصة من حيث الجوهر ؛ ذلك أن القصة العادية لايحدها حجم ، وقد تطول أو تقصر فلا يغير ذلك شيئاً من موضوعها ، ولكن حجم الأقصوصة الطويلة يفرضه موضوعها ذاته . وفى وسعك أن تترك الكتابة فى القصة إلى حين ثم تستأنفها دون حرج ، ولكن الأقصوصة إذا تركت على هذا النحو تصدع بناؤها

ويجب ألا تمزج الأقصوصة بالتصوير الموجز Esquisse وقيمتها قبل كل شىء فى نوعها ، فهى عمل معتنى به وليست عملاً سهلاً سريعاً ؛ أما قيمة القصة فهى ما تخلعه عليها مواهب كاتبها ، وتخضع الأقصوصة لقوانينها الخاصة ، وهى لم تتغير منذ عهد الاحياء . وموضوعها دائماً هو أن تعزل شخصية أو عملاً ، وأن تجرده من ملحقاته ، وأن تخرجه من الحياة . أما القصة العادية (الطويلة) فتحملنا إلى أفق خلق محض ، ولهذا كان الانكليزى قصصياً (روائياً) مجيداً ، أما الفرنسى فانه لبراعته فى التحليل يجيد كتابة الأقصوصة .

وقد تستطيع أن تكتب قصة طويلة دون التزام الذوق الحسن ، أو دون موهبة وعبقرية ، ولكن الأقصوصة الحسنة لايمكن أن تكتب إلا طبقاً لأصول الفن ؛ فالكاتب الذى ليست لمواهب فنية لايستطيع مطلقاً أن يكتب أقصوصة ذات شأن .

بين الدوتشى وجبرائيل دانونزيو

يقيم دانونزيو شاعر إيطاليا الأكبر منذ أعوام فى قصره فى «فتوريالى» على مقربة من بحيرة لوجانو ، وقد ذاعت فى العهد الأخير إشاعات كثيرة عن علائقه مع زعيم إيطاليا السنيور موسولينى ، حتى قيل بأن الشاعر معتقل فى قصره فى الواقع وأنه لايسمح له بالانتقال منه أو استقبال أحد فيه إلا باذن خاص ، ولكن الظاهر أن هذه الاشاعات حديث خرافة ، وأن الصداقة التى توثقت بين بطل فيومى (دانونزيو) والدوتشى (موسولينى) لم تزعزعها الحوادث . وقد زار السنيور موسولينى أخيراً صديقه الشاعر الكبير فى قصره فى فتوريالى زيارة خاصة مجردة عن كل صبغة رسمية ، واستقبله دانونزيو بغبطة وحماسة ، وتعانق الرجلان عند اللقاء ، وصاح دانونزيو بصديقه . « هاقد أتيت أخيراً » ، وكانت آخر مرة زار فيها موسولينى صديقه ، منذ عامين حينما كان يزور تورينو وميلانو محتفلاً بذكرى الثورة الفاشستية . وقد وفد موسولينى على الشاعر عند الغروب وتناول معه العشاء ، واستمر معه حتى منتصف الليل ؛ ثم ودعه مرتحلا إلى مدينة كريمونا التى أعلن منها الزحف على رومه سنة ١٩٢٢ ، وكانت مهد الثورة الفاشستية .

مدام جولييت آدم

بلغت مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة عامها الثامن والتسعين فى هذا الشهر ، ومدام جوليت من أعظم كاتبات فرنسا المعاصرات ، ولدت سنة ١٨٣٦ ، وعاصرت أقطاب الأدب الفرنسى فى عصر الجمهورية الثانية والأمبراطورية مثل هوجو ، ولامارتين ، وبلزاك ، والفردى فينى ، وموسيه ، وجورج ساند ، وكوبيه ، وموباسان ، وذاعت شهرتها منذ سنة ١٨٦٠ ؛ وكانت تتمتع من جراء جمالها الباهر ، ومواهبها الأدبية الممتازة فى المجتمع الفرنسى الرفيع بنفوذ عظيم ، وظهرت لأول مرة روايتها الشهيرة «قريتى» Mon Village ؛ ثم كتبت من بعـــدها عدة قصص وكتب نقدية ؛ وأنشأت « المجلة الجديدة » سنة ١٨٧٧ فلقيت نجاحاً عظيماً وظهرت مواهبها الصحفية . وتعيش مدام جوليت آدم منذ نحو خمسين عاماً فى أحد الأديرة التاريخية ، فى قرية « جييف سير فييت » ، وما زالت تستقبل هنالك كل يوم أحد كثيراً من أصدقائها العظاء ، وما زالت على رغم تقدم سنها تعنى بالشؤون السياسية والأدبية عناية كبيرة .

وقد كان زعيم الوطنية المصرية المغفور له مصطفى كامل باشا على اتصال بمدام جوليت آدم ؛ وكانت بينهما رسائل منظمة ، يبدو فيها عطف الكاتبة الشهيرة على القضية المصرية ، ونشرت ترجمة بعض هذه الرسائل فى ترجمة المرحوم مصطفى كامل

القصص

مهداة الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

العـــروس . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يَرُقْها اليوم أن تجلس إلى المرآة جِلْستَها الطويلة ، فدلفت إلى النافذة تنوء بِهَمٍّ ثقيل على صدرها ، واتكأت بمرفقها على حافة المقعد ، ثم أزاحت السجف وجلست ترقب الطريق . وصكّ أذنيها غناء المغنّيات فى بيت جارتها كريهاً نابياً كأنما ينعى إليها الشباب . . . !

لقد جاوزت (إحسان) العشرين وما تزال قعيدة الدار ، تنتظر الخاطب المجهول يدقّ الباب ليطلب يدها . أتراها لم تكن أجمل من فلانة وفلانة وفلانة ؟ بلى ، وإنها لخير منهن ؛ ولكنهن تزوجن جميعاً وانتهى بهن القدر إلى المستقبل الذى تحلم به كل فتاة ، وهى وحدها ما تزال تنتظر . . !

* * *

وأخذ الزمن يتراجع ، كما تُطوى سَبيبةُ الخيالة (1) فاذا هى ما تزال بنت السادسة عشرة ؛ تزدهيها فتنةُ الجمال ، وتسيطر على نفسها كبرياءُ الغِنى ، وتعبث بها أهواء الأنوثة الباكرة ؛ وإذا هى بين أترابها فى المدرسة — كما كانت — معقدُ المنى ، ومجوى الخواطر ، وملتقى نظرات الغبطة ، لم يجتمع لواحدة من رفيقاتها يومئذ ما اجتمع لها مما تفخر به الفتاة ؛ فلم تكن لتشاركهن الحديث إلا على كبرياء وأنفة ؛ وحين يجرى حديث الشبان بينهن فى همسٍ موسيقىٍّ مُطرِب ، كانت تمط شفتيها فى سخرية عابثة ، ثقةً بأنها الفتاة المرموقة المشتهاة ، كأن على مَن دونها من الفتيات أن ينتظرن ريثما تختار هى فتاها المجدود ، ثم تترك لهنّ من بعدُ حقّ الأمل فى الزوج الذى يشتهين . . . !

وكان لها من نشأتها وجاه أبيها ما يُفسح لها فى الأمل ، ويمدّ لها أسباب المنى العريضة . ولكن أباها قد مات ! أفينقص من شرفها وجمالها وثرائها أن أباها قد مات . . فأين الخطّاب يزدلفون إليها ويزدحمون ببابها فى طلب الرضى والقبول ؟

إنها لرهينة الدار منذ سنوات خمس ؛ فلا تبصر الطريق — على رغم عصريّتها — إلا من خصاص النافذة ، ولا تفارق محبسها إلا فى ظل أمها الأيّم العجوز ؛ فلم تكن تعرف من الشبان غير ابن عمها (فريد) . لقد كان فيما ترى مثال الشاب الذى يداعب خيالها . لم يكن قد أتم دراسته العالية بعد ، ولكنه أتم الرجولة ؛ وكان على فقر من المال ، ولكنه على غنى فى النفس ، وكمالٍ من الأدب والفضيلة . كم كانت تُعجب برجولته ونبله ! ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أن تمنحه أكثر من الاعجاب . آه لو كان على سعة من المال . . . لتمنّت أن يكون زوجها الذى تقاسمه الحياة . . . ومن أين له أن يهيّىء لها أسباب الرفاهية التى تشتهى . . . ؟

لم تكن تدرى أنها تحبه إلا يومَ جاءها البشير أنه خطب لنفسه فلانة ، فأغلقت من دونها الباب وجلست وحدها تبكى ما ساعفتها الدموع . ولم يكن يدرى أنه يحبها إلا يومَ زارها من بعدُ ، فاذا فى عينيها تساؤلٌ وجواب ، وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة ، ثم إذا هى تفرّ فتضرب الحجاب بينها وبينه ، خشية أن يرى على وجنتيها علامة التأثر ترسمها الدموع . . . !

ولكمْ تمناها لنفسه وبات يرعى خيالها ليالىَ طويلة ، ولكنه كان يزجر نفسه أن تؤمل الزواج من إحسان ؛ وأين فقره وإقلاله من غنى إحسان . . . !

* * *

(1) سبيبة الخيالة : شريط السينما .

ومسحت الدموع عن وجنتيها ، وقالت تعزى نفسها :

« لقد تزوج فريد ، فما أسفى على زواجه ؟ إننى لجميلة ، وإننى لغنيـّة ، وإن الشبان ليسرعون الى ذوات الجمال والمال »

وطافت برأسها أحلام ، وزيّنت لها الأمانىُّ دنيـا بهيجة من الخيال أفعمتها أنسا وسعادة ؛ واستنامت الى المنى ، تصبح وتمسى حالمة بالخاطب المجهول

وتصرّمت الأعوام عاماً بعـد عام ، وإحسان تعيش من أحلامها فى رضى وقناعة ؛ وحسْبها من مسرات الشباب أنها توقظ كل يوم واحداً من شباب أحلامها تساقيه المنى وتبادله الحب ، فاذا انتبهت من أحلامها السعيدة فالى حين ، كأنما هى من حبيبها على ميعاد

وأخذت زهرات الربيع تنتثر أوراقها داميةً على الشوك ، لأن البستانى يحول أن تمتدّ اليها اليد التى تشعرها أنها جميلة ؛ ولـكن بقيت على ثغر الزهر ابتسامته الناعمة ، لأنه من أحلامه على رضى وقناعة

لشد ما كان يعجب شباب الناحية باحسان ! فما يحلو لهم سمر إلا الحديث عن جمالها وفتنتها ، وما يطيب لهم مجلس إلا بذكر كمالها وشمائلها ؛ ولـكنها على ما حلّت من نفوسهم أكرمَ منزلة — لم تبلغ أن تـكون موضعَ الأمل عند واحد منهم أن تصير زوجته . لقد تقاصرت دونها المنى ؛ من إبائها ، وغِناها ، وحرصِ أهلها على التقاليد

ومن أين لغير القليل من الشبان أن يُرضىَ مطامع إحسان ؛ من أين له (المعجزة المالية) ليؤدى لها المهر الذى ترضاه ، وينفقَ فى أكلاف العرس ما يُرضى التقاليد ؟

وطالت الأيام على العذراء الحالمة ، وبدأت تملّ وحدتها الفارغة ، وأخذت تسىء الظن بجمالها وفتنتها . ولم تجد غير المرآة تبثها خواطرها ، فتعودت الجلوس إليها الساعاتِ كل يوم ، تبادلها الرأى فيما تظهر به جميلة جذابة ؛ لعلها أن تجد بالجمال المصنوع رجلها الذى تحلم به . . .

أفتستطيع المرآة أن تمنحها الزوج إن منحتها الجمال ؟ . . !

واستيقظت من أحلامها حين توالت عليها الأنباء بأن صواحبها اللاتى كانت تسخر منهن وتُزهى عليهن بمالها وجمالها — قد تزوجن واحدة بعد أخرى ، واستقرت بهنّ الحياة فى بيت الأمومة

وهذه صديقة أخرى تتزوج . لقد طالما هزئت إحسان من (خديجة) جارتِها وزميلتها فى المدرسة ؛ وما أكثر ما كانت تركبها بالدعابة الثقيلة والنكات اللاذعة حتى تطفر من عينيها دموع الذلة والانكسار ! لم تـكن خديجة فى مثل جمال إحسان ، ولاحظها قليل من جاه أبيها أو ماله ؛ ولـكن ، هاهى ذى تتزوج وتعزف لها الموسيقى ، وإحسان ما تزال تنتظر . . . !

* * *

وانقطعت سببيةُ الذكرى ، فأفاقت إحسان من غفلتها ، وراحت تمسح الدموع عن وجنتيها بأطراف السجف وتنظر الطريق

وأخذ عينيها بريقُ الـكُرات الملوّنة مدلاّة من حبالها ، يتلاعب بها الهواء تلاعبَ اليأس والهم بنفسها ؛ واضطربت فى مرأى عينيها الراياتُ الخضر . اضطرابَ أوراق الشجر هبّت عليها رياح الخريف . . . !

لقد كانت وحدها فى البيت ، فلم ترافق أمها إلى بيت خديجة لتزف إليها التهنئة . منذ أمس ، حين زارتها صديقتها داعية ، وهى لا تستقر على حال من لذع الغيرة وألم الحرمان ! وقدرت — إن هى أجابت الدعوة — أنها ستكون بين المدعوات موضع السخرية والاشفاق ؛ وما تحب أن يسخر منها أو يشفق عليها أحد . . . !

ومرّ من تحت النافذة فوج من الشباب يقصدون بيت العروس ، وراحت إحسان تختبر فراستها ، لعلها أن تعرف زوج صديقتها من بين هؤلاء . أفـكانت تريد ذلك حقاً ؟ أم هى تريد أن تعرف من بينهم رجل أحلامها الذى صحبته فى الوهم سنوات . . ؟

وزفرت زفرة خافتة ، وراحت تحصى سنيها التى عُمِّرتْها على الأرض . ياويلتا ! اثنتان وعشرون سنة . . . ! لقد تزوجت أمها فى الثالثة عشرة ، فلعل إحسان لو تزوجت فى مثل سن أمها — كانت موشكة أن تصير جدة . . . ! وركبها اليأس ، واصطلحت عليها الأفكار السود ، ولم تجد لنفسها طاقة بالوحدة بعدُ ؛ فازّينت وأسرعت إلى بيت العروس تتفرّج . . .

وهاجت أحزانها مظاهر الفرح . وبهرتها الأنوار البراقة . ولدغتها ثعابين الغيرة من عناقيد الزهر متعانقة متشابكة ، ورنت فى أذنيها ضحكات النساء كأن قلباً من الزجاج ينكسر . وانتظم النساء حلقات — على عادتهن — يتهامسن عابثات ضاحكات ؛ فوقع فى نفسها أنهن يتهامسن فى شأنها ، فانطوت على نفسها فى زاوية من البهو تحاول ألا تتحدث إلى أحد ، أو يتحدث إليها

أحد . وخُيِّل إليها أن التمنيات التى توجهها إليها صواحبها — سخريةٌ وشماتة . . .

« العُقْبى لكِ . » ما أحراهن أن يترجمها إلى اللغة الصريحة فيقُلْن : « الرحمة والرثاء لك أيتها العانس المسكينة . . . ! »

وأديرت — على برد الخريف — أكوابُ الشراب المثلوج ، ووُزِّعت الحلوى فى العلب المذهبة الثمينة ، وتزاحم النساء يتخاطفنها كأنما يقتضين الأجر على ما شرّفن العروس بالحضور للتهنئة . . . ! ورأت إحسان أنها لم تتفرج مما بها ولكنها زادت همّاً على هم ، فأسرعت عائدة إلى الدار

ولم تنم المسكينةُ ليلتها ، ولكن أخذتْها إغفاءات متقطعة تتخللها الرُّؤَى والأحلام . وعاد تفكيرها فى الزواج بعضَ عملها اليوميّ ، ولكنها لم تعد تفكر فى الرجل — إذ تفكر فى الزواج — أكثر مما تفكر فى مظاهر الاحتفال ، وزينة العرس ؛ وفيمن تدعو ليشاركها الفرح من نساء المدينة وشبان المدينة ؛ كانت تفكر فى الانتقام لكبريائها التى زعمتْها دِيست يوم عرس خديجة . سيكون احتفالاً خيراً من احتفالها ، وسيزيِّنّ البيت أروع مما ازيَّنّ بيتها ، وسيجتمع لها من سراة المدينة ووجهائها من لم يجتمع لعروس قبلها . ستحاول يومئذ أن تسعر الغيرة والحسد فى قلوب كل صواحبها ، أكثر مما كانت تسعرها بكبريائها وتيهها عليهن وهى ما تزال صغيرة تطلب العلم معهن بالمدرسة ، أو تشاركهن اللعب فى فناء الدار . . . !

***

كان العام قد استدار ، وأخذت زهرات الربيع تتفتح ويضوع أريجها فى الجو ، ولكن قطرات من الندى كانت تبللها كدمعة الحزن فى وجه عذراء مستحيية . . . ولكنها تبتسم ؛ أكانت تصطنع الابتسام لتخفى عن الناظر بعض ما فى صدرها من هم ، أم كانت هذه دموع الفرح على وجنتيها . . . ؟

وأطلّ الفتيات من النوافذ يتعرّفن خطيبَ إحسان خارجاً من دارها فى جماعة من أهله ؛ ورأين بضعة من الرجال عليهم سيماء السراة من أهل الريف ، فى جلابيبهم الفضفاضة ومعاطفهم السود ، يلوون ألسنتهم بالحديث فى لهجة جديدة على أهل الحضر . وبينهم (أفندى) واحد يبدو من مظهره ، ونظام لباسه أنه وإن عاش فى المدينة طويلا — ما يزال بعضَ أهله

وقالت فتاة لأختها :

— « أهو هذا ؟ »

— « بل هو ذاك »

ولم يكن هذا ولاذاك ؛ ولكنه خرج بعد انفضاض الجمع ، يتوكأ على نفسه من ثقل وبدانة حَشْوَ ثيابه الغالية ، يلوك بين شدقيه لساناً يتفقّد بقايا الطعام بين أضراسه ، ولم يُخْفِ ميلُ طربوشه أثر الوشم فى صدغه

وقالت فتاة :

— « أتنه لَهُو ؟ »

فأجابتها صاحبتها بابتسامة

وبرق الماس فى أصبعه ، ورفّ الذهب من سلسلة ساعته ، فقالت الفتاة :

« إنه لغنيّ . . . ! »

***

وكان الحفل الحاشد بعد أيام ، فاجتمع فيه من مظاهر البذخ والغنى ما لم يتهيأ لسكان الحيّ أن يشهدوا مثله منذ أعوام ؛ فأقيمت القاصف ، ووزعت الهدايا ، ودقت الطبول ، وعزفت الموسيق ، وتجاوبت ألحان المغنين والمغنيات بين فناء البيت وأعلاه ، وتناثرت نجوم الكهرباء تنقل الى الأرض بعض معانى السماء ، وعبق أريجُ الزهر يحمل الى أهل الحياة أنفاس أهل الجنة . . . وإحسان فى مجلسها راضية ناعمة ، تشرف من علٍ على الحفل وزينته فخوراً مزهوةً

لقد كانت فَرْحةُ الزواج عندها أن تشهد لنفسها مثل هذا الحفل ، وقد شهدته على أكمل ما أبدعتْه فى خيالها ؛ وبلغتْ مأملها فى الظهور على صواحبها بما يتقاصرن عنه من بذخ وإسراف . أما الزوج ، أما الرجل الذى سترتبط اليه ويرتبط إليها فلا فكاكَ مدى الحياة ، أما رجلُ أحلامها الذى أحبته زماناً من طول ما صحبها فى الخيال — أما ذاك ، فما عليها أن تظل نائمة تحلم ما دامت قد انتقمت لكبريائها الجريح

لم تفتش المسكينة عن الرجل الذى سعدتْ فى الوهم بصحبته ، وذاقت معه على البعد نعيم الحياة ، وتنوّرت من فكرها فيه عالَمَ الحب ودنيا الجمال . . . وراحت تفتش عما يُرضى الناس ويطلق ألسنتهم بالاعجاب . . . .

وباعت سعادة العمر ؛ واشترت سعادة ليلة . . . !

محمد سعيد العريان

الكتب

هبة الأيام

فيما يتعلق بأبي تمام

تأليف الشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل (١٠٧٣ هـ)

نشره وعلق عليه الأستاذ محمود مصطفى

أهدى إلى زميلي الأستاذ محمود مصطفى كتاب « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » من تأليف الشيخ يوسف البديعي قاضي الموصل المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ ، وهو كتاب عثر عليه الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر في محفوظات دار الكتب المصرية ، فأعجبه منه جريه على طريقة القدماء في دراسة الأدب من التنقل بالقارىء من خبر مستطرف ، إلى معنى مستظرف ، إلى فكاهة بارعة ، إلى حكمة رائعة . فمدار الكلام عنده على أبي تمام ، ولكنه إذا ذكر قوة حفظه عرض لكثير ممن عرفوا بهذه المنقبة ، فروى من أخبارهم ماروى صدى التأدب ؛ وإذا ذكر مدحه لأحمد بن أبي دؤاد مثلاً عرج على حياة هذا الممدوح ، فجلاها للقارىء بما لا يترك في نفسه بقية من حاجة ؛ وإذا مر بمعنى له تناوله الشعراء سرد من أقوالهم فيه مايشبع نهمة النهم من طلاب الأدب . وهكذا جرى في كتابه من أوله الى أن فرغ منه ، وهذا عمل يثير الاعجاب حقيقة من عالم في هذا القرن الحادي عشر من القرون الهجرية ، وهو من القرون التي طغت العامية فيها على العربية ، وأصبح العلماء لا يحسنون فيها التأليف بالعربية الفصيحة ، فكيف بهذا النوع من التأليف في الأدب والموازنة والنقد ؟ ومؤرخو الآداب العربية يكادون ينسون الشيخ يوسف البديعي وأدبه في وسط تلك الظلمة القاتمة ، التي غطت على الأدب العربي في تلك القرون المظلمة .

فكم أحسن الأستاذ محمود مصطفى بلفت الأذهان الى أدب الشيخ يوسف البديعي ، حتى لاتغطى عليه تلك الظلمة ، ولا ينسى مؤرخو الآداب عمله في وقت لم يكن لغيره عمل يذكر فيه .

وكم أحسن في تعليقاته على هذا الكتاب إذ تابع مؤلفه في طريقته ، فعرف قارئه بالرجال الذين عرض لذكرهم ولم يعرض للتعريف بهم ، وشرح ماوقع فيه من أشعار أبي تمام وغيره ، ولم يكن المؤلف يعنى الا بشرح القليل منها ، لأنه لم يؤلف كتابه لذلك وانما ألفه لتلك الأغراض السابقة .

وللأستاذ محمود مصطفى في شرحه طريقة تليق بوظيفته الجامعية ، فهو يعنى فيه بشرح المعاني الأصلية للكلمات وماخرجت اليه من مجاز أو كناية ، ثم يستخرج من ذلك معنى البيت وينقده اذا رأى أبا تمام قد خرج به عن الجادة ، فتكلف في الصنعة ، أو ركب الشطط في مجازاته ؛ وقد يجعل من نقده إطراءه اذا جمع موجبات الحسن في شعره ، وهي كثيرة فيه ، ولم يفته مع هذا أن ينقل من آراء الأقدمين الذين نظروا في شعر أبي تمام من الآمدي والجرجاني وغيرهما ، ثم يعقب على ذلك برأيه فيوافقهم تارة فيما رأوه في شعره ، ويخالفهم تارة أخرى فيه .

وقد جلونا بهذا كتاب هبة الأيام للقراء ، وعرفناهم قيمة عمل الأستاذ محمود مصطفى فيه ، وأدينا بذلك حقه علينا كأثر من أحسن الآثار الأدبية ، وبقى لنا عليه أشياء أردنا للزمالة ألا نعرض لها ، وأراد الأستاذ محمود إلا أن نطلق لقلمنا العنان مقرظين أو ناقدين ، وإنا نكتفي عما عندنا بهذين النقدين

فالأستاذ محمود في قول أبي تمام :

وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ما
بحليها من كثرة الوسواس

يرى فيه استخداماً طريفاً حسنا ، لأن أمثلته قليلة في العربية ، والاستخدام عنده في أن الوسواس يطلق على صوت الحلى ، وعلى حديث النفس بما لا خير فيه ، وقد أراد المعنى الأول في كلمة الوسواس الظاهرة في البيت ، وأراد الثاني في الموصوف المحذوف في قوله « ضعف ما » ، ولا شك أن هذا ليس من الاستخدام في شيء ، وليرجع الأستاذ الى تعريف الاستخدام وأمثلته في كتب البلاغة ، فسيرى أن هذا لا يشمله تعريفه ، ولا يشابه أمثلته .

وكذلك نخالف الأستاذ محموداً فيما صنعه في قول أبي تمام :

خلاصة تاريخ مصر الحديث

من الحملة الفرنسية إلى الوقت الحاضر

تأليف الأستاذ محمد الحسيني رخا

هذا الكتاب الصغير الذي يشمل منهاج السنة الرابعة الابتدائية، من وضع عالم كبير قضى سنوات طويلة في خدمة التعليم في أدق مناصبه من ناظر بالمدارس الأميرية إلى مفتش للآداب بالمعاهد الدينية، فلا عجب مع ذلك أن يكون كتابه هذا على ما هو عليه من الدقة العلمية، وحسن الترتيب. ولقد كان هذا الكتاب أحد الكتب الثلاثة التي خصتها وزارة المعارف، ووافقت على صلاحيتها في المباراة التي أعلنت عنها في عام ١٩٣٢ وتقدم للاشتراك فيها عدد كبير من المؤلفين.

وليست تقاس مهارة المؤلف هنا بما يحتوي عليه كتابه من المعلومات والوثائق كما هو الشأن في الكتب المطولة، وإنما تقاس مهارة المؤلف بمقدار نجاحه في تسهيل تلك المعلومات وصوغها في عبارات تناسب تلك السنة الدراسية، وربط أجزاء المنهاج بعضها ببعض بطريقة فنية تضمن تحقيق الغرض المنشود من تدريس التاريخ.

ولقد وفق الأستاذ الفاضل مؤلف هذا الكتاب توفيقاً يغبط عليه، فصاغه في صورة تحببه إلى الطلاب وتحبب إليهم موضوعه، كما أنه اهتم بحسن الطبع واختيار الورق فجاء كتابه متقناً من جميع نواحيه. وإني لأحمد لهذا المربي الفاضل جميل صنعه، وأقدم كتابه إلى طلاب السنة الرابعة الابتدائية مع مزيد الاغتباط؟

الخفيف

الفاروق عمر بن الخطاب

بقلم دياب عثمان العرابي

المتخرج في دار العلوم

كان سروري عظيماً حين أتى إليّ هذا الكتاب، الذي خصصه مؤلفه الأستاذ دياب العرابي لدراسة حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لاتجاه أدبائنا الى تاريخ عظمائنا يتخذون منه المثل العالي والقدوة الحسنة، والكتاب يقع في نحو مائتين وستين صفحة من القطع المتوسط

تكلم المؤلف الفاضل عن حياة عمر في الجاهلية، ذاكراً نسبه ووصفه ومنزلته في قومه، ثم تكلم عن دخوله في الاسلام، وعن حياته في عهد الرسول ومواقفه المشهورة إلى جانبه صلى الله عليه وسلم، ثم تكلم عن عمر يوم السقيفة ومبايعته لأبي بكر، إلى أن تم له أمر المسلمين فتكلم عن فتوحه وأعماله وإصلاحاته في الدواوين وموقفه من عماله وموقفه من بيت مال المسلمين، ثم شرح حادث مقتله وبين تحوطه للخلافة ووصايته قبل وفاته

وهو بلا شك بحث ممتع ينظم هذا الكتاب في سلك المؤلفات التي تملأ قراءتها القلوب غبطة والنفوس عظة، والتي تؤثر من الوجهة الخلقية تأثيراً قوياً في نفوس القراء صغارهم وكبارهم

بيد أني، على الرغم من سروري بتلاوة هذا الكتاب واستمتاعي بما جاء فيه من حوادث ومواقف رائعة، لا أقر الأستاذ المؤلف على بعض نقط فيه، كإسهابه في وصف الفتوح وتعرضه لتفاصيل جعلتني عندها أتساءل: هل يدور الكتاب حول تاريخ الدولة العربية أيام عمر، أم هو يدور حول دراسة عمر نفسه؟ ولو أن الأستاذ وجه اهتمامه الأكبر إلى بسط أخلاق عمر واتخذ من أعماله مع الاكتفاء بالاشارة إليها أمثلة لما يقول لكان كتابه أكثر لذة وأقرب إلى الغرض. على أنه في وضعه هذا وما احتوى عليه من حوادث ومواقف مشهورة من حياة عمر جدير بأن يحرص على قراءته والاستفادة منه كل أديب. والحقيقة أن المؤلف قد أتى فيه على طائفة من العبر القوية، والأخلاق العالية، والحوادث الشيقة مما يجعلك تنسى التأليف وطريقته، وتندمج اندماجاً تاماً في تلك الشخصية العظيمة التي يدور حولها الكلام، بحيث تفرغ من قراءتك وأنت تحس إحساساً شديداً بالغبطة والارتياح؟

الخفيف

أزرين بالمُرْدِ الغطارف بُدَّناً غيداً ألفتهمُ زماناً غيدا

إذ يريد أبو تمام أن يفضل الجميلات من النساء على أرباب الجمال من أولئك الغلمان الذين افتتن بهم الشعراء، وتغزلوا بجمالهم في عصره وقبل عصره، فلا يرضى هذا صاحبنا، ويقول إنه لم يؤلف أن يقال إن المرأة الجميلة تزري بالرجل الجميل، مع أن أبا تمام لم يعن في شعره هذا، وإنما عنى أولئك الغلمان الذين غطى التغزل بهم على التغزل بالنساء في ذلك العصر، ثم يختار الأستاذ أن يقال إن مرداً جمع مرداء، وإن غطارف جمع غطريفة، وإن لم يرد ذلك في اللغة، فيكون خطأ من أبي تمام فيها، ولا أدري كيف نحمله هذا الخطأ، ومعناه على ما تعطيه ألفاظه في حدودها اللغوية واضح لا شيء فيه، ولله العصمة وحده.

عبد المتعال الصعيدي

2 me Année, No.70 .

Lundi-5-11-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٧٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ رجب سنة ١٣٥٣ — ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

يا هادىَ الطريق جُرت ! !

ذلك هُتاف الأمة الحيْرَى ، يتجلجل فى صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد ، وأجهدتها المفاوز ، وفدحتها الضحايا ، ووقف بها اللغوب ، ودارت ببصرها فى معامى الفضاء فلا تتبين نَسَماً لطريق ، ولا تتعرف وجهاً لغاية

يا هادىَ الطريق جُرْت ! !

ذلك صراخ القافلة المكروبة ، تَخْبط منذ طويل فى مجاهل الأرض ، وخوادع السُّبل ، وأدلاَّؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش ، ويقتسمون مالها مع المغير ، ويغتنمون ضلالها مع الحوادث ، حتى قطعوها عن رَكب الانسانية ، وتركوها فى مطاوى التيه تنفق جهدها على غير طائل ، وتَنشد قصدها من غير أمل

يا هادىَ الطريق جُرْت ! !

ومن يستطيع اليوم أن يُعَرِّف هذا الهادى بالنداء ، أو يخصصه بالوصف ، أو يأخذه بالتبعة ؟ لقد تعدد الهداة فى هذه القافلة ! واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجاذبوا

الأزمّة ، فأخرجَنا هذا من مذهب الى مذهب ، وصرفنا ذلك من مطلب الى مطلب ، حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ، ندور حول الموقف الذى كنا فيه ، أو نرجع الى الموضع الذى فصَلنا عنه !

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقرى زهاء ثمانين سنة : رجعنا الى العهد الذى كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق ، وندرب القانون على مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأجير معنى الأمة المالكة ! وليتنا عدنا إلى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ! فقد كنا على قلتنا أعزّة ، وعلى فاقتنا أعِفّة ، وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع . كنا نتواصى على الصبر ، ونتعاون على البر ، ونتهادى صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع ، فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ على النقيصة ، ويتحمل على الخبث ، ويتّجر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبه شريعة !

ولكننا وا أسفاه ، بعد هبّة مصطفى ، ونهضة سعد ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكوّن الرأى ، نصاب بهذه النكسة الشديدة ، فنعود ناقضين ما أُبرم خاسرين ما غنم !!

***

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادى لا يزال يُنبت ، وإن الشمس التى أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع ، وإن الأيدى التى غرست أولى الحضارات على العدْوتين لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر ؟

دع عنك ما يقال من كَلَب الاحتلال ، وفقد الاستقلال ، وتجنّى الدول ، فإن ذلك كله عَرَض من أعراض العلة الدخيلة الوبيلة وهى انحلال الخلق . وانحلال الخلق فى دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت ، فكان لنا من ذلك الوضع المقلوب رجال يَجرون فى عنان مع علماء الغرب ، بل وربما طاولوهم فى حذق اللغات وتلون المعرفة ؛ ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة ، والمدرسة من المربى القادر ، فتخونهم الكفاية عند التطبيق ، وتخذلهم الشجاعة عند العمل ، ويفارقهم الضمير عند الواجب ، فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التى تثب على أموال الناس ، وتعتدى على حقوق الشعب ، وتستخدم السلطان العام فى مساعدة الصديق ومكايدة العدو ومناوءة الخصيم ! . .

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة ! إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قِوام العمل ، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة ، وسرنا على نور الله لا نَعْمَهُ فى ظلام ، ولا نسدر فى غواية

***

إن بعض الأمم الاسلامية أقل منا عدداً ، وأرق ثروة ، وأضيق ثقافة ، وأحدث مدنية ما فى ذلك شك ، ولكن غرائزها الأصيلة لم يزيفها ذل الرق السياسى ، وخلائقها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة ، فتمردت على الضيم ، وتعنّتت على الأحداث ، وقلّمت الأظفار الناشبة فى استقلالها ، وقطّعت الأيدى الطامعة فى استغلالها ، ومشى أبناؤها الأباة على هَدْىِ ماضيهم المشرق لا يستكينون لمشُورة حليفة ، ولا يستنيمون لمعونة أجنبى ، ولا يستجيبون لوساوس الأطماع فى مرافق الأمة ومناصب الدولة ، حتى انخزلت عنهم التهم ، وغفلت عنهم الفتن ، واستوثق لهم الأمر أو كاد

ذلك يا قوم ما يهدى له منطق الطبع ، وصوت التاريخ ، وعبقرية الجنس ، أما هذا الذى نحن عليه فلا يمكن أن يؤدى إلا إلى الذى نحن فيه .. فتداركوا إفلاس المدرسة ، وفشل السياسة ، وفوضى الحكم ، بإيقاظ الضمائر الغافلة ، واستخدام الكفايات العاطلة ، واستلهام هذا الشعب المجيد الذى عودته عناية الله أن يُعَوَّق ولا يضل ، ويُعذَّب ولا يذل ، ويحارَب ولا يستكين

احمد حسن الزيات

لجنة التأليف والترجمة والنشر

نبـــذة تاريخيـــة

للأستاذ احمد أمين

رئيس اللجنـــة

في سنة ١٩١٣ كان في مدرسة المعلمين العليا بدرب الجماميز طائفة من الشـــباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الأسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والايمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه؛ وقد نبتت هذه الفكرة عندهم على أثر حرب البلقان، ومطالعتهم في كتب تثير هذه المعاني في النفوس، أمثال كتاب «طبائع الاستبـداد» و«أم القرى» للكواكبي

فكانوا يجتمعون اجتماعات متعددة للبحث في وضع خطط لما ينوون القيام به من أعمال، يجتمعون أحياناً في مدرسة، وأحياناً في منزل، وأحياناً في مسجد الجزيرة عقب تروضهم، وأحياناً يسافرون الى بلد أحدهم في الأجازة، وأحياناً يفرون من العمران ويجتمعون في الصحراء

وكانوا يتبادلون الرأى في مختلف الوسائل، وينحون في ذلك مناحي مختلفة، فمنهم من كان يميل الى تركيز كل الجهود في الأصلاح الديني ويرى أنه هو الوسيلة الوحيدة لرقيّ العالم الاسلامي، ومنهم من كانت تغلب عليه النزعة الى الاصلاح الاجتماعي بأوسع معانيـه — وكانت الآراء في ذلك تتشعب، وتذهب المناقشات بينهم كل مذهب

وهناك في «زاوية البقـلي» في أحد اجتماعاتهم اعتزموا تكوين لجان منهم للقيام بأعمال مختلفة، إحداها «للتأليف والترجمة والنشر»، وهذا هو السبب في تسميتها «لجنة» لا جمعية ولا غيرها

وفي هذه الأثناء اتصلوا ببعض إخوانهم في مدرسة الحقوق فساهموهم هـذه الأفكار وتطوعوا للعمل لها وبذل الجهد في تنفيذها؛ وكان من أظهر أفراد هذه الجماعة، وأول الداعين إلى هذه الأفـكار، وأشدهم حماسة ونشاطاً، الطلبة: محمد احمد الغمراوي، وأحمد عبد السلام الـكرداني، ومحمد عبد الواحد خلاف، وأحمد زكي، وحسن مختار رسمي، ويوسف أحمد الجندي، ومحمد فريد أبو حديد، ومحمد عبد الباري

فلما تخرج أكثر هؤلاء من مدرستي المعلمين والحقوق سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٥ عقدوا النية على أن يتموا رجالاً ما بدأوا به طلبة، واتصل بهم إذ ذاك بعض إخوانهم ممن يميلون ميلهم ويشعرون شعورهم، ومن هؤلاء: محمد كامل سليم، وأمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد بدران، وعبد الحميد فهمي، ومحمد صبري أبو علم، وأحمد أمين

ليس المقام الآن مقام ما فكروا فيه من مشروعات أخرى، وما عملوا فيها، وما آلت اليه، إنما المقام الآن للجنة التأليف؛ فقد أكثر هؤلاء الأعضاء من ذكر التأليف والترجمة والنشر، وأمّلوا أن تقوم جماعتهم بهذا العمل، وأن يتسع نطاقها، فيكون لهم مكتبة ومطبعة، ومدرسة نموذجية، ومجلة، وأن تكون لهم كتب في مختلف العلوم والفنون تناسب جمهور المتعلمين في جميع مراحل التعليم

وكان أول ما عملوا أن عهدوا إلى الأستاذين أحمد زكي وأحمد عبدالسلام الكرداني تأليف كتاب في الكيمياء للمدارس الثانوية، والى الأستاذ محمد احمد الغمراوي تأليف كتاب في الطبيعة، والى الأستاذين محمد خلاف وعبد الحميد فهمي تأليف كتاب في الحساب، وإلى الأستاذين محمد كامل سليم ومحمد بدران تأليف كتاب في الجغرافيا. وقد نفذت كل المشروعات ماعدا الثاني منها

أملوا هذه الآمال، وكوّنوا هذه اللجان، ووضعوا مشروع هذه الأعمال، وليس لديهم مال يستعينون به على أغراضهم، ولـكن كان لهم أمل قوي، وعزيمة ثابتة، وإخلاص نقي، وحسبهم من هذا غنى

في هذا الحين بدأت اللجنة في عمل قانون لها وعهـدت الى الأستاذ حسن مختار رسمي بوضعه

واجتمع الأعضاء سنة ١٩١٥ بالمدرسة الأعدادية بالعباسـية لأن كثيراً من أعضاء اللجنة كانوا مدرسين بها؛ فقرأوا القانون وأدخلوا عليه بعض تعديلات وانتخبوا أعضاء مجلس الادارة، وبدأ الأعضاء يدفع كل منهم عشرة قروش في الشهر، ثم جعلت مالية اللجنة أسهماً كل سهم ثمنه جنيه، وهذا بدء التكوين المالي

للجنة — ولم يكن يزيد عدد الأعضاء إذ ذاك على خمسة عشر عضواً

بدأت اللجنة عملها بأن وضع الأستاذان احمد زكى واحمد السكردانى كتابهما فى الكيمياء فى جزأين فمهد فى قراءته ونقده للأستاذين محمد خلاف ومحمد الغمراوى ، وكان من أجمل المناظر اجتماعهم وعملهم ؛ فقد استأجروا شقة خاصة فى منزل أحدهم أعدها لهم أولهم ، وظلوا يجتمعون ليل نهار يقرأون وينقدون ويراجعون الى أن يدركهم الملل فيناموا وقد بلغ منهم الجهد ، حتى اذا أتموه بعد عناء قدموه للطبع ، ولم يكن فى اللجنة ما يكفى للانفاق عليه ، فاقترضت اللجنة من بعض الأعضاء ما يكفى لذلك

لم يكن فى مال اللجنة ما يكفى أيضاً لاستئجار مكان خاص ، فكان مجلس الادارة يجتمع فى بيت أحد الأعضاء ، وأكثر ما كان ذلك فى بيت عبد الحميد افندى العبادى بالحلمية ، أو بيت محمد افندى خلاف كذلك — وأحياناً يجتمعون فى مقهى قلَّ زوَّاره — ولما أنشئت نقابة المعلمين استأذنتها اللجنة فى أن تجتمع فيها فأذنت ، وكانت الجمعية العمومية لها تنعقد فى إحدى المدارس الأهلية كالاعدادية ، ووادى النيل

كذلك لم تكن تستطيع أن تستأجر مكاناً تخزن فيه كتبها ، فكان كل مؤلف يخزن كتابه فى بيته ، ويبيع منه ماطلب ، ويعمل حسابه بنفسه ويقدمه للجنة

ثم اتفقت اللجنة مع مكتبة أن تودع فيها كل كتبها فى نظير خصم أكبر على مايباع — وكان أحد الأعضاء يتولى حساب اللجنة على طريقة ساذجة بسيطة . وقد كانت هذه الأعمال كلها مما يعرض اللجنة للضياع والانحلال لولا ما ملئ به أعضاؤها من صدق وإخلاص وثقة

أخذت اللجنة بعد ذلك تنمو تدريجاً فزاد أعضاؤها حتى بلغوا الآن بضعاً وسبعين ، وزاد إنتاجها ، واتسع عملها ، وكثر مالها ، فاتخذت لها مركزاً ، وكان أول مافعلت ذلك أنها استأجرت مكاناً فى شارع الأمير يوسف بالحلمية القديمة بثلاثة جنيهات شهرياً اتخذته مخزناً ومكاناً للادارة ، ثم انتقلت منه الى مكان فى شارع غيط العدة ، ثم الى مكان فى شارع البدولى ، ثم فى شارع الساحة ، ثم فى مكانها الحالى . ونظمت دفاترها واستخدم لها العمال ليقوموا بحسابها على الطراز الحديث

ومما يلاحظ أنها بدأت أول أمرها بالكتب المدرسية لرواجها ، ولتكوين دعامة مالية لها ، ثم توسعت بعد ذلك فلم تبال ما تطبع متى وثقت به من الناحية العلمية ، ولو كان الكتاب كتاب الخاصة كما فعلت فى ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو ، والبصريات

كما يلاحظ أن أكثر أعضائها وأوفرهم إنتاجاً كان من المعلمين ، لأن طبيعة عملهم جعلتهم أكثر اتصالاً بالكتب ، وميلاً الى تأليفها أو ترجمتها

وقد ساعد اللجنة على رواج كتبها الثقة التى منحها الجمهور إياها مقابل ما تبذله من جدٍّ فى التدقيق فيما تنشر ، فليست تخرج كتاباً إلاّ بعد أن يمر على لجنة مختصة تنظر فيه بإمعان ، وتقدم تقريراً عنه بصلاحيته ، أو تقترح إدخال إصلاح عليه غير مبالية كثيراً برواج الكتاب أو عدم رواجه متى وثقت أن الكتاب يخدم العلم ويحقق غرضها ، ويفيد ولو الخاصة

ومنذ أربعة أعوام سعت اللجنة لدى وزارة المعارف أن تمنحها مبلغاً من المال للاستعانة به على تأليف الكتب القيمة وترجمتها ونشرها . إذ كان هذا العمل من أهم الأعمال التى يصح أن تقوم بها وزارة المعارف

وكان لبعض أعضاء اللجنة السعى المشكور فى أن مجلس النواب طلب من وزارة المعارف أن تمنح اللجنة مقداراً من المال لهذا الغرض . كما كان لبعضهم سعى مشكور آخر فى إجابة وزارة المعارف له

وألفت وزارة المعارف لجنة من الأستاذ سكرتير عام الوزارة ، والأستاذ مصطفى عبدالرازق ، ورئيس اللجنة ، للنظر فى المال الذى تقرره الوزارة ، وكيفية صرفه ، والكتب التى ينفق عليها هذا المبلغ

وقد منحت الوزارة اللجنة ألف جنيه فى ثلاثة أعوام متوالية أنفقت منها على طبع كتاب فتح العرب لمصر ، والنجوم فى مسالكها ، والجزء الأول من السلوك للمقريزى ، ولا تزال مستمرة فى إخراج الكتب القيمة كلما تجمع لها شىء من المال

فلوزارة المعارف الشكر على هذه الثقة كما للأعضاء الذين سعوا هذا السعى الشكر على ما سعوا

***

وأخيراً وبعد عشرين سنة من حياتها يحق للجنة أن تقف

[البقية على صفحة ١٨٤٠]

قصة زواج

ذيل القصـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد ابن المسيِّب وتزويجِه ابنتَه من طالب علم فقير بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجاً لوليّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريّات المتعلمات تصيح وتُولْوِل . . . وحدّثنا أديب ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان . . .

أفتُراها ستكتب اليه أنها تقبل الزواج من ولي عهده ؟

على أن للقصة ذيلاً، فان الطبيعة الآدمية لا عصرَ لها، بل هي طبيعةُ كل عصر . والفضيلةُ الأنسانيةُ يبدأُ تاريخُها من الجنة ، فهي هي لا تتجدّد ولا تزالُ تلوحُ وتختفي ؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسِها ، فهي هي لا تتغيّر ولا تزالُ تظهر وتستَتِر

***

لما زوّج الامامُ ابنتَه من أبي وَداعة وأخذها بنفسه اليه في يوم زوّجها منه ، ومشى بها في طريق حصاه عنده أفضلُ من الدُّرّ ، وترابُه أكرمُ من الذهب ؛ طارت الحادثةُ في الناس واستفاضَ لهم قولٌ كثير . « فأما الذين آمنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . » وقد قال جماعةٌ منهم : تاللهِ لئن انقطع الوحيُ فان في معانيه بقيّةً ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تُشبه في عظَمتها قلوبَ الأنبياء ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا كمعنى سُورة من السُّوَرِ قد انشقّت لها السماءُ ونزل بها جبريلُ يخفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان

« وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهـم رِجْساً الى رِجْسِهِم . » وقال أُناسٌ منهم : أمَا واللهِ لو تهيّأ لأحدنا أن يكون لصاً يسرق أمير المؤمنين أو ابنَ أميرِ المؤمنين لركب رأسَهُ في ذلك ، ما يَرُدّه عن السرقة شيء ؛ فكيف بمن تهيّأ له الصِّهْرُ وَالْحَسَب ، وجاءه الغِنَى يَطْرُقُ بابَه — ما باله يردُّ كل ذلك ويُخزِي ابنتَه برجل فقير تعيشُ في داره بأسوإ حال ؛ وكيف تَثْقُلُ همتُه وتَبْطُؤُ وتموتُ إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة ؛ ثم ينبعث ويمضي لا يتلكّأ عزمُه إذا كان العلم والفقر والدين والتقوى

وانتهى كلام الناس الى الإمام العظيم فلم يجِئْهُ إلا من الظن خفِياً خفِياً ، كأنما هي أقوالٌ حسِبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألفِ سنة ، في زمننا هذا ، حين يكون هو في معاني السماء ، ويكون القائلون في معاني الترابِ النَّجِس الذي نفَضَتْه على الشرق نعالُ الأوربيين . . . !

قال الراوي : ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الإمامَ بشَفَةٍ أو بنتِ شفة ، لا مُضيِّقاً عليه من قلبِه ولا مُوسّعاً ، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة ، وقد مال الناس بعد الصلاة الى حلْقة الشيخ وتقصّفوا بعضُهم على بعض فغَصّ بهم المسجد ، وكان إمامُنا يفسِّر قوله تعالى : « وما لنا ألا نتوكّلَ على اللهِ وقد هدانا سُبُلَنا ، ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمونا . وعلى الله فَلْيَتَوكَّلِ المتوكّلون . »

قال الراوي : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِيَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى في الحياة إما عداءً له ، وإما معارضَةً ، وإما ردّاً ؛ فهو منها في الأذى ، أو في معنى الأذى ، أو عُرْضَةٌ للأذى . لقد وجَد الطريق ولكنه أصاب العقباتِ أيضاً ، وهذه حالة لا يَمضي فيها الموفَّق إلى غايته إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أُولاهما العزمُ الثابت ، وهذا هو التوكل على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصِر ، وهذا هو الصبر على الأذى

ومتى عزم الانسانُ ذلك العزم ، وأيقن ذلك اليقين — تحوّلت العقباتُ التي تصدّه عن غايته فآل معناها أن تكون زيادةً في عزمه ويقينه ، بعد أن ضُمِّنَ ليكُنَّ نقصاً منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تُعين على الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحه على الطريق ، فما بُدٌّ أن يَغلبَ على الطريق وما فيها . وينظر الى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً على سَعتِها وتناقضها

إلا سبيله وما حول سبيله ، فهو ماضٍ قدماً لا يتراد ولا يفتر ولا يكل ، وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً

ومن ثمّ لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت — إلا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط في الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمر مهما طال إلا مدة صبر في رأى المؤمن . وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر هما الضوء الروحاني القوىّ الذى يكتسح ظلمات النفس مما يسميه الناس خمولاً ودعة وتهاوناً وغفلة وضجراً ونحوها

قال : ولكن كيف يُعان المؤمن على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين إعجاز الآية الكريمة ؛ فقد ذُكر فيها التوكل ثلاث مرات ، وافتتحت به وختمت ، والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا . وذُكرت في الآية بين ذلك هداية المرء سبيله ؛ وهذه الاضافة (سُبلنا) تعيّن أنها هداية الانسان الى سبيل نفسه ؛ أى سبيله الباطنىّ الذى هو مناط سعادته فى الشعور بالسعادة[1] ثم ذُكر الصبر على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا فى حيوانية الانسان ، ولا يؤثر إلا فيها . فكأن الآية مصرّحة أن نجاح المؤمن ونفاذه فى الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت . وأن الصبر ليس شيئاً يُذكر ، أو شيئاً يُجدى ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية فى أفظع وحشيتها ؛ فالروح لا تؤذى الروح ، ولكن الحيوان يؤذى الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداءً من غيرك ، ويسمى أذى لك ، هو شىء ينبغى أن يجعله العزم نخراً لقوة الاحتمال فيك ، كما جعله البطش نخراً للقدرة عند المعتدى

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانىّ ، ووهبك حقيقة الشعور ، وصحح بمعانى روحيتك معانى حيوانيتك ؛ وحينئذ ترى السعادة حقّ السعادة ما كان هداية لنفسك أو هداية بها ، ولو انقلب فى الشخص الحيوانىّ منك أذى وألماً . ذلك صبر أولى العزم من الرُّسل

***

قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسّه عامل الخليفة ، ليسأل الشيخ سؤالاً على ملأ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ؛ وقد مكر العامل فاختاره شيخاً كبيراً أعقف ، ليرحم الناس رقة عظمه وكبر سنه فلا يعرضون له بأذى ، ثم ليكون صوته كأنه صوت الدهر من بعيد . قال الصائح : ذلك أيها الشيخ صبر أولى العزم من الرسل ، أو صبر ابنتك على مكاره العيش مع أبى وداعة ، لا يجد إلا الرُّمقة يمسك بها الرمق عليها وقد كانت النعمة لها معرضة ، فدفعتها اليه زعمت — لتهلك به شخصها الحيوانىّ ، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك فى اليم ... ؟

فتربّد وجه الشيخ وأطرق هُنيّات ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلم آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادنُ مِنّى . فتقاعس الرجل كأنما تهيّب ما فرط منه . فاستدناه الثانية ؛ فقام يتخطّى الناس حتى وقف بازائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخ قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنّا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص »

ثم قال : أيها الرجل ، لا تسمعنى بأذنك وحدها . أرأيتك لو سمعت خبراً ليس فى نفسك أصل من معناه ، أو ورد عليك الخبر ونفسك عنه فى شغل قد أهمّها ، أفكنت تنشط له نشاطك للخبر احتفلت له نفسك أو أصاب هوى منك أو رأيته موضع اعتبار ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا سمعت بأذنك وحدها فانما سمعت كلاماً يمرّ بأذنك مراً ، وإذا أردت الكلام لنفسك سمعت بأذنك ونفسك معاً ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فكل ما لا تنفرد به حاسة واحدة ، بل تشارك فيه الحواس كلها أو أكثرها — لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركت فيهما الحواس ، فيأتى كل منهما كثيراً مهما قلّ ، وتزيد كل حاسّة فى اللذة لذةً وفى الألم ألماً ، فتعمل النفس فى ذلك أعمالاً

---

(١) سيأتى فى كلام الامام بسط لهذا المعنى

تَسْحَرِبها ، فيكون الشيء لصاحبه غيرَ ماهو للناس ، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكل حواسك فاذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير ذاك . أكذلك هو ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فيكون السرورُ بالغنا عجيباً أكثرَ ماهو بالغ ، حين يجدُ المالَ والغِنى في الأنسان ، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى ؟

قال : بل حين يجِدُ في النفس

قال الشيخ : أرأيت الأنسان يكون سعيداً بما يتوهّم الناسُ أنه به غنيٌّ سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بعدُ فيما لا يتوهم الناس فيه الغِنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره

قال الشيخ : أفلا توجدُ في الدنيا أشياءُ من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ؛ كالطفل عند أمه ، كل ما تعلق به من شيء وُزن به هو لا بغيره ، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه ، أتعرف أمّاً ترضى أن يُذبَح ابنُها في حجرها لقاء أن يُملأ حجرُها ذهباً ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا كانت النفس تشعرُ أكثر مما ترى ، أفيذهب ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحده الذي يَلْبَسُ ما حولها ويصوِّره ويصرِّفه ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذي نعيش فيه عالَماً آخر هو عالم أفكارِها وإحساسِها ، وفيه وحده لذاتُ إحساسِها وأفكارِها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفرأيتَ المرأةَ إذا صحَّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها ، أرأيتها تكون إلا في عالَم أفكارِها ، أرأيتَ كلَّ ما يتصل برغبتِها حينئذ يكون إلا من أشياءِ قلبها لا من أشياءِ الدنيا ؛ أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبِها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط ؟

قال : نعم هو ذاك

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الأعمال قد وُلِدَ ونشأ وترعرَع في قلب المرأة ، ألا يكون هو طفلَ قلبِها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الخمر عند مُدمِنها شيئاً عظيماً ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجودُه الضعيفِ المختلَّ ، فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلاّ بها ، أفيلزمُ من ذلك أن تكون الخمر من ضرورات صاحب الوجود القويّ المنتظم ؟

قال : لا

قال الشيخ : أفمُوقِنٌ أنت أن لابدّ من آخِر لأيام الأنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفيؤرِّخُ الانسان يومئذ بتاريخ مَعِدَتِه وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه

قال الشيخ : فاذا كنتَ صاحبَ حَرْبٍ ، وكنتَ بطلاً من الأبطال ومِسْعَراً من المَساعير ، وأيقنتَ الموتَ في المعركة ؛ أيكونُ الحقيقُ عندك في هذه الساعة هو الموتَ أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهمٌ وباطل

قال الشيخ : فتَفِرُّ في تلك الساعة الى الحياة ولذّاتها في خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفرارُ منها ، فان خيالها يكون خَبالاً

قال الشيخ : ففي تلك الساعة التي هي عُمْرُ نفسِك وعَمَلُ نفسك ورجاءُ نفسك ؛ تستشعر اللذةَ في موتك بطلاً مذكوراً ، أم تُحسّ الكربَ والمَقْتَ من ذلك ؟

قال : بل أستشعر اللذة

قال الشيخ : إذن فهي كبرياءُ الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أيّ أشكالها ولو في الذهب

قال : هي تلك ؟

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلّ أشياء الدنيا ، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا

قال : نعم

قال الامام : يرحمك الله . كذلك يُحيِي عندنا أميرُ المؤمنين

وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحيِي المالُ والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة . ومن رحمة الله أن كلَّ مَن هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتَها فى الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمات ؛ فان السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُق لا المال ، والفقرَ فقر الخُلق لا العيش

* * *

قال الراوى : ثم إن الامام العظيم التفت الى الناس وقال : أما إنى — عَلِمَ الله — مازوّجت ابنتى رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدينِ والفضيلة . وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلةَ نفسه ، فيتجانسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا مَهْنأ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعُه طبعَها ، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس فى مال الدنيا مايشترى هذه المجانسة ، وأنها لا تكون إلا هدية قلبٍ لقلب يأتلفان ويَتَحابّان

ثم قال الامام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) ، ورأيتهُنّ فى دورهنّ يُقاسِين الحياةَ ، ويُعانِين من الرزق ماشحّ دَرُّه فلا يجيء إلا كالقطْرة بعد القطرة ، وهنّ على ذلك ، ماواحدةٌ منهنّ إلا هى مَلِكَةٌ من مِلكات الآدميّة كلّها ، وما فقرُهنّ واللهِ إلا كبرياء الجنة ، نظرت الى الأرض فقالت : لا . . . !

يجاهدْنَ مجاهَدةَ كل شريفٍ عظيم النفس ، همُّه أن يكون الشرفُ أو لا يكونَ شيء ؛ ويرى الغافلُ أن مِثْلهن فى تعب الجهاد ، ويعلَمْنَ من أنفسهن غيرَ مايرى ذلك المسكين — يَعلمْن أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها

كانت أنوثتُهنّ أبداً صاعدةً مُتسامِيةً فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ، ولا تزال متسامية صاعدةً ، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتها تنحدر مابقيتْ المرأةُ تطمع ؛ ورُبّ ملكةٍ جعلتْها مطامعُ الحياة فى الدرك الأسفل ، وهى باسمها فى الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطّلعتُ فى الجنةِ فاذا أقلُّ أهلِها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شغلَهنّ الأحمران : الذهب والزعفران (1) . » أى الطمع فى الغنى والعملُ له ، والميلُ الى التبرج والحرصُ عليه

ونفسُ الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغلَها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع — هو يُخصصها بخصائص الجسد ، ويُعطيها من حكمه ، ويُنزلها على إرادته ؛ وهذه هى المزَلّة ، فتهبط المرأةُ أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوى ، وتَفسد أكثر مما تَصلحُ . إن نفسَ الأنثى أنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده

رأيتُ أزواجَ النبى صلى الله عليه وسلم فقيراتٍ مَقتوراً عليهن الرّزق ، غير أن كلا منهن تعيش بمعانى قلبها المؤمن القوى ، فى دار صغيرة فَرشَتها الأرض . . . ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران . إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعدْن عن حماقة الدنيا التى لا تكون إلا فى الغنى

* * *

أفٍّ أفّ ! أتريدون أن أزوج ابنتى من ابن أمير المؤمنين فيخزيَها الله على يدىّ ، وأدفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذى جمع كلَّ أقذار النفس ودنس الأيام والليالى ؛ أأزوّجها رجلاً تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه ، فتكون زوجةَ جسمه ومطلّقةَ روحه فى وقتٍ معاً ؟

ألا كم من قصر هو فى معناه مقبرةٌ ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالِهم ونسائِهم إلا جيفٌ يُبلى بعضُها بعضاً !

---

(1) توفى سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقى جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبى هريرة الصحابى الجليل ، وعنه أكثر روايته

(1) هذان هما فتنة النساء فى كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والحلى وما كان من بابهما ، أما الزعفران ففيها المعجزة لانها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والعطور ، الى (المودة) التى هى أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت . أى فعلت ذلك (فالزعفران) كما ترى كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة ، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . . وسنضع إن شاء الله مقالا فى التبرج وحقيقته وفلسفته

٢ ـ الشيخ على يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشرى

تتمة



ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد ، على أنه كان الى الطول . يظهر فى مرأى العين نحيلا هزيلا ، ولكنه كان مكتنز اللحم . مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهدبين كثيراً ما ترى له فى إطراقه ، نظرة غريبة ساجية . ضيق الفم ، على أن فى شفتيه الحمراوين شيئاً من الغِلَظ . تعلوه صفرة ما أحسبها من أثر مرض . وشعر لحيته الدقيقة المتّسقة يميل الى الشقرة . رفيق الصوت لينه إذا تحدث ، فاذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلخ بعض التسلخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تصلح للخطابة

وكان بعدُ رجلاً شديد العقل ، قوى النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة . لا تتعاظمه قوةُ خصم بالغةً ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه . وإذا تحداه متحدٍّ ركب رأسه فى نضاله لا يبالى أين يقع المصير ، وصحّ فيه قول الشاعر :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
ونكّب عن ذِكر العواقب جانبا

وأذكر أنني مضيتُ إليه مرّة فى صَحب لى من خلصانه ، وسألناه أن يترفق بالمؤيد ، فلقد تظاهر عليه خصومه ، وألّبوا الجمهرةَ عليه ، وأذكوا عليه حماسة الشباب فى رأى له قد لا يحسن فهمَه العامةُ ، ولا يستريح اليه طموح الشباب . فأصغى الينا وأحسن الأصغاء ، وترك كل واحد منا يقول ما عنده ، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازل عند رأينا ، عادل إلى ما سألنا ، فاذا هو يرتج فى مجلسه ارتجاجة عنيفة ، ويقول فى قوة وفى عزم حديد : « والله لا يعنيني أن يكون الناسُ جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بازائهم فى صف واحد » ! . وتركناه ونحن نرى منحدر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم !

ولقد كان الشيخ على ، رحمة الله عليه ، رجلاً متمكناً من نفسه حقاً ، ولقد كان مما يُشاع عنه ، ولعل خصومه هم مبعث هذه الاشاعة ، أنه كان يقول : أنا لا أبالى أن أخسر هذا البلد ، ففى إمكانى أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات . . !

ولقد عاشرتُ الرجل ما عاشرتُه ، واستمكن ما بيننا من الودّ والالف إلى الحدّ الذى يبعثنى على الاعتقاد بأنه ما كان يخفى عني شيئاً حتى من نجوى نفسه فى الأسباب العامة . وشهد اللهُ ما سمعت منه قط هذا الكلام ، ولا أية عبارة أخرى يمكن أن تؤدى معناه

ولكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع ، أعنى الواقع من حاله لا من مقاله : فاننى لا أعرف رجلا سياسياً عظيما كان أقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ على يوسف . وخصومه ، على كثرتهم ، لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات ، وإنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب ، وكلهم عاملٌ على إسقاطه ، جاهدٌ ما امتدّ به الجهد فى هدم المؤيد ، مذلِّ عليه الأقلام والألسن من كل ناحية ، تدمغه بتهمة الخيانة

* * *

قال الراوى : وضجّ الناس لحمامة صغيرة قد جنحتْ من الهواء فوقعت فى حجر الشيخ لائذةً به من مخافة ، وجعلتْ تدِفّ بجناحيها وتضطرب من الفزع ، ومرّ الصقر على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تمطّر ومرَق فى الهواء إذ رأى الناس

وتناولها الامام فى يده وهى فى رجفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس مسرْوَلةً قد غاب ساقاها فى الريش ، وعلى جسمها من الألوان نمنمةٌ وتحبير ، ولها روح العروس الشابة يهدُونها الى مَن تكره ، ويزفّونها على قاتلها الذى يسمى زوجها

وأدناها الشيخ من قلبه ، ومسح عليها بيده ، ونظر فى الهواء نظرة . . . وهو يقول : نجوْتِ نجوْتِ يامسكينة !

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق ، والمؤيد يتقلص بين أيدى القارئين ويتقلص حتى يُظن أنه قد تشرّف على العفاء . ثم إذا الشيخ يتجمع ، وإذا هو يشرع القلمَ شرع الرُّمح الرُّدَيْنيّ ، وإذا هو يطعن الطعنةَ البكرَ ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يُصيب إلاّ الكُلَى والمفاصل . وإذا هؤلاء الخصوم يتطاررون عنه تطاير الشعْراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، واذا المؤيد يرنّ فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه !

وقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان مبغّضاً إلى الكثرة فى البلاد . وإن هذا البغض ليرجع ، فى الأكثر ، إلى أسباب صناعية : منها المنافسات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولىّ الأمر ، ومنها أنه كان هنالك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، كان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ، ولربما ظاهروا المعتمد البريطانى أحيـــاناً فى عدائه للقصر . فهم ، بالضرورة ، ينقمون من كل رجل توافيه للقصر ، وخاصة إذا كان رجلاً كالشيخ على يوسف جبار العقل جبار القلم

أرأيت كيف كان هذا الرجل محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة ، بل التى يصطرع التناقض أحياناً بين أسباب بعضها وبين أسباب بعض ؟ . على أن إذكاء بغض الشباب والعامة للرجل من جهة ، وبغض بعض الخاصّة له من جهة أخرى ، إنما كان يسلكه له خصومه من أحد طريقى الضعف فيه ، إن صحّ هذا التعبير . أولهما أنه كان معتدلاً لا يرى العنف سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد ؛ بل إن هذا العنف لقد يُرديها فى أخطار لم تكن لها فى الحساب ، وكان طوعاً لهذا يرى ألاّ يتحدث فى الشئون العامة إلاّ الشيوخ الناضجون المجربون ، وهذا وهذا ، ولا شك ، مما لا يُرضى الشباب المشتعل حماساً لحق الوطن . ولا تنسى أن العامة من وراء هؤلاء

أما السبب الثانى فلصوقه بالقصر ، وشـدة توافيه له ، ومظاهرته له على الدوام ، وأظن أن هذا مقام لا تحمد فيه إطالة الكلام

مع هذا كله ففى يوم الجُلَّى ، يوم تحدث الأحداث القومية ، ينفض الناسُ قلوبَهم حتى يتساقط عنها كل ما علق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، ويُتلعون أعناقهم نحو المؤيد ، شاخصةً أبصـارهم ، مرهفةً آذانهم ، معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسُهم . فاذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبته ، فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه ، وضغماً بأنيُبه ، حتى ما يدعها إلاّ (أعظماً وجلوداً)

نعم ، لقد كان يقول الشيخ على فيروى كل غلة ، ويشفى كل علة ، ويعلو بسطوة قلمه حتى ما ينتهى منتهاه فى ذاك أحد . والناس طراً لهذه النصرة بين مهلل وبين مكبر ! . هذه كانت قدرة الشيخ القادرة ، وهذه كانت قوته العبقرية النادرة . وهذه مقالاته فى أعقاب حادثة دنشواى ما برحت ترن فى آذان من قرأوها الى الآن

وإنى لأذكر له حادثاً طريفاً فى هذا الباب :

فشت الفاشـية ، لا أعادها الله ، بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس باشا غالى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ ، على ما أذكر ، وعقد الأقباط مؤتمراً مِلّياً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله فى القاهرة ، وأفضوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض باشا ، واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوىً لاجتماعه ملعب مصر الجديدة ، ومضى الناس أفواجاً فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالات البلد لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر . وتصدر الحفل رياض باشا . وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر . فأبلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع

حتى إذا كانت النوبة على الشيخ على أذكى بعضُ شبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفةً من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألاّ يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان . فوعـدهم أكثرُ الناس بهذا ، وأصروا عليه مخلصين لما تنطوى صدورهم من حقد عليه ومن بغضاء

وينبعث الشيخ يخطب ، وهو كما قدمت لك غير خطيب . استغفر الله ، بل لقـد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه ؛ وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضع دقائق حتى أخذ الناسُ عن نفوسهم ،

ونسوا ما عاهدوا أولئك الفتيانَ وعاهدوا أنفسهم عليه . فبروا من التصفيق أكفَّهم ، وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقاً ، فكنت تسمع من هتافهم مثل الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالأغصان فى اليوم العاصف ! وكان من أشدهم سعراً من كلام الرجل هم أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألاّ يلقـوا خطابه إلاّ بالجمود والأعراض

وُجهد بالرجل ، فتعاور التلاوة عنه كل من أستاذنا ابراهيم بك الهلباوى ، والمرحوم أحمد بك عبد اللطيف المحامى الأشهر ، وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها فى الساعة غير منشئها ، ما أرخى اليها من قبل نظراً . ومع هذا فما برحت تزداد الفورة ويشتد بالقوم الفتون !

ولقد أذكر أنه بعد إذ فُرغ من خطاب الشيخ وافقت فى طريق صديقاً لى من شبان الحزب الوطنى ، وهو الآن من أعلام أهل الفضل الذين يتولون منصباً جليلاً فى السلك القضائى . وكان يومئذ مسرفاً غالياً فى التشيع لمبادىء حزبه ، مفرطاً فى بغض الشيخ ، شديد الحمل عليه . ورأيته يضرب كفاً بكف ، فسألته ما به ؟ فأومأ الى مكان الشيخ من منصـة الخطابة وقال : (على رِحسّ الخطبة دى ، يقعد ابن الـ... يخون فى البلد ثلاث سنين) !

ولا زلت كلما لقيت صاحبى أذكّره هذه الحكاية ، فيضحك فى غيظ لا أدرى إن كان من تذكيرى له بهذه القصة ، أم أنه ما تزال فى صدره بقية من هذا الضغن القديم ؟ ! الله أعلم !

***

ولقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان رجلاً مكافحاً ، بل إن قلمه لم يكن يجود فى شىء مثلما كان يجود فى الكفاح . ولم تكن سياسة الاحتلال فى مصر تخشى سطوة قلم قدر ما تخشى قلم هذا الرجل ، فانه كان فوق كفايته البيانية ، وما آتاه الله من شدة العارضة ، والتمـكن من نواصى جلائل المعـانى ، لا يُهرول إذا هرول فى الصغائر ، ولا يطعن إذا طعن إلاّ فى الصميم

ولا أحب أن أتجاوز هذا المعنى فى الرجل قبل أن أدلّ على خَلة من خـلاله فى كفاحه : ذلك بأنه كان يعتمد أضعف النقاط فى خصمه فيتجـمّع لها ، ثم يثب عليها بكل قوته ، ولا يبرح يطعنه منها دراكا ، حتى يدوخ رأسه ، ويذهله عن سائر أسلحته ، إذا كانت له أسلحة أخرى يجهز بها لذلك النضال

وكان فى كتابته مريعاً جداً ، حتى لتحسبنّـه ويده تجول فى القرطاس عازفاً على قانون لامسطراً بيراع ، وتراه كلما فرغ من وجه الرُّقعة من الأضامة دفع بها الى من يفضى بها الى المطبعة . وهكذا حتى يأتى على غاية المقال ، لا يتتعتع ، ولا يتحبس ، ولا يحتاج الى مراجعة شىء ممـا أسلف ، ومع هذا تجد المقال سَوِيّاً غاية فى الحَبك وتناسق الأطراف !

ومن العجب العاجب فى أمره أنه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفلة بالزوار وأصحاب الحـــاجات ، يرفعون أصواتهم بفنون الأحاديث والجدل ، بل لقد يأخذ معهم فى بعض ما هم فيه وهو ماض لشأنه لايشغله هذا عنه كثيراً ولا قليلا !

الشيخ على الصحفى

ولقد كان رحمه الله ، صحفياً بأجمع معانى الـكلمة ، يكتب المقال الرئيسى كل يوم بيده ، ويراجع كل مايدلى به اليه الـكتاب من المقالات ، ويفض البريد بنفسه ، فما رآه كفؤاً للنشر أذن فى نشره ، وقد يحذف بعض المقال ويبقى على بعض ، فاذا تهيأت الجريدة للطبع وراجعها المصححون تناولها فقرأها من أولها الى آخرها يصحح ماعسى أن يكون قد فات القومَ تصحيحه ، ويتثبت من ألا يكون قد دُسّ على الجريدة شىء مما يكره ، أو يكون قد سقط اليها فى سر منه إعلان عن خمر أوغيره من المنا كر

وكان على جلالة محله ، وكثرة المخبرين لديه ، يطوف بنفسه كل يوم بأكثر الدواوين فى تنسم الأخبار يستخرجها بالطف حيلته من النظار (الوزراء) أو من المستشارين الانجليز فمن دونهم من عيون الموظفين

وهكذا استطاع الشيخ على بكفايته وحدّ عزمه ، أن يجعل من المؤيد أعظم جريدة فى مصر ، برغم كل ما كان يعتريها من الـكيد ، بل أعظم جريدة فى العالم العربى كله

من أخلاق الشيخ على

وقبل أن أختم الحديث فى الشيخ على يوسف أرى لزاماً أن أشير الى فضيلتين من فضائله البارزة بروزاً عظيماً : أولاهما أنه كان خَيّراً مطبوعاً ، مارأيته سُئل الخير قط يستطيعه إلا فعله

كيف كنت حلاقا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هل وجهى وجه حلاق ؟ ؟

هذا ما ظللت أسأل المرآة عنه أياماً بعد أن وقع لى ما سأقصه اليوم ، والمرآة لا تجيب ، وإن كنت لا أضن عليها بالالحاح وطول التحديق ، أو لعلها أجابت وأبيت أنا أن أسمع أو أصدق . وقد كففت عن مشاورة المرايا وأسلمت أمرى إلى الله ، وأمر وجهى إلى حسن أدب الذين يرونه

وصحيح أنى كنت — وما زلت أحياناً — أحلق ذقنى بيدى ، لأنى كنت فى عنفوان الاضطرام السياسى أخاف أن يوقعنى سوء الحظ فى يد حلاق سياسى لا يشايعنى على رأيى ، فيذبحنى ويروح يدعى أن قتلى كان خطأ لا عن عمد وسبق إصرار ، ولكنى بلوت من متاعب الحلاقة ما زهدنى فيها ، فرددت نفسى على مكروهها ولم أعد أبالى ما عسى أن يصنع برقبتى الحلاقون السياسيون . وللذبح أهون من تهمة الجنون . أى نعم . فقد شرعت مرة أحلق ذقنى ، ولكن حد الموسى كان كليلاً جداً ؛ فجعلت أحك به وأكحت حتى صار وجهى — أو خدى — الأصفر كالطماطم الناضج ، ولم أعد أحتمل هذا الألم ، وفرغ ما فى صدرى من الهواء من طول النفخ ومن كثرة قولى « أووففف ! » فطويت الموسى ؛ وقلت إن هذا سلخ لا حلاقة ، ولست بشاةٍ ، ثم إنى ما زلت حياً ، ولم أصنع قبيحاً أستحق عليه أن أسلخ وجهى بيدى

وارتديت ثيابى ووضعت منديلاً على جانب وجهى الذى سلخته وخرجت ألتمس دكان حلاق — أقرب دكان — وسرت على بركة الله ، وفى أملى أن يظن من يرانى أن أضراسى توجعنى . واهتديت إلى دكان على كثب من البيت ، ولكن الحلاق كان مشغولاً ، فقعدت أنتظر ، وكفى على المنديل فوق خدى ، وفرغ الحلاق فدعانى فأسرعت إلى الكرسى ، ورفعت المنديل عن وجهى ، وجاء بالفوطة (١) ولف طرفها على عنقى ثم ارتد بغتة ووقف يتأملنى وقد قطب وذوى ما بين عينيه ، فقلت :

« ماذا ؟ ؟ قل ولا تخف ! »

قال وهو يهز رأسه : « كلا . لا شىء ! »

قلت ملحاً : « بل تكلم . . فانى مستعد للإصغاء . . »

فتكلف الابتسام — أعنى أنه ابتسم بشفتيه دون عينيه — وراح يجمع أدوات الحلاقة ويعدها ويرصها ، وكان فى أثناء ذلك يخالسنى النظر ، فلم يبق عندى ريب فى أن الشك خالجه فى صحة عقلى ، وما أحسبه رأى قبلى رجلا يدخل عليه ونصف وجهه محلوق والنصف الآخر يطالب الموسى . وكأنما حار ، ماذا يضع

(١) الفوطة عربية فصيحة وجمعها فوط

مهما يكن فيـــه من عنت ومن إرهاق ، وإنه ليفعل مغتبطاً راضياً هاشاً حتى ليكاد يلتمس السائليه الخيرَ التماساً ، وحتى ليكاد يصدق فيه قول الشاعر (كأنك تعطيه الذى أنت سائله) . وإنى لأعرف أنه كان يجرد صدراً من يومه فى السعى لحاجات الناس ابتغاء رضوان الله ، هذه واحدة . أما الثانية فشدة وفائه . ولقد عرفت صلة الرجل بالقصر ، ومبلغ ضعفه له . ولقد يتغير ولى الأمر يومئذ على رجل من صدقائه أو ممن أسلفوا له يداً ، فتتناهشهم الأقلام من كل جانب ، اللهم إلا المؤيد ، فانه الذى لا يطلق مقالة السوء فيه أبداً ، وحسبك دليلاً فى هذا الباب شدة توافيه للمرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، ورياض باشا ، وغيرهم كثير ، فان كان قد مس بعضهم كما مس رياض باشا عقب خطبته المشهورة ، فلقد كان عذره واضحاً ، وأى وطنى يطيق أن يسمع الأشادة بفضل المعتمد البريطانى على حساب كرامة أمير البلاد ! على أنه فيما مسه لقد كان به أرفق الكاتبين

* * *

فان زعمت بعد هذا أنه كانت فى الرجل هَنة أو كانت فيه هنات ، فمن ذا الذى سلم على العيوب كلها ، و (كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه) . وحسب الشيخ علىّ أنه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مفخرةً من مفاخر هذه البلاد التى لا يسخو بمثلها الزمان و (إن الزمان بمثله لبخيل)

رحمه الله رحمة واسعة ، وعزانا عنه نحن القادر به قدره ، أحسن العزاء م؟

عبد العزيز البشرى

بالنصف الحليق ؟ أيجرى عليه الموسى ؟ أم يدعه ويُعنى بالنصف الثانى ؟ فقد وضع عليه حد الموسى ثم رفعه ووقف متردداً فقلت لأستحثه :

« تفضل . تفضل . . . إن هذا أيضاً يحتاج الى الموسى »

فألقى إلىّ نظرة سريعة ، وأكب على العمل بلا كلام ، والحلاقون كما يعرف القراء ، ثرثارون ، ولكن منظر وجهى كان له وقع عميق فى نفس هذا الرجل ، فنشف ريقه ، وعصب لسانه ، وانقطع أيضاً ، ولم يسؤنى هذا ، ولكنى فزعت إذ رأيت يده ترعش . فجعلت أدعو الله فى سرى أن يلطف بى ويرأف بعيالى ، ويرحم شبابى

واستجاب الله دعائى لأول مرة . . ولآخر مرة فيما أذكر . . وعلى أنه من يدرى ؟ لعل الرحمة كانت أن يذبحنى الحلاق — عفواً أو عمداً — فما تكون للمذبوح عناية بهذه الفروق

***

واتفق يوماً أنى نزلت فندقاً ، وكان فيه غيرى كثيرون كما لا حاجة بى أن أقول ، وبينهم أجنبى هرم له بنت جميلة ، وكان هذا الشيخ أحمق حاد الطبع ، وبنته على خلافه لينة العريكة سلسة الطباع ، ولو أنها كانت حمقاء مثله لشفع لها جمالها ، فكيف وهى تجمع الى حسن الوجه دماثة الخلق ورقة الحاشية ؟ وعرفتها لأنى اصطدمت بها فأوسعتها اعتذاراً فلم يضق بى عفوها ، وصرنا بعد ذلك كلما التقينا نتبادل التحية — بالرأس — وكنت ألقاها فى اليوم الواحد خمسين مرة ، فلا أدرى أينا الذى كان يتعقب صاحبه ؟ وفى المرة التاسعة والأربعين من اليوم الأول استطعت أن أفتح فمى وأحرك شفتى فقالت مستفسرة :

« نعم ؟ »

قلت : « لا شىء . أعنى أنى أردت أن أقول نهارك سعيد »

قالت : « آه ! صحيح ! نهارك سعيد ! »

قلت : « إ . . إ . . الجو اليوم جميل . . »

قالت وهى تضحك بلا داع : « إ ...نعم... ج...جميل...»

قلت : « لا خوف من المطر » ، وعضضت لسانى

قالت — وكفت عن الضحك — : «مطر ؟ فى أغسطس ؟ فى الاسكندرية ؟ »

فاضطربت وقلت : « إ ... أعنى ... أعنى أن الجو جميل »

فابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت : « لقد قلتَ هذا من قبل . . . »

فحقدت عليها — فى سرى — وقلت : « صحيح ! لقد نسيت ! فيا للغباوة ! لقد كنت أظنها جملة مبتكرة ! »

ولو كنا بقينا خمس دقائق بعد ذلك لحلت عقدة لسانى ، فقد عاودتنى الثقة بنفسى ، وأيقنت أن العقدة ستحل بعد أن نطقت بآخر كلمة ، ولكن أباها — لعنة الله عليه — ! أبى إلا أن يقبل فى هذه اللحظة ، وكان وجهها اليه ، وظهرى له ، فرأته قبلى وقالت :

« هذا أبى » ، وأشارت اليه

فدرت على عقبى بسرعة ، ولم أكد أبصر وجهه حتى استولى علىّ الرعب ، فهربت بلا كلام ولا استئذان ، ولم يكن ثم باب آخر فى هذه الناحية أخرج منه ، ولم أجد أمامى غير « صالون الحلاقة » ، فدخلته وكان — كما شاء الحظ — خالياً . وشعرت أن بى حاجة الى منعش بعد الذى أصابنى من منظر هذا الشيخ الشرس ، فتناولت قطرات من « الكولونيا » وشممتها ومسحت بها وجهى ، وإذا بالرجل يصيح بى :

« ماذا تعنى بهذا التلكؤ ؟ لقد بعثت اليك منذ نصف ساعة لتوافينى فى غرفتى وتحلق لى ذقنى ! عجل يابليد ! »

وكان من الواجب أن أذهل ، أو أبهت ، أو احتج ، ولكن كرهى له أيقظ حواسى جميعاً ، فقلت هذه فرصة سنحت للانتقام منه ، وأسرعت فقلت :

« حالاً . . حالاً . . كم رقم الغرفة من فضلك ؟ »

قال : « ١٥ . . . »

ومضى عنى ، فجمعت أدوات الحلاقة ووضعتها فى حقيبة صغيرة رأيتها هناك فى ركن ، وخرجت ، فاذا بالفتاة تدنو منى وتقول :

« ماذا تنوى أن تصنع ؟ »

فقلت : « أحلق ذقن أبيك »

قالت : « حاذر . . . هذه مجازفة »

قلت : « أعرف ذلك وأشكرك ، ولكن ألا تثقين بى ؟ »

قالت : « إنك لاتعرف أبى »

قلت . « ثق انك أنت أيضاً لن تعودى تعرفينه ! »

قالت : « دع المزاح . . . لم أكن أظن أنك طائش الى هذا الحد »

قلت : تعالى . . . وانظرى »

وتركتها وقصدت الى السلم ، وهى ورائى

***

ولم تكن الفتاة مبالغة حين حذرتنى وأنذرتنى ، فان أباها شىء فظيع ، وقد أسمعنى فى خمس دقائق من ألفاظ التعنيف والشتم والقذف والطعن والقدح مالم أكن أظن أنه يوجد فى لغات العالم مجتمعة بله فى لغتنا العامية التى يعرف أقلها ويجهل أكثرها ، ولكنى أنا أيضاً لم أكن مبالغاً حين أكدت للفتاة أنها لن تعرف أباها بعد أن أفرغ من حلاقة ذقنه . فقد أرقت نصف رطل على الأقل من دمه الثقيل ، ولم أكد أضع الموسى على خده حتى صرخ وصاح بى :

« أنت جزار . . . لا حلاق »

فقلت « عفواً سيدى . إن حد الموسى لم يمس جلدك »

قال « لم يلمس جلدى ! تقول لم يمس جلدى ياأعمى ! لقد قطع لحمى ! »

فطمأنته ، فنهرنى ، وزجرنى عن الكلام ، فأجريت الموسى ، وخرجت بقطعة ثانية من لحمه القديم ، وماذا أصنع إذا كان جلد وجهه عميق الأخاديد ؟ أهذا ذنبى أم ذنبه ؟ وقلت له :

« يحسن بك ياسيدى أن تجىء فى كل صباح بأربع بيضات أو خمس فتكسرها وتصبها فى وعاء وتمزجها بمسحوق الثلج — يعنى بودرة الثلج — وتعجن هـذا بذاك ، وتدهن به وجهك ، وتظل نصف ساعة لا تفتح فمك بكلام ما ، ثم تغسل وجهك . فاذا واظبت على ذلك شهراً كاملا عادت الى وجهك نعومته باذن الله

فصاح بى « اخرس . أقول لك اخرس »

فقلت « طيب خرست » وواصلت انتقامى . وكنت قد بلغت عنقه ، فجعلت أنظر الى الفتاة نظرة لا تخفى دلالتها ، نظرة ملؤها الحقد والتصميم على القتل عمـداً ومع سبق الأصرار ، ورفعت يدى بالموسى نحو ذراع ، وهممت أن أهوى بها على رقبته ، وإذا بالفتاة تصرخ ، فارتددت مذهولا ، ووثب هو عن الكرسى وذهب يعدو اليها ، وسألها « مالك ؟ »

فلم تجبه ، وجعلت تشير إلىّ وتهيب بى أن « اخرج . اخرج . . . »

فهززت رأسى آسفاً ، فقد ذهبت الفرصة الى حيث لا يمكن أن تعود ، فسألها هو :

« يخرج ؟ يخرج كيف ؟ ويدعني هكذا » وأشار الى خده الآخر الذى لم يحلق

فقالت « إنه ليس بحلاق ! »

قال « إيه ؟ ليس بحلاق ! »

ودار فالتفت إلىّ ، فرآنى أضحك ، فطار عقله ، وتحرك يريد أن يهجم علىّ ، فتذكرت ما يفعل الذين يقاتلون الثيران فى أسبانيا ، فخطفت الفوطة وألقيتها على وجهه ، وفررت

***

وقالت لى الفتاة بعد ذلك :

« لم أكن أعلم أنك شرير »

قلت « شرير ؟ ؟ »

قالت « نعم . . كدت تقتله وتقتل نفسك »

قلت « أينا كنت تبكين عليه ؟ »

قالت « لا تكن خبيثا . . . إنه أبى »

قلت « لا أصدق . . . »

قالت « من فضلك . . . لا تذكره بسوء أمامى »

قلت « اعترفى إذاً أنه . . . »

قالت « لو كنت أعتقـد أنك ستقتصر على جرح أو جرحين . . . »

قلت « وهل كنت تتوهمين أنى يمكن أن أذبحه ؟ »

قالت « لقد خفت والله . . . »

قلت « يابلهاء . . . لأجل عين تكرم ألف . . . »

وصرنا صديقين ، ولكن أباها لا يزانى — الى اليوم — إلا ارتد راجعاً ، وحسناً يفعل . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

نذر الحرب الجديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهد معظم العواصم الأوربية منذ أشهر فترة غير عادية من النشاط السياسى ؛ وقد تحول هذا النشاط منذ مأساة مرسيليا التى ذهب ضحيتها الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ومسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية ، الى نوع من الحمى الدبلوماسية . وتلوح اليوم فى أفق السياسة الأوربية سحب كثيفة تثير الجزع فى كثير من العواصم والأمم . ما الذى سيعقب مأساة مرسيليا من الحوادث والتطورات سواء فى يوجوسلافيا ذاتها أم فى أوربا بصفة عامة ؟ وهل يكون السلم فى خطر حقيقى ؟ وهل نشهد اليوم مقدمات أزمة دولية مستعصية قد تفضى الى نشوب الحرب ؟ هذه الأسئلة الخطيرة تتردد اليوم فى جميع دوائر السياسة العليا لا على أنها هواجس واحتمالات بعيدة الوقوع ، ولكن على أنها فروض حقيقية خطيرة يجب التحوط لها

وقد لوحظ بحق أن للجريمة السياسية شأناً كبيراً فى إثارة هذه السحب التى تحلق اليوم فى أفق السياسة الأوربية ؛ فمنذ أشهر قتل مسيو دوكا رئيس الوزارة الرومانية فترتبت على مقتله صعاب وأزمات مازالت رومانيا تعانى من أثرها ؛ وفى أواخر يولية الماضى قتل الهير دولفوس رئيس الحكومة النمسوية فى ظروف وحشية فأثار مقتله أزمة سياسية خطيرة لا فى النمسا وحدها ، ولكن فى أوربا الوسطى كلها ، وذهبت إيطاليا فى إجراءاتها وتحوطاتها لصون استقلال النمسا من اعتداء ألمانيا وعمالها النازيين ، الى حشد الجنود على حدود النمسا الجنوبية ، ولاح شبح الحرب واضحاً مدى حين . ثم كان مقتل الملك اسكندر ومسيو بارتو أخيراً فى مرسيليا ، فبدت الأزمة الأوربية فى أروع مظاهرها ، وتجددت نذر الخطر وأحاديث الحرب . ويخشى المتشائمون أن يكون التاريخ إنما يعيد نفسه ، وأن تكون مأساة مرسيليا قرينة مأساة سيراجيفو ونظيرتها فى الظروف والنتائج . والحقيقة أن مؤرخ الحرب الكبرى لا يسعه الا أن يعتبر مأساة سيراجيفو من أهم العوامل — الظاهرة على الأقل — فى اثارة الحرب . فقد اتخذت امبراطورية النمسا والمجر مقتل الأرشيدوق فرنز فردیننده وقرينته فى سيراجيفو فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ بيد طالب صربى سبباً لاعتبار حكومة صربيا مسئولة عن الجريمة مباشرة ومطالبتها فى بلاغ نهائى بمطالب عدتها صربيا افتئاتاً على سيادتها ؛ وشدت ألمانيا أزر النمسا فى موقفها ، ولكن روسيا تدخلت لتعضيد صربيا ضد النمسا باعتبارها حامية الشعوب السلافية . وكانت الأزمة الخطيرة التى أدت الى وقوع الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل

وإذا لم يكن لجريمة مرسيليا مثل هذه النتائج السريعة الحاسمة ، فلا ريب أنها زادت الأزمة الأوربية تعقيداً وخطورة ، وكانت عاملاً جديداً عميق الأثر فى زعزعة السلام الأوربى . واذا وقعت حرب جديدة فى القريب العاجل ، فان جريمة مرسيليا تكون بلا ريب بين عواملها الأولى . ومن المعروف أن السياسة الأوربية كلها تقوم اليوم على تهيئة أسباب الهجوم والدفاع فى الحرب القادمة ، وأنها تأخذ الطابع القديم الذى يوصف فى لغة السياسة بالسلم المسلح ، أوالسعى الى صون السلام بالاستعداد للحرب دائماً . ومثل هذه السياسة تخضع دائماً لأزمات الساعة ، لأنها تقوم على الأثرة والقومية المغرقة ، وليست تحدوها أية مثل إنسانية أو دولية عامة . وقد وقعت جريمة مرسيليا فى وقت تجتمع فيه أوربا فى معسكراتها القديمة التى حالت آثار الحرب الكبرى مدى حين دون بعثها وتكونها . والدول التى تسيطر على مصاير السياسة الأوربية اليوم هى فرنسا وألمانيا وايطاليا وروسيا ؛ وهى التى تتجاذبها فى تكوين المعسكرات الهجومية والدفاعية ؛ وفرنسا أشدها سيطرة على الموقف ونفوذاً فى تطوراته ، ومقصد السياسة الفرنسية معروف هو العمل بكل الوسائل لعزل ألمانيا عن باقى الدول الأوربية حتى لا تقوى بالتحالف على مهاجمة فرنسا ، وإحاطتها بسياج من الدول الخصيمة المتأثرة بالسياسة الفرنسية حتى تبقى دائماً فى موقف الأحجام والضعف ؛ وإذا وقعت حرب فان فرنسا تستطيع بمعاونة حلفائها أن تتغلب على ألمانيا . وقد سارت فرنسا فى هذه السياسة الى ما قبل جريمة مرسيليا شوطاً بعيداً ، واستطاعت أن تجذب روسيا السوفيتية الى معسكرها وأن توثق سياسة التحالف الروسى الفرنسى القديم بعد أن لبثت روسيا مدى حين بعيدة عن حظيرة الدول الغربية ، وأن تتوج هذا التحالف بالعمل على ضم روسيا الى عصبة الأمم بعد أن لبثت تخاصمها منذ قيامها . وقد كانت السياسة الألمانية ما قبل الحرب تغالب التحالف الروسى الفرنسى بالتحالف الألمانى النمسوى .

ولكن امبراطورية النمسا والمجر القـديمة قد ذهبت وقامت على أنقاضها دول تخاصم ألمانيا أو تتأثر بالسياسة الفرنسية . والسياسة الفرنسية هى التى خلقت كتلة التحالف الصغير فى أوربا الوسطى من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وهى التى توجهها فى سياستها الأوربية . ولما قامت الحركة الهتلرية فى ألمانيا ، وظهرت ألمانيا فى صورة المهدد لفرنسا ، والمهدد للسلام الأوربى ، ضاعفت فرنسا جهودها فى توثيق التحالف بينها وبين روسيا ودول التحالف الصغير خصوصاً بعد أن شعرت أن بولونيا قد أخذت تتحرر من نفوذها وتتجه نحو ألمانيا . وكان من أهم أغراضها أن تجذب يوجوسلافيا بصورة نهائية الى جانب السياسة الفرنسية لأنها شعرت أن السياسة الألمانية قد أخذت تتجه نحو يوجوسلافيا وتحاول كسبها بوسائل شتى . ولـكن فرنسا رأت من جهة أخرى أن هذا التحالف لا يحقق الغاية المنشودة إلا اذا آزرته ايطاليا . وبين ايطاليا ويوجوسلافيا خصومة قديمة ، فيجب أن تذلل قبل كل شىء

لهذا كانت رحلة مسيو بارتو إلى يوجوسلافيا ، وكانت رحلة الملك اسكندر إلى فرنسا ، وكان المقرر أن تـكون مفاوضات الملك اسكندر مع الحكومة الفرنسية تمهيداً لمفاوضات فرنسية إيطالية تجرى فى رومة ، وتسوى فيها جميع المسائل والخصومات القائمة بين إيطاليا ويوجوسلافيا من جهة ، وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى ، وكان الأفق مناسباً لتحقيق هذا البرنامج ، لأن إيطاليا كانت قد بدأت فى الآونة الأخيرة تتباعد عن ألمانيا على أثر حوادث النمسا التى انتهت بمقتل الهير دلفوس ، وافتضاح نيات ألمانيا ومشاريعها نحو الاعتداء على النمسا ؛ وتم الشطر الأول من هذا البرنامج بالمفاوضات التى وقعت فى بلغراد بين فرنسا ويوجوسلافيا ؛ ولـكن الشطر الآخر لم يتحقق لأن الملك اسكندر ما كاد يطأ أرض فرنسا حتى سـقط قتيلاً برصاص الوطنيين الكرواتيين وسقط إلى جانبه مسيو بارتو ؛ وأخرت هذه المأساة مشاريع السياسة الفرنسية إلى حين ؛ وأودت بمشاريع حكومة بلغراد ، وبعثت إلى أفق السياسة الأوربيـة ، ولا سيما أوربا الوسطى ، ريباً وهواجس جديدة ، وأثارت صيحة الحرب مرة أخرى

والواقع أن مقتل الملك اسكندر كان ضربة شديدة ليوجوسلافيا ؛ وقد بينا فى مقـال سابق كيف أن تـكون يوجوسلافيا الجديدة من عناصر متنافرة خصيمة يعرض وحدتها للتمزق دائماً ، وكيف أن هذه الوحدة تقوم على أسس مصطنعة فى ظل طغيان حديدى كان الملك اسكندر عماده وقائده ، فالآن يحدق الخطر بهذه الوحدة المغصوبة ، وتقف حكومة بلغراد حائرة متوجسة من المستقبل القريب ؛ وتقف إيطاليا أيضاً مترددة تسبر غور الاحتمالات الجديدة . هل تستمر فى الاصغاء إلى عرض السياسـة الفرنسية ، فتهادن يوجوسلافيا وتحالفها وتدخل فى حظيرة هذا التحالف الذى يجمع دول الاتفاق الصغير وروسيا إلى جانب فرنسا ؟ ومما يزيد فى تردد إيطاليا ما تحاوله ألمانيا لديها الآن من تحويلها عن ذلك الطريق ، وإعلان استعدادها لضمان استقلال النمسا ، وتسوية المسائل الأخرى التى تهم إيطاليا ؛ بيد أن السنيور موسولينى يقف الآن وقفة المنتظر ليرى أولا ما يمكن أن تحدثه آثار جريمة مرسيليا فى شئون يوجوسلافيا الداخلية ، وهل يوجد ثمة ما يحمل على الاعتقاد بقرب تفكك هذه الـكتلة السلافية الخطرة التى خلقتها معاهدة الصلح ، والتى تنازع إيطاليا سيادتها فى بحر الأدرياتيك ، وتهدد نفوذها فى البلقان وأواسط أوربا ، وهل تقوم فى يوجوسلافيا حركة انفصالية ، يقوم بها العنصر الـكرواتى خصيم العنصر السربى الذى يستأثر بالسلطة فى يوجوسلافيا ، ويضطهد العناصر الأخرى ؟ فاذا آنس موسولينى شيئاً من هذه البوادر فقد يفضل أن يستبقى حريته فى العمل مدى حين ؛ وعندئذ تعمل إيطاليا من جانبها على تشجيع العناصر الانفصالية فى يوجوسلافيا ، حتى يتم تفـكك هـذه الـكتلة السلافية ، وتستطيع إيطاليا أن تتجه ببصرها نحو دلماتيا التى تطمح إلى امتلاكها ، وعندئذ ينهار التحالف الصغير أيضاً ، وينفتح أمامها مجال العمل فى أوربا الوسطى

على أن فرنسا تعمل من جهة أخرى بكل ما وسعت لتحقيق التفاهم والتحالف مع إيطاليا . وهى على أهبة لأن تضحى فى هذا السبيل ببذل بعض المطالب التى تطمح إيطاليا إلى تحقيقها . وما تعرضه فرنسا على إيطاليا ينحصر فيما يأتى : (١) تعديل الحدود الطرابلسية من جهة تونس ، والتجاوز لايطاليا عن بعض المناطق المتاخمة لبرقة (٢) عدم مقاومة التوسع الايطالى فى طرابلس من جهة الجنوب فى اتجاه بحيرة تشاد (٣) عدم مقاومة مشـاريع إيطاليا وأطماعها فى الحبشة (٤) تسوية مسألة الرعايا الايطاليين فى تونس ، ومنحهم بعض الحقوق والمزايا الخاصـة ؛ فهذه عروض

ومزايا لاتستطيع إيطاليا أن تأبى قبولها ، خصوصاً إذا علمنا أن التوسع الاستعمارى قد غدا من أعظم أهداف السياسة الفاشستية . وعلى أى حال فان برنامج السياسة الفرنسية لم يتغير بمقتل مسيو بارتو ، وقد أعلن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد أنه سيعمل لاتمام ما بدأ به سلفه ؛ وسوف يقوم بزيارة رومة كما كان مقرراً من قبل للمفاوضة فى تحقيق البرنامج المرسوم

هذه هى خلاصة العوامل التى تسيطر الآن على مجرى السياسة الأوربية . والظاهرة الجوهرية التى تبدو خلال ذلك كله هى اشتداد التنافس فى إحياء المعسكرات الأوربية القديمة ، وإنشاء الكتل الهجومية الدفاعية التقليدية . لماذا ؟ استعداداً لحرب تلوح فى الأفق . ومازالت فرنسا هى المتفوقة فى هذا الميدان ، ولكن ألمانيا تعمل أيضاً ، رغم عزلتها السياسية على إنشاء معسكرها ، وحشد حلفائها . وقد ظفرت أخيراً بكسب بولونيا وسلخها عن كتلة الدول المتأثرة بالسياسة الفرنسية وإحداث أول ثغرة بذلك فى المعسكر الفرنسى . ولم تعبأ ألمانيا بفداحة الثمن الذى دفعته لتحقيق هذه الغاية ، وهو التسليم بالممر البولونى الذى يشق أراضيها الى البحر . ومازالت ألمانيا تتمتع بشىء من العطف فى المجر ويوجوسلافيا لأنها تشترى محاصيل البلدين . ولكن ذلك لايمكن أن يعوض عليها خسارتها الفادحة بفقد معاونة روسيا ومحالفتها ؛ وقد كان إغضاب روسيا وفقدها من أعظم أخطاء ألمانيا الهتلرية ، خصوصاً وأن روسيا لم تتحول عن ألمانيا إلا لكى تتفاهم وتتحالف مع فرنسا ألد وأخطر خصومها . وروسيا السوفيتية قوة لايستهان بها

وقد يكون من المبالغة أن يقال إننا الآن على أبواب حرب قريبة ، ولكن ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد الآن نذر الحرب القادمة ومقدماتها . ومتى هذه الحرب ؟ قد تقع بعد أشهر وربما بعد أسابيع إذا تطورت الحوادث فى يوجوسلافيا فجأة ، وأفلت زمام الموقف من يد حكومة بلغراد ؛ وقد لا تقع إلا بعد عامين أو أعوام قلائل اذا بذلت جهود صادقة لاتقائها أو لتأخيرها . وعلى أى حال فليس مبالغة أن نقول إننا نشهد الآن من تطورات السياسة الأوربية أقربها وأشبهها بتلك المرحلة التى تقدمت الحرب الكبرى ، وبلغت ذروة خطورتها فى صيف سنة ١٩١٤ . والواقع أن أسباب الأزمة الأوربية الكبرى تجتمع وتتفاقم منذ عامين ؛ وأهمها بلا ريب إخفاق مشروع نزع السلاح ، والفشل الذريع الذى لقيته عصبة الأمم فى حل مختلف المشاكل الدولية ؛ وانهيار سياسة التفاهم الدولى والتحكيم التى بلغت ذروتها بعقد ميثاق تحريم الحرب ، ولم يلبث أن ظهر عقمها من الوجهة العملية ، ثم قيام الحركة الهتلرية فى ألمانيا وماجنحت اليه من سبل العنف والوعيد ، وما أثارته فى فرنسا من هواجس ومخاوف جديدة . بيد أن هذه الأسباب كلها ترجع الى أصل واحد ، هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) التى لم يراع فى وضعها سوى تحقيق شهوات الظافرين وأطماعهم ، ولم يقصد بها الى وضع أى سلام شريف دائم ، ولكن أريد بها تحطيم قوى الأمم المغلوبة ، وتمزيق وحداتها القومية دون مراعاة الحدود الجغرافية ووحدة العناصر وتراث التاريخ ، فجاءت كالبركان الصامت يضطرم فى خفاء ، ولكن تسرى ناره تحت الهشيم ، وغدت أعظم عامل فى إثارة الأحقاد والأطماع القومية ، وخلقت مشاكل الحدود والأقليات الشائكة فى طول أوربا وعرضها ، ومهدت الى هذه الأزمة الشاملة التى تهب ريحها اليوم على أوربا منذرة بشر العواقب

وكما أن الأزمة الدولية الكبرى التى اجتمعت أسبابها قبيل الحرب قد لقيت نذير انفجارها فى مأساة سيراچيڤو ، فكذلك تلقى الأزمة الدولية الحاضرة نذيراً خطراً فى مأساة مرسيليا ، واذا كانت حكومة النمسا الامبراطورية قد رأت يومئذ أن تحمل الحكومة الصربية تبعات هذه الجريمة الرائعة ، وأن ترتب عليها من المطالب الفادحة ماأثارت له روسيا وعجل بوقوع الكارثة ، فكذلك ترى حكومة بلغراد أن تحمل الحكومة المجرية تبعة جريمة مرسيليا ، لأنها تأوى فى أرضها عدداً كبيراً من اللاجئين الكرواتيين ، وتتقدم اليها بمطالب ترى فيها افتئاتاً على سيادتها ؛ وقد يكون ثمة فارق بين وقع الجريمتين فى سير الأزمة الأوربية ، ولكن الذى لاريب فيه هو أن جريمة مرسيليا من أخطر العوامل فى تفاقمها . فسلام أوربا ، وربما سلام العالم ، فى خطر لاريب فيه ، واذا تركت الأمور فى مجراها الحاضر ، ولبثت الأحقاد والأطماع القومية على حالها مطلقة العنان ، واذا لم تتضافر القوى النزيهة المخلصة لقضية السلام وتقف سداً منيعاً فى وجه هذا التيار الخطر ، فسوف نشهد فى القريب العاجل انفجار البركان المروع مرة أخرى ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

عــــودة ...

بقلم جورج وغريس

« امرأة هجرها زوجها منذ أمد بعيد ، فعاشت وحيدة مع طفلها إلى أن قضت نحبها ، فذرفت عينى دمعاً التأمت قطراته فى كلمات قرأها الزوج الهارب فى العدد الحادى والستين من « الرسالة » ثم جاءنى يسعى ... ... »

فى سكون الليل الرهيب طرق طارق باب منزلى ، فلما أن فتحته وجدت أمامى شخصاً لم أتبينه

قلت : من ؟

قال : ألا تعرفنى ؟

قلت : معذرة . . فمن طبيعة الانسان أن ينسى ، ومن صفات الليل أن يسكب على الأشياء لوناً غير لونها

قال : صديق قديم

قلت : « مرحباً » .. ثم أخذت بيده الى غرفة الاستقبال ، وتحت ضوء المصباح رأيت أمامى رجلاً فى الحلقة الرابعة من عمره ، ترتسم الـكآبة على وجهه الشاحب ، ويظهر عدم الاكتراث على لباسه غير المنتظم ورباط رقبته الذى يتدلى على قميصه كالخرقة البالية ... قلبت بصرى فى زائرى الـكريم ، ولـكننى لم أذكر تلك الصداقة القديمة التى كانت تربطنى به ، لذا أحسست فى نفسى بشىء من الريبة والخوف . وقبل أن أقول شيئاً أو أبدى حركة اعتدل ضيفى فى جلسته ثم قال :

— أماتت حقيقة . . . ؟

قلت : مَنْ ؟

قال : زوجتى

قلت : ماذا تعنى ؟ أنت أعلم بحـالها ، أما أنا فلا أدرك ما تقصد ولا أدرى من أمرك شيئاً

قال : بل إنك تدرى كل شىْ ، ولـكنك تريد أن تجهلنى وتجهل كل شىء ، وبالأمس أخرجت للنـاس صورتى مشوهة ممسوخة ، أملاها عليك خيالك الحـاقد وأعصابك الثائرة ، فقد قرأت فى « الرسالة » ... ...

قلت منتفضاً : أأنت فلان ... ؟

قال : نعم

قلت : معذرة ... لقد غيرت الأيام من سحنتك ، وبدل الزمان من هيئتك ، حتى أضحيت شخصاً غير الذى كنت أعرفه أتدرى مافعل الخريف فى الشجرة المورقة الفينانة ؟ أتعلم ما ينتابها من تساقط أوراقها وتراجع أغصانها وتقلص ظلالها ... ؟ إن ما يصيبها ياصديقى فى تلك الآونة لأهون والله مما أصابك فى خريف حياتك ، ولئن كان لتلك الشجرة ربيع تستعيد فيه ما فاتها وتسترجع فيه أسباب الحيـاة ، فهيهات أن تجد لنفسك ربيعاً يبدل من حالك بعد هذا الجـدب الذى أصابها . وحسب الأيام منك الآن أنها ستقف عند الحد الذى وقفت عنده فلا هى بدافعة بك الى الأمام لأن النمو من خصائص الطبـائع الحية ، ولا هى بقاذفة بك الى الخلف لأنك فى قرار الهوة ... ولطالما مدت اليك حبال النجدة ، وقد فتلت من خيوط الرحمة والعطف والصفح والمروءة . ولـكنك أبيت إلا أن تقطعها بأسنة الجمود والنكران والرياء والختل ، فربطت مصيرين بمصيرك ، وقتلت نفسين وأسأت الى نفسك

قال : مهلاً ، فقد بدأتنى قبل أن أبدأك ، وأوغلت فى القول وما تركت جارحة إلا وأرسلتها تنهش فى نفسى ، وأرانى قد جئت لأغسل إهانة فأتبعتها بأخرى ، وأتيت لأرد سهماً فأصابتنى منك سهام ، ولا أدرى من سبب يجعلك منى فى هذا الموقف العنيد سوى أنك كنت تنظر بعين واحـدة فى قصتى وتسمع بأذن واحدة . وليس ببعيد على المرأة التى تدفع العالم بيدها الرقيقة دفعاً شديداً فى غير رفق ولا هوادة أن تكون قد سكبت سمومها فى نفسك فجعلت منك نصيراً لقضيتها ، وهى إذ تكسبك الى جانبها تدفعـك فى الواقع عن طريقها

لقد خلصت زوجتى من براثن أبيها ، ولكنها منذ اللحظة الأولى وهى تريد أن يصرع رأيها رأيى ، وأن تقف رغبتها دون رغبتى ، فاذا قلت قولاً أبدت نقيضه ، وإذا أديت فعلاً امتعضت منه ، كأن الله قد جعل القبح من نصيبى فى القول والفعل ، أو كأنه وضع كل الجمـال بين شفتيها وعلى أطراف أناملها ليـكون غلافاً حسناً لـكل ما تقوله أو تعمله ... ... أردت لها الحجاب فأعلنت السفور ، وأخذت عليها العناد فأنكرت علىّ هذا الحق ، وأحببت أن تكون كما أريد فشاءت أن تكون كما تحب . وكان لى صديق أحبه وأعزه ، ويزورنى فى منزلى وأتردد عليه فى داره

فوشت لى به ، وفى سورة الغضب كدت أقتله ، ولولا قرائن فى براءته وحزم فى تفكيرى لكان هذا الصديق اليوم وديعة القبور ، وكنت أنا نزيل السجون . . . كان من أثر كل هذا أن أحسست بآمالى ترتطم بصخرة قاسية ، وشعرت بالأفق العريض تضيق دائرته شيئاً فشيئاً ، حتى أوشك أن يجعل لى من هذه الحياة قفصاً لا حيلة لى فى رد غائلته . . . فماذا كنت تريدنى أن أفعل ياصديق وهذه الأسباب قد أجمعت علىّ أمرها فغلبتنى على أمرى . . ؟ لقد وليت هارباً ، ولكن ضميرى ظل يضايقنى باحتباسه حتى أفرجت عنه بكأس الخمر . . تلك الكأس التى أحرقت همومى وأحرقتنى ، وأذابت ضميرى وكبدى ، وسلبتنى ولم تعطنى . . . أليست تلك النار من الشعلة التى أسلمتها الشياطين ليد المرأة . . ؟ إنك تقدر المرأة لأنك غريب عنها ، ولكن اعلم ياصديق أنها منذ القدم آلة فساد ، وعنصر تقلب ، وأداة رياء ، وكل ما فى الحياة من شر إنما هو بسمة خادعة انفرجت عنها شفتا امرأة ، وهذا المصير المحزن الذى انحدرت إلى أعماقه ، إنما يرجع إلى تلك المرأة التى أحببتها فبكرهت لى الحياة ، وغمرتها بفضلى فرفعت رأسها كالحية الرقطاء . . . مرت الأيام كالأشباح الهزيلة ، وأنا أهيم على وجهى إلى أن شاءت الأقدار أن تدفع إلى يدى صحيفة « الرسالة » فقرأت عن المرأة التى هجرها زوجها فماتت كظيمة الحزن دفينة الألم ، وبقى طفلها على صدرها يبكى وينتحب ، ورأيت طرفاً من قصتى يختبىء بين سطور تلك القصة ، وما إن وصلت فى القراءة إلى اسمك فى ذيل المقال ، حتى ذهب عنى الشك ، وتذكرت جارى القديم ، وأخذت عليه اندفاعه فى الكتابة دون تبصر أو روية . . . وها أنا قد سعيت إليك بعد أسابيع ، بعث الله لى فيها من تولى الدفاع عنى ، فقد قرأت بجوار قصتك ما كتبه الرافعى فى « تربية لؤلؤية » وتابعت ما وصف به المرأة فيما تلا ذلك من أعداد ، فسررت ان رأيت المرأة تُدفع دفعاً إلى المكان الخليق بها . . .

قلت : يشاء الجمود أن يجعل فى نفسك طبيعة صخرية حتى أمام جلال الموت ، وتشاء تلك الطبيعة الصلدة أن تنبش قبور الراقدين فى غير رحمة ولا شفقة ، فزوجتك التى لفحت وجهى بأنفاسها المحترقة وهى تعانى عذاب الموت ، والتى ظلت تردد اسمك الى أن لفظت روحها ، تلك الزوجة المسكينة المنكودة يأبى عليها القدر القاسى أن تفوز منك وهى تحت أطباق الثرى إلا بوابل السخط واللعنة تصبه على جدث هامد لا يملك رد غائلة ، ولا يقوى على دفع نازلة ، وهذا لعمرى عداء ضاعت منه صفة الشرف . . . والمرأة مذ خلقت ، وهى تعانى شر هذا العداء لا لشيء سوى أن الرجل يميل بطبيعته الى جنسه ، وتدفعه الأثرة الى أن يسوّد نفسه ويعظم من شأنه ، ويحقر من أمر تلك المخلوقة التى جاءت تنازعه البقاء ، فهو فى عصوره الأولى كان يبعث بالمرأة طعاما للآلهة ، وهو فى الجاهلية كان يئد مولودته ولا يعترف لها بالحياة ، وفى اليابان كان الرجل يدفع بابنته الى أمكنة الفجور خرقة يمسح بها الرجال شهوتهم حتى تسد ديون أبيها . وفى الصين كان الرجل اذا ما وُلد له غلام ذكر يفرح ويتهلل ، أما إذا كان المولود أنثى قال مكتئباً : « لقد سقط حجر من سقف منزلى . . . » ، حتى فى عهود المدنية ، وفى مواطن الحضارة ، يدفع ظلم الرجل المرأة إلى ما يسمونه « الرقيق الأبيض » وهو اللطخة الدامية فى الجبين الناصع ، وفى مصر وبلاد الشرق لا تفوز الزوجة غالباً من زوجها إلا بما تفوز به الخادم من سيدها . فهل رأيت حالة كريهة كالتى تعانيها المرأة منذ ولادتها حتى يحويها الرمس . . . ؟ وأى الأمراض انفردت بها المرأة عن الرجل حتى استحقت منه هذا الجزاء . . . ؟ أليست كل امرأة ابنة لرجل . وزوجة لرجل ، وأما لرجل . . تأخذ الخلق عن أبيها ، وتهديه الى زوجها ، وترضعه لطفلها . . . ؟ فاذا فسدت المرأة أليس هذا الفساد أثراً من تهاون أبيها فى تربيتها . . . ؟ وإذا ضلت المرأة أليس من بين الرجال من هم أشد منها ضلالاً وأقبح رذيلة . . . ؟ ولئن جاز للرجل أن يقول فى كل ما ينتابه من مصائب : « فتش عن المرأة » ألا يجوز للمرأة أن تقول فى كل ما يلحقها من أذى : « فتش عن الرجل » . . . ؟

وأعجب العجب قولك ان الأستاذ الرافعى يدافع عنك فيما كتبه ويكتبه ، وهذا لا يمكن أن يقع لأنه إنما يكتب عن عقيدته الخاصة فى المرأة . ومهما فاض « السحاب الأحمر » بما توحيه اليه تلك العقيدة ، ومهما جاء فى كتاباته فى « الرسالة » عن الحجاب والسفور فهو لا يوافقك على تلك اللطمة القاسية التى صفعت بها خد المرأة . والحجاب الذى ينادى الرافعى به فى « تربية لؤلؤية » لا يمكنه أن يعيش طويلاً بعد تلك النظرة الساخرة التى ترسلها اليه مدنية القرن الحاضر ، ولا أدرى ، ولا أحد يدرى ما ضر المرأة الفاضلة إن خرجت سافرة ، أو ما نفع المرأة الفاسقة إن قعدت متحجبة . . ؟ وأى الرذيلتين أشد ضرراً ، تلك التى

تستتر خلف الجدر كالداء الذى يختبىء فى قب العليل لا يدركه ولا يتداركه ، أم تلك التى تتكشف سافرة ، ويبين قبحها كالمرض الذى يظهر على صفحة الجسم ، ما تلمحه العين حتى يلحقه العلاج ..؟

للمرأة عقل كما للرجل ؛ وكذب من ألصق بها العاطفة دون العقل ، وإلا ما حلّقت فى سماء العظمة أسماء چان دارك ومدام كورى وايمى چونسون . ولما حكم النساء بجوار الرجال فى أكبر الدول شأناً وأرفعها مكاناً . فحرام أن يأخذ الرجل من كبريائه صدأ يغشى به عقل المرأة ليغرب خيالها عن ميدانه ، وكفى ما نعانيه لغيابها عنه من ركود فى المجتمع ، وشذوذ فى العلائق ، وخشونة فى الحديث ، وعقم فى التفكير . حتى أصبحنا أضحوكة الغرب اذ أننا نسخر من لهوه ، ولا نأتى جدنا بجديد . . .

قال : يصعب على من تلدغه الحية أن يشعر نحوها بدافع من الرحمة أو العطف . وإذا صح لى أن أوافقك على بعض ما ذكرت عن المرأة فالسفور أبعد ما يكون عن تأييدى : وليكن لك فيه رأيك ، ولكن دعنى أكن على دين « الرسالة »

قلت : وما دين « الرسالة » . . . ؟

قال : الحجاب . . .

قلت : وكيف حكمت ؟

قال : ألا تعلم أن مبدأ الصحيفة إنما يشتق من مبدإ كتابها ، فعقيدتها هى عقيدتهم ورأيها هو رأيهم الذى ينادون به على صفحاتها . . . ؟

قلت : هذا فى السياسة ، أما فى الأدب والاجتماع فمظهر النشاط فيهما هو تضارب الفكر واختلاف الرأى ، والرسالة لا يمكن أن تنادى بالحجاب ، ولكنها مع ذلك ميدان حر لأقلام الكتاب على اختلاف نزعاتهم . وإن كنت قد قرأت فيها للرافعى وصفه للحجاب أنه « كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها فى الحجاب تربية لؤلؤية » ، وقوله عن قاسم أمين إنه « قد تكلف ما لا يحسن » فأغلب الظن أنك لم تقرأ ما كتبه الزيات صاحب « الرسالة » عن المرأة والحجاب ، وهو يخالف الرافعى فيهما خلافاً بيناً ؛ فى العدد السابع من « الرسالة » تراه وهو يكتب عن شواهده « فى العيد » يستنكر هذا الفتور الذى تقابل به أعيادنا فى مصر والشرق ، ويعزو ذلك الى غيبة المرأة عن المجتمع ، وهو فى ذلك يقول : « كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء أو الهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهوام والتشرد ، فلا نطمئن الى مجلس ولا نستأنس لحديث » ولما أن همس الهامسون لما جاء فى هذا المقال ، عاد الزيات فى العدد التاسع الى بسط رأيه ذاكراً أن « صلة الحجاب بالدين قد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل » وأن مجتمعنا لغياب المرأة « أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لأن حدة العواطف تنقصه ، خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه » فهل بعد هذا تعتبر « الرسالة » نصيرة الحجاب . . ؟ إنك تريد أن تنتزع العطف على قضيتك من كلمات كتبها الرافعى ، وهى فى الحقيقة لا تنفعك ، وهو لو علم أن دعوته تصادف هوى فى نفوس أمثالك لتحولَ عنها ، وكان أول من ينادى بالسفور

* * *

لم يحرك شفتيه بكلمة ، وكان جوابه ناطقاً فى عينين ساهمتين ، ورأس يهتز باستخفاف ، فتركته ينصرف وبه ما به من جمود ، وأويت الى فراشى ، وبى عجب من نفس لو حادثتها حتى تشرق الشمس مرة ثم مرة فما هى بنازلة عما هى فيه من غروب وأفول ؟

اسكندرية

جورج وغريس

بين فن التاريخ وفن الحرب

٦ – خالد بن الوليـــد *

في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

نسبة القبائل: من المفيد أن نذكر نسبة القبائل وقرابة بعضها لبعض . أكثر القبائل التي ارتدت عدنانية تنتسب الى مضر ، ماعدا قبيلة بني حنيفة فهي من ربيعة

والقبائل العـــدنانية تنتسب الى شعبين كبيرين ، وهما : مضر وربيعة

وشعب مضر ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية فالقسم الأول : قيس ، ومنها غطفان وهوازن وسليم ، وإلى غطفان تنتسب فزارة وعبس وذبيان ، والى هوازن تنتسب ثقيف

والقسم الثاني قبيلة طابخـة ، واليها ينتسب بنو تميم ، والقسم الثالث مدركة ، واليها ينتسب بنو أسد ، ومنها كنانة ، واليها تنتسب قريش

أما شعب ربيعة فاشتهرت منه القبائل الآتية :

عنترة وعبـد قيس وبكر وتغلب وبنو حنيفة وينتسبون الى بكر بن وائل

الموقف قبل الحركات:

التقت فلول غطفان بن فزارة وعبس وذبيان بطليحة بعد انهزامها في ذي القصة والربذة ، واجتمعت مع بني أسـد في بزاخة . وقد مال اليهم فرقتان من طيء وهما جديلة وغوث على ماذكرناه سابقاً ، ولم تترك هاتان الفرقتان حيهما ، بل اجتمعتا في أكناف جبل سلمى ، أعني بالقرب من موقع طابه في الجنوب الغربي من فيد

أما الباقي من بني طيء فظل على الحياد بسعي عدي بن حاتم .

وأما قبائل بني عامر بن صعصعة وهي في الشمال الشرقي من جبل شمر — فـكانت تراقب مجرى القتال ، وتنتظر عاقبة المعركة لترى رأيها بعد ذلك

أما بنو تميم فلم يوحدوا كلمتهم ، بل كانوا منقسمين على بعضهم . وبينما كانت القبائل المرتدة على هذا النحو من تفرق الشمل واختـلاف المقصد ، كان خالد بن الوليد على رأس جيش متجانس صقلته الغزوات والحروب وحنكته التجارب ، متأهباً للحركة عند أول أمر يصدره قائده

وكان هذا الجيش قليل العدد ، غير أن كفاية قائده ضمنت له الفوز . وكلما أحرز فوزاً ازدادت قوته بانضمام المحايدين اليه ، لأن الغلبة كانت تأتي لهم ، وقد تم ذلك فعلاً . ويزعم بعض المؤرخين أن قوة جيش خالد كانت تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل حين تقدم نحو طليحة . فلما تقدم نحو مسيلمة أصبحت عشرين ألفاً

الحركات:

يقول ابن حبيش نقلاً عن الواقدي أن جيش خالد بدأ بالحركات من ذي القصة في اليوم السابع والعشرين من الشهر ، وهذا الشهر إما جمادى الآخرة وإما رجب . لأن الرسول توفي في شهر ربيع الأول ، وأن جيش أسـامة قضى في حملته شهرين ، وأجل حركته في الجرف مدة من الزمن ، والمعلوم أن معظم قوة أسامة ألفت جيش خالد ، فتكون المدة التي انقضت من وفاة الرسول الى حين حركة خالد من ذي القصة ثلاثة أشهر على أقل تقدير

فزمن الحركة إما أن يقع في منتصف شهر سبتمبر ، وإما في منتصف شهر اكتوبر من سنة ٦٣٢ ب . م

واستعرض أبو بكر جيش المسلمين في ذي القصة وخطب في رجاله وأبان لهم الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها ، ولفت نظر خالد الى خطورة الاستطلاع ، وأخذ الحيطة عنـد الهجوم على أهل اليمامة ، وأن يجري الحركات على التعاقب ، فلا يبدأ بحركة مالم يظفر بالتي سبقتها ، وأن يستعمل الرمح في

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

مكافحة الرمح ، والسيف في مكافحة السيف ، ثم طلب منه مراعاة المهاجرين والأنصار والرفق بمن معه

وكانت قوة الجيش تتفاوت بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ، وكان عدد الأنصار منه يربى على الخمسمائة . وكانت قوة جيش طليحة فى بزاخة تزيد على خمسة آلاف : ومعظمها من بنى أسد والباقى من غطفان ، وكان عيينة بن حصن على رأس هذا الباقى .

وكانت فرقتا جديلة وغوث من طيء فى أكناف جبل سلمى متأهبتين للالتحاق بطليحة فى بزاخة ، وتبلغ قوتهما زهاء ألف مقاتل . وكان بنو تميم على ما نعلم مشغولاً بعضهم ببعض ، فمنهم من التحق بسجاح ومنهم من خالفها . أما بنو حنيفة فكانوا فى ديارهم باليمامة معتصمين بجبالهم ، ومعتزين بنبيهم مسيلمة يراقبون الحوادث فى نجد

خطة خالد بن الوليد

إن الطريق الأقصر الذى ينتهى بجيش المسلمين الى بزاخة هو الطريق الذى يخترق وادى الرمة . وبزاخة واقعة فى المنطقة حيث تكون أحياء طيء وأسد قد قرب بعضها من بعض . فكل حركة من ذى القصة على هذا الطريق الأقصر تشجع قبائل طيء على الالتحاق بطليحة فى بزاخة : ومن عادة القبائل أنه إذا لم يهدد الخطر حيها توا تتركه وتسرع الى نجدة الأحياء الأخرى متى أغار عليها الأعداء

كذلك درس خالد الموقف وقرر أن يسلك طريقاً يهدد به بلاد طيء ، فاما أن يلجأ أهلها الى الحياد وإما أن يستميلهم الى جانبه ، وإذا ما تقدم رأساً نحو بزاخة يكون قد ترك بلاد طيء الى جانبه الأيمن وخاطر بالهجوم على بزاخة ؛ أما إذا ضمن حياد طيء أو استمالهم الى جانبه فيكون قد هيأ أسباب الفوز على طليحة

والأخبار تدل على أن خالداً صارح أبا بكر بخطته هذه فى ذى القصة فأقرها أبو بكر ، وسبق أن قال لخالد : « اعلم أنك إذا قاتلت أسداً وغطفان فان رجالا منهم معك ينتظرون النصر ، وإذا ما رأوه حليفك كانوا معك على عدوك »

ولكى يجعل العدو يقنع بأن المسلمين قاصدون بلاد طيء قبل بزاخة ، يقول ابن الكلبى إن أبا بكر أمر خالداً أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة ، ولظهر أنه ملاق خالداً بمن معه من نحو خيبر مكيدة ، وقد أرعب مع خالد الناس ؛ ولكنه أراد أن يبلغ ذلك العدو فيرعبه ثم رجع أبو بكر الى المدينة

ثم هناك خبر آخر مفاده أن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ بطيء على الأكناف ، ثم يكون وجهه الى بزاخة ثم يثلث بالبطاح (بنى تميم) وأظهر أنه خارج الى خيبر منصب عليه منها حتى يلاقى خالداً بالأكناف : أكناف سلمى . فخرج خالد فازور عن بزاخة وجنح الى أجأ وأظهر أنه خارج الى خيبر ثم منصب على طيء

فهذه الأخبار تريك الخطة بوضوح . إن بلاد طيء جبلية ، وفيها سلسلتان وعرتان ممتدتان على موازاة خط الحركات بين المدينة وبلاد بنى أسد ، وسلسلة سلمى وجبل رمان فى الجنوب ، وسلسلة أجأ فى الشمال . والأكناف الواردة فى الجنوب المذكورة هى أكناف هذه الجبال . أما أهل البلاد فمنهم من تأهب لمعونة طليحة ومنهم من بقى فى أرضه يتربص ، وكان أعظم رئيس فى القسم الأخير عدى بن حاتم مع قبائل طيء ، ومن الأخبار ما يؤيد أن أبا بكر بعث عدياً الى طيء قبل حركة خالد ليدركهم

والواضح أن خالداً بخطته هذه أراد أن يسهل خطة عدى بن حاتم ، وأن إشاعة أبى بكر فى الجيش مسيره نحو خيبر يقصد الحركة نحو بلاد طيء ، مما يجعل القسم المتحفز لمعونة طليحة من طيء يرجع الى أرضه للدفاع عنها أو للبقاء على الحياد مع الباقين من طيء

والحقيقة أنها خطة ناجحة تدل على بعد نظر خالد فى قيادة الجيش . والخطة تجمع بين الناحية السياسية والناحية العسكرية . وكان عيينة بن حصن الفزارى رئيس بنى فزارة كما سبق يسعى لاعادة الحلف الجاهلى بين بني أسد وبنى غطفان وطيء محرضاً جماعته على ذلك بقوله « والله لئن نتبع نبياً من الحلفين أحب الينا من أن نتبع نبياً من قريش »

وإذا ما تم هذا الحلف يكون أمام المسلمين قوة كبيرة يصعب التغلب عليها . وينحصر التدبير السياسى فى إيفاد أحد رؤساء طيء البارزين لاقناع القبائل بأن يتركوا جانب طليحة ويميلوا إلى جانب المسلمين ، ولتسهيل هذه المهمة والقيام بحركة إغفال بالتظاهر بالهجوم على بلاد طيء

وكان التدبير العسكرى يرمى الى فصل طيء عن بنى أسد

وغطفان ، والهجوم بعد ذلك على قواتهم فى بزاخة

فتناولت الخطة اذن الأمور التالية : —

١ — القيام بحركة إغفال من المدينة فى اتجاه خيبر بقصد اقناع طئ أن المسلمين متوجهون نحو بلادهم

٢ — تقدم جيش خالد على الطريق الأقصر نحو بزاخة لتظل قوات طليحة فى محلها حتى لا تساعد طيئا

٣ — ترك هدف بزاخة فى منتصف الطريق والانعطاف نحو بلاد طئ لأرغام قبائل طئ على الالتحاق بالمسلمين قبل أن ينجدها طليحة

٤ — بعد الوثوق من التجاء (دخالة) طئ ، والاستفادة من قواتهم ، التقدم بجميع القوات نحو بزاخة لضرب جيش طليحة

الحركة :

وبعد عودة أبى بكر الى المدينة وإشاعة خبر مسيره من المدينة بالباق من المسلمين نحو خيبر نظم خالد قواته وجعل على كل قسم منها قائداً ، وكان ثابت ابن قيس على الأنصار

وتحرك خالد من ذى القصة فى منتصف شهر أيلول « سبتمبر » أو شهر تشرين الأول « اكتوبر » سنة ٦٢٢ ماراً بربذة ووادى الركبة ، ومنحدراً الى وادى الرمة ، وقبل أن يصل الى منتصف الطريق مال الى اليسار يريد بلاد طئ ، ولقد نجحت حركة الاغفال التى أشاعها أبو بكر لأن طيئاً التى كانت تستهزىء بالخليفة وتكنيه بأبى الفصيل صارت تخشى بأسه لما سمعت خبر تقدم جيشه نحوها ، فأقنع عدى بن حاتم قبيلته وحذرها سوء العاقبة قائلاً لبنى قومه : « لقد أتاكم قوم ليبيحن حريتكم » . فطلبوا منه أن يؤخر تقدم جيش خالد حتى يسترجعوا من لحق بطليحة فى بزاخة ، وهم جديلة وغوث وآخرون وكانوا يعلمون أنهم إذا خالفوا طليحة بينما بنو جديلة وبنو غوث فى بزاخة يبقيهم عنده رهائن ويجبر طيئاً على الالتحاق به ، وكانت حجتهم عند طليحة طلب إخوانهم من بزاخة ، لأن خالداً قادم نحوهم فهم يريدون أن يستنجدوا بهم للدفع عن بلادهم قبل أن يصل جيش المسلمين

وخرج عدى الى خالد ولاقاه فى السح ، فطلب منه أن يبقى فيها مدة قصيرة حتى يتخلى من فى بزاخة عن طليحة ويعود الى بلاده ، فوقف خالد فى السح ، فتفرقت غوث من بزاخة وعادت الى بلادها ، فأراد خالد أن يتقدم الى الأنسر ليلجىء جديلة الى ترك طليحة أيضاً ، بيد أن عدياً طلب منه أن يتريث حتى لا يفسد عليه ما دبره . فعادت جديلة أيضاً الى بلادها . وهكذا تم لخالد ما أراده ، فانفصلت طئ تماماً عن المرتدين وجددت إسلامها وأمدت خالداً بألف مقاتل

وهكذا طبق القسم الأول من الخطة

يتبع — طه الهاشمى

من أدب الحزن

وفيّ ... وناكر

بقلم يوسف جوهر عطية

... وإذ أرسلت روحى فى الماضى ذكرتك يارفيق ، وكانت قد أذهلتنى عنك الحياة وقسوتها ، والأيام واضطهادها ، وعاد بى الفكر إلى تلك الأشبار من صحراء « الأقصر » حيث استقرت عظامك من خمس سنين ...

ما أكفرنى بحق الصداقة ياصاحبى ! ما أغلظ هذا القلب اللحمى وما أقساه ! كيف نسيت حبًّا وثَّقناه ، وعهداً قطعناه ! كنا نسير فى الحياة كلٌّ يده فى يد صاحبه ، وكل صورته فى قلب رفيقه مرسومة . فلما فارقت الحياة أنكرت يدى الودّ القديم ، وران على قلبى صدأ النسيان ، وابتلع ظلام نفسى ذكراك .. بعد أن كان مكانك عرش القلب ، وبعد أن كانت ملكك كل النفس ، وبعد أن كنت ملجأ روحى القلقة ، وملاذ فكرى المكدود ..

سامحنى يارفيق فاننى إنسان ، والانسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران .. لكن إنسانيتى عذرى لديك . ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء ، فاننى بعد سجين فى الجسد ، مأسور الروح ، عبد لنواميس الحياة . كن كما كنت كريماً ، متجاوزاً ، رفيقاً ..

أنت أنت الوفى ، وأنا أنا الناكر ..

وهيا يارفيق نعود فنصل الحديث ، ونمحو الجفاء ، فاننى لحديثك مشتاق ، ولسمرك ظمآن ..

كنا لانصبر على الفراق ساعات ياصاحبى . لكن ها هى ذى عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة ، وتباعد خمس سنين بينى وبينك ، ولا أعود أرى وجهك بعد أن استوطنت أنت السماء وظللت أنا مغترباً فى الدنيا . لقد استرحت فى قبرك ، وخلفتنى أعيش وحدى فى هذا القبر الكبير !

لماذا عجلت ذهابك يارفيق ! . كنا قد تعاهدنا أن نقتسم معاً شقوة الدنيا ، وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة ، وأن يتقى كل بأخيه غدر القدر ! . لماذا مللت وتركت صاحبك يهيم وحده ! ! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت فى سن الفتوة وعمر العزيمة ، فآثرت الفرار من هذه الدار ؟ ! ..

لكن لا ياصاحبى .. سامحنى . إنى لعارف أنك لست من الذين يجبنون ويفرون ، وأن الله هو الذى اختارك واصطفاك .. هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته ، وتكوى قلبى من جديد ، فيضل تفكيرى ويطيش منطقى ، وأتهمك بما أنت منه برئ ! .

كيف حالك يا صاحبى ؟ ! ..

أكبرت أم أنت فتى كما كنت ! ؟ . هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك ، أم شاخت بسمتك وشحب محياك ؟ ! أم أن صور الأرض غير صور السماء ، وأنك هناك دائم الفتوة ، متجدد الشباب ، مسترسل السرور فى كنف الله ؟ ! .

كيف حالك ؟ !

أين أنت الآن ؟ أين تقيم روحك ؟ هل أنت معذب أم منعم ؟ قلق أم مطمئن ؟ هل روحك فى سلام ؟ .

رجائى قوى أنك فى سلام .. فقد كنت باراً . وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها فى النهار أشعة الشمس ، وتباركها فى الليل أنوار النجوم .. كنت جم الفضائل . عشت وديعاً كطير الأفنان . كنت مصباح البيت فى الهدى ، ونبراس الخلق الكريم

إنى مطمئن عليك يارفيق ، وعارف بحظوتك عند الله ، وبمقامك فى جوار الملائكة .. يهنيك نصيبك . يهنيك انك تخلصت من الدنيا قبل أن تدرك نفسك المطامع ، وتلوثها الشهوات ، وتشوهها أمراض الأغراض . وتدفعها قوى الشر فى مزالق الخطيئة . لقد نجوت . وخلفتنى وحيداً فى الحياة ، فى سوق النفاق ، أكابد الخسائر وأتجر بقواى ، وأنفق من فضائلى ، وأقامر بأيامى ، وأصارع حظى الشقى ..

يا صاحبى .. لقد كلت قدمى . تعبت . هرمت روحى وأنا فى شرخ الشباب .. وها هى ذى آلامى ترهقنى فأفرّ إلى الماضى ، وأذكرك .. وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت فى الحياة .. هيا نجدد العهد ، ونسعى إلى اللقيا فى عالم الوهم ؛ حتى تجمعنا الحقيقة فى الخلود ، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم ، ونسترد ألحاننا الضائعة ...

يوسف جوهر عطية

في الأدب الدرامي

١٢ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

المأساة العصرية أو الدرامة

(Le drame)

كانت كلمة الدرام تطلق على جميع الأنواع التمثيليـة ، حتى خصصها المحدثون بنوع جديد عرفه قاموس المجمع العلمي الفرنسي بأنه (قطعة مسرحية نثرية أو نظمية تخلط المأساة بالملهاة ، وتبرز الموضوع الجدي في المعرض الفكه ، وتقبل كل نمط من الأشخاص والأخلاق واللهجات) . وتكميلاً لهذا التعريف نضيف إليه كلمة قالها « هجل » وهي : (إنها نوع وسط غير مستقر ، يُعنى بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها ، وصور الحياة الخارجية ومناظرها ، وتتميز من المأساة الاتباعية (Classique) البسيطة الساذجة بكثرة أشخاصها ، وغرابة حوادثها ، وتعدد مفاجآتها ، وتعقيد العمل فيها الى حد الارتباك والغموض) . أما أرباب المذهب الابتداعي (Romantique) ومن قبلهم شكسبير فلم يكتفوا بتأليفها وتمثيلها ، وإنما وضعوا لها القواعد ، وشرعوا لها المناهج ، وقالوا إن الدرامة صورة صادقة مؤثرة للحقيقة ، بل هي الحياة نفسها : هي الهوى يعمل ويتكلم ويحكم ويفكر بصوت جهير أمام الجمهور السامع

إن المأساة لم ترد أن تنزل عن أفق الأبطال والسراة والملوك ، والملهـاة قصرت نفسها على وصف عيوب الأوساط ، أما الدرامـة فهي أتم وأعم وأصح ، لم تفضـل فريقاً على فريق ، ولم تؤثر طبقـة على طبقة ، فهي تسوى بين الملوك والسوقة ، وتمزج البسمات بالعبرات ، وتستمد التاريخ والقصص والحكايات والخرافات ، لا تستثنى شيئاً ولا تحتقر شخصاً ، ولا تحصر نفسها في ضيق القـــواعد والتقاليد ، فموضوعها الانسانية بأسرها . أما اليوم فقد اختلفت على هذا النوع الأسماء والتعاريف لتشعب مناحيه ، وتعدد مذاهبـه ، واتساع مجاله ، واختلاف أطواره . فكان يسمى أولاً : الرواية الجدية الهزلية (Tragi-comique) ثم المأساة الحضرية (Tragédie bourgeoise) ثم المأســـاة الشعبية (Tragédie populaire) ثم الملهاة الجدية (Comédie serieuse) ، وهم يطلقون عليهـا الآن اسم الدرامة الحديثة ، أو الدرامة فقط . ولا نجد أبلغ في الكشف عن حقيقة الدرامة مما كتبه عنها زعيمها وابن بَجْدَتها فكتور هوجو في مقدمة (كروموبل) نستعين بتلخيصه لك على شرح هذا النوع الطريف الذي يعدونه الآن أفضل الأنواع وأكمل الأشكال للتمثيل فوق المسرح الحديث ؛ لأنه باختياره الأشخاص من كل الطبقات ، وتفضيله التأثير في الحواس على تحليل الشهوات ، كان أكثر أنواع المأساة ملاءمة للذوق الديمقراطي الغالب اليوم .

قال هوجو ما محصله : النظارة أصناف ثلاثة : النساء والخاصة والعامة ؛ فالعامة يطلبون من الرواية العمل أو الحادث ، والخاصة يطلبون منها الخُلق أو الدرس ، والنساء يطلبن منها الشهوة والهوى . لأن العوام يبتغون من المسرح التهيُّج ، والخواص يبتغون منه التفكر ، والنساء يبتغين منه التأثر ؛ وغرض هؤلاء جميعاً اللذة : فالعامة تريد لذة النظر ، والخاصة تريد لذة العقل ، والمرأة تريد لذة القلب . ولكلٍّ منهم الحق فيما يبتغي ويريد . ومن ثم كانت روايات هوجو ثلاثة أنواع مختلفة : أحدها عامي سوقي ، والآخران شريفان رفيعان ، وفي ثلاثتها حاجة المسرح وكفاية الناس . فللعوام المأساة العامية (الميلودرام) التي تصف لهم الفظائع ، وللخواص الملهاة التي تصور لهم الأخلاق ، وللنساء المأساة التي تحلل لهن الأهواء . وربما تدخَّل بعض هذه الأنواع في بعض ، فقد يوجد في السوقة من يتذوق الجمال ويتطلب الكمال ويغرق في التخيل ، وفي السراة من يطلب غير الأدب لطف الشعور ، وفي النساء من تبتغي مع التأثر رياضة الذهن . فغرض الدرامة إذن هو تصوير الأخـلاق بخلق الأشخاص وتمثيلهم على المسرح تبعاً لشروط مستمدة من الأدب والطبيعة ، وبث الأهواء والمنازع في هؤلاء الأشخاص لبيان أخلاقهم وتوضيحها ، واستخراج الحياة الانسانية من هذه الأخلاق والأهواء التي تتصادم وتتلاحم ، فتنتج الوقائع الكبيرة والصغيرة ، والحوادث المحزنة والمضحكة ،

التى تنطوى على لذة للقلب يسميها الناس منفعة ، وعلى عظة للعقل يسميها الحكماء حسن خَلق . فبان من ذلك أن الدرامة تأخذ من المأساة تحليل الأهواء والشهوات ، ومن الملهاة تصوير الأخلاق والعادات . فهى الشكل الثالث من أشكال الصناعة الأدبية ، وهو أكبرها وأعمها ، لأنه يشمل الشكلين الأولين فيمزجهما ويشرحهما . ولو لم يوجد شكسبير بين كورنيى وموليير لمد يسراه الى الأول ويمناه الى الثانى ، لبقى كل منهما بعيداً عن الآخر ؛ فبوجوده التقت الملهاة بالمأساة التقاء الموجب بالسالب فى الكهرباء ، فحدث من التقائهما شرارة هى الدرامة

ثم مضى هوجو بعد ذلك فى بيان حقيقة الدرامة من جهة الفلسفة التاريخية نحيلك عليه إذا شئت ، ونكتفى نحن هنا بما أجملناه من كلامه

فالدرامة إذن تقبل كل نوع ، وترتضى كل شكل ، ما دامت تضمن التأثير فى المشاعر والخواطر والقلوب ، وهى تسلك لهذه الغاية أسهل الطرق وأقرب السبل . فلها فى الطفولة المعذبة ، والشيخوخة العاجزة ، والزَّمانة المعدمة ، والكرم فى الأملاق ، والقحط واليأس ، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة ؛ وفى المستشفيات والسجون والأحياء الفقيرة العاملة مسارح للرعب والرحمة ، لها من البيان والتأثير مايغنى المؤلف الذى يعرضها للأنظار والأفكار عن تكلف الأداء وتجشم البلاغة

إن المصائب المنزلية ، والحوادث الاجتماعية ، لا تدهشنا حقيقة كما تدهشنا مصائب الملوك ومخاطر الأبطال وحوادث القصور ، ولكنها تؤثر فينا كل التأثير لاتصالها بنا واقترابها منا ؛ وإذا كان أفضل الانواع أمتعها للجمهور ، وأشدها أثراً فى الكثرة ، فان الدرامة تفوق المأساة بهذه المزية ، وتفضُل الأنواع جميعاً بقوة الجاذبية . وإذن يكون كورنيى وراسين وفولتير قد جهلوا فن التأثير ، وسهروا الليالى الطوال فى البحث عنه فى الطبقات العليا ، والحوادث الكبرى ، وهو منهم على طرف الثمام لو نظروا فى الطبقة الدنيا وفكروا فى الحياة العامة . ولو كان هؤلاء حقيقة قد جهلوا قوة الدرامة وسهولتها فما بال الأغريق واللاتين لم يتوسلوا بهذه الوسائل القريبة إلى التأثير والجاذبية ؟ وما بال شكسبير وهو إمام الروائيين غير مدافع لم يختر موضوعاته من حياة الشعب ، وفضَّل جرائم الملوك ونكباتهم على جرائم السوقة ونكبات العامة ؟ الحق أن الأغريق كانوا يعلمون علم اليقين أن فى الناس من كبا به الجَد فألقاه فى مراغة الذل والبؤس ، فأعسر بعد اليسر ، وهان بعد العز ، ولكنهم كانوا يجهلون أو ينسون أن الملوك هم أيضاً غرض لسهام القدر ، وأن المرء مهما عظم قدره لا يعظم على النوائب ولا يكبر على الاحداث ، وأن خطوب الدهر لا تخص بفتكها طبقة دون طبقة ، فاستفادوا من المسرح هذا الدرس النافع والعظة البالغة . كذلك كانوا يعلمون أن فى الناس المأفون والشهوان والخبيث والمجرم ، ولكنهم كانوا يجهلون أن الملوك أيضاً فيهم الأفَن والشهوة والخبث والأجرام ، وأن نتائجها فيهم أفظع وأفجع منها فى السوقة ، فاستنتجوا من المسرح أن الشعب مأخوذ بجرائر الملوك ، فأخذوهم بالحزم وحسن السياسة ، بَلْهَ ما كان عليه الناس فى الأزمان الخالية من تنزيه الملكية ، وتقديس البطولة ، وازدراء الشعب . فلما ابتُذلت أفنيةُ الملوك ، وعلت كلمة الشعوب ، وغلب نظام الديمقراطية ، احتقر الناس مصائب الخاصة ، ورأوا أن الاهواء والأرزاء تنصُب فخاخها لكل الناس ، وأن الواقع فيها من أى طبقة ومن أى بيئة يصح أن يكون عبرة ونكالاً لغيره . حينئذ أخذ الكتاب يدرسون العامة ، ويُعلمون الجمهور بتحليل نفسه وتعليل جرمه ، ويثقفون خلقه بتصوير نقصه ووصف عيبه ، فيحاربون العيب بالخوف من السخر والخشية من الخجل ، والجريمة بالفزع من وخز الضمير الذى يصحبها والقصاص الذى يعقبها ، والهوى بوصف ما يجره من الآلام والمخاطر والمصائب ، ووجدوا الحال تقتضى نوعاً جديداً من الرواية يلائم حال الاجتماع ونظام الحكومة ورقى الفكر ، فكانت الدرامة وليدة هذا الانقلاب وسداد هذا العوَز

على أن التأثير والجاذبية لم يكونا يوماً ما من أغراض المسرح فى الأمم المثقفة المستنيرة ، وإنما كان التمثيل عندهم كالخطابة ، يجذب ليهذب ويعلم ، ويؤثر ليقرر ويفهِّم . وما التأثير إلا وسيلة من وسائله لا غاية من غاياته . فالدرامة التى لا تعلم ولا تهذب تكون من المأساة بمثابة المهزلة من الملهاة . ولا شك أن المهزلة (Farce) تضحك الجمهور أكثر مما تضحكه ترتوف والمستوحش ، والدرامة التى من هذا النوع تبكيه أكثر مما تبكيه (سنَّا) و (أتالى) ، ولكنه اذا ظل مائة سنة يضحك ويبكى لهذه المناظر ، فأية فائدة يستفيدها ، وأية فكرة يكتسبها ويستزيدها ؟

فالدرامة القوية هى ما وضعت فى قلب الرجل علل حوادثه وبواعث عمله ، فتجعله شقياً بزلته ، مشفياً على الخطر بغفلته ؛ وهى لذلك تطلب مؤلفاً يكون ثاقب الفكر صادق النظر قوى الملاحظة خصب المخيلة عميق الاحساس بليغ الأسلوب جيد الاختيار ؛ وموضوعاً يجمع بين التأثير والافادة وبين الابتذال والصيانة وبين الغرابة والسذاجة ، فلا يكون عقيماً ولاسقيماً ولا سوقياً ولا شعرياً ولا متكلفاً ؛ وعملاً يكون سيره نشيط الحركة موزون التدرج محكم التعقيد بارع الحل ؛ وعاداتٍ حضرية أو شعبية تكون مع موافقتها للحق غير ساقطة ولا جافية ؛ ولهجةً بسيطة تلائم الأشياء والأشخاص ، فتكون صحيحة سهلة نقية ذكية شاعرة لاتعلو على الموضوع ، ولا تسفل إلى درك التعمل والركاكة . وتلك مطالب أعيت أولى القرائح الكليلة ، فانصرفوا إلى الجانب الأسهل منها ، وأخذوا يلتمسون التأثير فى الجمهور بعرض الحوادث المنتزعة من الحياة العامة لتغنيهم بفظاعتها عن إجادة الكتابة وإجالة الفكر ، ويبنون هذا الرأى السخيف على قاعدتين خاطئتين : أولاهما أن كل جذاب من القول والفعل صالح للمسرح ، وأخراهما أن كل ما أشبه الطبيعة جميل ، وكل تقليد صادق لها حسن . لا أنكر أن لا شىء يَلُوع القلب ويمزق الحشا مثل أن ترى بيتاً متهدماً تسكنه امرأة كريمة عدا عليها الفقر ومسها الضر وجاز بها الدهر حد اليأس والفاقة ؛ وأنا زعيم لك بأنك تغرق الناس بالدمع ، وتضرم الأنفاس بالحزن ، إذا عرضت على العيون منظر هؤلاء الأطفال يتضاغون من الجوع ويطلبون الى أبيهم المسكين كسرة من الخبز وهو لا يستطيع ، ومثّلتَ دموعَ تلك الأم ترى رضيعها يلفظ أنفاسه فى حجرها من السغَب وهى لا تملك له حياة ولا نفعاً ، ولكن أرنى ذلك الشعب الغليظ الكبد الذى يلهيه ويسليه مثل هذه المناظر ؟ وأية فائدة تجدها فى هذا المصاب الأليم العقيم الذى فجع هذه الأسرة وهى لم ترتكب خطأ ولم تقترف إثماً ؟ آلمنى ، ولكن لتعلمَنى كيف أحتاط لنفسى من الوقوع فى مثل هذا الضرر الذى أشهده . مثل لى أسرة بائسة أوقعها بين مخالب البؤس والفاقة عيب أصيل فى نفسها ، وهوى دخيل فى قلبها ، فان الألم الذى ينالنى من رؤية هذا المنظر يعوضنى منه ذلك الدرس الذى أستفيده من شهود ما يجره الهوى المتحكم والعيب المتأصل من الأذى والمضرة : أستفيد أن الانسان حر فى اتقاء مثل هذا المصاب ، وأن أسبابه من العيب والهوى والغفلة والضعف لم تكن أدواء لازمة ولا محتومة . أما الحرق والغرق والزلزال والوباء وكل ما يصيب المرء من غير كسبه ولا اختياره فلا أستفيد من رؤيته غير الألم العقيم والهم الخالص

إن فضل الكاتب وجمال المسرح هما فى عَرْضهما ما نود أن نكونه لا ما نحب أن نتأثر به . ومهما يكن الشىء العامى المبتذل مؤثراً ، فلا بد أن يكون على المسرح أسمى وأروع مما أستطيع أن أراه وأسمعه من شباك بيتى ، فانِ بين الأشياء المؤثرة كذلك تفاوتاً وتفاضلاً وتخيراً . وليس فى الحياة موضوع يصح أن يكون روائياً بنفسه اذا قلدته على علاته ونقلته بجميع صفاته ؛ فقد تجد فيه من الطول والفضول والنقص والسخف ما يخجلك إذا حكيته ، ويأفنك إذا مثلته . إن مهارة الكاتب القصصى فى أن يجعل الموضوع طريفاً لذيذاً ، ومهارة الكاتب الروائى فى أن يبسطه ويزخرفه ، فيحذف منه البارد الغث ، ويضيف اليه ما يزيد فى تأثيره وحدّته وجدّته وطرافته ، بحيث يكون شبهَ الحقيقة وهيئتها لاصورتها ولا نسختها . والحال فى الأعمال مثل الحال فى الأقوال : فان الكاتب الذى يكتب كما يتكلم ليس بكاتب . إذ كل لغة من لغات الناس فيها الشريف الحر والرقيق الأنيق ، كما أن فيها السوقى والحوشى والفج . والذوق وحده هو الذى يصفى العبارة من اللغو ، وينقى الأسلوب من الغثاثة ، كما يعزل الغربال الزُّوانَ والحصا من الحب الصحيح . ذلك ما نعقله ونقبله ؛ أما نقل ما ترى وحكاية ما تسمع بما فيه من سماجة وفضول واقتضاب ، على أنه صورة الطبيعة ورسم الحقيقة ، فتلك حجة يلجأ اليها الأدعياء ليدرأوا عن أنفسهم معرة الضعف فى الاختيار والعِىِّ عن الابتكار والعجز عن التجديد والتوليد

بعد ما تقدم نستطيع أن نجمل القول فى المأساة العصرية بذكر الفروق بينها وبين المأساة القديمة فنقول : إن الدرامة تجمع بين الجد والهزل والسرور والحزن والاحتشام والتبسط والضعة والرفعة ، وتختار أشخاصها من كل طبقة وبيئة ، وتقتبس موضوعها من حياة العامة أو العصور الوسيطة أو العصر الحديث . أما المأساة فكما علمت تزدرى الموضوعات القومية والعصرية ، وتختار موضوعاتها من الأساطير أو من التاريخ القديم ، وتعنى على

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

فقيد الأدب التونسى

أبو القاسم الشابّى

ولد سنة ١٩٠٩ وتوفى سنة ١٩٣٤



أبو القاسم الشابى

ثكلت تونس ، بل الأدب العربى عامة ، أديباً عبقرياً فذاً ، كان منتظراً منه — لو امتدت حياته — أن يكون كوكباً لامعاً فى سماء الأدب العربى الجديد ، بل دعامة قوية ترتكز عليها المدرسة الحديثة للشعر العصرى . ذلك هو الشاعر المبكى على شبابه أبو القاسم الشابّى .

وولد أبو القاسم الشابّى عام ١٩٠٩ فى مدينة « توزر » عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب ، من أسرة ذات مجد ، وكان أبوه الشيخ محمد بن أبى القاسم الشابى قاضياً شرعيا ، تنقل بوظيفته فى مدن مختلفة . وهو من قبيلة كبيرة ذات تاريخ حافل تدعى الشابية

أما حياة الشاعر الفقيد فليس فيها من الحوادث ما يهم كثيراً لقصرها ، فلم يتخط فجر شبابه الغض ، ولم يطو الخمسة والعشرين عاماً بعد ؛ إلا أن هذه الفترة الصغيرة فى تاريخ نموه الفكرى ذات خطر عظيم ، ذلك أن المذهب الذى ذهب اليه فى نظم أشعاره مذهب فذ لم يظهر منه فى الشعر العربى إلا النادر

وليس فى مراحل تعلمه التى قطعها بغاية الفوز والنجاح شيء غير عادى ؛ فهو كأمثاله الكثيرين قد حفظ القرآن فى طفولته ، والتحق بجامع الزيتونة بتاقى علوم العربية على الأساليب القديمة من المتن والشرح والحاشية ، وعلوم الشريعة الاسلامية كالفقه والأصول والتوحيد ، الى أن كان الامتحان النهائى فتخطاه عام ١٩٢٦ ونال الشهادة المسماة بالتطويع

والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق التونسية فاجتاز امتحاناتها وحصل على إجازة الحقوق ، ثم لم يتركه مرض الصدر يتمم دراسته ، فانقطع عن التعلم من ذلك الحين والتفت الى معالجة هذا المرض العضال الذى ظل معه يغاديه ويراوحه حتى ذهب فى يوم ٨ أكتوبر بحياته الغضة

لم يدرس أبو القاسم لغة أجنبية ، ولم يكن له من الزمن ما يسع طول الدرس ومطالعة المترجمات ، فقد كان أطباؤه ينهونه عن كد ذهنه والاشتغال بالأعمال الفكرية ، وتلك لعمرى آية عبقريته النادرة ، ومعجزة نبوغه الفريد

كان جباراً متمرداً على القديم ، وكان فى الوقت ذاته رقيق الاحساس مشبوب العاطفة ، لا يستمرئ المنازعات والمشاكسات ، فكان من جراء ذلك تفاعل بينه وبين بيئته ، تلمح آثاره واضحة فى أشعاره

فقد كانت مطالعاته الأولى فى الأدب العربى بالمهجر الأمريكى ، فاستأسره أسلوب زعيم تلك المدرسة المرحوم جبران ، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة جبرانية فى الأسلوب . وكان يقول الشعر منظوماً ومنثوراً ، ولكنه كان أعمق روحاً وأبعد قراراً . وكانت موضوعاته فى فلسفة البؤس والشقاء ، والتبرم بالحياة ومتاعبها

الخصوص بالعالم الداخلى من الانسان ، فتبحث عن أخلاقه وعواطفه وأهوائه ، فهى تضع على المسرح نفوساً بدل أن تضع أشخاصاً ، ولا تعنى مطلقاً بالرياش المسرحى ولا باللون المحلى ، وتقصد كل القصد فى تعقيد العمل الروائى ؛ ولكن الدرامة لا تحفل إلا بالعالم الخارجى من المرء ، والجزء المادى من المسرح ، وتبالغ فى رعاية الرياش والزخرف ، وترجح التأثير فى الحواس على التأثير فى الذهن ، وتحرص على أن تظهر الأشخاص فى لباس الزمن الذى عاشوا فيه وتَسِمُهم بعادات بنيه ، وتُؤْثِر تعقيد العمل وتحرُّج المواقف على وصف الأهواء وتصوير العواطف . ثم إن المأساة تخضع لقانون الوحدات الثلاث ولا تجيز نجوى النفس . ولذلك خلقت الانجياء Confidentes ليسارَّهم الأشخاص بما يفكرون ؛ ولكن الدرامة تحللت من سلطان الوحدات الثلاث فلم تُبق إلا وحدة العمل ، وأسرفت فى إيراد النجوى على ألسنة الأشخاص الأصليين فياضة بالأسلوب الوجدانى فقضت بذلك على الأنجياء

الزيات

يتبع

على أننا إذا قلنا إن أبا القاسم قد تأثر بمدرسة جبران فلا بد لنا أن نتحفظ ، فقد تزود — رحمه الله — من الأدب العربى القديم بثروة طائلة ، مكنته من إخضاع التعابير الفصيحة لمعانيه الجديدة بما يميزه من غيره ، ومما لم يكن من ظواهر تلك المدرسة التى تذهب أحياناً وراء حرية التعبير عن خوالج النفس مذاهب تخرجها عن سنن العربية وقواعدها الأولية

ثم إن شاعرنا كان مفتوناً بالآداب الغربية ، يتهافت على قراءة كبار عباقرة الغرب الذين ترجمت أشعارهم وآدابهم ويدرسها بروية حتى تأثر بها وخالجت روحه ، وربما تعجب قراؤه كثيراً حينما يعلمون أنه لا يقرأ إلا اللغة العربية لجهله بغيرها

ويمكنك أن تدرك سعة اطلاعه على الأدب العربى القديم وإحاطته بجميع ما ترجم الى العربية من نفائس الأدب الغربى ، اذا اطلعت على مؤلفه الذى أخرجه منذ سنوات تحت عنوان « الخيال الشعرى عند العرب » فمن مطالعة هذا الكتاب الذى هو عبارة عن دراسة مستفيضة على طريقة النقد العصرية للأدب العربى فى جميع عصوره ، ومقارنة للأدب الغربى فى كثير من أعلامه تدرك مبلغ تفوقه ونبوغه

قلنا إن أبا القاسم كان ينزع فى أوائل أمره نزعة تشاؤم وتبرم بالحياة ، على أن سخطه هذا لا شىء فيه من الضعف والرخاوة ، فهو يعاتب الدهر وكأنه ندّ له فى كبرياء وجبروت يبان عن حب الحياة فى أعماق نفسه ، حتى أنه لم تدم شكواه طويلاً ، فتجلت روح التمرد والقوة فى قصائده الأخيرة التى منها « نشيد الجبار » وقد نشرت فى أحد أعداد « أبولو » ومنها قصيدة «البعث» وستظهر فى ديوانه ، أودعها كل ما فى نفسه من حب للحياة وتطلع الى مثلها العليا فى أسلوب رائع فريد

ولا نستطيع أن ننسى أن للصدمات التى اعترضته أثراً عميقاً فى صهر نبوغه واستقلال فنه ، كما أنه قضى مدة أربعة أشهر فى وحدة شعرية بديعة بين جبال « عين دراهم » وغاباتها ، وهى من أجمل بلاد تونس منظراً وسحراً ، فخرج بشعر طبيعى نادر

رحم الله أبا القاسم الشابى ، وعوض الأدب العربى عنه خيراً

نموذج من شعر الفقيد

اصطدم أبو القاسم الشابى بشعور بيئته الراكدة ، وضايقه المتزمتون الجامدون ، فضاق الشاعر ذرعاً ، ونفَّس عن قلبه الحساس بهذه القصيدة الرائعة :

النبىء المجهول

أيها الشعب ، ليتنى كنت حطّا   با ، فأهوى على الجذوع بفأسى!
ليتنى كنت كالسيول إذا سا   لت تهد القبور رمساً برمس . .
ليتنى كنت كالرياح . . فأطوى   كل مايخنق الزهور بنحسى (1)
ليتنى كنت كالشتاء . . أغشّى   كل ما أذبل الخريف بقرسى
ليت لى قوة العواصف ياشع   بى فألقى اليك ثورة نفسى . . .
ليت لى قوة الأعاصير .. لكن   أنت حى يقضى الحياة برمس . .
أنت روح غبية تكره النو   ر وتقضى الدهور فى ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن   طافت حواليك ، دون مس وجس

* * *

فى صباح الحياة ضمخت أكوا   بى وأترعتها بخمرة نفسى . .
ثم قدمتها اليك ، فأهرق   ت رحيقى ودست ياشعب كأسى!
فتألمت . . ثم أسكت آلا   مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى   باقة لم يمسها أى إنس
ثم قدمتها اليك ، فمزق   ت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً   وبشوك الصخور توجت رأسى

* * *

. . . ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـــبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّى   فى صميم الغابات أدفن نفسى . .
ثم أنساك ما استطعت فما أ   نت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أنا   شيدى وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى   أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضى هناك فى ظلمة الليـــل وألقى إلى الوجود بيأسى
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـــو تخط السيول حفرة رمسى
وتظل الطيور تلغو على قـــبرى ويشدو النسيم فوق بهمس
وتظل الفصول تمشى حوالى   كما كن فى غضارة أمسى . . .

* * *

أيها الشعب أنت طفل صغير   لاعب بالتراب والليل مغسى

---

(1) النحس الريح الباردة عند إدبارها

أنت فى الكون قوة لم تسسها ... فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها ... ظلمات العصور من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلى ... فى حساسيتى ورقة نفسى

***

هكذا قال شاعر ناول الشعـ ... ـب رحيق الحياة فى خير كأس
فأشاحوا عنها ، ومروا غضابا ... واستخفوا به وقالوا بيأس :
« قد أضاع الحياة فى ملعب الجن (م) فيا بؤسه ! أصيب بمس ! »
« طالما خاطب العواصف فى الليـ ... ـل وناجى الأموات فى كل رمس »
« طالما رافق الظلام إلى الغا ... ب ونادى الأرواح من كل جنس »
« طالما حدث الشياطين فى الـ ... ـوادى وغنى مع الرياح بجرس »
« إنه ساحر تعلمه السحرَ الشيا ... طين كل مطلع شمس . . . »
« أبعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ ... ـكل إن الخبيث منبع رجس »
« اطردوه ، ولا تصيخوا إليه ... فهو روح شريرة ذات نحس »

***

هكذا قال شاعر فيلسوف ... عاش فى شعبه الغبى بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ
ـها فساموا شعوره سوم بخس
فهو فى مذهب الحيـاة نبى
وهو فى شعبه مصاب بمس !
هكذا قال ثم سار إلى الغا
ب ليحيي حياة شعر وقدس

***

وبعيداً ، هناك فى معبد الغا
ب الذى لا يظله أى بؤس
فى ظلال الصنوبر الحلو والزيـ
ـتون يقضى الحياة حرساً بحرس
فى الصباح الجميل يشدو مع الطيـ
ـر ويمشى فى نشوة المتحسى
نافخاً نايه ، حواليـه تهتز (م)
ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسـل تداعبه الريـ
ـح على منكبيه مثل الدمقس

والطيور الطراب تشدو حواليــه وتلغو فى السرور من كل جنس .
وتراه عند الأصيل ، لدى الجد ... ول يرنو للطائر المتحسى
أو يغني بين الصنوبر ، أو يرْ ... نو الى سدفة الظلام الممسى
فاذا أقبـل الظلام وأمست ... ظلمات الوجود فى الكون تغسى
كان فى كوخه الجميل مقيما ... يسأل الكون فى خشوع وهمس :
عن مصب الحياة ، أين مداه ؟ ؟ ... وصميم الوجود ، أيان يرسى ؟ ؟
وعبير الورود فى كل واد ... ونشيد الطيور حين تمسى . .
وهزيم الرياح فى كل فج . . ... ورسوم الحياة من أمس أمس . .
وأغانى الرعاة ، أين يواريـ ... ـها سكون الدجى ، وأيان تمسى ؟ . .

***

هكذا يصرف الحياة ويفنى ... حلقات السنين حرساً بحرس
يا لها من معيشة ، فى صميم الـ ... ـغاب تضحى بين الطيور وتمسى !
يا لها من معيشة ، لم تشبها ... نفوس الورى بخبث ورجس !
يا لها من معيشة ، هى فى الكو ... ن حياة غريبة ذات قدس . .

تونس ... حسن مبارك

على قبر الفردوسى

للدكتور عبد الوهاب عزام

أبا القاسم اسمع ثناء الوفود   تنظّم فيـك عقود الدرر
أبا القاسم اسمع نشيد الخلود   يرتّـلُه فيك كلُّ البشر
أبا القاسم اسمع لسان الزمان   بخلدك ، وهو الضنين ، أقرّ
فهذى اللغات وهذى السّمات   وهذى الوفود وتلك الزُّمَر
تترجم عن غرض واحـد   ويدركها فى مداك الحصَر
تُطيف بقبرك صرح العلاء   وباب الخلود ومثوى الظفَر
فيالك قبراً قريب المدى   تظل العقول به فى سفر
ويالك قبراً كعين البصير   يحوى العوالم منها الصغر
ويالك قبراً غـدا طلسما   وراءك كنز الخلود استتر
ويالك سـطراً بقرآنه   تضيق الحياة ويفنى العمُر
ويالك بيتاً سما شِعره   بمعنى الحياة ولفظ الحجر
وأحجاره لحروف الهجا   . كل المعانى بها تُستطر

***

إمامَ البيان وربَّ القريض   وأصبرَ مَن للقريض صبر
وسبّاقَ حلبته فى الورى   ورب الحجول بها والغُرر
وناظمَ عقـد على نظمه   تخر الدهور وما ينـدثر
نظمت الكتاب كتاب الملوك   وما هو إلا سجلّ القَدَر
طويت الزمان وأحداثه   بأوراقه ونشرتَ العِـبَر
فما جام جمشيد(١) إلا كتابُـ   ـك يجلو الأقاليم فيه البصر

***

فيالك من شاعر نابغ   عظيم الحياة جليل الأثر
ويالك من شاعر رابح   وكم شاعر فى الورى قد خسر

(١) كأس جمشيد كانت ترى فيها الأقاليم السبعة

ثلاثين عاماً نسجت القريض   حليف الهموم أليف السهر
ثلاثين عاماً مضت للفناء   بهن اشتريت خلود الدهر
لقد صدّق الدهر ما قلتَ فى   كتاب الملوك بغيب النظر :
بنا هاى أباد گردد خراب   بحرّ ذُكاء وصوب المطر
پى افكندم أز نظم كاخى بلند   على الريح والقطر ما إن يخر(١)
مضى ملك محمود فى الذاهبين   وملكك فى الدهر ما يندثر
رضاه شاه حسبك من ناصر   لقدرك بعد القرون قدَر
يسيّر ذكرك فى الخافقين   مسير ذُكاء ومسرى القمر

***

طوينا البحار وشمّ الجبال   وجُردَ القفار وأيْكَ الشجر
يطير بنا الشوق ملء القلوب   ويُحلى حديثك مُرَّ السفر
وفى مصر كنت نجيّ الكتاب   بليغ العظات وحلو السمر
وها أنا فى طوس بين يدَيْـ   ـك يبهر نفسى جلال بهر
فهيبة ذكراك روع الفؤاد   ومشهد حفلك يُخسى البصر
يضيق علىّ مجال الكلام   ويشردُ عنىَ سِرْب الفكَر
ويذهب شعرى ذهاب الحباب   على لجة البحر حين زخر
هر تانكس كه دار دهش وراى ودين
عليك الثناء الجميـــــل نثر(٢)
وما شاعر أنا كفء المديح   فأهدى اليك الثناء الأغر
ولكن سحابك أحيا المواتَ   وما بالارادة ينمو الزهر
خلدت على الدهر فى الخالدين   وخلَّدَ شعرك من قد غبر
ودوّى قريضك فى الخافقين   يغنّى البُداة به والحضر
وروحك فردوسه فى السماء   وقبرك فردوس من قد شعر

طوس   عبد الوهاب عزام

(١) بيتان للفردوسى أثبت شطريهما الأولين بالفارسية وقد ترجمت الأخيرين ؛ ويجدهما القارئ فى أول صفحة من ترجمة الشاهنامه العربية
وترجمة الشطر الاول : يخر على الدهر كل بناء
وترجمة الشطر الثانى : بنيت على الدهر صرحاً أغر

(٢) هذا بيت للفردوسى معناه : كل من له عقل ورأى ودين سيثنى على بعد الموت . وقد أبقيت شطره الاول وترجمت الثانى

البريد الأدبي

العيد الفضي

عزيزي الزيات

في افتتاحية العدد الماضي أسميتم العيد العشريني للجنة التأليف العيد الفضي. وإن جاز أن يكون في هذه التسمية متسع لاختلاف الآراء، فاني أرى الأولى تسميته بالعيد الصيني، وذلك جرياً على العادة القديمة في بعض الأمم، واتباعاً للمراسيم المألوفة عندهم في الأعراس. فقد اصطلحوا على أن يهدوا للعروسين في ذكرى العرس السنوية الأولى شيئاً مصنوعاً من الورق، وفي الذكرى الثانية شيئاً مصنوعاً من « البفتة »، وفي الثالثة شيئاً من الكتان، وفي الرابعة شيئاً من الحرير، ويتلو هذه الخشب فالحلوى فالزهر فالجلد فالقش فالقصدير فالعقيق، إلى آخر قائمة طويلة يعني باستظهارها من لا يزال يُعنى بتلك المراسيم، ولاسيما التجار. ومن أشهر تلك الأعياد العيد العشريني ويهدى فيه الخزف الصيني، فالخامس والعشرون وتهدى فيه الفضة، فالثلاثون ويهدى فيه اللؤلؤ، فالأربعون وهديته الياقوت، فالخمسون وهو الذهبي، ثم الخامس والسبعون وهو الماسي؛ ومن بلغه فقد عمّر دهراً طويلاً. ولا شك أن ربط هذه الأشياء بهذه الأزمان منشؤه في كل حالة خاصة غير واضح، ولكن نستطيع أن نقول على وجه التعميم إنه يمت من قريب أو بعيد إلى ماكان يعتقد القدماء في المعادن والجواهر من يمن أو شؤم. حتى لتجدهم إلى اليوم يخصون الفصول والأيام، حتى والساعات بأحجار كريمة خاصة تدر على لابسها، أو الأرجح لابستها، كل خير وبركة، فالزمرد حجر الربيع لخضرته، والياقوت الأحمر حجر الصيف لأن لونه من النار، والياقوت الأزرق للخريف، والماس للشتاء ولونه من لون الثالج، يأخذ النور ويشع بالنور

أحمد زكي

(الرسالة) لصديقنا الدكتور الحق في هذه الملاحظة، ولنا كذلك الحق في هذا الاستعمال، لانهم اختصروا اليوم هذه الهدايا السنوية إلى ثلاث وهي الفضة في الشباب، والذهب في الكهولة، والماس في الشيخوخة. وأطوار العمر الثلاثة لا تحدد بسنة معينة

الأدب اليوجوسلافي في مختلف أطواره

كثر الحديث أخيراً عن يوجوسلافيا وأحوالها لمناسبة مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر. وكان للناحية الأدبية نصيب من تلك الأحاديث؛ فنشرت مجلة « الأخبار الأدبية » مقالاً ضافياً بقلم الكاتب السربي ايفو باربتش عن الأدب اليوجوسلافي في مختلف العصور نلخصه فيما يلي:

ليوجوسلافيا حضارة قديمة وأدب قديم. وترجع آثار الأدب السربي والكرواتي والسلوفيني القديم الى القرنين العاشر والحادي عشر؛ وظهرت في القرن الحادي عشر أول آثار باللغة السلافية القديمة بقلم كيريل وميتود رسولي الأدب السلافي، وبلغت الحضارة اليوجوسلافية ذروتها في عصر « نيماجنا » ؛ وهرع الى الأديرة القديمة كثير من شباب الأشراف والأمراء، يعيشون في تقشف، ويدرسون الآداب البيزنطية والنصرانية القديمة، ويترجمون آثارها الخالدة الى السربية القديمة. وبعد الفتح التركي (سنة ١٣٨٩) دخلت الآداب اليوجوسلافية في طور جديد، وسادت فيها مُثل البطولة والعناصر الشعبية والغنائية، وبلغت ذروة هذه المرحلة في القرن التاسع عشر، ولفتت نظر الغرب بشاعريتها القوية المؤثرة التي تقص آلام شعب مهيض وتستوحي ماضيه المجيد، وتدعو الى تحرره من نير الغاصب

وقامت الى جانب هذه الحركة الأدبية العامة حركات أدبية محلية في البلقان وعلى ساحل بحر الأدرياتيك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت رعاية الحضارة البندقية. فكانت مدينة راجوزا مركزاً لحضارة سربية زاهرة، ونبغ بها عدة شعراء سربيين مثل منتشتش، ودرزتش، وجيبورجتش. وبلغ شعر راجوزا غاية ازدهاره بالشاعر جوندلتش صاحب الأثر الشعري الخالد « عثمان » ؛ وهي قصيدة قومية كبيرة، تضطرم وطنية، ويطبعها وحي الآداب الرومانية والنصرانية القديمة. وكان للدرامة

والكوميدية والشعر الريفى نصيب كبير فى هذه الحركة . وتردد صدى هذه النهضة الأدبية الزاهرة فى كثير من المدن الساحلية الأخرى مثل زارا ، وسبلاتو ؛ ونبغ بها عدد كبير من الشعراء والكتاب ؛ كما ترددت فى بلاد الكروات والسلوفين

على أن هذه المظاهر الأدبية كانت تنقصها الوحدة والتناسق حتى القرن التاسع عشر . وكان أعظم العاملين على تحقيق هذه الوحدة الكاتب الكبير فوك كرادجتش الذى لبث زهاء نصف قرن يناضل فى سبيل وحدة اللغة الأدبية يؤازره جماعة من أنصاره وتلامذته ، فكتب أجرومية للغة الأدبيـــة ، وألف قاموساً ، ووضع قواعد جديدة للأملاء . وكتب اوبراد فتش كتباً شعبية كثيرة يدلل بها على وحدة الأصل الذى تنتمى اليه العناصر الصربية المختلفة ، وكانت زغرب عاصمة كرواتيا مهداً خصيباً لهذه الحركة الفكرية الجديدة ، وفيها ظهر لودفيت جاى وجمهرة من الكتاب الذين يعملون على تحقيق هذه الوحدة الأدبية

وكان ذلك بدء الأدب اليوجوسلافى الحديث ، وقد بدأ هذا الأدب متأثراً بالطابع الساذج القديم ، ولكن مشرباً بروح الأدب الغربى الحديث ، وكان زعماء هذا العصر نيوجوخ أعظم شـاعر يوجوسلافى وصاحب الديوان الشهير « غار الجبل » ومازورانتش الكرواتى ، وبرشرن السلوفينى ، ونستطيع أن نذكر من الشعراء المعاصرين دوتشتش ، وشانتتش ، وورا كتش ، ونازور ، وكيت . ونبغ أيضاً عدد من القصصيين متأثرين بالأدب الروسى والفرنسى ، ومنهم ليوبيشا ، ولازارفتش ، وسرماك ، وكوزاراك ، ولسكوفار ، وكانكار

وامتاز عصر مابعد الحرب باضطراب فكرى عظيم ؛ وأبدى الجيل الشاب ميلاً جديداً لمتابعة الغرب فى نزعاته نحو الأدب والفن ؛ وظهرت فى حلبة الآداب اليوجوسلافية الفكر القومية والدولية والاشتراكية الجديدة ، أو بعبارة أخرى كانت النزعة الثورية تطبع أدب هذه المرحلة ، بيد أن هذه النزعة قد اختفت اليوم ، وعاد الكتاب والشعراء يعملون فى هدوء لاخراج الآثار الأدبية الباقية . ومن زعماء الحركة الأخيرة مشش ودراجان ، وهما اللذان جمعا حولهما الشباب ، لمكافحة النزعة الواقعية التى مازال يدافع عنها أساتذة جامعة بلغراد . وثمة حركة أخرى ربما كانت أكثر رسوخا وهى حركة « التعبير » التى يتزعمها فنافر ، ثم مانيولفتش الذى ترك الشعر ليكتب القصة والقطع المسرحية . ومن أقطاب حركة التعبير أيضاً راستكو ، وكريانسكى ، وهو قصصى شاب يبشر بمستقبل عظيم ، وله تلاميذ ومقلدون كثيرون ؛ وملادنوفتش الذى أثار بعنف دراماته كثيراً من النقـــد ، وبجدا نوفتش الناقد الكبير

على أن هناك عدداً من الكتاب الذين استطاعوا أن يحتفظوا برزانتهم بعيداً عن التأثر بأزمة ما بعـد الحرب ؛ ولهؤلاء آثار تمتزج فيها النزعة الواقعية بالطابع الابداعى . وهنالك صفوة من الكتاب والنقدة يجمعهم « نادى القلم » (P. E. N) ، ويكونون ما يمكن أن يسمى « أرستوقراطية أدبية »

وقد تأثرت الحركة الأدبيـة بالأزمة الاقتصادية الأخيرة ، وأحجم كثير من دور النشر عن إخراج المؤلفات الجديدة . بيد أنها أزمة مؤقتة لا يلبث أن يتغلب عليها الجيل الشاب بنشاطه وحيويته الفتاة

عيد اللغة الألمانية

تحتفل الدوائر العلمية والأدبية فى ألمانيا بمرور أربعمائة سنة على نشوء اللغة الألمانية الحديثة وترجمة الأنجيل الى الألمانية . ولم تكن ألمانيا قبل أربعمائة عام تتمتع بلغة موحـدة ؛ وكانت اللغة اللاتينية ما تزال سائدة فى الكنيسة والأدارات الحكومية ، بل كان الشعب نفسه يجد فى اللاتينية مثله الأعلى فى الأدب والثقافة . ففى أوائل القرن السادس عشر ظهرت حركة الاصلاح الدينى (البروتستانتية) على يد زعيمها مارتن لوتر ، فكانت إيذاناً بقيام اللغة الألمانية الموحدة . وكان الشعب الألمانى يتكلم عندئذ عدة لغات متقاربة ترجع كلها الى أصـل جرمانى ؛ فدرس لوتر هذه اللغات مع أصدقائه وتلامذته ، واستخرج منها لغة عامة يتقارب الجميع فى فهمها ، واتخذ عمادها لغة ألمانيا الوسطى (سكسونية) التى ينتمى اليها ، فأنشأ بذلك فى الواقع لغة جديدة هى أصل اللغة الألمانية الحديثة ، وكانت أكبر أداة فى إذاعة هذه اللغة الموحدة ترجمة الأنجيل ؛ ترجمه اليها لوتر ، وعانى فى هذه الترجمة صعاباً لا

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

ورقة النصيب

للأستاذ محمد سعيد العريان

جلس إسماعيل على المقعد الخشبي بجانب غرفته على السطح، يغني فى حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده، ويتابع بعينيه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليوميّ، كأنها جمرة كبيرة تُطفأ فى النيل

كان يعيش وحده فى هذه الغرفة من منزل كبير فى حى «بولاق» يشرف من بعدٍ على النيل، فكانت سلوته وأنسه أن يجلس ببابها عصرَ كل يوم، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكبّ على مصوَّراته ودفاتره

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده فى الصعيد الأدنى عقب حصوله على شهادة (الكفاءة) ليطلب العلم بمدرسة الفنون

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط اليها، وَلوعاً بها أشد الولع. ولعله لم يمعن فى الجد والدأب للحصول على الشهادة، إلا لأنه كان موعوداً أن يرسل الى القاهرة إن جاز الامتحان!

فلما هبط اليها إذا هى تتضاءل وتتضاءل على الأيام، حتى لم تعد إلا هذا الحيّ العتيق الذى يسكنه، وهذه الطريقَ الملتوية التى يسلكها كل يوم بين مدرسته والبيت، وهذا السطحَ الذى يشرف منه على أطلال الحلم السعيد — أطلالِ القاهرة التى عرفها فى الخيال، واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب!

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلةً سعيدة من تلك الليالى العابثة التى عاشها فى القاهرة أولَ ما هبط اليها! ولكن... ولكن من أين له المال؟

إنه ما يزال يذكر فى لهفة وشوق تلك الليالى السعيدة؛

فى الأكاديمية الفرنسية

نقص عدد الخالدين أعضاء الأكاديمية الفرنسية فى هذا العام خمسة، فأصبحوا اليوم خمسة وثلاثين بدلاً من أربعين؛ نخلت مقاعد بريمون وكاميل جوليان والماريشال ليوتى ثم بارتو وبوانكاريه بالوفاة تباعاً. ولم تشهد الأكاديمية الفرنسية منذ أمد بعيد مثل هذه الثغرة فى كراسيها. والمعروف أن المرشح لكرسي جوليان هو جورج دوهامل، ولكن ينافسه ليون بيرار؛ وأما المرشح لكرسى بوانكاريه فيقال إنه سيكون مسيو دومرج الذى خلف مسيو بوانكاريه فى رياسة الجمهورية ثم فى رياسة الحكومة

وكان انتظام بوانكاريه فى الأكاديمية فى التاسع من ديسمبر سنة ١٩٠٩ فى الكرسى الذى خلا بوفاة أميل جبهار. واستقبله المؤرخ الكبير ارنست لافيس مدير الأكاديمية يومئذ بهذه الكلمات التى تعود فتتردد اليوم: «إن ذكاءك يجعلك على اتصال مع عمال الفكر جميعاً. فأنت ضوء من أضواء المحاماة، وأنت ضوء من أضواء البرلمان؛ وإن الأكاديمية الفرنسية لتستقبلك باسطة الذراعين. ثم إن فيك قوة، قد تغدو هائلة، يوم تعتقد أن السياسة تتطلب رجلها»

تحصى. وقضى فى إخراجها زهاء اثني عشر عاماً. وكان أثناء ذلك يلقى خطاباته ويخرج رسائله وكتبه باللغة الجديدة التى اختارها.

ولما ظهرت ترجمة الأنجيل الجديدة فى سنة ١٥٣٤ فى ڤتمبرج، كان ظهورها ظفراً عظيماً فى الكنيسة وفى الأسرة معاً، وكان فجر اللغة الألمانية الجديدة. وطبع أنجيل لوتر أربع عشرة مرة فى كل مرة ثلاثة آلاف نسخة، وذاع فى طول البلاد الألمانية وعرضها، وأقبل الشعب على قراءته وحفظه، وبدأت الشعوب الألمانية المختلفة تتبادل التفاهم والتعامل باللغة الموحدة. وإنجيل لوتر هو الأصل الأول الذى تقوم عليه اللغة الألمانية المعاصرة مع شىء من التغيير والتطور، وما زالت لغته مفهومة لجمهرة المثقفين والمتعلمين

وما يزال يذكر أيضاً فى ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق فى تلك الليـلات ما لم تـكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ، وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه

وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وبأن يعيش من الجنة فى ظل حائطها الفينان . وعرف فيه بنات الدار شاباً جمّ الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فألِفْنَ الصعود الى السطح فى الأصيل يستمعن الى ترجيع أغانيه فى طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألِفَ إسماعيل أن يراهن كل يوم ، وأن يبادلهن الحديث البرىء فى شؤون وفنون . . . وزال الحجاب بينهما على الأيام

***

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ، ولم تصعد واحدة . تُرَى ما ذا منعهن الليلة ، وقد اعتَدْنَ واعتاد منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتا ، ساعةً أو بعضَ ساعة كلَّ مساء ؟ . . . ومد الظلام رواقه على القاهرة ، وعلى قلب المبعد اللهفان

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فاذا هو لا يكاد يرى ، واذا الكلمات والسطور تتلوّى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة . . . !

وطوى دفاتره وارتدى ثيابه وخرج الى الطريق ؛ كانت الليلة ليلةَ الجمعة ، فلم يجـد حرجاً أن يقضيها فى السينما . . . ووقف ببابها متردداً وهو يحصى النقود فى جيبه ، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبَّط إلا همَّه ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته فى الدار الى نزهة ، فيصحبها ذراعاً الى ذراع فى الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولـكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضى ليلة سعيدة فى صحبـة فتاة ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً ، فلا سبيل الى أن يُخدع . سيشاهد معها السينما فى شرفة ذات أستار ، ويتعشيان معاً فى مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة الى الهرم ، ويشـترى لها كل ما تهفو نفسها اليه فى الطريق ، وبعدئذ . . . وبعدئذ يعودان الى الدار

وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويطويها يحصى ما أنفق ، وعيناه تأخذان كلَّ مَن يمرّ به . . . جنيه ، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليـلة ! وسخر من نفسه حين انتهى الى ذلك : من أين له الجنيه ؟

ومرّ به غلام يبيع الجنيهات بالقروش ؛ يبيع النصيب ! ومدّ إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة فطواها بعناية ووضعها فى جيبه ؛ كأنما هو يطوى الجنيـه الذى سيصل بين يقظته وأحلامه . ثم عاد الى البيت ، فلم يشهد السينما

لم يفـكر فى شىء من أمره تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ! ورأى أباه فى الرؤيا بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التى تـكبس أذنيـه وبعض وجهه ؛ جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المُبْحِرة الى الشمال ، يحصى ربحه ونفقاته ، وقد اغبرّت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونهض فى الصباح فنسى كل ما كان من أمره . وصعدت احدى صواحبه الى السطح لبعض شأنهـا ، فحياها وحيته وهو يبتسم ، كأنه يخفى عنها مفاجأة سارة . وعادت الفتاة وعاد اسماعيل الى شئونه

وأوقد النار ، وراح يهيىء الفول بيده على طريقة بلاده ؛ سوف لا يتغدى فى المدرسة هذا اليوم لأنه يوم عطلة ، وفى فطوره الفول مايغني عن الغداء ، فلا تختل ميزانية اليوم !

ومرّ يومان وراح يكشف عن بخته بين أوراق النصيب . . .

وترقب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن اليه ، ولـكنه لم يعد ، واستقلّ أول قطار الى الصعيد . . .

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع الى ذلك ! إنها لثروة . وقسم النقود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض مارنج ، وخاط جيبته على الباقى . . . لقد دبّر أمراً ليخدع أباه ، حتى لا يحرمه المالَ كلَّـه !

***

وخرج الشيخ متولى من المسجد يداعب سبحته بيده ، ويتمتم بالتسبيح والدعاء ، وهو فى هم لمقدم ولده من غير داعية . . . وقبّل الفتى يد أبيه ، وقال له وهو يبتسم :

— الحمد لله على سلامتك يا أبى ، لقد كنت مشتاقاً اليك !

— مشتاقاً إلىّ ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبتك رجلاً يا اسماعيل !

— نعم . . . ولكن . . .

— لكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولستَ ولدى إن لم تكن رجلاً

— بلى ، وإنما قدمت لأمر . . .

— أىّ أمر ؟

— لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك !

— خمسين جنيهاً ؟

— نعم !

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبت شفتيه ابتسامة ، واتسعت حدقتاه ، وعاد يقول :

— ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرنى من قبل أنك فى تجارة !

— لقد ربحت ورقة نصيب !

— وَىْ ! ورقة نصيب ؟ قِمار ؟ مَيْسِر ؟

واستوى عوده ، وانكمشت يده واختلجت شفتاه ، ثم قال :

— لا لا ، ويحك ! لا تجعلها فى مالى ، إننى رجل شريف ، إن مالى من عرق جبينى فلا أريد أن يمحقه المال الحرام !

— أبى !

— اسكت ! قم فرُدّها اليهم ، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين ، مِن يدِ كَمْ بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً ؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التى يملكونها ، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض مايجمعون ؛ بعض ما يسرقون !

— وهل يمكن . . .

— يمكن أوْ لا يمكن ، فلن أجعلها فى مالى ، إنها ملوّثة قذرة ، هل تعرف من أين اجتمعت ؟

— لا أعرف

— المال الحلال يُعرَف دائماً مأتاه . . .

كان قلب الولد يضحك ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما الى حد ؛ فقد تحرّج الشيخ الورع أن يضمّ ربح (الميسر) الى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

***

وعاد اسماعيل الى القاهرة ، ولكنه لم يعد الى داره إلا بعد ليالٍ ثلاث . . وأطل الفتيات من خلف الباب يشهدن اسماعيل عائداً الى الدار ، يصعد الدرج فى زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفى عينيه فتور ينبىء أنه قضى ليله سهران

وترامى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناً وفتنة ، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان . وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلّقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد اليه بمرأى صواحبها ، فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته كأنه شخص آخر غير اسماعيل الذى يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه ، وكأنما ألْقِيَ اليهن جميعاً معنىً واحد ، فخجلن أن يبدون له ، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد اليه وحيدة

وسبقتهن (حكمت) الى ذاك ، ولكنها لم تُظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت أن تصعد

واستقبلها اسماعيل ضاحكا ، وهزّ يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث . ثم افترقا على ميعاد . . . ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حُلماً أشرق عليه الصبح ، فأتمته اليقظة التى تصنع الأحلام

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرّف القاهرة من جديد ، القاهرةَ التى فتنته قبل أن يراها ، والتى ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛ وراح ينتقم لشهواتٍ بنفسه التى قمعها على ألم وضيق عاما وبعضَ عام

ونفدت دراهمه

***

لم تجر سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدت ريحه ، وأدبرت أيامه ، وعادت الحياة تقتضيه مضاعفة الجهد وبذل الوفور

وجلس اسماعيل مع أبيه ذات يوم صائفٍ بباب متجره ، ومر بائع النصيب ؛ وتحلّب لعاب الفتى وطارت أمانيه الى هناك ؛ الى القاهرة وليالى القاهرة ؛ والى حكمت وصواحب حكمت ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه الى ذراع أبيه . . . والتفت فاذا الغلام واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقا

الشـــاعر والوردة

فى سنة ١٢٥٧ ميلادية فى إحدى قرى ألمانيا على ضفة نهر الرين، كان البارون أوتودى سيد المقاطعة مشهوراً بين قومه بثروته الطائلة وأحكامه القاسية

جمع هذا الرجل كل ما ملك من ذهب وجواهر ووضعها فى صناديق مفتوحة فى قاعة تحت الأرض، وكانت الشمس تدخل هذه القـاعة من ثغرة فى نهايتها فتضىء بأشعتها هذه الجواهر الغالية

وكان البارون يجد تسلية لا تعدلها تسلية فى السماح لمن يشاء أن يدخل تلك القاعة ويملأ جيوبه من المال بقدر ما يستطيع على ألاّ يستغرق فى ذلك إلا مقدار ما تدق الساعة عشر دقات، فاذا انتهت المدة ولم يخرج الرجل اعتبرَ سارقاً ما يحمله من الجواهر وحُكم عليه بالرق مدة حياته

فـكان يطمع فى هذا المال كثيرون كلّ يوم، وكان عدد عبيد البارون يزداد بقدر عدد الذين طمعوا فى ماله لأنه لم ينج من هذه الأحبولة أحد . وهذا ما كان البارون يتوقعه؛ ولم تخيب الأيام ظنه مرة واحدة

فى ذات يوم مرّ على قصر هـذا البارون شاعرٌ مطبوع، وشاب مشهور بين قصور أمراء ألمانيا فى ذلك الحين بجماله ورقة شعره ورخامة صوته ومهارته البالغة فى الضرب على القيثارة . وكان يقضى حياته متنقلاً بها من قصر الى قصر

واتفق أن ابنة البارون ووحيـدته دخلت فى ذلك اليوم فى عامها السادس عشر، فطلب اليه البارون أن يحيي ليلة موسيقية تكريماً لها

وقبل أن ينصرف الشاعر طلب اليه البارون أن يدخل قاعة المال ويأخذ منها ما يشاء، على شرط أن يكون خارج القاعة قبل أن تنتهى المدة المقررة، وكأنه بهذا الطلب أراد أن يستأثر بهذا الشاعر ويستعبده كغيره من الشبان

ولـكن الشاعر أجاب : « وماذا أفعل بمالك ؟! لست فى حاجة إليه، لأننى أشعر أن فى نفسى من اللآلئ مالا تعد جواهرك الثمينة بجانبه شيئاً » ولـكن البارون ألح عليه فأجاب طلبه

فلما كان الشاعر داخل القاعة أبصر من هذه الثغرة وردة انبهر من جمالها نظره وخفق لحسنها قلبه، فوثب فوق المال المكدس واقتطف تلك الوردة وخرج مسرعاً قبل أن تنتهى المدة . فلما رآه البارون أول من خرج من القاعة دهش . وقال له « إن ما حملته من المال ملك لك » ولـكن البارون لم يجد شيئاً مع الشاب سوى تلك الوردة الجميلة . فقال له « أهذا كل ما أخذته من القاعة ؟! » فقال الشاعر « إنى لم أر فى مالك ما هو أجمل منها، بل ليس على الأرض ما هو أجمل منها . . . . »

ولم يكد ينتهى من حديثه حتى أقبلت الفتاة على والدها وحمرة الخجل تعلو وجنتيها . فلما رآها الشاعر دهش لجمالها الفاتن وقال متمماً حديثه مع والدها « . . . إلا هذه الفتاة » ثم طلب من البارون أن يسمح له بتقديم تلك الوردة هدية الى ابنته . فقالت الفتاة لأبيها : « إنه يفضلنى على هذه الوردة يا أبى، وقد فضلها على كل جواهرك؛ فليس على الأرض فارس أرق منه شعوراً ولا أشرف منه عاطفة، ولا أصدق شعراً، ولن أكون زوجة إلا له »

وهكذا أصبح هذا الشاعر الحق، وذلك الشاب النبيل، زوجاً لهذه الزهرة الحية الجميلة

« عن الانجليزية » كلية غردون علي محمد أحمد

يكشف بينها عن بخته، ثم يمزقها ويلقيها، وإذا هو يشترى غيرها فيطويها ويجعلها فى جيبه، ليضم صدره على أمل جديد . . . !

وتَبالَـهَ الفتى فنهض من مجلسه ليخفى ابتسامة ساخرة، وعلى طرف لسانه كلام . . .

لم يعد الشيخ متولى يسأل نفسه : من أين اجتمعت هذه الجنيهات التى يحاول أن يشتريها بالقروش ! فلعـله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الـكثيرة التى أدّاها هو الى باعة البخت، منذ تعلّم أن يحاول شراء البخت بالمـال ... منذ ربح ولده ... !

وضحك (إبليس) من الشيخ متولى وهو يمزق الأوراق ويشترى غيرها، وقال لشيطانٍ صغير وهو يعلمه :

« أنظر هذا الأبله ؛ ما أرسلت اليه ابنه إلاّ رسالتى، فقد علِقَتْـه الحِبالة . حسْـب الانسان الضعيف أن أريَـهُ الحرامَ مرة ؛ فهذا أول عملى فى طبيعته »

قال الشيطان الصغير « ثم بعـد ذلك ؟ » قال المعلم « بعد ذلك — أيها الأبله — طبيعتُـه . . . ! »

محمد سعيد العريان

الكتب

فى التربية

بحث فى عوامل التربية غير المقصودة

تأليف الدكتور على عبد الواحد وافى

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لطلبة دار العلوم ، وهو يقع فى نيف ومائتى صفحة من القطع الكبير

وجد مؤلفه الفاضل أن كتب التربية التى صدرت فى مصر حتى الآن توجه القسط الأكبر من عنايتها الى عوامل التربية المقصودة ، أعنى تلك العوامل التى تنحصر فيما يتخذه المربون من وسائل حيال الناشئين بقصد التأثير فى جسومهم وعقولهم وأخلاقهم تأثيراً يعدهم للحياة المستقبلة ، بينما تنصرف عناية المؤلفين عن تلك العوامل التى يسميها الدكتور الفاضل عوامل التربية غير المقصودة ، والتى تؤثر تأثيراً قوياً فى حياة الصغار دون تدخل من المربين ، ومن تلك العوامل البيئتان الطبيعية والاجتماعية وما اليهما من طرق معيشة الأمة ومقدار حضارتها وأشكال نظمها وصنوف تقاليدها ، مضافا الى هذا تلك الأمور التى يقوم بها الطفل من تلقاء نفسه ، ويكون لها أثر قوى فى سلوكه ونشوئه ، كالألعاب الحرة والأعمال التى يميل اليها الطفل مدفوعاً بغريزة المحاكاة والتقليد

ولقد خصص المؤلف كتابه هذا لدراسة طائفة من تلك العوامل وهى اللعب والتقليد والوراثة والبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية

تكلم عن وظائف اللعب التربوية وما قيل فيها من نظريات ، وناقش هذه النظريات مناقشة العالم المجرب فى منطق مستقيم وترتيب حكيم ، دون أن يغفل أى ناحية من نواحى الموضوع ، ثم أورد ملخص هذه النظريات مبيناً وظيفة اللعب الأساسية ووظائفه الثانوية ، وبعد ذلك أتى على أقسام اللعب الانسانى وأوضح الفرق بين اللعب والعمل ، وتكلم على تطور الألعاب وارتقائها ، وختم موضوع اللعب بما عساه أن ينتفع به المربى من اللعب فى التعليم ، وهو كما ترى فصل قوى شيق يستغرق أربعاً وستين صفحة من الكتاب

وانتقل بعد ذلك إلى التقليد ، فتكلم عن التقليد فى الصوت شارحاً الأصوات الوجدانية واللغة وأساس كل منهما عند الطفل ، وشرح التقليد فى الحركة مبيناً أنواعه ومراتبه وأسبابه ، إلى أن انتهى إلى بيان وظائف التقليد التربوية ، كل ذلك فى بسط ودقة وحسن ترتيب

أما الفصل الثالث وموضوعه الوراثة ، ذلك الموضوع الدقيق فقد تناوله المؤلف بما يتناسب مع خطره من الشرح والبسط ، فحدثنا عن أنواع الوراثة وأسبابها وأهميتها وعلاقتها بالتربية ، حديث الخبير الفطن

وفى الفصلين الأخيرين تكلم عن البيئتين الجغرافية ، والاجتماعية العامة ، ناهجاً فى ذلك نهجه فى الفصول الثلاثة السالفة

فهذا الكتاب كما ترى من موضوعه ، أحد الكتب الهامة التى تعد من مظاهر هذا الدور العلمى الذى تجتازه مصر فى عهدها الحالى ، فأذا أضفت إلى موضوعه ، تلك الروح القوية التى عرض بها ، وذلك المجهود الذى يتجلى فيما حواه من شروح وتعليلات ومناقشات ، وكلها وليدة عقل متزن ونتيجة اطلاع واسع ودراسة دقيقة ، أمكنك أن تقدر قيمة هذا الكتاب العلمية فهو بحق أحد المؤلفات التى تقابل بالغبطة ، والتى يحتاج إليها كل معلم ، بل وكل مثقف يهمه أن يقف على نواح من المعرفة تهمه فى حياته العملية وفى دراساته النظرية

الخفيف

الالحان الضائعة

نظم حسن كامل الصيرفى

قرأت ديوان شاعرنا الشاب ، فأحزننى لعمر الله هذا البكاء الذى لا ينقطع ، وهذه الشكوى المريرة التى تعج بها قصائده ، ورحت أتلمس سر تلك الكآبة الجازعة ، فلم أهتد الى شىء ، فطويت الكتاب وأنا برم بهذه النزعة من شاب فى مقتبل العمر ، أجل ، ربما كان الشاعر قد صادف فى حياته ما أجرى دموعه ، ولكن متى كانت رسالة الشعر النحيب والشكوى فى غير سبب معروف وفى غير ايضاح من الشاعر عما ناله ؟ على أنه لو كشف عن سر بكائه لكان الواجب يقضى عليه أن يقتصد فى شكواه أو يعرضها فى صورة غير تلك الصورة اليائسة المستسلمة .

تفتح ديوان هذا الأديب الفاضل فتجده يصف نفسه بالضحية ويرمز لنفسه بالواحة المنسية ، ثم يصور لك حياته فى صور باكية يائسة ، وذلك فى عدة قصائد ، « كالحى الدفين » و « اللحن الضائع » و « القلب المحطم » و « الشكوى الصامتة » و « جرح الألم » و « الصدى الخافت » و « جفاء الطبيعة » . . . الخ

أما شعره فى ذاته فلى عنه بعض ملاحظات أرى الرغبة فى الانصاف تقضى على بسردها .

أول ما ألاحظ عليه أنه كثير الميل إلى المجازات والاستعارات الغريبة فيذكر فى شعره كهوف الحياة ، وقيثارة الحياة ، وقبر الحياة ، والفضاء الجمود ، ولهيب الأنين ، وجنان الخيال ، وعصير الشجون ، وظلال الفتون .. الخ فضلاً عن إتيانه بكثير من المعانى والأخيلة الغريبة فيتحدث عن الشمس مثلاً عند الغروب بأنها :

تختفى الأسى خلف النخيل   مثل ابتسامات العليل

ويقول :

نزل المساء برَجـله   وجرى الظلام بخيله

ويصف الفجر فيقول :

فاذا الجو غارق فى اهتزاز   كاهتزاز الأوتار دون (نشاز)
وخفوق لكنه باعتزاز

ويقول :

أعيش أشـاطرهم بؤسهم   وأملأ كأسى عصير الشجون

إلى غير ذلك من الصور والأخيلة الجزئية ، فضلاً عن الصور الكلية ، وهى لا تقل عن هذه غرابة كقصيدة « الشاعر وموت عزرائيل » و « أغانى الربيع » وغيرها ، وبهذه المناسبة أقول إن بعض شعراء الشباب قد استولت على أذهانهم فكرة غامضة هى فكرة الشعر الرمزى ، يرددون هذه الكلمة دون أن يفهموا المقصود منها ، وينظمون القصائد ويسوقونها مطلقة جامحة ، وأى غضاضة فى هذا ، أليست من الشعر الرمزى ؟ ! وهكذا يطلقون الأعنة لأخيلتهم على غير هدى وإلى غير مقصد ، ولا يخفى ما يجره هذا من الضرر على تفكيرهم ومُثلهم ، وانى لأخشى طغيان هذه الظاهرة وأعدها من أكبر العقبات التى تقف فى سبيل تقدم الشعر العصرى ، ولابد لشبابنا أن ينبذوا هـذه الفكرة إذا أرادوا أن تنضج مدرستهم ، وتبرز شخصياتهم ، وتحدد وجهاتهم .

والأديب الصيرفى فضلاً عما تقدم قليل العناية بقوافيه وبلغته على وجه العموم ، ولعله فى ذلك أيضاً متأثر بفكرة أخرى رددها بعض أدبائنا وهى أن الألفاظ يجب أن تضحى فى سبيل المعانى ، فما دام المعنى جيداً فلا عبرة باللفظ الذى يؤديه ! وليت شعرى كيف يكون اللفظ سقيما والمعنى سليما ؟ إن للشعر ألفاظاً خاصة وديباجة خاصة ، وروحا خاصة ، لا فى اللغة العربية فحسب ، ولكن فى غيرها من اللغات ، ولو آمن بذلك شبابنا لأخذوا أنفسهم بما يصلح أذواقهم ويصفى عباراتهم فيتم لهم الجمع بين جمال الفكرة وجمال أدائها

هذه هى بعض ملاحظاتى عن ديوان الصيرفى فى موضوعه ، أما عن شكله فأرانى مضطرا إلى أن أصارحه بأننا نود أن نخلص من أمثال تلك القدمات التى يجتهد أدباؤنا فى الحصول عليها من أصدقائهم ، تلك المقدمات التى تحشد فيها عبارات الاطراء من غير تحفظ ، إذ أن هذا الاطراء يأخذ السبيل على القارىء ، ثم هو من جهة أخرى لما يتضمنه من المبالغة يجعل القارىء ينتظر من الديوان مايتفق مع عبارات المديح حتى إذا جاءه لم يجد فيه مايحقق رغبته ، وفى هـذا ما فيه من تقويض دعائم النقد والاستخفاف بعقول القراء .

وأحب قبل أن أختم كلمتى أن أشير الى بعض قصائد فى هذا الديوان سما فيها الشاعر سمواً عظيما ، ولو جرى فى شعره على مثلها لكان لنا أن ننتظر منه أحد شباننا المتفوقين ، وتلك القصائد هى : البسمات الساخرة ، والشجرة العارية ، وتحت ضوء القمر ، ووحى الشعر ، وموت البلبل ، وأشباهها ؟

الخفيف

الانشاء التعليمى

تأليف الأستاذين

محمد شفيق معروف و محمد عبد الغنى الأشقر

يقع هذا الكتاب فى مجلدين أنيقين ، على ورق مصقول . ولعله الأول من هـذه الكتب الكثيرة التى أخرجها مؤلفوها يقصدون بها الى صغار التلاميذ لينهضوا بانشائهم الى المستوى الذى يريدون ، فقد سلك هؤلاء المؤلفون جميعاً طريقاً واحدة ، لا أحسبها مؤدية بهم الى الغاية المقصودة على الوجه الأكمل ، لأنهم قنعوا بأن يقدموا لتلاميذهم طائفة من الموضوعات الجيدة ليتخذها هؤلاء نماذج فيما يسطرون ، ونحن نرى فى ذلك قلباً للاوضاع وعكساً للمنطق ، وكأننا بهؤلاء المؤلفين قد أرادوا أن يقفزوا بالصغار الى سطح الدار دون أن يمهدوا لهم درجا هيناً تمكنهم من الصعود

أما هذا الكتاب الذى نقدمه الى القراء ، والمدرسين خاصة ، فقد فرض فى الطفل طفولته المتعثرة العاجزة ، فأخذ بيده أخذاً رفيقاً متدرجاً به من تكوين الجملة الى بناء الموضوع ، فلا يعترض طريقه نتوء يقعد به عن إتمامها

ذلك مجهود موفق مشكور أملتـه خبرة بالتدريس لا تتفق للكثير

ز . ه . م

دير الربان هرمزد

بقلم كوركيس حنا عواد

تناول هذا الكتاب بالبحث المستفيض أثراً قديماً فى العراق يقع قريباً من الموصل ، وهو ذلك الدير الذى أشار اليه العنوان . وقد بسط المؤلف القول فى هـذا الدير بسطاً صوره للقراء تصويراً شاملاً دقيقاً ، فرسم لك الطريق التى تؤدى بك الى مكان هذا الأثر ، ثم وصف لك الدير نفسه بمن فيه من رهبان . وهنا استطرد فقدم كلمة عن الرهبنة فى الشرق وما تجرى عليه من سنن ثم تناول حياة الربان هرمزد نفسه بالبحث .

وأقل ما يشكر عليه مؤلف هـذا الكتاب الفنى الدقيق ، ما تجشمه من عناء لكى يبرز هذا الأثر فى ضوء الشمس ويضعه من قراء العربية تحت أبصارهم

ز . ه . م

نبـذة تاريخية

(بقية المنشور على صفحة ١٨٠٤)

وقفة قصيرة تنظر فى ماضيها وتستعرض تاريخها . وأظنها تغتبط لذلك — أولاً — لأنها عاشت عشرين عاماً فى جو كثيراً ما غوت فيه مشروعات وليدة — وثانياً — لأنها عاشت عيشة طبيعية فتدرجت فى أدوار الحياة على مهل ولم تطفر طفرة شيطانية . وتغتبط إذ تراها قد ضمت كثيراً من صفوة رجال العلم ، وأخرجت للناس نحو الستين كتاباً بين مؤلف ومترجم ومنشور ، تسد كلها حاجات الثقافة فى أطوار التعليم المختلفة — كما أنها تغتبط بثباتها فى مركزها وحصرها نفسها فى الدائرة التى رسمتها لنفسها من أول أمرها ، فلم تتدخل فى مجادلات دينية ، ولم تغامر فى نواح سياسية ، إيماناً منها بأن الثقافة ونشرها وسيلة من أكبر الوسائل لرقى الأمة ، ومن أكبر عوامل الاسراع فى نهضتها

وتبتهج إذ تبتدىء مرحلة أخرى من مراحلها ، بدايتها تكوين مطبعة مستقلة لها تساعدها على تحقيق غرضها فيزيد نتاجها ، ويتضاعف مجهودها . وقد أسست — فعلاً — المطبعة وبدأت من ثلاثة شهور تخرج الكتب التى ترى اللجنة نشرها ، وهذا بلا شك يتطلب من اللجنة بذل مجهود أكبر فى التأليف والترجمة ، إذ تشعر — مع وجود المطبعة — بأن وراءها ما تموله يصيح دائماً بطلب الغذاء ، وليس غذاؤه إلا ما نؤلف أو نترجم أو ننشر . وأظن أن فى مكنة أعضائها ما يضمن لهذا الطفل الغذاء الكافى حتى التخمة

ولعل الذين فكروا فى اللجنة أيام ولادتها سنة ١٩١٤ أو قبلها بقليل يغتبطون إذ يرون سنة ١٩٣٤ أن كثيراً من الآمال أصبحت حقائق ، وأن الأمانى تحولت إلى شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وأنهم وقد جنوا ثمارها قد تجددت لهم أمانى أخرى أوسع من الأولى وأبعد مدى ، ولكنهم يشعرون أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى ، وأنهم اليوم أكثر خبرة ، وأقدر بعالهم ورجالهم على تحقيق أغراضهم الجديدة ، فهم لا يرتاحون إلا أن يروا كل مرحلة من مراحلهم يتضاعف إنتاجها — حقق الله آمالنا ، ووفقنا فى مستقبل أعمالنا أضعاف ما وفقنا فى ماضينا ، فقد عودتنا أن يجازى الجد والاخلاص بالخير دائماً ؟

أحمد أمين

2^me Année, No. 71. Lundi-12-11-1934

بدل الاشتراك عن سنة
ــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العدد ٧١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ شعبان سنة ١٣٥٣ — ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العدد

داء الوظيفة

قال وهو يقلب كفيه من الهم ، ويَعَض على يديه من الغضب : سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضى القرار بالوظيفة ، فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخلف والقدر العابث ؟...

فقلت له : هون عليك يا بنى ، ولا تسلط على نفسك أساك ، إن معك الشباب القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز الأرض ، وتُدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لأمثالك ممن يحيون مَواتها ، ويجددون حياتها ، ويفيضون على أهلها نعمة العلم ، وخير المدنية ، ونعيم الحضارة ؛ فلِمَ لا تستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها كفايتك وإرادتك وحظك ؟ إنك إذا فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة . فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا الرأى : مالى أدفع بنفسى فى هذه المغامرة المجهولة ؛ والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتُؤَمن مستقبلى بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المنقطع ، والوضع المتطامن المتماسك ، أصلح للقرار من الرفيع المترجح ...

فقلت له : ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفه ، وتقبلته الآذان حتى سمج . ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس معامل لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة ؛ فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجال العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتجال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فان الاخلاد إلى المقاعد الأميرية إخلاد إلى العجز ، واطمئنان إلى الهون ، وانخزال عن تحرير الوطن

قال : ولكن فريقاً من الشباب ارتجلوا بعض الأماني الاقتصادية الجماعية في الزراعة والتجارة والملاهي ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل . فقلت له : إن هؤلاء فاروا عن حرارة وقتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، وأخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطأهم التوفيق ؛ ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتواثب في عينيك من كل مكان ؟ ألم تر إلى اليوناني أو الطلياني كيف يفد عليك من غير رأس مال ، ولا شهادة جامعة ، ولا توصية وزير ، ولا تعضيد جمهور ، ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالي الأمور في روية وصبر ، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويستعبدك بربا مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لمتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر !

***

رأى صديقي الفتى أن لهجتي لا تلائم جمه الغالب ، ومنطقي لا يساير منطقه اليائس ، فتولى عني غير راض ولا مقتنع ، وتركني أحدث نفسي ، وأقارن بين يومي وأمسي ، فأجدني بين عملي المقيد الذي انصرفت عنه ، وعملي الحر الذي انصرفت اليه ، أشبه بالسجين المقيد يعمل برأي غيره ، ولحساب غيره ، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ولا يسير ولا يقف إلا في نظام ، وهو يأكل حين لا يشتهي ، وينام حين لا يريد ، ويستيقظ حين لا يحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالانسان الصناعي : قوة محركة وآلة ، ثم يدركه لطف الله فتنفك عنه السلاسل وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله في النور ، وخلقه في الطبيعة ، وحريته في الجو ، ووجوده في المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة !

***

إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش ، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة ، مكمومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ، ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمخنق الستين وكأن لم يحدث في العالم شيء ! يختلف الليل والنهار ، وتتبدل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجتر أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، أو يفطن إلى حركات العالم

يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ؛ ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعي الجسم ، فقير من المنى والذكر والمال ، لا يصلح إلا عموداً في مسجد ، أو منضدة في قهوة . وربما أقصدته المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة ، وحياة رتيبة ، وأعمال واحدة ، في ساعات لا تختلف ولا تتبدل

***

أيها الموظفون ! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، ولخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب ، فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد ، فانها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن الخمول والموت ، واقرأوا على أبوابها ما كتبه (دانتي) على أحد أبواب الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! »

احمد حسن الزيات

تصويب

وقع في افتتاحية العدد الماضي أخطاء مطبعية لم نر بداً من تصحيحها فقد جاء فيها : وصرفنا ذاك من مطلب . والصواب عن مطلب

وجاء	«	: كنا نتواصى على الصبر	« بالصبر
«	«	: بل وربما طالوهم	بل ربت

بنت الباشا ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت هذه المرأةُ وضّاحةَ الوجه زهراءَ اللون كالقمر الطالع ، تحسبُها لجمالها قد غذّتها الملائكةُ بنور النهار ، ورَوَّتها من ضوء الكواكب

وكانت بَضَّةً مُقسَّمةً أبدعَ التقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغيدِ الحسانِ ، أُفرِغَ فيها الجمالُ بقدر ما يُمكن — إلى أجسام الدُّمى العبقريةِ التي أُفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل

وكانت باسمةً أبداً كأوّلِ ما يتلألأُ الفجر ، حتى كأن دمَها الغزَلِيَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرها ابتسامتها ، كما يصنعُ لخدَّيها حُمرتهما

ما لها جلست الآن تحت الليل مُطْرِقةً كاسفةً ذابلة ، تأخذُها العينُ فما تشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبَعُ نورٍ وغاض ! وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقعَةٌ من الحياة أُقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلة تُذرِي الدمعَ وتسترسلُ في البكاء وتَلِجُّ فيه ، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقاً تُفضي منه نفسُها الى الحبيب الذي لم يَعُد في الدنيا ؛ الى وحيدِها الذي أصبحتْ تراه ولا تلمسه ، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها ؛ إلى طفلِها الناعمِ الظريفِ الذي انتقل الى القبر ولن يرجع ، وتتمثّلُه أبداً يريد أن يجيء اليها ولا يستطيع ، وتتخيلُه أبداً يصيح في القبر يناديها « يا أمي ، يا أمي . . »

قلبها الحزينُ يَقطَعُ فيها ويُمزِّقُ في كل لحظة ؛ لأنه في كل لحظة يريد منها أن تضمَّ الطفل الى صدرها ، ليستشعرَهُ القلبُ فيفرح ويتهنّأ إذ يمسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياةُ القلبِ الخارجةُ من القلب ؟

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يَهدَأَ عمّا يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاولُ أن يُفجِّرَ صدرَها ، ويريد أن يدقّ ضلوعَها ، ليخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبه !

مسكينةٌ تترنّحُ وتتلوّى تحت ضرباتٍ مُهْلِكةٍ من قلبها ، وضرباتٍ أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها الذبيحةُ تحت السكّين . ولكنها لحظةٌ امتدّت الى يوم ، ويومٌ امتد الى شهر . يا ويلَها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدّة الذبح للمذبوح

ولو كان للموت قِطارٌ يقف على محطّةٍ في الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافرَ من وجود الى وجود ، وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطة منتظرة تتربص ، وقد ذُهِلت عن كل شيء ، وتجردت من كل معاني الحياة ، وجمدت جمودَ الانتقال الى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها ؛ تُطلّ على الليل المظلم وعلى أحزانها . . . !

***

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك . ترادفت النِّعَمُ على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلب ، وكأنما فرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعجب الزمانَ فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح ، ويزيدُه على رغمه نعماً تتوالى !

وكان قد تقدم إلى خِطبة ابنته شابٌّ مهذَّب ، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلمَ ، ومن أسلافه العنصرَ الكريمَ والشرفَ الموروثَ ، ومن أخلاقه وشمائله ما يُكاثِر به الرجالَ ويُفاخر . بَيْدَ أنه لا يملك من عيشه إلا الكَفافَ والقِلّة ، وأملاً بعيداً كالفجر وراء ليلٍ لا بد من مُصابرته الى حين ينبثقُ النور

وتقدم صاحبنا الى الباشا فجاءه كالنجم عارياً ؛ أي في أزهى نورانيّته وأضوئها . وكان قد علِقَ الفتاةَ وعلِقَته ، فظنَّ عند نفسه أن الحب هو مالُ الحب . وأن الرجولة هي مالُ الأنوثة ، وأن القلوب تتعامل بالمسرّات لا بالأموال ؛ ونسي أنه يتقدم الى رجلٍ مالّيٍّ جعلته حقارةُ الاجتماع رُتبة ، أو الى رتبةٍ ماليّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً . . وأنّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم : مذهبِ الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعونُ وأمثالُه ، ليتعبّدوا الناسَ

منها بألفاظِ قلوبهم المؤمنة ؛ فاذا قيل « إلــه » كان جواب القلب : « عزّ وجلّ » ، « سُبحانه »

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تلطّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتتعبّد الناسَ بألفاظِ عقولهم الساذجة ؛ فان قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير : « سعادتلو أفندم (١) ! »

نسى الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » وأعماه الحبُّ عن فَرْقٍ بينهما ؛ وكان سامىَ النفس ، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السموّ انتحالاً ، وأن الشعب الذى لايجد أعمالاً كبيرة يتمجّد بها ، هو الذى تخْترع له الألفاظُ الكبيرة ليتلهّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فان قيل « باشا » فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلمىّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصاناً أو أقلّ أو أكثر !

نسى هذا الشــاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرق المسكين ، لاتتم عظَمَتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعيةٌ للمَعِدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذّ ، وتملك أسباب القــدرة على الألذّ والأطيب والأكثر

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيــداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة « أفندى » تطاولت إلى كلمة « باشا » بالسبّ علَناً . . . !

***

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة

و « بك » مَنبهَةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقَدْرٌ وثناء اجتماعى ، وذِكر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرُمَات اللازمة للاسم لزومَ السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بِك) رجل ، فان تحتها على كل حال (بك) . . . ! وأنعَمَ له الباشا ، ووصل يَده بيد ابنته فألبَسَها وألبَسْته ، وأعلمها أبوها أنه قد تَخَصَّ عن البك فاذا هو (بك) قوة مائتى فدان . . . ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر . . !

وخَنَسَ الأفندى وتَراجَع مُنْخَزِلاً ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوّج لقبَه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه « أمم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌ مُفلِس ، أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال

وقدّمت بمائتَى الفدانِ مهرها «الطّينىّ» العظيم بما تعبيرُهُ فى اللغة الطينيّة : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلِها جاموساً ، ومثلِها بغالاً وأحمِرة ، وفوقها مائةُ قنطارٍ قطناً ، ومائة أردبٍ قمحاً ، ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والمجموعُ الطينيُّ لذلك ألفُ جنيه ، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اخترلتها الأزمة قبّحها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا » زِفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيرُهُ : أنه أُنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً ، ومائةِ غرارةٍ من السَّمَاد الكيماوى ، كأنما فُرِش بها الطريق . . . !

وطفق الباشا يُفاخر ويتمدّحُ ، وَيَتَبَذَّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين ؛ فردّت الأقدار كلامَه عليه ، وجعلت مَرْجعَه فى قلبه ، وهيّأتْ لبنت الباشا معيشة « طينية » بمعنىً غيرِ ذلك المعنى . . .

***

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج ؛ وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين

---

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة ، وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل

وَلجّ الحزنُ بينت الباشا فجعلت لاترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر ، تلحق فيه بولدها ؛ فوضعت الأقدار من ذلك فى روحها معنى الطين والتراب

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابَها ؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عملَ الطين ، فى تحليله الأجسامَ وإذابتِها تحت البِلَى

***

وكان وراء قصرها «حِوَاء»[1] يأوى اليه قوم من « طين الناس » بنسائهم وعيالهم ، وفيهم رجلٌ « زَبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ مفاخره وأجمل آثاره ، ولا يزال يرفع صوتَه متمدِّحاً بهم ، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكى يسمعَه جيرانُه كل ليلة مُفاخِراً ، مرة بأحمد ، ومرة بمحسن ، ومرة بعلىّ . وأعجبُ أمرِه أنه يرى أولاده هؤلاء متممِّين فى الطبيعة لأولاد « الباشوات » . . . وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترس لصغاره ؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعةَ قوّته ، فلا يزال يحوطُهم ويتممّهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقاتل الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم ، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّاتِ قلبِه ، ذلك القلبِ الذى انحصرت مسرّاتُه فى النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ الى نهاية الحب . وكذلك الزَّبَّال الأسد[2]

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ماوصفْنا ، وفى ضلوعها قلب يُفتّتُ من كبدها ، ويُمزّق من أحشائها

وبينا تُناجى نفسها وتَعْجَب من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتَستَحْمِقُ أباها فيما أقدم عليه من نبذ كُفْئِها لعجزه عن مهر باشا ، وإيثارِ هذا المهر الطينىّ ، وتباهيه به أمام الناس ، واندرائه بالطعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين — بَيْنا كذلك إذا بالزبال ، كانسِ التراب والطين يهتف فى جوف الليل ويتغنى :

يالِيل ، يالِيل ، يالِيــــل   ما تِنْجِلِى ياليــــل

***

القلب أُهُو راضِى   لَكْ حَمدى يا ربى

مِنِ الهمومْ فاضِى   إفرحْ لى يا قلبى

يا دُوبْ كِدا يا دُوبْ   زَىِّ الحمامْ عَايِشْ

ما يِمْتِلِكْ غِيرْ تُوبْ   طُولْ عمرُه فِيهْ نافِشْ . . .

يالِيل ، يالِيل ، يالِيــــل   ما تِنْجِلِى يا لِيــــل

***

إن قلت أنا فَرْحَانْ   دا مِينْ يِكدّبْنِى

وأُكْتَرْ مِنِ السلطانْ   فرحانْ أنا بأُبْنِى

بين السيوف يا ناسْ   لَمِ أنكسَرْ سِيفى

وأبْنِ الغِنَى مِحْتَاسْ   وانا على كِيفى . . . .

ياليل ، ياليل ، ياليــــل   ماتِنْجِلِى يا ليــــل

***

وأبْنِ الغِنَى فِ هُمُومْ   والخالى خالى البالْ

والفَــقْرْ ما بِيْدُومْ   وتْدُومْ همومِ المالْ

يا طِيرْ يا طِيرْ ، يا طِير   الحُرِّ فُوقِ اللُّومْ

والخِيرْ ، جميعِ الخِير   لُقْمَهْ ، وعافْيَه ، ونُومْ

ياليل ، ياليل ، ياليــــل   ما تِنْجِلِى يا لِيــــل

***

ولم تختر الأقدارُ إلا زبالا ترْسِلُ فى لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا . . . !

وكَسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ   وحَطْمُ نَفْسٍ بحطمِ نفسِ

ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسى   كُنَاسةً هُيِّئتْ لِكَنْسِ . . . !

(طنطا)   مصطفى صادق الرافعى

---

(1) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الاحياء

(2) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا ليتمم فلسفته . والكاتب يعرف الرجل ويبره أحياناً ، وكان حضرته قد طلب الينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الاغنية التى يراها القارىء بعد وهو يصدح بها فى لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصاً ان شاء الله

فردريش شيلر

بمناسبة احتفال ألمانيا بذكراه

للأستاذ محمد عبد الله عنان



منذ عامين احتفلت ألمانيا بذكرى شاعرها الأكبر «جيته» لمناسبة مرور قرن على وفاته؛ وتحتفل ألمانيا اليوم بذكرى شاعرها الثانى «شيلر» لمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاماً على مولده. واذا كانت حياة الخالدين تمثل دائماً فى الأذهان المستنيرة، فان الاحتفاء بهذه الذكريات يضاعف الاهتمام بسيرهم وآثارهم. ومن ثم فانا نلتمس هذه المناسبة لنأتى على ترجمة الشاعر العظيم

كانت حياة شيلر صفحة مؤثرة من ذلك الكفاح الذى يضطر الى خوضه أصحاب المثل الأعلى حتى يفوزوا بمثلهم أو يزهقوا دونها؛ وقد أنفق حداثته وشبابه فى خوض هذه الغمار، حتى اذا اكتملت له أسباب الفوز والطمأنينة، غادر هذه الحياة شاباً فى إبان ظفره، وذروة خصبه، وروعة شاعريته؛ وكان مولده فى العاشر من نوفمبر سنة ١٧٥٩ فى مدينة مارباخ الواقعة على نهر نكر فى أسرة رقيقة الحال؛ وكان أبوه يوهان كاسبار جراحاً مساعداً فى الجيش، استقر فى مارباخ بعد عوده من الحرب وتزوج اليزابيث كودفايس، وهى ابنة صاحب فندق؛ فرزق منها أولاً بابنة تدعى اليزابيث؛ ثم كان مولد الشاعر، ثم ابنة أخرى تدعى لويزا. ونشأ الطفل فريدريش أو فرتز (شيلر) ضعيف البنية، كثير الحياء والوجل، وتلقى دروسه الأولى فى مدرسة لورش؛ ثم انتقلت الأسرة الى مدينة لودفجسبورج حيث نقل الأب، وكانت يومئذ مقام دوق فرتمبورج؛ وهنالك التحق شيلر «بالمدرسة اللاتينية»، وبدأ دراسة الأدب واللاتينية، وقرأ هوراس وأوفيد وفرجيل؛ وكان لأستاذه القس موزر أثر كبير فى تكوينه. وفى سنة ١٧٧٣ دخل شيلر «أكاديمية كارل» التى أسسها الدوق فى شتوتجارت، ودرس الحقوق أولاً ثم الطب والتاريخ، وأظهر تفوقاً فى اليونانية واللاتينية؛ بيد أنه لم يكن ميالاً الى هذا النوع من الدراسة، وكان شغوفاً بالأدب، تهجس به فى أوقات فراغه شاعرية قوية؛ وكان يكثر من قراءة هومير وفرجيل وكلوبشتوك شاعر ألمانيا فى هذا العصر، ويتأثر بتفكيره أيما تأثير: وفى ذلك الحين ظهرت قطعتان مسرحيتان قويتان هما: «أوجولينو» لجرستنبرج، و «جتزفون برلخنجن» لجيته؛ فتأثر شيلر بقراءتهما واتجه ذهنه الى المسرح؛ وكتب بعض القصائد والمناظر المسرحية الأولى، ولكنه مزقها، ثم بدأ بكتابة روايته المسرحية الأولى: Die Raüber «قطاع الطريق».

وفى سنة ١٧٧٩ أتم دراسته وحصل على أجازته، وسنحت له بهذه المناسبة أول فرصة لرؤية الشاعر العظيم الذى ملأ صيته ألمانيا يومئذ، ونعنى «جيته»؛ فقد وفد مع دوق ڤيمار على شتوتجارت فى فاتحة سنة ١٧٨٠ ليشهدا احتفال الأكاديمية بتوزيع الأجازات. وكان شيلر يومئذ فتى فى عشرينه، يحمل أجازة الطب والجراحة، ولكن هوى الشعر يحمله ويملأ جوانحه. وكان يتوق الى التعرف بزعيم الشعر وإمامه؛ ولم يكن يحلم أنه سيغدو فى أعوام قلائل قرينه وزميله الأوفى. ولم يهتم جيته فى هذا اللقاء الأول بأمر الشاعر الحدث الذى لم يسمع به أحد بعد، ولكن نجم الشاعر الحدث كان على وشك البزوغ. ذلك أنه ما كاد يعين على أثر تخرجه طبيباً فى حامية شتوتجارت بمرتب يسير، حتى عكف على إتمام درامته «قطاع الطريق»، ولكنه لم يلق ناشراً

يقوم بطبعها ، فقترض نفقات الطبع من بعض أصدقائه وظهرت القصة سنة ١٧٨١ غفلاً من اسم مؤلفها ؛ وهي قطعة مسرحية عنيفة تحمل طابع البداية ، وفيها يصور شيلر كثيراً من عواصف حداثته . ومثلت « قطاع الطريق » عقب صدورها في شتوتجارت ، ثم مثلت في العام التالي في مانهايم ؛ وأحدث ظهورها وتمثيلها ضجة كبيرة . ولكن شيلر لم يؤخذ بهذا النجاح الجزئي . وكانت وظيفته العسكرية تثقل على نفسه ، فاعتزم مغادرة شتوتجارت خفية الى أفق أوسع ، وفي اكتوبر سنة ١٧٨٢ غادرها مع صديق موسيقي يدعى شترايشر الى مدينة مانهايم . وكان يحمل معه مخطوط درامة جديدة هي Fiesco «فيسكو» فعرضها على مدير مسرح يدعى (دالبرج) فأعجب بها ومثلت بنجاح ، وكتب في الأشهر التالية Kabale und Liebe « المؤامرة والحب» ومثلت أيضاً . وكلتاهما قرينة « قطاع الطريق » في طابعها العنيف وحماستها الساذجة . بيد أنه رأى المسرح لم يحقق أمله ، ولم تسعفه موارد القطع التمثيلية ، فاضطر أن يبحث للعيش عن وسيلة أخرى ، ولكن في دائرة الأدب أيضاً ، فأسدر مجلة أدبية نقدية اسمها « تاليا » Thalia وظهر العدد الأول منها في مارس سنة ١٧٨٥ وفيه قسم من درامته الجديدة « دون كارلوس » ولكنها لم تستقبل بحماسة . وفي ذلك الحين جاء دوق ڤيمار الى « دار مشتات » لزيارة صهره « اللاند جراف » وكان شيلر قد سمع كثيراً عن نبله ورفيع خلاله وتعضيده للآداب والفنون ، فسار لرؤيته مزوداً ببعض خطابات التوصية ، فاستقبله الدوق بعطف ، وأذن له أن يتلو بين يديه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، فاستحسنه وشجع المؤلف بكلمات طيبة ، واستأذنه شيلر في أن يهديه قصته فأذن له ، وأنعم عليه بلقب « مستشار » في خدمته ، وهو لقب لم تكن له سوى قيمة أدبية واجتماعية

وكان شيلر يومئذ فتى في الخامسة والعشرين يضطرم أملاً نحو العلياء والمجد ؛ وكان يقضي حياة عاصفة في الدرس والتفكير والكتابة ؛ وكان قلبه الكبير يخفق أحياناً للحب ؛ ولكن في اعتدال ورزانة . ولم تحمل شيلر نحو النساء تلك النوبات الغرامية العاصفة التي كانت تملأ حياة جيته ؛ ولكنه عرف الحب في تلك الفترة ؛ وتعلق بادىء بدء بفتاة تدعى مرجريت شفان ؛ وهي ابنة كتبي في مانهايم ؛ وكانت فتاة ساحرة لعوباً خطرة الأهواء ؛ وفكر شيلر في الاقتران بها ولكن أباها رفض في رقة وأدب لأنه لم يأنس في الشاعر بلا ريب مستقبلاً يحمل على الطمأنينة . ثم تعرف شيلر بعد ذلك بفتاة تدعى شارلوت دوستايم ، وشغفت هي به حباً ؛ ولكنها لم تلبث أن اقترنت بضابط يدعى « فون كالب » ؛ وانتقلت معه الى ڤيمار ؛ واستحال حب الشاعر ومدام فون كالب بعد ذلك الى صداقة حميمة استمرت مدى الحياة

وأنفق شيلر في مانهايم زهاء عامين ونصف عام ، وهو يشهد آماله تنهار تباعاً ، وموارد العيش تضيق به . وأخيراً اعتزم أن يغادر مانهايم ، وأن يهجر تلك المهنة التي لم تؤته قوته — مهنة القريض ؛ وأن يلتمس العيش من مهنة أخرى مستبقياً للشعر أوقات فراغه ؛ فغادر مانهايم بعد وداع ممزق لصديقه الحميم شترايشر ؛ وقصد الى قرية جوليس بالقرب من لايبزج حيث كان يقيم صديقه العزيز « كرنر » وكان كرنر ذهناً رفيعاً وقلباً كبيراً ، ألفى فيه الشاعر مثل الصداقة الأعلى ؛ فأقام الى جانبه مدى حين في جوليس ثم في درسدن ، وأتم في تلك الفترة قصته « دون كارلوس » (سنة ١٧٨٦) . وكان ظهورها ظفراً حقيقياً للشاعر ، وكانت في الواقع بداية مجده ، وحداً فاصلاً بين ماضيه الغامر ومستقبله الباهر . وكانت مدينة ڤيمار يومئذ كعبة الشعر ومقام إمامه جيته ، وفيها يجتمع حول الشاعر الأكبر جمهرة من الشعراء والأدباء مثل هردر ، وڤيلاند ، وماير ، ويظللهم دوق ڤيمار جميعاً برعايته ؛ وكان شيلر يفكر منذ حين في السفر الى ڤيمار ليجرب حظه في ذلك المحيط الأدبي الزاهر ؛ وكانت صديقته الحميمة مدام فون كالب تقيم هنالك منذ حين ؛ وكان ڤيلاند يدعوه فوق ذلك للاشتراك معه في تحرير مجلته « مركور » ؛ فقصد الى ڤيمار في أغسطس سنة ١٧٨٧ ، وقلبه مفعم بالآمال الكبيرة ؛ فاستقبله الدوق بفتور ، ولكن مدام فون كالب استقبلته بعطف مؤثر ؛ ورحب به ڤيلاند الشاعر أيما ترحيب ، واشترك معه في تحرير مجلته ؛ واشترك أيضاً في تحرير مجلة أخرى في « يينا » وترك مجلته الخاصة ؛ واستمر يعاون ڤيلاند مدى عامين ، ثم ترك التحرير معه ، ولكنه لبث صديقه الحميم

وفي سنة ١٧٨٨ ، أقام شيلر حيناً في قرية « فولكشتات »

الهادئة ، وهنالك أتم قصته « الهائم » ، وتاريخ « ثورة الأراضى السفلى » الذى بدأه من قبل Geschichte des Abfalls der Vereingten Niederlande

فى ذلك الحين كان جيته فى إيطاليا يطوف ربوعها ؛ ثم عاد من رحلته فى سبتمبر . وكان شيلر يرقب مقدمه ليراه ويتعرف به . وسنحت له هذه الفرصة ؛ واجتمع بالشاعر الأكبر وصديقته مدام دى شتاين وهردر فى منزل أسرة لنجفلد التى صاهرها شيلر فيما بعد . وهنالك رأى شيلر ذلك الرجل الذى بلغ ذرى المجد ، والذى رآه من قبل لأول مرة فى حفلة توزيع الأجازات عام تخرجه من المدرسة ؛ وكان شيلر يعلق على هذه المقابلة آمالاً كبيرة ؛ ولكن جيته استقبله بفتور ظاهر ، ولم يكن قد لفت نظره إلى ذلك الحين . وكانت صدمة مؤلمة لشيلر ؛ فكتب إلى صديقه كرنر يصف أثر هذا اللقاء فى نفسه : « يلوح لى من كل الظروف أن الفكرة السامية التى لدى عن جيته لم يزعزعها هذا التعارف الشخصى ؛ بيد أنى أشك أننا نستطيع أن نتقارب بأى وجه . إن قسماً عظيماً مما يزال يشغلنى ، ومما زلت أؤمل قد انتهى وقته لديه ، والواقع أن كل شخصه يميل إلى ناحية غير التى أميل إليها ، وبين وجهات نظرنا اختلاف جوهرى . وعلى أى حال فلسنا نستطيع أن نستخلص من هذه المقابلة شيئاً مؤكداً أو ثابتاً . وسوف يعلمنا الزمن ما تبقى » . ولما عاد شيلر إلى ڤيمار من مقامه المنعزل لم يحاول كثيراً أن يرى جيته . بيد أن فتور جيته نحوه لم يدم طويلاً فقد رأى فى قصيدته « آلهة اليونان » جمالاً يلفت النظر ؛ ويعترف شيلر من جهة أخرى بأنه كان من ذلك الحين يخشى نقد جيته ، وأنه كان متأثراً بتلك العاطفة حينما وضع قصيدته « الفنانون » وتأنق فى صياغتها

على أن الذى لاريب فيه هو أن لقاء الشاعرين — جيته وشيلر — كان من أعظم حوادث حياتهما إن لم يكن أعظمها جميعاً . وسرعان ماتحول ذلك الفتور الذى أبداه الشاعر الأكبر نحو زميله الفتى إلى حب وإعجاب خالصين ، ولم تمض أعوام قلائل حتى توثقت بينهما أواصر صداقة عميقة ؛ ولم يمنع تنافسهما النبيل فى آفاق الشعر أن تبقى هذه الصداقة إلى الأبد ، مقرونة بالوفاء الخالص والاعجاب المتبادل ، وأن تغدو صفحة خالدة فى تاريخ التعاون الأدبى . كان شيلر رجل المثل العليا ؛ وفيلسوفاً ذا آراء ونظريات خاصة فى الحياة . ولكن جيته كان رجل الحقيقة ، يعرض ما فى الطبيعة ويصوره كما يراه ؛ وكان شيلر شاعر « الدرامة » وكان جيته شاعر الخيال والفروسية ؛ ولكن كلا منهما كان جندياً عظيماً لبناء الآداب الرفيعة وتحطيم الآداب المبتذلة ؛ وكلاهما قائد عظيم لحركة « العاصفة والدفع » Sturm und Drang التى كانت ظاهرة التفكير والآداب الألمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى كانت ترمى إلى تحطيم القديم وتجديد كل شىء ؛ وكان لهذه الصداقة الحميمة ، وهذا التعاون الأدبى الوثيق بين الشاعرين الكبيرين أثره فى نفس جيته وفى نظمه ، يبدو ظاهراً فى « أغانيه » Balladen ، وفى قصة « هرمان ودروتيا » ، وغيرها مما أخرج فى هذا العهد



صورة تاريخية تمثل الشاعر (الى اليسار) وأمامه جيتى (الى اليمين)

وفى سنة ١٨٩ عين شيلر أستاذاً للتاريخ بجامعة يينا بمعاونة صديقه وأستاذه جيته ، وفى العام التالى اقترن بالآنسة لنجفلد التى تعرف بها وبأسرتها قبل ذلك بأشهر قلائل ؛ وبذلك استقرت حياته ، وعاش فى نوع من الصفاء والرغد ؛ وانكب فى هذه الفترة على دراسة التاريخ ؛ وألف كتابه عن « حرب الثلاثين » Geschichte des Dreissigjarige Kriegs ؛ وأصدر مجلة أدبية فلسفية بعنوان « الساعات » Die Horen ، كانت نموذجاً بديعاً

للتفكير الرفيع ، وفيها كان يكتب أئمة العصر : جيته ، وهردر وكانت ، ونختة ، ومابر ، وانجل ، وجاكوبي وغيرهم ؛ وكان لها أثر عظيم فى سير الثقافة الألمانية والتفكير الألمانى فى ذلك العصر . وكان شيلر من أنصار الثورة الفرنسية التى كانت تضطرم فى ذلك الحين ، وظهر ذلك العطف فى كثير من كتاباته وقصائده حتى أن «المؤتمر الوطنى» الفرنسى منحه لقب «مواطن فرنسى». وفى تلك الفترة أيضاً أخرج شيلر درامته القوية « فالنشتاين » Wallenstein (١٧٩٩) ، واستمر فى تدريس التاريخ فى يينا حتى سنة ١٨٠٠ ، ثم استقال من منصبه ، وعاد فاستقر فى ڤيمار إلى جانب جيته ؛ وهنالك أخرج عدة قطع جديدة : ماريا ستوارت ؛ وعذراء أورليان Jugfrau von Orleans ، وعروس مسينى Braut von Messina ؛ فكان لصدورها جميعاً دوى عظيم ؛ وكانت جميعاً من أبدع ما كتب

واستقر شيلر فى ڤيمار نهائياً . ولم يغادرها إلا ليزور برلين زيارة قصيرة ليشرف هنالك على إخراج بعض قطعه . وكانت ڤيمار يومئذ كعبة الأدب الرفيع ، يجتمع فيها حول إمامى الشعر ، جيته وشيلر ، صفوة من أقطاب الشعر والأدب ؛ وكانت صداقة جيته وشيلر أبدع وأروع مظاهر هذا المجتمع الأدبى الباهر . وفى سنة ١٨٠٤ كتب شيلر درامته « ولهلم تل » Wilhelm Tell ، فكانت أعظم قصصه وأروعها . والمعروف أنه استقى موضوعها من صديقه جيته ، وكان جيته قد زار سويسرا قبل ذلك بقليل ودرس هنالك تاريخ تل بطل سويسرا القومى ، وزار الأمكنة التى تقول الأسطورة إنها كانت ميادين بطولته ، لينتفع بذلك الدرس فى قصة يعتزم كتابتها عن تل . ولكنه لما عاد الى ڤيمار نبذ الفكرة ، وأعطى مواد دراسته الى شيلر لينتفع بها هو ؛ فاستقى منها موضوع قصته «ولهلم تل» ، فجاءت أبدع ما كتب ، وأثارت من جيته أعما إعجاب . بيد أنها كانت أيضاً آخر ما أخرج شيلر . ذلك أنه مرض فى أوائل سنة ١٨٠٥ ، ومرض أيضاً جيته فى الوقت نفسه ؛ واشتدت عليهما وطأة المرض ، حتى صرح جيته بأنه يشعر بدنو أجله ، وأن أحدهما لابد ذاهب . ولكن الذى توفى هو شيلر . توفى فى الثامن من شهر مايو ، فى الخامسة والأربعين فقط ، فوقع موته فى ڤيمار وقع الصاعقة ، وارتدت ثوب الحداد مدى حين . وتلقى جيته نبأ الفاجعة وهو فى فراش مرضه ، فبعثت الى نفسه أيما حزن ، وسمع ليلا وهو يبكى أحر بكاء . وكتب يومئذ الى أحد أصدقائه مشيراً الى فقد شيلر : « لقد فقدت نصف حياتى » ، وغلب عليه الحزن حيناً فأضرب عن العمل والكتابة ؛ والى ذلك يشير بقوله : « إن مذكراتى فى هذه الفترة صحف بيضاء . والصحف البيضاء عنوان الفراغ فى حياتى . ولم يك ثمة شىء يستهوينى فى تلك الأيام »

وهكذا مات شيلر فى إبان مجده وذروة شاعريته ، ولم ينعم بالحياة الناعمة المستقرة إلا ردحاً قليلاً ؛ فكانت حياته كلها صفحة كفاح مستمر ؛ بيد أنه خرج من هذا الكفاح ظافراً متسماً بميسم المجد والخلود . ولم يكن شيلر شاعراً مبدعاً فقط ، ولكنه كان فيلسوفاً عظيماً ، وفناناً كبيراً ، ومؤرخاً بارعا ؛ وكان يؤمن بالثقافة كوسيلة لرفع الانسانية الى ذرى القوة والعظمة ، ويرى أن الفن ليس ترفا لذوى الفراغ والجدة ، وليس لهواً يستمرئه الخامل ، ولكنه قوة عظيمة ذات أغراض جدية وإن كانت وسائله شائقة سارة ، وإنه قرين الدين يعاون على تنظيم هذا العالم . وكان ذهنا ثائراً جريئاً جلداً يمجد بالحرية ، ويمقت كل صنوف الاستعباد ؛ وكان قلباً رقيقاً يفيض حساً وانسانية ؛ خبيراً بأسرار الطبائع والنزعات البشرية ؛ وكان مؤرخاً بارعاً ينفذ إلى أسرار التاريخ ، ويستوعبها بقوة ودقة . وهذه النزعة التاريخية الناقدة تبدو فى كثير من قطعه المسرحية . ولو مد فى حياة شيلر . كامد فى حياة صديقه جيته ، لظفرت منه الآداب الألمانية بأضعاف ما ظفرت ؛ وكان على الأرجح ينازع جيته إمارته فى الشعر الألمانى ، بيد أنه مع ذلك يتبوأ إلى جانبه المقام الأول فى عالم المجد والخلود ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

---

٧ - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

وسائل تقوية الشخصية العملية :

قلنا فيما مضى إن الشخصية نوعان : عملية وفكرية ، وذكرنا شيئاً عن الشخصية العملية ، واليوم نتكلم عن الوسائل التي تقويها فنقول :

هناك وسائل لتقوية الشخصية العملية نذكر منها ما يأتي :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل :

إن تحديد الغرض في أي عمل من الأعمال مع معرفة السبيل الموصلة إلى ذلك الغرض من أهم الوسائل المشجعة للانسان على الاجتهاد في العمل والسير فيه إلى النهاية من غير تردد ، وبخاصة إذا صحب العمل بارادة قوية ، وثقة به . فمعرفة الغرض لها أثر كبير في نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرض عادياً أم عظيماً . وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكل إنسان غرضاً يسعى ليدركه مهما اختلفت هذه الأغراض . ولكن المهم أن يكون الغرض محدوداً سامياً

كلٌّ له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا غرضا

فالصياد يقف على شاطىء البحر وعصاه في يده ينتظر بصبر عظيم وملاحظة دائمة ، أملاً في اصطياد السمك وما فيه من لذة وإرضاء للنفس ، وسائق السيارة يسير في طريقه مهما لاق فيها من مطر أو ثلج أو ضباب أو غبار رغبةً في الوصول الى مكان معين ، وقبطان الباخرة العظيمة في البحر الخضم يقود باخرته في طريق معينة نحو ميناء أو موانٍ معينة في جهات خاصة . وهنا يتمثل تحديد الغرض ، ومعرفة الطريق الصالحة ، والتأكد منها ، والثقة بها . وإذا تمثلت هذه الأحوال العقلية في الشخصية الانسانية كانت من أعظم القوى العملية في العالم . فينبغي أن يكون للشخص غرض معين من العمل يسعى ليدركه ويحققه بكل ما أوتي من عزيمة وقوة ومثابرة وثقة بالنفس ؛ حتى ينتفع بقواه العقلية . قال « وردسورث » شاعر الطبيعة من الانجليز عن الأفراد الذين يسيرون في الحياة نحو أغراض معينة : « إن اجتهادهم ناشىء عن وازع نفسي ينير الطريق أمامهم دائماً ؛ فيقدرون جمال الطبيعة ، ويعملون بما يعلمون ، ويثابرون على التعلم . »

وبعد الوصول الى الغرض الأول أو المرحلة الأولى من الحياة يمكن التفكير في مرحلة أخرى وتحديدها والعمل للوصول إليها وهكذا الى نهاية الحياة . قال عمر بن عبد العزيز « : إن لي نفساً تواقة لم تزل تتوق الى الإمارة ، فلما نلتها تاقت الى الخلافة ، فلما نلتها تاقت الى الجنة » . وقيل : « ذو الهمة إن حط فنفسه تأبى إلا علواً ، كالشعلة من النار يضربها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً »

(٢) الرغبة في العمل :

بعد تحديد الغرض من العمل يجب أن تكون هناك رغبة فيه وميل اليه ؛ لأن الرغبة :

(أ) ترفع من شأن العمل الذي نقوم به .

(ب) تؤدي الى الإقدام والنشاط وهما القوة الطبيعية للشخصية ، وتكون كوازع نفسي أو باعث داخلي يستنهض همتنا ويستحثنا على العناية بالعمل

(ح) تمدنا بالقوة التنفيذية ، والارادة الحق الضرورية للوصول الى أغراضنا

فالرغبة هي الدافع الطبيعي للانسان نحو العمل مهما لاق في سبيل ذلك العمل من متاعب ومصاعب . والرغبة الحق هي تلك القوة الروحية التي توحي الى الشخص بالقيام بالشيء بهمة لا تعرف الكلل ولا تقف دونها أي عقبة . فاذا وجدت الرغبة ثم وجدت الارادة ، سهل الطريق مهما كان شاقاً ، والحاجة تفتق الحيلة . فاذا رغبت في معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان الذهاب الى معمل الغزل والنسج أحب الأشياء إليك ، وأخذت تشعر بأنه يجب أن تعرف كل شيء يتعلق بالقطن وأنواعه ، وأين يزرع ، وكيف يزرع ، وكيف تتقى آفاته السماوية ، وما الأحوال الجوية التي يتطلبها ، وكيف يجني ، وكيف يوضع في الغرائر ، وكيف يخزن ، وكيف يرسل الى السفن ، وكيف يحلج ، وكيف يغزل ، وكيف ينسج

وكذلك القول فى رغبة (ابراهام لنكولن) فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال الى السوق، فوجد جارية تباع وتشترى فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله، فتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الأسترقاق بيد من حديد. فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً بانتخابه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا فكان من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد. وقد أدى ذلك الى حرب داخلية، ولكن النصر كان أخيراً فى جانبه. وبذلك يعتبر محرراً للعبيد، مدافعاً عن الانسانية المظلومة

وإن شدة الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى هى التى جعلت «شارلز ديكنز» أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترا فى القرن التاسع عشر. وإن الرغبة فى شراء أسهم قناة السويس بعد التأكد من فائدتها هى التى خلدت ذكرى «دزرائيلى» بين الانجليز، وجعلته يعمل بكل ما أوتى من قوة على تنفيذ الشراء مع شدة ما لقى من معارضة فى مجلس الأمة، ومن معارضة مدير مصرف انجلترا، وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت «أديسون» أكبر مخترع فى القرن العشرين، والأمثلة كثيرة لا حصر لها

فبغير الرغبة لا يستطيع الانسان أن يقوم بعمل عظيم فى الحياة. فاذا أردت القيام بعمل من الأعمال — سواء أكان ذلك العمل دينياً، أم اجتماعياً، أم أدبياً، أم علمياً، أم فنياً، أم حربياً — فأوجد الرغبة الصادقة وهى كفيلة بالتنفيذ والنجاح فى ذلك العمل

والرغبة نوعان: مباشرة وغير مباشرة؛ فالمؤلف الذى يؤلف كتاباً، أو يكتب مقالة لصحيفة يومية، يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعمله قيمة علمية أو أدبية، فالرغبة فى العمل هى الشرط الأساسى للتقدم والنجاح فيه. ولكن هل الرغبة وحدها تكفى للنجاح؟ الحق أنها لا تكفى، بل ينبغى أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبى أو المادى؛ لأن المؤلف أو الكاتب قد لا يكتب حباً فى الكتابة فحسب، بل قد يكتب ليعيش، أو ليحصل على ضروريات الحياة أو كمالياتها. فهو ينتظر تشجيعاً، ويجب أن يشجع بتقدير عمله وإعطائه ما يستحق وحيثما توجد الرغبة المباشرة الطبيعية فى العمل، ثم تصحب برغبة أخرى غير مباشرة كالربح المادى أو المركز الأدبى فاننا لا نتردد فى أن نقول: إن النشاط يتضاعف والاجتهاد يستمر والعمل يزداد حسناً، ودواعى النجاح تكون أقوى وأشد، لأن الرغبة متوفرة من كلتا الناحيتين المباشرة وغير المباشرة

ولا ننكر أن المثل الأعلى هو أن نعمل حباً فى العمل، ونؤدى الواجب رغبة فى أداء الواجب، ونقوم بالشىء من غير أن ننتظر جزاءً أو شكوراً. ولكن من حيث أن الانسان إنسان فهو يفكر دائماً فى النتيجة، وفيما يعود عليه من المنفعة والمكافأة على العمل، وهذه المكافأة نوع من التقدير يشجعه على العمل، ويدفعه الى أدائه كما ينبغى وكما يجب أن يكون، وكلما كانت المكافأة قيمة زادت الرغبة فيها وكثر التلهف عليها والعمل على نيلها. ومعظم الأعمال التى نقوم بها يومياً من قبيل الأعمال التى نؤجر عليها. ويجب أن نصرح بأنه لولا الأجور والمرتبات التى يتقاضاها العمال والموظفون ما قام أحد منهم بعمل قيم

ولا تكفى الرغبة غير المباشرة – كالرغبة فى الأجر – للنجاح فى العمل واكتساب شخصية قوية، بل لابد أن تصحب برغبة طبيعية وميل حقيقى نحو العمل نفسه، وإلا كان مكروها لدى النفس، تبغضه وتنتظر بفارغ الصبر التخلص منه، كما هو حال العامل الذى لا يجد لذة فى عمله، فيترقب انتهاء اليوم ومجىء ميعاد الانصراف بكل صبر، ونحن لا نبغى إلا عملاً مصحوباً بلذة ورغبة وسرور، حتى ننجح فى ذلك العمل ونجيده ونجد شوقاً الى العودة اليه، ونظهر فيه تفوقاً ومهارة. ومن الصعب أن تنبغ فى عمل غير محبوب لديك.

يتبع — محمد عطيه الابراشى

ليلة فى مضارب النَّوَر

للأستاذ عبد الحليم عباس

فى سهول حوران التى ليس للأفق فى فسيحها حد ، وقف الليل يُصغى لهذه الفتاة النورية تعبر عن شجو شعبٍ لفظته الحياة ، فلفظها وفى صدره غُصة ، وفى قلبه جرحٌ لا يلتئم

غنَّت ورقصت كالطير الذبيح

وكانت أغانيها صدًى لهذه الغربة الطويلة

من بدء الخليقة زمّوا رحيلاً ، يفتشون لهم عن وطن ، كادوا يبلغون حدَّ الأفق ، ولمّا يجدوا مبتغاهم ، كل شبرٍ فيها ممتلك ، وراء الأفق . . . وراء الأفق ، علَّ لكم به داراً

والتمعت الكواكب ، فكأنها قلوبٌ تجف ، أوعيون تذرف فاطَّلعت إليها ، وكأنما ادَّكرت أوطاناً مجهولة ، وأحباباً خلفتهم عند مطلع الشمس ، فاندفعت تغنى ما أنقل معناه ، وكان غناؤها فى هذه النوبة بالغاً فى أساه ، مشجياً فى تعابيره ، يحمل فى ثناياه ريح الكبد المحروق . قالت :

«إيه ياليل الشجن ، ليت جوانبك الفسيحة تُطوى ، وآفاقك المترامية تتضام على نفسها ، فاذا هى فى مدى النظر دارٌ وأيكة ، نجلسُ فيها مع الحبيب ، لا يفزعنا النوى ولا تطوح بنا المقادير

إيه ياليل الشجى : ظننا الغربة يوماً وليلة ، ما علمناها العمر كُلَّه ، فمتى تكون الرجعة ، ومتى نلتقى والأحبة

إيه ياليالى ، خلفناهم شباباً فبعد عشرين عاماً كيف آضت لممهم السود المعطرة ، وشفاههم الريانة بخمر الحياة ؟ كيف أضحت وجناتهم الناعمة ؟ هل جعدها النوى وغضّنتها السنون ؟ وقاماتهم المنتصبة كالغصن الرطيب ، أظنها انحنت تحت ثقل العمر والشجون . . . ليتنى صخرةٌ صمَّاء مشدودة إلى هاتيك الربوع التى أحببت فيها حبيباً لم يغدر ولكن غدرت بنا الحياة

إيه فتاتى ! أوصيك ألا تاتى السمع لكلمات الحبِّ تندُّ عن أفواه الشباب الجميلة ، ما برح مكتوبٌ على شعبك النورى جوبَ الأرضِ ، وذرع هذه الفلوات . فموتُ القلب بالُخلوِ من الحب ، أخفُّ من احتراقه فى جحيم الذكريات

إغمضىِ عينيك عن الهوى ، عن النعمة الكبرى ، فلو كُنَّا أهلاً لها ، لبرئنا على غير هذه الشاكلة . . . »

إلى هنا وكأنما طغت موجة الحزن فى نفسها ، وكأنما فتحت لها الأنشودة عالماً من الذكريات الشجية فجلست مجهودةً لاغبة

* * *

وكنا فى مضاربهم أربعة ، كُلُّنا يفهم الحياة على غير الوجه الذى يفهمها عليه الآخر ، فمنا من يطلب فيها اللذة ، ومنَّا من لا يبالى بلذتها وألمها ، ومنَّا من لا يرى فيها متسعاً للذة ، ومنَّا من يجدفُ عليها فى الصباح ، ويهزأ بها عند المساء ، وفى الليل يدبُّ إلى لذائذها يعصرها حتى لا يدع فيها بقية ؛ ونحن وإن اختلفنا فيها كثيراً نلتقى على شعورٍ بعينه ، وهو الحسُّ بألم الغير ، والرثاء لآلام الناس

فكان من هذا أن هزَّنا شعورٌ طيب ، هو مواساة هؤلاء المناكيد فكففنا عن طلب الغناء . وساجلهم الحديث منّا فتىً لبق . قال وهو يوجه كلامه إلى هذه التى غنَّت وجلست هامدة ، كأنما ذابت روحها مع أغانيها :

— ألك إخوة ياعزيزتى ؟

— نعم ، ثلاثة ، واحدٌ دفنته فى الصين ، وآخر واريته فى طيبة ، والثالث على قِيْد الحياة

— كلنا سنموت ، فكيف رأيت هذه الديار ؟

— هى ديارُكم أنتم ، أما دارنا ، فهذا البيت الممزق ، وظهر هذا البهيم

قال وهو يُحبُّ أن يمزج الجد بالدُّعابة ليخفّف هذا الألم الطافح ويستلَّ هذا الحزن المستعصى :

— ليست الأرض ملكاً لأحد ، أما سمعت قول الأديب الأكبر ، أهون علىّ أن أتصور الانسان مُلكاً للجبل ، ولا أتصور الجبلَ مُلكه . ملكه كيف ؟ أيستطيعُ أن يحمله ؟

— لا أفهم ما تعنى

— ستفهمين ، أجمل ما على أديم الأرض هذه الزهور الناجمة تَميس بقاماتها ، وأجملُ ما فيها هذا العطر يفوح ، فهل يملكُ عِطرُ الزهرة ؟ هل تُحجبُ وجنة السماء عن أعين الرائين ؟ أبهجُ ما فى الحياة ملكُ الجميع ؛ وما بقى فأفواتٌ وفضلات يشترك الانسان فيها مع أدنى المخلوقات

— صحيحٌ هذا ، ولكنْ هذه أشياء ليس لنا منها أدنى

فائدة ، أنا كل الكواكبُ ؟ أم نفقات بهـذا الذى تنشره الزهرة ؟

فبهت صاحبنا

فنبهناه إلى غلطته ، وإلى أن هذه التى يخاطبها أضيقُ عقلاً وأسف إدراكاً من أن تفهم مجالى الفن الرفيع

فلم ييأس ، وعاد يفهمها ، ويأتى باللفظ القريب إلى عقليتها ، يقول : إنها لاتقيت ، ولكنّ فيها شيئاً أثمن من القوت ، وهل خُلِق الانسانُ لِملء بطنه فحسب . . . هل أحببت ؟

فكأنها خجلت من هذا السؤال الثائر ، فرمت برأسها الى الأرض ، فعاد يلحُّ عليها بالاجابة

— نعم ، أحببت ، والنَّورُ شعبٌ لا يخجلُ من المصارحة بمثل هذه الأحاديث

— وهل فى الحب لذة ؟

— نعم يا افندى

— أيهما أكبر لذة ، الحب أم القوتُ ؟

— الحب يا افندى . . .

— إذن فى الدنيا أشياء كثيرة أثمن من القوت

أفهمتِ ؟

— نعم

— وهذه الأشياء يتساوى فيها الغنىّ والفقير ، والأمير والحقير ، بل إن حظَّ الصعاليك ليربو فى بعض الأحايين على حظوظ ذوى الجاه العريض والمنازل الرفيعة

فصمتت ، وكأنها تفكر وتزوِرُ حديثاً ، وبعد حين قالت : والغربة ، هل يستقيم معها نعيم ؟ انظر ها نحن أولاء نقيمُ هنا بعضاً من أشهر الصيف ، فاذا جاء الشتاء بقره ، اضطررنا الى النزوح كارهين ، فنحن نقضى العمر كلّه رحيلاً ، ولو شئت لقلت حنيناً ، نحنُّ الى هذه المرابع ، وغداً نحنُّ الى غيرها إذا أنسنا بها ، وهكذا نقضى العمر بالذكريات الموجعة ، والحنين الذى يُقطع نياط القلوب

قال : اسمعى ، ليس على ظهر هذا السهل — سهل حوارن — الممتد شمالاً حتى أذيال الشام ، المنفسح غرباً الى سفوح هذه الجبال التى شاقها منظر سماء عجلون ، فنهضت اليها بغابات الصنوبر ، وملتف أشجار السنديان والبلوط ؛ لتقبل وجنتها . . . وليتك تريها فى الصباح ، والضباب يلفها فى مثل غلائل العروس وهى تجاهد بنسـيمها المنعش ، ونداها العطر لترى السماء ، فتمزق الردن تارة ، وتشقق البنائق أخرى ، وهى فى كلٍّ ذلك آية فى السحر والجمال والجلال . . أقول ليس على هذا السهل أخلدُ حياة ، وأكبر فؤاداً وإحساساً من صديقكم شاعر الوادى(1)

— أعرفتِه ؟

— نعم ، فهو يزورنا فى غالب لياليـه ، ويبقى حتى مطلع الفجر . .

— هذا الشاعر الضائع يا فتاتى ، هو فى هذا السهل أضيعُ منكم غربة ، يُذيب كبده فى لحنه ، وتسيلُ روحه على قوافيه . . . ولا من يسمع

— كيف ! ؟ انه لايحضر إلا ومعه لفيفٌ من صحبه وخاطئه ، فكيف يكون غريباً فى دياره وبين أحبابه ؟

— هو غريبٌ ووحيد ، يأتيكم ليأتنس بكم ، هو غريبٌ لأنه لا يجدُ صدىً لروحه ، وليست تُقاسُ الغربة ببعد الشقة والنأى عن الوطن ، وإنما تقاس بما بين الأرواح والأرواح من تفاوت وتقارب ؛ كم من ضجيعين على مهاد واحد بينهما من البعد ما بين ذاك النجم وهذا الوتد

فهزت النورية رأسها فعل الحائر الذى لم يفهم

وكنا ضِقنا بصاحبنا ذرْعاً ، وأسمعناه من قوارص اللوم والاستخفاف بفلسفته التى جاء يُلقيها فى مضارب النَّوَر شيئاً كثيراً ، وكأنه تعب . . فلم يعمل فى هذه المرة على إفهامها . . . فقلنا له متندرين مالك ؟ عُدْ الى وصل قولتك ، وشرح فلسفتك

قال : أظلم اللوم ، لقد نلنا مبتغانا ، أما كان عزمنا أن نذهب بشى من ألم هذه الفتاة ، فها هى الابتسامة تسيل على شفتها ، وشفاه عدة من قومها ، قلنا : غلطتَ يا أستاذ ، فما هى ابتسامة الصفو ، وإنما هى ابتسامة الاستخفاف بك ، والهزء من أقوالك

— ليكن ، فما يضيرنى أن أكون ساعة موضع سخرية النَّور . .

* * *

وطلعت علينا الشرطة ، فخفقت قلوبهم ، فراحوا يلممون أنفسهم ، ويلقون علينا نظرات الرجاء أن نكفيهم شرَّ هذا البلاء ، فكُنَّا عند حسن ظنهم

(١) هو السيد مصطفى وهبي التل ، من أشعر شباب الأردن ، ومن أعرق شعراء العرب فى البوهيمية ، صادق النور ، وله فيهم قصائد هى آية فى الجودة ، وهو ينوى الآن مزاملتهم فى رحلاتهم الفصية

وقمنا الى السيارة ، ولما تبوأنا مقاعدنا جاءت النوبية وهمست فى أذن صاحبها

— أيوجد مثلنا أناس يذوقون حرّ سياط الجنود الغلاظ الأكبد ؟ وهل يساوينا أحد فى هذه النعمة ؟

— نعم يا فتاتى ، ليست هى على ظهوركم بأشد نكاية وأنا وأثقل وطأة منها على ظهور الأحرار

— ومن هم الأحرار ؟؟

لا أدرى ، أخشى سياطهم إن تفوهت ، وتلمس جنبه كأنما أحس بألمها ، هم ، هم صف . . . وة رجال الو . . طن ، فى كل أمة ، سلى عنهم مصر ..! وضاع الصوت فى لجب هذه الزعناء ؟

شرق الأردن **عبد الحليم عباس**

حول مقال الشخصية

جاء فى عدد (٦٨) من مجلة الرسالة الغراء فى مقال الأستاذ محمد عطيه الابراشى عن الشخصية بعض الأخطاء من الوجهة العلمية :

فقد قال الأستاذ :

(٢) « والغدد النكفية وهى غدد صغيرة أسفل العنق ولها صلة بالذكاء ، فاذا كانت قوية الافراز كان الشخص ذكياً وبالعكس . »

ومن المعلوم أن الغدد النكفية هى الغدد التى بجوار الأذن وليست بأسفل العنق ، وتسمى بالانجليزية « Parotid » وليس لها أى دخل فى الذكاء ، بل كل إفرازها يصب فى الفم بواسطة قناة يقرب طولها من الثلاثة سنتيمترات ، ووظيفة إفراز هاتين الغدتين كما دلت كل التجارب هى تحويل النشويات « Cabobydiate » إلى « ملتوز » «Maltose» ولها وظيفة ثانية هى المساعدة على ازدراد الطعام وتليينه وليس لها غير هاتين الوظيفتين

أما قوله بأنها غدد صغيرة فى أسفل العنق فأظنه قد أراد Parathyroid !! وهذه الغدد أيضاً ليس لها تأثير كما هو ثابت على الذكاء بل تأثيرها على « الكلسيوم » الموجود بالدم ومن ثم على العظام نفسها ، ولهذه الغدد وظيفة أخرى خاصة بالأعصاب ، إذ لو قطعت هذه الغدد لأصبح تأثر العضلات سريعاً ولاشتدت قوة انقباضها ، وليس لها غير ذلك كما ثبت بالتجارب وقد يكون لها ، لكن العلم لم يقل كلمته بعد

وقد سمى حضرته Thyroid !! بغدة تفاحة آدم ، وأظن أن من المستحسن إطلاق الاسم العربى المتداول وهو الغدة الدرقية فهو أسهل وأقصر

محمد رضوان
بكلية الطب

بين فنى التاريخ وفن الحرب

٧ — خالد بن الوليد *
فى حروب الردة

للفريق طـه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

معركة بزاخة :

يقول ابن الكلبى إن بزاخة ماء لبنى أسد ، ولم يوضح لنا ياقوت هذا المحل فى معجمه ، والذى يلوح لنا أنه فى جنوبى فيد فى وادى الغمير على الطريق الذى يصل فيد بالبريدة . فالأرض فيه سهلة وهى صالحة للقتال

ولعل المعركة وقعت فى نهاية ايلول « سبتمبر » أو فى نهاية تشرين الأول « أكتوبر » إذ مضى على حركة خالد من ذى القصة ما يقارب الخمسة عشر يوماً ، وبعد أن أمن خالد جانب طئ واستنجد بهم تقدم رأساً نحو بزاخة يريد طليحة

وتقدمت أمامه قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ، وتدل الأخبار على أن المرتدين باغتوا هذه القوة وقتلوا قائديها ، وكانا من فرسان المسلمين المشهورين ، وكان جيش طليحة متأهباً للقتال يقود بنى أسد سلمة أخو طليحة ، ويقود فزارة عيينة ابن حصن ومعه سبعمائة فارس من فزارة

ومن الروايات ما يدل على أن خالداً وقف بالغمير قبل شروعه فى القتال ، وإن كانت الرواية التى يرويها الطبرى نقلاً عن سيف لا تذكر ذلك بوضوح ، وخلاصة الرواية أن أحد المسلمين أخذ رجلاً من بنى أسد فأتى به خالداً ، وكان الرجل عالماً بأمر طليحة فسأله خالد عما يعلمه عن طليحة

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

وموقع الغمير رابية تشرف على مياه بزاخة واسمه فى الخريطة جبل الغمير ومنه ينصب وادى الغمير

ولعل خالداً أرسل قوة الاستطلاع من هذا الموقع ليستكشف قوة العدو وموضعه وجيش المسلمين فى موضع مسيطر . ولعل عكاشة وثابتاً قتلا لما كانا يقومان بالاستطلاع فقتلتهما الطليعة التى أوفدها طليحة بقيادة أخيه سلمة فنصب كميناً لقوة الاستطلاع وباغتها ، ولما اطلع المسلمون على مقتل عكاشة وثابت هالهم الأمر

ومن الروايات ما يشير الى أن خالداً لم يزور عن طريقه كما تقدم من ذى القصة الى بزاخة إلا بعد ما رأى الجزع المستولى على أصحابه عند مقتل عكاشة وثابت فمال بهم الى حى طئ وقال لهم « هل لكم الى أن أميل بكم الى حى من أحياء العرب كثير عددهم شديدة شوكتهم . . . الخ »

ولعل هذه الروايات ذكرت لتسويغ ازورار جيش خالد عن طريقه نحو بلاد طئ على ما أثبتناه فيما تقدم ، إذ لا يعقل أن يصيب المسلمين الجزع بمجرد أن يقتل منهم فارسان ، والروايات ذاتها تذكر قتل عكاشة وثابت بيد طليحة وأخيه سلمة بمعنى أن القتال وقع بالقرب من بزاخة فيكون من الصعب أن يدير خالد ظهره ويترك عدوه ويتوجه نحو بلاد طئ بينما كان أهلها مترددين

والواضح من هذه الروايات أن خالداً قدر الموقف قبل مسيره من ذى القصة

القتال

رتب خالد جيشه فى خط القتال وجعل الأنصار والمهاجرين فى الميسرة ورجال القبائل فى الميمنة ، ولعل أهل طئ كانوا فى القلب مع بعض القبائل

أما جيش طليحة فكان عيينة بن حصن مع سبعمائة فارس من فزارة فى الصف الأول ، وكان طليحة بن خويلد فى القلب يشرف على القتال ، وفى أطرافه أربعون فتى من بنى أسد استماتوا فى الدفاع عنه . وكانت راية بنى أسد حمراء رآها المسلمون من بعيد

وتدل الأخبار على أن القتال بدئ بهجوم الفريقين أحدهما على الآخر ، فكان عيينة بن حصن يقود الفرسان ، أما حبال وسلمة أخوا طليحة فكانا يقودان المجنبتين من جيش الأعداء

ويذكر الواقدى نقلاً عن رجل من هوازن حضر قتال بزاخة أن المسلمين فازوا بالمعركة بفضل البطولة التى أبداها خالد ابن الوليد

ويقول الراوى إن ميمنة المسلمين ارتدت على أعقابها لما هاجمها الأعداء فأثر ذلك فى الميسرة فانسحبت بدورها ، فتدارك الأمر خالد بحملته على الأعداء وندائه يا أنصار الله ! الله ! فحمس هذا النداء المتراجعين وكروا على الأعداء ملتفين حول خالد فتقاتل الفريقان بالسيوف ، فترجل خالد عن ظهر جواده وحارب راجلاً ، ولما رأى أصحابه أن الخطر محدق به التمسوا منه أن يترك خط القتال ويقف فى الوراء ويقود الجيش إلا أنه امتنع عن ذلك . وفى رواية أخرى للكلبى أن المسلمين لما تراجعوا أتى رجل من طئ خالداً وكلفه بالاعتصام بجبلى سلمى وأجأ ، إلا أن خالداً رد طلبه قائلاً إنه يعتصم بالله

وبقى طليحة فى القلب الى أن قتل فتيانه جميعاً فانسحب الى الوراء والتف بكسائه يتحين الفرص . ولما ضاقت الدنيا بعيينة بن حصن سأل طليحة هل جاء الوحى ؟ وهذا يقول له لا فيرجع يقاتل ، وفى الكرة الثالثة قال طليحة لعيينة إن الوحى يقول له : « إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه » فتأكد عيينة أن الدائرة تدور عليه ، فنادى يابنى فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب . فانصرفوا وانهزم الناس

أما طليحة فأعد فرسه وهيأ بعيراً لامرأته فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، ولما سأله قومه ماذا يأمر ، قال « من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل »

وقع عيينة أسيراً بيد خالد فكبله بالحديد وأرسله مخفوراً الى المدينة

وكان المرتدون قد تركوا عيالهم خلفهم فى محل أمين لكى لا يسبيهم المسلمون ، لأن العرف كان يقضى فى ذلك الزمان بسبى النساء واتخاذهن إماء ، ولم تنته المعركة حتى عاد الكثير من بنى أسد وفزارة إلى خالد وجددوا إسلامهم خشية على الذرارى

واغتنم المسلمون غنائم كثيرة فى معسكر الأعداء من جمال وحمير وسلاح وغير ذلك . لم يكتف خالد بهذه الغنائم بل أوفد السرايا إلى جهات مختلفة لمطاردة المنهزمين والتقت بهم فى جبل

رمان فى جنوب جبل سلمى وفى الأبانين على جانبى وادى الرمة وهما رابيتا أبان الأسود فى شمالى الوادى وأبان الأبيض فى جنوبه وأسرت كثيرين منهم وصادرت خيلهم وسلاحهم

ولما نشب القتال بين المسلمين والمرتدين فى بزاخة كان بنو عامر بن صعصعة على الحدود يراقبون مجرى القتال وينتظرون العاقبة

وبعد أن انتهى خالد من أمر بنى أسد وفزارة عرج على حى طىء ومكث بين أكناف سلمى وأجأ ، ولعله أراد بذلك أن يقرب من حى بنى عامر وينهى أمرهم . هذه القبائل كانت فى الأرض الواقعة الى شمال شرق بلاد طىء بين الدهناء وجبل شمر

فأوفد بنو عامر وغطفان وفودهم إليه وجددوا إسلامهم . بيد أن خالداً لم يكتف بذلك بل فرض عليهم جانباً كبيراً من السلاح جزاء ترددهم كما أنه جمع سلاحا من بنى أسد أيضاً

وكان للسلاح شأن كبير فى هذه الحروب ، وكان المسلمون بحاجة اليه ليجهزوا به الجيوش ، وسبق أن أغنياء الصحابة فى عهد الرسول كانوا يجهزون المقاتلين للغزوات

واحتفظ خالد بهذا السلاح ووزعه بعد ذلك على رجال القبائل الذين أسرعوا إلى الأنضمام الى جيشه كما وثقوا بالنصر

القتال فى ظفر :

تدل الأخبار على أن خالداً لم يمهل الشاردين بل إنه لما علم أن أم زمل سلمى جمعتهم حولها فى ظفر وشجعتهم على المقاومة توجه فوراً نحوها فقاتلها قتالاً شديداً وهى واقفة على جمل أمها أم قرفة تحمسهم على القتال ، وقد اجتمع على الجمل جمع من فرسان المسلمين فعقروه وقتلوها وقتل حول جملها كما تذكر الرواية مائة رجل . وكان قيام أم زمل وتشجيعها للناس على قتال المسلمين طلباً للثأر

المطاردة :

ورب منتقد يعتب على خالد إهماله المطاردة بعد انتصاره فى بزاخة إذ كان فى وسعه أن يطارد الأعداء ولا يمهلهم للمقاومة مرة أخرى ، إلا أن العتاب ليس فى محله ، لأن القتال فى البادية مع القبائل لا يشبه القتال فى الحواضر ، فالقبائل بعد أن تغلب تنهزم الى جهات مختلفة بعد أن تترك حيها وتلجأ الى الأحياء القريبة وتستنجد بها ولا تقصد هدفاً ترمى اليه . وكان خالد مضطراً الى البقاء فى بزاخة ليقبل إسلام المرتدين ويعاقب من مثل بالمسلمين منهم عملاً بوصايا أبى بكر

وكان خالد قبل ذلك أوفد السرايا الى أنحاء مختلفة ليقضى على المتشردين فقاتلهم فى جبل رمان على حدود طىء ، وقاتلهم فى الأبانين على حدود بنى سلم ، وقاتلهم فى النقرة على حدود بنى تميم فكل ذلك يدل على أن خالداً استثمر نصر بزاخة ولم يمهل المنهزمين بل طاردهم بكل شدة

يقع موقع ظفر كما يذكر ياقوت الحموى بالقرب من حوأب ، وهذا على الطريق بين البصرة والمدينة . كانت عائشة قد تشاءمت من نباح كلابه لما رحلت من المدينة الى البصرة للاشتراك فى وقعة الجمل . ولعل موقع ظفر يبعد عن بزاخة مسافة مرحلتين وهو الى شرق كهفه . فالفلول الشاردة من بزاخة التجأت اليه ، وكانت أم زمل تحرضهم على الاجتماع فيه لمقابلة خالد . فالمسافة بين بزاخة وظفر يجب أن تكون بعيدة بدرجة أنها تساعد الفلول على الاجتماع مرة أخرى للقتال

تقدم مسير خالد نحو البطاح لقتال بنى تميم

البطاح : — لانعلم بالضبط المدة التى قضاها خالد فى حى بنى أسد بعد أن انتصر على طليحة فى بزاخة . والمؤكد أن خالداً استثمر فوز بزاخة فقام بمطاردة فلول الجيش المنهزم ، ولما سمع أن بعض الفلول اجتمع فى ظفر تحت راية أم زمل تقدم بجيشه اليهم وهزمهم شر هزيمة كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم

والظاهر من ذلك أن خالداً قضى أكثر من شهر فى حى بنى أسد على أقل تقدير ، ولما استتب له الأمر فى نجد وتأكد معونة طىء ودان له بنو عامر وبنو صعصعة انتهز الفرصة ليتقدم نحو بنى تميم

وكان بنو تميم من أقوى القبائل العربية لكثرة عددها وخصب أرضها وشدة بأسها . وتنقسم هذه القبيلة الى أربعة أقسام :

القسم الأول — الرباب وهم من شعب ضبة وعبد مناف

القسم الثانى — عوف والأبناء ومقاعس وبطون وهم من شعب سعد بن زيد مناة

القسم الثالث — بهدى وخضم وهم من شعب بن عمرو

القسم الرابع — حنظلة ويربوع وهم من شعب بنى مالك

وكان الزبرقان بن بدر يترأس رباب وعوفاً والأبناء ، وقيس ابن عاصم يترأس مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان يترأس بطن بهدى ، وسبرة بن عمرو يترأس بطن خضم ، ووكيع بن مالك يترأس بني حنظلة ، أما مالك بن نويرة فيترأس بني يربوع وهم فرقة من بني حنظلة

وكان بنو يربوع يسكنون أرض الحزن غربى الدهناء ، أما بنو حنظلة فيسكنون الدهناء والصمان ، وأرض الصمان فى شرقى الدهناء والحزن والصمان كلاهما ذو مراع خصبة يضرب بها المثل

وكان من حسن حظ المسلمين أن هذه الشعب والبطون لم تكن متصافية فيما بينها ، ويظهر أن الخصومة كانت متأصلة فيها من قبل الأسلام . فصفوان وسبرة متفقان ، أما قيس بن عاصم فخصم للزبرقان

وكان الزبرقان وصفوان يميلان الى المسلمين وينتظران المعونة منهم ليتفوقا على خصومهما . أما قيس بن عاصم فكان متردداً . وأما وكيع بن مالك ومالك بن نويرة فتظاهرا بالعداء للمسلمين ، وكان العداء متأصلاً فى نفوس الرؤساء لدرجة أن البطون والشعب كانت تتقاتل

ولما ظهرت سجاح اشتد هذا العداء ، وادعت سجاح النبوة فى بنى تغلب فى أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهى ترتبط ببنى يربوع برابطة القرابة ، فجمعت حولها جموعاً من بنى تغلب وبنى نمر وبنى اياد وبنى شيبان ، وتقدمت بهم الى بلاد بنى تميم ، ويدل مجرى الوقائع على أنها ادعت النبوة قبل وفاة الرسول

ماذا كانت تقصد سجاح بمسيرها جنوباً نحو بلاد تميم ؟ هل أرادت أن تمهد السبل لتأسيس مملكة بين العراق ونجد تضم فيها قبائل بنى تغلب والبعض من بطون بكر وبنى تميم ؟ أو أنها أرادت الهجوم على المدينة كما يروى سيف بن عمر ؟ ثم هل شرعت فى المسير قبل وفاة الرسول أو إن وفاته شجعتها على المسير ؟ هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها بصورة جازمة . والذى يلوح لنا أنها لم تكن تقصد لاهذا ولاذاك ، ولعلها برزت بالكهانة وأحسنت السجع فالتف حولها الناس ، وأرادت أن تستغل نفوذها فسارت برجالها ، وكلما مشت كثر أتباعها حتى أدى بها المسير الى الدخول فى أرض بنى تميم . ومع ذلك فمن المحقق أنها بدخولها ديار بنى تميم أرادت أن تستفيد من القرابة التى تربطها بهم . وهذه القرابة غير واضحة ، ومن الرواة من يزعم أنها تميمية من بنى يربوع وأخوالها من بنى تغلب ، ومنهم من يدعى أنها تغلبية وبنو يربوع أخوالها . والواضح من أخبار الرواة أنها دخلت بلاد بنى تميم بعد وفاة الرسول . وكان دخولها مما زاد الشحناء بين رؤساء بنى تميم فأراد كل منهم أن يستغلها لمصلحته ، والغريب فى أمر بنى تميم أنهم لم يخضعوا لرئيس واحد أسوة بالقبائل الأخرى ، فكان لبنى أسد رئيس ولبنى حنيفة رئيس ولغطفان رئيس وهلم جرا

يتبع — طه الرياشى

فى الأدب الدرامى

١٣ - الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الدرامة فى خلال القرون

كان لهذا النوع أوائل فى أدب الأغريق واللاتين ظهرت فى أشكال مختلفة وأسماء متعددة ، وظلت محافظة على وجودها أثناء العصور الوسيطة وبعد عصر النهضة فى ثوب الرواية الجدية الهزلية ، ولكن الدرامة بمعناها الحديث لم تعرف إلا فى القرن الثامن عشر حين كتب (لاشوسيه) مدرسة الأمهات ، و(ديدرو) رواية الابن الطبيعى ، و (سيدين) رواية الفيلسوف بغير علمه ، و (بومارشيه) رواية الأم المجرمة ، و (ڤولتير) روايتى نانين والطفل المبذر . وقد كان هؤلاء المؤلفون يقتبسون موضوعات رواياتهم من الحياة الحضرية والمعيشة المنزلية ، ويملأونها بالحساسة المتصنعة والآراء الفلسفية والحكم الخلقية فى لهجة تارة تكون بكائية وتارة تكون خطابية . على أن هذه الدرامة لم تلبث أن نزلت الى مكان المأساة العامية (الميلودرام) ، وهى درامة تسير بالموسيقى وتفيض بالضربات المسرحية العنيفة ، والمواقف الشديدة المخيفة ، والعمل الروائى المعقد ، وتدين بنجاحها الى إثارة الشعور وإهاجة الوجدان . ثم أدرك الدرامة الخمول وأخلقها الترك فامحت من المسارح حوالى سنة ١٨٣٠ حتى جاء أرباب المذهب الابتداعى فنفخوا فيها من روحهم وبعثوها الى الحياة فى شكل جديد ، واختاروها ميداناً للمعركة الحاسمة بينهم وبين رجال المذهب الاتباعى ، فرفع هوجو لواءها وشرع منهاجها فى مقدمة كرومويل سنة ١٨٢٧ وجعل ميزتها الظاهرة امتزاج الجد والترفع بالهزل والمجون على نحو ما تجد فى روايات شكسبير . ثم أخذ هذا المذهب الحديث يتحلل من قواعد المذهب القديم ، ولا سيما قانون الوحدات الثلاث كما ترى ذلك ظاهراً فى روايات الزعيم كهرنانى وكرمويل وماريون دلورم وروى بلاس وبيرجراف الخ . على أن سهم الابتداعيين قد طاش . وأملهم فى اصلاح المسرح قد كذب . فقد تجد فى روايات هوجو درراً من الشعر الرصين ، وغرراً من المقطوعات البليغة ، وصوراً من المواقف التى تسترق الشعور وتملك القلب ، ولكنك تجد بجانب ذلك البناءَ الواهنَ والاحالة القبيحة والعمل المرتبك والتاريخ المشوه ، فضلا عن أنه أحل الطباق والمقابلة محل النظر والملاحظة ، وملأ المسرح بالانماط الغريبة من الناس كقاطع الطريق الشهم (هرنانى) ، والخادم الوزير (روى بلاس) ؛ ولم يجد فى طبقة السراة إلا أنماطاً ممقوتين أو مجرمين ، أما الطبقة السفلى فهى عنده مستودع العواطف الكريمة والأخلاق القويمة . ثم إن الدرامة الابتداعية (Romantique) خلت خلو الميلودرام من درس العواطف وتحليل الأخلاق ، وتعدت حدود المنطق فى سير العمل ، وسترت كل ذلك بسيل من الحوادث الخارقة ، والمسائل المعقدة ، والمفاجآت المدهشة ، وما يتخلل ذلك من المبارزة والقتل والتسميم والخطف والتعرف . لذلك لم يصطبر الناس على هذه الدرامة طويلا فملوها وأغفلوها ، وحلت محلها فى المسارح والقلوب فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الملهاة الاجتماعية ، أو الملهاة الحديثة ، أو الملهاة المبكية ، أو الدرامة الواقعية . وهى فى الحقيقة طور من أطوار الدرامة التى بدأها (ديدرو) ورفع سمكها اسكندر دوماس الصغير ، وأميل أوچييه وڤيكتوريان ساردو . تستمد من الدرامة التاريخية عناصر الجد ، ومن ملهاة (اسكريب) فن التعقيد ، ومن قصة بلزاك درس العادات وتحليل الأخلاق ، وتدور موضوعاتها على بحث المسائل المتعلقة بالمال والأسرة ، وما ينجم من صراع الطبقات ، وصدام الجماعات ؛ وتعنى على الأخص بوصف العادات والسعى فى تهذيبها وإصلاحها . وكان لاسكندر دوماس الفضل فى تطبيق المذهب الواقعى على هذه الملهاة أو الدرامة بتأليفه ذات الكاميليا (La damc anx camelias) وهى درامة جريئة الفكرة ، طريفة البحث ، جديدة الشكل ، أحدثت فى المسرح انقلاباً خطيراً كان له أثره ونتيجته حتى اليوم . لأن المؤلف كان أول من زين المسرح بالأثاث الجديد ، وأظهر الأشخاص فى اللباس العصرى ، ومثل البيئة الحاضرة فى شكلها الحقيقى . فهو خلق الملهاة الحديثة (La comedie modernee) كما خلق من قبلها الملهاة العلمية (Piece à thése) وهى مبنية على نظرية سماها المسرح النافع

(Le rhèatre utile) ملخصها أن الكاتب المسرحى يجب أن يبادر الى حل المشاكل الأجتماعية على المسرح وإلا كان مضحكاً مهرجاً . يجب أن يعرض على الناس ما يشغلهم من مشاكل الأسرة ، ويثقلهم من أحوال المجتمع ، ثم يناقش هذه المسائل ، ويحل هذه المشاكل بتغليب الخير على الشر ، وإقرار الحب فى النفوس مقر المال

وظل المسرح اليوم فى فرنسا جارياً على سننه المشروع فى منتصف القرن التاسع عشر فى شىء من البساطة والسهولة . وأشهر الملاهى الدرامية فى العهد الأخير ما كتبه الأستاذ جول لمتر إما تحليلاً للعواطف (كالثائرة) و (الغفران) ، وإما زراية على ذميم العادات (كالنائب ليڤو) . وكذلك الأستاذ هنرى لاڤادان عنى بدراسة المجتمع الفرنسى الحديث ، وعرض لما ينجم عن المنافسة بين طبقاته من المشاكل المعضلة والمسائل العويصة فى رواية (أمير أوريك) . ثم المنطق الجبار بول هرڤيو فقد عالج المشاكل الاجتماعية التى تتولد من الزواج والطلاق ، ونحا فى بحثها منحى اسكندر دوماس الصغير فى رواياته العلمية (Piece à thése) ولكنه كان أكثر منه بساطة وأشد جفاء . كتب فى ذلك ملاهيه المشهورة ، وهى التيه (Le dédale) ، والكلبتان (الكماشة) (Les tenailles) ، وقانون الرجل (La loi de l'homme) ، واعرف نفسك (Connais - toi) ، وشوط القبس (La course du flameau) ولا تزال هذه الرواية الى اليوم أبلغ روائعه وواسطة بدائعه . ثم الأستاذ (بريو) مؤلف القباء الأحمر (La Robe rouge) ، والأستاذ فرنسوا كوريل مؤلف الدمية الجديدة ، ونشوة الحكيم والأستاذ (الفريد كابو) مؤلف الحظ (La veine) والطير الجريح ، والأستاذ (هنرى برنستين) مؤلف السارق ، والسر ، وشمشون . ولا نريد أن نسترسل فى ذكر أسماء الكتاب المعاصرين ، فأكثرهم لا يزالون يؤلفون ويرزقون . وإنما ذكرنا منهم من سبق لنقول لك إن ما ألفوه قد يطلق عليه أحياناً اسم الدرامة ، وأحياناً اسم الملهاة الدرامية (Comédie dramatique) أو الجدية . والأسم الثانى أدق لما ذكرناه من الفرق بين النوعين

هذا مجمل ما أتى على الدرامة من الأطوار فى فرنسا . أما فى أسبانيا فالمسرح قومى محض ، ولد فى الكنيسة وظل على صفته الأمية حتى جاء عصر النهضة ، فجنح بعض الكتاب الى بناء المسرح الأسبانى على الطراز الأغريقى ، ولكن ذوق الجمهور أحالهم عن ذلك القصد وصرفهم عن محاكاة المأساة الأتباعية (Classique) فسخروا من قانون الوحدات الثلاث . وجمعوا فى الرواية الواحدة بين الحوادث المضحكة والمواقف المفزعة . وبين سراة الطبقة العليا وصعاليك الطبقة الدنيا . ثم كانوا يعقدون العمل ويفخمون الأسلوب ، حتى سرت من روحهم نفحة الى كورني ، وكان الشرف محور مآسيهم ، وموضوع حوادثهم ، ومكان قوانينه الصارمة منها مكان القدر من مآسى الأغريق . على هذه القواعد والصفات كتب نابغتهم الخالد لوب دى ڤيجا Lope de Végа (١٥٦٢ — ١٦٣٥) مآسيه ، وهى لا تقل عن ألفى مأساة ، يدخل منها فى باب الدرامة الروايات التاريخية (ككشف العالم الجديد) وروايات (سان سَكْر مَنْت) كوارث السماء . وقد تميز هذا الكاتب بالخيال الخصب ، والقريحة المتقدة ، والتنوع البديع ، والقدرة المعجزة على تصوير الأخلاق ، ولا سيما أخلاق النساء . وكان همه أن يعرض الحوادث دون أن يشرح أسبابها ، ويمثل الحياة الحقيقية دون أن يطرز أثوابها . ثم يليه فى النبوغ والأثر (كالدرون دى لاباركا) (١٦٠٠ — ١٦٨٠) . وقد بقى من دراماته اثنتان وسبعون درامة أشهرها (الحياة حلم) و (كرامة المولى) . وأما فى انجلترا فقد ولد مسرحها فى الكنيسة أثناء العصور الوسيطة كما كان الأمر فى فرنسا وأسبانيا ، وكذلك لم يقو تقليد الكتاب والشعراء لآداب النهضة على الحيلولة بين الدرامة الحديثة وبين الانتشار والتقدم . فى القرن السادس عشر جاء (مارلو) فهز النفوس وحرك المشاعر بمآسيه (ادوار الثانى) و(يهودى مالطة) و (وموت الدكتور فوست وحياته) . ولكن شكسبير ظهر فأخفت ذكره ووضع قدره . وكان القدماء من أرباب المذهب الاتباعى يذكرون شكسبير بالسوء ، ويتناولونه بالنقد حتى لقبه ڤولتير : (بالمتوحش السكران) . أما أرباب المذهب الابتداعى فيرونه مثال الفن الروائى ، ورسول الشعر التمثيلى . وقد سردنا لك فيما سبق طائفة من مآسيه فى بعضها ما يشبه الدرامة ، ولكن دراماته الحقيقية هى : صاع بصاع ، وتاجر البندقية ؛ وقطعه المقتبسة من تاريخ انجلترا ، كالملك حنا ، وريشار الثانى ، وهنرى الرابع ، وهنرى الخامس ، وريشار الثالث ،

ودرامات شكسبير [1] على الجملة ضعيفة البناء ، بعيدة الأمكان ، متكلفة الأسلوب . وقد أراد أن يمثل فيها مناحى الأنسانية كلها ، فجمع بين العظيم الرفيع والعامى الخليع والمضحك الماجن ، وجمل العواطف الرقيقة الوادعة بجانب الأهواء العنيفة الفاجعة ، ولم يقنع بتمثيل الحوادث مجردة ، بل حرص على أن يصور الأهواء والعواطف التى صدرت عنها وتولدت منها

وأما فى ألمانيا فليسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١) هو خالق مسرحها القومى : وقف بين مواطنيه وبين المأساة القديمة ، فحال بينهم وبين تقليدها ، ودعا الناس قبل الابتداعيين الى الأخذ عن شكسبير ، وإلى وضع الأساس لبناء المأساة العصرية . وأشهر مآسيه (منا دبر نهلم) و (ناتان الحكيم) و (أمليا جالوتى) . أما جيته فقد جمع بين الذهن القديم والعبقرية الحديثة ، وقد ظهر ذلك جلياً فى دراماته ، وأشهرها (جوتز دبر ليشنجين) و (تركاتو تاسو) و (إجمنت) و(فوست) . فأما (جوتز) فهى صورة قوية — وإن تكن غير جلية — لألمانيا فى أواخر العصور الوسيطة . وموضوعها أن السيد جوتز لا يعترف لأحد بالسلطان غير الأمبراطور ، فهو يشعل الثورة فى رؤوس الفلاحين ، ويقودهم لمحاربة النبلاء والكهنة ، ثم ينتهى أمره بالأسر والسجن فى قاع مظلم بقية حياته . وأما درامته فوست فهى مجده وخلوده تجدها غامضة فى جملتها ولكنها رائعة فى تفصيلها . موضوعها أن الدكتور فوست تُبرمه الحياة ويُعنته الوجود ويَكربه فراغ نفسه فيتعاطى السحر ، ولكن اليأس يحتوشه فيدفع به إلى الانتحار . وبينما هو متردد بين الحياة والموت إذ يفجأه قرع الأجراس المؤذنة بدنو عيد الفصح فيذكره بقيامة المسيح ويأفكه عن عزمه المشئوم ، إلا أن الشك يعاوده ، فيدفعه إلى محالفة الشيطان فيبيعه نفسه على أن يمتعه بزهرة الحياة ونعيم الدنيا . فيؤتيه الشيطان من كل شىء إلا السعادة ، فيشرف على الموت ، إلا أن مارى تدركه فتنجيه

وعلى طريقة جوت كتب صديقه شيلر دراماته الرائعة كدرامة اللصوص ، ودون كارلوس ، ووليم تل . وأنبه الكتاب الروائيين فى ألمانيا اليوم هو (جيرار هوبتمان)

ومن فحول الدرامة فى العصر الحديث الكاتب النرويجى (جوهان إبسن) (١٨٢٨ — ١٩٠٦) وكان ينزع فى مآسيه الدرامية نزعة فلسفية اجتماعية ، فهى من الدرامات العلمية أو الرمزية ، وقد سما فيها بقوة الفرد وهمته إلى أبعد غاية وأرفع منزلة حتى ولو ناقض ذلك الدين والتقاليد . أشهر دراماته بيت العروس (La maison de poupée) ، والأرواح ، والكنار الوحشى

يتبع **(الزيات)**

(١) كان شكسبير يسمى بعض رواياته مآسى ، وبعضها ملاهى . ولكن معنى هاتين الكلمتين كان يختلف إذ ذاك اختلافاً شديداً عما نريده منهما الآن . فقد كانوا يطلقون الملهاة على كل رواية خيالية الموضوع سواء أضحكت أم لم تضحك ، والمأساة على كل رواية حقيقية الموضوع سواء تأثر بالخيال أم لم يتأثر

من مشكلات الحياة

قصة فتـــاة

تلقينا هذه الكلمة من فتاة سورية فلخصناها وعرضناها على القراء كما شاءت . وسننشر فى موضوعها ما نراه أحجى بالنشر وأدنى الى الغرض

كثيرات هن اللواتى يغبطننى على حياتى ، ويتمنين لو أتاح لهن الحظ حياة مثلها . يرون فىّ كما يرى بقيـة الناس شابة جميلة ، أربح من وراء مهنتى مبلغاً يدنى حياتى من الرفاهية ، وماذا أبتغى من الحياة بعد ؟ . . .

ولـكن آه ! لشد ما أعانى من الألم فى اخفاء حقيقة نفسى ، وظهورى أمام الناس بهذا الوجه الباسم ، والعينين الممتلئتين نشاطاً واغتباطاً وبهجة . حقاً إن أشقى الناس ذلك الذى ينزل الى قرارة نفسه ، وهناك فى أعماقها يدفن ما يعانى من ألم ممض وشقاء ملازم — وهكذا الأيام تمر ، والسنون تكر ، وآلامى مدفونة لا أستطيع الجهر بها حتى لأقرب الناس إلىّ ، لأنهم هم مسببوها ومُصَعّبوها من حيث يشعرون أو لا يشعرون . . .

ولدت فى أحضان الترف والنعيم ، وربيت فى حجر الدلال والرفاهية ، محاطة بالحب ، مغمورة بالأعزاز ، ولـكن ما كدت أتجاوز العاشرة من العمر حتى أصيب والدى بنكبة ماليـة زعزعت كياننا وقلبت كل شىء رأساً على عقب . كنت صغيرة حينذاك ، ومن كانت فى هذه السن لا تهتم إلا بالمرح واللعب ، ولـكن كان الأمر معى على النقيض ، بدأت أشعر بفداحة المصاب وأتألم بقلبى الصـغير ألماً هادئاً ساكناً ؛ ولما كنت بكر والدىّ ، وكنت محور آمال أبى لما يرى من جدى واجتهادى فى المدرسة ، كان يؤثرنى بعطفه ويخصنى بمحبته . كان لا يرى بدأ من تعليمى والأنفاق علىّ . وفى الرابعـة عشرة من عمرى أرسلنى الى مدرسة ليلية أجنبية بعد أن نلت الشهادة الابتدائية بتفوق عظيم ، ولقد مضى على هذه الحادثة ما مضى وأنا أتصورها بنت الساعة . أودعنى ذلك الوالد الحنون المدرسة ، وأوصى بى الرئيسة والأخوات خيراً . وبعـد ثلاثة أيام زارنى قبل سفره ليستفهم عما إذا كنت فى حاجة الى شىء ؟ وأعلمنى بعزمه على السفر ، وزودنى بنصائحه الغالية ، فاغرورقت عيناى بالدموع ، وتـكلفت الابتسام لأخفى ألمى لهذا الفراق الذى كان أول عهدى به ، فضمنى الى صدره وغمر رأسى بقبلاته ثم بكى ، وكأنه أبصر بعينى بصيرته ما ينتظرنى من ألم وشقاء

قضيت حياة المدرسة ، وبدأت حياة العمل لأرفه عن هذا الوالد الحنون بعض مايعانيه فى إعالة أمى وأخواتى ، مغتبطة فى قرارة نفسى بأننى استطعت أن أكافئه بعض المـكافأة . ولـكن جمالى وثقافتى وسيرتى الحسنة بين أترابى كانت تستثير الناس لطلب يدى ؛ ومامن شاب من الطبقة الراقية فى تعليمها أو فى ثروتها إلا تمنى أن أكون له ، ولـكن كان الجواب دائماً سلبياً ، ولما كان قلبى لم يتفتح لحب بعد ، كنت لا أعير هذه المسائل شيئاً من الاهتمام ، وكنت أعتقد أن كل فتاة تقدم على الزواج مجنونة ولا أريد أن كونها

قاوم أبى تلك النكبات التى كانت تهاجمه بصبر وثبات ، ولـكنها أخيراً خرجت عن طوقه فأصيب بالشلل ، وها هو الآن ليس بالميت فينسى ولا بالحى فيُرجى . وخلف لى أعباء ثقالاً لا قبل لمن كانت فى مثل سنى باحتمالها ، وشعرت بخطورة المسئولية الملقاة على عاتق ، فكنت أقضى نهارى فى العمل على الآلة الكاتبة وأعود فى المساء باشة هاشة ضناً بوالدتى عن أن أحملها هماً فوق هم ، وبأخواتى اللواتى ينتظرن من عودتى الملاطفة والحلوى عن أن أخيب أملهن . المستقبل قاتم لا ألمح فيه قبساً من أمل ، والغد مجهول لا أعلم ماذا يحمل بين طياته ، ولا أدرى ماذا يكون المصير

طالبو الزواج يريدوننى بالحاح ، وأمى ترفض بدعوى أن ليس بينهم من يستحق يدى ، فـكل شاب لا يخلو من عيب ، وهى تريده ملاكاً لملاكها ، إذاً فلننتظر ولننتظر ، ولـكن الانتظار طال . وفهمت ، ولـكن فى وقت متأخر أنها محاولات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب . فشقيقاتى الصغيرات تزوجن ، ووالدتى لم تبد فى أمرهن تلك الملاحظات التى عودتنيها ، واثنتان منهن أصبحتا أُمَّين ، وأنا أنظر بعينى والألم يصهر نفسى والأباء يعقد لسانى عن الافصاح بما يخالجنى . هى تريد إبقائى عذراء ، أشتغل وأشتغل حتى الموت لأعولها مع بقية أطفالها . ولو أنها أفصحت لى عن غايتها لـكتبت لها صكاً على نفسى أننى سأظل أشتغل الى أن يكبر أطفالها !! هى تحبنى ، لا أشك فى ذلك ، ولـكن هذا لأننى أبذل فى إسعادهم قلبى ومستقبلى وسعادتى !!

لقد ضقت ذرعاً بهذه الحياة ولم يبق فى قوس الصبر منزع . خلقتُ أنثى وحرمتُ ما ينعم به مثيلاتى ويسعدن ، واشتغلت كالذكور وحرمت الحرية التى يتمتع بها الذكور !!

لذلك عولت على أن أطرح هذه الصفحة الوجزة أمام قراء « الرسالة » وقارئاتها علنى أجد بينهم من يرشدنى برأى ينقذنى من هذه الحيرة ؟ (. . .)

من تراثنا العلمى

فضائل مصر لابن زولاق

وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة

للأستاذ على الطنطاوى

قال مؤرخ مصر الأستاذ عنان فى كتابه مصر الاسلامية إن لابن زولاق كتاباً يسمى فضائل مصر، وقد يسمى أخبار مصر، وإن بعض المؤرخين نقلوا عنه. وقد رأيت نسخة من هذا الكتاب فى المكتبة العربية العامرة فى دمشق أطلعنى عليها صديقى الأديب الأستاذ احمد عبيد وهاك وصفها :

مخطوط يقع فى (٦٣) صفحة من القطع المتوسط، فى كل صفحة (٢٥) سطراً، وهو مكتوب بخط قريب من النسخ، وليس فيه ما يدل على تاريخ نسخه، وإنما يوجد فى آخره هذه العبارة :

« طالعت هذا الكتاب المسمى بفضايل مصر وصفاتها للشيخ ابن ذولاق الليثى رحمة الله عليه وعلى كاتب هذه الحروف ومالك هذا الكتاب الحاج ابراهيم الشكورى الطرابلسى والمسلمين . تحريراً بأواخر شهر ذى الحجة فى سنة ١١١٥ ألف ومائة وخمسة عشر »

أما صفحة العنوان ففيها اسم الكتاب :

« كتاب فضايل مصر وصفاتها لابن ذولاق الليثى رحمه الله آمين » وفيها أسماء الذين ملكوا الكتاب، بعضها ظاهر، وبعضها غير ظاهر، وهى مكتوبة بخطوط متباينة :

السيد هاشم باكيكج

الحمد لله . ملكه أفقر الورى أحمد الرشيدى الشافعى الأزهرى.

فقير عفو ربه الغنى عمر العمرى

الفقير محمد العمرى سنة ٢٠٩

الفقير محمد سعدى العمرى

***

وجاء فى أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على القوم الكافرين . الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى

١ — قال أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن ابن على بن خالد — راشد بن عبيد الله سليمان بن ذولاق الليثى (١) :

هذا كتاب جمعتُ فيه جملة من أخبار مصر وفضايلها وصفتها، اختصرته من كتابى الكبير فى (تاريخ مصر وأخبارها) ولم أذكر فى هذا الكتاب إسناد الخبر ليقرب على من أراده، وبالله التوفيق

فأول ما ابتدئ من ذلك، أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، ذكر مصر فى ثمانية وعشرين وصفاً فى القرآن (وعدد الآيات التى فيها ذكر مصر، أو فيها إيماء إليها، وذكر ما قاله العلماء فيها)

***

٢ — باب ماروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ستفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فان لهم ذمة ورحماً . (وسرد كثيراً من الأحاديث التى تدل على فضل مصر وأهلها، ولكنه أوردها مجردة من الأسانيد، ولم يذكر درجتها ومخرجيها)

٣ — ذكر دعاء الأنبياء عليهم السلام لمصر

٤ — ذكر وصايا العلماء لمصر ودعاؤهم لها :

قال سعيد بن أبى هلال : إسم مصر فى الكتب السالفة أم البلاد . وقال عبد الله بن عمرو : أهل مصر أكرم الأعاجم، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة، وبقريش خاصة (وذكر مثل ذلك عن آخرين)

٥ — ذكر من ولد بمصر من الأنبياء، ومن كان بها منهم

٦ — من كان فيها من الصديقين والصديقات :

(ذكر مؤمن آل فرعون وآسية امرأة فرعون، وأم اسحاق ومريم ابنة عمران وماشطة بنت فرعون، وأن إبراهيم تسرى بهاجر أم اسماعيل، وتزوج يوسف بنت صاحب عين شمس . وذكر مارية القبطية الخ . . .)

٧ — وأن مصر بلد الحكمة والعلم ومنها خرج الحكماء الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمتهم وتدبيرهم، فمنهم ذو القرنين وهو الاسكندر (وذكر القرية التى هو منها وذكره فى القرآن

(١) والمعروف فى كتب التراجم أنها زولاق بالزاى لا بالذال

وأنه به سميت الأسكندرية ، وأنه بنى اسكندرية أخرى ببلاد الخزر وثالثة ببلاد الروم الخ . .) ومن مصر جماعة الحكماء ، هرمس[1] وهو المثلث بالنعمة ، نبيّ وحكيم وملك (وعدّ فيمن خرج منها طائفة كبيرة من الفلاسفة والحكماء ثم قال) فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤها الذين ورثوا الحكم . من مصر خرجوا وبها ولدوا الخ . وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأول طلبة العلم الخ . . وبمصر من العلوم التى عمرت بها الدنيا علم الطب اليونانى الخ . .

٨ — ذكر من ملك مصر من الطوفان إلى أن فتحت بالاســـلام :

ملك مصر ثلاثة وخمسون ملكا ، أولهم مصر بن نيصر بن حام بن نوح . وآخرهم هرقل الرومى وكسرى الفارسى ، منهم أربعة وثلاثون فرعوناً ، ممن طغى وتكبر وادعى الالـهية ، ومنهم من عمّر أربعمائة سنة وأقلّ وأكثر ، ولم يكن أعتى ولا أشدّ من فرعون موسى ، ولم يكن من أولاد الملوك ، وإنما أخذ مصر بحيلة (وذكر هذه الحيلة ، ثم جاء بأخبار طويلة عنه وعن بختنصر ، ولم يسمّ إلا قليلاً من سائر الفراعين)

٩ — ذكر من ملك مصر فى الاسلام من الولاة منذ فتحها عمرو بن العاص فى سنة عشرين من الهجرة الى سلخ شعبان سنة اثنين وستين وثلاثمائة (واثنى عشر)

أولهم عمرو بن العاص وآخرهم جوهر ، منهم أربعة عشر من بنى هاشم ، وعشرة من قريش ، واثنان من الأنصار ، وسبعة وثلاثون من سائر العرب ، واثنان وأربعون من الموالى ، الى أن دخلها المعز لدين الله أبو تميم — بن اسماعيل المنصور بن محمد القائم ابن عبد المهدى ، وصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وقد عملت فى ذلك كتاباً

١٠ — ذكر من دخل مصر من الخلفاء قبل المعز (عدّ فيمن دخلها منهم ابن الزبير فى الجيش الذى فتح المغرب لأيام عثمان ، ومعاوية بلغ الى عين شمس ولم يدخلها ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الخ . . .)

١١ — ذكر عمال الخراج بمصر ، وذكر قضاتها :

ولى بمصر من عمال الخراج منذ فتحها المسلمون الى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة ، واحد وعشرون ، منهم من جمع لهم الحرب والخراج ، ومنهم من انفرد بالخراج (وعدّ طائفة منهم ثم قال :) وقد شرحت ذكرهم فى التاريخ

وأما قضاتها منذ فتحها الى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة فهم واحد وستون قاضياً ، أولهم قيس بن أبى العاص وآخرهم على بن النعمان ، فمنهم من أقام خمساً وعشرين سنة مثل بكار بن قتيبة ، ومنهم من بلغ عشرين سنة وأقل من ذلك ، وأقل من وليها يحيى ابن أكثم ، ولىَ ثلاثة أيام والمأمون بمصر ، ثم صرفه وسيّره معه الى الثغر

١٢ — ذكر من دخل مصر من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ومن توفى بها منهم

١٣ — ذكر من كان بمصر من عيون العلماء والرواة وطبقاتهم : يزيد بن أبى حبيب ، وعمرو بن الحارث ، والليث ابن سعد[1] والمفضل بن فضالة ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب بن عبد العزيز الخ .. وسكن بمصر محمد بن ادريس الشافعى الخ .. وكان بمصر جماعة بعد هؤلاء : أيوب بن سليمان الفارضى ، ويوسف بن يحيى البويطى ، وأحمد بن صالح ، واسماعيل بن يحيى المزنى الخ .. وكل هؤلاء مُفْتٍ ، ومنهم من يفتى فى علوم ، وقد سارت مؤلفاتهم

وكان بمصر من المحدثين المسندين : حرملة بن يحيى وعيسى بن حماد ويونس بن عبد الأعلى الخ . . والحسن بن على بن زولاق جد أبى ، وجماعة سوى هؤلاء . وكان بعد هؤلاء جماعة منهم محمد ابن زمان واسماعيل بن داود الخ . .

وكان بمصر من الفراض المؤلفين : أيوب بن سليمان والحسن ابن محمد الخ . . . وكان بمصر من عيون حفاظ الحديث محمد بن أحمد بن عبد الحميد الخ . .

وكان بمصر من رواة الحديث والأخبار والفقه : سعيد بن عفير وسعيد بن أبى مريم الخ .. وبعد هؤلاء الحسن بن على بن زولاق جد أبى ، ويحيى بن عثمان الخ . . وبعد هؤلاء على بن حسن بن قديد الخ . .

وكان بمصر من عيون النحويين عبد الملك بن هشام ، ومحمود النحوى الخ . .

وكان بمصر من عيون الشعراء الخ . ونصيب وجميل وبها توفى . والأحوص وابن قيس الرقيات وأبو نواس الخ . . وجعفر

(١) قال فى موضع من الكتاب أن هرمس هذا هوادريس

(١) سنفرده بالترجمة فى (رسالة) آتية

ابن حدار ويوسف بن المغيرة والحسن بن عبد السلام واسماعيل ابن أبي هاشم ومحمد بن الحسن الخ . .

وكان بمصر من المتكلمين حفص المقرى واسماعيل بن يحيى الخ

وكان بمصر من النساب هانى ْبن المنذر ومحمد بن أحمد الحداد الخ

وكان بها من الزهاد وأصحاب الوعظ سليمان بن... (وعدّ جماعة)

١٤ — ذكر عيون أشراف مصر ومن دخلها من آل أبي طالب وأول من دخل منهم :

قال : كانت مصر دار تشيّع منذ أيام محمد بن أبي بكر ، وهرب من مصر جماعة من شيعته — عند دخول مروان بن الحكم اليها وماصنعه بأصحاب مسجد الاقدام — وكان أهل مصر لا يؤوّلون فى فتاويهم إلا بما يردّ جواب جعفر الصادق رضى الله عنه

وسافر إلى مصر جماعة من العلوية ، وكان أول علوى دخل مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبي طالب ، دخل يدعو إلى بيعة أبيه وعمه ، فسعى به إلى حميد بن قحطبة أمير مصر ، فراسله سراً إشفاقاً عليه الخ . . وتوفى على بن محمد بريف مصر الخ . .

ثم دخلها اسحاق بن جعفر بن محمد الخ . . ومعه زوجته نفيسة بنت زيد وتوفيت بمصر فأراد حملها إلى المدينة فسأله أهل مصر دفنها بمصر ، واتخذوا قبرها مشهداً وهو باق إلى اليوم معروف . ثم دخلها محمد بن جعفر الخ . . وكلثوم صاحبة القبر المشهور ابنته (وذكر سائر من دخلهامنهم وأخبارهم ووفاتهم فى فصل طويل)

١٥ — ذكر من حدّث بمصر من ولد ابى طالب (عدّ أسماء جماعة منهم ثم قال) ولو شرعت فى شرحهم لخرج الكتاب عن فنه

١٦ — ذكر من عدّل بمصر من العلويين وقبل القضاة شهادتهم

١٧ — ذكر من كان بمصر من وجوه العباسيين

١٨ — ذكر التشيع بمصر والبيوتات المتشيعة :

قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر : أقلبت [1] أهل مصر عن التشيع إلا جماعة : يعنى بيت بنى لهيعة وبنى نُباته ، وكان أهل مصر يكتبون بمسائلهم إلى جعفر الصادق رضى الله عنه ولا يعدلون عن فتْياه . ولما قدم عليهم اسحاق بن جعفر حفّوا به كالكعبة ، ولما توفيت زوجته نفيسة الخ . .

وأما البيوتات المعروفة بمصر بالتشيع المكشوف قديماً فمنها : عبيد الله بن لَهيعَة وعباس بن لَهيعَة ، وكان الليث بن سعد فقيه مصر لما أحرقت دار عبيد الله بن لهيعة أرسل إليه الليث بألف دينار وقال استعِنْ بهذه وأعفِنا من فضائل على بن أبي طالب ، فأخذها عبيد الله وأنفذ إليه حديثاً من فضائل على ليغيظ به الليث !

ومنها بيت الحسَن بن على بن زولاق جد أبى . بيت علم ونسك وفقه ورواية ، وإنما احتمل له التشيع لفقهه وإتقانه وتفقّهه فى الرواية ، وكان مقبول الشهادة منذ سنة عشرين ومائتين إلى أن توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وكان عليه قولاً لا يُملى حديثاً أو يبتدئ بفضائل على رضى الله عنه

وكان بعده ابنه الحسين جدى ، وابن ابنه ابراهيم والدى رحمه الله . ومنهم . . (وعدّ طائفة منهم)

١٩ — ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان

٢٠ — ومصر فرضة الدنيا الخ . . وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين والى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر

ومن جهة دمياط والفرما ، فرضة بلد الروم وأقصى الأفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام إلى حدود العراق

ومن جهة الاسكندرية فرضة أقريطش وُصقلية وبلد الروم والمغرب وبلد البربر والحبشة والحجاز واليمن

وأما ما فيها من ثغور الرباط ، فمن ذلك رباط البرلس ورباط رشيد ورباط الأسكندرية ورباط ذات الحمام الخ . . وما ينضاف إلى هذه الثغور وجهاتها الخ

وكانت برقه وطرابلس من ثغور مصر إلى إن خرجت منها فى سنة ثلثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب

٢١ — وأما المساجد الشريفة (فعد منها كثيراً ثم قال) وبمصر مساجد الصحابة سوى ما ذكرناه . . . عدتها مائتين ثلاثة وثمانين مسجداً (؟) كانوا يبنونها بالآجر الأحمر ويبنون منازلهم باللبن وأكثرها باق إلى اليوم . منها . . (وعدّ طائفة منها ، ثم قال) هذه مساجد الخطط التى بناها أصحاب رسول الله (ص) سوى ما حدث بعدهم وبعد استقرار الخطط الخ . . وبالقرافة ونواحيها مساجد منها : مسجد الاجابة ، ومسجد الكرب ، وبها دار الأبرار

٢٢ — وبمصر من البقاع الشريفة :

(عدّ ما شاء ثم قال :) ولولا أنى اشترطت الاختصار وأن أذكر عيون كل من الأخبار لأطلت كتابى هذا

للبحث بقية

على الطنطاوى

(١) لعلها أقلعت

من الأدب الأندلسي :

٣ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

رأينا فى المقال السابق كيف راح ابن شهيد يتهكم بالأدباء الذين غمطوه فضله حقداً عليه ، وحطوا من قدره حسداً له ، وقد أبدى ابن شهيد — وهو بسبيل الكلام على أدب هؤلاء الأدباء — كثيراً من الآراء فى النقد والبيان هى أهم وأقوى ما اشتملت عليه التوابع والزوابع ، بل هى أهم وأقوى ما لابن شهيد من الآثار الأدبية ، حتى من شعره على عذوبته ، ومن نثره على ملاحته ، فنحن بلا خلاف نعتقده الناقد الأول بين النقاد الأقدمين فى الأدب العربى ، ولكننا بلا خلاف لا نعتــبره الشاعر الأول ، ولا الكاتب الأول . ولما كانت هــذه الآراء قد جاءت متناثرة فى الرسالة ، رأينا من الخير أن نجمع شتاتها وأن ننظمها فى سمط واحد ، حتى نتبين منها مذهب الرجل فى النقد واضحاً جلياً . وإذا كانت هذه الآراء قد شابها شىء من حقــد ابن شهيد وضغنه على معاصريه ، إلا أنها آراء صحيحة ثابتة ، تزداد على طول الزمن صحة وثبوتا . وهذه الآراء فى مجموعها تنقسم الى شــقين ، شق يرجع إلى شخصية الأديب ، وآخر يختص بالآثار الأدبية ، وإنما نعنى بشخصية الأديب مواهبه العقلية ، واستمداده الفطرى ، وسعة معارفه ، وهذه ناحية قد أبدع فى بحثها ابن شهيد أيما ابداع ، وله فيهـا آراء قوية لم يسبقه اليها ناقد فيما نعلم ؛ فقــد حاول أن يستخدم العلم والفلســفة فى دراسة الشخصيات وتفهم الملكات الأدبية فى الشخص ، ومقدار استمداده وطبعه ، والطبع — عند ابن شهيد — هو أهم ركن فى شخصية الأديب ، بل هو المرجع الذى يرجع اليه سر البلاغة . فمن كلامه : « إن البيان ذهبة إلــهية لا علاقة لها بالنحو والصرف ، واللغة والغريب ، وإن الاختلاف الى الأساتيذ ، والتوفر على الدرس والبحث فى بطون الــكتب ، كل هذا لا يجــدى ولا ينفع إذا لم تــكن ثمة فطرة سمحة ، ونفس مجلوة ، وطبيعة مواتيــة . وقد روى فى ذلك أنه التقى فى وادى الجن بشيطان أنف الناقة (وهو على علاته ذى علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية) فأراد ابن شهيد أن يناوشه فى اللغة والنحو ، وطلب منه أن يطارحه كتاب الخليل وشرح ابن درستويه ، فقال الشيطان : أنا أبو البيان . وقد علمنيه المؤدبون ، قال ابن شهيد (ليس هو من شأنهم ، وإنمـا هو من تعليم الله حيث يقول : الرحمن علم القرآن . خلق الانسان علمه البيان) وانما أنت كمغن وسط ، لا يحسن فيطرب ، ولا يسىء فيلحى ، وليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نَفَسك من نَفْسك ، وتليك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه »

وقد بحث ابن شهيد فى مقدار الطبع وتركيبه فى النفوس ، وأثره فى صور الــكلام وتفويق المعــانى ، وذهب فى البحث مذهباً فلسفياً فقال : « مقدار طبع الانسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من أصل تركيبه ، كان مطبوعا روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيآتها ، وأروق لباساتها ، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والــكمال » ومن رأى ابن شهيد أن للأعضاء الظاهرة تأثيراً على الملكات الباطنة ، فتجده يقول فى جماعة من أدباء قرطبة « إنهم يدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة ، وتقصــيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم ، والباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب ، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى ما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القمحدوة ، والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وازوراء الأرنبة »

وهذا المذهب قريب الشبه من مذهب النقاد الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين استخدموا القوانين العلمية فى النقد الأدبى ودراسة الشخصيات ، وهو أشد قرباً من مذهب الناقد المشهور « سانت بوف » . فقد كان هذا الباحث يعمل على تطبيق علم التشريح ، وعلمى — الفسيولوجيا والبسكولوجيا — على تراجم الشعراء والــكتاب ، وكان يتعمق فى بحث النفسيات ، ويهتم بالعرض كما يهتم بالجوهر ، ويبحث عن شكل صاحب الترجمة الظاهر ، من الطول أو القصر . والنحول أو البدانة ، والقبح أو الجمال ، ليستطيع أن يدرك مقدار استمداده ومواهبه ، وما عنده من صفاء الروح وقوة الطبع . ولــكن ابن شهيد كما ترى

له فضل السبق الى تقرير هذه الآراء ، ولقد أصاب ابن شهيد فى كل ما قرره ، ووفق فى شرحه وتعليله ، فلا جرم أن الطبع هو سر البلاغة ، ومبعث الصفاء وحسن الرونق فى صور الكلام ، وأن علوم اللغة والنحو والتصريف لا تجدى مع القلوب الغليظة ، ولا تخدم فى الفطن الحمئة ، وإنما يسمو الكلام ويرتفع بقدر سمو طبع قائله ، وشرف نفسه وصفاء روحه ؛ وليس معنى هذا أن ابن شهيد يطلق الكلام فى الحط من قيمة علوم اللغة والغريب ، أو ينكر فائدتها فى تكوين شخصية الأديب ، بل إنه يقرّ بفضلها ويعترف بفائدتها كعامل مساعد على نمو الطبع وتقوية الروح ، إلا أنه يرى أن استعمال الغريب واستخدام النحو مما يحتاج الى الدقة والبراعة ، فليس من الفصاحة أن تخرج العبارة فى أى وضع نحوى ، أو تجرى غريب اللغة على أى وجه كان ، ولكن الفصاحة أن تختار أملح النحو وأفصح الغريب ، بمعنى أن تكون العبارة على الوضع النحوى الذى يتفق والمعنى البيانى ، وبمعنى أن تكون الكلمات الغريبة فى وضعها اللائق ، ومكانها المناسب ، فان بين الألفاظ قرابة يجب أن تراعى فى الوضع . وقد جلا ابن شهيد هذه النظرية الدقيقة فى حكاية رواها عما كان يقع بينه وبين تلاميذه فقال :

« جلس إلىّ يوماً يوسف الأسرائيلى ، وكان أفهم تلميذ مرّ بى وأنا أوصى رجلاً عزيزاً علىّ من أهل قرطبة ، وأقول له إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال : أى والله ، قلت وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر . أفهمت ؟ قال : نعم ، قلت وكما تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه ، قال : أجل ، قلت : أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لعمرك أنى يوم بانوا فلم أمت ... خفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن براح مطير

فقال : أى والله ، وقعت « خفاتا » موقعاً لذيذاً ، ووضعت « رميت » و « متن الطريق » موضعاً مليحاً ، وسرى « غصن براح مطير » مسرى لطيفاً ، فقلت له أرجو أنك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم ، فاغد علىّ بشيء تصنعه . وكان ذلك اليهودى ساكتاً يعى ما أقول ، فغدا ذلك القرطبى فأنشدنى :

حلفت برت مكة والجبال ... لقد وزنت لروسى بالجبال

فى أبيات تشبهه ، وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيم ركبانهم منعجا ... وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر الى آخر القصيدة فأتى بكل حسن . فقال لى ذلك القرطبى شعر اليهودى أحسن من شعرى ، قلت : ولا بأس بفهمك إذا عرفت هذا ، ولم يزل يتدرب باختلافه الى حتى ندى تربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه . . »

والظاهر أن مسألة استعمال الغريب واختيار الألفاظ كانت من المسائل التى شغلت أذهان النقاد فى عصر ابن شهيد وقبله ، فقد عالج هذه الناحية أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ؛ وكان من رأيه « أن تخيّر الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض من أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته ، فان أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه . . . فينبغى أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقا هاديه[1] لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطراره ، فتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، فان تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام » والظاهر أن العسكرى قد تابع غيره فى هذا الكلام ، فقد روى عن أبى أحمد . . أنه قال : « كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب ، نختلف الى مدرك نتعلم منه الشعر . . فقال لنا إذا وضعتم الكلمة بلفقها كنتم شعراء » وقد يطول بنا القول ، لو أخذنا نتقصى أقوال النقاد فى هذه الناحية ، وإنما آثرنا كلام العسكرى لأنه فى مجموعه قريب الشبه بكلام ابن شهيد ، فقد قال بتآخى الكلمات ، وتخيّر الألفاظ ، ومراعاة الحروف ، وهذا هو معنى قول ابن شهيد : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة » إلا أن كلام ابن شهيد أدق وأعم ، كما إنه يمتاز بالقول فى اختيار الوضع النحوى للكلام مما سماه ملاحة النحو ، وهذا مالا يسبقه اليه أحد من النقاد ، فحبذا لو درج الأدباء فى أساليبهم من هذه الجهة على النهج الذى أوضحه ابن

---

(١) الهادى العنق

من شعر الشباب

من القلب

« مهداة إلى صاحب الملاح التائه »

قلبيَ الخفّاق أضناهُ الحنينْ   وَبَرَتْه الذكريات القاتِلهْ
وهو في ذكراه مُلْتاعٌ حَزِينْ   يتعَزّى بالأماني الخاتِلهْ

ضَجّ في أنحائه الحبُّ الحبيسْ   وسرى في الكُرةِ الكبرى صَداهْ
إنْ هَفَتْ للحبِّ أطماح النفوسْ   (فالحياة الحب والحب الحياه)

ياحبيبي هزّني الشوق إليكْ   هزّةَ الغصنِ بيومٍ عاصفِ
أنا أحْنَى منكَ يا روحى عليكْ   شَدَّ ما أشقى بحبى الجارفِ

ذاك روحى ماثلٌ بين يديكْ   فاشف جُرحاً من جِراحات الهوى
أنا روح ذائبٌ فى راحتيكْ   ذاب شوقاً من تباريح الجَوَى

يا حبيبى أنا فى الدنيا خيالْ   أتراءى كالشعاع الشاحبِ
مُسْتَطار بينَ خَبْوٍ واشتعالْ   أتعزّى بالخيال الكاذبِ

أنا من دنيا المُنَى مبتئسُ   لاأرى فى الكون نُعْمَى أرتجيها
هل جَنَى الأقوام ما قد غرسوا ؟   إنها دنيا تُسجِّى عاشقيها ! !

ياعزاء النفس ، يا لحن الأسى   يادموع القلب : ياشعرى تَدَفَّقْ
لحنُكَ الباكى بأنّاتى انْتَسَى   فاذِبْ قلبى وبالروح ترَفَّقْ

يا مَراح الحب يا مهد الغرامِ   ياهَتُون الدمع : ياقلبى الجريحْ
هـذه الدنيا كأطياف المنامِ   لَفَظَتْ(موسى)وضاقت(بالمسيحْ)

فى سكون الليل تَبْدُو غرفتى   كشراعٍ رَفَّ فى اللُّجِّ البعيدْ
مَلّ طيف الُحب فيها وحدَتى   فشدا يُسمعنى لحنَ الخلودْ

أنا فيهـا ساهم مُنْفَرِدُ   أسْتَشِفُّ الكون من عليائها
أنا فى روض غرامى غَرِدُ   أتلقَى الوحى من أرجائهـا

عجباً للناس ، سامُونى العـذابا   وأرادُونى على ما لم أطقْ
كيف أختار (الثعابين) صحابا   أوَليس الغدر فى الناس خُلُقْ ؟!

مَنْ له روحٌ كروح الشاعر   فَنِيَتْ فى خدمة الناس جميعاَ
إنْ همُ أنُّوا لِظُلْمٍ جائرِ   صَهَرَ القلبَ وأذْرَاهُ دُمُوعاَ

مَنْ رأى الشاعر يعْنَى بشئونهْ   من رآهُ مُطرِقاً فى أمْرِهِ ؟؟
إنما الشاعر آسٍ — فى سكونهْ   لجراحاتِ الورى فى شعرهِ

اسكندريه   **عبد الرحمن عثمان على**

شهيد ، فانهم يخدمون أساليبهم ، ويخدمون لغتهم باحياء كلمات اللغة المهجورة التى تصلح للاستعمال والتداول

بقيت ناحية فى كلام ابن شهيد السابق ، وهى قوله بتأثير الأعضاء الظاهرة على الملكات الباطنة ، فهذا كلام صادق الى حد ، بمعنى أنه لايطرد فى كل الشخصيات ، فليس من الأنصاف أن نتخذه مقياساً للنبوغ ، أو قاعدة نبنى عليها الحكم على الآثار الأدبية ، وليس أدلّ على هذا من إخفاق ابن شهيد نفسه حينما أراد أن يسوق الشواهد لاثبات هذا الرأى ، فقد اضطر أن يفضل سهل بن هرون على الجاحظ ، واستباح لنفسه أن يرمى الجاحظ بالغفلة وسقوط الهمة ، والنقص فى أدوات الكتابة ، ثم راح يشرح ويدلل على هذا النقص فقال : « وربما أنكر قولنا فى شرط جميع أدوات الكتابة ، فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالماً غير عاقل وجدلياً غير حصيف . وفقيهاً غير حليم ، وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ . . . ولو شاهد الجاحظ سهلاً يخادع الرشيد ملكاً ويدبر له حرباً ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضاً فى ذلك كله بعقله وتجربة علمه ، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، فى صفة غراميل البغال ، وغير الكلام فى الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين المعلم والكاتب فرقاً »

وهذا كلام قد تعثر ابن شهيد فى إيراده ، فلا نجده ينهض من جهة إلا ليسقط من جهة أخرى ، فالجاحظ أكتب كتّاب العربية غير مدافع ، وابن شهيد يقول إنه لا يوجد كاتب غير عاقل ، فكيف إذن يرميه بالغفلة وقلة العقل ، وكيف يقدم عليه سهلاً لبراعته فى مخادعة الرشيد ، وسياسة الأمور ، وهذه ناحية لاتقتضى من العقل أكثر مما يقتضيه القول فى صفة غراميل البغال ، وبنات وردان ؟ فان براعة الكاتب إنما تظهر فيما تفه من الأمور . وهيهات أن تخرج العربية خدناً للجاحظ فى هذه الناحية . . . ؟

« للبحث بقية »   **محمد فهمى عبد اللطيف**

حب الشكور (١)

إنْ لمْ أُحبَّكِ للسَّنا والنُّورِ ... وَلِحُسْنِ وجهٍ في الحياةِ نَضيرِ
وَلِسِحْرِ رُوحِكِ حينَ يختلسُ النُّهى ... مِنِّي فأَتْبَعُهُ اتّباعَ سَحِيرِ (٢)
وَلِما تضمَّنتِ الجمالَ فأفصحتْ ... بِكِ مِنْهُ ساحرةٌ منَ التعبيرِ
وَلِما ابتدعتِ وما منحتِ منَ الهوى ... للكونِ، أو أحييتِ مِنْ مقبورِ
إنْ لمْ أُحبَّكِ حُبَّ مفتونٍ، ولا ... حُبَّ الأسيرِ، إذن فحبَّ شكورِ!

***

حُبَّ الذي أحييتِ فيه حياتَهُ ... مِمّا لديكِ منَ الحيا المذخورِ
ووهبتِهِ مِلْكَ الحياةِ. وطالما ... قدْ عاشَها كالعاملِ المأجورِ
ومنحتِهِ ماضيهِ بعدَ ضياعِهِ ... وأعذتِ قابلَهُ منَ المحظورِ
حُبَّ الذي أشرقتِ في وجدانِهِ ... فجلوتِ كلَّ مُحجَّبٍ مستورِ
وَنفختِ في عزماتِهِ فتوهَّجتْ ... وَسمتْ لكلِّ مُمنَّعٍ وخطيرِ

***

أوْ فلأحبَّكِ حبَّ مَنْ ألهمتِهِ ... شعراً، يضيء سناهُ كلَّ شعورِ
شعراً جمعتُ من الحياةِ زهورَهُ ... ومنَ الجمالِ نفحتُهُ بعبيرِ
ومِنَ الضياءِ وهبتُهُ آمالَهُ ... ومِنَ النَّدى عِلماً كوجهِ غريرِ!
وبعثتُهُ وحْيَ الحياةِ وفنَّها ... تجلوه ضمنَ جمالِها الأنورِ

***

أفلا أحبكِ؟ إنهُ لفريضةٌ ... حبُّ الشَّكورِ لواهبٍ مشكورِ

سيد قطب

(١) من ديوان يصدر أول يناير (٢) سحير بمعنى مسحور

عاصفة في قلب

عَيِيتُ بالقلبِ واستنكرتُ أحلامي ... وَنُؤْتُ بالعمرِ واستثقلتُ أيامي
حطَّمتُها أمسِ آمالاً مُذهَّبةً ... كانتْ تُهَدْهِدُ أحزاني وأسقامي
حطَّمتُها وهي في شرخِ الصِّبا مَلَلاً ... ما للمُنَى وفؤادي الموجعِ الدامي
مالي وَلِلحُلْمِ الرفَّافِ يُسعدُني ... في عالَمٍ مائجٍ بالشرِّ ظلّامِ
ما قيمةُ العيشِ لا تَلقَى بساحتِهِ ... من المُنى غيرَ أشباحٍ وأوهامِ؟!
كفرتُ بالحُلْمِ ما هامَ الغُفاةُ به ... فلستُ في هذهِ الدنيا بنوّامِ
أأقطعُ العمرَ كي أحظى بلذَّتِهِ ... وهمانَ تِربَ خيالاتٍ وأحلامِ
لدمعةٌ وأنا مُستيقظٌ أرِقٌ ... أحبُّ من حُلُمٍ كالزهرِ بسّامِ
أصبحتُ بعدَ الرُّؤى في مَهْمَهٍ حَلِكٍ ... من الحقائقِ داجٍ جِدِّ مِظلامِ
حيرانَ أخبطُ كالمجنونِ مُرتقباً ... نوراً يفيضُ فيمحو كلَّ إظلامِ
أسيرُ والدُّجْيةُ النكراءُ غاشيةٌ ... تزدادُ ما زدتُ في سيري وإقدامي
حتى رَجعتُ — وقد أخفقتُ في طَلَبي — ... مِنَ الشكوكِ ببحرٍ مُزبدٍ طامِ
هي الحقيقةُ ما تدنو مودَّتُها ... ولو وقفتُ عليها كلَّ أعوامي

وأنتَ يا خافقاً فى كهفهِ صخِباً
حتّامَ تمعنُ فى شجْوى وإيلامى
أأنْتَ معبدُ شكٍّ لا تنى قائماً
أمْ أنْتَ ياخافقى ناقوسُ آلام
هذى الحقائقُ تنأى عنك هاربةً
وأنْتَ مازلتَ فى شوْقٍ وتهْيام
تفرّقَ النـاسُ فيها كلٌّ ناحيةٍ
فكمْ ترى منْ (معرّىٍّ) و (خيّام)
منْ عهْدِ (سُقْراطَ) لمْ تبرحْ محجّبةً
طخياء، شتانَ بيْنَ النُّسْكِ والجامِ
ما روْضـةٌ برزتْ للعيْنِ سافرةً
إذْ جادها سحَراً دمعُ النّدى الهامى
تهيجُ فى الصبِّ نارَ الحُبِّ خابيـةً
وتملأ النفْسَ منْ وحْىٍ وإلهـامِ
ترى الطيورَ على الأفْنـانِ حالمةً
سكْرى تلهّى بألحانٍ وأنغـامِ
والنحْلُ يرْقصُ حوْلَ الزهْرِ منْتشياً
صبّاً ولوعاً بتقْبيـلٍ وتضْمامِ
هبّتْ على بِشْرِها هوْجاء عاصفةٌ
فخيّمَ البؤْسُ فيها بعـدَ إنْعامِ
لا طائرٌ ناغمٌ فى الرّوْضِ مرْتنحٌ
فوْقَ الغصونِ ولا نحْلٌ بحوّامِ
كالقلْبِ هبّتْ رياحُ الشكِّ تلفحهُ
فقطّعَ العُمْرَ فى عزْمٍ وإحْجامِ
أهكذا الكوْنُ أحْـلامٌ ملفّقةٌ
قرّتْ حقائقُها فى صدْرِ كتّامِ
تلقى أخا اللبِّ فى بيْدائهِ دهِشاً
حيرانَ يدْلجُ فى ريْبٍ وإبْهامِ

دمشق

أمجد الطرابلسى

كما أراك

يا شعلةً منْ جنونٍ وصـورةً للمجُونِ
وهيكلاً للأمانى ومعبَـداً للفتونِ
قدّسْتُ فيكِ شعاعاً يرفُّ فوْقَ الجبينِ
منغماً سرْمديّاً سكبْتِهِ فى حنينِ
تلألأ الكوْنُ منْهُ وشامهُ النّاسُ دونى
وتلكَ كأسُ الأمانى أترعْتِها منْ شجُونى
وأنْتِ نبْعُ قريضى وفتنـةٌ لعيُونى
وصُورةٌ فى خيـالى وبارقٌ فى دجُونى
ولمْحةٌ منْ ضيـاءٍ مسْكوبةٌ بجفُونى
وخطْرةٌ بضـميرى ونغْمةٌ فى سكُونى
عبدْتُها فى عـلاها وإنْ شجانى حنينى
وأنْتِ وحْىٌ خفوقٌ بدا بأفقِ الفنُونِ

***

فى هيكلِ الحبِّ شعْرى وقّعْتهُ منْ أنيني
يا شعلةً منْ جنونٍ وصـورةً للمجُونِ

حسن محمد محمود

في الأدب الانجليزي

شارلس مورجان

ومناحي التطور في القصة الحديثة

بقلم محمد أمين حسونه

— ١ —



شارلس مورجان

إن ظهور رواية شارلس مورجان «صورة في مرآة» ونفاد طبعتها في بضعة أيام، من شأنه أن يوجه أنظارنا إلى كاتب قصصي برز فجأة من بين المؤلفين العصريين، وامتاز بعبقرية فذة تجلت في سطور هذه الرواية كما تجلت في روايته الأخرى «النافورة» The Fountain التي هتف لها النقدة ورفعوها إلى الصف الأول بين الروايات التي ظهرت عقب الحرب الكبرى.

فبينما يحدثنا المؤلف عن هذا النوع الجديد من التصوف «حياة التأمل — Contemplative life» الذي يحيط بفصول روايته كهالة من القداسة، ويحلق بنا في الأجواء التي تخلد فيها أرواح أرسطو وأفلاطون وديكارت، إذ نراه في فصل آخر ينزل بنا إلى التحدث عن علاقة الأجساد بالشهوة، أي يعود بنا آدميين تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا، فيصف في صراحة مخيفة التبشير باللذة الجسدية وأثرها في العلاقات الجنسية وصفاً هو أشد وقعاً من الفن الذي ابتدعه الروائي الاباحي د. ه. لورانس

كان القصصيون إلى العصر الفكتوري يهتمون كثيراً بصنع قوالب لشخصيات شاذة ثم يصبون ماء الحياة فيها ويحملون القارئ على أن تعلق هذه الشخصيات بذاكرته. وكثيراً ما كانوا يملأون صفحات مملة باردة يصفون فيها نشأة أبطالهم وعوائدهم وطباعهم ونظرتهم إلى الحياة والدين والأخلاق. ثم تنتهي الرواية بترجيح كفة الخير على الشر. وكان اهتمام الروائيين في عصر الملك ادوارد موجهاً إلى تسجيل الحركات والدوافع والفضائل، وكانوا يلقنون البطل أقوالاً يعرب بها عن عقائدهم وأفكارهم ونزعاتهم ودروساً وعظات أخلاقية، أما الفن الروائي الحديث فيختلف عن هذا كله وينحو منحى جديداً، فقد جعل كتابه من أهم مظاهره تقريب الحياة إلى ذهن القارئ بأن يشعر كأنه يعيش في نفس البيئة والجو، كما يهتمون بتسجيل حركات شخصيات رواياتهم وخواطرهم ومشاعرهم الخفية ورسم أطياف أحلامهم وذرات تفكيرهم وارتباطها بنشاط العقل وإبراز العبقريات المدفونة وتقديسها، فالرواية الحديثة حوض بلوري تسبح فيه الرغبات والآمال، والأفراح والأتراح، وتشف من جوانبه الهواجس والأحلام....

ونحن نشعر لأول وهلة بعد مطالعتنا لقصص شارلس مورجان بهذه الصفات جميعاً، وبقوة جذابة في الأسلوب وفي اللهجة، قوة هادئة منظمة تسيطر على الأعصاب وتبدو من خلالها صفات المؤلف التي لا تمت مطلقاً لا إلى الواقعية ولا إلى التحليلية، بل إلى تجارب ثمينة وإرادة حديدية وفن إبداعي لم يسبقه إليه أحد

بدأ شارلس مورجان (١) حياته في البحرية الانجليزية وعمره سبعة عشر عاماً فطاف ببلاد وموان مختلفة، وقد تولد ميله إلى الأدب بتأثير حادث خفي. ولما زار أكسفورد للمرة الأولى راقته حياة الطلبة ودفعته رغبته في إتمام تعليمه وتعلقه وشغفه بالأدب إلى أن يؤثر الالتحاق بالجامعة على الأندماج إلى الأبد في سلك البحرية. غير أن شبوب الحرب العالمية حال دون أن يحقق رغبته فاضطر إلى أن يعود ثانية إلى العسكرية واشترك في الدفاع عن أنفرس إلى أن سقطت في يد الألمان فوقع في الأسر وأرسل إلى أحد المعتقلات العسكرية في هولندا ثم أفرج عنه عقب الهدنة وعاد إلى انجلترا ليلتحق ثانية بجامعة أكسفورد

كانت أول أعماله الأدبية روايته الأولى «غرفة البنادق» في عام ١٩١٩ وقد تحدث فيها طويلاً عن حياة البحرية، غير أنها قوبلت من جانب الصحف والنقدة بقلة الاكتراث لعدم

---

(١) بعض تفاصيل حياته استقيتها شخصياً من المؤلف بعد أن علم أني أنقل روايته النافورة إلى العربية

ذيوع اسم مؤلفها . وفى عام ١٩٢٥ أصدر روايته الثانية « اسمى لا عَدّ له » فكان نصيبها نصيب روايته الأولى

أحس مورجان بدبيب الفشل يتطرق الى نفسه ، وانصرف الى الوحدة والمطالعة وخاصة فى كتب الفلسفة والتصوف ، وفى عام ١٩٣٢ ظهر فى الجو الأدبى للمرة الثانية بروايتين : الأولى « صورة فى مرآة » ، والثانية « النافورة » يصفهما كلير اليان انجيل الناقد الفرنسى : « بأنهما ثمرة مجهود طويل دقيق ، أشرفت عليه إرادة جبارة تدل على نضوج فى الرأى وقوة فى التفكير » ويقول عنه محرر « النوفيل ليترير » فى معرض نقده لفن شارلس مورجان : « بأن أهم مميزات عبقريته تحفظه فى التعبير ، ولا يمكن مطلقا اتهامه بالبرود والجفاء لأن الأنفعالات المكبوتة قد لا تخلو من الاحساس ، ولهذا فأشخاص قصصه يشعرون ويتألمون ولكنهم يتهامسون دون رفع أصواتهم »

يمتاز أسلوب شارلس مورجان بفصاحة فى التعبير ، وربما كانت روايته «النافورة» مشوبة بشىء من الاسهاب فى الوصف ، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الوضع فى روايته الأخرى « صورة فى مرآة » غير متناسق فى مجموعه ، غير أن بعض نكات المؤلف الطريفة تعطينا شيئاً من الطلاقة الى جانب عبوس الموضوع . وقد جاءنا المؤلف أيضاً بأشباح هم أبسط تكويناً من أبطاله ، يعيشون فوق سطح الموضوع لا فى قاعه ؛ مثال هذا : وصفه فى القسم الأول من « النافورة » حياة الضباط الانجليز فى المعتقلات الهولندية ، والآنسة فولاتون العانس فى رواية «صورة فى مرآة» وجعلها تلقى الكلام على عواهنه فى شىء من المزاح الخطر . ومع ذلك فالمعانى التى يأتى بها المؤلف ترتكز على تلك الصراحة التى يصور بها نفسية أبطاله ، وهو لا يكاد يشرح مسألة هامة حتى يترك المجال رحباً لاثنين أو ثلاثة من أبطاله ، فيختفى وراء شخصياتهم ليلقنهم آراءه وأفكاره .

فى رواية « صورة فى مرآة » يصف لنا حياة رسام شاب يدعى نيجل فروز يقابل مصادفة صديقة له كان يحبها منذ سنوات ، فحين يلتقى بها بعد هذه الغيبة الطويلة ينبعث الماضى من قلبه فجأة كعالم كان يجهله . حاول أن يهبها حبه فأخفق ، لأن صورتها الأولى التى كان يهيم بعبادتها قد تغيرت بمرور الزمن ، وكانت أيضاً على وشك أن تتزوج من غيره ، فتترك عريسها وتتعلق بالرسام الشاب وتمنحه قوة حبها السابق ، على حين أنه يشفق عليها فقط لأنه يعطف على ذكرى الماضى ويقدسه .

وتعتبر روايته الثانية « النافورة » رداً على هذه النظرية ، فموضوعها هو التفاهم الفكرى بين رجل وامرأة ، والتفاهم الروحى بين رجل ورجل هما فى القصة أخصام ، ولكن الخصب الفكرى والتوافق فى ذلك الأفق العالى من الثقافة يمحو الخصومة ويسمو بهما الى مراتب الآلهة

بطلها لويس اليسون شاب لا يزال فى مقتبل العمر ، ولكن لفرط تعمقه فى الفلسفة والتفكير يبدو أكبر سناً من حقيقته . وعند ما يتكلم بروية يضطر غيره الى الأصغاء ؛ هو مغرم بالتاريخ لا يدرسه لنفسه ولكن للفلسفة فى التاريخ ، يدرس تطور العقل الانسانى المشترك فى العصور المتعاقبة ويتابع ناحية جلية منه ، وهى أن هناك عقلاً واحداً من أقدم عصور التاريخ الى اليوم ، وسواء أكان هذا العقل عقل افلاطون أو ديكارت أو نيوتن فانه العقل الانسانى يحاول أن يخترق الحجب وأن يمزق قناع الغيب

فشارلس مورجان يطبق النظرية الفلسفية الحديثة القائمة على توحيد العقل الانسانى ويطبق أثر تصوفه فى أخلاق أفراد قصته ، فيقول على لسان أحدهم حين يتلو صلاته فى تقوى وخشوع : « عندما كنت طفلا أخذ الله بيدى ، ولما كبرت هربت منه ، وعندما احتجت الى الراحة والسلام بحثت عنه وطفت المدينة بمصباح ، ثم غمرتني الذلة وانحنيت الى الأرض أبحث عنه فى الأوكار وتحت صفحات الأزهار ، ولكن لم أجد سلاماً ولا راحة ، وصرت كطفل أو كعالم كبير ضل طريقه فلم أعد أعلم عمن أبحث ، فرميت مصباحى ومفاتيحى وبكيت ، ورأيت فجأة نوره يملأ قلبى ، وعدت الى المدينة فاذا النور لا يزال حيث هو ، واذا بى أصرخ فى سجن نفسى بينما الدنيا تتابع الطرق على بابى ، رب أعطنى يدك عندما تدعونى اليك »

— ٢ —

نراه يصف الأسرى فى المعتقلات الهولندية فيسهب فى تسجيل حركاتهم وخواطرهم ، عند ما يتألم الطيار الذى اعتاد الجو فلا يستطيع الصبر على الأسر ، يقول للويس اليسون المفكر الغارق فى فلسفته : أتعلم أنى حين أطير أصل الى لحظات ينكشف لى فيها الغيب وأرى ما لا تراه العيون كما ترى أنت بالطبع حين تخلو الى نفسك والى أفكارك ، ثم أعود الى الأرض . . . أعود آدمياً مع الأسف كما تعود أنت بعد خلوتك لتختلط بنا وتتكلم معنا

وعند ما يتقابل لويس اليسون مع جولى ناروتز — وهى سيدة

شابة انجليزية متزوجة من ألمانى لا تحبه — يعرف أنها كانت تلميذته القديمة وهو فى لندن فتأخذ الذكريات تتفتح فى قلبه شيئاً فشيئاً كما تتفتح الزهرة فى أشعة الشمس وتحاوره قائلة :

— أستاذى . . . كيف ترانى الآن ؟ هل تغيرت ؟

فيجيبها وهو شارد فى تأملاته :

— معاذ الله . . لقد صرت كشبح جميل قام من هذه البحيرة .

فتلذعه بقولها :

— إذاً وداعاً للحم والدم !

تتحول صداقة لويس وجولى الى حب ، هو فى نظرهما وسيلة للبحث عن توازن يتغلب على تقلبات الدهر ، أو كما يصفه المؤلف نفسه : « عند ما يتم امتزاج الرجل بالمرأة وهما فى أشد أدوار النشوة ويحاولان أن يعبرا جسر الجسد الى وحـدة الروح ، فانهما لابد واصلان الى سخرية ما بعدها سخرية ، ومهما أحاطا الحب من خيال وحرارة وإيمان وابتغاء الخـــلود بالذرية ، فان الاحساس الجسدى يظل كما هو ، جسمان منفصلان كطائرين يحاولان التلاقى خلال (لوح) من زجاج ! »

والخلاصة أن بطلى هذين النزاعين النفسيين متشـابهان كل التشابه ، ينجل[1] فروز فى السابعة عشرة من عمره ، ولويس[2] أليسون فى الثلاثين ، ولـكن كليهما يبدو أكبر سنا من حقيقته ، فنضجت فى الحياة تجاربهما . وصورة الرسام الفنان تتشابه تماماً وصورة الضابط الشاب ، فانهما يمتازان بعمق الأرادة وانحصار قوة التفكير المحاط بتكتم يخضع المحيط بهما ، ولوعة الذكرى التى تعذب ينجل وشعوره بالألم من مجرد مرور طيف كلير بمخيلته ، هو نفسه شعور اليسون عند ما يلتقى بتلميذته جولى ويحبها . وقد يمتاز اليسون عن زميله بأنه رجل كثير التفكير ، يسبح فى آفاق عالية ، فعند ما يؤخـذ الى الأسر يفرح كالطفل ويقول ، بأنه سوف يخلو الى مطالعاته وتأملاته

فحياة التـأمل ما هى فى نظره إلا التاج لآمال الرجال الذين فجعوا وهم فى زهرة العمر

أما كلير وجولى فانهما تختلفان نوعاً ، فبطلة « صورة فى مرآة » بطيئة فى فهم جموح عاطفة الطفل المعجب بها والذى يحبها حباً نادر المثال . لذا نراها مبتعدة عنه بل تـكاد تـكون سلبية ، على حين أن جولى صحية تنازع لعوامل مرتبكة ، وهى لذلك كثيرة

الاضطراب مبلبـلة الفكر ، وقد تجنب المؤلف أن يثير بشأنها مسألة الجنسيات ، فهى انجليزية ولـكنها متزوجة من ألمانى يدعى فون نازوتز ، وشخصية هذا الضابط غريبـة حقاً فى الرواية ، فالمؤلف يظهره أمامنا وقد عاد من الحرب مشوهاً مريضاً بالربو ، يقاسى نوبات حادة من الألم ، يقول عنه « إنه ترك مرتبة التفكير وصعد الى أعلى من هذا واستقر ، فهاهو يعود الى داره بآلامه التى لا تطاق ، فيحاول أن يصبر كالـه جبار »

ولـكن البارون — رب القصر — وهو رجل موفور الصحة ، لا يكتم رأيه العملى حيال فون نازوتز فيقول : « إن العالم كمزرعة لا يجب أن يتسامح المرء فى الضعيف فيها وإلا قل الأنتاج وحل الخراب ، فالضعيف المريض يجب أن يمحى »

يسمع نازوتز منه هذا ويحاول أن يصبر على الألم ولا يشكو فيقول فى إحدى محادثاته : حقاً إن الرجل القوى يتحكم لدرجة ما فى الموت والحياة

وهو قد جاء الى القصر بآلامه وانتصر على الموت لأنه يحب زوجته جولى حباً عميقاً خالصاً ولأجلها يريد أن يعيش

ولـكنه يعلم بعد هذا أن العلاقة التى تربطه بزوجته أصبحت علاقة المريض بالممرض فهى تخونه مع لويس لأنها محرومة منه ، ولو طالبهـا بالوفاء له وهى شابة ناضجة الأنوثة ملتهبة العاطفة لـكان هذا فوق طاقة البشر ، فيقذف بنفسه فى غمرة من المثل الأعلى اليائس ، وأخيراً يصل إلى حالة انفصال تام عن الحياة وحالة هدوء واستسلام وتجلد أمام الآلام ويأخذ الجبار فى الموت فلا يلبث قليلاً حتى تختفى شخصيته

وقد قصد المؤلف باظهاره أن يطلعنا على صورة من صور النساك الحديثين الذين يعتبرون أن الحرب ما هى إلا تـكفير دينى لخطايا البشرية ، ولو كانت شخصية فون نازوتز غير هذا من الخلق لأصبح الموضوع تافهاً ، ولـكن إظهاره بهذه الصورة يدل تماماً على طريقة رسم المؤلف لشخصياته

جميع أبطال شارلس مورجان متقفون لايعيشون إلا بأرواحهم ، وبالرغم من تحليله النفسى الدقيق فانه لا يسرف مطلقاً فى وصف « تيار الضمير » كما هو الحال فى أكثر المؤلفات الانجليزية الحديثة

فأشخاص مورجان يحكمون عقولهم ويدرس بعضهم أخلاق بعض ، وهم ذوو إرادة قوية ، ولا يمكن للغريزة أن تحكمهم حتى فى أعمالهم ، يسلـكون طريقهم الطبيعى ، ويقفون أحياناً يائسين

١ — بطل « صورة فى مرآة »

٢ — « « النافورة »

العلوم

٦ - بحث فى أصل الانسان

بقـــلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

من تلك الفكوك المتحجرة التى وجدناها عرفنا أنه قد عاش فى الغابات الاستوائية فى أوائل عصر البليوسين نوع من القردة الـكبيرة ، وأنه قد كان لنوع من أنواع الغوريلا أو الشمبانزى أو أورانج يورنيو وسومطره كبير الحجم يمت الى الانسان بالشبه من وجوه مختلفة . وأننا نعرف أن أصناف القردة التى تسمى Anthropoids والتى يمثلها قرد الأورانج والسيامى كانت موجودة ، وأنه كانت هناك كذلك أنواع أخرى تختلف كثيراً عما نراه فى نظيراتها اليوم ، إلا أنها كانت من أصل واحد . ولذلك فان من الممكن القول أن ذلك النوع الذى تفرع وتطور منـه الانسان كان موجوداً فى أوائل عصر البليوسين

ونحن إذا تقدمنا فى بحثنا الى عصر الميوسين فانه لا يمكننا أن نجد فيه أى أثر إنسانى . وليس فى استطاعة من يعرف أن بحثنا لم يكن إلا قصير المدى ولمدة وجيزة وأن هناك معلومات قيمة جيولوجية لم يكشف عنها بعد ، إلا أن يقول إن الانسان لم يوجد فى عصر الميوسين بشكله الذى نعرفه به . وليس هناك أى شك فى أن أواخر ووسط عصر الميوسين كانت فترة تطور كبيرة مدهشة فى عالم القردة ، دليلنا على ذلك ما قد كشف بين ثنايا طبقات ذلك العصر من متحجرات وبقايا مما لا يقل عن عشرة أنواع من أنواع القردة الـكبيرة التى فاق حجمها حجم الانسان . وكانوا عمالقة إذا ما قورنوا بما قد سبقهم من الأنواع الـكبيرة . ولما كان الانسان عملاقاً أوليا بالنسبة لباقى المخلوقات وكانت هذه الحيوانات وأحجامها أمام فكرنا ، فانه لا يسع الانسان إلا أن يشك فى أن الانسان قد تفرع فى ذلك الوقت عن فرع منها

أما معلوماتنا عن هذه القردة فقد بنيناها على ما قد وجدناه من بقايا فكوكها وحطام أسنانها . يقول عنها بعض العلماء إنها بقايا نوع من القردة الـكبيرة كان متجها نحو التطور الانسانى ، ولـكن لا يمكننا الحكم بذلك من مجرد بقايا لفك أو بضع أسنان ، لأنه قد سبق لنا أن مظهر الفك وشكله لا يدلان على نوع صاحبه كما عرفنا فى انسان البلتدون . ولـكن البرهان الحقيقى الذى يمكننا أن ننتزع منه الحقائق الثابتة هو الجمجمة وعظمة الفخذ والقدم ، وهذا ما لم يوفق اليه أحدٌ حتى الآن

لـكننا مع ذلك يمكننا القول حدساً بأن قردة عصر الميوسين رغم اختلافها فى الشكل والتكوين عن نظيراتها فى العصر الحالى

بعد تردد ، وهم لا يعملون عملاً متفقاً عليه ولا يتحركون كالآلة ، بل تبدو من خـلال شخصياتهم الارادة القوية والشعور باحترام أنفسهم ، وبرغم الحوادث والـكوارث التى تنتابهم تراهم محتفظين بنزاهتهم الأدبية وباستقلالهم فى الرأى والحكم

فشارلس مورجان يعد أيضاً من هذه الناحية من المؤلفين الارشاديين ، وهو يوجه قراءه إلى مثل عال واضح محدود . وفى الوقت الذى يتلمس التأليف الروائى الانجليزى سبلاً للوصول إلى نوع جديد ، نرى مورجان يسلك طريقاً مبتكراً ، وهو يشبه فى فنه « ونسيس دى كليف » وغيرها من القصص التى يجمع أبطالها بين الشهوة والاتزان فيفخرون بتحمل آلامهم باحثين عن الراحة فى شعورهم بالاخلاص للمثل الأعلى

وخير ما أختتم به هذه الدراسة المقتضبة أن أردد ما قاله الناقد الروائى المحق التيمس الأدبى :

« إن الذين تطربهم الشهرة والذين يعترفون بقوة الالهام ويقدرون أيضاً نعمة إظهار الأخـــلاق على حقيقتها وتحديد العواطف البشرية ورسمها ، والذين يميلون بفطرتهم إلى آداب النثر الفنى الانجليزى وعظمته يستطيعون أن يجدوا كما وجدنا هذه الآثار الرائعة فى روايات شارلس مورجان »

محمد أمين حسونه

لا تختلف عنها فى شىء آخر ، وقد وجدت آثار لصغار القردة التى يمثلها نوع الجيبون وتمتاز أسنانها بصغرها ، مختلفة فى ذلك عن باقى الحيوانات التى كانت منتشرة فى غابات الملايو .

وإننا لا نشك لحظة فى القول بأنه إذا كان هناك عالم حيوانى قد نزل الأرض من كوكب آخر منذ ٧٠٠ ألف سنة لوجد كل الأجناس موجودة بها ما عدا الانسان ، وهذا معناه أن الانسان كما نعرفه الآن لم يوجد قبل تلك الفترة ، ولكن هل كان الانسان الأول موجوداً فى ذلك الوقت ؟ أو هل كان أصل الانسان الذى تفرع عنه موجوداً فى ذلك الوقت ؟ . . لا يسعنا إذا نظرنا إلى كمال جسم الانسان وتمامه قبل نهاية عصر البليوسين إلا أن نقول إن الانسان فى تطوره أو تفرعه عن شجرة الأجناس (كما سنطلق عليها الآن) قد بَعُد عن أن يكون قرداً أو عن نوع القردة من بدء عصر الميوسين على أقل تقدير ، وهذا ما احتاج إلى ملايين السنين ، وربما كان ذلك قبل ذاك الوقت حيث عصر الأوليجوسين

ولنجل اليوم جولة أخرى حيثُ يقودنا الماضى السحيق الذى يبعد عنا عالا يقل عن نصف مليون سنة إلى عصر مبكر من عصر الأوليجوسين حينما كانت الغابات تغطى شمال أفريقيا ومنطقة الصحراء الكبرى والسودان ، وحينما كان يغمرها نهر عظيم فياض كان يفيض فى الشمال والجنوب مكوناً دلتا عظيمة كانت مكان دلتا النيل الحالية ، وتظهر آثارها فى الفيوم على شكل ربوات عالية من الطباشير ، غنية بحفرياتها التى تمثل نوع الحيوان الذى كان يسكن شمال أفريقيا فى النصف الأول من عصر الأوليجوسين ، ولذلك نوجه بحثنا إليها .

فى سنة ١٩١٠ كشف بها عن اكتشافات هامة هى أسنان وحطام أفكاك ثلاثة أنواع غريبة من الأنواع الأولى البائدة . وكان أشد ما أدهشنا فى تلك الأسنان أنها صغيرة الحجم ، وأن تلك الأنواع صغيرة الحجم لا يتجاوز حجمها حجم القرد الأمريكى المعروف باسم Marmoset ونسبة حجم جسمها إلى جسم الجيبون توازى نسبة حجم ذلك إلى حجم القردة الكبيرة . إلا أنه قد كشف أن أحدها وهو الذى أطلق عليه Propliopithecus يمت بصلات تقربه جداً إلى النوع المعروف باسم الجيبون . وإنا نشك فى أن هذا النوع الذى ذكرناه قد يكون أصل قردة الأوليجوسين والميوسين والأنواع التى يطلق عليها اسم الجيبون

وقد وجد الباحثون هيكل قردين آخرين : الأول صغير الحجم (وقد وجدا بالقرب من الفيوم) يظن أنه قد تفرع عن أصل قردة الجيبون وقردة الدنيا القديمة . وفى هذا النوع الذى وجدوه نلتمس القرابة والتشابه المحسوس مع قردة الأيوسين . أما الهيكل الثانى فانه لقرد صغير يظن أنه من حلقات تطور القردة الأولى

وإن منطقة الفيوم هذه قد أعطتنا فكرة عن قردة الدنيا القديمة وتطورها فى عصر الاوليجوسين ، وهذه الفكرة تكفينا لنعرف أننا نقترب فى بحثنا ونتعمق فى عصر من الدرجة الأولى لتطور أنواع القردة الى عصرنا هذا الذى تختلف فيـــه أنواع القردة الأولى ، ولو أن كليهما من عنصر واحد وتركيب واحد

وقد أمكننا من بحثنا فى صخور الاوليجوسين أن نعرف ونرى بوضوح تام أنه لم يوجد فى ذلك العصر أى نوع من الأنواع الانسانية أو القردة ، بل وجد أصل كل تلك الأجناس العظيمة

ولم نكن نريد أن نتعمق أكثر من هذا فى بحثنا ونصل فيــه الى عصر سحيق متناه فى القــدم يمثله العصر المعروف باسم عصر الايوسين ، إلا أننا علمنا أن العلامة الكبير الأستاذ ف . وود جونز Prof. F. Wood Jones وهو من عباقرة هذا العصر يصرح بأنه يؤيدُ أصحاب النظرية التى تقول إن الانسان قد تفرع من شجرة الأجناس وابتعد عن باقيها من عصر الايوسين حينما أخذت ذوات الثدى تعدل من شكلها ويتخذ كل منها له صفات ومميزات تميزه من غيره

لذلك نقول إنه قد وجد فى طبقات عصر الإيوسين وبخاصة فى الولايات المتحدة وفرنسا متحجرات لأنواع كثيرة جداً من ذوات الثدى البائدة وكلها صغيرة الحجم . وقد وجد ضمنها نوع يشابه القردة التى أطلق عليها اسم Tarsioid وهذا النوع قد باد ولم يبق ما عاثله الآن سوى نوع واحد يعيش فى غابات الملايو سريع الحركة براق العينين واسمها لا يظهر إلا بالليل ويطلق عليه اسم Tarsius

ويعتقد الأستاذ وود جونز أننا فى بحثنا هذا سوف نجد حتما سلسلة متتابعة من الهياكل المتحجرة التى تثبت لنا أن أصل الانسان يرجع الى سلف من أسلاف هذا النوع (Tarsius) وبذلك يعطى للانسان وأصله عمراً يقدر بنحو مليونين أو ثلاثة ملايين سنة ؟!

بتبع نعيم على راغب

البريد الأدبي

تاريخ عام للآداب

عني بكتابة التاريخ العام من نواحيه السياسية والحربية كثير من المؤرخين فى مختلف العصور ؛ وكان المؤرخون المسلمون فى طليعة من تناولوا تاريخ الانسانية على هذا النحو . وصدرت فى العصر الحديث موسوعات تاريخية عديدة تعالج التاريخ عصوراً أو أمماً ، ولبعضها قيمة علمية ونقدية رفيعة . ولكن تاريخ التفكير الانسانى لم ينل مثل هذه العناية ، وقلما عولج على هذا النحو ؛ ويندر أن يضطلع باحث واحد بمثل هذه المهمة الفادحة المتعددة النواحى ؛ بيد أن هذا هو ما يضطلع به اليوم الكاتب العلامة الايطالى جاكومو برامبوليني ؛ فهو يشتغل منذ أعوام بوضع تاريخ عام للآداب Storia unviersale della Letteratura والمعروف أن إيطاليا تجيش اليوم بنهضة علمية وأدبية كبيرة ، وقد عنيت الحكومة الايطالية بالاشراف على إصدار موسوعة (دائرة معارف) إيطالية هى اليوم من أحدث وأقيم الموسوعات ؛ وهى تشجع الحركة الفكرية بمختلف الوسائل ، والسينور برامبوليني علامة واسع الثقافة ، وكاتب وافر الخصب ؛ ولم يرعه أن يضطلع وحده بكتابة تاريخ عام للتفكير الانسانى ، وقد استطاع أن يصدر حتى اليوم جزأين من تلك الموسوعة الشاسعة ؛ ولكنهما يدلان على ما بذل مؤلفهما من الجهد المستفيض ، وما يمتاز به بحثه من الرسوخ والدقة . ويتناول الجزء الأول الذى تربى صفحاته على الألف ، تاريخ التفكير فى المشرق وفى العصور الغابرة ؛ فالأدب الصينى وشعراؤه وفلاسفته ، والأدب اليابانى ، والأدب الهندى وتراثه الفلسفى القديم ، والأدب العربى فى مختلف نواحيه ، سواء فى الجزيرة أو مصر أو أفريقية أو اسبانيا وصقلية ، ثم الأدب الفارسى منذ سيروس إلى عصرنا ، والأدب التركى ، والأدب التتارى : هذه كلها يعالجها الأستاذ برامبوليني فى الجزء الأول من موسوعته بأسلوب بديع فائق ؛ ثم يعالج إلى جانبها آداب العصور الغابرة التى تغذت منها الآداب الأوربية ، مثل الأدب الفرعونى ، والأدب الأشورى ، والأدب الاسرائيلى ، والآداب اليونانية والرومانية بكل ما وسعت من ألوان الشعر والفن والجمال

ويصل الأستاذ برامبوليني فى الجزء الثانى من موسوعته فى استعراض تاريخ التفكير الانسانى حتى العصور الوسطى ، وذلك بعد أن يستعرض الآداب النصرانية الأولى فى المشرق والمغرب ، ويعرض مراحل هذه العصور الغامضة فى وضوح ودقة ؛ ويخصص عدة فصول قيمة للأدب البيزنطى ، والأدب العبرى فى العصور الوسطى ، ثم يتبسط فى الكلام على الأدب اللاتينى فيخصه بنحو مائة وخمسين صفحة من الألف التى يضمها هذا الجزء ؛ ومما يلفت النظر فى هذا الجزء بنوع خاص أن المؤلف يفيض فى تاريخ الآداب الجرمانية والسكسونية الشمالية القديمة التى قلما يعنى الباحثون بأمرها . وقد عنى الأستاذ برامبوليني فوق ذلك بأن يزين موسوعته بطائفة عظيمة من الصور والنقوش الهامة تزيد فى رونقها وطلاوتها

وكان لصدور هذه الموسوعة الأدبية الشاسعة وقع عظيم فى الدوائر العلمية الايطالية والأجنبية ، خصوصاً وأن مؤلفها مازال شاباً معدوداً من الكتاب الشبان ، ومع ذلك فقد أبدى فى إخراج مؤلفه سعة فى البحث والتحقيق قلما يضطلع بها الشيوخ ؛ وتعتبر الدوائر العلميـة أن هذه الموسوعة من أقيم ما ظهر حتى الآن فى تاريخ الآداب العام ، وترجو أن يوفق مؤلفها إلى إتمامها حتى عصرنا ، لتغدو مرجعاً بديعاً لمراحل التفكير الانسانى

كتاب عن حياة العذراء

صدر أخيراً كتاب للكاتبة الانكليزية مارى بوردن عن حياة السيدة مريم العذراء بعنوان « مارى النصرانية » ، فأثار ظهوره ضجة كبيرة فى دوائر الأدب . ذلك لأن الكاتبة تعالج حياة العذراء من ناحية إنسانية ومنزلية محضة ، وتعرض بأسلوب مؤثر قصة حبها الأموى ؛ وتدلل الكاتبة على معرفة دقيقة بفلسطين والحياة اليهودية ، ومواطن المسيح ، وحياته الأولى ؛ وتصور لنا « مارى » (السيدة مريم) هائمة بحب ولدها متعلقة

به ، جزعة على انفصاله ، مرتابة فى صحة رسالته الى ما قبل الخاتمة الفجعة . وتقول لنا إنها استندت فى تصوير هذه الحياة المؤثرة الى الكتب المقدسة ، وبخاصة الى العهدين القديم والجديد ، والى أقوال السيد المسيح ، والى كتب الصلاة العبرية والتلمود وغيرها ، ثم الى بعض الكتب التاريخية التى تلقى ضياء على هذا العصر ؛ ثم تقول لنا إنها اضطرت منذ البداية أن تخوض ذلك الجدل الخالد الذى يتعلق بأسرة المسيح ، والذى لبث مدى قرون يثير بين أحبار الكنيسة أشد الخصومات

وكتاب السيدة مارى بوردن يعتبر فى معنى من المعانى قريناً لكتاب المؤرخ الفرنسى « رينان » عن حياة المسيح ؛ فقد أثار كتاب رينان يوم ظهوره ضجة عظيمة ؛ ونال من الدوائر العلمية أعظم تقدير ، لأن مؤلفه استطاع أن يتبسط بجرأة وقوة فى شرح الجانب الانسانى من حياة المسيح ؛ وهذا ما فعلته مارى بوردن فى بسط حياة العذراء

هنرى بوردو يدافع عن فيوليت نوزيير

حكم القضاء الفرنسى أخيراً بالأعدام على فيوليت نوزيير ، وهى الفتاة التى قتلت أباها وشرعت فى قتل أمها بالسم لكى ترث مالهما ، فستقبل الرأى العام هذا الحكم بالرضى ، ولكن هنرى بوردو الكاتب الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية — وهو محام قديم — حمل على هذا الحكم ، وأنشأ فى دفاع فيوليت نوزيير فصلاً بديعاً قال إنه يصور دفاعه كمحام عن هذه الفتاة القاتلة لو أنه دعى للدفاع عنها . ومما جاء فى هذا الفصل : « لقد كان فيما مضى فى هذه القاعة شخص كانت تغلبه الرحمة ؛ وقد حمل هذا الشخص وألقى به واختفى فى مكان لا نعرفه ، فى بعض زوايا هذا القصر — قصر العدالة ، ولقد كان يحمل الشقاء الانسانى مهما بلغ ، وكان يدعو اليه كل بائس وكل مذنب ، ويعاونهم على حمل مصائبهم أو جرائمهم .. ولكن فيوليت نوزيير لم تعرفه ، ولم يرشدها اليه انسان ؛ وقد حرمت من كل شىء حتى وجود الاله

أتجرؤون الآن إذاً أيها السادة المحلفون أن تنزعوا منها الحياة ؟ إن الحياة هى كل ما تبقى لها ، أتجرؤون على نسيان أولئك الذين خلقوا هذا الوحش ورعوه ؟ أتجرؤون أن تنتزعوه من اصوله ، ومن محيطه ، ومن شركائه ، فتحكموا بالاعدام على هذه الطفلة التى لم تجاوز التاسعة عشرة ، والتى اتهمت بأشنع الجرائم ؟ ارجعوا إذاً الى منازلكم ، وتأملوا أولادكم ، واسألوا أنفسكم ماذا عسى يصيروا اليه اذا رفعتم عنهم رقابتكم وحبكم ، واذا حرمتموهم من الشفقة الانسانية ، واذا حرمتموهم من معرفة الله . . . »

رسائل جديدة لشاتوبريان

عرضت أخيراً للبيع ضمن مجموعة ثمينة من الكتب والمخطوطات النادرة ، عدة رسائل خطية لشاتوبريان الكاتب الفرنسى الأشهر ، وهى الرسائل التى كتبها الى مدام كوستين ، بين سنتى ١٨٠٤ و١٨٠٦ ، أثناء رحلته فى المشرق ، ثم سنتى ١٨٢١ و١٨٢٣ ؛ وقد بيعت هذه الرسائل ، وعددها ثلاثون بمبلغ ٥٤٦٥ فرنكا (أو ما يساوى نحو ثمانين جنيها) ؛ ولكنها بيعت متفرقة كل رسالة على حدتها ، وبلغ ثمن واحدة منها فقط ١٠٢٥ فرنكا (نحو ١٥ جنيها) ، وهى عبارة عن ثلاث صفحات ، يحمل فيها شاتوبريان على الكنيسة ورجال الدين ، ويخاطب صديقته بما يأتى « أأنت إذن حزينة جداً ؟ ولماذا ؟ ألأن عصافيرك قد ماتت ؟ ومن ذا الذى لا يموت ؟ أم لأن بلابلى قد طارت ؟ إنك تعلمين أن كل شىء يطير ، وفى مقدمة الأشياء الطائرة أيام حياتنا » ومن هذه الرسائل رسالة فيها ثلاث كلمات فقط وهى « الى الغد أيتها المتذمرة ! » ، وقد بيعت وحدها بمبلغ ٢١٠ فرنكات

جائزة نوبل

لبثت جوائز نوبل الطبية مدى حين وقفاً على العلماء الألمان والنمسويين ؛ ولكنها منحت هذا العام (سنة ١٩٣٤) الى ثلاثة من العلماء الأمريكيين هم الأساتذة : جورج نيوت ، ووليم مورفى من أساتذة جامعة بوسطن ، وهوبل من أساتذه جامعة روشستر ، وذلك لاكتشافاتهم الخاصة بعلاج أمراض الكبد فى أحوال فقر الدم ، وهى اكتشافات كان لها أعظم شأن فى تقدم الطب والعلاج فى هذه الناحية ، وقيمة الجائزة التى خصتهم ١٦٢،٦٠٨ كروناً سويدياً ، أو ما يساوى نحو تسعة آلاف جنيه ؛ وزعت بينهم بالتساوى

من الرسالة الى الوادى

ترجو الرسالة من زميلتها الوادى أن تعتقد أن ما نشر هنا عن لجنة التأليف والترجمة والنشر إنما كان بموافقة الأستاذين الكاتبين (ليكثر الذين يعلمون من أمر لجنتنا ما نحب أن يعلم) كما تمنت هى

القصص

منذ أحد عشر عاما فى سان مالو

للكاتب الشهير بانيت استراتى

Panaït Estrati

ترجمة على كامل

فى اليوم الخامس عشر من أغسطس الماضى كان قد مضى خمسة عشر عاماً على نشر قصتى الأولى (كيرا كيرالينا) فى مجلة (أوروبا)

لقد كنت فى ذلك الوقت رجلاً سعيداً . فقد كانت صحتى أولا خيرا مما هى اليوم ، ولم أكن أحمل هذه المشاغل التى تسحقنى سحقاً . كذلك كنت أشعر بالسعادة لأننى كنت قد انتهيت من كتابة قصتى (كيرا) وأنا أشتغل مصوراً فوتوغرافياً متنقلاً أنعم بالحرية والمرح . وكنت أعتقد أننى قد (فتحت ثقباً فى السماء) كما يقولون فى رومانيا . وأخيراً كنت سعيداً لأنه كان لى صديقة صغيرة من الالزاس أرادت عن طيبة خاطر أن تشاركنى مصيرى كمصور فوتوغرافى متنقل وليس هذا بالأمر اليسير

كان الشهر شهر يوليو عند ما اتخذت أولاً طريق بانيول دولورن ، وقد تسلحت بجهاز فوتوغرافى جديد وجميل تجاورنى رفيقتى الباسلة . على أننى لم أقم إلا مدة قصيرة فى هذه البلدة المتعبة للأعصاب حيث شراب السدر الرائع ، والغابة الممتدة الأطراف ، ولم يكن شراب السدر هو السبب فى قصر مدة إقامتى ، بل السبب هو تلك الغابة التى بها ، ذلك أن صديقتى كانت تحبها حباً جماً . وا أسفاه ! لقد كانت تحبها على الخصوص حين تسبب لما الآلة الفوتوغرافية الضيق والعصبية فتخلق تلك المشاجرات المحبوبة التى هى فتنة الحياة البوهيمية وبهجتها . ولكى تسرى عن نفسها كانت تختفى فى الغابة حيث كان من العسير على أن أجدها حتى بعد مسير كيلومترات وساعات من الصياح . ذلك الصياح الذى كان يبح صوتى ثلاثة أيام . وعند ما يهبط الليل كانت رفيقتى تؤدى لى من الخدمات وهى نادمة مفعمة بالحب لى أكثر من أى وقت آخر ، وذلك مما كان يغمرنى بالسعادة والنعيم

وبعد أسبوع قلت لنفسى : ماذا يهم ! يجب أن أذهب لأجرب آلتى فى أماكن عارية مكشوفة يمكن فيها رؤية رفيقتى من بعيد عنـد ما ترغمها الضرورة على الهرب من أجل تهدئة خاطرها

وانتقلنا فعلاً إلى بونتورسُن ثم إلى جبل سان ميشيل . ولما كنت قد ربحت ربحاً عظيماً فى بانيول دولورن اعتزمت سكنى الجبل نفسه برغم ارتفاع أجره ، وعلى الامتناع عن العمل مدة يومين ، زرنا خلالها آثار المكان التاريخية ، وأكلنا (عجة الأم بولارد) وتأملنا ملياً فى مد البحر وجزره أثناء النهار والليل . وبعد هذين اليومين حملت آلتى،وابتدأت أصور الانجليز الذين يريدون أن يحتفظوا بصور تذكارية لمرورهم بجبل سان ميشيل

ففى اليوم الأول كان كل شىء على خير ما يرام ، فصورت عشر صور فى مقابل مائة فرنك . وفى اليوم الثانى انتابت فتاتى أزمة عصبية فتركتني بقسوة وحيداً ابتداء من الظهر ، فكنت مضطراً إلى أن أسرع فى عملى دون احتياط كى أستطيع إنجازه ، على أننى لم أحاول أن أغضب ، بل كنت أتابع بنظراتى من قمة الجبل وجه صديقتى الرقيقة التى كانت تهدىء من حسرتها بالتطلع الى الأماكن الرملية العارية فى ذلك الأقليم الرائع

كنت أقول لنفسى :

— آه ! ليس لكِ هنا غابة تختفين فيها . إنك مرغمة على أن تحومى حول ناظرى كسمكة فى إناء زجاجى

وكنت أفكر أيضا فى شراء منظار مقرب لأرى من بعيد ما الذى تفعله امرأة غضبى وهى وحيدة فى صحراء واسعة

ولكن فى اليوم الرابع من وصولنا عند ما غضبت صديقتى للمرة الثانية وابتعدت عن الجبل الى أبعد مما تبصره عيناى لفت نظرى راهب كان يهتم بسعادتى المنزلية الى الرمل المتحرك المشهور به ذلك الأقليم . والذى تتعرض لخطره فتاتى إذا داومت على نزهاتها الخالية من التبصر حول الجبل أثناء المد والجزر

لقد ملأنى هذا التحذير رعباً وفزعاً ، ففى اليوم الثانى تركت الجبل وذهبنا الى سان مالو حيث لا توجد غابة ولا رمل متحرك ، بل ساحل عظيم أو بالحرى ساحلان أو ثلاثة تمتد من بارانيه الى دينار ، ويجمع من الناس أغربهم طباعاً . فهناك ينتقل المرء من مكان الى آخر لأتفه الأسباب ، فليس هناك غرض يدفعه الى هذا التنقل إلا إفهام الذين يبقون فى أماكنهم أن من يغادر بلده بعد ثلاثة أيام فانما يكون ذلك لأنه غنى يسعى وراء التغير والتجول

ونزلنا فى فندق صغير فى باراميه ، وحاولنا أن نجرب حظنا على ساحل البحر ، ولكننا لم نصادف نجاحاً ، فقد كان هناك كثير من المصورين وقليل من الزبائن . ولم أستطع طول هذه الأيام أن أحصل على نفقات الغرفة والطعام التى كانت باهظة . وأكثر من ذلك أنه كان يمر تحت المنزل تماما ترام كأنه فيل ميكانيكى هائل ، فكان يهز المدينة بأجمعها هزاً مرعباً كلما تحركت أطنان الحديد المخيفة المركب منها . وكنت أعود فى المساء يقتلنى التعب والاعياء من حمل آلتى الثقيلة على كتفى من أول ساحل البحر حتى منتهاه ، وكنت أستيقظ مبكراً لكى أقتنص زبوناً من بين المستحمين المبكرين ، فكانت حاجتى الى النوم تسحقنى سحقاً عند ما ألقى بجسمى فى السرير بعد العشاء . على أنه لم يكن هناك سبيل الى النوم قبل الساعة الواحدة صباحاً حين تقف حركات ذلك الجسم البشع الثائر

وعندما انتهى الأسبوع الأول من إقامتنا انتقلنا الى الطرف الآخر من المدينة نبحث عن الهدوء تحت أسوارها العالية . على أننا لم نجد مسكناً معتدل الثمن ، فاضطررنا أن نقنع بغرفة ممتلئة بالأثاث المتراكم فوق بعضه بدون نظام ، وكنا ندفع أجرها عشرة فرنكات كل ليلة ، نعم كل ليلة لا كل يوم ، فقد كان لزاماً علينا ألا ندخلها إلا فى المساء وأن نخرج منها فى الساعة التاسعة صباحا على الأكثر . وكان محرماً علينا أن نستخدم باب الغرفة لأن فى ذلك إزعاجا لأصحاب الدار ، فكنا ندخل الى الغرفة ونخرج منها من نافذة تطل على الفناء

وانتظرت ماسوف تكون عليه صديقتى فى حالاتها المختلفة ، وكنت أنظر والحسرة تمزق قلبى الى سور المدينة الشاهق . ذلك السور الذى سوف لاتتأخر رفيقتى عن اختياره مكاناً تختفى فيه انتقاماً منى . والذى كانت تتحطم فى أسفله جماجم كثير من الناس الذين كانوا يتنزهون فوق سطوحه العالية . ولقد بلغ منى العجب مبلغاً كبيراً إذ لم يحدث شىء مما كنت أتوقع . فقد كانت رفيقتى دائمة السرور والابتسام ، وكانت تجد مجالاً واسعاً للسخرية والهزء فى غرابة أطوار صاحب الدار الذى سمح بتأجير

آخر غرفة (معدة للايجار) لديه على أن يدخل المستأجر اليها ويخرج منها من النافذة !

ولكى أثير حب استطلاع فتاتى التى كانت تعجب بقصص المهربين ؟ قلت :

— إنه يبدو لى تماماً أن هذه المدينة كانت موطناً لقرصان البحر القدماء

فارتعدت صديقتى عندما تذكرت أننا نعيش تحت سقف أحد أحفاد القرصان وقالت :

— هل يؤذى الناس أولئك الرجال ؟

فأجبتها :

— إنهم لا يؤذون النساء ولا المصورين المتنقلين ، وقضيت أسبوعاً فى العمل متمتعاً بالهدوء . إننى لم أكن أربح كثيراً ولكن سعادتى فى ذلك الوقت كانت فى التصعلك مع رفيقتى المحبوبة دون أن يقع بيننا نزاع . لقد كنت مغموراً بالنعيم طوال ذلك الأسبوع ، وكنت أعتبر نفسى مديناً بهذا النعيم الى صاحب الدار حفيد القرصان

نعم لقد كان يبعث السرور الى قلب صديقتى عندما كان يرغمنا على تسلق النافذة فى الساعة العاشرة مساء ، ثم يدخل من باب المطبخ ليطلب الايجار اليومى لغرفته ، ثم يغادر الغرفة بمجرد حصوله على العشرة فرنكات . ولكن فى هذه اللحظة القصيرة كان جسمه الضخم يحرمنا من المتر المكعب الوحيد الذى سمحت لنا به الأربعة (دواليب) التى كانت تملأ غرفتنا الصغيرة ، وكانت رفيقتى تقول وهى غارقة فى الضحك كجنونة بعد أن غيرت رأيها فى حفيد القرصان :

— ماذا يكون حالنا لو شرع خفيد القرصان يقص علينا ذات ليلة أعمال أجداده . إننا سوف نموت بالاختناق !

وهكذا كنا نظل حتى منتصف الليل فى الضحك والتنادر ولكن لكل شىء نهاية . فى ذات ليلة بعد أن أدخل حفيد القرصان كتفيه بصعوبة ماداً ذراعه ليتناول نقوده نظر الى فتاتى بعينين مفترستين وقال :

— إنك تضحكين كثيراً أيتها السيدة !

كانت هذه العبارة القصيرة هى كل ماقاله ، ثم خرج ، ولكنها كانت كافية لأن يسود السكون التام فى غرفتى

قالت صـــــديقتى وهى تنظر إلى باب الغرفة وقد انتابها شحوب شديد :

— إذن ليس مسموحاً للمرء أن يضحك فى سان مالو ، بينما يرغم على الدخول فى داره من النافذة كى ينام فى سرير أشبه بتابوت ميت مدفون تحت أربعة دواليب ؟

لقد كان لها حق فيما تقول . وكذلك كان لحفيد القرصان . ولم يبق إلا أنا الذى رأيت واجباً على أن أستسلم كالعادة مرة أخرى وأرضى بألا يكون لى كلمة فى منزلى

ولقد بذلت جهدى فى أن أحصر الضرر ، فوعدت صاحبتى أن ننتقل من الغرفة سريعاً . ولسوء حظى هبت عاصفة على البلدة فى اليوم التالى لتلك الحادثة فامتنعت علىّ الوسيلة الوحيـدة لكسب قوتى ، إذ أن الرياح التى كانت تبعث السرور الى نفوس المستحمين كانت تهـدد آلتى فى كل لحظة بالانقلاب ، ولكى أقاوم ساعتين على ساحل البحر من أجل التقاط اثنتى عشرة صورة ، كان لابد لى أن أحمل من الصبر مالا يمكن أن أتطلبه من فتاتى . فقد كانت فتاة رشيقة برغم انها خياطة بسيطة . وكانت تحب أن تكون نظيفة وقوراً حسنة الهندام ، فلم تكن تستطيع العمل معى ، لأن الرياح كانت تعبث بشعرها وتضرب رداءها (الفوال) بقطع الملح فتغطيه ببقع صفراء ، ذلك أن عملها كمساعدة لى تغسل الصور وتجففها وتسلمها الى أصحابها ، كان هذا العمل يدفعها الى البحث على ساحل البحر وفى الفنادق . لذا لم تقم لى بمساعدة ما ، وتركتنى وحيداً أقوم بكل مراحل الحرفة التى نعيش منها.

قالت لى :

— تصور مركزى عند ما أكون أقذر النساء البوهيميات. ليس لى هنا ما أفعله . سأذهب لأبحث عن عمل ... فى الخياطة أو غيرها . فاذا وجدت فاعلم يقينا أننى لن أعود مطلقاً !

تركتنى عند الظهر وكان فى جيبها الصغير خمسة فرنكات ، ولم تكن قد تناولت بعد طعام الغـداء ، فجلستُ على شاطىء البحر محطم القوى وعدتى على ذراعى ، أنظر اليها وهى تغيب عن عينى ، وقد ملكها الألم وأوشكت أن تنفجر بالبكاء . ولقد كان

مظهرها يحمل حقاً كل معاني الطهر والصفاء مما أفعم قلبي بالحزن والحسرة من أجل هذه المرأة الصغيرة الجميلة

ولم أتناول أنا أيضاً طعام الغداء، فقد تراكمت عليَّ الحسرات وكانت كل ثروتي عشرين فرنكاً، أي عبارة عن أجر ليلتين عند حفيد القرصان

وبعد أن أعددت أدوات عملي خرجت أجوب المدينة. وكانت الريح تدوي دون انقطاع، فكنت أسائل نفسي: ما الذي يؤول اليه حالي إذا لم أوفق الى جمع الثلاثين فرنكا التي هي أقل ما يمكن أن أحتاج اليه يومياً. وكنت أعرف تماماً أن صديقتي لا يمكن أن تنفذ كل تهديداتها لأنها كانت مثلي تبغض العمل أثناء النهار، ومع كل ذلك فان منظرها وهي تتركني بقي ماثلاً أمامي، وكان يمزق قلبي تمزيقا. وكان حتى لواجهات المحلات التجارية يجبسني أحياناً بطريقة آلية، على أنني كنت أتطلع الى الواجهات دون أن أرى شيئاً، لأن فكري كان يتابع صورة فتاتي التي ظهرت لي وكأنها قد انتزعت منها كل فتنة، فبدا لي الشعر مهملاً، والرداء مرقعاً، والوجه مستسلماً يائساً

وفكرت ثانية في مصيري. ذلك المصير الذي دفعت ثمنه غالياً لأشعر يوماً بشمس الحرية تدفئني، ومثلت أمامي مرة واحدة فكرة بعثت الشرر في عينيَّ. فقد وجدت نفسي أمام منضدة مكتبة. وفي الوسط أمام عين الناظر، رأيت مجلة (أوروبا) وكان غلافها الأصفر محاطاً بغطاء أخضر، ولم يكن مكتوباً عليه غير الموضوعين الأولين من موضوعات المجلة وهما:

جوركي البلقاني	بقلم رومان رولان
كيرا كيرا لينا	« بانيت استراتي

شعرت بأن ساقيَّ قد خارت قواهما، ودخلت في المكتبة وأنا أكاد لا أستطيع السير، ورأسي يطن طنيناً كأن بداخله بحراً هائجاً، واشتريت المجلة وضممتها إلى قلبي المضطرب، وذهبت كالمجنون إلى شرفة مقهى كبير وطلبت نوعاً من الشراب، وسجائر فاخرة، وقرأت ثم قرأت مقال (جوركي البلقاني) وأنا أذرف الدموع الحارة الصادقة على عبارات ذلك الرجل الذي كان مقاله هذا ضربة حديدية صارمة غيرت مجرى حياتي ومصيري. وبعد ذلك أرسلت رسالة تلغرافية إلى الناشر. وفي ظهر اليوم التالي وصلني بالتلغراف الأربعمائة وعشرون فرنكاً وهي حقوق تأليف قصة (كيرا) التي احتوت على اثنتين وأربعين صفحة من مجلة (أوروبا) نشرت في الخامس عشر من شهري أغسطس وسبتمبر عام ١٩٢٣

وفي الليلة التي تلت هذا الحادث العظيم في حياتي كنت مريضاً لما انتابني من النعيم والسعادة فلم أنم مطلقاً، وأطبقت ذراعيَّ في صمت، ناسياً رفيقتي التي لم تكن تفهم شيئاً لا حالي ولا (جوركي البلقاني) وساءلتُ قلبي وهو خير أصدقائي وأكبر أعدائي قائلاً:

إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

لم نذهب إلى أي مكان.. ولقد صدق رومان رولان حين قال لي يوماً من الأيام:

(إن الانسان في هذا العالم لا يحدث في عمله أو حياته تغييراً كبيراً)

2me Année, No. 72.

Lundi-19-11-1934

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العــدد ٧٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ١٣٥٣ — ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــدد

عهــد زاهر !

نشرت الصحف أخيراً بعض إحصاءات عن التعليم فى مصر ؛ ومنها يستفاد أن التقدم مضطرد فى عدد المدارس وعدد الطلبة ، ولكن الذى يلفت النظر بنوع خاص ماورد فيها عن حالة التعليم الأوّلى ؛ ذلك أن المكاتب والمدارس المخصصة لهذا النوع من التعليم لايتجاوز عددها فى مختلف أنحاء القطر ألفين ومائة ، فيها نحو ٨٥٠ ألف تلميذ وتلميذة . ومعني ذلك أن الذين يتلقون التعليم الأولى فى هـذه البلاد لاتزيد نسبتهم على خمسة فى المائة من مجموع السكان ؛ فاذا علمنا أن باقى المتعلمين على اختلاف طبقاتهم لايتجاوز عددهم أيضاً نحو أربعة أو خمسـة فى المائة ، استطعنا أن نقدر إلى أى مدى ما زالت الأمية تفتك بعقول الشعب المصرى

لقـد اعتدنا فى العهد الأخير أن نسمع نغمة ما تزال تتردد فى كل فرصة ، لمناسبة وغير مناسبة ، هى أن مصر تجتاز فى ميدان التعليم والثقافة والآداب عهداً زاهراً لم تبلغه من قبل فى أى مرحلة من مراحل تاريخها ، وأنها تظفر لأول مرة فى

تاريخها بجامعة مدنية كبرى وجامعة دينية ، ومجمع علمى ، وطائفة كبيرة من المعاهد والمدارس الفنية ، والجماعات العلمية المختلفة .

ولقد بولغ فى ترديد هذه النغمة ، وإذاعة هذه الدعوة ، حتى كادت تطمس الحقائق ، وحتى كدنا نؤمن بهذا التمويه ، وننسى ما يعتور سير التربية والتعليم فى هذه البلاد من ضروب النقص والضعف والفساد

نعم ، لقد زاد عدد المدارس والطلبة زيادة كبيرة ، والتعليم يتقدم من حيث العدد بلاريب ، ولكن هل يتقدم التعليم من حيث النوع ؛ وهل ارتفع لدينا مقياس التربية والثقافة عما كان عليه منذ جيل ؟ لقد كان التعليم قبل الحرب آليا يخرج لحكومة تسيطر عليها إرادة المستعمر عمالاً خاضعين لا رأى عندهم ولا شخصية لهم ؛ وما يزال التعليم يصطبغ فى عصرنا بهذه الصبغة الخطرة ، صبغة العقم وفقدان الشخصية ؛ وشأن المتعلمين اليوم شأنهم بالأمس فى التطلع الى الوظائف حتى بلغ تهافتهم عليها حداً يدعو الى الرثاء ؛ وهم فى الحياة حيارى لاعزم لهم ، لأنهم لم يتلقوا من صنوف التعليم ما يسلحهم بمثل هذا العزم ، أو يمدهم بتلك الشخصية التى تصمد لمصاعب الحياة العملية ومتاعبها ، وتستغل معارفها ومواهبها استغلالاً صالحاً منظما

وفى مصر جامعة مدنية كبرى ، وجامعة دينية كبرى لها ماض مجيد ؛ ولكن هل نتمتع حقاً بالتعليم الجامعى ؟ وهل استطعنا أن نخلق فيهما تلك البيئة العلمية الرفيعة ، وتلك الحرية الفكرية ، وذلك الاستقلال فى البحث ، وهى أسمى المزايا الجامعية ؟ إن الجامعة عندنا اسم على غير مسمى ؛ وليست فى الواقع أكثر من مدرسة عادية ، تخضع لكل ما تمليه أهواء الذين يرون فى الاستعباد الفكرى وسيلة ناجعة لتدعيم الاستعباد السياسى

ولدينا حقاً مجمع علمى للغة العربية ، ولكن هل يثير ذكر هذا المجمع وظروف تكوينه غير الابتسام ؟ وهل نذكر قصة إنشائه إلا على أنها لون من ألوان ذلك الطلاء الخلاب الذى يعتمد على الأسماء دون المسميات

ولدينا جماعات علمية ذات أسماء ضخمة ، ولكنها أجنبية فى روحها وغاياتها ، وهى قلما تعنى بأعمال علمية خطيرة ، ولا تعنى إلا باذاعة ما يوحى اليها به من الدعايات

وفى كل عام ننفق عشرات الألوف على بعثات الطلبة خارج القطر ؛ ولدينا الآن من خريجى هذه البعثات ألوف من خيرة الشباب المثقف المتخصص فى مختلف العلوم والفنون ؛ ولكن هل استطعنا أن نستغنى بهم عن أولئك الأجانب الذين ينبثون فى كل فروع الحكومة ، ويستأثرون بأرفع المناصب بحجة أنهم خبراء وفنيون ؟

* * *

الواقع أن هذه النهضة العلمية تقوم على كثير من العوامل المصطنعة والمظاهر الخلابة ، وينقصها كثير من المزايا الحقيقية ؛ فهى أشد ما تكون ضعفاً من الناحية الوطنية ، وما زالت خاضعة لكثير من المؤثرات الأجنبية التى لا تتفق فى كثير من الأحيان مع الغايات القومية ؛ وهى ما زالت من الناحية العملية قاصرة عن أن تجعل من الشباب المتعلم عمالاً نافعين لأنفسهم وللوطن . ومن الأسف أن المظاهر هى فى كثير من الأحيان كل ما يعنى به ، وأن الأسماء الرنانة هى كل ما يهم ذكره وتعداده . وقد ذهبنا بعيداً فى التشبث بهذه المظاهر والتهويل من شأنها ، وغفلنا عن معالجة أوجه النقص الحقيقية . ويكفى لادراك هذه الحقيقة أن نذكر أن البلاد بعد هذه الجهود كلها ما زالت تتخبط فى ظلام الأمية ، وأن مصر بعد عشرة أعوام من تنفيذ مشروع التعليم الألزامى لم تستطع أن تنقذ من الأمية المطبقة أكثر من أربعة أو خمسة فى المائة من بنيها

لقد آن الوقت الذى يجب أن نستعرض فيه مظاهر حياتنا على حقيقتها ، وأن نقدر أوجه الخير والنفع فيها قدرها الصحيح ؛ فليس من العار أن نعترف بأننا فى منتصف الطريق أو مستهله ؛ ولكن الخطل أن نزعم أننا حققنا ما لم نحقق ، ومن الخطر على بنائنا القومى أن نؤمن بما ليس منطبقاً على حقيقتنا ولا هو حتى من مظاهر نهضتنا

« ع »

قصيدة مترجمة

إحــــذرى !

للأستـــاذ مصطفى صادق الرافعي

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر (١)) . وهـذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة ؛ رآنى جالساً تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضعَ كلمةً للمرأة الشرقية فيما تحاذِرُه أو تتوجّسُ منه الشرّ ؛ فتخايلَ الملَكُ بأضوائه فى الضوء ، وسَنَحَ لى بروحه ، و بثّ فىّ من سرّه الالهى ؛ فجعلتُ أنظرُ فى قلبى إلى فجرٍ عن هذا الشعر ينبعُ كلمةً كلمة ، ويُشْرِقُ معنًى معنًى ، و يستطير جملةً جملة ، حتى اجتمعت القصيدة وكأنّما سافرتُ فى حُلُم من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك الملَك وتركها فى يدى لغةً من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكيتها .

إحــــذرى !

إحذرى أيتها الشرقيةُ و بالغِى فى الحذر ، واجعلى أخصّ طباعِك الحذَر وحده .

إحـذرى تمدُّنَ أوربا أن يجعـلَ فضيلتَك ثوباً يُوَسَّعُ ويُضَيَّق ؛ فلُبْسُ الفضيلة على ذلك هو لُبْسُها وخَلْعُها . . . .

إحذرى فنّهم الاجتماعىّ الخبيث الذى يَفْرِضُ على النساء فى مجالس الرجال أن تؤدّىَ أجسامُهنّ ضريبةَ الفن . . . .

إحذرى تلك الأنوثةَ الاجتماعيةَ الظريفة . إنها انتهاء المرأة بغاية الظَّرفِ والرقة إلى . . . . الى الفَضيحة .

إحذى تلك النسائيةَ (٢) الغزَليّة . إنها فى جملتها ترخيصٌ اجتماعىٌّ للحرّة أن . . . . أن تشارِكَ البغِىّ فى نصف عملها .

أيتُها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى التمدُّنَ الذى اخترعَ لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدّس ، لقبَ « المرأة الثانية » . . . . . .

واخترع لقتل لقب العـذراءِ المقدس ، لقبَ « نصف عذراء » . . . .

واخـترع لقتل دِينيةِ معـانى المرأة ، كلمة « الأدب المكشوف » . . . .

وانتهى إلى اختراع السرعة فى الحب . . . . فاكتفى الرجل بزوجة ساعة . . . .

و إلى اختراع استقلال المرأة ، فجاء بالذى اسمهُ (الأب) من الشارع ، لتلقِىَ بالذى اسمهُ (الابن) إلى الشارع . . . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى وأنت النَّجْمُ الذى أضاء منذ النبوّة ، أن تقلّدى الشمعةَ التى أضاءت منذُ قليل .

إن المرأةَ الشرقية هى استمرارٌ متصلٌ لآداب دينِها الانسانىّ العظيم .

هى دائمـا شديدة الحفاظ حارسةٌ لحوزتها ؛ فان قانون حياتها دائمـا هو قانونُ الأمومة المقدّس .

هى الطُّهر والعفة ، هى الوفاء والأَنَفة ، هى الصبر والعزيمة ، هى كل فضائل الأمّ .

فمـا هو طريقُها الجديد فى الحياة الفاضـلة ، إلا طريقُها القديمُ بعينه ؟

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى و يحكِ تقليدَ الأوربية التى تعيشُ فى دنيا أعصابِها محكومةً بقانون أحلامها . . . .

---

(١) نشرت فى العدد ٦٢ من الرسالة

(٢) نحن نستعمل النسائية والنسوية وكلاهما عندنا صحيح والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه .

لم تعدْ أنوثتها حالةً طبيعيةً نفسيةً فقط بل حالةً عقليةً أيضاً تَشُكُّ وتُجادِل . . . .

أنوثة تفلسفتْ فرأت الزواجَ نصفَ الكلمة فقط . . . .

والأمَ نصف المرأة فقط . . . .

و ياويلَ المرأةِ حين تنفجرُ أنوثتها بالمبالغة العقلية فتنفجرُ بالدواهي على الفضيلة . . . .

إنها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودةَ بفضيلتها . . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى خَجَلَ الأوربية المترجِّلةِ من الإقرار بأنوثتها .

إن خَجَلَ الأنثى من أنها أنثى يجعل فضيلتَها تخجلُ منها . . . .

إنه يُسقِطُ حياءها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعية .

إن هذه الأنثى المترجِّلةَ تنظر إلى الرجل نظرةَ رجلٍ إلى أنثى . . . .

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية ، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجةً انسانيةً بالزواج .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى تَهَوُّسَ الأوربية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوتهُ فى الذهاب إلى الحلاَّق ، ولكن الحلاَّق لم يجد فى وجهها اللِّحْية . . . .

إنها خلقت لتحبيبِ الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادَّةَ تبغيض .

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبَى أبداً أن تتساوى المرأةُ بالرجل إلا إذا خسِرته .

والأعجبُ أنها حين تخضع ، يرفعها هذا السرُّ ذاته عن المساواة بالرجل إلى السِّيادة عليه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى أن تخسرى الطباعَ التى هى الأليقُ بأمٍّ أنجبت الأنبياء فى الشرق .

أمٌّ عليها طابَعُ النفس الجميلة ، تنشرُ فى كل موضعٍ جوَّ نفسها العالية .

فلو صارت الحياةُ غيماً ورعداً و برقاً ، لكانت هى فيها الشمسَ الطالعة .

ولو صارت الحياةُ قَيْظاً وحَرُوراً واختناقاً ، لكانت هى فيها النسيمَ يتخطَّر

أمٌّ لا تُبالى إلا أخلاقَ البطولة وعزائمها ، لأن جدَّاتِها ولدْنَ الأبطال .

أيتها الشرقية ؛ احذرى احذرى

* * *

إحذرى هؤلاء الشبَّانَ المتمدنين بأكثر من التمدن . . . .

يُبالغُ الخبيث فى زينته ، وما يدرى أن زينته مُعلِنةٌ أنه انسانٌ من الظاهر . . . .

و يبالغُ فى عَرض رجولتِه على الفتيات ، يحاولُ إيقاظَ المرأةِ الراقدةِ فى العذراء المسكينة .

ليس لامرأةٍ فاضلة إلا رَجُلُها الواحد ؛ فالرجالُ جميعاً هم مَصائبُها إلا واحداً .

واذا هى خالطت الرجال ، فالطبيعىُّ أنها تخالطُ شَهَوات ، و يجب أن تحذَرَ وتبالغ .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

إحذرى فان فى كل امرأة طابَعَ شريفةٍ مُتهوِّرة ؛ وفى الرجال طابَعُ خسيسةٍ متهوِّرة .

وحقيقةُ الحجاب أنه الفصلُ بين الشرفِ فيه الميل الى النزول و بين الخِسَّةِ فيها الميل الى الصُّعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ والحنان ، والإيثار ، والإخلاص كلما كَبُرْتِ كَبُرَتْ

طبائعُ خَطِرَة ، إن عملتْ فى غير موضعها . . . . جاءت بعكس ما تعمله فى موضعها .

فيها كلُّ الشرف ما لم تنخدعْ ، فاذا انخدعتْ فليس فيها إلا كلُّ العار .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

***

إحذرى كلمةً شيطانيةً تسمعينها فى قيمةِ الجمال أو قيمةِ الأنوثة

وافهميها أنتِ هكذا : واجبات الأنوثة وواجبات الجمال .

بكلمةٍ يكون الاحساسُ فاسداً ، وبكلمة يكون شريفاً .

ولا يَتَسَقَّطُ الرجلُ امرأةً إلا فى كلمات مُزَيَّنَةٍ مثلها . . . . .

يجب أن تَتَسَلَّحَ المرأةُ مع نظراتها ، بنظرة غضب ونظرة احتقار .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

***

إحذرى أن تُخْدَعى عن نفسك . إن المرأةَ أشدُّ افتقاراً الى الشرف منها الى الحياة .

إن الكلمةَ الخادعة إذ تقالُ لك ، هى أختُ الكلمة التى تقال ساعةَ انفاذ الحكم للمحكومِ عليه بالشنق . . . .

يَغْتَرُّونكِ بكلمات الحب والزواج والمال ، كما يقال للصاعد الى الشَّنَّاقة(١) : ماذا تشتهى ؟ ماذا تريد ؟

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صَلاةُ الثعلب حين يتظاهرُ بالتقوى أمام الدَّجاجة . . . .

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحمَ الدَّجاجة ! بعض كلماتِ الثعلب هى أنيابُ الثعلب . . . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

***

إحذرى السقوط . إن سقوط المرأة لِهَوْلهِ وشدَّتِه ثلاثُ مَصَائبَ فى مصيبة :

سقوطُها هى ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوطُ من تُوجِدهم .

نَوَائبُ الأُسرةِ كلُّها قد يسترها البيت الا عارَ المرأة .

فَيَدُ العارِ تقلب الحِيطانَ كما تقلبُ اليدُ الثوبَ فتجعلُ مالا يُرى هو ما يُرى .

والعارُ حكمٌ يُنفِّذه المجتمعُ كلُّه ، فهو نفى من الاحترام الانسانى .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

***

لو كان العارُ فى بئرٍ عميقةٍ لقلبهَا الشيطانُ مِئْذَنةً ووقف يُؤَذِّن عليها .

يفرحُ اللعين بفضيحة المرأة خاصةً كما يفرح أبٌ غنىٌّ بمولود جديد فى بيته . . . .

واللصُّ ، والقاتل ، والسكِّير ، والفاسق ، كلُّ هؤلاء على ظاهرِ الانسانية كالحرِّ والبرد .

أما المرأةُ حين تسقط ، فهذه من تحت الانسانية هى الزَّلزلة .

ليس أفظع من الزَّلزلةِ المُرْتجَّةِ تَشُقُّ الأرض إلا عارَ المرأةِ حين يشقُّ الأُسرَة

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) كلمة « المشنقة » ليست عربية ، ولكن لها وجهاً فى الاشتقاق ، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة ، وكان اسمها قديماً « الشناقة » ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ، وهى أفصح وأخف ، فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة . .

محمد بك المويلحى

للأستاذ عبد العزيز البشرى

قبل أن أتحدث عن هذا الرجل الذى يجب أن يتحدث عنه مدونو تاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث — قبل هذا أحب أن أقول فى هذا الباب شيئاً عاماً . ذلك بأننا اعتدنا أن نُغفل الكلامَ فى سيرة من عاصرناهم ، ورأيناهم ولا بسناهم ، إلاّ أن يكون القولُ من جنس هذه المراثى التى تُضفَى فيها حللُ الثناء ، ويُكال فيها المديحُ فى العادة ، بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق ، بحيث لا يؤذى التاريخ فى كثير ولا قليل ، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلة شيئاً من حقيقة الرجل ، لأن الكاتبين فى هذه الحالة لا يُعنَون ببسط حياة الرجل ، وظواهر خلاله ، والعوامل البارزة فى تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامّة . وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه بالملابسة وطول الاختبار . وهذا ولا شك مما يهيئ للقادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنتهِ إلى أصدق النتائج ، فهى أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارئ أن إهمال المعاصرين ، على هذا النحو ، لابدّ مفضٍ إلى إحدى حالين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون فى مطاوى النسيان ، أو التحيّف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل ؛ وإما إلى تجليتهم ، إذا تراخى الزمان فى غير صورهم ، ونحلهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم ، بحكم العنعنة فى رواية الأخبار ، والاتكاء فى تحليل نفس الرجل على ما صدر عنه من الآثار . وكثيراً ما يضل الباحث المستنتج فى هذا أبعدَ الضلال . هذا إلى ما فى معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجشّم للعناء

وأغلب الظن فى هذا الأغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب يرجع إلى أن الرجلَ العظيمَ قلّ أن يراه معاصروه بالعين التى يراه بها الخالفون ، فهو فى الغالب إذا استحق منهم ترديد ذكره والهتاف باسمه ، وتدوين سيرته ، فقلّ أن يُعنى أحدٌ بتقصى عاداته ، والتسلل إلى مداخله ، وعرض ما يلابس الأسبابَ العامّة من سائر أموره ، أو لأنهم لا يُعنَون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم . فهو فى حكم المبذول الذى ينال منه من شاء أن ينال . ولا شك أن فى هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيغيب على الزمن ، وأن المبذول سينقبض ، وأن ما فى متناوَل اليد اليومَ ستتقطَّع من دونه غداً علائق الآمال !

ولقد يسكت النقدَةُ عن تقصّى ذلك عمداً ، والتلبّث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل فى تكوينه إلى مناجمها حتى ينطوى الزمن عليه وعلى أهله . وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه ، حتى يتهيأ الجوّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحث أنور وأصفى . وتخرج النتائج أدقّ وأوفى

وهذا مذهب فى الرأى له أثره وله خطره ، بالرغم من أنه يفوّت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسيء فى بعض الأحيان إلى حكمه ، فاذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه ، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلاّ بعد أن يتجشّم فى سبيلها عرَقَ القربة كما يقولون !

على أننى فى هذا لا أذهب إلى القول بنشر المعايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يثير المدوّنُ ثائرةَ الأهل والصحاب والأنصار ، إنما أريد أن يجلو المعاصرُ . من غير ذلك ، كلَّ ماله خطرٌ فى تكوين الرجل ، فاذا كانت هناك مغامز لا ينبغى إغفالها فى تجليته وتحليله ، فليسجّلها على أن يكتمها حتى يجلّيها لوقتها ، أو يجلّيها من بعدَه من الأعقاب

وعلى أى حال فان إغفال هذه الأمور التى نحسبها فى غالب الأحيان من التوافه ، كثيراً ما يخل بحق التاريخ ، ويُفضى إلى الجهل بالجمّ من حقائق الأشياء . ولست أجد فى هذا الباب مثلاً أيسرَ ولا أدنى إلى الحسّ من أننا ، لولا مهبط البعثة العلمية التى صحبت الحملةَ الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسَمْتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد فى مذهب التاريخ ؟

ولو قد عُنى أهل كل عصر بأن يحفظوا لخلفهم نماذج من ثيابهم ، وآلاتهم فى سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثل فعلهم لظلَّت سلسلةُ الأزياء واضحةً على وجه الزمان

ولعل من الخير أن أنبّه فى هذا المقام الى أن محاولة كشف

الرجل من آثاره المحفوظة لاتجدى كثيراً فى الأبانة عن خلاله ومداخل عيشه ، حتى مظاهرها . بل إنها لـكثيراً ما تكون من وسائل الضلّة فى إثبات التاريخ . ولست أسوق لهذا أكثر من مثلين اثنين : ذلك بأنك لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرّد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهد الناس فى المال ، وأنه لو سقط ليده لـكان أجودَ به من الريح المرسَلة . فان أحداً لم ينع الشحّ ولم يذم الأشحّاء كما نعى الجاحظ وكما ذمّ : وإن أحداً لم يؤلف كتاباً فى (البخلاء) أبلغ فيهم ايجاعاً ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً ، كما صنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد المبخّلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع ، والحمل على المروءة أحياناً فى طلب المال

وإنك لو التمست مثل هذا فى أبى الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمتاً ، وأنظفهم بدناً وثوباً ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك فى طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولـكن الواقع أنه كان من أشد الناس شرهاً ، وأقبحهم مؤاكلة ، وأقذرهم خَلْقاً وثوباً ، حتى ليصح فى بعض خَلّته قول الشاعر :

وسخ الثوب والعمامة والبِرْ ذَونِ والوجهِ والقفا والغلام !

ولو لا أن معاصرى هذا وهذا أثبتوا لـكل منهما ما أثبتوا لزلّت فيهما الأقلام ، وضلّت الأوهام !

***

بعد هذا آخذ فى حديث أستاذى ورئيسى وصديقى العالم الفيلسوف ، الأديب ، الـكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المويلحى رحمة الله عليه

من أكثر من ثلاثين سنة خلَت ، ولمّا أزَل بعدُ فى أيام الفتوّة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب الى الحُمرة . ويقوم بتحريرها ابراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى . وكانت عامّةُ الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والأسـفاف وتفاهة الموضوعات الى أبعد الحدود

مصباح الشرق

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغَ من طريف ، فانه لأعجوبة حقاً . لقد كان هذا « مصباح الشرق » أبلغَ من أعجوبة . إنه لشىء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى تلك الأيام !

بلاغة بليغة . ولفظ جزل متخيرً . وديباجة مشرقة ، وصيغ مونقة . ونسج متلاحم . وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهلَ الممتنع

أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة فى سياسة الأمم وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها الترجم من مختلف اللُّغى فى عبارة عربية بليغة سلسلة ناصعة واضحة لاتستروح منها أى ريح للاستعجام . وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد ، نقد الأشخاص ، لاعهد للأدب العربى به من قديم الزمان ؛ بل لعله لاعهدَ له به من أول الزمان !

لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقةُ الجِرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض شُغل الخاصة فى هذه البلاد !

لايدخل الأصيل فى يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرّشت جِباه ، وتقلّصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، ووجفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ . كذلك كان يترقب الخاصةُ مشرِق « المصباح » وسرعان ماتخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان مايشيع البصر كلُّه فى مساحة النقد كلها ، لا يَستقرّ على موضوع خاصّ ، ولايتحيزّ فى حديث معين . بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أشكَّ المويلحى اسمَ صاحبه فيمن شكّ أم أرسلَه فى جملة الطُّلَقاء ؟! حتى إذا اطمأن الرجلُ الى أنه قد كُتبت له السلامةُ جمعته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نَفَسه ، ويبُسط من خَلقه ماتقبّض ، ويفرخ من روعه ماتحبّس

وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين ، فاحكم أنت ، عصمنا الله وإياك ، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ؟

على أنه مما ينبغى أن يذكر هنا ، أن « المصباح » لم يكن يعرض قط لأعراض من يتولاهم بالنقد . ولا يتدسس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ؛ بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ، فلقد كان « المصباح » أجل من ذلك موضعاً وآنف كرامة

وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به للأمم العربية جمعاء . وهذا النوع من النقد يقوم ، فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافى لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يبرح يمط الموضوع فى هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهى الى ما لا ينتهى اليه أحد من الناقدين !

ولقد كان هذا من « مصباح الشرق » الأصل الثابت لهذا اللون من النقد ، أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كما كانت صحيفة الويلحيين (أبو زيد) أول ما عرف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتورى) فى هذه البلاد . ولعلى ألمع إلى هذه الصحيفة فى بعض هذا الكلام

لم ينته خطب « مصباح الشرق » الى هذا الوضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفة لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحف اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة فى طلبه وتقصيه ، فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج فى كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار نقلاً عن « مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة اليها معزوة لها .

وفضل « المصباح » فى هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل ابراهيم بك المويلحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار

ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومى بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان ، وأول من عالج النقد الأدبى لما تنتضح به قرائح الشعراء . وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية ، وبين طرائقه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباح » فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحا » حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام . وبهذا وهذا أصبح « مصباح الشرق » أنخر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد . ومما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سطوة « المصباح » فى باب النقد فحسبوا له كل حساب ، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والاحسان

وإنى لأكتفى اليوم من حديث السيد محمد المويلحى بهذا القدر على نية العودة إليه فى القريب إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشرى

صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين كشفت المباحث الأثرية فى وادى اللوار بفرنسا على مقربة من مدينة تور ، عن عظام بشرية ، وسيوف ودروع قيل إنها عربية ؛ ورأى فريق من الباحثين الأثريين أن هذه الآثار هى على الأرجح من مخلفات الموقعة العظيمة التى نشبت بين العرب والفرنج فى سهول نهر اللوار منذ ألف ومائتى عام (٧٣٢م) ، وارتد فيها العرب أمام جيوش كارل مارتل زعيم الفرنج بعد أن قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقى ، وأن اكتشافها يلقى ضياء جديداً على حقيقة المكان الذى نشبت فيه الموقعة ، والذى مازال مثار خلاف بين المؤرخين

وتلك الموقعة الشهيرة هى التى تسميها الرواية الاسلامية بموقعة بلاط الشهداء أو موقعة البلاط ، لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين وقادتهم ، وتعرف فى الرواية الفرنجية بموقعة تور أو بواتييه لأنها وقعت فى السهول التى تمتد بينهما ؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخها فى رمضان سنة ١١٤ من الهجرة ، متفقة بذلك مع الرواية النصرانية التى تضع تاريخها فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وقد كانت هاتيك السهول التى تمتد بين تور وبواتييه وتشرف على ضفاف اللوار هى أقصى ما بلغه العرب فى فتوحاتهم فى قلب فرنسا ؛ وقد عبر العرب جبال البرنيه لأول مرة عقب افتتاحهم لاسبانيا ، وغزوا سبتمانيا (أو لانجدوك) سنة ٩٤ هـ (٧١٣م) واستولوا على مدينة قرقشونة وثغر أربونة ؛ ثم توالى عبورهم بعد ذلك لجبال البرنيه وتوالت غزواتهم فى غالة أو غاليس (جنوب فرنسا) ، فى سبتمانيا وفى أكوتين ، ثم فى وادى الرون شمالاً حتى بورجونيه ؛ وأنشأوا من فتوحاتهم فى غاليس ولاية سميت بالثغر أو الرباط وعاصمتها أربونة ؛ ولما ارتدوا أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ، احتفظوا مدى حين بفتوحاتهم فى غاليس ؛ واستمر لظى الحرب يضطرم بينهم وبين الفرنج فى تلك الأنحاء مدى ربع قرن ، والفرنج يستردون منهم وأراضيهم تباعاً من أيدى الغزاة ؛ حتى انتهوا أخيراً بالاستيلاء على أربونة آخر معقل إسلامى فى غاليس سنة ٧٥٩ م

وكان ذلك خاتمة الفتوحات الاسلامية المستقرة فى فرنسا ، ولكنه لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية أو خاتمة النفوذ الاسلامى فى تلك الأنحاء . ذلك أن المسلمين عادوا فنفذوا إلى جنوب فرنسا ، ثم إلى بيمون وسويسرة ، وغلبوا على كثير من المواقع والأراضى فى تلك الأنحاء أحقاباً طويلة ، ولكنهم كانوا فى تلك المرحلة جماعات مستقلة مغامرة تعمل لحساب نفسها أكثر مما تعمل لحساب الحكومات التى تنتمى إليها ، وكانوا مستعمرين أكثر منهم غزاة ؛ وتلك صفحة من تاريخ النضال بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانية قلما تعنى بذكرها الرواية الاسلامية ، وإن كانت الرواية النصرانية تشير إلى كثير من وقائعها وتفاصيلها . وسنعنى فى هذا الفصل بسرد حوادث هذه الصفحة الغريبة المجهولة ، وبما كان للاستعمار الاسلامى فى تلك الأنحاء من الخواص والآثار

كانت أول غزوة إسلامية لفرنسا بعد قيام الدولة الأموية فى الأندلس ، فى عصر أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموى ، ففى سنة ٧٩٣ م دعا هشام إلى الجهاد ، وأرسل إلى فرنسا جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر البرنيه ، وزحف على أربونه ، فلما لم يستطع افتتاحها ، ارتد إلى قرقشونه ؛ وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه على ضفاف الدانوب بعيداً عن فرنسا ؛ فتأهب أمير أكوتين لرد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة الكونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى « ڤيل دنى » بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ارتد على أثرها العرب إلى الجنوب مثقلين بالغنائم . وتشير الرواية العربية إلى تلك الغزوة وتقول إن المسلمين استولوا خلالها على أربونة [١] ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذا الفتح

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

وفى سنة ٨٠٦م هاجمت شرذمة قوية من البحارة العرب جزيرة كورسيكا ؛ فبعث بيبن بن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم ، ولـكنهم هزموه وقتلوا قائده ، وحصلوا كثيراً من الغنائم والسبى . ولم يمض عامان حتى عاد البحارة العرب إلى غزو شـواطئ كورسيكا وسردانية . ثم توالت غزواتهم إليها بعد ذلك ؛ وكانت شواطئ فرنسا الجنوبية عرضة أيضاً لمثل هذه الغزوات البحرية الناهبة ، وكان قوام هذه الغزوات عصابات قوية مغامرة من مسلمى الأندلس وأفريقية تجوس خلال هذه المياه فى سفن خاصة وتثخن فى هذه الشواطئ ، وتعود مثقلة بالغنائم ؛ وكان البحارة المسلمون كالبحارة النورمانيين ، رعب هذه الشواطئ ، وكانت أخبار غزواتهم تدوى فى جنوب فرنسا ، وتعنى الروايات الفرنجية المعاصرة ، ولا سيما الروايات الـكنسية بتدوين أخبـار هذه الغزوات ، وتبالغ فى تصوير عصفها ووقعها ، وتقول لنا إن البحارة العرب ذهبوا فى جرأتهم إلى حد التجول فى ميـاه الاطلنطيق ومهاجمة شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الاطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١)

وفى سنة ٨٣٨ م خرج أسطول عربى من ثغر طرا كونه (تراجونا) ومياه البليار ، ورسا فى مياه بروفانس ، وهاجم ثغر مرسيليا وماحوله من المواقع والأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل كثيراً من الغنائم والسبى . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس (لى ديبونير) بن شارلمان ، وكان ملـكاً عاجزاً ضعيفاً ، فلما توفى فى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملـكة ، وضعفت الثغور ، فانتهز البحارة العرب تلك الفرصة ، وغزوا بروفانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل ، وخربوا معاهدها . ثم توالت غزواتهم بعد ذلك فى تلك المياه ، وهاجموا مراراً مرسيليا وآرل . وفى سنة ٨٥٠ ، فى عهد عبد الرحمن بن الحـكم أمير الأندلس ، عبر المسلمون جبال البرنيه مرة أخرى بقيادة موسى حاكم سرقسطة وغزوا سبتمانيا . وأثخنوا فى نواحيها ، واضطر شارل « الأصلع » ملك فرنسا أن يعقد الصلح معهم ؛ ومن المرجح أن هذه الغزوة كانت ذات صفة رسمية ، وأن حكومة قرطبة هى التى نظمتها أو أوحت بتنظيمها . وفى سنة ٨٦٩ ، هاجمت شراذم من البحـارة العرب بروفانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كامارج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم فيها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى

— ٢ —

ولقد أذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وأفريقية حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ورغبة استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوب فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغاب سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وبروفانس وتلقب علك آرل ، وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حروب أهلية (نحو ســـنة ٨٩٠) . فى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين فى خليج جريمو أو خليج سان تروبيه ، ونزلوا الى الشاطئ ، ولجأوا الى غابة كثيفة تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبـة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم سواء من جهة البر أم البحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الاسلامية القريبة الى القدوم ؛ وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومتى الأندلس وافريقية ؛ فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل ، ولم تمض أعوام قلائل حتى استقروا فى ذلك المـكان وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة اسم (فرا كسنتم) Fraxintem والمظنون أنه هو المـكان الذى تقوم عليه اليوم قرية «جارد فرينيه» Garde-Frinet (١) الواقعة فى سفح جبال الألب ، ومازالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المـكان . ولما كثر جمعهم واشـــتد ساعدهم ، أخذوا فى الاغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها ؛ وسعى اليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

(١) جمعت أقوال الروايات الفرنجية والـكنسية المعاصرة فى موسوعة « Bouquet » بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وعليها جل اعتمادنا فى استخراج حوادث هذا الفصل

(١) Reinaud; Invasins des Sarrazins en France (P. 160)

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ؛ وبثوا الذعر والروع فى جنوب بروفانس حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً واثنين يهزمان ألفين »(١)

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار العرب لجنوب فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون خطوة أخرى . فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب الى إيطاليا ليحارب الى جانب حلفائه ، فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ؛ وساد الانحلال والفوضى فى غاليس كلها . فانتهز المسلمون تلك الفرصة ، واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع فى وادى « سيس » على حدود بيمون ، وفر الأحبار فى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا الى « تورينو » (بايطاليا) وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين الى زملائهم ؛ واشتد بأس العرب فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ؛ ثم انحدروا من آكام الألب الى سهول بيمون ، وأغاروا على بعض مناطقها

وفى سنة ٩٠٨ نزلت سرية قوية من البحارة العرب فى شاطىء بروفانس على مقربة من «إيج مورت» ونهبت دير بسالمودى . وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر العرب بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ؛ وهاجموا مرسيليا وهدموا كنيستها ، وغزوا ايكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم اليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ؛ وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم والتجأوا الى الداخل خشية القتل أو الأسر ، وأغلق العرب طريق الألب الى إيطاليا . وكان يمر بها كل عام ألوف من الحاج الذين يقصدون الى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور

— ٣ —

ثم اتخذ العرب خطوة جديدة فى سبيل التقدم الى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم الى بيمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر الى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوه ؛ ويروى ليوتبراند وهو كاتب معاصر أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ مدينة « آ كى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) . ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى «ساجيتوس» ولكنهم هزموا ومزقوا ؛ وفى هذا الوقت أيضاً ، نزلت شرذمة قويه من البحارة الأفريقيين بساحل جنوه ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال

وفى سنة ٩٣٩ غزا العرب منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرا ، ونهبوا دير «أجون» الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال سافوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للأغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرا وإيطاليا ونفذوا منها الى أواسط سويسرا ثم الى « جريزون » فى شرق سويسرا ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن العرب وصلوا فى غزواتهم الى بحيرة جنيف ، وجازوا إلى مفاوز چورا الواقعة فى شمالها . وكانت سويسرا يومئذ من أقاليم مملكة بورجونيه ، وملكتها يومئذ « الملكة برت » الوصية على ولدها الطفل كوزاد ، فارتدت حين اقتراب العرب الى حصن ناء فى جهة نيوشاتل

وفى سنة ٩٤٠ غزا العرب فريجوس ، وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ؛ وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان الى الجبال ، وعاث العرب فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس

ولما اشتدت وطأة العرب فى جنوب فرنسا وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته . اعتزم سادة الجنوب وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك

(١) Reinaud; ibid: P. 161

العدو المزعج؛ ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فرا كسنيه (فرا كسنتم) الذي يمتنع به العرب ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وأفريقيـة، وقاعدة للأغارة على الداخل، وكتب الى صهره امبراطور قسطنطينية يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية حتى يستطيع مهاجمة العرب من البر والبحر معاً. فلبى نداءه، وفى سنة ٩٤٣ رسا اسطول بيزنطى فى مياه ثروبيه، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فرا كسنيه؛ وهوجم العرب من البر والبحر بمنتهى الشدة وأحرقت سفنهم؛ ونفذ هوج الى الحصن بعد قتـال رائع، وفر العرب الى الآكام والربى، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء. ولكن حدث عندئذ أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه قد عاد الى إبطاليا لينـازعه فى انتزاع عرشها، فصرف هوج الأسطول، واضطر أن يعقـد الصلح مع العرب بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراته وأن يغلقوا الطريق الى إبطاليـا فى وجه خصمه؛ وبذلك استعاد العرب قلاعهم وسيادتهم فى جنوب بروفانس

واحتل العرب آكام الألب وممراتها، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير الموصل بين سويسرا وإبطاليا وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية، أن يجتاحوا الانحاء المجاورة، وأن يبثوا فيها الذعر والروع واستقرت منهم جموع كبيرة فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم، وتزوجوا بالنساء الأسيرات، وزرعوا الأرض، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب

ونفذ العرب أيضاً الى منطقة نيس إحـدى ولايات مملكة آرل الجنوبيـة، واجتاحوا شاطىء ليجوريا كله (جنوه)؛ بل يظهر أن سرية منهم استقرت فى نيس ذاتها، وما زال فى نيس الى اليوم حى يعرف بحى العرب Canton des Sarrazins

وأخيراً نفـذ العرب الى قلب ولاية دوفينه وغزوا مدينة جرينوبل واحتـلوها مدى حين، واحتـلوا واديها الخصيب، « جريزيفودان » الذى يجرى فيه نهر الازير فرع الرون. وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه الى الشمال حاملين لرفات قديسهم (١)

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) Reinaud; ibrid; P. 180 & 181

٨ ـ الشخصيـة

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

(٣) الشعور بالواجب :

من الوسـائل التى تساعد على التنفيـذ، وعلى تقوية الشخصية العملية، تلك الصفة الحيـة وهى الشعور بالواجب، وإجابة نداء الضمير؛ فالانسان حينما يشعر بوازع نفسى بأنه يجب عليه أن يفعل كذا، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا، فان هذا الشعور وحده يرمى إلى مغزى خاص، ويستدعى نشاطاً عقلياً لفعل الشىء أو محاربته، فهو بمثابة مؤثر داخلى يؤثر فيـه تأثيراً قوياً. وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسى خير كفيل لاستنهاض الهمة، ومضاعفة العزيمة. قال « إمَرْسُون » إن الانسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعمل ما، قام به » وليس الشعور بالواجب أو تلبيـة نداء الضمير، أو الصوت الداخلى مقصوراً على طبقة دون أخرى، ولا على جيل من الأجيال، ولا سنّ من الاسنان

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس وضبطها، أمكننا أن ندرك العلاقة بين الشخصيةً وبين الشعور بالواجب وإجابة الداعى النفسى؛ ففى كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال، وراحة الضمير، والاطمئنان، والجمال ثمرة من ثمرات الطاعة، ومراعاة القوانين العلمية والفنية

وإننا إذا بحثنا فى تاريخ العظماء والأدباء والفنانين، وجدنا أن ذوى الشخصيات الخالدة (فى التاريخ) كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة، الذين يجيبون نداء الضمير، ويصغون إلى صوت الله فيهتدون بهديه، وكانوا يحسـون بالواجب فيقومون به، ويعملون على تنفيذه. وكثيراً ما يكون الضمير الحى والشعور بالواجب سبباً فى إنقاذ الانسان من صروف الحياة، ومن السقوط إلى الهاوية فلا يكون فريسة للنفس الشريرة. فكل إنسان تفتح

أمامه السبل المختلفة ، ولكن الروح الطاهرة لا تفكر إلا فى الطرق الشريفة السامية ، أما الروح الدنيئة فلا تنظر إلاّ الى الطرق الدنيئة ، ومعظم الناس يسلكون طريقاً وسطاً . وإن الشعور بالواجب ، وحب الفضيلة ، والتمسك بالخير تكسب الشخص قوة وروعة ووقاراً ، وتبعث فى نفسه الحياة ، وتقوده الى الطريق السوى ، وتعوده الصبر والمثابرة ، وتقوى الارادة ، وهى التربة الصالحة التى فيها تنمو وتثمر الشخصية القوية الغنية

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحث فى الشخصية الانسانية لا يمكننا أن ننسى الدين وأثره ، والوازع الدينى وقوة تأثيره فى حياة الانسان ، فكثيراً ما يواجَهُ الانسان بأزمات وشدائد لا قبل له بها ، ولولا الثقة بالله والايمان به لجزع ، وتملكه اليأس ، واستولت عليه الهموم من كل جانب . ولكن الوازع الدينى هو الذى ينتشله من وهدة القنوط ، ويبعث الأمل فى نفسه ، ويحييه من يأسه ، وينير الطريق أمامه بعد أن كان مظلماً ، ويهديه بعد الضلال ، ويسليه عند الشدة . فالعنصر الوجدانى قوى فى العقيدة الدينية ، وهو يستحث الشخص فى أداء الواجب ، وإرضاء الضمير ، والصبر ، والمثابرة ، ويوحى إليه بفعل الخير واجتناب الشر ، ويدعوه إلى الحركة والعمل فى الحياة ، ويرشده ، فيعمل الانسان العمل وكله أمل وثقة بالله ، يؤدى واجبه ويترك النتيجة لله ، لا يفكر فى الماضى ؛ لأنه قد فات . وينظر فى الحاضر ، ويترك المستقبل لله يفعل ما يشاء . وبهذه الوسيلة يهدأ بالُه ، ويطمئن خاطره ، وتقوى شخصيته ، ويكون سعيداً فى الحياة . والانسان عادة يطمئن الى رجال الدين والمتدينين الذين يثقون بالله تمام الثقة ، ويفعلون ما يفعلون ابتغاء مرضاة الله . أما الرجل الذى لا دين له فلا ضمير له ، ولا يمكنك أن تطمئن اليه

ومعظم المصلحين فى العالم كان الوازع لهم فى الاصلاح دينياً ، أمثال الأنبياء والخلفاء والأئمة من المسلمين ، وهليل والربانى «عقيبة» من الاسرائيليين ، ومارتن لوثر ، وكارليل ، ورسكين من المسيحيين . فالوازع الدينى هو الذى أمدهم بثروة فى العقل ، وقوة فى الروح ، وعظمة فى الخلق ، فأثروا فى جيلهم ، وفى الأجيال التى أتت من بعدهم . ولسنا اليوم فى حاجة الى رجال يقومون بالواجب فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى رجال يمكنهم أن يحثوا غيرهم على القيام به

الخلاصة :

وصفوة القول أننا فى الشخصية العملية نحتاج الى ما يأتى :

(١) أن يكون لنا غرض معين فى الحياة ، نعمل للوصول اليه بحيث نعتمد على أنفسنا ولا نكون صدًى لأصوات غيرنا فنكرر ما يقولون ونفعل مايفعلون ، ولا نتأثر بهؤلاء المترددين الذين لا يعرفون لهم غرَضاً فى الحياة ، ولا يثبتون على حال ، ولا نشغل أنفسنا بكثير من المشروعات التى لا يمكن تنفيذها ، بل بمشروع واحد فى وقت واحد ، ثم نعمل على إجادته وتنفيذه ، ثم الابتداء بغيره وهكذا

(٢) أن يكون لدينا حب شديد لأعمالنا ، ورغبة كبيرة فى تكملتها ، ونعمل على ألا نفقد تلك الرغبة فى تهذيبها ومضاعفتها

(٣) الشعور بالواجب والقيام به فى الحال على أكمل وجه ، فلا نؤخر عمل اليوم الى الغد ، ولا نفكر فيما سنحصل عليه من الجزاء عند القيام بالعمل ، بل نجعل الجزاء أمراً ثانوياً ، ونؤدى العمل لا لشىء إلا لأنه يجب أن يؤدَّى ، ونثق بغيرنا كما نثق بأنفسنا ، ولا نهزأ بالمثل العليا التى يتخذها سوانا

(٤) قوة الوازع الدينى مع التمسك بالدين ، بحيث لا نفكر فى الماضى ، ونعمل على الانتفاع بالحاضر ، ونقوم بواجبنا كما ينبغى ، ونترك المستقبل لله . وبهذه الوسيلة نستريح وتستريح نفوسنا ؟

(تم البحث)

محمد عطيه الابراشى

كيف ولمـــاذا

سافرت إلى أوربا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضع سنوات — أربع أو مائة ، لا أدرى ! — استقر عزمى على قضاء الصيف فى لبنان ، فجمعت ما عندى من الثياب القديمة ، وحشوت بها حقيبة ، وقلت أقضى أياماً فى الاسكندرية ثم أبحر منها الى بيروت . وهناك — فى الاسكندرية ، لا بيروت — لم أدع شركة ملاحة الا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها عن البواخر ، حتى الذاهبة الى الهند ، ومواعيد وصولها ورحيلها . وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق ، فيها صور مُغرية وأسعار منفرة . فاتفق يوماً أن لج وكيل « شركة سيتمار » فى تزيين السفر لى على الباخرة « اسبيريا » الى ايطاليا ، وكان الوقت ظهرا ، وأنا جوعان ، فدار رأسى ، ووهن عزمى ، وكدت أنقده ثمن التذكرة ، ولكنى تذكرت أن « الجواز » يحتاج الى « تأشيرات » فاعتذرت به وانصرفت

وعدت الى فندق « بوريفاج » فى أقصى « الرمل » وكنت مقيماً به ، وأسرعت الى مائدتى فجلست اليها ، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس ، بين لبنان والباخرة « اسبيريا » — أى والله ! كأنما كنت سأقضى الصيف كله على ظهرها ! — فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ عسى أن يذهب عنى الفتور ، وملأت الكأس ، وتناولتها ، ورفعتها الى فمى ، فسمعت من ورائى — صوتاً ناعماً رخيماً يقول :

« المازنى — هذا — حشرة ! »

فارتدت يدى عن فمى ، وهى ترعش ، وسالت عليها قطرات من النبيذ ، ومضى الصوت الحلو يفرى أديمى :

« حشرة حقيرة — يجب سحقها بالأقدام . »

فتلفت مذعوراً وقد خيل الىّ أن العيون كلها صارت علىّ ، وتمنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام ، أو تجىء بموسيقى فتغرق فى أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الحلوة ! ولكن الكلام لم يكن محظوراً ، ولا موسيقى هناك ، فسمعت مكرها :

« سكير لا يفيق ، ومعربد لا يرعوى »

فقلت فى سرى « يا خبر اسود ؟ ! أنا سكير لا أفيق ؟ ؟ أنا عربيد ؟ ؟ » ودهشت ، ولو أن رجلا كان يزعمنى كذلك لما حفلت نفسى ماذا يقول عنى ، ولكنها فتاة — فتاة على التحقيق .. صوتها وحده دليل على ذلك — تذكرنى بلهجة المحنَق ، كأنما كنت قد قتلت أباها ، — قاتله الله على أى حال ! — وكان الخادم قد وضع أمامى شَبّوطة[1] مغرية ، ولكن نفسى انصرفت عنها وزهدت فيها ، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون ؟ ؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع

« رجل مستهتر ، لا يبالى ماذا يقول عن نفسه ، ويظن لسخافته أن هذا من الظرف » فلم أعد أطيق هذا الطعن ، واشتهيت أن أكتم أنفاسها بالفوطة ، ولكنى طويتها — أعنى الفوطة — ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام ، فسمعتها تقول :

« على كل حال ماذا ننتظر ؟ إن « اسبيريا » تسافر بعد غد ، واذا لم نشتر التذاكر غدا تأخرنا وفاتتنا . . . »

وتسللت ، كاللص ، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها ، من غير أن ترانى ، وكانت مع الأسف جميلة . فزاد عجبى ، فان الحسن رىٌّ ولينٌ ، وهذه الفتاة تحمل لى فى جوفها بركاناً فائراً بالسخط والنقمة وكل ماينافى معانى الجمال . فقرضت أضراسى وأقسمت لأسافرن على هـذه الأسبيريا لأرى آخر هذه الحكاية

وأقبل الليل ، وكنت أتمشى فى حديقة الفندق ، وحدى ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكنت لا أزال أحدث نفسى بما سمعت من أوصافى ، وكان صدرى كالخضم المضطرب ، وكان الخدم يروحون ويجيئون فى أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفقين ، وكان الأطفال يجرون هنا وهنا ، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعاً بالحجارة التى صكت سمعى على الطعام ، فكنت أخطو خطوات ، وأقف وأقول لنفسى :

(١) الشبوط والشبوطة سمك عريض ذيله دقيق

« حشرة . . . ! »

فقال صوت « أفندم ؟ »

قلت — غير عابئ به أو جاعل بالى إليه — «حشرة حقيرة .. تستحق السحق بالأقدام» واستأنفت السير ، أو الخطو ، وتركت الخادم — فقد كان أحد الخدم — يسخط ويلعن ، أو لا يدرى هل يضحك أو يغضب

وإنى لفى ذهولى هذا ، وإذا بصرخة خافتة ، فالتفت مسرعاً إلى مصدرها ، فبصرت بفتاة حانية على غصن مَرِيج علق به ثوبها ، فوثبت إليها وأعنتها على تخليص الثوب ، ولكن بعد أن تخرَّق

وقلت وأنا أنفض التراب عن كفى وأشير إلى الثقوب الظاهرة فى ثوبها :

« ليس هذا ذنبى . . إنه ذنب البستانى المهمل الذى يربى هذه الألفاف ليزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها . . . . »

فقالت : « على العكس . . . إنى شاكرة لك نجدتك ، ولولاك لصار الثوب فى يدى هلاهيل ... فأنا مدينة لك ... »

فرفعت عينى إليها فاذا بها هى التى سلقتنى على المائدة بلسانها وحرمتني لذة الطعام وأنا جائع أتضور ، فارتددت عنها مقدار خطوة وندت عن صدرى آهة مخنوقة :

فقالت وهى تدنو منى :

« ماذا بك ؟ »

ورأتنى أتكلف الابتسام فقالت : « بالدور . . . أنت مرة وأنا مرة »

فقلت : « لا شىء . . . لاشىء . . . . »

فألحت « ولكن ماذا بك ؟ »

قلت : « أوه ... لا شىء ، لم أكن أحسب أنك أنت ...»

فقالت مستغربة : « ولكن بالطبع أنا أنا . . . »

قلت : « طبعاً . طبعاً . إنى سخيف »

قالت « هل تعرفنى ؟ »

قلت : « أعرفك ؟ الجواب نعم ولا »

قالت : « كيف يمكن هذا ؟ ماذا تعرف عنى ؟ »

قلت : « أقل مما تعرفين عنى »

قالت : « لا مؤاخذة ، ولكنى لا أعرف عنك شيئاً »

قلت : « صحيح ! ؟ »

قالت : « بالطبع صحيح ! إنى لم أرك إلا الساعة »

فتنهّدت وانحطّ عن صدرى حجر ، وقلت : « الحمد لله ! ، ياما أكرمك يارب ! »

فقالت : «ولكن لماذا تتكلم هكذا ؟ لست أفهم شيئاً ...»

قلت : « أحسن »

قالت : « هل معني هذا أنك تخشى أن أعرفك ؟ »

قلت : « جداً جداً جداً ! »

فضحكت وقالت « هل أنت مجرم هارب ؟ »

قلت : « شر من مجرم ، وبودى لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين ؟ كلا . لست مجرماً ولكنى حشرة ! »

فصاحت « إيه ؟ حشرة ! »

قلت : « أى نعم . حشرة حقيرة . . . »

فوضعت راحتها البضة على كتفى وقالت : « لاتتكلم هكذا ! هل أنت مريض ؟ »

قلت : « نعم . نعم . نعم . »

قالت : « مسكين ! ماذا بك ؟ »

قلت : « أذنى . . . أذنى . . . آه من أذنى »

والمصيبة أنى كنت أبتسم ، فقد راقنى هذا الموقف على الرغم مما أجن من الحقد على الفتاة ، فأقبلت علىّ ، وجعلت تهوّن من أمر أذنى وتشير علىّ بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من «الجليسرين» ، وأن أبلع قرصاً من «الأسبيرين» فشكرتها وافترقنا

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، مررت « بقلم الجوازات » وبدار « القنصلية الايطالية » ، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب « شركة سيتمار » ، وطلبت تذكرة على الباخرة « اسبيريا » وإذا بالفتاة تقول لى :

« وأنت أيضاً مسافر عليها ؟ »

قلت : « نعم . هل هناك بأس ؟ »

فضحكت وقالت : « كيف أذنك اليوم ؟ »

قلت : « أذنى ؟ آه ! صحيح ! تطن »

قالت : « يظهر أنها شفيت . . . »

فهممت بأن أقول شيئاً ولكن الرجل سألني عن اسمى ، ولم أكن أتوقع هذا ، فهبط قلبي إلى حذائى ، ونظرت من الفتاة إلى الرجل ، ومن الرجل إلى الفتاة ، وقلت :

« اسمى ؟ ولكن هل هذا ضرورى ؟ »

فقال « لا . . . ولكن يحسن . . . إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة »

وكنت قد أنقدته قبل ذلك ثمن التذكرة ، فلولا هذا لعدلت ، فقلت :

« اسمى ؟ اسمى ؟ أظنه . . ابراهيم . . نعم . . ابراهيم عبده »

وقالت الفتاة ونحن خارجان :

« هل هذا اسمك الحقيقى ؟ »

قلت : « هل تعرفين اسمى الحقيقى ؟ »

قالت : « لا . . . إذن هذا اسم مستعار ؟ معذرة إذا كنت أتطفل . . . »

قلت : « لا لا . . . ليس اسماً مستعاراً . . . انه اسمى من الآن فصاعداً »

فهزت رأسها وقالت وهى تبتسم : « ليس لى حق ، هذا فضول لايغتفر . . . سامحنى »

فقلت : بلهجة الجد الصارم « أسامحك ؟ كلا ! أبداً . . . أبداً . . . »

فتعجبت ، ولها العذر ، وقالت : « هل أسأت اليك بشىء ؟ انى آسفة ! »

قلت : « أسأتِ ؟ أسأتِ فقط ؟ لقد قتلتنى يافتاتى ! »

قالت : وهى تدير وجهها لترى وجهى

« أتمزح أم تتكلم جاداً ؟ »

فواجهتها وقلت : « هل تعرفين أنى أمزح ؟ ؟ كلا ! أعنى نعم . قتلتنى . . . طعنتنى هنا » (وأشرت إلى موضع القلب)

فضحكت وقالت : « بهذه السرعة ؟ ! إنك حساس جداً »

قلت : « نعم . جداً . فاتقى أن تدوسينى بقدميك . . . »

قالت : « ولكن لماذا أدوسك بقدمى ؟ لست أفهم كلامك . . . . »

قلت : « لأنى حشرة . . . »

قالت : « أوه ! لاتقل هذا .. لماذا تشتم نفسك هكذا ؟ »

قلت : « نعم حشرة ، وحشرة حقيرة أيضاً . . . »

قالت : « أوه ! إنك تضجرنى بهذا ار . . . »

قلت : « وسكير عربيد . . . . »

فوقفت فى الطريق وصاحت

« أهو أنت ؟ »

فقلت — مقلداً — : « بالطبع أنا أنا ! »

قالت : « وسمعتنى ؟ »

قلت : « كل كلمة . . . خرقت أذنى كالمسمار المحمى »

قالت : « إنى آسفة . . . جداً . . . وأعتذر »

قلت : « آسفة ؟ هممم . وأنا أنفلق ! لابأس . هيا بنا . . . »

قالت : « لقد تعمدت ذلك . . . »

فصحت بها : « إيه ؟ كان هذا كله الى الآن تمثيلاً ؟

قلت : « نعم قلت ماقلت عمداً . . . عرفتك من وجهك ومن . . . لامؤاخذة . . . من رِجْلك .. ولكنك تؤثر الوحدة ولاتبالى الناس وتتقى أن تكلمهم ، بل تهرب منهم ، فماذا أصنع غير ذلك ؟ »

قلت : « كنت تستطيعين أن تمدحينى مثلاً فأسر . . . أم هذا حرام ؟ »

قالت : « والآن ألا تعفو عنى ؟ »

قلت : عفونا ياستى ! بعد أن غرمنا ثمن تذكرة الى أوربا بلا داع !

قالت : « إيه ؟ »

قلت : « نعم . كنت مسافرا الى لبنان ، فلما سمعت منك بعض الحقائق . . . »

فاحتجت : « لاتقل الحقائق . . . »

« أردت أن أعرف البقية . . . فقد أوصانا سقراط أن نعرف أنفسنا »

فوضعت كفها على فمى

فلم أقبلها — أعنى كفها — ولكنى عضضتها عضة مغيظ ، ولم أبال صراخها فى الطريق ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

من تراثنا العلمي

٢ ـ فضائل مصر لابن زولاق

وصف وتلخيص لنسخة مخطوطة

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمـــــــة

باب : إن المأمون قارن مصر بالعراق

١ — صفة مصر وخبرها :

قال : كان سعيد بن عفير بحضرة المأمون وهو بمصر فسمعه يقول لعن الله فرعون حين يقول : أليس لي مُلك مصر . فلولا رأى العراق ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل هذا فان الله عز وجل يقول : ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . فما ظنّ أمير المؤمنين بشيء دمّره الله هذه بقيته (ثم وصف مصر وأنهارها وقناطرها وأرزاقها وخلجانها السبعة وما كان من خيرها ، وخبر الخليج الاسلامي الذي حفر في زمان عمر)

٢ — ذكر كور مصر ، وما في كل كورة من أصناف الثياب والأواني والفواكه والسلاح والطعام والشراب وجميع ما ينتفع به الناس

(وذكرها كورة كورة ، وذكر ما فيها في فصل طويل ، وأحال في مواضع منه على تاريخه . وقال وهو يتكلم عن اسكندرية) وقد شرحت ذلك مستفيضاً في كتابي التاريخ الكبير في أخبار الاسكندرية

(الى أن قال) : وذكرت الحكماء أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها عشرون بمصر والعشرة في سائر الدنيا :

مسجد دمشق ، وكنيسة الرها ، وقنطرة سنجا ، وقصر غمدان ، وكنيسة رومية ، وصنم الزيتون بصقلية ، وحجر العوازي . وايوان كسرى ، وبيت الريح ... ؟ وكنيسة بعلبك

وبمصر من العجائب ما يغني عن هذا ويربو عليه (؟) فمن عجائبها : مدينة منف وقد ذكرناها ، ومن ذلك عين شمس وهي هيكل الشمس ، وبها قدّت زليخا على يوسف القميص ، وبها العمودان الاذان لم ير أعجب منهما ولا من بنائهما وهما محمولان على وجه الأرض بغير أساس طولهما في السماء خمسون ذراعاً الخ .. ومن عجائب مصر البرابي بأخميم وسمنود وفيها الصور أمثال الفرسان والرجالة الخ .. (وذكر لها خبراً طويلاً) ومن عجائب مصر أمر الهرمين الكبيرين الخ .

٣ — ذكر النيل وأموره

٤ — وصف مصر وتمثيلها :

(ذكر وصف عمرو بن العاص ووصف غيره من الولاة مصر . وتكلم عن خراج مصر وكيف كان يصرف كلاماً طويلا ذكر فيه مقدار الخراج في زمن الفراعنة الأولين وفي أيام يوسف ومصارفه ، وذكر أن عمرو بن العاص جباها عام الفتح عشرة آلاف ألف دينار ، فكتب بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول جباها الروم عشرين ألف ألف دينار ، فلما كان العام المقبل جباها عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار ، فلما وليها عبد الله بن سعيد بن أبي سرح لعثمان جباها أربعة وعشرين ألف ألف . فقال عثمان لعمرو وكان عنده في المدينة : درّت بعدك اللقحة يا أبا عبد الله . فقال : أضررتم بالفصيل .

ثم انحط الخراج إلى ما دون الثلاثة آلاف ألف .. إلا في أيام هشام ، ثم قصرّ الى سنة ٢٥٤ ، فلما وليها أحمد بن طولون استقصى العمارة وبالغ فيها فجباها أربعة وعشرين ألف ألف الخ)

٥ — ذكر مقبرة مصر وفضائلها وذكر مقطمها

٦ — ذكر ما تختص به مصر دون غيرها من الملبوس والمركوب والمأكول والمشروب (في فصل طويل)

٧ — في أسماء الشهور القبطية (وما كانوا يصنعون في كل واحد منها)

***

هذه أبواب الكتاب وفصوله ، وفي الكتاب أشياء رواها المؤلف على علاتها ولم يسلك فيها سبيل التحقيق ، كالذي جاء به عند الكلام على المواضع المشرفة في مصر ، وعجائب مصر ، وخبر الأهرام . وفيه أشياء نافعة وجليلة .

ولكي نزيد القارىء بياناً نقدم اليه هذه النبذة مما ورد في الكتاب نموذجاً لأسلوبه :

قال : (ذكر ما فى مصر من ثغور الرباط والمساجد الشريفة وما فيها من شركة شرف الحرمين وسائر الدنيا . فأما مشاركتها للحرمين وأعمالها — (؟) ولما أمكن الواردين اليها من كل فج عميق المقامُ بها يوما لنفاد أزوادهم وأنهم إنما يمتارون من ميرة مصر . وقال بعض المتكلمين : لوأن رجلاً عابداً ترك التصوف وأقبل على العبادة وأن آخر قام له بكفايته وسائر مئونته من كسوة وطعام وشراب لكان شريكه فيما يعمله وأن له أوفر أجرة ، وكذلك مصر منزلتها من الحرمين . ومن فضايلها أن الذى بنى الكعبة رجل من قبط يكنى أبا قدم . ومصر فرضة الدنيا ويحمل من حيزها الى سواحلها وكذلك ساحلها بالقلزم ينقل الى الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزاير البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلدة الروم وأقاصى الفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبـــلد الروم والمغرب كله الى طنجة والسوس ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد المغرب وبلد البربر و — (؟) والحبشة والحجاز واليمن . وأما ما فيها من ثغور الرباط فمن ذلك : رباط البرلس ، ورباط رشيد ، ورباط الاسكندرية ، ورباط ذات الحمام ، ورباط البحيرة ، ورباط اخنا ، ورباط دمياط ، ورباط شطا ، ورباط تنفس (؟) ورباط الاستوم ، ورباط الفرما ، ورباط النفار ، ورباط الفرادة ، ورباط العريش ، ورباط الشحر بين وما ينضاف الى هذه الثغور وجهاتها ، ورباط الحيرس من جهة الحبشة والحة (؟) ومايقرب منهم (كذا) ورباط أسوان على النوبة ، ورباط الواحات على البربر والسودان ورباط قوص . وقد روينا فى أول هذ الكتاب قول الرسول عليه السلام : إن مصر خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم وأبناؤهم فى رباط إلى يوم القيامة [١] وكانت برقة وطرابلس من ثغور مصر إلى أن خرجت فى سنة ثلاثمائة فأضيفت إلى رباط المغرب . وأما المساجد الشريفة والمشاهد العظيمة فان بمصر مساجد هى مشاهد والعمل فيها [٢] منه فى غيرها سوى الحرمين ، فمن ذلك مسجد سليمان عليه السلام فى الأسكندرية ، ومسجد يوسف عليه السلام بمنف ، ومسجده بطرا . ومسجده بوادى المقطم . وللخضر مسجدان منها مسجده بالاسكندرية ، ومسجده ببلبوهة فى أسفل الأرض ، ومسجد ذى القرنين بالأسكندرية عند النحات . ومنها مسجد الأقدام وهم قوم من أهل الشام قتلوا على موالاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومسجد عقبة ابن عامر الجهنى بسوق وردان ، ومسجد مسلمة بن مخلد بسوق وردان ، ومسجد الزمام بنى على رأس محمد بن أبى بكر بناة علامه زمام وجعله مشهداً ورأسه فى موضع المنارة ، ومسجد — (؟) بنى على رأس زيد بن على بن الحسين بن (— على) أبى طالب أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر نصب على هذا المنبر ووقف عنده — (؟) فسرقه أهل مصر . ودفنوه فى هذا الموضع ، ومسجد درب الكندالذى الزقاق فيه قبر الحسين بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب أرسله أبو جعفر المنصور بن العباس الى الأمصار فأخذه أهل مصر فدفنوه فى هذا الموضع واتخذوه مسجداً . وبمصر مساجد الصحابة سوى ماذكرنا الخ)

***

هذا وليس على الكتاب تعليقات للقراء إلا تعليقة واحدة على أسماء الشهور القبطية قال كاتبها :

(قوله أشهر الأعجمية القبطية المراد هذه الشهر على الأبراج الفلكية الاثنى عشر برج ، لأن كل برج من هذه الأبراج سموه باسمه فى لغتهم فأول الأبراج وهو الحمل سموه توت ، وثانيه الثور سموه بابه ، وثالثه جوزا سموه هتور ، ورابعه سرطان سموه كيهك ، الخامس أســـد سموه طوبا ، والسادس السنبلة سموه امشير ، ٧ ميزان سموه برمهات ، ٨ الثامن عقرب سموه برمودة ، ٩ قوس سموه بينس ، العاشر الجدى سموه بؤنه ، الحادى عشر دلو سموه آبيب ١٢ حوت سموه مسرى)

***

وكأن هذا الفصل الأخير (مطلب فى أسماء الشهور القبطية) ملحق بالكتاب وإن جاء قبله بجملة فيها معنى الختام قال :

وقالوا فى مصر كلاما محفوظاً : طينها عجب ، ونيلها ذهب ، ورجالها قصب ، ونساؤها رُطب ، وهى لمن غلب . وقالوا فى الكوفة : اقرأ الناس للقرآن لايجاوز تراقيهم . وقالوا فى أهل البصرة

(١) نحذر القراء أن يحفظوا هذا الحـــديث ويرووه قبل معرفة درجته ورواته (٢) هنا كلمة ناقصة لعلها كلمة أفضل والصحيح أن الصلاة فى المساجد كلها إلا الثلاثة سواء فى الفضل

نعم وردن معاً وصدرن شتاً [١] . وقالوا فى أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق وأجرأهم على أمر لايدرون ماهو . وقالوا فى أهل الحجاز : أجرأهم على فتنة وأعجزهم عنها . وقالوا فى أهل الموصل كناسة بين قريتين . وقالوا فى أهل واسط منزل بين كنيفين . وذكروا الحديث المسند : (إن مصر يساق إليها أوائل [٢] الناس أعماراً) . والبلدان فيها الطوال الأعمار وفيها القصار . إن طول الأعمار فى سر وحمير . وجو اليمامة ووادى فرغانه . وقد جعل لمصر نصيب من ذلك فى طوال الأعمار بمربوط وقرا بالحفار . وقد ذكرنا لمصر من الفضائل ما أغنى وكفى ، ووصفنا الحكماء الذين كانوا بها وأنها معدن الحكمة التى انتشرت فى أيدى الناس ، وليس يوجد فى الدنيا بلد زينه أهله زينة مصر فى أبنيتها ونهرها وإتقان أمرها وبالله التوفيق

وإن فى الكتاب كثيراً من العبارات المضطربة . وفيه كلمات ليست بالواضحة وإن فيه كثيراً من الأخبار التى لم تصح ، ترد غالباً عند ما يتكلم عن تاريخ مصر القديم . كقوله :

(ذكر من كان بمصر من عيون الفرسان والشدة : عوج ابن عنق قتله موسى عليه السلام وجره الناس على النيل فمروا عليه شهراً ، قال . وكان طول سرير عوج بن عنق ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع ، وكانت عصاة (هكذا) موسى عشرة أذرع ، وضربه موسى فأصاب كعبه فخر على نيل مصر فجسره الناس فمشوا على صلبه وأضلاعه سنة وقيل شهراً الخ)

وقوله :

(ومن الفراعنة الذين جربوا الدنيا وغلبوا على مصر بختنصر وهو من قرية من قرى بابل يقال لها نفد ، ودخل مصر فى ستمائة ألف فارس وراجل ، راكباً على أسد وَرْد ، متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار وعرضه شبر ، أخضر النصل كالسلق ، يتحدر منه شبه ماء السدر ، وغمد من ذهب مرصع بالجواهر والياقوت الأحمر مكتوب عليه :

وأنت إن لم ترجُ أو تتق ... كاليت محمولاً على نعشه
لا تنحس السر فتصلى به ... فقلّ من يسلم من نحسه
وأخْمد السر فان هجته ... واحذر لأعدائك من حبسه
للبحر أقراش لها صولة ... فاحذر لأعدائك من قرشه
إذا طنى بالكلى شحم الكلى ... أدخل رأس الكبش فى كرشه

وناطح الكبش له ساعة ... يأخذه الناطح من كبشه
وكم نجى من يدى أعدائه (كذا) ... وميت مات على فرشه
من يفتح القفل بمفتاحه ... نجا من التهمة فى فتحه
ونابش الموتى له ساعة ... يأخذه ابليس من نبشه
لله فى قدرته خاتم ... يجرى المقادير على نقشه

* * *

وهذا ختام المخطوط :

(وهذا جملة ما أودعناه هذا الكتاب باختصار بغير إسناد ولم أثبت فيه شيئاً إلا وقد رويته واختصرته ليقرب على من أراد وبالله التوفيق ، ولو لم يكن لمصر فضل إلا أن العزيز عليه السلام امامها . والوزير أيده الله ملكها وعاملها ومدبرها لكان فضلاً عظيما وبالله أستعين . تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه)

دمشق ... علي الطنطاوي

(١) هكذا ولعلها أشتاتاً (٢) لعلها أطول

بين فن التاريخ وفن الحرب

٨ – خالد بن الوليـــــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعــير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

والغريب فى ذلك أن الفرق كانت تعيش مستقلاً بعضها عن بعض ، وكانت تتقاتل بخلاف فرق القبائل الأخرى . ولعل الداعى الى ذلك أنها كانت حسيمة لا يمكن لرئيس واحد السيطرة عليها ، وأنها فى بلاد جعلتها بمـأمن من غزوات القبائل الأخرى فلم تر الفرق والبطون حاجة الى الوحدة

ويظهر أن مالك بن نويرة اسـتطاع أن يستميل سجاحاً الى جانبه لقرابتها منه ، وأراد أن يستغلها لمصلحته فيضرب بها الفرق المخالفة له ويرأس بنى تميم بالقوة ، أما هى فكانت تريد أن تستفيد منه للهجوم على المدينة . ومال وكيع بن مالك رئيس بنى حنظلة الى جانبه . وهكذا مالت شعب بنى مالك الى جانب سجاح

وكانت الشحناء قبل ذلك شديدة بين رؤساء بنى تميم كما نعلم . ولما ورد خبر وفاة الرسول عليهم أرسل بعضهم الصـدقات الى المدينة ، وانتظر بعضهم ما يصنع البعض الآخر . ويروى أن قيس بن عاصم رئيس مقاعس والبطون قال « واويلنا من ابن العكلية — يريد به الزبرقان — والله لقد مزقنى فما أدرى ما أصنع ، لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصـدقة لينحرنهـا فى بنى سعد فيسودنى فيهم ، ولئن نحرتها فى بنى سعد ليأتين بها أبا بكر فيسودنى عنــده » فعزم قيس على توزيع الصدقات على مقاعس والبطون ففعل ؛ وعزم الزبرقان على الوفاء بارسال الصدقات الى المــدينة .

وكانت النتيجة أن نشب القتال بين عوف والأبناء من جهة والبطون من جهة أخرى ، وبين الرباب من جهة ومقاعس من جهة أخرى . وبين خضم وحنظلة وبين بهدى ويربوع

ولما وصلت سجاح الى الحزن أرض بنى يربوع واتفقت مع مالك ابن نويرة والتحق بها وكيع بن مالك شرع مالك ينفذ خطته ليرأس بنى تميم ، فبدأ بقتال الرباب وعوف والأبناء ، فلم يظفر بهم بل دارت الدائرة عليه وعلى سجاح ، فوقع وكيع أسيراً بيد الرباب . وأرادت سجاح أن تجرب حظها مع بهدى وخضم من شعب بنى عمرو فكان نصيبها الخيبة أيضاً . فلما لم تظفر بطائل تركت مالكاً وانسحبت برجالها من بلاد بنى تميم وسارت الى اليمامة

هذا هو الموقف حين كان خالد يجول ويصول فى بلاد بنى أسد ولم يكن يجهله ، لذلك لم يكد ينتهى من أمر بنى أسد حتى تراه قد انتهز الفرصة وأمر جيشه بالسير الى أرض بنى تميم دون أن ينتظر أمراً من الخليفة . وهكذا نراه يستعمل إبداعه ويسير جيشه نحو البطاح رغم مخالفة الأنصـار له مدعين أن عهد الخليفة اليهم أن يقيموا بعد فراغهم من بزاخة إلى أن يكتب اليهم . إلا ان خالداً تقدم نحو البطاح قائلاً لهم إنه هو الأمير واليـه تنتهى الأخبار وإن لم يأته أمر من الخليفة ، فانه لا يريد أن يضيع الفرصة مادام مالك بن نويرة بحياله . وشعب بنى تميم نافرة منه . لذلك لم يتردد خالد فى الذهاب اليه من دون الأنصار

والواقع أن مالك بن نويرة بقى وحيداً بين بنى تميم ، لأن صفوان بن صفوان كان قد أرسل الصدقات الى المدينة وكذلك الزبرقان ، أما قيس بن عاصم فكان عليه ، وكذلك وكيع بن مالك لما سمع بانتصارات خالد أرسـل صدقات بنى حنظلة اليه . فبقى مالك حائراً ماذا يعمل ، وكان بالبطاح مع رجاله من بنى يربوع ، والبطاح أرض دون الحزن ، وهى ذات مراتع خصبة وفيها مياه كثيرة ، فالقصيبة والبريدة من مواقعها

وندم الأنصار على تخلفهم لأنهم خشوا أن تصيب المسلمين مصيبة فيلاموا عليها ، فأوفدوا رسولاً إلى خالد يطلبون منه الاقامة إلى أن يلحقوا به ، فأقام خالد حتى لحقوا به فسار الى البطاح . والروايات غـير متفقة فى أمر مالك بن نويرة . ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً قاتل المسلمين برجاله من بنى يربوع فقتل فى القتال .

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

ومنها ما يزعم أنه لما تأكد من الخيبة فرق رجاله وأمرهم بألا يقاتلوا المسلمين ورجع الى منزله ، ولما قدم خالد البطاح بث أربع سرايا الى جهات مختلفة ، فرجعت السرية التى كان يقودها أبو قتادة الأنصارى بمالك والبعض من رجاله

ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً حارب السرايا التى أوفدها خالد فقتل ، ومنها ما تزعم أنه وقع أسيراً فى القتال فأمر خالد بضرب رقبته مع الأسرى الآخرين ، والبعض الآخر من الروايات تذكر أن خالداً أراد قتل الأسرى بما فيهم مالك ، إلا أن أبا قتادة شهد أنهم أذنوا وقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد أن يحبسوا ، وكانت الليلة شديدة البرد ، فأمر خالد منادياً فنادى أن أدفئوا أسراكم ، وكانت كلمة الدف، فى لغة كنانة تعنى القتل ، فقتلهم الحفراء وقتل ضرار بن الأزور مالكاً

وكان قتل مالك على هذه الصورة ، وتزوج خالد بامرأته ليلى بعد قتله بمدة قصيرة . وهذا مما جعل عمر ينقم على خالد فطلب من أبى بكر أن يعاقبه على فعلته هذه ، فاضطر الخليفة الى استقدام خالد الى المدينة وطلب الايضاحات منه ، فلما اقتنع أن خالداً لم يقصد قتل مالك أعاده الى جيش المسلمين وكلفه بالمسير الى اليمامة ليقاتل مسيلمة الكذاب

الحركات فى اليمامة

من الصعب التثبت من المدة التى قضاها خالد بن الوليد فى البطاح حتى نعلم الوقت الذى تقدم بجيشه نحو اليمامة لمقاتلة بنى حنيفة . فيكاد أكثر المؤرخين من العرب يتفق على أن القتال فى اليمامة وقع فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية . أما أبو بشر الدولابى واليعقوبى فيزعمان أن القتال وقع فى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة

فمبدأ السنة الثانية عشرة الهجرية يوافق شهر آذار « ابريل » سنة ٦٣٣ ميلادية . والذى نعلمه أن خالداً توجه من ذى القصة نحو بزاخة فى منتصف شهر ايلول « سبتمبر » أو شهر تشرين الأول « اكتوبر »

وقضى خالد فى حركته نحو بزاخة أكثر من عشرين يوماً يترقب أخبار طىٌ . وبعد انتصاره على جيش طليحة بن خويلد مكث فى بنى أسد مدة غير قصيرة ليقبل إسلام المرتدين ويجمع منهم السلاح . أضف الى ذلك قتاله فى ظفر ، وانتظاره مجى، رؤساء بنى عامر

ويدعى المؤرخون أن مالكاً بن نويرة قتل خطأً فى ليلة شديدة البرد . وعلى ما فى كتاب الطبرى رواية عن سيف ابن عمر أن الأسرى من بنى يربوع حبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شىء . والليالى الشديدة البرد فى البادية تقع فى أشد شهرى الشتاء برداً وهما كانون الأول «ديسمبر» وكانون الثانى «يناير» . إذن وقع القتل بين أواخر كانون الأول وأوائل كانون الثانى ، فتكون حادثة البعوضة (*) وقعت بين شهرى شوال وذى القعدة فى السنة الحادية عشرة الهجرية

يقيناً أن خالداً قضى مدة غير قصيرة فى البطاح ، وقضى وقتاً فى ذهابه الى المدينة ملبياً دعوة الخليفة . ولما عاد منها لم يحرك جيشه نحو اليمامة بمجرد وصوله الى المعسكر ، بل انتظر مدة لورود النجدة التى أمد بها الخليفة جيش المسلمين . فيظهر من كل ذلك أن الحركة من البطاح نحو اليمامة وقعت فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية — أى فى ربيع سنة ٦٣٣ ميلادية ، فى شهر آذار أو شهر نيسان « مايو »

ومن رواية رواها أبو هريرة نستدل على أن سلمة بن عمير الحنفى كان يشجع بنى حنيفة على المقاومة بعد معركة عقرباء فينادى قائلاً : « يا بنى حنيفة قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء ، فان الحصن حصين وقد حضر الشتاء » . ومعنى ذلك أن الحركات فى اليمامة جرت فى صيف الثالثة عشرة الهجرية — أى بدأت حوالى شهر مايو لسنة ٦٣٣ ميلادية

منطقة الحركات

اليمامة مؤلفة من مقاطعتى العارض والخرج الحاليتين ، ومقاطعة الخرج من أخصب مقاطعات نجد ، فالماء مبذول فيها وهو على عمق بضعة مترات تحت الأرض . ولما كانت أرضاً منخفضة تنصرف اليها مياه الأمطار من الجبال والهضاب التى تحيط بها ، ومدينة اليمامة — العاصمة القديمة — واقعة فيها

ويدعى كثير من الجغرافيين بأن أرض اليمامة القديمة هى مقاطعة الخرج الحالية . وهذه المقاطعة واقعة فى جنوب شرق

* البعوضة اسم المحل الذى قتل فيه مالك بن نويرة

العارض ، ويحدها من الشرق وادى حنيفة ، وعلى إحدى شعبه اليمني بنيت مدينة اليمامة . ولا تزال مقاطعة الخرج من أكثر المقاطعات النجدية نفوساً ، وفيها مراعٍ خصبة وبساتين نخل كثيرة

ويحد المنطقة التى جرت فيها الحركات من الشرق هضبة العرمة ، وهى الهضبة المرتفعة المشرفة على الدهناء ، ومن الغرب الأنفدة الموازية لسلسلة طويق ؛ ومن الشمال مقـاطعة القصيم . والمنطقة جبلية تعد من أوعر مناطق نجد من حيث الوديان والمضايق والروابى والآكام

وتمتد جبال طويق فى وسط المنطقة من الشمال الى الجنوب وهى حجرية كلسية جرداء متموجة ، تتألف من سلسلتين متوازيتين ، وسفوحها الغربية منحدرة ، أما سفوحها الشرقية فقليلة الانحـدار . ويبلغ ارتفاعها زهاء ستمائة قدم على الهضبة الغربية . وتمتد الجبال من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، وتنكسر فى الوسط وتغير اتجاهها الى الجنوب فالجنوب الغربى فتنتهى الى وادى الدواسر . وفى المحل الذى تنكسر فيه تجرى الوديان من الشرق الى الغرب وتصب فى وادى حنيفة . وهذه الوديان ضـيقة وعرة فى محل الانكسار حيث ترتفع سفوحها الشمالية والجنوبية بانحدار شديد

وتنصرف مياه الأمطار التى تهطل على الجبال الى الشرق والغرب فى الوديان والشعب ؛ فمنها ما يصب فى وادى حنيفة ، ومنها ما يكوّن وادى الخفس وشعيب العتشى حيث تنصرف مياهها الى الدهناء . ومنها ما يصب فى مقاطعة الوشم ويسقى منخفضاتها ويكوّن واحاتها الخصبة . والشعيب الذى يكوّن وادى الخفس ينبع من جنوبى نادق ويجرى نحو الجنوب الى الحريملة ومنها يتوجه شرقاً . وهذا الشعيب ووادى حنيفة يقسمان الجبال الى سلسلتين : الغربية منهما مرتفعة ووعرة وهى طويق ، أما الشرقية فمنخفضة ولطيفة الانحدار ، وهى روابى العارض فى الشمال وجبل صلبوخ فى الوسط والجبيل فى الجنوب . وأما وادى حنيفة (وهو أعظم واد فى هذه المنطقة) فقـد سميت القبائل السا كنة على جانبيه باسمه . وصدره فى الأرض الفاصلة بين العارض من جهة ، والمحمل والسدير من جهة أخرى . ويبدأ الوادى فى ثنية اليمامة فى شرق خشم الحيسية ، ويتـكون من عدة شعب تجرى من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . فيستمد الوادى ماءه منها فيجرى من الغرب الى الشرق . وفى جوار عقرباء ، حيث نشبت المعركة الفاصـلة بين جيش خالد وجيش مسيلمة ، يغير الوادى اتجاهه فيجرى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى فى واد يضيق فى بعض المحلات ويعرض فى البعض الآخر ، وهو شديد الوعورة فى الشمال وسهل المجرى فى الجنوب . وعلى حافتى الوادى شيدت القرى والمـدائن ، حيث استقيت المياه المنصرفة اليه ، وزرعت البساتين حولها . والوادى فى هذا القسم يتغذى بعدة شعاب ينصب أكثرها فيه من السفوح الغربية

وفى محل انكسار سلسلة طويق تصب فيه عدة وديان بحيث أنها تغير اتجاهه فى جوار السليمية واليمامة ، فيتوجه نحو الشرق فالجنوب الشرقى الى أن ينتهى فى رمال الرُبع الخالى

وكان من وصايا أبى بكر الى خالد بن الوليد أن يأخذ الحيطة عند الهجوم على أهل اليمامة . وكان الخليفة محقاً فى هذه الوصية ، لأن أهل اليمامة سكان القرى المبنية فى الوديان الضيقة ، وعلى سفوح الجبال الوعرة ، بنوا دورهم بالحجارة ، وسوروا قراهم بالجدران ، وأنشأوا الحدائق بالقرب من قراهم ، وزرعوا فيها النخيل والأشـجار وأحاطوها بالحجارة ليمنعوا المارة من دخولها أو ليعتصموا بها عند الحاجة

فأهل اليمامة إذن لا يشبهون أهل البـادية فى القتال ، فهم معتصمون بجبالهم المنيعة ، ومعتزون بقراهم المتينة ، وحدائقهم المستحكمة . ولا تزال آثار هذه القرى ظاهرة فى تلك الأنحاء . وهذه القرى كثيرة ومنتشرة على طوار وادى حنيفة ، وفى مقاطعة الخرج ، وفى الوديان والمنخفضات والواحات

« يتبع » طه الهاشمى

في الأدب الدرامي

١٤ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لرواية هرناني

هرناني Hirnani

درامة شعرية في خمسة فصول نظمها هوجو سنة ١٨٣٠ ومثلت أول مرة في (الكوميدي فرانسيز) يوم ٢٥ فبراير سنة ١٨٣٠ فكان تمثيلها معركة شعواء بين الاتباعيين والابتداعيين تبودلت فيها اللعنات واللكمات بين الفريقين . وكان أنصار المذهب الجديد قد وزعوا قبل يوم التمثيل (تذاكر) مجانية على طلاب المدارس وتلاميذ المصانع ، فملأوا مشهد المسرح قبل بدء التمثيل بثماني ساعات . ثم ابتدأ التمثيل على المسرح ، والعراك الصاخب في المشهد ، حتى أسدل الستار الأخير على فوز الابتداعيين وفشل الاتباعيين

أهم أشخاص هذه الرواية : هرناني ، وهو نبيل اسباني اتخذ اللصوصية وقطع الطريق وسيلة لأخذ ثأر أبيه المشنوق في جريمة سياسية ؛ ودون كرلوس ملك اسبانيا ، وهو الذي قتل أبا هرناني ؛ ودون روى جوميز دوق سلفا ؛ ودونا سول بنت أخيه التي يريد أن يتزوج منها . وقد وقعت حوادثها في سرقوسة ، ثم في قصر سلفا ، ثم في إكس لا شابل ، ثم في سراقوسة ثانية

ففي الفصل الأول : يعيش هرناني في الجبال مع ذؤبان الأنس ، يقطع الطريق ويغير على البلاد ؛ وهو يحب (دوناسول) وتحبه ، وينافسه على هذا الحب (دون كرلوس) ملك اسبانيا والشيخ روى جوميز عم الفتاة ، ويقع هرناني في خطر داهم فينجو منه بفضل الملك

وفي الفصل الثاني : يقابل هرناني الملكَ في بيت دوناسول ، وقد أقبل في حرسه يختطفها ، فيملك حياته وموته . ولكنه يُبقي عليه ويخرج ، فيجد البيت محصوراً بالجند الملكي فينجو بنفسه بعد لأي

وفي الفصل الثالث : يحكم الملك بالقتل على هرناني ويجعل لمن يأتي برأسه جعالة مالية ، فتذعن دونا سول لأحكام القدر وتستسلم لأرادة عمها فترضى أن تتزوج منه . وفي الساعة التي يتأهبون فيها للذهاب إلى الهيكل لعقد الزواج يدخل هرناني القصر في زي حاج يطلب الحماية والجوار من ربه . فاذا ما رأى حبيبته في زينة العروس يظن أنها نكثت عهده ، ونسيت وعده ، فتهون عليه الحياة ويعلن عن نفسه طالباً القبض عليه . ولكن واجب الضيافة لصاحب القصر يقوم دون ذلك . وليس جوميز ممن ينقض الذمام ويخيس بالذمة . على أنه يفجأ الحبيبين وهما يتساقيان الهوى ويتصارحان بالحب ، فيستقله الغضب وتعدِه الغيرة ، ويدخل الحاجب عليه في تلك الحال يعلن إليه قدوم الملك ، فقد جاءه يطلب منه تسليم المجرم المحكوم عليه إذ علم أنه لائذ بقصره . فتتنازع الدوق عوامل الشرف والغضب والانتقام ، وتتراءى له صور آبائه المعلقة على حوائط القصر تتحرك أمام عينيه تذكرة له وتبصرة ، فيغلب الشرف ويخبئ هرناني في مخبأ سري أمين . ويدخل الملك فيعاتب الدوق على أن يجير عليه ، ويطلب منه المجرم . فيجيبه جوميز في إباء وشمم أنه يؤثر الموت على أن يسلم جاره . فيغتصب الملك دوناسول ويخرج انتقاماً من عمها وثأراً لنفسه . ويخلو الدوق بهرناني فيرد إليه حياته وحريته بشرط أن يساعده على غسل هذه الاهانة عنه بدم الملك ، فيجيبه هرناني إلى ذلك ويضع حياته في يده ضماناً بوعده ، فيقسم أن يقتل نفسه متى نفخ الدوق في هذا البوق الذي يعطيه إياه

وفي الفصل الرابع : يسافر الملك في أثناء ذلك الى اكس لاشابل يروض لنفسه الأمور ويهيء الأسباب لفوزه في الترشيح لأمبراطورية ألمانيا ، ويأتمر الدوق وهرناني بالملك ، ويتوافى المؤتمرون في حندس الليل الى أقباء الكاتدرائية على مقربة من ضريح شارلمان . ويقف دون كرلوس على سر المؤامرة فيجيء الى مكانها يريد أن يفجأ المجرمين وهم جلوس على الجريمة ، ويظل مختبئاً ينظر . وتهب عليه في تلك الساعة نفحة من قبر شرلمان وهو الذي يريد أن يخلفه على مجده وسلطانه ، فتوحي اليه بتلك النجوى

المشهورة التى تبلغ ستين ومائة بيت من عيون الشعر وغرره ، ويدخل الملك ضريح العاهل فيتسنى له أن يسمع مايقرره المؤتمرون فيعرف أن هرنانى قد انتخب بالقرعة ليقتله . ويدوى فى تلك اللحظة صوت المدفع فجأة فيعلن انتخاب دون كرلوس عاهلا لألمانيا ، فيخرج حينئذ من مكمنه ويدهم المتآمرين فيملأ قلوبهم رعباً ودهشة ، ويريدون الفرار فيجدون المكان محصورا بالجند ؛ ويتقدم هرنانى فيكشف للملك عن نفسه ويذكره بجنايته على أبيه . ويكون لهرنانى ودونا سول والملك موقف رائع تتجلى فيه عواطف الحب والتضحية والشهامة ، وينتهى بأن يعفو الملك عن جميع المتآمرين ويتخلى عن دونا سول لهرنانى فيستعبد قلبه بهذه الأريحية . ويصبح اللص الشريف صادق الولاء مخلص القلب لشرلكان وهو الاسم الجديد للعاهل الجديد

وفى الفصل الخامس : لم تَحُل هذه النهاية فى صدر الدوق جوميز ، فلا هو رحض اهانته ولا هو نال حبيبته ، فيأبى عليه طبعه أن يسعد غيره بشقوته ، فيدع الزواج يتم والعرس يقام والعاشقين ينعمان معاً بنعمة الحب ولذة القرب ، ولكنهما يسمعان نفخة بوق على بعد ! ثم يدنو الصوت فاذا هو الشيخ جوميز يستنجز هرنانى وعده بأن يقتل نفسه عند نفخة البوق ، فيتوسل العروسان اليه بالرجاء والدعاء والدموع فلا يزداد إلا إصراراً وعناداً . ويظلم اليأس فى عينى الزوجين البائسين فيخرج هرنانى من منطقته قارورة من السم ، فتأخذها منه دونا سول وتجرع نصفها وتقدم الى زوجها الباقى فيشربه ، ويخر الحبيبان صريعين تحت قدمى الدوق ، ويهجم عليه هو أيضاً الندم ووخز الضمير فينتحر على جثتيهما الهامدتين

***

يؤخذ على هذه الدرامة أن العمل الروائى فيها خيالى محض ، ينقصه الصدق والطبيعة ، وأن تحليل أخلاقها سطحى غير عميق ، وأن كثيراً من مواقفها غريب غير ممكن . وتجد هذا العيب أوضح مايكون فى الحل ، فان الدوق جوميز الذى ظل طوال الرواية شهماً كريماً لايسوغ فى العقل أن يكون فى آخرها جامد الشعور زمِن المروءة كما ظهر

تتمة

فى الملهاة العامية Farce والمأساة العامية mélodrame

الملهاة العامية هى ملهاة غرضها الأضحاك والالهاء بتصوير العيوب المضحكة تصويراً يتعدى حدود الأدب والحشمة والذوق والامكانية . فهى تقوم على الاحالة والبذاءة ، كما تقوم الملهاة على السُّخَر والأضاحيك

والرأى بين الناس مختلف فى بقاء هذا النوع فى أمة راقية وحكومة منظمة ومسرح مهذب . فالذين يدافعون عن الملهاة العامية يقولون إن الناس يرفهون عن صدورهم بشهودها ، وإن الأذواق ليست واحدة فى تقدير اللهو الرفيع ، وإن العكوف على الجد الخالص واللهو الجدى يتعب الذهن ويكد القريحة ، وإن الجمهور يجب أن تطلق له الحرية فى اختيار ما يلهيه ويسليه

ونحن لاننكر مطلقاً على الملهاة العامية أنها تلهى الجمهور وتسر الناس ، بل نعترف بأن الرومان كانوا يهجرون مسرح (تيرانس) ويحتشدون عند المصارعين والمهرجين ، ولا ننكر كذلك أن القليل فى الناس هم الذين يدركون معنى الحق والجمال والخير ، فيلذهم إدراكه ويمتعهم فهمه ، وأن دهماء الشعب وسواده لا يلهيهم إلا المحال الفاحش والبذىء المقذع ، وأن من الأذهان ما يعتريه الكلال من الجد فلا يشحذ إلا بالمزاح الخالى من الذوق والفكر ، ولكن سلطان هذا النوع على الشعب هو مصدر الخطر فيه ومنشأ الضرر منه . فان من يحبه ويميل إليه يكره غيره ويصد عنه . وانصراف الشعب عما يغذى عقله بالحكمة وذوقه بالجمال ووجدانه بالفضيلة ، إلى ما يملأ عينه بالفحش وقلبه بالرجس ولسانه بالبذاء ، مؤد إلى الوهن والانحلال والعدم . ذلك إلى أن اللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله . وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر ، كما يخمد جسمه بترك العمل . أما قولهم إن الملهاة العامية لا تضر مادامت تسر ، فذلك مثل قولهم : إن نوع الغذاء لا يهمك مادام يلذك

إن هذه الملهاة خلقت لرعاع الشعب وغوغائه فلتبق لهم ولتحى بينهم ، بشرط أن تظل على شكلها العامى الخشن فى أدب وحشمة ، فتقوم فى الأسواق والأعياد والموالد تحت الخيام والمضارب ، حتى لاتجذب اليها إلا خشاش الناس ممن تعود أنفه

النتن فلا يشمه ، ومرن لسانه على الهُجر فلا يهمه . أما رفعها يفحشها ورجسها الى المسارح الراقية وتمويهها بالرقص والموسيقى ، وتزيينها بزخرف المناظر والأزياء ، فذلك تذهيب لحافة الكأس المسمومة يشربها الشعب فتقتل فيه عناصر الخير وعواطف الفضيلة !

المأساة العامية (mélodrame)

المأساة العامية درامة تتألف من الحوادث الفاجعة ، والمواقف المروعة ، والهزل الجرىء ، وتستعين بالرقص والموسيقى . وقد علق بها اسم (الميلودرام) فى منتصف القرن الثامن عشر ، واشتهر بتأليفها من الكتاب الفرنسيين (جلْبير دِ بكْسِيرِيكُور) و (دوكانج) و (دينِيرِى) . ولكن ما كتبوه عافه النقد لتبذله وتسفله . يمتاز هذا النوع بأثره القوى وعمله العنيف . فموضوعه إما أن يكون طاغية غشوما يرتطم فى مراغة العيب والفحش ، أو رئيس طغمة من قطاع الطرق يطارد فتاة طاهرة عفيفة فاضلة ، أو خائناً يخب فى الضلال ويوضع فى الغى ، أو حبيباً باسلاً يقع حبيبه فى قفص الأشرار فيغالب الأخطار ويصارع الفجار حتى يرد مكرهم ويدفع شرهم ، أو غبياً يعقد العمل بغباوته ويحرج الموقف بسخافته . ثم تتدخل العناية الآلهية بعد هذه التقلبات الشديدة ، والمشاكل العديدة ، فتأخذ للبرىء من المجرم وتقتص للفضيلة من الرذيلة . وعملها شديد العنف قوى الأثر ، يضحى بالأمكانية فى سبيل الضربات المسرحية والمفاجآت القوية ، وتعتمد على الخناجر والسموم والحرائق فى الأخذ بكظم النفوس ، وإثارة الرعب فى القلوب . أما موسيقاها فتعبر عن المواقف والعواطف ، وتتقدم دخول الأشخاص ، ورقصها قد يكون تعبيراً عن معنى وتمثيلاً لفكرة (Ballet) وقد يكون إمتاعاً وتسلية يتخلل حوادث الرواية . وأما أسلوبها فمزيج من الهرج الخالب والعامية المبتذلة ، مما يلائم هذه الأفكار التى تشرحها ، والعواطف التى تصفها . وماذا تجدى الأساليب الفخمة ، والتراكيب المونقة ، فى جمهور لا يريد أن يتأثر إلا بالزياط والعياط ، ولا يتسلى إلا بالصراع والقراع ، ولا يعرف إلا أن يقول فى نهاية الفصل الخامس وهو مجذوب للحادث مكروب للبطل : آه ! رباه لقد نجا ! !

على أن مآل هذا النوع إلى الفناء ، فان الشعب كلما رقت عواطفه ، وتهذب حسه ، ودق شعوره ، آثر الصدق والامكان ، وقدر الفن والبيان ، وعاف الصخب والهذر والعنف . ولذلك نجد الدرامة تحتل فى كل مكان محل الميلودرام

(يتبع) الزيات

الممهدون للأكتشاف والأختراع

بقلم الأستاذ قدرى حافظ طوقان

نشوء العلم وارتقاؤه

يأخذ الانسان ما عمله غيره وسلفه ويزيد عليه . يبدأ من حيث انتهى سلفه ويدخل تحسيناً عليه ، ثم يسمو للزيادة على ذلك . بينما يأخذ الحيوان ما عمله سلفه ويبدأ حيث ابتدأ (سلفه) وينتهى به دون زيادة . هذا فرق مهم بين الانسان والحيوان . وهذه ميزة اختصه الله بها ، ولولاها لما كان هناك تقدم أو حضارة . وعلى هذا ليست المدنيــة وما نراه من مظاهر العمران إلاّ مجموع مجهودات قام بها الأفراد فى سبيل ترقية المجتمع من نواحيه المتعددة . وإذا قيل إن جاوس ، وفبر ، اخترعا التلفون ، فليس معنى ذلك أن لهما كل الفضل فى إيجاده ، وأنهما توصلا إليـه بدون الاستعانة بما عمله غيرهما ، بل إن لبحوث الذين سبقوهما فضلاً كبيراً عليهما ، فلولا ليساج العالم السويسرى الذى ظهر فى القرن الثامن عشر للميلاد ، ولولا سومرنج الألمانى الذى قم بعمل تلغراف بواسطة التيارات الكهربائية من بطارية وبواسطة الماء لأعطاء الأشارات ، ولولا أمبير الذى نقل فى سنة ١٨٢٠ الاشارات بواسطة التيارات الكهربائية فى عدة إبر مغناطيسية ، أقول لولا كل هؤلاء وغيرهم لما استطاع جاوس وفبر أن يفكرا فى التلفون وأن يتوصلا إلى استعمال المغناطيس الكهربائى ، حتى أصبح للتلغراف قيمة عملية يمكن الاستفادة منها

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن للتحسينات الجمة التى أدخلها العلماء ستينهيل وكوك ومورس وستون ، الفضل الأكبر فى تعميم استعماله وجعله سهل التناول ، وها نحن أولاء نرى العلماء يدخلون عليه تحسينات أخرى ويتفننون فى صنعه

وليست نظرية النسبية بأكملها من نتاج قريحة العالم الشهير البرت اينشتين ، وقليـون جداً الذين يعرفون أن لمجهودات وبحوث لورانتز العالم الهولاندى وغيره من علماء الرياضة والطبيعة فضـلاً عليها ، فلولاهم ولولا كتاباتهم وبحوثهم وتمهيداتهم لما استطاع اينشتين أن يخرج النسبية بشكلها الذى نعرفه الآن

فليست الاختراعات والأكتشافات اذن إلا نتيجـة مجهودات جبارة قام بها أفراد مختلفون اشتغلوا فى ميادين العلوم والفنون ، وهى لم تظهر بشكلها العملى المفيد إلا بعد تمهيدات عديدة وإدخال تحسينات جمة قام بها العلماء فى عصور مختلفة ، ولا يزال القراء يذكرون المقال الشيق الذى نشر فى العدد ٦٢ من مجلة الرسالة بقلم الأستاذ محمود مختار فى موضوع (التلفزة فى عهدها الأول) وقد جاء فيه أن العالم الانـكليزى (جون بيرد) طلع فى سنة ١٩٢٦ بجهازه الأول فى عالم التلفزة وقد عرضه على المجمع الملـكى فى لندن ونقل صوراً لأجسام بسيطة موضوعة فى غرفة مجاورة ، وكانت الصور كثيرة الاهتزاز عديمة الوضوح . وقد شغل هذا الجهاز الأدمغة الـكبيرة ، فقام غير واحد وأخذ فـكرة العالم المذكور وعمل على تحسينها وإنمائها حتى وصل الاختراع إلى ما وصل إليه من الأتقان . ولا يزال العلماء يدخلون عليه فى كل يوم تحسيناً ، ولا يزالون يفكرون فى الوسائل التى تجعله سهل التناول فى استطاعة الـكثيرين اقتناءه والأستفادة منه

قد يظن القارئ أن ميزة الأخذ عن الغير والزيادة عليه تتجلى فى الفرد دون الأمم . هذا الظن فى غير محله ، إذ ظهر وثبت أن الحضارات المختلفة تجرى أيضاً على هذه النظرية : نظرية الأخذ عن السلف والغير والزيادة على ذلك

فالحضارة الرومانية استعانت بحضارات الأمم التى سبقتها واستفادت منها فوائد عديدة عادت على الرومان بالتقدم ، وكذلك استعان العرب والمسلمون بغيرهم من الأمم فأخذوا عن اليونان والرومان والهنود والفرس ، وبعـد أن أدخلوا على ما أخذوه الاصلاح والتغيير ، زادوا عليه زيادات جعلت الـكثيرين من منصفى الغرب يعترفون بعبقرية العقـل العربى وبقوته على الأنتاج ، وبخدماته الجلى فى رفع مستوى المدنية والانسانية . وحينما انتبهت أوروبا من غفلتها وبدأ فيها عصر النهضة العلمية استعانت بنتاج العقل العربى والاسلامى فى ميادين العلوم المختلفة والفنون المتنوعة . فالحضارة الأوروبية فى صميمها ترتـكز على الحضارة العربيـة والاسلامية وهى لم تستطع أن تتقدم تقدمها العجيب إلاّ بفضل العرب . قال سارطون إن العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم فى القرون الوسطى . واعترف غير واحد بأن العرب قدموا خدمات جليلة فى كثير من فروع المعرفة . وقال ويدمان : إن علماء العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وطبقوها ، وقد بذلوا الجهد فى تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة . واعترف سيديو بأن العرب أساتذة أوروبا فى جميع الأشياء . . .

ولنرجع الآن إلى مقالنا فنقول : لقد ظهر فى العرب علماء عديدون ابتكروا وا كتشفوا واخترعوا فى ميادين العلوم والفنون . وقد وُجد فيهم مَنْ استطاع أن يمهد ببحوثه وتجاربه لبعض ا كتشافات واختراعات هى من خطورة الشأن على جانب عظيم ، ولولاها لما استطاع علماء الفرنجة أن يقطعوا شوطاً بعيداً فى التقدم والرقى

التكامل والتفاضل :

علم التكامل والتفاضل من العلوم الرياضية العالية التى لها اتصال وثيق فى الاختراع والا كتشاف ، والتى سهلت كثيراً من المسائل العويصة . هذا الفرع من الرياضيات حديث الوجود ، فقد ا كتشفه وا كتشف قوانينه الأولية نيوتن وليبنتز فى أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، وهو لم يزدهر ازدهاره الحالى إلاّ بعد زيادات هامة قام بها العلماء فيما بعد . ويظن كثيرون ، بل يعتقد بعض الرياضيين ، أن العلماء الذين سبقوا نيوتن لم يمهدوا له ولم يضعوا فيه شيئاً جديراً بالاعتبار . هـذا خطأ إذ ثبت لدى البحث والتنقيب أن ثابت بن قرة من الذين مهدوا لهذا العلم ، ومن الذين حلّوا مسائل فى إيجاد المساحات والحجوم بطرق تمتّ نوعاً ما على طريقة التكامل المتبعة الآن . ويعترف سمث بذلك وبأن ثابت بن قرة هو الذى أوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره ، وأن العلماء الذين أتوا بعده اهتدوا بنور طرقه فى إيجاد المساحات والحجوم

دوران الأرض :

مما لا ريب فيه أن كوبرنيكس وغاليلو بلغا شأواً بعيداً فى

العلم وفتحا فيه أبواباً كانت مغلقة ، وأماطا اللثام عن حقائق كانت غامضة ، ودقائق كانت غير معروفة ، ولهما الفضل الأكبر فى تثبيت فكرة دوران الأرض ، ولكن كل هذا لا يمنعنا من القول بأنهما سُبقا إلى فكرة دوران الأرض ، وأن السالفين لذلك بعضٌ من علماء اليونان والعرب ؛ فقد كان فيثاغورس يعلّم تلاميذه على طريقة حركة الأرض ، وكان هذا قبل المسيح بخمسمائة سنة ، ثم أتى بعده بطليموس ورمى بهذه الفكرة عرض الحائط وقال بسكون الأرض ودوران الشمس حولها ؛ واشتهرت هذه النظرية كثيراً وأخذها الكثيرون من علماء اليونان والعرب ، وتعجب بعض علماء الفرنجة من قبول البيرونى لهذه النظرية ومن أخذ الفارابى وابن سينا بها . ولقد وُجد فى العرب مَنْ لم يأخذ برأى بطليموس ومَنْ قال بدوران الأرض حول الشمس . جاء فى (المواقف) للعلامة عضد الدين عبد الرحمن بن احمد الذى ظهر فى القرن الثامن للهجرة ما يلى « . . . الحركة اليومية (ويعنى حركة الشمس) لا توجد ، إنما تتخيل بسبب حركة الأرض ، إذ يتبدل الوضع من الفلك دون أجزاء الأرض ، فيظن أن الأرض ساكنة والمتحرك هو الفلك ، بل ليس ثمة فلك أطلس ، وذلك كراكب السفينة فانه يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع أجزائها منه ، وكذلك يرى القمر سائراً إلى الغيم حيث يسير الغيم إليه . وهذا كله من غلط الحس . . »

من هنا يتبين أن عضد الدين سبق كوبرنيكس فى القول بفكرة دوران الأرض ومهّد السبل لكوبرنيكس وغاليلو للتوسع فى هذه الفكرة ولاستعمال المعادلات والأرقام فى ذلك

رقاص :

لقد ثبت لدى بعض علماء الفرنجة أن العرب سبقوا غاليلو فى اختراع الرقاص وفى استعماله فى الساعات الدقاقة . جاء فى تاريخ العرب لسيديو مايلى « وكذا ابن يونس المقتفى فى سيره أبا الوفاء البوزجانى ألّف فى رصدخانته بجبل المقطم الزيج الحاكمى واخترع الربع ذا الثقب وبندول الساعة الدقاقة . . . »

واعترف سارطون وسدويك بأن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمن ، وفوق ذلك عرف العرب شيئاً عن القوانين التى تسيطر عليه . قال سمث العالم الأميركى الشهير « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه فى معرفة شىء عنه . وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد . . » فهم بذلك مهدوا السبيل لغاليلو لاستنباط كل القوانين التى تسود الرقاص ، إذ استطاع أن يجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل وأن يضع ذلك فى قالب رياضى بديع ، ومن هذا الوضع توسعت دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه

اللوغارتمات :

ثابت لدينا أن نابيير هو الذى اخترع أساس اللوغارتمات وأنه أول من عمل الجداول لذلك ، ولا يمكن أن تجد اثنين يختلفان فيه . وقد كنت أعتقد أن هذا البحث من الرياضيات لم يُمهد له أحد ، وأن الرياضيين الذين سبقوا نابيير لم يصلوا فى بحوثهم الى معرفة شىء عنه ، وأن هذا الفرع بقى مجهولاً الى أن جاء نابيير وفكر فى إيجاد طرق لتسهيل أعمال الضرب والقسمة فوفق الى اختراع اللوغارتمات . هذا ما كنت أعتقده ، وهذا ما لا يزال يعتقده الكثير من علماء الرياضة والتاريخ ؛ ولكن لدى قراءتى لبعض الكتب القديمة التى تتعلق بالرياضيات ، ولدى تصفحى لكتاب يبحث فى تراجم بعض علماء الفلك والرياضيات وجدت أن ابن حمزة المغربى الذى ظهر فى القرن الحادى عشر للميلاد استعمل فى بعض بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات ، إذ لو استعمل مع المتوالية الهندسية سلسلة عددية تبدأ بالصفر واتخذ الحدود فى هذه أساساً لنظائرها فى جدول المتواليات الهندسية لكان اكتشف اللوغارتمات التى أوجدها نابيير بعده بأربع وعشرين سنة

والحقيقة التى أود الأدلاء بها أنه مادار بخلدى أنى سأقرأ بحوثاً كهذه لعالم عربى كابن حمزة تمهد السبل لاختراع اللوغارتمات وتكون الخطوة الأولى فى وضع أساسه

الجاذبية :

تُقرن كلمة الجاذبية باسم اسحق نيوتن العالم الانكليزى الشهير ، فهو الذى وضع قوانين الحركة والجاذبية فى قالب لم يُسبق اليه ، إذ استعمل فيها الأرقام والمعادلات . ولكن هذا لا يعنى أن نيوتن لم يُسبق الى فكرة الجذب والجاذبية فقد قال بذلك بعض

علماء اليونان والعرب . فاعترف سارطون بأن للعرب بحوثاً في الجاذبية وأن الخازن وثابت بن قرة وموسى بن شاكر وغيرهم قالوا بالجاذبية ووضعوا بعض قوانينها . قال ثابت بن قرة « إن المدرة تعود الى السفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض ، أعني البرودة والكثافة ، والشيء ينجذب الى أعظم منه » وقد شرح محمد بن عمر الرازي هذه العبارة في أواخر القرن السادس للهجرة . فقال « إنا إذا رمينا المدرة الى فوق فانها ترجع الى أسفل ، فعلمنا أن فيها قوة تقتضي الحصول في السفل ، حتى إنا لما رميناها الى فوق أعادتها تلك القوة الى أسفل . . »

أليس في هذا تمهيد لفكرة الجاذبية ؟ أليست مباحث محمد ابن موسى في حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب سابقة لبحوث نيوتن ، وهي الخطى الممهدة للتوسع في قانون الجاذبية ؟ ألا ترى معي أن اكتشاف أبي الوفاء البوزجاني ، الذي ظهر في القرن العاشر للميلاد ، لبعض أنواع الخلل في حركة القمر دليل على أنه كان يعرف شيئاً عن الجاذبية وخواص الجذب ؟ من هنا يظهر أن علماء العرب (وقد يكون من قبلهم اليونان) سبقوا نيوتن في البحث عن الجاذبية . قد يعترض على هذا القول كثير ولكن لدى إنعام النظر يتبين أن الاعتراض في غير محله ، فنحن لا ندعي بأن العرب أو (غيرهم) وضعوا الجاذبية وقوانينها وما اليها في الشكل الرياضي الطبيعي الذي أتى به نيوتن ، إنما جل ما في الأمر أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان وزادوا عليها ووضعوا بعض القوانين لسقوط الأجسام . ثم أتى بعد ذلك نيوتن وأخذ ما عمله غيره في هذا المضمار وزاد عليه ، وبفضل ما وهبه الله من العبقرية وما اتصف به من المثابرة والثبات استطاع أن يضع الجاذبية بالشكل الذي نعرفه مما لم يسبق اليه ، ولاشك أن له في ذلك فضلاً كبيراً جداً ، ولكن هذا لا يعني تجريد العرب ومن قبلهم اليونان من الفضل ، فلواضع الأساس في علم من الفضل ما للمكتشف أو للمخترع فيه .

مرض الانكلستوما :

اذا قلنا الدكتور محمد خليل عبد الخالق فمعنى ذلك أنه من الأطباء النادرين الذين يعنون بما جاء في الكتب الطبية القديمة ومن القليلين الذين يهمهم تطور الاكتشاف في الأمراض والعوارض التي تصيب الانسان

وزيادة على ذلك فهو من المجددين في علم الطب ، ومن الذين يعرفون كيف يقومون بواجبهم الانساني على وجه كامل ، ولسنا فيما نقوله مبالغين ، بل قائلين الحقيقة ومقررين الواقع . لقد علق الدكتور حرسه الله على مقال لي نشرته في مجلة الرسالة عن ابن سينا بما يلي : « . . . وأود أن ألفت النظر الى أن ابن سينا أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الانسان المسماة الآن بالرهقان أو مرض الانكلستوما . وقد كان هذا الاكتشاف في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخاص بالديدان المعوية ، وهذه العدوى تصيب الآن نصف سكان العالم تقريباً

وقد بلغ ما كتب عن هذا المرض من المقالات والكتب الى سنة ١٩٢٢ ، (٥٠٠٠٠) مرجع عنيت بجمعها مؤسسة ركفلر بأمريكا . وقد سمى ابن سينا هذه الطفيلية باسم (الدودة المستديرة) وقد كان لي الشرف في سنة ١٩٢٢ أن قمت بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب عن الديدان المعوية ، وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة ، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلستوما ، وقد أعاد اكتشافها دوبيني في إيطاليا سنة ١٨٣٨ أي بعد اكتشاف ابن سينا عنها بتسعمائة سنة تقريباً . وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة . وكذلك مؤسسة ركفلر كما يرى من المراجع المذكورة بعد . وكذلك كتبت هذا ليطلع عليه الأدباء ويضيفون الى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو من الأمراض الكثيرة الانتشار في العالم الآن »

فاذا كان الدكتور محمد خليل بك كتب هذه القطعة ليطلع عليها الأدباء فقط ، فأنا أعيد كتابة ما كتبه ليطلع عليه العلماء والأدباء والباحثون وتلاميذ المدارس العليا وغيرهم . ومن مقال الدكتور يتبين أن العرب لم يمهدوا فقط لمرض منتشر ، بل قد سبقوا غيرهم في اكتشافه وفي معرفة الشيء الكثير عنه

ولا يسعني قبل الختام إلا أن أشكر الدكتور على اهتمامه بالتراث العربي والاسلامي في كشفه ناحية كانت غامضة ومحاطة بسحب من الأبهام ، وفي فتحه باباً ظل مغلقاً قروناً عديدة ، جزاه الله خيراً وأبقاه ذخراً .

نابلس — قدري حافظ طوقان

من ذكريات الصبي

أول حب

للأديب حسين شوقي

كان أول حب لى فى سنة ١٩١٨ أثناء المنفى فى اسبانيا .. كنا نقضى صيف ذلك العام بغرناطة فى الغابة الجميلة التى تحيط بقصر الحمراء الشاهق، حيث كانت ثريا حظيـة الملك ابن الأحمر المنعمة المدللة تمرح بين النرجس والياسمين. وكنا نقيم فى فندق شيد فى الغابة نفسها حيث يستطيع الزائر أن ينعم بالراحة والسكون مع بقائه بالقرب من ذلك القصر العربى المجيد، وكانت هذه الغابة التى غرست فوق رابية، تطل على مدينة غرناطة بمنظرها الرائع وضواحيها الفاتنة .. وكنا فى أوائل فصل الصيف، فلم يحضر إلا القليل من السياح، فلم يكن بالفندق غير أسرة أحد كبار الضباط الاسبان وأسرتنا؛ فما لبثت الأسرتان أن تعارفتا بعد زمن قليل . كان أهلى يقضون أوقات طويلة مع الضابط وزوجه يتحدثون عن جمال الطبيعة فى هذا المكان: سكون الغابة، صفاء المياه التى تترقرق فى الجداول الآتية من جبل « الشيرا » الذى يشرف هو كذلك على الحمراء، وقد جلل الثلج رأسه صيف شتاء ..

أما أبى فقد وجد فى الضابط سميراً أنيساً، لأن الرجل كان رغم تربيته الحربية، واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ .. كما كان يشارك والدى فى توجعه على تلك المدنية العربية الأندلسية العظيمة التى أضاءت العالم الغربى حقبة من الزمن، حين كان يتخبط فى دياجير الجهل والهمجية، ثم ما لبثت أن اختفت فجأة فى فوضى الوجود ..

وكان هذا الضابط أسمر البشرة إلى حد يلفت النظر، وقد قال له أبى مرة إنه لابد أن يكون من أصل عربى، فأمن الضابط على قوله ذاكراً فى شىء من الزهو أنه عربى من بنى أمية الأمجاد كما تثبت ذلك شجرة نسب أسرته، إذ كان من النبلاء ..

أما أنا، وكان عمرى إذ ذاك ثلاثة عشر عاماً، فما كنت أحفل ببنى أمية ولا بغيرهم، بل كنت أقضى الوقت فى الغابة أبحث عن فراشة جميلة أضمها إلى مجموعتى.

كانت تعاوننى فى مهمتى هـذه بنت الضابط الصغرى، إذ كان له بنتان: إحداهما فى العاشرة وكانت مع الأسف دميمة، ومع ذلك كنت أصطحبها فى جولاتى خلال الغابة لافتقارى إلى رفيق .. أما أختها الكبرى فكانت فى مقتبل العمر، وهى آية فى الحسن، ببضاضتها ولونها الخمرى، وعينيها السوداوين الصغيرتين الحادتين، ووجهها الذى يبسم دائماً كأنه أيام الربيع ...

وكانت هذه الفتاة الرشيقة التى تسمى خوانا، وكان أهلها يدعونها خوانيتا (تصغير خوانا) — تدليلاً ومحبة — تتكرم أحياناً بمصاحبتنا فى رحلاتنا. عندئذ كنت أحس بسعادة عظيمة تغمر قلبى ووجدانى، لابد أنى كنت أحب خوانيتا حباً جماً إذ ذاك، فقد فقدت يوماً شالها الحريرى الصغير الذى كانت تلف به عنقها فى إحدى هذه الرحلات، فأخذنا نبحث عنه — نحن الثلاثة — حتى عثرت عليه أنا معلقاً على جذع شجرة، ولكنى بدلاً من أن أرده اليها ألفيت نفسى أقبله، ثم وضعته خلسة فى جيبى لأحتفظ به . كم كان طيباً عبيق هذا الشال! وكيف لا يكون وقد أحاط بجيد محبوبتى خوانيتا، وتنسم عبيق غدائرها الساحرة؟ وكنت فى الليل حينما أرجع الى مخدعى وتتراءى لى صورة خوانيتا فتطرد عنى النوم أضم الى صدرى هذا الشال فيهدئ وجوده أعصابى ويجلب الى النوم والراحة

أردت مرة أن أقدم اليها هدية مدفوعاً فى ذلك بحب الصبا الجنونى، ولكن ما الذى كنت أستطيع أن أقدمه اليها ونفقة جيبى ضئيلة لا تزيد فى الشهر على ثلاثين فرنكاً اسبانياً؟ عندئذ قمت بهذه التضحية: أعطيتها مجموعة الفراش التى عانيت المشاق فى جمعها!

أما خوانيتا فلم تكن مع الأسف تشاركنى هذا الحب ... كم كنت أحمق حين ظننت أن فتاة كخوانيتا فى العشرين من عمرها تبادل صبياً فى مثل سنى الحب؟ على أن خوانيتا كانت تجد تسلية كبيرة فى التظاهر بحبى، فتلعب معى أدواراً مؤلمة .. فمن ذلك أنها كانت تحتفظ بيدى فى يدها — أثناء الرحلات — فكنت اذا ماعدت الى الفندق لا أغسل تلك اليد طول النهار، حتى أحتفظ برائحة خوانيتا فيها، كما كنت أشمها وأقبلها خلسة من وقت الى آخر ...

وكانت خوانيتا ترسل الى أحياناً بعض تلك النظرات التى لا يقوى على مواجهتها قديسو اسبانيا جميعاً! وصار أهلها الذين

من شعر الشباب

عيد الجهاد

للأستاذ محمود الخفيف

تزيد صباحه الذكرى جلالا — وقد لبست به الدنيا جمالا
ترى في أفقه شفقاً خضيبا — ترقرق في جوانبه وسالا
دم الأحرار ألبسه وشاحا — يتيه به على الزمن اختيالا
تخذناه من الأيام عيدا — هو النيروز والأضحى مثالا
عقدنا حول مفرقه صليبا — وفوق مسيل غرته هلالا
صباح تسفر الآمال فيه — فتجتاح التردد والملالا
يزيد السلمُ ساحته وقارا — ويبسط في جوانبها الظلالا
ترفرف فيه أرواح الضحايا — وتقرؤنا التحية والسؤالا
تطل من الغمائم سابحات — خوافق تسبق الريح انتقالا
تطوف بكعبة الوادي خفافا — ولا تبغي عن الركن ارتحالا
تقبل حائط الحق ابتهاجا — وتملأ ساحة البيت ابتهالا
وتمسح منبراً ولدت عليه — عقيدتنا وكان لها مجالا
ترى نور القضية في ذراه — وتسمع صوتها سحراً حلالا
وتلمح من جلال الغار ظلا — ومن طهر الحطيم له خلالا
تطالع وجه حسّان لديه — وتسمع في مشارفه بلالا
سيلوى الدهرَ حائطه المفدى — ويُفني رأسه العالي الجبالا

* * *

رعى المولى على الأجيال يوما — بدأنا فيه للحق النضالا
سيوف لغافرين به نشاوى — ونار البطش تشتعل اشتعالا
دعا داعي الجهاد به فسرنا — ولم نخش الأسنة والنصالا
سل الحرية الحمراء عنا — ألم نوسع أعادينا قتالا ؟
ألم نرخص به المهج الغوالي — ونملأ جانب الدنيا صيالا ؟
ألم نبذل غداة الروع أمنا — وأبناء وأقواتاً ومالا ؟
ولم نرهب من المحتل بطشا — وإعداماً ونفياً واعتقالا
تطوف الشائعات بنا فنمضي — إلى الميدان لا نألو نزالا
يقاسي شيخنا في الأسر ظلماً — ولكن لا يحس له كلالا
يريهم في صلابته مثالا — من الايمان ظنوه محالا
وقد ألفوا من الشرق انقياداً — لسيفهمو وذلا وامتثالا
وكان أعز بالأعزال جندا — وأرهف من أسنتهم مقالا
لقد ترك الأماثل من بنيه — وحمل راية الحق الشبّالا
فما وهنوا بمصر وما استكانوا — وخاضوا الموت أياماً طوالا
يُتوج هامهم شرف وفخر — وإن جال الردى فيهم وصالا
وأعظم ما تكون الحرب هولا — إذا الأحرار شُنوها سجالا

* * *

سأذكر ما حييت صباح يوم — كسته شمس آذار جمالا
سلخت من السنين لديه تسعاً — نعمت حيالها باللهو بالا
ولكني صحوت على هتاف — وألحان وأسماء توالى
رأت عيني الغريرة مهرجاناً — قد انتظم الأوانس والرجالا
مشى الشبان أثرهمُ جموعا — خفافاً في مواكبهم عجالا
يجيبون النداء ولم يحسوا — لما هتفوا به الا خيالا
وأعذب ما يكون الحق صوتا — إذا هتف الشباب به ارتجالا
ولن أنسى وجوهاً سافرات — وكانت قبل غضبتها وجالا
وصوتاً رن في الوادي حنونا — وقبل اليوم لم يعدُ الحجالا

علموا هذه الخديعة منها ينظرون الي بعين ملؤها العطف ، بل كانوا يضطرونها أحياناً الى مرافقتي في الغابة مع أختها . .

وا أسفاه ! لم أعرف الكوميديا التي كانت تلعبها خوانيتا إلا قبل رحيلنا من غرناطة بأيام قليلة ! أيها القدر القاسي لماذا لم تترك لصبي مثلي لذته الموهومة وسعادته المزعومة ؟ لماذا لم نرحل قبل اطلاعي على هذه الحقيقة المرة ؟ واليك كيف عرفت الخديعة :

كان أحد باعة الحلوى المتجولين يمرّ أمام الفندق من حين الى حين . فنزلت ذات يوم أشترى منه شيئاً من الشكولاتة لخوانيتا وأختها ، كما كنت أفعل مراراً ، فلما عدت الى الفندق وصعدت الى الحجرة التي كانت تجلس فيها الشقيقتان ، وجدت بابها مفتوحاً وسمعت خوانيتا تضحك مع شاب غريب (هو ابن عمها كما علمتُ ذلك فيما بعد) وإذا بها تخبره بقصتي بصوت جهير ولهجة ساخرة ، وتذكر له كيف كانت تلعب بعواطفي . . عندئذ سقطت الشكولاتة من يدي المضطربة ، وأحسست نفسي تذوب كما يذوب تمثال من الثلج تحت أشعة الشمس الحادّة !

كرمة ابن هانئ — حسين شوقي

يزيد حنانه الأبطال عزما   ويمسح وقعه دمعَ الثكالى
كسا الدم باطن الأيدى خضابا   وصاغ العزم فى الوجْنات خالا
فلا يدرى العدو إذا التقينا   أيخشى الليث أم يخشى الغزالا

* * *

بنى مصر تعالوا حدثونى   أترضى اليوم ما نلقى منالا ؟
وهل نلنا سوى الدستور مما   أردناه لنهضــتنا مآلا
أخذناه جهاداً واجتهاداً   ولم نأخذه نوماً واتكالا
ولكنا فقدناه رضــيعا   وكان الفقد غدراً واغتيالا
وما أدرى غداة بدا سناه   أكان حقيقة أم كان آلا
أعيــدوه إلى مصر غلاما   فقد لج الحنين بهـا وطالا
سيبلغ فى حضانتها صباه   ويضمن فى رعايتها الكمالا
تواصـوا بالوفاء له وسيروا   كفانا فى قضــيته مطالا
رأيتم كيف عاقبة التلاحى   وكيف قضيتمو العهد اقتتالا
تنابذتم ودب الخلف فيكم   فنمتم عن عدوكمُ اشتغالا
ولولا يقظة الأبطال منكم   جنينا من ترامينا الوبالا
ولم أر كالخلاف بمصر عيبا   ولم أر مثــله داء عضالا
ترجى مصر فينا اليوم خيراً   وترتقب الصنيعة والفعالا
شهدتم أظلم الأحكام عهداً   وذقتم أسوأ الأيام حالا
شربتم ماءه بالأمس صابا   خذوه اليوم معسولاً زلالا

المعجزة (١)

أو

السهم الأخير

للأستاذ سيد قطب

مَنَحتِنى اليومَ ما الأقدارُ قد عجزتْ
عن منحِهِ ، وتَنَاهَى دونَه أملى !

منحتِنى الحبَّ للدنيا التى جَهِدَتْ   فى أن تُميلَ لها قلبى فلم يَمِلِ !
وكلما قرَّبتِنِى قلت : خادعةٌ !   وكلما طَمأنتِنى ، قلت : واوجلى !
ويغمرُ الشكُّ نفسى كلما كشَفَتْ   عن فِتنٍ من حُلاها ، غيرِ مبتذَلِ

حتى خسرتُ من الأيَّامِ ماغبرتْ   به السنونُ ، وحتَّى عقَّنِى أجلى

* * *

واستَلْهَمَتْ هذه الدنيا طبيعتَهَا   فى مُعْجِزٍ من قواها ، قاهر ، حان
فأبدعتْكِ جمالاً كلُّه ثِقةٌ   يؤلف الحبَّ من وحىٍ وإيمان
وأودعتْكِ رحيقاً من خلاصتِها   ومنبعِ السحرِ فيها جدّ فتّان
وأرسلتْكِ يقيناً فى طلائعِها   منيرةً فى دُجى عقلى ووجدانى
فكنتِ آخرَ سهمٍ فى كِنَاتِهَا   وكنتِ معجزةً من خَلْقِ فنانِ

* * *

والآن أخلصُ للدنيا وأمنَحُها   حبِّى ، وأدركُ ما فيها من الفِتَنِ
والآن أنظرُ للدنيا وأنتِ بها   كعاشقٍ ، بهواها جُدّ مُفْتَتِنِ
والآن أعمل للدنيا على ثقةٍ   بأننى قلبها الخفَّاق فى الزمن !
والآن أنصتُ للدنيا فيطربنى   من صوتِها العذبِ لَحْنٌ ساحِرُ اللَّحَنِ
لكِ الحياةُ إذنْ مادمتِ مانحةً   لِىَ الحياةَ بلا أجرٍ ولا ثمن !

---

(١) من فصل الغزل والمناجاة بديوان « سيد قطب » الذى يصدر أول يناير.

صرخة الألم

بقلم فريد عين شوكه

تعالَ نجدِّدْ عهود الغرامِ   ونُحيى لياليَهُ المـاضـيه
لياليَهَ الطيباتِ العـذابَ   وسـاعاته الحلوة الغاليـه
وحيدَيْن فوق ضفاف الغدير   وتحت خمـائله الضافيه
يرفُّ علينا مَلَاكُ الهوى   كما رفَّت الزهرة الناديه
ويسمِعُنا من سماء الخلود   أناشيده العـذبة الحاليه
تُهَدْهِدُ أشواقنا الصارخات   وتسكن أوجاعنا النازيه
وتسرى مع الدم بين العروق   فتروى جوانحنا الصاديه
تعال فقد عصفت بى النوى   كما تعصف الريـح بالجاريه
وراحت تمرَّغ فى مهجتى   مخالبها الصلبة القاسـيه
فخلَّت فؤادىَ جمَّ الجراح   وألقت به جثـة داميه
تعال ودَع كل لاحٍ مهين   يرى الحب أسطورة باليه
فلو عرف المرء معنى الهوى   وشاهد فيـه النوى ماهيه

العلوم

خلق النظام الشمسى

نظرية جينز فى أصل السُّدُم والنجوم، وتكوُّن نظامنا الشمسى

بقـــلم فرح رفيدى

قبل ٣٠٠ سنة ، ولمدة ألفى سنة تقريباً ، كانت الأرض تدعى سلطانة هذا الكون العجيب ، وسيدة العالم كله ، ومحور دوران شموسه الكثيرة . وقد جعلت ملكة الكون من أبنائها ، لا لأنها كانت أهلاً لهذا اللقب ، أو لأنها حقيقة كانت فى ذلك المحل الرفيع من الكون ، بل لأن أبناءها اغتروا بأنفسهم كثيراً ، وحسبوا لوجودهم حساباً كبيراً ، فاعتبروا مسكنهم مسكناً عظيماً يليق به أن يكون مركز الكون وأهم موضع فيه . والصواب أنهم لم يرعووا عن غيهم ، ولم يضعوا أنفسهم فى المقام الجدير بهم إلا منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة فقط ، لما عرفوا أن أرضهم هذه هى أقل من جزء من المليون من الذرة الصغيرة ، بالنسبة إلى الكون كله ، وأن الشمس هى بمقدار هذه الذرة فقط ، وأن الانسان نفسه هو أيضاً بمقدار يكاد لا يُذكر

لنفرض أولاً ثلاثة أشياء نسلم بصحتها ، دون أن نكلف أنفسنا مشقة الخوض فى برهانها وإثبات حقيقتها

أولاً : المادة مركبة من ذرات مُكهربة تكهرباً إيجابياً وسلبياً ، بروتونات والكترونات (Protons, electrons) ، وفى حركة دائمة ، وبما أن الكهربائية تيار من الالكترونات وحالة من أحوال الطاقة (forw of ene gy) . كذلك المادة هى مظهر طاقة ، يمكن تحويلها لحرارة أو ضوء ، كتحويل الشهب لحرارة أثناء احتكاكها السريع بدقائق الهواء

ثانياً : كل ذرة فى الكون تجذب كل ذرة أخرى بقوة تختلف عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما ، وطردياً بحسب حاصل كتلتيهما (mass) . فكل ذرة فى الشمس تجذب كل ذرة فى الأرض ، وكل شئ على الأرض له تأثير على كل نجم فى السماء ، وهكذا لا يمكنني أن أضرب بيدى على المنضدة دون هزّ النجوم من مواضعها ؛ ولكنه هزّ ضعيف جداً ، لا يُدركُ ولا بأدقّ الملاحظات ، وهو ضعيف بمقدار صغر كتلة يدى بالنسبة إلى كُتل الكواكب كلها

ثالثاً : المواد المتركبة منها الكواكب والشمس كالمواد المتركبة منها الأرض ، ولكنها فى الأولى تحت ظروف تختلف فيها تبعاً للحرارة والضغط

فى البدء قبل أن تكون شمس أو نجوم أو أى ضوء آخر ، وكانت الظلمة تخيم على سكون عميق فى كل أنحاء الكون ، كانت دقائق المادة الصغيرة مبعثرة ومنتشرة انتشاراً متساوياً على أجزاء الفضاء كله ، وكانت البروتونات والالكترونات تجيء وتذهب هنا وهناك فى كون لا نظام فيه ولا قانون يضبطه ، وكل شيء كان فى ظلام دامس من فوضى الطبيعة (chaos) ، وفى حالة غير مُستقرة (unstable) وعلى وشك الانقلاب لأقل حركة تبدو فيه . كان الكون حينئذٍ عديم التوزان ، كقلم أوقف على رأسه ،

وذاق لديه نعيم الجنان — وكُبْكِب فى ناره الحاميه
وهبت عليه رياح الظنون — وثارت به الغيرة الطاغيه
لما عاش يعبث بالمغرمين — ويزرى بشكواهم الباكيه
هو الحب لولا يداه اللتان — تفيضان بالرحمة الهاميه
لما عرف الناس معنى السلام — ولا قدَّسوا روحه الساميه
كتاب بعثت به للحبيب — قلائد من مهجتى الحانيه
فألقاه منتثراً فى الطريق — كما تُنثَر الزهرة الذاويه
كأنى به تحت عِبء القُمامة (م) يشكو إلى ربِّه راميه . . ! !

فريد عين شوكه

أقلّ اهتزاز يغير وضعه إلى وضع ثابت أكثر اتزاناً (stable) ، أو كآلة تحتاج إلى من يحركها ، أو كدولاب على وشك الانزلاق ، يحتاج لدافع يدفعه لينطلق بدورانه انطلاقاً . كان حقاً بحاجة الى يد الله تسرى فيـه تياراً من ذلك الغاز المنتشر ، حتى يندفع بأجمعه لأن يخلق نفسَه بنفسِـه ، وتـكون حاله إلى ماهى عليه الآن

لانعرف كيف أو أين ابتدأ التيار ، ولـكن لسبب ماجرى تشويش (disturbance) فى نظام الطبيعة ، حينئذٍ جعَل ذلك الغاز يتجمع ويتضام ويكوّن من نفسه كُتلاً (condens-ations) كبيرة وصغيرة وفى أماكن مختلفة من الفضاء ، والـكُتل الـكبيرة بعظم ما تجمَّع لها من المادة صار لها قوة جذب كبيرة قدرت بها أن يجمع أكثر من الغاز الذى حولها ، وتتغلب بها على سرعة الذرات من أن تهرب . وحجم الـكتلة يتوقف على شيئين : تخانة الغاز وسرعة ذراته . ففى الغاز الخفيف تـكون سرعة التيار ومدى توسـعه أكثر من سرعته ومداه فى الغاز الثقيل (dense) ولذلك تـكون كمية المادة المتجمعة أكبر . وإذا كانت سريعة فانها لاتنقاد لـكتلة صغيرة لضعف جاذبيتها ، كخروج ذرات الهواء عن طاعة القمر لقلة جاذبيته بالنسبة لسرعة الذرات . ففى غاز معلوم الـكثافة وسرعة ذراته يكوِّن فقط كتلاً لاينقص الوزن فيها عن حد معين . وإن كان بعض الـكُتل صغيراً إلى حدٍ أن يمنعها من ادخار جاذبية كافيـة تقاوم بهـا سرعة الذرات الهاربة ، فانها لا تلبث أن تتلاشى وتنتشر فى الفضاء كما كانت . والـكبيرة بعكس ذلك ، فان كبرها يزيد فى قوة جاذبيتها التى تزيد فى مادتها وحجمها ، فـكلما كبرت الـكتلة كان طبيعياً فيها أن تتجمع وتـكبر وتزداد مادة وقوة ، وكلما صـغرت ساعدت الأحوال على عكس ذلك

حَسِب هَبِل (Hubble) أحَد الفلـكيين أنه إذا انتشر كل غاز النجوم فى الفضاء انتشاراً متسـاوياً فى جميع جهاته ، فان كثافة ذلك الغاز حينئذ تـكون قدر كثافة المـاء ب (١٠)$^{-٣٠}$ مرة ووجد أيضاً أن سرعة الذرات فى حالتها تلك تـكون حول ٥٠٠ ياردة فى الثانية ، فوجد من ذلك أن وزن كل كتلة من الـكتل المتكونة بواسـطة التيار أكبر من وزن الشمس بمقدار يتراوح من ٦٢½ مليوناً إلى ٤٠٠ مليون مرة ، وعندا كتشاف الفلـكيين اليوم لوجود آلاف من الأجسام التى لها هذا الثقل تحقق جيداً : أن هذه السـدم التى نراها اليوم هى ذات الـكتل التى تـكونت بتأثير ذلك التيار الابتدائى الذى حدث بين دقائق الغاز الأول

وكانت هذه السُدُم التى تكونت مختلفة الحجم والشكل ، وكان شكل الواحدة مترتباً على متجه التيار الذى أحدثها . فن اتجه التيار الى المركز كان الشكل كروياً وبدون حركة . وإن زاغ الاتجاه عن المركز ، وهو الأكثر حدوثاً ، بدأت الـكتلة بحركة دوران حول محور فى وسطها . وللجسم الدائر صفة حفظِ قوة الاندفاع الدورى (Constaut Angular Momentum) وهى إن تقلص حجم الجسم يقصر طول قطره ، فتزيد سرعة دورانه . وهكذا كان فى أمر الـكتل المتكونة حديثاً : زاد انكماشها بسبب جاذبيتها فى سرعة دورانهـا أكثر فأكثر . وكان أثر ذلك الدوران أن حوَّر شكل الـكتلة من الـكروى الى شكل عدسى . وكما أن دورة الأرض سببت انبعاجها عند خط الاستواء وتفرطحها عنـد القطبين ، كذلك ازدياد سرعة دوران تلك الـكتل كان يزيد فى تنظيمها الى حدٍّ بعيد . وكانت اذا زادت سرعتها أكثر من ذلك لاتزيد فى تسطحها فحسب ، بل تبدأ بقذف غاز من مادتها ينتشر حولها فى السطح الاسـتوائى (eguatorial plane) انتشاراً متساوياً

وهكذا حول كل كتلة تكوّن غاز خفيف . وله كالغاز الذى كَوّن السُدم نفسها صـفة التجمع والتجزء الى كـتل تختلف قليلاً عن بعضها فى الحجم والشكل ، ولـكنها أصغر من الـكتل الأولى . وكما قدر العلماء رياضياً يتقارب وزن الواحدة منها من وزن الشمس ومعظم النجوم اللوامع . واذا أدرنا بصرنا بالتلسكوب الى السماء شاهدنا السدم اللولبية الشكل تبتدئ بوَسَط غازىّ وتنتهى أطرافُها بمجموعة من النجوم ، وذلك يدل على أن أصل تكون النجوم والشمس هو من السدم

هذه النجوم الجديدة المنفصلة عن السُدُم الدائرة ، بقيت دائرة مثلها لتحفظ قوة الاندفاع الدورى . وقد كانت ولاتزال للآن تشع فى الفضاء بلا انقطاع كميات كبيرة من الضوء والحرارة تنبعث منهـا نتيجـةً لاحتراق مادتها فى داخلها . فالشمس التى نستضىء ونستدفىء بها تخسر من مادتها فى كل دقيقة تمر حوالى ٢٥٠ مليون طن . وهذه كلها تحترق وتتحول

نوراً وحرارة ، فجزء قليل جداً نستمده ، والباقى يذهب هباء فى الفضاء . ذلك يدل على أن حجم الشمس والنجوم يقلّ تدريجياً ، وقلة الحجم هذه يقابلها سرعة فى الدوران ، وتبقى السرعة فى ازدياد مستمر مادام الأشعاع فى النجم مستمراً ، واذا ازدادت السرعة فى بعض النجوم الكبيرة فقد تقسمها الى قسمين متعادلين أو غير متعادلين تماماً . وبهذه الطريقة نشأت النجوم المزدوجة (double Stars) .

وقد نظن هنا أن منشأ الكواكب فى المجموعة الشمسية حصل من دوران شديد فى الشمس جعلها تفصل عنها هذه الأجرام حولها . ولكن الأمر غير ذلك ، اذ لو قابلنا أوزان بعض النجوم المزدوجة بأوزان الكواكب السيارة ، لوجدنا الفرق بعيداً ، فأوزان الأولى تقرب من وزن الشمس ، ووزن أحد الكواكب كالأرض أقل من جزء من المليون من وزن الشمس . وعلى ذلك فمن غير المحتمل أن يكون منشأ نظامنا الشمسى على هذه الطريقة

لتعليل منشأ نظامنا الشمسى يأتى السر جينز بنظريته المعروفة بنظرية المدّ (Theory of Tidal Friction) ، وهى أن يقترب نجمان مختلفا الوزن من بعض ويكون تأثير جاذبية الكبير على الصغير شديداً بأن يرفع على سطحه مداً من مادته الغازية كرفع القمر مياه الأرض بقوة جاذبيته . ولكن اقتراب النجمين ليس بالأمر الهين أو بالشيء الذى يقع مرة ويتكرر مرات ، إذ أن عظم المسافات الشاسعة التى تباعد بين نجم ونجم ، تجعل أمر الأقتراب شيئاً صعباً وبعيد المدى ، وقد لا يحدث لملايين من السنين تمضى ، ولكنه محتمل الحدوث ولو مرة فى هذا الزمن الطويل

دعنا نفرض مرور الملايين من السنين على شمسنا وهى سابحة فى الفضاء وحدها بدون رفيق أو رقيب ، ودعنا نفرض أن هذه المصادفة ، مصادفة الاقتراب بين نجمين حدثت ، وحصل هذا الشيء البعيد الوقوع والنادر الحدوث بين شمسنا ونجم آخر ، ومر هذا النجم بالقرب من الشمس دون تصادم أو احتكاك ، وكان كبيراً بحيث كان تأثيره قوياً عليها ، فتأثير ذلك النجم ، على رأى جينز ، كان ان عمل على سطح شمسنا مداً ارتفعت فيه كمية كبيرة من الغاز ، وتمددت طويلاً متتبعة جهة ابعاد النجم عن الشمس ، فانفصلت عنها وتكونت بشكل سيكار ثخين فى الوسط ودقيق عند الطرفين ، وصار هذا الغاز المنفصل وسطاً لتجمُّع كُتل صغيرة وكبيرة ومتوسطة بقدر ما تستوعب وتستجمع من المادة التى حولها . ولصغر هذه الكتل ضعفت فيها قوة انبعاث النور والحرارة ، وانطفأت شعلتها النارية ، فبردت وانخفضت حرارتها تدريجياً ، وتحولت الغازات أمطاراً من سوائل المعادن على سطوحها ، وتقلص حجمها الغازى الى حجم سائلى ، وعند انخفاض الحرارة أكثر تجمدت السوائل. وتحول بعضها الى مواد صلبة قاسية ، وانكمشت السطوح كثيراً ، وتجمدت ، وتكونت أجساما معتمة ، لامصدر للحرارة أو النور فيها غير ماتستمده من الشمس أو من بعض الموّاد المشعة فى داخلها . وجعلت حفظاً للاندفاع الدورى تدور حول الشمس دورات مختلفة فى البعد والوقت . وهكذا كانت الكواكب السيارة ، منها عطارد وبلوتو فى طرفى السيكار ، والمشترى وزحل فى وسطه

وفى بدء خلق هذه الكواكب ، وقبل اعتدال دوائرها وثباتها حول الشمس كما هى الآن كانت تدور بغير انتظام يربطها ، أوقانون يوحدها . فكانت تارة تقترب ، وتارة تبتعد عن الشمس ؛ فحدث فى أثناء ذلك أنه بينما كانت الأجسام غازات ملتهبة ، اقترب بعضها من الشمس ، إلى حدٍ مكّن الشمس أن تسحب من غازاتها كتلاً أخرى انفصلت عنها وكونت أقمارها ومن جملتها قمرنا

وهكذا من فوضى الطبيعة الأولى تكونت السُدم ، والسدم من جراء دورتها حول نفسها تشتّت غازها وانقسمت إلى أنجم ، كل نجم منها قائم بذاته ، وسائر فى الكون بقوة حركته واندفاعه . ومن سرعة سير هذه الكواكب ابتعدت عن بعضها أبعاداً شاسعة . تكاد تُعدمُها حقيقة وجودها ، بالنسبة لسعة الفضاء وعظمته ، وصار مجرد اقتراب الواحد من الآخر من قبيل المصادفة فقط . ولكن حدث أن اقترب نجم من شمسنا ، وسحب منها غازات توحدت وتجمعت كتلاً صغيرة وكبيرة . وتصلبت أجسامها وتحولت إلى كواكبنا السيارة هذه ، ومن جملتها الأرض ، وبمجرد اقتراب الأرض من الشمس انفصل جزء منها وكوّن القمر

رام الله فرج رفيدى

البريد الأدبي

الأدب المجري الحديث

خواصه ومميزاته

نشرت «مجلة المجر الجديدة» مقالاً عن دور الشباب فى تطور الأدب المجرى المعاصر ، فوصفت الخواص التى يتميز بها أدب الشباب سواء فى الشعر أو النثر ؛ وقالت إن الأدب المجرى الحديث يرجع إلى أواخر القرن الماضى ، ويمتاز قبل كل شىء بالخروج على النزعة « الغربية » التى بلغت ذروتها بالشاعر الكبير « آدى » أعظم شعراء المجر فى القرن الماضى ؛ كما إنه يمتاز بالاغراق فى المظاهر الشعبية ، والتعلق بالأصول الشرقية للروح المجرية ، والتأثر بالحياة الريفية .

ومع ذلك فان أساس التطور الحديث فى الأدب المجرى ، هو شعر « آدى » ؛ ومن المحقق أن الأدب المجرى المعاصر ، إذا راعينا أكابر الشعراء مثل يوسف أرديلى ، وبوليا إلياس ، وآتيلا يوزيف ، ولوران زابو وأكابر القصصيين مثل آرون تمازى ويوسف نيرو ، يجوز مرحلة عود على بدء . وإنها لظاهرة جديدة فقط أن تتجه الأفكار إلى استكمال الأساطير القوية الجديدة ، وإلى اعتبارات الجنس والأرض والتاريخ فى نوع من المظاهر الشعبية الجديدة ؛ والجيل الحاضر ينظر إلى التطور القديم بهذه الروح بينما يعمل على إحياء النزعة التى أشرنا إليها ، ومن ثم كانت أعظم مصادر وحيه ، السياسة والمجتمع ؛ وكثير من شعراء العصر يرددون قول الشاعر يوتوتوس : « إن الشاعر الذى لا تهزه عواطف عصره ، يمزق أعصاب غنائه »

وفى مقدمة شعراء هذه الطبقة يوسف أرديلى وبوليا إلياس . ومن يقرأ أرديلى فى قصيدته الشهيرة « بلا سلاح » أو قصيدته « النجم الفريد » يشعر بأثر الرسالة التى يقول الجيل الشاب إنه يقوم بها . وليوليا إلياس قصة شعرية ظهرت أخيراً عنوانها « شباب » ، وهى تفيض بالجمال الابتداعى والنزعة الغنائية ، ومن نظمه أيضاً « ثلاثة شيوخ » . وهو أشد من يمثل نزعة الجيل الجديد من حيث النزعة الغنائية والفردية ، والطموح إلى استكمال التقاليد والتعلق بالتراث الشعبى

ومعظم هؤلاء الشبان لا يعنى بالشكل ، وينكرون فى نوع من التحدى أناقة اللفظ أو ضخامته ؛ وكثير منهم يجنح إلى القديم الساذج ، وإلى الروى الشعبى ، وشعرهم ينضح على العموم عن لون قومى قوى ، وهم فى الواقع « أبناء الشعب » ينشأون فى مهاد « الفقر المعذب » ، وينزعون إلى بساطة اللفظ ، وإلى التقاليد وإلى الأساطير وإلى كنوز الخيال الشعبى

وأما النثر ، فمن أقطابه يوسف نيرو القصصى الكبير ؛ وهو كاتب ذو نزعة دينية إنسانية ترجع إلى تربيته الكنسية ، فقد نشأ قساً ، ثم حمله تيار الأدب . وهو ريفى النزعة من حيث المادة والوصف يصور لك الوطن المجرى ، ولا سيما وطنه « ترانسلفانيا » فى صور قوية مؤثرة ، ومن أشهر قصصه « تحت نير الله » وهى فى الواقع قصة حياته الكهنوتية عرضت فى قالب قصصى مؤثر ؛ وله مجموعة أقاصيص شهيرة من أبدع ما أخرج الأدب المجرى المعاصر

ومن أقطابه آرون تمازى ، وهو قصصى بارع ينزع إلى المأساة ، ويلزم الطابع القومى العميق ، وله مجموعة قصص تفيض سحراً وإنسانية عنوانها « كواكب ترسلفانيا » ، ومجموعة أخرى عنوانها « عصفور الصباح » يدعو فيها إلى المثل الأعلى .

ومنهم چان كودولانى ، وهو مصور بارع لمناظر القرية ومجتمعها . وكذلك زولتان ستنيا ، فهو يصف فى قصصه مجتمع الأعيان المنحل ؛ وبول زابو ، وهو كاتب ريفى محض وافر الطرافة والقوة

والفرق قوى واضح بين ذلك الجيل وبين الجيل المنصرم الذى كانت تغلبه النزعة « الغربية » . وليس الفرق متعلقاً بالشكل فقط ، بل هنالك ثمة صورتان مختلفتان ، تمثل كل منهما ناحية من الروح المجرية ؛ وإلى الأولى ينتمى أبناء الأعيان والموظفين الذين متى اضطروا إلى نبذ ترف هذه الحياة ، لجأوا إلى عالم الكتب ليتخذوا منه سداً بينهم وبين حياتهم المسكينة ، وينتمى

إلى الثانية أبناء الفلاحين وطبقة الأعيان الريفية التي تقرب منهم والساخطون على هذا المجتمع . وهم الذين يزعمون أنهم رسل الاصلاح الاجتماعي . وعلى العموم فان البون شاسع بين الكتاب الجدد وبين الجيل القديم سواء من حيث النظر إلى العالم وإلى الحياة

بسمات العدالة

عنى كثير من المؤرخين والكتاب بالكتابة عن المآسي القضائية ، والمحاكمات الجنائية الكبرى . ولكن أحداً منهم لم يعن بالكتابة عن « الكوميديات القضائية » والوقائع والمواقف المضحكة التي تعرض أمام القضاء . وهذا مافعله الكاتب الفرنسي « جيو لندن » الكاتب القضائي لجريدة الجورنال . وقد تخصص جيو لندن في كتابة الصور والأخبار القضائية منذ أعوام بعيدة ، واشتهر بسحر أسلوبه ودقة ملاحظاته ، وهو الذي يلخص أخبار المحاكمات والقضايا الكبرى في جريدة «الجورنال» . وفي كل عام يجمع أشهر المحاكمات والمآسي القضائية في مجلد خاص . ولكنه اختار هذا العام أن يترك المآسي والجنايات المثيرة ، وأن يجمع المواقف القضائية الفكاهية في مجلد عنوانه « العدالة وبسماتها » La Justice et ses Sourires ؛ وقد استقبل هذا السفر الظريف في دوائر النقد والأدب أحسن استقبال ، ونوهت بما يضمه من الصور الساحرة والمواقف الشائقة ، وبما يسوده من قوة في الملاحظة وخفة روح في العرض ؛ فهنالك أغرب القضايا المضحكة حقاً ، وأغرب الشخصيات الساذجة التي تنسيك بسذاجتها أحياناً خبث المجرم الخطر . وهنالك حيل النساء الماكرات تبدو واضحة امام بساطة الرجل المتيم . وقد علق أحد النقدة على ظهور هذا الكتاب بقوله : « إنه يحمل على التفكير بأن التردد على جلسات القضاء يخلق منافسة قوية للمسرح الفكه ؛ بل ربما كان ثمة عاملاً من عوامل الأزمة المسرحية ؛ إن كانت ثمة أزمة »

جائزة نوبل الأدبية

ذكرنا في العدد الماضي أن جائزة نوبل للطب قد منحت لثلاثة من العلماء الأمريكيين . هم الأساتذة جورج نيوث ، ووليم مورفي ، وهوبل . ونذكر الآن أن جائزة نوبل الأدبية لسنة ١٩٣٤ قد منحت الى الكاتب والفنان الايطالي السنيور لويجي بيراندللو وهو كاتب مسرحي تخصص في وضع القطع التمثيلية ، وتنظيم المسرح ؛ وأشهر رواياته قطعة عنوانها : « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » ، اشتهرت في جميع المسارح الأوربية . والسنيور بيراندللو في نحو السابعة والستين من عمره ؛ وهذه هي المرة الثانية التي تمنح فيها جائزة نوبل للكتاب الايطاليين

أستاذ شرقي يعثر على مخطوطات عربية نادرة

نقل الى الجامعة العربية من أمريكا أن الدكتور فيليب حتى من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وأستاذ الآداب السامية في جامعة برنستن بأميركا الآن عثر في أثناء بحثه وتنقيبه في المخطوطات الموجودة في مكتبات أمريكا المشهورة على ترجمة عربية ضافية لبحوث كلوديوس جالينوس في التشريح والطب بين خمسة آلاف مجلد من المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستن . ومما قاله الدكتور حتى في وصف هذه الترجمة « إنها من أندر وأنفس المخطوطات التي سجلت في الفهارس حتى الآن » والترجمة العربية مؤرخة في سنة ١١٧٤ م وقد وضعها حنين بن أسحق المسيحي النسطوري وكان يعد إمام المترجمين من اللغة اليونانية في عصره

وعثر الدكتور حتى كذلك على مخطوطة في علم التنجيم يستدل من الشارة الذهبية المرسومة على الصفحة الأولى منها أنها وضعت في الأصل للسلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت في مكتبته ، ويقول الدكتور حتى إن صلاح الدين نفسه كان يسترشد بهذه المخطوطة قبل إقدامه على منازلة الصليبيين في المعارك

وعثر أيضاً على مخطوطة في الموسيقى قد تميط اللثام عن النغمات الموسيقية التي كان يستعملها العرب قديماً . وهذه المخطوطة مزينة برسوم ، وقد وضعها الفارابي الموسيقي والفيلسوف المشهور في القرن العاشر

وهناك مخطوطة عربية رابعة وجدها الدكتور حتى في جامعة برنستن وهي شرح ابن رشد فيلسوف الأندلس وأرجوزة ابن سينا الطبية المشهورة لمؤلف طبي وصفه ابن جزله البغدادي في القرن الثاني عشر

الكتب

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن

تأليف الأستاذ أمين سعيد

هذا كتاب كبير يقع في ثلاثة مجلدات تبلغ في مجموعها ما يقرب من ألف وأربعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهو في وضعه الحالي يعتبر مرجعاً عظيما للثورة العربية القومية منذ قيامها عقب الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ إلى الوقت الحاضر

خشي المؤلف الفاضل الأستاذ أمين سعيد كما ذكر في مقدمة كتابه النفيس أن تنسى الثورة العربية وما تخللها من حركات وما اكتنفها من ملابسات « فتضيع معالمها وتطمس آثارها ويتعذر التأليف فيها فلا يجد الكاتبون العرب في المستقبل سوى رسائل مبعثرة أو مقالات منثورة أو كتب ألفت باللغات الأجنبية وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة »

لذلك تراه يضطلع بهذا العمل على ما فيه من صعوبات ؛ فلا بد له أن يدعم آراءه بالحجج والبراهين ، وأن يسند براهينه بالوثائق والمستندات ، وهذا كله مما لا يسهل جمعه وترتيبه . ولكن القارئ حين يتناول هذا السفر الجليل يحس بالدهشة لكثرة ما احتوى عليه من الوثائق والبيانات ، هذا إلى ما حواه من الصور المتنوعة للأشخاص والحوادث

ولقد قسم الأستاذ المؤلف كتابه تقسيماً جيدا فجعل المجلد الأول للنضال بين العرب والترك ، يضم حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ حتى قيام الحكومة الفيصلية في دمشق عام ١٩١٨ ، وجعل المجلد الثاني لتاريخ الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها ؛ ولقد أفرد به جزءاً كبيراً للثورة العراقيـة الكبرى وأدوارها مبيناً عوامل الثورة ومقـدماتها وحروب الانكليز في العراق والتصـادم بينهم وبين الترك وما ترتب على هذا كله مع جلاء الحوادث والاهتمام بالتفاصيل كمن رآها رأى العين . أما المجلد الثالث فقد جعله لتاريخ القضية في الفترة الممتدة من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٤ ، أورد فيه وصفاً وافياً لتاريخ إمارة شرق الأردن مع شرح القضية الفلسطينية والوطن القومي اليهودي وبيان أخبار الثورة السورية في اتصالها السياسي الداخلي بين السوريين والفرنسيين

بذلك ترى هذا الكتاب الكبير قد اشتمل على عدة حركات قومية يتوق أبناء الشرق العربي إلى الوقوف عليها . ولعل من أعظم فوائد هذا الكتاب ، أنه في طريقته المفصلة التي سار عليها ، يعطي القارئ العربي فرصة نادرة ليقارن بين ما يسمعه من أحد أبناء الثورة وبين ما يشيعه عنها خصومها . هذا إلى أنه يكشف عن ناحية من نواحي نهوض الشرق عقب الحرب العظمى مبينا إلى حد كبير وجهته وآماله

ولقـد راعى المؤلف الفاضل في كتابه التسلسل التاريخي للحوادث ، وختم كل حلقة بملخص حلل فيه الحوادث تحليلا مبيناً ما طرأ على القضية من تقدم أو تأخر

وإني وإن كنت أرى اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة وسرده الحوادث الكثيرة المتنوعة أكثر من اهتمامه بالتعليق عليهـا وبيان مقدماتهـا ونتائجها ، أقرر أن لطريقته هـذه في موضوع كهذا متشعب النواحي محاسنها إلى جانب معايبها ، فلقد هيأت للقارئ كما قدمت الفرصة ليكوّن لنفسه حكماً ، وذلك خير مما لو اقتصر المؤلف على طائفـة من الحوادث واهتم بإيراد رأيه والدفاع عنه ، فان القارئ في هذه الحالة وخصوصاً من يجهل تفاصيل المسألة العربية يكون مقيداً برأيه أو على الأقل في شك منه

وسيرى القارئ العربي في كتاب الأستاذ أمين سعيد كثيراً من مواقف التضحية والبطولة ، وكثيراً من مواطن الهول والصراع العنيف مما يجعل للكتاب إلى جانب ناحيته التاريخية ، ناحيته الجذابة القوية ، فيقبل الأدباء على مطالعته في شغف واهتمام ولذة . وإني لأنتهز هذه الفرصة فأتقدم إلى الأستاذ أمين سعيد بأجمل الثناء على ما تجلى في مؤلفه الجليل من أريحية ووطنية وهو عمثل ذلك من شباب الأمة العربية خليق

الخفيف

الخط الديوانى الملكى

للأستاذ مصطفى بك غزلان

رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك

ازدهر الخط العربى فى صدر القرن الماضى ، وظهر فى عالم الفن جمهرة من القادرين على اجادته واتقانه ، وكانت الآستانة يومئذ كعبة الآمال ، ومرجع أفذاذ الرجال فى الفنون العربية الجميلة

بلغ من ولوعهم بهذه الصناعة أن تخذها الخلفاء والسلاطين مفخرة يفخرون باجادتها واحسانها ، وزينة يُدلون بها على أساتذتها وأساطينها ، فكان السلطان « محمود » يجيد خط « الثلث » « وجلىّ الثلث » ولا تزال « لوحته » القيمة التى خطها بقلمه الجميل تحتل الصدر من « المسجد الحسينى »

وصار على أثره السلطان عبد المجيد ، فكان خطاطاً وسطاً لم يبلغ شأو أبيه . . . وله قطعة كبيرة تتصدر « القبلة » فى ذلك المسجد

تطاول الخط على سائر الفنون الجميلة منذ أحبه الخلفاء والسلاطين وعلت مكانته يوم أن فتحت قصور العواهل على رحباتها لكبار الخطاطين ، يعلّمون الخلفاء ذلك الفن الجميل

ودام للخط العربى هذا الحظ الميمون ، والآستانة تصدر إلى العالم العربى من سحره الفاتن وجماله الرائع ، ما خلب اللب ، واستولى على النفس ، حتى وفد على القاهرة المرحوم عبد الله بك زهدى بدعوة من خديو مصر اسماعيل

جاء ليكتب « الكسوة » بعد أن كتب الحرم النبوى الشريف ، فلقى من لدن ولى الأمر التعضيد والتأييد

وكان يومئذ فى مصر نهضة مباركة ، نشأت فى شخص المرحوم محمد أفندى مؤنس ، ولكنها كانت فى حاجة إلى اذكائها وتنميتها ، فطلع « زهدى » على الناس ، بخط الكسوة وسبيل أم عباس : وتداولت الأيدى بعض نماذجه فى الثلث والنسخ

فكانت بادرة سعيدة ، صعدت بالمرحوم مؤنس إلى الذروة العليا من ذلك الفن البديع

وكان الرجل خيراً بفطرته ، فأخذ يذيع فنه على الناس ويعلمهم إياه ، لا ينتظر أجراً ولا شكراً ، فكانت داره يومئذ أشبه بمدرسة داخلية ، يتعلم فيها الطلاب وينعمون بحديقتها الرحبة ، بل يأكلون ويشربون

ومن يومئذ بدأ الخط يتحول إلى القاهرة ، وكانت العناية شديدة باتقانه واجادته ، وكان له شأو رفيع وشأن جليل فى المدارس الابتدائية والثانوية بله العالية

***

تلك خلاصة موجزة يسطها بين يدى القارىء ، لأستطيع التحدث إليه عن فتح جديد فى الخط العربى ، طلع به علينا الفنان النابغة الأستاذ مصطفى بك غزلان رئيس التوقيع بديوان جلالة الملك

فقد يعرف المتتبعون لتاريخ هذا الفن أن الخط الديوانى نقل فيما نقل من الآستانة إلى مصر ، وكان خطاً خاصاً لا يعرفه عامة الشعب ولا يقرأه دهماء الناس ، بل كان قاصراً على « الفرمانات الشاهانية » « والارادات السنية » ، التى تصدر عن السلاطين ، إلى الولاة ، ثم على براءات الرتب والنشانات

ولما كانت مصر يومئذ تابعة للدولة العلية ، وكانت تلك الدولة هى صاحبة الحق فى منح هذه الرتب ، وتلك النشانات فالبراءات إذن تأتى من دار الخلافة مكتوبة ممهورة بخاتم الدولة إلى أن رخص للولاة والخديوين بمنح بعض الرتب المحدودة القيمة ، يومئذ اختير لكتابتها بعض الاتراك الذين يعرفون هذا النوع ، وهم قليل حتى فى الآستانة ؛ فقديماً كان كتاب آل عثمان يستأثرون بهذا النوع من الخط لأنه كان الخط الرسمى للباب العالى كما قدمنا ؛ ومن ثم كانوا يعدونه من الأسرار الفنية التى لا تزاع لجمهور الخطاطين ، ليكون مرجعها إليهم ومفتاحها بأيديهم ، أما بقية الخطوط فلها نماذج مختلفة بأقلام أساطين الفن على اختلاف مراتبهم

واليوم بفضل الرعاية الملكية ، نستقبل نماذج الخط الديوانى التى عكف على كتابتها وتنسيقها وتنميقها خطاط مصر الأكبر الأستاذ مصطفى غزلان بك ، وأدخل عليها حسناً جديداً وذوقاً مصرياً خالصاً لا تلحظه فيما كتب بهذا الخط من الفرامانات القديمة

وقد طبعها ديوان الأوقاف الملكية ، على نفقة صاحب الجلالة الملك فى مطبعة المساحة طبعاً دقيقاً أنيقاً جعل هذه النماذج فى موضوعها وشكلها مظهراً رائعاً من مظاهر الفن الخالد الخالص م؟

فى المصايف

بقــلم ابراهيم عبده

للأديب ابراهيم عبده أسلوب رقيق وخواطر لطيفة يطالع بها القراء من حين الى حين . وهذا الـكتاب الذى أحدثك عنه قد انتظم الـكثير من ملاحظاته وخواطره الطريفة فى المصايف ، وطبيى أن تكون المصايف موضع حديث ابراهيم ، فهى ملتقى الناس من كل صنف ومن كل طبقة ، وهى مجال واسع تقع فيه عين الأديب الناقد وخصوصاً من يهتم بالناحية الاجتماعية كالأديب المؤلف على كثير مما يثير خواطره ويرســل قلمه . افتتح المؤلف كتابه فى رأس البر ثم انتقل بنا الى السويس فبور سعيد فالاسماعيلية فالاسكندرية ، وختم الـكتاب بفصل رقيق هو حديث العودة

أجمل ما يحسه القارىء فى هذا الـكتاب تلك الروح الهادئة التى تتجلى فى سطوره أشبه بالنسمة الهادئة تهب عليك فى ليالى الصيف وأنت فى معزل على الشاطىء . وإنك لتحس من هذا الشاب بميل شديد الى القصص . ولقـد أحسن صنعاً بإيراده خواطره فى المصايف على تلك الصورة التى تجدها فى كتابه ، فلقد كان يأتى بها مرة على طريقة الحوار بينه وبين فتاة كان قد عرفها فى الخرطوم ودار على ذكرها كتابه الأول «الحياة الثانية» ، ومرة كان يتبع طريقة المراسلة ، مما أبعد كتابه عن الملال وأكسبه كثيراً من الجاذبية والظرف

ولئن كان لى أن آخذ على ابراهيم شيئاً وهو فى صدر حياته الأدبية فهو أنه يجتهد فى تقليد أحد كبار الـكتاب عندنا تقليداً يظهر فى أسلوبه وفى طريقة الدخول على موضوعه وتوجيهه ويخشى منه على أصالته وشخصيته ، وهو فى غنى عن هذا ، فله كما ذكرت استعداد قوى . نعم لا جناح عليه أن يحذو حذو من تأثر به فى تجويده فنه والعناية بآثاره ، ولـكن على أن يحتفظ مع ذلك بشخصيته وروحه

الخفيف

أحسن ماكتبت

علم . فن . فاسفة . اجتماع

بأقلام طائفة من خيرة العلماء والأدباء فى الشعر العربى

...

أصدرت إدارة الهلال هذا الـكتاب الطريف فى نحو مائتى صفحة من القطع الـكبير . وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد ، وهو يضم بين دفتيه كما يتبين من عنوانه مختارات فى العلوم والفنون والآداب من آثار كبار الـكتاب فى الشرق العربى . وقد بلغ عددهم فى هذا الـكتاب نحو سبعة وستين كاتباً وشاعراً . ولعل ما حواه هذا الـكتاب كما جاء فى مقدمته « لم يتح لـكتاب آخر من نوعه . وهو أشبه بالروضة المونقة التى انتظمت ألواناً مختلفة من الأزهار» . يطلب من إدارة الهلال ومن المكاتب الشهيرة م؟

تعليق على نقد

الألحان الضائعة

بقلم حسن كامل الصيرفى

تناول الأستاذ الخفيف فى العدد الماضى من « الرسالة » ديوانى « الألحان الضائعة » فبدأ كلمته بأن أخذ علىّ تلك الكآبة التى لزمتنى فى عهد من حياتى ، وراح يتلمس سرها فلم يهتد الى شىء مع أن هذا السر واضح كل الوضوح فى كثير من قصائد الديوان بل من أول قصيدة الى آخر مقطوعة فيه . ففى قصيدة « الضحية » تفسير قوى لناحية من تلك الكآبة ، يؤكده قولى فى القصيدة التى تليها بعنوان « الواحة المنسية » :

في ذمة الفن ما ردّدته أبداً
فضاع لحنى سدًى فى جوّ نكرانِ
طغى عليـــه ضجيج القوم فانطمست
أصـــداؤه ، وفؤادى طىّ ألحانى

وفى قولى فى قصيدة « اللحن الضائع »:

يا أغانى الربيع ما أنا إلاّ   مقطعٌ من قصيدة ضاع لحنُهْ
لم تلد لى الأيامُ من يتـــولى   بعث لحنى ، وكيف يبزغ شأنه؟
أوَ بين الصخور يكتمل الصو   ت ؟ محال هذا .. وكنت أظنه

وفى قصيدة اللغز تظهر نواح كثيرة من سر هذه الكآبة ، وتظهر فيها قوة الشباب الغلاّب لا اليأس المستسلم

وأظن أن تصوير الشاعر لآلامه ليس من العيوب التى تؤخذ عليه وإلا فليس من الواجب أن تطالبه بالصدق فى التعبير ، وألاّ نؤاخذه على تزوير شعوره

ولو اطلع الناقد الفاضل على « الصورة السريعة » التى كتبتها عن حياتى فى الديوان لعرف شيئاً عن سر الكآبة التى لازمت شعرى فى الأربع السنوات الماضية ، وزادها سواداً ذلك الجحود الذى لقيته فى الأدب وعبرت عنه فى معظم قصائدى

ثم يرى الناقدُ الفاضل أن «الأديب الصير فى قليل العناية بقوافيه وبلغته على وجه العموم » . . هذا حكم يصدره ناقدٌ فاضلٌ لأنه عثر على بعض هنات يعثر عليها فى كثير من أشعار المتقدمين والمعاصرين ، ولأنه وجد محاولات عروضية مخالفة للسنة القديمة ، وهى لم تضر الأدب فى شىء ، إن كان قد أصابه ضرر من محاولات شعراء الأندلس . . هذه الهناتُ التى لم يذكرها والتى يمكن لكل ناقد أن يعدّها على أصابعه تجعل من صاحب الديوان رجلاً لا يهتم بلغته وقوافيه (على العموم) !

إنى لأهتم إذ أحاول التكلم عن أصول النقد وواجباته ، ومن هذه الأصول عدم الحيدة عن الحقيقة والانصاف ، وأدعو الله أن يهدينا جميعاً أقوم سبيل . هـذا وأختم تعليقى بالشكر للأستاذ الخفيف على تنويهه ببعض ما وجدنى قد أحسنتُ فيه مما كان يرفعنى — أو يُرجى منه ذلك — لو أنى سرتُ على نهجه فى جميع قصائدى كما يقول . وأنا عند حسن ظنه بى يوم يتقدّم بى العمرُ حتى يتكافأ وأدبى ؟

حسن كامل الصيرفى

العروبة

مجلة أسبوعيـــة جامعة

تصدر عن بيروت للأستاذ محمد علىّ الحومانى

بين يدينا الآن العدد الأخير من هذه المجلة الرفيعـة ، وهو محرر بأقلام الأساتذة الكاتبين من رجال الأدب العربى السورى ، يتجلى فيه وفى سوابقه صدق الرأى ونزاهة النقد ورصانة الأسلوب وشرف الغرض . وقراء الرسالة يعرفون الأستاذ رئيس تحريرها بما نشر له فيها من الموضوعات التى جمعت بين عمق التصور وبلاغة التصوير ، ودلت على ثقافة شاملة وعقلية متزنة وذوق مصقول فى النثر والنظم والنقد . وهذه الصفات الغرّ كفيلة بسير (العروبة) على النهج الذى يرتضيه الخلق وتقتضيه الحال وتتطلبه مصالح العرب المشتركة ووحدتهم المرجوة . فنتمنى للزميلة الكريمة ماتستحقه من الرقى المطرد والفوز المبين والعمر البالغ

الاسلام

صدر العدد الحادى والثلاثون من مجلة الاسلام حافلاً بالموضوعات الدينية الشائقة من تفسير القرآن الكريم ، وشرح الحديث النبوى الشريف ، والقصص القرآنى ، ومع هذا العدد هدية ثمينة مما تصدره المجلة شهرياً ، وتطلب من إدارتها بشارع محمد على رقم ١٤١

2^me Année, No. 73.

.Lundi-26-11-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

العـدد ٧٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

عهد وأى عهـــد ! !

كان كرِعْدة الحمَّى ، أو كرجْفة الزلزال ، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين ، فكدَّر من طبعه ، وغيَّر من وضعه ، وبدد من نظامه !

هل تخيَّلتَ الجنة وقد اتسق فى ظلالها الخفض ، واطَّرد فى مياهها النعيم ، وانبلج فى أجوائها الأنس ، وانبسط على أرجائها السلام ، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة ، فيجعلون ظلها حَروراً ، وماءها مُهْلاً ، وأنسها وحشــة ، وسلامها فتنة ؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم و بعده !

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتتدرج مع الطبيعة فى النمو ، وتتوثب مع الحق على العدو ، فنجم فيها ناجم من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص ، ثم أثار فى وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلْف ، وامتحن قلوبها بالبطش ففزعت إلى الصبر ، وسلط على مُترفيها المُنى فقروا على الرِّيَب ؛ وراح الذئب المقَنَّع أو الطاغية الكاذب يعيث فى كل ديوان ، ويفتك فى كل

مكان ، ويختِل فى كل جماعة ، حتى عطَّل سلطة الأمة ، وأبطل سطوة القانون ، وقوض ركن الفضيلة .

***

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس والهواجس والأوهام فى مثل الدجى الحالك ، تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب فى شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا ! ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرَطها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ، ورياضته على الاستكانة ، فنسى الجندى أنه حُشد لمدافعة العداة ، والشُّرْطى أنه رُصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أُعِدَّ لتصريف الأمور ، ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهُّد هذا المحالف فلا يُخْلفه بر ، وتعقُّب ذاك المخالف فلا يُفلته أذى !!

ثم انتشر الوعيد والوعد فى جنبات النفوس يستنزلانها عن الخُلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعدالة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، واتُّهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه ؛ وكل ذلك لتَتْرَى جماعة ويتسلط فرد !!

***

لا لِله ولا للوطن كانت هذه المحنة ! إنما كانت نزوة رَعْناء من بغى الانسان على الانسان ! والناس لا يزالون كما كانوا فى الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا ، لا يحمى الفردَ من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمةَ من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبى على الناب ، وطلاء وردى على المخلب !

***

على أن ضعف الشعوب خدَّاع ! لأنه قوىّ متفرقة فى نفوس متفرقة ، فاذا ما تجمّعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهِمة ، كانت هى الرجفة التى تهز الأرض من حين الى حين ، وتنقل التاريخ من فصل الى فصل !

ولكن ابن آدم سَهْوان : يُذهله لجب السلطان عن صوت العبر ، كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من سَوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

***

سيتحرَّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن سجل كثيراً من أمثاله ! لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد المعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك ؛ ولكن التاريخ لا ينسى — وإن نسىَ الناس — أن للنظام العالمى جاذبية تجذب المتخلف ، وللعدل الالهى صيحة تُسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية يَقْظَى تعود بالمبطل صاغراً الى الحق ، وتُفِئ بالحق السليب موفوراً الى أهله !

***

حنانيك يارب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا !! فعسى أن يشاء عدلك وتريد رحمتك ألاَّ نقاسىَ مثل هذا العهد ، وألا نعانىَ مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

***

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة ، وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة ، والضياء الهادى ، والأفق الممتد ، والطريق القاصد ! فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران ، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية !

احمد حسن الزيات

الأجنبيـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أحبَّها وأحبَّته ، حتى ذهب بها فى الحب مَذْهباً قالت له فيه : « لو جاءنى قلبى فى صورةٍ بشَرِيّة لأراه كما أُحِسُّه ، لما اخترت غيرَ صورتك أنتَ فى رقّتك وعطفك وحنانك . »

وحتى ذهبتْ به فى الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لا تكون أبدعَ فناً ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثر إمتاعاً لو خُلِقَت امرأةً يهواها رجل ؛ إلا أن تكون هى أنتِ . »

فقالت له : « ويكونَ هو أنتَ . . . »

وتَدَلَّهتْ فيه ، حتى كأنما خلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها : « إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتبرِّئةً من أنها إرادة ، مُقرِّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمرٍ ، مُذْعِنةً أنها قد سلّمت كبرياءَها لهذا الحبيب ، لتراه فى قوّته ذا كبرياءين . »

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخذ ، فملأتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينَه من أشياء ؛ فكان يقول لها فى نجْواه : « إنى أرى الزمن قد انْتَسَخَ مما بينى وبينك ، فإنما نحن بالحب فى زمنٍ من نفْسَيْنا العاشقتين لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور ، وإنما نعيشُ فى أيام قلبيّةٍ لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها ، ولكن السعادةُ بحقائقها ولذّاتها . »

وتحابّا ذلك الحبَّ الفنّيَّ العجيبَ الذى يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يَفيضُ وينسكب ؛ وهو مع ذلك لا يَبْرحُ يطالب الزيادة ، ليتخيّل من لذتها ما يتخيّلُ السكّيرُ فى نَشْوته إذا طفحت الكأس ، فيرى بعينيه أنها ستتّسع لأكثرَ مما امتلأتْ به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتها ، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم

تحابّا ذلك الحبَّ الفوّار فى الدم ، كأن فيه من دَوْرته طبيعةَ الفراقِ والتلاقى ، بغير تلاقٍ ولا فراق ؛ فيكونان معاً فى مجلسهما الغَزَلىّ ، تجذبهُ إلى جنبها وفاهَا إلى فيه[1] وكأنما هرَبَتْ ثم أدركَها ، وكأنما فرّتْ ثم أمسكَها . وبين القُبْلَةِ والقُبلة هِجرانٌ وصلح ، وبين اللَّفْتَةِ واللَّفتة غَضَبٌ ورضى

وهذا ضَرْبٌ من الحب يكون فى بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التى أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فيَلِفُّ الحيوانيّةَ بالانسانية ، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها ؛ لا تلتقى إلا لتمازج ، ولا تمازجُ إلا لتتّحد ، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك

***

وضَرَبَ الدهرُ من ضَرباتِه ، فأبغضتْه وأبغضها ، وفَسَدَتْ ذاتُ بينِهما ، وأدبرَ منهما ما كان مُقْبِلاً ؛ فوَثَب كلاهما من وجود الآخر وَثْبةَ فَزَعٍ هارباً على وجهه . أما هو فسَخِطَها لعيوب نفسها ، وأما هى . . . وأما هى فتَكَرَّهَتْه لمحاسنِ غيره . وانْسَرَبَتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسَارِبها تحت الزمن العميق الذى طَوَى ولا يزالُ يَطْوِى ولا يبرحُ بعد ذلك يطوِى ؛ كما يغور الماءُ فى طِباق الأرض . فأصبح الرجلُ المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وأحِبّاءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْرَه ، فكانوا له مادّةَ حسرة ولهْفة . أما هى . . . أما هى فانشقّ الزمنُ فى فكرها برَجّةِ زلزلة ، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم . . . !

***

فحدّثنا « الدكتور محمد » رئيس جماعة الطلبة المصريين فى مدينة . . . بفرنسا ، قال : وانتهى إلىّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة ، وأنه قادمٌ من مصر ، فتَخَالَجنى الشوقُ إليه ، ونزعتْ إلى لقائه نفسى ، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرىٌّ قَدِمَ من مصر ؛ وخُيِّلَ إلىّ فى تلك الساعة مما اهتاجنى من الحنين إلى بلادى العزيزة ، أن ليس بينى وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما فى دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه ، كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عُشّه فابْتَدَرَهُ من قُطْرِ الجوّ

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعانقين

قال : وأصبتُه واجماً يعلوه الحزن ، فتعرّفتُ إليه فما أسرعَ ما ملأ من نفسي وما ملأتُ من نفسه . وكما يتمحي الزمانُ بين الحبيبين إذا التقيا بعد فُرقة — يتلاشى المكانُ بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقوا فى الغُربة . فذابت المدينة الكبيرةُ التى نحن فيها ، كأنْ لم تكن شيئاً ، وتجلّى سحرُ مصر فى أقوى سطوته وأشدها ، فأخذَنا كلَينا فما استشعرْنا ساعتئذٍ إلا أن أوروبا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللنا مصرَ فى محلها

وطغى علينا نازعُ الطرب طغياناً شديداً ، فأرسلتُ من يجمع الاخوانَ المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فنزا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤذّن فيهم لاقامة الصلاة . وجاءوا يُهرولون هرولةَ الحجيج ، فلو نطقتْ الأرضُ الفرنسية التى مشوا عليها تلك المِشيةَ لقالت : هذه وطأةُ أسودٍ تتخيّل خيلاءَها من بَغْيِ النشاط والقوة

ألا ما أعظمكِ يامصر ، وما أعظمَ تعنُّتكِ فى هذا السحر الفاتن ! أينبغى أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوىّ العظيم « مصرُ كنانةُ الله فى أرضه . » فيعرفوا أنك من عِزّتك معلّقةٌ فى هذا الكون تعليقَ الكنانةِ فى دار البطل الأروع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا فى الدار التى أَنزِلُ فيها ، فراع ذلك صاحبةَ مثواى[1] ، فقلت لها : إنّ ههنا ليلةً مصرية ستحتلُّ ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتها الى مجلسنا لتشهد كيف تستعلنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقّتها وظرفها وحماستها ، وكيف تُفسّر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ فى جوّ موسيقيّتها الطبيعية حين تناجى أحبابها ، فيجىء حديثُها بطبيعته كأنه ديباجةُ شاعر فى صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها ؟

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذ زينتى ، وأصلح من شأنى ، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر !

قال الدكتور : وأخذْنا فى شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسن الصوت فقام الى البيانة[1] وغنّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التى تُطقطِقُ فيها النفس ، فجعل يَمطُلُ صوتَه بآه ، وآه ، ودار اللحنُ دورةً تأوّهتْ فيها الكلماتُ كلُّها . ثم اعتورَ البيانةَ طالبٌ آخر فما شذّ عن هذه السنّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوب النائحة . فمالت علىّ السيدة الفرنسية وأسرّتْ إلىّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟

فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخى ذو مقطوعتين كانت تتطارحه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة . فأُعجبت المرأة أشد الأعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصرىّ أن نكرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربتْ لذلك أشدَّ الطرب ، وملكها غرُور المرأة ، فجعلت تستعيد « يالوعتى ، ياشقاىَ ، ياضنىَ حالى . . . » وتقول : ماكان أرقّ كيلوباترة ! ماكان أرقّ أنطونيو ! يالفتنةِ الحب الملكى !...

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنّث ، ومن تلفيق الذى لفقته للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضتُ انتفاضةَ من يملؤه الغضب ، وقد حمِىَ دمُه ، وفى يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوقح ؛ وثُرتُ الى البيانة فأجريتُ عليها أصابعى ، وكأنّ فى يدىّ عشرة شياطين لاعشرة أصابع ، ودوّى فى المكان لحنُ « اسلمى يامصر » وجلجلَ كالرعد فى قبة الدنيا ، تحت طباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنما تزلزلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصرخَ أجدادُنا يزأرون من أعماق التاريخ : « اسلمى يامصر » . ولما قطعْتُ التفتُّ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلتُ لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين

ثم راجعْنا صاحبنا الضيف ، وأحفيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعَنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الموسيقى ، وإن له لحناً سيُطارحنا به لنأخذه عنه . فطرِنا بلحنه قبل أن نسمعه ،

(١) صاحبة المثوى هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه ، يقول العرب : من كانت صاحبة مثواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون

(١) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

وقلنا له : افعلْ متفضلاً مشكوراً ، وما زلنا حتى نهض متثاقلاً فجلس الى البيانة وأطرق شيئاً ، كأنه يُسوّى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجى بهذا الصوت :

أضاعَ غدى من كان فى يدِهِ غدى
وحطّمنى من كان يَجْهَدُ فى سَبْكِى
فان كنتُ لا آسى لنفسى فمَنْ إذن ؟
وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يبكى (١)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعتلج فى قلبه اعتلاجا ، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتغصّ من غصّتها ، وكأن فى الصوت فكراً حزيناً يستعلن فى همٍّ موسيقى ؛ وخيل الينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتيهما أكملُ صوت انسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقّه

فأطفنا به وقلنا له : لقد كتمتَنا نفسَك حتى نمّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناء ، ولكنه هموم مُلحّنة تلحيناً ، فلن ندعك أو تُخبّرَنا ما كان شأنُك وشأنها .

فاعتلّ علينا ودافَعنا جهده ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرتَ فى أيدينا . وإنك ما تزيد على أن تعظنا بهذه القصة ؛ فان أمسكتَ عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا ، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة نُفيدُه منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا فى اجتماع فاسدٍ كلُّه قِصَصٌ قلبيّة ، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعرّى جمالهن ، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية ، حتى دخل فيها مَخْدعُ الزوجة . . . !

قال الدكتور : ونظرتُ فاذا الرجل كاسِفٌ قد تغيّر لونُه ، وتبيّنَ الانكسارُ فى وجهه ، فألممْتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِىَ فى زوجة من هؤلاء الأوربيّات اللواتى يتزوّجن على أن يكون مخدعُ المرأة منهن حرّاً أن يأخذ ويدع ، ويُغيّر ويبدّل ، ويقسّم كلمة «زوج» قسمين وثلاثة وأربعة وما شاء . .

وكأنما مسستُ البارود بتلك الشرارة ، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصةٍ ما أفظعها :

قال : يا إخوانى المصريين ، قبل أن أنفُضَ لكم ذلك الخبر ، أُسديكم هذه النصيحة التى لم يَضعها مؤلفٌ تاريخى لسوء الحظ ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى :

« إياكم إياكم أن تغترّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانى الزوجة . وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فان فى كل زوجةٍ امرأة ، ولكن ليس فى كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة ، كهذا السحاب الملوّن فى الشفق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسَخ مسخاً ؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بيدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلُّه .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوجُ بها مصرىّ هى مسدّس جرائم فيه ستُّ قذائف :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصرية وضَياعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج . وتلك جريمةٌ وطنية ؛ فهذه واحدة

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا — فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينُه بها وصدْعُه ؛ وهى جريمةٌ أخلاقية

والثالثة : دسّ العُروق الزائغة فى دمائنا ونَسْلِنا ، وهى جريمةٌ اجتماعية

والرابعة : التمكينُ للأجنبىّ فى بيتٍ من بيوتنا ، يملكهُ ويحكمُه ويُصرّفه على ما شاء ؛ وهى جريمة سياسية

والخامسة : للمُسلمِ منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة ، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين ، ما يعجبُه ومالا يعجبه ، ثم إلقاؤه السمّ الدينىّ فى نبْع ذرّيته المقبلة ، ثم صيرورته خِزياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنّ سَبايا ، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذته هى رقيقاً لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . . . وهذه جريمةٌ دينية

والسادسة : بعد ذلك كلّه ، أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه . . . ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة وهذه السادسة جريمة إنسانية !

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . !

إلى مصر — أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى ومصائبى ! ولم يكن وَعَظَنى أحدٌ بما أعِظُكم به الآن ، ولا تنبّهتُ بذكائى الى أن الزوجة الأجنبية تثبِتُ لى غربتى فى بلادى ! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنىّ أو غيرُ تامِّ الوطنية ، ثم تكون منى حماقةً تثبت للناس أنى أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعودُ مُشكلةً دولية فى بيتى ، يزورها أبناءُ جنسها وَيَسْتَزِيرُونَها رغم أنفى وفى وجهى كلّه ! ويستطيلون بالحماية ، ويسترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويُرْخِون ستاراً عن فصل . . . وأنا وحدى أشهد الرواية . . . !

إن الشيطان فى أوربا شيطانٌ عالم مخترع . فقد زيّن لى من تلك الزوجة ثلاثَ نساء معاً : زوجةً عقلية ، وزوجةً قلبية ، وزوجةً نفسيّة ، ثم نفثَ اللعينُ فى رُوعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجة الجسم وحده ، فلا تسمو الى العقل ، ولا تتّصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ الحسّ ، خَشِنَةُ الطبع ، لا تكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصرية مع فلاّحها

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع ! ما علمت إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ هى كالنجم الذى تِبْرُهُ فى ترابه ، وماسه فى فَحْمِه ، وجوهرُهُ فى معدنه ؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفّة الممتنعة ، وأن خشونتَها من خشونة الحب المعتزّ بنفسه ، وأن جفاءَها من جفاء الدين المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يَدخلُه العجز ، وكان لها الوفاءُ الذى لا تَلحقُه الشبهة ، وكان لها الايثارُ الذى لا يُفسده الطمع . هى جاهلةٌ ، ولها عقلُ الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحس ؛ ولها أرقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده ؛ وخَشِنَةُ الطبع ، لأنها تتنزّه أن تكون مَلمَساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربّية ، التى تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاقٍ مُخرِّبة مُدمِّرة تنفجر بين الوقت والوقت

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات ؛ يتّهموننا به من عمىً وجهل وسخافة . أنظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة ، ودينيّة الحياة الزوجية فى أىّ أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلان بطولةِ الرجلِ الشرقىّ الأُنوف الغَيور أن الزوجة تتعدّد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوج يتعدّد عند المرأة . . . !

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها ، بقوة الشرع والقانون ، نافذةً مُؤدّاة ، ثم لا يتّهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادِنةً ليس لها حقّ على أحد ، ولا واجب من أحد ، بل هى تتقاذفُها الحياةُ من رجل الى رجل ، كالسكّير يتقاذفه الشارع من جدار الى جدار

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنّث ، الذى يجعل للمرأة الأوربيّة بعد أن يتزوّجها الرجل الشرقى أصابع « أوتوماتيكية » ، ما أسرعَ ما تمتد فى نَزْوة من حماقاتها الى رُجلِها بالمسدّس ، فاذا الرصاصُ والقتل ؛ وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها الى عاشقها بمفتاح الدار ، فاذا الخيانة والعُهر !

ماذا تتوقّعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنّثة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالاً لا رجلا واحداً ، وقد ضَعُفَت روحيّة الأسرة فى رأيها ، وابْتُذلت الروحيّة فى مجتمعها ابتذالا ، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواج حقّاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فان كان الزوجُ مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رَجُلَ قلبها — فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختار زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مُخيّباً ، وكان قد بَلَغَ الى قلبها زمناً ثم ملّه قلبُها — فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتتنقّل وتَلذّ بلذات الهوى ، ويقول لها : شأنَكِ بمن أحببتِ ، فان هذا المنحوس المخيّب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية انسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخَر بحوادثَ غيرِ تلك . فلِمَن يشهد الرواية أن يتبرّم ما شاء ، ويستثقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنيـة هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلبِسُـه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الـكبير من معانى العقل ، وإن فاتت به النعمة الـكبيرة من نعم الحياة

تقوى العـاطفة فتجيء بها الى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهب بها مع رجل آخر . . . ! وتُقيِّـد نفسها إن شاءت ، وتُسرِّح نفسها إن شـاءت ؛ وما بُدٌّ من أن تبلوَ الحياةَ كما يبلوها الرجل ، وأن تخوض فى مشا كلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشا كلِها . . ! ولا مندوحة من أن تتولىّ شأن نفسها بنفسها ، فاذا خاستْ أو غدرتْ فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ، إذ كان محورُها الذى تدور عليه هوعاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة ، فَمَن هذا يُقرِّر لها خطتها ، ويُملي عليها واجباتها ، ويُزوِّر لها الأسماءَ على ارادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتِها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوَّله الحق أن يقرِّر وأن يُملي ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذى قَبِلَها سافرة لا تعرف روحُها ولا جسمُها الحجاب ؛ ما بالُه يُريد أن يضربَ الحجاب على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً فى شرفِه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبة فى الدار ؟

ما علمتُ يا إخوانى إلا مِن بعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقى كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكَها عليه ، ولن يُكرِهَها على الوفاء له ، إلا أن تكون حُثالةً يزهد فيها حتى ذُباب النـاس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكينَ مطمعهـا ، وهى مع ذلك لو خلطتْه بنفسها لبقيتْ منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أمتَه دون أمتها ، وجنسَه دون جنسها ؛ فما تَسُب أمةَ زوجها وبلادَه بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقى حين يأتى بالأجنبية لتـلوين حياته بألوان الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائبِ حياته ! وقد يكون هناك ما يَشذّ ، ولـكن هذه هى القاعدة

***

أما قصتى يا إخوانى ... ...

قال الدكتور محمد : قد حكيتُها « يرحمك الله »

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

٢ ـ محمد بك المويلحى

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لست أغلو إذا زعمت أننى فى مطالع نشـأتى الأدبية كان « مصباح الشرق » عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنت شديد الأ كباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغه وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أننى أترشّفها ترشّفاً لتدور فى أعراقى وتخالط دمى ، وتطبع ملـكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولـكن (ما كل ما يتمنّى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أ كثر نابتة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادنى وزاد لِداتى به فتونا

كيف نمثل لى محمد المويلحى ؟ :

لم تـكن عينى الى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحى ، ولا خيارَ للمرء فى تمثُّل صورة من لم ير من الأناسىّ ، وما لم يشهد من البقاع . فـكانت الصورة التى جلاها علىّ الخيال لهذا الرجل ، صورة شابّ معتـدل القدّ ، وضيء الطَّـلْعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهرى ليجلو علىّ من الرجل غيرَ ذلك . على أننى كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين فى زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفى زيارات والدنا له (بعبارة البابلى) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحى تحفة من تحف العصر التى قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسَن ، واشـتعال ذهن ، وحضور بديهـة ، وسطوة نـكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعتـه وتوفيقه فى إيراد الشاهد من عبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الـكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعـلّق بغباره فيه أحد . فـكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع على أننى لم أوفَّق الى رؤية المويلحى الابن مرةً واحدة !

وتتابعت السـنون ، وخلص تحرير « المصباح » الى محمد . ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطُّيَّش من أبناء (الذوات) فى إحدى القهوات . وانتهى الخبر الى المرحوم

الشيخ على يوسف ، وكان فى صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه لما كان بينه وبينهما من كيد وصراع ، فانتهز الفرصة . وروى الحادثة فى صورة مهولة ، واستدرج الكتاب والشعراء للقول فيها ، وفسح لهذا فى المؤيد مكاناً عريضاً . ومن ذا الذى لم يكن موتوراً من المويلحى ؟ ومن ذا الذى لم يقدر الوتر منه فى مستقبل الأيام ؟ وإذا كان الرجل عاجزاً عن أن يخرج للمويلحى وحده ، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكت لقتاله بكل مافى أيديها من سلاح ! ألاَ فليتقدّم لطعن المويلحى من شاء أن يتقدّم ، فليس على أحدٍ فى قتاله اليومَ من بأس !

وتثور العاصفة . ويشتدّ البأس ، وتحمر الحدق . وأذّن النفير العام ، فوثب القاعد ، وتحرك الساكن ، وانبعث الجاثم ، وهبّ النائم . وأهاب القـَعـَديون بالمتخاف ، واستحمسوا المتخاذل . وشد الجميع على قلب رجل واحد . وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجلٌ واحد ؟ . لم يستطع المويلحى أن يثبت فى الميدان ، فأطفأ « المصباح » وانسلّ إلى داره وقد ألقى يد السلام ، واحتجب ولكن فى انتظار الثأر ورىّ الغلة بالانتقام ! .

ولقد تم للمويلحى من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراد . فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ على يوسف أيام حادث الزوجية المشهور ، وفتح له فى جريدة (الظاهر) باباً مثل ذلك الباب ، واستدرج له أقلام الشعراء والكتاب . وواحدة لواحدةٍ كفاء .

متى رأيت المويلحى ، وكيف اتصلت به :

بين سنتى ١٩٠٧ ، ٩٠٨ ، لا أذكر على التحديد ، سألت صديقاً حديث العهد بصداقتى ، ولكن ودّه للمويلحى قديم — سألته وتمنيت عليه أن يجمع بينى وبينه ، وما كان أبلغ دهشى واغتباطى حين قال لى : إن المويلحى قد طالعه أنه يحب أن يرانى ، ولعله عرف بى من أيام كنت أرسل القول فى الشيخ فى فتنة الزوجية شعراً ونثراً . (واسأل الله أن يغفر لى هذا) . وتواعدنا أن نذهب إليه فى الأصيل

وكان ، رحمه الله ، قد اتخذ مسكنه داراً من دور سعيد باشا نصر ، تقع فى أطراف العباسية يومئذ . وهذه الدار لا يعطى العينَ ظاهرُها أكثر من منظرِ (حوش) فى قرافة الأمام ، فاذا جزت مداخلها انفرجت للعين حديقةٌ واسعة قد عبّدت طرقُها تعبيداً ، ونضدت أشجارها تنضيداً ، وتأنقت يد البستانى فى تسويتها وتنميقها ، كما تأنقت يد الطبيعة فى تشجيرها وترويقها : فهذا الفلّ الوضىء الآلق . وهذا الورد المشرق الضاحك ، وهذا النرجس تنبعث من عيونه الأسحار . وهذا الياسمين لقد استحال تنفساً فى ساع الأسحار .

ولقد أفرد زاوية من زوايا الحديقة للغزلان والطواويس وجماعات الطير من كل غرِدٍ صدّاح

ويستقبلنى ، رحمة الله عليه ، بالبشر والتأهيل والترحيب ، وإذا بى إزاء رجل حنطى اللون ، بين الطويل والقصير ، والسمين والهزيل ؛ مستطيل الوجه ، عريض الجبهة ، حادّ العينين ، مستوى الأنف ، له فم قريب الى الفوَهِ فى غير قبح ولا استكراه . إذا تمثل واقفاً لمحت فى ساقيه تقوساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشى قبل أن تصلُب عظامه . وله إذا تحدث صوت لا أقول خشن بل أقول جَزْل . فاذا أقبل على القراءة زرّ عينه اليسرى فبان التكرش الشديد فى معقد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين ، وهذا التكرّش لاشك كان من أثر السنين ، وإن كان يخفيها فى المويلحىّ شدة عنايته بصحته ، وتكلفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات ، والتزام الحمية فى كثير من الأوقات ، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمة من الأزمات ، ولا يستدرجه مجلس لهو ولاتقنصه داعيةُ لذة من اللذات ؛ وبهذا تهيأ له أن يحيا فى مثل نضرة الشباب الى الممات

وقد تلقّانى فى غرفة الاستقبال ، وهى غرفة أنيقة حقاً . لقد أثثت بأنخر الأثاث وأغلاه ، وأنخر من كل شىء فيها الأناقة فى تصفيف الفراش والذوق التام . وقد زُينت أجبُنُها بصور كبيرة له ولأبيه ، وللأميرة نازلى فاضل ، وللسيد جمال الدين الأفغانى . وبلوحات خطية جميلة جرت بروائع الحكم ، وأكثرها من شعر المعرى

وخضنا فى أحاديث من أحاديث الأدب ، ولوّنا الكلام تلويناً حتى تجاوزنا نصف الليل ، وتفارقنا وكأن حبل المودة بيننا ممدود من عشرين سنة . وتواعدنا اللقاء ما تهيأ لنا . وكذلك استمكن

الإلف واستوثقت حبال الود ، فما نتفارق إلا على موعدٍ من لقاء قريب . ولقد أعيش معه اليومين والثلاثة نقرأ عامة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً ، أونتذاكر أدباً

وكان ممن يختلفون الى داره مغربَ الشمس عادةً بعض أقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان والبدائه المواتية ، وأذكر منهم المرحومين عمه السيد عبد السلام باشا المويلحى (سر تجار مصر) ، والسيد محمد توفيق البكرى ، والشيخ على يوسف ، بعد إذ تصافت القلوب مما كان علق بها من الأضغان ، والسيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، وحافظ بك ابراهيم ، وعبد الرحيم بك احمد ، وحافظ بك عوض ، والسيد عبد الحميد البنان . أحياهما الله أطيب الحياة . وخذ ما شئت فى أثناء هذه المجالس من أدب رائع ، ومن نادرة طريفة ، ومن حاضر نكتة قل أن تسخو بمثلها الأذهان

ولقد كنا نقضى معاً عامّة الصيف فى مدينة الاسكندرية . ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذى قضيناه معاً فى فندق فى ضاحية المكس خالصَين للرياضة ومراجعة الكتب فى مختلف الآداب ، لا ننحدر الى صلب المدينة إلا لقضاء سهرة مونقة مع آثر الصحاب . كما عشنا معاً فى شتاء سنة ٩١١ ، ٩١٢ بضعة أشهر فى دار استأجرناها فى حلوان

وفى سنة ١٩١٠ قُلد فى ديوان (عموم) الأوقاف منصب رئيس قسم الادارة والسكرتارية ، وفى يناير من سنة ١٩١١ عينت فى (قلم السكرتارية) . وللمويلحى فى هذا التعيين سعى غير منكور . وبهذا أصبح لى رئيساً ، كما كان لى أستاذاً وصديقاً

ولقد ظل الودّ بيننا موصولاً حتى قبض إلى رحمة الله

نشأته ودراسته :

هو السـيد محمد المويلحى بن ابراهيم بك بن السـيد عبد الخالق المويلحى . أصلهم من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، هبط جدودهم مصر من زمن غـير قصير ، وكانوا يتجرون فى صناعة الحرير ، وهم أهل نعمة وثراء . ولقـد أتلف أبوه ابراهيم كل ما كان فى يده من الأموال فلم يتزلق عنه لبنيه إلا نِطافٌ من الاستحقاق فى بعض الأوقاف

وما أحسب محمداً تجاوز فى الدراسة المنظّمة التعليم الابتدائى . ثم جعل يتعلم على أبيه ، ويُكِبّ على قراءة الكتب فى العلوم والآداب ، ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وغيرهم من أعلام عصره فحذق العربية وبرع فيها ، وجود البيان أيما تجويد ، وهيأ له جِده واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية ، والتركية ، والايطالية ، كما أصاب حظاً من الانجليزية واللاتينية . وكان كثير القراءة الى غاية المهات ، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتاب عربىّ أو فى كتاب يجرى فى إحدى هذه اللغات

ولقد سألته ذات يوم عن أحسن الفرص التى هيأت له أعظم حظ من العلم فقـال : كنت فى الآستانة فى ضيافة رجل فاضل يدعى سليمان افندى ، وكان عنده مكتبة تعدّ من أنخر المكاتب الأهلية ، فلبست ثيابى ذات عشية تأهباً للخروج كعادتى لأسهر فى بعض ملاهى المدينة ، وتفقدت كيسى فاذا هو صفر من الدرهم والدينار ، فنضوت ثيابى ثانية وقلت باسم الله ، ولبثت عاكفاً على قراءة الكتب لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة . وظللت على هذه الحال ستة أشهر وبعض الشهر حتى أذن الله بالفرج ، وجاءنى من المال ما هيأ لى استئناف الحياة مع الناس !

ومن يعرف صبر المويلحى ، وشدة حمله على نفسه ، لا يستطيع أن ينكر منه هذا المقال ، وسأُلمّ إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام فى عاداته وأخلاقه . وحسبى هذا الآن فقد أطلت الحديث ، وإلى الملتقى القريب ؟

عبد العزيز البشرى

صحف مطوية من التاريخ الإسلامي

٢ – العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتشرت المستعمرات والمعاقل العربية خلال القرن العاشر في بروڤانس وساڤوا وپيمون وسويسره كما بينا ، وبسط العرب سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره ؛ وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا في سويسرا ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا في ايطاليا الشمالية ولاية ليجوريا . وكانت معاقلهم في بروڤانس ولا سيما حصن « فركسنيه » قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول پيمون فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسره ؛ فان الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس تذكر لنا اسم حصن عربي في تلك الأنحاء وتسميه « فراشنديلوم » Fraschendellum ؛ والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم « فراسنيتو » وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعى أيمون دفعه شغف المغامرة والكسب إلى محالفة العرب ، فانضم إليهم واشترك في غاراتهم الناهبة ، وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً عربياً استحسنها وانتزعها منه قسراً ؛ فغضب إيمون ، والتجأ إلى كونت روتبالدوس حاكم بروڤانس العليا ، وفاوضه سراً في محاربة العرب وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم العرب في پيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم في يد النصارى ، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء

وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لأهلاك العرب النازلين في أملاكه ، في چورا وعلى حدود برجونيه ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الاغارة والعيث في تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى العرب يستحثهم لقتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضي والضياع الخصبة ؛ وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال العرب والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ؛ فالتقت الجموع المتنافسة من العرب والمجر ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة في سنة ٩٥٢ م ؛ ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها (١)

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك العرب المستعمرين المغامرين في الأفول ، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء ؛ بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك يحتلون كثيراً من مواقع ساڤوا ؛ ويجوبون أنحاء سويسرا كلها في طلب الغنيمة والسبي . وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ؛ وبلغوا في توغلهم في سويسره مدينة سان جال على مقربة من بحيرة كونستانس ، وانشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً في سان جال ، حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا العرب في جوف الليل ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات العربية في شمال سويسرا .

واستمرت المستعمرات والمعاقل العربية في دوفينه وبروڤانس وبعض جهات الألب ؛ وكان قربها من « فركسنيه » أمنع المعاقل العربية عدها بأسباب الجرأة والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بامداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وأفريقية

* * *

في ذلك الحين كان أعظم أمراء النصرانية أوتو الكبير (أوتون) ملك ألمانيا ، وكان أعظم أمراء الاسلام عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ؛ وكان للناصر مع معظم أمراء النصرانية ، من امبراطور بزنطية الى ملوك الشمال والغرب ، علائق سياسية منظمة ؛ وكانت له مع أوتو الكبير علائق ومراسلات . فلما رأى أمراء

(١) Bouquet, T. IX p. 6 — Reinaud, ibid, p. 128

غاليس أنهم لا يستطيعون رد العرب عن أملاكهم وأراضيهم ، سعوا الى الامبراطور أوتو زعيم النصرانية أن يعاونهم بمفاوضته الناصر زعيم الاسلام فى انقاذهم من هذا النير المزعج ؛ وكان المفهوم دائماً أن حكومة قرطبة تحمى هذه المستعمرات العربية النائية وتمدها بعونها الأدبى على الأقل . فعول الامبراطور أوتو على السعى لدى الناصر فى تحقيق هذه الغاية ؛ وأوفد اليه فى سنة ٩٥٦ سفارة على رأسها حبر يدعى « چان » فقصد الى اسبانيا عن طريق فرنسا ، ووفد على قرطبة يحمل بعض التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر ، واستقبل بحفاوة بالغة وأنزل فى منزل خاص ريثما يستقبله الخليفة . وتتفق الروايات العربية والنصرانية فى وصف مظاهر العظمة والبهاء التى كانت تبدو بها قرطبة ، ويبدو بهما البلاط الاموى يومئذ[1] . وتقص علينا الرواية الكنسية المعاصرة تفاصيل هذه السفارة ، فتقول : إن الناصر لم يستقبل سفير أوتو فى الحال ، وإنه كان يحقد على أوتو لأنه تعرض فى بعض مراسلاته للاسلام ، ولأنه كان قد اعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً أرسله اليه الناصر ، ولذلك أمر الناصر باعتقال السفير (چان) حتى يرسل سفيراً الى أوتو يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ؛ واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة ، وكان أوتو يومئذ يشتغل ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلاً فى قبول وجهات نظر الخليفة . ولما عاد السفير ، ارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وإذن برؤية سفير الامبراطور ؛ فاستقبل استقبالاً فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ؛ وتحدث الى الناصر عن الغرض من سفارته . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه السفارة ، لأن الرواية الكنسية لا تحدثنا عن ذلك ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس ، وانها لا تحتمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها : وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر الى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانية بعين العطف . على أن لويتبراند ، وهو مؤرخ كنسى معاصر يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1]

وبعد ذلك بقليل (فى نحو سنة ٩٦٠) أخرج العرب من معاقلهم فى آكام سان برنار ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ؛ ولكن المحقق أن العرب أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء العرب

واستمر العرب فى دوفينه وبروڤانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الأمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدالبرت الى عرب « فرا كسنيه » ليعاونوه فى استعادة ملكه . وكان هذا التحالف بين السادة والعرب يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما آذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال مذ فقد العرب معاقلهم فى بلاد الألب . وفى سنة ٩٦٥ هـ أخرج العرب من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جرزيڤودان) وطوردوا فى تلك النواحى وساءت أحوالهم ؛ وأعلن الامبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة ، وهو يومئذ فى ايطاليا أنه سيتولى طرد العرب من الأراضى النصرانية ، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة ، وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت هو سان ماييل ، وهو أسقف دير كلونى من أعمال برجونيه ، حج الى رومه ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره العرب المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ؛ فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان ماييل وزملاؤه . ولما عاد سان ماييل الى مقامه دعا مواطنيه الى إنقاذ البلاد من عيث الغزاة ، وأذكى حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسره وما يعانيه الحاج من شر العرب وعدوانهم ، فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون (أو بيڤون) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة ، وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى

(١) راجع فى وصف هذه المظاهر التى شهدها سفراء النصرانية — نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و١٤٣ — وراجع Reinaud ; ibid , p 188 — 189

(١) Reinaud; ibid; p. 193

حصناً فى سسترون على مقربة من حصن كان يملكه العرب ، ولبث يتحين الفرص لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيـانة ، وباغت النصارى العرب فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسرا (سنة ٩٧٢ م)

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا العرب فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ولم تبق إلا فى بروڤانس . ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه على بروڤانس وتلقب بألقاب الأمارة ، واعتزم أن يخرج العرب نهائيـاً من تلك الأرض ؛ فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى العرب أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام الى البسيط فى صفوف متراصة ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى «تورتور» ؛ فهزم العرب ، وارتدوا الى قلاعهم ، ولا سيا « فركسنيه » التى غدت ملاذهم الأخير ؛ فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ؛ فحـاولوا الفرار تحت جنح الليل الى الغابات المجاورة ، ولـكن النصارى لحقوا بهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وأبقى على من استسلم منهم ، وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض طويلاً

وهكذا سقط حصن « فراكسنتم » أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ؛ وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء

أما المستعمرات العربية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية ؛ ولـكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معـاقلها نحو جيـل آخر ، حتى تولى مطاردتها وسحقها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة العرب فى غاليس وسويسره ؛ ولم يجب أحد فى أفريقية والأندلس صريخ الغوث الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل الى اخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية فى تلك المياه ؛ ففى سنة ١٠٠٣م ، سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩م ، نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة ، وحاولت أن تستولى عليها ، ولـكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ ، هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة بالقرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العـامرى أحد أمراء الطوائف ، وصاحب دانية وجزائر البليار ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى ميـاه كورسيكا وسردانية ؛ وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها ، (سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ، ولـكن النصارى استردوها على الأثر [1] ؛ ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية « موجيه » أو موسكتوس ، مدى حين سيد هذه المياه يبث فيها بحملاته الرعب والروع

***

هذه هى قصة العرب والغزوات العربيـة فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسره ، وهى قصة تغفل الرواية الاسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ؛ ولـكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الـكنسية والفرنجية المعاصرة ، وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ؛ ولـكننا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) ابن خلدون — المقدمة — ص ٢١٢

بين فنى التاريخ وفن الحرب

٩ – خالد بن الوليـــد *
فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمى
رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ولا يخلو من الفائدة أن نقتبس هنا وصف المستر فلبى الذى تجول فى هذه المنطقة فى صيف سنة ١٩١٨ ، فدون مشاهداته فى كتابه « البلاد العربية الوهابية » (Arabia of Wahhabit) وقد وصف قرية الجبيلة الواقعة بالقرب من قرية (عقرباء) التى دارت رحى المعركة فيها بما يلى :

« والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان البؤساء ، ومعظمها أطلال دارسة ، ومقابر الصحابة على ضفة الترعة المقابلة للقرية (أى الضفة اليسرى للوادى) وعلى مسافة نحو ربع الميل منها . وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل (الطرفاء) تُسرى عن المرء الانقباض الذى يعتريه من إدامة النظر الى اللون الأغبر الذى لا يتغير ، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية المترامية التى سـدت الوادى . وبقرب الحى آبار كثيرة بعضها مطوى بالحجارة يستقى منه أهل الحى دائماً . أما بيوت أهل الحى فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب ، وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها الأيام . أما ما بقى منهـا فلا بأس بحاله ، ويستدل منه على أن أهل تلك البيوت عنوا بصـيانتها فدعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالجص لتحمل على متونها روافد السـقوف . وقد شاهدت فى دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من اللاط المغطى بطبقة رقيقة من الصاروج (الجص) الأسمر لخزن التمور ، ولا تزال جدرانه ملونة بعصارة التمر » إلى أن يقول : « ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر الى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجـدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق لا غـير » . . . ويقول فى وصف جبل طويق والهضاب التى يشرف عليها : « أما ما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد فى حياتى أرضاً مثله ، فلم أعثر فى اربائه على شىء تنقبض له النفس ، فتجد أمامك طويقاً معرضاً لمهاب الرياح ، خالياً من الظاهرات الطبيعية ، ضارباً فى كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له ، ولا يعترضه فى ذلك التكوين الغريب سوى الحرف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع الى الشمال الشرقى »

وعند ما يبحث فى أطراف عينة عاصمة آل ابن معمر القدماء وهى القرية الواقعة الى غربى عقرباء ، فى واد ضيق — يقول : « أما ربوع عينة التى اشتهرت فى قديم الزمن بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبى المسيل شرقاً وغرباً نحو ميلين ، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين ، ونبتت أدغال الأثل فى البقاع التى وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل فيها . أما البلد الأصلى أو الحلة التى كانت يوماً موطناً لآل ابن معمر فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة فى صدر تلك المحلة الرحبة ، إلا أن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة ، ويمر عابر السبيل فى تلك البيداء بين آونة وأخرى بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها . وفى كل ناحية من نواحى تلك المحلة الوسيعة آبار نضب عنها الماء وهى مطوية بالحجارة والآجر وعليها أحواض مبنية بالصاروج ، أما ضفاف المسيل فمدعمة بأيادات كالمسنيات على أشـد ما تكون من متانة البنيان ، عقدها أصحابها فى وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه فى بطن المسيل . فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ثم غدت تراباً فوق أنقاض بالية . وشاهدت فى بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان فى عرض نصف قدم » الى أن يقول . « جزنا الأطلال وخرجنا من عينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترق أشجار الأثل فى عنفوان نموها . والمنتشرة فى طول الأرض وعرضها الى أن تنتهى فى طرف المحلة القائمة فى الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادى . فسـار بنا الظعن يطوى صوحه صعوداً . وعرض الوادى فى أسفله (أى فى عقيقه) نحو الميل ،

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

وكلما ارتقى الانسان صوح الوادى وارتفع عن عقيقه ازداد انفراج الوادى الى أن بلغ عرضه ميلين أو ثلاثة اميال . ولما أرسلت رائد الطرف فى ميمنة الوادى بدا لى شعيب فى منخفض الوادى ، وقد قيل لى إن هذا الوادى يأخذ فى الصعود مرة أخرى الى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج ، يقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والشاعب المنحدرة على جوانبه ، ولم يزل حتى الآن خزاناً لرى حقول القمح المزروعة فى وسط الخرائب . وهناك شعيب آخر الى يمين طريقنا يقال له شعيب عينة ينحدر من الهضبة الضيقة التى تفصل وادى حنيفة عن وادى سدوس »

قوات الفريقين

برغم كثرة الروايات التى تتناول حركات اليمامة والقتال فى عقرباء نجد الغموض ظاهراً فى معرفة قوة الفريقين

فالطبرى يذكر نقلاً عن سيف بن عمر أن القوة المحاربة لدى قبائل بنى حنيفة بلغت أربعين ألفاً . ولما ذكر أخبار السنة الحادية عشرة الهجرية نقل عن ذلك الراوى نفسه ، وزعم أن القوة المحاربة بلغت عشرة آلاف . أما ابن حبيش فيذكر فى رواية نقلها عن الواقدى مفادها أن قوة المسلمين بلغت أربعة آلاف ، وقوة بنى حنيفة أيضاً بلغت هذا المقدار ذاته . وفى رواية تسند الى سيف بن عمر يزعم الراوى أن عدد القتلى من بنى حنيفة بلغ عشرين ألفاً

أما المؤرخ الفارسى ميرخوندى فيزعم أن عدد القتلى فى تلك الموقعة بلغ سبعين ألفاً ، والذين قتلوا فى حديقة الموت بعد المعركة بلغ عددهم سبعين ألفاً . ولعلك أدركت أنه يصعب الوصول الى عدد يقرب من الحقيقة بين هذه الروايات التى تقدر قوة الحنفيين بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً ، وعدد القتلى منهم بين عشرين ألفاً الى مائة وأربعين ألفاً

ولكن الثابت أن مسيلمة جمع أعظم قوة لمقابلة جيش المسلمين ووضعها على الحد الفاصل بين بلاد حنيفة وبلاد بنى تميم وترك القرى العامرة وراءه . وكان من مصلحة الحنفيين أن يجتمعوا تحت لواء رئيسهم للدفاع عن حيهم الذى تركوه وراء ظهورهم ، ويظهر من مجرى المعركة أن عدد القتلى فى قوة الحنفيين كان كبيراً

لقد قدرنا جيش بنى حنيفة عند البحث فى قوات الفريقين بخمسة عشر ألف مقاتل — بمعنى أن الحد الأقصى للقوة التى، يستطيع الحنفيون سوقها لا يجاوز العدد المذكور . والذى يلوح لنا أن القوة التى جمعها مسيلمة فى عقرباء تبلغ عشرة آلاف مقاتل

قوة المسلمين

روى الواقدى أن جيش خالد بلغ أربعة آلاف مقاتل فى معركة عقرباء . وفى رواية أخرى تسند إلى عيسى بن سهل أن الجيش الذى تولى قيادته خالد لما خرج من المدينة كان بقوة أربعة آلاف مقاتل ، وهذا الجيش حارب فى اليمامة . والذى لاريب فيه أن قوة جيش المسلمين بلغت أربعة آلاف مقاتل لما تركت الربذة وتقدمت نحو بزاخة وانضمت إليه قوات من بنى طئ قبل المعركة . ثم زاد هذا الجيش بعد إسلام قبائل بنى أسد وغطفان . ولعل قوته بلغت أكثر من خمسة آلاف لما نزل فى البطاح . ومن الثابت أن جماعات من بنى تميم انضمت إليه قبل أن يتوجه نحو اليمامة . وروى لنا الأخبار أن الخليفة أبا بكر أمد الجيش بقوات من المدينة لما كان محتشداً فى البطاح ، وأن خالداً سبق هذا الامداد من المدينة وانتظر وروده من البطاح . فجميع هذه الأخبار تدل على أن جيش المسلمين تضاعفت قوته بانضمام القبائل ووصول النجدة إليه قبل أن يتحرك من البطاح نحو اليمامة

وكان من البديهى أن تلتحق به القبائل متى اتصل بها خبر خيرات اليمامة ووفرة المغنم فيها .

ويلوح لى أن قوة الجيش بلغت أكثر من ستة آلاف قبل حركته من البطاح

الموقف قبل الحركة

لبى خالد أمر الخليفة فذهب إلى المدينة ليدافع عن عمله فى قضية مالك بن نويرة ، وفى رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر أرسل عكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة لما كان خالد يحارب المرتدين فى بزاخة وأمده بقوة أخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة . والرواية تزعم أن عكرمة بدأ القتال قبل وصول شرحبيل فنكب . فأقام شرحبيل فى الطريق حيث أدركه الخبر . وهذه الرواية تؤيد زعم سيف فى أن الخليفة قسم جيش المسلمين فى ذى القصة إلى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين . وقد سبق أن بينا فساد هذا الزعم . وفى رواية أخرى أن شرحبيل

ابن حسنة الذى تلقى أمراً من الخليفة بأن ينتظر ورود خالد ولا يتحرك بادر إلى قتال مسيلمة قبل قدوم خالد فنكب وانسحب . وإذا صحت هذه الروايات يلوح لنا أن عكرمة بن أبى جهل كان يراقب اليمامة بقوة سائرة من المسلمين لما وقف خالد فى البطاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين الحنفيين حبطت مساعيه فيها فانسحب . أما شرحبيل بن حسنة فانه تولى قيادة جيش المسلمين عند ذهاب خالد إلى المدينة . فبدلاً من أن ينتظر ورود خالد أسرع إلى مقاتلة الحنفيين فانكسر

ولما قدم خالد البطاح كان جيش المسلمين مرابطاً فيها ، وكانت قبائل بنى تميم عرضت الولاء إلا البعض منها فالتجأ إلى اليمامة . وكان بنو طىء وبنو أسد وبنو غطفان وبعض بنى تميم أمدوا جيش المسلمين بالمقاتلين

أما مسيلمة فانه جهز عدداً كبيراً من بنى حنيفة وتقدم شمالاً يريد مقابلة جيش خالد . وتدل الأخبار على أن بعض الحنفيين كان يخابر المسلمين سراً ويطلع خالداً على موقف مسيلمة . ومن الروايات ما يؤيد أن الحنفيين الذين حافظوا على إسلامهم تحفزوا للشغب على مسيلمة

الطريق الذى سلكه خالد

هناك طريقان للتقدم من البطاح نحو اليمامة : طريق شرقى وطريق غربى . أما الطريق الشرقى فيتجه شرقاً أولاً ثم يمتد إلى سفح جبل طويق الغربى متوجهاً إلى الجنوب الشرقى ماراً بالأرض الجبلية ، وهو الطريق الذى يصل بريدة بالزلفى ثم يمتد إلى المجمعة ومنها إلى الحوطة فثادق فسدوس ؛ أما الطريق الغربى فيتوجه نحو الجنوب الشرقى فيمر بين نفود السر ونفود الشقيقة إلى أن يصل الى الشقرة عاصمة الوشم ومنها يمتد موازياً لسفوح جبل طويق الغربية فينعطف نحو الشرق ويتسلق الجبال ويمر بثنية اليمامة حيث ينبع وادى حنيفة فى غربى عينة فينتهى فى عقرباء ويدخل اليمامة .

والذى يلوح لنا أن خالداً سلك الطريق الغربى لاجتيازه أرضاً سهلة تجعل المدينة فى ظهره . أما الطريق الشرقى فيخترق أرضاً جبلية وعرة . وقد تعرقل عليه السير إذا أراد أهلها المقاومة فضلاً عن أنه طويل

ومن الأخبار ما ينبئ بأن طليعة جيش المسلمين باغتت بعض رجال مسيلمة فى ثنية اليمامة — أى فى عقبة الجيسية وهو المضيق الواقع إلى شرقى الجيسيان بين خشم الجيسية وخشم الخرشة وفيه تنقسم مياه الأمطار ، فمنها ما يصب إلى الشرق ويجرى فى وادى حنيفة ومنها ما يصب إلى الغرب ويجرى فى بطن الحور

ومن جملة الأسباب التى تجعل خالداً يميل إلى سلوك الطريق الغربى قربه من قاعدة الحركات أى المدينة . فاذا ما نكب الجيش يصل إليه المدد من خلفه ، وإذا ما تضايق يستطيع الانسحاب إلى المدينة أو إلى مكة من بلاد أسد وغطفان ، أو من بلاد بنى عامر وهوازن . لذلك نجزم بأن جيش المسلمين سلك ذلك الطريق فى مسيره نحو اليمامة

معركة عقرباء

يقيناً أن معركة عقرباء من المعارك الفاصلة التى ختمت دوراً وفتحت دوراً آخر . فالمسلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهر قوادهم . والمرتدون حشدوا أعظم قوة فى استطاعتهم جمعها فى أوعر منطقة . فمجرى المعركة يدل على الغاية التى كان يستهدفها كل من الفريقين

فلو انكسر المسلمون ، لاسمح الله ، فى هذه المعركة ، لبقى العرب متزوين فى جزيرتهم ، واحتفظ الأكاسرة بتلكهم فى العراق ، ولم يبك هرقل ضياع سورية . فالنبى الكاذب أسود العنسى الذى سيطر على اليمن مدة من الزمن قتل غيلة ، فلم يضطر المسلمون الى حشد قوة كبيرة للتغلب عليه . أما بنو أسد فلم يكن من الصعب التغلب عليهم لتفرق كلمة القبائل . بيد أن فى عقرباء احتشدت أعظم قوة من أمنع قبيلة فى أرض مستحكمة ، وكان الناس يقاتلون عن حبهم ، ويتفانون فى سبيل نبيهم

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدين فى الأقطار الأخرى ، ولم يلاق المسلمون صعوبات فى تمكين الاسلام من قلوب أهلها ، فخضعت البحرين ، ودانت عمان ومهرة بدين الاسلام ، وجددت حضرموت إسلامها ، وعادت اليمن الى حظيرة الاسلام . وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشعروا بقوتهم فبادروا الى الفتوح بقيادة رؤسائهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف يثلون العروش ويقضون على امبراطورية الأكاسرة ودولة القياصرة ، فلم يمر بضع سنوات على ذلك حتى كان العرب يصولون بخيولهم فى بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً

يتبع

طه الهاشمى

فى الأدب الدرامى

١٥ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تتمـــة

الغنائية (الأوبرا L'opéra)

الغنائية :

الغنائية هى درامة شعرية جدية أو هزلية تؤلف من الغناء والانشاد وتأبى الحوار الكلامى ، وتقبل الخوارق كالأشباح والأرواح والهواتف ، وتُوَقع على أنغام الموسيقى ، وتختلط أحياناً بالرقص ، وتمنى كل العناية بالزينة والرياش . وهى غاية ما وصل اليه الجمال الفنى والذوق الانسانى ، لأنها مجمع الفنون الجميلة ومظهر الآداب الجليلة ومتعة النفوس ولذة الحواس بما تفيضه على العيون والآذان والأذهان من جميل الصور وحلو النغم ورائع الشعر ، بَلْهَ ما تقتضيه من كمال الفن الآلى (mécaniqu) لأحداث الخوارق وتغيير المناظر . فهى ولا ريب أفصح الألسنة إبانة عما بلغته القرائح من النبوغ وأدركته الفنون من النضوج فى عصرها الذى مثلت فيه

على أن قوام الغنائية وفروعها هو الموسيقى والمناظر ، فهى تنزل الكلام والحادث والتعقيد فى المحل الثانى منها . لذلك لا تجد كلامنا عنها إلا إجمالاً يكاد يقفك عند التعريف والتقسيم . وقبل أن نأخذ فى تقسيم الغنائية يحسن بى أن أنقل اليك ما قاله فى هذا الصدد الفيلسوف ابن رشد فى تلخيصه كتاب الشعر لارسططاليس . وما قاله لا يدخل فى موضوعنا إلا من الباب التاريخى . وهذا الملخص قد طبعه الأستاذ المستشرق (لاربجو) بمدينة فلورنسا سنة ١٨٧٣ قال : (المحاكاة فى الأقاويل الشعرية تكون من قِبَل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفق ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم فى المزامير ، والوزن فى الرقص ، والمحاكاة فى اللفظ ، أعنى الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأمرها مثل ما يوجد عندنا فى النوع الذى يسمى الموشحات والأزجال ، وهى الأشعار التى استنبطها فى هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أى الأندلس)

ولا مرية فى أن أعاريض الموشحات والأزجال أنسب لنظم الغنائيات من سائر بحور الشعر لحلاوة نغمها وسهولة توقيعها وتنوع قوافيها

فالغنائية تنقسم باعتبار تلحينها الى أجزاء نسردها لك دون أن نعرض لها ، لأنها ليست من شأننا ولا مما يدخل فى علمنا . وهى الافتتاح ، والمقدمة ، والانشاد ، والألحان ، والمثانى ، والمثالث ، والمرابع ، والمخامس ، والخورس ، والختام فى نهاية كل فصل . فالافتتاح ما يسبق رفع الستار ، والمقدمة ما يهيىء للعمل ، والانشاد نوع من الغناء يحل محل الحوار الكلامى دون أن يتقيد بوزن ، والمثانى والمثالث والمرابع والمخامس قطع يزدوج فيها الصوت أو يثلث أو يربع أو يخمس ، والخورس ما فوق ذلك . على أن اجتماع هذه الأجزاء ليس ضرورياً ولا جوهرياً . فالملحن يستطيع أن يغفل منها مالا يتفق مع الرواية

ثم تنقسم الغنائية باعتبار تأليفها الى غنائية جدية ، وهى ما كان موضوعها سامياً وعملها رائعاً وأداؤها غنائياً كله . فلا تجيز الحوار النثرى وإنما تستبدل به الانشاد ، وغنائية هزلية وهى ما تجيز الحوار النثرى فى خلال القطع الغنائية

الغنائية الجدية (L'opéra seriese)

ليس من اليسير أن تجد لهذه الغنائية تعريفاً جامعاً لتنوعها وتفرعها ، واختلاف الرأى فيها بين الفرنسيين والايطاليين ؛ فان لكلا الشعبين نظرية فيها سار عليها ودعا إليها . ولعلنا إذا ذكرنا النظريتين تستطيع أن تقف منهما على موضوع الغنائية ومداها

فالنظرية الفرنسية زعيمها (كينو) وهى منبنية على تقليد الملحمة فى استعمال الخوارق والأعاجيب وتنوع المناظر وتعدد الصور ، ونقل كل ذلك إلى عين الناظر كما تنقله الملحمة إلى ذهن القارئ . فقد يكون التأليف كله مختلقاً غريباً ، ولكن فى هذا الاختلاق اتفاقاً واتساقاً تنتج منهما الحقيقة ؛ كما أن الموسيقى تظهر جمال الخوارق ، والخوارق تبين إمكان الموسيقى . فأنت فى جو جديد يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ويضيف إلى جمال الخيال سحر

الطبيعة ، وذلك كله يسير فى انسجام والتئام ودقة . أما العمل الروائى فواضح يسهل عقده وحله ، والحوادث يتوالد بعضها من بعض ، والأهواء رقيقة تشتد حيناً ثم ترق ، والأخلاق ساذجة ، والمناظر متنوعة ، والجاذبية قوية مؤثرة ، ولكنها تتراخى أحياناً فتخفف عن الأعصاب وترفه عن النفوس

تلك هى غنائية (كينو) ونظريته : يجمع كل ما يستطيع من الوسائل ليخلب السمع ويبهر البصر ؛ وهو لذلك يستمد موضوعاته من الأساطير والسحر ، فيملأ المسرح بالأعاجيب والصور ، ويهيئ لنفسه الانتقال من الأرض إلى السماء ومن الجنة إلى النار مهيمناً على الطبيعة مستولياً على الوهم فاتحاً للمأساة طريق الملحمة ، ليجمع بين فضائل النوعين ، ويوفق بين مرمى القصيدتين

ومزية هذه الطريقة الخرافيــة أن تكفى الشاعر مؤونة التفصيلات الدقيقة التى تطلبها الحقيقة ، فان الموضوعات التاريخية تقتضى جلاء الغامض وتعليل الحوادث وتقريب البعيد وإمكان المستحيل

أما النظرية الايطالية فزعيمها (ميتاستاز) وهى مبنية على محاكاة الطبيعة وتوخى التأثير والبلوغ بالمحزنات الفواجع إلى حد لم تبلغه المأساة . فهو يكسو الأفق بالسواد ، ويصبغ المسرح بالدم ، ويسرع بحركة العمل وهومغرق فى الاشارة والاثارة بروعة الأداء وحدّة الهوى . وفضل هذه النظرية على الأولى ظاهر فى قوة الأثر ودقة المواقف وجمال الحقيقة وسهولة الامكانية . لذلك عنى الشعراء والموسيقيون بالتوفيق بين النظريتين والجمع بين الطريقتين ليدركوا مزايا هذه وتلك . فهم يمزجون الصور العجيبة بالرهيبة ، والمواقف الطريفة بالعنيفة ، والمناظر التى تسحر العين بالتى تخلب اللب

على أن الغنائية ليست مقصورة على الخوارق والمحزنات ، وإنما تتناول الاناقة الحضرية والحياة الريفية والخلق الفكه والهزل المضحك ، على شرط أن يتسق كل ذلك فى طبيعة حية وحركة قوية وتنوع جاذب

الغنائية الهزلية (L'opéra comique)

أما الغنائية الهزلية فاسم يطلق اليوم على درامة جدّية الموضوع فكهة الأسلوب ، تخلط الغناء الشعرى بالحوار النثرى ، وتعنى بتعقيد العمل الروائى . ومنشأ هذا النوع كان فى مستهل القرن السابع عشر ، ظهر أولاً فى شكل ملهاة غنائية كانت تمثل فى سوقين شهيرتين : (سان جرمان) و (سان لوران) . ثم أخذ مع الزمن يقترب من الغنائية الجدية بتغليب جانب الموسيقى والغناء حتى لم يبق بينهما اليوم إلا فروق سطحية شكلية أهمها الأسلوب الفكاهى . فاطلاق هذا الاسم على الغنائية التى لانصيب للهزل فيها اطلاق غير صحيح ، لأن الغنائية إنما وضعت فى الأصل للدلالة على كل عمل موسيقى ، ولا سيما العظيم الجدى منه . فاضافتهم صفة الهزل (Comique) اليها دليل على أنهم يريدون بها عملاً أقل فى العظمة ، وأقرب من الهزل ، وأقبل للحوار النثرى . ويؤيد هذا الرأى أن الغنائية الهزلية أو الابرا كوميك سايلة المهزلة (الفودفيل)(١) ولا يفرق بينهما إلا أن ألحان المهزلة كلها معروفة مألوفة من قبل ثم تقتبس لأوزان جديدة تؤلف للرواية . أما ألحان الغنائيــة الهزلية فهى مصنوعة لأوزانها خاصة ، ولذلك كان شعرها محكم الرصف بديع الوصف ، يقوم عليه الشطر الأكبر فى نجاح الرواية

وعبرت الغنائية الهزلية حقبة من الدهر وهى خاضعة لسلطان المهزلة فلا تستطيع أن تتجاوز مداها ، ولا أن ترتفع عن مستواها ، وانما كانت تستعير أساليبها الحية ، وأناشيدها الطلية ، حتى جرؤ الملحنون على أن يطلبوا الى المؤلفين أن يوسعوا الدائرة القديمة ، وأقدموا هم أيضاً على ابتكار ألحان جديدة ، واقتباس بعض الثانى والثالث والأشكال من الغنائية الجـدية ما دامت تتصل بها وتتعلق بسببها . فلما صارت الغنائية الهزلية فناً أدبياً

(١) تطلق هذه الكلمة اليوم على ملهاة صغيرة تافهة الموضوع محكمة التعقيد ، هزلية الأسلوب ، لاتتحرج من ارسال النكتة المقذعة . وقد تشتمل على بعض الأصوات الغنائية استبقاء لأثر الماضى وخصائص الأصل . فقد قالوا فى بدء تكوينها إن (أوليفييه باسلين) من أهل (فير) وهو واد فى (نرمانديا) نظم سنة ١٤٥٠ أغانى هجائية ذاعت فى وادى فير فسميت بذلك فود فير (Vau de vire) أى (وادى فير) ثم نزحت عن منبتها ومكان نشأتها فتصحف الاسم الى (فودفيل) . وفى مستهل القرن الثامن عشر أدخلوا هذا النوع من الأغانى المقذعة فى ملاه كانت تمثل فى الأسواق وتسمى (ملاهى مع الفودفيل) ثم اقتصروا بعد ذلك فى اسمها على الفودفيل ، وكانت حينئذ كلها شعراً يغنى على أنغام معروفة من قبل لم تصنع لها خاصة حتى دخلها الحوار النثرى فصارت أشبه بالغنائيه الهزلية لايميزها منها إلا الفرق الذى مر بك عند الكلام عن هذه الغنائية . ثم فعل بها الزمن ما فعل بسائر الأنواع فشذب أطرافها ، وهذب إسفافها ، حتى ردها الى التعريف الذى بدأنا به هذه الكلمة

وعملاً روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد ، ثم يدفعها الى الملحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوى التعبير عن الغرض . وهم اليوم يميلون الى تقليل الحوار وتكثير الغناء ، ورد هذا النوع الى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لا يدخل فيها ماليس منها حتى لا يقول فيه القائلون اليوم إنه نوع مزيف ، وحتى لا يصفه (تيوفيل جوتييه) « بأنه سفيح قبيح ، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير ، فجعل الممثلين يسيئون الغناء بحجة أنهم ممثلون ، والمغنين يسيئون التمثيل بحجة أنهم مغنون » .

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد ، لأنه سبب واصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة ، ودَرَج صاعد بالجمهور الى الفن الموسيقى فيرفعه من حضيض (الفودفيل) الى أوج (الأبرا) .

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن الدرامى بلاغاً للكاتب الناشئ وسداً لنقص البيان العربى فى هذا الباب .

الزيات

---

١ – محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تمهيد

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة ، فقد دون آراءه كلها فى أسلوب الحوار الذى بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه فى أسمى مراتب الفن . ونحن إذ نتقدم الى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته ، إنما نلتمس العفو عما قد تصاب به تلك الآيات البينات من تشويه . على أن القارىء إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيع منه بإذن الله دقة المعنى وأمانة النقل

وهذا الحوار الذى نترجمه لك اليوم ، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم محاكمته بتهمة الالحاد وإفساد الشباب . ولسنا ندرى الى أى حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية الحقيقة الواقعة . هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أو ما يقرب منها ؟ أم أنشأها إنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط فى دفاعه ؟ أم هى قصة جمعت بين الطرفين ، فأثبتت ما قيل وأضافت اليه ما كان يجب أن يقال ؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك ، فهى على كل حال تصور روح سقراط فى الحديث تصويراً دقيقاً ، وتحلل نزعته تحليلا بارعاً ، فلا يسع القارىء وهو يقرأ هذا الحوار الذى دبجته براعة أفلاطون الا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه ؛ فشخصيته بارزة فى كل سطر من سطوره بروزاً لا يخطئه النظر ، فأنت ترى لمحات من التهكم اللاذع الذى امتاز به سقراط فى حديثه ، وأنت تلاحظ روح التحدى جلية واضحة ، والتحدى طابع معروف فى شخصية سقراط . وسترى كذلك فى هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاؤه بصلة من منطق قوى ، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً فى الصورة التى يقدمها عن سقراط ؛ فسقراط لم يكن فى حياته يعنى بمنطق الحديث . فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشذ به باستطراده من ناحية ، وبالأسئلة العرضية التى يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى ، فيخرج الكلام آخر الأمر ، وليس فيه وحدة تربط أوله بآخره

وقد تعمد أفلاطون فى هذا الحوار أن يسوق إلى القارىء أبرز ما حدث لسقراط فى حياته ليكوِّن عنه فكرة متصلة ، وقد كان أفلاطون فى ذلك قديراً ماهراً ، حتى لا يكاد يشعر القارىء أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة ، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث

يبدأ سقراط فى هذا الدفاع ، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً فقل يبدأ أفلاطون فى دفاعه عن سقراط ، بأن قسم المتهمين الى قسمين : الرأى العام من ناحية ، وطائفة من الأشخاص النابهين من جهة أخرى ؛ ثم نخص للقضاة نقط الاتهام ، وأخذ يفندها واحدة فواحدة . وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت . ولما طلب اليه أن يقترح حكما — كما جرت بذلك عادة القضاء الأثينى — لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكمين ، أجاب فى تهكم لاذع وحكمة نادرة . وانتهى الأمر وقضى عليه بالموت

***

نص الحوار

لست أدرى أيها الأثنيون كيف وقعت من نفوسكم خطب متهمىّ ، أما أنا فقد أحسست لكلماتهم الخلابة أثراً قوياً أنسيت معه نفسى ، وإنهم لم يقولوا من الحق شيئاً . ولشد ما دهشت إذ ساقوا فى غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا تخدعكم قوة فصاحتى . يا لخجلتهم مما يزعمون ! فاذا نبست بنت شفة نهضت لكم دليلاً على عىّ لسانى وافتضح أمرهم ، وانهم بذلك عالمون ، ولكنهم يمارون ولا يخجلون . أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق ؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ . . ألا ما أبعد الفرق بينى وبينهم ! فهم كما أنبأتكم لم ينطقوا كلمة صدق ولم يقولوا الا كذباً ، أما أنا فخذوا الحق منى صراحا ، ولن أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا ، ولكنى سأسوق الحديث اليكم عفو ساعته ، ولست أشك فى أنه الحق . فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب ما دمت حياً ، فلا يرجونّ الآن أحد منى خطاباً ، ولعلى أظفر منكم بهذا الفضل : إن جاءت فى فى دفاعى كلمات قلتها من قبل ، وسمعها بعضكم فى الطريق أو عند موائد الصيارفة أو فى أى مكان آخر ، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحديث ، لأننى أقف — وقد نيفت على السبعين عاماً — للمرة الأولى فى ساحة القانون ، فلم آلف هذا المكان ، ولم أتعود تقاليده وطرائقه ، فانظروا الىّ نظرَكم الى الغريب تلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه . وما أحسبنى بذلك أطلب شططاً ، فدعكم من عبارتى وقبحها ، وانظروا فى عدالة القضية وحدها ، واذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل ، واذا نطق متكلم فلينطق بالحق

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين[1] ، ثم أستطرد الى دعوى الفريق الثانى ؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير ، ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً ، وإنى لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته ، وإن كيدهم لعظيم ، ولكن أولئك الذين نهضوا اذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً ، فهم يحدثونكم عمن يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره فى السماء ، ثم يهوى به الى الغبراء ، وانه يخلع على الباطل رداء الحق . أولئك هم من أخشى من الأعداء ، فقد أذاعوا فى الناس هذا الحديث ، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة . كثيرون هم أولئك المدعون ، ودعواهم قديمة العهد ، نشروها حين كنتم فى سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً . ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عنى فى ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً . وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل[1] الذى ساقته الظروف . وإنه لمن العسير أن أتحدث الى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا الى نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد ، صدر فيها بعضهم عن عقيدة ، ثم ألقوا بذورها فى قلوب الآخرين ؛ فلا أستطيع أن أدعوهم الى هذا المكان لأستجيبهم ، فأنا ان دافعت الآن فانما أدافع أشباحاً ، وأستجيب حيث لا مجيب . وإنى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء صنفان : فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمته ، وأحسبكم ترون صواب رأيى فى أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة ، فدعواها أقدم عهداً وأكثر ترددا

وبعد ، فها كم دفاعى ، ولعلى أستطيع فى هذه البرهة القصيرة التى تفضلتم بها على أن أمحو شائعة السوء التى قرت عنى فى أذهانكم طوال هذا الزمن ، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان فى التوفيق خير لى ولكم ، ولعل كلماتى تصادف منكم قبولاً حسناً . فأنا عليم أنى مقدم على أمر عسير ، وانى لأقدر مهمتى حق قدرها ، فليقض الله بما يريد . وها أنذا أبدأ دفاعى طوعاً للقانون

واستهل الحديث بهذا السؤال : أى ذنب جنيت حتى حامت حولى الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء ؟ ماذا يقول عنى دعاة السوء ؟ ها كم خلاصة ما يدعون : « قد أساء سقراط صنعاً ، وهو طُلَعَةٌ يصعد البصر الى السماء وما تحوى ، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى ، وهو يلبس الباطل ثوب الحق ، ثم إنه يبث تعاليمه فى الناس » تلك هى جريرتى ، وقد شهدتم بأنفسكم فى ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير فى الهواء ، وأخذ يلغو فى موضوعات لا أزعم أنى أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً — لست أقصد بهذا أن أسىء الى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية — ولكن شد ما يسوؤنى

(١) يقصد بها الرأى العام

(١) يقصد به أرستوفان الذى مثل بسقراط فى روايته « السحاب » أشنع تمثيل

أن يتهمني بها مليتس . أيها الأثينيون ! الحق الصراح أنى لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولى كثير من الحضور ، فاليهم أحتكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثى وأنبئوا عنى جيرانكم ، هل تحدثت فى مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً ؟ أنصتو إلى جوابهم لتقطعوا بصدق مما يقررون

أما القول بأنى معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما فى سابقه ، على أننى أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً . فهؤلاء جورجياس الليونتى (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسى (Prodicus of Ceos) وهيباس الالبزى (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بنى وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا اليهم ، فلا يؤجرونهم وكنى ، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم . ولقد أتانى نبأ فيلسوف من بارا يقيم فى أثينا ، حدثنى عنه رجل صادفته ، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً ، هو كالياس بن هپونيكوس . ولما أنبأنى أن له ابنين سألته : لو كان ابناك يا كالياس حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً ، فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال فى حدود فضيلتهما ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدباً ؟ أثمت من يدرك فضيلة الانسان وسياسة البشر ؟ حدثنى فلابد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً . فأجاب : « نعم وجدت . فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؟ فأجاب هو أفينس البارى وأجره خمسة دراهم » فقلت فى نفسى : « أنعم بك يا أفينس إن كنت تملك هذه الحكمة حقاً ، وتعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لدىّ لزُهيت وأخذنى الغرور ، ولكني بحق أيها الأثينيون — لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً »

رب سائل منكم يقول : « وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إدّا ؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبئنا إذن بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نحكم فى غير صالحك » وإنى لأحسب هذا تحدياً رقيقاً ، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتنى الأحدوثة السيئة ، فأرجو أن تنصتوا لقولى ، ولو أن بعضكم سيظن بى الهزل ، ولكني أعترف أنني لن أقول الا الحق خالصاً . أيها الأثنيون ! إن لدى ضرباً معيناً من ضروب الحكمة ، كان مصدر ما شاع من أمرى ، فإن سألتمونى عن هذه الحكمة ما هى ؟ أجبت أنها فى مقدور البشر . والى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع أن أصفها لأننى لا أملكها ، ومن ظن أنها لدىّ فقد ظن باطلاً ، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتى . أيها الأثينيون ! أرجو ألا تقاطعونى ولو بالغت فى القول ، فلست قائل هذا الذى أرويه لكم ، ولكنى سأنيب عنى شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتى — فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك ، فما نوعها — وأعنى بذلك الشاهد إله دلفى . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) ، فهو صديقى منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم مذ ظاهركم على نفى من نفيتم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور فى كل ما يعمل ، فقد ذهب الى معبد دلفى وسأل الراعية فى جرأة لتنبئه — وأعود فأرجو ألا تقاطعونى — سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم مني ، فأجابت النبيَّة أن ليس بين الرجال مَن يفضلنى بحكمته . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو فى المحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروى

وفيم أسوق اليكم هذا الخبر ؟ ذلك لأننى أريد أن أتقصى لكم علة ما ذاع عنى من سوء الذكر . لما أتانى جواب الراعية ، قلت فى نفسى : ماذا يعنى الاله بهذا ؟ إنه لغز لم أفهم له معنى ! أنا عليم أن ليس لدى من الحكمة كثير ولا قليل ، فماذا عساه يقصد بقوله إننى أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو إله يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمعنت فى التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر الى طريقة أحقق بها القول . اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم منى ، فان صادفته ، أخذت سمتى نحو الاله لأرد عليه ما زعم ، فأقول له : « هاك رجلاً أكثر مني حكمة ، وقد زعمت أنى أحكم الناس » . لهذا قصدت الى رجل من الساسة — ولا حاجة بى الى ذكر اسمه — فقد عرف بحكمته ، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتية : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت فى نفسى عقيدة لا تمحى بأنه لم يكن حكيماً حقاً ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه فى حكمته ، وقد جاوز به الغرور شهادة

كتاب الأوراق

وخطره فى كتابة التاريخ

بقلم محمد طه الحاجرى

فى ذمة الأدباء من أهل هذه اللغة الكريمة للأدب العربى من ناحية ، وللروح العلمية السائدة من ناحية أخرى ، دين لامعدل لهم عن أدائه ، ولامترخص لهم فى الوفاء به ، اذ كان مرجع الأمر فيه شخصيتهم المعنوية التى يظهرون بها ؛ والى كيانهم الأدبى الذى لاحياة لهم من دونه ، والى شعورهم بالروح العلمية المتغلغلة فى كل عناصر الحياة ومظاهر الوجود . ثم هو متصل فوق هذا بالقومية التى نفاخر بها ونحرص على توثيق عراها وتقوية أسبابها . ذلك هو العناية بتاريخ هذا الأدب الذى تمده خمسة عشر قرناً عناية تظهر ، فيما أحسب ، فى كتابة هـذا التاريخ ، وإقامته على أسس قوية من أساليب البحث العلمى ، ومناهج النقد الأدبى ، والتبسط فى ذلك بما يطوعه الجهد الواسع ، والنفس الممتد ، والعزمة القوية ، والروح العلميـة المتبصرة ، والرغبة المتوثبة فى إقامة كياننا المصرى على أقوى ما تفاخر به الشعوب وتعتمد عليه الأمم ، فما أحسب أن أدب أمة من الأمم بلغ من سعة المادة ، وامتداد العمر ، ومجاراة الحياة ، ومساوقة الزمن مابلغه الأدب العربى ، ثم لا أحسب أن أدب أمة من الأمم مني بما مني به هذا الأدب من إغفال أهله أن يقيموه على أسس هذا العصر .

فتاريخ الأدب عندنا علم حديث النشأة ، غض التكوين ، لايكاد يرجع ميلاده الى ماوراء الجامعة الأولى ، ولايكاد يثبت فى طريقه لما يحتوشه من أسباب الضعف ، ومايعوزه من عناصر الحياة ، ومايحيط به من شتى العوامل التى تثبطه وتصده وتحمل عليه بما لايحتمله الجلد القوى بله الضعيف الواهن ، وإنما هى القوة الذاتية التى تمسكه ، فمن أقدس الواجبات علينا لقاءه أن نمكن له فى الحياة ، وأن نوفر له العناصر التى يقوم بها كيانه الصحيح ، وهى تتلخص فى أمرين لا بد منهما : تقرير الأسلوب العلمى ، واستجماع المادة التى يتكون منها تاريخ الأدب العربى .

أما أول الأمرين فقد كفانا مؤونته الأساتذة الأجلاء الذين شقوا لنا ذلك الطريق ، ووضعوا أمامنا معالم البحث العلمى ، وبصرونا بمناهج النقد والتمحيص والموازنة وما الى ذلك .

أما المادة التاريخية فهى العنصر الأول فى كتابة التاريخ ، وكلما توفرت لدى الباحث ، واتسعت نواحيها ، وتنوعت أبوابها ، وتعددت مذاهبها ، وكثرت الأيدى التى تقدمها ، وأخذت تضرب فى شتى جهات الحياة ، وتتناول الأطراف المختلفة ، كان المؤرخ أكثر توفراً على بحثه ، واستضاء أمامه العصر الذى يؤرخه ، فأخذ يصفه وصفاً أشبه باليقين ، ويقرر التيارات الأدبية فيه تقريراً أقرب الى الحقيقة ، بعد أن يكون قد نظر فى أجزاء هذه المادة نظر الناقد البصير ، فجعل يوازن بينها ، ويقارن بين مختلف أجزائها ، وليكن هناك مايكون من التناقض فى الروايات ، والتضارب بين الأقوال فذلك ، فيما أحسب ، أدعى الى استبطان الحقيقة المستكنة فى ثنايا هذه الاختلافات ، وأقرب بالباحث الى ثلج الصدر وبرد اليقين .

والأدب العربى يملك من هذه الناحية ثروة طائلة بالرغم من عوادى الزمن ، والنكبات التى أصابت المكتبة العربيـــة فى مناسبات مختلفة ، ولـكنها ثروة ضائعة لا تجد من يستغلها إلا قليلاً ، إذ لم يقدر لها من ينشرها من قبورها ، ويبعث فيها الحياة التى تعرفها ، حتى يستطاع استغلالها ، وإنما هى جهود ضئيلة بالنسبة الى عظم العمل ، وجلال التبعة .

بقية

الشاهدين ، فحاولت أن أقنعه بأنه وإن يكن قد ظن فى نفسه الحكمة ، إلا أنه لم يكن بالحكيم الحق ، فأدى به ذلك الى الغضب مني ، وشاطره فى غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث ، فغادرته قائلاً فى نفسى : إنى وإن كنت أسلم أن كلينا لا يدرى شيئاً عن الخير والجمال . فانني أفضـل منه حالاً ، لأنه يدعى العلم وهو لا يعلم شيئاً . وأما أنا فلا أدرى ولا أزعم أننى أدرى — ولعلى بهذا أفضله قليلاً . ثم قصدت الى آخر ، وكان أعرض من سابقه دعوى فى الفلسفة ، فانتهيت معه الى النتيجة نفسها ، وعادانى هو الآخر ، وأيده فى موقفه عدد كبير

زكى نجيب محمود

ولقد تقدمنا الفرنجة فى هذا السبيل حتى أخجلونا وأبهظوا عاتقنا بفضلهم ، وضربوا لنا خير الأمثال بما نشروا من كتب ، وما قاموا به عليها من عناية بتصحيحها وفهرستها ومقارنتها ، فى تواضع العالم المخلص ، وهدوء الباحث المستبصر. فدلوا بهذا على روح علمية ثابتة الآساس ، ومعرفة حكيمة بطرائق البحث الصحيح .

لست الآن بصدد البحث عن جهود المستشرقين العظيمة المتوالية فى سبيل الأدب العربى ، وإنما سبيلى الآن أن أتحدث عن كتاب من خيرة الكتب التى كادت تتلاشى فى غمار القرون وثنايا النسيان وعوادى الاهمال ، فنشره مستشرق ناشىء ، هو المستر هيورث دن ، وخلع عليه هذا المظهر الذى تتجلى عليه الروح العلمية فى بهائها ورونقها وجلالها . ذلك هو كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ .

والصولى إمام من خير أئمة الأدب ، وكاتب من أفضل الكتاب الذين تزدهر بهم تلك الفترة من الزمن ، وعالم ضليع غزير المادة جيد الرواية ، روى عنه أبو الفرج كثيراً فى أغانيه ، وأستاذ جليل تخرج عليه كثير من رجالات ذلك العصر مثل أبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى ، وهمك من رجل ، وناهيك من عالم . وقد ترك ثروة كبيرة من الكتب الجليلة فى قيمتها الأدبية والتاريخية ، نقرأ بياناتها فى كتب الفهارس ، ثم ننطوى على أنفسنا حسرة وأسفاً على ذلك الكنز الذى طاحت به الطوائح . ولا أحسب أنه قد بقى لنا منه إلا هذا الكتاب الذى عنى به المستر دن هذه العناية ، وكتاب آخر فى أدب الكتاب نشره منذ عشر سنوات العلامة الأثرى المرحوم على بهجت . وكان كتاب الأوراق فى حكم تلك الكتب التى لانعلم شيئاً عن مصيرها ، لولا تلك الروح العلمية المتوثبة التى حفزت ذلك الشاب العالم على اخراجه للناس فى ثوب علمى جليل ، ومعاناة تحقيقه وتمحيصه ومقارنة رواياته ، فأضاف بذلك الى المادة التاريخية لعصر بنى العباس ماهو جدير أن يضىء الطريق أمام الباحث المؤرخ فى كثير من مجاهل هذا العصر ومسائله الملتوية الغامضة .

وقد نجد فى ترجمة الصولى كلاماً مختلف الأطراف بين مدح وقدح ، وتقدير وتشهير ، ولكننا لانشك ، إذ نقرأ كتابه « الأوراق » أنه كان رجلاً عالماً يمثل الروح العلمية خير تمثيل ، ويضعها فوق كل اعتبار ، متثبتاً على طريقة عصره فى النقد والرواية ، لايميل مع الهوى ، ولايذهب مع الخواطر ، ولايقف دون النقد والمقارنة والتمحيص .

عرض فى أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف الى رواية تحدث ابن طيفور عنه بها ، وخلط فيها ، فلم يدعها الصولى تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية ، ثم كتب هذه العبارة التى نثبتها هنا لتدل على تثبته العلمى من ناحية ، وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية فى ذلك العصر ، من ناحية أخرى .

« وقد رأيته (يعنى ابن طيفور) بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقدمها إلى أحمد بن على المادرائى ، وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة ، فلما رأيته صحفياً لم أرعنده ما أريد تركته ، ويعز على أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه ، ولكن لابد من أن نعطى العلم حقه ، ونضع الحق موضعه »

أفرأيت إلى أى حد من الاجلال والتقدير كان نظر الرجل إلى العلم والحقيقة والأدب ؟

يمثل لنا هذا الخبر الصغير الذى ينبغى أن يرجع اليه القارىء فى الكتاب صفتين من أبرز صفات الصولى وكثير من علماء ذلك العصر : وهما سعة المادة ، والتثبت فى الرواية . وعلى هاتين الصفتين قامت عظمة السلف ، وعليهما يجب أن تكون الدعائم التى نقيم عليها أبحاثنا العلمية فى تاريخ الأدب ، فلن تغنينا كل أساليب البحث ومناهج النقد ، عن سعة المادة وتوفر المصادر ، والتقصى فيها بكل ما يتسع له الجهد ويطوعه الامكان .

فاذا كنا نحتفى بكتاب الأوراق ، فانما ذلك لأنه صورة لتلك الشخصية العظيمة فى تاريخ الأدب العربى ، ومثال من خير الأمثلة عن الطريقة الأدبية لأسلافنا فى معاناة الرواية ونقدها وتمحيصها . والتوفر على الجمع والمقارنة ، ثم هو فوق هذ كله ، زيادة فى المادة التاريخية ، وتوطيد لأسس البحث العلمى ، بالنسبة إلى عصر من أشد عصور الأدب العربى اختلاطاً واضطراباً ، وأغمضها بالتيارات المختلفة ، والنزعات المتباينة المتشابكة .

وهذا القسم الذى نشر من كتاب الأوراق خاص بأخبار الشعراء المعاصرين ، وقد سلك الصولى فى تصنيفهم مسلكاً حسناً جديراً بالتنويه ، ذلك أنه راعى فى ذلك أسرهم : فذكر أولاً

أسرة اللاحقيين ، ثم أسرة احمد بن يوسف وزير المأمون ، ثم أسرة السلمى أشجع بن عمرو . وهذا نحو جديد فى التصنيف الأدبى جدير بأن يغتبط به الذين يتتبعون الصفات الوراثية المشتركة ، والذين يرون فى الأدب صوراً لقوانين الوراثة المقررة .

وإذا كانت هذه طريقته فى عرض الشعراء ، لم يتقيد بذكر المشهورين منهم ، ولا حبس نفسه عليهم ، وقد صرح هو نفسه بهذا الاتجاه فى آخر كتابه فقال : « قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس ، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم . . . وانما أستقصى أشعار من لا يعرفون وأخبارهم » وكذلك كان الصولى ، فقد انطلق فى ذكر هؤلاء الشعراء المغمورين ، وسرد أخبارهم ورواية أقوالهم وأشعارهم ، مما هو جدير بالرواية ، حقيق أن ننعم فيه النظر ، ونستخلص منه كثيراً من الحقائق التاريخية التى قد لا تتضح فى مشاهير الشعراء ، فقد تقيد الشهرة صاحبها بكثير من القيود التقليدية ، وتنشر حوله غشاء مصنوعاً ، حتى يصبح من العصر الذى يعيش فيه ، صورة كثيرة التزوير والتمويه . على حين ينطلق الشاعر المغمور فى سبيله يصور من نفسه وعصره وبيئته ماوسعته الحرية فى التعبير ، والقدرة على التصوير .

ولعل كبار الشعراء هم صور من عبقرياتهم ، أكثر من أن يكونوا صوراً لعصورهم وبيئاتهم ، وما تموج به من شتى النزعات ومختلف الصور والتيارات .

فكتاب الأوراق يضع بين أيدينا إذن مصدراً عظيم الخطر من مصادر التاريخ ، ويبصرنا بكثير من الحالات التى سيطرت على الأدب فى ذلك العصر ، بما يكتبه عن أولئك الذين انطبعوا بحياتهم ، وصوروها تصويراً حراً طليقاً من قيود الشهرة .

ومن قبل عنى المفضل الضبى بجمع شعر الشعراء المقلين نخدم بذلك الاتجاه التاريخى الذى نتوجهه أجل خدمة ، إذ كانت المفضليات أصدق صورة للعصر الجاهلى .

هذه ميزة شديدة الوضوح من ميزات كتاب الأوراق ، لها خطرها فيما نقصد اليه من الدراسة الأدبية . ولست أتعرض الآن لشرح هذا الوجه من الخطورة ، ولعله يتاح لنا فيما بعد أن ندرسه دراسة مفصلة تتسع لما لا تتسع له هذه الكلمة العاجلة .

ومما يستطرف ويلفت النظر فى هذا الكتاب ، أنه يطهرنا على أولية ذلك النوع من الشعر الذى يسميه الفرنسيون الشعر التعليمى La poésie didactique فى الأدب العربى ، فنحن نرى أنه قد بدأ بأبان بن عبد الحميد اللاحق ، فقد صنع قصيدة سرد فيها أحكام الصيام على نحو ما نعرفه فى منظومات العلوم. والظاهر أن أبان كان مضطلعا بهذا النوع من الشعر ، فقد نظم كذلك كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب المنطق ، وكان ذلك فنا طريفاً . وقد ذكر الصولى أنه عاتب البرامكة على قلة عطائهم مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فأشار عليه الفضل أن يقول شعره فى هجاء الطالبيين ، فتذمم أبان ، ثم قال قصيدة استطرفها الفضل ، وهى لا شك طريفة . فقد سلك فيها مسلكا عجباً فى الشعر ، إذ أخذ يجادل الطالبيين فى دعواهم جدلا فقهيا بحثا مستندا الى أحكام الوراثة فى الأسلام وما يقرره الشرع فى حالات الحجب والهبة وما إلى ذلك . ولما جاء بهذه الأبيات إلى الفضل قال له : ما يرد اليوم على أمير المؤمنين شىء أعجب اليه من أبياتك .

هذا تاريخ نوع من الشعر كثير الشيوع فى اللغة العربية ، على أن لهذا فيما أحسب ، بعض الدلالات الأخرى على بعض العوامل فى ذلك العصر .

وعقد الصولى فصلا عما روى فى صحة دين أبان ، وعندى أن هذه النصوص التى تروى فى هذا الصدد عظيمة الخطورة فى تحقيق المسألة الدينية فى عصر العباسيين : ذلك الأمر الذى اضطربت فيه الأقوال واشتبهت فيه الظنون ، واختلفت فيه منازع الرأى . ولا نزال فى حاجة إلى التحقيق العلمى القائم على النقول الصحيحة والنقد المنزه البصير .

وبعد فما نستقصى فى بيان قيمة كتاب الأوراق من ناحية التاريخ الأدبى ، وحسبنا أن يكون هذا الكتاب زيادة فى المادة التى ترتكز عليها أبحاثنا ، وأن يكون واضعه أبو بكر الصولى ، وهو من عرفنا ، وأن ينشر نشرا علمياً خالصاً لوجه العلم والأدب . حتى نحتفى به ، ونرحب بظهوره .

محمد طه الحاجرى

الشـــباب فى أمريكا

حركته وتربيته وحياته السياسية

ومقارنته بالشباب فى أوروبا

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

لا نستطيع أن نفهم النزعة الجديدة التى تملكت أفئدة أبناء الجيل الحديث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا اذا فهمنا قبل كل شىء الفوارق الرئيسية بين الحركة العامة للشباب فى أوروبا ومثيلتها فى أمريكا . وأول ما يلفت النظر عدم اهتمام الشباب الأمريكى اهتماماً جدياً بالروحانيات والاجتماعيات ، بينما نجد زملاءهم فى أوروبا على عكس ذلك . كذلك هم لا يعرفون التكالب على الدرس بنفس النهم الذى نجده عند الشباب الأوروبيين . والواقع أن أمريكا برغم مالها من تنوع فى الآداب لا تعرف حتى الساعة ما يسمى « بثورة الشباب » كتلك التى عرفناها لشباب الألمان مثلاً لنهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين . وقد تكون التقاليد الاجتماعية التى توارثها الشباب الأمريكى عن سلفه والتى يرعاها كل الرعاية سبباً ، إذا ما أضيف إليها مركز الشباب الاقتصادى ، يحول بينه وبين تحمل عبء مسئوليات جسام . وركن الشباب إلى تلك التقاليد وراح يحافظ عليها فتجلت فى حياته السياسية ، ثم سرعان ما انتقلت العدوى بعد ذلك إلى كل ميدان من ميادين حياة الشباب . ورسخت هذه التقاليد فى النفوس بدلاً من أن يتم التعاون على مقاومتها لتتلاشى . فمثلاً بينما كان الشباب الألمانى منذ ثلاثين سنة يثور على سلطة العائلة وسلطة المدرسة ولا يأبه بسلطان الدولة ولا بسلطان الكنيسة ، كان الشباب الأمريكى ينزع فى نفس الوقت إلى انتهاج ما ثار عليه زميله الأوروبى ، وكان مما لابد منه أن تنبذ أمريكا آراء أوروبا وطرقها فى تربية النشء وتبحث لها عن أسس جديدة ، فاهتدت إلى جعل الدراسة العلمية فى المرتبة الثانية من منهج التعليم . وما هى إلا سنوات حتى استوثق رجال التربية والتعليم فى أمريكا من أن النظريات والعمليات التى سار عليها زملاؤهم فى أوروبا لم تعد صالحة للعالم الجديد ، فاستعاضوا عن « القوانين العامة » فى علم النفس بفكرة رعاية الشباب وتهذيبه عملياً . وهم يتبعون فى ذلك رأى زعيم التربية الحديثة فى أمريكا المستر جون ديوى الذى تعتبر آراؤه إنجيلاً للمربين الأمريكيين . وخلاصة آرائه : أن العلم والمعرفة يجب أن ينتزعا من الحياة ، وأن لا علم إلا إذا جاء عن طريق ممارسة العمل ومزاولة الأمور العملية . وهذه الأسس هى التى يعبر عنها « بطريق الشروع » القائمة فى علم النفس على « المحاولة والخطأ » . وقد يهزأ الأوروبيون بهذه النظريات العملية ، وهذا النوع من التربية . ولكنهم ينسون أن تربية النشء وفق هذه الأصول تكوّن عندهم قوة الارادة وصحة الحكم على الأشياء . ومن أهم المبادئ المعمول بها فى أمريكا لتربية النشء اعتبار الشباب وفرديته فى مرتبة لا تقل عن مقام المعلم وعلمه . وكثيراً ما ينعى علماء التربية الأمريكيون على زملائهم فى أوروبا التسرع فى الحكم بأن الطفل له شخصية أقل خطراً من شخصية الرجل المكتمل الرجولة . ولكن علماء التربية الأوروبيين يقولون هم الآخرون بأن الآراء الأمريكية تحوى جرثومة تهدد نظام التربية والتعليم من أساسه ، كما أن تلك الآراء تعمل على إضعاف مركز المربى فى نظر النشء وإضعاف الثقة به . ولكن الأمريكيين يقولون إن المسألة عكس ذلك تماماً . ثم إذا نظرنا إلى المدارس الأمريكية على اختلاف أنواعها ، ولاحظنا تباين الأعمار فى الفصول ، حكمنا بأن النظام كما يفهمه الأوروبيون ليس له أثر ملموس فى هذه المدارس . وكثيراً ما قال المربون الأوروبيون عند أول مشاهداتهم للشباب الأمريكى : « يالها من فوضى ! » إذ يجدون الطلبة هنالك يتوجهون بكلياتهم إلى شخص الأستاذ ، أما اهتمامهم بدرسه فأمر ثانوى لديهم . ولهذا نجد بين الأساتذة والطلبة علاقة ألفة قد تبدو أشبه بالصداقة التى يضيع معها كل نظام ، ولعل السر الذى يفسر لنا تلك الألفة هو أن ٩٠٪ من مجموع المعلمين فى المدارس الأولية والابتدائية والثانوية فى كافة البلاد الأمريكية نساء . ولا يعوق المعلمة عملها لو أن لها زوجاً وكانت فى مقتبل العمر . ثم هنالك ظاهرة غريبة أخرى قد لا نجد لها مثيلاً فى أى بلد أوروبى ، تلك هى اعتبار المدرسة والكلية مزرعة يتعهد فيها المدرسون بتربية الألفة والصداقة بين كل أفراد الشباب ، ولا زالت الكليات الأمريكية برغم ما وجه إليها من نقد محافظة كل المحافظة على حياة الأخوة بين الطلاب ، مانعة كل المنع تسرب دخلاء إلى

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]

من شعر الشباب

رسالة

وردتْ وُرُودَ النافحاتِ رسالةٌ … هاجت كمين صبابتى وغرامى
رفَّافة الصفحات يعبق نشرها … من طِيبِ عهدٍ غابر الأيامِ
مِن سالفِ اللذات لى فى معهد … سلفتْ به اللذات كالأحلام
فى معهد حفلٍ بأوطار الصِّبا … فيه حمدتُ على البِعادِ مُقامى
نَشَرَتْهُ للعين الصحيفةُ وانجلى … فى الطرس حُسْنُ صعيده المترامى
واشتَفتُ من بين السطور نسيمهَ … ورأيتُ باسقَ سَرْحِهِ المتسامى
وَتَمَثَّلَتْ لى سا كنات غصونه … غِبَّ السماء نَوَادىَ الا كامِ
وذ كرتُ فيه كل ماضى بُكرة … طَلَعَتْ تَأَلَّقُ فى الضياء الطامى
طالعتُ فيها الشمس تسكب ضوءها … تِبْرًا على الأمجـاد والأعلامِ
وعشيةٍ خَشَعَتْ كأنَّ نسيمها … مُتَوَجِّسٌ من عودة الإظلامِ
راقبتُ فيها الليل مِن مُسْتَشْرَفٍ … يطغَى على الأغوار والآطامِ
إنى لأهوَى فيه كلَّ طريفةٍ … حاولتُها وَهَمَامَةٍ ومرامِ
وأُحب أيَّاماً به ولياليـاً … موصولةَ الالطاف بالأنعامِ
وأحب أشعاراً نظمتُ عقودها … فى ذلك الوادى النضير النامى
ما زلتُ أذكُرُ كلما رَجَّعْتُها … أُفقًا جَرى مِن سحره إلهامى
من مائِه الرَّقْرَاق أو أزهاره … قد صُغْتُها أو فَجْرِهِ البسَّامِ
قد كان حَفْلاً بالقوافى جَوُّه … فى حالَتَيْهِ : الصَّحْوِ والإرْزَامِ
ما ازْدَادَ إلاَّ فِتْنَةً وملاحَةً … لشُرُوق شمسٍ أو هَتُون غمام
يهفو لذكراه الفؤاد إذا جَرَتْ … وتثور أشـواقى له وهيامى
ويجيئه منى السَّلامُ وإن أنَلْ … أقصى الامانى جئْتُه وسلامى

فخرى أبو السعود

حظيرة الشباب ، وحتى فى المدارس الابتدائية يتدرب الأطفال على معيشة أخوية كاملة المظهر ، لايعنى فيها باتباع طريقة شحن الذهن بالعلوم

والواقع أن المثل الأعلى وطابع التربية عنـد الأمريكيين هو جعل التعليم المثالى عملياً ووطنياً

ابراهيم ابراهيم يوسف

تاجرة !

دعتـه الى العش عصفورة … بتغريدها المطلق الساحر
شكت قبـله وحشة الانفراد … على ذلك الفَنَنِ الزاهر
وطول المقام بلا صاحب … تنوء الى جنحه القـادر
يشاطرها واجبات الحياة … ويحمل من عبئها الواقر
ويمنحها عائدات الوداد … وتمنحه جذوة الشـاعر
تفيض حناناً الى قربه … ويسعد فى حبها القاسر

* **

قضى زمناً شادياً لاهياً … بأحلامه هادىء الخـاطر
يروح الى الأيك جم النشاط … فينعم فى ظـله الناضر
وينهل من مائه المستطاب … ويستاف من عرفه العاطر

* * *

دعاه الصـبا ولباناته … فلبى نداء الصبا الغامر
وفارق أحلامه الساحرات … الى صرحها الوارف العامر
الى حيث يقطف آماله … ثماراً ويجنى جَنَى الصابر
إلى حيث يملأ ما قد خلا … من القلب فى الزمن الغابر

* * *

فلمـا أتاها رآى أنهـا … تهيب بذى الثروة الكاثر
وقد جعلت نفسها سلعةً … كسلعة صاحبنا التـاجر
فهذا يسوم وذاك يزيد … وذا يتقى صفقة الخاسر
فعـاد الى أيكه نادبا … بذلك من جدهِ العاثر
إذا ما الزواج غدا سلعة … فأنت على تركه عاذرى

جنين — فلسطين

ع ١٠

عرسٌ فى مأتم

واعَجَبًا للمرء فى جَهْلِهِ … وهو أخو اللُّبِّ شقيقُ النُّهى
يُمْعِنُ فى غَفْلَتِهِ حالمًا … وَيَحْسبُ الضِلَّةَ كلَّ الهدى
يَطْوِى شقاءَ العمرِ فى سَكْرةٍ … نشوانَ يُغريه رَفيفُ الرُّؤى
وهمانُ كلَّ العمرِ ما إن يعى … سرَّ الدُّنى . يا بؤسَه لو وعى !
يا سِرَّه ! أيةُ أُلعوبَةٍ … هَيِّنَةٍ فى كفِّ هـذى الدُّنى

وسرَّ هذا الكونِ من شاعرٍ   مُستَعْجَم اللفظِ غريبِ اللُّغى

***

شَيَّعْتُ بالأمسِ زفاتِ الصبا   فى لَوْعَةِ الشُّكْلِ ومُرِّ الجوى
يَقولُ لى صَحْبِىَ فى فَرْحَةٍ   هَوِّنْ على نفسِك بعضَ الأسى

***

للهِ قَلْبُ المرءِ مِنْ غامِضٍ   يُحَيِّرُ اللُّبَّ ويُعْيِي الحِجى
يَبْكى لِما يُضحِكُ حيناً وقَدْ   يُضحِكُه ما يَسْتَفِزُّ البُكا
تراه كالدَّمْعِ همىٰ رِقَّةً   طَوْراً وطَوْراً كحَرونِ الصَّفا

***

هذا الشبابُ الجَهْمُ ما عِنْدَهُ ؟   أنَمَّ مِنْ بارِقَةٍ تُرْتَجى
صَحْراؤهُ مُرْمِضَةٌ رَحْبَةٌ   وَكُلُّ شَيْءٍ موحِشٌ فى الفلا
لا بُلْبُلٌ يُطْرِبُ إمّا شدا   ولا رُبى يَعْبَقُ فيها الشَّذى
أَقطَعُ وَحْدى عَرْضَها راكِباً   صَهْوَةَ آمالى ، أسيرَ القضا
أضْرِبُ فى آفاقِها حائِراً   أجْرى وما لِلْجَرْىِ مِن مُنْتَهى
أَخُبُّ لا مُؤنِسَ فى وَحْدَتى   تِلكَ ولا مِن سامرٍ فى الدُّجى
ظمآن ! إنْ آلٌ بدا مرَّةً   بَذَلْتُ خلفَ الآلِ كلَّ القُوى
يَحفُّ بى مِنْ أنسُرٍ مَوْكِبٌ   يَرْقُبُ أنْ يأتى علىَّ الرَّدى
تُرى أأنجو سالماً ؟ أم تُرى   أهْوى صَريعاً جاهِداً للثرى

***

وفِتْيَةٍ هَمُّهُمُ مَلْعَبٌ   وَكُلُّهم كالزَّهرِ غضُّ الصِّبا
ضَمَّتْهُمُ للعِلْمِ فَيْنانَةٌ   كما يَضُمُّ الدَّوْحُ سِرْبَ القَطا
مِثْلِ الظبا فى مَرَحٍ دائمٍ   يَحْيونَ فى أحلامِهِم والمُنى
يا فَرْحَةَ الأطفالِ ! لَوْ أنَّها   تدوم للانسانِ طُولَ المَدى
يأتى عليها الدهرُ مُسْتأسِداً   يُشْهِرُ غضبانَ نُيوبَ الأذى

***

يا رَحْمَةَ اللهِ لعهدِ الصِّبا   من حُلُمٍ ما رفَّ حتى اختفى

***

تَقولُ لى النَّفْسُ وقَدْ هالَها   أنْ تَجِدَ العَهْدَ الحَبيبَ انطوى
أهكذا الأيَّامُ مجنونَةٌ   مُسْرِعَةٌ فى سَيْرِها والسُّرى ؟

دمشق   أمجد الطرابلسى

غيرة . . .

ذهبتُ كى أوقظه   من غفوة لم تنجل
فكان فى ضجعتــه   طفلاً من الهمِّ خلى
عليه من شرخ الصبا   أبهى الثياب والحلى
بل كان مثل مَلَكٍ   سمح تدانى من عل
وقد وجدتُ وجهــه   فى النومِ فى تهلل
ما باله منشرحاً   كأنه فى غزل ؟
بِمَن تَراه يحتفى   فى نومه وينجلى ؟
عنــدئذ ألفيتنى   غَيْرانَ قلبى يصطلى
فــلم أدعه ناعمــاً   فى نومه المسترسل
بل هبَّ مذعوراً على   عواصف من قُبَلى

كرمة ابن هانى   حسين شوقى

لونجفلو

الشاعر الأميركي الملهم

بقلم مأمون اياسي

لاشك أن « هنرى وودسورثو لونجفلو » الشاعر الأميركى النابه غنى عن التعريف الى قراء الانجليزية ، وأن قصته الشعرية « ايفانجلين » تعد فى طليعة الآثار الأدبية الخالدة التى خلفها ، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر العبقرى رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالميين الذين يقدسهم الشعب الأميركى

***

ولد « لونجفلو » فى ٢٧ فبراير فى سنة ١٨٠٧ فى مدينة « پورتلاند » فى ولاية « مَين » وقضى طفولته وصباه فى بيت واقع فى شارع « الكونجرس » ما زال الى الآن محفوظاً على حاله الأولى عند ما كان يعيش فيه الشاعر العظيم . ويحج الى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون الى « پورتلاند » فى كل صيف ، ويدخلون اليه للتفرج على كل غرفة من غرفه ، وعلى مطبخه الذى ما زالت الأوانى الثقيلة مبعثرة على مواقده منذ مائة عام ونيف . ثم يصعدون الى غرفة فى الدور الثالث ليروا السرير الخشبى الذى كان ينام عليه « لونجفلو » ويطلوا من النافذة التى كان يرى منها المنارة الموصوفين فى إحدى قصائده

وكانت « پورتلاند » مدينة موافقة لفتى له روح « لونجفلو » الحساسة الرقيقة ، إذ كانت شوارعها الطويلة المظللة بالأشجار الوارفة ، وأحراجها المكتظة ، وشاطئها الشعرى الهادىء ميداناً خصباً لخياله الواسع

كان « لونجفلو » فى السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وناول والده شهادة — لم تزل محفوظة للآن — كتبت فيها معلمته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قويمة . وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والهنود الحمر . وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر ، فاستجمع شجاعته ورماها فى صندوق إحدى الجرائد ، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافقه على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات . فما كان من الشاعر الصغير ، وقد جرحت كبرياؤه ، إلا أن أرسل القصيدة الى جريدة منافسة فنشرتها . وقد قال بعد سنين عديدة بأن الشعور الذى استولى عليه عندما رأى أول شعر له مطبوعاً لم يعاوده بعد ذلك لدى نشر أى شعر آخر

وكانت حياته المدرسية بعد ذلك نجاحا مضطرداً وتفوقاً يثير الاعجاب . وعند ما أتم علومه فى جامعة « بودوان » راح يلتمس من والده إرساله لقضاء سنة فى جامعة « هارڤارد » واعترف له عما يجول بخاطره من آمال قائلاً : « الحقيقة يا والدى هى أننى أطمع فى مستقبل أدبى حافل . إن نفسى لتتحرق شوقاً الى ذلك » ولكن والده نصحه بأن يفكر فى صنعة تكفل له عيشه غير صنعة الأدب . وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته ، فدخل كلية الحقوق . ولكن أحد المفتشين سمعه مرة يلقى ترجمة لمقطوعة من أصعب أشعار « هوراس » فأعجب به ، وعندما كانت الادارة تفكر فى إدخال فرع جديد للغات الحديثة فى برنامج الجامعة وقع اختيار ولاة الأمر على « لونجفلو » ليكون أستاذاً لذلك الفرع ، ولما يتخط عامه التاسع عشر ، ولكنهم اشترطوا عليه أن يمضى ثلاث سنوات فى أوربا فيدرس لغاتها ثم يعود . ووافق والده على تزويده بالمال الكافى للقيام برحلته ، وأبحر الأستاذ الشاب الى أوربا بقلب مفعم حياة وأملاً ، فقضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا واسبانيا وانجلترا ، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم ، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس ، ويتقاضى تسعمائة دولار كل شهر (وهذا المبلغ كان يعد ثروة فى ذلك الحين)

لم يكن تدريسه فى جامعة « بودوان » وإدارة مكتبتها ليعوق « لونجفلو » عن الكتابة شعراً ونثراً ، فواصل جهوده فى النظم والتأليف ، ولكن كتاباته اقتصرت الى حد ما على الموضوعات التى كان يدرسها

وثبت اسم الشاعر فى عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة « هارڤارد » طلبت اليه أن يتولى رياسة فرعها للغات الحديثة عند ما استقال أستاذها . فقرر « لونجفلو » القيام برحلة ثانية الى أوربا استزادة فى درس اللغات والآداب . وعندما كان فى هولندة

وصله نعى امرأته فواصل أبحاثه ودروسه بقلب مثقل بالهم والحزن

وهنالك نادرة تحكى عنه عند ما عاد من أوروبا ليتولى عمله فى «هارڤارد» ، وكان فى الثلاثين من عمره ، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك ، فذهب الى « بنسيون » ليستأجر غرفة فيه ، فنظرت اليه صاحبة « البنسيون » من رأسه الى قدمه وقالت له : « أنا لا أقبل تلامذة عندى» ولكنه قال لها « لست تلميذاً » . أنا الأستاذ «لونجفلو» . فما كان من السيدة إلا أن زلت له وهى تفتح الباب على مصراعيه : « إذا كنت مؤلف « وراء البحار » فتفضل على الرحب والسعة » — « ووراء البحار » هو الكتاب الذى وضعه أثر رحلته الأولى الى أوروبا ، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار فى بلدانها — وقادته السيدة الى غرفة فى الزاوية الشرقية فى منزلها قائلة « كانت هذه غرفة الجنرال وشنجطن ويمكنك أن تنزل فيها . » وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال السبع عشرة سنة التى قضاها فى « هارڤارد »

وفى سنة ١٨٤٢ قام برحلته الثالثة الى القارة الأوربية . وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثمانى عشرة سنة فى هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التى كان ينظمها تترى

***

دُعى الكاتب الأمريكى المعروف « ناثانيال هوثورن » مرة الى الغداء على مائدة « لونجفلو » مع صديق للأول . ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين «نوڤاسكوتيا» — وهى شبه جزيرة ملحقة بكندا — والولايات الأمريكية الشرقية . فقال صديق «هوثورن» مخاطباً «لونجفلو» « أنا أجرب أن أقنع « هوثورن » بكتابة قصة عن الحادثة ، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة »

فسأله « لونجفلو » أن يسرد على مسامعه تلك الحادثة علّه يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة

ولخص له الصديق الحادث بقوله : « كانت مقاطعة « نوڤاسكوتيا » التى كان يسميها الفرنسيون « أكادى » تنتقل من أيدى الفرنسيين الى الانجليز ثم يسترجعها الفرنسيون ، وهكذا الى سنة ١٧١٣ ، إذ انتقلت الى الانجليز بموجب معاهدة « أوترخت » ، وهى باقية تحت سلطتهم الى يومنا هذا . وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسى . فنشأت عداوة بين العنصرين الانجليزى والفرنسى ، أدّت الى منازعات ومناوشات دائمة .

وتفاقمت الحال فى شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهدئتها ، فاستنبطت حيلة لم تجد أنفع منها فى تلك الأحوال ، وهى نقل «الأكاديين» الى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حيث لا يتيسر لهم الأجتماع بالسكان الانجليز . وكانت الطريقة التى نقل بواسطتها أولئك المساكين غاية فى الغلظة والفظاظة . طلب الحاكم الى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا فى الكنيسة ، لأنه سيذيع عليهم أوامر هامة من السلطة . واجتمع الرجال والفتيان ، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة ، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرتهم الجنود من الخارج ، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملأه حنواً ورأفة . وفى مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطىء ، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة ، وأضاع أفرادها بعضهم بعضاً

وكان بين الذين نقلوا الى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما فى ذلك الصباح فقط . فأضاع أحدهما الآخر ، وبقيت « ايڤانجلين » تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار ، وتنام الليالى على الطوى كل حياتها باحثة عن « جابريال » الى أن انخرطت فى سلك الممرضات ، بعد أن قطعت الأمل من وجوده ، وإذا بها يوماً تلتقى به بين المرضى ، فعرفته برغم التغير العظيم الذى طرأ عليه . وكانت صدمة عنيفة أودت بحياته لضعفه ، وأودت بحياتها هى لسرورها وحزنها المتعاقبين

وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت « لونجفلو » الى « هوثورن » قائلاً : « أتعدنى بألا تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى انتهى من نظم قصيدتى ؟ » ووعد « هوثورن » وبدأ « لونجفلو » فى نظم القصيدة التى خلد فيها بطلى ذلك الحادث ، فخلداه بدورهما ، وجعلت « ايڤانجلين » اسمه يطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد ، وتتوارد عليه رسائل الأعجاب تترى

ومن الغريب أن « لونجفلو » لم يرقط مشاهد قصيدته ، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كما شهد الذين سكنوا تلك الأمكنة

وقد اقتبست من قصة « ايڤانجلين » رواية سينمائية أخرجت فى عهد السينما الصامتة ، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة المكسيكية الفاتنة « دولوريس دلريو »

بيروت مأمونه اياسى

العلوم

لمحة فى تاريخ الرياضيات

بقلم محمد المبارك

بكالوريوس فى العلوم

اجتازت العلوم الرياضية كغيرها من العلوم أدواراً ثلاثة: دوراً إلهياً théologique ، ودوراً تجريبياً عملياً ، ودوراً نظرياً مجرداً

فكانت فكرة القوة الميكانيكية فكرة إلهية تعزى الى الآلهة فى جميع حالاتها فى تلك الأزمان التى كانت تنسب فيها جميع الحوادث الى الآلهة المتعددة حينئذ بصورة مباشرة ، وكذلك كانت الأشكال الهندسية مقدسة ، وللأعداد خواص يعتقد بتأثيرها، ومع ذلك فقد أخذت الحقائق الرياضية تتولد تدريجاً بالحدس مستمدة من العمل والتجربة اللذين هما مصدران من مصادر الالهام ، وينبوعان يستقى منهما العقل البشرى أفكاره فى كل زمان . وعلى هذا النحو اكتشف كثير من النظريات والحقائق الرياضية ، كنظرية مساواة مربع الوتر لمربعى الضلعين القائمين فى المثلث القائم

وكثيراً ما أدت أغراض عملية الى حقائق نظرية كانت لها خطورة فى نشوء العلم وتطوره ؛ فعملية المساحة عند قدماء المصريين أدت الى اكتشاف كثير من الحقائق الرياضية . كما أن الفينيقيين اضطروا الى الحساب استعانة به على أمر تجاراتهم ، وكذلك لجأ إليه الكلدانيون لمزاولتهم الفلك والتنجيم

على أن أكثر الأمور العملية كانت تشوبها أمور دينية ، فعملية المساحة عند المصريين كانت مهمة دينية يقام لها محفل يحضره الملك . ولا يخفى كذلك أن الفلك عند الكلدانيين لم يكن منفصلا عن التنجيم . فبسبب هذه العوامل اكتشفت بضع قواعد عملية ، لم تصل الى درجة يؤبه لها من اليقين العلمى ، وكثيراً ما كانت تقريبية غير مضبوطة ، عرفت بفضل التجربة — ولا أعنى بالتجربة فى كل ما تقدم القيام بعمل يقصد منه اكتشاف قضية علمية أو إثباتها كما يفهم منها اليوم ، بل أريد منها ما يصادفه الانسان من المشاهدات والملاحظات أثناء القيام بأعماله الحيوية — فكانت الهندسة فى تلك العصور الغابرة عبارة عن مجموع طرق لا رابطة بينها لحل المسائل العملية التى تستوجبها الحياة آنئذ ، كمعرفة كون كل مثلث تتناسب أضلاعه فيما بينها كتناسب الأعداد: ٣ ، ٤ ، ٥ قائم الزاوية . فبإنشاء هذا المثلث يمكن الحصول على مستقيمين متعامدين . هذا وإن كثيرا من تلك القواعد تقريبى كما قلنا ليس له قيمة علمية ؛ مثال ذلك أن المصريين كانوا إذا أرادوا مسح [1] شكل رباعى ضربوا نصف مجموع ضلعين متقابلين منه فى نصف مجموع الآخرين ، مع أن هذا العمل لا يصح إلا فى المربع والمستطيل ، وكذا إذا أرادوا معرفة مساحة المثلث أخذوا نصف جداء [2] أكبر أضلاعه فى أصغرها

وأما البرهان على تلك القواعد العملية فلم يروا فى أنفسهم حاجة اليه ، واكتفوا بالمشاهدة الحسية ، ثم أخذوا بعد ذلك يبرهنون على المسائل ببراهين تجريبية تستند على الواقع ، لا على المحاكمة المنطقية ، أو على تمهيدات يقدمونها دون أن يبرهنوا عليها كأنها بديهية بنفسها ، وقد بقيت طريقة البرهان مدة طويلة على هذه الحال

وأما الحساب فأحرى أن يكون فى صبغة عملية بعيداً عن الصبغة العلمية ، إذ هو أكثر تجريداً من الهندسة ، ولذا لم يتم منه حينئذ إلا ما مست اليه الحاجة فى الحياة من القواعد البسيطة جداً التى تكاد لا تستحق أن يطلق عليها اسم قواعد إلا بالاضافة الى عصرها ، فكان المصريون إذا أرادوا ضرب عدد فى ثلاثة أضافوه الى ضعفه ، أو فى سبعة أضافوه الى ضعفه ، ثم

(١) مسح الأرض يمسحها مسحا ومساحة قاسها وتعرف مقدار سطحها

(٢) الجداء حاصل الضرب تقول ثلاثة فى ثلاثة جداؤها تسعة

ضعفوا الحاصل وأضافوا العدد اليه ، كما أن القسمة كانت بالطرح التوالى ، فلم يكن لهذه العمليات قواعد نظرية

هذا مجمل حال الرياضيات فى العصور القديمة ، فلنبحث الآن بالتفصيل عما عرض لكل علم منها من الأطوار المتباينة من حين نشوئها حتى بلوغها تلك الدرجة العالية التى وصلت اليها فى العصور الحديثة ، ملاحظين فى هذا البحث تقسيم العلوم الرياضية الى ثلاثة أقسام .

(١) الرياضيات المشخصة ، وتشمل الهندسة والميكانيك

(٢) الرياضيات المجردة ، وهى على قسمين

(ا) ما يبحث فى الكم المنفصل ويشمل علم العدد والجبر

(ب) ما يبحث فى الكم المتصل ويشمل الهندسة التحليلية وحساب التوابع fonctions وحساب اللانهايات calcul infinitesimal

(٣) الرياضيات التطبيقية وتشمل المثلثات والهندسة الوصفية géometrie descriptive وحساب الاحتمالات

وسنقتصر فى بحثنا على أهم فروع الرياضيات تاركين البحث فيما هو فى الحقيقة ملحق بهذه الفروع المهمة ومشتق منها ، ومبتدئين بأقسام الرياضيات المشخصة ، إذ هى أقدم فى الظهور وأسرع فى التقدم

(١) الرياضيات المشخصة :

الهندسة : إن ما تركه اليونان من الآثار فى هذا العلم يدلنا على أنهم أول من صاغ الهندسة فى قالب علمى ، فقد أخذت طريقة البرهان فى عهدهم شكلاً عقلياً مجرداً . وربما كان فيثاغورس (٥٥٠ ق . م) أول من أقام البراهين العقلية وحررها من صبغتها العملية التجريبية القديمة . وإليه وإلى تلاميذه يرجع الفضل فى أكثر مسائل كتاب الأصول لأقليدس ، والنظرية المنسوبة إليه فى المثلث القائم مشهورة ، ولا يعلم على التحقيق كيف كان برهانه عليها . وأما أقليدس (٢٨٠ق.م) فقد حرر الهندسة ، ونظم نظرياتها ، وهذب براهينها . وكان كتابه إلى ما قبل عهد النهضة الأخيرة أجمع كتاب فى هذا العلم ، وقد رتبه على الطريقة الاستنتاجية . قال أبو نصر الفارابى فى « إحصاء العلوم » : « والنظر فيها — يعنى الهندسة — على طريقين : طريق التحليل وطريق التركيب ، والأقدمون من أهل هذا العلم كانوا يجمعون فى كتبهم بين الطريقين ، إلا أقليدس فانه نظم ما فى كتابه على طريق التركيب وحده » ويظهر أن أقليدس لم يكن مؤلفاً لكتاب الأصول ، وإنما كان محرراً ومهذباً . وعلى هذا القول الفيلسوف يعقوب الكندى والفيلسوف اليونانى دِ يَدُوخس برقلس Proclus . وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية جماعة كثيرون منهم أبو الوفاء محمد بن محمد البوزجانى وثابت بن قرة ، وحرره أيضاً جماعة تصرفوا فيه إيجازاً وضبطاً وإيضاحاً وبسطاً ، والأشهر مما حرروه تحرير العلامة نصير الدين محمد بن محمد الطوسى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهو أحسن تحرير له فى العربية[١] وهو مطبوع طبعاً لا بأس به ، يتألف من خمس عشرة مقالة ، ويحتوى على ٤٦٨ نظرية فى الهندسة المسطحة والمجسمة ، ونظريات الحساب مطبقة على الأشكال الهندسية ، كل ذلك مما لا يختلف كثيراً عما يقرأ فى المدارس الثانوية اليوم لا فى الكمية ولا فى الكيفية . وبلغ عدد من اشتغل فى هذا الكتاب من المسلمين من ناقل ومحرر وشارح ومختصر أكثر من خمسة وعشرين عالماً

وقد ألف المسلمون كثيراً فى الهندسة ، ونقلوا عن اليونانية كثيراً من كتبها ، وزادوا كثيراً من النظريات ، وبرهنوا على كثير من القضايا التى لم يبرهن عليها فى عهد اليونان . فقد ألف محمد بن الحسن بن الهيثم خمسة وعشرين كتاباً فى الرياضيات[٢] منها رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه أرخميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه . وكتاب فى تحليل المسائل الهندسية وشرح لأصول أقليدس وغيرها مما هو مذكور فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (ج : ٢ ص : ٩٠)

وقد حفظت العربية بعض كتب اليونان الهندسية التى لم يبق إلا ترجمتها العربية مثل كتاب الكرات لمنالاوس Menelaus والخلاصة أن الهندسة وصلت فى عهد اليونان ثم فى عهد العرب إلى درجة من التجريد النظرى لا يستهان بها

الميكانيك : نشأ علم الميكانيك بالتدريج من الأمور العملية ، وقد درس أريسطو بعض مسائله ، ولكن بصورة عملية مغلوطة

(١) أنظر ترجمة الكتاب وذكر مترجميه وشراحه ومختصريه فى الجزء الأول من كشف الظنون ص ١٣٠

(٢) وألف فى الطبيعيات والالهيات أربعة وأربعين كتاباً بحسب ما قال هو عن نفسه فى حياته ، ونقل قوله صاحب كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، وعدد تلك المؤلفات ، وفيها مايدل عنوانه على نفاسة موضوعه وخطورة شأنه لو أنه وجد بين أيدينا اليوم

أحياناً . وأرخميدس أول من أسس أركان الميكانيك النظرى ، ولكنه كان يعد النظر فى الآلات التى يستعان بها على الحياة المادية صناعة خسيسة يترفع العلم عن البحث فيها . وكان العرب يسمون هذا العلم علم الحيل ، قال الفارابى فى تعريفه « إنه يبحث فى مطابقة جميع ما يبرهن وجوده فى التعاليم — أى العلوم الرياضية — على الأجسام الطبيعية »

ولم يصل هذا العلم عند اليونان والعرب إلى درجة تذكر ، فقد كان علما عملياً ، ولم يتم تأسيسه إلا فى العصور المتأخرة ، ويرجع الفضل فى تقدمه الأخير إلى سيمون ستيفن Simon Stévin وديكارت من علماء القرن السابع عشر ، فهما اللذان فكرا فى تمثيل القوة بشعاع هندسى ، ودراسة مبحث القوى بصورة هندسية مما أدى إلى تطور عظيم فى هذا العلم . ثم توسع بعد ذلك فى هذه الأبحاث لاجرانج Lagrange فى كتابه الميكانيك التحليلى سنة ١٧٨٧

ولم يكن تطور علم الميكانيك واحداً فى جميع أقسامه ، فقد درس أرخميدس توازن القوى ، وتأخر مبحث الحركة والقوى المسببة لها (dynamique) حتى درسه غليلو سنة ١٦٣٨ ، ومبحث الحركة مستقلة عن القوة cinématique حتى درسه أمبير Ampère سنة ١٨٣٤ ، ويلاحظ أن تطور هذا العلم كان متصاعد التعميم . فمبحث توازن القوى أخص من مبحث الحركة والقوى ، كما أن هذا أخص من مبحث الحركة

(٣) الرياضيات المجردة :

علم العدد arithmologie : وهو أكثر العلوم الرياضية تجريداً ، ولذلك كان أبطأها ترقياً وتطوراً . ففكرة العدد التى هى أساس هذا العلم لم تستقر إلا بعد تطورات طويلة تقلبت فيها البشرية . فالانسان فى حالته الابتدائية لا يدرك منها سوى الوحدة والكثرة ، فهو يعلم الواحد والأثنين والكثير ، ولا يفرق بين العدد والمعدود ، ولربما اختلفت أسماء الأعداد باختلاف معدوداتها ، إذ ليس للعدد المجرد مفهوم عنده ، ولذلك يستعين بأصابعه وكثير من أعضائه أو بالحصى والأحجار فى التعداد ، ومن ثمة كان اعتبار العشرة والعشرين أساساً فى الترقيم بحسب أصابع اليدين أو أصابع اليدين والرجلين عند الأقوام الحفاة الأقدام

وكان اليونان يفرقون بين الحساب العملى والحساب النظرى ، ومع ذلك فقد كان علم الحساب عندهم يبحث عما للأعداد من الخواص الغريبة مما نقل منه كثير الى العربية ، ولا أعنى بالخواص الغريبة هنا السحرية ولكن العملية ، كمساواة كل عدد لنصف حاشيتيه ، أى العدد الذى قبله والعدد الذى بعده ، وكالخواص التى يذكرونها لهذه الأعداد (وهى سلسلة هندسية أساسها الأثنان ومبدؤها الواحد) : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ من أنك إذا جمعت الأعداد من الواحد الى أى عدد منها يكون الحاصل أنقص من العدد الذى انتهيت اليه بواحد ، فلو جمعت الواحد والأثنين والأربعة بلغت سبعة ، وهى أقل من الثمانية بواحد ، ويسمون كل عدد من هذه السلسلة (ما عدا الواحد طبعا) زوج الزوج ، وهو الذى اذا قسمته على اثنين بصورة متوالية تنتهى الى الواحد

وقد تأخر هذا العلم لأسباب ، منها فقدان أصول حسنة للتعداد عند اليونان ، فقد كانت طريقتهم فى كتابة الأعداد صعبة المسلك يتعسر بواسطتها إجراء العمليات الحسابية ، وهى الطريقة التى يستعملها الغربيون اليوم فى بعض المواضع ويسمون أرقامها الأرقام الرومانية chiffres romains وهى هذه I ، V ، X ، L ، C ، D ، M ، ويقابلها بالعربية : ١ ، ٥ ، ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٥٠٠ ، ١٠٠٠

ومن أسباب تأخرهم أنهم كانوا يسلكون فى إثبات المسائل العددية طريقا هندسية ، وعلى هذا سار أقليدس فى أصوله ، فلم يفصل العدد عن المقادير الهندسية . ومنها أيضاً فقدان الأشارات والرموز فى العمليات الحسابية . والخطوة العظيمة التى خطاها هذا العلم هى أصول التعداد على أساس العشرة . ولذلك كان من أعظم مآثر المسلمين فى الرياضيات نقل الحساب الهندى والأرقام الهندية من الهند الى سائر نواحى العالم . وهم يسمونها أرقاماً هندية ، لأنهم نقلوها عن الهنود ، والغربيون يسمونها عربية لأنهم نقلوها عن العرب . وأول من أخذ تلك الأرقام عن الهنود واستعملها فى مؤلفاته محمد بن موسى الخوارزمى (فى القرن التاسع للميلاد)

قال الزوزنى فى كتابه تاريخ الحكماء(١) : « ومما وصل الينا من علومهم — يعنى الهند — حساب العدد الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وهو أوجز حساب وأخصره ، وأقربه

---

(١) ص ٣٦٦ — ٣٦٧ طبع ليبسك وهو مختصر كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى

تناولاً وأسهلها مأخذاً ، يشهد لهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع » ومن اسمه اشتق الغربيون لفظة algorithme التى كانت تدل على الطريقة العشرية فى الحساب ، وقد مزج الخوارزمى بين ما تمكن من الوصول اليه من أصول الحساب عند الهنود وأصول الحساب عند اليونان ، واستخرج من ذلك الحساب والجبر العربى ، وهو أول من ألف فى الجبر ، وقد انتشرت مؤلفاته فى أوربا فى القرن الثانى عشر للميلاد حيث ترجمها الى اللاتينية Adelharp de Bath و Gerard de Erémone

الجبر : كثيراً ما يذكر بأن ديوفنطس Diophante (فى القرن الثالث للميلاد) أول مشتغل بالجبر ، مع أن جل ما وصل اليه أنه كان يستعمل حروفاً فى العمليات الحسابية يأخذها من الألفاظ الدالة على العملية المراد إجراؤها

واستعمال الحروف للدلالة على المقادير كان معروفاً منذ أريسطو ، وكان ديوفنطس يرمز للمجهول ولقواه حتى القوة السادسة ، ولمقلوب هذه المقادير وللوحدة بحروف مختزلة من أسمائها اليونانية ، ويتبع كل رمز بأمثاله العددية ، ففى ذات الحدود الكثيرة polynôme توضع الحدود الموجبة مرتبة بجانب والسالبة بجانب آخر يفصل بينهما بهذه الاشارة T الدالة على الطرح والتى هى مأخوذة من كلمة يونانية تدل على الطرح

فالمقدار الجبرى : $\text{س}^{٦} - ٦\,\text{س}^{٥} + ١٥\,\text{س}^{٤} - ٢٠\,\text{س}^{٣} + ١٥\,\text{س}^{٢} - ٦\,\text{س} + ١$

يكتب هكذا : cc I qq XV ٩ X ٧uI T qcVI c XX N VI

فالحرف c الدال على التكعيب أعنى القوة الثالثة مأخوذ من كلمة cupe والحرف q الدال على التربيع أعنى القوة الثانية مأخوذ من كلمة quadratus والحرف u الدال على الوحدة مأخوذ من كلمة unum

وكذلك للمساواة والجذر رموز حرفية تدل عليها مأخوذة من ألفاظها اليونانية ، كما أن قواعد ضرب المقادير الجبرية ذات الحدود الكثيرة مع اعتبار الجهة ، أعنى الموجب والسالب كانت معروفة لدى ديوفنطس

وأما العرب فلم يستعملوا الرموز الحرفية ، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار ، وهم الذين وضعوا رمز الكسر فجعلوا صورته أو بسطه فى الأعلى ومخرجه أو مقامه فى الأسفل يفصل بينهما خط أفقى ، على حين أن ديوفنطس كان يجعلها على عكس هذا الوضع ، والبيزنطيون يضعون المخرج فوق الصورة كما نضع نحن الآن القوة أو الأس فوق العدد

والعرب يرمزون للمجهول بكلمة شىء . قال بهاء الدين العاملى فى كتابه خلاصة الحساب « يسمى المجهول شيئاً ومضروبه فى نفسه مالا ، وفيه كعباً ، وفيه مال المال ، وفيه مال الكعب ، وفيه كعب الكعب إلى غير النهاية » ويسمون مقلوب هذه المقادير جزء الشىء وجزء المال وجزء الكعب وهكذا . ولنضع بجانب كل منها مصطلحه الحالى :

شىء	: س	، جزء الشىء	: $\frac{١}{\text{س}}$
مال	: $\text{س}^{٢}$	، جزء المال	: $\frac{١}{\text{س}^{٢}}$
كعب	: $\text{س}^{٣}$	، جزء الكعب	: $\frac{١}{\text{س}^{٣}}$
مال المال	: $\text{س}^{٤}$	، جزء مال المال	: $\frac{١}{\text{س}^{٤}}$
مال الكعب	: $\text{س}^{٥}$	، جزء مال الكعب	: $\frac{١}{\text{س}^{٥}}$
كعب الكعب	: $\text{س}^{٦}$	، جزء كعب الكعب	: $\frac{١}{\text{س}^{٦}}$

فيقال مثلاً للرمز $\text{س}^{١١}$ مال كعب كعب الكعب ولمقلوبه جزء مال كعب كعب الكعب ، وكذلك كانوا يعلمون قاعدة ضرب هذه القوى أو هذه الأجناس كما كانوا يسمونها بعضها ببعض ، وقسمتها مع اعتبار الجهة ، فيجمعون الأسس أو يطرحونها . وقد ذكر العاملى فى كتابه المذكور قواعد ضربها ثم قال : « وان كان — يعنى فى أحد المضروبين — استثناء ، يسمى المستثنى منه زائداً والمستثنى ناقصاً وضرب الزائد فى مثله والناقص فى مثله زائداً والمختلفين ناقص ، فمضروب عشرة وشىء فى عشرة إلا شىء مائة إلا مالا »

وفى اصطلاحنا : $(١٠ + \text{س})(١٠ - \text{س}) = ١٠٠ - \text{س}^{٢}$

وبعد أن أورد أمثلة عديدة على الضرب قال : « تفرض المجهول شيئاً وتعمل ماتضمنه السؤال إلى أن تنتهى إلى المعادلة ، فالطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الطرف الآخر وهو الجبر ، والأجناس المتجانسة المتساوية فى الطرفين تسقط ، وهو المقابلة » ثم قسم المعادلات إلى ستة أنواع وبين كل واحدة وطريقة حلها وأتبع ذلك بمسائل منها هذه : « رمح مركوز فى

حوض، والخارج عن الماء منه خمسة أذرع مال مع ثبات طرفه حتى لاقى رأسُه سطحَ المكان، فكان البعد بين مطلعه من الماء وموضع ملاقاة رأسه له عشرة أذرع فكم طول الرمح؟ — أقول توضيحاً لكلامه: الرمح هو (م ب) والخارج عن الماء منه هو



ب ح = ٥ أذرع، أثبت فى م وأدير حتى صار رأسه ب فى ت والطول ح ت = ١٠ أذرع —

تفرض الغائب فى الماء شيئاً، فالرمح خمسة وشئ، ولا ريب أنه بعد الميل وتر قائمة أحد ضلعيها عشرة أذرع، والآخر قدر الغائب منه، أعنى الشئ، فمربع الرمح أعنى خمسة وعشرين ومالا وعشرة أشياء، مساوٍ لمربعى العشرة والشئ أعنى مائة ومالا. وبعد إسقاط المشترك يبقى عشرة أشياء معادلة لخمسة وسبعين والخارج من القسمة سبعة ونصف، فالرمح اثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع» وعلى حسب اصطلاحنا تجرى المعادلة هكذا

$$(\text{٥} + \text{س})^{\text{٢}} = \text{١٠}^{\text{٢}} + \text{س}^{\text{٢}}$$

$$\text{٢٥} + \text{س}^{\text{٢}} + \text{١٠ س} = \text{١٠٠} + \text{س}^{\text{٢}}$$

$$\text{١٠ س} = \text{٧٥}$$

$$\text{س} = \text{٧,٥}$$

والذى توصلوا إليه فى الجبر هو حل المعادلات من الدرجة الثانية، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى حاضر العالم الاسلامى أن عمر بن ابراهيم بسط حل المعادلات من الدرجة الثالثة، ولم نر ذلك فيما بين أيدينا من كتب المتقدمين كالياسمينية وخلاصة الحساب وشروحها، ولا ندرى من عمر بن ابراهيم هذا هل هو الخيّام الفيلسوف الفارسى المشهور أم غيره؟ وعلى كل فعسى أن يقيض الله لهذا السر من يكشفه

هذه نبذة يسيرة من الجبر العربى يتضح منها أن هذا العلم وصل فى عصور المدنية الاسلامية إلى شئ كثير من التجريد برغم فقدان الاشارات والرموز واستعمال الألفاظ الدالة على المجهولات دون اختزالها

ولما انتقل الجبر الى أوروبا بواسطة المسلمين عم استعمال الحروف بطبيعة الأمر وبتأثير بعض العلماء كفرنسوافيت Viéte (١٥٤٠ — ١٦٠٣) وديكارت

أما الأشارات التى نستعملها اليوم فهى متأخرة الظهور، فاشارة الناقص (—) ترجع الى القرن الثالث عشر، ولا يعلم أصلها ومصدرها، واشارة الزائد (+) ترجع الى القرن الرابع عشر، إذ شاع استعمالها فى المانيا، على حين أن علماء إيطاليا ظلوا مدة يستعملون للزائد والناقص حرفى m , p من كلمتى moins, plus

وأما اشارة المساواة = فهى من اقتراح العالم الانكليزى Recorde سنة ١٥٥٦، وقد اتخذها نيوتن ووواليس، فعم استعمالها فى انكلترا، على حين أن ديكارت فى فرنسا كان يستعمل هذه الاشارة ∞ وكثير غيره كانوا يستعملون لذلك خطين رأسيين متوازيين هكذا: ||

الأس أو قوة الرفع: أول من أشاع استعمالها على الشكل المعروف الآن ديكارت، ولكن منشأها يرجع الى عهد أقدم من ذلك، وكان علماء هولندا يكتبون الأس فى دائرة صغيرة فوق العدد المرفوع

وأما اشارة الجذر الدالة على درجة الجذر فهى متأخرة أيضاً، فقد كان ديكارت نفسه يستعمل للجذر التربيعى هذه الأشارة: $\sqrt{}$ وللتكعيبى هذه: $\sqrt{}_c$ فحرف c يدل على التكعيب الذى هو درجة الجذر من كلمة cube ومن المستبعد أن تكون هذه الاشارة كما يزعم البعض جيما عربية مقلوبة ج اختزالاً لكلمة جذر، فليس لهذا القول من مؤيد تاريخى، وها هى الكتب العربية القديمة فى الرياضيات الموجودة الآن خلو منها

الأقواس: هى كذلك متأخرة الظهور، ففى النصف الأول من القرن السابع عشر كانوا يضعون خطاً أفقياً فوق الحدود التى يراد إجراء عمليـــة واحدة عليها، ولازال هذا الاستعمال فى المجذورات $\sqrt{}$

وأما الاشـارات الثانوية كاشارة الضرب والقسمة فلم يتم وضعها كذلك إلا بعد ظهور الجبر الحديث

ويرجع الفضل فى ظهور الجبر الحديث الى فرانسوا فييت، فهو أول من أجرى العمليات الجبرية مع استعمال الحروف والاشارات، وقد أراد أن يستبدل كلمة جبر « البربرية » كما يقول بكلمة تحليل analyse ولكن هذه التسمية الجديدة لم تلق نجاحاً، وإنما بقيت كلمة تحليل منصرفة الى فروع أخرى من الرياضيات وجملة القول أن ترقى الطريقة الرمزية فى الرياضيات وذيوع

الاشارات والرموز أدى الى ترقٍ عظيم فى العلوم الرياضية ، بل الى ظهور فروع جديدة كالهندسة التحليلية

الهندسة التحليلية وحساب التوابع

إن علم الجبر أدى تدريجاً باستعمال الحروف للدلالة على المقادير الى فكرة التابع fonction وقد كان اليونان كما تقدم يعبرون عن القيم العددية بأطوال هندسية ، وبذلك تمكنوا من حل بعض المسائل الجبرية هندسياً ، وهم وإن كانوا لم يتوصلوا الى المفهوم العام للاحداثيات coordonnées فدراستهم للقطوع المخروطية الناقص والزائد والمكافىء شبيهة جداً بالهندسة التحليلية ، فقد كانوا بعد تعريف هذه القطوع ينسبون نقاطه الى قطر أو محور ، ويحصلون على علاقة بين الفاصلة abcisse والترتيب ordonnée وعلى كل فانهم درسوا خواص بعض المنحنيات بقصـــد حل المسائل ، ولفقدان مفهوم الموجب والسالب للـكميات لم يتمكنوا من التوسع فى ذلك

وهذه الفكرة أعنى فكرة التابع إنما وجدت واضحة للمرة الأولى فى كتابات نيقولا اورسم Nicolas Oresme فى القرن الرابع ، إلا أنه اقتصر على الـكميات الموجبة . وقد كان افرانسوا ڤييت أثر بيّن فى رقى الهندســة التحليلية التى ظهرت ظهورها الرائع أخيراً على يد ديكارت ســنة ١٦٣٧ ، ومع هذا فقد احتوت هندسة ديكارت على مسائل تقريبية أو غير مضبوطة

(٣) وأما الرياضيات التطبيقية فهى متفرعة عما تقدم ذكره من أقسام الرياضيات ومتأخرة فى النشوء والظهور ، إذ أنها كانت مبعثرة مندمجة فى العلوم التى كانت منبعها الأصلى ، ولم تنسلخ عنها وتظهر بالصورة التى هى عليها الآن إلا فى العصرين الأخيرين ، هذا اذا استثنينا المثلثات trigonometrie التى اتسعت بقسميها المستوية والـكروية منذ عهد قديم لشدة الحاجة اليها فى الحسابات الفلـكية . وللعلامة نصير الدين الطوسى كتاب فى المثلثات الـكروية اسمه شكل القطاع[1] وقد اشتغل فى هذا العلم غيره من المتقدمين كأبى ريحان البيرونى وأبى الوفاء محمد البوزجانى وأبى جعفر الخازن وأبى فضل الله التبريزى ، فقد ألفوا فيه كثيراً ووضعوا نظريات جمة هى من أهم نظريات هذا العلم . ومما هو جدير بالذكر فى تاريخ المثلثات أن أبا ريحان البيرونى هو أول من اعتبر نصف قطر الدائرة واحداً قياسياً فى أبحاث المثلثات[1]

هذه صورة مجملة عن تاريخ العلوم الرياضية يتبين لنا منها أن المدنية الاســلامية حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ وركن أساسى عظيم فى هذا البناء ، فالمسلمون هم الذين وضعوا علم الجبر وحفظوا تراث اليونان ، وهم الذين نقلوا عن الهنود الأرقام ونظام كتابتها المعروف اليوم ، وتعهدوا كل ذلك بالعناية شرحاً وتهذيباً وتنقيحاً وتوسيعاً ، وأحدثوا كثيراً من الأوضاع ، وتوسعوا فى كثير من الأبحاث، ووضعوا كثيرا من النظريات ، فكان لقريحتهم الفياضة أثر بيّن لا يزال العلم يحفظه لهم ، ومآثر خالدة لا تنى المدنية العلمية عن الأشادة بها ، وبالجملة فليس من شك فى أن ما خلدوه من الآثار فى هذه العلوم كان تمهيداً مباشراً لما حدث فيها من التقدم والرقى فى العصور الحديثة

محمد المبارك

دمشق — بكالوريوس فى العلوم

(١) مطبوع مع ترجمة فرنسية له فى القسطنطينية ١٣٠٩ هـ

(١) شكل القطاع ص : ١٢٧

البريد الأدبي

اليابان سنة ١٩٣٤

تثير نهضة اليابان العسكرية والاقتصادية فى الأمم الغربية أيما اهتمام وجزع ، ذلك لأنها تسير بخطى الجبابرة ، ولا تقف عند حد ، وتحمل فى طريقها كل شىء . كانت اليابان قبل خمسين عاماً فقط محصورة فى جزائرها لا يزيد سكانها على ثلاثين مليوناً ؛ أما اليوم فهى امبراطورية عظيمة ، تسيطر على كوريا ومنشوريا وقسم من منغوليا ، ويبلغ سكانها وسكان الأراضى التى تسيطر عليها نحو مائة وعشرين مليوناً

وقد أصدر الكاتب الفرنسى موريس لاشان عن اليابان ونهضتها تحقيقاً جامعاً فى كتاب عنوانه « اليابان سنة ١٩٣٤ » وفيه يلقى الضياء على بعض الحقائق المدهشة ؛ فان اليابان مثلاً مازالت تجمع بين روحها وتقاليدها القديمة وبين روح الدولة الحديث ؛ ومازالت صور الأقطاع والعبودية القديمة تثقل كاهل الشعب ؛ والشعب ترغمه التقاليد والتراث الروحى القديم وحب الامبراطور على الخضوع والطاعة ، وهو يضطرم بنوع من الاشتراكية الوطنية . ويلاحظ الكاتب أيضاً أن قوى الشعب اليابانى كلها ، والامبراطور ، والجيش والبحرية ، وأقطاب العهد القديم من جهة وقوى الرأسمالية ، وكل الجموع البائسة التى يغص بها المعمل من جهة أخرى ، كلها تعمل فى نفس الاتجاه وبنفس الروح ، ولنفس الغاية ، وهى افتتاح أسواق الصين ، والسيطرة على المحيط الهادى ، بل هى فى الواقع غزو العالم كله ؛ وقد غزت اليابان بالفعل جزائر الهند الشرقية ، وأخذت تهدد قاعدة سنغافورة ، واستراليا ، ووصلت تجارتها الى شواطئ المحيط الهندى ، ونفذت الى بلاد الحبشة ، وجازت مضيق عدن وقناة السويس ، وانتشرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط

ويتوقع المسيو لاشان أن النزاع قد يضطرم عما قريب بين اليابان وأمريكا ؛ ولكن يجب لاضطرامه أن يقع حادث ما ؛ ومثل هذا الحادث قد يكون أول انتصار اليابان على الصين ، أو انتصارها على الروسيا ، أو تنازعها مع الصين والروسيا على تحقيق الامبراطورية الكبرى التى تسعى اليابان الى تحقيقها باسم الشعوب الصفراء ، ذلك أن شعوب الصين المختلفة قد ترغم غداً على أن ترى فى اليابان ما رأته الأمم الجرمانية من قبل فى بروسيا ، أعنى زعيماً ومعلماً وقائداً

ذكرى العلامة الطبيعى بريم

تحتفل الهيئات العلمية الألمانية بالذكرى الخمسينية لوفاة العلامة الطبيعى الألمانى الفرد أدموند بريم ، وقد ولد بريم فى تيرنجن فى فبراير سنة ١٨٢٩ ، وكان أبوه قساً يعنى بتربية الطيور ودرس خواصها ، فنشأ ولده بريم شغوفاً بهذه الناحية من الدرس ، وفى سن الثانية عشرة سافر الى أفريقية مع البارون فون ميلر فى رحلة علمية دراسية ، ومر بالقاهرة يومئذ (سنة ١٨٤٧) فصادف بها الزلزال الشهير الذى وقع فيها عندئذ وكاد يهلك ؛ ثم سافرت البعثة الى النوبة والسودان ، واصطادت كثيراً من الحيوانات المختلفة ؛ وعكف بريم على دراسة خواصها المادية والروحية ، وفى أثناء عوده الى القاهرة كانت بعثة « لبوبة » الشهيرة « بجيته » فكان يطوف بها الشوارع ذلولا مطيعة ، ثم عاد بريم من القاهرة بعد عامين الى السفر مرة أخرى مع أخيه وزميل آخر ، واعتزموا اختراق السودان حتى منابع النيل ، ولكن البعثة كانت غير موفقة ، إذ غرق أخوه فى النيل ، ونفدت موارد البعثة ، وعندئذ أمده حاكم السودان لهتيل باشا بشىء من المال ليتابع رحلته على ضفاف النيل الأزرق ، وهناك اصطاد كثيراً من الحيوانات وأنفق نحو خمسة أعوام فى هذه الرحلة ، واكتشف فيها كثيراً من الحقائق العلمية ؛ ثم عاد الى ألمانيا ، وانكب على دراسة العلوم الطبيعية ؛ ونال إجازة الدكتوراه من جامعة بينا فى علم الحيوان سنة ١٨٥٦ وانتخب عضواً فى الأكاديمية البروسية الملكية ، وأخذ منذ ذلك

الحين يكتب عن حياة الحيوان ؛ ثم قام برحلة فى أسبانيا ، وأخرى فى لابلاندا وجزائر لوفوتن ؛ ثم قام برحلة أخرى فى شمال الحبشة فى سنة ١٨٦٢ ، وكتب كتباً عن هذه الرحلات والمباحث كلها . ولما عاد الى المانيا كتب مع زميلين له كتاباً مصوراً عن حياة الحيوان فى ستة مجلدات اختص منها هو بأربعة ؛ وعين مديراً لحديقة الحيوانات فى برلين وهمبورج مدى حين . ولكن شغف البحث حمله مرة أخرى ، فسافر الى سيبيريا الشرقية ، وكاد يهلك فى هذه المرة ، وسافر الى أمريكا الشمالية سنة ١٨٨٣ ، ولما عاد الى المانيا لم يمكث طويلا حتى توفى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٤

وكتاب بريم عن حياة الحيوان من أشهر الآثار وأقيمها فى هذا الموضوع ، وهو يعتبر أستاذ موضوعه فى العلم الألمانى ؛ ولم يسبقه ، بل ولم يأت من بعده أحد استطاع مثله أن ينفذ إلى روح الحيوان وإدراكه ، وقد ترجم أثره إلى جميع اللغات

عيد الأكاديمية الفرنسية

مضى اليوم على تأسيس الأكاديمية الفرنسية ثلاثمائة عام كاملة ؛ ذلك لأنها أنشئت فى عهد لويس الثالث عشر ، فى أوائل سنة ١٦٣٥ ؛ أسسها جماعة من النبلاء الأدباء برعاية الكردينال ريشيليو الحبر السياسى وزير لويس الثالث عشر ، فكانت من خالد آثاره ، وسيجرى الاحتفال بهذه الذكرى بمنتهى البساطة ، ويقام لذلك معرض فى المكتبة الوطنية فى شهر يونيه القادم ؛ وستعرض فيه طائفة من الوثائق الخطية الشهيرة الخاصة بالأكاديمية ، ومنها مسودة الخطبة الأولى التى أعدها السيد بول هاى صاحب الشاتليه لالقائها فى أول جلسة للجماعة العلمية فى ٥ فبراير سنة ١٦٣٥

وقد تساءلت إحدى الصحف الأدبية الكبرى بهذه المناسبة عما اذا كان المسيو رنيه دوميك سكرتير الأكاديمية يقبل أن يضم هذا المعرض التذكارى بعض الصور الرمزية المضحكة التى أوحى بها تقاعد الأكاديمية عند اصدار «قاموسها» الشهير ، وما وقعت فيه من الأغلاط النحوية ، ومنها اللوحة الشهيرة التى رسمها « فيرتبير » ، وعنوانها « دفن قاموس الأكاديمية » ؟

البترول من ماء البحر

كتب المهندس الفرنسى مسيوساهير إلى الحكومة الفرنسية ينبئها بأنه وصل إلى طريقة لاستخراج البترول من ماء البحر العادى ، وأنه على استعداد لأن يبيعها سر هذه الطريقة نظير ٢٥ مليوناً من الجنيهات

وقد قالت جريدة « الماتان » فى تعليقها على هذا النبأ إن المهندس ساهير واثق كل الثقة من طريقته ، وأنه دعا إلى معمله بمدينة « روين » بعض الخبراء فى وزارة الحربية والطيران ليشهدوا التجربة

وقال مسيو ساهير فى حديث له مع مندوب « الماتان » إنه لاحظ أن المناطق الغنية بالبترول توجد بها عدة كميات كبيرة من الماء الملح . وأن هذه الملاحظة هى أساس الفكرة التى أوصلته إلى استخراج البترول من ماء البحر ، لأنها دلته على أن الماء الملح لابد أن يكون من العناصر الأساسية

الأدب وسيلة للتفاهم الدولى

أذاعت إحدى دور النشر الكبرى فى برلين أنها تخصص جائزة قدرها عشرون الف مارك (نحو ١٥٠٠ جنيه) لمن يضع أحسن كتاب قصصى عن مسألة التفاهم بين فرنسا وألمانيا . والمفهوم أن إنشاء هذه الجائزة كان بايعاز من وزارة الدعوة ؛ وقد وافق وزير الدعوة الهير جيبلز على أن يكون الهر هانز بلونك رئيس الجمعية الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) للكتاب الألمان هو الحكم الوحيد فى فحص الكتب المقدمة وتخصيص الجائزة . وقد علقت الصحف الفرنسية على هذا النبأ بأنه من بعض أساليب الدعوة الهتلرية التى يراد بها إخفاء نياتها الحقيقية نحو الاستعداد للحرب

القصص

عمامة الأفنــــدى

للأستاذ محمد سعيد العريان

طال بنا انتظار صاحبنا (المأذون) فى هذه الليلة حتى دقت العاشرة ولم يجىء ، وكنا نرقب مَقْدمه علينا كلّ مساء رِقْبة المشتاق ، فما تخلّف منذ عرفناه ليلة ، وإنه ليقدم فيحلّ البشرُ ويستخفّنا السرور ، سرورُ النفس بدعابته ، وسرور المعدة بحَلْواه ؛ فقلما كان يوافينا إلا ومعه هدية من عُرس نتوزّعها بيننا . ولم يكن لمقدمه ميعاد ، فانه لَعَلى تجوال دائم ، يتأبّط دفتره من دار الى دار ، رسولَ سلام وحب ، أو رسول فرقة وقطيعة !

وتوزّعتنا الظنون من غيبته ، وحسبناه قد أصاب الليلة حظاً من عرس ، فبخل علينا بحلواه ومرق الى الدار ؛ فما كنا لنتركه حين يقدم علينا إلا فارغَ الجيب من الحلوى وغير الحلوى مما يجمع من الأعراس ، وما كان ليتركنا إلا فارغةً رءوسنا من كثرة ما نضحك من دعابته وهزله . وإنه لشاب ضُحَكَة(١) جرىء على النكتة ، ليس فيه زمانةُ الشيوخ من أهل هذه الطائفة

وتهيأنا لاستقباله بفيض من النكات المصنوعة ، لعلنا ننال منه لقاءَ ما كان يُشبعنا كل مساء من عبث ودعابة ؛ فقد كان له فى كل ليلة هدف من الجلساء يتندّر عليه ويتخذه ضُحْكَة(٢) فما ينصرف عنه إلا مُغْضَباً ليترّضاه فى غد !

وجاء بعد قليل ، فحيّا وجلس ، ولكنه كان عابساً مبهوراً ما يكاد جفنه يطرف ؛ فحسِبنا من وراء مظهره العابس نكتة مبتكرة ، فما عهدناه يألم فى الحياة لشىء ، وإن الهموم لتصطرع عن يمينه وشماله

وهممنا به نتناوله بما أعددنا له من عبث ، فاذا كلماتنا تتساقط حواليه ولا تصيبه ، وظلّ على حاله من الغضب والعبوس وسَرَت الينا نفسُه ، وتقمّصنا مما به روح الكآبة والوحشة ؛ فأمسكنا عن الحديث لحظات

ورفع الشيخ رأسه بعد هنيهة ، وتحركت شفتاه بكلام ، فتقصّفْنا عليه نستمع لما يقول

وسأل : « ما لديكم من أنباء صاحبنا عاطف ؟ »

قلنا : « لقد انقطع عن نادينا من زمان بعيد ، فلعله على شُغْل ببعض شأنه ؛ وإن لذّات الحياة لحبيبةٌ اليه ، فما نراه قد منعه لقاءَنا إلا لهوٌ آثره علينا ، أو لذةٌ دعته فلبّاها ؛ أو لعله يتفيّأ من دنياه الجديدة ظلالَ الحب والسعادة »

قال : « بل دنياه الجديدة ، ولكن ليس فيها من السعادة والحب ولا ظلّهما ؛ ولكنْ مكابدةُ الأحزان ، وألم الوحدة ، ومشقة الحرمان ، وظلام اليأس ! »

ورنّت كلماته فى أذنى رنيناً مفزعاً سمعت صداه فى قلبى ؛ فقد توثّقت صلتى بعاطف صبيّاً وغلاماً وشاباً ؛ فأىُّ أمل كان يجيش فى تلك النفس ، وأىّ روح كان يحمل ذلك الجسد ، وأىّ حيوية كانت تصطرع من ذلك الشباب !

فما كربنى كربٌ ونظرته إلا عادت الحياة فى عينىّ باسمة نضرة ، وما أهمّنى همٌ فلقيتُه إلا تعلمت منه فلسفة الرضى بما هو كائن ، وكان من بهائه وإشراق طلعته ، الى كماله وعفّته — كأنه فتنةٌ مستحيية . . .

وأخذ الشيخ يقصّ علينا من نبئه ، ونحن نستمع اليه فى صمت

* * *

كان عاطف على ما انبسط له من النعمة ، وما اتفق له من حسن الرأى — لا يؤمل فى الزواج إلا من فتاة ذاتِ مال . ولقد كان عجيباً عندنا أن يكون على هذا الرأى ، وهو مَن نعرف من شباب الجيل الجديد ؛ ولكنا لم نكن لنستطيع على ما نسرف فى مهاجمة رأيه — أن نصرفه عن بعض ما كان يعتقد . وراح فى سبيل غايته يبحث عن الزوجة الغنية على أبواب المجلس الحسبى . . . !

(١) الضحكة (بضم ففتح) الكثير الضحك (٢) والضحكة (بضم فسكون) الذى نضحك منه

ووجدها بعد إذ جدّ فأعيا ؛ ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت بعيدة من الدمامة ؛ وكانت جاهلة ، ولكنها من بنات الحاضرة . وقد مات أبواها وخلّفا لها قصراً وضيعة ، وأخاً يقوم عليها وعلى الضيعة جميعاً

واستوثق الفتى من غنى صاحبته ، فأقبل يخطبها الى أخيها وقد اجتمعت له الأسباب . وأدّى المهر ؛ مهرَ الضيعة والقصر والعروس . . . وعُقد له على فتاته

لقد غبطناه يومئذ على النعمة ، نعمةِ الثروة والجاه والزواج ، وما عنانا كم دفع وكم أنفق ؛ فقد كنا على ثقة بأن حبّته مردودة اليه سبعَ سنابل فى كل سنبلة مائةُ حبة . ورحنا نتهم أنفسنا بفساد النظر وأفن الرأى وسوء التدبير

ومضى أسبوع ، وشهر ، وأشهر ، وأوشك العام أن ينتصف . وعاطف متهلّل الوجه ، ضاحك السنّ ، يحلم بالغد القريب يوم تُزفّ زوجته اليه ، وتُزف ثروتها الى خزانته . . . وسعى الى صهره يستعجله ، فاذا هو يبسط له المدَى ، ويفسح الأجل ، ويستشفع بالتقاليد . . .

وعاد الفتى إلى نفسه يطمئنها ويترضّاها . وما عليه من ذاك ؟ أليست ستُزَفّ اليه لامحالة فى يوم قريب أو بعيد ؟ بلى ؛ وإنها لزوجته ، مافى ذلك شك ولا إنكار ؛ فلا عليه أن ينتظر !

ودار دولاب الزمن فأتم دورة ، وراح الفتى يستنجز صهره الوعد ، فقابله وهو يبتسم ، وبسط له وجهَه ومجلسه ، وأخذ يتنقّل به فى الحديث من فنّ الى فنّ حتى زالت وحشته ، وأنِسَتْ روحه ؛ فودّعه ولم يظفر بجواب . . . !

وتولّت الأيام بعضُها فى أعقاب بعض ، وتصرّمت الأشهر شهراً فى أذيال شهر ؛ ومازال صاحبنا يراوح بين جنبيه فى فراش الوحدة ، وعروسه هناك من دونها الأبواب والحارس العتيد !

وملّ الفتى مُقامَه ، وضاقت به نفسه ؛ فراح يطلب التعجيل فى الزفاف فيُلحف ، وأخو الفتاة فى هدوء المطمئن يُبعد له الأجل ويعتذر بالظروف !

— « أىّ ظروف ؟ لقد مرّ عامان مذ تزوّجْت ، فمن لى على الحياة أحتمل بردَها وحرُورَها وحدى ، وما أنا عزبٌ فأنطلقَ حيث أشاء ، ولا زوجٌ فآوىَ إلى بيتى ألتمس هدوء النفس وبرد الراحة ! »

وعاد الأخ يعتذر ويجدّد الميعاد ، وهو يربت على كتف الزوج الغاضب

وخرج عاطف من الدار والقِدْرُ تغلى فى رأسه ؛ لقد ابتدأ يعرف ما هنالك ، ولكنه لم يجرؤ على التصريح . أيكون ذلك من قوانين البر ، أهو كذلك ناموس الرحمة والعدل ؛ أيعضل الأخ أخته فيحرمها الاستمتاع بالحياة من أجل المال ، من أجل مالها الذى يخشى أن يفلت من يده إلى الزوج يتصرف فيه كيف يشاء ! وما يضيره من ذلك وإن له لَضِعْفَ ما تملك أخته المسكينة ، وإن ماله ليكفيه ويفضل عن حاجته ، ولكن . . . ولكن أين هو الفضل منذ سنوات ؟

لكأنما هو مستخدم على أن يجمع المال فيبدده هنا وهناك ، وما له من ذلك إلا اللقمة ، وما تمتاز كثيراً من لقمة الفقير ؛ وإلا الثوب ، وإنك لترى الثياب الغالية يُزْهى بها من هم دونه من عامة الناس ! أما فضل المال فله مصرف من وراء ذلك : على المرأة والكأس والقمار . . .

وهمّ عاطف أن يعود فيصرخ فى وجهه بما عرف من أمره وسوء تدبيره ، ولكنه كظم الغيظ على ألم وضيق

وتلاقيا بعد أيام ، وكانت القدر ما تزال تغلى ؛ فملأ الزّبد يترشش مُصرّحاً عن غضبٍ مغيظ . . . وافترق الرجلان على خصومة وعِداء . . . !

* * *

ودق عاطف باب المحكمة لعلها أن تحمل زوجته على (الطاعة)

أين هى المسكينة ؟ وعلى طاعة هى أم على عصيان ؟ إنه لم يرها إلا مرسومة فى ورقة ، أتراها فى الأحياء ، أم هى من وراء جدران سجنها جثةٌ بلا روح ، وجسد بلا عاطفة ، وطاعة بلا ارادة ، ومعِدَة بلا وجدان . . . !

ويحك أيتها المسكينة ! أتشعرين أنك فى الأحياء ؟ لعل فى الموتى من هم أقرب منكِ إلى الحياة ، لأنهم يعيشون من عواطف أهليهم فى عواطف حية وحبٍ مشبوب . . . !

وفى المحكمة رأى الفتى عروسه لأولِ ما يراها ، وقد جاءت تسعى عن أمر أخيها تطالب زوجها بالنفقة والكسوة والمأوى ! يا للسخرية ! أضاق بها أخوها طاعمة كاسية من مالها عنده ! فيدفعها الى القضاء تلتمس القوت واللباس . . . !

وكان بينهما ما يكون دائماً بين كل زوجين يعرفان المحكمة الشرعية ؛ فى كل يوم بينهما (جلسة) للقضاء ، وكلٌ منهما يفتنّ فى الكيد والاغاظة ، والغالب منهما من ينال من صاحبه من غير عائدة عليه ؛ والمال يتسرب من بين أيديهما للمحامى

والـكاتب ورسوم الدعاوى وأجر الشهود ... !

وامتدّت بينهما الفتنة، ولجّت بهما الخصومة، وطالت إجراءات التقاضي، وتصرمت سنوات. وأخذ الزوج المسكين يبيع ما يملك قطعةً بعد قطعة، وفاء لنفقة الزوجة ونفقة القضاء؛ وأوشك الزوج الذي راح يطلب الغنى من تحت أقدام امرأة — أن تصفر يداه ... !

واصطلحا في النهاية على الطلاق ... !

***

قال المأذون:

« وقلت للفتاة: أأنت على نية إبرائه رغبة في الطلاق؟

وزاغت نظرة الضحية العذراء من هنا الى هناك، حتى استقرت على الرجل الجالس هناك، ثم نكست رأسها ولم تجب

قلت: إنك إنما تفصلين في أمر مستقبلك، فليس هنا لأحد عليك سلطان

فحدّقت فيّ طويلاً كأنما تلتمس المعونة، ثم حولت النظر الى أخيها فاذا في عينيه كلام طويل، فأطرقت وهي تقول في همس: « نعم لقد أبرأته ... ! »

والتفتَ إليهما الرجلُ يصوّب النظر ويصعّده، ثم نطق بالكلمة الفاصلة ... !

وتحوّلتُ إلى الرجل فأنكرته، وأقسم لكأنما لم أكن أعرفه من قبل، وما كان في بالي أنه صديق عاطف. لقد انطفأ بريق عينيه كأنما ينظر من خلف زجاجة؛ وغاض ماء الشباب من وجهه، فما تراه إلا كوردة الخريف؛ وقد أطلق لحيته، كأنما تركتْ لطماتُ القدر في عارضيه سوادَ حظه؛ وكانت في يده سبحة، أحسَبُه كان يحصي عليها همومَه وأحزانَ نفسه؛ وما رأيت شيئاً أبيض — فيما رأيت — إلا عمامته ... ! »

قلنا: « عمامته؟ .. عَهْدُنا به لا يلبس إلا الطربوش ... ! »

قال: « نعم عمامته، فاستأنوا ... قلت له: ما فَعَلَتْ بك الأيام يا عاطف؟

قال: ذاك ما ترى. ولقد أقسمتُ أن أفرغ لله، فلم تعد لي في الزواج إربة، ولن تراني إلا بين المسجد والبيت حتى ألقى منيتي! حسبي، حسبي ما لقيتُ من دنياي ... ! وانكبّ على سبحته يتمتم والحبات تتساقط في الخيط واحدةً فوق واحدة، ورأسه يهتز كأنه يقول: كذلك تتعاقب الأيام كما تتساقط الحبات حبة وراء حبة، حتى تكون النهاية، حتى يكون الموت ... !

وما وجدت عندي جواباً إلا أن أتحول وأدعه حيث جلس يداعب سبحته. أتراه كان يذكر الله، أم يسب الدنيا ... ! »

لقد راح المسكين يبحث عن الزوجة الغنية ليضاعف بمالها ماله، فآب فقيراً من مالها ومن ماله؛ وذهب يسعى لأن يضاعف بالزواج مسراتِ الشباب، فردّه الزواجُ شيخاً في الثلاثين! ...

محمد سعيد العريان

صيد الغزال

بقلم شفيق نقاش

في صباح يوم من أيام أغسطس العصيبة ، كانت الغزالة ترعى في جبل البازين Basin . تقضم الأعشاب اللينة برقة وهناءة ، وتلفت جيدها محدقة في فطيمها الصغير ، ورفيقها الوحيد في هذه الوهاد المقفرة ، وهو مضطجع قريباً منها على فراش وثير من البِجْلة

لقد أخذت البقع العفراء الساحرة تغشى جلده الناعم فتكسبه روعة وبهاء ؛ فهي معجبة به ، تحنو عليه ، وتحيطه بنظرات العطف كلما بدرت منه حركة دلت على خوف أو ألم ، وهو يتحفز للوثوب خلفها وجلاً كلما خطرت مبتعدة في طلب العشب

صورة رائعة للأمومة التي تعطر جو الحياة الكئيبة ، والثقة التي تخفف من شقائها

رفعت الغزالة رأسها بسرعة البرق ، هل سمعت صوتاً ؟ ربما كان ذلك حفيف الرياح الجنوبية تخترق الغابة ؛ فالسكون الرهيب مخيم على الوادي ، والسكينة سائدة في كل مكان

رنت الظبية بطرفها ، وألقت نظرة اطمئنان على رشأها ثم تابعت رعيها . وفجأة رفعت جيدها واشرأبت تجيل الطرف في أنحاء الغابة ، وهي ترتجف من الخوف ... هناك صدى صراخ متواصل يخترق الوادي . أصغت قليلاً فتأكد لديها نباح كلب يدنو رويداً من كِناسِها الأمين

كان الوقت كافياً لمرحلة طويلة تطويها مبتعدة عن الصيادين . ولكن هناك وحيدها الظبي الألوف ، وأنيسها في هذه الوحشة ، فمن ينقذه؟ هو لا يستطيع اللحاق بها ، فلمن تكل أمره ، ولمن تتركه ؟...

تنابحت الكلاب غير بعيد ، وتجلى للغزالة الخطر المحدق بهما ، فوثبت بضع خطوات الى الوادي تبحث عن ملجأ أو مهرب ! وهب رشأها مذعوراً وهو يبغم متعجباً

أغربت الظبية ثم ألقت نظرة وراءها ، فرأته يتتبعها بسيره البطيء ، وهو يتعثر متألماً من الجذوع الخاوية على الأرض ، والأشواك التي تعترض سبيله . تابعت الأم سيرها واستمر وحيدها لاحقاً بها يتعثر ويستغيث ، لأن البون أصبح شاسعاً بينهما

— كائن صغير من مخلوقات الله لا يقوى على احتمال الألم والخوف والتعب ، فوقع على الأرض ! تصايحت الكلاب وتقاربت ، واشتد نباحها . وأحدق الموت بهذين البريئين من كل جانب ؛ فدنت المسكينة من صغيرها تلحس بلسانها بشرته الرقيقة الناعمة ، واضطجع هو آمناً بقربها ، مطمئناً بعودتها ، ثم ما لبث أن أغمض أجفانه من التعب

فكرت الغزالة في تخليص صغيرها من مخالب الكلاب ورصاص الصيادين ، وكأن صوتاً أهاب بها فرفعت رأسها ، وفتحت منخريها ، وحدقت طويلاً في مصدر الصوت ، ثم نفرت مقتحمة الغابة ، قاصدة ناحية أعدائها . ولما اقتربت منهم وتأكد لديها اكتشافهم لها واقتفاؤهم أثرها ، غيرت وجهتها وشرقت بهم مبتعدة عن ولدها فأصبح في مأمن من الشر

تضاءل النباح وراءها ، فوثقت من فوزها ، وولت وجهها شطر الشمال تود القيام بدورة تعيدها حيث تركت فطيمها ، ولكنها ما عتمت أن سمعت صوتاً جديداً يقابلها ، فانطلقت الى الأمام تجتاز الوادي

هذه صلصلة أجراس القرية تدوى في الفضـــاء ويتجاوب صداها ، لقد أصبحت على مقربة من أكواخ الفلاحين . هنا أيضاً أعداء جدد لم تحلم بهم . سدت في وجهها الطرق ، وأغلقت المفاوز ، وأحاط بها الصيادون من كل جانب . – رحمتك اللهم ! ألم تدع للشفقة مكاناً في ذلك الوادي الزاهر حين خلقته ؟ ولا للرحمة موضعاً في تلك القلوب حين كونتها ؟

الكلاب تفاجئها من كل ناحيـــة ، وسكان القرية يطاردونها رجالاً ونساء وأطفالاً ، يود كل منهم لو يظفر بها غنيمة باردة

تذكرت الظبية طلاها(١) فتجدد أملها بلقائه ، وسلكت طريق القرية مرغمة بين نبوح(٢) الفلاحين ودوى البارود

اعترضتها بحيرة قريبة ، فألقت نفسها في الماء تشق صفحته ، وتسبح بقوة عجيبة . لقد خارت قواها ، ولم تعد سيقانها الضئيلة تساعدها على المضي في طريق النجاة

ولكن الأمل العذب — سر الحياة — كان يهيب بها دائماً لاقتحام تلك الغمرات ، حتى وصلت الشاطئ فأرَنَّت مطمئنة ، وتمثلت أنيسها يبحث عنها في وحشته ، فهرعت تريد احتضانه . ولكن هل نجت المسكينة بعد هذا العذاب الطويل ؟

صياد جديد كان يترصدها فاستقبلها برصاص بندقيته ، فوقعت جثة هامدة . .

« عن الانكليزية بتصرف » **شفيق نقاش**

(١) الصغير من الظبي ومن كل شيء (٢) ضجة القوم وأصوات كلابهم

2 me Année, No. 74.

Lundi-3-12-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٧٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

دار تبـــلى !...

دارٌ تَبلى ! وكانت إلى الأمس القريب دار الأمة ! عليها نزل وحى الوطنية ، ومنها انبعث صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها وُلِدَ معنى الاستقلال

كانت ملجأ الخلافة فى الآستانة ، ومفزَع الخديوية فى القاهرة ، ومخافة الاستعمار فى لنـدن ، ومثابة الاسلام فى العالم كله ! ! تجمَّعت فيها للأمة رغائب ، ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (ألوِية) ، وسمعت مصر فى أفنيتها للمرة الأولى أصوات بَنِيها الخُلَّص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ، ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتَلَّ وعده المطول وعهده الفاجر ! ! ثم كانت (عكاظَ) للبلاغة الخطابية ، و (فُورُمَ) للمساجلة السياسية ، و (كعبةً) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء الصحيفة من ممالأة العدو

تلك هى دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل !

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ الحافل تُعَفّيه الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن

في عهدها الداني قلب مصر النابضَ ، وعزم نشئها الناهضَ ، ومنارة أمرها الهادية ! أتى عليها أتيُّ البِلى فنكَّر أعلامها وأخْفَتَ صداها ! كأنها لم تنفض عن الوادى غبار الخمول ، ولم تمسح عن الأجفان فتور الوسن ! وكأن مصطفى لم يسجل على أركانها أول صيحة بالجلاء ، وأول رغبة فى الدستور ، وأول غضبة للحرية ! ! .

ولكن الزمن الجوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور الناس من شخص وشىء ، فلا يظهر على بأسه إلا الفكرة ، ولا يخلد على رغمه إلا العقيدة

* * *

ألا فاسلمى على رغم هذا البِلى يا دار ! فان لك فى كل قلب آيةً مسطورة ، وفى كل تاريخ صفحة منشورة ، وفى كل جيل نشيداً يعطف القلوب الى الحق ، ويَلفت العيون الى النور ، ويهدى النفوس الشاردة الى الغرض الأسمى والسبيل القصْد

ومن الذى ينسى ومضة الروح الإلهى فى ذلك الجسد الضارع ، فيفور فورة الجبارين ، ويصمد صمود الرُسل ، ويقوم فى وحدة النبى وإيمان الشهيد يجاهد الإشراك بمصر ، والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان انجلترا وهى يومئذ علة العلل ودولة الدول ؟

أم من الذى ينسى خفقة التضحية القدسية فى ذلك الشباب العليل ، فيحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويضىء ظلام يومه بوميض روحه ، ويذكى خمود عزمه بحرارة دمه ، ثم يزهد فى المال والجاه والحكم زهادة الحكيم ، فيحيا للمبدأ والفكرة ، ويموت للقدوة والعبرة ؟

* * *

على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة ! حتى إذا كذب الرائد ، ومكر الدليل ، وخام الحادى ، انبلج فى جوانب الطريق شعاع من هذه الأرواح البرَّة ، فيجلو العمى ، ويكشف الضلال ، ويفضح المكيدة !

وقد ماتوا رضوان الله عليهم ميتة الأنبياء ، لا (عمائر) تحجب سماءَ المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى ! لقد ملكوا وما تركوا ! إنما ورَّثونا حفظ الكرامة وإن أرهقنا الظلم ، وطلب الحرية وإن أجهدنا الطغيان ، ورعاية الحق وإن خدَعنا الباطل !

كانت قافلتنا تسير باسم الله يا دار ! تسير على ضوء من مبادئ الزعماء لا يخبو ولا ينكسر ، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب ! فالتفتنا فاذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد ، ثم ولُّوا وجوههم إلى الخلف ، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً ، حتى لتكاد عواتقهم تهى ، ومفاصلهم تنسرق ، وانبثَّ فى الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان ، يُلَبِّسون عليه الأمر ، ويوهمونه أن هؤلاء هم القادة ، وأن هذه هى الوجهة ! وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا الوراء والأمام ، ويتنازعنا النور والظلام ، حتى ضعضع الصبر الأبىُّ وناقة الطاغية فخرَّ صريعاً ليديه وفمه ! !

* * *

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يادار ! فانتشر ما كان يحجبه من نور ، وسرى ما كان يصده من نسيم ، وعدنا الى نهج الحياة شامتين بمن هوَوا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه !

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها ، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وآثاره ! فأما آثارك فتبقى بركة على الناس ، وحجة على البغى ، وتفسيراً لمعنى البطولة ؛ وأما آثاره فستبقى لعنةً فى فم الدهر ، ودمامة فى وجه التاريخ ، ووضاعة فى كبر الانسانية !

* * *

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يا دار ! فان لك فى كل ذهن صورة ، وفى كل نفس ذكرى ، وفى كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى ، وتلهم الصبر ، وتعين على مخاوف الطريق !

احمد حسن الزيات

قلت لنفسى ... وقالت لى ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قلت لنفسى : ويحك يا نفس ! مالى أتحامل عليك ؛ فاذا وفيت بما فى وسعك أردت منك ما فوقه وكلفتك أن تسمى ؛ فلا أزال أعنيتك من بعد كمال فيما هو أكمل منه ، وبعد الحسن فيما هو الأحسن ، وما أنفك أجهدك كلما راجعك النشاط ، وأضنيك كما ثابت القوة ؛ فان تكن لك هموم فأنا أكبرها ، وإذا ساورتك الأحزان فأكثرها مما أجلب عليك . أنت يا نفس سائرة على النهج وأنا أعتسف بك ، أريد الطيران لا السير ، وأبتغى عمل الأعمار فى عمر ، وأستحثك من كل هجعة راحة بفجر يمتد منه نهار مضطرب ؛ وكأنى لك زمن يماد بعضه بعضاً ، فما يبرح ينبثق عليك من ظلام بنور ومن نور بظلام ؛ ليهيىء لك القوة التى تمتد بك فى التاريخ من بعد ، فتذهبى حين تذهبين ، ويعيش قلبك فى العالم سارياً بكلمات أفراحه وأحزانه

وقالت لى النفس : أما أنا فانى معك دائباً كالحبيبة الوفية لمن تحب ؛ ترى خضوعها أحياناً هو أحسن المقاومة . وأما أنت فاذا لم تكن تتعب ولا تزال تتعب ، فكيف تدلنى أنك تتقدم ولا تزال تتقدم ؟

ليست دنياك ياصاحبى ما تجده من غيرك ، بل ما توجده بنفسك ؛ فان لم تزد شيئاً على الدنيا كنت أنت زائداً على الدنيا ، وإن لم تدعها أحسن مما وجدتها ، فقد وجدتها وما وجدتك . وفى نفسك أول حدود دنياك وآخر حدودها . وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتاً صغيراً ، ودنيا الآخر كالقرية الململمة ، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارة بأكملها ، واذا انفرد امتد فى الدنيا فكان هو الدنيا

والقوة يا صاحبى تغتذى بالتعب والمعاناة ؛ فما عانيته اليوم حركة من جسمك ، ألفيته غداً فى جسمك قوة من قوى اللحم والدم . وساعة الراحة بعد أيام من التعب ، هى فى لذتها أيام من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبه الحى فى هذه الدنيا ووشك انقطاعه منها — بمن خلق ليعيش ثلاثة أيام معدودة عليه ساعاتها ودقائقها وثوانيها ؛ أفتراه يغفل فيقدرها ثلاثة أعوام ، ويذهب يسرف فيها ضروباً من لهوه ولعبه ومجونه ، إلا إذا كان أحمق أحمق الى نهاية الحمق ؟

إتعب تعبك ياصاحبى ، ففى الناس تعب مخلوق من عمله ، فهو لين هين مسوى تسوية ؛ وفيهم تعب خالق عمله ، فهو جبار متمرد له القهر والغلبة . وأنت إنما تكد لتسمو بروحك الى هموم الحقيقة العالية ، وتسمو بجسمك الى مشقات الروح العظيمة ؛ فذلك يا صاحبى ليس تعباً فى حفر الأرض ، ولكنه تعب فى حفر الكنز

إتعب يا صاحبى تعبك ؛ فان عناء الروح هو عمرها ، فأعمالك عمرك الروحانى ، كعمر الجسم للجسم ؛ وأحدها عمر ما يعيش ، والآخر عمر ما سيعيش

***

قلت لنفسى : فقد مللت أشياء وتبرمت بأشياء . وإن عمل التغيير فى الدنيا لهو هدم لها كلما بنيت ، ثم بناؤها كلما هدمت ؛ فما من شىء إلا هو قائم فى الساعة الواحدة بصورتين معاً ؛ وكم من صديق خلطته بالنفس يذهب فيها ذهاب الماء فى الماء ، حتى إذا مر يوم ، أو عهد كاليوم ، رأيت فى مكانه إنساناً خيالياً كمسئلة من مسائل النحاة فيها قولان ...! فهو يحتمل تأويل ما أظن به من خير ، وما أتوقع به من شر ! وكم من اسم جميل إذا هجس فى خاطرى قلت : آه ، هذا الذى كان ...!

أما والله إن ثياب الناس لتجعلهم أكثر تشابهاً فى رأى النفس ، مما تجعلهم وجوههم التى لا تختلف فى رأى العين . وإنى لأرى العالم أحياناً كالقطار السريع منطلقاً بركبه وليس فيه من

---

(١) كتبت فى ساعة ضجر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده ، والعالم كله وحده ؛ ذاك فى وجود نفسه خاصة ، والآخر فى وجود الطبيعة كلها

يقوده . وأرى الغفلة المفرطة قد بلغت من هذا الناس مبلغ من يظن أنه حي في الحياة (كالموظف تحت التجربة) . فاذا قضى المدة قيل له : ابدأ من الآن ؛ كأنه إذا عاش يتعلم الخير والشر ، ويدرك ما يصلح وما لا يصلح ، وانتهى من عمره الى النهاية المحدودة — رجع من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة ، وفي إدراك وتمييز . مع أن الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يعد منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه ، بل وجدوه مولوداً في فراشه ...!

وقالت لي النفس : وأنت ماشأنك بالناس والعالم ؟ ياهذا ، ليس لمصباح الطريق أن يقول : « إن الطريق مظلم » إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول : « هأنذا مضيء . »

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتململ ، كما أنه لا يسخف ولا يطيش ولا يسترسل في كذب الوهم ؛ فان هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمة الانسانية ، لا أثر الروح القوية في إنسانها . والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس . وبين كل شيئين مما يعتور الحيوانية كالخلو والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس لتحطها من مرتبة مرتبة الى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضع اليد العاملة على مفاتيح القطار المنطلق يتسعر مرجله ويغلي

إعمل يا صاحبي عملك ؛ فاذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله ، بل خذ اطمئنانه الى اطمئنانك ، ودعه يخلو و تضاعف أنت

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناس (كالبنوك) : هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمره ، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها و تزيدها . وإفلاس رجل من أهل المال هو إطلاق النكبة مسددة منها على رجل تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة يدفعها الكبير على مدينة تدمرها

***

قلت لنفسي : فما أشد الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح ! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء ، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوس محبوسة فيه قوته وطباعه ؛ فإن زال الوجود الحديدي من حوله ، أو وهنت ناحية منه انطلق الوحش .

والرجل الفاضل فاضل ما دام في قفصه الفكري ، وهو مادام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح الممكن في النفس الانسانية ، تصيبه السيئة من الناس لتختبر فيه الحسنة ، وتبلوه الخيانة لتجد الوفاء ، ويكرثه البغض ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنة لتجد المغفرة ؛ وله قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتدأ التعب ليبلغ منزلة أعلى منها ، وله فكر كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها

وقالت لي النفس : إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة ؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغائر والشر ، أما الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها ؛ كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهي ، ولا يعرف أين ينتهي ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الارض ، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الانسانية أصلا صغيراً ، يجمع فكرة الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسنى ، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها ، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها . ألا وهو الحب

لابد أن تمر كل حياة إنسانية في نوع من أنواع الحب ؛ من رقة النفس ، ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشقها

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتح للعظائم والمعجزات أبوابها ؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة ، ويملأ الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهي ؟ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف

إجهدْ جهدَكَ يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسك ، ولكنه صَقلُ النفس لتتاقى الأنوار ، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَر

***

قلتُ لنفسي : فما أشدَّه مضضاً أُعانيه ! إن أمرى ليذهب فرَطاً . أ كلما ابتغيتُ من الحياة مَرحاً أطربُ له وأهتزّ ، جاءتني بفكرة أستكدُّ فيها وأداب . أهذا السرور الذي لا يزال يقع بين الناس هو الذي لا يكاد يقع لي . وهل أنا شجرة في مغرِسها ؛ تنمو، صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها غير أنها لا تبرحُ مكانها . أو أنا تمثالٌ على قاعدته ؛ لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعه معانى العظمةِ التي نُصب لها ؟

. وقالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب في كونك الصغير ما ليس فيه ؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يَسيح أهلُ قارّةٍ من الأرض فى قارّةٍ غيرها ، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أ كبَرَ من الأرض كلها . فأنت سائح فى سموات

أنت كالنائم ؛ له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى ، إلا وَصفه ، وحكمته ، والسرورَ بما التذَّمنه ، والألمَ بما توجَّعله

لن تكون في الأرض شجرةٌ بِرِجلين تذهب هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهى تُبدِع الثمار إبداعَ المؤلف العبقرىّ ما يؤلفه بأشدّ الكدّ وأعظم الجهْد ، مُطْلِقَةً ضميرها في الفكرة الصغيرة ، تَمتَصُّها شيئاً شيئاً ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كل وقت تعود عليها ، حتى تستفرغَ أقصى القوة ، ثم يكونُ سرورُها في أن تهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ

إن في الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ، فالحياةُ فيها على حقيقتها ؛ وأكثرُ ما تكون الحياةُ في الانسان على مجازها ، وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين . ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقرّ فيه سراً من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرة التي تَصنعُ ثمارَها — فقد غرَسه شجرةً في منبتِها لا مفرَّ ولا منـدوحة . وقد يُخيِّلُ له ضعف طبيعته البشرية أحياناً أن نَضرةَ المجد التي تعلوه وتتألّق حوله كشعاع الكوكب — هى تَعبُهُ وضجره ، أو أثر انخذالِه وألمِه ومسكنتِه . وهذا من شقاء العقل ، فانه دائماً يضيف شيئاً الى شيء ، ويخلط معنًى بمعنى ، ولا يترك حقيقة على ماهى ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ، والعقل لا يرى أمامه إلا الألٓهية ، فهو يقلدها في مُداخلَةِ الأشياء بعضها في بعض ، لإيجاد الأسرار بعضها من بعض

ومن ثَمّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتـةُ مَدْعاةً للملل العقلىّ في الانسان ، لا يكاد يقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمع فى غيره ، وما فاز بلذّةٍ إلا ليزهـد فيها ، وأجل ما أحبه الانسانُ أن يناله . فلا بدّ لهذا الانسان مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ ، فان هو لم يجد خطأ في شيءٍ اِخْتَلَقَ لنفسه الخطأ المضحك في شِبه رواية خياليةً

إنه لشعر سخيف بالغُ السخافة أن يُتَخيَّل الغريق مفكراً في صيد سمكٍ رآها . . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يضيفه الى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليَعْبَسَ فيه !

***

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أحرق دمى لأنى أفكّر ، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذى ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبِّر لا يريه ذلك الوجه المشوقَ إلا ثقوباً وتخريماً كأنه خشبةٌ نزِعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال . وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارْتَصد له من عمل ؛ فلا يكون الحوذيُّ حوذيّاً إلا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لى النفس : إن فأس الحطاب لا تكون من أداة الطبيب ، فخذ لكل شيء أداته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجهل هو أ كبر علم الشعور الدقيق المرهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً ، ولـكانوا في هذا الوجود ، على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذى قُيِّد وحُبس في رَهَجٍ تثيره القدم والخف والحافر ؛ لا يتنفس إلا الغبار يثار من حوله الى أن يقضى عليه

إجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العِلمُ الخبيث الذي يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لرُوحك الطّفلةِ في ملائكيّتِها حين تساوِرُكَ الشهوات : « هذا ليس لي ؛ هذا لا ينبغي لي »

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفلُ الملائكيّ

وعِلمُ خسائسِ الحياة يجعل للانسان في كل خسيسةٍ نفساً تتعلقُ بها ، فيكون المسكينُ بين نفسين وثلاثٍ وأربع ، الى ثلاثين وأربعين ، كلُّهن يتنازَعنه فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبحُ بعضه بلاءً على بعض ، وتشغَله الفضول ، فيعود لها كالمزبلة لما أُلقي فيها ، ويُمْحَقُ في نفسه الطبيعيةِ حِسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمحَق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحسِّ بها

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الانسان المنكود ، هي الأرواح التي يَنفُخُهَا في مصائبه ، فتجعلها مصائبَ حيّةً تعيشُ في وجوده وتعمل فيه أعمالَها ، ولولاها لماتت في نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائب كثيرة

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كلَّه في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنةُ الطرب ؛ وانظر بالعقل العالم ، فلن ترى في الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء

وَمَدَى الروح جمالُ الكونِ كلِّه ؛ وَمَدَى العقل قطعةٌ من حجر ، أو عظمةٌ من حيوان ، أو نسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من معدن ، وما أشبهها

إجْهلْ جهلَك يا صاحبي ؛ ففي كل حُسْنٍ غزلٌ ، بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع ، وإلاّ أَصَبْتَ في كل حسنٍ هَمّاً وَمَشْغَلَة . . . !

***

قلتُ لنفسي : الى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمتُه عنكِ

وقالت لي النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذي كتمتَه عني . . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

٣ ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري



المرحوم محمد بك المويلحي

نمو في نشأته ودراسته

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً بما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه فأكبّ على الكتب دائرها ومجفوِّها . ولعل أكثر نظره إنما كان في كتب التاريخ والسيَر ، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما في مواطن الاستشهاد فطنةً عجيبة ، الى دقائق دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلّقها من يفطن اليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحبَ كذلك

أهل الظرف وأصحاب البدائه ، وشاركهم فى أسمارهم ، ودخل معهم فى مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيان من صدر شبابه ، يصقل له أبوه القول ، ويقرّب له مصطلق اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسج ، ويهديه الى مضارب العلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلمه بالبيان حلواً متيناً نيراً ، ووقع من فنون المعانى على أجلّها وأكرمها . ونهج لنفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كلّه الأديبُ التامّ

واحترف صنعة القلم ، واشترك فى تحرير جريدة المقطم بضع سنين على ما أظن . ولا أحسبه قد شارك أباه فى تحرير الصحف التى أخرجها فى عهد المرحوم الخديو اسماعيل ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد فى أرجح الظن ، من حمله القلم والله أعلم !

وكان أبوه ، رحمة الله عليهما ، كثير الاختلاف الى الآستانة مَثوَى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه فى بعض هذه الرحلات ، وقُلّد ابراهيم بك فى زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدقتنى ذاكرتى ؛ فقضى محمد فى الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر ، وآثر المقام فى إيطاليا دعا بابراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه فى بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما فى نابولى فى قصر اسماعيل بضع سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغةَ التليان

ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوربا ، إما موفداً من أبيه فى بعض مساعيه ، وإما متفرجاً متنزهاً . وله فى وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كان ينشر منجماً فى مصباح الشرق[١] وطاف كذلك بالبلاد السورية ، وزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره فى جريدة المؤيد[٢]

واستقرّ المويلحيان أخيراً فى مصر ما يبرحانها إلا للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة «مصباح الشرق» . وقدمت بك صفتها فى أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف فى داره لا يلى عملاً عاماً ؛ حتى عين فى سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الادارة والسكرتارية فى ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد الى اعتكافه لا يتدلّى الى البلد إلاّ فى قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيب مجالستهم من الصحاب ، وظل كذلك الى الشكاة التى مات فيها ، عليه رحمة الله . وكانت وفاته فى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

أخلاق المويلحى وعاداته :

قبل أن أطرقَ هذا البابَ من سيرة الرجل يحسن بى أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتريه فى بعض الحديث مايشبه الحُبْسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ فى حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلا بعطّ عنقه ، كأنما يُعرّى لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يَلفت النظرَ فى خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمر المرءَ من متعارف الناس ومصطلحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرُه الخاصّ فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نَفْسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالى أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجىّ ، ولو كان مما انعقد عليه اجماعُ الناس ، وإذا كنتُ قد نعتُّه (بالفيلسوف) فانما أعنى هذه الصفةَ فيه . فاننى لم أكد أرى رجلاً لاءم كل الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خَلّةَ هذا الرجل بحكم ملابستى له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء فى كثير من الأشياء لقد تبدو غريبةً حتى يُظَن أن فى طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أُحيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لطاوعة الناس فى كل ما يستوى من الأدراك للناس !

ثم لقد كان رجلاً يرجح عقلُه ذكاءَه . وإنه ليحتاج فى تفهّم دقائق المعانى الى شيء من المطاولة والتدبير . على أنها بعد هذا تتّسق لذهنه مدركَة ناضجة ، لا كما تخطر لحداد الذكاء (خطرةَ البرق بدا ثم اضمحلّ) !

---

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) فى آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية .

كذلك كان مما يلفت النظر فى شأن المويلحى أنه شديد الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألف . ولقد يكون فى مجلس يجمع الصفوة من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فاذا هو يفتُر وينقبض حتى يكاد (يوحش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخول فى زحمة النـاس ، والترائى للجماهير ، وما إلى هذا من مقتضَيات الظهور

ومن أجلّ صفات هذا الرجل حدّة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة الحَمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهراً للبَرم بالحياة مهما كرثه تصرّف الحياة . ولقد يكثر المالُ فى يده فيبسطها ، الى ما يقرب من السرَف فى النفقة فى حاجاته ، واصابة ما يحلو له من التمتع واللذائذ . ولقد يرقّ المال فى يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يبرحها أبداً ، متجملاً فى عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة

كذلك كان من أجلّ صفاته الصدقُ فى القول ، ولقد عاشرته ما عاشرته ، فما أذكر والذى نفسى بيده ، أننى أحصيت عليـه كذبة واحدة قطّ ، ولا من ذلك النوع الذى يتورّط فيه المرء فى مصانعة الناس ومجاملتهم ، فان ألحت التقاليد عليـه فى شىء من هذا سكت أو ورّى . ولقـد أذكر أنه قابل ولىّ الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان ، فسأله أصائم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شدقيه من هذا الجواب

***

ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديدَ العناية بالنظافة فى جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق فى كل شىء ، يحب الزهر ويكلف به ، ويحسن تأليفَـه وتصنيفَـه ، ولا يمسّ إلاّ أزكى العطر وأغلاه

وكان شديد الاحتفال للطعام ، مبالغاً فى التأنق فيه . ولربما طالع طاهيَـه المرات العديدة فى مطبخه ، يتقدم اليـه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع بتلك الصحفة كيت وكيت ، وهو بهـذا حق خبير . فاذا قُرِّب اليه طعامه اجتمع له اجتماع شهوانٍ يلتذّ به أيّما التذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم فى تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

وكان رجلاً طَبًّا ، كأن طول تمرينه فى النقد الكتابى قد طبعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملكتَه فيـه ، فلا تراه يتخذ شيئاً فى أى سبب من أسبابه إلا إذا فحص ونقَد وتخيَّر ، فما يكاد يُخدع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يحبّ النكتةَ البارعةَ ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلسُ بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشىء للنكتة والمبتكر لها . ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولاّها بالتخريج والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذاك منتهاه

ومهما يكن من شىء فان هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فاذا تحدّث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما ينبغى أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الالحاد ولا الزيغ الى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديد الايمان بالله وملائـكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فان رأيت منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألة جزئيـة من مسائل الدين ، فأحِل الأمر على مجرد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءَه فى دار الجزاء ؟

عبد العزيز البشرى

صفحة من التاريخ

مأســـاة

وقعة انبابة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

علة الشرق هاهى : حاكم يسطو ويعبث بالقطيع الذى هو حارسه ، ويبطش به بطش الذئب إذا عدا فى غيبة الحارس الأمين ، فتجفل الشياه ذات اليمين وذات الشمال . ويتقدم من هنا أو من هناك كلب جرىء يحاول أن يدفع الغائلة عن شياهه . فاذا هو يرى سيده الحارس هو الذى يبطش ويفتك . فيضع ذيله بين رجليه ، ويكتم عواءه فى حنجرته ، ويجرى إلى ناحية يكشر عن أنيابه منفرداً وهو متخاذل مهدود العزيمة . لو كان ذلك العادى ذئباً حقيقياً لما وضع الكلب المسكين ذيله بين رجليه ، بل لرفع ذيله وعدا عامداً إلى رقبة ذلك الذئب وأنجى منه القطيع . فأما والذى يفتك بالقطيع هو حارسه ، وأما والذى يبطش به هو الرجل الذى اعتاد أن يحمل الهراوة ويسطو بها على رأسه يكاد يحطمه ، فأمر آخر . وللكلب كل العذر إذا هو التمس العافية فى مهرب من مهارب المرعى ، أو فى مكمن من مكامن الوادى . ولا لوم عليه إذا هو فعل

كان (خوارزم شاه) حاكم خوارزم (أو بلاد مابين سيحون وجيحون) فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، حاكماً جباراً عاتياً . وكان لا يتردد عن مظلمة ، ولا يحجم عن إيقاع . فكم مثّل بتجار من بلاده ، وسجن وعذب ونهب . وكم مثّل بتجار من بلاد جيرانه التتار ، وسجن وعذب ونهب . ولم يقف أذاه عند هذا الحد ، بل تعدى إلى الدولة التى هو حاكمها ، ففت فى عضدها وخضد شوكتها ، وحطم عودها ، حتى صارت بلاده شعباً مشدوهاً وحكومة منحلة مضيعة

ثم كانت الكائنة التى لابد منها فى بلاد مثل بلاده ، فأغارت جيوش جنكيز خان على أطرافها فعجمتها ، فاذا هى رخوة جوفاء ، فتقدمت فيها وأوغلت ، فلم تجد من الطاغية إلا جباناً ، ولم تر منه إلا حرصاً على نفسه وماله وأهله . فما هو إلا أن رأى الجد من أعدائه ، وأحس بما كان لابد منه من ضعف ومن عجز ، حتى ترك البلاد وهرب إلى مأمن ليلتجىء إليه ، وبقى الناس حيارى بعد هربه يحاولون الدفاع وما لهم به من قوة ، ويرجون النجاة وأنى لهم ذلك وقد اقتلع الطاغية جذور القوة من الشعب لتلين له قناته ، فلانت قناة الشعب له حقيقة ، ولم يستطع أن يقاوم طغيانه ما بقى للطغيان ، حتى إذا ما أتاه العدو وألفى نفسه عاجزاً ، ترك ذلك الشعب المسكين وهو أعزل ذليل عاجز عن حماية نفسه . فكانت الكارثة ، وذهب الطاغية وشعبه كلاهما ضحية لعواقب الطغيان

هذه سنة الطغاة أبداً ، وهذه سنة الكون منذ نشأ . وما كان للقرن الثامن عشر أن يحيد عن سنة الكون التى نكبت خوارزم فى القرن الثالث عشر . فقد كانت مصر فى القرن الثامن عشر تحت طاغيتين من طغاة البشر : مراد وابراهيم ، وكانا كسائر الطغاة قصيرى النظر مفلولى العزيمة ، لا همة لهما إلا فى صغائر الأمور والأنانية . ولسنا بسبيل وصف ما كان عليه حكمهما من الميل والاعوجاج ، ولا ما كان عليه خلقهما من الشناعة والفظاعة ، فقد يكون لهذا حديث آخر ، وإنما نقصد من كلمتنا هذه وصف حال البلاد عندما أزمت الأزمة التى كان لا محيد عنها ، ووقعت النكبة التى كان لابد منها من وراء حكمهما

جاء الفرنسيون إلى ثغر الاسكندرية ، وأصبح الصباح وإذا أهل ذلك الثغر يرون الجنود يخالطونهم ، ويترددون فيما بينهم

وكان الفرنسيون يحملون سلاحاً عجيباً غريباً ، لا عهد لأهل الثغر به ، فما كان عهدهم بالجنود إلا هؤلاء (الانكشارية) الذين يقيمون فى القلاع بين ظهرانيهم يدخنون الشبقات الطوال ، ويطيلون شواربهم ، ويعلون أصواتهم بالسباب ، ويمدون أيديهم بالأذى ، ولا يحملون من السلاح إلا تلك البنادق العتيقة الرثة التى أكلها الصدأ وعفّى عليها القدم

وتقدم الأنكشارية نحو الجنود الفرنج ليدفعوهم عن الاسكندرية ، فما هى إلا جولة قصيرة حتى رموا بما فى أيديهم من الأسلحة العتيقة ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى حيث يجد لنفسه مأمناً

ورأى أهل الأسكندرية أن هؤلاء الجنود ليسوا سوى شوكة فى جوانبهم فى السلم ، فاذا حل الحرب فهم لا يدفعون أذى ولا

يرجى منهم غير الأذى . فوقفوا بعضهم يشجع البعض ، وأحدهم يساعد الآخر ، يحاولون أن يلتمسوا لأنفسهم الحماية بسواعدهم . فتحصنوا فى المنازل وجعلوا فى كل ركن متراساً ، وفى كل حائط مرصداً . غير أنهم واحسرتاه أرادوا الدفاع ولم يستطيعوه ، فإذا بالعدو يحصدهم حصداً ، ويدك بيوتهم دكاً ، ويجتاح متاريسهم اجتياحاً . فسلموا للعدو ونزلوا على حكمه ، وصار الفرنسيون فى ساعة أصحاب الأسكندرية

ثم تقدم الجيش الفرنسى المنصور إلى طريق القاهرة ، وسمع طاغيتا الدولة بسيره ، فأجمعا أمرهما على أن يسير مراد ليلقاه ، فيشتت شمله بصدمة من صدمات فرسانه الشجعان . وخرج من القاهرة منتفخ الأوداج كبراً ، ممتلىء النفس إدلالاً وغروراً . وجعل الناس يسائلون أنفسهم ماذا عساه يفعل ، ويأبى هو إلا أن يرد بالازدراء على ذلك التساؤل قائلاً : « سنحطم ذلك الجيش المغير تحت سنابك خيولنا » وسار حتى بلغ شبراخيت أو قريباً منها ، وهنالك لاحت له طلائع الجيش الفرنسى . ثم كان الاصطدام ، ولطم لطمة خفيفة فلم يصبر عليها ، بل هرب فزعاً ، واضمحلت كبرياؤه ، وذاب إدلاله كما يذوب الثلج فى الحر ، وأسرع راجعاً إلى العاصمة لعله يأتنس بمن هنالك من جنود زميله ابراهيم ، أو ينتصر بمن هنالك من الشعب المصرى الذى طالما أوقع به فى طغيانه وجبروته . فلما بلغ مصر وقف ببقايا جيشه عند (انبابه) ، وأرسل إلى القاهرة يستنجد ويستمد ، فنودى على أهل القاهرة بالنفير والتجهز للدفاع . وهكذا لم يجد الطاغيتان أخيراً أن لهما غنى عن الشعب ، وعلما بعد أن وقعت الواقعة أن الملجأ الأخير إنما يكون إلى هؤلاء العامة ، وقد كانا فى أيام السلم لا يقيمان لهم وزناً ولا يفكران فيهم إلا من أجل أموال يبتزانها ، أو من أجل كبريائهما يغذيانها ، أو من أجل نفسيهما الطاغيتين يشبعان شهوة طغيانهما

ولكن كان الشعب واحسرتاه قد قتله الطغيان . فأجاب دعوة النفير وجعل يستعد للدفاع ، ولكنها إجابة المضنى الذى أجهده الضنى ، واستعداد النزيف قد خارت قواه من طول ما أريق من دمائه ، فما يكاد يعتمد على رجليه حتى يخر إلى الأرض مهدوداً متهالكاً

أغلق الناس (دكاكينهم) وهجروا أسواقهم ، وخرجوا جميعاً إلى بولاق يجمع بعضهم من بعض ما عندهم من المال الضئيل ، فأما من عنده فضلة من ماله فقد تطوع بالانفاق على غيره ، وبذل السلاح والطعام لمن يحتاج إليه . وهم فى كل ذلك يتلفتون لعلهم يرون هؤلاء الألى كانوا بالأمس يشمخون بأنوفهم عتواً وكبراً ، فلا يجدون إلا باحثاً منهم عن أمر نفسه ، أو منهمكا فى نقل متاعه وأمواله إلى حيث يكون آمناً عليها من النهب أو المصادرة . وأبصر الناس ذلك فلم يثنهم عن التقدم نحو واجبهم وهم فى غير عدة . لا بل ما هو أكثر من ذلك ، قد تقدموا وهم غير أكفاء ولا مدربين فى أمور الحرب ، إذ طالما قد وقف الطغاة بينهم وبين أداء حق الدفاع عن الوطن ، خوفاً منهم أن يجعلوا لهم فى أمر بلادهم رأياً ، أو فى حكم وطنهم شأناً . وتقدم شعب مصر نحو الجهاد الوطنى ، وأكثرهم أعزل لا علم له بالحرب ، ولا بما تستلزمه من جهد أو من دربة . حتى لقد خرج بعضهم بالنبابيت ، لا يحسبون ذلك إلا مغنياً عنهم فى معمعان ذلك الجهاد

ووقف الطغاة ينظرون ما صنعت أيديهم ، ومع ذلك لم تنفطر قلوبهم أسى مما يشهدون ، ولم يبخعوا نفوسهم على آثار ما اجترمت حكومتهم فى البلاد . بل ظلوا وهم « حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم . محتقرون لشأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم »(1)

وقدم جيش فرنسا بعد قليل الى انبابة ، فتقدمت اليه جماعة من العسكر ليُصدم الجيش المغير مرة أخرى بهجمتها العنيفة . فدفعوا الخيل فى صدر الجيش المقبل ، ولكن لشد ما عجبوا إذ رأوا ذلك الجيش ، لا يتمزق لصدمتهم ، ولا ينصدع من هجمتهم ، فعادوا مذعورين ، وستة آلاف من الجيش الفرنسى تضرب فى أقفائهم ، حتى بلغوا متاريس مراد بك ، فانضموا اليه وقد دب الرعب فى قلوبهم

سار الجيش الفرنسى المتقدم وراء المنهزمين ، وانقسم على أسلوبه وطريقته ، ثم دار على نظامه وخطته ، فاذا متاريس مراد بك محصورة وسط نيران الجيش الفرنسى ، وإذا النار تنصب على المصريين من خلف ومن قدام . وكان فزع ، وكانت مذبحة ، وما هى إلا ساعة أو أقل من ساعة ، حتى انجلى الغبار وارتفع القتام عن حطام الجيش المصرى ، بعضها ملقى فوق اليابس ، وبعضها يتخبط فى ماء النهر ، وفلول أسارى فى أيدى العدو ، والنقع الثائر من جهة الجنوب يخفى وراءه الطاغية (مرادا) ، وهو هارب نحو الجيزة حرصاً على حياته

(1) هذه كلمات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله

صحف مطوية من التاريخ الاسلامى

٣ـ العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمــة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات والمستعمرات المسلمة فى غاليس ولومبارديا وسويسره منذ أواخر القرن الثامن الميلادى حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول فى أواخر القرن العاشر ، ونحاول الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والاسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والانشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم ، ولا ريب أن ظمأ المغنم ، وشغف المغامرة ، وما إليهما من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ؛ وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمــــل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الاسلامية التى تنتمى إليها ، وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها ، ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والأنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها(١) ؛ وقد استقروا بالفعل واستعمروا حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء ، كما فعلوا فى أقريطش ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها ، زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١ م) ونشروا بها الاسلام والحضارة الاسلامية ؛ وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارانت من ثغور إيطاليا الجنوبية ، وفى راجوازا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) مستعمرات زاهرة لبثت حلية هذه المياه عصراً . هذا ولسنا نتحدث عن دولة الاسلام فى اسبانيا ، ولا دولة الاسلام فى صقلية ، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصابات المسلمة التى كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الاسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك ، ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الاسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الاسلامية أقل عنفاً وسفكاً ؛ ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الاسلامية أروع صنوف الدمار

(١) Finlay: Byzantine Empire Ch. III—I

وسمع من فى الجانب الشرقى من النيل بضجة الحرب ، ورأوا ما اندلع فيها من لهب ، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد ، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به ، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا ويجالدوا ، وخانهم الجلد وإن كانت نفوسهم تواقة الى أن يثبتوا ويصبروا . والذعر متى استولى على النفس ، لم يبق فيها محل لثبات ولا لصبر ، ولم يترك فى القلب موضعاً لحفاظ ولا لحمية . فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم ، بعضهم ناج بنفسه لا يلوى على شىء ، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وحرمه ، وأقبل عليهم الليل ، وهم فوضى مشردون مشدوهون ، يحسبون كل ضجة صوت مطارد ، ويخشون أن يكون كل متردد فى الظلام عدواً مقبلا بسفك الدماء وهتك الأعراض

وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تتم للطاغية جريمته بنكبة شاملة ، لا يبقى فيها بر ولا فاجر ، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية

محمد فريد أبو حديد

والسفك ؛ بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الاستعمارية الحديثة . الاسبانية والانكليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى أفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار

***

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الاسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم . ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الاسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت أقرب إلى المغامرات المؤقتة منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة ، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار الهامة المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى لا تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية ؛ وهنالك فى جنوب فرنسا ، وفى بعض أنحاء ايطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية ؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هى آثار عربية من مخلفات الغزاة ، كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا (لانجدوك) أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ، ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع الى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى الأعوام الأخيرة فى منطقة تور سيوف ودروع قيل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء)

ومن الحقائق التى لا شك فيها أثر العرب فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها . ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة الى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا اليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة ؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون الى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الانحاء ؛ ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا انما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعوه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وأفريقية الى شواطىء الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذى تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى « Quitran » ينم عن أصله العربى

ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب فى تحسين نسل الخيل فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى « كامارج » ، وفى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هى من سلالة الخيول العربية التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم الى تلك الأنحاء

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا ، فقد رأينا أن العرب أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها ؛ ولما تغلب عليهم النصارى ، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض ، تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ؛ وقد

لبث أبناء هؤلاء العرب المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة ، حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا أخيرا فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية . ، وما زالت ثمة فى بروڤانس فى وادى الرون على مقربة من ليون ، وكذلك فى بيجور على مقربة من جبال البرنيه ، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غريبة . ولها أخلاق وتقاليد خاصة ، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصـل عربى ؛ ولـكن البحث يرجح أنها ترجع الى بعض قبائل النور الذين استقروا فى تلك الأنحاء منذ عصور

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات بروڤانس التى استقر فيها العرب مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص ، يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour ، والتى ظهرت فى جنوب فرنسا وفى شمال اسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف الى ذلك أن تأثير الحضارة الأسلامية فى سير حضارة أوربا الجنوبية لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس ، والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها الاجتماعى أعظم الآثار

ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر ، وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالاً لاتذكر بجانبها أهوال الغزوات الاسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب ، وأضحت تقرن بكل ماهو عظيم ضخم [1] ، يقول رينو :

(١) Reinaud, ibid, P. 310

« إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لاتوجد إلا فى الكتب . ولـكن ما السر فى أن ذكرى العرب مازالت ماثلة فى جميع الأذهان ؟ لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمن والمجر ، واستطالت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية . وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة . حتى أننا لانستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك أن العرب ، دون النورمان والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ؛ ثم أنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا ، موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وأفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً . بيد أن هذه العوامل كلها قد لاتكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لايزال ملموساً الى يومنا [1]

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) Reinaud; ibid, p. 311,312 وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه النقط الخاصة بآثار العرب فى جنوب فرنسا

في يوم ماطر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كانت السماء مُطبِقةً على الأرض ، والمطر يسحّ حثيثاً متداركاً يكاد من شدته يقشر القطران ، والماء يسيل على جانبي الطريق ويتدافع ويرتفع له مثلُ الموج ، وكان أمام نافذتي بوابة عريضة وقفت على عتبتها فتاةٌ تتقي المطر في ظُلَّتها . وكانت ترتدي ثوباً مُشرَّقاً بين الحمرة والبياض كأنما استعارت صبغته المزدوجة من الشمس الغاربة والقمر الطالع . وكانت فيه كأنها مِقطَعٌ أومثال فصل الثوب على قده لعرضه على العيون ، فمحاسنها كلها مجلوّة ، وخطوط قوامها اللين مرسومة ، وقد اجتمع طرفان منه على سرتها وانعقدا على صفة وردة كبيرة ، وتدلت على مدار خصرها الهضيم ذلاذل تكاد تمس قدميها الدقيقتين ؛ أما صدرها فأطاف به شيء لا أدري ماصفته كأن ثدياها الناهدان يبدوان من تحته كأنهما في كأسين ، أو كأنهما موجتان متناوحتان حجزتا وحيل بينهما وبين التسرب والانسياب

ولم يكن أفتن من منظرها وهي واقفة ترقب انقطاع المطر ، وكان معي في البيت صاحب يحمل مظلة جميلة غالية ، لاتفارق يده في صيف ولاشتاء ، ولا ليل ولا نهار ، فكأنها قطعة منه ، أو امتداد لذراعه ، فغافلته وحملتها ، ومضيت بها الى هذه الفتاة ووضعتها في يمينها ، وارتددت عنها بلا كلام . فلما أفاقت من دهشتها كنت قد غبت عن عينها

وآن لصاحبي أن يخرج ، فنظر فلم يجد المظلة ، فتلفت هنا وههنا ثم سأل فقلت :

« أترى هذه البوابة ؟ كانت هنا فتاة جميلة تخشى على نفسها وعلى ثيابها من المطر فلم يسعني إلا أنجدها . . . . »

فسأل : « أعطيتها الـ . . . . . »

قلت : « ألم أقل لك إنك ذكي ؟ بل أنت أيضاً ذو مروءة ونجدة وشهامة »

قال : « ولكن مظلتي ؟ كيف أخرج الآن . . . . . وفي هذا المطر أيضاً ؟ »

قلت : « إنها بلا شك تشكر لك هذا الصنيع الجميل ، فأنت سعيد بذلك ، فليتني كنت صاحبها — أعني المظلة ! »

قال : ولكن ماذا أصنع ؟ كيف أخرج ؟ إن هذا شيء . . »

قلت : « ياصاحبي . إن الأيثار حميد ، والأثرة ذميمة »

فقال : « تعطى مظلتي لفتاة ؟ أما إن هذا لغريب ! »

قلت : « ياصاحبي . لو رأيتها لما قلت « فتاة » بهذه اللهجة التي أنكرها ولا أرضى عنها . إنها فتاة رائعـــة . وإني لرجل متزن الأعصاب في العادة ، ولكني أرجو أن تثق أنها فتنتني . وإني لآسف على حرمانك هذه المظلة الثمينة — أو التي كانت ثمينة منذ أربع سنوات — ولكن عليك أن تتعزى بأن التي تحملها الآن أجمل فتاة على ظهر هذه الأرض ، وأنك أنت سبب سعادتها في هذه اللحظة ، وأن اسمك سيخلد في التاريخ ، وأني لو كنت شاعراً لقلت أبياتاً أخلد فيها صنيعك الحسن هذا ، وإن أبنائي سيحفون بي كل ليلة ويطلبون أن أقص عليهم كيف فقد صاحبي العظيم مظلته الغالية . . . »

ولم أتم خطبتي لأنه خرج مغضباً ، فأمسكت وحمدت الله !

***

وحمل إليَّ البريد رسالة غريبة هذا نصها بعد الديباجة المألوفة :

« إن ما أقرأه لك يحملني على الثقة بأنك لن تخيب رجائي فيك . فهل لك أن تقابلني أمام باب « جروبي » الساعة السابعة من مساء اليوم ؟ ولا أجرؤ أن أبدو لك حتى تبدو لي ، فاذا صدق ظني فيك فلعلك تتفضل بأن تضع في عروتك زهرة من زهور « الأرواله » البيضاء ، لأعرفك بها ، وزيادة في الحيطة أرجو أن تقول لي « لا مطر غداً » فأقول لك « لم ولماذا وكيف يكون ذلك » . فلا تنس »

ولم يكن على الرسالة توقيع ، فلم أشك في أنها فتاة مصرية لم تألف أن تدخل « جروبي » وتجلس في حديقته ، ولكنها تسمع باسمه فهي تقف عند بابه ، فما يعقل أن يكون كل هذا الحرص والحذر من رجل ، واطمأنت نفسي بعد أن خلصت إلى هذه النتيجة ، وشكرت الحظ الذي أبعد عني صاحبي قبل أن تردني

هذه الرسالة ، بدقائق ، ولو أنه كان معي لأطلعته عليها بلا أدنى ريب ، ولكان المحقق أن يسبقني إلى باب « جروبى » فيطردنى بوجوده ، عنه

واشتريت الزهرة المطلوبة ، ووضعتها فى العروة ، وأخرجت منديلاً وظللت أرفع يدى به وهو منشور إلى أنى لأحجب هذه الزهرة عن العيون ، فقد كانت كبيرة وأنا أخجل أن أضع على صدرى زهراً ولو كان فى حجم الحمصة ، ووقفت بباب جروبى أتأمل الداخلين والداخلات ، والخارجين والخارجات ، وأشاور نفسى وأسائلها كيف أقدم على خطاب من لا أعرف ؟

ولم يكن ثم بد من الاقدام ، فما اشتريت الزهرة البيضاء الكبيرة وغرستها فوق حبة قلبي لأعرض نفسى على الأنظار ، فتوكلت على الله ، على أنى — كما لا أحتاج أن أقول — أهملت العجائز وتركتهن يرحن ويجئن كما يشأن دون أن أكلف نفسى حتى النظر إليهن ، وأقبلت فتاة رشيقة تتلفت كالمترددة فتمنيت أن تكون هى ودنوت منها وقلت :

« معذرة . واغتفرى لى تطفلى ، لامطر غداً ! »

فنظرت إلى باسمة وقالت :

« باردون ؟ »

فقلت لنفسى : « ليست بها . وقد غلطت والله ياولد ، فاخرج من هذا المأزق بسرعة » فتباهلت وسألتها بغير العربية :

« إنما كنت أسأل هل هذا جروبى ؟ »

فقالت وهى تبتسم : « طبعاً ... الأسم مكتوب ... »

فبلعت ريقى وشكرتها وارتددت عنها

وأقبلت أخرى أعذب منها — بلا شك — وأظرف على التحقيق ، وأولى بأن ترؤف بى إذا غلطت فيها ، وكانت تتأمل إعلانات وصوراً لشركة بواخر هناك ، فدعوت الله أن يجعلها من نصيبي ، وأقبلت عليها أقول بلا تمهيد :

« لا مطر غداً »

فقالت بعربية محطمة ، أستحى أن أثبتها بنصها : « شىء غريب ! متأكد ؟ »

قلت : « ثقى بى . إنى نشرة جوية متنقلة ... مرصد إنسانى متجول ... »

قالت : « ظاهر .. أشكرك ... »

قلت : « هذا واجبى ... فلا أستحق شكراً »

قالت : « إنك تؤديه بذمة .. لقد رأيتك الآن تخاطب سيدة هناك ... وهذه أخرى آتية ، فاسمح لى ألا أحول بينك وبين عملك »

قلت : « لم يكذب ظنى »

قالت : « كيف ؟ »

قلت : « كنت موقناً أنك أظرف من تلك التى هزئت بى وأخجلتنى »

فسألتنى : « هل أنت على موعد مع مجهولة ؟ »

قلت : « أصبت ... »

قالت : « مسكين ! .. لعلها هذه » وأشارت فالتفت فاذا فتاتى — أعنى الفتاة التى تفضلت عليها بمظلة صاحبى ، فقلت :

« اخفيني عنها لحظة حتى تمر ... تظاهرى بأنك صديقتى دقيقة واحدة .. أرجو »

فضحكت وقالت : « لماذا تخشاها ؟ هل خنت لها عهداً ؟ لابأس . تعال »

ووضعت ذراعها فى ذراعى وهممنا بأن نسير ، وإذا بفتاتى تصيح ورائى :

« من فضلك ... من فضلك ... ألا تذكرنى .. إنى مدينة لك بالشكر ، لقد تركتنى فجأة كما ظهرت لى فجأة ، فلم أدر أين اختفيت ، فهل تسمح لى باسمك وعنوانك لأعيد اليك المظلة ؟ »

فقلت : « هذا شىء تافه ... لا تفكرى فيه »

قالت : « ولكنى لا أستطيع أن أبقيها عندى وأحرمك »

قلت : « ثقى أنك لا تحرميني شيئاً فانها ليست لى ، بل لصاحب »

قالت : « ما أرقه ! »

قلت : « إنه على نقيض ذلك . . أبعد ما يكون عن الرقة »

قالت : « هذا أدعى لردها اليه »

قلت : « لقد انتهى الأمر . سرقت مظلته وأعطيتك إياها ، وعرف ما كان ، وغضبَ وشال نفسه وحطها ، ولم يبق هناك شيء آخر يمكنه أن يصنعه ، فلا تكترثي له ولا تفكري فيه »

قالت بعطف : « مسكين ! »

قلت : « لقد كنتُ أنا المسكين ، وكانت هذه المظلة تفقأ عيني كلما رأيتها ، فالآن أمنت ، وفي وسعي أن ألقاه وأنا مطمئن ، من غير أن يؤذى بصري منظر المظلة »

قالت وهي تضحك : « على كل حال لابد من ردها اليه ولك وله الشكر »

فكتبت لها الاسم والعنوان ، ولم يفتني أن أحذرها من مقابلته ، ولم يبق بعد ذلك ما يقال ، فهممت بتوديعها وإذا برجل هِمٍّ هرم يدنو مني وينظر الى الزهرة التي على صدري ثم يقول وهو يفرك كفيه :

« هل سمعتك تقول لا مطر غداً ! »

فحدقت فيه متردداً ، ثم رفعت يدي الى الزهرة فأخرجتها من العروة ورميتها على الأرض ، فلم ينهزم وقال :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فكاد عقلي يطير ، فتناولت ذراعيْ الفتاتين وأوليت الرجل ظهري ومضيت بهما عنه ، وهما ذاهلتان تنظران اليّ ولا تفهمان ، غير أن هذا لم يمنع الرجل أن يمشي ورائي وهو يصيح :

« لم ولماذا وكيف يكون ذلك ؟ »

فقلت لفتاتيّ : « لم يبق إلا أن نجرى ، فهل تقدران على ذلك ؟ »

وجرينا مسافة ونحن نضحك ، فلما أمنا أن يدركنا وقفنا وقصصت عليهما الخبر ،

فسألتني فتاة المظلة :

« ولكن ماذا يريد منك ؟ »

قلت : « لا أعرف ، ولا أحب أن أعرف . . »

قالت : « ألا يحسن أن تتبين ؟ »

قلت : « أتبين ؟ أليس حسبي ما منيت به من خيبة الأمل . ومع ذلك لقد عوضني الله خيراً . . . هيا بنا لنستريح . . . »

ابراهيم عبد القادر المازني

بين فن التاريخ وفن الحرب

١٠ – خالد بن الوليـــد*
في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعـــير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

خطة خالد

لا شك في أن خالداً كان يقـدر حرج الموقف في قتاله أهل اليمامة . وكان يعلم أنه مقدم على أمر يتوقف عليه نجاح الاسلام أو خيبته . فالبلاد وعرة ، والقرى فيها منيعة ، والناس ملتفون حول داعيهم ، معتصمون بحبهم ، وعددهم كثير ، وسلاحهم يضرب به المثل

لذلك لم يقدم على الحركة قبل أن تصله النجدة الموفدة من المدينة . وأراد أن يمهد سبيل الظفر بالتدابير السياسية وذلك :

أولاً — باستمالة التميميين في اليمامة الى جانبه ؛

ثانياً — بتفريق رؤساء سجاح عن مسيلمة

ثالثاً — باستخدام المسلمين من بني حنيفة للمشاغبة على مسيلمة

والأخبار تدل على أنه أرسل الكتب الى التميميين ليتركوا جانب مسيلمة فوفق الى ذلك ، كما أنه ساق قوة خيالة لمقاتلة رؤساء سجاح الثلاثة وهم عقة وهذيل وزياد ، ففرق رجالهم واضطرهم الى العودة الى حي بني تغلب في الشمال . وأن المسلمين من بني حنيفة ثاروا على مسيلمة وشاغبوا عليه ، ولعل عكرمة بن أبي جهل أراد أن يستفيد من الشاغبين فقاتل رجال مسيلمة فلم ينتصر ، وكانت الأخبار تأتي خالداً وتنبئه بما في اليمامة

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

أما خطته العسكرية فكانت ترمى الى الزحف الى اليمامة على أقصر طريق ، والهجوم على جيش مسيلمة أينما لقيه

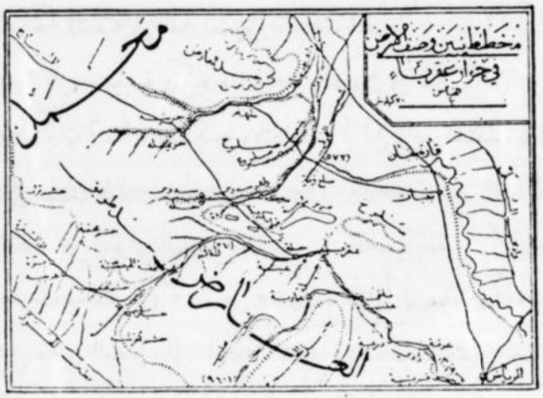
عاد خالد من المدينة الى البطاح فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية ، وكان الجيش مجتمعاً فيها ينتظر أمر الحركة . وقضى خالد مدة قصيرة فى البطاح يترقب ورود المدد من المدينة ، فكانت القبائل تمد جيشه برجالها ، فالتحق به رجال من بنى أسد وتميم وبنى عامر ، وكانت الأخبار ترد اليه من اليمامة منبئة بأحوالها . وآخر من وصل اليه ابن عمير اليشكرى فأطلع خالداً على جلية الأمر فى اليمامة

ساحة القتال

اختار مسيلمة موقع عقرباء لجيشه ، وهذا الموقع على الحدود الفاصلة بين اليمامة وبلاد بنى تميم ، وهو مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية بين مقاطعـــة العارض ومرتفعات المحمل وجبل طويق

وبالقرب من هـذا الموقع تقوم قرية جبيلة الحديثة ، وقد بحث فيه (فلبى) فى كتابه الآنف الذكر قال : « وإذا تأملت الوادى (أى وادى حنيفة) عنـد جبيلة — وجبيلة هذه أحد منازل بنى حنيفة من قديم الزمن ، وإليهم نسب الوادى وفى سمائه ارتفع لواء صيتهم فسمى بوادى حنيفة — لألفيته وهدة من الأرض قريبة القرار ، واسـعة الجوانب ، تكتنفها الهابط المطمئنة الجرداء من كل حدب وصوب ، وللوادى عقيق يضيق شيئاً فشيئاً حتى تراه قد غاض فى بطن مجرى نشزت على ضفافه الطنوف الشواخص على النحو المتقدم وصفه . فالقرية إذن مفتاح لموضع من أخطر المواضع السوقية وأعظمها شأناً ، واقعة بين مساكن العارض ومرتفعات المحمل وطويق . وقيل فى هذا المكان وقعت معركة فاصلة من معارك التاريخ الاسلامى ، دارت فيها رحى القتال بين أصحاب النبى وبعض المؤمنين من رجاله ، وبين مسيلمة نبى حرملة الكذاب وقواته ، وكان النصر فيها حليف المسلمين بعد أن خسروا آنئذ فى سبيل دينهم القويم نحو سبعين من نخبـة الصحابة ، وهم الرجال الخلص الذين اصطفاهم النبى فأودع فى صدورهم تعاليمه الشفوية ..» إلى أن قال : « لا تزال قبور الصحابة الذين استشهدوا فى تلك المعركة ظاهرة الى يومنا هذا ، مهجورة فى منبطح من غربى نهر عميق صفا ماؤه واقع على مقربة من القرية . وقد رأيت القبور أيام زيارتى لها ومرورى بها وقد بليت وتحاتت بتأثير الزوابع وفعل الأعاصير ، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت جوانب الكثير منها ، فظهرت فيها تنفر فاغرة أفواهها نحو الوادى . ولم يزد ارتفاع الرسوب الغريني على ثلاث أو أربع أقدام فوق القبور . فلنا إذن من ذلك أحد الأمرين : إما أن تكون دفائن تلك القبور أحدث مما يزعمون ، وإما أن الغرين قد رسب من قبل فى المكان الموجود الآن فيه وبات مستواه على ما هو عليه بطبيعة الحال قبـل معركة جبيلة . ولا غرو فى أن الأمر الثانى هو الافتراض المحتمل وقوعه »

وصف الموضع :



خريطة تبين وصف الأرض فى جوار عقرباء

يظهر من مطالعة الخريطة أن المحل الذى اختاره مسيلمة لقبول المعركة واقع فى جنوبى العقدة التى تتشعب منها الجبال وتمتد فى جهات مختلفة وتشرف على رؤوس الوديان المتدفقة من أرجائها والتى منها ما يجرى نحو الشمال ويغـذى وادى الخفس ، ومنها ما يجرى نحو الشرق ويغذى وادى حنيفة ، ومنها ما يجرى نحو الغرب ويغذى بطين الحور . وقد اجتمعت قريتا عينة وسدوس وجبيلة حول هذه العقدة . وتعـلو فى وسطها رابيتا الأبكين : الرابية الغربية والرابية الشرقية ، والغربية أعلى من الشرقية إذ يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر (٣٢٠٠) قدم ، وعن وادى حنيفة الذى يجرى فى جنوبيها (٢٠٠) قدم . وفى شرق الأبكين جبل رامة يمتد من الغرب الى الشرق ، وهذا الجبل مع جبل الأبكين يفصلان بين شعيب سـدوس ووادى حنيفة . فالشعيب فى الشمال ينبع من غربى سدوس ويجرى نحو الشرق فيترك على ضفافه سدوس وحزوة ، ويلتقى بشعاب كثيرة أخرى

تصب جميعاً في وادي الخفس . والوادي الثاني يجرى في الجنوب والى شرق جبيلة يرتفع جبل صلبوخ . فكأن الجبال الثلاثة — الأبكين ورامة وصلبوخا — متصل بعضها ببعض ومحيطة بموضع جبيلة كالقوس

ويصف المستر فلبي المنظر قرب الأبكين فيقول : « وقفنا نتأمل بطحاء طويق الفسيحة الأرجاء ، فألفينا مشهدها رائعاً مهيباً ، وتتخللها الهضاب المتموجة والأودية السحيقة . وإنا لكذلك إذ لاحت مني التفاتة الى الشمال فشاهدت على مسافة ميلين من بسطة أرضاً انطوى تحتها واد فسيح تحدرت جوانبه وانقطعت مجامعه عند حوض الخفس الواقعة فيه واحة سدوس — تلك الواحة الغضة الرائعة المشهورة بجمالها الفتان — كنا نراها ونرى فيها كل صغيرة وكبيرة ، ونحن واقفون في مكاننا كأنها أمامنا وعلى مقربة منا ، ولكنها وبالأسف لم تكن على استقامتنا ، فشق عليَّ زيارتها لبعد طريقنا عنها . وقد شاهدت بساتين النخيل ممتدة على طوار الينبوع الدافق مسافة ميل تقريباً في عرض قدرت معدله بين ٢٠٠ و٣٠٠ ياردة » الى أن يقول : « ورأيت على مدى البصر الى الجهة الشمالية الشرقية نجف مرتفعات العرمة ، وقد بدت بلون أدكن ، ونظرت الى الشمال الغربي وادي حريملة ، وهو فرع آخر من فروع حوض الخفس ، وقد انفصل عن فرع سدوس بجرف متسع المتون مرتفعها ، ورأيت في الجهة الجنوبية الغربية صدع جرف طويق فبدت من موضعه عقبة الحيسية [١] . والى الجنوب وراء خط وادي الحيسية ، وجرف الللاق تمتد ظهور طويق العريضة في الفضاء الأغبس الفسيح »

وعند ما يبحث في ثنية اليمامة يقول : « وبعد مسير سبعة أميال (على موازاة الابكين) وصلنا الى عقبة الحيسية المعتبرة منبع وادي حنيفة ، فوجدنا أشجار السنط منتشرة حولها ، وكان ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر في هذه البقعة نحو ٣٢٠٠ قدم ، وكانت المسافة بيننا وبين البطين (بطين الحور) نحو ٤٦ ميلاً . وقد استطعت أن أشاهد من هذا المكان وادي حنيفة بأسره آخذاً الى الجنوب حتى اليمامة ، وهذا بون شاسع يربو طوله على ١٠٠ ميل ، وتأخذ فيه الأرض في الانخفاض تدريجاً إلى أن يبلغ ١٩٠٠ قدم . ولم أجد عند الصبب من المناظر الطبيعية ما يحمانى منها على الأطناب في الوصف ، وشاهدنا هناك الأرض أمامنا وقد انحدرت بهيئة مثلث فسيح الأرجاء ، ضلعاه لهبان منفرجان من جرف طويق ومنته طرفهما بأنفين بارزين أحدهما خشم خرشة في الجنوب ، والآخر خشم الحيسية في الشمال ، وتمتد بين هذين الأنفين قاعدة المثلث بشكل جناح ناشز من الحجارة الرملية الجرداء المغراء يسمونه المرق في جانبه الأبعد يهبط شديد الانحدار ينتهي الى وادي البطن . أما صدر شعيب هشة فهو في منبعه يتغلغل صبباً بين جدران منهره متمعجاً في عقيق ضيق ، ثم يأخذ بعد حين في الاتساع على متون المنحدرات حتى إذا بلغ الحاشية الغربية من جناح المرق ينفرج في بطن المحلة الخصبة ثم ينثني فيجد له مسيلا في خلال الحواجز الصخرية فيتسرب منها الى وادي البطين



منظر من مناظر وديان اليمامة ويرى فيه كيف تتصرف المياه إلى الوديان

وعلى نحو أربعة أميال من منبع وادي حنيفة نجد ما بقي من آثار ديار الهشة ، وهي لا تتعدى بعض بساتين النخيل المتفرقة وثلاث آبار دائمة المياه ، اثنتان منها مطويتان بالحجارة غزيرتا

(١) يعني ثنية اليمامة

الماء دائمة الورد ، يبلغ عمق كل بئر منها نحو قامتين ، ويظهر لون الماء عند استقائه من البئر أطحل بتأثير الطبقة المتحجرة المستبطنة قرار البئر ، وإذا ترك الماء وشأنه قليلا ركد فيه الغرين فصفا وراق . وطعمه لذيذ عذب جداً . وينفرد آل قحطان بالاستفادة من هذه البئر » الى أن يقول : « وليس فى عقبة الحيسية صخور حرشاء تقف عثرة فى سبيل الابل . وربما كانت أسهل عقبات طويق مسلكا ، لذا فضلت على غيرها باتخاذها طريقاً للحج ، وهو الطريق الذى سلكناه لما غادرنا الرياض من حيث ينحدر هذا الطريق الى الضرمة »

الحركة من البطاح الى اليمامة

وبعد أن اجتمعت قوات المسلمين فى البطاح واطلع خالد على موقف الحنفيين قرر التقدم نحو مسيلمة . وكان قبل ذلك قد رتب جيشه ، فكانت نواته على ما نعلم الأنصار والمهاجرين والقبائل الضاربة بين المدينة ومكة . فقسم الجيش الى فرق : فرقة من الأنصار ، وفرقة من المهاجرين ، وألفت كل قبيلة فرقة . وناط بأبى حذيفة وزيد ابن الخطاب قيادة المهاجرين ، وبثابت بن قيس وبر بن مالك قيادة الأنصار . أما القبائل فكانت بقيادة رؤسائها

ويروى أبو بشر الدولابى فى كتاب التاريخ أن معركة عقرباء وقعت فى شهر ربيع الأول للسنة الثانية عشرة الهجرية ، وأول هذا الشهر يقابل أوائل شهر أيار ٦٣٣ ميلادية . وتبلغ المسافة بين البطاح وعقرباء زهاء ٣٥٠ كيلومتراً ، أى مسير عشرة أيام بجيش كبير على أقل تقدير . فيظهر من ذلك أن خالداً ترك البطاح فى نهاية شهر نيسان أو فى أوائل شهر أيار

فكانت خطة خالد ترمى الى الزحف تواً إلى اليمامة ، على أن يهجم على جيش مسيلمة أينما لقيه . وكان يعلم أن مسيلمة متأهب للمقابلة على حدود بلاده . لذلك قدّم أمامه مقدمة من بنى طىّ بقيادة عدى بن حاتم ، وعين لها فرات بن حيان دليلاً ، وسلك طريق الوشم نحو الشقرة . وأرسل الى الأمام مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتجسسا الأخبار

ولم يشأ أن يترك خط الانسحاب معرضاً للخطر ، لذلك أقام سليطاً مع قوة فى البطاح ليكون ردءاً له من القبائل . وتزعم الرواية أن أبا بكر أمد خالداً بسليط ليكون ردءاً له لئلا يأتيه أحد من ظهره . أما مسيلمة فلما علم بمسير خالد نحوه تقدم بجيشه من اليمامة نحو الشمال وعسكر فى عقرباء بجميع قواته منتظراً ورود جيش المسلمين متأهباً للمقاومة الشديدة . وكانت أخبار انتصار المسلمين على أهل الردة قد سبقت جيش المسلمين فألقت الرعب فى قلوب الحنفيين

وتقدم جيش المسلمين على الطريق المذكور وكانت المقدمة تسبقه وتستطلع الأحوال

يتبع — **طه الهاشمى**

٢ ـ محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

أخذت ألتمس الناس رجلاً فرجلاً وأنا عالم بمـا أثيره فى الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه ، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضى فيها محيص . إنها كلمة الله ، ويجب أن أحلها من اعتبارى المكان الأسمى ، فقلت لنفسى : لا بد أن أحاور أدعياء العلم جميعاً لعلى أفهم ما قصدت إليه الراعية . وأقسم لكم أيها الأثينيون أغلظ القسم (١) — فواجبى أن أقول الحق — إننى قد انتهيت من البحث إلى ما رويت ، وقد صادفت فيمن هم دون هؤلاء مقاماً رجالاً بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء . وسأقص عليكم حديث تجوالى وما عانيت خلاله لتحقيق ما قالته الراعية . تركت رجال السياسة وقصدت إلى الشعراء ، سواء فى ذلك شعراء المأساة أو الأغانى الحماسية أو ما شئتم من صنوف الشعر ، وقلت فى نفسى : إن الأمر لا ريب مكشوف لدى الشعراء فسأجدنى بازائهم أشد جهلاً . ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطرت أقلامهم ، وحملتها إليهم أستفسرهم إياها لعلى أفيد عندهم شيئاً . أفأنتم مصدقون ما أقول ؟ واخجلتاه ! أكاد أستحى من القول لولا أنى مضطر إليه ، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول فى شعرهم أكثر مما قالوا هم وهم ناظموه . عندئذ أدركت على الفور أن الشعراء لا يصدرون فى الشعر عن حكمة ، ولكنه ضرب من النبوغ والوحى . إنهم كالقديسين أو الأنبياء الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها . هكذا رأيت الشعراء ، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون فى أنفسهم الحكمة فيما لا يعلمكون فيه من الحكمة شيئاً استناداً الى شاعريتهم القوية . فخلفت الشعراء وقد علمت أنى أرفع منهم مقاماً ، فقد فضلنى عليهم ما فضلنى على رجال السياسة

(١) فى الأصل « أقسم لكم أيها الأثينيون بالكلب » وقد آثرنا هذا التحريف

وأخيراً قصدت الى الصناع ، وكنت أظننى جاهلاً عما يتصل بالصناعة من علم ، وكنت أحسب أن لدى هؤلاء الصناع مجموعة طريفة من المعارف ، وقد ألفيتنى مصيباً فيما ظننت ، إذ كانوا يعلمون كثيراً مما كنت أجهله ، فكانوا فى ذلك أحكم منى بلا ريب . ولكنى رأيت حتى مهرة الصناع قد تردوا فيما تردى فيه الشعراء من خطأ ، فتوهموا أنهم ما داموا أكفاء فى صناعتهم فلا بد أن يكونوا ملمين بكل ضروب المعرفة السامية ، فذهبت سيئة الغرور بحسنة الحكمة . لهذا ساءلت نفسى بالنيابة عن الراعية : أكنت أحب أن أظل كما أنا ، لا أملك ما يملكون من علم ، ولا أكبو فيما كبوا فيه من خطأ ، أم كنت أحب أن أكون شبيههم فى العلم والجهل على السواء ؟ فأجبت نفسى ، وأجبت الراعية : إننى خير منهم حالاً

وهذا الذى انتهيت إليه قد حرك العداوة فى قلوب نفر من أشد الناس سوءاً وخطراً ، كما نسج حولى طائفة من الدعاوى الباطلة . ولقد جرى الناس على تسميتى بالحكيم إذ خيل إليهم أننى ما فتئت أحمل الحكمة التى كانت تعوزهم . ولكن الله — أيها الأثينيون — هو الحكيم الأوحد ، ولعل الله حين أجرى على لسان راعيته ما نطقت به ، أراد أن الحكمة فى البشر ضئيلة أو معدومة . إنه لم يتحدث قصداً عن سقراط ، إنما ضرب باسمى مثلاً ، كأنما أراد أن يقول إن من يدرك كما أدرك سقراط أن حكمته فى حقيقة الأمر لا تساوى شيئاً ، يكون أحكم الناس . فأنا كما ترونني أسير وفقاً لما رسمه لى الله ، أفتش عن الحكمة فى كل من يدعيها ، لا أبالى أكان من أبناء الوطن أم غريباً ، فإن لم أجده كما ادعى ، صارحته بجهله كما أمرتنى الراعية . ولقد انصرفت إلى هذا الواجب انصرافاً لم يبق لى معه من الوقت ما أبذله فيما يشغل بال العامة ، أو أنفقه فى شئونى الخاصة ؛ وهكذا كرست حياتى لله فعشت فقيراً معدماً

أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيراً قد التفوا حولى ، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم ، ليشهدوا امتحان الأدعياء ؛ وكثيراً ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها . وما أكثر ما

صادفوا رجالاً ظنوا فى أنفسهم العلم ، فاذا بهم لا يعلمون إلا قليلا ، أو هم لا يعلمون شيئاً ؛ فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشبان أن يصبوا علىّ جام غضبهم ، وأنفسهم أحق بهذا الغضب ، ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان . فان سألهم سائل فيم هذه اللعنة ، وأى جريرة أتى ، وأى رذيلة عَلَّم ، لما حاروا جواباً ، لأنهم لا يعرفون لغضبهم سبباً . ولكى يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التى قذف بها الفلاسفة جميعاً ، من أنهم يعلّمون مايتصل بالسحاب ، وما هو دفين تحت الثرى ، وأنهم كافرون بالآلهة ، وأنهم يلبسون الباطل صورة الحق ؛ والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف . ولما كانت تلك الفئة كثيرة طامعة نشيطة ، وقد تصدوا جميعا للنزال بما لهم من ألسنة حداد تلعب بالنفوس ، فقد ملأوا أسماعكم بهذا الاتهام الباطل . وكان أن ناصبنى العداء هؤلاء المدعون الثلاثة : مليتس ، وأنيتس ، وليقون . فقد ناهضني مليتس ليمثل جماعة الشعراء ، وأنيتس ليمثل طبقة الصناع ، وليقون ليمثل الخطباء . وإننى كما قدمت لا آمل فى أن أمحو فى لحظة كل ما علق بى من تهم باطلة . أيها الأثينيون ! لقد رويت لكم الحق كل الحق ، لم أُخف شيئاً ، ولم أشوه شيئاً ، ومع هذا فأنا أعلم أن صراحتى فى الحديث ستصدكم عنى ، وما هذا الصد إلا برهان على أنى أقول الحق . تلك هى دعواهم وذاك منشؤها ، ولن تسفر هذه المحاكمة ولا أية محاكمة مقبلة عن غير هذا

حسبى هذا دفاعا للفريق الأول من المدعين . وهأنذا أتوجه الآن بالحديث نحو الطائفة الأخرى وعلى رأسهم مليتس ، ذلك الرجل الطيب ، الوطنى ، كما يقول عن نفسه . وسأحاول أن أدفع عن نفسى ما اتهمنى به هذا الفريق الجديد . وجدير بنا أن نبدأ بتلخيص دعواهم ، فماذا يزعمون ؟ إنهم يقولون : إن سقراط فاعل للرذيلة ، مفسد للشباب ، كافر بآلهة الدولة ، وله معبودات طنعها لنفسه خاصة . تلك هى دعواهم ، وسبيلنا الآن أن نشها تفصيلا

أما الزعم بأنى فاعل للرذيلة مفسد للشباب ، فأنا أقرر أيها الأثينيون عن هذا الرجل مليتس ، أنه هو صاحب رذيلة . ورذيلته أنه يتفكه حيث يجب الجد ، وهو لا يرى غضاضة فى أن يسوق الناس الى ساحة القضاء ، متستراً وراء الحماسة المصطنعة والاهتمام المتكلف بأمور لا تعنيه فى شىء ؛ وسأقيم لكم الدليل على صدق هذا

— اقترب منى يا مليتس لألقى عليك سؤالاً . هل تفكر طويلاً فى إصلاح الشباب ؟

— نعم ، إنى أفعل

— إذن فقل للقضاة من هو مصلح الشبان ، فأنت لابد عالم به مادمت قد عانيت آلاماً فى اكتشاف مفسدهم ، فها أنت ذا قد سقتنى الى القضاء متهماً . تكلم إذن وقل للقضاة من هو مصلح الشبان . مالى أراك يا مليتس لا تحير جواباً ؟ ! أفليس هذا دليلاً قاطعاً ، مزرياً بك ، يؤيد ما ذكرته من أن أمر الشبان لا يعنيك فى شىء ؟ تكلم يا صديقى وحدثنا عن مقوم الشباب !

— هى القوانين

— ولكن ليست القوانين هى ما عنيتُ يا سيدى ، إنما أردت أن أعرف ذلك الشخص الذى يحفظ القوانين قبل كل شىء

— هم من ترى فى المحكمة من قضاة يا سقراط

— ماذا تريد أن تقول يا مليتس ؟ أتعنى أن القضاة قادرون على تعليم الشبان وإصلاحهم ؟

— لست أشك فى أنهم كذلك

— أكلهم كذلك ، أم بعضهم دون بعض

— القضاة جميعاً

— قسما بالآلهة إن هذا لخبر سار . إذن فهناك طائفة من المصلحين ، وماذا تقول فى النظارة ؟ أهم يصلحون الشبان ؟

— نعم هم يفعلون

— وأعضاء الشورى كذلك ؟

— نعم إنهم كذلك يصلحون

— ولكن قد يكون رجال الدين لهم مفسدين ؟ أم هم كذلك يقومون الشباب ؟

— إنهم كذلك من المصلحين

— إذن فكل الأثينيين يصلحون الشبان ويرفعون من قدرهم ، ما عداى . فأنا وحدى الذى أفسدت الشباب . أهذا ما أردت أن تقول ؟

— وذلك ما أؤيده بكل قوتى

— يالبؤسى إذن إن صح ما تقول ! . ولكنى أريد أن أسألك سؤالاً : أيصح هذا القول كذلك على الجياد ؟ أيمكن أن يقدم لها الأذى فرد واحد ، بينا يقدم لها الخير العـالم أجمع ؟ ألست ترى أن العكس هو الصحيح ؟ فرجل واحد يستطيع أن يعمل لها الخير ، أو قل هى فئة قليلة ، وأعنى أن مروّض الجياد هو الذى يقدم لها الخير ، أما بقية الناس الذين يستخدمونها فى عملهم فهم لها مسيئون . أليس هذا صحيحاً يامليتس بالنسبة الى الجياد وكل أنواع الحيوان ؟ نعم ولا ريب ، سواء رضيت أنت وأنيتس أم لم ترضيا ، فذلك لايعنينا . اللهم أنعم بحياة الشبان لو كان عليهم مفسد واحد فحسب ، وكانت بقية العالم لهم مصلحين . وأنت يامليتس ، لقد أقمت لنا الدليل ناصعاً على أنك لم تكن تفكر فى الشبان ؛ فاهمالك إياهم واضح حتى فيما ذكرت فى صحيفة الدعوى

والآن يامليتس ، لابد أن أسألك سؤالاً آخر : أيهما خير ، أن يكون أبناء وطنك الذين تعيش بينهم فاسدين أم صالحين ؟ أجب ياصاح فذاك سؤال ميسور الجواب ! ألا يقدم الصالحون الخير لجيرانهم بينا يسىء اليهم الفاسدون ؟

— نعم ولاريب

— وهل هناك إنسان يفضل أن يساء اليه على أن يُحسن اليه ممن يعيش بينهم ؟ أجب ياصـديق ، فالقانون يتطلب منك الجواب . أيحب أحد أن يصيبه الضر ؟

— كلا ولاريب

— وأنت حين تتهمنى بافساد الشبان والحط من شأنهم ، أتزعم أنى أتعمد ذلك الافساد أم يجىء عنى عفواً ؟

— أنا أزعم أنه إفساد مقصود

— ولـكنك اعترفت الآن أن الرجل الصـالح يقدم الخير لجيرانه ، وأن الفاسـد يقدم لهم الشر ، أفتظن أن هذه الحقيقة قد أدركتها حكمتك البالغة وأنت لاتزال من الحياة فى هذه الـسن الباكرة ، وأنا ، وقد بلغت من الـكبر عتياً ، مازلت أخبط فى ظلام الجهل فلا أعلم أنى أفسدت أولئك الذين أعيش بينهم فيغلب أن يصيبنى منهم الضرر ؟ أفأكون عالماً بهذا ومع ذلك أفسدهم ، وأفسدهم متعمداً ؟ هذا ماتقوله أنت . فلا أحسبك مقنعني به ولا مقنعاً به كائناً من كان . إحدى اثنتين : إما أننى لا أفسد الشبان ، أو أننى أفسدهم عن غير عمد ؛ وسواء أصحت هـذه أم تلك فأنت كاذب فى كلتا الحالتين [١]

فان كانت جريمتى بغير عمـد فلا يحاسب عليها القانون ، وكان خليقاً بك أن تسـدى لى النصح خالصاً ، محذراً ومؤنباً فى رفق ولين ، فان انتصحت بك ، أقلعت ولا ريب عما كنت آتيه بغير قصد ؛ ولـكنك أبيت لى نصحاً وتعليماً ، وآثرت أن تجىء بى متهماً فى سـاحة القضاء ، وهى محل العقاب لا مكان التعليم

لقد تبين لـكم أيها الأثينيون أنه لايعنيه أمر الشبان فى كثير ولا قليل ، ولـكنى مازلت أود يامليتس أن أعرف منك فيم كان إصرارى على إفساد الشباب ؟ لعلك تعنى كما يبدو من اتهامك أنى حملتهم على إنكار الآلهة التى اعترفت بها الدولة ، ليقدسوا فى مكانها معبودات جديدة أو قوى روحانية . أليست هذه هى الدروس التى زعمت أنى أفسدت بها الشباب ؟

— نعم ، هذا ما أقوله وأؤكده

— إذن فقل لى يا مليتس ، وقل للمحكمة فى عبارة واضحة ، أى آلهة أردت فى دعواك ، لأننى حتى الساعة لا أفهم ما تأخذه على . أكنت أعلم الناس الأيمان بآلهة معينة ؟ وإن كان هذا فهم مؤمنون بآلهة ما ، ولم أكن إذن كافراً تمام الـكفران . إنك لم تشر إلى ذلك فى الدعوى واكتفيت بالقول أنها ليست نفس الآلهة التى تعترف بها المدينة . ما تهمتى ؟ أهى الدعوة إلى آلهة مخالفة أم تزعم أنى ملحد ومعلم للألحاد ؟

— أردت الأخيرة ، فأنت ملحد غاية الألحاد

— هذا قول عجيب لم نعهده يا مليتس ، ماذا تعنى به ؟ ألست أومن بألوهية الشمس والقمر ، وهى عقيدة سائدة بين الناس جميعا !

— إنى أؤكد لـكم أيها القضاة أنه لا يؤمن بهما ، فهو يقول إن الشمس كتلة من الحجر ، وأن القمر مصنوع من تراب !

يتبع

زكى نجيب محمود

(١) هذه إشارة الى فلسفة سقراط فى الفضيلة . وملخصها أن الفضيلة هى العلم ، فيكفى أن تعلم الخير لتعمله ، فن وقع سوء من انسان يكن هذا دليلا على جهله بالفضيلة لأنه يستحيل أن يعرفها ولا يعملها

ذكرى ميلاد

عند الثلاثين

للأستاذ محمد سعيد العريان

لشدَّ ما أعياني السُّرَى!

منذ تسعٍ وعشرين أُصَعِّد في الجبل وما بلغت. أتراني الى القمّة أدبّ دبيبي، أم قد جاوزتُها وما أدري، فأنا منحدرٌ أتدلّف من جانبها الى بطن الوادي..؟

يكتنفني الغيبُ فما أعرف أين يومي من أمسِه ومن غدِه. أما أمس فقد خلعتُه عني، وطوته الأيامُ طيَّ مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلْقاناً مركومة كالميت لفّته أكفانه. وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منا؟

وأما الغد... فمن لي بما هناك؟ إن الأحلام لتكذب، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا من دنيا غيرِ دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي

هـــذه الأيام صَرْعى على مَدْرجة الزمن، وما تزال المنى تصطرع في رأسي!

يالي من الأيام! لشدّ ما كانت تسخر مني إذ تمدّ لي أسبابَ المنى، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أيامي!

انقشعي أيتها الغيوم واكشفي لي عما وراءك؛ إن لي أمنيةً هناك!

***

إني لأراني كأنما لَبِسَني النوم، فأنا من الرؤيا في دنيا غير التي أعرف، وناسٍ غيرِ هذا الناس، وثَمّت طفلٌ يعدو خلْف فَراشة، أتراه مُدْرِكَها؟

لقد آبَ فارغَ اليد، ولكن على شفتيه ابتسامة!

وأقبل يتعرّفني وما كانت به اليّ من حاجة

قال: «من أنت؟»

قلت: «أما تعرفني؟»

قال: «نعم، فمن تكون؟»

قلت: «فانظرْ في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب.»

ونَظَر ونَظَرْتُ من خلفه، فما كان في المرآة إلا وجهُ الطفل الضاحك

ولوى رأسه وعاد ينظر اليّ ويقول:

— «لستَ هناك، وما أُراني أعرفك ولا تعرفك مرآتي»

ورَفّتِ الفَراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه!

يا طفولتي التي فرّتْ بأسعدِ أيام الحياة، ليتكِ كنتِ تعرفين!

***

وعاد الطفل فتًى يخطر ريّانَ الوجه مُشرقَ الجبين، فازْوَرّ إذ رآني على الطريق

قلت: «أتنكرني يا فتى؟ فانني صاحبك!»

قال: «متى؟ فما أظنني عرفتُك!»

قلت: «ذاك يومَ التقينا على السفْح والشمسُ ضاحية، وتصاوير الزّهر ترِفّ من أجنحة الفَراشة»

وابتسم الفتى ومرّ بيمناه على جبينه وهو يقول:

— «لعلّ أذكر من بَعدُ!»

وانطلق يغنّي جذلان

يا نضارةَ الصِّبَى وبُكْرَةَ الشباب، ليتكِ إذْ تولّيت عابثةً ناعمةً بالحرّية — كنت تدْرِين مَن هناك!

***

وأقبل من بعدُ شابٌّ يبتسم.. ما أشبهه بصاحبه!

قلت: «ها أنت ذاك، أما تعرفني؟»

قال: «كأني رأيتكَ من قبل، بربّك مَن تكون؟»

قلت: «فانك ماتزال تنكرني على ماصحبتُك زماناً ولمّا ينقض عهد طويل!»

ولم أجدْ جوابي؛ فقد لوى الشابُّ رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر، ثم انطلق مُهْطِعاً وراءها ونفسي تتبعه

يا لله! لكأنها هي....!

***

وتلاشى الوجودُ من أمامي فلم أعُدْ أرى غير وجه ضاحكٍ، وطلعةٍ مشرقة، وعينين تُشِعّان النور من وجه الفتاة

ورأيتها تدنو مني وفي وجهها كلام...

قلت: «أما تزالين تذكرين يا فتاة؟ يا للنفس العطوف!»

قالت: «أئنّه لأنت؟ لله صَبْرُك!»

وانقضّتْ كلماتُها على صدري بالهم والوحشة والعذاب، وكأنما اجتمع منها تاريخُ سبعِ سنين طوال، ما يزال في القلب منهنّ جراحٌ تنزف!

وانثالت الذكرياتُ على نفسي تتمثّل من مشاهدها قصةً

غرام ثائر ، أغفلَـهَا مُـنْشِئُها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية

ورحت أنكت الأرض بالعصا ، كأنى أفتّش تحت التراب عن الجزء الذى مات من قلبى ! ورأيت ظِلّها على الأرض ، فاستحييتُ أن أرفع رأسى وفى عينىّ دموع !

ياللشباب من حبّ بلا رجاء ! أوَ مُضَيِّع أنضرَ أيام الحياة مصبوباً على نفسى ، أبحث عن أهون ما فى الحياة ؟

وأين الرجولة إن بذلت شبابى وتفسى لأعدُو فى ظِلّ فتاة؟ أتُراها تَجِدُ فَقْدِى ؟

إن المرأة للرجل إنْ هى إلا وَحْىُ المجد ومطلعُ الأمل ، فاذا عادت لهفةً ودموعا فما هى امرأة ، ولكنها اليـأس والحرمان والخيبة !

وتذكّرْتُ صاحبى الذى أنفلتَ منى مُهْطِعاً إلى فتاته ، فاذا هو أمامى والفتاة الى جانبه ذراعاً إلى ذراع

قال : « ما تقول لنفسك ؟ »

قلت : أو تسمع هَمْس النفْس ونجوى الضمير ؟ »

قال : « قد علمتُ بعضَ هذه النجوى . . . أفكنت تتحدث بما تتحدث إلى نفسك ، لو لم تكن هذه الشعراتُ البيض تخفَى وتلوح فى فَوْديْكَ ؟ »

قلت : « أوَ تَراها ؟ . . . فاسألْ صاحبتَك عن خبرها ؛ فهل جاءكَ أن هذا الشيب الباكر يدلّ إلا على شباب القلب ؟ ما أحسبك تَعْلَمُ حتى تُنَبِّئَكَ الشعرةُ البيضاء ! »

واستضحك الفتى والفتاة ... !

***

وتلاشى الوجود ثانية من أمامى ! وإذا أنا فى دنيا غير دنياى ، وناسٍ غير هذا الناس ؛ وإذا المرآة أمامى تجـــلو لى ما تجلو (الخيالة) ، وكأنما اجتمع بها فى زمانٍ ومكان تاريخى كلّه على الأرض منذ تسعٍ وعشرين بماضيه وحاضره ، وران ضبابُ أنفاسى على ثلث المرآة

وإذا فيما ظهر لى من المرآة طفلٌ يعدو خلف فراشة ، ماينفك يقفز ويثب

وغلامٌ يخطر مغنياً جذلان ، ما يعنيه إلا الكرةُ يرتق فتوقها ، واللّدات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسبابَ المَسرّة فى الحارة وعلى ناصية الطريق

وشابٌ باسم الثغر منبسط الأسارير دُنْياهُ هذه الفتاة ، له منها فى النهار مشغلة وفى الليل مشغلة

ثم ... ثم هذا الوجـــه الذى يعرفه صحابتى ، على شفتيه ابتسامة عابسة ، وفى عينيه سرٌ يبالغ فى الاستخفاء ، ومن وراء جبينه أمانىُّ تصطرع ، ودنيا يموج بعضهافى بعض

ليت شعرى أهذه هى الحياة ، أليس فيها أحسنُ مما رأيت ، أهذا كل ما هناك ؟

ياضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرّراً مما فات !

أين المَثَلُ الأعلى الذى جهدت فى تخيّله ، وأعيانى الكدّ فى البلوغ اليه ؟ أتُرى البَشَرِيّة الضالّة قد حطّمت تمثاله ، وخرّبت هيكله ، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد ؟

محمد سعيد العريان

ذكريات

دمه العــــربى ...

للأديب حسين شوقى

حينما كنتُ فى باريز أتلقى دراسة القانون تعرفتُ بالفندق الذى كنتُ أقيم فيه بالحىّ اللاتيني (حىّ الطلبة) بطالب اسبانى ، وقد دفعتني إلى حب التعرف به معرفتي للغة الاسبانية ، (فقد قضيتُ خمس سنوات باسبانيا) ، والميل إلى التمرن عليها . . كذلك جذبتني إليه سيماه العربية كسمرة بشرته ، وعيونه السوداء ، وهى فى حدتها كعيون البدو فى الصحراء ، وجذبنى إليه اسمه العذب الذى ينتهى بحرف « الثاء » إذ كان يدعى مونيوث ، وهذا الحرف لايوجد على ما أعلم — إلا فى اللغة العربية ، فورثته الاسبانية عنها . .

كنا نقضى الليل أنا وهو فى كثير من الأحيان ، فى مقهى ليلى جميل يديره بعض الصينيين بالحىّ اللاتينى ، ذلك الحى الذى لم يكن تخلّى بعد لحى مونبرناس (حىّ الشعراء والفنانين) عن إمارة الليل . .

وكان مجلسنا يضمّ أيضاً طالبين اسبانيين ، وطالباً آخر من جزر الفلبين . .

وا آسفاه على تلك الليالى الغابرة التى قضيناها فى المتاع واللهو ! بينما كنا ذات ليلة جالسين كالعادة فى المقهى ننعم بالرقص والموسيق ، إذا بأحد الشبان يصفع صديقته وقد رآها تتبادل النظرات غير المشروعة مع شاب آخر . . فغضب مونيوث لهذا المنظر ، وهمّ بالتدخل فى الأمر لولا أننا أمسكنا بسترته لأننا كنا نخالفه الرأى اشفاقاً على العاشق المخدوع الذى لم يقدم على عمله فى اعتقادنا ، إلا تحت سلطان الغيرة . .

وقد دفعنا هـذا الحادث إلى الخوض فى موضوع الغيرة فأطبق رأينا على أنها شعور طبيعى يلازم الحب ، وعلى أنها مقياس حرارته الصادق ، بخلاف مونيوث الذى كان يرى فى الغيرة شعوراً أولياً همجياً يمكن القضاء عليه بالتربية والتهذيب كما قضت المدنية من قبل على بعض عيوب البشر الأولى . .

فقال عندئذ فرناندو — الطالب الفليبينى — موجهاً الكلام لمونيوث :

إذا كنت ياصديقى لا تغار فما بالك تحجب عنا حبيبتك نانيت ؟

فبُهت مونيوث لهذا السؤال المفاجئ وتلعثم قائلاً :

أنا لا أحجب نانيت بل هى التى تعرض عن الحضور لأنها لاتحب الرقص . .

فصاح ريكاردو ، أحد الطالبين الآخرين :

يا للعذراء ! هل هنـاك فتاة تبغض الرقص ؟ إن رجلىّ البائستين لم تعودا تحملانني من كثرة مارقصت مع صديقتى سيمون !

فقلت بدورى لمونيوث :

ولـكنى لم أشاهد صديقتك نانت هذه !

فتدخل فرناندو قائلاً :

إنه يخاف عليها يا عزيزى كما تخاف القطة على صغارها

ثم استمررتُ موجهاً كلامى لمونيوث :

لا يمكن إلا أن تكون غيوراً ياصديق ، ففى عروقك الدم الشرقى العربى الفائر . .

ولـكن مونيوث أصر على إنكاره الغيرة كما أنكر الدم العربى ، واعداً إحضار نانيت معه فى أقرب فرصة . . .

ولـكن مونيوث طبعاً لم يف بوعده . .

***

تعرفت بعد ذلك بأيام بنانيت هذه بالفندق ، إذ أتت لتزور مونيوث وكان إذ ذاك معتل الصحة ، فعذرت عندئذ صديق لحرصه على نانيت ، لأنها كانت جميلة الى حد بعيد ، بشعرها الذهبى المنفوش ، وعينيها الخضراوين اللتين كأنهما عينا قطة أنقرية . .

ولما كنا فى ذلك الوقت فى أواخر شهر ديسمبر ، وضعنا ذات ليلة برنامج سهرة فى ليلة رأس السنة ، ووعدنا مونيوث باصطحابه نانيت فى تجوّلنا تلك الليـلة بمقاهى باريز الليلية . . على أننا شكـكنا فى هذا الوعد أيضاً . . ولـكن حينما جاءت الليلة الموعودة ، أقبلت نانيت متأبطة ذراع صديقها ! بدأنا طوافنا بالذهاب إلى ملهى « الطاحونة الحمراء » حيث كانت الممثلة الاسبانية الرشيقة « راكل ملر » تخلب الباريزيين بصوتها الشجىّ ورقصها السماوىّ . .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى مقهى قريب من « الطاحونة الحمراء »

يديه بعض أشراف الروس الذين هاجروا من بلادهم على أثر قيام النظام الشيوعى فى روسيا؛ وكان المحل غاصاً بالأجانب والفرنسيين على السواء الذين أتوا ليستقبلوا السنة القادمة بين المرح والسرور عساها تأتى لهم بالسعادة . . . ؟!

جلسنا فى البار الذى كان مرتفعاً حتى نستطيع أن نشرف على المرقص بأجمعه . . ثم شاهدت بعض أصدقائى من المصريين جالسين بالقرب من حلبة الرقص، فانتقلت الى مائدتهم لتحيتهم ... ولكن لم يمض زمن طويل على وجودى معهم حتى سمعنا جلبة قوية آتية من جهة البار، فذهبت لفورى الى هناك فاذا بأصدقائى الأسبان يتشاجرون مع بعض الفتية الفرنسيين، وقد تمكن الحاضرون من تفريقهم بعد جهد كبير دون الالتجاء الى البوليس . . أما سبب المعركة فكان نانيت ! والمحرك الأول هو مونيوث !

غازل شاب فرنسى جميل نانيت، ولكن مونيوث لم يفعل شيئاً وقتئذ برغم ملاحظته للأمر، وذلك عملاً بمبادئه السلمية وتغلباً على الغيرة المرذولة ! ولكن مونيوث المسكين لم يطق صبراً حينما شاهد نانيت تبتسم بدورها لمغازلها، فأفلت منه جواد الغيرة الجامح . . فأمسك مونيوث بكرسى وقذف به الشاب الفرنسى عندئذ هب بعض الفرنسيين الحاضرين للدفاع عن مواطنهم، وكان بغض الفرنسيين للأجانب شديداً فى ذلك العهد، فهب الاسبان بطبيعة الحال للدفاع عن مونيوث

انتقلنا بعد ذلك الى صيدلية ضمدت فيها الجراح وأهمها جرح بليغ فى شفة مونيوث السفلى، إذ كنا عازمين على السهر الى آخر الليل حتى لا نستقبل السنة الجديدة بمثل هذا الحادث المكدر . . ثم قصفنا طويلا فى أحياء باريز المختلفة

سألت مونيوث ونحن فى طريق العودة الى الفندق ألا يزال ينكر الغيرة ولا يؤمن بدمه الشرق العربى ؟ فأومأ برأسه اعترافاً بهزيمته أمام الغيرة، وبما يخالط دمه الاسبانى من دم عربى حر . .

واكتفيت بهذا الاعتراف، فان الكلام كان يؤلمه، لأن فمه لا يزال دامياً، ولعل قلب مونيوث المسكين كان أدمى من فمه ! . .

كرمة ابن هانى — حسين شوقى

من شعر الشباب

الطائر السجين

للأستاذ محمود الخفيف

راسفٌ فى القيد موصول الأنين ... مطرق الهامة فى يأس حزين
تلمح الحسيرة فى نظرته ... نظرة اللوعة والغيظ الدفين
وترى الثورة فى إذعانه ... وهو بالأذعان من قبلُ ضنين
ناسل الريش نحيل شاحب ... ذابل المقلة محزون الجبين
ساهم طوراً وطوراً راقص ... رقصة المُوثَقِ بين الموثقين
سائل عن ذنبه فى حسرة ... وسكوت هو كالنطق مبين
نائح فى يأسه ملتمس ... رحمة الغادين بعد الرائحين
يحسب الرائى إليه مشفقاً ... يعرف الرأفة بالمستضعفين
فيرجِّى الغوث فى إقباله ... ولقد يرجى مع اليأس اليقين
فاذا مر به فى غلظة ... وجمود عاد مكروب الحنين
يتمنى الموت فى محنته ... ضجعةُ الموت خلاص اليائسين
وإذا أبصر سرباً عابراً ... وهو فى السجن رهين مستكين
هز للطير جناحيه كما ... جرّرَ الأغلال فى الأسر سجين
نسى القضبان فى لهفته ... ومضى يسبح بين السابحين
رده السقف سريعاً فهوى ... طارفَ العينين مكتومَ الأنين
وكسا ريش جناحيه دمٌ ... من جراح الصدر أو نضح الوتين
وإذا غنى لديه طائر ... لم يذق قبلُ عذاب الراسفين
بلغت لوعته غايتها ... وتوالى النوح والدمع السخين
يعرف المحزون أقصى حزنه ... حين يمسى فى قبيل ضاحكين
أيها العانى برغمى أن أرى ... ما تلاقى من عذاب وشجون
أيها الطائر مالى حيلة ... ليت من صادوك يوماً يشفقون
حسبوا أنك فيهم ناعم ... أولا تأكل مما يأكلون ؟
أولا تمسى لديهم آمناً ... وترى الأحسان فيما يصنعون ؟
قفص تصدح فيه سالماً ... أين من زينته سود الوُكون
وصحاف وشراب طاهر ... وهدوء لم ينله المترفون
قسما لو حاسبوا أنفسهم ... لمضوا عن ذنبهم يستغفرون
أين هذا القيد من حرية ... هى أحلى لك مما يصفون

تجد القسوة فيما أحكموا ... ومعانى الظلم فيما يدّعون
وتعاف الضيم فى نعمتهم ... ولو اسْطعتَ تخيرت المنون
وترى الشهد لديهم علقما ... وهموعن غيهم لا يرجعون
رُبَّ يوم عضك الجوع به ... كان أشهى لك مما يبذلون
أين ما تلقاه فى أغلالهم ... من ظلال كنت فيها وعيون ؟
وفضاء كنت فيه مطلقاً ... ومَقيل لك فى وكر مصون
وطعام لم يكن ذا غصة ... لم يكدره لديك الطاعمون
أتُرى القضبانُ فى قسوتها ... كوثير العشب أوخضر الغصون؟

***

ياعدو الأسر فى فطرته ... يا طليقا بات فى القيد رهين
ان تألمت لما تلقى به ... لن تراهم بك يوماً حافلين
كنت فى جوك حراً آمناً ... فتلقتك شباك الصائدين
قتل الأنسان ما أظلمه ! ... دأبه العدوان والغدر المهين
يكره الظلم إذا ما مسه ... وهو إن يأمنه شر الظالمين
يتحدى الطير فى أجوائها ... ويصيد الوحش فى الغار الكنين
أو لم يكف ضحايا بغيه ... من بنيه الوادعين الآمنين ؟
يا أسيراً يذرف الدمع دما ... لست فى بلواك معدوم القرين
كم سجين بات يبكى حظه ... مثلما تبكى ، ويُبكى الناظرين
هذه الدنيا لعمرى قفص ... لبنيها العُزل المستضعفين
قد قرأنا الظلم فى غابرها ... فى فتوح الغاصبين الناهبين
فكرهناه ونددنا به ... وبرئنا من ضلال الغابرين
أولا نمرح فى أصفاده ... ونراه اليوم فى المستعمرين ؟
وإذا الناس على فطرتهم ... ولئن راق خيال الواهمين
وإذا العدل سراب لامع ... طالما بتنا به منخدعين
قف بهذا الشرق وانظر كم ترى ... فيه من بغى ومن حكم لعين
اسأل الوادىَ عن محتله ... وفلسطينَ عن المغتصبين
واذكر الهند ففى محنتها ... حجة تنسخ قول المبطلين
دخل السجن بريئاً شيخها ... ساخراً من باطل المستكبرين
حمل العبء على أسقامه ... وكفاه لو دروا عبء السنين
ويميناً لو نسوا أطماعهم ... لجثوا بين يديه نادمين
وكأيِّن فى الورى من آية ... ويمرون عليها معرضين !
يعرف الأغلال من كبدها ... وعرفناها كراماً صابرين
جرّب المحتل فينا مكرهُ ... ورمانا ببنينا الغادرين
وأتى الثورة من مقتلها ... فوقفنا دونها مستبسلين
فرمانا بلظًى من ناره ... وسقطنا عشرات ومئين
وافتدينا الحق فى هودجه ... واحتشدنا حوله مستشهدين
ورفعنا فوقنا رايتَه ... وتزاحمنا عليها مقسمين
ورأى الغاصب أنا لم نكن ... بالخياليين أو باللاعبين
ضاقت الأنفس حيناً وبدت ... نُذُر الرجفة للمستهزئين
والتقى الأشبال فى غضبتهم ... ومشوا نحو المنايا طائعين
أيقظوا الثورة لولا حكمة ... من بنيها السابقين الأولين
أفسدوا كيد المحيطين بهم ... فأتوا غِيرانهم منكفئين
قسماً ما أجّلوها خشية ... ولئن طال حديث المرجفين
ليس من يبذل طوعا دمه ... بالذى يرهب بأس المعتدين
كنت فيهم ، فان لم ينتهوا ... بعثوها فى غد مستأنفين

حنين إلى الوطن

للشاعر الحجازى أبى يعرب المدنى

أحن الى ذكريات الحجاز ... حنين الفطيم الى ظِئره
أحن اليه حنين الحما ... م اذا ما تغرب عن وكره
اذا هبَّ من جانبيه النسيم ... تروّحت دنياى فى نَشره
يرفرف روحى على ساحليه ... فيغترف الشعر من بحره
وما ذبل الوجد حتى يجف ... لسان القصائد عن ذكره
ألا يا سقى الله أرض الحجاز ... بوطفاء تغدق فى قُطره
ويا حبذا أن يفيق الحجاز ... فيا طال ما نام فى سُكره
اذا ثاب ثابت جميع البلاد ... وسارت الى المجد فى إثره
يقال تباشيره أقبلت ... طلائعها الغرُّ فى فجره
وأنّى له أمل أن يفيق ... وقد يئس الناس من أمره ؟
وما ارتبتُ حتى رأيت الزمان ... يسوّل لى اليأس من مكره
وغيرى إذا ازورَّ عنه المنى ... تَشفّع بالدمع فى عذره
أناتى تبَسّمُ تحت القطوب ... إذا ما تذمرتُ من شره
وأطلب حقى بحد الحسام ... إذا نام ذو الثأر عن وتره
الى أن تلين قناة الزمان ... ويعدل إذ ذاك عن جوره

لويدجى بيراندللو

LUIGI PIRANDELLO

صاحب جائزة نوبل لعام ١٩٣٤



منح الكاتب الايطالى بيراندللو جائزة نوبل للآداب، فجاء ذلك القرار برهاناً جديداً قوياً على خطر الدور التجديدى الذى أداه بيراندللو فى تطور المسرح الايطالى المعاصر

فقد كان المسرح الايطالى منذ عام ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية يعانى تدهوراً شديداً حتى دفع ذلك الناقدَ بنجامان كرميو الى أن يعتبر المسرح الايطالى أثناء هذه الفترة الطويلة خارجاً عن دائرة الأدب الصحيح . والواقع أن من العسير أن يشعر الانسان بوجود فن مسرحى فى ايطاليا خلال نصف القرن الذى سبق الحرب العظمى إلا بأعمال الكاتب الكبير جبرييل دانونزيو ، وبعض أعمال عدد من الكتاب مثل جيا كوزا Giacosa وبراجا Praga وبراكو Bracco وسمبنللى Sem Benelli

لم يكن التأليف المسرحى ضعيفاً فحسب ، بل إن محاولات الكتاب الخائرة كانت تعيش كَلّاً على الآداب الأجنبية ، وتمعن فى تقليد الكتاب الفرنسيين ، وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه ، ثم الكتاب الروس والكاتب النرويجى ابسن Ibsen فيما بعد

وكان المسرح الايطالى فى هذه الفترة من العبودية ، بحيث كان يتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه . فعندما قوى المسرح الطبيعى théâtre naturaliste فى فرنسا ، لقى ذلك التغير صداه السريع فى المسرح الايطالى فسادت روح الواقعية Vérisme أعمال المؤلفين ، وكانت هذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الايطالى بطابعهما حتى ذلك الوقت

على أن التحرر من سيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن إلا بنقل السيادة من يد الى أخرى ، وكانت هذه اليد هى فن ابسن الذى ظل يغذى المسرح الواقعى الايطالى بمشاكله التى يعالجها ، وبمواقف أبطاله حتى أوائل الحرب الماضية

كان للمسرح الواقعى بعض القوة ، إلا أن تكرار معالجة المشاكل التى عالجها ابسن فى قصصه خلق نوعاً من الملل الشديد فقامت محاولات جديدة لبناء مسرح شعرى théâtre poélique كان من زعمائه قبل الحرب سمبنللى ، وبعد الحرب أركول مورسلى Morsélli (١٨٨٢ — ١٩٢١) . على أن هذا المسرح أيضاً لم يؤد الى الغرض المنشود ، لأنه بالغ فى روما نتيكيته حتى كانت قصصه أشبه بالأساطير القديمة ، وكان أظهر عوامل الضعف فيه انطفاء الأسلوب وخطأ التحليل . لذا ظل الرجاء معقوداً على طبقة أخرى من الكتاب حتى لاحت شمس النهضة الجديدة على يد (المسرح الساخر) théâtre grotesque الذى كانت فكرته نواة أدب بيراندللو ، فاليه يرجع الفضل الأول فى تحرير القصة المسرحية الايطالية مما يسمى الفكرة التصويرية préjugé photographique التى خلقتها النظرة الواقعية والرجوع بالقصة الى معالجة الموضوعات وتحليل العواطف والنزعات الانسانية بطريقة أكثر حرية وانطلاقاً . طريقة تقوم على أساس من الدعابة والسخرية

وجاء بعد ذلك بيراندللو فاستطاع بعبقريته أن يبنى على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هى وليدة تجاربه فى الحياة ، وآلامه النفسية ، وقراءاته الواسعة . وأن يركز هذه الفلسفة فى مذهب فنى عُرف باسم (مذهب الدعابة) hunorisms أو باسم (مذهب بيراندللو) Pirandillisme الذى رفع بهِ مسرح بلاده بعد انحطاط نيف على نصف قرن كامل

لقد بلغ بيراندللو الآن سن الشيخوخة ، فى شهر يونيو الماضى أتم السابعة والستين . وقد ابتدأ الكتابة وهو فى العشرين من عمره . وكان إنتاجه من الغزارة بحيث أنه كتب إلى الآن أربعمائة أقصوصة ، وعشر قصص ، وثلاثين رواية مسرحية ! ومع كل ذلك كان اسمه منذ عشرة أعوام يكاد يكون مجهولاً فى عالم الآداب ! على أن بيراندللو قد استطاع فى الأعوام الأخيرة — بفنه المسرحى على الخصوص — أن يشق طريقه الى المجد ، ويكوّن له أتباعاً فى أوربا بأسرها . وأن ينال أخيراً أعظم الجوائز الأدبية فى العالم أجمع

***

ولد بيراندللو فى بلدة أجريجانتى Agrigente بجزيرة صقلية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٦٧ . وعنـد ماشب درس الأدب فى روما . ثم سافر إلى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة بن Bonn ، ولما عاد إلى بلاده عين أستاذاً فى (المدرسة العليا للبنات) بروما ، وبقى فيها أربعة وعشرين عاماً من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١

ابتدأ بيراندللو حياته الأدبية قصصياً يكتب القصص الطويلة والقصيرة ، ولـكنه تحول فيما بعد إلى الـكتابة المسرحية فلقى عن طريقها سبيله إلى الشهرة العالمية . وقد كتب بيراندللو من القصص الطويلة قصة Feu Mathias Pascal (١٩٠٤) و Son mari (١٩١١) و On tourne (١٩٢٤) و Un, personne, cent mille (١٩٢٦) وغيرها. أما قصصه القصيرة فانها تظهر تدريجياً مجموعة تحت عنوان رئيسى ثابت هو (حكايات لعام) Nouvelles pour un an وأشهر هـذه المجموعات Innocentes و Livret Rouge و Vieille Sieile.

أما الروايات المسرحية فقد ابتدأ بيراندللو الـكتابة فيها عام ١٩١٢، فـكتب رواياته Le devoir du médecin و Citrons de Sicile و L'étau ثم كتب La raison des autres (١٩١٣) ثم Le bonnet de fou (١٩١٤) . على أن هذه الروايات كانت فى الواقع بمثابة الخطوات الأولى لفنه الذى لم يزدهر إلا ابتداء من عام ١٩١٧ حين كتب رواية Chacuu sa vérité . وتوالت بعد هذه الرواية رواياته المسرحية الرائعة التى أشهرها Le plaisir d'être honnête (١٩١٨) و L'homme, la bête et la vertu و La greffe و Tout pour le mieux (١٩١٩) و Comme avant, mieux qu' avant (١٩٢٠) و Six personnages enquète d'auteur (١٩٢١) و Vêtir ceux qui sonl nus و Henri IV (١٩٢٢) و La vie que je t' ai donnée (١٩٢٣) و Comme ci (ou cemme ça) (١٩٢٥) و Diane et la Tuda (١٩٢٦) و L' Amie des femmes (١٩٢٧) الخ . . . .

***

كان أظهر ما يميز فن بيراندللو منذ قصصه الأولى ميله إلى الدعابة ، يسعى إليها بغريزته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . على أن فـكرة بيراندللو عن الدعابة قد تطورت وتحددت بتحوله إلى المسرح واهتمامه على الأخص بكتابة الروايات المسرحية ونبوغه فيها . فقد كان بيراندللو فى البداية يلجأ إلى الدعابة إجابة لنـداء طبيعته الساخرة . لـكنه اقتصر فيما بعد — وخصوصاً فى مسرحه — على اختيار الموضوعات التى تثير حقاً سخرية المرء ودعابته . ثم يجعل بعد ذلك من هذه الموضوعات مجالاً واسعاً لأطفاء ظمئه الطبيعى فى حب الدعابة . وقد اتفق النقاد على أن عبقرية بيراندللو هى من مهارته الفائقة فى حسن اختيار هذه الموضوعات وتوخى الصدق فيها

ويجب أن نلاحظ أن رواية بيراندللو لاتصلها بالرواية الهزلية صلة ؛ ذلك أن الناحية النقدية هى الغرض الأسمى من الرواية ، فهى لم توضع لتبعث الضحك والمرح الى نفوس المشاهدين كما هو الحال فى الرواية الهزلية ، بل لتكشف لهم بطريقة تحليلية لاذعة عن حقيقة الطبيعة البشرية ونواحى الصراع بينها وبين تقاليـد المجتمع وموجباته . وقد كتب بيراندللو عام ١٩٢٠ يشرح ذلك قال :

« إننى أعتقد أن الحياة مهزلة محزنة . لأننا نرى فى داخلنا دافعاً خفياً لاندرى سببه يدفعنا الى أن نخدع أنفسنا على الدوام ، فنخلق لنا شخصيات وأفـكاراً تختلف باختلاف كل فرد . ثم لانلبث أن يبدو لنا أن ما فعلنا ليس إلا وهما وخديعة . إن فنى ممتلىء بالشفقة الحارة على أولئك الذين يخدعون أنفسهم . على أننى لاأستطيع أن أمنع نفسى من أن ألحق بهذه الشفقة سخرية قاسـية من الأقدار التى تفرض على الانسان فرضاً هذا الغش والخديعة »

وفن بيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعـة البشرية . تلك هى مشكلة (الشخصية) ؛ فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب ؟ وكم يعانى الانسان فى علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض فى العادات والطباع ، فيرى المرء نفسه مرغماً أن يلبس مع كل فرد ولـكل حادث ولـكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحيـاة فى هذا العالم . فبيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية تراه يقارن بين طبيعة الأنسان وما تمليه عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين مايتبع ذلك من صراع ، وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الانسانية وصغائرها

يريد بيراندللو أن لـكل انسان شخصيتين كامنتين فيه ، ها

أبداً فى تناقض مستمر وحرب دائمة

أولاها : (حيوانيته) أى شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها

وثانيتهما (انسانيته) أى شخصيته الأجتماعية التى تحتم عليه أن يخضع للتقاليد والأوضاع والمبادىء الجامدة ، وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه

ويرى بيراندللو أيضاً أن الفرد يعتبر فى حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و (حيوانيته) ، فان خالف ذلك وحاول أن يكون (انساناً) يتقيد بنظم مخصوصة ، ويخضع تصرفاته لقواعد مرعية ، فهو فى نظره قد خرج على طبيعته ، وأوقف سير (حياته الحقيقية) ليدخل (حياته الوهمية) التى يتصور أنها الحياة الحقيقية

وهنا يجب أن نتساءل : ما الذى يرغم الأنسان أن ينتقل من (حياته الحقيقية) الى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) إلى (انسانيته) ؟

إنه الضمير . الضمير فى نظر بيراندللو هو الذى يفرق بين الانسان والحيوان ، وبين الانسان والنبات . الضمير الذى يولد معنا يوم ميلادنا ، ويصاحبنا حتى الموت هو الذى يفسر حياتنا . هو الذى يقيدها بالأوضاع ، ويخضعها لناموس الخطأ والصواب . ولكن هل استطاع الضمير أن يكبح غرائز الانسان وشهواته ويمنعها من الظهور والانفجار بين حين وآخر ؟ لا . لم يستطع الضمير ذلك . فحيوانية الأنسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة . وكثيراً ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره فى الطريق الذى تشاء . ولذا يرى بيراندللو أن كل شقاء الأنسان النفسى إنما هو وليد وجود الضمير . فقد أراد الضمير أن يكبل الطبيعة الأنسانية بسلاسل التقاليد والأوضاع الأجتماعية ، بينما الضمير لا يعرف التقاليد ، ولا يخضع للأوضاع . فلا الضمير إذاً استطاع أن يميت (حيوانية) الفرد فتسود (انسانيته) على الدوام ، ولا هو سمح لهذه الحيوانيـة أن تتحقق وفق هواها ليحيا الأنسان (حياته الحقيقية) . وكانت نتيجة ذلك نشوء هذا الكفاح الدائم بين شخصية الأنسان الطبيعية وشخصيته الأجتماعية ، أى بين حيوانيته وانسانيته

هذا الكفاح القاسى بين الشخصيتين الكائنتين فى كل منا هو الذى يخلق الهم الممتزج بالابتسام ، والتشاؤم الممتزج بالسخرية ، وذلك هو أظهر ما يميز فن بيراندللو ويطبعه بطابع خاص . على أن هذا الطابع الخاص لم يمنعه من أن يكون ملتقى عدة تيارات فكرية كان لها تأثير كبير فى تفكيره . فغرابة شخصيات القصص تذكرنا بقصص الكاتب الروسى دستويفسكى والكاتب النرويجى إبسن . وطريقة تحليل نفسيات الأبطال والبطلات المضطربين الحائرين بين الحقيقة والخيال تبين لنا بأجلى بيان الأثر العظيم لنظريات العالم النفسى فرويد عن (اللاشعور) أو ما يسمونه (العقل الباطن) ، والعالم انشتين عن (النسبية) ، والفيلسوف برجسون عن (الحركة) ؛ كذلك فيها كثير من (ذاتية) الكاتب القصصى مارسل بروست

على أن هذا الكفاح يختلف نوعه فى نظر بيراندللو عند الرجل والمرأة . فالرجل تتغلب عليه (شخصيته الاجتماعية) وهو لذلك يحاول جهده أن ينظم حياته ويخضعها قدر الطاقة لأوضاع المجتمع . أما المرأة فتتغلب عليها (شخصيتها الطبيعية) وهى لذلك أقل من الرجل قدرة على سيادة نفسها وتقييد غرائزها وميولها . على أن هذا الاستعداد لدى كل من الرجل والمرأة هو عند بيراندللوا أمر نسبى ومؤقت . فالرجل لا يستطيع أن يمنع (شخصيته الحقيقية) من أن تحطم أحياناً القالب الاجتماعى الذى وضع نفسه فيه كما فى قصتى (شهوة الشرف) Volupté de l' honneur و (هنرى الرابع) Henri IV . وكذلك المرأة التى تسيرها طبيعتها تود من وقت الى آخر أن تكبح جماح عواطفها وشهواتها كما فى قصة : Vêtir ceux que sont nus

فأزمة بيراندللو المسرحية تحدث عند اصطدام شخصيتى كل فرد ، وهى تختلف — على ضوء ما ذكرنا — عند أبطال قصصه (أى الرجال) عنها عند بطلاته (أى النساء) . فالأزمة تحدث عند الأبطال — وهم كما سبق يخلصون للوضع الاجتماعى — إما حين يظهر لهم فجأة أنهم يحيون (حياة وهمية) على خلاف ما كانوا يتصورون ، حياة تخالف كل ماجبلت عليه (شخصيتهم الحقيقية) ، وإما حين تنفجر هذه الشخصية الحقيقية مرة واحدة وتخرجهم عن الوضع التقليدى الذى كانوا يحيون فيه . . . أما الأزمة عند البطلات فبالعكس تحدث حين يرين أنفسهن مرغمات على الخضوع لوضع مخصوص أو فكرة مخصوصة كما فى قصة : Comme avant, mieux qu' avant حيث نرى بطلة القصة مضطرة

[البقية على صفحة ١٩٩٢]

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقى بوتشيني

مضت عشرة أعوام كاملة على وفاة الموسيقى الايطالى الأشهر جاكومو بوتشيني ، فقد توفى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، ولكن اسمه وفنه وموسيقاه مازالت تملأ الأذهان والأسماع . واليوم تذكر دوائر الفن والموسيقى بوتشيني ، وتكتب عنه وعن فنه الفصول والبحوث الفياضة . وكان مولد الموسيقى الكبير فى سنة ١٨٥٨ ؛ ودرس على أكابر أساتذة عصره مثل بازيني وبانكيلي ، ولبث مدى عصر أعظم شخصية فى الموسيقى الايطالية والموسيقى الغربية بصفة عامة ، وكان يشغل فى إيطاليا نفس المركز الذى كان يشغله معاصره ڤاجنر فى المانيا ، ويوهان شتراوس فى النمسا . ويعتبره النقدة الفنيون ثالث أقطاب التأليف الموسيقى فى العالم كله ، فأولهم ڤاجنر ، وثانيهم ڤردى ، وهو الثالث . وقد نالت أوبراته الموسيقية شهرة عظيمة ، ولا سيما « مانون لسكو » و « البوهيمية » و « لاتوسكا » و « مدام بترفلاى » وهى تجمع الى نزعة روزيني وڤردى الغنائية ، نزعة حديثة الى التعبير ؛ وكان بوتشيني موسيقى الحب المعذب ، وأروع قطعه ما كان يمثل القلوب الكليمة البائسة ؛ ذلك لأنه كان فى حياته الغرامية منكوداً معذباً ، وكان دائماً طائر القلب والعواطف ، لا يكاد ينضج فى قلبه غرام ، حتى يسارع الى غرام جديد . وكان صعب الرضى فيما يتعلق بالنصوص ، لا يكاد يعجبه نص مهما كان من الروعة ، ولهذا كان يجوب القارة باحثاً عن النصوص المختارة لتلحينها ، وقد غضب يوماً إذ أفلتت منه قطعة لبيير لوئيس انتزعها منه الفرد برينو ، وأفلتت منه أيضاً « بلياس وملېزند » لماترلنك ، ولكنه ظفر « بتوسكا » وهى من تأليف ڤكتوريان ساردو ، بيد أنه لم يكن راضياً عنها كل الرضى ، وقد ألف لها بعض أناشيد من عنده . ويروى أنه اضطر « اليكا » مؤلف « البوهيمية » الى حذف مناظر برمتها ، وتغيير كثير من النصوص . وقد تزوج بوتشيني من مدام « الڤيرا بونتورى » بعد فضيحة غرامية طويلة ، وكانت الڤيرا زوجة للسنيور بونتورى ، ولكنه هام بها رغم زواجها ، وبادلته الحب ، وحملت منه ، ثم فرت اليه ، ولم يستطع أن يتزوجها إلا بعد وفاة زوجها . وكان بوتشيني مع ذلك يبحث عن مخاطرات غرامية جديدة كلما أصابه السأم ، ثم يعود يائساً فيرتمى بين أحضان الڤيرا

وقد توفى بوتشيني فى بروسل ، فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، بعد مرض طويل ، ودفن حسب وصيته فى قصره فى تورى دللاجو (شمالى إيطاليا) ، ولما توفيت زوجته الڤيرا فى سنة ١٩٣٠ دفنت معه فى نفس قبره

مكتبة نابوليون وآثاره الخطية

عرضت أخيراً فى دار التحف المعروفة « باوتيل دروو » بباريس مجموعة فريدة حافلة لآثار الامبراطور نابليون بونابرت ومخطوطاته الشخصية ؛ وهذه المجموعة التى يملكها المسيو « برويه » والتى لا تضارعها أية مجموعة أخرى من آثار الأمبراطور ، تعرض الآن للبيع ، وفيها عشرات من الذخائر والتحف البوناپارتية فى عصر الأمبراطورية ، ومعظمها مما احتوته مكتبة الامبراطور الشهيرة فى قصر مالمزون من الكتب النادرة الممهورة بتوقيع الامبراطور ، والوثائق الحربية والسياسية النادرة ؛ وهى تعرض تاريخ نابليون كله مذ كان ضابطاً صغيراً فى حصن ڤالانس حتى وفاته فى جزيرة سنت هيلانة سنة ١٨٢١ ، ومنها رسائل شخصية تصور ما كان عليه الامبراطور من وفرة فى السلطان والعزم ؛ ومنها رسائل غرامية كتبها نابليون الى « جوزفين بوهارنيه » التى غدت زوجته الامبراطورة فيما بعد ؛ وفيها يبدو القائد العظيم محباً ذلولاً يخضع لسلطان الهوى خضوع الطفل ، وكان أهم ما لفت النظر منها رسالة كتبت على ورق أخضر بتاريخ يوليه سنة ١٧٩٦ وفيها يخاطب نابليون جوزفين بما يأتى : « ألست

روح حياتى ، وعاطفة قلبى ؟ إنى أؤمل أن أظفر منك برسالة هذا المساء ؛ وأنت تعلمين ياعزيزتى جوزفين أى سعادة آنسها لرسائلك ، وإنى لعلى يقين أنك تغتبطين بكتابتها . . . سأسافر هذا المساء الى جبال التيرول ، الى فيرونا ، ومن هنالك الى مانتوا ثم الى ميلان ، لأظفر ثمة بقبلة ، فأنت تؤكدين لى أن القبلات ثمة ليست باردة ولكنها محرقة ... ماذا تصنعين فى هذه الساعة ؟ إنك تنامين أليس كذلك . وأنا لست بجانبك لكى أستنشق تنفسك ، وأتأمل ظرف محاسنك ، وأغمرك بالقبلات . إن الليالى بعيدة عندك طويلة ، ذابلة محزنة ؛ والى جانبك يأسف المرء أن ليس الليل بخالد ، فوداعاً أيتها الحسناء الرقيقة ، التى لامثيل لها ، والتى تسمو الى السماء ؛ وألف قبلة ناعمة ؛ فى كل مكان ، فى كل مكان . . .

وقد أثار عرض هذه المجموعة فى الدوائر الفنية والأرستوقراطية اهتماماً عظيماً ، وهرعت الجموع إلى « أوتيل دروو » ، تتنافس فى اقتناء هذه الذخائر ، ومنها كتب وسمت بشعار الأمبراطور ، ومنها كتب كانت لقادته واخوته ، وآله

فمتى نعنى فى المشرق بآثار عظائنا ، ومتى نعتبرها ذخائر مقدسة يتنافس المتنافسون فى اقتنائها ؟ ومتى نخرج إلى الضياء قبل كل شىء ؟

جائزة نوبل للكيمياء

سبق أن أشرنا إلى أن جائزة نوبل الطبية منحت هذا العام لثلاثة من علماء الطب فى أمريكا ، وأن جائزة نوبل الأدبية منحت إلى الكاتب المسرحى الايطالى برانديللو . ونذكر الآن أن جائزة نوبل للكيمياء عن سنة ١٩٣٤ قد منحت أيضاً إلى أمريكى هو الأستاذ هارولد كليتون يور أحد أساتذة جامعة كولومبيا الشهيرة بنيويورك ، وذلك لأجل مباحثه واكتشافاته الخاصة بالهيدروجين الثقيل ؛ وبذلك تكون أمريكا قد ظفرت هذا العام بجائزتين من جوائز نوبل

هذا وأما جائزة نوبل عن العلوم الطبيعية فقد تقرر أن يوقف منحها هذا العام ، وأن ترجأ إلى العام القادم ، لأنه لم يتقدم لنيلها من العلماء من هو جدير بنيلها

لويدجى بيراندللو

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٠]

الى مجاراة ابنتها — التى تظن أن أمها ماتت — فى اعتقادها أنها زوجة أبيها

وفى الفصول الأولى من روايات پيراندللو المسرحية ، نرى حوادث القصة غامضة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية . وكل حوادث القصة تحدث فى هذه الفصول الأولى . فاذا ما جاء الفصل الثانى — وهو أعظم فصول القصة شأناً — ابتدأ دور (التنبه) prise de conscience . وفى الفصل الثالث — وهو عادة أقصر كثيراً من الفصلين الأولين — يكمل دور (التنبه) ويكون ذلك مصحوباً غالباً بحركة مسرحية عنيفة تحل بها العقدة المسرحية

فنواحى التجديد فى مسرح پيراندللو :

أولا : أن القصة لاتبلغ حدتها فى الفصل الذى يقوى فيه (الحادث) aetion بل فى الفصل الذى تقوى فيه (المعرفة) connaissance

ثانياً : أن القصة ترمى إلى إثارة الشاهدين عن طريق (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق (الحركة) geste

ومن الحق أن نذكر ما يوجهه النقاد الى فن پيراندللو . فقد اتهمه ناقدوه بأن رواياته لاترتفع عن مستوى الدرام ، بل عن مستوى الميلودرام . وأنه اختار لقصصه موضوعات هى من التعقيد بحيث كان من العسير التصديق بأمكانيتها فى الحياة الانسانية الواقعة ، وأخيرا أن رواياته لا تخلو من بعض الملل لأن پيراندللو كان فيها (مفكراً) أكثر من اللازم

على أنه مهما قيل فى فن پيراندللو فانه لا يمكن إنكار أهمية مسرحياته وأثرها التجديدى فى المسرح العالمى مما جعل بعض قصصه الشهيرة يترجم الى خمس عشرة لغة أجنبية ! كما أن پيراندللو هو الكاتب الايطالى الوحيد الذى استطاع أن يحل المعضلة التى اعترضت كل الكتاب الايطاليين منذ عام ١٨٧٠ ألا وهى كتابة عمل أدبى يعالج موضوعات ويرسم شخصيات قومية بحتة وينال فى الوقت نفسه إعجاباً عالمياً

فكأن پيراندللو بنيله جائزة نوبل قد نال فخراً مضاعفاً . إذ بلغ مجده الأسمى وحقق أملاً عزيزاً من آمال وطنه

على كامل

أهم المصادر :

1) Benjamin Cremieux :
Panorama de la littérature italienne contemfqoraine
2) M lle. Th. Laignel. La littérature italienne
3) Encyclopaedia Britannica (1932)

القصص

من الأدب التركى

الزواج المبارك

ترجمة الآنسة « فتاة الفرات »

كنت سائراً يوماً وأحد رفقائى فى شارع (بك اوغلى) أحد شوارع الآستانة الجميلة . وكان رفيق على عادته يحدثنى أحاديث مختلفة ، يحدثنى عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها مايمج ويرد . وبينا هو يهدر فى حديثه وقف فجأة وصاح :

ـ إلى أين ؟

التفت فاذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر ، كأنه قد تعب من الحياة ؛ أسمر اللون ، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف ، عليه بذلة لا يعلم إلا الله ما لونها ، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها

فقال له رفيق :

ـ ألا يزال الحال على ما نعهد ؟

فهز الرجل رأسه علامة الايجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح

فقال له رفيق :

ـ بارك الله فيهم . وانصرف عنه

ثم التفت إلىّ وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل ؟

فقلت له على مضض :

ـ هات ما عندك

فأخذ يقص على قصة الرجل ، يقصها بصورة مونقة ، لها من اشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها . قال : هذا الرجل من لداتى فى السن ، ومن رفقائى فى العمل . كنا مأمورى حساب فى مصنع حديدى ونحن فى نهاية العقد الثانى من عمرنا ، وكان مرتبه الشهرى أربعة دنانير ، ولكنه كان بالرغم من قلة المرتب ذا زى حسنٍ وهندامٍ جميل ، فاذا ظهر زى كان أسبق الناس إليه . كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً ، وكان يفوقنا طراً فى العناية بثيابه وجسمه ، فكان يحلق ذقنه فى كل يومين مرة ، وكان مغرماً باللهو كثيراً ، فاذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه فى بياض يوم الأحد وسواد ليله ، ولم نكن نجد عند أحد ما نجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح التمثيل والمتنزهات

جاء فى يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة فى هندامه وآية فى زيه ؛ كان فى رجله حذاء لماع قد جعل حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه ، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة ، وجعل فى وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت ، لعله قد ورثه عن أمه ، ومن جيبه الخارجى تدلى منديل حريرى ذو ألوان جميلة ، وفى صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها فى عروة صدارته وطرفها الآخر فى جيبها ، وفى أصبعه خاتم زمردى ، وفى رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل

فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد فى هذا اليوم ، فقال :

ـ سأذهب اليوم إلى متنزه « كاغدخانه » ، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لى على الرئيس ليسمح لى بالذهاب ، فان التأخر يضرنى كل الضرر

ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة « حمراء » اللون لوح لنابها وهو يبتسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى ، ولكنه ضنّ علينا بسر تلك الورقة ، وأهمنا ما أهمه ، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة ،

فذهب أحد أصدقاء الرئيس إليه ، ومازال به يكلمه فى شأنه حتى سمح له بالذهاب فى ذلك اليوم ، وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك . فـكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه ، وقفز إلى الشارع وهو يقول :

ـ سأقص عليـكم غداً ما يكون فى هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض ، ننظر إليه نظر المحبوس فى غرفة مظلمة يؤدى عملاً شاقاً ، إلى رجل حر ، طليق ، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص . . .

عاد فى اليوم الثانى إلى عمله بهندامه المألوف ، فاجتمعنا حوله نسأله باصرار عن سر الورقة « الحمراء » وعن أخبار النزهة فى « كاغد خانه » ، فلزم السكوت مع أنه هو الذى وعدنا بأن يقص علينا ما يجرى معه هناك ! كان لا يجيبنا إلا بقوله :

ـ لا شيء ، لا شيء . . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة ، لـكنه يود إخفاءها عنا

فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله

أخذت ألاحظه ملاحظة خفية فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذى أمامه ويفتح محفظته ويلقى على مافيها نظرة تنم عن غبطة وسرور . ثم رأيت ورقة « زرقاء » بجانب « الحمراء » ، فقلت له وهو يلقى خلسة نظرته المعتادة على مافى محفظته :

ـ أراك تهيىء نزهة أخرى فى « كاغدخانه » ؟

فأجابنى ضاحكاً

ـ ربما . . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيق ينتحل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع ، فـكان يذهب إلى متنزه « كاغدخانه » يقضى أيام الآحاد والجمع هناك ، ولـكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضاته . كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بى ، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق « البنفسجية والخضراء ، والصفراء » بجانب « الزرقاء ، والحمراء »

فقلت فى نفسى ، كأن رفيق يستعرض الألوان متخيراً ، وسنرى أى لون يختاره فى النهاية ويستقر عليه رأيه

وبعد مدة علمنا اللون الذى وقع عليه اختياره . . .

جاءنا فى صباح يوم بادى القلق ظاهر الاضطراب ، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا يحاول أن يتكلم ويفضى إلينا بشيء ولـكنه لا يقدر ، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال :

ـ سأقول لـكم شيئاً

حولنا جميعا أنظارنا إليه ، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التى فى محفظته فقال :

ـ سأتزوج . . .

فصعقنا لهذه الـكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف ، واستتلى فقال بكل جد :

ـ لقد سئمت هـذه الحياة ، حياة الوحدة ، وعزمت على أن أستريح ، إن ملازمة غرف البيت والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالى الطوال فى أماكن اللهو ومحال الفجور

فقلت له :

ـ إن مسألة الأطفال مسألة ثانية ، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال ؟

فأجابنى بكل جد :

ـ إنها موافقة لى تمام الموافقة ، إنها ليست غنية ، وأنا لست من طلاب الغنى فى الزواج ، ستأتينى بثيابها فقط ، إن والدى ما زال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتى ، ويقول إن كل بيت يحتاج إلى امرأة ، فسأسبقه وأتزوج قبله ، هذا كل ما هنالك

فقلت له :

ـ لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة ؟

فلم يصدق ماقلت ولا أنـكر ما ادعيت ، إنه سكت ، وكيف ينـكر ما لا يقبل الانـكار ؟

سمعنا هذا منه وسكتنا ، ولم يظهر بيننا من يخالفه فى رأيه الذى اعتزم عليه ، ولا من يقول له : إن الاقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر ، لا يدل على رأى حسن وفـكر مستقيم ، وإن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لـكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر

كان العقد وكان الزفاف ، وكانت الحفلات الشائقة التي نعمنا فيها بنعيم صديقنا . وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هي :

– إني سعيد . . .

نعم كان سعيداً . . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذي أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها في حفلات العرس . كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة في أكثر الأحيان . . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعدادا ويمحو أخرى . . .

لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط

ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه ، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا :

– إنني سعيد . . .

كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه ، أو كأنه يريد أن يخدعنا سمعته في أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول :

– إني اليوم أشعر بفتور في جسمي لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام ، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن

وفي اليوم الثاني أتى بعلبة صغيرة ووضعها في درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال :

– لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائي هذا اليوم

كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة ، عند ذلك قوى عندي الشعور بسعادته وقلت :

– حقاً إنه جد سعيد . . .

أصبح بعد ذلك اليوم لايخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء ، ولا يرى حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه ، وأصبح في أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لايزيد عليهما ، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر ، أو لحم مقدد ، قد صر ذلك في جريدة ، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق

رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً ، فلما وقع نظره على نظري رفع قطعة القماش بيده وقال لي :

– ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائي ! إنها حقيرة في نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير !

لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهري أربعة فقط ! ومع هذا فهي ساخطة وتعدها حقيرة . . . يا للغرابة ! . . لم أر من اللياقة أن أجيبه عما يجب ، فأرسلت زفرة من أعماق قلبي وقلت :

– انه سعيد وسعيد . . . !

في اليوم الثاني أخذنا مرتباتنا ، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة في انتظاره عند الباب فتعلق به وطالبه بنقوده صائحاً معربداً ، فدفعه عنه ، ولكن الصيرفي أخذ بتلابيبه ، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه ، فتخلص منه بعد جهد ، وعاد الينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر في نفوسنا :

– ياله من وقح ! كأني قد أنكرت ماله عليّ من دين ، فهو يطالبني بهذه الشدة !

فقلت في نفسي :

ستدفع اليه ماله بلا شك ، وما الذي يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذي قدمته للفتاة التي عبثت بلبك بوريقاتها الزاهيـــة ، وإلا نفقاتك البيتية والخصوصية ، ثم قدمت اليه الباقي جملة واحدة ؟!

كان يفقد نشاطه بالتدريج ، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور ، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً ، ولكنا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسه الماسي فوق عقدة رقبته ، وخاتمه الزمردي في أصبعه ، وسلسلة ساعته على صدره

أما الثياب فكان يقضي داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً ، وكان لا يبدل قميصه إلا نادراً ، وظهر عليه انقباض ، فربما مرت عليه أيام لايحرك شفته فيها بكلمة

كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ماوراءه من حياة بيتية مضطربة . . . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله :

– هنئوني ، لقد رزقت اليوم فتاة

ثم نظر الى تقويم الأوقات وكتب في دفتره :

١٥ آذار ١٣٠٠

هنأه كلهم بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت :

– ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال

جاءني بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه :

– هل عندك دينار تقرضني إياه ؟

ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه :

ـ يجب عليّ أن أدفعه الى القابلة

لقد سمعت الدينار فى جيبى يزفر زفرة حرى . ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أرد طلبه . فأعطيته الدينار . ومن الغريب أنه منذ ذلك الحين أخذ يعاملنى معاملة باردة ، ويقابلنى بوجه جاف ، مع أنه لم يكن ثمة حاجة الى ذلك ، لأنى منذ ناولته « الدينار » نفضت يدى منه

لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطرابه بعد أن صار أباً . دخل يوماً الى الدائرة وهو يقول :

ـ ألا تسألون عما حلّ بى ؟

فأخذنا ننظر اليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ما حلّ به ، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطاءها وأرانا إياها فاذا فيها :

ثدى صناعى . وقال :

ـ إن زوجتى لن ترضع ابنتها بعـد الآن ، سنرضعها بالثدى الصناعى ، فهل تدرون لماذا ؟

حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل :

ـ لأنها حامل !

كان ينظر الينا باضطراب ، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة « كعك » وقطعة من جبن « القشقاوان » وأخذ يأكلها وهو يتمتم قائلاً :

ـ أنت تجوع وابنتك فى البيت تأكل مرق اللحم الدسم

أخـــذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها ، وبدت على وجهه معان مؤلمة حزينة لبعد عهده بالموسى ، وكان كثيراً ما يكلم نفسه كالمجانين ، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص ـ حساب الدين ـ عن حساب الدائرة ، ويسافر بفكره الى أقصى حدود الخيال

عدنا يوماً من الغداء الى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه ، ذلك المعطف الذى صحبه زمناً طويلاً ، فخجل منا وقال :

ـ إن زوجتى مريضة لذلك أنا أخيط ثيابى بيدى

إنه لم يقل الحقيقة لأنه ما كان يخيط بطانة معطفه المفتوقة ، بل كان يرفو بطانته التى تهلهل نسجها لطول الأيام

حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثانى لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان فى أول مرة بل قال :

ـ لقد رزقت اليوم غلاما

ثم نظر الى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه :

١٢ نيسان ١٣٠١

لم نره بعد ذلك شكا أو تبرم ، ولكنه كظم كل ذلك فى قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره . سعينا مع الرفاق عند رئيس الشركة لزيد راتبه فلم نفلح ، وكان جواب الشركة :

ـ إن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم . أربعة دنانير للزوجين والمولدين . . . . .

صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة ، ولم نعد نراه فى متنزه ولا متفرج ، وأنزل نوع تبغه الذى يدخنه درجة ثم درجات ، وأصبح كثير النظر فى أوراق الحساب ، وفى آخر أحد الشهور زاره الصيرفى الملح يطالبه بالدين فصاح به :

ـ لن أعطيك ، لن أعطيك شيئاً ، افعل ما تشاء

لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً ، أما اليوم فهو يكلمه علناً ، لأنه لم يعد يخجل منا

جاءنا فى صباح أحد الأيام وبيـده علبة فيها ثدى صناعى . فقلت له :

ـ ما هذا ؟

فقال :

ـ لا شىء

كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً ، وفى ذلك النهار لم يزاول عملاً ، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل فى أفكاره حتى المساء ، لا ينظر الى شىء ولا إلى أحد

ولاحت منى التفاتة اليه أحد الأيام فاذا هو ينظر الى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه ؛ فقلت له :

ـ هل من قيد جديد لزائر جديد ؟

فأرسل نفساً قصيراً وكتب فى الدفتر :

١٠ مايس ١٣٠٢

ثم قال وهو ينظر إلى مبتسماً ابتسامة مؤلمة :

ـ لقد رزقت اليوم فتاة أخرى

كنت أنا أشعر من أعماق نفسي بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق ، أما هو فكان يبكي من فرط تألمه ، فحول عينيه عني وأقبل على عمله . أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة ، فقلت في نفسي :

– لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن

إن رفيقي لم يدفع ثمن القهوة في هذا الشهر ، وأصبح منذ ذلك اليوم يشربها مرة واحدة في النهار بدلاً من ثلاث مرات . ساءت حال الرجل واشتد به الضيق ، وظهرت ملابسه ملونة ببقع الحبر ، واستحال لونها ، وتهلهل نسجها ووهى ، فكنت إذا رأيته على هذه الحال رثيت له وبكيت عليه . ولقد دخل عليّ يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً ، ففرحت لذلك ، الا أن فرحي لم يطل ، فقد قال لي غير خجل مني :

– إنها قديمة ، ولكني صبغتها فصارت جديدة

وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين ، وزال ما بيننا من الفتور الذي سببه « الدينار » واتخذني كاتماً لأسراره ، يبثني آلامه وأحزانه . لقد سرد عليّ تدريجاً كل آلامه في الحياة . فذكر لي أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها ، وأن ذلك كان في متنزه « كاغدخانه » ، وبسبب تلك الأوراق الملونة . . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالأقتران بها ، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء ... ، ثم تجلت حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها ، فكان بينهما نزاع سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها ... ثم الأولاد ...

وعاد الى زوجته فقال :

– إنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهي من ملبس وما كل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق ، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك ، وها هو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن ، وأن ياقاته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول اليه ، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا تتمزق سريعاً ، وها إن ولديه الأثنين قد كبرا ، وهما في حاجة الى ثياب والى أحذية لا يجدها

وكان بعد ذلك اليوم الذي نفض فيه جعبته أمامي ، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة . نظر إلي يوماً وهو يريني قماشاً أخذه لأبنته الكبرى وقال :

– سأقول لك شيئاً

ثم عاد وقال :

– لن أقول لأنك لا تصدق

إلا أني عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره في يده ونظره في تقويم الأوقات ، لقد كتب في دفتره :

٨ حزيران سنة ١٣٠٣

فقلت له :

– أطفل أيضاً ؟

قال : نعم غلام ، وقد أصبحوا أربعة

ثم قال وهو يبتسم :

– إنهم لا يخطئون نوبتهم : فتاة ثم غلام ، ثم فتاة ثم غلام ، وهكذا . .

كان يضحك ولكن كان قلبه يبكي . فقال لي في نفس ذلك اليوم :

إن الدخان يؤثر في صدره ويؤذيه ، وهو يرغب في تركه لو يستطيع .

أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان ، فتألمت له كثيراً حتى كدت أبكي

رزق ولداً آخر ، فصار الأولاد خمسة ، وفي ذلك اليوم خرجت نفسه من يده ، فانه ما كاد يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً يفتت الكبد ويصدع القلب : ٥ تموز ١٣٠٤

فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه :

– ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم ...

كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد

بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين في الوظيفة رأيته فيها ثلاث مرات يكتب في دفتره

كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين :

١٤ آب ١٣٠٥

٨ ايلول ١٣٠٦

١٤ تشرين الأول ١٣٠٧

[البقية على صفحة ٢٠٠٠]

الكتب

(الخطابة) : تأليف محمد أبو زهر

(الأدب العربي فى آثار أعلامه) : وضع لجنة من أدباء لبنان

(نسمات الأصيل) : تأليف عبد العزيز رمضان وعبد الفتاح العشرى

(الثعابين) : تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

(ابنة اسبرطا) : تعريب محمد عبد الفتاح ابراهيم

(ظلال القمر) : نظم أحمد مخيمر

تدل هذه المجموعة من الكتب ، فضلاً عما تظهر من نشاط التأليف فى العالم العربي ، على بعض مظاهر الحركة الفكرية عندنا ، من حيث تشعبها واتجاهاتها ومقدار مادخل عليها من تطور فى طريقة عرض الآراء وبسطها وتوجيهها ، ومادخل على المشاعر من آثار التجديد

أما أولها فبحث قيم فى الخطابة وأصولها وتاريخها فى أزهر عصورها عند العرب ، اضطلع بوضعه الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ تاريخ الخطابة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية ، وهو كتاب كبير يقع فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير جعله مؤلفه قسمين ، فتناول فى القسم الأول أصول الخطابة ، فعرف هذا العلم وبين علاقته بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ثم تكلم عن فائدة الخطابة وطرق تحصيلها وقواعدها كالايجاد والأدلة ومواضعها الذاتية والعرضية ، وآداب الخطيب وصفاته وما يتخللها من إثارة الأهواء والميول واستغلال العواطف ، وغير ذلك من أصول هذا العلم كالتنسيق وما يدخل فيه من مقدمة وإثبات ، ثم التعبير وحسن الأداء ومايصحبهما من موقف الخطيب وإشاراته وصوته ، ولم يفته أن يبين فى وضوح أنواع الخطب من سياسية ومن قضائية حتى الوعظ الديني والمحاضرات العلمية والخطب العسكرية . . الخ وفى القسم الثانى تكلم عن تاريخ الخطابة فى العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، وفى العصر الأموى وصدر العصر العباسى مع إيراد نماذج لكل من هاتيك العصور

فأنت ترى أنه بحث قيم جدير بالثناء ، كما ترى أنه موضوع طريف فى مسألة لها أهميتها وخصوصاً فى عصرنا هـذا . عصر الرقى الاجتماعى والاتصال الفكرى ، عصر المجادلات السياسية والمناقشات البرلمانية والمحاضرات العلمية والوعظية فى المجتمعات والنوادى وفى الرادبو وغيره

وإنى وإن كنت أشايع المؤلف الفاضل فى رأيه أن الخطابة ملكة وهبة طبيعية ، فانى أرى معه أيضاً أن الأصول والقواعد الفنية لابد منها حتى للموهوبين ، فما أبدع الجمع بين الاستعداد الفطرى والأوضاع الفنية ، هذا ولولم يقتصر الأستاذ الفاضل على الخطابة عند العرب فتناول الخطابة عنـد أمم الغرب لكان موضوعه أتم ، وكانت فائدته أعم ، إذ تتسنى بذلك المقارنة . ولاشك أن ماطرأ على الأمم من تغيير فى نظم الاجتماع وطرق التفكير قد أدخل على الخطابة فى العصر الحاضر عناصر أخرى جديرة بالبحث ، والمؤلف كما يظهر من كتابه جدير بأن يفرد لها رسالة أخرى لايتقيد فيها ببرنامج الدراسة وحدوده

* * *

وأما الكتاب الثانى فعبارة عن نصوص منتخبة من النظم والنثر وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية قام بوضعه الأساتذة واصف بارودى ، وفؤاد افرام البستانى ، وخليل تقى الدين ، وفى يدى الآن الجزء الأول منه ، ويشمل الجاهلية وعصر صدر الاسلام ، ويقع فى نيف ومائتى صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع طبعاً أنيقاً فى بيروت ، اختار مؤلفوه الأفاضل من عصر الجاهلية شيئاً من أشعار امرىء القيس وطرفة بن العبد وزهير وعنترة والنابغة الذبيانى مع إيراد ترجمة قصيرة لكل منهم ، وبيان ظروف معلقته ، واختاروا من عصر صدر الاسلام للأخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبى ربيعة والحجاج بن يوسف وعبد الحميد الكاتب ،

على نحو ما فعلوا فى العصر الجاهلى مع الأشارة هنا إلى الدواوين أو المؤلفات

وقد يظن القارىء أن مثل هذا العمل قليل الخطر ، ولكن الواقع أنه من أدق الأعمال الأدبية ، فالاختيار يحتاج إلى توخى الفائدة وإلى التقيد بالذوق العام ، ومراعاة سن القارىء ودرجة استعداده ، ثم ملاحظة القطع المختارة ومقدار دلالتها على تفكير صاحبها ونوازعه فى الشعر والكتابة وما ينعكس فيها من أخلاقه وصفاته ، وهذا بلا شك يزيد فى قيمة النصوص ، فالنصوص كما لا يخفى أمر لابد منه لدراسة الأدب وتذوقه ، وهى الخطوة السابقة للنقد بل الأساسية له . هذا وكثير من النصوص ماتزيد قيمته فى نفس الجمهور بحسب من اختارها لامن حيث هى فى ذاتها . فاذا كان من يختار سليم الذوق ضليعاً فى فنه ، جاءت مختاراته على قدر منزلته ، وهـــذه النصوص التى أحدثك عنها تدل على ذوق وفن عظيمين

***

ونجد ثالث تلك الكتب من نوع سابقه فهو عبارة عن مختارات من النظم والنثر ، غير أنه يختلف عنه فى طريقته ، فلم يُراع فيه ترتيب ولاتبويب ، كما لم ينظر فيه الى درس أو غاية فنية اللهم إلا الاستمتاع والغذاء العقلى الذى يستمد من الآثار الأدبية عامة أياكان شكلها أو موضوعها ، وإنك لتجد فيه المقالة المعربة الى جانب القطعة المختارة ، الى جانب الترجمة لشاعر أو كاتب ، الى قطع شعرية قديمة وحديثة متناثرة هنا وهناك دون أن تستطيع أن تعرف السر فى اختيارها ، اللهم إلا أنها قد أعجبت مختاريها ، وبينما نجد بعض القطع منسوبة الى أصحابها من أعلام الشعراء والكتاب نجد غيرها غفلا من كل اشارة ، وتكاد لاتساوى شيئاً فى معناها أو فى أسلوبها

لذلك يحق لى أن أعتب فى رفق على الأديبين المختارين عدم تنظيم كتابهما ، فان فيه كثيراً من التحف الأدبية لو أنها عرضت بطريقة منظمة لكان ذلك أجمل وأدعى الى الاستمتاع والانتفاع

***

أما كتاب الثعابين فهو بحث يتناول الثعابين عامة والأنواع المصرية منها خاصة ، قام بتأليفه أستاذ متخصص فى علم الحيوان هو الدكتور حسين فرج زين الدين ، وإن اختيار المؤلف الفاضل لهذا الموضوع الذى لم يسبقه اليه غيره فى اللغة العربية ، لدليل واضح يضاف الى كثير غيره من الأدلة على مجاراة المصريين غيرهم من أمم الغرب فى التخصص العلمى ، وتناول المسائل العلمية على أمثل الطرق ، والكتاب مملوء بالصور الدقيقة لأنواع الثعابين ، والمصرى منها خاصة ، ولن أجد فى وصفه أحسن مما قاله فى مقدمته الفريق الدكتور أمين باشا المعلوف « قرأت الكتاب من أوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة ، وأسلوب على سهل المنال ، مما يثبت أن اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمى لمن أراده . هذا من جهة اللغة ، أما العلم فقد بحث المؤلف الثعابين بحثاً وافياً ولاسيما ما كان منها فى مصر وما جاورها وذكر أسماءها العربية الفصيحة والعامية ، وإذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الأسم العامى . وبحث فى الحيات والانسان وأنواع الحيات وأشكالها بوجه عام ثم بحث فى تشريحها . . . الخ ثم بحث فى السم وأنواعه وأعراض التسمم والمصل فى علاج الملدوغين »

ونحن نتقدم بجزيل الثناء للدكتور المؤلف على مجهوده المحمود

***

وأقدم للقارىء بعد ذلك تلك القصة المعربة وهى « ابنة استريا » وتقع فى جزءين ، ولقد نشرت تباعاً فى جريدة الاهرام ومعربها هو الأستاذ محمد عبد الفتاح ابراهيم ، أما مؤلفها فهو الروائى الانكليزى الذائع الصيت فيلبس اوبنهايم ، صاحب الروايات المحبوبة عند جمهور القراء فى الامبراطورية البريطانية ، وليس لدى الأصل الانجليزى حتى أستطيع أن أحكم على ما إذا كان التعريب جيداً ، غير أنى أجد فى جودة العبارة وسلامتها من الركاكة ما يرجح عندى هذا ، أما موضوع القصة فموضوع غرامى ساحر ملىء بكثير من المواقف المدهشة والأوصاف الساحرة . « كتبه اوبنهايم بعد أن زار جزيرة (استريا) وسط المحيط الجنوبى وسمع القصة بأذنيه »

يبقى الكتاب الأخير «ظلال القمر» وهو ديوان صغير الحجم يقع في نحو تسعين صفحة للأديب أحمد مخيمر ، مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق جيد ، ومحلى بعدة صور ريفية بديعة . وتدور معظم قصائده على وصف المناظر الريفية ، وهي نزعة أحمدها للشاعر الفاضل فلقد تناول البيئة المصرية المحبوبة ، ولم يجر كغيره وراء أخيلة وصور لاتمت الينا بصلة ، ولذلك تلمس في شعره الروح القروية الرقيقة . وكثير من قصائده في القمر والحقول يقنعك بأن الشاعر لايعرف التكلف ، وحبذا لو اتجه شعراؤنا الى الريف المصري فوصفوا جماله واستلهموا سحره ، واستوحوا صفاءه وبهجته . ولكني إذ أغتبط بنزعة الشاعر من حيث الموضوع أقرر مع الأسف أنه كثيراً مايسف في شعره إسفافاً قد يقربه به من الابتذال ، ولكنه يسمو أحياناً سمواً يبشر بأنه مع الصبر والتجويد قد يأتي في المستقبل بما يجعل منه شاعراً مصري الروح والعاطفة ؟

الخفيف

الزواج المبارك

[بقية المنشور على صفحة ١٩٩٧]

كأن الدهر كان يريد مداعبة هذا الرجل الفقير المسكين فهو يقذفه مصراً في كل سنتين بفتاة وغلام . . .

لقد خلت محفظته من الأوراق «الملونة» بعد أن كانت تنغص بها ، ولم يبق فيها غير دفتر صغير فيه صحيفة كاملة لتواريخ أولاده بعد أن قيد تاريخ ولادة الولد الثامن . . . ألقى نظرة فاحصة على الصحيفة من أولها إلى آخرها ثم جاء إلينا وقال :

– تعالوا لأريكم اتفاقاً غريباً

فاجتمعنا حوله فقال :

اقرأوا من أعلى الصحيفة حتى أسفلها

فقرأنا فاذا فيها :

آذار ، نيسان ، مايس ، حزيران ، تموز ، آب ، ايلول ، تشرين الأول

ثم أخذ يشرح لنا مكان الغرابة في ذلك فقال :

– انظروا إن بين كل ولد من أولادي ورفيقه ثلاثة عشر شهراً لاتزيد ، لذلك كانت شهور ولادتهم متعاقبة لا فاصل بينها

فقال أحدنا مستهزئاً أيضاً :

– الآن جاء صاحب تشرين الأول ! وسيأتيك أربع آخرون حتى شباط . وفيه تنتهي المجموعة ويكمل عددهم « إثني عشر »

لقد مضى على خروجي من خدمة الشركة أربع سنوات لم أر خلالها هذا الرفيق القديم ، فلما رأيته اليوم سألته عن حاله فاذا « سيل » الأولاد لايزال كما كان . وعلى ذلك فان « شباط » قد وضع « هديته » وتمت المجموعة التي بُشر بها ، مع أن المسكين لا يزال يلبس الثياب التي كانت عليه منذ أربع سنين ، وربما كان مرتبه لا يزال « أربعة دنانير »

***

هنا انتهت القصة التي رواها رفيقي فودعته وركبت الترام إلى بيتي ، وأنا أفكر في ذلك الرجل المسكين وسوء طالعه ، وأستنزل الرحمة والرضوان على جدث دفين معرة النعمان

حلب **فتاة الفرات**

2me Année, No. 75. | Lundi-10-12-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

السنة الثانية | « القاهرة في يوم الاثنين ٣ رمضان سنة ١٣٥٣ — ١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤ » | العـدد ٧٥

فهرس العـــدد

إلى القرية يا بك ...

أهلاً وسهلاً بعلى بك ! ... كيف حالك ؟ ... آنستَ هنا وأوحشت هناك ! ... منذ كم سنة لم أرك ؟ ... نعم أكثر من ست سنين ! ...

وكان هذا اللقاء المفاجئ فى ميدان ابراهيم أمام (النيو بار) ، فمال بنا الشيخ فى حماسة الشوق ودهشة المفاجأة الى مجلس من مجالس هذا المقهى الحاشد ، ثم أخذ يسألنى عن أمرى حتى نقع نفسَه ونضح وده . فلما طال بنا نفَسُ الحديث عطفته مترفقاً الى عمره المفقود ، فذاكرتُه عهود القرية أيامَ الشملُ جامع والحبل واصل والدار نادية ! فكانت أرسالُ هذه الذِّكَرَ — واأسفاه — ترتد عن شعوره الأصم ارتداد الأمواج عن صخور الساحل ! لقد خَفتَ الماضى فى ذاكرته خفوت المحتضَر ؛ فرَجْعه البعيد لا يكاد يَبين إلا فى نظرة قصيرة من عينه المتنفخة ، أو نفثة طويلة من نرجيلته المكركرة

لشدَّ ما صَنعت المدينة بهذا الرجل ! كان مكتنز اللحم فترهّل ، ومشبوبَ اللون فانكفأ ، وخفيفَ الحركة فثقَّلته الأملاح ،

وطليق المشية فقيدته العلل ؛ ثم كان يعقد مجلسه فى القرية فيكون فى جلالته ديوان عرش ، وفى مهابته جلسة محكمة ! يلقى النظرة مثقلة بالدلائل فتأخذها العيون وعداً لا يُخلف ، أو وعيداً لا يشفق ، أو عاطفة لا تكذب ، ويرسل الكلمة موقرة بالمعانى فتلقفها الآذان أمراً لا يرد ، وقانوناً لا يخالَف ، ورأياً لا ينقض ، فأصبح فى زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل ، يتسكع فى الطريق ، أو يَتَقمَّع [1] فى القهوة ، أو يتمطى فى البيت ، وليس له رأى فى أمور الناس ، ولا أثر فى جهاد العيش ، ولا شأن فى طبقات المجتمع ؛ وكان بَليلَ اللسان حافل الخاطر اذا تحدث الى الفلاحين فى شؤون الفلاحة ، فلما حاول مناقلة المدنيين أحاديث السياسة والأدب والاجتماع ، قعد به الجهل عن مجاراتهم ، فغلب الوجوم على نفسه ، وختم العى على فمه !

* * *

تخاذل حديث (البك) واسترخى حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى أليمة ! قال وهو يطلب من الغلام جمرة ترسل النار فى النرجيلة الخامدة : منذ حبَّبَ إلىَّ أبنائى — وهم فى المدارس كما تعلم — أن أنقل البيت من القرية إلى الحاضرة ، انقلب وجودى رأساً على عقب ! فأنا أحيا كالغريب ، وأعْمَه كالشريد ، وأمشى كالتائه . نقصت غلة الأرض لاتكالى فى زرعها على الناس ، وزادت أكلاف العيش لاعتيادى فى الوجاهة على السرف ، وفدحتنى أعباء الديون فأنا من شواغلها فى غصة لا تساغ وكربة لا تنسلى ، وفسدت علىَّ سياسة الأسرة ، فالبنون لا يريدون العمل فى غير الحكومة ، والبنات لا يرغبن الزواج فى غير المدينة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا : لها فى كل يوم ملهى ، وفى كل أسبوع وليمة ، وفى كل شهر (مُودة) ، وفى كل عام مصيف . فأنا يا صديقى مذبذب العيش بين هنا وهناك ، لم أستفد مزايا الحضر من اتساق الأمر واطراد الحياة ، ولم أستعد محامد الريف من سعادة النفس وبساطة العيش وخلوص الفطرة وصحة الدين وسلامة الثروة ؛ فهل تطمئن على هذه الحال نفس . وهل تشرق فى هذا الوجود سعادة ؟

فقلت له وقد تمثل فى خاطرى ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل :

لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرك ما استدبرت لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جناية

فانك لو بقيت فى قريتك ، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد بنوك من الكلية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدنيتهم وثقافتهم بين ربوعها وأهليها ، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن فى نسائها النظام والتدبير والذوق بالارشاد والقدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لَوَفُر فيها الرزق ، وورف عليها الأمن ، وانتقل اليها العلم ، وتذوَّق أهلها المساكين جمال الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة ، وشعرت أنت فى هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل

ولكن أكثر القرويين متى ارتبح كثيراً من المال ، أو شدا قليلاً من العلم ، أغلق (المضيفة) ، وخرَّب (الدوار) ، وخَلَّف القرية للفاقة والجهالة والمرض

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر فى هذه القرى فتدعو إلى الله ، وتهدى إلى الحق ، لظل الريف وساكنوه على الحال التى عثر فيها التاريخ بطلائع الانسان

* * *

أنت لا تزال عميد أسرة مجيدة ، لها فى سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفى ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع الى ماضيك ، واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك على أهلك وبنيك ، ثم عد الى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد إلى القرية يا بك ! !

احمد حسن الزيات

(١) يتقمع : يطرد الذباب من فراغه وبطالته

شهر للثورة ...
فلسفة الصيام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً فى فلسفة الصوم وحكمته ؛ أما منفعتُه للجسم وأنه نوعٌ من الطِّب له ، وبابٌ من السياسة فى تدبيره ، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول فى ذلك ؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هى إلا ثلاثون حَبَّةً تؤخذ فى كل سنة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطةِ أنسجة الجسم ؛ ولكنا الآن لسنا بصددٍ من هذا ، وإنما نستوحى تلك الحقيقةَ الاسلاميةَ الكبرى التى شرعت هذا الشرعَ لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرار الفكرة الانسانية فيها ، كى لا تتبدّل النفسُ على تغيرِ الحوادث وتَبدُّلِها ، ولكيلا تجهلَ الدنيا معانىَ الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معانى التمزيق

من معجزات القرآن الكريم أنه يدّخر فى الألفاظ المعروفة فى كل زمن حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمن ، فيُجلّيها لوقتها حين يَضِجُّ الزمانُ العلمىُّ فى مَتاهتِه وحَيْرته ، فَيَشْغَبُ على التاريخ وأهلِه مُسْتَخِفًّا بالأديان ، ويذهب يتتبع الحقائقَ ويستقصى فى فنون المعرفة ، ليستخلصَ من بينِ كفرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعياً سائغاً ، يتناول الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضبطُها بأسرار العلم ، ويوجّهها بالعلم الى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قُواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقّق فى إنسانية العالَم هذه الشَّيْئِيَّةَ المجهولة التى تتوهّمها المذاهبُ الاجتماعية ، ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ولا قارَبها ؛ فما برحت سعادةُ الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدى علمائها لم يحققوها ولم ييأسوا منها ، وبقيتْ تلك المذاهب كعقارب الساعة فى دَوْرتها ، تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا الى حيثُ تبدأ

* * *

يضطرب الاشتراكيون فى أوربا ، وقد عجزوا عجزَ مَن يحاول تغيير الانسان بزيادةٍ ونقصٍ فى أعصابه ؛ ولا يزال مذهبُهم فى الدنيا مذهبَ كتبٍ ورسائل . ولو أنهم تدبّروا حكمةَ الصوم فى الاسلام ، لرأوا هـذا الشهرَ نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ؛ فهذا الصومُ فقرٌ إجبارىٌّ تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميعُ فى بواطنهم ، سواءٌ منهم مَن مَلَكَ المليونَ من الدنانير ، ومَن ملك القرشَ الواحد ، ومَن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوى الناسُ جميعاً فى ذهاب كبريائهم الانسانية بالصلاة التى يفرضها الاسلام على كل مسلم ؛ وفى ذهاب تفاوتِهم الاجتماعىّ بالحج الذى يفرضه على من استطاع

فقرٌ إجبارىٌّ يراد به إشعارُ النفسِ الانسانية بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كلَّ الوضوح أن الحياةَ الصحيحةَ وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمّها حين يتساوى الناس فى الشعور لاحين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحساس الألم الواحد لاحين يتنازعون باحساسِ الأهواء المتعددة

ولو حقّقتَ رأيتَ الناسَ لا يختلفون فى الانسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نكبةُ الانسانية ، وهو العقلُ العملىُّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ فى ضرورةٍ مدّ البطنُ مدّهُ من قُوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ . ومن هـهنا يتناولـه الصومُ بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناسَ فيه سواءً ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحسٌّ واحدٌ وطبيعة واحدةٌ ، ويُحْكِم الأمرَ فيحولُ بين هذا البطن وبين المادّة ، ويبالغ فى إحكامه فيمسك حواشيَه العصبيةَ فى الجسم كلّه يمنعُها تغذيتَها ولذتها حتى نَفْثَةً من دَخينة(1) . وبهذا يضع الانسانيةَ كلَّها فى حالةٍ نفسية واحدة تتلبّس بها النفسُ فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويُطلق فى هـذه الانسانيةِ كلّها صوتَ الروح يُعلِّم الرحمةَ ويدعو إليها ، فيُشْبِع فيها بهذا الجوع فكرةً معيّنة هى كلُّ ما فى مذهب الاشتراكية من الحق ، وهى تلك الفكرة التى يكون عنها مساواةُ الغنىّ للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقيرِ الى الغنىّ بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان والمساواة) يكون هدوءُ الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والايجاب فى هذا الاجتماع الانسانى .

---

(1) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة ، وجمعها دخائن

وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرة من الاشتراكية بقى هذا المذهبُ كلُّه عَبثاً من العبث فى محاولة جعْل التاريخ الانسانىّ تاريخاً لا طبيعة له

***

من قواعد النفس أن الرحمــة تنشأ عن الألم ، وهذا بعض السرّ الاجتماعىّ العظيم فى الصوم ، إذ يبالغُ أشــدَّ المبالغة ، ويدقق كلَّ التدقيق ، فى منع الغذاء وشبه الغـذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة . فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة فى النفس ، ولا طريقة غيرها إلا النكبات ُوالـكوارث ، فهما طريقتان كما ترى : مبصرةٌ وعمياء ، وخاصةٌ وعامة ، وعلى نظامٍ وعلى فَجاْة

ومتى تحقـقت رحمةُ الجائعِ الغنىّ للجائع الفقير ، أصبح للـكلمة الأنسانية الداخلية سلطانُها النـافذ ، وحـكمَ الوازعُ النفسىّ على المادة ؛ فيسمع الغنيّ فى ضميره صوتَ الفقير يقول : « أعطنى . » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل طلبـاً من الأمر لا مفرّ من تلبيته والاستجابة لمعـانيه كما يُواسى المبتـَلَى من كان فى مثل بلائه

أيّة معجزة إصلاحية أعجبُ من هذه المعجزة الأسلامية التى تقضى أن يُحذف من الأنسانية كلـها تاريخُ البطن ثلاثين يوماً فى كل سنة ، ليحـلّ فى محله تاريخُ النفس [1] ؟ وأنا مُسْتيقِنٌ أن هناك نسبةً رياضية هى الحـكمة فى جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثنى عشر شهراً ، وأن هذه النسبة متحـقّـقة فى أعمال النفس للجسم ، وأعمـالِ الجسم للنفس ؛ كأنه الشهرُ الصّحىُّ الذى يفرضه الطبُّ فى كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لأحداث الترميم العصبىّ فى الجسم ؛ ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم فى الجسم الأنسانىّ وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل فى المُحاق ؛ إذ تنتفخ العروق وتربو فى النصف الأول من الشهر كأنها فى (مدّ) من نور القمر ما دام هذا النور الى زيادة ، ثم يراجعها (الجَزْرُ) فى النصف الثانى حتى كأن للدم إضاءةً وظلاما . وإذا ثبت أن للقمر أثراً فى الأمراض العصبية ، وفى مدّ الدم وجزْره ، فهذا من أعجب الحـكمة فى أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره

وفى تَرَائى الهلالِ ووجوبِ الصوم لرؤيته معنى دقيقٌ آخر ، وهو — مع إثبات رؤية الهـلالِ وإعلانِها — إثباتُ الارادة وإعلانُها ، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوىّ فى التنبه الانسانى العام لفروض الرحمة والأنسانية والبِر

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم ، وهى عمـُله فى تربية الاِرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملىّ الذى يُدَرِّبُ الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذّة حيوانيته ، ويُبقيه مصرّاً على الامتناع مـتهيّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مُزاوِلاً فى كل ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسية لاكتساب الفـكرة الثابتة ترسخ لا تتغـيّر ولا تتحوّل ، ولا تعـدو عليها عوادى الغريزة

وإدراك هذه القوة من الاِرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سامية هى فى الأنسانية فوق منزلة الذكاء والعـلم ؛ ففى هذين تعرض الفـكرة مارّةً مُرورَها ، ولـكنها فى الاِرادة تعرض لتستقرّ وتتحقـق . فانظر فى أى قانون من القوانين ، وفى أيّة أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولتِـه فكرة نفسيّةً واحدة بخصائصها ومُلابسَاتها حتى تستقرّ وترسخ وتعودَ جزءاً من عمل الانسان ، لا خيالاً يمرُّ برأسه مرّاً ؟

أليست هذه هى إتاحةَ الفرصة العمليةِ التى جعلوها أساساً فى تـكوين الارادة ؟ وهل تبلغ الارادةُ فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُذعِـنَـةً لفـكره ، منقادةً للوازع النفسىّ فيـه ، مُنصَرِفةً بالحسّ الدينىّ المسيطرِ على النفس ومشاعرها ؟

أما والله لو عمّ هذا الصومُ الاسلامىُّ أهلَ الأرض جميعاً لآلَ معناه أن يكون إجماعاً من الانسانية كلـها على إعلان الثورة شهراً كاملاً فى السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومَحْق الأثَرَة والبخلِ فيه ، وطَرْحِ المسْألةِ النفسيّة ليتـدارَسها أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مدةَ هذا الشهر بطوله ، فيهبط كلُّ

---

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه فى شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن فى الليل ما منعوه فى النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل ... ولـكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده

رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ليختبر فى مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهم فى طبيعة جسمه — لا فى الكتب — معانىَ الصبر والثبات والارادة ، وليبلغ من ذلك وذلك درجاتِ الانسانية والمواساة والاحسان ؛ فيُحقق بهذه وتلك معانىَ الاخاء والحرية والمساواة

شهرٌ هو أيام قلبيةٌ فى الزمن ، متى أشرفتْ على الدنيا قال الزمن لأهله : « هذه أيامٌ من أنفسكم لامن أيامى ، ومن طبيعتكم لا من طبيعتى » فيُقبِلُ العالَمُ كلُّه على حالةٍ نفسية بالغةِ السموّ يتعهّد فيها النفسَ برياضتها على معالى الأمور ومكارمِ الأخلاق ، ويفهم الحياةَ على وجهٍ آخر غير وجهها الكالح ، ويراها كانما أُجيعَتْ من طعامها اليومىّ كما جاع هو ، وكأنما أُفرِغَتْ من خسائسها وشهواتها كما فَرَغَ هو ، وكأنما أُلزِمَتْ معانىَ التقوى كما أُلزِمَها هو . وما أجملَ وأبدع أن تظهر الحياةُ فى العالم كلّه — ولو يوماً واحداً — حاملةً فى يدها السُّبْحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقةٌ عملية لرسوخ فكرةِ الخير والحق فى النفس ؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل الماديّ ؛ وردِّ هذه الطبيعة الحيوانية المحكومةِ فى ظاهرها بالقوانين ، والمحرَّرةِ من القوانين فى باطنها — إلى قانونٍ من باطنها نفسِه يُطهِّر مشاعرَها ، ويسمو باحساسها ، ويَبْصر فهما إلى معانى إنسانيتها ، ويُهذّب من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فُضُولها ، حتى يرجع بها إلى نحوٍ من براءة الطفولة ، فيجعلها صافيةً مُشرِقةً بما يجتذب إليها من معانى الخير والصفاء والاشراق . إذ كان من عمل الفكرة الثابتة فى النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى . والنفسُ فى هذا الشهر مُحْتَبَسةٌ فى فكرة الخير وحدها ، فهى تبنى بناءَها من ذلك ما استطاعت

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نفسانيّ كفصول الطبيعة فى دَوَرَانها . ولَهُوَ والله أشبهُ بفصل الشتاء فى حلوله على الدنيا بالجوّ الذى من طبيعته السُّحُبُ والغيث ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يَكْسِبها الصلابةَ والانكماش والخفّة ، ومن غايته إعدادُ الطبيعة للتفتح عن جمالِ باطنِها فى الربيع الذى يتلوه

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهر الذى يدّخر فيه الجسمُ من قواه المعنوية فيُودعُها مَصْرِفَ روحانيّته لِيجدَ منها عند الشدائد مَدَدَ الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة — عجيبٌ جداً أن هذا الشهر الاقتصاديّ هو من السنة كفائدة ٨½ فى المائة . . . فكأنه يسجِّلُ فى أعصاب المؤمن حسابَ قوّته وربحه ، فله فى كل سنة زيادة ٨½ من قوّته المعنوية الرُّوحانية

وسِحْرُ العظائم فى هذه الدنيا إنما يكون فى الأمة التى تعرف كيف تدّخر هذه القوّة وتوفّرها لتستمدّها عند الحاجة ، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر فى دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوشُ العظمى اليوم فى مخازن العَتاد والأسلحة والذخيرة

***

كلُّ ما ذكرتُه فى هذا المقال من فلسفة الصوم فانما استخرجته من هذه الآية الكريمة : « كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين مِن قَبْلِكم ، لعلكم تَتَّقون . » وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى « التقوى » أما أنا فأوّلْتُها من « الاتِّقاء » فبالصوم يَتّقى المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذى شريعتُه مَعِدَتُه ، وألاّ يعاملَ الدنيا إلا بموادّ هذه الشريعة ؛ ويتّقى المجتمعُ على إنسانيّته وطبيعتِه مثلَ ذلك ، فلا يكون إنسانٌ مع انسان كحمار مع انسان يبيعه القوّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف

وبالصوم يتّقى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فان ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه ، وما خَلْفَه هو الجيل الذى سَيَرِثُ من هذه الطّباع والأخلاق ، فيعمل بنفسه فى الحاضر ، ويعمل بالحاضر فى الآتى (١)

وكلٌّ ماشرحناه فهو اتّقاءُ ضرر لجلْبِ منفعة ، واتقاءُ

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته فى هذا التأويل الذى استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة فى سورة (يس) . « واذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . . . »

ويشير الى هذا التأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فاذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم ، إنى صائم »

والجنة الوقاية يتقى بها الانسان ، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقى شر حيوانيته وحواسه ، فقوله : « إنى صائم إنى صائم » أى إننى غائب عن الفحش والجهل والشر ؛ إنى فى نفسى ولست فى حيوانيتى

رذيلة لجلب فضيلة ، وبهذا التأويل تتوجه الآيةُ الكريمةَ جهةً فلسفية عالية لايأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفة بأوجزَ ولا أكمل من لفظها ؛ ويتوجهُ الصيام على أنه شريعة اجتماعية انسانية عامة ، يتّقى بها الاجتماع شرورَ نفسِه ، ولن يتهذبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانونُ العام الذى اسمُه الصوم ومعناه « قانون البطن » . . . . . .

ألا ما أعظمَكَ ياشهر رمضان ! لو عرَفَك العالَمُ حقَّ معرفتِك لسمَّاكَ « مدرسةَ الثلاثين يوماً »

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

نظرية الاستقلال القومى

وتطبيقها على التاريخ المصرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشارت إحدى الصحف الانكليزية الكبرى أثناء حديثها أخيراً عن الشئون المصرية ، الى نظرية تاريخية قديمة ترددها ألسنة الاستعمار فى كل مناسبة ، وهى أن مصر لم تكن مستقلة فى أى عصر من عصور تاريخها

وترمى ألسنة الاستعمار بترويج هذه النظرية الى غرض واضح ، وهو أن مصر التى لم تتمتع خلال هذه الآماد الطويلة من تاريخها بنعمة الاستقلال والحرية ، ليست جديرة بأن تتخذ مكانها بين الأمم المستقلة ، وأن حكم التاريخ يقضى عليها بأن تكون دائماً مسودة لغيرها من الأمم القوية ؛ فلماذا لا تكون انكلترا هى الدولة التى تنفذ على مصر حكم التاريخ الخالد ؟ ولماذا تحاول مصر أن تغالب قدرها ، وطبيعتها كأمة استعبدت مدى الأحقاب تنافى طبائع الحرية والاستقلال ؟

وهذه نظرية باطلة بلا ريب ، يهدمها حكم التاريخ النزيه الحق ؛ ولكنها أيضاً نظرية خطرة ؛ وترويجها فى العالم المتمدن يضر بالقضية المصرية ضرراً بليغاً ، ويسىء الى تراث مصر التاريخى ، وإلى سمعتها كأمة ناهضة تطمح الى تحقيق استقلالها . ومن الأسف أن هذا القول الباطل فى تصوير التاريخ المصرى ، يروج له فى مصر ذاتها ، ويتأثر به كثير ممن يطغى على أذهانهم وعواطفهم سيل الثقافة الأجنبية ، ولا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم . بل من الأسف أن هذه النظرية الاستعمارية الخطرة ، ما زالت تمثل فى تعليم التاريخ فى بلادنا وفى معاهدنا ، لأن برامج التعليم الرسمية ما زالت بعيدة عن التحرر من أغلال المؤثرات الأجنبية ، بعيدة عن رعاية النواحى القومية

ولهذا نرى أن نعرض بهذه المناسبة الى بحث هذه النظرية لنرى حظها من التطبيق على عصور التاريخ المصرى . وأول ما يلفت النظر ذلك التصوير الخاطىء الذى يُصور به تعاقب العصور والدول على مصر ؛ فمصر حسبما تقول النظرية ، قد غادرت منذ أيام الفراعنة عهد الحريات القومية إلى الأبد ، وتعاقبت عليها الدول الغالبة تباعاً ؛ فافتتحها الفرس ، ثم اليونان ، ثم الرومان ، ثم العرب فى سلسلة متصلة من السيادة الأجنبية ، وتعاقبت عليها بعد ذلك دول اسلامية أجنبية من الشرق والغرب ودول المماليك المختلفة حتى كان الفتح التركى ، فاستمرت تحت السيادة التركية حتى كان الفتح الفرنسى وظهور محمد على ؛ ولم يطل أمد استقلالها عندئذ ، حتى عادت فوقعت فى قبضة الانكليز ، واتصلت بذلك حلقات استعبادها الطويل

وتصوير أدوار التاريخ المصرى على هذا النحو تصوير خاطىء من الوجهة العلمية ، وتصوير مغرض وضعه الكتاب الغربيون منذ أوائل القرن الماضى — وهم أول من كتب عن تاريخ مصر فى العصر الحديث — ومعظمهم متأثر بنزعة الغربِ الى استعمار الشرق ، وتبرير هذه النزعة بالعوامل التاريخية والاقتصادية ونشر المدنية الحديثة . وقد كان لدعواهم أثر كبير فى معظم ما كتب عن عن مصر ؛ بل لقد تأثر بها الكتاب المصريون أنفسهم ، وتأثرت بها دراسة التاريخ فى مصر وبرامجه الرسمية ؛ وأضحى واجباً علينا أن نحارب هذه النظرية الخطرة فى كل مناسبة ، وأن نبين خطأها من الناحية العلمية

لقد توالت على مصر حقاً عصور طويلة من الغلبة والاستعباد ، ولكنها تمتعت أيضا بعصور طويلة من الحرية والاستقلال والسؤدد القومى . وقد قطعت مصر أيام الفراعنة آماداً بعيدة فى ظل الحريات القومية والاستقلال المطلق ، وكانت سيدة امبراطورية مصرية تمتد من قلب السودان الى الشام ؛ وكان

لها فى تلك العصور من القوة والعظمة والمدنية الزاهرة ، ما لم تتمتع به أية أمة من الأمم الغابرة . وإذا كانت مصر قد سقطت فى عصور الانحلال فريسة النير الأجنبى ، واستمرت ترزح نحو ألف وخمسمائة عام تحت نير الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، فقد تمتعت بحرياتها واستقلالها قبل ذلك آلاف السنين

ويبدو خطأ نظرية الكتاب الغربيين بنوع خاص فى الحكم على تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى ، فهم لا يكتفون باعتبار هذا الفتح بدء عصر جديد من الاستعباد بالنسبة لمصر ، بل يرون أن مصر كانت طوال الدول الاسلامية التى تعاقبت عليها ، أمة مسودة خاضعة لنير الحكم الأجنبى ، ويعتبرون هذه الدول كلها ، دولا غازية سيدة ؛ وهو خطأ كبير فى فهم الحقائق التاريخية وفى تصورها . ويجب أن نذكر أولاً أن الأمة المصرية لبثت أيام الفرس واليونان والرومان تحتفظ بطابعها الفرعونى القديم ، وأن هذه الدول الغازية لم تستطع أن تجعل من الأمة المصرية المغلوبة وحدة من وحداتها الاجتماعية ، وإن كانت مصر قد تأثرت بلا ريب بنفوذ هذه الدول وحضاراتها ؛ وعلى هذا فقد كانت مصر فى هذه العصور أمة مغلوبة حقاً ، ولكن تحتفظ باستقلالها كوحدة اجتماعية . بل لقد استطاعت مصر أن تحتفظ بهذا الاستقلال الاجتماعى ، حتى بعد أن أرغمت على اعتناق النصرانية ، ولم تندمج قط فى الامبراطورية الرومانية ، كما اندمجت أمم وشعوب أخرى . ولكن الأمة المصرية شهدت منذ الفتح الاسلامى تطوراً جوهرياً فى تكوينها الاجتماعى ؛ فقد استطاع العرب فى أقل من قرن أن ينشئوا منها أمة اسلامية ، وأن يجعلوا منها وحدة اجتماعية من وحدات الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؛ واندمج الغالب والمغلوب فى أمة جديدة موحدة تدين بالاسلام وشرائعه ، وتتكلم بلغته ، وتضطرم بروحه ؛ ولم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى أضحى التميز عسيراً بين السلالة العربية النازحة ، وبين السلالة المصرية المسلمة . وكانت مصر حتى منتصف القرن الثالث ولاية من ولايات الخلافة ؛ ولكنها استطاعت من ذلك الحين أن تنزع الى الاستقلال فى ظل الدولة الاسلامية الكبرى ، على يد بعض الحكام والقادة الخارجين على الخلافة ؛ وبدأت من ذلك الحين سلسلة الدول الاسلامية المستقلة فى مصر

وهنا تعرض النقطة الجوهرية . هل كانت مصر سيدة أم مسودة فى ظل هذه الدول ؟ وهل كانت مصر الفاطمية ، والأيوبية ، ومصر فى عهد أسر المماليك المختلفة حتى الفتح العثمانى ، أمة مستقلة أم كانت ترزح تحت النير الأجنبى ؟ وجوابنا أن مصر كانت فى تلك العصور أمة مستقلة تتمتع بكامل حرياتها القومية ، وكانت أمة سيدة لا مسودة ، تسير فى ميدان الحرب والسلام من ظفر الى ظفر . أما هذه الدول الأجنبية المسلمة التى كانت تتبوأ السلطان والحكم ، فلم تكن أكثر من أسر نازحة أو مستقرة تبوأت الرياسة لأصولها الملوكية أو لمؤهلاتها الخاصة ؛ ولم تكن تتولى هذه الرياسة لحسابها الخاص ، وإنما كانت تتولاها لحساب الأمة المصرية ، وتعمل باسمها وبتأييدها ، فكانت تغدو بعد استقرارها أسراً مصرية خالصة ليس لها مركز للرياسة غير مصر ، وليست لها أمة أخرى تمثلها غير مصر ؛ وحتى الدولة الفاطمية التى دخلت مصر غازية ، لم تشذ بعد استقرارها عن هذه القاعدة ، فكانت مصر هى مركز الدولة الفاطمية ومستقرها ، وغدت الخلافة الفاطمية مصرية بعد أن كانت مغربية ؛ ومنذ الدولة الأيوبية حتى الفتح العثمانى تظهر الأسر السلطانية فى مصر ذاتها ، بين القادة والأمراء النابهين ؛ ولم تكن تلك العروش والأسر التى قادت الأمة المصرية منذ الدولة الفاطمية الى الظفر فى ميادين الحرب ، والى مراتب العظمة والبهاء فى ميادين السلام والحضارة ، سوى عروش وأسر مصرية أو متمصرة ، تعمل جميعاً لمصر وباسمها ، ولم تكن تلك الجيوش الباسلة التى لبثت أكثر من قرنين تتلقى ضربات الحملات الصليبية فى مصر والشام ، وتبث أعمالها وانتصاراتها الروع فى أمم الغرب ، سوى جيوش مصرية تقودها تلك الأسر التى ارتضتها لزعامتها ؛ على أن تلك الأسر الملوكية ذاتها لم تلبث غير بعيد أن فقدت زعامتها السياسية ، وأصبحت خاضعة فى التعيين والعزل لرأى الأمة المصرية ممثلة فى زعامتها الدينية والفكرية ؛ وإنه لمن التعسف أن نخرج من حظيرة الأمة المصرية أسراً نبهت فيها ، وتوات زعامتها بحكم تراثها الموروث آماداً ، وعملت لمصر ولم تعمل لسواها ، ولم يبق لها من صبغتها الأجنبية سوى ذكريات المنشأ والماضى

كانت مصر الاسلامية إذاً ، منذ تقلص عنها ظل الخلافة ، أمة مستقلة ، وكانت مصر الاسلامية أمة مستقلة حين غزاها الترك العثمانيون وحطموا بها صرح حضارة اسلامية زاهرة

تكدست على ممر العصور ؛ ولقد كان الفتح العثمانى عملاً همجياً ، كما كانت فتوح القبائل البربرية لرومة وأقطار الدولة الرومانية ؛ ولم يكن عملاً إنشائياً ، كما كان الفتح الاسلامى ؛ على أن مصر استطاعت فى ظل أولئك الوندال أن تسترد غير بعيد كثيراً من مظاهر استقلالها المحلى ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى أصبحت السيادة العثمانية على مصر سيادة اسمية ، كل ما يهم الحكام الترك منها أن يستدروا بعض الموارد والأموال من الشعب المحكوم

ولا حاجة بنا للقول بأن مصر استردت كامل استقلالها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كانت قد عادت فانضوت تحت لواء أسرة جديدة

***

مما تقدم يبدو تصور النظرية الغربية لعصور التاريخ المصرى بأنها سيادات أجنبية متعاقبة ، واستعباد متصل للأمة المصرية ، تعسفاً لا يؤيده منطق الحقائق التاريخية ؛ ولو طبقنا هذه النظرية الخاطئة على التاريخ القومى لبعض الأمم الأوربيــة العريقة فى الاستقلال والحرية لانتهينا فى شأنها إلى مثل ما ينتهى الكتاب الغربيون فى شأن مصر . ولنتخذ فرنسا مثلاً ، فقد نزحت إليها عقب انهيار الدولة الرومانية قبائل غازية من الشمال ، وأقام بها « الميروفنجية » على يد زعيمهم كلوفيس ، منذ القرن السادس مملكة جديدة هى مملكة الفرنج ؛ ولما انحلت أسرة الميروفنجية ، قامت بأمر الفرنج الأسرة « الكارلية » القوية ، وانتزعت عرش الفرنج ، واستمرت فى زعامة فرنسا حتى أواخر القرن التاسع ، ونبغ فيها أميران من أعظم أمراء النصرانية هما كارل مارتل الذى رد العرب فى بلاط الشهداء (سنة ٧٣٢م) وكارل الأكبر (شارلمان) أعظم ملوك الغرب فى عصره ؛ وكان الميروفنجية والكارلية كلاهما من القبائل الألمانية الشمالية ، فهل نعتبر أن فرنسا كانت فى هذه العصور أمة مستعبدة ترزح تحت حكم النير الأجنبى ، لأن أسراً أجنبية نزحت إليها ، واستقرت بها ، وتولت زعامتها ، وعملت لحسابها وباسمها ؟ وهل نعتبر نابليون (وهو إيطالى الجنس والأصل) فاتحاً لفرنسا مغتصباً لعرشها وزعامتها ، ونعتبر أن فرنسا كانت فى عصره خاضعة للحكم الأجنبى ؟ ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أيضاً أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا وسيد مصايرها اليوم ، إنما هو أجنبى نمسوى المولد والنشأة ؛ ومن المعروف أن الأسرة التى تتولى عرش انكلترا اليوم ، إنما ترجع إلى أصل ألمانى ، وأن معظم الأسر الملوكية الأوربية ترجع إلى أصول أجنبية ، وإذا كانت هذه الأسر اليوم لا تتمتع بمثل ما كانت تتمع به أسر السلاطين من السلطة المطلقة ، فذلك لأن روح العصر قد تطورت ، وغاضت روح العصور الوسطى ، وانتهت الأمم بأن جعلت من العروش رمزاً قومياً ليس غير

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت نير الحكم الأجنبى فى بعض أدوار تاريخها ، فهى لم تشذ فى ذلك عن معظم الأمم الغربية التى تتمتع اليوم بكامل حرياتها واستقلالها ، ولنضرب لذلك مثلاً بأمة عظيمة هى إيطاليا ، التى لم تتمتع باستقلالها إلا منذ أواخر القرن الماضى ، والتى لبثت طوال العصور الوسطى والحديثة مسرحاً لمطامع الدول والعروش الأجنبية ، ولم تستقل فيها سوى البندقية وبعض الجمهوريات الصغيرة . ولنضرب مثلاً آخر باليونان ، وقد لبثت زهاء ألفى عام ترزح تحت نير الحكم الأجنبى ، منذ الرومان فالبنادقة فالترك ، ولم تنل حرياتها القومية إلا منذ قرن فقط ، ولم تنلها إلا بمؤازرة أوربا النصرانية ؛ وهنالك غير إيطاليا واليونان ؛ هنالك هولندة والبلجيك ، وهنالك بولونيا التى لبثت ثلاثمائة عام ممزقة بين دول ثلاث من جيرانها ، وهنالك رومانيا والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، فهذه كلها أمم حديثة فى الاستقلال والحريات القومية ، ولم يقل انسان إنها من أجل ذلك تستحق أن يسلب استقلالها وأن تسكن إلى نير المتغلب إلى الأبد

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه النظرية الاستعمارية فى تصور أدوار التاريخ المصرى ، كلما بدا بطلانها وتعسفها وما يحفزها من الغرض والهوى

فليستعرض الشباب المصرى تاريخ بلاده كلما طرقت آذانه هذه النغمة الغادرة . فتاريخ مصر ، كتاريخ الأمم العظيمة ، حافل بمواطن الفخار والمجد ، وعصور الحرية والاستقلال م؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

جزيرة العرب

صفحة مجيدة من تاريخها القديم

بقلم الأستاذ رزوق عيسى

كلمة عرب وأصل معناها . المكتشفات الحديثة . الكتابات الأثرية . ملكة سبأ والسبئيون . معين والمعينيون . اكتشاف أسماء ٣٢ ملكا . التجارة القديمة وطرق المواصلات . اللبان والأطياب . المعارف والعلوم فى الجاهلية . التقاليد والروايات القديمة . الاله أونيس . الأنباط . وطن الساميين الأول . الحروف الهجائية العربية أقدم من الحروف الفينيقية . شهادة من التواريخ القديمة العهد

ذهب اللغويون والمؤرخون فى معنى كلمة عرب مذاهب متعددة ، فمنهم من قال إنهم تسموا باسم جدهم يعرب بن قحطان ، وذهب فريق الى أن العرب مشتقة من « عربا » وهى مفقودة فى العربيـة إلا أنها موجودة فى العبرية والآرامية بمعنى البادية والصحراء ، ومنهم من زعم أن كلمة (عرباء) وردت فى العربية بمعنى خالص فى قولهم العرب العرباء أى العرب الخلص ، وهم أهل البادية ؛ وقال آخرون إن اسم العرب وبلادهم التى تدعى جزيرة العرب مشتق من لفظة (عربة) وهى أرض بتهامة دعيت بذلك أخذاً من يعرب بن قحطان جد العرب الأولين ، وفى فلسطين موضع يسمى عربة أيضاً كما جاء فى مراصد الاطلاع

والأقرب الى الصواب أن لفظة عرب مشتقة من (أوربى) الشمرية بمعنى سكان الخيام ، فان كلمة أور — أو — أورو التى أصبحت فى عصر البابليين والأشوريين بمعنى مدينة كان يراد بها فى عهد الشمريين الخيمة ، ثم أطلقت على الدار من باب التوسع [١] وهذا الاشتقاق ليس ببعيد ، لأن العرب من أعرق الشعوب فى القدم ، وقد عاصروا جميع الأمم المعروفة فى التاريخ كالشمريين والآكديين ، والبابليين ، والكلدان ، والأشوريين ، والميتانيين ، والحثيين ، والمصريين ، والفرس ، واليونان ، والرومان . وكانت بلاد العرب تعرف عند الأشوريين باسم أربى وأهلها أوربى أو أوروبى ، ومعناها ديار ساكنى الخيام [١] جزيرة العرب قديمة جداً ، ولا تفوقها فى القدم ديار مصر وبابل ، وقد جاءَ فى كتاب مصادر البشر لمؤلفه صموئيل لينغ الانكليزى ما نصه [٢] : « عثرنا مؤخراً فى أصقاع عربية على أنباء آثار وكتابات ربما ضارعت فى قدمها أنباء بلاد مصر والكلدان ، فقد كانت بلاد العرب ، ولم تزل ، من الأقطار المجهولة الوعرة ، ولا سيما فى الأزمنة المتأخرة حينما أصبحت مقدسة فى نظر أصحابها ، ولا يجوز للرواد والرحالين الأجانب أن يطأوا أرضها ، قصد الاكتشاف والتنقيب فى طلولها الدوارس »

وقد توفق نفر من السياح الأوربيـين وعلمائهم الى التوغل فى بلاد العرب ، بعـد أن خاطروا بحياتهم وقاسوا من المشاق والأهوال مالا يوصف ، بيدأنهم نالوا مبتغاهم أخيراً ، واكتشفوا مواقع المدن القديمة ، ونسخوا كتابات عديدة وجدوها مطمورة فى الأنقاض ومسطورة على الجدران المتداعية . وفى متاحف أوربة ودور كتبها آثار البلاد العربية المنقوشة على الحجر ، وعلى ألواح نحاسية ، وعددها يبلغ اليوم نحو ثلاثة آلاف عادية . ومن العلماء الذين جاهدوا جهاد الأبطال فى الوقوف على مجاهل هذه البلاد الدكتور غلازر « Dr Glasfr » فانه راد الديار العربية الجنوبية ثلاث مرات ، ونسخ فى خلالها من صور الكتابات التى عثر عليها فى رحلاته ١٠٣١ صورة حملها معـه الى مسقط رأسه ، وبينها آثار نفيسة ، ولأ كثرها فائدة تاريخية عظيمة ، إذ وقفت علماء الآثار على ما كانوا يجهلونه من تاريخ هذه البلاد ومدنيتها فى جاهليتها

لقد استفاد الباحثون المدققون فوائد شتى من أنبـاء تلك الكتابات ومن غيرها أيضاً ، حتى تسنى لهم أن يكشفوا النقاب عن أصل السكان القدماء ، ويزيلوا الغموض والابهام عن تاريخهم ويستقصوا أخبار الأمم الغابرة ، وما كانت عليه البـلاد العربية من الحضارة والتجارة فى العصور العريقة فى القدم ، واليك ماقاله الأستاذ سايس : « إن ماضى تاريخ شـبه جزيرة العرب المظلم قد

(١) راجع كتاب علم الآثار القديمة فى الكتابة المسمارية الخط « فصل الشمريين » ص ٨٥ لمؤلفه سايس المطبوع فى لندن عام ١٩٠٨ م

(١) المتون الأشورية ص ٣٠ لمؤلفه الأثرى أرنست بدج المطبوع فى لندن عام ١٨٨٠

(٢) Human Crigins مصادر البشر ص ٣٧ المطبوع فى لندن سنة ١٩٠٩ وللمؤلف المشار اليـه كتب نفيسة ومنها : العلم الحديث والرأى الحديث ، ومعضلات المستقبل والزردشتية الجديدة الخ

انبثق فجره بغتة فسطعت أشعته وأنارت وجه المسكونة ، فقد وجدنا أن البلاد العربية كانت قبل عصر صاحب الشريعة الأسلامية بزمن مديد أرض الثقافة والأدب والحكمة ، وكانت موقع ممالك ودول قوية بلغت شأواً بعيداً فى تاريخ العالم القديم ، وانتشرت فى ربوعها تجارة واسعة» إلى آخر ذلك المقال البديع (١)

إن زيارة ملكة سبا (٢) أورشليم ومثولها بين يدى سليمان ملك اسرائيل تعد من اللمع الأولى الواردة فى الأخبار القديمة ، وقد جاء ذكرها فى سفر الملوك من التوراة ، وكانت تلك الملكة عربية ، ويظهر أنها قدمت من ديار كانت لها حضارة عريقة فى القدم ، ولها سطوة عظيمة بين الأمم ، والهدايا التى قدمتها الى سليمان تدل على أنها جلبت من حاصلات قطر اشتهر بلبانه وأطيابه ، وهذا القطر واقع فى جنوبى بلاد العرب ، وقد عرف باسم سبا أو شبا فى تاريخ العالم القديم

انتشرت تجارة هذه المملكة القديمة العهد فى أقطار العالم ، وامتدت الى بلاد الحبشة والسومال حتى ساحل أفريقية الشرقى ، والكتابات الأشورية تؤيد ذلك ، فقد ورد فيها أن سبأ كانت مملكة عظيمة فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكانت تخومها تحاد تخوم مملكة نينوى من جهة الشمال فى عصر (تغلث فلاسر) وسرجون الثالث ، فيستفاد من هذا النبأ وغيره أن بلاد العرب كانت مملكة قديمة جداً ، وقد تدرج الحكم فيها من الملوك الكهنة وحكومات المدن المستقلة ودويلات وإمارات الى اتحاد مملكة عظيمة واسعة الأطراف فسيحة الأرجاء كالتطور السياسى الذى نشأ فى مصر وفى بلاد الكلدان . وكان الملوك الكهنة يعرفون باسم (مكارب) كما جاء فى بعض الآثار ، وواحدهم (مكرب) ويراد به رئيس كهنة السبئيين . وتدل هذه الكلمة على أن الحكم الأول كان عبارة عن دولة تحت رياسة الله « طقراسيه » ، هذا ولفظة سبأ اسم إله أطلق على بقعة فى بلاد عربية ، كما أطلقت كلمة أشور على صقع فى بين النهرين وتفيد معنى الآله

ورد فى بعض العاديات أن مملكة سبأ القديمة تأسست على أنقاض دولة أقدم منها عهداً نشأت فى هذا الاقليم وعرفت باسم معين ، فقد عثر الباحثون المنقبون على أسماء ٣٢ ملكاً من

(١) راجع ما كتبته فى مجلة المعاصر الأنكليزية بعنوان (بلاد العرب القديمة Ancient Arabia)

(٢) سبا أو شبا لفظة عبرية معناها الانسان

السبئيين والمعينيين ، وهذا عدد كبير لا يستهان به ، بالنسبة الى قلة المكتشفات الأثرية فى تلك الأصقاع . وجاء فى بعض الكتابات أن سلطة بعض الملوك المعينيين لم تكن محصورة فى المنطقة الجنوبية بل منتشرة فى كل بلاد العرب حتى تخوم سورية ومصر ؛ ويؤيد ذلك كل التأييد عثور المنقبين على ثلاثة أسماء من أولئك الملوك فى أطلال تيماء الوارد ذكرها فى العهد القديم من التوراة فى الطريق المؤدية الى بلاد الشام وسيناء . وفى البلاد العربية الجنوبية وجدت صفيحة نذر جاء فيها أن أصحابها يشكرون الآله « اطار »(١) على نجاتهم من الحرب الناشبة بين حاكم الجنوب وبين حاكم الشمال ، وخلاصهم من القتال الواقع بين مظة ومصر ، ويحمدون الآله على عودتهم سالمين الى مسقط رأسهم مدينة قوران ؛ وأصحاب هذه الكتابة يصرحون بأنهم كانوا تابعين لملك معين المدعو (رابى — يدعى — يائى) وهو أحد حكام بلاد تسار وأشور ووراء ضفة النهر

لقد ورد اسم تسار مراراً عديدة فى الآثار المصرية كحصن قائم فى جهة الحدود العربية ، وموقعه يمثل اليوم طرفاً من قناة السويس . هذا وكتابة أخرى تشير إلى غزة ، ويظهر من مضمونها أن سلطة الحكام المعينيين امتدت إلى أردم فبلغت فلسطين وماجاورها من البقاع ، والقبائل القاطنة فيها خضعت لسلطانهم . وقد أسست المعاقل فى البرارى والقفار للمحافظة على طرق المواصلات ، وأنشئت المدن العظيمة فى تلك الأصقاع النائية لتوسيع نطاق التجارة والعمران منذ القدم ، لأن سيل التجارة بين الشرق والغرب كان متدفقاً يجرى بعضه بطريق البحر الأحمر وبطريق خليج فارس ؛ ومن أطراف هذه المياه الشرقية ينتقل إلى البحر المتوسط ، وبعضه يسير فى طرق القوافل مجتازاً آسيا

وكان الاستيلاء على إحدى هذه الطرق يعد وسيلة ناجعة فى ترويج التجارة وباباً للمواصلات مع ممالك عديدة ، فاز سليمان ملك اسرائيل لما عقد معاهدة مع مدينة صور أخذت تجارة مملكته تنتشر انتشاراً مطرداً حتى بلغت شأواً عظيماً ، ونالت شهرة واسعة ، فقصدها التجار الأجانب من كل فج وناحية ، والحروب التى وقعت بين المصريين والأشوريين والحثيين والعيلاميين والبابليين كان منشؤها السيطرة على طرق المواصلات ، ليتسنى للدولة القابضة

(١) لعل هذه اللفظة محرفة عن استار أو اشتار

على أزمة تلك المسالك أن تروج تجارة بلادها أولاً ثم تفرض الضريبة على البضائع والأموال التى تمر فى أراضيها ، وبهذه الوسيلة تزداد إيرادها وتقوى شوكتها

كان للبلاد العربية موقع تجارى مهم ، وكانت مركز اتصال بين الشرق والغرب تحميه الصحارى الرملية الوعرة من هجوم الأعداء وتوغلهم فى قلب الجزيرة ، وتكتنفه البحور فتدفع عنه غارات الدول ؛ وكان للأصقاع الجنوبية تجارة واسعة وشهرة عظيمة ، فان اللبان والأطياب كانت تصدر بمقادير كبيرة تنفق فى أسواق العالم المعروف فى ذلك الزمن القديم ، وكانت توقد فى الهياكل والمذابح والمعابد وفى قصور الملوك والأمراء وفى دور الأغنياء ، ولم يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه ، لأنها كانت مفروضة فى الديانات القديمة كالقرابين والذبائح . فاذا تناولنا مثلاً هيكل سليمان نجد أنّ فيـه كانت تقرب الذبائح ويوقد البخور لتستعطف (يهوه) ربّ الجنود ، ومثل ذلك كان يجرى فى ألوف من الهياكل والمعابد المنبثة فى أطراف آسيا ، وكان يجلب معظم اللبان والأطياب المستهلكة فى الأماكن المقدسة من بلاد العرب

وقد ذهب الكاتب المحقق صموئيل لينغ أن سبب رواج تجارة اللبان والأطيـاب فى الشرق كان لتعطير هواء الهياكل والمذابح والمعابد حيث يكثر فيها ذبح الذبائح وإهراق دماء الكبوش والعجول وتنتشر فى أطرافها غازات فينتن المكان ويفسد الهواء ؛ ومما لاريب فيه أن أحسن اللبان وأنفسه كان يجلب من بلاد العرب . وقد عثر أحد المنقبين على صفيحة جاءَ فيها « إن الروائح العطرية والأطياب السبئية يفوح شذا عبيرها فى السواحل العربية الميمونة »

إن للمكتشفات الأثرية فى بلاد العرب فوائد جمة لأنها وقفت طائفة من العلماء البارزين على كثير من أنباء هذه الأمصار وعادات أهلها وأسباب اتساع التجارة التى كانوا يتعاطونها مع الديار الدانية والقاصية . وقد أرشدتنا كتابات العاديات إلى أن بلاد العرب عريقة فى القدم ، ومن ربوعها نزح طوائف من الناس ومصروا دياراً أخر . وكان للبلاد العربية حضارة وعلم أدب ، ولكتابها حروف هجاء خاصة بهم ، وأسلوب كتابتهم يرتقى إلى عهد الكتابة المصرية القديمة وإلى الخط المسمارى ؛ وقد سبقت بأزمنـة طويلة أقدم صور الكتابات بالحروف الفينيقية . وفى عام ١٨١٠ اكتشف سيتزن أول كتابة عربية فنسخها ونظمها وصفها حسب الحروف الحميرية المنسوبة إلى حمير . وقد قال العلماء إن لغة تلك الكتابة كانت سامية ، وحروف هجائها تماثل الحروف الحبشية ، ويظهر أنها معدلة عن الحروف الفينيقية وهى مكتوبة بصورة عمودية بدلاً من الأفقية

وقد أدّت مكتشفات وأبحـاث الدكتور غلازر الى أن الكتابة الحميرية قائمة على نوعين أو مجموعتين من الكتابة : فالأولى كانت أقدم من الثانية ، وتتضمن حركات أصلية وصوراً وأشكالاً نحوية ، وقد عدها المستشرقون كتابة معينية ، بينما قالوا عن الكتابة الثانية إنها سبئية ، لأن لهجتها وصورة كتابتها تدل على أنها أحدث عهداً من شقيقتها . وظهر ظهوراً بيناً أن قواعد الصرف والنحو وأنواع العلوم والآداب المعينية سبقت آداب وعلوم السبئيين بزمن وافٍ بحيث أصبحت الأخيرة قابلة لتغيرات عديدة طرأت على مفردات لهجتها ومحصت صرفها ونحوها من الشوائب والزوائد ، وليس فى هذا التبدل العجيب يد أجنبية فعلت فعلها الأدبى فى فتوحها هذه البلاد ، بل يرى جمهور المحققين أن القبائل العربية تطورت أحوالها بجهودها وانتقلت من منزلة الى أخرى بفعل تدرج عنـــاصرها فى سلم النشوء والارتقاء حسب سنة الطبيعة

إن مملكة السبئيين يرجع عهـد تاريخ حضارتها الى عصر سليمان ملك اسرائيل ، أى قبل الميلاد بألف سنة ؛ وقد كانت موجودة قبل هذا الزمن بقرون عديدة ، لأن جدول أسماء اثنين وثلاثين ملـكاً من المعينيين والسبئيين يدل دلالة واضحة على رسوخ قدم هذه الديار فى الحضارة والعمران . ومن المرجح أن المكتشفات القبلة ستقف أبناء هذا العصر على كثير من الأمور التى كان يجهلها أسـلافهم . نعم إن أقدم الكتابات المكتشفة تشير الى حضارة وتجارة وعلم وأدب بزغت أنوارها فى ديار قيدار وسالع قبل عهد التاريخ ؛ وعليه قال أحد الأثريين : يجب أن تُصف بلاد العرب فى مصاف ديار مصر والكلدان لأنها إحدى الممالك القديمة التى ظهر فيها جماعات من القبـائل أبلغوها الى ذروة الحضارة والسؤدد منذ العصور المتوغلة فى القدم ، وقد نطقت بعض العاديات شهادة صادقة ، وهى ان جنوب بلاد العرب يرتقى عهد مدنيته الى عصر سرجون والى منيس

تشير روايات قديمة وتنبئ أسـانيد أثرية عن بلاد العرب الجنوبية أو عن البلاد المتصلة بساحل أفريقية من جهة الشمال الشرقى بأنها كانت مصدر الحضارات الأولى ، فقد جاء فى أساطير البابليين أن الآلـه (اونيس) وهو إلـه الثقافة عندهم كان يخرج من الخليج الأرثرى أى خليج فارس ويهذب الـكلدان القدماء ، وهو أول من علمهم العلوم ولقنهم الفنون وشهد قدماء الفينيقيين ، وقالوا إن منشأهم كان من جزر البحرين الواقعة فى الخليج المشار اليه . هذا والمصريون كانوا ينظرون الى البنط بكل احترام ، ويجلون قدرهم ويرفعون منزلتهم فوق الأمم الأخرى . ومن المؤكد الثابت أن موقع هـذه الديار كان يمثل بلاد العرب السعيدة وأرض السومال . وقد ذهب أهل مصر فى ذلك العهد الى أن مصدر ثقافتهم وينبوع آدابهم ومعارفهم ومدنيتهم لم يكن فى مصر العليا والسفلى بل فى مصر الوسطى فى ابيدوس حيث حكم توت وأوزيريس ، وهناك مضيق يفصل النيل عن البحر الأحمر ، وهذه الشقة الضيقة من الأرض كانت من أهم وأعظم طرق المواصلات التجارية بين البلاد العربية ومصر

كانت أواصر الألفة والاتحاد متينة بين المصريين والبنطيين منذ الأزمنة القديمة ، وهذه قضية تؤيدها الـكتابات المصرية القديمة العهد ، فان ما دُوّن فى بطون الأسفار عن حسن الجوار بين هاتين المملـكتين يخالف ما جاء مسطوراً على الحجر من عبارات النفور والـكراهة الموجهة الى سائر الأمم المجاورة لمصر كالحثيين والليبيين والزنوج وغيرهم ؛ فان المصريين كانوا يلقبونهم بالبرابرة ، والوحوش الضارية ، والأوغاد والأنذال ، وهذه شهادة ناطقة تثبت ما كان للعرب القدماء من الشهامة وعزة النفس وإغاثة الملهوفين

وقد جاء منقوشاً فى بعض الآثار أن طائفة من السفن التجارية أبحرت الى ديار البنط «Punt» فى عصر الملـكة العظيمة (هتسو) وهى إحدى ملـكات الدولة التاسعة عشرة ، وكانت الغاية من تلك السفرة مبادلة البضائع بين القطرين دلالة على الولاء والصفاء . وعادت تلك السفن الى مصر مشحونة بالسلع النفيسة ، حتى أن ملك تلك الديار وزوجه رافقا ذلك الأسطول التجارى ، وحملا معهما هدايا لا نظير لها الى فرعون مصر . ويظهر أن محالفة تجارية كانت معقودة بين البلادين ، وأن سفن هاتين الدولتين كانت تمخر فى البحر الأحمر وفى سواحل أفريقية منذ القدم

إن رسوم رؤساء البنط الطبيعية المنقورة على الأنصاب المصرية تشبه كل الشبه رسوم الطبقة المالـكة فى ديار مصر فى عصورها الأولى ، وجميع الأدلة تحملنا على الاعتقاد أن وطن الساميين الأول كان فى الجنوب الغربى من آسيا . وقد ذهب جماعة من المؤرخين الى أن جزيرة العرب كانت مهد الأقوام السامية قبل عصر التاريخ ، فان الباحث يرى آثارهم ظاهرة فى كل صقع كشعب مهاجر أو فاتح أو غاز سكان بلاد أخرى أقدم منهم عهداً ويختلفون عنهم فى اللسان والعادات والعنصر ؛ غير أن الأمر لم يكن كذلك فى بلاد العرب ، فان أهاليها كانوا أصليين فيها . فاذا أخذنا مثلاً ديار الـكلدان والأشوريين نراها تمثل أقواماً وشعوباً وأمماً جاء عنهم فى الأسانيد القـديمة وفى الروايات المأثورة أنهم كانوا قد وفدوا على بين النهرين من الجنوب على طريق خليج فارس ، وعلى طريق بادية الشام من بلاد العرب ، فأخذ هؤلاء النازحون شيئاً فشيئاً يتحدون بالشعب الشمرى والأكدى بالمصاهرة ؛ وبعد مرور أجيال عديدة تغلب العنصر السامى العربى على سائر العناصر ، وأصبح سيد هذه الديار ، وأسس حضارة جديدة فى عصر حمورابى ملك بابل العظيم المعدود أول من جمع وسنّ الشرائع فى العالم القديم

بيد أن العنصر السامى لم يؤثر فى حضارة المصريين القدماء ، لأن الساميين لم يحتلوا بلادهم احتلالاً طويلاً ، بل كانوا يحملون عليهم حملات متواصلة ؛ وقبل أن ترسخ أقدامهم فى تلك الربوع كانوا يردون على أعقابهم مدحورين . أما فى سورية وفلسطين فكان الفينيقيون والـكنعانيون والعبريون ، وهؤلاء الأقوام لم يكونوا بالسكان الأولين ، لأنهم حينما احتلوا هذه البقاع وجدوا فيها عناصر أخرى كالأموريين والحثيين واليبوسيين ، وأصل هذه الشعوب يرجع الى السكان الأصليين المنتمين الى طائفة من القبائل المنقرضة المعروفة فى التاريخ القديم باسم زاموميم ، ومن هؤلاء من وفد الى هذه الديار من خليج فارس ، ومنهم من تخوم بلاد العرب

يجد المنقب فى بلاد العرب العنصر السامى سائداً منذ الأزمنة القديمة ، ولا يجد له أثراً فى صقع آخر فى ذلك العهد العهيد ، فقد انتشرت لغته وسارت عاداته وعمت الديار المجاورة لبلاده ، ثم تدرجت حضارته السابقة لمملـكة المعينيين العريقة فى القـدم ، وذلك فى أواخر العصر الحجرى وأوائل عصر النحاس . وهنا يشاهد الباحث العصرين مشتبكين متلازمين ؛ فقد انتقل القناصون

والسما كون من عصر الانحطاط إلى عصر التجدد ، فبلغوا مستوى ثقافة حديثة وحياة اجتماعية عالية ، إذ أصبحوا فلاحين وزراعين ورعاة غنم وتجارا وصناعا

لنرجع من تلك الحضارة القديمة ، ولنعد النظر فى اكتشاف الكتابة المعينية التى تدلنا على وجود حروف هجائية أقدم عهداً من الحروف الفينيقية التى اشتهرت فى العالم القديم بأنها الحروف الأولى التى استنبطت لغاية تدوين الأفكار وصيانتها من الاندثار والطموس . وقد أجمع أهل التحقيق والتدقيق على أن حروف الهجاء اليونانية والرومانية وسائر حروف هجاء الأمم الحديثة مقتبسة كلها إما رأساً أو بوسيلة من الوسائل من مخترعيها الفينيقين ، غير أن كتابة المعينيين كشفت اللثام عن صور كتابة أقدم عهداً من جميع الكتابات التى ظهرت وانتشرت فى ذلك الحين ، ومن ثمّ فقد ذهب بعض العلماء الواقفين على أصل اللغة وتركيبها وتاريخها إلى أن الحروف الفينيقية مشتقة من الحروف المعينية

لاشك فى أن اللغة المعينية وحروفها أقدم عهداً بكثير من لغة الساميين وكتاباتهم ؛ ومن المحتمل أن العناصر السامية اختارت تلك الحروف بعد أن عدلتها وهذبتها حسب طبيعتها وميلها . وكان للمقتبسين علاقات تجارية ومواصلات بريدية مستمرة تحمل على ظهور الجمال فتخترق القوافل صحارى بلاد العرب وتعود حاملة لبانها وطيوبها وأفاويهها وآدابها ومعارفها ، ولا يعقل أن تلك الأقوام استمرت جاهلة استعمال حروف الهجاء حتى اقتبستها فينيقية من مصر ونشرتها فى أطراف المعمور . وقد أيد الأستاذ سايس هذا الرأى بقوله « إنه إذا ذهبنا الى أن مصدر الحروف ومنشأها كان فى بلاد العرب يكون أحسن حل لهذه المعضلة » لأن أسماء صور الحروف الفينيقية ليس فيها أدنى شبه فى كثير من الأحوال للرموز والأشارات التى تدل عليها ، فان تناولنا – مثلا – الحرف الأول وهو ألف (ثور) فان رسم الألف يشابه كل المشابهة رأس ذلك الحيوان فى الكتابة المعينية ، هذا وإن أنعمنا النظر فى الحروف الهيروغليفية وهى الحروف المصرية القديمة ، فلا نجد شبهاً لذلك الحرف

إن المكتشفات واللاتى المقبلة فى بلاد العرب ستوقفنا على أنباء الشعوب التى سكنت تلك الاصقاع ومصرتها قبل عصر التاريخ ، فقد كانت بلاد الكنعانيين متحضرة قبل حملة الاسرائيليين عليها وتدوينها ، وكان لهم حروف هجاء وآداب خاصة بهم تعد أقدم عهداً من الكتابة الفينيقية وآدابها . هذا والتنقيب فى ديار العرب وفلسطين سيكشف النقاب عن وقائع وأنباء لا تزال مطمورة فى أنقاض المدن القديمة التى تضارع بل ربما تفوق فى قدمها بلاد مصر والكلدان ، وهى تنتظر بفروغ صبر معاول المنقبين لتنبشها من مدافنها وتنشرها فى عالم الظهور لكى ترى نور الشمس الساطعة ، بعد أن احتجبت عنها قروناً عديدة

بغداد **رزوق عيسى**

عقوبة الاعدام

رأى الفريد روكو وزير حقانية ايطاليا

للأستاذ محمود خيرت

فى سنة ١٨٥١ ساق بعض الحراس الفرنسيين شاباً فى العقد الثالث من عمره الى المقصلة تنفيذاً للحكم الصادر عليه . وما كاد يقترب منها ونقع عليها عيناه حتى اضطرب وجُنّ ، فوقف وكأنه تسمّر فى الأرض ، وأخذ الحراس يدفعونه اليها دفعاً ، وهو يقاومهم مقاومة الجبار اليائس ، وكان وافر الجسم مفتول الساعدين قوى العضلات

وكان الناس من حولهم ينظرون إلى هذا الصراع بين قوتين غير متعادلتين تريد إحداها للأخرى الموت ، وتريد هذه لنفسها الحياة . حتى إذا مضت على ذلك بحو ساعة والحراس كلما تقدموا به نحو المقصلة خطوة رجع هو بهم الى الوراء خطوتين ، خارت قواهم ولم يجدوا خيراً من أن يعودوا أدراجهم به ، والناس يظنون أن الأمر وقف عند هذا الحد ، وكأن كابوساً ارتفع عن صدورهم بعد ما رأوه من هول الموقف ، وما كان إلا صراعاً عنيفاً بين حياة وموت . ولكن الجنود عادوا به فى المساء بعد أن ضاعفوا عددهم ، وبعد أن أحكموا وثاقه حيث نفذوا الحكم فيه

وكان من بين من حضروا هذا المشهد المثير شارل هوجو ، وكان من أنصار إلغاء عقوبة الاعدام ، فوصف ما رآه وأفاض فى شناعته بجريدة الحادث (Evénement) ولكن النائب العام وجه اليه هو ومدير الجريدة تهمة تعمّد احتقار القانون

أما شارل فقد كان الذى تولى الدفاع عنه أبوه ڤكتور هوجو الكاتب الكبير ، وإذا ذكرنا ڤكتور هوجو فقد ذكرنا قوة الجنان ، وسحر البيان ، وذلاقة اللسان ، ولاسيما أنه إنما كان يدافع عن ولده وفلذة كبده ، حتى أنه قال فى بعض ما تناول دفاعه : « أنا المجرم دون ولدى ، لأنى أنا الذى وقفته هذا الموقف ، وكنت من خمس وعشرين سنة لا آلو جهداً فى محاربة عقوبة الأعدام . وقد عز علىّ ألا أكون نصيراً للحياة البشرية أطلب احترامها والأبقاء عليها ، مناديا بذلك فى كل وقت وعند كل مقام بأعلى صوتى وبملء فمى ، لأن عقوبة الأعدام بقية من بقايا الدم بالدم شريعة الوحشية الأولى »(١)

وقد كان هناك غير ڤكتور هوجو كثيرون من أنصار هذه العقيدة ، وأكبر حججهم فى شناعة هذه العقوبة أن إعدام المجرمين فوق أنه مناف لقواعد الرحمة ، وأن العقوبة يجب أن يراعى فيها الاصلاح لا الانتقام ، فان منظره يقسّى قلوب الناس ، ويبذر فيها بذور الغلظة والتوحش

ولكن كيف نسى هؤلاء المفكرون أن الثورة الفرنسية نفسها التى قررت حقوق الانسان ، والتى يشيد بذكرها ڤكتور هوجو وغيره لم تقم إلا على الدم ، وكيف يريدون أن تشمل السفاكين رحمة القانون وقد وطئوا بأقدامهم هذه الرحمة وهم يقتلون

ألا إن شريعة الدم بالدم ، لم تكن أثراً من آثار الوحشية الأولى ، وإنما كانت سبباً شريفاً من أسباب العدل ، وأثراً محموداً من آثار الرحمة لا بالمجرمين ولكن بالناس أجمعين

إن طبيعة الحياة نفسها تقضى ببتر العضو الفاسد من الجسد حتى لا يتعدى فساده اليه ، فكيف نقبل هذا فى الجسم الواحد ولا نقبله فى جسم المجتمع كله ، بل إن أبسط قواعد الفهم تربأ بنا أن نسلم أن إفلات المجرم من حكم القانون لا يشجعه على السير فى شروره وقد استمرأ طعم العدوان وأمِن غوائل العقوبة

وعلى كل حال فان عقوبة الاعدام برغم محاولة هؤلاء الأنصار لاتزال قائمة ، مع أنها أبطلت فى فرنسا مرة ، وفى إيطاليا بعدها مرة أخرى . ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب

ومع ذلك فهذا رأى المسيو الفريد روكو بصدد هذا البحث ، وحسبنا أنه من أئمة التشريع فى ايطاليا ، وهو وزير حقانيتها قال :

« لما أن كانت إيطاليا من أندر الدول التى ألغت عقوبة الأعدام سألنى كثيرون عما إذا كان الغاؤها عاد بالفائدة على مجتمعنا ؟

وقبل أن أخوض فى الرد على السائلين أسجل هذا الحادث الغريب ، وهو أننا أخذنا هذا التشريع عن الفرنسيين برغم

---

(١) راجع هذا الدفاع فى ص ٤٣٩ من كتاب « قبل المنفى » طبعة نلسون باريس

أنهم بعد أن جرّبوه عدلوا عنه للنتائج الخطيرة التي ترتّبت عليه . أخذناه عنهم على سبيل التجربة نحن أيضاً ، وكان ذلك في عهد لم يكن يخطر ببالنا قيام نظام الفاشستيّة فيما بعد ، وعلى كل حال فان هذا الأصلاح الذي فكر الشارع الايطالي في إدخاله على قوانيننا الجنائية لم يجرّنا إلى الفشل الذي أصاب جيراننا من إدخاله على قوانينهم

ولكن يلاحظ أن هبوط نسبة الجرائم بعد هذا التعديل لا يمكن في الواقع إرجاعه إلى مجرد إلغاء هذه العقوبة ونحن نرى انخفاضها في كثير من البلدان التي جرت قوانينها على إعدام القتلة

على أننا مع ذلك غير آسفين لسنّ تشريع كهذا هو مما لاشك فيه اتجاه محمود نحو الرفق بالأنسانية . بل إن أنصاره عندنا لم يحذوا حذو روبسبيير الذي أرسل كما نعلم آلاف الأبرياء إلى المقصلة ، وهو هو الذي كان يشيد بذكره ويعتبر بقاء عقوبة الأعدام ضرباً من ضروب الوحشية

وقد دل إحصاء عدد الجرائم التي كانت تستوجب هذه العقوبة بعد الحرب الكبرى على اطراد في هبوط النسبة التي أشرنا إليها ، فان عدد حوادث القتل من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٠ ينيف على ستة آلاف حادثة ، ولكن هذا العدد هبط في السنة الأخيرة إلى أكثر بقليل من ألفين ، إلا أن جزءاً كبيراً من هذا العدد الأخير يتعلق بالجرائم التي لا يمكن لأية عقوبة مهما كانت من الشدة أن تحول دون وقوعها كالجرائم التي أساسها الشهوات الثائرة وما يترتب عليها « crmies passionnrels » كما يسميها الفرنسيّون ، لأنها بطبيعتها لا مناص من وقوعها ؛ فالرجال والنساء إذا لدغتهم الغيرة أو خدعوا في حب وجدوا كل شئ تقع عيونهم عليه مصبوغاً بالدم ، فلا يلبثون أن يندفعوا إلى الأثم مهما وقفت بينه وبينهم كل عقوبات الدنيا ، حتى ان محلّفي محاكم البلدان اللاتينية أصبحوا على اعتقاد ثابت بأن هذه الجرائم لا يمكن تجنبها ؛ ولذلك فهم يقضون في الغالب ببراءة من يساقون إلى ارتكابها . على أنني وإن كنت أميل إلى هذا الأتجاه — لأن هذه الجرائم لا تخلو دائماً من ظروف مخففة تحيط بها — إلا أنني أرى أن تعليل هذه الأحكام دائماً باضطراب الحواس عند ارتكابها فيه كثير من التطرف

ذلك لأن لكل عقوبة بشرية دائماً وجهين يجب ملاحظتهما

فاذا ما نظرنا إلى الجريمة من حيث الفرد الذي أقدم عليها في ذاته كان ماذهب إليه لمبروزو من عدم قيام المسؤولية الجنائية بسبب ما يحيط به مقبولاً ، لأنه وإن كان حراً فيما فعل إلا أنه ما كان في مقدوره أن يفلت من تأثير الأسباب الباطنة الراسخة فيه . وفي هذا الموقف يجب اعتبار العقوبة كوسيلة من وسائل إصلاحه لا كعقوبة يراعى أن يتساوى أثرها مع أثر الجرم الذي أقدم عليه . وفي الواقع كيف يسوغ لك أن تعدم شخصاً كان في جرم تحت سلطان قانون الوراثة ، أو تأثير البيئة ، أو كانت نفسه فقيرة من أسباب التهذيب والتربية ، بغير أن تكون قاسياً عليه بعيداً عن إنصافه ؟

أما إذا اعتبرناه عضواً في جسم المجتمع الذي يعيش فيه ، فمؤاخذته على هذا الاعتبار يجب أن يكون لها صفة العقوبة التي يستحقها وإن كانت صارمة

وإذا سألتني الآن رأيي في ضرورة عقوبة الأعدام ، أجبتك بأنها يمكن أن تكون كذلك في أغلب الأحوال . بل إنني لأعلم أن كثيراً من الجرائم الوحشية التي تستحق الأعدام كان يمكن ألا تقع لو أن هذه العقوبة الشديدة قائمة كالجرائم التي تقع من الفوضويين

وقد ذكرني هذا البحث بحادثة ضمنها القصصي الفرنسي جول ڤيرن في احد كتبه تتلخص في أن بعض المهاجرين كادوا يغرقون على مقربة من إحدى جزر المحيط الهادي ، ولم يكن على ظهرها غير فيلسوف فوضوي نفر من العالم وفر منه إليها . فلما أقبلوا عليه أكرمهم ودعاهم إلى اعتناق مذهبه . ولكن أسباب الحياة تغيرت بعد قليل ودب الخلاف فيما بينهم ، فلم ير لنشر السلام بينهم إلا أن يفرض عليهم إرادته فرضاً فكان مثله فيهم كمثل الحاكم المستبد (دكتاتور)

وهذه الغاية لا تبعد عن نظريتي في العقوبة كثيراً ، فالأحكام التي يقررها قانوننا الجنائي أشبه بهذا الحاكم ، بغيرها لا يكون هنالك أمن على الحياة ، وإنما تكون الفوضى . . »

محمود خيرت

بقلم قضايا المالية

مقتل شـــاعر...

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق « هُدْبَة بن خَشْرَم » وما يدرى أصبح أم مساء ، وما يعلم من أمر الحياة شيئاً . . ولقد غَبَر عليه سبعة أعوام ما رأى فيها وضح النهار ، ولا اجتلى صفحة السماء . كأنما هو نصف حيّ ، وكأن حياته « مختصر حياة » . . فالسنوات السبع(١) بنعيمها وبؤسها ، وليلها ونهارها ، ليلة واحدة ، طالت وامتدت ، ثم لا يكون صبحها إلاّ الموت . . والدنيا على رَحْبها وسَعَتها ، وجمالها وجلالها ، غرفة ضيّقة فيها أكثر معانى القبر . . . وما بعدها إلا القبر !

ونظر يميناً ، ونظر شمالاً ، وجعل ينفض المكان بعينه ، فلا يبصر إلاّ الظلام ، وحاول النهوض فجبذته الى الأرض سلاسل غليظة ، شدّوه بها الى حَلَقٍ متينة . . .

***

سمع صَلْصَلَةَ الحديد فى عنقه ويديه ، فعاد الى نفسه يذكر ما كان من أمره ، ويستعيد قصته كلها ، ويرى كيف . . .

. . . دخلت عليه أخته فاطمة ، وبيدها المِجْمرَ ، فقال لها :

— ويحكِ ما هذا ؟

— هذا لك ! قم استجمر ، إنما أنت من النساء !

— وما ذاك لا أمّ لكِ ؟

— فقالت : أنت قابع فى كِسْرِ الخيمة كما تقبع العجوز ، وهذا زيادة يتغزّل فى أختك ، ويرسل فيها الشعر يفضحها به فى العرب

— ماذا ؟ زيادة ؟

— زيادة ! نعم . زيادة يهتك نساءك ، ويَفْرى عرضك . . .

فوثب هُدبة يقول : زيادة يهتك نسائى ، ويفرى عرضى ؟ . . والله لأجأنّه بهذا السيف . فقامت اليه تعنّفه وتلومه :

— والله ما علمت أنك مجنون إلاّ الساعة ! أتعمدُ الى ابن عمك فتقتله ، فتحقق ما قاله فىّ ، وتنصرف بسبّة الدهر ؟ قلْ فى أخته « أم قاسم » مثل ما قال الخبيث فى أختك ، فاذا بدأك بالشرّ ، جزيته به شرّاً

— إذن لأجعلنّها والله أحدونة الأبد

— شأنك بها يومئذ . . .

***

وكان ما ظنّت فاطمة فبيّت زيادة هدبة وأهل بيته ، وهم عنه غافلون ، فضرب هدبة على ساعده ، وشجّ أباه خشرماً . وانصرف يقول :

شججنا خشرماً فى الرأس عشراً	ووقفنا هديبة إذ أتانا

فثارت ثائرة هدبة ، فتقلد سيفه وانصرف لا يلوى على شيء ، حتى وجد زيادة فجلّله به فقتله . ولما سكت عنه الغضب ، ورأى أنه قتل رجلاً مسلماً ندم وجعل يلوم نفسه ويقرّعها :

— ويل لى ! ماذا صنعت ؟ أعمدت الى ابن عمى فقتلته ، ومن قتل نفساً مؤمنة فكأنما قتل الناس جميعاً . أفعلتها من أجل هفوة لا تقدّم ولا تؤخر : يانفسُ ما أضلك وأشقاك ! ألم يردعْكِ دين ؟ ألم يحجزك إيمان ؟ ألم تُنَهْنِهِ من عَزْمِك جهنّم ؟ماذا تقولين لربّك غداً ؟ وانطلق يقول لها هذا وشبهه حتى طلع الفجر . . .

وكان الغد ، فاذا عبد الرحمن «اخوزيادة» عند أمير المدينة سعيد بن العاص يشكو اليه قتل أخيه . وأحضر سعيد هدبة ، فلم ينكر ولم يكذب . . . وكره سعيد أن يقتل هدبة ، وهو الشاعر المتقدم ، لسان بادية الحجاز ، وهو أخو ثلاثة كلهم شاعر : حوط وسيحان والواسع . . . وهو الفارس الكريم المحبوب . . ولم يكن يستطيع أن يعفو أو يغيّر حكم الله

فبعث بهما سعيد الى « معاوية »

وكان معاوية ضنيناً بهذا الشاعر أن يعرضه على القتل ، ولكنّ حكم الله فوق هوى أمير المؤمنين . . فلما مثلا بين يديه ، قال عبد الرحمن :

— أشكو اليك ياأمير المؤمنين مظلمتى ، وقتل أخى ، وترويع نسوتى !

فقال معاوية :

— يا هدبة ! قُلْ

— فقال هدبة « مرتجلاً » :

ألا يالقومى للنوائب والدهر	وللمرء يردى نفسه وهو لا يدرى
وللأرض كم من صالح قد تلمأت	عليه فوارته بلماعة قفر
فلا تتق ذا هيبة لجلاله	ولا ذا ضياع هنّ يتركن للفقر

حتى قال :

رُمينا فرامينا فصادف رمينا	منايا رجال فى كتاب وفى قدر

---

(١) حبسه معاوية سبع سنين فى المدينة لسبب ستعرفه ، وقيل بل حبسه ثلاثاً فقط « الأغانى »

فلما رأينا أنما هى ضربة   من السيف أو إغضاء عين على وتر
عمدنا لأمرَ لا يعيرّ والدى   خزايَتَه ولا يُسب به قبرى
وأنت أمير المؤمنين فما لنا   وراءك من معدى ولا عنك من قصر
فان تك فى أموالنا لم نضق بها   ذراعاً ، وإن صبر فنصبر للصبر

فقال معاوية :

— أراك أقررت بقتلك صاحبهم

وكره أن يقتله ، وماكان له أن يعفو ، ففكر ثم قال لعبد الرحمن :

— هل لزيادة ولد ؟

— قال : نعم ، المسور ، وهو غلام صغير لم يبلغ ، وأنا عمه وولىّ دم أبيه

— قال : إنك لا تؤمَن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق . والمسوّر أحق بدم أبيه ، فليردّ هدبة الى المدينة ، فليحبس بها حتى يرشد المسور فيكون له حكمه فى القاتل

وتنبه هدبة وسمع مرّة ثانية صَلْصَلَةَ الحديد ، وأحسّ بدنوّ الساعة التى يقف فيها على شفير الهاوية فاما الى موت ، وإما الى حياة . فجزع واضطرب ، ثم أدركه من نعمة الايمان مايدرك كل مؤمن حاق به خطر ، فسكن واطمأن ، وراح يهدىء نفسه ويسكنها . . . ويقول :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه   يكون وراءه فَرَجٍ قريبُ
فيأمن خائف ، ويفكّ عانٍ   ويأتى أهله النائى الغريب (١)

***

فلما كان صباح تلك الليلة ، لم يسمع فى المدينة إلا نبأ واحد ، يجرى على كل لسان ، ويلج كل أذن :

— اليوم يوم هدبة — اليوم يسلم الى المسور بن زيادة ليحكم فيه — إنه سيقتله — بل سيعفو — لن يعفو عنه — لن يقتله . . . .

وخرج الناس أرسالاً الى الحرّة ، فلم يُر مثله من يوم ، خلت فيه المدينة إلا من شيخ فانٍ أو امرأة عاجزة ، وانتقلت بأهلها الى الحرّة . . . .

وماهى حتى جىء بالرجل وهو مثقل بالحديد ، وقد صدىء عليه وحزّ فى جسمه ، وبليت من دونه ثيابه . فماج الناس وازدحموا بالمناكب ، واشرأبت الأعناق ، وارتاع النساء وأجفلن وعرتهن رعدة . . . ثم فاضت منهن العيون شفقة ورحمة

ثم انتهى به الى الحرّة ، وقد جلس فيها الأمير سعيد بن العاص ووجهاء المدينة ، وأقيم المسور ليقول كلمته . وقام اليه رسول معاوية فعرض عليه عشر ديات من خالص مال أمير المؤمنين ، فأباها ، فعرض عليه سعيد ووجهاء المدينة أضعافها فأبى الا قتل هدبة . . .

فاصفرت وجوه الناس ، وودوا لو حالوا بالقوّة بين هدبة وبين القتل ، ولكن حجزهم احترام الحق ، ومنعتهم هيبة الدين فلبثوا صامتين كأن على رءوسهم الطير ، ونظروا الى هدبة . فرفع رأسه وأنشد بصوت شجىّ رائع :

ألا عللانى قبل نوحِ النوائح   وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غدٍ يا لهف قلبى من غدٍ   إذا راح أصحابى ولست برائح
إذا راح أصحابى تفيض عيونهم   وغودرت فى لحدٍ علىّ صفائحى
يقولون هل أصلحتم لأخيكم   وما القبر فى الأرض الفضاء بصالح

فضجّ النسوة بالبكاء ، وماج الناس ، فأشار اليهم فأسكتهم ، وخاطب امرأته وكانت من أجمل النساء وكان أجدع :

أقلّى علىّ اللوم يا أمّ بوزعا   ولا تجزعى مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحى إن فرّق الدهر بيننا   أغم القفا والوجه ليس بأنزعا
ضروباً بلحييه على عظم زوره   إذا الناس هشّوا للفعال تقنّعا
وحلى بذى أكرومة وحمية   وصبراذا ما الدهر عضّ فأسرعا

وعرَى الناس صمت عميق ، وأقبلوا ينظرون بماذا تجيب هذه المرأة : أتبقى وهى الشابة الجميلة الفتّانة لرجل أجدع هو الساعة ميّت ، وتقيم على عهده ، وتحرّم على نفسها من أجله الرجال ، أم هى تعده وتمنّيه ، حتى اذا مات انطلقت فتزوجت ؟ وجعلوا يتهامسون ، ويتقولون . . .

أما هى ، فلم يكن منها إلا أن مالت الى رجل ، فسألته شيئاً ، ثم أرسلت ملحفتها على وجهها هُنَيّةً ، ثم عادت فاذا . . . فاذا هى قد جدَعَتْ أنفها ، وقطعت شفتيها . . .

وقالت : ياهدبة ! أتراني متزوجة بعد ماترى ؟.. فقال : لا ، الآن طاب الموت ، ثم استأذن فى ركعتين فصلاّهما وخفف ، ثم التفت الى من حضر ، وقال : والله لولا أن يظن بى الجزع لأطلتهما ، فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما

ثم تقدم من المسوّر وقال :

أثبت قدميك ، وأجد الضربة ، فانى قد أيتمتك صغيراً وأرملت أمّك شابة . . .

على الطنطاوى

---

(١) من أبيات له

بين فن التاريخ وفن الحرب

١١ – خالد بن الوليد *

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

فوصلت المقدمة مساء الى القرب من ثنية اليمامة ولقيت مفرزة من بني حنيفة نياماً في أسفل العقبة فباغتتهم وأسرتهم ؛ وكانت هذه المفرزة مؤلفة من ستين رجلاً بقيادة مجاعة بن مرارة أحد رؤساء بني حنيفة

والروايات جميعاً متفقة على أن مجاعة خرج من اليمامة على رأس سرية يطلب بثأر له في بني عامر وبني تميم ، لأن بني عامر منعوه من أن يتزوج خولة بنت جعفر . وبعد أن باغت بني عامر عاد بخولة ووقف في أسفل العقبة مع رجاله ليبيت ليلته هناك وإذا المسلمون يباغتونه ويقودونه مع رجاله أسرى الى خالد

والذي يلوح لنا أن مجاعة كان يراقب مجيء جيش المسلمين من الثنية — أي عقبة الحيسية . ويظهر أن قوة المسلمين باغتته دون أن يستطيع التملص منها ، فلما وقف أمام خالد زعم أنه خرج للثأر

وتزعم الروايات أن خالداً قتل رجال مجاعة لتأكده كفرهم ، واستبقى مجاعة ليستفيد منه في حركاته على مسيلمة . فيا ترى هل تواطأ مجاعة مع خالد على مسيلمة ، أو أنه تأكد نصر المسلمين فأراد أن يسوغ موقفه أمامهم فعرض الخدمة على خالد ؟ أو أنه خرج برجاله ليلتحق بجيش المسلمين فيدلهم على عورات أعدائهم ؟ ذلك مالا نعلمه العلم الأكيد . والمحقق أن مجاعة ظل محجوراً عليه في معسكر خالد وقام بالوساطة بين خالد وبني حنيفة لعقد الصلح بعد انكسار جيشهم في عقرباء ، فأفاد الفريقين بتلك الوساطة

ولابد أن خالداً استجوب مجاعة فاستقى منه جميع الأخبار الموثوق بها عن مسيلمة وجيشه ، فعلم منه أن مسيلمة ينتظر وروده في عقرباء

المعركة

في رواية نقلها ابن حبيش أن خالداً لما تثبت من عسكرة جيش مسيلمة في عقرباء شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه جميعهم أن يتقدم نحو عقرباء . وكانت الأخبار تنم على أن طليعة الحنفيين يقودها الرحال ، وهو من رؤساء بني حنيفة ، فتقدم خالد حينئذ بجيشه نحو العدو . فجعل أبا حذيفة على الميمنة وشجاع ابن وهب على الميسرة ، وكان زيد بن الخطاب يحمل راية المهاجرين ، وثابت بن قيس يحمل راية الأنصار . وعزل خالد براً بن مالك من قيادة الخيالة وأحل محله أسامة بن زيد

أما جيش مسيلمة فكان مولياً وجهه شطر الشمال الغربي ومترتباً في سهل عقرباء بين جبل صلبوخ ووادي حنيفة . فيستدل من ذلك على أن الأرض كانت صالحة لاتخاذ نظام القتال ولحركة الخيالة ، وتنم الروايات على أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت في وجه المسلمين وزحزحتهم عن مكانهم في القتال — أي أن جبهة المسلمين كانت موجهة نحو الجنوب الشرقي . ويظهر أن قوة الرحال انسحبت لما رأت المسلمين قادمين نحوها . وكان جيش مسيلمة مرتباً على الأسلوب الشائع ومنقسماً الى ثلاثة أقسام : الميمنة والميسرة والقلب — ولم يكن الضعن خلفه لأن قرى بني حنيفة كانت في الخلف على مانعلم

وكان محكم بن طفيل — وهو من أجلّ رؤساء بني حنيفة شأناً على الميمنة ، والرحال على الميسرة ، وشرحبيل بن مسيلمة يقود القلب . فكان مسيلمة وراء القلب يراقب مجرى القتال

وبعد أن قضى المسلمون ليلتهم في عقبة الحيسية — أي ثنية اليمامة — واستوثق خالد من أمر مجاعة ، تحرك الجيش صباحا وكانت الشقة بينه وبين عقرباء مسير يوم . وفي رواية نقلها الطبري أن الموقع الذي باغت المسلمون فيه مجاعة بن مرارة يبعد عن عسكر مسيلمة مسير ليلة . والحقيقة أن المسافة بين العقبة وعقرباء لا تزيد على خمسة وعشرين ميلاً — أي مسير يوم في ذلك الزمن

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

والظاهر أن خالداً قضى ليلته التى سبقت يوم المعركة قريباً من جيش مسيلمة ، لأن المعركة بدأت صباحاً واستمرت الى العصر . وكان الموقع الذى اختاره كثيباً مشرفاً على اليمامة كما ينقله الطبرى . وسبق أن رأينا من وصف فلبى لرابية الابكين أنها تشرف على وادى حنيفة وتتسلط على الأرض الممتدة الى الجنوب . فالأرض فى الشمال تتسلط على الأرض فى الجنوب ، وكان لوضع الأرض على هذه الصورة فائدة لجيش المسلمين

وليس لدينا معلومات عن تعبئة المسلمين فى ميدان القتال ، وتدل الأخبار على أن أبا حذيفة كان يقود الميمنة وشجاعا الميسرة ويزيد بن الخطاب القلب وأسامة بن زيد الخيالة . فهل كان كل من المهاجرين والأنصار على مجنبة من المجنبتين ، وكانت القبائل فى القلب ؟ أو أن المهاجرين والأنصار كانوا فى القلب وكانت القبائل فى المجنبتين ؟ أو أن المهاجرين كانوا فى القلب مع قبائل الحجاز ، وكان الأنصار على إحدى المجنبتين وكانت قبـــائل البادية فى المجنبة الأخرى ؟

هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها . والواضح من مجرى القتال أن إحـدى المجنبتين (ولعلها الميسرة) انهزمت فتلاها القلب ووصل الى الخيام فى الضعن . وأن أهل القرى — المهاجرين والأنصار وأهل الحجاز — عزوا هـذه الهزيمة التى كادت تقضى على المسلمين الى أهل البادية . فلنا من ذلك أن أهل البادية كانوا فى الميسرة ، وكان المهاجرون مع بعض قبائل الحى فى الميمنة ، والأنصار مع البعض الآخر من قبائل الحجاز فى القلب . ويظهر أن الخيالة كانت فى الامام فانسحبت الى الميسرة لتراقب الوادى ، وكان الضعن وراء القلب وفيه الخيام والنساء . ووقف خالد بن الوليد وراء القلب يراقب سير القتال

صفحات القتال

نشبت المعركة صباحاً واستمرت الى العصر . فبذل الفريقان قصاراهما لتغلب أحدهما على الآخر واقتتلا اقتتالاً شديداً . وكما يقول الطبرى كانت حرب لم يلق المسلمون مثلها قط

وجرى القتـال فى ثلاث صفحات : تغلب الحنفيون فى الصفحة الأولى على المسلمين وأزاحوهم الى الضعن وكادوا ينتصرون عليهم . وفى الصفحة الثانية كر المسلمون راجعين فتغلبوا على أعدائهم فأزاحوهم من المحل الذى وصلوا اليه . وبعد أن تضافرت جهودهم استطاعوا أن يهزموا الحنفيين . وفى الصفحة الثالثة اعتصم الحنفيون فى الحديقة فحاصرها المسلمون من كل صوب ودخلوها عنوة وقضوا على البقية الباقية من الحنفيين

ونذكر فيما يلى مجرى القتـال فى كل صفحة من الصفحات الثلاث :

الصفحة الأولى

بدأ القتال صباحا بتحميس القواد رجالهم بالـكلمات المأثورة والخطب الحماسية . فنادى شرحبيل بن مسيلمة فى رجاله قائلاً : « يابنى حنيفـة اليوم يوم الغيرة ، إن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات . قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

وكان فى أول القتال براز من الفريقين كما جرت عليـه عادة العرب ، فقتل فى هذا البراز الرحال بن عنفوة الذى كان فى طليعة الحنفيين قبل القتال . وكان على الميسرة قتلة زيد بن الخطاب ، ويظهر أن رؤساء آخرين من بنى حنيفة قتلوا فى البراز مما حمل الطبرى على القول : « قتل الرحال وأهل البصائر من بنى حنيفة » وبدلاً من أن يوهن هذا القتل عزائم بنى حنيفة شدد عزيمتهم فتذامروا وحمل كل قوم فى ناحية . ويلوح من مجرى القتال أن الضربة كانت قوية من الجانب الأيمن على ميسرة المسلمين فزحزحتها من محلها وتراجعت منكسرة لاتلوى على شىء . فأثر ذلك فى موقف القلب فرجع متقهقراً وبنو حنيفـة يطاردونه الى أن وصلوا الى المعسكر فقطعوا أطناب الخيام

ومن الروايات ما يزعم أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت فى وجوه المسلمين فضعضعت صفوفهم ، فاستفاد بنو حنيفة منها فهزموا المسلمين حتى أزاحوهم من محلهم وطاردوهم الى المعسكر فدخلوا فى الفسطاط فرعبلوه بالسيوف

والروايات متفقة على أن بعض الأعداء دخل خيمـة خالد بن الوليد وكان فيها مجاعة مكبلا بالحديد قيـد مراقبة أم تميم التى تزوجها خالد بعد قتله مالك بن نويرة . فأراد الحنفيون إنقاذ مجاعة فهموا بقتل أم تميم إلا أنه منعهم من ذلك . فقال لهم : « لاتنشاغلوا فى المعسكر ، ودونكم الرجال » فى مثل هـذا الموقف الحرج برز خالد الى الميدان شاهراً حسامه تشجيعاً للمسلمين ومنادياً بشعار « يا محمداه ! »

ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالداً بفراسته وبطولته أنقذ الموقف . ولولا قيادة خالد وجلادة الصحابة الذين لقوا حتفهم بعد أن أظهروا للمسلمين أمثلة حسنة ، لدارت الدائرة على المسلمين ولا ريب

الصفحة الثانية

تبدأ الصفحة الثانية بدعوة الرؤساء من المسلمين الى الثبات فى محالهم والكر بعد ذلك على الأعداء

فثابت بن قيس الذى كان يقود الأنصار كان ينادى الأنصار قائلاً : « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عنى حتى أريكم الجلاد » وقال زيد بن الخطاب الذى كان يقود القلب حين انكشف الناس عن رحالهم — أى المعسكر — : « لا تحوز بعد الرحال » وقام البراء أخو أنس بن مالك ينادى قائلاً « أنا البراء ابن مالك . هلم الى » أما أبو حذيفة الذى كان يقود الميمنة فكان ينادى قائلاً : « يا أهل القرآن ! زينوا القرآن بالفعال »

وفى مثل هذا الوقت العصيب تدبر خالد الموقف ففكر فى حيلة يعيد بها نخوة المسلمين ، ويزيد حماسهم ، ولا سيما لما رأى أهل القرى يحينون أهل البادية وهؤلاء يحينون أهل القرى

وتكاد الروايات جميعاً تتفق على أن القبائل من أهل البادية انهزموا أول مرة فألقوا الوهن فى صفوف المسلمين . والظاهر من نتائج المعركة أن أهل القرى ثبتوا « فاستحرّ بهم القتل » كما يذكر الطبرى . وكان التدبير الذى توصل اليه خالد لينقذ الموقف ويتغلب على عدوه منحصراً فى أمرين :

أولاً — فصل أهل القرى عن أهل القبائل ، ووضع كل فريق منهم فى جانب . فكان الأنصار والمهاجرون وأهل القرى الآخرون فى جانب ، والقبائل فى جانب آخر . لأن انهزام المسلمين أوقع الخلل فى ترتيب المعركة ، فاختلطت الميسرة بالقلب ، والقلب بالميمنة ، وتخلى الناس عن رؤسائهم

ثانياً — طلب من كل جانب أن يمتاز ، وذلك لما رأى أهل القرى يعزون سبب الخيبة الى القبائل ، والقبائل تعزو الخيبة الى أهل القرى . وفى هذا تناحر لدى الفريقين ، وإذا ما اشتد التناحر يؤدى الى التقاعس

فصرخ فى المسلمين طالباً منهم أن يمتازوا ليتبين من أين يأتى الخلل . وكان يريد بذلك أن تبرز الفرق فلا ينسب اليها ذلة الانكسار . ونال بذلك ما أراد . فامتاز أهل القرى والبوادى ؛ وامتازت القبائل من أهل البادية ، فوقف بنو كل أب على رايتهم كما يذكر الطبرى . فتولى خالد بنفسه قيادة صفوف أهل القرى ، فقاموا جميعاً قومة واحدة فقاتلوا قتال الأبطال . وكان خالد فى أول الصف يشجع المسلمين ببطولته ولا يقابله أحد إلا قتله . وكان يفتش عن مسيلمة ليقتله ، لأنه عرف أن الحرب لا تركد إلا بموته ، وأن بنى حنيفة لا تحفل إلا بقتله . وكان من أمر ذلك أن تشجع المسلمون فصدوا العدو

ويذكر الواقدى أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون من أطرافه قال : « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتى ؛ عضوا على أضراسكم أيها الناس ! واضربوا فى عدوكم وامضوا قدماً » ولم يزل يشجع أصحابه الى أن قتل والراية فى يده ، فأخذها أبو حذيفة ، فجادل بسيفه حتى قتل . أما ثابت بن قيس فكان يحمل راية الأنصار ، فنادى فى قومه « العزة لله ولرسوله ولأحزابه . أرونى كما أريكم » ثم جلد فى الأعداء وقاتل حتى قتل . وتسلم راية المسلمين سالم مولى أبى حذيفة ، وظل يناضل عنها الى أن قتل ، فتسلمها آخرون وقتلوا

وإزاء هذه الجهود المتضافرة والأمثلة الشجعة تمكن المسلمون من أن يزحزحوا الأعداء من مكانهم حتى أزاحوهم تماماً ، فأخذوا يطاردونهم . وفى مثل هذا الحين أخذ محكم بن الطفل المدعو بمحكم اليمامة يشجع بنى حنيفة منادياً : « يامعشر بني حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حصينات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » . فقاتل قتالاً شديداً

أما أهل اليمامة فلما رأوا المسلمين يركبونهم صرخوا فى وجه مسيلمة قائلين له : « أين ما كنت تعدنا ؟ » فأجابهم قائلاً : « قاتلوا عن أحسابكم » ، ولما رأى المحكم أن الدائرة دارت على بنى حنيفة صاح فيهم : الحديقة ! الحديقة ! يريد بذلك أن يتحصنوا فيها ويقاوموا المسلمين . فانسحبوا إلى الحديقة واعتصموا بها . ويظهر أن المحكم لم يتمكن من الوصول اليها لأن عبدالرحمن ابن أبى بكر رماه بسهم فقتله

يتبع

طه الهاشمى

٣ ـ محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

— لعلك يا صديقى مليتس تريد أنا كسجوراس (١) بهذا الاتهام . ويظهر أنك تسىء الظن بالقضاة ، فتحسبهم بلغوا من الجهالة حداً لا يعرفون معه أن تلك آراء مسطورة فى كتب أنا كسجوراس الكلازومينى ، وهى مليئة بمثلها . وتلك التعاليم هى التى يقال إن سقراط قد أوحى بها إلى الشبان ، والواقع أنهم عرفوها من المسرح الذى كثيراً ما يعرضها ، وأجر المسرح لا يزيد على دراخمة واحدة ، فنى مقدور الناس جميعاً أن يشهدوها بهذا الأجر الزهيد ، ثم يهزأون من سقراط كلما نسب إلى نفسه تلك الأعاجيب ، ولكن حدثنى يامليتس ، أفتظن حقاً أنى لا أومن بآلـه ما ؟

— أقسم بزفس أنك لا تؤمن بكائن من كان

— أنت كاذب يا مليتس ، ولا تستطيع أنت نفسك أن تصدق هذا القول ، ولست أشك أيها الأثينيون فى أن مليتس هذا مستهتر وقح ، كتب هذه الدعوى بروح من الحقد والطيش والغرور ، ألم يبتكر هذه الألعوبة ابتكاراً ليقدمنى بها الى المحاكمة ؟ كأنما قال لنفسه : سأرى هل يستطيع هذا الحكيم سقراط أن يكشف عن هذا التناقض المحبوك ، أم أنى خادعه كما سأخدع بقية الناس ؟ فهو كما أرى يناقض نفسه بنفسه فى الدعوى فكأنه يقول : قد أجرم سقراط لأنه كافر بالآلهة ، ولأنه مؤمن بهم ، وتلك مهزلة ولا ريب

أيها الأثينيون ! إنه متناقض لاتستقيم روايته ، وأحب أن نتعاون جميعاً على تحقيقها ، وعليك يا مليتس أن تجيب — وأعيد الرجاء ألا تقاطعونى إذا تكلمت بأسلوبى المعهود —

يا مليتس ! هل جاز لانسان مرة أن يعتقد بوجود ما يتصل بالبشر من أشياء ، دون أن يعتقد بوجود البشر أنفسهم ؟ إنى أحب منه — أيها الأثينيون — أن يجيب ، وألا يعمد دائماً الى المقاطعة . هل اعتقد انسان مرة وجود صِفات الجياد دون الجياد نفسها ؟ أو وجود نغمات القيثارة دون العازف عليها ؟ إن كنت تأبى أن تجيب بنفسك ياصديقى ، فسأجيب لك وللمحكمة

كلا ! لم يفعل ذلك إنسان . والآن ، هل لك أن تجيب عن هذا السؤال الثانى : أيستطيع انسان أن يؤمن برسول روحى الـهى ، ولا يؤمن بالأرواح نفسها أو بأشباه الآلهة ؟

— إنه لا يستطيع

— يسرنى أن أحصل منك بعون المحكمة على هذا الجواب ، ولكنك قد أقسمت فى دعواك أننى أثق وأعتقد فى رسل روحية الـهية ، وسواء أكانت تلك الرسل قديمة أم محدثة ، فأنا على أية حال أومن بها كما قلت وأقسمت فى صحيفة الدعوى . ولكن إذا كنت أعتقد بموجودات آلـهية ، أفلا يلزم أن أعتقد بالأرواح وأشباه الآلهة التى بعثتها ؟ أليس هذا حقاً ؟ مالى أراك صامتاً ؟ إن الصمت معناه الرضى . فما هذه الأرواح وأشباه الآلهة ؟ إنها إما أن تكون آلهة ، أو أبناء آلهة ، أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك

— وإذن فهذا موضع التناقض المحبوك الذى أشرت اليه ، فأشباه الآلهة أو الأرواح هى آلهة ، وقد زعمت فى أول الأمر أنى كافر بالآلهة ، ثم ها أنت ذا تضيف أنى مؤمن بها ، لأنى مؤمن بأشباهها . ولا يضيرنا أن تكون هذه الأشباه أبناء للآلهة غير شرعيين ، فسواء أعقبتها الآلهة من الشياطين أو من أمهات آخريات كما يُظن ، فوجودها يتضمن بالضرورة — كما ترون جميعاً — وجود آبائها ، وإلا كنت كمن يثبت وجود البغال وينكر وجود الجياد والحمير . لا يمكن أن يكون هذا الهراء يامليتس إلا تدبيراً منك لتبلونى به ، ولقد سقته فى دعواك لأنك لم تجد حقاً تتهمنى به . ولكن لن يجوز على من يملك ذرة من فهم ، قولك هذا بأن رجلاً يعتقد فى أشياء آلـهية ، هى فوق مستوى البشر ، ولا يؤمن فى الوقت نفسه بأن هناك آلهة وأشباه آلهة وأبطالاً

(١) هذه العقيدة التى قالها مليتس عن سقراط هى فى الحقيقة رأى فى فلسفة أنا كسجوراس وكان قد اتهم به هذا بالالحاد لولا أنه فر من أثينا

حسبي ما قلته رداً لدعوى مليتس ، فلا حاجة بي الى دفاع قوى بعد هذا ، ولـكني كما ذكرت من قبل لابد أن يكون لى أعداء كثيرون ، وسيكون ذلك دافعى الى الموت لو قضى على به ، لست أشك فى هذا ، فليس الأمر قصراً على مليتس وأنيتس ، ولـكنه الحقد الذى يأكل القلوب ، ويغرى الناس بتشويه السمعة ، فكثيراً ما أدى ذلك برجال الى الموت . وكثيراً ما سيقضى بالموت على رجال ، فلست بحمد الله آخر هؤلاء

سيقول أحدكم : ألا تخجل يا سقراط من حياة يغلب أن تؤدى بك الى موت مباغت ، وعلى ذلك أجيب فى رفق : أنت مخطىء ياهذا ، فان كان الرجل خيّراً فى أى ناحية منه ، فلا ينبغى أن يتدبر أمر حياته أو موته ، ولايجوز أن يهتم إلا بأمر واحد ، وذلك أن يرى هل هو فيما يعمل مخطىء أم مصيب ، وهل يقدم فى حياته خيراً أم شراً . أترى إذن أن الأبطال الذين سقطوا فى طروادة لم يحسنوا صنعاً ؛ فذلك ابن ثيتس الذى استصغر الخطر وازدراه حينما قرنه بما يثلم الشرف . ولما قالت له أمه الآلـهة ، وهو يتحفز لقتل هكتور بأنه لو قتله انتقاماً لصاحبه باتروكلس ، فسيدركه هو نفسه الموت . ثم قالت : « إن القدر يترصدك بعد هكتور » فلما سمع هذا ، احتقر الخطر والموت احتقاراً ، ولم يخشهما كما خشى أن يحيا حياة يدنسها العار دون أن ينتقم لصديقه ، فأجاب : « ذريني أمت بعد موته ، فأنتقم من عدوى ، فذلك خير من الحياة فوق هذه السفن ، فأظل عاراً على جبين الدهر تنوء بحمله الأرض » هل فكر أخيل فى الموت أو الخطر ؟ فمهما يكن موقف الرجل ، سواء اختار لنفسه ذلك الوضع أم أقامه فيه قائده ، فلا بد أن يلزمه ساعة الخطر ، ولا يجوز أن يفكر فى الموت أو فى أى شىء آخر غير دنس العار . إن هذا أيها الأثينيون لقول حق

بنى أثينا ! كم كان سلوكى عجيباً ، لو أننى عصيت الله فيما يأمرنى به — كما أعتقد — بأن أؤدى رسالة الفلسفة بدراسة نفسى ودراسة الناس ، وفررت مما كلفنى به خشية الموت أو ماشئت من هول ، وأنا الذى حين أمرنى القواد الذين اخترتموهم للقيادة فى بوتيديا ، وأمفيبوليس ودِلْيوم ، لزمت موضعى ، كأى رجل آخر ، أواجه الموت . ما كان أعجب ذلك ، وما كان أحقنى بأن أساق الى المحكمة بتهمة الكفر بالآلهة ، وكم كنت عندئذ أكون بعيداً عن الحكمة ، مدعياً إياها خاطئاً ، لو أننى عصيت الراعية خوفا من الموت ؟ فليست خشية الموت من الحكمة الصحيحة فى شىء ، بل هى فى الواقع ادعاء بها ، لأنه تظاهر بمعرفة ما تستحيل معرفته ، فما يدريك ألا يكون الموت خيراً عظيماً ، ذلك الذى يلقاه الناس بالجزع كأنه أعظم الشرور ؟ أليس ذلك توهما بالعلم ، وهو ضرب من الجهل الشائن ؟ وهنا أرانى أسمى مقاماً من مستوى البشر ، وربما ظننت أنى فى هذا الأمر أحكم الناس جميعاً — فما دمت لا أعلم عن هذه الحياة إلا قليلاً ، فلا أفرض فى نفسى العلم ، وإنما أعلم علم اليقين أن من ظلم من هو أرفع منه أو عصاه ، سواء أكان ذلك انساناً أم آلها ، فقد ارتكب إثماً وعاراً ، ويستحيل على أن أتحاشى ما يجوز أن يكون فيـه الخير وأخشاه ، لأقدم على شر مؤكد ؛ ولهذا فلو أنكم أطلقتم الآن سراحى ، ورفضتم نصح أنيتس ، الذى قال بوجوب إعدامى بعد إذ وجه الىّ الأتهام ، لأنى لو أفلت فسيصيب الفساد والدمار أبناءكم باستماعهم لما أقول . لو قلتم لى ياسقراط ، إننا سنطلق سراحك هذه المرة ولن نأبه لأنيتس ، على شرط واحد ، وذلك أن تقف البحث والتفكير فلا تعود اليهما مرة أخرى ، ولو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت ، إن كان هذا شرط إخلاء سبيلى أجبت بما يأتى : أيها الأثينيون ! أنا أحبكم وأمجدكم ، ولـكنى لابد أن أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أمسك عن اتخاذ الفلسفة وتعليمها مادمت حياً قوياً ، أسائل بطريقتى أياً صادفت بأسلوبى ، وأهيب به قائلاً : مالى أراك ياصاح تعنى ما وسعتك العناية بجمع المال ، وصيانة الشرف ، وذيوع الصوت ، ولا تنشد من الحكمة والحق وتهذيب النفس إلا أقلها ، فهى لاتصادف من عنايتك قليلاً ولا تزن عندك فتيلاً ، وأنت ابن أثينا ، مدينة العظمة والقوة والحكمة ؟ ألا يخجلك ذلك ؟ فان أجاب محدثى قائلاً : بلى ، ولـكنى معنى بها ، فلن أخلى سبيله ليمضى من فوره ، بل أسائله وأناقشه وأعيـد معه النقاش ، فان رأيته خلواً من الفضيلة ، وأنه يقف منها عنـد حد القول والادعاء ، أخذت فى تأنيبه ، لأنه يحقر ما هو جليل ، ويسمو بما هو دنىء وضيع ؛ سأقول ذلك لـكل من أصادفه ،

سواء أكان شاباً أم شيخاً ، غريباً أم من أبناء الوطن ، لـكنى سأخص بعنايتى بنى وطنى ، لأنهم إخوانى ، تلك كلمة الله فاعلموها . ولا أحسب الدولة قد ظفرت من الخير بأكثر مما قمت به ابتغاء مرضاة الله ، وما فعلت إلا أن أهبت بكم جميعاً ، شيناً وشباناً ، أن انصرفوا الى أنفسكم وما تملكون ، وبادروا أولاً بتهذيب نفوسكم تهذيباً كاملاً ، وهأنذا أعلنكم أن الفضيلة لاتشترى بالمال ، ولـكنها هى المعين الذى يتدفق منه المال ويفيض بالخير جميعاً ، سواء فى ذلك خير الفرد وخير المجموع . ذلك مذهبى ، فان كان هذا مفسداً للشبان ، فالهم إنى مودٍ بالشباب الى الدمار ! أما إن زعم أحدكم أن ليس مذهبى هو ذاك ، فهو إنما يزعم باطلاً . أيها الأثينيون ! سواء لدى أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير ، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أصبها ، فاعلموا أنى لن أبدل من أمرى شيئاً ، ولو قضيتم علىّ بالموت مراراً

أيها الأثينيون ! لا تقاطعونى واصغوا إلى قولى ، فقد وعدتمونى أن تسمعوا الحديث حتى ختامه ، وإن لـكم فيه لخيراً . أحب أن أفيض لـكم بما عندى ، فان بعثكم على البكاء فأرجو ألا تفعلوا . أريد أن أصارحكم أن لو قضيتم علىّ بالموت فسيصيبكم من الضر أكثر مما يصيبنى . إن مليتس وأنيتس لن يؤذيانى ، لأنهما لايستطيعان ، فليس من طبائع الأشياء أن يؤذى فاسد من هو أصلح منه ، نعم ، ربما استطاع له موتاً أو نفياً أو تجريداً من حقوقه المدنية ، وقد يبدو له كما يبدو للناس جميعاً ، أنه يكون بذلك قد أنزل به أفدح البلاء ، ولـكنى لا أرى ذلك الرأى ، فأهول به مصاباً هذا الشر الذى يقدم عليه أنيتس — بأن يقضى على حياة انسان بغير حق . لست أكلمكم الآن — أيها الأثينيون — من أجل نفسى كما قد تظنون ، ولـكن من أجلـكم ، حتى لاتسيئوا إلى الله ، أو تـكفروا بنعمته بحكمكم علىّ ، فليس يسيراً أن تجدوا لى ضريباً إذا قضيتم علىّ بالموت ، وإن جاز أن أسوق اليكم هذا التشبيه المضحك ؛ لقلت إنى ضرب من الذباب الخبيث ، أنزله الله على الأمة ، التى هى بمثابة جواد لنبيل عظيم ، ثقيل الحركة لضخامته ، ولا بد له فى حياته من حافز . أنا تلك الذبابة الخبيثة التى أرسلها الله الى الامة ، فلا شاغل لى متى كنت وأنى كنت ، إلا أن أثير نفوسكم بالأقناع والتأنيب ، ولما كان من العسير أن تجدوا لى ضريباً فنصيحتى لـكم أن تدخروا حياتى . نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظتكم من نعاسكم العميق ، ولـكم أن تأملوا ، إذا ما صفعتمونى صفعة الموت ، كما ينصح أنيتس ، — وما أهون ذلك عليكم — أن يهدأ لـكم الرقاد بقية حياتكم ، مالم يبعث لـكم الله ذبابة أخرى ، إشفاقاً عليكم . أما إننى جئتكم من عند الله فهذى آيته : لو كنت نـكرة من الناس لما رضيت مطمئناً ، باهمال شئون عيشى اهمالاً طوال تلك السنين ، لأخصص نفسى لـكم ، فقد جئتكم واحداً فواحداً ، شأن الوالد أو الأخ الأكبر ، فأحملكم على الفضيلة حملاً ، وليس ذلك ما عهدناه فى طبيعة البشر . ولو كنت قد أفدت من ذلك أجراً أو جزاء لـكان لذلك مدلول آخر ، ولـكن هل تجرؤ حتى وقاحة المدعين أن تدعى أنى أخذت أجراً أو سعيت إليه ؟ إنهم لن يفعلوا ، لأنهم لن يجدوا لذلك دليلاً . أما أنا فعنـدى ما يؤيد صحة ما أقول . وحسبى بالفقر دليلاً .

يتبع — زكى نجيب محمود

٣ - مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزى أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

وعاش مصطفى كمال مع أمه فى سالونيك بعد وفاة زوجها الذى كان يبغضه وينفر منه ، وهناك حاول أن ينشىء مع زملائه من صغار الضباط فرعاً لجمعية الوطن ، فأخفق لأنهم كانوا فى ريبة من أمره ، فلم يؤيدوه ولم يعارضوه ، كأنما كانوا يريدون أن يقفوا على حقيقته ويتبينوا أمره قبل أن يتصلوا به ويتعاونوا معه فى أمثال هذه المغامرات . وأخيراً أسر إليه أحدهم أن بسالونيك جمعية ثورية كبيرة تدعى جمعية الاتحاد والترقى ، يجتمع أعضاؤها فى منازل بعض اليهود من رعايا إيطاليا ، فيستطيعون أن يدبروا الخطط ، ويتشاوروا فى أمرهم بمأمن من بطش الحكومة ، ومنجاة من عيون الخليفة ، وبعد أن اختبرت الجمعية إخلاص بطلنا ، وأنست منه نفساً ثائرة وقلباً قلقاً ، دعته إلى الانضمام اليها فتم لها ما تريد . وانخرط مصطفى فى سلك أعضائها ، فألفى نفسه فى جو لا يلائمه ولا يتفق وميوله ، إذ رأى من حوله أشخاصاً يتحدثون فى أمور لا تعنيه ولا تتصل بتركيا التى يحبها ويفنى فى سبيلها ، فماذا يهمه من متاعب اليهود وما يلاقونه من اضطهاد فى روسيا ، فهو تركى قبل كل شىء ، وهو معتز بتركيته تياه بها ، ولا غرض له سوى إنقاذ تركيا من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية ، وفضلا عن ذلك فهو ما زال فى الجمعية « أخا » صغيراً ، عليه أن يتلقى الاوامر بالطاعة والأذعان ، وعليه أن ينفذها بأمانة ونشاط . وهذا ما لا يرضى بطلنا الذى خلق ليأمر ويسود لا ليأتمر ويخضع ، فبرم بالجمعية وسخط عليها ، وأخذ ينقدها نقداً حاداً قارصاً غير متلطف فيه ولا متهاون قائلا : إنه يسمع مناقشات بيزنطية لا يعززها عمل حاسم ، وهو يريد خطة محكمة دقيقة ، ينفذها بكل ما وسعه من جهد ، وكل ما فى نفسه من حرارة الأيمان والوطنية ، ولم يكن يرعى للرؤساء حرمة أو مقاماً ، فمن هم أولئك الذين يستأثرون بالنفوذ ويستبدون بالأمر دونه ؟ أأنور ذلك المجازف المهور ، أم جمال ذلك الظالم العقل المضطرب الذهن ، أم داود ذلك اليهودى الذىء الذى انقلب مسلماً ، أم نيازى ذلك الألبانى فاقد التوازن ، أم طلعت ذلك الموظف المصلحى والدب البطىء ، فهكذا كان يراهم بطلنا ، ويرى نفسه فوقهم أجمعين ، وهكذا نرى العظماء شديدى الأنانية عظام الثقة بأنفسهم ، وهى صفة لابد منها لمن يتطلعون الى مسابح الأفلاك . أما من ضعفت ثقته بنفسه ، وتنحى عن نفسه لغيره ، فليقنع إذن بمدارج الأسماك . وكان يخاطبهم مخاطبة الأستاذ لتلميذه ، وحدث ذات مرة أن كانوا يتحدثون عن جمال ويمتدحون وطنيته فقاطعهم مصطفى كمال متهكما بهم ، وأخذ يلقى عليهم درساً عن العظمة الحقيقية . فلما التقى بجمال فى اليوم التالى صارحه برأيه فيه قائلاً له إنه طالب شهرة ، وألقى عليه ما ألقى على زملائه بالأمس

وقد كان زملاؤه الضباط يبغضونه لاعتداده بنفسه واستصغاره لشأنهم وسخره منهم ، كما كان اليهود لايثقون به ، فلم يرتق الى مراكز الماسونية العليـــا ، وظل بعيداً عن مركز القيادة أو مبعداً عنه .

ولم يكن فى البيت أيسر نفساً ولا ألين جانباً ، ولم يكن يسمح لأحد غير أمه أن ينتقده ، وكان مع ذلك يأبى عليها التدخل فى عمله أو المساس بكبريائه . وقد اجتمع فى يوم من الأيام ببعض زملائه بالمنزل ، فأخذ الخدم يتسمعون حديثهم من وراء الأبواب وأخبروا أمه ، فعارضت فكرته ، فحاول أن يقنعها بصوابها، فركبت رأسها وأصرت على رأيها ، وما كان الاثنان ليتفقا ، فقد كانت هى امرأة صادقة الايمان وثيقة الاخلاص لقديمها ، بينما ابنها لم يكن يؤمن بشىء أو يجل شيئاً على الاطلاق ؛ وأخيراً سايرت الأم الرؤوم ولدها العزيز فى طريقه رغم اعتقادها فى خطئه ، خشية أن يهجر المنزل فيشق عليها فراقه ، ولكنها ظلت تحذره سوء المنقلب وظلام المصير ، قائلة : إن من الحمق التآمر بالخليفة والدين

وقد سئم بطلنا الحياة المنزلية بما يثقلها من ثرثرة الأقارب ، وتجسس النساء ، وفضول الخدم ، إذ لم يكن أبغض اليه من الحد من حريته ، فهو يريد أن يكون سيد نفسه مهما كلفه ذلك من مشقة وثمن ، فهجر المنزل ، ولكن ظل حبل الود متصلاً بينه وبين أمه ، فكان يزورها ويصغى إليها

* انظر عددى ٦١و٦٥ من الرسالة

وكان ينفق بياض النهار مكباً على عمله ، كما كان ينفق معظم لياليه فى المقاهى حيث يجتمع بزملائه أحياناً أو يذهبون الى مكان خفى بعيد ، حيث يشربون ويدخنون ويدبرون الخطط للثورة المقبلة

على أن بطلنا لم يكن ليرضى أن يكون جندياً خاملاً مغموراً ، بل يريد أن يكون قائداً له شرف النصر وفخار الغلبة والقهر ، ولم يكن يحب الرؤساء أن يقربوه منهم ، فقل على توالى الأيام اتصاله بالجمعية واشتراكه فى أعمالها ، وأصبح أكثر ميلاً للعزلة والصمت

وبينما كان بطلنا فى بعده وعزلته إذا بالثورة تشب من غير إنذار ، فسار نيازى على رأس فئة قليلة من الثائرين الى جبال مقدونيا الجنوبية متحديا الحكومة ، وحذا حذوه أنور ، وأصدر فى الحال منشوراً يعلن فيه الثورة . أما بطلنا فظل فى سكونه وعزلته ، وأبى أن يشاركهم ، إذ لم يكن من طبعه المغامرة فى مشروع إلا إذا كان متين الأساس مقدراً له بعض النجاح ؛ ولكن هذه المغامرة الجنونية نجحت بأعجوبة ، وساعد على ذلك سخط رجال الجيش على الحكومة لتأخر مرتباتهم ، فأبى بعضهم أن يحارب بنى وطنهم ، وانضم آخرون الى الثوار فسقطت حكومة الظلم كما تسقط أوراق الشجر أمام الريح الضعيفة ، وقبل عبد الحميد الحكم الدستورى قائلا : إنه كان يعمل لهذه الغاية من عهد بعيد ! ! وأنحى باللائمة على مستشاريه ، وألقى عليهم تبعة الماضى الفاسد . وألغى الجاسوسية ، ورحب بالثوار ، وعاد نيازى وأنور ، وقد أسكرتهم نشوة الانتصار ، وتوجت رؤوسهم أكاليل الغار ، فاستقبلهم الشعب بحماسة فائقة تجل عن الوصف ، وقد لقيهما مصطفى برفقة بعض زملائه ، ووقف الجميع فى شرفة أحد فنادق سالونيك ، وأعلن أنور منها الدستور على الشعب الذى يرمقه بعين الاعجاب والاجلال ، ووقف من خلفه مصطفى وإن ما به من الهم والحسد ليكاد يقطع قلبه ويذهب بنفسه

وقد عاد الى الآستانة جميع من نفاهم عبد الحميد ، وأخذوا يتنازعون السلطة والحكم ، وأرسل أنور ملحقاً حربياً فى سفارة برلين ، أما نيازى فعاد الى ألبانيا حيث اغتيل ، أما مصطفى كمال فأرسل على رأس بعثة ليتفقد حال حامية طرابلس ، ويكتب عنها تقريراً لحكومة الآستانة

وقد خشيت دول أوربا أن يستعيد الأتراك قوتهم ، فانتهزت فرصة هذه الفتنة الداخلية لتصفى مع الأتراك حسابها ، فاستولت النمسا على البوسنة والهرسك ، واحتلت اليونان كريد ، وأعلنت بلغاريا استقلالها تظاهرها الروسيا

أما فى داخل الامبراطورية فقد شبت الثورة ببلاد العرب وألبانيا ، واحتدم النزاع بين المسلمين والمسيحيين واشرأبت الرجعية بعنقها تريد استعادة سلطانها البائد ، فالجأت الى الجيش والشعب لأثارته على أولئك اليهود والملاحدة الذين يريدون هدم الدين ، وتقويض خلافة المسلمين ، ونجحت هذه الدعاية الخداعة البراقة ، وثار الجنود فى الآستانة ، وقتلوا ضباطهم أو سجنوهم ، وأعلنوا إخلاصهم للدين وولاءهم لأمير المؤمنين ، واستولوا على الآستانة وطردوا منها أعضاء الجمعية ، فالجأوا الى محمود شوكت قائد الجيش بمقدونيا فتردد بادىء الأمر لأنه كان من المقربين الى عبد الحميد ، ولكنهم وفقوا أخيراً الى إغرائه بمساعدتهم والعمل معهم فسير أنور — وكان قد عاد مسرعاً من برلين — على رأس فرقة من الفرسان كما ناط بمصطفى — وكان قد عاد من طرابلس — رئاسة أركان الحرب ، وتقدم الجميع نحو الآستانة فقضوا على الثورة الداخلية ، وقبضوا على عبد الحميد ووضعوه فى « فيلا » صغيرة بسالونيك تحت رقابة الضابط فتحى المقدونى وأعادوا الجمعية الى الحكم

وكان أنور إبان هذه الحوادث ، الشخصية الفذة ، والبطل البارز ، ترمقه العيون بالأعجاب والحب ، لأنه كان جندياً مقداماً جريئاً ، كثير الاتجاه الى الجمهورية ، فواتته الشهرة وسعت اليه ، بينما ذهب مصطفى كمال فى غمار النسيان والاهمال ، إذ لم يحظ باعجاب الشعب لتردده ، ولم يكسب رضاء الرؤساء لصلفه ، حتى قالوا عنه « إنه ذو كفاية ممتازة ، ولكنه جامد النسيم ، كثير التمرد على كل أمر ، قارص النقد لكل شخص ، شديد الغرور ، لا يميل اليه أحد ، وهو كثير الاعتداد برأيه ، لا يشرك معه أحداً فى الأمر »

وأبعدوه عن الحكم وأبقوه فى منصبه ، فأكب على واجبه يؤديه بهمة ونشاط ، وأخذ يدرس تاريخ نابليون وفنون ملتكة . ثم رقى فى سنة ١٩١١ الى رياسة أركان حرب القسم الثالث من الجيش بمقدونيا

وقد أرسل فى بعثة حربية الى باريس تحت اشراف الجنرال على رضا ، وأعجب رئيسه به وأثنى عليه . ولما عاد نيط به الأشراف

على مدرسة الضباط بسالونيك ، وبرغم كون بطلنا جنديا بفطرته فقد كان يتطلع بنظره الى السياسة دائماً ، ويحاول أن يجرب طالعه فيها ، فلم يرضه هذا المنصب ، وأخذ ينقد زعماء جمعية الاتحاد والترقى نقداً لاذعاً فى غير تحفظ ولا خشية قائلا إنهم ليسوا جديرين بالحكم ، وإن الدول أخذ طمعها يشتد ويدها تطول عن ذى قبل ، ولا سيما المانيا التى قبضت على مرافق البلاد الحيوية وسيطرت على سكة حديد بغداد . أما فى الداخل فلا يزال السخط عاما والفقر والبؤس مخيمين ، ويجب القيام بعمل حاسم لاصلاح الحال . وأخذ الضباط يصغون اليه ويستمعون له ويلتفون حوله فأرضى هذا كبرياءه ، وأصبح يشعر أنه ذو مكانة وخطر ، وأنه يقترب رويداً رويداً من قيادة حركة ذات شأن ، ونمى هذا الى سمع محمود شوكت ، وكان يعرف بطلنا ويقدر خطره ، لا سيما فى البلقان مصدر كل فتنة ومهد كل حركة ، فنقله الى منصب آخر ، وكان شوكت فى تصرفه هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد سهل المنصب الجديد لبطلنا بلوغ دعوته الى أنصار أكثر من ذى قبل ، ولم يخفه تهديد شوكت ووعيده ، وظل فى مهاجمته لرجال الجمعية وحملته عليهم غير خائف ولا متحفظ ، كما أخذ يستحث أنصاره على طرد الأجانب لتصبح « تركيا للأتراك »

ولقد عظم خطر بطلنا حتى كتب أعوان الحكومة اليها ينذرونها ويحذرونها منه ويستحثونها على تدارك الأمر ، وطلبت الجمعية معاقبته ، فبعث اليه شوكت يتهمه بأنه يحرض الجنود على الثورة ، فرد عليه رداً لم يكف فى نظر شوكت لدحض التهمة ونفيها عنه ، كذلك لم يجد شوكت أدلة قوية تثبت إدانته فنقله الى المكتب الحربى فى الأستانة ليبعده عن البلقان مستودع البارود ومنبع الخطر وليستطيع مراقبة حركاته وتتبع خطواته ، فلم يرده هذا عن خطته ، وأخذ يتقرب من بعض سياسيى الجمعية الذين كانوا يبغضون الألمان ويمقتون سفيرهم صديق أنور الذى أخذ يعمل بنشاط وكياسة لجعل تركيا آلة فى يد المانيا ، وأخذوا هم يشجعونه بعض الشىء ، إذ رأوا إمكان استخدامه ضد أنور عند الحاجة ، ولكنهم مع ذلك لم يستسيغوه ولم يقربوه كل القرب لذهابه بنفسه ، فحز ذلك فى نفسه وآلمه أشد الألم

وبينما هو يجاهد خصومه ويجاهدونه إذا بإيطاليا تنزل جنودها فى طرابلس وتحتل الساحل ؟

حنفى غالى

الشمس فى الطلوع

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

الشمس قد طلعت بوجهٍ أروعِ ... فوقفت مبهوتاً لحسن المطلع
وجهٌ كما تهوى الطبيعة سافرٌ ... ما إن عليه سوى السّنى من برقع
فى موكب فخم يزيد جلالَه ... لمعُ الأشعة فى الفضاء الأوسع
هى فى عَلاية أوجها وشعاعُها ... فى كل ما تبدو له من موقع
بيضاء لولا ما بها من وخزة ... لذّاعةٍ من حسنها لم أشبع
إنى أدينُ بحسنها لا كالذى ... أملَى عليه جهلُه ألّا يعى
مرّت تعاوَرُها الدهورُ وحسنُها ... أبداً جديد بالشباب الممتّع

***

أنظر اليها فهْىَ تحكى غادةً ... ترنو اليك من المحلّ الأرفع
ولقد بدت فى خَيْلَعٍ (١) من ضوئها ... أحسنْ بها لمّا بدت فى الخيلع
تجرى بلا تعب إلى الغايات فى ... صمتٍ على لقَمِ (٢) الطريق المَهْيَع
لا تحرم الأرضُ الضياء فإن جلتْ ... عن موضع منها بدت فى موضع
تمتدُّ من شغفٍ لها الأنظارُ من ... حسْرَى تُكلّ من العَياء وظُلّع

***

ظهرت على مَتن السحاب كأنها ... نارٌ تُشبّ على كثيبٍ أسفع
ولقد علَتْها وهى تبرح أفقها ... وطْفاءُ حانيةٌ حُنوَّ المرضع
ودنا يطوف بها الغمام كمُصْطلٍ ... بالنار يُذكى جمرَها أو مُزمع
قد كان منها القرص أحمرَ فاتحاً ... حتى اختفى فى العارض المتجمّع
أمّا الغيوم فتلك بعد تراكمٍ ... أخذته بين صدورها والأذرع
صُوَرٌ محبّبةٌ وليس بمنكرٍ ... حوَجُ الحياة إلى الجمال الأروع
الشمس فى طول النهار نجيّتى ... والشمس حيث ذهبتُ ذاهبةٌ معى
وكأنما بينى وبين شعاعها ... نسبٌ قديمٌ ما لأوّله أعِى
ماذرّ قرنُ الشمس إلّا اهتزّ من ... فرح فؤادٌ تحتويه أضلعى

***

(١) ثوب بلا أكمام (٢) معظم الطريق

الصبح لما ابيضّ من أنوارها ... أخفى على ضوء النجوم اللُّمَّع
والصبح بعد الليل يحكى ضوءه ... أملاً لذيذاً بعد يأسٍ مُوجِع
ولقد تيقظت العيونُ من الكرى ... ولفظنَ أحلامَ النفوس الهُجَّع
قد كان ليلاً قد تضاعف دَجْوُه ... والليلُ يُذكى الحزنَ فى المتفجّع
ثم انجلى متأخراً عما له ... قد كان فى طغيانه من موقع
وبدت عليه ذِلّةٌ فكأنما ... صفعته كفُّ الصبح فوق الأخْدع
لا تحزنى مما لقيتِ من الأذى ... ما أنتِ منى يا نجوم بأضيع

* * *

أمّا الحياة فانها لجميلة ... بك يا «ذُكاء» وإن أقضّت مضجعى
يا حبذا لو أننى من بعد ما ... أُرْدَى يكون اليك يوماً مَرْجعى
انى لأرجو أن تُطلّى من علٍ ... حتى ترَىْ عند النهاية مصرعى
لا ضيرَ إن أبكى الدجى عينى فقد ... مسح ابتسامُك فى النهاية أدمعى
أقلعت عن حبّ الحسان جميعها ... الا هواكِ فلستُ عنه بمُقلِع
بالشمس فى الأفق البعيد تغزّلى ... لا بالعقيق ورامتين ولَعْلَع

جميل صدقى الزهاوى

عمرو بن العاص

والزعيم المصرى

للشاعر الاسكندرى عبد اللطيف النشار

حدثونا أن عمْرًا ... حينما أخضع مصرا
عاهد الأقباط عهداً ... حفظوه فاستمرا
وكذا المصرىُّ إن قا ... ل وإن عاهد برّا
غير من شذ، ومن شذ ... فلا ينقض أمرا
شذ عن أقباط مصرٍ ... رجل ناوأ عمْرا
ألبَ الروم عليه ... وأثار الحرب غدرا
وقضى الله لعمرو ... فأباد الجيش ذعرا
فولون وقتلى ... وفلول الجيش أسرى
وأتى الخائن فى الأ ... سرى وقد أحرج صدرا
أى عذر ينفع اليو ... م إذا ما رام عذرا ؟
ورأى عمرو حليفاً ... خانه بغياً وكفرا
واستشار الصحب فيه ... فقضوا بالقتل صبرا
قال أدهى الناس عمرو ... قولة ترفع عمرا :
بل ستحيا فابغ ما شـ ... ـئت بنا سراً وجهرا
وبأمثال الألى جئـ ... ـت بهم فاتت بأسرى
ومضى الخائن فى ذل ... وقد شاهد كبرا
ليس كل البطش بطشاً ... ليس كل الصبر صبرا

حسب قلبى

بقلم فريد عين شوكه

هاتِ ما شئتَ من جفاكَ وهجرِك ... إن فى القلبِ ما يقوم بعذرِك
وأشح يا حبيبُ وجهك عنى ... حين تهفو عيناى فيه لسحرك
واغمر الكون بالحبور مع الغيـ ... ـر وعبّس إذا استرحتُ لبشرك
واستهنْ بالهوى وضق بىَ ذرعا ... حين أشكو إليك، يا ضيقَ صدرك!
ضاع قلبى لديك، يا لفؤادى ... منك لما نبذته خلف ظهرك!
هان شأنى عليك رغم سُموّى ... واعتزازى مدى الحياة بقدرك
وأنا البلبل الذى بك غنّى ... والنسيم الذى يضوع بعطرك

* * *

يا نجىَّ الضمير حتى لدى الرَّو ... ع أما آن أن أمرّ بفكرك ؟
يا كثير العقوق للعاشق المُضْـ ... ـنَى أرِحنى فقد عييتُ بهجرك
قد ترشفتُ حلو عطفك عاماً ... وتجرعتُ بعده كأس مُرّك
وتربعتُ فى رضاكَ مَريعاً ... ثم شُرّدتُ فى مهامه قفرك
صارخا فى الدجى البهيم وغيرى ... يستشف الآمال فى ضوء فجرك
وإذا أنت مستريح لغيرى ... وفؤادى ما يستريح لغيرك!

* * *

أيهذا الحبيب عذرك أنى ... لم أزل رغم ثورتى طوع أمرك
أنا كالطائر السجين فمهما ... هاجنى الوجد لم أزل رهن أسرك
حسب قلبى فى ذلك الغضب القا ... تل ما مرّ من رضاك وبرّك

نجوم السينما

للأستاذ فخرى أبو السعود

عَوِّذْ فؤادَكَ مِن بَوادِرِ فتنةٍ … مجلُوَّةٍ فى مَعرِضَ الأَشباحِ
ما القلبُ إلا بَضْعَةٌ لو قُسِّمَتْ … لم تكْفِ أَسْرَابَ الْمَهَا ياصاحِ
أَوْ تُوفِ ما بالمشهد الخلاَّب من … فِتَنٍ ومن غُرَرٍ ومن أَوْضاح
ماذا تُبين الشَّاشَةُ البيضاء مِن … سِحْرٍ وَرَاءَ سَرَابِهاَ اللَّمَّاح ؟
تَجْلُو خيالاتِ الجمالِ كأنها … أطيافُ أحلامٍ يراها الصَّاحى
تُبْدِى لعينكَ كلَّ أغيدَ شَادِنٍ … ساب وكلَّ مُغرِّدٍ صَدَّاح
جَمَعَتْ ملاَحاتِ الشعوبِ جميعِها … كالطير مِن مُتفرِّقِ الأَدْوَاح
مِنْ بَضَّةٍ تُزْرِى بكلِّ خميصة … وخميصةٍ تُزرى بكلِّ رَدَاح
وغضيضةٍ تُصْبِى بساجِى طرفها … ولَبِيقَةٍ تُغْرِى بِثَغْرٍ أقاح
وقَسيمةٍ تَسْبِى بِوَحْفٍ فاحمٍ … داجٍ وَفَجرٍ دونه مُنْصَاح
وَوَضِيئَةٍ شقراءَ تُقْنِعُ كلَّ ذِى … بصَرٍ بأَنَّ الحُسْنَ شَعْرٌ ضَاح
إنَّ الطبيعةَ ما تزال سخيةً … بالْحُسن تُولِيهِ عَطاءَ سَمَاح
أبداً مُوَكَّلَةٌ بهاتِيكَ الدُّمَى … تَشْتَقُّهَا من حُسْنِهاَ الوضَّاح
هٰذى حَوَارِيَّاتُ كلِّ مدينة … للناظرين تجمَّعَتْ فى سَاحِ
خَلَعَتْ عليهنَّ الطبيعةُ حُسنَها … بأناملٍ فى البَذْلِ غيرِ شِحَاح
وسَخت عليهن الحضارةُ بالْحُلَى … فَرَفَلْنَ فى الوَضَّاءِ والفَيَّاح
دَوْماً تَبَدَّلُ حالةً مِنْ حالةٍ … ما بين جِدٍّ تارةً ومِزاحِ
بَيْنَا تُرَى فى ثوب زوجٍ ناشزٍ … يَخْشَى أذاها الناظرون وَقاحِ
حتى تكونَ غداً بتُولاً أَقْبَلَتْ … فى طُهْرِ أَرْدَانٍ وَسَمْتِ صَلاح
وتجود أحياناً — وغيرُ فؤادِها … عَرَفَ الأسى — بالمدمع السَّحَّاح
مَنْ مثلُ هاتيك النجوم تَزَوُّدًا … من بهجة الدنيا بكلِّ صُرَاح ؟
حاكَيْنَ أقمارَ السماء تَعَدُّدًا … وَبَذَذْنَهاَ فى الحسْنِ وَالإِصْبَاح
وتَخِذْنَ هذا العمرَ يومَ رياضةٍ … ومتاعَ أَلْبابٍ وصِرْفَ مِرَاح
وتَرَكْنَ فى جَهَلاَتِهاَ وضَلاَلِهاَ … دُنْيَا تَلاَحٍ دائمٍ وكِفَاحٍ
مِنْ لاَعِنٍ لِلشَّرِّ وهْوَ مُثِيرُهُ … ومُدَجَّجٍ يدعو لنزع سِلاَحِ
بَيْنَ الحياةِ وبين تمثيلٍ لها … لا تَثْقُلُ الدنيا على الأَرْوَاحِ

الى مؤتمر الفردوسى

١ — بين القاهرة وطوس

للدكتور عبد الوهاب عزام

أطوى حديث السفر بين القاهرة وبغداد ، فقد وصفت هذه المراحل من قبل فى الكلام عن سفرتى إلى مدينة العباسيين ، وليس فى هذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التى تعبر بادية الشام بين المدينتين الخالدتين : دمشق وبغداد . أعدت شركات عربية ، وأخرى أوربية ، سيارات كباراً تسع واحدتها أكثر من عشرين راكباً فى مقاعد وثيرة ، تريح المسافر صاحياً وتمكنه من الأغفاء حتى يغلبه النوم . ركبنا إحدى هذه السيارات ، ففصلنا من دمشق صبيحة الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٤) وبلغنا بغداد والساعة تسع من صباح الأربعاء بعد سفر ست وعشرين ساعة

فهذه بغداد العظيمة فى جمالها وكبريائها ، تزدحم فيها حادثات التاريخ أكثر من ازدحام أهلها ، وتزخر فيها ذكرى الماضى أعظم من زخور دجلتها . ولله بغداد ، ما يستقر بها فكر زائرها حتى يحلق فى أرجاء العصور ، وثنايا التاريخ أمداً بعيداً . فما يفتأ البصر يترامى بين الرصافة والكرخ ، يبتغى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء ، أو مجلس من مجالس العلماء ، أو حفل

طُفتُ بالحمراء ..

للأديب حسين شوقى

طفتُ بالحمراء والقلب كليمْ … أسأل الحمراء عن ساداتها
قلتُ : ياحمراء لِمْ زُهرُ النجوم … لا تضيءُ اليوم فى هالاتها ؟

* * *

قالت الحمراء : دع هذى الذكرْ … لا تذكرنى بما مرَّ وفاتْ
أفَلَ الأقمارُ عنى واندثرْ … زمنَ العز ودهرُ المكرمات !

للأدباء والشعراء . فى كل نظرة ذكرى خليفة ، وفى كل فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر

ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد طول التدويم ، فيستريح من بغداد الحاضرة إلى أمة قد أخذت للمجد أهبتها ، وأعدت للعظائم عدتها ، وعرفت بين الأمم غايتها ، وشقت بين الخطوب سبيلها . فسارت فى مواكب من الهمة القعساء ، والعزة الشماء . تحدوها عزة إسلامية ، وأنفة عربية . قد آلت لتسيرن سيرتها حتى تبلغ غايتها . وسيرّ الله يمينها ، ويعنو الزمان لأمرها

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

ذلكم ماضٍ مجيد يمدّ حاضراً مجيداً ، ذلكم تاريخ يتدفق من قمم المجد الشاهقة فى مجرى العزمات الماضية ، إلى المستقبل الوضاء . ومن ذا يصد السيل إذا هدر ، أو من ذا يرد على الله القدر ؟ بل من يسلسل البحر بأمواجه ، ويردّ الحرّ الأبىّ عن منهاجه ؟ سلام يا دار السلام ! رعاك الله فى كل خطوة ، وخار لك فى كل عزمة

دار السلام لاعداك المجد وارفة ظلاله تمتد

ولا حدا نجمك إلا السعد موصولة الآجال بالآجال

لابسة مجدّد القرون

ان حديث بغداد لا ينفد ، وحبها فى القلوب لايحدّ . وإنك أيها القلم لأعجز من أن تخط الزمان الماجد ، والتاريخ الخالد ، والخطوب والعبر ، والقضاء والقدر ، فى هذه الأسطر . فحدث عن الرحلة إلى طوس ؛ وحسبك أن تحمّل « الرسالة » هذه الرسالة

لبثنا ببغداد من صبح الأربعاء إلى عشية السبت ، فى حفاوة اخوان كرام ، وسرور بدار السلام . ويوم السبت ركبنا نحن والوفود التى قدمت بغداد فى طريقها إلى طهران ، قطار الليل نؤمّ خانقين . والمسافة بين خانقين وبغداد زهاء مائة ميل ، ولكن قطار خانقين المتمهل يقطعها فى عشر ساعات ، فيمكّن المسافر أن ينام ملء جفونه حتى يصبح . برحنا بغداد والساعة ست مساء ، وودعنا على المحطة القائم بأعمال المفوضية المصرية حافظ بك عامر ، ووزير ايران فى بغداد . وسافر معنا الأديب الفاضل أحمد حامد الصراف مندوب العراق إلى مؤتمر الفردوسى . وكان المندوب الثانى الشاعر الكبير الزهاوى ، قد سبقنا إلى خانقين فى سيارة . وصحبنا فى القطار إلى منتصف الطريق الأخ الهمام ابراهيم الواعظ المحامى ، وكان ذاهبا إلى كركوك ، فما زلنا فى اكرامه واحتفائه حتى افترقنا ؛ أهدى إلى وإلى الأستاذ العبادى ديوان السيد محمد سعيد حبوبى النجفى ، فكان خير زاد للمسافر . ولما وقف بنا القطار على محطة باب الشيخ ببغداد اشترى لنا قلة بغدادية روينا بها فى سفرنا . وقلل بغداد نقية الطينة ، سريعة التبريد ، تمنيت أن أحمل بعضها إلى مصر فلم يتيسر لى ، وهى أمنية أعجزت الأستاذ الزيات من قبل

بلغنا خانقين والساعة أربع من الصباح ، فبقينا فى القطار حتى أسفر النهار ، فنزلنا وحملنا أمتعتنا الى حجرة من حجرات المحطة ، استبد بها الأستاذ الصراف فشاركناه فيها . ولبثنا ننتظر قدوم مندوبى الحكومة الايرانية حتى جاء القنصل الايرانى ، وآقاى روشن المهماندار ، الذى كان طليعة ركبنا فى رحلتنا كلها . وعلمنا حينئذ أن موعد السفر غد ، أول أكتوبر فتفرقنا . ذهب جماعة الى دار القنصل ، وآخرون الى منازل أخرى . ودعانا صديقنا الصراف الى دار صديقه عبد القادر صالح ، معاون جمرك خانقين ، وكلمه بالتليفون ، فأرسل سيارته ، فذهبنا الى الدار فاذا فتى نبيل من فتيان العراق ، وكم فى العراق من فتى نبيل ! فلبثنا فى ضيافته إلى صبيحة اليوم الثانى ، وسعدنا بصحبته وصحبة موظفى خانقين الكرام ، وأحمدنا هذا التأخر الذى أتاح لنا هذه السعادة

وخانقين مدينة صغيرة على حدود العراق ، وعلى طريق خراسان ، يمر بها نهر حلوان (حلوان چاى) ويسمى نهر ألوند ، وهو فرع من نهر ديالى أحد روافد دجلة . وعند المدينة قنطرة كبيرة من آثار الساسانيين . وقد وصفها ياقوت فى المعجم . وكانت المدينة فى العصور الأسلامية الأولى معروفة بالتمر والغلة ، ولا تزال كثيرة التمر وقد مدح ابن المعتز نبيذها

وقال عتبة بن الوعل التغلبى :

ويوم يا جسرى كيوم مقيلة

إذا ما اشتهى الغازى الشراب وهجرا

ويوم بأعلى خانقين شربته

وحلوان حلوان الجبال وتسترا

وفى خانقين حبس كسرى برويز النعمان بن المنذر حتى مات

ويوم الأثنين اجتمع المندوبون عند محطة خانقين ، وجاء آخرون من بغداد منهم أستاذى سيردنسن روس ، والشاعر الأنكليزى درنكووتر ، وعبد الكريم أفندى الحسينى ،

والدكتور نظام الدين مندوبا حيدر آباد . وتقسمنا السيارات فركبت أنا والأستاذ العبادي والأديب الصراف معاً ، وكانت صحبة الصراف فألاً سعيداً في هذه السفرة ، فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربي والفارسي وتغنيه بالأغاني المصرية . كنا كلما تمادى بنا السير وماطلنا المدى ، قلنا هات ياصراف ، فانطلق ينشد من محفوظه الذي لاينفد ، فيدوّي صوته على الجبال الشاهقة ، وفي السهول الفسيحة ، فننشط له نشاط الأبل للحداء . وسنذكر بعد طرفا من أحاديث الصراف . سرنا الى الحدود في طريق معبّدة مقيّرة ، فوقفنا قليلاً ؛ وجاء الينا رسول ايراني فرحّب بنا وأعطانا دليلاً مكتوباً بالفارسية والفرنسية ، فيه طرف من أخبار البلاد التي نمرّ بها بين خانقين وطوس . وهنالك تركت الرفيقين الكريمين ، وركبت مع صديقي السيد عبد الكريم الحسيني مندوب حيدر آباد ، إذ كان في سيارة وحده فأردنا أن نؤنسه في السفر

بلغنا قصر شيرين بعد نصف ساعة ، فتوقفنا لشرب الشاى على الطريق . وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان ، وعلى نهر حلوان ، سميت باسم القصر الذى بناه كسرى برويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) لامرأته شيرين

ولاتزال أطلال قصور كسرى قائمة الى الشمال والشرق من المدينة . وقد وصفها ياقوت فقال : « وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكل الطرف عن تحديدها ، ويضيق الفكر عن الأحاطة بها ؛ وهي إيوانات كثيرة متصلة ، وخلوات وخزائن ، وقصور وعقود ، ومتنزهات ومستشرفات ، وأروقة وميادين ، ومصايد وحجرات ، تدل على طول وقوّة »

ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الراثر[١] ، والمغنى بلهبذ تطيف بهذه الخرابات ، وأساطيرهم تسمع فى هذه الأرجاء

وحلوان المدينة القديمة المذكورة فى الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين . وكانت مدينة كبيرة عامرة ثم خربت منذ القرن الثامن ، فلم يبق منها إلا أطلال دارسة ، ونخلتا حلوان وقصصهما وما قيل فيهما من الأشعار من الأحاديث الذائعة

يتبع   عبد الوهاب عزام

(١) الراثر هو المعمار (Architecte)

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوى

فصول لم ترد بها التحدث عن الفلسفة للفلسفة ، ولكنا أردنا بها أن نبدى تأثير الفلسفة فى تطور الأدب الألمانى ، وما كان لأصحاب الفلسفة من فضل عميم على هذا التطور الذى أصاب جميع حقوله الأدبية

الكاتب

تمهيد

الفلسفة الألمانية قبل (كانت)

كانت تستمد ألمانيا مادة فلسفتها وأدبها من فرنسا طيلة القرن السابع عشر ، والفلسفة الديكارتية [١] هى الفلسفة التى كانت تتطارحها الجامعات الألمانية ، (وليبنز) (١٦٤٦ — ١٧١٦) هو أول فيلسوف استطاع أن يبث الحياة فى عروق الفلسفة الألمانية ويذهب بها فى مضمار التقدم شوطاً بعيداً ، كتب الفلسفة باللغة اللاتينية طوراً ، وطوراً بالفرنسية ، وهما اللغتان السائدتان يومئذ ، ولعل شيوعهما واستئثارهما بالكتابات الفلسفية كان يقرّب كثيراً بين المفكرين والأدباء حتى يغدو هذا التقريب أحد الأسباب العاملة على تشييد صرح اللغة وتزيينه وتجميله بما يستطيع فكر ناهض أن يضعه ؛ ولكن علة (ليبنز) أنه كان يتناول المسائل الفلسفية كمادة فنية تلهو بها نفسه ، وهو خلال ذلك قد يعالج المسائل الكبرى ، كمسألة الحياة والوجود ، وقد يوفّق فى الأجابة عنها توفيقاً كبيراً ، ولكنه كان واحداً من كثيرين ممن يعالجون الفلسفة ، ولا يعملون على لم أفكارهم حتى تكون مذهباً خاصاً يضم منها الآراء الناضجة وفكرتهم الخاصة فى الحياة ؛ وجل ما وصل إليه فى فلسفته أن عالج الجبر والاختيار ، ومعرفة الله وعلمه بالمستقبل ، والعناية الالهية ووجود الشر ، وألف مذهبه فى (التفاؤل Optimisme) الذى يرضى عن الوجود ويحبب الوجود إلى الانسان ، هذا المذهب الذى سخر منه (ڤولتير)

(١) نسبة الى ديكارت الفيلسوف الفرنسى الذى يعزى إليه تطور الفلسفة الحديثة

فى مقطوعته زلزال (لزبونة)[١] وفى روايته (كانديد)، وخير كتب ليبنيز الخالدة كتابه (la monadologie)، وفى هذا الكتاب يعلن انفصاله عن المذاهب المتقدمة ومروقه من مذهب ديكارت الذى جعل من الكون جزأين: أحدهما عالم الأرواح والآخر عالم الأجساد. فجاء ليبنيز ونقض هذا المذهب، وأحل محلّه مذهب (الجزء[٢] الفرد la monade) الذى لا يتجزأ ولا يفنى، وشأنه فى مذهبه هذا كشأنه فى غيره يفتقر إلى ترتيب وتوفيق وتوحيد

وهذا العمل الذى كانت تفتقر إليه آثار (ليبنيز) إنما أتمّه وشذّبه من بعده الفيلسوف الصارم (وولف) الذى نزع عن فلسفة ليبنيز الخيال والشعر وشد وثاقها بالحقيقة، ونفى عنها شيئاً وزاد عليها شيئاً حتى غدت أجزاؤها متآلفة متداخلة كأنها أعضاء فى جسد واحد. وقد كان له تأثيره العظيم فى الأدب الألمانى والفلسفة الألمانية بشهادة الفيلسوف (كانت)، لأنه هو الذى خلق فى الألمانية لغةً للفلسفة خاصة، وهو الذى فتح آفاقاً واسعة فى التعبير والأداء لمن بعده، فهاز على هؤلاء أن يُحلّقوا وأن يحلقوا ما استطاعوا؛ ومن هؤلاء (كانت) نفسه، الذى كانت له صفحات خاصة تشدو بالمزايا التى أسداها (وولف) الى الأدب والى الفلسفة

على أن الأندية الفلسفية قد نفض بصرها عن كل ما شاد هؤلاء فى صرح الفلسفة، وتعتقد أن الفلسفة الألمانية إنما كانت قبل (كانت) غيهباً ممدوداً، وأن الذى محا هذا الغيهب وبعث النور فى خلاله هو الفيلسوف العظيم (كانت) الذى تزعزعت له الأندية الفلسفية والأدبية، وكانت له فيهما جولات يُعزى إليها كل ماغمر الحقل الأدبى والفلسفى – فى ألمانيا – من خصب ومن إنتاج

كانت (KANT)

١٧٢٤ — ١٨٠٤

حياته: فلسفته: تأثيره

حياته

كان (كانت) فى التاسعة من عمره حين فقد والده، فكفلته أمه ونشأته تنشئة عالية، فدرس فى بدء عهده اللاهوت، كما هو العهد فى دراسات تلك العصور، ثم درس الرياضيات، ثم الفلسفة، حتى اذا أتم عهد الدراسة عرض له هم المعيشة، الهم الذى كان يوقر ظهره فى جميع أدوار حياته، فرضى بأن يدرس فى مواطن خاصة، وهو خلال ذلك يتفرغ الى الدرس، ويُلم بجميع العلوم التى توائم الفلسفة. وفى عام (١٧٧٠) أُسند اليه كرسى خاص لتدريس الفلسفة، وقد عاد أمره الى الضيق، وحريته الى الأرهاق فى عهد فردريك غليوم، إذ تدافعت عليه الوشايات يخلقها حسد القوم؛ ولكنه ظل مثابراً على العمل حتى عام ١٧٩٧. وقد كان لمعهده هذا تأثير بليغ فى نفوس طلابه الذين جالت براعاتهم من بعده فى صحف الأدب والفلسفة، وهو الذى يوصى زملاءه فى إحدى محاضراته: «بأن يحذروا كل الحذر من أن يُلقوا فى نفوس طلابهم أن العلم بالغ أوج الكمال، أو أن يعلموهم ماهى ماهية الفلسفة، وإنما ينبغى لهم أن يلقنوهم كيف يتفلسفون، وأن يساعدوهم — لا أن يحملوهم على ظهورهم — إذا أرادوا أن يعلموهم الدروج على الأقدام». والحق يقال إن (كانت) لم يُخلق إلا ليعيش فيلسوفاً، ولم يُلاق منه مذهبه إلا قريناً يحيا به ومعه، ناهيك ببعض مآثر رواها عنه القوم، تدل على ما اتصف به كانت من حب العمل والنظام والتوقيت ومواصلة الجهود الجبارة فى سبيل دراساته المتتالية، فقد كان الرجل موفقاً كل التوفيق بين مذهبه وسلوكه؛ قد سن لكل شىء نظاماً، واتبع هذا النظام كأنه الرسول يأمر وهو أول من يأتمر

وكانت آخر كلة له هذه الكلمة حين لقى حتفه عام ١٨٠٤: «إنه حسن!» كأنما يريد أن يقول «لقد عشتُ كما كنتُ أودُّ أن أعيش»

***

فلسفته

بدأت فلسفة «كانت» تنمو شيئاً فشيئاً شأن كل فلسفة، وإنما تميزت من غيرها بطابع الاستقلال الذى انتحى بها ناحية جديدة، فقد تأثر كانت بمن تقدمه من الفلاسفة واتخذ غذاءه العقلى منهم، وما كاد ينشأ ويترعرع ويشتد ساعده حتى أعلن انفصاله عنهم ونهج منهجاً جديداً اختطه لنفسه

---

(١) سبقت ترجمة المقطوعة للكاتب فى الرسالة

(٢) الجزء الفرد كائن بسيط يدخل فى المركبات، لاجزئية فيه ولا ساحة، ولكنه يتصف بصفات، ومنه تشكلت عناصر الطبيعة ... (ليبنيز)

وفى كتابه (آراء فى التقويم الحقيقى للقوات الحية) حيث أراد أن يوفق فى الفلسفة الطبيعيــة بين ليبنتز وديكارت يقول : « قد أتمثل أن هنالك لحظات لايفيء الانسان فيها أن يعتمد على قوته ، إن هذا الاعتماد ليولد فينا جهوداً متواصلة ، ويمنحها سبيلاً يفيدها فى سعيها نحو الحقيقة ، وجميل بنا أن ننخدع ألف مرة ، لأن الضال المنخدع لَيَعمل على خدمة العلم أكثر ممن لايسلك إلا السبيل المطروقة . . . إننى هنالك سأطأ . . . وقد سلكت السبيل التى أردتُ أن أتبعها . . . سأسلكها ولن يقف سيرى أحد »

إن هذه الثقة المطلقة بالنفس بدأ يظهر فضل إنتاجها فى فلسفة « كانت » لأنها فرضت عليه أن يخط سبيلاً جديدة ، ويطلع على الناس بمدرسة للفلسفة جديدة ، وهل كان العصاميون إلا أبناء اعتمادهم على أنفسهم ؟ وقد ظهر أول إنتاجه فى كتابه (تاريخ الطبيعة العالمى ، ومنهج السماء العام ، وتجربة على الأصل الميكانيكى للعالم حسب قوانين نيوتن) ، فكتابه هذا هو تجربة ميكانيكية سماوية مؤسسة على علم الطبيعة . فالعالم نيوتن لم يسن إلا قانون الحركات السماوية . وعند ما أتى على درس أصل هذه الحركات ناط الأصل بالأرادة الآلهية التى يذعن لها كل شىء ، ولكن « كانت » أدرك أن القانون الذى أفاد فى تعيين مذهب الوجود ، ينبغى له أن يحلل مركباته ، وأن القوات التى تحفظ الوجود ينبغى ألا تختلف عن القوات التى أبدعت الوجود . وأخيراً يفترض فى بيان أصل الوجود أن مادة (Hamogene) متشابهة مؤلفة من أجزاء متشابهة تقودها حركة دائرة ، وهى تتشكل وتتنوع بحسب ما يحتوى باطنها من قوة وفاعلية ، ثم يصف الخلاء (أو الفراغ) ، وقد استحال جواً غائماً ، وشموساً وسيارات وأقماراً ، ولكنه فى الحقيقة لم يزد شيئاً ؛ إلا أنه سار بالمسألة التى وقف نيوتن عليها ، وهذه المسألة المبهمة هى عديمة الحل فى ذاتها ، إذ ليست الحياة إلا العمل الدائم نقبله على وضعه ؛ وفصول أخرى جاءت فى الكتاب تنمرها أنفاس شعرية تبدى لنا (كانت) فى عهد كان لا يفر من عاطفته ، وقد تراه فى بعض صفحاته يسوق اليك نظريات قد استغلها (لابلاس) نفسه بعد خمسين عاماً

كانت العلوم الطبيعية هى شغل (كانت) فى جميع أدوار حياته ، وهــذه العلوم هى التى فتحت لنفسه أفقاً جديداً تركها لا يقنعها مدى الأفق الضيق الذى تخلقه المدرسة ، حتى إذا مرت عليه أعوام عاد اليه حنينه الى الفلسفة المقصودة بذاتها ، فحارب المذاهب الهندسية التى تعنى بالبراهين المنطقية ولا تعنى بالبراهين العملية ، وقد وضع كتاباً خاصاً ناضل به أصحاب العلم النظرى

يستشهد (كانت) بكلمة لأرسطو « ترانا حين نكون شيوخاً نعيش سواء فى هذا العالم نفسه ، ولكننا عند ما نسترسل فى الأحلام والأوهام فكلٌ منا له عاله ... » ثم يقول : « وحين يبنى الناس دعائم الوجود كلٌ بحسب رغبته ، فليأذنوا لنا بأن نقول : إن هؤلاء الناس يحلمون ! ولكن هل يدفعنا هذا الى القول : أن كل علم نظرى فاسد ؟ لا . لأن العلم النظرى قد يسد حاجة من حاجات عقلنا ، ولكنه لن يكون ناجماً مفيداً إلا إذا كان موثقاً بحبال معرفتنا . ويقول كانت : إن العلم النظرى له عملان : يجيبنا فى الأول على أسئلة كثيرة يخلقها العقل الطامح إلى كشف أسرار الوجود ، وههنا يكثر انخداعنا بنتائج تأتينا على غير ما نتوقع ؛ وفى العمل الثانى يُبين لنا ماهية المسألة التى نعالجها وموضعها من حدود إدراكاتنا ، وإمكان اتصالها أو استحالته بتجاربنا ومعارفنا . وعلى هذا نرى العلم النظرى إنما هو معرفة لحدود العقل البشرى ، وهو كالبيت الصغير ترى حدوده دائماً كثيرة ، وإنما ينبغى لهذا العلم أن يكون أكثر شغفاً بالمعرفة ، وأشدَّ صيانة لما يملكه ، لأن ذلك أجدى عليه من انتصارات جديدة يركض وراءها ركضاً أعمى لا يغنيه شيئاً

هذا هو رأى كانت فى العلم النظرى . وهــذا الرأى نفسه هو الذى خلق كتابه (نقد العقل الخالص) هذا الكتاب الذى أظهر مزية (كانت) وعلو كعبه فى الفلسفة ، وكان له التأثير العميق فى فلسفة أوربا الحديثة

خليل هنداوى

تصويب

وقع فى مقال (لويدجى بيراندلو) المنشور فى العدد الماضى خطآن مطبعيان نرجو اصلاحهما . فى آخر صفحة ١٩٨٩ : يريد بيراندلو ، والصواب : يرى . وفى صفحة ١٩٩٢ سطر ١٥ : (اكتشاف) حقيقة كانت مجهولة عن طريق الحركة ، والصواب : ونبس عن طريق الحركة

العلوم

فى تاريخ الرياضيات

للأستاذ محمد محمد السيد

للأستاذ قدرى طوقان آثار مشكورة فى الأبانة عن فضل العرب فى الرياضيات والعلوم ، ومقاله الأخير فى الرسالة [١] يكشف عن بعض أثر العرب فى تلك الناحية . إلا أنه يلوح لى أن حرصه على إنصاف العرب يكاد يدفع به الى إسناد الفضل لغير أهله

خذ مثلاً حساب التفاضل والتكامل . فالمعروف فى تاريخ الرياضيات أن يودكسوس (حوالى ٤٠٠ ق م) وأرشميدس (حوالى ٢٥٠ ق م) وغيرهما كانوا سباقين فى استعمال طرق تقرب من طرق التكامل فى إيجاد المساحات والحجوم . فأرشميدس مثلا أعطى مساحة أى قطعة من قطع مكافىء . وأوجد مركز الثقل لصفائح ذات أشكال مختلفة . الخ وفى كتابه (Method) نسب الى ديموقراطيس (حوالى ٤٥٠ ق م) بأنه أول رياضى قرر المعادلة الصحيحة لحجم الهرم أو المخروط بتقسيم كل الى شرائح صغيرة [٢]

فاذا كان بعض مؤلفى العرب قد نسجوا على منوال رياضيى اليونان فى حل مسائل عن المساحات والحجوم ، فهم لا يستحقون لذلك فضل المبتكر . ولو أن فضلهم فى الدرس والمثابرة مشكور غير منكور على كل حال

ومثل ذلك يقال عن دوران الأرض . فقد أبان الأستاذ بحق أن الفكرة قديمة . وقد تنازعها كثيرون من أعلام اليونان تأييداً وتفنيداً . فاذا ظهر من العرب من يأخذ بها أو من ينكرها ، ففضله فى ذلك لا يعدو فضل الحكم يختار من بين الآراء المختلفة أحدها بدون أن يأتى بجديد من الحيثيات مؤيداً أو مفنداً

جاء فى تاريخ الرياضيات لبول [١] أن أحد كتاب العرب فى الأندلس ويدعى Arzachel (؟) (عاش فى طليطلة حوالى ١٠٨٠م) قال بحركة الكواكب فى قطع ناقص . ولكن معاصريه أنكروا قوله لمخالفته لبطليموس . ومن المعلوم أن يوحنا كپلر هو الذى توطد على يديه هذا الرأى حوالى ١٦٠٠ م ، ولكنه لم يشهر رأيه ولم يقتنع به ولم يدافع عنه إلا بعد مشاهدات وأبحاث استغرقت أعواما عديدة . ولا شك أن فضل كشف هذه الحقيقة يجب أن يستأثر به كپلر وحده دون غيره . فالرأى نفسه عار عما يعززه ، لا يقدم ولا يؤخر فى العلم . ولكن المشاهدات والأدلة هى التى يقوم عليها الاقتناع والاقناع

ومن المشهور فى كتب الرياضيات والعلوم أن جهد اليونان ثم العرب فى العلوم الرياضية كان مقصوراً على الجانب النظرى . ولم يكن للتجربة والمشاهدة أثر فعال فى كسب المعلومات إلا بعد عصر الأحياء فى أواسط أوربا . صحيح أن أثر العرب لا ينكر فى الكيمياء والطب . ولكن تجاربهم فى الفيزيقا والرياضة التطبيقية نادرة . وحتى هذا النادر مختف فى طيات الكتب القديمة ينتظر كولمبس جديدا لكشفه .

ولذلك قرأت بشغف ما كتبه الأستاذ خاصاً بالجاذبية ، ومن أن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان « وزادوا عليها ووضعوا بعض القوانين لسقوط الأجسام » ، فاذا كان العرب قد وضعوا حقاً بعض القوانين لسقوط الأجسام ، فمعنى هذا أنهم سبقوا فى ذلك جاليليو وتجربته الشهيرة التى أجراها من برج پيزا . والتى يقول علماء التاريخ بأهميتها فى القضاء نهائياً على ما قال به اليونان من اختلاف سرعة سقوط الأجسام الثقيلة عن الخفيفة . فاذا كانت هناك تجارب فى هذا الشأن أجراها علماء العرب

(١) الرسالة عدد ١٩ نوفبر سنة ١٩٣٤

(٢) The Great Mathematicians تأليف H. W. Turnbull الباب الثانى

(١) Ashort Account of the History of Mathematics' تأليف R. Ball الباب العاشر

فتفصيلها يضيف زيادة ذات بال إلى المعروف المشهور عن فضلهم على العلوم والمعارف . ولعل الأستاذ يدلى بما وصل اليه علمه فى هذا الشأن

ومثل ذلك يقال عما جاء فى مقال الأستاذ عن « ابن حمزة المغربى » واستعماله فى بحوثه عن المتواليات الهندسية طرقاً تقرب من اللوغارتمات[1] فمن المفيد نشر فضل هذا الباحث وآثاره فى هذه الناحية بالتفصيل خدمة للتاريخ

* * *

فى المقال النفيس الذى ظهر فى العدد التالى من الرسالة فصّل الأستاذ المبارك أثر العرب فى الرياضيات ، ولكن فضل العرب فى الجبر يحتاج إلى بعض الأناة

فقد ذكر الأستاذ أن العرب لم يستعملوا رموزاً حرفية فى معادلاتهم الجبرية ، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار ، ولعل الأستاذ قصد الخوارزمى دون غيره فى هذه الفقرة . وإلا فمن المؤلفين العرب من استعمل الرموز كما تستعمل فى الجبر اليوم

ففى مؤلف للقلصدى (Al Kalsâdi)[2] (توفى سنة ١٤٨٦ م أو ١٤٧٧ م) . عنوانه (كشف الستار عن علم الغبار)[3] كان يستعمل فى المعادلات الجبرية الرمز (ش) للمجهول (أول كلمة شىء) والرمز م (ربما كان أول كلمة مال) لمربعه ، والرمز ل (ربما كان الكاف أى مثل) لعلامة التساوى . فمثلاً المعادلة

م ش

٣ ل ١٢ ٦٣ يقصد بها $\text{٣ س}^{\text{٢}} = \text{١٢ س} + \text{٦٣}$

كذلك جاء فى هذا المؤلف أيضاً استعمال الرمز (جـ) (أول كلمة جذر) علامة الجذر التربيعى فكان يكتب

(١) قال الأستاذ فى الكلام عن نابير واختراعه اللوغارتمات : انه فى هذا الاكتشاف غير منافس . ولكن كاجورى فى مؤلفه A History of Elementary Mathematics يقول « وممن ينازعون نابير فخر اختراع اللوغارتمات السويسرى Joost Bürgi أو Byrgius (١٥٥٢ — ١٦٣٢) اذ كان مع كپلر فى پراج . وقد نشر جداوله فى اللوغارتمات بالحاح كپلر بعد ظهور مؤلف نابير بتسع سنوات . ويلوح أنه اهتدى للفكرة قبله (أى قبل نابير) وربما معه

(٢) A History of Elementary Mathematics تأليف F. Cajori فى الكلام عن فضل العرب فى الجبر

(٣) علم الغبار ويقصد به علم الحساب . وهذه التسمية تدل على الأصل الهندى للأرقام الحسابية ، اذ أن الهنود كانوا يستعملون فى عملياتهم فى الحساب ألواحاً يرشون عليها التراب ويخطون فوقه أرقامهم . وقد كان فى هذا عون لهم فى عملياتهم الحسابية ، اذ كان أساس هذه العمليات عندهم كتابة الحواصل الجزئية ثم محوها وكتابة الحواصل التالية وهكذا حتى لا يبقى على اللوحة فى النهاية ، مثلا فى عملية الضرب ، إلا المضروب والمضروب فيه وحاصل الضرب

$\frac{\text{جـ}}{\text{٤٨}}$ ويقصد بها الجذر التربيعى للعدد ٤٨

ولاشك أن هذا الاستعمال ، إن صح ، يعزز الأصل العربى للاصطلاح المذكور وهو ما ينكره الأستاذ المبارك

أما حل العرب لمعادلات الدرجة الثانية جبرياً فلا فضل لهم فيه ، فقد سبقهم ديوفانتس والهنود فى ذلك . ولكن يرجح أنهم اقتبسوا حلهم من الهنود . إذ لم تكن أعمال ديوفانتس قد وصلت إلى علمهم بعد

ولكن العرب أضافوا حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثانية من ابتكارهم[1] . كذلك فعلوا بمعادلات الدرجة الثالثة إذ أعطى كل من المهنى (؟) Al Mahâni وأبى جعفر الخازن وأبى الجود وعمر الخيام حلولاً هندسية لمعادلات الدرجة الثالثة[2]

وقد حل عمر الخيام[3] معادلات من الدرجة الثالثة من الصور الآتية

$$\text{س}^{\text{٣}} + \text{ب}^{\text{٢}}\text{س} = \text{ب}^{\text{٢}}\text{حـ}$$

$$\text{،}\quad \text{س}^{\text{٣}} + \text{ا س}^{\text{٢}} = \text{حـ}^{\text{٣}}$$

$$\text{،}\quad \text{س}^{\text{٣}} \pm \text{ا س}^{\text{٢}} + \text{ب}^{\text{٢}}\text{س} = \text{ب}^{\text{٢}}\text{حـ}$$

حيث ا ، ب ، جـ أعداد صحيحة موجبة

وحل أيضاً المعادلة من الدرجة الرابعة الآتية

$$(\text{١٠٠} - \text{س}^{\text{٢}})\,(\text{١٠} - \text{س})^{\text{٢}} = \text{٨١٠٠}$$

كذلك أعطى ثابت بن قرة[4] حلاً هندسياً لبعض صور معادلات الدرجة الثالثة (وهو فى هذا يسبق عمر الخيام)

وقد يكون من المفيد أن ألفت نظر الأستاذ فيما يختص باشارة الناقص التى تستعمل للطرح إلى أصل محتمل لها وهو « النقطة التى كان يستعملها الهنود ويضعونها فوق الكميات المطروحة . وقد تكون علامة ناقص من الشرطة التى كانت توضع فوق الكتابات القديمة دليل ضياع أحرف منها . . . »[5]

طنطا محمد محمد السيد

مدرس

(١) انظر تاريخ الرياضيات المذكور آنفاً تأليف R. Ball تحت اسم الخوارزمى الباب التاسع

(٢) A History of Elementary Mathamarics تأليف F. Cajori فى الكلام عن فضل العرب فى الجبر

(٣) انظر تاريخ الرياضيات المذكور أعلاه تأليف R. Ball تحت اسم الخوارزمى الباب التاسع

(٤) انظر مؤلف Ball تحت اسم ثابت بن قرة الباب التاسع

(٥) انظر مؤلف Ball الباب الثانى عشر

البريد الأدبي

الأدب البلغاري

الأدب البلغاري من الآداب الأوربية الفتية التي نشأت وازدهرت بسرعة مدهشة ؛ فالأدب البلغاري الحديث يرجع إلى نحو ثلث قرن فقط ، أي إلى عهد الاستقلال القومي ، ومع ذلك فقد سارت هذه النهضة الأدبية واستكملت عناصر النضج بسرعة .

وقد نشر الكاتب البلغاري نيكولاي دونتشيف أخيراً كتاباً بالفرنسية عنوانه « المؤثرات الأجنبية في الأدب البلغاري » استعرض فيه مراحل الحركة الفكرية في بلغاريا وخواصها ؛ وملخص بحثه أن هذه الحركة على فتوتها قد استطاعت أن تستكمل عناصر ثقافة تامة ؛ ومن الطبيعي أن تتجه قبل كل شيء نحو المثل والأماني السلافية ، على أنها لم تهمل الاقتباس من مختلف الآداب الأوربية التي تستطيع الانتفاع بها ؛ وقد ألفت الحركة لسانها وروحها في الوطن البلغاري والروح البلغاري ، ولم تتدخل المؤثرات الأجنبية إلا لتصوغ أو توجه هذه المادة القوية الأصيلة ، ولكنها لم تحولها قط عن طرافتها وتقدمها الطبيعي

وقد استطاعت الحركة الأدبية البلغارية في مبادلاتها مع آداب الأمم الأخرى أن تنفذ إلى جميع نواحي الشعر والنثر والخواص النفسية ، وجميع مظاهر التفكير البشري ؛ ويشرح دونتشيف في كتابه مختلف التيارات التي اندمجت في المجرى القوي الذي أوحى به الاستقلال القومي ، ويبين كيف أن هذا الأدب الفتي الذي استعاد كل ثروته اللغوية ، قد تحول إلى مادة غنية تضم كل ما وهبته الأمم المجاورة أو كل ما بثته فيها

والأدب البلغاري ، ما يزال بلغارياً في روحه وجوهره ، وذلك رغم تأثره بالآداب الروسية والفرنسية والألمانية ، مما يدل على قوته وحيويته ؛ فهو لم يخضع قط لهذه المؤثرات خضوع العبد المساق ، وهو ليس مقلداً ولا ناقلاً فقط ؛ وكل ما هنالك أنه كالتلميذ الذي يستقي من أستاذه ، ليصوغ ما يأخذه في معدن عبقريته المستقبلة ، وهو لا يقتبس إلا ما يفيد في تغذية قلبه وروحه ، ويرفض كل ما هو سطحي أو مصطنع ؛ وكل ما يخرجه يتميز بطابعه الخاص ، بحيث لا يطغى عليه أي طابع آخر ، وهذا الازدهار نتيجة طبيعية لحركة لا تدور حول نفسها عبثاً ، ولكنها تفتح صدرها لكل الرياح التي تهب عليها من كل مكان يتفتح فيه الذهن البشري ، فتزداد بذلك نماء وخصباً

ولم يبق الأدب البلغاري مجهولاً بعد في أوربا الوسطى والغربية . فقد ترجم كثير من الآثار البلغارية ، إلى الألمانية والانكليزية ؛ وظهرت قطع مسرحية بلغارية في أثوابها المترجمة على كثير من المسارح الأوربية

في الأكاديمية الفرنسية

خلت منذ حين أربعة كراسي في الأكاديمية الفرنسية على أثر وفاة المسيو بوانكاريه ومسيو بارتو ، ومن قبلهما مسيو كاميل جوليان المؤرخ ، والماريشال ليوتي ، وقد انتخب أخيراً مكان كاميل جوليان المسيو ليون بيرار السياسي والخطيب الأشهر ، وانتخب مكان الماريشال ليوتي زميله الماريشال فرانش دسبريه .

وأما كرسي المسيو بارتو ، فانهم يرشحون له مسيو دومرج رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس الوزارة السابق ؛ وهنالك إجماع على انتخابه فيما لو قدم ترشيحه ، غير أنه لم يعرف رأيه في ذلك الاقتراح بعد

وستعقد الأكاديمية جلستها التالية في يوم ٢٠ ديسمبر الحالي ؛ ويلقى مسيو بول ڤاليري خطاب الافتتاح وتوزع بعض الجوائز الأدبية

مؤلف جديد عن نابليون

صدرت كتب عديدة جامعة بمختلف اللغات عن نابليون بونابارت وعن عصره ؛ وصدر أخيراً مؤلف جديد بقلم المؤرخ الفرنسي الكبير « لوى مادلان » عنوانه « نابليون » ويدرس مسيو لوى مادلان نابليون من ناحية جديدة ، هي ناحية « المنشىء على الطريقة الرومانية » . وكان من أشهر الدراسات التي صدرت عن نابليون في العهد الأخير دراسة لأميل لودفيج الكاتب الألماني يدرس فيها نابليون من نواحيه الشخصية والأنسانية ، ولكن

دراسة لودفيج يغلب عليها الطابع المسرحي، وهو الذي يغلب على معظم كتابات لودفيج. أما بحث لوى مادلان، فيغلب عليه الطابع النفسي والعلمي. وهو يرى في نابليون «لاتينياً» وارثاً للأمبراطور شارلمان؛ ويراه امبراطوراً من طراز روماني، نام منذ عصر ماركوس أوريليوس، ثم نهض فرأى العالم حوله أنقاضاً وأطلالاً؛ ولكنه بدلا من أن يتخذ رومة مركزا لبنائه اتخذ باريس وجزيرة فرنسا، وكانت فرنسا في نظره نواة مركزية لاتحاد أوربي جامع، ولكنه لم يكن يرمى الى طبع أوربا بالطابع الفرنسي، بل كان يرى في حريات الشعوب التي تتألف منها الأمبراطورية الشاسعة ما كان يراه الرومان

ثم هل كان نابليون فرنسياً؟ لقد كان يشعر أنه فرنسي؛ ولم يكن في قوله: «إني أريد أن أثوى على ضفاف السين إلى جانب أولئك الفرنسيين الذين شد ما أحببتهم» مايدل على شعوره بأنه أجنبي؛ وإنما كان شعوره أنه «روماني». وقد جاء هذا الروماني في أواخر القرن الثامن عشر، والعالم من حوله أطلال ممزقة، فأراد أن يحيي نوعاً من «العالم الروماني» الذي يعتقد أنه ما زال حياً يمكن إنقاذه

أكاديمية الأدب الفكاهي

لعل من الشائق أن يعرف القراء أنه توجد في باريس جمعية أدبية تسمى «أكاديمية الأدب الفكاهي» وأن هذه الجمعية تتزعم حركة الكتابة الفكاهية، وتمنح الكتاب الفكهين جوائز أدبية، وتشجع بذلك على إنشاء الأدب الفكاهي ونهضته، وقد وضعت هذه الجمعية أخيراً مكافأة قدرها خمسمائة فرنك (سبعة جنيهات) لمن يضع أحسن قصة فكاهية لا تزيد على ثلثمائة سطر، ولا تقل على ثلثمائة سطر، ولا تقل عن مائتين وخمسين؛ (وستعنى الجمعية بنشرها في صحيفة باريزية كبرى)؛ وتشمل هذه الجمعية أيضاً برعايتها أصحاب الفن الفكاهي مثل مصوري الصور الهزلية (الكاريكاتير)، ومن اليهم من الفنانين

الشفالير ديون

ظهر أخيراً كتاب بقلم الكاتب الفرنسي جان جاك روسون عنوانه «الشفالير ديون» La Chevaliere d, Eon؛ ويتناول هذا الكتاب موضوعاً مدهشاً لازال لغزاً من ألغاز التاريخ والمجتمع، هو شخصية لم يتفق المؤرخون على جنسها؛ هل كان الشفالييه ديون رجلاً أو امرأة؟ ويجب أن تعرف أن هذا الشخص المشكل قد عاش في عصر لويس الخامس عشر، وكان يتبوأ مركزاً هاماً في البلاط وفي سياسة الدولة

وقد عرف الشفالييه ديون أولا بأنه رجل، وتولى بهذه الصفة بعض المناصب؛ ولكنه كان فتى ناعماً خلاباً يضارع في الحسن ورقة المحيا والتقاطيع أجمل فتاة. وكان إذا مثل في الحفلات الراقصة يرتدي دائماً ثياباً نسوية فيبدو كأنه امرأة فاتنة؛ وكان في أحيان كثيرة يرتدي هذه الثياب ويؤثر الظهور بها؛ وكان يتسلل بهذا الزي الى أعمق المجتمعات الرفيعة، والى غرف الأميرات والملكات؛ ولما وقف لويس الخامس عشر على مسلكه قضى بأن يعتبر امرأة، وأن يرتدي الثياب النسوية دائما؛ ثم خشي لويس الخامس عشر من دسائسه فأمر بسجنه في قلعة؛ ولما أطلق سراحه فر الى انكلترا، واحترف تدريس المبارزة، وظهر في المجتمع اللندني بأنه أستاذ بارع في الفن؛ ولما توفي فحصه بعض الأطباء، فيقال إنهم وجدوه رجلاً كامل الأعضاء والرجولة ولكن شخصية الشفالييه ما زالت غامضة. هذه هي القصة التي يعالجها المسيو روسون في مؤلفه الشائق، ويفضل مسيو روسون أن يعتبر الشفالييه امرأة ذات خواص غير عادية، وأن صفة الأنوثة هي الأصيلة فيه. ويورد في كتابه كثيراً من السير العجيبة عن هذه الحياة المدهشة التي لبثت تثير دهشة المجتمع الفرنسي مدى حين

الإذاعة اللاسلكية العربية

إن محطات الأذاعة التي تذيع باللغة العربية اليوم هي:

المحطة المصرية وموجتها وقوتها ومواعيدها معروفة

ومحطة الجزائر وموجتها ٣١٨,٨ م وقوتها ١٢,٥ ك و

وتذيع باللغة العربية يومي الاثنين والأربعاء من الساعة ٢٠ الى الساعة ٢٠,٤٥، ويوم الثلاثاء من الساعة ٢٤ الى الساعة ٤,٤٥، ويوم الخميس من الساعة ٢٣,٥ بحساب الزمن في مصر

ومحطة الرباط بالمغرب وموجتها ٤٩٩,١ : وقوتها ٦,٥ ك و

وتذيع بالعربية ساعة في كل يوم من أيام الأحد والثلاثاء والخميس والجمعة من الساعة ٢١

ومحطة باري بايطاليا وموجتها ٢٨٣,٣ م وقوتها ٢٠ ك و

وتذيع بالعربية ربع ساعة في كل يوم من أيام السبت والثلاثاء والخميس من الساعة ٢٠,٣٠، ولا تذيع إلا الأخبار فقط

وتلاحظ مجلة العالم الأدبي التونسية التي ننقل عنها هذا

القصص

من الفن القصصي الحديث

حقيبة القدر

للقصصي الألماني لدفج باوَرْ Ludwig Bauer

كان جورج شاباً هادىء الطبع فاضل الخلق، لم يكد يخرج من أزمة بسيطة انتابته حتى استقل القطار قاصداً بلدة صغيرة ليشغل فيها وظيفة متواضعة. وكان كل شيء يبدو لجورج عادياً لا خطر له، وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مغامرة، أو يعتريها حادث خطير يهز حياته التي كانت أشبه بحياة أبناء الطبقة الوسطى، وعند ما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذي يقصده جورج أخذ حقيبته من الغرفة المكتظة التي كان يجلس فيها مولياً وجهه شطر حياته الجديدة

وصل جورج الى الفندق الصغير الذي عزم على الأقامة فيه، وعند ما ذهب إلى سريره لينام نظر الى الحقيبة، وسرعان ما علته الدهشة، فقد كانت تشبه ولاشك حقيبته، ولكنها لم تكن هي بذاتها، على أن جورج خشي أن يكون مخطئاً في تقديره، فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذي لديه، ولكن عبثاً حاول. على أنه عند ما ضاعف جهده انفتحت فجأة. وكانت أول نظرة ألقاها كافية لأن تثبت له أنه لم يكن مخطئاً. نعم كانت الحقيبة لشخص آخر.

أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما يملكه. فقد كانت في ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لا صاحب لها. ووجد جورج نفسه – وهو الذي لم يصادف في حياته مشاكل صعبة يحتاج لحلها – عاجزاً منذ اللحظة الأولى عن أن يجمع في ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشه. ما العمل الآن؟ كيف يستطيع الحصول على البذلة التي يرتديها أيام الآحاد أو على زوج حذائه الثاني وسائر ملابسه؟ كان جورج يأمل أن يجد في محتويات الحقيبة بعض المعلومات عن مالكها الحقيقي الذي قد يكون هو الآخر مستاء من استبدال حقيبته بأخرى، لذا شرع جورج يبحث أثناء تفتيشه في الملابس المتسخة عما يدله على الشخص الذي أخذ حقيبته. وشعر تحت يديه برزمة من الأوراق، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية، وأفلتت هذه الرزمة من يد جورج فانتشرت على أرض الغرفة رزمة من الأوراق المالية من كل نوع

لم يعرف جورج من هذه الأوراق الغريبة المتعددة الألوان إلا عددا ضئيلاً. وجمع جورج الأوراق المالية واستمر في البحث، فاكتشف في قاع الحقيبة المفروشة بالورق ما يشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة. ونظر جورج حواليه وقد انتابه العجب والذهول منتظراً شخصاً يأتي اليه ليوقظه من ذلك الحلم اللذيذ المخيف في وقت واحد. على أنه لم يأت أحد، وبقيت الأوراق في موضعها دون أن تختفي، كما لو كان الأمر حلماً من الأحلام. لم يكن جورج قد رأى من قبل مثل هذا القدر من المال. أخذ يعده، وكان حبه للنظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حدة، دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منه، على أنه بعد بضع دقائق عرف جيداً أن ما أمامه مقدراً بالعملة الذهبية، يتراوح بين مليون ونصف ومليونين. وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دُفع لها ثمن أكثر من الثمن الذي تساويه. على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله. وكل ما كان يضايقه هو فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز،

البيان أن محطة الأذاعة المصرية إنما قصرت عن مجاراة المحطات العالمية الأخرى لعاملين اثنين: أولهما ضعف قوتها، فقد جعلوها (٢٠ ك و) والعالم العربي منتشر من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، والأمة ذات اللسان المنتشر لا تكتفي بأقل من (٦٠ ك و)؛ وثانيهما أن موجتها ذات مقياسٍ مشترك مع محطة الأذاعة الفرنسية لعاصمة البلجيك، وذلك ولا شك يؤثر في قوتها ويزيد من اضطرابها. وهما ملاحظتان جديرتان بالنظر

واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى . قال لنفسه :

— لعل من الخطابات مايدل على اسم صاحب الحقيبة وعنوانه

كان جورج شاباً ذا خلق قويم ، لذا كانت فكرة البحث فى الخطابات التى لم تكتب إليه تضايقه وتؤلمه : على أنه فى هذا الظرف كانت الضرورة ومصلحة كل من الطرفين تحتمان عليه أن يفعل ذلك . لذا شرع يقرأ

قرأ جورج الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طول الثلاثة والعشرين عاماً التى قضاها فى هذا العالم : أشياء لم تكن تخطر له ببال . لم يستطع جورج أن يفهم جيداً هذه الخطابات ، فقد شعر منذ ابتدأ فى قراءتها أنها ممتلئة بالتلميحات والكلمات السرية والمصطلحات . على أنه استطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هى ملك أحد لصوص الفنادق ذوى النفوذ الواسع ، وكانت تصل إليه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات والارشادات . ولمعت أمام عينى جورج أسماء كثير من الأماكن والبلدان الأجنبية التى تمتاز بغناها ورفاهيتها . وفى بلدة (كان) على الخصوص استطاع ذلك اللص الخطير أن يلعب دوراً رائعاً مع السائحين الأمريكيين . وفهم جورج من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمغامراته ويلجأ إلى الراحة والعزلة . فقد كان الاثنان يملكان ثروة كافية ، وكانا يستطيعان أن يعيشا من الآن حتى آخر العمر عيشة مدنية مريحة ، فقد كانت الحلى قد بيعت بثمن ضخم ، ولم يبق إلا قفل من الزمرد كان يمكن أن يباع بخمسين ألف فرنك لولا أنه كان من المحتم أن تنتهى عملية البيع خفية وبأسرع ما يمكن . ولذلك بيع بثمن غير مناسب . وعرف جورج أثناء قراءته أن كل شئ قد أعد وأن السعادة الأكيدة كانت تنتظر الصديقين بعد محن عديدة وأخطار لاعدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة

ووضع جورج رأسه فى الماء البارد . كان من اللازم أن يتخذ قراراً . فقد كان واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتى إليه ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه . كان أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً ببذلة جورج وحذائه وملابسه التى منها عدد من القمصان الجديدة كان يحبها جورج ويفتخر بها . وأن يقع العبء كله على كتفى جورج وحده . فهذه الحقيبة التى لديه تجعله هو الذى اخترق الجدران والأسطح ، وهو الذى تسلح بالليل البهيم والمسدس فى قبضته ليدخل الفنادق الفاخرة فيحطم صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصحابها السابحين فى نومهم . على أن هذا اللص كان أيضاً بالنسبة لجورج المحسنَ المجهول ، فقد ترك له ثمرة حياته الاجرامية الطويلة المفعمة بالمغامرات . فبعد أن أراد ختام هذه الحياة والفراغ من هذه المهمة وبعد أن وثق من الغد ورقد فى القطار يستريح مجهوداً مكدوداً ، أخذ جورج حقيبته دون أن يدرى . ولا بد أن ذلك اللص الخطير قد ثار فى تلك اللحظة غاضباً يسخط حيناً ويقسم حيناً آخر لا يعرف إلى من يشكو ، لاعناً ذلك السارق القدير الذى خدعه وانتزع منه قائمة أعماله كلها . تلك القائمة التى ضحى من أجلها كثيراً ولاقى فى سبيلها الأهوال . على أن هذا السارق القدير ليس فى الواقع إلا شاباً من أسرة متوسطة فاضل الخلق طاهر الذيل ، لم يكد يقع فى هذه المشكلة الخطيرة حتى أحس فى عقله البسيط رعباً فظيعاً وعذاباً مضنياً

واتخذ جورج قراراً سريعاً ، وقام لفوره وأغلق الحقيبة وتقدم نحو باب الغرفة متجهاً إلى مركز البوليس ليعرض مسألته : وقد أحس وهو يفعل ذلك بالهم والحسرة ، ولكنه كان يعزى نفسه كلما فكر فى المكافأة التى يمكن أن يحصل عليها بسبب تبليغه ومساعدته فى القبض على ذلك اللص الخطير . وأخذ يحسب ما سوف يناله من المال لو كانت هذه المكافأة خمسة أو ستة فى المائة

وجد جورج نفسه أمام دائرة البوليس ، ونظر الى الجرس متأملاً مفكراً ، ولم يكد يضع أصبعه على الزر حتى تبدد حلمه فى الغنى والجاه . على أنه بالرغم من ذلك سوف يدخن — عندما يقبض المكافأة — نوعا من السجائر أغلى ثمناً من النوع الذى يدخنه ، وتذكر — وهو يدق الجرس — والديه الكريمين المتوفيين ، وتذكر معهما تلك الدروس القيمة التى كان يتلقاها منهما ؛ وتذكر أيضاً تلك العبارة (إن المال المكتسب عن طريق غير شريف لايأتى بفائدة) . وكان يقول لنفسه أيضاً : إن البوليس سوف يعثر عليه يوماً من الأيام . لقد دفعه كل ذلك إلى أن يدق الجرس بغير قوة ولا عزم ، ولكنه دق الجرس والسلام . وانتظر ... ولكن لم يجبه أحد . ودق للمرة الثانية واستمر واضعاً إصبعه على الزر ، وانبعث صوت شخص نائم يسأله مايريد ، طالباً منه أن يعود فى اليوم التالى ، لأن دائرة البوليس لاتفتح أثناء الليل . وسمع فى ذلك الوقت صوتاً صاخباً هو صوت نافذة تقفل بعنف

عندما رجع جورج الى الفندق بدا له فجأة أن مشيئة علوية

هى التى أرادت ألا تُسلِّم الحقيبة الى دائرة البوليس . فقد فعل كل ما يستطيع حتى أنه عرض نفسه للخطر ولكن الله لم يشأ ، لذا ترك جورج كل فكرة فى الذهاب الى دائرة البوليس واعتقد أنه يجب أن يكون أكثر شجاعة وجرأة . ومرة واحدة وجد نفسه عازماً على الاحتفاظ بالمال . ولِمَ لا ؟ ليس هو الذى سرقه ، كما أنه ليس من الأجرام أن يأخذ الانسان من لص خطير مالاً حصل عليه بطريقة غير شرعيـة . وأحس جورج دفعة واحدة باحساس جديد ، واكتشف فى قلبه راحة خفية كانت ولاشك نتيجة شعوره بأنه غني . وفكر جورج فى كل تفاصيل حياته المستقبلة . سوف لايرجع مطلقاً الى منزله . كذلك من البديهى ألا يبقى أيضاً فى تلك البلدة الصغيرة ، فسينتاب أهلها العجب والرعب حين يرون التغييرات الـكبيرة فى عاداته ومعيشته . على أن جورج لم يكن يعرف فى الواقع ماسوف يفعله بكل تلك الثروة الهائلة ، فهذا شىء جديد لم يتعلمه من قبل ولم يهيىء نفسه له . وهو الآن يريد أن يستعد لتلك الحياة الجديدة ويتخذلها أهبتها بعد أن اختاره الحظ الزاهر ليتمتع بثروة ذلك اللص الخطير الذى ولد ليكون طول حياته سيىء الحظ منكود الطالع

وعندما بلغ جورج المحطة ليستقل القطار فكر فى ذلك المحْسِن المجهول دون أن تبدو عليه عاطفة الاعتراف بالجميل . بل كان يغمره سرور من يلتذ بايلام الغير

* * *

وبعد أشهر كان جورج يسكن قصراً على ساحل الريفيرا ، وكان يرتدى أفخر الملابس وآنقها ، وقد أصبح الجاه عنده أمراً طبيعياً جداً . على أنه فى داخل نفسه كان يشعر بالضيق . وكان كلما فكر فى أمره وجد نفسه ليس أكثر سعادة من ذى قبل

وفى ذلك اليوم عندما أوشكت عينه أن تغمض سمع وقع أقدام وضجة فى ردهة القصر . ما الذى يحدث ؟ لبس جورج بيجامته الحريرية وخرج من الغرفة . لم يحدث شىء غير عادى ، فقد قُبض على أحد لصوص الفنادق فى اللحظة التى كان يفتح فيها باب غرفة نوم جورج . ورأى جورج وجه الرجل الذى كان رجال البوليس السرى والخدم يمسكونه بقسوة ويسوقونه أمامهم . وبدا لجورج أنه رأى ذلك الوجه . ولكن أين ؟ وسرعان ماتذكر وقد ملأه الوجل : أنه الشخص الذى كان يحتل المقعد المقابل له فى القطار يوم وقع حادث الحقيبة الشهير

وابتسم جورج ابتسامة صفراء وألقى بنفسه ثانية على سريره ، على أن نومه طول تلك الليلة كان قلقاً مضطرباً .

على كامل

بعض الكتب الجديدة

(**الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى**) للأستاذ محمد هاشم عطية

(**شهيرات التونسيات**) للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب

(**أيام بغداد**) للأستاذ أمين سعيد

ألف الكتاب الأول الأستاذ محمد هاشم عطية المدرس بدار العلوم ، لينتفع به طلاب هذه المدرسة وطلاب كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ، وقد جعله قسمين يقعان معاً فى نحو أربعمائة صفحة كبيرة . ففى القسم الأول تكلم الأستاذ أولاً عن معنى كلمة الأدب ومنشئها ، ثم حدد العصر الجاهلى وانتقل الى أقوال العلماء فى الأدب الجاهلى ، فأورد طرفا منها فى معرض التدليل على صلاحية هذا الأدب ليكون مرآة للحياة الجاهليـة ، ثم تكلم عن تاريخ الأدب والمراد منه وفائدته وعلاقته بالتاريخ العام ، ودرس جزيرة العرب وأصل العرب وطبقاتهم ، ونشأة اللغة عامة والعربية خاصة وخصائص اللغة العربية ، ومعارف العرب فى الجاهلية ، والنثر الجاهلى والشعر الجاهلى وخواصهما ؛ ثم درس المعلقات درساً مفصلاً . وأما القسم الثانى من الكتاب فقد جعله للتراجم بعد أن مهد له بفصل ممتع فى النقد الأدبى وتاريخه وأصوله ، وترجم فيه لأمرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ولبيد وطرفة وعبيد ابن الأبرص وأوس بن حجر وأمية بن أبى الصلت

فالكتاب كما ترى من وصفه حسن الترتيب حافل بالمعلومات التى لابد منها لطالب الأدب ، وهو فى شكله المدرسى هذا كفيل بأن يفيد جمهور المثقفين من غير الطلاب ؛ بيد أن هذا الشكل أو هذا الوضع المراعى فيه منهاج الدراسة قد حال بين الأستاذ على رغم مايبدو من متانته وضلاعته وسعة اطلاعه ، وبين ماكان يتطلبه الكثير من الموضوعات من البسط والاستيعاب ، ومن أمثلة تلك الموضوعات مسألة الانتحال والرواية والحياة الاجتماعية للعرب ، وهما موضوعان أساسيان فى مثل هذا الكتاب ، وكثيراً ما يحول التقيد بالبرنامج بين المؤلف وبين ما يريد ، فيجعل بحثه خاصاً أكثر منه عاماً ، ويكون الى إيراد المعلومات المتنوعة أقرب منه الى

التحليل والاستقصاء والاستدلال ، ولا سيما في المسائل العامة التي يبنى عليها فهم الأدب فهماً صحيحاً ، وهذا واضح في القسم الأول من الكتاب . أما في القسم الثاني حيث سمح المهاج للأستاذ بالتحليل والدرس الدقيق ، فقد تجلت براعته وأصالته وحسن ذوقه .

فاذا نحن نقدنا الكتاب في شكله الحالي ككتاب مدرسي لا يسعنا إلا أن نضعه في عداد الكتب المدرسية الممتازة ، كما لا يفوتنا أن نرجو الأستاذ الفاضل أن يستغل علمه ومقدرته في بسط ما أجمل في رسالة أخرى تنفع المتأدبين عامة

***

أنتقل بالقارئ بعد ذلك الى هذا البحث الطريف ، الذي اضطلع به الأستاذ العالم التونسي الفاضل حسن حسني عبد الوهاب ، وهو بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي من الفتح الاسلامي الى الزمان الحاضر

ذكر الأستاذ في مقدمة كتابه أن ما دعاه الى وضعه ما جرى من حديث بينه وبين صديق له حول الكتاب المسمى (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) وقد أشار عليه صديقه أن يضع كتاباً في شهيرات التونسيات ، فهزته إلى هذا العمل عاطفة قوية كان ثمرتها هذا الكتاب الذي أحدثك عنه . وقد تكلم فيه الأستاذ عن نابغات النساء في تونس في الدور العربي ، والدور الأغلبي ، والدور العبيدي ، والدور الصنهاجي ، والدور الحفصي ، والدور التركي ، والدور الحسيني ، وترجم في هذه الأدوار جميعاً لعدد من كرائم السيدات ، مبيناً مآثرهن وأدبهن في حديث طلي وعبارة قوية . ولن تقف أهمية هذا الكتاب عند الترجمة لهؤلاء الأوانس ، بل إنك لتجد المؤلف الفاضل يربط الموضوع بالتاريخ في مهارة وكياسة ، فتجد في كل دور من هذه الأدوار التي مر ذكرها ظلا للعصر الذي يقع فيه ، وتطالع ألواناً مختلفة من ألوان الحياة الأجتماعية ، ومألوف العادات والتقاليد ، هذا فضلا عما كان يبثه المؤلف في ثنايا الكتاب من الحكمة والأدب والموعظة الحسنة ، والطرف الأدبية ، مما هو جدير بمن كان له مثل أريحيته وأدبه ، وإني إذ أقدم هذا المؤلف الطريف لجمهور القراء في العالم العربي آمل أن يحذو حذوه المؤلفون في الشرق . فما أحوجنا في نهضتنا الحديثة الى المثل العليا في عالم المرأة ، وما أجدرنا أن ندفع عنا تلك الأتهامات القاسية التي توجه الى المرأة الشرقية في غير تحرج ولا استحياء ، وفي كثير من الجهل والأدعاء

***

أما أيام بغداد فهو كما يعرفه الأستاذ المؤلف أمين سعيد ، وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ولمعالمه التاريخية ، والقارئ يذكر أن الرسالة قد قدمت إلى قارئيها منذ وقت قريب كتاباً كبيراً للأستاذ المؤلف هو « الثورة العربية الكبرى » . ومن هذين الكتابين تدرك مقدار اهتمام الأستاذ أمين بالشرق العربي ومدى حماسته له . أما هذا الكتاب فيقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، جيد الطبع متين الورق . وهو كسائر كتب الرحلات يجمع بين اللذة والفائدة . ولا سيما أن موضوعه العراق ، ذلك القطر الفذ في تاريخه

افتتحه المؤلف الفاضل بفصل في النقد في بلاد العرب ، ثم بآخر في سكة حديد فلسطين والاستعمار الصهيوني ، وبعد ذلك تبتدئ رحلته في فصل عنوانه إلى بغداد ، فينتزعك من وسطك ويسير بك إلى تلك البلاد ، فاذا أنت معه على ضريح المغفور له الملك فيصل ، ثم إذا بك كأنك ترى حفلة التأبين الكبرى ، فوصف الأستاذ دقيق ، والموضوع ذاته يستهويك ويحيطك بجو خيالي ملئ بالصور . ولقد حافظ الأستاذ على هذه الدقة في وصف جميع الأماكن التي زارها والحفلات التي حضرها ، ثم انه لم يقتصر على الوصف وعلى إيراد ما رأى ، بل تراه يحدثك عن بعض المسائل الهامة في العراق كالعمران في بغداد والمدرسة العسكرية في الكرادة ونهضة التعليم في تلك الديار ؛ وما هو أهم من ذلك كمدى نفوذ الانجليز هناك ومعسكراتهم ومطاراتهم . وأخيراً تراه يحدثك عن الأشوريين وأحوالهم حديث من رآهم وخبرهم بنفسه

وأنا وإن لم أر العراق أحس أنني قد استفدت من هذا الوصف ، ووقفت به على كثير من المسائل التي كنت أجهلها والتي كانت تشغل ذهني ، كما أني استمتعت به كما لو كنت أرى هاتيك الصور على الشاشة البيضاء . أما من حيث مطابقة ما ذكر الأستاذ للواقع ومقدار إحاطته بضروب الأصلاح والتعمير في العراق ، فالأمر في ذلك متروك للقارئ العراقي ولمن زار العراق من أبناء مصر وأهل الأقطار العربية

الخفيف